

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصليبية

١ — رواية عن الأرض المقدسة

كتبت في حوالي عام ١٣٥٠م

٢ — وصف جون بولونير

للأرض المقدسة (١٤٢١م).

٣ — جولات الراهب

فيلكس فابري ورحلاته.

حوالي

(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م

الجزء الثامن والثلاثون

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

لقد لاحظنا فيما تقدم أن أحداث الحروب الصليبية قد تفجرت في ذروة العصور الوسطى في أوروبا، وبعد توطد أركان النظم الاقطاعية، وكان للحروب الصليبية آثارها العظيمة على عقلية الانسان الأوربي حيث أخرجته من العزلة الاقطاعية إلى الانفتاح المحلي، فالأوربي فالعالمي، ومنذ ما قبل الحروب الصليبية قدم بعض الحجاج الأوربيين إلى فلسطين، لكن بعدما تأسس الفرنجة في القدس وفي دويلاتهم الأخرى ازداد تدفق الحجاج من أوروبا، ولحسن الحظ أن عدداً لا بأس به من هؤلاء الحجاج قد تركوا لنا أوصاف مشاهداتهم مع المعلومات التوراتية والانجيلية الجغرافية والتاريخية، وهذا أمر مفهوم الخلفيات، أوضحه عدد من الرحالة، وبينوا أن الهدف الأساسي لهم كان المطابقة بين مشاهداتهم وبين المعلومات الدينية المتوارثة، وأن هذه المطابقة تساعد على فهم النصوص الدينية وتمكن الأوربي الذي لم يزر الأرض المقدسة من تخيلها وتصور أماكن الزيارة فيها.

وارتبط النظام الاقطاعي في أوروبا مع نظم الفروسية، وكان الملوك هم الذين ينعمون برتبة الفروسية على أتباعهم الاقطاعيين، لكن مع انحدار العصور الوسطى في أوروبا، وسيرها نحو الانغلاق بقيام عصور النهضة، راج بين الأسر الاقطاعية الأوربية، أن الفروسية الحقبة هي التي يتم نيلها في كنيسة القيامة على مقربة من الضريح المقدس داخل هذه الكنيسة.

هذا ورأينا من المجلدات الأخيرة التي حوت بعض المواد التي كتبت في القرن الرابع عشر بعد تحرير عكا، أن الحج إلى الأرض المقدسة لم

ينقطع، واعتمد على النقل البحري، الذي تولته البحرية التابعة لدولة البندقية، وقد تساهل المسلمون كثيراً بالسماح للحجاج بالقدوم إلى القدس وسواها، وقدمت الديرة في القدس الخدمات للحجاج، وكانت هناك ترتيبات مرعية بين السلطات الاسلامية والقائمين على الديرة، وعلى العموم توفر الأمن، ولم يهدد أحد سلامة الحجاج، لانعدام التعصب بين صفوف المسلمين.

وكنت فيما تقدم قدمت جل الرحلات الأوربية المعروفة، ونصوص هذه الرحلات باللغة الأهمية وأقوم الآن بتقديم آخر ما توفر لدي من كتب الرحالة، فسأقدم في هذا المجلد، وفي مجلدات ثلاثة تالية له رحلتين قصيرتين من القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وبعد ذلك رحلة فيلكس فابري، التي هي أوسع كتب الرحلات الأوربية قاطبة، جاءت في أربعة مجلدات، فكانت بذلك أشبه بالعمل الموسوعي.

وكان فيلكس فابري راهباً ألمانياً، معتداً بألمانيته، ومتعصباً لها، أكثر من اعتداده بالانتماء إلى رهبنة الدومينيكان، وقد قام برحلتين إلى فلسطين، كانت أولاهما قصيرة جرت في عام ١٤٨٠م، وكانت الثانية طويلة استغرقت عام ١٤٨٣، وقد أودع فابري في كتابه مشاهداته، مع ما قرأه وسمعه، ورحلة فابري هامة جداً، حيث أنها جاءت قبل اكتشاف أمريكا، وانتهاء العصور الوسطى في أوروبا بعقد من الزمن، وتمت في أواخر العصر المملوكي، وقبيل استيلاء العثمانيين على بلاد الشام ومصر بحوالي الربع قرن من الزمن.

ومع الفراغ من مجلدات هذه الرحلة، أكون قد قدمت خمسة مجلدات متتابعة كل موادها رحلات، وسأمتلك بعد ذلك الفرصة لتقديم تاريخ متى الباريسي الذي هو آخر النصوص التاريخية اللاتينية الأصل لدي، وهو من أهمها على الإطلاق، وكتاب متى الباريسي نادر الوجود، عانيت كثيراً حتى حصلت على نسخة منه، وهو كبير جداً، ربما سألحق به

واحداً من أصوله الذي اسمه «ورود التاريخ».

وحين أفرغ من العمل بتاريخ متى الباريسي، تكون موسوعتنا هذه قد حققت الشطر الأعظم من أغراضها، وأكثره صعوبة لأن ما لدي من مصادر عربية، جلها — على كثرتها — جاهز للطباعة.

الله تعالى أسأل العون والسداد، وأن تكون موسوعتنا هذه فيها الفوائد المرجوة للقارئ والباحث، وفيها برهان على أن الأمة العربية، وإن تمزقت سياسياً، ما برحت تعطي حضارياً وثقافياً، وأن سورية الصمود، ما يزال القلم فيها معانقاً للسيف، فهكذا كانت أرض الشام دوماً، وستظل هي أرض الحضارات والعطاء الذي لا ينضب، والجهاد الصحيح الطاهر النقي.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٦ — ذي القعدة ١٤٢٠ هـ / ٩ شباط ٢٠٠٠ م.

(١)

رواية عن الأرض المقدسة كتبت في حوالي عام ١٣٥٠ م

١ — على الذين يرغبون بمعرفة كيفية الحج إلى مدينة القدس المقدسة والمجيدة، وكذلك بقية الأرض المقدسة — كما أرى — السفر إلى الناصرة أولاً، لأن من المناسب أن نبدأ حجتنا من هناك، أي من حيث كانت بداية خلاصنا.

٢ — وتقع مدينة الناصرة على بعد أربعة عشر ميلاً إلى الشرق من عكا، والأصح أن نسميها مدينة المخلص، لأن الحمل به كان بها، وبها نشأ وتربى، وهناك فيها عاشت العذراء مريم بعدما اقترنت بيوسف، وإليها أرسل الملاك جبرائيل من قبل الرب، ليحمل إليها بشائر خلاصنا.

وهذه هي المدينة المقدسة، والعزيزة على الرب، ففيها تحولت الكلمة إلى جسد، وأينعت الزهرة، التي هي أفضل من جميع الزهور، في رحم العذراء، ولهذا كان من الموائم ترجمة كلمة ناصرة إلى وردة، وهي تتفاخر بهذا الامتياز الخاص على جميع المدن الأخرى، ففيها أعد الرب بداية خلاصنا، وفيها تفضل وتنازل لأن ينشأ بها، وأن يكون خاضعاً لوالديه، وهو الذي أخضع له الأب كل شيء هو في السماء وفي الأرض.

٣ — ويوجد هناك عمود رخامي صغير، احتضنته العذراء، خشية منها من الرؤيا المفاجئة، وإلى جانب العمود هناك الموضع الذي وقف فيه الملاك جبرائيل وقال: «حييت، أيتها المليئة بالنعمة، الرب معك» الخ، وهناك خلاص من الألم والذنب.

٤ — وينبع في الناصرة هناك نبع صغير، اعتاد الفتى يسوع أن ينضح الماء منه، ومنه كان يزود أمه.

٥ — وعلى بعد ميل إلى الجنوب من الناصرة مكان اسمه «جبل قفزة»، وذلك حيث رغب اليهود برمي يسوع منه نحو الأسفل، وكذلك حسداً من والديه له على حكمته، وهناك اختفى من أمام

أنظارهم في لحظة.

٦ — وعلى بعد أربعة أميال من الناصرة توجد مدينة اسمها الصفورية، منها جاءت حنة، أم العذراء مريم، أم المسيح، ويوجد بينها وبين الناصرة نبع دائم التدفق بمياه وافرة، وهو يعرف باسم نبع الصفورية، الخ.

٧ — وعلى بعد ميلين من الصفورية، توجد قانا الجليل، التي حول الرب يسوع الماء فيها إلى خمر، ومنها جاء سمعان القاني، وناتانئيل.

٨ — وعلى بعد ميل واحد إلى الجنوب من الناصرة، توجد يافا، وهي قرية فيها ولد جيمس ويوحنا ولدا زبدي.

٩ — وعلى بعد ستة أميال إلى الشرق من الناصرة، يوجد جبل الطور، وهو جبل عظيم الارتفاع، فعليه تغيرت هيئة الرب، وكان موسى وإيليا حضورا، وكان ذلك أمام بطرس، وجيمس، ويوحنا، والياس، وبذلك أظهر مجد قيامته المستقبلية.

١٠ — وهناك جاء صوت من السماء قائلاً: «هذا هو ابني المحبوب، الذي أنا عنه راض، استمعوا إليه».

١١ — وفي سبيل تشريف هذا المكان، وتقديم الاحترام اللائق به، بنى المسيحيون في العصور الخالية، ديراً هناك.

١٢ — وهو الذي هدم مؤخراً كلياً من قبل المسلمين، ويوجد هناك إعفاء كامل من الألم والذنب.

١٣ — وعند سفح هذا الجبل التقى مليكصادق إبراهيم، وهو عائد من قتل أمالك، وقدم إليه هدية خبز ونبيذ، مما رمز إلى مذبح المسيح تحت توزيع النعمة.

١٤ — وعلى بعد ميلين من الطور، توجد مدينة نين، وهي قائمة

عند سفح جبل عين دور باتجاه الجنوب، وعند بابها رد يسوع إلى الحياة ابن المرأة الأرملة.

١٥ — وعلى بعد ثمانية وثلاثين ميلاً إلى الجنوب من الناصرة، توجد سبسطية، التي كان اسمها من قبل السامرة، فهناك جرى دفن جسد يوحنا المعمدان، بين النبين إيليا وعوبيدا، وذلك بعد نقله من مكور فيما وراء الأردن، حيث هو مدفون من دون رأس.

١٦ — وعلى بعد عشرة أميال عن سبسطية تقوم مدينة نابلس، التي كانت تعرف من قبل باسم شكيم، اشتقاقاً من اسم شكيم بن أمور، أو باسم شيكار، وذلك حسبما ورد اسمها في الانجيل، وذلك حيث دفنت عظام يوسف بن يعقوب بعدما جلبوها من مصر، وهناك أيضاً على بعد ميل واحد نحو الجنوب، خارج المدينة، يوجد جب يعقوب الذي جلس يسوع إلى جانبه، وهو متعب من سفره، وذلك عندما طلب الماء من المرأة السامرية، وهناك أيضاً الرايتين أو الأكمتين، أي: دان وبيت إيل، حيث وضع يربعام العجلين الذهبيين، وأمر بعبادتهما قائلاً: «إن هذين هما إلهيكما يا بني إسرائيل، وهما اللذان أخرجاكم من مصر».

١٧ — والمسافة من نابلس إلى القدس هي خمسة وثلاثين ميلاً.

١٨ — والقدس هي المدينة الأقدس بين المدن المقدسة، وهي سيدة الأمم، والرئيسة على المقاطعات، واسمها مدينة الملك العظيم، وهي قائمة في وسط الأرض، وهي مركز العالم، لذلك من الممكن لجميع الأمم أن تتدفق عليها، وهي مقر البطارقة، وخاصة الأنبياء، ومعلمة الرسل، ومقر خلاصنا، وبلاد الرب، وأم الايمان، مثلها روما أم الصديق، اختارها الرب وقدسها، والمكان الذي وقف عليه الرب بقدميه، والمشرقة من قبل الملائكة، والتي تزورها كل أمة من الأمم تحت قبة السماء.

وقد بنيت فوق جبل مرتفع، مع تلال على كل جانب، وذلك في الجزء من سورية الذي اسمه اليهودية وفلسطين، حيث تتدفق الأرض بالحليب والعسل، وفيها وفرة من القمح، والخمرة، والزيت، وجميع البضائع الدنيوية، لكن هذه البلاد مفتقرة إلى الأنهار، لأنه لا يوجد فيها سوى نبع واحد اسمه سلوان، ينبع تحت جبل صهيون، خلال وسط وادي شعفاط، وهو الذي يقدم أحياناً كميات وافرة من المياه، لكن بشكل عام قليلاً من الماء أو لاشيء، ويوجد في داخل المدينة وخارجها عدد كبير من البرك من أجل جمع مياه الأمطار، ومياه هذه البرك كافية للناس وللبهائم للشرب وللأغراض الأخرى الضرورية.

١٩ — وهناك قناة جر مياه رائعة جداً، قادمة من مدينة اسمها مدينة القديس إبراهيم (الخليل)، قائمة في وادي حبرون، وتبعد عن القدس أربعة وعشرين ميلاً باتجاه الجنوب.

٢٠ — ولهذه المدينة أسماء كثيرة ومتنوعة صدرت عن أحداث تاريخها، وأطلقت عليها من قبل أمم مختلفة بلغات أيضاً مختلفة، فقد عرفت أولاً باسم ييوس، ثم سالم، ومن مزج هذين الاسمين جاء اسمها الثالث وهو أورشليم، وعرفت أيضاً باسم هيروسوليا، وسوليا، ولوز، وبيت إيل، كما عرفت أيضاً باسم إيلياء، اشتقاقاً من إيلْيوس الحاكم الروماني، الذي أعاد عمارتها في المكان القائمة فيه الآن، وكان ذلك بعد تدميرها من قبل تيتوس وفاسبسيان.

هذا ومدينة القدس، هي المدينة التي عرض الرب فيها وهو متجسد أسرار خلاصنا، ولهذا هي متفوقة على جميع الأماكن الأخرى والمدن في امتيازات قداستها، وعلو مجدها، ولهذا تجذب كثيراً من رجال الدين إليها ذاتها، وذلك «بشم رائحة الحقل كله الذي باركه الرب»، [التكوين: ٢٧/ ٢٧]، ويوجد على جهة اليمين منها صهيون، حيث هناك القلعة، وهي التي عرفت باسم مدينة داوود، ويقوم جبل

الزيتون على الجهة الشرقية منها.

٢١ — الحيج داخل كنيسة الضريح المقدس وخارجها

٢٢ — عندما تدخل الكنيسة أولاً، سوف تجد حجرة من الرخام الأسود، عليها غسل يوسف الرامي ونيكوديموس جسد المسيح، ورشوا عليه الحنوط، وكان ذلك عندما أنزلوه من على الصليب، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

٢٣ — وتذهب من هناك إلى جبل أكر (الجمجمة) حيث جرى صلب المسيح، وحيث تصبب الدم من جنبه، فخرق الصخر الصلب ومر خلاله، وترك لون الدم الذي مازال موجوداً حتى الآن، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

٢٤ — ذلك أن الدم ذهب إلى تحت جبل أكر، وكان ذلك إلى الجزء المعروف باسم الجلجلة، حيث تم العثور على رأس آدم، الانسان الأول، وقد نزل الدم إلى الرأس المتقدم الذكر، أثناء خرقه لتلك الصخرة ومروره بها، وهناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٢٥ — ومن هناك سوف تأتي إلى الضريح المجيد للرب، الذي ظل حتى أيام الامبراطور إيليس هديران من دون باب، وقد وسع هذا الامبراطور المدينة كثيراً إلى حد أنه أدخل مكان ضريح الرب، في داخل محيط الأسوار، وفي هذا المكان، بنى المسيحيون فيها بعد — صدوراً عن الاحترام الذي كان لديهم نحو ضريح الرب — كنيسة قيامة الرب الرائعة في داخل المدينة، وكان ذلك وفق عمل محكم ووضع موائم، وشكل مستدير، مع نافذة واحدة مفتوحة في السقف، وتضم هذه بشكل لائق المكان الرئيسي بين المواضع المقدسة والتي لها ذكرها، ففي هذا المكان جرى دفن الجسد الثمين للرب بشكل محترم مع الحنوط،

وهنا استراح حتى اليوم الثالث، ذلك أنه قام في اليوم الثالث، وفقاً لما قال: «في اليوم الثالث سوف أقوم ثانية»، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٦ — ثم إنك تأتي إلى المكان، الذي عندما كان ربنا يقوم من الموت، ظهر أولاً إلى مريم المجدلية، عندما خيل إليها أنه البستاني فقالت له: «يا سيد إن كنت أنت قـد حملتـه فقل لي أين وضعته»، الخ [يوحنا: ٢ / ١٥]، وقد بني في ذلك المكان مذبح مقدس تشریفاً لذلك الظهور، وهو القائم أمام باب بيعة العذراء المباركة، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٧ — ومن هناك سوف تدخل بيعة مريم المباركة، وهناك سوف تجد جزء من العمود الذي ربط يسوع إليه، وطول هذا الجزء أربعة أقدام، فهناك جرى جلده، وهو موضوع كما كان في جزء الجدار على جهة اليمين وأنت داخل إلى البيعة، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٨ — وأيضاً يوجد في البيعة نفسها، المكان القائم أمام المذبح، الذي بعث فيه الرجل إلى الحياة بفضل الصليب المقدس، وكان ذلك إثر اكتشافه الرائع، وبحضور حنة (هيلانة) أم الامبراطور قسطنطين، وهناك غفران لسبع سنوات، وسبعة مواسم صوم كبير.

٢٩ — وهناك أيضاً قرب المذبح الموضع الذي وقف فيه الصليب المقدس لوقت طويل، حيث كان يعبد بتقوى عظيمة جداً من قبل المؤمنين المسيحيين، وهناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٠ — ومن هناك سوف تصل إلى المكان الذي سجن فيه المسيح، وربط، وضرب، فهناك يوجد الآن بيعة صغيرة، وهناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٣١ — وعندما تذهب خارجاً من باب تلك البيعة، من أمام مذبح هناك، سوف تجد حجرة إليها ربط يسوع بالأغلال، بينما كان صليبه يجري إعداده، وهناك يوجد غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٢ — وسوف تذهب من هناك إلى المكان الذي تراهن فيه العساكر حول ملابس المسيح، حسبما كتب: «ومن أجل قميصي تراهنوا»، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٣ — وسوف تذهب من هناك إلى مكان حيث تنزل إلى بيعة بنيت على عمق ثمانية وعشرين درجة فهناك جرى دفن جسدي: مريم أم جيمس، ومريم سالومي، تحت مذبح هناك، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٤ — ويوجد قرب هذا المذبح، على الجانب الأيمن كرسني حجري، عليه جلست القديسة هيلانة عندما دفعت نحو البحث عن صليب الرب المقدس، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٥ — وهناك أيضاً نافذة في الجدار عند الباب الشمالي، من خلالها يتم سماع — كما قيل — صراخ الأرواح في أثناء تطهيرها بعد الموت.

٣٦ — ويوجد أيضاً في البيعة نفسها أربعة أعمدة حجرية، قيل بأنها تتعرق بماء عذب ليلاً ونهاراً بسبب آلام المسيح.

٣٧ — وسوف تنزل من هناك أيضاً اثنتي عشرة درجة إلى بيعة أخرى منخفضة، وهي التي عثر فيها في مكان عميق جداً، على الصليب المقدس، والمكان الذي كان فيه صليب الرب ممدداً، ما يزال مرئياً، وهناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٣٨ — ومن هناك تصعد إلى الباب الأول، الذي دخلت منه،
ولسوف تجد على جانبك الأيسر عموداً رخامياً تحت أحد المذابح، حيث
قيل أنه على مقربة منه جرى تتويج يسوع بتاج من شوك، قبل وضعه
على الصليب، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم
كبير.

٣٩ — وتصل من هناك إلى الجلجلة، التي تعرف باسم البلاط،
وذلك حيث جلس بيلاطس قبل المحاكمة، وعندما اقتاد يسوع إلى
خارج المدينة، وحسب رواية يوحنا [١٤/٩] كان اليوم يوم عيد
الفصح، في حوالي الساعة السادسة منه، والجلجلة مكان موجود تحت
جبل الجمجمة، وكان مقعراً، وهناك ما يزال الدم مرئياً، حسبما تحدثنا
من قبل.

٤٠ — ثم إنك تصل إلى باب، حيث هناك في وسط السدة يوجد
المكان الذي يسمى بمركز العالم، فهناك مدّ الرب يسوع المسيح إصبه
قائلاً: «هذا هو مركز العالم»، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات،
ولسبعة مواسم صوم كبير.

وينبغي أن يكون معلوماً أنه يوجد عند المذبح الكبير غفران لمدة سبع
سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير، وأن جميع المذابح قد بنيت في داخل
الكنيسة.

٤١ — وتصل من هناك إلى عمود موجود قرب حجرة الضريح
المقدس، قد رسم فوقه صورة القديس بانتاليون Pantaleon،
وعند هذه الصورة، قيل بأن المعجزة التالية قد حدثت فيما مضى: فقد
دخل أحد المسلمين إلى كنيسة الضريح المقدس، ونظر من حوله، فرأى
الصورة المتقدمة الذكر مرسومة فوق العمود، وعندما انتزع عيني
الصورة، ما كان من عينيه إلا أن سقطتا فوراً على الأرض.

٤٢ — وتصل من هناك إلى الباب الذي لم تكن مريم المصرية المباركة قادرة على الدخول منه، مع أن المسيحيين الآخرين قد دخلوا، وعندما وعدت بأنها سوف تتوب، سمعت صوتاً يقول لها: «إذا عبرت نهراً الأردن سوف تكونين صحيحة بريئة»، وهذا الباب موجود على الجانب الشمالي للضريح المقدس في مكان سري، وتوجد هناك بيعة القديسة مريم المصرية، المتقدمة الذكر ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٣ — ومن هناك سوف تخرج من كنيسة الضريح المقدس، وسوف تجد على يسارك بيعة صغيرة، هي بيعة العذراء المباركة مريم، وذلك تحت جبل الجمجمة، حيث وقفت تحديقاً بابنها وهو معلق فوق الصليب، وهناك يتولى النوبيون أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٤ — ومن هناك سوف تأتي إلى بيعة القديس يوحنا الانجيلي، وهي ملتصقة ببيعة مريم المباركة، حيث أوصى مخلصنا بالأم العذراء إليه، والتي كانت فعلاً عذراء، ويتولى هناك اليعاقبة أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٥ — وتصل من هناك إلى بيعة ملاصقة، بنيت تشريفاً للقديس يوحنا العمدان، والغفران هنا لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٦ — وسوف تجد في مواجهتك بيعة بنيت تشريفاً للقديسة مريم المجدلية، حيث بكت هناك وناحت، مع نسوة آخر، على الرب وهو معلق فوق الصليب، ويتولى هناك المسيحيون المطوقون (الكرج) أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٧ — وتأتي من هناك إلى صخرة موجودة أمام أبواب الكنيسة، عليها ارتاح المسيح عندما جاء وهو يحمل صليبه إلى جبل الجمجمة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٨ — وجميع الأماكن الفاتكة القداسة، المتقدمة الذكر موجودة داخل، أو ملاصق الكنيسة المقدسة لآلام الرب، ولضريحه المقدس.

مايتعلق بالحج فوق جبل صهيون المبارك

٤٩ — ونذهب من هناك إلى جبل صهيون، وعلى الطريق سوف تجد كنيسة جيمس المبارك ابن زبدي، وهي المكان الذي وضع فيه فيما مضى رأس جيمس هذا عندما جلب على أيدي الملائكة من يافا، فهناك جرى إعدامه بقطع رأسه، كما يقول بعضهم، بيد أن آخرين يقولون، بأنه أعدم في القدس، في المكان الذي توجد فيه كنيسة، وهذا ما أعتقد أنه أكثر صحة.

٥٠ — ومعرض هناك للمشاهدة عظام جيمس هذا الأعظم مباركة، وكذلك عظام جرجس المبارك والشهيد، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير، والموجود هناك هم رهبان أرمن.

٥١ — وسوف تذهب من هناك إلى كنيسة القديس المخلص في جبل صهيون، حيث المكان كان من قبل بيت كيفاس، الذي إليه جلب يسوع أولاً بعد اعتقاله، وجلد هناك بقسوة، ويوجد هناك خارج باب الكنيسة، جزء من العمود الذي ربط إليه، وذلك في داخل الجدار هناك، وفي المكان نفسه أنكر بطرس المسيح للمرة الأولى «قبل صياح الديك»، وعندما كان جالساً هناك في القاعة مع الخدم قام بتدفئة نفسه على «نار الفحم، لأنها كانت باردة» [يوحنا: ١٨/١٨]، وهناك أيضاً السجن الذي أُلقي فيه يسوع، وأبقي فيه حتى الصباح، لكن عندما جاء الصباح

أرسلوه مغلولاً إلى بيلايطس، وموجود هناك حجرة كبيرة موضوعة فوق المذبح، وقد قيل بأنها كانت الحجرة التي أُلقيت أولاً فوق ضريح الرب، [وهناك قالت النسوة] — تبعاً لرواية مرقس — : «من سيدخرج هذه الصخرة من على باب الضريح»، الخ، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٥٢ — ومن هناك تأتي إلى المكان الذي كان فيما مضى قلابة مريم المباركة، حيث أقامت فيها لمدة أربعة عشر عاماً، بعد صعود الرب إلى السماء، ومن هناك انتقلت إلى الرب، من هذا العالم الشرير، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٥٣ — ومن هناك تنتقل إلى مكان ملاصق، حيث كان فيما مضى الكنيسة التي احتفل فيها المبارك يوحنا الانجيلي بقداس بحضور مريم العذراء المباركة، واستمر ذلك طوال بقاء مريم المباركة حيّة في هذا العالم، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٤ — ومن هناك تنتقل إلى المكان الذي انتخب فيه الرسل متى المبارك رسولاً، وكان ذلك في غرفة يهوذا الخائن، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٥ — وهناك أيضاً المكان الذي انتخب فيه الرسل السبعة شمامسة: ستيفن، وفيليب، ونيكابور، وأتباعهم للتبشير بكلمة الرب.

٥٦ — وهناك مكان آخر، فيه انتخب الرسل المبارك جيمس، ليكون الأسقف الأول للقدس، وهو الذي استشهد فيما بعد بضربة من عصا القصار، وغادر إلى المسيح.

٥٧ — ثم إنك تأتي إلى صومعة مريم العذراء المباركة، وذلك على مقربة من أبواب الكنيسة، فهناك اعتادت أن تصلي بعد صعود الرب إلى

السماء، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٨ — ويوجد أيضاً على الجانب الآخر من أبواب الكنيسة، صخرة حمراء، كانت تستخدم بمثابة مذبح، وعلى هذه الصخرة احتفل المبارك يوحنا الانجيلي، بقداس بحضور مريم العذراء المباركة، وقد نقلت من جبل صهيون على أيدي الملائكة، بناء على صلوات المبارك توما الرسول، لدى عودته من الهند، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٩ — ثم إنك سوف تدخل إلى الكنيسة، ويوجد قرب المذبح الكبير، في جهة الجنوب، المكان الذي تعشى فيه الرب يسوع مع حواريه، واتصل بهم قائلاً: «خذوا، كلوا، هذا هو جسدي الذي أعطي لكم، وافعلوا هذا تذكراً لي»، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب، وقد غسل في المكان نفسه أقدام حواريه.

٦٠ — ثم إنك تخرج من الكنيسة، وتأتي إلى حاجز، على مقربة منه المكان الذي قال فيه الرب يسوع لحواريه، عندما جاء «والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط، وقال سلام عليكم، ثم قال لتوما: هات اصبعك إلى هنا وأبصر يدي، وهات يدك، وضعها في جنبي، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً» [يوحنا: ٢٦/٢ — ٢٨]، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦١ — ثم إنك تصعد فوق الكنيسة بدرجات، حيث هناك المكان الذي سكن فيه الرسل، بعد صعود الرب، وذلك حتى يوم عيد الحصاد، وكانوا ينتظرون الروح القدس بالصوم وبالصلوات، وفي يوم عيد الحصاد تلقوا الروح القدس، على شكل نار، من أجل تقويتهم، وتلقوا معها معرفة جميع اللغات، وجاء صوت من السماء بشكل

مفاجيء، ودوى فوق المكان، ولحق ذلك تدفق حشد من اليهود، إليهم شرح بطرس المبارك نبوءة يوثيل، وحول عدداً كبيراً منهم إلى الايمان، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

٦٢ — ثم إنك تنزل من هناك إلى المقبرة، ويوجد هناك على مقربة من الكنيسة على الجهة الشمالية، صخرة، عليها وقف يسوع عندما وعظ الحشد، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٣ — ثم تذهب من هناك إلى تحت الكنيسة، حيث هناك يوجد ضريح الملك داوود وابنه سليمان، فهناك جرى دفن جميع ملوك القدس، وعلى مقربة من هناك نظم داوود سبعة مزامير، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٤ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي جرت تدفئة الماء فيه، من أجل غسل أقدام الحواريين، وقت العشاء الرباني.

٦٥ — ثم إنك تأتي إلى ضريح اسطفان المبارك، الذي كان أول شهيد، وهناك دفن جسده بعد اكتشافه لكنه الآن في روما، وفي الناووس نفسه مع جسد لورانس المبارك، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٦ — ولدى نزولك من جبل صهيون، تجد المكان الذي — عندما كان الحواريون ينقلون جسد العذراء المباركة للدفن في وادي شعفاط — وضعوا عليه النعش، وكان اليهود الذين يعيشون في القرية المجاورة، قد تجمعوا في تلك البقعة، حتى يمكنهم خطف الجسد لاحتراقه، ثم قام رئيس كهنة اليهود، وكان أكثر جرأة، ووقاحة من البقية، فوضع يديه على النعش، وإثر ذلك تبيست يداه مباشرة، ثم إنه التمس من بطرس المبارك، أن يدعو له، ليعيد يديه إليه، فقال له بطرس

المبارك: «إذا ما آمنت أن هذه هي أم المسيح، وكنت مستعداً للتعميد، فإنك ستجعل سليماً»، فأمن، وعاد إلى سالف صحته، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٧ — ثم إنك تأتي إلى مكان، كان فيما مضى كنيسة، تعرف بشكل عام باسم كنيسة «صياح الديك»، حيث كان فيها كهف عميق، فهناك تاب بطرس عندما أنكر المسيح، وبكى بكاء مراراً.

٦٨ — ثم يوجد على بعد ثلاثة فرلنغ طويلة (ثلاثة أثمان الميل) إلى الجنوب من هناك، الحقل الذي شري مقابل الثلاثين قطعة فضية التي جرى بيع ربنا بها، وهو الذي يعرف بالعبرية باسم أكلداما، أي حقل الدم، حتى هذا اليوم.

٦٩ — ثم إنك تأتي إلى الحقل المقدس، حيث سكن الحواريون مراراً، قبل آلام المسيح، وما يزال مكان سكنهم مرئياً، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٠ — ثم إنك تأتي إلى بركة سلوان، حيث أعطى الرب البصر إلى رجل ولد أعمى.

٧١ — ثم إنك تأتي إلى مكان مجاور، فيه جرى قطع النبي إشعيا إلى قسمين بواسطة منشار خشب، وذلك من قبل منشا ملك القدس، وهو هناك راقد حيث هو مدفون تحت بلوطة روجل.

٧٢ — ثم إنك تأتي إلى نبع مريم المباركة، حيث غسلت الملابس الصغيرة لابنها المبارك، وهناك يغتسل الآن كل من المسلمين والمسيحيين، وغالباً ما يتعافون بذلك من عجزهم، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٣ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي اعتاد أن يعيش فيه جيمس

الأصغر، وهناك جرى دفنه بعدما أُلقي به من أعلى الهيكل من قبل اليهود، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

ما يتعلق بالحج فوق جبل الزيتون

٧٤ — يبعد جبل الزيتون ميلاً واحداً إلى الشرق من القدس، وهو جبل خصب، وجبل الزيتون جدير بكل احترام، فعلى هذا الجبل المقدس، والجدير كثيراً بالاحترام، اعتاد الرب أن يجلس، مقابل الهيكل، عندما ينتظر حواريوه منه رؤية الشارات عند قدومه للحكم، وحول نهاية الحياة، وعلى هذا الجبل غالباً ما اعتاد أن يذهب مع حواريه من أجل الصلاة، وخاصة عندما كانت آلامه قد اقترب موعدها، ويشاهد هناك في هذه الكنيسة المكان الذي صعد منه ربنا إلى السماء بشكل مجيد وبحضور حواريه، وماتزال الصخرة التي كانت تحت قدميه تحتفظ بطبيعتها، وهذا مرئي حتى هذا اليوم، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

٧٥ — ثم إنك تأتي إلى بيعة موجودة هناك على الجبل المتقدم الذكر، فيها ثابت بلجيا الأنطاكية، وفيها دفنت أيضاً، ويوجد حجرة فوق ضريحها لا يمكن لإنسان أن يمر من قربها، أو يدور من حولها ما لم يتم بالاعتراف الكامل، ويقال بأن مريم المصرية المباركة قد دفنت هناك حتى أيام استيلاء اللاتين على الأرض المقدسة، ذلك أنهم نقلوا جسدها من هناك إلى ما وراء البحر، إلى بلدة اسمها بليوس Blois في مملكة فرنسا، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٦ — ثم تأتي إلى المكان الذي صاغ فيه الرسل مثال العقيدة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٧ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة فيها علّم يسوع حواريه أن يصلوا، قائلاً: «هكذا سوف تصلون» وقال: «أبانا الذي في السماء» الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٨ — ثم إنك تأتي إلى منحدر جبل الزيتون، إلى ثمني ميل باتجاه الشرق، حيث بيت فاجي، التي ترجمة اسمها هو «بيت الفك»، فهناك أرسل ربنا اثنين من حواريه هما: بطرس وفيليب ليجلبا له أتاناً مع فلوها من أجل أحد السعف وقال لهما: «إذهبا إلى القرية التي أمامكما فلولقتا تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها فحلاهما واتياني بهما» [متى: ٢١/٢]، ومن هناك من ذلك المكان ذهب على ظهر الأتان إلى القدس وسط التراتيل وأناشيد الحمد، وقد استقبل بالتشريف من أبناء العبرانيين، وهم يحملون سعف النخيل، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٩ — ثم إنك تأتي إلى مكان، فيه تسلمت مريم المباركة سعة النخيل من الملاك، كمؤشر لمغادرتها لهذا العالم وذهابها إلى بيتها المتشوقة إليه، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٠ — والجبل المجاور لجبل الزيتون على الجانب الشمالي هو جبل العدوان، وهما منفصلان عن بعضهما بواسطة الطريق الذي يذهب من وادي شعفاط إلى بيت عنيا، وقد عرف باسم جبل العدوان لأن الملك سليمان أقام هناك صنم مولوك، وتعبد به. [الملوك الأول: ١١/٧]، ويعرف هذا المكان باسم الجليل، فهناك ظهر ربنا لحواريه عندما قام من الموت، وذلك وفقاً لكلمة الملاك الذي قال: «واذهبا سريعاً قولاً لتلاميذه، ولبطرس.... ها هو يسبقكم إلى الجليل»، [متى: ٢٨/٧] وقد كان هنا من قبل كنيسة، غير أنها دمرت من قبل المسلمين، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨١ — ثم إنك تأتي إلى سفح الجبل، إلى صخرة، وقف عليها يسوع، ووعظ الحشود، وذلك حيث أشار إلى مدينة القدس، وبكى عليها قائلاً: «إنك لو علمت أنت أيضاً حتى في يومك هذا ما هو لسلامك، ولكن الآن قد أخفي عن عينيك، فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمرسة ويحذقون بك ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك وبنيك فيك حجراً على حجر» [لوقا: ١٩/٤٢ — ٤٤]، وقد تحقق هذا في ظل تيتوس وفاسبسيان، امبراطوري الرومان، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٢ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي رمت فيه مريم المباركة حزامها إلى الرسول توما المبارك، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٣ — ثم إنك تأتي إلى حديقة جيساني، تحت سفح جبل الزيتون، في وادي شعفاط، حيث سيحكم ربنا على الأحياء والأموات.

٨٤ — وهناك يوجد المكان الذي اعتقل فيه الرب يسوع من قبل اليهود، وذلك حيث قبله يهوذا الاسخريوطي قائلاً: «حييت يا معلم»، وهناك قام اليهود الذين كانوا أمامه «فرجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض»، وكان ذلك لدى سماعهم صوت المسيح، عندما قال: «أنا هو»، وهذا كله حسب رواية يوحنا (٦/١٨)، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٥ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي انسحب فيه الرب يسوع من بين حواربييه، «وانفصل عنهم نحو زمنية حجر»، وصلى إلى الأب قائلاً: «يا أبتاه إن شئت أن تميز عني هذه الكأس، ولكن لتكون لا إرادتي بل إرادتك»، وفي المكان نفسه: «ظهر له ملاك من السماء يقويه» [لوقا: ٢٢/٤١ — ٤٤]، وبدأ «عرقه كقطرات دم نازلة على

الأرض» [لوقا: ٢٢ / ٤٥].

٨٦ — وهناك أيضاً، الصخرة التي أمسك بها ربنا، وهو يتحرق بسبب آلامه، وطبعات أصابعه عليها ماتزال ظاهرة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٧ — ثم إنك تأتي إلى المكان من حيث «أخذ معه بطرس وابن زبدي وابتدأ يحزن ويكتئب» وهو يقول: «نفسي حزينة جداً حتى الموت»، وعاد حيث وجد الحواريين الآخرين نياماً، فقال لهم: «أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة»، [متى: ٢٦ / ٣٩ — ٤١] ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٨ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة في وادي شعفاط، حيث يوجد ضريح العذراء المجيدة، في مكان عميق جداً، ينزل الانسان إليه بثمان وأربعين درجة، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

وينبغي أن نتنبه إلى أن وادي شعفاط قد نال اسمه من واحد من ملوك القدس، كان اسمه شعفاط، وقد دفن هناك، وقد بني قبره بشكل محكم، وهو مايزال مرئياً هناك.

٨٩ — وسوف تعبر من هناك وادي قدرون، حيث بقيت شارة صليب الرب ممددة هناك لسنين طويلة، وعندما كانت Sibyl قادمة إلى القدس لسماع حكمة سليمان، رفضت عبور هذا الوادي.

٩٠ — وسوف تأتي إلى المكان الذي ربط فيه المبارك اسطفان، عندما جرى رجه من قبل اليهود، ووقتها كان قد ركع فوق الأرض، وأخذ يصلي من أجل الذين كانوا يرمونه، وهو يقول: «يارب لاتقم لهم هذه الخطية» [أعمال الرسل: ٧ / ٦٠] الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبعة أعوام، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٩١ — ثم تأتي إلى البوابات الذهبية، التي دخل منها الرب يسوع في يوم أحد السعف، وكان جالساً على ظهر أتان، وذلك حسب رواية الانجيل، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٩٢ — ثم تجد على بعد رمية سهم هيكل الرب، الذي له أربعة مداخل، واثنى عشر باباً.

ولا يجوز المرور بهيكل الرب المقدس الذي بني من قبل سليمان فوق جبل موريا، على أرض بيدر أورنان اليبوسي، بين الأماكن المقدسة دون إيلائه ما يستحقه من احترام، وكان في الحقيقة قد هدم أولاً من قبل البابليين، ثم بعد ذلك من قبل الرومان، ثم إنه أعيدت عمارته في المكان نفسه، على شكل مستدير، وعلى شكل لائق، ورائع، من قبل عمال أذكيا وبارعين، ومؤمنين، ورجال ربانيين، ويوجد في هذا الهيكل الصخرة، التي وقف عليها الملاك المدمر، وظهر لداوود، وهذا الملاك هو الذي قتل آلافاً لا تحصى من الناس، بسبب الذنب الذي اقترفه داوود، أي بإحصاء الناس وتعدادهم بناء على أمر داوود، وفي الحقيقة يدعو المسلمون حتى هذا اليوم هيكل الرب باسم الصخرة، وهي موضع احترام عظيم لديهم، إلى حد أن ما من أحد منه يتجرأ على تلويثها بأية قذارة، مثلما يلوثون الأماكن المقدسة الأخرى، وهم يقدمون من مناطق نائية للتعبد هناك، ويفعلون ذلك منذ أيام سليمان حتى الوقت الحالي، ومنذ أن استعاد المسلمون ملكية مدينة القدس المقدسة، لا يسمحون لأي مسيحي بدخول الهيكل، وما يزال بعضهم يعتقد حتى هذه الأيام، بأن تابوت عهد الرب، موجود في داخل الصخرة المذكورة، ومقفل عليه فيها، وذلك أن يوشع، ملك إسرائيل، تنبأ بما سيلحق المدينة من دمار، فأمر بوضع التابوت في قدس أقداس الهيكل، وتخبئته فيها هناك.

٩٣ — وفي هذا المكان المقدس المحترم، عندما أنهى سليمان العمل،

وكان يقدم أضحية إلى الرب، ملأت غمامة البيت، وظهر مجد الرب، و«نزلت نار من السماء، وأكلت مقدمة الحرق، والأضاحي»، وملأت جلالة الرب بيت الرب، و«رأى بنو إسرائيل جميعاً النار وهي نازلة، ومجد الرب فوق البيت» وعندما كان سليمان جاثياً على ركبتيه ويداه مبسوطتان نحو السماء، دعا بأن تتم الاستجابة لتوسل كل من يدخل الهيكل طلباً للمنفعة من الرب، وظهر الرب له قائلاً: «قد سمعت صلاتك وتضرعت الذي تضرعت به أمامي: قدست هذا البيت الذي بنيت به من أجل وضع اسمي فيه» [الملوك الأول: ٩/٣]، و«الآن عيناى تكونان مفتوحتين وأذناى مصغيتين إلى صلاة هذا المكان. والآن قد اخترت وقدست هذا البيت ليكون اسمي فيه إلى الأبد» [أخبار الأيام الثاني: ٧/١٥ — ١٦].

٩٤ — وعاشت مريم العذراء المباركة في هذا الهيكل، حتى اقترنت بيوسف، ولقد قيل بأنها كانت تصلي هناك مع العذراوات الأخريات، وكانت تعمل على إعداد أواني الهيكل، وكذلك ملابس الكهنة، كما كانت تتعلم الأحرف المقدسة، وتعيش بعقلانية وتواضع، حيث كانت تصوم، وتتأمل، وتصلي، وتدرس الكتابات المقدسة، وعندما كانت طفلة رضيعة جلبها والداها لتقديمها إلى الهيكل، ومن أجل تقديمها أمام الرب، وهنا — كما يقال — صعدت بنفسها جميع الدرجات المؤدية إلى الهيكل من دون أية مصاعب، وهو أمر بدا مذهشاً في أعين الجميع، ولم يسمع بمثله من قبل عن طفل صغير، وفي هذا الهيكل عندما كان زكريا المقدس يقدم البخور إلى الرب، ظهر الملاك جبرائيل له، وبشره بأن الرب قد استجاب لأدعيته.

٩٥ — وجرى أيضاً في هذا الهيكل تقديم الطفل يسوع، حيث جرى حمله على ذراعي سمعان العدل، وعندها عرف سمعان بوساطة الروح القدس مخلصه، فقال له: «الآن تطلق عبدك» [لوقا: ٢/٢٩].

٩٦ — وأيضاً في المعبد نفسه أنقذ يسوع المرأة الزانية من أيدي اليهود، [يوحنا: ٨/٣] وهناك أيضاً عمل يسوع «سوطاً من حبال وطرده الجميع من الهيكل، الغنم والبقر، وكب دراهم الصيارف، وقلب موائدهم»، [يوحنا: ٢/١٥]، وهو يقول: «مكتوب بيتي بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» [متى: ٢١/١٣].

٩٧ — وهناك أيضاً بالقرب هيكل سليمان، لكن المسيحيين لا يدخلون إليه، خوفاً من المسلمين.

٩٨ — كذلك يوجد فيما بين هيكل الرب والباب الذهبي الأشجار التي قطع منها الأولاد الأغصان، عندما جاء الرب إلى القدس، راكباً على أتان، وعلى مقربة من هناك، بجوار هيكل سليمان، في زاوية من زوايا المدينة يوجد — كما قيل — غرفة نوم المسيح، وحمامه، وفراش أمه، ويوجد هناك أيضاً ضريح القديس سمعان.

٩٩ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة حنة المباركة، التي هي أم العذراء مريم، وهي قريبة من الباب الذي تذهب من خلاله إلى وادي شعفاط، وذلك في جهة الشمال، فهنا يوجد القبو الذي ولدت فيه العذراء مريم، فهو قد كان من قبل بيت يواكيم، وحنة المباركة، زوجته.

١٠٠ — ولا يدخل المسيحيون إلى هذا المكان، لأن المسلمين قد بنوا هناك مسجدهم، أي كنيستهم.

١٠١ — ثم إنك تأتي إلى البركة المجاورة لسوق الضأن، التي إليها كان ملاك الرب «ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء، فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه» [يوحنا: ٥/٤]، ولقد قيل بأنه استقرت في تلك البركة لزمن طويل، خشبة الصليب، وكذلك شفى ربنا في تلك البركة الرجل المقعد منذ ثمان وثلاثين سنة، والتمدد فوق فراشه، وقال له: «احمل فراشك وامش» [يوحنا: ٥/٨]، ويوجد هناك

غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١٠٢ — ثم إنه على مقربة من هناك، تأتي إلى بيت الرجل الشري الذي رفض إعطاء فتات الخبز إلى العازر.

١٠٣ — ثم إنك تأتي إلى بيت عناس، الكاهن الأعلى، وختن كيفاس، الذي جلب إليه يسوع أولاً.

١٠٤ — ثم إنك تأتي إلى بيت بيلاطس، حيث جرى جلد يسوع، والسخرية منه من قبل الجند، والبصاق عليه وضربه بالعصا، وتوبيخه بتاج من شوك، وأخيراً الحكم عليه بالاعدام، ويوجد هناك طريق يقود إلى هيكल الرب، جاء اليهود عبره وهم يصرخون قائلين: «اصلبوه، اصلبوه».

١٠٥ — ثم إنك تأتي إلى البيت الذي كانت مريم العذراء المباركة فيه في المدرسة، وعلى مقربة منه يوجد البيت الذي تشاور فيه اليهود لاعتقال يسوع خيانة، ومن ثم قتله.

١٠٦ — ثم تأتي إلى جوار ذلك، إلى الكنيسة التي تعرف باسم كنيسة إغماء القديسة مريم، حيث أغمي عليها بسبب آلام ابنها، عندما شاهده وهو يحمل صليبه، ويوجد هناك حجران أبيضان عظيمان في القوس، عليهما استراح ربنا، عندما كان يحمل صليبه، ثم التفت إلى الناس وقال: «يا بنات أورشليم لا تبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن» [لوقا: ٢٣/٢٨].

١٠٧ — ويقال بأنه كان على مقربة من الكنيسة قصر الملك هيرود، وعلى مقربة من هناك كان بيت يهوذا الخائن، حيث عاش مع زوجته وأولاده.

١٠٨ — ويوجد هناك أيضاً الطريق الذي يقود إلى باب القديس

اسطفان، حيث رجم في خارجه، وعبر هذا الطريق اقتاد اليهود يسوعاً، و«وجدوا إنساناً قيروانياً اسمه سمعان كان آتياً من الحقل، فسخروه ليحمل صليب يسوع» [متى: ٢٧/٣٢، لوقا: ٢٣/٢٦] وحمله إلى الجمجمة حيث جرى صلب يسوع.

١٠٩ — ثم إنك تأتي إلى برج داوود، الذي كان قد هدم، لكن الآن أعيدت عمارته، في المكان نفسه، كقلعة للسلطان.

١١٠ — وهناك جرى سجن يوسف الرامي لمدة أربعين سنة، بعد آلام المسيح، أي حتى قدوم تيتوس وفاسبسيان، امبراطورا روما.

١١١ — ويوجد هناك باب اسمه باب داوود، في خارجه شنع يهوذا نفسه على شجرة جميز.

١١٢ — ثم إنك تصل على بعد رمية سهم إلى كهف الأسد، حيث تولوا دفن أحد عشر ألف شهيد، قتلوا جميعاً بسبب اسم المسيح من قبل كسرى ملك الفرس.

١١٣ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي قطعت منه خشبة الصليب، فهناك بنيت كنيسة جميلة جداً، ويبعد المكان ميلاً واحداً عن القدس، ويطلق عليه بالعربية اسم [دير] المصلب، أي «أم الصليب».

١١٤ — ثم هناك على بعد ميلين جدول الماء الجاري الذي عمّد فيه فيليب المبارك الخصي الأثيوبي وهو عائد من القدس، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١١٥ — ثم إنك تأتي على بعد ميل إلى المكان الذي ولد فيه يوحنا المعمدان مع أبيه زكريا، وتوجد هناك كنيسة تبعد أربعة أميال عن القدس، وإلى هناك حدث أن مريم «ذهبت بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا» وسلمت على إيزابل، «وصرخت إيزابل بصوت عظيم وقالت

مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك فمن أين لي هذا أن تأتي أم ربي إليّ، فهوذا حين صار صوت سلامك في أذنيّ ارتكض الجنين بابتهاج في بطني»، ثم قالت مريم المباركة: «تعظم نفسي الرب» الخ [لوقا: ١/ ٣٩ - ٤٦]، وهناك تنبأ زكريا وقال: «مبارك الرب» الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١١٦ — ومن هناك يذهب الانسان إلى نبع زكريا، [عين كارم] الذي يبعد حوالي رميتي سهم عن الكنيسة المذكورة أعلاه.

ما يتعلق بالحج في بيت لحم وحبرون

١١٧ — على ميلين من القدس، باتجاه بيت لحم، هناك كنيسة، قائمة فوق الموضع الذي تاب فيه إيليا واعتكف.

١١٨ — ثم إنك تأتي إلى مكان على الطريق، حيث ظهر النجم ثانية للرجال الحكماء، ذلك أنه كان قد اختفى عندما كانوا في حضرة هيرود.

١١٩ — ثم إنك تأتي إلى البئر الذي وضع إخوان يوسف، يوسف فيه.

١٢٠ — ثم إنك تأتي إلى قبر راحيل، زوجة يعقوب، التي ماتت بعد ولادتها لبنيامين، وهو يبعد حوالي ثمن ميل عن الطريق القادم.

١٢١ — ثم إنك تقدم إلى حقل البيقية الحجرية، الذي يبعد ميلاً عن بيت لحم، لأنه عندما كان الرب يسوع يعبره، رأى رجلاً يبذر بيقية، وعندما سأله الرب عن الذي يبذره، أجابه «حجارة» فقال الرب له: «لتكن حجارة»، وعلى الفور تحولت تلك البيقية إلى حجارة، وحتى الآن يتم العثور على حجارة بيقية هناك.

١٢٢ — ثم إنك تأتي إلى مدينة بيت لحم، التي معنى اسمها «بيت

الخبز»، التي ولد فيها الخبز الحقيقي الذي نزل من السماء، ويوجد في هذه المدينة المقدسة والمبجلة، كنيسة فائقة الجمال، بنيت على شرف مريم العذراء المباركة، وفيها بيعة، ولد فيها يسوع المسيح، مخلص العالم، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٢٣ — ويوجد هناك المكان الذي كان فيه الملعف الذي أكل فيه الثور والأتان، فهناك مددته مريم العذراء المباركة، بسبب أنه لم تكن هناك غرفة في النزل»، وقد قيل بأن الملعف مع التبن الذي تمدد عليه الطفل يسوع موجود في روما في كنيسة القديسة مريم العظيمة.

١٢٤ — وإلى تلك البيعة جاء ثلاثة ملوك من الشرق: مليكور، وبلثاسار، ويسبر، ليقوموا بعبادة ابن الرب، وقد قدموا له: «ذهباً، وبخوراً، ومراً».

١٢٥ — ويوجد أيضاً في الكنيسة المتقدمة الذكر، العائدة للقديسة مريم، على الجانب الأيسر، المكان الموضوع فيه بعض آثار طفولة ربنا وختانه، حيث يقال بأنهم الآن في روما في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران.

١٢٦ — ويوجد أيضاً على جهة اليمين المكان الذي جرى فيه دفن الأبرياء المقدسين، ويوجد هناك مذبح، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٢٧ — ثم إنك تأتي إلى باب، حيث هناك الكهف الذي اعتكف فيه القديس جيروم، وهناك صنف توراته وكتباً أخرى كثيرة.

١٢٨ — ثم ملاصق ذلك تأتي إلى كنيسة تلك العقيلة النبيلة، أي باولا المباركة، مع ابتها العذراء يوستوخيوم، فهناك قاما بالتوبة والاعتكاف.

١٢٩ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة نيقولا المبارك، وهي ملاصقة لها، وفيها قبو عميق، وهناك يوجد بيعة، يقال بأن مريم العذراء المباركة قد عاشت فيها مرة مع ابنها الوحيد، ويقال بأنها عصرت مراراً هناك فوق الصخرة صدرها الذي تدفق بالحليب، ولهذا السبب أصبحت الصخرة بيضاء مثل الحليب، وهو ما هو مرثي حتى هذا اليوم، ولقد قيل بأن أية امرأة فقدت لسبب ما حليبها، وأخذت قطعة صغيرة من تلك الصخرة، ومزجتها بالماء، وشربتها على شرف العذراء المباركة، سوف يعود حليبها مباشرة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، الخ.

١٣٠ — ثم إنك تأتي إلى بيعة قرب بيت لحم، حيث ظهر ملاك الرب للرعيان، في صباح ميلاد الرب قائلاً: «لقد أحضرت لكم بشائر ذات بهجة عظيمة، وهي سوف تكون لجميع الناس، ذلك أنه ولد في بيت لحم في هذا اليوم، في مدينة داوود، مخلص العالم».

١٣١ — وعلى بعد اثني عشر ميلاً عن بيت لحم، توجد مدينة حبرون، التي هي مدينة قديمة جداً، وهي حاضرة الفلسطينيين، ومكان سكنى العمالقة، وفي ديار سبط يهوذا، وحبرون قائمة في سهل دمشق، وفي الحقل الذي صاغ فيه الخلاق العظيم للمرة الأولى أبانا آدم «على شكله»، ويوجد في هذه المدينة هيكل له جمال فائق، ويوجد فيه الكهف المزدوج، الذي دفن فيه الرجال الأربعة المحترمين، وهم: آدم، وإبراهيم، واسحق، ويعقوب، مع زوجاتهم، حواء، وسارة، ورفقة، ولينا.

١٣٢ — ولا يدخل المسيحيون إلى هذا الهيكل خوفاً من المسلمين، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٣٣ — ثم إنه على مقربة من المدينة، وعلى بعد حوالي رميتي سهم، سوف تصل إلى كهف أو قبو، فيه اعتكف آدم وزوجته لمدة مائة سنة، بعد وفاة ابنها هابيل، ثم إنه أنذر من قبل ملاك من الملائكة، فعرف

زوجته، فحملت بشيث، الذي من سبطه ولد يسوع المسيح، ابن الرب.

١٣٤ — وأيضاً على مقربة من حبرون يقع جبل ممرا، الذي عند سفحه توجد البطمة، التي تعرف باسم البلوطة، أو السنديانة، فتحتها عندما كان إبراهيم جالساً رأى ثلاثة ملائكة قادمين نحوه، وقد تعبد واحداً منهم.

١٣٥ — وهذه البلوطة جافة الآن، ومع ذلك تبرهن أنها ذات خواص دوائية مؤثرة، لأنه قد قيل إذا ما أخذ أي إنسان قطعة منها وهو راكب، فإن مطيته لن تكبو قط.

١٣٦ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي اعتكف فيه يوحنا المعمدان.

١٣٧ — وإلى حبرون قدم أيضاً الاثنا عشر جاسوساً، كالب، ويوشع ورفاقهما، حيث دخلوا للمرة الأولى إلى أرض الميعاد.

١٣٨ — وفي حبرون أيضاً حكم داوود لمدة سبع سنوات ونصف السنة، وكان ذلك قبل أن يحكم في القدس.

١٣٩ — وعلى بعد ميلين من حبرون، باتجاه بيت لحم، يوجد كوخ صغير فيه سكن النبي يونه بعد قدومه من مدينة نينوى، وهناك مات، ومدد في قبره.

١٤٠ — ويوجد أيضاً في مقابل جبل صهيون، جبل عليه الآن كنيسة القديس سيبريان Cyprian.

ما يتعلق بحج بيت عنيا ونهر الأردن

١٤١ — بيت عنيا هي بلدة مريم ومرثا وأخييهما العازر، وهي تبعد حوالي الميلى عن القدس، وواقعة وراء جبل الزيتون، وكان هناك من قبل بيت سمعان المجذوم، وفي هذا البيت جلس الرب يسوع لتناول الطعام مع حواريه، وإلى هناك جاءت المجدلية، لدى سماعها بأن يسوعاً

قد جاء إلى هناك، ووقفت خلفه: «وابتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحهما بشعر رأسها» [لوقا: ٣٨/٧]، وهناك أيضاً سمعت ما كانت تستحقه عن جدارة الكلمات الحلوة والمجيدة في قوله: «مغفورة لك خطاياك... اذهبي بسلام». [لوقا: ٧/٤٨ — ٥٠].

١٤٢ — وكانت بالعادة هناك كنيسة كبيرة، لكنها دمرت من قبل المسلمين.

١٤٣ — وهناك أيضاً، الكهف الذي دفن فيه العازر، عندما أقامه الرب من الموت، حيث توجد هناك بيعة الآن، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٤٤ — ثم إنك تأتي على بعد رميتي سهم إلى المكان الذي كان فيه بيت مرثا، والذي بني في موضعه فيما بعد كنيسة، ففي هذا البيت جلس ربنا لتناول الطعام مع حواربيه، عندما قالت مرثا له: «يارب أما تبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقل لها أن تعينني» الخ [لوقا: ١/٤].

١٤٥ — ثم إنك تأتي على بعد رميتي سهم من هناك إلى الصخرة التي ارتاح عليها يسوع، عندما التقت به مريم ومرثا وهما تكيان وتقولان: «يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخانا» الخ [يوحنا: ١١/٢١].

١٤٦ — ومن هناك سوف تسير مسافة ثمانية عشر ميلاً عبر طريق مستقيم إلى نهر الأردن.

١٤٧ — وتشكل نهر الأردن تحت جبال جلبوع من جدولين هما: «الأر» و«دان»، اللذان ينبعان عند سفح جبل لبنان، على مقربة من قيسارية فيليب، ويشق اسمه وأصله من هذين النبعين، وينحدر إلى بحيرة جنسارث، ومن هناك يخرج نهراً واحداً، يروي المنطقة المجاورة له لمسافة تقارب المائة ميل، ويأخذ طريقه من خلال الوادي الشهير، الذي اسمه وادي الملح، إلى البحر الميت، ولا يعاود الظهور ثانية، بل يتلغ هنا

في الأعماق.

١٤٨ — واعتاد الحجاج والسكان المحليون على غسل أنفسهم وغسل ملابسهم في مياه نهر الأردن. مع شيء كبير من التقوى، لأنه في نهر الأردن جرى تعميد مخلصنا من قبل يوحنا المبارك.

١٤٩ — وهناك انفتحت السموات، وهناك ظهرت الروح القدس على شكل حمامة، وهناك سمع الآب وهو يقول: «هذا هو ابني المحبوب، الذي أنا عنه راض تماماً».

١٥٠ — وفي هذا النهر برأ نعمان السوري من جذامه، و«عادت بشرته من جديد مثل بشرة طفل صغير».

١٥١ — وشطر إيليا وتلميذه الإشع مياه نهر الأردن إلى شطرين بضربها بردائه، ومن ثم عبرا فوق أرض يابسة، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٥٢ — ثم إنك تأتي على بعد ميل واحد، إلى دير [قصر اليهود] بني على شرف المبارك يوحنا المعمدان وهناك معروض اليد اليسرى للقديس يوحنا نفسه.

١٥٣ — وكان هناك راعي الدير المبارك زوسيماس Zosimas، فهناك عاش حياته كلها في تبتل واستغفار عظيم، وقد وجد مريم المصرية المباركة عبر نهر الأردن، التي سكنت هناك لمدة ثمانية وثلاثين عاماً غير معروفة من قبل أحد من الناس.

١٥٤ — ثم إنك تصل إلى أريحا، التي تبعد أربعة أميال عن نهر الأردن، وهي التي كانت من قبل مدينة عظيمة، وقد استولى عليها يوشع، قائد شعب إسرائيل، وكان ذلك عندما دخل أرض الميعاد، وبناء على دعواته انهارت أسوار المدينة، وكانت هناك امرأة من أهل المدينة

اسمها راحاب، وكانت عاهرة، استقبلت جواسيس بني إسرائيل في بيتها، ولهذا السبب جرى إنقاذها مع جميع بيتها، وكان من بين سكانها رجل آخر اسمه زكا «كان رئيساً للعشارين»، وقد رغب في رؤية يسوع عندما قدم إلى أريحا، «ولم يقدر من الجميع لأنه كان قصير القامة» [لوقا: ١٩/٢ - ٣].

١٥٥ — وعلى بعد ميلين من أريحا يوجد القرنطل، وهو جبل مرتفع جداً، ورائع، يوجد في منتصف الطريق إلى أعلاه بيعة جميلة جداً قائمة فوق صخرة، ويمتلكها بعض الاغريق، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٥٦ — وفوق ذلك الجبل صام المسيح لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، وجاع بعد ذلك، وأغواه هناك الشيطان وامتحنه، أولاً بالنسبة لشهيته للطعام حيث قال: «لئن كنت ابن الرب، فأمر هذه الحجارة لتكون خبزاً»، وأغواه في المرة الثانية فوق جبل آخر، ليس بعيداً عن هذا الجبل، بشهوة شريرة حين أراه جميع ممالك الدنيا قائلاً: «جميع هؤلاء سوف أعطيك، إذا قبلت بالسجود إليّ وعبادتي»، وأغواه في المرة الثالثة بمجد عابث، وكان ذلك عندما «جلس له على رأس الهيكل»، وقال له: «إذا كنت ابن الرب، فارم بنفسك نحو الأسفل».

١٥٧ — وتحت القرنطل يوجد النبع الذي حول النبي يشع ماء من مالح إلى عذب صالح للشراب.

١٥٨ — وعلى بعد ميلين من أريحا، وفي جهة الشمال الشرقي، تقع بحيرة اسفلت، التي اسمها أيضاً البحر الميت، وفي الحقيقة مناسب تسميتها بالبحر الميت، لأنها لا تستقبل شيئاً حياً، كما لا يمكن لشيء حي العيش فيها، وهنا سقطت المدن الأربعة السيئة السمعة وهي: سدوم، وعاموره، ودومة، وزيبويم، فلا صرارها على اللوطة أحرقت بالنار،

وبالكبريت، وغرقت في البحيرة.

١٥٩ — وتوجد ساعور على شاطئ البحر الميت، وهي تعرف أيضاً باسم بلكوروستا **Belcorosta** ، وهي المدينة الخامسة بين المدن، وهي التي أنقذت من قلب عاليها سافلها بصلوات لوط وهي تعرف الآن بين شعب المنطقة باسم بلدة النخيل.

١٦٠ — وأيضاً يوجد بعد هذه البحيرة أو البحر الميت، وأنت نازل نحو العربية، كرنثيم (الكرك) وهو كهف في جبال المآبيين، إليه اقتيد بلعام ليلعن شعب اسرائيل، وذلك عندما ركب على الأتان التي كلمته.

١٦١ — ويفصل البحر الميت هذا بين اليهودية والعربية.

١٦٢ — والعربية في أيام بني اسرائيل، كانت هي الصحراء التي أبقاهم الرب فيها لمدة أربعين سنة، حيث كان يمطر المن عليهم لكي يأكلوا.

١٦٣ — وفي العربية أيضاً يوجد وادي موسى، الذي فيه ضرب موسى الصخرة مرتين، وبناء عليه تدفق جدولان من الماء لسقاية شعب الرب، وبهذين الجدولين تسقى الآن جميع المنطقة.

١٦٤ — ويوجد في العربية أيضاً جبل سيناء، حيث جرى نقل جسد كاترين العذراء المباركة، على أيدي الملائكة، وجاء النقل من الاسكندرية حيث تلقت ضربة الشهادة.

١٦٥ — وعلى ميلين من أريحا تقع الجلجال، وذلك حيث ولد النبي اليسع، حوارى النبي إيليا.

١٦٦ — ويوجد أيضاً بين أريحا والقدس المكان الذي فيه «كان أعمى جالساً على الطريق يستعطي» وهو الذي عندما سمع بأن «يسوع الناصري مجتاز، فصرخ قائلاً: يا يسوع ابن داوود ارحمني... وقال له

يسوع أبصر إيمانك قد شفاك» [لوقا: ١٨ / ٣٥ — ٤٢].

١٦٧ — وأيضاً المسافة من القدس إلى عمواس أقل من ثمانية أميال، وهناك ظهر يسوع إلى الحواريين اللذان كانا ذاهبين إلى عمواس، وعندما فتح الكتاب المقدس قال: «أيها الأحقيين والبطيئين بالآيمان بقلبيكما» وقد «عرفاه من كسر الخبز».. وهذه البلدة قريبة من مودين، مدينة المكابيين، ومدينة الجبعونيين.

١٦٨ — وسوف تذهب من هناك مسافة أربعين ميلاً إلى غزة، على مقربة من البحر، وغزة إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي التي حمل أبوابها شمشوم إلى قمة الجبل [القضاة: ١٥ / ٣]، ويمضي الطريق باتجاه الغرب.

١٦٩ — ثم إنك تأتي بعد خمسة أميال إلى قرية كرموث Car-mus (الدارون)، وهناك يصنعون خمرة جيدة جداً، وهناك يعيش المسيحيون المطوقون، وكان هناك فيما مضى مشفى لفرسان القديس يوحنا في القدس، لكن جرى تدميره تماماً من قبل المسلمين.

١٧٠ — ثم إنك تأتي بعد سفر ستة أيام إلى مكان فيه نبع ماء، يدعى نبع مريم المباركة، ذلك أن يوسف تلقى إنذاراً في المنام من قبل الملاك بأن عليه أن يأخذ الطفل وأمه، ويفر إلى مصر، وقد جاءوا إلى هذا المكان، ولم يكن بإمكان العذراء المباركة متابعة السفر لمعاناتها من عطش لا يحتمل، ولم يكن لديها ما تشربه، وبالنظر لآلامها المبرحة وضعت الطفل الرضيع على الأرض، وضرب الطفل الأرض بضربات لطيفة صدرت عن قدميه، فتفجر نبع ماء طيب على الفور، وقد شربت واستردت قواها، ويسقي هذا النبع حدائق البلسم حتى هذا اليوم، ويعرف المكان باسم «المطرية» ويستحم هناك كل من المسلمين والمسيحيين سواء.

١٧١ — ثم تأتي بعد خمسة أميال إلى المدينة الجلييلة والغنية والشهيرة التي اسمها القاهرة، التي بما أنها البلدة الرئيسية، يسكن فيها السلطان الكبير، الذي هو سيد سورية ومصر، والعربية، وعلى مقربة منها يجري النهر، الذي يأتي من الجنة، ويسقي بلاد مصر كلها.

١٧٢ — ثم بعد ميل تأتي إلى المدينة التي اسمها بابليون، التي منها جاء دانيال (كذا) الذي ألقى به في عرين الأسود، وهناك سكنت مريم المباركة في أحد الأماكن، وفي هذا المكان توجد الآن كنيسة القديسة مريم دي لا سكال Scala ، ويوجد هناك مكان سري آخر سكنت فيه مريم المباركة، ويعرف باسم القديسة مريم دي لا كافا Cava ، وهناك كنيسة جميلة جداً، وهناك أيضاً يرقد جسد بربارا العذراء المباركة.

١٧٣ — وفي مقابل القاهرة، على الطرف الآخر من النهر، باتجاه الغرب، توجد أهراءات فرعون، الذي كان فيما مضى ملك مصر، وهي التي بنيت بناء على نصيحة يوسف بن يعقوب، الذي بيع في مصر.

١٧٤ — ثم إنك بعد سفرك مائتي ميل تأتي إلى الاسكندرية، وذلك حيث استشهدت كاترين المباركة، وهي التي نقل جسدها على أيدي الملائكة إلى جبل سيناء من أجل دفنه، وقصرها مايزال مرثياً في الاسكندرية، الذي لا يمكن لمسلم أن يسكن فيه بأية وسيلة من الوسائل.

١٧٥ — ويوجد أيضاً على بعد ميلين إلى الشرق من الاسكندرية، كنيسة هي حيث استشهد القديس مرقس الانجيلي، وكان ذلك عندما كان يقيم قداساً في أحد الأيام، فجاء واحد من غير المؤمنين ووضع حبلاً حول عنقه وقال: «خذ الوعل إلى مكان الوعل»، وقد نقل جسده فيما بعد بشكل سري إلى البندقية، حيث هو موجود هناك الآن، فبعد

نقله إلى هنا، يرقد بشكل مجيد.

١٧٦ — ثم تأتي بعد سفر يومين آخرين إلى دمياط، المدينة التي توفي فيها إرميا النبي المبارك، برجه بالحجارة.

١٧٧ — ثم تأتي بعد هذا إلى يافا، التي هي الميناء العام للمسيحيين.

١٧٨ — ثم توجد على بعد عشرة أميال الرملة، التي عنها قيل: «صوت سُمع في الرامة، نوح وبكاء وعويل كثير، راحيل تبكي على أولادها ولا تريد أن تتعزى لأنهم ليسوا بموجودين» [متى: ١٧/٢ — ١٨].

١٧٩ — ثم هناك على بعد ميل واحد اللد، حيث استشهد جرجس المبارك، وفي اللد هذه شفى بطرس المبارك رجلاً أعرجاً كان اسمه انيس Eneas.

١٨٠ — ثم إنك تقدم إلى قيسارية الفلسطينيين، التي جاء منها كورنيليوس قائد المائة، الذي عمده بطرس المبارك، ومن قيسارية هذه جاء المبارك فيليب، الذي كان واحداً من الشمامسة العشرة الذين اختيروا من قبل الرسل.

١٨١ — ثم إنك تأتي إلى أرسوف. التي كانت تعرف من قبل باسم أنتيباتر، وهي التي قامت فيما مضى على البحر بين قيسارية ويافا.

١٨٢ — ثم هناك أيضاً على بعد سبعة أميال من قيسارية، ميناء الحجاج (عثليت) الذي كان يعرف من قبل باسم بتر أنشيسا، التي كانت فيما مضى ميناء مشهوراً على ساحل البحر، وقد جرى نقل جسد يوفيميا المباركة، والعدراء الشهيدة من خلقدونيا، التي هي مدينة في بلاد الاغريق، إلى هنا بشكل إعجازي، حيث هي محاطة باحترام عظيم حتى هذا اليوم.

١٨٣ — ثم إنك تقدم إلى عكا، التي كانت فيما مضى مدينة مشهورة، حيث كان اسمها من قبل بطوليس، وهي تبعد ثمانية أميال عن كيفاس (حيفا)، وفي حيفا الموجودة تحت جبل الكرمل، يوجد البيت الرئيسي للرهبان الكرمليين، وعندما تنزل من الجبل سوف تصل إلى المكان الذي كان فيما مضى بيت النبي إيليا.

١٨٤ — وعلى بعد ثلاثة أميال عن جبل الكرمل يوجد جبل قيمون، الذي عند سفحه قتل لامخ قابيل بسهم، وكان ذلك خطأ منه حيث ظن أنه وعل.

ما يتعلق بالحج في طبرية والمناطق المجاورة لها

١٨٥ — نالت مدينة طبرية اسمها من تاييريوس قيصر، وهي قائمة على شاطئ بحر الجليل، وقد اعتاد يسوع أثناء شبابه على زيارتها.

١٨٦ — وحدث هناك أن الصبي يسوع كان متأخراً، لكونه مع يهودي كان قريباً له، وغضب اليهودي، فما كان منه إلا أن التقط مشعلاً مشتعلاً، ورمى به نحو الطفل يسوع، راغباً بإصابته به، لكن المشعل ضرب الأرض، ونما على الفور شجرة ضخمة، ماتزال حتى هذا اليوم تزهر وتثمر.

١٨٧ — وأيضاً يوجد على مقربة من هذه المدينة ينابيع تتدفق بشكل دائم بالمياه الحارة.

١٨٨ — وأيضاً على بعد ميل عن طبرية توجد بلدة المجدل، التي منها تلقت مريم المجدلية اسمها.

١٨٩ — وعلى بعد أربعة أميال عن طبرية توجد بيت أوليا، وهي مدينة يودث، التي قتلت هولوفيرنس.

١٩٠ — وبحر الجليل هو بحيرة قائمة على حدود الجليل،

مياها عذبة جداً وطيبة ولذيذة، وهي ذات حجم كبير بالطول وبالعرض، وعلى مقربة منها مدينة بطرس وأندرو، وهي التي اسمها بيت صيدا، وعليها ألقى الرب النور بحضوره.

١٩١ — ويطلق على هذه البحيرة أحياناً اسم جنسارث، لأن منها يتولد الهواء ويتجمع ليكون ريحاً قوية، بها تضطرب المياه، وتهب العاصفة، مما يسبب في الغالب غرق المراكب.

١٩٢ — وعلى هذه البحيرة مشى الرب جاف القدمين، عندما قال لبطرس — حين رغب في أن يقدم إليه، لكنه بدأ يغرق ويصرخ «يارب أنقذني» —: «آه منك يا قليل الايمان، لماذا شككت؟»، وفي مرة أخرى كان الحواريون في حالة رعب، فجعل مياه هذا البحر تهدأ، ويوجد على الرأس الأيسر من هذا البحر، في فجوة في الجبل، جنسارث، وهي المكان الذي يتولد فيه الهواء، وهو ما يزال يشعر به الناس الذين يكونون في تلك البقعة.

١٩٣ — ويبدأ بحر الجليل فيما بين بيت صيدا، وكفر ناحوم.

١٩٤ — وتوجد كورزيم على بعد أربعة أميال عن بيت صيدا، وفي كورزيم سوف ينشأ المسيح الدجال، الذي هو مضل العالم، وعن هاتين المدينتين قال يسوع: «الويل لك بيت صيدا، والويل لك كورزيم».

١٩٥ — وعلى بعد خمسة أميال عن كورزيم تقع قيذار، وهي مدينة رائعة جداً، وعنهما كتب في المزامير قوله: «أنا سكنت في خيام قيذار» [المزمور: ١٢٠ / ٥].

١٩٦ — وكفر ناحوم هي مدينة قائد المائة، وهي قائمة على الشاطئ الأيمن من رأس البحيرة، وفي هذه المدينة عمل يسوع كثيراً من المعجزات.

١٩٧ — وعلى ميلين من كفرناحوم تنزل من الجبل إلى المكان الذي وعظ فيه الرب الجمهور من الناس، وأعطى تعليمات إلى حوارييه، وعلمهم، وهناك شفى المجذوم.

١٩٨ — وعلى بعد ميلين من ذلك المنحدر يوجد المكان الذي أطعم فيه يسوع خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة وسمكتين، وجرى تخليف اثنتي عشرة سلة من الفتات، ويوجد هناك مكان اسمه المنعشة، أي مكان الانعاش، كما أنه فعل كثيراً من المعجزات بين الناس خاصة بين المصابين بمختلف الأمراض.

١٩٩ — وأظهر يسوع نفسه على مقربة من هذا المكان لحوارييه بعد قيامته حيث أكل: «جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد العسل» [لوقا: ٢٤/٤٢]، وذلك حسب رواية يوحنا.

٢٠٠ — وكان في الأجزاء العلوية من الجليل هذه العشرين مدينة، اللاتي أعطاهن الملك سليمان إلى صديقه حيرام ملك صور.

٢٠١ — ومنطقة جليل الأمم هذه كلها واقعة في ديار سبطي زبولون ونفتالي.

ما يتعلق بحج دمشق وحدودها

٢٠٢ — وتلتقي حدود العربية وأدوم عند بصرى، وأدوم هي أرض دمشق، فالعزير خادم إبراهيم هو الذي بنى دمشق، وذلك كما يقول بعضهم، ولكن آخرون يقولون بأنها بنيت من قبل انسان اسمه «دمشق» في الحقل الذي قتل فيه قابيل هابيل، وقد سكن عيسو في دمشق، وهو أيضاً يعرف باسم سكير أو أدوم، ذلك أن كلمة سكير تعني الكثيف الشعر، وكلمة أدوم الأحمر، ولهذا السبب نالت البلاد اسم أدوم، هذا وجزء من تلك البلاد اسمه «عوز»، حيث منها أيوب المبارك، الذي وُجد صابراً وكاملاً وسط محنه، ويوجد في أدوم جبل سكير الذي تقوم

دمشق تحته.

٢٠٣ — وعلى بعد ثمانية أميال عن دمشق، وعلى الطريق الذي يقود إلى صيدنايا [داريا]، هناك المكان الذي ظهر فيه الرب يسوع إلى شاول، وهو يقول: «شاول، شاول، لماذا تضطهدينى» [أعمال الرسل: ٩/ ٤] «صعب عليك أن ترفض مناخس» [٩/ ٦].

٢٠٤ — ويوجد في دمشق كنيسة، فيها تولى حنانيا في أحد الأيام تعميد شاول في جرن المعمودية وسماه بولص، وبذلك حول الذئب إلى حمل، وهناك يتولى المسيحيون المطوقون أعمال القداست.

٢٠٥ — ويقال أيضاً إنه يوجد في المدينة كهف كبير، يوجد به كنز لا حدود له، وإذا ما مدّ إنسان يده ليأخذ أي جزء من هذا الكنز، تندفع على الفور نار وتتولى تدمير كل ما لمسه، ولقد قيل بأن الاغريق عندما كانوا يملكون هذه المدينة، بعد الاستيلاء عليها من قبل الامبراطور قسطنطين، بسبب حشود المسلمين التي هاجتهم، وضعوا كنوزهم في هذا الكهف، وجعلوا كنوزهم بوساطة فن السحر من غير الممكن نقلها حتى نهاية الزمان.

٢٠٦ — وعلى بعد عشرة أميال عن دمشق توجد مدينة صيدنايا، التي يوجد فيها الصورة المبجلة لمريم العذراء المجيدة، والتي جلبت من القدس، وقد تحولت هذه الصورة كلياً إلى تكوين جسدي، لذلك هي لا تتوقف لاليلاً ولا نهاراً عن إعطاء زيت مقدس، وهو الزيت الذي يحمل منه الحجاج، الذين يأتون إلى هناك من كل جزء من العالم، قوارير صغيرة من زجاج، وليس بإمكان أي مسلم العيش في هذه المدينة، فهم دوماً يموتون في غضون سنة.

٢٠٧ — وعند سفح لبنان، باتجاه الشرق، ينبع النهر — المشهوران: أبانا، الذي يصل نفسه بالبحر، في الشواطىء، التي فقد فيها

يوستاس Eustace زوجته، ومن ثم لدى تخلي أولاده عنه رجع وحيداً، ويجري نهر فرفر (العاصي) خلال سورية إلى أنطاكية، ويتابع جريانه متجاوزاً أسوارها، وعلى بعد عشرة أميال عن أنطاكية يدخل إلى البحر، عند ميناء القديس سمعان (السويدية).

٢٠٨ — وفي أنطاكية تتوجت مرغريت العذراء الثمينة، بتاج الشهادة المجيد، وكان ذلك تحت إدارة المشرف على المدينة أولبريوس Olibrius (٢٥٨م)، وفي أنطاكية شغل بطرس المبارك كرسيه لمدة سبع سنوات، وهو متزين بأثواب الحرية.

٢٠٩ — وأصل صور مدفون وسط الغموض، ويوجد أمام صور صخرة ليس حجمها صغيراً، عليها وقف يسوع عندما قال: «بل طوبى للذين يسمعون كلام الرب» الخ [لوقا: ١١/٢٨].

٢١٠ — وعلى بعد ثمانية أميال إلى الشمال من صور، يوجد على شاطئ البحر الصرفند، التي اسمها صرفند الصيداوين، التي سكن فيها فيما مضى النبي إيليا، عندما أقام من الموت ابن المرأة الأرملة.

٢١١ — وعلى بعد ستة أميال من الصرفند تقوم مدينة صيدا المشهورة، التي في خارج أسوارها شفى الرب الفتاة التي تلبسها الشيطان، وهي التي قالت أمها ليسوع: «والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها» [متى: ١٥/٢٧]، ومن هذه المدينة كانت الملكة ديدو التي أسست قرطاج في أفريقيا.

٢١٢ — وعند سفح لبنان، وعلى بعد ميلين من صور، يوجد بئر نبع ماء، لكن نبع الحداثق يبعد ستة أميال عن مدينة طرابلس، عند سفح لبنان، باتجاه الغرب، وطرابلس مدينة مشهورة جداً في سورية، مليئة بكثير من المبهجات، وهي قائمة على البحر.

٢١٣ — وعلى بعد أربعة وعشرين ميلاً عن طرابلس توجد مدينة

أنطرسوس، وهي التي تعرف بشكل عام باسم طرطوس، ويوجد في هذه المدينة بيعة لها حجم كنيسة كبيرة، وقد قيل بأنها بنيت من قبل بطرس ويوحنا، حواربي الرب، وذلك تشريفاً لمريم العذراء المباركة، ولها احترام عظيم حتى هذا اليوم، لأنه يوجد فيها منافع كثيرة، تقدم بفضل تدخل العذراء المجيدة.

٢١٤ — وعلى بعد ستة أميال عن صيدا توجد بيروت، وهي مدينة ثرية جداً، كان فيها تمثال لمخلصنا، وقد صلب هذا التمثال بعد وقت قصير من آلامه، وجاء صلبه على يد اليهود سخرية منهم به، فتدفق دماً وماء، وبناء عليه فإن هؤلاء الذين صلبوه، آمنوا عندما رأوا المعجزة، وكل الذين حملوا مشاعر تقوى صحيحة وكاملة تجاه هذا التمثال، برئوا من كل مرض كانوا مصابين به، وجرى فيما بعد حمل هذا التمثال إلى روما.

٢١٥ — ووضع في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، حيث هو محاط باحترام وتقوى من قبل الشعب المسيحي.

٢١٦ — وعلى بعد ميل واحد عن بيروت يوجد المكان الذي قتل فيه القديس جرجس — بفضل الصليب المقدس — التين، وأنقذ عذراء من موت مشين، وأعادها سليمة وبحالة جيدة إلى أبيها، الذي كان ملك تلك البلاد.

— ٤٢٧١ —

— ٢ —

وصف جون بولونير للأرض المقدسة
(١٤٢١م)

تمهيد:

قال الدكتور توبلر Tobler لحسن الحظ أننا نعرف اسم صاحب هذا العمل، ثم تابع يحاجج بأن بولونير كان ألمانيا، وفي المقابل رأى الكونت ب. رينات Riant بأنه كان بولندياً، والبراهين التي أقام الدكتور توبلر نظريته عليها هي أن المؤلف استخدم كلمة كلافتيرن Klatfern ، لدى قياسه بالميل الألماني، مع إيضاحه لقرائه كم من الأميال الإيطالية تساوي ميلاً ألمانياً واحداً، يضاف إلى هذا قوله بأن فلسطين كانت مقاطعة في الأرض المقدسة، مثلما سكسوني واللورين مقاطعتان ألمانيتان، أو مثلهما توسكانيا ولومبارديا مقاطعتان من إيطاليا.

وأمكننا معرفة تاريخ رحلته، لأنه هو نفسه أخبرنا عن ليلة مرعبة أمضاها في ميناء بيروت وفي عشية عيد القديس توما سنة ١٤٢٢م، وحدثنا أيضاً كيف كان المسلمون يحصدون على جبل الزيتون، في يوم عيد القديس جرجس (٢٣ - نيسان) ١٤٢١م، وبناء عليه من المحتمل أنه ذهب في طريق عودته إلى بيروت، ويتوافق شرحه من حيث الجوهر — لاغالباً — بالكلمات نفسها مع كلمات بوركارد راهب جبل صهيون، مع أنها تختلف عنها بالترتيب، ولقد لاحظت وجود توافق مستمر بين الأماكن التي أريت لبولنير، وتلك التي أريت لفابري وغالباً ما جرى وصف هذه الأماكن بالكلمات نفسها، وهنا لانعرف فيما إذا كان فابري قد نقل عن مقدمه، أو فيما إذا كانا قد كتبا القصة نفسها التي أخبرهم بها الحرس، والقندلفتية.

وترسو أهمية بولونير ومكانته في أنه أول حاج — بقدر ما نعرف — رسم خريطة للأرض المقدسة، مع أن خريطته لسوء الحظ قد تلفت، ومع ذلك تمكن الدكتور توبلر من إعادة رسمها بشكل موفق، واعتماداً

على الاشارات التي وردت في النص إليها، وعلى الخريطة التي نشرها مارينوسانوتو، وليس من السهل في البداية، أبداً، فهم ترتيبات الخريطة، فهي مقسمة بوساطة خطوط، تشبه خطوط العرض والطول، الموجودة على الخرائط الحديثة، لكن يلاحظ أن الخطوط التي تشبه خطوط العرض فوق مساحة الخريطة عددها ثلاثة وثمانين خطاً، عبرها بالطول ثمانية وعشرون خطاً، وأخبرنا الدكتور توبلر بأن ترتيب المربعات هذه، قد استخدم من قبل موريس الباريسي، الذي فقدت خريطته أيضاً، وقاس بولونير بالمسافات بين الخطوط، وليس بالخطوط نفسها، وأطلق على هذه المسافات اسم المربعات بالنسبة للعرض، والفراغات بالنسبة للطول، وهذا يعني أن القارىء لدى عبوره على مكان «تحت» كذا وكذا «مربع»، من المتوقع هنا منه أن يتولى تعداد المربعات على طول الحافة الأطول للخريطة حتى يصل إلى المربع المذكور، ثم ينظرته تحت أسفل العمود من هناك، سوف يجد المكان، وإذا كان المذكور موجود في كذا وكذا «مربع»، يتوجب عليه تعداد المربعات على طول نهاية الخريطة، وينظر على طول الخط، وليس من السهل شرح هذا النظام من دون رسم بياني، لكن ربما سيكون هذا تكلفاً مرهقاً، نرى فيه مؤلفنا فهيماً تماماً وبارعاً باستخدام الخريطة الحديثة، وأخبرنا الدكتور توبلر بأن موريس الباريسي قد عمل خريطة وفق هذه الطريقة، لكنها فقدت.

ومن الصعب أن نعتقد أننا نمتلك هنا رحلة بولونير كلها، ومن الصعب جداً أن نقبل بإمكانية أن حاجاً حريصاً مثله، وكاتباً تقياً على غرار، وصف حجه إلى الأرض المقدسة، ومع ذلك لم يقدم وصفاً لكنيسة الضريح المقدس، التي كانت الهدف الرئيسي لرحلته، فضلاً عن ذلك لدى قراءتنا لمطلع كتابه نشعر أننا نتعامل مع قطعة، هذا وليس من الواضح من أي مكان من نصه الحالي جرى فقدان وصف الضريح المقدس، ما لم نفترض أنه كان في النص فصل مستقل أوقف على هذا

الموضوع، ثم إنه لم يعطنا أية حقائق جديدة مرتبطة بالجغرافية القديمة، ولا بد من أن نقنع أنفسنا باستخراج بعض الاشارات التي فيها بعض معلومات مفيدة حول أوضاع كنائس وييع في الأرض المقدسة والقدس، وقبيل النهاية كرر نفسه، وأعطانا القائمة المعروفة بالأسماء التي نجدها لدى جميع كتاب رحلات الحج الذين استخدموا «الخلاصة الوافية»، وراجع في هذا المقام رحلتي ثيودورك وفيتلوس، اللتان تقدمتا من قبل، وهنا يتضح أنه على الرغم من أن بولونير قد زار الأرض المقدسة في وقت متأخر كثيراً بعد هذين الكاتبين، نجده يقلد عرضهما تقليداً قريباً، وقد نقل المزيج نفسه من سوء الفهم الجغرافي، من المصادر نفسها، أو مصادر مماثلة.

وصف جون بولونير للأرض المقدسة

أبواب مدينة القدس

فيما يلي وصف الأبواب التي كانت موجودة في سور مدينة القدس، والتي ورد ذكرها في نص الكتابات المقدسة، وكان اسم أول الأبواب «باب داوود»، وهو الباب الأعلى للمدينة في الزاوية الغربية، وقد عرف بهذا الاسم لأن برج داوود مطل عليه، وقد عرف أيضاً باسم «باب السمك»، لأن من خلاله يمر الطريق من يافا واللد وساحل البحر، ومن خلاله أيضاً يأتي التجار، جالين مختلف السلع من أثيوبيا ومصر، وهذا الباب قائم في السور القديم، وهو ملتصق في هذه الأيام بسور الجزء الذي بني من أجل الاحاطة بضريح الرب، ويقود الطريق من هذا الباب إلى ثلاثة اتجاهات: الأول عبر حقل القصار، والثاني وهو الذي كان موجوداً على جهة اليسار، ويقود إلى بيت لحم وحبرون، والثالث هو الذي ينزل نحو جهة اليمين من خلال وادي رفئيم، وذلك تحت قلعة بيت سورا، التي تبعد خمس غلوات عن القدس.

أما الباب الثاني فهو الذي كان اسمه الباب القديم، وكان إلى الشمال من الباب الأول في السور القديم، وهو موجود منذ أيام اليبوسيين، وهو أيضاً يعرف بباب القضاء، لأن محاكم العدالة كانت تعقد هناك، وكل ما كان يقرر بحكم من القضاة، كان هناك يجري تنفيذه.

أما الباب الثالث فهو باب إفرام، في الجزء العلوي (من المدينة) باتجاه الشمال، ويمر من خلال هذا الباب طريق يقود إلى جبل إفرام والسامرة، ومن هنا يأتي السور الذي كان قد بني من برج داوود صعوداً إلى هذا الباب من أجل الاحاطة بضريح الرب، وللالتقاء بالسور القديم، ويعرف هذا الباب الآن باسم باب القديس اسطفان، لأن

القديس اسطفان قد رجم خارجه.

وكان الباب الرابع هو باب الزاوية، وكان موجوداً عند الرأس في الطرف الشرقي، وذلك عند زاوية السور فوق وادي قدرون، ولهذا نحن نقرأ في سفر الملوك [الثاني: ١٤ / ١٢، أخبار الأيام الثاني: ٢٥ / ٢٣]، بأن يوشع ملك إسرائيل قد خرق سور القدس من باب إفرايم حتى باب الزاوية، وذلك لمسافة أربعمئة ذراع، وكان أيضاً يعرف باسم باب بنيامين، لأن هذا الباب يقود إلى عناتا وإلى المدن الأخرى التابعة لهذا السبط.

وكان الباب الخامس هو باب القاذورات، فمن خلال هذا الباب، تنساق جميع قاذورات المدينة في أثناء الأمطار، لتصب في وادي قدرون، ويقود الطريق من خلال هذا الباب إلى القفار القائمة فيما بين القدس وأريحا، وهي الفيافي التي تعرف الآن باسم فيافي القرنطل.

وكان الباب السادس هو باب الوادي، وكان يعرف باسم باب القطيع، لأن من خلاله كانت قطعان الأغنام تساق للتضحية بها في الهيكل، وعلى مقربة منه — وعليها كان يعتمد — كانت بركة الضأن، حيث كان يجري غسل الضحايا، ومجاور إلى هذا الباب كان يقوم برج حنثيل، وهو الذي عرف أيضاً باسم برج السحاب، كما ورد في النص قوله: «ها أيام تأتي، يقول الرب، وتبنى المدينة للرب من برج حنثيل إلى باب الزاوية» [إرميا: ٣١ / ٣٨]، وهو الذي كان يعرف باسم باب بنيامين، وكان هيرود الكبير هو الذي أقام هذا البرج وسماه برج أنطونيا، وكان ذلك تشريفاً لأنطونيوس، ويقود الباب إلى جبل الزيتون، وبيت عنيا، والأردن.

وكان الباب السابع هو الباب الذهبي، ولا يقود هذا الباب مباشرة إلى المدينة، بل إلى الهيكل من خلال تقاطع قصير من جبل الزيتون، فوق

قوس قائم في وسط شعفاط.

وكان الباب الثامن هو باب الماء، وقد عرف بهذا الاسم، لأن من خلاله كان الماء ينقل من بركة سلوان، وكان هذا الباب قائماً في الزاوية التي يلتقي فيها جبل صهيون بجبل موريا. أو جبل الحشيش، عند زاوية السورين: أي سور جبل صهيون، والسور الذي يحيط ببيت الملك، ويقود (هذا الباب) إلى نبع سلوان، ووادي أبناء عنون، ونبع روجل، وحقل الدم.

ولأعتقد أن المدينة تمتلك أبواباً أخرى أكثر من هذه الأبواب، لأنه بسبب وضعها، لم تتوفر حاجة إلى المزيد من الأبواب، وبين هذه الأبواب ثلاثة هي الأكثر شهرة من البقية، وهي: الباب الأول، والباب الثالث، والباب الرابع بين الأبواب الثمانية التي تقدم ذكرها أعلاه، ومن جهة الجنوب وجهة الشمال تطل حافة جبل صهيون فوق المدينة، ومعروف أن ذلك الجزء من الأسوار، مع الأبراج ليس فيه أبواب.

ها هي مدينة الملك العظيم، التي لم تستطع جميع كنائس العالم أن تقدم شبيهاً لها، وهي التي كان فيها مضي قائماً من حول أسوارها ثلاثة وثمانون برجاً، وسبع قلاع حماية، التي خرائبها من الممكن رؤيتها بوضوح كامل في هذه الأيام في الجانب الشمالي، وفيمايلي:

ترتيب نظام الحج خلال مدينة القدس والأماكن الأخرى

التي من حولها

يوجد في الساحة، خارج كنيسة الضريح المقدس، أربع بيع، الأولى بينها موجودة على جهة اليسار، للخارج، وهي بيعة العذراء المباركة، ويوحنا الانجيلي، لأنه ها هنا وقفنا في أثناء الصلب، والبيعة الثانية هي الأقرب إلى هذه الأولى، وقد بنيت في الزاوية، وهي مكرسة لجميع الملائكة، والبيعة الثالثة قائمة على الطرف نفسه، وهي بيعة القديس

يوحنا المعمدان، والبيعة الرابعة قائمة على جهة طرف اليمين للخارج من الكنيسة، وذلك على مقربة من برج الناقوس، وهي بيعة القديسة مريم المجدلية، والبيعة الأولى هي بأيدي الهنود، أما الثانية فهي بأيدي اليعاقبة، والثالثة بأيدي الجورجيين، والرابعة بأيدي الاغريق.

وفي منتصف الطريق بين هذه البيع الأربع هناك إحدى عشرة خطوة تبعد عن الدرج إلى الجمجمة، وهناك يوجد مكان عليه علامة فوق البلاط، هو حيث استراح الرب يسوع، عندما جلب من بيت بيلاطس، وقد استراح فيه ومعه صليبه، بينما وقف الحرس من حوله.

وعلى مقربة من الساحة المفتوحة أمام الكنيسة يوجد السجن لمقتري الشرور، وبابه متجه نحو باب الكنيسة، وذلك على بعد عشرين خطوة، ويذهب الانسان من هناك باتجاه الشرق من خلال شوارع المدينة إلى قاعة محكمة بيلاطس، وينبغي أن نعرف أن المسافة من موضع الجمجمة، إلى قاعة القضاء المتقدمة الذكر هي أربعمئة وخمسين خطوة، ذلك أنني قستها بنفسي بكل عناية ممكنة، لأن المسافة هي مائتين وخمس وسبعين خطوة إلى بيت الرجل الغني الذي رفض أن يعطي الفتات إلى العازر عندما كان مريضاً، ومن هناك إلى اليسار خمس وسبعين خطوة إضافية حيث المكان الذي تلتقي فيه الطرقات الثلاثة مع بعضها، ليس بعيداً عن الباب الذي يقود إلى السامرة، وكفرناحوم، وجمالا، وفي هذا المكان نفسه أرغم سمعان القيرواني على حمل صليب المسيح، وفي هذا المكان نفسه قال الرب للنساء النائحات: «لاتبكين يا بنات القدس عليّ» الخ، وبعد أربعين خطوة أخرى نحو اليمين، وعلى مقربة من الطريق، يوجد المكان الذي وقفت فيه العذراء مريم، وهي راغبة برؤية ولدها المحبوب، الذي جلب مع حشد عظيم من بيت بيلاطس، وهو مثقل كثيراً بحمل الصليب، وكان ذاهباً للصليب عندما رآته يبصق وهو مغطى بالدم، وقد نسيت جميع مواساتها المتقدمة، وفقدت وعيها وذهبت

في غيبوبة، وسقطت شبه ميتة، وظلت مرمية حتى تم رفعها وحملها بعيداً من قبل النساء الأخريات، ويوجد في هذا المكان نفسه كنيسة بنيت على شرفها، وقد جرى تدميرها من قبل الخونة المسلمين، ومن الممكن رؤية خرائبها في هذه الأيام، وكان اسمها القديسة مريم المغمی عليها.

وعلى بعد ست وخمسين خطوة أخرى، يرى الانسان القوس المقنطر الذي يعبر الطريق، فهنا يوجد مكان البلاط، الذي اسمه جباتا، وفوقه من الممكن رؤية صخرتين بيضاويتين، عليهما وقف الرب يسوع في محكمة بيلاطس، عندما أجاب على أسئلة ذلك القاضي، وهناك يوجد المكان الذي رفع عليه علم الجنود، وتحت القنطرة المتقدمة الذكر من الممكن رؤية مكان مدرسة العذراء المباركة، حيث تعلمت أثناء طفولتها الكتابة، وعلى بعد خمس وعشرين خطوة عن هذه القنطرة توجد قاعة المحاكمة، وهناك يوجد الباب الذي دخل منه، كما يوجد باب آخر خرج منه بعد صدور الحكم عليه، وهذان البابان كلاهما مغلقان، ومبنيان بالحجارة، وماتزال الأساسات القديمة موجودة، وهذا البيت مزين بالفسيفساء، ومنحوت على شكل حلقات الاسطرلاب، وهو نحت لا يمكن رؤيته تماماً، وعلى بعد قليل خلف قاعة القضاء يوجد بيت بيلاطس، هذا ويقوم الآن أمام قاعة القضاء هناك بيت، هو في هذه الأيام بيت المحكمة لقاضي المدينة.

وعلى بعد ثلاث وثمانين خطوة إضافية على طول الشارع نفسه، وإلى الشرق من قاعة القضاء المتقدمة الذكر، وعلى جهة يدك اليمنى، يوجد الباب الأول الذي يقود إلى شارع هيكل سليمان، ويوجد ثلاثة من هذه الأبواب في هذا الشارع، موجودة على جهة الشمال، والباب الجميل هو الأقرب إلى الهيكل، وذلك نحو الغرب منه، وعلى مقربة من مشفى الدمشقيين، وليس بعيداً باتجاه جنوب هيكل سليمان [قبة الصخرة]، وفي

داخل الاطار نفسه من الأسوار، يوجد هيكل الرب (الأقصى) الذي كان فيه يجري تقديم أول الأولاد الذكور ولادة، وهناك جرى تقديم يسوع أيضاً، وقد حمله سمعان بين ذراعيه، وله سقف رصاصي، وسدة وفق طرائق المسلمين، متجهة نحو الجنوب، وعشرين نافذة على كل جانب، وهوقائم في الزاوية القصوى للمدينة باتجاه وادي سلوان، ثم ينزل الانسان من شارع قاعة القضاء، ويسير مسافة جيدة إلى اليسار، وهناك ربما يمكن رؤية بيت سمعان الفريسي، فهناك جرى إعفاء المجدليلة من ذنوبها.

ثم إذا ما استدار الانسان نحو الخلف ثانية في شارع القضاء، يجد بيت يواكيم، وذلك حيث ولدت العذراء مريم، ويوجد في هذا المكان كنيسة، هي الآن في أيدي المسلمين، وهي تبعد مسافة ثمان وستين خطوة من أول باب من أبواب هيكل سليمان، زيادة على هذا إنه على بعد أربعين خطوة طويلة بشكل مستقيم من بيت يواكيم، يوجد باب القطعان أو الوادي، وفي هذا الطريق توجد بركة الضأن، وهي قائمة على جهة اليمين نحو هيكل سليمان.

والمسافة من هذا الباب نفسه إلى القوس المقنطر فوق قدرون مائة وثلاث وستين خطوة طويلة، وعبر قدرون، كان ممدد فيما مضى شجرة، وهي الشجرة التي تألم المسيح عليها، وقد عرضت هذه الشجرة على ملكة سبأ، التي كانت ملكة الجنوب، وهي التي جاءت من أقصى أجزاء الأرض لتسمع حكمة سليمان (متى: ١٢/ ٤٢)، وحول هذا الموضوع يقرأ الانسان في سفر الملوك [الأول: ١٠/ ١ - ٢]: «وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأثت لثمتحنه بمسائل. فأثت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة»، وتحت صورة هذه الملكة يوجد نموذجاً رائداً للكنيسة، جاء من عند الأمم.

وأخيراً هناك، عبر البركة، على جهة اليسار، ونزولاً ثمان وعشرين خطوة تحت وادي شعفاط، ونزولاً أيضاً ثمان وأربعين درجة، توجد كنيسة جميلة، فيها ضريح مريم العذراء المجيدة، بطول ذراعين ممدودين وثلاثة من الأصابع الوسطى متصلة، وفيها ثمانية مصابيح مشتعلة باستمرار، والمذبح الأول، القائم إلى جانب الضريح، هو بأيدي الأرمن، والثاني، الموجود تحت القنطرة المظلمة، هو بأيدي الجورجيين، والثالث، الموجود تحت نافذة في النهاية الشرقية، هو بأيدي الاغريق، والرابع موجود في جهة الشمال، وهو بأيدي الرهبان الفرنسيين، والخامس موجود على جهة اليسار للدرجة الأولى للسلم، وهو بأيدي اليعاقبة، وينبغي أن نعرف أنه في الجهة نفسها للسلم، هناك مذبح هو بأيدي الهنود، وترقد في هذا المكان نفسه الملكة ميليساند، وهي التي أمرت ببناء هذه الكنيسة.

وعلى بعد أربع عشرة خطوة باتجاه الشرق من الباب، يوجد المدخل إلى الكهف الموجود تحت الصخور عند سفح جبل الزيتون، فهناك تعرق الرب يسوع، وهو يتألم، نقاطاً من دم، وكان ذلك لدى صلاته ثلاث مرات، وعلى مقربة من الصخرة الكبيرة، على طرف الجبل، وعلى رمية حجر قوية نحو الجنوب من مكان الأسى هذا، جلس الحواريون الثلاثة الذين وجدهم نائمين، وعلى مقربة من هذا المكان، وعلى بعد ثمان خطوات، توجد الحديقة التي اسمها حديقة الورود، وهي متجهة نحو البركة، وقائمة أمام الباب الذهبي تماماً، ففي هذه الحديقة جرى اعتقال المسيح، وهناك ضرب بطرس خادم الأمير، لأنه غالباً ما التقى بحوارييه هناك، فضلاً عن هذا لقد قيل بأن هذا هو الباب الذي عنه قال حزقيال: «هذا هو باب المقدس الخارجي المتجه للشرق، وهو مغلق، فهو قد دخل من خلاله، ولا يدخل منه إنسان لأن الرب دخل منه» [حزقيال: ٤٤/ ١ — ٢].

وتوجد جيسماني، حيث أقام الحواريون الثمانية الآخرون، وهي منخفضة نزولاً نحو الجنوب وعلى بعد رمية سهم عن الحديقة، وعلى بعد خمس وأربعين خطوة صعوداً من الحديقة هناك علامة الموضع الذي صعدت منه العذراء المباركة إلى السماء، تاركة حزامها للقديس توما الذي لم يكن مع رفاقه الحواريين، عندما جرى حمل جسد العذراء المجيدة إلى السماء.

ونصعد الآن إلى جبل الزيتون بوساطة طريق وعر يقود إلى باب القطيع، فوق الوادي وعبره، فهناك المكان الذي بكى المسيح فيه عندما رأى مدينة القدس، وذلك حسبنا نقرأ في حكاية الانجيل، ويعد هذا المكان نفسه مائتي خطوة وعشر خطوات عن المكان المتقدم الذكر، وهذا الطريق هو الذي سار الرب عليه راكباً في يوم أحد السعف، وهو الذي يفصل جبل الزيتون عن جبل الجليل، ويسير الانسان من مكان النحيب مائة خطوة وخمس وتسعين خطوة زيادة إلى المكان الذي جلب إليه الملاك جبرائيل سعة النخيل إلى العذراء المجيدة، وأخبرها سلفاً بمغادرتها لهذا العالم.

ومن هناك يترك الانسان الطريق، ويمضي صعوداً مائة خطوة وعشرين خطوة إلى اليسار صعوداً لجبل الجليل، حيث فوق ذلك الموضع ظهر المسيح للمرة الخامسة والأخيرة لحوارييه، وذلك حسبنا وعد، ويوجد هناك موضع بني فوقه بشكل جيد، حيث توفر غفران وتوبة، وقد أعطى هذا الآن إلى المدينة المقدسة، حيث يوجد هناك بيعة مستديرة، مساحتها من المحيط الخارجي ست عشر خطوة، وفي داخل هذه البيعة يمكن للانسان رؤية علامة قدم المسيح اليسرى، التي طبعها على الصخرة عندما صعد إلى السماء، ومساحتها بالطول شبر، واصبعتين ملتصقتين من الاصبع الوسطى، ويقدم المسلمون في هذه الكنيسة صلوات تقوية، ولديهم صخرة ممائلة، فضلاً عن هذا لقد كتبوا فوق

باب البيعة نفسها بخط أحمر وبأبجديتهم: «أنا باب الرحمة»، وعلى بعد خطوة واحدة من تلك البيعة، وعلى مقربة من باب مغلق في الجدار الشرقي هناك ترقد صخرة لا يمكن تحريكها، عليها جلس المسيح في صعوده، ووعظ حواريه، وعلمهم مايتعلق بالأشكال السبعة للروح القدس.

وكذلك من الجانب الجنوبي لهذه الكنيسة، وفي الخارج يوجد طريق نازل طوله ثماني عشرة خطوة إلى بيعة، فيها ثابت القديسة بلجيا واعتكفت، وفيها ترقد مدفونة، مع صخرة عظيمة موضوعة فوق ضريحها المرتفع.

فضلاً عن هذا، على بعد خمسة أثمان الميل عن جبل الزيتون، باتجاه الأردن، أو باتجاه الشرق، من الممكن رؤية مكان منعزل، قرب الوادي الذي اسمه بيت فاجي (بيت الفك)، فمن هذا المكان بعث المسيح جيمس ويوحنا ليجلبا له أتاناً وفلوها، وهذا المكان موجود على منتصف الطريق من جبل الزيتون إلى بيت عنيا، وإذا ما استدار الانسان نحو الخلف إلى جبل الزيتون، فإنه يسير على طول الطريق الذي يفصل ذلك الجبل عن جبل العدوان، القائم على جهة اليسار نحو وادي جيحون، ففوق هذا الجبل نصب سليمان صنم مولوك وتعبد.

وعلى بعد عشرين خطوة من بيعة القديسة بلجيا المتقدمة الذكر، يوجد المكان الذي وضع فيه الحواريون معاً واحداً تلو الآخر بنود العقيدة الاثني عشر، وفي هذا المكان من الممكن رؤية خرائب كنيسة القديس مرقص، وعلى بعد عشر خطوات أكثر نحو المدينة، هناك ممدد فوق الأرض صخرة كبيرة، عليها وعظ المسيح حواريه وعلمهم حول السعادات القصوى الثمانية، وأيضاً على بعد اثنتين وعشرين خطوة نزولاً يوجد المكان المحدد، الذي علم عليه الرب يسوع حواريه الصلاة، كما نقرأ في متى: ٦، وانتبه إلى الحجر المحفور عليه بأحرف عبرية، الذي

وضعه المسلمون على عتبة الباب، وإذا ما نزل الانسان اثنتي عشرة خطوة أخرى، يأتي إلى المكان الذي غالباً ما أراحت مريم العذراء المباركة نفسها فوقه، عندما كانت تشعر بالتعب أثناء زياراتها التعبدية اليومية.

وينزل الانسان بعد هذا إلى اليسار، نحو وادي سلوان، فيرى الكنيسة الصغيرة العائدة للصليب المقدس، التي فيها ثلاثة مذابح، وعلى مقربة منها، وعلى بعد ست عشرة خطوة باتجاه الجنوب، يوجد مقر سكنى يهوذا الاسخريوطي، والمكان الذي شق نفسه فيه، وتحت الصخور قرب المدينة، وعلى بعد رمية سهم عن الكنيسة الصغيرة المتقدمة الذكر، يوجد ضريح زكريا، الذي قتل فيما بين الهيكل والمذبح، وملاصق لذلك المكان توجد بيعة يوجد فيها كوة في الجدار لها شكل تنور، فيها أخفى جيمس الأصغر نفسه لخوفه أثناء آلام المسيح وموته، وقد ظل فيها حتى ظهر الرب له.

ومن هذه البيعة هناك طريق إلى نوع من المساكن منحوت في الصخرة التي فوقه، حيث قيل هنا كان بيت الحوارين المباركين: فيليب وجيمس، وعلى بعد خطوتين إضافيتين، فوق في مواجهة زاوية سور المدينة، من الممكن أن نرى بناء مدهشاً حقاً، بدون باب، على شكل بيعة مربعة، وقد قال بعضهم عن هذا البناء بأنه قبر الملك شعفاط، الذي منه نال الوادي اسمه، وأعلن بعضهم الآخر بأنه ضريح ابنة فرعون التي أحبها سليمان بوله، وذكر بعضهم أيضاً بأنه قبر أبسالوم بن داوود.

واعرف أنه من القنطرة الثانية للجسور القائمة فوق وادي قدرون عند هذا المكان، يوجد ستائة خطوة طويلة وخمس عشر خطوة طويلة، إلى الدرجة الأولى للسلم الذي يقود صعوداً إلى الكنيسة على جبل الزيتون، وعدد درجات هذا السلم عشرين درجة، وقد أضفت هذا حتى يمكنني إظهار الجبل المتقدم الذكر، وفي هذا المكان نفسه تحت

الصخور عند سفح جبل الزيتون يسكن هناك فلاحون ورعاة.

ثم ينزل الانسان بعد هذا إلى قعر مجرى الماء المتجه جنوباً إلى البئر الذي يقال بأن مريم العذراء المباركة قد استحمت بمياهه وغسلت قطع قماش القماط العائدة للرب الرضيع، ويفصل هذا النبع وادي شعفاط عن وادي سلوان، فعلى بعد مائتين وخمس وخمسين خطوة إلى الجنوب من هذا النبع، وعند سفح جبل صهيون، يوجد نبع سلوان، الذي منه تتجمع المياه في البركة السفلى، التي تعرف باسم بركة سلوان للاغتسال، التي عندها جرى شفاء الرجل الذي ولد أعمى، وذلك حسب رواية يوحنا، وعلى بعد رميتي حجر من هذا الجبل نفسه، يمكن للانسان أن يرى كومة من الحجارة، ففي ذلك المكان جرى دفن إشعيا، وهناك أيضاً جرى قتله.

ثم يصعد الانسان إلى جبل مرتفع باتجاه الجنوب، حيث يوجد على جانبه كثيراً من الكهوف والأقبية، فيها أخفى الحواريون أنفسهم في أيام آلام المسيح، وهي التي اعتاد فيها بعد أن يسكن فيها النساك المسيحيون، وعلى بعد ثلاثين خطوة فوق هذه الكهوف يوجد الحقل الذي اسمه أكلدما (حقل الدم)، الذي شري مقابل الثلاثين قطعة فضية، وله تسع فتحات من خلالها يجري رمي جثث الموتى.

ويوجد فيما بين بركة سلوان وحقل الدم، جدول قدرون الذي يستجر مياهه من الأجزاء العليا للمدينة ومن الجبال، وفي الحقيقة هناك قرب رامما وعناتا طريق طويل من ضريح العذراء المباركة، يمكن للانسان أن يسمع نواحها تحت الأرض، ويمضي الانسان نزولاً تحت جبل العدوان إلى وادي جيحون أو توفت، حيث يوجد فيه صخرة زوخل، وبئر روجل، وذلك حيث ضحى أدوناي بقرابينه، ويوجد في هذا المكان حقول خصبة، لأن هذه المياه تمر خلالهم، وعندما يكون الانسان قد رأى هذه الأشياء كلها، لابد من عودته نحو المدينة عبر

الطريق نفسه الذي جئنا عليه، وذلك حتى بيعه القديس جيمس الأصغر، التي هي إلى جانب القوس المقنطر فوق قدرون، الذي أتينا على ذكره من قبل، عندما كنا قادمين نزولاً من جبل الزيتون.

والآن يوجد من هذا القوس إلى بيت كيفاس، الموجود على قمة جبل صهيون، سبعمائة وثلاثين خطوة، وفي الصعود إلى أعلى، يمكن للانسان أن يأتي أولاً إلى مكان من الممكن أن يشاهد فيه باب مغلق، منه مرت العذراء المباركة عندما قدمت يسوعاً في الهيكل، ولدى الذهاب صعوداً من هناك، باتجاه الغرب، يصل الانسان إلى المكان الذي اسمه «صياح الديك»، حيث بكى بطرس، وهو يبعد مائة وسبع وثمانين خطوة من بيت كيفاس، ويمضي الانسان صعوداً من المكان المتقدم الذكر، ويسير ثمانين خطوة باتجاه الغرب، وعلى مقربة من باب شارع اليهود، وهو الباب الذي يتطلع إلى خارج المدينة باتجاه الغرب، هناك مكان معلوم، عنده احتشد اليهود وتآمروا ليقوموا بخرق حرمة جسد العذراء المجيدة، عندما كانت محمولة من قبل الحواريين من أجل الدفن.

ويوجد على بعد ست وسبعين خطوة من الباب المتقدم الذكر شارع كنيس اليهود، وهو يمتد لمسافة مائتين وسبع وثلاثين خطوة، أي حتى المدخل إلى الشوارع المسقوفة، ومن هذا المدخل هناك ثلاث وتسعين خطوة حتى برج داوود، ومع أنه كان فيما مضى حي اليهود فإن أعداد كبيرة من المسلمين هي التي تسكن هناك، وفي الشارع التالي لهذا الشارع، يوجد البيت الذي ربط فيه القديس بطرس بالسلاسل، ومكان سجنه هو الآن فرن خباز، وفي هذا الشارع نفسه هناك باب صغير متجه نحو الجنوب، اسمه بلغتهم خرم الابرة، وبناء عليه قال الرب: «إنه أسهل للجمل أن يدخل من خرم الإبرة» الخ، ومن المكان المتقدم الذكر الذي جرت فيه محاولة السرقة العنيفة (جسد العذراء) إلى المكان الذي توفيت فيه مائة وثلاثين خطوة، حيث توليت تعدادها بقدر ما استطعت

من دقة، وعلى كل حال، أول ما يراه الانسان هو بيت عناس، الذي كان الكاهن الأعلى، حيث توجد كنيسة جميلة بما فيه الكفاية هي للأرمن، وهي مزينة بأضواء ومصاييح، وفيها أربعة أعمدة مستديرة، وعلى بعد رميتي حجر نحو الأعلى يوجد بيت كيفاس، وهو قائم على قمة الجبل، وكما تقدم الذكر، فيه الآن كنيسة صغيرة اسمها بيعة القديس المخلص، وهي جديرة بهذه التسمية، لأنه قد وضع فوق مذبح هذه البيعة الصخرة الكبيرة، التي كان فم ضريح المسيح مغطى بها، فضلاً عن هذا، يوجد خلف المذبح وفوقه، صورة تمثل تغيير الهيئة، وفي هذا المكان نفسه، على مقربة من المذبح، وعلى جهة اليد اليمنى، يوجد سجن المسيح، الذي حبس فيه حتى اجتمع اليهود، وتشاوروا، وأسمعوه الادعاء ضده، وهذه البيعة هي أيضاً بأيدي المسيحيين الأرمن.

ويوجد أيضاً على الجبل نفسه نحو شارع (?) المكان الذي دفن فيه القديس اسطفان للمرة الثانية، وأيضاً على بعد اثنتين وعشرين خطوة إلى الجنوب خلف سدة (كنيسة جبل صهيون) مكان المطبخ، حيث جرى إعداد خروف العشاء الأخير للأكل، وحيث أيضاً جرى تسخين الماء من أجل غسل أقدام الحواريين، وأيضاً إلى المكان نفسه، الذي هو الآن بيت للسكن، أرسلت روح القدس وأنزلت على الحواريين، وهناك أيضاً جرى دفن داوود وسليمان وعدد كبير آخر من ملوك القدس، ويوجد أيضاً في أرض مقبرة هذه الكنيسة نفسها، مكان معلم، هو المكان الذي وعظ فيه الرب يسوع نفسه في يوم صعوده ووجه اللوم لحماقة حواريه، وأرسلهم إلى جميع أنحاء العالم، غير أنه ذهب معهم أولاً إلى جبل الزيتون وبعدها منحهم مباركتته صعد إلى السماء.

وعلى بعد اثني عشر قدماً من هذه الصخرة المكتوب عليها، هناك صخرة أخرى مثبتة في الأرض، فوق المكان الذي جلست فيه العذراء

مريم، وأصغت إلى موعظة ابنها، وأيضاً على بعد خمس خطوات من هناك يوجد المكان الذي قام فيه بيتهاء، الذي سكنت فيه بعد صعود ابنها، وأيضاً على بعد ثلاث عشرة خطوة عن هناك، وفي هذا المكان الذي انتخب فيه القديس متى من قبل جميع الحواريين، وكان ذلك في اليوم التالي للصعود، وفي المكان نفسه جرى انتخاب السبعة الشمامسة، الذين جرى بحق تعيينهم لخدمة الأرامل، وبين هؤلاء الشمامسة كان اسطفان هو الأول، وفي هذا المكان نفسه جرى انتخاب القديس جيمس الأصغر من قبل الحواريين ليكون أول أسقف للقدس، وعلى بعد عشر خطوات أكثر هناك مكان التعبد، وذلك حيث غادرت العذراء المجيدة من هذا العالم، وعلى بعد ثمان خطوات أكثر باتجاه بيت كيفاس، يوجد مكان فيه بيعة.

ومعنى اسم جبل صهيون هو «برج المراقبة»، ولاحظ أن البتراء التي هي في الصحراء، أي في العربية، يمكن مراقبتها ورؤيتها من ذلك الجبل، فقد رأيت من هناك نهر الأردن يدخل إلى البحر الميت، لكن ذلك كان في الصباح الباكر، لأنه عندما تصعد الشمس إلى قمة السماء، يبات من غير الممكن رؤية مجراه، والآن في كنيسة جبل صهيون، حيث يقف النجم العالي، في هذا المكان بالذات تعشى المسيح مع حوارييه، وأعطاهم جسده ودمه، ولهذا السبب أطلق عليها من قبل المسيح، اسم قاعة العشاء الكبير، وأيضاً هناك مذبح آخر قائم في الزاوية على جهة اليمين، في المكان الذي غسل فيه أقدام حوارييه في الليلة نفسها، وأيضاً يوجد خلف المذبح العالي، في الجهة الخارجية فوق، المكان الذي أرسلت إليه الروح القدس، المظمنة، وكان ذلك في يوم عيد الحصاد، وذلك حسبما تقدم الوعد للحواريين، ومباشرة تحت هذا البناء، في قبو طوله سبع خطوات، وله نافذتين صغيرتين في الجهة الشرقية، مدفون داوود وابنه سليمان، ومثل هذا هناك في الطابق السفلي للدير، بيعة قائمة فوق

المكان الذي أدخل فيه القديس توما يده في جنب المسيح، وكان ذلك بهدف تقوية إيمانه وتمتينه.

واقْتيد حَجْنا من هذا المكان باتجاه برج داوود، الذي يبعد ثلاثمائة وثمانين خطوة عن قبره، إنما ونَحْن على طريقنا وصلنا أولاً إلى كنيسة الأرمن، وهذه الكنيسة مستديرة، ولها أسوار قوية، وأقبية على درجة عالية من الحصانة، ولها أربعة أعمدة مربعة في الوسط، وليس فيها نوافذ، سوى نافذة واحدة مزججة في الذروة، غير أن فيها ثلاثمائة مصباح أو أكثر، وفي الحقيقة كان في أيامي مائة وعشرين مصباحاً مشتعلة بالعادة، وموجودة في شمعدان واحد، وأنا لم أشاهد قط ولم أسمع بمثل هذه التقوى العظيمة بين الناس.

ويوجد على جهة اليسار من المدخل المكان الذي جرى إعدام القديس جيمس الأكبر فيه، فهذا المكان من الممكن رؤيته، وهو يبعد مائتين واثنين وعشرين خطوة عن المكان الذي أقام فيه أخوه يوحنا قداساً، وأيضاً في حدود رمية حجر عن البرج المتقدم الذكر، يوجد المكان الذي قابلت فيه مريم المجدلية، العذراء، وأعطتها بشائر بأن ابنها حي، وقد قام من الموت، وهنا أيضاً ظهر المسيح إلى المريبات الثلاث قائلاً: «التحية لكن جميعاً».

ويوجد في شارع أسقف القدس، بيت القديس زكريا، الذي هو بأيدي الجورجيين، وفي الداخل هناك بيعة جميلة مكرسة للقديس يوحنا المعمدان، وقبل المدخل إلى البيت هناك قبو من الحجر القاتم، وهو بناء قديم جداً في منتصف الطريق، على طول الشارع القائم فيما بين الضريح المقدس وبين برج داوود، ثم يلي ذلك البيت الذي جرى فيه إكرام الملوك الثلاثة، وانتبه إلى الباب، فهو الذي لم تستطع القديسة مريم المصرية الدخول منه، عندما كانت مثقلة بحمل ذنوبها، وهو الباب الذي من الممكن رؤيته في الشارع الذي يقود إلى عمواس، وفيما يلي:

الحج من مدينة القدس نحو الشرق إلى بيت عنيا

أما وقد فرغنا من رؤية الأماكن القريبة، علينا الآن أن نعبّر إلى الأماكن التي هي أبعد، فبذلك سوف تتضاعف مشاعرنا التقوية، وأول شيء يعبر الإنسان إليه هو إلى بيت عنيا، التي تبعد عن القدس مسافة نصف ميل ألماني — أي حوالي الخمسة عشر فرلنغ (يوحنا: ١١/١٨) — حيث من الممكن أن يشاهد تحت القلعة ضريح العازر، الذي أقيم من الموت من قبل المسيح، وقد كان هنا فيما مضى كنيسة كبيرة، من الممكن رؤية أعمدها قائمة حتى هذا اليوم، وتحت قبو مظلم، على بعد عشر خطوات عن ذلك الضريح، يوجد المذبح، فهنا في هذا المكان وقف المسيح عندما دعاه للخروج من القبر، وأيضاً في الخارج، قرب هذا المكان، لكن أعلى، يوجد بيت سمعان المجدوم، الذي فيه صهر يمين، فهناك صبت المجدلية الدهن العطري على رأس المسيح، وهو جالس لتناول الطعام، وهو الأمر الذي أغضب يهوذا، وقبل ستة أيام من عيد الفصح تعشى يسوع في بيت عنيا، حيث تولت مرثا خدمته، في حين كانت أمها واحدة من الذين جلسوا إلى المائدة، ولهذا جاء حشد كبير من الرعاع اليهود إلى هناك، راغبين بقتل العازر أيضاً [يوحنا: ١٢/٩] — [١٠].

وعلى ست رميات سهم من بيت عنيا، من الممكن أن يشاهد في حقل هناك صخرة عظيمة، عليها كان الرب جالساً عندما قابلته مرثا وقالت له: «ياسيد لو كنت هنا» الخ، وعلى بعد رمية حجر من تلك الصخرة، وعلى رمية سهم من هناك، على جهة اليمين، عند انحدار الهضبة، وباتجاه نحو الجنوب، كان هناك بيت المجدلية، الذي تقوم فوق موقعه كنيسة مهدمة، تحولت الآن إلى حظيرة للماعز، وغالباً ما جرت استضافة الرب يسوع وإطعامه في هذين البيتين، ويوجد على الطرفين واد منحدر، وهو على الجهة اليسرى أكثر الجانبين عمقاً، وفيه يوجد الطريق الذي

عبره الرب، عندما قدم من أريحا صاعداً في طريقه إلى القدس، ويأتي فييايلي:

الحج من القدس إلى بيت لحم

أول ما يراه الانسان هو بيت سمعان، قرب القدس، على جهة اليمين، بين الكروم، فيما وراء الطريق إلى عين كارم، ويوجد إلى اليسار، على رابية قرب جبل صهيون، بناء على شكل قلعة، يعرف باسم بيت الاجتماع الشيطاني، فالإلى هذا الاجتماع ذهب يهوذا ليقترف خيانتة، وليصنع اتفاقاً من أجل تسليم المسيح، وكان يوجد في هذا المكان كنيسة جميلة مكرسة للقديس سبيريان، وبعد مسافة لا بأس بها خلف هذا المكان، يصل الانسان إلى بئر، ففي هذا المكان أشع النجم الضائع مرة ثانية على الملوك الثلاثة، وعلى شرفه قامت فيما مضى هناك كنيسة جميلة، ما يزال بلاطها موجوداً ويمكن الوصول إليه، وبعيداً عن الطريق، وفوق رابية موجودة على جهة اليمين، توجد كنيسة القديس جرجس، وبعد هذا يوجد على جهة اليسار، وليس بعيداً عن الطريق، بناء طويل، وكنيسة جميلة، هي ملك للاغريق، ويوجد بئر قرب جدارها الجنوبي.

وولد في هذا البناء الياس، وسكن فيه أثناء حياته، وهو قائم في منتصف الطريق، على طول الطريق فيما بين المدينتين المتقدمتي الذكر، وذلك على بعد ميل ألماني واحد عن كل منهما، وفي أيام إلياس انغلقت السموات لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر، وفيما بين القدس، وبيت لحم — أو إفراتا — يوجد جبل قابيل الذي عليه مسح قابيل وتوج، وفوقه بنيت كنيسة القديس سبيريان، كما تقدم الذكر، وبعد ذلك، على مقربة من الطريق هناك آثار برج عظيم، وذلك حيث تصارع يعقوب مع الملاك (التكوين: ٣٢)، وبعد هذا، يوجد على جهة اليمين، على مقربة من الطريق الذي يقود إلى حبرون، قبر زوجته راحيل، وهو قد بني

مؤخراً من قبل المسلمين، وهو متجه نحو الجنوب، حيث هناك مقبرة، ويعرف هذا المكان باسم قبة راحيل، وليس بعيداً عن ها هنا يأتي الانسان إلى الحقل الذي تحول بذار الفول أو البقية فيه إلى حجارة بإرادة من الرب، وهذه الحجارة بحجم وتعداد الفول.

وكان في بيت لحم، على الجانب الغربي كنيسة القديسين كوزماس ودامين، ويوجد على جهة يمين الداخل إلى الكنيسة الكبرى على مقربة من السدة، مذبح هو بمثابة علامة على المكان الذي قتل فيه عدد كبير من الأبرياء، وفي هذا المكان نفسه جرى ختن الرب يسوع، وقرب بئر موجود على الجانب الأيسر هناك، يوجد مذبح، وهو حيث المكان الذي أعد فيه الحكماء أنفسهم بشكل رائع، من أجل تقديم الهدايا إلى الملك الحديث الولادة، ويقال بأن النجم اختفى في ذلك البئر.

ثم ينزل الانسان ست عشرة درجة إلى بيعة تحت السدة، فهناك المكان الذي ولد فيه مخلص العالم، ويوجد في هذا المكان نفسه، على يسار الداخل، هناك مذبح، وعلى بعد سبعة أقدام وثلاث خطوات من هذا المذبح، تحت الصخرة، يوجد المكان الذي مدد فيه الطفل الوليد في المعلق، وقد عبد هناك من قبل الرعيان، واعرف بأن طول هذه الكنيسة هي ست وثلاثين خطوة في الداخل، وعرضها ثمان عشر خطوة، وفيها أربعة صفوف من الأعمدة الرخامية، وفي كل واحد من هذه الصفوف اثني عشر عموداً، بين الواحد والآخر سبعة أقدام، وهي ممتدة حتى السدة، وهي مزدهمة بكل نوع من أنواع الزينة على كل من البلاط والجدران، وهي مغطاة بسقف رصاصي، وفيها نسب المسيح مطبوع بالفسيفساء في الأعلى، على الجانب الأيمن للداخل إليها، وبابها المزدوج هو من خشب السرو، وهو محفور بمختلف الأشكال، وكانت أطراف جدرانها مغطاة بألواح الرخام، وقد انتزعت وأخذت من قبل المسلمين الخونة، وحدث في هذه الكنيسة معجزة جديرة بالتسجيل، حيث قيل بأن

واحداً من السلاطين، عندما رأى كسوتها الرائعة، فكر بانتزاعها وأخذها، ليكسوها أو يزين قصره في القاهرة، وهكذا عندما حل اليوم الذي حدده مع الحجارين والنحاتين، قاصداً إلى نزع تلك الحجارة الجميلة، ظهر فجأة ثعبان له حجم مخيف، وخرج يزحف من خلال الألواح الحجرية، وعبر من خلال وسط هذه الألواح، ومن الممكن رؤية آثار زحفه على الجدار حتى هذا اليوم، فهذا ما رأيته بنفسى، فقد وصل ذلك حتى مذبح الملوك الثلاثة الموجود قرب الجدار المتقدم الذكر، وعندما رأى السلطان هذا، امتلاً رعباً، وغادر ذاهباً في سبيله، ومن الصحن الداخلي لهذا الدير في الجهة الشمالية، ينزل الانسان تسع عشرة درجة، إلى البيعة التي اسمها مقر دراسة القديس جيروم، حيث عمل لمدة خمس وخمسين سنة وستة أشهر في ترجمة النصوص المقدسة، وفي ذلك الجوار، على بعد ثلاث خطوات، وفي خلال الجدار، في داخل زاوية مظلمة قرب المذبح، تحت المعلق، يوجد القبر الذي دفن فيه أولاً، لكن عندما انتقلت البلاد إلى أيدي الخونة، ولم تعد القدس تعرف من يدافع عنها، نقلت عظامه المقدسة وعظام عدد كبير آخر من القديسين إلى روما، فضلاً عن هذا يوجد على جهة اليسار كهوف متجاورة تحت صخور مطلة، فيها جرى رمي عدد كبير من أجساد الأبرياء، وأخفيت فيها.

وطول الطريق من القدس إلى بيت لحم هو فرسخين، أي ما يعادل ميلاً ألمانياً واحداً، وعلى طول هذا الطريق حدثت أحداث إعجازية كثيرة، من ذلك: أن إبراهيم وزوجته عبرا معاً هذا الطريق عندما قدما من بلاد الكلدان، ومشى لوط وزوجته على هذا الطريق عندما قدما من بلدان ما وراء الجبال، وغالباً ما عبر عليه البطريك يعقوب وزوجته راحيل، وذهبت مريم العذراء المباركة عندما كانت حاملاً، إلى هناك، وعادت عبر هذا الطريق، وعليه استراحت عندما كانت متعبة، وأيضاً

سار الملوك الثلاثة على هذا الطريق نفسه، عندما استهدفوا الوصول إلى الطفل يسوع، وكذلك فعل الإشع وإيليا وعدد كبير آخر من الأنبياء عندما ذهبوا إلى المدينة المقدسة، فهم جميعاً ساروا عبر هذا الطريق، وكذلك فإن العذراء المباركة في رحلتها إلى مصر ثم عودتها من هناك، قد سارت على هذا الطريق مع يوسف.

وعلى رمية حجر من بيت لحم، وذلك باتجاه الشمال، كانت هناك كنيسة، فيها جرى دفن باولا ويوستوخيوم، واسم هذه الكنيسة، كنيسة القديس نيقولا، وأقامت هناك مريم مع الطفل ويوسف في أول ليلة من ليالي الهروب إلى مصر، وانتبه إلى الحليب الذي انصب هناك، ويحتاج الآن الطريق فيما بين بيت لحم والقدس إلى ثلاث ساعات لعبوره، وأيضاً على بعد ربع ميل من بيت لحم، نزولاً إلى الوادي الذي يقود إلى البحر الميت، كان هناك فيما مضى بناء جميلاً مع كنيسة، كان اسمها كنيسة الرعاة، لأنه إلى ذلك المكان جلب الملاك إلى الرعاة بشائر لها بهجة عظيمة، وطلب منهم الذهاب إلى بيت لحم، حيث نظر كل واحد منهم إلى ظهر الآخر، وقال كل واحد منهم للآخر بأن صوت الملاك كان مجرد وهم وضياع، وبدأوا يعودون إلى قطيعهم، ثم جاء الملاك إليهم مرة ثانية، وأرغمهم على إكمال الرحلة التي بدأوها، ويقوم في هذا المكان نفسه كنيسة فيها مذبح واحد، ويقول بعضهم بأن العذراء المباركة قد توقفت خارج الطريق الذي يقود إلى مصر، ولكن الرواية الأولى تتماشى أكثر مع الحقيقة، فضلاً عن هذا، يوجد على بعد فرسخين إلى الجنوب من بيت لحم، قبوراً لاثنين عشر نبياً. وبلي هذا:

الحج من بيت لحم إلى وادي حبرون

يشاهد على الطريق من بيت لحم إلى وادي حبرون، المكان الذي رأى فيه إبراهيم الملائكة الثلاثة، وعبد واحداً منهم هو (الرب)، ويرى الإنسان في الكنيسة في حبرون كثيراً من الفتحات المزدوجة في الصخر،

وتعرف إحدى هذه الفتحات باسم الكهف المزدوج، فيه جرى دفن: آدم، وإبراهيم، واسحق، ويعقوب، وزوجاتهم: حواء، وسارة، ورفقة، وليا، وليس بعيداً عن المدينة يوجد حقل دمشق، الذي منه خُلق آدم وحواء، ويلى هذا:

الحج من حبرون إلى القدس

يذهب الانسان من حبرون إلى القدس من خلال المنطقة التالية لليهودية، حيث من الممكن له أن يرى بيت زكريا، الذي فيه زارت العذراء المباركة إيزابل، ويوجد في هذا المكان كنيستين بنيت إحداهما فوق الأخرى، غير أن الكنيسة العليا قد جرى تدميرها، ويرى الانسان في الكنيسة التحتا فجوة في الصخر، وذلك على جهة اليمين للداخل إليها، فهذا هو المكان الذي أخفي فيه الطفل يوحنا خوفاً من الملك هيرود عندما كان يقتل الأطفال، وعندما ينزل الانسان قليلاً من هناك، يشاهد النبع الذي تفجر على مقربة من الطريق على جهة اليد اليمنى، قالى جانب هناك جلست العذراء مريم وأراحت نفسها، لكونها كانت متعبة من رحلتها وكان ذلك عندما ذهبت لزيارة قريبتها، التي من المعتقد أنها التقت بها في هذا المكان وقالت: «من أين لي هذا أن تأتي أم ربّي إليّ» [لوقا: ١/ ٤٣]، وهنا أيضاً عملت أم الرب أغنية «تعظم نفسي الرب» [لوقا: ١/ ٤٧] الخ.

وبعد هذا ينعطف الانسان خارجاً عن الطريق إلى جهة اليد اليسرى، إلى رابية، كان عليها فيما مضى كنيسة جميلة، هي الآن ملوثة بالفضلات ومليئة بروث البغال، ولايستطيع أحد من الحجاج دخول هذه الكنيسة دون دفع للمال، فهذا هنا كان يوحنا المعمدان ابن زكريا قد ولد، وهو الذي قال: «تبارك الله ربّي» الخ، ومن هناك يذهب الانسان إلى كنيسة أخرى جيدة التزيين، هي ملك للجورجيين، واسمها كنيسة القديس الصليب، لأن شجرة صليب المسيح، قامت هناك ونمت، والحفرة التي

فيها قامت من الممكن مشاهدتها في هذه الأيام تحت المذبح، وبعد هذا، وعلى مقربة من الطريق الذي يقود إلى غزة، من الممكن رؤية الماء الذي جرى به تعميد الخصي فيليب (أعمال: ٨).

تقسيمات الأرض المقدسة

قسمت البلاد التي عرفت باسم الأرض المقدسة كلها حصصاً بين أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وبالنسبة للجزء الذي عرف باسم مملكة يهوذا، كان هو أرض سبطي: يهوذا وبنيامين، أما بالنسبة للجزء الآخر فقد عرف باسم مملكة السامرة، التي كانت عاصمتها مدينة السامرة، التي تعرف أيضاً باسم سبسطية، وكانت عاصمة الأسباط الآخرين العشرة، وهو الجزء الذي عرف باسم إسرائيل، وهاتين المملكتين معا مع بلاد الفلسطينيين، قد عرفت باسم فلسطين، التي هي مجرد جزء من [الأرض المقدسة]، مثلما سكسوني واللورين جزئين من ألمانيا، ولومبارديا وتوسكانيا جزئين من إيطاليا، واعرف أن هناك ثلاث فلسطينيات، ففي فلسطين الأولى العاصمة هي القدس، وهي تشمل جميع المنطقة التلية حتى البحر الميت، وإلى قادش القفار، وفلسطين الثانية هي التي عاصمتها مدينة قيسارية القائمة على شاطئ البحر، وفيها جميع أراضي الفلسطينيين شروعاً من بترانثيسا، وامتداداً حتى غزة، فهي الأرض المقدسة المتجهة نحو الجنوب، وفلسطين الثالثة هي التي عاصمتها بيسان، القائمة عند جبل جلبوع، وهذه هي المدينة التي عرفت من قبل باسم سقيثوبولس، وهي المكان الذي جرى فيه شق أجساد جنود شاؤول.

والأصح أن تدعى فلسطين هذه باسم الجليل، ويوجد فيها مرج ابن عامر، الذي يبدأ عند نهر الأردن الأصغر، وهو الذي تمتد حدوده الجنوبية حتى جنين، وهي بلدة مهدمة، موجودة في المربع ٣٧، فوق رابية، وقد رسمتها على هذه الخريطة باللون الأخضر، وهي عائدة

للسامرة، وتبدأ السامرة عند جينين المتقدمة الذكر، وتمتد حتى نهر الأردن، وإلى مخمش Michmash في المربع ٥٣، المتصل باليهودية، وقد رسمت اليهودية ومنطقتها التلية باللون الأصفر، وتبدأ جليل الأمم المتقدمة الذكر عند الأردن الأصغر، وتمتد شمالاً حتى جبل لبنان، ثم هناك المدن العشرة، التي حدودها في الشرق بحر الجليل، وصيداً في الغرب، ودمشق في الشمال، وفي داخل هذه الحدود هناك عشرة مدن، وصدوراً عن هذا الواقع عرفت هذه المنطقة باسم المدن العشرة، وهذه المدن هي: طبرية، وبيسان، وقناتا، وصفد، وقادش نفتليم، وأرسوف، وقيسارية فيليب (بانياس) وكفرناحوم، وبيت صيدا، وكورزيم، وهناك على كل حال مدناً أكثر في هذه المنطقة، حسبما عرضناهن أعلاه، وقد تجول الرب يسوع خلال جميع هذه المدن والقللاع، يعلم في كنسها «ويكرز ببشارة الملكوت» [متى: ٢٣/٤].

وطول أرض الميعاد الممتدة من دان الموجودة عند سفح جبل لبنان في الشمال، إلى بير السبع في الجنوب قرب قفار مصر، هي اثنين وأربعين ميلاً ألمانيا، أو مائتين وعشرة أميال إيطالية، في حين أن عرضها من البحر في الغرب، إلى أطراف جبال العربية هي أربعة عشر ميلاً كبيراً، أو سبعين ميلاً إيطالياً، وعلى هذا الأساس، جميع الأرض المقدسة مقسمة إلى ثمانية وعشرين فراغاً عرضانياً، وذلك بمدّ خطوط عبرها، أي فوق الخطوط من الغرب إلى الشرق، والآن يوجد في الفراغ الثاني، والمربع الثاني عشر بصرى، في بلاد بوسترون، التي ورد ذكرها في إشعيا ٦٢ (كذا)، ويقود الطريق من خلال مدينة جدر، في المربع ٢٣، إلى آرام، وبلاد الرافدين، وهمام Hammam (همدان)، وهيركانيا Hyrcania وبحر الخزر، وعبر هذا الطريق، إعتادت هذه الشعوب على الاجتماع في كل سنة على سهل نبع فيالي Phiale، حيث كانوا يعقدون سوقاً طوال شهر أيار، وينصبون خياماً ذوات ألوان متعددة في مدينة جدر،

فوق الجبل، مما يجعل المشهد جميلاً، وجاء ذكر هؤلاء في نشيد انشاد سليمان قوله: «كخيّام قيدار» [نشيد الانشاد: ٥ / ١]، وأطلق يوسف يوس فيوس على هذه المدينة اسم جمالا، لأن الجبل القائمة عليه له شكل الجمل.

وفي المربع ٢٤ (٥٣) في الجبال القائمة نحو الشرق توجد ايريبولس Areopolis [الصفورية؟] التي عرفت فيما مضى باسم أرور (Aroer)، وكانت عاصمة العربية الثانية، حيث أنها تبعد رحلة أربعة أيام عن البتراء في الصحراء، وفي البتراء هذه قال اشعيا: «أرسل يارب الحمل من البتراء في القفار إلى جبل ابنة صهيون» (إشعيا: ١٦ / ١)، فعلى هذا الجبل رأى يوحنا الخروف واقفاً [رؤيا يوحنا: ١٤ / ١]، وفي البتراء هذه جرى بناء قلعة حصينة لاترام، وكان اسمها الكرك، فيها يودع السلطان كنوز شبه جزيرة العرب ومصر، وفي منتصف الطريق بين البتراء وايريبولس يوجد جدول سورق Sorec، وجبل عبريم حيث دفن موسى من قبل الملائكة.

وعلى بعد سفر ثلاثة أيام نحو الجنوب من البتراء، يوجد جبل سعين، الذي حدوده موجودة على قفار فاران، التي تعرف باسم بلاد العربية حتى البحر الأحمر، واعرف انه عند طرف جبال العربية الأولى، في أحواز جبل سنير، تبدأ بلاد عوز، التي تعرف أيضاً باسم منطقة الطرخونية، وتمتد حتى جدر وبحر الجليل، لأنها مشكلة جزئياً من قبل منطقة المدن العشرة، ومثل هذا كانت مملكة عوج ملك بيسان، تمتد من طرف جبال العربية الثانية حتى الأردن، ووقعت هذه المنطقة في حصة سبط جاد امتداداً حتى جدول ييوق، وقد رسمت هذه المملكة باللون الأصفر حتى أميزها عن الممالك الأخرى، وكل البلدان القريبة من هذه المملكة جعلتها باللون الأبيض، وهي تعرف باسم بيت عينا، وذلك حيث تعمد يوحنا، وهي قد كانت مملكة سيحون، ملك حشبون، وقد

كانت في حصّة سبط اسكار، ويوجد فيما بين جدول عرنون وسورق، سهل منطقة مآب، وهناك من الممكن رؤية المكان الذي تحادث فيه بلعام مع أتان، وهناك جرى تصنيف سفر الثنية، هذا وإن المنطقة الواقعة خلف جدول سورق نحو الجنوب، هي التي تعرف باسم بلاد مآب وعمون حسبما تقدم الذكر.

واعرف أن هناك ثلاثة مدن إلّتجاء فيما وراء الأردن، أولاها تحت المربع ٢٣، قرب المنطقة التلية التابعة للعربية والتي اسمها الجولان، والثانية تحت المربع ٣٧، واسمها راموث جلعاد، والثالثة تحت المربع ٣٣، واسمها أفرايم، حيث أقام المسيح مع حواريه، وهناك ثلاثة مدن التّجاء باتجاه البحر الغربي، وأولاها هي حبرون تحت المربع ٦٩، والثانية هي سبسطية تحت المربع ٤٣، والأخيرة قائمة إلى جانب بحيرة ميروم، واسمها قادش نفتالي، في وادي سنين، وهي التي كانت مدينة بلك، وهذه المدن الستة مرسومة على الخريطة، ومعلم عليها بهذه العلامة*،*، وجرى وضع علامة ٨ تحت المربع ١٩، فهذا هو المكان الذي أشبع فيه الرب أربعة آلاف من الناس بسبعة أرغفة، وتحت المربع ١٩، وعلى مقربة من هذا العلامة ٧ المكان الذي أطعم فيه الرب خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة، وذلك حسبما ورد مكتوباً في يوحنا ٦، وتحت المربع ١٩، قرب العلامة C، عمل قائد المائة، توسلاً من أجل خادمه، وفي المكان نفسه أبرأ الرب المجذوم قرب بحر الجليل، وعلى مقربة من كفرنا حوم أطلق على: متى: وأندرو، وبطرس، وجيمس، ويوحنا، اسم الحواريين، وتحت المربع ٢١، جاء بطرس، وأندرو، وفيليب، من بيت صيدا (يوحنا: ١٢/١)، وتحت المربع ٣٦ توجد مكور Machaerunta حيث جرى اعدام يوحنا المعمدان وقطع رأسه.

وفي أيام الصيف تحف معظم أجزاء بحيرة ميروم، ولهذا تتكاثر هناك

الأشجار والنباتات الكثيفة، التي فيها تعيش الأسود والحيوانات الأخرى، وتتوفر هناك أجواء ممتعة للصيد، وعلى بعد قليل نحو الشمال رسم بعلامة سيف المكان الذي حارب فيه يوشع ضد ملك أرسوف مع أربعة وعشرين ملكاً آخر، طاردهم جميعاً حتى صيدا، فآنذاك تضاعف النهار وتوقفت الشمس في مكانها ولم تتحرك، ولهذا أعطي له «مجد لبنان، وبهاء الكرمل وشارون» (اشعيا: ٣٥)، وإلى الشمال من صيدا، وعلى بعد سفر يومين خلف الأرض المقدسة، يوجد ميناء دمشق، متمثلاً بمدينة بيروت القديمة والجليلة، مع أن مرساها مرسى مرعباً، فقد أرغمتنا الرياح الشمالية على الدخول إليه في عشية يوم عيد القديس توما، ففي عشية عيد الميلاد ارتحلنا راجعين إلى الأنهار الكبرى، وأرغمتنا عند فجر اليوم الثاني للعيد بوساطة عاصفة على الرسو في ذلك الميناء للمرة الثانية، حيث ألقينا المراسي، ومكثنا في هذه الحالة المحزنة حتى عيد الختان (أول كانون ثاني)، وعلى بعد مائتين وتسعين خطوة من خارج الباب الشرقي لهذا البلد، يمكن رؤية المكان الذي قتل فيه القديس جرجس التنين.

وتحت المربع ٣١ يوجد نبع اسرائيل، الذي نقرأ عنه في سفر صموئيل الأول (١ - صموئيل: ١٩/١) وذلك حيث نصب الفلسطينيون معسكرهم، وذلك عندما كان شاؤول في جلبوع، ويوجد فيما بين جبل جلبوع وجبل حرمون واد عرضه فرسخين، وطوله تسعة فراسخ، وذلك نزولاً إلى الأردن حيث جرى القتال في عدة معارك، من ذلك: جدعون ضد مدين، واحاب ضد الآشوريين، وفي الزمن الحالي أيضاً التتار ضد المسلمين، وقد رسمت هذا المكان وعلمته بعلامة سيف، ويوجد تحت المربع ١٩ بيت القديس جرجس، وهو المكان المعتقد أن القديس متى قد ولد فيه، وهو قائم بين جبال في واد غني وخصب يصل حتى بحر الجليل، وبسبب جماله قد قيل حقاً عنه: «أشير خبزته

سمين وهو يعطي لذات ملوك» (تكوين: ٢٠ / ٤٩)، وهذا ما تحقق في حصّة سبط آشر.

وفي الفراغ ١٦ والمربع ٢٢، توجد نفتالي، التي جاء منها طوبياس، وهي قائمة في مكان حصين، لا يمكن الوصول إليه إلا من فسحة صغيرة موجودة على جهة الشرق، وتبعاً ليوسفوس كانت تعرف باسم يوتابه في أيام دمار اليهود، وهناك جرى حصار يوسفوس من قبل الرومان وأخذه أسيراً، واسمها الآن سيران Siran.

وتحت المربع ٢٤ توجد قرية عين دور، التي عنها يقول المزمور: «بادوا في عين دور» [مزامير: ٨٣ / ١٠]، وتحت المربع ٥٥ توجد بيت إيل في ديار سبط بنيامين، وذلك حيث أقام يعقوب الصخرة ونصبها لتكون عموداً، وكان ذلك عندما نام هناك، أيام كان فاراً من أخيه عيسو، وقد رأى السلم، الخ، وقد أطلق على المكان اسم بيت إيل، وإلى الشرق من بيت إيل توجد مدينة عاي، التي نقرأ عنها في يشوع ٨.

وتوجد تحت المربع ٦٩ ممرا، حيث سكن إبراهيم لوقت طويل، وهناك عندما كان جالساً عند باب خيمته، تحت بلوطة ممرا، رأى ثلاثة قادمين على طول الطريق، الخ، (التكوين: ١٨)، وما تزال هذه البلوطة مرئية حتى الآن عند باب الخيمة، وكانت البلوطة القديمة قد جفت، لكن نمت واحدة جديدة إثر أخرى من جذرها، ويوجد في الفواغ ٢٠ سوكوه التي ليهوذا على مقربة من وادي البطم، حيث قتل داوود جالوت من جت [١ صموئيل: ١٨ / ١-٢]، وتقوم سثيم Sethim على رابية تحت المربع ٥٦.

وهنا بداية أرض الفلسطينيين، وعلى هذه الرابية نفسها بنى فولك، الملك الصليبي للقدس، حصناً اسمه ابلين (بيننا)، ليضبط اعتداءات أهل عسقلان، وكانت عسقلان مدينة من مدن الفلسطينيين، وهي قائمة على

شاطيء البحر، وقد بنيت على شكل نصف دائرة، ويمكن للإنسان أن يقول عنها بأنها مدينة مجمع قوى المسلمين كلها في تلك البلاد، وتحت المربع ٢٢، وعلى شاطئ البحر، توجد عكا، وقد كانت إحدى مدن الفلسطينيين، واسمها (الآن) بطوليس، وتوجد قيسارية O-C في المربع ٤٠ وفي الفراغ ٢٨، وذلك على شاطئ البحر، وهي قيسارية البحرية، التي وسعها هيرود صاحب عسقلان تشريفاً لأغسطس، وقد كانت عاصمة الشاطئ الفلسطيني، وقد كتب يوسفوس عنها كثيراً، وتمتلك هذه المدينة باتجاه الشرق منها بحيرة واسعة وعميقة ذات مياه عذبة، فيها يوجد كثيراً من التماسيح، والمدينة نفسها مهتمة تماماً، وفيها عمدة الحواري بطرس كورنيليوس، وبقي بولس في السجن هناك لمدة طويلة، وكان ذلك عندما كان في طريقه إلى روما، ولها ميناء غير موثم، لكنها تمتلك كثيراً من الحدائق والمروج، وجداول جارية حتى إلى اللد، وإلى بلاد يافا، وقد رسمت اللد وعلمتها بعلامة قوس، حيث يمكنك أن ترى في المكان الذي وقفت فيه، كنيسة القديس جرجس الذي قتل هناك، وأرسوف قائمة على شاطئ البحر، واسمها القديم هو أنطبارتس، وكانت من أملاك رهبان مشفى القديس يوحنا المعطاء.

وليس لمدينة يافا ميناء، وفيها سكنت تابيثا Tabitha وصيفة الرسل، ومن هناك ذهب يوانس على ظهر سفينة عندما أراد الفرار إلى طرسوس، ولم أر في هذه المدينة أي إنسان حي، وفي الحقيقة جرى تدمير الكثير من مدن الساحل من قبل السلطان، عندما سمع بأن مدينة عكا المتقدمة الذكر قد جرى الاستيلاء عليها من قبل ملكي فرنسا وإنكلترا.

وصيدا هي إحدى مدن فينيقيا، وفي خرائطها الموجودة هذه الأيام شهادة على عظمتها، وكانت قد بنيت بشكل مستطيل، فوق سهل يمتد من الشمال إلى الجنوب، عند سفح جبل لبنان، وجرى بناء مدينة أخرى

خارج خرائبها، صحيح أنها صغيرة، غير أنها محصنة، لكن ليس فيها رجال للدفاع عنها، ويقوم طرف منها على شاطئ البحر مع قلعتين جيدتا التحصين، واحدة منهما على كل جانب فالأولى التي هي في الجانب الشمالي، هي التي بنيت منذ زمن طويل مضى من قبل حجاج من ألمانيا، وهي قائمة على صخرة بجوار البحر، أما الثانية الموجودة في الجنوب، فهي قائمة فوق رابية، وفيها مضى امتلك فرسان الداوية هاتين القلعتين مع المدينة أيضاً، وهناك يوجد قصب السكر، وكروم عنب ممتازة جداً، وعلى بعد فرسخين من هناك توجد الصرند، التي فيها مجرد عدة بيوت فقط، مع أن خرائبها تشير إلى أنها كانت مدينة جليلة فيما مضى.

وصور موجودة في ديار سبط آشور، ومع ذلك لم يملكها الآشوريون قط، وخلفها توجد آبار مياه للحياة. وتحت المربع ٤٣، توجد سبسطية، التي اسمها السامرة أيضاً، وهي مدمرة كلياً باستثناء كنيستين، أولاهما مكرسة ليوحنا المعمدان، حيث ضريحه فيها مصنوع من الرخام، على شكل ضريح الرب، فهناك دفن فيها بين اليسع وعوييدا، وفي الحقيقة قام هناك فيما مضى كنيسة كاتدرائية على طرف الجبل، لكن المسلمون تولوا هدمها، وأما الكنيسة الثانية فهي الآن قائمة على قلة الجبل، وهي مسكونة من قبل رهبان اغريق، هم الذين يعرضون في الداخل المكان الذي قد سجن فيه، لكنني عدت هذا شيئاً لا قيمة له، ذلك أنه كان قد أعدم في مكور، تحت المربع ٣٦. وتوجد شكيم تحت المربع ٤٥، وهي التي يطلق الاغريق عليها اسم نابلس، وهي قائمة على بعد رميتي قوس عن جب يعقوب، هذا وإن عظام يوسف مدفونة في شكيم، ويطلق اليهود عليها اسم شوكيم، ويسمون صهيون هرؤن Haraon

المدن والأماكن في الأرض المقدسة

ومدينة عكا، التي هي موجودة في منطقة فينيقيا، هي مدينة جيدة

التحصين بالأسوار والأبراج، وهي لها شكل ترس، طرفان منه يمتدان خارجاً إلى البحر، وأما الطرف الثالث فهو مظل على اليابسة، ومن حيث الطول فان مساحة إطارها هو ميلين، أي أن تقول ستين فرلنغ، وهي تمتلك حقولاً مثمرة وحدائق، وهي لم تكن قط جزءاً من الأرض المقدسة، ولا ملكاً لبني اسرائيل، ومع هذا فإنها قد منحت إلى سبط آشور عندما جرى توزيع الأرض المقدسة فيما بين الأسباط، وقد كانت إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة القائمة على ساحل البحر، وعلى مقربة منها حدث أن ملاك الرب التقى بحقوق وهو يحمل إلى الخصادين طعامهم، فحمله إلى بابل، وذلك حسبما نقرأ في سفر دانيال ١٤، وكان يوجد في المكان الذي حمل منه من قبل الملاك بيعة جميلة.

وعلى بعد ثمانية فراسخ إلى الشمال من مدينة عكا هذه، من الممكن مشاهدة البئر الرائع لمياه الحياة، الموجود قرب صور، حيث بني بشكل عالي النفقات، ومع أنه يدعى باسم بئر، بالمفرد، إنه ليس بئراً واحداً، بل هناك ثلاثة ينابيع، لها الشكل نفسه والوضع، مع أنها لاتعطي الكمية نفسها من الماء، والبئر الرئيسي فيها عمقه حوالي أربعة وثلاثين ذراعاً، وعمق الآخرين حوالي اثنين وعشرين ذراعاً، وهم محاطون بجدران مربعة متينة، مبنية من صخور قوية، وتتفجر المياه وتندفع من داخلها بمقدار رمية رمح بالعرض، وتتدفق بشكل تملأ فيه جميع مجاري المياه، حيث تنتشر فوق سهل صور كله، ومنها تشرب الحدائق، والكروم، وبساتين التين، وحقول الزيتون، وقصب السكر، الذي ينمو هناك، ذلك أن هذه الينابيع تبعد مقدار رمية سهم عن البحر.

وعلى بعد فرسخ واحد عن هناك توجد مدينة صور، التي هي قائمة إلى الشمال من عكا، وقد كتب مديحها من قبل بعض الأنبياء، وهي واقفة على شاطئ البحر مع أسوار واسعة تحيط بها، وهذه الأسوار تلامس مياه البحر من جميع الجهات، باستثناء الجهة الشرقية، حيث تولى

نبوخذ نصر أولاً، ثم الاسكندر فيما بعد، وصلها باليابسة، وذلك لمسافة مقدارها حوالي الرمية حجر، وهي محاطة من هذا الجانب بسور مضاعف ثلاث مرات وهو عالي الارتفاع وله أبراج حصينة وقوية، وفيها جرى دفن أورجين، وقد بقي فيها حتى اليوم كثيراً من آثار عدد كبير من القديسين، كانوا قد هلكوا هناك باسم المسيح، وعلى بعد رميتي سهم نحو جنوب الباب، يوجد المكان الذي فيه تولى المسيح الوعظ، وهو معلم بوساطة صخرة وقف عليها، حيث بني فوقها كنيسة كرسيت للمخلص، وهناك أيضاً المكان الذي قالت له فيه المرأة «بورك الرحم» الخ، وذلك بعدما أنهى الوعظ، وهذا المكان لم يغطه الرمل قط، مع أن الرمل هناك خفيف ويتطاير هناك، مثلما يتطاير الثلج في بلادنا في أيام البرد الشديد، ويتوزع فوق الأماكن بوساطة الريح، لكن هذا المكان يبقى على الدوام أخضر في وسط الرمال وعلى بعد أربعة فراسخ عن صور توجد الصرfund، وقبل باب هذه المدينة من الممكن رؤية المكان الذي ذهب إليه إيليا إلى المرأة الصرfundية، وليس بعيداً عن هناك توجد بيعة فوق المكان الذي أقام فيه ابنها من الموت.

وعلى بعد ميلين عن الصرfund توجد صيدا، التي كانت فيما مضى مدينة عظيمة، حيث من الممكن رؤية حجمها من خلال خرائب الأسوار، وكلها تقريباً قائم في قلب البحر، ولها على كل من طرفيها قلعتان، بنيت الأولى منهما فوق راوية قرب السهل، وأما الثانية فبنيت فوق صخرة مجاورة للبحر، وجرى بناء هاتين القلعتين من قبل حجاج ألمان منذ زمن طويل مضى، وعلى بعد نصف فرسخ آخر عن هذه المدينة يوجد جبل لبنان، حيث تنمو كروم فائقة الجودة، ولهذا قال النبي عنها: «تكون رائحتهم كخمر لبنان» [هوشع: ١٤/٣]، وعبر صيدا، وأمام بابها شفى الرب ابنة المرأة الكنعانية.

وخارج الأرض المقدسة، وعلى بعد عشرين ميلاً إيطالياً إلى الشمال

من صيدا، توجد بيروت، وهي مدينة قديمة، لها ميناء بغضض، فيه أمضيت ليلة، لكن ليس من دون خوف، وكان ذلك عشية عيد القديس توماس الرسول في سنة ١٤٢٢، وفي قاعة تحت الأرض في هذه المدينة، معروض فيها للمشاهدة صورة رسمت للمخلص بعد وقت قصير من آلامه، جاء رسمها سخرية واستهزاء، وقد لوثت واعتدي عليها بضربها من قبل الكفار، وظلوا يضربونها حتى خرج منها دم وماء، ونتيجة لهذا اهتدى بعضهم وتحول إلى المسيحية، وجاء نصب هذه الصورة للسخرية وكذلك رسمها، وذلك مثلما حدث في بيت بيلايطس، عندما توجه بتاج من شوك، وبجل بمثابة ملك، وقد جرى بناء بيعة هناك فيها مذبح واحد، وإليها ينزل الانسان ثمان عشرة درجة.

ويلي بيروت في الشمال جبيل، التي هي أول مدينة تابعة لبطركية أنطاكية، وقد ورد حديث عن هذا المكان في حزقيال ٢٧، وذلك خلال اطراء لمدينة صور، وكذلك في الملوك الأول، حيث قيل بأن عمال سليمان قد جاءوا من جبيل (بيبلوس)، وتعرف هذه المدينة في هذه الأيام باسم جبيل، وهي صغيرة بما فيه الكفاية، وعلى بعد ثلاثة فراسخ عن جبيل توجد Botrys (البترون) التي كانت فيما مضى مدينة ثرية، لكنها الآن مدمرة كلياً، وبعد هذا على مسافة ثلاثة فراسخ أخرى تقوم قلعة وقرية نفين (أنفة)، وهي قائمة تقريباً فوق شاطئ البحر، ومحصنة بشكل جيد.

وعلى بعد فرسخين من هناك توجد مدينة طرابلس، وهي مدينة معروفة كثيراً على شاطئ البحر، وهناك يسكن فيها: إغريق، ولاتين، وموارنة، ونساطرة و(أناس) من أمم كثيرة، ويعمل فيها الكثير من المنسوجات الحريرية، وقد سمعت قولاً صحيحاً أنه يوجد فيها اثني عشر ألف حائك للحرير ولوبر الجمل.

وينتهي جبل لبنان على بعد ثلاثة فراسخ خلف طرابلس، وعند

سفحه ينبع ينبع الحداثق، وهو النهر الذي يجري سريعاً وهو نازل من جبل لبنان، ويسقي جميع الحداثق والسهل الموجود حول طرابلس، ويوجد على ضفتيه عدداً كبيراً من البيوت الدينية التي بنيت هناك، وكثيراً من الكنائس الاغريقية والأرمنية، وفي الحقيقة إن الذي ورد عن هذا النبع في سفر استير صحيح وهو: «من ينبع صغير جرى صنع فيض عظيم، لابل كثيراً من الماء»، وعلى بعد فرسخين عن طرابلس يوجد جبل الفهود، الذي له منظر دائري، وهو مرتفع، ويوجد عند سفحه، في الجهة الشمالية كهف فيه ضريح طوله عشرين قدماً، وهذا الضريح يزوره المسلمون بكل تقوى، حيث يقولون بأنه قبر يوشع، وأنا لا أعتقد بصحة ذلك، لأن النص يقول بأنه دفن على طرف جبل إفرام، تحت المربع ٤٦، والذي أرجحه وأراه هو أن هذا الضريح هو لواحد من أولاد نوح، أو لشخص ما مثلهم، من الذين يمكن أن نبرهن على أنهم سكنوا في تلك الأجزاء.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ أخرى من الممكن رؤية قلعة عرقة، التي بناها عرقيوس بن كنعان، وهي قد بنيت بعد الطوفان، حسبما جاء في شروح سفر التكوين، وأخبار الأيام الأول، وعبر السهل، وعلى بعد ثمانية فراسخ، يصل الانسان إلى أنطوطوس، أو (أمام أرواد) وهذه هي جزيرة تبعد مسافة نصف فرسخ عن الياسة، وفي أنطوطوس وعظ القديس بطرس لمدة طويلة، عندما كان في طريقه إلى أنطاكية، وذلك حسبما قرأنا في رحلة كليمنت، ووجد كليمنت أمه هناك، وهناك أيضاً دفع القديس بطرس إلى تأسيس وبناء أول كنيسة هناك، كرست على اسم القديسة مريم، وعلى بعد ستة فراسخ عبر أنطوطوس توجد قلعة المرقب، التي كانت ملكاً لرهبان القديس يوحنا (الاسبتارية)، وهي محصنة بشكل جيد، وقائمة فوق جبل مرتفع، وتبعد فرسخاً واحداً عن البحر، وذلك على مقربة من مدينة بانياس، وكان قصر الأسقف قائماً في هذه المدينة،

ولكن بسبب إهانات المسلمين انتقل إلى القلعة.

وتنتهي مملكة القدس مع مدينة بانياس، ومع النهر الذي يحمل الاسم نفسه ويجري من خلالها، وبذلك تبدأ بطركية أنطاكية، ويبعد هذا المكان سفر ثمانية أيام عن عكا، وهناك سفر أربعة أيام منه إلى أنطاكية، وتقوم أنطاكية في سورية المجوفة، التي تبدأ عند نهر الفرات، وتنتهي عند نهر بانياس، الذي ينبع تحت قلعة المرقب، ويصب في البحر الكبير قرب بلدة بانياس، التي كانت — كما قلنا من قبل — مقر قصر الأسقف، ويوجد في المقاطعة نفسها: اللاذقية — وأفاميا — وبلدات أصغر.

وسورية الفينيقية، منطقة مختلفة، وهي تبدأ عند النهر المتقدم الذكر، أي نهر بانياس في الشمال وتصل في الجنوب حتى البترا انشيسا تحت جبل الكرمل، وذلك عند القلعة التي اسمها في هذه الأيام قلعة الحجاج (عثليت)، ويوجد في سورية هذه، المدن التالية: المرقب، وطرطوس، وطرابلس، وبيروت، وصيدا، وصور، وعكا، وكفر ناحوم.

وهناك مقاطعة أخرى من مقاطعات سورية، هي مقاطعة دمشق، أو لبنان، وحاضرة هذه المنطقة هي مدينة دمشق، ولجبل لبنان شهرة في داخلها، هذا وتعرف البلاد كلها الممتدة من نهر الدجلة حتى مصر باسم سورية بشكل كامل، وأول جزء منها هو الواقع فيما بين نهري الفرات والدجلة، وهو يمتد طويلاً من الشمال إلى الجنوب، أي أن تقول من جبل طوروس إلى البحر الأحمر، وهو يعرف باسم سورية الجزرية، لأنه قائم في وسط المياه، وهو يحتوي على شعوب كثيرة منها: الفرثيين، والميديين، الذين يحدهم في الجنوب بلاد الكلدان.

ثم يذهب الانسان بعد هذا إلى أنطاكية، التي فيها عرف جميع المؤمنين

الذين كان اسمهم من قبل الجليليين باسم المسيحيين، وهم في هذه الأيام يدعون من قبل المسلمين باسم النصاري، وفيها كان كرسي بطرس، وفيها ولد جالينوس، الذي علم الطب لابن أخيه (أخته) القديس لوقا الانجيلي، وكان اسم هذه المدينة ربله (كذا) حتى أيام الملك أنطيوخوس، وفي بداية سورية المجوفة، وباتجاه الغرب توجد مدينة طرسوس، التي جاء منها القديس بولس.

ويوجد أيضاً على بعد خمسة أميال إلى الشرق من عكا المتقدمة الذكر، قرية اسمها القديس جرجس (اللد) وقد أخبرنا أنه في هذا المكان كان القديس جيروم (جرجس) قد ولد، وإلى الجنوب منها تقوم مدينة نعسون Naason ، التي قرأنا عنها في سفر توبيت، وعلى بعد فرسخين عن هناك توجد دوثير عند سفح جبل بيت أوليا، وهي التي أراد هولوفرنس الاستيلاء عليها عنوة.

وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من نعسون، وثلاثة فراسخ من دوثيرم توجد نفتليم، التي هي مدينة توبت، والتي هي مبنية على شكل قرية، وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من نفتليم، وإلى جانب بحر الجليل، توجد بيت صيدا، التي هي مدينة أندرو، وبترس، وعلى بعد فرسخين عن هذا المكان توجد قلعة المجدل، قرب بحر الجليل، التي منها أخذت المجدل اسمها.

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الشرق من بيت صيدا، يوجد المكان الذي وقف عليه المسيح على شاطئ البحر، وقال لسبعة من الحواريين: «هل لديكم، أيها الأولاد، أي طعام؟»، ومن الممكن رؤية طبعة قدمه فوق صخرة هناك، وإلى الشرق توجد كفرناحوم، التي عمل فيها المسيح كثيراً من المعجزات (متى: ١١)، وعلى فرسخين بعد ذلك باتجاه الشرق يجري نهر الأردن إلى داخل بحر الجليل، وعلى الجزء الأعلى من شاطئه من الممكن رؤية كورزيم، وفي هذا المكان يبدأ صعود

جبل سكير، وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من كورزيم توجد جدر، التي كانت فيما مضى مدينة محصنة بشكل جيد، ولهذا كتب: «إنني سكنت معهم في جدر».

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من عكا توجد قانا الجليل، فهناك حول المسيح الماء إلى خمرة، ومكان الاحتفال بالعرس هو كهف مخفور في الصخر، ويمكنه أن يستوعب عدة أشخاص، ومن الممكن رؤية الأماكن التي وضعت فيها أواني المياه، والمقاعد والمكان الذي نصبت عليه المائدة، وهذه الأماكن موجودة تحت الأرض، مثلها في ذلك مثل كثير من الأماكن الأخرى المقدسة، من ذلك موضع البشارة والمهد، وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من قانا الجليل توجد مدينة الصفورية، ويوجد عبرها باتجاه طبرية، وذلك فوق دوثيرم، جبل بيت أوليا، كما تقدم القول.

وعلى بعد سبعة فراسخ من بيت أوليا، وعلى شاطئ بحر الجليل، توجد طبرية، وقد أطلق عليها اسم طبرية عندما كان هيرود الطيطراخ، ويوجد في ذلك المكان حمامات طبية قائمة على شاطئ البحر.

وإلى الجنوب من عكا، إنما مع الانحراف قليلاً نحو الشرق، توجد الناصرة، المدينة المحبوبة، حيث أُنعت الورد التي نبتت من أصل يسي، وهي على بعد سبعة فراسخ عن عكا، وهذه هي مدينة المخلص، وأطلق على يسوع اسم الناصري، لأنه نشأ فيها، وهنا تتدفق مياه نبع صغير، منه اعتاد الصبي يسوع أن ينضح الماء ويغلبه إلى أمه، وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الشرق من الناصرة يوجد جبل الطور، الذي عليه تغيرت هيئة المسيح، ويمكن للإنسان أن يبحث هناك عن مكان خيم العهد الثلاث، ويوجد في هذا الجبل أماكن عميقة مع كهوف تحت خرائب أبنية رائعة، فيها الآن مخابىء للأسود وللحيوانات الضارية الأخرى، وعندما يبدأ الإنسان بالنزول من الجبل هناك بيعة قائمة على

الجهة الغربية، وذلك عند المكان الذي قال فيه الرب: «لا تخبروا أحداً بالذي رأيتموه».

وعبر وادي هذا الجبل، بين الجنوب والشرق، توجد رابية حرمون الصغير، الذي ورد ذكرها في المزامير، وعلى بعد أربعة فراسخ من الناصرة، وفرسخ واحد من جبل الطور، يوجد جبل حرمون الآخر، الذي تقع مدينة نين على جانبه الشمالي، وذلك حيث أقام الرب ابن الأرملة من الموت، ويمتد هذا الجبل نحو الشرق لمقدار حوالي خمسة فراسخ، باتجاه بحر الجليل، ويتموقع جبلا جلبوع وحرمون بشكل أن جبل حرمون واقع في الشمال، وجبل جلبوع واقع في الجنوب، وفيما بينهما سهل عرضه فرسخين، وأربعة فراسخ طوله، وكان هناك فيما مضى من أيام حروباً عظيمة ومعارك فوق هذا السهل، فهنا هزم جدعون المدينين، وهنا لحقت الهزيمة بشاؤول على أيدي الفلسطينيين، الذي علقوا رأسه فوق أسوار بيسان، القائمة فيما بين الأردن وجلبوع.

والجليل كلها تقريباً منبسطة وبلاداً سهلية، وهي تتصل من الجانب الأول بالأرض المقدسة، وذلك حيث تقوم بلدة بيت صيدا، وعلى الجانب الآخر بالسامرة التي هي منطقة جبلية، وفي السامرة توجد سبسطية التي كانت فيما مضى مدينة جليلة للملوك اسرائيل، لكنها الآن مهدامة كلياً، ومهجورة باستثناء وجود كنيستين فقط، الأولى بينهما موجودة على قمة الجبل، حيث قام فيما مضى القصر الملكي، والثانية مكرسة ليوحنا المعمدان، المدفون هناك فيما بين اليشع وعوييدا، حيث من المعتقد أنه قد جلب إلى هنا من بلدة مكور، القائمة فيما بين الأردن وسبسطية.

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من سبسطية يوجد جبل بيت إيل، وعلى بعد فرسخ آخر يوجد جبل دان المشرف على مدينة شكيم على جهة اليسار، وعلى هذين الجبلين أقام يربعام العجلين الذهبيين، وجعل

إسرائيل تذب، وتقوم مدينة شكيم بين هذين الجبلين، التي تعرف أيضاً باسم نابلس، التي هي مليئة بـأماكن جميلة جداً، لكنها غير محصنة، ولا يمكن تحصينها، فإذا ما قدم العدو من الشمال، وكان سكان المدينة قليلاً عددهم، لا يمكنهم أن يفعلوا شيئاً سوى الفرار إلى الجنوب، وإلى شكيم كانت عظام يوسف قد حملت من مصر، ودفنت، وفي الجوار يوجد حقل قطعة الأرض التي أعطاها يعقوب إلى ابن يوسف، وليس بعيداً عن باب المدينة يوجد جب يعقوب، الذي جلس الرب إلى جانبه، والتمس الماء من المرأة السامرية، وفي هذا المكان كانت هناك كنيسة.

وعلى جهة اليمين من شكيم يوجد جبل جرزيم، وفوق هذا الجبل من الممكن أن يرى حتى هذا اليوم معبد يهوه القديم، مع مشفى للغرباء ونزل لهم، وهذا هو الجبل، الذي قيل لنا بأن المرأة قد عنته عندما قالت: «تعبد آباؤنا في هذا الجبل» وعلى بعد فرسخ واحد من شكيم توجد مدينة اسمها لوز، فيها سكن إبراهيم، ويقال بأن يعقوباً قد نام في هذا المكان، ورأى السلم، وذلك عندما قال: «كم هو مرعب هذا المكان»، وأطلق على المكان اسم بيت إيل، علماً بأنه كان يعرف من قبل باسم لوز، ومعنى ذلك وترجمته: «الرب يرى»، لكن بعضهم يقول بأن ذلك كان فوق جبل أكرأ، حيث كنت أنا جون بولونير آخر من رأى قصة التضحية مرسومة بأعمال الفسيفساء، في المكان الذي جرى تقديم المسيح فيه، وكذلك يقول بعضهم بأن المكان الذي نام فيه يعقوب ورأى السلم هو جبل موريا، أو الجبل المعشوشب (جبل إبراهيم)، الذي فوقه بنى سليمان فيما بعد هيكل الرب.

ويطلق على السهل القائم فيما بين نهر الأردن وأريحا اسم جلجالا Gilgala ، (الجلجال)، وعلى بعد نصف فرسخ عن هناك يوجد جبل القرنطل، وذلك حيث صام الرب لمدة أربعين يوماً، وهناك أغوي من قبل الشيطان، ويقول آخرون بأن ذلك كان على جبل مرتفع قريباً

جداً من بحر الجليل، وذلك على بعد فرسخين عن الجبل المتقدم الذكر، والذي يوجد على قمته بيعة، فقد أراه هنا جميع ممالك الدنيا، وعند سفح هذا الجبل ينبع نبع اليشع وتجري مياهه، وهو الذي حوله من المראה إلى العذوبة، وجعله ماء سائغاً للشراب.

وعلى بعد ميل واحد عن الجبل توجد أريحا، التي كانت فيما مضى مدينة جليلة، لكنها انحدرت إلى حد أنه لم يبق أي أثر يذكّر على أنها كانت مدينة، وكان زكّا من هذا المكان، وعندما ينزل الإنسان من القدس إلى أريحا، وعند نهاية الجبل، وقبل بداية السهل، يمكنه أن يرى على جانب الطريق المكان الذي جلس عليه الأعمى وهو يستعطي، وهنا كان فيما مضى كنيسة، وعلى الطريق الذي يقود إلى القدس، على بعد أربعة فراسخ عن أريحا، وفي قرية قائمة على جهة اليد اليسرى لبرية القرنطل، يوجد المكان الذي وقع فيه الرجل بين اللصوص.

وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من أريحا، يوجد دير القديس جيروم، في برية واسعة، تتعرض لأشعة الشمس الحارقة، لذلك لم يبق هناك أي شيء أخضر، وكان قد سكن هناك لمدة أربع سنوات، ومن أريحا هناك فرسخان إلى نهر الأردن، حيث من الممكن أن نرى هناك بيعة مكرسة للقديس يوحنا المعمدان، وقد مشى بنو إسرائيل فوق الأردن بأقدام جافة، ونال نعمان المجذوم البراءة في الأردن، كما وتعبد المسيح في الأردن. وعلى بعد ثلاثة فراسخ، أو ستة أميال، من أريحا، تقوم ساعور في العربية، حيث يوجد تمثال من ملح، إليه تحولت زوجة لوط، الذي هو خطر للذهاب لرؤيته، بسبب المدينين الذين يسكنون هناك، ويفيض البحر في بعض الأحيان، وترتفع مياهه إلى حد أنها تغطي التمثال كله، ثم يتناقص حتى يبات من الممكن رؤية التمثال، وأحياناً رؤيته حتى الصدر، وأحياناً أخرى حتى الركبتين، لأن هذا التمثال واقف فيما بين ساعور والبحر الميت، وعرض هذا البحر ستة

فراسخ، وبسبب استمرار تصاعد الأبخرة منه، ورائحة التتن، فإن الوادي الذي عرف فيما مضى باسم الرائع، قد صار أرضاً جرداء، لمسافة سفر عشرة أيام، فطوال ذلك لا تحمل الأرض أية أعشاب، ولا ينمو عليها أي شيء، فضلاً عن هذا جميع الجبال، على اليمين وعلى اليسار جرداء لمسافة ستة فراسخ، وفوق هذا المكان، وأنت نازل إلى العربية يوجد كرنيش، وهو برج مراقبة للمأمنين، وإليه جلب بلعام ليتولى اللعنة، حيث كلمته الأتان، التي كان راكباً لها، ويفصل هذا البحر اليهودية عن العربية.

وفي أيام بني إسرائيل كانت العربية فيافي، ومكاناً معزولاً، حيث أبقامهم الرب هناك لمدة أربعين سنة، يمطر عليهم المن من السماء، وهنا سار أمامهم عمود من نار أثناء الليل، وأظلتهم السحابة في النهار، وهناك كانت المحطات الأربعين لبني إسرائيل (الخروج، والعدد ٣٣)، واعرف أن العربية متصلة بأدوم الموجودة في جوار بصرى، وأدوم هي بلاد دمشق، ودمشق هي عاصمة سورية، ويفصل لبنان أدوم عن فينيقيا، وفي فينيقيا توجد مدينة صور، وفي العربية يوجد وادي موسى، فهناك ضرب الصخرة، فنبع الماء منها، وفي العربية أيضاً جبل سيناء، فهناك أعطيت الشريعة إلى موسى، وكذلك يوجد في العربية الجبل الذي دفن عليه هرون، وفي العربية جبل عبريم، حيث دفن الرب موسى، الذي لم يشاهد قبره في أي مكان، وفي العربية يوجد المكان الذي اسمه بتراء في الفيافي، أو الشوبك (الملوك الثاني: ١٤/٧)، وفي مكان مرتفع وراء الأردن، وعلى مقربة من مدينة Rabath التي هي ملك لأبناء عمون، وذلك عند نهاية الأرض المقدسة، هناك كانت قلعة، هي قلعة بتراء في الفيافي (الكرك والشوبك)، وكانت قوية بما فيه الكفاية، وقد بناها بلدوين، الملك اللاتيني الأول في القدس، بقصد الدفاع عن المملكة.

حول أرض مصر

مصر أرض مستوية ودافئة، ونادراً ما تمطر هناك، لكن البلاد تسقى من قبل نهر جيحون، الذي يعرف باسم النيل، ولهذا النهر سبعة فروع تجري في مختلف المناطق، وفي النيل تنشأ الخيول البرية والتماسيح بأعداد لا تحصى، ويشبه التمساح العظاءة، حيث يمتلك أربعة أقدام، وأرجل قصيرة وغلظة، وفكين حادين مثل فكي الدب، ورأس مثل رأس العظاءة، وعندما يخرجون من الماء ويسرون فوق اليابسة يقتلون أي إنسان أو حيوان قدروا عليه، وخروف أو جدي لا يكاد يكفي أحدهم لوجبة واحدة. ويبدأ النيل بالفيضان في عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ويستمر حتى عيد تمجيد الصليب المقدس، ومن ثم يبدأ بالتناقص حتى عيد الغطاس، عندما تبدأ الأرض الجافة بالظهور، ويزرع الفلاح بذاره، ويكون الحصاد في آذار، ويجري جني مختلف أنواع الخضار ابتداءً من عيد القديس مارتن حتى أوائل شهر آذار، والشيء نفسه يحدث بالنسبة لفواكه الحدائق، وتحمل الأغنام والماعز وتلد مرتين في السنة.

وعليك أن تعرف أن هناك ثلاثة مدن اسمها بابل، أولاها قائمة على نهر الدجلة، فهناك كان نبوخذ نصر ملكاً، والثانية موجودة في مصر، وفيها كان يحكم فرعون، وهاتين المدينتين مدمرتين، والمدينة الثالثة، التي نتعامل الآن معها، موجودة أيضاً في مصر، ومتصلة بالمدينة التي اسمها القاهرة، التي يوجد فيها قصر السلطان الملكي، وهي مدينة بابل الجديدة نفسها، ويوجد في هذه المدينة خمسة شعوب هم: الرومان، والاعريق، واليعاقبة المسيحيين، والمسلمين، واليهود، ويوجد هناك كنيسة بطريرك لليعاقبة اسمها كنيسة سيدتنا سيدة لازا Laza، وهي ذات جمال عجيب، وهي كنيسة بطريرك اليعاقبة، ويوجد فيها عمود، منه صدر صوت يقول: «اذهب وابحث عني.... هذا الرجل ينقل الجبال»،

ويوجد هناك أيضاً كنيسة مكرسة للقديسة بربارا، ويوجد الآن فيما بين بابليون والقاهرة خمس عشرة كنيسة مسيحية، الأولى بينهن هي الأكثر قداسة بين الجميع، ففي هذه الكنيسة بيعة موجودة تحت الأرض، فهناك يوجد المكان الذي سكنت فيه العذراء المباركة مع ابنها يسوع، ويوسف، وكان ذلك عندما هربت من أرض إسرائيل، ويوجد هناك صليب صنع بمثابة علامة للتدليل على المكان الذي اعتاد الطفل أن ينام فيه، وعلى هذا، هذه هي الكنيسة الأكثر قداسة بين الجميع، وهي أسمى مكانة من الكنائس الأخرى، واسمها كنيسة سيدتنا سيده قانا في بابليون.

وكان يوجد في القاهرة شجرة نخيل معرقة بالقدم، وهي التي حنت نفسها، ونزلت إلى الأسفل إلى العذراء المقدسة، حتى تتمكن من جمع التمر وقطافه منها، ثم نهضت بعد ذلك، ووقفت كما كانت من قبل، ولقد قرأنا بأن برج بابل كانت مساحة إيطاره الخارجي من طرف إلى الطرف الآخر ألفاً واحداً وعشرين خطوة، وأن سماكة سورته كانت ثلاثمائة خطوة، لأنهم قصدوا أن يبنوه حتى يحاذي القمر.

وتبعد غزة — أو غزرة — سفر ثلاثة أيام عن القدس، وهي إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وقد انتزع شمشوم أبوابها، وحملهم حتى ذروة رابية. وعلى بعد ثلاثة أيام عن غزة توجد مدينة دمياط، وهي مدينة مصرية، فهناك فيها رجم إرميا، والمدينة الثانية هي مدينة عكا، ذلك أنها تعدّ إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي تبعد عشرة فراسخ عن عسقلان وذلك باتجاه يافا، ليس بعيداً عن البحر، وتقع بير السبع بين المنطقة التالية وبين مدينة غزة. وكانت غاث أيضاً واحدة من مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي قائمة ليس بعيداً عن اللد والرملة، ومن خرائبها جرى بناء قلعة ابلين (بينا)، وكان ذلك فوق التلة نفسها، وبلدة بينا هذه وقلعة بينا (كذا) هي التي كان اسمها في القديم بير

السبع، وقد بنيت قلعة تل الصافية لتوقف أذى العسقلانيين، والملك
هيرود، الذي في أيامه ولد المسيح، كان من أهالي عسقلان، وعلى بعد
ثلاثة أميال عن عسقلان تقوم قلعة تل الصافية، وعلى شاطئ البحر،
ليس بعيداً عن عكا، تقوم يافا التي أقام فيها القديس بطرس تابيثا Ta-
bitha من الموت.

(٣)

جولات الراهب الدومينيكانى فيلكس فابري ورحلاته

حوالى

(١٤٨٠ — ١٤٨٣ م)

القسم الأول

كتاب جولات الراهب فيليكس فابري ورحلاته

مدخل

وصف الراهب فيليكس فابري في إهدائه التكريسي الذي تاريخه ١٤٨٤، بعد عودته للمرة الثانية من الأرض المقدسة، كيف أنه سافر إلى هناك مرتين، وكيف سعى جاهداً أثناء ترحاله للوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه لإخوانه الرهبان، في دير أولم Ulm الدومينيكاني بأن يحتفظ بسجل تام ودقيق حول كل مارآه، وما نزل به أثناء رحلته، وأضاف أنه «إلى جانب ذلك، بذلت في بعض الحالات جهداً كبيراً، لكي أكتب وصفاً دقيقاً وتاماً حول بعض الأماكن المقدسة التي لم أذهب قط إليها، لكنني لم أفعل ذلك دون أن أضيف: أنا لم أذهب إلى هذا المكان، بل سمعت حوله أو قرأت».

وتحدث عن نفسه في توطئة كتابه هذا، على أنه إنسان قد زار ثلاثة أرباع العالم المعروف آنذاك، وحيث أنه كتب قبل عشر سنوات من اكتشاف أمريكا، من المفيد أن نقرأ إشارات إلى جزر التوابل، وإلى شهرة سيبانجو Cipango التي كان الوصول إليها عبر طريق قصير هو الهدف الأساسي لرحلة كولومبوس، وقد اعتذر أيضاً عن أسلوبه اللاتيني، الذي وصفه الأستاذ س. د. هاسلر Hassler الألماني الذي حقق كتاب رحلته، بأنه أسلوب سخيف الأساس في الـ "Epistolae abscurorum Virorum"، وقال: كان من المتوجب وقوع كتابه في أيدي الكهنة الذين يهملون الإنجيل والأنبياء ليفرغوا لقراءة فرجيل والشعراء اللاتين والخطباء، فوقتها ما كان لينجو من سخريتهم ونقدتهم الشديد، لأن هؤلاء الناس يحبون روما الوثنية أكثر من القدس المسيحية، على الرغم من قول بعضهم: «إذا ما نسيتك يا قدس، لينشق

لساني في سقف حلقي» الخ.

ووصف مطولاً رغبته في رؤية الأرض المقدسة، ونقل عن توطئة القديس جيروم لسفر أخبار الأيام، أن الذي يحجر من طروادة إلى صقلية، سيكون بإمكانه أن يفهم بشكل أحسن القسم الثالث من كتاب الإنياد لفرجيل، وعلى هذا الأساس: إن الذي سوف يتمكن من رؤية اليهودية بعينه، سوف يمتلك رؤية أوضح ونفاذاً لما جاء في الكتابات المقدسة، واستطرد القديس جيروم يقول: «ولهذا تحملت أعباء الترحال خلال جميع أرجاء هذه المنطقة، بصحبة أفضل المتعلمين العبرانيين»، وهنا استطرد فابري يقول: «إذا كان القديس جيروم العظيم، الذي كان إنساناً عالي الفهم، ومثقفاً، رأى أن عليه زيارة الأماكن المقدسة، حتى يتمكن بصورة أفضل من فهم الكتابات المقدسة، ولاعجب على هذا إذا ما حاولت أنا ومن هو مثلي، بليد بطيء في الفهم، ببعض الوسائل الحصول على بعض من المعلومات الضئيلة عن الكتابات المقدسة، في الحقيقة إننا نرى في أيامنا هذه مجرد بعض الناس العلمانيين، الذين لا يمتلكون معرفة عن الكتابات المقدسة، أنهم بعدما أدوا الحج إلى الأماكن المقدسة، وعادوا من هناك، صاروا قادرين على المناقشة حول الانجيل وحول الأنبياء والتحدث حول مواضيع لاهوتية، ويتغلبون أحياناً على بعض رجال الدين المتعلمين في تفسيرهم لبعض النصوص الصعبة في الكتابات المقدسة، لأنه ما من كاثوليكي قد عاد من هناك من دون أن يصبح متعلماً أكثر وبما أنه على هذا يعود الرجال العلمانيين من الأماكن المقدسة لاهوتيين، لا يوجد شك أن رجال الدين من بعض الطوائف ورجال يمتلكون معارف قليلة، سوف يعودون متعلمين بدرجات ليست صغيرة، ولهذا السبب، ولأسباب أخرى كثيرة، شرحتها في مجريات إطرائي للأرض المقدسة، ولأسباب أخرى ليس من الضروري بالنسبة لي ذكرها، عزمت على التوجه إلى القدس، وثبت

وجهي نحوها، مثلما قيل عن الرب يسوع في لوقا: ١٥/٩، وبقدر ما هو مسموح لراهب أن يفعل، وربطت نفسي يمين أن أقوم بالرحلة، ويشهد الرب أنني كنت لسنوات متحرقة بلهفة للقيام بحجتي، وهو الموضوع الذي كنت أفكر به دون سواه سواء أكنت مستيقظاً أو نائماً، وأقول صادقاً أنني وأنا منشغل بهذه الأفكار، بقيت مستيقظاً أكثر من ألف ساعة من ساعات الليل ووقت الراحة.

فضلاً عن هذا، لم يكن من السهل بالنسبة لي أن أطلب إذناً لرحلة طويلة جداً، وجولات غير اعتيادية، وبدأ لي أنه من المستحيل تقريباً الحصول على هذا الاذن، كما أنه لم تكن لدي أية فكرة عن الطريقة التي يمكنني فيها تأمين المال للانفاق على مثل هذه الرحلة العظيمة التكاليف، ومع هذا لم أبق بلا حراك، وسألت نصيحة عدد كبير من الناس، ولم أجد سبيلاً لتجنب الإقامة في الوطن، وعلى كل حال، حملت نفسي أخيراً إلى الأمير المشهور، كونت إبرهارد Eberhard الأكبر أوف وورتمبرغ Wurtemberg، الذي كان موجوداً في الأراضي المقدسة منذ وقت طويل، والذي هو مرتبط بعهود الفروسية، حيث كان قد تسلم شارة الفروسية في كنيسة الضريح المقدس، التي هي في القدس.

وطلبت الحصول على نصيحتته الفخمة، حول كيف يمكنني القيام بالحج، الأمر الذي تعهدت القيام به، لأنني كنت خائفاً، وشاعراً بالخطر على حياتي، كما أنني ارتعبت من البحر، الذي لم أره قط بعد، والذي سمعت عنه الكثير، كما وكنت مرعوباً من مخاطر الحج الأخرى، التي قرأت عنها كثيراً جداً، ولهذا سعييت إلى هنا وهناك للحصول على النصيحة، وبعدما استمع الكونت إليّ أجنبي بشكل اعتيادي قائلاً: هناك ثلاثة أعمال في حياة الانسان، لا يجوز لأحد أن ينصح آخر أن يفعلها أو لا يفعلها، أولها هو إبرام عقد زواج، وثانيها الذهاب إلى

الحرب، وثالثها أن يقوم بزيارة الضريح المقدس، وأنا أقول بأن هذه الأعمال الثلاثة جيدة في ذاتها، لكن من السهل تحويلها إلى سيئة، وعندما يحدث ذلك، فإن الذي أعطى النصيحة يمكن أن يصبح بسهولة ملوماً وكأنه هو السبب في تحويلها إلى سيئة، وهنا استطرد الكونت العاقل يقول بأن الحج الذي أسأل نصيحه حوله هو عمل يمكن أن تكون له فضائله، وهو مقدس، وعمل محمود، ومفيد جداً، إنما فقط للذين يقومون به لحمد الرب وشكره، وهو في الحقيقة مليء بالمخاطر بالنسبة للذين يقومون به عبثاً أو غواية، حيث يكون هدفهم التفاخر في هذا العالم، أو أي أمور فارغة وزائلة أخرى.

وزرت أيضاً نبيلاً آخر كان فارساً حسناً، كان أيضاً قد تلقى شارة الفروسية منذ سنوات طويلة مضت في الضريح المقدس، وسألته ما الذي يمكن أن يشير به عليّ بالنسبة لهذه المسألة، فأجابني من صميم قلبه مباشرة وهو منفعل قائلاً: كن متأكداً يا أخي، لولا أنني معاق بتقدم السن، ما من شيء يمكنه أن يمسكني ويحول بيني وبين العودة للقيام بحج آخر، لأنني لم أتلُق النعمة من الرب بمثل القدر الواسع الذي تلقيته في الأماكن التي صُنِع بها خلاصنا، لأنني كنت حيثما أخذت نفسي للصلاة، وأدرت تفكيري، كنت أرى السموات مفتوحة، والعذوبة الربانية والسلوى منصبية على روحي، وهو أمر لا نظير له في مكان آخر.

ومضيت بعد هذا إلى واحد من ديرة الراهبات، والتمست الحصول على إذن راعية الدير حتى أتحدث مع فتاة من الراهبات معروفة بتقواها، وتمتعت — كما اعتقد كثيرون — بقداسة استثنائية، وكنت قد تحدثت معها مراراً من قبل حول تنويري وتثقيفي، غير أنني لم أر وجهها من قبل، وأبحث لهذه الفتاة خطتي، فأجابت بسرور غير متوقع قائلة: «أسرع، أسرع في إنجاز رحلتك التي تنوي القيام بها، ولا تقم هنا

أية مدة أطول، وليكن الرب رفيقك على طريقك»، وتلقيت كلمات هذه الفتاة، وكأنهن جئن من السماء، وبدأت على الفور بالاعداد لجولاتي ورحلاتي، وكان في تلك الآونة في الدير التابع لطائفتنا في روما، والقائم فوق معبد مينيرفا راهب من بلادنا، وهو صديق لي ولي به معرفة جيدة، وله كتبت مخبراً عن نيتي، والتمست أن يحصل لي على إجازة من أبينا الأعظم قداسة، البابا سكتوس Sixtus الرابع، ومن القائد العام لطائفتنا المحترم الأب ليونارد دي مانسوتي Mansuetis أوف بيرسيوم Perusium ، الذي بدون الحصول على إذنه أولاً، ما من أحد في بلادي سيمنحني إجازة بالارتحال، وقام هذا الراهب، كصديق جيد، دوناً إبطاء، وبسرعة، بالحصول على الذي طلبته، وبعث إلي برسالة إجازة موثقة من القائد العام لطائفتنا، حيث حذر جميع الناس أن ما من واحد أدنى منه مرتبة يحق له التدخل لإعاقتي، ومنعي من القيام بهذا الحج.

ولدى تسلمي لهذه الرسالة، بعثت بنسخة عنها إلى الأب المحترم لمنطقتنا الاقليمية، وإلى الحكيم اللاهوتي لودويغ فوشي Ludwig Fuchs ، راعي دير أولم، وأريتهما إجازتي التي حصلت عليها من السيد البابا، ومن مقدم طائفتنا، ورجوتهما أن يقوموا مثلهاما بالفضل بإعطائي موافقتهم، ولدى رؤيتهما رغبتني الشديدة بالذهاب، لم يكتفيا بإعطائي موافقتهم، بل منحاني مالاً ومساعدة من أجل الرحلة، وهكذا حدث أن أصبحت خلال عدة أيام قليلة وبتّ مزوداً بشكل رائع بكل ما هو مطلوب لمثل هذه الرحلة العظيمة، وعندما بلغ هذا إلى مسامع أحد النبلاء والفرسان الشجعان، اللورد أبولينارس فون ستين Apol-linaris Von Stein ، الذي كان آنذاك حاكم بافاريا العليا، ومقيماً في بلدة غندلفنجن Gundelfingen ، أمر بإحضاري إليه، وعهد إليّ بالعناية بابنه السيد جورج فون ستين، الذي قرر إرساله إلى القدس

ليتلقي شارة الفروسية هناك، ووعدني بالتعويض عن جميع نفقاتي، مع إعطيات فوقهن، ورعايته المستقبلية، إذا ما وافقت على أخذ ابنه كمرافق لي في رحلتي.

وقدمت موافقتي عن طواعية لهذا السيد النبيل، واتفقت مع السيد جورج على يوم حددناه، حيث يمكنه أن يجدني فيه في بلدة ميمنجن Memmingen، فمن ذلك المكان، وفي ذلك اليوم يمكننا أن نبدأ رحلتنا، وبعدها قمت بهذه الترتيبات عدت إلى أولم».

وصف موجز لرحلة الراهب فيليكس فابري الأولى إلى الأرض المقدسة

في أيام الاحتفال بعيد الفصح، في سنة ١٤٨٠ لتجسيد ربنا، وفي اليوم التاسع من شهر نيسان، الذي كان يوم أحد، وهو اليوم الثامن بعد عيد الفصح، وهو الذي فيه يغنى « Quasi modo » الخ في الكنائس، والذي يحتفل فيه أيضاً بعيد تكريس كنيسة الدومينيكان في أولم، في ذلك اليوم نفسه، بعد الغداء، وحسبما جرت العادة، صعدت المنبر، ووعظت الناس الذين كانوا موجودين بأعداد كبيرة، لسماع القداس وللحصول على الغفران، وبعدما أنهيت قداسي، وقبل الاعتراف العام الذي يقوم به الناس في مثل هذه المناسبات، أخبرتهم جميعاً عن الحج الذي كنت على وشك الشروع به، وسألتهم جميعاً، والتمست أن يطلبوا من الرب في صلواتهم لي عوداً سليماً، وأن يغنوا معي في ذلك الوقت بسرور مزموير قيامة الرب، الذي اعتاد الناس على غناؤه مع بعضهم، مع مزموير الحجاج بالبحر، وبعدما قلت هذا، شرعت أنشد بصوت مرتفع «قام المسيح» الخ، وعندما انتهت هذه التريمة، غنيت مجدداً:

، In gottes Nahmen Fahren wir, Seiner gnaden
وغنى جميع الناس التريمة ورائي، وهي التي شرعت بها، غنوها بأصوات مرتفعة وجميلة، وكرروا ما غنوه مراراً وتكراراً، كما أنهم لم يضبطوا أنفسهم عن البكاء، وانفجر بعضهم بالبكاء بصوت مرتفع بدلاً من الغناء، لأنه كان هناك عدد كبير من الأشخاص من كلا الجنسين قلقين ومتوترين، وخائفين، مثلما كنت أنا نفسي خائفاً من الهلاك وسط هذا القدر من المخاطر المرعبة، وعندما انتهى الغناء أودعتهم لعناية

الرب، بأن أضفيت عليهم غفراناً عاماً، وقويت عزائمهم بشارة الصليب، وودعتهم، ونزلت من على المنبر.

وبعدما تلقيت في الصباح الباكر من اليوم الرابع عشر من نيسان المباركة التي تعطى إلى الذين على نية السفر، وبعدما قبلت إخواني وعانقتهم، ركبنا على خيولنا، أنا والمقدم المحترم لودويغ، مع خادم من مدينة أولم، حيث التقيت وفقاً لموعدي مع السيد أبولينارس فون ستين، وبصحبه ابنه جورج، وعدداً كبيراً من الجنود المسلحين، وعلى الفور أجرينا في اليوم التالي الاستعدادات للمغادرة، وودع الشاب النبيل أباه، وجميع أقربائه وحاشيته، وركب فرسه دونما وجل أو أسى، واندفعت أنا أيضاً إلى بين ذراعي أبي الروحي اللطيف جداً والمحبوب، أطلب منه الوداع، والمباركة الأبدية، إنما ليس من دون حزن وأسى، ظهر منا كلانا بوساطة كثير من الدموع والتهنيدات، ولم يكن هناك شيئاً عجيباً حول هذا، لأن الفراق الاجباري للابن عن أبيه وللرجل الصادق عن أصدقائه المخلصين، من الطبيعي هو محزن.

وفي أثناء عناقي وتنهداتي سمعت آخر كلمات أبي المحبوب جداً ونصائحه، بأن لا أنساه في الأرض المقدسة، وأنه إذا ما توفر رسول، بأن أرسل له رسالة من البحر، أخبره فيها عن أحوالي، لكي يتأكد من عودتي سريعاً، وهكذا تركني وهو آسف جداً، وعاد مع خادمه إلى أولم، إلى أبنائه الذين هم إخواني، وبعد مغادرة أبي، استولى عليّ إغواء لا يمكن مقاومته، بدلاً عن رغبتني الجاحمة لرؤية القدس، والأماكن المقدسة، التي كانت تتوهج في داخلي حتى ذلك الحين، فقد ماتت كلياً في داخلي، وشعرت بأنني أكره السفر والترحال، والحج، فالذي بدا لي حلواً وفضيلاً، ظهر الآن أنه مرهق، ومؤلم، وبلا فائدة، وفارغ وأثيم، وكنت غاضباً من نفسي لإقدامي على الترحال، ونظرت إلى جميع الذين حاولوا ثنيي عن القيام بالرحلة، بأنهم أحكم المستشارين، وأوثق

الأصدقاء، وفي الوقت نفسه عددت الذين شجعوني أعداء حياتي، وصرت أرى أنني سأتمتع أكثر برؤية سوايبا من رؤية بلاد كنعان، وبدأت أولم إلي أكثر جمالاً من القدس، فضلاً عن هذا ازداد الخوف من البحر في داخلي وتضاعف، وشعرت بكثير من مشاعر المعارضة والرفض لذلك الحج، إلى حد أنه لولا الخجل، لركضت خلف المقدم لودويغ، وعاددت الدخول إلى أولم معه، وكنت سأشعر بالسرور الأعظم لفعل ذلك.

وبقي هذا الاغواء اللعين معي موجوداً طوال الرحلة كلها، وكان مزعجاً جداً لي، لأنه ذهب بكل السرور، والمتعة، والرغبة، فبذلك يدعم الحاج جهوده، وذلك يحثه على الاستمرار بعمله، وقد جعلني باهتاً وبليداً في كل من مشاهدة الأماكن الجديرة بالاهتمام في البحر والبر، وفي كتابة رواية عنهم، وكان الذي كتبته هو ضد مزاجي، لكن نجحت أحياناً في التغلب على سئمي بالعمل المرهق.

وعلى هذا انطلقت أنا والشاب السيد جورج، وخادم اختاره من حاشية أبيه، وأقلعنا من ميمينجن، وفي خلال عدة ساعات بدأ يصبح صديقاً لي، وعارفاً بي، وصرت أيضاً أنا صديقاً وعارفاً به، وقد توافقنا بطباعنا المتنوعة معاً بشكل جيد، وهذا أمر مريح جداً للذين يقومون بالحج مع بعضهم، لأنه إذا ما كان مع الإنسان رفيق على غير وفاق معه، سيلفهما الأسى والويل طوال حجتهما.

وهكذا دخلنا إلى الألب مبهتهجين حتى انسبروك Innsbruck ، وبعد مغادرتنا لذلك المكان، ركبنا وتقدمنا مسرعين، من أجل أن نصل في أقرب وقت إلى البندقية، وعندما كنا في الجبال، حدث حادث معنا أرغب في إخباركم عنه، فعندما وصلنا إلى قرية اسمها أدسكالام Ad Scalam ، شردنا هناك وابتعدنا عن طريقنا الصحيح، الذي هو الطريق الملكي العام، لأنه كان من المتوجب علينا تسلق الجبل، والعبور

من قرب القلعة القائمة على قمته، وعلى كل حال نحن لم نفعل ذلك، بل خلفنا الجبل والقلعة على جانبنا الأيسر، ونزلنا إلى وادي، من خلال طريق طويل، وممهد بشكل جيد، وعندما تملكنا أخيراً إمكانية رؤية السهل القائم تحت الجبل، رأينا أمامنا بلدة ذات حجم جيد، الأمر الذي أدهشنا، لأننا لم نكن نعلم بأننا سنصل إلى أي بلدة في ذلك اليوم، وعندما وصلنا إلى تلك البلدة وجدنا أنها كانت باسانو Bassano ، وأدركنا بأننا شردنا عن طريقنا، وبقينا على كل حال هناك لمدة ليلة، وشربنا نبيذاً أحمر، هو الانتاج الخاص لذلك المكان، وظللنا نفعل ذلك حتى غلبنا النعاس، وكنا على كل حال غير مرتاحين مطلقاً، لأنه لم يكن هناك في النزل أحداً يمكنه التحدث بالألمانية معنا، وبما أننا كنا نجهل الإيطالية، توجب علينا أن نسأل عن كل شيء بالاشارة.

وركبنا في اليوم التالي إلى قلعة فرانكو، ومن هناك مررنا خلال تريفيسو Treviso ، حيث بعنا خيولنا، وتابعنا السفر على البغال إلى مرغيروم Margerum ، وفي مرغيروم قلنا للياسة وداعاً، وسافرنا بالبحر في بارجة، حيث أبحرنا حتى البندقية ثم إلى فونداكو دي تديشي Fondaco de Tedeschi ، وسألنا في فونداكو عن نزل للفريسان والحجاج، وأخذنا من قبل واحد من الألمان إلى نزل القديس جورج، الذي كان نزلاً واسعاً ومحترماً، ووجدنا هناك عدداً كبيراً من النبلاء من مختلف البلدان، كلهم قد ربطوا أنفسهم بالتعهدات نفسها مثلما فعلنا نحن شخصياً، وكانوا ينوون عبور البحر، وزيارة ضريح الرب يسوع الذي هو أعظم الأضرحة قداسة، وكان هناك أيضاً بالنزل الأخرى كثير من الحجاج من كل من الكهنة والرهبان والرجال العلمانيين، والأعيان والعاديين، من ألمانيا، وغاليا وفرنسا، وكان هناك بشكل خاص أسقفان، وهما مولاي أسقف أورلين، ومولاي أسقف لى — مانس، مع حاشية كبيرة من التابعين والخدم، ولقد كانوا هناك

يتظرون إبحار إحدى السفن، وفضلاً عن هذا كان هناك معنا بعض النسوة المتقدمات بالسن، وكن عقيلات ثريات، عددتهن ست، يرغبن بعبور البحر إلى الأماكن المقدسة، وكنت مندهشاً تجاه شجاعة تلك النساء العجائز، اللاتي كن بسبب تقدمهن بالسن بالكاد قادرات على القيام بأود أنفسهن ومع ذلك نسين ضعفهن، والتحقن من خلال حبهن للأرض المقدسة بفرسان شباب، وتحملن أعباء ومتاعب الرجال الأقوياء.

وعلى كل حال لم يكن النبلاء المتكبرين راضين عن هذا، ورأوا عدم النزول في السفينة التي سوف تسافر بها هؤلاء السيدات، عادين أنها إهانة بالنسبة لهم السفر وتلقي شارة شرف الفروسية برفقة نساء عجائز، وحاول أصحاب هذه الأرواح المتشائخة إقناعنا بعدم العبور في السفينة التي عزمت النساء العجائز على الإبحار فيها، لكن الفرسان الآخرين من ذوي الضمائر عارضوا هؤلاء الرجال المتشائخين، وكانوا سعيدين بحضور أولئك النسوة الصبوريات، وكانوا يأملون أن قد استهن سوف تجعل رحلتنا آمنة أكثر، وعلى هذا الأساس تفجر نزاع لا يمكن فضه بين هؤلاء النبلاء، وقد استمر حتى نقل الرب أولئك الرجال المتشائخين من بيننا، وعلى كل حال هؤلاء النسوة التقيات بقين برفقتنا في كل من أثناء الذهاب إلى هناك، ثم في أثناء العودة.

وكان الآن السيد أوغسطين كونتاريني Contarini ، الذي معنى اسمه هو «كونت الراين»، وهو نبيل بندقى، كان ذاهباً ليأخذ شحنة من الحجاج، واتفقنا معه حول الإيجار، واكثرنا غليونيه، وتسلمنا منه قمرات وأغطية، أي أماكن لكل واحد منا للنوم في الغليون، وأملنا بعبور سريع، ذلك أننا انتظرنا أياماً كثيرة، كان الغليون خلالها يعدّ من أجل البحر، لكن عندما كان كل شيء جاهزاً، ولم يبق شيء لعمله سوى الإقلاع، الذي تشوقنا كثيراً إليه وللقيام به، وصلت سفينة، حلت

أخباراً سيئة، بأن امبراطور الأتراك محمداً الكبير كان يتولى حصار جزيرة رودس ببحراً، بأسطول كبير في البحر، وبجيش شاكي السلاح من الفرسان والرجالة برأ، وأن بحار: الإيجي، والكارباثيان Carpath-ian ، والماليان Malean كانت تعج بالأتراك، وأنه على ذلك من غير الممكن القيام خلال هذا العام بعبور الحجاج إلى الأرض المقدسة، ولن يكون سهلاً بالنسبة لي الحديث بأي أسف تلقى الحجاج هذا الخبر وسمعوه، وسيكون مرهقاً بالنسبة لي الحديث عن الفوضى، والخلافات والنزاعات التي تفجرت بين صفوف الحجاج، وقمت على كل حال في عمل آخر، بوصف جميع المصاعب التي كابدناها في البندقية، وكيف انفصل الفرنسيون عنا، مع أنهم كانوا يتمنون إلى غليوننا، واجتمعنا الآن نحن الحجاج الألمان، مع بعضنا، وقابلنا رئيس مجلس شيوخ البندقية، مع التماس بأن يتكرم اللوردات هناك بحماية غليوننا مع إعطائه أماناً بالمرور، حتى لا يؤخذ من قبل الأتراك، ونؤخذ نحن معه أسرى، وتلقينا لالتماسنا جواباً، بأن الغليون بذاته يمتلك الحرية بالجواز بين الأسطول التركي، ويمكنه القيام بذلك، دون أن يتعرض للاستيلاء عليه بفضل المعاهدة بين الأتراك والبنادقة، غير أن اللوردات كانوا على غير استعداد لإعطائنا أية ضمانات، فيما يتعلق بحرية الحجاج، ولم ينصحوا بمحاولة العبور هذا العام، لكن إذا كنا جميعاً مصريين على الذهاب، يمكننا الابحار حتى جزيرة كورفو، حيث يرسو قائد البحر مع أسطول البنادقة، ويمكننا هناك أن نتبع بأمان نصيحته، لأنه يعرف جميع أعمال الأتراك، وعندما وافقنا على فعل هذا، أعطونا رسائل توصية إلى القائد المتقدم الذكر، وأذنوا لنا بالذهاب، وزودوا قبطان سفينتنا بإذن لأن يأخذنا إلى البحر، مع أنهم من قبل كانوا قد منعوه من أخذنا إلى أي مكان.

وبناء عليه صعدنا جميعاً من حجاج وسواهم على ظهر الغليون،

وكان عدد الحجاج مائة وعشرة، وكان تعداد الناس جميعاً الذين أقبلوا بالغليون ثلاثمائة وثلاثين، ورفعنا مراسينا، ونشرنا أشرعتنا، وأقلعنا باسم الرب، وأبحرنا أمام الريح، التي كانت لطيفة بما فيه الكفاية، وهكذا سرنا في خلال ساعتين مسافة جيدة حيث ابتعدنا عن اليابسة، وصرنا في أعالي البحار، وعلى كل حال لم تستمر ريحنا الطيبة طويلاً، ورسونا في اليوم الثالث في بارنشيا (Parenzo) Parenza الموجودة في منطقة استريا Istyria التي هي جزء من مملكة دلماشيا.

وأخافنا الناس هناك. بإخبارنا حكايات مرعبة عن الأتراك، ولهذا مكثنا هناك لعدة أيام، لأنهم أخبرونا أننا لن نستطيع الوصول إلى جزيرة كورفو دون التعرض للأذى، لأن الأتراك قد نشروا أسطولهم فوق جميع البحر الأدرياتيكي، واصطادوا واستلبوا جميع الذين قابلوهم، وعلى كل حال غادرنا ذلك الميناء، ووصلنا بعد إبحار بطيء لعدة أيام إلى زارا، ورسونا فيها، وهي مدينة في دلماشيا، إنما لدى سماعنا بأن الطاعون كان متفشياً هناك، ابتعدنا بسرعة عن تلك المدينة، وبعد رحلة بطيئة ومملة وصلنا إلى مدينة ليسينا Lesina ، وعندما كنا على وشك الدخول إلى الميناء، هبت ريح طيبة، لها نشرنا أشرعتنا، وغادرنا ليسينا، وتابعنا الابرار بشجاعة لمدة عدة ساعات، وهبت بعد ذلك ريح هادئة، كانت غير مفيدة بالنسبة لنا، فأردنا التوقف، فأتينا إلى جزء وعمر ومهجور من شاطئ كراوشيا Croatia ، وأرغمنا على التوجه نحو ميناء مهجور، و لأن نطوي أشرعتنا في وسط جبال وعرة عالية، ولكي نبذل الأجواء على أنفسنا، ذهبنا إلى الشاطئ بقوارب صغيرة، وفوجئنا بأن رأينا هناك فوق الرمال جسداً قد قذف به البحر، وهو مشوه ومتعفن، وبما أن البحارة كانوا من ذوي الوهم، فقد خافوا إلى حد الموت من هذا الاكتشاف، وبدأوا يتوقعون وقوع الشرور بالنسبة لنا، وأبعدونا عن

الجسد، ولذلك لم يكن هناك أي واحد بيننا من امتلك شفقه نحوه أو تولى دفنه.

* * * * *

هذا وتهب رياح هذه البلاد أعلى فأعلى، ولقد بقينا لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي واقفين راقدين بين هذه الصخور، وكنا كلما حاولنا الانطلاق، كنا نساق إلى الوراء عائدين بقوة الريح، مما كان يسبب إزعاجاً عظيماً لنا جميعاً، وعلى كل حال لقد أنقذنا هذا الازعاج، لأنه بعد ثلاثة أيام هبت ريح لطيفة خارج ذلك المكان، وأخذنا طريقنا إلى أعالي البحار، حيث التقينا بغليون حربي بندقي، وعندما مرّ بنا هذا الغليون، سأل قادتنا عما إذا «حدث لنا أي شيء في البحر البارحة أو قبل البارحة»، وعندما أجبناهم: «لا شيء سوى رياح خبيثة أرغمتنا على اتخاذ ملجأ تحت الجبال» فأجابونا: «بوركت هذه الرياح التي دفعتكم إلى أماكن للاختباء، لأنكم لو كنتم البارحة في عرض البحر المفتوح، لوقعتم في أيدي الاسطول المسلح للأتراك، الذي كان مبحراً نحو أبوليا لينهب المسيحيين هناك»، ولدى سماعنا بهذا حمدنا الرب الذي أنقذنا حتى الآن من أيدي الأتراك.

ومضينا على طريقنا، ووصلنا بعد عدة أيام إلى كورزولا Cur-zola في إيليريا Illyria ودخلنا إلى ميناء مدينة كورزولا في الصباح الباكر، وسمعنا قداساً هناك، وكورزولا التي هي مدينة في إيليريا لها اسم آخر هو «بريبو في ألتو Prepo in alto»، وهي مبنية فوق جبل مرتفع، وهي صغيرة، ومع ذلك مكتظة بالسكان، وهي تحت حكم البندقية، كما أنها جيدة التحصين بالأسوار والأبراج، وهي مقر أسقف.

وكان السكان جميعاً في حالة رعب عظيمة، من الأتراك الذين رأوهم

يوميًا يجوبون البحر بحثاً عما يمكن نهبه، فهم قد ينقضون عليهم، وتساءلوا مندهشين كيف يمكن لنا أن نغامر بالإبحار فوق بحر مربع وخطير إلى هذا الحد، ونصحنا الأكثر حكمة بينهم بالعودة، غير أننا لم نصغ إليهم، وعاهدنا الاقلاع، بعدما اشترينا من هذه المدينة الخمرة، والخبز، وأشياء ضرورية أخرى، وحدث أنهم عندما كانوا يحركون قلع السارية ويرفعونه بدون انتباه من قبل واحد من البحارة، سقط ثانية، فأصاب بحاراً آخر، فقتله في مكانه، وكان مولاي أسقف مانس واقفاً إلى جانب هذا القلع الخطير الذي سقط هناك، وكنت أنا إلى جانبه مع آخرين كثر، وكنا جميعاً على وشك أن نصاب به وأن نقتل، وأما بالنسبة للرجل القتل فقد لفوه بكفن، وربطوا حقيبة مليئة بالحجارة إلى قدميه، ورموه إلى البحر.

وأبحرنا مسرعين من كورزولا، ووصلنا في حوالي منتصف الليل إلى ايبيداروس Epidaurus ، التي اسمها الحديث هو راغوثا Ra-gusa، وتوقفنا في راغوثا، وألقينا بمراسينا، وأوقفنا سفيتنا ونمنا حتى شروق الشمس، ودخلنا المدينة بعد ذلك، غير أننا لم نجد فيها نزلاً مثلما الحال في بلادنا، وبناء عليه ذهبت أنا مع السيد جورج ستين، وبعض النبلاء الآخرين إلى دير تابع لطائفة الدومينيكان، وسألناهم إعطاءنا شيئاً لنأكله مقابل مال ندفعه، وقد جلبوا لنا ميرة جيدة مع دن خمرة سكلافونية Slavonian كبير، وعاملونا بشكل لطيف.

وجاء رئيس الدير على الفور، جالِباً معه اثنين من الرهبان، هما الراهب فرانسيس دي كاتورو Catoro، والراهب دومونيك، وقد عهد بهما إليّ، وأعطاني إياها ليكونا رفيقي في رحلتي، وذلك لأنهما رغبا بالذهاب إلى القدس برفقتنا، ولقد سررت نحو هذا بشكل خاص، لأنني حتى ذلك الوقت كنت بلا واحد من رهبان طائفتنا، وكانت رفتها بالنسبة لي مرغوبة أكثر من الذهب الجيد، وبعدما فرغنا من

تناول طعامنا، ورأينا الدير، تمشينا في أرجاء المدينة ورأيناها، ومثل هذا فعل بقية الحجاج، ولقد رأينا بأن تلك المدينة كانت محصنة بشكل رائع بأبراج وبخنادق عميقة جداً، كان الناس يحفرونها آنذاك، وعجبنا لهذا، وسألناهم عما إذا كانوا هم أيضاً يخشون من التركي، مع أنهم يدفعون الجزية إليه، فأجابوني قائلين: «نحن نخاف منه دوماً، ونقوم بتحسين أنفسنا ضده، لأنه وإن كان صديقنا اليوم، سوف يكون عدونا غداً»، وقد وجهوا اللوم إلى تشوقنا للمغامرة فوق البحر في مثل ذلك الوقت المرعب، وذلك في وقت لم يتجرأوا فيه على اظهار أنفسهم في البحر، وحاولوا إقناعنا بالبقاء هناك حتى تأتي أخبار أفضل، ولسوف أصف هذه المدينة والأماكن الأخرى في روايتي لدى عودتي من حجي الثاني.

وعلى كل حال عندما تأخر النهار، صعدنا إلى ظهر غليوننا، وشرعنا منطلقين من ميناء راغوثة في ذلك المساء مع ريح طيبة، وقطعنا مسافة طويلة تلك الليلة، وعند بزوغ الفجر هبت ريح معاكسة قوية، أخرجتنا عن مسارنا الصحيح، ودفعتنا نحو أبوليا، التي رأيناها أمامنا، ولم نستطع بحارتنا ببراعة ضبط مسار سفيتنا لكي نصل إلى الشاطئ عليها، وهكذا وصلنا بعد ابحار طويل إلى جزر نموزا بولس - Gqzap olis، وهناك لم يكن لدينا ريح، كما أننا لم نتحرك، إلا بواسطة العمل الكسول للمجاذيف بواسطة البحارة، والمهم أننا تابعنا الزحف ببطء والتقدم نحو الأمام.

وهكذا وصلنا إلى مكان حيث توجد مدينة فوق جبل، وهي مشرفة على البحر، وكانت مسورة بشكل جيد، لكنها كانت مهجورة تماماً بسبب تنفس تين، وذلك حسبما سأصف ذلك فيما بعد، ووصلنا بعد هذا، بعد رحلة مربكة بين جبال عالية، إلى جزء من البحر، بقي الغليون فيه مثبتاً فوق سطح الماء، ولم يكن بالإمكان تحريكه بالمجاذيف لا إلى اليمين ولا إلى الشمال، بل بقي — كما قلت — ساكناً بلا حراك، لأنه

كان تحته وهدة، يسمونها «متاهة»، أو فتحه في الأرض، كانت تبتلع شطراً كبيراً من البحر، وحيث كان الماء يجري نحو الأسفل في داخل هذه المتاهة، لهذا وقف الماء فوقها، منتظراً سقوطه إلى داخل المتاهة، وعندما لا يكون في ذلك البحر ماءً كثيراً، يدور الماء، وكل من يحاول السباحة فوقه هو معرض لخطر الغرق، وفي الحقيقة كانت السفن معرضة للابتلاع هناك، لولا أن الذين يحركونها تجنبوا ذلك، وهكذا وقفنا بلا حراك في ذلك المكان، وبذل بحارتنا جهدهم بأصوات مرتفعة مع كثير من العمل لإخراج الغليون من هذه الوهدة، غير أن جهودهم تبددت عبثاً.

وعلى كل حال، عندما رأى أهل كوركيرا Corcyra هذا— حيث كنا في مدى الرؤية لجزيرة ومدينة كوركيرا— قدموا لمساعدتنا من كوركيرا، أو كورفو بغليونين صغيرين، وقد ربطوا حبالاً إلى غليوننا، ومدوهم إلى غليونيهما، وتمكنوا بالتجديف بغليونيهما، وبقوة عظيمة من سحب غليوننا من بين فكي الوهدة، وذلك خشية أن تبتلعنا الأعماق، وبعدما جرى انقاذنا على هذه الصورة، تابعنا سيرنا إلى جزيرة كوركيرا، ودخلنا إلى ميناء المدينة بعد غياب الشمس، الذي كان مليئاً بالسفن الحربية، لأن— كما تقدم للوردات مجلس شيوخ البندقية أن أخبرونا— قائد البحر كان هناك، مع اسطول مسلح للحفاظ على السلام في البحر، وهكذا نمنا حتى الصباح، وعند ظهور الصباح ذهبنا إلى الشاطئ ومن ثم إلى المدينة في قوارب صغيرة، ووجدنا المدينة تعج بالناس، حيث كان بينهم كثير من الأتراك يسيرون هناك بين المسيحيين، وبعد سماعنا لقداس هناك، قمنا نحن الحجاج السوابيون والبافاريون باستئجار بيت صغير في الضاحية وهناك طبخنا، وأكلنا، وشربنا، ونمنا. وكان ذلك البيت صغيراً، مبني من جذوع أشجار قديمة جداً، وجافة كثيراً، وهكذا حدث أنه نتيجة للنار العظيمة التي أوقدناها من

أجل الطبخ هناك، أن المكان التهب مرة تلو أخرى، ولقد استطعنا دوماً إطفاء تلك النار، ولذلك لم نواجه أية اضطرابات بشأنها، ولكن لدى حدوث ذلك للمرة الثانية، شاهد الجيران النار وقد أمسكت بالسقف، فركضوا وهم يصرخون ويندبون، وفي الوقت نفسه صعدنا فوق السقف، بواسطة سلاسل، وانتزعنا الأطعمة من وسط اللهب.

وكنا في تلك المناسبة في خطر عظيم، لأن النار لو جمعت قوتها لكان المكان كله قد احترق، ووقتها كان السكان الإغريق في كوركيلا قد ضحوا بحياتنا انتقاماً لأنفسهم لفقدانهم بيوتهم، وخسارتهم لها، ذلك أنهم كانوا في الحقيقة عدوانيين جداً نحو الألمان، ومن السهل كثيراً إثارتهم لمقاتلتهم.

وبعدما تناولنا الطعام، قدمنا باحترام الرسالة التي تسلمناها من شيوخ البندقية، إلى قائد البحر، ورجوناه أن يقدم لنا نصيحته ومساعدته للاستمرار برحلة حجنا، ونصحنا، بعدما قرأ الرسالة، بالعودة إلى البندقية، ولكنه عندما أدرك أن هذه النصيحة كانت مفاجئة بالنسبة لنا، قال وهو مغضب: «أية حماقة تملكتم، حتى أنكم تريدون تعريض أنفسكم لمثل هذه المخاطر، تعريض كل من أجسادكم وأرواحكم، وتعريض حياتكم وممتلكاتكم؟، انظروا إلى البحر، إنه مغطى بالأثراك المتوحشين، حيث لا توجد فرصة لنجاتكم من بين أيديهم، عودوا إلى البندقية، أو أقيموا في واحد من المراسي البحرية حتى تأتي أخباراً أفضل، وإذا ما كنتم مصرين تمام الإصرار على الذهاب إلى الشرق، عليكم أن تدبروا بأنفسكم عبوراً لأنفسكم، ذلك أنني لن أسمح للغليون الذي قدمتم به بالابحار إلى هناك، لأنه من ممتلكات القديس مرقس».

وعندما سمعنا منه هذا كنا منزعين جداً، وانصرفنا من حضرته، وطلبنا منه منحنا بعض الوقت للتشاور، وبناء عليه انعقدت عقول

كثيرين، ولا سيما الأسقفين، وأخذوا بكلام القائد، وهكذا قررا العودة إلى البندقية مع جميع حاشيتهما، وكان حتى بعض من فرساننا مرعوبين، وكانوا جاهزين للعودة، لكن آخرين كانوا شجعانا فلم يتزحزحوا، والتحققت شخصياً بالمجموعة الأخيرة، وعملت بقدر ما أستطيع على تشجيع وتحسيس الأفراد المترددين، بوعظهم وباقتباس بعض النصوص من الكتابات المقدسة بهدف بعث الأمل فيهم بنيل الحماية الربانية.

وحدث في بعض الأيام، عندما كنت غائبا، أن قام السادة الفرسان في جماعاتنا وأخذوا يتحدثون عن مخاوف حجننا، وكان بعضهم ماضياً بالحديث، بينما كان آخرون مترددون ووقفوا صامتين، وقد قال أحدهم: «عليكم عدم الاصغاء مطلقاً إلى كلمات التشجيع التي يقولها الراهب فيلكس لكم، فما الحياة أو الموت بالنسبة له؟ فهو راهب محترف، ليس لديه ممتلكات، ولا أصدقاء، ولا مركز في الحياة، ولا شيء آخر في العالم، مثلما حالنا نحن، وأسهل بالنسبة له أن يموت سريعاً بسيف الأتراك أو المسلمين، من أن يصبح مسناً في دير، حيث يموت يوماً»، وقد قال أكثر من هذا بكثير محاولة منه لمنع السادة من الاصغاء لي.

وقد أخبرت بهذا كله، فقامت بعد ذلك بتحويل مجرى الحديث، في أن أضع بعض الشجاعة في الفارس نفسه لكي لا يمكن اقناعه بالعودة، وأبقانا القائد في كوركيراً لمدة ثمانية أيام، وقد أخبرنا في كل يوم أخباراً أكثر إرعاباً، وكنا نحن الألمان قد اتفقنا جميعاً بوجوب عدم العودة، بل أن نذهب باسم الرب إلى القدس، وأخيراً عندما رأى القائد أننا قد عقدنا العزم على الذهاب وعلى تنفيذ نوايانا، عندها ألقع عن التدخل بحجنا، وبتنا جاهزين للانطلاق، حيث نقلنا أنفسنا إلى غليون آخر، كنا قد قمنا بشرائه.

وعندما بات جميع الذين رغبوا بالقيام بالرحلة مع بعضهم على ظهر

هذا الغليون، وفي أثناء تحدث أحدنا إلى الآخر بسرور وبهجة، ونحن واقفون على الدكة إلى جانب السارية، طلب واحد من الشيوخ منا الصمت، وشرع يخاطبنا قائلاً: «سادتي وأخواني الحجاج، نحن نقوم بعمل عظيم، وصعب، ومرهق، بتنفيذ هذا الحج بوساطة البحر، وأقول لكم الصدق، وأتحدث من الجانب الانساني باننا نعمل بشكل أحق بتعريض أنفسنا لخطر عظيم، ضد نصيحة وقناعة قائد البحر، وضد كل واحد آخر، ولهذا رأينا السידين الأسقفين، وغالبية النبلاء، والأقوياء، والأعيان، وربما الأكثر حكمة في جماعتنا، قد تخلوا عن الرحلة، وهم الآن على طريق العودة إلى بلادهم، آخذين بالنصيحة، التي أعطيت لهم، في حين نقف في الاتجاه المعاكس، والآن، ولكي لا تكون رحلتنا مجرد حماقة آثمة، لا بد أننا نحتاج إلى إصلاح حياتنا على ظهر هذا الغليون، وعلينا دوماً أن نطلب حماية الرب القدير وقديسيه، حتى نكون قادرين على أخذ طريقنا بين أعدائنا وبين أسطولهم».

ولدى سماعنا لهذه الكلمات قررنا بالاجماع التوقف عن اللعب بالورق أو بالنرد، على ظهر الغليون، وعن الخصومات، وعن الأيمان، وعن التقاذف بكلمات التكفير، وعدم السماح بذلك كله، وأن يضيف رجال الدين والكهنة صلوات ليلية لصلواتهم النهارية المعتادة، وفي الحقيقة، نشبت خلافات عظيمة حول هذه المسائل، قبل اتخاذ هذا القرار، لأن الناس كانوا يقامرون صباحاً، وظهراً، وليلاً، وبشكل خاص أسقف أورلين مع حاشيته، وفي أثناء ممارسة ذلك كانوا يقسمون ويجدفون بشكل مرعب، ويتخاصمون يومياً، لأن الفرنسيين والألمان كانوا دوماً على خلاف وشجار.

وهكذا حدث أن واحداً من أتباع أسقف أورلين ضرب كاهناً تقياً من جماعتنا، فاستحق على ذلك الحرمان الكنسي، وبما أن الفرنسيين قوماً متشاكخين، ورجالاً انفعاليين، لهذا اعتقدوا أنه كان عملاً مصدره الهام

رباني وحكمة، أن انفصلوا عنا، وتخلصت عيوننا منهم، لأنه كان من شبه المستحيل الوصول إلى القدس برفقتهم من دون إراقة للدماء ومقتل لبعضنا.

وقد أمضينا ليلة واحدة في كوركيرا، ونمنا على ظهر السفينة، وفي تلك الليلة أصابنا رعب عظيم، لأنه في آخر النهار، وعندما أخذت الدنيا تزداد إظلاماً، وفي الوقت الذي كنا ما نزال فيه واقفين حول السارية نتبادل الأحاديث، اكتشفنا وجود قارب غريب، واقفاً إلى جانبنا، والذين كانوا فيه هم أتراك، وجواسيس، كانوا يحاولون الاصغاء إلى ما كنا نقوله، وعلى الفور فزعنا بأنفسنا إلى الحجارة، وقمنا برميها عليهم، وخلفهم عندما شرعوا يجذفون مبتعدين عنا، وتمكن على كل حال، القارب من الإفلات نحو البحر، والنجاة .

وفي الصباح التالي زعقت الأبواق لدينا، للإعلان أننا كنا على وشك الاقلاع، ورمينا بأربطة الغليون، وأدرنا ظهورنا للميناء ونحن نغني ببهجة، أما الحجاج الذين بقيوا بعدنا، فقد وقفوا على الرصيف يضحكون علينا، وقالوا بأننا كنا رجالاً يائسين — Waghels ، وكانوا يتحدثون بشكل عام في كوركيرا، أننا لا بد من أن نقع بالأسر قبل أن نصل إلى مودون Modon ، وهكذا ابتعدنا عن كوركيرا ومضينا نتابع سفرنا بمزيج من البهجة والخوف.

وعاد الأربعون حاجاً الذين خلفناهم في كوركيرا في سفينة مستأجرة إلى البندقية، وعندما وصلوا إلى هناك، قالوا إنه لمن المؤكد أننا اعتقلنا من قبل الأتراك، وتحدثوا بالقصة نفسها في مدن أخرى في إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، وفعلوا هذا رغبة منهم لتسويغ جبنهم، وذلك بالإشارة إلى سوء حظنا، ونتيجة لهذا، عقدت قداسات كثيرة لفائدة روحي في عدة أماكن من سوايا، لأن الحجاج نشروا هذه الأكاذيب في جميع

أرجاء سوايا وبافاريا.

وتقدمنا بالوقت نفسه تقدماً حثيثاً، وعبرنا بشكل مريح إلى مودون، ولم نشهد خلال الطريق ولاحتى قارباً فوق سطح البحر، الأمر الذي اندهش نحوه أهل مودون، لأن جميع العاملين بالبحر كانوا خائفين كثيراً، وحاول الألمان الذين كانوا يسكنون هناك، بإخلاص عظيم، ثنيًا عن محاولة الذهاب مسافة أبعد، وحدثونا بحكايات كثيرة مرعبة، لكن بالنسبة إلينا، كنا كما كنا من قبل، فنحن الآن غير خائفين من الاقدام على إنجاز رحلتنا، ومتابعة السير على طريقنا، وبتوجيه من الرب وإرشاد، وصلنا إلى كريت بسلام، ودخلنا بسرور إلى مرسى مدينة الخندق.

ولدى وصولنا إلى هناك يمكن للانسان أن يقول بأن أهل المدينة كلها قد خرجوا لاستقبالنا، لأنه كان أمراً عجباً، لأبل إعجازاً، أن يتمكن غليون مسيحي من النجاة من الأتراك المتوحشين، الذين رأوهم يوماً يتجولون في البحر في غلايين مسلحة ذوات ثلاثة صفوف من المجذفين، وذلك بحثاً عما ينهبوه، ولقد دخلنا إلى بيت واحد من الألمان، الذي كان لديه بيت سيء السمعة، ومع هذا عندما وصلنا قام بتنظيف مسكنه، وأبعد العاهرات اللاتي كن لديه، ذلك أنه لم يكن هناك نزل آخر للحجاج، وفي مقابل هذا البيت كان هناك بيت آخر، كان نزلاً لتجار أتراك، وكان به بالفعل كثير من التجار الأتراك الأثرياء، من القسطنطينية، وقد قال هؤلاء — كما أخبرنا — لنا: «هؤلاء الرجال سيضيعون إذا ما حاولوا المضي أبعد»، وأكثر من هذا جاء بعض هؤلاء الأتراك إلى بيتنا، ونصحونا بعدم الابحار في الوقت الحاضر، لأننا من المؤكد سنقع بالأسر، فضلاً عن هذا حاول دوق الخندق ومستشاروه أن يصنعوا معنا معروفاً، فأرسلوا بخطيب من عندهم لنا، حاول بكلام لاتيني منمق، أن يوجه حجاجنا، وأن يحثهم بكثير من الحجج، على أن

يكونوا ضد متابعة السفر، وأوضح أن المخاطر خلف هذا المكان سوف تكون أعظم من المخاطر التي واجهناها خلال سفرنا إلى ها هنا، لأنه يوجد ما بين كريت وقبرص، جزيرة رودس، التي كانت في تلك الآونة محاصرة من قبل الأتراك، ولا يمكننا في أثناء عبورنا أن نتجنب مواجهة القرصان الأتراك.

وقد بقينا هناك لمدة خمسة أيام، وسمعنا أخباراً أسوأ كل يوم، وعلى الرغم من هذا علونا ظهر غليوننا، وعملنا الاستعدادات للشروع، وأقلعنا مبشرين ونحن خائفين من أن تشور زوبعة، وتحمل الغليون وتضعه بين الأسطول والجيش التركي الذي كان يقوم بأعمال الحصار، وعلى كل حال، ما أن غادرنا الميناء حتى كنا في البحر المفتوح، ورأينا ريحاً قوية جداً قد هبت، إنما موافقة جداً لنا، حملتنا بعيداً عن الجزيرة التي اسمها سيكلادس Cyclades، حيث ابتعدنا أولاً عن رودس، ودفعنا على المتابعة بقوة مع ربح طيبة، التي ازدادت بشكل مستمر، وزمجر البحر، وهاجت الأمواج، وتبع ذلك عاصفة هوجاء، وغطت المياه جميع الجزء الأعلى من السفينة، ومع ذلك كانت هذه العاصفة مفيدة جداً لنا، لأنها حملتنا نحو الميناء الذي نريد، ولأنها جعلتنا ناجين من المهاجمة من قبل الأتراك، ذلك أنه بات من غير الممكن بالنسبة لسفینتنا أن تقع بالأسر، وهي مبحرة بهذه الدرجة من السرعة.

وقمنا بإزاحة جميع مظاهر الحرب لدينا، من مدافع، ورماح، وحراب، وترسة، وواقيات، وقسي عادية، وقسي زيارة، وحجارة، وسهام، التي كنا قد جهزنا بها أنفسنا في كيركورا، من أجل صد هجمات الأتراك، لأننا رأينا أننا الآن قد نجونا من أعداء صليب المسيح هؤلاء، ووصلنا في اليوم التالي إلى قبرص، ودخلنا إلى ميناء لياسول، لأن ريحاً مضادة أرغمتنا على التوجه نحو الميناء، وعندما همدت الريح، أبحرنا من هناك إلى ميناء لارنكا، عازمين على البقاء هناك لعدة أيام،

لأن قبطان سفينتنا كان له أخ في نيقوسيا في خدمة ملكة قبرص، وكان لديه بعض الأعمال لبحثها معه، وطلب منا الانتظار حتى تنتهي هذه الأعمال.

وعندما انتهت أعماله وسويت، رفعنا مراسينا، وبتنا راغبين ومتشوقين للوصول إلى الميناء الآخر، لأنه لم يكن هناك مكان للوقوف فيه، ونحن على مسافة قصيرة من الأرض المقدسة، وأبحرنا بشكل مستقيم، فرأينا الأرض المقدسة في اليوم الثالث، وصدوراً عن البهجة في قلوبنا غنيا: « Tedeum Laudamus » بأصوات مرتفعة، ووجهنا سفينتنا نحو جوبا Joppa ، التي تعرف بشكل عام باسم يافا، وألقينا مراسينا إلى جوار صخرة أندروميذا Andromeda ، ومن هنا بعث قبطان السفينة واحداً من العبيد إلى القدس ليعلن إلى الأب مدير دير جبل صهيون، لكي يقدم مع رهبانه ومع حميره وسائقيهم لحملنا إلى القدس، وبناء على ذلك مكثنا في غليوننا لمدة سبعة أيام نتظر وصول أدلائنا، ونزلنا بعد هذا في قوارب صغيرة، وأقمنا في غرف مقببة قديمة جداً، وكانت مدمرة وذوات روائح نتنة، حيث مكثنا هناك لمدة ليلة واحدة فقط، وركبنا بعد هذا الحمير التي أحضرت من أجلنا، وعلى هذا جرت مرافقتنا وحراستنا من قبل مسلمين، وغادرنا البحر وقدمنا إلى بلدة الرملة، حيث أقمنا لبضعة أيام، ثم دخلنا إلى القدس، حيث لم نؤخذ إلى مشفى (نزل ضيافة) بل إلى بيت في ميلو Millo حيث أكلنا، ونمنا وهكذا.

ولم نمض أكثر من تسعة أيام في الأرض المقدسة، حيث قمنا بجولة على الأماكن المقدسة المعهودة، بسرعة عظيمة، وكنا نعمل ليلاً ونهاراً لإنجاز حجتنا، وهكذا نادراً ما أعطينا وقتاً للراحة، وبعدما أكملنا بسرعة زيارة الأماكن المقدسة، وبعدما تسلم مولاي جورج فون ستين مع النبلاء الآخرين الفروسية في كنيسة الضريح المقدس، أخذنا أدلائنا

من المدينة المقدسة عبر الطريق حيث نزلنا إلى البحر، إلى المكان الذي كان غليوننا راسياً فيه.

ولم يبق أحد من الحجاج في القدس، إلا اثنان من الانكليز، اللذان رغبا في عبور الصحراء إلى القديسة كاترين (دير جبل سيناء)، وكنت راغبا بالبقاء معهما، لو أنهما عرفا اللغة الألمانية أو اللاتينية، وبما أنني كنت غير قادر على الحديث معهما، وكنت سأتحمل الحاجة إلى لغة عامة مع الصبر، ولولا أنني عازمت على العودة ثانية إلى القدس، لأنه منذ حلول ساعة مغادرتنا للمدينة المقدسة، قررت، وقطعت عهداً على نفسي بأنني سوف أعود بأسرع ما يمكن، وعددت هذا الحج مجرد توطئة للحج الذي أنوي القيام به.

وكان حالي هنا حال تلميذ أراد حفظ بعض النصوص وخزنها بالذاكرة، حيث كان يقوم أولاً بالقراءة دونها عناية، ثم يقوم ثانية بالقراءة ببطء وتؤدة، ويأخذ من الوقت ما فيه الكفاية لإبقاء النص وحفظه بالذاكرة، وهكذا كنت بالنسبة لما قررته، ذلك أنني لم أكن مقتنعاً بما شاهدته، ثم أنني لم أودع ما رأيته في الذاكرة، بل تركت ذلك لحج مستقبلي.

وعندما وصلنا إلى البحر، كنا جميعاً ضعفاء بسبب ما بذلناه من جهد، وكنا قد أصبنا بالإرهاك بسبب الحرارة، وسهر الليالي، والمصاعب التي تحملناها، وكما كنا مرضى وضعنا على ظهر غليوننا، الذي صار مليئاً إلى حد بعيد بأفراد تعساء، وبعد مضي كثير من الأيام عدنا إلى قبرص، وإثر رحلة طيبة وصلنا إلى ميناء اسمه ساليينا Salina، وقمنا من هنا برحلة حج اسبوعية إلى قرية مجاورة ولكن الأثرياء منا قاموا باكتراء خيول وركبوا مع بعضهم برفقة قبطان السفينة إلى نيقوسيا، التي هي حاضرة قبرص والمقر الملكي، وهي تبعد ستة أميال ألمانية عن البحر.

وهناك عادة قديمة قضت بأن الذين عملوا فرسانا في الضريح المقدس، عليهم أن يقدموا أنفسهم إلى ملك قبرص، وعقد نوع من أنواع معاهدات الولاء معه، وهو سيدعوهم باسم إخوانه وسيددرج أسماءهم في كتابه، ويعطي كل واحد منهم خنجرًا فضيًا وغمده مع حزام، ويكون معلقاً في نهاية الخنجر وردة مصنوعة من الفضة، تمثل اللون الأرجواني الذي هو شعار الطائفة.

وبناء على هذا ركب مولاي جورج فون ستين، الذي لم أفارقه أبداً، في نيقوسيا معي، ومع النبلاء الآخرين، ذلك أننا مكثنا هناك لمدة ثلاثة أيام، وبما أنه لم يكن هناك ملك في قبرص، سأل النبلاء الملكة بأن تسمح لهم بالانتماء إلى طائفة ملوك قبرص، وقد دعتهم للحضور إلى القاعة الكبرى، وهناك صفتهم أمامها، وأوصلت إليهم من خلال مترجم قوانين هذه الطائفة، التي قضت أنه يتوجب عليهم في وقت الحاجة النضال للدفاع عن مملكة قبرص، مقدرين ومدركين أنها واقعة بين المسلمين، والترك، والتتار، وبعدما أقسموا يمين الولاء إلى الملكة بأيديهم، أعطتهم خناجرهم، وسمحت لهم بالمغادرة.

وركبنا بعد هذا عائدين ثانية إلى البحر، ولدى مرورنا بسفح جبل مرتفع جداً، توجد على قمته بيعة، أخبرونا أن فيها صليب اللص الجيد معلق بشكل رائع، وكنت أتمنى رؤيته، لكن لم يتوفر لدي الوقت، ولذلك أجلت هذا إلى حجي الثاني، وعندما وصلنا إلى البحر وإلى غليوننا، وجدنا أن اثنين من الحجاج قد ماتا، وكان واحد منهما راهب من طائفة الفرنسيكان، وكان رجلاً شجاعاً ومثقفاً، وكان الآخر خياطاً من بيكاردي picardy ، وكان رجلاً أميناً وجيداً، وكان عدد آخر في سكرات الموت، ونحن أيضاً الذين قدمنا من نيقوسيا، رمينا أنفسنا على فرشنا مرضى كثيراً، وصار رقم المرضى كبيراً جداً، إلى حد أنه لم يعد هناك من يتولى خدمتهم وتزويدهم بالضروريات وعلى

كل حال نظرت العقائل المسنات إلينا وإلى تعاستنا، فتحركن بعاطفة ورحة، وتولين العناية بنا، لأنه لم يكن بيننا من ليس مريضاً، وهنا قام الرب، بوساطة قوة هؤلاء العجائز، بالتقليل من شأن شجاعة أولئك الفرسان الذين عاملوهن باستخفاف، وكانوا لا يرغبون بالابحار معهن، فقد تنقلن من مكان إلى آخر في جميع أرجاء الغليون، أي بين رجل مريض وآخر، وخدمن الذين سخرروا منهن واستخفوا بهن، وهم ممددون فوق فرشهم لا يملكون حراكاً، فضلاً عن هذا استولى علينا، بالاضافة الى مرضنا وعذابنا، الخوف مجدداً من الأتراك، وبدأنا الآن نخاف حتى منهم أكثر مما فعلنا من قبل، وفي الوقت نفسه رفع رجال الغليون أربطة الغليون ومكنوه من الابحار، وعندما صرنا في البحر لم نجد ريحاً تساعدنا، بل بقينا نسير ببطء شديد أمام سواحل قبرص، ولهذا عدنا ثانية إلى قبرص، ورسينا في ميناء لياسول غير المسكون، حيث انتظرنا بفارغ الصبر هبوب ريح طيبة، وبعد انتظار يومين انطلقنا مجدداً نحو البحر، إنما هبت الآن ريح قذرة، حيث جرفتنا إلى داخل البحر، بعيداً عن اليابسة، وخارج مسارنا، وبقينا ندور لعدة أيام كثيرة، حتى بدأنا نعاني من نقص في الميرة وفي الحاجات الضرورية، وفي تلك الأثناء أنهى واحد من الفرسان أيامه بشكل مؤلم جداً، فلففناه بقطعة من القماش، وربطنا جسده بأحجار، ورمىناه بالبحر ونحن نبكي عليه.

وفي اليوم الثالث بعد هذا، مات فارس آخر، بعد ما فقد عقله، وعانى من آلام عظيمة، وكان يصرخ بشكل خفيف، وقد حملناه إلى الشاطئ في قاربنا الصغير للدفن هناك، لأننا كنا آنذاك على مقربة من شواطئ قبرص قرب بافوس، وكنا في تلك الأثناء غير قادرين على التحرك بأي اتجاه، وكنا بحاجة إلى الماء والخبز، وأشياء أخرى، وحملتنا الريح الخبيثة بعيداً عن قبرص، ولمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال لم نر اليابسة، ثم كان بعد هذا أن حملنا عائدين إلى ميناء بافوس، الذي

جرت الإشارة إليه في الاصحاح الثالث عشر من أعمال الرسل، واشترينا في ذلك الميناء ما نحتاجه من مؤن، وغادرناه مسرعين، وأبحرنا مسافرين شواطئ قبرص دون أن نحرز أي تقدم في سفرنا، وإلى جانب هذه التعاسات نزلت تعاسة أخرى عظيمة، في تلك الليلة نفسها، ففي الوقت الذي كان فيه ملاحو الغليون يتعاملون مع الأشربة، ويحاولون تحريك الغليون، حدثت مفاجأة، فقد سقطت قطعة كبيرة من رأس السارية بشكل مفاجئ، وأصابنا وقتلت أفضل الملاحين لدينا، وكان رجلاً يطيعه البحارة بأبسط إشارة تصدر عنه، فقد كان مطاعاً من قبل جميع الملاحين ومن قبل عبيد الغليون.

وقد كان هناك حزن عظيم ونحيب في الغليون بسبب موت هذا الرجل، حيث لم يكن هناك على ظهر الغليون من يياثله ليحل محله، وأبحرنا بشكل بطيء لمدة أيام كثيرة، وكنا حذرين، نأمل بالوصول إلى واحد من الموانئ في كريت، وأن نمر دوننا إعاقه من أمام رودس، لكننا كنا غير قادرين على فعل ذلك، ورأينا في أحد الأيام، على مسافة بعيدة عنا غليوناً حريباً، قادماً بسرعة خلفنا، فكنا خائفين بشكل مرعب جداً، لأننا اعتقدنا أنه كان تركياً، وأن الأتراك كانوا قادمين فيه، لكنه عندما اقترب منا عرفنا بأنه كان غليوناً بندقياً، وكنا وقتها قابعين إلى جانب أسلحتنا، التي أمر قبطاننا بإخراجها للدفاع عن أنفسنا ضد الأتراك، وانتظرنا وصول الغليون حتى يمكن أن نسمع أخباره، وعندما اقترب هذا الغليون منا علمنا بأن الأتراك قد هزموا، وأنهم رفعوا الحصار عن رودس، وأنهم تراجعوا باضطراب وفوضى، ولدى سماعنا هذه الأخبار امتلأنا بغبطة لا يمكن التعبير عنها، وغيرنا اتجاه غليوننا وتركنا مسارنا المتقدم، واتجهنا نحو جزيرة رودس، وعلى كل حال لم نتمكن من الوصول إليها خلال كثير من الأيام، ذلك أننا أعقنا وتأخرنا بسبب رياح معاكسة، فضلاً عن هذا كنا قد حملنا إلى بلاد الأتراك،

وعبرنا من خلال قناة حيث كانت هناك أراضي تركية وجبال على طرفينا، وهنا تجددت مخاوفنا، وكنا نخشى إذا ما رأنا الأتراك، سوف ينزلون انتقامهم بنا، بسبب هزيمتهم في رودس، ولم نمتلك ربحاً أيضاً، وعبرنا البلاد التركية بطريقة بطيئة جداً، بوساطة العمل البطيء للمجاذيف، وأخيراً هبت ريح حملتنا بلا معيقات من هذه الأرض، وجلبت الغليون بشكل مفاجيء إلى جزيرة رودس، غير أننا وصلنا إلى محاذة ساحل جبلي بعيداً جداً عن مدينة كولوسا Colossae، ووصلنا على كل حال إلى نبع ماء للحياة يتدفق عند سفح أحد الجبال، إليه ذهب البحارة في قارب وجذفوا ومعهم براميل، وجلبوا مياه جديدة إلى ظهر غليوننا، وعندما عادوا إلى ظهر الغليون، خرج جميع الركاب يركضون من حجرهم وفرشهم، يحملون الصحنون، والجرار، والأحواض الصغيرة، والأباريق، والكؤوس، والزجاجات، يلتمسون الماء من البحارة ومن رجال القارب.

وكان هناك صراع وتدافع للحصول على الماء أكثر مما شهدته قط، من أجل الخمرة أو الخبز، وعن رغبة وطواعية وسرور ناول أحدهم بعض الماء إلى الآخر، وبتذوق ذلك الماء الجديد انتعشنا مجدداً، وبدا وكأننا قد عدنا للحياة من جديد، مثل المزروعات والأشجار التي عطشت وجفت بسبب حرارة الشمس، فعادت خضراء من جديد عندما تبللت بقطرات المطر أو الندى، وانتعش الغليون كله بتذوق هذا الماء، والذين كانوا من قبل غير قادرين على التنفس إلا بصعوبة بالغة، بدأوا الآن بالغناء، لأن شرب الماء بعد عطش طويل يجعل الإنسان مسروراً ولطيفاً مثل المتناول لقطرات من الخمرة.

فأية تعاسات ومصاعب قد عانينا منها منذ أن غادرنا ميناء يافا في الأرض المقدسة حتى وصلنا إلى هذا المكان، هذا ما أنا عاجز عن التحدث عنه، وكنت خلال أيام المعاناة هذه غالباً ما أتساءل، كيف

يمكن لأي إنسان يتساهل بازعاج نفسه بالقيام بالتفكير بصوم أربعين يوماً خلال السنة، وهي أيام الصوم الكبير، وأن لا يصوم عن الخبز والماء في يوم الجمع الحزينة للرب، لو أنه عانى مثلنا يوماً واحداً من الأيام التي عانينا منها، وأنا لأقول بأن أجر الصوم الكبير كبير، لابل ليس مثل الأجر المعطى يوم صوم الجمعة الحزينة وزناً وحجماً، ولهذا علينا عن طواعية أن نصوم يوم الجمعة الحزينة، لأن الذين يصومون يوم الجمعة الحزينة يتلقون خبزاً جيداً وجديداً، وماء نقياً، وبارداً، وعذباً، وطيب المذاق، وإذا ما حصلنا على مثل هذا، لابد من أن نشعر بأنفسنا بأننا سعداء، متذكرين أن الذي نلناه على ظهر الغليون، كان ماء قذراً، وآسناً، ولو أن أياً من البحارة كانت لديه مياه غير آسنة، لأقدم الحجاج على شرائها بأسعار أعلى من أسعار الخمرة، وعلى كل حال لقد كان ماءً مليئاً بالديدان، وأبيض ومتغير اللون.

وفوق هذا كله، وما قد يكون غريباً إلى الذين لم يعانون من مثل هذه الرحلة، ومؤلماً أكثر للذين عانوها، هو أننا كنا في حالة من الحاجة والتعاسة، حتى أن ما كان لدينا من مياه عفنة آسنة عدت ثمينة إلى حد أن قبطان السفينة وملاحها كانوا في قلق عظيم خشية أن نخسر حتى هذه المياه، ولهذا أعطى القبطان أوامر إلى ساسة الخيول بعدم إعطاء ماء من هذا النوع إلى الحيوانات التي جرى الاحتفاظ بها على ظهر الغليون من أجل ذبحها للأكل، بل ينبغي الاحتفاظ بها من أجل الاستعمالات الانسانية لأنه كان أكثر وحشية أن نموت نحن من العطش وليس البهائم، وعلى هذا بقيت هناك الأغنام والماعز والبغال والخنازير لمدة عدة أيام بلا ماء، وكانت تعاني من الهلاك من العطش، وغالباً ما رأيت في هذه الأيام هذه المخلوقات وهي تلحس ألواح الخشب والجبال، وتمتص ما تجمع عليها من ندى في أثناء الليل.

ومع أنه توفرت لدينا مياه لحدود لها من حولنا، إن مياه البحر غير

قابلة للشرب بالنسبة للانسان والحيوان سواء، وكان معنى شرب تلك المياه قتل الانسان أو الحيوان بدلاً من إنعاشه، هذا ولم أحدثكم عن الخبز الفاسد، وعن البقساط الملىء بالديدان، وعن اللحوم المنتنة، والطبخ المقيت، وهو ما توجب علينا القبول به، لو أننا امتلكناء ماء نقياً بكميات جيدة كافية، إن لم يكن للناس الأصحاء، فعلى الأقل للمرضى التعساء.

وعانيت في غالب الأحيان من عطش مرعب، وكان بي شوق لا يوصف إلى ماء بارد، حتى أنني قلت في نفسي إنني عندما أعود إلى أولم سوف أذهب مباشرة إلى بلوبيرن Blauburen ، وأجلس إلى جانب البحيرة التي تنبع هناك من الأعماق حتى أشبع رغباتي، هذا ولم يكن هناك نقص بالخمرة في الغليون — وفي الحقيقة كان بإمكان الانسان بسهولة الحصول عليها بكميات كبيرة وجيدة — غير أننا لم نتمتع بها من دون مزجها مع الماء، وذلك بسبب قوتها وحرارتها، وهذا يكفي بالنسبة لهذه القضية.

وحدث الآن أن حملتنا بشكل مفاجئ ريح طيبة من المكان الذي شربنا فيه الماء إلى ميناء كلوسوس Clossus ، القائم أمام مدينة رودس، وكان الوقت ليلاً، وكانت الساعة تقارب الساعة التاسعة في المساء، وكنا لانستطيع أن نرى إلى أين نحن ذاهبون بشكل واضح، لولا فضل نور القمر، وعندما كنا نحاول الدخول إلى الميناء، وكان بحارتنا — حسب ما اعتادوا عليه — يعملون بصوت مرتفع لانزال الأشرعة، أشعل الناس الذين كانوا على الشاطئ المشاعل فوق أبراجهم، وأحدثوا ضجة عظيمة، وأخذوا يركضون ذهاباً وإياباً فوق الأسوار، حيث خيل إليهم أننا أعداءهم الأتراك، وأنذرونا بإطلاق نيران مدفع كبير نحونا، وقمنا نحن وسط رعب عظيم بإضاءة عدد كبير من المصابيح، ووقفنا على ظهر الغليون نرجوهم عدم إيذائنا، حيث كنا

نحمل علامات الصليب، كما كنا أصدقاء للذي صلب، ونعرف جيداً بأن أعداءه قد تعرضوا قبل وقت قليل للمهانة والمذلة في هذا المكان نفسه.

وعندما سمع حراس الميناء هذا، أبعادوا مجانيقهم التي كانوا قد أعدوها لرمي حجارة ضخمة علينا، وحلوا أوتار قسيهم، وأعقب هذا سعي الناس مع بعضهم من جميع أجزاء المدينة إلى أعلى السور وهم يحملون المصابيح والمشاعل، متشوقين لرؤية غرباء مسيحين، لأنهم منذ أن صدوا الأسطول التركي لم يروا مسيحياً.

وقام الآن حارس من على أحد الأبراج بالترحيب بنا، سائلاً من نحن، ومن أين جئنا، وقام أحد البحارة بإجابته دونما تفكير: «نحن بنادقة، والغليون ملك للقديس مرقس»، لكن القبطان أمر بصفحه على فمه، وأمر بحاراً آخر بأن يصرخ قائلاً: «جاء هذا الغليون من يافا، وفيه فرسان وحجاج من القدس، ونحن عازمون على الإبحار إلى إيطاليا»، ذلك أن القبطان كان يخشى أن يكون البنادقة غير مرحب بهم كضيوف، بما أن أهل رودس لا يحبون البنادقة، بسبب تحالفهم مع الأتراك.

وعندما أخبر الحراس الذين كانوا فوق الأبراج الشعب بأننا كنا حجاجاً، رحبوا بنا بمثابة أصدقاء، وسمحوا لنا بإرساء سفيتتنا خارج الميناء، غير أنهم لم يأذنوا لنا بالدخول إلى الميناء خوفاً من خيانة ما، وبناءً عليه عندما ألفت السفينة مراسيها، نزلنا إلى أماكن نومنا، ونمنا حتى الصباح.

وفي اليوم التالي، وقبل استيقاظنا، قدم بعض السادة من رودس إلينا ليقوموا بفحص الغليون وليروا الحجاج، وقد جذفنا داخلين إلى المدينة معهم، وقد مررنا من بين أجساد الموتى الأتراك الذين كانوا مرميين على جانب البحر، حيث كان الشاطئ مغطى بهم، وعندما دخلنا إلى المدينة

وجدناها مهدمة بشكل مريع، مليئة بطلقات المدافع الصخرية من كبيرة وصغيرة، وهي التي أطلقها الأتراك عليها، حيث كان هناك منها ثمانية آلاف طلقة وطلقة موزعة على الشوارع والأزقة، وكانت الأسوار والأبراج مهدمة بشكل محزن، وقد رأينا أشياء أخرى عنها سأحدثكم عندما أجيء إلى هذا المكان ثانية في حجي الثاني.

ولقد مكثنا في رودوس لمدة أربعة أيام، وأنفقنا كميات كبيرة من المال، لأن كل شيء كان باهظ الثمن لأن الأتراك نهبوا البلاد وهدموها، وقد شريت طائرین لمولاي جورج للعلاج، لأنه كان بحالة صحية سيئة، وكنت أنا مثله، ذلك أنني كنت آنذاك أعاني من إسهال، وكنت تقريباً يائساً من حياتي.

وعندما حان الموعد الذي كان علينا به مغادرة رودس، سافر معنا على ظهر غليوننا عدد من فرسان القديس يوحنا، وبعض ممن كانوا أسرى لزمّن طويل بين الأتراك، وكانوا ممن بعث بهم إلى رودس مع الجيش التركي، وقد تخلوا عنه وهربوا إلى تلك المدينة في أثناء الحصار، وحملنا معنا بعضاً من اليهود الذين قاتلوا بشجاعة في أثناء الحصار، وكان من بين الذين نجو من الأسر من بين الأتراك نبيل نمساوي، وكان في حالة بائسة، وقد أخذه مولاي جورج ووضعته تحت حمايته، وأعادته إلى ألمانيا.

وبصعود هذه الأعداد الكبيرة على ظهر غليوننا، غدا هذا الغليون مزدحماً وغير مريح، وفي أثناء الرحلة جرفنا إلى هنا وهناك من قبل الرياح المعاكسة، وعانينا كثيراً من النقص بالحاجيات حتى دخلنا مدينة الخندق، حاضرة كريت، ومكثنا هناك لعدة أيام، صعدنا بعدها إلى ظهر الغليون في أحد الأيام في آخر النهار عند حلول المساء، وجلبنا مشترياتنا معنا، وكنا عازمين على الإبحار في الليلة نفسها، لكن عندما جاء الصباح، وأطلق الغليون مما كان مربوطاً به، أخذنا بعنف نوجه رأسه.

نحو الرياح، وأنداك اصطدمت عصا التوجيه بالصخور، وتحطمت تحت الماء، وكانت السفينة على وشك أن يصطدم رأسها فوق الصخور الناتئة خارج الشاطئ، وفي تلك الحالة كان الغليون سيتحطم كلياً، وكنا سنغرق، ولهذا صدر صوت مرتفع، وتراكم الناس من المدينة لمساعدتنا، وبما أن عصا التوجيه قد تحطمت، لم يعد بإمكاننا الإبحار، وأرجعنا غليوننا إلى الميناء، إلى المكان الذي كان راسياً به من قبل.

وهنا جاء عامل بحري وقام بالإعداد لإصلاح عصاتنا، وقد نفذ ذلك كما يلي ونحن واقفون ننظر إليه: فقد تعرى حتى سراويله، ثم أخذ معه مطرقة ومسامير، وكماشة، ثم ألقى بنفسه ونزل في البحر، وغطس إلى حيث كانت العصا مكسورة، وعمل تحت الماء، فاقتلع مسامير، وثبت آخرين، وبعد وقت طويل، عندما أصلح كل شيء، ظهر مجدداً من تحت الأعماق، وتسلق صاعداً إلى طرف الغليون إلى حيث وقفنا، ولقد رأينا هذا، إنها كيف كان بإمكان هذا العامل أن يتنفس تحت الماء، وكيف كان يمكنه أن يضرب بمطرقة هناك، وكيف استطاع البقاء مثل هذه المدة الطويلة في الماء المالح، هذا ما لم أستطع فهمه، والذي أعرفه هو أن العقل البشري له سلطة على النار وعلى الماء، حتى مثلما للنجوم سلطة على العقل الإنساني.

وعندما اكتمل إصلاح العصا، وفكرنا بالإنطلاق والسفر، هبت ريح معاكسة، ولذلك لم يستطع الغليون الابتعاد عن الميناء، وقد عدنا إلى مكان رسونا ومن ثم إلى إقامتنا في المدينة، نأكل ونشرب هناك.

وهذا الميناء من أفضل موانئ البحر وأغناها، ومليء بجميع أنواع الأشياء الجيدة، خاصة الأشياء المحلية، لاسيما الخمرة، التي ندعوها باسم مالفويسبي Malvoisie ، وهي خمرة مشهورة في جميع أنحاء العالم، هذا وكل شيء رخيص هناك، ولذلك لم نبال بمدة إقامتنا، بل تمتعنا بها، وفي حوالي وقت العشاء استدعينا جميعاً إلى ظهر الغليون،

وجاء بعضهم على الفور، وجاء بعضهم الآخر متأخراً، وكنت أنا شخصياً واحداً ممن صعد أولاً إلى السطح، ووقفت على مدخل الغليون لأنظر فيما إذا كان قد قدم غرباء، إلى جانب الذين التحقوا بنا في قبرص أو رودس، ويريدون الصعود إلى ظهر الغليون، وقد جاء أسقفان إغريقيان، مع آخرين كثير، وبالنسبة لأشياء أخرى أنا رأيتها، أنا لن أقوم بتدوينها، إذا ما أردت أن لا تكون «الرحلات والجولات» قصة مأساوية، لكنني كما وعدت إخواني في تمهيدي التكريسي غالباً ما قمت بمزج الأمور المضحكة والمسلية مع المسائل الجدية، وعلى هذا عندما كنت واقفاً هناك أراقب أولئك القوم الذين صعدوا إلى ظهر الغليون، رأيت كثيراً من حجاجنا واقفين على جانب البحر، فوق حافة الرصيف وهم سكارى يخشون من النزول إلى القوارب، لأن الخمرة الكريتية التي هي حلوة وممتع شربها، تجعل الإنسان فاقداً للوعي عندما يشرب منها كميات كبيرة.

وكانت هناك درجات حجرية على الشاطئ تقود إلى سور المدينة، وينزل على هذه الدرجات من يريد الصعود على ظهر الغليون ويأشيههم قليلاً، ومن ثم يحصل في داخل قارب صغير، يحمله إلى الغليون، وبعد ذلك يغادر الإنسان القارب، ويتسلق بعض الدرجات ليدخل إلى الغليون، وفي ذلك المساء وجد عدد كبير منهم أنه من الصعب كثيراً عليهم القيام بذلك، أي أنه توجب حملهم من الدرجات الموجودة تحت سور المدينة إلى القارب، ومن القارب إلى الغليون، ومن ثم مباشرة إلى حجر نومهم، وجاء بين البقية حاج كان خادماً لواحد من سادة المدينة، وكان هذا الرجل يحمل حقائب سيده، مع بعض دنان الخمر وحقبة مليئة بالخبز الجديد، وقد كان منحنيًا نحو الأسفل بسبب الوزن الذي كان يحمله، يضاف إلى هذا كان مغموراً تماماً، وعندما صار فوق الدرجات، وبدأ يمشي نازلاً عليهم نحو طرف الماء حتى يصل إلى

القارب هناك، وقع فجأة في داخل البحر العميق، مع كل ما كان يحمله، ولدى صدور صوت عن الواقفين هناك، جذف البحارة مباشرة، وساقوا قاربهم إلى المكان الذي سقط فيه، ولدى خروجه من الماء، سحبه منه، وطافت أرغفة الخبز وكل ما كان يحمله فوقه، وقد تلفوا جميعاً.

وكان هناك حاج آخر، كان كاهناً دماشياً، وكنت أعرفه معرفة جيدة، وكان قد شرب كثيراً من الخمرة الحلوة، ولذلك عانى من اضطرابات كثيرة حتى يصعد على ظهر الغليون، ويصل إلى موضع السارية، حيث وقف هناك يتحدث مع دماشى آخر حتى حلول الظلام، وقد وقف على مقربة من البويب الجانبي الذي لا يذهب الناس إلى تحته أثناء الليل، بل يفعلون ذلك فقط أثناء النهار، وذلك من أجل أنه عندما يحل الظلام ينزل على السلم الذي يأخذه نحو الأسفل، وبذلك لن ينزعج الذين كانوا نائمين على ذلك الجانب من السفينة بقدوم الناس وذهابهم، وهكذا عندما أكمل هذا الحاج كلامه، وكنا وقتها فوق سطح الغليون الأسفل، متمددين جميعاً في فرشنا ونحن نتبادل الأحاديث، وقد أراد الذهاب إلى مكان نومه من خلال أقرب بويب جانبي، وبما أنه لم يكن متوازناً على رجليه، فقد سقط نحو الأسفل من خلال البويب الجانبي إلى السطح الأسفل محدثاً صدمة كبيرة إلى حد أن الغليون كله قد اهتز، لأنه كان رجلاً كبيراً وسميناً، وتمددنا جميعاً صامتين وخائفين، وانتظرنا لنسمع من الذي كان قد وقع، وقد قام على الفور دون أن يصاب بأذى، وشرع يصرخ مزجراً قائلاً: «انظروا الآن، لقد وضعت السلم تحت قدمي، ونزلت ثلاث درجات، عندما قام أحدهم بسحبه من تحت قدمي، فسقطت»، وقد أجابه أحدهم قائلاً بأن السلم قد أنزل من قبل منذ ساعة مضت، غير أنه أجاب «هذا غير صحيح، لأنني نزلت ثلاث درجات، وعندما كنت واقفاً على الدرجة الثالثة سحب من تحتي»،

ولدى سماعنا هذا انفجرنا ضاحكين لمعرفتنا بأن السلم قد أنزل من قبل منذ مضي ساعة، وكنت مسروراً بأن رفيقي لم يتعرض للأذى بسبب هذا السقوط الخطير من مكان مرتفع، وضحكت بشكل غير معقول، وعندما رأي أضحك غضب غضباً شديداً مني، وقال: «على هذا إنني أرى بوضوح ياراهب فيلكس من الذي سحب السلم من تحتي، ومن المؤكد أنك لن تغادر هذا الغليون قبل أن أنتقم منك»، وعندما حاولت أن أبرئ نفسي، أصبح أكثر غضباً فأكثر، ولعنني، وأقسم أنه في اليوم التالي سوف ينتقم مني، وعلى كل حال شفا النوم جميع هؤلاء المرضى والرجال السكارى، الذين كانوا هم الأسوأ بسبب الخمرة الكريمية، وقد نسوا في اليوم التالي كل ماتعلق بهذا الموضوع، لكن لو أن ذلك الحاج قد سقط غير سكران، بل صاحياً تماماً، لكان من المتوقع انكسار رجله، أو اندقاق رقبتة، لأنه غالباً ما يحدث بشكل عام أنه في الحالات الخطرة يكون السكارى من الناس أحسن — بدون تعليل من الآخرين....

وبعد الليلة التي حدث هذا فيها، أطلقنا غليوننا من الأربطة، وحملتنا الريح إلى خارج الميناء، إنها بعدما مضينا قليلاً في طريقنا هبت ريح معاكسة، وبقينا نتأرجح فوق الأمواج دون أن نتمكن من التقدم، ولهذا حاول البحارة العودة إلى ميناء كريت، ولكن بما أن الريح كانت قذرة، لم يستطيعوا ذلك، فضلاً عن هذا صار البحر فيما بيننا وبين مدينة الخندق هائجاً، وغدت الأمواج عالية، ورأى الملاحون، أنه سيكون تهوراً تعريض سفينة محملة بهذا القدر إلى قوة الرياح الكاملة والأمواج، ولذلك سعوا جاهدين للوصول إلى اليابسة، بالابحار خلف الريح، وهكذا وصلنا بعد بذل جهود عظيمة إلى الجزء الجبلي من كريت، وكان ذلك على بعد حوالي الميلى عن البلدة، وهناك ألقينا مراسينا في منطقة جرداء مهجورة، وقمنا في الليلة التالية برفع أشرعتنا والانطلاق، فوجدنا أمامنا ريحاً قوية في البحر، وكانت ريحاً قذرة، وواجهنا في تلك

الليلة وفي اليوم التالي عاصفة ثقيلة، وكانت الرياح في الليلة التالية هائجة بشكل مخيف، وقد وافقت تلك الليلة عيد القديس ميكايل، وكان هيجان البحر أعظم مما شهدناه خلال رحلتنا كلها، وتعهد أثناء هذه العاصفة كثيرون أمام الرب بأمور كثيرة، من ذلك على سبيل المثال، تعهد الذين أمضوا أمسية قداس عيد القديس ميكايل وهم يعانون من آلام معوية، بأنهم سوف يصومون بقية أيام حياتهم، وانصبت مياه الأمواج على السفينة وفوقنا، وسببت لنا كثيراً من الازعاج، وكنا جميعاً مرضى، وعانينا من الصداع ومن الغثيان، أثناء تحرك السفينة وبسبب ذلك.

وفي أثناء العاصفة، غدت الرياح التي كانت قدرة، رياحاً لطيفة بالنسبة لنا، ولذلك أبحرنا بسرعة كبيرة، واجتزنا أماكن كثيرة، ووصلنا إلى مقربة من مودون، غير أننا لم نتمكن من الدخول إلى الميناء هناك، وخوفاً من أن نساق إلى الخلف ثانية بقوة الريح، دخلنا إلى ميناء مهجور بين جدران من الصخر، وكنا في هذا المكان على بعد قرابة ميل ألماني عن مودون، وحملنا نحن الحجاج حقائبنا إلى الشاطئ، وأخذنا طريقاً إلى مودون براً، وهناك انتظرنا وصول الغليون، وغادرنا من هناك مودون، فوصلنا إلى كوركيرا، بعد عبور سريع، أي إلى المكان الذي تركنا فيه الحجاج الآخرين، وأبحرنا في مساء اليوم نفسه من كوركيرا إلى جزر غوزابولس Gozapolis.

وبينما نحن لانزال في الظلام، وما من نجم من النجوم يمكن رؤيته، وفيما نحن نتجه مع الريح، هبت هناك عاصفة مرعبة جداً، وحدث هياج مخيف في البحر وفي الهواء، وكانت الرياح عاصفة دفعت بنا نحو الأعلى، وكان هناك برق، ورعد يزجر بشكل مخيف، زيادة على هذا كان هناك من حولنا سقوط لبروق وصواعق مخيفة، حتى ظهرت أماكن كثيرة من البحر، وكأنها اشتعلت بالنيران، وتساقطت الأمطار بشكل

خفيف، وصار الحال كأن مطر الغيوم قد تجمع كله، وتدفق علينا، واستمرت التيارات العنيفة تضرب الغليون، حيث غطته بالمياه، وكانت تدق على الجوانب بشدة مثل حجارة أرسلت من فوق جبال عالية حيث كانت تتطاير على الجنبات.

وغالباً ماتساءلت عندما كنت في البحر في أوقات العواصف، كيف يمكن للماء ، الذي هو رقيق وناعم، وضعيف البنية ، أن يسد مثل هذه الضربات ضد كل ما يواجهه، لأنه تصدر عنه زجرة عندما يسعى ضد السفينة، وكأن أحجار طاحون قد تطايرت ضدها، ولا يمكن للإنسان أن يعجب لتحطيمها السفينة حتى وإن كانت قد بنيت من حديد، وأمواج البحر هي أكثر ارهاقاً، وأكثر ضجة، وأكثر إثارة من أمواج المياه الأخرى، وكنت أتمتع كثيراً بالجلوس فوق الطابق العلوي أثناء العاصفة، وأراقب الأمواج المتوالية من الضيوف المرعبين من الريح، والاندفاع المخيف للمياه، ومن الممكن تحمل العواصف أثناء النهار، لكنهم في الليل أدوات رعب، لاسيما عندما تكون هذه العواصف عنيفة، مثل العاصفة التي أتحدث الآن عنها، ذلك أن العاصفة كانت عاصفة عنيفة جداً، وكان الظلام كثيفاً، ولم يكن هناك أي ضوء، سوى الضوء المتتابع الذي ينبعث من البرق.

واستمرت هذه الريح العنيفة في هز الغليون ونقله صعوداً وهبوطاً، وإدارته من الجانب إلى الجانب، وهزه حول نفسه خلال ذلك، إلى درجة أن مامن إنسان استطاع أن يتمدد في مخدعه، لابل لم يستطع الجلوس، ومطلقاً لم يستطع الوقوف، وكنا مرغمين على التعلق بالأعمدة التي وقفت في وسط القمرة، وكانت تدعم الأعمال الموجودة فوق، أو أن نستند على ركبنا المنحنية إلى جانب الصناديق، حيث احتضناهم بأيدينا وبأذرعنا، وبذلك حافظنا على ثباتنا، وكان يحدث أحياناً انقلاب لبعض من الصناديق الثقيلة والكبيرة مع الرجال الذين كانوا متعلقين بهم،

ذلك أن الغليون كان يتحرك بعنف وباتجاهات مختلفة مما كان يؤدي إلى قلب كل شيء واقف عليه، والشيء الذي بدا اعجازيا، لكنه صحيح تماماً، هو أنه حتى الأشياء التي كانت معلقة بكلاليب في مقابل الرؤوس الكتلوية، كانت تخرج من أماكن تعليقها وتسقط نحو الأسفل، ومع أن السفينة كانت مغطاة من كل جانب بالزفت وبأشياء أخرى تستخدم لمنع تسرب المياه، وحفظ الداخل من المياه، مع هذا دخلت المياه خلال هذه العاصفة من خلال أماكن غير متوقعة في كل مكان، ولهذا لم يكن هناك شيء في السفينة كلها لم يكن مبللاً، فقد كانت فرشنا غارقة، وتلف خبزنا وبقسماتنا بمياه البحر، وكان في الطابق السفلي رعب وضجيج، وكان على الطابق العلوي تعب واضطراب، ومزقت الرياح شراعنا الرئيسي إلى مزق، ولذلك أنزل البحارة نحو الأسفل العارضة التي استند عليها، وربطوه بشراع آخر لاستخدامه في العواصف التي يسمونها Papafigo إنها بعد مارتع البحارة العارضة وأداروها لفوا الشراع معها، وعندما كان البحارة يمدّون العارضة لوحدها ويدعون الأربطة تذهب، نزل الشراع نحو الأسفل، وكان البحارة ممسكين بأيديهم بالحبل الذي ربطت به الزوايا السفلى من الشراع، وقتها اندفعت الرياح نحو الشراع، وملاؤه بقوة عظيمة جعلت قماشه يتمزق بين أيدي الملاحين، وأطاحت به وبالشراع نفسه فوق رأس السارية وفوق القبة Keba أو الرأس، عالياً بالهواء، ورمت به بقوة وعنف في الرياح حتى أن العارضة انحنت مثل قوس، والسارية نفسها، مع أنها كانت ضخمة وقوية مصنوعة من عدد من جذوع الأشجار المحزومة مع بعضها، صدر عنها صوت مرتفع وكأنها قد تمزقت وتحطمت.

وكنا في ذلك الوقت في أعظم المخاطر، لأنه لو تحطمت السارية في مثل هذه العاصفة، لتغلب علينا البحر وقهرنا نحن والغليون جميعاً،

فكما أن الطير لا يستطيع الطيران من دون ريشه وجناحيه، كذلك السفينة من ذوات الحمل الثقيل، لا يمكنها التحرك من دون أشرعة، التي هي بمثابة أجنحتها وريشها، ولهذا عندما تحدث الشعراء عن الخيول المجنحة، كان الذي عنوه هو السفن فقط، من ذلك على سبيل المثال جاء بيرسوس Perseus من بلاد الإغريق على فرس مجنح وأُنقذ أندروميذا Andromeda من الصخور عند يافا، النخ، وبناء عليه عملت ساريتنا كثيراً من الأصوات العالية المرعبة، وفعلت العارضة مثل ذلك، وبدا كل شيء في الغليون كله آيل لأن يصبح قطعاً، وما من شيء أزعجني قط في العواصف بقدر الأئين المرتفع للسفينة، الذي كان كثيفاً جداً إلى حد يدفع الإنسان إلى الاعتقاد بأن السفينة لا بد أنها محطمة في واحد من الجوانب، كما لا يمكن للإنسان أن يتمتع من الصراخ بصوت مرتفع بسبب أصوات الأئين هذه المرعبة المفاجئة، وهكذا وقفنا ننظر إلى مشهد محزن، وفي وضع خطير كثيراً.

ولدى تطاير الشراع في الهواء على هذه الصورة، ركض عبيد الغليون والبحارة إلى الأمام وإلى الخلف، وهم يصرخون بقدر ما استطاعوا، وبذلك كانت الضجة عظيمة، وكانوا كمن يركضون بين السيوف، وتسلق بعضهم فوق الغطاء الموجود على العارضة، وحاولوا سحب الشراع نحوهم، وكان بعضهم الآخر على سطح الغليون في الأسفل، يركضون هناك وهم يحاولون الإمساك بقماش القلع ثانية، وقام بعضهم بإدخال حبال من خلال بعض الأثقال، ووضعوا أربطة حول الشراع، وفي الوقت نفسه قام الحجاج والذين كانوا بلافايدة في هذا العمل بالصلاة إلى الرب، وتوجهوا بالدعاء إلى القديسين، وعمل بعضهم اعترافاتهم وكأنهم باتوا على حافة الموت نفسها، وعمل بعضهم تعهدات عظيمة بأنهم سوف يسافرون من هنا إلى روما، وإلى القديس جيمس (في كومبوستالا)، أو إلى بيت العذراء المباركة (في لوريتو Loretto)،

لو أنهم فقط نجو من هذا الموت، لأنه فقط عندما يكون الموت حاضراً أمام أعيننا نخاف منه، ولقد تذكرت الأقوال المأثورة للفيلسوف أنا كاريسيس Anacharsis الذي قال بأن الذين يكونون في البحر، لا يمكن عدّهم لايين الأحياء ولا بين الأموات، فضلاً عن هذا لقد قال بأنهم أبعادوا عن الموت بمساحة أربعة أصابع، والأربعة أصابع هي سماكة جوانب السفينة، وأيضاً عندما سئل: أي السفن هي الأسلم؟ أجاب: «السفن الموضوعة فوق أرض يابسة، وليست في البحر»، وبهذا أعلن أنه لا يوجد أمن في البحر، بسبب مخاوفه الكثيرة والمفاجئة، وحدث أثناء هذه العاصفة المخيفة مفاجأة، فبدون توقع جاءت استجابة للمساعدة من السماء، ففي وسط أضواء البرق ظهر ضوء مثبت في الأعلى في الهواء فوق قوس السفينة لبعض الوقت، ومن ثم تحرك ببطء خلال الغليون بطوله حتى مقدمته ثم اختفى، وكان هذا الضوء هو شعاع نار عرضها حوالي الغلوة، وحالما رأى قباطنة الغليون وعبيده، والملاحون الآخرون، وكذلك بعض الحجاج الذين كانوا فوق ظهر الغليون، حالما رأى هؤلاء هذا الضوء حتى توقفوا عن العمل، وأوقفوا صراخهم وضجيجهم وركعوا نحو الأسفل رافعين أيديهم نحو السماء، ورددوا بصوت منخفض لاشيء سوى «قدوس، قدوس، قدوس»، ولم نعرف نحن الذين كنا بالأسفل مالذي كان يحدث، فارتعبنا لدى هذا الهدوء المفاجيء والصمت، والصلاة غير المعتادة، وتصورنا أنهم تخلوا عن العمل بعدما قنطوا، ولهذا كانوا يصرخون «قدوس»، لأنهم كانوا على حافة الموت، ووقفنا مندهشين ننتظر ما الذي سوف تكون عليه نهاية هذا، وهكذا فتح أحدهم الباب الذي يغطي البويب الرئيسي للغليون، الذي من خلاله يأتي الناس من ظهر الغليون إلى القمرة، وكلمنا بالإيطالية بما معناه: «أيها الحجاج، سادتي، لاتخافوا لأننا في هذه الليلة وفي هذه العاصفة لن نعاني من الشر، لأننا تلقينا عوناً من السماء»، وبعد هذا وبما أن العاصفة استمرت، عاد عبيد الغليون إلى أعمالهم

المعتادة، ولم يعودوا الآن يصرخون كما كانوا من قبل، بل عملوا بصرخات بهيجة، لأنهم لا يعملون قط بدون صراخ.

وينبغي ألا يفترض أي إنسان أن الذي تحدثت عنه بشأن الضوء هو مزيف، لأنه صادق بقدر كل ما هو ممكن، ويمكنني أن أبرهن عليه بأيمان أكثر من مائتي شاهد، هم أحياء في هذه الأيام، لأن ذراع الرب ليست قصيرة حتى تكون غير قادرة على إنقاذ، أولئك الذين كانوا في وضع بائس.

وفي أثناء هذه العاصفة قطعنا مسافة جيدة على مسارنا الصحيح، وأخيراً رأينا الريح قد قذفت بنا نحو الميناء الذي تشوقنا للوصول إليه، واقتضى ذلك جميع تلك الليلة واليوم التالي، وعندما أشرق اليوم التالي، وبما أن العاصفة كانت مستمرة، بقينا هادئين، وتحملنا أحوالنا بصبر، ذلك أننا كنا بلا ماء ولا طعام، ذلك أنه لم تكن هناك نار في الغليون، وكان المطبخ على السطح ملىء بالماء، بالإضافة إلى ذلك كنا جميعاً مصابين بدوار البحر، وأنفسنا عائرة لجميع الأطعمة والأشربة، لأن معدة كل واحد منا كانت مضطربة غير مستقرة، وفي الحقيقة ما من أحد منا أكل شيئاً في أثناء استمرار تلك العاصفة، وتمكن من إبقاء الطعام في جوفه، بل تقيأه ورماه ثانية، وما من شيء أفضل من إبقاء المعدة خاوية أثناء العواصف، فضلاً عن هذا كان الخبز كله قد فسد، ولم يكن قابلاً للأكل بالماء المالح، ولهذا كنا مرغمين على الصيام.

وتابعنا الإبحار في اليوم التالي، وقد خلفنا مدينة راغوسا - Ra-gusa على يميننا، وكورزولا على يسارنا، ووصلنا إلى مدينة ليسينا، حيث نزلناها، فأنعشنا أنفسنا، وتخلصنا مما كنا نعانيه من دوار البحر، وقد بقينا في ليسينا لمدة ثلاثة أيام، لأن الرياح في البحر كانت قوية جداً، مع أنه كان هواءً لطيفاً بالنسبة لنا، وانتظرنا أيضاً حتى تسترد السيدة الحامل قواها، ذلك أنها عانت كثيراً، وغدت ضعيفة جداً في أثناء

العاصفة، وفي الحقيقة كان أمراً عجباً أنها لم تهلك مع حملها أثناء ذلك الوقت العصيب، وبعد هذا أبحرنا من ليسينا بريح طيبة.

لكن مع حلول المساء ازدادت الرياح قوة، ورمت بنا جانباً بين أماكن وعرة، مليئة بالعشب والصخور، حيث كان من غير الممكن الابحار أثناء الليل، والتجأنا إلى سفح جبل وعرة، وألقينا بالدليل، محاولين العثور على قعر يمكن أن نلقي المرساة فوقه، لأن الظلام حلّ علينا بشكل مفاجئ، حتى أننا لم نستطع الوصول إلى ميناء، كما لم يعد بإمكاننا متابعة السير، وفي هذه الأثناء، عندما كنا قريبين من الجبل وكنا نحاول إدارة رأس الغليون نحو الريح، تعرض لضربة قاسية من الريح والأمواج، وكانت من العنف بمكان أنه لم يعد من الممكن التحكم به، وبات مهدداً بأن يمضي قوسه نحو الشاطئ فوق الصخور الحادة، وكان معنى ذلك تحطم الغليون، وعندما رأى رقيق الغليون أن المركب يتأرجح، وصل صراخهم نحو السماء، وبدأوا يركضون إلى هذا الاتجاه وذلك، واستعدوا للقيام بالنجاة بأنفسهم.

وفي تلك الأثناء كنا نحن مع الأسقفين جميعاً في الأسفل، عندما ركض خدم الأسقفين نحو البويب الذي كان فوقنا، وصرخوا بصوت خفيف ومرعب قائلين: «سادتنا تعالوا إلى الظهر، المركب قد تحطم وهو يغرق»، ولدى سماع هذا الصراخ قفز الأسقفان وأتباعهما، وركضوا نحو ظهر المركب في فوضى عظيمة، وذلك مثلما فعل الآخرون، وكان هناك تصادم على السلالم المرافقة، واندفاع سريع نحو مؤخرة المركب، للحصول في داخل القوارب التي كانت قد أقفلت، فقد كان ملاحوا السفينة مع عبيدها قد استلوا سيوفهم وقطعوا بها الحبال التي أمسكت القوارب، وهكذا سقطت القوارب في البحر في سبيل أن يتمكن القبطان نفسه مع أخيه وزوجة أخيه وأتباعه، من النجاة أولاً.

وعلى كل حال لم ينزل أحد إلى القوارب، ولو أن رجلاً واحداً نزل

إليها لكان هناك مشهداً مرعباً من الفوضى، حيث كان هناك عدداً كبيراً ممن سيحاول القفز إلى القوارب، وبذلك يؤذي الآخرين الذين على ظهر القوارب، وسيقوم هؤلاء برميهم في البحر، وسيستل الذين يكونون في القوارب سيوفهم وخناجرهم ويمنعون الآخرين من الدخول عليهم، لأنه في مثل هذه الأوقات من الرعب، غالباً ماتحمل القوارب أكثر من وزنها وتغرق، ويقوم الرجال الفقراء بمحاولة إنقاذ حياتهم، فيندفعون قبل الآخرين، وبذلك يتعرضون للقتل بسيوف النبلاء وسيوف خدمهم، فضلاً عن هذا فإن الذين يرون المخاطر التي يحياها الذين هم في القوارب، يقومون بسيوفهم فيقطعون أصابع وأيدي الرجال المتعلقين بالمجاديف وبجانب السفينة لدى عملهم للحصول بالقوارب، وبذلك يسقطون في البحر، ولقد سمعت حكايات مرعبة عن جنوح سفن وتعرضها للغرق، من الذين كانوا في مثل هذه المخاطر، التي بدا أننا كنا على وشك المعاناة منها.

وحدث أيضاً على كل حال أن الرب أنقذنا، فقد هدأت الفوضى، وربطت السفينة إلى الصخور، وطويت الأشرعة، وألقيت المراسي، وبناء عليه، بما أن عبيد الغليون، وصلنا بسبب إهمالهم وعدم اكتراثهم إلى هذه الحالة من الخوف، فقد جرت عقوبتهم بضرهم بشدة، غير أننا نحن الحجاج توسطنا من أجلهم، بعد ماتلقينا الرحمة الربانية التي أنقذتنا، وذلك احتذاءً بمثلها، مع أننا لم نكن جديرين بالإنقاذ من الموت، وتابعتنا في اليوم التالي السفر على طريقنا، وغادرنا يادرا *ladera*، وهي إحدى مدن دالماشيا، وقد خلفناها على يسارنا (كذا)، وتابعتنا جرينا أمام الريح، لكن مع حلول المساء، شرعت ريح قوية جداً بالهبوب، ومع ازديادها فيما بعد، أصبح البحر هائجاً، وقد دفعنا إلى خارج مسارنا إلى أماكن جبلية، ومع ذلك لم نتجرأ على الإقتراب من الشاطئ، خشية من أن نصطدم بصخرة سيلا *Scylla* أو كارييدس *Charybdis*،

ووصلنا إلى مجرى هوائي، حيث كانت الرياح فيه ثقيلة جداً، ومع هذا حاولنا أن نلقي مراسينا في وسط هذا المجرى، وبناء عليه رمينا بدليلنا، فوجدنا العمق كان هائلاً، ولهذا أبحرنا لمسافة أوسع، ولكن لدى غياب الشمس وحلول الظلام، لم يعد بإمكاننا المسير مسافة أبعد من دون مخاطر عظيمة، وأجرينا عملية القياس مجدداً، ووجدنا القعر، لكنه كان عميقاً جداً، ومع هذا رمينا مرساتنا الكبيرة، لإمساك الغليون، لكن عندما وصلت المرساة إلى القعر لم تجد لاصخور ولا حجارة ولا رمال يمكن أن تلتصق بها شعابها، بل جرت وراء الغليون فوق قعر الماء، وذلك أثناء متابعة الغليون لإبحاره، مما أقلقنا كثيراً، وبعد هذا، وإثر بذل جهد عظيم انتشلت المرساة، وألقي بها في مكان آخر، ومجدداً جرت المرساة وراء الغليون، مثلما يجري المحراث وراء الحصان، ثم رفعت مجدداً، ورمينا بها في مكان ثالث، حيث أمسكت بصخرة، ولكن عندما توقف الغليون، كانت عصا التوجيه تتحرك من مكان إلى آخر، مما أدى إلى انزلاق شعبة المرساة من على هذه الصخرة، وبدأ الغليون بجري المرساة مجدداً، لكن حدث فجأة أن وصلت المرساة إلى صخرة أخرى، حيث التصقت بها بشدة، وهكذا بقينا واقفين طوال الليل.

وحملنا نحن الحجاج أنفسنا إلى فرشنا، لكن القبطان بقي مع جميع الملاحين وعبيد الغليون بدون نوم طوال الليل، متوقعين موتهم وموتنا في كل لحظة، لأن الرياح هبت بشكل عنيف، وتأرجع الغليون كثيراً، لأننا رسونا خارج ميناء، يحميننا من قوة الرياح، وكان الملاحون — لهذا السبب — يخشون انزلاق المرساة وخروجها من الصخرة، أو أن ينقطع الحبل، ففي حال حدوث أي من الأمرين سوف نهلك بدون شك، ذلك أننا كنا في قوارنيرو Quarnero ، الذي كان أخطر خليج في البحر ، وذلك في مقابل ميناء أنكونا Ancona ، حيث كان البحر عالياً جداً وقوياً في سرعته.

ولهذا، وتقديراً من القبطان للمخاطر التي كنا فيها، نذر أنه ما أن يصل إلى ميناء بارنزو Parenzo سوف يبحر مع جميع الحجاج مباشرة إلى جزيرة القديس نيقولا، ليستمع هناك لقداسات تقال وتنشد للشكر على خلاصنا، وهذا ما فعلناه، لأننا قمنا بالصباح برفع المرساة، وأبحرنا مروراً بعدد من مدن دالماشيا، ووصلنا إلى بارونزو في استريا، وذهبنا في اليوم التالي مع القبطان، ونفذنا نذرنا، ومكثنا في بارنزو لمدة خمسة أيام، ثم وصلنا إلى ميناء البندقية بعد إبحار يوم واحد، وأخيراً وصلنا إلى البندقية، وتفرق جمعنا، ومضى كل رجل منا إلى موطنه.

وأصبحت في الوقت نفسه مريضاً، لكن ليس إلى حد أن أكون طريح الفراش، ومع ذلك كنت مريضاً جداً إلى حد منعي من المشي، أو ركوب حصان، حتى استردت عافيتي، ولذلك ذهب مولاي جورج مع النبلاء الآخرين إلى الوطن، غير أنني بقيت في البندقية بين أيدي الأطباء لمدة حوالي خمسة عشر يوماً، حيث عوفيت بعدها واستردت صحتي، فانطلقت من البندقية برفقة تاجر، واشترت حصاناً من تريفيسو Treviso وسافرت مع رفيقي حتى ترنت Trent ، وسافرت من ترنت وحيداً حتى وصلت إلى الناصرية Nassereit ، وقد وصلت هناك بعد الظهر، فوجدت بالنزل، أربعة من أخواني الحجاج من الأرض المقدسة، وكانوا من الإنكليز، وقد حيناً بعضنا بعضاً بسرور وبهجة، وكانوا يقومون بالإستعداد للسفر، ويأملون بعبور الجبل الذي اسمه سيريسيوس Sericius في ذلك اليوم نفسه، غير أنني رجوتهم الانتظار حتى الغد، حتى يمكننا السفر إلى أولم مع بعضنا، وقد طلبوا مني أن أركب معهم، لكنني رجوتهم بالبقاء معي باسم حق الرفقة والصدقة، ولكنهم رفضوا، لأنهم — كما أخبروني — قد سمعوا بشكل مؤكد، أنه سوف تصل في ذلك اليوم بالذات مجموعة كبيرة من الفرسان المسلحين، التابعين لبلاط دوق النمسا، إلى تلك القرية والنزل،

وهم يرغبون بتجنبهم، لأنه لم يكن سليماً العيش بين رجال مسلحين.

وهكذا افترقنا، وابتعدنا عن بعضنا بعضاً ثانية، فقد ذهبوا، وبقيت أنا خلفهم، وجاء في المساء إلى النزل عدد كبير من النبلاء المسلحين مع أتباعهم، وكانوا مرسلين من قبل دوق النمسا للدفاع عن قلعة كريجين Kregen التي كان إيبرهارد Eberhard الأكبر صاحب وورتمبرغ Wurtemberg محاصراً لها، ويحاول تدميرها، وعلى هذا كان النزل مليئاً برجال مسلحين أشداء، لكنهم عندما عرفوا بأنني قادم من الأرض المقدسة عاملوني باحترام ككاهن وراهب، وكذلك كجندي من جنود الأرض المقدسة والضريح المقدس، ودعوني لعمل قداس لهم في اليوم التالي، ومن ثم بالسفر معهم، وقمت في اليوم التالي بعمل قداس لهم، وتناولت طعام الإفطار معهم، وعندما انطلقنا لنسافر سددوا الحساب عني، وأخذوني معهم وسط قوتهم بسرور ومتعة وراحة، وعندما وصلنا إلى كمبتن Kempten ، وجدت هناك في نزل التاج الملكي، الحجاج الانكليز الأربعة المتقدمي الذكر، وقد جرحوا، وضربوا وسلبوا كل مقتنياتهم، وكانوا في حالة محزنة جداً، ومخجلة وتعيسة.

فقد انقض عليهم في الغابة على مقربة من كمبتن لصوص، أنزلوهم من على خيولهم مرغمين بالسيوف، وعندما حاولوا صد القوة بالقوة، والدفاع عن أنفسهم، أصابتهم الجراحات بضربات سيوفهم، وقاموا بشد وثاقهم، وجروهم بعيداً عن الطريق العام إلى داخل الجزء الداخلي من الغابة، إلى حقل معزول منفرد، وقاموا هناك بسلبهم وسط إهانات كثيرة، وفتشوا في جيوبهم، وأفرغوا محافظ نقودهم وجعبهم، وعروهم من ملابسهم تماماً، وبحثوا في ملابسهم بكل عناية ليعرفوا فيما إذا كانوا قد خاطوا على شيء من المال فيهم، وأعطوهم أخيراً بعضاً من الملابس السيئة بدلاً عن ملابسهم، وأرغموهم على أن يقسموا يميناً أنهم في

مجال ثلاثة أيام لن يخبروا أحداً بما حدث لهم.

ولقد أسفت كثيراً من أجل إخواني، إنما هنأت نفسي لأنني لم أبق بصحبته، لأنني لو بقيت لوقعت مثلهم في أيدي هؤلاء اللصوص، ووصلت في اليوم التالي إلى ميمنجن مع هؤلاء الفرسان، وأمضيت ذلك النهار معهم، وفي اليوم التالي الذي كان يوم عيد القديس أو ثمار Oth-mar [٢٥- تشرين أول]، سافرت من ميمنجن إلى أولم بصحبة كاهن.

ولدى دخولي إلى ديري، استقبلت بسرور ولطف، ومن ثم ذهبت إلى قلايتي وإلى عملي المعتاد فيها، ويمكنني القول صادقاً، إن هذا الحج الأول الذي قمت به، يعادل مائة ضعف من حيث المتاعب والمآسي، أو أكثر، من حجي الثاني، وهو أعظم خطراً في كل من البحر والبر، وكانت جماعتنا في الحج أثناء حجي الأول أكثر فوضوية، لأنه كان فيها كثيراً من الرجال الانفعاليين، ولهذا كانت هناك خصومات يومية، كما كان هناك بعض السرقات الخاصة، وكان بعضهم دوماً مريضاً، وفي الحقيقة، كانت رحلتي الأولى هذه في كثير من الجوانب أكثر حزناً وتعاسة، في حين كانت رحلتي الثانية أكثر اتعاباً، وأبعد مسافة، وأعظم انفاقاً، وأشد خطراً، ومع ذلك تحملت أكثر فأكثر المخاطر اليومية في رحلتي الثانية.

وبهذا يمكن لجميع الناس أن يروا بوضوح، كيف أنه غير صحيح، ماهو رائج بين الناس في قولهم بأن الحج بالبحر من البندقية إلى الأرض المقدسة، هو مجرد رحلة ممتعة مع مخاطر قليلة، أو بدون مخاطر على الإطلاق، فيا إلهي أية رحلة متعبة وصعبة كانت رحلتنا، وكم كانت المعاناة التي كابدناها كبيرة ومزعجة، فلقد رأيت خلال هذه الرحلة كثيراً من الشباب النبلاء النشطاء يهلكون، من الذين تصوروا في أذهانهم أن بإمكانهم أن يتحكموا بأمواج البحر، وأن يرفعوا الجبال

العالية ويزنوها، لكن الذي مات بالأخير مات بقضاء الله العادل، وهلك بفعل المصاعب، وكان أمره محزوناً في روحه.

أرجو الرب أن يعطي الذين قالوا بأن هذا الحج كان رحلة سهلة، القدرة على الشعور بالأسف وأن يتعلموا امتلاك الرحمة نحو الحجاج إلى الأرض المقدسة، وذلك حسب ما يستحقونه، فمحاولة هذا الحج تحتاج إلى الشجاعة والقدرة على التحمل، ذلك أن كثيرين يقدمون عليها ويندفعون نحوها بتسرع غير مغفور، وبلا شك بفضول بليد، ذلك أن الوصول إلى الأماكن المقدسة، ومن ثم أن يعود الإنسان إلى موطنه نشيطاً ومعافى، هو منحة خاصة من الرب.

هنا نهاية أولى جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته إلى الأرض المقدسة.

الطريقة التي استعد بها الراهب فيليكس فابري لجولته الثانية أو حجه إلى الأرض المقدسة، والقدس، وصهيون، وجبل سيناء

بعد إكمالي لجولتي الأولى، حسبما شرحتها جزئياً، عدت إلى أولم، معافى في بدني، وبدوت سعيداً متحمساً، لكن كنت في قلبي وروحي حزيناً، وغير مستقر، بسبب القلق الذي شعرت به، لأنه كان عليّ تحمل حجاً آخر، وعودة إلى الأرض المقدسة، وعلى كل حال لم أخبر أحداً بهذا القرار، ذلك أنني لم أكن قانعاً بأي حال من الأحوال بحجي الأول، لأنه كان قصيراً إلى أبعد الحدود وسريعاً، وقد ركضنا حول الأماكن المقدسة دون أن نفهم أو نشعر ماذا كانوا، يضاف إلى هذا لم يكن قد سمح لنا بزيارة بعض الأماكن المقدسة في كل من داخل القدس، وفي خارجها، كما أنه لم يسمح لنا بالسير فوق جبل الزيتون، وفي أماكنه المقدسة أكثر من مرة، وقد زرنا بيت لحم وبيت عنيا مرة واحدة فقط، وكان ذلك في الظلام.

ولهذا حدث بعد عودتي إلى أولم، وشروعي بالتفكير حول الضريح الأكثر قداسة لربنا، والملف الذي تمتد فيه، ومدينة القدس المقدسة، والجبال التي هناك من حولها، ومظهر وشكل وأوضاع هذه الجبال والأماكن المقدسة الأخرى، ذلك أنها ضاعت من ذاكرتي، حتى بدت لي الأرض المقدسة، والقدس مع أماكنها المقدسة وكأنها مغلفة بالضباب الكثيف، وكأنني قد رأيتهم في المنام، وبدوت شخصياً بالنسبة لنفسي وكأنني أعرف أقل حول الأماكن المقدسة، مما كنت أعرفه قبل أن أزورهم، ولهذا حدث أنني عندما سئلت عن الأماكن المقدسة، لم يكن بإمكانني إعطاء أجوبة دقيقة واضحة، كما لم يكن بإمكانني كتابة وصف واضح لرحلتي، ولهذا السبب كنت حزيناً إلى أبعد الحدود، ولكوني عانيت ما عانيته من متاعب، وشقاء، ومخاوف، وأنفقت مبلغاً كبيراً من المال، وكثيراً من الوقت، دون أن أتلقى أية ثمار، أو مواساة، أو معرفة.

وفي غالب الأحيان عندما كنت أحاول حصر نفسي وتوجيه أفكاري نحو القدس والأماكن المقدسة، كنت قادراً فقط على تجميع صورة غير واضحة حولهم، ولهذا قلت وأنا مغضب لنفسي: «أرجوك، توقفي عن التفكير حول هذه الأماكن، ذلك أنك كنت هناك بالتوهم والخيال فقط»، ومن هذه الساعة اعتدت على امتلاك رغبة ملحة جداً بالعودة، وبرهنت على صحة هذا غير أن هذا أوجد أسفاً جديداً بالنسبة إليّ وفيّ، لأنني لم أستطع رؤية أي سبيل للرجوع إلى هناك، كما أنني لم أتصور أن ذلك العود ممكناً.

وهكذا بقيت مرهقاً فكرياً، ولم أتجرأ على الحديث حول هذا الموضوع مع أي إنسان، وكنت خائفاً من ذكر هذا الموضوع إلى الأب المحترم السيد لودويغ فوكس، مع أنه كان صديقاً مقرباً مني، وشريكاً لي في جميع أسراري، حيث ما كنت أتردد في إخباره بجميع الأشياء السرية التي كنت أشعر بها بقرارة نفسي، ومع هذا لم أتجرأ على البوح بذلك لأبي بالرب، ولم أذكر له خطتي بالعودة إلى القدس، خشية من إثارته وإزعاجه، وخشية أنه وغيره عندما يسمعون بذلك سيظنون ظن السوء بي، ويحكمون بأنني صاحب عقل خفيف، ومتضايق من العزلة الانفرادية الهادئة، أوريا أعاني من إغواء الشيطان، أو مدان بذنب الفضول المرفوض، أو مصاب بدوافع طائشة ملتهبة جامحة، ولذلك بقيت بلا قرار، ولم أظهر إشارة بما شعرت به سوى أنني عندما سئلت عن القدس وعن الأرض المقدسة، لم يكن بإمكانني الكلام بدون تنهد، أو القول أحياناً: لست أدري فيما إذا كنت قد رأيت القدس حقيقة أم لا، وعندما سألوني، فيما إذا كنت أرغب بالعودة إلى هناك ثانية، أجبت بكل بساطة، نعم أنا أرغب بذلك، وفي الوقت نفسه ألفتني رغبتني في العودة في قلق محموم، ولذلك لم تقدم لي الدراسة، ولا الكتابة أية بهجة أو متعة، إلا الحكايات التي وردت في التوراة وفي أماكن أخرى فيها

إشارات وذكر للقدس، ولهذا قرأت بعناية كل شيء تعلق بهذا الموضوع، ووصل إلى يديّ، فضلاً عن هذا جمعت كل حكايات حجاج الحروب الصليبية، والرحلات التي كتبت من قبل حجاج، وكذلك أوصاف الأرض المقدسة، وقرأتهم بعناية، وكنت كلما قرأت أكثر كلما ازداد اضطرابي، لأنني بقراءتي لروايات الآخرين، علمت كم كان حجي، ناقصاً، ومصطنعاً، وغير نظامي، ومضطرباً متداخلاً.

وأضيت في أعمال القراءات والكتابات هذه سنة واحدة، لكن بعد مضي سنة عدم الاستقرار هذه، قدم إلى منطقتنا القائد العام لطائفتنا كلها، أي طائفة الرهبان المبشرين، وهو سالفوس دي كاسيتا، Salvus de Casseta أوف بالرمو (بلرم)، وقد جاء مرسلًا من قبل الأب المقدس البابا سكتوس الرابع، للتصدي للسيد أندرو، رئيس أساقفة كارنيولا Carniola، الذي تحرك لأدري بأية روح، وكان يحاول عقد مجمع عام في بازل، وكان يسكن هناك تحت حماية الامبراطور فردريك الثالث، ومن أجل أن يتمكن رئيس طائفة الرهبان المبشرين المتقدم الذكر، من العمل بشكل فعال أكثر، استدعى أفضل الوعاظ في منطقتنا للاجتماع به في دير كولمار Colmar، وقد بعثت بين هؤلاء، وقدمت إلى الدير المتقدم الذكر، لكي أسمع أوامره وأطيعها، وهكذا عندما كنت بحضرة رئيس الطائفة، كان بين الأشياء التي قلتها لذلك الأب، وتحدثت بها إليه، أن أخبرت فخامته وحدثته عن رغبتني بالعودة إلى الأرض المقدسة وفلسطين، فما كان منه إلا أذن لي بالذهاب مباشرة وبدون عمل أية مصاعب، وأعطاني رسالة سماح مختومة بختم الطائفة، فيها حظّر على كل واحد من المراتب الأدنى منه عمل أية عوائق في طريق إنجاز ذلك الحج.

ولدى حصولي على هذا السماح عدت مسروراً إلى أولم، وأبقيت رسالة الرئيس مكتومة، وانتظرت متشوقاً لفرصة مناسبة حتى أعلن

عنها، وليس بعد مضي أيام كثيرة على هذا، حتى قدم إلى أولم مولانا المحترم في المسيح أودالريكوس غيسلينوس Udalricus Gislinus أسقف أدراميتيوم adramyttium ، ونائب أسقف لمولاي أسقف أوغسبورغ Augsburg ، الذي كان صديقاً لي، وقد شملني بمعرفته، وجاء معه حكيم باللاهوت، وكان راهباً من طائفة الفرنسيسكان، وكان راغباً بالذهاب إلى روما ليتسلم ترسيمه أسقفاً، لأن السيد أسقف فريزيا قد جعل منه مساعد أسقف له، وقد زرت هؤلاء السادة، ورجوت الحكيم المتقدم الذكر أن يتفضل عليّ فيحصل لي من الأب المقدس البابا، على إجازة لي لزيارة الأماكن المقدسة فيما وراء البحر، وهو ما رجاه أيضاً الأب المحترم المتقدم الذكر أودالريكوس أن يفعله إكراماً لخاطره، وهكذا وعدني بأن يفعل ذلك، وقد حافظ على وعده وبعث لي رسالة تحتوي على الاذن بالسفر، وعندما حصلت على هذه الرسالة حافظت على الصمت فقد كنت أمل بتوفر فرصة موافقة أكثر، وكنت أرجو أن الفرصة المرغوبة هي ستقدم نفسها، وتلبي رغبتني وتشوقي من دون أن أطلبها، وهذا ما حدث بالفعل.

وكان في ذلك الوقت في أولم رجل اسمه كونراد لوخر Locher ، وكان إنساناً محترماً يشغل وظيفة النائب العام للامبراطورية الرومانية المقدسة في ذلك المكان، وكان معروفاً بشكل جيد من قبل عدد كبير من النبلاء، وقد نظر إليّ نظرة تقدير وأولاني عناية خاصة، وله — بحكم كونه صديق موثوق — فتحت أولاً قلبي، وأبحث له خبر رغبتني، والاجازتين التي حصلت عليهما، ورجوته إذا كان يعرف أي شخص من نبلاء المنطقة، يرغب بالقيام بالحج إلى الضريح المقدس في القدس، وهو بحاجة إلى خادم وشماس، فيوصي بي إلى مثل هذا الشخص، على أنني إنسان صاحب تجربة، ومعين في مثل هذا الحج في كل من القضايا

الروحية والدينية.

وبناء عليه نظر الرجل المتقدم الذكر في لائحة نبلاء المنطقة، فوجد السيد ذي الأصل النبيل جون تروخسيس فون وولدبورغ John Tru- chesess Von Woldpurg ، كان يعدّ العدة للقيام بحج إلى ما وراء البحار مع عدد آخر من البارونات والنبلاء، وقد زار هؤلاء النبلاء، وقام بإخلاص عظيم بالتوصية بي لهم، كما برهنت الأحداث.

لأنه مباشرة بعد هذا، وكان ذلك في سنة ١٤٨٣، وفي يوم عيد القديسة العذراء جيرترود Gertrude ، قام النبيل المتقدم الذكر، أي تروخسيس فون وولدبورغ، بالقدوم إلى أولم مع عدد كبير آخر من النبلاء، ومن أصدقائه، وأرسل على الفور رسولا إليّ واستدعاني من الدير، وعندما قدمت إليه إلى النزل الذي كان نازلاً به، وبدأ يسألني، وكأنه يطلب مشورتي حول كيف يمكن للذين يرغبون بعبور البحر والقيام بالحج إلى القدس، أن يفعلوا ذلك، وما الذي عليهم القيام به بشأن هذه القضية، وقال: «لقد سمعت بأنك كنت في تلك المناطق فيما وراء البحار، أرجوك، أشر عليّ، ما الذي ينبغي أن أفعله من أجل أن أعود إلى الوطن سالمًا؟ ثم استطرد يقول: «إنني أنوي زيارة الأرض المقدسة، ومدينة القدس المشهورة، ومعلم الرب، الذي هو الأكثر عذوبة، وضريح الرب الأكثر تمجيداً»، وقال: أخبرني، «أرجوك بحرارة، ما هي المصاعب في طريقي، وكيف يمكن تجاوزها؟»، وعندما كنت أجيبه على أسئلته، كان ينظر إليّ بإخلاص عظيم، ومع أنه توقف عن سؤالني مثلما فعل في البداية، لكنه استوضح عما إذا ما زلت أمتلك أية رغبة في العودة إلى القدس، فأجبت أنه لا يوجد شيء في العالم أنا متشوق إليه بشدة، في الوقت الحالي، أعظم من رؤية ثانية لهذه الأماكن المقدسة، وبعدما علم هكذا رغبتني بالذهاب، جعلني هذا النبيل أعود إلى ديري، مؤكداً لي، أنه ينبغي أن أذهب إلى القدس برفقته ورفقة

أصدقائه.

وكان النبلاء التالية أسماؤهم قد تعهدوا مقسمين على القيام بالحج مع بعضهم، وهم: السيد جون وورنهير Wornher ، بارون فون كيمبيرن Cymbern ، والسيد هنري بارون فون ستوفل Stoe-fel ، والسيد أورسوس Ursus فون رينخيرغ Rechberg فون هوهنرينجيرغ Hohenrechberg، والسيد المتقدم الذكر تروخسيس فون وولدبورغ، الذي كان والد جميع المتقدمي الذكر، ومنه تلقوا التحريض والدافع الذي جعلهم يقررون القيام بحجهم.

ومباشرة في الساعة نفسها التي عدت بها إلى ديري، أرسل النبيل المتقدم الذكر رجلاً محترماً مرافقاً بحاشيته الخاصة، ليلقي كلمة يرجو بها السيد المحترم رئيس الدير، باسم البارونات النبلاء الذين تقدم ذكرهم، بأن يتكرم ويحسن بمنح الراهب الذي كان في بلدان ما وراء البحر، والذي وقع اختيارهم عليه بالاجماع لأن يكون شماسهم والقس الذي يعترفون إليه، إجازة بالمغادرة، وإذنًا بالسفر من البلاد معهم، ولهذا الغرض أضفت بأن السيد جون تروخسيس قد قدم الآن مع رفاقه والنبلاء الآخرين إلى هذه المدينة.

وعندما سمح رئيس الدير هذا افتعل كثيراً من المصاعب، وأخذ وقتاً لتقدير الجواب الذي ينبغي أن يعطيه، وعندما رأى السيد جون هذا، وخشية منه أن ينتهي النقاش في شيء يضاد رغباته، قام مباشرة في اليوم التالي، وجلب معه جميع النبلاء وأصدقائه، وكذلك النبيل كونت فون كيرخبيرغ Kyrchberg الذي جاء أيضاً معه، ولقد اصطحب هؤلاء جميعاً وذهب إلى مقر محكمة العدالة المدنية، حيث كان جميع أعيان مدينة أولم مجتمعين، وترجاهم لكي يستمعوا له، وعندما جرت الاستجابة لهذا الطلب، توسل إلى القناصل لكي يستخدموا نفوذهم لدى رئيس دير الدومينيكان لكي يدع الراهب فيلكس، الذي اختاره

هو ورفاقه ليكون شماسهم أثناء الحج فيما وراء البحار، يدعه يغادر بدون عوائق، ولا سيما أنهم يعرفون بشكل خاص أنه راغب بالذهاب، وبناء عليه دخل عمدة المدينة مع عدد من القضاة إلى الدير ليلتمسوا من الأب، الموافقة على التماس النبلاء، من أجل خاطر أعيان المدينة، وعندما قال بأنه لا يمتلك السلطة ليمنحني إجازة للارتحال إلى القدس، لأن ذلك العمل هو في يدي أبينا المقدس، البابا، وكذلك هو من شأن القائد العام للطائفة، قمت على الفور بتقديم الرسالتين، اللتين هما من البابا، ومن القائد العام للطائفة، وعندما رأهما أعطى على الفور موافقته باسم الرب.

وبناء عليه التقيت بالسيد جون تروخسيس، وتباحثت معه حول المكان وحول اليوم الذي سألتقي به فيه مع سادتي الثلاثة الآخرين، وقام بتحديد يوم خاص، أما بالنسبة للمكان فقد كان بلدة إنسبروك Innsbruck حيث مقر دوق النمسا، وبعد إعداد هذا، ذهب سيادته إلى موطنه مع جماعته، واعتباراً من هذا اليوم أطلقت لحيتي، وزينت قبعتي وردائي بصليبين حمراوين، وجرت خياطة هذين الصليبين على ثيابي من قبل عذراوات، مكرسات للرب، اقترن بالذي صلب، وعملت جميع الشارات الأخرى لذلك الحج المقدس، كما ينبغي أن أفعل بشكل صحيح، حيث هناك أربطة خمسة خارجية للحاج هي: أولها صليب أحمر فوق رداء رمادي طويل، مع قلنسوة راهب مخاطة إلى القميص، ما لم يكن الحاج منتمياً إلى إحدى الطوائف التي لا تسمح له بارتداء رداء رمادي، وثانيها قبعة سوداء أو رمادية، عليها في الواجهة صليب أحمر، وثالثها لحية طويلة نامية من وجه حاد وممتقع اللون بسبب متاعبه والمخاطر، ذلك أنه في كل بلد من البلدان، حتى في البلدان الكافرة، يطلق الناس لحاهم ويدعون شعورهم تطول أثناء سفرهم، وإلى أن يعودوا إلى وطنهم، ويقولون إن أول من فعل ذلك هو أوزوريس،

وكان ملكاً قديماً لمصر، وكان مقدساً إلى درجة عدّه رباً، وكان قد ارتحل خلال العالم كله، والرابع هو مخلاة تعلق على الكتفين فيها طعامه القليل مع زجاجة، وهي كافية ليس لرغد العيش، بل لمجرد ضرورات الحياة، والخامس، وهو ما يحصل عليه فقط في الأرض المقدسة، وهو أتان، مع سائق مسلم، عوضاً عن عصاه.

وهكذا تطلعت بشوق عظيم إلى يوم مغادرتي، وبصمت وهدوء جهزت نفسي من أجل حجي المقدس، وذلك بسبب المشاكل التي أثارها الذين كانوا قلقين على سلامتي، والذين دأبوا على إزعاجي.

هنا بداية الرحلة الثانية للراهب فيلكس فابري إلى الأرض المقدسة والقدس

الجزء الرئيسي الثاني من الكتاب كله.

سوف أبدأ الآن جولاتي حول حجي الأكثر رغبة فيه والذي كان الأعظم إشراقاً وسروراً، وهو الحج الذي عازمت على وصفه في اثني عشر فصلاً، تبعاً للاثني عشر شهراً — أكثر أو أقل — التي استغرقها الحج، وقد قسمت كل فصل إلى كثير من العناوين، مثلما هناك أيام في الشهر، وبناء عليه سوف يكون كل شهر في فصل، وكل يوم تحت عنوان.

ولسوف أبدأ بيوم مغادرتي، وأنتهي بيوم عودتي، وسأتي بشكل صادق وأمين على ذكر جميع الأماكن التي رأيناها شهراً تلو شهر، ويوماً تلو يوم، وسأتحدث بصدق عن كل ما نزل بنا في كل شهر، وفي كل يوم، مضيفاً أوصاف جميع الأماكن المقدسة وغيرها من الأماكن، لكي أحسن روايتي وأشرحها، لأنني لم أر يوماً واحداً، أثناء رحلتي، دون أن أكتب بعض المذكرات، حتى عندما كنت في البحر، وفي العواصف، أو في البلاد المقدسة، وغالباً ما كنت في الصحراء وأنا راكب على ظهر أتان، أو جمل، أو في الليل عندما يكون الآخرون نياماً، حيث كنت أجلس وأدون كتابة ما كنت قد رأيته.

والآن عندما اقترب موعد المغادرة، وبات عليّ السفر، ترقبت يوماً مناسباً يمكنني أن أغادر فيه أولم، من دون أن ألاحظ، ومن دون تجمع حشد كبير من الناس، لأن رفاقي وذوي النوايا الطيبة نحوي قد انزعجوا كثيراً، وكانوا غير سعداء إلى أبعد الحدود بسبب مغادرتي، وقد أزعجونني كثيراً بنصائحهم التي وجهوها إليّ بالبقاء في الوطن،

وبسبب مخاوفهم الحمقاء، وقد بدا نحيبهم بالنسبة لي مزعجاً جداً، لأنني أحب البهجة ولا أخاف، لأنني كنت ذاهباً لتلبية دعوة إلى الاحتفال مع أعز أصدقائي.

وبناء عليه في الثالث عشر من نيسان، الذي كان يوم أحد ويعرف باسم *Misericordia Domini* وذلك في سنة ١٤٨٣، ومع حلول الظلام، جاء إليّ رسول أرسله النزيل السيد فيليب كونت كيرخبيرغ، يطلب مني القدوم في الصباح التالي بدون تأخير لزيارة الكونت والقيام ببعض الأعمال معه، وكنت في وضع الرئيس لجميع أسرتي، لأن جميع آل بيتي اعتادوا على الاعتراف إليّ، من كل من الكونتات والكونتسات، وعندما تتوفر أية مصاعب، يمكنني أن أتعامل معها، كانوا دوماً يكتبون رسالة إليّ، أو يبعثون إليّ للقدوم إليهم، وبناء عليه رتبت مع الخادم بأنني سوف أقدم عليه بصحبته في الغد.

وفي الرابع عشر، الذي كان يوم عيد تيبورتوس *Tiburtius* وفالنتاين، وبعد قراءة القداس وتناول طعام الإفطار دعوت للاجتماع بي جميع الرهبان، وقلت لهم أنني الآن أرغب في مغادرتهم والسفر، ورجوت بنيل مباركة الحج من أبينا المحترم المقدس لودويغ *Ludwig*، وقد اقتادني إلى السدة حيث رافقني كل رهبان الدير، وجثوث في وسط السدة بوجود القربان المقدس، وتلقيت المباركة من المذبح، وسط بكاء مرّ ونحيب من رئيس الدير وجميع الرهبان، وبعدما تلقيت مباركتي جعلني بكائي ودموعي غير قادر على القول وداعاً لإخواني الرهبان بالكلمات، لكن دموعي، ووجهي الحزين، وتنهداتي تكلمت عني.

وبناء عليه عانقت وقبلت كل واحد من إخواني، ورجوتهم أن يتذكروني في صلواتهم، غير أنني لم أستطع إلا بصعوبة بالغة إقناع الأب المحترم لودويغ بالبقاء مرتاحاً في البيت، لأنه أراد أن يراني سليماً حتى ميمنجن، كما فعل من قبل، لكنني رفضت كلياً أن أسمع له، حتى

لايعاني من ألم جديد واضطراب عندما نفترق، وعلى كل حال كنت لدى انطلاقي لهذا الحج مسروراً ومنتشياً، وروحي مبتهجة، ومع ذلك عندما تركت الأب، الذي هو صديق مخلص جداً، وغادرت إخواني المحبوبين إليّ كثيراً، الذين كانوا حزينين كثيراً ومحبتين، لم أستطع أن أمنع نفسي من ذرف دموعي.

وبعدما جرى جمع الحقائق التي نويت حملها معي، وبعدما وضعتها على ظهر الحصان الذي كنت قد اشتريته، امتطيت حصاني، وبت على نية السير والابتعاد برفقة خادم الكونت، لكن حدث لدى امتطائي لحصاني أن تحلق جميع إخواني الرهبان من حولي، ورجوني أن أتنبه وأن أعتني بكتابة مذكرات عن جميع الأماكن المقدسة التي سأراها، وأن أكتب رواية عنها وأجلبها معي إليهم، وذلك من أجل أن يتمكنوا أيضاً بأفكارهم — طالما لم يستطيعوا بأجسادهم — من الحصول على متعة زيارة الأماكن المقدسة، وقد وعدت إخواني بفعل ذلك، وخرجت برفقة خادم الكونت وقتها من الدير، وسرنا بدون جلبه وكأننا مخفين لأنفسنا، وخرجنا من المدينة، وعبرنا نهر الدانوب عبر الباب الذي يقود إلى جسر الضأن، وصدف أن هذا الحج قد توافق مع الحج الآخر، فيما يتعلق باليوم الذي بدأ به، ذلك أنني كنت قد بدأت حجي المتقدم في يوم عيد القديسين تيورتيوس وفالتاين.

وفي الحقيقة بدأت بعد مضي عامين رحلتي الثانية في اليوم نفسه والساعة نفسها، مثل الرحلة الأولى، وسرت أنا وخادم الكونت فوصلنا بسرعة إلى قرية ديسين Dissen ، وصعدنا بعد ذلك إلى القلعة القائمة فوقها، التي سكن فيها مولاي الكونت، وكان السبب في إرساله خلفي هو مايلي: كان يوجد في قرية جيدينشيم Jedensheim أو إيهديمشيم Iheidemsheim ، القائمة عند سفح الراية التي قامت فوقها القلعة، كان يوجد هناك فتاة قد فقدت عقلها، التي من الممكن

تبيان أنها متلبسة من الشيطان، وقد أراني الفتاة وعرضها عليّ لأنظر إليها وأتفحصها، حتى يمكنني تقرير ما الذي يمكن العمل معها، وكان قراري أنها كانت فاقدة لعقلها، ولهذا كان الأجدى العهدة بها لعناية أطباء وليس لعناية لاهوتيين.

ومع انتهاء هذا العمل أخبرت مولاي الكونت، بأنني قد بدأت رحلتي، ورجوته أن يبعث معي بخادم يرافقني حتى سفح جبال الألب، لأنه بالنسبة للطريق خلال تلك المسافة غالباً ما يكون خطيراً، وقد خفت من السير وحيداً، وبناء عليه غادرت ثيسا Thyssa في ذلك اليوم نفسه مع الخادم الذي عين لي، وسافرنا حتى ميمنجن حيث أمضينا الليل.

وسافرنا في اليوم الخامس عشر مسرعين من ميمنجن حتى كامبتن Kampten، وهناك تناولنا طعام الغداء معاً، وبعد الغداء صرفت الخادم وطلبت منه العودة إلى سيده، ذلك أنني خشيت من احتمال أن يغادر مولاي انسبروك Innsbruck قبل وصولي إلى هناك، ولذلك سافرت حتى قرية ريوتي Reutte القائمة على ضفتي نهر ليكوس Licus، وهو الذي يعرف بشكل عام باسم ليخ Lech، حيث أمضيت الليل هناك.

وغادرت في يوم السادس عشر ريوتي وحيداً، وكان ذلك في الصباح الباكر، وشرعت في تسلق ألب ريهتك Rhaetic، في مكان يقوم فيه المدخل إلى ريهتك الألب، وذلك فوق طريق منحدر، يكون في أوقات الأمطار سيئاً جداً للسفر عليه، لأنه عميق وموحل، وقد وجدت الطريق سيئاً جداً، لأنه كانت هناك أمطار في اليوم المتقدم، وتساقط الثلج في الليلة التالية فوق الوحول، ولهذا لم أستطع رؤية التجمعات المائية والحفر العميقة، وعلى هذا غرق حصاني الذي قدته طوال الطريق صعوداً حتى بطنه أثناء كل خطوة، وغرقت أنا مثله حتى ركبتني، فضلاً

عن هذا غرقنا معاً في حفر عميقة، ومهما يكن من أمر لقد عبرت حتى حدود الريهتك ألب Rhaetic Alps ، التي هي موجودة عند مكان اسمه ايهرنستين Ehrenstein ، ووصلت إلى حيث يقود الطريق صعوداً فوق مونز فيريشيوس Mons Fericius ، وعندما وصلت إلى قمة هذا المكان ونزلت إلى الجانب الآخر، وجدت أنه ما يزال أمامي جزء من النهار، ولهذا عبرت خلال قرية الناصرية، وتسقلت ثانية جبلاً عالياً جداً ووصلت إلى قرية Schneckenhusen ، حيث قررت إمضاء الليل.

وجلس في النزل بعض عمال المناجم من مناجم الفضة، وكانوا يقيمون، ويشربون ويمتعون أنفسهم، وقد نظرت إليهم نظرة ريبة، وكنت حذراً في كلامي معهم، ووضعني صاحب النزل في غرفة صغيرة لوحدي، حيث قمت بإغلاق الباب بكل اتقان وحذر، ورحت نائماً.

وفي الصباح الباكر من اليوم السابع عشر، عندما استيقظنا جميعاً، كانت هناك ضجة كبيرة في دار النزل، لأن اثنين من الحمالين كانا يشتكيان بأنهما فقدتا نقودهما مع أموالهما كلها، لأنها عندما كانا نائمين، دخل عمال المناجم إلى غرفتهما، وسحبا حافظتي نقودهما من تحت وسادتيهما، وأفرغاهن ورموهن في الحديقة المجاورة لدار النزل، ونجوا مع المال، بينما كان كل إنسان نائم.

وعندما أشرقت الشمس غادرت ذلك المكان، ومضيت مسافراً على طريقي تخالجي المخاوف من أن يكون أولئك اللصوص قد جلسوا كامنين لي على الطريق، وعلى كل حال لم يلحقني أي ضرر، ووصلت في منتصف النهار إلى بلدة إنسبروك Innsbruck حيث أملت بلقاء مولاي، لكن خاب أمني، ويطلق على إنسبروك اسم بونتينا Pontina في اللاتينية، وذلك اشتقاقاً من عبارة بونز إن Pons Ini ، ذلك أن الجسر القائم على نهر إن Inn ، هو المعني بالألمانية باسم

إينسبروك، ولدى اقترابي من جسر البلدة، وعندما كنت على وشك الدخول إليه، قابلت خمسة رجال مسلحين، كانوا من أتباع موالي، حيث كانوا قد صرفوهم عائدين إلى موطنهم، عندما كانوا أنفسهم قد انطلقوا من اينسبروك في ذلك اليوم نفسه، وكانوا يعملون في بلاط الدوق منذ أيام طويلة، وكانوا متعبين من ذلك، ولذلك ما أن أنهوا أعمالهم هناك، حتى استأذنوا بالانصراف، قبل يوم واحد قبل الموعد الذي كان السيد جون التروخسيس قد حدده للقاء معي، وكانت الأعمال التي كان عليهم تصريفها مع الدوق هي أنه عهد إليهم بالمسؤولية عن كل ما خلفه وراءه هو ومن معه، أي: أزواجهم، وأولادهم، وأراضيهم، وقراهم، وبلداتهم، وقلاعهم، وكونتياتهم وإقطاعياتهم، فضلاً عن هذا كانوا قد تسلموا من الدوق رسائل توصية موجهة إلى أعيان وشيوخ البندقية، وكانوا عندما أكملوا هذا كانوا قد شرعوا بالانصراف.

وبما أنني لم أجد موالي في البلدة، عبرت من خلالها مسرعاً، من أجل اللحاق بهم، وتسقلت الجبال، وبعد عبوري الكثير من الممرات الملتوية بين الجبال، وصلت إلى واد كبير اسمه ماتري Matrae وأمضيت الليل هناك.

وفي يوم الثامن عشر تسلقت جبلاً أكثر علواً، وعبرت الممر الذي اسمه برينير Brenner، حيث عانيت من البرد القارص، لأنه يوجد هناك دوماً حتى في الصيف جليد، وبخار على شكل صقيع، وذهبت من ذلك الشرف نزولاً إلى الطرف الآخر عبر طريق طويل سرت عليه حتى وصلت إلى بلدة ستيرتزنج Stertzing حيث وجدت موالي في النزول مع نبلاء آخرين وأتباعهم، والذين وجدتهم هناك كانوا: السيد هينريخ Heinrich فون ستوفل، والسيد جون التروخسيس، والسيد أوسوس فون رينخيرغ، غير أن العضو الرابع من جماعتنا، وهو السيد جون ويرنر Werner، بارون فون سيمبيرن، كان قد مضى في

مقدمتهم وسبقهم، من أجل أن يحضر مكان إقامة موائم في البندقية من أجل السادة جميعاً، ومن هم في جماعتنا.

وفي يوم التاسع عشر من نيسان غادرنا ذلك المكان بعد الغداء، ولدى مرورنا بدير نيوستفت Neustift ، العائد إلى طائفة كهنة نظاميين، على مقربة من بركسن Brixen ، خرج راعي الدير لاستقبالنا وأخذنا جميعاً إلى الدير برفقته، وقد فعل ذلك صدوراً عن احترامه للسيد جون التروخسيس، الذي عدّه حاميه، لأنه جاء من وولسي Walsee ، مقر السيد جون التروخسيس، وبفضله جرى تعيينه راعياً لذلك الدير، ولم يرغب راعي الدير المتقدم ذكره بأن يدعنا نذهب، بل أجبرنا على البقاء هناك، وعاملنا باحترام عظيم، ذلك أن الدير كان عظيماً جداً وثرياً، ونادراً ما رأيت في أي مكان آخر مثل الكثرة التي رأيتها هناك من صحون الذهب والفضة في قاعة طعام راعي الدير، ويمتلك هذا الدير كنيسة كبيرة، مزينة بشكل ثري، كما يحتوي على مكتبة جيدة، والرجال هناك متزمتين ومحترمين، ويرعون إقامة القداسات الربانية، ولأعتقد أنني سمعت في أي مكان آخر مثل صحة غناء الجوقة وجودته في هذا الدير.

وفي يوم العشرين، الذي كان يوم أحد عرف باسم «اليوبيل» بقينا لسماع القداس الرباني، ومن أجل الغداء في نيوستفت، ثم غادرنا الدير، ومررنا مسرعين من خلال بلدة بركسن، لأن السادة قد علموا بأن الطاعون كان منتشرًا هناك، وفي مرات مقبلة عندما مررت من هناك أمضيت الليل فيها، ويوجد فيها أسقفية غنية، وكان غالباً ما تنشب إثر وفاة الأسقف هناك صراعات بين النبلاء، حول الأسقفية، وهذه المنطقة كلها مشحونة بالخلافات والصراعات اللاهوتية، وكانت المنطقة كلها محرومة لاهوتياً، ويمكنني أن أتذكر الوقت الذي وضع فيه دوق النمسا الحالي سيغسموند Sigismund ، والمنطقة كلها تحت حرمان واضح

دقيق، وكانوا جميعاً محرومين كنسياً بسبب ما كان يتفجر من خلافات حول الأسقفية، وبناء عليه فإن كل إنسان عبر خلال تلك المنطقة، سواء أكان عارفاً أم جاهلاً، أصبح محروماً.

ويوجد هناك كنيسة كاتدرائية جميلة، فيها وقفت مرة مع واحد من إخواني الرهبان من طائفتي ورددنا الساعات القانونية في تلك الكنيسة، وبناء عليه قام مولاي رئيس تلك الكنيسة والقانوني الكبير فيها، فبعث شماسه إلينا، وسأل عما إذا كنا رهباناً متسولين، وعندما عرف صدق ذلك منحنا صدقات جيدة وسخية، ويمكن لدير لرهبان جيدين أن يكون مفيداً جداً هناك، لأنه لا يوجد في الأسقفية كلها دير للرهبان المتسولين، فالرهبان القانونيين هناك متزمطين ومحترمين، ولذلك ليس هناك أي راهب سوى الذين هم في ريكوليت Recollets في نيوستفت، والدير في نيوستفت هو من ممتلكات هؤلاء الرهبان القانونيين، وليس قبل وقت طويل جداً كانت الكنيسة في نيوستفت كنيسة كاتدرائية، لكن عندما نقلت إلى البلدة، جرى وضع الكهنة النظاميين هناك.

وغادرنا بركسن وخلفناها وراءنا، فوصلنا إلى كونترسويفغ Kun- tersweg، حيث تابعنا سيرنا من جانبها بسهولة، لأن دوق النمسا قد حصنها بقوة، ويذهب الآن إلى أعلاها وأسفلها بعربات ذوات دواليب، وقد تخلو عن ممرات الخيول القديمة، وكان الدوق المتقدم الذكر يبني لهذا بناءً عالياً بنفقات عظيمة، ليكون بمثابة بيت طويل، وقبل أقل من سنتين مضيتا كان هذا الطريق على درجة كبيرة من السوء، وخطيراً إلى حد أن الإنسان يستطيع عبوره وسط أعظم المخاطر، وهو يقود فرسه خلفه، وأنا أعرف درجة المخاوف والمخاطر عبر هذا الطريق عندما مررت به أثناء سفري في حجي الأول، لأنه يوجد على جهة اليمين وديان عميقة جداً، وكان الطريق شديد الضيق،

لوجود شعاب جبلية عالية على يساره، ونظراً لأن هذا الطريق كان ضيقاً وخطيراً كان الأدلاء الشعبيون يغنون حوله، لكن الآن — كما قلت — بذل الدوق جهوداً فنية لكي ينسف الصخور بوساطة البارود، حتى يقطع واجهات الشعاب الجبلية، ويجرف بعيداً كميات كبيرة من الصخور، وجعل بالانفاق العظيم من الأماكن الوعرة أماكن سهلة، ولم يقتصر هذا على هذه المنطقة فقط، بل شمل مناطق كثيرة من Rhæ-tia التي هي خاضعة لحكمه.

وكان طول الطريق المتقدم الذكر ميلين ألمانيين، وعندما عبرناها وصلنا إلى بلدة بوتزن Botzen، التي وجدناها لسوء حظها قد تعرضت مؤخراً للحريق كلياً تقريباً، وفي الحقيقة لم تكن النيران قد زالت كلياً، بل إننا رأينا اللهب، وشممنا الدخان وكان مايزال ينبعث من بين أكوام الخرائب، وكانت الديرة والكنائس قد بقيت دون أن تتعرض للنار، وكان دير طائفتنا للرهبان المبشرين قد تعرض للنار، لكن بفضل جهود الرهبان الغيورة، الذين عملوا من فوق الأسطحة أمكن إطفاء اللهب، ومع ذلك تمكنت النيران من الانتشار بقوة، حتى أن ديرنا، لم يكن بالامكان إنقاذه إلاً بأكثر من العون البشري، لأنه عندما التهب سقف المجمع — كما أخبرني عدد من الشهود الصادقين — قام رئيس الدير المحترم، الأب نيقولا مونخيرغر Munchberger، بالركوع على ركبتيه تحت اللهب، ودعا طالباً العون من العذراء المباركة، وهو ما تلقاه.

وكان قد حدث قبل سنين كثيرة مضت، أن جاءت النار إلى باب المدينة على مرأى من جميع الناس، وانتشرت خلال جميع الشوارع، وأحرقت البلدة كلها، ومثلما ساد اعتقاد بأن النار المتقدمة كانت بكل وضوح قد جاءت انتقاماً من السماء، كذلك هو الاعتقاد نفسه بالنسبة لهذه النار الأخيرة، لأن الناس هناك آثمين جداً، سلموا أنفسهم إلى

السكر، وإلى المتعة والتكبر بلا حدود ولا قياس.

وفي الحقيقة كل شيء هناك رخيص جداً، وهناك وفرة عظيمة بالأشياء الجيدة، والخمرة هي بشكل خاص جيدة، وجميع الفواكه حلوة، لكن الهواء غير صحي، لأنه قد قيل بأنه يوجد من الجانب الذي من الممكن أن تهب منه رياح جديدة جبال عالية جداً، وقد دُلني عليها إخواني الرهبان، وفي الوقت نفسه يوجد في الجزء الذي تتلقى منه البلدة الرياح، مستنقعات آسنة جداً، ونتيجة لهذا كله، هناك دوماً كثيراً من الأشخاص يعانون من أعراض الحمى، ومن الدارج كثيراً المعاناة من الحمى، لأنهم لا يعدون الحمى مرضاً.

وعندما يلتقي واحد منهم بصديق، ويراه ممتقع اللون، ووجهه متغير يقول له: «يا صديقي، ما القضية أراك ممتقع اللون ومتغيراً؟» يجيبه: في الحقيقة يا صديقي، إنني أشكر الرب لأنني غير مريض، لكن الحمى غيرت مظهري»، وهكذا حدث عندما كنت أزور بوتزن في إحدى المرات بصحبة صديق علماني نظر إلى البلدة وقال لي: «انظر إلى هناك يا أخي، أنا لا أعتقد أن هناك بلدة في العالم هي أبرد من هذه البلدة» واندعشت لقوله، فقلت له: «ليس الأمر كذلك، أعتقد أنها من أكثر البلدان دفئاً»، فأجابني: «إنني لم أقدم قط إلى هذه البلدة، حتى في أكثر الأيام حرارة، في أيام الصيف، دون أن أرى دوماً كثيراً من الناس جالسين هناك في فرائهم الشتوية، وهم ممتقعون اللون من البرد، وأسنانهم تصطك»، وقد قال هذا على سبيل المزاح، مشيراً بذلك إلى المعاناة من الحمى، ويعتقد كثير من الناس أن الشعب لا يصاب بالحمى بسبب الهواء السيء، بل بسبب الخمرة الجيدة، والطبخ الجيد الذي يلتهمون به بأنفسهم فيصبحون مرضى.

وكانت هذه البلدة قبل سنين قليلة بلدة إيطالية، واللغة الإيطالية كانت هي اللغة الرائجة فيها، بين الناس، وفي الحقيقة إنني أعرف كاهناً

إيطالياً، لا يمكنه التفوه بكلمة ألمانية، وقد كان في شبابه ساعياً وواعظاً في الدير في بوتزن، لكن مع مرور الأيام، مع ازدياد تعداد الألمان، غدت البلدة بلدة ألمانية، والدير الذي كان من قبل من أملاك منطقة القديس دومينيك Dominic ، قد ألحق الآن بمقاطعتنا.

وقد أمضينا الليل في هذه البلدة، ورأينا كثيراً من الشقاء والتعاسة، لأن كثيراً من الناس كانوا يعيشون بين خرائب بيوتهم بدون أية أسقف، أو مكان للإيواء، وكان عدد كبير منهم يغادرون البلدة كمتسولين، مع أنهم كانوا حتى وقت قريب أناساً أثرياء، والآن يجري إعادة بناء البلدة، والأبنية التي يقيمونها الآن في تكاليفها أعلى من الأبنية التي كانت موجودة قبل النار.

وفي الحادي والعشرين من نيسان غادرنا ذلك المكان بعد سماعنا القداس وتناولنا الغداء في دير طائفتنا، وقد جعلنا على جهة اليمين نهر أئيسيس Athesis أو لافيسوس Lavisius (أدجي Adige) ، وهو الذي يعرف بشكل عام باسم ايتسخ Etsch ، ورأينا عبر أدجي منطقة هضبية خصبة جداً، مليئة بالقلاع وبالقري، القرية الرئيسية بينها اسمها ترامينجم Tramingum التي هي قرية واسعة، وعلى مقربة منها هناك كروم تنتج خمرة ممتازة تصدر إلى سوابيا حيث هي معروفة هناك باسم ترامينجر Tramminger اشتقاقاً من اسم القرية.

وكان بيننا وبين أدجي، باتجاه بلدة ميران Meran مستنقعات عميقة، ويوجد خلف هذه المستنقعات في مقابل بلدة ترنت Trent تلال منخفضة، يقوم على قرنتها قلعة قديمة اسمها فيرميانوم Fir-mianum ، منها جاءت وصدرت أصول الأسرة النبيلة للوردات فيرميانوم، الذين رأيت بعضهم، وهذه القلعة مملوكة الآن من سيغسموند دوق النمسا، الذي يعيد الآن عمارتها على مستوى أوسع،

مع أسوار سميكة جداً، محيطاً إياها بأبراج كبيرة وعالية، وقد بلغت سماكة السور عشرين قدماً منتعلاً، وتحتوي في زواياها الأربعة على أماكن إقامة واسعة وقد بنيت بقوة حيث واحدتها منفصل عن الآخر بأسوار معترضة وبأبراج، ولكل مكان إقامة وسكن ساحة خاصة، واسطبلات للخيل خاصة، وبناء على ذلك يمكن لأربعة من الأمراء أن يقيموا هناك بأمان، وقد دخلت إلى القلعة، وكنت بها ورأيت كل ما فيها، وليس فيها ماء إلا ما ينضحونه بالدولاب من نهر أدجي، الذي يجري عبر الصخرة التي تقف عليها القلعة.

وكان هذا المكان سيء السمعة ومموجاً كسكن بسبب التثانة الصادرة عن المستنقع، مما كان يسبب بسرعة موت السكان، وبناء عليه ولإزالة هذا كله، قام الدوق بالأمر بحفر مجاري في المستنقع، وذلك من نهر أدجي حتى الجبال، ولذلك يوجد الآن مروجاً جميلة، حيث كان من قبل مستنقع ناعم موبوء، والأقنية أنفسها مليئة بالماء المجرور من المستنقع إلى حد أن الناس يعبرونها صعوداً ونزولاً بالقوارب.

وأمر الدوق بزرع كروم طويلة جداً على ضفاف الأقنية من كلا الجانبين، حيث يجمع منها في موسم الجني حمولة ما يزيد على عشرين عربة من العنب الممتاز، ومع هذا، وعلى الرغم من زوال ثن المستنقع، لقد قيل ليس بمقدور أي إنسان أن يعيش في القلعة أطول من ذي قبل، وسبب هذا كما حدثني مؤخراً حاكم القلعة، هو أنها عالية شامخة، وفيها هواء صحي قوي، يجعل الناس الذين يعيشون هناك يشعرون دوماً بالجوع والعطش، وشهيتهم مثارة بشكل عظيم، حيث لو حاول إنسان أن يشبع فوق حده، يدمر نفسه، لأنه لا يوجد خدم هناك، بل المائدة دوماً ممدودة وجاهزة عليها انتشرت الأطعمة، والخمور ليست مخبأة أو مقفول عليها، وتجعل هذه الوفرة المكان ليس عزيزاً على النفس.

وسألت حاكم القلعة عن الغاية التي جعلت الدوق يتكلف هذه

النفقات العظيمة في مثل هذه القلعة المحصنة بشكل غريب، في وقت نجد فيه أن المنطقة هناك من حولها ملك لكونتية تيروك Tyrok ، فأجابني بأنه فعل ذلك، من أجل أنه إذا ما حاول عامة الناس طرد رئيسهم، وتحرير أنفسهم من التبعية الاقطاعية له، مثلما فعل الـ Hel-vetions، أو السويسريون، فوقتها يمكن للدوق أن يلتجئ إلى تلك القلعة، وبذلك يمتنع من الذين سيرغموه على القبول والرضوخ، لأن القلعة — حسبها يمكن للانسان أن يقول — لا ترام، وقائمة في حلقوم ذلك الوادي.

وتابعنا سفرنا، ووصلنا إلى نيومارك Neumark ، التي هي قرية كبيرة واسعة، حيث توقفنا لمدة ساعة في نزل حتى نعلف لخيولنا ونريحها، وجاء في ذلك الحين رجل خادم إليّ، من البيت القائم في مقابلة النزل، وقال بأنه أرسل من قبل واحد من رهبان طائفة الرهبان المبشرين، ليسألني من أنا ومن أين قدمت، فأجبته إذا ما أراد ذلك الراهب أن يعرف من أنا، ومن أين قدمت، يمكنه أن يأتي إليّ، ولسوف أعطيه جواباً أدبياً، ثم قلت: «ذلك لأنني لن أعطي أي جواب لخدام»، وقد قلت هذا له على هذه الصورة لأنني شككت به أن يكون واحداً من الرهبان المتجولين التابعين لطائفتنا، الذين يتجولون حول تلك المنطقة التلية، لأن رهباناً غير راضين وهارين من طائفتنا والطوائف الأخرى، قد حملوا أنفسهم إلى هذه المناطق وإلى المنطقة التلية، حيث يمكنهم العثور على أفضل أماكن الاختباء سلامة، ولأن كل شيء هناك رخيص ويمكنهم العيش حياة هائلة، وهم يزورون الناس في المنطقة، ويخبرونهم عن قيمة القداسات العالية، ولهذا يشتري الذين يستمعون إليهم القداسات منهم لهم ولأقربائهم الموتى، غير عارفين بأن إثم السيمونية يقترب بمثل هذا العمل، وبناء عليه يعطون هؤلاء الرجال المال حتى يقرأوا عليهم القداسات، ويكون الأفضل منحهم المال بمثابة

هدية وكرم منهم، لأنهم لا يقتربون مطلقاً من المذبح لتقديم أي احترام للرب، ولقد رأيت هناك أناساً تعساء من كل طائفة دينية يتجولون في هذه الجبال، ولاحظت أنهم يعاملون بالفعل بشيء من التغاضي من قبل الأساقفة والكهنة.

وسرنا من نيومارك خلال الوادي الذي يقود إلى ترنت Trent ، ويردد العامة قولاً متوارثاً بأنه خلال هذا الوادي أو القناة تدفق البحر حتى ميران Meran ، وأن نهر أدجي جرى نزولاً من الجبال فوق ميران، وصب بالبحر هناك، وفي برهان على صحة هذا، أنه يتم العثور حتى الآن في صخور الجبال على حلقات حديدية، كان من المعتاد ربط السفن بها، وعلى هذا فإن المنطقة كلها التي يجري فيها نهر أدجي ليصب في البحر المتوسط، كانت فيما مضى بحراً، بسبب أن البحر كان في العصور القديمة أعلى مما هو عليه الآن.

ووصلنا إلى قرية اسمها نوبا Nova حيث يجري هناك جدول جبلي سريع، يشكل الحدود ما بين إيطاليا وألمانيا، ويقوم فوق الجدول من جهتنا بيعة، جرى فيها دفن ما في جوف القديس أودالريخ Udal-rich أسقف أوغزبورغ Augsburg ، وتذهب الحكاية إلى القول بأن القديس المتقدم الذكر كان في روما، وعلى طريقه إلى الوطن، مرض مرضاً شديداً، لذلك توسل إلى الرب أن يسمح له بالموت في ألمانيا، وليس في إيطاليا، وهذا ما حدث وكان، لأنه ما أن عبر الجسر المقام على هذا الجدول مات، ولذلك جرى دفن أحشائه هناك، لكن جسده جرى حمله إلى أوغزبورغ.

وسافرنا من هذا المكان إلى مدينة ترنت، وأمضينا الليل هناك، وترنت واحدة من المدن القديمة جداً، التي تأسست في هذه الجبال من قبل تراجان الذي جاء إلى هناك بصحبة أنتينور Antenor ويجري نهر أدجي عابراً أسوارها، وهي مقامة في وضع هو الأكثر جمالاً، وهواء،

وصحة، وهي تتألف — كما يمكن القول — من مدينتين، المدينة العليا، والمدينة التحتا، بسبب الجنسين البشريين اللذان يسكنها، ففي المدينة العليا يسكن الطليان، ويسكن في المدينة التحتا الألمان، وهذان الشعبان مختلفان باللغة، وبعادات الحياة، ونادراً ما كان أحدهما بسلام مع الآخر، وفي الحقيقة، غالباً ما جرى تهديم المدينة قبل أيامنا، وجرى تهديمها أيضاً من قبل الطليان صدوراً عن كراهيتهم للألمان، وأحياناً من قبل الألمان أيضاً صدوراً عن كراهيتهم للطليان، وقبل سنوات قليلة مضت، كان الألمان مجرد قلة من الغرباء في تلك المدينة، وهم الآن بيجوازية المدينة وحكامها، وسيأتي اليوم قريباً — لا بل إنه جاء وحلّ بالفعل — عندما سيقوم فيه دوق أثيسيس Athesis (كذا) صاحب إينسبروك بضمها كلها إلى ممتلكاته ومن ثم إلى ألمانيا، مثلما حدث في بوتزن، لأن تعداد الألمان يزداد هناك يومياً، ولكن ما هو سبب هذا التزايد، ولماذا يتوجب على شعبنا الانتشار في بلدان الشعوب الأخرى، بدلاً من انتشارهم في بلداننا؟ هذا ما لم أفهمه، ما لم نكن قد اخترنا — كما يقال — عدم التعلق ببلادنا، بسبب فقرها وجدها، ولذلك دفعنا إلى بلدان أخرى، أو بسبب حدة طباع الألمان، الذين لا يمكن لشعب آخر أن يتحمل البقاء إلى جوارهم، بل يتهربون من أمامهم، ويفسحون لهم المجال ولا يواجهون غضبهم، غضبهم الذي لا يمكن لإنسان أن يقاومه.

وأقام عبر المدينة وفي مواجهتها، فوق ضفتي نهر أدجي، الرهبان المبشرون ديراً جميلاً حقاً، من حوله أجمل الحدائق، واسمه دير القديس لورانس، وكان هذا الدير قد بني من قبل القديس جوردان Jor-danes الخليفة المباشر لأبينا القديس دومينيك، في رئاسة طائفتنا، لكن لا يوجد فيه قداسات أو نظام للحياة، والذي هو موجود فيه مجرد عدد من الرهبان، يسكنون هناك من دون هدف، وفي هذه المدينة جرى

استشهاد الطفل المقدس سمعان في سنة ١٤٧٥، على أيدي اليهود، بعدما عذبه كثيراً، ولهذا حكم على اليهود بالشنق بعد تعرضهم لعذاب عظيم، وأنا شخصياً كنت قد رأيت أجسادهم الملعونة معلقة على المشانق عندما ذهبت في السنة التالية إلى روما، وعندما تم العثور على جسد الطفل المقدس، صار مشهوراً بسبب المعجزات التي صنعها، وهو ما يزال مشهوراً، ولهذا يأتي الناس من أجزاء نائية من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا حاجين إلى هناك، ويجلبون معهم تقدمات من الشمع، والأقمشة، وصحون الذهب والفضة، والمال، وكل ذلك بكميات مذهلة عندما تنظر إليها.

ونتيجة لهذا هدموا كنيسة القديس بطرس القديمة، التي من المعتاد حفظ الجسد فيها، وبنوا كنيسة أوسع فوق الموقع نفسه، وأنفقوا عليها من خلال هذه التقدّمات، فضلاً عن هذا قاموا بتنظيف بيت الشهيد، وكرسوه كنيسة [من أجل رواية عن استشهاد هذا الطفل انظر ملحق أخبار الأيام — السفر ١٥ ص ١٧٧]، وهكذا عندما خلعنا نحن الحجاج ملابس سفرنا، ذهبنا إلى الكنيسة للحصول على غفران، ورأينا في كنيسة القديس بطرس جسد الطفل المقدس، والمكان الذي استشهد فيه، والكنيسة الكاتدرائية القديمة، والبيع الأخرى والكنائس، لأن هذا ما يتم صنيعه من قبل الحجاج المحترمين الذاهبين إلى القدس، أي يتوجب عليهم عندما يتوقفون في أية بلدة على طريقهم، فيسألون عن الكنائس، وعن آثار القديسين ويقومون بزيارتهم، وهذا ما فعله موالي، وفعلت ذلك معهم، حسبما سأحدث عن ذلك فيما بعد.

وعندما كان الوقت متأخراً، وكنا جميعاً جالسين نتناول العشاء، جاء زمّار، أو بهلواني، ومعه زوجته، وكان يحمل مزماراً، وقد غنت زوجته لحناً جيداً، فيما كان هو يلعب بمزماره، وكان هذا الرجل عاقلاً بما فيه الكفاية، ومع ذلك عمل أثناء لعبه أعمالاً بليدة، وكشر وكأنه كان أحقاً،

وجعلتنا حماقاته هذه نضحك من صميم قلوبنا، وذلك بالاضافة إلى متعتنا لدى سماع الموسيقى، وعندما فرغ من لعبه تشاور سادتي البارونات، كما جرت العادة، واحدهم مع الآخر، حول ما الذي سوف يدفعونه إلى البهلوان، وعلى كل حال قال واحد من النبلاء إنه لن يدفع، وأوضح بأن الكاهن في أسقفيته، غالباً ما قال في قداساته بأن إعطاء المال أو تسلمه في مثل هذه الحالات هو ذنب مدان، وإثم عظيم، وقال: «وبما أنني الآن في حج مقدس، إنني أكره أن أتلو بصرف المال بشكل أثم، وإنني سوف أدفع المال إلى الفقراء»، وبناء عليه تفجر نقاش عظيم بين النبلاء، وتناقشوا مطولاً وهم في حالة غضب.

وسألوني أخيراً القيام بفض هذه القضية، وقالوا بأنهم سوف يلتزمون بقراري وحكمي، وبناء عليه أعلنت وقررت بدون خوف وجوب إعطاء المال إلى البهلوان، وبناء عليه أعطوا هدايا إلى لاعب المزمارة وإلى زوجته، وبعد عودتي إلى البيت بحثت في كتابات المفتين من العلماء فيما إذا كنت قد قررت بشكل صحيح، وقد وجدت القرار الذي اتخذته مرتين لدى غيرسون Gerson (١) وفي مكانين، عندما عالج الشرور في قضية سبعة ذنوب مهلكة، وفي معارضة المذنبين، أوضح أن اللعب بالمزمار، والاضحاك وأعمال البهلوان لا تستحق الادانة، وأن مثل هذه الأشياء يمكن أن تقال وأن تمارس، دون اقتراف لإثم كبير، ومع أن الكلمات التي قد تقال هي عبثية، وفيها مزاح، وأحياناً فيها أخطاء، لكن طالما أنه ليس فيها ما هو مخجل قولاً، وطالما أنها تعمل لمجرد التسلية، فصحيح ممارستها، إذا كان ذلك للتسلية والربح، ومن أجل تأمين انفراج لدى الأمراء والنبلاء، وعندما يكونون تحت ضغط المسؤولية، وقد اكتشفنا أن هذا هو الحال مع هذا البهلوان، الذي كان حرفياً مقيماً في ترنت، والذي كان لا يمارس اللعب بشكل دائم، بل فقط

١ - جون غيرسون، قنصل باريس، كتب في اللاهوت وفي مواضيع أخرى، توفي حوالي ١٤٢٩.

لدى وصول أمراء ونبلاء، وذلك أنه عندما كان يعلم أنهم حجاج إلى الأرض المقدسة، كان يلعب من أجل تسليتهم، ومن أجل فائدته، ومن أجل أن نضع حزننا وقلقنا جانباً لوقت قصير.

وسمعنا في الثاني والعشرين قداساً عند مذبح سمعان الطفل المقدس، وبعد تناولنا لطعام الغداء في النزل، أسرجنا على خيولنا، وغادرنا المدينة، وخارج باب المدينة مباشرة صعدنا إلى هضبة شديدة الانحدار، وتخلينا عن الطريق المنخفض الذي يساير وادي أدجي إلى فيرونا - Ve- rona، وإلى جانب كون هذه الهضبة منحدرية، هي مكونة من قطعة واحدة من الرخام الأحمر القاسي، ولهذا فإن جميع أسوار مدينة ترنت وأبنيتها معمولة من رخام ثمين وجميل، مع أنه غير مصقول، وبعد تسلق طويل، نزلنا عبر الجانب الآخر من الرابية، ووصلنا إلى قرية فيرسا Persa .

وفيرسا قرية واسعة، ويقوم على الصخرة فوق القرية قلعة عظيمة، كأنها مدينة، ولها أبراج عالية، وسور عظيم يحيط بها، ويتفق معي بالرأي عدد كبير من الناس، ويرون أنه من اسم هذه القلعة يمكن أن نعرف أنها بنيت من قبل فيرسوس Perseus ، أبو النبلاء الاغريق، وهي تعرف في هذه الأيام باسم فيرسا صدوراً عن اسمه، ومثل ذلك مملكة فارس، وهو اسم اشتق من الاغريقية، ومن استيلاء الاغريق عليها عرفت باسم فارس، ويحتفظ دوق النمسا دوماً بعدد كبير من الجنود في هذه القلعة، يتولون حراسة كل من القلعة والمقاطعة.

ومررنا عبر هذه القلعة واجتازناها، ووصلنا إلى بحيرة، يتدفق منها نهر اسمه برنتا، وهو يجري من هناك إلى بادوا، ويصب بعد هذا في البحر على مقربة من البندقية، وعبر هذا وصلنا إلى واد طويل وعريض وخصب، ثم وصلنا إلى بلدة اسمها بالعامية الداريجة فالسيان - Val- scian، حيث توقفنا من أجل استراحة قصيرة، ويلاحظ أن هذه

البلدة، والمنطقة كلها امتداداً حتى البحر، تتكلم الايطالية، وعلى كل حال كانت غالبية السكان تعرف كل من الألمانية والايطالية، وقد سألت أحدهم عن معنى اسم فالسيان، ولماذا أطلق هذا الاسم على البلدة، وقد أجابني بأن معنى فالسيان هو «الوادي الجاف»، وقد نال هذا الاسم، لأنه في العصور القديمة جداً، وقبل أن ينزل البحر إلى مستواه الحالي، كان البحر ممتداً حتى هذا الوادي، وكان الوادي بأكمله مليئاً بالماء، ولهذا من الممكن أن نرى على جنبات الجبال، التي تطل على الوادي، من كل جانب حلقات حديدية كانت، لربط السفن حتى يمكن بقاءها مثبتة إلى الصخور، وعندما تراجع البحر، أصبح الوادي جافاً، وهكذا حافظ على اسمه فالسيان.

ومن هذه القصة كنت قادراً على إدراك أن جميع الوديان في هذه الجبال، التي هي متجهة نحو البحر، كانت فيما مضى مليئة بالماء، وكانت هي أقنية تقود إلى البحر المتوسط، مثلما يحدث الآن في أراض مجاورة للبحر، كما قلت من قبل، ويطلق الألمان على فالسيان اسم إن در بورغ In der burg، لأنه يوجد هناك قلعتان تطلان على البلدة، والبلدة قائمة بين سور القلعة، وتابعنا من فالسيان سفرنا، وسرنا متقدمين، ووصلنا في وقت متأخر في الليل إلى قرية اسمها سبتلي Spiteli، أي «مشفى صغير» حيث توقفنا لإمضاء الليل.

وفي يوم الثالث والعشرين، كان عيد القديس جرجس، الفارس والشهيد، وسألني السادة في الصباح بأن نحتفل بعمل قداس القديس جرجس لهم، ولجميع النبلاء، الذين ينظرون إلى القديس جرجس بتبجيل خاص، وكانت هناك بيعة واحدة في القرية، بدون كاهن، وواجهت مصاعب حمة للحصول على أدوات القداس العائدة للكنيسة، وافتح هذه البيعة، والحصول على الأشياء الضرورية لإقامة القداس، وبعدما ارتديت ثيابي الكهنوتية، واجتمع سادتي النبلاء وأهل القرية مع

بعضهم، بوساطة صوت الناقوس، وكما جرت العادة أردت إعداد الخميرة قبل صلاة الاعتراف، فلم أجد لخبزاً ولارقاقة عجين في الصندوق في الخزانة، كما لم يتوفر شيء من هذا القبيل في القرية كلها، لذلك التفت بذاتي نحو الناس وأخبرتهم بعدم وجود خبز القربان، ولكي لانذهب جميعاً فارغين، قرأت من المذبح القداس لوحده، وجميع أدعية القداس، وتركت ما بعد صلاة التقديم لوحده، مثلما يفعل تماماً في السفن في البحر، ويطلق على هذه القداسات اسم القداسات «الحارة» أو «الخام» أو «الجافة» أو «الفارغة».

وبعد أداء هذا القداس التفت نحو الناس وقدمت عرضاً قصيراً عن القديس جرجس وكان عرضاً مشجعاً، وعندما كنت أفعل ذلك، وقف أهل القرية ونظروا إليّ بدهشة، لأنهم كانوا طليان، ولعلهم لم يسمعوا قط قداساً يتلى في كنيستهم بالألمانية إلا من قبلي، وبعد الفراغ من هذا رجعنا إلى نزلنا لتناول طعام الافطار، وبعد الانتهاء من الطعام، بدأت تمطر، ومع هذا امتطينا خيولنا وغادرنا القرية، وازداد المطر ثقلاً وكثافة، وتبللنا حتى الجسد، وكنا مبللين جداً عندما وصلنا إلى مدينة فلتر Fel-tre ، وبما أنها كانت تمطر بكثافة، دخلنا إلى نزل هناك، وبنيتنا البقاء هناك لمدة ساعة أو ساعتين، ومن ثم نغادر عندما يتوقف المطر، وعلى كل حال ازداد المطر سوءاً فسوءاً، وبذلك كنا مرغمين على البقاء هناك لمدة يوم، كان غير مريحاً، لأن النزل كان صغيراً، وكان مليئاً بإيطاليين من أهل المنطقة، وتحدث صاحب النزل، وصاحبته، وجميع العاملين فيه بالايطالية فقط، فضلاً عن هذا لم يكونوا معتادين على خدمة النبلاء، ولم تكن لديهم المواد اللازمة لخدمتهم بشكل لائق واحترام، وكانوا على كل حال جيدين، وأناساً بسطاء، وقد فعلوا كل مايسطيعون، الأمر الذي قدرته، لكن خدم النبلاء كانوا غير راضين عنهم.

وفي يوم الرابع والعشرين استمرت تمطر بدون توقف، مثلما فعلت في

اليوم المتقدم وفي الليلة السالفة، وسبب هذا تدفق المياه، وقاد إلى جريان السيول الجبلية، وعلى كل حال، وعلى الرغم من المطر، ذهبنا إلى الكنيسة التي تقوم فوق البلدة، وبعد سماعنا للقديس شاهدنا البلدة نفسها، وكانت إحدى البلدات التي بنيت من قبل أنتينور، من أجل الدفاع عن المنطقة الجبلية، وهي بلدة قديمة جداً، كما تبرهن أبنيتها على ذلك، وهي بلدة طويلة جداً، تمتد على طول جرف جبلي، ولها أسقف وفيها بعض الديرة القائمة عند سفح الراية التي تقوم عليها المدينة، وعدنا إلى نزلنا، وتناولنا طعامنا، وعندما كنا جالسين إلى المائدة توقف المطر، وهكذا أخرجنا على خيولنا وغادرنا فلتر، وأخذنا طريقنا وسط خطر عظيم، بسبب ارتفاع المياه، لأن أصغر المجاري تضخمت وصارت أنهاراً سريعة، وكانت مجاري الوديان الجافة تفيض بالمياه.

وعلى كل حال صارت أحوال المناخ طيبة، وأخذت المياه تتناقص بشكل تدريجي، وكنا قد غادرنا فلتر قبيل حلول المساء، وقد وصلنا إلى نهر عظيم، عبرنا ضفتيه بوساطة بيت حراسة بندقية، ومن هناك وصلنا إلى بلدة اسمها أوور Ower، حيث أمضينا الليل، وكان نزلنا الآن مثل بقية القرية، قائماً على سفح رابية جميلة مليئة بالأعشاب، وفي الوقت الذي كان يجري فيه إعداد طعام عشائنا، خرجت مع موالي إلى ساحة البيت، وكنا ننظر فيما حولنا عندما قلت: «انظروا لو أن إنساناً كان على قمة تلك الهضبة، لكان بإمكانه رؤية البحر المتوسط»، وعندما سمع موالي هذا قالوا: «دعونا نصعد إلى هناك، لنرى البحر، الذي ربما سيكون قبرنا»، ومباشرة تسلق ثلاثة من موالي مع اثنين من خدمهما وأنا، تلك الرابية، التي كانت أعلى بكثير مما تصورناه، وألقينا بأبصارنا باتجاه الجنوب، فرأينا وراء الجبال سهل إيطاليا، وخلف السهل منطقة البحر المتوسط، ولدى رؤيتنا له، وقف موالي، الذين كانوا شباباً ذوي نشأة رفاهية، وقفة فيها شيء من التفكير، مما عكس الشعور بالمخاطر التي

ننظرهم في البحر، وكنت بهدوء قد مددت بصري نحوه، لأنني كنت قد ذقت مرارته، لأنه كما بدا من هذه التلال، كان له مظهراً مربعاً، وبدا قريباً جداً، وتسلمت أشعة الشمس على الجزء الذي كان هو الأقرب منا، وبقيّة البحر التي لم يكن بإمكان أحد رؤيتها، بدت عالية، وغيوماً سميكة سوداء، على شكل ولون الهواء المظلم.

وبعدما شبّعنا بما رأيناه منه، تحولنا بعيداً لننظر إلى الجبال التي قامت من حولنا، وقد شاهدنا عدداً كبيراً من القلاع القديمة المهدامة، وعلى الجبل نفسه الذي وقفنا عليه هناك، كان يوجد تحت أقدامنا خرائب أسوار ضخمة وخندق يطوق شطراً من الجبل، وصهريج جميل مايزال يحتوي على الماء، ورابية لرعاية القطعان، قائمة في الأعلى داخل الأسوار، ومن المعتقد أن هذه القلاع كلها قد بنيت من قبل أنتينور، أو تراجان، الذي بعدما بنى مدينة بادوا في السهل، صعد إلى المنطقة التالية، وبنى البلدات والقلاع للدفاع ضد الشعب الذي كان موجوداً وراء الألب، حيث كان في ذلك الحين مايزال متوحشاً، يعيش في الغابات، مثل الحيوانات الضارية، وعندما كنت أنا وموالي وقوفاً نتحدث فوق الجبل، غابت الشمس، وبدأنا نحن بالنزول، وعندما وصلنا إلى النزل صارت الدنيا أكثر ظلاماً، وتناولنا عشاءنا على ضوء الشموع، ثم أومنا إلى الفراش.

وكان يوم الخامس والعشرين هو يوم عيد القديس مرقص، وطمينا لو كنا في البندقية، لأنه يحتفل بالعيد هناك، بشكل محكم ورائع الشكل، وسمعنا — على كل حال — القداس من أجل عيد القديس مرقص في القرية، وتناولنا بعد ذلك طعامنا، ومن ثم انطلقنا مسافرين على طريقنا، ويقود الطريق من تلك القرية نزولاً إلى سفوح الجبال، ثم يخلفهم بالوراء، وهكذا وصلنا إلى منطقة منبسطة، وخصبة جداً، ومليئة بالحبوب، وبأشجار الفواكه، والكروم، التي ارتحلنا خلالها حتى وصلنا

إلى قرية تريفيسو Treviso ، حيث عزمنا على البقاء لعدة أيام، وذلك حتى نستطيع بيع خيولنا، ذلك أننا لم نعد الآن بحاجة إلى الخيول، لأننا صرنا مجاورين للبحر.

وكان يوم السادس والعشرين يوم عيد القديس ديسيدروس De-sidrius، الذي هو مدفون في كاتدرائية تريفيسو، واحتفل سكان المدينة بالعيد بشكل فخم بوساطة مسيرة مهيبة خلال المدينة، وعندما اجتمع عامة الناس في ساحة السوق الأكبر، مثلوا لعبة المعجزة، حيث ظهر القديس في الحكاية، من خلال الممثلين المدربين لهذه الغاية، بمظهر فخم جداً، نظرنا نحن الحجاج نحوه بإعجاب، ولست أدري فيما إذا كنا قد فعلنا ذلك بتقوى أيضاً.

وجاء بعد الغداء عدد كبير من الايطاليين إلى نزلنا، طلبوا رؤية خيولنا لابتياعهم، وأثناء بيعنا لهم اختلف الايطاليون فيما بينهم بشكل مشير، حيث ركضوا نحونا، محاولاً كل واحد منهم إبعاد الآخر، وتدخل كل واحد منهم بشراء الآخر، وصب كل واحد منهم الالهات على الآخر، وكانوا كلهم سواء، حتى الشيوخ، والأغنياء، والرجال المحترمين، حيث كان كل واحد منهم يتقاتل مع الآخر مثل الأطفال، ويعرض كل واحد منهم سعراً أكبر مما تساويه الخيول مراغمة للآخرين، وكل منهم يعرض عن تعمد سعراً أكبر من أسعار الآخرين، وبينما كان هذا الشجار مستمراً وقفنا نحن بدون حراك، وحافظنا على صمتنا، وبعنا خيولنا بشكل جيد، وهكذا مضى النهار.

ولابد من أن نلاحظ بأنني وصفت الأماكن ما بين فلتر وإنسبروك، لأننا عندما عدنا إلى الوطن ثانية، لم أسافر عبر ذلك الطريق إلى إنسبروك، بل جئت عبر طريق آخر، وذلك حسبما سأحدث عنه في مكانه الصحيح، وبعد هذا المكان لن أقوم بوصف أي مكان خلال رحلتنا كلها، بل سأتولى وصف جميع الأماكن التي مكثت بها أثناء

رحلتنا عائدين إلى الوطن، ولهذا سوف أحتفظ بوصفي لتريفيسو والمدن الأخرى، حتى يحل موعد عودتي، لأنني الآن متعجل للوصول إلى القدس، التي وجهت نحوها وجهي بشكل ثابت ولن أصرفه وأستريح حتى أرى تلك المدينة الأعظم شهرة، والمرغوبة أكثر من سواها.

وفي يوم السابع والعشرين، الذي كان يوم أحد، واسمه Can-tate، سمعنا قداساً في تريفيسو وتناولنا الطعام، وبعد تناول الطعام اكرتينا بعض الخيول التي يدعونها باسم Martyrs، لتحملنا نحن أنفسنا وحقائبنا إلى البحر، وانطلقنا نحو شاطئ البحر، ووصلنا إلى بلدة ميستري Mestre، وكنا راغبين بالمتابعة حتى ملغيرا Mal-ghera التي هي قائمة على شاطئ البحر المتوسط، والتقىنا على كل حال في البلدة المتقدمة الذكر بألماني، سأل عما إذا كنا جماعة اللورد بارون فون سيمبيرن Cymbern، وعندما سمع بأننا كنا نحن هم، أخذنا إلى نزل، وأرانا مائدة ممدودة بالأطعمة والأشربة، وأخبرنا بأن اللورد جون فون سيمبيرن قد أمر بهذا لنا، وأخذنا أيضاً إلى حديقة البيت، وأرانا مركباً ضخماً في النهر الذي يجري هناك نزولاً من الجبال ليصب في البحر، وأن القارب قد أرسل من البندقية إلى ميستري من قبل اللورد بارون فون سيمبيرن، حتى يمكن لنا الابحار إلى هناك عبر النهر، ولدى رؤيتنا لهذا سررنا وتحمسنا بأرواحنا، وجلسنا وأكلنا وشربنا الذي أعد لنا سلفاً، وبعد هذا حملنا جميع حقائب اللوردات إلى ظهر المركب، ثم صعدنا جميعاً على ظهره، فصارت الحمولة ثقيلة إلى حد كبير، لأنه كان هناك عدد كبير منا، وكانت حقائب اللوردات وخدمهم كبيرة الحجم، وإثر هذا قلنا وداعاً لليابسة، وعهدنا بأنفسنا إلى المياه، وكان ذلك بعد إقلاعنا، حيث أبحرنا نزولاً مع النهر حوالي الميل نحو البحر، وعندما وصلنا إلى المكان الذي ينزل فيه النهر إلى بين فكي البحر المتوسط، عند حافة البحر وحدوده، وأبحرنا داخل البحر المالح المياه، وقتها بدأنا نغني

بصوت مرتفع وبنغمات فرحة، مزموور الحجاج، وهو الذي اعتاد المسافرون إلى الضريح المقدس لربنا على غناؤه مرددين: "In gottes Namen Fahren wir, Seiner genaden begehren wir: Nurhelff uns die Gottliche Kraft, und das heylige grab: Kyrie eleyson « والذي معناه مترجماً عن اللغة اللاتينية كمايلي: «باسم الرب نحن الآن مبحرون، نحن نحتاج إلى نعمته، فلعل قدرته تحميننا، والضريح المقدس يقينا:» Kyrie elee-son».

وبينما كنا في الوقت نفسه نقرب من قلعة ملغيرا Malghera ، ونعبر البرج الذي اسمه «برج ملغيرا» التقينا بقارب كان يجذب به عدد من الشباب الأقوياء، ويدفعونه بعنف شديد نحو مارغيروم Marger-um ، وقد اصطدم بقاربنا، وبذلك ارتطم قوسا قاربينا ببعضهما بعضاً، واندفع قاربنا إلى أحد الجوانب بالصدمة، واصطدم بعمود كان قائماً في وسط الماء، مما هدد بانقلابه، ففي الحقيقة كاد أن ينقلب مع جميع الناس الذين فيه والأشياء، وكان ذلك مرعباً ومؤلماً، وتبادل بحارة القاربين الشتائم فيما بينهم، وهكذا تابعنا السير على طريقنا، وبعد وقت قصير التقينا بقارب آخر على ظهره مجموعة من الناس، سألنا أحدهم: في أي النزل ننوي النزول في البندقية؟ وعندما أخبرناه في نزل القديس جورج، حيث كان اللورد فون سيمبيرن قد حجز غرفاً لنا فيه، بدأ يشتم ذلك النزل ويشتم صاحبه، ووقف على قوس قاربه، محاولاً منعنا من الذهاب إلى هناك، ومشيراً إلى نزل آخر لنذهب إليه، وفيما هو واقف هناك وهو يصرخ محاولاً إقناعنا، أصيب فجأة بحادث، وسقط من على قوس قاربه إلى البحر، الذي سحب منه بوساطة رفاقه بعد مصاعب جمة، وبذلك أنقذ من الموت، وما لبث أن ارتدى ثياباً حريرية جديدة، تلقت التعميد معه، مما سبب ضحكاً كثيراً على ظهر قاربنا.

وبعدما سرنا مسافة صغيرة نحو الأمام، وجدنا أمام أعيننا، مدينة البندقية الجلييلة، والشهيرة والعظيمة، والغنية، سيدة البحر المتوسط، وهي قائمة بشكل رائع في وسط المياه، بأبراجها العالية، وكنائسها العظيمة، وبيوتها وقصورها الرائعة، ودهشنا لدى رؤيتنا مثل تلك الأبنية المرتفعة والعالية والتي تقوم أساساتها في الماء، وأبحرنا فوراً إلى داخل المدينة، وسرنا عبر القناة العظمى حتى رياتو Rialto ، حيث رأينا على الجانبين أبنية لها جمال رائع وارتفاع مدهش، وتحت رياتو خرجنا من القناة العظمى، ودخلنا إلى قناة أخرى، يقوم على ضفتها اليمنى فونداكو دي تديستشي Fondaco de Tedeschi ، من حيث تابعنا سيرنا بين البيوت حتى وصلنا إلى باب نزلنا، الذي يعرف باسم نزل القديس جورج، ويعرف بالألمانية بشكل عام باسم Zu der Fleuten ، ونزلنا هناك، وصعدنا حوالي الستين درجة حجرية من البحر إلى الغرف التي كانت معدة لنا، وقد حملنا جميع حاجياتنا إليها.

واستقبلنا هناك السيد جون، وصاحب النزل، والسيدة مرغريت صاحبة النزل، استقبلونا بسرور وحرارة، وحيوني بعبارات صديقة خاصة، لأنني كنت الوحيد بين فريقنا الذي عرفوه من خلال حجي السالف، حيث كنت ضيفاً في بيتهم لأيام كثيرة، واستقبلنا بقيقة العاملين، وحيونا وأبدوا تشوقهم للقيام بخدمتنا، وكان جميع العاملين بالنزل بما فيهم صاحبه وصاحبه، وكل الخدم من الرجال، وجميع الوصيفات، من الشعب الألماني ويتكلمون الألمانية، ولم نسمع كلمة إيطالية في النزل، مما سبب راحة كبيرة لنا، لأنه مزعج جداً أن تعيش بين قوم دون أن تستطيع التحدث معهم، وأخيراً جاء بعد الجميع، عندما دخلنا، الكلب الذي يحرس النزل، جاء لتحيتنا، وكان كلباً أسود كبيراً، وقد عبر عن سروره الكبير بتحريك ذنبه، وقفز علينا مثلما اعتادت الكلاب أن تفعل مع الذين تعرفهم، وكان هذا الكلب يستقبل

جميع الألمان بالسرور نفسه، وذلك سواء من أي جهة من ألمانيا قد قدموا، لكن عندما يدخل إلى النزل إيطاليون، أو لومبارديون، أو غاليون، أو فرنسيون، أو سلافيون، أو إغريقيون، أو أي أناس من أي بلد غير ألمانيا، يصبح غاضباً جداً، إلى حد أنك تظن بأنه صار مجنوناً، ويركض نحوهم، وهو ينبج بصوت مرتفع، ويقفز بحدة عليهم، ولا يتوقف عن إزعاجهم حتى يقوم أحد الناس بتهدئته.

ولم يتعود بعد حتى على الإيطاليين، الذين يسكنون في البيوت المجاورة، بل تراه ثائراً ضدهم، وكأنهم غرباء، وثابر على عداوته لهم، فضلاً عن هذا ما كان يسمح بأي شكل من الأشكال لكلاهما بالدخول إلى النزل، لكنه كان لا يعترض على الكلاب الألمانية، وكان لا يهاجم المتسولين الألمان الذين يقدمون يسألون الصدقات، بل كان ينقض على المساكين الإيطاليين، الذين يودون الدخول للتسول والحصول على الصدقة، ويطردهم بعيداً، وغالباً ما أنقذت رجالاً فقراء من بين أسنان هذا الكلب، ويقول الألمان بأن هذا الكلب برهان على أنه طالما هو عدو غير متهاون مع الإيطاليين، كذلك الألمان لا يمكن أن يتوافقوا مع الإيطاليين من صميم قلوبهم، وكذلك الطليان معنا، لأن كل أمة لديها كراهية متجذرة في طبيعتها تجاه الأمة الأخرى، وبما أن الحيوان غير عاقل، وتحكم فيه انفعالاته فقط، فإنه يتخاصم مع الإيطاليين لأن طبيعته تأمره أن يفعل ذلك، ولكن بما أن الإنسان قادر على التحكم بمشاعره بمعونة عقله، فهو يستطيع إخفاء مشاعر الكراهية المزيجية بطبيعته.

ووجدنا في النزل عدداً كبيراً من النبلاء من مختلف أجزاء ألمانيا، مع بعض من هنغاريا، كانوا جميعاً قد ارتبطوا بالعهد نفسه، مثلما فعلنا نحن أنفسنا، وكانوا عازمين على عبور البحر إلى أقدس الأضرحة العائد إلى ربنا يسوع في القدس، وكان في النزل الأخرى المزيد من الألمان، وكلهم

قد شكلوا أنفسهم في مجموعات كان بعضها كبيراً، وبعضها الآخر صغيراً، وكان الآن في مجموعتنا اثني عشر حاجاً، كلهم مع بعضهم من نبلاء وخدم أسماؤهم هي كمايلي:

اللورد جون ويرنهر، بارون فون سيمبيرن، وكان رجلاً وسيماً، وعاقلاً، ومتميزاً بأخلاقه الرفيعة، وكان يعرف اللغة اللاتينية.

اللورد هنري فون ستوفل، بارون الامبراطورية المقدسة، وكان رجلاً قوياً، وفعالاً، تمتع بسمات الرجولة، مثلما يكون الرجل السواوي النبل الحقيقي.

اللورد جون تروخسيس فون وولدبورغ، وكان رجلاً نبيلاً، طويل البنية، وكان رجلاً محترماً له أخلاق رفيعة، وجدياً، وكان مهتماً بعمق حول إنقاذ روحه.

اللورد بير Ber (أورسوس) فون ريخبيرغ، وكان رجلاً نبيلاً من أسرة هوهنريخبيرغ، وكان أصغرهم سناً، وأكثرهم حيوية، وشجاعة، وطولاً، وأعظمهم سروراً، والأكثر لطفاً وكرماً في المجموعة.

وكان هؤلاء النبلاء الأربعة معهم رجال حاشيتهم للقيام بخدمتهم، وفيمايلي أسماؤهم مع وظائفهم مرتبة كالتالي:

بالثازار بوخلر Balthazar Buchler ، وكان رجلاً عاقلاً، صاحب خبرة عظيمة، اقتاد بنصيحته جميع اللوردات وتحكم بهم، ذلك أنهم عدّوه بمثابة أب لهم.

آرتوس Artus ، حلاق اللوردات، وكان رجلاً بإمكانه أن يلعب ببراعة وجودة على جميع الآلات الموسيقية، إلى حد أن الانسان لا يعتقد أنه من الممكن العثور على مثله في أي مكان.

جون الذي كنيته شمدهانز Shmidhans ، وكان جندياً، قاتل

في معارك كثيرة، وقد جاء في هذا الحج بمثابة خادم للوردات.

كونراد بيك Beck ، وكان رجلاً محترماً وعاقلاً، وقد كان من أهل مدينة ميرينجن Merengen ، وكان المسؤول عن مؤن اللوردات، كما كان حاجبهم.

بطرس، وكان إنساناً بسيطاً، صبوراً تحت الشدائد قدم من بلدة وولدسي Waldsee ، وقد عمل طباًخاً للنبلاء وللجماعة كلها.

أولرك فون رافنزبورغ Ulric von Rafenburg ، وكان رجلاً عمل فيما مضى في البحر بمثابة عبد غليون، وقد عانى كثيراً من المآسي، وكان من حيث اختصاص العمل تاجراً، أما وظيفته فكان ترهبان اللوردات.

جون، وكان مسالماً، متشوقاً لخدمة اللوردات، وكان من قبل معلم أولاد، ورئيس مدرسة في بابنهوزن Babenhusen .

الراهب فيلكس فابري، كاهن من طائفة الرهبان المبشرين في أولم، حاج للمرة الثانية إلى الأرض المقدسة، شماس للوردات ولجميع الذين تقدم ذكرهم.

واجتمع هؤلاء الاثني عشر مع بعضهم منفردين، وعاشوا على الحساب العام للوردات الأربعة المتقدم ذكرهم، وبناء عليه استدعى اللوردات الأربعة صاحب النزل إليهم، وعملوا معه الترتيبات من أجل إقامتهم، ومائدتهم، وجميع الأشياء الأخرى العائدة له، والتي سوف يستخدمونها، وعندما عملت هذه الترتيبات أمامنا جميعاً، فكرت بخطة أخرى من أجلي شخصياً، وبدون معرفة موالي اللوردات، ذهبت بقارب إلى دير القديس دومينيك، وسألت رئيس الدير أن يستقبلني بمثابة ضيف حتى يحين موعد مغادرة غليون الحجاج الميناء، الأمر الذي تمكنت بعد معالجات كثيرة، من إقناعه بعمله، ذلك أنني وجدت أنه من

غير اللائق بالنسبة لي، ومناقض لتفكيري، أن أعيش كلياً بين أشخاص علمانيين، وبناء عليه عدت إلى نزلي، وحزمت أمتعتي، ثم زرت موالي، وأخبرتهم بما نويته، ولم يرضهم هذا الاقتراح، وفي الحقيقة أزعجهم كثيراً، ولم يوافقوا على تركي لهم بأي حال من الأحوال، ومن أجل إمكانية بقائي معهم برضاي، عملوا ترتيبات مع صاحب المنزل، فأعطاني غرفة خاصة بي، حيث يمكنني أن أجلس بهدوء لوحدي، ويمكنني أن أنام، وأن أصلي، وأن أقرأ وأكتب، وأن أنجو من ضجيج المنزل كله، بحيث أكون كما لو أنني في قلأتي في أولم، وعلى هذا بقيت مع بقية جماعتنا الوقت كله الذي مكثناه في البندقية، لكن غالباً — في الحقيقة مرة كل يوم — ما اعتدت على زيارة دير رهبان طائفتنا.

وخرجنا في الثامن والعشرين من نزلنا في الصباح، وسرنا خلال شوارع التجار، وذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص لحضور القداس هناك، وبعد انتهاء القداس سرنا حول الساحة المفتوحة أمام قصر الدوج، وقام في هذه الساحة، أمام الباب الكبير لكنيسة القديس مرقص، علمان ثمينان جداً، وقد نشرنا عالياً فوق رحين طويلين، وكان لونهما أبيض، ورسمت عليهما علامة صليب أحمر، فقد كانا علما الحج إلى الأرض المقدسة، وأدركنا من هذين العلمين بأنه جرى إعداد غليونين وتعيينهما لنقل الحجاج، ذلك أن سادة البندقية عرفوا عدد الحجاج الذين تدفقوا إلى هناك واحتشدوا مع بعضهم، ولذلك وقع اختيارهم على اثنين من النبلاء من بين شيوخهم، وعهدوا إليهما بالعناية بالحجاج.

وكان اسم الأول من هذين الشيخين: المعلم بطرس دي لاندو Lando ، واسم الثاني المعلم أوغسطين كونتاريني Contarini ، ووقف خدم هذين النبيلين إلى جانب العلمين، ودعا كل واحد منهم الحجاج للابحار مع معلمهم، وبذلوا جهودهم لاقتياد الحجاج

وجذبهم: فئة أولى إلى أوغسطين والفئة الثانية إلى غليون بطرس، وأطرت الفئة الأولى وكالت المديح لغليون أوغسطين، وشتمت غليون بطرس، وفعلت الفئة الثانية عكس ذلك، ونتيجة لهذا غدا هذان السيدان: أوغسطين وبطرس عدوان أحدهما للآخر حتى الموت، وشتم أحدهما الآخر، وشهر به أمام اللوردات والحجاج، وحاول كل منهما أن يجعل من الآخر مكروهاً من قبل الحجاج، وطلب من الناس فعل ذلك.

وبدأ ينشأ عن هذا شر آخر، هو أن الحجاج أنفسهم تحزبوا ووقف كل فريق منهم مع إحدى جماعتي هذين القبطانين، وبات كل واحد متعصباً لقبطانه وقائده، واحتار موالي ولم يعرفوا بعد إلى أي من هذين القبطانين الأفضل أن يعهدوا بأنفسهم، وسبب ذلك لما سمعوه من آراء مختلفة بشأن كل واحد منهما، أما أنا شخصياً، فقد وافقت على القبطان أوغسطين كونتارييني، الذي عرفت أنه رجل عاقل، ويمكن الوثوق به، لأنني عبرت البحر في حجي المتقدم على ظهر سفينته، لكن الآخرين شتموه وامتدحوا الآخر، ولذلك ومن أجل خاطر السلام، لم أتدخل في هذه القضية، وأعلنت أن كليهما كانا قبطانين جيدين، إذا ما حملنا بسرعة إلى الميناء الذي نقصده، وأضفت أنني لو عرفت أي واحد من الاثنين سوف يكون الأسرع، والمستعد حالاً للابحار، فهو الذي سوف أوصي الحجاج باختياره، وعلى كل حال، وعد كلاهما، أنها سوف يشرعان برحلتها فوراً، الأمر الذي عرفت أنه كذب.

وفي يوم التاسع والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس بطرس الشهيد، لدى طائفة الرهبان المبشرين، أخذت سادتي إلى كنيسة القديس يوحنا والقديس بولس، حيث كان هناك ديراً في غاية الفخامة والعظمة للرهبان المبشرين، واستمعنا هناك للقداس، الذي نفذ بشكل مهيب جداً، وكان هناك اندفاع كبير للناس في هذا اليوم إلى كنيسة هؤلاء الرهبان، لوجود عيد هناك، وقد احتشد الناس ووصلوا بتزاحمهم حتى

أطراف المذبح، فقد تقاطر الناس إلى هناك من المدينة كلها لسماع القداس، ولتقبيل آثار الشهيد المقدس، ولشرب ماء القديس بطرس، هذه المياه التي بعد مباركتها باسم الرب، وبعد لمسها بآثار الشهيد المقدس، يعتقد أنها ثمينة ومفيدة للجسد وكذلك للروح، ولهذا يأخذ المؤمنون من معظم أجزاء العالم ماء القديس بطرس هذا، ويعطونه للنساء في أثناء خوفهن لشربه، حيث ينقذهن من خوفهن، ومثل هذا إنه يعطى للمرضى من الحمى، فبوساطته يمكن أن يصبحوا أصحاء، ويحمله الملاحون أيضاً في سفنهم، ويصبون قليلاً منه في الأوعية حيث يجري حفظ الماء، وبفضله تبقى المياه الأخرى وتحفظ من أن تصبح آسنة، ومهما كانت المياه قديمة، فإنها لا تفسد أو تتغير رائحتها، إذا ما صب فوقها بعضاً من هذا الماء، وقد عرف البحارة أن هذا صحيحاً من خلال الممارسات اليومية.

وهكذا بعدما سمعنا القداس، وقبلنا آثار هذا القديس، وتذوقنا بعض نقاط من هذا الماء المانح للحياة، عدنا إلى نزلنا لتناول الطعام، وبعد تناولنا للطعام، أخذنا مركباً وجذفنا في خلال شوارع البلدة حتى القديس مرقص، ومن هناك ركبنا إلى قصر دوج البندقية، على القناة العظمى، حيث رسا غليوننا القبطانين، بغرض أن نراهما معاً، وجذفنا أولاً نحو غليون المعلم بطرس دي لاندو، وصعدنا من قاربنا إلى ظهر الغليون، ومن إلقاء النظرة الأولى كان كل من السادة وأنا راضين عن مظهر المركب، لأنه كان غليوناً له ثلاثة صفوف من المجذفين، وهو واسع وعريض، وبالإضافة إلى ذلك كان جديداً ونظيفاً، وفي الوقت الذي كنا نسير فيه هناك، جاء معلم الغليون بطرس لاندو، الذي هو القبطان، على ظهر قارب، ورحب بنا باحترام كبير، ومدّ مائدة طعام على مؤخرة المركب، حيث قدم لنا بعض الخمرة والمربيات من الاسكندرية، وعاملنا بكل احترام، وذلك كإنسان يود أن يأخذنا معه

كركاب.

واقترادنا بعد هذا نحو الأسفل، عبر بعض الدرجات، إلى القمر، ثم إلى المكان الذي يجلس فيه الحجاج، ووضع تحت تصرفنا مساحة كبيرة من القمر، حيث يمكننا اختيار اثني عشر فراشاً لاثني عشر شخصاً على أي طرف نرغب فيه، وبعدما تفحصنا هذا الغليون، أخبرنا القبطان بأننا سوف نعلمه بالغد فيما إذا كنا قد نوينا الابحار معه أو مع انسان آخر، وهكذا عدنا إلى قاربنا ثانية، وجذبنا نحو الغليون الآخر، أي غليون المعلم أوغسطين كونتاريتي، الذي وجدناه جالساً على ظهره، وقد استقبلنا بتواضع كبير، وقادنا حول غليونه، وأعطانا الخيار لانتقاء مكان لاثني عشر شخصاً، وقدم إلينا بعض الخمرة واللحم الحلو، وأكد لنا أنه سوف يتعامل معنا باخلاص، وقد عرفني بشكل جيد، وأشار إليّ كشاهد على صدقه وأمانته قائلاً: «ها هو الراهب فيلكس، شماسكم، الذي يعرف كيف أتعامل مع الحجاج، وأنا أرجوه أن يقول الحق، ولسوف تقرررون البقاء معي»، وقد نظرنا جميعاً خلال الغليون، فلم يرضنا مثلاً أرضانا الآخر، لأنه كان يحتوي فقط على صفيين من المجذفين، ومساحته أقل، ومظهره قديم ورائحته كريهة، وأنا أعرف ذلك شخصياً، وكنت قد عانيت من كثير من المتاعب فيه، وبعد تفحصنا لهذا الغليون عدنا بالقارب إلى نزلنا.

وفي يوم الثلاثين من نيسان، الذي هو اليوم الأخير من الشهر، استمعنا إلى قداس في نزلنا، بسبب وجود لورد كبير من النمسا كان مقيماً هناك، مع أنه لم يكن حاجاً، وبعدما تلا شماسه القداس في البيت، اجتمعنا نحن الاثني عشر مع بعضنا لنتباحث حول مع أي من صاحبي الغليونين سوف نذهب، وإية شروط سوف نعمل معها، وقرر موالى وجوب ذهابهم مع المعلم بطرس لاندو، في غليونه ذي الصفوف الثلاثة، ومن جهتي أنا، كنت أفضل الذهاب مع القبطان الآخر، وهو

أوغسطين، لكنني نفرت من غليونيه ذي الصفين، وذلك بسبب المتاعب العظيمة التي عانيت منها على متنه، ولهذا قررنا الذهاب مع المعلم بطرس، فضلاً عن هذا وضعنا عشرين شرطاً، حددنا فيها إطار عقدنا معه، وأوضحنا أن القبطان ملزم بتنفيذ ذلك لنا.

وكان الشرط الأول: إن على القبطان أن يأخذنا حجاجاً من البندقية إلى يافا، وهو ميناء في الأرض المقدسة، وأن يعيدنا ثانية من هناك إلى البندقية، ولهذا الغرض عليه أن يكون جاهزاً خلال أربعة عشر يوماً في الخارج، أي أن عليه عدم الإقامة هنا أكثر من أربعة عشر يوماً بعد هذا اليوم.

والثاني: هو أن يجهز الغليون بشكل لائق ببحارة ذوي خبرة، من الذين يفهمون فن الملاحة مع أي نوع من الرياح يمكن أن تهب، وأن يكون معه على ظهر الغليون ما يكفي من سلاح للدفاع عن الغليون ضد هجمات القراصنة، إذا ما حدث شيء من هذا القبيل.

والثالث: على القبطان أن يكون متيقظاً، فلا يتوقف في أي ميناء غير اعتيادي أو غريب على طريقه، بل عليه أن يتوقف فقط عند الموانئ التي اعتاد أن يحصل منهم على الميرة لغليونيه، وأن يأتي توقفه عبوراً، ذلك أن عليه أن يتجنب التوقف في أي ميناء، بل أن يتابع المضي على طريقه، ومرغوب منه بشكل خاص تجنب مملكة قبرص، وعدم التوقف هناك، وإذا ما فعل ذلك، عليه عدم البقاء في الميناء لمدة تزيد على ثلاثة أيام، لأن لدينا اعتقاد متوارث بأن هواء قبرص غير صحي بالنسبة للألمان، وعلى كل حال، إذا ما رغب واحد من جماعتنا أن يقدم التحيات للملكة قبرص ومن ثم خدمتها في نيقوسيا، وأن يتسلم منها شارة طائفتها، على القبطان القيام بانتظاره حتى عودته، ذلك أن هذه عادة قديمة بين النبلاء ما دام هناك ملك في تلك المملكة.

والرابع: هو إن على القبطان تقديم وجبتين من الطعام والشراب، إلى الحجاج كل يوم بدون انقطاع، وإذا ما حدث لأي سبب أن واحداً منا لم يرغب بالجلوس إلى مائدة القبطان، أو أن يحضر طعام العشاء في المساء، أو أننا جميعاً اخترنا البقاء في مخادعنا، على القبطان إرسال الطعام والشراب إلينا من دون إثارة أية خلافات.

والخامس: ويتوجب على القبطان أن يزود الحجاج، أثناء رحلتهم من البندقية إلى الأرض المقدسة، ومن هناك عائدين إلى البندقية، بما يكفي من الخبز الجيد، والبقساط، والخمرة الجيدة، والماء العذب، الذي وضع حديثاً على ظهر المركب، وبالحكم، والبيض، وجميع الأطعمة من النوع نفسه.

والسادس: هو إن عليه في كل صباح، قبل أن نتناول طعامنا، أن يعطي كل واحد منا قدحاً صغيراً من الخمرة المألوفية Malovoisie، حسبما جرت العادة على ظهر السفن.

والسابع: إذا ما طلب الحجاج انزالهم إلى الشاطئ قرب أي ميناء، توقف الغليون على مقربة منه، دون رغبة في الدخول إليه، أو لأي سبب معقول آخر، مثل الحصول على الماء أو الدواء، أو حاجيات ضرورية أخرى، وقتها القبطان ملزم باعطائنا قارب، وطاقم قارب ليتولى نقلنا إلى ذلك الميناء.

والثامن: إذا ما قام القبطان بالتوقف على مقربة من أحد الموانئ غير المسكونة، حيث لن يستطيع الحجاج الحصول على الضروريات لأنفسهم، هو وقتها ملزم بأن يزودهم بالطعام وكأنهم ليسوا في ميناء، ومن جهة أخرى إذا ما توقف في ميناء جيد، هم ملزمون وقتها بالتزود بما يحتاجونه لطعامهم.

والتاسع: القبطان ملزم بحماية الحجاج، في كل من داخل الغليون

وخارجه، من الاعتداء عليهم، ومن سوء سلوك عبيد الغليون، وذلك إذا ما رغب الحجاج بالجلوس مع العبيد، وهو أيضاً ملزم بمنع العبيد من السخرية بهم فوق اليايسة، وذلك بقدر ما يستطيع، وعليه عدم وضع أية شيء في مخادع الحجاج.

والعاشر: ينبغي على القبطان أن يترك الحجاج يبقون في الأرض المقدسة طوال المدة المستحقة ولن يستعجلهم كثيراً جداً، وعليه قيادتهم إلى الأماكن المعروفة، وأن يصاحبهم شخصياً، ونحن نرغب بشكل خاص أن لا يثير أي اعتراض في قيادتهم إلى نهر الأردن، وهو الأمر الذي يجد الحجاج دوماً صعوبة في تحقيقه والقيام به، وهو سوف يجنبهم وينقذهم من جميع المشاكل مع الكفار.

والحادي عشر: جميع المكوس، وجميع الأموال من أجل المرور الآمن، ومن أجل الحمير والنفقات الأخرى، مهما كان اسم المطالبة بها، أو أية مدفوعات في أي مكان يتوجب دفعها، هذا كله على القبطان القيام بدفعه من قبله وحده لصالح جميع الحجاج، الذين ينبغي أن لا يدفعوا شيئاً أو أن يطالبوا بأية مدفوعات، ومثل هذا عليه أن يدفع الايجارات الكبيرة، وأما الايجارات الصغيرة فنحن سوف نتدبر شأنها بأنفسنا.

الثاني عشر: وفي مقابل جميع هذه النفقات، ومقابل جميع ما سيتحمله القبطان، يتوجب على كل حاج أن يدفع إليه أربعين دوقية ducats من النوع الذي اسمه de zecha، أي المسكوكة حديثاً، على شرط، أن يدفع الحاج نصف هذا المبلغ في البندقية، والمتبقي في يافا.

الثالث عشر: وإذا ما حدث وتوفي أحد الحجاج، لن يتدخل القبطان بأي حال من الأحوال في أشياءه التي يخلفها بل عليه ترك هذه الأشياء دون أن يلمسها في حوزة الشخص أو الأشخاص الذين ترك الميت لهم وصيته.

الرابع عشر: وإذا ما مات أحد الحجاج قبل الوصول إلى الأرض المقدسة، القبطان ملزم بإعادة نصف مبلغ المال الذي تسلمه من قبل، حتى يتصرف به الأوصياء وفقاً لتعليمات المتوفى.

الخامس عشر: وإذا حدث ومات واحد من الحجاج على ظهر الغليون، لن يقوم القبطان مباشرة بالأمر برمي جسده في البحر، بل عليه أن يتدبر أمر أخذه إلى الشاطئ ودفنه في إحدى المدافن، وإذا كان الغليون — على كل حال — بعيداً عن اليابسة، سوف يتم الاحتفاظ بجسد الميت حتى تتاح الفرصة للوصول إلى أحد الموانئ، أو أن يوافق رفاق الميت على رمي جسده في البحر.

السادس عشر: إذا ما رغب أحد الحجاج بالذهاب إلى القديسة كاترين في جبل سيناء، يتوجب على القبطان أن يدفع لكل شخص عبّر عن مثل هذه الرغبة عشر دوقيات من المبلغ الذي دفع إليه من قبل.

السابع عشر: قبل أن يغادر القبطان القدس مع الحجاج، عليه باخلاص مساعدة الحجاج الذين سوف يسافرون إلى القديسة كاترين، بأن ينظم اتفاقية صداقة فيما بينهم وبين دليلهم.

الثامن عشر: يتوجب على القبطان أن يعين للحجاج مكاناً موائماً على ظهر الغليون، ليحتفظوا فيه ببعض الفراخ والطيور، وأن يسمح طبائخه لطباخ الحجاج باستخدام نارهم ليطبخ للحجاج عندما يرغبون بذلك.

التاسع عشر: إذا ما وقع أحد الحجاج مريضاً وهو على ظهر الغليون، ولم يعد قادراً على البقاء في مخدعه وتحمل روائح التّن، وقتها يتوجب على القبطان أن يعطي مثل هذا الانسان مكاناً ليرتاح عليه في الطبقة العليا، أو في القمرة، أو على المؤخرة، أو أن يعطيه واحداً من مقاعد المجذفين.

العشرون: إذا ما ترك شيء وأغفل ولم يرد ذكره في اتفاق التعليمات

هذا، أو وجد أمر لم يوف حقه بالتعبير عنه، أو لم يشرح بما فيه الكفاية، إنما هو بحكم القانون والعادة من واجبات القبطان وعليه فعله، وقتها يعدّ هذا وكأنه قد ورد ذكره في هذه التعليقات، وسيعدّ وكأنه قد كتب بينها.

وبعدما وضعنا هذه الشروط وكتبناها، بعثنا بها إلى المعلم بطرس، وهو القبطان الذي كان يتولى انتظارنا في النزل، وقد قرأ هذه الشروط حسبها وضعناها، وأخبرناه إنه إذا كان راضياً بالتعامل معنا وفقاً لروحها، وعلى استعداد لأن يقسم يمينا بأن يفعل ذلك، نحن على استعداد لعقد عقد معه واتفاق كما تقدم القول، ولدى سماع القبطان بهذا، أخذ قائمة الشروط، وقرأها واحداً واحداً بعناية كبيرة، وأما بالنسبة للشرط الأول، فقد قال: إنه بالنسبة للفقرة الأولى من الشرط الأول، هو على استعداد لقبولها، وسوف يأخذنا إلى يافا ويعيدنا ثانية، أما بالنسبة للفقرة الثانية من الشرط فهو لا يمكنه الموافقة عليها وتعلل بعدة أسباب، على أساسها كان من غير الممكن له الإبحار خلال شهر أيار، وبناء عليه هو لا يمكنه الإقلاع بنا خلال أربعة عشر يوماً، ولاحتى خلال ستة وعشرين يوماً، إنما عندما تنقضي الأيام الستة والعشرين، هو سيشرع في أي ساعة تتوفر فيها ريح طيبة، وبالنسبة للشرط الثاني عشر، أعلن أنه لن يأخذ أقل من خمس وأربعين دوقية من كل واحد من الحجاج، وتعلل لهذا بأسباب كثيرة، وبالنسبة للشرط الخامس عشر، قال بأنه سوف يبقي جثة الرجل الميت على ظهر السفينة، غير أنه أوضح أن البحر لن يسمح بذلك، وأن ذلك سوف يعيق رحلتنا، ويمكن للقاريء أن يرى مدى الصدق في هذا في الصفحة ١٩٨ المقبلة، أما بالنسبة للشروط الأخرى فقد أعلن عن رضاه بها، وبناء عليه وبعد أحاديث طويلة عقدنا اتفاقاً معه.

وبعدما عقدنا اتفاقنا، أخذنا جميعاً إلى القديس مرقس حيث قصر

الدوج، وأحضرنا أمام شهود عدل المدينة، الذين عندما سمعوا السبب الذي حضرنا من أجله أمامهم، كتبوا اسماءنا وأوضاعنا الحياتية في كتاب كبير، وكان اسمي قد كتب فيه من قبل، عندما ذهبت في حجتي المتقدم، وبذلك تأكد اتفاقنا وتأصل، وبعد الفراغ من هذا كله، ذهبنا في قارب مع القبطان إلى الغليون، واخترنا مكاناً لاثني عشر شخصاً على جانب اليد اليسرى، وقام القبطان بتقسيم ذلك الفراغ إلى اثني عشر مخدعاً، أو سرير، وكتب اسم كل انسان على مخدعه بالحكك، من أجل أن لا يأخذ انساناً آخر هذه الأماكن، وبالنسبة لي وافقني حظ طيب، فحصلت على أفضل مخدع، أو سرير بين جماعتنا، والمخدع أو السرير، هو مكان لإنسان واحد، يمتد طوله من رأسه حتى قدميه، يعين له للمنامة، والجلوس، والعيش فيه، سواء أكان مريضاً أو معافى.

وبعدما فرغنا من هذه الإعدادات، جئنا عائدين الى مقرنا في النزل، ونحن راضين تماماً بكل شيء، إلا بأننا كنا مرغمين على البقاء مثل هذه الأيام الزائدة في البندقية، وهذا كان محزون جداً بالنسبة لنا.

هنا نهاية الفصل الأول .

الفصل الثاني

ويحتوي على أعمال الحجاج خلال شهر أيار

وفر لنا شهر أيار السار والبهيج وقتاً للتعبد التقوي في يومه الأول في عيد القديسين الرسولين: فيليب وجيمس، وبناء عليه في الصباح الباكر، عندما استيقظ موالي وبقية جماعة أعدوا أنفسهم للذهاب إلى الكنيسة والاستماع للقداس، وسألوني: في أي الكنائس يتوجب علينا سماع القداس في هذا اليوم؟ فأجبته: «أيها السادة، خذوا بعين التقدير، أننا أقلعنا بقصد الحج باسم الرب، وليس من اللائق بالنسبة للحجاج الوقوف من دون نشاط، وطالما نحن محاطون بالماء من كل جانب، لا يمكننا حبس أنفسنا وتمضية الوقت بزيارة حدائق الورود، أو السهول المشرقة، أو الغابات الظليلة، أو المروج الخضراء، أو الحقول البهيجة، أو الأشجار، والورود، والزهور والليلك، كما لا يمكننا التسلي بالصيد، وفي الوقت نفسه ليس من اللائق بنا حضور المبارزات أو احتفالات الرقص، وبناء عليه إن نصيحتي، هي: أننا مادمنا هنا، علينا أن نحج كل يوم إلى إحدى الكنائس، ونزور أجساد وآثار القديسين، حيث يوجد حشد عظيم منهم في هذه المدينة، وبذلك يمكننا خلال شهر أيار أن نقطف، ورود وزهور وليلك الفضائل، والنعمة، والغفران»، وعندما سمعوا هذا، وافق الجميع على نصيحتي، وجاءت الموافقة بالاجماع بأن علينا أن نركب في القارب أو أن نسير على الأقدام في كل يوم إلى إحدى الكنائس، وإذا لم نذهب نحن جميعاً، ينبغي على الأقل أن يذهب بعض جماعة، وأن يفعلوا ذلك، حتى يمكنهم فيما بعد اخبار البقية بما رأوه.

وبناء عليه قمنا في اليوم الأول من شهر أيار باستئجار قارب، ذهبنا به إلى كنيسة الرسولين المقدسين: القديس فيليب، والقديس جيمس،

وحضرنا القديس هناك، وبعد القديس صعدنا إلى المذبح وقبلنا الرأس المقدس للقديس فيليب، الذي كان محفوظاً هناك، والذراع المقدس للقديس جيمس، وكان هناك اندفاع عظيم وضغط شديد بين الناس لرؤية الآثار المقدسة وتقبيلها، وعندما انتهى القديس ذهب الناس، لكننا بقينا نحن حتى يمكننا أن نحصل على مشاهد أفضل للآثار دون التعرض للدفع والضغط، ويمكننا أن نلمسهم بمجوهراتنا، لأن الحجاج إلى الأرض المقدسة قد اعتادوا أن يحملوا معهم إلى الأماكن المقدسة خواتم منتقاة من الذهب أو الفضة، أو بعض الحبوب من الحجارة الكريمة من أجل أن يعمل منها رقي أو سبحات، أو يكون المحمول سبحاتهم المصنعة، أو بعض الصليبان الصغيرة من الذهب أو الفضة، أو أي شيء مماثل هو ثمين، وسهل حمله من الحلي، التي عهد بها إليهم من قبل آبائهم أو أصدقائهم، أو أشياء اشتروها في البندقية أو من أي مكان من بلدان ما وراء البحر لتكون هدايا للأشخاص العزيزين عليهم، وكانوا كلما التقوا بأية آثار مقدسة، أو وصلوا إلى أي مكان مقدس، كانوا يأخذون هذه المجوهرات، ويلمسون بها الآثار أو الأماكن المقدسة، عليهم يحصلون بذلك على بعض القداسة من عملية اللمس، وبذلك يعودون إلى أصدقاء الحجاج أثمن وأكثر قيمة من ذي قبل.

وكنت أنا شخصياً الأقل بين الجميع، وأفقر واحد في جماعتنا، ومع هذا كان معي كثيراً من الجواهر الثمينة أعيرت إلي من قبل أصدقائي، أو نصرائي أو نصيراتي، من أجل أن ألمس بهن الآثار والأماكن المقدسة التي سأزورها، ثم سأعيدهن إليهم، وأتسلم جائزة لقيامي بذلك، وكان بين هؤلاء من آخرين صاحب السيادة السيد جون اخنغر Echinger، وكان في تلك الأثناء عمدة أولم، فقد عهد إلي بخاتم ثمين جداً وعزيز لأنه كان خاتم والده جيمس اخنغر، فقد كان قد سحبه من أصبعه في

ساعاته الأخيرة وأعطاه إلى ابنه، مثلما تسلمه من أبيه من قبله، وأعتقد مؤكداً أنه يساوي بالنسبة إليه أكثر من مائة دوقية، وأنه يقدره الآن بأكثر من مائتي دوقية.

وهكذا بعدما انسحب الناس، اقتربنا — كما تحدثت — أكثر، ولمست آثار الرسولين المقدسين، وكان واجبي أن أحمل جميع المجوهرات العائدة إلى الحجاج العلمانيين في الأماكن المقدسة، أو في الأماكن التي كانت الآثار محفوظة فيها، ويدي لمست الأشياء المقدسة، بكل قطعة من المجوهرات، ثم أعدتهم جميعاً إلى أصحابهم، لكن بعض النبلاء أبقوا مجوهراتهم في يدي طوال الحج، وفعلنا هذا في جميع الأماكن المقدسة، ومع جميع الآثار التي وجدناها خلال حجنا كله، شروعاً من سمعان الطفل المقدس في ترنت، وبناء عليه عندما فرغنا من هذا كله عدنا إلى النزول لتناول طعام الغداء.

وفي اليوم الثاني من أيار ذهبنا في الصباح إلى القديس مرقص، وحضرنا القداسات في الكنيسة الكبرى للقديس مرقص، وعندما انتهت القداسات ذهبنا إلى قصر دوج البندقية، حتى نقابله شخصياً لنقدم إليه الرسالة التي بعثها صاحب السمو العظيم سيغسموند، رئيس دوقات النمسا، والتي عهد بها إلى موالي لتقديمها إليه، وذلك حسبما قلنا في الصفحة ١٥٣، لدى الحديث عن اليوم السابع عشر، وهكذا صعدنا على السلم الحجري من ساحة القصر إلى الرواق المعمد، ووقفنا خارج قاعة القضاء، وطلبنا أن يسمح لنا بالدخول إلى الشيخ Senate، وسمح لنا على الفور بالدخول إلى مكان القناصل، ثم وضعنا في حضره الدوج والشيخ، وقام اللورد جون، بارون فون سيمبيرن وهو حامل الرسالة عالياً، أي رسالة رئيس دوقات النمسا، ومشى نحو الأمام بطريقة جريئة حتى وصل إلى وسط القاعة، ثم توجه نحو الدوج، وقدم الرسالة إليه باحترام وأدب، ثم عاد.

ونظر الدوج إلى الختم، ولدى تعرفه عليه، قبل الرسالة، ثم ناولها إلى الشيوخ الذين جلسوا معه، حتى يقوموا أيضاً بتقيلها، ثم أمر بقراءة الرسالة على مسامع جميع الحضور، وعندما استمع إليها وقف الدوج، وعرض — من خلال ترجمان — خدماته على الحجاج، ودعا إليه كل واحد منهم على التوالي، وقدم يده لكل رجل منهم، ثم سحبه إليه وقبله وفق الطريقة الإيطالية، والتمس بعد هذا موالي منه رسائل توصية إلى قائد البحر العام، وإلى حكام الجزر، من أجل أنه إذا توفرت الحاجة أن يحصلوا على حماية هؤلاء الأشخاص الذين تقدم ذكرهم، وتمت الاستجابة لهذا الطلب مباشرة، وكتبت الرسائل وسلمت إلينا.

وفي اليوم الثالث، الذي كان يوم عيد اكتشاف الصليب، ذهبنا بالقرب إلى كنيسة القديس الصليب، وبعد سماعنا للقداس هناك، رأينا وقبلنا جسد القديس أثناسيوس، الذي هو راقد هناك، ولمسناه بمجوهراتنا، حسب الوصف الذي قدمناه عن اليوم المتقدم، وكان هذا القديس من أعظم أبطال الدفاع عن الأيمان وأقدرهم، وقد كتب ضد الهرطقة وليوقع الاضطراب بينهم عقيدة: «من الذي سوف يتم إنقاذه» الخ، وعدنا بعد هذا إلى نزلنا لتناول الغداء.

وبعد الغداء ذهبنا عبر الماء إلى أعظم ديرة الفرنسي سكان، وشاهدنا البناء، الذي كان كبيراً جداً، وفي بيعة مرتبطة بالكنيسة، هناك حصان قد بني بطريقة فنية رائعة، ذلك أن البنادقة يقلدون عادات الأمم الكافرة، وعلى هذا الأساس قرروا مكافأة واحداً من قادتهم البحريين، كان قد قاتل بشجاعة في سبيل الجمهورية، وربح بشجاعته كثيراً من المناطق الجديدة لصالحها، مكافأته بإقامة نصب تذكاري دائم له، فنصبوا تمثالاً من البرونز للحصان ولراكبه في واحد من شوارع المدينة أو ساحاتها، ومن أجل أن يجري تنفيذ ذلك بأروع ما يمكن، أرسلوا وراء النحاتين الموجودين في بلادهم، وأمروا كل واحد منهم أن يصنع حصاناً من أية

مادة يختارها، وقالوا بأنهم سوف يختارون واحداً من الثلاثة الأفضل من بين الخيول، ومن ثم يأمرهم بصب حصان من النحاس حسب النموذج الذي اختاروه، وإلى جانب ثمن هذا التمثال، اقترحوا إضفاء تشريف خاص على الفنان الذي صنع شكل حصان.

وبناء عليه اجتمع النحاتون مع بعضهم في البندقية، وصنع واحد منهم حصاناً من خشب، غطاه بجلد أسود، وهو الحصان القائم في البيعة المتقدمة الذكر، وجاء هذا التمثال مشابهاً جداً لحصان حي، لكن مع فارق هو أنه جاء بحجم غير معتاد، ولا يمكنه التحرك، لأنه حصان مصنوع بشكل فني، وصنع فنان آخر حصاناً من الطين، وشواه في القرن، وقد جاء بشكل يجذب الإعجاب ولونه أحمر، وصنع الثالث حصاناً مذهشاً بشكله من الشمع، واختار البنادقة هذا النموذج الأخير، لأنه صنع ببراعة أعظم من الجميع، وأجازوا الفنان، لكن كيف سيصونه، لم أسمع عن ذلك، ولعلمهم تخللوا عن المشروع، وبناء عليه، بعد ما رأينا هذا الدير، والأشياء المتقدمة الذكر، عدنا إلى مكان إقامتنا.

وفي اليوم الرابع، الذي كان يوم أحد اسمه Vocem Ju- cunditatis ، وكان ذلك عيد العذراء الأكثر قداسة، أي القديسة كاترين المدفونة في جبل سيناء، وقد عبرنا من مكان الاعتكاف والتوبة للقديس دومينيك إلى كنيسة القديس يوحنا والقديس بولص، ورأينا هناك مسيرة مهيبة، وحضرنا قداساً، وكانت الكنيسة كلها محتشدة بالناس، وكان هناك عدد كبير من النساء قد لبسن مثل الـ Beguines، وعندما انتهى القداس، ذهبت إلى دير الرهبان، ووجدت هناك راهباً من طائفتي، مقيماً هناك وهو مسافر على طريقه، وكان يحمل شارات حاج إلى الأرض المقدسة، وقد جاء من بلاد فرنسا، ومن دير تابع لطائفتنا موجود في جزيرة فرنسا، وكان ينوي الإبحار معنا، ولهذا تعرفت عليه، واتفقنا على أن يتحمل أحدنا صحبة الآخر، وعلى كل حال، هو لم

يسافر على غليوننا نفسه، بل على الغليون الآخر، ومع هذا كان يزورني دوماً في القدس، وغالباً مازرته أنا هناك، وقد تحملنا صحبة أحدنا الآخر.

وبعد تناول طعام الغداء ذهبت وحيداً في قارب إلى دير القديس دومينيك، لرؤية كهنة الدير هناك، وقد أروني ذراعاً كاملاً للعدراء كاترين المباركة جداً والمدفونة في جبل سيناء، وكان ذراعاً كبيراً جداً، وجميلاً، وفيه جلده كله وعظامه، وقد قبلت هذا الذراع مرات كثيرة، ووجدت في الدير نفسه راهباً آخر من رهبان طائفتي، قدم من نابل، وكان يحمل شارات الحج، وهو أيضاً لم يبحر في غليون، وعدت بعد هذا بالقارب إلى النزل.

وذهبت في اليوم الخامس بالماء إلى جزيرة الامبراطورة القديسة هيلانة، وهناك قرأت قداساً لموالي، وبعد القداس فتح الرهبان قبر القديسة هيلانة من أجلنا، ورأينا جسدها كله، مع آثار أخرى كثيرة، وبعد تقبيلهم ولمسهم بمجوهراتنا، عدنا إلى النزل، وبعد الغداء، ذهبت في قارب إلى الغليون الذي استأجرناه، ورأينا القبطان قد أمر بوضع ألواح فوق الجزء المنخفض من مخادعنا، وقد اصطدم بعضهم بأقدامنا وكان في المكان الذي أردنا أن نضع فيه أحذيتنا وصندوق أنيتنا، ولهذا أخبرنا الرجال الذي كانوا مسؤولين عن الغليون، أنه ما لم يقم في الغد بنزع هذه الألواح، سنعدّ اتفاقنا ملغى، ذلك أننا رأينا في عملهم هذا مخالفة للشرط التاسع، وبناء على ذلك نشب خلاف فيما بين الحجاج وبين القبطان، وقررنا على كل حال أنه إذا أراد الحفاظ علينا، يتوجب عليه تدمير العمل الذي أقامه، وبعدما فرغنا من تنظيم مخادعنا على هذه الصورة، عدنا إلى نزلنا.

وذهبت في اليوم السادس في قارب إلى القديسة لوسيا Lucia، وبعدما سمعنا هناك قداساً شاهدنا جسد تلك العدراء وقبلناه، ذلك أنه محفوظ

هناك في ضريح وسط تكريم عظيم، وذهبنا في ذلك اليوم نفسه إلى السوق، واشترينا كل ما يمكن أن نحتاجه في غليوننا من أجل الرحلة، من وسائد وفرش، ومخاد، وشراشف، وأغطية، وحصر، وجرار، وما تبقى من أشياء لكل مخدع، وسألتهم أن يشتروا لي فراشاً محشياً بشعر البقر، وكنت قد جلبت أغطية صوفية معي من أولم، من أجل أن أنام على ظهر الغليون مثلما أنام في قلايتي، لأنني رأيت أنه لا يصح بالنسبة لي أن أنام على مكان أنعم فوق ظهر الغليون مما أفعل في قلايتي.

وفي اليوم السابع، الذي يوم عيد انتقال القديس بطرس الشهيد، ذهبنا في قارب إلى خارج البندقية، إلى جزيرة مورانو، واستمعنا إلى قداس دومينيكاني في كنيسة القديس بطرس الشهيد هناك، ثم ذهبنا إلى الكنيسة الأبرشية، وهناك عرض علينا كهنة الأبرشية، الأجساد الكاملة لعدد كبير من الأبرياء المقدسين، وكانوا جميعاً ممددين في قبر واحد، حيث قبلناهم، ثم قصدنا إلى أفران صنع الزجاج، حيث يجري هناك صنع آنية من الزجاج بفن عالي الجودة والرقى، ذلك أنه لا يوجد مثل أعمال الزجاج هذه في أي مكان آخر في العالم، وهم يصنعون آنية غالية السعر من الكرستال، وأشياء أخرى كثيرة رائعة من الممكن مشاهدتها هناك، وبعدما شاهدنا هذا كله عدنا في قاربنا إلى نزلنا في البندقية.

وفي اليوم الثامن، الذي كان يوم عيد صعود ربنا، ذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص، من أجل حضور القداس هناك، وللتمتع بالمشهد العظيم، ذلك أن أعداداً لا تحصى من الناس تتدفق على هناك وتحتشد في ذلك اليوم، وعندما احتشد الجميع واجتمعوا، سار البطريرك مع إكليروسه ورجال الدين من جميع الدير، والدوج والشيوخ ونقباء الحرف، ساروا جميعاً بعدما وقف كل فريق منهم في مكانه المحدد، وقد لبس كل منهم لباسه الخاص مع شعاراته، وأعلامه، ومشاعله، وذخائره، ومشوا في مسيرة من كنيسة القديس مرقص إلى البحر، وهناك

صعدوا على ظهر سفن أعدت خصيصاً لهم، وأقلعوا بها، وصعد البطيريك مع الدوج والشيخ على ظهر الـ Bucentaur (في اللاتينية Bucephalus ، وسميت هكذا على اسم حصان الاسكندر الكبير) التي كانت سفينة عظيمة تشبه خيمة العهد، وكانت مطلية، ومغطاة بالذهب وبشقق الحرير المعلقة، وأخذ هذا مكانا وسط احتفال فخيم، وقرع لجميع نواقيس المدينة، وزعق الأبواق، وغناء مختلف أنواع التراتيل من قبل رجال الدين، وعندما ابتعدت الـ Bucentaur من الشاطئ بضرقات مجاذيفها، التي كان تعدادها أكثر من ثلاثمائة، صاحبها ما يزيد على خمسة آلاف مركب، وقد أبحروا حتى القلاع التي تشكل ميناء البندقية، وعندما عبرت السفن جميعها وصارت خارج الميناء في البحر، بارك البطيريك البحر، حسبما جرت العادة بمباركة المياه في مثل هذا اليوم.

ولدى الفراغ من احتفال المباركة، انتزع الدوج خاتماً ذهبياً من أصبعه ورماه في البحر، وبذلك اقترنت البندقية بالبحر، وبعد احتفال الخاتم، خلع كثيرون ثيابهم وغطسوا نحو الأعماق بحثاً عن الخاتم، وكان الذي يعثر عليه، يحتفظ به لنفسه، وفوق ذلك يسكن طوال ذلك العام في المدينة وهو معفى من الأعباء التي يخضع لها سكان تلك الجمهورية، وفي أثناء القيام بهذا كله تتجمع السفن كلها حول Bucentaur، وهي تضغط بشدة وتتأرجح، وتصدر أصواتاً باطلاق المدافع، والنفخ بالأبواق وقرع الطبول، وبالصراخ والغناء، إلى حد بدا فيه البحر وهو يهتز، وكنا حضوراً أثناء هذا العرض، في مركبنا المستأجر.

وبعد الفراغ من المباركة، وعملية الاقتران بالبحر، جذفوا بالـ Bu-centaur نحو دير القديس نيقولا على الـ Lido، ولدى الوصول إلى الشاطئ هناك، نزلوا جميعاً من جميع السفن، ودخلوا إلى الكنيسة، التي لم يستطع جزء من مائة من الناس الدخول إليها، مع أنها كانت

كنيسة عظيمة، ولم يكن بين ذلك الجمهور العظيم ولا امرأة واحدة، ذلك أن الذين نفذوا الاحتفال كانوا من الرجال فقط، وعندما يكون البطريرك سائراً نحو الكنيسة، وهو مرتدياً لثيابه الخبرية، ومعه الدوج الذي برفقته حاشيته كلها، يأتي راعي الدير، وعلى رأسه قلنسوته الخبرية، وبرفقته جميع الرهبان بأرديتهم المقدسة، نحو الخارج لاستقبال الجمهور، ولاصطحاب البطريرك والدوج بيده ولأخذهما نحو سدة الكنيسة حيث يعقدون القداس لذلك اليوم، وسط مهابة عظيمة، ويعودون بعد هذا إلى سفنهم، ويتوجه كل انسان نحو بيته لتناول طعام الغداء.

ولقد رأيت في بعض الأحيان مثل هذه المشاهد في أماكن أخرى، وبالنسبة لذلك انظر الصفحة ٢١٠، في القسم الثاني، وفي خلال الاسبوع الذي يلي يوم الصعود، ينعقد هناك سوق تتوفر فيه مشاهد رائعة.

وذهبنا في اليوم التاسع بالمركب إلى دير اسمه دير الرهبان العكاكزة، وبعد سماعنا للقداس هناك أرونا جسد القديسة بربارة مع كثير من الآثار الأخرى، التي قبلناها باحترام، ثم عدنا إلى نزلنا، وذهبنا في اليوم نفسه إلى بيت، كان موجوداً فيه فيل، الذي هو حيوان ضخيم وخفيف، وقد رأيناه، واندھشنا لدى رؤيتنا لمخلوق بمثل هذا الحجم غير الاعتيادي، وقد تلقى تدريبات عظيمة، ذلك أنه كان يقوم بأعمال رائعة، فعلها أمام أعيننا، بإشارة من سائسه، وقد اشترى هذا الرجل هذا الحيوان مقابل خمسة آلاف دوقية، وأخذه من البندقية إلى ألمانيا، وكسب من ورائه مالا كثيراً، لأنه لم يدع انساناً يراه، دون أن يدفع لذلك، وأخذه بعد ذلك إلى بريطانيا، وهناك رماه البحارة فوق ظهر السفينة أثناء إحدى العواصف فهلك.

وفي اليوم العاشر، الذي كان يوم سبت، ذهبنا بالقارب إلى كنيسة

اسمها كنيسة القديسة مريم ذات النعمة، وسمعنا قداساً، وذهبنا من هناك بالقرب إلى كنيسة القديسة مريم صاحبة المعجزات، فهناك قد بنوا كنيسة ذات جمال رائع مع دير جميل جداً، وفي أثناء حجي الأول كان الناس قد بدأوا يتدفقون على ذلك المكان، حيث لم تكن آنذاك بيعة هناك، بل مجرد صورة للعدراء المباركة فوق رافعة مثبتة إلى جدار، وقد قيل بأن معجزات قد صنعت هناك، ولذلك أخذت جماعات من الناس تأتي إلى هنا، وتوفرت تقديرات كثيرة، مما أدى إلى بناء كنيسة بنفقات عالية، وهي الكنيسة القائمة الآن هناك في ذلك الموضع، والتي أطلق عليها اسم كنيسة القديسة مريم صاحبة المعجزات، ولسوف أذكر المزيد عنها في القسم الثاني — الصفحة ٢٠٨.

وفي اليوم الحادي عشر، وكان يوم أحد ضمن الأسبوع التالي ليوم الصعود، استمعنا إلى قداس في أقرب الكنائس منا، وكانت واقعة في مقابل النزل الذي نحن فيه، وذهبنا بعد الغداء بالقرب إلى الكنيسة التي اسمها كنيسة القلعة، حيث يسكن بطريرك البندقية، وحيث يتم الحصول في كل يوم على توبة وغفران، وشاهدنا المكان، وكانت الكنيسة واسعة وقديمة، وقد وجدنا هناك واحداً من رهبان طائفة المبشرين، وهو الذي كان يتولى الوعظ، مع أننا لم نفهم ما قاله في القداس، لكن بعد انتهاء القداس رجعنا إلى النزل.

وفي اليوم الثاني عشر، الذي كان يوم عيد الشهداء نيروس Nereus وأخيليس Achilles وبنكرايتوس Pancratius، ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديس زكريا، وحضرنا قداساً هناك، وبعثنا بعد القداس برسالة إلى راعية الدير المرتبط بالكنيسة سألناها فيها السماح لنا برؤية الآثار، وهؤلاء الراهبات ثريات ونبيلات، وهن متساهلات جداً بنظامهن، الذي هو نظام القديس بينيت، وقد فتحنا لنا الضريح الذي فيه أجساد الشهداء الثلاثة، الذين كنا نحتفل بعيدهم، أي: القديس نيروس،

والقديس آخيليس، والقديس بنكرايتوس، ورأينا في ضريح آخر مصنوع من الفضة الجسد الكامل للقديس زكريا، والد يوحنا المعمدان، وفمه مفتوح، وإلى جانبه جسد القديس غريغوري نازيانزن Nazianzen، وجسد القديس ثيودور المعترف، وجسد القديسة ساينا، العذراء الشهيدة، ودهشت إزاء ثراء هذه الكنيسة بالآثار، وقد أخبرت بأن ابنة أحد الأباطرة، كانت مرة راعية للدير هناك، وأن الامبراطور، حباً لابنته، جلب هذه الأجساد إلى هناك، وهكذا بعدما رأينا هذه الآثار وقبلناها، عدنا إلى مكان إقامتنا.

وفي اليوم الثالث عشر، ذهبنا إلى الكنيسة الكارثية Carthusian العائدة للقديس أندرو، حيث يوجد هناك دير عظيم وكبير جداً، وعلى جزيرة خاصة به، مع أربعة أروقة وقلايات جميلة وواسعة، ورأينا هناك كثيراً من الآثار، من ذلك إصبع القديس أندرو الرسول، وذراع القديس لورانس الشهيد، وهكذا كثير، وعدنا بعد هذا إلى مكان إقامتنا.

وذهبنا عبر الماء في صباح اليوم الرابع عشر إلى دير القديس جرجس، القائم في مقابل قصر القديس مرقص، وذلك عبر القناة العظمى، وجعلنا رهبان ذلك الدير يغنون لنا قداساً عن القديس جرجس، وبعد القداس أرونا الآثار المقدسة التي لديهم، وهي: رأس القديس جرجس، وذراعه الأيسر ويده، وكذلك رأس الرسول القديس جيمس الأصغر، والجسد الكامل للقديس بولص، دوق القسطنطينية، وقطعة من الليفة التي منحت لربنا، وأشياء أخرى كثيرة، وعندما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، عدنا إلى مقر إقامتنا.

وفي يوم الخامس عشر الذي كان نهاية الأسبوع التي أعقب الصعود، وعدّ مقدساً مثل اليوم الأول من الصعود، ذهبنا باكراً إلى القديس مرقص، وعندما استمعنا إلى القداس، أمكننا رؤية كنز القديس مرقص، الذي لا يمكن تقدير قيمته لا بالذهب ولا بالفضة ولا بالحجارة

الكريمة، فقد رأينا هناك ضريح وجسد القديس ايزيدور Isidore، وأما جسد القديس مرقص، الذي جلبه البنادقة من الاسكندرية إلى مدينتهم، فلم نره، لأنه قد قيل بأن راهباً قد استولى عليه، وحمله إلى ألمانيا إلى أويا Owia ميجر، وحول هذه المسائل سوف تتوفر رواية أكثر كمالاً، في ص ٢٠٦ من القسم الثاني.

ومن الكنيسة ذهبنا إلى قصر الدوج، حيث تولى واحد من رجال بلاط الدوج ارشادنا والطواف معنا حول الغرف الداخلية للدوج، وشمل ذلك أيضاً خزانة الدوج، التي رأيناها، وكان هذا اليوم يوم عيد خاص للنساء، وقد شاهدنا عرضاً للنساء المزيّنات بزينة دنيوية كانت ثمينة جداً، وكان رائعاً مشاهدتهن.

وفي اليوم السادس عشر، وبينما نحن في فرشنا، سمعنا أسرة النزل سيكون وينتحبون، لأن صاحب نزلنا المعلم جون، قد توفي في الليل، وكانوا يتجهزون لدفنه، وبناء عليه، اعتقد بعض منا، أنه ربما هناك طاعون قد نزل هناك، لذلك استأجروا قوارب وأبحروا إلى بادوا، حيث أقاموا لعدة أيام، أما أنا والذين بقيوا، فقد ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديس روخ Roch ، في مدينة البندقية، وطلبنا عون القديس المتقدم الذكر، الذي هو معين خاص للذين يخافون من الوباء، وذلك خشية أن نصاب بالعدوى.

وفي يوم السابع عشر، الذي كان عشية عيد الحصاد، ذهبنا بالقارب إلى دير القديس يوحنا، العائد لطائفة الرهبان البيض، وهناك حضرنا قداساً، وقبلنا الآثار، وذهبنا بعد الغداء إلى مخزن سلاح المدينة، الذي يسمونه آرسنال (دار الصناعة)، ورجونا هم السماح لنا بالدخول، وعندما سمح لنا، شاهدنا كميات رائعة من آلات الحرب، مع مخازن تابعة للدولة لتزويد الرجال للقتال في البحر، أو خيالة، أو رجالة، وذلك حسبما سيأتي وصف ذلك في الصفحة ٢٠٥ من القسم الثاني،

ومثل ذلك، ذهبنا بعد هذا إلى بيت الخبازين، الذين يتولون خبز البقساط للاستخدام في البحر، ودهشنا لدى رؤيتنا الأفران الكبيرة، والنيران، والأعمال والعاملين، وقفنا بعد هذا كله عائدتين إلى النزل.

وفي يوم الثامن عشر، الذي كان يوم أحد، ويوم عيد الحصاد، ذهبنا في الصباح إلى كنيسة القديس بارثولميو الرسول، التي هي الكنيسة الأبرشية لنزلنا، واستمعت هناك إلى اعترافات بعض الحجاج، وبعد الحصول على إذن المغادرة من الكاهن الأبرشي للكنيسة المتقدمة الذكر، توليت إدارة قداس القربان من أجلهم، وبقينا في الكنيسة خلال جميع وقت القداس، وذهبنا بعد الغداء عبر الماء إلى كنيسة الروح القدس، التي تدفق عليها جمهور كبير للحصول على الغفران، ولمشاهدة مسيرة مهيبة للنقابات التي يسمونها مدارس.

وذهبنا في اليوم التاسع عشر بالماء إلى الكنيسة التي اسمها القديسة مريم ذات الشفقة، التي هي فائقة الجمال، وهي أيضاً الأغني والأكثر قدماً من أية كنيسة أخرى في المدينة، وحضرنا هناك قداساً، وعجبنا لرؤية الرسوم والمنحوتات التي زينت بهم، ولدى عودتنا إلى نزلنا زرنا كثيراً من الكنائس الأخرى، حصلنا فيها على الغفران، وسيكون مرهقاً لي تولي كتابة أسمائهم جميعاً.

وذهبنا في اليوم العشرين في الصباح الباكر، وقبل أن ترتفع حرارة الشمس، إلى كنيسة القديسة مريم الجميلة، وكانت الكنيسة في الحقيقة واسعة وجميلة: وهكذا استمعنا هناك قداساً، وقفنا بعد ذلك عائدتين إلى نزلنا، ولم نتجراً خلال بقية ذلك النهار على الخروج، بسبب الحرارة العالية جداً، لأن الحر كان أعظم مما عرفتة البندقية قط من قبل، وبسبب هذه الحرارة جفت الآبار، وصار الماء العذب عزيزاً جداً، ذلك أنه لم يعد ماء الشرب متوفراً هناك، إلا الماء الذي جلبته السفن من نهر برنتا Brenta وقد بيع هذا الماء بثمن مرتفع جداً، وجرى صبه من حول

الآبار، على أمل أن يتصفى خلال الأرض، وينفذ إلى الآبار.

وذهبنا في اليوم الحادي والعشرين بالقارب إلى دير القديس أنطوني، وكان على مقربة من دير القديس دومينيك، وحضرنا هناك قداساً، وخرجنا بعد ذلك نتجول هناك، وشاهدنا الأبنية العملاقة التي كان سادة البندقية يقيمونها هناك في ذلك المكان، واستولى علينا العجب تجاه النفقات الكبيرة لمثل هذه الأعمال، لأنهم كانوا يقيمون جدراناً ضخمة في ماء البحر بالذات، وكان مكلفاً جداً عمل الأساسات هناك، وبسبب هذا المبنى كان الدوج مع أعيان البندقية الآخرين، غاضبين جداً من أخواني رهبان القديس دومينيك، لأنهم طلبوا من الرهبان منحهم نصف أرض حديقة ديرنا، من أجل توسعة دير القديس أنطوني، لكن إخواني الرهبان لم يوافقوا، ووقفوا في وجه الدوج والشيخ وقفة جريئة مما أثار غضباً كبيراً ضدهم.

ولكي يحصلوا على موافقة الرهبان، عرضوا منحهم المساحة التي أرادوا من الأرض في البحر، باتجاه الشرق، وحسب اختيارهم وقبولهم، وأن يقوموا بارساء الأساسات على حساب الدولة، لكن رئيس الدير، وكان جريئاً، رفض مطلقاً إعطاء الموافقة، وكان سادة البندقية يتولون عمارة هذا البناء بهذه الروعة، مع بيوت جميلة وكثير من الغرف، من أجل استقبال الحجاج الذاهبين إلى القدس، وإقامتهم فيها، لأنهم أدركوا أنه من غير اللائق، أن يقيم الحجاج في نزل عامة، مع أنهم عازمون على القيام بالحج المقدس، وأنه في مثل هذه المدينة العظيمة ليس لديهم من مكان يأوون إليه إلا الحانات العامة، لأن سمعة النزل العامة، كانت فيما بينهم سيئة وغير محمودة، ولذلك عندما كانت تزورهم بعض الشخصيات الكبيرة، كانوا يعينون لها بعض البيوت الخاصة، ليحولوا دون نزولها وإقامتها في النزل، فضلاً عن هذا، كانوا غير راضين، أن تذهب وجبات الأطعمة التي كانوا يرسلونها إلى الغرباء المهمين على

الحساب العام، وتؤخذ إلى النزل، وكان إذا ما أرسل شيء إلى أحد النزل، كان كمية صغيرة وردية.

وعندما تسلم موالى وجبة أهديت إليهم من قبل الدولة، أخبروهم أنهم لو كانوا مقيمين في أي مكان غير النزل العام، لبعث إليهم أعيان البندقية بالوجبات بشكل متواصل، ولتعاملوا معهم بكرم أعظم، ولهذا السبب كانوا يتولون عمارة هذا البيت بنفقات عظيمة إلى هذه الدرجة، من أجل أن يتمكن الحجاج ذوي المكانة من الإقامة هناك، ولكي ينالوا التكريم على أيديهم، وذهبنا من هناك بوساطة القارب إلى غليوننا، ووجدنا عدداً كبيراً من الرجال يعملون عليه، في تثبيت مقاعد المجذفين، والمجاديف، والسواري، والأشياء الأخرى المحتاجة، وكانوا يثقلونه ويوازنونه بالرمل، وعندما رأينا هذا ابتهجنا، آمليين بالإقلاع في القريب العاجل.

وفي اليوم الثاني والعشرين، ذهبنا عبر الماء إلى الكنيسة التي اسمها كنيسة الرسل، وحضرنا القداس هناك، وبعد القداس أرونا جسد القديسة مريم العذراء، التي يوجد حولها رواية رائعة في القسم الأول من كتاب «حياة الآباء» (ص ٤٩)، وبعد الغداء ذهبنا ثانية إلى الغليون، وأخذنا بعض الصناديق والخزائن لوضعها في مخادعنا، وذهبنا في القارب أيضاً إلى المكان الذي ترسو فيه السفن ذات الحجم الأعظم، وصعدنا إلى ظهور هذه السفن، وتملكتنا الدهشة تجاه ما رأيناه، وتساءلنا كيف يمكن تحمل مثل هذه العماثر الضخمة، وهذا الوزن العظيم.

وذهبنا في اليوم الثالث والعشرين عبر الماء إلى كنيسة القديس إرميا، حيث أرينا بعد القداس جسد القديس الأسقف مغنوس Magnus الذي كان أول أسقف لمدينة البندقية، ومضينا من هناك إلى كنيسة القديسة مريم، التي اسمها القديسة مريم صاحبة العذراوات، ورأينا كثيراً من آثار القديسين هناك، وزرنا بيعاً أخرى كثيرة في ذلك اليوم،

نسيت أسماها.

وفي اليوم الرابع والعشرين الذي هو يوم انتقال القديس دومينيك، ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديسة آن Anne ، التي هي بالجوار، حيث شاهدنا كثيراً من الآثار، وفي طريق عودتنا إلى مقر إقامتنا، ذهبنا إلى كنيسة القديسة مريم صاحبة الكرم، فهناك يمتلك الرهبان الفرنسيون ديراً جميلاً جداً، هو الذي يعملونه يومياً أكثر نفاسة، وقمنا هناك بتوجيه التحية إلى العذراء المجيدة، وعدنا إلى مقر إقامتنا.

وفي اليوم الخامس والعشرين، الذي كان يوم أحد، وكان أيضاً يوم عيد الثالوث المبارك، نهضنا باكراً، وعبرنا القناة العظيمة إلى كنيسة الثالوث المقدس، حيث يوجد هناك البيت العائد للرهبان الألمان النظاميين، وهناك حضرنا مسيرة وقداًساً، ودعينا إلى الغداء من قبل السادة هناك، وكان في هذا اليوم حشداً عظيماً من الناس هناك، وكانت القناة طوال اليوم مليئة بالقوارب فيها أناس قادمون، وأناس ذاهبون، وعندما عدنا إلى نزلنا علمنا بأن السادة قناصل البندقية قد أصدروا أوامر إلى كل من القبطانين بالاقلاع مع حجاجهم في ذلك الأسبوع، وعدم الانتظار مدة أطول، ولدى سماعنا بهذا ابتهجنا، لأننا كنا قد بدأنا نملّ كثيراً من الإقامة في البندقية.

وعبرنا القناة في اليوم السادس والعشرين إلى كنيسة القديس اسطفان، حيث يوجد دير القديس أوغسطين، وسمعنا قداًساً هناك، وبعد القداس أرانا الرهبان بعض الحجارة التي من المعتقد أن القديس إسطفان قد رجم بها في القدس، وفي ذلك اليوم أصدر قبطاننا الأوامر بوجوب إحضار جميع خزائنا وحقائبنا ووضعهم على ظهر الغليون، الأمر الذي نفذناه مباشرة وسط سرور عظيم، لأننا كنا نتطلع بشوق عظيم لموعد مغادرتنا.

وذهبنا في اليوم السابع والعشرين إلى كنيسة القديس كارتيانوس CARTIANUS، حيث كانت الكنيسة كنيسة أبرشية، فيها سمعنا قداساً، وبعد القداس أرانا رجال الدين جسد الأسقف القديس مكسيموس، المحفوظ بعناية داخل غلاف فضي، وذهبنا أيضاً إلى كنيسة فيها يرقد جسد راعي الدير، القديس سابا، وبعدما قبلنا هذه الآثار، عدنا إلى نزلنا، وعملنا في ذلك اليوم بنشاط كبير، في إعداد أمورنا على ظهر الغليون، وبدا لنا أن الأيام التي بقيت لنا لنقيم بها في البندقية تكاد لا تكفي لإكمال استعداداتنا.

وفي اليوم الثامن والعشرين ذهبنا باكراً عبر الماء إلى كنيسة القديسة مريم الكرملية، وذلك حيث يمتلك الرهبان الكرمليون ديراً، وبعد سماعنا قداساً عدنا إلى نزلنا بسرعة أكبر مما اعتدنا عليه، ذلك أن موالي قد عينوا موعداً مع طبيب كان سيتناول طعام الغداء معنا، وتسلموا منه أحكاماً مكتوبة ينبغي اتباعها في البحر، وذلك كل رجل حسب أوضاعه الجسدية، وأعطاهم وصفات أدوية، وأخذ كثير منا منه أشربة مطهرة، لأن من الضروري بالنسبة للمسافرين عبر البحر تناول الشراب المطهر قبل السفر.

وفي اليوم التاسع والعشرين الذي كان عيد «جسد المسيح» الأكثر قداسة، ذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص، وحضرنا مسيرة مهيبة هناك، فنحن لم نر قط مثل الفخامة التي رأيناها في ذلك اليوم في البندقية، وكانت المسيرة رائعة، وقد حوت حشداً عظيماً من الرهبان ورجال الدين التابعين لجميع الطوائف، وكانوا جميعاً يرتدون أرديتهم المقدسة، ويحملون آثراً ثمينة جداً من كل نوع، ومشوا وفق نظام محدد حول الساحة الكبيرة للقديس مرقص، التي كانت مغطاة بأقمشة كتانية من جميع جوانب الدائرة التي تحركت فوقها المسيرة من الباب الأول لكنيسة القديس مرقص حتى الباب الآخر، وحمل البطريرك خبز القربان،

ومشى إلى جانبه الدوج، وهو واضع قبعة الدوقية الثمينة جداً، وجاء من بعدهما رعاة الديرة، وهم يرتدون قلنسواتهم، ثم شيوخ البندقية جميعاً، وإلى جانب العرض اللاهوتي، الذي كان رائعاً جداً، كان هاماً رؤية مهابة السادة الشيوخ، وثيابهم الجميلة وغير الاعتيادية، وقد جاء من بعدهم كثير من الأصناف، ثم العامة من الناس، وقد مشى رجال الدين والرهبان من نظاميين وعلمانيين في الطليعة، وسط الغناء وعزف آلات الموسيقى والألحان والمشاهد العرضية من كل نوع، وفي هذه المسيرة ما من دير، أو نقابة ظهوروا من دون عرض خاص بهم وأبهة ذاتية لنيل الإعجاب، ولإدخال السرور إلى قلوب المشاهدين، وزين الرهبان المبشرون التابعون للقديس يوحنا والقديس بولص المسيرة بوساطة عروضهم المضحكة وتمثيلاتهم الجميلة، ولقد رأينا هناك كثيراً من الذهب والفضة، وكميات كبيرة من الأحجار الكريمة، والملابس الثمينة، مما لا يمكن لإنسان أن يقدر أثمانها، والذي كان هناك هو حشود متداخلة تركض وتتدافع في فوضى.

ومضينا بعد الغداء عبر الماء إلى دير جسد المسيح، حيث تقيم سيدات نبيلات وغنيات من البندقية، هن راهبات في طائفة القديس دومينيك، وفي الحقيقة، جاءت المدينة كلها تقريباً، بعد الغداء، عبر الماء إلى تلك الكنيسة، وكان هناك حشد عظيم وضغط شديد من أجل مشاهدة المسيرة، لأن الرهبان التابعين لثلاثة أديرة، هي: دير القديس يوحنا، والقديس بولص، ودير القديس دومينيك، ودير القديس بطرس الشهيد، قدموا جميعاً إلى هناك، وعملوا مسيرة فائقة الجمال مع جسد المسيح، وكانت مسيرتهم طويلة جداً فوق القناة العظمى، وقدموا كثيراً من العروض، ولا يمكن لإنسان أن يتخيل كم من العروض العبيثة قد عرضت وسط هذه المباريات المقدسة، وكم من الملابس العظيمة البذخ التي ارتدتها النساء، وكم من التصرفات غير اللائقة التي صدرت عن

رجال الدين، والأعمال غير النظامية التي مارسها رجال الدين النظاميون وغير النظاميون، هذا كله لا يمكن لانسان أن يتصوره، وأن يتصور العدد الهائل من الجمهور الذي احتشد هناك، وفيما إذا كان الشريف المضيفى على القُداس الأعظم مكانة، قد دنس على هذه الصورة؟ الرب وحده الذي يعرف الأشياء كلها، يمكنه أن يقول ويخبر، وبعدها انتهى هذا كله، عدنا إلى مقر إقامتنا لتناول طعام العشاء.

وذهبنا في اليوم الثلاثين إلى القديس دانيال، وسمعنا قداساً هناك، وأرونا بعد القُداس الجسد الكامل لشهيد اسمه القديس يوحنا، وقبلنا هذه الآثار، وعدنا إلى مقر إقامتنا، وفي ذلك اليوم بالذات، قام عدد كبير من الحجاج، بعد تناول طعام الغداء بحزم أمتعتهم، وذهبوا بوساطة القارب إلى الغليون، حيث صعدوا إلى ظهره، ومن هناك لم يعودوا ثانية إلى المدينة، بل مكثوا على ظهر الغليون حتى أقلع بنا جميعاً.

وفي اليوم الحادي والثلاثين الذي كان اليوم الأخير في شهر أيار، نهضنا باكراً، وذهبنا لسماع قداسات في كنيسة القديس المخلص، حيث يوجد هناك رهبان نظاميون يتولون مراعاة الأعمال التبعية بشكل دائم، واستأجرنا بعد هذا مركباً، وتدبرنا أمر الذهاب إلى الكنائس التي حماها من القديسين يقدمون خدمات خاصة إلى الذين على نية السفر إلى الحج، لأن موعد مغادرتنا بات قريباً، وكنا نرغب بالتوجه بالدعاء إلى جميع القديسين من أجل الحصول على عونهم، وبناء عليه ذهبنا أولاً إلى كنيسة القديس رافائيل، الذي هو رئيس للملائكة، حيث صلينا للرب حتى يرسل إلينا رئيس الملائكة المقدس لديه، ليتولى قيادتنا مثلما فعل لطوبيا، ومن هناك ذهبنا بالقارب إلى كنيسة القديس ميكائيل الذي كان رئيساً للملائكة، ورجونا أن يحطم تحت قدميه كل شيء شرير يمكن أن يهاجمنا، سواء أكان من الأعداء المرئية أو غير المرئية، وذهبنا من هناك إلى كنيسة القديس كريستوفر ورجونا أن يحملنا سالمين عبر البحر

الكبير، ذلك أنه يوجد فيما بين البندقية وجزيرة مورانو جزيرة ، عليها تقوم كنيسة جميلة وجديدة هي كنيسة القديس كريستوفر، وذلك مع دير للرهبان البيض، وفي تلك الكنيسة هناك لوحة قد رسمت عليها خريطة جميلة جداً للعالم.

وذهبنا بالقارب من تلك الجزيرة إلى كنيسة القديسة مريثا، السيدة التي أكرمت الرب يسوع وخدمته، ورجوناها أن تهتم بنا وتزودنا بنزل جيدة ومحترمة، أو في جميع الحالات أن تزودنا بالصبر حتى نتحمل نواقص النزل التي سوف نسكن بها خلال رحلتنا الطويلة، ويسكن من حول تلك الكنيسة راهبات يرتدين أردية بيضاء، وانظروا كيف أننا عندما كنا نقيم في المدينة، لم نستطع منع أنفسنا عن القيام بالحج، ولقد دونت فقط المشاهد الرائعة والمحترمة والجولات التي قمنا بها في مدينة البندقية، وكل ما قمنا به بدافع الفضول، أو استحقق المشاهدة، تجاوزت ذكره، مع أننا فعلنا ذلك أيضاً.

وهنا تنتهي جولاتنا في البندقية، وكنا طوال ذلك اليوم مشغولين في إعداد أنفسنا للذهاب والصعود على ظهر السفينة غداً، وعملنا تسوية مع طبيبنا، ودفعنا ما علينا من استحقاقات للسيدة مرغريت، صاحبة نزلنا، وعهدنا بالأشياء التي لافائدة منها في البحر، إلى السيد نيقولا فرج Frig وكان ألمانيا، وكان هو وكيل المؤونة في النزل، وانتظرنا قدوم الغد.

وفيما يلي بعض الأشياء، التي من الضروري تبيانها من أجل فهم جولاتنا ورحلاتنا فوق البحر. وقبل الشروع في تدوين أخبار جولاتنا ورحلاتنا في البحر، رأيت من الضروري التمهيد لذلك ببعض الايضاحات الضرورية، لتبيان كثيراً من المصاعب التي لا بد من أن تقوم أثناء الحج في البحر، لأن الحج إلى الأرض المقدسة، ينفذ جله عبر البحر، ويتم تمضية الجزء الأكبر من الوقت في الرحلة البحرية، ولذلك عازمت على كتابة ثلاثة تماهيد لذلك.

والتمهيد الأول: حول أنواع البحار الكثيرة، وطبيعتهم، والمخاوف فيهم.

والتمهيد الثاني: حول الغليون ذي الصفوف الثلاثة للمجذفين، وتراثيبه.

والتمهيد الثالث: حول النظام وطبيعة الحياة على ظهر الغليون، ونصيحة إلى الذين يبشرون في غليون.

وعندما يجري فهم هذه التماهيد بشكل صحيح، فإن الانسان الذي لم ير البحر قط، يمكنه أن يرتاح راضياً، [أي أنه سوف يفهم حكايتي].

حول أنواع البحار الثلاثة

يتألف البحر بطبيعته من ثلاثة أنواع هي: البحر الكبير، والبحر الأكبر، والبحر الأعظم، والبحر الكبير هو البحر المتوسط، الذي يطلق عليه اسم بحرنا، والبحر الأكبر هو بحر بنطش، والبحر الأعظم هو المحيط الذي يمتد حول العالم، وسوف نقوم أولاً باستعراض موجز للمحيط، وبعد ذلك للبحرين الآخرين، والمحيط، أو البحر المحيط الأعظم، هو الذي يحيط بالعالم كله ويغلفه، ويلتف حوله مثل الخاتم، وهو يسمى بالمحيط من قبل كل من الإغريق واللاتين، لأنه يجري حول العالم، وجاء ذلك إما بسبب سرعته، لأن معنى محيط هو يجري Ocius، أي يسرع، أو بسبب ضم عبارة Ce مع Coelum التي تعني السماء، لأن هذا البحر فيه شبه للسماء باللون، ومهما كان لون السماء، سيكون المحيط له اللون نفسه، وينشأ المحيط وينمو من العالم، وجذوره وبداياته في العالم، فضلاً عن ذلك فإن بداية الأول هي عند نهاية الآخر، ومثل هذا فإنه أصل جميع المياه في العالم، فمنه تتدفق وإليه تعود، وبناء عليه أطلق على المحيط اسم بيت الأنهار، ونبع الأمطار، ومع ذلك هو لايزداد بتدفق نهر من الأنهار، ولا ينقص بعدم تدفق نهر آخر، لأنه يعيد

من المياه بقدر الكميات التي يتلقاها، ومع هذا إنه ل يبدو أمراً مدهشاً، أن نرى مثل هذا العدد الكبير من الأنهار تصب في المحيط، وبشكل متواصل، وتتدفق بكميات غير محدودة من المياه، ومع ذلك لا يغدو هذا المحيط أكبر بسبب ذلك وليس أقل عجباً أنه مع أن كثيراً من الأنهار تنبع من قاعه، وأن النجوم تسحب شطراً كبيراً من مياهه، لأن الشمس والنجوم الأخرى تتولى بقوتها النارية الحادة سحب كميات عظيمة من المياه، وتصبها حول جميع النجوم لتلطف الجزء الناري منهم، ومع ذلك إن هذه المياه التي تأخذها النجوم من المحيط لا تنقصه، لأنه كما قلنا من قبل، يسترجع ثانية بقدر ما يفقده من هذه المياه التي تشربها النجوم، وكيف حصل هذا وانتظم، الله وحده هو العليم بذلك، لأن العالم صنع يديه، وهو وحده يعلم جميع أجزائه، ويتبع هذا البحر، دون سواه مسار القمر، ولهذا فإن الدوامة التي تبتلع المياه والسفن، وتقذف بهم مجدداً، وهي تبتلع مياهها ثم تقذفها بقوة تيار أعظم، عندما يكون هناك قمر جديد، ويطلق على هذه الدوامة اسم المهواة العظيمة، وهكذا نقرأ في سفر التكوين: ١١/٧ «انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم»، ويوجد في مقابل هذا أغواراً عظيمة، وكهوفاً مفتوحة وواسعة، فيها تنشأ الرياح وتهب من خلال تنفس المياه، ويمكن تشبيه هذه الكهوف والأغوار بفتحتي أنف العالم، واسم التنفس في الكتابات المقدسة، روح العاصفة، وتقوم الرياح بتحريكها في داخل هذه الكهوف المفتوحة بسوق مياه البحر نحو المهاوي العميقة، وترغمهم على الاندفاع ثانية بقوة أكثر، وبتيار أشد عنفاً، وقد نوقشت هذه المسائل بتوسع من قبل Vin-centius في كتاب «Speculum Naturae»، ومياه هذا البحر مالحة، مثل مياه البحار الأخرى، وهو ما سوف نشرحه فيما بعد، وفيما يتعلق بحجم هذا المحيط واتساعه لا يمكن شيء أن يقارن به، ويبلغ عرضه مقداراً عظيماً بحيث لا يمكن عبوره، ولا يوجد خلفه بلاد، بل إن ذلك البحر محاط فقط بغيوم وهواء كثيف يشكل حدوده، وهناك

على كل حال أرض تحته، فتبعاً للنظام الطبيعي للخليعة، كان وجه الأرض كلها ستغطيه المياه، غير أن الله برحمته اللامحدودة تفضل بإبقاء جزء من الأرض جافاً لسكنى البشر والحيوانات، وذلك عندما قال: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة» [التكوين: ١/٩]، وهذا الجزء القائم فوق الماء، هو الذي عني عندما قيل عن العالم نفسه بأنه «قد أقامه فوق البحار» (المزامير: ٢١/٢)، وعليه كانت المياه ستغمر الأرض، لولا أن الأمواج قد صدت بقوة الخالق، ولذلك قال في المزمور: «أنت وضعت لها تحماً لاتتعدها، لاترجع لتغطي الأرض» [٩/١٠٤]، وقال أيضاً في أيوب [٨/٣٨]: «من حجز البحر بمصاريح حين اندفق فخرج»، وكل من يرغب أن يمتلك فهما واضحاً لهذه الأشياء، عليه أن يقرأ شروح بولس أوف بورغوس Burgos، على الـ Postilla لدي ليرا Lyra حول ما وقع في اليوم الثالث من أعمال حيث قرأنا: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد»، ومن هذا البحر وإليه وفيه تصب مياه البحار الأخرى: البحر المتوسط، وبحر بنطش، والبحر الأحمر، وهي بذلك تشبه أغصان جذع واحد.

ويطلق على بحر بنطش اسم البحر الأكبر، لا لأنه في الحقيقة أوسع من بحرنا، بل لأنه غير مقسم بوساطة أية جزر، أو لأنه لاجزر فيه تقريباً، واسمه بحر بنطش، لأن جميع تلك المياه التي فيه تتدفق خلال قناة ضيقة، عبرها اكسرسيس بوساطة جسر (Pons) مصنوع من السفن، ولهذا السبب أطلق على هذا المضيق اسم هيلوسبوننت Hel-despont أو من الممكن تسميته ببحر بنطش، لأنه بدون جسر، ولا يمكن عبوره بوساطة جسر، وكذلك من الممكن تسميته ببحر بنطش من كلمة «نقطة Point»، لأنه كما قيل هو مستدير مثل نقطة أو بقعة، وأيضاً من الممكن تسميته ببحر بنطش بسبب قصره، ويعرف هذا البحر بشكل عام باسم بنطش يوكسينوس Pontus Euxinus، وذلك

بسبب طباع سكانه، وذلك حسب رواية ايذيدور، لأنه تبعاً لبطليموس امتلك شعب يوكسين Euxine أسوأ طباع ممكن توقعها من الجانب الأخلاقي، ولهذا ما من أحد يمكنه التمازج معهم، ولقد كان أشبه بملجأ إليه يفر الناس من البلدان الأخرى بغرض اللجوء، وفضلاً عن هذا فان نهر اكسوس Euxes ، الذي ينبع من جبل القوقاز، يصب في هذا البحر، وبالتالي أعطاه اسمه، أو ربما نال النهر اسمه من البحر، ويوجد خلف بحر بنطش مستنقعات واسعة جداً، هي التي تتلقى مياه نهر تانيس Tanais، الذي يشكل الحدود فيما بين أوروبا وآسيا، وهو ينبع من جبال ريفائين Rhiphaeon ، وبحر بنطش يوكسينوس هذا مياهه أقل ملوحة من مياه البحار الأخرى، وذلك بسبب عدد أنهار المياه العذبة التي تصب به، وفي الحقيقة نجد أن نهرنا الدانوب، الذي ترفده مياه ستة أنهار كبيرة، يصب لمدة سبعة أشهر في بحر يوكسين.

والبحر الكبير هو الذي نسميه «بحرنا»، و«البحر المتوسط»، ومقصدي الحديث عن هذا البحر أكثر من الحديث عن سواه، ومن حيث البداية أطلق عليه اسم «البحر الكبير»، لأنه بالمقارنة معه نجد البحار الأخرى والبحيرات أصغر منه، وثانياً، أطلق عليه اسم «بحرنا» لأنه معروف من قبلنا، وقريب منا، ويستخدم من قبلنا، وثالثاً، أطلق عليه اسم «المتوسط» لأنه قائم في وسط الأرض، فمن الغرب حتى الشرق، نراه قائماً بين الأجزاء الرئيسية للعالم، أي بين أوروبا، وآسيا، وأفريقيا، ويفصل فيما بينهم ويرسم الحدود فيما بين كل واحدة منهن بنفسه وبفروعه، ففي الغرب والشمال منه هناك أوروبا، وفي شرقيه آسيا، وعلى جنوبه أفريقيا، ولهذا فإن الحاج الذي يذهب إلى القديسة كاترين، سوف يلامس البحر عند كل واحد من هذه الأجزاء الثلاثة للعالم، ذلك أنه يبدأ رحلته من أوروبا، ويصل عبر كريت ورودرس وقبرص إلى آسيا، وعندما يصل إلى الاسكندرية في مصر سوف يكون في أفريقيا، لأن نهر

النيل يفصل فيما بين آسيا وأفريقيا، وهناك على الجانب الأفريقي توجد الاسكندرية، ويتصل بحرنا بالبحرين المتقدمي الذكر، ومياه بحر بنطش والبحر المتوسط هي نفسها، وتتدفق هذه المياه — كما نرى — من مملكة إسبانيا وتمر بغاليا، وإيطاليا، وصقلية، وكريت وصولاً حتى مصر، ويطلق بشكل صحيح على الفرع الذي يصل المحيط قرب إسبانيا، اسم مضيق المغرب، فهو يفصل فيما بين مملكة المغرب — الموجودة في أفريقيا — وإسبانيا، وفيما بين هاتين المنطقتين يتلقى البحر المتوسط مياهه من المحيط من خلال المضيق المتقدم الذكر، الذي لا يتجاوز عرضه ربع ميل، ذلك أن النساء الغسالات في إسبانيا قد يقفن على أحد الشواطئ، وتقف في مقابلتهن النساء الكافرات في المغرب، وتشم كل فئة منهن الفئة الأخرى، وهناك تفصل أفريقيا عن أوروبا.

ويصلها ذراعها الآخر الذي اسمه الهيلوسبونت — أو ذراع القديس جرجس — ببحر بنطش، ويفصل هذا الذراع أوروبا عن آسيا الصغرى، التي يطلق عليها الآن اسم تركيا، لأن الأتراك قد استولوا على المنطقة كلها، وفي الداريجة يطلق على هذا الذراع اسم خليج القسطنطينية، لأن مدينة القسطنطينية قائمة على شاطئه الأوربي، ويقال بأن مدينة طروادة القديمة والقوية، قد قامت عند المكان الذي يبدأ فيه هذا الذراع بترك البحر المتوسط، وذلك على ساحل آسيا الصغرى، ولم يتبرهن — على كل حال — بتأكيد كامل بأن مدينة طروادة قد قامت هناك، وعلى كل حال إن تسمية بحرنا بالبحر المتوسط، تسمية صحيحة، لأنه واقع في وسط البلاد، ويحتل المكان الوسط فيما بين البحرين الآخرين، وتصب جميع الأنهار المعروفة من قبلنا في هذه البحور الثلاثة، فنهرنا الدانوب يحمل نفسه ويتجه نحو الشرق ليصب في بحر بنطش، الذي عرف أيضاً باسم يوكسين، وجميع الأنهار التي تنبع من جبال الرايتك Raetic، فنهر الراين ينبع من جبال يوكسين، ثم يجري باتجاه الغرب، ويحمل

عددًا لا يحصى معه من الأنهار إلى البحر المحيط، ونهر الرون الذي نبعه قريب من نبع الراين، يجري باتجاه الجنوب، ويحمل معه المتبقي من الأنهار إلى البحر التيراني Tyrrhenian ، وكذلك أنهار الأدجي، وبرنتا، فهي تنبع من جبال الألب، وتصب في البحر المتوسط.

وهناك بحار أخرى معروفة بشكل جيد بالنسبة إلينا من خلال الكتابات المقدسة، وهي مرتبطة بواحد من البحار المتقدمة الذكر، بأقنية نحن لانستطيع رؤيتها، أو كما هو معتقد بوساطة أنهار تحت الأرض: من ذلك على سبيل المثال، يوجد في الشرق بحر الخزر، الذي هو منعزل، وليس له اتصال ظاهر مع أي من البحار الأخرى، ومع ذلك قد قيل بأنه يتدفق بشكل سري من تحت الأرض ويصب في بحر بنطش، فضلاً عن هذا لقد قيل بأن بحر الجليل، والبحر الميت يصبان بوساطة قناة خفية في البحر الأحمر، الذي يتلقى المياه من المحيط، وهناك لسان من المحيط حيث حدود كل من بلاد فارس وشبه جزيرة العرب، ومنه يبحر الناس إلى الهند، فهذا ما حكاه جيروم في رسالته إلى فاييولا . Fabiola

فضلاً عن هذا، ينبغي أن نعرف أن البحر المتوسط هذا، مع أنه بحر واحد، له مع ذلك أسماء مختلفة تبعاً للبلدان المتنوعة التي تشاطئه، وهذا مثل الأرض، مع أنها واحدة، لها أسماء متنوعة، فهو يستعير أحياناً أسماء من البلدان، من ذلك على سبيل المثال، إنه يسمى البحر الآسيوي، والبحر الشامى، والبحر الايبيري، وينال الأسماء أحياناً من الجزر، فيسمى البحر البيلياركي Balearic والبحر الصقلي، والبحر الكريتي، أو البحر القبرصي، وأحياناً من قنن الجبال مثل البحر الايجي أو البحر المالئ Malean وأحياناً من أسماء الشعوب، مثل البحر الألماني، والبحر الغالي، والبحر الايطالي، والبحر الدلماشي، وأحياناً من المدن المجاورة، مثل البحر الأدرياتيكي، والبحر التيراني، والبحر

اليافاوي، والبحر الاسكندراني، أو البحر البندقي، وبناء عليه عندما تقرأ في جولاتي عن بحار مختلفة، ينبغي أن تعرف أن المعني هو بحر واحد، لكن له أسماء مختلفة.

وهذا البحر مثله مثل المحيط والبحار التي تصدر عنه، يحتوي على مياه مالحة، ومرة، وغير سائغة وغير صحية، وهي بشكل عام غير صالحة للشرب، وملفوظة أكثر من البول، من قبل الانسان والحيوان، وسبب هذه الملوحة هو سر عظيم غامض، وذلك استناداً — فيما أعرفه — إلى أن الفلاسفة القدماء بذلوا جهوداً كبيرة وشاقة في سبيل معرفة سبب ذلك، ويبدو أنهم أخطأوا وابتعدوا كثيراً عن الحقيقة في تحديدهم لأسباب ذلك، وذلك مثلما أخطأوا في مسألة النيل، ومكان ينابيعه، كما سنرى في الصفحة ١١٩ من القسم الثاني، وقد وقعوا بحماقات أكبر عندما بحثوا في أسباب ملوحة البحر، ذلك أن علماء الأصول القدماء جداً لم يتمكنوا من الارتقاء فوق الأفكار الحسية، حيث ذكروا في أسطورة مخترعة أن الكائن الأول الذي هو أبو الأشياء كلها، قد انتزع كتلة نارية كبيرة من جبل *Acroceraunus* وبعدما ضغطها مع بعضها وصنع منها كرة صلبة، أسقطها ست مرات في المحيط، ونتيجة لذلك الانغمار، بدأت المياه كلها بالغليان، وصارت حارة، ولولا أنه سحب تلك الكرة مباشرة وأخرجها، لصارت مجموعة المياه الهائلة كلها، وتحولت إلى ملح يابس، وبما أنه رغب ببقاء البحر بقيت المياه مياهاً، لكن مالحة.

فضلاً عن هذا نجد لدى أرسطو في كتابه الثاني حول الأنواء نقاشاً حول أسباب ملوحة البحر، وبالإضافة إلى ما قاله أرسطو نفسه، أوضح بعضهم، أنه عندما تصير الأرض دافئة بوساطة الشمس تتعرق وتصدر ما فيها من رطوبة، وبناء عليه تشكل البحر باجتماع هذا التعرق، وبما أن العرق مالح، كذلك صار البحر مالحاً، ذلك أن عرق الأرض مالح،

وبناء عليه يقول هؤلاء الناس بأن البحر ليس إلا مجرد العرق الذي يتدفق دوماً من على سطح الأرض، ويقول بعضهم بما أن البحر قائم فوق الاقليم الحار للأرض، صار سميكاً بسبب حرارته، وذلك مثلما تصير المياه مالحة من خلال الحرارة، وكذلك يقول آخرون، بأن بعض أجزاء الأرض مالحة، وعندما امتزج البحر معها صار مالحاً بسبب هذه الأرض، وذلك على سبيل المثال مثل المياه التي تجري تصفيتها من خلال الرماد تصبح مالحة، ويقول آخرون بأن الملوحة تنتج من خلال امتزاج التبخر الدافئ مع جزئيات الماء، لأن العرق والبول يتفاعلان فوق النار، ويصبحان ملحاً، ويقول آخرون بأن مياه البحر قد جفت بفعل حرارة الشمس، لأن الشمس تجفف وتشرب كل شيء، وهكذا يتداخل الطعم المالح وينتشر في البحر، لأنه مفتوح بشكل واسع لتلقي حرارته، وهكذا فإن المياه بعدما تغلي بحرارة الشمس والنجوم، تصبح مالحة، والانسان الذي يشرب خمرة حلوة وماء عذبا يخرج منه بول مالح، بسبب أن الحرارة تنتج ملوحة، ويقول آخرون بأن الشمس تمتص جميع الحلاوات والجزئيات الرقيقة، التي من السهل جذبها بوساطة قوة النار، وبذلك فإن الجزئيات الخشنة والأسمك تبقى متخلفة، ولهذا فإن وجه البحر حلو كثيراً، وقعره عظيم المرارة، والآن إن القمر يتغذى بالمياه العذبة لكن الشمس تتغذى بالمياه المالحة، والمياه المالحة لا تتجمد بسرعة مثل المياه العذبة، لكنها تصبح حارة بشكل أسرع، ولهذا فإن الحلاوة والملوحة قد امتزجتا في البحر، ويمكن البرهنة على ذلك فيمايلي: إذا ما جرى صنع وعاء من الشمع، وأغلق من جميع الجهات، بحيث لا يمكن للمياه أن تدخل إليه، ثم جرى وضع هذا الوعاء في البحر، عندها تأخذ مياه البحر بالتسرب إليه من جميع الجوانب، ووقتها يصبح مافي داخله عذباً وسائغاً للشرب، وجميع الجزئيات المالحة سوف تزول منه، وكأن ذلك حدث بوساطة مصفاة، فضلاً عن هذا إذا ما حفر إنسان حفرة على الشاطئ قرب البحر، فإن الماء الذي يتسرب إليها من البحر،

يصبح عذباً بسبب مروره من خلال الرمال، وسائغاً للشرب.

ويعزو آخرون ملوحة البحر إلى سبب لاهوتي: ولهذا إنه لائق أكثر أن نقول بأن البحر قد خلق مالحاً من قبل الرب، وأنه مثلما كل عنصر من العناصر الأخرى له طبيعته الخاصة، كذلك ملوحة البحر لها طبيعتها الخاصة، لأنها مالم تكن ممزوجة بالملح، لصارت أسنة مثل بقية أنواع المياه الراكدة التتنة، وبعض البحيرات القذرة: ولهذا السبب قُضي من قبل الرب بقاء البحر بحركة دائمة، فبتلك الحركة يمكن لعناصره البقاء بدون فساد، لأنه بوساطة الحركة الدائمة يتصفى ويحفظ من الفساد، ولقد قضي من قبل الحكمة الإلهية بهذه الملوحة من أجل أن تتمكن السفن من الابحار فوق مياه البحر بسهولة أكبر، لأن الماء المالح أغلظ وأكثر وزناً من الماء العذب، لأن الماء العذب مصفى ومنقى، وبناء عليه فإن الماء المالح أفضل لحمل السفن، ذلك أن السفن التي لا يمكن أن تغرق في المياه المالحة تغرق في الغالب في المياه العذبة، وهذا يمكن البرهنة عليه، بسبب أن البيضة تغرق بالماء العذب، لكنها تطوف في الماء المالح، فضلاً عن هذا، إن في ملوحة البحر خدمات عظيمة لصحة الانسان، لأنه لو كانت مياه البحر قابلة للشرب، لا يمكن للناس عبوره أحياء إلا بصعوبة بالغة، لأنه من خلال حرارة الشمس، والتعب في البحر، تجد البحارة دوماً على درجة عالية من العطش، ولو كانت لديهم مياه عذبة للشرب بقدر ما يريدون، فإنهم يدمرون أنفسهم، ولذلك إنه مفيد من أجل الحفاظ على حياة الذين يبحرون فوق سطح البحر، أن تكون مياه البحر مالحة.

ومياه البحر غليظة ومموجة، ولهذا عندما تنضح من البحر، وتُصب فوق صخور، تغطي هذه الصخور على الفور بالملح بسبب حرارة الشمس، ومن طبيعة ملوحة البحر هذه اشتق اسمه، وصار يدعى باسم البحر (Mare)، وذلك بسبب مرارته (Amaritudo)، وقد ورد ذكر

هذا البحر في سفر عاموس: ٨/٥، «اطلبه ... الذي يدعو مياه البحر ويصبها على وجه الأرض، الرب هو اسمه»، وقد علق جيروم (الكتاب السادس ص ٣) كمايلي: «يدعو الرب مياه البحر، عندما يرفعها نحو الأعلى، كما هي مألحة، لكن من خلال حرارة الهواء وبوساطة ذلك تتصفى وتصبح نقية وعذبة من خلال مياه المطر»، وبالنسبة للملوحة البحر انظر «Speculum Naturae» — الكتاب السادس، الفصل التاسع، وتمتلك مياه البحر سمات متباينة، قامت وتكونت وفق مايلي: بما أن الأرض فيها تتجاويف، وبما أن الماء سائل، فإنه يجري نحو الأسفل، ويمر خلال مجار للمياه، حيث يتصفى ويصبح أكثر رقة، ومن ثم يمتلك سمات متباينة من خلال طبيعة الأرض، لأنه يمر من خلال أرض رملية وأخرى صخرية، فيحصل من هناك على طعم العذوبة، ويصبح نقياً، ومتماسكاً وبارداً، وإذا ما مرت المياه من خلال أرض ملحية، أو من خلال أرض موحلة، تصبح ذات طعم مقيت، وإذا ما مرت من خلال أماكن كبريتية، أو كلسية، أو نحاسية، تصبح مرة، وإذا ما مرت من بؤر مليئة بالشب والكبريت، تكسب عناصر منها، فتصبح حارة وذات روائح كريهة، وعلى هذا تملك سمات متباينة تبعاً لتباين أنواع الأرض، التي تنبع منها، كما أن ألوانها تتغير تبعاً لتباين أنواع الرياح، فتجدها في وقت من الأوقات صفراء، وفي وقت آخر بيضاء، ثم في وقت بعد ذلك سوداء، وساعة موحلة، وساعة أخرى داكنة، وساعة صافية، ومرة أخرى سميكة غير صافية، وأحياناً لونها ذهبي، وفي حين آخر لونها مائل إلى الاحمرار، فأى لون من الممكن رؤيته في السماء يمكن رؤيته في البحر أيضاً، وعلى كل حال تبدو بعض المياه للذي ينظر إلى نوعين من المياه مع بعضهما ويقارن بينهما أنها في الغالب مختلفين، وفي كثير من الأحيان قد تبدو السماء صاحبة ومشرقة ومع هذا يبدو منظر المياه أسود مثل الفحم، ويحدث هذا لأن المياه تأخذ لونها أحياناً من الرياح الهابة، وأحياناً من أشعة قبة السماء.

المخاطر المتنوعة التي تواجه الذين يرحلون بوساطة البحر

تخضع الرحلة بوساطة البحر إلى كثير من المصاعب، والبحر نفسه عظيم الإيذاء إلى الذين لم يعتادوا عليه، وهو خطير جدا في كثير من الجوانب، من ذلك إنه يلقي الرعب في النفس، ويسبب الصداق، ويثير الغثيان وعدم استقرار المعدة والدوار ويدمر القابلية للطعام والشراب، ويعمل بشكل مرهق على جسد الإنسان، ويثير الانفعالات، ويبتج كثيرا من الشرور الغريبة، وهو يسبب كثيرا من المخاوف القاتلة، وغالبا مايقود الناس إلى حالات موت مرعبة، وأعظم مخاطره اربابا هي أن العاقل يكون أكثر الناس خوفا منه، في حين ينظر الأحمق إليه نظرة استخفاف، وبناء عليه عندما كان الفيلسوف العظيم أرسطيبوز -Aris tippus في عاصفة في البحر، يعاني من الدوار، وغثيان في المعدة، وأثقل بالصداق، بات خائفا من أجل حياته، وعندما عاد الهدوء، ورجعت الأمور طيبة كما كانت من قبل، جاء انسان ثرثار، وقال للفيلسوف: «ما هو السبب في أننا نحن الأناس العاديون شجعان، وأنتم الفلاسفة مرعوبون؟» فأجابه: «لأننا لانمتلك نوع الحياة نفسها حتى نعتني بها، وسيكون أمرا استثنائيا بالنسبة لك أن تهتم أو تعتني بحياة واحد بلا شعور أو اهتمام مثلك، لكن عندما أكون أنا في خطر، تجدني محقا حين أخاف على الفيلسوف من الموت، لأن الرجل الغني يخاف من اللصوص أكثر من المعدم، ذلك أنني أحمل في ذاتي روحا مليئة بالفضائل، ولهذا إنه مسوغ بالنسبة لي في أن أخاف من أكثر اللصوص براعة، ومن أعظم قطاع الطرق والسارقين خطورة ووحشية، وهو البحر».

ولا يمكن البرهنة على هذه المخاطر البحرية المتقدمة الذكر من قبل انسان عرفها من خلال القراءة في الكتب، أو من خلال الاصغاء إلى الرحالة، مثلما يفعل ذلك انسان عرفها من خلال المشاعر التي كسبها

بخبرته، وانظر في الالهيات، الاصحاح: ٣/ ٥/ ٢٦ (٢٤) قوله: «الذين يبحرون على ظهر البحر يتحدثون عن المخاطر فيه، وعندما نسمع ذلك بأذاننا يتولانا العجب نحو ذلك»، وكقاعدة يعاني الذين يعبرون البحر من مخاطر، سببها إما البحر، أو الرياح، أو السفينة، وهناك على كل حال مخاطر خاصة لا يمكن تعدادها، تتأتى إما من وضع الإنسان الخاص، أو من رفقة السوء، أو من الحاجة إلى الشراب، أو من رجال القيادة السيئين، أو من الحرارة الزائدة جداً، أو من البرد القارص، أو من سوء التجهيزات وما شابه ذلك، وفي الحقيقة هناك مخاطر لو أردت ذكرها جميعاً، وحاولت ذلك، لأعوزتني الكلمات ولعجزت عن ذلك نحوها جميعاً، ولهذا سوف أتحدث بعض الشيء حول المخاطر العامة للبحر، أما المخاطر الخاصة فسوف أتحدث عنها خلال مجرى حديثي، وقد وصفت بعض هذه المخاطر إلى حد ما في الرواية التي قدمتها عن حجي الأول.

ويصدر الخطر الأول الذي يقع فيه البحارة عن البحر، لأن البحر إذا كان غليظاً مليئاً بالصخور والتسوءات، كما هو الحال بين الجزر التي اسمها سيكلاد Cyclades وفي بحر أثينا، وخارج ساحل إيليريا II-lyria ودلماشيا، فهو في مثل هذه الحال لا يمكن عبوره من دون رعب، ففي تلك الأجزاء من غير الممكن الإبحار في الليل بسبب الصخور والرؤوس والتسوءات، وخاف من هذا الخطر البحارة الذين حملوا القديس بولص، وذلك حسبما نقرأ في أعمال الرسل: ٢٧/ ٢٩، وغالباً ما وجدت أنا شخصياً في هذا الخطر، أو ثانية إذا كان قعر البحر ليس مستوياً، بل هو مرتفع في أحد الأماكن بأكوام من الرمل، أو هو عميق جداً مثل الهاوية في مكان آخر، أو هو في جميع الأحوال غير مستوي، فيه حفر عميقة ووديان، ففي مثل هذه الأماكن من الصعب بالنسبة للسفن العبور، لأنه مع أن البحر يبدو مستوياً في كل مكان (حيث يسمى في بعض الأحيان باللاتينية *aequos*) عندما تصل السفينة إلى مكان غير

مستو، تتوقف قليلاً، ومالم تكن هناك ريح لتدفعها كي تتابع سيرها، سيكون من الصعب تحريكها ونقلها من هناك، وقد تعلمت هذا بالتجربة والخبرة كما وضح في ص ١١٦.

وثانياً: إنهم يعانون من رعب الريح، ذلك أن أي ريح لطيفة تحول البحر إلى بحر غير هادئ، وعاصف، وقاس، يفور ويمور، ولهذا السبب، غالباً ما أطلق على البحر اسم Fretuem باللاتينية، وخطير أن يقلع الإنسان في بحر عاصف، وغائم، ورطب، ومظلم الأنواء، خاصة عندما توضع السفينة في خطر، والخطر (لا) يمكن رؤيته، والذي هو أكثر أرباباً وخطراً هو الريح العنيفة جداً، ولاسيما عندما تكون الرياح مضادة، وتهب بشكل مفاجئ، فعندها يصبح جنوح السفينة وغرقها مرعب حقاً، وهذا الخطر عام، ووقعت فيه شخصياً مراراً.

وينشأ الخطر الثالث عن ضعف السفينة نفسها، وعدم كفايتها، لأنه ليس من الأمان أن يعهد الإنسان بنفسه إلى سفينة صغيرة جداً، أو هي ضعيفة، أو محطمة أو قديمة، لأن مثل هذا النوع من المراكب ليس أميناً أثناء حركة العاصفة، لأنها أما أن يتم قهرها بالأمواج بسبب صغر حجمها، فتتقلب، أو أنها تتحطم بسبب ضعفها، ويكون ذلك بقوة الرياح والأمواج، وفي بعض الأحيان يحدث من خلال الحاجة إلى قائد بارع أن المركب يستهلك وقتاً أكثر مما ينبغي حتى يصل إلى المرفأ المنشود، وعلى هذا من الممكن إضافة عامل رعب رابع عام إلى اللائحة، وهو الرعب الذي ينشأ عن جهل، أو كسل، أو إهمال، أو نوم قباطنة السفن، وهذا أيضاً قد جربته.

وإنه لمرعب رؤية المخاطر وأنت هناك تنتقل من الغليون إلى قارب صغير وقت هبوبها، أو وقد انتقلت من الغليون إلى قارب صغير، ووقتها على الإنسان أن يعمل خطوة واحدة أو أن يقفز قفزة، وإذا حدث ولم تصل قدم الإنسان إلى الغليون أو القارب، فلا بد من أن

يسقط في البحر، ويهلك دون أمل بالحصول على عون، انظر ص ٢٨١ .

زد على هذا هناك خطر آخر، لا يخطر على بال غير المجرب أبداً، كما أنه غير موجود في كتب الكتاب الذين تحدثوا عن مخاطر البحر، وهذا الخطر مزعج جداً، مع أنه لا يسبب الرعب، فعندما تكون الرياح جميعها هادئة، والبحر صامت ساكن، والهدوء موجود في كل مكان، أصرح قائلًا: الحقيقة أن هذا النوع من هدوء البحر وسكون الرياح هو أكثر ازعاجاً للمسافرين في البحر من المخاوف المتقدمة الذكر، وذلك باستثناء غرق السفينة الفعلي، لأنه عندما لا تهب الرياح، ويكون البحر بلا حركة، والسفينة واقفة ثابتة في مكانها، وقتها يكون كل شيء على ظهر السفينة قد صار عفناً، ومنتناً، ومتجمداً، وتبدأ المياه بالتحول إلى آسنه، وتغدو الخمرة غير قابلة للشرب، وتصبح اللحوم، حتى وإن كانت جافة ومدخنة، مليئة بالدود، التي تغدو كلها حية بشكل مفاجيء، ويصير هناك أعداد لا تحصى من الذباب، والبعوض، والقمل، والبراغيث، والديدان، والفئران، والجرادين، فضلاً عن هذا يصير الناس جميعاً على ظهر السفينة كسالى، نائمين، ومنزعجين من الحرارة، ويشعرون بالنكد من المعاناة الشديدة بالمينالوخيا، والغضب، والاثارة والاضطراب مع الآخرين كمن فقد السيطرة على نفسه، ولقد رأيت قليلاً من الناس يموتون على ظهر السفينة أثناء العواصف، غير أنني رأيت عدداً أكبر يمرضون ويموتون في أوقات السكون المتقدمة الذكر، وهذا كله سوف يرد ذكره في سياق قصتي.

وهناك مخاوف في البحر تعرف باسم الانحلال من عنف الأمواج، أو باسم Syrtis أو Charybdis، والانحلال يكون عندما يندفع بحران مع بعضهما، فذلك الاندفاع يعرض السفينة للخطر، و Syrtis هو اسم مكان توجد فيه أكوام من الرمال، وحيث يكون قاع البحر غير مستو، فبذلك يكون الماء في مكان عميقاً، ومجاوراً لما هو غير عميق، أو تتوفر

هناك بعض الصخسور الخفية التي من الممكن أن ترتطم السفينة بها، وكانت Charybdis تبعاً لحكايات الشعراء امرأة عجوزا جشعة، ولأنها سرقت ثور هرقل رماها جوف Jove بصاعقة، وألقى بها في البحر، وهي حتى هذا اليوم تطوف خلصة حول قاع البحر جاهدة لسحب السفن العابرة إليها نحو الأسفل، حتى يمكنها سرقتها، حسباً اعتادت فيما مضى، ولهذا السبب فإن الأماكن التي غرقت فيها السفن، وحيث هناك متاهات أعماق خفية، مثل الأماكن الموجودة بين جزر غوزابولس Gozapolis، التي ورد ذكرها في ص ١١٤، قد أطلق عليها اسم Charybdises، ويدعى الخطر نفسه باسم Charybdis، نسبة إلى المرأة القديمة Charybdis التي يعتقد القدماء بأنها أغرقت سفناً في أماكن مثل هذه.

وهناك مصدر رعب آخر، يسميه بعضهم خليج، وهو ما يواجهه البحارة عندما تهب الرياح مندفعة من كهوف وسط الجبال بقوة ترمي بالسفن وتقلبها على جنبها، وهناك مصدر رعب آخر اسمه Grupp، وهذا يحدث عندما تحارب الرياح بعضها ضد بعض، وتتلقى السفينة فيما بينهم الضربات من الجهات المتعاكسة، وهناك خطر آخر من الممكن مواجهته، يطلق عليه اسم Troyp اشتقاقاً من اسم سمكة Troys، التي عندما تعرف بوجود سفينة، تنطلق نحوها من الأعماق، وتحرق السفينة بأنيابها، لأن لها أنياب مثل مثقب النجار بشكلها، ومالم تطرد ويتم إبعادها، يمكنها خرقها، والنفاذ فيها، ومن غير الممكن طرد هذه السمكة وإبعادها عن السفينة إلا بوساطة نظرة إنسان لا تعرف الخوف، وبناء على ذلك على الإنسان الانحناء من فوق السفينة والنظر بعدم خوف في عيني السمكة، حيث تنظر السمكة إليه في الوقت ذاته وتحقق به بشكل مرعب، وإذا ما ظهرت ملامح الخوف على الرجل الذي ينظر إلى السمكة وبدأ يشيح بناظريه، تقفز السمكة على الفور، وتلتقطه

مباشرة، وتأخذه إلى تحت الماء وتلتهمه، وليكن في هذا كفاية حول المخاوف في البحر.

**حول السفينة التي عبر الحجاج البحر بها، والتي اسمها غليون،
وكم كان حجمها كبيراً، ومن أي الأنواع هي**

يمتلك البحر أنواعاً من السفن مختلفة، منها ماهو كبير الحجم، ومنها ماهو متوسط الحجم، ومنها ماهو صغير، وفي البداية لم تكن هناك سوى السفن الصغيرة في البحر، واستمر ذلك حتى أيام ياسون Jason الذي بنى له أرغوس Argus سفينة كبيرة، حيث أبحر هو ورفاقه الأرغونيون Argonauts إلى كولخيس Colchis ، وبنى بعد ذلك أمينودس Aminodes سفناً ذوات ثلاثة مجاذيف من أجل أن يستخدمها الكورنثيون ضد كورسيرا Corcyra، ويحكى أن أول من اخترع السفن هو أثلس Athlas في ليبيا، وهو الذي أبحر في البحر.

وأنوي — على كل حال — أن اتحدث هنا عن نوع السفن التي اعتاد الحجاج على عبور البحر بها إلى الأرض المقدسة، وهو النوع الذي اسمه غليون، وهو اسم أطلق على هذا النوع من المراكب حتى في كتب الشريعة من الكتابات المقدسة، كما أنه موجود في روايات اليهود والمسلمين، والغليون هو نوع من المراكب المتوسطة الحجم العاملة في البحر، وهو ليس النوع الأكبر، وبالوقت نفسه ليس النوع الأصغر، واسم هذا المركب باللاتينية Bireme أو Trireme، وأطلق ايزودورس في كتابه التاسع عشر حول أصول الكلمات Etymologies على هذه السفينة اسم درمون Dorma ، وعلى كل حال أطلق عامة الناس سواء من الألمان أو الطليان عليها اسم غليون، ومنحت هذه السفينة هذا الاسم لأن مقدمتها لها شكل الخوذة (gALEA)، وذلك عندما ينظر إليها من الأمام، ولأنها تواجه الأمواج مثل رجل مسلح، والغليون هو مركب مستطيل الشكل يتحرك بكل من المجاذيف

والأشرعة، والغلايين متشابهة، أو شبه متشابهة بالشكل، غير أنها تختلف من حيث الحجم، لأن بعض الغلايين كبيرة، ويطلق عليها اسم Tri-remes، وبعضها صغير اسمه Biremes كما أن هناك فوارق أكبر، ذلك أن بعض الغلايين هي سفن حرب، وبعضها الآخر سفن هولة، وذهبت في حجي الأول عبر البحر في Bireme ، وفي حجي الثاني في Trireme، والـ Bireme هي سفينة تتحرك بواسطة زوجين وزوجين من المجاذيف، ولكن الـ Trireme هي السفينة التي تتحرك بواسطة ثلاثة وثلاثة من المجاذيف، وبالقدر نفسه المحتاج من المجذفين، ويمتلك الغليون الذي عبرت على ظهره في المرة الثانية، ستين مقعداً متصالباً، حيث جلس على كل مقعد ثلاثة من المجذفين مع مجاذيفهم، ولو أن هذا الغليون كان مجهزاً على أن يكون حريباً، يكون فيه أحد الرماة مع قوسه فوق كل مقعد، وذلك مع المجذفين.

وكان طول الغليون ثلاثة وثلاثين ذراعاً، على أساس أن الذراع يساوي مقدار امتداد ذراعي أحد الرجال، وهذا الطول هو مقياس ما بين المقدمة والمؤخرة، وعرض الغليون هو سبعة أذرع، وهو المقياس عبر السفينة حيث توجد السارية، هذا وإذا ما أردنا قياس العرض كله، بإزاحة المجاذيف ووضعهم جانباً على كلا الجانبين، فوقتها يكون هذا العرض ثلاثة عشر ذراعاً، أما بالنسبة للارتفاع فإذا قسناه من البئر إلى القبة الموجودة فوق السارية، في القمة المستديرة، فإنه يساوي أكثر من ثمانية عشر ذراعاً.

هذا وإن الغلايين ذات الحجم الواحد متشابهة كثيراً من جميع الجوانب، إلى حد أن انساناً إذا ما انتقل من غليونه إلى ظهر غليون آخر، سيكون من الصعب كثيراً عليه أن يلاحظ أنه صار على ظهر غليون آخر، باستثناء تمييز القباطنة والملاحين الموجودين فوق الغليون، لأنهم يختلفون عن أولئك في غليونه، ذلك أن الغلايين العائدة للبنادقة يشبه

أحدها الآخر مثل تشابه أعشاش السنونو، وقد بنيت هذه الغلايين من أمتن الأخشاب، التي ربطت مع بعضها بعدد كبير من المسامير الملولبة، والسلاسل، والحديد، والجزء الأول والمتقدم من الغليون، الذي اسمه القيدوم، هو حاد حيث يواجه البحر، وله منقار قوي، صنع شبيها برأس التين إلى حد ما، ذلك أن له فم مفتوح، وكله مصنوع من الحديد، وبه من الممكن ضرب أي سفينة قد يواجهها، ويوجد على جانبي المنقار فتحتين، في خلالهما يمكن لإنسان أن يضع رأسه، فمنهما تمر حبال المراسي، ومن خلالهما يمكن سحب المراسي ورفعها، ولا يمكن للبحر أن يمر من خلال هاتين الفتحتين إلا أثناء العواصف العظيمة، ويمتد منقار القيدوم عالياً، ومنه يبدأ جوف السفينة بالامتداد والاستدارة أمام البحر، وللقيدوم شراع خاص به اسمه *dalum* وعليه يطلق بشكل عام اسم *trinketum* ، ويوجد تحته حجرة صغيرة، فيها يجري خزن الحبال والأشرعة، وفيها ينام قبطان القيدوم، الذي له ملاحين خاصين به، وهو يسكن هناك وليس في أي مكان آخر، ويقوم ملاحوه بأعمال ووظائف ذلك الجزء من السفينة، وهذا الجزء أيضاً هو مكان الفقراء التعساء الذين يلتقطهم عبيد القيدوم، ومعلق على جانبي القيدوم مرساتين حديديتين عظيمتين، تلقيان نحو قاع البحر في الوقت المناسب، والمؤخرة الموجودة في النهاية القصوى الأخرى للغليون، ليست حادة في المكان الذي تواجه به البحر، أي ليست مثل القيدوم، كما أنه ليس لها منقار، بل هي عريضة، وهي تنحني من الأعلى نحو الأسفل حتى الماء، وهي أعلى بكثير من القيدوم، ويوجد فوقها بناء يطلقون عليه اسم القلعة، ومعلق منها هناك نحو البحر الدفة، أو عمود الدفة، حيث يوجد فوقها حجرة شبكية، هي للموجه الذي يمسك بيديه ذراع الدفة، وتتألف القلعة من ثلاثة طوابق، يجلس في الأول منها الموجه للدفة، والمسؤول عن البوصلة، وهو الذي يخبر الموجه للدفة عن مؤشرات البوصلة، وهناك أيضاً الذين يتولون مراقبة النجوم والرياح، ويشيرون

إلى الطريق عبر البحر، والطابق الوسط هو الذي فيه قمرة صاحب السفينة وقبطانها، ومعه رفاقه النبلاء، وخدم المائدة، والطابق المنخفض هو المكان الذي تقيم فيه السيدات النيبلات في الليل، وفيه يضع القبطان أمواله وثروته، ولا تتلقى هذه الحجرة النور إلا من خلال فتحة باب جانبي موجود في السطح فوقه، ويجري على طرفي المؤخرة تعليق القاريين، اللذين أحدهما كبير، وثانيهما صغير، ويجري أنزالهما في الموانئ إلى سطح البحر، لاستخدامهما في أنزال الناس إلى اليابسة، ويوجد على الجهة اليمنى السلام، التي تستخدم للنزول عليها إلى القاريين عندما يكونا على سطح البحر، أو يتم الصعود عليهم إلى ظهر المركب، وللمؤخرة شراعها الخاص، وهو أكبر من شراع القيدوم، وهم يطلقون عليه اسم Mezavala أي الشراع الأوسط، واسم هذا الشراع باللاتينية epidromus ، ويرفع العلم دوماً على المؤخرة، لإظهار الاتجاهات التي تهب فيها الرياح، وهناك مقعدين خلف البيت على المؤخرة، وذلك على الجهة اليمنى، فهناك مكان المطبخ، وهو غير مغطى، ويوجد تحت المطبخ مخزن الأطعمة، ويوجد أيضاً إلى جانب المطبخ الاصطبل المعمول من أجل حيوانات الذبح، وعليه يوجد فيه أغنام، وماعز، وعجول، وثيران، وأبقار، وخنازير كلها واقفة مع بعضها، وبعيد ذلك، يوجد على الجانب نفسه مقاعد متصالية عليها مجاذيف وهي ممتدة حتى القيدوم، ويوجد على الجانب الأيسر مقاعد مجذفين، وذلك طوال الطريق من المؤخرة حتى القيدوم، وهناك فوق كل مقعد ثلاثة مجذفين مع رامي للقوس، ومعلق بين مقعدين على حافة السفينة على كل طرف من الطرفين bombardata بوصلة حديدية متحركة، كما ويوجد على كلا الطرفين bombardana ، منها يجري في أوقات الضرورة رمي الحجارة.

وتقف في وسط السفينة السارية، التي هي طويلة، وسميكة، وشجرة

قوية معمولة من عدد من الجذوع، مربوطة مع بعضها، وهي تدعم العارضة بال accaton أو بالشرع الرئيسي، ويوجد على رأس السارية حجرة يطلق عليها الألمان اسم «السلة»، والطيالان «القبة»، وهي باللاتينية carceria، وعلى ظهر المركب، هناك إلى جانب السارية مكان مكشوف، يجتمع الناس فيه للتحادث، مثل ساحة سوق عائدة للغليون، ويتألف الشرع الرئيسي من ثلاث وخمسين قطعة قماش، طول كل قطعة أكثر من ذراع، ومن أجل مواجهة مختلف أنواع الأنواء يجري رفع أنواع متعددة من الأشرعة، إنما ليست بسعة ال occaton، ويسكن فوق ظهر الغليون ضباط الغليون، وعبيد الغليون، حيث يجلس كل انسان فوق مقعده، وهناك ينامون، ويأكلون ويعملون، ويوجد بين المقاعد على كل طرف من الطرفين فسحة واسعة إلى حدما، يقوم عليها صناديق كبيرة مليئة بالسلع والبضائع، ويوجد فوق هذه الصناديق طريق يصل ما بين القيدوم والمؤخرة، يسعى عليه الضباط صعوداً ونزولاً أثناء عمل المجاذيف، وبجوار السارية توجد الفتحة الرئيسية للباب نحو الأسفل، حيث ينزل الإنسان سبع درجات إلى القمرة، التي هي المكان الذي يعيش فيه الحجاج، أو حيث توضع حمولات وبضائع الغليون، وتمتد هذه القمرة طولياً من غرفة المخزن في المؤخرة إلى الحجرة الصغيرة الموجودة في القيدوم، وأما من حيث العرض فهو من الطرف الأول للسفينة إلى الطرف الثاني، وبذلك تشكل المساحة مكاناً كبيراً وغرفة واسعة، وهي لا تتلقى إنارة إلا ما يأتي من خلال فتحات النزول الأربعة، ويمتلك كل حاج في هذه القمرة مخدعه الخاص أو مكان نومه، وجرى ترتيب المخادع بحيث غطت كل السفينة، أو بالحري القمرة، وكل مخدع هو ملاصق للآخر من دون أية فسحة فيما بينهما، ويضطجع كل حاج إلى جانب الآخر، على طرفي السفينة، وقدا كل واحد منها ممتدة نحو قدمي الآخر، وفي المكان الذي تكون القمرة فيه عريضة، وضعت صناديق الحجاج وحقائبهم فيما بين المخادع، وهي ممتدة من

غرفة المخزن حتى الحجرة الموجودة في القيدوم، وفيها يحفظ الحجاج حاجياتهم الخاصة، وتمتد أقدام النائمين من على الجانبين حتى هذه الصناديق، ويوجد تحت الحجاج فسحة واسعة، تصل حتى قعر الغليون، ويطلق على هذه الفسحة اسم معدة الغليون، لأن قعر الغليون ليس مستوياً، مثل السفن الأخرى، لكنه حاد من الدفة حتى المؤخرة، وبناء عليه ينتهي الغليون بالأسفل بقدم حادة، وهي حادة إلى حد أنه عندما يكون الغليون خارج الماء، لا يمكنه الوقوف قائماً فوق الأرض، بل لابد من أن يميل على أحد جانبيه، ويجري تعبئة هذا الفراغ الحاد بالرمل، حتى دعامات ظهر السفينة، ويدفنون في الرمال الزجاجات التي يحفظون فيها الخمرة، والبيض والأشياء الأخرى التي تحتاج إلى البقاء باردة، ويوجد في الأسفل حيث يعيش الحجاج بئر من أجل الماء الآسن، وهو موجود إلى جانب وسط السارية، ولا يحتوي هذا البئر على القاذورات البشرية، بل يحتوي على جميع المياه المرئية وغير المرئية التي تدخل إلى الغليون وتتسرب إليه، وتتجمع بعد ذلك في ذلك البئر، وهي ذات رائحة مقيتة، وهذه الرائحة الصادرة عنها أبشع من أية روائح صادرة عن الغائط البشري، ويتوجب نضح مياه هذا البئر كل يوم، ولكن في الأنواء القاسية يجري تصريف المياه منه بدون توقف، ويوجد على طرفي الغليون أماكن أعدت للمقاصد الضرورية.

والغليون كله مغطى من الداخل ومن الخارج ومطلي بأشد أنواع الاسفلت سواداً، ويفعل مثل ذلك بالحبال لابل حتى بالألواح الخشبية، وبكل شيء آخر، من أجل الخيلولة دون الاهتراء بالماء، وتحتل الحبال التي هي من أجل عمل الأشعة والمراسي حيزاً كبيراً في الغليون، وذلك لكثرتهم، ولطولهم، وغلظتهم، وكثرة أنواعهم، ومن المثير للدهشة النظر إلى حشد الحبال وربطاتهم، ولفهم من حول المركب، ويشبه الغليون الدير، لأن مكان الصلاة موجود على الظهر إلى جانب

السارية، وذلك حيث يوجد مكان السوق، ويشغل المكان الوسط من المؤخرة مكان المائدة العامة، ومقاعد عبيد الغليون، ومخادع الحجاج مكان مهجع النوم، ومكان القداس موجود أمام المطبخ، والسجون موجودة تحت المقدمة والمؤخرة، والمخزن، والمطبخ، والاسطبل كلها أماكن مفتوحة نحو السماء، وذلك فوق ظهر المركب، وهكذا بمرورنا بأشياء كثيرة، تملكنا صورة للغليون.

وقارن القديس جيروم في رسالته إلى الرجل المريض العالم بالبحر، والدير بالسفينة، وكذلك الأوضاع الأخلاقية والخلقية هناك، وقد أوضح كيف أن البحر يشبه العالم، لأنه بطبيعته غير مستقر، وهو صاحب من دون ربح، تآثر حتى في وقت الهدوء، حاد وفيه أمواج مرعبة، وهو حتى عندما لا يؤذي الذين لا يعومون فوقه، فإن سعته، حتى عندما لا يؤذي، تقذف الرعب في القلب، ويعاني الذين يبحرون فوقه دوماً من الرعب، ومن تضارب الأمواج وهياجها، ومع ذلك قد ينشر الموجه للسفينة بعد هياجها جميع الأشرعة من دون خوف، وفي العالم مثلما هي الحال في البحر، الإزدهار نادر، والفوضى عامة، وكلاهما مليئين بالمنغصات وبالرعب، والانزعاج أيضاً، ليس معدوماً، والملجأ الأمين الوحيد هو الموت.

النظام الذي يدار الغليون به

جرى إعداد نظام السفينة بدقة متناهية مثل بقية الأنظمة، ولهذا السبب استقى أرسطو مع الكتاب الآخرين حول السياسة أمثلتهم من أنظمة الملاحة، واستقوا شواهد منها، كما هو في نهاية الكتاب الأول من كتاب «الأخلاق»، لأنه في السفينة أكثر من أي مكان آخر يوجد في مكان الجماعة العام الموضع الذي يضم جميع الشعوب الأخرى، لأنه بدون من غير الممكن وجود أي مملكة، أو مدينة، أو قرية، وهو الأول بين الجميع، هذا ويضم البيت الكامل ثلاث جماعات هي: الزوج

والزوجة، أو السيد والخدام، أو الأب والابن، ولا يحتوي البيت في السفينة على الجماعة الأولى من هؤلاء، والجماعة الثانية موجودة فيه بالتمام والكمال، وهو يحتوي على بعض الشبه مع الثالث، حيث يوجد فيه السيد والقبطان، مع كثير من الخدم، والسيد هو مثل الأب، وهو الحامي للحجاج، الذين هم بمثابة أولاده، وحدد أرسطو في الكتاب الأول من كتاب «السياسة» الأشكال الثلاثة من أحكام هذه البيوت، ففي البيت الأول الحكم للزوج على زوجته، وهذا ثانية موجود في السفينة، الذي معناه أنه بالوسائل العامة يمكن لجماعة البيت الاستمرار، لكن ما من أحد يحاول الإبقاء على جماعة السفينة، بل يسعى إلى فضها في لحظة الوصول إلى المرفأ المرغوب، والثاني هو نظام أحكام الأبوة، أي حيث يحكم الأب أولاده، وهذه الصلة قائمة فيما بين القبطان والحجاج، بقدر ما تقتضي الطاعة، حيث يرى الحجاج أن من واجبه إطاعة القبطان، والثالث هو نظام التسلط الطغياني، حيث القبطان الذي هو المحرك الأول والمعلم، يتولى تعيين الوظائف والأوامر بالنسبة للآخرين، ويحدد لهم درجات السلطة لأحدهم فوق الآخر، ويبقى هو ثابتاً لا يتحرك مثل الملك أو الحاكم، الذي تنفذ السفينة أوامره مهما كانت، وهو لا يتدخل بفن الملاحة، كما أنه لا يفهم هذا الفن، بل الذي يقوم به هو مجرد إعطاء الأوامر إلى السفينة لتبحر إلى هنا أو إلى هناك، ويقف جميع الذين في السفينة مرعوبين منه، ويحال كل خصام شديد بين الحجاج أو بين طاقم الملاحين إليه، وما من أحد يجري تعيينه قبطاناً لغليون، خاصة الغليون الذي يحمل فرساناً حجاجاً، ما لم يكن نبيلاً، وقوياً، وغنياً، وحكيماً، وشريفاً، وعندما يجري تعيينه، يصطحب معه بعض الأصدقاء، الحكماء، والمجربين، حيث معهم يتشاور، وإليهم يروح بأسرار أفكاره، فضلاً عن ذلك، كان يتولى اختيار واستئجار أحد الرجال الشجعان ممن لديه امكانيات قتالية، وله خبرة في الحروب البحرية، فيعيّنه قائداً حربياً، أو كما يقولون «معلماً للسلاح»، ويزود

الغليون بالمدافع، والمجانيق، والقسي، والرماح، والعصي، والسيوف، والدروع، والترسة، ولدى القبطان أيضاً حاجب، يتولى توفير كل شيء له علاقة بالأطعمة، وهم يطلقون عليه اسم Schalk، وهو يتولى إدارة مخزن الأطعمة والمطبخ، ويراقب أمور الخبز والخمرة، والحيوانات المعدة للذبح، ويصدر كل يوم الأوامر إلى الطهارة، وإلى صاحب مخزن الأطعمة بأن يقوموا بكذا وكذا من الترتيبات المتعلقة بالطعام والشراب، وإذا ما حدث نقص بالطعام أو الشراب، فتلك لمن تكون سوى غلطته، وهو وحده يتحمل المسؤولية عن ذلك، ولهذا السبب نجد أن الـ Schalk مكروهين بالعادة على ظهر السفينة، فضلاً عن هذا للقبطان موظف آخر قوي، يسمونه الخليفة، فهو الذي يتولى حكم الغليون، والنظر في جميع أجزائه، فيرى هل هناك أي شيء غلط، أو أي جزء منه محطم، أو أي شيء يعيق إبحاره، فهو الذي يتولى ترتيب البضائع، ويتولى اصلاح أو ترميم ما فسد، ويرعى شؤون الغليون من بثره إلى رأس ساريتته، وذلك من قيادته حتى مؤخرته، وهناك موظف قوي آخر للسفينة يسمى القرصان Pirate، ونفترض نحن الألمان أن اسمه يعني المرشد Pilot، فهو يعرف أكثر الدروب سلامة وأقصرها عبر البحر، وتأخذ السفينة طريقها وتتوجه وفقاً لأوامره أو نصائحه، وإذا ما وصل إلى مكان في البحر غير عارف به، يأمرهم بالرسو في أقرب ميناء، وهناك يتخلى عن عمله، في حين يقوم القبطان باستئجار مرشد آخر، يعرف ممرات البحر، وذلك خشية أن تتواجه السفينة من خلال الجهل مع charYbdi أو syrtis أو Bythalassium.

ويكون مع المرشد نفسه، بعض الرجال البارعين، والفلكيين، والمنجمين، الذين يتولون مراقبة علامات النجوم والسماء، ويقررون أي نوع من الرياح سوف تهب، ويقدمون المشورة إلى المرشد نفسه، وهؤلاء الرجال كلهم مثل بعضهم على دراية واسعة بفنهم، إلى حد أنهم

بنظرتهم إلى السماء يمكنهم أن يخبروا سلفاً هل ستكون هناك عاصفة أم هدوء، ذلك أنهم يستطيعون قراءة الشارات في لون البحر، وفي تجمع الدلافين مع بعضها مع حركتها وكذلك الأسماك الطائرة، وفي دخان النار، وفي رائحة الماء الأسن، وفي بريق الحبال والكابلات في الليل، وفي لمعان المجاذيف لدى غطسها في البحر، ويعرفون في الليل جميع الساعات بالنظر إلى النجوم، ولديهم إلى جانب السارية بوصلة، وبوصلة أخرى في الحجرة العليا للقلعة، وإلى جانبها مصباح مشتعل بشكل دائم طوال الليل، وهم لا يزيحون أعينهم عن المصباح لدى إبحارهم أثناء الليل، بل يتوجب على أحدهم التحديق بالبوصلة بشكل دائم، والغناء بنوع من الأغنيات الحلوة، تظهر أن كل شيء يسير على مايرام، ويغني باللحن نفسه إلى الذي يمسك بعصا الدفة، موضحاً إلى أي اتجاه ينبغي للدفة أن تتحرك، ولا يتجرأ الممسك بالعصا والموجه للسفينة على تحريك الدفة مطلقاً إلاّ بناء على أوامر الذي يراقب البوصلة، فهو الذي يرى فيما إذا كانت السفينة تسير بشكل مستقيم، أو متخبط، أو جانبي، وانظر حول هذا الموضوع فيما يلي، ولديهم أيضاً أدوات أخرى، يمكنهم بوساطتها معرفة مسارات النجوم، وهبات الرياح والممرات في البحر، من ذلك على سبيل المثال لديهم خريطة، طولها ذراع، وعرضها أيضاً ذراع، عليها جرى رسم البحر كله بآلاف وآلاف الخطوط، ورسمت البلدان وعلمت بنقاط، أما الأميال فبالأرقام، ومن خلال هذه الخارطة يمكنهم معرفة أين هم، حتى عندما لا يمكنهم رؤية أية أرض يابسة، والنجوم أنفسهم مغطاة بالسحب، ويمكنهم اكتشاف ذلك بمدّ خط منحني من خط إلى آخر، ومن نقطة إلى أخرى ببذل جهد رائع، ولديهم أيضاً أدوات أخرى كثيرة بوساطتها يجدون طريقهم فوق البحر، وهم يجلسون كل يوم يتباحثون حول ذلك.

ويأتي بعد هذا الموظف الرئيسي للغليون، والذي يتولى القيام بالعمل

الفعلي، والذي يتلقى أولاً أوامر الابطحار ويتسلمها، موظف آخر اسمه cometa وهو وكيل ربان الغليون، ومكانه هو تحت القلعة فيما بين مقاعد المجذفين والطابق الأعلى، وإليه يبوح القبطان برغباته، وبناء على ذلك يقوم هو بتحريك طاقم الملاحين، وهو قد علق حول رقبتة صفارة فضية، بوساطتها يعطي الإشارة للبحارة ليقوموا بالأعمال المتوجب تنفيذها، ويتم سماع هذه الصافرة في كل وقت من النهار والليل، ويستجيب لها على الفور جميع الرجال باصدار صفير جواباً له، ويأمرهم هذا الموظف بالرسو في أحد الموانئ أو بالخروج منه، أو بانزال المراسي أو سحبها، أو بنشر الأشرعة أو طويها، أو بالعمل بوساطة المجاذيف أو بالتوقف عن العمل، أو بتحريك السفينة للوقوف عند الشاطئ في الصباح، أو بانطلاقها، ويخاف الموظفون الذين دونه منه مثلما يخافون من الشيطان، لأنه يضرب بالعصي، ويعاقب كل من أراد بقبضته أو بأطراف الحبال، ولا يتجرأ أحد بالتمتمة ضده، لأن الجميع سوف ينهضون ويهاجمون المتمتم عندما تعطى الإشارة اليهم، ولقد رأيت ممارسة أعظم الأعمال الوحشية من قبل هؤلاء والوكلاء على عبيد الغليون المساكين.

ويوجد تحته موظف آخر اسمه البارون، أو عريف الملاحين في الغليون، وهو الذي يُحرك ويتحرك بوساطة أوامر الوكيل، ويعيش بشكل دائم في وسط الغليون قرب السارية، وهو أيضاً يحمل صافرة علقها حول رقبتة لاصدار الأوامر بها، وحيث لا يوجد وكيل للربان يركض عريف الملاحين وهو يصفر، ويصرخ، ويشجع الرجال على العمل، ومسؤوليته الخاصة هي عن الحبال، والأشرعة، والمراسي، بأن يكونوا دوماً موثمين، وجاهزين للاستخدام، وله امتيازات خاصة وحقوق على ظهر السفينة، ويوجد تحته موظف آخر يعرف باسم «تحت البارون sub parono»، وهو يتلقى أوامره، ويعطيها إلى الآخرين.

ويأتي بعد هذين بعض الرجال الذين اسمهم *compani*، أي الرفاق، وعددهم حوالي التسعة، وبعض هؤلاء يرأسون آخرين في العمل، وهؤلاء الرجال هم الذين يعرفون كيف يعتنون بالجمال مثل السنابير، وهم الذين يتسلقون على القلع بسرعة كبيرة وصولاً حتى الرأس، ويركضون على طول عارضة الشراع، ويقفون منتصبين حتى في أشد العواصف، وهم الذين يرفعون المراسي، ويخطسون عميقاً في الماء، إذا ما التصقت المراسي ولم تتحرك، وهم الذين يتولون القيام بأخطر الأعمال على ظهر السفينة، وهم بشكل عام شباب على درجة عالية من النشاط، وهم لا يعرفون السكون في حياتهم، وهم أيضاً شجعان وأقوياء في الغليون مثل أتباع البارون المسلحين، ومجدداً يوجد تحت هؤلاء آخرين يسمون الملاحين، وهم يغنون أثناء القيام بالعمل، ويكون الغناء بقيام واحد بالغناء بالأوامر الصادرة، ويردد العمال خلفه مغنين متجاوبين معه، ويقف هؤلاء الناس إلى جانب الذين يعملون، ويغنون لهم، ويشجعونهم، ويهددونهم بتوجيه الضربات لهم، وبهذه الوسيلة يجري سحب أوزان كبيرة، وهؤلاء بالعادة رجال متقدمين بالسن ومحترمين، ودون الجميع في الغليون العبيد من الطبقة الأولى والطبقة الثانية، وهم الذين نسميهم باللاتينية *remiges* ، أو المجذفين، وهم الذين يجلسون على المقاعد المتصلة للعمل بالمجاديف، ويوجد عدد كبير منهم، وهم جميعاً رجال لهم أحجام كبيرة، ذلك أن عملهم مناسب فقط للحمير، وهم يجرضون على تنفيذ أعمالهم، بالصراخ، والضربات، والشتائم، مثل حال بعض الخيول وهي تتولى جرّ عربات مثقلة بالأحمال صعوداً فوق طريق منحدر، وكلما جروا أكثر وأثقل، كلما جرى تحريضهم أكثر ودفعهم، ولدى قيام هؤلاء التعساء بالجر أكثر يتعرضون للضرب ليجروا بشدة أعظم، ولقد أعيتني الكتابة، وإنني لأرتجف وأنا أفكر بعذاب وعقوبات هؤلاء الناس، ذلك أنني لم أرقط حيوانات تحميل ضربت بمثل هذه الوحشية التي ضرب هؤلاء بها، وكثيراً

ما أرغموا على ترك قمصانهم وماآذرهم معلقة من أوساطهم، والعمل بظهور عارية وأذرعة وأكتاف، وذلك من أجل أن تصل الأسواط والمقارع إليهم.

والشطر الأعظم من عبيد الغليون هؤلاء، قد شربوا بمثابة رقيق من قبل القبطان، أو أنهم أناس من سوية متدنية، أو سجناء، أو رجال فارين، أو مطرودين من ديارهم، أو منفين، أو تعساء، لا يمكنهم العيش أو كسب مورد للعيش على اليابسة، وكلما توفرت خشية من فرارهم كانوا يربطون إلى مقاعدهم بالأغلال، وبشكل عام هم من مقدونية، أو رجال من ألبانيا، أو آخيا، أو إيريا أو سكلافونيا، ويكون في بعض الأحيان بينهم أتراك ومسلمين، يخفون — على كل حال — دينهم.

وأنا لم أر قط عبد غليون ألماني، لأن مامن ألماني يمكنه أن يعيش ويبقى حياً وسط هذه التعاسة، فعييد الغليون قد اعتادوا على تعاستهم، إلى حد أنهم يعملون بضعف شديد وبدون قصد، مالم يقف انسان فوقهم، ويقوم بضربهم مثل الحمير، ويلعنهم، وهم يطعمون بتعاسة متناهية، وتراهم دوماً نائمين على مقاعد تجذيفهم، وهم دوماً في كل من الليل والنهار جاهزين في العراء للعمل، وعندما تكون هناك عاصفة، يقفون في وسط الأمواج، وهم بشكل عام لصوص، ولا يوفرون شيئاً يجدونه، مع أنهم يتعرضون مقابل كل جريمة إلى التعذيب الوحشي الذي لا حدود له، وعندما يكونون بدون عمل يجلسون ويلعبون بالورق والنرد من أجل الذهب والفضة، مع أيمان لا تحتمل وتجديفات، وأنا لم أسمع قط مثل هذه الأيمان المرعبة التي سمعتها على ظهر المركبين المتقدمي الذكر، لأنهم لا يفعلون شيئاً سواء أكان بادرة خير أو أمانة، من دون تجديف قدر جداً، وشتم للرب وللقدسين، ويكون بينهم أحياناً بعض التجار المحترمين، الذي أخضعوا أنفسهم لمثل هذه العبودية

القاسية جداً، من أجل إمكانية الترويج لتجاراتهم في الموانئ، وبعضهم ذوي اختصاصات فنية، مثل الخياطة أو صناعة الأحذية، حيث يمكنهم في أوقات الهدوء صناعة أحذية ومآزر، وقمصان على ظهر السفينة، وبعضهم عمال غسيل، يتولون غسل القمصان على ظهر المركب، مقابل أجر.

وفي الحقيقة، بالنسبة لهذا المجال، جميع عبيد الغليون كلهم سواء، فهم جميعاً تجاراً، وكل واحد منهم لديه شيء مالى لبيع موجود تحت مقعده، وهو عرضه للبيع عندما يكون في أحد الموانئ، والتجارة قائمة يومياً فيما بينهم، فضلاً عن هذا، هم بشكل عام، يعرفون على الأقل ثلاث لغات هي: السكلافونية، والاغريقية، والإيطالية، ويعرف الشطر الأعظم منهم التركية أيضاً، ويوجد حتى بين عبيد الغليون أنظمة ودرجات، ذلك أن بعضهم لديهم سلطة كلفوا بها فوق آخرين، والذين هم محل أعظم ثقة بينهم يوضعون حراساً حول ممرات ومجازات الغليون، ويطلق عليهم اسم «الحراس»، ويتولى بعضهم العمل في قيادة القيدوم، وبعضهم على جهة اليمين، والآخرين على جهة اليسار، ويخدم بعضهم في دفة القيادة، ويعامل هؤلاء بشكل أفضل، ويوجد أيضاً في أغلب الغلايين ثلاثة أو أربعة شباب أقوياء قد تعلموا الركض فوق الحبال، وقد دربوا أنفسهم على الأعمال الأخرى التي تحتاج شجاعة، وإلى جانب عبيد الغليون هناك بعض اختصاصيي المدفعية، وبعض الذين ينفخون بالأبواق، فهؤلاء يزعمون بأبواقهم في الصباح وفي المساء، وقبل الغداء، وبعد الغداء، وفي جميع الموانئ، ويجري استخدام بعضهم في تنظيف الغليون وتزيينه، ويوجد على ظهر الغليون حلاقين على الأقل، هما بالوقت نفسه طيبان وجرائحان، وإلى جانب ذلك هناك معذبون أشرار، هم مثل الذين يفسحون الطريق أمام الحكام، يلقون على الشاطئ ويعذبون كل من يأمرهم القبطان بتعذيبه، وهناك

موظف آخر صاحب سلطات عظيمة في الغليون، يطلقون عليه اسم «الكاتب» أو «المحاسب»، وهو الذي لديه أسماء جميع الأشخاص الذين على ظهر الغليون، قد دونت في كتبه، ويأخذ أسماء الذين يصعدون إلى ظهر الغليون وأسماء الذين يغادرونه في كل ميناء من الموانئ، وهو الذي يتولى فض جميع الخلافات التي تثور حول أماكن النوم، ويجعل الناس يدفعون أجور عبورهم، وعليه واجبات كثيرة، وهو — كقاعدة — مكروه من كل انسان سواء، وأكثر بكثير من جميع موظفي الغليون.

حول العدالة والقضاء ورعايتهما بكل دقة على ظهر الغليون

ومن أجل الحفاظ على السلام بين مثل هذا الحشد من الناس، جرى أفراد مكان خاص من أجل العدالة، ويجري تطبيق عدالة دقيقة فوق الغليون، حيث يوجد على ظهر الغليون قضاة يجلسون في كل يوم — إذا قضت الحاجة — لممارسة أعمال القضاء، حيث يستمعون إلى الطرفين المتخاصمين، ويقررون الأسباب، والإجراءات القضائية دقيقة جداً على ظهر المركب، فضلاً عن هذا إذا ما اختلف بعض الأشخاص حول أي شيء وقع في الغليون، إنهم إذا لم يقوموا بفضه بوساطة قضاء المحكمة البحرية، غير مسموح لهم بالشكوى ضد بعضهم بعضاً في أية محكمة لاتعقد في البحر، كما أنه مامن انسان مجبر على الالتزام بأي عقد أبرم مع آخر، بعد مغادرته السفينة، كما لا يجوز لأي قاض يعمل على اليابسة التدخل بعقود أبرمت في البحر، وإذا ما أقرض انسان رجلاً آخر عشر دوقيات في البحر، وقال الرجل الآخر بعد الذهاب إلى اليابسة بأنه لم يستلمهم مامن قاض يمكنه أن يرغمه على إعادة الدفع، كما لا يمكن الاستماع إلى أي شاهد ضده، وهكذا يقول الملاحون: سواء أكانت الحقيقة هكذا، أو بالفعل كان الأمر كذلك، كل واحد يمكن أن يقرر ذلك حسب هواه، ولهذا السبب روعيت الإجراءات القضائية بدقة، وكانت تتم عقوبة اللصوص، لكن بشكل خفيف، ولايدان أحد

بالإعدام، بل كانت أقسى العقوبات التي تصدر على ظهر السفينة ضد أي واحد اقترف جريمة كبيرة، هي أن يجلد حتى يفقد وعيه، ويضرب على قدميه، وبعد إنزال هذه العقوبة به كان يلقي به على اليابسة في أقرب مكان، ويترك يذهب في سبيله، حيث تبحر السفينة مخلقة إياه، ولقد رأيتهم يتعاملون على هذه الصورة مع لوطي، ويكفي ماقلناه حول هذا الموضوع، ونتابع الآن الحديث عن:

الخدمات الدينية وعن كيفية إقامة القداسات على ظهر الغليون

علينا عدم حذف معرفة كيف يتصرف الذين يذهبون بالبحر نحو الرب، في تأديتهم للقداسات، لأن عليهم في الحقيقة أن لا يكونوا ناسين للرب، في وسط مثل هذه المخاطر والمخاوف، وتجري عبادة الرب على ظهر السفينة ثلاث مرات في اليوم، أولاً في الصباح الباكر، عند اشراق الشمس، عندما يقوم واحد من خدم القبطان، يكون واقفاً عالياً فوق رأس القلعة، فيأمر بالصمت بوساطة صافرته، ويرفع بعد ذلك لوحاً من الخشب، مرسوم عليه صورة العذراء المباركة، وهي تحمل طفلاً بذراعيها، ولدى رؤيتها يقوم الجميع بالركوع وقول الـ AVE MARIA وقول صلوات أخرى حسب الاختيار، وما أن يقوم بنقل الصورة وإبعادها حتى يبدأ البواقون بالنفخ بأبواقهم، وعندها يمضي كل انسان إلى عمله.

والمرة الثانية هي في حوالي الساعة الثامنة قبل منتصف النهار، حيث تعطى شارة الصلاة ثانية، ويجري تغطية صندوق قائم على ظهر المركب قرب السارية، بغطاء قماشي جيد، ويتم هناك وضع شمعدانين، وبين الشمعدانين تمثال للصليب، وكتاب للقداس، وكأن القداس على وشك القيام به، ويأتي جميع الحجاج إلى ظهر السفينة ويتحلقون حول السارية، ثم يقدم راهب واضعاً بطرشيلاً حول عنقه، ويبدأ بالـ Confiteor، ومنه يقرأ القداس التالي، ويدع القانون دون أن يقرأه، لأنه لا يكمل،

وبذلك يؤدي القديس من دون توضيح، منهيًا إياه بما جاء في الانجيل: «في البدء كانت الكلمة»، ويطلق على هذه القداسات اسم «الجافة» أو «الحارة»، وأنا لا أتذكر أنني قرأت في أي مكان، فيما إذا كانت هذه الطريقة بقراءة القديس قد تأسست على الشريعة القانونية، والذي أعرفه أن بعض العلماء غير راضين عن ذلك، ويقولون بأن قراءة ذلك الجزء من القديس، الذي يجري الغناء به بشكل مكشوف من قبل فريق الأداء هو عمل غير معترض عليه، لكن أن تقرأ ذلك الجزء وأنت لابس البطرشيل مع كل توابعه، وبمهاة كهنوتية، فهذا خداع، وهم ينشدون مثل هذه القداسات، مثل قداسات أيام الأعياد، لكن تقدمه القربان لم تكمل قط على ظهر السفينة.

وقبل أن أقوم بتفحص هذه القضية بشكل دقيق، غالباً ما كنت أصاب بالدهشة تجاه ذلك، وعزوتها إلى إهمال أساقفتنا، الذين كما يبدو لي، أبدوا قليلاً من الاهتمام تجاه خلاص أبناء الكنيسة، وكان ذلك أقل ما ينبغي ومما هو صحيح، خاصة عندما نقرأ أنهم أقاموا قداسات في أيام القديس غريغوري على ظهر السفن، حسبما يمكن رؤية ذلك في حوار الثالث، حيث نقرأ أن بعض الناس الذين كانوا في خطر بالبحر الأدرياتيكي شاركوا جزئياً بجسد الرب ودمه، وانظر أيضاً حكاية القديس لويس، ملك فرنسا، ويبدو في الحقيقة الأمر بالنسبة لي أنه يحتوي على شطر كبير من الإهمال من جانب الكنيسة، حيث لم تتخذ إجراءات منذ زمن طويل مضى بالعهد بإدارة القداسات إلى رجال يكونون في وسط مثل هذه المخاوف، وبشكل خاص للحجاج، الذين يتحملون هذه المخاوف من أجل محبة الرب وتشريفه، وعندما قدرت هذه المسألة بكل عناية، وفكرت بشكل منطقي حولها، وجدت أن كنيسة الأم المقدسة والحكمة لم ترغب بكمال قداس القربان الأعظم قداسة، وبعدم مراعاته تماماً على ظهر السفينة، وكان هذا لعدة أسباب،

أولها: أن هذا القداس ليس قداساً ضرورياً، بل فيه كفاية الخلاص
لإنسان امتلك النية بالمشاركة بذلك في وقت مناسب ومكان موثم، هذا
ولا يوجد على ظهر السفينة مكان مناسب، كما سنرى ذلك فيما بعد،
لا بل حتى وإن توفر وقت (٤٩ب) الوقت أيضاً في كل حين غير
موثم، وثانياً: لأنه لا يوجد على ظهر السفينة كاهن مناسب تكون
وظيفته الخاصة وواجبه الاحتفال بقداس العشاء الرباني المقدس، وذلك
حسب توجيهات القانون، لأن مامن أحد يعرف إلى أي الأبرشيات
تنتمي السفينة، لذلك جرى حذف ذلك، وثالثاً: من غير الممكن الحفاظ
بشكل جيد على خبز القربان هناك، لأنه الأرغفة المخبوزة بشكل جيد
لا تعيش طويلاً على ظهر السفينة، بل تصبح بعد مضي عدة أيام مليئة
بالماء ومتفتتة مثل التراب، وبناء عليه كم أقل وقتئذ سيبقى هناك الخبز
من النوع الأرقى والذي غير مخبوز بشكل جيد؟ ولا يمكن لخبز القربان
أن يبقى في الأنواء الرطبة أكثر من ثلاث ساعات، يذوب بعدها
ويصبح عجينا مائعاً، ويحدث الشيء نفسه للرقائق التي هي غير مناسبة
للاستخدام في الأنواء الرطبة، ورابعاً، من المفترض الاحتفاظ بخبز
القربان في الكنيسة وفي مكان مقدس، ومعلوم أن السفينة ليست كنيسة،
وليست مكاناً مكرساً، كما أنها ليست مكاناً للاقامة الدائمة، وخامساً،
ينبغي أن نبقى إلى جانب قداس القربان مصباحاً مشتعل بشكل دائم،
وهذا أمر غير ممكن على ظهر الغليون، لأنه بقوة الرياح، واندفاع
الأمواج، غالباً ما يكون الغليون مغطى بالماء، ولا يمكن الحفاظ على
ضوء مشتعل سواء في مشعل أو مصباح، وسادساً ينبغي عدم إقامة
القداس على ظهر الغلايين مع عدم الاحتفاظ بخبز القربان هناك،
بسبب عدم التأكد من المخاطر التي من الممكن أن تحل بهم، لأنه فجأة
وبغمضة عين يمكن للعاصفة أن تثور، حيث تسبب تأرجح السفينة
بعنف لدى قدومها، حتى أن الكاهن إذا ما كان واقفاً قرب المذبح،
لا يمكنه المحافظة بالوقوف على قدميه، ولا الكأس أو الصليب، كما أن

المنضده لا يمكن أن تظل في مكانها، بل في لحظة ينقلب كل شيء عاليه سافله، وسابعاً إنه بسبب عنف الرياح، نجد أنها عندما تهب، لا يمكن للضوء أن يبقى مشتعلًا، ولالغطاء المذبح والأغطية الأخرى البقاء، بل سيتم رميها من على المذبح، وثامنا بسبب عدم التيقن من حركة الماء التي تجري الآن إلى هنا ثم بعد ذلك إلى هناك، حتى عندما يكون هناك قليل من الرياح، وعندما لا يكون أحداً متوقعاً حركة المياه أو خائفاً منها، نجدها تغطي فجأة الغليون بكميات كبيرة، فتفسد كل شيء تلمسه، وتوسعاً، بسبب الحاجة إلى وقار حقيقي، ذلك أنه لا يوجد على ظهر السفينة مكان لا يعرف الإثارة والاندفاع في بعض الأوقات، فالبحارة في أثناء سعيهم وراء أعمالهم المطلوبة، من غير الممكن ابداء الاحترام إلى الراهب وهو يقوم بأداء القداس، أو إلى القداس نفسه، بل إنه سيقلب كل شيء، ويزيح الكاهن والمذبح، والقربان كلهم سواء، لأن العمل في البحر ينبغي القيام به فجأة، وبسرعة مثل البرق، وهو ضاغط ولا يمكن تأجيله، فضلاً عن هذا، الناس نيام في كل جزء من الغليون، وهم تجدهم يأكلون ويشربون، ويتسامرون ويكذبون ويخلفون أيماناً كاذبة، وكل هذا مدمر للوقار الجدير بالقداس، وعاشراً، لا ينبغي الاحتفال بالقداس على ظهر السفينة، بسبب وجود أناس غير أهل بالاحترام، لأنه غالباً ما يكون هناك على ظهر السفينة: يهود، وأتراك، ومسلمين، ومنشقين، وهراطقة، وخارجين على القانون والقضاء، ومحرومين كنسياً، وإذا لم يجتمع هؤلاء الناس غير الجديرين بالاحترام مع بعضهم، ولم يكونوا موجودين جميعاً لا بد من وجود بعضهم هناك، حيث بحضورهم لا يجوز الاحتفال بالقداس، وأحد عشر بسبب الذنوب الكبيرة الهائلة التي تقترف على ظهر السفينة، لأن الرجال يلعبون هناك يومياً بالورق والنرد، ويشتمون الرب بشكل مرعب وكذلك القديسين، ويحشون بأيمانهم، ويكذبون، وينشلون، ويسرقون، ويأكلون بنهم، ويحشون أنفسهم، ويسكرون، هذا ولقد سمعت مراراً — وأصلي للرب

أن لا يكون ذلك صحيحاً — أن رقيق الغليون الشرقيين، يقتربون الاثم العظيم الذي لا يمكن الحديث عنه، وهو اللواط، على ظهور الغلايين، وبناء عليه ان المكان الذي تقترب فيه مثل هذه الآثام وتمارس غير جدير بأن يؤدي عليه مثل هذه التقدّمات والقّداسات، وثاني عشر، إن رائحة التّن وقذارة كل من الغليون والرجال الذين على ظهره تجعل المكان غير مناسب، وثالث عشر، ينبغي عدم الاحتفال بالقّداس بسبب سخريّة الكفار، وعار حضورهم، لأنهم إذا ماسمعوا بأن ربنا كان حاضراً على ظهر السفينة في القربان، حسبنا نعتقد في ديانتنا، ومع هذا رأونا ونحن نعيش مذنبين، أو متخاصمين، فهذا لاشك سيّجلب عاراً فظيماً، ولسوف يسخرون من القربان الأعظم قداًسة، ورابع عشر، بسبب الحمقى من المسيحيين والسيّئين منهم، لأنّه إذا ما كان القّداس قائماً على ظهر الغليون، وهبت عاصفة في البحر، وأصبحت السفينة في حالة خطر، ولم يأت الفرج أو العون على الفور، سيتحول هؤلاء الحمقى من المسيحيين فوراً إلى أعمال النّقد ضد القربان المقدّس، ولسوف يقولون بقلوبهم، إن لم يكن بشفاهمهم: «إذا كنت أنت المسيح أنقذ نفسك وأنقذنا»، ولقد رأيت حالة من هذا النوع بعيني، ففي إحدى المرات عندما استمرت العاصفة طويلاً وكانت تزداد عنفاً، قمت أنا وأشخاص من الطوائف المقدّسة، وكهنة بالتوجه بأنفسنا نحو الرب، وغنينا ابتهالات، والتمسنا العون من قديسي الرب، لأن العاصفة كانت خطيرة، وبينما هي في ذروتها، قال بعض النبلاء الذين تلقوا الفروسية في القّدس، لكنهم كانوا بلا إيمان، بوجوب توقّفنا عن الدّعاء، لأنهم اعتقدوا أن العاصفة كانت تزداد شدة وحدة بسبب أدعيتنا، وقالوا لدى إيقافهم لغنائنا للمزامير والابتهالات: «لو أن أدعيتكم لاقت أي قبول من الرب، لتم انقاذنا منذ زمن طويل من هذا الخطر»، وبناء عليه، إنه بدون شك لو أن القّداس جرى الاحتفال به على ظهر السفينة، لحدث الشيء نفسه، لأن الجهلة وغير المؤمنين من الناس العلمانيين، يخيّل إليهم

أنه عندما يكون القربان موجوداً بينهم، مامن شر يمكن أن يلحق بهم، وإذا مالق بهم أي شيء من هذا القبيل سوف يعزونه لحضوره.

فهكذا فعل بنو اسرائيل، عندما أخذوا تابوه الرب وحملوه إلى المعركة معهم، معتقدين أنهم بذلك لن يلحقهم أي شر أو أذى على أيدي أعدائهم، لكن على الرغم من ذلك، تعرضوا للهزيمة، وسلب تابوه الرب وذلك حسباً ورد الخبر في الاصحاح الرابع من سفر الملوك الأول، لأن التعامل بدون احترام أو وقار وحمل الأشياء المقدسة يثير غضب الرب، أكثر من التعامل معهم بتواضع وأدب، ومثل هذا نجد بعض الفلاحين يجعلون مساعدي الخوارنة لديهم يحملون القربان إلى حقولهم وخلالها، من أجل أن لايجري تدمير محاصيلهم بهطولات البرد، وإذا ماجاءت المحاصيل جيدة تراهم غير شاكرين، لكن إذا جاءت سيئة تراهم ناكرين، ويتمتمون ضد الرب.

والسبب الخامس عشر الذي يدعو إلى عدم القيام بالقداس على ظهر السفينة، هو بسبب سهولة تقيؤ الناس هناك وحدوث ذلك بشكل مفاجيء، لأنه لو ثارت عاصفة مباشرة بعد انتهاء الكاهن من الاحتفال بالقداس، سيكون مرغماً بفعل قوة الطبيعة على التقيؤ بالقربان، حيث لايمكنه الاحتفاظ به، وهذا أمر من المرعب الحديث عنه، وبناء عليه، ينبغي التوقف عن أداء هذا القداس في البحر، لأنه يتعارض مع التقوى.

والمرة الثالثة التي يحمد الناس فيها الرب على ظهر الغليون، هي عند غياب الشمس، فوقتها يجتمعون كلهم حول السارية الرئيسية، حيث مكان الاجتماع على ظهر الغليون، فهناك يجثون على ركبهم ويغنون Salve, Regina، ويقدمون لذلك بابتهالات، عندما يكونون في أوضاع صعبة جداً، وبعد الـ Salve يطلق حاجب القبطان دعوة بصافرته، ويقف على الفور على القيدوم، ويتمنى لكل واحد ليلة سعيدة

باسم سيده، ويقوم ثانية كما في الصباح بعرض صورة العذراء المباركة، التي لدى رؤيتها يغني الجميع Ave maria ويرددون ذلك ثلاث مرات، كما جرت العادة بفعل ذلك على الشاطئ بناء على صوت الناقوس، وبعد الفراغ من هذا ينزل الحجاج إلى القمرة إلى أماكن نومهم.

وبعد نزول الحجاج إلى الأسفل، يقف محاسب الغليون على القلعة، ويبدأ ترنيمة طويلة باللغة الإيطالية الجارية، ثم يصلها بابتهاال، يرددها معه جميع رقيق الغليون وموظفيه، وهم جاثين على ركبهم، وهم يستخدمون كلمات كثيرة، وتأخذ صلاتهم هذه حوالي الربع ساعة، وغالباً ماكنت حاضراً أثناء هذه الصلاة، وكان في النهاية يرجو كل واحد ليقول pater, Noster وكذلك Ave maria من أجل روعي والدي القديس يولييان، وهم يفعلون ذلك كل ليلة، ولم يتخلوا عنه قط، فضلاً عن هذا تقصيت لماذا توجب القيام بالصلاة من أجل روعي والدي القديس يولييان، لأن هذه الصلاة تقدم كل مساء على ظهر السفينة، وتلقيت لهذا السؤال جواباً مزدوجاً، فأخبرني بعضهم بأن هذه الصلاة كانت تقدم مديحاً لسمعان المجذوم وشكراً له، فهو قد كان اسمه أولاً يولييان، وهو قد تلقى بأريحية ربنا، ولقد قيل إنه من أجل وساطته حتى يصل الملاحون إلى ميناء جيد، وأن يستقبلوا بأريحية، يفعلون ذلك، وأجبت على هذا بأن الصلاة لم تصنع لشكر هذا القديس، بل من أجل روعي والدي القديس يولييان وتساءلت: ولو أنهم توجهوا بالصلاة من أجل الاستقبال بأريحية، لماذا بالحري لم يتوجهوا بالصلاة إلى مرثا المباركة التي استقبلت ربنا بأريحية خاصة؟ ولم يمكنهم الإجابة على هذا، وقال آخرون بأنهم عملوا هذه الصلاة من أجل والدي القديس يولييان، الذي عنه نقرأ في «Speculum Nat- crae of vincentius» الجزء الثاني — الكتاب العاشر، الفصل

١٥ — الذي عندما كان شاباً، وفي حالة الجهالة قتل أباه وأمه في فراشهما، حيث تصور بأن أمه كانت زوجته، وأن أباه كان يمارس الزنا معها، فهذا مانقرأه هناك، لكن كيف تأسست هذه العادة مامن أحد يعرف، وعلى هذا كان ماتقدم هو المتعلق باستخدام القديس الديني في البحر، إنما بالإضافة إلى ذلك، هناك كثيراً من الأدعية يتلوها الحجاج في الليل والنهار.

وما أن يصلوا إلى أي ميناء حتى تراهم يركضون جميعاً إلى الكنيسة بتقوى متناهية لسماع القديس، أما مايتعلق بالاحتفال بأيام الآحاد، وأيام القديسين في البحر، فإنهم يراعون ذلك بشكل مخجل جداً، وأنا لأشك بأن الشيطان يبذل جهوداً مضنية بالقاء المعينات في سبيل الحفاظ على أيام الأعياد المقدسة، ولقد لاحظت مراراً، أنه في أيام العيد المهيبة، يكون هناك دوماً فوضى واضطراب على ظهر السفينة، أكثر من أي يوم معتاد، وفي بعض الأحيان، عندما نكون قد توقفنا في أحد الموانئ لمدة أربعة أيام أو خمسة، ما أن يحل مساء يوم السبت حتى نصبح جاهزين للاقلاع، ولإبحارنا ليلاً، يبات من غير الممكن إقامة قداس في يوم الأحد، ولقد حدث هذا على ظهر السفينة التي أبحرت بها مراراً، وكأنه صنع عن قصد، وفي الحقيقة، كلما كان اليوم أكثر قداسة، يكون العمل في البحر أشد قسوة، وهذا مايمكن رؤيته في سياق حكايتي، وكان من عادتي على ظهر السفينة الوعظ بقداس في الأيام المقدسة، لكنني سوف أتحدث باختصار عما وقع لي في هذا العمل التقوي.

ففي أثناء حجي الأول، وعندما كنت أقوم بالوعظ، قام واحد من أبناء الشيطان بمقاطعة كلمة الرب عدة مرات يضحكه، ولم يمكن ابقائه هادئاً لا بالكلام الحسن ولا بالضرب، لابل ازداد ضحكاً، وماكان مني إلا أن حافظت على هدوئي، ولم أقم بعد هذا بالوعظ بكلمة الرب، مع أن كثيرين رجوني فعل ذلك، لأن الرجل العاقل قد قال في الإلهيات:

٦/٣٢: «لا تنفوه بالكلام حيث ليس هناك من يسمع»، وقال ربنا في متى: ٦/٧: «لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير»، وكان — على كل حال — في حجي الثاني على ظهر السفينة رجال أكثر نبالة واحتراما، وكانوا رفقة جيدين، وقد اعتادوا على الطلب مني الوعظ بكلمة الرب لهم، الأمر الذي قمت به في جميع الأيام المقدسة، ومع هذا نلت بوعظي عدم رضا كثير من النبلاء، الذين اعتقدوا بأنني قد وصمتهم واتخذتهم أثناء وعظي أمثلة لاقتراف بعض الآثام، ذلك أنه مثلما يفعل الخنوع فيعطي بعض الأصدقاء، كذلك تفعل الحقيقة فتجني الكراهية.

ودفن الموتى هو أيضاً جزء من الخدمات الدينية، وكان يمارس على ظهر الغليون وفق الطريقة التالية: عندما كان أي انسان يقع مريضاً، كان يعترف لأي كاهن يختاره، لأنه في مثل هذه الحالة، تسود حالة الضرورة، التي فيها أي كاهن هو قادر على اعطاء الغفران، وعندما كان يقترب من الموت كان رفاقه يتولون خدمته والسهر عليه، لأنه — كما سلف وقلت — لا يوجد قربان هناك، كما لا يوجد مسح بالزيت، لأن الاستعدادات لم تتخذ لمثل هذا أيضاً، مع أن هذا الطقس من الممكن مراعاته، بما أن الزيت ليس هو المقصود، بل الاستخدام الذي صنع من أجله، والذي يتضمنه القداس، وعلى هذا يموت الرجل المريض بعد الاعتراف فقط، وعندما يصبح ميتاً، يلف بكفنه، ثم يضعونه في قارب، وينقلونه إلى أقرب شاطئ، إذا كانوا على مقربة من اليابسة، وهناك يقومون بدفنه بالمقبرة، إذا وجدت كنيسة هناك، وإذا لم يوجد يودعونه في الأرض في أي مكان كان، وإذا ماكانوا على مقربة من اليابسة، لكن البلاد هي من بلاد الكفار، لا يأخذونه إلى الشاطئ، بل يلقون بجسده في البحر، وإذا ماكانوا بعيدين عن اليابسة، يأخذون الكفن، ويجلبون رملاً من قعر السفينة، ويصبون الرمل فوق الكفن، فيمددون الجسد

على الرمل، ويلفونه، ويربطون حقيبة مليئة بالحجارة إلى قدميه، ثم يقوم الكاهن بحضور كل الذين في السفينة ويغني librame Domine، ثم يأخذ عبيد الغليون الجسد، ويدعونهم يسقط في البحر باسم الرب، ومباشرة يغرق الجسد، وقد أثقلته الحجارة، في الأعماق، وتبعد الروح إلى السماء، وغالباً مارأيت طريقه الدفن هذه، غير أنني لم أر طريقة الدفن الأخرى، التي يقول بعضهم بأنهم رأوها، حيث فيها يجري لف الجسد بكفنه، ثم يربط إلى لوح، ومن ثم يلقي به في البحر مع اللوح، وهنا صحيح أنه عندما يكون الميت بدون رفاق، يفعلون ما يريدون بجسده، ويلقونه بالبحر إما بدون حجارة أو مع حجارة، أو مع لوح، وعندما يجري تمديد الجسد، يقوم محاسب الغليون فيعمل لائحة مكتوبة بكل الممتلكات التي خلفها الميت، ويقدمها إلى القبطان، ويقوم بسداد ديون الميت، إذا لم يكن له رفاق، أما إذا كان له أصدقاء، فهم الذين يتدبرون هذا له، ويتولون دفنه في المرسى التالي الذي يصلون إليه، ومالم يكن الحجاج قد عقّبوا سلفاً إتفاقاً مع القبطان، كما فعلنا نحن أنفسنا، يتسلم القبطان الفراش وجهاز النوم، والملابس العائدة للميت، ويعتقد كثيرون أن هذه أفضل طريقة للدفن، وهي مفضله على أن يهرس بوزن الأرض، وبناء على هذا يقوم الأثيوبيون في الوقت الحالي برمي أمواتهم في نهر النيل — وذلك حسبما أخبرنا ديودور — لأنهم يرون بأن النهر أفضل من كل ضريح آخر، فسواء أجرى أكل الجسد من قبل الحيوانات، أو أنه اهترأ هناك، فهو لن يلوث لالهواء ولا الأرض، وإذا مامات واحد من أعيان البنادقة في البحر، يدفنون جسده بالرمال الموجودة في داخل السفينة، ويحضرونه إلى البندقية، فهذا قد رأيت، كما سأتحدث عنه في الصفحة ١٦٥ من القسم الثاني.

كيف يمضي الناس وقتهم على ظهر الغليون

يختلف أسلوب الحياة بين الحجاج على ظهر الغليون تبعاً لأوضاعهم

المتنوعة، فهم يشغلون أنفسهم بمشاغل متنوعة في سبيل تضيئة الوقت أثناء ابحارهم، ومالم يعرف الانسان كيف يتخلص من الوقت على ظهر الغليون فلسوف يجد الساعات طويلة جداً، ومتعبة كثيراً، ولهذا فإن بعضهم ما أن يغادر المائدة، حتى يبدأ بالتجوال حول الغليون وهو يبحث عن مكان لبيع أفضل الخمرة، فيجلس هناك ويمضي النهار كله وهو يشرب الخمرة، وهذا يعمل بالعادة من قبل السكسون، والفلمنك، وأناس آخرون من الطبقة الدنيا، ويلعب بعضهم من أجل المال، ويلعب بعضهم باللوح والنرد، وآخرون بالنرد فقط، وبعضهم بالورق، وآخرون بالشطرنج، ويمكن للانسان أن يقول بأن معظمهم ينشغل في هذا النوع من تضيئة الوقت، ويغني بعضهم بعض الأغاني، أو يمضون وقتهم مع العود، والمزمار، ومزمار القربة، وآلات وترية، والقانون، وآلات موسيقية أخرى.

ويتولى بعضهم مناقشة قضايا دنيوية، ويقرأ بعضهم الكتب، ويصلي بعضهم مع الخبز، ويجلس بعضهم يتأملون بدون حركة، ويصرخ بعضهم بصوت مرتفع وبسرور صادر عن القلب، ويضحك بعضهم، وبعضهم يصفر، ويعمل بعضهم بأيديهم، وينام بعضهم صدوراً عن الكسل، ويمضي بعضهم الوقت كله تقريياً وهم نيام في مخادعهم، ويركض بعضهم فوق حبال الأشرعة، ويقفز بعضهم، ويعرض بعضهم قوته برفع بعض الأوزان الثقيلة، أو تنفيذ بعض البراعات الأخرى، ويرافق بعضهم هؤلاء جميعاً، ينظر إلى الأول قليلاً، ثم يقف فينظر إلى الآخر، ويجلس بعضهم فينظر إلى البحر وإلى اليابسة التي يعبرونها، ويكتب عن ذلك، ويعمل كتب رحلات، وهذا ماكنت أفعله واشتغل به يومياً، وذلك خارج الساعات الدينية المتقدمة الذكر، لأن الرجال المنشغلين لا يملون من الحياة حتى على ظهر السفينة، ولقد كتب جيروم رسائل جميلة جداً إلى أسىلا Asella حول الأصدقاء المزيفين عندما كان

على ظهر السفينة، وذلك لدى عودته من روما إلى القدس.

وأخيراً هناك شغل آخر بين جميع ركاب البحر، شغل مع أنه مقيت، هو عام جداً يومياً، وضروري، وأعنى بذلك اصطيد وامساك القمل، والهوام، وإذا لم يمض الانسان عدة ساعات في هذا العمل عندما يكون حاجاً، فإنه لن ينام نوماً هادئاً، ونقرأ في «حياة الفلاسفة» عن الفيلسوف هوميروس، بأنه كان في أحد الأيام يمشي على شاطئ البحر، وإذا بسفينة تتوقف هناك، على ظهرها جلس رجال يبحثون عن القمل ويضحكون، وعندما سأهم الفيلسوف، لماذا يضحكون، أجابه أحدهم قائلاً: «نحن نضحك لأن كل الذي أمسكناه، لم نحصل عليه، والذين لم نمسكهم نحفظ بهم»، ووقتها صرف هوميروس تفكيره إلى اصطيد السمك، ولم يستطع فهم هذا اللغز، ولهذا أصبح متأماً جداً في قرارة نفسه، وصار مجنوناً، وقتل نفسه بالشنق.

ويتم الانشغال بهذه الأعمال والاهتمام بها تبعاً لأحوال الأنواء، لأن أوضاع الناس تتباين بشكل مدهش في البحر، أكثر مما يكون عليه الحال فوق اليابسة، وذلك تبعاً لتأثير الأجسام السماوية، ولفعالية الهواء، وحركة البحر، وغالباً ما رأيت أياماً، كنا فيها جميعاً مبتهجين، ومسرورين، ورفقة جيدين، فما من أحد نائم، بل كل واحد فرحان من قلبه، وبالمقابل رأيت أياماً، كان فيها صمت عميق، وسكون رهيب، حيث من غير الممكن سماع صوت انسان، والجميع إما قد غلبهم النعاس، أو جلسوا وهم يشعرون بالحزن، وغالباً ما رأيت الحجاج قد اتحدوا مع بعضهم في حالة سلام عظيم ووثام، وكأنهم جميعاً أخوان، وأبناء أم واحدة، كما أنني بالمقابل رأيت في بعض الأحيان كثيراً من المشاحنات، وتفجر للخلافات من أسباب لا قيمة لها مطلقاً، إلى حد يغدو الغليون فيه مثل الجحيم بشتائمهم ولعناتهم، ولقد كتبت هذا من أجل تبيان حقيقة أن حركة الانفعالات الانسانية، هي أكثر عنفاً فوق

الماء منها في أي مكان آخر، وهكذا رأينا كيف يمضون الساعات على ظهر السفينة، وبالنسبة لي كان اليوم دوماً ينتضي قبل أن أنهى عملي.

كيف يأكل الحجاج على ظهر الغليون

عندما تقترب ساعة الغداء أو العشاء من الحلول، ينهض أربعة ممن ينفخ بالأبواق، ويصوتون بأبواقهم دعوة إلى المائدة، ولدى سماع هذه الدعوة يركض جميع الذين كانوا جالسين إلى مائدة القبطان، بأقصى سرعة نحو القيدوم، ويفعلون ذلك كي يحصلوا على مكان مناسب يجلسون فيه بشكل مريح، ويوجد هناك ثلاث موائد نصبت بشكل نظامي فوق القيدوم، والذي يمكنه الجلوس إليهم سوف يكون بحالة مرضية، لكن الذي يأتي متأخراً يتوجب عليه الجلوس خارج القيدوم، على مقاعد عبيد الغليون، وذلك بشكل غير مريح في الشمس، أو المطر، أو الريح، وفي الجلوس إلى المائدة لا يوجد ترتيب، بل الذي يأتي أولاً يجلس حيث يريد، ولا يقوم الرجل الفقير بإفساح الطريق إلى الغني، ولا الفلاح إلى الغني، ولا العامل للكاهن، ولا الرجل العادي للحكيم المتعلم، أو الخادم للراهب، وذلك مالم يظهر أحدهم تقديراً واحتراماً لآخر من باب الصداقة الخاصة، وسبب الحاجة إلى النظام والتقدير فيما أتصور، هو أنهم جميعاً يدفعون المال نفسه إلى القبطان، العظيم والصغير في ذلك سواء.

وأعتقد تماماً لو أن الشخصيات من المراتب العليا دفع أحدهم ستين دوقية ودفع الانسان العادي البسيط عشرين، أوقام القبطان فأخذ مالا من كل انسان حسب مكانته، وقتها من الممكن اظهار التقدير والاحترام من الصغير إلى الكبير، ولهذا السبب يأكل النبلاء الذين لديهم خدمهم معهم، دوماً على مقربة من السارية (على ظهر السفينة)، أوفي مخادعهم (تحت) مع استخدام الاضاءة، حتى في منتصف النهار، لأن الجو هناك مظلم، وقبل بداية الوجبة يقدم دوماً لكل واحد خمرة حلوة، أما الطعام

الذي يلي ذلك، والذي يقدم إلى جميع الضيوف، فقد أعدّ وفق الطريقة الإيطالية، حيث هناك سلطة خس أولاً مع الزيت، وإذا توفرت توابل خضراء تقدم أيضاً، وفي وجبة الغداء هناك قطعة من اللحم مع معجنات، أو صحن من الخبيص، أو طحين قمح أو شعير مطبوخ، أو ثريد مع جبنة رقيقة، وفي أيام الصوم، عندما لا يؤكل اللحم، يجري تقديم نوع من السمك الصغير الذي اسمه Zebilini، وهو مملح، ويكون معه زيت وخل، أو معجونة مصنوعة من البيض، وكذلك حلوى، ويجري تقديم خبز طازج عندما تكون السفينة على مقربة من أحد الموانئ، لأنه من غير الممكن الحفاظ على الخبز طازجاً على ظهر الغليون، بعد اليوم الخامس، ولدى عدم توفر الخبز الطازج، يقدمون كعكاً خبز مرتين، وهم يدعون هذا النوع باسم البقسماط، والذي يبلغ من القسوة حداً أنه مثل الحجارة، لكنه يصبح على الفور ليناً، إذا جرى صب الماء والنيذ عليه، ويعطى لكل واحد من الخمرة بقدر ما يستطيع أن يشرب، وأحياناً تكون الخمرة سميكة، وأحياناً رقيقة لكنها دوماً جيدة المزج والخلط بالماء، ويجري تقديم وجبة الغداء بسرعة، ويتم جلب كل شيء إلى الحجاج بسرعة، ولدى الفراغ من تناول طعام الغداء، ينفخ حملة الأبواق بأبواقهم، وبعد إزالة أغطية الموائد، يجري ثانية وضع الأطعمة عليها بشكل مهيب للقبطان ولأركانه، ومائدته اقتصادية أكثر من مائدة الحجاج، لكن طعامه يجلب إليه في صحن فضية، ويجري تذوق مشروبه قبل أن يقدم إليه، مثلما يفعل للأمراء في بلادنا.

ولا تأتي النساء من الحجاج إلى المائدة العامة، بل يبقين في مخادعهن، ويأكلن هناك وينمن، هذا وامتلك موالي طبائخهم الخاص، ومكان خاص بهم للأكل، ويأكل عبيد الغليون بشكل جماعي كل ثلاثة منهم مع بعضهم، على مقاعد تجذيفهم وهم يقومون بتحضير طعامهم، وغالباً

مارأيتهم يأكلون لحماً ما يزال لونه أحمر بدمه، وإذا مارغب الحجاج بالحصول على شيء خاص من المطبخ، يتوجب اظهار المال للطباخين، لأن هناك ثلاثة أو أربعة من الطباخين سريعي الغضب، وليس من الممكن تهدئتهم إلا باعطاء المال لهم، ولا يهتمون مطلقاً بالوعود بالمال، هذا وليس عجباً أن يكون الطباخين سريعي الغضب إلى هذا الحد، حين نرى أن المطبخ ضيقاً، وهناك أوعية وآنية كثيرة، وكثيراً من الأشياء المتنوعة التي ينبغي طهيها، والنار صغيرة، وكثير من الصراخ يدوي خارج المطبخ، وعدد كبير من الناس يطلبون صنع أشياء لهم، يضاف إلى هذا إن عمل الطباخين يثير دوماً شفقة الانسان، ويرفض النبلاء والفرسان دوماً الطعام الذي يقدمه القبطان، وتراهم يعطون الطباخين مبالغ كبيرة من المال، للحصول على وجبات خاصة من الطعام أعدت لهم، ويقومون بالوقت نفسه بإعطاء طعام القبطان إلى الفقراء من عبيد الغليون، واللحم الذي يقدمه القبطان مقرف بشكل خاص، لأنهم يذبحون الحيوانات التي يرون أنها لن تبقى حية، وكذلك الأغنام المريضة، وهم في الحقيقة يذبحون الحيوانات التي يرون أنها مريضة، وسوف تموت ذاتياً، وباستثناء ساعة الغداء مامن خمرة تقدم إلى الحجاج من مخزن القبطان، لكن عبيد الغليون أنفسهم كانوا قد اشتروا خمرة ممتازة، يقومون ببيعها إلى الحجاج، وفي الأنواء العاصفة يجري الأكل والتقيؤ في الوقت نفسه.

كيف أن نوم الحجاج على ظهر السفينة غير هادىء

يجلس الحجاج بعد العشاء، ويتحدث أحدهم مع الآخر، ويكون ذلك على الطابق العلوي من السفينة وعلى مقربة من السارية الرئيسية، ولا يذهبون إلى الفراش إلا ومعهم مصابيح، وعندما يذهبون نحو الأسفل من أجل الاستراحة، سيكون هناك اضطراب هائل، أثناء اعدادهم لفرشهم، فالغبار يثور، وتتفجر خلافات عظيمة بين الذين

يتمددون بجوار بعضهم، خصوصاً في البداية، قبل أن يعتادوا على ذلك، ذلك أن كل واحد يلوم جاره لتجاوزه على مخدعه مع فراشه، وينكر الآخر ذلك، ويصر الأول على أنه فعل ذلك، ثم يستدعي كل واحد رفاقه للمساعدة، ويحدث أحياناً أن جماعات الحجاج كلها تتقاتل مع بعضها بعضاً، ولقد رأيت أثناء هذه الخصومات بعض الحجاج ينقض أحدهم على الآخر بسيف مجردة، وخناجر، وهم يصرخون، محدثين فوضى مرعبة، ووقتها لو تدخل محاسب الغليون — الذي وظيفته هي توزيع المخادع بشكل متساوي — لجرى تمزيقه إلى قطع من قبل الحجاج، ولدى انتهاء هذا الخصام، أو الافتراض أنه لن ينفجر ثانية، يأتي بعضهم إلى فراشه متأخراً، ويجعلون أنفسهم غير متوافقين مع الآخرين بمصاييحهم المضاعة، وأحاديثهم العالية الصوت والطويلة.

ولقد رأيت بعض الحجاج الحادي الطباع يلقون بمبولة الغرفة على المصاييح المشتعلة، وعندها يتفجر للمرة الثانية خصام عظيم، ويقوم بعضهم بعد اطفاء الأنوار بتسوية مشاكل العالم مع جيرانهم ويستمرون أحياناً بالحديث حتى منتصف الليل، وإذا ما قام أي واحد بتوبيخهم، وطلب منهم السكوت سوف يصرخون أكثر، ويبدأون خصاماً جديداً، وعلى هذا إن لم يكن هناك بعض ذوي الفضائل ورجال من أهل الاحترام، يتولون تسوية هذه الخصومات، لن تمر الليلة بسلام، خاصة عندما يكون هناك فلمنكيين سكارى.

هذا وهناك معيقات كثيرة للنوم إلى جانب ماتقدم ذكره، فالرهبان الذين اعتادوا على النوم لوحدهم في قلاياتهم، يجدون من الصعب النوم على ظهر السفينة، بسبب عدم استقرارهم، أو بسبب شخير جيرانهم، فخلال عدد كبير من الليالي لم أغمض عيني أبداً، وعلاوة على ذلك، أن ضيق المكان من أجل فراش الإنسان الواحد، وقسوة الوسائد، تجعل الإنسان غير مستقر، حيث من الصعب أن يتحرك أحد الحجاج دون أن

يلمس جاره، فضلاً عن هذا، المكان مغلق، وعظيم الحرارة، وملىء بالروائح القذرة المتنوعة، حيث لا بد للانسان من أن يتعرق طوال الليل، مما يفسد راحة الانسان بشكل عظيم، والقمل والبعوض والهوام تسرح هناك بأعداد لا تحصى، وهناك أيضاً فئران وجردان، ويمكنني القول أنني غالباً ما قمت بهدوء كل ليلة، وصعدت نحو الهواء الطلق، فشعرت وكأنني تخلصت من سم قذر.

وتعاق الراحة أيضاً من قبل أناس لا يعرفون الاستقرار أثناء نومهم، ثم إنهم يشخرون ويتكلمون وهم نيام، ويثنون وهم مرضى، وكذلك بسبب سعالهم ولعناتهم، وكنت في إحدى المرات لبعض الوقت على ظهر غليون، حيث وقفت الخيول والبغال على الظهر فوقنا، وقد تابعوا أحداث الضجة المستمرة بحوافرهم على الألواح طوال الليل والنهار، ونضيف إلى هذا ركض البحارة هنا وهناك فوق رؤوسنا، وصوت البحر، وأشياء أخرى كثيرة، تذهب براحة الحجاج، هذا وهناك الكثير للقول حول هذا الموضوع.

وبالإضافة إلى هذا كله، هناك الحر الصادر عن الشمس فوق ظهر المركب، والظلام في القمرة، والاحتفاظ، والحرارة القذرة، والهواء الملوث الثقيل، ومع أن هبوب الرياح أساس للذين يبحرون في السفينة، هو مع ذلك غير مريح كثيراً، لأنه عندما تبدأ السفينة بالتأرجح بسبب الرياح، يصير الحجاج سكارى ومرضى، وكل واحد منهم يرتجف إلى حد أنه يتقيأ كل ما في معدته، وتصبح أحشاؤهم كلها تعاني من الجيشان، كما أنه لن يكون من الممكن البقاء على ظهر المركب، بسبب قوة الرياح، وبسبب المياه التي تنقذف فوق السفينة، وعمل، وسعي الملاحين إلى هنا وهناك، كما أنه من غير الممكن للحجاج البقاء في مخادعهم، إذا مارفح الشراع فوق المكان الذي فيه مخادعهم، حيث عليهم

وقتها العبور إلى الجانب الآخر، وعلى الانسان إدارة فراشه، بأن يضع القدمين في المحل الذي كان الرأس فيه، والرأس أيضاً محل القدمين، وذلك بسبب ميلان السفينة إلى جانب واحد، من خلال قوة الأشربة، علاوة على ذلك يملأ الدخان الصادر عن المطبخ السفينة أثناء هبوب الرياح، وفي بعض الأحيان يضايق الحجاج كثيراً.

وفي أثناء العاصفة يصير الأصحاء من الرجال مرضى، ويزداد المرضى ضعفاً، يضاف إلى هذا أن استمرار نضح المياه القذرة مثير للحجاج بسبب الرائحة التنتنة الصادرة عنها، ولأنهم وقتها يمنعون من الصعود إلى ظهر السفينة، أو النزول من الظهر، طالما النضح مستمر، والذباب أيضاً الذي يملأ السفينة، هو مصدر اضطراب عظيم، وكذلك القمل والبعوض، وكذلك التعاسة الصادرة عن التعرق تجلب من الضيق إلى الانسان أكثر من الهوام الحية.

ومع مرور الأيام تتوالد الفئران والجُرذان في السفينة بأعداد هائلة، وتراهم يسعون طوال الليل، ينقبون أوعية الانسان الخاصة، ويشقون طريقهم إلى داخلهم، فيلوثون الطعام، ويتلفون الوسائد والأحذية، ويفعلون هذا كله أو بعضه في أوقات مختلفة، لأنهم لا يظهرون دوماً على ظهر السفينة، بل فقط في موسمهم الخاص، فعندما تهب رياح محددة تختفي جميع المخلوقات الحية الموجودة على ظهر السفينة أو تهلك، وذلك من أمثال الذباب والقمل والفئران، وماشابه ذلك، ولاتعود موجودة، لكن عندما تختفي هذه الرياح أو تتغير، تتوالد ثانية، ويزعج البعوض في موسمه الحجاج كثيراً بأصواته ولسعه، فضلاً عن هذا يلد من الرطوبة على ظهر السفينة علق أبيض سمين يدب في كل مكان، ويأتي خلصة فوق أرجل الرجال ووجوههم، وعندما يعي الانسان وجودهم، ويضع اصبعه عليهم، ظاناً أنهم ذباب، يتفجرون ويلوثون المكان الذي يكونون متعلقين به، بالدم، ومع هذا كله هناك هوام قذرة كثيرة تتولد من

العفونة على ظهر الغليون، لكن مامن شيء سام يمكنه أن يتوالد أو يعيش هناك، حيث لا وجود هناك للعقارب أو للأفاعي، أو للعلجوم، أو الثعابين السامة، أو العناكب، لأن مياه البحر تطرد السم، وتشفي من لسع العقارب، ومن عضات الأفاعي والثعابين، وهي عدو للزواحف من كل نوع، ولولا أن الحكمة الإلهية قد أمرت بذلك، مامن إنسان كان بإمكانه أن يعيش على ظهر سفينة قديمة واسعة.

وهناك أمر مزعج آخر للحجاج هو مدّ فرشهم في المساء، ولقّهم في الصباح حيث يتوجب في الصباح على كل إنسان، لف فراشه وربطه بحبل، وذلك مع الأغطية، والوسائد، والبياضات، وتعليقهم على مسامير جرى تثبيتها على جانب السفينة، فوق رأسه، ويكون ذلك حتى نهاية النهار، والغرض من ذلك توفير ممرات بلا عوائق (خلال القمرة)، ويأخذ الحاج في المساء فراشه وينزله، ويحله، ويرتبه، ويسبب هذا متاعب كثيرة.

وأخيراً إن انعدام الثقة بعبيد الغليون وسرقاتهم، يزعج الحجاج كثيراً، لأنه لا يمكن تأمينهم على أي شيء، لأن عبد الغليون يسرق كل ماتطاله يده أو يضعها عليه، ولهذا محظور على الملاحين النزول إلى الأسفل حيث مخادع نوم الحجاج، هذا ولا يتجرأ أي منهم على الإقدام على ذلك، وهم لا يتجرأون حتى عندما يدعوهم الحجاج، ولا ينزلون إلى الأسفل.

**تحذيرات من الأشياء التي ينبغي على الحاج أن يكون محتزراً منها
عندما يكون في رحلة بحرية**

على الحاج إلى الأرض المقدسة أن لا يكون محتزراً فقط من أن يذنب في عقله، وأن يجلب الخوف إلى نفسه، بل أن يحترز ضد الإهمال، خشية أن يتلقى جرحاً لجسده وحياته، ولهذا أريد في هذا الموضع أن أدون

التحذيرات التي يحتاجها الحاج عندما يعبر البحر، ولا أريد تقديم النصيحة التي هي من اختصاص الطبيب، حيث هو الذي يتولى تقديمها، بل تحذيرات صديق مع الذي تعلمته بالخبرة، لأن الطبيب يحذر بشكل عام الحجاج بأن يكونوا متبهيين من الفواكه، ومن شرب الماء، ومن هواء البحر، ومن السمك، ويقدم الطبيب النصيحة ضد الحر، وينصح طبيب آخر ضد البرد، أما ضد العطش، والامساك، والاسهال المفرط، فيقدمون كثيراً من العلاجات، وطرق الخلاص، وأما بالنسبة لفقدان الوعي، ولتشجيع شهية الطعام، وللتخلص من السموم، فإنهم يقدمون كثيراً آخر من طرائق الخلاص، كما يقدمون كثيراً من النصائح الأخرى إلى الذين يسافرون بالبحر، وهي أشياء من المؤكد أنها مفيدة وجيدة، وبالنسبة لهذه القضايا، من المنطقي اتباع توجيهات الأطباء دون سواها، ومع ذلك أعترف بأن مايلي هو ماقد رأيته شخصياً: فلقد عرفت حجاجاً كانوا حريصين ومنضبطين تماماً باتباع نصائح أطبائهم، إلى حد أنهم كانوا لا يتجرأون على ابتلاع أو فعل أي شيء مالم يكونوا قد أوصوهم به، ومع ذلك يصبح بعضهم مرضى، وضعفاء أثناء حجهم، وبعضهم يموت.

وبالمقابل، رأيت أناساً يأكلون ويشربون، ويفعلون كل ما يرغبون به، وفي البحر وعلى اليابسة، ولا يحافظون على نظام، أو قواعد للطعام، وتراهم في الغالب يتطرفون ويبالغون ومع ذلك لم يذهبوا إلى فراشهم، وهم دوماً مبتهجين، وسعداء، وأنا حين أكتب هذا ليس لدي رغبة للإيحاء إلى أن المتقدمي الذكر يموتون بسبب شدة عنايتهم بأخذ الأدوية، وأن الأواخر يبقون أحياء بسبب إهمالهم، بل إظهار أن مامن شيء هو مؤكد حول الخط، ولندع الحاج يدع نفسه أولاً إلى عناية الرب، وبعد ذلك إلى عناية أطبائه إنما بدرجة معتدلة، وعليه في المجالات الأخرى أن يراعي التحذيرات التالية: على الحاج أن يكون

حذراً تجاه السباحة في البحر العميق من أجل الاغتسال، لتوفر مخاطر مضاعفة حتى بالنسبة للذين يعرفون السباحة بشكل جيد، وليكن متيقظاً تجاه كل شيء، عندما يكون على ظهر السفينة، عندما يعبر من مقعد متصالب إلى مقعد آخر، خشية أن يسقط، لأن السقوط في أي مكان على ظهر السفينة خطر، وعليه دوماً أن يصعد من، أو أن ينزل إلى المكان الذي فيه المخادع أو أماكن النوم بالتيقظ الموجب، فأنا شخصياً قد وقعت مرتين على هذه السلام نفسها، وأنه لعجب أنني لم أتمزق إلى قطع، وبعد هاتين الوقعتين صرت أصعد وأنزل وأنا حذر ومتيقظ، ولقد رأيت بعض الناس يسقطون ويكادون يقتلون أنفسهم، وليكن حذراً جداً لدى الذهاب إلى موضع الخلاء، لأن طريق النزول إلى هناك خطر، وعليه عندما يكون سائراً على جانب السفينة، أن لا يثق بأي من الحبال، ما لم يطمئن بيده، والتأكد من أنه محدود بشكل ثابت وقوي، لأن الحبل إذا انفلت لدى محاولته الإمساك به، سوف يجعله يسقط في البحر، وليحذر الحاج من إهانة أو اغضاب عبيد الغليون التعساء، لأنه قد يحدث أن يكونوا ذوي فائدة عظيمة له، أو أنهم قد يؤذونه ائذاء كبيراً ويجرحونه، وعليه أن يحسن التعامل مع بقية رجال السفينة، وأن لا يثير الكراهية ضد نفسه، ذلك أنه أمر مدمر بالنسبة إلى أي إنسان أن يكون له أعداء على ظهر السفينة، فلقد رأيت حاجاً متكبراً أهان فأغضب عدداً كبيراً من الناس، ثم آل الحال بهذا الرجل نفسه إلى وضع تعيس على ظهر السفينة، فقد أرغم على التماس العون من الذين أهانهم، حتى أن بعض الناس الأكثر تقوى عندما قدموا بعض المساعدات له، تشكك بأنهم يحتقرونه، لأنه عرف بأنه يستحق الاحتقار.

وعلى الحاج الحذر من احتلال مكان سواء على الظهر أو في الأسفل عائد لإنسان آخر، إلا إذا حدث ذلك بموافقة ذلك الإنسان التامة، وله في النهار الحق بالوقوف على مقربة من السارية، فذلك المكان عائد إلى

الجميع، لكن في الليل لاحق له بأي مكان، إلا بمخدعه، لأنه إذا ما قام انسان بالتردد ليلاً على مكان إلى جانب مخدعه، يعدّه الذين لا يعرفونه لصاً، وعلى كل حال، إنه إذا لم يستطع — لسبب ما — الجلوس بهدوء في مخدعه، يمكنه الصعود إلى الظهر، وأن يجلس على بعض المصنوعات الخشبية على جوانب السفينة، وأن يدع قدميه تتأرجحان نحو البحر، وأن يمسك بالحبل الذي يدعم السارية، ولسوف تعلم التجربة الانسان كثيراً حول هذه القضايا، التي قد يجد من الصعب تصديقها عندما يجرب بها للمرة الأولى.

وعلى الحاج أن يكون متيقظاً عندما يجلس على سطح المركب، حتى لا يجلس على أي من الحبال، خشية أن تتغير الريح فجأة، فيقذف به فوق السطح، أو يجرح بوساطة الحبال، وعليه أن لا يلمس الحبال، بأي حال من الأحوال، لدى شدهم لها، حتى لا تتمزق يده، أو تنفصم اصبعه بسبب العنف، لأنهم يشدونها بعنف عظيم، ويحركون بذلك أوزاناً هائلة.

وعلى الحاج عدم الجلوس في أي مكان تعلق فيه البكرات فوقه، حيث يمكن في وقت طيران السهم أن يصاب بجراحة بليغة أو أن يقتل فوراً، كما حدث لموجه الغليون الذي أتيت على ذكره في ص ١١٨، وعليه أن يكون حذراً من الحصول في طريق الملاحين عندما يكونوا على وشك الانطلاق نحو أعمالهم، لأنه مهما كان عالي المقام، لابل حتى لو كان أسقفاً، هم سيدفعونه، ويلقونه أرضاً، ويدوسونه، لأن العمل في البحر ينبغي أن ينجز بسرعة مثل البرق، ولا يقبل أي تأخير، كما أن عليه عدم المشاركة في أعمالهم، لأن هذا يزعجهم، وفوق كل شيء عليه عدم البقاء معهم على السطح أثناء الليل أثناء العاصفة، وعليه أن يكون متيقظاً ومتنبهاً إلى المكان الذي سيجلس عليه، خشية أن يلتصق بمقعده، لأن كل مكان مغطى بالزفت، الذي يصبح ليناً بسبب حرارة

الشمس، وكل من يجلس فوقه يرجع بشيابه وقد اتسخت.

وعليه أيضاً أن يكون متيقظاً، عندما يجلس مريحاً نفسه على جانب الغليون، وأن لا يمسك بيده أي شيء ثمين، حتى لا يسقط في البحر، فأحد النبلاء كان جالساً مرة إلى جانبي سقطت من يده سبحة ذات أحجار ثمينة، وكانت لديه غالية جداً، وكان على غير استعداد للتخلي عنها مقابل عدد كبير من الدوقيات، وقد ضاعت منه دون أمل باستردادها، وحدث أنني عندما كنت جالساً هناك أقرأ قداساً مسائياً من أجل الميت، سقط الكتاب من يدي في البحر وتلف، وسقطت أشياء كثيرة وفق هذه الطريقة من أيدي الناس بسبب قلة الانتباه، ولا سيما القبعات، حيث كانت تطير من فوق الرؤوس عندما تكون هناك ريح قوية.

وعلى الحاج عدم حمل مصباح على السطح أثناء الليل، لأن البحارة لا يحبون هذه الأعمال الغريبة، وليس بإمكانهم تحمل الضوء أثناء عملهم، ولهذا السبب يطفئون المصابيح كلها أثناء العواصف أو يغطونها بالماكيل، حتى في داخل القمرة، وعلى الحاج أن يحرس بعناية مقتنياته، وأن لا يتركهم بدون حراسة، حتى بين أصدقائه، لأنه ما أن يدير وجهه حتى تكون قد ذهبت، وعليه أن لا يترك ماله في صندوق في مخدعه، بل عليه حمل هذا المال معه دوماً، موضوعاً حول جسده، وأن لا يعهد به لا إلى خدمه أو رفاقه، لأن الناس ميالين بشكل غريب إلى ممارسة دور اللص على ظهر السفينة، مع أنهم قد يمقتون اللصوصية عندما لا يكونون في البحر، وأكثر ما يكون عرضة للسرقة الأشياء الشخصية مثل المناديل، والأحزمة، والقمصان، وما شابه ذلك، لأنه حتى بين الرفاق يسرق أحدهم مثل هذه الأشياء من الآخر، لأن الانسان غالباً ما يحتاج إلى أشياء على ظهر السفينة ولا يمكنه العيش بدونها، فيحصل عليها بأية طريقة، سواء أكانت صحيحة، أم خاطئة، ويزود نفسه بها.

وعلى سبيل المثال، في أثناء قيامك بالكتابة، إذا وضعت قلمك، والتفت بوجهك، فإن قلمك سوف يضيع، حتى وإن كنت بين أناس أنت تعرفهم، وإذا ما فقدت قلمك سوف تواجه متاعب عظيمة في سبيل الحصول على قلم آخر، وهذه هي الحال مع أشياء أخرى كثيرة، ويبدو أن القانون البحري ما يزال يحتفظ بالشرعة المصرية القديمة جداً، التي لم تحرم اللصوصية، بل أمرت كل الذين رغبوا في أن يكونوا لصوصاً، بتدوين أسائهم في بيت الكاهن الرئيسي، وأن يحملوا إلى هناك مباشرة كل شيء سرقوه، وبالطريقة نفسها طلب من الذين سرق منهم أي شيء أن يكتبوا رواية عن ذلك يذكرون فيها الوقت، واليوم والساعة التي فقدوا بها مقتنياتهم، وبهذه الوسيلة كان ممكناً بسهولة البحث عن اللص، وترد الحاجة المسروقة، باستثناء ربعها، الذي كان يعطى إلى اللص، فيما أنه كان من غير الممكن منع اللصوصية، رأى المشرع أنه من الأفضل أن يعاني الإنسان من خسارة شطر من حاجياته بدلاً من فقدانها كلها، ومن الممكن قراءة هذا في الكتاب الثاني من التاريخ القديم لديودور — الفصل الثالث، ومثل هذا جاء في الأمثال: ٣٠ / ٦ قوله: «ليس هناك ذنب عظيم في السرقة»، وفي الحقيقة، في الشريعة القديمة لم يكن اللصوص يعاقبون بالموت، كما هو واضح من سفر الخروج: ٢٢ / ١، بل كانوا يغرمون بالتعويض عن ذلك، وعلى كل حال إنه إذا كانت الشريعة كاملة، ينبغي اعدام اللصوص في المجتمع الانساني العادي، لكن على ظهر السفينة يبدو أن الأمر مختلف، لوجود الرغبة بالسرقة، خاصة السرقات الصغيرة، وهذا يزداد بين الرجال أثناء السفر.

وفي الموانئ على الحاج أن يكون حذراً فلا يغادر غليونته، فيضل سبيله هنا وهناك، لاسيما في الأماكن المنعزلة قرب الشاطئ، خشية أن يقع فجأة بأيدي القرصان، فيجعلون منه عبداً في منتهى التعاسة طوال حياته كلها، وهذا أمر غالباً ما وقع لكثير من الرجال، فأنا أعرف فارساً

أمسك وحيداً على مقربة من البحر، تحت أسوار المدينة، وسلبت منه أمواله والأشياء الثمينة التي كانت معه من قبل السكان هناك.

وعليه أن يكون حذراً فلا يدخل أي بيت لدى إغرائه من قبل النساء، لأن في ذلك خطر عظيم إذا فعل ذلك، وليس ذلك متعلقاً بشرفه وحاجياته، لابل حتى بحياته، وعلى كل من يسعى وراء الاستقامة والشرف، ويريد الحفاظ على حجه المقدس دون تلويث، عندما يكون في الموانئ، السير في الخارج في النهار، لكن عند اقتراب المساء، عليه العودة إلى غليونته، والنوم هناك سليماً في مخدعه، لأن النزول على جزر البحر، هي بيوت سيئة السمعة، كما وضع مما جاء في ص ١٢٧، ومامن أحد يستقبل حجاجاً ألمان في بيته، إلا أصحاب البيوت السيئة السمعة، ومعظم هؤلاء من الألمان، الذين يسكنون هناك مع عاهرات، مع أنهم يبعدون عندما يدخل الحجاج إلى بيوتهم، وبناء عليه يمكن للحجاج الجيد والتقّي الإقامة في بيت من البيوت خلال النهار مع رفاقه، لكن لا يجوز له النوم هناك مطلقاً، والتجربة سوف تعلم الإنسان أشياء أخرى عليه تجنبها والابتعاد عنها. ويتوجب عليّ الآن العودة إلى سياق خبر أدائي لجولاتي ورحلاتي.

هنا نهاية الفصل الثاني.

الفصل الثالث

ويحتوي على وصف لأعمال الحجاج إلى الأرض المقدسة

خلال شهر حزيران،

الذي وصلوا فيه إلى حدود الأرض المقدسة

في اليوم الأول من شهر حزيران بدأنا رحلتنا البحرية، وكان هذا اليوم هو يوم الأحد الأول بعد عيد الثلاث المبارك، فقد نهضنا في ذلك الصباح باكراً قبل شروق الشمس، وحملنا جميع حاجياتنا في قارب كبير اكتريناه وقد وقف على باب نزلنا، وبعدما قلنا وداعاً لكل واحد في النزل، أقلعنا وعبرنا من خلال القناة الكبيرة إلى خلف المدينة، وتابعنا سيرنا إلى القديس نيقولا في الليدو، وتركنا هنا واحداً يتولى حراسة أغراضنا في القارب، ودخلنا إلى الكنيسة، وكانت كنيسة كبيرة، مع دير للبندكتيين ملاصق لها، وبحثت عن المسؤول عن القداسات، وطلبت منه رقائق الخبز التي كان قد وعدنا بها، وطلبت منه تزويدنا بزجاجة من الخمرة الجيدة، وذلك بالإضافة إلى نبيذ القداسات، وأن يضعها على المذبح، وعندها وضعت عليّ ألبستي المقدسة، وذهبت إلى المذبح، حيث عملت قداساً أعدده ليوم الأحد، وكان ذلك بحضور الحجاج، وبعد القداس توليت مباركة الخمرة التي جلبت إلينا في الزجاجة بمباركة القديس يوحنا الانجيلي، وأعطيته إلى موالي الحجاج ليشربوها محبة للقديس يوحنا، حتى تكون رحلتنا سعيدة وناجحة، وبعد إنجاز هذا بكل تقوى صعدنا ثانية إلى قاربنا، وأبحرنا حتى ميناء البندقية، القائم بين قلعتين، كانتا تتوليان حراسة مدخل ذلك الميناء، ذلك أن غليوننا كان راسياً في البحر على بعد حوالي الميل خلف الميناء، وفيما نحن في طريقنا هبت ريح قذرة، فأعاقتنا، حتى أننا احتجنا إلى ساعتين للوصول إلى الغليون، وكان ذلك مع صعوبة كبيرة، وعندما وصلنا

أخيراً إلى هناك، وجدنا الغليون مليئاً بالناس، ورفاقنا الذين بعثنا بهم مقدماً إلى هناك قبل أربعة أيام، ضعفاء كثيراً، بسبب السفينة، التي كانت تتأرجح وهي راسية، إلى مختلف الاتجاهات، وكان ذلك بسبب قوة الرياح، وقد جعلهم ذلك مرضى، وعلى كل حال، عندما رأونا ابتهجوا، وبدأوا يتحسنون، وقد حدثوا سادتهم عن المصاعب المريعة للبحر، التي تذوقوا قليلاً منها فقط، وفي ذلك اليوم نفسه التمس مني أحد الفرسان أن أعود معه في القارب إلى المدينة لاحضار صندوق كان قد أمر بصنعه لنفسه، ليكون مخدعاً له، ولكي ينام عليه في الليل، لأنه كان متكبراً جداً، وأبت نفسه النوم على الأرض، وقد كان موضع نومه واسعاً إلى حد يمكنه أن يضع فيه الصندوق، وبناء عليه دخلنا معاً إلى المركب ورجعنا إلى البندقية، وبعدما تسلمنا الصندوق عدنا به إلى الغليون، إنما بعد صعوبات، لأن الرياح كانت ضدنا، وكان الوقت متأخراً مساءً عندما أنزلنا الصندوق إلى القمرة، ووضعته الفارس في مكان نومه وهو مبتهج، وهو يأمل أن ينام عليه بشكل جيد، لكنه لو أنه عرف المستقبل، لما كان مسروراً بأي حال من الأحوال، ولقام برميّه، ولرفض عدّه مريحاً، لأنه على ذلك الصندوق بالذات مات ذلك الفارس ميتة وحشية وبشعة، وعلى كل حال، هو لم يكن متميماً إلى جماعتي، بل إلى جماعة أخرى، وقمنا الآن بترتيب أماكن نومنا وفرشنا لننام فيها، وكان ذلك مع كثير من الفوضى والجهد، والخلاف، لأننا لم نكن قد اعتدنا على ذلك بعد، وعندما باتت الدنيا مظلمة، وبعدما أطفئت جميع المصابيح، وصار كل شيء هادئاً، فجأة هبت ريح عنيفة جداً، جعلت السفينة تتأرجح، فصرنا خائفين، وبوضع غير مريح، وقد بقينا متمددين بهدوء وسكون، ونائمين في الظلام والرعب، وحدث فجأة أن واحداً من النبلاء، وكان مرعوباً من منام مخيف، بدأ يصرخ بصوت مرتفع بشكل مزعج جداً، وكأنه يركض هناك بسيف، وأفاق كل انسان على ظهر السفينة بسبب صراخه، ولأنهم كانوا نياماً في

الظلام، أصيبوا بفوضى، وافترضوا ان هذا الفارس قد طعن من قبل واحد من اللصوص، وأفاق النبلاء وحاولوا العثور على سيوفهم في الظلام، وحاول آخرون تدبر أمر نجاتهم، خشية منهم أن شراً ماقد أعد للحجاج، وحدث اضطراب خطير في داخل القمرة الرئيسية للغليون، لكن الرجل الذي كان متمدداً إلى جوار الذي صرخ، قد أدرك الذي حصل وفهمه، فصرخ بصوت مرتفع وطلب من كل انسان العودة إلى مكانه والتمدد فيه، وهكذا مضت تلك الليلة مع فوضاها، ولم يكن القبطان قد جاء بعد، ولم يصعد إلى ظهر الغليون.

وفي اليوم الثاني من حزيران، جاء القبطان قبل اشراق الشمس، مع خدمه وآل بيته جميعاً، وجلب معه أيضاً بعض الحجاج الذين تلقاهم مؤخراً، ليكونوا ركاباً على ظهر السفينة، وكان بين هؤلاء رجلاً فلمنكيا مع زوجته، وعندما وصلت هذه المرأة إلى ظهر السفينة، غضب عدد كبير من الناس لذلك، لأنها كانت المرأة الوحيدة على ظهر السفينة، لأنه قبل وصولها لم يكن بيننا ولا امرأة، ذلك أن المعلم أوغسطين، قبطان الغليون الآخر، كان قد جمع كل النساء على ظهر مركبه، ولم يكن هناك واحد على ظهر غليوننا لم يكن مزعوجاً من قدوم هذه المرأة العجوز، ومن التفكير بوجود امرأة واحدة سوف تعيش بين مثل هذا العدد من النبلاء، لاسيما عندما بدت — لدى إلقاء النظرة الأولى عليها — أنها لاتعرف الاستقرار، وفضولية، كما تبرهن أن ذلك كان حقيقة، لأنه صدقاً، كانت النسوة السبعة اللاتي رافقنا في الرحلة الأولى التي قمنا بها، حسبما رأيت في ص ١١٧، المتقدمة، كن أقل ضجيجاً من هذه العجوز الشمطاء، فقد سعت ما بين هنا وهناك حول السفينة بشكل غير ضروري، وكانت مليئة بالفضول، راغبة في سماع كل شيء ورؤيته، فجعلت بذلك نفسها مكروهة إلى أبعد الحدود، وقد بدا زوجها أنه كان رجلاً عاقلاً، ومن أجله أمسك كثيرون عن الكلام، ولولا وجوده هناك

لسارت الأمور معها بشكل صعب، فلقد كانت هذه المرأة شوكية في أعيننا جميعاً.

وعندما أصبحنا جميعاً على ظهر الغليون، وأضحى النهار، صدرت الأوامر إلى بعض الملاحين بتزيين الغليون، فقاموا بتعليق سبعة من الأعلام الحريرية الواسعة، وذلك امتداداً من القلعة إلى القيدوم، ومن القمة أيضاً، وزينوا القمة نفسها بقطعة من السجاد بأن لفوها من حولها، وكان أكبر الأعلام وأولها هو علم السادة الحجاج إلى الضريح المقدس، وكان أبيض اللون، عليه صليب أحمر ممتداً من أول طرف حتى الطرف الآخر، وكان العلم الثاني هو علم سادة البندقية، أي علم القديس مرقص، وكان أبيض اللون أيضاً، عليه أسد أحمر، كان تحت قدميه الأوليين البحر، وتحت قدميه الخلفيين اليايسة، وكان العلم الثالث هو علم مولانا البابا سكتوس الرابع، وكان لونه لون الهواء، عليه شجرة بلوط خضراء تحمل جوزات بلوط ذهبية، ومفتاحي الرسولين، وكان العلم الرابع هو علم القبطان، وكان مكوناً من أنواع مختلفة جميلة، وعرض الخامس أذرع البندقية مع ذراعي القبطان مع بعضهم، وكان هناك علمين آخرين، كلاهما متشابهين، على كل واحد منهما أسد أسود وأبيض.

وبعد الفراغ من تزيين الغليون، بدأوا بالاستعداد للانطلاق، لأنه كان لدينا رياح لطيفة، كانت تحرك الأعلام في الأعالي، وبدأ الملاحون بصوت مرتفع يرفعون المرساتين ووضعهما على السطح، ورفع عارضة الشراع نحو الأعلى مع الشراع الرئيسي accaton يخفق فوقها، وجرى أيضاً رفع قاربي الغليون وإخراجهما من البحر، وجرى انجاز هذا كله بعد جهد كبير وصرخات عالية، واستمر ذلك حتى أطلق الغليون من رباطاته، فأقلع بسرعة وهو ممتلىء بالرياح، وأبحرنا وسط بهجة عظيمة وابتعدنا عن اليايسة، لأن البواقين زعقوا بأبواقهم وكأننا كنا على وشك

الالتحام بالقتال، وصرخ عبيد الغليون، وغنى جميع الحجاج مع بعضهم: «In Gottes Nahmen Fahren Wir» حسبما يمكن القراءة عن ذلك في ص ٣٤٣.

وفي الوقت نفسه مخر الغليون بقوة خلال البحر، وابتعدنا بسرعة عن مدينة البندقية، وخلفنا مرساها الذي انطلقنا منه بعيداً وراءنا، وكنا مسرورين كثيراً لمغادرتها، وكأننا قد أطلق سراحنا من السجن، ذلك أننا رغبتنا باصرار بالوصول إلى القدس، وسيقت السفينة بسرعة كبيرة بفضل قوة الريح الطيبة، إلى حد أننا لم نعد قادرين على رؤية أي شيء من الجبال، أو أي جزء من الأرض، أو أي ساحل أو أي جزء من اليابسة، بل كان أمام أعيننا السماء فقط والماء، ذلك أننا قطعنا مسافة كبيرة في ذلك الوقت القصير وصرنا في أعالي البحار، وصرنا أعلى فأعلى من أعالي جبال الألب، ولم نعد قادرين على رؤيتهم، لأنهم صاروا الآن — كما هو الحال — منخفضين مع الانحناء الاعتراضي للبحر بينهم وبيننا.

وأما وقد غدونا الآن بعيدين عن رؤية العالم، أنزل البحارة جميع التزيينات التي زينت بها سفينتنا، وكانوا يلقيون نظرة عليها في كل يوم، جاعلين إيها جاهزة للعمل، وبعد منتصف النهار، عندما تناولنا الطعام، رأينا على يسارنا، باتجاه الشمال جبال إيستريا، وهي منطقة من مناطق مقاطعة دلماشيا، ورغبنا بالوقوف هناك في ميناء بارينزو Pa-renzo، لأن ريحنا الطيبة توقفت عن الهبوب، وعلى كل حال لم نتمكن من الوصول إلى بارينزو، بل تجاوزناها، ومع ذلك لم نقطع مسافة جيدة، لأنه مع انتهاء النهار، انتهت الريح أيضاً، ومكثنا الليل كله من دون التقدم نحو الأمام بل كنا نراقب بدون راحة، ونتأرجح هناك.

وهبت في اليوم الثالث من حزيران، عند الصباح، ريح كانت قدرة تماماً، وأرغمنا على العودة نحو جبال إيستريا، وبعد جهود عظيمة نجونا من الريح المعاكسة، واقتربنا من الجبال، وجلبنا سفينتنا إلى ميناء روبينا

Rubina (Rovigno) وذلك على مسافة ميلين خلف بارينزو، حيث كان القبطان الآخر مع حجاجه، وميناء مدينة روبينا هذا، ليس ميناء مطروقا، لكنه آمن وغني، وفي هذا الميناء تفضل علينا القبطان، بتنشيطنا وانعاشنا بغداء لأننا دخلنا إليه في وقت الغداء، وهو أمر متوجب عليه فعله، لرؤيته أننا كنا في ميناء جيد، حيث يمكننا التزود لأنفسنا، وبعد الغداء نزلنا من الغليون إلى القارب، وذهبنا به إلى المدينة، حيث صعدنا إلى الكنيسة الكاتدرائية وصلينا هناك للرب وللقديسة يوفيميا - Eu- phemia العذراء، التي جسدها كله ممدد هناك وملفوف في ضريح من الرخام كبير، وهذا الضريح المتفوق التابع للكاتدرائية، فتح لنا، وقد أرونا الجسد المقدس، وسوف أتحدث لكم وأنا عائد، عن كيفية انتقال جسد القديسة يوفيميا الخلقيدونية إلى هاهنا، وسأصف لكم مدينة روبينا، كما سأحدث عن مرساها، وقد مكثنا في هذه المدينة حتى وقت العشاء، وتعشنا على حسابنا في إحدى الحانات، وكان عشاء جيداً، عدنا بعده إلى غليوننا، آملين أن نتمكن خلال الليل من الابحار، لكن تلك الريح القذرة — ولا أجرؤ على تسميتها شريرة — هبت طوال الليل، جاعلة تلك الليلة ليلة غير مستقرة تماماً بالنسبة لنا، ومع أن سفينتنا كانت مربوطة بالمرساتين والأربطة الأخرى العائدة للميناء، أرجحتها الريح وهزتها بكل عنف، وجعلتنا نصاب بدوار البحر بكل شدة.

وفي اليوم الرابع لم تكن الريح لطيفة، ولهذا نزلنا من الغليون وغادرنا حيث ذهبنا إلى كنيسة القديسة يوفيميا حيث قرأنا واستمعنا إلى قداسات، وتغدينا بعد القداس مع مضيفنا، وكانت حانتنا مجرد كوخ صغير، استأجرناه من رجل فقير، حيث قام طبّاخ مولاي فأعد لنا الطعام الذي جلبناه له، وكانت هناك أشياء كثيرة يمكن الحصول عليها، لكن لم يكن في تلك البلاد حانات كما هو موجود في بلادنا، وأية حانة

هناك كانت تعيسة جداً، ليس فيها لاقدور، ولا أوعية قلي أوغلي، ولا أيضاً مايكفي من صحون أو ملاعق، وعلى هذا وجد الحجاج النبلاء أنفسهم مع أنهم في بلدة جليلة واسعة، مرغمين على الدخول إلى البيوت العامة السيئة السمعة، حيث كان من الممكن الحصول على الضروريات، وذلك حسبما قلت من قبل في ص ٢٥٨، وقد عانى الحجاج من مصاعب كثيرة، بسبب الحاجة إلى نزل، وعانى بشكل خاص الذين ليس لديهم تجهيزات خاصة بهم للطبخ بها، وبعد الغداء ذهبنا بالقارب إلى جزيرة صغيرة، وإلى كنيسة القديس أندرو القائمة هناك، وكان على مقربة من الكنيسة دير صغير، كان فيه فيما مضى رهبان من طائفة القديس بندكت، وعندما تخلى هؤلاء عن هذا المكان أخذهم الرهبان الفرنسيون، وتملكوه، وبنوا ديراً جميلاً هناك وفق طرائق طائفتهم، فضلاً عن هذا قاموا بزراعة الجزيرة الصغيرة نفسها، وجعلوها وكأنها جنة من الجنات، ومن هناك يمكن للإنسان أن يحصل على الأخشاب وأشياء أخرى لها حاجة، ذلك أن تربة الجزيرة هذه غنية وخصبة، كما أن الأراضي في الجزر القريبة كلها متشابهة، وخصبة.

وبعد ماتمشينا لساعات حول الجزيرة المتقدمة الذكر بقيادة الرهبان، عدنا إلى الدير، حيث احتفي بنا بلطف بتقديم وجبة لنا، الأمر الذي عوضهم عليه اللورد جون التروخسيس بكرم، عندما غادرنا، وفي أثناء تناول الطعام انتبهت لوجود واحد من الرهبان، كنت قد رأيته أثناء حجي الأول فوق جبل صهيون، حيث كان نائب الوصي في الدير هناك، وهو أيضاً قد تذكرني، وقد حياني بلطف، وقد تلقيت منه بعض النصائح، وعندما انتهينا من الطعام، صعدنا إلى قاربنا، ووصلنا إلى رويننا مع صعوبات كبيرة، لأن الريح كانت معاكسة، وتناولنا العشاء في البلدة، وعزمنا على البقاء بعيداً عن الغليون طوال الليل، وآثرنا النوم

على المقاعد على أن نكون على ظهر السفينة، لأننا أمضينا ليالي تعيسة على ظهر الغليون عندما كان راسياً، يتأرجح بقوة الريح، لكن الذي حدث، هو أننا ما أن فرغنا من تناول العشاء، حتى كان القبطان قد أمر بالنفخ ببوقه (Buccina)، وكان ذلكشارة للجميع حتى يعودوا إلى ظهر الغليون.

وفي ذلك المساء، وقبل غياب الشمس، قام الملاحون برفع المرساتين، وبحل أربطة الغليون وإطلاقه، وأبحرنا خارجين من الميناء، مع أنه لم تتوفر ريح لطيفة في البحر، ذلك أنهم رأوا عن بعد أوغسطين مع غليونته، وخشوا من أن يحصل على الأولوية علينا، ولهذا قمنا بهذه المحاولة المخففة، لأننا ما أن صرنا خارج الميناء، حتى دفعنا مسافة بعيدة في البحر بريح معاكسة، وهكذا أمضينا تلك الليلة نتأرجح فوق الأمواج، وكنا غير مرتاحين بما فيه الكفاية.

وفي اليوم الخامس، استمرت الريح نفسها، فكان أن حملنا خلال الأمواج إلى أسوأ جزء من ذلك البحر، الذي كان اسمه كورنيروس Cornerus (Quarnero) فهناك الذين يبحرون يكونون دوماً في خطر، لأن البحر يتدفق من هناك بتيار سريع جداً نحو أنكونا Ancona، ويتوجب على البحارة المحافظة على السفينة بعناية كبيرة، وجهد عظيم لمنعها من مسايرة تيار البحر، الذي كان في بعض الأحيان يدفع السفن بعنف ويلقي بهم إلى داخل ميناء أنكونا، وذلك وسط رعب عظيم ومخاطر للسفن وللذين على ظهرهم، وعندما كنا في ذلك الخليج رأينا الجبال التي تفصل دلماشيا وكرواتيا عن مملكة هنغاريا والهنغاريين، الذين يحجون إلى سيدتنا صاحبة لوريتو Loretto، يأخذون سفينة من هناك ويبحرون إلى مكان العذراء المقدسة.

وقطعنا في ذلك اليوم مسافة قصيرة، ومع ذلك استمرت السفينة طوال الوقت وسط حركة عنيفة، وإنه لأمر مدهش للانسان الذي هو

غير معتاد على البحر، أن يرى السفينة وهي تجري بسرعة كبيرة، لكن دون أن تتمكن من قطع أي مسافة على مسارها، الأمر الذي هو في غاية السوء، وعند حلول المساء، أصبحت الريح القذرة أشد، ولقد أمضينا ليلة غير هادئة تماماً، حيث أصبح معظم الحجاج مرضى كثيراً، لأنهم باتوا يعانون من دوام في رؤوسهم ومن معدة مضطربة، وكان الغثيان العنيف والشديد نصيب الجميع، علماً بأن بعضهم صاروا أضعف من آخرين لتلك الأسباب، وعندما صارت العاصفة أشد، أراد البحارة تحويل اتجاه الشراع الرئيسي، وكانت عارضة الشراع قد رفعت نحو الأعلى إلى مافوق رأس السارية، مع الشراع الرئيسي accaton منشور من حولها، لكن عندما تركوا عارضة الشراع تطير حول الطرف الآخر، انفلت الشراع ونزل على المجاذيف على ذلك الجانب، وعندما ملأت الريح الآن الشراع بشكل مفاجيء، وأخذت برفعه بقوة كبيرة، تعلق بين المجاذيف، ومالت السفينة كثيراً نحو ذلك الاتجاه حتى أن عارضة الشراع نفسها لامست الماء، وباتت السارية، لابل في الحقيقة الغليون نفسه مهدداً بالانقلاب إلى ذلك الجانب، ولهذا كان هناك ركض إلى هنا وهناك، وصراخ على السطح الأعلى، أما نحن تحت في مخادعنا فقد قذفنا نحو الجانب الآخر، واستعد القبطان في القيدوم لانقاذ نفسه، فقد أمر بقطع الحبال التي تمسك القارب الصغير، حتى يسقط في الماء، حتى إذا ما غرقت السفينة، يمكنه أن يقفز إليه، ولم يعرف الحجاج الذين كانوا في الأسفل بهذا، ولو عرفوا به لحدث اضطراب عظيم، وفوضى مرعبة، من التسارع الذي كانوا سيقومون به في ركضهم نحو السطح، وبعون الرب، انتهى هذا الأمر على كل حال، ووصل إلى نهاية سليمة، حيث رفعت الريح الشراع خالصاً من بين المجاذيف، وبدأت السفينة تبحر متقدمة كما كانت من قبل، ولو أن السفينة جنحت وانقلبت إلى ذلك الجانب، كما كانت على حافة وقوع ذلك، مامن أحد من الحجاج الذين كانوا في القمرة الرئيسية، كان سينجو من الموت.

واستمرت الريح في اليوم السادس قذرة، وقد أسفنا لمغادرتنا ميناء روبينا، ووجهنا السفينة مجدداً نحو الجبال، علنا نستطيع دخول أحد الموانئ التي هناك، والانتظار هناك هبوب ريح لطيفة، وتقوم فوق الجبال القريبة من البحر شارات من خلالها يعرف البحارة مكان وجود ميناء آمن، وأين يمكنهم الاقتراب من اليابسة، ومالم يروا هذه الشارات، لا يتجرأون على جلب هذه السفن الكبيرة وتقريبها من اليابسة، وبعد رؤية واحدة من هذه العلامات، ومن ثم التأكد من وجود ميناء، مع امكانية القدرة على الوصول إلى اليابسة، وجهنا رأس غليوننا نحو الجبال، فوصلنا إلى مابين جدارين من الصخر، وجلبنا المركب إلى وادي حيث وجدنا ميناء آمناً، وبناء عليه القينا المرساة، وربطنا السفينة بالصخور، وثبتنا وقفتها، ولم يكن الميناء أكثر من مكان بين تلال وجبال، فيه يمكن للسفينة الوقوف دون التعرض لتهديد الرياح، ومع هذا لا يكفي أن يكون موقع الميناء آمناً، بل هناك مطلب آخر، هو أن يكون البحر هناك عميقاً، وأن تقيم ميناء هناك، لم تكن هناك حاجة لوجود سكان قاطنين على مقربة منه، بل كان يكفي أن تكون السفينة قادرة على الوقوف هناك، وهي آمنة من الرياح العنيفة، سواء أكان المكان مسكوناً أم لا.

وكان هذا الميناء في بقعة مهجورة، على إحدى الجزر التي اسمها أسارو Assaro ، وكان محاطاً من كل الجوانب بشعاب وجبال وعرة، وبعدما تناولنا طعام الغداء على سطح الغليون طلبنا إنزال القارب إلى البحر، وذهبنا به نحو الشاطئ، وقد تمشينا فوق الجزيرة لتمضية الوقت، وكان نامياً هناك أعشاب ذات رائحة جميلة، وكثيراً من نبات القصعين الصغير بلا حدود، وكف مريم agnus costus وبعدما اجتازنا بعض التلال، وصلنا إلى حقول شعير، وكنا بذلك مسرورين، على أمل أننا كنا على مقربة من إحدى المزارع، حيث يمكننا الحصول

على خبز طازج وبيض للبيع، وبعدما مشينا بعض الشيء على الطريق وصلنا إلى كوخ تعيس، كان يسكن فيه بعض الفقراء المعدمين من السكلافونيين، الذين لم يكن لديهم أي شيء على الإطلاق في بيتهم، سوى بعض الجذور، كانوا يجففونها في الشمس، وعندما تصبح يابسة كانوا يطحنونها، ويتخذون منها طحيناً، يتخذون منه خبزاً، وقد أعطونا بعضاً من هذا الخبز، لكنه كان أسود جداً وبلا طعم، ولم يكن هناك بيت آخر غير هذا على الجزيرة، وبعدما رأينا هذا كله، عدنا إلى الشاطئ، إلى مقابل المكان الذي رست فيه سفيتنا، ورأى كثيرون أن الشاطئ أكثر كآبة من السفينة، فعاد هؤلاء إلى ظهر السفينة مجدداً، وبقيت أنا مع عدد من النبلاء على الشاطئ، ساعياً لإعطاء رفاقي الراحة، وقمت بتسلق أحد الجبال وحيداً لأنظر من حولي، وهنا رأيت ليس بعيداً، انساناً يلبس ملابس الرهبان المبشرين، يركض نحوي، ولذلك ركضت نحوه، للقاءه، وحيثه، وسألته من أين جاء، وإلى أين هو ذاهب، لكن هذا الراهب المسكين، لم يعرف لغة محادثتي بها، فهو لم يعرف لا اللاتينية، ولا الإيطالية، ولا الألمانية، لأنه كان إما دالماشي، أوسكلافوني، فقد كان على طريقه نحو الغليون للتسول.

وذهبت بعد هذا إلى شاطئ البحر، حيث وجدت واحداً من الملاحين، يقتلع عشباً كان نامياً بين صدوع الصخور، قال بأن له نكهة عظيمة في السلطة، وقال بأن اسم هذه العشبة كان Porcella، وكانت طيبة الطعم، ومالحة، ونكهتها حادة (occtosa) وهي مثل الكبوسين، لكن أنخن وحجمها أكبر، وتساءلت كيف أمكن لعشبة جيدة أن تنمو بين الصخور وان يكون طعمها مالحة، ولعل ذلك بسبب أن الملح منتشر على الشاطئ، أو بسبب أنه في أثناء العواصف تضرب المياه المالحة الصخور وتغطيها، حيث تشرق الشمس بعد ذلك وتضرب بأشعتها

ذلك الماء فتجففه وتجعل منه ملحاً، وطبيعة الملح تجعل الأرض جرداء، ومع ذلك نمت هذه العشبة في الملح، على الرغم من طبيعة جميع النباتات، ووجدت أيضاً أغصاناً من أفضل أنواع نبات كف مريم فأخذتها، علني أطردها روائح نتن السفينة من مخدعي، وحول هذا النبات، انظر عرضاً مطولاً في القسم الثاني ص ١٨٩.

وحدثنا النباتيون، ولاسيما ألبرتوس ماغنوس Albertus Mgnus في De veget tractatus,i,c,5 بأن هذه العشبة قد عرفت باسم كف مريم agnues castus، بسبب عصاريتها، وزهورها، وأوراقها، التي هي مفيدة من أجل التحريض على فعل الخير، فبوساطة حرارتها يجف الأساس المنوي البشري، والريح التي تمدد الأجهزة المولدة، ولهذا السبب قام الحكماء الاغريق برسم هذا النبات على أرضيات منازلهم، حتى تزدهر الفضيلة بين عقيلاتهم، وقد قيل أيضاً بأن هذا كان عقيدة الفيشاغورسيين، لأن هذا النبات كان يحول الانسان إلى مخلوق هادىء ولطيف مثل الحمل، ولهذا السبب أقدم كهنة الشمس والعذراءات المكرسات لخدمة الربة فيستا Vesta، والذين تحتضن ديانتهم القسم بالطهارة، على نشر أوراق كف مريم على أسرة نومهم وفي بيوتهم، وأنا أعرف هذا النبات منذ أيام طفولتي، ذلك أنني عرفت في بازل Basle، حيث كان ينمو في حديقة ديرنا، وكان قد زرع من قبل رجل جاء من البحر في أيام مجمع بازل.

وقد قيل بأن هذا النبات لا يمكن نقله وزرعه في مكان آخر، بل ينمو فقط حيث زرعه الرجل، لكن هذا غير صحيح، لأنه في الوقت الذي كنت فيه هناك باقامة عابرة، اقتلعت غصناً مع الجذور وزرعته في حديقة مأوى العجزة، فهناك نما وصار شجرة كبيرة، ولهذا النبات أوراق فيها بعض الشبه بأوراق الجوز، إنما أنعم وأقل قسوة، وزهورها مثل زهور الأقحوان، ولهذا يطلق عليها اسم جوز البحر، ولها رائحة

جميلة وحادة ومفيدة، وبعضهم على كل حال يمقتون رائحتها، ولا يستطيعون تحمل شمها.

وهكذا عدت إلى ظهر الغليون، آخذاً معي حزمة من الـ Porcella من أجل السلطة، وكف مريم من أجل الرائحة ومن أجل تزيين مخدعي، وبعد عودتي لم أشارك أصحابي بالعشاء، بل صنعت سلطة تعشيتها، وكنت راضياً بها، ومع حلول المساء ازدادت قوة الريح المعاكسة، وهبت بشدة جعلتنا نخاف مع أننا كنا مانزال في الميناء، وأرغم البحارون على الحصول على مزيد من الحبال لربط المركب، لأن التيارات انجرفت وتحركت عبر البحر المفتوح، واندفعت ضد الشعاب الصخرية ومن حولنا، ووصلت حتى إلى المكان الذي وقفنا فيه، وثار في حوالي منتصف الليل عاصفة مرعبة جداً رافقتها رياح عنيفة، ورعد وبرق، وأمطار ثقيلة، إلى حد أن مياه المطر جرت إلى داخل حجر نومنا، لذلك لم نعرف الراحة في تلك الليلة، وكان هناك خوف عظيم، مع أننا كنا في ميناء، لأن الماء ضرب بعنف شديد جوانب الغليون، حتى كان عجباً كيف أمكن لأي خشب تحمل مثل هذه الضربات.

وفي اليوم السابع لم تكن الأنواء مناسبة لرحلة جيدة، ولهذا قمت بعد الغداء ثانية بالذهاب إلى الشاطئ، وكان ذلك في القارب، كما فعلنا في اليوم المتقدم، ولم نذهب جميعاً، بل ذهب بعضنا فقط، وكنت أنا بين الذاهبين، وبصعوبة وخطر أمكننا الخروج من الغليون إلى القارب، لأن البحر كان هائجاً، وهز كلا من القارب والغليون وأرجحهما صعوداً وهبوطاً، ولهذا لم يتجرأ قائد القارب على تقديمه إلى جوار الغليون، خشية منه أن تحمله الريح فيضرب جانب الغليون، فيتحطم إلى قطع، لأنه ارتفع عالياً بوساطة الأمواج، فكان أعلى من الغليون، ثم هبط عميقاً إلى حد أننا الذين كنا على سطح الغليون لم نعد قادرين على رؤيته، بسبب الأمواج التي كانت فيما بيننا، وفي مثل هذه الأنواء على

كل من يرغب بالخروج من الغليون والحصول في القارب، الوقوف على سلم الغليون، والانتظار بحذر اقتراب القارب من الغليون، حتى يمكنه الوصول إليه قفزاً، لأن الناس لن يسمحوا للقارب بالاقتراب أكثر من هذا، ويتوجب عليك القفز في اللحظة التي يقترب فيها القارب، لأنك ما لم تقفز، سوف يبتعد عن الغليون بقوة الأمواج، ولدى قفزه نحو القارب، لا يمكنه أن يصون نفسه من الوقوع في الأمام أو في الخلف، على وجهه أو على قفاه، ويقوم الذين على ظهر القارب بإيقافه.

وكانت هذه أعظم اللحظات ذات الخطر العام، التي كان يخضع لها الحجاج، إنما وإن بدت صعبة في البداية، كان ما أن يعتاد الانسان عليها، حتى تصبح مسألة روتينية عادية، بعدما كانت من قبل لا يجرؤ الانسان على التفكير بها، أو تجربتها بسبب الرعب، ولقد رأيت نساء كن في البداية مليئات بالرعب، لم يتجرأن على النظر إلى البحر، لكن بعد ذلك أصبحن جريئات — بسبب الممارسة — إلى حد أنهن كن يغامرن بالقفز من الغليون إلى القارب، وقد يعتقد الانسان في البداية أن الأفضل له البقاء على سطح الغليون، وتحمل شقاء البقاء هناك، على أن يغامر بالقفز، ومن ثم الحصول في ميناء جيد ومنعش، ولكن بعدما يجد الانسان نفسه قد تعرض للقذف بالعواصف وبالمصاعب، وجاع بسبب العوز إلى الطعام على ظهر السفينة، تراه يقدم لدى الوصول إلى ميناء جيد، ويتجرأ على القفز خمس قفزات خطيرة، مفضلاً ذلك على البقاء على ظهر السفينة، وهناك أيضاً المصاعب نفسها عندما يصل القارب إلى الشاطئ، لأنه إذا كان الشاطئ صخرياً ومنحدرًا، لا يتجرأ الملاحون على الاقتراب منه، إذا كان البحر هائجًا، ولذلك يتوجب على الانسان أن يقفز ثانية، إما على الصخور أو في البحر، وفي جميع الأحوال على الانسان أن يكون متنبهاً وحذراً تماماً تجاه عمق البحر، لأنه عندما يكون البحر هائجاً قد يغطي الصخور العالية، ولهذا يوجد بشكل عام في

الموانئ رجال للخدمة، الذين عندما تتراجع مياه البحر، يسرعون إلى القارب، ويحملون كل واحد من الذين سوف يعطيهم بنساً، وكل من يعبر البحر، يرى هذه الأشياء، وأشياء أخرى كثيرة من هذا النوع.

ودعوني الآن أعود إلى سياق حكايتي، فقد وصلت إلى الشاطئ مع بعض الحجاج والبحارة، وعملنا ناراً على الشاطئ، ومشينا حول التلال، وبذلك أمضينا الوقت حتى المساء، وكان الوقت متأخراً عندما عدنا لتناول عشاءنا على ظهر الغليون، وقد تغلبنا على مخاوف القفز من القارب إلى الغليون.

وفي اليوم الثامن، الذي كان الأحد الثاني بعد الثلاث، استمر الجو مظلماً، والهواء معاكساً، وفي حوالي مابعد الغداء ذهبنا جميعاً تقريباً إلى الشاطئ بالقارب، وهناك ركض بعضهم حول الهضاب التي بلامرات، بينما جلس بعضهم الآخر بلا حراك يتحدثون، وقد تمتعنا بيوم بهيج، من ثم كانت الأوضاع على ظهر ذلك الغليون رائعة إلى أبعد الحدود، وكان هناك سلام ووئام، وصداقة، ووحدة بين جميع الحجاج، وكان الوضع هو المعاكس على ظهر غليون حجي الأول، حيث كان هناك، غضب، ونزاع، وخلاف، وكثيراً من الشائم بقدر ما يمكن رؤيته في ص ١١٠—١١١، وعليه عندما كانت الشمس على وشك الغياب، عدنا إلى ظهر الغليون، من أجل تناول طعام العشاء، ولم نتحرك في تلك الليلة، ذلك أن قوة الريح بدأت تتلاشى.

وفي اليوم التاسع جلب الرب كنوز خيراته وقدمها لنا، فقد توفرت رياح طيبة، كنا مسرورين لها كثيراً، فرفعنا المرساتين، وحللنا حبال الربط، ونشرنا الأشرعة، فامتلاؤوا بالهواء، ولم يمض سوى وقت قصير حتى غادرنا الميناء، ومن ثم صرنا في أعالي البحار، وقبل الظهر وصلنا إلى ميناء في دالماشيا اسمه يادرا (زارا)، وهنا طوى القبطان الأشرعة، وأنزل مرساة واحدة، وأنزل القارب، وأرسل بعض البحارة إلى المدينة

مع أوعية لجلب الماء، لأن الماء الذي جلبناه معنا من روبينا، كان قد نفد، ولم يكن على جزر أسارو، ولاقطرة ماء للشرب، ولم يدع القبطان ولا واحداً من الحجاج يغادر السفينة، لأنه عزم على الاقلاع ثانية مباشرة، ويا للعجب عندما كنا راسين هناك، وصل المعلم أوغسطين أيضاً مع غليونيه وتجاوزنا، ولمدة طويلة كان بإمكاننا رؤية غليونيه في البحر، مبحراً أمام ربح طيبة، وأمام هذا المشهد كان قادة غليوننا غاضبين جداً، لأنهم عزموا، واستخدموا كل جهد في سبيل ابقاء غليوننا أمام غليونيه حتى الأرض المقدسة، ولكن مشروعههم حقق الإخفاق، وعندما أحضرت المياه إلى الغليون، لحقنا مباشرة بأوغسطين، وأبحرنا على طول مسار جيد جداً، حيث كان على جانبينا قرى، وقلاع، وأرض مزروعة، ووصلنا إلى يادرا القديمة، ورأينا خرائبها العظيمة، واستطعنا بعون الريح انجاز رحلة جيدة طويلة في ذلك اليوم.

وعلى كل حال توقفت ربحنا الطيبة عند غياب الشمس، وهبت ربح قدرة، تراجعنا أمامها ووجهنا سفيتتنا نحو الجبال، خشية أن تدفع بنا بعيداً عن مسارنا، وعندما أصبحنا بين الجبال، ربطنا سفيتتنا في ميناء مهجور، وأمضينا ليلة مليئة بالعاصفة والرعب بسبب سوء الأنواء والبرق والرعد، وعليه كان الجو مليئاً بأشياء غير موافقة للناس في البحر، أكثر من الذين سكنوا فوق اليابسة، وكان اسم ذلك الميناء أونيوم Oneum، وهو في كراواشيا Cawacia، التي هي مقاطعة في دالماشيا.

ولم تكن هناك ربح في اليوم العاشر، سوى الريح القدرة، وذلك في الصباح الباكر عند شروق الشمس، ويئسنا من مغادرة أونيوم في ذلك اليوم، لكن على كل حال، تغير الهواء بعد مضي ساعتين، فحلوا أربطة الغليون، وساقوه خارج الميناء بواسطة المجاذيف، ووجدنا في الخارج في البحر ربحاً جانبية، لم تكن نافعة كثيرة لنا، وقد حملتنا على طول

الأطراف حتى وقت الغداء، وبعد انتهاء وقت الغداء هبت ريح موآتية وقوية وسعيدة، دفعت السفينة بشكل مفاجيء وبقوة على امتداد طريقها الحقيقي فوق البحر، ولكي تمضي أسرع رفع البحارة الشراع الأمامي (Trin Ketum) فوق القمة الأساسية، وعلقوه حتى عنق القمة الأساسية، وذلك فوق العارضة الرئيسية للشراع، فضلاً عن هذا لقد أخرجوا الظلة، أو غطاء السفينة، الذي يغطي به أحيانا الغليون كله من البداية حتى النهاية، ليحمي الغليون من الشمس والمطر، وجرى مدّه بشكل منحرف عبر الغليون حيث تقوم السارية، وذلك تحت قلع الشراع الأساسي، وقد وصل من طرف إلى طرف، وأمسك الريح كلها من الخلف حتى يساعدنا ذلك على طريقنا، ولذلك مضينا في طريقنا مسرعين جداً، وتجاوزنا مدينة ليسينا، ثم مدينة كورزولا، وكذلك مدناً أخرى كثيرة، سوف أتحدث لكم عنهن — بعون الرب — أثناء عودتي، واستمرت هذه الريح السعيدة والمبهجة ذلك النهار كله، والليلة التالية، التي نمنا خلالها بعمق، ونحن نسير بسرعة وعدوبة، لأن طريق الغليون لم يكن على الجانب، بل كان مستقيماً نحو الأمام، جعلنا ميالين إلى الهدوء، لأنه عندما تكون الريح هادئة ولطيفة، وليست قوية جداً، لن تكون هناك أية حركات يشعر بها الذين في القمرة نظراً لسير السفينة بهدوء، وبدون ضجيج، وينام كل من الحجاج تحت، وعبيد الغليون على السطح بهدوء، ويكون كل شيء ساكناً، باستثناء الذين يراقبون البوصلات، والذي يمسك عصا الدفة، لأن هؤلاء يقومون عن طريق التناوب والترداد بتقديم الشكر من أجل رحلتنا السعيدة، والحظ الجيد، ودوماً يحمدون النسيم، ويشكرون الرب، والعذراء المباركة، والقديسين، ويرد أحدهم على الآخر، ولا يلتزمون الصمت مادامت الريح طيبة، وكل واحد على ظهر المركب يسمع هذا الغناء الصادر عنهم، سوف ينام حتى وإن كان بالعادة لا ينام، مثله في ذلك مثل الطفل الذي لا يعرف الاستقرار والدائم الصراخ، فتقوم أمه فتهدهه عن طريق أغانيها الشجية،

لكن عندما يكون كل شيء هادئاً تراه يصرخ، لأنه مع الأغنية يغطّ في نوم عميق لأن الأغنية تؤكد له حضور أمه، ذلك أن تأثير الحضور أعظم من حلاوة الغناء، ومثل هذا كان الحجاج أكثر هدوءاً، لأنهم بهذا الغناء كانوا يدركون ويتأكدون أن السفينة مبحرة نحو الأمام باستقامة، وأن كل شيء على مايرام، وهذا أكثر أهمية من الأغنية نفسها، وكانوا يتناوبون النداء، مثلما فعل حراس مدينة أولم، عندما كانوا ينادون بساعات الليل، ولا يعيق هذا النداء أي إنسان ويمنعه من النوم، بل يرسل القلقين من الناس إلى النوم.

وفي أثناء العواصف، عندما تكون الرياح معتدلة وقوية، تركض السفينة بعنف مع تأرجح واهتزاز صعب، ويكون ذلك وهي على مسارها بسرعة فائقة العظمة، سرعة لا يمكن أن يجارها سهم أطلق من قوس زيار أوقوس عادي، وغالباً مابرهن الملاحون على صحة ذلك، بالوقوف في المؤخرة مع قوس وارسال سهم باتجاه القيدوم، وهنا لا يلحق السهم السفينة، حيث تتغلب عليه بسرعتها، وتدفع الرياح السفينة، تدفعها نحو الأمام بوساطة أشعتها، بقوة تبدو معها مياه البحر وكأنها تسعى لمواجهة القيدوم، ويبدو منقار القيدوم أيضاً وكأنه يشق مياه جدول أو نهر بكل عنف، ولذلك تعلق المياه أحياناً فوق قرني القيدوم، ولأن الماء يندفع بعنف كبير ضد المؤخرة، غالباً مايقفز حتى إلى حجرة القبطان الخاصة، وطالما أن الرياح مالمى للأشعة ويدفعهم بقوة متناهية، يبدو الماء وكأنه يجري بالاتجاه المعاكس والمضاد للمؤخرة، بسرعة عظيمة، هذا ومن الصعب لنظر الإنسان أن يتابع فيه سرعة البحر.

ويبدو — على الأقل بالنسبة لي — أن السهم عندما يطلق من القوس لا يمكن أن يسير بسرعة تساوي جريان الغليون، ذلك أن للغليون سرعة أعظم بعشر مرات من سرعة البحر، حيث أن السفن

تسير بسرعة من الصعب تصديقها، عندما يكون الريح والبحر في هذه الوضعية، وأنا أعتقد أن الابحار خلال يوم وليلة مع ربح طيبة، تقطع السفينة خلالها مسافة تساوي ما بين كولون والبندقية، لأنه عندما تكون السفينة، تتقدم نحو الأمام ببطء، ويعدّ تقدمها كأنه لاشيء، تراها مع ذلك لا يستطيع حسان أن يعدو بسرعة تعادل حركتها البطيئة تلك، وعندما نقول بأن سرعتها متلاشية، مامن سباق يمكنه أن يجاريها حتى وإن كانت تزحف زحفاً، وعلى كل حال يصدف أن لا تتحرك السفينة مطلقاً، أو تقف كلية، وسوف يكون ذلك مزعجاً جداً للذين هم على ظهرها، وبناء عليه تقدمنا تقدماً عظيماً على طريقنا، في تلك الليلة ذات السرعة الكبيرة، والأنواء اللطيفة، ومات في تلك الأثناء فارس نبيل هولندي، حيث جرت عملية دفنه حسبما أوضحنا فيما تقدم في الصفحة ٢٥٤، وقد دفناه في أعماق البحر.

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كان يوم عيد القديس برنابا الرسول، تابعنا الابحار والتقدم بنجاح، واجتزنا مدينة راغوثا، وهي المدينة الرئيسية في دالماتيا كلها مع سكلافونيا، التي سوف أحدثكم عنها أثناء عودتي، ورأينا في ذلك اليوم حدود الممالك، وهو المكان الذي تتصل به إمارات دالماتيا، وإليريا، ودوقية ألبانيا، والمورة أو آخيا، ومملكة هنغاريا، ومملكة البوسنة، ومقدونيا، تتصل به مع بلاد الاغريق، ذلك أن هذه الممالك تمتد حتى شاطئ البحر، وتشكل حدود المسيحية نحو الشمال، لأن آخيا، وألبانيا، والبوسنة، ومقدونية تابعة للأتراك، وهكذا أمضينا يوماً ممتعاً، مع ربح طيبة، ومناظر جميلة من كل جانب، وقام البحارة في هذا اليوم باصطياد السمك، لأنهم رأوا حشوداً لاتعد ولا تحصى من السمك الكبير، ولم يكن لديهم وسيلة للصيد سوى رمح حاد جداً برأس له ثلاث شعب، وقد وقفوا على أطراف الغليون، وعندما كانوا يرون سمكة كانوا بسرعة يصيبنها ويجلبونها، وفي الحقيقة

لقد جرحوا كثيراً، لكن الذي أمسكوه كان قليلاً، ونحو حلول المساء ضعفت ريحنا الطيبة، إنما بعد غياب الشمس عادت قوية كما كانت من قبل، واستمرت طوال الليل جيدة، ولهذا قطعنا مسافة طويلة.

وفي اليوم الثاني عشر تابعنا الابرار بريح طيبة، وكنا في أعالي البحر، بعيدين عن اليابسة، ورأينا مدينة سكودروم Scodrum التي يسمونها سكوتاروم Scutarum، وهي التي أعطاها البنادقة في السنة الماضية إلى الأتراك حتى يتخلصوا من متاعبهم، ثم اجتزنا دوراسيوم Duracium (دورازو)، التي هي الآن مدينة كبيرة عائدة للأتراك، وهي التي كان قسطنطين قد قرر فيها مضي إقامة القسطنطينية في موقعها، وهذا مأسوف أخبركم به أثناء عودتي، واجتزنا أيضاً مدينة لافيلون Lav- ilone، التي إلى جانبها يوجد نهر يجري في أراضي الأتراك، ويعبرها إلى البحر، ويحرق الأتراك من وسط بلادهم على هذا النهر، من أجل اصطيد المسيحيين، وأطلقنا طوال ذلك اليوم جميع الشراع على أمل أن يتمكن من إمساك الريح، وذلك حسبما قلناه من قبل وفعلناه في اليوم السابع، ومع غياب الشمس ازدادت ريحنا الجيدة قوة، وأنزلنا بعضاً من شراعنا خشية أن نسير مسرعين كثيراً في الظلام، وفي ذلك المساء كنا جميعاً مسرورين، ومبتهجين، وظل المزمار يلعب حتى غدت الدنيا مظلمة، وامتلكنا طوال الليل ريحاً طيبة.

وفي اليوم الثالث عشر، ازدادت الريح في المساء المبكر قوة، ثم انتقلت إلى مكان آخر، ولهذا قام القادة بنقل الأشرعة، وعندما أديرت عارضة الشراع، انعطفت السفينة بشكل مفاجيء ومالت على طرف واحد، وجرى من ثم قذف جميع الحجاج الذين كانوا مايزالون نائمين من فرشهم، وكان هناك زعر عظيم في القمرة، لكن على السطح لم يكن هناك سبب للخوف، وعندما أشرقت الشمس رأينا على يسارنا جزيرة كورزيري Gorziri، التي يسمونها كورفو Corphu والتي هي أول بلاد

الاغريق، واجتزنا هذه الجزيرة بسرعة، لأن الطاعون كان منتشرًا بها، ولدى متابعة إبحارنا على طريقنا دخلنا إلى بحر ايروس Epirus، وبذلك غدت أبوليا وصقلية على يميننا، وبتوفيق عبرنا في ذلك اليوم عددًا كبيرًا من الجزر التركية، وخلفناهن وراءنا، لكن عندما غابت الشمس ضعفت ريحنا الطيبة، ولم نقطع في تلك الليلة أية مسافة أبدًا، الأمر الذي أغضبنا كثيرًا، لأن يوم الأحد بات قريبًا، وكنا نأمل أن نكون في ذلك اليوم في ميتونا Metona (Modon) وأن نسمع قداسًا هناك، لكن الشيطان لم يكن راضيًا بأن نفعل ذلك.

وتابعنا في اليوم الرابع عشر سيرنا على طريقنا، ورأينا جبال آخيا، قرية من مدينة باتراس، حيث جرى صلب القديس اندرو، وهنا وقفنا عند اشراق الشمس بلاحرار، لأننا لم نمتلك ريحا تساعدنا، وبعد تناول طعام الغداء هبت ريح ضعيفة، جعلت الغليون يحبو ببطيء باتجاه مدينة ميتونا، التي يسمونها مودون، فإلى هناك رغبتنا بالذهاب، ومع اقتراب المساء انبعثت ريح قوية طيبة، حملتنا بعيدًا عن جزر سامافرا Sa-mafra، وأخذتنا نحو جبال المورة، وإلى مقاطعة كارنزا Carenza، ووصلنا بعدها إلى بلفنتور Belventor.

وعندما تأخر الوقت رأينا على يسارنا بلاد آخيا، التي هي ملك للأتراك، ورأينا على يسارنا جزيرة من دون جبال، يسمونها ستيرفيل Stirvale (Stamphane)، ويسكن فوق هذه الجزيرة رهبان اغريق تابعين لطريقة القديس باسيل، وهؤلاء لم يستطع الأتراك مطلقاً طردهم من هناك، مع أنهم خاضوا ضدهم عددًا كبيرًا من المعارك، لأنه ما أن يأتي الأتراك، حتى يندفع الرهبان بأسلحتهم، ويرغمون على الفرار كل من يقابلهم، وقد فعلوا هذا مرارًا، لذلك لم يعد الأتراك يتجرأون على الذهاب إلى هناك لمحاربتهم، وقد أبحرنا نحو هذه الجزيرة، وعندما عبرناها تركناها على يسارنا، وعندما جاء الليل تراجعت ريحنا الطيبة،

وقطعنا مسافة قصيرة جداً في تلك الليلة.

وفي الخامس عشر، الذي كان الأحد الثالث بعد التثليث، وهو يوم عيد القديس فيتوس Vitus والقديس موديستوس Modestus، وعند اشراق الشمس، بدأ عبيد الغليون بتحريك الغليون بوساطة مجاذيفهم، لأن الريح لم تكن طيبة، وكنا قاصدين ميناء ميتونا، الذي لم نكن بعيدين عنه أكثر من مسافة ميل ألماني، وبعد بذل جهد كبير دخلنا إليه، وكان ذلك في حوالي الساعة الثامنة قبل الظهر، ونزلنا مباشرة إلى القارب، وجذفنا إلى المدينة، حيث وجدنا الحجاج الذين أبحروا مع المعلم أوغسطين، وقد أخذت موالي وبعض الحجاج الآخرين إلى كنيسة الرهبان المبشرين، واستمعنا هناك إلى قداس رفيع.

وكان رئيس الدير في هذا المكان والرهبان الآخرين يعرفونني معرفة جيدة من رحلة حجي الأولى، وبعد انتهاء القداس ذهبنا إلى بيت الخباز، حيث يجري خبز البقسماط من أجل السفر البحري، وكان يسكن هناك عجوز ألماني، وقد تولى طبخ غداءنا، وتغدينا، ومضى بقية الحجاج إلى بيت السادة التيوتون، وأعدوا هناك طعاماً لأنفسهم، وذهبنا بعد تناول الغداء وصعدنا إلى أسوار البلدة، ومشينا من حولهم ونحن فوقهم، وأعجبنا بالدفاعات التي لا ترام، ولم يكن الموضع جزيرة، بل جزءاً من اليابسة، وكان الجميع من ممتلكات الترك، وفي طريق عودتي سوف أحدثكم أكثر حول هذا، وفي هذا المرفأ كان غليون المعلم أوغسطين راسياً أيضاً، وكان جميع الحجاج بالمدينة، ولذلك كوناً صداقة سعيدة وبهيجة معهم، مع أن ذلك لم يفرح القبطانيين، اللذان رأيا أنه بسبب خصامهما، ولأنهما كانا متعادين أحدهما ضد الآخر، علينا نحن أن نصاب بالداء نفسه، وبناء عليه يتوجب علينا تجنب صداقة ورفقة بعضنا بعضاً، المهم أننا جلبنا الحجاج الآخرين إلى ظهر غليوننا وأريناهم إياه، وهم بدورهم أخذونا إلى غليونهم لرؤيته، وهكذا أمضينا

النهار معا حتى حلول وقت العشاء، ونحن مسرورين مع بعضنا بعضاً، كوننا التقينا في وسط البحر، لأنه قد قيل بأن مدينة مودون قائمة في وسط الطريق فيما بين البندقية وبين القدس، وفي حوالي وقت العشاء زعقت أبواق القبطانيين تدعو الحجاج إلى السفيتين، وعندما سمعنا هذه الشارة صعدنا إلى ظهري الغليونيين، وفي ذلك المساء نفسه غادر أوغسطين وحجابه الميناء، لكننا بقينا نحن هناك حتى الصباح. ولسوف أصف هذه المدينة أثناء عودتي.

وفي اليوم السادس عشر، وقبل أن يضيء الصباح، قام العبيد بالتجذيف بالغليون وأخرجوه من الميناء، فأوصلوه حتى زاوية الجبل، حيث أودعناه بيد الريح، ودخلنا بحر ماليان، واجتزنا مدينة كورونا، القائمة فوق صخرة عالية، وهبت هناك بعد منتصف النهار، ريح قوية، وقد أبحرنا مسرعين نحو جذور (كذا) ماليا Malea، من دون توقف أو عائق، وضاعفنا الرأس هناك من دون متاعب، الأمر الذي يحدث دوماً: لأن الانسان يواجه في ذلك المكان المخاطر دوماً والمصاعب، وأبحرنا الليل كله بتلك الريح، واجتزنا عدداً كبيراً من الشعاب والصخور بحظ جيد، لأن ذلك البحر، من الصعب جداً الملاحة فيه من دون حظ جيد صادر عن ريح طيبة.

رأينا في اليوم السابع عشر جزيرة كريت، والخذق أو «سنتابولس Centapolis»، وفي بعد ظهر هذا اليوم تراجعت قوة الريح وصارت ضعيفة، ودفعتنا الأمواج إلى هنا وهناك دون أن نتقدم إلى الأمام، ولم نستطع الوصول إلى كريت في ذلك اليوم، وتجنب القبطان الآخر، أعني أوغسطين جزيرة كريت وأبحر من ماليا إلى جزر سيكلادس Cy-clades، لكن قبطاننا لم ير تجاوز كريت، ذلك أنه رغب بزيارة السيد بطريك القسطنطينية، الذي شغل منصب رئيس أساقفة كريت، وكان هذا البطريك نفسه من أهل البندقية، وكان والد قبطاننا، ولهذا

السبب قرر التوقف في تلك الجزيرة، لكن خشية منه أن يتخذ الحجاج هذه المسألة أساساً للشكوى ضده، جلب في ذلك اليوم إليهم قطعة من القماش الحريري، اسمه أطلس atles ، تساوي قيمتها عشر دوقيات، ليلعبوا عليها الورق متراهنين، وقد ربح هذه القطعة اللورد بيرفون هوهن ريخبيرغ، وكان واحداً من موالي، وكان هناك كميات ضخمة من الأرباح المالية تمت على ظهر الغليون في مختلف الألعاب، لأن كل يوم من المقامرة العميقة والأثمة، تبدد بين النبلاء وذلك بالورق والنرد، وكان أحدهم الرابع، وآخر الخاسر، وكان في كل يوم هناك إنغماس في الملذات الحسية، إنما بدون خلافات، وإنني أعرف بعض الفرسان الشبان، والرجال النبلاء قد جلبوا معهم مبالغ كبيرة من المال، لأنه كان بنيتهم الذهاب إلى القديسة كاترين، وكان لديهم مايكفي لذلك، لكن بوسائط هذه المقامرة الملعونة أصبحوا في حالة عوز وفقر، إلى حد أنهم باتوا غير قادرين على تحمل الانفاق بالارتحال حتى القدس، ولولا أن رفاقهم ساعدوهم، لعادوا إلى الوطن دون تسلم فروسياتهم، وفي أيام الأعياد، عندما كنت أعظ بكلمة الرب، على ظهر الغليون، وجهت اللائمة إلى هؤلاء المقامرين طويلاً وبحدة، لكن الذين انتقدتهم تصلبوا أكثر في مواقفهم، وكانوا يجلسون في كل يوم من الصباح حتى المساء يقامرون بخمسين أو ستين، أو مائة أو مائتي دوقية، منحنيين على المنضدة مثل وتد وذلك من أجل لعبة واحدة، وعلى ذلك توفر في ذلك اليوم سرور عظيم، مثل سرور الحمقى، لأن جماعتنا ربحت قطعة من قماش الحريري.

وكان لدينا في اليوم الثامن عشر، بعد شروق الشمس، ريحاً ضعيفة، حركت سفيتتنا ببطء نحو كريت، وفي حوالي الظهر رأينا غليوناً مسلحاً يتحرك تحركاً قرصانياً ليس بعيداً عنها، وقد استدعاه المسؤول العسكري لدينا بالطريقة التالية: فقد أطلق طلقة مدفع نحوه، ولدى

سماعهم الصوت، قام الذين يوجهون الغليون بعطف قيدومه نحونا، وجلبوه بالتجذيف إلى جوارنا، ثم انهم أنزلوا قارباً وجاء به القبطان والمسؤول الحربي، وصعدا إلى ظهر مركبنا، وتكلما لبعض الوقت مع قبطاننا ورجال التوجيه لدينا، لأن ذلك الغليون كان ملكاً للبندقية مثلما كان غليوننا أيضاً، وكانت هذه هي العادة في البحر، عندما يرى غليونان أو أكثر أحدهما الآخر، يقوم الذي يعدّ نفسه أعلى من الآخر، باستدعائه وفق الطريقة المتقدمة الوصف، وإذا كان الغليون بندقياً، يستدعى الأكبر الأدنى، وينبغي على الأدنى أن يقدم إلى حضرته، لكن إذا لم يكن الغليون بندقياً، مع ذلك إنه إذا قدم عندما دعي فذلك خير، لكن إذا لم يقدم، عندها يقوم على الفور الذي استدعى بالإسراع نحوه بقدر ما يستطيع ويشتبك بالقتال معه، حيث يكون قد جهز مدافعه، وقسيه، ونشابه، ومجانيقه، وعندما يرى المركب الآخر هذا، يقوم، إذا كان خائفاً، بانزال شراعه، كشارة على الخضوع والصدقة، وإذا لم ينزل شراعه، فذلك يعني المقاومة والقتال، ويستعد المركبان للحرب.

ومع حلول المساء وصلنا إلى كريت، وبحشنا عن حانة يمكننا أن نتعشى فيها، غير أننا لم نجد حانة سوى واحدة أستحي أن أتكلّم عنها، فقد كانت بيتاً سيء السمعة، تتولى إدارته امرأة ألمانية، وقامت السيدة، التي اقتدنا إليها، عندما رأت أننا مكونين من نبلاء وكهنة، أو رهبان، بتنظيف بيتها، ووضعت هذا البيت بجميع غرفه تحت خدمتنا، وكانت سيدة أدبية، ومحترمة، وامرأة عاقلة، وحصلت على كل مااحتجناه بكميات كبيرة، وحصلنا على عشاء فاخر، مع خمرة كريتيّة، وهي التي نسميها مالفوسيه Malvoisie، ووجدنا في ذلك اليوم عنباً ناضجاً، من النوعين الأسود والأبيض بكميات كبيرة، لكن بما أن الريح كانت طيبة، أخبرونا بوجود الاقلاع في تلك الليلة، وبناء عليه عندما انتهى عشاءنا عدنا إلى غليوننا وأمضينا الليل هناك.

وفي اليوم التاسع عشر، الذي كان يوم عيد القديس جيرفياس Ger- vais والقديس بروتياس Protais، عندما استيقظنا في الصباح، ونحن آملين بالاقلاع، رأينا عبيد الغليون يحملون سلعهم إلى خارج الغليون، لأخذها إلى السوق لعرضها للبيع، وعندما رأينا هذا عرفنا بأن الغليون لن يقلع، ولذلك نزلنا مباشرة إلى القارب، ودخلنا إلى المدينة، حيث سمعنا قداساً في كنيسة من كنائس الرهبان المبشرين، وذهبنا بعد القداس إلى حانتنا، وحصلنا على غداء جيد، وبعد ما تغدينا قمنا بزيارة جميع الكنائس والديرة في المدينة، ولسوف أتحدث عن هؤلاء بشكل كامل أثناء عودتي، ومع حلول المساء، استدعينا جميعاً إلى الغليون بوساطة أصوات الأبواق، وما أن أصبحنا على ظهر الغليون حتى همدت الريح الطيبة التي هبت طوال النهار، ولهذا بقينا في الميناء طوال الليل حيث كنا، مع كثير من الارهاق، والشكوى، وقلة الصبر.

وفي اليوم العشرين، وقبل اشراق الصباح، أخرجوا الغليون من ميناء كريت بالتجذيف وذلك بعد بذل جهد كبير، وأبحرنا مع ربح ضعيفة نحو جزيرة ستانديا Standia، وجزيرة ستانديا تواجه جزيرة كريت، وقد وقفنا فيما بينهما دون أن نتقدم، وعلى كل حال، قدمت في حوالي الظهر رياح طيبة وجديدة، أخرجتنا من بحر كريت إلى البحر الإيحي، وإلى جزر السيكلاد Cyclades، حيث أبحرنا من خلالها طوال هذا اليوم، وطوال الليلة التالية.

وفي اليوم الحادي والعشرين كنا في وسط السيكلاد، نبذل جهدنا للوصول إلى جزيرة رودس التي هي أول جزر السيكلاد والرئيسية بينهن، وواقعة على الجهة الشرقية منهن، وخرجنا في حوالي الظهر من دائرة السيكلاد، إلى منطقة اسمها نابوليا، وهذه المنطقة هي الأولى التي هاجمها الأتراك فبعدما جالوا حول العالم لمدة طويلة، قدموا إلى هذه المنطقة، فقتلوا واستعبدوا الذين سكنوا فيها، وبدأوا حكمهم هناك،

وعندما انطلقوا من هذه المنطقة، استولوا على آسيا الصغرى كلها، وانتزعوها من المسيحيين، وجعلوها خاضعة لهم.

وتراجعت قوة الرياح بعد منتصف النهار لمدة تقارب الساعة، غير أنها هبت بعد ذلك بقوة أعظم ودفعت بنا فخرجنا من نابوليا نحو رودس، وبسرعة وصلنا إلى جبال رودس، ونحو مدينة كولوسوس Colossus ، التي هي المدينة الرئيسية في تلك الجزيرة، وفي الوقت ذاته، غابت الشمس، وحل الليل علينا قبل أن نتمكن من الدخول إلى ميناء كولوسوس، وتمكننا — على كل حال — بعون ضوء القمر من الابهجار إلى داخل الميناء، حيث ربطنا السفينة، ونمنا تلك الليلة، ووجدنا في الميناء غليون المعلم أوغسطين، الذي كان مع حجاجه قد نزلوا إلى شاطئ المدينة.

وكان اليوم الثاني والعشرين هو الأحد الرابع بعد الثلاث، وكان يوم عيد العشرة آلاف شهيد، وبعدما حصلنا على إذن من المقدم الأعلى لفرسان القدس — الذي من دون إبداء موافقته مامن أحد يسمح له بالدخول إلى المدينة — غادرنا غليوننا، ودخلنا إلى مدينة كولوسوس، التي يسمونها رودس، وهنا ذهبنا إلى قلعة الفرسان وصعدنا إلى كنيسة القديس يوحنا، حيث سمعنا قداساً عالياً، وبعد القداس جاء بعض فرسان القديس يوحنا — وكانوا من النبلاء الألمان — إلى مولاي، حيث قدموا التحية لهم باحترام كبير وسرور، وأروهم آثارهم المقدسة، وحضروا بعد ذلك لهم غداء فاخراً في بيت محترم، وهناك تناولنا غداءنا، وبعد الغداء، غادر المعلم أوغسطين وحجاجه، وعندما رأى قبطاننا بيرو لاندو هذا، نفخ في بوقه، واستدعانا إلى ظهر السفينة، ولذلك أسرعنا نحو ظهر غليوننا، وعلى كل حال، خلفنا وراءنا في تلك المدينة عدداً من الفرسان الجيدين والشرفاء، كانوا مريضين جداً، غير قادرين على متابعة السفر، وكان بينهم جيروثيوس فون راتزنهوزن Je-

rotheus Von Ratzenhusen، وعدداً من فرسان القديس يوحنا، الذين جاءوا من البندقية معنا، وقد حزنا جميعاً لفقدانهم، لأننا عقدنا على ظهر السفينة صداقة على درجة عالية من الجودة والتعایش، ومثلما يحدث في أماكن الدراسة، والأماكن المائية، يكون الفراق الذي يحل محزنًا، وبقي هناك خلفنا المرأة الوحيدة التي كانت معنا، بسبب أنها ضاعت بذهابها إلى إحدى الكنائس خارج البلدة، غير مفترضة بأن الغليون سوف يبحر في ذلك اليوم، وباستثناء زوجها، مامن أحد كان أسفا لغياب هذه المرأة، لأنها جعلت من نفسها ثقيلة الظل بدون حدود، بسبب كلامها السخيف، وفضولها حيث كانت تصطاد في القضايا الخاسرة.

وكان هناك أيضاً رجلاً فقيراً، أخذ القبطان معنا محبة للرب، لكنه ماكان يرغب بأخذه مسافة أبعد، ووقف هذا الرجل على الشاطئ وهو يبكي وينوح، لأنه سيكون غير قادر على الذهاب إلى القدس، وعطف عليه موالي، وأحضروه إلى ظهر السفينة، وقدموا النفقات من أجل رحلته ووضعوا تحت حمايتهم رجلاً آخر من بلادنا، كان غير قادر على متابعة السفر، وسددوا عنه النفقات كذلك، وبناء عليه أقلعنا في ذلك المساء.

وفي اليوم الثالث والعشرين، وفي عشية عيد القديس يوحنا المعمدان، أبحرنا أمام ربح قوية جداً، وكنا قد أبحرنا في الليلة المتقدمة وسرنا بسرعة كبيرة جداً، إلى حد أننا لم نر في الصباح يابسة، بل فقط البحر الأديراتيكي (الايجي؟) والكاربائي، وعند غياب الشمس ولدى ازدياد الظلام، استعد بحارتنا لعمل نار القديس يوحنا على ظهر الغليون، وقد عملوها كمايلي: لقد أخذوا أكثر من أربعين مصباحاً مصنوعين من الخشب ومن قرن شفاف، وعلقوهم واحداً فوق الآخر فوق جبل طويل، ثم عندما أشعلت المصابيح، رفعوهم إلى الأعلى إلى ما فوق القمة

الرئيسية، وذلك بشكل أن المصابيح المشتعلة تعلقت نزولاً من القمة الرئيسية حتى مقاعد التجذيف، وبذلك أضاءت الغليون كله، ومن أجل هذا المشهد جاء جميع الناس إلى السطح، من القمرة، والقيدوم، ومن الغرف الداخلية للغليون، ووقفوا حولها، وهناك بدأ البوقية ينفخون بأبواقهم، وغنى عبيد الغليون مع البحارة الآخرين، وطربوا، وابتهجوا، ورقصوا، وصفقوا بأيديهم، وتفاعل الذين وقفوا هناك مع صيحات السرور، والتصفيق بالأيدي، وابتهجوا للاحترام الذي أعطي للرائد المبارك جداً لربنا.

وقبل هذا لم أر ممارسة التصفيق بالأيدي للفرح، الذي تمت الإشارة إليه في المزمور السادس والأربعين، الذي جاء فيه قوله: «يا جميع الأمم صفقوا بالأيدى، اهتفوا للرب بصوت النصر»، كما أنني لم أكن أعتقد أن التصفيق العام لعدد كبير من الرجال بأيديهم في وقت واحد، عندما يكون صادراً عن السرور، سيكون له تأثير عظيم بأن يحرك عقل الانسان نحو السرور، وهكذا ابتهجنا كثيراً على ظهر الغليون حتى حوالي منتصف الليل، بينما كنا مبحرين أثناء ذلك كله بسرعة وهدوء ونحن على طريقنا، وتمددنا بعد هذا وأسلمنا أنفسنا للنوم، نحن الحجاج والبحارة معاً، وتركنا السفينة مندفعة أمام الريح، لكن الريح ينبغي عدم الوثوق بها لوحدها، من دون عمل الانسان، والمراقبة أيضاً، لأنها قد تتغير في لحظة واحدة، كما سيتضح في حكايتي.

وفي اليوم الرابع والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، رأينا قبرص في الصباح الباكر، ولدى رؤية الملاحين في غليوننا لها، غضبوا غضباً عظيماً، لأنهم رأوا أنفسهم أنهم قد تاهوا، وابتعدوا عن الطريق الصحيح فوق البحر، وضيعوا طريقهم عندما كانوا نائمين، لأن الغليون انحرف بعيداً جداً نحو اليسار، ولولا أن موجه الغليون قد نام تلك الليلة، لكان الغليون في هذا الصباح في

واحد من مراسي قبرص المرغوب بها، ولهذا تفجر خلاف ونزاع فيما بين القبطان، ورجال القيادة، وتنازع المرشدون فيما بينهم أنفسهم، ووجهوا اللوم إلى الملاحين، ولذلك عطفوا الغليون نحو اليمين، بعيداً عن المنحى الذي كان يسير عليه، وعدنا في حوالي ساعة العشاء إلى مسارنا الصحيح، لكن ما أن أصبحنا على مسارنا الصحيح، حتى نامت الريح، وهكذا لم نتقدم في تلك الليلة مطلقاً.

وفي اليوم الخامس والعشرين وصلنا إلى مقابل أقدم موانئ قبرص، الذي اسمه بافوس، وهو الذي ورد ذكره في أعمال الرسل الاصحاح ١٣/٦ و ١٣، ورأينا على مقربة من هناك جبل فينوس الذي سوف أحدثكم عنه في طريق عودتي، وسرنا ببطء شديد حتى الظهيرة، وعند الظهيرة هبت ريح طيبة، حملتنا بسرعة من هناك، وبسرعة أبحرنا على طول ساحل مملكة قبرص واجتازنا مينائي بيسكوبي Piscopi، وليماسول، وفي حوالي ساعة العشاء أبحرنا إلى داخل ميناء ساليينا sal-inae وجعلنا سفينتنا تتوقف بثبات بالمرساتين وبحبال الأربطة، وعلى الفور غادر القبطان وخدمه إلى الشاطئ، حيث استأجر خيولاً، وذهب إلى مدينة نيقوسيا، وهي المدينة الرئيسية في قبرص، فقد ذهب إلى بلاط المملكة، لرؤية زوجته، التي كانت السيدة المسؤولة عن غرفة نوم الملكة التي أتيت على ذكرها في ص ١١٦، ولسوف أقدم وصفاً لذلك في ص ١٤٣ من القسم الثاني.

وعندما تركنا القبطان، وقفنا نحن الحجاج على سطح الغليون، ننظر نحو الشاطئ، وقد وقفت معهم، أحدث الذين كانوا على مقربة مني عن جفاف هذا الميناء، وعن طبيعة البلاد، لأنني أمضيت هناك أياماً كثيرة خلال حجي الأول، وبينت لموالي الحجاج الأماكن التي أعرفها على الشاطئ، وبين أشياء أريتهم جبل الصليب المقدس، وهو أعلى جبل في مملكة قبرص، الذي توجد على قمته كنيسة معلق فيها صليب

الصلب الذي صلب على الجانب الأيمن للمسيح، وحدثت هؤلاء السادة بقصة ذلك الصليب كلها، كما سترون فيما بعد، وفيما وقف موالى والحجاج الآخرون هناك، يتساءلون حول ذلك الصليب، وينظرون نحو الجبل، الذي كان يبعد عنا مسافة خمسة أميال ألمانية، قلت لهم: «انتبهوا يا إخوتي الأعزاء إلى أن قبطاننا قد ذهب إلى نيقوسيا، ومن الصعب أن يعود في الغد، وسيكون لدينا في الغد يوماً طويلاً ومتعباً، والآن، وبناء عليه، على الذي يرغب باتباعي إلى الجبل المقدس، أن يأتي إلى مؤخرة الغليون، وسوف نزور الصليب المبارك، وسوف نعود في الغد في وقت مناسب.

وما إن قلت هذا، حتى ذهبت إلى المؤخرة، وتبعني إلى هناك عدد كبير من النبلاء، ظانين أنني قلت ذلك وفعلته مزاحاً، وقمت وأنا واقف عند القيدوم فاكرتيت خادماً يعرف الطريق إلى الصليب المقدس ووعدته بأنه سوف يتسلم قطعة نقود marcella من كل واحد من رفاقي، واكرتيت أيضاً قارباً وقائداً له ليأخذنا إلى الشاطئ، وعندما رأى النبلاء أنني كنت جاداً، تبددوا وتركوني، وبقي معي على كل حال، هؤلاء الحجاج:

— اللورد هنري أوف سكومبيرغ Schomberg وكان فارساً نبيلًا، ورجلاً شجاعاً.

— المعلم جون، وكان كاهناً، وشماساً رئيساً من ترانسلفانيا Ttan-sylvania، وكان رجلاً تقياً وعالمًا.

— المعلم كاسبار سيكولي Caspar siculi، وكان فارساً، وشاباً قوياً وشجاعاً.

— المعلم بوركارد نوسدورفير Burchard Nusdorfer، وكان فارساً، ورجلاً جيداً ومرحاً.

— رجل اسمه رودلف Rudolph ، وكان سويسرياً من ثورغو

thurgau، وكان رجلاً طويلاً وأميناً.

— رجل اسمه جون، وكان تاجراً من فلاندرز، وكان رجلاً متشوقاً كثيراً.

— وأنا الراهب فيلكس، المحرك الروحي لهؤلاء جميعاً، والخادم الذي أكثرته، وكان اسمه اندرو.

وذهبنا نحن الثمانية، ونزلنا من الغليون إلى القارب، وعندما صرنا على الشاطئ، بدأنا نبحث كيف يمكننا تدبر حجننا، لأن الساعة كانت متأخرة، وكانت الشمس قد غابت، وبدأت الدنيا تصبح مظلمة، وأخذنا دليلنا وخادمنا في الظلام إلى قرية اسمها أورنيكا Ornyca، على بعد ميل واحد عن البحر، حيث أيقظ رجلاً من الريف كان يعرفه، وقدم هذا الريفى لنا الخمرة، والخبز، والجبن، وقد أكلنا وشربنا، واستأجرنا أيضاً ثمانية بغال من القرية، التي ركبناها، وانطلقنا مسرورين، وكان القمر في الوقت نفسه قد أشرق، والسرور ملأ قلوبنا، مثلما طرد النور الظلام، ذلك أننا كنا نحن الثمانية، رفقة مختارين، وكان المناخ حسناً، والمنطقة جميلة، والطريق جيداً، وبالإضافة إلى هذا كله كانت نباتات تلك الأرض تصدر روائح طيبة جداً، لأن أعشاب تلك الجزيرة كلها تقريباً كانت توابل من مختلف الأنواع، تعطي أطيب الروائح في أوقات الليل، وذلك عندما يكونوا مبللين بالندى، وتابعتنا رحلتنا حتى إشراق نجمة الصبح — الزهرة — التي تتقدم على إشراق الشمس، وكان ذلك عندما وصلنا إلى قرية اسمها القديس الصليب، حيث ربطنا حيواناتنا، وأشعلنا ناراً، وكان رفاقي قد سكروا، غير أنني تماسكت، لأنني كنت أنوي الاحتفال بقداس فوق الجبل المقدس، وقد تمددنا واسترحنا لبعض الوقت، وقد نمت حتى عم الضياء، وكنا مضطجعين على الأرض إلى جانب حيواناتنا.

وفي اليوم السادس والعشرين، الذي كان عيد الشهيدين المقدسين: يوحنا وبولص، عندما استيقظنا طلبنا من الاغريق الذين استرحنا أمام بيتهم إعداد وجبة غداء جيدة لنا، لأننا عزمنا على العودة إليه من الجبل، من دون أن نكون قد تناولنا طعام الافطار، وهكذا امتطينا ظهور دوابنا وانطلقنا، حيث كان الجبل المقدس أمامنا، يرتعد في أعاليه، ووصلنا عند سفح الجبل إلى واد شهبي، كان يجري في وسطه جدول ماء عذب ونقي، كان شاطئيه مليئين بأكثر الزهور جمالاً، وهي زهور لم أعرف أسماءها، وكانت هناك نباتات ذوات روائح حلوة، كما كانت هناك أشجار محملة بقرون الخروب، التي يسميها العلمانيون «خبز القديس يوحنا»، واتخذنا من هذا الوادي طريقنا صعوداً إلى الجبل وتحت ظل بارد جداً، بسبب أن الشمس، مع أنها كانت تبعث الدفء في الجبل كله بوساطة أشعتها، لم تصل هذه الأشعة إلى الوادي، ووصلنا على الفور إلى المكان الأكثر انحداراً من الجبل، الذي لم نستطع صعوده ونحن على ظهور بغالتنا، ولذلك ربطنا دوابنا إلى أشجار هناك، وتسلقنا على أقدامنا مع جهد كبير وتعرق عظيم، لأن الجبل كان مرتفعاً، وشديد الانحدار، ويقال إنه يشبه في كل شيء جبل الطور في الأرض المقدسة، الذي عليه تغيرت هيئة ربنا، وقد سمعت هذا من رجل تسلق الجبلين معا.

وعندما وصلنا إلى القمة، جثونا على ركبنا مصليين أمام الكنيسة، وجلسنا في الهواء الطلق قبل أن ندخل إلى الكنيسة، وذلك بقصد أن نسترد أنفاسنا، وأن نمسح العرق الذي كنا متجللين به، وأن نتخلص من الحر الذي كنا فيه ونبرد قليلاً، وبعدما فعلنا هذا، أعددت نفسي أولاً، كما هو لائق، ودخلت إلى الكنيسة، وقرعت الناقوس حتى يسمع الحافظ لغرفة المقدسات ويأتي، وقدم على الفور كاهن، جاهل باللغة اللاتينية، وقد أحضر كتباً لاتينية قديمة جداً من أجل القداسات، كما أحضر أشياء أخرى لها حاجة في القداس، وبعد قرع الناقوس قرأت

قداساً من أجل الصليب المقدس، مع مجموعات من أجل الشهيدين المقدسين، يوحنا وبولص ومن أجل الرحالة، وبعد القداس، أدت نفسي نحو إخواني ورفاقي، وألقيت فيهم خطاباً، أخبرتهم فيه كيف ينبغي عليهم تقدير الاحترام الجدير للصليب لدى رؤيتهم له، وأوضح لهم في أي المجالات يختلف هذا الصليب الذي سنراه عن صليب مخلصنا، وفي أي المجالات هو مشابه له، فضلاً عن هذا حذرهم أن لا يكونوا فضولين أكثر من اللازم عندما يروه، وأن لا يرغبوا برؤية معجزة هناك، لأننا عندما سوف نأتي للضريح الأكثر قداسة لربنا في القدس سوف لن نرى معجزة، فكم سيكون الأمر أقل، الذي نتوقعه من هذا الصليب هنا؟ وقد قلت هذا بسبب أننا سمعنا حكايات غريبة وشاذة حول الصليب الذي كنا سنراه هناك، وأخذت بعد هذا شمعة مشتعلة بيدي، وذهبت إلى المكان الذي كان فيه الصليب، وتبعني حجاجي إلى هناك، وجاء الحافظ لغرفة المقدسات معهم، وعندما وصلنا إلى المكان فتحه الحافظ لغرفة المقدسات، وعلى هذا وجدنا الصليب المقدس واضحاً من الممكن لنا رؤيته بأعيننا، ثم إنني صعدت أولاً إلى الصليب، وقبلته، ونظرت إليه بدقة وحرص من الأمام ومن الخلف، وجاء بعدي رفاقي الذين قدموا له الاحترام، ونظروا إليه بحرص، واحداً بعد الآخر، وكان صليباً كبيراً إلى حد ما، مغطى من الأمام بألواح من الفضة، وكان مذهبا، ولكن من الجهة التي تطل على الجدار كان غير مغطى، وكان مصنوعاً من خشب سليم، من نوع خشب الصنوبر، وقد قالوا بأن هذا الصليب هو صليب دسمة Dysma ، اللص الذي كان على الجانب الأيمن من ربنا، وهو الذي وعده بالجنة عندما كان على الصليب، ذلك أن حنة المباركة، وجدت الصليبان الثلاثة تحت جبل الجمجمة، حيث أطاحت بالصليب الذي عاد إلى جسمه Gesma، اللص الذي كان على يساره، واحتفظت بالصليب الثاني، أي صليب دسمة، أما الصليب الثالث، الذي كان صليب المسيح، فقد عرضته ليراه

العالم كله، حتى يمكن أن يبجل بها جدير به، وقد جلبت صليبيها، أي الصليب الذي كان صليب دسمه، جلبته كاملاً من القدس إلى هذا الجبل، وبنيت هنا ديراً كبيراً للرهبان، وكنيسة وضعت فيها هذا الصليب، الذي هو أثر فائق القداسة، وقد أمرت ببناء حجرة، أو غرفة مغلقة في الجدار المواجه للمذبح، ووضعت الصليب، وبقي الصليب هناك دونها تحريك حتى هذا اليوم، وعلى كل حال بالنسبة للدير نفسه جرى اجتثاثه حتى الأرض من قبل الأتراك، والمسلمين، وقد تشتت الرهبان البندكتيون الذين سكنوا فيه، ووضع الصليب وترتيبه في مكانه مدهش، فالصليب واقف في نافذة مظلمة، ويديه موضوعتين في فتحات معمولة في الجدار، أما قدمه فموضوع في فتحة معمولة في الأرضية، غير أن الحفر التي تحتوي على الذراعين وعلى القدم واسعة جداً، وأوسع من أي معيار، ولا يلامس الصليب الجدار في أي مكان، بل هو محرراً، وبعيداً عن ملاصقة الجدار في أي مكان وجانب، والمعجزة المحكية في الخارج حول الصليب، هي أنه معلق بالهواء دون أي رباط، ومع ذلك هو واقف بشكل ثابت، وكأنه مثبت بأقوى المسامير، أو أنه مبني في داخل الجدار، وهو طبعاً غير مبني بالجدار أبداً، لأن الفتحات الثلاث واسعة جداً، إلى حد أن انساناً يمكنه أن يضع يده فيهن، ومن ثم يدرك بالملاصقة أنه لا يوجد هناك أية عملية ربط، وكذلك لا يوجد في الخلف أو عند رأس الصليب.

ولقد كان بإمكانني بالحقيقة البحث في هذا الأمر عن قرب أكثر مما فعلت، غير أنني خفت الرب، وليس لي الحق في أن أفعل ممانعت الآخرين أن يفعلوه، فلقد تسلقت هذا الجبل لإظهار الاحترام نحو هذا الصليب، وليس للبحث عما إذا كانت هناك معجزة أم لم تكن، أو لامتحان الرب، ولربما كان هذا الصليب جديراً أكثر بالاحترام، لو أنهم ضموا إليه قطعة من الصليب الحقيقي للمسيح، ومعلق في هذه البيعة

ناقوس، قرعناه قبل القداس وبعده، وقلت لرفاقي بأننا لن نسمع صوت ناقوس ثانية حتى نعود إلى العالم المسيحي، وكان هذا أمراً صحيحاً، ذلك أنني لم أسمع هنا صوت ناقوس خلال مدة أربعة أشهر، وذلك باستثناء هذا الناقوس، الذي نعتقد أنه قد وضع هنا من قبل القديسة حنة، التي وضعت الصليب هنا.

وعندما انتهينا من الكنيسة، خرجنا منها، ودخلنا إلى بيت الحافظ للآثار المقدسة، على أمل أن نجد شيئاً ننعمش أنفسنا به، لكن البيت كان فارغاً وخاوياً، ولم يكن فيه شيئاً مثل البقساط والماء البارد، كما أن الرجل لم يكن قادراً أن يتحدث إلينا، لأنه كان اغريقياً صرفاً، وكانت اللاتينية بالنسبة له لغة بربرية، وكانت الايطالية عربية، والألمانية تترية، وبناء عليه غادرنا دون أن ننعمش أنفسنا، وطفنا حول قلة الجبل، حيث وجدنا بعض الأسوار القديمة، وهي من بقايا معبد فينوس، الذي من حيثنا نظرت منه، سواء من عبر الجزيرة أو طوليا، كنت ترى البحر، لكن بسبب الحر الشديد، كان الهواء رطباً وغائماً، فلم نستطع رؤية الأرض المقدسة، كما لم نستطع رؤية جبال أرمينيا، أو كبدوكيه، أو سورية المجوفة، أو الجليل، وكل هؤلاء كان ينبغي أن نكون قادرين على رؤيتهم، لو أن الهواء كان صافياً، ودخلنا بعد هذا إلى الكنيسة وسلمنا على الصليب المقدس وقبلناه، وأسرعنا نازلين من الجبل إلى حيث وقفت دوابنا، وتوجهنا على ظهورهم إلى قرية الصليب المقدس، حيث وجدنا غداءنا — الذي تشوقنا إليه طويلاً — جاهزاً، وهو الذي أكلناه مع تقديم الشكر، ولم يكن بإمكاننا مغادرة المكان على الفور، لأن الحرارة كانت عالية جداً، وكانت الشمس محرقة مثل النار، ولذلك دخلنا إلى الكنيسة الاغريقية التي قامت على مقربة من حانتنا، حتى نتمكن من الصلاة فيها، ولكي نستريح في الظل قليلاً، وبينما نحن جلوس جاء رجل دين وقال لنا باللاتينية: «مالذي تفعلونه في كنيسة

اغريقية؟ يوجد هنا على مقربة منكم كنيسة لاتينية تابعة لطقوسكم، فهناك ينبغي أن تصلوا وأن تريحوا أنفسكم»، وبناء عليه نهضنا، وذهبنا معه إلى الكنيسة اللاتينية، وهنا جلب من المحفوظات ذراع القديسة حنة أم العذراء المباركة، الذي صدوراً عن الاحترام له، كان محفوظاً بالفضة، كما أنه قدم إلينا مسماراً، كان أيضاً مغطى بالطريقة نفسها بالفضة، وقال بأن هذا كان واحداً من مسامير المسيح، وهي المسامير التي علق بها عندما كان على الصليب، وقد قبلنا هذه الآثار، ولمسناهم بمجوهراتنا، حسب الوصف الذي سلف وقدمناه.

وقد وجدت أن رجل الدين هذا، كان راهباً، الأمر الذي لم أكن قادراً على اكتشافه من ملابسه لأنه كان مرتدياً لعباءة من وبر الجمل، وكان رجلاً مسؤولاً عن الكنيستين، أي الاغريقية واللاتينية، وفي هذا المجال كان يقوم بالطقوس للكنيستين، ففي أيام الأحد، كان يؤدي القداس في الكنيسة اللاتينية، وينتهي وفق الطريقة الغربية بخبز فطير، وعندما كان ينتهي من هذا العمل، كان يعبر إلى الكنيسة الاغريقية، ويكمل القداس وفق الطريقة الشرقية بخبز خمير، ولم يحظ هذا برضاى وأزعجني كثيراً، واعتقدت أن هذا الكاهن هرطيا من أسوأ الأنواع، ذلك أنه يقود الناس مضللاً لهم هنا وهناك، ذلك أن هذين الطقسين لا يمكن ممارستهما من قبل انسان واحد، هو الشخص نفسه، كما لا يجوز فعل ذلك في المدينة نفسها، لعدم توافقهما في عدد كبير من العقائد الهامة، وصحيح أنه في العصور القديمة أن الكنيسة الرومانية اعتادت أن تتساهل تجاه الطقوس الاغريقية، إنما حتى آنذاك لم يسمح لانسان واحد أن يكون في الوقت ذاته اغريقياً ولاتينياً، وتعظم هذا الأمر الآن عندما تدين كنيسةنا الاغريق وتعددهم منشقين وهرطقة، ويقوم الاغريق في قداساتهم بالنيل منا والخطن شأننا، ويعلنون في كل يوم أحد إلى شعبهم بأن الكنيسة الرومانية محرومة كنسياً، وهم يكرهونا ويكرهون

طقوسنا وعلى هذا الأساس تبلغ بهم الكراهية إلى حد الرغبة بموتنا جميعاً، فكيف يمكن لأي رجل مستقيم، وكاثوليكي جيد أن يكون في وقت واحد لاتينيا واغريقيا؟.

وما من واحد يتصرف هكذا، إلا لإرضاء شرهه أو حبه للسرور، ذلك أن مثل هؤلاء الناس يتقبلون كل ما هو فيه الرضا لأي من الطقسين والعقيدتين، وأن يرفض الأشياء التي هي صعبة ومزعجة لحملها سواء أكانت تابعة لهذا الجانب أو الطرف الآخر، وقام عدد كبير من الكهنة اللاتين بتحويل أنفسهم إلى العقيدة الاغريقية، حتى يمكنهم المغامرة في ميدان الزواج، ومع هذا تراهم في الوقت نفسه يرغبون بالتمتع بحرية الكهنة الموجودة في العقيدة اللاتينية، التي هي ليست عقيدتهم.

وهكذا قمنا بعد الظهر، عندما بدأ الحر يضعف، بامتطاء ظهور دوابنا، ومضيئنا نازلين نحو البحر حتى كنيسة القديس اللعازر، التي قامت على الشاطئ، في مواجهة غليوننا، وعلى بعد مسافة طويلة عن البحر، وهنا قمنا بإعادة دوابنا إلى أصحابهم، وكان هناك على الشاطئ سوق كبير، وقد اجتمع فيه حشد كبير من الناس من أجل غليوننا، الذي جلب منه ملاحونا سلعهم، وكانوا يتولون بيعهم إلى القبارصة، وكان ذلك موجوداً في كل مكان نزلوا به، وبعدما شاهدنا السوق، عدنا إلى غليوننا، إلى سادتنا ورفاقنا، الذين وجدناهم آسفين، وغاضبين بسبب أن القبطان لم يكن قد عاد بعد، وكانوا قد أمضوا نهراً منهكاً جداً، وتحلق جميع الحجاج من حولنا ليسمعوا حول مارأيناه، وعندما سمعوا قصتنا، قالوا بأننا كنا محظوظين، وأنهم آسفين لأنهم لم يذهبوا معنا.

وفي اليوم السابع والعشرين، عندما وجدنا بأن القبطان تأخر بالعودة، قام بعض الحجاج، وكنت واحداً منهم، بالنزول بأنفسهم إلى الشاطئ لامتضاء النهار هناك، وبقي الشطر الأعظم من الحجاج على ظهر

الغليون، خوفاً من هواء قبرص، الذي هو مضر بشكل عام للألمان، ما لم يكونوا أقوياء، وأصحاء في أجسادهم، وبناء عليه فإن النبلاء الذين خافوا على أنفسهم ولم يغامروا بها لم ينزلوا إلى قبرص، وعندما كنا على الشاطئ ذهبنا إلى المكان الذي يعمل فيه الملح، حيث أمكننا أن نرى من خلال الخرائب، أنه قد كانت هناك مدينة ذات حجم لم يكن صغيراً، وكان خلف المدينة مكان محاط بتلال، حيث يتكون هناك عندما يفيض البحر، بحيرة صغيرة، وعندما تتراجع مياه البحر بسبب الجزر، تتعرض المياه التي تبقى هناك إلى الجفاف بسبب حرارة الشمس، والذي يبقى عبارة عن أفضل أنواع الملح، وأعظمها بياضاً وثنناً، ويحمل هذا الملح إلى كثير من البلاد للبيع، وتتلقى ملكة قبرص كثيراً من المال من الذين يتجارون بالملح.

ورأيت في أثناء حجي الأول عدداً كبيراً من الرجال يعملون في فصل الملح عن الماء، وهو الملح الذي لم يكن قد جف بعد، وقد كان هناك كثيراً من الأكوام الطويلة من الملح قائمة هناك وكأنها تلال صغيرة، لكن الآن لم يكن هناك ولا انسان واحد، وكان حيث قامت من قبل أكوام الملح، مياه عميقة إلى حد ما، وعند حلول وقت العشاء عدنا إلى ظهر غليوننا، وكنا غاضبين جداً من القبطان، ووصلت في ذلك المساء، في قارب، المرأة التي خلفناها في رودس، وقد أشفقت على هذه المخلوقة المسكينة، بسبب المصاعب التي تعرضت لها، بسبب إبحار الغليون.

وفي اليوم الثامن والعشرين، جاء القبطان من نيقوسيا، قبل طلوع الشمس، مع بعض القبارصة الذين رغبوا برؤية الأماكن المقدسة في القدس، وكان بينهم امرأة تقية، من بلاط الملكة، أرادت أن تنهي حياتها في القدس في جوار الأماكن المقدسة، ورفعنا المرساتين، وأبحرنا ببطء شديد ونحن خارجين من الميناء، لأن الريح كانت ضعيفة، وازدادت عند الظهيرة قوة، لابل صارت قدرة، ودفعنا بسرعة وبقوة إلى الخلف

إلى الساحل الصخري لجزيرة قبرص، وعندما صرنا هناك ألقينا بالدليل، فوجدنا أن المجس كان قريباً من القعر، ولهذا خشية منا من أن نواجه أية صخرة أو Bitholassum أنزلنا الأشرعة، وأبعدنا السفينة من بين أيدي الريح، وألقينا بمرساتينا وانتظرنا ريحاً طيبة، وكان هذا التأخير مزعجاً جداً لنا، لأننا كنا نتحرق شوقاً لرؤية الأرض المقدسة، عارفين أن علينا عدم رؤية بلاد أخرى قبل أن نصل إلى تلك البلاد التي تشوقنا لها.

وكان تأخرنا مزعجاً جداً، فوق كل شيء إلى القبطان مع أعوانه، الذين خشوا من أن يكون أوغسطين الذي ذهب قبلنا مع حجاجه، قد حصل على الاذن بدخول الأرض المقدسة قبل وصولنا إلى هناك، بسبب لو أن ذلك حدث، لكنا مرغمين على المكوث في الميناء حتى ينهي أولئك حجهم، ويعودوا إلى ظهر البحر ثانية، فذلك سوف يعني الموت بالنسبة لنا، وفوق تحملنا، لأننا لو وجدناهم في ميناء الأرض المقدسة، لكنا مرغمين على العودة إلى قبرص مباشرة، وأن نتظر هناك عودتهم، وهبت بعد غياب الشمس ريح خفيفة، عهد إليها بالسفينة، وزحفنا قاطعين مسافة قصيرة في تلك الليلة.

وفي اليوم التاسع والعشرين، الذي كان يوم عيد الرسولين المقدسين: القديس بطرس، والقديس بولص، والذي كان أيضاً الأحد الخامس بعد الثلاث، دفعت بنا ريح قذرة نحو الخلف من جديد، حتى وصلنا إلى ميناء ليما سول، الذي كنا قد اجتزنناه يوم الأربعاء الماضي، ورسونا هناك، وهنا حمل البحارة الفؤوس، وذهبوا بالقارب إلى الشاطئ، حيث دغلة من الأشجار، منها قطعوا بعض الأخشاب من أجل نار المطبخ، من دون أن يتذكروا، أن ذلك اليوم كان يوم عيد الرسولين، ويوم أحد أيضاً، وعندما أصبح الوقت متأخراً، رفعنا المرساة، وأبحرنا مسرعين حيث ابتعدنا عن قبرص ودخلنا إلى البحر المفتوح، حيث لم يكن

بإمكاننا رؤية يابسة، لآمن الأرض ولامن الجزيرة، لأننا كنا بعيدين كثيراً.

وفي يوم الثلاثين، الذين هو يوم ذكرى القديس بولص، واليوم الأخير من حزيران، أبحرنا مسرعين، وتطلعنا بشوق عظيم لنرى المشهد البهيج للبلاد المجيدة التي كنا متشوقين كثيراً لها، حتى موسى، بعدما اجتاز خلال قفار الصحراء، واقترب من أرض الميعاد، قام لشدة تشوقه بالصعود إلى قمة جبل فسجه، حيث رأى من هناك الأرض المقدسة، وذلك حسبما جاء الخبر في سفر التثنية: ١/٣٤، وهكذا كنا نحن الذين قدمنا من بلادنا عبر البحر الكبير، حيث تسلقنا باسمرار إلى أعلى أجزاء السفينة، لتتمكن بأعيننا من ألقاء نظرة على البلاد التي كنا قاصدين إليها، وكل من يرى هذه البلاد من البحر، يعد نفسه رجلاً سعيداً، ولهذا رجونا ورشونا صغار البحارة الذين كانوا يتولون المراقبة من القمة الأساسية، أن يديموا النظر بكل عناية من حولهم، من جميع جهات البحر، وأن يندروننا بالصراخ، في اللحظة التي يرون فيها الأرض المقدسة، وقد نوينا أن نعطي هدية جيدة للذي سوف نسمع صوته أولاً يحمل إلينا البشائر السارة، وماكان مصدر هذا أي نوع من التفاخر، بل مجرد وصف صحيح لما حدث، وأعترف أنا شخصياً، أنني من جهتي في رحلتي حجتي، كنت خلال الأيام، التي كنت متوقفاً فيها اقتراب رؤية الأرض المقدسة، لم أهتم لا بالأكل ولا بالشرب، أو النوم، وكانت ساعات الظلام المعدة لاستراحة الناس مزعجة جداً بالنسبة إليّ، وكان فراشي شوكة بالنسبة إليّ، وكان مخدعي جهنماً، ولم أعد قادراً لأعلى القراءة ولا على الكتابة، ولا على الحديث مع الناس مثلما كنت من قبل، بل اقتصر سروري على الجلوس فوق قيود الغليون، على القرنين هناك، وأن أنظر من هناك بدون توقف عبر البحر الواسع، علني أتمكن بتعب عيني من اطفاء الحمى في عقلي، وكنت حتى ألعب الليل،

لانتزاعه مني وسائط الرؤية، أعني الضوء، وكنت خلال هذه الأيام كلها أجلس فوق القيدوم قبل الفجر، الذي كنت أرحب بأشعته ببهجة، ومن ثم كنت أنتظر أشعة الشمس، حيث كنت ألقى بتيقظ بناظري عبر وجه البحر، وأثبتهما نحو الشرق، الذي لم أفترض أنه تحت الماء، بسبب ارتفاع البحر، ولذلك أكن أنظر نحو الأعلى، بل أثبت نظري دونما تحريك على ذلك الجزء من السماء الذي بدا لي أنه متصل بالبحر، أو هو جزء من الأفق، وعندما كانت تشرق الشمس، اعتدت على أن أنظر بتشوق فيما إذا كنت أستطيع أن أرى أي عائق أو جسم غير شفاف بين الجسد المضيء للشمس وبين الجسد الصافي والواضح للماء.

وعلى هذا فإن أي قداس يعترض، لا يمكن أن يكون سوى الأرض المقدسة، التي أعرف أنها واقعة إلى الشرق منا، لأنه عندما كان الغليون يسبح فوق أعالي البحار، وكانت الشمس تشرق، لقد بدت لي وكأنها أشرقت من خلال الماء، وأن مامن شيء يمكن رؤيته بين الشمس وبين الماء، وكان الشيء نفسه يحدث عند غياب الشمس أيضاً، حيث كان يبدو لي أن الشمس قد غطست في الماء، ولكن عندما بات الغليون على بعد حوالي عشرين أو ثلاثين ميلاً ألمانيا من البلاد، بدت الشمس لي وكأنها قادمة من جبال تلك البلاد، ولذلك كان من الممكن رؤية الجبال في ضوء الفجر قبل الشمس، لأنهم قاموا فيما بين الشمس والبحر، ولكن ما أن ترتفع الشمس فوق الجبال، ويمضي على ذلك ساعتين أو ثلاث ساعات، حتى تصبح هذه الجبال غير مرئية، ولهذا اعتدت على الوقوف قرب القيدوم في أوقات الغسق المبكر، آملاً برؤية الأرض المقدسة قبل اشراق الشمس، واعتدت أيضاً على تحية الشمس المشرقة بسرور، لأنه من دون مساعدة الشمس لا يمكنني رؤية تلك البلاد، لكن عندما كنت أرى أن الشمس قد ارتفعت عالية فوق البحر، دون رؤية للبلاد أثناء ارتفاعها، كنت أنصرف حزينا، ومن ثم كنت أشغل نفسي

لبعض الوقت بمسائل أخرى، وكان هذا هو الحال أيضاً مع الحجاج الآخرين، لكن ليس الجميع، بل فقط الذين أحبوا الأرض المقدسة وتشوقوا إليها، Ach, mein Gott، كم هو عذب يمكن أن يكون حب الأرض السماوية للتقي، وباعث على الاستغراق بالتأمل، عندما يقوم بعض الحجاج المتجولين، من غير الأتقياء، والتعساء والمذنبين، بالشعور بالسرور العميق، وبالتشوق الحار إلى الأرض الدنيوية، ومثلما فعلت مريم المجدلية، وقامت وهي تتحرق بنار الحب، فانحنى بنفسها مراراً، ونظرت في الضريح، حيث كان محبوبها قد تمدد، مثل هذا يفعل الحاج المحب. حيث غالباً ما كان يقوم وهو في سفينة، ويحدق بثبات نحو الشرق، عله يرى البلاد التي فيها ضريح محبوبه، وهكذا اعتدنا أن نجلس اليوم بطوله، ننظر عبر البحر، محاولين فيما إذا كنا قادرين على رؤية شيء غير الماء، وكان بعضهم أحياناً، يتصور من خلال قوة التخيل، أنهم قد رأوا البلاد، وكانوا على ذلك يدعون الآخرين إليهم، ويطلبون منهم التطلع، وكانوا ينشغلون معهم بنقاش تقوي، حيث يعلن طرف بأنه قد رأى البلاد، وينكر الطرف الآخر ذلك، وكانوا في بعض الأحيان أثناء النقاش يقوم أحدهم بالتراهن مع آخر بأنه كان مصيباً، وكانا يحيلان القضية إلى نظر انسان آخر، كان جالساً على القمة الأساسية، وعندما كان يعطي قراره، كان أحدهما يعطي الآخر زجاجة من الخمرة المالفوسية، أو شيئاً ما آخر تراهننا عليه، وكنا بالوقت نفسه نبحر بتقدم، وكانت هناك ريح طيبة جداً، ولطيفة، ولقد بدا لنا بأن البحر المالح نفسه قد بدأ يتحول إلى عذب، وقد منحنا إبحار طيب، وأن هذا كان بسبب قربه من عذوبة تلك البلاد التي كانت تفيض بالعسل والحليب، وهكذا عبر ذلك اليوم مع الليل، ونتيجة لذلك وصل شهر حزيران إلى نهايته.

هنا انتهى الفصل الثالث

طريقة تقديم وصف الحج في الأرض المقدسة والقدس

أما والآن وقد جلبتني جولاتي، بفضل نعمة الرب، عبر البحر، إلى الأرض المقدسة، سوف أشرع في المستقبل بالحديث عن مسيرة حجنا يوماً فيوماً، وأن أبدأ — كما هو معتاد — كل يوم بالمساء المتقدم، وهكذا بعدما يزور الانسان بعض الأماكن المقدسة، يأتي وصفها بعد ذلك، ومنذ الآن سوف أقوم بوصف جميع الأماكن التي امتد إليها حجنا، والتي زرناها، ولن أمزج أوصافي وأدخل فيها وصف الأماكن التي لم يذهب إليها حجاجنا، ولن أصف جميع الأرض المقدسة، أو الأوضاع القديمة لمدينة القدس، وذلك باستثناء ما أجبر على ذكره من أماكن أنا لم أرها شخصياً، وعلى كل من أراد الاطلاع على أجمل الأوصاف القديمة للبلاد المقدسة، ليقم بقراءة كتاب الراهب بوتشارد — الذي كان من طائفة الرهبان المبشرين، والذي توجد نسخة منه في مكتبة الرهبان الدومنيكان — أو الرهبان المبشرين، في أولم، ومن هذا الكتاب، قام رفيقي الحاج، اللورد ذي المولد النبيل، برنارد فـون بريتنباخ Braitenbach ، الذي كان عميد الكنيسة الكاتدرائية في مينز، بنسخ وصف الأرض المقدسة، حيث أقحم ذلك في كتاب يوميات رحلة حجه.

الفصل الرابع

ويحتوي على أعمال الحجاج في الأرض المقدسة خلال شهر تموز
مع وصف للأماكن المقدسة في القدس وفيما حولها

كان شهر تموز شهر بهجة الحج، فهو الشهر الذي ظهرت في يومه
الأول الأرض الأكثر تبجيلاً، ظهرت إلى الحجاج المذكورة أعمالهم في
هذا الكتاب، فقد أبحرنا بسرعة وتقدم من بحر بامفيليا Pamphylia،
إلى بحر سورية وفينيقيا، وبعدما دفعنا من هناك نحو الجنوب، وصلنا في
تلك الليلة نفسها إلى بحر فلسطين المرغوب به، وما أن بدأ الفجر
بالأضاءة، حتى أضاءت هناك أيضاً البلاد، التي هي أكثر نوراً من
الشمس، وأعني بذلك الأرض المقدسة، التي هي بلاد كنعان، البلاد
التي اسمها أعلى من كل اسم، فما أن رآها رجل المراقبة الذي كان
جالساً فوق القمة الأساسية، حتى انفجر يبكي ويصرخ قائلاً: «سادتي
الحجاج، انهضوا، وتعالوا إلى السطح، وانظروا إلى البلاد التي تشوقتم
إلى رؤيتها بأعينكم، ولدى سماع هذا الصراخ، اندفع الجميع من كل
زاوية من زوايا الغليون، رجالاً ونساء، وشيوخاً وأطفالاً، ومرضى
وأصحاء، وتسلقوا نحو الأعلى، عليهم يرون البلاد، التي من أجلها
تركوا بلادهم، وعرضوا أنفسهم إلى كثير من المصاعب وإلى خطر
الموت، وعلى كل حال بما أننا كنا مانزال على مسافة بعيدة، لم نكن
قادرين على رؤية أي شيء باستثناء البحر، غير أن البحارة قد أعلنوا
أنهم يستطيعون رؤية البلاد، لأنهم كانوا معتادين على البحر، ويمكنهم
التمييز بين السفن واليابسة، حتى وإن كانوا مايزالون على مسافة بعيدة،
وبدأنا نحن أنفسنا نرى القمم ورؤوس الجبال، منبعثة وكأنها خارجة
من البحر.

وكان ملاحونا مايزالون يتشككون حول أي البلاد من الممكن أن تكون هي، فقد قال بعضهم بأنها كانت كبدوكية، وقال بعضهم الآخر بأنها كانت كليكية، وبعضهم قال بأنها سورية الفينيقية، وصرح الشطر الأكبر منهم بأن كبدوكية كانت على جهة اليسار منا، وأنا قد صرنا بعيدين عنها بعدما اجتزناها، وعلى هذا كنا في اتجاه أنطاكية، وأن البلاد التي ظهرت على جهة يسارنا كانت سورية الفينيقية، وأن الذي أمامنا، على بعد مسافة كبيرة، كانت فلسطين، أو فلسطين، المتصلة بالأرض المقدسة، وقد كانت بالفعل كذلك، وعندما لم يعد هناك من شك بأن الذي رأيناه كان الأرض المقدسة، وأن جبالها هي التي كانت أمام أعيننا، عندها أمر القبطان بأن على الناس جميعاً الهدوء، وأكد عن طريق صوت المنادي بأن هذه كانت هي الأرض المباركة، التي فيها جرى الحمل بيسوع المسيح ابن الرب، وفيها ولد، وعاش، وصلب، ومات، ودفن، وقام ثانية من ضريحه في اليوم الثالث، وذلك مانعنه ونعتقد به بثبات، وبناء عليه أخبرنا أنها تواجهنا، وأنه ينبغي علينا أن نقدم الشكر مباشرة لمخلصنا، وأن نغني ترنيمة نعبر بها عن سعادتنا بصوت مرتفع.

وبناء عليه قام الحاجان، اللذان كانا كاهنين، وراهبين، واللذان امتلكا صوتاً جيداً، فسارا على مجارة مقاعد التجذيف حتى موضع السارية، أي إلى المكان الذي جرت العادة على قراءة القداس فيه، وهناك شرعاً معاً يغنيان بصوت مرتفع ترنيمة أمبروز وأوغسطين (Te Deum laudamus) التي شارك فيها جميع رجال الدين الآخرين الذين كانوا بين الحضور، وغنوها كما تغنى في الكنائس، حيث غنى كل إنسان وفقاً للحن الذي يغنى في جوقة موطنه، وأنا لم أسمع قط مثل هذه الأغنية من حيث العذوبة والمتعة، لأنه كانت هناك أصوات كثيرة، وقد جعلها تعدد الأصوات المتنافرة كما لو كانت موسيقى عذبة ومتناسقة، لأن الجميع مثل بعضهم غنوا الكلمات نفسها، لكن الألحان

كانت مختلفة، ومع ذلك تألفت مع بعضها بشكل عذب، وكان شيئاً ممتعاً سماع مثل هذا العدد الكبير من الكهنة يغنون الأغنية نفسها مع بعضهم صدوراً عن السعادة في قلوبهم، وقد كان هناك عدد كبير من الرهبان اللاتين، والسكلافونيين، والايطاليين، واللومبارديين، والغالين، والفرنجة، والألمان، والانكليز، والاييرلنديين، والهنغار، والسكوت، والداشين، والبوهيميين، والاسبان، وكانت هناك أعداد كبيرة ممن تكلم اللغة نفسها، لكنهم جاءوا من أسقفيات مختلفة، وانتموا إلى طوائف دينية مختلفة.

ولقد غنى هؤلاء جميعاً أغنية Te Deum، التي شارك فيها حتى العلمانيون من الحجاج وطاقم الغليون مع بعضهم، وصرخوا عالياً لسرورهم بحظنا السعيد، ونفخ البواقون بصوت مرتفع، وصوتوا بآلات الـ Shawms وواحد منهم بآلات الـ Bogadellus والـ Jon- gleur، وقرعوا على الطبل وعلى الـ Sack but، في حين نفخ آخرون بالزمامير وموسيقى القرب، وفي الوقت نفسه طأطأ بعضهم وجوههم نحو سطح السفينة وصلوا وهم متوجهون نحو الأرض المقدسة، وبكى آخرون سروراً وهم يغنون، وهكذا غنى الجميع أغنية جديدة أمام عرش الرب، وغنت الأرض والبحر مع أصواتهم، وبدأ لنا ونحن نغني أن غليوننا قد انحنى تحت أقدامنا وأبحر بسرعة أكبر، شاقاً الأمواج بحرية أعظم، وقد ملأت الريح الشراع تماماً، وتحركت المياه بوساطة الريح، فأرسلتنا بسرعة أعظم، وعندما فرغنا من أغاني شكرنا، صوت البواقون بالدعوة للغداء، وجعل كل إنسان، وهو مسرور، نفسه مستعداً ليجلس إلى المائدة.

وحدث أن واحداً من الكهنة، وكان رجلاً ثقيلاً ومحترماً، ومتقدماً بالسنين، وكان ينام في مخدعه على يميني، كان مسرعاً نحو مخدعه، بعد الغناء، وعندما لمست قدمه الدرجة الأولى من السلم، التي كانت ناعمة

جداً بوساطة العمل الدائم عليها، انزلق، وسقط بشكل عنيف نحو الأسفل في داخل القمرة، وتمدد هناك وكأنه ميت، وبناء عليه أسرعنا جميعاً لمساعدة أخينا، وكان مهشم الرأس، مرتجف الأطراف، فحملناه إلى فراشه على أنه كان ميتاً، لكن بعد مضي عدة ساعات عاد إلى وعيه، وقد ربطت جراحه وعولج طيباً، وبعد مضي عدة أيام فيما بعد صار أحسن .

وبعد الغداء وقفنا على جوانب السفينة، وكان بإمكاننا رؤية الجبال فقط، التي بدت لنا جرداء وبضياء، ورأينا بعد الظهر جبالاً عالية نحو الشمال، كان بينها وبين أنفسنا، وعلى مقربة من البحر جبل الكرمل، في مقاطعة فينيقيا، وعندما حددت به، تذكرت كيف أن النبي المقدس الإشع قد صلى على ذلك الجبل من أجل المطر، وذلك عندما لم تمطر لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر، وكيف أنه وهو يصلي، ارتفعت غيمة صغيرة من هذا البحر، تشبه طبعة قدم انسان، هطل منها مطر عظيم، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الثالث — الاصحاح ١٨ .

وفكرت أيضاً، كيف أن الملك شاؤول بنى فوق بناء مقبب على ذلك الجبل قوس نصر وفق طرائق الشعوب نقش عليه أخبار انتصاراته، ورفعها عالياً إلى حد يمكن رؤيته من قبل الذين يرحلون بكل من البحر والبر، وبذلك أغضب الرب كثيراً، وذلك حسبما يمكن قراءة ذلك في الاصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الأول، وتساءلت أيضاً لماذا شبه العريس في الاصحاح السابع من أغنية سليمان رأس عروسه بهذا الجبل قائلاً: «رأسك عليك مثل الكرمل» (نشيد الانشاد ٥/٧)، ومن هذا الجبل وبسبب كثرة خيراته، أطلق على البلاد المقدسة كلها اسم الكرمل، كما جاء عند إرميا الاصحاح الثاني: ٧، قوله: «وأيتت بكم إلى أرض الكرمل» (في النص العربي: إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها).

ومن هذا الجبل حصل الرهبان الكرمليون على أصلهم، وفي العصور

القديمة امتلكوا ديراً كبيراً هناك، وتأسست هذه الطائفة من قبل واحد اسمه ألبرت، كان بطريك القدس، في العصر الذي استولى فيه المسيحيون اللاتين على القدس، وأمرهم ألبرت المتقدم الذكر بارتداء رداء كهنوتي ليكون ثوباً خارجياً، وأن يكون من الحرير مع عدة خطوط أفقية عريضة لونها رمادي، وقالوا بأنهم فعلوا هذا لأن النبي إلياس قد لبس ذلك، وهذا أمر، لا يمكن — على كل حال — البرهنة عليه لا من النصوص الشرعية المقدسة، ولا من أي مصدر موثوق، وقام بعد أمد قصير البابا هو نيروس الثالث، فغير هذا الرداء الكهنوتي المخطط إلى رداء أبيض وأكد وجود الطائفة ووافق عليها تحت اسم «طائفة العذراء المباركة مريم الكرملية»، وهم يقولون بأن سلطان مصر قد اعتنى بهذه الطائفة وأولاهها اهتمامه بمنحها احتراماً زائداً، ورعاية، مع مساعدات مالية، ومنافع أخرى، من أجل ذكرى النبي إلياس، الذي يقدره المسلمون كثيراً، غير أنه فعل ذلك طالما كانوا يرتدون ثوبهم المتقدم ذكره، لكن عندما غيروه طردهم من بلاده، ومن جميع ممالكه، وبناء عليه أرغموا على مغادرة جبل الكرمل، وعندما حدث ذلك انتشروا الآن في الخارج في جميع الأراضي المسيحية، ولولا أن الكرمليين لم يتخذوا الرداء الأبيض لكان بإمكانهم الإقامة في جبلهم حتى هذا اليوم بدون معيقات من قبل المسلمين، لأن الأردية البيضاء لها مكانة سامية بين المسلمين، حيث لا يجوز لأي مسيحي استخدامهم، ولهذا السبب عندما كان الرهبان المبشرين يرتدون الأزياء البيضاء، جرى طردهم من حقل الدم، الذي شروه من السلطان مقابل كثير من الذهب، وفي هذه الأيام، إذا ما أقدم الرهبان الفرنسيون على لبس الأردية البيضاء، لن يدعهم المسلمون يبقون في القدس.

ويوجد عند سفح جبل الكرمل، جدول قيشون، فهناك قتل النبي إلياس أنبياء بعل، وذلك حسبما ورد في الاصحاح الثامن عشر من سفر

الملوك الثالث (الأول)، وعند سفحه أيضاً هناك مدن صور، وصيدا، وعكا أو بطوليس، وهي مدن عظيمة نقرأ عنها كثيراً في الكتابات المقدسة، وأخيراً تحولنا بأعيننا عن الشمال، ووجهناهن نحو الشرق، فكان أن رأينا اليهودية مع جبالها، وفوق كل شيء جبل مودين، الذين دفن المكابيون عليه، وقد بنى سمعان فوق قبورهم بناء كان عالياً لكي يشاهد عن بعد، وكان من حجارة مصقولة من الأمام ومن الخلف، وأقام هناك سبعة أهرامات، ووضع من حولهم أعمدة كبيرة، وكان منقوشاً على الأعمدة صور أسلحة لتكون ذكرى دائمة، وإلى جانب الأسلحة جرى نقش صور سفن حتى يمكن مشاهدتها من قبل الذين يبحرون في البحر، وذلك حسبما جاء مكتوباً في سفر المكابيين الأول — الاصحاح الثالث.

وأشرت لهذا الجبل وإلى الأماكن الأخرى التي أعرفها إلى موالي، عندما كنا مانزال في البحر، وكنا في الوقت نفسه نقرب من الأرض المقدسة، والدخول إلى ميناء يافا، والرسوفيه، حيث وجدنا أن غليون المعلم أوغسطين مع حجاجه لم يصل بعد، وقد سررنا لذلك سروراً عظيماً، حيث لو أن حجاجه نزلوا إلى اليابسة لجرى إهمالنا، وعندما كنا غير بعيدين كثيراً عن غليون المعلم أوغسطين، تحرينا ووجدنا القعر، وتركنا مرساتينا وأنزلناهما، ووضعنا سفينتنا بعيداً عن صخور أندروميديا، التي تحرس ذلك الميناء، ولم نتجرأ على الاقتراب كثيراً من الشاطئ، خشية أن نثير غضب المسلمين، لأننا لم نكن قد تسلمنا جواز عبور وأمان منهم، ولكي يعرف المسلمون الذين كانوا يجرسون ميناء يافا وهم من فوق الأبراج، أننا قدمنا مسلمين، أنزلنا عارضة الشراع الرئيسية، وطوينا شراعنا الرئيسي، ولم نظهر أية زينة، كما اعتدنا أن نفعل عندما كنا نحل في موانئ أخرى، ولم نرفع أية أعلام، كما لم نطلق أي مدفع، ولم ننزل أي قارب، ولم نزين غليوننا بأي شكل من الأشكال،

كما لم ننفع بأبواقنا، أو نفرنا، أو بمزاميرنا القرنيه، بل تصرفنا مثل قوم أدباء متواضعين ودافعين للجزية إلى السيد السلطان، حيث كنا بحاجة إلى جواز وأمان منه، وكنا مثل أسرى وعبيد لدى المغاربة والمسلمين، ورسونا على بعد من أبراج يافا ننتظر تكرمهم علينا.

وكان المعلم أوغسطين، قبطان الغليون الآخر، قد بعث رسولاً إلى رجال الأبراج في يافا، حتى يتفقوا معهم من أجل الحصول على جواز وأمان لغليونهم فقط، لكن عندما فهم المسلمون وأدركوا أن هناك غليون آخر كان قادماً إلى هناك مع حجاج، كانوا على غير استعداد للاصغاء للمعلم أوغسطين وطرده من عندهم، وأرغموه على العودة إلى ظهر غليونهم حتى يدخل الغليون الآخر، الأمر الذي كان معاكساً تماماً لما كان في تفكير القبطانين، لأن كل واحد منهما نوى أن يقود حجاجه حول الأماكن المقدسة لوحدهم، بسبب الشكاوى والمشاعر العدائية التي حملها كل واحد منهما تجاه الآخر، وعلى كل حال رغب المسلمون، وأعدوا أنفسهم للاصغاء إلى رغبات حجاجنا، أكثر من اهتمامهم بهذين الرجلين المتخاصمين، ذلك أن الحجاج في الغليونين كانوا أصحاب موقف واحد، ورغبوا في أن يؤخذوا جميعاً معاً لرؤية الأماكن المقدسة، وهكذا انتهى اليوم الأول من تموز، ونمنا في تلك الليلة على ظهر الغليون لأننا أرغمنا على فعل ذلك.

وفي اليوم الثاني من تموز الذي كان عيد زياره مريم العذراء المباركة، أنزل ربانة غليوننا قارباً إلى البحر، قبل اشراق الشمس، وبعث القبطان بعضاً من خدمه، ممن كان قادراً على القيام ببعض الأعمال، مثل التجذيف بالقارب إلى الشاطئ، والحصول على جواز المرور والأمان، وجرى فعل الشيء نفسه من قبل المعلم أوغسطين، أي القبطان الآخر، وكان لدى أوغسطين هذا عبد غليون من أهالي القدس، وكان مسلماً معمداً، وقد بعث به حتى يتدبر أعماله له، وهكذا ذهب خدم القبطانين

إلى الرملة، وأبلغوا عن وصول الحجاج إلى حاكم الرملة، وذهبوا بعد ذلك إلى القدس، وأوصلوا الأخبار إلى الأب المتولي لدير جبل صهيون، ورجوه أن يقوم من دون تأخير بالحصول مباشرة على جواز السفر والأمان من حكام القدس، والرملة وغزة، وأن يجلب الترجمان كالينوس Calenus مع بعض المماليك المسلمين، وأن يرسل حميراً، وسائقي حمير، وكل شيء محتاج لجلب الحجاج إلى هناك، بأقصى مايسطيع من سرعة، وأن يقدم هو شخصياً ويجليهم إلى الشاطئ، وفي الوقت نفسه، وفيما هذه الأشياء تصنع، بقي الحجاج على ظهري سفينتيهما ينتظرون الوقت الذي سيتمكنون فيه من مغادرتهم.

وفي ذلك اليوم نفسه، وفي الساعة التي كان من المعتاد إقامة القداس فيها، دعوت الحجاج الألمان للاجتماع معاً، وألقيت فيهم موعظة حول حج مريم العذراء المباركة، الذي قامت به بعد زيارتها وذلك عندما ذهبت إلى المنطقة التلية من اليهودية (لوقا: ١/٣٩) واستخرجت من حجها التقوي جداً، أحكاماً لحجنا، ولقد أوصيتهم بها، وأطريت الحج إلى القدس، لكنني مدحت فوق كل شيء الزيارة إلى جبل سيناء، وقد رغبت باثارة بعضهم للقيام بذلك، خشية أن يكونوا خائفين، لأنني قد عزمت على الذهاب حاجاً إلى سيناء، لكنني لم أكن قد أخبرت أحداً بذلك، وكنت أخشى كثيراً أن لا يكون بين هذه المجموعة الكبيرة من الحجاج أحداً، يرغب بالذهاب إلى سيناء، مثلما حدث لي في حجي المتقدم، وهكذا انتهى هذا اليوم، ومجدداً أمضينا الليل على ظهر الغليون.

وفكرت في اليوم الثالث، بأن الوقت قد حان وبات مناسباً لي، حتى أخبر موالي عن نيتي بالقيام بالحج إلى جبل سيناء، وبناء عليه، دعوت موالي الأربعة على انفراد، بعيداً عن جميع العاملين، وقلت والدموع تنهمر من عيني، وبقلب حزين، وبهذوء: «انتبهوا واصغوا إليّ سادتي الكرماء، وأبنائي الأكثر محبة، وإخواني، ورفاقي، بأنني أعترف أنه

بلطفكم قد جلبت إلى هاهنا، وأنه بفضلكم قد حصلت على الإذن بالقدوم، ولقد جرى من قبلكم دفع جميع نفقاتي طوال هذا الوقت كله، وأنا شاكر جداً وبلا حدود مساعداتكم لي، ومع ذلك هناك أمر واحد أقلقني كثيراً، وجعلني منشغلاً وغير مستقر، ذلك أنني أملت عندما غادرنا بلادنا، أن يقوم واحد منكم على الأقل، إن لم تكونوا جميعاً، بالارتحال أبعد، حتى جبل سيناء إلى القديسة كاترين، وذلك بعدما تكونوا قد فرغتم من زيارة الأرض المقدسة، وأن أستطيع مع الذي سيرافقني بامتلاك الفرصة بالذهاب إلى زيارة هذه الأماكن المقدسة كثيراً، لكن ويا للأسف لقد خاب ظني فيما يتعلق بهذه القضية، علاوة على ماتقدم، أنا لم أتجرأ على سؤالكم منحي الإذن بترك جماعتكم، ذلك أنه ليس من واجبي فعل ذلك، لأنكم سوف تواجهون في طريق عودتكم مخاطر أعظم مما واجهتموه في قدومكم إلى هنا، وإذا ما تفضلتم عن طواعية منكم منحي الإذن، سوف ألقى هذا الاحسان منكم وعده أعظم هدية مقبولة، وإذا رفضتم منحي ذلك، سوف أعود معكم عن طواعية حتى البندقية، وفي البندقية سوف أسقط على أقدامكم يا أصحاب السعادة، وأرجوكم منحي الوسائل للعودة إلى هنا، هذا ولسوف لن أعبّر جبال الألب ثانية قبل أن أتسلق جبل الرب، وحورب، وسيناء، وأن أزور قبر العذراء القديسة كاترين، لأنني منذ زمن طويل مضى ربطت نفسي بعهد في أن أفعل هذا.

وعندما سمع موالي ما أنويه، ورأوا أنني كنت جاداً، أخذوا بعض الوقت لتقدير ذلك، وبعد مضي مدة ساعة استدعوني للعودة إليهم، ومنحوني إذناً، وقالوا: «وخشية أن تظن أنك لم تكن محبوباً من قبلنا كشماس لنا، سوف نقدم لك برهاناً عن حبنا لك عندما نفرق ولسوف نقدم لك، ونغطي نفقاتك، وعلى كل حال، إذا ما أخفق هذا الحجج، أو تراجعتم عما عزمتم عليه، سوف تبقى في جماعتنا، كما كنت من قبل،

ولسوف نعيدك إلى الوطن ثانية»، وعندما سمعت هذا شكرت موالي بكل الاحترام الصحيح والذي يستحقونه، وأعلنت أنني اعترافاً بجميلهم سوف أبقى إلى الأبد خادهم، ووعدتهم أيضاً أنني سوف أقوم بهذا الحج، وكأنني حرّضت من قبلهم لأن أفعل ذلك، وأنني أرسلت من قبلهم، وفي الواقع كنت مسروراً لدى تسلمي الإذن منهم في أن أقوم بما أنويه، مثلما سررت لدى وجودي في أولم، وتسلمي الإذن بالذهاب إلى القدس.

وهكذا بعدما حصلت بالنسبة لهذه القضية على الذي طلبته، أخذت أتجول في الغليون على جميع الفرسان الذين أعرفهم، لأرى فيما إذا كان أيّاً منهم كان ذاهباً للحج إلى القديسة كاترين، وقد وجدت خمسة فرسان نبلاء متتخين، كانوا مخفين لهذه النية داخل صدورهم، وبعد تناول طعام الغداء غادرت الغليون، وذهبت في القارب الصغير إلى غليون المعلم أوغسطين، وكأنني راغب بزيارة بعض معارفي هناك، وعندما صرت بينهم، عملت استقصاء سرياً، من خلال الرجل الذي كنت أعرفه بشكل جيد، حول الحج إلى جبل سيناء، ولقد أخبرني بوجود إثني عشر حاجاً على ظهر ذلك الغليون قد تعهدوا وأقسموا على إنجاز ذلك الحج، وكان واحداً منهم، الذي هو الرئيس هو اللورد جون أوف سولمس Solms، لكنهم كانوا لا يودون أن يتتشر هذا في الخارج، بل أن يبقى ذلك سراً، لأن الحجاج الذين ينوون زيارة جبل سيناء، يحافظون دوماً على سرية نيتهم، وذلك بقدر ما يستطيعون، حتى لا يضحك أحد عليهم، إذا لم يتمكنوا من إنجاز رحلتهم إلى هناك.

وبذلت الآن جهداً عظيماً لأعرف مباشرة، فيما إذا كان هناك أي إنسان ذاهب إلى زيارة جبل سيناء، لأنني أعرف بالتجربة، أنني مالم أفعل ذلك، طالما نحن مانزال على ظهر السفينة، سوف يكون من الصعب كثيراً أن أتوصل إلى معرفة الصديق حول ذلك، عندما نكون في

الأرض المقدسة، أوفي القدس، لأن الحجاج يكونون في الأرض المقدسة مشغولين كثيراً، ونادراً — إن لم يكن مطلقاً — ما يلتقون مع بعضهم في الوقت نفسه، كما يكونوا منشغلين بعقولهم، ولهذا لولا أنني تدبرت هذه القضية مع موالي عندما كنا مانزال على ظهر السفينة، لكنت أنا كلياً بحاجة إلى نفسي، وعندما عرفت كيف هي الأوضاع على ظهر غليون المعلم أوغسطين، عدت مسروراً إلى غليوننا، وكنت مبتهجاً لأنني وجدت مرافقين، لكن سروري سرعان ماتحول إلى أسف، لأنني ماأن غادرت القارب، وصرت على ظهر غليوننا، وفيما أنا واقف أتحدث إلى بعض الناس أمام القيدوم، سألني القبطان الدخول إلى قمرة الخاصة، حيث وجدت جالساً فيها معه مملوكاً مسلحاً، جاء في قارب من يافا، جالباً معه أخباراً، أخبر بها القبطان، وقد رغب القبطان في أن أسمعها، وقد قال المملوك بأن البدو العرب قد دمروا دير القديسة كاترين القائم عند سفح جبل سيناء، وأنهم قتلوا جميع الرهبان هناك، وبناء عليه، من غير الممكن القيام بالحج إلى جبل سيناء في هذا العام.

فضلاً عن هذا، جاء في ذلك اليوم بعض المسلمين من المنطقة، جالين لنا أرغفة من الخبز الجديد، وماء جديداً، وعنباً، باعوه لنا، وهم أيضاً أخبرونا بالاشاعات نفسها عن العربية، وعندما سمعت هذه الأخبار الشريرة، انزعجت كثيراً لهذه الانتكاسة، لكن بعدما فكرت بالقضية واستعرضتها تشجعت، لأنني شككت مباشرة، من خلال خبرتي، بأنها كانت مصنوعة من قبل القبطانين وأنها كانت كذباً نشره وعمما بين الناس، من أجل أن يخاف الحجاج، ومن ثم يتخلون عن نياتهم بالقيام بالحج إلى جبل سيناء، لأن القبطانين يفقدان اثنتي عشرة دوقية مقابل كل حاج يذهب إلى جبل سيناء، وهذا بالطبع عظيم الأذى لشريعتهم، ولهذا اخترعا هذه الكذبة البارعة، واستعانوا بالمسلمين الكذبة، وبالمرتدين المماليك لدعمهما في زيفهما.

ولذلك أوليت كلامهما قليلاً من الاهتمام، وطمأنت رفاقي، لأنني عرفت زيف ما تحدث به القبطانين حول هذه القضية، ولهذا قررت بشكل حاسم، أنه حتى ولو كان ماقالاه صدقاً، أنا ذاهب على كل حال إلى جبل سيناء، لأنه حتى لو كان البدو العرب قادرين على هدم دير القديسة كاترين ونهب ضريحها وتشعيثه، إنهم لن يتمكنوا مطلقاً من هدم جبل الرب أو إزاحته من مكانه، وكذلك جبلي حورب وسيناء، الذين كنت شخصياً متشوقاً إلى رؤيتهم، أكثر من رؤية ضريح القديسة كاترين، ولهذا شغلت طوال ذلك اليوم نفسي في محاولة لإنهاء هذه القضية، وكنت خلال هذا الوقت هادئاً، لأنني عرفت أننا ما أن ننزل من الغليون، لن نجد الوقت للبحث فيها.

وبدأت في ذلك اليوم للمرة الأولى في تذوق فواكه الأرض المقدسة، وشرب مائها، وكان ذلك المملوك الكذاب المتقدم الذكر، أي الذي تولى نشر الأخبار في غليوننا، قد جلس في القلعة مع القبطان وآخرين، يشربون الخمر، على الرغم من تحريم شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) لذلك، وغدا سكرانا إلى حد أنه لم يعد قادراً على الخروج من الغليون والنزول إلى القارب الصغير، لفقدانه لوعيه، وهكذا بقي هذا الوحش اللعين على ظهر الغليون، وأمضى الليل معنا.

وفي اليوم الرابع، حدث عندما أشرقت الشمس، أن قامت الأسماك بالسباحة على وجه البحر، وأظهروا أنفسهم على الوجه أكثر من عاداتهم، ولست أدري ماهي الأحوال التي دفعتهم إلى هذا من خلال الهواء أو الماء، أو من خلال عناصر أخرى، ولقد رأينا هناك أسماكاً رائعة، حيث كان بعضها كبيراً، ومستديراً مثل مروحة الغريفة، وكان لبعضها رؤوس مثل رؤوس الكلاب مع أذنين طويلتين نحو الأسفل، ورأينا دلافين كثيرة في ذلك الصباح، وقد رأيناهم بوضوح أعظم من أي وقت مضى.

ورأينا بعد الغداء حشداً من المسلمين المسلحين جاءوا يمتطون الخيول والبغال، ونصبوا خياماً وأكواخاً أمامنا على الشاطئ، وحول أبراج يافا، وفوق الجبل، وعندما رأى القبطانان هذا، ذهبوا نحوهم، مفترضين بأن سادة المدن وحكامها قد جاءوا، لكن هؤلاء كانوا الخدم فقط، قد أرسلوا سلفاً لإعداد المكان، ذلك أن السادة المغاربة كانوا سيصلون في الغد، وركض هؤلاء الرجال نحو الأمام ونحو الخلف طوال النهار، على الشاطئ، مقابل المكان الذي رسونا فيه، واشتبك أحدهم مع الآخر عن طريق التدريب، وركبوا بغالهم، وساقوها وكأنهم كانوا يتحاربون، ورأينا أيضاً الكهوف التي هي فوق شاطئ البحر على طرف الجبال، والتي كنا سنساق إليها، ورأينا المسلحين طوال اليوم يذهبون إليها باستمرار ويخرجون منها، وتساءلنا عما كانوا يفعلون في هذه مساكننا المظلمة، ولم نستطع أن نخمن الذي كانوا يعملونه في هذه الكهوف، حتى اكتشفنا، مراغمة لأنوفنا، أنهم قد لوثوا تلك الأماكن بالغائط، كما سيتضح فيما بعد.

واجتمع هناك في اليوم الخامس حشد عظيم من الرجال المسلحين، حتى أن وجه الأرض تغطى بهم، وتساءل قبطانانا وجميع البحارة وعبيد الغليون، عن معنى جمع هذا الحشد الكبير من الناس، وقد انزعجوا لأنهم لم يروهم من قبل يأتون بمثل هذه القوة، وخشوا من أن يكون هناك شرٌّ ما قيد الإعداد لنا، لوجود الحكام الثلاثة الأقوياء هناك بأشخاصهم مع أتباعهم المسلحين، وهؤلاء هم: حاكم القدس، وحاكم غزة، وحاكم الرملة، وإليهم توجه القبطانان أخذين معها هدايا أملوا بوساطتها أن يكسبوا احسانهم، وقد حيوهم، وعرضوا هداياهما، وتوسلا من أجل نزولنا، حيث طلب ذلك كل قبطان إلى حجاجه، وقد تسلموا هدايا القبطانين، ووعدوهمما بالتعامل معنا باخلاص.

وسأل القبطانان سادة المغاربة، عن السبب الذي دفعهم للتقدم مع

مثل هذه القوة، وعن الحاجة التي توفرت هناك لجلب حجاج غير مسلحين إلى البلاد مع هذا العدد الكبير من الرجال المسلحين، وعلى هذا أجابوا بأن البدو العرب قد جاءوا إلى البلاد، خارجين من الصحراء بأعداد كبيرة، وقد نهبوا كل من واجهوه، ولم يوفروا أحداً إلا الذين كانوا أقوى منهم أنفسهم، وأنهم قادوا في هذا الوقت بالذات حشداً كبيراً إلى الجبال، ويعتقد كثيرون بأنهم قد حشدوا هذه الجموع مع بعضها بسبب الحجاج المسيحيين الذين كانوا قادمين، ولهذا السبب قدموا بالقوات التي استطاعوا جلبها، لكي يأخذوننا إلى القدس بسلام.

وقال بعضهم الآخر بأن هناك سبب آخر إلى جانب هذا السبب، يعلل اجتماعهم مع بعضهم، وقد أخبرونا بأنه في ربيع هذا العام، كانت هناك عاصفة عنيفة في منطقة مدينة مكة، حيث يقوم معبد ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم)، وفي أثناء تلك العاصفة، سقطت صاعقة من السماء أحرقت وطحنت ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم) وحولته إلى طحين مع جسده (صلى الله عليه وسلم) (كذا)، وقد رأى أتباعه بما حدث شارة بأن شريعته غير المقدسة كثيراً قد انتهت، وخافوا من أن يتمكن المسيحيون من السيطرة عليهم والتحكم بهم، ولهذا قدموا مع قوات قوية خوفاً من أية محاولة يقوم بها الحجاج، وكلا السببين كان صحيحاً، لكن السبب الثاني حول تدمير جسد محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يحدثونا به بشكل مكشوف، بل أخبرنا به بشكل سري واحداً من المماليك.

وعلى كل حال خشية من أن يفقد الذين يتبعون شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) إيمانهم، ويأسون ويتخلون عن الحج الذي يقومون به كل سنة إلى مكة، اخترع رجال الدين لديهم الزيف التالي: فقد قالوا بأن الله كان شديد الغضب عليهم هذا العام، وكان على وشك تدميرهم تدميراً كاملاً، لكن محمداً (صلى الله عليه وسلم) تدخل من أجلهم،

والتمس من الله تحويل غضبه عنهم، وأن تنزل الشرور به شخصياً، وأصغى الله إلى دعائه واستجاب وبعث صاعقة من السماء أحرقت جسد محمد (صلى الله عليه وسلم)، ونشروا هذا الزيف بين الناس، والحج الآن إلى مكة أكثر عدداً، والاقبال عليه أعظم مما كان من قبل. (*)

وفي الوقت نفسه، عندما كان قبطانينا يتحدثان مع السادة، رأينا حشداً جديداً قادماً إلى شاطئ البحر، ولم يكن في هذا الحشد خيول، بل حمير فقط، جمعت من قرى مختلفة من أجل استخداماتنا، وجاء مع هذا الحشد من الحمير عدة رجال معروفين من القدس، مثل الاثنين الكاليني Calini اللذان هما مترجمانا الأكبر والأصغر، والأب المحترم المسؤول عن دير جبل صهيون مع اثنين من رهبانه، وكان معهم بعض التجار المسيحيين De cinctura (الشرقيين الذين يرتدون مايميزهم عن اليعاقبة وعن الطوائف الأخرى).

نزول الحجاج من الغليون ودخولهم إلى الأرض المقدسة

كانت رحلتنا التي تشوق إليها عقلنا وتطلع إليها، الآن على وشك الابتداء، فبعدما تحدث القبطانان مع الحكام، ونالا موافقتهم على وجوب احضارنا إلى الشاطئ من غليونينا، ومضى إلينا في القارب، الأب المبجل بولص، رئيس الكنيسة اللاتينية في الشرق، والمسؤول عن دير جبل صهيون مع راهبيه، وكذلك مع كالينوس الأكبر، ومسلم كان رئيس مشفى للحجاج في القدس، وقد جلسوا مع قبطاننا على القيدوم، وبعدما اجتمعنا كلنا، قام الأب المسؤول عن الدير، الذي كان رجلاً محترماً ومتعلماً، وله لحية طويلة، قام بتوجيه التحية إلينا بلطف وبشكل

* — استخدم الرحالة أثناء حكيه لهذه الأقصوصة بعض العبارات النابية، فحذفتها، وتبرهن هذه الأقصوصة أن عقلية رجال الدين الكاثوليك بقيت كماهي مغرقة بالتعصب والجهل، حيث انعدم التمييز بين مكة والمدنية، وتغيب الحد الأدنى من الفهم للإسلام.

منمق باللغة اللاتينية، ورحب بنا، وحشنا على أن نكون أتقياء، وأن نتحلى بالصبر، وأن نكون نموذجيين في سلوكنا، ووعدنا أنه سوف يعطينا بالرملة الأحكام التي ينبغي أن نقيّد أنفسنا بها، أثناء إقامتنا بين المسلمين في الأرض المقدسة.

وحيانا بالطريقة نفسها كاليُنوس، ترجماننا، وكان ذلك باحترام، وحرّم علينا حمل أي نوع من الأسلحة — سواء أكان سيفاً أم قوساً — خارج السفينة، بل أن نذهب غير مسلّحين كما قدمنا حجاجاً، وبعدما قال هذا، ذهب الأب المسؤول عن الدير مع راهبيه وكاليُنوس إلى القارب، وطلبوا منا الاسراع والاستعداد للحاق بهم، وكان الوقت ساعة الغداء، ولدى دعوة الحجاج إلى الغداء، أكلنا جميعاً وشرّبنا بسرعة، حتى نتمكن من النزول بشكل أسرع إلى الأرض المقدسة، وفي أثناء الغداء، قدم جميع موظفي الغليون واحداً بعد الآخر، وانتقلوا من حاج إلى آخر، بكؤوس من الفضة، وطلبوا عطية العرفان بالجميل، وهو ماندهوه مال الشراب، وطلبوا بذلك بوقاحة، وإذا مارفض انسان منحهم، قالوا بأنهم لن يدعوه ينزل بالقارب إلى الشاطئ،

وثار اضطراب كبير على ظهر الغليون بسبب تسولهم الوقح والذي لم يعرف الحياء، وعندما انتهى هذا الاضطراب، ودفعنا عطيتنا بالعرفان بالجميل، أعددنا أنفسنا لمغادرة المركب، وأخذنا معنا قارورتين صغيرتين من الخمرة، وأخفيناها في حقيبة، خشية أن يراها المسلمون، لأنهم لا يسمعون بحمل الخمرة بشكل مكشوف، وإذا مارأوا خمرة يقومون بكسر القوارير إذا كانوا قادرين، وأخذنا بحقائبنا جنباً ولحماً مدخناً، وجرارنا وملابس حجننا وأدواته، وخرجنا من القمرة إلى القيدوم، ومن هناك نزلنا في القارب، ومضينا فيه نحو الأرض المقدسة، ونحن نغني ببهجة عظيمة، وبصوت مرتفع *In Gottes Nahmen fah ren wir* الخ، حسبما ورد في ص ٩٧.

ولم يكن من الممكن سماع أغنيتنا هذه من قبل المسلمين على الشاطئ، لأنه قام بيننا وبين الشاطئ صخور أندروميديا، التي يضربها البحر بصوت مرتفع وحاد، كما أن أغنيتنا لم يكن بالامكان سماعها بسبب الضجيج والصخب الصادر عنها.

وعندما وصلنا إلى قرب هذه الصخور، وبينما نحن نمر من بينهم من خلال الأمواج التي تضربهم، أصبنا برذاذ الماء وتبللنا، ونجونا على كل حال من الاصطدام بالتتوءات الحادة، الأمر الذي كنا نخافه، ووصلنا إلى الشاطئ ونزلنا، وعندما وطئت أقدامنا الأرض المقدسة، ألقينا بأنفسنا أرضاً على وجوهنا وقبلنا الأرض المقدسة مع كثير من التقوى، وبمجرد ملامستنا للأرض المقدسة تلقينا غفراناً مطلقاً وتحليلاً من الذنوب، الأمر الذي قررت وضع علامة له في المحصلة مثل هذه (++) حيث جاء وضع الصليب الأول ليعني غفراناً لمدة سبع سنوات، لكن بوجود صليبين فهذا يعني غفراناً مطلقاً، يزيل كلا من الاستغفار والذنوب، ويقال أيضاً الصليب الأول قائم من أجل الغفران من الذنب، والثاني للغفران بعد التوبة.

وعندما فرغنا من صلاة شكرنا، صعدنا من قلب البحر، إلى الأرض المرتفعة، وذلك فوق صخور منزلقة، البحر مطوق بها هناك، وهي تشكل شاطئه، ووقف فوقنا الأب المسؤول عن دير جبل صهيون مع راهبيه ومع حكام البلاد، وشيوخ المسلمين والمغاربة، وكذلك مع كاتب، وقد اصطفوا على الجانبين، بحيث يحتاج الحجاج إلى المرور من وسطهم، ولم يكن بإمكان حاجين المرور معاً من بينهم، بل واحداً تلو الآخر، كما أنهم لم يسمحوا لنا بالمرور بشكل متواصل، بل ألقوا نظرة على كل انسان، ونظروا إليه عن قرب، وطلبوا اسمه وأم أبيه، وكان الكاتب يدون الاسمين معاً في وثائقه، وكنت أعلم كم يسبب اسمي «فيلكس» من مصاعب بالنسبة إلى لغتهم، فقد أرغمت في حجي الأول

وفي حجي هذا على تكرار اسمي عدة مرات، حتى آنذاك لم يكن بإمكانهم لفظه أو كتابته من دون وضع بعض علامات الادغام الأجنبية أمامه، وترداد مقاطعه وحروفه، بحيث أن لأقول «فيلكس»، بل كلمة أخرى في مكانها أنا لا أستطيع لفظها، وقمت فيما بعد بالبحث بدقة أكبر حول الصعوبة هذه المتعلقة باسمي، ذلك أنني صرت صديقاً لواحد من المسلمين هو كالينوس الأصغر، الذي كان يسألني في بعض الأحيان باللغة الإيطالية أن أخبره باسمي، لكن عندما أخبرته لم يستطع بأي حال من الأحوال لفظه، بل قال كلمة قبيحة بدلاً عنه، وقد اندهشت تجاه ذلك، لأنني رأيت مدى براعته باللغة الإيطالية.

والآن بعد ماجرى تدوين اسم كل حاج مع اسم أبيه، كان هناك بعض المسلحين مرتبين للامساك به وجره إلى مدخل مقر مظلم ومنخفض تحت قوس متهدم، وقد رموه مثلما اعتاد الرجال على رمي الشاة في داخل اصطبل من أجل الحليب، ويوجد في هذا الكهف سبع سنوات مغفرة (+)، يحصل عليها الحاج إذا مادخل إلى الكهف بروح تقوية، وتعرف هذه الكهوف باسم زنانات القديس بطرس، ومن أجل الحصول على هذا الغفران، وغفرانات أخرى كثيرة، قام عدد كبير من الحجاج بالاعتراف أمامي، على ظهر الغليون، واعترف بعضهم هنا، ونحن وقوف على شاطئ البحر، وعندما دخلنا إلى هذه الكهوف، وجدنا كل موضع سنقيم فيه ملوث بشكل قبيح، وقذر بسبب القاذورات، ولم يكن هناك مكان يمكن الجلوس عليه، إلا فوق القاذورات، ولهذا وجد كل واحد منا نفسه مرغماً على تنظيف موضع يتمدد عليه بجسده، وأن يزيح القاذورات إلى وسط الغرفة بقدمه، ونتيجة لهذا قام في وسط مكان إقامتنا كومة كبيرة من القاذورات والنجاسات.

ورتبنا أنفسنا على محاذة الجدران حول الغرفة كلها، مثلما فعلنا في

الغليون، ولقد تمددنا فوق أرض عارية ورطبة، ويا للهول، كم هو نزل تعيس، وكم هي ضيافة ضئيلة، وكم هو مقرر قذراً ولولا أن الحاج كان تقياً، اعتاد على عقد حديث مع الرب، وكان يشكو بصبر تقوي، أو بالحرى كان مندهشاً مستغرباً وهو يقول: «أيها الرب يسوع، بأي ضيافة غريبة استقبلت حجاجك، وضيوفك في أرضك المقدسة، الذين قدموا من وراء البحار، ومن خلف جبال الألب، ومن الأجزاء النائية من الأرض، حتى يمثلوا بأشخاصهم في بلاطك، لكي يبدو احترامهم لك، وليقدموا الولاء لك مثلما يفعل الفرسان مع ملكهم، يائسوع البالغ القداسة، أو لم يكن من المتوجب عليك أن تمنح الذين تعبوا كثيراً من جراء الرحلة الطويلة جداً، وأدميت أقدامهم بعد الجولات البعيدة، فراشاً أفضل من الذي وجدوه بين القاذورات المقيتة للكفار؟ أوليس لديك فراش لنا سوى كومة النجاسات؟».

وعلى هذا كان الرب سيجيب: «من المؤكد أن العبد ليس أعظم من مولاه، ولا التلميذ أسمى من معلمه، ولا الرسول أعظم من الذي أرسله، وأنتم دعوتوني معلماً ورباً، وما قلتموه صحيحاً، لأنني بالفعل كذلك، وإذا كنت أنا قد عانيت بصبر من هذه الأشياء، ومن أشياء أسوأ من هذه، أولاً تسلحون أنفسكم أيضاً بصبر مماثل، فلقد كنت غريباً وحاجاً في هذه البلاد، وفي اليوم الذي نزلت فيه أولاً على الأرض من بحر المجالس العميقة للرب، ومن سفينة رحم العذراء، لم أنزل في غرفة، بل في معلف قذر، وفي نزل صاخب، وفي حانة تعيسة، فهناك استقبلت، ولم تمددني أُمِّي العذبة على فراش ناعم، بل مددتنني في معلف قاس بين الدواب، لأنه لم تتوفر لي غرفة في أي مكان من النزل، وخلال حياتي كلها لم يكن لدي بيت خاص بي في هذه البلاد، لأنني قدمت إلى الذين هم ملكي، والذين هم ملكي لم يستقبلوني، ذلك أن الذين سكنوا في بيتي وخادماتي عدوني غريباً، ولقد كنت غريباً بأعينهم (أيوب: ١٩)،

وفي هذه البلاد للثعالب حفرهم، ولطيور الجو أعشاشهم، لكن ابن الانسان ليس لديه مكان يسند رأسه عليه، وغالباً ما أمضيت الليل في الصلاة، لكن ليس تحت مكان مسقوف بالحجارة، بل فوق الجبال وتحت السماء، لابل حتى في مدينة القدس الغنية والملكية لم يكن لدي فراش إلا مشنقة الصليب المخزية، وكذلك بعد الموت لم أمتلك ضريحاً خاصاً بي، بل ضريح انسان آخر، ولهذا السبب أرغم ابن الانسان على المعاناة، حتى يدخل في مجد ملكوته، وبناء عليه، حبيبي الحاج لا تحزن إذا لم يكن لديك في هذه البلاد فراشاً ناعماً، وإذا ما تمددت فوق كومة قاذورات، وإذا كان نزلك بالوعة عامة، تذكر يا هذا أن ربك أقام الفقير من بين الرغام، ونهض بالمعدم من بين القاذورات، ليجلس مع الأمراء، وليشغل عرش المجد، فعلى هذا الاساس تقبل داوود وجعله ملك اسرائيل، ولقد جلس أيوب النبل على القاذورات مريضاً ومصاباً بقروح مخيفة، وبصره امتلك ضعف ما كان يمتلكه من قبل، لأن غريغوري أخبرنا في تعليقاته على سفر أيوب، أنه كان مدفوناً في القاذورات، لؤلؤة الرب، أي المعرفة بتفاهته، والرفض للفقير، وعلى هذا، ألا تبحث أيها الحاج عن هذه اللؤلؤة، في أثناء جلوسك فوق القاذورات»، ولدى سماع هذه الكلمات، قدم الحاج التقي الشكر، لأنه عدّ جديراً بالمعاناة مثلما فعل ربه.

وعندما كنا في هذا المكان القذر، قدم إلينا بعض المسلمين، وكانوا أناساً فقراء، قد جمعوا بعض الأعشاب وبعض أغصان الأشجار، باعوهم لنا، وقد غطينا الأرض المبللة بهم وجعلناهم فرشاً لنا، فضلاً عن هذا قدم تجار من الرملة ومن القدس، ودخلوا إلى أماكن إقامتنا، ومعهم سلع طيبة الرائحة، وعملوا سوقاً هناك، وقد جلبوا ماء ورد من دمشق في أوعية زجاجية، وكان ثميناً جداً، حيث باعوه إلى البنادقة كل قطعة ببس، وكان مع بعضهم بلسم، ومع بعضهم الآخر مسكاً،

وجلب بعضهم صابوناً، وبعضهم أحجاراً كريمة، وبعضهم شققاً من الموصلين الناصع البياض، وقلائس، وأشياء أخرى ثمينة، وأشياء رائحتها طيبة، فلقد جلبوا هذا كله إلينا، وفي الوقت نفسه كان كل من التجار ومن المسلمين قد دهنوا أنفسهم بالمرهم العطرية، وبالعطور الخالصة، ولذلك انتشرت الروائح الطيبة من حولهم، فضلاً عن هذا قام التجار الذين لم يكن بإمكانهم تحمل روائح التبن والقذارة في مسكننا، باحراق البخور والاصماغ العربية، وكانت نتيجة ذلك أن هذا المكان ذي الرائحة المقرفة، أصبح مخزناً للروائح الطيبة، كما قام الذين لوثوه، طواعية من قبل أنفسهم بتنظيف المكان، ونقلوا قاذوراتهم ورموها بأقدامهم أثناء مشيهم، وفي وقت قصير من الزمن وبوساطة سيرهم المستمر تحول المكان الذي كان قبل قليل قذراً إلى مكان مريح تماماً ومبهجاً ومناسباً لبني البشر، وللإنسان الضعيف والمريض، فلو أنهم دخلوه لاستردوا قوتهم ثانية بشمهم للروائح الطيبة للمكان، الذي حتى الدواب سوف ترتعد لدى دخولها له.

وقد دخلنا إلى هذا المكان بضيق شديد وألم، لكن في غضون ساعة واحدة وجدنا الراحة والسرور فيه، وجاء في الوقت نفسه بعض المسلمين، كانوا قد طبخوا بيضاً في المقلاة بالزيت، وجلب بعضهم أرغفة من الخبز، وبعضهم ماء بارداً، وبعضهم فواكه، وبعضهم سلطة، وبعضهم معجنات ساخنة صنعت من البيض، وباعوا ذلك لنا، وقد اشترينا من هذه الأشياء وأكلنا، وأعدنا أنفسنا للراحة، لأن النهار انقضى تقريباً، وما أن تمدد كل إنسان منا، واضطجع في المكان الذي نوى أن ينام فيه تلك الليلة، حتى جاء إلينا مسلم شرس حامل للسلح، ويديه عكاز، واستخرج من كل واحد من الحجاج بنساً بندقياً، وقمنا على كل حال من أجل أن نوفر على أنفسنا المشاكل، بدفع بنس واحد من أجل إقامتنا، وعندما حل الظلام استأجرنا اثنين من

المسلمين، ليتولوا حراستنا أثناء الليل عند فم كهفنا، لكي لا يدخل أحد إليه ويزعجنا، لأنه كان هناك حشد عظيم من الناس من كل نوع هناك، وهكذا أمضينا تلك الليلة، لكن ليس بدون خوف، وأعتقد أن الرجل المتقدم الذكر الذي استخرج المال منا، قد صار الآن مالك ذلك الكهف وصاحبه، وأن هذا قد شجعه لفرض ضريبة علينا بموجب حقه القانوني.

وفي اليوم السادس، الذي كان الأحد السادس بعد التثليث، وقبل أن تصبح الدنيا مضيئة تماماً جاء ذلك المبتز الشرس، الذي أغضبنا في المساء الماضي، وعاد وجلس بنفسه ومعه عكازه، عند باب الكهف، وما كان يسمح لأي إنسان بالمغادرة والخروج من الكهف للأغراض الضرورية من دون أن يدفع له بنساً، وقد دفعنا له جميعاً من دون رضى كبير، لكننا لم نكن غاضبين من الرجل المبتز وحده، بل من القبطانين، ومن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون ومن الترجمان، الذين كانوا نائمين جميعاً في سرادق منصوب فوق الراية، وتركونا نعاني من ابتزاز لم يسمع به من قبل في سجننا هنا، ذلك أنه كان من واجبهم مساعدتنا والدفاع عنا ضد أي شيء من هذا النوع.

وبعد مادفعنا البنس الذي فرض علينا، سمح لنا بمغادرة الكهف، ومع ذلك لم نجرؤ على الابتعاد عنه، لأننا كنا محاطين بمسلمين مسلحين من كل جانب، وقدم في الوقت نفسه التجار مع سلعهم، وطبخوا بأدواتهم، وعرضوا مصنوعاتهم للبيع، دون أن يعرفوا بأن ذلك اليوم كان يوم الرب، وكنت عازماً على قراءة الانجيل من أجل ذلك اليوم للحجاج في الكهف، وأن أضيف إليه قداساً، لكن كان هناك صراخاً عظيماً وصخباً صدر عن الطباخين وعن التجار، وعن حشد كبير اجتمع من المسلمين، ومن الشباب الذين كانوا يركضون إلى هنا وإلى هناك، ولذلك لم أستطع قراءة الكثير في ساعاتي من دون الكثير من العوائق،

ذلك أنهم عندما رأوني أقرأ من الكتاب، وقفوا من حولي يضحكون ويصرخون، وينظرون نحو الأحرف ويعجبون منهم، وبعد الغداء جاء إلينا في الكهف كاليينوس الأصغر، أي الرجل الذي كان نائب مدير المشفى (الفندق)، وكان رجلاً مسلماً اسمه الفحل Elphahallo، وكان رجلاً أميناً، كما ستعلم مما سيلي، وقد عرفني بشكل جيد من حجي الأول، وكان بإمكانه التحدث بالاطالية، وبألمانية مشوهة، تعلمها من الحجاج الذين غالباً ما ارتحل معهم إلى دير القديسة كاترين، وقد سألت هذا الرجل عن حقيقة الأمر بالنسبة لجبل سيناء، وأخبرته بالذي سمعته على ظهر الغليون، فأجابني بأن كل شيء قاله ذلك المملوك كان كذباً، وأن الحج إلى القديسة كاترين سليم الآن بقدر ما هو ممكن، وصحيح أن البدو العرب قد أزعجوا في العام الفائت رهبان القديسة كاترين، لكن السلطان قد تمكن من تسوية القضية كلها.

ولدى سماعي لهذا سررت كثيراً، واقتدت الرجل إلى موالى، وقدمتهم له، وعلى الفور طلب الرجل منا القدوم معه، واقتادنا خارجين من الكهف، ومررنا جميعاً بوسط المخيم ومن خلال خيم المسلمين، وأرانا جميع أدواتهم، والخرائب العظيمة لمدينة يافا، ومررنا ببرجين قائمين في البحر ومهدمين، وبعدما رأينا كل شيء أعادنا إلى سجننا ثانية، فوجدنا الكهف في صخب عظيم بسبب الشباب من المسلمين، الذي كانوا يقومون بازعاج الحجاج بمختلف الطرق، وكانوا يسببون لهم إهانات كثيرة، تأخذ وقتاً طويلاً للحديث عنها، وكانوا ينشدون بكل دقة الفرصة المواتية لاغضاب الحاج، إذا كان ذلك ممكناً، دون اعطائه مسوغاً عظيماً لأن يكون غاضباً، وعندما يصبح غاضباً، يقومون هم أنفسهم باتخاذ غضبه سبباً للشكوى وطلب المال، وكانوا يتجولون حول الحجاج، وكل ما وجدوه سرقوه، أو نشلوه بشكل مكشوف وهربوا به.

وكان هناك رجالاً نبيلاً من كريت قد جلب معه قارورة كبيرة مليئة (بالخمرة) المالفوسية الثمينة، وعلق القارورة على الجدار إلى جانبه، ولدى رؤية ذلك، ركض رجل مسلح مسلم بين وسط الحجاج، وانتشل القارورة، ومضى يركض بها، وبعد بعض الوقت عاد وأطاح بالقارورة الفارغة في مقر إقامتنا، وتعرض شاب حاج حليق الذقن من بيكاردي لمضايقاتهم العظيمة، ومن حركاتهم القذرة، ولم يتمكن من إخفاء نفسه عنهم، مع أنه حاول كثيراً التخفي بين الحجاج الآخرين، ومع ذلك لم يحصل على السلامة، فقدم شكوى حول المسألة إلى الترجمان، الذي استخف بالأمر، وقال له بأنه إذا ما آذاه أي انسان، أو ضربه، أو جرحه، هو سيقوم بحمايته والانتقام له، لكن تجاه ذلك لا يمكنه فعل شيء لأن الشاب عمل مزحة، ولا يمكنه منعه من المزاح، ولدى سماع ذلك الحاج هذا، وخشية منه أن يوصم بالعار ويدنس شرفه، وبما أنه كان غير قادر على تحمل أن يكون أضحوكة يومياً من قبل المسلمين، ألغى حجه، وعاد إلى ظهر الغليون، وعاش مع البحارة حتى عاد الحجاج من الأماكن المقدسة، ولأن ذلك الشاب كان جليلاً جداً ان تنظر إليه، لهذا السبب ركز المسلمون عليه، ربما من أجل اغضابه، ذلك أنهم لم يقصدوا إلحاق أي أذى به.

واخترع هؤلاء الشباب من المسلمين آلاف الطرق، أثاروا بوساطتها بكل براعة الحجاج وأغضبوهم، من أجل ان أحدهم إذا ما نسي نفسه، ووجه ضربة، يمكنهم ابتزاز غرامة مالية منه، واستشهد أنا هنا بما ورد في الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى قوله: «أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر» (متى: ٥/٣٨)، وبناء عليه كل من لا يمكنه اتباع هذه النصيحة، لا يمكنه الجواز بالأرض المقدسة بسلام، وهناك نص آخر مماثل في الاصحاح السادس في انجيل القديس لوقا قوله: «ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه» (لوقا: ٦/٣٠)، وعلاوة على هذا على الانسان أن

يداول تكرار قوله في الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى والتمسك به حرفياً: «من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً» (متى: ٣٩/٥).

وعندما صار الوقت متأخراً، وأخذت الدنيا تشتد ظلاماً، جاء واحد ووقف عند فم الكهف واستدعاني بصوت مرتفع، قائلاً: «المعلم فيلكس، تعال»، ولقد خفت من هذا الاستدعاء وأجبت بأنني كنت أقوم براحتي، ولن أقدم، وبناء عليه شرع في التوسل إليّ، قائلاً بأن هناك حاجة كبيرة إليّ، وبناء عليه توجهت نحو الرجل، الذي كان واحداً من رجال القارب العائد لجليوننا، بعث به إليّ واحد كان ممتدداً فوق ظهر الغليون، وهو في آلام الموت، وقد استدعاني لسماع اعترافه، وكنت على كل حال أكره العودة إلى ظهر الغليون، ومع ذلك ماكان لي اهمال روح واحد من الإخوان، وسرت نازلاً نحو البحر في الظلام، وركبت في القارب، وقمت برحلة عظيمة المخاطر، بين الصخور، إلى الغليون، الذي كان يبعد عن الشاطئ مثل المسافة التي تبعد فيها سفنجن se-flingen عن أولم، وأخذت على الفور اعتراف الرجل المريض، ثم حملت فراشي من القمرة إلى السطح، ومددته فوق مقعد متصالب، كان منه بإمكانني رؤية الشاطئ، من أجل أنه إذا ما جرى اخراج الحجاج من الكهف، للشروع برحلتهم، يمكنني رؤية حركة الحشد، وكان بإمكانني رؤية أن الحجاج أخذوا يتحركون، ويغادرون المكان، بواسطة نقل المصابيح التي كانت مضاءة قرب خيام السادة المغاربة، لأنه جرى تعليق ستة مصابيح مشتعلة على عمود طويل أمام كل خيمة، وذلك تشريفاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وصدوراً عن الاحترام للسادة الذين ناموا فيها، ومن أجل راحة الناس، وقد رأيت هذا من البحر، وشعرت بشفقة على موالي، وأتباعي الحجاج الذين كانوا متمددين في الكهف القذر والمظلم، من دون أية تسهيلات بالضوء من أي نوع، بينما

كان هؤلاء المسلمون الكلاب يتمتعون بكثير غير محدود من الضياء.

وقمت في اليوم السابع، قبل اشراق الشمس بالدخول إلى القارب، وأسرعت التجذيف نحو الشاطئ، ومررت خلال المياه الهائجة، واجتزت الصخور، لأنني افترضت أننا سوف ننطلق على الفور، غير أننا تأخرنا لأن القبطانين كانا مختلفين، وكان هذا الخلاف قد بدأ في البندقية، كما رأينا في ص ١٧٨، واستمر حتى وصولنا إلى هنا، ولهذا حاول كل واحد منهما إدخال حجاجه إلى الأرض المقدسة من دون الحجاج الذين كانوا مع القبطان الآخر، وقد أرادا تشكيل جماعتين، وفريقين منفصلين، ينبغي عدم التقائهما في وقت واحد، وفي المكان نفسه، غير أننا نحن الحجاج جميعاً رجونا في أن نؤخذ كلنا جميعاً، وأن يجري علينا العقد نفسه، وكانت هذه الخطة مقبولة كثيراً من قبل المسلمين، فقد كانوا لا يرغبون في اختيار افتراقنا عن بعضنا بعضاً، مع أن القبطانين حثا باستمرار على وجوب القيام بعملية الفصل، وعندما رأى الأب المسؤول عن دير جبل صهيون أن هذا النزاع بين القبطانين معيقاً لانجاز الحج، وأنه جعلنا موضع ريبة لدى المسلمين، وجعلهم عديمي الصبر، دعا إلى اجتماع أعيان الناس بين الحجاج مع بعض الرجال المحترمين والمحبين للسلام بين المسلمين، وبذل جهده لوضع حد للنزاع، والذي حدث هو أنه بعد عدد كبير من الخطابات والتشجيع لم يتوصلا إلى اتفاق، وبدا القبطانين بعد كثير من النقاش أنهما معا أشد تصلباً في غضبهما وكراهية احدهما للآخر، وطوال ذلك اليوم جرى البحث في إقامة سلام بين القبطانين.

وفي الوقت نفسه، قام الحجاج الآخرون الذين لم يشاركوا في هذا النقاش، بالشد من عزائمهم، وكانوا جريئين بما فيه الكفاية للخروج من كهفهم والنزول نحو شاطئ البحر، وإلى المكان الذي وقفت فيه الحمير مع سائقيهم، وتجولوا بين حشد المسلمين بدون خوف، واشتروا ماكانوا

يحتاجون إليه من المسلمين، وصنعوا صداقات معهم، وقمت أنا شخصياً مع بعض الرفاق بالسير على طول ساحل البحر إلى نبع ماء عذب، كان يتدفق من بين شعاب الهضاب، وشربنا هناك من ذلك الماء من دون أن ندفع، مع أننا لكثير من الأيام لم نشرب ماء إلا ماشريناه ودفعنا ثمنه.

وقامت تحت هذا النبع صخرة في البحر، كانت مرتفعة فوق الماء، وهي التي قيل بأن القديس بطرس الرسول قد اصطاد السمك من عليها، وأضاف البسطاء من الناس الذين لا يعرفون الكتابات المقدسة ولا الانجيل، بأن هذا كان هو المكان الذي دعا منه ربنا يسوع بطرس نفسه مع أخيه من البحر قائلًا: «هلم ورائي فأجعلكما صيادي الناس»، فهذا ماقرأه في الفقرة التاسعة عشرة من الاصحاح الرابع، ولقد كتب فرسان علمانيون في كتبهم حول حجهم، بأن هذا حدث هنا، لكن هذا ليس صحيحاً، لأن هذه الدعوة إلى الرسولين وقعت عند بحر الجليل، علماً بأننا لم نقرأ أبداً بأن ربنا يسوع قد جاء قط إلى يافا بالجسد، هذا ونقرأ في الاصحاح التاسع من أعمال الرسل، بأن القديس بطرس كان مرة هنا، ولذلك لا أنكر إمكانية قيامه بالصيد هنا، ووجدنا على شاطئ البحر أعداداً لا تحصى من أكوام أصداف المحار، من مختلف الأشكال، وقد التقطنا بعض الذي اعتقدنا أنه الأكثر جمالاً وغرابة.

وحدث في ذلك اليوم نفسه أن قام أحد الفرسان بشراء بعض الحجارة من واحد من المسلمين باعه إياهم في الكهف بخمسة دوقيات، ولقد اعتقد أنهم أحجار كريمة، لكن في أثناء عرضهم على رفاقه، اكتشف بأنهم لم يكونوا حجارة كريمة صحيحة، بل تقليد صنع من زجاج ملون، وبناء عليه حمل قطع الزجاج إلى التاجر لإعادتهم، راغباً باسترداد ذهبه، لكن ذلك التاجر الوضع رفض ردّ الذهب، وكذلك استرداد قطع الزجاج، ولذلك أخبر الفارس القبطان عن عملية الغش

U# bM E "WK d « #U 6 rK *« + ÊUD I « vJ #U "Ác Ÿ«b) «Ê

سمع الحاكم هذه الشكوى، أرسل على الفور مساعداً له مع عصا، إلى سجننا، حيث كان ذلك التاجر جالساً مع سلعه، فأخذ منه بالقوة الخمس دوقيات، اللاتي ردهن إلى الحاج، ووجه إليه كثيراً من الضربات بعصاه، ورد إليه قطع زجاجه ثانية.

وهكذا مضى هذا اليوم مع ملل أقل من الأيام التي تقدمت عليه، وحدث أنه عندما كان الوقت ليلاً، قدم بعض السودان الشباب، من حملة الترسة للسادة المغاربة، وكانوا من ذوي السلوك السيء، وأشراً، وقد أرادوا الدخول إلى الكهف لاختلاسنا وابتزازنا، لكن الحارسين اللذين استأجرناهما لم يسمحا لهم بالدخول، وقد تنازعوا وتشاجروا معهما لبعض الوقت أمام باب الكهف، وعندما رأوا أنهم لن يستطيعوا الدخول إلى الكهف، جلسوا أمام الباب، وأخذوا يغنون طوال الليل، وينهقون وينبحون، ويصرخون مثل الحيوانات، والكلاب، والخنازير، لأن جميع المشاركة امتلكوا أصواتاً خشنة جداً، ولا يمكنهم صنع أي لحن شجي، بل إن غناءهم مثل أصوات التيسة والعجول، وهكذا أمضينا تلك الليلة مع هذه المنغصات.

وفي اليوم الثامن سعى الأب المسؤول عن دير جبل صهيون جاهداً ومعه الحجاج والمسلمين من خيرة الأنواع لإقامة وئام بين قبطانينا، لكن من دون نجاح، وعندما رأى السادة المغاربة والحكام هذا، أعلنوا أنها مالم يصبحا على الفور صديقين، سوف يضعانها في الأغلال، ويرسلان بهما إلى غرة للسجن هناك حتى يتخذ سيدهم السلطان قراراً حول الذي ينبغي عمله معهما، وقالوا بأن الحجاج سوف يساقون عائدين إلى غليونيهما، من دون السماح لهم بزيارة الأماكن المقدسة، وسيزودوهم بقبطانيين آخرين، ويرسلون بهم عائدين إلى بلادهم، وأرغم القبطانيين بهذا التهديد على إنهاء خصامهما، وتصافحا وعملا سلاماً بينهما، وبعد

هذا الاتفاق الذي عقده مع السادة والحكام، من أجلنا جميعاً، جاء الفحل، أي كاليئوس الأصغر، إلينا، وأخبرنا بوجوب جعل أنفسنا جاهزين للانطلاق، وهكذا تجهزنا بسرعة ووقفنا مثقلين بحقائبنا وقواريرنا ننتظر الإشارة، واصطف السادة المسلمون أمام كهفنا حتى يمكنهم تعدادنا للمرة الثانية، مثلما فعلوا عندما نزلنا من البحر، وبعدما جرى إرسال عدد كبير من الحجاج إلى الحمير، فجأة أصبحوا غاضبين، حول ما لم أعرفه، ودفعوا بنا عائدين إلى كهفنا، مهددين لنا بالعصي، وفصلونا عنهم وقذفوا بنا إلى الكهف وكأننا حيوانات، وانقضوا على الحجاج الذين جرى تعدادهم، ونزلوا من التل وكانوا على وشك ركوب حميرهم، وضربوهم بالعصي، وأرغموهم على الركض والدخول إلى الكهف، وهكذا أمضينا ذلك النهار، ولم نكتشف السبب الذي دفع إلى اعادتنا هكذا.

وصف ميناء يافا وقدم هذه المدينة وقداستها

وقبل أن نغادر الميناء، من المناسب أن نرى متى أقيم، وفي أية أماكن من الكتابات المقدسة ورد ذكره، خاصة وأننا نحن الحجاج لن نعود إلى هنا ثانية، لأننا في طريق عودتنا أخذنا سفينة من ميناء الاسكندرية، ولم نر هذا الميناء ثانية.

ويافا هي أقدم ميناء، والمدينة الأقدم في مقاطعة فلسطين، وكانت المدينة الثامنة في العالم، التي بنيت قبل طوفان نوح، الأمر الذي تبرهن على صحته بالعثور هناك بعد الطوفان على مذابح للأرباب التي كانوا يعبدونها قبل الطوفان، ولهذه المدينة اسمين، حيث يقال لها يافا اشتقاقاً من اسم يافث بن نوح، الذي يقال بأنه سكن فيها لبعض الوقت، وأنه أعاد عمارتها بعد الطوفان، وسميت يوبا Joppa اشتقاقاً من اسم أيوب Jop الذي كان رجلاً بسيطاً ومقدساً، والذي من المفترض أنه سكن هناك، وعندما جرى تقسيم البلاد بين الأسباط الاثني عشر لاسرائيل،

وقع هذا المكان في حصّة سبط دان، وورد ذكر هذا المكان في سفر القديس إرميا، لدى ذكر «مسافات الأماكن»، حيث قال بأن يافا مدينة للفلسطينيين في ديار سبط دان، ذلك انه حتى هذا اليوم يمكن رؤية الصخور على الشاطئ، التي ربطت إليها العذراء الجنية أندروميذا، ابنة سيفيوس Cepheus ، بسبب جريمة أمها، فقد حكم عليها من قبل آمون، وبعد ربطها إلى الصخرة، قدمت إلى وحش البحر، وذلك بينما وقف والديها يكيان على الشاطئ، لكن فيرسوس Perseus، أبو النبلاء الاغريق، وابن يوف Jov، ودانس Danis (Danae) كان لديه حصانا مجنحاً وترس بالاس Pallas ، ونعل وسيف ميركري Mer-cury، وقد طار محلقاً من فوق جبل يدوليوم Ydoliom، وبينما هو طائر محلقاً في الهواء فوق فرسه المجنح رأى الفتاة مربوطة إلى صخرة، في ميناء يافا، ووحش البحر العظيم على وشك التهامها، وعندما رأى هذا طار على الفور إلى هناك، وعقد ميثاقاً مع والديها، أنه إذا ما أنقذها من الوحش، سوف تكون زوجته، وعندما وافق الوالدان على هذا، قتل الوحش الشنيع، وأطلق سراح الفتاة، واتخذها زوجة له، والآن عندما رأى فينوس Phyneus أخو سيفيوس ملك يافا هذا، ولأن أندروميذا كانت من قبل مخطوبة له، خطط ليأخذها منه بالقوة، لكن فيرسوس غلبه، وذهب إلى فارس، حيث تغلب على تلك البلاد، وأطلق عليها اسمه.

وقد تبرهن على أن سيفيوس كان ملك يافا من خلال بعض المذابح الغاية بالقدم، التي عثر عليها القدماء، ووجدوا اسمه منقوشاً عليها، وكانت عظام ذلك الوحش البحري الذي قتله فيرسوس ذات حجم كبير، وكانت معروضة على الشاطئ أمام المدينة، وقد رآها جميع الذين زاروا يافا، غير أنهم نقلوا من هناك إلى روما من قبل تيتوس وفسبسيان، وجرى تعليقهم في مكان عام للتعجب منهم، لأنهم كانوا بالفعل

جديرين بالتعجب، لأن طول كل ضلع من أضلاعه كان احدى وأربعين قدماً، ثم قام القديس سلفستر والقديسين الآخرين الذين كرسوا روما للمسيح فدمروا هذه العظام وجميع العجائب الأخرى، وذلك خشية أن يأتي الحجاج إلى هناك لرؤيتهم، وأيضاً خشية أن ينفق الحجاج الذين قدموا إلى روما من أجل تمجيد الرب ورساله، وقتهم ويضيعوه، ويبددوا الساعات التي يمكنهم تضيئتها في الصلاة، على رؤية مثل هذه الأشياء الغريبة.

وأعلن بعضهم أن تلك العظام كانت عظام الجنية العذراء أندروميذا، الأمر الذي يبدو مستحيلاً، لأن فيرسوس أخذ أندروميذا معه إلى فارس، وأمضى أيامه هناك، ولم نقرأ في أي مكان عن عودته إلى يافا، وقال يوسفوس بأنه قد رأى السلاسل، والأطواق البرونزية التي ربطت بهم أندروميذا، وأنهم كانوا مايزالون معلقين فوق الصخور، وغالباً ما أشار جيروم إلى أندروميذا هذه، وخاصة في المكان المتقدم الذكر، وفي حج باولا المقدسة، وذكرها بوكاتيوس Boccatus أيضاً في الكتاب الثاني عشر من مصنفه «أنساب الآلهة»، وذكرها بالفصل الخامس والعشرين، مثلما فعل يوسفوس أيضاً، علاوة على ذلك مراراً جرى الحديث عن هذا الميناء في الكتابات المقدسة الشرعية، ذلك أنه إلى هناك بعث حيرام ملك صور، خشب الأرز من لبنان عبر البحر، ومن هناك أخذ سليمان هذه الأخشاب وجلبها إلى القدس، من أجل بناء الهيكل، حسبما يمكن رؤية ذلك في سفر أخبار الأيام الثاني — الاصحاح الثاني ١٦، وفي عزرا: ٣/٧، فضلاً عن هذا بنى شعفاط أسطولاً في هذا الميناء، قاصداً الإبحار إلى جزيرة أوفير ophir، لإحضار الذهب من هناك، لكن السفن غرقت بقضاء من الرب، وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك الثالث، وإلى هذا الميناء هرب النبي يونان، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر يونان، فهنا ذهب على ظهر

سفينة علّه يهرب إلى ترشيش، أي إلى أفريقيا إلى مدينة قرطاج، التي أخبرنا جيروم بأن اسمها كان ترشيش، وعندما صار خارج الصخور تحرك البحر وصار هائجاً، وبناء عليه صار الملاحون راغبين بالعودة إلى الميناء، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء حتى ألقوا بيونان في البحر، فابتعلته سمكة، وبعد مضي ثلاثة أيام تقيأت بيونان ولفظته على الشاطئ.

وأحرق يهوذا المكابي هذا الميناء مع جميع سفنه، بسبب إغراق اليهود، الذي فعله أهل يافا وتدبروه خيانة، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاح الثاني عشر من سفر المكابيين الثاني، وجاء القديس بطرس الرسول إلى يافا عندما جرى طرده من اليهودية، وبشر هناك، وفيها أقام تابيثا من الموت، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاحين التاسع والعاشر من أعمال الرسل، علاوة على هذا لقد أمضى أياماً كثيرة في يافا مع سمعان الصباغ الذي كان بيته على شاطئ البحر، ويرى بعضهم — وما يرونه يبدو معقولاً — بأن هذه القناطر والكهوف المقنطرة، التي حبسنا فيها، كانت فيما مضى مكان إقامة سمعان الذي كان القديس بطرس ضيفه، وكان هذا الميناء قد جرى تحصينه من قبل يوناثان وسمعان المكابيين، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاح الرابع عشر من سفر المكابيين الأول، لكن الرومان دمروه مرتين، وقتلوا هناك كثيراً من اليهود حتى أن دمهم جرى إلى البحر، وغطى جميع أجزاء البحر القائمة بين الصخور، وأعاد الصليبيون فيما بعد بناء الميناء، وخاضوا معارك كثيرة عنده هناك، لكن أخيراً قام المسلمون بهدم كل من الميناء ومن المدينة، ولم يتركوا شيئاً دونها هدم إلا برجين لحراسة الجانب المتجه نحو البحر، وكل شيء ماعدا ذلك هدموه بحفر الأساسات تحت الأسوار والجدران.

ولم أر في أي مكان مثل هذه الخرائب العظيمة هناك، وتساءلت عجباً كيف أمكنهم هدم مثل هذه الأسوار السميكة، وتركوا فقط عند المدخل الذي يجده الانسان عندما يأتي من البحر بناءين مقنطرين، واقفين هناك،

وقد قطعاً من الرابية نفسها، وهما مغطيان بالتراب والخرائب، ولذلك هناك دوماً رطوبة في هذه الأقيسة وهي تدلف بالمياه من الأعلى، والجدران مبللة، والأساسات موحلة، ويستخدم هذا المكان طوال العام من قبل المسلمين مكاناً للتغوط العام، وفي محل التغوط هذا يلقون بالحجاج المسيحيين، كما تقدم بنا القول، والذي يقلق الحجاج بشكل خاص، أي الذين يجسسون هناك، هو أنك عندما تدخل إلى الكهف تجد القوس محطماً، وهناك أحجار كبيرة معلقة تهدد بالسقوط على رؤوسهم، ذلك أنه بدفعة من اصبع سوف تتساقط كومة كبيرة من الحجارة، وأنه تحت هذه الخرائب الخطرة أجبر الحجاج على الدخول والخروج بشكل متواصل، وبالإضافة إلى هذا، من الصعب جداً، ومن الخطورة بمكان أن يتخذ الإنسان طريقاً في هذا الميناء من البحر، ولاأعتقد بوجود ميناء آخر بهذا السوء في جميع اطار البحر، لأنه مامن سفينة كبيرة قدمت من أية جهة كانت، يمكنها دخول الميناء، بل عليها التوقف في الخارج، وأن تجد مكاناً ترسو به بعد قياس الأعماق، لأنه على بعد رمية سهم من البحر العميق هناك صخور نائمة ومنزلة، وأماكن ضحلة وصخور منبعثة من الماء ومرتفعة فوقه، يهدر البحر بينها بشكل دائم، حتى عندما يكون هادئاً في الأماكن الأخرى، وتندفع المياه وتضرب الصخور بشدة عظيمة، يتطاير الرذاذ أثرها عالياً في الهواء، ويصنع ضجة عظيمة يمكن سماعها من مسافة بعيدة سواء أكان ذلك في البر أو في البحر.

والميناء محاط بهذه الصخور، وكأنه جرى صفهم بفن انساني من أجل حمايته، بحيث لا تستطيع حتى القوارب من المرور بينهم، إلا من خلال مكان واحد، وذلك بين صخرتين عاليتين، تجذب القوارب بينها بعناية عظيمة، لأن المياه تتحرك هناك جيئة وذهاباً بسرعة مدهشة، وهي تندفع وتضرب نفسها ضد جانبي الصخور، ومالم يكن الريان أو قائد القارب حذراً، من الممكن أن تتغلب المياه على القارب وتدفعه على الصخور،

وتحطمه إلى آلاف القطع، ولهذا على الذين يدخلون إلى هذا الميناء التجذيف خلال الأمواج المرتفعة بأقصى سرعة ممكنة لمجاذيفهم أن تعمل بها، وذلك خشية أن ينجرف القارب ويخرج من وسط القناة إلى هذا الجانب أو ذاك ويصطدم بالصخور، وعلى كل حال من غير الممكن لأي قائد قارب مهما كان بارعاً، أن ينجو من التبلل بالمياه المتساقطة، والتي تضرب الصخور بكل عنف من على الجانبين، وهذه هي صخور أندروميذا، كما رأيناها.

وفي اليوم التاسع، جاء قبل الفجر، إلى كهفنا مسلم معه مصباح، وأيقظنا لننطلق برحلتنا، ولذلك نهضنا مسرورين، وخرجنا من سجننا، مثلما يفعل الأسرى لدى خروجهم من مكان أسره، ووجد فيما بين الكهوف والبحر، باتجاه الشمال، طريق يمر نزولاً عبر الصخور، إلى المكان الذي وقفت فيه الحمير مع سائقيها، وكان هذا الطريق ضيقاً جداً، بحيث لا يستطيع الإنسان الذهاب نحو اليمين أو نحو اليسار، بل عليه السير في وسط هذا الممر فقط، ووقف قبطانانا مع بعض المسلمين عند هذا الطريق الضيق، يحملون مصابيح، من المشاعل والقوانيس، وقد سألوا كل حاج، واحداً بعد الآخر عن اسمه وعن اسم أبيه، وبحشوا عنه في الجدول الذي كتبوه عندما نزلوا من السفينة، وعندما كانوا يعثرون على اسم الحاج، كانوا يسمحون له بالنزول إلى الحمير، الذين وقفوا في حشد تحت، هناك قرب البحر، ولو أن عدد الحجاج كان أكثر أو أقل مما هو بالجدول، ولم يستطع القبطانان تقديم تفسير لذلك، كان لابد من رمينا ثانية في سجننا.

وهكذا ذهبنا ونزلنا إلى المكان الذي وقفت فيه الحمير، وهناك وقف السائقون بانتظارنا، وما أن كان الحاج ينزل إلى الأرض المستوية، حتى كان أقرب السائقين يمسكه، ويقوده إلى حميره، ولذلك كثيراً ما حدث أن كان هناك سائقين أو ثلاثة يتجاذبون حاجاً واحداً، يجره أحدهم بهذا

الاتجاه، وذاك بالاتجاه الآخر، لأنه عندما سمع أهل الريف في القرى المجاورة بأن حجاجاً قد جاءوا، جلبوا كثيراً من الحمير، وكان عددهم أكبر من عدد الحجاج الذين كانوا هناك، ولذلك حاول كل انسان أن يجلب حاجاً إلى حميره، لأن كل واحد من المسلمين جلب سبعة حمير أو ثمانية من نوع واحد، وكان لهذا يحدث أن لا يوجد أكثر من مائتي حاج، ويكون هناك ما يزيد على أربعمئة حمار، ولذلك تقاتل السائقون من أجل الحجاج، وتجادبهم إلى هنا وهناك، لأن الذي لم يأتيه حاج، جاءت رحلته مقابل لاشيء، ولم أفهم هذا عندما قمت بحجي الأول، ففي اللحظة التي كنت قد نزلت بها، ركض نحوي وقتها مغربي أسود، وجذبني بعنف محاولاً جري نحو حشد من الحمير، كان من حوله هناك صخب مدهش، ولقد خشيت من أن يكون قد نوى سرقتي، فوقفت ثابتاً في مكاني، وبقوة كبيرة خلصت نفسي منه، وعادوت بكل سرعة الصعود إلى المكان الذي وقف الحكام فيه مع مصاييحهم، وأخبرت الأب المسؤول عن دير جبل صهيون بما وقع لي، وعندما سمع هذا الأب ذلك مني قال: «انزل بسرعة، بسرعة، واذهب بارادتك مع الذي يقودك ويذهب بك، وعندما نزلت، قابلني مسلم، وصدف أنه أمسكني بيمينه من يميني، وبدأ يسعى مسرعاً، لأنه في ذلك الوقت كان الجميع قد ركبوا حميرهم، وعندما ركض أرغمت على الركض جانبياً وبشكل مربك، لأنه — كما قلت — كان ممسكاً لي يميني بيمينه بشدة، ولقد ركض وهو ممسك بي فوق الصخور حيث ارتطمت بها عدة مرات، وأنا أركض جانبياً، ووقعت، وأخيراً وصل بي إلى حميره، وأعطاني حماراً صغيراً جيداً، كان كله أسود اللون، وأبدى نحوي كثيراً من اللطف والصدقة، خلال حجي الأول كله، ومع أن منظر وجهه كان قبيحاً، لقد كان كله لطف، واستجاب لجميع مطالبتي مثل أحسن الخدم، وفعل ذلك قبل أن يعرف مكانتي، وكان عبداً لسيد مسلم أنا لم أعرفه، كان اسمه جلاله Galela ، وكان اسم عبده قصه Cassa ، وكان كل

من أراد أن يدعو هذا العبد، قد اعتاد على دعوته بهذين الاسمين معا: «جلاله قصه»، وكان سائق الحمار قصه قد أخبرني أنني كلما أردت دعوته، عليّ أن أنادي جلاله قصه، لأن الحاج يحتفظ بالسائق الذي يحصل عليه في يافا، خلال الرحلة كلها في الأرض المقدسة، ولا يحصل على حمار من أي واحد آخر، وكلما أراد الحاج أن يترك أي مكان، عليه أن يسعى بين حشد الحمير بحثاً عن سائقه، داعياً إياه بالاسم بصوت مرتفع.

وبناء عليه، عندما نزلت في حجي الثاني هذا من المكان الذي وقف فيه الحكام، رغبت بالحصول على سائق حماري الأول، وقبل أن أصل إلى قطيع الحمير، صرخت إلى جلاله قصه سائق حماري الأول، وعندما سمع السائقون الآخرون هذا، مامن واحد منهم حاول جذبي نحو حميره، لرؤيتهم أن لدي سائق أنا أعرفه، وفيما أنا أصرخ جلاله، قام سيد سائقي، الذي لم أكن أعرفه، والذي كان مسلماً مثل الملك بالمكانة، وكان جالساً على ظهر فرس، فقدم نحوي ولمسني بلطف بعصاه التي أمسكها بيده، مشيراً إليّ أن أحفظ بهدوئي، وأن أقف على الجانب بلا حراك، وكان الجميع الآن يركضون إلى هنا وهناك، وكان كل حاج وسائق حمار في وضع فوضوي جداً، وكان كل واحد يسرع لعمل صفقة جيدة لنفسه، ولهذا عندما وقفت بلا حراك، والحجاج الآخرون كل واحد منهم يسعى أو يجري جره نحو الحمير، صرت قلقاً، خشية أن يكون المسلم قد نسيني، وحاولت أن أبتعد عنه، وعندما رأى هذا، قال لي شيئاً باللغة الكلدانية (كذا) لم أفهمه، لكنني قدرت وقتها أنه قال لي: «قف حيث أنت إلى جانبي، أنا جلاله، وعبدي قصه سوف يأتي بالحال إليّ، وسوف يزودك بدابة»، وبعد انتظار قدم قصه إلى سيده، وما أن رأيته حتى تذكرني وعرفني، وتذكرته أنا وعرفته وركض ليقلبني حسب طرائق المسلمين، وحياني بسرور عارم وبيهجة، واندش كثيرًا

لعودتي، وضحك وقال أشياء كثيرة لي، أنا لم أفهمها، وكنت قد جلبت معي من أولم ركابين معدنيين، قدمتهما له، وقد تقبلهما بشكر عظيم، واقتادني إلى حيث وقفت حميره بين القطيع، وأعطاني أحسن دابة لديه، ودهش موالي مع الحجاج الآخرين لرؤيتهم المسلم وهو يعاملني بكثير من الصداقة، لأنهم كانوا يعانون من كثير من الازعاج من سائقي حميرهم، وذلك بالضرب من قبلهم، والإلقاء عن ظهور حميرهم والاستيلاء على مقتنياتهم، وقد تحررت من جميع هذه الاضطرابات، لأنه كما حدث في حجي الأول، خدمني هذا الرجل بأمانة، وأطاع أوامري، وكأنتني كنت أميراً، وغالباً ما بادل لي حميري حتى أحصل على حمار أفضل يرضيني، وعندما كان الحمار يصعد إحدى التلال، كان يدعمني، وكان يمسكني عندما كنا ننزل طريقاً منحدرًا، أو طريقاً وعراً، حتى لا أسقط، وكان يعطيني شراباً من قربته، ويشاركني في الكعك الذي كان معه، وكان يتسلق فوق الجدران الحجرية للحدائق، ويجلب لي التين والعنب وفواكه أخرى منهم، وقد أعطاني المهماز الذي استخدمه لحماره، هذا ولم يعط أي من سائقي الحمير الآخرين إلى أي من الحجاج مهاميز لحميرهم، وبسبب هذه الخدمات التي قدمها لي اعتاد النبلاء ورفاقي على الظن أنني أعطيتهم كثيراً من المال بالسر، لكن هذا لم يحدث، لأنني لم أعطه شيئاً مطلقاً زيادة على ما كان مفروضاً عليّ، وغالباً ما تصورت أنه افترض أنني كنت لورداً كبيراً، وكان هذا المعلن لخدمته لي بمثل هذه العناية، وفي الحقيقة كنت في خلال حجيّ محظوظاً إلى حد كبير، حيث لم أعامل بسوء من قبل أحد من المسلمين، أو البدو العرب، أو المدينيين، أو الممالك، والذين كانت لي علاقة بهم، ولا يمكنني إخباركم أنني تلقيت أية ضربات أو اهانات، مع أنني غالباً ما رأيت الحجاج الآخرين يتعرضون للضرب وللإهانة، وكان لديّ دوماً في حجيّ دواب جيدة، وبقيت على الدوام قوياً وصحيحاً، وللب الحمد.

انطلاق الحجاج من شاطئ البحر وهم على ظهور حميرهم

أما وقد فرغت من حكاية جولاتي عبر البحر، ينبغي أن أنتقل إلى مايتعلق بجولاتي على اليابسة، وهكذا — كما قلت من قبل — عندما جئنا إلى قطيع الحمير، وأخذ كل انسان، بعد طول انتظار دابة وتجهز بها، امتطينا هذه الحمير عند شاطئ البحر، ووقفنا ننتظر لبعض الوقت، حتى أصبح السادة المغاربة جاهزين، وكان هناك بعض الحجاج، الذين رفضوا صدوراً عن تقواهم، أن تكون لديهم حمير، وأرادوا السعي وراء جماعتنا، وسمح لهم المسلمون بفعل ذلك، وكانوا راضين شريطة أن يركضوا بقدر ما تستطيع حميرنا أن تقطع في يوم واحد، وأن يسيروا مع الجماعة، وأن لا يتأخروا خلفها، لكن عندما سرنا أسرع لم يستطيعوا مسايرتنا، بسبب المسافة التي قطعناها، ولأن الطريق الذي سرنا عليه كان طريقاً رملياً، وهكذا كانوا مرغمين بالقوة على ركب الحمير.

هذا وليست صحيحة الحكاية التي غالباً ماسمعناها في بلادنا، من أن المسلمين أرغمونا على ركب الحمير إلى القدس، وأن نمر من خلال الأرض المقدسة، لأنهم كانوا يرون أننا غير جديرين بلمس الأرض بأقدامنا، فهم لم يعبأوا أمشي الحاج على قدميه، أو ركب حماراً، مادام العقد المبرم مع القباطنة محافظ عليه وعلى الذي يمشي على قدميه عدم التأخر، ومن ثم إرغامهم على انتظاره، والسبب الذي جعلونا نأخذ به حميراً، هو أن نبقي دوماً مع بعضنا، وأن نصل إلى القدس دون أن نصاب بالمرض، لأن الحجاج لو توجب عليهم السير على أقدامهم طوال الطريق من البحر إلى القدس، وأن يعبروا خلال الأرض المقدسة في مثل هذه الأنواء الحارة، وأن يمشوا فوق الطرقات التي هي رملية في السهول، ووعدة في الجبال، لو توجب عليهم هذا، فقلة منهم هي التي سوف تبقى حية، بسبب الحرارة، والعطش، والعمل في ظل مناخ غريب، وإذا ما أرغمنا على السير على أقدامنا، خلال الأرض المقدسة،

كيف لنا أن نهرب من البدو العرب، والفلاحين في القرى، أو الصمود في وجههم عندما يهاجمونا؟ وبناء عليه إنه لصالحنا جرى تزويدنا بالدواب، وليس لضررنا كما قيل من قبل الجهلة.

وعندما بات الجميع جاهزين، ومضى القبطانان والحكام على ظهور خيولهم، وابتعدوا عن شاطئ البحر، تبعناهم، ونحن على ظهور حميرنا، وسار خدم السادة المغاربة، وهم على ظهور مطاياهم خلف الحجاج، ورافقنا سائقوا حميرنا، وسرنا نحن جميعاً وفق هذا النظام مسرعين جداً بعيداً عن البحر، وكان هناك حشد عظيم اجتمع معاً من المسيحيين ومن المسلمين، وأدركنا ظهورنا إلى شاطئ البحر، الممتد من الشمال إلى الجنوب، وكان ميناء يافا، بوضعه قائماً في وسطه، لأنه قام باتجاه الجنوب منه يبنى وغزة، وقام على الجانب الشمالي قيسارية فلسطين، وعكا، وصور، وبيروت، وطرابلس، وقد خلفنا هؤلاء جميعاً وراءنا على شاطئ البحر، وسرنا على طريقنا نحو الشرق، خلال أرض فلسطين، التي لم تكن كلها منبسطة، بل تشكلت من هضاب منخفضة من مختلف الأشكال، وهذه أرض كانت من الممكن أن تكون خصبة وجيدة، لو توفر شعب يزرعها ويسكن بها، لأنه في الواقع الجزء الأكبر من الأرض المقدسة هو صحراء.

وعندما صرنا على مسافة نصف ميل عن البحر، وصلنا إلى مدينة غاث، التي كانت فيما مضى مدينة المقاتلين الأشداء جداً من العمالقة، وفيها ولد جالوت الغاثي، وتقول الأساطير أيضاً بأن القديس كريستوفر قد ولد هناك أيضاً، وإلى ملك غاث كان داوود قد هرب من وجه شاول، وحدثنا الإخباريون عن هذه المدينة، أنه بفضل طبيعة المكان، ولد فيها رجال قساة وشجعان، ولهذا حتى في العصور المتأخرة استولى الصليبيون عليها بعد سفك كثير من الدماء، وخاضوا معارك شديدة مع المسلمين المدافعين عنها، حتى أخيراً، بعد مذبحه عظيمة بين

المسلمين والصليبيين فقدوها للمرة الثانية، وعندما استولى عليها المسلمون هدموها وسووها بالأرض، ولهذا هي الآن قائمة حالها حال يافا.

وكانت الشمس في الوقت نفسه قد أخذت بالاشراق، وقد اجتزنا خلال أرض جميلة، مليئة بالأسوار والجدران المهدمة، ولقد دهشنا تجاه الخرائب التي رأيناها، عندما اجتزنا إلى جانب مدينة اسمها أرسوف، التي كانت قد بنيت من قبل سليمان، وذلك تبعاً لما قاله جيروم في كتابه «عن مسافات الأماكن»، وكان البدو العرب في ذلك الحين منتشرين فوق وخلال كثير من أجزاء الأرض المقدسة، ولقد قدموا ثلاث مرات لمواجهةنا، لكنهم عندما رأوا أننا كنا محميين بشكل جيد بمدافعنا مسلحين، لم يتعرضوا لنا بأي عنف لا بالحجارة ولا بالفولاذ، بل التحقوا بشكل سري بحشدنا إلى طرف الحجاج، وحاولوا سرقة كتابات، وملابس وما شابه ذلك، لأنهم عرفوا أننا كنا غير مسلحين، ولهذا ركضوا من حولنا وانتشلوا كل ماسقط من الحجاج، أو ما لم يجرسوه بشكل دقيق، ولولا أننا سافرنا مع هذه القوة العظيمة، لكانوا انقضوا علينا، وضرّبونا بالحجارة، والعصي، والهرافات، كما حدث مراراً للحجاج بين يافا والرملة، وعندما لا يكون بداءة عرب في المنطقة، كان الفلاحون يحتشدون مع بعضهم، ويهاجمون الحجاج وهم على طريقهم، ويلحقون بهم أضراراً كثيرة، ولهذا كانت الرحلة من يافا إلى الرملة خطرة كثيراً، بسبب هذه الكائنات والإهانات الصادرة عن المسلمين.

وفيما نحن على طريقنا رأينا مدينة الرملة، فوق رابية منخفضة في منطقة فائقة الجمال، وعندما بتنا على مسافة فرلنغ (ثمان ميل) منها، أرغمنا على الترحل من على ظهور حميرنا والسير على الأقدام، وأن يحمل كل واحد منا حقائبه على كتفيه، وبناء على ذلك أعطينا حميرنا إلى السائقين، وأسرعنا نحو البلدة ونحن في ضيق عظيم، لأن الحرارة كانت

عالية جداً، وثار الغبار هناك، وكان هناك حشد كبير من الناس مع كثير من أعمال الازعاج، وكان المسلمون لا يقبلون بدخول المسيحيين إلى مدنها وبلداتهم، وهم راكبين للدواب، ما لم يكن قدومهم في الظلام، لكن في وضوح النهار كان هذا مرفوضاً، ولقد عدّوا مدينة الرملة ذات مكانة عالية فوق جميع المدن الأخرى، لأن القاضي Thadi ، أي أسقفهم، يسكن فيها، لذلك تراهم متمسكين في أن لا يدخلها مسيحي إلا على قدميه، وعندما دخلنا إلى المدينة، وجدنا على مسافة قصيرة من بابها بيتاً له باب منخفض وضيق، وقف أمامه الحاكم، وتولى تعدادنا واحداً واحداً، وذلك مثلما فعلوا عندما غادرنا البحر، وطلب منا الدخول من خلال الباب الصغير، هذا ولقد كان في داخله ساحة واسعة وجميلة، مع كثير من القاعات، والغرف المقيمة من مختلف الأنواع، وبركة مليئة بماء جيد وصحي.

وكان هذا البيت قد شري منذ وقت طويل مضى من قبل فيليب صاحب بيرغندي، ذي الذكرى المباركة من أجل الاستخدام من قبل الحجاج، وعهد به من قبله، إلى رهبان دير جبل صهيون، ولهذا أطلق عليه اسم مضافة الحجاج، وقد تركه رهبان دير جبل صهيون إلى واحد من المسيحيين الشرقيين سكن فيه، ولقد سمعت أنه قبل شراء هذا البيت من أجل إيواء الحجاج، كانوا قد اعتادوا على الإقامة مجبرين في نزل عام في المدينة قرب السوق، في وضع تعيس وكريه، حيث أسيئت معاملتهم كثيراً، لأن مسلمي الرملة ومغاربتهم يحملون كراهية خاصة نحو المسيحيين ويسئون معاملتهم كثيراً، كما سأخبركم، وقمنا هنا بتوزيع أنفسنا على مختلف القاعات، وجلست كل جماعة لحالها، وامتلك موالي وجميع أتباعهم مأوى واسعاً، اشترينا له حصراً لتغطية الأرض، حتى لانكون مرغمين، على الجلوس، أو الاستلقاء، أو النوم، أو الأكل، فوق أرض عارية، لأنه لم يكن هناك سوى قاعة مقيمة مع جدران

وأرض مبلطة، من دون أي أثاث مهما كان نوعه، باستثناء ما جلبناه وأدخلناه إلى هناك بأنفسنا.

هذا وكانت الساعة عندما دخلنا إلى المدينة هي حوالي التاسعة صباحاً، وبناء عليه أعدّ الأب المسؤول عن دير جبل صهيون، وأقام مذبحاً في الحديقة الداخلية للبيت، حيث كان بيتا القبطانين، وكان ذلك مقابل جذع نخلة عظيمة، كانت قائمة هناك، محملة بالتمور، وبعد هذا دعا جميع الحجاج إلى الدخول إلى تلك الحديقة، وفعل ذلك بعدما أغلق الأبواب، حتى لا يتمكن المسلمون من مقاطعتنا، وقام واحد من الرهبان بعمل قداس، وبعد القداس قدّم الأب المسؤول موعظة طقوسية جميلة، باللاتينية، لأنه كان ايطالياً، ولا يعرف الألمانية، وبما أنه لم يكن لديه أومعه أحد فصيح مجيد للغة الألمانية، يمكنه أن يترجم موعظته لنا نحن الألمان، طلب مني أن أقف إلى جانبه، وأن أترجم موعظته إلى الحجاج الألمان، وفعلت هذا راضياً، ووقفت إلى جانبه، وعندما كان يتفوه جملة باللاتينية كنت آخذها من فمه وأعيدّها باللغة الألمانية الرائجة، فضلاً عن هذا قدم إلى الحجاج بعض الوصايا في موعظته تتضمن أحكاماً وطرائق رؤية الأماكن المقدسة التي عليهم مراعاتها أثناء إقامتهم بين المسلمين والكفار في الأرض المقدسة، خشية أن يتعرضوا للمخاطر من خلال الجهل.

وكانت أول الأحكام والنصائح: أنه إذا كان هناك حاج قد قدم من دون الحصول على إذن واضح من البابا، وبذلك صار عرضة لقرار البابا بالحرمان الكنسي وتحت طائلته، على مثل هؤلاء الأشخاص تقديم أنفسهم له بعد القداس، وهو سيقوم بتحليلهم من ذنبهم بفضل السلطة الرسولية الممنوحة له، فالبابا كان يتخذ قراراً اجرائياً ضد كل واحد يذهب لأداء الحج في الأراضي المقدسة من دون الحصول على إذن منه، كما مرّ معنا في ص ٩٥، المتقدمة، وسبب هذا الحرمان الكنسي، هو أنه

بعدها جرى طرد الصليبيين من الأرض المقدسة، بقي بعض المسيحيين، حتى من أتباع الكنيسة اللاتينية هناك، وتخلفوا فيها، وتعايشوا بأنفسهم مع المسلمين، وأدوا إيمان الولاء لهم، وحدث أيضاً أن بعض الذين تركوا تلك البلاد، عادوا إلى هنا ثانية إلى الذين بقيوا هناك وصاروا رعايا لهم، وأبحروا بعد ذلك إلى البلاد المسيحية، وجلبوا منها مصنوعات حديدية، وأسلحة، كان المسلمون بحاجة إليها، وعندما رأى البابا هذا، قام بإصدار قرار حرمان كنسي بحق جميع الذين بقيوا في الأرض المقدسة مع المسلمين، أو الذين تعاونوا معهم واتفقوا، كما قام أيضاً بحرمان الذين حملوا الأسلحة والأشياء الأخرى المحتاجة إليهم، علاوة على ذلك حرم الأرض نفسها، وبناء عليه صار كل من يدخل إليها من دون إذن آثماً مرتدّاً، على أساس أنه لا يمكنه العيش هناك من دون التعاون مع المسلمين والهرطقة، هذا وجرى استثناء أعضاء من الطوائف الدينية من الذين زاروا الأرض المقدسة من الحرمان، وكذلك كل واحد له صديق واقع بالأسر بين المسلمين، فهذا يمكنه دخول البلاد من دون الحصول على إذن من البابا، وأن يعقد صفقة مع المسلمين من أجل الحصول على حرية صديقة، وقد قرأت هذه الشروط والقرارات في كتاب قديم كتب من قبل أحد الحجاج الذين زاروا الأرض المقدسة منذ مائة وخمسين سنة مضت، ولم يمنح الرئيس الأعلى للدومنيكان إذنًا لأي راهب لم يحصل أولاً على إذن من البابا.

وكانت النصيحة الثانية: وجوب عدم تجول أي حاج لوحده حول الأماكن المقدسة من دون دليل مسلم، لأن ذلك يعدّ خطراً وغير آمن، ولم أقم أنا الراهب فيلكس فابري بالتقيد تقيداً مطلقاً بهذه النصيحة كما سيتضح فيما بعد.

وكانت النصيحة الثالثة: على الحاج أن يكون حذراً ولا يخطو فوق قبور المسلمين، لأنهم يغضبون غضباً عظيماً عندما يرون هذا يفعل،

ويرجمون بالحجارة كل واحد يدوس فوقهم، لأنهم يعتقدون أن الخطو فوقهم يعذب الميت ويزعجه.

وكانت النصيحة الرابعة: أنه إذا ماتعرض حاج لضربة من مسلم، عليه عدم الرد بضربه، حتى وإن كان مظلوماً، بل عليه أن يشكو الذي ضربه إلى المسؤول عن الدير أو إلى الترجمان كالينوس اللذان سيقنتصان له إذا استطاعا، وإذا لم يستطيعا، وكان الفاعل شاب وقح أحياناً، وعنيد، وقتها على الحاج أن يتحملها صابراً من أجل مجد الرب، ومن أجل الحصول على ثواب أعظم.

وكانت النصيحة الخامسة: على الحجاج أن يحذروا من قطع شظايا من الضريح المقدس، ومن الأبنية في الأماكن الأخرى، ومن تشويه الحجارة المنحوتة هناك، لأن هذا محرم تحت طائلة الحرمان الكنسي، ولسوف يقال المزيد حول هذه المسألة في الورقة ٢١٧ ظ.

والنصيحة السادسة: يتوجب على الحجاج من أصل نبيل عدم تشويه الجدران برسم رنوكهم وشعاراتهم عليها، أو بكتابة أسمائهم، أو بتثبيت أوراق على الجدران عليها مرسومة رنوكهم، أو بالخربشة على الأعمدة أو الألواح الرخامية، أو حفر حفرة فيهم بأدوات معدنية لعمل علامات تدل على زيارتهم لهم، لأن مثل هذا التصرف يغضب المسلمين كثيراً، ويعتقدون أن الذين يفعلون مثل هذه الأفعال حمقى.

والنصيحة السابعة: هي على الحجاج السير إلى زيارة الأماكن المقدسة بطريقة نظامية، من دون فوضى أو عدم اتفاق، وينبغي أن لا يقوم انسان بإبعاد آخر وأخذ مكانه، لأن هذا يولد كثيراً من الفوضى التي تقع عند تلك الأماكن، وبذلك تتعطل التقوى ويعاقب التعب المخلص.

أما الشرط الثامن والنصيحة: هي أنه يتوجب على الحجاج عدم الضحك وهم يسرون مع بعضهم في أرجاء القدس لرؤية الأماكن

المقدسة، بل عليهم أن يكونوا جديين وأتقياء، من أجل الأماكن المقدسة، وليقدموا مثلاً للمسلمين، وأيضاً حتى لا يعتقدون ويشكّون أننا نضحك عليهم، الأمر الذي يغضبهم إلى أبعد الحدود، ذلك أنهم دوماً يتشككون حول الضحك والرهج بين الحجاج.

والوصية التاسعة: هي على الحجاج أن يكونوا متيقظين فوق كل شيء تجاه المزاح أو الضحك على الأطفال المسلمين أو الرجال الذين يقابلونهم، لأنه مهما كان القصد من ذلك، فإن كثيراً من السوء ينشأ من ذلك، وعلى هذا مهما صدر عن الصبي وكان مضحكاً، على الحاج أن يبعد نفسه وينأى بها، وأن يبقى جاداً، وبذلك يبقى بأمان.

وأما الوصية العاشرة: فعلى الحجاج عدم التحديق بأي من النساء اللاتي يواجهن، لأن جميع المسلمين غيورين إلى أبعد الحدود، وهكذا يمكن للحاج أن يجلب المخاطر على نفسه من خلال الجهل، حيث يغضب عليه واحداً من الأزواج الغيورين.

والوصية الحادية عشرة: إنه إذا حاولت أية امرأة الإيحاء إلى حاج أو دعوته بالشارات لدخول بيت ما، عليه عدم فعل ذلك بأي حال من الأحوال، لأن المرأة تفعل ذلك من باب التآمر، بإثارة من بعض الرجال وتحريض، من أجل أنه عندما يدخل المسيحي تتم سرقة، وربما قتله، فالذين لا يكونون حذرين جداً في هذه الأمور قد يجنون مخاطر عظيمة.

والوصية الثانية عشرة: على الحاج أن يكون متيقظاً فلا يعطي إلى أي مسلم خمرة عندما يسأله ويطلب منه شرباً، سواء أكان ذلك على طرف الطريق، أو في أي مكان آخر، لأنه بعد شربه لجرعة واحدة يصبح مجنوناً، وأول رجل يقاتله هو الحاج الذي أعطاه الشراب.

والوصية الثالثة عشرة: على الحاج الحفاظ على الحمار الذي تسلمه أولاً من سائقه، وعليه عدم تغييره أو مبادلته بحمار آخر، إلا بموافقة

السائق، وإلا فسينجم عن ذلك اضطراب.

والوصية الرابعة عشرة: على الحجاج من أصل نبيل عدم الافصاح عن نبالتهم أمام المسلمين، لأن هذا عملاً غير حكيم، ولا يجوز فعل ذلك لأسباب كثيرة.

والوصية الخامسة عشرة: ينبغي أن لا يضع أي حاج على رأسه عمامة بيضاء، أو يلف قطعة قماش أبيض أو منديل حول رأسه في حضور المسلمين، لأنهم يعدون أنفسهم وحدهم يمتلكون امتياز فعل ذلك، وهي علامة يتميزون بها عن الأمم الأخرى، كما أنهم لا يتحملون رؤية مسيحيين يرتدون أردية بيضاء، مع أن ذلك معاكساً لعقيدتهم الواردة في القرآن، حيث غالباً ما أطلق على المسيحيين اسم «ذوي الأردية البيضاء» (كذا) وكلما جاء ذكرهم فيه قيل هم «اللابسين للبياض»، وذلك حسبما قرأنا في ترجمة القرآن التي عملها نيقولاكوسا Cusa ، ذلك أن المسلمين يتصرفون على عكس تعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد تبنا ثمانية كثيراً من العادات التي اعتادوا على استخدامها في أيام الوثنية، مثل ما يتعلق بقضية الألبسة، ذلك أن يرتدون ملابس خثوية لا يتميز الرجال فيها عن النساء، مثلما نقرأ أن الملكة سميراميس قد لبست في الماضي القديم، عندما زحفت ضد البكتريين Bactrians ، وهي في الوسط بين رجالها المسلحين، وقد لبست ذلك حتى لا يعرفها أحد فيما إذا كانت امرأة أو رجل، وهذه العادة ماتزال متبناه في الشرق، ومثل هذا كان من طرائق الكفار أن يلفوا رؤوسهم بالأقمشة، مثلما نقرأ بأن ذلك قد فعله دايونيسوس Dionysus ابن سمي Semele ، الذي كان مدمناً على الشراب والرفاهية، حيث كان كلما أصيب بصداق بعد السكر، اعتاد على ربط رأسه ولفه بعمامة، ومن ذلك نال اسم Mitrophoros ، وقلد محمد (ﷺ) دوما شارب الخمرة ذاك، بأن لف رأسه بعمامة، لكن بعدما حرم

الخمرة... (١) تبنى عمامة للرأس لها شكل الكرة، وترك ذلك عادة لاتباعه، ذلك أنهم يسرون في هذه الأيام وهم يلبسون هذه الكرات من القماش على رؤوسهم، وكأنها تيجان، ولا يسمحون لنا بأردية رأس بيضاء.

والوصية السادسة عشرة: لا يجوز لأي حاج حمل خناجر أو أي شيء آخر معلقاً من حوله، خشية أن تسلب منه، كما لا يجوز له حمل أي نوع من أنواع السلاح.

والوصية السابعة عشرة: إذا ما أقام حاج صداقة مع أي مسلم، عليه أن يكون حذراً في عدم الوثوق به كثيراً، لأن المسلمين خونة، وعليه أن يكون متنبهاً بشكل خاص فلا يضع يده على لحيته مزاحاً، أو لمس عمامته، لأن هذا الشيء يعدّ إهانة بينهم، ويتم تناسي جميع المزاح، ويعدّ ذلك تهديداً، ويتحول إلى غضب، وبشأن هذه الحقيقة، كان لي أنا الراهب فيلكس فابري تجربة.

والوصية الثامنة عشرة: يتوجب على كل حاج أن يحرس بعناية مقتنياته، وأن لا يدعهم ملقى بهم من حوله في أي مكان فيه مسلمين، وإذا حدث هذا فإن هذه المقتنيات سوف تختفي، مهما كانت.

والوصية التاسعة عشرة: إذا كان لدى أي حاج قارورة من الخمرة، ورغب أن يشرب منها، عليه إخفاء القارورة والشرب منها بشكل سري إذا كان المسلمون حضوراً، وعليه أن يسأل رفيقه بالوقوف أمامه، أو أن يغطيه بردائه، وبذلك يمكنه أن يشرب دون أن يرى، ولأن شرب الخمرة محرم عليهم، فإنهم يحسدوننا عندما يروننا نشرب منها، ولهذا يقومون — إن استطاعوا — بإزعاج الذين يشربون.

(١) أورد الرحالة هنا بعض العبارات النابية فأسقطتها، ووضح عدم استناد روايته إلى أي توثيق.

والوصية العشرين: يتوجب على كل مسيحي عدم التعامل مالياً مع المسلمين، إلا في الشؤون التي يعرف أنه لن يخدع بها، لأنهم يبذلون جهدهم لغشنا، ويعتقدون أنهم يخدمون الرب بخداعنا وغشنا (كذا) وفوق كل شيء، على الحاج أن يكون حذراً من اليهود الألمان، وأن يحترس منهم، ذلك أن هدفهم الوحيد في الحياة هو خداعنا وسرقة أموالنا، وعليه أيضاً أن يكون حذراً من المسيحيين الشرقيين لدى تعامله معهم، لأنهم ليس لديهم ضمائر، وأدنى من اليهود ومن المسلمين، ويقومون بخداع الحاج إذا استطاعوا.

والوصية الحادية والعشرين: عندما يعقد الحاج موثيق مع مسلمين، عليهم عدم الاختلاف معهم، ولا الإقسام لديهم، وأن لا يكونوا غاضبين معهم، لأنهم يعرفون هذه الأشياء مضادة للديانة المسيحية، وعندما يرون أي شيء من هذا النوع يصرخون على الفور: «أنت مسيحي سيء»، ذلك أنهم جميعاً يمكنهم قول هذا بسهولة بالاطيالية أو بالألمانية، وكلما أظهر أي حاج أي سوء، يلقون باسم «مسيحي» بين أسنانهم، وكأنهم مقبلون على الاستشهاد بالنص الذي قاله القديس أوغسطين حول العقيدة المسيحية، حيث تساءل: «كيف لا يمكنه أن يقول عنك مسيحي، الذي لا يتصرف مثل مسيحي؟ فالمسيحية اسم يعني تطبيق العدالة، والجودة، والأمانة، وطول المعاناة، والفضيلة، والحكمة، والتفرد، واللفظ، والبراءة، والتقوى»، ولذلك على الحاج أن يتبته لنفسه حتى لا يجلب العار على مثل هذا الاسم النبيل مضافاً إلى اسمه الشخصي.

والنصيحة الثانية والعشرين: على الحاج الانتباه إلى عدم الدخول إلى المساجد، أي أماكن العبادة لدى المسلمين والاعتكاف، ذلك أنه لو وجد هناك، لن ينجو مطلقاً من دون أن يتعرض للأذى، هذا إذا نجا بحياته، ولقد جرى بحث هذا الموضوع بشكل مطول في الورقة ٢٦١ وفي

الصفحات التالية.

والنصيحة الثالثة والعشرين: على الحاج أن يكون حذراً بشكل خاص من الضحك للاستهزاء من مسلم يصلي ويقوم بالسجود المطلوب في عقيدته، لأن المسلمين لا يمكنهم تحمل هذا مطلقاً، لأنهم هم أنفسهم يتمنعون من الاستهزاء بنا والضحك علينا عندما نكون في صلاتنا.

والنصيحة الرابعة والعشرين: إذا ما أبقى حاج مدة أطول مما رغب في الرملة، أو في أي مكان آخر، عليه تحمل ذلك صابراً، وأن لا يظن أن ذلك غلطة الأب المسـؤول، بل غلطة المسلمين، الذين يفعلون ما يرضيهم في هذه المسائل، وليس ما هو موافق لنا.

والنصيحة الخامسة والعشرين: ينبغي على الحاج أن لا يتذمروا من دفع المال لانقاذ أنفسهم من المنقصات الكثيرة التي تلحق بهم، إنما عندما يتوجب دفع المال، عليهم أن يدفعوا دون مناقشة وعلى الفور، هذا ولا يحتاج أي واحد لدفع مال إلى سائق حماره، لأن هذا كله قد دفع من قبل القبطان، مالم يقدم أي واحد، صدوراً عن كرم منه بإعطاء سائقه بنساً لشراء علف لحماره، مع أن ذلك ليس متوجباً عليه فعله.

والنصيحة السادسة والعشرين: على الحاج دفع شيء ما إلى الحافظ لدار الضيافة التي نقف بها، من أجل ترميم البيت، والحيلولة دون خرابه.

والنصيحة السابعة والعشرين، وهي النصيحة الأخيرة: على الحاج إظهار الاحترام نحو الدير الفقير العائد لرهبان جبل صهيون في القدس، فبمساعدة هذا الدير يجري توجيه الحاج وإرشادهم في داخل الأرض المقدسة وخارجها، وينبغي بمساعدتهم رعاية هذا الدير ومساعدة الرهبان الذين فيه، والذين يسكنون بين المسلمين، لتقديم الراحة للحجاج، وهم على استعداد لخدمة الحاج، وفقاً لقدراتهم،

وسائلهم، إلى حد الارتواء بأنفسهم تحت أقدامهم، إذا كان ذلك ضرورياً، وإذا لم تتم معاملة أي حاج وفقاً لرغباته وحاجاته، عليه عدم لوم الرهبان بسبب ذلك، لأنهم إذا ما أرغموا على اشباع كل حاج بالخبز والخمرة، سيكون الوضع أنه بعد مغادرة الحجاج سوف يجدون أنفسهم بلا ما يمكنهم من العيش، وهم — على كل حال — على استعداد لرعاية مرضى الحجاج بكل ما يمكن والسهر عليهم وإنعاشهم، ومعاملتهم بالاحسان أثناء مرضهم.

وقمت قراءة هذه النصائح للحجاج بصوت مرتفع، في كل من اللاتينية والألمانية، والآن بما أن القديس قد طال أكثر من اللازم، صار المسلمون الذين أبقوا معزولين في الساحة الخارجية بلا صبر، وضربوا على الباب بالحجارة، وكأنهم يريدون تحطيمه، وصعد آخرون فوق سطح البيت وتطلعوا على الساحة، حيث كنا، وهم يضحكون ويصرخون، وقمنا نحن الذين أزعجنا هذا، بالنظر بدورنا إلى هؤلاء الشباب بملامح جادة غاضبة، وأشرنا إليهم بالنزول، وعندما رأوا أننا كنا جادين، أوقفوا صخبهم، وابتعدوا واحداً تلو الآخر، وأكملنا القديس كله بسلام، وكان الوقت وقتها حوالي الظهر، ولذلك فتحنا الباب، وخرجنا إلى ساحتنا، التي وجدناها مليئة بالمسلمين، واليهود، والهرطقة، والمسيحيين الشرقيين، مع أشياء متنوعة للبيع، وبشكل خاص الأطعمة، فهناك وجدنا فرايج مطبوخة وطيوراً، وحليباً مطهواً، ومعجنات مصنوعة من الدقيق، ورزاً مطبوخاً بالحليب، وأرغفة رائعة من الخبز، وبيضاً، وعناقيد من أحلى العنب، ورمناً، وتفاحاً، وبرتقالاً، وبطيخاً، وليموناً، وتينا من كل من الحجم الصغير والكبير، وحلويات من اللوز والعسل، وتين جاف، وبعض المربيات بالسكر، واللوز، والتمر، والماء البارد، وجلب أحد الناس قوارير مصنوعة من الجلد مليئة بشراب مصنوع يستخدمه السادة العظام من المسلمين عوضاً عن

النيذ، وبناء عليه شربنا الأظعمة التي راقت لنا وأكلناها في المكان الذي نمنا فيه.

وبعد الغداء في ذلك اليوم، قام كاليينوس الأصغر، الذي اسمه الفحل، بقيادتنا للقيام بجولة في أرجاء مدينة الرملة، وأخذنا إلى شوارع التجار، وهناك رأينا كثيراً من المصنوعات الثمينة، ومسجداً عظيماً، وذهبنا إلى حمام ساخن، استحجم فيه كثير من الحجاج برفقة المسلمين، وهذا الحمام الساخن، مثله مثل جميع حمامات المسلمين، قد بني بشكل رائع، وبطريقة بارعة، وهو قائم بين أربعة أبراج، وتأتيه الحرارة من الأسفل، وتمر عابرة على طول البلاط المعمول من رخام مصقول جميل من ألوان متعددة، ولسوف نجد كثيراً حول الحمامات الساخنة العائدة للمسلمين، وفيما إذا كان أمراً قانونياً بالنسبة للمسيحيين الاستحمام برفقة المسلمين، ومسائل أخرى، متعلقة بهذا الموضوع في القسم الثاني، وهكذا بعدما رأينا المدينة رجعنا إلى موضعنا، وعندما صار الوقت متأخراً، أخرجنا جميع التجار، وأغلقتنا باب البيت، وأعددتنا أنفسنا للنوم.

وفي اليوم العاشر، الذي كان يوم عيد «الأخوة السبعة»، استيقظنا باكراً جداً في الصباح من أجل القداس، وكان ذلك قبل شروق الشمس، وقبل استيقاظ المسلمين والتجار، وأقمنا مذبحاً في ساحتنا، وأقام واحد من الرهبان القداس، وبعد القداس أخبرنا بأن علينا إعداد أنفسنا لزيارة كنيسة القديس جرجس في اللد، وهذه الكنيسة قائمة فوق المكان الذي استشهد فيه ذلك القديس.

ولم يستطيعوا في حجي المتقدم أخذنا إلى هناك، لأن البدو العرب كانوا قد نصبوا كميناً في الوادي، وكانوا ينتظروننا حتى نقدم، فيسلبوننا، وعندما بتنا جاهزين، غادرنا المدينة، مثلما دخلناها، ووجدنا خارج المدينة حميرنا مع سائقيهم، وهنا ركض كل انسان بين قطع

الخمير يصرخ بصوت مرتفع لسائقه، وكنت أصبح «جلاله قصه، جلاله قصه»، وصاح آخرون بأسماء أخرى تبعاً لتعدد أسماء سائقيهم، وهكذا امتطينا حميرنا، وانطلقنا مسرعين نحو اللد، التي تبعد نحو ميلين إيطاليين عن الرملة، ووصلنا إلى ديوسبولس، التي تعرف أيضاً باسم اللد، أو الليدا، والتي كانت فيما مضى من أيام مدينة كبيرة، لكنها تعرضت للدمار على أيدي المسلمين، وهي الآن مجرد قرية صغيرة، وذهبنا إلى المكان الذي فيه استشهد القديس جرجس مع انفصالات مختلفة، وقبلنا المكان بتقوى عظيمة، ولمسناه بمجوهراتنا، وتلقينا هنا سبع سنوات غفران (+)، ورأينا هنا بحزن عميق خرائب كنيسة جميلة جداً، كانت عالية وواسعة، وهناك جانب من السدة ما يزال باقياً، لكن الأقواس والسقف كانوا قد سقطوا هناك، وفي السدة موضع استشهد القديس جرجس، وهناك مصباحان مشتعلان بشكل دائم، حيث يجري تزويدهما بالوقود من قبل المسيحيين الأرثوذكس الذين يقيمون في القرية، وكان الجزء المتبقي من الكنيسة قد فصل من عند السدة بجدار، وأقاموا في ذلك المكان مسجداً جميلاً تشریفاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد زينوه ببرج مرتفع، وقام الباب في مواجهتنا، ولذلك كان بإمكاننا أن نرى ما في صحن المسجد، وما في المسجد نفسه، وكان يشبه اللجنة لنظافته ولجماله.

وكان القديس بطرس قد شفى في هذه المدينة عيناس، وقام بالوعظ والتبشير هنا أيضاً، حسبما نقرأ في الاصحاح التاسع من أعمال الرسل، وفي الأيام التي كانت فيها البلاد بأيدي الصليبيين، كانت هذه مقر كرسي أسقف، وهنا كانت تقام صلوات ربانية كثيرة، وإلى جانب هذه المدينة رأينا جبل مودين، الذي كانت عليه مدينة عائدة للرجال الشجعان من المكابيين، وهناك أيضاً جرى دفن متاتياس (كذا) وأولاده، وكنت قد أتيت على ذكر قبورهم في ص ٣٢٢، ويبدو أن هذه المدينة،

كانت هي اللد، التابعة لسبط نفتالي.

وعندما فرغنا من اللد، رجعنا إلى الرملة من أجل الغداء، وأكلنا هناك، وبعد الغداء وقفنا مستعدين من أجل الانطلاق، لكن لا القبطانين، ولا الترجمان، ولا الحكام ظهروا بيننا، ذلك أنهم كانوا طوال ذلك اليوم قد جلسوا في قاعة مغلقة عليهم، يتداولون مع بعضهم في اجتماع سري، ويتجادل أحدهم مع الآخر، ذلك أنهم كانوا خائفين، فضلاً عن هذا لقد سمعنا بأن البدو العرب، كانوا قد نشروا أنفسهم حول الطرقات التي تؤدي إلى القدس، ومعنى هذا أنه لم يكن بإمكاننا الوصول إلى القدس من دون إبعادهم، فالرب قد قضى بوقوع هذا الوباء وبنزوله على هذه الأرض وعلى جميع البلدان التي من حولها، لأن الأعراب قوم عراة، وتعساء وأشقياء وأناس جوالون، وهم وحدهم لديهم القدرة على العيش في الصحراء، التي هي غير قابلة للسكن من قبل الآخرين جميعاً، وهم يهاجمون، ويستبيحون، ويغلبون جميع الناس سواء، حتى الملك نفسه، الذي هو السلطان الأعظم لمصر، وعن هؤلاء الأعراب سوف أتحدث بشكل مطول كثيراً، فيما يلي في مكان آخر.

وهكذا حدث أنه في الوقت الذي كان فيه قبطانينا والسادة المغاربة يتشارون فيما بينهم، وقفنا هناك في الساحة المكشوفة في صخب شديد، لأن الساحة كانت مليئة بالتجار، وكانت هناك فوضى كبيرة واضطراب عظيم، لأن المسيحيين من المسلمين من الشباب والشيوخ، قد اجتمعوا هناك مع بعضهم، لمضايقتنا، وقد وقفوا أمامنا، وكانوا ينظرون إلينا ويصغون إلى كلامنا.

وفعلوا هذا بشكل خاص إلى الذين لاحظوا أنهم كانوا انفعاليين، أو إلى الذين ضحكوا استهزاء نحو ألاعيبهم، ولسوف يكون من الصعب بالنسبة لي اخباركم عن جميع الألاعيب المزعجة التي مارسها هؤلاء الشباب من المسلمين، فمن بين أشياء وقعت قيام واحد من الشباب

المزعجين باجلاس نفسه عند قدمي حاج نبيل، الذي كان رجلاً جاداً ومحترماً، ونظر من حوله ليري فيما إذا كان يمكنه إيجاد أي انسان يساعده في لعبته، والتفت أخيراً نحو الرجل الذي جلس عند قدميه، وأمسك قدمه وشدها، وفكر الفارس أولاً أنها كانت نوعاً من المزاح المزعج، فسحب قدمه وأرجعها وكأنه لم يهتم به، لكن الفتى وقد وجد نفسه قد عومل بازدراء، أمسك بالقدم الأخرى وشدها، محاولاً قلبه على قفاه، إنما في أثناء شده لرجل الفارس بقوة، أصبح هذا الأخير غاضباً، وقام بالقدم التي كان قد شدها أولاً، فرفس المسلم بعنف كبير في معدته، جعل بها الفتى يترك قدمه التي كان يشدها، ويسقط على الأرض، رأسه على عقبيه، ويتدحرج مثل كرة في وسط الساحة المبلطة، ثم إنه نهض وهو عظيم الاضطراب، وغادر المكان، وكنا خائفين كثيراً تجاه ما حدث، وخشيناً من أن يثير الناس لمهاجمتنا، لكن مامن أذى نتج عن ذلك.

وقدم إلى الساحة فتى آخر من العابثين، ووقف أمام وجه واحد من الحجاج، وكان يقوم ببعض حركات لوي أصابعه بمقاصد سيئه، الأمر الذي لم يستطع الحاج تحمله، فضرب يدي العابث بشدة يديه، وكسر اصبع الداعر التي لعب أثناء لويه لأصابعه، وعندما رأى واحد من المسلمين المسلحين هذا، صار شديد الغضب، واندفع لمهاجمة الحاج، ولولا أنه أخفى نفسه لألقي به في السجن، لأن ذلك الرجل المسلح وقف مع أتباعه لوقت طويل هناك ينتظر، آملاً بأمساك ذلك الحاج في بقعة مناسبة، لكن ذلك الحاج لم يتحرك من مكان اختفائه.

وينبغي أن أحدثكم عن أمر آخر وقع لنا، فقد قام حاج نبيل بالتصرف كما كان يجري منذ زمن طويل، فرسم رنكه ورنوك أتباعه على جدار، كان بديعاً جداً وجميلاً، وما أن أنهى عمله هذا، الذي استغرق منه عدة ساعات طوال، حتى ركض واحد من المسلمين ويده مليئة

بالقاذورات، فلوث الصورة بشكل مهين، ومضى في طريقه وهو يضحك، ولدى فعله هذا أصبح النبلاء على درجة عظيمة من الغضب، ولعنوا ذلك الشاب، لكن مامن واحد منهم تجرأ على أن يضع يده عليه، مع أنه لو فعل مثل هذا في بلادنا لجرى تمزيقه إلى قطع، ولقد تحملنا كثيراً من المنغصات المماثلة بطبيعتها في تلك المدينة، ومع ذلك لقد عوملنا بشكل أفضل مما حدث وعوملنا به في حجي الأول، لأنهم في ذلك الحين، اعتقلوا قبطاننا، بعدما أحضروه من يافا، وألقوه بالسجن أمام أعيننا، وتركوه مغلولاً هناك، قائلين بأنه لا يمتلك السلطة لجلب حجاج إلى البلاد، وأنا قدمنا إلى هناك من دون جواز، ولذلك يتوجب علينا دفع جزية مضاعفة، وإذا لم نفعل ذلك، فسوف لن نشاهد القدس، بل تتوجب عودتنا إلى غليوننا، وعلينا أيضاً لتسرعنا بالدخول إلى البلاد، دفع مال سيكون قدره وفقاً لقرار السادة المغاربة، وبقينا بالرملة لمدة أربعة أيام في هذا التأخير، الذي لم يكن بإمكاننا تفسيره بسوى أننا على وشك الإعادة إلى غليوننا، وأنا لن نشاهد الضريح المقدس لربنا، ولكم كان الأسف والاضطراب الذي شعرنا به في قلوبنا عظيماً، وأخيراً جرى اقتيادنا إلى البقاع المنشودة، وهكذا انتهى الموضوع، ودعوني أعود الآن إلى سياق روايتي.

وعند حلول المساء، جاء واحد من خدم القبطانين، وقال ينبغي أن نغادر مباشرة، ولهذا حملنا حقائبنا، وخرجنا من غرفنا، وجلسنا على مقربة من باب دار ضيافتنا، ننتظر حلول الوقت لانطلاقنا، وبعد مضي ساعة من الوقت، جاء إلى هناك واحد أخبرنا بأن بعض المسلحين من المماليك قد وصلوا للتو إلى هنا من القاهرة، ونظراً لقدومهم لن يتمكن قادتنا من مغادرة المكان هذه الليلة، ولهذا علينا العودة بهدوء إلى غرفنا، وعندما سمعنا هذا عدنا إلى غرفنا بمشاعر سيئة، وهنا عندما أردنا أن نجلس كما فعلنا من قبل، وجدنا أن جميع الحصر التي اعتدنا أن نجلس

عليها ونتمدد قد ذهبت ذلك أن المسلم الذي شربناهم منه مقابل مبلغ كبير من المال قد أخذهم، لذلك أرسلنا خلفه وطلبنا منه إعادة حصرنا، لكنه رفض ذلك رفضاً مطلقاً، ما لم ندفع له من جديد، قائلاً بأنه باعنا إياهم فقط للاستخدام حتى نغادر دار الضيافة، وبما أننا غادرنا غرفتنا فارغة، انتهى شرط تأجيرنا لهم، لأنه لم يكن متوقفاً عودتنا إلى الدار، وجرى نقاش عنيف مع هذا المسلم، الذي كان غاضباً جداً، وغالباً ما بصق علينا أثناء خصامنا معه، وبناء عليه أقمنا في غرفتنا من دون حصرنا، لأننا لم نرغب في تشجيع جشعه باعطائه بنساً واحداً، فهو كان على استعداد لإعطائنا إياهم مقابل بنسات قليلة، غير أننا طلبنا منه المغادرة، وعندما جاء الليل، بقي بعضنا في الغرفة، ونام هناك على الأرض العارية، وذهب بعضهم وصعد إلى السقف المقبب للبيت، حيث نام المقدم كالينوس وبعض المسلمين، وهناك أعدنا أنفسنا للنوم فوق البلاط في الهواء الطلق، وقد بنيت البيوت في الشرق مع شرفات على سطح البيوت، لذلك عندما تغيب الشمس يصعد الناس إلى هناك للتمتع بالبرودة، وهناك يعملون، ويأكلون، ويضعون فرشهم وينامون، لكن عندما تكون الشمس مشرقة يعيشون في الأسفل تحت القناطر، وفي الظل.

وهكذا تمددنا على سطح البيت، لكن من المؤكد أننا لم نحصل على الراحة التي طلبناها، بسبب صراخ المسلمين الذين اسمهم السقائين Soquis الذين صرخوا وغنوا وفق طرائقهم حتى حدود منتصف الليل، ومثل هذا الذين وقفوا على الأبراج (المآذن) وصرخوا هناك، وبأيديهم مصابيح مضاءة، وأبراجهم هذه طويلة ومستديرة، يقف عليها رجال الدين المسلمين، ويقومون بالعمل الذي يؤديه الناقوس، وعملهم عمل ديني تماماً، وسوف أتناول هذا الموضوع المتعلق بواجباتهم وشعائهم بتوسع كبير في الورقة ٩٤ من القسم الثاني، وكانت هذه

الليلة احدى ليالي أعيادهم، ولذلك صرخوا أكثر مما هو معتاد، وهكذا أمضينا تلك الليلة.

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كان يوم عيد بروكويوس المعترف، استيقظت قبل اشراق الشمس، وأدبت صلواتي فوق قنطرة أعلى من التي نمت فوقها، حيث جلست على السطح المحذب لأعلى الغرف، الذي منه كان يمكنني رؤية النائمين من حولي، وعندما أضاءت الدنيا، استيقظ المسلمون ووطوا فرشهم، وأعدوا ملابسهم، ثم حنوا ركبهم تعبدًا، وصلوا بشكل جاد تمامًا، وقرأوا صلواتهم بنغمة مثل الزئير، وأيديهم متشابكة، ثم كانوا يقفون، وقد سجدوا مرارًا حيث لامسوا الأرض برؤوسهم وكانوا يمكثون وقتًا قليلًا في سجودهم، ثم كانوا يقومون ثانية، وينظرون نحو الأعلى إلى السماء، وقد صلوا جميعًا في وقت واحد، وبطريقة واحدة، وكأنهم رهبان طائفة واحدة، وعندما كانوا يفرغون من صلواتهم، كانوا يذهبون — كما اعتادوا — إلى أعمالهم، وأقيمت هذه الصلاة ذلك الصباح في الرملة، ومثل ذلك أقيمت في أماكن أخرى، واستيقظ الآن حجاجنا بعد اشراق الشمس، وبدأوا على الفور بالحديث والضحك أحدهم مع الآخر، دون أن يقدموا الصلاة على ذلك.

ولذلك جلست هناك وقارنت بين ماقام به الفريق الأول وبين ماقام به الفريق الثاني، وأصبحت حزينًا، ومنزعجًا في قلبي، برؤيتي أولئك الضالين والأناس الضائعين تمامًا يقومون بأداء صلواتهم بجدية ومهابة، مع أنهم يثيرون غضب الرب ضد أنفسهم، لدى عدم تقديرهم القديسين والملائكة وجميع الحشد السماوي، وهذا مايفعلونه بأدعيتهم التجديفية، بينما نحن المسيحيين أكثر الناس تعاسة، وأعظمهم نكرانًا، الذين أنقذنا بدم المسيح الثمين جدًا، نقدم صلواتنا ونؤديها بخفة وبهجة، وبفتور لايمكن وصفه في جميع الأوقات، وبتفكير تائه،

وبإرهاق، ونفعل ذلك إلى الرب الحقيقي والحي، الذي منه نأمل بإيمان ثابت بأننا سوف نتلقى النعمة والمجد، أيها السيد الرب، أية نعمة سوف تمنحنا إياها مقابل صلواتنا القصيرة والخالية من التقوى؟ وهل ياترى جرى تأدية صلواتنا الفاترة جداً مع أية درجة من الإيمان الصحيح، ثم ماذا يمكنني أن أقول؟ إنني أخشى أن عدداً كبيراً من المسيحيين يمضون اليوم كله دون أدنى عبادة للرب، أو دون أية صلاة له، الأمر الذي لا يمكن حدوثه بين المسلمين، أو الأتراك، أو البرابرة، أو اليهود، أو البداءة العرب، لأن جميع هؤلاء الكفار لديهم توجه ثابت وطريقة معلومة للصلاة، لا يفارقونها في أي حال من الأحوال ما لم يرغموا بالقوة على فعل ذلك، ومن أجل رواية كاملة عن صلواتهم وصيامهم انظر الورقة ٩٤ من القسم الثاني، مع أن مقارنتي المتقدمة بينهم وبيننا أنفسنا، أعطتني الفرصة للحديث عنهم في هذا المكان.

وعندما أشرقت الشمس، ولم نر اعدادات لانطلاقنا، عدنا إلى غرفنا، واشترينا طعاماً وأكلنا هناك، وبينما نحن جلوس هناك جاء إلينا مسلم فقير وتعيس، يحمل برتقالاً وعنباً في سلة لبيع لنا، وجلس على الأرض ومعه سلته إلى جانبي، وأخذنا بعضاً من فواكهه، وأعطيناه خبزاً مع الذي بقي من لحمنا، فأكل ذلك مثل انسان جائع، وقد وضع على رأسه قبعة حمراء مع اللفة العائدة للمسلمين، والآن وقد بدا لي انساناً بسيطاً جيداً، أخذت قبعته من على رأسه، وبينما أنا أنظر إليها تظاهرت بأنني مصاب بالاقياء، وأنني أعاني من الدوار، وقمت بصرف رأسي وإبعاده عن القبعة التي أمسكتها بيدي، وكأنني أريد أن أتقيأ لكراهيتي لديانة المسلمين، وبصقت على قطعة القماش التي كانت ملفوفة حول القبعة، راغباً في أن أرى ما الذي سيقوله أو يفعله تجاه ذلك، وقام هذا المسلم — على كل حال — بالنظر من حوله في جميع زوايا الغرفة، وعندما لم ير من يخاف منه، انتزع قبعته، وجمع بصاقه في فمه، وبصق على اللفة

الاسلامية الموجودة عليها، ولعن العمامة، وعمل شارة الصليب بوضع سبابته اليمنى فوق اليسرى، وقبل علامة الصليب هذه التي عملها فوق يده مع كثير من الدموع، وقال أشياء كثيرة لنا لم نستطع فهمها، والذي فهمناه تماماً بأنه كان مسيحياً، وأنه أرغم على التخلي عن عقيدته، وأنه لم يكن مسلماً عربياً، بل كان مملوكاً مسكيناً، وبعد ماتغدينا بقينا في غرفتنا بهدوء، وفي الظل، وسمعنا الآن بأن أحدهم كان يعمل على الجدار الأول من جدران غرفتنا بأداة معدنية، من الخارج، وكأنه يريد أن يخرق الجدار ويمر منه، ولم نهتم بذلك، ولم نتوجس منه أي خطر، وأخيراً فتحت ثغرة بالجدار بانتزاع حجرة واحدة منه، وكان على الطرف الآخر من الجدار نساء مسلمات فتحن الثغرة حتى يتمكن من رؤية الحجاج من خلالها.

وعندما نظرن إلينا، ابتسم لهن بعض الفرسان، وقالوا بالإشارات والاياءات ما لم يستطيعوا قوله بالكلمات، لكن واحداً من رهبان الفرنسيين رأى هذه الثغرة، وكان الأب المسؤول قد بعث به ليقوم بجولة على غرف الحجج، فعندما رأى ذلك قام على الفور فجلب ملاطاً وقام ببناء الثغرة، وأقسم بالرب، بأن المسلمين لو شاهدوا ذلك لتولوا تعذيب الحجاج جميعاً تعذيباً مرعباً للغاية، لأنهم غيورين بشكل مخيف، ويجتمعون كلهم مع بعضهم من دون مناقشة للانتقام من أي اعتداء على شرفهم، وفي الحقيقة بدت النساء المسلمات أنهن شهوانيات كثيراً، لأنه عندما كان بعض الفرسان الشباب يمشون وينظرون من حولهم وهم على سطوح البيت، رأوا ثلاث نساء واقفات في بيت آخر، وقد عملن إشارات لهم للنزول إليهن، ولست أدري أفعلن ذلك صدوراً عن شهوة، أو — وهو ما أعتقد — صدوراً عن نية تأمرية وشريرة، وعلى كل حال كان الخطر هو نفسه، ذلك أن القانون هو: إذا ماعثر على مسيحي يتسامر مع امرأة مسلمة، كان يعطى الخيار، إما بالتخلي عن

إيمانه، أو مواجهة الموت، وليس هناك خيار وسط بين هذين الخيارين.

وفي الوقت نفسه مرت ساعة تلو ساعة، ونحن وقوف بدون حركة هناك ننتظر بتشوق إلى الانطلاق، لأن المزاح والاهانات الصادرة عن الشباب ازدادت سوءاً كل ساعة، ورأينا أن المزيد من التأخير سيكون خطيراً علينا، لأن حاجاً بعد حاج خرجوا عن طورهم وفقدوا صبرهم بسبب الاهانات التي تلقوها، وضرب أحدهم طفلاً سيئاً، ضربة خفيفة، لأنه كان يرمي حجارة عليه، ولذلك بكى هذا الصبي، ولدى سماع صوت بكائه ركض المسلمون مع بعضهم مثلما يركض الخنازير مع بعضهم للدفاع عن رفيق نخر إليهم، ولم يستطع الحاج الذي ضرب الصبي الحصول على السلام، حتى أسكت الصبي الباكي بالمال، وفي الحقيقة كان الأطفال الأشرار في الرملة أسوأ من أطفال أي مكان آخر أقام فيه الحجاج، فهناك لم يكن مسموحاً أن يرد الانسان الضربة بالضربة، ولهذا خشية منا أن نقع في المخاطر خفنا، فذهبنا إلى القبطانين، ورجوناهما بحرارة أن يقودانا إلى خارج ذلك الأتون المحرق، وقد وعدانا بالانطلاق في غضون ساعة من الزمان.

فيمايلي:

وصف موجز لمدينة الرملة

راما أو الرملة مدينة واقعة بين فلسطين واليهودية، على حدود منطقة فلسطين، ومنطقة اليهودية، وذلك في حصة سبط يهوذا، وهي قائمة فوق رابية، ولهذا السبب حملت اسم راما الذي معناه المرتفع، ولهذا ليس هذا الموقع فقط بل كثيراً من المدن الأخرى في الأرض المقدسة، ممن بني فوق أماكن مرتفعة، أطلق عليه اسم راما، وهناك، على كل حال، في كثير منها فوارق في نهاية الكلمة، وهكذا لدينا من راما: راماثا، وراماثيرم، وراماسي، وراموث، ورامولا، وأرماثا، والرملة هذه التي أنا

بصدد الحديث عنها، غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وفيها هنا ولد صموئيل المقدس، وهي حتى الآن مدينة مكتظة السكان، وأكبر من القدس، وفيها سبل العيش ميسرة لكثير من التجار، لكنها ليست جيدة الدفاعات بأسوار من حولها، مثل مدن اسلامية كثيرة أخرى، ذلك أنها بلا أسوار، وهناك كثير من المساجد فيها ومن حولها، وهي قائمة في وسط مكان بديع جداً، وخصب، وكل شيء هناك رخيص تماماً، وحلو، وفائق الجودة، إلا الناس، الذين هم أكثر الناس شرواً في تفكيرهم، ويحملون كراهية خاصة نحو المسيحيين، ويسكن هناك عدد كبير من السودان الأشرار، والمغاربة، مع أناس آخرين من دون فهم، ولقد ورد ذكر هذه المدينة في سفر الملوك الثالث (الأول) - الاصحاح ١٥، وفي الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى.

مغادرة الحجاج للرملة إلى المنطقة التلية لليهودية

عندما جاء المساء في يوم عيد القديس بروكوبيوس، أعددنا أنفسنا لرحلتنا، وخرجنا من دار الضيافة وفق النظام نفسه الذي دخلنا به، ونحن نحمل أطواقاً مكتوبة حول أعناقنا، ولدى مرورنا من خلال البلد، ركض الناس مع بعضهم من جميع الأطراف، وكانت الشوارع مليئة بالناس من الجنسين معاً، الذين وقفوا هناك راغبين برؤيتنا، وكان هناك حشد كبير، وقد ثار هناك غبار كثيف من الأرض، إلى حد أنه بات من الصعب على الانسان أن يرى رفيقه الذي على جانبه، وإذا مارآه من المؤكد أنه كان من الصعب التعرف عليه وتمييزه، فلقد كان الغبار كثيفاً إلى أبعد الحدود، وتغطت قبعتي السوداء بالغبار، حتى أنها لم تعد بادية سوداء، بل رمادية، ومامن انسان كان بإمكانه فتح عينيه أوفمه إذا ما احتاج، ولقد تحملنا هذا خلال المنطقة كلها، إلا في الأجزاء الصخرية، وعندما ارتحلنا في الليل.

وتوفر في الأزقة الضيقة خطر الاختناق بسبب كثافة الغبار، وفي أثناء

هذا الضيق الشديد حدث أن دفعت على جدار مسكن هناك، وكان ذلك قرب النوافذ، ولأن الحشد تحرك ببطء شديد وتركني محصوراً هناك، نظرت من خلال النافذة إلى المسكن، ويا للعجب، وقفت في الداخل امرأة مع أطفال صغار، عملوا علامة الصليب بأصابعهم، وقبلوهم، وبذلك جعلوني أعرف أنهم أتباع الذي صلب، ولقد اعتقدت أنهم بكوا، وإنه بالحقيقة مزعج جداً، أن يكون شعب تلك البلاد، التي فيها صلب ربنا، إذا أرادوا أن يكونوا أتباع الصليب، لا يتجرأون على لبس شارة الصليب بشكل مكشوف، لأن الصليب المجيد مكروه في تلك البلاد، وملفوظ، والشئ نفسه الذي وقع للصليب المقدس، وقع للأنبياء: ذلك أنهم بلا احترام، حتى في وطنهم (لوقا ٢٩/٤)، ومثل هذا فإن الصليب المقدس لا يتمتع بالاحترام، ولا بالقبول حتى في وطنه، لكن الحجاج من الأجزاء النائية من العالم يحملون بشكل معلن، علامة الصليب، لأن نقد الصليب قد انتزع من بينهم وأبعد.

وعندما تحرك الحشد نحو الأمام، أرغمت على الابتعاد عن ذلك المكان، ووصلنا إلى خارج المدينة، وهناك وجدنا حميرنا مع سائقيهم في الحقل، وعلى مقربة منهم عساكر المسلمين، الذين كانوا سيتولون مرافقتنا وحمايتنا على طريقنا، وامتطينا دوابنا، وانطلقنا مسرعين جداً نحو الجبال، ووصلنا إلى حقل يوشع قرب مدينة بيت شمش، حيث جرى فيها قتل خمسين ألف إنسان، لأنهم نظروا إلى تابوه الرب، عندما وقف هناك، وذلك حسبما نقرأ في سفر صموئيل الأول — الاصحاح الرابع، الخ.

ونصب الأعراب في هذا الحقل نفسه خيامهم، وكان هناك حوالي الثلاثمائة منهن، ولدى رؤيتنا للخيام ارتعبنا نحن ومرافقينا كثيراً، ولدى اقترابنا من الخيام، لم نشاهد أحداً فيهن إلا نساء على درجة عالية من التعاسة، وأطفال صغار سود عراة، وقلة من الشيوخ، لأن بقية الرجال

جميعاً كانوا يتجولون في المنطقة ينهبون ويسلبون، وهكذا مررنا من خلال معسكرهم، ولم يكن هناك من انسان رفع يده ضدنا، وحدث أننا عندما كنا على وشك دخول المنطقة التالية من خلال أحد الوديان، رأينا عند مدخل الوادي جمهوراً من الناس مع جمال وحمير وخيول، كانوا قد استعدوا للانقضاض علينا، وبالمقابل قام مرافقونا بالانتظام والاصطفاف لمقاومتهم، وكانوا مضطربين وقد امتلأوا رعباً، ذلك أنهم رأوا أن أولئك الناس كانوا لصوصاً من الأعراب، وأنها لايمكننا تجاوزهم من دون ضراب، ثم إنه لم يكن بإمكاننا الانحراف لا إلى اليمين ولا إلى اليسار، لأن طريقنا كان يمر مباشرة من وسطهم، من خلال واد ضيق.

وعندما اقتربنا منهم، وجدناهم قد وقفوا يحرسون المدخل إلى الوادي من الجانب الأول إلى الجانب الآخر، وكانوا ممسكين لهذا المدخل ضدنا، وكانوا مشهرين لخناجرهم، ورافعين لسيوفهم، وكانت رماحهم مركونة جاهزة وقسيهم مفوقة، ولا أذكر أنني رأيت أناساً قط مثلهم: لقد كانوا عراة، ولونهم أسود، أحرقتهم حرارة الشمس، وكانوا يرتدون قطع قماش لاتساوي شيئاً حول أوساطهم، وترستهم معلقة من رقابهم، وكانوا حادين، ومتوحشين، ومن المرعب النظر إليهم، وعندما نظرنا إليهم وقارناهم بمغاربتنا ومسلمينا، الذين عددناهم حتى الآن أنهم ليسوا بشراً، عددنا هؤلاء الآخرين أناساً متحضرين وأتقياء، مثلهم مثلنا أنفسنا، وعندما رأى مرافقونا ما الذي أراد الأعراب أن يفعلوه انقضوا عليهم بعنف، وطردهم بقوة السلاح، وفتحوا الطريق لنا، ودعونا للاندفاع بسرعة والمتابعة دون توقف، وهكذا أسرعنا مارين من خلال الفراغ الذي ترك لنا مفتوحاً، وكان أي حاج وقع بين هؤلاء الأعراب، كانوا إما يمسكونه إما من رداءه، أو من مخلاته، وكانوا يشدون ذلك حتى يتخلى عن أي منهما، ويدع الشيء يذهب، أو كان

يشد من فوق ظهر حماره، أو كان ينقذ من قبل واحد من جماعتنا، ولهذا سقط كثير منهم من على ظهور حميرهم، ولولا أنهم أنقذوا لتولى الأعراب سلبهم، وكان هناك صراخ وعويل من على الطرفين، واندفع الناس أحدهم ضد الآخر بشكل مدهش، وكأنهم أرادوا أن ينقض أحدهم على الآخر، ويسدد ضربات له.

وفي أثناء هذا الاضطراب، وبينما هو مستمر، مررنا من خلال الوادي، ووصلنا إلى التلال، وعندما رأى أعداؤنا هذا، تناولوا الحجارة من وسط الطريق، وشرعوا يرمون بها خلف مرافقينا، لكن عندما رأوا أنهم لن يستطيعوا تحصيل شيء منا بالقوة، ركضوا خلفنا، وبذل ومسكنه توسلوا إلينا حتى نعطيهم شيئاً ما، لكنهم لم يحصلوا على شيء كثير، وهكذا ابتعدنا عنهم، وليس هناك من شك، أنهم لو كانوا أقوى منا، لسلبونا جميعاً، دون تنفيذ لأماننا الذي حصلنا عليه من السلطان، ولقد نجونا دون أن يصاب أي حاج بأذى، باستثناء، بعض الذين أصيبوا بالحجارة، وقد فقد بعضهم جعبهم في أثناء الصراع، وبعضهم قبعاتهم، ولم يجرح أحد، لأن الشرقيين فيهم الفضيلة التالية وهي أنهم لا يحبون سفك الدماء.

وهكذا تابعنا سيرنا في هذا الوادي الظليل، ومشينا عبر طريق في منتهى الوعورة، مع جبال صخرية عالية على طرفينا، وبعد صعود وتسلق طويل، وصلنا إلى برج، كانت هناك مياه قربه قد جمعت في بركة، ونوينا الانتظار هناك حتى الفجر لليوم المقبل، لأن الليل كان مظلماً، وذلك إلى جانب أن الوادي كان ملقياً بظلاله، وهكذا ترجلنا من على ظهور حميرنا، لكن مالبث فجأة أن حل خوف بين صفوف مرافقينا، وباتوا يخشون أن يقوم هؤلاء الأعراب بالانقضاض علينا، في أثناء نومنا، فوقتها لن يكون بإمكانهم الدفاع عنا في ذلك الممر الضيق والوعر، وبناء عليه دعونا لمعاودة ركوب حميرنا، وأن نتابع سيرنا

صعوداً في الجبال، وهكذا غادرنا البرج الذي قام عند سفح الجبال، وتسلقنا فوق ممر منحدر وخطير حتى وصلنا إلى حقل، فكروا ثانية بالاستراحة فيه، لكن كنا نحن ودوابنا عطاش، ولم يكن هناك ماء، لذلك تابعنا سيرنا في الغسق، حيث لم يكن هناك لاشمس ولاقمر لعوننا، وسرنا ودليلنا فقط ضوء قبة السماء، وأشعة النجوم الضعيفة، ولم يكن بإمكاننا رؤية الممر، لكن كل انسان تبع سائقه، وعندما وصلنا إلى القمة، نزلنا إلى الطرف الآخر من الجبل، وسرنا إلى أن وصلنا إلى قرية صغيرة، حيث كان هناك نبع ماء جيد وبارد، وهناك في حقل مليء بالحجارة تخلينا عن حميرنا وأعطيناهم إلى سائقيهم، وأجلسنا أنفسنا على الأرض، وتحلق حراسنا مع خيولهم، وسائقونا مع حميرهم، جميعاً من حول الحجاج، وبذلك أحاطوا بنا من كل جانب، وأشعلنا مصابيحاً، وأحضرننا جعبنا الخاصة بالطعام الذي شربناه في الرملة، وجلب السائقون ماء لنا، قمنا بشراؤه منهم، وأحضر القرويون أرغفة من الخبز، وفواكه وماء، فاشترينا منهم ما رغبنا به، وهكذا تعشنا.

وكان هذا المكان الذي عسكرنا فيه، وعراً مليئاً بالحجارة مثل الأماكن الموجودة في الألب، والقائمة فيما بين أولم ووينزستيج Weis-sensteig، واختفى تحت الحجارة عقارب، الأمر الذي لم نعرفه، حتى أرانا الضوء إياهم، وعندما رأنا المسملون خائفين، أخبرونا أن بإمكاننا النوم من دون خوف، لأن العقارب بالحقل لا تلدغ مثل العقارب في البيوت، ولهذا شعرنا بالراحة، ولم يتحرك واحد منا من مكانه، وفيما نحن جالسين هكذا نريح أنفسنا، أشرق القمر أمام وجوهنا، وشعرنا لدى اشراقه بسرور عظيم، لأن الذين لا يمكنهم النوم يبتهجون أمام أي شيء يطرد الظلام، ويبعد الظلال، ولم يزر النوم أعيننا، كما لم يتمكن النعاس من اغلاق جفوننا، كما أن جباهنا لم ترغب بالراحة، مع أنه كان من الطبيعي لإرهاقنا بعد متاعبنا أن يجلب إلينا النوم، ولقد كنا مرهقين

ومتعبين، لكن النوم تخلصنا، لأن كياناتنا كلة قد حلّ في قوى مداركنا ومشاعرنا، وابتغت نفوسنا شيئاً واحداً فقط هو التحديق والنظر بإخلاص من حولنا، وعلى هذا بدت روحنا وقد استقرت في عينينا، واهتمت بشيء واحد فقط هو الشعور بالمشهد، وتغلّبت انفعالاتنا على النوم، وكان ذلك لدى قراءتنا للاصحاح الثاني والأربعين من الالهيات قوله: «طرد التفكير النوم منهم»، لأننا كنا نتطلع إلى الغد برغبة حارة جداً، عارفين بأننا وقتها ينبغي أن نرى مدينة القدس الجليلية، التي قال عنها طوبيا المقدس وهو واقف على مسافة عظيمة عنها: «سوف أكون سعيداً لو أن أياً من سلالاتي بقي لينظر إلى الضريح في القدس»، وقال كاتب آخر: «من أجل صهيون لن أهدأ، ومن أجل القدس لن أرتاح» (إشعيا: ٦٢/١)، فمن هو الذي لا يرغب في رؤية المدينة المختارة، التي نقرأ عنها في الاصحاح السادس من السفر الثاني لأخبار الأيام: «اخترت القدس ليكون اسمي فيها» (أخبار الأيام الثاني: ٦/٦)، لأن هذه هي المدينة التي يكون فيها الحمد وقطع العهد للرب، حسبما جاء في الزمور الخامس والستين: «لك ينبغي التسييح يارب في صهيون ولك يوفى النذر»، وردد الحجاج المتشوقين القول: «من سيمنحني أن تمر هذه الليلة وتنقضي وأن تأتي الشمس مسرعة حتى يمكنني رؤية القدس، التي هي بهجة الأرض كلها، ومدينة الملك العظيم، والرب الأكثر علواً؟ أه، لو أن أحداً أصغى في تلك الليلة إلى صلواتنا وحنيننا إلى اشراق الشمس ولقدوم النهار، لا حترق في داخله، كما تحرقنا شوقاً لرؤية القدس، فلقد تمددنا على صخور قاسية، مثلما فعل يعقوب في الاصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين، وكانت العقارب رفاقنا في تلك الليلة، مثلما كانت فراخ النعام رفاق أيوب (أيوب: ٣/٢٩)، وفي الحقيقة، إنه بسبب كثرة حشود العقارب، من اللائق أن يطلق على هذا المكان اسم تلة العقارب، مثلما ورد ذكر ذلك في الاصحاح الخامس عشر من سفر يشوع، لكن قساوة الصخور ولدغ العقارب كانت لطيفة، وجعلت

حلوة، بالحلاوة الفائقة للقدس نفسها، المتربعة على قمم تلك الجبال، والناشرة لحلاوتها، جاعلة إياهم يقطرون حلاوة، ويفيضون بالعسل والحليب، علاوة على ذلك، طردت ذكريات ماجرى صنيعه فوق هذه الجبال المقدسة، جميع السموم منا، وجعلت قساوتهم نعومة بالنسبة لنا.

فعلى هذه الجبال سكن المكابيون بعد تدنيس الهيكل يأكلون الأعشاب بدلاً عن الطعام، بين الحيوانات المتوحشة (مكابيون: ٢/٥/٢٧)، وابنة يافث، عندما كانت على وشك أن تموت بسبب نذر أبيها، طلبت منه ليس أكثر ممايلي، هو أن تترك لوحدها لمدة شهرين قبل موتها، لكي تصعد إلى جبال بني اسرائيل وتنزل منها مع رفيقتها، وأن تندب عذريتها، ذلك أنها اعتقدت أنها سوف تتحمل آلام الموت بسهولة أعظم، لو أنه سمح لها بتسلق هذه الجبال المقدسة قبل أن تموت (القضاة: ١١/٣٧)، وموسى أيضاً، الذي كان صديقاً للرب، طلب أن تكون جائزته، هو أن يسمح له برؤية هذه الجبال من حيث وقف في مناطق ماوراء الأردن (العدد: ٣٤) والعذراء مريم المباركة، جعلت هذه الجبال بحجها، جبلاً مقدسة بشكل خاص، وقد تقدسوا بذلك، وعن ذلك نقرأ نحن الحجاج في الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا: «مريم... ذهبت بسرعة إلى الجبال» (لوقا: ١/٣٩)، وعلى هذه الجبال اعتاد مولانا المسيح على إمضاء الليل في الصلاة، وبذلك منحهم القداسة، وخدمت هذه الجبال في القديم البطارقة، فكانت بالنسبة لهم بمثابة سور ضد الكفار، ولهذا جاء مكتوباً في الاصحاح السابع من سفر يودث: «لايعتمد بنو اسرائيل في الدفاع عن أنفسهم على قسيهم، ولاعلى الرماح، بل على الجبال التي تحميهم، وعلى التلال التي تقف أمامهم، فهذه تتولى الدفاع عنهم»، ولهذا لم يرغب الكفار بالقتال معهم على الجبال، بل قالوا: «دعونا ننهزم من اسرائيل، لأن أربابهم أرباب التلال»، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الأول: ٢٠/٢٣، وكان

عذباً أن نقيم مؤقتاً فوق هذه الجبال، وأعتقد أنه حولنا وحول حجاج المسيح الآخرين، صنعت نبوءة حزقيال منذ زمن طويل مضى حيث فيها وعد هذه الجبال بقوله: «يا جبال اسرائيل اسمعي كلمة السيد الرب... أنا جالب عليكم سيفاً وأبيد مرتفعاتكم» (حزقيال: ٢/٦-٤)، وفي الاصحاح الخامس والستين من إشعيا قوله: «بل أخرج من يعقوب نسلاً، ومن يهوذا وارثاً لجبالي» (إشعيا: ٩/٦٥)، هذا وتتألف هذه الجبال مع بعضها من صخور عظيمة، وشعاب عالية، ذات صخور قاسية جداً، ومع ذلك بدوا ناعمين بالنسبة لنا، فقد جاء بالمزمور قوله: «صخورك مرضية لعبيدك»، ومثل ذلك صنع أيوب (أيوب: ٢٣/٥) عهداً مع صخور ذلك المكان، وسكن في مكان الصخور (أيوب: ٨)، وكان ذلك بسبب أن الرب عمل حدود الأرض المقدسة من حجارة مرضية. (إشعيا: ٣٦/١٢).

ولقد احتضنا الصخرة نفسها، كما فعل أيوب (٨/٢٤)، لابل أكثر من هذا، لقد عرفت بعض الحجاج الذين أحبوا الأرض المقدسة، كانوا يداومون ليلاً ونهاراً على الانحناء بأنفسهم نحو الأرض، ويقبلونها أجمل القبل، وكانوا على استعداد لعبادة الحجارة نفسها، على أنها آثار مقدسة، وهذه الحجارة قد اختارها المسيح لمساعدته في عمل خلاصنا، ذلك أن الحمل به جرى في كهف حجري، وولد تحت الصخرة والحجر، ومدد فوق حجر عندما ولد، ووعظ وهو واقف على حجر، وصلى ثلاث مرات في كهف في صخرة حجرية، وكان قد جلد إلى جانب عمود من حجارة، ووقف على حجرة لتسلم تاجه، ووقف على حجرة أمام بيلا يطس قاضيه، وجرى صلبه فوق حجر، ومسح بالدهون فوق حجر، ودفن في حجر، وصعد إلى السماء من على حجر، وباختصار، لقد أكمل بوساطة حجارة جميع أسرار خلاصنا، ولهذا كان أن تصدعت الصخور الحجرية أثناء آلامه، فلماذا بعد هذا لا يستريح المسيحيون بسرور فوق

هذه الصخور المقدسة، أكثر من استراحتهم فوق أنعم فراش؟ ومن الذي لن يجد الصخور والحجارة حلوة، التي لمست بقدمي الرب يسوع، والعذراء مريم، والبطارقة، والأنبياء، والرسل، والقديسين الذين يفوقون العدد؟.

وأوقفنا في اليوم الثاني عشر قبل شروق الشمس، وامتطينا حيرنا، ومضينا مسافرين عبر الجبال المقدسة، وبعدما تسلقنا عدة تلال، ونزلنا إلى عدد من الوديان، هاهو النهار المنتظر قد بدأ بالظهور، وصارت قبة السماء أكثر بياضاً في الشرق، ولمع القمر من هناك، وبدت الشمس تظهر فوق قمم الجبال، ونشرت أشعتها فوق الأرض، ومع ذلك كنا مانزال بعيدين عن القدس، وارتحلنا عبر ممرات وعرة، ورأينا فقط أرضاً قاسية وصخرية، ولهذا شرع بعض الفرسان الذين صدموا لدى رؤيتهم وعورة الأرض يقولون لي: «ما الذي أخبرنا به كهنتنا؟ وما الذي وعظ به وعاظنا؟ فلقد قالوا بأن هذه البلاد أفضل البلدان جميعاً، لكن انظروا كم هو وعر الطريق، وكم هي جرداء الجبال، فلماذا اختار الرب يسوع السكن في هذه البلاد، التي هي غير مفلوحة، ومحرقة بأشعة الشمس؟».

وفي الوقت الذي كانوا يتكلمون هكذا، بدأ حاجان بالخصام بشكل حاد، حتى بات من الصعب فصلهما عن بعضهما، ولو طال هذا الخصام أكثر، لو صلا إلى الضرب، فقد تشاجرا بشكل حاد جداً، وكانا معاً علمانيين خالصين، أولهما بليد جداً، والآخر بارع، فالبليد تشكى بمرارة ضد الأرض المقدسة، ووقف البارع ضده، وقال بأنها أفضل البلدان، وعلى كل حال، قلت لنفسي بشكل سري في قلبي: «هل ياترى هذه هي الأرض التي قيل بأنها تتدفق بالعسل والحليب، وأنا لأرى أمامي حقلاً ينتج خبزاً، ولاكرماً لينتج خمرًا، ولامروجاً خضراء، ولاحدائق، عجباً إنها كلها وعرة، أحرقتها الشمس، وجرداء»، وبينما كنت أردد في قرارة

نفسى هذا الكلام بشكل سري، لم يمض طويل وقت حتى جاء الجواب إليها، وهو: إن أسباب هذا الجذب، والجفاف، والوعورة، نتيجة للعة التي أنزلها الله عليها، بسبب خرق وصاياها، وهكذا نقرأ في سفر التثنية: ٢٣/٢٨ «وتكون سبائك التي فوق رأسك نحاساً والأرض التي تحتك حديداً»، فضلاً عن هذا إن تدمرنا وخيبتنا مع الأرض المقدسة، قد جرى الحديث عنها منذ عدة آلاف سنين مضت وذلك حسبنا نقرأ في سفر التثنية: الاصحاح ٢٩: «فيقول الجيل الأخير بنوكم الذين يقومون بعدكم، والأجنبي الذي يأتي من أرض بعيدة، حين يرون ضربات تلك الأرض وأمراضها الذي يمرضها بها الرب كبريت وملح، كل أرضها حريق لا تزرع ولا تنبت ولا يطلع فيها عشب ماء، كإنقلاب سدوم وعمورة وأدمة وصبويم التي قلبها الرب بغضبه وسخطه، ويقول جميع الأمم لماذا فعل الرب هكذا بهذه الأرض. لماذا هو هذا الغضب العظيم. فيقولون لأنهم تركوا عهد الرب إله آبائهم الذي قطعه معهم» (٢٢-٢٥).

وواضح من هذا أن الأرض في الوضع الذي هددت فيه في الكتابات المقدسة، لم تكن دوماً هكذا، كما يمكننا رؤية ذلك بأعيننا، لأننا رأينا خلال هذه الجبال المهجورة، أسواراً غاية بالقدم، بنيت من حجارة عظيمة، حيث من المعتقد أنها قد بنيت من قبل بني اسرائيل، وقد حصلوا على الزيت، والقمح، وكل حاجيات الحياة من أعلى هذه الجبال وأكثرها حجارة، حتى في هذه الأيام، وعلى الرغم من كفر وشرور السكان في هذه البلاد، جميع حاجيات الحياة تنمو هناك بكميات وافرة، لأننا رأينا على منحدرات الجبال بين الأسوار القديمة، كروماً، وزيتوناً، وقمحاً، وشعيراً، ونباتاتاً أخرى نامية هناك، علاوة على ذلك، حتى وإن كانت البلاد محررة من اللةنة المتقدم ذكرها، لا بد أنها ستبقى قاسية وجرداء، لأنه لا يوجد من يفلحها، سوى عدد ضئيل، وهم رجال سوء،

وكفار، وكل من ينظر عن قرب ويدقق في الكتابات المقدسة، سوف يحتاج بأن هذه البلاد فائقة الخصوبة، وليست قاحلة، وقرر — على كل حال — القديس جيروم بأي منطق ينبغي أن نفهم بأن هذه البلاد تفيض بالحليب والعسل، فقد جاء ذلك في رسالته إلى داردانوس Dar-danus حيث بين أننا ينبغي أن نقدر أن هذه الأماديح الفائقة يتوجب فهمها على أنها تشير إلى مملكة السماء.

ودخلنا في الوقت نفسه إلى واد واسع نسيياً، فيه حقول مزروعة، وكان مطوقاً من كل جانب بهضاب مرتفعة، ومزينة بأشجار الزيتون، وكان على جانبنا الأيسر جبال أفرام، التي يشكل جبل شيلوه الجزء الأمامي منها، ويبدو أن قمة هذا الجبل هي الأعلى بين قمم جبال تلك البلاد، وقام فيما مضى على جبل شيلوه هذا مدينة جليلة، حيث أقام تابوه الرب هناك لمدة طويلة، ذلك أنه جلب إلى هناك من قبل يشوع من الجلجال، وهنا حملت حنه بصموئيل، استجابة لصلاتها، وهنا أيضاً فرض الكاهنان الشريران حفني وفينحاس مكوساً ثقيلة على الشعب، وذلك حسبما ورد مكتوباً في الاصحاح الثاني من سفر صموئيل الأول، وهنا سمع النبي صموئيل للمرة الأولى الرب يتكلم إليه، وسقط عالي، الكاهن الأعلى من على كرسيه، وذلك كما ورد مدوناً في الاصحاحين الثالث والرابع من سفر صموئيل الأول، وهنا اعتاد بنو اسرائيل جميعاً على القدوم لعبادة الرب، وكان ذلك قبل بناء هيكل القدس، وحدث أنه بسبب ذنوب الكهنة، جرى الاستيلاء على تابوه الرب، وقتل الكهنة، وتهدم شيلوه، وإزالتها تماماً، ولذلك عندما تنبأ إرميا بخراب القدس قال: «سوف أجعل هذا البيت كشيلوه» (إرميا: ٢٦/٦)، ومن أجل هذه الكلمات جرى اعتقال إرميا، وإلقائه بالسجن، بسبب أن شيلوه جرى تدميرها، وفي شيلوه دفن النبي صموئيل، ولذلك أطلق عليها اسم «مكان صموئيل المقدس»، حتى هذا اليوم، ولربما قد جلب جسده إلى

هنا من الرامة حيث كان دفن (صموئيل الأول: ١/٢٥) هذا وجاءنا خبر من عند جيروم في كتابه «Confutation of vigilantius» أنه في أيام الامبراطور أركاديوس Arcadius، جرى نقل عظام صموئيل المبارك من اليهودية إلى تراقيا، في وعاء ذهبي وهو ملفوف بالحرير، واجتمع حشد كبير من الناس لمشاهدة عملية النقل، فقد تقاطر الناس من فلسطين إلى العراق، وجرى استقبال هذه الآثار بسرور عظيم، وكأن الاستقبال لصموئيل نفسه حياً، وغنى الناس بصوت واحد الشكر للمسيح.

وكان فيما مضى عند سفح هذا الجبل مدينة جبعة، حيث جرى قتل زوجة اللاوي التي هي من بيت لحم، من خلال زنى أهل جبعة، وانتقاماً لذلك تم قتل آلاف كثيرة بالسيف، ودُمّر سبط بنيامين كله تقريباً (القضاة: ١٩)، وصعدنا فوق طريق وعر خارج الوادي، وكان ذلك فوق الراية نحو شيلوه لأن الوادي كان ضيقاً جداً، لم يستوعبنا، ولم تكن بعيدين من شيلوه، بل فوق الأرض المرتفعة إلى جانبها، ومع هذا لم يرغب أدلاؤنا بأخذنا إلى هناك، لأنهم كانوا مسرعين يريدون الوصول إلى القدس، بأقصى مايمكن من سرعة، خشية أن يعانون، فيما بعد، أثناء النهار من حرارة الشمس، وفيما مضى من أيام، كان الحجاج يقادون دوماً إلى شيلوه، وبعد صعودهم إلى هناك، كانوا من ذلك المكان يرون مدينة القدس ويبتهجون، ولذلك كان اسم هذا المكان «بهجة الحجاج» (جبل البهجة)، وعندما كنا أثناء سيرنا على جانب شيلوه، رأينا خرائب كثيرة لأسوار قديمة وكنائس، مابحت قائمة على حافة الراية حتى هذا اليوم، وتطلعنا بأعيننا نحو الشرق، فرأينا الجبل المقدس، والجبل المجيد، الذي هو جبل الزيتون، وكنيسة الصعود على قمته، ومع ذلك لم نستطع رؤية المدينة المقدسة، مع أنها كانت إلينا أقرب من جبل الزيتون، وعندما رأينا ذلك الجبل الأكثر قداسة قفزنا من على

ظهور حميرنا، وصلينا نحو الجبل بتقوى وسرور، لأن مشهد هذه الأماكن المقدسة عن بعد يبهج النفوس بشكل رائع للناس الأتقياء.

وخلفنا بعد هذا شيلوه ورائنا، وفيما نحن على طريقنا وصلنا إلى قلعة، هي قلعة عمواس المقدسة، وهي التي تبعد عن القدس حوالي ستين غلوة، وذلك حسبما ذكر القديس لوقا في الاصحاح الأخير من انجيله، وتساوي هذه المسافة سبعة أميال ايطالية، وميلاً ألمانيا واحداً ونصف الميل، ذلك أن ثلاث غلوات تساوي سبعة آلاف وخمسمائة خطوة، وترجلنا قرب هذه القلعة من على ظهور حميرنا، ومضينا من خلال سور حجري جاف إلى المكان الذي كان يقوم فيه النزل الذي استقبل الرب يسوع، وحواريه: لوقا وكليوباس، وكان ذلك في يوم قيامة ربنا، عندما ذهب على شكل حاج، فألزمناه بالبقاء معهما، وقد عرفاه عندما كسر الخبز.

وقبلنا هذا المكان بتقوى عارمة، وتلقينا مغفرة (+)، واعلموا أيها الحاج، أنه هنا توجد أول خطوات الرب يسوع، وأماكن سيره، التي ستجدونها جديرة بالتقيل، ومن أجل التهدئة والسكينة جرى إعداد هذا المكان بشكل مناسب من قبل القدرة الربانية، حيث أن الحاج التعيس، الذي هذه التعب وهو مسرع نحو القدس سوف يتقابل مع ذلك الحاج الرائع، أي ربنا، وهو قادم من هناك، وهو الذي إليه قيل: «أأنت وحدك غريب وحاج في القدس»؟، ومن أجل انعاشه ينبغي أن يرى أولاً وقبل كل شيء الخطوات الأكثر قداسة وسعادة التي عملها جسد الرب بعد تمجيده، فبعد أن ينتعش برويتهم ويطمئن يمكن أن يكون قادراً في القدس على اتباع خطواته المقدسة في آلامه البغيضة، وذلك حسبما طلب بطرس منا أن نفعل، في الاصحاح الثاني من رسالته الأولى، حيث قال: «المسيح أيضاً تألم لأجلنا تاركاً لنا مثلاً لكي نتبعوا خطواته»، وفي هذا المكان جعل قلبي حواريه يتحرقان في داخلهما، وقام

بكسر الخبز وأعطاه لهما، الأمر الذي قال عنه بعض الحكماء، بأن ذلك كان القربان الذي احتفل به هناك للمرة الأخيرة، وعاد سريعاً إلى القدس، وفي الحقيقة يقول بعضهم بأن هذين الحواريين كانا قد غادرا القدس وافترقا عن الحواريين الآخرين، ونويا على عدم العودة ثانية، غير أنه جعلهما هناك يعودان ثانية، وهكذا عادا في الساعة نفسها إلى القدس.

وكانت عمواس في أيام المسيح بلدة جميلة وغنية، وقد تعرضت للدمار، عندما جرى تدمير القدس نفسها، وقد أعيدت عمارتها فيما بعد من قبل ماركوس كورنيليوس، وأطلق عليها اسم نيقوبولس، وقد قام يوليوس أفريكانوس بسفارة من أجل إعادة عمارتها، وذلك حسبما قرأنا في «كتاب الرجال المشهورين» لجيروم، وقد دمرها المسلمون الآن دماراً كلياً، ولا سيما كنيسة نزل المسيح، التي من الممكن التعرف إلى خرائبها من خلال أساساتها، وما يزال قائماً فيها حتى الآن خرائب بيوت مقنطرة عالية، وقليل من الناس هم الذين يسكنون هناك.

وبعدما رأينا هذا المكان المقدس، تابعنا السير على طريقنا، ورأينا خرائب العديد من البيع والكنائس على التلال، وذلك أثناء سيرنا فوق المنطقة الجبلية، ثم نزلنا من المنطقة المرتفعة إلى واد وقع عبر طريقنا، وهو ممتد من الشمال إلى الجنوب، وكان علينا نحن القادمين من الغرب والمتجهين نحو الشرق، عبوره، وكان هذا وادي Elah، أو وادي البطم، حيث غلب داوود هناك جالوت وقتله بحجرة اختارها من أرض الجدول، وقطع رأسه وجلبه إلى القدس (صموئيل الأول: ١٧) ووقفنا في وسط هذا الوادي، وتفحصنا وضع الأرض، وهو واد خصب، ويوجد فيه في هذه الأيام كثيراً من أشجار البطم، وهذه أشجار جميلة، تنمو بشكل رئيسي في سورية، ومنها يخرج صمغ، وأشجار البطم على نوعين، أي ذكر واثني، وعلى هذا يحملون نوعين من الثمار، حيث

تحمل الأشجار المذكورة ثماراً حمراء بحجم حبات العدس الصغيرة، وغالباً ما رأيت كثيراً من هذا النوع من الأشجار، وتحمل الأشجار المؤنثة ثماراً ألوانها باهتة بحجم الفول، ويستخرج من هذه الثمار زيتاً جيداً، وطيب الطعم.

كيف رأى الحجاج القدس المدينة المقدسة وكيف دخلوا إلى القدس تلك المدينة الأعظم حلاوة

كان السبب الرئيسي وراء رحلاتنا هو مدينة القدس الأكثر حلاوة، التي انتشر شذاها فعم آفاق العالم، فجعل المؤمنين يسعون إلى هناك من كل جانب، وهكذا تسلقنا وادي البطم، وقطعناه، وتوقفنا عن الذهاب نحو الشرق، وصعدنا حواف رابية باتجاه الجنوب، ووصلنا إلى حدائق أشجار مثمرة، وخضراوات، وتين، وكان ذلك أثناء سيرنا بين جدران من الحجارة الجافة، وألقينا بأعيننا نحو اليمين، وباللهول، لمعت مثل ضوء البرق، المدينة المذكورة دوماً، والتي ستذكر دوماً، إنها مدينة القدس المقدسة، قد أشرقت أنوارها، وكان الجزء الذي رأيته منها هو المتصل بجبل صهيون، ورأينا جبل صهيون المقدس نفسه، مع جميع أبنيته وخرائبه، وقبل كل شيء رأينا قلعة صهيون، وهي محصنة بأسوار على درجة عالية من القوة، وبأبراج، وبدت الأسوار العالية القوية والأبراج العائدة للقلعة بوضوح وكأنها تحيط بالمدينة كلها، والحجاج، أو الغرباء، الذين لم يروا القدس من قبل لم يكن بإمكانهم إلا أن يظنوا أن أسوار قلعة صهيون تلك كانت هي أسوار القدس، الأمر الذي لم يكن كذلك، وعندما رأينا بأعيننا المدينة المقدسة التي تشوقنا إليها طويلاً، ترجلنا على الفور من على ظهور حميرنا، وتوجهنا بوجوهنا نحو الأرض، ووجهنا التحية أولاً إلى ملكها، الذي هو المولى الرب، وكان ذلك برسم علامة الصليب، ثم خاطبناها بهذه الكلمات، أو بكلمات مثل هذه:

«مرحباً يا قدس، وحييت يا مدينة الملك العظيم، مجد الأرض كلها وتاجها، بهجة نفوس المؤمنين وسرورهم، يا قدس، يا قدس، انهضي، ارفعي عينيك، وانظري من حولك، وأبصري جميع هؤلاء الحجاج، أولادك الذين قدموا معاً من أقصى أجزاء الدنيا، والذين ما برحوا يقدمون في حشود، عليهم يرون سناء بريقك، ومجد الرب قائم فوقك»، وذلك كما قال النبي إشعيا—الاصحاح: ٤٠، ومثلما مدحك طوبيا بهذه الكلمات: «سوف تشعين مجداً مع ضياء، وكل طرف من أطراف الدنيا سوف يتعبدك، وكل الأمم سوف تأتي من بعيد، جالبة الهدايا، وسوف تعبد ربك» (طوبيا: ١٣).

ومثل هذا فعل القديس برنارد في الاصحاح الخامس من قداسه لفرسان الداوية حيث قدم التحية لمدينة القدس الأعظم مجدداً بهذه الكلمات فقال: «حييت أيتها المدينة المقدسة، التي قدسك الأعظم علواً، وجعلك مثل خيمة عهد له، حتى يمكن فيك ومن خلالك انقاذ جيل عظيم، حييت يا مدينة الملك العظيم، الذي منذ البداية المغرقة بالقدم، وهو يطلب أن يجعل العالم مسوراً، حييت ياسيدة الأمم، أيتها الأولى بين البلدان، يا موطن البطارقة، ويا أم الأنبياء والرسل، ويا ينبوع الايمان، ويا مجد شعب المسيح، الرب الذي عانى دوماً وتعرض لأن يهاجم منذ البداية، من أجل أن تكوني للرجال الشجعان وسيلة لاظهار شجاعتهم، ولربح خلاصهم كاملاً، حييت أيتها المدينة الرئيسية في أرض الميعاد، والتي فاضت في الزمن القديم بالحليب والعسل، فقط للذين سكنوا فيها، والتي تعطي الآن إلى العالم كله وسائل الخلاص، وخبز الحياة، أيتها الجيدة، أنت الأفضل في البلاد، فأنت التي تلقيت في صدرك الخصب جداً، الحبة المقدسة من التابوه، قلب الأب، وأنجبت وقدمت حصداً لا مثيل له من الشهداء من تلك البذرة السماوية، وثمره صحيحة من تربتك الخصبة، في جميع أنواع الشعوب المؤمنة الأخرى، ستين ومائة

ضعف، في جميع أنحاء الأرض، ولهذا فإن جميع الذين شاهدوك، امتلأوا
بوافر من حلاوتك، وشبعوا بشراء عظيم بذكرى فيضك العظيم،
وتدفقوا ببهجتك، تراهم يتحدثون عن عظمة مجدك إلى الذين لم يروك،
وينشرون ذلك حتى أقصى أجزاء الأرض، ويصفون الروائع التي فيك،
وكثيراً من الأشياء الرائعة قد قيلت عنك يا مدينة الرب، وعلى الفور
سوف نتذوق نحن الذين قدمنا من الغرب، البهجة الموجودة فيك
والتي تتدفق منك، وعندما رأيناك ذابت أرواحنا وتبددت في فيض
بهجتك وإشراقك».

وعندما فرغنا من صلواتنا، امتطينا ظهور حميرنا، وعيوننا قد امتلأت
بالدموع، ووجوهنا بالبشر والسرور، وشرع الكهنة والرهبان الذين
كانوا بيننا يغنون *te deum Laudamus* لكن بصوت منخفض
وخافت، حتى لانغضب حرسنا، الذين قد يثير غناء نشوتنا غضبهم إذا
ما غنينا بصوت مرتفع وواضح، وعليه غنينا بصوت مرتفع فقط في
قرارة نفوسنا، لأن النشوة التي شعرنا بها بداخلنا كانت عميقة وعظيمة،
وقد تجاوزت كل الكلمات التي يمكن التعبير بها، ولم تنبع هذه النشوة
من الآلام بل من العقل، وليس من حضور هدف مرغوب، بل من
شيء يستحق الحب لأنه ثمين: ولم يكن السرور هو الذي يقود إلى
الجواز بل إلى الجدّة، التي لا تحرك الإنسان للضحك بل للتنهد، والتي
لا تهز الجسد، بل تحني الأطراف، ولا توسع فتحة الفم للضحك بل
بالحري تجعل الوجه مربداً، يبكي كله، وكله دموع، ولا تقود إلى الكلام
بل إلى الصمت، ولا تدفع الإنسان نحو الأمام بين الناس، بل بالحري إلى
الانزواء هادئاً، ولا تجعل الإنسان يصرخ بصوت مرتفع، بل بالحري
تجعله يصلي بداخله بأغاني المزامير.

وبهذا الوضع الصامت والسرور الداخلي وصلنا إلى آخر الحقول،
حيث وقف ربشاقى وشم الرب، وهو حامل ضد الذين وقفوا على

أسوار القدس (الملوك الثاني: ١٨/١٧. إشعيا: ٣٦) وفي هذا الحقل وإلى جانب القلعة التي بناها السلطان، ترجلنا من على ظهور حميرنا، وأعطيناهم إلى سائقيهم، وأخذنا جعبنا، ومشينا إثنين، إثنين نحو باب التجار، أو باب السمك ونحن نصلي بصمت، وأيدينا موضوعة فوق صدورنا، وقام بعض الحجاج، صدوراً عن التقوى، بخلع أحذيتهم ورميها جانباً، ومشى بعضهم بأقدام عارية، ذلك أننا كنا في الأرض المقدسة، وكنا بذلك نمجد الخطوات الرائعة لربنا، وللعذراء مريم المباركة ولقدسي العهد القديم والعهد الجديد.

وعندما وصلنا إلى الباب الذي اسمه باب داوود، وباب التجار، أو باب السمك عبرنا خلاله برؤوس مطأطأة، لأننا بهذا العبور وعلى هذا الشكل حصلنا على غفران دائم (++)، ومضينا من الباب وسرنا خلال الشارع الطويل، ووصلنا إلى كنيسة مغلقة عظيمة، وعندما كنا جميعاً واقفين في الساحة، اعتلى واحد من رهبان دير جبل صهيون مكاناً عالياً، وخاطبنا قائلاً بأن هذه كانت أكثر الكنائس قداسة، وهي متعبدة من قبل العالم أجمع، ففيها راقد أعظم الكنوز قيمة بالنسبة إلى جميع المسيحيين، وهو ضريح ربنا، وعندما سمعنا هذا ألقينا بأنفسنا نحو الأسفل في الساحة، أمام باب الكنيسة، وصلينا وقبلنا الأرض نفسها مراراً كثيرة، ومن المؤكد أنه بدا إلى الحجاج، وهم متمددون على الأرض أن الفضيلة كانت تصدر من الأرض نفسها، وبذلك ازدادت مشاعرهم أكثر واندفعوا للمزيد من الصلوات.

أيها المولى الرب، كم هو عذب يمكن أن يكون تقبيل فمك، ذلك أننا، ولم نستطع تقبيل قدميك، وفقط قدرنا أن نقبل مكان خطواتك، فشعرنا بعدوبة ألانت قلوبنا، آه يا أخي لو كنت معي في تلك الساحة، أثناء تلك الساعة، لرأيت دموعاً كثيرة منهجرة، ولسمعت تنهدات قلبية مريرة، ونحيباً شجياً، وانفعالات عميقة، وحزناً حقيقياً، وبكاء صادراً

من داخل الصدر، وصمتاً كله سلام وسرور، فلو ملكت قلباً من حجر لذاب، ولانفجرت بفيض من الدموع مع الحجاج الذين كانوا يتحبون، فلقد رأيت هناك بعض الحجاج وقد تمددوا على الأرض بلا حراك ولا قدرة، تخلت عنهم قواهم، وكأنهم قد نسوا أنفسهم بسبب انفعالاتهم التقوية الفائقة، ورأيت آخرين يتنقلون من زاوية إلى زاوية، ومن هنا إلى هناك، وهم يضربون صدورهم، وكأنهم قد دفعوا بروح شريفة، وجثا بعضهم على الأرض بركب عارية، وصلوا بدموع، ورفعوا أذرعهم وشبكوها على شكل صليب، وكان بعضهم يرتجف ويهتز بتنهدات عنيفة إلى حد أنه لم يكن بإمكانهم تمالك أنفسهم والوقوف على أرجلهم، ولذلك أرغموا على الجلوس، وقد أمسكوا رؤوسهم بأيديهم، حتى يمكنهم تحمل تنهداتهم الكثيفة، وتمدد بعضهم على طولهم على الأرض لمدة طويلة بلا حراك، حتى بدوا كأنهم أموات، وكان أكثر من الجميع وفوقهم كلهم مرافقونا، وأخواتنا النساء من الحجاج حيث صرخن وكأنهن في آلام المخاض، ورفعن أصواتهن عالياً وبكين، وفقد بعض الحجاج، لشدة وجدهم وانفعالات تقواهم، السيطرة على أنفسهم، ونسوا كيف عليهم أن يتصرفوا، وصدوراً عن شدة حرصهم لإرضاء الرب قاموا بحركات صبيانية وغريبة.

وكان بالحقيقة ممتعاً أن تنظر إلى التصرفات المخلصة جداً، وفي الوقت نفسه، المتنوعة للحجاج، وهم يصلون في الأماكن المقدسة، وهي الأماكن التي تمتلك قوة مذهشة في جعل الإنسان يبكي، والناس يتنهدون، مع أنهم في مكان آخر من غير الممكن إثارتهم بأي كلام، أو نصيحة، أو نص من الكتابات المقدسة، أو بأي صورة، أو نقش، أو مثل، أو وعد، أو تهديد أو ازدهار، أو انتكاسة، ومع هذا، إنه كقاعدة، لانجد جميع الذين يزورون الأماكن المقدسة، لا ينفعلون إلى هذا الحد، بل يتحركون فقط نحو اظهار للتعبد والتقوى بشكل غير اعتيادي، فلقد

رأيت بعضهم — وبودي أنني لم أرهم — كانت مشاعرهم قد تحركت هنا باتجاه معاكس لتصرفات التقاة والمؤمنين الجيدين، فلقد رأيت خلال أعمال التعبد والتقوى المتقدمة الوصف التي صدرت عن الحجاج، بعض الحجاج البليدين، والذين لانفع بهم، لابل هم بالحري بهائم متوحشة، ليست فيهم روح الرب، فهؤلاء وقفوا يبتسمون بسخرية نحو الصلوات، والدموع، والتمدد على الأرض، وضرب الصدور، وما شابه ذلك، مما فعله البقية، والذي هو حتى أكثر إدانة وخبثاً هو أن هؤلاء الرجال المتوحشين، والمحرومين من رؤية كل أنواع التقوى، والفارغين من أية مشاعر دينية، والممثلين بكل النجاسات، أنهم كانوا ينظرون إلى الأناس الأتقياء على أنهم حقى، ومرائين، ومنافقين، وغشاشين، ومرضى بعقولهم، ولهذا كانوا يعاملونهم بازدراء، ويتأبون من التحادث معهم، ويستخفون بهم، ويسمونهم مجانين، ومرائين، ومنافقين.

آه كم هو غير نافع وملعون الحج بالنسبة لمثل هؤلاء الناس، الذين يضحكون في مثل هذه الأماكن المقدسة، ويستخفون بالرجال المقدسين ويسئون النظرة إلى تصرفاتهم، فمثل هؤلاء الناس أسوأ من المسلمين، أو من اليهود، مع أن هؤلاء لم يستخفوا قط بأي مسيحي أخذ نفسه بالتقوى، ذلك أننا عندما قدمنا إلى هذه الساحة المقدسة، ركض عدد كبير من الصبيان المسلمين هناك، ليضحكوا علينا، لكنهم عندما رأوا عمق إخلاص الحجاج وتقواهم، ذهبوا بعيداً، وبقي بعضهم وبكوا معنا، وتلقينا في هذه الساحة غفرانات مطلقة (++).

ونحن — بعدما أكملنا صلواتنا وأنهيناها — من على الأرض، وصعدنا نحو باب الكنيسة، حيث نظرنا من خلال الفتحات، التي يمر الطعام من خلالها بالعادة إلى الأوصياء على الضريح المقدس، المقفول عليهم هناك، ورأينا قائماً في وسط الكنيسة، بيعة الضريح الأعظم قداسة العائد لربنا، والطريق الصاعد نحو جبل أكر (الجمجمة)، وانتشينا من

جديد بالمشاعر التقوية، وهناك علامة مرسومة على الأرضية الرخامية، تشير إلى المكان المقدس، الذي وقع فيه الرب يسوع، عندما كان حاملاً للصليب، حيث كان على مقربة من صخرة الجمجمة، ووقتها سقط على الأرض تحت الصليب لأنه كان منهكاً، ولقد قبلنا تلك البقعة الفائقة القداسة عدة مرات، وبللنا لطاخة الدم التي كانت عليها بدموع كثيرة، وكانت هذه ثاني آثار أقدام للرب يسوع رأيناها، ويجب ألا يخطر على بالنا، أو أن نظن أن هذه ليست بدون معاني خفية، أي أن نلتقي أولاً مع خطوات المسيح في المجد، وثانياً مع جسده عندما جلد، وعندما كان يحمل الصليب، فهنا يمكننا أن نتعلم بهذا، أن علينا ألا ننشد شيئاً ما سوى المجد السماوي، الذي لا يمكن لإنسان الحصول عليه إلا بحمل صليبه.

وعندما فرغنا من صلواتنا هذه، اقتادنا الكاليني خارج الساحة أو الباحة، العائدة للضريح المقدس، وعبرنا الطريق المواجه الساحة، ومن هناك صعدنا إلى مشفى القديس يوحنا، الذي هو بناء مقنطر واسع، مهمل ومهدم، والموجود هو جزء فقط من المشفى القديم، ومكان يشبه قاعات طعام كبيرة لديرة واسعة، حيث عاش عدد كبير من الرهبان، وهنا رتب الحجاج أنفسهم وفقاً لجماعاتهم، واتخذ السادة السوابيون، أي موالي مكاناً في آخر البيت، حيث كان هناك ما يشبه القاعة منفصلة عن البقية، وذلك في مكان مغلق جميل ومحترم، وذهب مولاي جون، كونت أوف سولم وجماعته، مع كالينوس الأصغر، إلى بيته، وأقاموا هناك، ولم نؤخذ في حجي الأول إلى المشفى، بل إلى بيت ميلو الكبير، عند سفح جبل صهيون، وهناك أقمنا، كما أننا لم نشاهد المشفى مطلقاً أثناء ذلك الوقت، ولم نعرف بوجود أية آثار باقية من مشفى القديس يوحنا، وعندما تدبر الحجاج إقامتهم هناك، تولى خدمتنا مسلمون، ويهود، ومسيحيون شرقيون، حيث جلبوا لنا خبزاً، وماء، وطعاماً مطبوخاً،

وفواكه، وذلك حسبما أخبرتكم من قبل، ولقد اشترينا منهم طعاماً وأكلناه.

وأرسل الآن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون اثنين من الرهبان إلى المشفى، وأمرهما بجلب جميع الأشخاص من الطوائف المقدسة إلى جبل صهيون، لأن العادة جرت بأن يسكن جميع الأشخاص التابعين للطوائف الدينية، مع الرهبان الفرنسيين على جبل صهيون، وذهبت أنا بين هؤلاء القوم مع اثنين من رهبان طائفتي، أي طائفة الرهبان المبشرين، كان أولهما قد جاء من منطقة جزيرة فرنسا، وجاء الآخر من نابل في منطقة صقلية، وخرجنا من المشفى، وجرى اقتيادنا إلى دير الفرنسيين فوق جبل صهيون، وجرت تحيتنا من قبلهم بلطف واستقبلنا استقبالاً حسناً، وقد أعطونا ثلاث قلايات لنا أنفسنا، وهكذا أكلنا، وشربنا، ونمنا، وعبدنا الرب بمصاحبتهم، وقد بقيت في تلك القلاية لأيام كثيرة، بعدما ذهب الحجاج جميعاً، وتمتعت بهدوء كامل، وبمعاملة رائعة صدرت عن لطف الآباء الفرنسيين ورهبان جبل صهيون.

زيارتنا للأماكن المقدسة على جبل صهيون ووصفهم

وفي اليوم الثالث عشر، الذي كان الأحد السابع بعد الثلاث، وعيد العذراء القديسة مريم، أرسل الأب المسؤول بعضاً من رهبانه إلى مشفى القديس يوحنا، ودعا الحجاج إلى الاحتفال بقداس على جبل صهيون، وجاءوا جميعاً مع هؤلاء الرهبان إلى كنيسة صهيون، للانتظار هناك حلول وقت القيام بقداس رفيع، لأن الشمس أشرقت الآن مبكراً، ومع ذلك لم يكن هو قد استيقظ عندما صعد الحجاج إلى هناك، ولكي يظهر احترامهم للوردات الحجاج، قام الرهبان بتزيين السدة، والكنيسة، والمذابح بشكل جميل، وغطوهم بمعلقات ثمينة، وأنا لم أشاهد في أي مكان آخر معلقة ثمينة أكثر من هذه المعلقة في هذا

المكان، ذلك أنها كانت مطرزة من قبل النساء، عليها رسوم تعرض حياة المسيح وموته، وفي الحقيقة جاء عدد كبير من سادة المسلمين، والأتراك والمماليك من جهات بعيدة، وطلبوا مشاهدة هذه المعلقات، أو الزرابي، وبعدما احتفى الأعيان، والحكام، والقادة في القدس بضيوف الشرف هؤلاء، اقتادوهم إلى جبل صهيون وتوجهوا بالرجاء إلى الرهبان هناك بأن يعرضوا عليهم هذه المصنوعات ويعلقوها لهم.

وصنعت هذه المعلقات لصالح الكنيسة بناء على أوامر فيليب، دوق بيرغندي، الذي قدم منحاً كثيرة أضفها على ذلك الدير، ووقف المذبح العالي وهو مكتظ بأوعية قرابين مذهبة، وبمذاخر، وكان فوق المذبح صورة، حوت رسم القديس فرانسيس، وإلى جانبه قد وقف شفيعنا المقدس، القديس دومينيك، وقد رسمت بشكل جليل تماماً، والكنيسة ليست واسعة، لأنها كانت شطراً فقط من كنيسة جبل صهيون، وفي العصور القديمة، عندما كان الصليبيون يتولون الحكم في البلاد، كانت هناك كنيسة عظيمة في تلك البقعة، قام المسلمون بتدميرها حتى التواء أو البيعة الملاصقة لسدة الكنيسة على جهة اليمين، وهذا الجزء هو الآن الكنيسة والسدة للرهبان، وما تزال خرائب السدة القديمة والكنيسة مرئية بوضوح حتى الآن، كما سنوضح ذلك فيما يلي:

وعندما أشرقت الشمس، وحل وقت الاحتفال بالقداس، ضرب الحافظ لغرفة المقدسات على لوح خشبي، لأنه لم تكن لديهم نواقيس من أي نوع، كما أنهم لم يفكروا بالحصول عليهم من خلال المسلمين، بل عبروا عن حلول موعد العبادات الدينية بالضرب على ألواح خشبية، كما نحن نفعل في يوم الجمعة الحزينة، وبعدما اجتمعنا كلنا في الكنيسة رتلوا تراتيل الأول والثلاثي، وبعد الثلاثي صعد الأب المسؤول مع مرافقيه إلى دكة القداس العالي، وكانوا يرتدون ثياباً ثمينة، وبدأ قائد جوقة المرتلين يغني بصوت مرتفع إحدى أغنيات صهيون: «Spintus

domini replevitًا وساعده جميع الكهنة والقارئ للكتاب من الحجاج، وهكذا غنينا قداس الروح القدس بمهابة بهيجة، وكان هذا القداس موائماً للمكان، لأن الروح القدس أرسلت إلى هناك، ونزلت على الرسل، وكانت بشكل مرئي، كما أن التوقيت كان موائماً، لأن اليوم كان هو يوم الأحد السابع بعد التثليث، الذي فيه ورد ذكر الأرغفة السبعة، التي تعني العطايا السبع للروح القدس.

وبعد القداس احتفلنا نحن الكهنة بطقوس القربان على أربعة مذابح، جرى إعدادها لنا، وأعطيت مكاناً في الاحتفال تحت في الأسفل في الرواق المغلق في بيعة القديس توما الرسول، القائمة في المكان الذي فيه قال الرب لتوما: «هات اصبعك إلى هنا» (يوحنا: ٢٠/٢٧)، وذلك حسبما ورد في الاصحاح العشرين من انجيل القديس يوحنا، وبعد الفراغ من الانجيل في طقوس القداس العالي، استدار الأب المسؤول بنفسه نحو الناس، ووعظهم بموعظة جميلة باللاتينية، مدح فيها الأماكن المقدسة وأثنى على زيارتها التعبدية، وتمت ترجمة هذه الموعظة إلى الألمانية من قبل الأب المبجل بولص غوغلنغر Guglinger، وذلك لصالح الرجال العلمانيين، وكانت الأبواب مغلقة في أثناء القداس، وقد وقف في الخارج عدد كبير من المسلمين والتجار، وصدف في أثناء القداس أن جرى فتح الباب للسماح لأحدهم بالخروج، وعندما رأى المسلمون ذلك اندفعوا بشدة نحو المدخل، ودخلوا إلى الكنيسة، ووقفوا إلى جانب المذبح، وهم ينظرون باستغراب نحو طقوسنا، ومع ذلك لم يظهروا سوء أدب أو سلوكاً، ولم يتعد الأمر الوقوف هناك والاندهاش، وعلى كل حال أوقف الكهنة القداس حتى أخرجوا بواسطة الرهبان، الذين لم يستخدموا القوة أو قاموا بجرحهم، أو تخاصموا معهم، بل أخرجوهم بهدوء، ورجوهم بالذهاب، واثّر ذلك تمّ إكمال قداسنا.

فيما يلي:

المسيرة إلى الأماكن المقدسة في جبل صهيون وأولاهما مكان العشاء الأخير

بعد القداس، أعدّ الرهبان الفرنسيسكان العدة من أجل مسيرة مهيبة، فقد ارتدوا ملابسهم المقدسة، ومضوا وهم يحملون معهم صليباً، وأعلاماً، وحاملات شموع، ومذاخر، ومباخر، وماء مقدساً، ولدى سيرنا معهم جميعاً في المسيرة، كان قائد الجوقة رجلاً صاحب صوت قوي، وقد بدأ يغني بشيء من النشوة ترتيلة من أغاني صهيون:

pange lingua gloriosi corporis mysterium ومع هذا الغناء سرنا، وكنا نحن الكهنة في الطليعة، وتبعنا بقية الحجاج، وبقينا هكذا حتى وصلنا إلى السدة ومنها إلى المذبح العالي، الذي من المعتقد أنه قد بني فوق المكان المقدس الذي أكل فيه الرب يسوع العشاء الأخير مع حواريه، حيث حول الخبز والنبيذ إلى جسده ودمه، وأعطاهما إلى حواريه للأكل والشرب، وحيث رسمهم كهنة حتى يتولوا أعمال القداسات، ومضينا إلى هذا المكان الفائق القداسة واحداً تلو الآخر، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الموضع تحت المذبح المفرغ من الأسفل، وتلقينا غفرانات مطلقة (++)، وانتبهوا يا خيرة الأحبة، أيها الإخوة الحجاج، هنا البيت، وهنا العلية العليا، وهنا المنضدة حيث أعطيت لكم الأعطية الفائقة القداسة بالخبز من السماء، وخبز الملائكة، الذي وحده لديه القدرة لاشعال الرغبة فينا، وأن يزرع فينا التواضع، وأن يجلب الندم، وأن يعطي الايمان، وأن يبعث الأمل، وأن يمنحنا الدفء حتى نحب، وأن ينهض بنا إلى التبجيل، وأن نذيب التفكير، وأن يسبب أحلى المشاعر، فهذا المكان جدير بأعلى تقدير — تقدير فوق جميع الأماكن المقدسة الأخرى — ذلك أن جميع الأماكن التي أخذنا

إليها، وكانت على اتصال بالرب، وجدناها كلها جديدة بالاحترام، من ذلك الناصرة مثلاً، التي تلقت حلول الرب في جسد مثل أجسادنا، وبيت لحم التي شهدت ولادته، والجمجمة التي أعطته الصلب. هذه الأماكن حقاً تستحق الاحترام، لكن هذا المكان يستحق احتراماً أكثر منها جميعاً، وهو فوقها كلها، ففي هذا الموضع جرى العشاء الرباني الأعظم انقاداً، فهنا أعطى نفسه ليكون طعاماً، وجسده ليكون لحماً، ودمه ليكون شرباً، حتى يمكن أن يصبح طعاماً سماوياً وأرضياً مع بعضهما، لأنه قال: «إن الذي يأكل جسدي ويشرب دمي يحل بي وأنا أحل به».

وإلى جانب هذه الأسرار التي تستعصي على الوصف، أدرج هنا أضحيان وقرابين نموذجية، وختم الشريعة، وشرع قداساتاً جديدة، وهنا جعل يوحنا يتمدد فوق صدره، كما أكد هنا بأنه عرف بأن يهوذا الذي سيخونه، وأخبر هنا مقدما بطرس بسقوطه، وتنبأ هنا كيف أن حواريه سوف يتخلون عنه ويفرون، وهنا وعظ بقداس طويل وعظيم الخلاوة، وودع حواريه الوداع الأخير، تاركاً السلام معهم.

وهكذا بعدما فعلنا كل ماعلينا أن نفعله في ذلك المكان المقدس بشكل صحيح، حيث غنينا تراتيل، وقرأنا ما هو معد للقراءة «في مسيرات الحجاج في الأرض المقدسة» رجعنا إلى حيث كنا ونحن نقدم الحمد والشكر، وهذه المسيرات هي كتيبات صغيرة، فيها محدد جميع القصائد، والمجاميع، وعبارات الترانيم، والتراويل، والمزامير، أي كل ما ينبغي أن يقال أو يغنى في جميع الأماكن المقدسة، وخلال مسيرة أعمال الحج كلها فيما وراء البحار، وحصلت على واحد من هذه الكتيبات لنفسي، واستخدمته في الأماكن المقدسة.

غسل الأقدام الذي عمل هناك

وسرنا من ذلك المكان على شكل رتل قليلاً نحو الجزء الأيمن من

السدة، ونحن نغني تراتيل محددة من أجل يوم العشاء الأخير، ووصلنا إلى المكان المقدس، حيث غسل الرب يسوع أقدام حواربيه بعد العشاء، ويوجد هنا مذبح جميل، حيث حنينا أنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات (++)، وأرجوكم أيها الأحبة الحجاج، ألا تتركوا هذا المكان، من دون تأملات متقدمة، ليست أقل من تأملات أي مكان آخر، وانظروا وتفكروا بأهمية الذي صنع هنا وبمعانيه وآثاره، فابن الرب القدير بسبب ربوبيته الدائمة، والقدير بجمال عقل الأب، ابن الرب الذي أرسى قواعد العالم، وجعله جميلاً لينظر إليه، والذي إليه تقدم السموات والنجوم في مساراتها، الولاء، والذي هو كما قال أيوب هز الأرض وأخرجها من مكانها، وجعل بذلك الأعمدة ترتجف، هو انحنى نحو الأسفل، وحط من مكانة جلالته السماوية، ففي هذا المكان غسل يديه أقدام حواربيه القذرة، والملوثة، والموحلة، مع أن هؤلاء كانوا من سوية متدنية: صيادين للسماك، ومذنبين، وخونة، وفعل ذلك حتى يقدم لنا أفضل مثال وأصح في التواضع.

المكان الذي أنزلت فيه الروح القدس على الحواريين

في يوم عيد الحصاد

بدأ بعد هذا قائد الجوقة المقدسة يغني أمتع أغنية بين أغاني صهيون وهي: Veni, creator, pinitus الخ، ولدى غنائه لهذه الأغنية خرجنا من الكنيسة ودخلنا إلى الدير الموجود فوق الرواق المغلق، لأن السدة والكنيسة قد بنيتا فوق سطح غرف أخرى، ولذلك حتى يصل الانسان إلى الكنيسة، عليه أن يصعد على الدرج من كل جانب، وعندما يخرج الانسان من الكنيسة، يمكنه أن يسير على سطح قوس الرواق أو المعبر المسقوف، حول جهات ثلاث للساحة، لأن للرواق ثلاثة أطراف فقط، فالطرف الرابع هو جدار الكنيسة، وهكذا مررنا خلال الكنيسة، ونزلنا من جهة الشرق إلى جهة الغرب، ففي النهاية الغربية للكنيسة

خرجنا منها من باب موجود على الجهة الجنوبية، ومشينا على الجانب الأول للرواق، ثم عطفنا أنفسنا نحو الشمال، فوصلنا إلى رأس السدة، حيث صعدنا فوق بعض الأدراج إلى عليّة أبوابها مغلقة بالحجارة، لأسباب سوف أذكرها على ورقة ٢٩٠ ظ.

وهذه العلية موجودة عند رأس السدة، ولأن السدة ليس لها نوافذ تطل نحو الشرق، لوجود هذه العلية بالطريق، هي مضاعة من جهة الجنوب فقط، وذهبنا برتل صاعدين فوق الأدراج المتقدمة الذكر، وانحنينا بأنفسنا نصلي أمام الباب الموصد، فهناك تلقينا غفرانات مطلقة(++)، وغنينا ترتيلة كنا قد بدأنا بها بلحن عذب، تردد صداها فوق جبل صهيون كله ومدينة القدس، لأن المكان لم يكن مغلقاً، وقد وقفنا فوق مكان مرتفع، في الهواء الطلق، وغنينا بسرور فائض، متذكرين أنه في هذا المكان أمطرت السماء بحضور رب سيئاء، وبحضور رب اسرائيل وجرى ارسال مطر النعمة ذاك وإنزاله على ميراث المسيح، لأن الروح القدس نزلت على الحواريين بصوت مندفع، وغيرت عقولهم الشهوانية إلى محبة له، وهكذا، في الوقت الذي ظهرت فيه ألسنة اللهب دنيوية ظاهرة، اشتعلت قلوبهم في الداخل باللهب، بسبب أنهم عندما تلقوا الرب بالشكل المرئي للنار، كانت قلوبهم تشتعل بعذوبة بالحب، لأن المسيح، عندما كان على وشك الصعود نحو الأعلى، طلب من حواريينه عدم مغادرة القدس، وأن عليهم الانتظار هناك وعد الأب، ولهذا قدموا إلى هذه العلية وأقاموا فيها وهي مغلقة عليهم، وذلك بسبب الهياج بين اليهود، وجلسوا هناك معزولين، وميتمين، وجاهلين وغير عارفين، ومرعوبين، وممتلئين خوفاً، لكن عندما نزلت الروح القدس عليهم، جلبت إليهم أعظم المواساة عذوبة، وانصبت في عقولهم الحكمة الأوضح، فأعطتهم الشجاعة الأمتن، وهكذا بالمثابرة بالنفس، وبالثبات في النعمة، تسلموا الحكم على العالم.

ولسوف أصف هذا المكان بشكل أوفى، عندما أصل إلى الحديث عن
ضريح داوود.

المكان الذي قام فيه القديس توما

وهو مرتاب بلمس جروح الرب

ثم إننا غادرنا هذا المكان، ونزلنا على الأدراج التي كانت قريبة إلى
الرواق، وأتيننا إلى بيعة القديس توما، حيث نال هذا الرسول نفسه من
خلال شكوكه الفاتكة المنافع، شرف لمس الندوب المتألقة لجسد المسيح،
وعندما سرنا في رتل إلى ذلك المكان غنينا التريمة المبهجة:

((Exultet coelum laudibus resaltet terra gaudiis)) ومجدداً

انحنينا بأنفسنا نحو الأرض في هذا المكان، وتلقينا غفرانات
مطلقة(++)، وتركز في هذا المكان تأملنا على النعمة الخاصة، التي
وصلت إلى القديس توما الرسول، لأن جميع الذين قرأنا عنهم، أنهم
كان لهم علاقة بجانب المسيح — ومنهم القديس توما، الذي وضع يده
في جنبه، بناء على طلبه — تلقوا علامة خاصة على النعمة، فلوجينيوس
العسكري غير المؤمن والمتوحش، الذي — بناء على أوامر بيلاطوس
— وقف إلى جانب الصليب، وقام بإدخال رمحه في جنب المخلص،
وطعن القلب الأعظم قداسة للمسيح، كان ضعيف النظر، وصدف أن
عينيه لامتسهما الدم الذي جرى على الرمح، وبذلك صار يرى بوضوح،
وتلقى النور في كل من جسده وعقله، وتحمل استشهاده مشهوداً، ورأى
القديس يوحنا الانجيلي جانبه وشاهد الماء والدم يخرج منه، فأمن وصار
شاهداً لأعظم الأسرار سمواً، ورأى القديس توما جانبه ولمسه، وبذلك
صار أكثر المؤمنين ثباتاً وذلك بشكل مكشوف، وسمع قولاً هو فائق
الطمأنينة لنا، حيث قال له ربنا: «لأنك رأيتني ياتوما آمنت، طوبى للذين
آمنوا ولم يروا» (يوحنا: ٢٠/٢٩).

والحواريون الآخرون، الذين أراهم الرب يديه، ورأوا جنبه، تفتحت أعينهم، وبذلك أمكنهم فهم الكتابات المقدسة، وقد امتلأوا ببهجة عصية على الوصف، وعندما كان القديس برنارد يصلي أمام تمثال المصلوب، بدا له أنه رأى المصلوب وقد فك نفسه من الصليب، وانحنى عليه وهو يصلي، وتلقاه وهو مستغرق بصلاته بين ذراعيه، ووضع فمه على جنب المصلوب، ووضع من هناك صحة العقيدة حلواً كالعسل، وانفعل القديس فرانسيس أيضاً بعمق لدى تفكيره حول جراح المسيح، فكان أن أجزى بشكل إعجازي، ورأى على جسده أنه يحمل علامات الرب يسوع، وشربت القديسة كاترين السيناوية من جنبه الأعظم قداسة، فغدت ثملة بأحلى جرعة للقداسة، ذلك أن تلك العذراء التي كانت قرينة للمسيح، كانت مرة ترعى امرأة مريضة، تعاني من قرحة مخيفة وقذرة جداً في صدرها، التي صدر عنها رائحة لا تحتمل، لذلك لم يبق أحد معها، وفي أحد الأيام عندما نزعت الفتاة المقدسة الضماد من على القرحة من أجل تنظيفها وغسلها، صدرت رائحة مخيفة لا تحتمل، حركت معدتها وجعلتها تشعر أنها مريضة تريد أن تتقيأ، وعندما شعرت الفتاة المقدسة بهذا، باتت غاضبة مع جسدها، وحلفت يميناً قائلة: «بحق حياة الأكثر علواً، القرن الأكثر حلاوة لروحي، سوف تضع في معدتك ذلك الشيء الذي تقززت منه»، وقامت على الفور بجمع غسالة القرحة والدم الخارج من ذلك الجرح القذر بوعاء، وذهبت إلى مكان منعزل وابتعلت الجميع، وعندما فعلت ذلك توقفت تقززها، وليس فقط أنها لم تعد تشعر بالغثيان، بل تمتعت بسرور لا يوصف.

وفي الليلة التالية ظهر لها الرب يسوع، وأراها جروحه الخمسة، التي أصيب بها وهو على الصليب وقال: «لأنك البارحة تغلبت على المشاعر الطبيعية لجسدك، بسبب حرارة حبك لي، وابتلعت الشراب المقرف،

أقول لك: بما أنك بهذا العمل ذهبت أبعد من طبيعتك، لذلك سوف أعطيك شراباً فوق الطبيعة البشرية التي اعتدت على تلقيها، ثم إنه وضع يده اليمنى فوق رقبة الفتاة، وسحبها نحو جراح جنبه وقال: «اشربي جرعتي، اشربي جرعة من جانبي، بها سوف تمتلئ روحك بحلاوة سوف تتدفق بشكل مدهش حتى إلى جسدك»، وقامت هي، وقد رأت نفسها قد وضعت إلى جانب فم نبع الحياة، فوضعت فمها الطبيعي، لابل أكثر: فمها الروحي، على ذلك الجرح الأعظم قداسة، وشربت، ليس لمدة قصيرة، لقد شربت بتشوق، وبكميات كبيرة من ذلك الشراب الاعجازي والعصي على الوصف، وأخيراً أبعدت نفسها عن النبع، وهي ممتلئة، ومع ذلك عطشى، وبدأت منذ ذلك الحين حياة جديدة، وكبرت بالنعمة، وذلك حسبما سنقرأ في حكايتها، في الفصل الرابع من القسم الثاني.

وانظر كم هي عظيمة فضائل جرح المسيح، وسان الرمح، الذي طعن به جنب المسيح محفوظ في نورمبورغ Nuremburg حيث أنني رأيته وحملته بيدي، وله فضائل عظيمة إلى حد أن آلافاً كثيرة من الناس تتدفق على هناك، في كل سنة، في يوم الجمعة الأول، بعد اليوم الثامن من عيد الفصح، لرؤية قطعة الحديد، وعبادتها، وهي القطعة التي شقت جنبه المقدس، وعلى هذا اقتربوا أيها الأحبة الحجاج، والمسوا بقلوبكم جراحه، مثل القديس توما، وصلوا للرسول المقدس حتى يقبلكم للتعايش معه، ويقوم في هذه البيعة مذبح جميل، غالباً ماقرأت فيه ساعاتي الشرعية، عندما كنت أعيش في القدس.

المكان الذي اقتاد إليه ربنا حواريه حتى يتمكن من التحادث معهم على انفراد وقال: قوموا دعونا نذهب من هنا

بعدما أنهينا قداس المسيرة في هذه البيعة، تحلقنا حول الممر الأسفل للرواق، وذلك حول ثلاثة جوانب منه، وانتقلنا إلى بيعة أخرى، مقدسة

كثيراً، ومظلمة جداً، وهي مخفية تحت الكنيسة نفسها، ومن المعتقد أن هذه البيعة هي المكان المنعزل، الذي إليه اقتاد الرب يسوع حواريينه، عندما قال: «قوموا، دعونا نذهب من هنا»، وذلك حسبما نقرأ في الاصحاح الرابع عشر من انجيل يوحنا، ولقد حدثنا الحكماء المتعلمين من أمثال القديس توماس (الأكويني Aquinas)، وألبرتوس ماغنوس، وهوغو، ودي ليرا، أنه بعد العشاء، وبعدما اغتسل الحواريون، وبعدما تلقوا القربان، أخذ الرب يتحدث إليهم، وهم جلوس في المكان الذي تعشوا فيه، وأخبرهم بشكل مكشوف أنه سيتعرض للخيانة، وأنه بعد وقت قصير لن يروونه بعد ذلك، وعندها أصبح الرسل مرعوبين، واضطربوا لدى سماعهم لكلماته، وتوجهوا بأبصارهم بشكل مستمر نحو باب عليّة العشاء الأخير، خشية وتوجساً من أن الناس سوف يأتون ويأخذون معلمهم من بينهم، ولذلك أولوا قليلاً من الاهتمام لكلماته، ولأنه رغب في أن يتابع الحديث إليهم بشدة أكبر، من أجل أن يصغوا إليه بعناية أكبر، وأن يكونوا أقل خوفاً، قال لهم: «قوموا، دعونا نذهب من هنا»، وبناء عليه نزلوا من غرفة العلية، إلى الغرفة القائمة تحتها، حيث أنهى قداسه، وصلاته الأكثر تقوى، التي هي موجودة في الاصحاح السابع عشر، وفي الاصحاحين اللذين يليانه من انجيل القديس يوحنا، ونحن نعتقد أن هذه الصلاة هي التي قدمها المسيح في هذا المكان، ولذلك صعدنا إلى المذبح، وتوسلنا إلى ربنا يسوع أن يجعلنا نلتحق به في صلاته هذه الفائقة التقوى، التي قدمها هناك، ولقد تلقينا غفراناً (+).

ويوجد في هذه القاعة المقدسة جزء من العمود الذي جلد المسيح عنده، حيث هو مربوط إلى الجدار بقضبان حديدية، ومع ذلك من الممكن لمسه بالأصابع، ويوجد إلى جانبه فرش للضيوف، نمت عليها أثناء حجي الأول، وهناك أيضاً قلاية لراهب من طائفة السسترشيان،

وللراهب جون الذي يمنح الناس شارة الفروسية في الضريح المقدس، والذي يشغل أيضاً وظيفة متعهد المؤن للرهبان، وصعدنا من ذلك المكان على درج حجري إلى الكنيسة، وبذلك أنهينا مسيرتنا، فهذه هي الأماكن المقدسة التي موجودة في أفنية الدير، وفي الخارج هناك كثيراً من المزيد من الأماكن المقدسة، كما سنرى فيمايلي.

الغداء الذي قدمه رهبان جبل صهيون إلى الحجاج

بعدما أنهينا مسيرتنا التي استغرقت حتى حوالي منتصف النهار، وعندما كان الحجاج على وشك النزول إلى المشفى، قدم الأب المسؤول والراهب يوحنا الخازن، ووجهها الدعوة إلى جميع الحجاج إلى الغداء، وقد نصبوا مناوئاً، وألواحاً طويلة من أجلنا في حديقة الدير، لأن عددنا كان كبيراً، وكان المكان ضيقاً، ومدوا فوق السطح قطعة قماش غطت طول السطح كله، لتكون بمثابة مظلة من حرارة الشمس، وكان الموضوع الذي طرزت به هذه القطعة هو نزول الروح القدس، وهكذا جلسنا إلى المائدة باستثناء بعض النبلاء الذين، قرروا القيام بخدمة الموائد، وذلك صدوراً عن التواضع، وحينما كنا جميعاً جالسين، وكنا نأكل بطريقة نظامية، جاء رجل كان مرتدياً للملابس وضيعة، أنا لم أره من قبل بين صفوف الحجاج، وقد وقف في وسطنا ونحن نتناول الطعام، ووعظنا بلغة لاتينية كانت غنية وفصيحة وجميلة الأداء، إلى حد أننا توجهنا جميعاً بأبصارنا إليه، حتى الذين لم يفهموه كانوا مندهشين تجاه تدفقه ولغته الممتعة، وكان موضوع قداسة في ميدان تمجيد الأماكن المقدسة، وفي اطراء الحج ومدحه، وبعدما أنهى هذا الواعظ كلامه، أخذ مكانه اللورد جون، بارون سيجيرن، الذي كان رجلاً حكيماً وفصيحاً، وكان واحداً ممن تولوا خدمة المائدة، وقد ألقى —بناء على إلحاح الأب المسؤول— كلمة بالألمانية، شكر بها، باسمه، السادة الحجاج من اللوردات لجلوسهم إلى مائدة الرهبان الفقراء،

ورجاءهم أن يكونوا راضيين بطعامهم وشرابهم، وإذا ما أراد أي واحد منهم أن يسدد للرهبان ويعوضهم على لطفهم، وأن يظهر شفقة على فقرهم، يمكنه التحادث حول هذا الموضوع مع الراهب يوحنا البروسي، خازن الدير، الذي سوف يجدونه واقفاً في الرواق، لأن الأب المسؤول لن يسمح مطلقاً بجمع أية تبرعات على المائدة، كما أنه لم يرغب باعلامهم أن الراهب يوحنا سوف يتسلم مالاً باسم الرهبان، بل ان النبلاء فعلوا ذلك صدوراً عن رغبتهم، وعندما انتهى الغداء، وتغدينا جميعاً بشكل جيد، ذهبنا إلى الراهب يوحنا، وقدمنا مساعدات لها قيمتها إلى الدير، فبعضهم دفع ست دوقيات، وبعضهم خمس، وبعضهم أربع، وبعضهم ثلاث، وبعضهم دوقيتان، وأصغر مبلغ دفع من قبل أي انسان كان هو دوقية واحدة.

زيارة إلى الأماكن المقدسة على جبل صهيون

من دون أحواز الدير

وعندما فرغنا من جميع الذي وصفناه، ذهبنا نحن الحجاج إلى الأب المسؤول ورجوناه أن يتفضل فيعين واحداً من الرهبان لأن يكون دليلنا إلى الأماكن المقدسة المتبقية فوق جبل صهيون، وذلك خارج الدير، ولبي طلبنا الأب المسؤول، ودهش تجاه غيرة الحجاج الكبيرة، فبعد المتاعب التي عانوا منها، مابرحوا يرغبون في تحمل المزيد من الجهود، وفي الحقيقة مامن أحد عليه أن يفكر أن زيارة الأماكن المقدسة مهمة سهلة، فقد كانت هناك حرارة هائلة صادرة عن الشمس، والسير من مكان إلى مكان، والجثو على الركب، والتمدد على الأرض، وفوق كل شيء، كانت هناك الضغوط التي يضعها كل انسان على نفسه في نضاله بكل طاقاته بأن يرقى بنفسه إلى التقوى السليمة، وتفهم واستيعاب كل مارآه في الأماكن المقدسة، ولأن يحقق صلاة خاشعة، وتأملأ عميقاً، وهذا كله لايمكن القيام به من دون بذل جهود كبيرة، ذلك أنه حتى

يقوم بهم الانسان بشكل لائق، عليه أن يكون مرتاحاً، وليس هائماً على وجهه، ذلك أنه تناضل خلف العوائق العقلية، وأنت تنتقل جسدياً من مكان إلى مكان، عمل مرهق إلى أبعد الحدود، فبعض حجاجنا لم يستطيعوا القيام بذلك، ونزلوا إلى المشفى للراحة، ولذلك أقل من نصفهم هم الذين تابعوا واستمروا في عمل الحجاج.

وكان الأب المسؤول قد أعطانا عدداً من الرهبان بمثابة أدلاء لنا، معهم انطلقنا في طريقنا من حديقة الرهبان الداخلية، حيث كنا قد تناولنا طعام الغداء، وعندما خرجنا من الحديقة إلى الرواق، وصلنا أمام قاعة الطعام والمطبخ، إلى بركة ماء عميقة، كانت أبرد من أي ماء آخر في القدس، ويحكى بأن الماء قد نضح من هذه البركة من قبل حواربي المسيح، من أجل العشاء الرباني، أي من أجل مزج الخمرة أثناء أداء القداس، ومن أجل غسل أيديهم وأقدامهم، ومن أجل الاستخدامات الأخرى أثناء العشاء، وصدوراً عن الاحترام للحقائق المتقدم ذكرها نضحنا بعضاً من هذا الماء وشربناه بتقوى، وصرت من ذلك الوقت غالباً ماأشرب منه كميات كبيرة، أثناء شدة الحرارة وقسوتها، ولم يلحقني ضرر من ذلك، وأعتقد أن هذا واحداً من آبار الخلاص الذين ورد الحديث عنهم في الاصحاح الثاني عشر من سفر اشعيا، وهو قوله: «فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص»، وقال في فقرة تالية: «صوتي واهتفي ياساكنة صهيون».

ومضينا من هذا النبع من خلال الممر المسقوف إلى باب الدير، الذي أخذ بنا إلى طريق عام، وهذا الباب صغير ومنخفض، ومدخل ضيق منحدر، لايمكن لانسان أن يعبره من دون أن يطأطئ رأسه، ويجني ظهره، والباب حديدي قوي، وهو عندما يغلق يشد بسلاسل وبمزاليج حديدية، لأنه يخشى أثناء غضب المسلمين خلال الاضطرابات المفاجئة من اقتحام الدير ونهبه، وهو ما فعلوه في احدى المرات، ومن الممكن

رؤية آثار ذلك في المهجع قرب الحديقة والمكتبة، حيث كان هناك فيما مضى قلايات جميلة بنيت بسقوف مقنطرة، فقد قاموا بتدميرها وبتهييط قناطرها، ولم يسمحوا لهم حتى هذا اليوم بإعادة عمارتها كما كانت من قبل، ذلك أنه من السهل جداً إثارتهم وتحريكهم لمهاجمة المسيحيين، وأن يثوروا بغضب ضدهم، ولهذا يغلق الرهبان على أنفسهم بشدة، خشية من أن يثور المسلمون ويكون هناك هياج فيتمكنوا من إلحاق بعض الأضرار بهم، ومثل هذا قام المسيحيون الشرقيون بحماية بيوتهم وإغلاقها بأبواب حديدية، وذلك للأسباب نفسها.

موضع اعتكاف العذراء مريم المباركة

وخرجنا من الدير من خلال ذلك الباب، برفقة الرهبان، إنما من دون أبهة، مسيرة مهيبة، وبدون غناء، وكان أول مكان قدمنا إليه درج حجري، صعدنا عليه إلى الكنيسة في الأعلى، وتمددنا على هذا الدرج بأنفسنا، في دعاء وتعبد للقربان المقدس والأماكن المقدسة في الداخل هناك، ثم نهضنا ومضنا إلى الزاوية الخارجية للكنيسة، حيث يوجد الموضع الذي كان فيه معتكف العذراء، مريم، ولذلك انحنينا بأنفسنا في ذلك المكان نحو الأرض، وصلينا، وتلقينا غفرانات (+)، وهناك خطر ببالنا وفكرنا كيف أن مريم العذراء المباركة، قد اعتادت في هذا المكان وفي أماكن أخرى على تقديم صلواتها المتواصلة والمتقبلة كثيراً للتشفع لدى الرب من أجلنا، وفي الحقيقة سوف تظل تقدمهم حتى نهاية الزمان، الأمر الذي هناك حاجة مستمرة لأن تفعله، لأنه مثلما هناك حاجة لأشعة الشمس على الأرض حتى تجعلها خصبة، هناك مثل ذلك حاجة لصلوات مريم من أجلنا نحن الأشقياء المذنبين، وحول هذا قال القديس برنارد: «إذا ما أبعدت الشمس التي تضيء الدنيا، أين يمكن أن يكون هناك نهار؟ وأبعد مريم — نجم البحر — مالذي سوف يبقى في المسكونة، غير احتضان الجميع للاكتئاب، والظلام الدامس، وظلال

الموت؟.

موضع دفن داوود وسلميان والملوك الآخرين ليهوذا والقدس

وغادرنا الآن موضع اعتكاف العذراء المباركة، الذي هو موجود —كما قلت— عند زاوية تلك الكنيسة، وذلك حيث يتصل جدار الكنيسة القادم من الشرق بالجدار القادم من الجنوب، وصعدنا من تلك الزاوية وصرنا على طول الجدار الذي يقود نحو الشرق، وصرنا فوق جدار آخر منخفض، يقود من جدار الكنيسة إلى فناء مربع الشكل هو ساحة صغيرة، وتسلقنا في هذه الساحة فوق الجدار، وعندما صرنا فوق، وجدنا باباً صغيراً في جدار الكنيسة، وهو محاط بالحديد، ومغلق بعناية فائقة، وعلى هذا لم يكن بإمكاننا المرور من خلاله، لابل حتى وإن استطعنا أن نمر من خلاله، من المؤكد أننا لن نتجرأ على فعل ذلك، لأن الموضع مسجد اسلامي، وهذا مكان عظيم القداسة مبجل من قبل جميع المسيحيين واليهود، والمسلمين كذلك، لأن فيه موضع دفن الأنبياء، والأنبياء القديسين، مثل داوود، وسليمان، ورحبعام، وأبيا Abia، وآسا Asa، ويورام Joram، والبقية، الذين وردت أسماؤهم في سفر أنساب يسوع المسيح، في الاصحاح الأول من انجيل القديس متى، وغالباً ما ورد ذكر هذا الموضع في أسفار الملوك وأخبار الأيام، كلما جرى استخدام عبارة: «وقد دفن في ضريح آبائه في مدينة داوود»، ودفن هؤلاء الملوك في هذا المكان وسط احتفال عظيم جداً، وحدثنا يوسفوس، في الكتاب السابع من التاريخ القديم— الفصل السادس عشر— وكذلك مصنف كتاب «Scholastica Historia»، عن وفاة داوود، أنه عندما مات، وضع ابنه سليمان جسد والده في تابوت ثمين جداً، لم يصنع من الحجر أو من الخشب، بل عمله صاغة الذهب، من الذهب المحلى بالأحجار الكريمة، ودفن إلى جانبه كنز لا يمكن تقدير قيمته من الذهب والفضة، وعندما توفي سليمان، دفنه ابنه رحبعام، ومعه كنز

عظيم إلى جانب تابوت داوود، وكان سليمان قد بنى مكان الضريح وفق فن حسابي بحيث لا يستطيع انسان الوصول إلى هذين التابوتين.

وبعد مضي ألف وثلاثمائة سنة على وفاة سليمان، وفي أثناء وقوع القدس تحت حصار أنطيوخوس ابن ديمتريوس، كان هيركانوس الكاهن الأعلى للمدينة المقدسة، وقد وجد نفسه غير قادر على تحمل استمرار الحصار مدة أطول، أو دفع العدو، وصدده، وعد أنطيوخوس بالمال إذا ما انصرف، ولم يجد وقتها ما يكفي من مال في خزانة الهيكل، ولم يكن لدى سكان القدس الفقراء المال، فمضى —لذلك— هذا الكاهن الأعلى، وصعد إلى جبل صهيون، وفتح هذا المكان الذي تحدثت عنه، وأخذ من هناك ثلاثة آلاف قنطار من الذهب، وبهذا المبلغ أقام السلام مع أنطيوخوس.

وثانية بعد مرور سنوات كثيرة، وجد هيرود نفسه بحاجة إلى المال، وسمع بأن هيركانوس قد وجد مالا هناك، فجاء بشكل سري إلى ذلك المكان، وفعل ذلك أثناء الليل ومعه أصدقائه المعتمدين، فلم يجد هناك نقوداً مضروبة، بل استخرج بعض الكؤوس الذهبية والفضية، ودفعه هذا إلى الحفر أعمق، حتى وصل إلى جرتي حفظ جسدي داوود وسليمان وإلى تابوتيهم، وفي أثناء الحفر احترق اثنان من خدمه وتحولا إلى رماد، وكان ذلك بوساطة اللهب الذي اندفع من الأجزاء الداخلية للمكان، وعندما رأى الملك هذا، هرب مع الآخرين، ولكي يصلح ماعمله ويكفر عما اقترفه، بنى ضريحاً عظيماً جداً من الحجر الأبيض.

وفيما مضى، عدّ رهبان دير جبل صهيون هذا المكان بين ممتلكات ديرهم، وهو في الحقيقة جزء من كنيسة جبل صهيون، لأنه موجود بين الجدران نفسها، عند رأس السدة، وقد انتزع السلطان هذا المكان من الرهبان للسبب التالي: فقد توسل اليهود مراراً إلى السلطان لكي يعطيهم هذا المكان، حتى يتخذوا منه مكاناً للزيارة وللاعتكاف،

ومابرحوا يترجونه حتى هذا اليوم، ورفض المسيحيون باستمرار الاستجابة لهم، وأخيراً سأل السلطان عن أسباب قداسة ذلك المكان، وعندما أخبروه بأن داوود وملك القدس الآخرين من سلالة مدفونين هناك قال: «نحن المسلمون أيضاً نعدّ داوود مقدساً، مثلما يفعل المسيحيون واليهود ونحن نؤمن بالتوراة كما يفعلون، ولذلك لن يمتلك لا اليهود ولا النصارى هذا المكان، بل سنتخذ نحن لأنفسنا»، وبناء عليه قدم إلى القدس، وأغلق الباب الذي كان الانسان يدخل عبره إلى تلك البيعة من داخل الدير، وألغى البيعة، وأزال مذابح المسيح، وحطم التماثيل المنحوتة، وطمس الصور، وجعل المكان مناسباً لعبادة (١) (إله) محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعمل باباً في الخارج، يمكن للمسلمين الدخول منه عندما يرغبون.

ولأن المكان الذي كان فوق البيعة، أي فوق سقفها المقنطر، كان ملكاً للمسيحيين والرهبان، وكان يوجد فيه بيعة باهظة النفقات، كان قد أسسها هناك ملك فرنسا، أسسها في المكان الذي تحدثنا عنه وقلنا بأن الروح القدس نزلت هناك على الحواريين في يوم عيد الحصاد، لذلك أمر السلطان أيضاً بهدم هذه البيعة أيضاً، وبإزالة القناطر، وباغلاق بابها، حتى لا يتمكن المسيحيون من السير فوق السقف المقنطر العائد للمسجد، وهكذا فقد الرهبان هذين المكانين المقدسين الثمينين، وجاء ذلك من خلال تشوق اليهود لامتلاك المكان المنخفض، الذي توسلوا من أجله إلى السلطان، ومازالوا يتوسلون له حتى هذا اليوم، ووعدوه يعطوه آلاف قناطير كثيرة من الفضة مقابل ذلك، هذا وهم لا يفعلون هذا لمجرد احترامهم لقبور الملوك القديسين، ولالقداسة المكان، بل انهم يأملون بشق طريقهم إلى توابيت الملوك، والعثور على الكنوز، لأنهم يعتقدون بأن هذه الكنوز مخزونة هناك، وأنه من المقدر أن تكون لهم،

١ — استخدم الرحالة عبارة نابية جداً، أبدلتها بما بين الحاصرتين.

ولذلك غالباً ماتجدهم ذاهبين إلى هناك، ويقومون بالصلاة في أثناء الليل، ويمارسون أحياناً هناك أعمال السحر وفنونه.

وتشوقت كثيراً لرؤية القسم الداخلي من ذلك المكان، ولم يجب أملي، حيث كان المسلم الحافظ للمسجد يحاول في أحد الأيام فتح الباب، وقد أغلقه بسرعة، وعطل القفل بالمفتاح، ولذلك لم يحرك المفتاح المزلاج الحديدي، ولذلك غادر تاركاً المسجد مفتوحاً، وقد بقي مفتوحاً طوال المدة التي بقيت فيها بالقدس، ودخلت إلى المسجد أكثر من عشر مرات ونظرت إلى مافيه، مع أنني كنت دوماً أدخل وأخرج وأنا خائف أرتجف، لأنه لو رأي أي مسلم هناك، لسبب ذلك لي أذى عظيماً، هذا إذا نجوت من خطر الموت، وهذه البيعة بيعة طويلة، ولها سقف مقنطر، ولها نافذتين على جهتها اليسرى، وفيها ضريح من الرخام في جانبها الشمالي، والأرضية المبلطة مغطاة بحصر، ومعلق فيه مصباحين، ولا يوجد فيه مذبح، ولا رسوم، ولا أعمال محفورة ومنحوتة، بل جدران عارية مطلية باللون الأبيض، فهكذا جميع مساجد المسلمين فارغة وخاوية.

وأثارت الحكاية المتقدمة شكاً في عقلي، حول لماذا سمح هؤلاء الملوك القديسين بدفن كنوز معهم، لأن هذه ممارسات كافرة ولا عقلانية، ثم كيف كان سليمان قادراً على إخفاء هذه التوابيت بفن لا يستطيع إنسان حياله العثور عليهم؟ وجواباً للسؤال الأول أقول، بأننا ينبغي أن نؤمن بشكل يقيني بأن هؤلاء الرجال لم يفعلوا شيئاً صدوراً عن أوهام عبثية، أو حباً بالثروات الدنيوية، أو اقترافاً لآثام التفاخر، بل إنهم دفعوا من قبل الروح القدس، من أجل أنه عندما يحين الوقت، يمكن أن تكون الكنوز نافعة لاستخدام الناس بشكل عام، ولأن تدار وتستخدم من قبل الشراة المقيمة لليهود، أما بالنسبة للسؤال الثاني، لا بد من أن أقر بأن يوسفوس أخبرنا بأن سليمان أخفى هذه القبور بفنون سحرية، لكن

مؤلف كتاب « Historia scholastica » قد دفع هذه التهمة عنه، وأعلن أنه أخفاهم ببراعة أصيلة.

وبشأن قبر داوود، انظر ماقاله القديس بطرس الرسول، في الاصحاح الثاني من أعماله: «أيها الرجال الإخوة يسوع أن يقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داوود إنه مات ودفن وقبره عندنا حتى هذا اليوم»، (أعمال: ٢/ ٢٩)، ويبرهن هذا، أن هذا المكان كان معروفاً تماماً في أيام الرسل، واعتقد جيروم بأن داوود قد قام مع ربنا، وأسس حجته على ماقاله القديس بطرس، بأن قبر داوود كان مرئياً بوضوح، مع أنه لم يتجرأ على القول بأن داوود كان ما يزال موجوداً فيه. ولقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن هذه القضايا وما يائثلها في هذا المكان، ثم قرأنا صلواتنا بتعب ذلك أن جميع علامات صلوات مسيرة الأرض المقدسة جديرة بالقراءة هناك، وتلقينا غفرانات(+).

خيمة عهد داوود حيث المكان الذي وعظ فيه الرب يسوع وحيث أصغت العذراء المباركة

وبسرعة تركنا تلك الساحة الصغيرة، ودخلنا إلى السدة القديمة لكنيسة جبل صهيون، التي كانت مهدمة بشكل كلي، باستثناء الجزء الشرقي منها، حيث ما يزال قسم من الجدار قائماً مع قنطرة مهدمة معلقة فوقه، والمكان الذي بنيت فوقه هذه السدة، هو واحد من الأماكن الجديرة بالنظر إليها باحترام من قبل كل من يؤمن بالكتاب المقدس، ويقدم اليهود احتراماً خاصاً لهذا المكان، لأنهم يعتقدون — كما نحن نعتقد — بأنه قام هنا مكان اعتكاف داوود أو خيمة عهده، التي إليها جلب مع جميع بني اسرائيل تابوه الرب بصحبة الأغاني والآلات الموسيقية، والسرور العظيم، حسبما قرأنا في الاصحاح السادس من السفر الثاني لصموئيل، وفي هذا المكان كذلك تسلم الوعد بأن المسيح ينبغي أن يلد من سلالته، حسبما ورد مكتوباً في الاصحاح السابع من

السفر الثاني لصموئيل، وظل هذا المكان حتى بعد بناء الهيكل، يتردد الناس عليه بكثرة ويحبونه، ولذلك غالباً ما اعتاد الرب يسوع على الوعظ فيه هناك.

وتخليداً لذكرى ذلك أقيمت حجرتان مقابل بعضهما في وسط الأرضية المبلطة، والحجرة الأولى قائمة في المكان الذي وقف فيه ربنا ووعظ، ووضعت الثانية فوق المكان الذي اعتادت العذراء المباركة أن تصغي فيه لوعظ ابنها، ولقد قبلنا هذه الأماكن مع الحجرتين، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وتلقينا غفرانات (+)، ووقفنا في هذا المكان لبعض الوقت، وبكينا على الخرائب، ونظرنا بأسف من حولنا نحو الحجارة المبعثرة العائدة للمعبد، فقد قام هنا فيما مضى كنيسة عظيمة جداً، لم يبق منها شيئاً سوى الجزء الذي اتصل فيما مضى بتلك الكنيسة العظيمة على جهة الطرف اليمين، وهذا الجزء هو في هذه الأيام سدة وكنيسة الرهبان، حسبما قلت من قبل، وما يزال رأس السدة موجوداً أيضاً، مع النافذة الشرقية، ومعها نصف قنطرتها المهدمة والتي هي مهددة بالسقوط، ويوجد فوق داخل هذه الكنيسة طريق للصعود فوق بعض الدرجات، وذلك من المكان الذي أنزلت إليه الروح القدس، إلى قمة قطعة تلك القنطرة المهدمة، وصعدت فوق تلك الدرجات ووجدت فوق القنطرة المهدمة، أرضية معمولة من الرخام المصقول من مختلف الألوان، وبناء عليه إنني أفترض أنه كان هنا فيما مضى كنيسة أخرى فوق بالأعلى، على ظهر الكنيسة والسدة، وبناء عليه لابد أن كنيسة جبل صهيون قد امتلكت ثلاثة طوابق مكرسة، أي ان تقول: قبو تحت الأرض، ثم الكنيسة التي بنيت فوق الأرض، وقاعة عليا أخرى كانت مزينة، فوق الكنيسة، وفي السدة القديمة ما يزال المذبح العالي موجوداً، لكنه مهدم.

وذهبنا بعد ذلك نحو الطرف اليساري من السدة القديمة، حتى

نتمكن من الذهاب لزيارة أماكن مقدسة أخرى، ووجدنا هناك بعض المسيحيين الشرقيين جالسين إلى جانب حجرة مربعة، جزء منها مرتفع فوق أساس السدة القديمة، وجزء مايزال متصلاً بالجدار القديم، وعلى تلك الحجرة كان هؤلاء الشرقيين يمارسون أعمال الكهانة بوساطة أربعة أحجار صغار، وكانهن حبات النرد، وفي الحقيقة افترضت بالبداية أنهم كانوا يلعبون بالنرد، وتعجبت من جلوسهم هناك في مكان عام، حيث لا يوجد بيت للسكن، ذلك أنني لم أعرف بأن هذه الحجرة وحدها قد استخدمت من أجل كهاناتهم الواهمة، وكانوا يلتقطون أربعة أحجار صغار من الأرض، ويقوم الذي يريد رميها بهزها في داخل يده، مثلما يهز لاعب النرد، أحجار النرد في يده قبل أن يلقي بها، ثم يقوم بإلقائهن فوق الحجرة المربعة، وبوساطة الشكل الذي ترسمه هذه الأحجار إثر سقوطها، يتنبؤون بالذي يودون معرفته، من ذلك على سبيل المثال، إذا شكل سقوط الأحجار خطاً مستقيماً، فهم يعتقدون بأن المسألة سوف تسير وفق الطريق الأول، لكن إذا سقطوا وفق خط متعرج، ستسير المسألة وفق طريق آخر، وإذا ما شكلت مربعاً، أو صليباً، ستسير وفق طريق آخر، وإذا كان دائرة، أيضاً وفق طريق آخر، وهكذا دواليك بالنسبة للأشكال الأخرى.

وشكل الصليب هو الشكل الرئيسي في هذه اللعبة، والأقرب إليه هو الشكل الذي يؤدي إليه ويقدر الحظ الأعظم به، وتقدر بقية الأشكال بمدى مشابهتها له، ووقفنا وضحكنا على حماقات هؤلاء الناس، لكنهم كانوا جادين تماماً، ركزوا انتباههم على كهانتهم، وكذلك تطلعاتهم نحو المستقبل.

ورأيت في بعض الأحيان أساقفة وكهنة من الكنيسة الشرقية، من ذوي الجدية والاحترام، رأيتهم جالسين هناك يلعبون ويتكهنون، وهم لا يلعبون من أجل الربح، بل لمجرد أوهام الكهانة، الأمر الذي امتلأ به

الشرقيون، والحجرة كانت في ذاتها خشنة وغير مصقولة، غير أنها غدت مصقولة جداً من جهة وجهها بسبب ممارسة الكهانة المستمرة عليها، لذلك بدت وكأنها تتعرض للصقل والتلميع بشكل متواصل.

مكان المطبخ الذي فيه جرى شواء خروف الفصح مع تسخين الماء من أجل العشاء الرباني

وبعدما رأينا هذه الأشياء، انصرفنا من المكان الذي فيه الحجرة، وجئنا إلى المكان الذي افترض الناس أنه فيه قام المطبخ، حيث أعدّ الحواريون في داخله شؤون احتفال عيد الفصح، بشواء خروف الفصح، وبتقطيع الخس البري، وبتسخين الماء من أجل غسل الأقدام، وتنظيف الأوعية والصحون واشعال نار من أجل احراق بقايا خروف الفصح، من جلد وعظام، وأجزاء أخرى، لا يمكن أكلها، وهذا المكان ليس خلواً من القداسة، أو تغذية، لأن الطباخين في ذلك المطبخ كانوا رجالاً مقدسين، والطعام الذي طهي هناك كان طعاماً مقدساً، ولقد علمنا من خلال الاصحاح الثاني والعشرين من انجيل القديس لوقا بأن بطرس ويوحنا، أكثر حواربيي المسيح محبة وقداسة، كانا الطباخين اللذان جهزا عشاء الفصح في هذا المطبخ.

علاوة على ذلك، كان خروف الفصح الذي شوي هناك مقدساً، ذلك أنه نموذج ذلك الحمل الحقيقي الذي تألم على الصليب، وكذلك كان الماء مقدساً، أي الذي جرى تسخينه هناك، واستخدامه من قبل الرب يسوع لغسل أقدام حواربييه، ومع أن الانجيليين لم يقولوا شيئاً حول تسخين الماء، من المرجح — كما هو لائق — أن الغسل لم يكن إلا بماء ساخن، لأن الماء الساخن يزيل الأوساخ أكثر من الماء البارد، وينعش الأقدام والأرجل ويقويها، ويرى استخدام الماء الساخن ويعبر عن التقوى والمحبة التي توفرت عند الذي استخدمه، لأنه ليس برهاناً

كبيراً على الصداقة استخدام الماء البارد، في غسل قدمي الانسان، مثلما ليس دليلاً على وجود العاطفة الكبيرة تقديم ماء ساخن أو دافئ للشرب، فالانسان الذي يقدم كأساً من الماء البارد لن يخسر أجره أبداً، وذلك حسبما جاء في الاصحاح العاشر من إنجيل القديس متى، هذا ومثلما الماء البارد مرغوب به من قبل الانسان العطشان ليشربه، مثلما هذا، الماء الساخن مبهج بالنسبة للانسان المتعب لغسل قدميه به معاً.

ولا يمكننا أن نفترض أن المسيح قد ترك أية علامات عن الحب الكامل، حيث أنه في أثناء العشاء لم يعط حواريه كأساً من الماء البارد، مع أن هذه علامة على الحب، ولها ثوابها، وذلك حسبما قلنا للتو، بل أعطاهم ماعبر عن حب أكثر وفرة، وهو كأس امتلأ بخمرة مزجت باعتدال بماء بارد، وكذلك عندما غسل أقدامهم، لم يفعل ذلك بماء بارد، مع أن ذلك كان يعبر عن حبه، لكنه غسلهم بماء ساخن، وهو علامة على حب أكثر وفرة، وبالمناسبة لم يكن الماء ماء ساخن صرفاً، بل ماء كان يحتوي على حشائش عطرية مع جذور قوية الرائحة، مزجت بعطور منعشة، مع مياه مقطرة، لظهار عاطفته الكاملة.

ونحن نعرف بأن المسيح وجه اللوم إلى الفريسيين، لعدم إعطائه ماء لغسل قدميه، ومدح المجدلية لأنها غسلت قدميه بالعطور والدموع الدافئة، هذا ولقد أحب المسيح حواريه، أكثر مما أحببت المجدلية المسيح، لذلك كان لابد له من غسل أقدامهم بماء جيد، دافئ بشكل مرغوب، وممزوج بعطور ثمينة منعشة.

وهكذا وقفنا فوق المكان الذي كان فيه المطبخ المقدس، والذي ما يزال قائماً فيه حتى الآن جدار قديم ومرتفع، توجد فيه قناة متجهة نحو الأعلى، وكأنه قصد منها رفع الدخان من النار، وجثونا هنا على ركبنا، وقرأنا الصلوات المناسبة، وتلقينا غفرانات (+).

مكان دفن القديس اسطفان بعد العثور على جسده

وغادرنا المطبخ المتقدم الذكر، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى المكان الذي دفن فيه القديس اسطفان للمرة الثانية، وذلك مع الآخرين الذين عثر عليهم في حقل جالبار Galabar (كذا) الذي لا أفترض أنه كان بعيداً عن عناتا، التي هي قرية قائمة فوق المكان الذي رجم فيه القديس اسطفان، وذلك على جهة اليسار، وكان هذا حقل جماعيل، الذي سحب جسد القديس اسطفان من تحت الحجارة، وأخذته إلى حقله، حيث دفن فيه هو نفسه، وابنه أبيبوس Abybos ، ونيقوديموس فيما بعد، ومع مرور الأيام نسي أمرهم، وحدث فيما بعد، أنه كانت هناك مجاعة قاسية، بسبب الجفاف، لأنها لم تمطر على الأرض لأشهر كثيرة، ولقد كشف إلى رجل مقدس اسمه لوكيوس Lucius بأن الرب لن يكون محسناً إلى البلاد، مادامت هذه الآثار متروكة من دون تشریف، وعندما كشف له الحقل الذي رقدوا فيه بشكل اعجازي، وبعدما رآه، أخبر بذلك القديس يوحنا، أسقف القدس، الذي جاء إلى ذلك الحقل في مسيرة مهيبة، وعندما حفروا هناك، وجدوا جسد القديس أسطفان وأجساد الرجال الآخرين الذين دفنوا معه، فحملوهم إلى كنيسة جبل صهيون المقدسة، ودفنوهم هناك للمرة الثانية مع كل التشریف، وسقط في الساعة نفسها كثير من المطر، وأعطت الأرض ثمارها كما كان الوضع من قبل، وحدثت بعد ذلك معجزات كثيرة في تلك البقعة.

وحدث فيما بعد أن واحداً من نبلاء القسطنطينية، وكان رجلاً تقياً يعتقد بالقديس اسطفان، قدم إلى هاهنا عبر البحر مع زوجته جوليانا Joliana، واتخذ لنفسه بيتاً على جبل صهيون، مات فيه بعد مضي سبع سنوات، وعملت زوجته تابوتاً له على غرار تابوت القديس اسطفان، ووضعتة إلى جانب جسد القديس اسطفان، وبعد مضي بعض الوقت بعد ذلك رغبت جوليانا بالعودة إلى القسطنطينية، فسألت

أسقف القدس أن يعيد إليها جسد زوجها، ودخل الأسقف إلى مزار القديس أسطفان وأخرج لها تابوتين، وطلب منها أن تأخذ منها تابوت زوجها، غير أنها أخذت تابوت القديس اسطفان ظانة أنه تابوت زوجها، واكتشفت وهي على طريق سفرها عبر البحر، من خلال عدد من المعجزات، أن التابوت الذي كان معها كان تابوت القديس اسطفان، وهكذا جرى نقل هذا التابوت إلى مدينة القسطنطينية، وفي آخر الأمر تمّ نقله من القسطنطينية إلى روما، حيث هو راقد الآن مع القديس لورانس.

ويقوم الآن في المكان المتقدم الذكر مذبح في الهواء الطلق، أقامه الرهبان هناك، وفي يوم عيده يقيمون قداساً هناك، وقرأنا في هذا المكان، ماوجهتنا كتب المسيرة أن نقرأه، وتلقينا غفرانات(+).

ثم إننا غادرنا ذلك المكان، وتابعنا سيرنا، وعبرنا الشارع إلى بيت مرثا، الذي كان بيتاً لابأس باتساعه، وهو قائم في مواجهة كنيسة جبل صهيون، ويقطن في ذلك البيت بعض النسوة الايطاليات من طائفة السسترشيان، اللاتي يتبعن طقوسنا، ويعرفن باسم مرثاوات الرهبان، بسبب أنهن يخدمن الرهبان محبة في الرب، وذلك بالغسل، والخياطة والغزل لصالحهم، وهن يتعبدن في كنيسة الرهبان، وهن نساء متقدمات بالسن، وعظيمات الجدية، ومحترمات، يعشن في ظل قاعدة الحكم الثالث للقديس فرانسيس بصبر كبير، وتحمل عظيم، وقبل أقل من سنة من وجودي في القدس، اقتحم بعض الأعراب الباب في الليل، واندفعوا بهياج إلى داخل بيت هؤلاء السيدات، ثم هربوا بعدما حملوا معهم كل ماوصلت إليه أيديهم، ونهبوا البيت كله، وعندما كنت أعيش هناك غسلوا لي قميصي ووشاح الكتف، وعملوا أعمال إحسان أخرى لي، وتعيش السيدة التي جاءت من بلاط ملكة قبرص، والتي أتيت على ذكرها من قبل، هناك معهن.

وذهبنا من هذا البيت باتجاه الشرق، ثم انحرفنا جانباً نحو الجهة اليمنى، إلى خارج الطريق الذي يقود إلى وادي شعفاط، ووصلنا إلى بيت محمي بشكل جيد، ومغلق بأحكام مثله في ذلك مثل جميع بيوت المسيحيين، وعندما قرعنا على الباب، قدم إلينا رجال سود، قد أحرقتهم الشمس، وكانوا طوال القامة، وكان على وجوههم ندوب مع آثار احتراق، وهؤلاء فتحوا الباب لنا، وكان هذا دير الهنود، فيه عاش الرهبان والنساء مع بعضهم، وهم يعيشون في ظل نظام دقيق، وإنه لغريب أن ترى انحطاط ملابسهم، وعندما دخلنا إلى هناك، اقتادونا من خلال ممر إلى قاعة سيئة الإضاءة، يوجد فيها طريق مظلم نازل من خلال صدع في صخرة، ونزلنا نحو الأسفل، حاملين مصابيح معنا، ووصلنا إلى كهف قذر موجود تحت الأرض، مغطى من قبل الصخرة، وفي الحقيقة الكهف كله هو تجويف في الصخرة، ووجدنا هناك مكاناً للصلاة، ووفقاً لخبر قديم جداً، كان هذا المكان هو الذي تاب فيه داوود من ذنبه المتعلق بوفاة أوريا، وقرأنا لذلك هناك الاصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني، الذي جاءنا فيه الخبر بأن داوود ذهب إلى مكان منعزل، حيث صام، وصلى، وبكى، وجلد نفسه بالأسواط وبالعصي، ونظم هناك سبعة مزامير توبة، غالباً ماقرأهم، وغناهم مع نحيب مخزن، هذا ولم يكن هذا الكهف العائد لداوود في ذلك الحين خارج القصر الملكي، بل في داخله، لأن القصر كان واسعاً وعريضاً، وسقطنا في هذا الكهف على وجوهنا، ورجونا الرب أن يرحمنا، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي فيه حاول اليهود اختطاف جسد العذراء المباركة

من الحوارين عندما كانوا حاملين له إلى الضريح

وعندما تلقينا غفراناتنا، صعدنا ثانية، وغادرنا ذلك البيت، ونزلنا نحو الوادي، وأبقينا وجوهنا متجهة نحو جبل الزيتون، أي باتجاه

الشرق، حيث كانت مدينة القدس موجودة على يسارنا، وكنيسة جبل صهيون على يميننا، وهكذا وصلنا إلى المكان الذي تأمر فيه اليهود على اقتراف الجريمة التالية: فبعد وفاة العذراء مريم الأعظم قداسة، وعندما كان جسدها محمولاً من قبل الحواريين وهم نازلين به من جبل صهيون من أجل دفنه في وادي شعفاظ، وبعدما ساروا مسافة مع الغناء والسرور، فجأة، اليهود الذين عرفوا سبب هذه المسيرة، خرجوا من المدينة مع قوة مسلحة، وقد امتلأوا غضباً صدوراً عن الكراهية العمياء القديمة التي حملوها نحو العذراء المجيدة، وانقضوا على الذين كانوا مرافقين للجنائز، وسائرين إلى جانب النعش، وأجبروهم على التوقف، وكان مقصدهم الاستيلاء على الجثمان المقدس، ورميه وكأنه جسد مدنس، وارغام الحواريين على الفرار، وهكذا وقفوا على مقربة منه وصرخوا بصوت مرتفع *thema Kesesa*، وكان معنى ذلك «عاهرة مدنسة»، وتقدم أحدهم، وصعد بجراً وأمسك التابوت بكلتا يديه، محاولاً رميه إلى الأرض مع الجسد المقدس الذي فيه، لكن ما أن لمس النعش بيديه، حتى ذبلت يده مع الذراعين، وجفتا، وباتتا معلقتان من دون حراك مثل عصاتين، ومع حدوث هذه المعجزة أصيب الرجل التعيس بندم عظيم، بينما وقف بقية الحشد المهاجم مرعوبين، وقد امتلأوا خوفاً واضطراباً، ورجاهم الرجل المعطل أن يرفعوا له ذراعيه اللتان تعلقتا بدون حراك، ووضعها فوق الجسد المقدس، فكان أن شفي على الفور، وأصبح مسيحياً، وعاد البقية مخذولين إلى المدينة، وتركوا الحواريين يحملون الجسد المقدس، إلى موضع الدفن في جيساني، وهكذا قرأنا في هذا المكان الـ *Salve Regina*، وبعدما تلقينا غفرانات، مضينا في طريقنا نتابع سيرنا.

المكان الذي أخفى بطرس فيه نفسه بعد انكاره الثالث

ونزلنا بعد هذا من المكان المتقدم الذكر نحو الوادي، ووصلنا إلى

صخرة واقفة عالية، فتحت هذه الصخرة، جلس القديس بطرس يبكي وينتحب، ويستغفر، وكان ذلك بعد مغادرته لبيت كيفاس، بعد إنكاره الثالث لربه، ونال هناك غفراناً لذنبه واعفاء من العقوبة، وتلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا هناك غفرانات مطلقة(++)، وهنا حدث في يوم قيامة الرب يسوع، أنه ظهر إلى القديس بطرس وواساه، وقام فيما مضى على هذه البقعة كنيسة عظيمة وجميلة، لكنها مهدمة الآن تماماً، إلى حد أنه لم تبق منها أية آثار، حتى الصخرة التي جلس القديس بطرس تحتها يبكي، والتي كانت مخوفة على شكل كهف واسع، أخذت تصغر يوماً، وهي الآن مجرد حجرة صغيرة، لأن الحجاج كسروا قطعاً منها، وحملوها معهم، وإلى جانب هذه الحجرة تتدفق مياه مجلوبة إلى مدينة القدس من جبال حبرون في مجرى مائي، وفق طريقة مدهشة، سوف أتكلم عنها مطولاً في الورقة ٢٤٩، وقائم هناك أيضاً بركة عميقة، من الممكن سحب الماء منها، وأعتقد أنه عندما كانت هنا كنيسة، كانت هذه البركة العميقة قبو تلك الكنيسة.

المكان الذي قام فيه بيت عناس القاضي الأول للرب يسوع

وبعدما رأينا هذا المكان، مضينا نسير على دربنا، حيث أدرنا ظهورنا إلى الوادي، وتسلقنا ثمانية الرابية التي كنا قد نزلنا منها، إنما ليس عبر الطريق نفسه، لكن انحرفنا جانباً باتجاه المدينة المقدسة، وكان ذلك بين بيوت مهدمة، ووصلنا إلى بيت كان بابه محكم الاغلاق وبقوة، وقد قرعنا عليه، وسمح لنا بالدخول، وعندما أصبحنا بالداخل أتينا إلى كنيسة جميلة، مكرسة على شرف الملائكة المقدسين، ولذلك عرفت باسم كنيسة الملائكة المقدسين، وكان من حول هذه الكنيسة قلايات وقاعات، فيها سكن رهبان أرمن، مع مسيحيين شرقيين، ورجال سود محترمين، وكان هذا المكان في أيام آلام ربنا بيت عناس (حنان) الذي إليه جلب الرب يسوع أولاً من الحديقة التي اعتقل فيها، وجرى ذكر هذا البيت

وجلب الرب يسوع إليه بشكل متميز وواضح في الاصحاح الثامن عشر من انجيل القديس يوحنا، حيث نقرأ فيه كيف قام عناس (حنان) الكاهن الأعلى فاستجوبه بازدراء، وسأله عن عقيدته وعن تلاميذه، وكيف قام واحد من الخدم بلطم يسوع لطمة بالغة القسوة على وجهه، ولهذا — تبعاً لبعضهم — سقطت أسنانه من فمه، وتغطى وجهه بالدم، ولدى تلقي الرب يسوع هذه اللطمة لم يقل شيئاً، ولم يفعل شيئاً قاسياً، كما أنه لم يقم بمعاقة الذي لطمه بأي شكل من الأشكال، وحول هذا قال القديس أوغسطين: «إننا إذا ماتفكرنا حول الذي تلقى الضربة منه، ألا يتوجب علينا أن نفترض أن النار كانت ينبغي أن تنزل من السماء وتحرقه، هذا الذي وجه الضربة إليه، أو أن تنفتح الأرض وتبتلعه، أو أن يجرى انتزاعه وأخذه ليتعذب من قبل الشياطين، أو أن يتعرض لعقوبة من هذا القبيل، إن لم يكن أكثر؟ ولم يأمر الذي صنع العالم من قبله بأي من هذه الأشياء مع أنه امتلك القدرة على تنفيذها، ذلك أنه أثر أن يعلمنا الصبر، فبالصبر يمكن قهر العالم».

وبهذا يمكن أن ندرك فساد وزيف الذين قالوا بأن الرب يسوع، عاقبه على الفور، وضرب فوق البقعة نفسها قائلاً له: «هنا سوف تظل واقفاً، وتكون شاهداً على براءتي حتى يوم الحساب الأخير، ووقتها سوف يتم انقاذك»، وقالوا بأنه منذ تلك الساعة فصاعداً، هو واقف — لهذا السبب — هناك، وهو حي، لكنه لا يأكل ولا يشرب، ولا ينام، بل يتطلع نحو الأمام بتشوق عظيم إلى نهاية الحياة، حتى يمكن تحريره، وكان دوماً يسأل القادمين من الحجاج، الذين يأتون إلى هناك، عما إذا ما كانت النساء مازلن يحملن بالأولاد الذكور، لأنهم يقولون أنه مع اقتراب نهاية الدنيا تتوقف النساء عن الحمل بالأولاد الذكور، وهكذا هو واقف هناك، يتلقى أسئلة ويجاب عليها، وهذه الحكايات عابثة وآثمة، لأنها ضد الكتابات المقدسة، وضد الانجيل، ومعاكسة للإيمان

وللصدق، وقد اخترعت من قبل حقى، ومشردين تستروا تحت رداء التقوى وهم يتجولون في أرجاء البلاد، ويخترعون مثل هذه الأكاذيب، ويجذبون بذلك القوم التافهين ويضللوهم، لابل في بعض الأحيان يضللون حتى الناس الذين يبدون أنهم عقلاء، وأكثر تنبها من أن يتبنوا كلامهم ويصدقوه ويعطوهم المال مقابل كذبهم.

والصدق يرغمني على الاعتراف بأن هذا قد وقع لي شخصياً، ففي السنة التي كنت أستعد فيها من أجل حجى الأول إلى الأرض المقدسة، قدم إلى أولم إثنان من المشردين من فلاندرز، حيث أعلنوا أنها قدما للتو من القدس، ومن جبل سيناء، ورويا عدداً من الحكايات العجيبة، وهما جالسين بين الناس البسطاء في دار الضيافة، وقد تخلق عدد كبير حولهما من الرجال والنساء لسماع حكاياتهما، وكان هناك أرملة محترمة اسمها السيدة آنا فون كنغسك Kingseik، سحرها حديثهما إلى حد أنها أخذتهما إلى بيتها، وعاملتهما بكرم زائد، حتى تمتلك ما يكفي من وقت للتحادث معهما، ووجهت إليّ في أحد الأيام الدعوة إلى بيتها لمقابلتهما، حتى أستمع لما كانا يقولانه، لأنها كانت تعرف أنني كنت على وشك الشروع برحلتى إلى الأماكن المقدسة، وشرعا بحكايتهما الكاذبة، وكان من الواضح وبطبيعة الحال أنني لم أصدق شيئاً مما أخبراني به، ولا أريد أن أكرر الكذب الذي أخبراني به، وقد نصحاني بعدم السفر بحراً، بل أن أذهب على قدمي من خلال هنغاريا، ودالماشيا إلى القسطنطينية، حيث سيعطيني امبراطور القسطنطينية خمسين دوقية، لأنه كان متعهداً بأن يدفع ذلك المبلغ إلى كل حاج ذاهب إلى الأرض المقدسة، وعندما قلت في جواب لهذا الاقتراح بأن هذا الامبراطور لم يكن مسيحياً بل كان تركيا، قام أحدهما على الفور فتصدى لحجتي بكذبة جديدة، حيث أعلن بأن ملك القدس (كذا) صار مسيحياً، وأن المدينة قد تحولت إلى المسيحية، وأن هذا الملك لن يسمح لأي إنسان بأن يرسم فارساً في

الضريح المقدس، مالم يتصارع معه ويبرهن على قوته.

وقد أعلننا أن بيعة الضريح المقدس لربنا قد سترت كلها بالذهب الأصفر، وأن مصابيحها معلقة بحوامل ذهبية، وأنه يوجد فوق البيعة الصغيرة العائدة لضريح المسيح هناك مصباح واحد يحترق باستمرار من دون اشعال حيث يتلقى النار والزيت من السماء، وأن القدس كلها قد بنيت بحجارة ثمينة، وأخرج أحدهما قطعة حجر غير مصقولة، قال بأنه وجدها في الطريق في القدس، وقال بأنه على غير استعداد لبيعها مقابل عشرين دوقية، وقال لو أن انسانا عرف الحجارة الكريمة وميزها لكان بإمكانه أن يجدها بأعداد كبيرة هناك بين الأحجار العادية لذلك المكان.

علاوة على ذلك، قام واحد منهما فكشف عن كتفه الأيمن بحضوري، وأراني ندبة حمراء مستديرة عليه، وهي لها شكل مايعرض على هامش (الكتاب)، وأخبرنا أن راعي دير القديسة كاترين على جبل سيناء لديه دولاب ذهبي، كان يضعه فوق فحم يحترق، وعندما يصبح حامياً، يرفعه بملقط ويدمغ به الحاج الذي يكون متعرياً لتلقيه على كتفه الأيمن، كما أنهما لم يخافا من تكرار الحكاية الزائفة المتقدم ذكرها حول الذي لطم يسوع، بل زادا بأنهما تحدثا معه، وأنه لم يكن مسموحاً لجميع الحجاج برؤيته، وقد أخبراني بهذا وبأكاذيب أخرى كثيرة مع أنهما لم يريا القدس.

وعندما كنت —الآن— في بيت عناس (حنان)، سألت مازحاً دليلنا، وكان واحداً من الرهبان الفرنسيين أين وقف الرجل الذي لطم الرب يسوع؟ فافتادني الراهب إلى خارج الكنيسة، وأشار إلى شجرة زيتون كانت نامية إلى جانبها، قائلاً: «انتبه، هذا هو الرجل، ذلك أنهم يقولون بأن أظافره قد نمت في داخل الأرض، وتعلقت لحيته على الطرف، مشيراً إلى جذور الشجرة وأغصانها، ويحترم سكان الدير، لابل في الحقيقة جميع المسيحيين الشرقيين هذه الشجرة، ويذكرون أنه كتب في

كتبهم القديمة جداً، بأن الرب يسوع وقف مربوطاً إلى تلك الشجرة، بينما أكل الموظفون وشربوا، لأن عناس كان مسروراً إلى أبعد الحدود، بسبب إلقاء القبض على الرب يسوع، وأعطى لذلك طعاماً وشراباً إلى الذين اعتقلوه، وبناء عليه قبلنا جذع الشجرة التي كانت قديمة جداً، وهكذا، ثم إننا عدنا إلى الكنيسة، وتلونا صلواتنا المذكورة في المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

بيت كيفاس الكاهن الأعلى الذي سخر فيه

من الرب يسوع المسيح

عندما غادرنا بيت عناس —الكاهن الأعلى، بادرنا مسرعين نحو بيت كيفاس، وكنا نشعر بالحزن والخشوع، ونحن نسير حيث سار الرب يسوع، وعندما وصلنا إلى البيت وجدناه مغلقاً، وعندما قرعنا على الباب فتح لنا، فدخلنا إلى الكنيسة، وتلونا صلواتنا المحددة في المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++)، واسم هذه الكنيسة، كنيسة القديس المخلص، وهي قائمة فوق المكان الذي قام عليه بيت كيفاس، حيث يعرف كل مسيحي ما الذي عاناه يسوع في داخله وتحمله، وهناك بحثوا عن شاهد زور يشهد ضده، فلم يجدوا أحداً، وهناك أنكر بطرس ثلاث مرات أنه يعرف الرجل، وهناك ربط الرب يسوع، وغطيت عيناه، وبصق عليه، ولطم، وضرب بكفوف اليد طوال الليل كله تقريباً، وبقي هناك مسجوناً لمدة ثلاث ساعات، وبناء عليه بقينا هناك مدة طويلة نتفكر حول هذه الأشياء، ونحن نصلي، وامتلاً المكان بدموعنا، وآهاتنا وتنهداتنا.

ثم إننا بعدما قمنا من صلواتنا ونهضنا، اقتادنا كهنة هذه الكنيسة حول الأماكن المقدسة في الداخل، وجئنا أولاً إلى المذبح العالي في السدة، الذي جردوه من أغطيته المعلقة حتى نتمكن من رؤية الحجرة

التي شكلت لوح المذبح، وكانت هذه حجرة كبيرة، وسميكة، وواسعة، وهي قطعة من الحجرة التي دحرجوها من على فم ضريح الرب، ولذلك قرأنا الاصحاح السادس عشر من انجيل القديس مرقس، وقد كانت فيها مضى حجرة كبيرة جداً، لأنه بعد مضي سنوات كثيرة، قطع المؤمنون هذه الحجرة إلى قسمين، وتركوا القسم الأول قرب الضريح المقدس، في حين جلبوا القسم الآخر إلى هاهنا، إلى هذه الكنيسة، وقرروا جعلها لوحاً، أو منضدة، للمذبح، ولقد قبلنا هذه الحجرة المقدسة، ونظرنا إليها عن قرب، وفي الوقت نفسه راقبنا كهنة الكنيسة بدقة، حتى لا يقوم واحد معاً باقتطاع شظية من الحجرة، بآلة حديدية، لأنهم يبجلون هذه الحجرة تبجيلاً عظيماً، وفي الحقيقة لولا وجود هذه الحجرة لباعوا المكان منذ السنة الماضية، لأنهم كانوا رهباناً أرمن في غاية الفقر، ولشدة عوزهم كانوا سيبيعون المكان إلى الرهبان الفرنسيين، لأنهم كانوا غير قادرين على إبقاء الكنيسة والدير وترميمهما، وقد أرادوا بيع المكان شريطة أن يأخذوا هذه الحجرة معهم، لأنهم كانوا يأبون ولا يوافقون مطلقاً على بيع الحجرة معه.

وحدث في هذه السنة، أن جاء إلى القدس رجل أرمني غني جداً، تولى إعادة بناء الكنيسة المهدامة والدير، وقدم يد المساعدة إلى هؤلاء الرجال الفقراء، وفي اثناء حجتي الأول، وصل إلى يدي قطعة كبيرة الحجم من هذه الحجرة، فقد اشتراها فارس بدوقيتين من كاهن أرمني، كان قد دخل إلى الكنيسة مع الفارس خلصة، خشية أن يراه الأرمن الآخرون، واقتطع شظية من الحجرة، وقد مات هذا الفارس نفسه في البحر، وقد ورثت هذه الشظية منه، وأحضرتها معي إلى أولم.

وتركنا بعد هذا المذبح، وفي مقابل المذبح، على الجهة اليمنى من الكنيسة، هناك مررنا من خلال باب صغير إلى قلالية ضيقة ومظلمة، وهي مقامة بوساطة جدران سميكة، وقادرة على استيعاب رجل واحد

وهو واقف، ولذلك دخلنا إليها واحداً تلو الآخر، وكانت هذه القلاية هي الزنزانة التي كان يودع فيها الرجال الذين حوكموا، أو الذين يتوجب جلبهم إلى أمام القاضي، أو احضارهم للاعدام، فهناك يسجنون حتى يحين الوقت لاحضارهم إلى المحكمة، وبناء عليه سجن الرب يسوع هناك، بعد محاكمته، ووقف هناك لمدة ثلاث ساعات، ويده مربوطتان خلف ظهره، وعيناه أيضاً مربوطتان، وكان وجهه مبصوقاً عليه، وقد غطته الالهات، وكان يعاني من البرد، وهنا انحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا بخشوع، وقدمنا الشكر إلى مخلصنا، وخرجنا بعد هذا من الكنيسة إلى الساحة، أو الباحة في الخارج، حيث كانت هناك نار، وقف حولها بطرس مع الخدم عندما أنكر الرب، وعندما استدار الرب، وألقى نظرة عليه، فضلاً عن هذا، لقد رأينا المكان الذي وقف عليه الديك، الذي لدى صياحه عاد بطرس إلى نفسه، وقد نظرنا بخشوع نحو هذه الأماكن جميعها.

الزاوية التي وقفت عندها العذراء المباركة وهي تنظر

نحو بيت كيفاس عندما كان ربنا يحاكم هناك

وخرجنا بعد هذا من ذلك البيت، وأخذنا طريقنا إلى زاوية البيت، التي منها يمكن للإنسان أن ينظر بشكل مباشر نحو باب بيت كيفاس، وعليه إذا ما وقف إنسان على الجانب الأقصى من الزاوية، إنه إذا مامد رأسه، أو احدى عينيه، إذا ما اختار ذلك، يمكنه أن يرى باب بيت كيفاس، وهو نفسه لا يمكن رؤيته من قبل أحد من الناس، لا يعرف بوقوفه خلف الجدار، وينظر باحثاً متقصياً حول الزاوية، ففي هذا المكان — حسبما يقولون — وقفت العذراء المباركة، متخفية طوال ذلك الوقت، وهي تراقب الباب الذي من خلاله اقتيد المسيح مغلولاً، راغبة في أن ترى إلى أين سيأخذونه في النهاية.

آه، مع أي آية آلام ودموع، لابد أن العذراء المباركة قد وقفت تنتظر هناك! وماذا تظنون، كانت العذراء ستجيب، لو أن أحداً سأها لماذا هي واقفة هناك، أو من الذي كانت تنتظره هناك؟ لقد كانت العذراء ستجيبه: اطلاق سراح ابنها من أيدي اليهود، وهل كان لديها جواب آخر؟ وكانت ستضيف: «إنني أعرف أن ابني بارع وفصيح، وأنه لو أحضر أمام قاضي عام لربح البراءة، ولأطلق سراحه، ومع ذلك هو على العموم، لطيف، ولا يؤذي، وصامت، مثل حمل أمام الذي يجز صوفه، وهو لن يفتح فمه بالدفاع عن نفسه، فضلاً عن ذلك، هو عذب، ومحبوب، ولدي أمل كبير، أنهم سوف يرحمونه، وأنه سوف يعاد إلي، ولهذا وقفت هنا، وأنا مليئة بالقلق، حتى أرى النهاية، وإلى أين سيقاد، فإن كان إلى الحياة، فأنا سأعيش معه، وإن كان إلى الموت، فلسوف أتقدم وأموت معه».

ويقول الناس الأتقياء، بأن بطرس، بعدما أنكر ربه، وخرج من ذلك البيت وهو يتأوه ويتنهد، جاء إلى هذه الزاوية، ومن خلال الخجل والحزن لم يستطع أن يتكلم مع العذراء، كما لم تستطع العذراء أن تكلمه، ولهذا ركض إلى الكهف الذي تحدثت عنه من قبل، ولقد قبلنا هذه الزاوية، وتلقينا غفرانات(+).

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24

25

T

المحتوى

الموضوع	الصفحة
توطئة	٣
رواية عن الأرض المقدسة كتبت في حوالي عام ١٣٥٠ م	٧
مطلع الرواية	٩
الحج داخل كنيسة الضريح المقدسة وخارجها	١٣
الحج فوق جبل صهيون	١٨
الحج فوق جبل الزيتون	٢٣
الحج في بيت لحم وحبرون	٣٢
حج بيت عنيا ونهر الأردن	٣٥
الحج في طبرية والمناطق المجاورة لها	٤٣
الحج في دمشق وحدودها	٤٥
وصف بولونير للأرض المقدسة	٤٩
تمهيد	٥١
وصف جون بولونير للأرض المقدسة	٥٤
نظام الحج في القدس وماحولها	٥٦
الحج من القدس إلى بيت عنيا	٦٩
الحج من القدس إلى بيت لحم	٧٠
الحج من بيت لحم إلى وادي حبرون	٧٣
الحج من حبرون إلى تدس	٧٤
تقسيمات الأرض المقدسة	٧٥
المدن والأماكن في الأرض المقدسة	٨٢
حول أرض مصر	٩٤
جولات الراهب الدومينيكاني فيليكس فابري	٩٧
مدخل	٩٩
رحلة فيليكس فابري الأولى	١٠٥
الوصول إلى يافا	١٢٢

الموضوع	الصفحة
العودة إلى قبرص	١٢٤
الوصول إلى رودس	١٣٠
العودة إلى البندقية	١٤٥
العودة إلى أولم	١٤٧
الاستعداد للحج الثاني	١٤٩
بداية الرحلة الثانية	١٥٧
في البندقية	١٨٢
رفاق فابري في البندقية	١٨٤
سفن البنادقة لنقل الحجاج	١٨٦
شروط عقد السفر إلى الأرض المقدسة	١٩٠
الفصل الثاني	١٩٧
عادة حل المجوهرات والأحجار الكريمة للمسها بالآثار المقدسة	١٩٨
عادات البنادقة في النحت والتصوير	٢٠١
احتفالات البنادقة بعيد الصعود	٢٠٣
اقتران البندقية بالبحر	٢٠٤
بناء البنادقة لمقر لاستقبال الحجاج	٢١٠
أنواع البحار	٢١٧
مخاطر السفر بالبحر	٢٢٧
غليون الحجاج	٢٣٢
نظام إدارة الغليون	٢٣٨
العدالة والقضاء على ظهر الغليون	٢٤٦
إقامة القداسات على ظهر الغليون	٢٤٧
تمضية الوقت على ظهر الغليون	٢٥٦
كيف يأكل الحجاج على ظهر الغليون	٢٥٩
نوم الحجاج على ظهر الغليون	٢٦١

الموضوع	الصفحة
تحذيرات للحجاج في البحر	٢٦٥
الفصل الثالث — الأعمال خلال شهر حزيان	٢٧٢
الوصول إلى كريت	٢٩٥
الوصول إلى رودس	٢٩٨
الوصول إلى قبرص	٣٠٠
زيارة كنيسة صليب اللص	٣٠٢
صناعة الملح في قبرص	٣١٠
طريقة عرض وصف الحج	٣١٥
الفصل الرابع — أعمال شهر تموز في الأراضي المقدسة	٣١٧
الوصول إلى يافا	٣٢٣
الاقامة في يافا	٣٢٩
دخول الحجاج إلى الأرض المقدسة	٣٣١
الخلافات بين أصحاب الغليونين	٣٤٢
وصف ميناء يافا	٣٤٥
حكاية مقتل وحش البحر	٣٤٦
الجنية الحسناء أندروميديا	٣٤٧
اكتراء الحمير للسفر إلى القدس	٣٥٠
انطلاق الحجاج نحو الرملة	٣٥٤
النزول في الرملة	٣٥٧
نصائح للحجاج	٣٥٨
في اللد	٣٦٨
وصف الرحلة	٣٧٦
مغادرة الرحلة	٣٧٧
الصدام مع الأعراب	٣٧٩
جبل جبعة	٣٨٨

الموضوع	الصفحة
جبل شيلوه	٣٨٩
عمواس	٣٩٠
رؤية الحجاج مدينة القدس	٣٩١
الوصول إلى باب التجار	٣٩٤
ساحة كنيسة الضريح المقدس	٣٩٦
زيارة الأماكن المقدسة على جبل صهيون	٣٩٨
المسيرة إلى الأماكن المقدسة في جبل صهيون	٤٠١
غسل الأقدام	٤٠٢
مكان نزول الروح القدس	٤٠٣
المكان الذي لمس فيه القديس توما جروح المسيح	٤٠٥
المكان الذي اقتاد المسيح الحواريين إليه	٤٠٧
غداء للحجاج على جبل صهيون	٤٠٩
زيارة الأماكن المقدسة على جبل صهيون	٤١٠
موضع اعتكاف العذراء	٤١٢
موضع دفن داوود وسليمان	٤١٣
خيمة عهد داوود	٤١٧
مكان مطبخ العشاء الأخير	٤٢٠
مكان دفن القديس اسطفان	٤٢٢
مكان محاولة اليهود خطف جسد العذراء	٤٢٤
مكان اختفاء بطرس	٤٢٥
مكان بيت القاضي عناس (حنان)	٤٢٦
بيت الكاهن كيفاس	٤٣٠
الزاوية التي وقفت عندها العذراء أثناء محاكمة ابنها	٤٣٢

الموسوعة الشامية في تاريخ الجزر والصلبية منطقة

جولات الراهب
الدومينيكان فيليكس فابري ورحلاته

حوالي
(١٤٨٠ — ١٤٨٣ م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار
منطقة

دمشق ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م

الجزء الثامن والثلاثون

(٢)

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكانى فيلكس فابري ورحلاته

حوالى

(١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الثانى

المكان الذي قتل فيه الرسول جيمس الأكبر صبراً من قبل هيرود أغريبا

أدرنا عند الزاوية المتقدم ذكرها، ظهورنا إلى كنيسة جبل صهيون، ونزلنا عبر طريق طويل يقود نحو الغرب، وكان ذلك خلال خرائب كثيرة لأسوار عظيمة، ووصلنا أخيراً إلى بيت يشبه البيت الأخير، وهو أيضاً دير، وقرعنا على الباب، وسمح لنا بالدخول، ولدى دخولنا الكنيسة انحنينا بأنفسنا نحو الأرض ونحن نصلي، ثم جاء كهنة الكنيسة إلينا، واقتادونا إلى بيعة قائمة على الجهة اليسارية للكنيسة، فهنا يوجد المكان الذي قتل فيه هيرود أغريبا الرسول جيمس الأكبر صبراً، وهو أخو يوحنا، حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني عشر من الأعمال، وكان جيمس الأكبر هذا، أخو يوحنا، قريباً للمسيح، والثالث في الترتيب بين الحواريين، وكان أمين سر ربنا، كما كان الأول بين الحواريين، ممن نال الشهادة، وقد حمل جسده من قبل تلاميذه إلى بحر يافا، ومن هناك عبر البحر بشكل إعجازي إلى كومبوستيلا (في اسبانيا) حيث يزار في هذه الأيام من قبل جميع الناس الذين يؤمنون بالمسيح.

وتلونا في هذا المكان ترنيمة تجاوبية مع بقية القديس المحدد، وتلقينا غفرانات (+)، وهذه الكنيسة عظيمة وعالية، إلى حد أنها أعلى من الكنائس، وليس لها نوافذ، بل يأتيها الضياء من خلال فتحه موجودة في الأعلى، ويملاً الكنيسة، وهناك عدد كبير من البيع من حولها، هي الآن مهدمة ومدنسة، ومعلق في الكنيسة نفسها كثيراً من المصابيح، ومعلق في الوسط مائة وعشرين مصباحاً في ثريا واحدة، ولدى جميع الشرقيين كثير من المصابيح في كنائسهم، وعلى ذلك قناطر السقوف ممتلئة بالحبال والسلاسل، ويوجد في جدار الكنيسة، في الجهة الخارجية، فتحة، أو

نافذة عمياء، أو مغلقة، فيها موضوع صخرتين كبيرتين مستديرتين، جلبتا من جبل سيناء، ويقولون بأن الملائكة قد جلبوهما إلى العذراء من أجل مواساتها الروحية، لأنه لم يكن مناسباً أن تقوم برحلة حج طويلة، أو أن تغادر القدس، في حين يمكنها بوساطة هاتين الصخرتين تعبّد جبل سيناء المقدس، وهذه هي الكنيسة الكاتدرائية، ولها رئيس أساقفة، وكهنة تابعين للطقوس الأرمنية، وهم — على كل حال — يدعون باسم اليعاقبة، ويدينون بالطاعة لكنيسة روما، ورئيس الأساقفة، رجل جاد، ولائق جسدياً، ومحترم أن تنظر إليه، وكان يسرنا أن نتحدث معه، لكن ماكان أحد منا بإمكانه فهم لغة الآخر، وهؤلاء اليعاقبة ليسوا ذوي بشرة سوداء، مثل المسيحيين الشرقيين الآخرين.

المكان الذي التقى المسيح فيه بالنساء بعد قيامه من الموت

وقال: سلام لكن

وبعدما فرغنا من رؤية الأشياء المتقدم ذكرها، خرجنا من ذلك الدير، وتابعنا سيرنا على طول الطريق، ووصلنا على طريقنا إلى مكان أقيمت فيه صخرة عظيمة في الطريق العام، وأقيمت هذه الصخرة على هذا الشكل من قبل المسيحيين القدماء فوق تلك البقعة، لأنه في هذه البقعة ظهر الرب إلى المريمات الثلاث، عندما كن عائدات من الضريح، وقال لهن: «سلام لكن»، وتقدمن نحوه، وأمسكن بقدميه، وسجدن له، فهذا ماقرأ عنه في الاصحاح الثامن عشر من انجيل القديس متى، وبناء عليه انحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا المكان الذي سار عليه المسيح، وخطا عليه بقدميه، وقبلنا الصخرة أيضاً، وتلقينا غفرانات (+).

ولقد قام هنا فيما مضى كنيسة كبيرة، هدمها المسلمون، مثلما فعلوا بكنائس أخرى كثيرة، وبعد هذه الصخرة، ينزل الطريق من جبل صهيون إلى ضريح الرب، ولهذا اعتدنا نحن الحجاج أن نمرّ بهذا المكان

كل يوم، وحدث في بعض الأحيان، أننا كنا نمرّ ست مرات في اليوم الواحد، ومن عادة الحجاج أنهم كلما مروا بأي مكان مقدس —مع أنه لم يكن في برنامجهم أو مقاصدهم زيارة أماكن مقدسة— أن يقوموا بتقبيله ومن ثم يمضون في طريقهم، وبناء عليه، كنا كلما مررنا بالصخرة المتقدم ذكرها، نقوم بتقبيلها، غير أن المسلمين الذين كانوا يعيشون في البيت المقابل للصخرة، عندما شاهدوا هذا، ضاقوا به، وغاروا من خشوع الحجاج، فجاءوا بالليل، ولوثوا الصخرة بالغائط، فجعلوها قدرة تماماً، ومقرزة لنفوسنا حتى نقبلها، ومع هذا قام واحد من الحجاج الذين لم يتحملوا هذا، فمسح الصخرة بشيابه، ونظف مكانا منها، أمكننا الوصول إليه وتقبيل الصخرة، وعلى هذا أمكننا أن نقدم احتراماً لها ليس أقل من ذي قبل، لابل أكثر، مما سيضايق المسلمين ويزعجهم، وهذا التلوّث وإبداء قلة الاحرام فعله المسلمون، في كثير من الأماكن المقدسة في القدس، وفي أماكن أخرى.

برج داوود الذي ينهي جبل صهيون باتجاه الغرب

وعلى مسافة ليست بعيدة، لدى سيرنا باتجاه الغرب، وصلنا إلى زاوية جبل صهيون، وذلك حيث ينتهي باتجاه الغرب، فهناك كان يقوم برج داوود، وهو قائم هناك في هذه الأيام، حيث الموجود هو قلعة حصينة جداً وجميلة، مع موقع حصين، فوق شرف صخري منحدر، ومن حول القلعة هناك دوماً خندق عميق بشكل طبيعي، عنده يتصل جبل صهيون بالمدينة، ففي ذلك المكان كانت ميلو، وهي (القلعة) محصنة من جهة الجنوب، في هذه الأيام، بواد عميق، وتمتلك القلعة أيضاً أسواراً عالية، وعدداً كبيراً من الأبراج، وأبواباً لها حواجز حديدية، وأمكنني في يوم آخر أن أرى القلعة من الداخل، ووقفنا وقتها بدون حراك نحدّق ببرج داوود الذي غالباً ماورد ذكره في الكتابات المقدسة، وننظر أيضاً إلى ميلو، وتفكرنا هناك كيف كان شكل القدس

ومنظرها في الأيام الغابرة، لأنها قد تشوهت الآن بما تعرضت له من أعمال حصار كثيرة، وامتألت وديانها العميقة بأكوام ركام الخرائب التي وقعت فيها.

وعلى مقربة من برج داوود هناك طريق نازل إلى المدينة، وإلى الضريح المقدس، وذلك من خلال شارع طويل.

المكان الذي افترق فيه الرسل أحدهم عن الآخر في أرجاء العالم

وعندما فرغنا من النظر إلى برج داوود، انعطفنا، وأدرنا ظهورنا إلى الغرب، وعدنا عبر الطريق الذي كنا قد أتينا عليه، وذلك حتى الزاوية التي وقفت فيها العذراء المباركة تنتظر، كما تحدثنا من قبل في صفحة ٤٣٢، وسرنا من هذه الزاوية مسافة قصيرة باتجاه الجنوب، ووصلنا إلى مكان يتقاطع فيه طريقان، على شكل صليب، وعلى هذا يستطيع الانسان الذي يقف في وسط الصليب الذي نجم عن تقاطع الطريقين، يستطيع أن يذهب إلى الشرق، أو إلى الغرب، أو إلى الشمال، أو إلى الجنوب، وهذا هو المكان الذي افترق فيه الرسل، ذلك أنهم تحدثوا مع العذراء المباركة في العلية، حول تفرقهم وانتشارهم في أرجاء المسكونة كلها، وذلك وفقاً للأمر الذي تلقوه، حسبما ورد في الاصحاح الأخير من انجيل القديس مرقس، وكان ذلك بعد تلقيهم للروح القدس، فقد بشروا أولاً بالانجيل في أرجاء اليهودية، إنما بعد مضي بعض السنوات أرغموا بواسطة العذاب الذي تلقوه من اليهود، فكان في اليوم الخامس عشر من تموز أن استعدوا —بناء على طلب من العذراء المباركة — للانطلاق نحو الخارج، حاملين معهم لاشيء سوى مبادئ إيمانهم، التي وضعها الرسل الاثني عشر مع بعضهم خلال المجمع الأول الذي عقدوه فيما بينهم على جبل صهيون.

وعندما دنت ساعة رحيلهم، انحنوا بأنفسهم باحترام كبير، أمام

قدمي العذراء مريم الأعظم قداسة، وسألوها المباركة والإذن بالمغادرة، وأنقضتهم العذراء، وعانقت كل واحد منهم، وأعطتهم مباركتها وهي نفسها غارقة بالدموع، وبعثت بهم إلى طريقهم وهي تتحب، ونزلوا جميعاً من العلية، وساروا، حتى جاء هؤلاء الرجال الذين كانوا على وشك الانطلاق للتبشير بالصليب، ووقفوا في مصلبة ذلك الطريق، وهناك اندفعوا نحو بعضهم بعضاً، يتعانقون ويقبل أحدهم الآخر، وافترقوا أحدهم عن الآخر مع كثير من الدموع، وتفرقوا في جميع أرجاء المسكونة، حيث مضى ثلاثة منهم إلى الشرق، وثلاثة إلى الغرب، وثلاثة إلى الجنوب، وثلاثة إلى الشمال، أي إلى أركان الدنيا الأربعة، فقد ذهب متى، وتوما وبارثولميو مع تلاميذهم وأتباعهم باتجاه الشرق، وبطرس، وأندرو، وجيمس الأكبر إلى الغرب مع أتباعهم، وذهب نحو الجنوب جيمس ويوحنا ومتياس مع تلاميذهم، وإلى الشمال ذهب سمعان وثادئوس وفيليب مع أتباعهم، وأخذ كل واحد منهم يبشر في كل مكان، حتى يمكنهم تجديد أجزاء الدنيا الأربعة بعقيدة التثليث.

وبناء عليه وقفنا في هذا المكان وقدمنا الحمد للرب، الذي بعث من هذا المكان الرسل المقدسين إلى جميع المسكونة، وبتمجيدنا لإيمانه عدنا إلى هاهنا، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات (+)، وتداعى إلى خاطري في هذا المكان الفراق الحزين، وانشقاق إخواني من دير أولم، الذي كنت شخصياً شاهداً له، فقد حدث في سنة ١٤٧٦ لتجسيد ربنا، في اليوم نفسه الذي افترق فيه الرسل، وكان ذلك بسبب تمسكنا بمولانا البابا، وبالكنييسة الرومانية، ولأننا عددنا ماقمنا به صحيحاً، ومقدساً، وهو بالحقيقة ضروري أن نقوم به، أرغمنا على ترك ديرنا ومدينة أولم، وتفرقنا وتوزعنا على أديرة المنطقة، لأننا لم نكن لنأثم ونتصرف على عكس الأوامر الرسولية، وتمسكنا بالحرمان الذي أنزل على المنطقة، واعترفنا بالأسقف الذي قدمه

البابا وثبته، ولم نعترف بالذي جرى انتخابه من قبل القساوسه ودعمه الامبراطور، وبقينا في المنفى لمدة ثلاثة أشهر، ثم إنه بعدما أعيد عقد السلام ثانية، عدنا مع مجد عظيم واحترام كبير، ولذلك رسمنا، أنه مادام الدير موجوداً، ينبغي الاحتفال بعيد افتراق الرسل احتفالاً مزدوجاً، ليبقى ذلك ذكرى دائمة لهذا الأمر، ولكي يتعلم الذين سيأتون من بعدنا، ولكي يعرفوا أن عليهم عدم رفض إطاعة الأوامر التي صدرت عن الرسل خوفاً من أية محنة، وأن نؤثر الذهاب إلى المنفى، لابل أن نؤثر حتى لقاء الموت، ولقد تحملنا أشياء كثيرة في أيام المحنة، التي استمرت حوالي السنتين. لكن في هذا كفاية.

مزار القديس يوحنا الانجيلي حيث أقام قداساً

وعمل قرايين لمريم العذراء

وإثر مغادرتنا للمكان المتقدم الذكر، وصلنا بعد ذلك إلى مكان مقدس جداً، حيث قام فيما مضى مزار، فيه أقام القديس يوحنا الانجيلي قداساً يومياً، وكان ذلك طوال الوقت الذي بقيه في القدس، بعد صعود ربنا، وعمل قرايين لمريم العذراء المباركة جداً، التي عُهد بالعناية بها إليه من قبل ربنا، وهو على الصليب، وقد تلقت القربان يومياً بأعظم خشوع، لأنه مع أن القرايين العائدة للشرعة الجديدة جرى تحديدها، ورسم بأن يتلقاها جميع الناس، آثرت المليئة بالنعمة أن تتلقاهم على يدي يوحنا كاهنها، في أثناء أسقفيته، التي كانت هناك، وأخذت العذراء القربان: (١) بسبب تواضعها، و(٢) لتجنب إثارة المضايقات، و(٣) لتنفيذ الأوامر، و(٤) بسبب عقيدة النوافل، و(٥) لمضايقة الهرطقة الذين أعلنوا أنها ملاك، وليست من بني البشر و(٦) لتقدم مثلاً عن الذين صنعوا كاملين.

ومع ذلك شاركت يومياً، وفق طريقة خاصة، في قربان التوبة،

وتسلمت يومياً — وفقاً لبعض المرويات — قداس القربان المقدس في هذا المكان من يدي القديس يوحنا، ومع أنها كانت بريئة من كل ذنب، غالباً ما عملت قداس الاعتراف، دون أن تتهم نفسها بأي ذنب، وليس لإعلان نفسها أنها غير ممتنة للمنافع التي أضفيت عليها، وهو الاعتراف المتداول الذي يقوم به الرجال المقدسون الذين أمضوا حياتهم من دون جريمة، بل جاء اعترافها بأن فضائلها غير كافية حتى تكون جديرة بمثل هذا القدر من النعمة التي أضفاها عليها الرب، وللمكافأة التي لم تستحقها أبداً *de condigno*، ولا يمكن أن يستحقها أي مخلوق، مع أنها تستحقها *De congruo*.

*** *** ***

وهكذا وقفنا في هذا المكان المقدس، وصلينا بخشوع، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا مكان الخطوات، وتلقينا غفرانات، ولا يوجد الآن أي بناء قائم فوق تلك البقعة، باستثناء أن هناك جدار جاف حولها، ويقوم في وسطها حجرة كبيرة، فيها مكان مجوف بآلة معدنية، فيها اعتاد القديس يوحنا على حفظ كأس القربان.

المكان الذي كان فيه بيت مريم العذراء المباركة والذي فيه فارقت هذه الدنيا

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، وصلنا بعد مسافة قصيرة إلى مكان آخر، محاط بجدار أعلى، من الحجارة الجافة، وتقول المرويات، بأنه هاهنا كان يقوم بيت العذراء المباركة، حيث عاشت فيه حياة عادية لمدة أربعة عشر عاماً، وعلمنا من قرآن محمد (صلى الله عليه وسلم) بأنها عاشت هناك خمس سنوات فقط وأنها عمرت ثلاثاً وخمسين سنة، وهذا ما قاله أيضاً نيقولا دي كوسا في السفر الثاني — الاصحاح ١٥، ويقول بعضهم بأنها عاشت مدة أطول، ويقول آخرون بأنها عاشت مدة أقصر، بعد

صعود ربنا، وعندما دنت نهاية حياتها واقتربت، رجت يوحنا الذي قدم لزيارتها مع بقية الرسل، أن يعمل لها قداس حماس عظيم، مع أنها لم تكن ضعيفة، أو مريضة، أو فاقدة لقوتها، أو مرهقة بتقدم السن، وكذلك لم تكن ملزمة بتلقي مثل هذا القداس، لأنه كان يعمل للمرضى فقط، ومع ذلك تركت نفسها لهذا الامتياز، بالبراءة من الضعف، وأخفت ذلك حتى وصلت إلى نهاية حياتها، مثلما اختارت أن تخفي امتياز عذريتها عندما عملت طقوس الطهارة التي فرضتها الشريعة.

ولهذا قامت وهي متمدة هناك مع أكثر الحب إلهاباً، ومع أعذب مشاعر الضنى، فتلقت بتواضع هذا القربان المحدد كما هو معلوم للمذنبين، ولاحظ هناك التعبير عن إنجاز نصرها في الماضي، وعن كمال مجدها في المستقبل، فقد تسلمت في مكان الإعفاء من الذنب العرضي الوقاية من جميع الآلام، وفي مكان التخفيف من آلام المرض، المجد لجسدها كله، وما أن تسلمت القربان حتى عهدت بروحها وأسلمتها إلى يدي الرب، وغادرت هذه الحياة، بينما وقف من حول فراشها جماعة الرسل المجيدة، وعصبة المائة والعشرين عذراء اللائي كن بلا دنس، مع كثير من الأرامل، لهن تركت جسدها من أجل الدفن، وبناء عليه انحنينا في هذا المكان المقدس بأنفسنا نحو الأسفل، وصلينا، ورتلنا تراتيل الحمد المعينة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++)).

وهذا المكان متميز، لأنه موضع تقديس من قبل كل من جميع المسيحيين، ومن قبل كثير من المسلمين، ومع ذلك لا يوجد هناك بناء، باستثناء جدار من الحجارة الجافة، ويبدل الرهبان الفرنسيون جهودهم مع السلطان، للحصول على إذن لبناء بيعة، وإقامة مذبح في هذا المكان، لأنهم لا يتجرأون على وضع أية حجارة مع ملاط من دون إذن من الملك والسلطان، وهم يأملون بالحصول على الإذن، ولقد سمعت أنه بعدما حصل هؤلاء الرهبان على إذن كامل وإجازة من

السلطان، لتنفيذ ما رغبوا به، وبعدما أنفقوا كثيراً على بناء مزار، اقتحم المسلمون الهائجون هياجاً عظيماً المزار، وسووه على الفور مع الأرض، وكذلك فعلوا بالبناء كله، ولهذا إن المكان الآن في هذه الأيام كما هو عندما رأيته.

المكان الذي اختير فيه القديس متياس من قبل الجميع ليكون رسولاً بدلاً من يهودا

وليس بعيداً عن هذا المكان، وصلنا، ونحن ذاهبون إلى كنيسة جبل صهيون إلى صخرة حمراء، في المحل الذي جرى فيه اختيار القديس متياس رسولاً، وذلك حسياً قرأنا في الاصحاح الأول من الأعمال، وجاء اختياره ليحل محل يهوذا الخائن، فقد جرى اختياره في هذه البقعة ليكون خليفة له، وانحنينا بأنفسنا في هذا المكان للصلاة، وتلقينا غفرانات، وغنينا التراتيل المحددة، وبدا هذا المكان بالنسبة لنا أكثر قداسة، وقريباً منا، لأن جسده المبارك محفوظ بيننا في ألمانيا في مدينة ترفس Treves.

المكان الذي رسم فيه جيمس الأصغر أسقفاً للقدس

ولدى مغادرتنا لهذا المكان تابعنا سيرنا، ووصلنا إلى سور مقبرة الرهبان، ويوجد في السور حجرة بيضاء معلمة بصليب، فهناك يوجد المكان الذي انتخب فيه جيمس الأصغر، ومن ثم رسم أسقفاً للقدس، وحيث أيضاً جرى إقامة قداس من قبله، فلأن هذا الرسول كان رجلاً فائق القداسة، أضفى عليه الرسل، بعد صعود ربنا، شرف أن يكون الأول فيما بينهم في إقامة القداس، وذلك بحضور الرسل، وقد رسموه أسقفاً للقدس، معتقدين أنه سوف يكون أكثر قبولاً لدى شعب القدس، من أي واحد آخر، فبسبب قداسة حياته الفائقة العظمة، سمح له بالدخول إلى قدس الأقداس، الأمر الذي لم يسمح القيام به لأي

واحد آخر من الرسل، ولقد كان ناصرياً من رحم أمه، لم يشرب خمرة أو شراباً قوياً، ولم يأكل لحماً، ولم يمر الحديد على رأسه، ولم يدهن قط بالزيت، ولم يستخدم الحمام، وارتدى دوما الكتان، وركع للصلاة بشكل متواصل، حتى أصبح الجلد على ركبتيه قاسياً مثل الجلد على كعبي قدمي الانسان، وكان محترماً كثيراً من قبل الناس، بسبب قداسه الفائقة، حتى أنهم اعتادوا على التصارع أحدهم مع الآخر للمس به من ثوبه، وكانت خاصية القديس جيمس أنه كان لوحده يشبه ربنا، في جميع مظاهر جسده، وفي طريقة حديثه، وفي وجهه وفي حياته، فلقد كان مثل يسوع، وكأنه أخوه التوأم، ولذلك حدث بعد صعود ربنا أن جاءت أعداد كبيرة من الناس إلى القدس من مختلف أجزاء العالم حتى يتمكنوا من رؤية الرب يسوع في شخص جيمس، وكان بين هؤلاء اغناطيوس الشهيد، والقديس بولص الرسول، وذلك كما قرأنا في الرسالة إلى الغلاطين: ١٩/١٠، ولهذا السبب عرف باسم «أخي الرب».

وهكذا تلونا في هذا المكان صلواتنا، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي جرى فيه تعيين الشمامسة السبعة للقيام بمهامهم

ومباشرة قدمنا بعد هذا إلى المكان الذي يبجل بالعادة، بسبب اختيار الشمامسة السبعة، الذين قرأنا عن اختيارهم في الاصحاح السادس من أعمال الرسل، لأنه مع تزايد أعداد المؤمنين بعد ارسال الروح القدس، قامت شكاوى حول القداسات اليومية، فبعضهم أثقل بالأعباء، وبعضهم أهمل، ولهذا اختاروا سبعة رجال ذوي سمعة مرضية، وعادات ونعمة، وقد عينوهم للقيام بأعباء الأعمال والقداسات وكان من بينهم القديس اسطفان هو المقدم، لأنه كان مليئاً بالنعمة والشجاعة. وفي هذا كفاية، فقد قدمنا هنا الحمد للرب، وتلونا الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي صنف فيه الرسل قانون العقيدة المسيحية في اثني عشر بنداً

ومن المعتقد أنه يوجد إلى جانب مكان الاختيار، المكان الذي اجتمع فيه الرسل في مجمع مقدس، وذلك بعد قدوم الروح القدس، حيث أعطوا الكنيسة اثني عشر بنداً حول عقيدتها، وقد قاموا بنظمهم من أجل أن تبشر الكنيسة بهم، وبالإيمان بهذه البنود أنقلدنا جميعاً، وصرنا أبناء الرب بالتبني، ولهذا يستحق هنا المكان أن يبجل كثيراً، وقدمنا فيه اعترافنا بالعقيدة الصحيحة، ومن ثم بادرنا مسرعين نحو أماكن مقدسة أخرى. (انظر ورقة ١٥٢ ظ)(+).

المكان الذي يبجل فيه المسلمون ربنا يسوع المسيح بشكل واهم

وهناك على مقربة من جدار الحجارة الجافة الذي يحيط بقاعدة كنيسة جبل صهيون القديمة، أماكن معينة فيها يمارس المسلمون والمسيحيون الشرقيون اهتمامات واهمة، خاصة في مكان قرب موضع تفرق الرسل، وذلك تحت شجرة تين حيث هناك كومة كبيرة من الحجارة، إليها تأتي النساء المسلمات في كل يوم، فيحرقن البخور فوق الحجارة، ويدفن أرغفة من الخبز، ذلك أن المسلمين يؤمنون أنه هنا — وليس في الجلجلة، حيث تقوم كنيسة الضريح المقدس — يوجد ضريح يسوع، وأكثر من هذا، إنهم ينظرون نظرة استخفاف نحو تلك الكنيسة، ونحو الضريح الموجود فيها، ولا يرون هناك، بل هنا، موجود ضريح يسوع، ويقولون بأن الذي عانى على الصليب الصلب، والذي عدّه اليهود على أنه يسوع، قد دفن بالفعل هناك بالأسفل، لكن مع ذلك هو لم يكن يسوع، بل كان رجلاً آخر، اعتقل وأعدم عوضاً عنه، وأنه هو قد نجا لأنه كان ابن الرب والعذراء، ولذلك كان قادراً على النجاة، وأنه قد مات بسلام هناك، وقد دفن في هذا الموضع، وهنا يتشفعون به من أجل مساعدتهم،

لأنهم عندما يكونون في ضيق يحملون أنفسهم إلى الرب يسوع وإلى مريم العذراء المباركة، لكنهم لا يفعلون ذلك كمؤمنين، بل مع كثير من التصورات الواهمة، وذلك مثلما يفعلون في بعض الأحيان فيرسلون أولادهم الرضع إلى المسيحيين من أجل تعيمدهم عندما يكونون مرضى، مفترضين أنهم سوف يشفون، أو يتحسنون بصحتهم الجسدية بوساطة التعميد، غير فاهمين أو مؤمنين بأي شيء حول التأثير الخاص للتعميد، وقد ذهبت مراراً إلى تلك الكومة من الحجارة عندما كنت لأخشى من وجود أي مسلم سوف يأتي إلى هناك، وكنت أقوم بتفريق الحجارة التي صفت هناك مع بعضها من أجل تلقي النار، وأنبش عن الأشياء التي أخفوها تحت الحجارة، وبذلك أترك علامات انتقامي هناك.

حديقة دير رهبان جبل سينا

وخلف هذه البقعة، وعلى مقربة من دير جبل صهيون، إنما خلف ساحتها، وعلى جوانبها الجنوبية، والشرقية، والشمالية، وعند نتوء جبل صهيون، يمتلك الرهبان حديقة واسعة اشتروها في العام الماضي من المسلمين — بناء على إذن من السلطان — مقابل كثير من الذهب، ولقد دخلنا إلى هذه الحديقة، ووصلنا أولاً إلى مقبرة الرهبان، حيث يدفنون الموتى من رهبانهم، وهناك صليبا لصالح أرواحهم، ثم أننا لاحظنا وجود عدد من البرك العميقة هناك، وهذه قد أقامها الرهبان بعدما اشترى الحديقة، وشرعوا في حفرها، وكانت هذه البرك مليئة بالتراب والحجارة، ولكنهم نظفوها هذه وأعدوا مجاري لجر المياه إليهن، ففي الأنواء الممطرة يجمعون فيهن أفضل أنواع المياه، لأن المياه في البركة الموجودة أمام مطعمهم، التي أتيت على ذكرها في ص ٤١١ لم تكن كافية لاحتياجاتهم أثناء الصيف، وفي الحقيقة لم تكفهم عندما كنت أعيش هناك، ولهذا كانت هذه البرك في الحديقة ضرورية جداً بالنسبة إليهم،

لأنهم قبل أن يشتروا الحديقة اعتادوا على المعاناة كثيراً من الحاجة إلى الماء في السنوات الحارة والجافة، لكنهم الآن وقد امتلكوا هذه الحديقة، لا يمكنهم أن يحتاجوا إلى الماء، الذي يعد شيئاً عظيماً في القدس، ويوجد في هذه الحديقة، إلى جانب البرك كثيراً من الأشجار من مختلف الأنواع من أمثال التين والرمان، وماشابههما، وكذلك حشائش الطبخ لاستخدامات الدير، وهذه الحديقة مربعة، وقائمة على نتوء جبل صهيون، حيث يوجد على جانبها الغربي، الدير والكنيسة، وشرف جبل صهيون الذي هو على سويتها نفسها، ويوجد على أطرافها الثلاثة وديان، وهي محاطة بجدار من الحجارة الجافة، ويوجد على طرفها الجنوبي وادي حق الدم، وجبل جيحون، وعلى طرفها الشرقي وادي سلوان، وجبل العدوان، وخلفها وادي شعفاط مع جبل الزيتون، وكان على جانبها الجنوبي ميلو والمدينة المقدسة.

ولقد مشينا من حول الحديقة المسورة، ونظرنا من فوق جدارها نحو الأسفل إلى الوديان وعبرهم إلى الجبال من خلفهم، والمنظر منظر مبهج إلى الانسان الذي يعرف الكتابات المقدسة، فالجدار الذي يحيط بالحديقة قائم فوق حافة جروف حجرية منحدره، ومن الممكن أن يرى في هذا سور صهيون القديم جداً، مع أساسات أبراجه، وأشياء كثيرة ممتدة هناك أمام أعين الناس، ورد ذكرها في الكتابات المقدسة، والتي من الصعب فهمها من قبل الانسان الذي يتولى قراءتها، من ذلك على سبيل المثال ماورد حول ميلو، وحول جيحون، وحول الوديان، وهكذا، وفي أثناء وقوفنا ونحن نتطلع من حولنا من ذلك الارتفاع، قام حديث بين فرسان من الحجاج العلمانيين، وهو جدير بالتسجيل، فعندما كنا منحنيين فوق الجدار، ننظر نحو القدس، ووادي شعفاط، أهمل هؤلاء العلمانيون كل شيء كان أمام أعينهم، ووجهوا أنظارهم وركزوها على المعبد، الذي اسمه معبد سليمان، فقد أعجبوا به وكانت لديهم رغبة

بالدخول إليه، والنظر إليه، وتناقشوا طويلاً واحدهم مع الآخر حول كيف أمكن لهذا الهيكل البقاء من أيام سليمان حتى الوقت الحالي، وعندما كانوا يتكلمون هكذا أصغيت بصمت، ولكن بعدما تكلموا طويلاً وبشكل غير مفيد، قلت لهم: «سادتي، وأصدقائي الحجاج، ماهو السبب في أنكم لم تسألوا أسئلة، ولم تعلقوا حول المناظر المقدسة والرائعة الماثلة حول أعينكم، وفقط تحدثتم حول أشياء لا قيمة لها؟» وعلى هذا أجاب واحد منهم: «نحن نعرف هيكل سليمان هذا من خلال تقرير عام، وبالنسبة لنا لاشيء هو أكثر قداسة، ولا شيء أكثر روعة، ولا شيء أكثر جمالا أمام أعيننا، وبالنسبة للجبال والوديان الموجودة من حولنا نحن لانهتم بها، كما أننا لانعرفها»، وكان ماقاله صدقاً، لأن الحجاج لم يعرفوا شيئاً بعد عن جبل الزيتون، وعلى ماقاله أجبت: «هيكل سليمان ليس مرثياً، لأنه زال من الوجود منذ زمن بعيد، وهذا الهيكل الذي ترونه الآن هو الهيكل الرابع —الذي بني فوق تلك البقعة منذ بناء هيكل سليمان، وأنتم ماهو شأنكم بهذا الهيكل؟ ففيه لا يعبد المسيح، بل يجدف ضده فيه يوميا، ومحمد (ﷺ) هو الذي يحمد، فهل أنتم قد جئتم إلى القدس من أجل تلك الكنيسة المندسة والمنحطة؟ وبناء عليه لماذا لاتنظرون عبر الوادي القائم أمامكم، ونحو الجبل القائم هناك مقابيلكم؟» وعندما قالوا بأنهم لا يعرفون تلك الأماكن، قلت: «عجباً هذا الوادي هو وادي شعفاط، الذي ستجتمع فيه الدنيا كلها مع بعضها في يوم الحساب، وذلك الجبل القائم هناك مقابيلكم هو جبل الزيتون، الذي منه صعد المسيح إلى السماء.

دعونا نتحدث عن هذين، فهذين هما الشيئين اللذان لنا علاقة بهما، ولا علاقة لنا البته بذلك الهيكل المشؤوم»، ثم بدأنا حواراً نافعاً حول صغر حجم وادي شعفاط، وحول مواضيع كثيرة مماثلة، وعندما أنهينا هذا الحديث، وصلنا إلى نهاية حجتنا إلى الأماكن المقدسة على جبل

صهيون، الموجودة على قمته، أما الأماكن الأخرى المقدسة على جبل صهيون، والتي سوف نزرعها في يوم آخر، فسوف نتحدث عنها فيما بعد، وهكذا عدنا إلى أماكن إقامتنا، وكل واحد إلى مكانه الخاص، فقد ذهب الحجاج العلمانيون إلى مشفى القديس يوحنا، ورجال الدين إلى دير الرهبان.

مدح جبل صهيون ووصفه

لقد ورد ذكر جبل صهيون مراراً في الكتابات المقدسة، ويقوم جبل صهيون على الطرف الجنوبي للمدينة المقدسة، وهو قائم أعلى من بقية المدينة، لكن ليس أعلى بكثير منها، وقد كان فيما مضى من أيام محاطاً بالوديان من جميع الجهات، حتى من الجانب الذي يطل نحو مدينة القدس، وعلى هذا كان بينه وبين المدينة هوة عميقة، بها انفصلت المدينة عن الجبل، وقد اعتاد الناس على العبور من المدينة إلى الجبل بوساطة جسر خشبي، وحاول ملوك يهوذا طمّ هذه الهوة حتى يكون صهيون والقدس مدينة واحدة، وقد بذلوا جهوداً عظيمة بجلب الأتربة إلى هناك، وبما أن الجبل قائم متوضع فوق صخور منحدره من كل جانب، كانوا يصبون التربة نحو الهوة من جهة المدينة، ونحو الشرق أيضاً، من أجل أن ترتفع التربة إلى مستوى ارتفاع أسوار الصخرة، وأن تقام حدائق حول جبل صهيون، كما هو الحال في هذه الأيام، وبناء عليه أطلقوا على المكان الذي بذلوا جهودهم لطمه بالتراب، ولرفعه إلى مستوى المدينة، اسم ميلو، أي «الطم»، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في سفر صموئيل الثاني: ٩/٥، والملوك الأول: ٢٤/٩، وأخبار الأيام الثاني: ٣٢/٥.

وعلى كل حال لم يكتمل هذا العمل، لأن بعض الأماكن العميقة بقيت دوماً بين المدينتين، ويمكن في هذه الأيام للإنسان أن يراهم، إذا صاحق بتمعن وبحث عنهم في حديقة الرهبان، وقرب برج داوود،

ويبدأ هذا الجبل عند باب المياه، أو نبع سلوان في الشرق، ويعمل نصف دائرة نحو الجنوب امتداداً حتى الغرب، حيث كان برج داوود، وفي هذه الأيام المكان الذي توجد فيه القلعة، وخلال نصف الدائرة هذه كلها هناك صخور منحدرية، وحول وتر نصف الدائرة تلك، يوجد ما يعرف باسم ميلو، وفوق هذا كان جبل صهيون، وفي هذه الأيام هناك متسع كبير يكفي لمدينة بيبيرخ Bieberich أن تقوم عليه، وقام على هذا الجبل في العصور القديمة جداً، قلعة استولى عليها داوود بعد بذل جهود كبيرة، ومنح اسمه إلى مدينة جبل صهيون، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الحادي عشر، من السفر الأول لأخبار الأيام.

وكان هذا الجبل فيما غبر من أيام، كله لا يرام، فكل انسان قد قرأ سفري المكابيين، سوف يعرف مدى الجهود والمتاعب التي توجب على هؤلاء الرجال الشجعان تحملها، قبل أن يتمكنوا من اقتلاع غير اليهود من قلعة صهيون، وانه بسبب مناعة صهيون أطلق على القدس اسم ابنة صهيون، كما ورد في الكتابات المقدسة، لأن الابنة تنال الحماية من قبل امها، وتقف عند قدميها، وكذلك القدس هي محمية من قبل جبل صهيون، وقائمة تحته، وعلى سبيل المثال عندما نواجه في الكتابات المقدسة: «أخبرك يا ابنة صهيون، انظري الملك قادم» فإن معنى هذا «أخبرك يا مدينة القدس».

وكلما واجهنا عبارة «جبل صهيون» في الكتابات المقدسة، ينبغي أن نحملها محملاً حسناً، وليس محملاً سيئاً، فهي تعني في بعض الأحيان حالة الجمال المتفوق، ورؤيا الخلاصة السماوية، وأحياناً حشد الملائكة، وأحياناً انتصار الكنيسة، وأحياناً الكنيسة العسكرية، وأحياناً الوحيد المنتخب من قبل الرب في الكنيسة، وأحياناً الذين يعيشون حياة تأمل، وأحياناً بعض الأشخاص في الطوائف الدينية، وأحياناً أساقفة، وأحياناً وعاظاً.

إن هذا هو الجبل الذي عنه قيل: «جميل الارتفاع فرح كل الأرض جبل صهيون. فرح أقاصي الشمال تقع مدينة القدس» (مزامير: ٤٨/٢)، وفعلا القدس قائمة على جانبه الشمالي، وقوله أيضاً: «طوفوا بصهيون ودوروا حولها» (مزامير: ٤٨/١٢) وأيضاً قوله: «لأن الرب قد اختار صهيون» (مزامير: ١٣٢/١٣) وقوله أيضاً: «الرب أحب أبواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب» (مزامير: ٨٧/٢)، وأيضاً قوله: «الرب يخلص صهيون» (مزامير: ٣٥/٦٩)، وكذلك قوله: «ليت من صهيون خلاص إسرائيل» (مزامير: ٥٣/٦)، ومجدداً قال داوود عن شخصه وعن المسيح: «أما أنا فقد مسح ملكي على صهيون جبل قدسي، ولسوف أبشر بالشرعة» (مزامير: ٦/٢)، وقوله أيضاً: «سمعت صهيون ففرحت»، (مزامير: ٨/١٧)، علاوة على ذلك قال اشعيا: «صهيون مدينة قوتنا» و«ولسوف يمنح السكينة للذين سيكون صهيون» و«من أجل صهيون لن أهدأ» و«صهيون ملكك هو الذي يحكم».

ولقد طلب منا في أجزاء كثيرة من الكتابات المقدسة أن نصعد إلى جبل صهيون، كما ورد في الاصحاح الثاني من اشعيا قوله: «هلم نصعد إلى جبل الرب» (اشعيا: ٣/٢)، وقد أخبرنا هو بالذي ينبغي أن نصعد إليه بقوله: «غني للرب الذي يسكن في صهيون» وقوله «سوف يأتون إلى صهيون مع الحمد»، فضلاً عن هذا رغب اشعيا أحياناً أن نقول أشياء عظيمة عن الجبل من ذلك قوله: «ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال، ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كل الأمم» (اشعيا: ٢/٢)، وتحقق هذا القول بإقامة القداسات الأكثر عمقاً على هذا الجبل، ويتدفق شعوب من جميع أمم الأرض إلى هناك.

ويظهر اليهود حماقة كبيرة فيما يتعلق بهذا النص، ويغطونه بالسواد، بسبب خطيئتهم، لأنهم يبرهنون منه أن يسوع لم يكن المسيح الحقيقي، لأنه لدى قدومه لم يرتفع صهيون إلى القمة فوق جميع التلال، ويقولون

بأنه في أيام المسيح سوف ينقل الرب جبل الطور، وجبل سيناء، وجبل الكرمل، ويضعهم حيث القدس الآن، ولسوف يضع القدس وهذه الجبال الثلاثة واحداً فوق الآخر، ولسوف يضع جبل صهيون على قمة القمة العليا للجبال الأعلى، ولأن المسيح لم يفعل ذلك، يقولون بأنه ليس هو المسيح.

وعلينا أن نرد على هؤلاء الأناس العميان التعساء، أن رفع جبل صهيون، يتوجب عدم فهمه برفع المكان، بل بمجده الفائق، وفي هذا المجال سوف يضع المسيح عليه أعمالاً عظيمة ورائعة، مثل تأسيس القرايين، وإرسال الروح القدس، وأعمالاً أخرى، كما هو واضح، ومن هذا يتبين أن جبل صهيون جبل مرتفع كثيراً، وسامياً، وعظيم القوة والقدرة، ووفرة كبيرة وامتلاء، وجمال عظيم، وراحة، وثقة عظيمة، وأمان، وثروة كبيرة، وثراء، وبهجة كبيرة وسرور، واستقامة عظيمة، وعدالة، وطهارة كبيرة وقداسة، وعقيدة عظيمة وصدق، ونبوءة عظيمة وإخبار بالأشياء التي ستأتي.

وهو جبل إكمال العهد القديم وإتمامه، وابتداء العهد الجديد، وهو جبل قرايين المسيح، وجبل أعطيات الروح القدس، وهو جبل العذراء مريم، حيث عليه سكنت، وفوقه علمت الرسل، وألهمت الانجيليين، وبعثت بالرسول إلى العالم، ومن عليه فارقت هي نفسها هذه الحياة، والجبل في هذه الأيام هو في أيدي المسيحيين، فهو ميراث رجال الدين، ودار ضيافة للحجاج، ولهذا يسكن المسيحيون فقط عليه، ولا يوجد في هذه الآونة مكان إقامة على الجبل لمسلم أو ليهودي، بل يوجد عليه ديرة لرجال مسيحيين، وبناء عليه سألت في أحد الأيام مسلماً أعرفه معرفة جيدة، لماذا لم يبن لنفسه بيتاً على جبل صهيون، بدلاً من القدس، فأجابني على سؤالتي: «لأن جبل صهيون صحراء لخلوه من الماء، ولأن الماء يمكن الحصول عليه بسهولة أكبر وبكميات أوفى في القدس، وهذا

ليس متيسراً في جبل صهيون»، ولعل الرب قد قضى بوجوب عوز المسلمين للماء على هذا الجبل المقدس، في حين يمتلك المسيحيون الذين يسكنون هناك كميات وافية.

وهذا الجبل مرتفع جداً، ليس فقط بالنسبة للجبال التي من حوله، بل بالنسبة للجبال التي هي بعيدة عنه، لأن جبال العربية عندما تشاهد من جبل صهيون، تبدو منخفضة، ومع أن هذه الجبال مرتفعة جداً، فإن جبل صهيون أعظم ارتفاعاً من جبال العربية، ويقوم دير الرهبان الفرنسيين في بقعة لطيفة جداً، جميلة، وفي مكان مرتفع، وقبل أن يقدموا إلى القدس كان هناك دير للكهنة النظاميين، لكن بعد فقدان الأرض المقدسة، اشترى ملك صقلية هذا المكان الموجود على جبل صهيون من السلطان، واشترى أيضاً بيعة العذراء المباركة في وادي شعفاط، والكنيسة في بيت لحم مع الدير هناك، وسدد ثمنهم ذهباً، فقد دفع مباشرة اثنتان وثلاثين ألف دوقية من العيار المعتمد، وجلب هو أيضاً الرهبان الفرنسيين إلى جبل صهيون، وعهد إليهم بملكية الأماكن المتقدم ذكرها وإدارتها، ولذلك اعتاد البابا نفسه على تعيين الوصي على دير جبل صهيون مقدماً على الكنيسة الشرقية كلها في هذه المناطق.

ويتمتع الرهبان بامتيازات عظيمة منحت إليهم من البابوات، وهي لاهلقة لها بموضوعي حتى أتحدث عنها، وغرفة حفظ الذخائر في دير جبل صهيون مهلهلة كثيراً، والكنيسة صغيرة، والرواق ضيق، والقلايات صغار، والبيت على كل حال صغير، يعيش فيه أربعة وعشرون من الرهبان مع بعضهم، يعبدون الرب في الحياة في ظل نظام موضوع، وبسبب تجاوزات المسلمين واعتداءاتهم، اتخذوا لديرهم باباً من حديد، وذلك إلى جانب كلاب حادة، وشرسة جداً نحو الغرباء، وهم يديمون الحراسة، وبعوائهم يكشفون الذين يقدمون إلى هناك

لاقتراف أي إساءة، سواء أكان ذلك بالليل أو بالنهار. وفي هذا كفاية.

هنا بداية الزيارة إلى الأماكن المقدسة في كنيسة الجلجلة، أي كنيسة الضريح المقدس وإلى الضريح المقدس نفسه

في اليوم الرابع عشر، وبداية اليوم من مساء اليوم المتقدم، لأن المسيرة إلى الأماكن المقدسة جرى تعيينها وفق هذه الطريقة: عندما كانت الشمس بالمغرب، أعطي إنذار إلى جميع الحجاج بأن عليهم الحضور بأشخاصهم مباشرة، وأن يكونوا في الساحة أو الباحة القائمة أمام (باب) كنيسة الضريح المقدس، وأن عليهم لهذا التعجل بتناول طعام عشائهم، لأن السادة المغاربة الذين يحتفظون بمفاتيح الكنيسة المقدسة، كانوا ينتظرون الحجاج هناك، وبناء عليه بادروا مسرعين، آخذين معنا الأشياء التي نؤينا أن نستخدمها، ونزلنا إلى ساحة الكنيسة المتقدم ذكرها، حيث وجدنا حشداً غير منظم من المسيحيين الشرقيين، والمسلمين من رجال ونساء وأطفال، وكان هناك باعة السلع الثمينة، قد جلسوا لبيع ما معهم، وكان بعضهم معه أرغفة من الخبز، وبيض وعنب للبيع، وشرينا بعض ذلك ووضعناه في جعبنا ليكون الوجبة التي ينبغي أن تتناولها في الكنيسة، وفي الحال أخذ السادة المسلمون الذين لهم علاقة بفتح الكنيسة، أماكنهم عند باب المعبد المقدس بشكل جاد وحازم، ويوجد هناك أمام الباب على كلا الجانبين حجارة كبيرة من الرخام المصقول، قد وضعت على شكل مقاعد، عليها جلس هؤلاء الرجال، ووجوههم مدارة نحو الخارج، وكانوا رجالاً ذوي حضور جيد، وقد تقدموا بالسنين، يتسمون بالوسامة، لهم لحى طويلة، وأخلاق جادة، ويرتدون ملابس من الكتان، ورؤوسهم ملفوفة بعدد لا يحصى من اللفات بقماش كتاني رفيع.

وعندما اجتمعنا كلنا أمام هذه الأبواب، فتحوا أبواب الكنيسة، بمفاتيحهم، ووقفوا إلى جانبهم، وتركونا ندخل اثنين تلو اثنين، وقاموا

بتعدادنا مثلما فعلوا عندما خرجنا من السفينة إلى اليابسة، حسبما تقدم بنا القول، وأغلقوا علينا بأحكام كبير، ولقد قيل عنهم بأنهم على درجة عالية من البراعة في فن الفراسة، وأنهم ما أن يلقون نظرة على أي إنسان، حتى تراهم قد أدركوا وضعه في الحياة، وأحواله ورغباته، وقد ذهبنا معهم ونحن نشعر بالحنج والضييق، لأنه مريبك كثيراً أنه يأتي الإذن للمؤمن بالمسيح والمتعبد له، بالدخول إلى كنيسة المسيح من قبل واحد كافر بالمسيح، وأن يسمح هؤلاء بالدخول لمن هم أرادوا، لأنهم طردوا من على أبواب الكنيسة كثيراً من المسيحيين ومن أتباع العقائد الأخرى الذين أرادوا الدخول معنا، وقد طردوهم بضرهم بعصيتهم وبأيديهم، وأعترف أنني وأنا مار فيما بينهم لدى الدخول إلى الكنيسة، امتلأت بالاضطراب وشعرت بخجل عظيم، ولم أستطع أن أحقق بهم بسبب شعوري بالحنج والارباك، وليس بسبب ربطة الصليب التي حملتها فوق ثيابي، بل بسبب سلطانهم غير الشرعي وغير الديني على الذين يحملون الصليب، وهناك جلس أولئك الكلاب (كذا)، وكأنهم قضاتنا، ولا شك أنهم حكموا علينا بأننا حمقى، بسبب صليب المسيح: بسبب أن اسم الصليب وشارته هما حماقة بالنسبة لهم، مقدر لهما الزوال، وهكذا — على كل حال — قضت الحكمة الربانية، بجلب أتباع الذي صلب إلى المكان الذي وقف فيه الصليب، من قبل الذين نظروا باستخفاف نحو الصليب، حتى يمكن هؤلاء أن يؤمنوا بحماقة الصليب، وأنهم بذلك يمكن أن يجري خلاصهم.

وما أن أصبحنا جميعاً بالداخل حتى قام المسلمون برد أبواب الكنيسة خلف ظهورنا بسرعة وأغلقوها بالمنزليج والأقفال، مثلما اعتاد الرجال أن يفعلوا بعدما يدفعوا باللصوص بعنف في الزنزانة، وغادروا ومعهم المفاتيح، وبذلك تركونا لصوصاً في أروع السجون وأوسعها وأكثرها نوراً، وفي حديقة الضريح الأعظم تقديراً، ألا وهو ضريح المسيح، عند

سفع جبل الـمجممة في وسط الدنيا، آه كم هو سجن ممتع! وكم هو اعتقال مرغوب به! وكم هو حبس بهيج، وكم هو عذب أن يغلق علينا، وأن يبقى المسيحي في الداخل، ومسجوناً في ضريح ربه.

كيف تصرف الحجاج عندما دخلوا أولاً إلى الكنيسة

وما الذي حدث مع الراهب فيليكس فابري في حجه الأول

انتبهوا يا إخواني، الصديق يرغمني أن أبدأ بأخباركم عن غباء إهمالي، وإثم العظم، الذي من أجله ألتمس منكم أن تصلوا إلى الرب لصالحتي حتى لا يضع إثم من أجل العقاب في اليوم الأخير، وهذا ما حدث لي، أنا الشقي، أثناء حجي الأول، فعندما أودعنا مغلق علينا في داخل الكنيسة، ولم نعد نخاف من أي إنسان، لأن المسلمين لم يعودوا بيننا، عندها بدأنا ونحن نشعر بالبهجة بالركض إلى هنا وهناك، في أرجاء الكنيسة، طالين الأماكن المقدسة، من دون اتباع أي نظام، وذهب كل إنسان إلى المكان الذي أرادته بناء على طلب روحه، وأنا لم أسرع، بل مضيت بخطوات بطيئة نحو وسط الكنيسة، سائراً من دون أي هدف معين، وبعدما سرت نحو الأمام مقدار سبع عشرة خطوة وقفت ورفعت وجهي، أنظر نحو القنطرة التي فوقني، وألقيت بناظري على النوافذ العليا بفضول، مثل إنسان منحط يحدق بأماكن غريبة وبيوت من دون احترام لأي إنسان، وهكذا وقفت مع نفسي بأعين جواله.

وبينما أنا واقف هكذا من دون تفكير أو انتباه، جاء إلي سيدتان، كانتا من الحجاج، وكانت أولاهن ألمانية اسمها هيلدغارد Hildegarde- وانكبتا نحو الأرض أمام قدمي، وتمددتا هناك تنتحبان وتنهدان، وتقبلان الحجرة التي كنت واقفاً عليها، ودهشت، وارتبكت، وقلت بالألمانية لها: «ما القضية ياسيدة هيلد غارد، حتى تفعلين هكذا»؟

فأجابتنني، وهي تكاد لاتستطيع الكلام، بسبب نحيبها: «عجباً يا أخي، إن الحجرة التي أنت واقف عليها، هي حيث مدد يوسف ونيقوديموس الجسد الثمين جداً، العائد لربنا، عندما أنزل من على الصليب، وحنطاه، ولفاه بكفنه فوق هذه المنضدة الحجرية».

وعندما سمعت هذا ارتجفت، وسحبت قدمي برعب، وسقطت فوق الأرض أمام الحجرة، وكنت الآن مرعوباً من لمس الحجرة بفمي، الحجرة التي لم أخف من السير عليها، من دون احترام، بقدمي، وصليت ودعوت قائلاً: «يارب لاتتذكر ذنوب شبابي، والذنوب الحالية الصادرة عن جهلي، مولاي وربي، عبدك المختار موسى، جاءه الأمر من قبلك، عندما كان في صحراء مدين، بأن يخلع نعليه من قدميه، لأن الأرض التي وقف عليها كانت مقدسة، ولم يتجرأ يشوع المقدس على الوقوف متعللاً في حقل أريحا، ومع هذا، أنا الفارغ من كل قداسة، والمليء بالآثام، تجرأت على الدوس بقدمي المتعلتين، وبدون احترام مطلق على المكان الذي قدسته بشخصك، وبجسدك الثمين جداً، وهو عريان ومجروح، هذا ولايمكنني أن أجد عذراً، لأننا قرأنا أن عزه سقط ميتاً لأنه وضع يده على العربة التي حملت تابوت عهدك، عندما كان على وشك الوقوع، وانظر إننا نمتلك هنا تحت أقدامنا مكاناً لايمكن مقارنته، فهو أعظم من أرض مدين، ومن حقل أريحا، والحجرة التي هنا جديرة بالاحترام أكثر من عربة تابوه العهد.

وبناء عليه، مولاي الرب، اغفر لي، ولسوف أقدم لك كل الاحترام والتقدير في أماكنك المقدسة، ولسوف أقدم لك كل شيء آخر مستحق، مع جميع الخشوع الذي أنا قادر على تقديمه، والذي أنت بذاتك سوف تضيفه علي».

وبعدما صليت على هذه الصورة، نهضت، وبحث عن موالي ورفاقي في الكنيسة، فوجدتهم جالسين مع بعضهم في بيعة العذراء المباركة حتى

تشكل المسيرة، وقام الآن الأب المسؤول باستدعاء جميع الحجاج، وأطلعهم على أحكام الكنيسة وعاداتها، حيث اختصرها لهم إلى ثلاثة عشر عنواناً:

أولاً: أنه أخبرنا، أنه ينبغي على كل حاج أن يشتري حامل شمعة، حيث يتوجب عليه حملها مشتعلة أثناء المسيرة، ذلك أن عدداً كبيراً من التجار قد دخلوا معنا، وهم يحملون حوامل شموع وأشياء أخرى للبيع.

وثانيها: طلب من الحجاج الانتباه والسير بشكل نظامي في المسيرة، وأن لا يقف أحدهم في طريق الآخر، أو أن يتدافعوا ضد بعضهم، وذلك مثلما طلب منا في البند السادس الذي أعطي لنا في الرمل، ولأن المسيرة هنا التي سوف نبدأ بها والمشكلة هنا، هي أكثر قوة، وفيها تدافع أكثر، لذلك قام هنا بتكرار هذا الأمر مع عدة أوامر أخرى أعطيت لنا هناك في الرمل.

وثالثها: ينبغي أن نكرس هذه الليلة للرب، وأن نشارك في القداسات الليلية والقداسات الربانية الأخرى من دون تقاعس أو كسل.

ورابعها: هو أن لانجعل بيت الصلاة بيتاً للتجارة، وألا نجلس ونبدد وقتنا بالنقاش مع التجار المسيحيين الشرقيين.

وخامسها: هو أنه توجه بالرجاء إلى الذين هم رجال دين بالذهاب وإقامة قداسات دون أن يختلف أحدهم مع الآخر، لأنهم اعتادوا على التنازع حول الأماكن، فكل واحد منهم يريد إقامة قداس في الضريح المقدس لربنا، الأمر الذي كان مستحيلاً في يوم واحد.

وسادسها: هو أنه قام بتعيين أربعة مذابح من أجل المقيمين للقداسات، وهذه المذابح هي: أولها في الضريح المقدس، وآخر فوق جبل الجمجمة، والثالث في موضع وضع الحنوط للمسيح الذي تحدثت

عنه، والرابع في بيعة العذراء مريم، وبالإضافة إلى هذه المذابح كان هناك مذابح أخرى كثيرة في أجزاء مختلفة من الكنيسة، لكنها مملوكة من قبل المنشقين والهرطقة، ولذلك لم نقيم قداسات عندها.

وسابعها: طلب من جميع الحجاج إعداد أنفسهم للاعتراف، وأن يتناول كل منهم القربان بعد القداس.

وثامنها: هو أنه أعطى الصلاحيات إلى جميع الكهنة من الحجاج، وإلى رهبانه الذين دخلوا إلى الكنيسة معنا، بسماع الاعترافات السرية والعلنية، والتحليل من جميع الذنوب، حتى من الذنوب المحفوظة للكرسي المقدس، لأن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون لديه هذه السلطة، مفوضة إليه من البابا.

وتاسعها: منع كل كاهن من القيام بقداس القربان لأي حاج، وهو قائم في المكان الذي يعمل به القداس العام، وأمر أن يتلقى الجميع قداسات القربان، بعد قداس عال، على جبل الجمجمة، وذلك من كاهن معين هناك ومكلف، كل هذا ما لم يرغب في منح امتياز خاص لواحد ما.

وعاشرها: حذر الحجاج من الارتكاء والجلوس على الأرض، أو أن يتركوا حاجياتهم، أثناء طوافهم حول الأماكن المقدسة في الكنيسة، وذلك خشية أن يفقدوها، بسبب أن أعمال اللصوصية غالباً ماتقع هناك، مما يثير كثيراً من الريبة والاضطراب.

وحادي عشرها: في حال أن أي إنسان يرغب بتقديم صدقات في الأماكن المقدسة، يتوجب عليه في أثناء تقديمهم أن يؤثر بهم الكاثوليك، ولا يعطيهم إلى المنشقين، وبين لهم أيها أماكن الكاثوليك وأيها كانت أماكن المنشقين.

وثاني عشرها: حذرنا، كما فعل في البند الأول مما قدمه لنا بالرملة،

بوجوب عدم كسرنا لأي شيء من الأماكن المقدسة، كما ينبغي أن لا يرسم أي انسان رنكه، خشية أنهم بعملهم هذا يلوثون الأماكن المقدسة.

وثالث عشرها: رغب إلينا في أن يرتفع كل منا في قرارة نفسه إلى روح الخشوع الحي، وأنا إذا مارغبنا بالإفادة من هذه الأماكن المقدسة، ينبغي أن نبدي نحوها التشريف والاحترام الذي تستحقه.

فيمايلي:

**المسيرة حول الأماكن المقدسة في كنيسة الضريح المقدس، وأولها
المسيرة إلى بيعة العذراء المباركة، ووصف هذه البيعة نفسها
والأماكن المقدسة فيها**

وبعدما تلقينا هذه الأحكام، التي كنا سنلتزم بها أثناء وجودنا في المعبد المقدس، ذهب كل واحد منا إلى التجار، واشترى كل انسان منا شموعاً من الشمع الأكثر بياضاً، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، مزينة أم ساذجة، كل واحد حسب رغبته، ولم يكن هناك نقص بالتفاخر العبيثي، ذلك أنه حتى في هذا المجال، كان لدى بعضهم شموعاً برمت بشكل غريب وزينت بالذهب، والرسوم، حيث حملوها بمباهاة، ونظروا باستخفاف إلى الذين حملوا شموعاً ساذجة، موجهين اللوم لهم من أجل تقثيرهم، وجلب بعضهم كثيراً من الشموع، التي أشعلوها في بيعة الضريح المقدس، ثم أطفأوها، وبعد ذلك أخذوها معهم إلى الوطن في بلادهم، حيث جعلوا زوجاتهم يحملنها عندما كن في فراش الولادة، علهن يلدن من دون مخاطر، ذلك أنهم يقولون بأن هذه الشموع قد استخدمت من أجل هذه الغاية.

وفي الوقت الذي كنا مشغولين فيه بشراء شموعنا، قام الرهبان مع الأب المسؤول بإعداد أنفسهم، فارتدوا الملابس المقدسة، التي كانوا قد

جلبوها معهم من جبل صهيون، للقيام بمسيرة مهیبة، حول جميع الأماكن المقدسة، وفق النظام نفسه الذي توفر على جبل صهيون، حسبما تحدثنا في ص ٤٠١.

وهكذا عندما وقفنا جميعاً مع شموعنا وهي تحترق، بدأ قائد الجوقة الذي وقف على رأس المسيرة، بصوته المرتفع يغني Re- salve gina، التي غنيناها معه، ووصلنا ونحن نرتل هذه الترنيمة في المسيرة إلى بيعة مريم العذراء المجيدة، وإلى المذبح القائم أمام البيعة، ففي هذا المكان —تبعاً لبعض المرويات القديمة— بقيت مريم العذراء المباركة، من الساعة التي أنزل بها ابنها من على الصليب، حتى ساعة قيامته من الموت، ثم إنها لم تدخل إلى مدينة القدس ثانية.

ذلك أنه كان على مقربة من صخرة الجمجمة حديقة، فيها سكن عدد من الناس الفقراء، حتى في هذه الأيام هناك حدائق خارج المدينة، يوجد فيها بيوت، يسكن فيها أصحاب الحدائق عندما يرغبون، إنما في بقية الأيام يسكن الناس الفقراء فيهم، وهكذا بعدما جرى تعليق الرب يسوع على الصليب، عهد بالعناية بأمه ورعايتها إلى يوحنا، ولذلك أبعدت عن الصليب، غير أنها لم تدع نفسها، بأية وسيلة من الوسائل أن تقتاد بعيداً عن صليب ابنها، أو أن تدخل إلى المدينة، لأنها كانت تعلم أنه لا يوجد في القدس كلها مكاناً لإقامتها، بسبب عار ابنها الذي كان عظيماً إلى حد دفع الناس إلى الابتعاد عن استقبال أمه في بيوتهم، ولذلك سمحت لنفسها بأن تقاد إلى مكان إقامة ليس بعيداً عن الصليب، حتى لا تتبعد عن ابنها عندما كان يموت ويسلم الروح، بل أرادت أن تشارك في آلامه كلها، علاوة على ذلك لقد رغبت في أن تعرف وأن ترى ما الذي سوف يصنع بجسد ابنها بعد الموت، من أجل أنه إذا ما رمي في العراء —كما كانوا يفعلون بالأشخاص المدانين الآخرين— أن تحمله إلى نفسها، أو أنه إذا ما دفن أن تكون حاضرة لدى الدفن، وأن تقوم

بطقوس الجنازة والدفن، وهو — في الحقيقة — ما فعلته، لأنها عندما رأت يوسف ونيقوديموس يعدّان العدة لدفن ابنها، ركضت نحوهما بذاتها وهي مليئة بالحزن، وحضرت عملية الدفن، وأحضرت بعد ذلك إلى هذا المسكن، ولم تتحرك من هناك ولم تغادر تلك البقعة.

وفي الحقيقة اعتادت أمهات آخر مغرمات، على فعل مثل هذا لأولادهن المحبوبين، وكن إذا ما أصبن يقين دوماً ييكن عند قبور أولادهن الأعزاء عليهن، حتى مريم المجدلية كان من الصعب إبعادها عن قبر أخيها لعازر كما قرأنا في الاصحاح الحادي عشر من انجيل القديس يوحنا، فكيف أكثر من ذلك، كانت وقتها مريم العذراء الأعظم مباركة، التي أحبت ابنها بما لا يقارن به حب أي أم أو صديق لمن هم أعزاء عليهم! وعلى هذا، كان إلى هذا المكان، أن قدم المسيح أولاً بعد قيامته، ويحدثنا فنستوس Vincentius الذي كان من طائفة الرهبان المبشرين، أنه عندما قام الرب من الموت، بعث بجبرائيل أمامه ليبشر أمه، أن قدوم ابنها الأعظم مجدداً سيكون بالحال، وبعد ذلك ظهر ابنها نفسه، مرتدياً ثياباً ناصعة البياض، وبملاح مستبشرة، وبجمال، وببهاء، وببهجة، وكانت ندوبه تشع بشكل متألق، وقد بدا مسروراً، وحيا أمه، بوله عظيم، وكان قد اقتاد من خلفه جميع القديسين الذين أحضرهم من العالم السفلي، وهنا من الذي هو قادر أن يخبر بأية بهجة شعرت العذراء المجيدة؟ ولهذا غنينا في هذا المكان المقدس تراتيلنا بسرور، وعندما فرغنا من أغانيها، وانتهينا من القداس المذكور في كتب المسيرة، دنونا من المكان، وجثونا هناك، وتلقينا غفرانات مطلقة(++) .

المكان المحفوظ فيه قطعة من العمود الذي عنده جلد يسوع

وما أن فرغنا من غناء الترنيمة المحددة، حتى تقدمنا نحو الأمام باتجاه اليمين، وكان يوجد هناك نوع من الكوى، أو نافذة مغلقة، في الجدار، ووقف في هذه الكوة جزء كبير من ذلك العمود الثمين جداً،

الذي إليه كان الرب يسوع قد ربط، وهو عريان، في بيت بيلاطس، وجلد بشكل وحشي بالأسواط وبالعصي، وصعدنا واحداً تلو الآخر، ولمسنا العمود المقدس بأيدينا، حيث أمرناهم من خلال شبكة حديدية، وهنا أيضاً تلقينا غفرانات مطلقة،(++) .

وجلب هذا العمود في غابر الأيام، بكامله من بيت بيلاطس إلى جبل صهيون، ولهذا قال القديس جيروم عن باولا: «لقد أريت (يعني باولا المقدسة) على جبل صهيون العمود الذي دعم رواق الكنيسة، وكان لون هذا العمود أحمر مع دم الرب، وهو الذي إليه ربط يسوع، عندما أحضر ليجلد»، لكن بعد دمار كنيسة جبل صهيون القديمة — كما قلت من قبل — جلب شطر منه إلى هاهنا، وهناك جزء ثالث منه في كنيسة القديس براكسيد Praxede في روما، وقطعة رابعة منه في ليون في كنيسة القديس هيزكانوس Hyrcanus العدل، كما أن هناك قطعاً أخرى منه في كنائس في أجزاء أخرى من العالم أيضاً، والقطعة القائمة في هذا المكان هي حوالي الشبر، وسماكتها بالعرض ثلاثة أصابع، وأربعة أشبار بالارتفاع ولونها أرجواني، محلى بنقاط حمراء، ومرد هذا إما طبيعة الحجر، أو كما ارتأى جيروم وييد، إلى معجزة.

المكان الذي حفظ فيه الصليب بعد اكتشافه وقبل فقدانه

واستدركنا في هذا المكان إلى الجزء المقابل من البيعة، وهناك يوجد أيضاً فجوة في الجدار، حفظت فيه قطعة من الصليب الأعظم قداسة لمدة مائتي سنة، وكانت مرصعة بكثافة بالذهب، والفضة وبالمجوهرات، وقد تولت ذلك حنة (هيلانه) الواسعة الشهرة، فهي التي عثرت عليها، فهي كانت قد وجدته كاملاً، فأمرت بقطعه إلى نصفين، وتركت نصفاً هنا، بينما نقلت النصف الآخر إلى القسطنطينية، وطوال الوقت الذي وقف فيه الصليب المقدس في هذا المكان، ازدهرت الكنيسة الشرقية،

وازدادت، وحوث أكثر الناس قداسة، وانتصرت دوماً على أعداء صليب المسيح، لكن حالما انتزع وأخذ بعيداً، ترنحت الكنيسة، وغدت أكثر غرقاً.

وقد قدمنا الاحترام إلى هذا المكان، مع أنه كان خاوياً، وغنياً هناك ترنيمة الصليب المقدس الموجودة في كتب المسيرة، لأنه وإن كان غائباً، نحن رأينا الأمر وكأنه موجود، لأنه ونحن نفكر هكذا، صدرت روائح جميلة وانتشرت من ذلك المكان الأثري، وكأن هذه الروائح قد تحلقت هناك من قبل الصليب المقدس، وليس في هذا من عجب، لأنه بعد ما يجري صب الخمرة من الوعاء، يبقى الوعاء محتفظاً برائحة الخمرة، ومثل هذا مكان حفظ الذخائر هذا، الذي كان حاوياً الخشبة، التي لديها القدرة الدائمة على انقاذ الحياة، بقي هذا المكان محتفظاً برائحة الخشبة فيه، وفي الحقيقة حتى يكون من الممكن لهذا المكان أن يصبح أكثر جدارة بالاحترام، أقاموا صليباً هناك، ومع هذا الصليب، قطعة صغيرة من الصليب الحقيقي للمسيح، أقحموها فيه، وقد قبلنا هذه القطعة، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي تبرهن فيه أن الصليب المقدس هو الصليب الحقيقي بإقامة رجل ميت وردّه إلى الحياة

وعندما فرغنا من أعمال تعبدنا في ذلك المكان، انطلقنا، ونحن نغني ترنيمة أخرى، وأتينا إلى وسط البيعة، حيث الموضع الذي إليه جلبت الصليبان الثلاثة بعد اكتشافها، من أجل المعرفة بالبرهان أيها كان صليب المسيح، وجلب لهذا الغرض رجل ميت، ولدى لمسة لصليب المسيح قام حياً، وهنا توجد بيعة لللاتين، ومامن أمة لها أي حق هناك فيها، باستثناء اللاتين فقط، وحراس الضريح المقدس، الذين يمثلون اللاتين، ويقومون بوظائف القداسات هناك، ويمتلكون خلف هذه البيعة غرفاً، فيها يطبخون ويأكلون وينامون، ويفعلون ما يحتاجون إليه، وجرت

العادة أن يكون للرهبان الفرنسييسكان ثلاثة رهبان يسكنون في ذلك المكان، وقد نمت لساعات طوال في أوقات متفرقة في مهجع الرهبان.

المكان الذي ظهر فيه ربنا إلى مريم المجدلية على شكل بستاني

وبعد زيارتنا لهذه البيعة خرجنا منها على شكل رتل لننزل إلى الكنيسة، بوساطة أربع درجات، وعند نهاية الدرجات وصلنا مباشرة إلى مكان فيه دائرتين في البلاط، وتبعد كل دائرة خمس خطوات عن الأخرى، وهما مصنوعتان من رخام مصقول ومتعدد الألوان، ووقفنا حول هاتين الدائرتين، ونحن نشد التراتيل الموائمة لهذا المكان، وذلك حسبما جاء في كتب المسيرة، ويقال بأن هذا هو المكان الذي ظهر فيه الرب يسوع إلى مريم المجدلية على شكل بستاني، وقد وقف الرب في مكان الدائرة الأولى، ووقفت مريم في مكان الدائرة الثانية، وهنا ارتمت مريم على قدميه، ولم يسمح لها أن تلمسه، بسبب أنه لم يكن قد صعد إلى ربه بعد، حيث نقرأ عن هذا مطولاً في الاصحاح العشرين من انجيل القديس يوحنا.

ويمكن للحادثة التي وقعت هنا أن تلهم الحجاج بخشوع عظيم، الذين استوعبوا بقلوبهم المثل الذي ضربته مريم، فهي عندما لم تجد الذي بحثت عنه في الضريح، ركضت حول زوايا الحديقة كلها، إلى هنا وإلى هناك، وهي تتحرق بنار الحب، إلى حد نست فيه ضعفها النسائي، ولم تخف لامن الظلام الدامس، ولا من الرعب الصادر عن المعذبين، ولم تعباً بحراس المكان، بل ركضت نحو الأمام ونحو الخلف، وهي تبكي، وتلهث، وتتأوه، ولاشك أنها لو أخبرت وقيل لها: «عجبا، إن الذي عنه تبحثين، قد عبر البحر الكبير، واجتاز جبال الألب، وأخذ نفسه من الشرق إلى الغرب، وهو الآن في أقصى منطقة باتجاه الغرب»، لقامت على الفور، على الرغم من آلاف المخاطر، فعبرت البحر، واجتازت جبال الألب، وطافت في بلاد الغرب، ولذهبت حتى إيرلندا،

التي هي أقصى جميع البلدان نحو الغرب، لكن الرب الكريم ظهر لها هنا، في هذا المكان، وهولذا لن يخفي نفسه عن الذين قدموا إلى هاهنا من الغرب، من خلال كثير من البلدان المخيفة، ومن البحار الخطيرة، قدموا يبحثون عن الذي يحبونه، وذلك دون أن أنسى ذكر الوعد الذي قطع في الاصحاح الثامن من زكريا في قوله: «هكذا قال رب الجنود، ها أنذا أخلص شعبي من أرض المشرق، ومن أرض مغرب الشمس، وآتي بهم فيسكنون في وسط القدس، ويكونون لي شعباً، وأنا أكون لهم رباً» (زكريا: ٨/٧-٨).

وبناء عليه انحنينا بأنفسنا نحو الأرض عند قدمي الرب يسوع، وقبلنا مكان طبعات قدميه، وتلقينا غفرانات (+).

**مكان السجن الذي كان على مقربة من صخرة الجمجمة، حيث
سجن فيه المسيح بعدما غادر قاعة المحكمة**

وغادرنا هذا المكان، وتابعنا سيرنا ونحن نغني في المسيرة، ودخلنا إلى بيعة مظلمة منحوتة من الصخر، كانت بلانوافذ، وفيها مذبح واحد، ولها بابين صغيرين، وكانت هذه البيعة في أيام المسيح سجنًا، أو حبسًا قرب جبل أكر، بنيت بقصد أن يسجن فيها الذين حكم عليهم بالاعدام، وتقرر تنفيذ الاعدام بهم، وذلك ريثما يتم تجهيز أدوات تعذيبهم، مثل الصليبان، والمشائق، والدواليب، والخطب للنار، وما مائل ذلك، وكذلك من أجل أن يتمكنوا من شرب الخمرة ليجعلوا أنفسهم سكارى هناك، لأن العادة جرت بجعل الذين سوف يعاقبون بالموت سكارى بأقوى أنواع الخمرة، من أجل أن لا يخافوا من الموت كثيرًا، وأن يتحملوا عذابهم بشجاعة أكبر، وبناء عليه حتى يمكنهم الشرب بعمق أكبر، كانوا يجلسون هناك مع خمرة، حتى يمكنهم أن يسكروا دون أن يشعروا بالخجل.

وبناء عليه عندما جلب الرب يسوع إلى هنا مع صليبه، حبسوه في هذه الزنزانة، وكان ذلك أثناء إعداد فجوات ثلاث في صخرة الجمجمة، من أجل ثلاثة صلبان، وفي الوقت نفسه حتى يسكر، أعطوا الرب «خمر ممزوجة بمر» (مرقص: ١٥/٢٣)، وقد كانت مرّة جداً، ولهذا رفض الخمر المعروضة عليه، حسبما جاءنا الخبر في النص نفسه.

وشعرنا في هذه الزنزانة بالحزن، وتفكرنا كيف ان الرب يسوع قد بكى هنا فيها، وانتظر عذاب الصليب برعب يساويه رغبة، ولذلك دخلنا إليها واحداً واحداً، بالآهات وبالتنهيدات، وقام كل واحد منا بدوره بالإنحناء نحو الأرض، وقبل أماكن طبعت قدمي مخلصنا، وتلقينا هناك غفرانات(+).

المكان الذي اقترح فيه الجنود على ثياب المسيح

واقتسموها فيما بينهم

وتابعنا سيرنا، فعبّرنا من سجن المسيح إلى بيعة أخرى، لها ثلاث نوافذ مغلقة، فهناك بعدما جرى ربط الرب يسوع إلى الصليب، وقف صالبوه ورموا القرعة من أجل معرفة الذي يمكن لكل واحد منهم أن يأخذه من ثياب يسوع، ووزعوا بقاياها إلى أربعة أجزاء، آل كل جزء منها إلى جندي، واقترعوا على قميصه الذي لانظير له، لأنه يمكن أن يكون بلا فائدة إذا ماقطعوه، ولهذا جلسوا في هذا المكان ورموا القرعة، مظهرين ازدراء عظيماً نحو المسيح، وثارَت هنا شفقتنا بسبب تعرية المسيح، وعندما فرغنا من غناء قداستنا، قبلنا المكان، وتلقينا غفرانات(+).

المقعد الذي جلس عليه الرب يسوع أثناء تنويمه الوحشي

وبعدما غادرنا تلك البيعة، تابعنا تقدمنا إلى أماكن بعدها، ونحن نشد ترنيمة حزينة حول تنويم الرب، وكيف جرى تنويمه بتاج من

شوك، ووصلنا إلى بيعة أخرى مظلمة، كانت نافذتها الوحيدة مغلقة بالحجارة، وقد كان فيها مذبح جميل، غير مكسور، إنما من دون تعليق، النخ، ووقفت تحت هذا المذبح حجرة مستديرة، بدت وكأنها قطعة اجتثت من عمود، وكانت هذه الحجرة قائمة في أيام آلام المسيح في بيت بيلاطس، أمام اسطبل للبالغ، وكانت بمثابة مقعد، ذلك أنها أعدت لتكون موائمة للجلوس عليها، وبناء عليه عندما أرادوا تتويج الرب بتاج من شوك، دحرجوا هذه الحجرة من مكانها، وأخذوها إلى دار الولاية، وأجلسوا الرب عليها، وتوجوه بالشوك، وهو جالس على الحجر.

وبعد آلام المسيح، جلب المؤمنون تلك الحجرة إلى هنا، لتكون ذكرى دائمة على ذلك التتويج الساخر والوحشي، ولهذا سجدنا بأنفسنا على الأرض، وعباده منا للرب لمسنا هذه الحجرة بأيدينا، وقبلناها بأفواهنا، وتلقينا غفرانات(+).

واستحضرنا إلى ذاكرتنا كل ما عاناه الرب، وهو جالس على تلك الحجرة، وكيف جرى إلباس الرب يسوع ثوباً أرجوانياً للسخرية منه، وجعلوه يحمل في يده قصبه عوضاً عن الصولجان، وهو متوج بتاج من شوك، وربطوا عينيه، وبصقوا عليه، وضربوه، ولطموه بأيدي الرجال، وجرحوه بالقصبه، وخاطبوه قائلين: «سلام ياملك اليهود»، وسموه نبياً، وجرحوه بآلاف إبر الشوك، وعرضوه للسخرية العامة، وهكذا أجلسوه على هذه الحجرة، وهو مثقل بالازدراء، أجلسوه مثلاً يجلس ملك على العرش، ولا شك أن هذا يظهر بوضوح، أن مملكته لم تكن في هذا العالم، ولهذا لم يعترف القديسون بالمسيح ملكاً، إلا عندما كانوا متوجاً على هذه الحجرة.

وقرأنا عن القديس مارتين، أن روحاً شريرة ظهرت إليه، وهي لابسة لتاج ذهبي ولثوب أرجواني، ودارت هناك بأبهة، قائلة بأنها كانت هي

المسيح، وأجاب مارتن هذه الروح بقوله: «أنا لا أعرف مسيحاً إلا وهو لابس لتاج من شوك، وعليه علامات الصليب»، ولدى سماع الشيطان لهذا ذهل وهرب، وقرأنا مثل هذا عن القديسة كاترين السيناوية، عندما أفترى عليها بشكل معيب من قبل امرأة شريرة، انزعجت واضطربت، فحملت نفسها إلى الرب، وطلبت منه الدفاع عن براءتها، فظهر المسيح لها، وقد حمل بيده اليمنى تاجاً من ذهب يتلألأ بالجواهر. وفي يده اليسرى تاجاً من شوك يخز بإبره، وقال لها: «اختاري ماتريدين، إما أن تتوجي في مسار هذه الحياة بتاج من شوك، وأنا سوف أدخر لك تاجاً آخر ثميناً من أجل حياة أبدية، أو أن تأخذي هذا التاج الآن، وهذا التاج الشوكي سوف يدخر لك لما بعد الموت»، وأجابته العذراء قائلة: «مولاي، لقد اخترت دوماً في هذه الحياة أن أتأسى وأتمثل بالأمك المباركة جداً، ولقد عملت الآن اختياري»، وعندما كانت تقول هذا، انتزعت بيديها معاً تاج الشوك من يد المخلص، ووضعت على رأسها بقوة بلغت حدّاً، أنه بعد إنتهاء الرؤيا، شعرت بألم واضح في رأسها من خلال وخز الشوك.

ومثل هذا فعل الملك المجيد، بلدوين ملك القدس، الذي كان أول ملك لاتيني مسيحي قد حكم هناك، فقد اتخذ شعاراً للملكة تاجاً ليس مصنوعاً من الذهب، بل من الشوك، وذهب وتجول دوماً متوجاً بهذا التاج في أيام الدولة المهيبة، لابل حتى عندما كان ملوك آخرون في حضرته، وكان يقول: إنه من غير اللائق لإنسان مذنب أن يسير أمام الناس، كملك للقدس، وهو مزين بتاج من ذهب، في حين جرى تتويج ملك السماء في القدس بتاج من شوك.

وينمو في أحواز القدس شوك حاد جداً، صنعت منه تاجاً، وحملته معي إلى أولم، وينبغي أن لانتقد أن الشوك الذي استخدم للتويج المسيح، كان شوكاً بحرياً، بل كان شوكاً عادياً، مما ينمو في أحواز

القدس، وعلى جبل صهيون، وعلى جبل الزيتون، وفي الوديان، لأن تنويج المسيح لم يكن عملاً مدبراً لآمن قبل اليهود أو من غير اليهود، بل كان عندما أحضر أمام القاضي، واتهم بأنه قال بأنه المسيح، وأنه كان ملكاً، ووقتها جاء إلى أذهانهم فجأة أنه ينبغي تنويجه سخرية منه وتعديباً له، فكان أن أحضروا شوكة من أقرب الحقول، أو ربما وجدوا الشوك في مطبخ بيت (بيلاطس) بين حزم الخطب من أجل النار، لأنني شاهدت بناظري، أنهم حتى في هذه الأيام ليس لديهم حطباً للنار غير الشوك، وأن مطابخهم كانت مليئة بأشواك حادة جداً من أجل احراقها بالنار.

بيعة القديسة هيلانة المكتشفة للصليب المقدس

وعندما غادرنا تلك البيعة، مضينا في طريقنا، وطفنا حول الكنيسة من الداخل، ونحن نغني ترنيمة القديسة هيلانة، كما جرى تحديدها في كتاب المسيرة، ووصلنا إلى باب كبير في جدار الكنيسة، وبما أنه يوجد خلال هذا الباب ممر إلى خارج الكنيسة، سرنا من خلال الباب في ظلام، انقشع بمصابيحنا، وشعرنا على الفور بوجود درج حجري تحت أقدامنا، وهكذا نزلنا ثلاثين خطوة أو درجة، إلى بيعة اسمها بيعة القديسة هيلانة، وهي موجودة تحت الأرض، وعندما فرغنا هناك من ترتيل صلواتنا، جثونا ودعونا، وتلقينا غفرانات (+).

وهذه البيعة ذات حجم جيد، وجدرانها من صخر، حيث نحتت نحتاً، ومثل ذلك الدرج من الكنيسة في الأعلى، والذي يقود نحو الأسفل بين جدارين من الصخر، وفي الأعلى هي مقنطرة، وهي تتلقى الضوء من خلال سقف مقنطر، وهذه القناطر مدعومة بستة أعمدة رخامية، ويقال بأن هذه الأعمدة كانت في أيام آلام المسيح — تدعم قاعة المحكمة، التي حكم فيها على الرب، وأنها جلبت إلى هاهنا من قبل القديسة هيلانة، وهذه الأعمدة سوداء، وهي مصقولة تتعرق

بشكل دائم وتنقط المياه منها نقطة نقطة، وعندما يمسح إنسان هذه النقاط بيده أو بشيابه، تتدفق على الفور نقاط جديدة، ويقول عامة الناس بأنها بدأت هذا التعرق الإعجازي، عندما جرى الحكم على المسيح وعوقب في قاعة المحكمة، وما هذا التعرق إلا دموعها على يسوع المسيح البريء، وينبغي أن لانرفض كلياً رأي عامة الناس هذا، لأنه من المؤكد ليس جميعه واهم، لأنه إذا أمكن القول بأن الحجارة يمكنها أن تغني أماديجاً إلى المخلص، عندما يكون الناس ساكتين، كما قرأنا في الاصحاح التاسع عشر من انجيل القديس لوقا، فهاهو وجه العجب هنا إذا ما بكثت الحجارة من أجل موت المخلص، في حين ضحك الناس من ذلك وسخروا؟ فكما حدث في يوم أحد السعف حين صرخ أطفال اليهود مع حواربيي المسيح «المجد» وكانت الحجارة صامتة، الآن صمت هؤلاء، فصرخت الحجارة بصوت مرتفع، ومثل هذا عندما بكى الناس لبراءته ولموته الوحشي، لم تقم هذه الحجارة بذرف الدموع، إنما عندما لم يبك الناس، ذرفت الصخور الدموع، لابل أكثر حيث أننا قرأنا أنهم تصدعوا وتفتتوا عندما مات المسيح، ولذلك لا يوجد عدم امكانية في الاعتقاد التقوي للناس من العوام، الذي يعلن أن هذه الأعمدة قد بكثت لدى موته، سوى أن ذلك غير مذكور في الكتابات المقدسة، وفي الحقيقة إنه أسهل على الصخرة أن تبكي من أن تغني للحمد، علاوة على ذلك إنهم يقولون بأن هذه الأعمدة تبكي هكذا باستمرار، بسبب أن الناس يتهجون ويضحكون، في الوقت الذي يتوجب عليهم فيه الاستمرار بالبكاء والنحيب لآلام المسيح، ولذنبهم ولشقاء هذا العالم الشرير، ويقولون إذا ماتوقف الناس عن المبالغة بالسرور، ستتوقف هذه الأعمدة عن ذرف الدموع.

ويقول آخرون من بسطاء الناس، ويروون جميعاً بايمان عن هذه الأعمدة، في أنه أثناء آلام المسيح خاطبت العذراء مريم هذه الأعمدة،

وهي تبكي وتتحب لوحدها وقالت لهم: «لا يوجد أحد يشاركني أحزاني، فكيف يمكنني أن أصبر على تحمل هذا الثقل من الآلام لوحدي؟ إليك معي، أيتها الأحجار»، ولدى تلفظها بهذه الكلمات بدأت الأعمدة تقطر ماء، ولعل هذه الأعمدة هي التي أشير إليها في الحكمة: ١١ في قوله: «لقد منحوا ماء من أعماق الصخر، وأعطوا الخلاص من العطش من الصخر الأصم»، وفي حبقوق ١١/٢ قوله: «لأن الحجر يصرخ من الحائط»، وفي أيوب: ٦/٩ قوله: «المزعزع الأرض من مقرها فتزلزل أعمدتها».

وهذا الذي قلته أعلاه حول الأعمدة قد سمعته من كاثوليكي تقي بسيط، ومن امرأة تقية لا يجوز لي الاستخفاف بتقواها، أو التقليل من شأن غيرتهما، ومع هذا إنني أعلم بشكل تام، أن ما يحدث لأسباب طبيعية، ينبغي عدم عزوه إلى المعجزات، لأن هناك بعضاً من الحجارة، ونوعاً من الرخام اسمه endroson ترشح منه المياه، في أي مكان من المبنى وضع فيه، فبسبب طبيعته الفائقة البرودة يقوم بتكثيف الهواء من حوله، ويحوّله إلى ماء، ومن الطبيعي أن الهواء الذي تحول إلى ماء على وجه الحجر، أن يرشح ويتقاطر على شكل نقط من الحجر، ويحكي أن شيئاً من هذا القبيل قد وقع في القصر القديم في القسطنطينية، في إحدى الغرف، التي كانت فيها قشور صخرية رخامية من هذا النوع نفسه، وكانت هذه القشور تملأ نفسها ذاتياً بالماء، ثم إنها بعدما كانت تفرغ، وتصبح خاوية تمتلئ ثانية، دون أن تملأ من قبل أي إنسان، ونظر عامة الناس نحو هذا الأمر باندهاش كامل، وعدوه معجزة، مع أن ذلك كان يحدث بتفاعل الطبيعة، وبالصورة ذاتها أنا أعتقد أن هذه الأعمدة من رخام الـ endroson ، أي أنها من حجارة هي رطبة بصورة طبيعية، والماء ينقط منها:

ويوجد في هذا الكهف نفسه قشرة حجرية، عُمرت في الجدار، قرب

المذبح، قصد منها أن تستوعب ماء مقدساً، وكانت دوماً تفرّغ وتصبح بلاماء مقدس، وعندما يضع انسان رأسه في هذه القشرة، ويصغي، تراه يسمع صوتاً مثل الهدير، وانبعاث لهيب النار، أو مثل اندفاع مياه كثيرة، وبشكل خاص عندما يكون انسان لوحده في البيعة، ويرغب في سماع هذا الصوت، تراه يسمع صوتاً مخيفاً مزعجاً، مثلما سمعت ذلك مراراً، وعندما يستمع الناس البسطاء لهذا الصوت، يخافون كثيراً، ويقولون بأنه يوجد تحتها مكان للتعذيب، أو جحيم، وأن هذه الأصوات سببها انزال العقوبات، وهي هدير العذاب وزئيره، غير أنني أعتقد بأن هذه الأصوات سببها هنا، سير الناس ومشيههم حول الكنيسة بالأعلى.

ويوجد على جانبي الدرج كهوف واسعة وعالية، منحوتة من الصخر، وكانت فيما مضى قد كرسيت بيعاً مع مذابح، وهم جميعاً بلاضوء، وإنه لأمر رائع أن ترى خشوع الأقدمين من الناس في هذه الأماكن وفيما شابهها من القضايا والحالات، وتحتوي هذه البيعة على مذبحين، ويوجد قرب الأكبر بينهما، على جهته اليمنى، كرسي من الحجر، وعلى مقربة من الكرسي هناك نافذة منجورة من خلال الصخر، من خلالها يمكن للانسان أن يتطلع إلى الحفرة التي عثر فيها على الصليب المقدس، ويقولون إنه عندما وجدت هيلانه الصليب المقدس، قامت أولاً ببناء هذه البيعة، وأنها طوال الوقت الذي جلست فيه على هذا الكرسي، كانت ترمي بانظارها بشكل مستمر من خلال هذه النافذة إلى الكهف حيث وجدت الصليب.

وقد جلست هناك باستمرار، حيث كانت تشير إلى البنائين وتدلهم على الشكل الذي عليهم أن يبنوا فيه الكنيسة، وهناك كانت تدفع النفقات، وكان في واحد من هذه الكهوف المظلمة فراشها، وهناك أقامت مع وصيفاتها ليلاً ونهاراً، حتى انتهت عمارة الكنيسة كلها، ويطلق بعضهم على هذه البيعة اسم بيعة القديس جيمس، أي القديس

جيمس الذي كان أول أسقف للقدس، فقد كان عرشه فيها، ولهذا يطلقون على الكرسي اسم عرش القديس جيمس، لكن هذا غير معقول، لأنه في أيام القديس جيمس لم تكن هناك كنيسة، بل مجرد مكان خارج أسوار المدينة، وكان مكاناً سيئ السمعة، لأنه على مقربة من جبل الجمجمة.

الكهف الذي عثر فيه على الصليب المقدس من قبل القديسة هيلانة

ومن هذه البيعة، نزلنا ثانية ست عشرة درجة، كانت موجودة على جهة اليمين، وكنا نغني ترنيمة الصليب المقدس، ووصلنا إلى بيعة أخرى، كانت مظلمة تماماً ومحرومة من ضوء النهار، غير أنها كانت مضاءة بكثير من المصابيح، وعند قاعدة هذه البيعة، هناك حفرة مقدار طولها اثنتان وعشرون قدماً، مغطاة بالصخرة، ففي هذه الحفرة، وجدت الامبراطورة المقدسة هيلانة، ذلك الكنز الثمين جداً، الذي أقام مخفياً لمدة تزيد على ثلاثمائة سنة، فقد وجدت هناك الصلبان الثلاثة، وتاج الشوك، والمسامير، واللوح الصغيرة التي كتب عليها العنوان ووضعت فوق الصليب، والسنان الحديدي للرمح الذي خرق به قلب المسيح، والقصبه مع الاسفنجية، والأدوات التي استخدمت في صنع صليب المسيح مع صليبي اللصين، فجميع هذه الأشياء قد ألقى بها مع الصليبان في هذا المكان، بسبب عدوهم مدنسين.

ووقفنا من حول هذا الكهف المقدس نغني ترنيمة في مدح الصليب وتمجيده، وهو الذي عثر عليه هناك، وأنحنينا بأنفسنا واحداً تلو الآخر نحو الأسفل، وقبلنا الموضع، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

وفي المكان الذي طبعنا فيه قبلاتنا شعرنا برائحة حلوة صدرت من الكهف، وقد انتعشنا بهذه الروائح كثيراً وسررنا، وشعرنا بالراحة،

حيث رأينا أننا وجدنا أهلاً لتلقي آخر آثار تلك الرائحة الطيبة، وهي الرائحة التي انبعثت من ذلك الكهف عندما اكتشف يوداس قورينوس Jodos Quirinus الصليب أثناء حفره هناك، فهذا ماقرأناه في رواية اكتشاف الصليب المقدس.

وهذا المكان خفيف، وهو غارق بعمق بين الصخور، لكن كيف حدث أن الصليبان قد دفنت تحت مثل هذا العمق في قلب الأرض؟ هذا أمر من الممكن فهمه بسهولة من قبل أي إنسان فهم وقرأ أوضاع المدينة المقدسة، فقد كانت مدينة القدس القديمة محاطة بهوة عميقة من الجهة الغربية، وذلك حيث جرى صلب الرب، وقد امتدت تلك الهوة من الجنوب إلى الشمال على امتداد طول المدينة، وكانت هذه الهوة مصنوعة بشكل طبيعي، ولم تكن خندقاً معمولاً للمدينة، وقد تشكلت من صخور على شكل جروف متحدرة مقابل بعضها بعضاً على طرفي الهوة، ويقوم فوق الحافة الداخلية للجروف والصخور، سور المدينة، وتقف حواف الصخور من الخارج بمثابة دفاعات المدينة، وبين الكتل الصخرية للحافة الخارجية كتلة كان اسمها أكرا (الجمجمة)، وكان تحتها مكان اسمه الجلجلة، وفوق أكرا جرى صلب الرب مع اثنين آخرين، وعندما أنزلوا من فوق الصليبان، قام الذين نفذوا فيهم الأعدام، برمي الصليبان في الهوة، مع جميع الأدوات التي عادت إلى المصلوبين، لأن أكرا قامت على حافة الهوة، ولم يكن عليهم سوى سحب الصليبان من الفجوات في الصخرة، ورميهم في الهوة، وذلك مثلما اعتادوا على رمي الفضلات الأخرى فيها، ولهذا مالبت الصليبان أن تغطت، لأنهم كانوا يومياً يرمون بالفضلات من فوق سور المدينة.

وأخيراً عندما هدم تيتوس القدس في السنة الثالثة والأربعين بعد آلام المسيح، أمر برمي الأسوار والأبراج التي كانت قائمة هناك، في تلك الهوة، وبذلك صارت الصليبان يوماً فيوماً مغطاة بشكل أعمق أكثر،

وبعد مضي سبعة وسبعين عاماً جاء الامبراطور اليوس هادريانوس، الذي قام -صدوراً عن كراهيته للمسيحيين- ببناء معبد مدنس جداً، فوق الجلجلة، وضع فيه تمثالاً من الرخام لفينوس، وذلك حسبما روى لنا القديس جيروم، في رسالته إلى بولينا Paullina، وقام بالوقت نفسه، صدوراً عن كراهيته لليهود فنصب تمثالاً يشبهه شخصياً في المكان الذي قام فيه فيما مضى هيكل الرب، وذلك حيث عمل اليهود مزاراً لأنفسهم، وما أن أدار الامبراطور ظهره للمدينة حتى أقدم اليهود على تدمير التمثال الامبراطوري.

وعندما سمع هادريان بهذا، عاد، وأخرج اليهود من المدينة وطردهم، وهدمها، وسواها بالأرض ثم مضى في سبيله، وهكذا جرى للمرة الثانية رمي الأسوار في الهوة فوق الصلبان، ولم يمض وقت طويل بعد هذا حتى عاد قيصر، وأعاد بناء المدينة من جديد، وأصدر أوامره برمي السور الغربي القديم كله في الهوة، وذلك بقصد طمر الهوة وتسويتها مع بقية الأرض، وبذلك يمكن ادخال معبد فينوس في اطار سور المدينة، وبذلك صارت المدينة أوسع، ومرّ بعد ذلك حوالي مائة وثمانون سنة والهوة تحتوي على الصليب المقدس، وذلك حتى جاءت هيلانة كما حدثنا... جيروم، وعندما جاءت لم تستطع إلا بصعوبة بالغة أن تجد البقعة، لأنها دخلت في دائرة النسيان، ولذلك قامت بتنظيف هذا الكهف، وأمرت بتكريسه، وبنت بيعتها ومقر إقامتها فوقه، كما هو الحال في هذه الأيام.

وبناء عليه وقفنا في ذلك المكان، ونحن سابحين في عالم الإعجاب بالصخور والحجارة التي تحتها تمّ العثور على الصليب، لأن الجروف الصخرية المتعلقة فوق رؤوسنا كانت تهدد بالسقوط فوقنا، وشعر الحجاج في هذه الهوة المقدسة بخشوع عظيم، هذا والمسيحيون الشرقيون، لابل حتى المسلمون غارقون في أوهام عابثة حول هذا

المكان، حيث يقومون بقطع شظايا من هذه الصخور من أجل التداوي ذلك أنهم يعلنون أنه إذا كان هناك انسان مصاب بالحمى، من الممكن شفائه على الفور، إذا ما شرب بعض الخمرة والماء، فيها موضوع قطعة من هذه الصخور، فضلاً عن هذا، إذا ما عانى انسان من وجع رأسه، كان يقوم بتدبر قص شعر رأسه، ومن ثم ارسال الشعر الذي قصه إلى حراس المعبد، حتى يضعوه فوق البقعة التي وجد فيها الصليب، وعندما كان هذا يعمل، كان المريض يشفى.

ومثل هذا أيضاً كانوا يفعلون، عندما يعاني أحدهم من وجع في الأسنان، فوقتها يخلقون له ذقنه، ومن ثم يرسلون بالشعر إلى الكهف حتى يمكن أن يشفى.... ومن هذا الباب كان السبب في أن جميع الشقوق في الصخور، وبين الأحجار محشوة وملئة بالشعر، وليس هناك من شك أن هذه ممارسة طقوسية دنسة، وصلت إليهم من كفار العصور القديمة، وقد أخبرنا ديودوروس في الفصل الرابع من كتابه الثاني حول التاريخ القديم، أن المصريين القدماء، عندما كانوا ينذرون إلى آلهتهم من أجل سلامة أو شفاء الناس المرضى، اعتادوا على حلاقة شعورهم، ووضعهم في أوعية ذهبية أو فضية، وكانوا يرسلونهم إلى الذين يتولون سدانة الأوثان في معابدهم، وبذلك كانوا يشفون، وهكذا يعمل هؤلاء الناس الأشرار، حتى هذا اليوم.

ويوجد خلف مكان اكتشاف الصليب المقدس حفرة عميقة في الصخرة هي مليئة بشعور رؤوس الناس وشعور لحاهم، هذا ويستخدم المسلمون والأتراك، وإن كانوا غير مؤمنين، هذا المكان مع موضع الجمجمة من أجل أوهامهم، وفي هذا الكهف صدى عجيب، أنا مثله لم أسمع في أية جوقة أو كنيسة، ولذلك عندما كنت وحيداً هناك، كنت غالباً ما أغني بصوت مرتفع تماماً، الترنيمات التجاوبية العائدة إلى اكتشاف الصليب المقدس، وترانيم أخرى.

جبل أكررا العظيم القداسة الذي عليه جرى تعليق الرب يسوع على الصليب

بعد ما فرغنا من عمل كل ما ينبغي فعله في هذا الكهف المقدس،
صعدنا على الفور ثانية، وعادونا الدخول إلى الكنيسة من بابها، ولدى
استئنائنا لمسيرتنا بدأ قائد الجوقة يغني بصوت مرتفع ترنيمة Vexilla
regis prodeunt الخ، ووصلنا ونحن نغني هكذا إلى الطريق
الصاعد إلى جبل أكررا الأعظم قداسة، ولقد صعدنا إليه بوساطة ثمان
عشرة درجة من الكنيسة الموجودة تحته، ودخلنا في الأعلى إلى بيعة
مضاعة، وجميلة ومزينة برخام مصقول من مختلف الأنواع، وفيها معلق
عدد كبير من المصابيح المضاعة، وقائم فيها ثلاثة مذابح، مزينة برسوم
صنعت بأعمال الفسيفساء، وبنيت هذه البيعة بناء مقنطراً، مدعوماً
بعمود رخامي في وسط البناء، ويوجد في الجانب الأسفل من القنطرة
رسوم لداوود وسليمان، وجاء رسم داوود مع نص: «أيضاً رجل
سلامتي الذي وثقت به» (المزامير: ٩/٤١) الخ، ورسم سليمان مع
نص: «الحكمة بنت بيتها» (الأمثال: ١/٩)، وهناك أيضاً صورة للتضحية
باسحق، وبنيت هذه البيعة فوق جبل أكررا، وعندما أصبحنا جميعاً في
داخلها، ومشاهد أمام أعيننا ومعروض تلك الصخرة الرائعة، تلك
الصخرة المرغوبة، مع ثقبها التي هي موضع الإعجاب، وهي التي
أقحم فيها الصليب الأعظم قداسة، وهو يحمل المصلوب، وعندما رأينا
هذه الأشياء المقدسة والرهيبية بسبب قداستها الفائقة، سقطنا على
وجوهنا فوق الأرض، ولم يعد أحد من الناس يسمع غناء، بل نحيباً،
ولم يعد هناك غناء للترانيم، بل عويل وتنهيدات، ولم يكن هناك أحد
تمكن من حبس نفسه عن البكاء والصراخ، لأن من الذي يمتلك قلباً
قاسياً جداً، لم يكن قابلاً للتصدع في ذلك المكان، وذلك لدى رؤيته أمام
عينية أقسى الصخور، وقد تصدعت؟ ومن هو الذي لن يبكي بصوت

مرتفع في المكان الذي صرخ فيه ربنا المسيح بصوت مرتفع، وهو معلق فوق الصليب، وأيضاً حيث صلى للذين صلبوه، ووعد اللص بالجنة، وعهد بأمه الحزينة بعمق، إلى عناية يوحنا، وشرب الخل ممزوجاً بالمر، وعندما قال بأن كل شيء قد انتهى، أسلم روحه وتركها بيدي الأب، ومات، وأيضاً حيث طعن العسكري جنبه بالرمح، فتدفق منه دم وماء.

اعلموا أيها الحجاج الأتقياء، أنه هنا جرى قتل هابيل من قبل أخيه، كما جرى ربط اسحق من أجل التضحية به من قبل أبيه، وأقيم الثعبان البرونزي من قبل موسى، وذبح خروف الفصح وفقاً للشريعة، وقتل الرب من قبل إنسان، فيسوع قد صلب في الجسد، ملككم جرى تعليقه على الصليب، وربكم حكم عليه بالاعدام، والحليم، والمتواضع، والبريء، صبغ بالدم، وقدم نفسه ككاهن وكأضحية، ووردت هذه الأفكار، وأخرى تماثلها بطبيعتها إلى أذهاننا في هذا المكان الفائق المهابة، وبقياً لمدة طويلة منحنين نحو الأرض ونحن نصلي، وعندما أنهينا صلاتنا ذهبنا واحداً تلو الآخر إلى الصخرة المقدسة، المعروضة فوق الأرض، وزحف كل واحد منا بقدر ما يستطيع نحو الحفرة التي أقحم فيها الصليب، وقبل المكان بخشوع فائق جداً، ووضع وجهه، وعينه، وفمه فوق الحفرة، التي عنها —وما أقول هو الحق والصدق تماماً— صدرت رائحة طيبة جداً، انتعش بها الناس بشكل مرئي، ووضعنا أيدينا وأذرعنا في الحفرة حتى أسفلها تماماً، وبما فعلناه وبهذه الأعمال تلقينا غفرانات مطلقة(++).

ويوجد على جهة يسار الحفرة صدع كبير في الصخرة، ممتد من الأعلى حتى الأسفل، من المعتقد أنه حدث بسبب موت المسيح، وصعدنا إلى هذا الصدع واحداً تلو الآخر، وقبلناه، ووضعنا رؤوسنا فيه، وكثيراً من أجسادنا بقدر ما استطعنا، فضلاً عن هذا يوجد على جانبي الحفرة حفرتين مماثلتين، فيهما جرى تثبيت صليبي اللصين: دسمة وجسمه،

اللذان صلبا مع يسوع، غير أن هاتين الحفرتين لا يمكن مشاهدتهما، لأنه يقوم فوقهما عمودين منخفضين، يوجد فوق رأسيهما مسارين كبيرين، فوقهما شمعتين، ومصباحين مثبتين، وبذلك صار هذين العمودين بمثابة شمعدانيين، وقبلنا على كل حال العمود الذي وقف على الجهة اليمنى للصليب، وحول هذين الصليبيين انظر ماتقدم في ص ٣٠٠.

ويوجد على الجدار خلف الصخرة المقدسة، صورة جديدة ثمينة جداً، فيها شكل المصلوب والعدراء المباركة، والقديس يوحنا الانجيلي، ومكثنا على جبل أكرّا مع مسيرتنا لمدة تزيد على الساعة، أسلمنا فيها أنفسنا للصلاة وللخشوع، وأقبل الليل، فقد كانت الساعة حوالي التاسعة قبل منتصف الليل، وحدثنا نيقولا دي كوسا حول تصدع الصخرة نفسها في Persuasio ad soldanum، في السفر الثالث — الاصحاح ١٧ من نشرته للقرآن.

وصف جبل أكرّا وتراتيبه

لم يرد اسم موقع أكرّا في الكتابات المقدسة على أنه جبل، بل جاء ذكره في الحديث العام فقط على أنه جبل، لأنه في الحقيقة ليس جبلاً، بل صخرة أو جرف مرتفع بعض الشيء فوق الأرض، ومع ذلك جبل أكرّا لا يمتلك هذا التميز، حسبما يمكن رؤية ذلك بوضوح في الشكل، والصخرة والجبل والموقع، كان من البداية جديراً جداً بالاحترام بسبب أن:

آدم، أبونا الأول، مات هنا.

ابراهيم، تمت مباركته هنا من قبل ملكيصادق.

اسحق، جلب إلى هنا من قبل أبيه، من أجل التضحية به.

الثعبان البرونزي تمّ نصبه هنا.

الرب يسوع صلب هنا، وهنا مات.

ولا يشغل جبل أكرّا شطراً كبيراً من المدينة، والذي يعنيه مكان أكرّا هو موقع الكنيسة كلها، أما صخرة أكرّا فهي التي دعمت الصليب فقط، وقبل توسيع المدينة وقف هذا الجرف مقابل سور المدينة، على حافة منحدر عميق أحاط بالمدينة من الجهة الغربية، وهذا ما سلف لي أن قلته من قبل في ص ٤٨٨، وأكرّا ليس بعيداً عن سور المدينة، لأن المنحدر نفسه وإن كان عميقاً، لم يكن عريضاً، إلى حد أنه كان بإمكان انسان أن يرمي حجرة من سور المدينة حتى جرف أكرّا، إنما كم كان هذا الجرف واسعاً، هذا ما لم يمكن تأكيده، لكنه واضح إلى حد بعيد، فمن شكل الكنيسة نفسها، واضح أنها كانت أوسع مما عليه الآن، لأنها عندما أدخلت في داخل السور الجديد، كان من الضروري اقتطاع جزء منها.

إنما وإن كان صحيحاً أن هذه الصخرة كانت قريبة من السور، كما قلت، هي كانت بعيدة جداً عن الرصيف، من حيث حمل الرب الصليب، ومن هناك حمله إلى باب القضاء، ومن هذا الباب عبر الهوة بواسطة الجسر إلى الصخرة، ولم تكن هذه قائمة في مواجهة الجسر تماماً، بل كانت على مسافة لا بأس بها عنه، حيث كان يتوجب على الانسان أن يستدير ويسير صعوداً على طول حافة الهوة، وتوضع الجرف على حافة الهوة بشكل، أنه عندما جرى صلب الرب فوقه، كان ظهره مستديراً نحو الشرق، ونحو المدينة، لكنه أدار وجهه نحو الغرب، لكن هل جرى صلب الرب على قمة الجرف أم أدنى من ذلك، فأمر موضع شك، لأنه بسبب الأبنية القائمة فوق الموقع لا يستطيع أحد أن يقول كم كان اتساع الصخرة في القمة، والذي أعتقد أن الرب علق بالمسامير على الصليب عند سفح الجرف، وأنهم بعدما ربطوه إلى الصليب سحبوه مع الصليب إلى القمة، وهناك ثبتوا الصليب بالصخرة.

وكان موضع أكرأ جديراً بالتقدير من الأيام الغابرة، وذلك قبل صلب المسيح، ففيه تمّ العثور على جمجمة آدم من دون شعر، ومن هذه الجمجمة صار يطلق على المكان اسم أكرأ، أو الجمجمة أو الجلجلة، التي تعني الشيء نفسه، ويبجل اليهود هذا المكان، منذ أزمان قديمة، لأنهم يعتقدون بأن إبراهيم عمل فيه استعداداته للتضحية بابنه اسحق، كما وصلتنا الأخبار في الكتابات المقدسة، ولهذا من المعتقد أن هذا المكان كان واحداً من الأماكن العالية التي اعتاد الناس على تقديم الأضاحي فيها، لابل حتى على بناء هيكل العبادة، وغالباً ما يستشهدون للبرهنة على هذا بما جاء في سفر الملوك، حيث جاء الحديث حتى عن الملوك الأتقياء قوله: «فعل ماكان صحيحاً بنظر الرب، ذلك أنه لم يستول على الأماكن المرتفعة، لأن الناس ما برحوا يقدمون الأضاحي فوق الأماكن العالية».

هذا وهناك بعض الأماكن في الأرض المقدسة، فيها جرت بعض الأعمال الخالدة من قبل الرب، وفيها جرت العادة على عبادة الرب، قبل بناء الهيكل، لكن بعد بناء الهيكل جرى تحريمها، وكان من بين هذه الأماكن شيلوه، والجلجال، وجبل الزيتون، وموضع أكرأ، وعلى هذا المكان المرتفع اعتاد الناس بشكل خاص على تقديم الأضاحي بلا حدود، لأنه فوقها جرى نصب الثعبان البرونزي، الذي نقرأ عنه في الاصحاح الحادي والعشرين من سفر العدد، وتمت عبادة هذا الثعبان بشكل هائل من قبل الناس حتى أيام الملك حزقيا، الذي دمره إلى قطع، وذلك كما ورد الخبر في الاصحاح الثامن عشر من سفر الملوك الثاني.

ومرد الاحترام القديم لهذا المكان إلى أنه هنا التقى ملكيصادق بإبراهيم، ومنحه خبزاً ونييذاً، وهنا أيضاً مركز العالم، وهذه أمور سوف أتولى شرحها الآن فيمايلي:

ولقد حدث أنه عندما فقد اليهود مملكتهم، وآل الحكم عليهم إلى

ملوك غرباء من الشعوب غير اليهود الذين كرهوهم، قام هؤلاء الملوك، على الرغم من اليهود بتحويل موضع أكرأ (الجمجمة) والجلجلة إلى مكان لتنفيذ العقوبات بمرتكبي الآثام، الذين كان من بينهم اللصوص، وقطاع الطرق، والقتلة، والمرتدين، هؤلاء جرى اعدامهم هناك، في سبيل جعل المكان دنساً بالنسبة لليهود، وذلك صدوراً عن ازدراءهم، وبقي المكان محل ازدراء حتى أيام المسيح، لكن بعد قيامته وصعوده، بدأ المكان يحظى بالاحترام والتقديس من قبل المسيحيين، لكن الامبراطور الوثني اليوس هدريانوس لم يكن ليقبل بهذا، فبنى معبد فينوس هناك، ونصب تمثال عاهرة على صخرة أكرأ، وبذلك ألقى بالتدنيس على المكان، حيث جعله دنساً بالنسبة للمسيحيين، فهذا ما أخبرنا به القديس جيروم برسالته إلى بولينا، وهكذا بقي المكان دنساً بالنسبة للمسيحيين، لمدة مائة وثمانين سنة، أي حتى قدمت القديسة هيلانه، ونظفت الموضع من جميع الفضلات والأوساخ التي تدنس بها، وجملته بشكل رائع، وذلك حسباً سيرد الحديث لدى وصفنا للكنيسة، وبالنسبة لهذا الموضوع، انظر ماييلي في صفحتي ٥٤٠، و٢٥٥، وانظر أيضاً قداس القديس برنارد لفرسان الهيكل في الفصل العاشر.

المكان الذي جرى فيه تسمير المسيح على الصليب،

والمكان الذي عثر فيه على جمجمة آدم وتصدع الصخرة

وبعدما قبلنا الصخرة المقدسة، نزلنا ثانية في رتل إلى طابق الكنيسة، ودخلنا إلى بيعة موجودة تحت بيعة جبل أكرأ، والتي منها انتصبت صخرة صليب المسيح، وهي الصخرة المنتصبة حتى البيعة في الأعلى، وسقطنا في هذا المكان بوجوهنا على الأرض، وقبلناها بخشوع عظيم، وتعبداً يسوع على الصليب، الذي ضرب فيه بالمسامير في ذلك المكان، لأنه لو كانت الصخرة هنا، كما هي الآن في هذه الأيام، لما كان المسيح قد جرى تسميره على الصليب فوقها، فقد جرى تسميره في أسفل

الصخرة، ولا بد أن أسفل الصخرة قد كان موضع التسمير إلى الصليب، هذا ولا يوجد — على كل حال — نص في الكتابات المقدسة حول هذه المسألة، كما أنه ليس هناك برهان مؤكد حولها، فيما عدا أن شكل الأرض كما هو يبرهن على ذلك.

وأعدنا في هذا المكان إلى ذاكرتنا، عملية تعرية المسيح المهيئة، وكيف أنهم عروه هنا من جميع ملابسه وسرقوها كلها، وكيف أنهم بنزع ثيابه عن جسده، تسببوا بفتح جراحاته ثانية، وهي الجراحات التي كان سببها جلدة وكيف أنه عندما صار عرياناً تماماً جلس على الأرض، وأنحنى نحو الأسفل لشعوره بالحياء، لأنه كان عرياناً بالمرة، ولأنه كان ضعيفاً، لأنه كان مغطى بالجراحات.

وعندما صار الصليب جاهزاً، وكان صالبوه قد باتوا مستعدين لسحبه ووضع عليه، هنا جمع قوته كلها حتى يتمكن من القيام، وجثا بركبتيه أمام الصليب يصلي قائلاً: «أيها الأب الأبدي، تلقني، أنا ابنك المحبوب، أنا الذي أقدم لك أضحية من دون مكان، من أجل خلاص بني البشر، ومن أجل الاعفاء من الذنوب»، وعندما أكمل كلامه هذا، كان جاهزاً لتسليم نفسه إلى أيدي صالبيه، الذين ألقوه أرضاً فوق الصليب، ومددوه بقسوة ووحشية فوقه، ولدى رؤية أمه الحزينة جداً لهذا، ركضت وجلبت منديلاً لتغطية وسط ابنها، الذي بوساطته بقي مغطى، والمكان الذي وقفت فيه العذراء المباركة مع يوحنا، قد كان عند أسفل الصليب على مقربة من هذا المكان، مع أن المدخل إليه هو خارج الكنيسة، وذلك حسباً سنوضح ذلك ونبينه في موضعه، وهذا في ذهني أيضاً برهان على أن تسمير المسيح على الصليب كان في الأسفل، وأنه رفع فوق الصخرة مع الصليب، وسط السخرية الصاخبة لليهود.

وبعدما قبلنا المكان الذي اعتقد أن المسيح قد ضرب بالمسامير فوق الصليب، عليه، مضينا في طريقنا نحو مذبح قد بني في مواجهه صخرة

أكرأ، حيث رأينا على جهته اليمنى الصدع في الصخرة، الذي امتد من قمته حتى الأرض تماماً، وتبعاً لعدد كبير من المصادر الموثوقة، توفي آدم، أبونا الأول، في هذا المكان، وفيه دفن، ولا يوجد بهذا تناقض مع ما قيل في الاصحاح الرابع عشر من سفر يشوع، من أن آدم قد دفن في حبرون مع أبناء عناق، أي مع العماليق، لأنه قد قيل في ذيل أخبار الأيام، بأن آدم قد مات ودفن على جبل أكرأ، وأنه فيما بعد جرى نقل جسده — باستثناء رأسه — إلى حبرون، إلى الكهف المزدوج هناك، فقد تم العثور على رأس آدم، بعد ذلك بمدة طويلة، على جبل أكرأ، ولهذا السبب اعتاد الرسامون على رسم جمجمة بشرية عند أسفل الصليب، ولهذا أعلن أمبروز، وأثناسيوس وخريسوتوم - Chrysostom وجيروم في رسالته إلى مرسيليا، وفي أماكن أخرى كثيرة، والخاصات اليهود، أعلنوا أن آدم قد أذنب هنا، وقد دفن هنا، من أجل أن يتمكن المسيح من عرض جسده في المكان الذي فسد فيه الجنس البشري، ولكي يمكن للصلاح أن يقوم من المكان الذي فيه بذر الفساد، وهذا ما قاله في الغالب أنطونيوس والقديس جيروم أيضاً، علماً بأنه قال في مكان آخر بأن القول بأن آدم قد دفن هنا هو قول ناعم، وقصد بذلك، قول قيل لإرضاء الأذن.

وهكذا قبلنا مكان تصدع الصخرة، ومكان دفن أبينا آدم.

علاوة على هذا، يقول المسيحيون الشرقيون بأنه في هذا المكان جرى دفن ملكيصادق، الكاهن الأول للقدس، الذي قرأنا عنه في الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين، وفي المزمور المائة وعشرة، غير أن هذا لم يتم تلقيه من قبل الكنيسة اللاتينية والغربية، وذلك بسبب كلمات الرسول في الاصحاح السابع من الرسالة إلى العبرانيين، حيث قيل هناك بأنه لم يكن لملكيصادق أب، ولا أم، ولا نسب، ولا بداية لأيامه، أو نهاية لحياته، ولا بد أن المقصد من هذا هو القول بأن ملكيصادق لم يلد ولم

يمت، وأنه وجد من دون أبوين، وذلك حسبما يعلن هراطقة ملكيصادق، الذين يقولون بأنه لم يكن انسانا مثل... بل ينبغي أن يؤخذ ذلك ليعني في الحقيقة أنه كان له والدين، وبداية حياته ونهاية لها، ولكن ما انسان يمكنه أن يكتشف ذلك، لأنه كان نموذجاً للكهنوتية الدائمة للمسيح.

ولهذا ندد جيروم بعنف وبشكل رائع حمل في رسالته إلى ايفاجروس Evagrius ضد الذين قالوا بأن ملكيصادق لم يكن انسانا، بل ابنا للرب أو ملاكاً، والذين يرون هذا هم بنظر الكنيسة هراطقة ملكيصادقين.

ودفن في هذه البيعة الملوك اللاتين، الذين تمكنوا بشجاعة كبيرة، وبجهود هائلة، من استرداد الأرض المقدسة وإعادتها إلى أيدي المسيحيين واستولوا عليها، وهددوا المسلمين وضايقوهم إلى أقصى الحدود، لذلك إنه لأمر مدهش أن المسلمين لم يهدموا الكنيسة بسبب وجود أجسادهم، والملوك الذين دفنوا هناك هم التالية أسماؤهم: أولاً: غودفري أوف بولليون، دوق اللورين، الذي انتخب في سنة ١٠٩٦ لتجسيد ربنا ملكاً على القدس، وكان ذلك بعد الاستيلاء عليها، وجرى انتخابه من قبل جميع أمراء الغرب، وقد دفن بعد موته في كنيسة الضريح المقدس، والثاني: الملك بلدوين الأول، والثالث: الملك بلدوين الثاني، والرابع: فولك، والخامس بلدوين الثالث، والسادس: عموري، والسابع: بلدوين الرابع، والثامن: بلدوين الخامس، والتاسع: غي، والملك الأخير هذا كان جباناً، وقد أهمل المدينة المقدسة، ومملكة القدس، وضده ثار اللورد برتراند (ريموند الثالث) كونت طرابلس، مع أنه كان أيضاً كاثوليكي.

وكان الملك غي ملكاً قويا، ولم يكن بإمكان برتراند غلبته اعتماداً على الوسائل والامكانيات الخاصة لشعبه، ولذلك استنجد بالسلطان ملك

مصر، واستدعاه لمساعدته ضد ملك القدس، وأقام تحالفاً مع المسلمين، وبذلك تغلبوا على غي، ولكن المسلمين والشعوب الكافرة، رأوا الشقاق في المملكة، وأن الصليبيين كانوا منقسمين بين أنفسهم، فجمعوا أنفسهم، واتحدوا مع بعضهم، فاستولوا على المدينة المقدسة، ومنها طردوا الصليبيين، وبالنتيجة فقد الصليبيون الأرض المقدسة كلها، وقد حكم الملوك الذين تقدم ذكرهم في القدس ثمانية وثمانين سنة وتسعة عشر يوماً، وزالت مملكتهم من الوجود، وألحقت بمملكة مصر، كما هو حالها في هذه الأيام.

وانظر إلى أي مدى استطردت وتجولت بعيداً عن موضوعي، لكنني سوف أعود الآن إليه: إن البيعة المتقدم ذكرها، والتي هي تحت جبل أكرأ، هي ملك للمسيحيين النوبة، الذين يارسون طقوسهم فيها، ويقولون بأن الملك ملكيور، الذي كان واحداً من المجوس (الحكماء) الثلاثة، الذين قرأنا عنهم في الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى، كان ملك النوبة، وأنه عندما قدم من النوبة، وبات قريباً من القدس، لم يدخل إلى المدينة، بل استقبل وأنزل على مقربة من جبل أكرأ، وعلى هذا فإن هذا الموضع قد جرى تعيينه لهم منذ العصور القديمة. وعندما فرغنا من قداس المسيرة، وتلقينا غفرانات، غادرنا هذه البيعة.

المكان الذي جرى تخنيط جسد المسيح فيه ولفه بأقمشة كتانية

وبعدما خرجنا من تلك البيعة، ومشينا نحو الأمام تسع خطوات في مسيرتنا، ونحن نغني ترنيمة آلام المسيح *Pange lingua gloriosi proelium certaminis*، وصلنا إلى مكان ممدد فيه على أرض الكنيسة حجرة سوداء محلاة ببعض النقط الحمراء، وهي حجرة كانت مصقولة بشكل جيد، ويقال بأنها كانت موجودة هناك منذ أيام آلام المسيح، وكانت ملاصقة لضريح يوسف الرامي، لأن اليهود يغسلون موتاهم، ويمددون الجسد على منضدة إما من الخشب أو من الحجر،

وهناك كانوا يقومون بأعمال طقوس الغسيل المعتادة، والتحنيط، وكان هذا الضريح قد نحتت يوسف لنفسه من الصخرة في ذلك المكان، ومثل ذلك تدبر أمر صقل منضدة رخامية من أجله، حتى يمكن غسل جسده عليها وتحنيطه.

لكن بما أنه تخلى عن ضريحه للمسيح، فعل الشيء نفسه وتخلّى عن حجرة غسله وتحنيطه، ولذلك عندما قام يوسف ونيقوديموس، والذين ساعدوهما بفك جسد المسيح من على الصليب، حملوه إلى هنا، ومددوه عارياً على هذه الحجرة المقدسة، حيث حنطاه، ودهنا جروحه بالمراهم، ولفاه بأقمشة كتانية، وفي أثناء طقوس الجنازة كانت مريم المجيدة جداً، والفائقة الحزن، حاضرة، وجالسة ممسكة الرأس المجروح لابنها، ومحتضنة له، ورابطة له بمنديل، في حين كانت مريم المجدلية تتولى بعناية فائقة دهن القدمين المقدسين، اللذين دهنتهما مرة في الحياة، وبمقتضيات العمل، قلبوا جسده الثمين جداً فوق الحجرة، وعلى هذه الحجرة الفائقة القداسة، وقفت —للأسف— وأنا جاهل، وذلك حسبما تحدثت من قبل في ص ٤٦٤، وتحلقنا بأنفسنا من حول هذه الحجرة ونحن على شكل رتل، وعندما فرغنا من الغناء، قمنا واحداً تلو الآخر بالجثو على ركبنا، وقبلناها، وتلقينا غفرانات مطلقة(++)، فمن هذا المكان حملوا جسد الرب إلى الضريح، الذي كان يبعد حوالي الخمسين خطوة عنها، وفوق هذا المكان هناك جبل ممتد من الجدار الأول إلى الجدار الآخر، وعليه جرى تعليق عدد كبير من المصابيح المشتعلة، وبعد المسيرة مدّوا لوحاً فوق هذه الحجرة، وأقام هناك كل من رغب قداساً.

المكان الذي قيل بأن فيه نقطة مركز العالم كله

وعندما فرغنا من زيارة جميع الأماكن المقدسة، وذلك قبل دخولنا إلى ضريح الرب، مشينا في المسيرة، منحرفين جانباً ومبتعدين عن الممر الذي حمل عبره جسد الرب يسوع إلى الضريح، ودخلنا إلى كنيسة

الجلجة، التي هي سدة المبنى كله، ووصلنا هنا إلى وسط السدة، فوقفنا وتحلقنا من حول حجرة مستديرة، ومرتفعة قليلاً فوق حجارة الأرضية الأخرى، ويوجد في الوسط هناك حفرة مستديرة يمكن للإنسان أن يضع فيها قبضته، أي مجمع كف يده، ولقد قالوا بأن هذه الحجرة موجودة في النقطة المركزية للعالم كله، ويقول المسيحيون الشرقيون بأن الرب يسوع وقف هنا مع حواريه، قبل آلامه، وأشار إلى هذه البقعة باصبعه وقال: «انتبهوا، هنا وسط العالم»، وأيضاً تحدثنا التواريخ القديمة وتخبرنا أنه قبل بناء هذا الهيكل، كان مقاماً في هذا الموضع عمود طويل، من الرخام، وقد أقيم من قبل الفلاسفة، فهذا العمود لا يلقي ظلاً في منتصف النهار أثناء الاعتدال الصيفي، لأن الشمس تقف فوقه مباشرة، ورغب أحد الفرسان من الحجاج، وكان من جماعتي في البرهنة على هذا بالتجربة، وبعدما حصل على إذن من السيد ساباثيتانكو SabaThyTanco، الذي كان مدير المشفى، والذي يعرف باسم كالينوس الأكبر، صعد مع بعض من رفاقه فوق السقف المقنطر للسدة، وكان عالياً جداً، ويمتلك درجاً يمكن للإنسان أن يصعد عليه، ويوجد على أعلى نقطة من السقف مكان مرتفع، بني من الحجارة بشكل بارع، يمكن للإنسان أن يقف عليه من دون خوف، وأن ينظر من حوله، وإلى هذا المكان صعد ذلك الفارس في منتصف النهار، ليرى هل سيلقي جسده أياً من الظلال، وقد أعلن إلينا أنه بالحقيقة لم ير ظلاً صادراً عن جسده، لأنه وقف مباشرة فوق ذلك المكان الذي وقفنا من حوله، لأن القبة قد بنيت لتقف فوق ذلك المكان، من أجل أن تتم التجارب هناك.

غير أنني لا أرى الأمر صحيحاً، في أن الشمس وهي تشع في منتصف النهار بشكل مباشر فوق رؤوس الناس، وأجسادهم لا تلقي أي ظل، أن في ذلك أي صدق وبرهان مؤكد على أن البقعة التي يحدث هذا فيها هي مركز العالم، لأنني قرأت في عدد من الكتب حول كثير من

الأماكن التي لا تلقي فيها أجساد ظلالاً في أوقات محددة، من ذلك ما أخبرنا به ديونيسيوس Dionysius في كتابه الثالث من «العصور القديمة» عن أمور من هذا القبيل، في جزيرة قائمة في المحيط باتجاه الجنوب، حيث مامن شيء مهما كان يلقي أي ظل، لأن الشمس تقف فوق رأسه مباشرة، علماً بأن هذه الجزيرة بعيدة كثيراً عن القدس، وكذلك فعل بطرس ألبانو التوفيقي (كاتب معروف من العصور الوسطى) في كتابه حول التعلم الخ، ص ٦٧، حيث قال بأن الشيء نفسه كان يحدث في مدينة أثينا، حيث برهن عليه شخصياً بالتجربة.

وفي مدينة سين Syene (أسوان) أيضاً على النيل، قيل بأن الشيء نفسه يحدث عندما تكون الشمس في المدار الاستوائي في الصيف، وحدد بطليموس أيضاً في خريطته الثالثة والرابعة عن أفريقيا عدداً من المناطق تقف فيها شمس منتصف النهار مباشرة فوق الرأس، وأكثر من هذا، وضعت علامات فوق الخريطة نفسها على أماكن، تقف فيها الشمس مرتين في السنة فوق الرأس، دون إلقاء أي ظل، وعلى سبيل المثال، هناك أماكن كثيرة في آسيا، حسباً يمكن رؤية ذلك في الخرائط السادسة، وفي التاسعة، وفي العاشرة، وفي الحادية عشرة، وفي الثانية عشرة، ومعروف بشكل جيد أن هذه الأماكن ليست في وسط العالم، ويرى بعضهم بأن إحدى الجزر هي منتصف العالم، وفي هذه الجزيرة لا تلقي شمس الظهيرة دوماً ظلالاً.

والذي — على كل حال — يراه العامة هو أن أي مكان هو منتصف العالم، لأنهم يعتقدون بأن بني البشر منتشرين حول العالم أجمع، ويقفون بأقدامهم على الاتجاه المعاكس لاتجاهنا، وعلى هذا لكل إنسان ذروته، وكل إنسان يسير بقدميه فوق ما هو بالنسبة له وسط الكرة الأرضية أو العالم، لكن أوغسطين في مؤلفه «مدينة الرب» — الكتاب السادس عشر، الفصل التاسع، أنكر كلياً وجود أي أماكن مقابلة، لأنه لا

الكتابات المقدسة، ولا التاريخ، ولا التجارب، علمتنا الاعتقاد بهم، وأنه من المستحيل الوصول إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية، بسبب اتساع امتداد المحيط، الذي من غير الممكن بالنسبة لأي سفينة أن تقطعه، وانظر حول هذه المسائل الفصل العاشر من الكتاب السابع من «Speculum Naturae».

لكن الحقيقة المنزهة للكتابات المقدسة، تبرهن بشواهدنا بأن القدس هي في وسط العالم، وعلى كل حال يقول عدد كبير من الناس بأن القدس هي في الحقيقة في وسط العالم المسكون، لكنها ليست في وسط المساحة الكلية للعالم، ولكن بشأن أي من هذه الآراء هو الصحيح، علينا أن نصدق الكتابات المقدسة التي تعلن بأن القدس قائمة في وسط الأرض، وأن مخلصنا قام بتخليصنا في وسط الأرض، وبناء عليه نجد في المقام الأول حزقيال يقول في اصحابه الخامس: «هذه القدس، في وسط الشعوب قد أقمتها وحواليها الأراضى»، وثانياً نحن نقرأ في المزمور الرابع والسبعين: «قد صنع خلاصه في وسط الأرض»، ولذلك قال هيلاريوس Hilarius «كان المكان الذي وقف فيه الصليب هو نقطة مركز العالم، من أجل أن يتمكن جميع الناس من الحصول على فرص متساوية في الحصول على معرفة الرب»، لأن المكان الذي أقيم فيه الصليب، والصخرة، قائمان إلى يمين هذه النقطة المركزية، ومنها يوجد باب إلى السدة، يقود صعوداً إلى جبل أكرأ، ومثلما المسيح هو الشخص المركزي في التثليث، والوسيط بين الرب والانسان، وبما أنه يشغل المركز الوسط في مشروع خلاص العالم، على هذا الأساس اختار النقطة المركزية من العالم لإقامة صليبه فيها، وهناك كما يبدو إشارة لهذا في الاصحاح الثاني من سفر التكوين قوله: «وشجرة الحياة في وسط الجنة»، الذي يعني أن «صليب المسيح في وسط العالم»، علاوة على هذا جاء في سفر التثنية: ٢١/٧ قوله: «الرب إلهك في وسطك»، وعن كنيسة الضريح

المقدس قال في سفر اللاويين: ١١ / ٢٦: «سوف أقيم خيمة عهدي في وسطكم»، الذي يعني: «سوف أقيم هيكل ضريحي في وسط العالم».

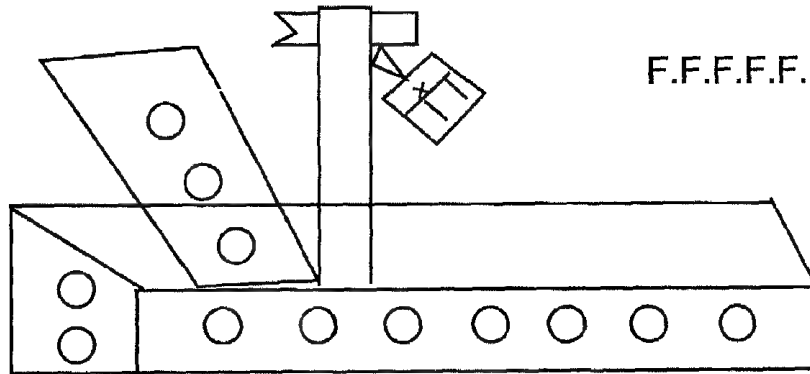
ولهذا شعرنا في هذا المكان بسرور، وببهجة فائقة جداً، لأننا جئنا من أقصى أجزاء الأرض إلى وسطها سليمين وأصحاء، وبعدما قدمنا الحمد والشكر للرب تلقينا غفرانات(+).

المكان الذي رأيت فيه النساء المقدسات الحجر

وقد دحرج من على الضريح

وعندما غادرنا هذا المكان، وتركنا كنيسة الجلجلة، مررنا مجدداً خارجين من خلال الباب الذي دخلنا منه إلى كنيسة الضريح المقدس، ووصلنا إلى المكان الذي، عندما قدمت المريمات الثلاث، لتحيط يسوع، رأوا الحجر قد دحرت من على فم الضريح، وهي الحجر التي كن قلقات حولها، عندما كن على طريقهن، حيث قلن: «من الذي سوف يدحرج الحجر من على فم الضريح لنا؟» وعندما نظرن شاهداً وقد تدحرجت، ودخلنا إلى هذا المكان وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلناها، وتلقينا غفرانات(+).

ليكن ملاحظاً، أنه حيثما وجدت هذه الصورة، أو نموذج الضريح المقدس، ومهما كان عدد المرات التي ستجدها فيه كثيراً، لتعلم بقدر



هذه المرات، بأنني راقبت من خلال الليل كنيسة الضريح المقدس، أثناء حجي الثاني، وأني أمضيت أثناء حجي الأول ثلاث ليال فيها.

كيف جاء الحجاج إلى الضريح الأعظم قداسة للرب يسوع

انهضوا الآن، وقوموا موالي وإخواني الحجاج، وتقدموا مسرعين، وأسرعوا الخطوات لكن لا تقدموا إلا وأنتم مستبشرين، ضعوا جانباً كل الأحزان، وامسحوا الدموع من عيونكم، وغنوا جميعاً مع بعضكم أغنية الفصح الجميلة «المجد»، لأنه بعد سبوت اليهود المظلمة، أشع ضوء لطيف على العالم من الضريح القذر والمظلم، الذي نحن على وشك الدخول إليه، ذلك أن العالم تلقى ضوءاً أكثر إشعاعاً من الضوء الصادر عن الأجرام المشعة لقبة السماء، أقبلوا على هذا ببهجة وحمد، وألقوا نظرة على المكان الذي مدّد فيه الرب، وانظروا إلى نهاية حجكم.

وبناء عليه شرع هنا قائد الجوقة يغني بصوت طيب سرور، ترنيمة الفصح *Ad coenam agni providi*، النخ، وسرنا نحن في رتل ونحن نغنيها، ووصلنا إلى الضريح الأعلى مكانة العائد للرب يسوع وغنينا قبل ذلك ترانيم فصحنا مع تردد كبير لعبارة «المجد»، مع سرور عظيم، أو بالخري مع بهجة أعظم مما شعرنا به قط في أي عيد فصح بعد صيام كبير مرهق.

ذلك أننا شعرنا بالألم من أجل ربنا يسوع، ونحن على جبل أكرّا، وذرفنا الدموع، لكننا هنا نشعر بالغبطة مع مخلصنا، وتقدم له دموع الفرح الجميلة، وأغاني حية، وهكذا دواليك، لأن مخلصنا يسوع بعد دموعه، وحزنه، وبعد السخرية منه، وجلده، وبعد كؤوسه من الخل والمر، وبعد عذابه، وجراحه فوق الصليب، وبعد موته المرعب نفسه، وبعد دفنه المحزن والمؤلم، وبعدما نزل إلى الظلال الدائمة للجحيم، وبعدما حطم الحواجز الحديدية، وبعدما ربط أمير الظلام، وأطلق

سراح جميع البطارقة النخبة، قام مجيداً، ومنتصراً من قبره هذا الذي ننظر إليه الآن، ومن هذا الكهف المظلم أشع ضوء لامع، اندفع باسراع براق، براق كأنه الثلج ببياضه، وهناك حل سلام مبارك لانظير له، وهناك قدّم سروراً عظيماً، وهناك انتشر خلاص عظيم جعل الأرض، والبحر، والسماء تبتهج مع بعضها بعضاً، ففي هذا الضريح، وهذا الكوخ الصغير، جدد النسر شبابه، وأقام الأسد أشباله، وجدد العنقاء حياته، وخرج يونان دون أن يصاب بالأذى من جوف الحوت، وتغطي الشمعدان بالذهب، وأقيمت مجدداً خيمة عهد داوود التي كانت قد سقطت، وأشرقت الشمس بعدما كانت خلف الغيوم، وأصبح قمح الطحين، الذي سقط إلى الأرض، ومات، رشيقاً، وقويت سوقه وأعطت سنابلها، وحمل شمشوم الأبواب بعيداً، واقتحم وشق طريقه بين الحراس، وعاد يوسف من السجن، وهو حليق، مرتدياً بأبهة، وصار سيداً لمصر، وجرى تمزيق أثمال يسوع المسيح، وارتدى بسرور، وإلى جانب هذا كله، هنا انتهى حجنا المرهق، وانتهت جولاتنا، ووصلنا إلى الراحة. (١١٩—و).

وهنا على هذا أرجوكم، دعونا نضع جانباً مشاعر تفجعنا وخشوعنا الحزين، وسحب أحزاننا، ودعونا نتنفس بسرور، وعلى الذين تبعوا مخلصنا إلى قبره مع الأسي المشاركة الآن في بهجة قيامته المجيدة، هلموا، بعد هذا كله، واجمعوا أنفسكم، فرساناً وحجاجاً لطفاء، وادخلوا إلى الضريح الأعظم قداسة، وانظروا بأعينكم، واشعروا بأيديكم، والمسوا بأفواهكم المكان الذي تمدد فيه الرب.

وهكذا دخلنا ونحن نشعر بالسرور، واحداً بعد الآخر، إلى الضريح الثمين جداً، والعائد للرب يسوع، وقبلنا النعش الأكثر قداسة، وتلقينا غفراناً كاملاً ومطلقاً(++) من كل الذنوب، وشعرنا هنا —والحق يقال— بسرور خاص، أعظم مما شعرنا به في الأماكن المقدسة الأخرى.

وعلى هذا قال القديس برنارد في الاصحاح الثاني من قداسه لفرسان الداوية، بأن الضريح المقدس هو المكان الأسمى بين الأماكن المقدسة والمرغوب بها، ويتكون هناك شعور أعظم بالخشوع، لأن هناك المكان الذي تمدد فيه ليستريح، ومشاعر الخشوع التي تحرك الانسان هناك هي الأعظم تحريكاً في حياته، وهكذا فإن تذكرنا لموته يثير شفقتنا أكثر من تذكر حياته، وافترض أن سبب ذلك هو أن موته كان وحشياً، بينما كانت حياته بالمقارنة أكثر لطفاً، ولأن ضعفنا البشري يجذبه الميل نحو النوم أكثر مما يجذبه تعب الحياة بين الناس، والانسان ينجذب نحو الخلاص من الموت أكثر من انجذابه نحو الحياة المستقيمة، وبالنسبة لي إن حياة المسيح قانون لحياتي، وخلاص من الموت، وتلقينا هنا انتعاش روحي، وغفرانات، وخرجنا مع الحبور والحمد، وبذلك انتهت مسيرتنا ساعة واحدة قبل منتصف الليل. (سوف يأتي وصف الضريح المقدس في ص ٥٠٣ ظ).

وبعد انتهاء المسيرة، تجمع الحجاج إلى فئات حسب تعدد جماعاتهم، وكان ذلك في مختلف زوايا الكنيسة، وكانت كل جماعة جالسة في مكانها الخاص بها، ذلك أننا كنا متعبين، ومصابين بالانهك، وقد تناولنا وجبة طعام سريعة، وبعدما أكلنا. سددنا رؤوسنا إلى الجدار لننال راحة قصيرة، وتمددنا نائمين فوق الأرض، ونمت أنا شخصياً مع رهبان جبل صهيون في بيعة العذراء المباركة، الذين منحوني مكاناً هادئاً للنوم فيه، غير أنني لم أستطع أن أغمض عيني لأنام، ولذلك نهضت على الفور، والتحقت بالمستيقظين في الأماكن المقدسة، لأنه — في الحقيقة — كان القسم الأعظم من الحجاج يتجولون حول جميع الأماكن المقدسة المتقدمة الذكر، وذلك حسبما رغب كل واحد منهم، ومضى كل واحد منهم إلى هنا أو إلى هناك حسبما حركته روح الصلاة، ذلك أنه كان من الممكن للحاج أن يدخل إلى الضريح المقدس، أو أن يصعد إلى جبل

أكرا، أو أن ينزل إلى بيعة اكتشاف الصليب، أو أن يذهب إلى أماكن أخرى، وذلك حسب رغبته كل وقت.

وفي هذه الزيارات الفردية إلى الأماكن المقدسة، يشعر الناس بخشوع أعظم، وتحرر من قيود الدنيا، وذلك أكثر ما يكونون فيه في المسيرات العامة، التي يكون فيها كثير من التدافع، والفوضى، والازعاج، والغناء، والبكاء، في حين في هذه الحالة الأخرى يكون هناك هدوء وسلام.

وفي أثناء تجوالي حول الأماكن المقدسة للمرة الثانية، نزلت إلى مكان اكتشاف الصليب، وقرأت هناك صلاتي الليلية، وشعرت بسرور عارم في ذلك المكان القائم تحت الأرض، لأنه كان هناك هدوء، وقد ناسبني ذلك لأن جبل أكرا، وضريح الرب، والأماكن الأخرى في الأعلى، كانت مليئة بحشد متواصل من الحجاج، وكانت هنالك ضجة وصخب عظيم، وفي الوقت نفسه كان موالي وخدمهم يركضون هنا وهناك في الكنيسة فوق، ويفتشون في كل زاوية، بحثاً عني، كي أستمع إلى اعترافاتهم، ولم يخمّنوا أنني موجود في ذلك المكان، ونزلوا أخيراً إلى حيث كنت، واستمعت إليهم هناك وأنا جالس على كرسي القديسة هيلانه، الذي تقدم ذكرى له في ص ٤٨١.

حول الخدمات الطقوسية الربانية في الضريح المقدس والطريقة التي كانت تتم بها والنظام هناك

وعندما صار الوقت منتصف الليل ركض المؤقت حول الكنيسة وييده لوح خشبي، وأعطى بصوت مرتفع جداً الإشارة للصلوات الصباحية، وعندما سمعت هذا، صعدت على الفور إلى الأعلى، وعينت للذين لم أستمع بعد إلى اعترافاتهم، وقتاً آخر سوف أستمع إليهم به، ودخلت إلى مكان القداس، الذي كان متصلاً ببيعة العذراء المباركة،

وارتديت هناك ملابس من أجل القيام بالقداس (لأن هذه الكنيسة مثلها مثل كنيسة بيت لحم، لها امتياز إقامة القداسات فيها، حتى في منتصف الليل)، وعندما بت جاهزاً، تقدمت، ودخلت إلى الضريح الأعظم قداسة والعائد لربنا، حيث توجب عليّ أولاً، تأمين محل لأتلو فيه القداس، دونما مقاطعة، وتمكنت هناك، بكل راحة، من إقامة قداس من أجل قيامة الرب، وبعد القداس، عملت قداسات قرابين، لعدد من النبلاء، في الضريح المقدس نفسه، بإذن من الأب المسؤول، وجاء من بعدي كهنة آخرون، من أجل إقامة قداس، في كل من الضريح المقدس، وفي أماكن أخرى ثلاثة، وذلك حسبما تحدثت في ص ٤٦٦، تحت البند السادس.

وكان الصراع الأعظم بين الكهنة حول تلاوة القداس في الضريح المقدس، لاسبيا أثناء حضور عدد كبير من الكهنة، ذلك أنهم كانوا يقفون خارج الضريح، ويبتعدون الذي يقيم القداس حتى ينتهي، وكان ما أن يغادر المذبح، حتى يندفع نحوه واحد آخر، ويعلموه، ولدى قيام الذي أنهى القداس، بخلع ملابسه الكهنوتية، يتحلق من حوله خمسة أو ستة من الكهنة، أو أكثر، حتى يأخذوا هذه الملابس وتراهم يتجاذبون، ويستخدمون كلمات عدوانية أحدهم ضد الآخر، ويصلون إلى حد الضراب، ولقد رأيت كهنة يتنازعون على هذه الشاكلة، أحدهم مع الآخر، حتى أن أحدهم غضب من آخر غضباً عظيماً فقال له: «أعطني الرداء الكهنوتي الأبيض»، فرد عليه الآخر من الجانب الآخر قائلاً: «سوف أحتفظ به وأتمسك، لأنك غير جدير بأن تذهب قبلي»، فأجابه الآخر: «إنك غير جدير بإقامة قداس على الإطلاق، وأنا ذاهب قبلك لأنني أفضل منك»، وقد مضيا هكذا وتابعوا إلى حد استخدام لغة قاسية وعبارات نابية، ولعنات، وذلك أثناء تجاذب الرداء الكهنوتي، حتى باتا على وشك تمزيقه.

آية حماقة هذه، وأي سوء اندفاع، وانعدام للنظر! والذي آراه أن أناساً يتخاصمون هكذا، لا بد أنهم عميان، وخشوعهم خشوع أحق، وهو مرفوض من قبل الرب والبشر، وكان الأفضل كثيراً بالنسبة لهؤلاء القوم التحلي بالصبر، وضبط النفس، لابل كان الأفضل بالنسبة لهم عدم رؤيتهم مدينة القدس مطلقاً، فذلك أفضل من تورطهم هكذا وخصامهم بشكل أعمى حول الأشياء المقدسة، ولقد عبرت عن أسفي هذا بنشاط بالتعاون مع الرجال العلمانيين الذين كانوا بين الحضور، والذين كانوا ينظرون بدهشة وشماتة كبيرة تجاه هذا المشهد، ولعله صدوراً عن رغبتني بالتقوى لم أشعر بالاهتمام بتلاوة قداس مثلما فعلوا، وكنت بالبحري أوتر مغادرة القدس من دون إقامة قداس، مفضلاً ذلك على القتال من أجل مكان.

ومع ذلك حصلت دوماً — في أثناء حجي الأول، وحجي الثاني — على مكان من دون أية خلافات، حتى في البقعة التي كانت مطلوبة أكثر من سواها، ولقد رأيت بعض الآخرين الذين — في الحقيقة — لم يتصارعوا أو يختلفوا، بل اندفعوا مسرعين، ووضعوا أيديهم على الرداء الكهنوتي، وأخذوه لأنفسهم، بوساطة قوة ذاتية صارمة، وتفوق ورهبة إلى حد أن مامن أحد تجرأ على معارضتهم، وأعتقد أن مثل هؤلاء الرجال كانوا أسوأ الكهنة، لابل أكثر سوءاً حتى من الذين نشبت بينهم خلافات، ونشأ هذا كله من الحاجة إلى نظام، بسبب أن القضية غير خاضعة لأي تنظيم، ففي أثناء حجي الأول كان هناك عدد كبير من الكهنة، وقليل من العلمانيين، ولم تكن القضية خاضعة لأية أحكام، لذلك وقعت خلافات كثيرة من هذا القبيل، وفي أثناء حجي الثاني كان هناك عدد قليل من الكهنة، وكثير من العلمانيين، والأب المسؤول الذي كان رجلاً عاقلاً، قد أعد كل شيء اعداداً جيداً، ولذلك تم إجراء القداسات بسلام.

وأَسباب كون الكهنة متسرعون هكذا، ويتصارع واحدٌهم مع الآخر من أجل المكان، هي متنوعة، من ذلك أنك تجد أحدهم مصاب بنوبة من الاستغراق بالخشوع، التي يشعر الناس بها في الأماكن المقدسة، والتي تتعاضد إلى حد تتحول فيه إلى غير غير ملجومة، لاسيما بين الذين ليس لديهم تعقل أو تقوى، ذلك أن أمثال هؤلاء الناس تجدهم دوماً خائفين بأنهم لن يمنحوا وقتاً من أجل غفران كامل لخشوعهم، وأمر آخر، أن عدداً كبيراً من الكهنة قد نذروا القيام بقداس أو قداسين في الضريح المقدس، وتجدهم يبذلون جهودهم ويضطرون من أجل وفاء نذورهم، وهناك سبب آخر، هو أن عدداً كبيراً ممن جاء إلى هنا، قد أرسلوا من قبل آخرين، ليس بإمكانهم شخصياً الوفاء بنذور حجهم إلى هنا، وكانوا عندما يرسلون هؤلاء الناس محلهم، كانوا يعهدون إليهم بقولهم اعملوا ما استطعتم من قداسات في الضريح المقدس، ويفرضون عليهم أداء إيمان كثيرة بفعل ذلك، ويدفعون لهم النفقات، ولهذا نجد هؤلاء الناس خائفين من أن يخفقوا في الوفاء بما تعهدوا به، ولذلك يتعجلون ويتخاصمون، وهناك سبب آخر، هو أنهم يرغبون أن يكونوا قادرين، لدى عودتهم إلى بلادهم، على أن يقول أحدهم صادقاً: «لقد أقمت قداساً في الضريح المقدس»، ويبدو الأمر بالنسبة لأحدهم إذا لم يستطع تحصيل مكان، سيكون ذلك عاراً بالنسبة إليه، وإهانة عليه من أجلها أن يغادر القدس، وهناك سبب آخر أيضاً هو أن بعض الفرسان الذين يكونون حضوراً أحياناً، يعطون كاهناً دوقية لإقامة قداس لهم في الضريح المقدس، ويقوم هؤلاء الكهنة بالتدافع بكل فعالية.

وعلاوة على هذا كله، هناك بعض الكهنة قد جرى تكليفهم من قبل الأساقفة من رؤسائهم بالقيام بعدد كبير من القداسات في الضريح المقدس، وبعضهم كانوا عندما يفارقون الأعزاء عليهم يعدونهم بأنهم سوف يتلون قداساً من أجلهم في ضريح الرب، وتضطرع هذه الفئات

من الناس كلها باندفاع من أجل مكان، وهناك سبب آخر يمكن أن نضيفه، ولعله سبب خرافي، هو أنه قد قيل بأن كل قداس يتلى في ضريح الرب، يتولى بالحقيقة تحرير النفس من العذاب بعد الموت.

والشيء نفسه قد قيل عن قداسات تليت في catacombe في روما، وخاصة حول نفوس الذين تحرروا بسبب القداسات التي أقامها الكهنة من أجلهم، فالذين يؤمنون بهذا كنت تراهم يتحركون بسرعة مذهلة، ويجرحون أنفسهم، ويعادون إخوانهم، ويسببون الإهانة للرجال العلمانيين في تلهفهم لمساعدة هذه النفوس.

وهناك سبب آخر، هو أن بعضهم يعتقد أن القداسات التي تتلى في الضريح المقدس، هي ذات فائدة أعظم وتأثير لكل من مقيم القداس، وللشخص الآخر، سواء أكان حياً أو ميتاً، مع إمكانية أعظم بالحصول على النعمة.

وسبب آخر نضيفه هو الشره وانعدام الاحترام لدى بعض الناس، الذين يرفضون إعطاء فرصة لأي إنسان، بل يتدافعون للحصول على المكان الأول، ذلك أنهم لا يعرفون كيف ينتظرون، وهم صابرين.

وهناك سبب آخر، لعله هو السبب الأول، وكذلك الأخير، وهذا السبب هو أن الحجاج يعلمون تماماً أنه غير مسموح لهم بإمضاء أكثر من ثلاث ليال في كنيسة الضريح المقدس، وأنه ليس لديهم وقت لأكثر من ثلاثة قداسات، ولهذا يبذل كل إنسان غاية جهده لأن يكون الأول في التمكن من تلاوة قداسه في الضريح المقدس، وتراه لن يعرف الراحة حتى يتلوه، لأنه يخشى من أن لايساعده الوقت مثلما حدث وخان كثيراً من الناس الذين غادروا وهم آسفين لأنهم لم يقيموا قداساً في الضريح المقدس.

وهكذا — كما قلنا من قبل — أقمنا قداساتنا، وعند اشراق الشمس،

ركض الموقت حول أرجاء الكنيسة مع لوحه الخشبي، وأعطى الشارة من أجل إقامة قداس رفيع في الأول والثالث على جبل أكرأ، وبناء عليه صعدنا جميعاً إلى الجبل المقدس، وصعد الأب المسؤول مع مرافقيه بشياهم المقدسة، إلى المذبح، وبدأ قائد الجوقة يرتل قداس الصليب المقدس، مع صلاة *Nos autem gloriari*، وشاركنا جميعاً في القداس بصوت مرتفع، وبعد القداس تلقى موالي الفرسان وجميع الحجاج العلمانيين القربان بخشوع كبير، واستمرت أعمال القداس حتى الساعة الثامنة في الصباح، وفي اللحظة التي انتهت فيها هذه الأعمال جاء المسلمون لإخراجنا من الكنيسة.

إخراج الحجاج من الضريح المقدس وزيارتهم إلى الأماكن

التي هي حول الكنيسة مما ارتبط به نيل الغفران

وبعدما أنهينا طقوسنا وقداساتنا، قدم السادة المسلمون المغاربة، ففتحوا أبواب الكنيسة محدثين بها جلبة عظيمة، من أجل أن نخرج بسرعة أكبر، ولدى سماعنا هذا ارتعبنا، وانزعجنا لافتراقنا، ولابتعادنا عن هذه الأماكن المقدسة الرائعة، وركضنا من مكان مقدس إلى مكان آخر لتقبلهم، لكن بما أن الحجاج تأخر خروجهم بعملهم هذا، أصبح السادة المغاربة غضابى، ولذلك قرعوا على أبواب الكنيسة بعنف بلغ حداً أن مفاصلها كادت تنكسر، وركضوا هناك، وهم يصرخون بأصوات مرعبة بين الأماكن المقدسة، وساقوا الحجاج وأخرجوهم بالقوة، وقذفوا بكل واحد منا إلى خارج الكنيسة، وذلك باستثناء الحراس المعروفين هناك، وبعدما فرغوا من اخراجنا، أغلقوا أبواب الكنيسة وذهبوا في حال سبيلهم، حيث تركونا في الساحة في الخارج، وهناك هيأنا أنفسنا لزيارة بعض الأماكن المقدسة، على مقربة من الكنيسة.

المكان الذي وقفت فيه العذراء مريم ومعها يوحنا الانجيلي عند أسفل صليب يسوع عندما عهد لكل واحد منهما العناية بالآخر

وأول ماعملناه لدى مغادرتنا لباب الكنيسة، هو أننا انعطفنا نحو اليمين، حيث يوجد في مقابل جدار الكنيسة سلم درجاته من الحجر، وهي تقود صعوداً إلى جبل أكرأ، وكان عند قمة هذا السلم فيما مضى جدار من خلاله يمكن للانسان أن يمرّ إلى صخرة أكرأ، لكن هذا الباب مغلق الآن عمارة، وذلك من قبل المسلمين، ويوجد تحت هذه الدرجات باب، يدخل منه الانسان إلى بيعة هي في داخل جدران كنيسة الضريح المقدس، لكنها الآن محاطة من داخلها بجدار، وبذلك لا يستطيع الانسان الدخول إلى الكنيسة من خلالها، لأن المسلمين عمّروا بابها الداخلي أيضاً، وفي هذه البيعة يوجد الموضع الذي وقفت فيه مريم العذراء المباركة جداً، وكذلك القديس يوحنا الانجيلي، فقد وقفا تحت الصليب، عند سفح صخرة أكرأ، وعندما رآهما الرب يسوع معاً، عهد إلى يوحنا العناية بأمه كما عهد لأمه العناية بحوارييه، وانحنينا في هذا المكان المقدس بأنفسنا نحو الأرض، وسجدنا هناك، فتلقينا غفرانات(+).

وهذا المكان ملك للهنود، وهم الذين يتولون قيادة القداسات فيه.

واستدعينا في هذا المكان إلى ذاكرتنا الحزن اللاحدود للعذراء المباركة، لأنها قد عانت هناك من جميع الآلام والأحزان التي من الممكن أن يعاني جسد بشري منها، وكل الوحشيات التي مورست ضد أجساد الشهداء كان هناك بالنسبة إليها ثلاثة أضعافها، أو بالحري لم تكن آلام الشهداء شيئاً محسوباً إذا قورنت بآلامها، والتي خرقت جسدها بلا حدود ووصلت إلى شغاف قلبها الرحيم، وأخبرنا الانجيلي بأنه قد وقف هناك إلى جانب صليب يسوع، مريم أمه، ليس بدون حركة أو انشغال بأمور عابثة، بل كانت مضطربة بعقلها، وكانت تقول بصوت

متألم: «يا بني، يامن كنت سعادتي وبهجتي، أنت الآن حزن بالنسبة لي أمضى من حد السيف، آه، كم هو يوم تعيس هذا اليوم بالنسبة لي ذلك، فمن الذي يمكنه أن يشفي جراح أحزاني، أو يقدم العزاء لشقاء أمك التعيسة، وذلك عندما أرى ابني وكأنه مجذوم، فلقد كنت الأحلى بين أبناء الناس، ومع ذلك عوملت كشقي، وعدوك مع المعتدين، مع أنك الأقدس بين القديسين؟ وفوق آلامي وأحزاني التي لا تحتمل، هو أنني أراك، كما يبدو لي، قد نسيتني، قد نسيت أمك الأرملة، والآن، مع أنك تموت، لم تقل ولا كلمة لي، فإلى أين سوف آخذ نفسي؟ وإلى من سأطير لالتهجاء؟ ذلك أنك أنت أبي، وأنت أخي، وأنت مجدي وفخاري، أيها الهاجري، إنني أرى ولدي العظيم يتلاشى على الصليب، ولدي الحبيب والغالي، تحدث إليّ، تحدث إلى أمك،، علني أسمع صوتك، فبسماعي لمجرد كلماتك، يمكن أن أكون أكثر صبراً، حتى أتحمل عقوبتي، التي نزلت بي والتي تعذبني من خلال حبي لك، وذلك خشية أن يغشى علي في وسط هذه الآلام التي لا تحتمل، إنني أتوسل إليك، إلى من سوف تعهد بي وتتركني، أنا يتيمنتك؟ فبمثل هذه الكلمات، وكلمات مناحة مماثلة، ناحت العذراء مريم في هذا المكان، وبكت تعاستها وتعاسة ابنها سواء، وهنا عندما شاهد ابنها هذا قال: «يا امرأة هو ذا ابنك»، وأشفقنا على الأم في هذا المكان، مثلما أشفقنا على الابن في جبل أكرأ، ولقد كان حبها العميق الذي شعرت به نحو الانجيلي نفسه، أعظم مما شعرت به نحو الآخرين، ذلك أنه وقف إلى جانبها وهو متأثر كثيراً وبعمق، ولم تقف العذراء المباركة ويوحنا مع الآخرين فوق الصخرة، تحت ذراعي الصليب، بل عند سفح الصخرة، مقابل وجه المسيح.

بيعة الملائكة المقدسين ولماذا توجب أن تكون هناك

وبعدما فرغنا من صلواتنا في المكان المتقدم الذكر، عبرنا إلى بيعة

أخرى، مكرسة للملائكة المقدسين، ويتولى اليعاقبة القداسات في هذه البيعة، وجثونا فيها، وتلقينا غفرانات(+).

وتداول أحدنا مع الآخر، إثر ذلك، حول لماذا جرى بناء بيعة للملائكة المقدسين بجوار هذه الكنيسة الأعظم قداسة، وكان الجواب الذي تلقيناه، بأن هذه البيعة قد بنيت بسبب الحماية الفعالة التي مدها الملائكة إلى هذه الكنيسة، لأنه لولا أن الملائكة يتولون حراسة هذه الكنيسة بشكل دائم، والضريح المقدس بعناية خاصة، لكنت قد دمرت دماراً كلياً من قبل الكفار، علاوة على هذا ينجو الحجاج الذين يقدمون من مناطق واقعة فيما البحار، إلى الضريح المقدس لرئنا، ينجون من كثير من المخاطر، ومن المخاوف المميتة، وذلك من خلال حراسة الملائكة، الذين إليهم يعيدون الشكر في هذه البيعة، ويتوسلون بأن يعودوا سعداء ثانية إلى وطنهم، في ظل الرعاية الملائكية السليمة نفسها.

بيعة القديس يوحنا المعمدان

وعبرنا من هذه البيعة إلى بيعة أخرى، مكرسة ليوحنا المعمدان، وهي ملك للجورجيين (الكرج)، وعندما دخلنا إليها انحنينا بأنفسنا للصلاة، وتلقينا غفرانات(+).

وكان عملاً منطقياً تماماً، أن يكون للذي كان هو الأعظم بين الذين ولدتهم النساء، مكاناً ومزاراً إلى جانب الكنيسة الأعظم بين الكنائس كلها، وأيضاً بسبب أن المعمدان الأعظم قداسة قد أشار إلى المسيح باصبعه وقال: «هو ذا حمل الرب الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا: ١/٣٩)، ونحن نعلم بأن هذا القول قد تمّ الوفاء به في هذه البقعة، حيث عليها قدم نفسه كأضحية ليزيل ذنوب العالم كله، فضلاً عن هذا امتلك المعمدان بيعة هنا من أجل أن يكون المسلمون ميالون أكثر نحو إبقاء الكنيسة، لأنهم ينظرون إلى معمدان المسيح نظرة احترام عظيمة.

بيعة القديسة مريم المجدلية في ساحة الكنيسة

وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى بيعة أخرى، كانت مكرسة للقديسة مريم المجدلية، وذلك على جهة اليسار (من الساحة) بجوار برج الناقوس، وكانت هذه فيما مضى كنيسة واسعة مع دير للراهبات مرتبط بها، لكن في هذه الأيام الجزء الأعظم منها مهدم، وتقام الطقوس في هذه البيعة من قبل الإغريق، وكان عملاً صحيحاً جداً قيام الآباء الأقدمين للكنيسة ببناء كنيسة للقديسة مريم المجدلية متصلة بكنيسة الضريح المقدس، وهي الكنيسة الأعظم قداسة، لأنه عندما غادر الحواريون هذا المكان، وتركوا الضريح، بقيت مريم المجدلية لوحدها في الحديقة، تمشي نحو الأمام ونحو الخلف وهي (تبحث عن الرب) ولم يكن بإمكانها تحمل مغادرة المكان، والابتعاد عنه، ولعظيم تقواها استحققت أن يكون لديها بيتاً للصلاة هنا، ولكي تبقى مشرفة فوق هذه البقعة بشكل دائم، وتلونا في هذا المكان الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات، وتابعنا سيرنا إلى أماكن مقدسة أخرى.

المكان الذي كان إبراهيم فيه على وشك تقديم ابنه

اسحق أضحية

وتقوم البيعة الأربع المتقدم ذكرها حول ساحة أو فناء كنيسة الضريح المقدس، ويمكن للإنسان الدخول إليهن من الساحة من دون أي صعود أو نزول، وبعدما زرناهن، كما قلنا من قبل، عدنا إلى الجانب الأيمن من الساحة، ومررنا هناك من خلال باب إلى ممر مظلم، وذلك من بين بعض الأبنية القديمة، ولم يكن بإمكاننا أن نرى شيئاً هناك مهما كان نوعه، لأن المكان كان مظلماً، ثم إننا كنا قد دخلنا للتو من مكان مضيء بأشعة الشمس إلى ذلك المكان المظلم، وتقدمنا بضع خطوات نحو الأمام، خلال هذا الظلام، ووصلنا إلى درجات حجرية، حيث

صعدنا عليها، فوجدنا زنزانة صغيرة، وعليّة، سكن فيها بعض التعساء من المسيحيين الشرقيين، وقرعنا على الأبواب هناك، ووجدنا شخصاً واحداً هناك، كانت عبدة سوداء صغيرة الحجم متقدمة بالسن، وعندما رأتنا فتحت البيعة لترى من الذي قدم صاعداً إلى هناك، وكانت في الحقيقة بيعة جميلة، مبلطة برخام مصقول ومنوع، وهي قائمة فوق جبل أكرأ، على ذلك الجانب الذي وقف الصليب عليه، إنما خارج جدران الكنيسة، وبنيت هذه البيعة حسب آراء العلماء الكاثوليك من أمثال: أوغسطين، وجيرون مع أحبار اليهود، فوق البقعة التي كان إبراهيم على وشك أن يضحى فيها بابنه اسحق، وذلك تنفيذاً لأوامر الرب، ويقول بعضهم بأن هذا قد حدث على جبل سعيير، أو صيدنايا، ومرة أخرى يقول آخرون بأن هذا قد حدث فوق جبل موريا، وذلك حيث بنى سليمان الهيكل فيما بعد.

لكن روايتنا كاثوليكية أكثر، وأقرب إلى المنطق، والسبب متوفر في النموذج وفي الحقيقة، فهذا مرجح أكثر بالنسبة للمكان بشكل خاص، فحيث لم يوفر إبراهيم ابنه، حسبنا قرأنا في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين، مثل هذا لم يوفر الرب ابنه الحقيقي، بل قدمه من أجلنا جميعاً، كما جاء في الاصحاح الثامن من الرسالة إلى الرومانيين.

وعلى مقربة من هذه البيعة، في خارجها، هناك شجرة زيتون قديمة، قيل بأنها زرعت في المكان الذي أمسك فيه الكبش من قرنيه في الغابة، وهو الكبش الذي نقرأ عنه في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين، بأن إبراهيم قد ضحى به بدلاً عن ابنه، وبناء عليه انحنينا في تلك البيعة المقدسة، بأنفسنا نحو الأرض، وبعدما قرأنا الصلوات المحددة، تلقينا غفرانات(+).

وعندما تلقينا الغفرانات، تفكرنا بأنفسنا، وتفاعلنا معجيين بطاعة إبراهيم، التي جعلته يقوم من دون أدنى تردد، بطاعة أوامر الرب،

وأبعد عن نفسه، ماشعر به نحو ابنه العزيز جداً عليه، وكان جاهزاً للتضحية بابنه الحبيب بيديه، مع أنه كان ابنه الوحيد، الذي ولد بشكل اعجازي من زوجته الشرعية، التي إليها أعطي الوعد بانجاب صبي، ونضيف إلى هذا كله بأنه كان ولداً جيداً، وتقياً، ومطيعاً أكثر من سواه وجمالاً، وبصحة جيدة، ونشطاً.

وعجباً، كم هو مثل رائع بالفضائل، في أن نتصور في عقولنا هذين الاثنين، وهما يجهدان للصعود فوق هذه البقعة بالذات، لتنفيذ المهمة الأصعب، وكان ابراهيم رجلاً عجوزاً، وكان اسحق في الخامسة والعشرين من عمره، وكانا معا على استعداد لإطاعة الرب وحده في كل شيء، فقد قال اسحق: «أنا بين يديك يا أبي، افعل بي ما تريد، واربط يدي وقدمي بالحبال، وإذبحني طالما في ذلك رضى للرب»، أيها الحجاج، إن الذي عليكم تصوره هو ذلك الرجل العجوز المحترم، وقد قام بتقوى رائعة، بربط يدي ابنه وقدميه، ورفع عاليًا سيفه المجرد، ليذبحه به، ماهذه الطاعة التي لم يسمع بمثلهما من قبل الأب والابن، وأية تقوى عميقة شعرا بها، لإطاعة الرب، أه، لعل أرواح طاعتنا الفاترة كثيراً، أن ترتفع فوق هذه البقعة، وتعاود البرهنة والتصحيح، والتقويم، فقد أنذرنا الرب، وحشنا الأساقفة، وصرخت الكتابات المقدسة لنا، وقدمت التجربة البرهان لنا، والنذر تربطنا، والأمثلة تعلمنا، ومع ذلك مازلنا نأبى الطاعة! وعلى هذا دعونا، واطركونا ندعو فوق هذه البقعة البطارقة المقدسين بأسمائهم، لعل النعمة تعطى إلينا من الرب.

المكان الذي لقي فيه ملكيصادق ابراهيم مع الخبز والنبذ

وعندما خرجنا من هناك، اقتادونا إلى بيعة أخرى، مماثلة بجمالها، قد بنيت فوق المكان الذي التقى فيه ملكيصادق بابراهيم، وباركه، ووعدته من خلال التنبؤ له بأن المسيح سوف يلد من ذريته، ومنحه خبزاً ونبذاً،

وكان ملكيصادق كاهن الرب العلي الأعلى، وأول ملك للقدس، وأعطاه ابراهيم باكورة الفواكه لديه، وعشر كل ماكان عنده، وقبلنا في هذا المكان الأرض، وتلقينا غفرانات(+).

وفعلنا أيضاً ماطلب الرسول منا أن نفعل في الإصحاح السابع من الرسالة إلى الرومانيين (العبرانيين: ٧ / ٤) في قوله: «ثم انظروا ما أعظم هذا الرجل (ملكيصادق) الذي أعطاه ابراهيم رئيس الآباء عشراً أيضاً من رأس الغنائم»، ومن أجل ملكيصادق يمكنك قراءة ماتقدم حوله في ص ٤٩٣، وعبرنا من تلك الكنيسة، إلى جدار سدة الكنيسة، الذي يستدير نحو اليمين، ونحو الأعلى، وعلى هذا كان بإمكاننا أن نلقي نظرة على المدينة بالطول وبالعرض، وكان أيضاً باستطاعتنا أن نقدر بشكل جيد المسافة من الباب الذي اقتيد منه الرب يسوع، وهو حامل لصليبه، حتى جبل أكرأ.

الساحة القائمة أمام كنيسة الضريح المقدس التي فيها الأماكن المتقدم ذكرها وفيها أيضاً الأماكن التالية

وبعدما شاهدنا ذلك، نزلنا بوساطة الدرجات أنفسهن اللائي صعدنا عليهن، وأصبحنا في ساحة الكنيسة، ورأينا على مقربة من الباب حجرة في البلاط، قد انطبعت عليها علامات قدمي انسانين، تماماً مثلما يقف انسان فوق مصباح من الشمع الطري، ويضغط بقدميه فوقه، ومن الواضح أن هذه الآثار لطبعات الأقدام لم تصنع فنياً في الحجر، بل صنعت بوساطة معجزة، مع أنه مامن شيء مؤكد معروف حول ذلك، ولقد قالوا بأن هذه كانت طبعات خطوات الرب يسوع، الذي وقف هناك عند سفح صخرة أكرأ، وهو ينتظر صلبه، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض أمام هذه الحجرة، وقبلنا طبعات الأقدام المقدسة.

وذهبنا من هناك في رتل إلى مكان قريب إلى الطريق خارج الساحة،

حيث — قد قيل — بأن ربنا، قد وقع وهو يحمل صليبه الثقيل، وقع تحتته بسبب إرهاقه، ولا رتعا به لدى رؤيته لصخرة أكرأ أمامه، وذلك حسبما تحدثنا من قبل في ص ٩٢، وهذا المكان المقدس معلم بحجرة، عليها جرى قطع أعداد كبيرة من الصلبان من قبل الحجاج، وبناء عليه قبلنا هذا المكان، وتلقينا غفرانات مطلقة (++) .

قصر ملك القدس المجاور للكنيسة

وخرجنا بعد ذلك من الساحة، ومررنا خلال باب موجود على الجهة اليسارية منها، وذلك وأنت تتطلع نحو الكنيسة، في حديقة مزروعة بالبرتقال والرمان، ومضينا من هذه الحديقة صاعدين إلى بيت كبير فيه الكثير من الغرف، وكان يسكن في ذلك البيت — على كل حال — عدد ضئيل من الفقراء الإغريق فقط، مع أن مائة من الناس يمكنهم السكن فيه براحة، لأنه كما قلت من قبل، هو بيت كبير وعظيم، يحتوي على عدد كبير جداً من القاعات المقنطرة، وهو ملاصق للجهة الغربية من كنيسة الضريح المقدس، وملاصقته بلغت حداً أن في القاعة الرئيسية منه نافذة موجودة في جدار كنيسة الضريح المقدس، من خلالها يمكن للانسان أن ينظر إلى ضريح الرب.

وكان هذا البيت فيما مضى مكان سكنى وإقامة ملوك القدس، الذين عاشوا هناك، من أجل أن يكونوا دوماً على مقربة من الضريح الأعظم قداسة، العائد لربنا، وجرت العادة في أيام الملوك اللاتين أن يعطى كل يوم ثلاثة أرغفة من الخبز إلى الحجاج، وعندما استولى السلطان على المدينة المقدسة، وتملكها، حافظ على هذه الصدقة لسنين كثيرة، لكن هذا قد تلاشى الآن كلياً، وبطل استخدامهم، والإغريق الذين يعيشون في هذا القصر الملكي، يجدون صعوبة بالغة في التمكن من البقاء في حالة فقرهم، والبيت نفسه مهدد بالسقوط والخراب من كل جانب، لابل إن أجزاء كثيرة منه قد تحولت إلى خرائب، هذا ولا يوجد أحد يمكنه أن

يتولى ترميمه، أو أن يقوم بإعادة تعمير الأجزاء المهدمة منه، ويسكنه حجاج إغريق عندما يكون أياً منهم في القدس، وهم يطلقون عليه اسم قصر بطريك الإغريق.

مشفى القديس يوحنا والأماكن المتصلة به والتي تشكل شطراً من المباني

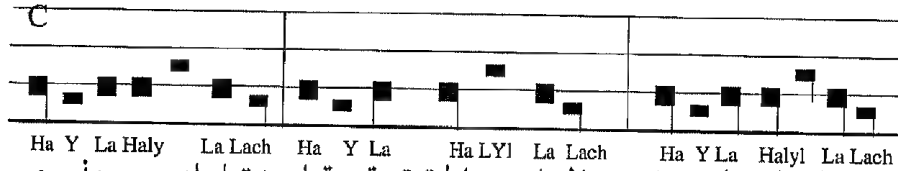
وعندما خرجنا من ذلك البيت، صعدنا إلى مشفى القديس يوحنا، القائم في مقابلته، وهو الذي فيه ينام الحجاج ويأكلون، وبجوار هذا المبنى الذي يقيم فيه الحجاج مؤقتاً، هناك كان فيما مضى قصر كبير، كان مسكناً فخماً للنبلاء من فرسان القديس يوحنا، الذين كانوا أكثر الناس تقوى، وأعظمهم كرمًا نحو الحجاج، وجرت العادة أن يدخل إلى المشفى كل واحد من الحجاج، وأن يعطي مديره ماركين بندقيين، وبذلك يصبح بإمكانه شغل حيز فيه من دون جدال مطلقاً، حتى لو بقي في القدس لمدة سنة، وكان ذلك البيت والمشفى واسعاً جداً، وفخماً، إلى حد أنه لو وصل إلى هناك ألف من الحجاج، كل واحد منهم كان سيجد غرفة له من دون ازدحام، فهذا يمكن رؤيته من خلال خرائبه، ومن خلال الجزء الذي ما يزال قائماً ومهدماً جزئياً فقط، وهذا الجزء المتبقي متسع بما فيه كفاية لاستيعاب أربعمئة حاج، للعيش فيه.

وفي مقابل المشفى هناك خرائب لجدران واسعة، قد بقيت من بيت فرسان التيوتون، الذي كان الحجاج من النبلاء الألمان يقيمون فيه فيما مضى من أيام، وإلى جانب هذا البيت نفسه كان هناك قاعة أخرى كبيرة، اعتادت النساء الحاجات على الإقامة فيها بشكل مؤقت، ذلك أنه لم يكن مسموحاً لهن بأي حال من الأحوال، أن يعشن مع أزواجهن في البيت الكبير.

هذا وبنى المسلمون إلى جانب المشفى الكبير برجاً عالياً، عظيم

النفقات، مزيناً بالرخام الأبيض المصقول، وبنوا إلى جانب البرج (المئذنة) مسجداً يواجه كنيسة الضريح المقدس، ويصرخون من هذا البرج ويرفعون أصواتهم في الليل والنهار، وذلك وفقاً لما تقضي به عقيدتهم، والذي أعتقده تماماً أن هذا المسجد وهذا البرج قد بنيا صدوراً عن عدم الاحترام للذي صلب، وبمثابة عمل عدواني نحو المسيحيين، وإلى جانب المسجد، وعند أسفل البرج هناك مدرسة للأطفال، فيها يتعلم أولاد المسلمين شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم)، ويصرخون هناك طوال النهار، ويثيرون ضجة عالية جداً.

وفي مناسبة أخرى عندما كنت نازلاً من جبل صهيون وحيداً، من أجل تلاوة صلواتي في ساحة الكنيسة، سمعت الأطفال يصرخون فصعدت نحو باب المدرسة، ونظرت نحو داخلها، فوجدت الأطفال جالسين على الأرض في صفوف، وكانوا جميعاً يرددون بشكل جماعي الكلمات نفسها بصوت مرتفع، وكانوا حانين لرؤوسهم ولظهورهم نحو الأسفل، مثلما اعتاد اليهود أن يفعلوا لدى أدائهم لصلواتهم، وقد رددوا الكلمات نفسها عدداً كبيراً من المرات، إلى حد أنني تذكرت كل من الكلمات واللحن الموسيقي الذي جاء على هذه الشاكلة:



وهذه في الحقيقة هي المبادئ الحقيقية وقاعدة إيمانهم، وهذه هي الأشياء الأولى التي يعطونها إلى أولادهم لتعلمها، ويغرسونها في عقولهم بوساطة التكرار المستمر، ويعلنون على ماآذهم (أبراجهم) بشكل متواصل عن عقيدتهم، ذلك حسبها سوف نرى في ص ٩٥ من القسم الثاني، ولديهم مثل ذلك عبارات أخرى يعلمونها إلى أولادهم، لها ألحان مختلفة، وذلك كما سمعت بالغالب.

وإلى جانب المدرسة في داخل المسجد والساحة هناك سجنين عائدين إلى البلدة، فيهما يحبس المجرمون، وهما يشبهان ذريبتان صغيرتان، أو مثل فرنين، ويشكلان بوضعهما عائقاً عظيماً ورعباً للحجاج، وفي الحقيقة غالباً ما حدث لي أنني وأنا ذاهب إلى كنيسة الضريح المقدس لأداء صلواتي أمام باب الكنيسة، كنت إذا مارأيت رجالاً مسلحين واقفين حول هذين السجنين، أقوم بالعودة إلى البيت ثانية، خشية أن يلحقوا بي بعض الأذى، وأنا أعتقد بأن هذين السجنين قد بنيا بالفعل هناك للاساءة إلى الكنيسة والمشفى، وليكونا مصدر رعب للحجاج.

وهناك من المشفى إلى ساحة الكنيسة طريق قصير جداً، وليس ممنوعاً على الحجاج النزول إلى هناك كم من المرات رغبوا بذلك، مالم يجري منعهم باجتماع الرعاع عند السجنين المتقدمي الذكر، ولم نؤخذ في حجي الأول إلى مشفى القديس يوحنا، بل أخذنا إلى بناء كبير في ميلو، تحت مدينة داوود، ولم يكن بإمكاننا النزول إلى كنيسة الضريح المقدس إلا تحت حماية بعض المسلمين، والسبب في اسكاننا في مكان آخر غير المشفى، لم أعرفه، والذي أعرفه أنه لسنوات طوال مضت قبلنا، كان يجري انزال الحجاج في ذلك البيت نفسه، لأن جدران القاعات كانت مغطاة برسوم تحتوي على رنوك بعض النبلاء من بلادنا، ومن ذلك عرفت أنهم أقاموا هناك، وليس في مشفى القديس يوحنا، وهذا البيت نفسه كان واسعاً، ويحتوي على كثير من القاعات، وله حديقة جميلة، وهو قائم في ميلو، فيما بين جبل صهيون والقدس.

والآن بعدما فرغنا من زيارة جميع الأماكن المتقدم ذكرها، كما حدثتكم، عدنا جميعاً، كل واحد منا إلى موضعه، فقد ذهب الحجاج العلمانيون من الفرسان إلى مشفى القديس يوحنا، لكن رجال الدين صعدوا برفقة الرهبان الفرنسيين إلى جبل صهيون، حيث أكلنا وشربنا، وأرحننا أنفسنا، وهنا انتهى هذا الحج.

وصف ضريح الرب يسوع: كيف كان بالأصل، وما هو شكله في هذه الأيام، الخ

في عمل أي شيء، طبيعياً واصطناعياً، يبدأون — مع أن لديهم تصور كامل للعمل — بالأجزاء، وأول كل شيء بالأجزاء النبيلة، ثم يتابعون في صنع جزء بعد الآخر، حتى تكون النتيجة، جميع ما عزموا على صنعه، وأعتقد أنه من الأفضل لي أن أسير وفق هذا الترتيب، في عرضي الوصفي لكنيسة الضريح المقدس، التي نويت أن أكتب عنها، وقبل وصفها (ككل) سوف أتولى أولاً وصف أقسامها الرئيسية: أي وصف الضريح المقدس، الذي هو الرأس، والقسم الرئيس في الكنيسة كلها، فمنه نالت الكنيسة كلها اسمها، وسوف أصف بعد ذلك جبل أكرأ، الخ.

ومادمت أنا الآن مقبل على تقديم وصف للضريح المقدس، ومع أنها ليست مسألة هامة جداً، مع ذلك لم أجد مصاعب قليلة في أداء هذه المهمة، ومرد ذلك إلى وجود أوصاف كثيرة في الكتب التي صنفتم قبل مختلف الحجاج، ولهذا السبب سوف أكون مسروراً بالقيام بوصف ترتيباته وأوضاعه إلى أخواني الرهبان، وأن أكتب ذلك بوضوح بقدر ما رأيته بعيني، ومع ذلك إن هذا من غير الممكن لأنني لا بد سأجد نفسي مضطراً للكتابة عنه أكثر أو أقل مما قد رأيته، وسوف تكون النقاط الرئيسية التي سوف أتحدث عنها هي النقاط الثلاث التالية:

١ — ما هو الشكل الذي كان ضريح الرب عليه عندما جرى تمديد جسد الرب فيه؟

٢ — ما هو شكل الضريح الذي زرنه وتعبدناه؟

٣ — هل هذا الضريح هو نفسه، الذي جرى تمديد جسد المسيح فيه وفي هذا السؤال الثالث تكمن الصعوبة كلها.

وفي معالجة السؤال الأول، لابد من أن تعرف أنه من السهل اعطاء فكرة عما كان عليه شكل الضريح في يوم وفاة المسيح، فكل من رأى الأضرحة القديمة في هذه البلدان، لن يجد صعوبة في هذا المقام، مع أنه من غير الممكن استخراج وصفه بوضوح من كلمات الانجيليين المقدسين، لأن أحاديثهم مختصرة، وموجزة حول هذه المسألة، فقد قال القديس متى في (الاصحاح ٢٧): «فأخذ يوسف الجسد ولفه بكتان نقي، ووضعه في قبره الجديد الذي كان قد نحته في الصخرة، ثم دحرج حجراً كبيراً على باب القبر ومضى»، وقال مرقس في (الاصحاح ١٥): «فاشترى يوسف كتاناً جيداً، فأنزله وكفنه بالكتان، ووضعه في قبر كان منحوتاً في صخرة، ودحرج حجراً على باب القبر»، وقال في (الاصحاح ١٦) عن الحجر الذي دحرجه على باب القبر بأنه: «كان عظيماً جداً، ولما دخلن القبر رأين شاباً جالساً الخ، وقال لوقا في (الاصحاح ٢٣): «وطلب يوسف — جسد يسوع، وأنزله ولفه بكتان ووضعه في قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط»، وقال أيضاً في (الاصحاح ٢٤): «فوجدن — النساء — الحجر مدحرجاً عن القبر، فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع» وفي الاصحاح نفسه قوله: «فقام بطرس وركض إلى القبر فانحنى ونظر الأكفان موضوعة وحدها على الأرض»، وذكر يوحنا أكثر من الآخرين، في الاصحاح ١٩ وقال: «وكان في الموضع الذي صلب فيه بستان، وفي البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط. فهناك وضعوا يسوع لسبب استعداد اليهود لأن القبر كان قريباً»، وقال في (الاصحاح ٢٠): «فنظرت مريم المجدلية الحجر مرفوعاً عن القبر»، وأخبرت بذلك بطرس ويوحنا الذي «جاء أولاً إلى القبر، وانحنى فنظر الأكفان موضوعة، ولكنه لم يدخل».

وبعد قراءة هذه الروايات، من السهل على الانسان الذي رأى القبور في الأرض المقدسة، أن يفهم كيف كان شكل ضريح الرب، لكنه من

غير الممكن أن يكون الآن كما كان عليه آنذاك، لأن الكنيسة قد بنيت فوقه، وبسبب التزيينات التي سوف نتحدث عنها تحت العنوان الثاني، وكذلك بسبب التغييرات التي لحقت بالأرض، لأنه فيما مضى كان هناك مبنى جنازي خارج أسوار القدس، لكن السور بني فيما بعد ليحيط به، وبنيت عمائر هناك اتصلت به، ولذلك لم يبق شكل الأرض في أي جزء، كما جاء وصفه لدى الانجيليين.

وإذا ما أردت أن تعرف كيف كان شكله بالأصل، تصور وجود حديقة خارج سور المدينة وخارج خندقها، وأنه كان يوجد بين الخندق والحديقة طريق عام، له على طرفه الأول جدار الحديقة المعمول من حجارة جافة، ومن الجهة الثانية السور الخارجي للخندق، أو الصخرة، إذا كان الخندق كان محيطاً بالصخرة، كما هو في القدس، وعلامة على ذلك تصور في ذاتك أنه كان في الحديقة نفسها صخور واقفة فوق الأرض في كل مكان، وهي صخور كبيرة وصغيرة، وكان بين هذه الصخور واحدة واسعة وعريضة، وكانت صماء، غير مقعرة، منتصبة نحو الأعلى مثل بيت صغير، فعلى هذه الصورة كانت الحديقة التي حدثنا يوحنا عنها، حين ذكر أنه كانت هناك حديقة على مقربة من المكان الذي صلب فيه يسوع، لأن يسوع كان قد صلب خارج الحديقة، فوق صخرة الجرف، وعلى هذا كان الطريق العام يفصل فيما بين صخرة الصليب، وجدار الحجارة الجافة للحديقة، وفي الحقيقة جميع الحقائق القائمة في أحواز القدس مليئة بالصخور، ووجها غير مستو، بسبب الصخور المنتصبة فيها، وبناء عليه كان الناس الذين كانت لديهم صخوراً كبيرة في حدائقهم، قد اعتادوا على تجويفهم ونحت أضرحة فيهم وغرفاً للموتى، هذا وإذا كانت الصخرة كبيرة جداً، كانوا بعدما يفرغون من نحت غرفة، كانوا يقومون ثانية بقطع باب على الطرف الأقصى منها، ويصنعون تجويفاً آخر، ليدفن فيه بعضاً من أصدقائهم،

ثم إنهم كانوا بعد ذلك ينحتون غرفة أخرى في الصخرة.

وإذا احتوت الصخرة على كهف واحد، كانوا يسمونه كهفاً بسيطاً، وإذا احتوت على اثنين، يسمونه كهفاً مزدوجاً، كما قرأنا في الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين، من أن ابراهيم قد اشترى كهفاً مزدوجاً، وإذا ما احتوت على ثلاث غرف، كانوا يسمونه كهفاً ثلاثياً، وإذا أربعة، كهفاً رباعياً، وهكذا، ولقد رأيت في إحدى الحدائق، على مقربة من الحقل الذي اسمه حقل الدم كثيراً من الكهوف لها جدران من الصخر، كان أحدها يقود إلى الآخر، وكلها منحوتة واحد تلو الآخر من الصخر الحي، حتى أنني لم أتجرأ على الذهاب حتى آخر كهف منها، لأنني بعدما دخلت إلى الكهف الثالث، ولم يعد بإمكانني رؤية الضوء الذي جاء من خلال باب الكهف الأول، توقفت وأنا خائف من الظلام، لأنه بالحقيقة، إذا ما دخل انسان إلى هذه الكهوف من الممكن أن يضيع نفسه، ولا يعود قادراً على العثور على طريقه إلى الخارج، لأن الأقدمين قد نجروا أقبية عميقة في الصخر، لدفن موتاهم فيها.

وبناء عليه، كان يوسف الرامي، الذي كان رجلاً جيداً، وعادلاً، ومن منبت طيب، وغنياً، ومقتدراً، وحكيماً، قد اشترى لنفسه هذه الحديقة على مقربة من المدينة، وعلى طرف صخرة أكرأ، وأمر بتجويف الصخرة الصماء التي كانت هناك، إنما عندما مات الرب، تخلى يوسف عن حقه بهذا المكان، وأعطى كل من الحديقة والصخرة إلى المسيح، الذي كان أول شخص يدفن هناك في الغرفة الداخلية، فعندما أنزلوه من على الصليب، حملوه من صخرة أكرأ، عبر جدار الحجارة الجافة إلى هذه الحديقة، حيث حنطوا جسده فوق حجرة أعدت لهذا الغرض، وحملوه إلى الكهف الثاني، لأن الكهف كان مزدوجاً، وكان الباب الأول في الكهف الأول واسعاً وطويلاً، يقود إلى وسط الكهف، ولم يكن

الباب الذي يقود إلى الكهف الثاني مواجهاً للباب الأول، لأنه كان على يسار الانسان الداخل، وكان باباً منخفضاً وصغيراً، وكان على الجانب الأيمن المكان الذي جرى تمديد الرب فيه، وذلك على الطرف الشمالي، لأن النحت هناك مهملاً عن قصد، وبناء عليه كان المنحوت من الصخرة هو مايكفي جسد انسان ممدداً على ظهره، حيث يمكن أن يشغله بالطول وبالعرض، وكان ارتفاع ذلك ثلاثة أشبار ونصف الشبر فوق الأرض.

ولاحظ هنا أن الذين كتبوا عن ضريح الرب، قد ميزوا فيما بين الأبدية والضريح، لأن الأبدية قصد بها الصخرة المجوفة كلها والغرفة كلها، ولكن المقصود بالضريح هو التابوت الحجري أو القبر الذي احتوى على الجسد، هذا ولم تمتلك أبدية الرب على ضريح أو نعش متحرك، بل على ضريح منحوت في الصخرة نفسها، وكان هناك — على كل حال — في الجزء الخارجي مكان مخوف، عمل لتمديد جسد فيه، وهو الجسد الذي وضع في وسط الضريح، وفق طريقة أنه كان مغطى من فوقه بلوح خشبي، ومن تحته قاعدة تركت مرتفعة فوق الأرض، عليها جرى تمديد الجسد، ويبدو أن هذا ما قصده المقدسون من الرجال القدماء، عندما وصفوا ضريح الرب.

وقد نقل مصنف كتاب «التاريخ المقدس» عن بيد المبجل قوله: «كانت أبدية ربنا زنزانة مستديرة، منحوتة من الصخرة، وتحتها، وكان ارتفاعها إلى حد أن انساناً طويلاً قد يلامس قممها بيده الممدودة، ولها مدخلها على الجانب الشرقي، ووضع في مواجهتها صخرة عظيمة عوضاً عن الباب، وفي جانبها الشمالي مكان جسد الرب، وقد نحت من الصخرة نفسها، وطوله سبعة أشبار، وارتفاعه ثلاثة أشبار فوق الأرض، وهو يشبه تابوت حجري وضع فوق قاعدة، والتجويف كان قد نحت في الجدار نفسه مثل التجاويف التي عملت في جدران بيوت

السكن، لتحتوي على أدوات المنزل، والتابوت ليس فوق هذا، بل على الجانب الجنوبي منه، وبناء عليه كانت —حسبها كان وضعها— تجويفاً أو قبراً، موضوعاً على الجانب، وفتحه ليست من الأعلى، بل من الجانب، وقد قيل بأن لون الآبدة والتجويف مزيجاً من الأبيض والأحمر»، وهذا الذي قاله «التاريخ المقدس» المتقدم الذكر، هو الشكل الأصيل لآبدة الرب وضريحه.

وتبدلت هذه الترتيبات من قبل الامبراطور اليوس هديرانوس، الذي أمر ببناء معبد لفينوس على هذه البقعة، وذلك حسبها ذكرنا من قبل في ص ٤٨٤، وهو لم يقيم بتدمير آبدة الرب، أو صخرة أكرأ، بل جرى توجيهه من قبل الرب، فأدخلهما في هيكله، كما هما في هذه الأيام، وقد أظهر احتراماً نحو الموضع من أجل إقامة تمثال لجوبتير في دير ضريح الرب، كما أنه أقام فوق صخرة أكرأ تمثالاً لفينوس، فهذا ماقرأناه في رسالة جيروم إلى بولينوس، وفي ظل هذه الوضعية الكافرة والدنسة، بقي المكان المقدس لحوالي مائة وثمانين سنة، لكن في داخل سور المدينة، لأن هادريان المتقدم الذكر قد ملأ الهوة التي كانت بمثابة خندق للمدينة، وبنى سوراً حولها، أدخل بموجبه الهيكل داخل المدينة، كما تحدثنا في ص ٤٨٣، وصار المكان منذ ذلك الحين منسياً، وتحول ضريح المسيح إلى معبد ومزار لجوبتير، بينما كانت صخرة أكرأ قد تحولت إلى رابية فينوس، وعلى هذا جرى تكريس المكان كله إلى عبادة الشياطين، وامتلاً بآثام الكفار حتى أيام هيلانة المباركة، التي نظفته من معابد الأوثان، وأعادت تكريسة للمسيح الرب.

أوضاع الضريح المقدس في هذه الأيام وماهو شكله

ثانياً: علينا أن نعرف أوضاع الضريح المقدس الآن، من حيث المظهر والشكل، وبالنسبة لهذا الوصف اعتمدت شخصياً فيما يختص بضريح الرب، على الرواية التي كتبها رجل محترم اسمه يوهانس توخر JO-

hanes Tucher، وكان من أهالي نورمبورغ Nuremburg، وكان قد كتب باللغة الألمانية، وقد أمضى أياماً كثيرة في القدس في سنة ١٤٧٩، أي سنة واحدة قبل زيارتي الأولى، وقد تفحص ضريح الرب بدقة متناهية وأخذ قياساته بيديه، وقدميه، وذراعيه وهما ممدودتين، وكانت روايته معي في القدس، وقد وجدت جميع ماكتبه فيما يتعلق بالضريح المقدس صحيحاً، وقد ترجمتها من اللغة الألمانية إلى اللاتينية وأقحمتها في كتابي عن رحلاتي وجولاتي، لأنها وصف هو حقاً صحيح، وقد كتب من قبل رجل محترم وصادق، وخشية أن يصعب على أي واحد فهم استخدامي للاصطلاحات المساوية، ينبغي أن نعرف مقدماً أنه في أي مكان استخدم السيد يوهانس توخر كلمه Klaftern في كتابه الألماني، وضعت مكانها كلمة «Cubit باع»، ومقياس الباع كما هو مفهوم هو المسافة ما بين ذراعي الانسان وهما ممدودين شروعاً من نهاية الاصبع الأوسط في اليد الأولى إلى نهاية الإصبع الأوسط في اليد الثانية، وحيثما كتب كلمة spanne، وضعت مكانها كلمة «شبر»، ومفهوم هذا القياس هو المسافة عبر الكف الممدود من الابهام حتى البنصر.

وقد وصف الرجل المتقدم الذكر، أي يوهانس توخر أبدة الرب والضريح كمايلي: «بدت أبدة الرب من الخارج تشبه برجاً منخفضاً، وليس عالياً، ولهذا البرج اثنتي عشرة زاوية على أطرافه الخارجية، ويقف عند كل زاوية عمود حجري سداسي، سماكته شبر واحد، وتدعم هذه الأعمدة قنطرة صغيرة فوق الأبدة، ويبرز من هذه القنطرة نوع من أنواع الأفاريز، كله مستدير، وهو بارز مقدار نصف قدم أمام الأعمدة، وقياس البناء المستدير كله، مع أعمدته حوالي الاثني عشر باعاً كبيراً، وهذا القياس يشمل إطار الأبدة كلها من الخارج، لكن المقياس من الداخل هو أقل بتسعة أشبار بالطول، والشيء نفسه بالعرض، والارتفاع من الأرض حتى ذروة القبو المجوف هو قامة انسان ونصف

القائمة.

والضريح أو القبر في داخل الآبدة، موجود على الجهة اليمنى من الغرفة الصغيرة، وهو مغطى بألواح مصقولة من الرخام الأبيض، ومن الممكن إقامة قداس عليه، وعرضه أربعة أشبار وثلاثة أصابع، ومقياس ارتفاعه من الأرض باليد هو ثلاثة أشبار وأربعة أصابع، وباب الكهف الذي يدخل الانسان منه، هو أربعة أشبار ونصف الشبر وثلاثة أصابع من حيث الارتفاع، والجدار — أو الفجوة خلال الصخرة — هو ثلاثة أشبار من حيث السماكة، وارتفاع الآبدة كلها، أو القاعة، فوق الأرض، مع القنطرة، هو باعين كبيرين ونصف الباع، وفوق السطح المحذب للقبو، مبني هيكل سداسي الشكل مثل برج، مع ستة أزواج من الأعمدة ارتفاع كل منها باعين، فوقها يستند سقف الهيكل، بارتفاع باع واحد، والمسافة من سقف هذا الهيكل نحو الأعلى، مقياسها مباشرة من خلال الهواء حتى الفتحة في سقف الكنيسة، المنفتحة فوق الآبدة، والتي من خلالها تضاء الكنيسة، هو حوالي ستة باعات، وهذه الفتحة مستديرة، واتساعها هو بقدر البناء كله أو الآبدة، إلى حد لو أن الآبدة متحركة، ويمكن رفعها نحو الأعلى، لكان من الممكن مرورها من خلال تلك الفتحة.

وعلى هذا من الواضح تماماً أن آبدة الرب قائمة في الهواء، وتتلقى الأمطار والثلوج من خلال الفتحة المتقدمة الذكر، والهيكل نفسه مبني بشكل فني من رخام مصقول، وكان فيما مضى مذهباً من الداخل ومن الخارج، وكذلك الأعمدة والسقف سواء، حسبها هو مشاهد في هذه الأيام.

والارتفاع من أساس هذه البيعة حتى ذروة سقف الهيكل، فوق المبنى الأساسي هو خمسة باعات ونصف الباع، في حين إن المسافة من الأساس حتى الفتحة في سقف الكنيسة هي اثني عشر باعاً، أو أكثر قليلاً، وعلاوة على ذلك، وأنت داخل إلى الآبدة هناك ردهة اتساعها

سته باعات إلا شبراً واحداً، والباب الأول إلى البيعة الصغرى (للضريح المقدس) موجود في وسط هذه الردهة، ويبلغ من حيث الارتفاع باعاً واحداً كبيراً وثلاثة أشبار ونصف الشبر، وطول البيعة القائمة قبل كهف القبر — أي الكهف الخارجي — باع واحد ونصف باع، ولها العرض نفسه، وفيها من كل جانب نافذة مربعة صغيرة، ويوجد في هذا الكهف الخارجي نفسه، على بعد ثلاثة أشبار من باب الكهف الداخلي، حجرة مربعة، مرفوعة فوق قاعدة، ومقياسها شبرين ونصف مربع، وقد قيل بأنه فوق هذه الحجرة جلس الملاك بعد قيامة الرب، وهذه الحجرة هي جزء من الحجرة الكبيرة، التي جرت دحرجتها إلى باب الآبدة، وهي التي ورد ذكرها في ص ٥٠٠.

وإليك الآن هنا وصف أبدة الرب، كما هي قائمة في هذه الأيام، ومن الممكن رؤية صورة الأشياء الموصوفة بالأعين في كتاب الحج الذي كتبه اللورد برنارد فون بريتنباخ Braitenbach، الذي كان رجلاً نبيلًا وبارعاً، وعميداً للكنيسة المطرانية في مينز mainz ، وقد رافقني في حجي الثاني، وقد تدبر أثناء ذلك رسم أبدة الرب بشكل فني، وهذا ما فعله مع الأشياء الأخرى، التي سوف يأتي ذكرها في أماكنها، فقد جلب معه رساماً ماهراً، وجيد التعليم، وقد استأجره ليرسم طباع وعادات ومظاهر المدن الرئيسية والأماكن من ميناء البندقية فصاعداً، وقد فعل ذلك ببراعة وبشكل صحيح، وبناء عليه، يمكن لكل من يرغب أن ينظر إلى هذه الصور، ولسوف يفهم بوضوح الوصف المتقدم الذكر.

وأبدة ضريح الرب، قائمة في وسط كنيسة قيامة الرب، مثل الضريح الذي يوضع في الكنيسة، في أولم، في يوم الجمعة الحزينة، غير أن كنيسة الضريح المقدس مستديرة، ومفتوحة من الأعلى، كما سيفهم القارئ.

ويمكن القول بأن الضريح المقدس له ثلاثة مداخل الأول موجود في

الساحة الصغيرة، التي سميتها أنا الكهف الأول، فلهذه الساحة الصغيرة جدار منخفض إلى حد أن انساناً واقفاً فيها، يمكنه أن يستند عليه بمعدته، وينظر إلى الكنيسة من حوله، ولذلك غالباً ما جلست فوق ذلك الجدار، وألقيت نظرة على بضائع التجار التي كانت موضوعة على البلاط في الأسفل، وفي الحقيقة إن المدخل إلى هذه الساحة الصغيرة لا يشبه الباب، لأنه لا يوجد شيء فوق رأس الذي يدخل إليه، يضاف إلى ذلك هو ليس له أسكفه، بل هو مدخل قائم بين جدارين يواجه أحدهما الآخر، ولو كان هذين الجدارين أعلى، ووضعت أسكفه عبرهما، لكان من الممكن أن يكون هناك باباً.

والباب الثاني هو الذي يقود من الساحة الصغيرة، إلى الكهف الأول في الأبدية نفسها، وهذا الباب مغلق ببوابة، ومقفّل بمغاليق، ومفاتيح هذا الباب هي الآن بأيدي الرهبان اللاتين الفرنسييسكان، لكنه كان قبل بضع سنوات مضت في أيدي الجورجيين، والباب الثالث هو الذي يقود من تلك البيعة، أو الكهف الأول، إلى الكهف الثاني، الذي فيه ضريح الرب، وليس في هذا الكهف نافذة، وليس فيه ضوء سوى ما يصدر عن تسعة عشر مصباحاً مشتعلين فيه، وهذه المصابيح معلقة فوق ضريح الرب، وبما أن الكهف صغيراً، تعمل نيران المصابيح دخاناً ورائحة قلدة، وهذا يزعج كثيراً الذين يدخلون إلى المكان، ويبقون فيه، وبالإضافة إلى المصابيح، هناك كثير من الشموع المحترقة فوق المذبح، وضعت هناك من قبل الحجاج صدوراً عن مشاعر التقوى، ونتيجة لهذا، وبسبب دخان المصابيح والشموع مع بعضها صار وجه السطح الداخلي أسود بالكامل، مع أن المكان مغلف برخام أبيض مصقول شمل الأرض والجدران والسقف، وفي هذا كفاية.

ما الذي ينبغي أن نفكره حول ضريح الرب، هل هو ضريح أم
ضريح آخر بني بدلاً عنه؟

وينبغي في المقام الثالث أن نرى فيما إذا كانت هذه الآبدة، وهذا الضريح المتقدم الذكر هو نفسه، الذي فيه جرى تمديد الرب، والذي منه — كما نعتقد — قد قام، وهناك مصاعب كبيرة حول هذه النقطة أكثر مما هو موجود حول النقطتين المتقدمتين، ومن أجل أن نقرر ذلك سوف أقتبس ماقرأته في كتب الحج القديمة والحديثة، لأنني لا أرغب، اعتماداً على مسؤوليتي الشخصية اتخاذ أي قرار متسرع، يمكنه أن يوقف — أو يضعف — الاحترام الذي هو منتشر بين الناس المؤمنين بالمسيح، تجاه ضريح الرب، علاوة على هذا تنبعث هنا مصاعب في هذه القضية من الأوصاف المختلفة والمتناقضة للضريح المقدس، والتي كتبت من قبل الأقدمين والمعاصرين، وكذلك من الأوضاع المتنوعة لمدينة القدس، كونها تعرضت مراراً للدمار، وكذلك نتيجة للتقوى الكبيرة التي شعر بها الذين زاروا الضريح المقدس، وبذلوا جهودهم لأن يحملوا معهم بعض الأجزاء بمثابة آثار مقدسة عظيمة.

وهناك أيضاً الشكوك التي نجمت عن تغليف الضريح، لأنه ليس من الداخل ولا من الخارج، وكذلك ليس في الآبدة، ولا في المكان الذي جرى تمديد الجسد فيه، ولا أي من الصخور أو الحجارة يمكن رؤيته، بل الجميع كما تحدثنا من قبل، قد جرى تغليفه وتغطيته برخام أبيض مصقول، الأمر الذي لم يكن أصيلاً، ودعونا على هذا نرى الذي اعتقده الآخرون حول هذا الموضوع، ومن ثم دعونا نتبع الرأي الذي يبدو لنا أكثر احتمالاً.

فقد قال رجل مقدس اسمه آر كولف Arculfus، كان قد زار الضريح المقدس، وكان — كما يبدو لي — في القدس، منذ زمن طويل مضى قبل أيام الملوك اللاتين، لابل قبل أن يستولي المسلمون على المدينة المقدسة، بعد أيام الامبراطور هرقل، فلقد قال في كتابه: «في وسط القسم الداخلي من الكنيسة المستديرة، هناك قاعة مستديرة، جرى اقتطاعها من

قطعة صخرة واحدة، وفيها يستطيع الناس الوقوف والصلاة، وعلو السقف المقنطر هو حوالي قدم ونصف قدم، فوق رأس انسان ليس صغير القامة، ومدخل هذه القاعة الصغيرة هو نحو الشرق، وجميع الوجه الخارجي فيها مغطى برخام متخبط، والأجزاء العلوية من سقفها، مزينة بالذهب، وتدعم صليبا ذهبيا ليس حجمه صغيرا، وضريح الرب موجود على الجانب الشمالي من هذه القاعة، وهو مقطوع أيضا من الصخرة نفسها، لكن بلاط القاعة منخفض عن بلاط موضع الضريح.

وهذه القاعة ليست مغطاة من الداخل بأية تزيينات، لكن مرئي على التجويف كله علامات الآلات الحديدية التي صنعها العمال بها، ولون صخرة الأبدية والضريح مزدوج أبيض وأحمر امتزجا معا، وبناء عليه فإن الحجرة نفسها تعطي هذين اللونين، فضلا عن هذا شكل الضريح المقدس أشبه بمضجع قادر على استيعاب انسان واحد متمدد على ظهره، وهو أشبه بكهف، له فتحة تتطلع نحو الجانب الشمالي من الأبدية من الجانب المقابل، وقد عمل فوقه سقف منخفض معلق فوقه، ويوجد في هذا الضريح اثني عشر مصباحا، مشتعلا ليلا ونهارا، وهي حسب عدد الحواريين، ولقد كتب أركولف المتقدم الذكر، بأنه قد رأى هذا ورأى أشياء أخرى كثيرة، ويرينا هذا بأنه قد رأى الأرض المقدسة قبل ألف سنة مضت، وأنا عظيم السرور بهذا الوصف، لأنه يتوافق كثيرا مع الوصف الذي قدمه بيد المبجل، والموجود في ص ٥٢٥.

وهناك حاج آخر، كان قد رأى ضريح الرب في سنة ١٢٠٠ لتجسيد ربنا، وقد قال مايلى: «الكهف الذي فيه ضريح الرب مغطى بالرخام في كل مكان من الخارج، لكنه من الداخل صخرة مجردة مثلما كانت في أيام آلام المسيح»، والآن نحن لانعرف عندما قال بأن جميع الجانب الخارجي من الكهف مغطى بالرخام، هل قصد جميع الوجه في كل من

الداخل والخارج، فإذا كان هذا ما عناه، فوقتها كانت أحواله هي نفسها كما هي اليوم، لكنه إذا قصد أن يقول بأن الوجه الخارجي للقسم الخارجي كان مغلفاً بالرخام، وأنه لم يكن هناك شيئاً من هذا القبيل في الداخل فوقتها يتوافق وصفه مع الوصف المتقدم، وهذا الذي، كما أعتقد، أنه قصده.

وقال حاج آخر مايلي: «بيعة الضريح المقدس مقنطرة، على شكل نصف دائرة، من دون أية نافذة، وفيها الضريح، المنحوت من صخر أصم، إنما خشية من أن يتشظى من قبل الحجاج، جرى تغليفه بالألواح من رخام، وهذه الألواح التي تغطي جزء الواجهة منه، لها ثلاث فتحات، من خلالها من الممكن لمس الصخرة الحقيقية للضريح المقدس وتقبيلها، وهذه الألواح ملصوقة إلى الصخرة ببراعة بلغت حدّاً أن الإنسان قد يعتقد بأن الجميع حجرة واحدة»، وقال هذا الكاتب نفسه: «أعتقد أن مامن كنيسة تحتوي على أي جزء من الصخرة الحقيقية لضريح الرب»، واستطرد يقول: «لأنه لو كان من الممكن حملها ونقلها مع الأيام على شكل قطع وحجارة مطحونة، لكانت نقلت منذ زمن طويل مضى، حتى ولو كانت كبيرة بحجم جبل عظيم»، وقال هذا الرجل نفسه «بأن مامن مصباح مشتعل في الضريح، باستثناء عندما يقيم بعض الحجاج هناك إقامة مؤقتة، فوقتها يدفعون ثمن الزيت».

وهناك حاج آخر، كان موجوداً عند ضريح الرب في سنة ١٤٣٠، وقد ذهب إلى هناك بناء على مبادرة من قبل أحد الكرادلة، ليتفحص هذه المسألة، وقد وصف الضريح المقدس وفق الطريقة نفسها مثلما فعل متقدموه، غير أنه أضاف مايلي حيث قال: «ينبغي أن يوضع في الذهن بأن الآبدة التي بنيت فوق هذه البقعة الأعظم قداسة، هي ليست البقعة التي مُدد فيها بالأصل الجسد الميت للمسيح، لأن الكتاب القدماء قد حدثونا بأن ضريح المسيح قد جرى اقتطاعه من صخرة قاسية واحدة،

وذلك مثل القبور القديمة في هذه البلدان، هذا والضريح الحالي مصنوع من عدد من الحجارة، ليست ملاطة بشكل بارع، مع بعضها بعضاً، ولم يبق هناك أي جزء من الضريح الحقيقي، باستثناء أنه يوجد على الطرف منه، هناك نتوء من جدار البيعة، هي حجرة بحجم رأس انسان، ولونها أبيض، وارتفاعها سبعة أشبار فوق الأرض، وهي التي يجري تقيلها من قبل الحجاج، على أنها أثر من الضريح الحقيقي للمسيح». لقد كان هذا ما قاله.

وقدم آخر الحجاج الذين زاروه روايات متناقضة عنه في كتبهم، وهكذا حاول كل واحد منهم وصف الذي اعتقد أنه رآه، لأن مامن أحد تجرأ على مناقضته، وقال بعضهم إنه يوجد تحت الألواح الرخامية صخرة الآبدة، والضريح المقدس ما يزال موجوداً بالكامل، وقال آخرون بأن مامن أحد يعرف بصورة حاسمة، أو يمكنه أن يؤكد بأن الموجود تحت الألواح هو الصخرة الحقيقية أو غيرها، وأكد آخرون بوضوح بأنه لم يبق من الصخرة الحقيقية ولا حتى قطعة بحجم حبة دخن، ويقولون بأن مردّ هذا إلى عدة أسباب، أولها الكراهية التي شعر بها الكفار نحو المسيحيين، الذين بلغت كراحتهم للمسيحيين من الحدة إلى درجة تدمير كل شيء يحبه المسيحيون ويحترمونه، وبما أنهم يعرفون بأن ضريح المسيح هو أعظم أثر محل للتبجيل لدى المسيحيين، فقد جعلهم يستشيطنون غضباً ضده، ومن ثم دمروه إلى أجزاء.

فضلاً عن هذا، لقد عرفوا أنه طالما الضريح موجود، فإن المسيحيين هم متلهفون دوماً لاسترداد مدينة القدس، لكن إذا ما أزالوه من الوجود، سيصبحون أقل اهتماماً بها، ولذلك لم يتركوا أي جزء منه قائماً، لأن المسلمين غالباً ماتعرضوا لهجمات المسيحيين، وقد قهروا من قبلهم وهزموا، وعندما انتصر هؤلاء المسلمون، وطردها الصليبيين من القدس، انتقموا (كذا) من الضريح المقدس للأخطاء والمصاعب التي

عانوا منها في الأيام الخالية على أيدي الصليبيين، فدمروه، وخربوا كنيسة الضريح المقدس، وجاء ذلك بمثابة إهانة إلى المسيحيين.

وثانياً هناك سبب آخر قدم تعليلاً حول لماذا لم يبق ولا جزء من الضريح المقدس في مكانه هو أنه عندما قهر الصليبيون للمرة الأخيرة وغلبوا من قبل المسلمين وأرغموا على التخلي عن القدس لهم، وغادروها، جاء استسلامهم على شرط أن يسمح لهم بمغادرة المدينة بأنفسهم أحياء فقط، وذلك مع كل شيء أمكنهم أن يحملوه معهم، ووافق المسلمون على هذا، أي على وجوب مغادرتهم للقدس، وهم يحملون معهم كل مارق لهم، ثم قام بطريك القدس مع رجال الدين لديه، وملك القدس مع جميع فرسان المدينة المقدسة، بمغادرتها، ومن المعتقد أنهم في أثناء مغادرتهم حملوا معهم كل شيء كان يعدّ مقدساً، وذلك حتى أساساتها، وكان الضريح المقدس بين هذه الأشياء هو المقدم، وفعلوا ذلك لكي لا يخلفوا شيئاً وراءهم يمكن أن تدوسه أقدام المسلمين، لابل حتى في الأيام الخالية ما برح المؤمنون الذين يزورون هذه البلدان ينقلون معهم، كثيراً من قطع الحجارة والأرض، وبذلك بقدر ما يقدر، ولو استطاعوا لنقلوا البلاد كلها حتى لا تداس بأقدام هذه المخلوقات، وينبغي أن لا يشك أحد في أنهم لو كانوا قادرين على حمل جميع مكان الضريح المقدس، لحملوه، ولذهبوا به، فكيف بنا بالنسبة لصخرة، فقد كان بإمكانهم حملها على شكل قطع، وهناك سبب آخر حول أنهم لم يتركوا شيئاً من الضريح المقدس هو الغيرة الحمقاء المتسرعة وطيش المؤمنين، الذين كان من غير الممكن حبسهم بأي قانون أو نظام ومنعهم من حمل قطع من الأماكن المقدسة، إذا كان ذلك بإمكانهم، وتبرهن هذه الحجة على أن صخرة الضريح المقدس قد جرى نقلها منذ زمن طويل مضى.

وينقض آخرون هذه الحجج، ويحييون على السؤال الأول، قائلين بأن

عداء الكفار لم يكن معلناً قط وحاداً إلى درجة الاعتداء على الضريح المقدس، المحروس من قبل الرب ومن قبل ملائكته، كما مرّ بنا في ص ٥١٢، فنحن نقرأ بأنه عندما قام كسرى الطاغية المتوحش بإحراق القدس، مضى إلى كنيسة الضريح المقدس، ليقوم بتدميرها، ولكن تلبسه رعب شديد عندما اقترب من الكنيسة، ولذلك ابتعد مسرعاً عنها، ولم يستطع الوصول إلى ضريح الرب.

وهم يعلمون أيضاً، أنه طالما الضريح موجود، لن يوفر المسيحيون أية نفقات، بل سيقدمون دوماً لرؤيته، وإنهم لذلك يمكنهم جمع أموال كثيرة من بينهم بالجبايات المفروضة، وأن يربحوا ذهباً وفضة من خلال السماح لهم بالدخول إلى ضريح الرب، ولهذا هم يحافظون على الضريح المقدس كوسيلة للربح والتقدم، وقد زاد الرب محبتهم للمال، حيث يمكن بذلك المال الحفاظ على ضريحه.

كما أنه مستبعد كثيراً، قيام المسلمين، إثر العدوان عليهم من قبل الصليبيين، بطلب الانتقام لأنفسهم من الضريح المقدس، لأن في ذلك خسارة عظيمة لهم، وأنا بالبحري أعتقد أنهم سمحوا ببقائه حتى ينظر إليهم المسيحيون بتقدير أكبر، لأنهم يخافون منهم كثيراً، علاوة على هذا ليس من المنطقي تصديق أن المؤمنين، قاموا وهم يغادرون القدس، بحمل الضريح المقدس من هناك، لأنه كان من صخر أصم، نبت من جوف الأرض، ولنفترض أنهم قطعوا الصخرة حتى سووها بالأرض، فإلى أين — أرجوكم — حملوا الصخور التي قطعوها؟ فأنا لم أرقط في كنيسة في أولم قطعة حجر من الضريح المقدس بحجم اصبع الانسان، يضاف إلى هذا أنني كنت ووجدت في كثير من الكنائس الرئيسية للشرق والغرب.

ولا يجوز أن نتصور بأن المسيحيين جميعاً قد جرى طردهم من القدس، فالذين جرى طردهم هم اللاتين فقط، الذين شنت الحرب

ضدّهم، وليس المسيحيين الشرقيين الآخرين، وبعدما جرى طرد اللاتين، عمل الشرقيون معاهدة مع السلطان، وأدوا يمين الولاء له، وحصلوا على ملكية الضريح، كما سأين فيما يلي، لابل أكثر من هذا، لم يذهب اللاتين جميعاً، ولم يغادروا، بل بقيت أعداد كبيرة منهم هناك، حيث تعايشوا بأنفسهم مع المسلمين، وقد جرى حرمان هؤلاء الناس من قبل البابا، وقرأنا أيضاً، أنه عندما جرى قهر الصليبيين من قبل المسلمين، وقبل أن يغادروا القدس، عقدوا معاهدة معهم، بوجوب استقبالهم لجميع الحجاج القادمين من البلدان اللاتينية، وقد وافقوا على ذلك ورحبوا به، ولهذا استمر السلطان يدفع إلى الحجاج الصدقة اليومية التي اعتاد ملوك القدس على تقديمها إلى الحجاج المقيمين إقامة مؤقتة في مشفى القديس يوحنا، وبذلك فعل السلطان ما كان ملوك القدس يفعلونه.

ولهذا لا يوجد تساؤل حول نقل الضريح المقدس، ومع ذلك إن ماقرأناه في التاريخ هو صحيح، أي أن كنيسة الضريح المقدس قد جرى تهديمها من قبل، ومعها الضريح المقدس، لكن ليس تهديماً كاملاً، وفيما يتعلق بهذه المسألة عملت التجربة التالية: في أثناء بقائي مستيقظاً في كنيسة الضريح المقدس، أخذت بيدي شمعة مضاءة، وذهبت إلى أبدة الرب، التي تفحصتها بدقة متناهية، علني أجد أي مكان غير مغطى بالرخام، وقد وجدت أن الجهة الخارجية كانت كلها مغطاة بالرخام من جميع الجوانب، وعندما دخلت الباب الأول العائد للبيعة الخارجية، وجدت الجدار على الجانبين مغطى بالرخام، لكنني وجدت الجدار الذي أمام وجهي، أي الذي يفصل الكهف الخارجي عن الكهف الداخلي، والذي فيه الباب الذي يقود إلى ضريح الرب، وجدته عارياً، وعندما قربت مصباحي منه، وجدت الجدار مقطوعاً من الصخر، وليس معمولاً من حجارة منحوتة، بل كله قطعة واحدة، مع علامات

الأدوات المعدنية، التي من الممكن رؤيتها بوضوح عليه، وكان يوجد في القسم العلوي، مابداً كأنه صدع، وقد جرى ترميمه بالحجارة والملاط.

وبدا لي من هذا أن ضريح الرب قد جرى تخريبه في إحدى المرات، لكن لم يجر اجتثاثه تماماً، وأن الموجود الآن هو إعادة عمارة، وأنه مابرح قائماً منذ أكثر من مائتي سنة كما هو الآن، سوى أنه الآن مغلف بالرخام بعناية أكبر، خشية أن يقوم الحجاج بالتقاط قطع من الجدران، لاتخاذها آثاراً مقدسة، ولهذا السبب وضعت الألواح المتقدمة الذكر مع الفتحات الثلاث في واجهة الضريح المقدس، لأن الحجاج اعتادوا على الحفر بأدوات حديدية للحصول على قطع منه، وصحيح أن الحجاج بذلوا دوماً جهودهم للحصول على قطع من الضريح المقدس، لم يسمح لهم بفعل ذلك مطلقاً، بل منحوا حجارة أخرى مكان الصخرة الحقيقية، لأن الحراس موجودون دوماً في الضريح المقدس، وهم يوقفون كل من يحاول اقتطاع قطع، وبناء عليه تسقط حجة غيرة وطيش المؤمنين إلى الأرض، لابل حتى إذا افترضنا أنهم امتلكوا هذه الغيرة وهذا الطيش، لم يسمح لهم بالعمل بطيش.

وواضح أيضاً، مما قيل، بأن ضريح الرب، كان الجزء العلوي منه بالأصل مدبباً، وبذلك شابه أعلاه سقفاً له، وكان القبر مغطى بظهر خشن، مثلما اعتيد على صنع أغطية القبور، لكن قام المؤمنون بتسوية هذا الجزء الناتئ، وجعلوا الغطاء مسطحاً، مثل منضدة، حتى يكون من الممكن إقامة القداسات في الضريح المقدس فوق القبر.

ومن جميع ما قيل حول الضريح المقدس، يتوجب على الحاج الهادئ والتقي التمسك بهذه الحقيقة، وهي سواء أكان الكهف كما هو قائم في الأيام الحالية هو صحيحاً وكذلك الأبدية كلها أبدية المسيح، أو فيما إذا كان جزء منه موجود هناك فقط، أو ولا جزء منه هناك مطلقاً، القضية صغيرة سواء من الجهة الأولى أو من الجهة الأخرى، لأن الحقيقة

الأساسية مرتبطة بالمكان المقيم هناك، وهذه الحقيقة لا يمكن نقلها من هناك بأية وسيلة من الوسائل ولا يمكن إزالتها، والحقيقة المقررة هي أنه هنا مكان الدفن الأكثر قداسة للمسيح، وهو مكان قيامته أيضاً، وعلى كل حال قد يكون غير موجود هناك الضريح نفسه الذي جرى تمديد جسد المسيح فيه، يوجد هنا مع ذلك الضريح الذي تمت عمارته للمسيح، والذي غالباً ما جرى فيه الاحتفال بقداس قربان جسده مراراً.

وهو كهف مزدوج، مثل القبر الأصيل تماماً، وهو مماثل بالقداسة، وبالاحترام، والتبجيل، مثله في ذلك مثل الألواح التي صنعها موسى شبهاً للألواح الأولى التي كسرها، والتي كانت تحتوي على الوصايا نفسها، وكانت مساوية لها بقداستها واحترامها، ولذلك أودعت في تابوه العهد، على أنها الأعظم أهمية، والآثار الأعظم قداسة وليكن في هذا كفاية حول الضريح المقدس.

ووجدت في بعض كتب الحجاج القديمة، الأشعار التالية التي وجدت محفورة على أحجار الضريح المقدس، وهذه النقوش أنا لم أرها.

وقد كتب على اللوح المسطح للضريح:

«هنا رقد ميتاً، عندما بموته غلب الموت،

هنا نام الأسد الذي أيقظ العالم وجعله مدجناً.»

وكتب فوق باب الآبدة:

«أنت أيها المار بضريحي هذا اليوم،

انظر إلى العلامات حيث تمدد جسدي،

طوال ثلاثة أيام، عندما مات من أجلك.

وغللت بقوة الشيطان، الذي كان حتى حينه حرّاً.

ومزقت إلى الأبد عصابات الجحيم الجريئة،
وبعثت أولادي، ليعيشوا في الجنة معي.»
وكتب حول قبة الضريح المقدس:
«ماتت الحياة مرة، ودفنت في هذا القبر،
ذلك الموت كان حياة، ومن الموت خلصنا.
لأنه هو الذي حطم قوة الجحيم تحت قدميه،
وبشجاعة قاد عساكره للقاء العدو،
ذلك الأسد جرىء في النصر منذ أن قام،
الجحيم يئن، والموت ينوح، ذلك أنه فقد جائزته.»

وضع جبل أكرأ ووصف مختصر له

يحتل جبل أكرأ المقام الثاني بعد الضريح المقدس، في السمو،
والقداسة، ومع أن وصفه قد تقدم في ص ٤٨٨، مع ذلك جرى تكرار
هذا الوصف هنا، لأن هنا هو المكان المناسب، وهناك بعض النقاط قد
جرى نسيانها من قبل، وجاء ذكرها هنا، وينبغي أن نلاحظ هنا أن جبل
أكرأ، أو الجلجلة هو مكان موجود على الجهة الشمالية من جبل صهيون،
وأن هناك خلافاً، عندما يتحدث الإنسان عن جبل أكرأ، وعن صخرة،
أو جرف أكرأ، فجبل أكرأ يضم شطرا كبيرا من المدينة، وموضع أكرأ
هو جميع المنطقة التي تحتوي على جميع الكنيسة، وصخرة أكرأ تحتوي
فقط على صليب المسيح وصلبيي اللصين، وجبل أكرأ هو الاسم الذي
أطلق على جميع المنطقة المرتفعة، الممتدة من الباب القديم، وجزء منه
ما يزال قائماً، وممتداً حتى كنيسة الضريح المقدس.

وفي الحقيقة هناك طريق جيد فوق الراية من تقاطع الطريق، حيث

قال المسيح للنساء الباقيات: «يابنات القدس لا تبكين علي»، وهكذا صعوداً إلى مكان الصليب، وهناك في الأعلى، ساحة واسعة، عليها تقوم كنيسة الضريح المقدس كلها، وهذه المنطقة كلها هي جبل أكرأ، أو الجلجلة، وعلى هذا الأساس، إن كنيسة الضريح المقدس قائمة فوق جبل أكرأ، لكن صخرة أكرأ هي المكان أو القمة، التي عليها وقف الصليب المقدس مع ربنا مع صليبي اللصين، كما أوضحنا من قبل، وهناك طرق ثلاثة تقود صعوداً إلى هذه الصخرة الأعظم قداسة، والطريق الأول هو من كنيسة الجلجلة، من المكان الذي فيه مركز العالم، والطريق الثاني، هو من كنيسة الضريح المقدس، القائمة تحتها، والثالث من الساحة الخارجية للكنيسة، وجرى اغلاق هذا الطريق الصاعد من قبل المسلمين، مثلما جرى اغلاق الأبواب الأخرى التي تقود إلى الكنيسة، حتى لا يكون أحد من الناس قادراً على الدخول إلى الكنيسة من دون معرفتهم، وعلى هذا إن صخرة أكرأ هي صخرة الصليب، وجبل أكرأ هو جميع المرتفع من بيت الرجل الغني، أو من الطريق المتقاطع المتقدم الذكر، ومع ذلك ينبغي عدم افتراض أن جبل أكرأ هو مكان مرتفع، يشرف على جميع الأماكن من حوله، لأنه يوجد على كل من الجانب الغربي، والجانب الجنوبي، أماكن أكثر ارتفاعاً منه، وهي تسمى جبلاً بالمقارنة مع الأماكن التي يصعد الإنسان منها إليها، كما قيل.

وفي هذا كفاية، ومن أجل روايات أكثر حول هذا الجبل، انظر ص ٤٨٨ المتقدمة، وكذلك ص ٢٥٥ المقبلة .

وصف كنيسة الضريح المقدس وترتيباتها

في وصفنا هيكل أو كنيسة الضريح المقدس، سوف نتفحص أربع نقاط: أولها: من الذي بناها؟ وثانيها: أي مجد وتشريف تلقت في الأيام الغابرة؟، وثالثها: ماهي أحوالها في الأيام الحالية، ورابعها: من الذي

يتولى ادارتها، والفوارق بين مختلف الطوائف التي تعبد المسيح فيها،
ولسوف نقدم وصفاً كاملاً نتيجة لفحص هذه النقاط الأربع، وبالتالي
تقديم فهم كامل لها جميعاً.

من الذي أسس كنيسة الضريح المقدس وكم من المرات هدمت وأعيدت عمارتها

من الذي بنى كنيسة ضريح الرب؟ إن هذه مسألة مختلف حولها،
بسبب اختلاف الروايات التي قدمها الذين كتبوا حول هذا الموضوع،
فبعضهم يرى بأن هذه الكنيسة قد كانت هيكل فينوس الذي بناه
اليوس هدريانوس فوق مكان الصليب والقيامة، وأن القديسة هيلانة
عندما جاءت ألقت بالأوثان، وكرست البناء للمسيح.

ويقول بعضهم بأنها دمرت دماراً كلياً الهيكل المتقدم الذكر، وبنيت
هذه الكنيسة، ونقرأ أيضاً في كتب الحروب بين الصليبيين والمسلمين،
بأن كنيسة الضريح المقدس غالباً ما جرى تهديمها (كذا) من قبل
المسلمين، وأعيدت عمارتها من قبل الصليبيين، وكان كسرى قد سعى
إلى تخريب هذه الكنيسة، لكنه ارتعب بقوتها الربانية، وهرب منها،
ويقال أيضاً أنه عندما احتل التتار الأرض المقدسة والقدس (لم يحتلوها)
قاموا بتهديم كنيسة الضريح المقدس في الوقت الذي استولوا فيه على
المدينة، لكن ليس بعد مضي وقت طويل على هذا جاء امبراطور
القسطنطينية إلى القدس، وأعاد بناء الكنيسة وفق الشكل الذي كانت
عليه من قبل، وبعد هذا شفى المسلمون غليل غضبهم من المسيحيين
بانزاله على هذه الكنيسة، ودمروها كلياً، لكن واحداً من أباطرة
القسطنطينية أعاد عمارتها.

ومن أجل رواية صحيحة وموثوقة حول هذا الموضوع،
انظر ص ٢٦٤ ظ، وكذلك حول وصف موضع الصليب،

والضريح.

كيف كان الضريح المقدس رائعاً في الأيام الخوالي: آثاره وتزييناته.

كان هذا الهيكل رائعاً جداً في الأيام الخوالي في بنائه وخدماته، ولم يكن مقدساً بسبب الأماكن المقدسة التي يحتويها، ولكن أيضاً بسبب الآثار المقدسة الثمينة التي كانت محفوظة فيه، فقد كان محفوظاً فيه الصليب المقدس، كما أوضحنا في ص ٤٧١، مع بقية أدوات آلام المسيح التي عثرت عليها القديسة هيلانة، وكان هناك أيضاً، فيما تقدم من أيام، معروض في الكنيسة سلسلة عظيمة كانت قد وضعت حول عنق الرب يسوع، عندما جرى اعتقاله في الكنيسة، وكانت هذه السلسلة هي التي كان الحجاج يضعونها حول رقابهم عند زيارتهم للكنيسة، وقد تم صنع عدد كبير من المعجزات بوساطتها.

وكان فيها كأس كبير من الفضة، وهو الكأس الذي تشارك به الرب يسوع مع حواربيه في العشاء الأخير، وهو الذي قال عنه: «هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي» (لوقا: ٢٢ / ٢٠)، وكان هناك أيضاً الطشت الذي غسل فيه الرب يسوع أقدام حواربيه أثناء العشاء الأخير، وكان في هذه الكنيسة المنديل الثمين جداً، الذي ربطته مريم العذراء الأعظم مباركة حول رأس الرب يسوع عندما أنزل من على الصليب، كما تحدثنا في ص ٤٩٦، وقرأنا عن هذا المنديل في الاصحاح العشرين من انجيل يوحنا، أن بطرس عندما دخل إلى الضريح رأى الملابس الكتانية موضوعة هناك، والمنديل الذي كان حول رأس يسوع لم يكن موضوعاً مع الملابس الكتانية، بل ملفوفاً في موضع وحده، وقد بقي موضوعاً في الضريح لبضعة أيام بعد قيامة المسيح.

وحدث أنه عندما انتشرت اشاعة قيامة المسيح، دخل واحد من اليهود بشكل سري إلى ضريح الرب، فوجد هذا المنديل ملفوفاً بعناية،

فأخذه وحمله إلى بيته، ذلك أنه كان يهودياً فقيراً وتعيساً، ومن الساعة التي جلب فيها ذلك المنديل إلى بيته، بارك الرب بيت ذلك اليهودي، وصار غنياً ومشهوراً، وعندما أدرك اليهودي هذا، أغلق على المنديل بعناية عظيمة، على أساس أنه كنز ثمين جداً، ومع ذلك لم يتحول إلى المسيحية، وبقي مصرّاً على كفره حتى النهاية، ووقتها دعا إليه ولديه وقسم بينهما مقتنياته، حيث أعطى المنديل إلى الأكبر، وبقية ممتلكاته إلى الأصغر، وعامل الابن الأكبر المنديل باستخفاف مع أن أبيه قال له بأنه أكثر قيمة من ثرواته الأخرى، وقام بمبادلتها وأخيه الأصغر، وهكذا صار المنديل إلى يدي الأخ الأصغر، الذي ازدهر أكثر فأكثر كل يوم، في حين من جهة أخرى تراجعت أوضاع الأكبر وتدهورت يومياً، وعندما تقدم وارث المنديل بالسن كثيراً منحه إلى أكثر أولاده محبة لديه، وحدثه عن فضائله وعن المكان الذي وجد فيه، وقد تسلم المنديل فصار فجأة رجلاً غنياً، وهكذا باستمرار صار يهود هذه الأسرة أكثر غنى واحتراماً، وآل المنديل بحق الوراثة من أب إلى ابن حتى الجيل الخامس، حيث وقتها نشب خلاف بين أخوين حول المنديل، وأصبحت المسألة معروفة، ولدى سماع المسيحيين بذلك حركوا مطلبهم بالمنديل على أساس أنه ملكهم، لكن اليهود كانوا غير راضين باعطائهم إياه بأية وسيلة من الوسائل، وهنا تفجر هياج عظيم في القدس، وقاتل المسيحيون اليهود من أجل المنديل، ولإنهاء هذا الخلاف قرر عقلاء الناس دعوة قاضي وحكم حول هذه المسألة، على أن لا يكون مسيحياً ولا يهودياً، بشرط التزام الفريقين بقراره، وعندما جرى الاتفاق على هذا، تمّ استدعاء مابيوس Mabiوس ملك المسلمين لإعطاء قرار حول المنديل، وجرى إخباره بجميع الملابسات من قبل الطرفين، وفي اليوم المحدد جرى استدعاء جميع الناس من مسيحيين ويهود وسواهم، وجلس على كرسي القضاء في مكان عام، وأمر باحضار المنديل إليه، فجلب إليه في صندوق، فأمر بعد ذلك باحضار خشب وبايقاد نار عظيمة بين الناس،

ووقف اليهود على الطرف الأول للنار، ووقف المسيحيون على الطرف الآخر، ووقف المسلمون فيما بينهما، وعندما تناول الملك المنديل بيده، صرخ بصوت مرتفع: «يا عيسى الناصري، هاهنا منديلك، فقرر أنت إلى أي الفريقين هو»، وما أن أكمل قوله هذا حتى رمى بالمنديل في اللهب، وبعدما رماء بقي في النار لوقت قصير، وظن الجميع أنه قد احترق، لكن عجباً ارتفع فجأة من النار من دون أن يلحقه ضرر، وحلق عالياً، وبدأ بالطيران، مثلما يطير الطير بجناحين ممدودين، وبعدما طار واستدار حول المكان في الهواء لبعض الوقت، بدأ ينزل بالتدريج، وهنا وقف الجميع بوجوه متشوقة وأيد مرفوعة تراقب إلى أي الفئات سوف يطير، وكان هناك ملاك يوجهه، ولذلك استقر فوق أذرعة المسيحيين، الذين تسلموه وهم جاثين على ركبهم، وحملوه وسط سرور عظيم إلى كنيسة الضريح المقدس، وقد بقي هناك لسنين طويلة وكثيرة، وكان مبجلاً كثيراً، ولم يكن الأقل مكانة بين آثار الضريح المقدس.

علاوة على ذلك، ميز الرب في الأيام الخوالي هذه الكنيسة بكثير من المعجزات، من بينها المعجزة الظاهرة، والتي كانت تحدث كل أمسية عيد الفصح، فعندما كان يجتمع الناس مع بعضهم، ويجري اطفاء جميع الأضواء، حتى لا يبقى في الكنيسة كلها ولا شرارة واحدة، هنا كان يحدث فجأة أثناء ترتيل رجال الدين للقداس، والناس يصلون، في لحظة ينزل ضوء من السماء، وفي لحظة نزوله يعم الكنيسة كلها، إلى حد أن مامن أحد من الحضور كان يمكنه أن يحدق بذلك الضوء السماوي، وبهذا الضوء تشتعل شموع الفصح، وبقية المصابيح والشموع، وعندما يحدث هذا كان هذا الضوء يغادر، وحدثت هذه المعجزة لسنوات كثيرة، وعندما توقفت سقط ضريح الرب على الفور بأيدي غير المسيحيين، ويقولون أيضاً إنه عندما جرى مؤخراً استرداد الأرض المقدسة، عادت تلك النار المقدسة، وأضاءت الشموع، لكنها عندما توقفت عن النزول،

جرى طرد الصليبيين، لأنها إشارة واضحة إلى المسيحيين، أنه عندما تظهر نار الفصح، يكونون سكاناً جديرين بالأرض المقدسة، ومتملكين لضريح الرب، وعندما لا تظهر، وإن كانوا بالفعل متملكين للأرض المقدسة، فإن مملكتهم سوف تزول بالحال، وفي هذه الأيام يجتمع المسيحيون الذين هم بالقدس، جميعاً، في الكنيسة، في أمسية الفصح، ويحبس الأرثوذكس كاهنهم في آبدية الرب مع شمعة غير مضاءة، وهو يعيدها مضاءة، مصحوبة بصوت مرتفع، ومنها تتم إضاءة جميع المصابيح، لكنها لا تضاء بمعجزة بل بشكل مصطنع، ومع ذلك يرفع الرعاع أصواتهم إلى السماء، وهم يحمدون الرب، وكأن معجزة قد عملت، ولذلك تصل أصواتهم إلى بين الناس، لابل حتى إلى مابين المسلمين، هذا ولقد سمعت بصدق، المسلمون يقولون: «إذا ما استطاع المسيحيون أن يبرهنوا حقاً، بأن النار قد نزلت من السماء، كما يقولون ويفعلون، ويمكنهم برهنة ذلك لنا، لكننا راغبين بالتحول إلى عقيدة المسيح»، لكن ويا للأسف: «آياتنا لا نرى. لاني بعد. ولا بيننا من يعرف حتى متى» (مزامير: ٧٤/٩)، وبشأن هذا الضوء الاعجازي والنار، وشمعة الفصح، لم يقل جيروم شيئاً في كتبه التي قرأتها، مع أنه قد كتب رسالة بليغة، ومكتوباً جميلاً إلى الشماس بريسيديوس Presidius حول موضوع ضوء شمعة الفصح، ومثل هذا لم يشر غريغوري أوف تور — وهو كاتب كتب حول موضوع المعجزات القديمة — ولا إشارة إلى تلك النار.

وفيما يتعلق بهذه النار، هناك حكاية جميلة موجودة في ص ٢٦٤، ويضاف إلى ما أخبرتكم به، جرت العادة على عقد اجتماعات ومناظرات في هذه الكنيسة ضد الهرطقة، وكان الذين يحضرون إما أن يقنعوا بأخطائهم عن طريق المناظرات حول الايمان الصحيح، أو بوساطة المعجزات، من ذلك على سبيل المثال، نجد سيرل Cyril قد أشار في

رسالته إلى أوغسطين إلى بعض قادة فرق الهرطقة الذين أفحموا هناك.

ونقدم هنا وصف كنيسة الضريح المقدس في هذه الأيام وأوضاعها الحالية

والذي بقي لنا هو أن ننظر إلى أوضاع كنيسة الضريح المقدس في هذه الأيام، وهنا علينا أن نلاحظ بأن هذه الكنيسة لها ثلاثة أسماء لأنها كنيسة مزدوجة، وكل جزء منها له اسمه الخاص، ولها كلها مجتمعة اسمها الخاص.

فالكنيسة التي تقوم فيها أبدة الرب، اسمها كنيسة الضريح المقدس، والكنيسة التي فيها مركز العالم، والواقعة على مقربة من أكرا، اسمها كنيسة الجلجلة، وهاتين الكنيستين مع بعضهما اسمها كنيسة البعث، أو كنيسة قيامة الرب، وهي في الحقيقة كنيسة واحدة، لكن صحنها الذي يحتوي على الضريح المقدس، يطلق عليه اسم كنيسة الضريح المقدس، وتدعى سدة هذه الكنيسة نفسها باسم كنيسة الجلجلة، لأنها قائمة فوق مكان اسمه الجلجلة، وهذه الكنيسة كبيرة وفخمة، ولا يوجد هناك أكثر من الصحن، الذي يقوم فيه ضريح الرب، دون أن نحسب السدة، ذلك أن هذه بنفسها تكوّن كنيسة كبيرة، وهذه الكنيسة — دون أن نحسب السدة — مستديرة، مدعومة خلال الدائرة كلها بأعمدة رخامية، وقطرها بين الأعمدة هو ثلاثة وسبعين قدماً، ومن مؤخرة الأعمدة حتى جدار الكنيسة هو ثلاثين قدماً، وتمتد هذه المساحة من حول الدائرة كلها، وتشكل ممراً بين الأعمدة والجدار الخارجي للكنيسة، وهذا الممر ممر مقنطر، ويستند السقف المقنطر من الجانب الأول على الأعمدة المتقدم ذكرها، ومن الجانب الآخر فوق الجدار الخارجي، وكان فوق هذا السقف المعقود فيما مضى ممر عام مستدير، ومذابح، وبجوار باب الكنيسة هناك درج حجري يقود صعوداً إلى هذه الشرفات، وهناك في الوقت الحالي غرف متعددة، وشرف مفصولة احدها عن الأخرى

بجدران، فيها يمارس المسيحيون من الطوائف الأخرى عباداتهم، وهناك أقواس تمتد من عمود إلى آخر، فوقها جدار صاعد حتى السقف، وفي هذا الجدار نوافذ من خلالها يستطيع الانسان أن ينظر إلى الكنيسة من الشرفة المستديرة فوق العقد، ويمكنه أن يلقي نظرة على ضريح الرب.

وليس للجزء العلوي من هذه الكنيسة المستديرة سقف حجري، بل سقف خشبي معمول من عوارض من الأرز، مرتبه بشكل هو أنها عوضاً من أن تلتقي في القبة، تلتقي العوارض الصادرة من الجدار احداها مقابل الأخرى في دائرة كبيرة، وتشكل بذلك فتحة مستديرة من خلالها ينتشر الضوء خلال الكنيسة كلها، وتحتها مباشرة، أي تحت هذه الدائرة، تقف أبدة الرب، وهي معرضة للأتواء، وقد تم شرح هذا في ص ٥٢٨.

والعوارض والألواح الخشبية مغطاة بالرصاص من جهتها الخارجية، وأعني بذلك الجهة التي تتطلع نحو السماء، إنما من الجانب الداخلي مطلين بمختلف الألوان، والجدران تحت السقف، وتحت الأقواس، مزينة بصور من العهد الجديد، بأعمال من الفسيفساء، لكن الشخصيات الثمينة تساقطت إلى قطع، وليس هناك من يمكنه إعادة الأجزاء الساقطة، ومن حول هذه الكنيسة المستديرة هناك كثير من البيع، كما أوضحنا في الرواية حول المسيرة، وفي وسطها يقوم ضريح الرب، وهناك في الجهة الشرقية سدة واسعة وجميلة، وفيها يتطلع باب الضريح المقدس بشكل مباشر، وكأنهما يقفان باب إلى باب.

ويوجد في وسط السدة قبة واسعة وعالية، معقودة فوق المكان الذي يوجد فيه مركز العالم، وهناك طريق للصعود إلى قمة هذه القبة في الخارج، حيث يمكن للانسان أن يرى بالتجربة أن هذا هو مركز العالم، كما قلت من قبل في ص ٤٩٧، وهذه السدة هي ملك للأرثوذكس، وإلى جانب المذبح هناك العرش الرخامي للبطريرك، الذي كتب عليه

بأحرف لاتينية قديمة جداً.

“Cracifxum in carne laudote, et sepultum propter
nos gloricate, resurgertemque amortuis adorate”

وقال مؤلف كتاب “Specalum Historiale” بأنه كان مكتوباً
فوق المكان الذي أقيم عليه الصليب النقش التالي: خلاصاً Sophias
عمل ergase قبل العصور proaenon، ملكنا Basileus Imon،
الأرض Tisgis، في وسط en meso، الرب Otheos.

ويوجد في هذه الكنيسة كثيراً من البيع، فوق وتحت، وفي الداخل
والخارج، هن الآن مهملات، لكن فيما مضى كانت تشتعل فيهن
المصابيح، وكانت مذابحهن تلمع بالذهب، ونوافذهن مزججة، لكن
الآن ليس فيهن مصابيح، والمذابح مخربة، والنوافذ مغلقة، ومسكرة
بالحجارة، فالجزء الأكبر من النوافذ مسكرة بالحجارة، وكذلك جميع
الأبواب مسكرة، باستثناء باب واحد، مفاتيحه محفوظة لدى المسلمين،
ومن هذا الباب يدخل الانسان إلى الكنيسة، وعلى الجانب الغربي هناك
درجات تقود إلى باب مغلق بثبات، وهذا الباب هو الذي حاولت مريم
المصرية، فيما مضى، الدخول منه، لكنها أبعدت، ولم تتمكن من
الدخول، حتى تعهدت بتقويم حياتها، وذلك كما جاء الخبر بوضوح في
كتاب «حياة الآباء».

ونتيجة لهذا الاغلاق للنوافذ والأبواب، الكنيسة مظلمة، لكن بلاط
الكنيسة كلها مستو، وهو من رخام مصقول، وهكذا حتى وإن مشى
الانسان في الظلام، إنه لا يعثر، وفي أحد أجزاء الكنيسة، خارج الجدار
هناك صهريج واسع، يحتوي على ماء رائع لاستخدامات حراس
الكنيسة، وفي مكان آخر هناك طريق خارج الكنيسة، يقود إلى ساحة
غير مغطاة، محاطة بجدران عالية، وفي هذه الساحة أماكن لاثقة للناس

لقضاء حاجاتهم.

وملتصق بهذه الكنيسة برج مرتفع، قد بني من حجارة الرخام الأبيض، فيه كان يعلق فيما مضى نواقيس، والعوارض الخشبية، وأعمال الخشب الذي كانت تدعمهم، من الممكن رؤيتها في الجزء العلوي حيث كانت تعلق، لكن عندما فقدت القدس، أُلقيت أرضاً جميع النواقيس، لأن عقيدة محمد (صلى الله عليه وسلم) لا يمكنها تحمل النواقيس، لأن لديهم أوامر في قرآنهم بعدم استخدام النواقيس من أجل عبادة الله، كما أنهم لا يسمحون باستخدامهم، ومع ذلك قد قيل بأنهم يحبون دقاتهم، والسبب الذي يمنعهم عن استخدامهم هو خشيتهم من تقليدنا، الأمر الذي احتاط محمد (صلى الله عليه وسلم) ضد استخدامه، ومنعه، وهذا البرج هو أول جزء يراه الانسان، عندما يقدم من بيت عنيا إلى القدس، فهذا ما لاحظته دوماً.

والاسكفة فوق باب الكنيسة هي من أنصع الرخام بياضاً، وقد نحت عليها في الجهة الخارجية صوراً تمثل دخول ربنا إلى القدس، راكباً على أتان، وطرده للباعة والشارين من الهيكل، وإقامته للعازر من الموت، لكن هذه التماثيل محطمة بعنف، وأطرافها مشوهة، ويوجد فوق أبواب الكنيسة هذه الأشعار، حيث قيلت لتتنقش فوق الحجر، مع أنني لم أستطع رؤيتها:

“Anno millno centeno quoninus uno,

Quindecies nilojan phoebilumino Tacto,

Vitae plus sacrae studio mitigare acre,

Jerusalem Franci capiunt virtute potenti”

ويقف في ساحة الكنيسة أعمدة من الرخام الغالي جداً، وتدعم هذه

الأعمدة سطحاً معمداً، وتزين الرواق، وإذا مارغب أي واحد أن يرى شكل هذه الكنيسة، عليه أن ينظر في كتاب «الحج» الذي كتب من قبل اللورد المشهور، والرجل البارع، اللورد برنارد أوف بريتنباخ، عميد الكنيسة المطرانية في مينز، حيث سيكون بإمكانه رؤية صورة الكنيسة وقد رسمت بوضوح، يراها وكأنه واقف في الساحة وينظر إليها بعينه.

كيف أن الشفاء عام لجميع المسيحيين، وكيف أنه لا يسمح للحجاج بالدخول ما لم يدفعوا رسم الكنيسة، والطريقة التي يدخل بها الانسان إلى الكنيسة وأنواع الطوائف في الكنيسة

رابعاً وأخيراً علينا أن نتفحص الذين يسكنون في الكنيسة المتقدمة الذكر، وهم الناس الذين يتولون إقامة القداسات هناك، وبالترابط مع هذا الموضوع سوف نرى مسائل مخيفة ولا مثيل لها، فقد عملت هذه الكنيسة على مثال سفينة نوح، التي كان فيها جميع أنواع البهائم، من نظيف وغير نظيف سواء، وذلك باستثناء السمك، وهنا أيضاً لا يوجد سمك، أي ليس هناك من هو غارق في مياه عدم الإيمان، ولاوثنيين، ولا واحد ينكر بشكل حاسم المسيح، فإمن واحد من هؤلاء يمكنه أن يجد مكاناً فيها، ولا يمكنه الحصول على موطن قدم فيها، تماماً مثلما لا تستطيع الأسماك العيش خارج الماء، و فقط هم أتباع المسيح الذين يعيشون هناك، وذلك سواء أكانوا نظيفين في الإيمان الصحيح أو غير نظيفين، ملوثين بالهرطقة، وسواء أكانوا متحضرين من أتباع الإيمان الكاثوليكي، أو أناساً متوحشين من غابات الردة والانشقاق، فهنا جميع الأجناس التي تعبد المسيح كرب، مهما كان نوع اعتقادها وإيمانها، سواء أرأت فيه خالداً مع الأب ومساوياً له، أم لم تر ذلك، وسواء أعدته خالقاً أو مجرد مخلوق، أو انساناً حقيقياً أم شبحاً، وسواء اعتقدوا بأنه تألم، أم لم يتألم، وسواء أمات أم لم يموت، وسواء أكان للقربان أية قوة، أو لم يكن، وسواء أكان البابا هو نائب المسيح أم لا، فكل واحد من هذه

الطوائف يمكنه أن يجد شخصاً من طائفته ومعتقده في هذه الكنيسة، ومسموح له بالدخول إليها.

وفي هذه الأيام إذا ما جاءت أية طائفة مدنسة بأية هرطقة فظيعة، ومامن أحد من الذين موجودين في الكنيسة المقدسة يمكن أن يرضى بالسماح لها للدخول وممارسة طقوسها، يقوم السلطان بتعيين سدة لهذه الطائفة نفسها، ومكاناً للإقامة خاص بها في تلك الكنيسة، حتى لو أنها اعتقدت بأن المسيح كان وحشاً ولم يكن بشراً، فالذي يكفي قولها بأن المسيح كان رباً، فليس هناك من هو ممنوع، وليس هناك أحد مطرود ومبعد، فكل من يدفع إلى المسلمين رسم الكنيسة، وهو خمس دوقيات للدخول، يدخل إليها، مهما كان غير نظيف، وهم لا يفتحون الكنيسة لأي مسيحي دون دفع للخمس دوقيات، وفي هذا هم لا يوفرون حتى رهبان جبل صهيون، حيث لا يسمحون لهم بالدخول من دون دفع هذا الرسم، باستثناء الدخول في موسم زيارة الحجاج إلى القدس، فوقتها يمرون مجاناً، وفي الوقت الذي يكون فيه الحجاج بعيدين عن القدس، لا يكون بإمكان الرهبان تغيير الحرس في الكنيسة، بل إن الذين أرسلوا إلى هناك ليكونوا مسؤولين عن الحجاج ويفوض إليهم أن يكونوا حراساً للضريح المقدس، يبقون هناك دونما تبديل، حتى قدوم الموسم التالي من الحجاج، والرهبان الذين وضعوا في الكنيسة حراساً لا يمكنهم الخروج من الكنيسة، كما لا يمكن للرهبان الآخرين الدخول إليها مالم يدفعون الرسم، وعليهم أيضاً دفع الرسم إذا ما رغبوا في تغيير الحراس.

وعلى كل حال هم يفتحون أبواب الكنيسة مرتين في السنة، ويسمحون بدخول جميع المسيحيين مجاناً، ومواعيد الفتح هذه، هي من الجمعة الحزينة حتى اثنين الفصح، ومن ليلة اكتشاف الصليب حتى العشاء في اليوم التالي، وتكون الكنيسة في هذه الأيام مزدحمة بالرجال

والنساء، من جميع بلدان العالم، ويكون هناك كثيراً من التدافع والفوضى بسبب الحشد الهائل من الناس، ووقتها يسمع الانسان هناك الناس يتحدثون بجميع لغات العالم، وفي تلك الأوقات يعقد سوق في الكنيسة للأشياء الثمينة النادرة، وباستثناء هاتين المناسبتين لا تفتح الكنيسة أبداً، إلا مقابل مال حاضر، وقبل ذلك ليس بوقت طويل كانت الأحوال والأزمان مختلفة، فوقتها كان المسيحيون الكاثوليك قادرون على الدخول إليها من دون مقابل، وفي أي وقت أرادوا، ولم يكن مسموحاً بأية حجة من الحجج لأي هرطقي أو منشق، بالدخول إلى الكنيسة، برسم أو بدون رسم، لكن منذ أن جرى الاستيلاء على ضريح الرب من قبل الأعداء، صار الحجاج سجناء، ولم يعد بإمكانهم فعل أي شيء في القدس، باستثناء مارضي به المسلمون.

وقبل عدة سنوات مضت كانت عادة المسلمين قد جرت على فتح الكنيسة عند شروق الشمس وابقاء الحجاج مغلق عليهم بها حتى العشية، ومن ثم اخراجهم عند غياب الشمس، وكان هذا محمولا، غير أنهم يديرونها الآن بطريقة معاكسة، ذلك أنهم يفتحون لنا الأبواب في وقت متأخر، ويخرجوننا منها في الصباح، وهو أمر مزعج جداً، ومربك، لأننا نحصل على قليل من النوم، أولاً ننام في الليالي التي نمضيها في الكنيسة، بسبب الزيارات المتوالية التي تتم إلى الأماكن المقدسة في مسيرات، وبسبب القداسات السماوية المتوالية، وأيضاً بسبب الصرخات والأصوات الغريبة العالية التي تصدر عن المسيحيين الشرقيين الذين يملأون الكنيسة طوال الليل بسبب أصواتهم النشاز، مع صفقات التجارات، وأخيراً بسبب الأعداد الهائلة للذباب، الذين يقفزون فوق البلاط وفي كل مكان، وعندما يحاول أي انسان أن يتمدد للنوم أو للصلاة، يتغطى على الفور بالذباب، ولا يمكنه الحصول على الراحة.

ومن أين يأتون، أنا لا أعرف، إلا إذا كانوا يتوالدون بشكل طبيعي من الرخام، ومن المحتمل أن حرس الكنيسة يتولون تغذيتهم، لذلك أنا لم أقتلهم، وبعد ليلة من التعب هكذا والسهر، يتوجب علينا في اللحظة التي نخرج بها بالقوة، أن نكون وقتها مرغمين على الذهاب إلى أماكن مقدسة أخرى، ويجعلنا هذا عرضة للمعاناة من مزيد من الازهاق، وعلى هذا كان الحجاج دوماً منهكين تماماً، من السهر، والصوم، والتعب، ونادراً ما كان يسمح لهم بوقت لتناول وجبات سريعة، وذلك أن هذا النظام يضغط عليهم بشدة في هذا المجال، علماً بأنه من كثير من الجوانب أفضل من النظام الآخر، حيث أنه من الأفضل الحبس في الكنيسة أثناء الليل منه في النهار.

أجناس الناس المتنوعة التي تسكن في كنيسة الضريح المقدس

بما أن المخلوقات المتنوعة تزين العالم، وتظهر الكمال الرائع للخالق، كذلك الأمم المختلفة، والطبائع واللغات، والطقوس، التي تتعبد بكثرة الكنيسة الكاثوليكية، يمكنها أن تظهر روعة كمال مخلصنا، لو أن العناد، والاصرار على الآثام المقيتة من قبل الكفار، والهراطقة، والمنشقين، لم توجد بينهم، مع أن حتى وجود هذه الأمور يبرهن بأن الرب رائع وكامل، وهكذا فإن كنيسة الضريح المقدس أكثر جمالاً من جميع الكنائس الأخرى في العالم، ومنشأ ذلك من تنوع الأمم التي تحمد الرب فيها، مع أن الذين يدخلون إليها يثيرون التقزز والانزعاج الكبير بآثامهم المقيتة، واعتاد المسيحيون من جميع أجزاء العالم، والذين كانوا يتحدثون بمختلف اللغات، على الدخول إليها، في الأيام الطيبة الخالية، وكانوا يدخلونها رغبة في عبادة الرب من دون أية ذنب، أو خيانة، أو أوهام، بينما كان الأناس المحرومين كنسياً، والمنشقين، والهراطقة المنبوذين، الذين مع الأسف، الكنيسة الآن مليئة بهم، وأبنيتهما المقدسة قد تلوّث بهم، كانوا غير مسموح لهم بالدخول.

ويوجد — على كل حال — هناك سبعة أنواع مختلفة من المسيحيين في هذه الكنيسة، لكل منها طائفتها، وطقوسها الخاصة بها، وسدتها، مع أخطاء مميتة ومتنوعة، لابل يتناول بعضها حتى أسس العقيدة، وسوف نحتاج إلى وقت طويل للحديث عن هذه الأخطاء، لكن إذا مارغب أي إنسان أن يحصل على فكرة في داخل هذه المسألة، عليه قراءة كتاب الحج، تأليف مولاي عميد مينز، الذي كتب إليه من قبل العالم المبجل المختص باللاهوت، الأب مارتن روث Roth، الذي هو من دير الدومينيكان في فورزهايم forzhaim ، والذي يحكم اختصاصه، قد أضاف إلى كتاب الحج ذاك، رسالة مطولة وصحيحة حول الأخطاء العقائدية للساكنين في القدس، ولهذا لن أقارب هذا الموضوع مطلقاً، أو سألامسه فقط، بشكل خفيف، والذي سوف أتناوله فقط هو باختصار موضوع الأماكن التي تشغلها في الكنيسة المقدسة هذه الأقوام.

اللاتين الكاثوليك

إن المسيحيين اللاتين هم في المقام الأول، وهم كاثوليك حقيقيون، ويطلق عليهم اسم الفرنجة من قبل المسلمين، وهم يسكنون في هذه الكنيسة، وهم محافظون بإيمانهم، ورهبان أتقياء محترفون، ورجال الدين، من طائفة الفرنسييسكان هم الذين يمتلكون — كما قلنا من قبل — ديراً على جبل صهيون، فيه عدد كبير من الرهبان، يبلغ تعدادهم أربعة وعشرين راهباً، وهم يعيشون تحت أحكام نظام طائفتهم، ويتلقون الدعم والصدقات من الحجاج الأتقياء الذين يأتون إلى هناك من جميع بلدان المسيحية، وكذلك من قبل بعض الأمراء المؤمنين، الذين تدفعهم تقواهم نحو الأماكن المقدسة ونحو التقوى المسيحية، إلى عدم التوقف عن إرسال عطايا صدقاتهم السنوية إلى هناك، وفي الحقيقة قام فيليب دوق بيرغندي، صاحب الذكرى المباركة برسم دفع مبلغ ألف دوقية سنوياً للأماكن المقدسة، مادام حياً، وذلك في سبيل خلاص نفسه،

ودعماً للرهبان الذين يتعبدون الرب هناك، ومثله كذلك فعل ابنه شارل، طوال وجوده في هذا العالم، وكذلك يفعل مثله خليفته في الأيام الحالية، اللورد الواسع الشهرة وصاحب المكانة السامية ماكسيميليان، دوق النمسا وبيروغندي، الذي هو الآن الملك الأعظم مجداً، والمنتخب ملكاً للرومان حيث يأخذ بمثل أسلافه في دوقية بيرغندي، ويقلدهم في ارسال المعونة المقررة للرهبان سنوياً، ومن أجل بيان عن هؤلاء الرهبان، ووصف لديرهم، انظر زيارتنا للأماكن المقدسة على جبل صهيون، وفي إطار ذلك الدير، في اليوم الثالث عشر من هذا الشهر، خاصة على صفحتي ٣٩٨ — ٤١٠.

ونياية عن المسيحيين اللاتين يبقي الرهبان على الأقل ثلاثة من عددهم، في كنيسة الضريح المقدس وذلك كحرس للأبدية الأعظم قداسة، ويبقى هؤلاء الرهبان هناك ليلاً ونهاراً، ويمثلون كتلة الكنيسة الرومانية اللاتينية كلها، وتسلم أغذيتهم ومؤنهم إليهم من خلال فتحات في باب الكنيسة، من قبل رهبان جبل صهيون، وهم لديهم أفضل الأماكن وأعظمها قداسة في الكنيسة، لأنهم يمتلكون مفاتيح الضريح الثمين جداً، وكهف الرب يسوع، وهم يفتحونه في كل وقت يرغبون، ويعملون قداسات فيه عندما يختارون ذلك، ولا يتجرأ الكهنة الآخرون على إقامة قداس هناك، إلا بعد الحصول على سماح مؤكد وإذن من اللاتين.

ويحتاج الأمر إلى وقت طويل للحدث كيف وصلت هذه السلطة المدهشة على الضريح المقدس للرب إلى أيدي اللاتين، فقد حدث هذا ليس بعد مدة طويلة من الأيام التي كان الكرج يمتلكون فيها السلطة على ضريح الرب، وفي الحقيقة إنه لأمر مدهش كيف سمح المسيحيون الآخرون من الطوائف الأخرى لللاتين باستحواذ هذا الامتياز، آخذين بعين التقدير أنه لا يوجد بين الطوائف المسيحية التي

تقطن بالقدس أقل عدداً من اللاتين، ثم إن طريقتهم بالحياة، وعاداتهم، وملابسهم، تختلف عن طرائق المسلمين وعاداتهم وملابسهم، أكثر من اختلاف طرائق وعادات وملابس الطوائف المسيحية الأخرى.

علاوة على ذلك إن ثلاثة من المصاييح المشتعلة دوماً في الضريح المقدس، هي ملك للاتين، وهم الذين يزودونها بالزيت والنار، وتعود المصاييح الستة عشر الأخرى إلى بقية الطوائف، ويمتلك اللاتين أيضاً بيعة العذراء المباركة، التي تقدم وصفها في ص ٤٦٩، ويتلون هناك القداس وساعاتها، ولديهم خلف هذه البيعة مكان واسع من أجل نومهم، وطبخهم، وأكلهم، وصنع حاجياتهم، وفي تلك البيعة ثلاثة مصاييح مشتعلة بشكل دائم.

ويمتلك اللاتين على جبل أكرام مذبحاً خاصاً بهم، وثلاثة مصاييح مشتعلة فوق صخرة المسيح، وفي مكان اكتشاف صليب المسيح، لديهم مذبح واحد، ومصباح واحد مشتعل في الكهف الذي وجد فيه صليب المسيح، ولديهم أيضاً مصباح مشتعل واحد في المكان الذي جرى فيه تخنيط جسد المسيح، بعد انزاله من على الصليب.

وما زال البوهيميون متحدون مع اللاتين في القدس، وعندما جاءوا إلى القدس، سكنوا مع اللاتين، وشاركوا في طقوسهم، مع أنهم تخلوا عن كنيسة روما، وتزداد هرطقتهم شدة كل يوم، ومثلهم الغلاغولي Glogolar الذين يسكنون بيننا، وهم على كل حال لا يتلون القداس باللاتينية، بل بلغتهم الأم، لأنهم يتلقون مهامهم المقدسة في روما، وهم ليسوا هراطقة.

أي جزء من كنيسة الضريح المقدس ملك للاغريق

ويمتلك الاغريق المكان الرئيسي في الكنيسة المقدسة، أي السدة، ورأس القيامة كلها، وكان هؤلاء الاغريق في الكنيسة الأولى مشهورين

وممجدين في العقيدة، وكان لديهم كثيراً من المدن الجميلة، وأربع كنائس كاتدرائية فخمة، هي التي كانت ملكاً لبطارقة: أنطاكية، والقدس، والاسكندرية والقسطنطينية الذين كانوا منذ زمن بعيد في طاعة الكنيسة، غير أنهم فيما بعد تخلوا عنها وتركوها، وسقطوا في أعظم الأخطاء، وبلغ بهم الأمر إلى حد التجديف ضد الروح القدس، وضد نظام القرايين، وسلطات كنيسة روما، واقتنعوا مراراً بالمنطق، فعادوا إلى صدر الكنيسة، غير أنهم بدلوا اثنتي عشرة مرة، وهم مصررون الآن على أخطائهم، وهم يعيشون مع الأتراك والمسلمين، وهم يعذبون اللاتين بدون شفقة في كل طريقة ممكنة، وما كان ممكناً للأتراك وللمسلمين أن يزدادوا قوة، لولا أن الاغريق كانوا خونة، وكان من الممكن للمسيحيين الشرقيين الآخرين أن يعودوا إلى الاتحاد مع الكنيسة، وكان من الممكن بسهولة أن يعودوا في هذه الأيام، لولا أن هؤلاء الاغريق المتكبرين قد منعوهم، وضللوهم مرة ثانية حتى لو أنهم قد عادوا، ومع ذلك على الرغم من هذه الآثام، لديهم الوقاحة بالتجرؤ على دخول كنيسة ضريح الرب الأعظم قداسة، وقام هؤلاء المعتدون بشكل ظالم بجعل أنفسهم رأساً للكنيسة، ويمتلكون في هذه الأيام السدة والمذبح العالي، ويحتفظون بعدد كبير من المصابيح مشتعلة أمامها، كما أنهم يمتلكون سجن الرب، الذي تقدم ذكره في الصفحة ٤٧٤، ولديهم هناك مذبحاً، ومصباحاً مضاء، ولديهم على جبل أكرام مذبحين، لأن الكرج الذين يمتلكون الجبل من طائفهم، ولديهم تحت الأرض في بيعة القديسة هيلانة، مصباح مضاء واحد، ومثل هذا يمتلكون مكان توزيع ثياب المسيح، وهناك يوجد مذبح واحد، ومصباح واحد مضاء، ويكفي ماقلناه عنهم.

الكرج: أي نوع من المسيحيين هم، وأية أماكن

في كنيسة الضريح المقدس عائدة إليهم

الكرج (الجورجيون) ويعرفون أيضاً باسم النوبيين، ويشتهرون بشكل عام أكثر باسم سنكتشر Cincture، وقد جاءوا من مناطق بعيدة جداً عن الأرض المقدسة، وهم محاربون، حتى أنهم يدربون نساءهم على القتال، وهم مسيحيون، لكنهم موصومون بشكل عام بأخطاء الاغريق نفسها، وهم يمتلكون في الأرض المقدسة جبل أكرأ، ولديهم دوما حديقة الصخرة المقدسة، ملحقة بالكنيسة، ولم يكونوا يمتلكون هذا المكان المقدس منذ زمن طويل، بل امتلكوه منذ خمس عشرة سنة خلت، لأنهم قدموا هدايا إلى ملك مصر وسلطانها، الذي طرد الأرمن منه، ووضع الكرج في مكانهم، وهم أيضاً يمتلكون مكان وكهف اكتشاف الصليب المقدس، وثلاثة مصابيح فيها، مع أنهم نادراً ما يشعلونها، وهم أيضاً يمتلكون البيعة تحت جبل أكرأ، المدفون فيها ملوك القدس اللاتين، وذلك حسبما ذكرت في ص ٤٩٤.

اليعاقبة الهرطقة

ويوجد هناك في الكنيسة يعاقبة، هم الذين يمتلكون في بلدانهم في المشرق ممالك كثيرة، وهم هرطقة بشكل شاذ، ويخطئون بشكل مقيت بشأن نقاط كثيرة، وهم يحافظون على عقيدة الختان، ويمارسون طقوس القرايين لكلا النوعين من الأطفال، وهم على صدور أمهاتهم، ويعملون في ظل أخطاء مضاعفة حول رجولة المسيح، ويمتلك هؤلاء القوم بيعة صغيرة ملاصقة لأبدة الرب، حيث لديهم فيها مذبحاً ومصباحاً، ومثل هذا هم يمتلكون المكان الذي جرى فيه تحنيط الرب، ولديهم هناك سبعة مصابيح مضاءة.

الهنود المسيحيون أو الحبشان

ويمتلك الحبشان (كذا) أو الهنود المسيحيون —الذين يعيشون في ظل حكم راعي دير— شطراً من كنيستنا كنيسة الضريح المقدس، وهم

رجال ذوي حياة صارمة جداً، وكذلك فقراء للغاية، وممثلين بالأخطاء، وفي اجتماعاتهم يتقاطرون جميعاً بحماس من أجل القداس في أيام الأعياد، وهناك تجدهم كلهم، من الجنسين، حيث يبدأون بغناء الأهازيج، وهم يقفزون بأرجلهم ويصفقون بأيديهم معا ويتجمعون مع بعضهم بعضاً في دوائر ستة أو سبعة، أو ربما تسعة أو عشرة، ويغنون أحياناً وفق طرائقهم طوال الليل كله، لاسيما في ليلة قيامة المسيح، ففي تلك الليلة لا يتوقفون عن الغناء، والركض نحو الأمام ونحو الخلف حتى فجر النهار، وينفذون هذا بحماس منقطع النظير، حتى أن عدداً كبيراً منهم يقع مريضاً من خلال جهودهم التي بذلوها، لكن مع أنهم يارسون هذه الأعمال، ويرعون هذه الأيام المقدسة، تراهم ملوثين بأكثر الأخطاء خبثاً، وهم هراطقة ممقوتين من قبل الكنيسة المقدسة.

وهم يتبعون اليهود والمسلمين واليعاقبة في تطبيق مالميس مفيداً، لابل هو من الطقوس الملعونة، وأعني بذلك الختان، ويسمون أولادهم على الوجه بقلم من الحديد المحمى، ولا يعبأون بشأن تلقي المعمودية بالماء، ويمتلك هؤلاء القوم بيعة، يوجد فيها تحت المذبح ويقوم الحجر التي جلس عليه ربنا، عندما جرى تنويجه بتاج من شوك، ولديهم مصباح ومذبح، ويبيعهم ومذابحها وذلك حيث يقيمون يومياً طقوس عباداتهم، موجهة على جهتك اليسرى وأنت داخل إلى الضريح المقدس، بين أعمدة الكنيسة، وهي مغلقة — عوضاً عن الجدران — بأقمشة وحصر، ومعلقات أخرى مربوطة بحبال.

المسيحيون السريان

يعيش المسيحيون السريان في وضع عبودي تعيس تحت حكم عدد متنوع من الأمراء غير المسيحيين، وهم موصومون بأخطاء الاغريق، الذين يتولون تقليدهم، وهم هراطقة ويلا ايمان، وخونه، ولصوص، وغيورين على نسائهم وزوجاتهم مثل المسلمين، وهؤلاء الناس هم معنا

أيضاً في كنيسة الضريح المقدس، ويمتلكون بيعة القديسة هيلانة، حيث يمارسون طقوسهم، وهم يعيشون إلى جانب الهنود في خيمة محاطة بأقمشة وماشابه ذلك.

المسيحيون الأرمن: من أي نوع هم

ويشاركنا الأرمن في هذه الكنيسة أيضاً، وقد جاءوا من أرمينية، وهم أعداء بلا هوادة للإغريق، ومع ذلك تراهم غير مهتمين بتجنب آثامهم، كما أنهم ليسوا متحررين من هذه الآثام، فهم عندما يقيمون قداساً لا يمزجون الماء مع الخمرة، مثلما يفعل الإغريق، ويأكلون اللحم في يوم الجمعة، ولا يرفعون يوم ميلاد الرب كيوم عيد، بل إنهم يصومون في ذلك اليوم، ويقدمون تعليلاً لتصرفهم على هذه الصورة، بأن الرب قد ولد في وسط تعاسة حياتنا، لكنهم يحافظون على عيد الغطاس ويحتفلون به بشكل مهيب، وذلك بسبب عمدانية المسيح، ويطلقون على هذا العيد اسم «ميلاد المسيح الروحي»، وفي هذا هم يخطئون أيضاً.

وكنت لدى حديثي عن الكرج، قد ذكرت بأن هؤلاء الأرمن كانوا يمتلكون جبل أكر، لكن عندما فقدوه، اشتروا من السلطان مكاناً في الشرفة العليا من الكنيسة، وهناك كرسوا لأنفسهم سدة، وعملوا غرقاً للإقامة بها، ولا يختلف الأرمن عنا كثيراً، مثلما تختلف الطوائف المتقدمة الذكر، وفي الحقيقة لقد سمعت بأن الأرمن غالباً ما يلتقون مع الذين ليس لديهم كهنة إلا من الرهبان الدومينيكان الذين يعدون بالنسبة إليهم أساقفة، ورعاة أبرشيات، وكهنة، وهؤلاء هم أفضل الكاثوليك، ذلك أنهم تحولوا إلى الايمان الصحيح على يدي راهب من طائفتنا، كان قد ترجم إلى لغتهم كتاب Summa theologia لتوماس الأكويني، وكتب أخرى من تأليف علماء كاثوليك، واعتاد هؤلاء الأرمن على أن يزوروا من وقت إلى آخر المقدم العام لطائفة القديس دومينيك، حيث كانوا يظهرون أنفسهم أنهم أبناء له في الطاعة، وهم يزورون بخشوع

عظيم ضريح أبينا القديس دومينيك، وقد أخبرني بهذا عدد من إخواني الرهبان الذين رأوهم، وسمعوهم يتحدثون مع المقدم بأفضل طريقة ممكنة، لأنه لا يوجد لاتين لديهم، وهم لا يعرفون اللغة اللاتينية.

وبقي المسيحيون الذين تقدم ذكرهم، في القدس، عندما استولى المسلمون على المدينة، ووقتها جرى طرد اللاتين، والبطريرك، والملك من القدس، مع جميع أتباعهم، وجرى تسليم كنيسة الضريح المقدس إلى هؤلاء المسيحيين المتبقين على شرط واحد، هو شراء الأماكن التي يرغبون فيها في داخل هذه الكنيسة وهذا ما فعلوه حقاً، وهكذا بدأت فوضى هذه الحشود المزيجة في الكنيسة في سنة ١١٨٧ لتجسيد ربنا، وكان ذلك في الحادي عشر من تشرين الأول، ومنذ ذلك الحين، عاشت جميع الأمم المتقدم ذكرها في القدس كرعايا ودافعين للجزية للمسلمين وبقيت المدينة المقدسة لسنين طوال من دون مسيحيين لاتين، حتى اشترى روبرت ملك صقلية بعض الأماكن المقدسة من السلطان، مقابل الكثير من الذهب، وسلم هذه الأماكن إلى الرهبان الفرنسييسكان، الذين ما برحوا يملكونهم حتى هذا اليوم، ويشأن هذه الأماكن، انظر ما تقدم في ص ٤٦١.

وإلى جانب الأمم التي تقدم ذكرها من قبل، هناك شعوب أخرى كثيرة في القدس، لا تؤمن بالديانة المسيحية، نذكر من هؤلاء: المسلمين، واليهود، والأتراك، والسامرة، والمماليك، الذين عنهم جميعاً هناك عرض واضح قدمه اللورد برنارد بريتنباخ العظيم، المتقدم الذكر، الذي لم ييخل بنفقة على تصنيف كتاب رحلته بشكل صحيح، أو لنقل كتاب حجه، حيث حصل على ذلك الاستاذ المحترم، واللاهوتي المتنور، والملمهم المنعم عليه، وأعني به الأب مارتين روث (كذا)، المنتمي إلى طائفة القديس دومينيك، فهو الذي كتب كتاب الرحلات للورد المتقدم الذكر، بشكل مزين، وبأسلوب علمي، وقد وصف بوضوح مختلف

الشعوب التي سكنت في القدس، مع جميع أخطائها، ومشاكساتها، وعاداتها، موجهها اللوم إلى هذه الشعوب بسبب أخطائها، وقدم عرضاً لاهوتياً ثميناً جداً واختصاصياً، مع حلول لكثير من النقاط الصعبة، كما أنه استأجر رجلاً فناناً، رسم له الموانئ البحرية، والمدن، والأماكن على اليابسة، وبشكل خاص في الأرض المقدسة، وملابس الشعوب المذكورة للحياة، وجعل صورة موائمة لكلمات النص، وعلى هذا إن الذي سيختار قراءة هذا الكتاب، يمكنه أن يجد فيه كل ما تجاوزته، ولسوف أتابع الآن السير قدماً مع جولاتي.

زيارة إلى الأماكن المقدسة في مدينة القدس وكذلك إلى الأماكن من حولها

وفي اليوم الخامس عشر، الذي هو عيد تفرق الرسل، وفي بداية النهار، أي في الأمسية المتقدمة، أرسلت رسالة إلى جميع الحجاج، أنهم ينبغي أن يتسلقوا عند غياب الشمس قمة جبل صهيون، لأن معلمينا أي دليلينا، يرغبان في أخذنا في ذلك المساء نفسه إلى بيت لحم، وعندما وصلنا جميعاً إلى المكان المكشوف على جبل صهيون، وجدنا حميرنا واقفة هناك مع سائقيها، ولذلك ركض كل واحد منا هناك وهو يصرخ ناشداً سائقه وباحثاً عنه، حسبما تقدم لي وصف ذلك في ص ٣٥٠ المتقدمة.

وبعدما حصلنا على حميرنا، وقفنا هناك، وانتظرنا بعض الوقت وصول دليلينا، ووقفنا هناك، وانتظرنا لوقت طويل قدوم دليلينا، اللذان قدما أخيراً عند غياب الشمس، قدما وهما آسفين، وأخبرانا بأن البدو المدينيين، والأعراب قد جاءوا إلى بيت لحم من سدوم، ومن القفار حول الأردن، وهم كامنون هناك بانتظارنا، من أجل الانقضاض علينا، وأسلحتهم في أيديهم، وذلك بغية سلبنا، ولذلك يتوجب علينا في هذا الوقت الإقامة في القدس، حتى يغادر هذا الحشد من اللصوص بيت

لحم، ولذلك أخذت الدواب منا إلى أماكنها، وقمنا نحن بجولة على الأماكن المقدسة في جبل صهيون، وصلينا لوقت طويل في مكان افتراق الرسل، الذين كان عيدهم قريباً في تناول اليد، وحول هذا المكان انظر ما تقدم في ص ٤٤٦.

وعندما غابت الشمس نزل الحجاج عائدتين إلى مشفاهم للاستراحة، لكن عدداً كبيراً منهم بقي معنا فوق جبل صهيون، ومكثوا ساهرين في الأماكن المقدسة، وفي منتصف الليل استيقظنا معاً مع الرهبان من أجل صلوات البلاد الصباحية، وبعدما شرعنا بتلاوة قداسات خاصة، كل واحد منا في المكان الذي اختاره، تابعنا ذلك حتى بداية الضوء، وعندما بدأ فجر اليوم الخامس عشر من تموز، وقبل شروق الشمس، نزلنا نحن الذين كنا في فوق جبل صهيون إلى المشفى، وأيقظنا إخواننا من السادة الحجاج، لنقوم بزيارة حج، وعندما صاروا جاهزين، خرجنا من المشفى مع بعض رهبان جبل صهيون، وكالينوس الفحل، الذي أمّن لنا بعضاه ممرّاً آمناً، ومنع الأطفال من رمي الحجارة علينا، وذهبنا أولاً إلى ساحة كنيسة الضريح المقدس، ومددنا هناك أنفسنا فوق المكان الذي سقط فيه المسيح تحت الصليب، كما تقدم بنا وصف ذلك، وتلقينا هناك غفرانات مطلقة(++).

الباب الذي اقتيد الرب يسوع إلى خارجه من أجل الصلب

وخرجنا بعد هذا من الساحة إلى شارع يقود من جبل صهيون إلى جبل أكرّا، ويقود من هناك نزولاً إلى المدينة، من خلالها جميعاً، وطول المدينة الأعظم هو من الشمال إلى الجنوب، وعرضها الأدنى هو من الشرق إلى الغرب، وبعدما قطعنا بعض المسافة نازلين نحو البلدة، على الطريق الذي صعد عليه الرب يسوع إلى جبل أكرّا حاملاً صليبه، وصلنا إلى باب قديم مهدم على الجهة اليمنى، لم يبق منه سوى جانب واحد، ممتداً من الأرض إلى منحني يدعم القوس، ذلك أن بقية كل

شيء قد ذهب، لابل حتى الجزء المتبقي قد بني الآن على شكل عدة بيوت، ولذلك تعذر علينا الوصول إليه، ولذلك وقفنا على بعد مقابيله، ونظرنا إليه.

وتبين لنا بشكل جلي من خرائبه، بأنه كان بابا عاليا، بني بشكل جيد من حجارة مربعة منحوتة، وكان هذا الباب، يعرف باسم الباب القديم، قبل توسعة المدينة من قبل إليوس هدريانوس، لأنه كان موجوداً هناك في أيام اليبوسيين، وأطلق عليه فيما بعد اسم باب القضاء، لأن المحاكمات كانت تتم هناك وفق الطرائق القديمة، والذين كانوا يحاكمون هناك ويحكم عليهم، كانوا يرسلون إلى خارجها لاعدامهم، وهذين الاسمين معا هما واحد، وبالاسمين معا، أي: الباب القديم، وباب القضاء، قد ورد ذكرهما في الاصحاح الثالث من سفر نحemia.

وإلى خارج هذا الباب، جرى اقتياد الرب، من أجل صلبه، اقتيد وهو يحمل صليبه، ولذلك قيل عن هذا الباب في الرسالة إلى العبرانيين الاصحاح الثالث عشر: «لذلك يسوع أيضاً لكي يقدس الشعب بدم نفسه تألم خارج الباب»، فلنخرج إذا نحن الحجاج البشر إليه إلى خارج الباب، حاملين عاره، فمن يمكنه — أرجوكم — يستطيع الخروج إلى هذا الباب إلا بخشوع وتقوى؟، فمن هنا ذهب هايل إلى حقل عفرون (عفريم) حتى يقتل، ومن خلال هذا الباب نفسه حمل اسحق الخطب، حتى يمكن التضحية به فوق الجبل، وهنا شوهد عنقود العنب الذي حمل على العصا، ورددنا عند هذا الباب الصلوات المحددة في كتب المسيرة، وجثونا على ركبنا، وتلقينا غفرانات.

السقائف على الطريق إلى جبل أكر حيث

كان جري انعاش الذاهيين إلى موتهم

وتابعنا سيرنا من هناك، ووصلنا إلى المكان، الذي كان فيه، عندما

أخرج المسيح، إلى خارج الباب، خياماً منصوبة، حيث عندما كان يؤتى بالمحكوم عليهم بالموت إلى خارج الباب، كان هناك بعض الناس اللطفاء قد دفعوا ثمن خمرة من أجل أن يشربها المحكوم عليهم بالإعدام، وكان هؤلاء يعطون هناك خمرة قوية يشربوها في ذلك الموضع، على أمل أنهم يشربهم للخمرة يزول عنهم الكدر ويصبحوا مسرورين، فقد وصلنا خبر في الاصحاح السادس (كذا) من اسدراس يقول: «تقلب الخمرة فكر كل انسان إلى السرور والمرح، وبذلك يغدو الانسان غير قادر على أن يتذكر لا الأسى ولا الدين، وتجعل الخمرة كل قلب غنياً» (اسدراس: ١/٣/٢٠-٢١)، وكانوا يحملون من هذا المكان الخمرة أيضاً في كؤوس ودنان إلى مكان التعذيب، من أجل أن يجعلوا الناس هناك سكارى أيضاً، وذلك حسبما تقدم بنا القول في ص ٤٧٤.

ومثل هذا أمر التلمود الناس أن يفعلوا، فقد فرض اسكار الناس الذين على وشك الاعدام، وذلك يجري تنفيذا لما أوصت به الكتابات المقدسة في قولها: «أعطوا مسكراً لهالك، وخمراً لمري النفس، يشرب وينسى فقره، ولا يذكر تعبته بعد» (الأمثال: ٣١/٦).

وحدث أنه عندما وصل الرب يسوع إلى هذه الخيام مع صليبه، واللصين اللذان كانا سيصلبان معه، أسرعوا نحو الأمام مع الرب يسوع، لكنهم توقفوا مع الاثنين الآخرين، وجلبوا إليهما خمرة، وجلبوا إلى الرب يسوع خمرة ممزوجة بالمر، وجلبوا ذلك من الحانة التي قامت عند مكان الصלב، وقدموا ذلك إليه، لكنه رفض قبول ذلك، وذلك حسبما قرأنا في متى: ٢٧، ولم نقرأ بأن الاثنين الآخرين قد حملا صليبيهما، بل حملهما لهما رفاقهما، وقد حمل ربنا يسوع صليبه، بسبب أن جميع رفاقه قد تخلوا عنه، ووقف الذين يعرفونه بعيداً عنه، وكانوا مستعجلين كثيراً مع الرب يسوع، أكثر من تسرعهم مع الآخرين، لأن بيلاطس أعطى

قراراً بدون ارادة، ودفع بالحاحهم نحو التنازل والقبول بمطلبهم، وكانوا يخشون من إمكانية نقض القرار غير العادل الذي كان قد أصدره، ولهذا كله كانوا متسرعين.

ووقفنا حول هذا المكان، وصلينا، ذلك أننا كنا ممثلين بالحب والتعاطف.

بيت القديسة فيرونيكا

ووصلنا ونحن نازلين من ذلك المكان إلى موضع فيرونيكا-Veron ica، التي يقال بأنها كانت هي المرأة التي استمر الدم يخرج منها لاثنتي عشرة سنة، وقد لمست بلمسة خباصة طرف ثياب الرب، وهي التي دعاها «ابنة»، وأوصى بها كثيراً من أجل إيمانها، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح التاسع من انجيل متى وقال بعضهم بأن تلك المرأة كانت مرثاً، لكن يوسيبوس قال في الكتاب السابع من مصنفه «التاريخ اللاهوتي» بأن التي شفيت من قبل الرب، وغدت من أتباعه، كانت فيرونيكا، وكانت سيده ذات تقوى خاصة وتواضع.

وكانت قد سمعت أصوات الناس الذين كانوا مارين من قرب بيتها، مع الذين كانوا سيصلبون، فهرعت خارجة من البيت وهي تبكي، وقابلت الرب يسوع، وهو مجهد تحت حمله للصليب، ورأت وجهه وقد تغطى بالبصاق وبالدم، فتناولت منديلها، ومسحت وجه المخلص، وبقيت صورة وجهه مطبوعة على منديلها، وكأنه قد رسم هناك رسماً، واحتفظت تلك المرأة بالمنديل، واستمدت منه عزاء عظيماً، وصارت صورة الوجه تلك مشهورة جداً، بسبب آيات ومعجزات صنعت من قبلها، وتعاضمت شهرتها، وقد استدعيت هذه المرأة مع منديلها وحملت إلى روما، بناء على أوامر القيصر تايبيروس، من قبل الجندي فولويسيانوس Volusianus لأن القيصر كان مصاباً بمرض ثَقِيل،

وقد شفي من هذا المرض في اللحظة التي رأى فيها تلك المرأة القديسة، ولمس الصورة، وبعدها قامت بعملية الشفاء هذه، تابعت السكنى في روما حتى موتها، وهي موضع احترام عظيم من أجل قداستها، وصلاحتها، حيث كانت واحدة من مؤسسي كنيسة الرب، مع الرسل بطرس، وبولص، وكليمنت، وبارادتها تركت الصورة نفسها المطبوعة على قطعة القماش الكتاني، إلى البابا كليمنت وخلفائه، والمنديل في هذه الأيام محفوظ في كنيسة القديس بطرس، وهناك يزار من قبل الناس الذي يؤمنون بالمسيح، مع التبجيل الأعظم، وحافظ هذا المنديل على اسم المرأة حتى اليوم الحالي، حيث اسمه المعروف به هو فيرونيكا، ولقد رأيت هذا «الفرونيكا» في روما في يوم الصعود لعام ١٤٧٦.

ومن وقت إلى آخر نظم كثيرون، وكتبوا أغاني جميلة للمدح، والأغنية الرئيسية بين هذه الأغاني والمنتشرة بشكل واسع على أفواه الناس، هي التي تسير كمايلي:

«مرحباً أيتها الطبعة المقدسة لوجه مخلصنا،

التي تشع منها نعمة الرب الرائعة.

مطبوعة على منديل أبيض كالثلج

وأعطى فيرونيكا، حبه ليرى».

وعلى هذا رأينا هذا البيت، بيت القديسة فيرونيكا، وتطلعنا إليه بروح مشرقة، عاكسة كيف أنه بوساطة تلك التي سكنت في هذا البيت، تلقت كنيسة روما كلها المجد والشرف، بحصولها منها على تلك الصورة للمخلص، وكيف أن جميع الناس المؤمنون في كل العالم يسعون إلى روما لرؤية هذا الوجه الثمين، الذي مامن مسيحي يمكنه أن ينظر إليه، ويستطيع منع نفسه من البكاء، ووقفنا أمام البيت، وقبلنا الباب، وتلقينا غفرانات(+)، وحدث على كل حال أنه بعد سفر الحجاج

ومغادرتهم للقدس، أن سمح لنا نحن الذين بقينا خلفهم، بالدخول إلى ذلك البيت؛ من قبل المسلمين الذين يسكنون فيه.

بيت دودروكس الغني الغلوتوني الذي لبس الأرجوان، الخ

وتابعنا من هناك سيرنا نازلين خلال المدينة، ووصلنا إلى بيت قديم، لكنه كان جميلاً، وهو الذي يقال بأنه كان بيت الغني الغلوتوني - glut-ton، الذي كان اسمه دودروكس Dodrux، ولم يتلفظ الرب باسمه في الانجيل، عندما ذكر اسم الرجل الفقير، وسبب ذلك أعطاه غريغوري في قداسة حول ذلك المثل (لوقا: ١٦/ ١٩ — ٣١)، فقد كان دودروكس هذا غنياً ومترفاً، ولم يرض بإعطاء الفقير المتسول لعازر حتى الفتات الذي سقط من مائدته، ونظرنا إلى هذا البيت وتطلعنا إليه باحترام، بسبب فضائل ذلك الرجل الفقير، وتلقينا غفرانات (+).

علاوة على هذا، تلقينا نحن الحجاج جميعاً من غني وفقير، هذه الأمثلة، من أجل أن نقوم حياتنا، حيث تعلم الغني انكار الذات، وأن الرحمة واجبة من الرجل الغني المتنعم، وأن الرجل الفقير الذي قد مات قد دفن، في حين تعلم الفقير دروس الأمل والصبر من الفقير لعازر، الذي كان مليئاً بالقروح، فقد حمل إلى حضن ابراهيم، وجاء تعليمنا حول هذين الرجلين: الرجل الغني والمتسول في انجيل لوقا — الاصحاح السادس عشر.

مفترق الطرق حيث أرغموا سمعان على

حمل الصليب خلف يسوع الأمر الذي فعله

وتابعنا من هناك سيرنا متقدمين، ووصلنا إلى مكان تتداخل فيه الطرق أحدها بالآخر، وتشكل بذلك تقاطع يستطيع الذي يقف في وسطه السير في أي اتجاه يريد، وعندما وصل المسيح إلى تقاطع الطرقات هذا كان منهكاً بحمله لصليبه، ووضع أرضاً حتى ينال راحة

قصيرة، وليسترد أنفاسه، لكن اليهود الأشرار كانوا على عجلة كبيرة من أمرهم، الأمر الذي شرحته تحت عنوان «السقائف»، وعندما كان واقفاً هناك قدم رجل اسمه سمعان القيرواني، الذي كان واحداً من تلاميذ المسيح بالسر، وضغط على هذا الرجل وأرغم على حمل الصليب خلف المسيح، وذلك حسبما قرأنا في لوقا — الاصحاح الثالث والعشرين، وحمل صليب معلمه وهو كاره لذلك كثيراً، لأنه كان ما يزال جاهلاً بأسرار ذلك، وبالإخلاص، ولهذا ركضنا إلى هذا المكان، وأشفقنا على المسيح، وابتهجنا معه: أشفقنا عليه بسبب أنه لم يكن هناك من يساعده، إلا سمعان هذا، الذي ساعده وهو كاره على حمل الصليب، وابتهجنا معه، لأنه الآن لا يوجد فقط مجرد رجل فلاح وحيد، جاء من أقرب القرى، ليحمل صليب يسوع، بل هناك الآن عدداً كبيراً من البارونات، والنبلاء، والرجال الأعيان، هم الآن موجودين، قد جاءوا من مدن نائية، وقلاع بعيدة، قد جاء كل واحد منهم إلى هنا برغبته من بلاد واقعة فيما وراء البحار، وكل واحد منهم على استعداد لحمل صليب ربهم، وانحنيا في هذا المكان بأنفسنا نحو الأرض، وبعدما تلونا الصلوات المعينة، تلقينا غفرانات مطلقة(++).

وقام فيما مضى على هذه البقعة كنيسة، هي الآن مهدمة بشكل كامل.

المكان الذي قال المسيح فيه للنساء الباقيات

«يابنات القدس» الخ

ولدى متابعتنا السير قدماً على ذلك الطريق المتعب جداً والمرهق، أي على طريق الرب، الذي عبر عليه أثناء آلام الصليب، وصلنا إلى البقعة التي عندما كان حاملاً لصليبه، سمع ورأى صرخات النحيب التي صدرت عن النساء اللاتي كن يتبعنه، فصرف نظريه وأشاح بوجهه عن الرعاع الغاضبين، وتوجه نحو النساء اللاتي أحبينه، وكن ينتحبن من

أجله قائلاً: «لاتبكين يابنات القدس علي» الخ، وألقينا في هذا المكان المقدس بأنفسنا على الأرض، وقبلنا طبعات قدم مخلصنا، وتلقينا غفرانات (+)، وهنا أيضاً قام فيما مضى كنيسة، لم يبق — على كل حال — منها أثر يمكن رؤيته.

المكان الذي سقطت فيه العذراء المباركة شبه ميتة رعباً

وتابعنا السير قدما على هذا الطريق المقدس، والمحزن، لكن ليس من دون كثير من الدموع من الحجاج الأتقياء، ووصلنا إلى مكان فيه على الجهة اليمنى من الطريق رابية صغيرة، وقفت عليها العذراء مريم وهي في الحزن الأعظم، واستمر ذلك منذ الصباح الذي كان فيه ابنها في قاعة القضاء، أمام القاضي، وذلك بغية أن تعرف إلى أين سيقودونه حتى تتبعه، لكنها عندما شاهدت ولدها يسير بين اللصين، وهو حامل لصلبيه الفائق الثقل، ولابس التاج من شوك فوق رأسه، ووجهه مغطى بالدماء وملوث بالبصاق، ومحاط بعساكر من الرجال المسلحين، عندما شاهدته بهذه الحال سقطت أرضاً وهي مرعوبة، وأغمي عليها.

وتوقفنا هنا وعقولنا مليئة بحزن متجدد، وبعدما تلونا الصلوات المعينة، انحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الأرض في هذا المكان المقدس، وهنا تلقينا غفرانات مطلقة، وقد قام فيما مضى في هذا المكان كنيسة فخمة، كان اسمها كنيسة القديسة مريم المغمى عليها، لأنه أغمي عليها وتلاشى وعيها هناك، وقد دمر المسلمون هذه الكنيسة، وتركوا جدرانها قائمة، ذلك أنها بنيت بقوة من حجارة مربعة، وهي ماتزال قائمة حتى يتمكن واحد من المسلمين من بناء بيت لنفسه فوقها، ذلك أنها قائمة في وضع جيد ومرتفع، لأنه من موضع أكرا، وطوال الطريق حتى بيت الرجل الغني، هو طريق نازل من الرابية، ومن المكان الذي أرغم فيه سمعان على حمل الصليب خلف يسوع، ترتفع الأرض طوال الطريق حتى هذه البقعة، حيث تقف جدران الكنيسة من دون بيت

قائم فوقهم.

وهناك القصة الغريبة التالية قد حكيت حول هذا المكان، وفيها أن عدداً كبيراً من المسلمين قد حاولوا أن يبنوا لأنفسهم بيوتاً فوق هذه الجدران القديمة، لكن مامن واحد منهم قد تمكن قط من إكمال عمارته، إنما بعد تعب كله، وبعد الذي أنفقه، كان يسقط كل ما أقامه بشكل مفاجيء، وقد حدث هذا مراراً، إلى حد أن مامن أحد يحاول الآن بناء أي شيء فوق هذه البقعة، بل تركوا خرائب الجدران قائمة من دون استخدام، وفي هذا دليل على قداسة هذا المكان، وأن كنيسة سوف تبنى هناك، ولقد قيل بأنه حتى الحجارة لا يمكن أخذها ونقلها من هناك.

المكان الذي حكم فيه على ربنا بالموت،

والذي اسمه جباثا أو البلاط

وتابعنا السير من هناك قدما، على طول الطريق، حتى وصلنا إلى المكان الذي كان في أيام آلام بالمسيح، مقعد القضاء، وكان اسم هذا المكان في العبرية جباثا، وفي الاغريقية Lychostratus، وفي اللاتينية «تلة الأحزان»، لأنها كانت تلة أحزان عظيمة على من صدر عليهم الحكم، وقد ورد ذكر هذا المكان في الاصحاح التاسع عشر من انجيل القديس يوحنا، ويقوم في هذا المكان قوس مرتفع، بني من حجارة مربعة، ويمتد من الطرف الأول للطريق إلى الطرف الآخر، وبذلك يغطي الطريق كله وكأنه قوس باب، وقد بني فوق القوس جدار بارتفاع جسم الانسان، وبني في هذا الجدار حجرتان بيضاويتان مربعتان، وهن من الرخام المصقول، مفصولتان احداهن عن الأخرى، تريان من خلال التطلع في الطريق وكأنهن وضعتا في الجدار من أجل التزيين، فقد كان مكان الـ Lychostratus، هذا في أيام آلام المسيح، مبطلاً بألواح من الرخام، وفي ذلك البلاط حجرتان بيضاوتان مربعتان

مصقولتان، مرتفعتان عن البقية، كانت أولاهن تحت مقعد القضاء، ولذلك عندما كان القاضي يجلس على ذلك المقعد كان يريح قدميه على الحجرة، في حين كانت الأخرى في وسط البلاط، وعليها كان يوضع الرجل الذي سوف يحاكم، ومن حول هاتين الحجرتين كانت هناك مقاعد للقناصل والقضاة.

وعلى هذا قدم بيلايطس إلى هذا المكان، مكان جباثا، ليصدر الحكم بالموت على يسوع، حيث جلس على كرسي الحكم، وأراح قدميه على الحجر، ووقف الرب يسوع الذي سوف يعدم فوراً، وقف فوق حجرة الاتهام والمتهمين، وأخذ المؤمنون هاتين الحجرتين، وبنوهن في الجدار، فوق هذا القوس، لتكونا ذكرى دائمة لهذه الأعمال، وبناء عليه جثونا في هذا المكان فوق ركبنا، وبعدما عبدنا الرب، تلقينا غفرانات، وأعدنا هنا إلى ذاكرتنا التهم الظالمة التي قدمت ضد المسيح من قبل اليهود، والحكم المعلن غير العادل، ورعب وظلم القاضي، وصمت المسيح، وأشياء أخرى كثيرة كانت قد حدثت في هذا المكان.

قاعة المحاكمة، وبيت بيلايطس حيث جرى جلد الرب،

وتتويجه واهانتة بطرق مختلفة

وعندما أنهينا صلواتنا في المكان المتقدم ذكره، نهضنا، وعبرنا من خلال القوس المتقدم الذكر، ووصلنا إلى بيت بيلايطس، الذي فيه، يعرف كل مسيحي، أي عذاب تحمله الرب، وفي هذا البيت كانت هناك قاعة القضاء، التي إليها اقتيد الرب يسوع، وهو مربوط بأغلال قوية، مع وجود سلسلة حديدية حول رقبته، وتواجه مع قاضيه، وسمع التهمة، وفحص، وبعث إلى هيروود، وأعيد ثانية إلى هذا البيت، فاستجوب، وجلد، وتوج بالشوك، وسخر منه بطرق مختلفة، وعندما غطي بالاهانات، عرض على الناس حيث شاهدوه.

ولهذا انحنينا بأنفسنا نحو الأرض أمام مدخل هذا الباب، مع كثير من النحيب، وتلونا الصلوات المحددة في كتب المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++)، وعندما نهضنا قبلنا حجارة الجدران، وكنا راغبين في الدخول إلى البيت، لكن الساكنين فيه لم يفتحوه لنا، وبناء عليه وقفنا في الخارج، مثلما وقف اليهود عندما سلموا المسيح إلى القاضي، فهم قد فعلوا ذلك، لأنهم لم يرغبوا في الدخول، خشية منهم أن يتدنسوا وأن يكونوا غير قادرين على أكل طعام الفصح، بينما تشوقنا نحن بقلوبنا إلى الدخول، حتى يمكن أن نتطهر من دنسنا، وقذارتنا، ونصبح مقدسين، وعلى كل حال لم يسح لنا في هذه المرة بالدخول، وبعدما غادر الفرسان القدس، تدبرت أمر دخولي إليه براءة، حسبما سأحدث عن ذلك فيما بعد في ص ٢٣١، مع أن هذا البيت، مع البيوت الأخرى، تعرض للهدم من قبل تيتوس، لكن مع ذلك بقيت بعض الجدران، وعلى هذه الجدران، أعيد بناء بيت جديد، وبذلك ذهب مظهر البيت الأصيل وزال من الوجود.

وعلى كل حال، الباب المقنطر، الذي دخل منه الرب وخرج، ما يزال قائماً، مع أن المدخل إلى البيت الآن ليس تحت ذلك القوس، لكن في مكان آخر، والباب القديم مع أنه ما يزال قائماً، لكنه مغلق عمارة، وعلى تيجان الأعمدة والقوس الحجري للباب القديم، محفور دواليب، ومربعات، ومثلثات، وكأن ذلك علامات فلكية، والذي أعتقده أن القدماء حفروا هذه العلامات لأسباب خرافية واهمة، وكان هذا البيت في أيام آلام المسيح واسعاً، واحتوى على عدد كبير من الغرف، غير أنه صغير من الداخل بما فيه الكفاية، علماً أن مكان الجلد مغطى بقبو، وأنه دائماً كان كذلك.

وفي هذه الأيام، رمى سكان البيت بجميع الفضلات والأوساخ، وبقايا البيت في هذا المكان المقدس، ووقف في هذا البيت فيما مضى،

الأعمدة السبعة المتعركة، التي تقدم ذكرها على ص ٤٧٩، وجرت العادة بالدخول إليه بالصعود على ثمان وعشرين درجة رخامية، وعندما كان الرب مسحوباً مجروراً وألقي به هناك سجيناً بغضب وعنف، سقط على الدرجة الحادية عشرة على وجهه المقدس، وجاء سقوطه شديداً إلى حد أن الدم تدفق من أنفه ووجهه، وجرى على الدرج، وتبعاً للآثار الإخبارية جرى نقل هذه الدرجات من القدس إلى روما، ووضعت في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، وصار هذا الدرج يقود إلى قدس الأقداس، وكل من صعد على درجاته، سوف يتلقى غفرانات مطلقة.

وقد منّا أعظم احترام يمكن إظهاره إلى هذه الدرجات، مع أنه ليس سليماً للحجاج السير عليهن إلا على ركبهم العارية، وعندما وصلوا إلى الدرجة الحادية عشرة، تمددوا هناك على الأرض بأنفسهم، وصلوا هناك لوقت طويل، حيث علامات الدماء المسفوحة كانت مشاهدة، ومكانها محمي بحواجز حديدية، وليس فقط الناس غير المتعلمين والبسطاء الذين يفعلون هذا، لابل كرادله عظام، وأناس متعلمون يتسلقون على هذه الدرجات، بالطريقة المتقدمة الوصف ليحصلوا على الغفران، وليقولوا بأنهم وقفوا مرة في بيت بيلايطس.

بيت الملك هيرود حيث فيه جرت السخرية من المسيح واهانته

وغادرنا البيت المتقدم الذكر، وتابعنا سيرنا على طول الطريق، فوصلنا إلى طريق يذهب منه صعوداً، وهنا تركنا الطريق الذي قدمنا عليه لدى نزولنا من جبل أكرأ، وصعدنا على هذا الطريق، فوصلنا إلى بيت كبير، هو الذي كان بيت الملك هيرود، الذي إليه جلب الرب يسوع من بيت بيلايطس، وذلك عبر هذا المرتقى، فهنا جرى الاستهزاء منه بوساطة جيش هيرود، وسخر منه بوساطة ثوب أبيض، وتعرض لمختلف أنواع العذاب، وذلك حسبما أخبرنا من قبل الانجيليين، ويقال بأن الثوب الأبيض للمسيح، الذي سخر به منه في بيت هيرود كان على

شكل الثوب الفضفاض الذي يرتديه الرهبان الدومينيكان والكارthusيان Carthusians.

وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا أمام هذا البيت، وبعدما تلقينا غفرانات(+) نهضنا، وفي أثناء حجي الأول، لم أكن قادراً على الحصول على إذن بالدخول إلى هذا البيت، لوجود مدرسة لأطفال المسلمين فيه، فيها كان الأولاد يتعلمون، وفي حجي الثاني أبعدنا فجأة عن البيت، لأن حاكم القدس حفظ محظياته فيه، ولهذا السبب، فإنه حتى بعد مغادرة الحجاج، لم نستطع الحصول على إذن بالدخول إليه.

بيت سمعان الفريسي الذي فيه تابت المرأة المذنبه

ومسرعين تركنا بيت هيرود، حتى لانغضب الحاكم، ونزلنا ثانية إلى طريقنا السالف، حيث فيه توقفنا أمام باب بيت، ويقال بأنه في هذا البيت عاش الفريسي الذي رغب في أن يأكل يسوع معه، وعندما كان هناك، قدمت امرأة من المدينة كانت مذنبه، وقدمت له خدمة رائعة صدوراً عن توبة وعن خشوع، وذلك حسبما قرأنا في انجيل لوقا — الاصحاح السابع، وهكذا فإن دموع تلك المرأة المذنبه — كما قال غريغوري — كانت ستلين حتى القلب الحجري، نحو التوبة، فهي قد جعلت من جمالها كله كثيراً من الأضاحي، وحولت ذنوبها الكثيرة إلى كثير من الفضائل، حتى إذا كان أي جزء منها قد أغضب الرب في ذنب، فإن طاقاتها كلها توجهت نحو استغفار للرب، وتمددنا بأجسادنا أمام باب هذا البيت، وتلقينا غفرانات(+).

ويبدو أن هناك تعارض بين الانجيليين بشأن هذا البيت، فلوقا في روايته، كما يبدو، قال بأن ذلك قد وقع في القدس، ولكن مرقس — الاصحاح ١٤، ويوحنا — الاصحاح ١٢، ومتى — الاصحاح ٢٦، قالوا بأن ذلك قد حدث في بيت عنيا، في بيت سمعان المجذوم، ومن

هذا المنطلق فإن بعض العلماء اللاهوتيين، من ذلك مثلاً جيروم (الفصل ٤٦ من Contra Jovinianum) قد قال بأن لوقا الانجيلي قد تحدث عن امرأة أخرى، وليس عن مريم المجدلية، التي ورد ذكرها عند الثلاثة الآخرين، والتي قدمت خدماتها في بيت عنيا، في حين كانت امرأة أخرى هي التي قدمت خدماتها في هذا البيت، والمكانين اللذين شوهذا كمكانين مقدسين، يتوافقان مع هذا، بسبب أننا رأينا هنا بيت سمعان الفريسي، ورأينا في بيت عنيا بيت سمعان المجذوم، مالم — وأنا شخصياً أميل إلى الاعتقاد بأنه الصحيح — يفضل الانسان أن يقول، بأن مريم المجدلية قد جاءت إلى هذا البيت عند مستهل تحولها، وغسلت قدمي الرب بدموعها، ثم كان فيما بعد، عند اقتراب موعد آلامه، صببت العطور على رأسه، وهو جالس إلى الطعام، وأن الذي فعل ذلك جميعاً كان امرأة واحدة، هي المرأة نفسها.

مدرسة العذراء المباركة حيث تعلمت الكتابة،

مع مناقشة لمسألة هل تعلمت الكتابة أم ما

ونحن من صلاتنا في البيت المتقدم الذكر، وبادرنا مسرعين بالتقدم على طريقنا، ووصلنا إلى بيت آخر واسع، قد بني من حجارة مربعة منحوتة، ومن حجارة منحنية، وهذا البيت ملاصق لساحة هيكل الرب، وقد قيل بأن هذا البيت قد كان بيت العذراء المباركة، حيث تعلمت الكتابة، عندما قدمت من قبل والديها للخدمة في الهيكل، حتى تكون موقوفة على خدمة الرب، ونظرنا إلى هذا البيت بإعجاب، وقام الشك في نفوسنا، حول هل تعلمت العذراء المباركة القراءة والكتابة من أي انسان، وأي يهودي كان استاذها، حيث أننا قرأنا في الاصحاح السابع من كتاب الحكمة: «الخالق للأشياء جميعاً قد علمني الحكمة»، وبما أن رب الأشياء كلها قد أحبها، لذلك كانت هي نفسها «معلم لطرقه» (الحكمة: ٨).

ويبدو من هذا أنها لم تتعلم من انسان، فضلاً عن هذا أخبرنا دام Damm بأن العذراء المباركة كانت متفوقة في علمها على أي واحد عظيم في الكنيسة، وفي الحقيقة كان هناك بعض الناس المقدسين، الذين لم يتعلموا من قبل أي انسان، بل من خلال كشف يسوع المسيح، مثلما أخبرنا القديس بولص كيف أنه تعلم، كما ورد في الاصحاح الأول من الرسالة إلى الغلاطين، وتعلم سليمان أيضاً الحكمة مامن انسان، بل بوساطة وحي رباني، وجميع الرسل الآخرين صاروا معلمين للعالم من خلال الالهام الرباني، زد على هذا قال توماس الاكوييني بأنه تعلم بالصلاة أكثر مما تعلمه بالقراءة، ومثل ذلك أيضاً تعلمت القديسة كاترين السيناوية من قبل الرب يسوع، وصار بقدرتها قراءة أسفار الكتابات المقدسة، مع أنها لم تعرف اسم أو قدرة أي واحد من الأحرف، ولا كان يمكنها أن تميز «أ» عن «ب» أو «ب» عن «ت» مما يبرهن على أن تعلمها قد جاء بشكل إعجازي، ومثل هذا تعلمت مريم المصرية الكتابات المقدسة، عندما كانت في الصحراء، بوساطة وحي رباني، «ولهذا، وعليه أيها الأخ المحبوب المتساءل، هلا أريتني المدرسة التي تقول حضرتك تعلمت فيها مريم العذراء المباركة القراءة والكتابة؟ فلطالما أنها كانت متفوقة في العلم على أعظم اللاهوتيين، كيف أمكن تعليمها من قبل أي انسان، وأما وقد رأينا آخرين قد نالوا معرفة الكتابات المقدسة بالالهام، فما الذي يمكن ليهودي أن يعلمها إياه، وهي قد امتلكت منذ بداياتها حكمة خالدة؟» «توقف أخي المحبوب، ولا تحاول بأية طريقة من الطرق أن تستخف بهذا البيت، بل آمن أنه كان مدرسة العذراء المباركة، مع أنها كانت جديرة في أن تكون معلمة للرجال، ومع ذلك، تفضلت، في سبيل التواضع أن تكون تلميذة، وذلك مثلما تعرضت للتطهير وفقاً للشريعة، على أن ذلك لم يكن ضرورياً، بل فعلته صدوراً عن التواضع، ومثل هذا، نجد الرب يسوع مع حكيمته الأبدية، قد جلس مع اللاهوتيين يستمع إليهم، ويسألهم

أسئلة، هذا ومعلوم أنه لا بالإصغاء إليهم، ولا بتوجيه الأسئلة إليهم، كان من الممكن أن يضيف شيئاً إلى معلوماته»، ولذلك صعدنا نحو جدار ذلك البيت، وقبلناه، وتلقينا غفرانات (+)، وتلونا الصلوات المحددة.

هيكل الرب الذي اسمه هيكل سليمان

وانطلقنا متقدمين من هناك، فوصلنا إلى مكان، يوجد فيه على الجهة اليمنى ممر مقنطر، وكان هذا الممر مطلياً باللون الأبيض، ومعلق فيه مصابيح مضاءة، ووقفنا خارج هذا الممر، ونظرنا من خلاله نحو ساحة الهيكل، ورأينا الهيكل نفسه أيضاً، الذي اسمه هيكل سليمان، وهكذا جثونا على أقدامنا، وتعبدنا الرب الحقيقي لذلك الهيكل، وتلقينا هناك غفرانات مطلقة(++).

ومع أن الهيكل يستخدم في هذه الأيام مسجداً، ويعبد فيه (إله) (١) محمد (صلى الله عليه وسلم)، كان فيما مضى كنيسة مقدسة جداً، وذلك حسبما ستكون كذلك مرة ثانية في يوم من الأيام، وسوف تتقدس بكثير من المعجزات سيعملها هناك مخلصنا، ولذلك السبب حصلنا على الغفرانات على الرغم من محمد (صلى الله عليه وسلم)، لأن الكنيسة قائمة فوق موضع مقدس جداً، وقد بنيت وكرست للمسيح منذ زمن طويل مضى، وبشأن هذا الهيكل، ووصفه، ومن الذي بناه، وطرازه، سوف أخبركم به في ص ٢٥٧، وفي الصفحات التالية، أما بالنسبة لجامع المسلمين، الذي يسميه رجال الدين «المسجد» انظر الكتاب الرابع والعشرين من «Speculun Historiale»، الفصل ١٣٢، وأيضاً الصفحة ١٠٤ من الجزء الثاني من هذا المصنف.

١ — استخدم المؤلف عبارة نائية جداً، أبدلتها هكذا كي يستقيم المعنى، علماً أن الأبحاث الأثرية لم تكشف وجود هيكل في القدس لا أول ولا ثاني ولا ثالث، ولا غير ذلك، ذلك أن حكاية الهياكل ومملكة الملك سليمان هي مجرد حكاية اسطورية منحت غلافاً دينياً

موضع ولادة مريم العذراء المباركة فوق بركة الضأن

ومالبث أن أبعدنا عن متابعة مشاهدة الهيكل، لأن المسلمين لا يمكنهم أن يتحملوا بصبر أن نقوم بالنظر إلى هذا الهيكل، أو حتى أن نقرب منه تحت أي حجة من الحجج، ولذلك ابتعدنا عنه، وسرنا على طول الطريق، فدخلنا شارعاً آخر على اليسار، حيث وصلنا إلى كنيسة كبيرة ملتصق بها دير جيد، مع جميع مكاتب الموظفين، التي هي أيضاً مرتبطة ضمن مكان مغلق، وقد عاش هنا فيما مضى راهبات تابعات لطائفة القديس بندكت، وقد كن ثريات وتقيات، وإلى جانب هذه الكنيسة هناك موضع ولادة مريم العذراء المباركة، لأن هناك قام قبر واكيم وحنه، وحوّل المسلمون هذه الكنيسة إلى مسجد، ولذلك لم يسمحوا لنا بالدخول إليه، ولهذا وقفنا أمام باب الكنيسة، وتلونا الصلوات المعينة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++)، وعلى كل حال، بعدما عاد الحجاج إلى الوطن، تمكنا نحن الذين بقينا في القدس، من الدخول إلى تلك الكنيسة، ولكن بشكل سري، ومع صعوبة كبيرة، كما سيكون ذلك موصوفاً في ص ٢٣٠ ظ، حيث هناك وصف للمكان وللدير.

وينبغي أن نلاحظ أن المسلمين بذلوا جهوداً خاصة، لإزالة هذه الكنيسة حتى من ذاكرة المسيحيين لأن في ذلك برهان على عدم صحة القرآن، لأن القرآن قد قال بأن العذراء مريم كانت ابنة مريم أخت هرون وموسى، وهذا تصور خاطيء تماماً، وهذا مايمكن رؤيته في نص القرآن، الكتاب الأول — الفصل الأول، والكتاب الثالث — الفصل ١٧ (كذا).

بركة ضأن بيت صيدا حيث شفي الرجل المقعد

وجرى اقتيادنا على طول زقاق ضيق، قريب إلى جانب الكنيسة تلك، وقرعنا على باب بيت كان يسكن فيه بعض المسلمين الفقراء، الذين

فتحوا الباب، لكن ماكانوا ليسمحون لنا بالدخول ما لم ندفع بعض الفلوس، وبعدما فعلنا ذلك، ودخلنا، صعدنا فوق بعض الدرجات الحجرية إلى داخل ساحة صغيرة، أو صحن مكشوف، كان فيما مضى مغلقاً بجدران، ومازال بعضه كذلك، ومن حول الصحن هناك أبواب مقنطرة فقط، وكان في هذه البقعة، في أيام المسيح بركة الضأن، التي اسمها بالعبرية بيت صيدا، حيث شفي الرب يسوع الرجل المريض، الذي كان مقعداً، حسبما ورد الخبر عند يوحنا: ٥، وكانت هذه البركة تحتوي المياه، التي كانت تجري في أيام الأمطار من أسقف الهيكل، وفيها كانت تتم أعمال غسل الأغنام والحيوانات الأخرى، التي كانت تقدم أثناء التضحية في الهيكل، علاوة على ذلك تسبب سليمان في اغراق جذع شجرة في أعماق هذه البركة، وهي الشجرة التي تنبأت له العرافة وأرته أن المسيح سوف يتألم عليها، وقد بقيت ممددة، مخبأة هناك حتى أيام آلام المسيح، فوقتها انبعثت إلى وجه الماء، فأخذت من هناك واستخدمت في صنع صليب المسيح.

ويفترض أنه بسبب الاحترام الذي تستحقه هذه الشجرة، والجديرة به، أن ملاكاً نزل من السماء وحرك الماء، وبعد هياج الماء شفي الرجل الأول الذي دخل إلى البركة، وشفى الرب واحداً، كان قد انتظر تحرك الماء لمدة ثمان وثلاثين سنة، وذلك حسبما جاء الخبر في يوحنا: ٥.

ولا تحتوي هذه البركة في هذه الأيام ماء، بل الموجود في وسطها هو نوع من أنواع الخزانات، صنع لحفظ مياه المطر، وبناء عليه تلونا هنا صلواتنا، حسبما هو محدد في كتب المسيرة، وتلقينا غفرانات (+)، وقبلنا الأرض، وصعدنا السلام ثانية، وعدنا من جديد إلى طريقنا المتقدم، ودخلنا طريقاً آخر، في الجهة المقابلة له، فوصلنا إلى بركة كبيرة مليئة بالماء، قد كانت موجودة في الأيام الخالية، وكان اسمها في الكتابات المقدسة «البركة الداخلية»، وقد عملت من قبل حزقيا، ملك يهوذا،

وكان قد جلب إليها الماء من المجرى الأعلى لجيحون، وذلك بالاضافة إلى مياه الأمطار، حيث حفر قناة بالحديد خلال الصخر، وذلك حسبها قرأنا في الالهيات: ١٧/٤٨، وفي الملوك الثاني: ٢٠/٢٠ (أخبار الأيام الثاني: ٣٢/٣٠).

وفي الحقيقة عملت البرك منذ قديم الزمان في القدس حتى هذه الأيام، بعناية كبيرة، لحفظ المياه التي تجري إليها من الأسقف في الشتاء وفي أيام سقوط الأمطار، وذلك بهدف سقاية المدينة في أيام الصيف، لأن المدينة المقدسة لا تمتلك مياهها خاصة بها، وتشرب فقط من مياه الأمطار، أو من مياه جلبت من بعيد، وأتصور أنه في هذه الأيام، تبذل الجهود أكثر من ذي قبل بشكل مطلق، من أجل تزويد المدينة المقدسة بالماء، لأن المسلمين معتادين على الاغتسال اليومي، وعلى تبليل أنفسهم بالماء، أكثر مما اعتاده اليهود، ولهذا لديهم كثيراً من أماكن الاغتسال، وهم يجلبون الماء إلى القدس ببراعة مدهشة، وهذا ما سأوضحه في الصفحة ٢٤٩ و.

فيما يلي:

الحج في وادي شعفاط

وبعدما رأينا تلك البركة، تابعنا السير على طريقنا، ووصلنا إلى نهاية المدينة على الجهة الشمالية، عند الباب الذي كان يدعى فيما مضى باسم باب افرايم، لأن الطريق إلى جبل إفرائيم يمضي من خلاله، لكنه يعرف الآن باسم باب اسطفان، لأنه اقتيد من خلاله إلى خارجه، ورجم في الوادي عبره، ومن خلال هذا الباب يمر طريق شكيم، والسامرة، ومنطقة الجليل، ولذلك خرجنا من هذا الباب وما أن أصبحنا في الخارج حتى تركنا الطريق الشمالي، الذي يتطلع الباب عبره، وانعطفنا جانباً باتجاه الشرق، نحو جبل الزيتون، حيث كانت المدينة المقدسة على يميننا ونحن نسير، وعندما وصلنا إلى زاوية السور، حيث اتصل السور الشمالي بالسور الشرقي، صرفنا وجوهنا عن الشرق، وتطلعنا على طول السور باتجاه الجنوب، حيث رأينا باباً كبيراً آخر للمدينة في الجهة الشرقية، وحيث كان هناك برج مرتفع قد أنزل أرضاً وهدم، واسم هذا الباب هو الباب الذهبي، ومن خلاله دخل الرب يسوع المدينة في يوم أحد السعف، وهو على ظهر أتان، وتحتته التقى واكيم وحنه معاً، إطاعة لأمر متقدم، لأنها كانا قد أخيرا بهاتف رباني، أنه منهما سوف تلد العذراء مريم.

علاوة على ذلك، هنا وقعت المعجزات الرائعة التالية: بعدما قهر الامبراطور هرقل أعداءه، واسترد الصليب الذي كان الفرس قد استولوا عليه، أراد أن يركب على ظهر الحصان، ويمر من خلال هذا الباب في الوضع الامبراطوري، وحدث أنه ما أن وصل إلى الباب، حتى جمعت الأحجار أنفسها مع بعضها، وغدت جداراً قوياً، فلم

يستطع الدخول حتى وضع جانبا جميع الأبهة الدنيوية، وعندما صار أخيراً، حافيا متواضعا، متذللاً سمح له بالدخول مع جيشه كله، حاملاً صليب الرب.

ومن هذا الباب اقتيد الرب في موكب نصر، وكان ذلك من جبل (الزيتون) حتى الهيكل، مع سعف النخيل والأغصان الخضراء، وقرأنا كذلك في الاصحاح الثالث عشر، من سفر المكابيين الأول بأن سمعان قد دخل من خلال هذا الباب، وفي السفر الثاني والاصحاح العاشر، قرأنا عن أغصان خضراء وعن سعف، ولم يسمح لنا المسلمون بالاقتراب من ذلك الباب، ولم نتمكن بأية طريقة من الحصول على إذن بالذهاب إليه، لأن في خارجه مقبرة المسلمين، التي لا يسمحون لمسيحي بالسير فوقها.

وعلى كل حال جثونا على ركبنا، ونحن نتطلع نحوه عن بعد، وبعدما عبدنا الرب، تلقينا غفرانات مطلقة (+)، وتمنح هذه الغفرانات إلى كل واحد يقف في مواجهه هذا الباب عن بعد، ويتعبده، بقدر مايمكنه من مرات، ومن المعتقد بأن تلك الأسوار المهدمة، القائمة هناك، هي في الحقيقة خرائب الباب الذهبي الحقيقي، الذي من خلاله دخل الرب، وهو جالس على ظهر أتان، لأن تيتوس عندما هدم القدس، ترك بعض الأبراج قائمة للدفاع مع أبراج للمراقبة، وكان من بينها برج الباب الذهبي، وقد ترك قائماً مع أعماله الخشبية، وهذه الأعمال الخشبية مغطاه في هذه الأيام باللواح من النحاس المذهبة، ويقطع المسلمون قطعاً وشظايا من هذه الألواح وكذلك بعض المسامير، ويبيعون ذلك إلى المسيحيين، لأن عدداً كبيراً من المسيحيين يبذلون جهوداً عظيمة للحصول على قطع من الباب، وغالباً ما يغامرون بحياتهم بالذهاب إلى هناك في الليل وانتزاع قطعة صغيرة منه، ويبذل بعضهم المال عوضاً عن ذلك، ويرشون بعض المسلمين لاجتثاث قطعة صغيرة من الباب،

ويعطونهم نحاساً أو خشباً في مقابل ذهب أوفضة، والسبب في أن الآثار المقدسة من هذا الباب غالية جداً هو أنهم قالوا (لا أدري إن كان ذلك وهماً عابثة أم لا) بأن كل من يحمل قطعة صغيرة من ذلك الباب معه، سيكون في ذلك حماية له من السكتة الدماغية، أو الوقوع في المرض والوباء، وفي الأيام الخالية عندما كان المسيحيون يمتلكون القدس، كان يحتفل عند هذا الباب بعيد عظيم في يوم أحد السعف، وفي السبت المتقدم، أو ليلة إحياء أحد السعف، كان جميع رجال الدين يذهبون إلى بيت عنيا، ويبقون مستيقظين طوال الليل في كنيسة القديس لعازر، ويذهبون في الفجر المبكر في مسيرة من بيت عنيا إلى بيت فاجي، حيث يضعون واحداً من الأساقفة الكبار، وهو يرتدي الألبسة الكهنوتية، على ظهر أتان، ويذهبون في مسيرة إلى المدينة المقدسة.

ولدى نزولهم من جبل الزيتون، يخرج المتبقي من رجال الدين وأعضاء الطوائف الدينية، مع جميع سكان المدينة، يخرجون في مسيرة لمقابلتهم، وهم يحملون سعف النخيل، ووفق الطراز الذي جرى الحديث عنه في الانجيل، وكانوا يقطعون أغصاناً من أشجار الزيتون، ويوزعونهم في الطرقات، وينشرون ملابسهم الكهنوتية في الطريق وهم يصرخون «المجد» الخ، وعندما كانوا يصلون من الوادي نحو الباب، يكون الباب في العادة مغلقاً، وهناك شباب قد وقفوا على البرج وهم يغنون «المجد» الخ، وبعدما يكملون غناء هذه الترنيمة، كانوا يجلبون الأسقف إلى داخل الهيكل وسط سرور عظيم.

وبعد فقدان المدينة المقدسة، وطرد اللاتين منها، تابع الأرمن الاحتفال بهذا العيد مع أسقفهم لسنوات طوال، وذلك حتى أثار الشيطان (المسلمين) للشروع بدفن موتاهم هنا، حيث أغلقوا الباب بعد ذلك، ولهذا يسرعون في هذه الأيام خلال أحد السعف وفق الطريقة التالية: ففي اليوم نفسه، وبعد القداسات الربانية، وبعد تناول

الطعام، يذهب رهبان جبل صهيون إلى بيت عنيا، ويسرون من هناك وهم يغنون إلى بيت فاجي، حيث يضعون واحداً من الرهبان، وهو في ملابسه الكهنوتية فوق ظهر أتان، ويرافقونه نحو المدينة، وهم يغنون أغاني المديح، وعندما ينزلون من جبل الزيتون، يسعى المسيحيون الشرقيون إلى مقابلتهم مع سعف النخيل، ومع نشر للملابس في الطريق، ويقودونه حتى بركة قدرون، حيث تنتهي المسيرة، فهم لا يتجرأون على الصعود نحو المدينة وهم يغنون أناشيد المديح وفق هذه الطريقة، خشية من أن يقوم المسلمون بتفريق مسيرتهم برميهم بالحجارة، ومن العجيب أنهم يسمحون لهم بهذا القدر، لأنه قبل مضي مائة أو خمسين سنة، لم يكونوا يسمحون بهذه المسيرة، وقبل عشرين سنة لم يكن المسيحيون يمتلكون من الحرية كما يمتلكون الآن، جعلها الرب أعظم، في سبيل مدحه، كي لاتغلق هذه الأفواه التي تغنى حوله في هذه الأماكن العالية القداسة.

المكان الذي حفظ فيه شاؤول ملابس

الذين رجوا القديس اسطفان

ومررنا مسرعين بالقرب من الباب الذهبي، ووصلنا نازلين عبر طريق وعرو وحجري إلى مكان تقوم فيه حجرة، رأسها مسطح، وعلى هذه الحجرة وضع السفاحون ثيابهم، وهم الذين كانوا قد استعدوا لرجم الرائد الشهيد المقدس اسطفان، وبذلك عبروا عن استعدادهم لرمي الحجارة وقتل القديس برميات أشد، وكان شاؤول شاباً، وقد شهد هذه الواقعة، ولأنه كان ممتلاً بالحفاصة الشديدة لليهودية، وقف يحرس الملابس، من أجل أن يتمكنوا من رمي الحجارة بدون معيقات، وبذلك كان أكثر فائدة لهم من أي انسان آخر، وعلى هذا جلس شاؤول فوق الملابس على هذه الحجرة، وهو يتحرق كراهية ضد اسطفان، وكان يجدف ضد المسيح، ولهذا قبلنا هذا المكان، وتلقينا

غفرانات(+).

المكان الذي رجم فيه القديس اسطفان

ونزلنا من هناك قليلاً، نحو بركة قدرون، ووصلنا إلى المكان الذي رجم فيه اسطفان، وهو المكان الذي صلى فيه، وهو راعع من أجل راجميه، وتلقى حجارتهم بسرور، ولهذا قالت التريمة عنه: Lapides torrentis illi dulces Fuerunt، وقد أخبرنا القديس أوغسطين كم كانت غالية صلاة القديس اسطفان، وقال: «لو أن اسطفان لم يقم بصلاته، لفقدت الكنيسة بولص»، ولهذا قبلنا في هذا المكان الحجاره نفسها، وتلقينا غفرانات(+)، وفي الحقيقة المكان مليء بكثير من الحصا النقي من البركة، وهنا قام فيما مضى كنيسة مبجلة، لا يمكن تتبع آثارها في هذه الأيام إلا بصعوبة بالغة، مع أنه على جهة اليسار ماتزال بعض الجدران قائمة، وهذا المكان فائق القداسة، لأنه في هذا المكان كان اسطفان الشهيد الأول في التسديد لموت المخلص، وهو الموت الذي تفضل المخلص أن يعانيه في سبيل جميع الناس.

وادي شعفاط وجدول قدرون

وتابعنا سيرنا من هناك، فنزلنا إلى وادي شعفاط، وذلك حتى جدول قدرون، ولهذا الوادي اسم آخر هو Cela ، وذلك تبعاً لجيرون، وكان أيضاً اسم قدرون هو كريناروس Chrinarus ، وهو يعرف الآن باسم وادي شعفاط، لأن الملك شعفاط أمر بنحت ضريح ملوكي هناك لنفسه، أنا مقبل على وصفه في ص ٦٤٠، ويعرف قعر هذا الوادي باسم جدول قدرون، وهو جدول يجف في فصل الصيف ويختفي، لكنه يسيل في الشتاء بالماء من الثلج الذائب، ويحكى أنه في الأيام الخالية زرعت أشجار الأرز Cedars على طول ضفتي هذا الجدول، وبسبب هذه الأشجار أطلق عليه اسم Cedron أو جدول الأرز،

ويأتي هذا الوادي وهذا الجدول من جهة الشمال، ويمتد سائراً نحو الجنوب، وهما يفصلان جبل المدينة، والهيكل وتلال صهيون، وجيحون، عن جبل الزيتون وجبل العدوان، وهما يستمران بوادي سلوان، ووادي حرمون، اللذان ينعطفان نحو الشرق، ويمتدان حتى سدوم، وبناء عليه كلما احتوى جدول قدرون أية مياه، يقوم بارسالها نزولاً إلى البحر الميت، بواسطة مجرى متعرج طويل، وذلك خلال وادٍ وعرٍ ومتشعب، وذكر بعضهم أن جدول قدرون كانت مياهه في الماضي تتدفق باستمرار، وأنه يمتلك في هذه الأيام قناة تحت الأرض، لأن بطن الوادي فيه صدوع وشقوق بسبب تهديم المدينة المقدسة مراراً، ويقولون إنه تحت هذه الخرائب يستمر الجدول بالجريان، ولا أعتقد أن هذا صحيحاً، لأنني سرت على طول هذا الوادي، كأن تقول نزولاً حتى سدوم، وذلك بعيداً عن القدس، من خلال قعر عميق جداً، وجرفي، حيث ليست هنالك خرائب مرمية مطلقاً، ومع ذلك لم أستطع رؤية نقطة ماء واحدة من ذلك الماء المتدفق بشكل مستمر، بل رأيت مجرد قعر جرفي جاف، تسيل فيه المياه بشكل متواصل في موسمها، ومامن أحد يمكنه أن يشك لو أن هذه القناة كانت فيها مياه جارية باستمرار، في العصور الخالية، من نبعها، لما سكنت الكتابات المقدسة حولها، ولو أنه كان هناك جريان دائم تحت الأرض، لقام أهالي القدس بطلب عون جميع المشاركة، ولحفروا عميقاً حتى ضفتيه، مقدرين كيف أن الماء ثمين جداً في القدس، والناس دوماً في حاجة إليه، وفي الماضي البعيد كان لابد من اختراع أسلوب ماء، بوساطته يمكن حمل هذه المياه مباشرة إلى المدينة، مثلما حدث بالنسبة لمياه سلوان، التي قال عنها نيقولا دي ليرا بأنها تدفقت مرة في المدينة فوقهم، الأمر الذي بدا بالنسبة لي غريباً جداً، لأن ذلك النبع واقع عميقاً عند سفح جبل صهيون.

وهذه الوديان المتقدمة الذكر، وهذا المجرى الجرفي، وكذلك نبع

سلوان، والجبال الذين جرى الحديث قليلاً حولهم فيما مضى، سوف يأتي ذكرهم فيمايلي، ولقد رأيت من المناسب عمل هذه التوسطة المختصرة هنا، من أجل فهم أفضل لما سيأتي، والآن عندما وصلنا إلى قعر الوادي، عبرنا فوق الجدول بوساطة جسر حجري، قد بني فوق قناطر، ووصلنا إلى سفح جبل الزيتون، وعندما صعدنا عليه، وابتعدنا قليلاً عن الجدول، وصلنا إلى بئر التين، الذي عنه نقرأ في الاصحاح الثاني من نحميا، وتحدثت في هذه المكان لموالي الفرسان حول غيرة نحميا وحماسه، وكيف جاء إلى القدس من بلاد بعيدة كان مأسوراً بها، وركب حول المدينة في الليل ليرى خرائبها، ووقف إلى جانب ذلك البئر، مقدراً كيف يمكنه إعادة بناء أسوار القدس بعد رحيل الملك ارترا اكسرس، Artaxerxes ، أي الأسوار التي هدمت، وكذلك الأبراج، والأبواب التي سويت بالأرض، وأيضاً البيوت المشعثة، والهيكल المحروق.

وعمله هذا فيه ملامة لأمرائنا، الذين لا يولون أمر استرداد المدينة المقدسة ما يستحقه من اهتمام، وكأننا لسنا بحاجة إليها، وأنا لا أتذكر أنني قسرات في أي مكان، لماذا أطلق على هذا البئر اسم بئر التين، وأفترض أن سبب ذلك بأنه كان فيه فيما مضى مياه جرت إليه من أحد الينابيع، وأن المياه قد جلبت إلى هذا الصهريج من خلال تينيات أو أنابيب ملتوية تشبه الثعبان، فمن مثل هذا منطقة التينيات (الطرخونية) قد نالت تسميتها، لأنه لم يكن فيها ماء، إلا ما جلب من خلال التينيات، أي من خلال الممرات الملتوية مثل الأفاعي، والموجودة تحت الأرض.

كنيسة مريم العذراء الأعظم قداسة في وادي شعفاط

ثم إننا تابعنا سيرنا من هناك، غير أننا استدرنا نازلين نحو جهة اليسار، إلى كنيسة العذراء الأعظم قداسة، التي هي منجورة من خلال صخور حجرية، وذلك عميقاً في بطن الأرض، ويقول بعضهم أنه

عندما شرع ببنائها، لم تكن تحت الأرض، بل فوقها، وأنها تغطت فيما بعد بالأتربة التي جلبتها مياه الأمطار من جبل الزيتون، وكذلك من امتلاء الوادي، وفوق المدخل هناك بناء عمل على شكل بيعة، وأمام الباب هناك ساحة مبلطة بألواح مربعة من الرخام.

ونزلنا إلى هذا الكهف، وبادرنا مسرعين نحو مدخل الكنيسة، ولكن عندما وصلنا إلى الكنيسة وجدنا الباب مغلقاً، وليس هناك من يحرس الكنيسة، وأخبرنا — على كل حال — أحد المسلمين، وكان جالساً هناك عند الباب، بأن الحارس سوف يحضر بالحال، وفي الحقيقة كان حارس باب هذه الكنيسة مسلماً، كان قد ورث هذا العمل من أبيه، الذي أنا ذاهب للحديث عنه، فقد كان هذا المسلم، وأعني بذلك والد حارس الباب الآن، قد تلقى من السلطان هدية هذه الكنيسة، وذلك مقابل خدمة كان قد عملها، وجاءت هذه الهدية له، حتى يتمكن من جمع بعض المال من الحجاج الذين يزورونها، وعلى هذا عندما صار متملكاً للكنيسة، ورأى أن المسيحيين متحمسين بشكل فائق لزيارتها، رفع مقدار المبلغ الذي اعتاد الداخلون إليها على دفعه، فجعله ليس أقل من ثلاث دوقيات، ونتيجة لهذا العبء الثقيل تخلى الحجاج عن زيارة هذه الكنيسة، ولم يعد أحد يدخلها بعد ذلك، وأصبح المكان تقريباً منسياً، لكن العذراء المباركة، ظهرت في المنام في إحدى الليالي إلى ذلك المسلم الجشع، ووجهت اللوم إليه بكل شدة قائلة: «يا عدو الرب، خسرت كل من العقل والجسد، وخرقت الشريعة وعطلتها، بأن أزلت التشریف المستحق لي، كيف تجرأت أنت وأقدمت على اغلاق أبوابي في وجه عبيدي الحجاج؟ انهض على الفور، وافتح أبواب ضريحي إلى جميع الحجاج من دون مال، ومن دون سعر، وإلا فإن جسدك سوف يمتلئ تماماً بالحشرات، ولسوف يصبح بيتك مشعثاً مهجوراً»، وما أن فرغت من مقالتها هذه حتى اختفت، وقام المسلم، وهو مرعوب تماماً، وأخبر

أسرته وهو يرتجف بكل ما سمعه من كلمات، وحرّم عليهم منذ ذلك الحين منع أي مسيحي من الدخول إلى الكنيسة، وطلب منهم فتحها للجميع من دون أخذ أي رسم دخول، ورسم باستمرار ذلك بين ذريته من بعده، ولذلك مازال هذا معمولاً حتى هذه الأيام.

وفيما نحن وقوف أمام باب الكنيسة، قدم إلينا رجل مسلم، متقدم بالسن، وكان هو ابن الرجل المتقدم الذكر، الذي إليه ظهرت العذراء المباركة، وفتح لنا الباب، وسمح لنا بالدخول قائلاً بلغته لكل واحد «اذهب واعبد الرب، وامدح العذراء مريم»، وبعدما دخلنا من الباب، نزلنا على درج رخامي مؤلف من اثنتين وخمسين درجة، ووصلنا إلى كهف عميق، وعندما كنا نازلين شرع قائد الجوقة بصوت مرتفع يغني ترنيمة «O gloriosa domina» الخ.

وتبعناه ونحن نغني بسرور عظيم، ووصلنا إلى ضريح العذراء المباركة كثيراً في وسط الكنيسة ودخلنا إليه واحداً تلو الآخر، وقبلنا القبر المقدس بخشوع عظيم، ومع تقديم الشكر تلقينا غفرانات مطلقة(++) .

وبعد ترنيمة «O gloriosa domina» الخ ، غنينا «Salve regina» وترانيم أخرى، وكنا مسرورين جداً في هذا المكان المقدس، وغنينا بنشوة، وأنا لم أسمع قط غناء بمثل هذه العذوبة مع الموسيقى والصدى، وكذلك في كهف اكتشاف الصليب، الذي تقدم لي ذكره، ولقد حضرت مراراً إلى هذه الكنيسة وكنت فيها لوحدي لمدة ساعة أو ساعتين، حيث صليت وغنيت كما رغبت، ذلك أن صوت رجل واحد يغني هناك، لا يمكن سماعه في الأعلى، ولقد لاحظت مراراً، والذي لاحظته حدث مراراً في تلك الكنيسة، أن الحجاج يكونون فيها أكثر نشوة وبهجة، منهم في الأماكن المقدسة الأخرى، وحقاً يفعلون ذلك، لأنه من هذا المكان صعدت العذراء المجيدة إلى السماء، حيث هي

ممجدة بلا حدود، وتحكم مع المسيح عالماً بدون نهاية، وعن هذه البقعة قال جيروم: «من على هذا المكان انتشلت ملكة العالم وأبعدت عن هذا العالم الشرير، ولذلك ابتهج، لأنك متأكد من مجدها الذي لا يزول، ذلك أنها ذهبت من هنا إلى قصر الجنة، ونقلت مجدها من هذا العالم الحالي من أجل أن تتمكن باطمئنان من التوسط من أجل ذنوبنا، ومامن شك أنه في لحظة صعود العذراء المباركة جداً، ابتهجت القدس السماوية كلها وشعرت بسعادة لا حدود لها، وقدمت آيات الشكر وهي في غاية السرور، وأعتقد بأن المخلص نفسه قد جاء إلى هنا مسرعاً ومعه جميع جنود مملكة السماء، وأعادها إلى الحياة، بإعادة توحيد جسدها مع روحها، وبسرور أجلسها إلى جانبه على عرشه».

هذا وينبغي أن لانتقد بأن مريم العذراء المباركة جداً قد اختارت بالصدفة موضع ضريحها في وادي شعفاط، بل عن قصد، حتى يتمكن المذنب الذي يخاف، من الوقوف في هذا الوادي في يوم الحساب المخيف، الذي سوف يأتي، فالآن يمكنه أن يتخذ سلفاً مكاناً في هذا الوادي، ويصلي إلى الأم، ويظهر طاعته لها، وبذلك يتوقف عن الخوف من استدعائه ثانية إلى هذا الوادي، مادام قد حصل على رضى أم الذي سيتولى الحساب، وخلفت العذراء المباركة من أجل مواساتنا منديلها وثوبها، اللذان جرى نقلهما إلى القسطنطينية بناء على أوامر من الامبراطورة هيلانة، والذي تولى عملية النقل هو جوفيناليس - Juven- alis، بطريرك القسطنطينية.

وصف كنيسة العذراء المباركة وضريحها في وادي شعفاط

ويطلق على كنيسة العذراء المباركة في وادي شعفاط اسم كنيسة صعود مريم، وكان إلى جانبها فيما مضى دير للرهبان من طائفة القديس بنت، مع راعي دير متوج، وفي هذه الأيام من غير الممكن رؤية حتى خرائب هذا الدير، حيث هناك بساتين زيتون وأشجار تين حول

الكنيسة، والكنيسة نفسها — كما قلت — موجودة تحت الأرض الآن، مع أنها في الأيام الخالية لم تكن كذلك، كما هو واضح عندما يلقي الانسان نظرة على الجدران، حيث ماتزال النوافذ باقية، لكن من دون ضوء، لأن فيضان مياه الأمطار الذي جلب التراب من الجبال قد غطاها، وهي لذلك لا تتلقى ضوءاً إلا من الطرف الشرقي، حيث هناك فتحة معمولة نحو السماء، ومن خلال هذه الفتحة يدخل الضوء إليها، ويضيء زاوية واحدة من الكنيسة، وهذه الفتحة محاطة في قسمها العلوي بجدار مستدير، وكأنها بركة.

وبنيت هذه الكنيسة وفقاً لجيروم، في قداسه حول صعود العذراء، بشكل رائع، من ألواح الرخام، لكن من الجانب الواقع إلى الشمال من الضريح، هذا الجانب غير مغلف بالرخام، بل من الممكن أن يرى هناك الصخر الأجرد الذي نجر الضريح منه، وهذه الكنيسة عالية، ومقنطرة، وتحتوي على كثير من المذابح، ويقف ضريح العذراء في وسط الكنيسة، وهو غرفة صغيرة، مثل ضريح الرب، مزين بشكل فخم، ومضاء بمصابيح شاعلة، عددها أكثر حتى من مصابيح الرب نفسه، وللغرفة مدخلين، أولهما مفتوح من الغرب مواجه للقبر المقدس، القائم على الجانب الأيسر منه، ذلك أن الرأس متجه نحو الجنوب، والقدمين نحو الشمال، وهناك باب آخر على جهة الشمال، ويدخل الانسان من خلال الباب الأول، ويخرج من خلال الباب الآخر، وتتلّى القداسات في الضريح نفسه، مثل تلاوتها في ضريح الرب، وعملت أنا شخصياً عدداً كبيراً من القداسات هناك، ويمكن لجميع المسيحيين من أي الفرق كانوا أن يفعلوا ذلك، ذلك أنه مسموح لهم إقامة قداسات هناك، فهذا المكان ليس ملكاً لأية طائفة، ذلك أن المذابح الأخرى المنتشرة في أرجاء الكنيسة هي ملك لمختلف الطوائف، حيث أن المذبح الذي هو الأقرب إلى القبر هو ملك للأرمن، والثاني الموجود تحت القوس المظلم، هو

ملك للجورجيين، والثالث الذي هو تحت النافذة في النهاية الشرقية للسدة، هو ملك للاغريق، والرابع الموجود في الزاوية عند الجهة الشمالية هو ملك للاتين، والخامس الموجود قرب الدرجة الأولى من السلم هو ملك للهنود.

وهناك قبر باهظ التكاليف معمول من رخام أبيض مصقول، مدفون فيه الملكة المحترمة ميليساندا، التي بنت هذه الكنيسة، ويوجد على كل جانب من جانبي السلم قبر مزين، ويقول بعضهم أنه مدفون في الأول حنه، أم العذراء المباركة، ومدفون في الآخر واكيم والدها، ويوجد في الكنيسة نفسها صهريج عميق يحتوي على ماء بارد نقي، والذين يقولون بأن جدول قدرون له مجري تحت الأرض، يقولون أيضاً بأن هذا الماء يأتي من هذا الجدول الموجود تحت الأرض، وعندما يكون الانسان وحيداً في تلك الكنيسة ويصغي بأذنه فوق فم ذلك الصهريج، يخل إليه سماع صوت خرير ماء تحت الأرض، ويقول آخرون بأن هذا النبع يحتوي على ماء يجري من الجنة، تشریفاً للعذراء المباركة، ومن أجل راحتنا، وفي جميع الأحوال، من غير الممكن أن تكون المياه مياه أمطار، لأن الصهريج عميق جداً في باطن الأرض، ويكفي ما قيل هنا حول هذا الموضوع، وإذا مارغبت بالمزيد، انظر رواية أوفى حول هذه المسائل تحت عنوان يوم صعود العذراء.

المكان الذي تسلم فيه القديس توما الرسول

زناار العذراء المباركة

وعندما فرغنا من تقديم صلاة شكرنا في تلك الكنيسة المقدسة، صعدنا فوق الدرجات ثانية، وأعطينا بمبادرة منا بعض الفلوس للمسلم المتولي حراسة باب الكنيسة لتشجيعه، حتى يترك الحجاج المسيحيين يدخلون إليها، وبعدما غادرنا ساحة الكنيسة، صرفنا وجوهنا

نحو جبل الزيتون، وصعدنا إلى جانبه، وبعدما صعدنا قليلاً، وصلنا إلى المكان الذي يقال وقف فيه القديس توما ساعة صعود العذراء المباركة فلدى سماعه لتراثيل الحشد الساوي، نظر نحو الأعلى، فشاهد أم الرب صاعدة نحو السماء، وكان ذلك بجسدها وروحها، وقد طوحت بزناها له حتى تقوي إيمانه، وقد تلقاه ببهجة صامتة، وأراه لرفاقه الرسل، وبذلك أقنعهم بحقيقة صعودها في الجسد والروح أيضاً.

فهو بلمسه لجراح المسيح في المجد ثبت إيماننا بقيامته، ويعمله هذا أيضاً ثبت خشوعنا نحو صعود مريم، وبناء عليه قرأنا في هذا المكان الصلوات المعينة، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات (+).

مكان صلاة المسيح وتأله على جبل الزيتون

وكيف صلى الحجاج هناك

وتابعنا سيرنا من هناك قليلاً، بين جدران حجرية جافة عائدة للبساتين على جانب الجبل المقدس، ووصلنا إلى فم كهف في الصخور، ودخلنا إليه فوجدنا قبواً جميلاً وواسعاً، لم يصنع فنياً، أو نجر من الصخر بأيدي البشر، بل تشكل وأعدّ من قبل الخالق منذ البداية، لكي يكون مكاناً للاجتماع للصلاة، والتأمل، والتفكير، وموائماً لإنسان واحد يرغب بالعزلة، وغالباً ماترك الرب يسوع المدينة في الليل ودخل إلى هذا الكهف حيث أمضى الليل في احياء مقدس مع الصلوات.

وإلى هذا الكهف قدم نيقوديموس في الليل لزيارة الرب يسوع، وعقد معه جولة حوار حول أعمق المسائل اللاهوتية، حفظها لنا يوحنا الانجيلي في الاصحاح الثالث من انجيله، وهذا المكان عرفه يهوذا، لأن الرب غالباً ما جاء إلى هنا مع حواريه، وذلك حسبما جاء في الاصحاح الثامن عشر من انجيل يوحنا، وهكذا جاء يسوع في الليلة التي تلت ليلة العشاء الأخير، من المدينة عبر جدول قدرون، حيث كانت هنالك

حديقة، وفيها كهف، إليه دخل، وجثا على ركبتيه، وانحنى نحو الأسفل وهو يصلي، وقد تمدد وسجد بنفسه، وأخذ يقول بصوت متهدج: «يا أبا الآب كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذه الكأس، ولكن ليكن لا ما أريد أنا بل ما تريد أنت»، وبعدما قدم هذه الصلاة ثلاث مرات، وكان متألماً، صلى بحرارة أعظم، وتغرق دماً من خلال حزنه، وأساه، ورعبه، وظهر له هناك ملاك من السماء وقواه.

سادتي وإخواني الحجاج، ما الذي سوف نفعله هنا؟ كيف سنري أنفسنا لمخلصنا في هذا المكان المقدس والمخيف؟ وبأية مبادرات، وبأية حركات، وبأية أوضاع سوف نصلي؟ مؤكداً ليس بغير ما أظهره مقدس هذا المكان نحو والده السماوي، ومن الواضح لكل واحد يقرأ الأناجيل بعناية، أن المسيح اتخذ بصلواته الثلاث، ثلاثة أوضاع مختلفة: أولاً ارتقى على وجهه ومدد جسده كله، كما روى متى، وفي الثانية ارتقى على الأرض، واستند على مرفقيه، كما ذكر مرقس، وصلى في المرة الثالثة لمدة أطول، واعتمد على ركبتيه كما قال لوقا، وفي المرة الرابعة، نهض واقفاً على قدميه، وردد أجمل الصلوات، وعندما رفع عينيه نحو السماء قال: «أيها الآب قد أتت الساعة مجد ابنك» — يوحنا: ١٧، هذا ويقول بعضهم بأنه فعل ذلك في الحديقة عند الانتهاء من صلواته بحضور جميع حواربييه.

وبناء عليه اتخذ الحجاج هذه الأوضاع، وصلوا لوهلة طويلة في هذا المكان الفائق القداسة، وبكوا بحريرة أكثر مما كانت عاداتهم، لأن هذا المكان موائم بشكل رائع لإثارة دموع الذين يصلون، لأنه بدا أن هناك هبوب روائح غريبة في حلاوتها، التي عندما تستنشق تلين كيان الإنسان مهما كان، وتجعل قلبه لطيفاً، ولأحاجة للتعجب من هذا، لأننا نعرف يقيناً أن هناك ذرفت أطيب العطور حلاوة من خلال عرق جسده الثمين جداً، الذي بوساطته ينبعث الأموات ويعودون إلى الحياة، ذلك

أن ألبيرتوس قد أخبرنا بأن الدم الذي سال من خلال ثيابه، سقط على الأرض، من أجل أن يجري نحو رماد الأموات ويلقي عليهم القدرة على القيامة.

وبعدما قرأنا الصلوات المحددة، وقبلنا المكان الذي جثا عليه يسوع، نظرنا باحترام إلى صخرة ناتئة في الكهف، من المعتقد أن الملاك قد وقف عليها، وهو الملاك الذي قوى الرب، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

وهذا الكهف شكله مستدير في الداخل، وحجمه كبير، ويوجد على جهته اليسرى كهوف أخرى عمقها لأبأس به، فيها غالباً مانام الحواريون، أثناء قيام المسيح بالصلاة، لكن ليس في الليلة الأخيرة فقط، فقد كانوا في الكهف معه، لكنه ابتعد عنهم مسافة رمية حجر تقريباً، ويوجد عند رأس الكهف نتوءات خارجة من الجدار من صخر شديد القساوة، عليهم وقف الملاك الذي ظهر للمسيح، ويوجد تحت هذه الصخرة مذبح، عليه يقرأ القديس أحياناً، وكانت جدران هذا الكهف في الأيام الخالية مطلية، فهذا مايمكن اكتشافه في هذه الأيام من خلال الفحص الدقيق، وكان فيما مضى من الممكن هناك رؤية آثار ركب الرب يسوع على الأرض، حيث أنها انطبعت بشكل اعجازي على الصخر الأصم، لكن هذه الآثار لم تعد الآن مرئية بسبب أعمال التخريب التي تسبب بها الحجاج، الذين كانوا اقتطعوا شظايا من الأماكن المقدسة، ومنذ دفع من الأرض صخرة واقفة مساحتها قامة ونصف القامة، وهذا الكهف مضاء بما فيه الكفاية من خلال الباب الذي يدخل منه الانسان، ومن شق واسع موجود على الجانب الأيسر، وذلك في الصخرة التي تغطيه.

المكان الذي بدأ به الرب يصبح حزيناً ومهموماً، وقال: «نفسي حزينة جداً» وحيث وقع الحواريون الثلاثة نياماً

واقْتِيد الحجاج إلى مواضع آلام المسيح، وفق نظام يمكنهم فيه لقاء ربهم، والذهاب للقاءه وهو قادم نحوهم، ولو أن الأدلاء اقتادونا على طول ممرات المسيح وفق النظام نفسه الذي اقتيد به الرب فوقهم، لكان من السهل وصفهم، وتقديم وصف مفيد لهذه الأماكن المقدسة، لكن المسيرة مشت باتجاه معاكس، من الصعب وصفه، ودعونا على هذا نسير نحو الأمام للقاء المخلص.

وخرجنا من الكهف المتقدم الذكر، وابتعدنا عنه حوالي رمية حجر، على طول طرف جبل الزيتون، لأن مقدار هذه المسافة ابتعد المسيح وانفصل عن تلاميذه، عندما ذهب إلى المكان المتقدم الذكر، حسبما ورد الخبر في انجيل لوقا: ٢٢، ففي هذا المكان وقف الرب يسوع مع تلاميذه الثلاثة، وبدأ يصبح حزينا، وخائفاً، ومهموماً، ولجوجاً، وقال: «نفسي حزينة جداً حتى الموت، امكثوا هنا واسهروا معي، بينما اذهب وأصلي»، ثم سار قليلاً ودخل إلى الكهف، لكن التلاميذ الثلاثة ناموا وقتها.

وانحنيا في المكان بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا مواضع الخطوات الأعظم قداسة للرب يسوع، وصدوراً عن الخشوع، جلسنا أيضاً في المكان الذي نام فيه التلاميذ، لأنه يوجد في ذلك المكان بعض الصخور المرتفعة قليلاً فوق الأرض، حيث يمكن لإنسان جالس على الأرض أن يسند ظهره وذراعه عليهم ويريح نفسه، وبناء عليه تلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا غفرانات مطلقة (++)، وتعلمنا من الأمثلة كلها، لأنه بالحقيقة تفيد الصلوات قليلاً فقط وللغفرانات قيمة قليلة، لابل أكثر من هذا تعب الحجاج كله بلا فائدة، إذا لم يتأمل الإنسان في هذه الأماكن العظيمة القداسة ويتفكر بهذه الأمثلة التي واجهها، ولم يدخلها إلى قلبه حتى يقوم حياته ويصلحها.

ويعلمنا حزن المسيح العظيم هذا أن نتخلى عن مسار هذه الدنيا، لأن سرور العالم في كلمات غريغوري (الكبير) هي شروره غير المعاقبة، وكل

الذين يبتهجون مع الدنيا في الشرور غير المعاقبة يبرهنون على أنهم أنفسهم شركاء في ذلك، ونوم التلاميذ هو برهان على ضعفنا، وعلى التعاسة في طبيعتنا، وقد قطعنا على أنفسنا عهداً كثيرة، لكن صرنا متراخين عندما حل الوقت بالنسبة لنا لتنفيذهم.

المكان الذي ذهب الرب إليه للقاء

الذين جاءوا لاعتقاله، واعتقاله

وتابعنا سيرنا، ووصلنا إلى البستان الذي إليه جاء الرب يسوع إلى مقابلة الذين أرادوا اعتقاله، فسجد ثلاث مرات، وسلم أخيراً نفسه عن طواعية، ووضعها بين أيديهم، وترك يهوذا يقبله، وهذا المكان محاط بجدار من الحجارة الجافة، وله قداسة خاصة، وهو قائم على منحدر الجبل، لكن ليس منحدرًا كثيرًا، حيث هنالك حقل واسع يدعى باسم «بستان الورود»، ويزار هذا المكان من قبل المسيحيين الشرقيين والغربيين سواء مع خشوع عظيم، لكن المسلمين يقومون، صدوراً عن غيرتهم لنا بتلوين المكان، بالروث، ويلوثون الصخور بالنجاسات، وهي الصخور التي اعتاد الحجاج على تقييلها.

والذي حدث في هذا اليوم، هو أننا عندما وصلنا إلى هذا المكان، وجدناه قد لوث حديثاً، بشكل مخجل، ولم نكن هنا غاضبين من المسلمين بقدر ما كنا غاضبين من أنفسنا، عارفين من جهة أخرى، أنه نتيجة لذنوبنا سمح الرب بفعل هذا، وأنه حرك بشدة المسلمين لفعل هذه الأشياء، من أجل تلوين الأماكن المقدسة أمام أعين الفرسان الحجاج والنبلاء، الذين بهذا يمكن أن يقوموا ويتحركوا لتحرير الأرض المقدسة، وليتقنوا للشرور التي سببت مثل هذه الإهانات العظيمة، ولاشعال غيرتهم نحو الأماكن التي صنع فيها خلاصنا، وأن يكون الرب قد أثار بقوة المسلمين للعمل هكذا، مبرهن عليه بأن هذا المكان

بعيد عن موضع تردد الناس، وأن هذه القاذورات المجمعمة لا بد أنها قد نقلت بأوعية من المدينة، أو من الأجزاء المنخفضة من جبل الزيتون، حيث يوجد هناك بيوت، والأماكن التي نتعبد بها ملوثة بكل دقة، وهو عمل وحشي لا يمكن لانسان القيام به ما لم يكن متأثراً بشيء أعظم من الارادة الانسانية المجردة، وكان هذا مفيداً، وجاء موضحاً أنه حتى بهذا العمل القذر، أنهم قد أدركوا مدى اهتمامنا بهذه الأماكن، وأنا مسيحيين متشددين، ولا سيما عندما يرون أنهم على الرغم من تلويثهم نحن نحترم هذه الأماكن المقدسة ونقبلها، وكأنها غير ملوثة، ولا شك أن هذا مربك لهم.

وبناء عليه قصدنا هذا المكان، ومسحنا القذارات بأرديتنا، وحيث أننا أثرتنا بالشعور بالشفقة، فقدبتنا نشعر بخشوع أعظم وبمزيد من الاحترام، فقد ركعنا وسط هذه القذارات وتعبدنا تلك الأماكن المقدسة، وتلقينا غفرانات (+)، وزيادة على هذا فإن الذي رأى الحشد متمدداً في الوحل، لا بد من أن يرمي نفسه مباشرة في الوحل، دون اهتمام بتلوث ذاته، فالمهم لديه كان انقاذ المقدسات من المهانات.

المكان الذي قطع فيه بطرس أذن ملخس الشرير

وتابعنا من هناك سيرنا قليلاً، نزولاً على طول سور تلك الحديقة، فهناك توجد صخرة، هي علامة على المكان الذي وقف فيه القديس بطرس، عندما رأى خادماً اسمه ملخس، لطم الرب على وجهه بعنف، فاشتعل غضباً، ووجه ضربة بسيفه نحو ملخس الذي كان مقبلاً نحوه، عازماً على شطر رأسه إلى نصفين، لكنه تجنب الضربة، فقطع بطرس أذنه، وقام الرب على الفور بتوجيه اللوم له، وحظر عليه القتال بالسيف، واقتيد الرجل الجريح إليه، فشفاه بحضورهم جميعاً. وقبلنا هذا المكان، وتلقينا غفرانات (+).

مزرعة جيسماني التي إليها جاء يسوع

ونزلنا الآن من الراية على مقربة من الجدول، وقدمنا إلى مكان اسمه جيسماني، فهناك كان ثمانية من الحوارين قد بقيوا نائمين، في حين ذهب الرب مع ثلاثة إلى المكان الذي صلى فيه، وتلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا غفرانات(+).

وكان في هذا المكان، في أيام المسيح مزرعة، ومسكن ملك لللاويين، حيث جرى حفظ المواشي المقرر التضحية بها في الهيكل، وبعد انتصار المسيح، بنى المسيحيون هنا كنيسة كبيرة مع دير لعدد كبير من الرهبان، وجرى اجتثاث جميع هذه الأبنية وتسويتها بالأرض، لكن هناك بعض الآثار من الجدران من الممكن رؤيتها.

الصخرة المشاهد عليها علامات رعب الرب يسوع

وتقوم هذه الأماكن الأربعة المتقدمة الذكر داخل إطار صغير، واحدها قريب من الآخر، وهي في قطعة الأرض نفسها، وفي قطعة الأرض هذه كانوا قد أخذونا أيضاً إلى صخرة كبيرة، قائمة فوق الأرض، وتشكل بوضعها الحالي، جداراً عريضاً، لكن ليس عالياً جداً، وليس قائماً تماماً بل مائلاً، وعند أسفل هذا الجدار الصخري قطعة من الأرض المنبسطة، كان الرب يسوع واقفاً عليها، عندما أقبل اليهود لاعتقاله واتخاذهم سجيناً، ولم يتمكن الرعاع من الاحاطة به تماماً، لأن الصخرة وقفت على الجانب الشرقي منه، وعندما كانوا على وشك الانقضاض عليه، صار خائفاً، فاستدار بنفسه نحو الجدار الصخري، وهو راغب بالنجاة من هجومهم الشديد، وقد مدّ ذراعيه، وسقط فوق الجدار الصخري ليس رغبة منه بالفرار، بل الانزياح فقط من أمام عنفهم الوحشي، وهكذا سقط مقابل الجدار، وانزاحت الصخرة أمام جسده الفائق القداسة، وجعلت نفسها لينه، وصار الجدار وكأنه مشكل

من شمع لين، وهكذا تلقى في نفسه طبعات جسده مع جميع أطرافه، وفق الشكل ذاته عندما وقع عليه، وهذه العلامات التي انطبعت بالصخرة على هذا الشكل، تري بشكل كامل شكل يديه وذراعيه، والرأس والقبعة، والصدر والثياب، ومن المستحيل أن يتشكك الانسان أن تكون هذه العلامات قد نحتت بشكل اصطناعي، بوساطة أية أدوات، بل كان ذلك في اللحظة التي انزعج فيها الرب واضطرب في عقله، وركض نحو الجدار، فتلقى هذا الجدار ضغطاً فاق أي شيء اصطناعي أو فني يمكن ان يعمل، وكأن الطبيعة قد أضفت هذا الشكل على الصخرة منذ البداية.

وعلاوة على هذا، فإن هذه الصخرة كانت قاسية إلى حد بدت فيه، أنه لا يمكن نجرها، وأن مامن قطعة منها يمكن فصمها بوساطة أية أداة حديدية، وهكذا انحنينا وقتها بأنفسنا أرضاً حول هذا الجدار الصخري، وبعدما تلونا صلواتنا، ذهبنا واحداً تلو الآخر نحو المكان، ومددنا أجسادنا بقدر ما نستطيع في المكان المقدس للطبعات، ووضعنا أذرعنا، وأيدينا، ووجوهنا في التجويف، وقسناه بأصابعنا.

والرب شاهد عليّ أنني رأيت هذا الذي كتبت عنه خلال حجي الأول، وأنني مددت نفسي في هذه العلامات، التي أشارت إلى رجل أطول مني بكثير، وقد أشير إليها من قبل الراهب بوركاردوس، الذي كان من طائفة الدومينيكان، والذي أمضى مدة طويلة في الأرض المقدسة، قبل مائتي سنة مضت، وكان وقد وصف بوضوح وتميز جميع الأرض المقدسة، وقد رأى هذه الصورة معلمة على الصخرة، التي أنا أتكلم الآن عنها، وقدم الوصف نفسه.

لكن الآن، أنا لا أعرف ما الذي سأقوله، وأنا مرتبك، ومتعجب، ومندهش، ولا أستطيع أن أتصور ما الذي حدث لتلك الصخرة، لأننا في أثناء حجي الثاني هذا، أخذنا إلى جميع الأماكن المتقدمة الذكر، فلم نر

الصخرة، ولم نسمع أي ذكر لها، وعاد موالي الفرسان إلى الوطن مع الحجاج الآخرين، ولم يسمعوا شيئاً حول تلك الصخرة، وبعدما عادوا، وعندما صار بإمكان الإنسان القيام بزيارة أكمل وأهدأ إلى الأماكن المقدسة، ذهبت وحيداً عدة مرات إلى جبل الزيتون، وبحثت بتيقظ عن تلك الصخرة في موقع جيسماني، وذلك صعوداً ونزولاً، وقريباً وبعيداً، لكنني لم أستطع بأية وسيلة العثور عليها.

وأخذت في أحد الأيام اللورد هنري أوف سخومبيرغ-Schum-berg وهو فارس ورجل نشيط، وكان راغباً تماماً في معاونتني في أبحاثي مهما كانت، لأنني كنت متشوقاً كثيراً لرؤية تلك الطبقات، وقمنا معا بالبحث عنها صعوداً ونزولاً، غير أننا لم نستطع العثور على أي أثر منها، وقام فرسان آخرون بناء على تحريضي فبحثوا حول الرابية، وفتشوا عنها، لكن تعبهم تبدد بدون فائدة، وأخذت أيضاً معي راهبين من جبل صهيون، وقد بحثا معي باخلاص، لكننا لم نستطع انجاز شيء، وفي الحقيقة أعلننا أنها لم يسمعا عنها من قبل، وذهبت أيضاً إلى الأب المسؤول، وإلى الأب بول غرنغلنغر-Gringlinger، والأب بيرغرين بولانوس-Peregrine polanus، والراهب جون أوف بروسيا، وإلى رجال ذوي سن وتجربة، وإلى رهبان مسنين، وإلى رجال دين اتقياء، ورهبان علمانيين، لكن مامن واحد منهم استطاع أن يخبرني شيئاً، وبدوت بالنسبة لهم أنني أهرق، حتى أريتهم وصف الراهب بوركارد، الذي كان معي، وذلك مع كتاب جولاتي السالفة.

وبذلت جهداً كبيراً وأنا أبحث فوق الجبل سعياً وراء هذه الطبقات، لأنني متأكد تماماً أنه من غير الممكن بالنسبة لتلك الصخرة، أن تنقل من مكانها إلاّ بمعجزة، ذلك أن مامن بناء جديد قد أقيم هناك، والذي انقضى فقط عامان على رؤيتي لها أولاً، وإلى هذا اليوم مازلت منزعجاً لاضاعتي ذلك المكان المقدس، ولو كنت أعرف مكان وجود الراهب

أنطوني أوف فلاندرز، الذي هو من طائفة الفرنسيكان، والذي كان في ذلك الوقت الدليل إلى الأماكن المقدسة، لو عرفت أين يسكن الآن، لذهبت إليه — إذا ما حصلت على إذن — حتى ولو كان في انكلترا، ذلك أنه وإن لم يقل الانجيليون شيئاً عن تلك الصخرة، ولم تأت الكتابات المقدسة القانونية على ذكرها، مع هذا سأكون مسروراً لرؤيتها، مثلما رأينا، وتعبداً أماكن أخرى كثيرة، لم ترد إشارة واضحة إليها لدى الانجيليين.

وبالاهمال، أخذت أم النسيان هذا المكان المقدس منا، لكنني لا أستطيع أن أمحو المشهد الذي رأيته في ذلك المكان، أو أمنع ظهوره باقياً متجدداً في عقلي، وتولى بيد المبجل وصف معجزة مشابهة قد وقعت في الناصرة، قرب المكان الذي كان الرب سيرمى منه، الموضوع الذي قرأنا عنه في الاصحاح الرابع من انجيل القديس لوقا، فقد قال بأن الرب بعدما نجا من أيدي اليهود، وكان نازلاً من قمة الجبل، رغب بالالتجاء تحت إحدى الصخور، وفجأة لدى لمس ثيابه الصخرة تقلصت، وذابت وصارت مثل الشمعة، وتجوفت في داخلها حتى نستطيع استقبال جسد الرب، حيث من الممكن في هذه الأيام رؤية جميع أشكاله، وطيات ثيابه، وطبعات قدميه في الصخرة، وذلك استناداً إلى شهادات الذين رأوا ذلك، ومثل ذلك فعل دي ليرا في تعليقه على قوله: «أما يسوع فاخفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم» — يوحنا: ٨/٥٩، ومن الممكن القراءة عن معجزات مشابهة صنعت من قبل عدد كبير من القديسين، إليهم منحت قدرات ربانية، حيث انزاحت صخور من طريقهم، أو أصبحت لينة، كما حدث في مسألة القديسة بربرة.

المكان الذي رأى منه يسوع المدينة وبكى عليها

وغادرنا المكان الذي اعتقل فيه الرب وجعل سجيناً، وأخذنا طريقنا نحو قمة الجبل، حيث تسلقنا طريقاً منحدرًا ووعراً، كان يقود إلى بيت

عنيا، لأن هذا هو الطريق الذي يسير عليه الذاهبون من القدس عبر باب اسطفان إلى بيت عنيا، لكن هناك طريق آخر يقود إلى بيت عنيا من جبل صهيون، وهو ينقسم إلى قسمين: طريق عالي، وطريق منخفض، كما سيظهرها في مكانهما، وصعدنا عبر هذا الطريق الذي سار عليه الرب على ظهر أتان في يوم أحد السعف، وفي طريق صعودنا وصلنا إلى مكان على الطريق، حيث هناك صخرة واسعة، تمتد عبر الطريق كله، جاعلة الطريق مخيفاً بالنسبة للحيوانات التي تعبره، لأن الصخرة ناعمة إلى حد كبير، وكأنها مصقولة، وتسير الدواب فوقها وهي خائفة، ومرعوبة خشية السقوط، خاصة لدى نزولها من الرابية.

ووقف الرب في هذا المكان مع الأتان، وألقى نظرة على المدينة، وتطلع إليها، وبكى عليها، وبكثير من الحزن ناح على سلامها الحالي آنذاك، وتنبأ بمستقبلها المضطرب، وذلك حسبما قرأنا في لوقا: ١٩، وبناء عليه انحنينا هناك بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا، وتلقينا غفرانات مطلقة(++)، ووقفنا لوهلة طويلة في مكان دموع المسيح هذا، وحدقنا بالمدينة المقدسة، لأنه من هذا المكان يستطيع الانسان أن ينظر بشكل جيد إلى القدس ويتعرف إليها، ذلك أن منظر الهيكل وجبل صهيون من هناك هو منظر قوي يحرك الأرواح التقية نحو البكاء، ولهذا ذلك المكان متميز، فيه — كما قرأنا — بكى الرب، هذا وتمثل القدس، على الرغم من وضعها التعيس في هذه الأيام، منظرًا جميلاً وبهياً من هذه البقعة.

المكان الذي أخبر الملاك فيه العذراء المباركة بموتها قبل حدوثه

ومن هناك صعدنا إلى رابية، فوق جبل الزيتون، وبعدما قطعنا مسافة جيدة ونحن صاعدين، انعطفنا جانباً من الطريق العالي إلى جهة اليسار، ومضينا صاعدين من خلال أشجار زيتون كثيفة من الشمال إلى الجنوب، وذلك عبر جرف، فوقه استدرنا نحو الشمال، وفي أثناء سيرنا على القمة وصلنا إلى صخرة، تصورتنا أنها مكان فائق القداسة، ذلك أن جميع

الأماكن المقدسة، لها ممرات مطروقة تقود إليها، وذلك نتيجة الزيارات المتوالية إليها من قبل المسيحيين، وهذه الأماكن معلمة بصخور، وهذه الصخور قذرة من كثرة تقييلها، ولأنها تلمس دوماً بشفاة وأفواه الحجاج، بقي من شفاهم على الصخور التي قبلوها نوعاً من أنواع الدهن.

وفي أحد الأيام، بعد مازارت العذراء المباركة الأماكن المقدسة، استراحت هناك، وجاء الملاك جبرائيل إليها، وسلم عليها للمرة الثانية وقال: «حييت» — وبشرها فأعلمها بموتها الوشيك، والانتقال من هذا العالم، إلى الأب وقال: «أقبلي أيتها السيدة المجيدة، إلى الذي ولد منك، وتسلمي ثانية عهد رحك، والتعويض عن طبيعتك، وسداد ثمن حلييك وطعامك، ونفقات تعبك، وجائزة أحزانك، فأنت سوف تكوني مجد القديسين، والسفينة الذين تقرر خلاصهم، وجسراً للذين تتقاذفهم الأمواج، والعصا التي يمكن للرجل الضعيف أن يتكوى عليها، وسلاماً للذين يودون الصعود إلى السماء، وتوبة للمذنبين، ومعيناً لكل من يتوجه بالدعاء إليها».

وعندما أكمل الملاك مقالته هذه أعطى العذراء سعة نخيل جميلة جداً، أرسلت من الجنة، لتكون برهاناً على انتصارها الكامل على عدو الجنس البشري، وعلى الآلام، وعلى رعب الموت، وأمر بحمل سعة النخيل هذه أمام نعشها، علاوة على هذا خلع عليها ثياباً جنائزية، إعجازية رائعة، فيها كانت ستموت، وستدفن، وستصعد إلى السماء، وبعدما عملت هذا كله صعدت إلى السماء، وتلونا في هذا المكان الصلوات المحددة، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات.

جبل الجليل الذي هو جزء من جبل الزيتون،
حيث ظهر الرب لتلاميذه بعد قيامته

ثم كان أن غادرنا مكان تقديم سعة النخيل، وسرنا متقدمين على جرف الجبل نحو الشمال، وعند زاوية جبل الزيتون، عندما يتوقف عن الامتداد نحو الشمال، وصلنا إلى حافة الجبل، حيث وجدنا أكواماً من الحجارة ومكاناً للصلاة، وقد قيل إنه في أيام المسيح كان هناك بيتاً ريفياً، اسمه الجليل، فيه وعد الرب أثناء آلامه، أنه سوف يظهر لتلاميذه في يوم قيامته، ذلك أنه قال في الاصحاح السادس والعشرين من انجيل القديس متى: «ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل»، وقال بعضهم بأن الرب قد وعد بأنه سوف يظهر نفسه إلى حواريه في الجليل بعد قيامته، وقال بعضهم الآخر بأنه قصد أحياناً قرية الجليل هذه، وأحياناً أخرى المنطقة المعروفة باسم الجليل، لأنه ظهر في المكانين، وورد ذكر قرية الجليل هذه في متى: ٢٦، وفي الاصحاح الثامن والعشرين من الانجيل نفسه، وقد أمر الملاك المرأة أن تخبر تلاميذه بوجوب الذهاب إلى الجليل، حيث سيرونه، وتغني الكنيسة أيضاً كلمات المسيح.

"In die resurrectionis mede, Praecedom vos in Galilacam" الخ...

ونحن نعرف الآن أنه ليس قبل مضي عدة أيام على قيامة الرب، ذهب التلاميذ ونزلوا إلى الجليل، ولم يكن ذلك في يوم القيامة، وقد تحدث القديس متى الانجيلي عن منطقة الجليل، في الاصحاح الثامن والعشرين، حيث قال بأن أحد عشر من تلاميذه ذهبوا إلى الجليل (المنطقة) حيث ظهر لهم على كل من الجبل، وبجوار بحيرة طبريا، وعلى هذا إذا ما فهم الانسان الكتابات المقدسة بأنها تنطبق على الجليلين فما في ذلك صعوبة، لكن إذا ما طبق ذلك على منطقة الجليل وحدها، ففي ذلك صعوبة كبيرة، علاوة على ذلك فإن المعلقين والشرح وأوغسطين في مواعده بين الانجيليين، قد بذلوا جهوداً كبيرة لشرح النصوص التي تحدثت عن الظهور الموعود بأن يتم في الجليل، لأنهم فهموا مقاطعة

الجليل وحدها، وليس القرية التي ستحدث عنها، وأنا لم أجد واحداً من علماء اللاهوت القدامى، قد فهم هذه النصوص إلا بأنها أشارت إلى منطقة الجليل، لأن الظهور الذي حدث هناك، كان ظهوراً عاماً، وقد كان على الجبل، وأقصد بذلك جبل الطور أمام، أكثر من خمسين من الإخوان، حسبما جاء الخبر في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس: ١٥، ولذلك يتحدث الناس عن الظهور الذي وقع هناك، في منطقة الجليل، دون سواها.

وقد قيل بأن يوسبيوس، قد تحدث عن قرية الجليل، في كتابه «تاريخ الكنيسة»، مع أنني لا أتذكر أنني قرأته، والذي فهمه لودولفوس -LU- dolhus أيضاً في كتابه «حياة المسيح» بأن بعض الظهور قد وقع في قرية الجليل، الموجودة في اليهودية، وبعضها الآخر في منطقة الجليل، وبناء عليه تعبدنا في ذلك المكان، الذي قيل بأنه ظهر فيه إلى الأحد عشر، وتلقينا غفرانات(++) . لأن أعظم الغفرانات مرتبطة مع هذه البقعة، ولأن جميع هذه الغفرانات مرتبطة بهذه الأماكن المقدسة، والمسلمون لن يسمحوا للحجاج بزيارتها، فقد جمعت كلها في هذه البقعة، ثم لأن هناك أماكن كثيرة فائقة القداسة في القدس، من الممكن الحصول فيها على غفرانات مطلقة، إليها لم يسمح لنا بالدخول، مثل هيكل الرب، ورواق سليمان، والباب الذهبي، وقاعة قضاء بيلاطس، وبيت هيرود، وبيت القديسة حنة، الذي هو مكان ولادة العذراء المباركة، وقد حصلنا في هذه البقعة على الغفرانات الممنوحة لهذه الأماكن.

وبناء عليه بعدما حصلنا على هذه الغفرانات، تسلقنا فوق أكوام الحجارة، وتطلعنا بالطول والعرض فوق البلاد، فباتجاه الشرق، عبر الأردن والبحر الميت، رأينا جبال العربية، وأرض مآب وعمون، وجبال جلعاد، وهكذا دواليك، وباتجاه الشمال رأينا جبال منطقة الجليل،

وجبال جلبوع ولبنان، وباتجاه الغرب، كان لدينا في المقابل المدينة المقدسة، ورأينا عبرها جبل شيلوه، وجبل إفرائيم، وبلاد الفلسطينيين، وذلك امتداداً حتى البحر الكبير، وباتجاه الجنوب رأينا روابي بيت أوليا قرب بيت لحم، وجبال حبرون، واليهودية وأدوم.

وبعد هذا حملنا أنفسنا وشغلناها في أعمال تفحص المكان نفسه، وهذا المكان، كما سلف وأخبرتكم هو نهاية جبل الزيتون، وهو مكان مناسب لبناء قلعة، وفي الحقيقة انه قد كانت هنالك بعض الأبنية فيما مضى، فضلاً عن هذا يوجد في قمته صهريج، والمكان كله مكان رائع، وتقول تواريخ ملوك الشرق، أنه عندما اقترب الملوك الثلاثة من القدس، غطى الظلام الأرض، ولذلك لم يستطع سكان المنطقة أن يدخلوا القدس، وأمضى الملك بلتزار Baltzar وجنوده الليل على هذا الجبل، في حين أقام الملك ملكيور Melchior فوق جبل أكسرا، حسبما سلف لي وحدثتكم في ص ٤٩٥، وأقام الملك كسبر Caspar على جبل جيحون، وعند الصباح دخلوا جميعاً إلى القدس مع بعضهم بعضاً.

مكان صعود ربنا، والكنيسة التي بنيت هناك

وطبقات قدمي مخلصنا

وبعدما أرحنا أنفسنا على جبل الجليل، عدنا على طول الطريق على قمة جرف جبل الزيتون، وسرنا باتجاه الجنوب فوق أرض مرتفعة نحو كنيسة عظيمة نصف مهدامة، وعندما وصلنا إليها صعدنا فوق بعض الدرجات الحجرية إلى رواق مقنطر، كان قائماً أمام باب الكنيسة، وأجلس مسلم نفسه هناك أمام باب الكنيسة، ويده عكاز، وما كان يسمح لأي واحد بالدخول ما لم يعطه مدنوس Madinus، كل خمسة وعشرين منه تساوي دوقية، ولدى دفع المدنوس تركنا ندخل، هذا ويقوم في وسط هذه الكنيسة هناك بيعة كبيرة، جميلة ومستديرة،

ومقنطرة، يوجد في داخلها المكان العظيم القداسة، وهو مكان طبعة قدمي الرب يسوع المسيح، وهي الطبعات التي تركها على الصخرة، عندما صعد من ذلك المكان إلى السماء.

ووقفنا أمام هذه البيعة، وبصوت مرتفع بهيج غنينا الترانيم والصلوات المحددة في كتب المسيرة، من أجل موضع صعود الرب، ودخلنا إلى قلبها، وكان فيها العدد الذي يمكن أن تستوعبه في مرة واحدة، وارتمينا على وجوهنا، وقبلنا طبعات قدمي مخلصنا، الفاتحة القداسة وتلقينا غفرانات مطلقة (++)).

وبعد هذا، حملنا أنفسنا لمشاهدة المكان، فالكنيسة قائمة فوق قمة عالية من قمم جبل الزيتون، عند النهاية الجنوبية منه، مثلها في ذلك مثل موضع الجليل المتقدم الذكر، عند النهاية الجنوبية للجبل، ومكان الاعلان عن وفاة العذراء مريم، هو تحت الجرف، في منتصف الطريق بين الجليل، وموضع الصعود، ويقوم في هذا المكان المقدس، كنيسة مستديرة عظيمة، بنيت على شكل أن أعلاها ليس مغطى بقبة بل يوجد في السقف المقبب فتحة كبيرة، صنعت عن قصد، وتحت هذه الفتحة تقوم بيعة صعود الرب، مثلما فعل بالنسبة لبيعة ضريح الرب.

وحدثنا المؤرخون، أنه عندما كان المؤمنون يبنون الكنيسة، فوق مكان صعود الرب، وأرادوا تغطيتها بقبة معقودة، لم يتمكنوا بأية وسيلة من الوسائل وضع الحجارة مع بعضها لبناء القناطر، وكانوا ما أن يضعوا مثل هذه الحجارة، حتى كانت تسقط مباشرة، وعندما رأى المؤمنون هذا فهموا أن إرادة الرب قضت بعدم اغلاق مكان صعود الرب من الأرض إلى السماء بجدران أو بقناطر، بل بالبقاء مفتوحاً، ولذلك عندما قاموا بأعمال البناء، جعلوا القبة المعقودة مستديرة، مستندة فوق جدار مستدير، لكنهم لم يكملوها، بل كما قلت من قبل، تركوا فتحة كبيرة فيها، غلقوا حوافها على طول الدائرة بقطع من الحجارة المصقولة.

وعندما كان المعماريون على وشك للشروع بتبليط الكنيسة بألواح رخامية، وأرادوا تغطية مكان وقوف قدمي المسيح، عند صعوده طارت الحجارة التي وضعوها على ذلك المكان مباشرة عائدة نحو وجوه المعماريين، وتكرر حدوث هذا كلما حاولوا تغطية ذلك المكان، وكان فيما مضى ملاصقاً لهذه الكنيسة ديراً كبيراً لرهبان (بندكتيين) سود، تحت قيادة راعي دير متوج، ومنذ أوقات مبكرة جداً، سكن في هذا المكان، رجال مقدسون وأتقياء، بناء على سلوكهم وتصرفاتهم كتب جيروم كتاب «حياة الآباء»، وذلك حسب ما يمكننا أن نقرأ في توطئة ذلك الكتاب، وفي تلك الأيام الذهبية جرى إشعال أعداد كبيرة من المصابيح في هذه الكنيسة، بقيت مضاءة من قبل المؤمنين، من أجل إضاءة جميع جبل الزيتون وكان اشعاعهم يصل حتى أقصى طرف من وادي شعفاط، ويضيء باب مدينة القدس الموجود هناك.

وكان في مواجهة هذه الكنيسة، ما يزال معبد سليمان، الذي مثل هذا مشتل فيه كثير من المصابيح والمشاغل، تنير جانب جبل الزيتون هناك، وبوساطة اشعاع الأضواء الصادرة من هاتين الكنيستين، فإن جميع وادي شعفاط كان مضاء، وكان جبل الهيكل مضاء بوساطة الكنيسة الموجودة على جبل الزيتون، وكان جبل الزيتون مضاء بوساطة الكنيسة المقامة على جبل الهيكل، علاوة على ذلك كانت هذه الكنيسة القديمة منعم عليها بالمعجزات التالية، التي تعرضت إليها وعلمت بها، من خلال كتاب حج لرجل مقدس كان حاضراً وشاهداً لها.

كان من عادة المسيحيين الأقدمين، قدوم جميع سكان القدس إلى جبل الزيتون، في يوم صعود الرب، وذلك بعد القيام بالقداس، وكانوا يقفون هناك بصلوات مستمرة، ينتظرون ساعة الظهيرة، التي حمل فيها الرب يسوع إلى السماء، وفي تلك الساعة، كانت تهب ريح عنيفة جداً، وتقبل مندفعة من السماء، وتصب قوتها كلها من خلال الفتحة الموجودة في

سقف الكنيسة، إلى حد أن الجبل كله كان يهتز من وقع الصدمة، ويسقط جميع الذين يكونون هناك على وجوههم نحو الأرض، حتى تعبر هذه العاصفة البهيجة، لكن المرعبة أيضاً، وجرت العادة بوقوع هذا في يوم الصعود من كل سنة، ولكن عندما استولى المسلمون على الأرض المقدسة، خرقوا حرمة هذه الكنيسة المقدسة، واتخذوا مسجداً منها، وعلى الرغم من جميع أوامر الحظر، يقوم الحجاج المسيحيون بزيارة هذه الكنيسة، وقد اعتادوا على الدخول إليها، في الليل خلصة، حتى يتمكنوا من تقبيل طبعات قدمي المخلص، وبناء عليه لم يسمح المسلمون لنا بالاحتفاظ بهذا المكان، كما أنهم لم يحفظوه لأنفسهم، بل قاموا بتهديم الجانب الشرقي منه، ونزعوا عن الجدران، ومن الأرض جميع ألواح التغليف الرخامية، كما نقلوا الأعمدة الثمينة، وتركوا على كل حال دون لمس، بيعة مكان طبعات قدمي المسيح، والصخرة التي تحتويهم، لأنهم هم أيضاً يحترمون الطبعات المقدسة للقدمين.

ومن الممكن رؤية طبعتين لقدمي الرب يسوع على هذه الصخرة، علماً بأن طبعة القدم اليمنى هي الأوضح بين الاثنتين، ويجري تقبيل هاتين الطبعتين من قبل المسيحيين والمسلمين سواء، واستثير الآن واحد من الحجاج وتحمس بروح الخشوع اللطيفة، وكان معه قارورة من الخمرة العظيمة الحلاوة، فصب بعضها في الفراغات المشكلة بطبعتي القدمين، وقام الآخرون بلحسها كلها أثناء تقبيلهم للطبعات، وبسرعة عندما فرغ المكان صب المزيد.

ويوجد على الجهة الشمالية من هذه الكنيسة فتحة في الجدار عالية، يكاد بصعوبة أن يصل الإنسان إليها وهو ماد ذراعه، ورفع الحجاج أنفسهم إلى هذه الفتحة، ووضعوا أيديهم عليها، حيث أعلنوا أنه يوجد في الجدار بعضاً من الصخرة ذاتها التي وقف عليها المسيح، عندما صعد إلى السماء، لكن من أين جاءتهم هذه الفكرة، لست أدري.

وكان بالعادة يوجد في النهاية الشرقية صخرة كبيرة، عليها جلس الرب، عندما وجه الملامة إليهم لنقص الايمان وقسوة القلب، وذلك حسبنا قرأنا في الاصحاح الأخير من انجيل القديس متى، غير أن النهاية الشرقية مهدمة تقريباً، وفيها هناك مكان إقامة لفلاحين وباعة ماعز، لوجود بيت ريفي ملاصق للكنيسة في الجهة الشرقية، واسم هذا البيت بلغتهم:...

وهناك على كل حال، جدار مبني عبر وسط الكنيسة، يفصل النهاية الشرقية — حيث يعيش هؤلاء الريفيون — عن الجزء الغربي، حيث هناك بيعة صعود الرب، وكما أخبرتكم من قبل، تقف هذه الكنيسة في مقابل هيكل الرب، لكنها أعلى من الهيكل، مع أنه مثلها هو قائم فوق جبل، ومن الممكن رؤيته عن بعد كما ورد الحديث في ص ٣٩٨، وهي مباشرة إلى الشرق من هيكل الرب، الذي يسمونه هيكل سليمان، وبنا عليه نجد أثناء الاعتدال أن الشمس مقبلة على الاشرار من هذه الكنيسة، ولسوف تصعد منها، كما راقبتها مراراً تفعل ذلك، وعندما رأيت هذا لم أعد أعجب من قيام الكنيسة بالغناء في ويوم صعود الرب، «بالغناء إلى الرب، الذي صعد فوق سماء السموات في الشرق»، وعن هذا الموضوع سوف أتحدث بشكل أطول في ص ٦٢١، وهناك من مدينة القدس إلى موضع الصعود ثلاثة أميال ايطالية جيدة، وذلك بوساطة الطريق الذي ذهبنا به إلى هناك.

مدح مكان صعود الرب ومعه سوف نقدم أيضاً وصفاً له،
وكذلك لوادي شعفاط، ولجدول قدرون ولوادي توفت،
ولوادي هنوم الذين موقعهم جميعاً عند سفح جبل الزيتون

إن مكان صعود الرب هو مكان له قداسة خاصة بين جميع الأماكن المقدسة للأرض المقدسة، ويتحرك الحجاج هناك بوساطة حماسة عجيبة، لأن المكان مشرف بسبع فضائل خاصة، ولأنه:

١- كان مبجلاً غاية التبجيل، لأنه في العصور الخالية كان هناك موضع مشهور مرتفع، إليه صعد داوود للصلاة، وذلك حسبما جاءنا الخبر في الاصحاح السادس عشر من سفر الملوك الثاني، وما سنذكره في الصفحة ٦٢١ من هذا الكتاب، ولأنه هناك عليه، تم جعل الحواريين سادة جميع البلدان، لأنهم أمروا بقوله: «اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها» (مرقص: ١٦/١٥).

٢- لأنه مكان ينبغي أن يحب، لأنه من هنا صعد إلى السماء، وأرانا الطريق إلى مملكة السماء.

٣- لأن المكان رائع، وبسبب الدمار الفائق الوحشية للمسيح الدجال، لأن اللاهوتين — ومنهم على سبيل المثال ريكاردوس، في نهاية كتابه الرابع — حدثونا بأنه في هذا المكان سوف يجري قتل المسيح الدجال على يدي الرب يسوع، حيث إنه تبعاً لرؤيا دانيال: ١١، سوف يأتي المسيح الدجال إلى قمة جبل الزيتون، الذي قال النبي عنه بأنه جبل رائع ومقدس، فهو سينصب عرشه فوق المكان الذي صعد منه المسيح، وسوف يتخيل نفسه أيضاً، أنه سوف يصعد إلى السماء، وله سوف يقتل الرب يسوع بالنفخ من فمه، مصدراً صوتاً مرعباً، ولدى سماع هذا الصوت سوف ينهض ميكائيل ضد المسيح الدجال، حيث سيضربه بصاعقة، وسيغرقه في قعر هوة عميقة.

٤- وهذا المكان مرعب بسبب مقعد وعرش الحساب الأخير، حيث إنه في هذا المكان سوف يقيم الرب يسوع ويضع مقعد حسابه الأخير، ولهذا قال الملائكة في الاصحاح الأول من أعمال الرسل: «إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء، وسوف يعود بقوة عظيمة ليحكم الأحياء والأموات».

٥- وهذا المكان مخيف، بسبب رمي المذنبين في الجحيم، لأن المذنبين

المدانين سوف يقفون في وادي شعفاط، الوادي الذي قلت من قبل في ص ٥٨٧، بأنه متصل بوادي هنوم الملعون أو جهنم، الذي يمتد من هناك خلال ممرات مهجورة مخيفة إلى بحر الشياطين، الذي يعرف أيضاً باسم البحر الميت، وفي اللحظة التي سوف تسمع فيها الكلمات المربعة التالية، التي سوف يتفوه بها القاضي قائلاً: «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية» (متى: ٢٥/٤١)، وهناك سوف يكون تصدع من الجانب الشمالي لهذا الوادي، وسيكون هناك نهر من نار يجري بسرعة فائقة، سوف يطوق جميع الأشرار، وسوف يلفهم بعنف، وذلك على طول وادي شعفاط ومنه إلى وادي توفت المرعب، ووادي هنوم، وحول هذا الموضوع عد إلى النص المتميز في إشعياء: ٣٠، ومن هناك سوف ينقلون بواسطة النهر، من خلال الوادي إلى البحر الميت، الذي اسمه أيضاً بحر الشياطين، ففيه سوف يتلقى اليهود محمولين بالنهر الناري، وما أن يصب هذا النهر في هذا البحر، حتى يشتعل البحر كله بنار ذلك النهر، وتحت البحر سوف تكون جهنم فاغره فاها، الذي لحدود لعرضه، ولسوف تبتلع الجميع.

وفي الحقيقة والواقع، إن وضع المكان هو كمايلي: يمتد جبل الزيتون مسافة طويلة باتجاه الشرق، فهو يمتد من الشمال باتجاه الجنوب، وذلك حتى يتصل على الجانب نفسه بجبل العدوان، الذي مثل ذلك يمتد مسافة طويلة، وعلى الجانب الغربي هناك جبل المدينة المقدسة، الذي يلتقي بجبل صهيون وفوقه الذي خلفه يقع جبل جيحون، وذلك في مقابل جبل الزيتون وجبل العدوان، ويدعى الفراغ فيما بينهم باسم وادي شعفاط، الذي في قعره جدول قدرون، ويبدأ وادي شعفاط و جدول قدرون من موضع رجم اسطفان، وينتهي عند سفح جبل صهيون، في المكان الذي تلتقي فيه مياه سلوان بالجدول، وهناك يطلق على المكان اسم وادي سلوان، الذي يمتد حتى بئر روجل.

ويبدأ من هذا المكان الوادي الذي اسمه «الوادي الظليل»، ويدعى وراء هذا باسم وادي هنوم، أو توف، أو توفت، ومن هناك أخذ اسم جهنم، ويحتفظ بهذا الاسم طوال مجراه بين جبال وعرة، ومسروراً بجروف منحدره، وذلك وصولاً حتى البحر الميت، وهو البحر المضل، وذو الرائحة المقيته الملعونة الذي تحته — كما يقال — مفتوح على وسعه فم هوة الجحيم.

وهكذا بعدما يكون الأشرار قد حكم عليهم، سوف يمتلئ جدول قدرون حتى الفيضان بنهر من نار، يفتح متدفقاً من طرفه الشمالي، فمن هناك يبدأ بالانفتاح والتدفق، لأنه «من الشمال يفتح الشر على كل سكان الأرض» (ارميا: ١/ ١٤)، وسوف تطوقهم النيران، وتقودهم على طول الوديان المتقدمة الذكر، التي يتصل أحدها بالآخر، من دون وجود جبال تغلق سبلها، وذلك وصولاً حتى البحر الميت، وعلى هذا سوف يكون وادي شعفاط هو المكان بالنسبة للأناس الذين يحكم عليهم بالادانة، والذين سوف يقفون في جدول قدرون، بمثابة مدنسين، لأن هذا المكان كان دوماً مصب جميع القذارات، أو بالحري بالوعة التي تجري من خلالها جميع القاذورات إلى المصب، أي إلى البحر الميت.

فقد قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٥، بأن الملك آسا قد دمر المأبونين وأزالهم، ودمر التمثال القذر جداً العائد لأمه، وأحرقه في جدول قدرون، مع جميع نجاسات الأوثان، ومثل هذا جاء في سفر أخبار الأيام الثاني: ٢٩/ ١٦ قوله: «ودخل الكهنة إلى داخل بيت الرب ليطهره، وأخرجوا كل النجاسة التي وجدوها في هيكل الرب.... ليخرجوها إلى الخارج إلى وادي قدرون»، فضلاً عن هذا جاء خبر في أخبار الأيام الثاني بأن بني إسرائيل اجتمعوا في القدس، وحطموا المذابح، ودمروا كل شيء أحرق عليه البخور للأوثان، ورموهم في جدول قدرون، علاوة على هذا حطموا الأوثان والمذابح إلى قطع، ورموا بطحينها في

جدول قدرون، فضلاً عن هذا، جرت العادة على جر جميع قاذورات المدينة إلى جدول قدرون، وعندما كان الجدول يفيض، كان يحمل كل شيء ويجرفه ليلقيه في البحر الميت.

وهناك سبب آخر لنجاسة الوادي ولكونه ملعوناً، هو أن الشياطين كانت تعبد فيه، والأعمال الشيطانية كانت تمارس فيه، حسبما قرأنا في أخبار الأيام الثاني: ٢٨، ففيه جاء بأن الملك آحاز، قد أوقد البخور في وادي هنوم، وطهر أولاده بالنار هناك، وفق طريقة الأمم، ووادي هنوم هذا هو وادي شعفاط نفسه، وكذلك يعرف هذا الوادي نفسه أيضاً باسم Cela، في حين يدعى جدول قدرون باسم Chrinarus، ومن الرائج والمتداول تعليمه الآن والاعتقاد به، أن جميع أصول الأرض سوف تجتمع مع بعضها في هذا الوادي، ولهذا اعتاد الناس على سؤال الذين ذهبوا إلى الأرض المقدسة، عن سعة هذا الوادي، وهل هو واسع بما فيه الكفاية حتى يتمكن جميع الناس من الوقوف فيه في يوم الحساب.

ولا يهتم الناس البسطاء بشيء آخر، وتراهم منشغلين حول حجم وادي شعفاط، وكان يحدث أحياناً، وما زال يحدث، أن الحجاج يقومون بتكويم بعض الحجارة من أجل أنفسهم في هذا الوادي، رغبة منهم في تأمين مكان لأنفسهم قبل يوم الحساب، ليجلسوا عليه في يوم الحساب، ويعطي في بعض الأحيان بعض الأناس البسطاء مالاً إلى حجاج على وشك الانطلاق نحو القدس، ليعملوا لهم مكاناً بوساطة الحجارة في وادي شعفاط، فإلى ذلك المكان، يعتقدون أنهم سوف يأتون في يوم الحساب، وعندما يسأل أحدهم الآخر عن حجم الوادي، كان الآخر يجد نفسه مرغماً على الإجابة بكل لطف وتهذئة بأن الوادي ليس كبير الحجم، وأنه في وضعه الحالي، يستطيع بصعوبة استيعاب أمة واحدة، ذلك أن جميع السوايين الأحياء الآن بالفعل، سيجدون من الصعوبة إيجاد مكان لكل واحد منهم فيه، وذلك دون أن نذكر الذين كانوا فيما

مضى والذين سوف يكونون في المستقبل.

لكن في يوم الحساب سيكون شكل ذلك الوادي مختلفاً، مثلما سيكون شكل الأرض أيضاً، لأنه قبل يوم الحساب، سوف يحترق العالم كله، وسوف يتحرر من النجاسات، وكذلك من جميع كل ما ليس مستوياً، ذلك أن الأماكن الضيقة سوف تكون عريضة، وسوف تتحول الأماكن الوعرة والمتصدعة إلى أماكن منبسطة تماماً، وكون هذا الوادي سوف يتوسع هذا واضح من زكريا: ١٤ حيث جاء الخبر في سفر زكريا: ١٤، بأن جبل الزيتون سوف ينشط من الشرق إلى الغرب، وأن الشطر الأول من الجبل سوف ينقل ليكون فوق الجهة الجنوبية، وأن الشطر الآخر سوف ينقل ليكون فوق الجهة الشمالية، وأن هذا الصدع في الجبل سوف يكون عميقاً إلى حد أن يكون فيه استمراراً لوادي شعفاط من الغرب.

ولسوف ينشط جبل الزيتون انشطاراً آخر، من الشمال إلى الجنوب، وبذلك يتلاقى الانشطاران مع بعضهما بعضاً على شكل صليب، ولسوف ينقسم جبل الزيتون على شكل صليب، والذين سوف يحاسبون سيقفون في الوادين اللذان تشكلا بهذا الصليب، وعندما تحدث هذه التقسيمات، ينبغي أن لا يكون أحد قلقاً حول السعة، حيث ستكون هناك سعة كافية للعالم كله حتى لو بقي على شكله الحالي، لأن الشق في جبل الزيتون، يمتلك عبره باتجاه الشرق، سهلاً واسعاً جداً في منطقة أريحا، وكذلك فيافي الأردن الشاسعة، التي يمكنها استيعاب جميع شعوب الدنيا.

ومثل هذا ينبغي على الانسان أن يرد عليهم — وفي الحقيقة هذا هو الجواب الأفضل — بأن الذين أمضوا حياتهم بشكل جيد، ومستقيم وأخلاقي هنا على الأرض، سوف يجدرهم جميعاً أماكن جيدة ليقفوا عليها، قد أعدت لهم من قبل ملائكتهم، لكن الأشرار والمذنبين سوف

يجدون أماكن سيئة ووضيعة، وسوف يقفون وسط شقاء عظيم، ولذلك سوف يبدو العالم كله بالنسبة إليهم صغيراً جداً، وسوف يقولون للجبل «اسقط علينا»، وللروابي «غطينا»، وبناء عليه أنت لست بحاجة لتأمين محلك سلفاً، على أساس إذا ما كنت رجلاً جيداً، فسوف يعد لك ملائك مكاناً جيداً لك، ولن يجعلك في أي مكان آخر، إلا في مكان تشريف، وإذا ما كنت شريراً، وأقمت حجارة من أجل ذاتك، فإن تلك الحجارة سوف تصرخ ضدك، كما أن فاعلي الشرور لن يجدوا مكاناً ليرتاحوا عليه لأن المستقيمين سوف يقفون بشكل اعجازي ومجيد في الهواء، لكن غير المستقيمين سوف يقفون على الأرض في النار، والشنار، والشقاء، وهم يصرخون ويولولون، ومن أجل رواية حول هذا الوادي وأسائه انظر ما سيأتي في الجزء التالي.

ولنعلم مما قد قيل، أنه من الواضح، كم هذا المكان لا بد أن يكون مربعاً بالنسبة للآثمين.

٦ — وهذا المكان مرغوب به، بسبب مواساة النخبة، لأنه من هذا الجبل سوف ينزل الرب الموت، وسوف يحطم وجه الغطاء الملقى على جميع الناس، والحجاب المنشور فوق جميع الشعوب، وفي هذا الجبل سوف يعمل رب الجنود حفلة إلى جميع الناس، فيها يجري تقديم جميع الأشياء السميئة، مليئة بالنقي، الخ (اشعيا: ٢٥)، ذلك أن جميع الأشياء التي جرى الحديث عنها في ذلك الاصحاح هي عائدة بشكل صحيح إلى جبل الزيتون، مع أن بعضهم يوضح أنهم يعودون إلى جبل صهيون، وكل من يرغب ليقراً هذا الاصحاح والاصحاح الذي يليه، وسوف يرى براهين كثيرة حول ما قيل أعلاه، وهذا المكان مرغوب به، لأنه من هناك — بعد انتهاء الحساب — سوف يصعد الرب إلى السماء مع جميع النخبة الذين كانوا كذلك منذ بداية الدنيا.

٧ — ويمكن اتخاذ هذا المكان درساً، بسبب أمثلة التقوى السامية،

التي ضربت هنا، فهنا وقفت مريم العذراء الفاتكة القداسة، وهي منتشية ببهجة لا يمكن وصفها، وهي ترى صعود ابنها إلى السماء، وهنا وقف الرسل، وأكثر من خمسمائة من الإخوان، بوجوه مرفوعة نحو الأعلى، تحديق بشغف في الغيوم، ومع خشوع وتأمل، كانت راغبة في اللحاق بالرب، ومثلهم كانت الملائكة حضوراً، وقالوا معهم: «أيها الرجل الجليلي، لماذا أنت واقف تتطلع نحو الأعلى...؟»، ولهذا قرأنا في الاصحاح الأخير من انجيل القديس لوقا بأنهم عادوا إلى القدس مع سرور عظيم، ولقد أخبرنا أيضاً — وهذا أثر تقوي — أن العذراء مريم، كانت بعد صعود ابنها، تزور هذا المكان المقدس، في كل يوم، وتسلم نفسها إلى تأمل خشوع خاص، وكانت تحاول بكل قواها العقلية التحليق بنفسها نحو تصور الأشياء السماوية.

وقد روي أيضاً أن فارساً حاجاً، بعدما زار الأماكن المقدسة التي عمل فيها المسيح خلاصنا، قام بالأخير فتسلق إلى هذا المكان، وخرّ على الأرض وهو يصلي، وصاح بأعلى صوته: «يا يسوع الرب لقد بحثت عنك وطلبتك بدقة وتقوى بقدر ما أستطيع، في جميع أرجاء الأرض، ولا أعرف أين أطلبك بعد هذا المكان، لأنك من هنا تركت العالم، وعدت إلى الأب، إنني أتوسل إليك أيها الرب أن تأمرني بالقدوم إليك، حتى أطلبك، فأجدك على يمين الأب»، وعندما أنهى هذه الصلاة، لفظ أنفاسه بوجه مشرق على مرأى من رفاقه الحجاج، وبموته وجد في الجنة الذي طلبه في حجه خلال الأماكن المقدسة.

جبل الزيتون، أسماؤه، وقداسته

لقد كونا من الذي تقدم قوله فكرة عن شكل جبل الزيتون، وبات ذلك مفهوماً، لكنني رأيت من الأفضل إضافة مايلي، حتى يكون معروفاً بشكل أوضح أكثر، وفي الاصحاح الحادي عشر من سفر دانيال أطلق عليه اسم «جبل بهاء القدس»، وأكثر من هذا هو معروف باسم

جبل الزيتون، ومع هذا ان اسمه الحقيقي هو جبل الضياء، لأن هذا الجبل هو الذي يضاء أولاً بالشمس، ففي الفجر يضاء مباشرة بأشعة الشمس قبل الجبال الأخرى، ومنه تعبر الاشعاعات إلى المدينة المقدسة وإلى الهيكل، لأن هيكل سليمان قد بني وبابه يتطلع نحو الشرق، ووقف المذبح وتابوه العهد في الجزء الغربي من الهيكل في مقابل الباب، وعندما تشرق الشمس، وتمر عبر قمة جبل الزيتون، تدخل أول اشعاعاتها التي ترسلها من حافة الجبل نحو المدينة، إلى باب الهيكل الخارجي، من خلال باب الهيكل الداخلي، ومن خلال الباب الداخلي للهيكل تأخذ طريقها حتى تابوه العهد، الذي يضاء بأول حزمة من أشعة الشمس.

أما بالنسبة لكنيسة صعود الرب، فإنها تتلقى دوماً أول الاشعاعات، كما تحدثنا عن ذلك أعلاه في ص ٦١٢، وتعبر من هناك إلى هيكل الرب، وإذا كان لها باين، أحدهما مقابل الآخر، أي واحد في الجدار الشرقي، والآخر في الجدار الغربي، فوقتها في أثناء الاعتدالين، سوف ترسل الشمس المشرقة أشعتها من خلال هذين البابين، حتى إلى بابي هيكل الرب، وإلى تابوه العهد، وإلى كرسي الرحمة، وإلى الكروبيين، ولهذا أطلق عليه اسم جبل الضياء.

وثانياً، أطلقت عليه هذه التسمية، لأنه في الليل يكون الجبل مضاء من الجهة الغربية بأضواء هيكل الرب، لأنه كانت هناك مصابيح كثيرة مشتعلة في هيكل سليمان، وهذه المصابيح تضيء الجبل المقابل لهم، حسبما تقدم بنا الحديث في ص ٦١١، وإلى هذه الأيام ينتشر الضوء من الهيكل فوق هذا الجبل، لأنه قد قيل بأن لدى المسلمين سبعمائة مصباح مضاءة دوماً فيه، وثمانمائة في الكنيسة إلى جانب الهيكل، وكنت مرة على جبل الزيتون ليلاً، ورأيت من خلال نوافذ الهيكل، وكأن ناراً مضيئة مشتعلة فيه، أو كأن هناك مصباحاً مليئاً بلهب واضح.

وثالثاً، كان يعرف باسم جبل الضياء، لأن كهنة الشريعة القديمة

(العهد القديم) كانوا قد اعتادوا على اشعال نار عظيمة كل سنة في مكان صعود الرب، وكانوا يجلبون معهم عجلة حمراء، مع جميع شعب اسرائيل وراءهم، وكانوا يحرقونها هناك مثلما كانوا يحرقون القربان إلى الرب، وكانوا يجمعون رماد العجلة، ويصنعون ماء التطهير بمزج هذا الرماد معه، وبرش هذه المياه كانوا يطهرون الناس من كثير من الذنوب ضد الشريعة، وكان هذا يعمل مع اجراءات مهيبه كثيراً، وذلك حسبما قرأنا في سفر العدد: ١٩، وقد عملوها على الجبل، كما حدثنا جيروم في «حياة وموت القديسة باولا»، ولم يجتمع شعب اسرائيل قط خلال السنة على نار في خارج الأسوار، إلا في احتفال احراق قربان البقرة الحمراء، ولهذا أطلقوا الاسم على الجبل من خلال تلك النار وذلك الضوء، أو من خلال الرماد وماء الطهارة الذي حفظ هناك.

هذا وإنه بالإضافة إلى أسرار المسيح وآلامه، هناك سببين من أجل التضحية بالعجلة الحمراء: الأول من أجل غفران الذنب الذي اقترفوه بعبادتهم العجل في القفار، وكان ذلك العجل أحمر اللون، لأنه كان قد صنع للتو من أفضل أنواع الذهب، الذي كان أحمر اللون قبل تنعيمه وصقله، والسبب الثاني هو أن بني اسرائيل قد تعلموا هذا الاحتفال من الوثنيين في مصر، وبما أن الرب كان رحيماً تجاه ضعفهم، لم يقم بتغيير هذا الاحتفال، علماً بأن معناه ومقصده بالنسبة للمصريين هو قديم جداً، ويتطلع على ملكهم أوزيريس وينظر إليه بمثابة رب — لابل إنهم اعتقدوا أنه رب — وكان هذا الرجل قد قتل من قبل أخيه تيفون Ty-phon، وكان تيفون هذا صاحب شعر أحمر، غير تقى، ورجلاً شريراً، حيث قام بتقطيعه إلى ست قطع، وبعث بهم إلى أتباعه في أماكن متنوعة، وحدث أن ايزيس زوجة الذي قتل، كانت عملاقة وامرأة لها قدرات فائقة، فضبطت مملكة زوجها، وجمعت أعضائه مع بعضها، ووضعتهم في صندوق ذهبي، وبنت هيكلاً، وضعت فيه كهنة، وقضت

بتقديم ضحايا لأوزيريس، وأمرت بسبب كراهيتها المقيتة لجريمة تيفون صاحب الشعر الأحمر باحراق الناس والحيوانات ذوي الشعر الأحمر عند قبر أوزيريس، وذلك بمثابة قرابين حرق.

وبناء عليه عندما صارت عبادة أوزيريس معروفة في جميع أرجاء بلدان العالم، فإن الناس رغبوا بالتضحية له، وفق الطريقة نفسها، وكانوا يجلبون إما رجلاً له شعر أحمر، أو ثوراً أحمر، أو بقرة حمراء من أجل الذبح، ولهذا حدث أنه لم يبق في الوجود بين الأحياء رجل له شعر أحمر، وذلك في جميع بلاد مصر، وفي الوقت نفسه نظر في البلدان الأخرى إلى الرجال ذوي الشعر الأحمر نظرة كراهية من قبل الذين عبدوا أوزيريس وايزيس، وبسبب تيفون قاتل أخيه، ولشروعه، نظر إلى كل رجل ذي شعر أحمر نظرة ريبة بأنه شرير، ولهذا السبب، ولمثل ذلك يرسم المسيحيون يهوذا الخائن على شكل تيفون، ويسمونه معاملته الرجال ذوي الشعر الأحمر، ويهينونهم، حتى وإن كانوا أتقياء جداً، وهكذا يدفع الناس الأبرياء من ذوي الشعر الأحمر عقوبة جريمة هم لم يقتروها، وقد كتبت اسطورة أوزيريس وايزيس وتيفون في الفصل الرابع من الكتاب الأول، وفي الفصل الرابع من الكتاب الثاني، من «التاريخ القديم» لديودور الصقلي.

ورابعاً إنه عرف باسم جبل الضياء، لأنه كان يضاء بمصابيح وأضواء الكنائس التي قامت عليه، فقد كانت هناك كنيسة صعود الرب، مليئة بالمصابيح، وذلك حسبما تحدثنا في ص ٦١١، والكنيسة في الجليل، وكنيسة القديس مرقس، وبيعة بلجيا، وكنيسة المسيح في الآلام، وكنيسة ضريح العذراء المباركة، وكنيسة دموع المسيح، والكنيسة في جيسفاني، والكنيسة في بيت فاجي، وكنيسة القديس جيمس، وكنائس أخرى كثيرة، فيها جميعاً استخدمت مصابيح للاشعال، وبناء عليه، ليس جبل الزيتون، ولكن أيضاً جبل الهيكل، والمدينة المقدسة في مقابلته،

كانوا جميعاً مضائين.

وخامساً، إنه عرف باسم جبل الضياء، بسبب أن الزيت، الذي هو غذاء المصاييح، تنمو أشجاره هناك بكثافة، ولهذا أطلق عليه اسم جبل بساتين الزيتون، أو الزيتون، الذي تنمو أشجاره هناك بأعداد كبيرة من قبل ذاتها، ومن دون أن يزرعها أحد، والزيت الذي ينتج، يستخدم في هذه الأيام لتغذية المصاييح في هيكل الرب، وهنا أشجار زيتون ضخمة جداً، وقديمة كثيراً، إلى حد أنني أعتقد أن بعضهم موجود هناك منذ أيام المسيح، ومستمر حتى أيامنا هذه.

وقال القديس أوغسطين في تعليقاته على انجيل القديس يوحنا، بأن جبل الزيتون هو جبل المسح بالزيت والدهن به، وهو جبل الغذاء السمين، والشبع، والنقاء والشفاء، وقد قال هذا بسبب أعداد أشجار الزيتون التي تنمو هناك، والتي ثمارها دهنية، وأرضية، وطيبة لذيدة، ذلك أن ايزودورس قال بأن زيت الزيتون يصبح من خلال مرارة جذوره غذاء للمصاييح، ودواء للجرح، وإنعاشاً للجائع.

وسادساً، عرف باسم جبل الضياء، لأنه أعلى من الجبال الأخرى، ومنه يمكن للانسان أن يرى بنور عينيه المنطقة من حوله بالطول وبالعرض.

وسابعاً، إنه عرف باسم جبل الضياء، لأنه بهيج أن تنظر إليه، وباعث على سرور الذي يتطلع إليه من الراية المقابلة، لأن عليه بساتين الزيتون، وأشجار التين، والرمان، وفواكه أخرى، وفي العصور القديمة نمت أشجار الأرز والصنوبر، والكروم، وكل ما يحتاجه الانسان، على سفوحه. ويكفي ما قلناه عنه، وورد ذكر جبل الزيتون هذا، ووادي شعفاط لدى القديس برنارد في قداسه لفرسان الهيكل، الاصحاح الثامن.

كهف القديسة بلجيا المذنبه والتائبه

وعندما فرغنا من عمل كل ما ذهبنا إليه ومن أجله، في كنيسة صعود الرب، خرجنا منها، ونزلنا بضع درجات إلى طريق يقود نزولاً من خلال مكان منحدر إلى الوادي، وبعدما نزلنا قليلاً خلف الدرجات، وصلنا إلى بيعة مظلمة بعض الشيء هي بيعة القديسة بلجيا، حيث فيها أنجزت أعمال توبتها، وفيها أيضاً أنهت حياتها، ووقف أمام باب الكهف مسلم، منعنا من الدخول، حتى دفعنا له بعض المال وبعد حصوله على المال سمح لنا بالدخول، وعندما دخلنا إليها، قرأنا الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات (+)، فضلاً عن ذلك، تأثرنا كثيراً واستفدنا من درس توبة القديسة بلجيا، فقد كانت — حسبها ورد الخبر في حياة الآباء — امرأة طموحة وعابثة في المجتمع القيادي لأنطاكية، وكانت فضلاً عن هذا شهوانية وغير خلقية، وبعد كثير من الجرائم وأعمال القتل التي اقترفت من أجلها، تحولت وقالت: «أنا بلجيا، بحر من الذنوب، يتدفق بأمواج من الشرور، وأنا بؤرة من الفساد، وأنا شرك، ورسن للأرواح، وخادعة لنفسي، وغاشة للآخرين، لكنني الآن أرتعد أمام هذه الأشياء كلها»، واعلم أن هذه الحكاية قد جرى عرضها بشكل جميل جداً في تاريخ أنطونينوس Antoninus، القسم الأول، المجلد السابع، الفصل التاسع والفقرة السادسة.

وهكذا بعدما اعترفت بذنوبها، حملت نفسها إلى الكنيسة، وبعدما تلقت التعليقات من قبل أسقف أنطاكية، باعت كل ممتلكاتها، وأعطت المال إلى الفقراء، ولم ترغب بإعطاء ممتلكاتها إلى الكنيسة والكهنة، بل إلى المحتاجين فقط، عادة نفسها أنها غير جديرة بممتلكاتها، لأن هذه الممتلكات ينبغي أن تتحول إلى استخدامات مقدسة.

وبعدما فعلت هذا، غيرت ملابسها، وغادرت أنطاكية بشكل سري، وأخذت طريقها إلى جبل الزيتون المقدس، ثم حملت نفسها إلى هذا

الكهف، حيث عاشت حياة دينية كاملة، تعجب منها جميع سكان المنطقة، ولم يعرف أحد من الناس بأنها كانت امرأة، حتى ماتت، وكان ذلك أثناء غسلها بحضور الكهنة المقدسين والأساقفة، الذين تولتهم الدهشة تجاه ما رأوه، فدفنوها في زنزانتها، حيث من الممكن رؤية ضريحها حتى هذه الأيام.

وهناك ممر ضيق بين ضريحها والجدار القريب منه، وعليه كل من يود المرور من خلال هذا الممر يمكنه فعل ذلك بصعوبة بالغة، وعليه أن يجبر نفسه من خلال عمل حجري، وهناك حكاية رائجة بين الناس أن مامن انسان حي مذنب، يمكنه المرور من خلال هذا الممر، وأعدّ أنا هذا أسطورة، لأننا مررنا جميعاً من خلاله، هذا ولست أدري فيما إذا كنا جميعاً في حال النعمة، الرب وحده يعلم.

المكان الذي صيغت فيه أحكام العقيدة

الاثني عشر من قبل الرسل

وبعد مغادرتنا لكهف القديسة بلجيا، نزلنا على محاذة طرف الجبل، ومررنا بالطريق الذي يقود إلى بيت فاجي، وبيت عنيا، وتسلقنا على جدار من الحجارة الجافة إلى بستان، ووصلنا إلى خرائب كنيسة كبيرة، كانت تعرف باسم كنيسة القديس مرقس الانجيلي، وكان في هذه الكنيسة فيما مضى غفرانات، مثلما هو موجود في هذه الأيام، وحصلنا على هذه الغفرانات بتلاوتنا للصلوات(+).

ويقال بأن هذه الكنيسة قائمة في المكان الذي صاغ فيه الرسل المقدسون أحكام العقيدة، فهنا اجتمعوا مع بعضهم لوحدهم، حتى يكونوا بعيدين عن ضجيج الناس، وبوحي من الرب صاغوا أحكام العقيدة، وبعد صياغتهم لهذه الأحكام انتقلوا إلى جبل صهيون، ودعوا إلى عقد أول مجمع مقدس للكنيسة المسكونية، وعرضوا أمام المجمع

الأحكام، والعقيدة، التي تناقشوا حولها، ثم أعطوا كل ذلك إلى الكنيسة لنشرهم في الخارج في جميع أرجاء العالم، وذلك حسبما تحدثنا من قبل في ص ٤٤٦، واعترفنا في هذا المكان مجدداً بالعقيدة نفسها، وتلونا الأحكام.

المكان الذي علم الرب فيه تلاميذه التفوه بالصلاة الإلهية

ولدى مغادرتنا للبيستان الذي فيه الكنيسة المتقدمة الذكر، نريد الطريق الذي يمضي نزولاً على الطرف المنحدر للراية، وصلنا ونحن نازلين إلى الوادي، ثم نزلنا وسرنا مسافة قليلة إلى مكان نحن فهمنا أنه قد قام فيه فيما مضى كنيسة أو مزار، وكانت هذه الكنيسة تعرف باسم «بيت الخبز»، وقد تلونا هنا الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات (+)، ويقال بأن هذه الكنيسة قد بنيت فوق المكان الذي نقرأ عنه في الاصحاح الحادي عشر من انجيل القديس لوقا، أنه عندما كان يسوع يصلي في أحد الأماكن، قال واحد من تلاميذه له: «يارب علمنا أن نصلي»، فهنا علمهم الصلاة الربانية، التي هي الأعظم قبولاً لدى الرب، لأنها قصيرة وعظيمة الفائدة، هذا وكان قد تفوه بهذه الصلاة من قبل فوق أحد الجبال في منطقة الجليل، في قداس طويل، حسبما قرأنا في الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى.

وعندما صلى الرب لوقت طويل في هذا المكان، تعجب تلاميذه من صلاته، وسألوه ان يتعلموا هذه الصلاة، فأعطاهم وقتها الصيغة نفسها للصلاة التي تقدم له التفوه بها في قداس عام، وهذه الصلاة متفوقة على الصلوات الأخرى، لأن التفوه بها جاء من فم المخلص نفسه، حيث كثف فيها وجمع كل صلواتنا البشرية في جملة صحيحة واحدة، وبناء عليه قلنا هنا الصلاة الربانية بخشوع أعظم من الخشوع المعتاد، وقبلنا هذا المكان مراراً، والذي أعتقد أنه هذه الكنيسة قد عرفت باسم كنيسة خبز الرب، لأنه مطلوب منا ان نسأل هناك من أجل الخبز، وأن

نسأل أيضاً من أجل الجسد وكذلك من أجل الروح، ويوجد في هذا المكان في اليوم الحالي، بركة عميقة، لكن من دون ماء.

المكان الذي وعظ المسيح فيه حول المباركات الثمانية

وتركنا بيت الخبز، وتابعنا طريقنا نازلين من الرابية، حتى وصلنا إلى مكان كان فيه طريق واسع مغطى بحجارة ملساء، أي كأنه قد رصف بالرخام، ويقولون بأن المسيح قد جلس في هذا المكان، وردد المواعظ لتلاميذه ثم تناول القديس الوعظي ثمانية حول المباركات الثمانية، وهو ما كان قد وعظ به من قبل على جبل بالجليل، وكذلك في منطقة منبسطة، كما اتضح لدينا من قضية الصلاة الربانية، وهذه المسألة — على كل حال — لا يمكن تجميعها من الانجيليين، ففي الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى بأنه وعظ حول المباركات الثمانية (أي كرر قوله طوبى، ثماني مرات حول ثمانية مواضيع) على جبل، وجاء في الاصحاح السادس من انجيل القديس لوقا، بأنه كرر القديس نفسه على منبسط من الأرض عند سفح جبل في منطقة الجليل.

وعندما جاء فيما بعد إلى اليهودية، من المعتقد أنه وعظ بها مرة أخرى في هذا المكان، وهذا ليس موجوداً في الانجيل، ولكنه أثر قديم روي عن القديسين، فيه أن هذا القديس الوعظي الثمين جرى التفوه به في هذا المكان أيضاً، ذلك أن كل واعظ لديه موضوع جيد ومفيد، غالباً سيتولى الوعظ حوله مرات عديدة، في المكان نفسه، وفي أماكن مختلفة. وقمنا في هذا المكان بالانحناء بأنفسنا مصليين، وتلقينا الغفرانات المحددة(+).

المكان الذي تنبأ الرب فيه إلى الحواريين حول الحساب الأخير

وتحت المكان المتقدم الذكر، وصلنا إلى المكان الذي جرى الحديث عنه في الاصحاح الثالث عشر من انجيل القديس مرقس، وذلك حيث

جلس يسوع مع تلاميذه، وحيث أخذوا يسألونه حول تدمير المدينة والهيكل، الذي رأوه بأعينهم، وأخبرهم بأشياء كثيرة حول العذاب الذي سينزل بهم، وحول المسيح الدجال، والحساب الأخير، والعلامات في الشمس، والقمر، والنجوم، التي نقرأ حولها في الاصحاح الحادي والعشرين من انجيل القديس لوقا. وقبلنا في هذا المكان طبعات القدم المقدسة وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي اعتادت العذراء المباركة على استرداد

أنفاسها فيه والاستراحة أثناء قيامها بحجها

وعندما نزلنا أكثر قليلاً من المكان الذي جلس فيه المسيح، وصلنا إلى المكان الذي اعتادت مريم العذراء المباركة أن تجلس فيه وترتاح أثناء حجها اليومي، ونعلم من كتابات الآباء، ومنهم جيروم في رسائله، وكتابات أوغسطين، وأنسلم، وبرنارد، وكتابات القديس يوحنا الدمشقي في قداسه حول صعود العذراء، حيث ذكروا بأن مريم العذراء المباركة، كانت تقوم يومياً بعد صعود ابنها بزيارة خاشعة تماماً إلى جميع الأماكن التي جرى فيها صنع خلاصنا، ومع أنها كانت بالروح، إنما طوال بقائها بالجسد حية، تحركت بوساطة المشاعر الجسدية، ولذلك كانت تنتعش بزيارة هذه الأماكن، وكانت يومياً تلهب بمشاعر قوية جديدة، هي مشاعر الحب، وبذلك كانت تشرق بقوة أكثر بوساطة زيارتها المقدسة.

ودعونا على هذا ننظر إلى هذا الحج الذي هو في غاية الخشوع، أي حج مريم العذراء المجيدة، على أنه عمل للممارسة التقوية، فقد عاشت العذراء المجيدة، تبعاً للاعتقاد الرائج، أربع عشرة سنة بعد صعود ولدها، وقد أمضت هذه السنوات كحاجة، تنتقل بالفعل بالجسد من مكان إلى آخر، وكانت قد نذرت القيام بثلاث حجّات، ما دامت حية

في هذا العالم، والحجّة الأولى كانت سنوية، وكانت الثانية شهرية، والثالثة حجة يومية، ففي الحجّة السنوية، من المعتقد، أنها نزلت كل سنة من القدس إلى الناصرة، وزارات هناك بخشوع عظيم، المكان الذي جرى فيه تحيتها من قبل الملاك، متذكّرة، ومستعيدة في عقلها جميع البهجة التي شعرت بها لدى حملها بابن الرب، وعادت شاكرة للرب، من أجل المنافع الهائلة التي أضفيت من قبله، على العالم أجمع من خلالها، في ذلك المكان المقدس.

وكانت بعد انجازها لهذا تعود بوساطة الطريق نفسه، الذي سارت عليه بعد حملها بابن الرب، حين بادرت مسرعة إلى جبال اليهودية، وحيث اليزابت، وبتواضع تولت خدمتها عندما ولدت يوحنا، وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا، وعندما كانت عائدة عبر هذه الطريق، تجدد في قلبها أحلى أنواع البهجة، خاصة عندما وصلت إلى المكان الذي أشرقت فيه روحها، عندما غنت تلك الترنيمة الحلوة، وهي ترنيمة **Magnificat** ، التي بسببها انتشى الطفل ببهجة في رحم أمه، وقفز، وابتهج ابتهاجاً عظيماً، وبعدما زارت هذا المكان عادت إلى القدس.

وثانياً، من المعتقد أنها ارتحلت من القدس إلى بيت لحم، مرة كل شهر، وأنها كانت تدخل هناك إلى الكهف الذي انتشر منه النور الأبدي فغطى عالمنا، وهو نور ربنا يسوع المسيح، فمن هو الذي يمكنه أن يصف النشوة التي شعرت بها في هذا المكان، فعوضاً عن الغفرانات المطلقة من أجل مسح الذنوب، الأمر الذي يناله المذنبون في هذا المكان، هي حملت معها بالإضافة إلى زيادة عزلتها، إشراقاً مطلقاً وراحة في عقلها، وعليه كم هو نافع وجميل هذا التبادل.

وثالثاً، كانت حريصة في كل يوم على زيارة الأماكن الأعظم قداسة في القدس وأحوازها، ففي الصباح الباكر، ومع اقتراب الفجر، وبعد

تلقاها القربان من القديس يوحنا على جبل الرب، جبل صهيون، كانت تمضي مع وصيفاتها، وتدخل إلى تلك القاعة الكبيرة، التي جرى تجهيزها من أجل العشاء الأخير، حيث تأملت حول الهبة الهائلة التي أضفيت هناك على الجنس البشري، كما كانت قد نظرت في أعماق الأسرار، وقبلت المكان الذي جلس عليه ابنها، ومن هناك كانت تذهب إلى بيت حنان (عناس) الذي كان الكاهن الأعلى، وبعد صلاتها هناك كانت تدخل إلى قاعة قيافا (كيفاس)، وتتأمل ملياً، لكن ليس من دون أسى، وتفكرت بالعذاب الذي تعرض له ابنها في ذلك المبنى. وكانت تنزل من هناك، من جبل صهيون في خارج المدينة، وتتقدم إلى صخرة الصليب، التي كانت تعانقها، وتقبلها بحنان، مشفقة على ذلك الذي جرى صلبه هناك، ومع ذلك كانت تبتهج تجاه تقواه الثمينة وتعلقه بالذين تولى خلاصهم.

وكانت من هناك تدخل إلى بستان قبر الرب، ومن ثم تتوجه إلى المكان الذي جرى فيه تخنيط جسد ابنها الذي هو الرب، ودهنه وحفظه بالعطور، فهناك كانت تركع وتقبل الحجر، وبعد هذا كانت تقوم بسرعة وتنهض من هناك، وتأخذ طريقها إلى ضريح الرب، فتدخل إلى كهفه، وتحتضن ضريحه، وهي ممتلئة في تلك البقعة ببهجة لا يمكن وصفها، واثراً مغادرتها لهذه الأماكن كانت تنزل من رابية أكرا، باتجاه باب المدينة، وتسير على طريقها، إنها وهي متفكرة بابنها، ومتذكرة كيف أنه اقتيد خارج المدينة، وسار على طول الطريق وهو مثقل بحمله للصليب الثقيل، وكانت تجثو في الأماكن التي رأت ابنها فيها، عندما سقط تحت ثقل الصليب، أو عندما تعرض لحملة قاسية من الإهانات والأذى.

وبهذه الوسيلة كانت تدخل إلى المدينة من خلال باب القضاء، فتصعد إلى قاعة قضاء بيلاطس، وتقبل الأماكن التي جلد ابنها فيها

وتوج، مع تقديم الشكر، ولدى مغادرتها لذلك المكان، كانت تذهب إلى بيت هيرود، وتقبل أماكن طبعات قدم ابنها هناك، ومن هناك كانت تمضي إلى هيكل الرب، وبعد الصلاة هناك، كانت تغادر الهيكل من الطرف الآخر، وتأتي إلى الباب الذهبي، حيث كانت تستعيد مشهد دخول ابنها في يوم أحد السعف.

وبعد مرورها من هناك، أي من ذلك الباب، كانت تنزل إلى وادي شعفاط، حيث هناك كانت تصلي لصالح جميع الجنس البشري، من أجل أن يكون جديراً بالوقوف هناك غير مقيد في يوم الحساب الرهيب، لأنها عرفت أن مامن صلاة كان لها وزنها في ذلك اليوم، حتى صلاتها هي ذاتها، ولذلك توجهت مقدماً وسلفاً بالخطاب إلى القاضي، فوق تلك البقعة، وكانت بعد هذا تعبر الجدول، وتبين لمرافقاتها مكان ضريحها، وكانت تدخل إلى الكهف، ولدى دخولها له كانت تمتلئ بهجة لا يمكن التعبير عنها، لأنها كانت تعرف أنها سوف تتسلم في هذا المكان أولاً بهجة كمال ثمار عملها، أي أنها سوف ترتدي ثوب مجد لكل من الجسد والروح، ومن ثم سوف تنتشل من هذا العالم الشرير، ولسوف تمجد فوق جوقة الملائكة، وبعد هذا، كانت تغادر مكان ضريحها، وتمضي إلى الأعلى قليلاً، وتدخل إلى الكهف الذي صلى فيه الرب يسوع ثلاث مرات عندما كان في آلامه العظمى، وهنا أيضاً كانت تقوم وهي متفكرة بآلامه بالجثو بركبتيها على طبعات قدم ابنها، وتبقى مثابة في صلواتها أطول من المعتاد، وبخشوع أعظم من أي مكان آخر، وتقبل الأماكن التي اعتقل فيها ابنها.

ولدى مغادرتها لهذا المكان، كانت تبتعد عن الوادي، وتذهب إلى الكنيسة على جبل الزيتون، وذلك حيث وقف يسوع ونظر نحو المدينة، وبكى، فهنا أيضاً كانت تلتفت بوجهها نحو المدينة وتبكي سوء حظها بتنهيدات كلها عاطفة وشفقة، وصعدت من هناك فوصلت إلى الجليل

والبيت الريفي، حيث تأملت حول مجد قيامة ابنها، وبهجة تلاميذه، واثرا اكملها لصلاتها هناك جاءت تسير على حافة الجبل نحو المكان الذي قابلها فيه الملاك في اليوم الأخير من حجها، وأخبرها وأعلن بأن وقت مغادرتها (لهذه الحياة) بات وشيكاً.

وصعدت من هناك وتابعت سيرها، ووصلت إلى مكان صعود ابنها، حيث قبلت بخشوع مطلق طبعات القدمين المقدسة، والظاهرة بوضوح على الصخرة، وبما أن هذا المكان موائم بشكل خاص للصلاة، أرادت أن تغادره متعجلة، حتى تمتلك وقتاً أطول فيما بعد لتمضيه هناك فقد رغبت بالنزول وهي مشرقة النفس إلى الطرف الآخر من جبل الزيتون، وأن تمضي خلال بيت فاجي، وبيت عنيا، من أجل زيارة معارفها هناك، والأماكن التي انوجد فيها ابنها، مثل بيت مرثا، وقبر لعازر، وبيت سمعان المجدوم.

وبعدما أكملت زيارتها هناك، طلبت ثانية المنطقة المرتفعة، وتوجهت صعوداً، وهي نحيفة وضعيفة، كأنها اكليل من دخان، ذلك أنها صارت متلاشية بسبب أعمال توبتها المتنوعة، وكانت تحترق في داخلها بلهيب الحب التقوي، وهكذا نشدت بمظهر مشرق، وبشوق لا يمكن وصفه القمة المقدسة لجبل الزيتون، ومن هناك نزلت، بغية العودة إلى مكان صعود الرب، حيث ذهبت وكأنها هي شخصياً كانت على وشك الصعود مباشرة ولقاء ولدها، وعندما كانت هناك عانقت طبعات الأقدام المتقدمة الذكر مع قبلات كثيرة، وكانت ترفع أحياناً عينيها وأحياناً أخرى ذراعيها إلى السماء وكانت فوق هذا المكان يتولاها شعور بالبهجة العظيمة، لدى تفكيرها بأنه هناك أضفي على ابنها أعظم تشريف ممكن وعليها نفسها، عندما أخذ ذلك الجسد الذي ولد منها، ورفع من هناك، ومجد فوق جميع السموات.

ولدى مغادرتها لهذا المكان، كانت تأخذ طريقها عائدة إلى البيت،

وتسير وهي نازلة من الجبل، حيث كانت ستمر بالمكان الذي وضع فيه الرسل مع بعضهم العقيدة، التي علمتهم إياها شخصياً، فهناك كانت تقف بعض الوقت، وتصلي من أجل الذين اعتنقوا العقيدة، ومن هناك كانت تمضي إلى المكان الذي علمهم الرب فيه أن يقولوا: «أبانا»، حيث كانت تقف، وتتلو تلك الصلاة، وكانت تقدم الشكر، وهي سائرة في المكان الذي جرى الوعظ فيه بالمباركات الثمان.

ومن هناك كانت تنزل إلى المكان الذي جلس فيه المسيح مع تلاميذه، وأخبرهم بالحكاية المتعلقة بيوم الحساب الأخير، حيث كانت تقدم هناك صلاة من أجل أن يكون رحيماً في قدومه الثاني، ومن ثم كانت تتابع سيرها حتى تصل إلى المسكن، ذلك أنني قد قلت بأن نهاية حج مريم العذراء المباركة، قد كان مكان استراحتها واستردادها لأنفاسها.

وفي الأيام التي كانت فيها العذراء مريم حية، قامت هناك أماكن للسكنى شغلها فلاحون جيدون، كانوا يراقبون بدون توقف مرور العذراء، فكانوا يدعونها للجلوس وانعاش نفهسا في الظل، وغالباً ما كانت بدورها تخرج عن الطريق، وتجلس وتريح أطراف جسدها، وعلى كل حال هي لم تكن تشعر بالاجهاد والتعب من خلال العمل، لكنها كانت تخفي هذا الامتياز صديقاً عن التواضع، وذلك مثلما أخفت امتياز كونها عذراء في طقوس طهارتها، وامتياز التحرر من الألم، عندما كانت على حافة الموت، فقد أخفت هذا الامتياز، برقودها في فراشها، وكأنها ضعيفة تعاني من المرض، وذلك حسبما تقدم الوصف في ص ٤٤٨.

وبعدما استردت قواها، التي لم تفقدها، بل كانت معطلة في المكان المتقدم الذكر، نزلت من سفح الجبل إلى الوادي، حيث بعدما زارت أضرحة بعض الأنبياء، وصلت إلى قبر قرينها الطاهر جداً، أي يوسف الذي دفن هناك على حافة الصخرة، فقد كانت تقف أمام هذا الضريح

وتتذكره بسرور، ومن هناك كانت تعبر على الجسر فوق الجدول، وتصعد ثانية إلى جبل صهيون، وعندما تصبح هناك، كانت تذهب إلى المكان الذي تلقت فيه هي نفسها مع التلاميذ، الروح القدس، وكان ذلك في يوم عيد الحصاد، وهناك ثانية كانت تمتلئ ببهجة جديدة.

ومن هناك كانت تنزل، وتقصد ضريح النبي داوود، الذي كان جدها، وبعد هذا كانت تذهب إلى مكان اعتكافها، الذي كان قريباً، ومن المعتقد تقوياً، أنه كان لديها هناك أثرين مقدسين، هما عبارة عن حجرتين كبيرتين، جلبتا لها من جبل سيناء بوساطة الملائكة، فقد جلبت أولاهن من المكان الذي فيه رأى موسى العليقة تحترق من دون نار مستهلكة، فأمام هذه الحجرة كانت تقدم صلاة شكر مناسبة من أجل الحفاظ المجيد على عذريتها، أما الثانية فقد جلبت من قمة جبل سيناء، حيث أعطيت الوصايا العشر إلى موسى، وأمامها كانت تدخل في تأمل حول روعة هذه الوصايا، وتقدم الشكر للرب، أنه من خلالها أعطى إلى العالم، الذي من خلاله، سوف تكتمل الشريعة في كل نقطة وفي كل عنوان، وذلك حسباً قرأنا في الإصحاح الخامس من إنجيل القديس متى، وبوجود هاتين الحجرتين لديها كان بإمكانها زيارة صحراء سيناء، لأنها كانت في الحقيقة حاجة، ومن أجل رواية عن هاتين الحجرتين انظر ماتقدم في ص ٤١٢، وبعد فراغها من صلواتها في هذا المكان كانت تنهض لتعود إلى بيتها، وبذلك كانت تصل بحجتها إلى النهاية في ذلك اليوم.

ومن أجل رواية عن بيت العذراء مريم الأعظم قداسة، وذلك حيث سكنت انظر ماسيأتي فيما بعد، وحول موضوع هذا الحج الذي قامت فيه العذراء مريم الأعظم قداسة، قال أوديليو Odilio ، الذي كان لاهوتياً قديماً للكنيسة: «إذا ما أردنا أن نعرف ما الذي فعلته العذراء المباركة بعد صعود الرب، فبدون شك، زارت مراراً أماكن الميلاد،

والآلام، والقيامة، والصعود، وبكت هناك وطبعت عليهم قبلاتها بفمها الأعظم قداسة»، وتحدث القديس جيروم في قداسه عن صعود العذراء وعن هذا الحج، كما يلي: «ربما قد نفترض من خلال عظمة حبها، كانت ستسكن في المكان الذي ولد فيه ابنها، وتوفي، ودفن، فبين هذه المواضع كان حبها سيتغذى بانعكاسات تقوية، حيث من المعتقد أن في ممتلكات الحب، من الممكن دوماً العثور على ما هو متشوق إليه».

وتحدث عن هذا الحج أيضاً أنطونيوس في الـ Summa، الجزء الرابع، المجلد ١٥، والفصل ٢٣، والفقرة الثانية، وعلى كل حال رأى هذان الكاتبان أننا ينبغي أن نؤمن بأن حج مريم العذراء المباركة، هذا، كان بالحرى بالروح أكثر من أن نقدره بالشعور الفعلي، مع أنها لم ينكرا هنا أنها قامت بالفعل بهذا الحج، وبذلك حصلت على فضيلة عظيمة، ولقد حصلت على الفضيلة في كل عمل عملته عن طواعية، وبالتالي عن كل عمل عملته في حياتها، والسبب في هذا هو أن الذكاء دوماً على صواب، ما لم يمزج نفسه مع تخیلات عبثية، ومن ثم يضل بهم، ولنعلم أن ذكاء العذراء المباركة كان واضحاً إلى حد عدم فائدة التخیلات والفرضيات، وبناء عليه حصلت على الفضيلة بوساطة حجها.

والسبب الثاني هو هذا: أينما كان العقل غير معرض للخطأ في اتخاذ قراره، لا يمكنه وقتها اختيار أشياء كثيرة، بل اختيار الشيء الأخير والأفضل بينهم، وهذه الشروط جميعاً حاضرة في قضية العذراء المباركة، ولهذا كتب في الاصحاح العاشر من انجيل القديس لوقا: «اختارت مريم النصيب الصالح».

وثالثاً قال (بولص) الرسول في الاصحاح العاشر من الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس: «فإذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئاً فافعلوا كل شيء لمجد الرب»، ولم يستطع أي قديس الحفاظ على هذا المبدأ كاملاً إلا مريم العذراء الأعظم مباركة، التي وجهت دوماً بشكل

فضيل حركات إرادتها الحرة، وحصلت على المثوبة بفعلها كذلك، ولذلك قال أوديليو: «شيء واحد نعرفه بشكل مؤكد هو أن كل عمل من أعمال مريم، قد صنع دوماً، وتفكير الرب ماثل أمام عينيها»، وقال جيروم في قداسه حول صعود العذراء: «أنا أفترض أنه إذا ما أخذت قلوب البشر كلها، مع جميع القوى العقلية مجتمعة لما كانت كافية لتفهم فهماً كلياً كيف أنها استطاعت أن تستوعب الحب المقدس في قلبها، وكيف أنها تحركت بواسطة الأسرار السماوية حتى تمتلئ بالروح القدس، أثناء تقليبها في عقلها لكل ماسمعه، ومارأته، وما عرفته».

وواضح من هذا، أنها عندما كانت كحاجة من مكان إلى مكان، كانت العذراء مريم الأعظم مباركة، مع أنها كانت تقوم بعمل فضيل، كان مع ذلك من الممكن، لا بل من المتوجب، فعل ذلك واستخدامه بشكل أحسن، حيث قال الرسول في الاصحاح الثاني عشر من الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس: «لكل واحد يعطى اظهار الروح للمنفعة» وقال في الاصحاح الرابع من الرسالة الأولى إلى تيموثاوس: «الرياضة الجسدية نافعة لقليل، ولكن التقوى نافعة لكل شيء».

وعلى هذا من الممكن أنها أهملت هذه الرياضة الجسدية، وكرست نفسها كلياً إلى الممارسات التقوية في التأمل النقي والسكون، ومن المعروف بشكل جيد أن الذين يتجولون بالجسد يضلون بالروح، وجواباً لهذا يمكن أن نقول بأن مريم العذراء الأعظم مباركة لها امتياز خاص، هو أنها على انفراد، وفي الوقت نفسه يمكنها أن تعيش حياة عمل، وحياة تأمل، الامتياز الذي لم يمنح لأي انسان آخر، فلبعضهم منحت حياة عملية، وللآخرين حياة تأملية، وبعضهم — الرسل على سبيل المثال — عاشوا الحياتين، لكن في أوقات مختلفة، لكن الذي منح إلى مريم العذراء الأعظم مباركة هو أن تعيش الحياتين معاً في اللحظة نفسها، وعلى هذا كان بإمكان الطفل أن يتغذى بواسطة عملها

الظاهري، وتأملها الرباني كان يتغذى بوضعها الداخلي، وكان بإمكانها التحرك من مكان إلى مكان، لكن — مع ذلك — لم تبق عقلها مثبتاً دونها حركة على هدفه المحدد، وتخبرنا التقوى الممدوحة للعدراء المباركة أنها بقيت دوماً في تقوى جزلة، الحالة التي عدد قليل من القديسين وصل إليها، للحظات خاطفة، على سبيل المثال خلال مراحل متقطعة وطويلة جداً.

وإلى جانب هذا أخبرنا ألبرتوس، أنها أسهمت يومياً في قداس القربان، حسبما تقدم الوصف في ص ٤٤٨، وبذلك امتلكت عقلاً مثبتاً بحيث مامن شيء رآته أو سمعته كان يمكن أن يشغلها ويضلّلها، ففي كل يوم، كانت قبل انطلاقها وخروجها لحجها، تستمع إلى القداس، وتتصل بالتقوى الأعظم التهابة، وبذلك كانت تتحرك بحمى روحانية عائدة للرب، وليست عائدة لها نفسها.

ويبدو أن هناك سبباً آخر حول لماذا توجب عدم خروج مريم العذراء الأعظم مباركة وظهورها يومياً، هو خشية امكانية تسبب الدمار لأي انسان، لأننا ينبغي أن نعتقد أنها كانت الأجل في الجسد وكذلك بالروح، ذلك أن الروح القدس قد قال لها: «أنت جميلة من كل جانب، ليس فيك مايمكن أن يلام»، كما أن السن ومتاعب الحياة التي انقضت تحت الأحكام الديرية لم تؤثر عليها، والجواب على هذا هو، إن رؤية العذراء لايمكن أن يقود أي انسان نحو الذنب، وأخبرنا القديس بونافنشر Bonaventur ، أنه أخبر صدقاً من قبل يهود، أنه لدى رؤية العذراء مريم المباركة، ومع أنها كانت جميلة جداً، مامن أحد أثير بشهوانية شريرة ملحّة، بل إن جميع المشاعر من هذا القبيل كانت تخمد لدى الناظر إليها، بمظهرها الرباني، وكأن ندى عذريا لطيفاً صدر من عينيها، أو أشرق من عقلها اللطيف جداً، وذلك على عكس ما يحدث لدى الاثارة برؤية امرأة شهوانية خاطئة.

علاوة على ذلك، يبدو أن الظهور اليومي للعدراء مريم العظيمة المباركة أمام الناس، كان من الممكن أن يعطي فرصة لمزيد من الغيرة بين اليهود الشاعرين سلفاً بالغيرة، لأنهم بسبب الابن كانوا يشعرون بكراهية عظيمة تجاه أمه، وعندما كانوا يرونها تمرّ خلال المدينة كان الممكن استشارتهم إلى حد الاعتداء عليها ثورة وغضباً، وأجيب أنا شخصياً على هذا بكلمات جوابي المتقدم، وهو إنه طالما أن منظرها كان يطفئ النيران الشهوانية، كذلك كان يخمّد ألهبة الغيرة، والغضب والكراهية، وهكذا كان من ينظر إليها يفقد الحمية الوحشية والغضب، ويصبح تقياً ومحترماً تجاهها، ولهذا كانت محترمة من قبل الجميع، وينظر إليها على أنها قوية، وأخلاقية، وأمينّة، وسيدة فاضلة، وهكذا نقرأ في الاصحاح الرابع والعشرين من الحكمة «تعبدت في الهيكل المقدس أمامه، وبذلك تأسست في صهيون، ومثل هذا أعطاني في المدينة المحبوبة راحة، وفي القدس كانت قوتي، وتجدرت بين شعب شريف، لابل حتى بين حصة ميراث الرب».

وبناء عليه، حتى وإن كان اليهود قد امتلأوا حقداً ضد ولدها الفائق العذوبة، مامن واحد أساء التصرف مع العدراء، وعليّنا عدم تصديق الرسامين الذين مثلوا يسوع، وهو مقاد يحمل الصليب وأناس يضربون رأس العدراء، ويركلونها بأقدامهم، وينبغي أن نضع في عقولنا حكمة هوراس:

«العالم كله يعرف، أن مامن شيء مطلقاً

لم يتجرأ الرسامون على رسمه، أو الشعراء على غنائه»

ويكفي ما قلناه عن حج العدراء المباركة جداً، الذي هو بشكل خاص رأيت أنه موائم لاقحامه في كتاب حجي وجولاتي، وذلك حتى تكسب جولاتي تسويغاً أفضل، وبناء عليه جلسنا في المكان الذي

اعتادت مريم العذراء المباركة جداً على انعاش نفسها فيه، واسترددنا أنفاسنا وأرحنا أنفسنا، وكان ذلك بعد تلاوتنا لصلواتنا وتلقينا غفرانات(+).

اهرام شعفاط الذي منه نال الوادي اسم وادي شعفاط

ولدى مغادرتنا الموضع الذي اعتادت مريم العذراء المباركة جداً على الاستراحة فيه، نزلنا إلى سفح جبل (الزيتون)، وعندما بتنا عند سفح الجبل نزلنا إلى (الوادي) وذلك باتجاه الجنوب، جاعلين جبل الزيتون على يسارنا، وجدول قدرون على يميننا، وفوقه، على الطرف الثاني للجدول، توجد المدينة المقدسة، ومتابعين لنزولنا وصلنا إلى الجسر القائم فوق الجدول، الذي اجتزنه، وخلفناه وراءنا، وفيما نحن نسير كذلك، وصلنا إلى ضريح عظيم النفقات، منجور على شكل برج من الصخر الأصم، الذي تشكل منه الجبل، وقد اقتطع البناءون له الجبل بشكل هادف، حيث تركوا واقفاً منه ماهو كاف وكأنه كان محتوى في الهرم، وقطعوا الصخر من حوله، بشكل بدا فيه الهرم واقفاً بذاته، وكأنه بني هناك بشكل بارع من قبل عمال، والبناء قد قام من الأساسات، في حين هو بالحقيقة جزء من الجبل، وهو قائم هناك منذ بداية الدنيا.

ومقاييس هذا الهرم هي ستة عشر باعاً كبيراً من حيث الإطار، وربما هو ثلاثة باعات من حيث الارتفاع، وله في قمته قمة حادة الشكل، مع سقف وكأنه كان أبراجاً، والذي تحت السقف مفرغ، وهناك نوافذ مقطوعة فيه، وعلى هذا يستطيع انسان أن يجير نفسه خلف الهرم ومن ثم يدخل إلى داخل الهرم من خلال النافذة، كما فعلت أنا نفسي ذلك عندما كنت هناك لوحدي، حيث رغبت في أن أرى الذي كان بالداخل.

وقد أقيم هذا الهرم من أجل قبر واحد من الملوك العظماء، والرجال الأقوياء، هذا وهناك حكايات متنوعة حول من هو الرجل الذي عمل

له، فبعضهم يقول: أمر الملك سليمان بأن ينحت من أجل زوجته الأثيوبيّة، التي كانت ابنة فرعون، وقد دفنت فيه، وتشريفاً لها، قام أيضاً بنظم نشيد الانشاد، ولها بنى هياكل أوثانها العائدة لمولوك وشمس، وكذلك فعل أشياء أخرى كثيرة، تعامل فيها مع الرب دون احترام، من أجل حبه لها، وآخر شيء فعله هو نجره لهذا الضريح الفخم من أجلها.

ويقول آخرون — وهذا هو الرأي المقبول بين المسلمين، والمسيحيين الشرقيين — بأن أفسالوم بن داود، هو الذي تسبب بنجر هذه الصخرة، حتى يدفن فيها، وهذه الحكاية مؤسسة على الاصحاح الثامن عشر من سفر صموئيل الثاني، ولكن نظراً لإثارته الحرب ضد أبيه وخوضه لها، فقد مات بشكل تعيس، في مكان آخر، عبر الأردن، ولهذا السبب هناك عادة قضت بقيام جميع الأطفال الذين يمرون بهذا الهرم، سواء أكانوا من يهود، أو مسلمين، أو مسيحيين، بالتقاط حجارة من الأرض، ورميهم على الهرم، ولدى رميتهم لهم يلعنون أفسالوم، ويشمتون منه لموته الشرير، ويأتى ذلك بمشابة تعبير عن كراهيتهم لعدم طاعته لأبيه، فضلاً عن هذا، إذا كان لدى أي واحد في القدس ولد غير مطيع، كان يقوده إلى هناك، ويرغمه بالتهديد، ويعريه ليرمي حجارة على القبر، وليقوم بلعن أفسالوم، وكان يحكي لولده حكاية شرور وموت أفسالوم، وهذه طريقة فعالة جداً في تقويم الأطفال في القدس، ونتيجة لقيام أعداد كبيرة من الأطفال برمي الحجارة عليه، فقد تجمعت الحجارة في أكوام كبيرة إلى جانبه، ولولا أنها تنظف من وقت إلى آخر، لتغطى بالحجارة منذ زمن طويل.

ويقول آخرون بأن شعفاط، ملك القدس، تسبب ببناء هذا الهرم حتى يمكن دفنه فيه، وأنا لا أعتقد ذلك، لأنه كان رجلاً صالحاً، متبعاً لأوامر الرب، مثل جده داود، وبما أنه لم يكن منفصلاً عنه في حياته، لم يقصد الانفصال عنه في دفنه، وبناء عليه ورد في الاصحاح الأخير من

سفر الملوك الأول أن شعفاط عندما مات، دفن في ضريح أبيه في مدينة داوود، وبناء عليه ينبغي رواية الحكاية بشكل آخر، بأن شعفاط كان صاحب أفكار فخمة، وقد عمل أعمالاً رائعة، كان من بينها تسببه بنحت هذا الاهرام ليري عظمته، وليكون موضع إعجاب بين الناس، وبذلك حصل على شهرة عظيمة بلغت حداً، أن الوادي كله الذي كان يعرف من قبل باسم وادي Cela، صار فيما بعد يعرف بسبب هذا الهرم باسم وادي شعفاط من قبل جميع الناس حتى في هذا اليوم، ولا توجد غفرانات مرتبطة بهذا الهرم، وعلى هذا، كان بعدما نظرنا إليه، أن ذهبنا إلى بقية (الأماكن المقدسة).

قبر يوسف زوج مريم العذراء وقبر الشيخ سمعان المقدس

ويوجد على الجانب الأيمن للهرم حفرتان في جدار الصخرة، يقولون بأنهما ضريحين، مدفون في الأول منهما يوسف، زوج مريم العذراء المباركة جداً، ومربي يسوع المسيح، ومدفون في الآخر سمعان، الرجل العجوز الذي أخذ الرب بين ذراعيه، وغنى ترنيمة: «الآن تطلق عبدك، حسب قولك بسلام»، وذلك حسباً قرأنا في الاصحاح الثاني من انجيل القديس لوقا، وقد انحنينا بأنفسنا نحو الأرض أمام قبري هذين الرجلين المقدسين، وتلونا صلواتنا، وتلقينا غفرانات (+).

وعن مدى قداسة هذين الرجلين وعظمتها وتميزهما، نحن نتعرف إلى ذلك من روايات الانجيل الصحيحة، وبشكل خاص مايتعلق بالقديس يوسف، ذلك أنه مامن شك أنه قد تمتع بامتيازات من النعمة خاصة، واحتل مكانة عليا مع الرب، حتى عهد إليه بالعناية بمثل هذا الكنز العظيم، ومن أجل الثناء عليه، انظر كتابات ألبيرتوس، هذا وقد ورد ذكره في نص (لوقا: ٢٧/١) قوله: «إلى عذراء مخطوبة لرجل كان اسمه يوسف»، وانظر كتابات جيرسون Gerson أيضاً، في قداسه حول الميلاد، وحول العذراء مريم، وحول تجسيد يوسف، وهنا علينا أن

لأنؤمن ولانصدق الرسامين، الذين رسموا يوسف على شكل انسان مقعد صغير الحجم، انحنى ظهره طاقين، وهو يستند على عصا، ورأسه رمادي، وهو كله غير قادر على إفادة العذراء أو ابنها، فقد كان رجلاً شيطاً وقوياً، وعاملاً قديراً، وكان انساناً ناضجاً في وسط العمر، ثم إنه قبل خطبته للعذراء وبعد ذلك بقي غير ملوثاً فيما يتعلق بهذه المسائل، وبالنسبة لهذه المسائل، انظر القداس المتقدم الذكر، الذي عمله جيرسون.

ضريح النبي زكريا، وأضرحة أخرى، وأماكن إقامة القديسين

وإثر مغادرتنا لهذين القبرين، وصلنا إلى قبر آخر قد نحت في الصخر، وهم يقولون بأن هذا القبر هو قبر النبي المقدس زكريا بن براهيم، الذي ذبحه اليهود فيما بين الهيكل والمذبح، كما ألقى المسيح بين أسنانهم ولقنهم، (متى: ٢٣ / ٣٥)، وبناء عليه انحنينا هنا على ركبنا، والتمسنا شفاعة النبي، وتلقينا غفرانات(+).

وبعد نهوضنا من هناك، تابعنا سيرنا نازلين على طرفي الجدول، ومررنا بعدد من أماكن الإقامة والزنانات المقطعة من جدران الصخر على طرف جبل الزيتون، حيث عاش هناك فيما مضى رجال مسيحيون أتقياء، ومتدينون، لأن جبل الزيتون وعمر عند سفحه، وملء بكهوف عميقة في الصخر، وقد استخدمت الكهوف لتكون أضرحة، وصاروا فيما بعد أماكن إقامة للرهبان والقديسين، لكنهم الآن مهجورين من قبل الأحياء والأموات سواء، باستثناء أنه يسكن في بعضهم بعض الناس التعساء جداً من الكفار، الذين بسبب كفرهم لا يستطيعون الإقامة في مكان آخر بين الناس.

ونظرنا إلى هذه الزنانات بدهشة، وعجبنا من الحياة البسيطة للقديسين القدماء، الذين صدوراً عن حبهم للرب، ورغبتهم بالأرض

المقدسة حبسوا أنفسهم بين قبور الموتى، وتحملوا العيش في كهوف صغيرة، وشعرنا بالغضب نحو أنفسنا، نحن الذين بتنا متعبين من السكنى في قصور عظيمة، وفي أديرة واسعة وجميلة، لأننا صرنا فاترين في محبتنا نحو الرب، وأهملنا واجبات الحياة الديرية.

كهف القديس جيمس الرسول الذي تخفى فيه أثناء اعتقال الرب

ولدى متابعة نزولنا وصلنا إلى كهف كبير، مع أعمال نجر كثيرة في الصخر، وهو مليء بأماكن اختباء مظلمة، مع طبقتين من الأقبية، وحفر منجورة في الغرف العلوية مثل النوافذ، وعندما كنا نسير هناك في هذا الكهف، ورد إلى ذهني بأنني قد رأيت مكانا يشبهه من جميع الجوانب في سوابيا، قرب غموند Gmund ، وكان اسم ذلك المكان ابرستين Eberstein، فالذي رأى الأول كأنه شاهد الثاني، سوى أن الفلسطيني هو أوسع ويمتلك كهفا أعمق، وإلى هذا الكهف هرب القديس جيمس الأصغر للالتجاء، عندما اعتقل الرب وأخذ أسيراً، وقد رقد هنا متخفياً.

وأخبرنا كل من يوسيفيوس وجيرون فيما كتباه عن حياة الرجال المشهورين، أنه عندما مات الرب على الصليب، قطع جيمس على نفسه عهداً أن لا يأكل طعاماً، حتى يرى الرب قد قام من الموت، ولذلك جاء الرب في يوم القيامة إليه في هذا الكهف وأعطاه طعاماً، وحول هذا الرسول انظر ص ٤٥٢، وبعد وفاة هذا الرسول جلب جسده إلى هذا الكهف ودفن، ونتيجة لذلك ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بدأ المكان ينال الاحترام، ويرمم من قبل المؤمنين المسيحيين حتى هذا اليوم، ولهذا ربط البابا سكتوس غفرانات مطلقة بهذا المكان، وجرى الاعلان عن هذه الغفرانات أثناء حجي الأول، وقرئت فوق البقعة إلى الحجاج التائبين،

وكانت مختومة بختم رصاصي، وبناء عليه انحنينا بأنفسنا في هذا المكان نحو الأرض وتلونا الصلوات المعينة في كتب مسيرة الأرض المقدسة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++) مع روح خاشعة.

وكنت قد قرأت في بعض كتب الحجاج بأن هذا المكان قد أعطي مرة إلى رهبان طائفة المبشرين، الذين بنوا كنيسة وديراً هناك، بحفرهم بشكل أعمق لكهوف في الصخر، وأنهم سكنوا هناك لبعض الوقت، لكنهم اضطروا أخيراً، بسبب مضايقات المسلمين، وسرقاتهم المستمرة وهجماتهم، مرغمين إلى مغادرة المكان وهجرانه، وبذلك آلت الكنيسة مع أبنيتها الخارجية إلى العدم، وبعد سفر الحجاج، غالباً ما زرت هذا المكان، وقرأت صلواتي هناك، وقمت باستكشاف هذا الكهف بكل دقة، وكنت في بعض الأوقات أتخيل نفسي أنني في وسط دير للرهبان، وبذلك كنت أمتلئ بهجة قلبية، ولكن عندما أدركت العزلة المؤلمة للمكان، اعتدت أن أجلس آسفاً، وكان هذا المكان كثير الموائمة لرهبان تابعين لطائفة المبشرين، وفي هذه الأيام سوف يكون مكاناً موائماً جداً لهم للسكنى فيه، لو أن جميع الظروف الأخرى كانت موائمة أيضاً، وذلك لأسباب كثيرة هي كمايلي:

١- بسبب الاعجاب بالمبشر الذي عمل الكهف له، أي القديس جيمس الرسول، الذي أثناء عمله في التبشير وعرضه للحقيقة قد ألقى به من على حاجز المذبح، وصار أعرجاً، حتى عندئذ لم يتوقف عن التبشير حتى ألقى به من قمة الهيكل ومات، وعندها نقل إلى هنا من القدس ودفن، والآن من هو أجدر بأن يمتلك ضريح مثل هذا المبشر المخلص للرب غير هؤلاء الرهبان، الذين بدايتهم، ووسطهم، ونهايتهم، واسمهم المبشرين؟ ولهذا السبب عندما تأسست طائفتنا أولاً، منحت كنيسة القديس جيمس في باريس، التي نمتلك فيها حتى الآن ديراً فيه ثلاثمائة من الرهبان ذوي التقوى العظيمة، ولهذا يطلق في تلك

المناطق على رهبان طائفة المبشرين اسم رهبان القديس جيمس.

٢- وبسبب آخر هو أن هذا المكان موائم للرهبان المبشرين، لأنه بسبب فضائل ومثابة هذا الرسول، كان طاهراً خلال حياته، وكان معاً رسولاً وتقياً طوال أيامه، وهذه أمور تتوافق كلها مع عادات المبشرين.

٣- وبسبب أن جبل الزيتون، هذا الجبل، الذي كما تقدم وقلنا مضاء بمصاييح هيكل الرب، وبالشمس، وبالزيت، وبمصاييح الكنائس، وربما يمكن أن نسمي طائفة الرهبان المبشرين باسم جبل الضياء، لأن هذه الطائفة مضاء بعلم اللاهوت، الذي جاء من هيكل الرب، وبعلم الأخلاق الذي أشع من الشمس، وبالضوء الطبيعي الذي جاء من صناعتهم، المرموز إليها بالزيت الذي ينمو هناك، والذي هو غذاء المصاييح، وبعلم التجربة المرموز إليه بمصاييح الكنائس.

٤- وبسبب الجدول الذي فيه يجري إلقاء جميع الفضلات المجلوبة من المدينة، فهنا تختفي، وتجرف بعيداً وتزال، كما تقدم بنا القول، ومثل هذا فإن جميع قذارات العالم تتم إزالتها بوساطة حكمة الوعاظ، ففي الأمثال: ١٨، يقول: «كلمات فم الإنسان مياه عميقة. نبع الحكمة نهر مندفق»، والكتابات المقدسة هي نهر فائض، ولذلك يتوجب على المبشر أن يشرب، كما يقول المزمور: «هو سوف يشرب من النهر أثناء مروره» وفي مزمور آخر: «هو سوف يشرب البهجة كما يشرب من النهر».

٥- وبسبب الأرز الذي اعتاد أن ينمو إلى جانب الجدول، لأن الأرز دائم الخضرة، ومرتفع، وخشبه لا يفسد، ومثل هذا الراهب المبشر له بعهوده الثلاثة: خضرة الطهارة، وسمو الفقر، وطاعة غير قابلة للفساد.

٦- وبسبب أن وضع المكان موائم للرهبان المبشرين، لأن الموضع قائم في وادي، خارج أسوار المدينة، وبالوقت نفسه ملاصق للمدينة،

فمثل ذلك على الرهبان المبشرين أن يسكنوا دوماً في الوادي بسبب التواضع، بعيداً عن ضجيج العالم، إنما في الوقت ذاته على مقربة من بني البشر، حتى يمكن تغذيتهم بكلماتهم وبالمثل.

٧- وبسبب قسوته، لأن المكان موجود بين الصخور، وهو صعب، ووعر، ومثل هذا ينبغي أن تكون حياة الراهب المبشر، حيث يتوجب تمضيته في المصاعب مع طهارة الجسد، حتى يصبح الراهب مطواعاً، خشية أنه بعد وعظه للآخرين أن يصبح مرفوضاً، وذلك حسب تعبير الرسول (كورنثوس: ٩/١).

٨- والمكان منعزل يتجاوب مع الحاجة للدراسة والتأمل، التي توائم المبشر الجيد والفعال، ولأن ذلك لا يمكن ممارسته بين الحشد.

٩- ولأن المكان رفيع بعض الشيء وضيق، وهو نموذجي للفكر حتى يجمع ذاته، ويتعد عن الجولات التي بلا هدف.

١٠- ولأن المكان قريب من جبل الزيتون، ومن جبل العدوان. ومن جبل صهيون، ومن وادي هنوم، ومن حقن حق الدم، ولنلاحظ هنا تنوع الموضوعات بالنسبة للواعظ، الذي يمكنه أن يعظ إما حول جبل الزيتون، أو حول الفضائل، أو حول جبل العدوان، أو حول الشرور، أو حول حق الدم، أو حول الموت، أو حول وادي هنوم، أي حول جهنم والادانة الأبدية، أو يمكنه الوعظ حول الجبال والوديان، أي أن يكون مديوناً لكل من الحكماء والجهلاء، كما قال الرسول (روما: ١٤/١)، أو للتأمل والعمل، أو للمتدينين وللعلمانيين، أو للرجال المستقيمين وللمذنبين، أو للجديدين والمسيثين.

الجسر فوق جدول قدرون ووصف صفته شروعاً

من المكان الذي يعبره الجسر

وعندما أقبلنا من الكهف بعد فحصنا له، لم ننزل مسافة أبعد في الوادي، بل عدنا عبر الطريق الذي قدمنا عليه، وذلك حتى هرم شعفاط، الذي يوجد على مقربة منه جسر مقنطر من الحجارة يعبر الجدول، وهكذا ذهبنا إلى ذلك الجسر، وجثونا أمامه مصلين، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وحدثتنا التواريخ الاغريقية، وكاتب مصنف الـ Speculum Historiale ، ورووا لنا الحكاية التالية: عندما كان سليمان يبني بيته من خشب لبنان، وقع في أيدي العمال جذع شجرة، وجدوا أنه غير مفيد لهم، وقام أحد الناس بجر هذا الجذع وأنزله نحو الجدول، وعمل منه جسراً لعبور الأفراد الجدول عليه في هذه البقعة، وحدث أنه عندما جاءت ملكة سبأ — التي قيل بأنها كانت إحدى العرافات — وكانت على وشك عبور الجدول، مع الملك، غدت مندهشة لدى مشاهدتها لذلك الجذع، وألقت نفسها في الجدول وتعبدته، فكشفت بذلك عن أسرار الصليب، وقالت إن هذا الجذع سوف يشكل في أحد الأيام صليب المخلص، ونتيجة لذلك حمل سليمان الجذع من هناك، وطمره في باطن الأرض قرب الهيكل، حسبما جاء ذكرنا من قبل، وفي مكان الجذع الذي أخذه، أمر ببناء جسر حجري، وفوق هذا الجسر غالباً ما عبر الرب مع تلاميذه، وذلك كلما رغب بالذهاب إلى جبل الزيتون، أو إلى بيت عنيا، وعبر هذا الجسر اقتيد إلى بيت حنان.

ومثل هذا عبر داوود جدول قدرون عند هذا المكان، عاري القدمين مع جميع الناس، عندما هرب من القدس من أمام وجه ابنه أيسالوم، وهنا أيضاً وقف الكهنة مع تابوه الرب، حتى عبر الناس جميعاً، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الخامس عشر من سفر صموئيل الثاني، وبناء عليه عبرنا بتقوى الجسر، وصعدنا فوق الجرف المنحدر لجبل صهيون المقدس، الذي إليه اقتيد الرب يسوع مغلولاً من البستان إلى بيت حنان،

الراهب الأعلى.

وحدث أننا عندما وصلنا إلى قمة الجبل، وجدنا أنفسنا غير قادرين على تحمل حرارة النهار الكبيرة، فاتفقنا أن نقوم بعد الغداء بزيارة بقية الأماكن المقدسة، من حول جبل الزيتون، التي لم نكن قد ذهبنا إليها بعد، وبناء على ذلك نزل الفرسان مسرعين إلى مشفى القديس يوحنا، لتناول طعامهم، بينما دخلنا نحن رجال الدين إلى دير الرهبان، وتغدينا معهم.

زيارة الأماكن عند سفح جبل صهيون وأولها نبع مريم العذراء المباركة

وبعد الغداء اجتمع الحجاج الذين كانوا أقوىاء مع بعضهم، من أجل المزيد من الحج والتعب، وفي الحقيقة إنه ليس عملاً بسيطاً وجهداً خفيفاً الذهاب حاجاً هكذا من مكان إلى مكان، كما لاحظنا في ص ٤٠١ المتقدمة، وبناء عليه عندما اكتمل جمعنا، نزلنا من جبل صهيون، من على الجانب الشمالي من الجبل، وذلك عبر طريق طويل، حيث تركنا الطريق الذي صعدنا عليه من قبل على يميننا، ووصلنا الآن، ونحن على منحدرات جبل صهيون إلى نوع من أنواع الكهوف، وهي مغارة مفتوحة في الأرض، ودخلنا من فمها، ونزلنا إلى باطن الأرض، وسرنا فوق رمال من دون أية درجات، وبما أننا دخلنا إلى مكان كان محجوباً عن أشعة الشمس، لم يكن بإمكاننا رؤية أية شيء أو قليلاً جداً ما رأيناه، لأنه من طبيعة العين أنه عندما ينتقل الإنسان إلى الظلال خارج أشعة الشمس كل شيء يبدو بالنسبة له مظلماً، وعندما كنا نازلين في هذه المغارة، قدم لمواجهتنا مسلم حاد، كان قادماً من الأعماق وهو يركض بسرعة، وكان يصرخ بشكل عجيب صرخات غاضبة، مظهراً غضبه في صوته وفي ملامحه وفي حركاته، وقد أراد اخراجنا وطردها من

الكهف، وذلك حتى لا نصل إلى الماء، ولكن بما أنه كان وحيداً، وكنا نحن كثرة، لم نهتم به، بل تابعنا نزولنا، وتجاه ذلك ضاعف من صراخه، وتعاضم غضبه، ولو كان لديه عصا، لأرغمنا جميعاً على الفرار.

وعندما رأى هذا المسلم أننا لم نهتم به، استدار بنفسه بسرعة، وتجاوزنا جميعاً نحن الذين كنا نازلين، وغرس نفسه على حافة النبع، حيث تقابل بكل وسيلة ممكنة مع الذين رغبوا بشرب الماء، وصدّهم، ودفعهم، وضربهم عندما وصلوا إلى الماء، لكن أحد الفرسان اللومبارد وكان من ميلان، صعد بشجاعة، وأمسكه بذراعه، وجره بقوة وأبعده عن النبع، وهنا صار المسلم غاضباً من الفارس وانقض عليه، وشرع يضربه بمقبض يده، ودافع الفارس من الجانب الآخر عن نفسه بقبضة يده، لأن مامن واحد منهما كان لديه سلاح، وغدوا غاضبين جداً أحدهما من الآخر، ولو لم يقم الحجاج بفصلهما لمزق أحدهما الآخر إلى قطع.

وعندما رأى المسلم أنه لن يتمكن من انزال انتقامه على الفارس، شرع يركض بسرعة صعوذاً، قاصداً لجلب آخرين لمساعدته للقتال معنا، غير أننا أمسكناه، وقبضنا عليه بشدة، مع أنه صرخ وناضل بشكل عظيم، وفي الحقيقة كنا سنتعرض إلى خطر عظيم لو أنه أفلت من بين أيدينا، وكنا غير مسرورين من الفارس، وبعد كثير من الصراع، وحدّ بعض الفرسان بين حافظات نقودهم وعرضوا على المسلم بعض المال، ومنحوه له إذا بقي هناك، وتخلّى عن الصراع، ووعد بالمحافظة على السلم مع الحاج الذي ضربه، ولست بحاجة لقول المزيد، ذلك أنه ما أن رأى المال حتى تغير إلى انسان آخر، حيث أصبحت ملامحه هادئة، وصار صوته أكثر لطفاً، وزال غضبه، وقدم نفسه، مستبشراً وبدون قيود لخدمتنا حسب الطريقة التي نختارها، وهذا الرجل الذي كان من غير الممكن من قبل تهدئته بالكلمات أو بالضربات، أو بعدد الحجاج، عندما

رأى هذه النقود صار جاهزاً لإطاعتنا، لأنه كما قال سليمان في الجامعة: ١٠ «أما الفضة فتحصل الكل».

وهكذا عندما استلم المال نزل إلى الخليج، ونضح الماء لنا جميعاً، وأعطانا ذلك بكرم، وبعدما شربنا جميعاً من ذلك الماء النقي، صعدنا ثانية، وتلونا صلواتنا أمام فم الكهف، وحصلنا على غفرانات (+)، لأن هذا نبع العذراء مريم المباركة، حيث يقال أنه في اليوم الأربعين، عندما جاءت مع يوسف والطفل يسوع من بيت لحم، وذلك بهدف تقديم الطفل يسوع في الهيكل، وقد نزلت إلى هذا الخليج، وأقامت هناك، لأنه لم يكن لديهم مكان للإقامة به في المدينة، وذلك باستثناء ماكان لديها في بيت لحم، وهي لم تختار الإقامة مع الناس الفقراء الآخرين، في ساحة الهيكل، لأنها كانت تخاف من هيرود، لأن الاشاعة حول الملك الذي ولد منها كانت قد انتشرت في أرجاء البلاد، وبسبب ذلك اضطرب هيرود ومعه القدس كلها.

وكان بإمكانها — على كل حال — الذهاب من هذا الجسر بشكل سري، إلى الباب الذهبي، جالبة معها الطفل يسوع، دون أن يلاحظ إلى داخل الهيكل، وممارسة جميع الطقوس المتعلقة بقانون الطهارة، وهو ما فعلته، لأنه لم هناك أحد سوى الذين أُنذروا من قبل الروح القدس، بأن يكونوا هناك في تلك الساعة، علاوة على ذلك، كانت كلما جاءت إلى القدس، سنة تلو سنة، كانت تقيم في هذه الهوة، وعندما كانت تقوم بحجها، اعتادت على المرور عبر هذا الطريق، وانعاش نفسها إلى جانب هذا النبع.

الصخرة الاعجازية مع الصدع الذي حدث فيها أثناء آلام الرب

بعدما قمنا بواجباتنا كحجاج عند نبع مريم العذراء المجيدة، تابعنا سيرنا، والتفطنا حول جبل صهيون، وذلك باتجاه طرفه الجنوبي، ودخلنا

في جانبه الغربي إلى وادي سلوان، ووصلنا إلى مياه غدير تجري بصمت نحو وادي شعفاط، وذلك حسبما قال اشعيا (الاصحاح: ٨): «مياه شيلوه الجارية بسكوت»، وسرنا على مجارة هذا الجدول، الذي يجري نزولاً إلى جانب جبل صهيون، ويصل إلى صخرة عالية، ولأنها كانت عند سفح جبل صهيون، ارتفعت خارج مجرى الجدول، وفي هذه الصخرة صدع كبير ممتد من القمة حتى القعر، ويمكن للإنسان، دون أن يعصر نفسه، الدخول إلى الشق في الصخرة، ويقال بأن هذا الشق قد صنع أثناء آلام الرب، فقد قرأنا في انجيل متى: ٢٧/٥١ قوله: «والصخور تشققت»، وبناء عليه قفزنا فوق الجدول، ودخلنا إلى الشق، ومضينا فيه حتى لم نعد نجرؤ على المتابعة والتوغل أكثر، بسبب الظلام.

بركة استحمام سلوان حيث استحجم الرجل الأعمى

واسترد بصره

وعندما خرجنا من الشق في الصخر، قفزنا فوق مجرى جدول سلوان، وذهبنا صعوداً نحو بركة استحمام سلوان، التي إليها أرسل يسوع سيليدونيوس Celidonius (كذا)، الذي كان أعمى منذ ولادته، من أجل أن يغتسل، وقد اغتسل واسترد بصره، وحسبما قرأنا في يوحنا: ٩، لم تكن بركة الاستحمام هذه أكثر من مجرد بركة صغيرة، تجمعت وتشكلت تحت نبع سلوان، فيها كان يتجمع الماء الذي تدفق من النبع، حيث أقاموا له أطراف بالحجارة والطين، مثلما يعملون برك الأسماك في بلادنا، ولا يوجد في بركة الاستحمام هذه ماء، لأن مجرى الماء لا يصب بها، بل يجري نحو الأسفل إلى جانبها، وقد قام واحد من المسلمين في هذه الأيام بزراعة بستان خضراوات، في داخل جدران بركة الاستحمام، وقد نمت بعض الأشجار فيها، ولم نعبأ بهذا كله، ودخلنا إلى المكان على أساس المعجزة التي صنعت هناك من قبل المسيح في الأيام الغابرة، وتلونا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات (+).

وقد قرأت في واحد من كتب الحج أن بشبع زوجة أوريا كانت تستحم فيها عندما رآها داوود أثناء وقوفه فوق بيته، وجامعها، وأخذها لنفسه، وهذا لا يمكن فهمه، لأنه ليس هناك مجال للنظر إلى نبع سلوان من جبل صهيون، وقد جاء في النص (صموئيل الثاني: ١١/٢) بأن المرأة كانت تستحم وتغسل نفسها في غرفتها العليا مقابل بيت الملك.

المكان الذي ينبع منه نبع سلوان وتتدفق

منه المياه تحت جبل صهيون

لدى مغادرتنا لبركة استحمام سلوان، سرنا على طول مجرى الجدول حتى وصلنا إلى نبع سلوان الذي يتدفق من جبل صهيون، وعندما سرنا إلى هناك صاعدين على طرف الجدول تولتنا الدهشة تجاه قذارة المياه ولونها الذي تعافه النفس، ولكن عندما وصلنا إلى النبع اكتشفنا سبب قذارة لون المياه، فقد كان هناك مسلم يعمل بالدباغة قد وقف عند فم الصخرة التي يتدفق منها نبع الماء، وكان ينقع الجلود ويغسلها ويتعامل معها بقدميه، وهي الجلود التي سلخت مؤخراً من الحيوانات، ولذلك صار الماء قذراً ودموياً، ولهذا لم يعد بإمكان أي واحد أن يشرب من الماء أو أن يغسل وجهه، أي في الماء الذي يجري من بعد مكان الدباغ.

وبعدما وصلنا إلى المكان الذي كان فيه الدباغ، دخلنا إلى شق الصخرة الذي يخرج منه النبع، وكان هذا الشق عميقاً وعالياً، لكنه لم يكن عريضاً، وهناك ينبع الماء، أي من الأجزاء العميقة من الأرض، وعندما كنا هناك، فوق المكان الذي كان فيه الدباغ، شربنا وغسلنا أعيننا، بمثابة ذكرى للمعجزة التي صنعت بهذه المياه، بالنسبة للرجل الذي ولد أعمى (يوحنا: ٢٠)، ويقول عوام الناس بأن كل من يغسل عينيه بماء هذا النبع، سوف لن يعاني بعد ذلك من أي ألم في عينيه، ولقد وضعت ثقة كبيرة في هذه الحكاية وصدقتهام مثلما أصدق القول بأن كل

من يستحم في الأردن سوف لن يصبح عجوزاً، وهكذا وقفنا هنا متلاصقين ومحتشدين إلى جانب بعضنا في هذا الصدع في الصخر، وفي هذه الفتحة في الأرض، وكان هناك كثيراً من الضجة بين الحجاج، فالذين كانوا في الأمام صرخوا ضد انعدام الصبر لدى الذين وقفوا في الخلف، وهؤلاء الذين في الخلف قد صرخوا شاكين من بطيء الذين كانوا في الأمام، أما الذين وقفوا في الوسط فقد صرخوا بسبب الضغط الذي تلقوه من الطرفين، وكان هناك كثيراً من انعدام الصبر، لأنه لم يكن بإمكاننا الدخول إلى الشق إلا بالمساعدة بين قدمينا، والسير بقدم واحد على كل جانب من جانبي الماء، ذلك أننا كنا جميعاً مرتدين لأحذية ثمينة، كانت ستتلف لو أنها تبللت بالماء، والذي حدث على كل حال، أن كثيرين دفعوا فسقطوا بأجسادهم في مجرى الماء نفسه، ولذلك أخذنا طريقنا بالصعود مسرعين للخروج من ذلك الموضع، وأيضاً من فم الكهف، حاملين معنا الماء المقدس في آنية وقوارير إلى الذين لم يتمكنوا من الدخول إلى الشق في الصخر، وجاء عدم تمكنهم بسبب حالة الحشد المتقدم ذكره والتدافع، وكان بين رفاقنا سيدات حاجات لم ينزلن بل جلسن بهدوء وسلام، وكن يقمن بتلاوة صلواتهن في الخارج، ولقد جلبنا الماء إلى هؤلاء(++)، وعندما بتنا جميعاً في الخارج، تلونا الصلوات المحددة، وحصلنا على غفرانات مطلقة.

وصف نبع سلوان ومياهه

ومما تقدم قوله من قبل، يمكن إلى حد ما فهم وصف المكان، وعلاوة على ذلك، ينبغي أن نلاحظ أن هذا الماء المتدفق يلبي علامات معجزة قائمة ومستمرة، أي بمعنى أنه لا يتدفق بشكل مستمر، بل يتوقف لمدة ثلاثة أيام، ولربما لمدة أربعة أيام في الأسبوع، ثم إنه يتدفق، لكن ربما بمياه أقل، وأحياناً لا يتدفق مطلقاً، وأحياناً أخرى بكميات فائضة، ولقد رأيت بنفسني الشق جافاً أحياناً، وأحياناً أخرى يجري بمياه قليلة

وشحيحة، وأحياناً أخرى مليئاً بالماء إلى حد أن مامن أحد يمكنه الدخول إليه، واسترعت انتباهي هذه المياه بشكل غريب، حيث كنت غالباً ما أنزل إلى هناك قبل شروق الشمس وحيداً، لأرى ما الذي يحدث، لأن هذا التدفق غير المنتظم ليس مرتبطاً بالطبيعة، وليس مرده لها، بل كان ذلك يحدث بوساطة معجزة في أيام النبي اشعيا.

وكان الملك حزقيا، ملك القدس، عندما سمع بأن جيش الآشوريين كان مقبلاً للعسكرة أمام المدينة المقدسة أوقف الينابيع، وملاً البرك القائمة حول القدس بالطين والحجارة، بهدف أنه عندما يصل العدو لن يجد ماء، وبذلك يرغم على المغادرة بسبب العطش، فهذا ماورد في الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر أخبار الأيام الثاني، وعمل أمام نبع سلوان بركة، كانت المياه تتجمع فيها من أجل استعمالات شعب المدينة، الذين كان يمكنهم النزول إلى هناك من المدينة، وحمل الماء معهم عائدين، وكان بإمكان العدو أيضاً القدوم إلى المكان، وحمل الماء من هناك، ولهذا صلى اشعيا المقدس من أجل أنه كلما جاء الناس ونزلوا من المدينة يجدون الكفاية من الماء، لكن عندما يأتي العدو، سيجد النبع جافاً، وبذلك لم يكن بإمكان الأعداء العثور على أية مياه، ولذلك كذكرى لهذه المعجزة العظيمة لا تتدفق المياه بشكل متواصل، بل تتدفق في بعض الأحيان، وورد ذكر هذه المعجزة لدى يوسفيوس، ولدى كاتب SpeculumHis Toriale.

وبجوار هذا النبع جرى دفن النبي إشعيا من قبل الناس، بعد ذبحه من قبل الملك ماناسيس Manasses، وحدث أنه عندما بنيت القدس من قبل نحemia، بعد تدميرها من قبل الملك نبوخذ نصر بنى حاكم البلاد ميزبا MiZpah باب النبع عالياً في المدينة، ومن خلال هذا الباب صعد الناس ونزلوا لنضح الماء، وبنى جدار بركة سلوان، الذي كان قد سقط، وذلك حسبما جاء الخبر في الاصحاح الثالث من سفر نحemia،

ودمرت جدران بركة سلوان من قبل الرومان أثناء حصارهم للقدس، وذلك مثلما جرى تدمير كل شيء، غير أن المسيحيين الذين جاءوا من بعدهم بنوهم ثانية، وبنى أناس أتقياء أماكن لسكناهم حول هذه الجدران، وبنوا نوعاً من أنواع الديرة فوق النبع، فهذا ما يمكن رؤيته حتى هذا اليوم، لأنه يوجد أمام النبع بركة تشبه حماماً، وهناك قد بني حول الجدران قناطر معقودة تشبه الممرات التي تكون حول رواق، أما أقواس الأسقف فهي مستندة فوق أعمدة رخامية، وهذا البناء مهديم جزئياً، والباقي مهدد بالسقوط والخراب أيضاً.

ويبدو أنها مهمة سهلة هي القيام بترميم خرائب هذا النبع المقدس، لكن مامن أحد يلمسهم أو يضع يده عليهم، ولهذا يزداد المكان خراباً يوماً إثر يوم، مثلما يحدث بالنسبة للأبنية في الأماكن المقدسة الأخرى، وكان هذا المكان في الأيام الخوالي محل تشریف، لأنه كان ضمن حديقة الملك، وكان هناك درج يقود صعوداً من النبع إلى مدينة داوود على جبل صهيون (نحميا: ٣).

وأنا لا أستطيع أن أتصور كيف عمل حزقيا ملك القدس، وتمكن من حمل مياه سلوان نحو الأعلى إلى المدينة، وعبر مثل تلك المسافة الكبيرة، وذلك كما حدثنا نيقولا دي ليرا في تعليقاته على الاصحاح الثامن والأربعين من سفر الالهيات، مشاهدين أنه من نبع سلوان صعوداً حتى المدينة هناك أكثر من أربعين خطوة مباشرة، يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك ماء كثير في النبع، ثم إنه لا يتدفق بقوة قادرة على إدارة دواليب ماء كان ربما من الممكن بوساطتها رفع الماء نحو الأعلى.

المكان الذي قطع فيه النبي إشعيا إلى قطع وسبب موته

وغادرنا الآن النبع المقدس، وصعدنا إلى جبل صهيون، وعلى المنحدر هناك وصلنا إلى مكان منبسط، فيه تقوم شجرة لها أغصان غليظة

وأوراق، ولا أعرف من أي نوع من الأشجار هي، لكنها تشبه شجرة زيزفون، فهنا يوجد المكان الذي تسبب فيه الملك ماناسيس الشرير — والذي كان قد ملأ القدس بالأصنام، وسفك كثيراً من الدماء البريئة — بذبح النبي اشعيا، لأنه انتقده من أجل شروعه، ففي ذلك الحين قامت هناك شجرة أرز عظيمة وعالية، وذلك فوق المكان الذي قامت عليه الشجرة المتقدمة الذكر، وعندما جلب السفاحون النبي اشعيا لذبحه هناك، انفتح جذع شجرة الأرز، ودخل النبي اشعيا في شق الشجرة، وانغلقت ثانية، وأخفت النبي فيها.

وعلى كل حال لم يهتد الملك حتى بهذه المعجزة ولم يؤمن، بل أمر بشق الشجرة، وسحب منها النبي وذبحه وأمر بتقطيعه إلى قطع بمنشار الخشب، وتلوننا في هذا المكان صلواتنا المحسدة، وحصلنا على غفرانات (+)، وجلسنا بعد ذلك تحت ظل تلك الشجرة، وأرشنا أنفسنا، وتحدثنا حول قداسة النبي الذي ذبح هنا، والذي عنه قال جيروم، بأنه كان في نبوءاته ينسج انجيلا، ولم يكن بالحري يتنبأ، ولذلك يستحق أن يسمى بالانجيلي أكثر من تسميته بالنبي، ولهذا السبب تقرأ نبوءاته خلال موسم قدوم الرب، وفي ليلة ميلاد المسيح، وذلك في وقت الصلاة الصباحية، وفي القداس، وكأنهم كانوا جزءاً من الأنجيل الأولى، وبسبب روعة كتابات هذا النبي طلب القديس أمبروز من أوغسطين قراءتهم بعد تحوله إلى المسيحية مباشرة.

المكان الذي فيه شق يهوذا نفسه على شجرة

وبعدما فرغنا من الاستراحة تحت الشجرة المتقدمة الذكر، انطلقنا على طريقنا، وأثناء سيرنا أشار أحد الناس وبين لنا المكان الذي قامت عليه فيما مضى الشجرة التي عليها شق الخائن يهوذا نفسه، وعرض علينا اقتيادنا إلى ذلك المكان، لكننا رفضنا الذهاب لزيارته، ولم نحرك أنفسنا ولا خطوة واحدة نحوه، فقد كنا نكره أن نرفع أبصارنا ونلقي

نظرة عليه، لأنه ليس هناك لا نعمة، أو غفران، بل عقوبة، ويأس، وعار، ووقفنا على كل حال لوهلة قصيرة ننظر نحو المكان، وقرأنا بيت الشعر التالي الذي هو هجاء له: «سوف تظهر السماء شرور يهوذا، وسوف تثور الأرض ضده».

الكهوف التي إليها هرب الرسل أثناء اعتقال الرب، وفيها أقاموا متخفين

ولدى فراغنا من انشاد لعناتنا ليهوذا، نزلنا من على منحدر جبل صهيون إلى الوادي الذي يفصل جبل صهيون نفسه عن جبل جيحون، وهذا الوادي ضيق، ومتصل بوادي سلوان في وسطه، وقد عبرنا هذا الوادي الضيق، ووصلنا إلى سفح جبل حق الدم في الجهة المقابلة، وهذا الجبل قائم عند منعطف جبل جيحون باتجاه الشمال، وذلك مثلما جبل أكرام موجود عند منعطف جبل صهيون باتجاه الشمال، ومع هذا، إن الذي أراه هو أن ذلك الجزء صار اسمه الآن جبل حق الدم، بسبب حقل حق الدم، مع أن اسمه كله في الماضي جبل جيحون، والمقصود بذلك كل من منعطف الجبل والجبل نفسه، مثلما حدث بالنسبة لجبل صهيون وجبل أكرام، كما تقدم بنا القول حولهما، وكذلك بالنسبة لجبل سيناء وجبل حوريب، فهناك اسم الجزء المنخفض جبل سيناء، واسم الجزء العلوي هو جبل حوريب، والحال هو نفسه مع جبل الزيتون، حيث أن الجزء المنخفض منه باتجاه الجنوب اسمه جبل العدوان، واسم الجزء الأعلى هو جبل الزيتون، وهذا هو الحال نفسه مع هذا الجبل، فهو من الوادي صعوداً حتى الحقل، اسمه جبل حق الدم، ومن الحقل فصاعداً اسمه جبل جيحون.

وهكذا صعدنا نحو جبل حق الدم، عبر راوية منحدرية، وسحبنا أنفسنا صعوداً عبر جروف وصخور حتى وصلنا أخيراً إلى بساتين تين

ورمان، وأشجار فاكهة أخرى، وكان في هذه البساتين عدداً كبيراً من الصخور منتصبة شاهقة في الهواء، وكذلك جدران من الصخور، فيها محفور كهوف مفردة، ومزدوجة، وثلاثية ورباعية، عن أمثالها تحدث في ص ٤٨٣، فقد حفر القدماء هذه الصخور القاسية وأفرغوها لتكون أماكن للدفن، حسبما قلت في ص ٦٤٣، وفيما بعد، في أيام المسيحيين، قام أناس، صدوراً عن حبههم للأرض المقدسة، باختيار هذه الكهوف لتكون أماكن سكنى لهم، لأنهم لم يرغبوا بالسكنى والاقامة في أي مكان غير أماكن الأضرحة، حيث فيها يمكنهم بسرور انتظار الموت، وكان لدى تمكن واحد من القديسين القدماء من تحصيل واحداً من هذه المساكن لنفسه، كان يعتقد أنه قد وجد كنزاً.

وإلى هذه الكهوف هرب الرسل، عندما تخلوا عن الرب في البستان، وذلك عندما أخذوه مغلولاً ليمثل أمام الكاهن الأعلى، ووقتها لم يكن بإمكانهم هجر مثل هذا المعلم الرائع، ومع ذلك لم يكن بإمكانهم اتباعه، كما أنه لم تتوفر بالنسبة إليهم أية أماكن أفضل للإقامة خيراً من الكهوف المظلمة، لابل أكثر من هذا، لقد بذلوا جهودهم في هذه الكهوف نفسها لشق طريقهم إلى الأجزاء الأعمق منها، وصولاً — إذا كان ذلك ممكناً — حتى أعماق جوف الأرض، فهناك كان بإمكانهم، أن يجدوا، على الأقل أماكن فيها يكون ويتجنبون ويصرخون، ويرفعون أصواتهم بالعويل، لأنهم أثناء وقوفهم عند أفواه هذه الكهوف لم يتجرأوا على التفوه بتنهداتهم بصوت مرتفع، ولا أن يعجبوا بالبكاء، خشية أن يسمعوا، لكن الذي فعلوه هو أنهم حبسوا صرخاتهم مع حزنهم في صدورهم بقدر ما استطاعوا، وفي الحقيقة امتلأت صدورهم كثيراً بالحزن، وتورمت حلوقهم ووجوههم بالترحم، ولذلك حشوا أفواههم بملابسهم، خشية انفجار أحزانهم، وسماع الأصوات من مسافة.

ولذلك سرنا في هذا المكان المقدس بحالة حزينة من كهف إلى آخر،

ووزعنا أنفسنا بين هذه الكهوف ومن حولها، مبدين احترامنا تجاه الأماكن وحزننا من أجل الرسل، وأثناء وقوفنا في داخل الكهوف كان الحجاج يخاطب أحدهم الآخر قائلاً: «تذكر يا أخي أن الرسول أندرو المحبوب صدف وجلس هنا، وهو يبكي سوء حظ معلمه»، وكان حاج آخر يجلس مقابل حاج آخر ويقول له: «وهنا جلس الرسول بارثليميو، يبكي لتخليه عن معلمه المحبوب»، وفي كهف آخر كان أحدهم يقول للآخر: «هنا جلس — كما هو محتمل — توما وهو مرتاب وحزين»، ومن كهف آخر كان حاج آخر سيصرخ: «هنا في هذا الكهف المظلم يوجد مكانين، أعتقد أن الرسولين سمعان ويهوذا، جلسا فيهما معاً»، وهكذا بذل كل واحد جهوده مع آخر، بحركات خاشعة، ليقوم كل واحد منهما بتحديد مكان للرسول الذي أحبه أكثر، وفي هذا البستان دخلنا إلى كهف غريب، يشبه إلى حد بعيد ضريح الرب حسبما كان في وضعه الأصيل، ولقد تلونا صلواتنا قرب هذه الأماكن، وتلقينا غفرانات(+).

حقل حق الدم المقدس الذي شري بثمن دم الرب يسوع المسيح

وبعدما فرغنا من معاينة أماكن اختباء الرسل، تابعنا صعودنا إلى جبل حق الدم، وذلك عبر جروف صخرية شديدة الانحدار، وكان المر صعباً ووعراً، وفي الوقت الذي كنا فيه صاعدين نحو الأعلى أخذ بعض الفرسان من ذوي النشأة المرفهة والناعمة يتمتمون ضيقاً بسبب فقدانهم لصبرهم نتيجة لتأعب الرحلة، وكنا في الحقيقة نعاني كثيراً من أشعة الشمس المحرقة، ومع ذلك تابعنا صعودنا، ووصلنا إلى حقل حق الدم المقدس، وجاء الخبر في إنجيل متى: ٢٦، أن اسم هذا الحقل قد كان قبل الآلام «حقل الفاخوري» بسبب أنه كان ملكاً لرجل فاخوري، واشترى اليهود هذا الحقل مقابل الثلاثين قطعة (من الفضة) التي كانوا قد أعطوها إلى يهوذا ثمناً للرب يسوع، وجرى شراء هذا الحقل من

أجل دفن الغرباء فيه، الذين كانت أجسادهم ترمى من قبل في العراء من دون دفن، ولذلك ارتمينا على وجوهنا في هذا الحقل المقدس، وتلونا الصلوات المعينة وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وعندما أكملنا هذا، جلسنا للاستراحة وللنظر إلى المكان، وفي وقت جلوسنا على هذه الصورة، جاء شاب مسلم صاعداً نحونا، ومعه سلة مليئة بالعنب، الذي شربنا بعضه، وهكذا جلسنا، وأكلنا العنب هناك في الحقل، ومتعنا أنفسنا تماماً.

وضع حقل حق الدم

حقل حق الدم قائم على منحدر جبل جيحون، في مقابل جبل صهيون، على الطرف الجنوبي منه، وقائم فوق الحقل نفسه بناء بأربعة جدران، يشبه برج مربع منخفض، وهو مغطى بقبة، مستندة على أطراف الجدران، ولهذه القبة في أعلاها تسع فتحات مستديرة، منها يجري رمي أجساد الموتى، وبما أن هذا المبنى قائم على منحدر الجبل، فإن الجزء العلوي منه، بالنسبة للقادم من أعلى الجبل نحو المبنى، يمكن للإنسان أن يسير على سقفه المعقود من دون تسلق أو صعود، ومساحة السقف المعقود لهذا البناء هي خمسين قدماً من حيث العرض، واثنين وسبعين من حيث الطول، وهناك من الفتحات العلوية نزولاً حتى الأرض في الأسفل ستة وعشرين قدماً.

وليس هناك مدخل إلى هذه الغرفة إلا من خلال هذه الفتحات، ومامن أحد يمكنه الدخول من خلالها ما لم يتأتى انزاله بوساطة حبال، وهذا المسكن هو للأموات وحدهم، والذي أعتقده أنه منذ اللحظة التي انتهت فيها عمارة مامن إنسان دخل إلى هذا المبنى، بل إن كل من دخله مرة لن يخرج منه مطلقاً حتى يوم الحساب، واستندت على معدتي، ومددت رأسي نحو الداخل، فرأيت هناك خمس جثث بين عظام جافة، ولا يوجد فوق السقف المعقود الآن أي بناء، بل أعشاب نامية هناك،

وقد غطت الأعشاب في بعض الأماكن الفتحات، ولذلك فإن الذين يسرون هناك بدون انتباه قد تنزلق قدم أحدهم فيهن، وكانت المرأة المقدسة هيلانة قد بنت كنيسة فوق هذه البقعة، وقد أمرت بتكريسها لجميع القديسين، وإليها كان الرهبان الذين سكنوا في أمكنة اختباء الرسل، قد اعتادوا على الذهاب، والقيام بالقداسات هناك.

وفيما بعد، بعد ذهاب هؤلاء الرهبان، سكن رهبان من طائفة المبشرين هناك، وامتلكوا ديراً هناك، لأنه عندما قام روبرت، ملك صقلية، المتقدم الذكر، بشراء جبل صهيون والأماكن الأخرى لصالح الفرنسيين، وذلك من السلطان، مقابل أموال كثيرة، وقتها قام الرهبان المبشرون وطلبوا عون الناس الأتقياء. وبعدما جمعوا بعض المال، اشتروا حق حق الدم، بهدف التمكن من بناء دير هناك، وكان ذلك في سنة ١٣٥٠ لتجسيد الرب، ففي هذه السنة كان لودلفوس LU-dolphus، الذي كان كاهن أبرشية سوخم، موجوداً في الأرض المقدسة، وكتب هذا في كتابه عن حجه.

وبعد تسليمهم للمكان، احتفظوا به لبعض الوقت، لكن أخيراً أرغموا على التخلي عن المكان، بسبب هجمات المغاربة، والسرقات التي عانوا منها على أيدي المسلمين، وفيما يتعلق بهذا الأمر إن أوضاع الرهبان الفرنسيين جيدة في جبل صهيون، ولديهم مكان هادئ في داخل المدينة، محصن بشكل جيد بأسوار عالية وبأبواب حديدية، كما تقدم وقلنا في ص ٤٦١، لكن هذه أوضاع ليست مستمرة، ذلك أنهم غالباً ما يكونون في مخاطر عظيمة، من الهجمات المتواصلة للمسلمين، حتى في أوقات الليل، ولولا أنهم رجال شجعان، لتخلوا منذ زمن طويل عن جبل صهيون، بسبب المخاطر التي هم عرضة لها من هجمات هؤلاء الناس، ولهذا كان من غير الممكن بالنسبة للرهبان المبشرين البقاء في مكان غير محصن، في خارج المدينة، وذلك على الرغم من شرائهم

للمكان من السلطان، وأنهم بموافقته قد أقاموا به، ذلك أن المسلمين لا يعبأون مطلقاً بذلك، ولذلك عندما تم اخراج الرهبان من ذلك المكان، هدم المسلمون الكنيسة والأبنية الأخرى، واجتشوا كل شيء حتى الأساسات نفسها، وذلك باستثناء مبنى الدفن الذي ما يزال قائماً حتى يومنا هذا.

وبعد الرهبان المبشرين، سكن بعض الرهبان الاغريق الذين اسمهم Coloyers هناك، لكنهم أرغموا بالضرورات نفسها على التخلي عن المكان، وكان هذا ليس قبل وقت طويل مضى، لأنني وجدت في الكهوف، وفي أماكن الاختباء علامات تبرهن أن قوما سكنوا هناك قبل وقت قصير، وغالباً ما اعتدت على النزول إلى هذا المكان من جبل صهيون، وكنت أقرأ صلواتي الساعية فوق الحقل المقدس، وكنت أرغب كثيراً، أنه إذا كان ممكناً أن أنهي أيامي هناك بين الرهبان، وأن أدفن هناك، وبناء عليه اخترت هذا المكان ليكون قبراً لي، وتوسلت إلى رهبان جبل صهيون، أنه إذا حدث ومِت في القدس، أن لا يقوموا بدفني في أي مكان غير هذا الحقل المقدس، وأن يلقوا بجسدي من خلال هذه الفتحات.

ويمكنني أن أقول صادقاً، إنه لو كانت الأوضاع الأخرى موائمة متوازنة، كنت أفضل اتخاذ دير هناك على اتخاذه فوق جبل صهيون، ذلك أنه هنا يمكن للرهبان زراعة بساتين، وكروم، وحدائق تين، ثم إن المكان جميل ولطيف، يتطلع نحو جبل صهيون، ونحو وادي سلوان، ويمكنه الحصول على مائه من نبع سلوان، القريب جداً، وهناك أيضاً منظر يشاهد منه وادي شعفاط، وجبل الزيتون، الخ.

وهم يروون صادقين أن أجساد الموتى، عندما يوضعون هناك، يتحولون مباشرة إلى رماد في خلال ثلاثة أيام، وتترك العظام الجافة فقط، ومثل هذا يقولونه عن الحقل المقدس الموجود في روما، إلى جانب

كنيسة القديس بطرس، الذي حملت الأتربة إليه من هنا عبر البحر، ومدت فوق ذلك الحقل، ويفعل مثل هذا أهالي بيزا، فعندما تتوفر لديم سلطة في سورية، يأخذون التربة من هذا الحقل، ويحملون ذلك في سفنهم إلى بيزا، وقد عملوا هناك مدفناً باهظ التكاليف، لدفن عظماء الرجال في بلادهم فيه، وتذوب الأجساد في هذه المدافن الثلاثة خلال ثلاثة أيام، بينما تحتاج في مقابر أخرى إلى مالا يقل عن ثمانية عشر عاماً.

وفيما يتعلق بالثلاثين قطعة من النقود، فقد قرأت حولهم حكاية طويلة متهافته، قالت بأن تارح والد ابراهيم قد ضربهم، بناء على أوامر من الملك نينوس مع نقود أخرى من السكة نفسها، وأن ابراهيم قد تسلمهم، وجلبهم إلى هذه البلاد، وأنهم منه قد آلوا إلى اسماعيل بحق الميراث، جميعاً ولم يتوزعوا قط، ولم يفرقوا عن بعضهم بعضاً، وقد أعطاهم الاسماعيليه إلى أبناء يعقوب ثمناً لأخيهم يوسف، الذين باعواهم إياه، وقد حمل أبناء يعقوب هذه النقود معهم إلى مصر لشراء قمح بهم، ومن مصر جرى حملهم إلى سبأ، ثمناً لبضائع تجارية، وقد أعطتهم ملكة سبأ إلى سليمان ضمن هدايا أخرى، وقام هو برميهم في خزانة هيكل الرب، وقد حملهم نبوخذ نصر مع كنوز الهيكل الأخرى، وعمل منهم هدية إلى غودوليا Godolia (كذا)، الذي تولى ارسالهم إلى ممكلة النوبة، وعندما ولد الرب في بيت لحم قدّمهم ملكيور ملك النوبة إلى الرب، وفقداهم يوسف والعذراء المباركة في الصحراء عندما كانا فارين مع الطفل، وعشر راعي عليهم واحتفظ بهم لمدة ثلاثين سنة، وكان هذا الراعي قد سمع بشهرة معجزات الرب يسوع، فقدم إلى القدس مريضاً، ولدى استرداده لصحته على يديه، منح الثلاثين قطعة إلى يسوع، ولأنه رفض استلامهم أعطاهم إلى كهنة الهيكل، الذين وضعوهم جانباً بمثابة «قربان».

وعندما جرت خيانة الرب، ناولوهم إلى يهوذا، الذي حركته الندامة،

فطوّح بهم في الهيكل، والتقطهم الكهنة، واشتروا بهم هذا الحقل، وبذلك تفرقوا وتوزعوا في أرجاء العالم، ولقد رأيت واحداً منهم في رودس، وقام يوهانس توخر أوف نورمبيرغ، بأخذ طبعة له، وصنع قالباً على شكله، وصنع نقوداً فضية على شاكلته، قام بتوزيعها بين رفاقه، وفي الحقيقة عندما اجتمعنا مع بعضنا في نورمبيرغ في سنة ١٤٨٥، للاحتفال باجتماع رجال الدين العائدين للمنطقة، قام الرجل المتقدم الذكر، باعطاء قطعة من قطعه الفضية إلى واحد من رهبان طائفتنا، وهذه القطعة بسعة النقود التي تعرف باسم Blaffardi والتي عليها علامة الصليب، ويوجد على الوجه الأول صورة وجه انساني، وعلى الوجه الثاني زنبقة، وكان عليها فيما مضى نقشاً، لكن لا يمكن رؤيته الآن، وفي الذي قلناه عن جبل حق الدم كفاية.

وصف جبل جيحون وكذلك بيت الاجتماع التشاوري الشرير

وإثر مغادرتنا لحقل حق الدم، تسلقنا جبل جيحون بعد بذل جهد كبير، ويوجد على قمته خرائب أسوار عظيمة، ويوجد بين هذه الخرائب بعض بيوت الإقامة للمسلمين، وكان يوجد في أيام الملك داوود هناك قلعة حصينة على هذه الراية، وكانت ملكاً للملك، وتقع في مقابلة بيت داوود مباشرة، الذي كان على أعلى نقطة من جبل صهيون، وذلك حيث يقوم الآن دير الرهبان، ولكل منهما — كما في كل مكان آخر — هناك ساحتين لهذا البيت تتطلع كل واحدة نحو الأخرى، وفي كل ساحة بعضاً من أجزاء البيت، ومتعلقاته، وحسبنا قرأنا في سفر الملوك الأول: ١، أمر داوود ابنه سليمان أن يركب بغلة الملك، وأن يتوجه إلى جيحون، وذلك إلى حيث لحق به جميع قوات الجيش، وهناك مسحوه ملكاً على اسرائيل، وضربوا بالأبواق، وصرخوا عالياً: «عاش الملك».

وأخبرنا يوسفوس، أنه عندما سمع داوود هذا، جلس على أريكته، وغاص فيها، وتقدم بالشكر إلى الرب، لأن أصوات البوق والصراخ

فوق جيحون، يمكن بالحقيقة سماعه من فوق صهيون، وفي ذلك الحين كان أدونيا ويوآب مع البقية يحتفلون، حيث جلسوا إلى جانب نبع عين روجل، بجوار صخرة زوحت (الزاحفة)، وبنيتهم أن يكون أدونيا هو الملك، وسمع هؤلاء القوم أصوات الأبواق فوق جيحون، وباتوا خائفين عندما علموا بحقيقة ما حصل، فقاموا وذهب كل رجل في حال سبيله، لأنهم كانوا عند سفح جبل جيحون، في واد ظليل تحت وادي شعفاط ووادي سلوان، حيث كانت هناك بساتين، مثلما هو موجود في هذه الأيام، وكانت هناك مياه، ومثل ذلك هناك نبع ماء في هذه الأيام، كما هناك حجرة كبيرة، اعتاد الشباب على رفعها للبرهنة على قوتهم، وكان اسم هذه الحجرة الزاحفة، والمكان هناك جميل فيه عمل أدونيا احتفاله، ولكنهم عندما سمعوا الأصوات من فوقهم من الجبل تنادي «عاش الملك»، ارفض اجتماعهم، كما قلنا من قبل.

وكان بيت جيحون في أيام المسيح هو بيت الكاهن الأعلى والكهنة الآخرين، وعندما كانوا يودون معالجة أية قضية، لاسيما إذا كانت سرية، كانوا فيه يتخذون قرارهم حولها، وعلى هذا كان هذا البيت بيت اجتماعاتهم التشاورية السرية، وهنا اجتمع رؤساء الكهنة مع الفريسيين للتشاور قائلين: «ماذا نصنع؟ فإن هذا الانسان....» فهذا ما رواه القديس يوحنا في انجيله، وبناء عليه، على هذه البقعة جرى الاتفاق على قرار موت المسيح، ومن المعتقد أنه في هذا البيت قرر اليهود القتال ضد الرومان، وضد تيتوس وفاسبسيان، ونتيجة لذلك جرى تدمير القدس.

ومن المحتمل أن الرسل جرى جلدتهم في هذا البيت، حسبما قرأنا في أعمال الرسل: ٥، وحدث هذا الجلد بحضور أعضاء المجلس التشاوري فقط، لأنهم كانوا يخافون من الشعب، كما جاءنا الخبر في الموضع نفسه، وكان كلما توفرت قضية احتاجت إلى المناقشة، وكانوا يخشون الشعب من أجلها، كانوا قد اعتادوا على اقرارها في هذا البيت، فهم كانوا

يستهدفون أن يكونوا منعزلين عن بني البشر، وأن يكونوا في الوقت نفسه في مكان حصين، ولذلك حصل هذا البيت على اسم «بيت الاجتماع التشاوري الشرير»، وما زال محتفظاً بهذا الاسم حتى هذا اليوم.

وعندما فرغنا من مشاهدة هذا البيت، لم ننزل إلى الوادي، بل سرنا على حافة جبل جيحون إلى الطريق الذي يقود إلى بيت لحم، الذي عبرناه باتجاه الشرق، وسرنا من حول الوادي القائم فيما بين جبلي صهيون وجيحون، ووصلنا إلى حقل القصار، حيث وقف ريشاقي يجدف ضد الرب إله إسرائيل، وذلك حسبما قرأنا في سفر اشعيا: ٥٣٦ وقد أطلق على هذا الحقل اسم حقل القصار، لأن القصارين اعتادوا على تجفيف أقمشتهم فيه، وهكذا عدنا إلى القدس عبر طريق حقل القصار، وعبر الحجاج الذين أقاموا في المشفى، إلى المدينة، من خلال باب السمك، أما نحن فدخلنا على مقربة من برج داوود، ووصلنا إلى مكاننا، حيث مررنا على طول حافة جبل صهيون.

هنا نهاية الحج خلال مدينة القدس.

كيف أخذ الحجاج طريقهم إلى بيت لحم، التي هي مدينة داوود

في عشية اليوم الذي تقدم على السادس عشر من تموز، قدم دليانا على ظهر فرس إلى جبل صهيون، وقدم أيضاً السائقون مع حميرهم، لأخذنا إلى بيت لحم، وبعدما تجهزنا جميعاً بحمير نزلنا من جبل صهيون، وذلك من الجانب الجنوبي، وعبرنا الوادي بين البرك، وصعدنا جبل جيحون بوساطة الطريق الملكي، الذي عليه سار الملوك الثلاثة، الذين بعث بهم هيرود للبحث عن الطفل الذي ولد في بيت لحم، وهذا طريق مقدس جداً وجميل من القدس، قرأنا بأن عبره سار البطارقة المقدسين، والآباء، والأنبياء، من ذلك على سبيل المثال: ابراهيم عندما جاء من بلاد الكلدان مع زوجته ساره، وكذلك لوط مع زوجته عندما جاء من المناطق الواقعة فيما وراء الجبال، ويعقوب، وجميع الرجال المقدسين، وداوود، واشعيا، والياس، فعنهم جميعاً قرأنا بأنهم ساروا عبر هذا الطريق، وبناء عليه صعدنا جبل جيحون بسرور، وفوق القمة صرنا بين الجدران الحجرية الجافة لبساتين رائعة، فيها ينمو مختلف أنواع أشجار الفواكه الثمينة، والكروم، والتين، لأن أهل القدس يمتلكون بساتينهم هناك.

وعندما مررنا من خلال البساتين، وصلنا إلى بعض الجدران المهتمة القديمة، حيث كان النزول الذي قيل، بأن الملوك الثلاثة أقاموا به، عندما كانوا على طريقهم إلى بيت لحم ومعهم هداياهم، وتابعنا سيرنا من هناك، ووصلنا إلى مكان وعمر، حيث قالوا بأن العذراء المباركة قد جلست فيه، لاسترداد أنفاسها، عندما كانت حاملاً، وقد رأينا المكان الذي جلست فيه، ولذلك ترجلنا في هذا المكان من على ظهور حميرنا، وأبدينا احترامنا للمكان مع مشاعر العجب والسرور، وهو بالحقيقة ما شعرنا به خلال الرحلة كلها، ولقد أشفقنا على الفتاة اللطيفة الحامل، بسبب طول الرحلة من الناصرة إلى بيت لحم، التي هي أكثر من عشرة

أميال ألمانية.

*** ** **

(جاء هنا حوار بين حاج والقديس يوسف، أكد فيه القديس يوسف له أنه من أجله استراحت العذراء هنا، لأن العذراء كان لايمكنها الشعور بالتعب).

المكان الذي رأى فيه الحكماء النجم الذي كانوا قد رأوه في الشرق

وعندما انتهى هذا الحوار، عاودنا امتطاء ظهور حميرنا، وتابعنا سيرنا، وعندما صرنا في منتصف الطريق وصلنا إلى ثلاث برك، وذلك في المكان الذي ظهر فيه النجم للمرة الثانية، وهو النجم الذي كان الحكماء قد رأوه في الشرق، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى، ويقال بأن هذه البرك قد حفرت في الأماكن التي وقف فيها الملوك الثلاثة، ينظرون إلى النجم، الذي كان قد اختفى عندما دخلوا إلى القدس، وسررنا في هذا المكان مع بعضنا ومع الحكماء الثلاثة، وكنا نقرأ ونغني ما هو محدد في كتب المسيرة.

المكان الذي ولد فيه النبي إيليا

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، وصلنا إلى كنيسة تابعة للجورجيين، يقال بأنها قائمة فوق البقعة التي ولد عليها النبي إيليا، وقد دخلنا إليها، وتعبدنا الرب، وحصلنا على غفرانات لمدة سبع سنوات (+)، وشرفنا النبي إيليا، لكن هناك شك حول كيف أمكن للنبي إيليا أن يلد هنا، لأن كنيسته تشير إلى أنه قد ولد في طيبة، لأن ذكره قد ورد في سفر الملوك الأول: ١٧، باسم الطيبي، هذا وهناك ثلاث مدن اسمها طيبة: أولاهن في سورية، في منطقة الجليل، حيث كان هناك برج مرتفع، منه رمت

امرأة بقطع من حجر طاحون، فحطمت جمجمة أبيمالك الذي كان يسعى إلى لغم البرج، وكان هذا عندما شعر بأنه يموت قد طلب منهم ضربه بالسيف، حتى لا يقال بأن امرأة قد قتلتها (القضاة: ٩).

وأما الثانية فموجودة في مصر، ومنها نالت المنطقة كلها اسمها، وصار اسمها الطيبية، وكانت طيبة هذه فيما مضى مدينة عظيمة وغنية، وذلك حسبما قرأنا في أسطورة القديس مورييس حول الفيلق الطيبي، ويقول بعضهم بأن هذا المكان هو القاهرة، أو بابلليون، كما سيرد ذكرها فيما بعد.

وأما الثالثة ففي بلاد الاغريق، وقد جاء النبي إيليا من الأولى، وحصل على كنيته منها، وعلى كل حال في سبيل اعطاء مصداقية لحكايتي، أقول إن من الممكن أن ما وقع إلى إيليا مثله وقع للمسيح ربنا، الذي جرى الحمل به في الناصرة، وولد في بيت لحم، ومع ذلك اسمه يسوع الناصري، وليس البيت لحمي، ومثل هذا إيليا، حيث جرى الحمل به في طيبة قد ولد في حلبة الخيل، ومع ذلك اسمه الطيبي وليس الحلبي، هذا وكنت قد قرأت في مكان آخر، أنه قد قام هنا فيما مضى بيت ريفي، كان اسمه أيضاً طيبة، وفي الحقيقة إن مسقط رأس نبي عظيم مثل هذا النبي جدير أن يعدّ بين الأماكن المقدسة، لأنه كان قد ولد منذ ثلاثة آلاف سنة مضت، ومع ذلك هو لم يمت بعد، بل سوف يقف أمام القاضي، ويسترد جميع الأشياء، وذلك حسبما قرأنا في ملاخي: ٤ Malachi، وفي متى: ١٧.

حقل النبي حبقوق

وإثر مغادرتنا لذلك المكان، تابعنا سيرنا، ووصلنا إلى حقل حبقوق، وقرأنا عن هذا النبي في سفر دانيال: ١٤، بأنه قد طبخ كمية من الحبوب، وبعدما طبخها وكان حاملاً لها إلى الحقل للحصادين، أمسكه

ملاك الرب بأعلى رأسه، وحمله من شعر رأسه، وبقوة نفخه حمله إلى بابل، وذلك إلى المكان الذي كان فيه الأسود، وأعطى الطعام الذي كان معه إلى دانيال ليتغدى، ولهذا وقفنا بدون حراك لبعض الوقت في هذا الحقل، ونحن نبدي العجب تجاه فضائل حكمة الرب، التي اعتادت ضمان أحوال عبيد الرب بعقلانية مدهشة، ولذلك قال غريغوري عن هذا الموضوع: «دانيال الذي لم يهتم حول الطعام والشراب، والذي من خلال صدقه الملائكي عاش بالايان في عرين الأسود، بين الأفواه المفترسة لتلك الحيوانات المتوحشة المرعبة، دانيال هذا لم يهمله الرب، بل جلب له طعامه في لحظة من اليهودية إلى بابل على أيدي نبي، بناء على أوامر الرب».

وتعلمنا بهذا المثل بشكل واضح جداً أن عبيد الرب الذين يعيشون هنا على الأرض وفقاً لمفاهيم الانجيل، لن يكونوا مطلقاً في عوز، كما قال النبي: «لقد كنت صغيراً، وأنا اليوم شيخاً، ومع ذلك لم أشهد قط أنه تم التخلي عن المستقيمين وهجرانهم»، وقال ثانية: «الرب لن يقصم حياة المستقيم بالجوع» ولسوف «يعطي طعاماً للذين يخشوه»، وبناء عليه لم نقرأ في أي مكان بأن الرب قد سمح بإهلاك نخبته بالجوع، لأنه عندما جرى سجن الشهداء بغاية اجاعتهم حتى الموت، أرسل ملائكته ليحلبوا لهم طعاماً من السماء، حسباً قرأنا عن ذلك في عدد كبير من الأماكن، فقد أطعم الأنبياء بوساطة الطيور الجوارح، وبشكل اعجازي انعش هؤلاء الآباء المقدسين من النساك.

علاوة على هذا نقرأ عن أبينا العظيم جداً، القديس دومينيك، أنه حدث لمرتين أن كان الرهبان بحاجة إلى الخبز، فأرسل لهم من قبل الرب بوساطة الملائكة، وهو إذا لم يرسل حتى خبزا حقيقياً ومرئياً، متن نخبته بقوة غير مرئية، حسباً قرأنا في سيرة «حياة القديسة كاترين السيناوية»، وقد أذن لنا برؤية الشيء نفسه في أيامنا الحالية بأعيننا، لأنني

أعرف ناسكاً اسمه نيقولا، كان يسكن في الجبال وحيداً فوق بحيرة Lucerne ، وقد عاش في العشرين سنة الأخيرة من دون طعام أو شراب، وهو أمر عجيب أن تسمعه، وكنت قد رأيت هذا الرجل في سنة ١٤٧٥.

ويوجد في حقل حبقوق المتقدم الذكر حصا مستدير وأبيض اللون، مثل حبات الفاصولياء البيضاء، وحول هذه الحبوب الحصوية التي رأيناها هناك حكاية من أنواع حكايات الأطفال، مع ذلك أنا عازم على روايتها، مثلما تعاملت مع أشياء أخرى من النوع نفسه: فقد حكوا بأن الرب يسوع كان ماراً في أحد الأيام بهذا الطريق، وكان هناك فلاح يزرع فاصولياء، فسأله الرب عما كان يزرع، فأجابه الفلاح ساخراً: «إنني أزرع مجارة» فقال له الرب جواباً على هذا: «ليكن ذلك كما قلت أنت»، فكان أن تحولت على الفور جميع حبات الفاصولياء إلى حصا، إنما احتفظت بلونها وشكلها القديم، وقد جمعنا بعضاً من هذه الحصا بسبب تعجبنا ودهشتنا.

وعندما كنت فوق تلك البقعة، تذكرت حقلاً على مقربة من جيسلنجن Gislengen، فيه موجود أعداد لا تحصى من الحصا من الشكل نفسه، ويتحدث الأطفال هناك ويحكون الحكاية نفسها حولهم، ويوجد على مقربة من هذا الحقل بركة وقد حُفَّتْ بعض الحجاج أنها بركة يوسف، التي وضع فيها من قبل إخوته (التكوين: ٣٧)، لكن هذا لا يتوافق بشكل جيد مع الكتابات المقدسة، التي قالت بأن البركة قد كانت في القفار، ولا يوجد هنا مكان اسمه شكيم أو دوثيرم، ولهذا غادرنا المكان بسرعة أكبر مما اعتدنا أن نفعل وتوجب أن نفعل، ومع ذلك أشفقنا على يوسف المبارك، وتذكرنا كم من الشرور تنجم عن الحسد، حيث رأينا أنه لا يسمح بمحبة تقدم أي انسان وازدهاره، مع أنه قد يكون أحياناً للحاسد، وعلى هذا أحسن سقراط القول: «يخضع الحظ

السعيد دوماً للحسد، والشقاء وحده هو الذي لا يحسد».

وبعدما تابعنا سيرنا وتجاوزنا الحقل والبركة، كان هناك جدار قديم مرتفع، ممتد نحو الطريق وداخل فيه، ولقد قالوا: كان هناك بيت الأب يعقوب، حيث سكن فيه لبعض الوقت، وقالوا أيضاً بأن هذا الجدار جزء من خرائب بيت هذا الأب، ومهما يكن من أمر، حدث مرة، عندما كنت ماراً بهذا المكان أن تسلقت على هذا الجدار، واكتشفت بدون شك، أنه بني من أجل حمل مجرى مائي، عليه جرت المياه فيما مضى نازلة إلى القدس، فضلاً عن هذا، لو أن هذا كان بيت يعقوب، أية حاجة دفعت زوجته راحيل إلى حمل ولدها على الطريق، المجاور لهذا البيت؟.

قبر راحيل الذي بناه البطريك يعقوب من أجلها

وتابعنا سيرنا، فوصلنا إلى مكان سماه جيروم في كتابه «حول مسافات الأماكن» قبراتا Chobrata حيث كان هناك قبر راحيل زوجة يعقوب، التي كانت هنا على الطريق العام، راغبة بالذهاب إلى بيت لحم مع يعقوب، وكانت حاملة بنيامين، فجاءها المخاض، وتوفيت من خلال مصاعب الولادة، ويقوم هنا عمود قبر راحيل حتى هذا اليوم، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين (سفر التكوين: ٣٥/١٩ — ٢٠).

ويقول اليهود بأن سبب عدم حمل يعقوب لزوجته المحبوبة إلى حبرون، لدفنها في ضريح آبائه، والقيام بدفنها في الطريق العام، هو أنه عرفهم عن طريق روح التنبؤ وعرف ما الذي يفترض حدوثه فيما بعد، لأن بعدما دمر نبوخذ نصر المدينة، وأحرق الهيكل، وكان يقتاد شعب الرب أسيراً نحو فارس على هذا الطريق، وأنه لدى مروره بهذا الضريح، رفعت راحيل — بمعجزة ربانية — صوتها من داخل

الضريح، وخاطبت الأعداء، وطلبت الرحمة الربانية، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الحادي والثلاثين من سفر ارميا: «صوت سمع في الرامة» الخ.

هذا، ورأى اللاهوتيون الكاثوليك وبينوا أن بكاء راحيل جاء من أجل قتل الأبرياء (متى: ١)، ووفقا لما قاله جيروم قيل لراحيل أم أطفال بيت لحم وأطفال تلك المنطقة، مع أنهم كانوا أبناء ليه، لكنهم عرفوا باسم أبناء راحيل، لأن قبر راحيل هناك، وفوق هذا الضريح قد أقيم بشكل مهيب عمود، وهذا العمود هو هرم مرتفع، قد بني من حجارة بيضاء مربعة ومصقولة، وله مثل شكل البيعة الحديد القائمة في وسط المقبرة الجديدة في أولم، والتي اسمها مقبرة جميع القديسين، والفارق هو أن قبر راحيل قد بني كله من الحجارة، وليس فيه للخشب مكان خاص.

وأمام هذا القبر أقام يعقوب اثنتي عشرة حجرة، ووفقاً لعدد أبنائه الاثني عشر، وعمل المسملون إلى جانب البيعة جرناً لوضع ماء الشرب فيه، وقد قرأنا عن هذا القبر في سفر صموئيل الأول، حيث جاء الحديث إلينا بأن صموئيل وافق على أن يكون شاؤول ملكاً، من خلال علامة هي أنه وجد على مقربة من قبر راحيل رجلين يقفزان فوق خنادق عميقة، وهذا المكان موضع تقدير لدى كل من المسلمين واليهود والمسيحيين، وقد تلونا صلواتنا هناك، وحصلنا على غفرانات (+)، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى مكان هو الآن قاحل، لكنه كان من قبل جميلاً، لأنه هناك كان سليمان قد زرع إحدى حدائقه، وسيأتي وصف هذه الحدائق فيما بعد وهنا رأينا بيت لحم وحينها.

ووقفنا على طرف الحديقة المتقدمة الذكر، ومن هناك رأينا عن بعد، يقدر بنصف ميل ألماني، بيت لحم، التي هي مدينة داوود والمسيح، وكانت كنيسة العذراء المباركة، التي فيها موضع الميلاد، مرتفعة فوق كل

شيء يمكن رؤيته، وعندما رأينا هذه المدينة المجيدة، ترجلنا على الفور من على ظهور حميرنا، وحيينا بكل بهجة المدينة، مع صلوات قلبية، ورددنا مثل هذه الكلمات: «حييت يا افراتا، أيتها المنطقة الأعظم خصباً، والتي ثمرت هي الرب، حييت يا بيت لحم، يا بيت الخبز، والتي فيك مخبأ ذلك الخبز الذي نزل من السماء، فيك تنبأ ميخا مرة بأنك لن تكوني الصغرى بين الامارات بل الكبرى، ذلك أنه منك سوف يأتي الذي سوف يحكم العالم، ففيك ولد من أم عذراء الأمير — قبل أيام الشيطان — الذي أنجب بوساطة الرب الأب، وفيك سكن ولد داوود حتى حملت العذراء بطفل، يا بيت لحم لا أعرف بأي مديح يمكن أن أطريك، فأنت احتضنت في داخل زريبة فقيرة الذي لم تستطع السموات أن تحتضنه، حييت يا بيت لحم، فأنت قد صرت موضع إعجاب في الشرق والغرب سواء، ومثلما جاءت الحكمة إليك فيما مضى من الشرق بوساطة الحكماء (المجوس) مثل ذلك قدم إليك الآن حجاج أتقياء من الغرب».

ولدى فراغنا من أعمال السلام والتحية عاودنا ركوب حميرنا، وببهجة عارمة وبسرعة بادرنا نسير على طريقنا إلى بيت لحم، وبكى بعضنا سروراً وخشوعاً، وغنى بعضنا فرحاً الترانيم المسيحية المشهورة: وكذلك «Puer natis in Bethlehem, unde gaudet Je-rusalem Resonet in loudibus, Cum Ju-plausibus cundis Fro» الخ.

وغنينا جميعاً وبشكل جماعي التريمة الملائكية «المجد للرب في الأعالي» الخ، ومع أن أدلاءنا من السادة المغاربة المسلمين لم يتأثروا بسرورنا، غير أنهم أصغوا بصمت، وقد بدوا بالنسبة لي أكثر سروراً مما اعتادوا أن يكونوه، وأنا لم أشاهد حجاجاً على هذا الطريق بمثل هذا

السرور، علماً بأنني سافرت عليه شخصياً ست مرات، وكنت دوماً في حالة بهجة غير معبر عنها.

ويوجد الآن بيننا وبين بيت لحم، واد عميق وكبير، وقد فصل بيننا وبينها، ولم نكن —على كل حال— بحاجة للنزول إلى الوادي، بل سرنا بفرح حول رأس الوادي، ومشينا على طول الحافة هناك حتى بيت لحم، وسرنا كذلك على جرف مرتفع للتلال، وعلى شرف تقوم المدينة المباركة عليه، وشاهدنا في وسط الوادي المكان الذي أعلن فيه للرعاة عن ميلاد المخلص، وتحدثنا أقاصيص الملوك الثلاثة، أنه عندما كان الحكماء (المجوس) مع حشودهم يعبرون هذا الوادي، من هذا المكان، بقصد الدخول إلى بيت لحم، رأى وقتها الرعاة النجم غير المعتاد، وشاهدوا الحشد الذي لحق بهم، لذلك بادروا مسرعين إلى تسلق الرابية ليروا ما الذي كان يحدث، وإلى أين كانوا ذاهبين.

وعندما عرفوا أن هدفهم الطفل الحديث الولادة، شرعوا في إخبارهم بما حدث لهم في تلك الليلة، عندما ولد الطفل، وكيف أنهم علموا بوساطة رسول من السموات، أن الطفل لا بد من أن يكون مخلص العالم، وعندما سمع الحكماء بهذا تولاهم السرور بلا حدود، لأنهم وجدوا شهوداً آخرين إلى جانب النجم، وفتحوا محافظ نقودهم، وأعطوا أعطيات ثمينة إلى الرعاة الفقراء من أجل أخبارهم الطيبة، ولهذا وقفنا في هذا المكان وقدمنا الشكر للرب من أجل أعماله الرائعة، وتمنينا السرور إلى أولئك الملوك الأتقياء، وهكذا تابعتنا سفرنا مع كثير من السرور.

**الاضطراب الذي عانى الحجاج منه على أيدي البداية أو المدينين
قبل دخولهم إلى بيت لحم**

في هذا العالم ليس هناك سرور — حتى السرور الروحي — لا يمكن

إلا تعكيره، فهو وإن بدا لبعض الوقت صافياً غير مشوب، تراه مباشرة قد انقلب على الفور بوساطة أحداث مضادة، وقد برهنا على صحة هذا الأمر خلال رحلتنا هذه، ذلك أننا انطلقنا من القدس بسرور عارم، وكنا كلما اقتربنا من بيت لحم كلما ازداد سرورنا، كما بينا أعلاه، لكن الذي حدث بقضاء من الرب أن سرورنا انقطع ولم يكتمل بتعرضنا لخوف شديد، فلدى اقترابنا من المدينة المقدسة، فجأة، قدم نحونا حشد من البداية، وكانوا قد خرجوا من بيت لحم، ولدى رؤيتهم ارتبك أدلاؤنا وارتعبوا، وشعرنا نحن أيضاً بالخطر، ومع ذلك تجمعنا نحن الحجاج مع بعضنا في كتلة واحدة، وبعثنا بأدلائنا المسلمين وبقبطاني غليونينا فساروا أمامنا، وسرنا وفق وضعنا الحالي، وتابعنا على طريقنا، ونحن مليئين بالخوف، لقد سرنا لمواجهة قطاع الطرق الذين تحركوا ضدنا، لأنه لا الزمان ولا المكان سمحا بالفرار والابتعاد، وقد تصرفنا على هذه الصورة حتى لانعطي ظهورنا لهؤلاء اللصوص، وعندما وصلنا إليهم، لم يعد بإمكان قادتنا متابعة سيرهم لأنهم أوقفوهم، واستولوا على الطريق، ولذلك لم يعد بإمكان أي إنسان المرور والعبور، وهناك وقفنا لمدة تجاوزت الساعة، لأن أدلاءنا مع القبطانيين انشغلوا بعمل اتفاق معهم، وتجادلوا معهم طويلاً وبصوت مرتفع، ومع ذلك لم يسبب أي منهم الأذى إلى الآخر بأي شكل من الأشكال، لأن المشاركة لا يتجهون إلى العنف الشخصي مباشرة، مالم يكرهوا على الرد على العنف بالعنف، ولم يكن هؤلاء البداة أعداء لنا، بل كانوا فقط يستخرجون بعض المال منا، الذي قالوا بأنه حقهم الشرعي، حسبما سنرى كثيراً فيما بعد، ولو أننا زحفنا بقوة ضدهم وعلى الرغم من إرادتهم لتركونا في الحقيقة نمر، لأنهم رأوا أننا كنا أكثر عدداً منهم، لكنهم وقتها كانوا سوف يستدعون إليهم جميع رفاقهم، ومن ثم سوف يحاصروننا في بيت لحم، ويسوقوننا إلى مضائق شديدة، ولعلمهم كانوا يرغبون وبسرور أن نشق طريقنا من خلاهم بالقوة، فوقتها سيمتلكون

تسويغاً أعظم للشكوى ضدنا، ومن ثم لن يكون وقتها بإمكاننا فعل أي شيء ضدهم، هذا وإن كنا أكثر عدداً منهم، لكنهم كانوا مسلحين بالرماح، وبالسيوف وبالقسي، وكنا نحن غير مسلحين، باستثناء أدلائنا، الذين كانوا بالفعل مسلحين.

وبعد حديث طويل ومناقشات جرى الاتفاق على أننا إذا أردنا الدخول إلى بيت لحم، يتوجب علينا أن ندفع أربعاً وعشرين دوقية، وإذا لم نرغب بالدفع، يمكننا العودة إلى القدس، وهكذا فتحنا حافظات نقودنا، ودفعنا المال كله، حيث دفع كل انسان حصته، وتابعنا سيرنا على طريقنا، بينما بقي اللصوص في المكان نفسه يتقاسمون الغنيمة فيما بينهم.

وبعدما ابتعدنا مسافة طويلة عنهم، اندفع من المدينة حشد آخر من البداية، كانوا شركاء لهم، وقد حملوا على رتل الحجاج، ومروا من وسطنا مع كثير من الصراخ والشتائم، ودفعنا وشدنا، وإلقاء قبعات الحجاج من على رؤوسهم، وقد أزعجونا كثيراً بمزاحهم الخشن، وفي تلك الأجواء المضطربة حدث لي الحادث الخطر التالي: عندما كنت راكباً على ظهر حماري بين البقية، أقبل نحوي بدوي وساق وهو على فرسه ضدي راغباً في شق طريقه بيننا، مثلما فعل بقية رفاقه، ولكي يقوم الحجاج بفتح طريق له ليمر من بينهم، شرع رمحه وسدده مباشرة نحو وجهي، وبسبب اندفاعه وضغطه لم أكن قادراً على تجنب الوقوف في طريقه، كما أنني لم أستطع رمي نفسي من على ظهر حماري، وهو ما كنت راغباً بفعله، ولذلك كنت مرغماً مع كثير من الرعب والحذر على انتظار طعنته لي وهو حامل علي، وعندما وصل انتزع قبعتي من على رأسي بطعنة شديدة بسنان رمحه الحاد، ومرّ وتجاوزني وهو يضحك.

ولقد كنت مسروراً لأنني لم أجرح، وترجلت من على ظهر حماري وأنا حزين، وكان هدفي البحث عن قبعتي في الوسط الفوضوي، والذي

حدث على كل حال، أن واحداً من الحجاج التقط قبعتي وأعطاني إياها، وكنت راضياً تماماً أن ذلك البدوي كان يتقن تماماً فن لمس الأشياء، كما يريد، بسنان رمحه، لأنه لو أخطأ بتسديده سماكة اصبع واحد نحو الأسفل، لمر سنان رمحه من خلال جمجمتي، وكان هؤلاء الرجال بعضاً من الخدم الأوغاد للذين تولوا تغريمنا، وكانوا منطلقين بسرور لمقابلة سادتهم، ليشاركوهم بالفرح بالمال الذي تسلموه، وللسخرية منا.

دخول الحجاج إلى بيت لحم ودخولهم إلى كنيسة مهد المسيح

وعندما بتنا على مقربة من بيت لحم، وعلى بعد حوالي رمية سهم عن بابها، وصلنا إلى مكان كان فيه جب داوود، وقد عرف باسم جب داوود، لأن — كما قرأنا في سفر صموئيل الثاني: ٢٣/١٤ — ١٥ — داوود قد رغب بالشرب منه، عندما كان متحصناً، وكان البئر مطوقاً بالأعداء، فقام ثلاثة من الرجال الأشداء من جيش داوود بشق طريقهم خلال المعسكر الفلسطيني، ونضحوا ماء من جب بيت لحم الذي كان قرب الباب، وحملوا الماء إلى داوود، الذي لم يشرب منه، بل صبه في سبيل الرب.

وهذا الجب هو قبر واسع وعميق وعريض، له في أعلاه وعلى جانبه ثلاث فتحات بعيدة احدها عن الأخرى، من خلالها يجري نضح الماء من بركة الجب، التي تحتوي على كثير من الماء الصافي، والصحي والبارد، وقد نضح بعضنا منه وشرب، ونظر — على كل حال — عامة الناس وسكان بيت لحم بقرف إلى هذا الماء، لأنه قبل أيام قليلة مضت قبل زيارتنا، كانت امرأة مسلمة تحاول نضح الماء، وكانت تفعل ذلك بدون انتباه، فوقع من خلال فم الجب، فغرقت فيه وماتت، واستخرجت منه.

ووصلنا من ذلك الجب إلى طرف مدينة بيت لحم المباركة، لكننا لم

ندخل إليها، بل مررنا بجانبها باتجاه الشرق، وذلك من خلال كثير من الجدران المهدامة، ثم دخلنا إلى كنيسة العذراء المباركة، حيث تخلينا عن حميرنا وأعطيناهم إلى سائقيهم، ودخلنا إلى الكنيسة المقدسة، وسقطنا على وجوهنا، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وعندما نهضنا من صلواتنا، كنا مندهشين كثيراً، وامتلاًنا بالاعجاب نحو حجم الكنيسة وجمالها، ووجدنا في هذه الكنيسة بعض الباعة ممن كانوا معنا في كنيسة الضريح المقدس، وقد عرضوا علينا شموعاً للبيع، وشرينا شموعاً منهم، لأن الدنيا كانت مظلمة في الداخل وراء الأبواب، حيث كانت الشمس آخذة بالغياب.

الزيارة إلى الأماكن المقدسة وأولاً إلى مكان

دراسة القديس جيروم وقصة ضريحه

وأعد الرهبان مسيرتنا وفق الطريقة التي تقدم وصفها في ص ٤٠١، و ص ٤٥٧، ذلك أننا قد جلبنا معنا جميع زيتنا وأثنا على ظهور الحمير من دير جبل صهيون إلى بيت لحم، وعندما أخذ كل انسان محله ووقف فيه، حمل الجميع مثل بعضهم شموعاً مشتعلة في أيديهم، وبدأ رئيس الجوقة يغني ترنيمة اعتراف هي: « Iste confessor Do- mini الخ، وقمنا ونحن نغني هذه الترنيمة بالخروج من الكنيسة إلى الدير، وذلك على جهة اليسار، وقد عبرنا خلال باب إلى الدير، ونزلنا تسع عشرة درجة، إلى بيعة جميلة ذات سقف معقود، ففي هذه الغرفة كان مقر دراسة القديس جيروم، حيث فيها بذل جهوداً كبيرة، فهنا تولى ترجمة التوراة كلها من العبرية والكلدانية إلى اللاتينية، وجاءت الترجمة إلى كل من اللغة الكلاسيكية، والعامية، فهو قد ذكر ذلك في رسالته إلى صفر ونيوس حول نشرة جديدة، وفي رسالته حول مسائل عبرية، وهنا أيضاً كتب مقدماته، ورسائله، وشروحه، وتعليقاته، وهنا أيضاً قام بالتصحيح، والتوزيع، والتصنيف للمزامير، وذلك حسبما هي مستخدمة

في هذه الأيام من قبل الكنيسة الرومانية، وهو الذي أملى قصيدة:
«المجد للأب، وللأب» الخ.

وقد التحق به شخصياً عدد من التلاميذ تولى تعليمهم، وفوق هذا كله حافظ على عذريته بشكل دائم، وقد جعل أسداً متوحشاً مدجناً ولطيفاً، وقد قاد حرباً بدون توقف ضد الهراطقة ورجال الدين الأشرار، والرهبان الفاسدين، وكان دوماً مشغولاً بالعمل، وكان ينهك نفسه في زنائنه حتى أنه لدى نومه كان يجر نفسه على فراشه بالقوة جراً، وذلك بأن يمسك بيديه حبلاً كان قد علقه من السقف فوقه، كما أن مارس واجباته الديرية على أحسن ما يرام، واستمر يجهد نفسه بهذه الأعمال لمدة خمس وخمسين سنة وستة أشهر. وقد صلينا في هذا المكان وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) مع تقديم للشكر.

ضريح القديس جيروم الذي هو فارغ الآن

وهناك بيعة أخرى مجاورة لهذه البيعة، وليست بعيدة عن مزود الرب، حيث اختار موضع دفنه، وذلك كما جاءنا الخبر في رسالة يوسبيوس، فهنا، عندما كان القديس جيروم ما يزال حياً، أمر بعمل ضريحه، وفيه بعد وفاة ذلك الأب المجيد للكنيسة، مدد جسده، مبعجلاً بسبب آية اعجازية هو عملها، وهذا الضريح هو كامل في هذه الأيام، لكنه فارغ، وهو مزين بألواح من الرخام، فقد جرى نقل جسده من بيت لحم إلى القسطنطينية، ومن هناك إلى روما، حيث يرقد في هذه الأيام في قبر فاخر في كنيسة القديسة مريم العظيمة، وبناء عليه بعد تلاوتنا لصلواتنا في هذا المكان حصلنا على غفرانات(+).

وقد قرأنا في رسالة القديس أوغسطين إلى القديس سيرل Cyril المقدسي، أنه صدوراً عن تبجيله للقديس جيروم، قام بعبور البحر عله

يرى هذا المكان، ولم يكن ممكناً أخذ الجسد من القبر، وكانوا كلما أخرجوه منه، وجدوه في اليوم التالي فيه، وظل الحال كذلك حتى جرى الاستيلاء على القدس من قبل الكفار، فوقتها سمح لنفسه بالنقل إلى روما، فهذا ما قرأناه في الرسالة الأخيرة للقديس سيرل.

ضريح القديس يوسبيوس تلميذ القديس جيروم

وبجوار هذا الضريح هناك قبو آخر، مدفون فيه القديس يوسبيوس، تلميذ جيروم المبارك، وكان يوسبيوس هذا من أهالي كريمونا Cre-mona ، وقد نصّب تلميذاً للقديس جيروم، وكان رجلاً عظيم الفصاحة، وكان بين ما كتبه، رواية عن حياة، ومعجزات، وموت استاذة، بأسلوب قصصي فصيح، وقد وجه ذلك إلى داماسوس Dam-asus أسقف أوبورتو Oporto (البابا فورموسوس فيما بعد) وكذلك ثيودوسيوس الذي كان الشيخ الروماني المسيحي الوحيد، ووضح التواضع العظيم لهذا الرجل من خلال رسالته التي كتبها إلى الأسقف المتقدم الذكر.

ولهذا تمددنا بأنفسنا على الأرض أمام قبر هذا القديس، وتوصلنا إليه من أجل الحماية، وحصلنا على غفرانات (+)، وكان قد تلقى انذاراً باقتراب موته، من قبل القديس جيروم، وكان ذلك عن طريق الرؤيا، وأعطاه أوامر بوجوب أن يكون دفنه على مقربة من القديس جيروم، وفي الوقت الذي مات فيه، مات هناك أيضاً ثلاثة آخر، كانوا قد أقيموا من الموت من قبل القديس جيروم، ومن هنا نستخرج برهاناً حول دمار إحدى الهرطقات، وذلك كما قرأنا في رسالة القديس سيرل، أسقف القدس إلى القديس أوغسطين، حيث قيل هناك كثيراً من المدح للقديس يوسبيوس.

مكان ختان الرب حيث قيل بأنه ختن في اليوم الثامن وأعطي اسم يسوع

وبعد هذا صعدنا ثانية، وخرجنا من القبو، ودخلنا مجدداً إلى الكنيسة، وعبرنا من وسطها، وتوجهنا إلى الجانب الأيمن من الجانب المقابل له هناك، وصعدنا إلى بيعة، متصلة بذلك الجانب نفسه من السدة، وغنينا بشكل معلن هناك أمام المذبح ترانيمنا وأغانينا التجاوبية من أجل ختان الرب، وغنينا أيضاً *salve Regina* وهي ترنيمة للعدراء المباركة، وانحنينا بأنفسنا نحو الأسفل، وقبلنا المكان الموجود تحت المذبح، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ففي هذا المكان المقدس، كان قد جرى ختان الرب يسوع، في اليوم الثامن لولادته، لأنه كان من غير الممكن ختانه في الكهف الذي كان قد ولد فيه، والذي رقدت فيه العدراء بعد الميلاد، بسبب الظلام، يضاف إلى هذا لعل المطهر لم يرتض برائحة الاسطبل، ولذلك أخرجوا الطفل يسوع، وختنوه هنا.

وقد تبرهن على قداسة هذا المكان من خلال الرائحة الطيبة التي فاحت منه وانتشرت في كل مكان، لأنه عندما ينحني الانسان نحو الأسفل ليقبل المكان، تصدر نحوه رائحة طيبة غير اعتيادية، تنعشه لدى شمه لها، وتجعله يقبل على تعبد هذا المكان بقداسة غير محدودة، فقد رأينا هناك أولاً ينابيع عميقة جداً قد تفجرت وانفتحت، وعمت الطهارة فوق الأرض كلها، ليس بوساطة مياه تغرقها، بل بوساطة دم يجعلها حية، لأنه عندما جاء طوفان نوح، مات كل ماغطته المياه وهلك، ومقابل هذا إن كل ماغطاه طوفان دم المسيح، قد منح حياة.

وتباهينا نحن الحجاج في هذا المكان، بأننا أكملنا الآن زيارة جميع الأماكن، وقبلنا جميع الأماكن التي قرأنا بأن الرب يسوع قد سفح فيها دمه الثمين جداً، أي أن تقول(١) إنه هنا بالختان تفجر أول الينابيع

العميقة جداً، والمقصود بهذا أن أورد المسيح انفجرت وانفتحت، و(٢) ثم تبع ذلك في مكان آلام المسيح على جبل الزيتون، و(٣) تلا ذلك في المكان الذي جلد فيه وتوج بتاج من شوك، و(٤) في المكان الذي وقع فيه أثناء حمله للصليب، و(٥) في المكان الذي صلب فيه، و(٦) في المكان الذي طعن فيه طرفه.

علاوة على هذا، إن هذا المكان مبعجل، بسبب أن اسم يسوع الجميل، قد أعطي هنا للمرة الأولى من أجل خلاص العالم، لأنه لا يوجد اسم آخر على الأرض يمكن أن يتم فيه خلاصنا غير اسم يسوع، فهنا تدفق الطيب وانتشرت روائحه، ولهذا قيل عن العروس في نشيد انشاد سليمان (٣/١): «اسمك دهن مهراق».

المكان الذي أعدّ الحكماء فيه أنفسهم بالملابس والهدايا

وعندما فرغنا من تقديم شكرنا في مكان الختان، بدأ رئيس الجوقة يغني ترنيمة « Hostis Herodes Impie » وقد تحلقنا حوله نغني على جهة اليسار من الكنيسة، وصعدنا ثانية إلى جانب السدة، ودخلنا إلى بيعة مجاورة للسدة، وهذه البيعة قائمة فوق المكان الذي ترجل عليه الحكماء (المجوس) من على ظهور جماهم، ونوقهم الوحيدة السنام، وكان ذلك أمام النزل الذي وقف النجم فوقه، وهنا أخرجوا هداياهم من جعبهم، ونظموها وجعلوها جاهزة لتقديمها، وزينوا أنفسهم بأثمن الملابس، حتى يظهروا بكل أبهة وفخامة أمام الملك الحديث الولادة، وبناء عليه جثونا في هذا المكان، وحصلنا على غفرانات، ويوجد إلى جانب هذا المكان بئر، منه نضح خدام الحكماء الماء من أجل دواهم، ومثل هذا ذهبنا نحن إليه، وتطلعنا نحو أسفله، وعلى هذا، تجهزنا برفقة الملوك المقدسين، للدخول إلى النزل بسرور وبالخشوع المناسب.

كهف ميلاد ربنا يسوع المسيح ومدخل الحجاج إليه وقداسة المكان

افرحوا الآن أيها الحجاج، وابتهجوا اخواني المحبوبين، لأنكم سوف ترون الآن مباشرة أعظم الأماكن قداسة وأحلاها، الذي هو موضع اجلال وتعبد من قبل المؤمنين وغير المؤمنين سواء، وأعلن لكم وأقول بأن عدداً كبيراً من الملوك، والأنبياء، لابل عدداً كبيراً من: البابوات، والأساقفة، والكرادلة، والأباطرة، والدوقات، والأعيان من النبلاء، والكهنة، والعلمانيين، قد رغبوا وتشوقوا لرؤية الذي رأيتموه، ولم يروه.

وعندما كنا الآن واقفين إلى جانب المذبح، والبئر المتقدم الذكر، شرع قائد الجوقة يغني ترنيمة مسيحية فرحة هي: «Christe , redemptor omuium, ex patre patris unice الخ، وقد غنينا هذه الترنيمة، وفقاً للحن الذي يغني به في طائفتنا، أي أنه في أي مكان وقعت فيه كلمة «يوم» في الترنيمة، نحن غنيناها «مكان»، ووفقاً لذلك عندما وصلنا إلى كلمات: «هذا اليوم الحالي يحمل شهادة» غنينا نحن: «هذا المكان الحالي يحمل شهادة»، وبدلاً مما جاء في الترنيمة قوله في كلمات: «لأن هذا هو يوم ولادتك»، قلنا نحن «لأن هذا مكان ولادتك»، وهكذا دواليك.

وهكذا بعدما فرغنا من غناء الأغنية، غادرنا المكان المتقدم الذكر، واستدردنا نحو جدار السدة، وعبرنا من خلال ممر مزين برخام مصقول ذي لون أبيض نقي جداً، ونزلنا بوساطة ست عشرة درجة تحت السدة، إلى كهف كان بذاته مظلماً، لكنه كان مضاء بكثير من المصابيح، وفوق الكهف تمددت الحجرة التي تحتها ولد مخلص العالم، يسوع المسيح، ولدى فراغنا من صلوات الشكر المحددة في كتب المسيرة، صعدنا واحداً بعد الآخر، إلى المذبح الموجود عند رأس القبو، فانحنينا بوجوهنا

نحو الأرض، وقبلنا ما تحت المذبح، وهو المكان الأكثر حلاوة لأنه مكان ميلاد المسيح، ومدد في ذلك المكان لوح من الرخام الأبيض، وقد حفر فيه بشكل بارع صورة الشمس، لأن من هنا أشرقت شمس الاستقامة، ومن هنا نشرت العذراء الطاهرة ضوءاً أبدياً، وهنا أيضاً انتشر الضوء الجديد لمجدها فعم أعين عقولنا من خلال أسرار تجسيد الكلمة، ولذلك قمنا بكل خشوع ومع دموع الفرح بالانحناء بأنفسنا باتجاه الأرض أمام تلك الحجرة، وتعبديناها، وهي تلك الحجرة التي قيل لنا بأن الطفل الرائع قد رقد عليها بعد خروجه من رحم العذراء.

وفي الحقيقة لقد تبرهنت صحة هذا، بعلامة واضحة، هي الرائحة الرائعة والمنعشة التي يشعر بها كل من يطبع قبله على الحجرة، والرائحة الطيبة التي تفوح من ذلك المكان وتصل إلى مشاعرنا، هي شيء رباني، وهي فوق أي شيء آخر، وينظر الانسان إلى المكان فيراه فارغاً تماماً من أي شيء ينتج الرائحة الطيبة، ومع ذلك نجد رائحة المكان يفوح شذاها وكأنه كان مخزن عطور، وواضح أن كثافة الرائحة أعظم من أي عملية تخليق له مهما كانت قوية، هذا وإنني لا أقول هذا إشارة إلى معانيها السرية، بل إنني أتكلم عن حقيقة واضحة، إنني أعلن بأنني قد شعرت بها في كل مرة انحنيت بها بنفسي لتقبيل تلك الحجرة المقدسة، ثم إن هذا الشعور ليس خاصاً بأي انسان محدد، بل إن هذه نعمة أضفيت على كل من يقبل المكان، حتى المسلمون أنفسهم تحققوا من ذلك، وبناء عليه نحن على يقين أن ما جاء في قرآن محمد (صلى الله عليه وسلم) من أن الميلاد المقدس قد حدث في بقعة منعزلة، داخل بستان وتحت نخلة، هو غير صحيح، وذلك حسبما جاء الخبر لدى المعلم نيقولا دي كوسا، في ترجمته للقرآن: الكتاب الثالث — الفصل السابع عشر، والأمر ليس مقصوراً على هذه الأماكن، بل يشمل جميع الأماكن التي نقرأ فيها بأن الرب يسوع قد ظهر عارياً، متمتعاً بامتيازهِ باصدار رائحة طيبة،

ولا يحتاج أي انسان أن يعجب حول هذا، بعد أن قرأنا بأن الشيء نفسه قد وقع حيث صدرت روائح طيبة من قبور وأضرحة القديسين، وبما أننا انجذبنا بتلك الرائحة الطيبة، بقينا هناك لمدة طويلة نقبل الحجرة المقدسة، وقد حصلنا على غفرانات مطلقة(++).

*** ** *

مزود الرب: ماهو، وما الذي كانه

وبعدما فرغنا من ابداء احترامنا نحو مكان ولادة الرب، استدرنا بأنفسنا نحو المزود الذي هو على بعد حوالي سبع خطوات عن المكان المتقدم الذكر، وعندما وصلنا إلى هذا المزود، انحنينا بأنفسنا فيه بخشوع عظيم، وقبلناه، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وانتعشنا برائحة طيبة، مثل تلك التي أتينا على ذكرها، ولا ينبغي أن نعجب نحو هذا، بما أن زهرة البلسم قد وضعت في هذا المعلق، لأن العذراء مريم المباركة جداً، قد لفت الطفل بقماط، ومددته في المعلق، لأنه لم يكن هناك مكان في النزل، وهنا وجد الرعاية الطفل، بعدما قادهم الملاك إلى هناك، وهذا المعلق قائم تحت صخرة ناتئة، حيث قال الحجاج القدماء بأنهم قد رأوا حلقاتاً حديدية، وأوتاداً، إليها كانت الدواب تربط، فعندما تمجد المسيح هناك كان مربوطاً ثوراً وأتاناً، قد عرفا ربهما فتعبدها، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر اشعيا، وكان الناس يرون في قديم الأزمان الحجرة التي وضعتها العذراء الأم تحت رأس ابنها الصغير، لأنها لم تجد وسادة أو أي شيء من هذا القبيل، وقد غطت الحجرة بالقش، ولذلك تغني الكنيسة: «لقد تحمل الرقود في القش، ولم يكره المعلق ويتأباه» الخ، وكان معلق الرب من الصخر، وجرى اقتطاعه من الصخرة نفسها التي كانت ناتئة ومعلقة فوقه، وذلك مثل أحوال المعالف وأشكالها في تلك الديار حتى هذا اليوم.

هذا وأنا لم أفهم الكلام المتداول من أن القديسة هيلانة، قد أخذت معلفاً خشبياً من هذا المكان ونقلته إلى القسطنطينية، وأنه نقل من هناك إلى كنيسة اللاتيران في روما، ما لم نقل بأن يوسف ربما عمل معلفاً خشبياً، ووضعه فوق المعلق الحجري، وفي هذه الحالة على الانسان أن يقول — كما يفعل كثيرون — بأن يوسف قد جلب الثور واللاتان إلى ذلك المكان، معه من الناصرة.

والآن، إن المعلق القائم في هذه الأيام في ذلك المكان، هو من الرخام، ومعمول من ألواح بيضاء مصقولة بشكل رفيع جداً، وتغطي هذه الألواح المكان الحقيقي لمعلق الرب، وهي مزينة بنقوش معقدة الشكل، وهو أمر تأسف من أجله خريسوستوم Chrysos tom، الذي قال: «آه كم أتمنى أن يسمح لي بمشاهدة المعلق الذي فيه تمجد الرب، وفي هذه الأيام، بات الأمر علينا أن نبدي احترامنا ليس إلى الطين الذي أخذ بعيداً، بل إلى فضة أقيمت مكانه، والذي بالنسبة لي كان ما ألقى به وجزى الخلاص منه هو ثميناً أكثر، لأن الفضة والذهب موضع اعجاب الأمم، لكن المؤمنين بالمسيحية والأتقياء، موضع اعجابهم المعلق الطيني، لأن الذي ولد في ذلك المعلق كان يزدري الفضة والذهب، وأنا لا ألوم الذين فعلوا هذا لابتداء التكريم له والاحترام، كما أنني لا ألوم الذين صنعوا آنية من الذهب والفضة من أجل الاستخدام في الهيكل، لكنني أنا معجب بالرب، خالق هذا العالم، الذي لم يلد وسط الذهب والفضة، بل في الطين».

هذا بالنسبة لخريسوستوم، لكن في الحقيقة لاتصنع المعالف في تلك الديار إلا من الحجارة أو من الطين، وليس من ألواح من الخشب أو من جذوع الأشجار، وطول هذا المعلق الحديث أربعة أشبار، وأقل من ثلاثة أشبار بالعرض، ولوح الرخام المصقول الذي يواجهه الذي يركع أمام المعلق، هو مصقول بشكل عجيب جداً، ويشبه المرأة، وكانت

نتيجة ذلك الملاحظة التالية للوضع، هي أنك إذا ما نظرت بحرص وبدقة نحو اللوح، تظهر لك صورة رجل عجوز ملتحي، وهو راقد على ظهره فوق حصير، بثياب راهب ميت، وإلى جانبه صورة أسد، وهذه الصورة ليست نتاج فن أو عمل، بل نتاج الصقل البسيط وحده، وذلك مثلما نرى، عندما تصنع المناضد من خشب فيه عقد واضحة ففي بعض الأحيان، بعدما يقومون بالتنعيم والصقل تظهر في هذه المناضد أشكال متنوعة من دون تصميم من قبل العامل، وبناء عليه مثل هذا وقع هنا.

وعلى كل حال، هم يقولون، بأن هذه الصورة قد صنعت بوساطة ارادة ربانية، بسبب القداسة السامية للقديس جيروم المجيد، ولاتشاهد هذه الصورة من قبل الجميع، بل فقط من قبل الذين جرى اختيارهم، والذين يعرفونها، فالذي لايعرفها لن يكون قادراً على مشاهدتها أبداً، وهكذا عندما رأيتها للمرة الأولى، ظننت أن الراهب الذي كان يريني إياها، كان يمزح، عندما قال بأنه رأى صورة القديس جيروم في الحجرة، ولم أستطع أن أراها بنفسى، حتى أشار الراهب إليها باصبعه، ووقتها رأيتها بوضوح، تماماً كما ظهرت بكل لطف، ونقرأ في رسالة سيرل إلى أوغسطين حول المعجزات التي صنعت من قبل القديس جيروم، أنه كان في الأزمان الخالية صورة منقوشة للقديس جيروم في الكنيسة على جبل صهيون، وكانت مشهورة بسبب معجزات واضحة عملتها.

المكان الذي فيه جلست العذراء المباركة مع الطفل

عندما جاء الحكماء الثلاثة مع هداياهم

وبعد ما رأينا المعلق المقدس، استدرنا مبتعدين عنه إلى المذبح القائم مقابلته، على مسافة خطوتين أو ثلاث خطوات، فهناك يوجد المكان

الذي فيه جلست مريم العذراء المباركة مع الطفل يسوع في حضنها، وذلك عندما جاء الملوك الثلاثة مع هداياهم، وقدموها لها، ومثلما فعل الملوك الثلاثة سقطنا نحن بأنفسنا في هذا المكان، على وجوهنا، وقدمنا أنفسنا للرب يسوع وحصلنا على غفرانات (+)، وكنا نغني ترنيمة الملوك الثلاثة، ونتلو الصلوات المناسبة.

وقرأنا من الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى وصفاً للاحترام العظيم والتقوى التي قدم بها هؤلاء الملوك الثلاثة هداياهم، هذا ولا يجوز لنا أن نعتقد أن هذه الهدايا — إلى جانب معانيها الخفية — كانت صغيرة في أنفسها، فقد أخبرنا الكتاب، أن أولهم مليكور، ملك العرب، قد قدم نقوداً من الذهب، وقطعة قماش ذهبية صغيرة، كلها يمكن الاطباق عليها باليد، وكانت هذه القطعة قد عملها الاسكندر الكبير من جميع أنواع الذهب التي حصل عليها من البلدان التي كانت تحت حكمه، وقبض عليها بيده، كإشارة للامبراطورية، وقد وصلت هذه القطعة بعد أيام الاسكندر إلى مملكة العربية، وحدث أنه عندما وضع مليكور قطعة القماش تلك في يد الطفل، تحولت إلى رماد مباشرة، لتبرهن أن مملكة المسيح ليست من هذا العالم الفاني (يوحنا: ١٨/٣٦)، ويقال أيضاً بأن هذا الملك قد أهدى المسيح الثلاثين قطعة من الفضة، التي جرت خيانتته من أجلها فيما بعد، كما أوضحنا من قبل، وجلب الثاني وهو بلتزار، ملك سبأ كثيراً من البخور، وجلب الثالث وهو كسبر، ملك أثيوبيا مراً ثميناً، ويقول بعضهم بأن كل واحد منهم قد قدم هذه الأشياء الثلاثة جميعاً.

البئر الذي سقط فيه نجم الحكماء بعد انتهاء مهمته

وبعدما فرغنا من تقديم تقديراتنا في موضع تقديم الهدايا، نزلنا في القبو حتى نهايته، وأتينا في الزاوية في الجانب الأيسر من القبو إلى حفرة صغيرة، يوجد تحتها بئر عميق، هذا ومن غير الممكن نضح الماء من هذا

البئر، بسبب الأبنية فوقه، وقد كان في أيام المسيح بئراً مفتوحاً، وقد قيل فيه سقط النجم، الذي بهدايته جاء الحكماء من الشرق، ويقال بأنه تحلل هناك إلى عناصره الأساسية وهذا هو رأي كثير من اللاهوتيين من أتباع العقيدة الكاثوليكية، وكذكرى له تركت هذه الحفرة.

وقد قال القديس غريغوري، أسقف تور، في كتابه عن المعجزات، الذي كتب في أيام البابا غريغوري المبارك: «يوجد في بيت لحم بركة كبيرة، منها يقال بأن العذراء مريم المجيدة قد نضحت ماء، وقد شهد الذين اعتادوا على النظر إليها بشكل دائم حدوث معجزة، وهي رؤية النجم الذي ظهر إلى الحكماء الثلاثة، لأن الأتقياء قد جاءوا ورددوا على حافة هذه البركة، وغطوا رؤوسهم بأقمشة كتانية ثم إن الذي لديه فضائل حصل على امتياز رؤية النجم يمر عبر البركة، على وجه الماء من الجانب الأول إلى الجانب الآخر، وذلك وفق الطريقة نفسها التي اعتادت النجوم بها أن تعبر قبة السماء، وصحيح إن كثيرين ينظرون في البركة، فقط الذين لديهم عقل سليم يرون النجم، ولقد سمعت بأن عدداً كبيراً من الأشخاص أكدوا أنهم رأوه، وكان من المتأخرين دياكيμος Dyacimus قد أكد بأنه رآه خمس مرات متفرقة، ولكنه قد شوهد من قبل شخصين فقط.

القبو الثاني للعذراء المباركة والذي يعرف باسم حليبها

وليس بعيداً عن فتحة البئر هناك باب، مررنا من خلاله إلى قبو آخر، هو مبجل، من خلال سكنى مريم العذراء فيه، وتحدثنا الحكايات أنه بناء على أخبار الرعاة ووصول الملوك الثلاثة، قدم كثيرون من القدس، ودخلوا إلى القبو (الأكبر) وتعبدوا الطفل ومريم أمه، وعندما تفهمت مريم ما يحدث، خافت من هيرود، وهربت بشكل سري من القبو الخارجي، ودخلت إلى القبو الداخلي، وسكنت هناك، ولسرعتها تركت وراءها في القبو الخارجي، ممدداً في المعلق، قميصاً نسوياً طويلاً، كانت

تبعاً لعادات تلك البلاد قد ولدت فيه، ومثل ذلك تركت خلفها أقمشة القماط التي فيها جرى لف الطفل للمرة الأولى، وكذلك الحجرة التي وضعتها تحت رأسه، والقش الذي رقد فوقه، وبقيت هذه الأشياء جميعاً في المعلق، وبوساطة الحكمة الربانية بقيت محفوظة تماماً ودون أن تفسد حتى أيام القديسة هيلانه، التي عثرت عليهم، كما سنتحدث عن ذلك ونبينه فيما بعد.

وحدث أنه كان في هذا الكهف الثاني، الذي إليه هربت للالتجاء، هناك حجرة كبيرة أو صخرة، عليها اعتادت مريم المباركة أن تجلس لإرضاع الطفل، وصدف في أحد الأيام أن سقطت نقطة من حليب صدر العذراء، على هذه الصخرة، ومنذ ذلك الوقت استمرت تلك النقطة من السائل على الرشح من تلك الصخرة، وهذا السائل له لون الحليب، مزيج بحمرة مثل بعض العقاقير، ومن غير الممكن ضبط تساقطه، وهم يلتقطون النقاط لدى تساقطها، ويحملونها إلى مناطق ماوراء البحر، قائلين بأنها حليب العذراء المباركة، وهذا هو السبب أن كثيراً من الكنائس يعرض فيها حليب العذراء المباركة بين الآثار المقدسة، من ذلك على سبيل المثال في كولون، عند مذبح (كنيسة القديسه مريم) الكبيرة، وفي كيركن Kyrchen، في دير الراهبات، التابع لطائفة الدومينيكان، وفي أماكن أخرى كثيرة في أرجاء إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، وغالباً ماكنت — قبل أن أعلم هذه الحقيقة — أتساءل من أين أتى كل هذا الحليب، أو جرى تجميعه وحفظه، حتى علمت بوساطة التجربة، أنه لم يكن سوى رشح يتساقط نقطاً من صخرة، ولقد رأيت هذه الصخرة في حجي الأول، ولكن في حجي الثاني جرى جلب أغصان أشجار وجذوع إلى داخل القبو، وجرى أحداث تغييرات في المكان.

ولا يمكن لهذه الكلمات الصادرة عني أن تعني مطلقاً وبأية طريقة من

الطرق، عدم تشريف مريم العذراء المباركة وفق ما تستحق، وكذلك مدحها، واحترامها، لأن من الممكن أن الحليب جرى حفظه في مكان آخر، أو أنه أعطي بشكل اعجازي لانسان ما، أو ان الصخرة التي سقطت عليها نقطة الحليب، كانت هذه النقطة كما قيل قد سقطت من الحليب السماوي، وأنها تلقت القدرة على تنقيط الحليب بشكل دائم، لأنه إذا كان الزيت كان قد استمر يرشح من قبر القديس نيقولا، ومن قبر القديس وولد بيرجس waldburgis في ستانيا Cistania، وطالما أن الرب أراد أن يظهر الفضيلة الخاصة لقديسيه، فما هو وجه العجب إذا قامت هذه الصخرة بتنقيط الحليب، حتى يبرهن بذلك على سمو وفضيلة الطهارة لدى أمه.

*** ** *

الكهف الذي فيه دفنت أجساد الأبرياء

ويوجد إلى جانب الكهف المتقدم الذكر، كهف آخر، لم نستطع الدخول إليه من دون أن نحني ظهورنا، وعندما يغدو الانسان فيه يجد مكاناً واسعاً، وأن هناك كهفاً آخر على الجهة اليسرى، وفي هذا الكهف كان قد جرى القاء عدة آلاف من جثث الأبرياء المقدسين، الذين قتلهم هيرود، لدى بحثه عن المسيح بينهم، وبناء عليه تلونا هنا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وفتش بعض الحجاج عندما كانوا في هذا الكهف بين الغبار على الأرض، معتمدين على أضواء شموعهم، وبحثوا عن بعض آثار الأبرياء المقدسين، لكنهم لم يجدوا شيئاً مطلقاً، ومرد ذلك إلى أن المؤمنين قد قاموا فيما مضى منذ زمن طويل بنقلهم، وآثار هؤلاء الأطفال الأبرياء موزعة في جميع كنائس العالم، ففي البندقية، هناك في جزيرة مورانو حوالي مائة جسد من أجساد الأبرياء في قبر واحد، وكنت

قد رأيت في الدير الدومينيكانى في نورمبيرغ جسداً كاملاً لواحد من الأبرياء، ويمتلكون في دير الدومينيكان في ستراسبورغ أيضاً واحداً من الأجساد الكاملة، ويمتلكون في بازل في دير الدومينيكان هناك يداً واحدة وعدة مفاصل عائدة لهم في وعاء قربان مقدس وثمين، ويوجد في دير الدومينيكان في أولم قميص صغير ملوث بالسدم، ومخروق بضربات سيف.

وتوفر لدى النبلاء الذين يذهبون إلى القدس اهتمام خاص في آثار الأبرياء المقدسين، لسبب أنا لا أعرفه، وكان بين جماعتنا رجل نبيل غني جداً، بحث بين رمال الكهف بحثاً حثيثاً عن بعض الآثار، لكنه لم يجد شيئاً، فذهب إلى sobothytaneo الذي هو كالينوس الأكبر، المسلم الذي تولى حماية الحجاج، ووعدته من خلال المترجم باعطائه مائة دوقية، إذا استطاع أن يشتري جسداً كاملاً له، وأخبره كالينوس في جوابه بأن أجساد هؤلاء الأطفال قد نقلت إلى القاهرة، حيث أن السيد السلطان يحتفظ بهم بشكل خاص، وأنه كان يبيعهم لمن يختار، وأنه لا يوجد انسان آخر، في المملكة كلها، غيره، مسموح له ببيع أجساد هؤلاء الأطفال، وعندما سمع هذا الفارس بهذا، فكر بالذهاب إلى القديسة كاترين مع البقية، حتى يمكنه شراء طفل عندما يصل إلى القاهرة.

وصعقتني هذه الصفقة، وجعلتني أشعر بالاهانة، وبالخداع، وبالجور، ولذلك حملت نفسي إلى رجل صاحب معرفة، وبحثت معه حول هذه المسألة، وسألته عن الذي يراه ويعلمه حول أجساد الأطفال هذه التي تباع من قبل السلطان، فتلقيت التأكيد منه بأن الحقيقة هي أن المسلمين والمماليك يتسلمون أجساد الأطفال الذين لم يلدوا بعد، أو الأطفال الذين ماتوا اثر ولادتهم مباشرة، فيطعنونهم بالسكاكين، عاملين جراحة في أجسادهم، ثم يحفظون الأجساد بضغط البلسم والمز

والعقارات الحافظة الأخرى في الجروح، ومن ثم كانوا يبيعونهم إلى الملوك المسيحيين، وإلى الأمراء، والأناس الأغنياء، على أنهم أجساد الأبرياء المقدسين، وبهذه الصورة كانوا يدفعون مبالغ كبيرة من الذهب والفضة، ويعتقدون بأنهم تسلموا أجساد الأطفال المقدسين، في حين أنهم تسلموا بالفعل أجساد أطفال ملعونين.

وبهذه الصورة تتم السخرية من الشعب المؤمن بالمسيح، ويسلبون أموالهم، لأن هؤلاء الناس غير المؤمنين يعرفون رغباتنا العظيمة من أجل امتلاك الآثار المقدسة، ولذلك يعرضون للبيع قطعاً من الخشب يقولون بأنها اجزاء من الصليب المقدس، ومسامير، وأشواك، وعظام، وأشياء أخرى كثيرة من النوع نفسه لتضليل غير الحذرين وخداعهم وانتزاع أموالهم، وأنا لا أمنح قيمة كبيرة للآثار التي جلبت من بلدان ما وراء البحر، ولا سيما الأشياء التي شريت من المسلمين أو من المسيحيين الشرقيين، الذين زيفاً يسمون بمسيحيين، وليس الأمر كذلك بالنسبة للحصا المقدس، من الأماكن المقدسة، الخ، وهكذا خرجنا من كهف الأبرياء المقدسين، ولم نتابع سيرنا.

ويوجد من ذلك الكهف ممر ضيق جرى حفره واقتطاعه في الصخر، وقد عمله الرهبان الفرنسييسكان خلصة، حتى يمكنهم الدخول إلى، والخروج من موضع مهد المسيح، إلى بيعة القديس نيقولا، حيث يقيمون قداساتهم، ولذلك يتخذون كافة الوسائل لإخفاء ذلك الممر حتى عن الحجاج، خشية أن يصل الأمر إلى مسامع المسلمين والمسيحيين الشرقيين، الذين سوف يقدمون مباشرة على اغلاق الممر، ومن ثم سيفقد الرهبان مكانهم المقدس، وقد سمح لي أحياناً بالمرور من خلال الممر السري، إلى موضع مهد المسيح الأعظم قداسة، وجاء ذلك بهبة من الرب وبلطف من الرهبان الفرنسييسكان، وكان ذلك عندما كنت أمضي الليل كله وحيداً هناك، وذلك بعد اغلاق جميع أبواب الكنيسة

والأقبية.

وهكذا خرجنا من كهف الأبرياء المقدسين، بوساطة المدخل نفسه الذي دخلنا منه إلى كهف أو قبو مهد المسيح، حيث سجدنا بأنفسنا للمرة الثانية، وقبلنا الأماكن المقدسة، التي هي موضع الميلاد، والمعلف، والمكان الذي جلست فيه العذراء عندما تسلمت هدايا الملوك الثلاثة، وعندما كنت واقفاً وسط هذه الأماكن المقدسة ورد إلى ذهني رؤيا النشوة التي رأتها الحاجة باولا الأعظم قداسة، في هذا المكان، حيث أعلنت بحضور القديس جيروم وساعه بأنها قد رأت الطفل ملفوفاً بأقمشة قماطة، وهو يبكي في المعلف، وكذلك الرعاية وهم قادمين يحمدون الرب، والحكماء يتعبدون، والنجم يشع من فوق، وعلاوة على ذلك رأت العذراء بكلي عينيها، وهي ترضع بشكل متواصل الطفل، ورأت أيضاً جميع أسرار وخفايا الميلاد الأخرى، وبناء عليه أقنعت فوق هذه البقعة بأن توقف نفسها على الخدمة الدائمة للرب، فهذا ما أخبرنا به القديس جيروم في كتابه «حج القديسة باولا».

وعندما أنهينا صلواتنا خرجنا من الكهف، وبذلك أنهينا مسيرتنا، وذهبنا الآن إلى الدير وتفرقنا إلى المجموعات المتنوعة، وأخرجنا جعبنا التي فيها الأطعمة، التي جلبناها معنا من القدس، وأكلنا وشربنا الماء، ومياه آبار بيت لحم أبرد وأنقى، وأصبح، وأعذب من أية مياه رأيته في بلدان ما وراء البحر، وكانت لدينا كميات عظيمة من هذه المياه مقابل لاشيء، وفي الحقيقة تبدو أية كمية من التعب محمولة بالنسبة للحاج، مادام بإمكانه الحصول على ماء جديد، فالحجاج لا يهتمون بطبخ الأطعمة، أو بالخمرة أو بالفرش، بقدر اهتمامهم بالماء النقي، ولهذا بعدما أكلنا وشربنا، طوى بعضنا أطرافه من أجل النوم فوق المكان الذي أكلوا فيه، لكن الشطر الأعظم، رفض الاستراحة، وعاود الدخول

إلى الكنيسة، وقد مكثوا مستيقظين بشكل مقدس إلى جانب معلف الرب، وشغلوا أنفسهم بصلوات متواصلة.

إقامة صلوات ربانية في بيت لحم مع قداس عالي

ركض في منتصف الليل الحافظ لغرفة الآثار المقدسة حول الدير ومعه لوح (نولا nola) وأيقظ النائمين من أجل الصلوات الصباحية، التي يتولى الرهبان تلاوتها في كهف الميلاد، والتي بعدها بدأنا بتلاوة الصلاة المهيبة: «Deminus dixit ad me» الخ، وهي الصلاة التي يتم انشادها في أرجاء العالم في الليلة المتقدمة على يوم الميلاد، وتوجه الأب المناوب مع معاونيه من رجال الدين، وهم جميعاً يرتدون ثيابهم المقدسة، في مسيرة إلى المذبح، الموضوع فوق المكان الذي ولد فيه المسيح، وهكذا تولينا إنشاد الصلاة في القبر، وبعد الصلاة تلقى بعض الأتقياء من العلمانيين القربان المقدس، وأقام الكهنة قداساً عند مذبح الختان، وفي بيعة الملوك الثلاثة، وفي الكنيسة العليا، وتحت عند مذبح ميلاد الرب، وهكذا استمرينا في أداء الصلوات الربانية حتى أشرق الصباح.

المكان الذي ضل فيه يوسف طريقة مع مريم والطفل

وبعدما فرغنا من قداساتنا، امتطينا مباشرة ظهور حميرنا، ونزلنا من بيت لحم إلى الوادي حتى نتمكن من زيارة كنيسة «المجد في الأعالي»، وذلك حيث كان الرعاة سهرانين في ساعة ميلاد الرب، ومررنا في الطريق على بيعة مشعثة وشبه مهدمة، وكانت هذه البيعة قد أقيمت في ذلك الموضع كذكرى لما حدث عليه، حيث يقال بأنه عندما أُنذر يوسف في المنام وطلب الملاك منه أن يهرب مع الطفل وأمه إلى مصر، وذلك حسبما روي لنا في انجيل متى: ٢، نهض وبادر مسرعاً بالفرار من بيت لحم، ونزل إلى هذا المكان في الوادي، راغباً بالنزول عبر الوادي إلى

سدوم، ليعبر من هناك الأردن ثانية، وبناء عليه انطلق عبر الطريق الذي سار عليه بنو اسرائيل لدى قدومهم إلى البلاد، لأنه لم يكن يعرف أنه كان هناك طريقاً آخر أقصر إلى مصر، بسبب أنه لم يكن قد رأى مصر من قبل، لكنه عندما وصل إلى البقعة التي قامت فوقها البيعة، قابله ملاك، وبين له الطريق إلى حبرون، ومن حبرون إلى غزة، ومن ثم على طول ساحل البحر المتوسط إلى مصر، وبناء عليه، تلونا في هذا المكان صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وبعدما حصلنا على غفراناتنا، تابعنا سيرنا نازلين، فوصلنا على بعد مسافة ضئيلة من هذا المكان إلى جدران مهدمة فوق رابية، وعلمنا هنا أيضاً بأن بيعة قد قامت فيما مضى، وقد بنيت بمثابة ذكرى للأحداث التالية: عندما فارق الملاك الرعيان، وكانوا على طريقهم صاعدين إلى بيت لحم لرؤية الطفل الذي قد ولد، وفيما هم صاعدين، بدأوا يترددون، لأن رهقة شديدة نزلت على قلوبهم، وتعذبت أرواحهم بشكوك غريبة، وباتوا يخشون من أن الرؤيا التي شهدوها لم تكن سوى مصيدة وتغدير، وأنهم لهذا قد يتعرضون لخطر ما، والآن فيما هم واقفون في هذا المكان يتشاور أحدهم مع الآخر حول هذه القضايا، ويصلون إلى الرب، فجأة، ظهر ملاك الرب بينهم، وأكد لهم صدق القضية، فسقطوا على ركبهم يقدمون الشكر، وتسلقوا الممر بخطوات أوسع، وبناء عليه، مثل هذا نحن قدمنا الشكر هنا، وحصلنا على غفرانات (مطلقة)(++)، ثم تابعنا سيرنا.

كنيسة «المجد للرب في الأعالي»

في المكان الذي كان فيه الرعاة يسهرون

ومضينا من هناك نازلين الرابية، خلال بساتين زيتون، ووصلنا إلى واد عريض مليء بحقول مفلوحة ومروج، ورأينا في وسط هذا الوادي

جدراناً مهدمة عظيمة، وبقايا أبنية قديمة، نحوها استدرنا بأنفسنا، ولدى وصولنا إلى المكان، وجدنا كنيسة مهدمة ومتداعية، لكن هناك بقايا من جزئها الأمامي، وبدأ الآن قائد الجوقة يغني بصوت مرتفع ترنيمة: «المجد للرب في الأعالي» الخ، وتابعنا نغني: «وعلى الأرض السلام»، وذلك بمهابة عظيمة، ودخلنا ونحن نغني هكذا بين الخرائب، وتابعنا السير على طريقنا، ونزلنا إلى السدة، حيث مايزال قائماً فيها مذبح مزين، وغنينا هناك بحماس شديد: «المجد للرب في الأعالي»، والأغنية التجاوبية:

الخ «Angelus ad pastores ait» وكذلك، «Quem vid- istis, pastores» الخ وبعد الغناء، صلينا بهدوء، وحصلنا على غفرانات (+).

وهذه الكنيسة قائمة فوق البقعة التي كان فيها الرعاة مع بعضهم، ساعة ميلاد المسيح، وهنا ظهر ملاك الرب، ووقف إلى جانبهم، وأشع مجد الرب من حولهم وأضاء، وقال كما جاء في الاصحاح الثاني من انجيل القديس لوقا: «أنا أبشركم بفرح عظيم» الخ، وفي هذه الكنيسة أيضاً موضع دفن هؤلاء الرعاة، لأنهم عندما كانوا يموتون رفضوا الدفن إلا في مكان ظهور فرح الملاك، وذلك حيث سمعوا الحشد الإلهي يغني «المجد للرب في الأعالي»، وقد بنت القديسة هيلانة الكنيسة فوق هذا الموضع، وإلى جانبها دير للراهبات، حيث من الممكن حتى الآن رؤية بين الخرائب دولاب ومغزل، وأشياء مما اعتادت الراهبات على امتلاكها، وكان هذا الدير يعرف باسم دير «المجد في الأعالي»، وكان هذا الدير من حيث الحجم واسعاً، وذلك حسبما يمكن رؤيته في هذه الأيام، وكانت جدرانه المحيطة به قد بنيت من حجارة مربعة منحوتة، حسبما يمكن مشاهدة ذلك في أكوام الحجارة الموجودة هناك، وهي حجارة المسلمون غير قادرين على أخذها بأية وسيلة من الوسائل،

لأنه قيل — وما قيل هو صدق — عندما كانوا يحاولون حمل أية حجرة من هذه الحجارة، كانت تصبح ثقيلة إلى حد أن مامن انسان يمكنه تحريكها، لا بوساطة حيوانات الحمل، ولا بمعونة البشر، ويوجد على منحدر الجبل هناك بعض الحجارة، قد جرى حملها لمسافة ما، لكن بالأخير غلبت بثقلها، ولذلك تركت على الطريق، ولذلك لا يوجد شك، أنه لو كان من الممكن نقل هذه الحجارة، لنقلت منذ مائة سنة مضت.

وكان هذا المكان قد حفر عميقاً في الأيام الخوالي، من قبل الرجال المقدسين الذين سكنوا هناك، لأنه هنا سكن البطريك يعقوب، لأنه ورد الخبر في الاصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين، أنه بعدما دفن زوجته راحيل على الطريق (إلى إفراتا التي هي بيت لحم)، حسبما تقدم الحديث عن ذلك، ارتحل من هناك، ونصب خيمته وراء هذا الممر، فقد أخبرنا جيروم، بأن هذا المكان كان قرب بيت لحم، في الموضع الذي غنى فيه الحشد السماوي «المجد للرب في الأعالي»، وهذا أيضاً ما حدثنا به كاتب Speculum Historiale، وأخبرناه عن هذا الموضع، وولد في هذا المكان رأيين الابن الأول ليعقوب، وهو الذي ضاجع بلهة زوجة أبيه، وبذلك دنس فراش أبيه، ولذلك حصل على لعنة أبيه.

وهذا الحقل هو حقل بوعز، فيه كانت راعوث المآبية تلتقط الحبوب وراء الحصادين، الذين كانوا يودون طردها، لكن بفضلها حركت عواطف صاحب الحقل نحوها، وقد تزوجته، وفي هذا الحقل نظر إليها على أنها جديرة أن تصبح أما في سلسلة نسب المسيح، فهذا ما يمكن الاطلاع عليه بالكامل في سفر راعوث، وفي الاصحاح الأول من انجيل القديس متى، وفي حقول هذه المنطقة رعى داوود أغنام أبيه، وهنا مزق إلى قطع أسداً هجم عليه، وقتل دبا، وتفاخر داوود بانتصاراته على

الحيوانات في حضرة الملك شاؤول، وحصل على الشجاعة التي دفعته حتى إلى قتال العملاق جالوت الفلسطيني، وذلك حسبما قرأنا عن ذلك في سفر صموئيل الأول: ١٧، ويمكننا أن نفترض أنه قتل كثيراً من الأسود والذئب في هذا المكان، لأن ابن سيراخ قال في الاصحاح السابع والأربعين: «لقد لعب مع الأسود كلبه مع الجديان، ومع الذئبة كلبه مع الحملان».

ويمتد هذا الوادي نحو الشرق حتى سدوم والبحر الميت، حيث على مقربة منه — بسبب مياه الأردن — كثير من الحيوانات من مختلف الأنواع تتجول هناك، وتسير عبر الوديان أثناء الليل، لتصطاد الشريد من القطعان، ولتخطف بعض الحيوانات الأليفة إذا أمكنها ذلك، وبناء عليه التقى داوود بهذه الحيوانات لدى قدومها وقتلها.

وهكذا كان الرعاة في ساعة الولادة يتولون حراسة قطعانهم في الليل، وفيما يتعلق بهذا الأمر طرح التساؤل التالي: «كيف كان من الممكن للرعاة المحافظة على الحراسة في الليل أيام الشتاء، حيث الأرض كانت متصلة بسبب الجليد، وكانت أيضاً مغطاة بالثلج؟ وعلى هذا يجيب الشرقيون، بأن الرعاة حرسوا قطعانهم مرتين في السنة، أي في أيام الربيع، وفي أيام الشتاء، لأن المناطق الشرقية لا تتغير بشكل عام، وكامل، مثلما يحدث للمناطق الغربية، ففي الوديان الباردة جداً، قد يجد الناس هناك في أيام الصيف مواضع باردة إلى أبعد الحدود إلى حد أن الناس قد يجدون هناك في شهر آب ثلجاً وجليداً في المواضع الظليلة من هذه الوديان، فيضعونها في أواني فخارية، يتولون بيعها إلى الناس الأغنياء في المدن، الذين يتولون تبريد خمورهم بها.

وهناك أيضاً بعض الجبال التي تكون باردة إلى أبعد الحدود، إلى حد أن قممها تكون دوماً مغطاة بالثلج، وذلك مثل جبل لبنان، الذي قال عنه ارميا في الاصحاح الثامن عشر: «ثلج لبنان يستمر بدون انقطاع»،

والخندق (كريت) جزيرة حارة جداً، ومع ذلك لا تخلو مطلقاً من الثلج في بعض الوديان وعلى بعض القمم، وهذا مايمكن مشاهدته من قبل الذين يبحرون إلى هناك في أيام الصيف، ومن جانب آخر، هناك بعض الوديان الحارة جداً، ولذلك إذا ما تساقط فيها الثلج، فإنه لا يبقى لمدة تزيد على الساعة، حتى في منتصف الشتاء، وتجد أيضاً جبالاً جرداء القمم، بسبب الحرارة، وليس عليها أية خضراوات مهما كان نوعها.

ووادي بيت لحم هو واحد من هذه الأودية الدافئة، فهو لهذا لا يعرف لاثليجاً ولاجليداً، فيه يبدأ الشعير بالنمو بشكل كثيف، في أيام عيد ميلاد الرب، ولذلك ترسل الحيوانات إلى هناك من الأماكن الأخرى، حتى تتمكن من الرعاية، ولتسمن هناك في الشتاء، ويستأجر الناس قطعاً من الأرض لبعض الوقت، من أجل هذه الغاية، ولذلك يعرف وقت ميلاد الرب بلغتهم بأيام نمو النباتات، والأرض في الصيف جافة، وتراها مشوية بأشعة الشمس الشديدة، وفي شهر أيلول، عندما تغدو أشعة الشمس أبرد من ذي قبل، تبدأ جميع نباتات الأرض الخضراء بالنمو والازدهار مثلما يفعلون في بلادنا في نيسان، وذلك باستثناء أن الأشجار لاتزهر في هذه الاثناء، وهذا الموسم ليس حاراً، بل هو منعش، وكثير من الناس قد يشعرون بالبرد فيه، غير أن شهر أيار هو شهر ملء بأعمال الحصاد.

وواضح من هذا كله، أنه في أيام ميلاد المسيح، يمكن للرعاة الإقامة في العراء مع قطعانهم في هذا الوادي، لأنه دافئ وأخضر، ثم إن الأرض ليست قاسية بسبب الجليد، مثلما يصدف ويحدث في المناطق الأكثر ارتفاعاً، حيث كان مولد المسيح، فهناك كان ثليج، وجليد، وصقيع، علاوة على ذلك، إنه لمن الواضح من خلال الكلمات التي استخدمت، أنه لم يكن هناك راعيان أو ثلاثة، بل عدداً كبيراً، كانوا منتشرين في الوادي، لأنه قد كانت هناك قطعان وأسراب ليست من

بيت لحم وحدها، بل من المناطق التي من حولها، ولا بد أنه قد كانت هناك أعداد كبيرة منهم، بسبب هجمات الأسود، والدببة، والخنزير البرية، وبسبب اللصوص الذين منذ قديم الزمان حتى هذه الأيام يقيمون في الأماكن المهجورة على جوانب الأردن، ويعيشون على السلب والنهب، ولا بد أن الحاجة ضدهم قد فرضت وجود عدد كبير من الرعاة، الذين بإمكانهم ليس فقط بأصواتهم، بل بعصيتهم، إبقاء الحيوانات المفترسة والرجال الذين يشبهون الحيوانات المفترسة، بعيداً عن قطعانهم.

وذهب هؤلاء الرعيان جميعاً إلى بيت لحم، وصعدوا إليها في ليلة الميلاد، بناء على طلب من الملاك، ووجدوا الطفل ملفوفاً بأقمشة قماطة، وراقداً في المعلق، ومن الممكن أنه كان هناك بينهم ثلاثة كانوا هم المقدمين، وقد امتلكوا السيادة على البقية، وأن قبور هؤلاء الثلاثة، هي الموجودة في الكنيسة المتقدمة الذكر، وجرت معالجة هذا الموضوع من قبل بيد المبجل في عظته الدينية حول نص: « *pastores loque bantur* » النخ، حيث قال: «ظهرت الملائكة إلى الرعاة في مكان، عرف منذ الزمن القديم باسم «أرض القطعان» وذلك صدوراً عن اجتماع الأغنام هناك، وهذا الموضع على بعد ميل واحد إلى الشرق من بيت لحم، وذلك حيث توجد في هذه الأيام قبور الرعاة الثلاثة التي هي مشاهدة في الكنيسة».

لقد كان هذا ما قاله بيد، وبناء عليه قال جيروم في رسالة بعث بها إلى الرهبان حول قداسة السهر، بأن هؤلاء الرعاة كانوا مقدسين جداً، ولقد كنت مراراً في هذا الوادي، حيث بقيت ساهراً، خلال الأنواء الأعظم حرارة، حيث كانت جميع الأشياء الخضراء قد جفت، ومع ذلك رأيت دوماً قطعاناً من الأغنام والماعز هناك، وفي جزء آخر من الوادي، مقابل بيت لحم هناك مزرعة قائمة في موقع جميل، حيث رأينا

هناك خرائب جدران عظيمة، ولقد قيل بأنه في ذلك المكان قد قام دير القديسة باولا ووصيفاتها.

وهكذا كان بعد أن رأينا الأماكن المتقدمة الذكر، أن عاودنا امتطاء حميرنا، وسرنا باتجاه بيت لحم، وعندما كنا فوق الجبل شاهدنا الترتيب الأصيل لمكان ميلاد المسيح، بشكل أوضح مما كان بإمكاننا فعله عندما كنا في المكان عينه، وذلك مثل امكانية رؤية الضريح المقدس بشكل أفضل من البساتين قرب حق الدم، منه من كنيسة الضريح نفسها، وذلك كما تحدثنا من قبل، ورأينا على رابية بيت لحم جروفاً واسعة وصخوراً ناتئة فوق الأرض، كان تحتها كهوف واسعة، وهي أماكن سكن للناس الفقراء، الذين ليس لديهم بيوتاً موائمة، وعلى هذه الشاكلة كان مكان ميلاد المسيح في البداية، كما سأبرهن على ذلك.

وعندما وصلنا حتى سور بيت لحم، درنا حول السور، وبحشنا في أساسات ومنحدرات ذلك الجرف التي قام عليها السور، عن كهف مجوف، لكننا لم نعثر على ذلك، وكنت قد قرأت في كتاب حج قديم جداً، كتبه واحد من القديسين، أنه عندما ولد الرب، قام يوسف — كما جرت العادة — بصنع وعاء من الفخار لتحميم الطفل، وبعدما غسل يوسف الطفل، أخذ الوعاء وأخرجه من المنزل، وصب الماء المقدس بشكل عشوائي من السور على الصخور الناتئة بين الأساسات، لأن موضع الميلاد كان قِائماً في مكان مرتفع، وتحت جروف الرابية وصخورها، التي فوقها قام النزل نفسه، والآن عندما سقط الماء المقدس من الأعلى، سقط في صخرة مجوفة، فيها جرى تلقي جميع ذلك الماء المقدس، ومن ثم حفظه، وبقي هذا الماء لسنوات طوال هناك دون ضياع أو فساد، وكان الحجاج في الأيام الخالية، يقادون إلى هذه البركة، وكانوا يغسلون وجوههم هناك ويشربون منها، ويملأون قوارير مياههم، ويأخذونها إلى بلدان ما وراء البحر، كدواء للجسد، لأن عدداً

كبيراً من الناس المرضى تحسنت صحتهم بتذوقهم لذلك الماء، هذا ومهما كانت كميات الماء التي حملت بعيداً، لم تنقص كمية الماء مطلقاً، وهذه معجزة لأنه لم يكن هناك نبع للتزويد والتعويض.

وبناء عليه بحثنا عن هذا الكهف مع الماء المقدس، لكننا لم نجده بأية وسيلة من الوسائل، وهذا ليس غريباً، مشاهدين — في الوقت ذاته — التغييرات العظيمة التي جرت في المكان بسبب الأبنية الضخمة التي بنيت هناك، ففي العصور المتأخرة، عندما تملك الصليبيون الأرض المقدسة، قام ملوك القدس بتحسين بيت لحم بأسوار عالية وبأبراج من حولها، ولذلك زالت ترتيبات المكان القديمة من الوجود، وذهبنا إلى بيت لحم، فوجدنا السادة المغاربة مع أدلائنا جاهزين للمغادرة، لأنهم لم يكونوا قد نزلوا معنا إلى الوادي، بل جلسوا بدون حراك ينتظروننا في الكنيسة، وكانوا متزعجين جداً منا بسبب تأخرنا، وكانوا متعجلين كثيراً للعودة إلى القدس، قبل شروق الشمس، خشية من المعاناة من الحرارة.

الوداع وتقديرات الحجاج في موضع ميلاد يسوع

وعندما حلت ساعة مغادرتنا لبيت لحم، ركضنا جميعاً إلى قبو ميلاد الرب، حتى نتمكن من وداع الطفل يسوع والعدراء أمه، وبسبب تقوى الحجاج، قامت عادة، أنه عندما يقبل الحجاج المكان المقدس لميلاد المسيح للمرة الأخيرة، يتبرع كل حاج بمبلغ من المال، يضعه فوق الصخرة المقدسة لميلاد الرب، من أجل محبة الرب والعدراء، وفي سبيل ترميم الكنيسة، ودعم الرهبان الذين يسكنون هناك.

وفي أثناء التبرع بهذه الهبات من قبل الحجاج، حدث حادث ممجوج، أنا في الحقيقة خائف من الحديث عنه احتراماً للحجاج، ومع ذلك سوف أتحدث عنه، ليعلم الذين لم يكونوا قادرين على القدوم إلى هذه الأماكن المقدسة، أن تلك الأماكن المقدسة لاتفعل خيراً، للذين هم غير

مستعدين في قلوبهم، وأن المكان غير المقدس لا يشكل عائقاً للناس ذوي الارادة الطيبة، والذي أعتقده في الحقيقة، هو أنه في هذه الأماكن الأعظم قداسة يقوم العدو بإغواء غير الأتقياء ويكمن منتظراً إياهم هناك أكثر من أي مكان آخر، ذلك ان السماء العليا، والأماكن الأعظم طهارة، لم تغلب الشيطان، ثم ألا ترون أن الجنة الأعظم سمواً لم تتمكن من حفظ أبوينا الأوليين ومنعهما من الذنب، وكذلك فإن عليّة العشاء الأخير، التي كانت المكان الأعظم قداسة، لم تحل دون القديس توما، ودون الشك، ولهذا جاء في المادة الأربعين من القانون بأنه «لا الأماكن ولا الأحكام تقربنا أكثر من الخالق، بل هي أعمالنا الجيدة، التي تقربنا أكثر إليه، مثلما تبعدنا أعمالنا الشريرة عنه».

والآن، وفقاً للمثل الذي ضربه الملوك الثلاثة، قام موالى الحجاج بتقديم هداياهم، في موضع الميلاد، حيث أعطوا، بعض الذهب، وبعض الفضة، وبعض الخواتم الذهبية، وبعض الشمع، وتقدم في ذلك الحين واحد من الفرسان، وألقى بدوقية على الصخرة، مثلما فعل كثيرون قبله، وبعدما قام الفارس بذلك، أقدم واحد من الحجاج الشرقيين، فانحنى بنفسه وقبل المكان، وأثناء قيامه بالتقبيل، مدّ خلسة يده المدنسة، وسحب من الكومة نحو نفسه أقرب دوقيتين ونهض، ثم ابتعد، واختلط بين فرق الحجاج.

أيها اللص والسارق، أنت جدير أن تعلق على ألف مشنقة، أيها الناهب إنك جدير بأن تمزق إلى ألف قطعة، وأن تكوى بدواليب النار، أيها الانسان الدنس، إنك ينبغي أن تحرق بالنار حتى تكون رماداً، أيها المفسد، أنت جدير أن تفقد رأسك، وأن تغرق في أعماق البحر، أي عصيان، وأية وحشية دفعت بك إلى هذا، وأي كافر أعمى أنت، حيث أقدمت في مثل هذا المكان الفائق القداسة، هذا المكان الذي يرى فيه المسيحيون بعيون عقولهم العذراء المحتاجة، والطفل الفقير، ويوسف

المتسول، في هذا المكان أقدمت على سرقتهم، علاوة على هذا، إذا كنت لاتؤمن بهذا، ولاتبصره، لماذا انحنيت نحو الأسفل في هذا المكان؟ ولماذا أنت حامل لعلامة الصليب؟ لماذا كنت متسرعا بالقدوم إلى هنا؟ وإذا كنت مؤمناً لماذا لم تخف من سرقة الطفل، لأن الطفولة التي تلبسها كانت من أجلك، وكيف أنت لم تخف من عيني أمه الأعظم حلاوة، التي جلست إلى جانب الطفل، وكانت تراقب بدقة كل ماكان يجري حول ابنها؟ هل علينا أن نفترض أنهما لم ترياً، لأنهما كانتا تنظران بصبر أعظم، وبحكمة أكبر، مما يراه الانسان، وإذا كنت لم تهتم بالطفل ولا بالأم بسبب لطفهما الذي لاحدود له، والذي بسببه لم يعاقبا الذنب مباشرة، بل انتظرا بتحمل كبير، مع هذا، من المؤكد كان عليك الخوف من زوجها يوسف الذي كان حازماً وقاسياً، فعلى عاتقه رسا أمر العناية بهما معاً، ولذلك حذرهما طوال الوقت ولم يصرف نظره عنهما، وعلاوة على ذلك، إذا كانت هذه الأشياء قد بدت لك لاقيمة لها، وأعلنت أنه لا الطفل، ولا أمه ولا يوسف، كانوا موجودين هنا، لماذا لم تمنعك تلك الرائحة الفاتقة الطيبة، التي فاحت من هذا المكان، والتي تخلفت هناك من أعضاء الطفل يسوع، وجسد أمه الأعظم طهارة، تمنعك من اقتراف الاثم؟

إن الذي قمت به مثل الذي اقترفه أعظم الناس شروراً، أي يهوذا الخائن، الذي ازداد غضباً وتحرك منفعلاً متلهفاً لبيع سيده، ولإقتراف تلك الخيانة الوحشية له، بسبب الرائحة الفاتقة الطيبة من العطر الذي جرى صبه على رأس يسوع، ولطيب تلك الرائحة — قيل وكتب — بأن البيت كله قد امتلأ، واعتقد صدقاً أنك لو كنت هنا في أيام الملوك الثلاثة، لتوليت سرقة هداياهم، ولقمت من دون حياء، أو عذر، بسلب الطفل الصغير، وأمّه اللطيفة جداً، ويوسف المسكين، ولكن لماذا عليّ البقاء مع هذا الموضوع مدة أطول؟ ذلك أن سرقتك لم تؤذ الطفل، لأنه

في هذه الأيام لم يأت الملوك الثلاثة معاً من الشرق، بل يسعى الناس إلى هنا على شكل حشود من أطراف الأرض الأربعة، ويقومون يومياً بأعمال استغفار، يجري تقبلها من قبل الطفل، كما أن سرقتك لم تحرم من الفضائل الذين قدموا الأعطيات، ومثل ذلك لم تؤذ الذي سرقت منه هذه السرقة، كما أنها لم تحرمه من تقواه، التي ظهرت بين الذين قدموا الأعطيات، والانتقام غباً لك مع الناس الأشرار الآخرين، وسيكون ذلك في وقته المناسب، ووفق هذه الطريقة حمل جيروم بعنف على عمل آخر من أعمال خرق الحرمات، جرى اقترافه في هذه الكنيسة نفسها، وجاء ذلك في رسالته القاسية التي لام فيها الشماس سابينيانوس Sab-inianus، المغوي للعدراء سوزانا.

وبعدما فرغ موالى الفرسان من تقديم أعطيائهم، وعندما كانوا يحصون ما كانوا قد دفعوه، وجدوا أنه لا بد أنه قد توفر هناك لص بينهم، ونظرنا من حولنا، فرأينا ذلك الشرقي، وشعرنا بدون أدنى شك بأنه هو الذي فعل الشر واقترفه، فألقينا القبض عليه في القبو، ولدى تفتيشنا له وجدنا الذهب معه، فجعلناه يرده إلى المكان الصحيح، وعندما فعلنا ذلك طردناه من بين جماعتنا، وحدثت هذه السرقة أثناء حجي الأول، وأثناء حجي الثاني حدث الشيء نفسه من خلال واحد من المسلمين الذين جاءوا معنا، وأثناء انحنائه في المكان المقدس، وأنه يريد الصلاة قام بشكل سري بسرقة بعض المال من هناك.

وحدث، أن بعض الحجاج الذين كانوا واقفين بجانبه، أن شاهدوا ما أقدم عليه، فلحقوا به وقبضوا عليه، وسحبوه إلى داخل القبو المقدس، وذلك على الرغم من صراخه، ومقاومته، وبقوة عظيمة أرغمناه على فتح يديه، فوجدنا المال الذي أخذه، وبغضب وشدة طردنا هذا المسلم اللص من الكهف؟ وأخيراً قبلنا المكان، وبإذن من الأم المقدسة خرجنا منه، وإثر خروجنا من الكنيسة امتطينا حيرنا، وعدنا إلى القدس، عبر

الطريق الذي جئنا عليه، وعندما بتنا هناك تناولنا الطعام، وبعد تناولنا للطعام تمددنا بأنفسنا لننال الراحة، وكنا في الليلة التي مضت قد سهرنا إلى جانب معلف الرب، ثم سهرنا في الليلة التالية إلى جانب القبر المقدس للرب.

وصف بيت لحم

أما وقد قمت بعرض أخبار حجنا إلى بيت لحم أولاً، بقي علي الآن العمل على وصف المكان نفسه، ولسوف أصف المدينة أولاً، ثم مكان ميلاد الرب.

ومدينة بيت لحم هي مدينة قديمة، كان لها في العصور الخالية اسم ما، لم تذكره الكتابات المقدسة، ذلك أنني لم أتمكن من معرفة ما الذي كان اسمها قبل أن تعرف باسم إفراتا، وأطلق عليها اسم إفراتا اشتقاقاً من اسم إفراتا زوجه كالب، التي دفنت هناك، وبذلك باتت تعرف بهذا الاسم، حسبنا وصلنا الخبر عن طريق مؤلف كتاب *Speculum Historiale*، ولقد قالوا بأن إفراتا هذه، زوجه كالب، كانت هي مريم أخت موسى، التي قبل أن تصاب بالجذام كان اسمها مريم، لكن بعد اصابتها بالجذام وشفائها منه، صار اسمها إفراتا، وهي التي ماتت ودفنت في صحراء صين، وذلك حسبنا جاء في سفر العدد: ١/٢٠، ثم قام كالب بعد ذلك باخراجها من قبرها ودفنها في بيت لحم، التي لم تكن آنذاك تعرف بهذا الاسم، وأطلق اسمها على المدينة، وهكذا باتت تعرف باسم إفراتا، وكون إفراتا كانت زوجة كالب فأمر متفق عليه بين الجميع، لكن أن تكون أخت موسى، فأمر أنكره كثيرون، كما جاء في تعليقات نيقولا دي ليرا على سفر أخبار الأيام الأول: ٢، حيث ورد بشكل واضح بأن إفراتا كانت زوجة كالب.

والذي رآه القديس جيروم هو أن إفراتا كانت أخت موسى، فقد قال

في رسالته إلى العذراء برنسييا Principia: « غنت مريم أخت موسى لنصر الرب، وطبعت بيت لحمنا وإفراता باسمها ليكون ذلك علامة للذين يأتون بعدها»، وهكذا مكثت هذه المدينة المباركة لسنوات كثيرة واسمها إفراता، حتى في أيام المجاعة التي وقعت في أيام إيليملك، وبعده، ذلك أنه بعد تلك المجاعة كانت هناك مواسم خير وخصب لذلك أطلق عليها اسم بيت لحم، ومعنى هذا الاسم هو «بيت الخبز»، وبشأن هذه المجاعة ثم الخصب الذي تلاها، يمكن للانسان أن يقرأ سفر راعوث، وتعني كلمة «بيت» في العبرية وتشير إلى «دار»، أما كلمة «ليحيم» فمعناها «خبز»، وعلى هذا إن معنى كلمة «بيت لحم» فهو «دار الخبز»، وعلينا أن نلاحظ هنا أن أسماء المدن والقرى في الأرض المقدسة، يبدأ معظمها بكلمة «بيت»، وبعد هذه الكلمة تأتي كلمة أخرى فيها إشارة إلى خصوصية المكان، مثلما جاء هنا معنا: «بيت لحم» أي «بيت الخبز»، لأنه توفرت هناك كميات عظيمة من القمح بعد مجاعة عظيمة وطويلة وقعت هناك، وبيت عنيا حملت هذا الاسم بمعنى قرية عظم الفك(١)، لأنها كانت قرية كهنة، ولأن الأغنام ربيت فيها هناك من أجل التضحية بها على المذبح، حيث يؤول الفك إلى الكهنة كحصّة لهم، وعرفت بيت عنيا كذلك باسم بيت الطاعة، لأن واحداً من ملوك القدس بنى قلعة هناك، بقصد أن تكون مطيعة لبلاط الملك، وإلى مدينة القدس، وإلى جبل صهيون، ومثل هذا بيت شمس عرفت بهذا الاسم، أي بيت شمس، بسبب الهيكل الذي قام هناك فيها، حيث كانت الشمس تعبد فيه، وعرفت بيت إيل باسم بيت الرب، لأن يعقوب هناك رأى أسرار السماء وقال حسبما جاء في سفر التكوين: ١٧/٢٨: «ما هذا إلا بيت الله»، ومثل هذا أطلق على بيت أجلا اسم «بيت النواح»، لأنه هناك بكى أبناء يعقوب وناحوا على أبيهم عندما مات، حسبما جاء في الاصحاح الأخير من سفر التكوين، الخ..... ومن أجل

١- وهم فابري هنا، لأن بيت فاجي هي قرية الفك، ولعل الخطأ مرده إلى الناسخ.

كثير من أسماء أخرى تبدأ بكلمة «بيت» يمكنك الحصول على معنائهم من خلال كتاب جيروم «حول معاني الأسماء العبرية».

ومثل هذا أسماء القلاع، والبلدات، والمدن، المنتشرة في ألمانيا، إنما باستثناء أن الكلمة التي تعني «بيت»، تأتي في نهاية الاسم، في حين وجدناها توضع في العبرية في البداية، فنحن نقول بالألمانية «أوفنهوزن offenhusen» ومعنى ذلك باللاتينية «بيت مفتوح open house»، وفي العبرية Bethboforon ، ونقول أيضاً بالألمانية schafhusen، أي بيت الضأن، الذي هو بالعبرية Bethanania وكذلك Och-senhusen أي بيت الثور، وفي العبرية Bethschor، وكذلك Gai-shusen أي بيت الماعز، وبالعبرية Bethess ، ومثل هذا هناك قرية قرب أولم اسمها Dreckshusen، أي بيت الفضلات، وبالعبرية Bethsevell ، ولو أن الألمان، هم في هذه الأيام، ملاك للأرض المقدسة، وقتها بحق ينبغي أن تسمى بيت لحم Brothusen وبيت فاجي Baggchusen، وبيتشمس Sonnohusen ، وبيت أجلا Flanhusen ، وبيت صيدا Fruchthusen و Bethaven= Abgtthusen، Berghusen=Bethhara، Stein=Bethaben، husen=Bethrama، Hochhusen ، ومثل هذا في كثير من الحالات.

وكانت مدينة بيت لحم مدينة جليلة، وكانت مسكن القوم الأجلاء منذ الأيام الخوالي، وبناء عليه لعل اسمها كان قبل أن تعرف بإفاراتا وبيت لحم هو Bethtonforon ، أي «بيت النبلاء» علماً بأننا لانعرف اسمها الحقيقي من الكتابات المقدسة، ومع أنها كانت مدينة جليلة، هي لم تكن قط مدينة كبيرة، لأن شكل الموقع يحول دون ذلك، فهي قائمة على جرف جبلي، هو طويل، لكنه ليس بعريض في القمة، فضلاً عن هذا هي قائمة على قن الجبل أو حافته، بشكل أن الأرض التي تقف

عليها محاطة بوديان في الشمال، والشرق والجنوب، وتنحني رجوعاً نحو القدس في الجهة الغربية، وكان هنا فيما مضى خنادق، وأسوار، وأبراج، ذلك أن هذا من الممكن رؤيته بوضوح حتى في هذه الأيام.

ولقد سرت حول المدينة، وتفحصت بدقة متناهية موقعها، فالقرية في هذه الأيام مكتظة بالسكان ولا يهتم سكانها لا بالأسوار أو بالخنادق، والقسم الأكبر من سكانها من المسيحيين الشرقيين، المتحالفين مع المسلمين لابل حتى مع البداءة، وهم يعتمدون في معيشتهم على المنطقة من حولهم، لأن التربة من حول بيت لحم خصبة جداً، مليئة بالقمح، والكروم والزيتون، والمراعي، وفي أثناء تقسيم البلاد بين الأسباط الاثني عشر، صارت من حصّة سبط يهوذا، ومن نصيب فاسيس phases، التي كانت أبرز أسر هذا السبط.

وأظهر جيروم المبارك، كم هي جديرة بالثناء بيت لحم، وورد ذلك في العديد من كتاباته، وبشكل خاص في رسالته إلى مارسيليا حيث قال: «بأي كلام يمكنني أن أخبرك عن نزل مريم، وبأية كلمات يمكنني أن أصف لك كهف المخلص؟ في الحقيقة من الأفضل تشريف المعلف الذي بكى فيه الطفل، بالصمت خيراً من الكلام غير الكافي، ويوجد هنا أروقة واسعة، وأسقف مذهبة، إنما في خارج بيت لحم، في هذه الزاوية الصغيرة جداً من الأرض، قد ولد موجد السموات، إنه هنا قد جرى لفه بقماط من قماش، وهنا أيضاً شوهد وعبد من قبل الرعيان والحكماء والذي أعتقده أن هذه البقعة هي أعظم قداسة من صخرة تاربين Tarpeian، التي غالباً ما تضرب بالصواعق، الأمر الذي يبرهن على عدم رضى الرب، وها هنا توجد في الحقيقة، كنيسة مقدسة، وشعب مؤمن، ومدينة أهلة بالسكان، لكن طموحة... وتوجد في قرية الرب حياة ريفية مضمونة، وهنا هدوء، إلا غناء المزامير أينما توجهت بوجهك، وأدرت نفسك، فالذي يمسك المحراث يغني «المجد».

وينصرف جاني الثمار المتعب نحو انشاد المزامير، ويغني العامل على تقليم الكرمة وهو يعمل بسكينه المثلمة، بعض أغاني داوود، فهذه هي أناشيد هذه المنطقة، وهنا يوجد بشكل عام الذين يسمون في الأماكن الأخرى «محبّي الأغاني»، هذا بالنسبة للقديس جيروم.

واحتلت بيت لحم مكانة سامية لدى باولا المقدسة، حتى أنها فضلتها على روما، وذلك حسبما قال القديس جيروم في رسالته عن حياة وموت القديسة باولا، فقد أثرت لمعان القاذورات البشعة على الذهب المطروق، وقد ألف صفرونيوس الكبير — الذي كان عالماً متعمقاً — كتاباً بليغاً في اطراء بيت لحم، وذلك حسبما روى لنا جيروم في رسالته عن «الرجال اللامعين»، وقد قام أيضاً بالترجمة من اللاتينية إلى الاغريقية جميع الأعمال التي ترجمها جيروم من العبرية إلى اللاتينية، ومدح القديس برنارد في قداسه إلى فرسان الداوية، بيت لحم مدحاً عظيماً، فهي المكان الذي ولد فيه الرب.

مكان ميلاد المسيح وكيف كان، وما هو عليه الآن

لم يكن موضع ميلاد الرب في البلدة، بل بجوار سور المدينة، على المنحدرات، في الجهة الشمالية من البلدة، كما هو مرئي في هذه الأيام، ويسعدني الحديث عن هذا المكان الجميل جداً، وذلك مثلما يسعدني السكنى فيه، والذي أرغب في أن أقوله: كيف كان هذا المكان:

١ — قبل قدوم المسيح، وذلك في أيام قضاة، وأنبياء، وملوك يهوذا

٢ — أيام ميلاد المسيح، عندما حملت مريم بالمسيح هناك.

٣ — بعد ميلاد المسيح، عندما ثارت كراهية اليهود ضد عين المكان نفسه.

٤ — في أيام هيلانه، التي حولت المكان، فجعلته مشرقاً بالمجد

والشرف.

٥- في أيام القديس جيروم، الذي صار مشهوراً هناك لقداسته ومعجزاته.

٦- في أيام الفساد والمسيحيين السيئين، الذين دنسوا الأماكن المقدسة.

٧- في أيام المسلمين، الذين خفضوا مكانته إلى لا شيء تقريباً، وحولوه إلى وضعه الحالي التعيس.

وفي التعامل مع السؤال الأول حول كيف كان موضع ميلاد المسيح قبل قدومه، على القارىء أن يعرف أن سليمان بن ناسون قد تزوج من راحاب، عاهرة أريحا، وكان سليمان هذا واحداً من أعظم مقدمي شعب اسرائيل، عند عبوره الأردن، والاستيلاء على البلاد بقوة السلاح، وقد تملك هو وراحاب زوجته، بيت لحم، وكان حصنه وبيته هناك، وبنى لنفسه مسكناً واسعاً في مواجهة السور، بشكل أن بيته لم يكن داخل أسوار البلدة، بل كان حصناً منفرداً، وذلك مثلما يفعل اللوردات في بلادنا، حيث يمتلكون في المدن التابعة لهم، مساكن منفصلة خاصة بهم، مجاورة لسور المدينة.

وكان هذا المسكن قد بني فوق صخرة، وكان في هذه الصخرة فجوة، أخذت شكل قبو، كان مفيداً لاستخدامه مستودعاً، توضع فيه الأشياء التي لا تتحمل الحرارة، وفي الوقت الذي ترتفع فيه الحرارة كثيراً، اعتاد الناس على النوم هناك، وكانت النساء الحوامل يلدن هناك، وبناء عليه هناك حملت راحاب ببوعز، الذي اتخذ بعد وفاة أبيه قاضياً على جميع شعب اسرائيل، وسيداً لبيت لحم، وقد اتخذ لنفسه زوجة هي راعوث المأبى، وهي التي حملت في هذا الكهف بعوييد، وفيه حملت زوجة عوييد بيسي، وحملت زوجة يسي بداوود الملك، في هذا الكهف نفسه.

وبعدما صار داوود ملكاً، أخذ القطعان وأهل بيت أبيه إلى البيت الذي بناه لنفسه في القدس فوق جبل صهيون، وترك بيت ميلاده فارغاً، ومع ذلك عرفت مدينة بيت لحم باسم مدينة داوود، لأنه ولد فيها ومسح فيها ملكاً، وحدث هذا مثلما حدث لجبل صهيون، فهو عندما حكم جبل صهيون، صار يعرف باسم مدينة داوود، وغالباً ما ورد الاسمان في الكتابات المقدسة، لكن بعد نقل بيت داوود من بيت لحم، صار الاحترام الذي يقدم إليها وإلى البيت الذي فيها، أقل من ذي قبل، ولهذا السبب غدت أبواب وممرات دار بيت لحم مخربة ومهدمة، وذلك بسبب توالي العصور، وفي الحقيقة صار هذا البيت مكاناً لاجتماع تجار الخبز، والأقمشة، والفواكه، حيث كانت تباع فيه، وكان أمام البيت ساحة مفتوحة، كان الناس يلتقون فيها للتحادث، والشباب للرقص، وعلى هذا مكث هذا البيت لكثير من السنين كحانات عام، أو محل حوانيت قامت تحت سقوف مقنطرة، وصار الموضع في الوقت نفسه نزلاً، أي مأوى للغرباء أثناء الليل.

هكذا كان الحال الأول لموضع الميلاد، وصار الوضع الثاني كمايلي: بسبب عدم الاعتناء بالمكان، والحفاظ على البناء هناك، تداعت القناطر أخيراً، وسقطت، كما أن الجدران العارية صارت مهدمة، ولم يعد فيها حوانيت ولا تجارات، ومع ذلك بقيت خرائب الجدران، حيث أقيم فوقها بناء غير كامل، وزربية، وعند نهاية هذه الزربية كان الكهف المتقدم الذكر، وصارت هذه الزربية نزلاً يأوي إليه الناس الفقراء، وهناك كانوا يربطون دوابهم ومواشيهم، ويضعون هناك عرباتهم وأشياء أخرى، لايمكنهم إيجاد أماكن لها في المدينة، وعلى هذا بقي المكان حتى أيام يوسف زوج العذراء مريم، وبعد اعلان أغسطس قيصر وبسببه، قدم من الناصرة إلى بيت لحم مع مريم العذراء الحامل، وقد وجد المدينة مليئة بالناس، وجميع الغرف في النزل مشغولة، ولذلك عندما لم

يجد مكاناً في المدينة يمكنه الإقامة به، ذهب إلى خارج المدينة، وانصرف نحو هذا النزل، الذي وقفت فيه المواشي، مع أدوات الفلاحة، وهناك تدبر مكاناً لنفسه، وعندما دنا وقت مريم العذراء المباركة، أي صار عليها الولادة، دخلت إلى الكهف، الذي ولد فيه داوود الأول وداوود الآخر، وهناك ولدت بداوود الثاني، أي يسوع المسيح، وذلك حسبما ذكرنا من قبل، وسكنت في هذا الموضع لبعض الوقت، هذا ولسوف نصف أي نوع من النزل كان هناك، ونبين ماهو شكله.

وكان الحال الثالث لهذا المكان الأعظم قداسة كمايلي: بعدما ولد الرب، واثّر فراره إلى مصر، تابع هيرود قتل الأطفال الأبرياء، وبحث بحقق عظيم في النزل، وتقصى هناك فيه بحثاً عن الطفل يسوع، لأنه سمع بأن الأم التي قدّم الحكماء لها الهدايا قد أقامت هناك، وحيث أنه لم يعثر على الطفل هناك، تولى تدمير النزل، ورمى الجدران التي كانت باقية أرضاً، وأمر أن لا يبقى هناك نزل فوق ذلك الموضع، وبناء عليه بقي المكان مهجوراً حتى إلى مابعد صعود الرب، ثم إن العذراء مريم المباركة شرعت بزيارة المكان مع أصدقائها، حسبما تحدثنا من قبل، ونتيجة لذلك، قدم أناس مؤمنون آخر إلى ذلك الموضع المقدس، وقدموا التشریف له.

وبعد صعود العذراء المباركة، وعندما كان المؤمنون يظهرون احترامهم لذلك الموضع، غضب اليهود تجاه ذلك، وأصدروا حرماناً على المكان وعلى الذين قدموا إليه، وأعلنوا بأن المكان مكاناً مدنساً وملعوناً، وكل من يدخل إليه مدنس، وجدير بالمعاقبة، علاوة على ذلك أغلقوا الطرق التي تقود إلى المكان بالحجارة، وبقي المكان هكذا مغلقاً حتى أيام تيتوس وفاسبسيان، اللذان استوليا على القدس عنوه، وفرقا اليهود في أرجاء الدنيا، وبعد تفرقهم بدأ المسيحيون بسكنى الأرض المقدسة، وقاموا بتنظيف موضع ميلاد الرب، وصاروا يحجون إليه حتى

أيام الامبراطور اليوس هدريانوس، الذي جعل الأماكن المقدسة مدنسة بالنسبة للمسيحيين وذلك بوضع أصنام فيها، فهو قد نصب تمثالاً لفينوس على صخرة أكرأ، في الموضع الذي مات فيه المسيح، ووضع تمثال جوبتير في الكهف الذي دفن فيه المسيح، وكرس كهف ميلاد الرب ليستخدم موضعاً للبكاء على أدونيس Adonis (تموز)، وهكذا بات أدونيس المحبوب من قبل فينوس العظيمة الدنس، يبكى عليه في الكهف الذي بكى فيه المسيح، فيما مضى، وهو طفل، وحيث تولت العذراء الأعظم طهارة حضائته، وهذا ما أخبرنا به جيروم في رسالته إلى بولينوس حول ترسيم الرهبان، ومن أجل البكاء على أدونيس، انظر حزقيال: ١٤ / ٨، والقسم الثاني من هذا الكتاب، بشكل مختصر أولاً، ثم بشكل مطول بعد ذلك. وهكذا تحول هذا المكان المقدس إلى مكان غريب بالنسبة للمسيحيين، لابل عجوج لديهم بسبب الأوثان.

وكان الحال الرابع لهذا المكان المقدس كمايلي: بقي المكان لمدة تزيد على ثلاثمائة سنة متروكاً للعبادات الشريرة للأصنام، ففي نهاية ذلك الوقت بعث الرب روح تلك المرأة المقدسة التي اسمها هيلانه، وكانت ألمانية، فبعدما صارت امبراطورة، وغدت مسيحية، ذهبت إلى القدس، وبحثت عن الأماكن المقدسة، فوجدت الصليب، والرموز الأخرى لخلاصنا، ونظفت الأماكن المقدسة وأطاحت بالأوثان، وبادرت مسرعة من القدس إلى بيت لحم، حيث نظفت الموضع العذب جداً لميلاد الرب، وألقت بجميع الأصنام المدنسة من الكهف المقدس، وأطاحت بكل شيء رآته هناك، وقد وجدت تحت الخرائب معلف الرب كاملاً، ووجدت في الكهف الحجرة التي وضعتها العذراء المباركة تحت رأس الطفل، ووجدت أيضاً القش، وأقمشة القماط، وصندل يوسف، والثوب الطويل الذي ولدت فيه، وفقاً لطرائق النساء الشرقيات، اللائي عندما يكن حاملات يرتدين ملابس طويلة عريضة مثل أثواب الكهنة،

ويحمل الغلمان أذيال ملابس سيداتهم، لكن إذا كن فقيرات، وليس لديهن غلمان، يتمنطقن، ويعلقن أذيال أثوابهن من النطاق، وعلى هذه الشاكلة كان ثوب مريم العذراء المباركة، وقد تركته في ذلك المكان، مع أشياء أخرى، بسبب السرعة التي فرت بها، وهذه الأشياء جرى حفظها بأوامر ربانية، ولم تفسد، حتى أيام القديسة هيلانة التي وجدتهم.

وبعدما نظفت الموضع، بنت فوقه كنيسة ذات جمال رائع، فقد استدعت إليها معاً أفضل العاملين بالخشب والحجارة، وأخبرتهم بتصميمها، الذي قصد بناء كنيسة عالية النفقات كثيراً جداً، هناك، إنما وفق طريقه تبقي الصخرة التي ولد تحتها المخلص من دون لمس، وبناء عليه أعدّ الصنائع المكان، من أجل بناء كنيسة عظيمة، ولم يضعوا هناك إلا قطعاً منتخبة من الخشب والحجارة، مع ألواح رخامية مصقولة، وأعمدة ثمينة جداً، وألواحاً من خشب الأرز والصنوبر، وإلى جانب هذا أعطت هذه المرأة المقدسة المزيد، وزودت بدون توقف رؤساء الصنائع بالذهب والفضة، ومعادن أخرى بدون حدود، وغطت الجدران وجميع الأرضيات برخام أبيض ومنوع، وجعلت الأجزاء العليا من الجدران ترسم بأعمال الفسيفساء.

وهكذا بنت كنيسة عظيمة وجميلة، شكلها مستطيل، ومرتبة ترتيباً فائق الجودة، بشكل بقي فيه كهف ميلاد الرب، دونما لمس، وواقع مباشرة تحت السدة، وتحت المعبد، وبنيت هذه الكنيسة وفق طرائق بناء الكنائس الرومانية، ففي المقام الأول، كانت النهاية الغربية منها عبارة عن ساباط مغطى وذلك أمام أبواب الكنيسة، وعندما يدخل الإنسان يدخل إلى صحن كبير، طويل وعريض، ووراء هذا الصحن باتجاه الشرق سدة، يصعد الإنسان إليها بوساطة عدة درجات، من الصحن، ويصعد الإنسان من هذه السدة إلى المعبد وإلى الجزء المخصص للكهنة الذين يقومون بالخدمات والقداسات، ويصعد الإنسان من المعبد إلى

المذبح العالي بوساطة عدة درجات.

ويوجد على جانبي السدة بيع، وعلى كل جانب من جوانب الصحن أجزاء نافرة من البناء، وتحت السدة كهف ميلاد الرب، الذي يبلغ طوله مقدار طول السدة، وتحت المذبح العالي حجرة مجوفة، فيها ولد المسيح، وهناك باين يقودان إلى الكهف، أولهما موجود على الجهة اليمنى، ويقود إلى بيعة ختان الرب، ويقود الآخر إلى البيعة الموجودة على الجهة اليسرى، والطريق نحو الأسفل، إلى داخل الكهف، هو عبر ست عشرة درجة.

وللكنيسة سقف مصنوع من الرصاص، وهو ليس سقفا مقنطراً، بل — في الحقيقة — مثل الكنائس الرئيسية في روما، ذلك أنها غير مقنطرة، وللكنيسة سدة مستديرة، مليئة بالنوافذ، وهناك في الخارج ممر فوق النوافذ، وللصحن نوافذ كثيرة، على جانبيه، والكنيسة مشرقة ومضيئة.

وكانت هذه الترتيبات العامة للكنيسة، وإليكم فيما يلي التفاصيل، فقياس الكنيسة هو سبع وثلاثين خطوة بالطول، وثمان عشرة بالعرض، وتمتلك أربعة صفوف من الأعمدة الغالية النفقات، وهي أعمدة عظيمة وطويلة، وكل واحد منها مصنوع من حجرة صماء واحدة، وهذه الأعمدة مصقولة بالزيت، لذلك يستطيع الانسان أن يرى وجهه فيهم، كما يراه في المرآة، والحال نفسه بالنسبة لألواح الرخام، التي جرى تغليف الجدران بها، وهذه الألواح نظيفة إلى حد يستطيع فيه الانسان أن يرى كل شيء موجود في الكنيسة، بشكل أوضح مما يمكنه رؤيته في المرآة، وفي كل صف من الأعمدة اثني عشر عموداً، والمسافة ما بين كل عمود وآخر هي اثني عشر باعاً، ومجموع هذه الأعمدة سبعين عموداً، ثمينة جداً، وهم مرتبين حسب مقتضيات البناء، ووضع فوق رؤوس الأعمدة عوارض من خشب غير قابل للتلف، حيث يقوم من فوقهم من كل جانب جدار يصل إلى السقف.

وهذا الجدار المرتفع من الأعمدة حتى النوافذ، ليس مطلياً، بل مكسياً، حيث أنه مزين بأعمال الفسيفساء، بشكل رائع على الجانبين، وذلك مثل كنيسة القديس مرقس في البندقية، ومرسوم بالفسيفساء صور من العهد الجديد مع أخرى مماثلة من العهد القديم، والكنيسة كلها بجدرانها جميعاً، إما مكسية بألواح مصقولة من الرخام الأبيض، أو مزينة بأعمال الفسيفساء، وفي هذا المقام، نجد فوق كل شيء كهف الميلاد تحت السدة، فهو مزين برخام للأرض عالي النفقات كثيراً جداً، وبألواح للجدران، وبصور، وفي هذه القضايا جميعاً لم تقصر المرأة القديسة بالنفقات، بل أنفقت بأعظم أنواع الكرم، ولذلك كان اليهود يدعون المرأة القديسة، على سبيل السخرية بـ «امرأة الاسطبل»، لأنها بنت مثل هذا البناء الفخم فوق اسطبل متواضع، وعندما أكملت المرأة القديسة عملها، أخذت المهد الخشبي، الذي قيل بأن يوسف قد صنعه، وأخذت أقمشة القماط، وصندل يوسف، وثوب العذراء الطويل، فقد حملتهم جميعاً إلى القسطنطينية، ولم تقصد سرقة بيت لحم، بل أرادت جعل الأماكن الأخرى مبعجلة أيضاً، بسبب الآثار المقدسة من بيت لحم.

وقد أودعت الآثار المتقدمة الذكر في القسطنطينية، في كنيسة آيا صوفيا، ومكثت هذه الآثار هناك حتى أيام شارل الكبير (شارلمان)، فقد حرر شارل هذا مدينة القدس المقدسة، وبطريقها من سيطرة المسلمين، وأعاد السلام إلى المسيحيين الشرقيين، وعندما عاد مع جيشه إلى القسطنطينية سأل أن يمنح مكافأة لجهوده، المهد مع القش، وأقمشة القماط، والصندل، والثوب الطويل للعذراء المباركة، وقد تسلم هذه الأشياء جميعاً، وأخذهم إلى روما، ووضع القش في كنيسة مريم الكبيرة، والمهد في قدس الأقداس في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، أما الثوب وصندل يوسف، وأقمشة القماط، التي لف فيها يسوع، فقد

١ — حكاية حملة شارلمان ورحلته إلى الشرق اختراع بلا أساس تاريخي.

أخذهم إلى ألمانيا الدنيا، ووضعهم في كنيسة العذراء المباركة التي بناها في آخن (١)، ويجري عرض هذه الأشياء حتى هذه الأيام هناك، كل سبع سنوات، وكنت قد رأيتهم شخصياً هناك في سنة ١٤٨٧.

وكان الحال الخامس لموضع ميلاد المسيح كمايلي: فبعد أيام شارلمان المتقدم الذكر، تحول الشرق كله إلى المسيحية، وصارت الأماكن المقدسة تزار من قبل جميع أمم العالم، وقام بعض الرجال الأتقياء والقديسين ببيع كل ما يمتلكونه، وقدموا إلى الأرض المقدسة مع المال، وقد اشتروا أماكن للسكنى هناك، راغبين في انهاء حياتهم هناك، وكان من بينهم القديس جيروم الذي قدم من روما، واختار أن يعيش في بيت لحم، قرب مزود الرب، وقد لحقت به الأرملة باولا المقدسة جداً، وعدد كبير آخر، وكنا قد تحدثنا عن هذا من قبل.

وبعد هذا العصر الذهبي، ومع ازدياد ذنوب المسيحيين، تمكن المسلمون مجدداً من الاستيلاء على البلاد ثانية في أيام بندكت الثامن، الذي ثار في أيامه شقاق عظيم في الكنيسة، وجرى اقتراف أعمال شريرة كثيرة، وتحكم المسلمون بالأماكن المقدسة لسنين كثيرة، عن طريق أخذ الجزية، ثم للمرة الثانية تنادى المسيحيون في أرجاء العالم من أجل الأماكن المقدسة، وتوحد الغرب كله مع بعضه وذهب إلى الأرض المقدسة، في حشد كبير، في كل من البحر والبر، وسيطروا عليها بعد جهد كبير، ونصبوا ملكاً في القدس، وأعادوا بناء الكنائس والديرة ونصبوا أساقفة وكهنة من أجل زيادة أعمال الصلوات للرب، وتمكنوا في وقت قصير من وضع جميع البلدان التي من حولهم تحت طاعتهم، إلى حد أن مامن أحد حرك اصبعاً ضدهم، وقام الصليبيون في الوقت نفسه بتحسين البلدات والقلاع، ومنتوا بشكل خاص مدينة القدس، وكذلك بيت لحم ضد غير الصليبيين بالأسوار والأبراج.

وكانت بيت لحم في هذه الآونة أهلة بالسكان، ومشهورة وثرية،

وجلب المسيحيون من كل بلد في الأرض الهدايا إلى هناك، وعاش التجار الأثرياء جداً فيها، ولذلك يوجد في هذه الأيام رواق مقنطر أمام الكنيسة، تحته قامت حوانيت التجار، وازدهر رجال الدين والناس سواء كثيراً في المجالات الدنيوية والروحية، وتدفق الحجاج في كل يوم، من جميع أنحاء الدنيا، عليها في جماعات كبيرة، ليس من أجل التمكن فقط من رؤية الأماكن المقدسة، والحصول على الغفرانات، بل في سبيل رؤية أمثلة للاستقامة، ولكي يأخذوا معهم إلى ديارهم وأوطانهم تقويماً لحياتهم، ولا سيما في الأعياد الرئيسية، أي في أعياد: ميلاد الرب، والقيامة، فوقتها كانت تجتمع هناك حشود هائلة مع جميع أطراف الدنيا، حتى أن البلاد كانت تجد صعوبة في استيعابهم، وذلك بسبب التقوى العظيمة التي أقيمت فيها العبادات المقدسة والصلوات.

وكانوا قد اعتادوا على الاحتفال بعيد ميلاد الرب، وفق الطريقة التالية: يقدم بطريرك القدس عشية ميلاد الرب إلى بيت لحم، مع أساقفته، ورعاة الدير، ورجال الدين والرهبان، وكان يأتي برفقتهم ملك القدس مع أمرائه، وكوئنتاته، وفرسانه، ولورداته، ونبلائه، الذين كان يلحق بهم حشد لا يحصى عدده من الحجاج، يقودهم المقدم الأعلى للاستبارية مع سادة فرسان الاستبارية، وعامة الناس من الشيوخ والشباب كنت تراهم جميعاً مسرعين إلى بيت لحم في ذلك اليوم.

وتوجه في منتصف الليل الأجراس المقروعة الدعوة إلى جميع الناس للقدوم إلى كنيسة ميلاد المسيح، حيث يمضي أسقف بيت لحم مع أتباعه، بعد صلاة الصبح، في مسيرة، وهم جميعاً يرتدون الثياب المقدسة، ويتجهون إلى كهف الميلاد، وينشدون قداساً في موضع الميلاد هو: « Dominus dixit ad me » النخ، وبعد الفراغ من هذا القداس، يخرجون جميعاً من الكنيسة، في مسيرة، وهم يحملون المشاعل المضاءة، والمصابيح، وأدوات الاضاءة الأخرى، وينزلون إلى الوادي، ويسيرون

حتى كنيسة «المجد في الأعالي»، حيث يقيمون قداس: «Lux Fu-lojebit cum mango gaudio» ويتولى انشاد هذا القداس واحد من كبار قادة الجوقات، والكهنة، وبعد الفراغ من هذا القداس يصعدون ثانية، وينشدون بقية أناشيد تلك الساعة الشرعية.

وفي هذا الوقت يضع بطريرك القدس عليه ثيابه المقدسة، ويتولى إقامة قداس: «Puerest natus» الخ، ويفعل ذلك في السدة، بشكل مهيب مدهش، وقد اعتادوا أن تكون لديهم نجمة ذهبية كبيرة، كان بعضهم ينزلها من سقف السدة، إلى وسطهم، وفي الوقت نفسه يقف بعض الشبان في الأعلى ويغنون «المجد لله في الأعالي»، ويجركون النجمة بشكل مستمر من الشرق إلى الغرب، ويفعلون مثل هذا في يوم عيد الختان، ففي ذلك اليوم كان يجري احتفال مهيب في بيت لحم، ومثل هذا في يوم الملوك، حيث يجتمع الناس جميعاً مع هدايا، وفي اليوم الثامن لعيد الغطاس، اعتادوا على الاحتفال بعيد التعميد، في كنيسة القديس يوحنا المعمدان على الأردن، ومن أجل هذا كان جميع الناس ورجال الدين ينزلون إلى الأردن، ويجتمعون في يوم عيد البشارة في الناصرة، ويلتقون في يوم الجمعة الحزينة، وفي يوم عيد الفصح في (كنيسة) الضريح المقدس، أما في يوم العشاء الأخير فقد كان اللقاء فوق جبل صهيون، ومثل ذلك في يوم عيد الحصاد، لكن في يوم عيد صعود الرب كان اللقاء فوق جبل الزيتون، وأما في يوم صعود مريم العذراء المباركة، فيكون الاجتماع في وادي شعفاط.

وكانت رغبة الناس الوحيدة هي إقامة قداسات بتقوى مهيبة، فقد حافظوا طوال أيام هذا الاخلاص في القلب، وتحمل التكريس التقوي للأماكن المقدسة، على الاحترام العظيم والجمال، وعاش المسيحيون بسلام وهدوء، ولو أن انساناً رأى كنيسة بيت لحم بجميع تزييناتها، لتولته وقتها الدهشة تجاه عظمتها.

ويصيب الحال السادس لموضع ميلاد الرب كل مؤمن كاثوليكي بالأسف، فيالأسف أخواني اللطفاء، إنه من أجل أن أخبركم بهذا، أنا مرغم على تغيير اسلوبي، وأن أقدم لكم للشرب كأس المرارة، التي تسلمتها أنا بأسى ونحيب، وهي مليئة حتى الحافة بفضاظة الحزن، فعندما كان المسيحيون يتعبدون الرب في الأرض المقدسة، امتلكوا الأماكن المقدسة بسلام، وخدمتهم جميع الأمم، لكن عندما جرى إهمال أعمال عبادة الرب، حدث عكس هذه الأمور، ففي سنة ١١٨٦ لتجسيد الرب، وفي أيام البابا أوربان الثالث، كان هناك ملك في القدس اسمه غي، وقد كان مهملاً، وسيء الحظ، فقد نشب بينه وبين أمرائه صراع، وفتنة، وبناء عليه كان نبلاء البلاد متخاصمين ومتحاسدين، وبات الكهنة، ورجال الدين جشعين ومتشاكخين، وكان عامة الناس غير منضبطين وأشراراً، ولهذا نهض المسلمون ضدهم، وأخضعوهم واضطهدوهم إلى حد الافناء.

علاوة على هذا اقترف أحد المسيحيين ذنباً عظيماً في كنيسة بيت لحم، ولذلك تبذرت جميع الشجاعة والقدررة على المقاومة وانتزعت من المسيحيين، وصاروا أضعف من النساء، وفي الحقيقة كان عاراً عظيماً ومرعباً، ان يتحدث الانسان، كيف قام المسيحيون، فحولوا دير كنيسة بيت لحم، الذي بني تشریفاً لمريم العذراء الأعظم مجدداً، وأم الاحسان، وموضع اللطف، ووعاء النقاء، حولوه إلى بيت سيء السمعة، مراغمة لأم الرب، وإنني أمقت الحديث عن هذه الواقعة، لكن الخراب الذي آل إليه المكان، والوضع المحزن الذي بات فيه، والذي يتوجب البكاء من أجله بسبب هذه الجريمة، لايسمح لي بالمرور به وأنا صامت.

فقد كان هناك مسيحي في تلك الأيام، أحب امرأة مسلمة، حباً لم يكن نظيفاً، وبالحاح شديد طلبها في كل يوم لترضى به، لكنها قاومته باستمرار، وهربت منه، وفي أحد الأيام، عندما كان غاضباً، قامت المرأة

برغبة غير اعتيادية، فألقت بين أسنانه اسم المسيح، وطهارة الديانة المسيحية، الأمر الذي استخف به، وأعلن أن الجريمة ليست كبيرة كما يظن الانسان، وقامت المرأة فبينت فضائل المسيحيين في أشياء كثيرة، وفكرت بأنها ينبغي أن تتحرش به وتغويه، ودفعها حب الفضول، فرغبت أن تجربته لتعرف هل هناك أية فضيلة أو خوف من الرب في ذلك المسيحي، فقالت له في أحد الأيام، يا هذا لقد هزمت أمام إلحاحك، ورضيت بك، لكنني لن أستسلم لك إلا في كنيسة القديسة مريم في بيت لحم.

وعن طوعية قبل بهذا الشرط، والتقيا في الساعة المحددة في الكنيسة، وكان معا لوحدهما، وعندما رأت المرأة، أنه لم يعبأ بالكنيسة ولم يهتم بها، وأنه لم يضبط نفسه هناك فيها، قالت له: إنني لن أستسلم لك هنا، دعنا نذهب إلى كهف ميلاد ربك، فهناك ظلام وسرية، فنزل على الفور مع المرأة، التي وضعت نفسها فوق معلف الرب، وجلست هناك، ولدى محاولته الضغط فوقها، نهضت وجلست فوق الحجرة، التي هي موضع الميلاد الأعظم قداسة، وقالت للمسيحي هنا كان ربك قد ولد من العذراء، فإذا كنت على استعداد للاضطجاع معي هنا، فأقدم، وذهب ذلك اليائس والتعيس بلا حدود، إليها دون خوف، ودون إبداء أدنى اهتمام بالمكان.

وعندما رأت هذا، قامت تلك المرأة، وهي رافضة لشروحه ومزدورية له، فألقته بغضب واطاحت به وأبعدت ذلك المسيحي عنها، وقالت: اذهب أيها المسيحي الشرير جداً، واعرف ان هذا الشر لن يمر بدون عقاب، وما أن قالت هذا حتى هربت، ودخلت أولاً إلى بيت لحم، وقامت وهي تصرخ وتبكي فأخبرت جميع الناس الذين رأتهم بما وقع لها، ونددت بعنف وحرصت ضد المسيحيين، وحثت المسلمين على القيام بالانتقام لها منهم.

ومنذ ذلك الحين غدت تلك المرأة نوعاً من أنواع المتنبات بين المسلمين، وبشرت بينهم أنه لم يعد هناك أية فضائل بين المسيحيين، وأنهم يمكنهم بلا خوف مقاتلتهم، وطردتهم من البلاد، ولدى سماع المسلمين بهذا، استثيروا بالحماس الديني، وثاروا ضد الصليبيين، وشرعوا يكافحون بشدة ضدهم، وقهروهم، وقاموا خلال وقت قصير بطرد جميع اللاتين من بلادهم.

وكان الذي عمل الشر المتقدم ذكره، واحداً من أعظم الصليبيين وأكثرهم قوة، أه، لو أن مثل هذا الشر والاثم اقترف في أيام جيروم، كم من النحيب والبكاء كان سيسبب! لأنه كان في أيام جيروم شماس اسمه سابينيانوس Sabinianus، وعذراء اسمها سوزانا، وقد شرعا بحب أحدهما الآخر، واعتادا أن يخفيا رسائلهما إما في كهف ميلاد الرب، أو في كنيسة الضريح، وقد عثر القديس جيروم عليهم، وإذا ما أراد إنسان أن يعرف أي بكاء ونحيب سببوا له عليه أن يقرأ رسالة الملامة التي وجهها إلى سابينيانوس، ووقتها من الصعب عليه أن يجبس نفسه عن البكاء مع النحيب، وهكذا أصبحت الأرض المقدسة في أيدي المسلمين وأعداء صليب المسيح، وهي ما برحت بأيديهم حتى هذه الأيام، وكانت بأيديهم من قبل لمدة مائتين وثمان وسبعين سنة، وهكذا صار واضحاً أنه مثلما بدأ خلاصنا من بيت لحم، مثل هذا بدأت عقوبتنا من هناك أيضاً.

الوضع الحالي لكنيسة بيت لحم

والحال السابع لموضع ميلاد المسيح، هو الوضع الذي أنا الراهب فيلكس فابري قد شاهده فيه، فبعدما انتصر المسلمون على الصليبيين، وأخرجوهم من البلاد، اندفعوا أولاً نحو القدس، وإلى كنيسة الضريح المقدس، راغبين بهدمها، لكن السريان، أي المسيحيين السوريين، أنقذوها، بإعطاء السلطان مبلغاً كبيراً من المال، وقدم السلطان بعد هذا إلى بيت لحم، حيث خرق الدفاعات القوية جداً التي كانت مبنية هناك،

وهدم سور المدينة، والتفت بنفسه نحو كنيسة ميلاد الرب، وهدم أولاً الدير الملاصق للكنيسة، الذي كان عظيماً جداً وفخماً، وهدم أسوار المدينة وأبراجها، التي كان الصليبيون قد بنوها مقابل نفقات كبيرة وجهود عظيمة، وتركوا كومة من الخرائب ماثرة الحزن حول الكنيسة، وعندما خرب الدفاعات، قام بمهاجمة الكنيسة، قاصداً خرقها وتهديمها.

وعندما دخلوها، أولاً هدموا المذابح، ثم حطموا التماثيل المنحوتة، ثم إنه عندما رأى السلطان الألواح الرخامية، التي زينت بهم الأرض والجدران، وشاهد الأعمدة الثمينة جداً، أعطى الأوامر بوجوب خلعهم جميعاً ليأخذهم إلى حيث يرغب، غير أن معجزة وقعت واعجوبة انتشر خبرها بين المؤمنين، فعندما جاء العمال مع أدواتهم، ولمسوا الجدار الذي هو قرب الباب الذي يقود إلى كهف الرب، وحاولوا العمل به بالعتلات، كان السلطان واقفاً هناك يراقبهم، على مقربة من الجدار الصحيح الأصم، الذي بدا أن الإبرة لا يمكنها خرقه، خرج وقتها ثعبان بحجم مدهش، استدار برأسه باتجاه الجدار، وقام بعض أول لوح رخامي، فمزقه بلسانه الناري، وزحف من هناك مسرعاً إلى اللوح التالي، وهكذا إلى اللوح الثالث والرابع، وتابع عمله على طول ذلك الجانب محطماً كل لوح.

ثم إنه قفز إلى بيعة الملوك الثلاثة، وركض على الجدار المصقول صقلاً عظيماً، إلى حد أن العنكبوت لا يمكنها أن تثبت قدميها عليه، فدمر أربعين لوحاً في صفين واختفى، ولدى رؤية السلطان لهذه المعجزة تملكته الدهشة، وكذلك الذين كانوا من حوله، ولذلك بدل مقاصده، وأقلع عن التخريب وانصرف، وماتزال آثار الثعبان على الألواح باقية حتى هذا اليوم، وكأن إنساناً وضع أداة حديدية حامية وضغط بها بشدة على الأحجار، وكذلك كأن الحجارة نفسها كانت قابلة للاحتراق مثل

الخشب، ولقد رأيت آثار هذه المعجزة بسرور عظيم، وغالباً ما كنت أنظر إلى الألواح بدهشة وتعجب عظيم.

وبعد هذا، جاء مسلمون في سنة ١٣٤١، كان السلطان قد أرسلهم، لنقل الأعمدة الثمينة، لكن عندما وضعوا أيديهم عليهم خافوا خوفاً شديداً، بسبب رؤيا مرعبة، حتى أن أطرافهم انشلت ولم يعد بإمكانهم فعل شيء، ولذلك هربوا مذعورين، ولم يحاولوا ثانية وضع أيديهم عليهم، وبعد مرور بضع سنوات، أعطى سلطان آخر الأوامر مجدداً، في الحقيقة ليس بوجوب هدم الكنيسة بل بانتزاع ألواح الأرضية في كهف الرب، وكانت ألواح أرضية مزود الرب باهظة النفقات، وكبيرة وواسعة، وليست جميعها بيضاء، بل ذات ألوان جميلة مزجت مع الأبيض، كما الحال في جلود العجول، وعندما نزلوا نحو الأسفل مع أدواتهم، لقلع هذه الألواح، تحطم باستمرار كل ما لمسوه بأدواتهم أو بأيديهم وتفتت إلى قطع صغيرة جداً، مثل خشب مهترى، ووجدوا أنهم فيما لو اقتلعوا الألواح فذلك سيكون بلا فائدة، وعندما رأوا هذا، تركوا الألواح في أماكنها وهربوا، وقمت بقياس هذه الألواح، فوجدت كل واحد منها عرضه سبعة أقدام، وطوله اثني عشر قدماً، وهي مصقولة كأنها مرايا.

وليس قبل سنوات كثيرة مضت، تلقى بعض الشبان المسلمين العقوبة عندما وضعوا أيديهم المذنسة على هذه الأحجار المقدسة، فقد ساد اعتقاد بين المسلمين، أنه يوجد تحت حجرة ميلاد الرب، وتحت المعلق كنوز لا يمكن تقديرها، مدفونة هناك، غير أنهم لم يتمكنوا من العثور عليها أو رؤيتها، وتسلق بعض الشباب الفضوليين والجشعين إلى داخل الكنيسة أثناء الليل، وكان ذلك من خلال النافذة الموجودة فوق مذبح ختان الرب، ودخلوا إلى الكهف الأعظم قداسة، واقتلعوا الألواح عند موضع الميلاد، وكذلك الألواح التي هي عند المعلق، وكان كل ما

اقتلعوه يتفتت بين أيديهم، وعندما شرعوا بالحفر استولى عليهم رعب شديد، وأخذوا يرتجفون، ولذلك تركوا أدواتهم، ونزلوا من النافذة التي دخلوا منها، وتركوا منطقتهم، حتى أن مامن أحد يعرف إلى أين ذهب هؤلاء اللصوص.

ولقد قيل صدقاً وبدون شك، بين الذين يسكنون قرب البقعة، أن مامن مسلم يمكنه أن يحمل أي شيء إلى خارج الكنيسة بنفسه بيديه، وإذا ما وضع مسلم يديه على أي شيء مع النية بأخذه هو لن ينجو دون عقاب، إنما على الرغم من هذا كله، جرى انتزاع الكثير من الألواح المصقولة من على الجدران من قبل لصوص مسيحيين، لأن الأشقياء من المسيحيين الشرقيين يسرقون مثل هذه الأشياء لبيعوها إلى المسلمين، ولهذا السبب يستأجر المسلمون في بعض الأحيان لصوصاً مسيحيين بثمان، ليسرقوا لهم الألواح التي اشتوها.

ومامن أحد لديه أدنى شك، أن المسلمين لو استطاعوا أخذ جميع التزيينات الرخامية، لأخذوا كل شيء منذ زمن طويل مضى، لكن الرب يتولى حراسة هذه الأماكن من أجل مواساتنا وفي سبيل مجده الذاتي، ولن يسمح لهم أن يصيروا ضحية المذنبين، ففي خلال حجبي الأول، كان سقف الكنيسة، الذي كان وزنه ثقيلاً، لأنه معمول من الرصاص، مهدداً بالسقوط فوق السدة وكان ممسوكاً فقط بعضائد خشبية، أقيمت فوق السدة، حيث عليها استند، ووقتها تمنيت أن يحيي الرب الملك يهوآش، الذي قرأنا عنه في سفر الملوك الثاني: ١٢، بأنه أرغم الكهنة على ترميم الفجوات في هيكل الرب، والذي غالباً ما تأسف بعمق من أجله، هو بسبب الخوف من أن تسقط الكنيسة وتصبح في وضع لا يمكن ترميمها فيه، لأنها لو تهدمت، لن يكون بالامكان إعادة عمارتها، ومرد هذا إلى أن هناك أوامر صدرت إلى المسلمين في قرآن محمد (صلى الله عليه وسلم) بعدم السماح للمسيحيين

ببناء كنائس جديدة، ولا بترميم الكنائس القديمة.

فلسنوات طوال رفض السلطان السماح للمسيحيين باصلاح الفجوات في تلك الكنيسة، لكنه أخيراً وافق بعد الحاح مستمر من رهبان الفرنسيسكان في جبل صهيون، فتراخى بشروطه وسمح باصلاح الفجوات، ولذلك اتخذ الرهبان اجراءات بتأمين جميع الأخشاب المحتاجة لهذه الاصلاحات وتحضيرها في البندقية، وذلك من قبل صناع أعطيت لهم مقاييس الكنيسة، وجلبوا هذه الأخشاب بغلايين عبر البحر إلى ميناء يافا، ونقلوها من يافا إلى بيت لحم على ظهور الجمال، وهكذا تم ترميم السقف كله من قبل الصناع البنادقة، كما أن جميع التلف والأعطال التي ألمت بالأخشاب وبالرصاص جرى اصلاحها وعادت جيدة، بعد جهد كبير ونفقات عالية، لأنهم انتزعوا الأخشاب القديمة التي هي من الأرز والسرو من جبل لبنان، ووضعوا محلها أخشاب جديدة من الصنوبر من جبالنا.

وفي الحقيقة عندما كان سليمان يبني الهيكل في القدس، تسلم أخشاب أرز من لبنان، أرسلها له ملك صور بالسفن عبر البحر إلى يافا، وقام هو بجلب هذه الأخشاب من يافا إلى القدس، وذلك حسبما قرأنا في سفر أخبار الأيام الثاني: ٢، وفي يشوع: ٢/٣، ومثل هذا تسببت القديسة هيلانة بجلب عوارض خشبية، من خشب الأرز، وحملها بالسفن عبر البحر إلى يافا، وبحملها من هناك براً إلى بيت لحم، وكان هذا وقتها سهلاً، وكان من الممكن تدبره خلال عدة أيام، لكنه صعب جداً في هذه الأيام بالنسبة للمسيحيين، أن يجلبوا الأخشاب من لبنان، لأن المسلمين هم الذين يمتلكون هذه البلاد، وعلى فرض أنهم سمحوا لنا بأخذها كانوا سيثقلونها بضرائب عالية جداً، وبعشور، وبمكوس أخرى، ولذلك كان من الأسهل جلب الأخشاب من جبال الألب لدينا، من أجل ترميم كنائس المسيح، من أن تحمل من الجبال القائمة على حدود

الأرض المقدسة.

وأعتقد أنه لم يعد في لبنان نفسه المزيد من أخشاب الأرز، مثلما لم يعد هناك فوق جبل صهيون المزيد من أخشاب السرو، ولهذا قال سليمان في سفر الحكمة: «لقد مجدت مثل أرزة في لبنان ومثل سروة على جبل صهيون»، وبعد ترميم هذه الكنيسة، أصبحت هذه الكنيسة أنظف، لأن سقفها كان من قبل مليئاً بالحمام والعصافير، وأعشاش لمختلف أنواع الطيور، التي تزرق من الأعلى، وتلوث الأرضية الثمينة، ومنذ ترميمها توفرت ثعالب صغيرة (فك) كانت تقوم بالسعي هناك ولا تترك طائراً حياً، وتبقي بذلك السقف محفوظاً من جميع الأوساخ، وكنت في بعض الأحيان وحيداً أثناء الليل في تلك الكنيسة، وكنت أسمع كثيراً من الحركة هناك، كانت تقوم بها الثعالب في السقف، ولذلك كنت أخاف، معتقداً بوجود بعض محاولات الإضرار، حتى علمت الحقيقة حول ذلك.

ولم يسمح سيد مصر وملكها السلطان قايتباي فقط بإعادة ترميم هذه الكنيسة، بل إنه سمح بإعادة بناء الخرائب الموجودة في كنيسة الضريح المقدس، وذلك مراعاة لشريعة نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأعتقد أن سلطان أيامنا هذه هو أشبه بملك قورش جديد، الذي وإن كان من الأمم، سمح لليهود بإعادة بناء هيكل الرب في القدس، الذي كان نبوخذ نصر قد خربه، ونقرأ عن قورش ملك فارس، في سفر أسديراس الأول، وفي سفر إشعيا: ٤٦، ولم يكن قورش قد فعل ما فعله من قبل نفسه، بل الرب هو الذي ألهم روحه ودفعه، حسبما قرأنا في الاصحاح الأخير من سفر أخبار الأيام الثاني، وفي السفر الأول لاسديراس، ومثله كذلك في الحقيقة هذا السلطان، حيث تحرك بالهام من الرب، فأعطى الإذن بترميم الأماكن المقدسة، ولسوف يعطي الإذن بأكثر بكثير، ما لم يقوم أعداء المسيحية بحرفه عن مقاصده، مثلما حدث

لعزرا، كما قرأنا في الاصحاح الخامس (٩) من اشعيا، وفي ثانيا جميع سفري نحميا وعزرا كما علينا أن لانصدق ما يشاع — كما يفعل كثيرون — بأن السلطان تحرك بشكل رئيسي بسبب حب المال، والربح الذي جناه من الحجاج، وأنه لهذا سمح بإعادة ترميم الكنائس المسيحية، لأنه في الحقيقة فعل ذلك بدافع أساسي هو الالهام من الرب، مع أنه لم يعلم شيئا عن ذلك.

ولولا أنه فعل ذلك، ماكان المسلمون ليسمحوا بأي حال من الأحوال للكنائس أن تقف، وما كانوا ليأذنوا بأي شكل من الأشكال للحجاج بالتجول حول المناطق كما يريدون، حتى وإن كان مبلغ المال المعطى إليهم عظيماً، ذلك أن كراهيتهم نحونا فاقت بكثير حبهم للمال الذي يتوقعوه منا، وهو مال قليل بما فيه الكفاية، ثم إن الملك السلطان لا يتسلم ولا فلساً من ذلك المال، بل يأخذه فقط بعض من الرجال الموظفين لديه، وهؤلاء لا يمكنهم العيش حياة رفاهية على هذه الأموال، ولهذا ينبغي علينا أن نقدم الشكر للرب لأنه صرف قلب السلطان نحونا، ويتوجب علينا أن نصلي لإطالة حياة الملك والسلطان، وذلك مثل الذي قرأناه بأن اليهود قد اعتادوا على الصلاة لإطالة عمر ملوك الأمم من أمثال: نبوخذ نصر، وقورش، وأرتراكرس، وأنطيوخوس، وذلك حسبما جاء في الاصحاح الأول من سفر باروخ، وتظهر النتائج بأن السلطان قد مال نحو عقيدتنا، وأنا لا أشك بأن هناك بعض الحكماء، والفصحاء والأقوياء بين المسيحيين، هم سيوجهون نحوه تلك الصلاة التي خاطبه بها المعلم المبجل نيقولا دي كوسا، في الكتاب الثالث — الفصل السابع عشر، من ترجمته للقرآن، حتى يصرف نفسه نحو طريق أحسن، وأنه ينبغي على المسيحيين أن يصلوا له، فهذا ما أوضحت به بجلاء في الجزء المقبل.

المسيحيون من مختلف الطوائف المقيمون في الكنيسة في بيت لحم

الجزء العلوي من الكنيسة في بيت لحم ممدنس وملوث، وليس فيه مصباح واحد في جزئه العلوي، ولا في السدة، ولا في الصحن، ولا في البيع، بل إنه قائم مثل هري بلاقش، أو حانوت صيدلي بدون قوارير العقاقير، أو مكتبة بلاكتب، والصور الثمينة آيلة إلى السقوط من على الجدران، ولا يوجد أحد ليقوم بترميمها، ومع هذا نحن شاكرون لأن جسم الكنيسة ما يزال قائماً، والكنيسة الآن موزعة بين المسيحيين تبعاً لاختلاف طقوسهم، وذلك مثلما تقدم وبيننا بشأن كنيسة الجلجلة، وكذلك كنيسة العذراء المباركة، فقد امتلك الاغريق السدة، وامتلك اللاتين كهف ميلاد الرب، وامتلك الأرمن المذبح الموجود عند المكان الذي قدّم فيه الملوك الثلاثة هداياهم.

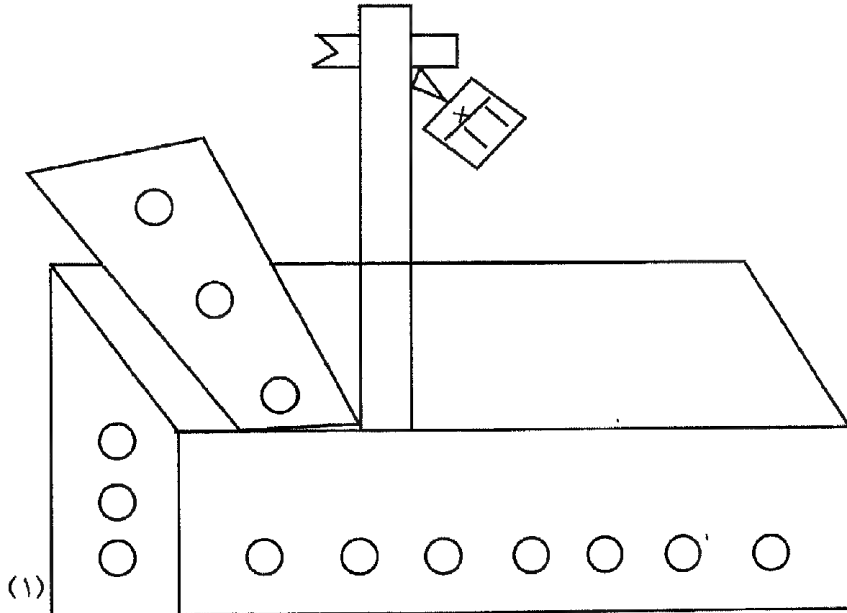
ومامن شيء في تلك الكنيسة مكرس أو مضاء بالمصاييح، إلا كهف ميلاد الرب، وكنت كلما وجدت نفسي في بيت لحم، أقيم القداسات في هذا الكهف كمايلي: كنت أولاً أقيم الساعات الشرعية وفقاً لاحكام كتاب صلواتنا المختصر، وبعد هذا، وفي المقام الثاني، كنت أتلو الصلوات الساعية المتعلقة بميلاد الرب، والقداسات الثلاثة التي تتلى في يوم ميلاد الرب، خلال ثلاثة أيام متعاقبة، وكنت أقرأ في الكهف في اليوم الأول عند منتصف الليل قداس: «Dominus dixit ad me» الخ، وفي اليوم الثاني «Lux fulgebit in Aurora» الخ، وفي اليوم التالي الذي هو اليوم الثالث: «In clara luce puer natus est» لأن الرب قد سمح لي بالبقاء وقتاً طويلاً في ذلك المكان، كنت قادراً فيه على القيام بالقداسات المتقدمة الذكر، وأنا شاكر للرب من أجل ذلك.

مغادرة الحجاج لبيت لحم ودخولهم إلى القدس

وعندما فرغنا من زيارتنا لبيت لحم، امتطينا ظهور حميرنا، وغادرنا

من هناك، وعندما وصلنا إلى طرف البلدة كانت هناك امرأة ميته محمولة للدفن، وقد حضر جنازتها جميع المسلمون من نساء ورجال وهم يصرخون ويولولون بأصوات عجيبة ومرعبة، وقد رفعوا أيديهم وكانوا جميعاً يضربون بها فوق رؤوسهم، وعندما رأهم أدلاؤنا، عرفوا الذي كان جارياً لذلك دفعوا بنا إلى الجانب بالصراخ وبالتهديد، وأبعدونا عن الطريق، خشية أن يحدث فنلتقي نحن والمشييعين معا لأننا كنا متميزين بعلامة الصليب، ولو صدف وقابلناهم ونحن نحمل صلباننا، لأثار الشيطان شجاراً مرعباً، ذلك أنهم بلاشك كانوا سيثورون ضدنا، ويطردوننا بعيداً عنهم بالحجارة، وذلك بسبب الاحترام المقدم للمرأة المتوفاة، لأنهم يعتقدون بأن موتاتهم غاضبون بشكل خاص منا، وأن تجولنا حول الأرض المقدسة سوف يسبب لهم العذاب في العالم المقبل، وكانوا سيرضون بالسماح لنا بالسكنى بينهم، لولا أنهم يقولون بأن موتاهم لا يمكنهم السكنى معنا، وهكذا دخلنا إلى القدس للاستراحة، وذلك حسبما تحدثت من قبل (لأن السفر كان أثناء الليل).

F.F.F.F.F.



دخول الحجاج الثاني إلى ضريح الرب، رسم الفرسان هناك، واطراء تلك الفروسية

وفي اليوم السابع عشر، الذي كان يوم عيد القديس ألكسيوس المعترف، وفي المساء المتقدم، وذلك عندما قدمنا من بيت لحم، وجهت الدعوة إلينا جميعاً للاجتماع في ساحة كنيسة الضريح المقدس، ولذلك بادرنا مسرعين ونزلنا إلى الكنيسة، حيث وجدنا عدداً كبيراً من المسلمين أيضاً، ومن التجار، غير أننا لم نجد شيئاً للأكل معروضاً للبيع، مثلما حصل معنا من قبل، وانزعجنا من ذلك، لأننا كنا متعبين من رحلتنا، ولدينا وقتاً قليلاً للاستراحة، فقد نزلنا إلى هناك أسرع مما كان ينبغي، وذلك على أمل العثور على طعام في الساحة، يمكننا أن نأكله في الكنيسة، لكن مامن أحد قدم لنا ذلك.

هذا ولست أدري كيف حدث، أو من تدبر، قيام سادة المسلمين، والأوصياء على الكنيسة بالاعلان في المدينة، بوجوب أن لا يجلب أحداً أطعمة إلى الحجاج، ولقد خيل إلي أن ذلك كان بمبادرة من الأب المحترم المسؤول، ليقف التصرفات غير اللائقة التي صدرت عن الحجاج، حيث أن بعضهم قد جلس طوال الليل يأكل ويشرب في الكنيسة، مثل أولئك الكورنثيين الذين أثنى الرسول عليهم (كورنثا الأولى: ٢) في كل شيء، إلا أن كل واحد منهم يعمل على أكل عشائه في الكنيسة، وكان هناك خلاف بينهم، لأن أحدهم كان جائعاً، وكان آخر سكراناً، ومثل هذا حدث بين الحجاج، فبعضهم كان قد أتخم نفسه بالطعام، في حين كان آخرون صياماً، وهكذا كان إجراء أخلاقياً وجوب عدم جلب الأطعمة.

١ — كلما أقحمت هذه الصورة في النص، فهذا يعني أن فابري وأصحابه قد أمضوا الليل في كنيسة الضريح المقدس.

وعندما اجتمعنا معاً، فتح السادة المغاربة أبواب الكنيسة المقدسة، وتركونا ندخل وفق الطريقة نفسها التي كنا قد دخلنا بها من قبل، ودخل معنا — مثلما حدث من قبل — رهبان جبل صهيون، وكان بين الذين دخلوا معنا منهم، جون أوف بروسيا، ذلك الرجل العظيم الذي كنت قد تحدثت عنه من قبل، والذي كان مدير أعمال رهبان جبل صهيون، والذي وإن كان مدنياً في وضعه، لكنه كان (راهباً) نظامياً في طبعه وحياته، وهو الذي باختياره جرى استخدام رداء الطائفة الثالثة من جماعة القديس فرنسيس، مع أنه لم يقطع على نفسه العهد بإطاعة أحكام هذه الطائفة، وكان هذا الرجل من أصل نبيل، من أسرة مرتبتها مرتبة كونت، وهو ألماني من منطقة بروسيا، وكان طويل القامة، وله لحية طويلة، وله حضور ومهابة، وله شعر رمادي محترم، وكان على درجة عالية من الحكمة، وصاحب خبرة كبيرة، وهادئ الطباع، وصاحب ضمير، وكان يخاف الرب، وقد منحت هذا الرجل الجيد، هذا الاطراء ليس بناء على السماع بل اعتماداً على معرفة أكيدة، وكان يمتلك سلطات مولانا البابا، وسيدنا الامبراطور، وتفويض ملوك وأمراء العالم المسيحي، من أجل ايجاد الفرسان ورسمهم من بين جميع نبلاء الحجاج الذين قدموا إلى الضريح المقدس للرب، علاوة على ذلك كان معروفاً من قبل السيد السلطان، الذي عامله باحترام عظيم، وكان أيضاً محترماً لدى جانم Naylor (الأشرفي) الذي كان حاكم مدينة القدس، ولدى sobathylanco والفحل الكاليني، ولدى التراجمة، الذين جميعاً عرفوه واحترموه، ولهذا منحه سادة البلاد الاذن لإحاطة الأماكن المقدسة بأسوار من الحجارة الجافة، وذلك بعد تحديدها وتنظيمه لها، واكتفى بهذا، ولم يتجرأ على بناء هذه الأسوار (بالملاط).

وحصل هذا الرجل على الاذن بترميم المتهدم في كل من كنيسة الضريح المقدس، وكنيسة بيت لحم، وكانت لديه سلطات عظيمة في

القدس إلى حد أن المسلمين واليهود خافوا منه، وتخبأ الأطفال بأنفسهم خوفاً منه، وأعلن صادقاً بأن هناك رجلين في القدس معمران وقد تقدمت بهم السنون، وهما على درجة عظيمة من الفائدة لكل من الأماكن المقدسة وللحجاج، ولا يمكنني أن أتصور كيف سيتدبر الحجاج أمورهم في القدس بعد موتها، وسوف أكون أسفاً جداً في أن أكون حاجاً في القدس إذا لم يكونا هناك، والأول بين هذين الرجلين هو الأخ جون المتقدم الذكر، والثاني هو الفحل، الذي هو مسلم، ويعرف باسم كالينوس الأصغر، وهو رجل جيد، عنه سوف أتحدث في مكانه.

والآن، عندما تشكلت المسيرة واكتملت، ووصلت إلى النهاية وفق الطريقة التي كنت قد ذكرتها من قبل، قام الأخ جون المتقدم الذكر، قبل منتصف الليل بساعة، باستدعاء جميع النبلاء من الحجاج إليه، وهم الذين كانوا يرغبون أن يتسلموا الفروسية في كنيسة الجلجلة، أي في السدة حيث وسط الدنيا، وذلك حسبما تحدثت في ص ٤٩٧، وبعدما صف الكونتات، والبارونات، والنبلاء أمامه، بدأ بإخبارهم بقوانين هذه الفروسية، ففي المقام الأول، كان محظوراً على أي واحد التقدم لنيل هذه الفروسية، ما لم يبرهن أنه نبيل حتى الجد الرابع، وأن يكون لديه دخلاً كافياً، وأن يكون مستقيماً وجيد السمعة، وليس موسوماً بأي عمل سيء، أو له سمعة رديئة، وأعلن أن أي شخص هو غير مناسب، وقدم نفسه أمامه، وقام برسمه فارساً، إن هذا الرسم يعدّ لاغياً، وأن مثل هذا الانسان ينبغي أن لا يعدّ بأي شكل من الأشكال فارساً، بل أن ينظر إليه كساخر، ومهين، ومستخف بالنبال، وأخيراً استدعاهم للاقترب منه لتلقي فروسيته في ظل الخوف من الرب مع الاحترام، وأن يكونوا في كل شيء مطيعين للبابا وللإمبراطور، الذي بسلطان منه جرى اصفاء هذا الشرف عليهم، وأن يتولوا الدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية، وأن يحافظوا على جميع حقوقها، وأن يتولوا حماية الأساقفة والقتال لصالحهم،

وكذلك الحاك بالنسبة للرهبان وجميع رجال الدين واللاهوتيين، وأن يحافظوا على أراضيهم ومقتنياتهم، وأن يرفعوا الصالح العام بسلام أي أن يتعاملوا باستقامة مع الأيتام، والأرامل، والغرباء، والفقراء، وأن يواسوا جميع الناس المؤمنين أثناء مصائبهم بمنحهم المساعدة، عندما يطلبون منهم، فضلاً عن هذا حرم عليهم عقد أية معاهدات مهما كان نوعها مع الكفار، بل أوصاهم بالقيام بطردهم وبإبعادهم عن العالم المسيحي بقدر الامكان، وفوق كل شيء، عليهم بذل كل مالدتهم من طاقة من أجل انتزاع الأرض المقدسة، والضريح الأعظم قداسة من أيدي المسلمين، وأن عليهم حث جميع الملوك والأمراء، والدوقات، والكونتات، والمركيزات، وجميع الرجال الآخرين من أهل السيف، للقدوم بأقصى سرعة ممكنة بالنسبة لهم، من أجل إنقاذ الأرض المقدسة، وأن عليهم إثارة عقول جميع الناس لمساعدتها، وأن يجعلوا ذلك شغلهم الشاغل، وأن يسعوا بكل يقظة ونشاط حتى يبينوا للمؤمنين الوضع المحزن للضريح الموجود بالأسر، وأن عليهم أن يكونوا مستعدين بأنفسهم في جميع الأوقات للانطلاق والقتال من أجل الأرض المقدسة.

وبعدما قال الراهب هذا كله، لابل وأكثر، دخل إلى الغرفة الصغيرة التي فيها ضريح الرب، ولحق به جميع النبلاء، ووقف أمام باب الضريح، وكان لديه أسماء جميع النبلاء الذين رغبوا باستلام الفروسية، مكتوبة وفقاً لمراتبهم، ووفقاً لهذا التنظيم أضفى عليهم الفروسية.

وبناء عليه، دعا إليه أولاً اللورد النبيل جون، كونت سولم Solms، دعاه إلى داخل الكهف الداخلي لأبدة الرب، حيث فيه، القبر الأعظم قداسة، وربط سيف الفروسية حول وسطه، وشدّ مهمازي الفروسية على قدميه، وأمره أن يركع على ركبتيه أمام ضريح الرب، بشكل كانت فيه ركبتاه على الأرض، وصدره وذراعيه موضوعين على غطاء القبر،

وعندما كان بهذه الوضعية سحب الأخ جون المتقدم الذكر من غمده السيف الذي ربطه حول وسط الكونت، وقام بضربه بحد السيف ثلاث مرات على كتفيه باسم الأب والابن وروح القدس، وبعد هذا نهض الكونت، وفك نطاق السيف والمهمازين، وقبله، وقال باحترام: «لعلها تكون جيدة لك»، وبذلك صار فارساً، واستدعى الأخ باروناً نبيلًا، هو مولاي جون ويرنر أوف زيمرن Zimmern، وأعطى السيف والمهمازين للكونت، حتى يرسمه فارساً، الأمر الذي فعله، وبعد هذا دخل مولاي هينريخ Heinrich ، بارون أوف ستوفل، الذي رسمه فارساً البارون جون أوف زيمرن، ومن قبل هذا المتقدم الذكر كان مولاي جون التروخسيس قد رسم فارساً، وهو رسم فارساً مولاي أورسوس أوف هوهنريخبرغ Hohenrechberg الذي دخل بعده، وعندما تسلم هؤلاء الفروسية، وغادروا المكان، تلقى بقية النبلاء أيضاً فروسيتهم تبعاً وفقاً لمراتبهم.

وفي حجي الأول، قام الأخ جون برسم جميع النبلاء فرساناً، بيده، لأنه لم يكن هناك بينهم واحد أعلى من البقية في مرتبة النبلاء، بل كان الجميع سواء، وقد فعل ذلك لأن المساوي في الرتبة لا يجوز له رسم مساويه فارساً، مثلما ليس للمساوي في الرتبة سلطة أو سيادة على مساويه، لكن عندما يجتمع هناك أمراء، ومركيزات، وكونتات، وبارونات ونبلاء، وقتها يتولى جون بنفسه رسم الأعلى بينهم، وبعد رسمه له، يتولى هذا رسم الذي يليه بالرتبة وهكذا وصولاً حتى الأدنى مرتبة بين الأمراء، الذين يلتمسون أن يرسموا من قبل هؤلاء السادة، الذين هم بالنسبة لهم أتباع، أو أنهم يتمنون لهم بخدماتهم بشكل خاص.

ولو توفر بعض الأشخاص الأتقياء ممن تلقى الفروسية بسبب التقوى، ومع ذلك لا يرغبون بحمل شاراتها في بلادهم، فإن هؤلاء

الناس لا يجري رسمهم من قبل الأمراء، أو من قبل الذين يلونهم، بل إنهم يمنحون أنفسهم للأخ جون، وبناء عليه إنه في تلك الساعة التي صار فيها الجميع فرساناً، يقوم كل واحد منهم إثر تسلمه للفروسية بتقديم هبة قيمة إلى الأخ جون، ويفعل ذلك كل إنسان تبعاً لامكانياته، فبعضهم يدفع عشر دوقيات، وبعضهم ثمان، وبعضهم ست، وبعضهم خمس، وذلك من أجل ترميم الضريح المقدس والكنيسة، واحتراما للأماكن المقدسة، وللانفاق على الرهبان الذين يتولون حراسة الضريح المقدس، ومن أجل ابقاء المصابيح مضاءة، ولأغراض أخرى، يعرف الأخ جون المتقدم الذكر أنها في حاجة.

إطراء فروسية الضريح المقدس وسمو فرسان الضريح المقدس وتقدمهم على جميع الفرسان في العالم

منذ قديم الزمان لم تبق روح الناس النبلاء قانعة بالمناطق التي حصل عليها آباؤهم وأجدادهم، بل إنهم اعتادوا بشكل عام على اشغال أنفسهم بالحصول على ألقاب جديدة للسمو بأسمائهم، ولقد حدثنا المؤرخون القدماء كيف أن هانيبال، الذي كان أعلى النبلاء الأفارقة شأنًا، قد جاء من قرطاج، ودخل إلى بلاد إيطاليا، وكيف أنه تمكن بتفوق شجاعته من جعل روما ومناطق كثيرة خاضعة لسلطانه، ومثل هذا فعل فرسوس تاشيوس (كذا)، والد النبلاء الإغريق، فطار عبر البحر على ظهر حصان مجنح، ودخل فارس، واستولى عليها، وهكذا كان أيضاً الاسكندر، الذي كان قوياً بثرواته، وعظيماً بأصله النبيل، فقد عبر خلال بلدان العالم، وأخضعها جميعاً لسلطانه الشخصي، ومع ذلك لم يجلس قانعاً، بل فكر بمدّ حدود امبراطوريته إلى ما وراء هذا العالم، ومثل هذا نقرأ عن عدد كبير آخر من الذين لم يقتنعوا ببلدانهم، وتقدموا نحو الأمام للقيام بأعمال عظيمة.

ومثل هؤلاء الناس لم يجلسوا للاستراحة، ولم يعطوا أنفسهم وقتاً

للنوم، بل عملوا جادين وصارعوا دونما توقف، وبذلوا جهوداً جبارة، هذا ولناخذ أمثلة من نبلاء أيامنا هذه، ودعونا ننظر إلى الجيش المجيد لحجاجنا النبلاء، الذين يتنعمون الآن برتبة الفروسية، والذين — في الحقيقة — تجدهم في مدنها، وبلداتهم، ومزارعهم، وقلاعهم، وقراهم، وممتلكاتهم، وقد امتلكوا ثروات متدفقة، ويعيشون برفاه، ويتمتعون بهدوء في اقطاعياتهم، ويسهمون في أعمال صيد بهيجة، ويشاهدون العروض في المسارح، وينخرطون في مبارزات جريئة، ويشاقفون بالرماح، ويتبارون في الصيد والرقص، أو يقيمون بعبادة هادئة لسيرس Ceres (ربة الزراعة عند الرومان) وباخوس وفينوس.

غير أنهم اعتقدوا أنه من العبث الأخذ بالكسل والتراخي، وأنه عمل شرير تكريس عقولهم لمتابعة الأعمال المتقدمة الذكر، ولذلك أطاعوا عقولهم، ونهضوا بأنفسهم برغبة شديدة وبحماس نحو أعلى المراتب المتعلقة بخدمات الفروسية، وليس أي نوع عام من أنواع الفروسية، بل أعلى وأسمى مايمكن تحصيله في هذا العالم، وهو فروسية الضريح المقدس، التي هي أفضل الفروسيات وأنبهها جميعاً، وهذا يمكن البرهنة عليه بكثير من الحجج، التي سأعرضها هنا.

أولاً: لأن هذه الفروسية أعظم قداسة، لأن تلقيها يجري لدى ممارسة أعظم العبادات، حيث أنها تسلم على ركبتين راكعتين أثناء الصلاة في الضريح المقدس، وليس هناك نبيل واحد سيقول بأنه قدم إلى القدس بشكل أساسي من أجل الفروسية، بل جاء لسبب أساسي هو احترامه للأماكن المقدسة، التي فيها عمل خلاصنا، وهذا عمل يتعلق بعبادة الرب، وعمل له فضائل مقدسة، وفي الحقيقة هم يقولون — وغالباً ما سمعت ذلك يقال من قبل الفرسان — لو أن الأماكن المقدسة لم تكن بالقدس، لما قاموا مطلقاً بعبور البحار، حتى لو كان بإمكانهم الحصول على ألف فروسية هناك، بل إن الأماكن المقدسة هي التي تحركهم

وتدفعهم نحو الارتحال إلى هناك، ولهذا إن هذه الفروسية أعظم قداسة من الفروسيات الأخرى،

ثانياً: إن هذه الفروسية هي الأعظم قداسة، لأنها تمنح في أعظم الأماكن قداسة في العالم، أي في هذه البقعة التي قام فيها ربنا يسوع المسيح من الموت.

ثالثاً: إن هذه الفروسية، أعظم روحانية من الجميع، لأنها تضيف فقط على الذين يمتلكون قلوباً نادمة تائبة، من الذين اعترفوا بذنوبهم، وتمتنوا بالقربان المقدس في مكان روحاني، من قبل رجل روحاني وراهب متواضع.

رابعاً: لأنها الأعظم فضيلة بين الجميع، فهذه الفروسية غير مشوبة بأي من الشرور، ذلك أنه في الفروسيات الأخرى: غيرة، وغضب، وحسد، وتشامخ، مع كثير من الشرور الأخرى المتعلقة بها، في حين إن هذه الفروسية في ذاتها كلها فضائل.

خامساً: إن هذه الفروسية هي الأعظم لياقة بين الجميع، وهي في الحقيقة الأعظم لياقة، لأن المسيحي الذي يرغب في أن يصبح فارساً، يتوجب عليه أن يتسلم الفروسية على أرض الميدان التي هزم عليها ملكه أعظم أعدائه قوة، بيد أنها هنا يجري تسلمها من قبل ملكنا، وأعني به المسيح، وفي ميدان هو موضع الجلجلة، حيث هزم الشيطان.

سادساً: إن هذه الفروسية العائدة إلى الضريح المقدس هي الأنقى والأنظف، وهي أعظم براءة من أية فروسية أخرى، لأنها غير ملطخة بأي دم بشري، مثل بقية أنواع طوائف الفرسان، التي هي من حيث المبدأ غير نظيفة، لأنها تعطي، حيث يوجد أعظم سفك للدماء البشرية، والأسوأ من هذا كله أن الناس يحصلون على الفروسية بسبب سفكهم لدماء قوم من المسيحيين، أي دماء إخوانهم، وبذلك هي فروسية ملعونة

وغير مرضية للرب.

فداوود، الملك المقدس، لم يؤذن له ببناء هيكل الرب، لأنه كان رجل حرب، وقام بسفك الدماء البشرية، وذلك حسبنا قرأنا في أخبار الأيام الأول: ٨/٢٢، مع أننا ينبغي أن نتذكر أنه سفك فقط دماء الغلف غير المختونين والكفار، وأنه سفك دماءهم بناء على أمر من الرب، فإذا كانت دماء الوثنيين جعلت ذلك الرجل المقدس ملوثاً، وليس بإمكانه بناء الهيكل، ما الذي يمكن فعله بشأن الدماء النبيلة جداً للمؤمنين المسيحيين؟ وكم من الدنس سيلحق الذي تسبب بسفكها! ألا تجعل هذه الدماء الفارس دنساً وملوثاً؟ وليست فروسيتنا البريئة العائدة للقدس ملوثة هكذا بدماء المسيحيين، بل إنها تطهر الفرسان، وتوجب عليهم الدفاع عن الدم المسيحي بسبب أنهم تلقوا الفروسية في المكان الذي سفكت فيه دماء المسيح الطاهرة جداً، من أجل الناس جميعاً، ولذلك يمتقنون سفك دم أي إنسان، ما لم يرغموا على سفك الدم المجرم دفاعاً عن دم المسيح.

سابعاً: إن هذه الفروسية هي الأكثر عقلانية بين الجميع، لأن المنطق يوجب وجود بعض الناس بين جماعات المسيحيين للدفاع عن الأيمان بسيوفهم، ولإيقاف الظلم بسلاحهم، ولإرغام الضالين على العودة إلى الصواب بالقوة، فهذا هو واجب فرسان الضريح المقدس، كما أوضحنا وبيّنا، ولا يؤتى بالعادة على ذكر هذه الواجبات، عندما يتلقى الرجال الفروسية في أماكن أخرى.

ثامناً: وهذه الفروسية هي الأكثر لطفاً بين الجميع، لأن الرجال لم يجعلوا فرساناً في القدس لإيذاء أي إنسان، في حين أن الآخرين عملوا فرساناً لمحاربة أعدائهم، ولإيذاء الآخرين بمختلف الطرق.

تاسعاً: إن هذه الفروسية هي الأعظم مشقة بين الجميع، لأن من

الذي يمكنه أن يصف متاعب فارس الضريح المقدس، التي يعاني منها، ليس من أجل الحصول على الفروسية، بل لإجلالاً للرب وسعيًا في سبيل خلاص روحه؟

عاشراً: إن هذه الفروسية هي الأعظم خطراً بينها جميعاً، لأن التعب من دون خطر، له قيمة ضئيلة، بل ينظر إلى مشقة قليلة مع كثير من التعب، على أنه أمر عظيم، والآن من الممكن العثور على هذين الأمرين في فروسيتنا، وذلك بوجود مشقة عظيمة وخطر عظيم، الأمر الذي يبرهن على صحته رحلاتي وجولاتي كلها.

حادي عشر: إن فروسيتنا هذه هي الأشد إيلاماً، لأنه تمّ الحصول عليها من خلال كثير من الشقاء وكثير من المحن، ومع ذلك توجب على الحاج أن تكون حافظة نقوده مليئة بالمال.

ثاني عشر: إن فروسية القدس هذه أكثر حكمة، بسبب مختلف الخبرات التي يمرّ بها الانسان، فالرجل النبيل الذي ينطلق من دياره يريد القدس يكسب كثيراً من الخبرة حول طرق العالم في البحر، على طرفي البحر معاً، وحول عادات الناس والفوارق بينهم، لأنه يتلقى المعرفة من المؤمنين وغير المؤمنين، لأنه يشاهد المسيحيين، والأتراك، والمسلمين، والمماليك، والتتار، والعرب، واليهود، والسامرة، والمغاربة، والاغريق، والأرمن، والهنگار، والدلماش، والبانونيين، والآخيين، والطلليان، والغاليين، والانكليز، والتوتون، ويسكن بينهم، وباختصار إنه يحصل على المعلومات حول جميع الناس والبلاد، في كل من الشرق والغرب، وذلك إذا كان انساناً متفكراً متذكراً.

علاوة على هذا، يتعلم الذي يود الحصول على هذه الفروسية، بالتجربة، من هو صديق، ومن هو عدو، ويتعلم أيضاً، كيف يميز بين الكاذب والصادق من الناس، ويتوصل إلى معرفة الفرق بين ما هو جيد

وما هو سيء، ويكتشف ما قصد بالحظ السيء، والحظ الجيد، وما عني بالشر وبالفضيلة، وكم هو الفرق كبير بين الرجل الجيد، وبين الرجل السيء، ومثل هذا يتلقى خبرة أئمن من جميع ما تقدم، فعندما يكون الانسان في حجه هذا، يبدأ بمعرفة نفسه عن قرب، ويتعلم عن قرب حكمته وحقائقه، وعواطفه المتنوعة ورغباته، وفضائله وشروره، وأقول صادقاً إنه في أربعين اسبوعاً من هذا الحج، يتعلم الانسان ويتعرف على نفسه، أكثر مما فعل ذلك في أربعين سنة في موضع آخر.

وأعترف أنني لم أر مطلقاً نقاط ضعفي وشروري أفضل، أو أوضح مما فعلته ثناء جولاتي هذه، وبشكل خاص عندما كنت في البحر في الغليون، أو في خيمة في الصحراء، لأنه في هذه الأماكن لا يبقى جزء من أخلاق الانسان مخفياً، وأنا متأكد بأن رفاقي وموالي النبلاء يعرفونني ويعرفون جميع عاداتي أفضل من اخواني في طائفتي، الذين عشت معهم لمدة ثلاثين سنة، وأنا أعرف هؤلاء الفرسان أفضل من معرفة زوجاتهم لهم، وكذلك أفضل مما فعل آبائهم، وأولادهم وخدمهم، لأنه في هذه المشاق والمغامرات التي يقدم عليها الحجاج، مامن واحد منهم يمكنه أن يصون نفسه، بل تظهر جميع أفكاره السرية بشكل متتابع، لأن هناك عملاً متواصلاً يستدعيهم إلى الظهور، هذا ويتلقى الفرسان الآخر الذين يرسمون فرساناً في بلاطات الملوك، أو على جسر التير، أو في ميادين القتال، قليلاً من الخبرة.

ثالث عشر: إن فروسيتنا أعلى قيمة من الأخريات، لأن فرسان الضريح المقدس يمنحون المقام الأول بين جميع الناس روحياً ومادياً.

رابع عشر: إن فروسيتنا أعظم قوة وأعلى سلطة من الآخر، لأنها منحت بوساطة سلطات البابا الذي هو أبونا الأعظم قداسة، ومن قبل مولانا الأعظم جلاله الذي هو الامبراطور، وإنه عندما يتم أحياناً رسم بعض الفرسان مراغمة للبابا ومراغمة للامبراطور أيضاً، أو بمعزل

عنهما أو من دون موافقتها وعلمهما، فإن هؤلاء يكونون بلا سلطة.

خامس عشر: إن فروسيتنا أعظم نبلاً من أية فروسية أخرى، وتضيفي النبالة على الفروسيات الأخرى، في حين أن العكس ليس صحيحاً، ولقد رأيت عدداً كبيراً ممن رسم فرساناً من قبل الامبراطور، وفي ميدان المعركة، ومع ذلك لم يهتموا بحمل شارات فروسيتهم حتى رسموا فرساناً في الضريح المقدس، وأعرف واحداً من النبلاء، قام الامبراطور برسمه فارساً في إحدى المعارك، ثم رسمه ملك هنغاريا في معركة ثانية، وبعده رسمه ملك بوهيميا في معركة ثالثة، ومع ذلك تصرف دوماً كمجرد نبيل عادي، وذلك حتى رسم فارساً للمرة الرابعة في ضريح الرب، فبعد ذلك قام بعرض شارات فروسيته، وهو في هذه الأيام فارس رائع، يركب مع أتباع كثيرين.

سادس عشر: إن فروسيتنا هي الأكثر إعجاباً بين الجميع، لأن الناس يشعرون بنوع من الإعجاب تجاه فارس الضريح المقدس، بسبب تسلمه لفروسيته بين المسلمين وفي وسطهم، وفي ضريح الرب المقدس.

سابع عشر: إن هذه الفروسية هي الأعظم تبجيلاً، لأن لفارس الضريح المقدس حق الأسبقية على الجميع في السير، والوقوف، والجلوس، والكلام، وغسل اليدين، والأكل، وهكذا دواليك.

ثامن عشر: إن فروسيتنا هي الأعظم تميزاً بين الجميع، وعندما يبدأ فارس من الضريح المقدس بالحديث عن فروسيته، وعن المكان الذي نال فيه فروسيته، وعن المغامرات التي واجهها، يحدق جميع الناس بأبصارهم به، ويضعون بأفواه مفتوحة لما يقوله.

تاسع عشر: إن فروسيتنا هي الأكثر قبولاً بين الجميع، لأن فرسان الضريح المقدس مقبولين لدى كل من النبلاء والعامة، ذلك أنهم يولون أهمية ضئيلة للفرسان الآخرين، لابل أكثر من ذلك يسمونهم بالخشونة

والوحشية، وأنهم أناس مرعيين.

عشرون: إن فروسيتنا هي الأكثر رجولة بين الجميع، لأنه أمر ضئيل القيمة أن تتمكن مرة من خرق صف العدو، أو أن تواجه العدو وجهاً لوجه، إنما هو شيء عظيم أن تكون مراراً في موقف رعب مميت، كما هو الحال بالنسبة لفرساننا.

حادي وعشرون: إن هذه الفروسية أعظم نشاطاً وفعالية من الآخرين، لأنها تحتاج إلى رجل شجاع في جميع الأحوال.

ثاني وعشرون: إن فروسيتنا أكثر استقامة من الأخرى، ذلك أن جميع الفروسيات الأخرى مشوبة بشيء من الظلم والشرور، وفروسيتنا هذه قائمة على العدالة، الانسانية والساوية، وهي منظمة بوساطة القوانين التي عملها الامبراطور، والبابا.

ثالث وعشرون: إن فروسيتنا أكثر موافقة وتأسيساً من الفروسيات الأخرى، لأنها تحدث بشكل متواصل أكثر من الفروسيات الأخرى التي تعمل في مكان غير معترف به لمنح الفروسية، من قبل آخرين، لابل يسخر منها ويطلق عليها اسم فروسية السيدة أو فروسية السنور، وفي الحرب مامن أحد من الفريقين يعترف بالفرسان الذين رسموا على الطرف الآخر للقتال ضدهم، ولا يوجد أي شيء من هذا النوع في فروسيتنا، بل يعترف الجميع بصاحبها فارساً.

رابع وعشرون: إن فروسيتنا هي الأقدم بين الجميع، لأنه منذ آلام المسيح، جرى رسم الذين عبروا البحر، صدوراً عن التقوى تجاه الاماكن المقدسة، وعدوا فرساناً.

خامس وعشرون: إن هذه الفروسية مرغوب بها أكثر من الفروسيات الأخرى، ويبرهن على صحة ذلك بحقيقة، أن الذين يرسمون فرساناً في مناطق أخرى، يظنون غير راضين بها، بل يتطلعون

بشوق إلى فروسيتنا وذلك بالاضافة للفروسية التي تلقوها، علاوة على ذلك يتوهج فرسان الضريح المقدس بحرارة الحب، ولذلك يتشوقون للعودة إلى المكان الذي تلقوا فيه فروسيتهم، وفي الحقيقة، يرغب الذين زاروا الأرض المقدسة بالعودة إليها، بحيث لا يمكن لأية مخاوف أن تمنعهم، وهذا ليس متوفراً في بقية طوائف الفروسية.

سادس وعشرون: إن فروسيتنا هي الأكثر تقيداً بأحكامها، لأن قانون هذه الفروسية قضى، بوجوب عدم تسلّم أي انسان لها، ما لم يكن نبياً حتى الجد الرابع، وهو مشهور في أسرته، علماً بأن هذا الشرط لايراعى الآن بدقة، حيث يجري رسم بعض الرجال من أصل منحط فرساناً مثلما يجري رسم النبلاء، وذلك مثلما الحال في الفروسيات الأخرى.

سابع وعشرون: إن فروسيتنا هي الأكثر تواضعاً من الجميع، وهي الأعظم طول معاناة، فالفرسان الآخريين لايتنازلون للتسامر مع أناس عاديين، ليسوا من أصل نبيل، ويحسدون أي حظ سعيد أصاب التابعين لهم، وفرسان الضريح المقدس ليسوا هكذا، فهم لا يستخفون بأي انسان، وجميع الناس يرتحلون برفقتهم، ولا يرفضون أحداً، لأنهم يبحرون عبر البحر إلى القدس برفقة، رهبان، وكهنة، وتجار، ومتسولين فقراء، لابل أكثر من ذلك، إنهم يعبرون حتى برفقة نساء، من الشابات والعجائز، ومع عقيلات وراهبات ولا يعيرون اهتماماً محاولات النيل الحمقاء منهم ومن أخلاقهم، التي تقول بأن فروسية الضريح المقدس نسائية، وذلك بسبب النساء العجائز اللائي يحظين برفقتهم، وهم لا ينجحون من التعايش مع هؤلاء النساء العجائز، لابل يبتهجون بذلك، ويعدون أنه لصالحهم تلقي فروسيتهم الدنيوية في المكان الذي فيه، راهبات وعقيلات، ونساء عجائز، ورهبان وكهنة، وجميع أنواع الناس الأتقياء الذين يلتمسون عونهم في قضاياهم الروحية، ومن أجل زيادة

نعمة الرب.

ثامن وعشرون: إن فروسيتنا هي الأقسى بين الجميع، لأن الفروسية التي تمنح في بلاطات الملوك والأمراء وفي ميادين المعارك، تمنح مع شيء من النصر والسرور، وتجلب معها منافع متعددة، في حين إن فروسيتنا قاسية وفيها ندامة وتوبة، ولا تحمل معها لاهجة ولا منافع بل كثيراً من المحن.

تاسع وعشرون: تتطلب هذه الفروسية المزيد من الشجاعة، أكثر من البقية، لأن الذي يعبر البحر بجرأة يخاطر بحياته، أكثر من الذي يذهب إلى الحرب، لأن هذا الذهاب إلى الحرب، يذهب وهو حام لنفسه بالدروع، ويمكنه أن يحرس نفسه ضد المخاطر، ويمكنه في النهاية الفرار، والبحث عن ملجأ، في حين لا يمتلك فارس الضريح المقدس أي نوع من هذه المساعدات لحماية نفسه ضد المخاطر التي تحيق به في كل من البحر والبر، لأنه عندما يكون بين غير المسيحيين، عليه أن يتصرف وأن يتحمل وكأنه بلا مشاعر، وأن لا يرد على الذين يضربونه، وبناء عليه يمكنه عن حق أن يردد قائلاً ماكتب في سفر الأمثال: ٢٣/ ٣٥ «يقول ضربوني ولم أتوجع. لقد لكأوني ولم أعرف»، هذا وكان قد مر بنا أمثلة حول هذا.

ثلاثون: وهذه الفروسية أبعد مسافة من أي من الفروسيات الأخرى، لأنها منحت في وسط العالم، وهذا ويلمس الفرسان الذين يذهبون إلى القديسة كاترين، الأجزاء الثلاثة الرئيسية للعالم، وهي أوروبا، التي جاءوا منها، وآسيا التي اجتازوها، وأفريقيا التي يلامسونها في مناطق الاسكندرية، في حين يقيم الفرسان الآخرون قرب مواطنهم لأداء خدماتهم.

احدى وثلاثون: فروسيتنا هي الأكثر توازناً وانضباطاً، لأن الفرسان

الآخرين — حتى وإن رسموا في الحرب نفسها — يتفاخرون بأنفسهم، ويمدح أحدهم نفسه أمام آخر، ويجري تفضيل بعضهم أمام آخرين من قبل أناس على أنهم فرسان أفضل، ويستحقون شرف الفروسية أكثر مما نالوه، وغالباً ما يتخاصمون بشكل مخيف أحدهم مع الآخر في بلاطات الملوك، حول هذه المسائل، هذا وفروسيتنا المقدسية متحررة من جميع هذه الشجارات، وهذه التفاخرات الدنيئة، لأن الجميع يحصلون عليها بالوسائط نفسها، ورجل نبيل جعل فارساً هو ليس أقل من ملك رسم هناك.

ثاني وثلاثون: إن فروسيتنا هذه عالمية، من حيث أن جميع النبلاء يرسمون هناك، وذلك سواء أكانوا من الشرق أو من الغرب، أو شيوخاً أم شباباً.

ثالث وثلاثون: إن فروسيتنا هذه هي الأقل خطراً على النفس، على أساس جميع ما يعمل في القدس هو صحيح ومقدس، الأمر الذي هو غير متوفر في وضع الآخرين.

رابع وثلاثون: إنها مشرفة لدى جميع الناس، لأن هؤلاء الفرسان مشرفين لدى الامبراطور، والملوك والأمراء، والكونتات والبارونات، ومثل ذلك لدى البابا، والكرادلة، والأساقفة، وجميع رجال الدين، والمنظمات الدينية، ومن قبل عامة الناس، ومن الشيوخ والشباب سواء.

خامس وثلاثون: إن فروسيتنا هي الأعلى ثمناً من البقية، على أساس أنه يتم الحصول عليها، مقابل سعر مرتفع، ونفقات كثيرة، خاصة إذا قام الفارس بالحج إلى القديسة كاترين، ومع أنه يجري في فروسيات أخرى صرف المزيد من المال، إن هذه الأموال تنفق بشكل عاث، ووسط أهبة دنيوية وفارغة، أو في مبالغاة، ليس لأي منها مكان في فروسيتنا.

سادس وثلاثون: إن فروسيتنا نظامية أكثر من سواها، لأننا نرى بشكل عام فارس الأرض المقدسة أكثر تواضعاً، وانتظاماً، وأكثر جدية، وأفضل نشأة وتربية من الفرسان الذين رسموا في الحروب.

سابع وثلاثون: إن فروسيتنا هي الأكثر ثماراً، في كثير من الجوانب والطرق، لأن الفارس في فروسيتنا، وإن كان بدون كتب، يدرس أشياء كثيرة وقعت في كل من العهد القديم والعهد الجديد، ويكون ذلك أثناء تجواله حول الأماكن المقدسة، ولهذا حدث كقاعدة عامة أن هؤلاء الفرسان غالباً ما يتحدثون بوضوح أكثر، وبمعرفة أعظم حول التواريخ الموجودة في التوارة، وحول آلام الرب، وهكذا، من كثير من الكهنة، وكنا قد بينا هذا من قبل، ويصبح الفارس في الأرض المقدسة أكثر حكمة، بوساطة كثير من الخبرات، كما أوضحنا في الأحكام السبعة والعشرين، فضلاً عن هذا هو أكثر ندامة هناك، ويعترف بذنوبه، ويتلقى غفرانات كثيرة، منها تأتي ثمار كثيرة ونتائج في كل شيء.

ثمان وثلاثون: إن فروسيتنا هي الأعظم إيماناً من الجميع، لأنه كقاعدة، فرسان الضريح المقدس هم على درجة عالية من الثبات، وهم كاثوليك جيدين، لأنهم يرون بأعينهم بأن إيماننا هو منطقي أكثر، وأكثر استقامة من أي من الآخرين، في حين ينعدم الاهتمام بالآيات المتقدم الذكر في الفروسيات الأخرى.

تسع وثلاثون: من الواضح من جميع ما قيل بأن فروسيتنا هي التي تستحق الحياة الأبدية أكثر من سواها، في حين نجد الفارس في الفروسيات الأخرى، لا يكسب حياته فقط، بل يجعلون أنفسهم غير أهل لها، لأنه كقاعدة هناك حاجة للأعمال الآثمة للحصول على فروسيتهم.

أربعون: وأخيراً، إن فروسيتنا، فروسية القدس، هي فروسية سعيدة،

لأن فارس الضريح المقدس هو بالفعل سعيد، أثناء قيامه بالحج، لأنه لومات وهو على طريقه، فسوف يطير إلى السماء مباشرة ، ولا يدخل إلى المطهرة، وحول هذه المسألة انظر القديس توما الأكويني في « Qu.v.quvii,7.qr2 » فضلاً عن هذا، هو يكون سعيداً مثل الذي يرى الرب في القدس السماوية، التي هي في الأعلى، ويكون مثل هذا سعيداً وهو على طريقه، لأنه يحاكي الأسرار السماوية في القدس على الأرض، وسيكون سعيداً مثل الذي يرى المسيح في المجد، ومريم العذراء الأعظم مباركة، والبطاركة والأنبياء، والرسل، لابل سوف يكون سعيداً مثل الذي يقفوا آثار طبعات قدمي المسيح، والعذراء المباركة، والأنبياء والرسل ويقبلها، علاوة على ذلك سيكون سعيداً مثل الذي هو متأكد من أمل السعادة، لأن حتى الذي يرى القدس الأرضية هو سعيد، لأنه قد كتب، أن الذين من أجل مجد الرب زاروا مدينة القدس المقدسة ورأوها، سوف يدخلون بشكل مؤكد، وبلاشك ، القدس السماوية، ولسوف يرون هناك صاحب الجلالة الملك، الذي بحثوا عنه في المعلق، وعلى الصليب ، وفي الضريح في القدس على الأرض، ولست أدري مدى مصداقية هذا القول، ومع هذا إنني آمل، هذا ولقد تبرهن بوساطة هذه الحجج علو مكانة فروسية الضريح المقدس، فوق جميع الفروسيات الأخرى، وكان القديس برنارد قد كتب قداساً طويلاً، خاطب فيه هؤلاء الفرسان العائدين إلى القدس، حيث وصف حياتهم الفروسية، وأحاديثهم، وشجبهم لشور الفرسان الشهوانيين، في الاصحاح الرابع منه.

القداس الذي يعقد في تلك الليلة في الضريح المقدس

جرى تنصيب الفرسان أو رسمهم في ضريح الرب، حسبما وصفنا من قبل، وكان رسمهم جميعاً يستغرق وقتاً طويلاً، ولم يكن بإمكاننا الاحتفال بالقداسات قبل انتهاء الرسم، ووقفنا جميعاً ننتظر ونجولنا

بمصاييحنا حول الأماكن المقدسة، وفي الحقيقة، لقد رتبت، أن يكون سهري في تلك الليلة، وصومي وصلواتي وجميع أعمال خشوعي — التي كانت كما هو مؤسف، فاترة، ومرهقة، وبلا فائدة تقريباً — أن تمنح لصالح الذين وعدتهم بأن أتذكرهم، عندما سأكون في الأماكن المقدسة، ولصالح أحبائي من إخواني، الذين أفادوني، وقدموا لي يد المساعدة باسهامهم بنفقاتي في الرحلة إلى هذه الأماكن المقدسة جداً.

وبناء عليه، سعدت في الوقت الذي كان فيه الفرسان يرسمون، إلى رابية أكرام المقدسة، وأشعلت شمعة، ووضعت حبراً أمامي إلى جانب الصخرة الأعظم قداسة، التي وقف عليها الصليب فيما مضى، وهناك كتبت أسماء الذين وعدتهم بشكل خاص، والذين من واجبي الصلاة من أجلهم، وبعدما كتبت جميع الأسماء في ابتهالات، ذهبت مع الورقة المكتوبة إلى الصخرة المقدسة، وجثوث هناك على ركبتني، ووضعت الورقة فوق الصخرة المقدسة، وقدمت صلاة إلى كل واحد كتب اسمه في الورقة، وإلى آخرين وردوا إلى خاطري، وبمعايير فقيرة، وحسبما يمنح الرب بكرمه مذنّب تعيس جداً مثلي، التمسيت من الرب بشفاعاة تلك الصلاة الفعالة التي قدمت هنا فيما مضى في هذا المكان على الصليب، بأن يتفضل فيقبل صلاتي غير الكاملة، إن لم يكن من أجل فضائلي، فلتكن من أجل فضائل الأحياء والأموات الذين وافقت على أن أصلي من أجلهم، ونزلت بعد هذا إلى الأماكن المقدسة الأخرى مع الورقة، ونشرتها مفتوحة فوق هذه الأماكن الأعظم قداسة، وقد صليت من أجل الذين كتبت أسماءهم فيها، وذلك بشكل عام ، وواحداً بعد الآخر.

وكان منتصف الليل قد مضى، وكانت أعمال رسم الفرسان قد انتهت أيضاً، فشرعنا نتلو قداسات في الأماكن الأربعة التي تقدم لي ذكرها، وفي ذلك الصباح تدبرت تخليق موضع الرب، وأثناء القداس

أبقيت الورقة، مع أسماء الأعزاء علي، ممددة أمامي، وعملت القديس نفسه لصالحهم، وعندما أضاء النهار، غنينا قداساً عالياً في ضريح قيامة الرب، كما سنري في المستقبل، وبذلك انتهى هذا القديس.

وعندما انتهى كل شيء، وكنا ننتظر السادة المغاربة لآخراجنا، نشب فجأة صراع وخصام بين الفرسان الذين رسموا حديثاً، وحدث اضطراب عظيم، سببه واحد من الحجاج، أقحم نفسه في الداخل، ورسم فارساً، وقد كان لأسباب عديدة غير أهل، مع أنه في الحقيقة كان رفيقاً جيداً ومرحاً، لكن قامته كانت قصيرة جداً حتى يحمل إباء الفروسية، ووجه الفرسان الحجاج، والكونتات، والبارونات الملامة لهذا الرجل على وقاحته، في حين قام فرسان آخرون مع رفاقه بالدفاع عنه، وهكذا وقفوا يتجادل واحد منهم مع الآخر في الكنيسة المقدسة، وعندما — على كل حال — جرى شرح السبب إلى الأخ جون الذي تقدم ذكره، استدعى جميع الفرسان إلى كنيسة الجلجلة، أمام المذبح العالي، وجعل الرجل الذي قام من أجله النزاع، وكذلك رفاقه، يقسمون باسم الرب، أن يخبروه بمرتبة وبوضع ذلك الرجل، وبعدما سمع منهم الأخ جون المتقدم الذكر ما قالوه، أعلن أن هذا الرجل ليس فارساً بأي حال من الأحوال، ولا يصح أن يكون كذلك، وهكذا وجدت هذه القضية حلاً لها، وانتهت بسلام، وجرى تجريد ذلك الإنسان الطيب من فروسيته، وفيما نحن مابرحنا نتحدث حول هذه المسألة، جاء المغاربة، وأخرجونا من الكنيسة، وذهبنا إلى أماكننا للاستراحة، ولم أصعد في هذه المناسبة إلى جبل صهيون مع الرهبان، بل رجاني الفرسان الجدد من موالي بالبقاء معهم في ذلك اليوم في المشفى، وأن أعمل لهم قداساً في مدح الفروسية المقدسة، وقد أقمته كما يلي، وتلوته بلغة ألمانية دارجة، لأنني وجدتهم علمانيين مجهلون اللاتينية.

حث للفرسان على القيام بما تعهدوا به أنفسهم عندما تسلموا الفروسية في الضريح المقدس

خشوع خالص، وحب نحو الرب، الذي أثاركم، يا فرساني الجديرين، حتى جذبتكم بقلوبكم العظيمة واللطيفة، نحو قبر مخلصكم، وجعلكم ترون أنه عمل مفيد، أن تخاطروا بفقدان ممتلكاتكم بترككم بلادكم التي ولدتم بها، للقدوم إلى هذه البلاد الأجنبية والمقدسة، وتحركتم هنا بنواياكم التقية بتعبد وتقييل هذه الأماكن الفاتقة القداسة، وبالحصول على الغفرانات، وبأخذكم على أنفسكم عهد الفروسية المقدسة، من أجل العبادات والخدمات المقدسة، وأن تقاتلوا باخلاص حتى الموت ضد أعداء الايمان، والذين يزددون الصليب، وأعداء كنيسة الرب، وبناء عليه أرجوكم وأتوسل إليكم التمسك بثبات بنواياكم التقوية هذه، وبما أنكم عرضتم نفوسكم لمختلف المخاطر، في سبيل الحصول على هذه الفروسية، كرسوا أنفسكم برجولة، لحمل رسالتكم، وناضلوا بكل قواكم للوفاء بجميع العهود التي أبرمتوها عندما حملتم أنفسكم لتكونوا فرساناً، وجددوا هذه الروح في عقولكم يوماً فيوماً، حتى تظلوا دوماً الرجال الجدد، الذين انخلقوا وفقاً لإرادة الرب، وأن تكونوا محميين بجميع دروع الرب، حتى تقفوا بثبات ضد الشيطان الشرير.

أتوسل إليكم دعوا قلوبكم تلتهب مثل النار، حماسة لهذه الأشياء، التي هي من الرب، وبشكل خاص لتأمين الضروريات لضريح الرب، وأرضه المقدسة، واتركوا عواطفكم تلتهب بحرارة التفكير التقوي، وقاتلوا معركة الرب مع أمل النجاح من عليين، وعلى كل واحد منكم أن يتمنطق بسيفه الجبار، للانتقام للأخطاء التي اقترفت بحق الرب، انتبهوا، وانظروا بأعينكم كيف هو الآن في هذه الأيام وضع الميراث الطيب لمخلصنا، إنه، وبالأأسف، قد سقط بين الغرباء، وكيف

هو أيضاً، وضع المكان الأعظم قداسة، حيث ولدت العذراء الأم بملك السماء، واعرفوا أن المكان الذي تلتطخ بالدم الثمين جداً لمخلصنا، والمكان الذي تشرف بتمدده فيه، أي مكان أساس ضريح الرب، والمكان الذي قام فيه المسيح من الموت، وهو المكان الذي تحول إلى الشهرة أضعافاً مضاعفة بمجد قيامته، هذا المكان صار تحت نير شعوب غريبة، إن الذي مالم يكن صدره من حديد أو قلبه صلب أصم، هو الذي هنا ولا تتشوق أحشاؤه إلى هذه الأرض، فمن هو الذي لا يستشار من أعماق قلبه؟ ومن الذي لن يلهب بالغضب، ويلهم بالشجاعة، حتى يمكنه انزال الانتقام المستحق؟ امنع يا رب أي جندي من جنود الضريح المقدس أن يترك سلاحه يأكله الصدأ، وامنعه يارب من أن يضمن بحياته من أجل النصر، مشاهداً أن المنتصر لا يمكن أن يخفق في نيل تاج المجد، لأنكم ترون كيف أنه بمتهى السلام والمباركة، يقاتل جند المسيح معارك ربهم، وعروسه الكنيسة، عندما يحملون السلاح ضد الكفار، ناظرين أنهم ليسوا بحاجة لأن يخافوا في أن يذنبوا في قتلهم الأعداء، أو أن يعانون من الخوف من موتهم الذاتي، بما أن الموت ينبغي أن يعطى وأن يؤخذ من أجل المسيح.

وأقول: إن مثل هذا الفارس، عندما يقتل عدوه يقتله بدون ذنب، وعندما يموت، يموت مع بعض الأمل، لأن ينال قبراً لذاته عندما يموت، وللمسيح عندما يقتل، ثم إنه ليس متحرراً، بل يمكنني القول: إنه منتقم، عندما يقتل مقترفي الشرور، وجدير أن يعدّ مدافعاً عن المسيحية ومنتقماً لها، فالمسيحي يمجد عن حق في موت كافر، لأن المسيح قد تمجد هناك، وبناء عليه انهضوا بأنفسكم، أيها الفرسان الأعظم شجاعة، ثوروا للانتقام للاهانات التي أنزلت بربنا، وللعار الذي لحق بشعوب المسيحية، مثلما فعل المكابيون البواسل في القديم، واجعلوا هدفكم قتل الكفار، أو الحاق الهزيمة بهم، واسترداد تراث

الرب وإعادته إلى المسيحية.

فكل انسان ينتقم للأخطاء التي اقترفت بحق أتباعه، أفلا ينتقم للأخطاء البشعة التي اقترفت بحق ربه؟ وما من انسان يسمح بوضع أيدي الأثمين على تراث عائلته، فهل ياترى سوف يصبر على رؤية تراث الرب واقعاً لمثل هذه المدة الطويلة بأيدي الغرباء؟ ويتوجب على الذين يعبدون الصليب عدم تناسي الالهانات التي لحقت بالذي صلب، ذلك أنهم عن حق سوف يرفضونها لو أنها اقترفت بحق انسان، خلوا الازدراء الذي ألقي على مخلصكم، يثير عقولكم ونفوسكم، ودعوا الغيرة على عقيدته تلهب قلوبكم، والرب يحرم أن يعيقكم الخوف ويصدكم عن القتال المجيد، حيث هناك نصر وتاج من المجد دائم يمكن نيله دوماً.

وهنا انتهى القداس، وبعدهما فرغت من القداس شكرني الفرسان بشكل حار جداً، وأعلنوا أنهم على استعداد لبذل كل جهد ممكن لاسترداد الأرض المقدسة، شريطة أن يسير ملوك وأمراء وقادة المسيحية أمامهم، وهم يتقدون بالحماسة نفسها، فقد رأوا أنه ما لم تتم إثارتهم أنفسهم، ما من أحد يمكنه القيام بأي تحرك مفيد في هذا المجال، لأن شيئاً عظيماً جداً يمكن انجازه فقط باجتماع جميع شعوب الغرب مع بعضها، مثلما حدث في سنة ٨٠٢ لتجسيد الرب، ففي تلك السنة قام الامبراطور شارل الكبير (شارلمان) بناء على دعوة من زكريا، بطريرك القدس، ومن امبراطور القسطنطينية، فزحف نحو الشرق، مع جميع شعب الغرب، وأنقذ جميع الأرض المقدسة من أيدي المسلمين، وعندما تم فقدان الأرض المقدسة للمرة الثانية، وأعيد احتلالها من قبل المسلمين جرى طرد المسيحيين ونفيهم من الأرض المقدسة لمدة تزيد على المائتي سنة.

فبعدها نهض الدوق المجيد جداً للورين، والذي لم يعرف التعب، أي

غودفري أوف بولليون، وكان ذلك في سنة ١٠٩٩ لتجسيد الرب، حيث أنه جمع نخبة المقاتلين من جميع بلدان الغرب، وعبر البحر والبر بدون خوف، وبعدما أحدث مقتلة عظيمة بين المسلمين وصل إلى القدس، التي كان فيها أربعون ألفاً من المسلمين المسلحين، وذلك إلى جانب عامة الشعب، وحاصرت عساكرنا المدينة لمدة تسعة وثلاثين يوماً، وعندما استولوا عليها، حارب الصليبيون المسلمين فيما يعرف باسم «هيكِل سليمان» (الأقصى) وفي ساحاته، وأحدثوا فيه مذبحة بلغت حدّاً أنهم ساروا، ودم القتل واصل إلى ركبهم، وهكذا عاد ضريح الرب للمرة الثانية إلى أيدي ملاكه الشرعيين، وذلك بوساطة هؤلاء الفرسان الأمجاد، وبقي معهم لمدة ثمان وتسعين سنة، عندما توقفت المساعدات من البلدان الغربية، وكان الرب غاضباً على الشعب الصليبي بسبب ذنوبهم، وحسبنا شرحنا من قبل، أخذت القدس ثانية من قبل المسلمين، واستمرت في أيديهم حتى هذا اليوم، أي مدة ثلاثمائة سنة حتى عصرنا هذا غير السعيد، وبحق يمكنني دعوة أيامنا هذه بغير السعيدة، لأن مساء الايمان قد اقترب لينتشر فوق الدنيا، وباتت الفوضى وليل الشرور على وشك الحلول، فنور الاستقامة أخذ بالاضمحلال، والذي بقي منه لا يتعدى خيال من ظله، فالشريعة لم تعد موجودة مع الكهنة، والعدالة انعدمت لدى الأمراء، وانعدم الرأي الصائب بين الشيوخ، ولم يعد هناك إيمان لدى الناس، ولا محبة لدى الآباء، وزال الاحترام من عند الخدم، والإحسان من لدن الأساقفة، والتدين من عند الرهبان والشرف من عند الشباب، والنظام من بين رجال الدين، والتعليم من عند الأساتذة، والدراسة من عند العلمانيين، والعدالة من عند القضاة، والدفاع من عند الفرسان، والوئام من بين الناس، والخوف من عند رجال الخدمة، والتبعية من عند أهل الريف، والصدق من عند التجار، والفضيلة من بين النبلاء، والحنان من عند الوصيفات، والعزلة من عند الأرامل، والحب من بين المتزوجين،

والاحتشام لدى النساء، والصبر لدى الفقير، وهكذا دواليك.

وهكذا ضللنا وابتعدنا ونحن عميان عن الطريق المستقيم، وسرنا بعناد ومررنا من خلال كهوف الشرور، وميدان العالم في ظلام قدر، آه، كم هي غير مؤكدة الأوضاع الانسانية، وكم هي أيام حياتنا، مليئة بالمصائب، من دونك أيها الرب الجيد، أيتها الأوقات الشريرة، والأخلاق الشريرة، أيتها الأوقات المضطربة غاية الاضطراب، أيام الفواجع، والأخلاق الفاسدة، والأخلاق المهجورة، بين رجال الدين والناس، إنك أوقات تعيسة لذلك قيل عنك: *Venit summa dies et in eluctabile tempus* وبأنك أوقات فيك، وفقاً للقول القديم للنبي: كل رأس سوف يكون منهكاً، وكل قلب سوف يكون حزيناً، ومن أخمص القدم حتى أعلى الرأس سوف تنعدم الصحة، وإنه على هذا بسبب ذنوبنا، وظلم آبائنا، صارت القدس، والأرض (المباركة) والأماكن المقدسة، خاضعة لشعوب غريبة، ولإلحاق العار بنا، ولاهانتنا ديست بأقدام...، وأعجب من هذا، أنها منذ ثلاثمائة سنة، هي مدنسة بالخونة، ولخزي اسم المسيح الأعظم قداسة بقيت تحت سلطان المسلمين....، وهي ليست موضع اهتمامنا ومهملة من قبلنا، ومليئة بهرطقات كبيرة وبالشرور، ولاشك أن ذلك بسبب تجاوزاتنا واهمالنا، هذا وليس واجب كل مسيحي تقي أن يبكي فقط عندما يفكر بهذه المصائب، بل أن يحمل نفسه إلى الرب بصلوات متواصلة، وليصرخ عالياً إلى الرب، وليلتمس منه بدون توقف أن يكون رحيماً نحو البقية من نخبته، وأن يشرق بنور وجهه علينا وأن يرحمنا، وأن يطرد غير المؤمنين من أرض المؤمنين، حتى نقدم له ببهجة وبأيدينا الحمد الذي يستحقه. آمين.

وعلى كل من سيقراً قداساً محزوناً عن الوضع المؤسف للأرض المقدسة، ومدينة القدس، والنحيب المؤلم حول الكنيسة الشرقية، والبكاء

الحزين على الوضع الشرير والتعيس جداً، للكنيسة الغربية، أو يعمل خطاباً فيه إثارة للملوك، والأمراء، والنبلاء في الغرب، عليه أن ينظر بكتاب حج اللورد بيرهارد فون بريتنباخ، عميد الكنيسة الكاتدرائية في مينز، الذي صنع بأسلوب مزين من قبل الحكيم اللاهوتي الشهير المعلم مارتن روث، وكيل مدرسة هايدبيرغ، والراهب في طائفة الرهبان المبشرين، فهناك سوف يجد معروضاً كل الذي قلته من قبل، وسيجد ماعبرت عنه بكلمات كثيرة إنما بكلمات قليلة، وسوف يجد نسخة طبق الأصل عن كتاب حجي وجولاقي، إنما مع استثناء واحد، ذلك أنني أرغمت بخطة عملي، وعن قصد، على تغيير الأيام، قائلاً: «تمّ هذا في يوم كذا، في حين قال هو بأنه تمّ في يوم آخر، وليس في هذا عنف أو خلاف، على أساس أننا عندما نقرأ الكتابات المقدسة، نجد الشيء نفسه قد عمل، من قبل الانجيليين.

حول القديس في كنيسة الضريح المقدس واخراج الحجاج من هناك

وفي الوقت الذي كان الفرسان فيه يرسمون، شرعنا بالاحتفال وإقامة قداس، وقد أعطيت مكان الرب المخلوق بالطيوب، وأقامت قداس القديس ألكسيوس، الذي كان اليوم يوم عيده، ذلك أنه كان حاجاً حقيقياً، وغنياً في وضوح النهار، في ضريح الرب قداساً عظيماً البهجة، هو قداس قيامة الرب، وذلك كما كان يغنى في يوم الفصح، وبعد هذا قدم المسلمون وأخرجونا وفق الطريقة نفسها التي مارسوها من قبل، وذهب كل انسان منا إلى مقر إقامته، وقد أمضينا الليلة التالية على جبل الزيتون، وقمنا بشكل سري بالصلاة، وإراحة أنفسنا في كهف آلام مريم، ولكن قبل انتشار ضوء النهار، صعدنا ثانية إلى جبل صهيون لسماع قداسات.

رحلة الحجاج من القدس إلى المنطقة التلية في اليهودية وإلى بيت زكريا حيث سلمت مريم على قريبتها اليزابث

وفي الصباح الباكر لليوم الثامن عشر، جاء أدلاؤنا إلى الجبل مع حميرنا وسائقهم، واستدعوا جميع الحجاج، وامتنطينا جميعاً حميرنا، وسرنا خارجين من القدس باتجاه الجنوب، بسرعة كبيرة، وسرنا على طرقات منزلة في المنطقة التلية لليهودية، وهذه المنطقة الجبلية وعرة وكثيرة الحجارة، ومع ذلك هي خصبة، وملئة بأشجار الفواكه، والتين والزيتون، ووصلنا هنا إلى بيت قائم فوق أرض مرتفعة، وهو عظيم وطويل، لكنه مهدم، وقد قالوا بأنه بيت الشيخ المسن المقدس سمعان، الذي أخذ المسيح بين ذراعيه في هيكل الرب (لوقا: ٢)، وفي هذا البيت عدد كبير من الغرف المقنطرة، ومن قمته يوجد مشهد للقدس وليت لحم.

وغنينا إلى جانب هذا البيت ترنيمة سمعان: «الآن تطلق عبدك ياسيد» الخ، وحصلنا على غفرانات(+)، ونزلنا من هناك إلى واد على درجة عالية من الخصوبة، ومضينا إلى مكان منحدر، قائم بين جدران من الأحجار الجافة، ففوق هذا الجبل كان المكابيون الشجعان قد عمروا حصناً حصيناً جداً، من أجل صد الغزاة من الأمم، وأطلقوا عليه اسم «بيت سورا» الذي يعني «بيت المرارة» أو «بيت الشجاعة»، وذلك حسبما قرأنا حول ذلك في سفر المكابيين الأول — الاصحاحين الرابع والسادس، وجرى الاستيلاء على هذا الحصن خدعة من قبل أنطيوخوس الأصغر، الذي لذلك أغضب اليهود كثيراً، حسبما ورد الخبر في سفر المكابيين الثاني — الاصحاحين: الحادي عشر والثالث عشر.

وعلى الجانب الآخر من الجبل يوجد البئر، حيث عمّد فيليب الخصي، الأمر الذي سوف نتحدث عنه في مكانه.

ويوجد من بيت سورا مشهد للقدس، وكان في أيام الحرب، بإمكان المقيمين في بيت سورا عمل اشارات إلى الذين كانوا في حصن صهيون، وتلقي مثل ذلك منهم، وأدرنا الآن ظهورنا لبيت سورا، ونزلنا إلى الوادي.

نبع مريم العذراء الأعظم قداسة

وبعد نزول طويل إلى حد ما، وصلنا إلى مكان قائم بين تلتين صغيرتين، يوجد بينهما نبع يتدفق بماء بارد، ونقي، وصحي، كان يجري خلال الوادي كله، يسقيه ويحوله إلى خصب، وعلى هذا هو عظيم الفائدة لتلك المنطقة، ويقال إنه من خلال فضائل مريم العذراء المباركة، تدفق هذا النبع أثناء حضورها، عندما قدمت صاعدة من الناصرة، وتولت خدمة اليزابث لمدة ثلاثة أشهر، فقد رغبت العذراء المباركة بالحصول على ماء لحمله إلى اليزابث، التي كانت حاملاً وذلك من أجل استخدامه في البيت الأعلى والأدنى، لأن زكريا كان كاهناً غنياً، ولديه مزرعة في ذلك المكان، مع بساتين من أشجار الزيتون، وأشجار التين، وكروم العنب، وكان لديه بيت على كل واحدة من التلتين الصغيرتين، وخدم يتولون خدمته كما يتولون اطعام مواشيه، وبناء عليه كان معتاداً على العيش أحياناً في البيت الأول، وأحياناً أخرى في البيت الثاني، وذلك وفقاً لأوقات السنة. وقد قام النبع في الوسط، وكان يستخدم من كلا البيتين.

وحدث أنه في الوقت الذي قدمت فيه العذراء المباركة لتحية اليزابث وخدمتها، أنهم كانوا يعيشون في البيت الذي قام على الأرض المنخفضة، لكن عندما جاء الوقت لتحمل بيوحنا المعمدان، ذهبت اليزابث نفسها وصعدت لتسكن في البيت الأعلى، آخذة معها العذراء المباركة، وقابلاتها، ووصيفاتها، غير أن زكريا مكث في البيت التحتاني مع رجاله وخدمه، لأنه في الأيام الخالية لم يسكن الرجال في بيت النساء

الحوامل في أيام ولادتهن.

المكان الذي حييت فيه إليزابث من قبل العذراء المباركة

وهكذا بعدما شربنا من نبع العذراء المباركة، تابعنا سيرنا بمعد صائمة، واتجهنا نحو اليسار، إلى البيت الأول، أو البيت التحتاني لزكريا، وعندما وصلنا إليه وجدناه مغلقاً، وقرعنا الباب بالحجارة، وبالعصي والعكاكيز، لكن مامن أحد جاوبنا، وشرع شباب المسلمون بالسير حول البيت يبحثون عن مكان، يمكنهم منه تسلق الجدار، ومن ثم فتح الباب لنا، وحدث أنه بعد طول انتظار أن كان هناك مسلم في داخل البيت، وكان بالحري وحشاً أكثر منه انساناً، وقد تظاهر بأنه لم يسمعنا، لكنه عندما رأى الشبان المسلمين الذين رافقونا يبحثون عن طريق آخر للدخول، نزل إلى الباب وفتحه على مصراعيه، ثم إنه وقف عند الباب ويده عكاز، وزوجته ومعها آلة كي بالنار، وذلك حرصاً على عدم دخول أحد قبل دفع بعض المال لهما، وعندما أعطي المال له تخلى عن غضبه، وسمح لنا بالدخول، وما أن شرعنا بالدخول حتى بدأ قائد الجوقة يغني أغنية مريم العذراء المباركة جداً: « magnificant an- ima mea » الخ، ودخلنا ونحن نغني هكذا إلى المكان الذي حيث فيه العذراء المباركة إليزابث، حيث قفز يوحنا سروراً في رحمها، وبذلك ردت إليزابث على تحيتها وتنبأت لها، وغنت مريم تلك الأغنيات العذبة، وهي مليئة بأعمق الأسرار، حيث كل كلمة حافلة ببعض المعاني الهائلة، وسقطنا في هذا المكان على ركبنا وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وشعرنا بالحقيقة ببهجة خاصة في هذا المكان مع مريم العذراء المباركة، التي نشرت هنا بتحياتها وبأغنياتها الحلوة، وعمت البهجة التي لا يمكن وصفها، والتي من خلال تحية الملاك حملتها حتى الآن مخبأة ومخفية في أعماق قلبها، فضلاً عن هذا قفز الطفلان سروراً في رحمي

أمهيهما، عند التقاء هاتين الأمين، إلى حد وكأن الأمين امتلأتا بسرور غير اعتيادي، وفي قلب مريم العذراء الأعظم مباركة، تجدد في هذا المكان جميع السرور الذي تلقته من تحية الملاك، وكأنه اكتمل، لابل قد نغامر فنقول: يبدو أنها حصلت في هذا المكان على سرور أعظم، لأنه عندما حياها الملاك في الناصرة قال: «سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك، مباركة أنت في النساء»، وصرخت اليزابث بصوت مرتفع «وقالت مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك»، ونعلم الآن من هذا كله بأن مريم العذراء الأعظم مباركة قد أحبت ثمرة رحمها أكثر من محبتها لنفسها بشكل لا يقارن، وابتهجت بتشريفه أكثر من ابتهاجها بتشريف نفسها، ودعاها الملاك فقط بالمباركة، لكن اليزابث أعلنت أنها هي وثمره قلبها مباركين، وبذلك ازدادت بهجة العذراء وتضاعفت، ولهذا السبب نحن لم نقرأ بأن العذراء المباركة قد غنت أغنيته المعبرة عن سرورها جواباً لتحية الملاك، بل جواباً لتحية اليزابث وقالت وهي مبتهجة: «تعظم نفسي الرب، وتبتهج روعي»، الخ، وبناء عليه في هذا المكان انتهت تحية الملاك وصارت كاملة، وهكذا تلقينا نحن الحجاج فوق هذه البقعة جميع البهجة التي كان من المتوجب أن نكون قد شعرنا بها في الناصرة، حتى وإن لم نكن قادرين على الذهاب إليها، وفي كلمات كل من الملاك واليزابث رددنا مراراً كثيرة Ave maria ، وقدمنا قبلاً إلى العذراء، حتى مثلما حيتها اليزابث وأيضاً قبلتها، لأن بيرنارد التقي قال: «يامريم، إن سماع قول الملاك Ave maria مثل قبلة لك، وغالباً ما قبلت، عندما حييت بالقول Ave».

وفي الحقيقة، أسقطت السماء، وقت هذه التحية، الخلاوة، وضحكت النجوم، وابتهجت الملائكة، وسعدت الدنيا، وارتعدت الشياطين، وذبلت قوى النار وتلاشت، وصار الأتقياء من الناس مسرورين، وحصل المذنبون على أمل، ومن هنا نمت العادة بين كثير من الناس على

إضافة Ave maria، إلى الصلاة الربانية، وذلك كلها وقعت، حتى في الساعات الشرعية، ومع ذلك يقول بعضهم بأن هذا يتوجب عدم القيام به، لأنه لم ترد في الأحكام، والملاحظات، ولا في العناوين، إشارة إلى Ave maria عندما جرى تعين الصلاة الربانية لتقال.

ولقد سمعت أن خلافا نشب حول هذا الموضوع بين راعي الدير والرهبان النظاميين التابعين لكنيسة باتافيا Batavia (كذا)، فقد رغب الراعي دوما بإضافة Ave maria إلى الصلاة الربانية لكن الرهبان النظاميين ورجال الدين رفضوا أن يفعلوا ذلك، حيث ادعوا بأنها لم تعين إليهم في العناوين الرسمية، وأخيراً من أجل السلام والوئام عرضت القضية على البابا، الذي اتخذ قراراً لصالح الراعي، حول الجانب الايجابي للقضية، وأصدر مرسوماً قضى فيه بوجوب قول Ave maria بعد Pater Noster.

وفي أيامنا فقط وضع حد للعادة القديمة للقديسين، الذين اعتادوا أن يصلوا للرب بخمس صلوات ربانية، وأن يحيا مريم العذراء الأعظم مباركة بخمسين Ave maria بشكل متتابع أثناء صلوات شكرهم، من أجل أعمال خلاصنا، وهذه العادة السليمة التي صارت شبه مهمة وغير مستخدمة في مناطقنا، جرى تجديدها بفضل الجهود الكبيرة العائدة للحكيم اللاهوتي الممتاز، المعلم جيمس شبرنجر، الذي هو من طائفة الرهبان المبشرين، ومن الدير (الدومينيكاني) في كولون Co-logne، وقد كنت أنا وهذا المعلم، كأن تقول أخوين بالنشأة، حيث ارتدينا الثوب الرهباني في الدير في بازل، في السنة نفسها، وبعد مضي سنة، عملنا احترافنا في المدارس نفسها، حيث تدرّبنا تحت المعلمين أنفسهم، ونحن في هذه الأيام صديقين حميمين.

والسبب الوحيد لإخباركم بهذا، هو بسبب أنني أعرف بأن هذا المعلم المبجل، قد كان منذ الصغر مكرس للعذراء مريم، ولم يتوقف منذ

صغره حتى الوقت الحالي، عن تعظيم وتقديم الشكر إلى مريم العذراء المجيدة جداً، وقد شغل نفسه مع الكرسي الرسولي، من أجل استصدار مرسوم غفرانات، وحصل على هذا المرسوم، حيث منح فيه السيد المقدس، البابا سكتوس الرابع، غفرانات عظيمة إلى الذي يقول العدد المتقدم ذكره من الصلاة الربانية مع Ave maria، ثلاث مرات في الأسبوع.

وأطلقوا على هذه الصلاة اسم «سبحة العذراء المباركة»، ولقد رأيت هذه المرسوم، وقرأته كله، وعملت نسخة عنه، ويردد بعض الناس الصلاة المتقدمة الذكر ثلاث مرات في اليوم الواحد، ويسمونها: «مزامير مريم المباركة»، وبالنسبة إليهم هناك حصول على غفرانات عظيمة، مرة في الحياة، وأخرى في الموت، وقد سموها «مزامير»، لأن فيها مثل مزامير داوود ثلاثة خمسينات، فالخمس من الأولى معينة كصلاة شكر لحلول المسيح وطفولته، والخمس من الثانية من أجل آلامه، والثالثة من أجل تمجيده، ويضيف آخرون خمسين أخرى، ويكررون عشرين «صلاة ربانية» ومائتي Ave maria في كل يوم، لأنهم يعلنون أن كتاب المزامير هو غير كامل ما لم يضاف بعد مزمور «Laudate dominum de coelis» تراتيل من العهد الجديد والقديم وتراتيم، ولهذا يضيفون خمسين رابعة إلى التراتيل والتراتيم، وأنه بذلك تكون المزامير كاملة.

وهم يقدمون سبباً آخر لتلاوتهم أربعة خمسينات هو أن ذلك ليس الأقل مواءمة لمباركة العذراء المقدسة وثمره رحمها، ومن أجل حياة الرب الأعظم فضيلة وكمالاً، ولا أقل من أجل تجسيده، وموته، وتمجيده، وبناء عليه إن في تلاوتهم للخمس من الأولى يتأملون حول تجسيد المسيح وطفولته، وفي الثانية حول أعماله وحياته، وفي الثالثة حول آلامه وموته، وفي الرابعة حول قيامته، وتمجيده هو نفسه وأمه ونحن

أنفسنا.

علاوة على ذلك حتى تكون هذه الصلاة أكثر انتظاماً وأقل اضطجاراً، جعلوا كل «صلاة ربانية» مع عشر Ave maria بمثابة صلاة شكر من أجل بعض المباركات التي في أذهانهم، من ذلك على سبيل المثال هم يرددون «الصلاة الربانية» الأولى مع عشرتها من «Ave maria» بمثابة صلاة شكر من أجل مباركة التجسيد، وثاني «صلاة ربانية» مع عشرتها من «Ave maria» من أجل مباركة الميلاد، والثالثة من أجل مباركة الختان وتشريفاً لاسم يسوع، والرابعة من أجل مقدمة الملوك، والخامسة من أجل مباركة التطهير، لأنه جرى تقديمه في الهيكل بمثابة مذبذب، وتطهرت أمه وكأنها غير نظيفة، وكذلك من أجل الفرار إلى مصر والعودة من هناك، ولحضوره المتواضع في المدرسة، ولطاعته لوالديه، فهذه هي الخمسين الأولى.

وكانوا يتولون ترتيب الثانية وفق التالي: يقولون «الصلاة الربانية» الأولى مع عشرتها من Ave maria، من أجل تعميده، والثانية من أجل تحمله الإغواء في القفار، والثالثة من أجل اختيار تلاميذه ودعوته لهم، والرابعة من أجل حياته الربانية، وعقيدته الواضحة، ومعجزاته، والخامسة من أجل وضعه القداست، ولاسيما مباركة القربان، وهكذا دواليك.

أما الثالثة فكانوا يتولون ترتيبها كمايلي: الأولى من أجل المعاناة الداخلية للمسيح، وبكائه وآلامه على جبل الزيتون، والثانية من أجل القبض عليه وتعذيبه خلال الليل كله، والثالثة من أجل اتهامه، ومن ثم إرساله إلى هيرود، وجلده، وتوبيجه، والرابعة من أجل السخرية منه، واقتياده لصلبه، وصلبه مع جميع الذي فعله المسيح على الصليب عندما كان ما يزال حياً، والخامسة موته، وطعن جانبه، ودفنه.

ورتبوا الخمسين الرابعة كمايلي: رددوا «الصلاة الربانية» الأولى، مع عشرتها من Ave maria وذلك بمثابة صلاة شكر من أجل قيامته، والثانية من أجل عظمة صعوده، والثالثة من أجل نعمة ارسال الروح القدس، والرابعة تشريفاً لصعود العذراء المباركة، والخامسة من أجل سلطانه كحكم، ولأحكامه العادلة. وهذه الصلاة صلاة تقوية ومواساة، عندما يصبح الانسان معتاداً عليها.

فضلاً عن هذا، ومن أجل أن يحط من مكانة الذين كانوا غيورين من مريم العذراء المباركة، والذين أنكروا فضيلة هذه الصلوات، وضع المعلم جيمس المتقدم الذكر، هذه القضية كلها، أي قضية السبحة والغفرانات، لأن تكون موضوع مناقشات عامة في جامعة كولون في Quodlibetis، وفي هذه المناقشات جرت الموافقة على أن هذه الصلاة كانت بريئة ومفيدة، وهي الأكثر قبولاً لدى العذراء المباركة. وليكن في هذا كفاية، في جولاتي حول هذا الموضوع.

الموضع الذي قال فيه زكريا ترنيمة «مبارك»

وبعدما أمضينا بعض الوقت في المكان المتقدم الذكر، ذهبنا صاعدين من الكنيسة التحتانية، وذلك عبر درجات حجرية، فوق قنطرة، حيث قام فيما مضى بيعة جميلة، وعندما كنا صاعدين، كنا نغني ترنيمة: «مبارك الرب إله اسرائيل لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه» الخ، وهذه الترنيمة قد نظمت من قبل زكريا، عندما امتلأ بروح القدس، أثناء ختان الطفل، وذلك حسبنا وصلنا الخبر في الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا، وتابعنا سيرنا ونحن نغني كذلك حتى وصلنا إلى البناء العلوي، حيث وجدت القاعة، التي جلس فيها زكريا صامتاً، وحيث طلب لوحاً، وكتب عليه «اسمه يوحنا»، وهنا انفتح فمه بالحال، وتنبأ قائلاً وغمى «مبارك الرب إله اسرائيل لأنه» الخ، ولذلك انحنينا بأنفسنا نحو الأرض، ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات(+).

وأخيراً بعدما نهضنا من صلاتنا، حملنا أنفسنا من أجل مشاهدة المكان، وقد رأينا على الجانب الأيسر كنيسة كبيرة، بلا نوافذ(?) بنيت من أجل أن تكون هري، ففي هذا الهري أودعت اليزابث طفلها الرضيع، القديس يوحنا المعمدان، وأخفته، عندما جاء خدم هيرود يسعون حول تلك المنطقة، يبحثون عن الأطفال من أجل ذبحهم، لابل من المعتقد أنهم قدموا، ودخلوا إلى ذلك البيت نفسه، بحثاً عن الأطفال، لكنهم عندما رأوا انسانين عجوزين هما زكريا واليزابث، لم يتوقعوا وجود أية أطفال معهما، وغادروا مسرعين، وبقي الطفل يوحنا دونما أذى، وعلى كل حال يقول البرتوس في تعليقاته على الاصحاح الأول من انجيل لوقا، بأن زكريا قد قتل من قبل رجال هيرود، لأنه رفض تسليم ابنه، كما سنرى ذلك فيما يأتي بعد.

ويوجد في هذا البيعة مذابح محطمة، وأقواس مهدمة، وعلى الجدران صوراً قديمة، وفي البنائين العلوي والتحتاني نمت الأعشاب والحشائش فوق القناطر، كما هناك بعض الحبيبات ذات اللون الأزرق مثل الفاصولياء، قد نمت هناك، وهي ليست موجودة في أماكن أخرى، وكان هنا فيما مضى كنيسة جميلة وفخمة، وقد سكن الرهبان في قلايات إلى جوارها، ولكنها الآن — وبالأأسف — غدت البيت المهدم لواحد من أكثر المسلمين تعاسة.

المكان الذي ولد فيه يوحنا في هذا العالم

وخرجنا من هذا المكان نسير على طريقنا، وعدنا ثانية إلى النبع المتقدم الذكر، وتسلقنا من النبع مكاناً منحدرًا، إلى تلة، وعندما صرنا فوقها، وصلنا إلى كنيسة كبيرة، حيث غنينا فيها بصوت مرتفع ترنيمة *ut queat laxis*، وقد بنيت هذه الكنيسة فوق المكان الذي ولد فيه يوحنا المعمدان الذي كان رائد الرب، ويوجد الآن المكان الفعلي لميلاد الرائد على الجهة اليسرى في بيعة السدة، التي بابها مغلق بخرائب

الجدران، وبناء عليه تسلقنا فوق الجدار، ووضع واحد من الحجاج نفسه تحت واحد آخر، حتى يتمكن من التسلق من فوقه إلى قمة الجدار، ولكي ينزل إلى الطرف الآخر على رأس ورقة حاج آخر، وهكذا تسلقنا جميعاً فوق الجدار، وغدونا في داخل بيعة مظلمة، لم يكن بإمكاننا أن نرى فيها شيئاً من دون مصابيح.

ويوجد هناك عند رأس البيعة قبو تحت الصخر، فيه من المعتقد بأن المعمدان الأعظم قداسة قد ولد، وبناء عليه انحنينا أمام هذا الكهف، وقبلنا المكان، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) وشعرنا بمواساة عظيمة وبسرور كبير، بشكل منحنا بعض القوة في الايمان، لأنه بسبب فضائل الرائد فاحت من ذلك الكهف المهجور رائحة طيبة وسليمة، بوساطتها قدّم الرائد بدوره قبلاته وتحياته إلى أرض ميلاده، التي جرى تقبيلها من قبل الحجاج.

وفي الحقيقة لولا أن الرب واسانا بهذه الوسائل، لكنا في وضع أسفنا به كثيراً في ذلك المكان، بسبب حالة انتهاك الحرمة لمثل هذا المكان المقدس، لأن الكنيسة، مع أنها كانت مرتفعة ومقنطرة، وماتزال مدهونة، غير أنها مليئة بالمواشي، والحمير، والجمال، ولا يوجد هناك فيها سوى الروث والقاذورات، ورائحة بشعة كثيرة، بقدر بشاعة تحويل كنيسة مقدسة إلى اسطبل للمواشي، ويوجد من حول الكنيسة خرائب كثير من البيوت، سكن فيها فيما مضى رجال دين وعبيد للرب، والذي هو موجود الآن في ذلك المكان هو فقط بيت ريفي تعيس.

صحراء يوحنا المعمدان

يقال يوجد خلف الوادي صحراء يوحنا المعمدان، حيث سكن عندما كان صبيّاً، حسبما ورد الخبر في الاصحاح الأول من انجيل لوقا قوله: «أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح، وكان في البراري إلى يوم

ظهوره لاسرائيل»، ولهذا قال جيتزوم في قداسه: علينا أن نفهم من كلمات «انتبهوا لقد أرسلت رسولي» أن ذلك الرسول الذي بعدما ترك المأوى في رحم أمه، نشد التعرف إلى الأجزاء السرية من الصحراء، ولعب مع الأفاعي هناك كطفل، وقد ورد هذا القداس ضد الهراطقة الشيطانيين، لأنه في سنته الخامسة أو السابعة طلب الصحراء، فراراً من فساد العالم، وعاش حياة ناسك لمدة خمس وعشرين سنة، ولهذا يغنى عنه:

عندما كنت ماتزال صبيًا

إلى الصحراء القفر

فررت، لتصلي بين كهوفها وتشكر

تاركاً حشد

الناس، خشية من أية خطيئة

يمكن أن تلوث صفحة أيامك البيضاء

وفي الحقيقة إنه تبعاً لبيرنهارد، المنطق يحض الانسان، والعدالة تدفعه ليمنح حياته كلها إلى الذي تسلمها كلها منه، وأيضاً من أجل أن يتمكن من المحافظة على يديه نظيفتين، لأنه بهما سيلمس المسيح، وكذلك عينيه، لأنه بهما سوف يرى الروح القدس، على شكل حمامة، وأذنيه اللتان بهما سوف يسمع صوت الرب الأب، من أجل هذا كله ترك العالم، ودخل إلى الصحراء، وطلب كهوفها.

وتحدث ألبرتوس مغنوس المبجل في قداسه حول الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا، ولاسيما حول قوله: «أما الصبي.... كان في البراري» الخ، كمايلي: «قال بيد: أمضى يوحنا في الصحراء عشر سنوات، ولقد دخل إلى الصحراء في سن العاشرة، وتركها عندما كان

في الثلاثين من عمره (١)، كما هو واضح من الاصحاح الثالث من انجيل القديس لوقا.

غير أن انجيل النصارى حدثنا أنه عندما كان هيرود يبحث عن الأطفال ليقتلهم، جرى قتل زكريا والد يوحنا، لأنه رفض تسليم ابنه، وقامت أمه بأخذه من مكان اخفائه المتقدم ذكره، وبصعوبة هربت إلى الصحراء، وعندما كان مطاردوها يلاحقونها عن قرب، ولم تعرف أي مكان لتخفي فيه الطفل، انشقت صخرة في الجبل، وفتحت نفسها، ثم انغلقت على الاثنين: هي نفسها، والطفل، وبذلك تبذرت جهود الذين كانوا يطاردونها، وحدث بعد عدة سنوات أن توفت الأم، وبقي الطفل يعيش في القفار، ووفق طرائق الأطفال تعلم أكل الجراد، والعسل البري، الذي وجدته في الصحراء، مثلما يفعل النمل.

ولقد قيل بأن دم أبيه أيضاً الذي جرى جمعه في أوعية، من قبل الكهنة، وتم حفظه في الهيكل، كان دوماً يفور، لدى ظهور أي واحد من أسرة هيرود، في الهيكل، فهذا ما ذكره ألبيرتوس، وكان — على كل حال — لدى يوحنا المعمدان صحرائين، لم تكن الأولى بعيدة عن بيت أبيه، حيث الكهوف التي عاش فيها عندما كان شاباً، وهي المشاهدة في هذه الأيام، والصحراء الأخرى هي إلى جانب نهر الأردن، حيث كان يبشر بين الناس، ويعمدهم، وورد ذكر الصحراء الأولى في الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا، أما الثانية فورد ذكرها في الاصحاح الثالث .

نهاية المجلد الأول

- هذا يعني أنه بقي في الصحراء عشرين سنة.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المكان الذي قتل الرسول جيمس الأكبر	٤٤٣
المكان الذي التقى المسيح فيه بالنساء بعد قيامته	٤٤٤
برج داوود	٤٤٥
مكان افتراق الرسل	٤٤٦
مزار القديس يوحنا الانجيلي	٤٤٨
مكان بيت مريم العذراء	٤٤٩
مكان اختيار القديس متياس	٤٥١
مكان رجم جيمس الأصغر أسقفا للقدس	٤٥١
مكان تعيين الشمامسة السبعة	٤٥٢
مكان تصنيف العقيدة	٤٥٣
المكان الذي يبجل فيه المسلمون المسيح	٤٥٣
حديقة دير رهبان جبل سيناء	٤٥٤
مدح جبل صهيون	٤٥٧
بداية زيارة الأماكن المقدسة	٤٦٢
تصرفات الحجاج لدى دخولهم الكنيسة	٤٦٤
المسيرة حول الأماكن المقدسة	٤٦٨
مكان حفظ قطعة من عمود جلد المسيح	٤٧٠
مكان حفظ الصليب	٤٧١
مكان البرهنة على صحة الصليب	٤٧٢
مكان ظهور المسيح لمريم المجدلية	٤٧٣
مكان السجن قرب الجمجمة	٤٧٤
مكان اقتراع الجنود على ثياب المسيح	٤٧٥
مقعد تتويج المسيح	٤٧٥
بيعة القديسة هيلانة	٤٧٨
الكهف الذي عثر فيه على الصليب المقدس	٤٨٢
جبل أكر	٤٨٦

الموضوع	الصفحة
وصف جبل أكر	٤٨٨
مكان الصلب والجمجمة	٤٩١
مكان تحنيط جسد المسيح	٤٩٥
مكان نقطة مركز العالم	٤٩٦
المكان الذي رأت فيه النساء الحجر المدحرج	٥٠٠
كيف جاء الحجاج الى الضريح المقدس	٥٠١
الخدمات الطقوسية في الضريح المقدس	٥٠٤
اخراج الحجاج من الضريح المقدس	٥٠٩
مكان وقوف العذراء مع يوحنا الانجيلي	٥١٠
بيعة الملائكة المقدسين	٥١١
بيعة القديس يوحنا المعمدان	٥١٢
بيعة مريم المجدلية	٥١٣
مكان تضحية ابراهيم بابنه	٥١٣
مكان لقاء ملكيصادق مع ابراهيم	٥١٥
ساحة كنيسة الضريح المقدس	٥١٦
قصر ملك القدس	٥١٧
مشفى القديس يوحنا	٥١٨
وصف ضريح الرب	٥٢١
اوضاع الضريح المقدس الحالية	٥٢٦
ما الذي ينبغي أن نفكره حول الضريح	٥٣٠
وضع جبل اكر	٥٤٠
وصف كنيسة الضريح المقدس	٥٤١
من الذي اسس كنيسة الضريح المقدس	٥٤٢
كيف كان الضريح المقدس رائعاً	٥٤٣
وصف كنيسة الضريح المقدس الآن	٥٤٧
الشفاء عام لجميع المسيحيين	٥٥١

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب الصليبي

جولات الراهب
الدومينيكان فيلكس فابري ورحلاته

حوالي
(١٤٨٠ — ١٤٨٣ م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م

الجزء الثامن والثلاثون

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي

(١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الثالث

تنويه

أثناء إعداد هذا الجزء فجعت سورية والأمة العربية والعالم الإسلامي والإنسانية بوفاة راعي مشروع هذه الموسوعة الرئيس المؤمن حافظ الأسد، وكان ذلك يوم العاشر من حزيران، تغمدته الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه، وآلت الرعاية الآن الى ولده الرئيس الدكتور بشار الأسد، أنار الله سبيله، وجعله خير خلف لخير سلف .

سهيل زكار

المكان الذي يقال نمت فيه الشجرة

التي من خشبها صنع الصليب

غادرنا الآن مكان ميلاد القديس يوحنا، وبمغادرتنا الوادي الذي جئنا عبره إلى ذلك المكان، تسلقنا الأرض المرتفعة على الجانب باتجاه القدس، ووصلنا إلى واد جميل وخصب، فيه قامت فيما مضى مدينة نوب التي كانت مدينة كهنة، وذلك حيث أكل داوود خبز التقدمة، وتسلم سيف جالوت، وذلك حسبما جاء مكتوباً في سفر صموئيل الأول: ٢١، وانجيل متى: ١٢، وقد خرب الملك شاؤول هذه المدينة، وقتل كل انسان وجدته فيها، وذلك حتى الأطفال الرضع، وقتل هناك بحد السيف خمسة وثمانين كاهناً، لأنها كانت مدينة كهنة وذلك كما قرأنا في سفر صموئيل الأول: ٢٢، وقد فعل هذا لأنهم أعطوا داوود خبز التقدمة والسيف.

ووصلنا من هناك إلى كنيسة جميلة، يلاصقها دير صغير، يعيش فيه رهبان جورجيون مع زوجاتهم، وعندما دخلنا إلى الكنيسة، اقتادونا إلى المذبح العالي، وهو المذبح الذي يقال بأنه قائم فوق البقعة ذاتها التي نمت فيها شجرة الصليب المقدس، ولهذا السبب، هذه الكنيسة مكرسة على شرف الصليب المقدس، واسمها كنيسة الصليب المقدس، ويوجد تحت الكنيسة حفرة، فيها حيناً أنفسنا نحو الأسفل، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وتلقينا انعاشاً من هذه الحفرة، لأنه منها فاحت رائحة طيبة، أغرقتنا بالوقوف مدة أطول أثناء تقبيلنا للموضع، ولقد جلبوا لنا ذراع القديسة بربارة، التي قبلناها، وهذه هي البقعة الطيبة، التي نمت فيها الشجرة الطيبة، التي تستحق التشريف الإلهي، التي وإن لم يعرفوها، فإن الوثنيين القدماء صنعوا تماثيل وفق نمط، لأنهم عندما قرروا صنع تمثال للرب،

قررُوا بدقة أنه ينبغي عدم صنعه من الذهب، أو الفضة، أو الحجر، بل من الخشب، على أساس أن الخشب هو المادة المناسبة جداً، وقد قرأنا عن هذا عند يوسبيوس في: De Evangel praeparat, Book III .CH III

وبعدما صلينا، جلسنا في ساحة الكنيسة لرتاح، لأننا كنا مائتال صائمين، وبدأ الحر يصبح عظيماً، وذهب بعض الحجاج إلى أكواخ أولئك الرهبان، وسألوهم إن كان لديهم أي شيء مطبوخ، غير أننا لم نر لامطابخ، ولاقدور طبخ في هذه الأكواخ، لأن هؤلاء الناس كانوا فقراء جداً، ووصل في الوقت نفسه، مسلم يحمل سله مليئة بالعنب، اشتريناها، وأكلنا معا بالخبز الذي جلبناه معنا في جعبنا، ونضحنا ماء من صهريج الرهبان، وعلى مقربة من هذا المكان يقوم الكثير من أشجار الزيتون، وهناك غابة صغيرة من أشجار الزيتون والتين، وقد قالوا بأن سليمان قد امتلك بستانا في هذا المكان أيضاً، وأنه كان في بعض الأحيان يأتي إلى هنا في عربته الذهبية للتمتع فيها.

وكان بعد أن استردينا أنفاسنا، ركبنا حيرنا، وصعدنا إلى قمة الرابية، وذلك عبر طريق وعر وصخري، وعندما كنا فوق الأجزاء المرتفعة منها، رأينا المدينة المقدسة على مسافة منا، وعبرنا إلى جانب بيت سمعان، عبر طرقات تمر بين جدران البساتين المصنوعة من حجارة، جافة، وعلى طريقنا ولدى اقترابنا من القدس، دخلنا إلى قرية بين هذه الجدران الحجرية، حيث قدمت إلينا طريقاً عريضاً، لكن لسبب لم أعرفه، وقف رجل مسلم أسود، كان نصف عاري، في وسط الطريق، وكان يقوم حجارة إلى أكوام، وكان يمسك بهم عالياً، مهدداً برميهم على جماعة الحجاج، إذا ما سار أحدهم على ذلك الطريق، وبناء على صراخه وتهديداته توقف الحشد كله لمدة حوالي النصف ساعة، وبذل أدلاؤنا غاية جهدهم معه، وصرخوا مجيئين له، لكنه لم يهتم مطلقاً بهم،

وشرع وهو مغضب كثيراً، بكل جرأة، برمي الحجارة ضد كل من حاول التقدم نحو الأمام.

وفكرت في نفسي، وقلت آه: « لو أنك وقفت هكذا في الطريق، بدون سلاح، في منطقتنا من العالم، وأغلقت طريق رجل واحد من أقل هؤلاء النبلاء مرتبة، كم بسرعة كنت ستجد سيفاً أو نشابة في طرفك! » لكن الحال في هذه المناطق الشرقية ليس هكذا، لأن الناس الشرقيين هم نوع مختلف عنا، أو بالحري، أحكامنا في الحياة غير أحكامهم، فهم لديهم عواطف مختلفة، وطرائق أخرى للتفكير، وأفكاراً أخرى، فأجسادهم لها أشكال بشرة أخرى مختلفة، فهم خاضعون لتأثيرات نجوم أخرى، ومناخ آخر.

وهكذا تمكن ذلك الرجل المسكين، الأعزل من السلاح، والعمري، من إرغام الحشد كله على التراجع، وذهبنا عائدين عبر طريق طويل، وأدركنا ظهورنا لجبل صهيون حتى وصلنا إلى طريق آخر، حيث استدرنا هناك، ومضينا نحو القدس، جاعلين وادياً بيننا وبين المدينة المقدسة، والتفتنا حول هذا الوادي، ووصلنا إلى القدس عبر حقل القصار، ووافينا جبل صهيون في وقت القيام بالقداس، وكان الرهبان — على كل حال — قد أخرجوا صلواتهم من أجلنا، حتى نتتمكن من المشاركة معهم في القداس في ذلك اليوم، وبعد الفراغ من القداس، أخذ كل رجل منا نفسه إلى موضعه لتناول الطعام.

فصل حول

نزول الحجاج إلى نهر الأردن

سمع الحجاج بعد الغداء بأن قبطاني الغليونين، خططا في ذهنيهما، أخذ الحجاج واعادتهم إلى البحر في غليونيهما، وكأن الحج قد انتهى الآن، وقمت على الفور فكشفت بالحدس هذا السر، لأن من ممارسات

جون أوف بروسيا، وبتنا مستعدين لرحلتنا.

مغادرة الحجاج القدس في طريقهم إلى نهر الأردن المقدس

في الصباح الباكر، من اليوم التاسع عشر، وقبل أن يعم الضوء وينتشر، نهضنا، وذهبنا إلى كنيسة العذراء المباركة في وادي شعفاط، وهناك، بما أن اليوم كان يوم سبت، شاركنا في قداس العذراء المباركة، ومضينا بعد ذلك إلى جبل صهيون من أجل الصلوات الديرية، وفي بعض الظهر، وبعد الغداء، تسلمنا جعبنا في ساحة كنيسة جبل صهيون، وانتظرنا أدلاءنا وحميرنا مع سائقهم، وأخيراً وبعد انتظار متعب، ولدى حلول وقت العشاء، جاءوا مع دوابهم لأخذنا إلى الأردن.

ولدى قدومهم، ركض الحجاج نحو الدواب لتجهيز أنفسهم، ووقتها نشب خلاف بين فارس وكاهن حول أتان، قال كل واحد منهما بأنه كان الأول بالحصول عليها، وضرب الفارس الكاهن ضربات كثيرة بقبضة يده، ولو كان معه سيف لجرحه، وطرده الفارس وأبعده عن أتان، فحصل على حرمان كنسي، حرره منه الأب المسؤول قبل مغادرتنا.

وعندما انتهى كل شيء، نزلنا من جبل صهيون إلى وادي شعفاط، وعبرنا الجدول، وتسلقنا الجانب الآخر بوساطة الوادي وجوانب من جبل الزيتون من خلال جبل العدوان، ونحن على طريقنا أشاروا لنا إلى بيت قديم، بني بقناطر معقودة، وهو مهدم، وقد قالوا بأنه بيت الخائن يهوذا، ونظرنا نحو هذا البيت وازدريناه، وكأنه كان بيت الذي خلع حذاءه، وكان مكروها في إسرائيل، لأنه جاء في سفر التثنية: ٢٥، أنه إذا مات أخ لرجل من دون أولاد، ورفض هذا الأخ أن ينجب أولاداً من الأرملة فلتقم وقتها زوجة أخيه هذه بخلع نعله من رجله، ولتبصق في وجهه، وبناء عليه يدعى بيته باسم بيت مخلوع النعل.

وجرى تنفيذ هذا القانون من قبل الرسل، حيث تولى كل واحد منهم الوظيفة التي لم يعتد عليها، وهي إنجاب أبناء في الكنيسة، لكن ليس بأنفسهم، بل من قبل المسيح، وقد حملوا بعد هذا اسمه، وقد فعل هذا الرسل بعد المسيح، لكن يهوذا قد حرم من كل شيء، لأنه لم ينجب أولاداً لأخيه، والكنيسة التي هي زوجة المسيح بصقت في وجهه، وطردته، واختارت ميتياس لأخذ مكانه، ولذلك لم يخلف شيئاً وراءه، باستثناء بيته الذي خلع فيه نعله، وهو مهدم ومزدرى، ولذلك مبارك ما قيل في الأمثال: ١٧، «من يجازي عن خير بشر لن يبرح الشر من بيته» ويغم عبرنا من قرب هذا البيت الملعون «لأنه بيت متمرد» (حزقيال: ٢).

المكان الذي لعن الرب فيه شجرة التين ولهذا لا توجد ثمار عليها

وإثر تركنا للبيت المتقدم ذكره خلفنا في الوادي، سرنا بين جدران من الحجارة الجافة العائدة للبساتين والحدائق، وفي بطن الوادي، حيث إذا سرت أبعد، عليك الصعود، وصلنا إلى حديقة جميلة جداً، قامت فيها حشود من أشجار التين، وأغصان أشجار التين معلقة فوق الجدران الحجرية نحو الطريق، وهذه هي الحديقة التي رأى فيها المسيح من بعيد شجرة تين، عندما كان سائراً على الطريق من بيت عنيا إلى القدس، وكان جائعاً، وقد دخل إلى الحديقة، وجاء إلى الشجرة، طالباً ثماراً، ولكنه حيث وجد أوراقاً فقط، لعن الشجرة، فبيست على الفور، وذلك حسبما قرأنا في انجيل متى — الاصحاح الحادي والعشرين.

ولدى تعجب تلاميذه من ذلك قال لهم: «الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان، ولا تشكون، فلا تفعلون أمر التينة فقط، بل إن قلتم لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر، فيكون»، وعندما قال الرب هذا أشار باصبعه إلى جبل الزيتون، الذي عند سفحه حدثت هذه الأشياء، وبناء عليه جثونا في هذا المكان مصلين، وبعدما صلينا للرب، حصلنا على

غفرانات، وتغذينا بالنظام الروحاني، متأملين كم هو مرعب أن تحمل اسم مسيحي أو ديانة من دون ثمار، مشاهدين كيف أن لعنة الرب سوف تنزل ثقيلة على مثل هؤلاء، لأنهم أغصان جافة أعدت لتحترق بنار أبدية.

وتابعنا سيرنا من هناك نحو الأمام، فوصلنا إلى بيت عنيا، وهي قرية مريم، ومرثا، ولعازر، وقد اجتزناها بخطوات واسعة وسريعة، ولسوف نقدم وصفاً لهذا المكان في المستقبل، ونزلنا من هذا المكان إلى صحراء منستات monstat وجاء نزولنا عبر طرقات وعرة، وهضاب خطيرة، وقارب حلول المساء، لأن الشمس قد غابت، ورغبنا بالاستراحة في مكان ما، حتى بزوغ القمر، وذلك بسبب وعورة الطريق، وعندما نزلنا قليلاً، كانت الدنيا مظلمة، وقد وصلنا إلى بيت مقنطر كبير، يمتلك من حوله، داخل اطار مغلق، مايشبه ديراً، لكنه مهجور وفارغ، وترجلنا قرب هذا البيت من على ظهور حميرنا، بقصد أن نتمكن من الاستراحة هناك قليلاً، وقد دخلنا إلى المكان ونحن نحمل مصابيح، نبحث عن مكان يمكننا أن نرتاح فيه، لكننا لم نجد مانريده، لأن ذلك البيت كان مهتماً ومليئاً بالقاذورات والهوام، ولذلك خرجنا منه ثانية، وتمددنا فوق الأرض في مقابل البيت، وقد تفرقنا إلى عدة جماعات، في حين فصل أدلاؤنا المسلمون أنفسهم أيضاً عنا، واستراحوا في مكان أعلى قليلاً، وكان قد لحق بهؤلاء الأدلاء بعض الشباب ذوي الأوضاع السيئة، الذين كرهونا، كما سيظهر فيمايلي:

والآن بعدما أكلنا عشاءنا معاً، أطفأنا مصابيحنا، ووضعنا رؤوسنا فوق جعبنا، وبدأنا بالنوم، وفي الوقت ذاته، أقبل شاب مسلم بشكل سري، ونزل بشكل لصوسي وسار بين حشد الحجاج، وانتشل جعبة حاج اعتقد أنه نائم، وهرب بها إلى جماعته، لكن الحاج ورفاقه ركضوا خلفه وهم يصرخون، وانتزعوا منه الجعبة واستردوها ثانية، وبعد مضي

بعض الوقت نزل آخر وسار بشكل سري، وسرق جعبة، كان فيها خبزاً، وجبناً. ولحماً مدخناً، وبيضاً مغلياً، وعندما اكتشف الحاج ذلك، شرع بالصراخ بصوت مرتفع، ودعا بقية الحجاج إلى مساعدته، وبناء عليه نهض الحجاج، وركض عدد كبير منهم مغضبين نحو المسلمين، وحدث صراخ عظيم، واضطراب شديد، أرغم المسلمون بموجبه على الابتعاد عن الحجاج بوساطة العصي والسيوف، والتقط كل جانب الحجارة، لكن مامن أحد بدأ برماية أي منها، لأنه لو رمى أحدهم بحجرة، لاشك كان سينشب قتال خطير جداً، لأنه كانت هناك أعداد لا تحصى من الحجارة، كلها ناعمة ومناسبة للرماية.

وهكذا وقفنا أمام بعضنا بعضاً، وصرخنا، وبذل قبطانا الغليونين والتراجمة جهوداً عظيمة لإعادة الهدوء، وكانوا يقومون بتهدئة مكان ثم ينصرفون نحو المكان الآخر، لأن المسلمين شرعوا بإغضاب كثير من الناس، وعندما هدأ هذا الاضطراب، وصمت الجميع، بدأ مسلم برمي الحجارة على حشد الحجاج من مكان خفي، وبناء عليه استأنفنا ثانية، وركضنا للحصول على حجارة، ودعونا بصوت مرتفع الترجمان والقبطانين للدفاع عنا ضد هؤلاء اللصوص، ورمى بعضنا بحجارة بين المسلمين، مما أثارهم وأغضبهم، فنزلوا بسيوف مجردة، وأرغمونا على رمي الحجارة التي التقطناها، وعلى كل حال، لدى رؤية sa-bothytanco، الترجمان، وكالينوس الكبير، أن كلا الجانبين في حالة من الهياج عظيمة، يريد كل فريق منهما الايقاع بالفريق الآخر، ويصرون بأسنانهم غضباً، وقتها أمر الحشد جميعه بالنهوض والمغادرة، ولدى امتطاء حميرنا تركنا هذا المكان الملعون، وقد أشار الرب يسوع إلى مخاطر هذا المكان في الاصحاح العاشر من انجيل القديس لوقا، عندما تحدث عن الرجل الذي نزل من القدس إلى أريحا بين اللصوص، وعنه سوف يأتي في المستقبل حديث أطول، هذا ولقد كنا من بعض الجوانب

الأخرى حتى في خطر أعظم، لأننا جلبنا لصوصنا معنا، على حسابنا، وكان علينا تحمل وجود لصوص غرباء وبامكاننا ذلك، لأنه قد قيل: «أسوأ الأعداء هم الذين من آل بيت الانسان»، وكان البيت الذي رغبنا بالاستراحة إلى جانبه، فيما مضى نزلاً وفق الطريقة الشرقية، لأنهم بنوا بيوتاً عظيمة إلى جانب الطريق العام، مع كثير من الاسطبلات تحت، وغرفاً فوق، من أجل دواب الانسان للاستراحة فيها، والبيت قائم مفتوح الباب، من دون أي سكان أو أي أثاث، وعندما كان يمر غرباء من هناك، كان بامكانهم الدخول إليه، والاستراحة في الظل، وأكل أي طعام جلبوه معهم، لأنه لا يوجد هناك لارجل ولا امرأة للطبخ، وفي الحقيقة كان للجمال الذين يحملون الأثقال، محطات محددة، كانوا لا يتجاوزونها بل يرتاحون في نهاية كل واحدة منها، وكان يقوم في مثل هذه الأماكن بالعادة خانات من أجل الانسان والدواب للراحة فيها، ولا يجد الانسان في الشرق نزلاً إلى جانب بيوت الاستراحة الفارغة هذه، حيث لا شيء فيها إلا ما يجلبه الانسان معه إليها، ويبدو أن النزل الشرقية كانت دوماً بيوت راحة من هذا النوع، ولهذا قرأنا في سفر التكوين: ٤٢، حول أخوة يوسف، أنهم عندما كانوا في نزل، فتح أحدهم عدله ليعطي علفاً إلى حماره، وكذلك في سفر الخروج: ٤، بأن الرب طلب أن يقتل موسى في نزل.

فضلاً عن هذا، لقد حدث في نزل من هذا النوع أن ولد الرب (لوقا: ٢)، ولهذا انطلقنا من ذلك النزل، وكنا مسرورين بأننا غادرنا المكان، لأنه كان من المتوجب علينا امضاء الليل هناك في حالة خطر، بسبب قتال المسلمين، وكان القمر، في الوقت نفسه، قد بزغ نوره، ونزلنا بخطوات واسعة عبر الطريق الوعر، كما نزلنا مسرورين عبر الصخور المنزلة، وعلى طرقات من هذا النوع تعرف الحمير كيف تسير بسهولة، بدون وقوع، وهم ينزلون بقوائمهم الأمامية فوق الصخور ببراعة

مدهشة، وذلك في طرقات هي مستيحلة بالنسبة للخيول، والطرقات في هذه الصحراء حجرية وهي بالعادة عالية وضيقة، مع وديان عميقة على كلا الجانبين، وبناء عليه إذا حدث وسقطت دابة من فوق الصخور المنزلة، كانت هي ستسقط في هوة عميقة، ولسوف يهلك الانسان والدابة معاً، ولقد دهشت تجاه النسوة اللاتي كن برفقتنا، لأنهن ركنن بجرأة كبيرة، ومصدر عجبني هو أن المرأة ضعيفة بشكل طبيعي.

وكان معنا امرأة مسلمة، ركبت معنا حتى أريحا، وكانت شابة، جيدة الملابس وفق طريقتهم، لكن مامن أحد كان يمكنه أن يرى وجهها، لأن وجهها كان مغطى بقطعة قماش سوداء، كانت شفافة، وبذلك كان بإمكانها رؤيتنا، وأخيراً وفي نهاية النزول، وصلنا إلى المنطقة السهلية العائدة لأريحا، التي تبدأ عند سفح جبال اسرائيل، وعبرنا خلال أريحا ونحن نركض، ونزلنا خلال الجبل لمدة ثلاث ساعات، وجاء سيرنا خلال منطقة منبسطة، وبقينا هكذا حتى وصلنا إلى قفار الأردن، التي من خلالها نزلنا إلى مجرى نهر الأردن، وهنا أعطينا. حيرنا إلى سائقيهم وابتعدنا عن المسلمين، الذين مركزوا أنفسهم بين الأشجار لنيل الراحة، بينما أوينا نحن إلى فراش النهر المقدس وذلك وصولاً إلى الماء، حيث فيه جلبنا البرودة إلى أيدينا، ثم تمددنا للاستراحة فوق الرمال، حيث استرحنا بهدوء لبعض الوقت، لأن النهار لم يكن بعيداً.

قداس النهر المقدس الذي أقمناء على ضفته

وفي اليوم العشرين، الذي كان الأحد الثامن، بعد عيد الثالوث المقدس، وما أن صار ضوء النهار منتشرأ، حتى نهضنا نحن الكهنة أولاً، وقرأنا ماتوجب علينا على ضفة النهر المقدس، وبعدما قرأنا صلواتنا الصباحية والأولى، نزلنا نحن الكهنة حتى الماء المقدس، وبدأ قائد الجوقة يغني بصوت مرتفع ترنيمه - Lavacra pu-chris rigurgitiscoelestis agnus attigit، الخ، وغنينا بعد هذا -

Domino الخ، لأن من المعتقد، أنه في هذا المحل جرى تعميد الرب من قبل يوحنا، وعلى صوت غنائنا، أفاق الحجاج الذين كانوا نائمين بين القصب، وجاءوا يسعون نحونا، وأفاق المسلمون أيضاً، ووقفوا فوق أرض مرتفعة ينظرون نحونا، وبعدما غنينا الترنيمات المعينة في كتب المسيرات، ارتمينا على الأرض وقبلنا الأشياء الرطبة والأرض المقدسة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ومكثنا بعض الوقت في الصلاة، لأن اليوم كان نهار أحد، ولم نكن ذاهبين لسماع أي قداس، وليس هذا بسبب إهمالنا، ولكن بسبب استحالة ذلك، مما أعفانا من ذنب الانتهاك.

استحمام الحجاج في الأردن والأشياء الثلاثة التي حرمت عليهم

وعندما فرغنا من صلبواتنا، نزعنا عنا ملابسنا، حتى نتمكن من الاستحمام في النهر المقدس، وعندما رأى أدلاؤنا هذا، سمحوا لنا بغسل أنفسنا، لكن حظروا علينا أشياء ثلاثة: (١) أن لا يسبح انسان حتى الضفة الأخرى، (٢) لا يجوز لانسان أن يغوص تحت الماء، (٣) ينبغي أن لا يأخذ انسان أية مياه معه في قارورة، ليحملها إلى وطنه معه عبر البحر، ومن ثم إلى منطقته، وكان السبب الأول لهذه المحظورات، أن الذين يسبحون نحو الضفة الأخرى، يحصل كل واحد منهم، في جميع الأحوال، في دائرة الخطر على حياته، ولم يحدث قط أن انسانا من بين الذين سباحوا حتى الضفة الأخرى عاد من دون التعرض لبعض الأذى، والسبب من أجل الخطر الثاني، هو أن قاع الأردن طيني، وكل من يغطس فيه، ربما يلتصق هناك ويهلك، وسبب الخطر الثالث هو أن اببحار السفن التي تحمل على ظهرها ماء من الأردن، هو دوماً غير سعيد، فهذا غالباً ما وجده الملاحون بالتجربة.

وصحة ما قد قلته سوف تظهر فيما بعد، وهكذا بعدما نزعنا ثيابنا ذهبنا إلى الماء المقدس، وباسم الرب عمدنا أنفسنا في أمواجه، ولم يخلع بعض الفرسان ملابسهم، بل غطسوا في الماء بالثياب نفسها التي ارتدوها عندما امتطوا ظهور حميرهم، قائلين بأنهم سوف يكونون دوماً سعداء بهذه الثياب من الآن فصاعداً، وبناء عليه، إنهم عندما سيصلون إلى الوطن، سوف يحفظون هذه الملابس ويدخرونها مثل الكنوز، ويلبسونها عندما يذهبون إلى المعارك، معتقدين أن مامن أذى سوف ينزل بهم، واشترى بعضهم قطعاً من الكتان أو الصوف، قاموا بتغطيسها بالماء، بقصد التمكن من أخذها معهم إلى الوطن، ومن ثم صنع ملابس منها حسبما يطيب لهم، معتقدين أنهم عندما سيلبسونها سوف يبتسم الحظ لهم، ويكون أكثر لطفاً معهم من غير ذلك من الأوقات.

وكان بعضهم قد جلبوا معهم أجراساً صغيرة، كانوا قد اشتروها من البندقية، وقد جلبوها معهم إلى الأردن، وعمدوها في الأردن باسم الثلوث، وقد حملوا هذه الأجراس فيما بعد معهم إلى الوطن، ومن ثم إلى المناطق الخاصة بهم، وهم يقولون بأنه في أثناء العواصف، والبرق والرعد، إذا ما قرع جرس معمد في الأردن، لا البرق ولا البرد، يمكن أن يحدث أذى، في إطار المنطقة التي سمع فيها صوت القرع، وعلى كل حال إن مدى الصدق في هذه الحكايات حول الأجراس والملابس المعمدة في الأردن، وفيما إذا كان اعتقاد العوام، الذي يؤكد صحة الحكايات المتقدمة، كله صحيحاً أو وهماً، فهذا على الرجل العاقل تأكيده بالنسبة لنفسه.

وبناء عليه وقفنا في الماء وسط بهجة عارمة، وكان كل واحد منا يقوم مبادراً بتعميد الآخر، ومع أن الوقت كان ما يزال باكراً في الصباح، لم تكن المياه باردة، بل دافئة، ومناسبة للاستحمام فيها، كما أننا شربنا بعضاً

منها، ومع أننا كنا صائمين، لكننا فعلنا ذلك صدوراً عن التقوى، وهي على كل حال — لم تكن طيبة الطعمة لأنها لم تكن باردة، وكانت موحلة مثل مياه المستنقعات.

وأول ما حدث أن بعض الحجاج لم يطيعوا أمر الحظر الأول، الذي صدر عن المسلمين، وسبح عدد كبير منهم إلى الضفة الأخرى من النهر، وكنت خلال حجي الأول قد سبحت أيضاً إلى الضفة الأخرى، لكن في الثاني مكثت، وجلست في المياء فوق الرمل، والماء حتى عنقي، وكنت مرتدياً قميصي ووشاحي الكتفي، ولم أرغب، في حجي الثاني، بالسباحة عبر النهر، لأنه حدث في حجي الأول أنني ارتعبت بشكل هائل، عندما كنا على الضفة الأخرى من النهر، بسبب فعلنا ذلك، لأننا سبحنا وعبرنا برفقة عدد كبير من الفرسان الآخرين، وكنا نلعب بسرور في الماء على الجانب الآخر، عندما ارتفع فجأة صراخ مرتفع، وبدأت تحدث فوضى مع اضطراب عظيم، والذين كانوا على الضفة الأخرى صرخوا صرخات مخيفة، وعلاوة على ذلك، ركض المسلمون، الذين تألفوا من أدلائنا والآخرين، إلى أعلى الضفة، وصرخوا بأصوات مخيفة غاضبة، وشتموننا وهددوننا، وتجاه ذلك وقفنا مندهشين، وبسبب كثرة الناس الذين كانوا يصرخون، لم نستطع أن نعرف ما الذي حدث، حتى سبح حاج نحونا من الضفة الأخرى، وعندما اقترب منا، صرخ: انتبهوا، إن واحداً من إخواننا الحجاج، قد غطس في وسط الماء، ولا يمكن رؤيته، وبمجرد سماعنا ذلك، سبحنا إلى المكان الذي غطس فيه، وسبحنا من حوله، منتظرين له كي يظهر.

وأخيراً، وبعد مضي وقت طويل، أمكن رؤيته، وقمنا على الفور بجذره من شعره، وجلبناه إلى الضفة الأخرى، أي إلى الضفة التي نحوها سبحنا وعبرنا إليها، لأنها كانت الأقرب بين الضفتين، وكان أشبه بالبيت، ثقيلاً وغير قادر على التكلم معنا، حتى تقيأ الماء الذي

ابتلعه، وعندما أعدناه لمناء، وسألناه كيف بلغ به الحمق حداً، أنه ذهب إلى الماء، من دون أن يفهم فن السباحة، فأجاب: إنني منذ صغري، كنت دوماً عارفاً بهذا الفن، ذلك أنني نشأت على أطراف المياه، لكن عندما دنوت من وسط الأردن، لمسني شيء ما من تحت الماء، ولقد ارتعبت كثيراً بتلك اللمسة، إلى حد أنني فقدت كل قوة أطرافي، ولم يعد بإمكانني مساعدة نفسي، لا بقدمي، ولا بذراعي، وعندما كان يقول هذا ارتجف، ولم يعد بإمكانه الوقوف.

وكان المسلمون وقوفاً على الضفة الأخرى من النهر، فأخذوا يصرخون لالتهاء من هذا الأمر، ولنسبح ثانية عائدين، وهكذا شجعنا ذلك الحاج، ونزلنا إلى الماء معه، ولكن بعدما سبح مسافة ضئيلة بدأ يغرق، فأمسكناه من شعره، وواجهنا بعض الصعوبة في جره، وكان المسلمون في تلك الآونة، وقوفاً على الضفة أمامنا، وكانوا قد فقدوا صبرهم، وكانوا يصرخون علينا، وهنا أقدم اثنان من الحجاج الأقوياء، كانا يتقنان السباحة، فوضعا بينهما بشكل أنه أمسك واحداً منهما من ذراعه وأمسك بالذراع الأخرى، وتعلق على رقبتيهما، حتى يتمكن من السباحة معه ومن ثم إعادته، ولكن ما أن بدأ الثلاثة بالسباحة حتى شرعوا بالغرق، وبصعوبة بالغة تمكن الاثنان من انتزاع نفسيهما من قبضته، وتمكنا من انتزاع نفسيهما، وخرجا إلى سطح الماء، لكنه بقي لمدة طويلة تحت الماء، ثم ظهر ثانية، وكما حدث من قبل، سحبناه إلى الشاطئ وكأنه ميت، وقد فقد جميع قوته.

وبناء عليه أمرنا أدلاؤنا، بالسباحة والعبور إلى حيث كانت ملابسنا، وأن نترك ذلك الحاج حيث كان، حيث سيتدبرون أمره، وهكذا سبح جميع الحجاج وعبروا، وعندما أردت السباحة والعبور، استولى علي الفرع، بسبب الخطر الذي رأيته، وبدأت أرتجف وأتحيل وأتمتم قائلاً: «إنني بخفتي وطيشي، تخليت عن ثوب طائفتي، وقدمت إلى هنا، على

الرغم من أوامر سادتي أدلائي، وإنني إذا ما غرقت هنا، فإنني سوف أغطس من أعماق هذا الماء إلى هوة الجحيم، وذلك بسبب فسقي وخفتي، وعريّ اللاديني، فلأجل هذا السبب أستحق الحرمان الكنسي لأنني عصيت أوامري، ولكم كان جميلاً لو كنت مع أولئك الحجاج، الذين هم على الضفة الأخرى، ذلك أنهم يقفون بأمن وأمان، يارب مولاي، أرجوك لاتدع عاصفة الماء تحملني نحو الأسفل ولا أن تبتلعني الأعماق، ولاتدع أيضاً هوة الجحيم تفتح فاهها لإلتقافي».

وما أن فرغت من قول هذا، حتى قوّيت نفسي بشارة الصليب، وقفزت بقوة ورغبة شديدة إلى الماء، وأرغمت نفسي بقدمي وذراعيّ على عبور وسط النهر، ووصلت إلى الضفة الأخرى من دون عائق، وعلى الفور، بعدما وضعت عليّ وشاح طائفتي، قطعت على نفسي عهداً خاصاً، في أن لا أبتعد ثانية مادمت حياً بين الناس، لمثل هذه المسافة عن ثوبي الرهباني وشعار طائفتي، لأنني في أن أكون بعيداً عنه أمر محزن جداً بالنسبة إليّ، ويبدو أنه أمر غير محتمل بالنسبة لي في أن أغرق بالماء من دون ثوبي، لكن في ثوبي، ماكنت لأهتم بالأمر كثيراً.

ولو أنني قدّرت الأمر، وفكرت بالعمل قبل السباحة والعبور، لما قمت بالسباحة والعبور مقابل أي شيء في الدنيا، وإنني أعرف جيداً، أن الحكماء في كل من القانون واللاهوت، يؤكدون بأن على رجل الدين، إذا كان ملزماً بارتداء ثوب طائفته، أن يفعل ذلك سواء أكان مرتاحاً في فراشه، أو في أي حال من الأحوال، مالم تكن هناك حاجة ضاغطة جداً، أو مرض لايسمح له بارتدائه، وبدون ذلك يكون قد اقترف ذنباً مميتاً، علاوة على ذلك إنه إذا ما ظهر رجل دين دون أن يأبه —بدون ثوبه الكهنوتي — أمام رجل علماني، فبهذا العمل بالذات ينال الحرمان الكنسي، ولقد وقعت في خطر عظيم بسبب الإهمال.

وكان الآن، في ذلك الوقت، الحاج المتقدم الذكر، واقفاً وحده،

عارياً، ومليئاً بالخوف، ومضطرباً مع وجه شاحب، وقام مسلم بامتطاء فرس قوي، وسار مسافة كبيرة عبر مخاضة للأردن، وأعادته إلينا، وأعطاه الحاج ذهباً كثيراً، ثمنا لحياته، وكان هذا الحاج، قبل أن يصاب بما أصيب به، رجلاً وسيئاً، وشهوانياً، ومفرطاً، وكثير الخصومات، وكان مكروهاً من قبل كثير من أتباعه، لكن بعد إعادته إلينا، صار انساناً آخر تماماً، شاحب الوجه، وجباناً، ومتواضعاً، صاغراً، وقد بقي دوماً حزيناً، وكأنه كان منبوذاً، ولا أعتقد أنه عاش كثيراً من السنوات، بعد ذلك.

ولسوف أتحدث عن نازلة أخرى، أنا بالحقيقة لم أكن شاهداً لها، بل سمعتها من واحد جدير بالتصديق: ففي السنة التي كانت بين حجي الأول وحجي الثاني، ذهب عدد كبير من النبلاء الألمان بحراً نحو الأرض المقدسة، وجلب واحد من أعظم الرجال بينهم ديكه معه، ومع أنه لم يكن يعرف الأردن، كان لديه شعور مسبق بالخطر، ذلك أنه اعتاد طوال الرحلة على القول بأنه لا يخاف من أي شيء خلال ذلك الحج، إلا من الأردن فقط، وعندما وصل إلى الأردن، رفض السباحة عبره مع البقية، ومع ذلك خلع ثيابه، ودخل إلى الماء لتبريد نفسه وغسلها، ولكن والماء لم يصل إلى صرته، بدأ يغطس، وقد غرق تحت الماء، ولم ير مرة ثانية.

وكذلك في حجي الثاني هذا، الذي أتولى الآن وصفه، سبح عدد كبير عبر النهر، دون مراعاة لأوامر الحظر التي صدرت عن المسلمين، وكانوا يتوقعون وقوع بعض المخاطر، ولذلك صرخوا يلومون الذين سباحوا عبر النهر، وكان بين هؤلاء كاهن، سبح عبر النهر، مثلما فعلت أنا من قبل، وقد فقد عند الضفة الأخرى قوته الجسدية، ولم يعد قادراً على السباحة، كما أنه لم يعد يعرف كيف، بل وقف يرتعد خوفاً، وقد أعيد من قبل رفاقه مع صعوبة كبيرة، أعيد وهو رجل ضعيف ومحطم، في حين أنه كان قبل هذا مفعماً بالحياة وقوياً، وكان صديقاً عظيماً لي،

وغالباً ما سألته عما حدث له، وقد أجابني بأنه فجأة فقد قوته، ولقد سألت حجاجاً قدموا إلى الأردن قبلي وبعدي، فوجدت نزول بعض المصاعب دوماً بواحد ما.

ومما تقدم قوله ينبعث سؤال هو: كيف حدث أن ذلك الخطر والاضطراب غالباً ما وقع في هذا الاستحمام، مشاهدين أن النهر ليس عريضاً، ولا يملك تياراً سريعاً، بل تياراً بطيئاً إلى حد ما؟ ولهذا جواب ما، هو أن بعض الحيوانات الشريرة تكمن في تلك المياه، وهي عندما تشاهد حركة انسان وهو يسبح، تخرج من قعر الماء وتحاول الامساك به وهو يسبح، ويقول آخرون، إن السبب هو أن مكان الاستحمام قريب من المصببات التي يفرغ الأردن بها نفسه في البحر الميت، لذلك يحدث هناك بعض التمازج لمياه البحر الميت مع مياه هذا النهر، ونظر لسمية هذه المياه، يفقد الرجال الذين يسبحون عبره قوتهم.

ويقول آخرون بأن مامن شيء يعيش في البحر الميت، باستثناء بعض الحيوانات الجهنمية غير الطبيعية، التي تسبح، وتصعد من البحر الميت، وتسبب موت الذين يسبحون، ويقول آخرون بأن منشأ الخوف هو تصورات مرعبة، لأن الحجاج يسمعون دوماً حكايات حول هذه المخاطر، وكل واحد يرتجف تجاهها، ويقوم الجميع وهم محترزون، خشية من لحاق بعض الشرور بهم، يقومون وهم في حالة من الرعب بالسباحة عبر النهر، ويفقد بعضهم قوته من خلال التخيل والاعتقاد، بأنهم لمسوا، أو جرى جرهم نحو الأسفل للاغراق، ويقول آخرون بوجود سبب آخر، وهو أن السباحة عبر النهر فيها علامة على الشهوة واقتراف الاثم، مما لا ينبغي اظهاره في مكان مقدس مثل هذا، فالرب عانى من الاضطراب ليأتي إلى رجل واحد، من أجل ان يعبر الآخرون هناك عن الجدية، والهدوء، والالتزام بالنظام، لأنه بسبب الأمور الاعجازية التي صنعت هناك، صار هذا المكان، مكان وقار، وليس

مكان طرب، مكاناً للبكاء وليس مكاناً للضحك، مكاناً للصلاة وليس مكاناً للصراخ، مكاناً للركوع وليس مكاناً للصراع، ومكاناً للتوبة وليس مكاناً للشهوة.

لكن الحجاج أخذوا هذا كله من الجانب المعاكس، ولهذا أرخيت الأربطة في مثل هذا المكان المهيب ولذلك تعرض بعضهم للعقوبة ليكونوا مثلاً للبقية، ولكن مامن شيء لحق الذين عمدوا أنفسهم بشكل رصين وخشوع، كما رأينا في أوضاع النساء من الحجاج، اللاتي تحممن بين القصب فوقنا، بشكل لطيف وهادئ، وتقي، وأكثر سكونا مما فعلنا، وكنت أرغب، بالنسبة لمسألة هؤلاء النساء العجائز، أن يكون ماقيل صحيحاً ويتبرهن حقاً، لأن الناس يقولون، بأن من يستحم في الأردن، لا يصير أكبر، لابل كلما بقي في الماء مدة أطول، صار صغيراً أكثر، فعلى سبيل المثال، إذا استحم لمدة ساعة، صار أصغر لمدة ساعة واحدة، وإذا استحم لمدة ساعتين، صار أصغر لساعتين، وإذا كان لثلاث ساعات، صار أصغر لثلاث ساعات، وإذا استحم لمدة سنة، صار أصغر لمدة سنة وهكذا، لكن رفيقاتنا من النساء يحتجن للاستحمام لمدة ستين سنة، حتى يستعدن شبابهن، لأنهن كن نساء في الثمانين من العمر، فما فوق.

وإذا كان الذين يستحمون في الأردن لا يكبرون، فوقتها إنه حمام شرير، لأن الرب قال على فم اشعيا (٦٥ / ٢٠): «لأن الصبي يموت ابن مائة سنة، والخطيء يلعن ابن مائة سنة»، وسيكون هذا الحمام مطلوباً فوق كل شيء ومرغوباً، إذا كان يزيل الأمراض، والضعف، والشيخوخة من الجسد، ويعيد الشباب إلى العقل.

علاوة على ذلك، إن كثيراً من الناس العلمانيين تافهين، أوساذجين، إلى حد الاعتقاد أنهم إذا ماتعمدوا في الأردن سوف لن يكونوا أكبر مطلقاً، وهذا سبب بذلهم جهوداً كبيرة للوصول إلى الأردن وتعميد

أحدهم الآخر هناك، وهم أيضاً الذين يغطسون في المياه العميقة، مخالفين لأوامر المسلمين.

وبعدما فرغنا من استحمامنا، أخذ بعض الحجاج ماء من الأردن، بجرار، ودوارق، وقوارير من زجاج مخالفين بذلك الأمر الثالث للمسلمين، الذين منعوا ذلك، بناء على مبادرة القبطانين، لأن قادة السفن لا يسمحون بوجود الماء على ظهر سفنهم، لأنهم يعتقدون بشكل ثابت وأكيد، أن السفن التي على ظهرها مياه من الأردن هي سيئة الحظ، ولا يمكنها القيام برحلات سريعة، بل هي في خطر، مادامت نقطة صغيرة من المياه باقية على سطحها، وغالباً مارأيت أنا شخصياً هذا، فعندما كانت هناك مخاطر في البحر، ناجمة عن رياح معاكسة أو من الحاجة إلى الريح (١٩٨) يسعى القباطنة حول أطراف الغليون ويركضون، يفتشون جميع الحجاج والصناديق وكل ما هو مغلق، ويبحثون في كل شق وزاوية بحثاً عن مياه الأردن، التي إليها يعززون سوء الحظ وإذا لم يجدوها في التفتيش الأول، يبحثون ثانية، وإذا ما استمرت مصاعب الملاحة، يعاودون البحث بحدة متناهية، ويتهددون كل من يجدون لديه أيا من هذه المياه، حيث يقومون برميها مع حقائبه في البحر.

وتحملنا في حجي الأول كثيراً من هذا القليل، وجرى تفتيشنا بشكل مهين من قبل الملاحين، بحثاً عن هذه المياه، وبناء عليه، إنه لمن المفيد معالجة هذا الأمر، ورؤية مدى الصدق الموجود في هذه الفكرة، أي فكرة، أن مياه الأردن، إذا ما وضعت في قارورة، وحملت على ظهر سفينة مسافرة في البحر، فيها أي طاقة تعيق إبحارها، وتجعل البحر هائجاً، وتمنع الريح الطيبة من الهبوب، أو تغير أحوال الهواء أو البحر في أي حال من الأحوال، وذلك كما يقول قادة السفن بأنها تفعل، وهنا علي أن أذكر أنني سمعت من رجل موثوق ومتعلم بأنه قد رأى في

روما مرسوماً بابويا بختم رصاصي، فيه جرى منع أي انسان من جلب ماء من الأردن إلى البلدان الموجودة فيما وراء البحار، وإذا فعل ذلك فسوف ينال لعنة البابا، وقالوا أيضاً، بأن سادة البندقية قد أمروا، بإعادة أي انسان من فوق سطح البحر، إذا كان معه الماء المتقدم الذكر، وأنهم غالباً ما يقدمون ويفتشون السفن، ويريقون المياه التي يجدونها فيها.

وبناء عليه، فإن الذي يقول بأن ابحار السفن يعاق بحظر البابا، هو معلن معترف أن ذلك بسبب الماء، بل الذي هو مصدر الإعاقة هو الحظر البابوي، والآن إذا كانت أوامر الحظر البابوية، تعيق إبحار السفن، لابد أن ذلك يتم بوساطة معجزة، وبسبب وجود أشخاص محرومين كنسياً، وليس بسبب الماء، وذلك تماماً كما نقرأ حول أشخاص محرومين كنسياً، في كونهم عرضة لكثير من المآسي، من ذلك على سبيل المثال، أن مثل هؤلاء الأشخاص لا يدفنون في أفنية الكنائس، بل يلقي بهم أثناء الليل في العراء ويتركون للافتراس من قبل الحيوانات المتوحشة.

ومثل هذا عندما كان النبي يونان عاصياً هبت عاصفة هوجاء، وعندما ألقى به من السفينة، توقفت العاصفة، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر يونان، وهذا — على كل حال — لا يحدث إلى جميع الأشخاص المحرومين كنسياً، بل فقط مع الأشخاص الذين يرغب الرب في إظهار معجزة عليهم وبهم، وواضح أن هذا لا يقع للجميع، من قضية هؤلاء الحجاج الذين يقلعون مسافرين من دون الحصول على ترخيص من البابا، ويصلون إلى القدس بسلام، مع أنهم في وضع المحروم كنسياً، ومن هنا ينبعث سؤال جديد، هو بناء عليه: لماذا أقدم البابا على اصدار قرار بمنع جلب مياه الأردن، والجواب كما يبدو، هو أنه فعل هذا، ليزيل الأوهام التي أثارها استخدام ذلك الماء، لأن بعض الكهنة الساذجين، يعتقدون أنهم لن يملكوا القوة الحقيقية للتعميد، مالم

يمزجوا الماء مع بعض الماء من الأردن، ذلك أنهم اعتقدوا أن التعميد بذلك الماء هو أكثر قداسة، وأعظم تأثيراً منه بدونه، ومثل هذا، فإن بعض النساء اللاتي يؤمن بالأوهام، لا يقبلن بتعميد أولادهن، ما لم يكن في الماء بعض الماء من الأردن، قد مزج به، حتى وإن آمن بأن الماء الآخر فيه كفاية، تراهن مع ذلك بقدرن، أنه حيث توفر ماء قد مزج به بعض ماء الأردن فهو أكثر قداسة، وجميع هذه الآراء خاطئة.

وعلاوة على ذلك إذا ما أراد المشعوذون والسحرة، القيام باستخدام خاص لهذا الماء، استخدموه في الحال عندما يتمكنوا من جلبه، وذلك في ممارساتهم الواهمة، من أجل تحليل الحظر الذي أصدره البابا حول جلب المياه، لكن إذا — بناء على ذلك — ما جرى إعاقة إبحار السفن، فوقتها يكون الرب قد عمل معجزة جديدة، ويقول آخرون، بأن الماء من الأردن، مادام جارياً، هو ماء حي، لكن عندما يوضع في قارورة يموت، ويصبح آسناً، وبما أن البحر لا يمكنه أن يحتمل ما هو ميت وفاسد، لذلك — كما يقولون — تعاق السفن في إبحارها، لكن هذا غير صحيح، لأنني رأيت أوعية كبيرة، صار الماء فيها آسناً، وقد جرى حملها إلى مسافات عظيمة فوق سطح البحر، وذلك من أجل أن تبقى بعض المياه الطازجة في السفينة، مع أنها كانت آسنة، ومثل هذا رأيت جسد رجل ميت، قد مات مؤخراً، وقد حمل على ظهر السفينة من جزر السيكلاد cyclades حتى البندقية، وهذا أمر سوف أتولى شرحه فيما بعد.

ويقدم آخرون سبباً آخر، ويقولون بأن البحر الميت يحتوي على صفات مدهشة، وبما أن مياهه تتمازج هنا مع مياه الأردن في هذا المكان، لذلك لا يستطيع البحر الكبير تحمل مياههما، بسبب العدواة التي يحملها كل واحد من البحرين نحو الآخر، لكنني لا أصدق هذا ولا أؤمن به، وأتصور انعدام وجود الملوحة فيه، في حين أن مياه البحر

الميت، شديدة الملوحة، ولهذا أطلق عليه في الكتابات المقدسة اسم «البحر الأعظم ملوحة»، وعلى هذا لا يوجد هناك، في ذلك المكان، تمازج بين المائتين، ويقول آخرون بشكل أفضل، وأكثر صدقاً، بأنه من الأوهام أن تؤمن بأن مياه الأردن لها قوة إعاققة، أو تغيير الرياح، أو التدخل في حركات الهواء والبحر، ومع ذلك إنه بسبب عدم إيمان الأناس المسيحيين، يتم هذا كله بأمر من الرب، حتى وإن تكن هناك على ظهر السفينة مياه من الأردن، فإن هذا يحدث ليس بسبب الماء نفسه، ولكن بسبب الحاجة إلى الايمان، لابل حتى كما نرى أنه من خلال الايمان السيء، بعض الأشياء تعمل فتشفي من بعض الأمراض، وهي أشياء ليس لديها سبب لشفاء هذه الأمراض، كما أنها غير متبناه في فن الطبابة لفعل ذلك، من ذلك على سبيل المثال إذا ما وقع فرس وصار أعرجاً بقدمه اليمنى، أقوم مباشرة بربط القدم اليمنى لبقرتي، التي ليست عرجاء، ويشفى بعد ذلك حصاني، ليس بسبب ضهاد بقرتي، بل بسبب سوء ايماني في اعتقادي بهذا، وهذا فيما يختص بالسؤال الذي هو أمامنا.

وحالما ترى قبطان سفينة يعتقد أن نقاطاً قليلة من ماء نهر الأردن يمكن أن تغير المجرى العام للهواء والماء في البحر الكبير، وتغير الرياح، وقتها عليك أن تعاقبه لذنبه، لأن الرب هو الذي يأمر بإعاققة الابحار، لزيادة الايمان السيء، هذا وكون هذا الاعتقاد هو وهمي، واضح أيضاً، من حقيقة أن كثيراً من الناس يمكن العثور عليهم، ممن جلبوا هذه المياه، علماً بأنهم اقترفوا خطأ بعملهم ذلك، لأن ذلك محرم من قبل البابا.

وليكن في هذا كفاية، ذلك أنني تجولت بعيداً عن مكان استحمامنا في الأردن، ووصلت بعيداً حتى البحر الكبير، وبناء عليه، عندما دعانا المسلمون، خرجنا من الأردن المقدس، وارتنينا ملابسنا، وخرجنا من

مجرى النهر، ووقفنا نتأمل المكان، ثم إننا جلسنا بين الشعراء، وأكلنا خبزنا والأشياء الأخرى التي كنا قد جلبناها معنا من القدس، وذلك دون أن نعبأ بالمسلمين، الذين كانوا واقفين على أقدامهم، وتابعوا يستدعوننا لمغادرة ذلك المكان.

وصف الأردن وأولاً ينابيعه

أنا مقبل على تقسيم ماسأقوله حول نهر الأردن، إلى ثلاثة أقسام، هي: (١) ينابيعه، و(٢) صفاته و(٣) (إطرائه).

وفي وصفي للأردن، لا بد أنني بحاجة لصنع إشارة إلى أماكن، أنا لم أرها بعيني، لأنه صحيح أن حجنا قد وصل إلى الأردن، لكنه بالفعل لم يصل إلى بداياته، وفيما يتعلق بنبابيع الأردن، لقد قيل بشكل عام، وما قيل هو صحيح، بأنه ينبع من أسفل جبل لبنان، وذلك من نبعين، هما «أر» و «دان»، ومن هذين الاسمين مجتمعين نال اسمه وبات يعرف «بالأردن»، وأرجع بعضهم ينابيعه إلى الورااء كثيراً، وقالوا يرسل الفرات، الذي هو نهر من أنهار الجنة، فرعاً صغيراً من فروعه، من خلال قناة سرية، تحت الأرض، وهذه تجمع مياهها في نبع اسمه فيالا phyla، وهو نبع عميق، وملء دوماً، لكنه لا يتدفق، ويطلق المسلمون على هذا النبع اسم «ميسدان»، وورد هذا الاسم في انجيل متى: ١٥ «مجدل»، وفي انجيل مرقس: ٨، باسم دلمانوثة.

وكما قلت من قبل لا تتدفق مياه هذا النبع، بل تمر خلال منطقة الطرخونية من خلال قناة تحت الأرض سرية، وبذلك تجعل النبع يجري عند سفح جبل لبنان، وهو الذي اسمه «دان»، وكون نبع دان هو نبع المجدل مبرهن عليه من خلال حقيقة القش الذي يرمونه في نبع المجدل فيجدونه جارياً من خلال نبع دان، ويبعد هذان النبعان عن بعضهما ستة آلاف غلوة.

ويقولون بأن نبع «الار» يتلقى مياهه من نهر الدجلة الذي هو نهر الجنة الآخر، وذلك بوساطة قناة من تحت الأرض، وتتدفق مياه هذان النبعان: «أر» و «دان» من سفح جبل لبنان، مع وجود مسافة بين الأول منهما والآخر، ويجريان معا في نهر واحد أمام باب المدينة التي كان اسمها القديم هو لايش، وصار لهما اسم واحد هو الأردن، ونقرأ عن مدينة لايش في انجيل يوحنا: ١٠، وفي سفر القضاة: ١٨، فهنا ورد الخبر بأن أبناء دان قد وجدوها مدينة غنية وآمنة، فاستولوا عليها، وأحرقوها، ثم أعادوا عمارتها وأعطوها اسم دان، وهو اسم أبيهم.

وكانت هذه المدينة آخر مدينة في الأرض المقدسة باتجاه الشمال، وفي هذا المكان جرى نصب صنم ميخا، الذي نقرأ عنه في ثانيا الاصحاح الثامن عشر من سفر القضاة، علاوة على ذلك نصب يربعام، ملك اسرائيل، هناك واحداً من عجليه الذهبيين، وأمر الناس بعبادته، وذلك حسبما ورد في الاصحاح الثاني عشر: ٣٢، من سفر الملوك الأول، وبعد زمن طويل من أيام فيليب، الذي كان الطيطراخ للايطورية والطرخونية، صار اسمها قيسارية، صدوراً عن احترام قيصر، ولهذا السبب ورد اسمها في انجيل متى: ١٦، «قيسارية فيليب»، وسماها الاغريق فيما بعد «بانياس»، وهي في هذه الأيام، لاتدعى باسم لايش، ولا دان، ولا قيسارية، ولا بانياس، بل بلنياس.

وبناء عليه يلتقي «الار» مع «دان» أمام باب هذه المدينة، ويشكل اجتماعهما نهر الأردن، الذي يجري من هناك في طريق متعرج وطويل، وبذلك يفصل منطقة الايطورية عن الطرخونية، ثم إنه يصب في وادي، حيث تتجمع مياهه في بحيرة، وتعرف هذه البحيرة باسم «مياه ميروم»، وحوها نقرأ في سفر يشوع: ١١، وتمتلئ هذه البحيرة في مواسم الشتاء العظيمة، لكن المياه تجف في الصيف، وتتوفر هناك نباتات كثيفة، فيها تعيش الأسود، وحيوانات مفترسة أخرى.

وبعد ذلك تسيل المياه بين مدينتين هما كفرناحوم وكورزين، وهناك تشكل بحيرة كبيرة، هي بحر الجليل، أو بحر طبرية، وذلك مثلما يشكل الراين بحيرة كونستانس، وتتدفق المياه من الجزء المنخفض من هذا البحر، وتمر فيما بين جبال اسرائيل، وجبال العربية الصغرى، وتصل ممتدة حتى سهل أريحا، ومن هناك تصب بين فكي البحر الميت، ومن ثم يجري ابتلاعها.

هذا وإن المسافة من حيث يبدأ منطلقاً من بحر الجليل، إلى المكان الذي يدخل فيه إلى البحر الميت. سفر اثني عشر يوماً، والبحر الميت في طوله يستغرق سفر خمسة أيام، وهذا البحر مرتبط مع المياه التي اسمها في سفر الخروج: ١٥ «مياه ماره»، ومياه ماره مرتبطة بالبحر الأحمر، هذا ويرتبط البحر الأحمر بالبحر الهندي، الذي يتفرع عن المحيط، وعلى هذا إن مجرى الأردن طويل جداً من نبعه حتى نهايته.

صفات نهر الأردن

دعونا نرى الآن، أي نوع من الأنهار هو نهر الأردن، فهذا النهر المقدس ليس نهراً عريضاً جداً، فعرضه لا يكاد يتجاوز الستين خطوة، لكن، صحيح أنه صغير بالعرض، هو عميق جداً، وله بشكل خاص في المكان الذي استحمينا فيه، قعر رملي، وضفتين طينيتين، وهو يفيض ويتناقص وفقاً للموسم من السنة وهو يفيض بشكل خاص في أيام حصاد القمح، أي في أيام الربيع، لأن القمح، كما هو معتاد، ينضج في ذلك الوقت، في بلاد فلسطين، وذلك كما قرأنا في سفر يشوع: ٣، وفي الحقيقة يفيض بشكل كبير يبلغ به الحد أنه يتدفق خارج مجراه إلى الحقول، لأن أنهاراً كثيرة وجدول تصب فيه، من ذلك — على سبيل المثال — نهر ييوس، الذي عبره تصارع يعقوب مع الملاك، ويمتلك وقتها مجرى عميق إلى حد ما، مع ضفتين عاليتين، ومياهه طيبة، ومناسبة للشرب، ولا سيما في المواسم الباردة، أي في الشتاء، لأن هذه

المياه في الصيف دافئة جداً، ومياهه موحلة، هذا ولست عارفاً فيما إذا كانت دوماً كذلك، وفيها كميات وافرة من الأسماك الجيدة، ومجره ليس مجرى سريعاً، لكنه يسيل بشكل صامت، ومع ذلك عندما يسبح الانسان عبره، يشعر وهو في وسطه بتيار الماء وهو يتحرك ضده.

ويملك نهر الأردن من منبعه عند قيسارية فيليب حتى نهاية البحر الميت، أي لمسافة حوالي المائة ميل، يملك على ضفتيه سهولاً واسعة، تنتهي بجبال عالية، وإلى جانب الأردن قفار، هي التي نقرأ عنها أيضاً في سفر اشعيا: ١٢، حيث كان يوجد فيها في العصور الماضية عدداً كبيراً من الديرة، وأماكن سكنى لرجال دين، وخرائبها مائزال مرثية في هذه الأيام، وتتجول في قفار الأردن وسهولها أعداد كبيرة من الحيوانات المتوحشة، وهم يأتون حتى في هذه الآونة وينزلون إلى الماء للشرب مثل قطعان من الأغنام، لكنهم ينامون في الأوقات الحارة من النهار في الكهوف بين الصخور، وهناك بينها أسود، ودبية، وثعالب، ويحامر، وغزلان، وأرانب، وحر وحشية، وماشابه ذلك، وهم يسرون هناك ويتجولون مثل الحيوانات الأليفة، ولا يفرون من الناس، إلا عندما يحاولون الاقتراب منهم.

واعتماد منذ سنوات مضت أسد ضخيم على السكنى هناك، ولم يكن هذا الأسد يؤذي أحداً لا من البشر ولا من الحيوانات، بل كان يراقب الناس وهم يمرون، ويظهر إلفته بتحريك ذيله، وحدث أن واحداً من المسيحيين كان معه قوس، فرمى بسهم على الأسد، وركض الأسد نحو السهم وشمه، فأطلق عليه سهماً آخر، وعندما كان السهم طائراً، نهض بنفسه وكان يريد أن يلتقطه، ومن ذلك الحين لم يعد يرى في بقعته المعتادة، بل أخذ يتجول خلال السهول وأماكن غابات الأردن، وكان يسير هناك وهو يزأر باحثاً عما يمكنه أن يفترسه ، وأحدث منذ ذلك الحين كثيراً من الشرور لحقت بالبشر وبالحيوانات.

فخار وإطراء نهر الأردن المقدس

إن فخار نهر الأردن المقدس أمر عظيم لا يمكن تقديره، لأنه يفصل أرض المؤمنين عن أرض غير المؤمنين، ذلك أنه كان يوجد وراء الأردن العمونيون، والمآبيون، والأدوميون والعرب، في حين كان يوجد على هذا الجانب ويسكن بنو إسرائيل، وقد جعل طريقاً لبني إسرائيل، وبشكل اعجازي أوقف جريانه وتجمعت مياهه، حسبما ورد في سفر يشوع: ٣، وقد شفى نعمان المجذوم، الذي كان قائد جيش الآراميين، كما ورد الخبر في سفر الملوك الثاني: ٥/١٤، وقد أطاع هذا النهر أوامر إيلياء، واليشع، وفتح طريقاً لهما في وسطه (الملوك الثاني: ٢/٨)، وقد طفا على وجهه بشكل اعجازي عمود من الحديد (الملوك الثاني: ٦/٦).

وقام يوحنا المعمدان الأعظم قداسة، بتعميد الناس في هذا النهر، حسبما قرأنا في انجيل لوقا: ٢، وفي انجيل يوحنا: ١، وفي انجيل مرقس: ١، ويبقى الأكثر أهمية من هذا كله، ومن هؤلاء جميعاً، هو أن يسوع المسيح، ابن الرب، كان مسروراً بأن يجري تعميده في هذا النهر، ولقد أمكن بلمسة من جسده الأعظم نقاء أن يضيفي على المياه هناك، قوة تجديد روحانية، وبناء عليه إن هذه المياه هي أم الجميع الذين عملوا تجديداً روحياً في المسيح، ولهذا السبب قال برنارد: «يتلقى الأردن ببهجة المسيحيين في صدره، الذين يتفاخرون بأنهم تقدسوا بتعميد المسيح»، ومثل هذا قال: «أي نهر أعظم قدراً من هذا النهر، الذي كرسه الثالوث المقدس نفسه، وقده لنفسه، بحضوره المثلثي؟، فالآب هناك سمع، والروح القدس شوهد، والابن تعمّد، وذلك حسبما قرأنا في انجيل متى: ٣، ويوحنا: ١، ولوقا: ٣»، واستطرد برنارد يقول: «نفهم من هذا كله بأن المجذوم الآرامي قد كذب حين فضل أي نوع من مياه دمشق لا أعرفه، على مياه إسرائيل، وذلك بوجود أردننا، الذي برهن مراراً بأنه يعبد الرب بخشوع».

ونواجه هنا سؤالاً: طالما أننا نرى أن نهر الأردن، بهذه الدرجة من القداسة، والسمو، وأنه لذلك هو مبارك، ونقي، ومقدس، وعذب، ومياهه صحية، لماذا عليه أن يصب في مياه هي ملعونة، وغير نظيفة، وشريرة، ومالحة إلى أقصى الحدود، وسامة، والمقصود بهذا صب مياهه في البحر الميت أو بحيرة سدوم؟ وفي إجابة لهذا السؤال يقول بعضهم بأنه صحيح أن الأردن يتدفق بالحقيقة نحو البحر الميت، لكنه عندما يصل إلى شواطئه، يخرق الأرض، ويدخل من هناك، قبل بلوغ البحر.

غير أن هذا غير صحيح، لأنه من الممكن رؤيته، وهو يجري في البحر لمسافة طويلة، وهو متميز عن مياه البحر، التي هي كثيفة، ومنظرها أسود، في حين نجد أن مياه الأردن بيضاء وصافية، ويقول آخر بأن هذا يحدث من أجل أن تتلطف لعنة الأول ببركة الثاني، ويتبنى آخرون وجهة نظر أرفع حول الموضوع، ويقولون تكمن هنا أسرار عظيمة، لأنه صحيح أن الأردن نهر مقدس، لكن بما أنه لا يمجد نفسه، بل يجري نازلاً نحو البحر الميت، لا تتمكن قداسته من انقاذه ومنعه من السقوط في البحر الميت، ومن مشاركته لعنته، ومثل هذا الانسان، نجد مع أنه قد تقدس بعمادة المسيح، لا يرفع نفسه عالياً، بل يتابع السير نازلاً على طريق الضعف الجسدي، ولعدم محافظته على قداسته يسقط في اللعنة، ويجعل من نفسه شريكاً لها، مثلما يفعل الآخرون الذين لم يتعمدوا، ولأنه مثلما الأنهار الأخرى والجدول غير المباركة تصب في البحر الميت، وتشارك في لعنته، كذلك الانسان المذنب مع أنه قد يكون معمداً، لكنه لم يكن مقدساً، هو مثل ذلك، وهكذا دواليك.

ومن المعتقد أن المكان الذي استحمينا فيه، قد قام بنو اسرائيل بعبور النهر عنده، فوق المجرى الجاف لاحتباس المياه عن الجريان، وأنه هناك جرى تعميد: ايليا، واليشع، والمسيح، ولهذا قام هنا — حسبما قرأت في كتاب حج قديم جداً — في هذا الجانب من الأردن، حيث تعمد الرب،

صليب طويل، اعتاد الحجاج على نزع ملابسهم إلى جانبه، ومن ثم كانوا يدخلون إلى الماء، وفي المكان الذي خلع فيه الرب ملابسه على هذه الضفة من النهر، كانت قد بنيت كنيسة كبيرة، لها سقف معقود على قناطر، مدعوم بتسعة أعمدة من الرخام، وكانت هذه الأشياء جميعاً قد جرفتها منذ زمن طويل مياه فيضانات الأردن وابتلعته، ولهذا السبب، لا يمكن في هذه الأيام رؤية أثر منها، وقد تحدث القديس برنارد بإطراء عن نهر الأردن، في الفصل التاسع من قداسه لفرسان الداوية.

مغادرة الحجاج للأردن باتجاه بيعة القديس يوحنا — قفار الأردن وصحراء القديس يوحنا المعمدان

وبعدما فرغنا من استحمامنا، عاودنا على الفور امتطاء ظهور حميرنا، وغادرنّا النهر المقدس، وسرنا عبر الطريق الذي قدمنا عليه، وعاد الحجاج الذين لم يكونوا عازمين على زيارة جبل سيناء، بهجة عارمة، بسبب أنهم وصلوا أخيراً إلى نهاية حجهم، لأن الأردن هو خاتمة حج القدس، وبناء عليه مضينا مسرعين خلال قفار الأردن، إلى داخل صحراء القديس يوحنا المعمدان، الذي بدأ بسكنى هذه الأماكن المنعزلة، إلى جانب الأردن، فور تلقيه كلمة الرب، التي وصلته في القفار، قرب بيت أبيه، وبناء عليه، وصلنا الخبر في انجيل القديس لوقا: ٣، بأنه تجول في جميع المنطقة التي من حول الأردن يبشر، ويعمد.

ومثل هذا، لقد سكن لبعض الوقت في بيت عبره، عبر الأردن، حسبما ورد في انجيل يوحنا: ١، وتنقل بين جميع أماكن منطقة الأردن، من مكان إلى آخر، حتى يتمكن من التبشير، ففي هذه القفار التي نحن صاعدين إليها، جاء الرب يسوع مرة إليه، يطلب منه التعميد، ويوجد على ضفتي الأردن قفاراً وعرة، فيها سكن يوحنا المعمدان، ومن بعده عدد كبير من الآباء المقدسين، الذين احتذوا حذو المعمدان، فتحزموا بأحزمة الجلد وأكلوا الجراد، والعسل البري، وذلك حسبما قرأنا في

انجيل متى: ٣، ويوحنا، ودعونا نرى ما كانته تلك الجرادات والعسل البري.

ويقول بعضهم بأن الجراد عبارة عن حيوانات صغيرة جداً، تطير على طريقة القفز، ولها مناشير في أرجلها، ولهذا تسمى أيضاً باسم ser-ratae، ولها أجساد صغيرة جداً وقصيرة، مثل اصبع يد الانسان، وهي من السهل امساكها في الأعشاب، وبعد قطع رؤوسها تقلى بالزيت وتؤكل، وهي طعام القوم الفقراء، والجراد هذا موجود في هذه الأيام في صحراء اليهودية، وعلى هذه، عاش — كما يقال — القديس يوحنا المعمدان.

ويقول آخرون، ممن ينظرون إلى الأمور نظرة أكثر سمواً: «من غير المعقول أن يكون يوحنا المعمدان الأعظم مباركة أن يكون قد أكل لحم الجراد في الصحراء، لأنه رفض أن يأكل الخبز في بيته المتقدم»، ويقولون هناك نوعاً من الأعشاب، ينمو في القفار، اسمه Longusta، وقد صحف العوام اللاتين هذه الكلمة إلى Locusta، ويجمع الناس الفقراء هذه العشبة، ويأكلونها، على أنها طعام القديس يوحنا، وبناء عليه اعتاد رهبان الأيام الخالية، الذين سكنوا إلى جانب الأردن، أن يستخدموا يومياً هذه العشبة في أطعمتهم.

ويقول بعضهم بأن العسل البري، هو ما يتم العثور عليه في جذوع الأشجار، حيث تولى النحل حمله إلى هنا، ويقول آخرون بأن هناك نوعاً من أنواع القصب ينمو هناك، له عصير حلو، وهذا القصب، هو الذي نسميه قصب السكر، وينمو هذا القصب قرب الأردن، ومنه لا يستخرج العسل، بل سائلاً أعلى قيمة، هو سائل السكر، وهكذا إنهم يقولون بأن يوحنا عاش على قصب السكر هذا، غير أن آخرين يتفكرون بكلمات الرب (متى: ١١/١٨) التي قال فيها: «جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب»، ويقولون بأن اللاهوتين قد قالوا لدى تعاملهم مع هذا النص، بأنه قد

قيل هو لم يأكل ولم يشرب، لأنه لم يستخدم الطعام العام، والشراب المعتاد لبني البشر، ثم ما الذي يأكله ويشربه الذي يعيش في القفار غير أشياء ضئيلة جداً، هذا ولا يعد العسل المتقدم الذكر، سواء المستخرج من تجاوبف الأشجار أو الذي يستخرج من قصب السكر، بين الأطعمة المتيسرة للعوام من الناس، بل من طعام النبلاء الذين يتغذون بلطف بالأطعمة الفاخرة اللذيذة، ويقوم آخرون بتطبيب الطعام بالعسل والسكر، لجعله أكثر لذة وشهية، وبناء عليه ليس صحيحاً القول بأن القديس يوحنا قد أكل مثل هذا الطعام، ذلك أنه رفض أن يأكل في بيت أبيه الطعام المطبوخ، والفواكه، أو الخضار، فكيف من الممكن أن يكون قد أكل، العسل، وأقراص العسل في القفار؟ وبناء عليه هم يقولون بأنه كان هناك نوعاً من جذور الأعشاب، اسمها العسل البري، ويقول آخرون بأن العسل البري، هو أوراق بعض النباتات، التي هي بيضاء، ولطيفة ومستديرة وهي عندما تفرك مع بعضها في اليد، يكون لها شيئاً من طعم العسل.

ويقول آخرون بأن هناك نوعاً من أنواع البراعم، تنمو على نوع محدد من النباتات، فيها بذور خضراء مثل الفاصولياء، فهذه ما كان يأكله القديس يوحنا، والسهل كله مغطى بهذه النباتات عندما كنت في القفار، غير أنني وجدت بذورها قاسية مثل الحجارة، بحيث لم يكن بإمكانني فصم أي منها بأسناني، ويقول آخرون بأن هناك أشجاراً في القفار، اسم ثمارها «الخروب»، كنت قد أتيت على ذكرها من قبل، وهي ثمار سوداء مستطيلة، وعندما تنتزعها من أغصانها جيدة للأكل، ويطلق على هذه الثمار في كل مكان اسم «خبز القديس يوحنا»، وهي تباع من قبل الذين يبيعون التوابل في حوانيتهم، وهي في الشرق كثيرة جداً، تكاد أن تكون لاقيمة لها، يتولى الفقراء جمعها، وانتزاع قشورها بأسنانهم، وتجهيزها وأكلها كمنقوع حلو، مع بقاء القطع المنقوعة في العصير، وغالباً ما

أكلت من هذا الخروب في الماضي، غير أن نفسي لم تشبع منها، ومن الممكن أن القديس يوحنا كان يشرب عصير هذه الحبوب.

وسرنا خلال هذه القفار، التي هي قفار القديس يوحنا بسرعة، وبعد قطعنا حوالي الميل، فجأة انبعث صراخ وعويل بين رفيقاتنا من النساء الحاجات، مما أحدث الفوضى بين صفوفنا، لأنهن اعتدن على السير بهدوء عظيم جداً، وبخشوع وصمت، وكان هناك انزعاج كبير بينهن واضطراب كبير، مما سبب الدهشة لكل واحد منا، ولذلك بادرننا مسرعين نحوهن، وهن يبكين، وسألنا عن سبب بكائهن، وقد أجبنا بأن واحدة من رفيقاتهن قد جرى البحث عنها بين الحشد، فلم يعثر عليها، وأنهن كن يبكين لفقدانها، وقد رجونا التوقف، وعدم السير وراء المسلمين، الذين مضوا أمامنا مسرعين جداً، وذلك حتى يمكن العثور على رفيقتهن، ولهذا وقفنا مع هؤلاء السيدات، ولم نتقدم نحو الأمام، وفي الوقت نفسه استدعانا المسلمون لمتابعة سيرنا، وهم يصرخون ويتهددون.

غير أنهم عندما رأوا أننا لم نلحق بهم، عادوا إلينا، وبعدما سمعوا شكاوى كثيرة مضاعفة، بعثوا على الفور بعدد منهم، على ظهور خيول سريعة جداً، وذهب معهم بعضاً من أقوى الحجاج للبحث عن المرأة العجوز، وتوجه هؤلاء الرجال مسرعين نازلين نحو الأردن، وذلك عبر طريق القفار، لأننا خفنا من امكانية غرقها في مياه الأردن، أو أنها وقعت فاقدة لوعيها لحاجتها للطعام في القفار، أو أنها التصقت بالطين على طرف النهر، ولم تكن قادرة على الخروج، أو لعلها اعتقلت، وسرقت، واغتصبت من قبل أحد المسلمين، وقد تشوقت أجواف الحجاج لرؤية أختهن، ومع ذلك، فإن بعض قساة القلوب من الفرسان، أبدوا انزعاجهم تجاه تعرض الحشد كله للفوضى والاضطراب من أجل امرأة عجوز واحدة، ولوجرى اتباع ما أشاروا به

لتمّ فقدان المرأة العجوز فقداناً كاملاً، وبهذا الموقف كانوا أشد وحشية من المسلمين، الذين لدى قلقهم بشأن ضياع المرأة، خافوا من أن تكون قد خطفت من قبل بعض البداءة أو الرعاة المدينيين، أو أنها افترست من قبل أسد، أو من قبل حيوان مفترس آخر، ووقفوا بصبر ينتظرون معنا، في ظل حرارة الشمس العالية جداً.

وحدث أن قائد هؤلاء المتزمرين، الذين رأوا إنها مسألة تافهة، فقدان امرأة عجوز، والذين ربما رغبوا بضياعها، سقط هذا فيما بعد بأيدي هؤلاء النساء العجائز (عندما مرضوا) ورجاهن بدموع بنيل المساعدة ممن ازدراهن من قبل، هذا وكنا قد تعرضنا لهذا الموضوع من قبل، وفي الحقيقة كان قد انحدر إلى وضع كان أسوأ من وضع المتسولين التعساء.

هذا وتجول الذين أرسلوا للبحث عن العقيلة التقيّة، أي رفيقتنا، وأخذوا يفتشون وهم يصرخون على طول الطريق في أرجاء القفار، وذهبوا حتى ضفة الأردن، إلى المكان الذي استحمت فيه النساء، وهناك وجدوها متمددة نائمة في فراش من القصب، وقد أيقظوها، وأخذوها، وحملوها على ظهر حصان، وقدموا إلينا وسط صرخات فرح، وكأنهم قد أمسكوا حيواناً مفترساً.

كيف دخل الحجاج إلى كنيسة القديس يوحنا

وهكذا جرى استقبال العقيلة بسرور، وهنأها الرجال الجيدون، مثل الذي فقد شاة، في انجيل لوقا: ١٥، وتابعنا السير على طريقنا حتى وصلنا إلى نباتات وأشواك في أرض جرداء، لاتنبت النباتات عليها ولا الأشجار، وبذلك صارت غير مستوية، وتلالاً رملية، ومناطق مرتفعة، وفيما نحن على طريقنا وصلنا إلى كنيسة جميلة وواسعة، التي هي كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وهناك ترجلنا من على ظهور حميرنا، ودخلنا إلى الكنيسة، وانحنينا نحو الأرض ونحن نصلي، ثم اننا دخلنا في قداس

مخصص للحجاج وحصلنا على غفرانات مطلقة (++)، وجلسنا هنا لوقت قصير، في الظل وأرحنا أنفسنا.

وقد حكيت إلى الحجاج عن الازعاج الذي تعرضنا إليه في حجي الأول، في هذه البقعة، الأمر الذي أنا مضطر لإقحامه هنا أيضاً، لأننا عندما خرجنا من القفار، إنما قبل أن نصل إلى الكنيسة، دفع بنا أدلاؤنا من على ظهور حميرنا، وأرغمونا على قيادتهم بأيدينا، ومنعوا كل واحد من الصعود إلى الكنيسة، التي قامت فوق الطريق، بل أمرونا بالمرور إلى جانب الكنيسة مسرعين صامتين، وكان هذا العبور مزعجاً لنا، لأننا لم نكن راغبين بعدم رؤية الكنيسة، وغير راضين بفقدان الغفرانات، علاوة على ذلك كان الطريق رملياً، وغطسنا في كل خطوة عميقاً في الرمل، إلى حد أننا كدنا أن نغطس حتى ركبنا، وكان النهار حاراً جداً، والشمس كانت متوهجة جداً، وقد تعذبنا كثيراً ومرضنا بسبب تلك الرحلة ولمرورنا المقيت إلى جانب الكنيسة.

وكان سبب حدوث ذلك، هو أن أحد البداءة الملعونين، وكان ابناً شريراً للشيطان، قد استولى على تلك الكنيسة، واتخذ منها بيتاً لنفسه، وهناك عاش كلص، يقوم بهجمات من هناك ويسلب المارين، وقد أعلن عن كراهية خاصة نحو جميع المسيحيين، وكانت هناك عادة بين المسلمين أنه إذا ما التقى رجلان في الحقل، وكان أحدهما يخاف من الآخر، يقوم الذي لا أمل لديه بالانتصار، بالترجل من على ظهر دابته، ويمشي على قدميه، حتى يقابل الآخر، وذلك كعلامة على الاحترام، ومن أجل أن يظهر بهذه الطريقة الاحترام نحوه، ومثل هذا إذا ما أراد حشد من الناس اظهار احترامهم نحوه آخر، يقوم جميع الرجال بالترجل من على ظهور دوابهم، وكذلك أيضاً، عندما يركب ويسير على الدرب، أي ملك، أو أمير، أو نبيل مسلم، أو مملوك كبير، يقفـز جميع الذين يواجهونهم من على ظهور دوابهم، ويقفون حتى يمرون بهم، وإذا لم

يترجلوا من على ظهور دوابهم في المناسبات المتقدم ذكرها، يقوم الآخرون باقتلاعهم من على ظهورها بالقوة، مع كثير من الالهانة والازعاج، وقد خشي أدلاؤنا من هذا البدوي، وخافوا أن يكون هو وأتباعه كامنين ينتظرون في الكنيسة، وأنه من الممكن الاندفاع من هناك، والانقضاض علينا، خاصة إذا ما مررنا بالبيت دون اظهار الاحترام، ولهذا أمرونا بالترجل من على ظهور حيرنا، وأن نمّر بذلك البيت بشكل متواضع، الأمر الذي فعلناه، وعلى كل حال كان الفرسان في غاية الانزعاج، ولعنوا ذلك البدوي بأبشع الكلمات وأرهبها، ومهما يكن من أمر لقد عبرنا من هناك، ولم نر أحداً في ذلك المكان، وكان ذلك لصالحنا، لأننا خفنا كثيراً نحن مع أدلائنا من ذلك البدوي، وأكثر ما كنا نخشاه أن يقوم باللاحاق بنا.

كنيسة القديس يوحنا المتقدمة الذكر وقداصة المكان

وكنيسة القديس يوحنا المتقدمة الذكر، واسعة إلى حد ما، لكنها الآن مشبعة بسبب سكنى البداية فيها، الذين يعيشون حياة قطاع طرق فيها، ويسكنون فيها وكأنها حصن، وقد جرى تهديم مذابحها، وفقدت من بعض الجوانب شكلها ككنيسة، وهم يقولون بأن القديس يوحنا المعمدان قد وعظ الناس في هذه البقعة، وأعطى إلى الجميع أحكاماً، بموجبها عليهم أن يعيشوا، وذلك حسبما قرأنا في انجيل القديس لوقا: ٣، وهنا أيضاً قدم شهادة للرب يسوع، كما قرأنا في انجيل متى: ١، فضلاً عن هذا كان يوحنا واقفاً في هذا المكان، عندما جاء الرب يسوع إليه، ولدى رؤيته له، أشار باصبعه إليه قائلاً: «هو ذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا: ١).

ويقول بعضهم بأنه من هذا المكان جرى رفع إيليا إلى السماء في عربة من نار، لكن هذا لا يتوافق تماماً مع ماورد في سفر الملوك الثاني: ٢، لأن إيليا جرى رفعه من وراء الأردن، وكان هناك فيما مضى دير ملاصق

لهذه الكنيسة، فيه كان القديس زوزيما Zozima الراعي لكثير من الرهبان، وكان على مقربة من الدير هناك دار ضيافة للحجاج، فيها أمضت القديسة مريم المصرية ليلتها الأولى، عندما نزلت من القدس بغية الذهاب إلى القفار عبر الأردن، وجاءت القديسة مريم المصرية إلى هذه الكنيسة قادمة من القفار، وكان ذلك يوم الجمعة بعد عيد الغطاس، وتسلمت فيها قداس القربان من القديس زوزيما، وقد سارت في ذهابها إلى القفار وإياها منها فوق نهر الأردن، وعبرته جافة القدمين.

وفي الأيام الخالية كان يحتفل بعيد كبير عند هذه الكنيسة، وذلك في يوم عيد الغطاس، في الأيام التي كان العصر الذهبي مايزال فيها مستمرا، لأن بطريرك القدس، وأسقف بيت لحم، ورعاة الدير، والرهبان، ورجال الدين، والشعب، هؤلاء جميعا كانوا قد اعتادوا على النزول إلى هنا، وبعد إقامة قداس، كانوا ينزلون معاً، مع الأعلام والصلبان إلى الأردن، وهناك يغنون مزامير إلى جانب النهر المقدس.

واعتاد راعي دير القديس يوحنا، أن يغطس الصليب الذي كان يحمل في الماء، ولدى تغطيس الصليب، اعتاد جميع الأشخاص المرضى على القاء أنفسهم في الماء، وبذلك كانوا يشفون، ويقوم في الوقت نفسه الأصحاء بتعميد أنفسهم بخشوع، وبذلك يصبحون أقوى، ومن المعتقد أن هذه المعجزات التي كانت تتم هناك، كانت تتم لاسبب قداسة النهر، بل بسبب المراعاة الصحيحة للدين، بين المسيحيين بشكل عام، وكذلك بين الرهبان وبين رجال الدين، ولدى الفراغ من الاحتفال كان كل واحد يذهب إلى وطنه وإلى موضعه الخاص، ويلى هذه القفار، صحراء القديس جيروم الواسعة، التي خلفها يقع البحر الميت، وفوق البحر الميت هناك جبال عين الجدي، ولسوف أتولى وصف هذه الأماكن جميعاً، في اليوم الرابع من آب.

موضع الجلجال المقدس ومكانته العلية

وبعدما استرحنا قليلاً وبردنا أنفسنا في كنيسة القديس يوحنا، امتطينا ظهور حميرنا من جديد، وتابعنا سيرنا بتواضع، ووصلنا إلى مكان بين تلال رملية، حيث يسير الطريق السلطاني بين هضبتين صغيرتين، وقد قال لي أحدهم، بأن اسم الهضبة الأولى منهما هو جرزيم، واسم الثانية عيال، وهما جبلي المباركة واللعنة، اللذين قرأنا عنهما في سفر التثنية: ٢٧، لكن الأمر ليس كذلك، ولسوف نتحدث عن هذين الجبلين وبنينهما بعد قليل.

ووصلنا ونحن على طريقنا إلى سهل منطقة أريحا، الذي كان محترقاً بأشعة الشمس، ووصلنا هناك إلى موضع الجلجال، الذي ورد ذكره عدة مرات في الكتابات المقدسة، ففي هذا المكان وضع بنو اسرائيل علامات حددوا بها معسكرهم، وكان ذلك بعد عبورهم للأردن، وهنا كان أول مكان سكنوا فيه فوق تراب الأرض المقدسة، وهنا جرى ختانهم للمرة الثانية، وهنا حافظوا على عيد الفصح، وبدأوا هنا بأكل ثمار الأرض المقدسة، ولم يعد المن ينزل عليهم من السماء، بعدما أكلوا ثمار الأرض المقدسة، وذلك حسبما قرأنا في سفر يشوع: ٤-٥.

هذا وإنني أتصور، أنه عندما قدم يشوع إلى الجلجال مع بني اسرائيل، لم يكن هناك بناء، ولا قرية، ولا مدينة، بل تمدد الحشد فوق أرض جرداء في سهول أريحا، وبعدما نصب بنو اسرائيل خيامهم هناك، عملوا بعض الأبنية من أجل خيمة عهد الرب، وتابوه العهد، اللذان بقيا هناك لمدة طويلة، وكذلك من أجل الاثنتي عشرة حجرة، التي أمر يشوع بني اسرائيل باخراجها من الأردن، عندما عبروا في وسط الأردن، وساروا فوق مجراه وأقدامهم جافة، وقد نصبت هذه الحجارة في الجلجال، كما قرأنا في سفر يشوع: ٤.

وكنت قد قرأت في كتاب حج قديم جداً، بأن المسيحيين قد بنوا في العصور القديمة في الجبل في المكان الذي وقفت فيه خيمة عهد الرب فيما مضى، وحيث أيضاً نصبت الحجارة الاثنتي عشرة ووضعت، بنوا كنيسة فخمة، فيها وضعت الحجارة المتقدمة الذكر، وكانت حجارة غير مصقولة وكبيرة إلى حد أنه لم يكن بإمكان اثنين من الرجال حمل واحدة منهن بسهولة، ورفعها من على وجه الأرض، وكانت احداهن قد انقسمت بالصدفة إلى قسمين، وقد أعيد لصقها فنيا من جديد بوساطة أعمال حديدية.

ولم نكن — على كل حال — قادرين على رؤية خرائب هذه الكنيسة، ومع ذلك كنا مسرورين جداً برؤية المكان، وانكبنا على وجوهنا، وقبلنا الأرض المقدسة، التي هي عن حق مقدسة، لأنه هناك تجبأ يوشع ليحل حذاءه وليخلعه من قدميه، لأنه عندما ذلك الرجل القوي والمقدس، أي يوشع، كان في الميدان، رأى رجلاً واقفاً أمامه، مع سيف مجرد، ونحوه تقدم يوشع دونما خوف وقال له: «هل لنا أنت أو لأعدائنا؟» فأجابه قائلاً: «كلا أنا ميكائيل رئيس جند الرب، والآن أتيت لمساعدتك» (يشوع: ٥)، وقد عدّ هذا المكان مقدساً منذ القديم، وبسبب قداسته سكنت هنا جماعة من الأنبياء، وكانت مثل دير للرهبان، حسبما قرأنا في سفر الملوك الثاني: ٤.

وكان هذا المكان الأول، الذي شرع الرجال المقدسون في سكناه مع بعضهم، مثلما يفعل رجال الدين في الدير، وذلك بسبب قداسة المكان، الذي قدسه رئيس الملائكة ميكائيل بشكل خاص بظهوره هناك، وذلك مثلما جرى تقديس جبل جرجانوس Garganus الذي سوف نتحدث عنه فيما بعد، والذي إليه يسعى الناس من أقصى أجزاء الدنيا، هذا وإن تقديس هذا المكان بوساطة الملاك هو مؤكد تماماً، ذلك أنه مؤيد بشهادة الكتابات المقدسة القانونية، وهو أمر صحيح بدون أدنى

شك بظهور القديس ميكائيل، الذي وقع في هذا المكان.

ويسعى الناس إلى الحج في بلدان الغرب، حتى إلى البحر البريطاني، إلى ما يعرف باسم جبل القديس ميكائيل ليشاهدوا حقاً بعض الآثار، والأسلحة — ولأتحدث مثل طفل — العائدة للقديس ميكائيل، حيث قالوا بأنه فوق هذا الجبل وضع القديس ميكائيل الأسلحة التي غلب بها التين، والتي بها دافع عن يوشع في منطقة أريحا، ولم يقتصر الأمر على الأطفال، الذين ارتحلوا إلى هناك في سنة ١٤٥٧، من جميع أجزاء ألمانيا، بأعداد كبيرة جداً، بل تعداهم الأمر إلى الرجال المسنين، ورجال ذوي مدارك كانوا غير قادرين على القراءة.

وحول هذه القضية، أود أن أحدثكم عما عانيت به شخصياً وجربته، ففي أحد الأيام خرجت من أولم مع مرافق واحد، من أجل أن أتمكن من الوعظ في بلدة جنتسبورغ Guntzburg، وصدفنا ونحن على الطريق حاجاً، كان مسافراً على الطريق نفسه، والتحققت عن قصد بهذا الرجل، وسألته من أي حج كان عائداً، مضيفاً أنني شخصياً ذهبت حاجاً إلى بلدان أجنبية، ولهذا كنت أشد ميلاً لمعاشرة الحجاج، وكان هذا الحاج رجلاً له شخصيته كما كان محترماً، ومتفوهاً بلسان البنادقة، غير أنه كان رجلاً علمانياً غير متعلم، فأجابني قائلاً: «لقد قدمت من بلاد نائية، من المحيط، من جبل القديس ميكائيل» فسألته: «أرجوك ما الذي التمسته هناك، وما الذي رأيته؟»، فأجابني: «إن الذي التمسته قد وجدته، ورأيت به عيني»، ذلك أنني رأيت في ذلك المكان ترس وسيف رئيس الملائكة ميكائيل المجسد، الذي بهما أنشب الحرب في السماء مع التين، الذي هو الشيطان، حيث تمكن من طرد إبليس وجميع أتباعه من السماء، وبهما كان متسلحاً عندما ظهر أمام يوشع بن نون، في حقل أريحا».

وعلى هذا أجبته: «يا أخانا، هذه مسائل هائلة، فمن الذي أراك هذه

الأشياء؟ فأجابني: «رهبان يرتدون الثياب الكهنوتية البيضاء الطويلة، ورجال أتقياء، وقد عرضوا هذه الأشياء على جميع الناس، مع كثير من الأبهة، وقد حصلوا على مرباح وافية من وراء ذلك»، فقلت: «من الذي وضع هذه الآثار الهائلة في تلك البقعة»؟ فأجاب: «القديس ميكايل، بعدما تغلب على الشيطان، وتوقف عن القتال، نزل شخصياً إلى هذا الجبل، وصنع مستودعاً هناك من أجل سلاحه، وفي أيام المسيح الدجال، سوف ينزل إلى هناك للمرة الثانية، وسوف يحمل هذا السلاح ثانية، وبهذا السلاح سوف يتغلب على المسيح الدجال، وسوف ينزل الهزيمة بشياطينه».

وسألته بعد هذا عن شكل هذا السلاح وحجمه، فأجابني بلغة منتقاه على كل نقطة، وأخبرني أشياء كثيرة، قام رهبان ذلك المكان بالتبشير بها بشكل علني، وهي تحتوي مافيه الكفاية من الأخطاء العقائدية، ولقد تعذبت كثيراً حتى أشرح لهذا الرجل، بأن القديس ميكايل بانتصاره على التنين لم يكن بحاجة إلى ترس مادي أو سيف، وأن هذه الأشياء قد اخترعت بشكل غير صحيح، بسبب جشع هؤلاء الرهبان، وأن السلاح الذي قاتل القديس ميكايل فيه، لم يلقيه قط، ولم يتوقف مطلقاً عن القتال به.

لأنه كما أنشأ الحرب في السماء ضد الملائكة السيئين، كان مثل هذا، في العهد القديم، قائد جيش بني اسرائيل، وقاتل من أجلهم، كما هو واضح في يشوع: ٥، علاوة على ذلك، هو لم يقاتل قط — في العهد الجديد — إلى جانب المسيحيين، كما هو مبرهن عليه في سفر دانيال: ١٠، وبناء عليه هو لم يلق سلاحه، عارفاً أنه لم يكن سلاحاً مادياً، وبعدها فرغت من توجيه هذا الرجل العلماني نحو هذه القضايا، قدم الشكر إليّ.

وغالباً ما اعتاد الراهب ميكايل سيكز sicz، الذي كان طباطخ الدير

في أولم، على الحديث عن هذا السلاح، لأنه زار المكان في السنة التي تقدم ذكرها مع الأطفال الآخرين بهدف رؤية السلاح، هذا والحكايات هذه حكايات أطفال، في حين كان الظهور في الجلجال ظهوراً حقيقياً تماماً، وحقيقة مقدسة، ولهذا يتوجب هنا التماس القديس ميكايل والبحث عنه، لأنه من المؤكد تماماً بأن الملاك المقدس، قد ظهر ليوشع هنا بسيف مسلول، ولم يكن الذي معه سيفاً غير حقيقي، كما أن الجسد الذي ظهر به لم يكن جسده الطبيعي، لأن كل من الجسد والسلاح قد تشكلا من الهواء، وكنا لايلىيان الاستخدام الانساني، وعاداً بعد الظهور إلى حالتها المتقدمة، وعلى كل من يود —بناء عليه— أن يرى الأماكن التي رؤيت فيها الملائكة بالفعل، عليه أن يقوم بهذا الحج، ولسوف يرى هذه الأشياء، وأشياء أخرى أعظم من هذه.

وادي اللص عكان الذي فيه رجم

وتابعنا سيرنا من الجلجال نحو أريحا، واقتربنا من وادي عكان، الذي دفن فيه مع جميع آل بيته وكل الذي امتلكه، تحت كومة من الحجارة، وكان ذلك بسبب السرقة التي اقترفها، عندما جرى هدم أريحا، وذلك حسباً قرأنا في سفر يشوع: ٧، وتعجبنا في هذا الوادي نحو قسوة العدالة الربانية، التي تعاقب شعباً كاملاً بسبب جريمة رجل واحد، وتضفي ذنب واحد على الجميع لأن النص يقول (أخبار الأيام الأول: ٧/٢) بأن بني اسرائيل نافقوا، مع أن مامن واحد منهم أذنب، باستثناء عكان الذي سرق لساناً من الذهب، وثوباً وبعض الفضة، وعكان هذا هو نموذج للراهب السيء، الذي استولى على النظام الذهبي العائد للقديس أوغسطين، وقد عرف هذا النظام بالذهبي لأنه ثمين، وفخم، وثقيل، ومليء بالقيمة، وحدث هذا الاستيلاء من قبل مذنب، كان قد لبس بشكل غير صحيح الثوب الرهباني، وأساء استخدام الصدقات التي تسلمها بصرها على ترف غير ضروري، فضلاً عن هذا،

إنه عندما أفسد المواهب التي منحت له، بالانصراف نحو المدح البشري، كان بذلك يدفن الفضة بالأرض، وبهذا الاثم، لم يعد هو وحده مسؤولاً، بل الدير كله معه.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، وصلنا إلى البقعة، التي هي غير بعيدة عن مدينة أريحا، وذلك حيث جلس الرجل الأعشى على طرف الطريق وهو يستجدي، وذلك عندما مرّ الرب، وهو صاعد من الجليل إلى القدس، وهناك منح الرب النور إلى عينيه، وذلك حسبما قرأنا في انجيل لوقا: ١٨، وقرأنا فوق هذه البقعة القديس المعين في كتب المسيرات، وانكبينا فوق الأرض، وقبلنا آثار أقدام مخلصنا وحصلنا على غفرانات(+).

بيت العاهرة راحاب وبيت زكّا والمحنة التي عانى منها الحجاج

ووصلنا بعد هذا إلى مدينة أريحا، وكان يقوم إلى جانب باب المدينة، بيت مقنطر، وهو قديم جداً، وقد قالوا بأنه كان فيما مضى بيت العاهرة راحاب، حيث عنه نقرأ حكاية جلييلة في سفر يشوع: ٢، ومثل هذا أعطيت هذه العاهرة مكاناً في سلسلة نسب الرب يسوع في انجيل القديس متى (الاصحاح الأول)، لأن سليمان، أمير سبط يهوذا، قد تزوج من راحاب، وأنجب منها بوعز، وهكذا ارتقت هذه المرأة من وضعها كعاهرة دنيئة، ومنحت مكاناً في الانجيل المجيد؟ هذا وتعرضت هذه المدينة للتهديم مراراً، ومع ذلك ممتع أن يحكي الانسان أن بيت راحاب العاهرة قد بقي لوحده من دون أذى، وهو مشاهد حتى هذا اليوم.

وبعدما سرنا لمسافة بعيداً عن بيت راحاب، وصلنا إلى بيت كبير في وسط البلدة، ماتزال جدرانه سميكة وعالية، وكأنه كان فيما مضى قلعة، وقد قيل بأن هذا كان بيت زكّا، وهو الذي تفضل الرب يسوع فباركه

وقدسه، بطريقة خاصة عندما قال: «يقدم الخلاص هذا اليوم إلى هذا البيت»، وهنا في داخله أكل، وهدى كثيراً من المذنبين مع زكاً، وكنا راغبين بالدخول إليه، لكن لم يسمح لنا بذلك، وعلى كل حال توقفنا إلى جانب الجدار، وقال واحد من الحجاج بأنه يرغب لو أن زكاً ما يزال صاحب ذلك البيت، لكان زودنا وضيّفنا، لأننا كنا جائعين وعطشانيين، والأشياء التي كنا قد جلبناها معنا من القدس، في جعبنا، كانت قد أكلت كلها تقريباً.

وكنا نأمل أن نجد في أريحا خبزاً وماءً لإنعاشنا، لأننا من دون ذلك كنا سنكون فارغي الوفاض، وكان هناك نقص آخر بانتظارنا، هو خبز الآلام، وماء المحنة، وبينما كنا وقوفاً هناك ويتحدث أحدنا مع الآخر، بدأ أدلائنا بسرعة، وبأصوات مخيفة، يعملون على دفعنا نحو الأمام، والاسراع بمغادرتنا أريحا، لأن أهل أريحا جمعوا بعضهم بعضاً، وكانوا يعملون ويخططون لمنعنا من الانسحاب، بقصد استخراج المال منا، ولدى رؤية أدلائنا لما كان يحدث، ساقونا إلى خارج المدينة بأكثر سرعة ممكنة، وركب الرجال المسلحون المرافقون لجماعتنا خيولهم، وساقوها في وسط الحشد، فقسموه إلى قسمين، وشقوا لنا طريقاً في وسطهم، وهنا ركض الأطفال والنساء، ورموا حشدنا بالحجارة، وأثناء عملهم هذا سحبوا عدداً كبيراً منا من على ظهور حميرهم، وسرقوا قبعاتهم، وجرح بعضهم بالحجارة، وحدث بعض الاضطراب بسبب الركض وتقدم الرجال والدواب، فثار الغبار من الأرض، وبلغ من الكثافة حداً، بدت فيه أريحا وكأنها قد غلفت بسحب مظلمة.

وعندما رأى أهل أريحا أننا سوف ننجو من بين أيديهم، ولن يحصلوا على شيء منا، وأننا أفلتنا من بين أيديهم، لجأوا إلى الحجارة، وبها طردونا مع أدلائنا من مدينتهم، ولشدة خوفنا، هربنا جميعاً، وكأننا كنا مطاردين بالسيوف، وهكذا خرجنا من أريحا ليس فقط خاليي الوفاض،

بل مضروبين وبشكل فوضوي، مما دفع عدداً كبيراً من الفرسان إلى الغضب، وودوا لو أن ناراً تنزل من السماء، وتلتهم أريحا وكل الذين سكنوا فيها، لأنهم أثيروا بالروح نفسها مثلما أثير كل من جيمس ويوحنا، حسبما ورد في انجيل لوقا: ٩، عندما جرى رفض استقبال الرب وتلاميذه في قرية من قرى السامرة، فوقتها رغب هذان الاثنان، بنزول نار من السماء والتهاهما، لكن لفعلهم ذلك قد لهما حسبما قرأنا في المكان نفسه.

مدينة أريحا: ما الذي كائنه وماهي عليه الآن

مدينة أريحا، التي تعرف أيضاً باسم مدينة النخيل (أخبار الأيام الثاني: ١٨/ ١٥)، وأنها كانت من ميراث سبط بنيامين، قد كانت في الأيام الخوالي مدينة مزدهرة، وذات مظهر جيد، باستثناء أنها افتقدت الماء العذب، وذلك حتى أيام النبي اليسع الذي حوّل نبعاً مالحاً جداً إلى نبع عذب، كما سوف نرى فيما يأتي، وكانت هذه أول مدينة استولى عليها بنو اسرائيل، بعد عبورهم للأردن، وتمّ فعل عدد كبير من المعجزات أثناء الاستيلاء عليها، وهذا يمكن الاطلاع عليه في سفر يشوع: ٦.

وقام يوشع بتدميرها بالكامل، وأنزل اللعنة على كبار أولاده وصغارهم، الذين سوف يعيدون عمارتها، وبناء عليه، عندما شرع بعد مضي سنوات طوال حيثيل البيثيلي بإعادة عمارتها، ووضع الاساسات لها، توفي ابنه الأول أبيرام، وعندما نصب أبوابها توفي الأصغر سجون، وذلك وفقاً للنعنة يوشع (الملوك الأول: ١٦ / ٣٤).

وكانت هذه المدينة قد هدمت أولاً من قبل يشوع، وثانياً من قبل الرومان، وثالثاً من قبل التتار، وآخر شيء من قبل شعب آخر، لذلك هي الآن قرية بلا أسوار أوخنادق، والذين يسكنون فيها عددهم قليل،

وسكان هذه القرية سود البشرة، وأقوياء، والنساء هناك، هن من القوة مثل الرجال العاملين، لذلك يصعب على الانسان تمييز المرأة عن الرجل.

حدائق أريحا الجميلة وورودها

وبعدما خرجنا من أريحا، نظرنا بأعين شريرة نحو أدلائنا، بسبب الانزعاج الذي عانينا منه، ذلك أننا كنا نتوجس أن ماتعرضنا إليه، كان تدبيراً مقصوداً من قبلهم، وكان صبرنا قد انعدم، من خلال الصوم، فاليوم كان يوم أحد، وكنا حتى ذلك الوقت لم نأكل شيئاً، وكان هناك إعياء في حرارة الشمس، وكانوا في الحقيقة قد وعدونا بأننا سوف نجد خبزاً وماء في أريحا، وأنه سيكون بإمكاننا إراحة أنفسنا هناك، وعندما رأوا أن ثائرتنا تكاد تنفجر، جعلونا نهذاً بكلمات ناعمة، قائلين بأننا سوف نصل على الفور إلى نبع جيد، وأن خبازين سوف يلحقون بنا من أريحا، جالبين الخبز معهم، ولذلك خرجنا من أريحا، وتقدمنا باتجاه جبل القرنطل، ولدى مرورنا بين أسوار الحجارة الجافة لبساتين أريحا، رأينا أجمل الحدائق، التي كانت تسقى من مياه الجداول التي تسيل من نبع الشبع، ولذلك سوف أحدثكم عنها في مكانها.

ورأينا في هذه البساتين كثيراً من أشجار الجميز، التي هي أشجار طويلة، وقد ذكرنا مشهدها بشجرة الجميز التي تسلقها زكّا، عله يرى يسوع (لوقا: ١٩)، وإلى جانب أشجار الجميز، نمت أشجار أخرى، تألفت من أشجار الفواكه، ودوالي عنب الخمر الطيبة، مع كثير من أشجار التين، الحاملة لثمار حلوة جداً، ومثل هذا، رأينا هناك أنواعاً متعددة من الورود والزهور، من مختلف الأشكال، وشممن روائح طيبة جداً، لأن النباتات الشوكية والأشجار، تحمل وروداً رائعة بشكل خاص، وفواكه حلوة، وبدا أن الأعشاب الخضراء، وكذلك حشائش الطبخ، قد نمت هناك بشكل كانت أفضل فيه من أي مكان آخر، فكل

النباتات وكل ما كان نامياً هناك في التربة كان مزدهراً إلى أبعد الحدود.

ولهذا شبهت الحكمة الربانية نفسها إلى الوردية، لكن ليس إلى أي وردة، بل إلى وردة أريحا، ذلك أن ورود أريحا هي الأكثر جمالاً، ولقد قرأنا في سفر الإلهيات: ١٤ / ٢٤، «لقد أطريت مثل وردة في أريحا»، وكذلك أعلنت العذراء المباركة عن نفسها، كل يوم، على لسان الكنيسة، أنها مثل وردة في أريحا، وفي الحقيقة، هذه الورد هي الأجل، وهي تشبع النظر بجمالها ورونقها، وتجعله يبتهج بشم شذاها، ويتمتع بملامسة لطافتها، فهذه الورد تشفي المريض بفضائلها، وتبعث السرور في نفس الحزين بألوانها، وتجعل حتى المتزمتين من الناس يعجبون بروائعها ومظهرها، وتمثل الورد بجمالها الشكل المتوقع للفردوس، وكان في واحدة من هذه الأشجار أكثر من مائة وردة.

ولدى ذكر يوسفوس لهذه البساتين، في كتابه «تاريخ حروب اليهود» الكتاب الخامس، الفصل الثامن، قال بأن هذه المنطقة اعتادت فيما مضى على إنتاج البلسم، الذي هو أثمن الثمار جميعها وشجر السرو الذي ينتج صمغ المصطكا، وذلك إلى جانب ثمار النخيل، من مختلف النكهات والأصناف، والذي عندما يعصر يعطي كثيراً من العسل، الذي قليلاً منه تغني عن العسل الحقيقي، وبالنسبة للفواكه الأخرى أيضاً، من الصعب القول بأن بلداً آخر في العالم يمكن أن يساويها، فهي تنتج أضعافاً مضاعفة كل بذر يبذر في أرضها، وقد اعترتنا الدهشة تجاه خصبها العظيم، في الوقت الذي كانت فيه المنطقة التي فوقها والتي تحتها جرداء، وسبب خصب التربة هو نبع الشح.

جرزيم وعيال: جبلا المباركة واللعنة

وتابعنا صعودنا مسيرين مجرى الماء الذي يسقي هذه البساتين، وذلك باتجاه المنطقة التلية، التي منها تتدفق، وتلك المنطقة التلية

مرتفعة، وقد رأينا هناك جبلين يقابل أحدهما الآخر، اسم الأول منهما جرزيم، واسم الآخر جيبال أو عيبال، هذا ويقول السامرة بأن هذين الجبلين واقعان قرب نابلس، التي هي شكيم، وفي الحقيقة يقول بعض الكاثوليك مثل هذا، وقد وجدت الأمر كذلك في كثير من أوصاف الأرض المقدسة، غير أن جيروم المبارك، قد قال في كتابه «حول المسافات بين الأماكن» بأنهم يخطئون كثيراً بجعلهم بعض الجبال هي جبلي جرزيم وعيبال (٢٠٥)، غير الجبلين اللذين هما قرب أريحا، لأن الكتابات المقدسة تشهد دوماً بأنها قرب الجلجال، فضلاً عن هذا، إن الجبلين اللذين قرب شكيم، واللذين يقولون عنهما بأنها جرزيم وعيبال، يبعد أحدهما مسافة طويلة عن الآخر، وكذلك من غير الممكن سماع أصوات المباركة واللعنة منهما معاً، وقال بعضهم بأنها الجبلين الواقعين فوق بيعة القديس يوحنا، وتحت الجلجال، ولكنني لا أصدق هذا أيضاً، لأن هذين الجبلين مجرد تلتين من الرمل، تجمعتا بوساطة الريح، ولا تتسعان لعدد كبير من الناس، ولا لعدد الأمراء الكبير، فضلاً عن هذا من غير الممكن إقامة مذابح من حجارة غير مصقولة فوق الرمال، وذلك مثل المذابح التي ورد ذكرها في سفر التثنية: ٢٧.

ودعونا — على هذا — نقف مع القديس جيروم، بأن هذين الجبلين، الموجودين على يميننا هما جبلي جرزيم وعيبال، بنا أن أمراء الأسباط الاثني عشر كان يمكنهم الوقوف، وبناء مذابح والصراخ بلعنات ومباركات، وارسالها من الجبل الأول إلى الجبل الآخر، وكذلك يمكن للناس الوقوف في السهل من تحت، وسماعهم.

ولدى مشاهدتنا لهذين الجبلين، أصابنا الرعب، بسبب اللعنات المخيفة التي أنزلت على الذين أهملوا الشريعة، الأمر الذي من الممكن العثور عليه في سفر التثنية: ٢٧—٣٨، ولا يمكن لأي مسيحي أن يقول بأن تلك اللعنات والمباركات، عائدة إلى اليهود فقط، ذلك أنهم يعودون

إلى المسيحيين أيضاً، فلنقرأ ما جاء في انجيل متى: ٢٠ / ٥ قوله: «إني أقول لكم إنكم إن لم يزد بركم على الكتب والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات»، ومن هذا إنه واضح بأن هذه اللعنات والباركات تتعلق بنا بشكل كامل بالنسبة للقضايا التي أمرنا بمراعاتها، بعد قدوم الرب، وهكذا جثونا على ركبتنا أمام هذين الجبلين، ودعونا إلى رب الجبال.

المكان الذي سخر فيه الأطفال من الإشع النبي الأقرع

وابتعدنا بعد هذا عن جبلي المباركة واللعنة، ووصلنا إلى سفح جبل القرنطل، وسرنا إلى جانب مجرى الماء، وذلك على طول الطريق الذي يقود من أريحا إلى بيت ايل، الذي قرأنا عنه بأن النبي الإشع قد صعد عليه (الملوك الثاني: ٢٣ / ٢ - ٢٤)، وعندما كان صاعداً، جاء عدد قليل من الأطفال من أريحا، وساروا خلف الرجل المقدس وسخروا منه، وقالوا له: «اصعد أيها الأقرع»، وعندما سمعهم النبي ورآهم صلى ولعن أولئك الأطفال، وعلى الفور قدم دبان من الغابة وافترسا اثنين وأربعين من هؤلاء الأطفال، ونعرف من هذا أنه شيء خطير أن نسخر من رجل عجوز، أو من أناس قرعان، لابل على العكس علينا بالحري احترام الرجال المتقدمين بالسن من ذوي الرؤوس البيضاء، أو الصلعان.

*** ** **

رحلة الحجاج إلى نبع النبي الإشع

واثر مغادرتنا للمكان الذي سخر فيه من الرأس الأقرع المقدس، مضينا صاعدين (٢٠١) مسيرين لمجرى الماء، حتى وصلنا إلى مستنقع عميق، توجب علينا بذل جهد كبير لعبوره، والتصق بعض الرجال مع حيرهم في الطين، وبصعوبة بالغة أمكنهم الخروج، وثيابهم كلها قد

توحدت، أما الذين سلكوا ممراً جانبياً فحصلوا في مكان أعمق، في حين واجه الذين بذلوا جهودهم للعبور حيث نمت النباتات، مشاكل مضاعفة، لأنهم غرقوا في وحول عميقة، ووصلوا إلى أشواك حادة جداً، لأن جميع النباتات التي تنمو في تلك البلاد دونها زراعة، لها أشواك حادة، أدنى لمسة لها تسبب جرحاً خطيراً، وكأن رؤوس الأشواك مسممة، وفي محاولة عبوري هذا المستنقع سقطت مع حماري بين هذه الأشواك، ولم أستطع الخروج منهم سالماً، غير أنني بذلت غاية جهدي وكنت خائفاً، وحككت كثيراً من الفتحات التي تمزقت من ثيابي:

إن الشوك والقتاد مؤذ لعقل الراهب

لأن ثيابه تبلى هناك وتتمزق

وبعدما عبرنا المستنقع، صعدنا مسارين لجانب مجرى الماء، ووصلنا إلى مكان فيه نوع من أنواع الطواحين، حيث تحرك المياه دواليب، وحيث لم يتوفر هناك ممر للصعود مسافة أعلى، إلا من خلال الطاحون نفسها، وعندما وصلنا إلى هناك، وقف صاحب الطاحون وخدمه عند الباب، في مواجهتنا، وبأيديهم عكاكيز ورماح، ومنعونا من المرور خلالها، إنما بعد جدل طويل اقتحم أدلاؤنا ودخلوا إلى البيت، وعملوا لنا ممراً للمرور من خلاله، ومضينا من الجانب الآخر من الطاحون نحو الأعلى أكثر، ووصلنا إلى مكان ظليل مليء بالأشجار والنباتات، من وسطها تندفق المياه في مساحة كبيرة، وهنا ترجلنا من على حميرنا، وسرنا نازلين تحت أوراق خضراء، كل جماعة لحالها، وجلبنا ما كان قد بقي في جعبتنا، وأكلناه وشربنا من الماء، الذي كان ينبع من بين الصخور، وكان نقياً، براقاً، وطازجاً وصحياً، هذا وعندما جلبت جعبتي وأخرجت ما كان فيها من بقايا، وجدت كل شيء قد تكسر وتمزج من البيض المسلوق والخبز والجبن، وقد حدث هذا لي عندما كنت أحاول السير في المستنقع والخروج منه مع حماري، فوقتها تعرضت جعبتي لكثير من

الحركة، حيث كانت تحتي، ذلك أنني جلست فوقها، وهكذا انسحق طعامي إلى قطع صغيرة جداً، وعلى كل حال، بما أنني كنت جائعاً جداً، فقد جلست أرضاً، وأكلت تلك الفتات الممزوجة بكل سرور، لأنه بالنسبة للإنسان تبدو حتى الأشياء المرة، حلوة كما قال أيوب (الاصحاح: ٦/٧): «ما عافت نفسي أن تمسها هذه صارت مثل خبزي الكريه»، وأعترف أنني تناولت هنا بدون كراهية، الأشياء التي كنت في الوطن أكره النظر إليها، أو حتى كنت أرتجف نحوها، وحزنت بسبب ضالة كمية تلك الفتات، ونحت وبكيت بسبب قتلهم، لكنني أنعشت بوساطة واحد من الرهبان الفرنسيين، الذين عرفوا هذا الحج بالممارسة، والذين أعدوا لأنفسهم زاداً كافياً من الخبز وكذلك من الخمر، وفي الوقت نفسه، عندما كنا جالسين هناك، قدم إلينا رجال ونساء من أريحا، جالبين معهم سلالاً كبيرة مليئة بالعنب وأرغفة الخبز، التي اشتريناها وعملنا بذلك وجبة جيدة من دون أي طعام مطبوخ.

وبعدما انتعشنا، إنما وفقاً لطعامنا، وليس وفقاً لمعيار رغبتنا، جلسنا للاستراحة، وأخذ كل واحد منا المكان الذي استقر فيه، وأزحنا الحجارة التي أعاققت تمددنا على الأرض، لأن الأرض كلها كانت مليئة بحجارة حادة جداً، ومع أن هذا الفراش كان قاسياً، لقد لبى حاجتنا للاستراحة، وذلك بالنسبة لنا وللمكان، لأننا كنا منهكين ومصابين بالإعياء، وقد مرت بنا الليلة الفاتئة بلا نوم تقريباً، بعد الجهود التي بذلناها وبعد استحمامنا في الأردن، فضلاً عن هذا كانت أيام القمر قد حلت، وهي الأيام التي اعتاد الناس أن يغلبهم النوم فيها.

وكان المكان ظليلاً، ومحماً من الحرارة، وكانت المياه متوفرة أيضاً، وكانت وهي تجري فوق الصخور تعمل صوتاً يستدعي الرجل المتعب للنوم، علاوة على ذلك كانت أوراق الأشجار والنباتات تتصارع مع بعضها بعضاً، أثناء هبوب الريح عليها، وجعلت أصواتها نومنا أكثر

حلاوة، لأنه كان هناك غدير له مياه صافية جداً، وكان يسيل بين النباتات الخضراء بخير لطيف، ورائحة طيبة صادرة عن النباتات، وكانت الريح تحرك الأغصان بأصوات صفير منخفضة، تحت المتعب على الاستراحة، وفي تلك الأثناء، نهض بعض الحجاج، بعدما استراحوا قليلاً، وصعدوا مجارين لمجرى الماء، قاصدين الوصول إلى المكان الذي تنبع منه المياه من الجبل، لكن المسلمين تصدوا لهم، وأرغموهم على الفرار بوساطة الحجارة، وأجبروهم على العودة إلى أماكنهم.

وصف نبع النبي الإشع: كيف كان وماهو عليه الآن

يطلق على النبع الذي يصدر عنه هذا الجدول، اسم نبع الإشع، ومصدره ليس بعيداً عن المكان الذي استرحنا فيه، وعلى كل حال لم يسمح لنا بالذهاب إلى هناك، وهو بعيد مسافة لا بأس بها عن سفح الجبل، يتدفق بكميات كبيرة من المياه، تجري بجدول قوي، وتتدفق نحو فسحة واسعة، وتسقي المنطقة السهلية حول أريحا، وتسيل من هناك نحو البحر الميت، ولهذا افترض بعضهم بأن مياه البحر الميت قد اتخذت طريقها إلى هناك بوساطة قناة تحت الأرض، وأنها تتدفق هنا، ومن ثم تعود ثانية إلى المكان الذي جاءت منه، ومن هذا النبع إلى البحر الميت، مسافة ثلاثة أميال ألمانية.

وكانت هذه المياه قبل الإشع، غير قابلة للاستخدام والشرب، لا للبشر ولا للحيوانات، بل كل من أرغم على الشرب منها، كان يتلوث فمه، وحلقه، ولسانه، وبلعومه، على الفور بطعم المرارة المقيت، وإذا ما ابتلع أياً من هذه المياه، كان يقع مريضاً مباشرة، بداء يشبه مرضاً مميتاً، كان يتبعه الموت، وذلك مثلما تفعل مياه البحر الميت في هذه الأيام، فضلاً عن هذا، كانت كل امرأة تستخدم هذه المياه تتحول على الفور عاقراً، والتي هي حامل بولد في الرحم كانت تهلك لدى تذوق هذه المياه، وحدث مثل هذا مع الدواب، وكانت الأرض التي تسقى بهذه

المياه، تصبح غير قادرة على انتاج أي شيء أخضر، بل تتحول إلى أرض غير صالحة، وهكذا صارت مدينة أريحا، حيث تضررت كثيراً بجريان هذه المياه الملوثة.

وحدث في أحد الأيام أن النبي مرّ بأريحا، وقد استقبل ببهجة واحترام من قبل شعب أريحا، وعندما سألهم عن أوضاع مدينتهم أجابوه: «اعلم، نرجوك، إن وضع المدينة جيد، لكن الماء فيها ليس كذلك، والأرض جرداء»، وعندما سمع النبي هذا، أخذ كأساً مملوءاً بالملح، ومضى نحو نبع الماء، وألقى الملح فيه، وقام وهو رافع يمينه، يمين الصلاح نحو السماء، ووقتها صب سائلاً مهدئاً في النبع، وصلى لأن يوقف هذا السائل مرارة النبع، ويفتح عيون ومجاري الماء العذب، وتوسل إلى الرب أن تهب على النهر ريحاً مثمرة، وأن يمنح سكان المدينة، الوفرة في الثمار الناتجة عن الأرض، وأن يزيد من تعداد الأطفال حتى يرثوهم، وبهذه الصلوات صار الماء صحياً، وعذباً أكثر من أية مياه أخرى، والينابيع والمياه التي كانت حتى الآن سبب القحط والمجاعة، أصبحت الآن مصدر الخير والخصب، وصارت قوة المياه عظيمة جداً، إلى حد لو أنها بللت الأرض فقط كانت تجعلها أكثر خصباً من الأراضي الأخرى التي تقف فيها المياه مدة طويلة، والذين يستخدمونها بكثافة يجنون قليلاً، أما الذين يستخدمونها بقلّة فيجنون وفرة عظيمة.

علاوة على ذلك، تسقي هذه المياه مساحة أكبر من غيرها من مياه الينابيع الأخرى، وتروي سهلاً طوله خمساً وسبعين غلوة، وعرضه عشرين غلوة، وتعمل حيث تمرّ بساتين فائقة الجمال، وهذا ما تحدثنا عنه أعلاه، وهذه المياه في الصيف باردة، وفي الشتاء دافئة، وتحمل النساء اللائي بلا أولاد، والحيوانات العقيمة بعد الشرب من هذه المياه والاستحمام فيها، ولخصوبة وصحة مجرى هذا الماء، لن يخطيء الانسان، إذا ما قال بأن تلك القطعة من الأرض بأنها ساءوية مقدسة، ويقدر

الناس جميع الثمار هناك تقديراً عالياً، لأنها تنمو كبيرة، وفائقة الجودة، فهذا ما قاله يوسفوس في كتابه الثاني من «تاريخ حروب اليهود»، الفصل الثامن.

ويبعد هذا النبع مسافة مائة وخمسين غلوة عن القدس، وستين غلوة عن الأردن، وجميع المنطقة من القدس حتى هناك هي قفار حجرية، وتمتد نزولاً حتى الأردن، والبحر الميت هو منخفض ومثل شاطئ بحر، لكنه أجرد، وغير مفلوح مثل البقية، وذلك باستثناء الأجزاء المروية من قبل ذلك النبع المبارك، فهي مزدهرة خضراء مثل الجنة، وشربنا من هذه المياه مثل أبقار، وبدون حدود، لأننا عندما وصلناها كان الجفاف قد أعيانا، وكنا عطشى إلى أبعد الحدود، ومع ذلك مامن إنسان تأذى من اسرافه بالشرب، فهذه المياه مع قدرتها الشافية، قد أتت الكنيسة على ذكرها في قداس من أجل تكريس الماء المقدس.

الصعود الخطر إلى الكهف الذي صام فيه المسيح ووضع ذلك الكهف والجبل

وهكذا استرحنا إلى جانب الجدول، الذي كان يسيل من النبع المتقدم الذكر، لمدة ساعة أو أكثر، منتظرين أن تخف حرارة الشمس، إنما في الوقت نفسه، وعلى الرغم من الحرارة، عانينا من أعمال شاقة، لكن لسنا جميعاً، بل فقط الذين رغبوا بالعمل، وكان يمكنهم ذلك، وعلى كل حال شارك الشطر الأكبر من الحجاج في هذا العمل، وفي المخاوف التي تلته.

فقد نهضنا، وتركنا الظل البارد والمنعش، وخرجنا من بين الأشجار الجيدة، إلى حرارة الشمس المحرقة، ومن دون وجود ممر، تجمعننا لتسلق جبلاً عالياً، وزحفنا صاعدين الصخور والحجارة، وفي هذا الصعود تخلف عدد من الأصحاء والذين قهرهم الحر، وكانوا غير قادرين على

المتابعة، بل استراحوا حتى استردوا أنفاسهم، ثم نزلوا إلى الظل مرة ثانية، وأثناء صعودنا وصلنا إلى حيث كان بعض الحجاج والسيدات من جماعتنا في الحج، كانوا قد وصلوا إلى هناك وقت ساعة الاستراحة، فقد كانوا جالسين، دون التجرؤ على المضي أبعد، وعندما سألناهم، لماذا لم يتابعوا سيرهم نحو الأمام، أجابونا أنهم لن يتابعوا الصعود مقابل أي شيء في الدنيا، وذلك بسبب مخاطر الممر، فالذي عليه أن يرتحل هناك، لا بد له من السير على الجهة اليسرى، على طول حافة واد عميق جداً، وأيضاً على طول ممر ضيق كثيراً، بحيث مامن أحد يمكنه المرور إلا بالسير على الجوانب، لأن الممر قائم على وجه جدار من الصخر، شكله أنك تجد على جهتك الأولى هناك وادياً عميقاً جداً، وعلى الجهة الأخرى جداراً مرتفعاً وعالياً من الصخر، يتوجب على الإنسان المتسلق بأن يتوجه نحوه بوجهه، وذلك خشية أن يفقد وعيه من الخوف من الهوة السحيقة التي تحت، وأيضاً من أجل أن يمسك بالجدار بكلتا يديه، وإذا ما وجد هناك أماكن يمسك بها، يمكنه أن ينظر إلى قدميه ليرى أين يمكنه أن يضع قدمه الأولى بعد الثانية، ويده الأولى بعد الثانية، لأنه إذا ما انزلت قدمه، أو انزاحت جانباً من المكان الذي وضعها فيه، لا بد من أن يسقط على رأسه إلى الوادي في الأسفل، لأن الوادي موجود عند ظهره، وأمام وجهه جدار من الصخر منتصب عالياً في الهواء، وتحت قدميه ممر ضيق وغير مستوي، وهو في بعض الأماكن متقطع بفجوات وتشققات في الصخر، ومن خلال هذه الفجوات يمكن للإنسان أن يلمح وجود أعماق سحيقة ومظلمة.

وإذا ما نظر المسافر الصاعد نحو الأسفل إلى الوادي، سوف يبدأ على الفور بالارتجاف، لأنه تطلع نحو الأسفل من مثل هذا الجرف الشاهق، وإذا ما نظر نحو الجدار الذي تعلق به، يخاف من امكانية ان تسقط الصخور المعلقة فوقه عليه، وشجعنا أنفسنا، وتسلحنا بالنعمة،

ودخلنا إلى هذا الممر الضيق، الذي من خلاله اتخذنا طريقنا، لكن ليس من دون خوف، ووصلنا بعد هذا إلى مكان للصعود خطير جداً، وقف عند سفحه عدد كبير من الفرسان بدون حراك، خوفاً من تسلقه، لأن معنى الانزلاق أو أن يدوس الانسان فوق مرقاة غير صحيحة أثناء التسلق، كان الموت، ذلك أنه لم يكن هناك من سبيل للصعود، إلا أن يضع الانسان يده ثم قدمه حيث يستطيع ذلك.

وعندما وصلنا إلى القمة، قدمنا إلى مدخل كهف، وهناك وقف بدوي مسلم وببده عكاز، (٢٠٨) وماكان يسمح لأحد بالدخول مالم يدفع مارك بنديقي، ودفعنا هذا المال، ودخلنا إلى الكهف، فهناك — كما هو معتقد — صام الرب يسوع لمدة أربعين يوماً وليلة، وذلك حسبما جاء الخبر عند الانجيليين (متى: ٤، مرقص: ٢١ ولوقا: ٤)، وغنينا هناك «Ductus est jesus» الخ، مع ترانيم أخرى معينة في كتب مسيرة الأرض المقدسة، وانحنينا بعد هذا بأنفسنا ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) وبقينا لبعض الوقت في هذا الكهف الأعظم قداسة، في حالة تأمل، وأحاديث خاشعة، فهنا — على هذا — أقام مخلصنا وحيداً، حيث صام وصلى، وسهر، وتمدد، ونام على الأرض العارية، وعاش بتواضع وهدوء مع حيوانات الحقل، وابتهج عندما صلى وتعبد بوساطة الملائكة.

آه، ما أقدر هذا القفر! الذي إليه اقتاد الروح القدس ابن الرب، القفر الذي قدسه الرب يسوع بسكناه فيه، وشرفه بصيامه ذي القيمة العالية، ومجده بالأمثلة الرائعة من الفضائل التي أبداه، وهنا فضح دسائس أعظم أعداء الجنس البشري، وأشدّهم، وسلم إلى الذين تعرضوا للإغواء من قبله، الوسائل التي يمكنهم بها التغلب عليه، ولهذا ان هذا الكهف جدير بأن يسمى مدرسة الفضائل، وليس مجرد كهف في القفار.

وبعدما فرغنا من تأملنا، سرنا للقيام بتفحص هذا المكان المقدس، وأمعنا النظر في هذا الكهف بفضول أكثر من ذي قبل، وهو كهف واسع نسبياً في الصخر، ليس منحوتاً بعمل بشري، بل هو محفور من قبل الخالق منذ البداية، له من جانبه الأول ضوء ينزل إليه من الأعلى من خلال فتحة، وكان هذا الكهف قد جرى تكريسه في القديم من قبل المسيحيين، واتخذ بيعة، وكان فيه مذبحين وصوراً على الجدران، مازال من الممكن رؤيتها، ويوجد من خلال الفتحة التي يدخل منها الضوء إلى الكهف طريق إلى قمة الجبل، وذلك فوق صخرة شديدة الانزلاق، والصعود إلى هذه القمة خطير جداً لأن يقوم به أي إنسان، وكان من خلال هذا الطريق أن أخذ الشيطان الرب يسوع إلى قمة الجبل، ومن هناك أراه جميع ممالك الأرض، كما سنوضح ذلك.

وقد تسلقت من خلال النافذة، غير أنني لم أتجرأ على المغامرة بالصعود إلى فوق، وفي الحقيقة لقد ارتعدت تجاه منظر الهوة السحيقة الموجودة تحت، ونحو ارتفاع الصخرة فوق، ووقف عدد كبير من الحجاج الآخرين يراقبونني، حتى إذا ما صعدت، قام كثيرون منهم باتباعي، وهكذا بعدما رأينا كل ما كان في الكهف المقدس، خرجنا منه مع الحذر نفسه والخوف، وتسلقنا فوق الصخور باتجاه آخر إلى كهوف أخرى، لأن حول الجبل هناك كهوف في الصخور، وتحت الحجارة، وفي الجدران الحجرية، وهذه الكهوف بعض منها طبيعي، وشطر آخر مصطنع، وفيهم اعتاد القديسون المسيحيون على الإقامة في الأيام الخالية، لأنه وقتها كان الجبل كله مليئاً برجال دين أمضوا أوقاتهم هناك مع الرب في استغفار مميّ للجسد، وقمت خلال حجيّ بالتجول حول هذا الجبل المقدس، فوجدت كثيراً من القلايات قد نحتت في الصخر الأصم، وكهوف في أشد الجروف انحداراً، وأقيسة على أخطر المنحدرات، فيها كان بإمكانهم رؤية أماكن الإقامة الخطرة للهربان

المقدسین، وكان من الممكن بالنسبة لی أن أتبع الآثار فی هذه الكهوف، فأميز أماكن للصلوات، وأخرى للنوم، وثالثة لتحضير الطعام، وأماكن لحفظ الحاجات الضرورية، وكان فی الجدران حفراً مربعة لوضع الكتب فیها، ورأیت فی الجهة المقابلة من المنحدرات كهوفاً، لم یكن من الممكن لأحد أن یصل إلیها، إلا صیادی الماعز والحيوانات البرية، وفیها قد عاش فیما مضى رهبان، كانوا قد اعتادوا على الدخول والخروج، عبر ممرات سرية، بطريقة كانت تخفیهم عن الناس جميعاً، وذلك من أجل أن لا ینزعجوا بزیارة الناس لهم.

لكن ویال للأسف، جمیع هذه الكهوف والقلایات فارغة الآن، وهی مسكن للحيوانات المتوحشة، وقبل مضي سنوات قليلة انقضت، كان رهبان شرقيون ما يزالون یعیشون هناك، لكنهم طردوا من قبل واحد من السادة المسلمين من غزة، حیث دمر الممر إلى الكهف، وبذلك لم یعد أحد قادراً على الوصول إلیه، لكن السلطان، عندما تشكى المسيحيون إلیه، رمم الممر حتى صار فی الحالة القائمة الآن، ولقد حدث أنه إلى هذه المنطقة الجبلية، كان ارسال الجاسوسین من قبل یوشع إلى أریحا، وقد صعدا إلیها للالتجاء، ومكثا هناك متخفیین فی هذه الكهوف وفقاً لمشورة راحب العاهرة، وذلك حسبما قرأنا فی یشوع: ٢٠.

صعود جبل آخر والمشاكل التي واجهناها هناك

وبعدما فرغنا من تفحص أماكن سكنی وكهوف القديسين بدقة، رغبت فی أن نكون على قمة الجبل، التي إلیها هناك ممر طویل فوق صخور منزلة، وقد بدا لنا هذا الطريق جرفی وشدید الانحدار، لذلك من المعتقد أن مامن انسان قادر على تسلقه، وكان معنا رجل، كان قد تسلقه فیما مضى، وقد أخبرنا أنه لن یكون بإمكاننا الوصول إلى القمة من ذلك الجانب، لكن إذا ما أردنا الصعود، علينا أولاً أن ننزل ثانية كل الطريق الذي صعدناه، وأن نسیر حول سفح الجبل باتجاه الشمال،

فمن ذلك الجانب يمكننا الصعود من دون خوف من الجروف، إنما ليس من دون تعب ومشقة، وبناء عليه نزلنا ثانية حتى وصلنا تقريباً إلى المكان الذي تركنا الحشد فيه، وهناك وقفنا، وتناقشنا حول ما إذا كنا سنسير حول الجبل، ونتسلقه، ذلك أنه لم يكن معنا دليل يرينا المكان الصحيح للصعود منه.

وصدف — على كل حال — أن مسلماً طويلاً في سن المراهقة، كان عابراً على المنحدرات التي كانت فوقنا، وقد استدعينا إياه، وأعطيناه مدنوس حتى يقودنا إلى القمة، وأخذ الشاب المال، وبدأ يسير نحو مكان الصعود، وقمنا نحن باتباعه، وعندما رأى أدلاؤنا هذا، خرجوا من الظل، وبدأوا يصرخون لمنعنا من الذهاب، قائلين بأنهم على وشك مغادرة المكان واستئناف السفر، علاوة على ذلك، وقف الحجاج الآخرون الذين بقيوا في الظل، وبذلوا جهدهم لدعوتنا للرجوع، وتظاهروا بأنهم يتجهزون للسفر من جديد، وعلى كل حال، تبعنا الفتى، ولم نهتم بصراخهم، وفي الحقيقة كنا قد غضبنا من قيام إخواننا الحجاج بدعوتنا للعودة، وقد سمعت واحداً من الفرسان الذين كانوا معنا يقول: «لولا وجود المسلمين، الذين أخشى من غضبهم، لعدت وقمت بإهانة الحجاج الذين يصرخون خلفي، وإذا متابعو صراخهم، سوف أريهم... العارية»، ولدى قوله ذلك جعلنا جميعاً نضحك من قلوبنا، وكنا في الوقت نفسه قد ابتعدنا مسافة طويلة عنهم، إلى حد أننا لم نعد نسمع صراخاتهم، لكن كنا نراهم وقد امتطوا خيولهم وحميرهم، وكأنهم قد عزموا على الذهاب من دوننا، ورأينا عدداً من الحجاج يركضون خلفنا، لكنهم عندما شاهدوا اصرارنا، أهملوا صراخ المسلمين والتحقوا بنا.

وبناء عليه تابعنا سيرنا، ولدى ابتعادنا عن نظر الحشد، وصلنا إلى المكان الذي فيه مكان بداية مكان الصعود إلى الجبل، حيث انتظرنا

هناك الذين كانوا يتبعوننا، حتى نكون جميعاً مع بعضنا، ثم شرعنا نتسلق تلة منحدره، وقام وقتها واحد من الحجاج، فجثا على ركبتيه أمام الجبل، ودعا إلى الرب، ثم بدأ يصعد الجبل في وضعه ذلك مع ركبتين جاثيتين، وجسده منتصب، وقد مدّ ذراعيه على شكل صليب، وهكذا صعد فوق ذلك الطريق العظيم الوعورة، والتلة غير المستوية، دون أن يعين نفسه بيديه أو بقدميه، لكنه عندما كان يرغب، كان يستند على مرفقيه، بشكل أنه لم يستخدم يديه لجزّ نفسه بهما نحو الأعلى، إلا في الحالات التي لم يكن بإمكانه فعل ذلك بدونهما، كما حدث عدة مرات في أماكن منحدره.

كم كان التعب، وكانت المشقة، التي عانى منها هذا الحاج في ذلك التسلق، والذي تبرهن من خلال تأرجحه من جنب إلى جنب، وهو يخطو صاعداً على ركبتيه، لأنه عندما خطا بركبته اليسرى، مال كلياً على جانبه الأيسر، وحدث الشيء نفسه عندما خطا بركبته اليمنى، فمال على يمينه، وأثناء قيامه بذلك غالباً ماسقط على جانبه الأول أو جانبه الثاني، أو وقع متمدداً على وجهه، وقد تمزق نعله، وسال الدم على ركبتيه على جلده، وبذلك صبغت كل خطوة من خطواته بالدم، وتمزق كميته عند مرفقيه، وألمت الجراحة بذراعيه، وتورم وجهه، وتغير المظهر الخارجي للرجل كلياً.

عجباً، كنا بصعوبة نزحف نحو الأعلى، مستخدمين لأقدامنا ولأيدينا، في حين تسلق هو على ركبتيه وعلى أربعته، بكل رجولة، دونها اهتمام بعذابه، لأن الاستغفار التقوي يجعل الأشياء المرة حلوة، والأشياء الثقيلة خفيفة، والأشياء القاسية ناعمة، أتوسل إليكم، من الذي لا يرتقي إلى الخشوع، لدى رؤيته لهذه الشدة، والصعوبة، وممارسة الفضيلة من قبل ذلك الحاج؟، ومن الذي لا يتوب من ذنبه لدى رؤية مثل هذه العقوبة المرعبة للمذنبين؟

وهكذا بعدما تسلقنا إلى قمة ذلك التل، رأينا فوقنا قمة أخرى بعيدة عنا، إليها تشوقنا بهمة عالية، وبأنفاس سريعة، ظانين أن تسلقنا لها سوف يكون هو النهاية، إنما بعدما وصلنا إلى تلك الذروة بكل مشقة، ظهرت لنا هناك ذروة أخرى عالية، كانت هي الأعلى في تلك المنطقة الجبلية، ومع أننا كنا أعلى من جميع الجبال من حولنا، صعدنا من ذلك الارتفاع الذي كنا فيه إلى جبل آخر مستدير، عريض من الأسفل، كان كلما صعدته صار مديباً في الأعلى، وكان كلما غدا أعلى صار أعظم انحداراً ووعورة، وكان مغطى من كل جانب بصخور حادة جداً، مع أن الجبل نفسه كان من حجارة ناعمة جداً، منه اقتطعت هذه الصخور والجروف، وهكذا بادرنا مسرعين واحداً تلو الآخر، وبمشقة تسلقنا ذلك الجبل نفسه، ووصلنا إلى القمة هناك، وكان الذين وصلوا أولاً، يمدون أيديهم إلى الذين تحتهم ويتشلونهم فوق تلك الجروف، وانتظرنا نحن جميعاً وصول الحاج المتقدم الذكر، وسحبناه وهو متلاشي ونصف ميت، ثم سرنا إلى الجزء المتوسط من قمة الجبل، وجلسنا تحت جدار للبيعة هناك، في الظل حتى نسترد أنفاسنا، وذلك قبل أن نتلو صلواتنا، لأننا كنا منهكين جداً، ومصابين بالإعياء بسبب ما بذلناه من جهود أثناء الصعود، كما كنا نتوهج من حرارة الشمس، ولذلك فإن بعض الحجاج عندما كانوا يحاولون الجلوس على الأرض لاسترداد أنفاسهم، وقعوا وهم يرتجفون، وكان بعضهم قادرين بكل صعوبة على التنفس، وأثناء الجلوس للاستراحة، روحوا عن أنفسهم بالتهوية أمام وجوههم بقبعاتهم وبملابسهم.

واضطربنا كثيراً وقلقنا على واحد من الحجاج، الذي لا أريد ذكر وضعه ومرتبته، بسبب مشاعر تقوية، فقد تمدد هذا الحاج على الجبل مثل إنسان ميت، بدون مشاعر أو عقل للاستخدام، بل سحبناه بين أيدينا مثل جثة هامدة، وقد استطاع راهب دومينيكاني من فلورانس انعاشه

ورده إلى وعيه، لأنه حمل منعشات لهذه الغاية معه، وأعتقد بشكل مؤكد أنه لو لم يكن ذلك الراهب هناك لما ت ذلك الحاج فوق الجبل، وفيما يتعلق بإغماء ذلك الحاج أود أن أكشف هذا السر، من أجل تهذيبنا، فقد جاء هذا الحاج من البلدان الواقعة فيما وراء البحر، وكان كاهنا وراهبا متقيداً بدقة بأحكام نظامه، فلدى مغادرته لوطنه، عندما شرع في تنفيذ هذا الحج المقدس، ارتدى على جسده العاري دروعاً حديدية كاملة، هو لم يخلعها خلال الرحلة كلها، بل كانت مخفية تحت ثياب حجه ليلاً ونهاراً، في البحر وفي البر، وفي الحر والقر، وقد اتخذ سبلاً كثيرة لإخفاء هذه الدروع عنا، لكنه لم يستطع.

وعندما عرفت هذه وأشياء أخرى، وانتشرت بين الحجاج، جعلت حجهم أكثر تقوى من أية أماكن مقدسة أخرى، لأن مثل هذه الأمثلة كانت تثير الناس أكثر من الكلمات، وكانت الكلمات تحركهم أكثر من الأماكن، ويعتقد المسيحيون البسطاء والطيبين، أنهم إذا ما كانوا في المواضع التي صنع فيها ربنا يسوع عمل خلاصنا، عليهم استقاء كثيراً من التقوى منهم، غير أنني أقول لهؤلاء الناس، صدقاً إن التأمل والتفكير حول هذه المواضع، والاصغاء إلى وصفهم، فيه تهذيب وتأثير أكثر من رؤيتهم الفعلية وتقبيلهم، فما لم يضع الحاج أمام ناظره بعض الأمثلة الحية للتقوى، تساعد الأماكن قليلاً في مسألة القداسة الحقيقية.

هذا وإن البكاء والتنهدات التي هي عامة في الأماكن المقدسة، تنور في الغالب من حقيقة أنه عندما يبكي أحد الحجاج، لا يستطيع آخر منع نفسه من البكاء، ويحدث أحياناً أنهم جميعاً يبكون وينوحون، أو بسبب أن بعض الناس يمتلكون فن جعل أنفسهم يبكون حتى نحو قضايا لاهلقة لها بالدين، ويذرف مثل هؤلاء الناس دموعاً لقيمة لها في الأماكن المقدسة، وينوحون ويولولون كلهم تقريباً، إنما ليس بسبب القوة الذي يمارسها المكان عليهم، مع أن الأماكن قد تدفع على الخشوع

بكل تأكيد، إنما القضية تتعلق بالسهولة التي يكون فيها، ومما لا شك
لديّ فيه، أن هناك عشرة مسيحيين جيدين في قلايتي في أولم، يرغبون
برؤية الأرض المقدسة، والأماكن التي كانت مقدسة لدى الرب يسوع،
وأن هؤلاء يمكنني أن أثّر خشوعهم حول هذه الأماكن، أكثر مما لو
أنهم كانوا منكبين على الأرض في الأماكن المقدسة نفسها.

وقد حرصت على قول هذا، في هذا المكان، بسبب أننا كنا خاشعين
كثيراً على هذا الجبل، لأننا قد أنجزنا عملاً صعباً، ورأينا فضيلة عظمى
متمازجة، وهكذا بعدما انتعشنا، واستردنا أنفاسنا نهضنا كلنا معاً،
وأنشدنا القداس المحدد في كتب المسيرة مع الاضافات، وانكبنا بخشوع
عظيم بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا للرب، وقدمنا صلواتنا المتوجبة إلى
الرب يسوع، لنظهر رفضنا للشيطان الذي كان يبكي كثيراً، وهو الذي
تجراً في هذا المكان على إغواء الخالق له نفسه وجميع الأشياء، وأن
يستجره إلى وعود كاذبة، لكي يهوي إلى عبادته، حيث أراه في لحظة من
الوقت واحدة — كما قرأنا في لوقا: ٤ — جميع ممالك الدنيا، ومجدها
قائلاً: «لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن، لأنه إليّ قد دفع، وأنا
أعطيته لمن أريد. فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع»، وحصلنا في
هذا المكان على غفرانات مطلقة(++)).

الاماكن التي رأينا من ذلك الجبل

وعندما فرغنا من صلواتنا، فجأة، وصلت مجموعة أخرى من أفراد
الحجاج، إلينا، الذين قالوا بأننا لولم نصعد، لغادروا المكان منذ زمن
طويل، وقد سررنا بقدمهم، لأنهم لو غادروا من دوننا، لسارت
الأمر، بالحقيقة، بشكل سيء، ورفعنا الآن أبصارنا، ونظرنا من حولنا
طويلاً وعريضاً، ورأينا بأعيننا كل ما ذكره القديس متى في الاصحاح
الرابع، وتبين لنا أنه صحيح، وذلك عندما أطلق على هذا الجبل اسم
جبل في غاية الارتفاع، لأن هذا الانجيلي ما كان ليقول «غاية» ما لم يكن

الجبل بالفعل في غاية الارتفاع، وقد رأينا على كل جانب أماكن غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة (٢١٠)، لأننا رأينا من جهة الشرق المنطقة الجبلية للعربية نفسها، الممتدة من خلال ممر طويل من الشمال إلى الجنوب، ويقوم بين هذه الجبال: جبل نوب، وجبل فشخة، أو عبريم، الذي منه رأى موسى الأرض المقدسة، وهو الذي رأيناه واقفاً متميزاً فوق البقية، ورأينا أمام أعيننا منطقة جلعاد الجبلية، التي أعطيت إلى سبط رأويين، وسبط جاد، ونصف سبط منسا، وأرض وسهول مآب وعمون، حتى القفار الحجرية الواقعة عبر الأردن، هذا وكانت هذه كلها بعيدة عنا، وأيضاً رأينا هشبون وباشان، ورأينا على طرفنا من الأردن سهل أريحا العظيم، ومجرى نهر الأردن مع قفاره، والبحر الميت.

ورأينا باتجاه الجنوب، عبر البحر الميت، قفار القديس جيروم الكبيرة، وجبال عين الجدي، وجبل لوط، وبرايري تقوع، ومنطقة أدوم التلية.

وباتجاه الشمال رأينا جبال اسرائيل، الذين كنا فيهم أيضاً، ولم نكن قادرين على أن نلمح الجبال التي قامت من حول القدس، لأنها كانت أعلى مماكانه، لأن جبال القرنطل وقفارها واقعة على كتف جبل الزيتون، وقد رأينا هذه الأماكن المتقدمة الذكر بوضوح أكثر عندما كنا على جبل عين الجدي، ولسوف نتحدث عن هذا الجبل وعن مسائل أخرى في ص ٢٨٣ ظ.

وأخيراً هناك عند سفح الجبل الذي وقفنا عليه، أريحا، التي تقع عاي (تل الحجر) إلى الجنوب منها، وباتجاه الغرب، هناك المدينة التي اسمها بيت إيل، حيث رأى يعقوب في منامه السلم، وحتى هذا اليوم من الممكن رؤية الحجر التي كان قد وضعها تحت رأسه عندما رأى السلم، والتي عليها صب زيتاً عندما أفاق من نومه، وقال العبرانيون بأن يعقوب قد رغب بالنوم، فكوّم ثلاث حجرات، ووضعهم تحت رأسه. بسبب أن النص يقول بأنه قد أخذ الأحجار من ذلك المكان، وذلك

بعدما أفاق من رؤياه المتعلقة بالسلم، وجعلت الأحجار الثلاثة في حجر واحد، ولهذا قال النص بأنه أقام حجراً واحداً، وفي هذا المكان، نصب يربعام، ملك إسرائيل، واحداً من العجلين الذهبيين، حتى لا يذهب الناس إلى القدس، وقد قرأنا حول سلم يعقوب في سفر التكوين: ٢٨، وعن العجل الذهبي في سفر الملوك الأول: ١٢/٣٢.

وحملنا بعد هذا أنفسنا لمشاهدة الجبل نفسه، الذي كان في غاية الارتفاع، ولأنه منتصب قائم من منطقة سهلية، فإن الجبال على الجهة الغربية مستندة عليه، ولهذا هو أعلى منها، والجبل كله صخري، وأجرد، ومنحدر، وتقوم بيعة على قمته، هي الآن مهدامة، غير أن جدرانها وخرائبها مرئية في هذه الأيام، ويبدو وكأنه كان هناك دير، وفي ماقلناه كفاية.

عودة الحجاج نحو مدينة القدس المقدسة

وبعدما أمضينا ساعة على قمة الجبل المقدس، اتخذنا طريقنا نازلين، وقد مضى بعض الفرسان الشباب أماناً، وهم يركضون ويقفزون نزولاً، لكننا تبعناهم بثبات فوق الصخور والجروف، والمنحدرات والأماكن المنزلة، وعندما كنا على طريقنا نازلين، وأثناء وصولنا إلى جرف مرتفع، كنا نسمع من الأسفل من عند سفح الجبل صراخاً وأصواتاً عالية صادرة عن رجال كانوا يزمجرون غاضبين بالعربية والألمانية، وبين هذه الأصوات كان بإمكاننا سماع واحد يصرخ Rob-bery، وبالألمانية كلمات: mordjo, mordjo، ولدى سماعنا ذلك، أدركنا مباشرة، بأن الفرسان الذين ذهبوا أماناً كانوا في ورطة، ولذلك انزلنا مسرعين نازلين، وقد انزلنا بأنفسنا من فوق الجرف إلى مكان الخصام، فهناك كان قد وقف خمسة من النبلاء الحجاج في كهف عميق عند سفح الجبل، يمسكون حجارة بأيديهم، جاهزين أيتها، رتق رفق أربعة من البداة العرب أمام الكهف، مع حجارة وكانوا يزمجرون مع

بعضهم، فقد طلب البداية منهم مالا على سبيل الخفارة، الأمر الذي رفضوه، ووضعنا أنفسنا بينهم بمثابة صانعين للسلام، خشية أن يرمي أحدهم الحجارة على الفريق الآخر، وقد رأينا أن هذا لو حدث، لعدّ جميع الحجاج خارقين لمعاهدتهم بالمرور الآمن، وكان سيسبب لنا اضطراباً عظيماً، وكان علينا بذل جهد عظيم حتى تغلبنا على رفاقنا لإلقاء حجارتهم، وطلب البدو أيضاً بعض المال، وأخبرناهم أننا لن ندفع لهم شيئاً في ذلك المكان، بل فقط وسط الحشد، وبحضور أدلائنا، وهكذا أحضرنا إخواننا من ذلك الكهف، وخلصناهم من أيدي البداية العرب، لكنهم لو كانوا أقوى منا، لما أمكننا المغادرة بسلام، علماً بأن أولئك الحجاج الخمسة كانوا سيأكلون البداية الأربعة لو أنهم وصلوا إلى الضراب، وعندما كنا مبتعدين عن هؤلاء البداية، هددوننا بأنهم سوف ينتقمون منا، وبالفعل قاموا بذلك، كما سيتضح فيما بعد.

وهكذا عدنا إلى الحشد في المكان الظليل، قرب الماء، وكان قد جلب إليهم خبز وعنب، ووجبات جاهزة، غير أن البداية المتقدم ذكرهم، دعوا إليهم أتباعهم، ومركزوا أنفسهم أمامنا، متسلحين بالرماح وبالأسلحة الأخرى، ووقفوا في وسط الطريق الذي كان علينا أن نقطعه أثناء ذهابنا، وعند غياب الشمس، وتناقص حرارتها، نهضنا من ذلك الموضع، وركبنا حميرنا وانطلقنا نسير فوق السهول، ولكن البداية العرب تصدوا لنا، رافضين السماح لنا بالمرور، قبل أن ندفع لهم خفارة من أجل ذهابنا إلى الجبل، وللمقاومة المتسارعة للحجاج، ذلك أن البداية يقولون بأنهم سادة القفار، والأماكن المشعثة، ولذلك هم لا يعبأون بكتب الأمان، بل يجيئون خفارات من جميع الذين يمرون من خلال الصحراء.

وهكذا وبعد جدال طويل، أرغم أدلاؤنا قبطاني الغليونين، على دفع ثمانى دوقيات إلى البداية العرب كخفارة لدخول الجبال، ومن أجل

العنف الذي مورس ضدهم، ولأن الحجاج حملوا الحجارة ضدهم، وتخلصوا منهم بالقوة، ودفع القبطانين المال بغضب عظيم، مع عظيم اللعنات الموجهة إلينا، وأرادا أن يعرفا من كان السبب وراء هذه القضية، لكن مامن أحد أخبرهما، لأنهما لو علما من من الحجاج كان وراء ذلك، لاستخرجنا المزيد من المال منهم، وبناء عليه عندما انتهت هذه القضية، وتركنا البداية وغادروا، نزلنا نحو أريحا، غير أنا تركناها على يسارنا، وتابعنا سفرنا باتجاه الجنوب، مسايرين لسفح الجبل، حتى يمكننا الوصول إلى الطريق السلطاني، الذي جئنا عبره عندما نزلنا إلى هاهنا من القدس.

وفيما نحن على الطريق العام فوق أريحا، وصلنا إلى بيت مقنطر، قد بني على شكل بيعة، حيث كان الموضع الذي أعطى فيه الرب يسوع النظر إلى رجلين أعميين، وذلك حسبما قرأنا في متى: ٢٠، وكان الأول منهما معروفاً من قبل كثيرين، وكان اسمه بارتيماءوس بن تيماءوس، وهذا وحده ورد ذكره في مرقس: ١٠، وترجلنا في هذا المكان من على ظهور حميرنا، وقبلنا طبقات قدمي الرب يسوع، وحصلنا على غفرانات (+).

واثر مغادرتنا لذلك المكان وصلنا إلى الطريق الصاعد إلى المنطقة التلية، التي هي جبل قفار أدوميم، وقام هنا فيما مضى بلدة، رأينا خرائبها وقد كان اسمها أدوميم، أي الصعود إلى الأيدي الحمراء، وذلك بسبب الدماء التي غالباً ما سفكت هناك من قبل قطاع الطرق، ومن هذا الحصن أطلق على جميع القفار الممتدة من أريحا إلى بيت عنيا، اسم أدوميم، ومن أجل حماية الرحالة المسافرين خلال هذا المكان الدموي المتوحش، جرى بناء حصن هناك، وهو حصن أدوميم المتقدم ذكره، وورد ذكر هذا المكان في سفر يشوع: ١٨، علاوة على ذلك، نجد في الحكاية المثلية حول الرجل الذي نزل من القدس إلى أريحا، قد أتى الرب على ذكر هذا الطريق الخطير جداً، وذلك حيث جرى سلب

الرجل وجرحه (لوقا: ١٠)، ولذلك نجد الألمان في هذه الأيام يدعون الحصن المتقدم الذكر مع القفار باسم Rothbach، ومعنى ذلك «نهر دم»، لأن البدهاء يصعدون إلى هناك، ويكمنون في تلك القفار على جانب الطريق، ويسلبون العابرين، ولا يتجرأ المسلمون على المرور صعوداً أو نزولاً، إلا في عساكر كبيرة.

وبناء عليه، عندما وصلنا إلى صحراء أدوميم، لم يتوقف أدلاؤنا عن حثنا ودفعنا للسير مسرعين، الأمر الذي لم يسبب لنا أدنى اضطراب في حجي الثاني، إنما من الصعب عليّ اخباركم عن المصاعب التي عانينا منها على ذلك الطريق في حجي الأول، وأتجرأ على القول أنني في حجي الأول، شخصياً ورفاقى تعرضنا لمصاعب وتعاسات على طريق حجنا إلى الأردن وحده، أعظم من كل ما واجهناه على جميع الطرقات التي سافرنا عليها في حجي الثاني، فعندما كانت الدنيا مظلمة وصلنا إلى أماكن منحدرية وتلال، وعندما كنا عاملين على التسلق أكثر نحو الأعلى، أرغمونا على الترجل من على ظهور حميرنا، وأن نسير على أقدامنا، لذلك كان من الصعب علينا التنفس لشدة حاجتنا إلى الطعام، ولقد رأيت عدداً كبيراً من الحجاج جالسين على ظهور حميرهم، وهم غير قادرين حتى على حمل مقادير حميرهم، بسبب ضعفهم، ولذلك سقط بعضهم، وتركوا حميرهم تذهب، وتمددوا على الأرض، ومع ذلك أرغمهم المسلمون بحقن على المتابعة، وكانت مشاق تلك الليلة لا يمكن تحملها بسبب الظلام، وخطورة المنحدرات، والاعياء على الحجاج، والطريقة المرهقة التي ساقهم فيها المسلمون نحو الأمام، وكان الحال مثل سائقي عربات كانوا يحملون أوزاناً عظيمة في عرباتهم، فوق طرقات منحدرية وجبلية، وكانوا يهددون دوابهم ويحثونها على الاسراع نحو الأمام بصرخات لم تعرف التوقف وبضربات، إنهم مثل هؤلاء كان قادتنا، لم يتوقفوا عن تعجيلنا نحن ودوابنا فوق طرق خطيرة جداً،

حيث كان معنى انزلاقة واحدة الموت بالنسبة للدابة، وسقوط الانسان فوق واحد من الجروف والمنحدرات، وكان هذا العمل شاقاً إلى حد لو أن أي انسان لمح وجوه الحجاج بوساطة ضوء، لرأى وجنات مبللة بالدموع، وعيون محمرة من شدة البكاء، بين رجال كانوا في بلادنا مزينين بالذهب، والفضة، والحجارة الكريمة.

وسمعت في تلك الليلة بعضهم يئن، وبعضهم يبكي، وبعضهم يصلي، في حين كان بعضهم يلعنون أنفسهم، والطريق، والبسلا، وفروسياتهم، والمسلمين، وسمعت آخرين يتمتمون ويحدثون أنفسهم للحفاظ على ذواتهم، إنما خلال هذه المشاق كلها، تفوقت رفيقاتنا من الحاجات، والنساء العجائز، علينا جميعاً، حيث احتلن المكان الأول واستولين عليه من الفرسان، فلم يصدر عنهن أنين، كما أنهن لم ينحن بسبب متاعبهن، بل مزين في الصف الأول من المسيرة، أقوى من الرجال، وأشجع من الفرسان، ولقد وصمت هذه العجائز الفرسان بعار كبير، من خلال تحملهن، وفي الحقيقة قال فارس لي: «انظر يا أخي، أنا لا أعتقد أن هذه المخلوقات المسنة هي نساء مطلقاً، بل شياطين، لأن النساء خاصة النساء العجائز، ضعيفات، لطيفات، حساسات، في حين هؤلاء النسوة صنعن من حديد، وهن أقوى من جميع الفرسان»، ولكم وددت لو أن سليمان قد كان في حشدنا، فوقتها كان لن يجد امرأة واحدة قوية، بل عدداً كبيراً من النساء قويات، لأنه في أيامه عين جائزة لامرأة قوية واحدة ولو كانت من أقصى أطراف الأرض، حسبما ورد الخبر في الأمثال: ٢١، ووقتها لم يجد أية امرأة قوية، ولذلك قال (الالهيات: ٧): «رجلاً قوياً واحداً بين ألف، وجدت، لكن امرأة واحدة بين كل هؤلاء لم أجدها»، ولو أنه كان في حشدنا، لما وجد رجلاً واحداً قوياً، لأنهم كانوا جميعاً محطمين بالتعب، وضعفاء بسبب الصوم، في حين لم تكن هناك امرأة ضعيفة، أو متدمرة، أو شاكية من الشقاء الذي

تعرضت إليه وعانت منه، ومن أين من الممكن قد جاءت القدرة إلى الضعفاء، والقوة إلى النساء، إلا منه، الذي اختار الأشياء الضعيفة في العالم ليخزي القوي، ومن الذي وضع هؤلاء النسوة فوق الرجال، حتى لا يمكن لواحد منهم التفاخر بجنسه، وبقوته، وبجماله، وبفتوته، أو بأصالة مولده؟ لأن أولئك النسوة لم يكن رجالاً، ولا أقوياء، ولا جهيلات، ولا نبيلات، ومع ذلك تحملن جميع المتاعب من دون الإصابة بإغماء، مثلما حصل للفرسان، وهنا أخزي الرب شموخ هؤلاء الفرسان الذين ازدروا اصطحاب هؤلاء السيدات، وأن يكن برفقتهم، مثل الذي عدّ مسألة صغيرة ضياع واحدة منهن في القفار إلى جانب الأردن، حسبما تحدثنا من قبل وهنا ستجد المزيد حول هذه القضية.

وإذا صدف وكنت ممن يضحك نحوهن، أو تستخف بأوهامهن النسوية، قد تجد الجواب في رسالة جيروم ضد فيجيلانتيوس Veg-ilantius حيث قال: «أنا لا أستحي تجاه إيمان النساء، مشاهداً أنها كانت امرأة التي شهدت قيام الرب أولاً، والتي أرسلت الرسل، والتي أطربت من قبل الرسل المقدسين، بشخص أم الرب مخلصنا»، لكن لماذا أضيع أنا الوقت على مديح هؤلاء السيدات العجائز؟ ليكن في ذلك كفاية في الوقت الحالي.

وهكذا وصلنا في حوالي منتصف الليل بعد كثير من المتاعب وأعمال التسلق الشاقة، إلى نبع كان ينبع من جانب رابية، وهذا النبع هو الذي أعتقد أن اسمه نبع الشمس، كما ورد في يشوع: ١٨، ولعل سبب ذلك أنه قائم في مواجهة الشمس المشرقة، وبأشعتها كان يسخن، أو أنه كان مقررًا من قبل الروح القدس، وجوب تسمية هذا النبع بهذا الاسم، بسبب شمس صلاح واستقامة ربنا المسيح، الذي من المعتقد أنه غالباً ما شرب منه، ذلك أنه صعد على هذا الطريق ونزل مراراً عدة، وعند هذا النبع لم يرغب أدلاؤنا بأن نترجل، ولدى سماعنا ذلك نحن لم نترجل بل

رمىنا أنفسنا من على ظهور دوابنا بكل سرور، ويوجد حول هذا النبع بناء قديم ومهدم، الذي قد بقي منه الجدران الأربعة فقط واقفة، ولعله كان فيما مضى محطة قوافل أو نزل، واسمه البيت الأحمر، واسمه هذا قد اشتق أيضاً من اسم صحراء أدوميم، وقد دخلنا إلى هذا البيت مع شموع مضاءة، وجعلنا المكان مناسباً لنا بوساطة إزالة فضلات البشر والحيوانات، وكان بذلك مليئاً، وقد وضعنا حجارة للجلوس عليها وللنوم.

وبعدما نظفنا المكان، جلسنا، وجلبنا آخر ما كان في جعبنا من فتات، وأكلناها، لكن الجزء الأعظم منا كان منهكاً، حيث أنهم ما أن ترحلوا من على ظهور حميرهم، حتى ألقوا بأنفسهم فوق الأرض، وكانوا غير قادرين على الأكل، أو الشرب، أو الكلام، وكانوا يأملون بالراحة، وكان في الوقت نفسه حول الماء تدافع وفوضى، فقد كان كل من البشر والدواب يبذلون جهودهم للوصول إلى الماء، ولهذا السبب كان المرضى يصرخون، لأننا جميعاً كنا عطشى، وكان النبع صغيراً جداً، ونشبت خلافات كثيرة بيننا وبين المسلمين، لانهم أنفسهم وقفوا في الواجهة متماسكين، وشربوا مثل بقر، لكنهم لم يمنحونا مكاناً.

ولدى فراغنا من طعامنا وشرابنا، وفق طريقة خاصة، أطفأنا جميع الأضواء، وأخذنا بالنوم فوق الأرض، وتمددنا فوق الحجارة، حيث غرقنا في نوم عميق جداً، وبما أنه قد قيل بأن الجوع طباخ جيد، فهذا صحيح لأنه يجعل جميع الأطعمة طعمها طيب، ومثل هذا قيل بأن العمل فراش جيد، لأنه يجعل جميع الأماكن مناسبة للنوم والاستراحة، وكان النوم في هذا المكان خطيراً: أولاً، بسبب أن الجدران كانت مهدمة، والحجارة التي انتزعت من الملاط، كانت معلقة فوق رأسنا، وتهدد بالسقوط، وثانياً، بسبب الأفاعي، والعقارب المتخفية في الجدران القديمة، وتحت الحجارة، وهي خطيرة جداً عندما تلدغ، وثالثاً، كانت

هناك هوام أخرى خطيرة وذلك بسبب الخرائب وإهمال المكان ورابعاً،
أخص بالذكر نوعاً من الهوام هو المسمى نملة فرعون، ويدب هذا النوع
على الأرض في القفار كلها، كما عنه سأحدث في ص ٢٤٧، وكان هذا
النمل الأحمر الصغير يسعى هناك حول الأرض، وخامساً بسبب قسوة
مضاجعنا، وسادساً، بسبب اللصوص المسلمين الذين بقيوا برفقتنا، غير
أننا لم نهتم بهذا كله، وقذفنا بكل شيء كان هناك، ونمنا بعمق كبير.

وأخبرنا ادلاؤنا بأنهم عازمون على ايقاظنا قبل الفجر، لكن الذي
حدث كان غير ذلك لأنهم انفسهم كانوا منهكين مثلنا نحن - ومع ذلك
كانوا أقل تعباً منا - وقد نمنا نحن وهم حتى شروق الشمس، وكان
داوود قد أنعش نفسه عند هذا النبع، عندما وصل إلى هنا متعباً، قادماً
من القدس مع رجاله، حسبما جاء الخبر في سفر صموئيل الثاني: ١٧.

مسيرة الحجاج ورحلتهم صعوداً إلى القدس

في اليوم الحادي والعشرين، الذي كان يوم القديسة براكسيديس،
Praxedes العذراء، وبعدما أشرقت الشمس، وغطت بأشعتها الذهبية
الرائعة قمم الجبال، ورؤوس الصخور الوعرة، بدأ المسلمون بالحاح في
ايقاظنا بصرخات عالية، وصرخ بعضهم بلغتهم «روق، روق»
وبعضهم Trica, trica وبعضهم Cabalca, Cabalca، وصرخ
بعضهم بلساننا، ذلك أنهم كانوا قد تعملوا بعض كلماتنا، فصرخوا:
Rita, rita, uff, uff، وهذه الكلمات معناها في الحقيقة الحث على
الانطلاق، وقد نهضنا، ورفعنا أعيننا، فرأينا أشعة الشمس على قمم
الجبال، لأننا كنا في وادي، محاط من كل جانب بجبال وعرة، وكنا قد
ارتحنا بشكل جيد، وانتعشنا باستراحتنا فملأنا قواريرنا بالماء من بئر
المخلص، وغادرنا، ونحن نقود حميرنا بأيدينا، لأنه كانت هناك
منحدرات منزلقة، ممتدة حتى مسافة بعيدة، وما كان بإمكاننا الابقاء على
أنفسنا على ظهور دوابنا، وبناء عليه بدأنا بالتعرق في الصباح الباكر،

وذلك قبل انتشار حرارة الشمس.

ونحن على طريقنا، وصلنا إلى حجرة قائمة مثل مرجل، على طرف الطريق، ولهذا أطلقوا عليها اسم Thaben Boen، أي حجرة بوهن ابن رأوبين، وهذه الحجرة هي علامة حدود أرض بني يهوذا، وذلك وفقاً لجيروم، في كتابه «حول مسافات الأماكن»، وقد ورد ذكر هذه الحجرة في سفر يشوع: ١٨/١٧، ومن هذا النص، يبدو أن تلك الحجرة كانت أبعد نزولاً، وراء حصن أدوميم، إنما هل هي الحجرة نفسها أم غيرها، فتلك مسألة قليلة القيمة، وفكرنا في ذلك المكان بعجب حول أفاعيل الأيام الخالية، التي الحجرة مثل عليها.

المكان الذي أعلن فيه عن ميلاد العذراء المباركة إلى واكيم

ولدى مرورنا بحجرة بوهن، رأينا ونحن صاعدين الرابية، بيتاً قديماً، على جهة اليمين، وهو قائم بين جروف ونباتات، وهذا البيت قائم فوق الموضع الذي كان فيه رعيان واكيم يطعمون قطعانهم، وواكيم هو والد مريم العذراء الأعظم مباركة، واليهم هرب عندما سمع بنفسه الملامة بأنه بلا أولاد، وبشكل علني، ورمى تقصدياته من على المذبح في الهيكل، وهنا سكن وهو حزين، يتوسل إلى الرب بصلوات خاشعة، حتى يرحمه ويعطف عليه، ويمنحه الصبر.

وفي أحد الأيام، عندما كان يصلي بخشوع أعظم، وبحرارة أكثر من المعتاد، فجأة ظهر الملاك جبرائيل أمامه، على شكل ضوء مشع، وكان وقتها يصلي، ولدى رؤيته له دهش واضطرب وقال الملاك له: «لا تخف يا واكيم، لأن دعاءك قد استجيب له، وكانت دموعك أمام الرب، وهاهي حنة زوجتك سوف تحمل لك ابنة، وستسميها أنت مريم، وهي سوف تمتليء بروح القدس، حتى وهي في رحم أمها، ولسوف تمجد فوق جميع النساء، وستظل عذراء بشكل أبدي، وستحبل من العلي

الأعلى، وستحمل ولداً ذكراً ولسوف تدعى باسم «أم ابن الرب» وإليك فيمايلي شارة ممنوحة لك: عندما ستذهب إلى القدس، وعندما تقترب من الدخول من الباب الذهبي، هناك سوف تلتقي بحنة زوجتك وهي سوف تفرح من قلبها برؤيتك».

وبهذه الكلمات اختفى الملاك، وبناء عليه انكبنا على وجوهنا في هذا المكان ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات، وعندما كنا نتحدث أحداً مع الآخر في هذا المكان، طرح واحد من الحجاج السؤال التالي حيث قال: «عجباً، إننا نقيم عيد القديسة حنة، لكن القديس واكيم لا عيد له، مع ان واكيم مثله - على الأقل - في القداسة مثل حنة، حسبما رأينا من الحكاية ذاتها»، وحاول بعضهم حل هذه المعضلة، فوقع بأخطاء غريبة حول الحمل بالعدراء المباركة، وأعلن أنها لم يحمل بها في ذنب أصيل، لأنها كانت موجودة مع الطفل بوساطة الروح القدس قبل ان يحصل اللقاء بين واكيم وحنة تحت الباب الذهبي، وقال آخرون بأن حنة قد حملت من واكيم بقبلة فقط، وكانت هناك تفاهات كثيرة، تفوه بها الذين حاولوا إيجاد سبب لوجوب الحفاظ على عيد القديسة حنة، وليس عيد واكيم.

بحوريم حيث شتم شمعي الملك داوود

ولدى متابعتنا سيرنا، صعدنا إلى جانب تل بحوريم، الذي قام عليه فيما مضى حصن، اسمه بوريم، عنه نقرأ في سفر صموئيل الثاني: ٥/١٦، واسم هذا الحصن في بعض الاسفار بحوريم، ويمر الطريق السلطاني تحت هذا الحصن، ولذلك وقفنا هناك، واسترجعنا إلى ذاكرتنا العمل الجليل جداً، التالي: فعندما جرى طرد الملك داوود وجميع أتباعه من القدس، بوساطة ابنه أبسالوم، وقدم إلى هذا المكان، تقدم واحد اسمه شمعي وشتم الملك داوود وجميع خدمه، ورمى حجارة عليهم، وألقى بالرمل عليهم من الأعلى، وعندما أراد واحد من رجال داوود

قتله، منعه داوود، ورغب في أن لا يتعرض للأذى من أجل الخطأ الذي اقترفه، ولقد أعجبنا بصبر وشقاء الملك المقدس، وكنا غاضبين من أنفسنا نحن الذين نشور بكلمة مزعجة واحدة، ونرغب بالانتقام من جيراننا، ياللهول، على هذا الطريق كان الملك داوود عابراً، حافياً، ورأسه مغطى، وهو يبكي، وجميع خدمه معه وهم في ثياب الحزن، حيث كانوا قد طردوا من بيوتهم.

وقتها خرج واحد من خدمه، وكان من أهل الحرب، وصعد هذا الرجل وأخذ يشتم الملك، ويرمي الحجارة نحو الملك، ويلقي بالرمل عليه، ويكرر شتائم، وبذلك اقترف جريمة خيانة عظمى، ومثل هذه الخيانة تعاقب في جميع البلدان، ومع هذا فإن هذا لم يثر الملك المهذب، ولم يغضبه، بل مر بكل تواضع، وأطفأ غضب أتباعه، قائلاً لهم: «دعوه يسب، لأن الرب قال له. لعل الرب ينظر إلى مذلتني ويكافيني الرب خيراً عوض مسبته بهذا اليوم».

لا يوجد في طول الكتابات المقدسة نص محزن مثل هذا النص عن فرار داوود من القدس، وصبره عندما تعرض للشتم، وعندما يكون انسان عارفاً بهذا النص ويمر عابراً لهذا الطريق، من الصعب عليه أن يمنع نفسه من البكاء، وذلك عندما يتفكر حول مثل هذه المحاسن، آه، كم كان القديس غريغوري سيبكي بحرقه في هذا المكان، بعدما رأينا -كما قرأنا- الذي أظهره ذلك الامبراطور إلى أرملة تضرعت إليه، لأنه أكثر رحمة، أن يظهر الانسان الرحمة نحو انسان تولى شتمه والاساءة إليه، ولا يمكن مقارنة ذلك بالرحمة التي يبديها نحو الذي تضرع إليه وباركه، ومن هذا المكان مضى داوود نازلاً إلى نبع الشمس واستراح هناك لأنه كان مرهقاً.

وذهبنا الآن من هذا المكان صاعدين، وقد رأينا جبل الزيتون عن بعيد، وذلك مع كنيسة صعود الرب، القائمة على القمة هناك، ولدى

رؤيتنا ذلك ابتهجنا، بسبب أننا بتنا على مقربة من القدس.

السهل القائم أمام قلعة بيت عنيا

وهكذا مضينا نريد القدس، ووصلنا ونحن على طريقنا إلى سهل، من طرفه الأول يقوم جبل الزيتون، ومن الطرف الآخر جبل العدوان، وفي هذا السهل تنتهي قفار أدوميم، لأنه من هناك نزولاً حتى الأردن قفار جرداء، باستثناء المنطقة المسقية من نبع الإشع، لكن من هذا السهل حتى جبل الزيتون، الذي يقوم عند سفوحه، توجد أجمل البساتين والحدائق، والكروم، وفوق هذا السهل تقوم قلعة بيت عنيا، التي بنيت على طرف جبل الزيتون، وتمتد من هناك نزولاً إلى السهل، وهذا السهل مغطى بحجارة واسعة جداً ومستوية، وكأنه قد جرى تبليطه بشكل فني، لكن في الأماكن حيث الأرض غير مغطاة بالحجارة، تنتصب هناك أشجار الزيتون وأشجار فواكه أخرى، علاوة على ذلك، يوجد في هذا السهل عدداً كبيراً من الصهاريج، حفرت عميقاً في صخور قاسية جداً.

وتابعنا سيرنا عبر هذا السهل، نحو بيت عنيا، ووصلنا إلى أمام القلعة حيث حجرة واقفة قد وضعت بشكل يمكن للإنسان أن يجلس عليها، ولا يمكن نقل هذه الحجرة، لأنها منبعثة من أعماق الأرض، وهي قاسية جداً، وقد قيل بأن الرب يسوع قد جلس على هذه الحجرة، وذلك عندما جاء صاعداً من المنطقة التي حول الأردن، بعد وفاة لعازر، وجلس أمام باب القلعة، حيث إليه جاءت مرثا، وتحدثت بصدق مطلق مع الرب يسوع حول الايمان، والقيامة، والحياة الأبدية، وبالطريقة نفسها قابلت مريم المجدلية المسيح وهي تبكي، لأنها كانت غائبة عندما مات أخوها لعازر، كما قرأنا في انجيل يوحنا: ٢١/١١.

وبناء عليه توقفنا في ذلك المكان المقدس، وعملنا الصلوات المعينة في

كتب المسيرة، وانكبينا بعد ذلك على الأرض، وقبلنا المكان، وحصلنا على غفرانات مطلقة (++)، وبكى الرب في هذا المكان، وقد انزعج تجاه بكاء الأختين، ولذلك تغني الكنيسة لهما:

ofelicis soror utraque meriti, quorum laerimis est
motus fons ipse pietatis

وأعتقد أنه قام في هذا المكان، في الأيام الخالية، بيعة ما، أو كنيسة.

بيت القديسة مريم المجدلية ومخزنها

وسرنا من هذا المكان نحواً من رمية سهم باتجاه جهة اليمين، ووصلنا إلى كنيسة قديمة مهدمة، قائمة فوق المكان الذي سكته القديسة مريم المجدلية بشكل خاص، لأن لعازر ومريم المجدلية، ومرثا، كانوا أغنياء، وامتلكوا كثيراً من المساكن في داخل الحصن وفي خارجه، وفي القدس، وفي حصن المجدل في الخليل، وكان هذا بيت مريم المجدلية، وبعد تحولها إلى المسيحية أقامت فيه مخزناً للرب، يحتوي على توابل متنوعة، منها عملت هناك منعشات ومراهم تمنع التعرق، والسخونة، والبرودة، والقشعريرة، والانهك، وقد تبعت الرب في كل مكان حاملة معها هذه الدهون المصنوعة من التوابل، وكانت قد اعتادت على دهن أطرافه بها، وهكذا فإن هذه التي اعتادت قبل هدايتها أن تستخدم هذه الأشياء لترفها الجسدي، استخدمتهم بعد ذلك لتقوية جسد الرب، وبناء عليه، قمنا في هذه الكنيسة بالصلوات المحددة، وحصلنا على غفرانات مطلقة (++).

بيت القديسة مرثا الذي كان الرب فيه ضيفاً

ومضينا من هناك إلى الجهة اليسارية من الحجرة المتقدمة الذكر، فوصلنا إلى خرائب جدران بيت منعزل قديم، قد قيل بأنه بيت مرثا المباركة، الذي إليه غالباً مادعت الرب، وذلك حسبما ورد في انجيل

لوقا: ١٠، حيث جاء قوله: «فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها»، وفي هذا البيت لامت مرثا أختها مريم أمام الرب، وأعطى الرب قراراً لصالح مريم قائلاً: «ولكن الحاجة إلى واحد، فاخترت مريم النصيب الصالح»، وهكذا دواليك، وقبلنا الأرض في هذا المكان، وحصلنا على غفرانات، ذلك أننا تلونا وغنينا الصلوات المعينة في كتب المسيرة.

كنيسة ضريح القديس لعازر الذي تمدد فيه لمدة ثلاثة أيام

وانعطفنا بعد هذا بأنفسنا نحو بيت عنيا، وبعدما دخلناه، أتينا إلى كنيسة كبيرة وجميلة، لكنها كانت مغلقة، إنما قام أهالي بيت عنيا بفتحها لنا، بعد إعطائهم دريهمات قليلة من قبطاني الغليونين، ودخلنا إليها، وقد وجدنا في جهة اليمين ضريح لعازر، الذي تمدد فيه ميتاً لمدة ثلاثة أيام، حيث أقامه الرب ثانية بعدها، حسبما ورد الخبر في انجيل يوحنا: ١١، وبناء عليه توقفنا أمام ضريح لعازر، وقمنا بالصلوات المحددة لذلك المكان، وقبلنا الضريح نفسه، وحصلنا على غفرانات مطلقة.

ومثل هذا، ذهبنا صاعدين من القبر الى المذبح العالي، القائم فوق المكان الذي وقف فيه الرب يسوع وصرخ: «لعازر هلم خارجاً»، وكانت هذه الكنيسة فيما مضى كنيسة جليلة، بنيت من قبل القديسة حنة (هيلانة)، فوق ضريح لعازر، وفي الأيام الأخيرة للصليبيين كان إلى جانبها دير للراهبات من طائفة القديس لعازر، في ظل نظام القديس بينت، وكان لباسهم الرسمي ازاراً أبيض ورداء أسود، مثل راهبات القديس يوحنا، مع صليب أخضر، وفي بيت عنيا (١) الأخرى الواقعة عبر الأردن، حيث كان يوحنا يعمد، كما قرأنا في انجيل يوحنا ١، فقد كان هناك ديراً آخر مثل هذا، ملكاً للطائفة نفسها، وهؤلاء الراهبات قد كن ثريات جداً وتقيات، وكان هذا الدير محاطاً بأشجار الزيتون، إلى

١ - وهم فابري، فالذي في انجيل يوحنا : ٢٨/١ «بيت عبرة».

حد كان من غير الممكن رؤيته من قبل الذين قدموا نازلين من جبل الزيتون، علاوة على ذلك، راهبات هذا الدير، اعتدن أن يرسلن إلى البلدان الأخرى من العالم لبناء أديرة مماثلة، وعلى هذا هناك في الوقت الحالي واحد من هذه الدير في دولة أصحاب كيفخبورغ Kyvchburg قرب ثورغو Thurgau، واسمه دير سيدات القديس لعازر.

وبعد فقدان الأرض المقدسة، تفرقت الراهبات، وهدم الدير والبلدة جميعاً، باستثناء الكنيسة مع الضريح، حيث بازالا قائمين، وهناك قبر مرتفع من الرخام، يوجد تحته كهف، هو الآن مغلق، ويحترم المسلمون هذا القبر، مثلما نفعل نحن، ذلك انهم يحترمون جميع الأماكن التي عمل فيها الرب أعمالاً رائعة، لكنهم يزددون الأماكن التي عانى فيها من أي من سوء المعاملة، وهذه الكنيسة مهمة ومذابحها محطمة، وعندما كنا فيها كانت مليئة بحزم القمح، مثل مخزن رجل فلاح.

بيت سمعان المجنوم الذي حل الرب به ضيفاً

ومضينا من هذا البيت، فصعدنا إلى كنيسة أخرى مهدمة، بقاياها العظيمة ملقاة موزعة هناك، وقد بقي أحد الجدران قائماً، منه يمكن للإنسان أن يرى أنها كانت كنيسة كبيرة النفقات، فقد كانت لها أرضية معمولة من مختلف أنواع الرخام، حيث وجدنا بعض البقايا وقد بنيت هذه الكنيسة فوق المكان الذي قام فيه بيت سمعان المجنوم، الذي أتى على ذكره متى الانجيلي (الاصحاح: ٢٦) ومرقس (الاصحاح: ١٤).

وإلى هذا البيت جاء يسوع بمشابة ضيف في يوم السبت، قبل أحد السعف، وهنا صبت مريم المجدلية العطور فوق رأسه، وهو جالس يتناول الطعام، وهنا أبدى تلاميذه حزنهم تجاه الاسراف، حسبما تحدثنا في صفحات تقدمت، وفي انجيل يوحنا: ١٢.

وهناك بيت آخر لسمعان، لكن ليس سمعان هذا، وهو موجود في القدس، وإلى هذا البيت جاءت مريم المجدلية، عندما اهتدت للمرة الأولى، كما قرأنا في انجيل لوقا: ٧، وعن هذا البيت كنت قد تحدثت من قبل، وهذا البيت- على كل حال- يعرف باسم بيت سمعان المجذوم، وهو لم يكن مجذوماً، عندما عمل العشاء، لكنه كان قبل هذا مجذوماً، وقد شفي من قبل الرب، إنها حافظ على اسمه «المجذوم»، وبناء عليه، بعدما تلونا هنا الصلوات المعينة، حصلنا على غفرانات (+).

حصن بيت عنيا ووصفه

أنا لم أجد متى بني حصن بيت عنيا، ولا من قبل من قد بني، لأنه لم يرد ذكره في جميع العهد القديم، إلا إذا كان قد جاء ذكره تحت اسم آخر، أنا لم أجده، أو ما لم يكن اسم بيت أوريم، الذي ورد ذكره من قبل، وجميع أصحاب الأناجيل قد أتوا على ذكر بيت عنيا، ليس بيت عنيا هذا، وإنما أيضاً الموجود عبر الأردن، وأعتقد أن الحصن قد بني حديثاً في أيام المسيح، وتظهر خرائطه أنه كان بناء قوياً وجليلاً، لكن ليس بناء واسعاً، وهو في هذه الأيام قرية مكتظة بالسكان، فيها مسلمون غدارون، وهي مجاورة لجبل الزيتون، على الجهة الشرقية منه، ومنه لا يمكن رؤية مدينة القدس، بسبب جبل الزيتون، الذي يقف في الطريق، ويوجد -على كل حال- على طرف جبل الزيتون، بينه وبين جبل الصعود، مكان لمشاهدة وادي جهنم وجبل جيحون، وكانت قرية بيت عنيا قلعة: مريم، ومرثا، ولعازر، حسبما أخبرنا في انجيل يوحنا: ١١، وتبعد عن القدس خمسة فرلنغ، مما يعادل أربعة أميال إيطالية، وميلاً ألمانياً قصيراً، وقد تحدث القديس برنارد بشكل طيب عن هذه القلعة، في قداسه لفرسان الداوية، كل من يرغب يمكنه أن يجد هذا النص فيه.

رحيل الحجاج من بيت عنيا نحو جبل الزيتون

وبعدما رأينا الأماكن المقدسة في بيت عنيا، استدرنا نريد القدس، وقد أعطينا سائقي حميرنا الإذن بالمغادرة للعودة إلى القدس بأقرب الطرق، أي على الطريق السلطاني، الذي عليه كنا قد غادرنا، كما تحدثنا عن ذلك من قبل، وقد نوينا على العودة مشياً بخشوع على الأقدام، على طول ذلك الطريق الذي قدم الرب يسوع عليه وسار من بيت عنيا إلى القدس، في يوم أحد السعف، وهو جالس على ظهر أتان.

وهكذا عاد سائقو الحمير إلى القدس نازلين عبر الطريق المنخفض، ومعهم ذهب عدد كبير من الحجاج، الذين كانوا مستعجلين لنيل بعض الطعام المطبوخ، مع مكان للاستراحة فيه، لأننا لم نتذوق منذ مغادرتنا القدس حتى عودتنا إلى هناك طعاماً ساخناً، ومع هذا بقي الشطر الأكبر في بيت عنيا، ومنهم ما كان -في الحقيقة- أحداً سيقى لولا أنني حشتهم على فعل ذلك، وبناء عليه عندما غادر الآخرون، خرجنا نحن أيضاً من بيت عنيا، ووصلنا في خارج القرية، دون أن نعرف، إلى أرض مقبرة إسلامية، توجب علينا عبورها أو السير من حولها، ولقد قمنا بعبورها، لكن الذي حدث أن امرأة مسلمة كانت واقفة عن بعد كبير، رأتنا، فركضت بسرعة نحونا، وصرخت عالياً، وشتمتنا ورمت حجارة علينا، وطردتنا من أرض الدفن، وبناء عليه فررنا مسرعين، خشية قدوم مسلمين آخرين وقيامهم بازعاجنا، لأنهم لا يتحملون سيرنا فوق قبور موتائهم، وهذا ما كنت قد تحدثت عنه من قبل.

وهكذا وصلنا إلى الطريق الذي يسير عبر جبل الزيتون، والذي عليه سار الرب يسوع في يوم أحد السعف، وسرنا بخشوع، وصمت، وصلاة، خلال بساتين التين، ووصلنا إلى واحدة من هذه البساتين، رأينا فيها تيناً ناضجاً شكله أرجواني داكن، وذهب اثنان من جماعتنا إلى هذا البستان، لكن عندما تسلقا الشجرة، قدمت امرأة عجوز، رمت حجارة

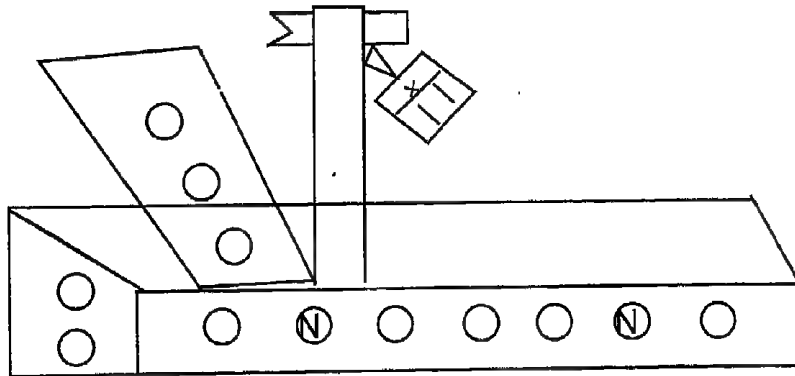
عليهما، وطردهما خارج البستان، ومع ذلك جلبا لنا بعض الثمار، أكلناها، وتابعنا سيرنا صاعدين للرابية.

ووجدنا على هذا الطريق كثيراً من القطع المربعة الصغيرة من الرخام المصقول من مختلف الألوان، وقادنا راهب خارج الطريق الحديث إلى مكان حيث وجدنا ميدانا كله مبلطاً برخام مصقول من مختلف الألوان، فلقد كانت القديسة هيلانة هي التي زينت ببلاط رخامي جميع الطرق التي عرفت بأن الرب يسوع قد عبرها أثناء اسبوع الآلام، وذلك من بيت عنيا صعوداً إلى جبل الزيتون، ونزولاً من الجانب الآخر هناك صعوداً إلى الباب الذهبي، ومراراً وجدت آثاراً من هذا البلاط، وبشكل خاص عندما يسير الانسان على جانب الطريق وهو صاعد، لأن الطريق الحديث قد حفر عميقاً وتلف بسبب أعداد الذين يعبرون عليه، وكل انسان يذهب صعوداً، إذا ما استدار جانباً، وكشط الأرض بيديه، وعمل حفرة، سوف يجد الطريق القديم المبلط برخام مصقول، وقد علمت شخصياً صحة ذلك عن طريق الخبرة.

عودة الحجاج إلى القدس عبر بيت فاجي، قرية الكهنة

وتابعنا من هناك تقدمنا، ووصلنا إلى مكان، قامت فيه فيما مضى قرية

F.F.F.F.F.



الكهنة، التي هي بيت فاجي، التي نقرأ عنها في انجيل القديس متى (الاصحاح: ٢١)، وحدث أن الرب أرسل من هذه القرية اثنين من التلاميذ إلى القدس ليجلبا له أتاناً، وقد انتظرهما هناك، وغنينا في هذا المكان ترنيمة: « Cum appropinquaret dominus » ، الخ، وقبلنا طبعات أقدام مخلصنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وورد ذكر بيت فاجي في الاطراء الذي ورد في قداس القديس برنارد إلى فرسان الداوية (الاصحاح: ١٢)، ومن بيت فاجي ما برحت المدينة المقدسة لا يمكن رؤيتها، ولدى متابعتنا تقدمنا، تسلقنا مصعد جبل الزيتون، ووصلنا إلى منطقة يوجد أعلاها مصعد منحدر، فوق تسع درجات، وحيث قائم فيها حجرة طولها طول الطريق صعوداً إلى الرابية، وعرضها بعرض الطريق نفسه، ونحتت هذه الحجرة وفق عمل فني إلى درجات يمكن للبشر وللدواب عليها الصعود إلى الرابية، وهذه الحجرة مقسومة طويلاً إلى قسمين، وكأنها قطعت بسكين، وهم يحكون أثراً قديماً يروونه عن القديسين، بأن هذه الحجرة قد انشقت أثناء آلام الرب، لتكون شهادة إلى جميع الذين يمرون من هناك، ولتكون ذكرى دائمة (عن موته).

وقبلنا هذه الدرجات، بسبب المعجزة، وبسبب طبعات قدم الرب، لأننا لا يمكن أن نرتاب بأنه غالباً ما اجتاز هذا الطريق، وعندما مضينا نحو الأعلى من هذا المكان، بدأت أبراج المدينة المقدسة تبدي أنفسها، وكان أول برج رأينا أعلاه هو برج الناقوس، وبرج كنيسة الضريح المقدس، الذي كنا قد تحدثنا عنه من قبل، وهذا البرج في هذه الأيام أعلى من غيره من الأبنية، ورأينا بعد ذلك مباشرة، المدينة المقدسة كلها، وهي متألقة سروراً تحت أشعة الشمس، لأن هذه المدينة الأعظم حلاوة لها منظر بهيج، برؤيته يشرق عقل مشاهده، وأعرف أنا حقيقة هذا، لأنني لم أكن قط قادراً على اشباع نفسي من النظر إلى المدينة، لأنه كلما

زاد الإنسان من النظر إليها، كلما بدت له أكثر حلاوة، وزادت من انفعال الانسان وعطفه نحوها، وفي الحقيقة عندما كان الرب يسوع ماشياً على طول هذا الطريق، وشاهد المدينة بكى عليها، وأثير بالشفقة عليها بوساطة المنظر الفعلي، ذلك أنه ليس من دون سبب دعيت القدس باسم «رؤيا السلام».

ومضيا الآن نازلين من الجانب الآخر لجبل الزيتون، عبر الطريق الذي تقدم لنا وصفه من قبل، وعبرنا جدول قدرون، حيث صعدنا إلى جبل صهيون، وهناك جرى الترحاب بنا بسرور من قبل اخواننا هناك، وبعدما تناولنا الطعام تمددنا أرضاً للاستراحة، لأننا كنا مقبلين على أعمال جديدة.

الدخول الثالث للحجاج إلى ضريح الرب

والازعاجات التي تحدث بالعادة هناك

وفي اليوم نفسه (أي يوم الحادي والعشرين) وبعد الظهر بوقت طويل، وعندما كان المساء يقترب، جرى استدعاء الحجاج إلى كنيسة الضريح المقدس، وعندما كنا في الساحة في الخارج، قدم السادة المغاربة، ووضعونا في الكنيسة، وفق الطريقة نفسها التي وصفناها من قبل، وعندما كنا في الداخل فعلنا مثل ما كنا قد فعلنا من قبل، وقام الحجاج، الذين عرفوا أنهم لن يروا الأماكن المقدسة بعد الآن، بزيارتهم مع كثير من الخشوع، ولمسوهم بمجوهراتهم، مثلما كانوا قد فعلوا من قبل مراراً، وذلك وفق الطريقة التي كنت قد ذكرتها في ص ١٩٨.

ولقد أمضى الفرسان تلك الليلة، بشكل أقل رصانة، وكانت أفكارهم مشتتة أكثر مما كانت في الليالي الماضية، التي بقيوا فيها مستيقظين عند الضريح المقدس، وانشغلوا في الليلة الأولى في اعداد أنفسهم لتناول قربان العشاء المقدس مع الاعتراف، وقد تجدد الأثر

الذي عملته الأماكن المقدسة على عقولهم، مثلما ذكرنا ذلك من قبل، وكانوا في الليلة التالية قلقين بشأن فروسياتهم، وأمضوا الليل في طلبها، كما سلف لي الحديث عن هذا الموضوع ، ولأنه في تلك الليلة لم يكن لديهم ما يشغلهم، فقد أودعوا أنفسهم للراحة ولأعمال التسلية، لكن هذا لم يشمل الجميع، بل فقط الذين كانوا أقل غير من البقية، ومع الأسف، شكلوا العدد الأكبر، وبناء عليه دعونا نرى كيف أمضى وقتهم هؤلاء الحجاج، الذين كانوا بلا خشوع، وبدون عرفان، وبدون غير أو انضباط، فقد قام بعضهم بجولة اعتيادية حول الأماكن المقدسة، ثم جلسوا بعد ذلك، وشربوا ما كان في جعبهم، التي جلبوها معهم محشوة بالطعام، وعملوا مناقشات طويلة، ثم مالبت أن غلبهم النوم فبحثوا عن أماكن منعزلة، أو زوايا هادئة، حيث ناموا طوال الليل، وذلك لمدة ست ساعات أو سبع، وكأنهم كانوا متمددين في مضاجعهم وغرف نومهم.

وقام آخرون كانوا مدمنين، وبالخري كسالى، بتزويد أنفسهم بخمرة قوية جيدة، وبأطعمة تشجع على العطش، وبعدما ركضوا مسرعين حول الأماكن المقدسة، جلسوا مع بعضهم، يأكلون ويشربون، وكأن الكنيسة الأعظم قداسة من جميع الكنائس كانت حانة، وتابعوا على هذه الشاكلة حتى باتت قوارير رفاقهم فارغة.

وقام آخرون، أقل بعد نظر، بعدما أفرغوا قواريرهم، بالحديث حول المسائل الدنيوية غير المفيدة، وحول الأمراء، وتخاصموا حول الحملات التي خدّموا فيها، ومقارنة المقاتلين أحدهم بالآخر، وخلال ذلك كانت هناك أقوال شريرة، وخلافات، وكذب، وتمجيد ذاتي من مختلف الأنواع، وقد استمر ذلك، دون إعطاء أدنى اهتمام لقداسة المكان.

وعندما اكتفى آخرون وشبعوا من المناقشات الطويلة، وانفجروا ضاحكين، ساروا حول داخل الكنيسة، ودخلوا إلى بيع الأماكن

المقدسة، وبعد تظاهر قصير بالصلاة، وقفوا هناك يتحدثون دون ابداء أي احترام للمكان المقدس، ولجميع ما حل بهم، وهكذا زاروا الأماكن المقدسة من دون أية فائدة لأنفسهم، وقبل سنوات خلت، تصرف واحد من الفرسان الألمان هكذا، وقد عاقبه الرب ليكون مثلاً للآخرين، فلبعض الوقت كان يختال برعونة حول الكنيسة مع أتباعه الذين دخل معهم إلى ضريح الرب، وعندما كان واقفاً هناك، قال بطيش سخيف: «انظروا يارفاقي، وليكن ما أنا مقدم عليه، علامة على صدق أنني لم أتردد في إعلان أنني كنت في الضريح المقدس للرب، وأنتم شهوداً على ذلك» وما أن فرغ من كلامه هذا حتى صعد فوق القبر المقدس، وتمدد بنفسه كلياً فوقه، وذلك على ظهره، وعندما كان متمدداً هناك وهو يضحك، فجأة امتدت يد الرب إليه، وأصابته بالشلل، وبناء عليه بدأ جسده يزداد قسوة، حتى لم يعد قادراً على النهوض بنفسه، وعندما شعر بيد الرب ثقيلة عليه، توسل بتواضع وبكثير من الدموع أن يرفعها عنه، لكنه لم يسترد أبداً بعد ذلك الاستخدام الحر والطبيعي لأطرافه، وعاد إلى وطنه أعرجاً ومريضاً، ومات مشلولاً، والعجيب أنه لم يهلك في البقعة ذاتها.

وأضى آخرون الليل كله وهم يقامرون مع تجار وباعة، لأنه إلى كل مكان ذهب إليه الحجاج وهم في الأرض المقدسة، رافقهم تجار مسيحيون، من أصل شرقي، كانوا على درجة عالية من البراعة، وهراطقة جشعين، لا ينامون خلال الوقت الذي يكون فيه الحجاج في الأرض المقدسة، وكان كلما دخل الحجاج إلى كنيسة الضريح المقدس، جاء هؤلاء التجار مع بعضهم، ودخلوا معهم، وكانوا يحصلون على إذن بالدخول بوساطة دفع مبلغ كبير من المال، وكانوا يركزون أنفسهم على الفور أمام باب الكنيسة، ويمدون أقمشة فوق الأرض، ويضعون سلعهم فوقها من أجل البيع، وكان بعض الحجاج، وقد رأوا أن وقت

مغادرتهم بات قريباً، يجلسون مستيقظين طوال تلك الليلة، يتساومون ويشترون جميع أنواع الأشياء، وكان مع التجار للبيع هناك ليس فقط حبوب الصلاة الربانية، والأحجار الكريمة، بل أقمشة الدمستق، ووبر الجمل، والحرير، وكان من حول هؤلاء التجار كثيراً من الاضطراب والضجة، وكان الوضع مثل وضع سوق للبيع والشراء.

وقد رأيت هناك بعض الحجاج اللامعين من ذوي الأصل النبيل، الذين يرون بأن المقامرة والمساومة مع الباعة، حتى ولو كان ذلك في سوق عام، شيئاً غير مقبول بالنسبة إليهم، ودون مستواهم في الحياة، ومع ذلك، هنا في هذا المكان الأعظم قداسة لم يتوقفوا عن المقامرة وعقد الصفقات، وشراء السلع الثمينة والمجوهرات، وهكذا فإن الذين قد تركوا بلادهم منفردين من أجل حب الرب، وفي سبيل الفروسية، أغراهم الجشع وحب الربح، لأن يصبحوا تجاراً، وعملوا في سبيل تحقيق مصالحهم واعتمدوا على الكذب، والغش والخداع، والأيمان المرعبة، وذلك مثل أولئك المنشقين والمراقطة الذين كانوا معهم يتعاملون، والذي كان المتوجب عليهم الابتعاد عنهم وعدم استخدامهم، لأن أولئك الحجاج كانوا يبذلون غاية جهدهم لشراء الأشياء بسعر رخيص، من أجل أن يتمكنوا من بيعهم بمبالغ أكبر لأناس آخرين في بلادهم، وذلك مثلما يفعل التجار الحقيقيون، الذين يجنون نفقات حياتهم بمثل هذه المبيعات، أو أن يتمكنوا بالمجوهرات وبالأحجار الكريمة من شراء الصداقات الدنيوية، ومحبة كثيرين، أو استخدام ماشره في سبيل فخارهم، والمجد الفارغ.

وفي هذه المبيعات لم يعيروا اهتماماً، لاللمكان المقدس، ولالليوم المقدس، لأن عيد القديسة مريم المجدلية كان قد بات الآن قريباً جداً، ولم يقتصر عمل هذا على العلمانيين فقط، بل شارك في هذه الأعمال بعض الرهبان غير المحترمين ورجال الدين، ولكم كان عملاً مؤذياً

وبلا تقوى أن يرى المسلمون ويشهدوا هؤلاء الباعة يجلسون ويبيعون سلعهم في الكنيسة، ويتجادلون حول الأرباح، وهذا واضح من نقاء مساجدهم، حيث لن يسمحوا مقابل أي شيء في الدنيا بالبيع والشراء فيها، أو بالكلام حول الشيء نفسه، بل نحن جعلنا بيت الصلاة وحولناه إلى بيت تجارة، والكنيسة جعلناها وكرّاً للصوم، وعندما يرى المسلمون هذا، يعدون إيماننا حماقة وشيئاً لا قيمة له.

ولم يكن بعض المتجاوزين الآخرين أقل من هؤلاء المتقدمي الذكر، لأنهم كانوا يأتون بحق المسيحيين والمسلمين سواء، لأن بعض النبلاء، اقتيدوا بعث نحو كتابة أسمائهم مع شعار نبالتهم ومكانتهم الاقطاعية، على جدران الكنيسة، أو نحو رسم رنوكهم عليها، أو القيام بلصق أوراق، عليها كتبت هذه الأشياء كلها، ولقد ألصقوها على جدران هذه الكنيسة وكنائس أخرى، وحفر بعضهم أسماءهم بأزاميل حديدية، ومطارق على الأعمدة، وعلى الألواح الرخامية، وأغضب هذا وأزعج جميع الناس هناك، ولقد رأيت بعض النبلاء ذوي الفخار الفارغ، ممن دفعهم تشاؤهم إلى مثل هذه الأعمال الحمقاء، ذلك أنهم عندما دخلوا إلى بيعة جبل أكر (الجمجمة)، وانحنوا بأنفسهم فوق الصخرة المقدسة، حيث توجد حفرة الصليب، كانوا يتظاهرون بالصلاة، وفي إطار ذراعي كل واحد منهما، كانوا يحفرون بآلات حادة جداً رنوكهم، مع علامات أصالة ميلادهم الأمر الذي لا يمكنني قوله، لأنهم بالحري وضعوا علامات سخافاتهم، لتكون ذكرى دائمة على حماقتهم، وقد فعلوا هذا بشكل سري، لأن حارس الصخرة المقدسة، الذي اسمه جورج، لو رآهم يفعلون ذلك، لجرهم من شعورهم وأبعدهم، ودفعت الحماقة نفسها بعضهم لحفر أسمائهم ورنوكهم وشعاراتهم بآلات حديدية حادة على الألواح التي تغطي قبر الضريح الأعظم قداسة للرب، وهكذا وضعوا جانباً الخوف والاحترام الذي يدينون به للرب، من أجل أن

تبقى ذكرى حماقتهم وسخافتهم دون دمار، بل أن تدوم إلى الأبد، وبذلك يمكن أن يعلنوا في كل يوم، على كل من جبل أكرأ، وفي الأبدية أمام ضريح الرب، لأن كل حاج تقي وعافل، عندما يأخذ طريقه نحو هذه الأماكن بعد كثير من النفقات والأتعاب، وبعدما يمر خلال آلاف المخاوف، ويصل إلى الأماكن المقدسة المتقدمة الذكر، ويبحثوا على ركبتيه للصلاة، فوقتها سوف يرى أمامه هذه القطعة من الحماقة، وعندها لا بد أن يقوم بعد صلاته بلعن الأحق الذي أقدم على صنع هذه الأعمال الشائنة في هذه الأماكن الأعظم قداسة، ويدعو عليه بالموت، أو بشلل يده وبياسها، أو أن تتقلص يده أو أن تنبت، أو أن يدعو إلى الرب لينتقم لكرامته من الذي أقدم على حفر شاراته الشرفية، على الصخرة القائمة كعلامة على التشريف الذي يستحقه.

والرجال الذي يتولون أعمال الحفر يظنون أن جميع الناس سيعجبون برنوكهم، وسوف يكونون مسرورين برؤيتهم، والذي أقوله أنا، أنه بين عشرة آلاف لا يوجد واحد ممن يقدمون إلى هاهنا، سوف يكون لديهم أدنى سرور نحوهم، وإذا كان الحجاج أجانب، ولا يعرفون هذه الرنوك، سوف ينظرون إليهم بازدراء، وسيعجبون نحو هذا التبجح، ويعلنون عن صاحبه بأنه أحق، مع أنهم لم يروه قط، ذلك أنهم سيمقتون هذه الخربشة، وسينظرون إليها برفض، وسيمجونها، وربما قد يصدف ويأتي ابن المخربش إلى هنا، وقتها سوف ينزعج بسبب وراثته لحماقة أبيه.

والنبلاء الألمان هم وحدهم الذين يقتربون هذه الحماقة، وكأن العالم ليس فيه أي نبيل، إلا هم أنفسهم، فلكم هم سخفاء بابتلائهم بهذه العادة، وذلك بين المسيحيين والمسلمين، وأعرف أنا بشكل جيد، أنني، لأسفي وخجلي، قد شعرت بالارتباك العظيم تجاه ذلك بين المسيحيين والمسلمين، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل لكتابة كل الذي شهدته، فلقد عرفت واحداً من الحجاج، حمل دوماً معه في حافظته حجرة حمراء، كان

قد اعتاد أن يكتب بها أحرف اسمه على ألواح المذابح، إما بحجرته الحمراء، أو بمدية أو بمخرز، وكان يكتب اسمه في رأس الهامش الفارغ لكتاب الصلوات، أو كتاب الترانيم، أو كتاب القداسات، أو كتاب المزامير، وكأنه كان هو مؤلف الكتاب، في حين لم يكن يفهم ولا جملة لاتينية، لأنه كان مجرد رجل علماني.

وكان يبذل جهداً كبيراً ليحفر اسمه ورنكه في هذه الأماكن، وفوقها جميعاً، الأمر الذي سوف يلاحظ من قبل الناس الذاهبين والآيين، لكن كيف كانت نهاية هذا الانسان؟ أنا أخجل أن أقول، فقد مللت منه، كما أنني لا أرى أنه أمر لائق بكتاب رحلاتي وجولاتي أن أضع فيه مثل هذه الأشياء، ويكفي — على كل حال — أن أقول، أن رفاق وأقرباء الحاج المتقدم الذكر، هم على استعداد لدفع كثير من الذهب لو تمكنوا من محي اسمه من على وجه الأرض، وأن هؤلاء الناس أنفسهم، رغبوا لو أنهم لم يعرفوا اسمه قط، الذي بذل جهداً كبيراً لرسمه في كل مكان.

ويمكن أن يسمح، أو ربما هو مفيد من بعض الجوانب، أن يقوم بعض النبلاء برسم رنوكهم، أو بكتابة أسمائهم، في نزل، وحانات، وقاعات، وساحات، وأبراج، وقلاع، وأبواب، وأسوار، ومسارح، وأسواق، وساحات الثقافة والمنازل، وأماكن علمانية أخرى، إنما أن يفعلوا هذا في الكنائس والأماكن المقدسة، فذلك خطأ، وحقاً، واجرام، وبعضهم يبذل جهوداً عظيمة من أجل ذلك، ففي سبيل ذلك يهملون صلواتهم وزياراتهم إلى الأماكن المقدسة، لابل يهجرون النوم، ويحذو حذوهم بعض العمال البسطاء، فيأخذون قطع فحم، ويكتبون أسماءهم غير المعروفة، وألقابهم التافهة على الجدران، لابل لحق الضلال بعض الكهنة ورجال الدين، واقتيدوا من قبل بعض القروء الحمقى لفعل هذا، ولوثوا الجدران بالخبر الذي جلبوه معهم لكتابة روايات عن الأماكن المقدسة التي رأوها، وأعجب نحو جميع هؤلاء الناس، الذين لم

يتفكروا حول المثل العامي، الذي حتى الأطفال، يقوله أحدهم للآخر، وهو: «تلوث أيدي الحمقى أطراف البيت»، وبناء عليه، إذا — حسب المثل العامي — عدّ حمقى الذين يلوثون جدران بيوت الناس، لابد من أن يعد أعظم حماقة الذي يلوثون بيت الرب، والأماكن المقدسة عند الرب، ويعد فوق الجميع حماقة الذين يرسمون، أو يعلقون ترستهم وسوابغهم ودروعهم، فوق صور الرب، وصور العذراء مريم المباركة، وصور الصليب المقدس، والنخبة من قديسي الرب، لأنه في كثير من الحالات، يوجد على دروع النبلاء صوراً لبعض الحيوانات، أو الوجوه الشنيعة، أو المخلوقات غير الطبيعية، أو مجموعات من الألوان والأشكال لا معنى لها، كلها انحدرت من الوثنية القديمة.

وهكذا نقرأ بأن أنوبيس Anoubis ومسيح Macedo ولدي أوزوريس، اللذان تجولا في جميع أنحاء العالم، وهما يقترفان الشرور، قد حملا شعارين، فكان شعار الأول كلباً، وشعار الثاني ذئباً، حيث رسما صورتيهما على المعابد التي بنيت في جميع البلدان، ليظهر استخفافهما ببقية الأرباب، ومثل هذين فعل نبلاؤنا في كنيسة الضريح المقدس، التي جدرانها في حالة فوضوية [١٧ ظ٢]، بسبب الترسة التي جرى تعليقها فوق الصور، لأنه حول القاعة المستديرة، كانت الجدران القديمة مغطاة ومزينة بالفسيفساء، لكن الفرسان والنبلاء لم يظهروا رحمة نحو هذه التماثيل والصور الثمينة، وعلقوا ترستهم فوقهم، وبذلك غطوا جميع صور المسيح، والعذراء المباركة، وقد خرقوا هذه الصور بالمسامير، وقد قام الرب منتقماً لانعدام الاحترام هذا، فقد حدث في إحدى المرات أن ملك مصر جاء إلى القدس ليصلي في معبده الذي اسمه هيكل سليمان، وبعد ما أنهى صلواته، صعد ودخل إلى الـ Anastasis أي كنيسة قيامة الرب، حتى يمكنه أن يصلي هناك أيضاً، وعندما كان ينظر من حوله ويتعجب من حجم الكنيسة وجمالها، رأى ترسة نبلاء مربوطة إلى

الجدران، وموضوعة فوق صور الفسيفساء، وعندما علم سبب تعليقهم هناك، غضب غضباً عظيماً، وأراد أن يهدم كنيسة القيامة كلها ويسويها بالأرض، لولا أن الرب جعله يغير نيته، وعلى كل حال، أمر بانزال جميع هذه الترسة وانتزاعهم من على الجدران، وكومهم في كومة واحدة، وأمر بإلقاء النار فيهم، وأحرقهم جميعاً، ولذلك لا يوجد الآن هناك أي ترس، كما ليست هناك صور فسيفساء كاملة، بل مشوهة وغير واضحة.

ومضى آخرون حول الكنيسة مع أدوات حديدية، مخفية في ملابسهم، وعندما كانوا يصلون إلى الأماكن المقدسة، كانوا يقومون باقتلاع الأحجار المقدسة، والتقاطها، أو كسرها أو اقتطاع أجزاء منها، لحملها معهم إلى الوطن، لأنه ما هو السبب، إلا أن يكون الإنسان قد ضل، أو أعمته الشرور، حتى يفكر بتعرية الأماكن المقدسة من زينتها، أو أن يقوم بتشظيه، أو تشويه بعض الأعمال الفنية، التي عملت بعد جهد كبير ونفقات عالية؟

واقنادتنا أعمال التشظية السخيفة للحجارة إلى رعب عظيم، ليس مرة واحدة، بل أكثر من مرة، ففي إحدى المرات، بعدما ذهب الحجاج إلى منازلهم، بقينا طوال الليل في كنيسة القيامة، وفي الصباح اكتشف بأن شظايا قد اقتطعت من صخرة الجمجمة، ومن لوح الضريح، ومن حجرة تخنيط الرب، وعندما رأى المسيحيون الشرقيون هذا، صرخوا في الكنيسة ضدنا، ودعونا باسم لصوص وسارقين، وثار اضطراب عظيم ضدنا، وهددونا بأنهم سوف يتشكون ضدنا إلى سادة المغاربة وسادة المسلمين.

ولدى سماع الأب المسؤول بهذا، كان خائفاً، وظن أن شراً عظيماً بات يحيق بنا، فدعانا جميعاً إلى بيعة العذراء المباركة، وبسلطاته الرسولية، حرم الذين قاموا بتشظية الحجارة، ولم يدعنا نخرج من الكنيسة، حتى أعطيت الشظايا إليه، وهكذا وقعنا هناك باضطراب

وارتباك وخجل، وثار الناس جميعاً ضدنا، بسبب الاثم الذي اقترفناه. وبسبب مثل هذا، وقعنا بارتباك في القديسة كاترين في العربية، وقد ارتجفت رعباً وخوفاً، عندما تذكرت ذلك، لأننا سلمنا إلى البداة العرب من قبل الرهبان الشرقيين وقد أرغمنا بالضرورات الحادة على إعادة ماسرقناه، ولا يقتطع الناس هذه الشظايا بدافع التقوى، بل بسبب أن بعض الشرهين من الفرسان، هم رعاة لبعض الكنائس أو المذابح، وهم يفعلون هذه الأشياء، بقصد إثارة السواد الأعظم من الناس ودفعهم لزيارة كنائسهم، وبذلك يحصلون على الفائدة، فالجشع هو الذي يدفعهم لمحاولة فعل ذلك، على الرغم من الأوامر التي أعطيت للحجاج بأن لا يفعلوا ذلك، الأمر الذي سلف تيبانه في أكثر من موضع.

هذا وإن موضوع الذين يلتقطون الحصى من الأماكن المقدسة، ويسعون إلى التقاط الآثار المقدسة، دون أن يشوهوا الأماكن المقدسة، مختلف، والقيام بذلك عمل مقدس وتقوي، كما سنبرهن على ذلك في ٢٥٣و، وبناء عليه، أمضى بعضنا هذه الليلة في عمل ما قمت بوصفه، بينما شغل آخرون أنفسهم بالأعمال التعبدية، وأقمنا القداسات منذ منتصف الليل حتى أضاء الصباح.

مغادرة الحجاج لضريح الرب واجتماعهم فوق جبل صهيون للتشاور حول مغادرتهم للقدس

وفي اليوم الثاني والعشرين، الذي كان عيد القديسة مريم المجدلية، غنينا قداس قيامة الرب في ضريح الرب، وفي هذا القداس المهيّب، أتينا على ذكر القديسة مريم المجدلية، وبعد انتهاء القداس، قام الحجاج الذين كانوا على وشك المغادرة، بالسعي من مكان مقدس إلى آخر وتقبلهم مع الدموع، مودعين لهم مع الأسف، لاقتراب مفارقتهم لهم،

وفي الحقيقة للأماكن المقدسة قوة جذب خاصة، بها يجد الحجاج أنفسهم في النهاية منجذبين إليهم أكثر من ذي قبل، وقد احتشدوا جميعاً حول ضريح الرب، وتابعوا الدخول والخروج مثل نحلات في خلية للنحل.

وعندما كانوا يعملون هذا، جاء المسلمون، وأخرجونا من الكنيسة، وطلبوا منا جميعاً الصعود إلى جبل صهيون، لأنهم أرادوا التحدث هناك معنا حول بعض الأعمال، وبعدما خرجنا من الكنيسة، دخلنا إلى بيعة القديسة مريم المجدلية، الموجودة في الساحة خارج الكنيسة كما تقدم لنا ذكر ذلك، وتوصلنا هناك من أجل حمايتها، وغنينا ترنيمة « O mundi lapas » ، الخ، وصعدنا بعد هذا إلى جبل صهيون، ووجدنا الرهبان هناك قد بدأوا للتو، بقداس من أجل عيد القديسة مريم المجدلية، وقد مكثنا حضوراً هناك حتى النهاية، لأن الوقت كان ما يزال مبكراً، وساعة الغداء لم تحل بعد.

افتراق الحجاج عن بعضهم من أجل جبل سيناء والاجتماع الذي عقده

وقدم بعد القداس السيد جانم الذي كان حاكماً للقدس، مع بعض شيوخ المسلمين، والسيد Sabathytanco ، أي كالينوس الأكبر، الرئيس الأعلى للمشفى، والترجمان المسلم، والفحل كالينوس الأصغر، الذي كان دليل الحجاج عبر الصحراء، وعدد كبير آخر من الأعيان، وعندما اجتمعوا كلهم، جلسوا في قاعة الرهبان، وفي القاعة الكبرى، التي يطلق الرهبان عليها اسم قاعة البندقية، وجلس معهم الأب المسؤول، والأخ جون أوف بروسيا، مع شيوخ آخرين من الرهبان الفرنسيين، ومثل هذا الشخصيات البارزة بين الحجاج مثل اللورد جون ويرنهر Wernher، والبارون فون زيمبيرن Zimbern، واللورد جون التروخسيس، واللورد برناردفون بريتنباخ Braitenbach،

وحاجب الكنيسة الكاتدرائية في مينز، واللورد فيرديناند فون ويرنوي Wernawe، واللورد ماكس فون روبولستين Roppolstein، وكان إلى جانب هؤلاء بين الحضور القبطانين لأنهما كانا أساسيين، وكذلك أعوانهما، ووقتها صدر الأمر إلى جميع الحجاج للوقوف أمام هذا الجمع، وعند اكتمال حضورهم، جرى إخبارهم بصوت المنادي، بأن الحج إلى القدس قد انتهى الآن، وأنه لم يبق هناك من شيء لعمله سوى المغادرة من هناك، والعودة إلى الأوطان، الأمر الذي يتوجب علينا الآن الاستعداد له بأكبر قدر ممكن من السرعة، وعلى كل حال، إذا وجد بين الحجاج أي واحد يرغب في التخلف في القدس، والانطلاق من هناك إلى جبل سيناء، فعليه وعلى أمثاله الاعلان الآن عن أنفسهم، والبقاء في القاعة مع السادة، وعلى الآخرين مغادرة القاعة والاستعداد للمغادرة، لأنه بعد انتهاء الغداء سوف يقودونهم نازلين من القدس نحو البحر.

وبناء عليه غادر جميع الحجاج القاعة، باستثناء ثمانية عشر، هم الذين بقيوا مع السادة، وهم الذين سلف لي أن ذكرت أسماءهم، ثم بدأنا نبحث حول الحج إلى سيناء مع السادة، وهي مباحثات، تقتضي الإجراء قبل مغادرة قبطاني الغليونين، ورفاقنا من الحجاج، كما ينبغي أن تكون بحضور قبطاني الغليونين، والأب المسؤول، وبعض الحجاج المثقفين، لأنه بعد فراقهم، سوف يتصرف المسلمون مع الحجاج المتبقين كما يرغبون، وسوف يبتزون الأموال منهم بقسوة وبدون رحمة، ذلك أنه مع وجود القبطانين قد تصرفوا بشكل معقول أكثر، ثم إنهم إذا ما طلبوا مبلغاً غير معقول، سوف ينزل الحجاج إلى البحر مع رفاقهم، وسوف يتخلون عن الحج إلى جبل سيناء.

وبناء عليه نظمنا نوعاً من العقد من أجل سلامتنا، واعطاء الأمان لنا للسفر من القدس في اليهودية، إلى غزة في فلسطين، ومن غزة خلال الصحراء العربية حتى جبل سيناء، ومن جبل سيناء حتى مصر من

خلال بلاد مدين، ومن مصر إلى المطرية حيث بستان البلسم، واعطاء أمان لتراجمة القدس ليصلوا إلى هذا المكان وليس أبعد من ذلك، وفيما يلي الشروط التي أبرمناها معهم، وأبرموها معنا:

الشرط الأول: على السيد Sabathytanco أي كاليينوس الأكبر، أن يتلطف بوعدنا باتخاذ اجراءات من أجل اقتيادنا بسلام من هنا حتى مصر، وذلك من خلال الأماكن المتقدم ذكرها، وأن يقوم هو نفسه، بشخصه ذاتياً، بمرافقتنا على نفقته وحسابه من القدس حتى غزة، وعلى هذا الشرط أعطى كلمته بأنه سوف يفعل ذلك.

ثانياً: فيما يتعلق بجميع الخفارات، والضرائب، والعشور التي سوف يجري دفعها فيما بين القدس وغزة، هو الذي سوف يدفعهم عنا من ماله، وقد طلبنا هذا منه، على أساس معرفتنا أنه بدون ذلك سوف نتعرض للنهب بدون حدود من قبل المسلمين على الطريق.

ثالثاً: عليه أن يؤمن لكل حاج حماراً يركب عليه، مع رجال لسوقهم (وهؤلاء السائقين يعرفون أيضاً باسم مكارية)، وأن يكون سائقي حميرنا مسيحيين، وأن يأخذونا ويخدمونا من هنا حتى المطرية في مصر، ويقدمون الطعام لأنفسهم ولحميرهم، مالم يصدف ويقوم الحجاج باختيارهم، بإضفاء شيء ما عليهم.

رابعاً: عليه القيام بتأمين نقل جميع حاجياتنا، مثل الملابس والأوعية، كلها على حسابه الخاص، وذلك من القدس إلى غزة المتقدم ذكرها، باستثناء الخمرة، التي سوف نأخذها معنا على حسابنا.

خامساً: عليه أن يؤمن على حسابه في غزة مجموعة من الجمال لحمل حاجياتنا إلى جبل سيناء، ومن هناك إلى مصر إلى المطرية، وعليه أن يؤمن لنا في غزة نزلاً معقولاً وله حجم مناسب ويضعه تحت تصرفنا.

سادساً: عليه أن ينيب واحداً من رفاقه، ليتولى مرافقتنا مكانه

شخصياً من غزة حتى القاهرة في مصر، علاوة على ذلك رجونه أن يرسل معنا الفحل، الذي اسمه كاليينوس الأصغر، الذي — كما ستحدث فيما بعد — غالباً ما ارتحل خلال الصحراء مع الحجاج، ونحن ملزمون بأنفسنا بتزويده بالأطعمة من مخزننا.

سابعاً: عليه أن يزود كل حاج بزق، ليحمل فيه الماء خلال الصحراء، لأنه غالباً لا يمكن العثور على ماء، على ذلك الطريق لأيام سفر كثيرة.

ثامناً: عليه أن يعطينا إذناً لشراء خمرة في القدس، من المسيحيين الشرقيين، وأن يتدبر تمكننا من حملها على ظهور الجمال أو الحمير، من دون أن نتعرض للإهانة من قبل المسلمين، لأنه مالم تتخذ احتياطات فائقة جداً أثناء شراء الخمرة وحملها، لكن يكون الحجاج بأمان.

تاسعاً: عليه أن يعيرنا ثلاثة سرادقات أو خياماً صغيرة، حتى نتمكن من نصبها في كل مكان في الصحراء، حيث نرتاح، لنحمي أنفسنا من الحر الصادر عن الشمس.

عاشرأ: على كل واحد منا أن يدفع إلى الترجمان، من أجل جواز المرور والخفارة، وكل شيء آخر تقدم ذكره مبلغ ثلاثاً وعشرين دوقية، ندفع له نصفها في القدس والمتبقي في غزة، بعدما نكون قد جهزنا الجمال، والأمور الأخرى المتقدم ذكرها، وفقاً للاتفاقية والشروط الواردة فيها.

حادي عشر: ينبغي وضع الاتفاق كله كتابة، وتوقيعه مع أختام السيد حاكم القدس، وكاليينوس الأكبر، وحفظه في ديوانه.

ثاني عشر، وأخيراً: طوال بقائنا في القدس، ينبغي أن يسمح لنا بزيارة الأماكن المقدسة، في داخل المدينة وفي خارجها، أي أن يسمحوا لنا بالدخول إلى كنيسة القيامة عندما نطلب منهم ذلك، وأنا عندما ننطلق

برحلتنا إلى جبل سيناء، أن يأخذوننا إلى بيت لحم، وأن يدعونا نقيم هناك لمدة أيام، وأن يقتادوننا من بيت لحم إلى حبرون، لنرى المكان الذي صنع فيه آدم من طين، والكهف المزدوج.

لقد كانت هذه شروط العقد الذي أبرمناه، وعانينا من خلافات كثيرة مع اضطراب عظيم قبل أن نتفق على رأي واحد، وأخيراً اتفقنا، وجرى ختم العقد في اليوم نفسه، أمام الحجاج، وإخواننا الرهبان، ومضيئنا، إنما دفعنا دوقيتين رسماً من أجل الختم.

مغادرة الحجاج القدس وعودتهم إلى الوطن

وفي اليوم نفسه، أي يوم عيد القديسة مريم المجدلية، وبعد انتصاف النهار، جاء السادة المغاربة مع السادة المسلمين، مع حشد كبير من الأتباع المسلحين، وجاء جميع سائقو الحمير مع حميرهم إلى جبل صهيون، ليأخذوا الحجاج من هناك وينزلونهم إلى البحر، وقد جاءوا مع جيش شجاع وقوي للدفاع عنهم ضد الكائن على طريقهم، ذلك أنهم عرفوا بأن هناك كائن جرى إعدادها للحجاج على الطريق، وذاع الخبر في جميع أنحاء البلاد، بأن هناك كثيراً من الحجاج في القدس، والناس سوف يكونون مسرورين لمهاجرتهم، ولذلك تأمروا واجتمعوا مع بعضهم.

وفي الوقت نفسه عندما كان كل واحد يسعى نحو الأمام ونحو الخلف، ويعد نفسه للرحلة، أرسل خلفي موالى اللوردات الأربعة الذين قدمت معهم، عندما تركت الوطن، وهم الفارس اللورد جون بارون فون زيمبيرن، والفارس اللورد بير فون رينجيرغ، والفارس اللورد هينريخ بارون فون ستوفل، والفارس اللورد جون التروخسيس، وأضافوا إلى جميع أعطياتهم المتقدمة لي مايلي: فقد أعطوني كمية من الدوقيات، لأدفع نفقات رحلتي إلى جبل سيناء، ورجوني أن أصلي

للرب من أجلهم عندما أكون في تلك الأماكن المقدسة، وأن أتفحص بدقة تلك الأماكن، وأن أكتب وصفاً عنها، وكررت شكري لهم، وأعطيت واحداً منهم رسالة ليأخذها إلى المعلم المبجل لودويغ فوخس في أولم، فله كتبت واصفاً أوضاعي وأنها تسير على مايرام.

وساعدت بعد هذا خدام موالي لحمل أغراضهم، وحزمها على ظهور حميرهم، وكان بعض الفرسان يغادرون القدس وهم مرضى كثيراً، إلى حد أنهم كانوا غير قادرين على الجلوس على ظهور الحمير، ومن أجلهم جرى جلب جمال، مع سلال كبيرة، علقت كل سلة على طرف من طرفي الحمل، وفي السلال جرى حمل المرضى إلى البحر، وكان هناك واحداً من الحجاج الشباب مريضاً جداً، إلى حد تعذر فيه حمله على ظهر الحمار أو في سلة، لذلك تركوه وراءهم، ولقد مات بعد مغادرتهم مباشرة، وقد دفن في مقبرة الرهبان على جبل صهيون.

والآن عندما باتوا جميعاً جاهزين امتطوا حميرهم، وبدأوا يغادرون القدس، وبكى كثيرون بسبب محبتهم للأماكن المقدسة، التي كانوا الآن كارهين جداً لتركها، وبكى آخرون لانفصالهم عن رفاقهم وإخوانهم، الذين تركوهم خلفهم، الذين كان بينهم لوردات، وخدم لوردات، وهؤلاء عندما نظروا إلي لم يتمكنوا من حبس أنفسهم عن البكاء، وقد بكوا معي، وفي الحقيقة لقد افترقت مع مرارة عظيمة في القلب عن موالي الأعظم لطفاً، فهم لم يكونوا سادة لي، بل أصدقاء لطفاء وإخوان، وقد بكيت خشية من الاضطرابات التي سوف يواجهونها في البحر، أكثر من بكائي على انفرادي ووحدي، والتعاسة التي أنا مقبل على مواجهتها في عبور المنطقة التي بلا حدود من الصحراء، ومن البحر في رحلة شتوية، فهما معاً مليئتين بالرعب الدائم، لأنني تذكرت التعاسات والشقاء الذي عانى منه الحجاج أثناء عودتهم في حجي الأول، الأمر الذي تحدثت عنه من قبل، وكذلك حتى الوصول إلى البندقية، ولقد

كنت خائفاً جداً، خشية من أن يواجهوا مثل ذلك النوع من الشقاء.

وهكذا غادر الآن باسم الرب قبطانا الغليونين القدس، ومعهما اللوردات والحجاج، وأرسلنا معهما اثنين من جماعتنا، ليجلبا إلى القدس الأشياء التي تركناها خلفنا في الغليونين، وقد وصلوا إلى الرملة، التي تعرف بشكل عام باسم رام، وحجزوا هناك لكثير من الأيام، وتعذبوا بشكل فظيع، لأنه يسكن في تلك المدينة الأسوأ بين أهل الشرور، كما وضع معنا ووضعناه في ص ٣٧٦، ويقوم سكان الرملة دوماً بإزعاج الحجاج المغادرين للأرض المقدسة أكثر من القادمين الجدد.

وبعد مضي هذه الأيام، نزلوا إلى يافا، وعندما كانوا نازلين إلى هناك، عذب المسلمون اثنين من الحجاج كثيراً، وأرغموهم على التمدد لعدة أيام في حانة قدرة في يافا، إليها تقدمت الإشارة في ص ٣٢٩، ففي هذه الحانة أصيب كثير الحجاج بالمرض، بسبب القذارات في المكان، وبسبب الحاجة إلى الضروريات، وبشكل خاص أكثر بسبب العذاب والإزعاج الذي تعرضوا له على أيدي المسلمين، وعلى أيدي أطفال المغاربة، كما سلف وتحدثنا عن ذلك، ولقد عذبوهم أثناء عودتهم أكثر مما فعلوه عندما قدموا، ولذلك وصل الحجاج إلى حالة من الغضب والمرارة ضد المسلمين على طرف البحر، أنهم قرروا وهم صاعدون على ظهر السفينة، قطع أعناق جميع المسلمين الذين سوف يقابلونهم، من كل من الشيوخ والشباب، غير أنهم أرغموا على التخلي عن هذه الخطة، من أجل الذين بقيوا في القدس، لأنهم لو أقدموا على قتل إنسان واحد، لجرى رمينا جميعاً بالسجن، ولربما أقدموا على قتل بعضنا انتقاماً للدماء التي سفكت.

وغالباً ما حدث أنه عندما يكون الحجاج على وشك الافتراق عن المسلمين، يعطي بعضهم للآخر أساءاً سيئة، ويشتم أحدهم الآخر، مع أنهم قد يكونوا أصدقاء عندما يكونوا على الشاطئ، وقد حدث قبل

بضع سنوات مضت، في ميناء يافا، أن غضب الحجاج من المسلمين، وغضب المسلمون من الحجاج، حتى صفّ الطرفان أنفسهم في صفوف قتال، وتحاربوا مع بعضهم بعضاً.

ومكثنا في حجي الأول لمدة أربعة أيام في ميناء يافا، انزعجنا فيها وتعذبنا إلى أبعد الحدود، ومثل هذا فعلوا اليوم حيث عذبوا الحجاج، وكما قلت من قبل، لولا خوفهم على سلامة الحجاج الذين بقيوا خلفهم في القدس، لما كانوا صعدوا إلى ظهر الغليون من دون سفك للدماء، وعلى كل حال، أقلع الحجاج بسلام— من أجل سلامنا— في قوارب كبيرة، وأبحروا إلى الغليونين، اللذان كانا حتى الآن راسيان بدون حركة، في المكانين اللذين تركناهما في البداية، ثم فك شعبنا الغليونين من أربطتهما، ورفعوا المراسي، وحركوا علامات الغليونين، وأطلقوا حجارة من أدوات قذفهما على أبراج يافا، وغادروا الميناء بصرخات عالية تحدياً للمسلمين.

وعندما وصلوا إلى قبرص، كان عدد كبير منهم مرضى، وقد مات عدد من الفرسان النبلاء هناك، وأقلعوا من هناك، وذهبوا إلى رودس، غير أن رحلتها كانت رحلة بطيئة، ولذلك عانيا كثيراً من الحاجة إلى الماء، ولهذا توجهنا نحو ناتوليا Natolia ، التي كانت أقرب البلدان، وكانت تحت حكم الأتراك، محاولين الحصول على الماء من هناك، ولكن عندما دخلنا إلى الميناء، وعرف الأتراك، أنها كانا غليونين، جالين لحجاج القدس، لم يسمحوا لهما بالحصول لاعلى الخبز ولاعلى الماء، كما رفضوا منحهما جوازاً بالنزول إلى الشاطئ، بل أرغماهما على المغادرة بسرعة، والابتعاد عن شواطئهما، ولذلك ذهبا أسفين بسبب حاجتهما إلى الماء، وأرسل الرب — على كل حال— لهما مباشرة ريحاً طيبة، حملتهما إلى جزر السيكلاد، حيث رسوا في جزيرة رودس بينها، وهناك أنعشوا أنفسهم، وأقاموا هناك عدة أيام.

وعندما أقلعنا، وابتعدا عن رودس، ووصلا إلى أعالي البحار، قابلا فجأة سفينة قرصان مسلحة، مهيأة لقتال الغلايين، ولولا أن الرب أعانها بريح جديدة وقوية جداً، من المؤكد أنهما كانا لن ينجيان من أيدي القرصان، ذلك أنه عندما كان القرصان على مقربة منهما، هبت الريح، وبسرعة حملت الغليونين عائدين إلى ميناء رودس، وأبحرا في اليوم التالي على طريقهما، وعملا رحلة طيبة، حيث عبرا المقاطعات الشرقية، أي بلاد الاغريق وآخيا والبقية، حتى وصلا إلى بارنزو Pa-renzo في استريا ودالماشيا، وكانت بارنزو آخر ميناء قبل أن يدخل الإنسان إلى بحر البنادقة، الذي لا تستطيع الغلايين والسفن الكبيرة عبوره من دون ربح خاصة، وعندما لا تهب تلك الريح، لا بد لهم من الرسو والانتظار في ذلك الميناء لبعض الوقت، أي حتى تهب تلك الريح، ولهذا السبب هناك دوماً في ذلك الميناء أصحاب قوارب، مع قوارب كبيرة، وعندما يكون هناك بعض الناس يريدون الوصول إلى البندقية بسرعة، يستأجرون قارباً، ويذهبون به إلى البندقية، وبناء عليه عندما رأى الحجاج أن الريح لن تهب بشكل موافق للبحار في خليج البندقية، استأجروا قوارب، لكن فجأة هاج البحر، وأخذت قواربهم تتقاذفها الأمواج الكبيرة، لذلك لم يبق لديهم أمل كبير بالنجاة من الموت، لأنهم عندما كانوا في هذا الاضطراب، انكسرت دفة القارب الذي كان فيه موالي، وباتوا لذلك في فزع عظيم، وتحركت المياه بشدة بوساطة الريح، وانصبت عليهم من كل جانب، وانكسرت السارية في القارب الذي كان بجوارهم، وطار الشراع مع عارضته، وبناء عليه، كان هؤلاء الرجال حتى في خطر أعظم، وقد فقدوا كل أمل، لذلك شرعوا بالاعتراف بذنوبهم أحدهم إلى الآخر، وقطعوا العهود، ونذروا النذور، كما جرت العادة بالنسبة للذين يكونون بمثل هذه المضائق، ومع ذلك تمكنوا على كل حال، بمعونة الرب، الذي حفظهم في ضيقهم، من الرسو جميعاً في ميناء البندقية، وكانوا مبللين، يرتجفون وفي حالة

مزرية.

وقد مكثوا في البندقية لعدة أيام، ثم غادروا المدينة نحو وطنهم، وفي حوالي يوم عيد القديس غول Gall ، كانوا في منطقتهم، وكان قد مات عدد كبير من النبلاء ومن الخدم، لكن مامن واحد من موالي ومن خدمهم قد فقد، باستثنائي أنا وحدي، فقد بقيت بعدهم في القدس، وذلك بموافقة موالي، وكانوا جميعاً مع خدمهم بصحة جيدة، والعدد نفسه الذي سافر، عاد إلى الوطن، وقد جرى الترحيب بهم بسرور لحدود له، وببهجة، وجاء ذلك من آبائهم، وأزواجهم، وأولادهم، ورفاقهم.

الحمد للرب

هنا نهاية الحج الذي عمل بشكل جماعي إلى القدس.

هنا بداية الحج إلى الأرض المقدسة الذي عمل خلال الأرض المقدسة من قبل الحجاج الذين عزموا على الحج إلى جبل سيناء بعد مغادرة الحجاج الآخرين للقدس وللارض المقدسة

في اليوم الثالث والعشرين، الذي هو يوم القديس أبو لينارس Apolinaris الشهيد، اجتمع حجاج جبل سيناء في الصباح الباكر، فوق جبل صهيون، واستدعوا إلى هناك الأب المسؤول، والراهب جون أوف بروسيا، وشيوخ الدير، ورجوهم مع كثير من التوسل، بأن يتكرموا عليهم ويتفضلوا بتعيين غرف لهم، يمكنهم العيش فيها وتلقي الرعاية خلال الوقت الذي سوف يقضونه بالقدس، وأثار الأب كثيراً من المضاعف حول هذه المسألة، وعرض أسباباً كثيرة لعدم التمكن من أخذهم في الدير، وعندما سمع الفرسان ذلك، حاولوا الحصول على موافقته بالذهب، وأحضروا عدداً كبيراً من الدوقيات، قدمها أحدهم إلى الراهب جون قائلاً: «خذ يا أخانا هذه القطع من الذهب، وامنحنا مسكناً، أرجوك، واحصل على طعام لنا، وعند صرف هذه النقود، سوف نعطيك بعضاً آخر»، لكنهم حتى بذلك لم يصلوا إلى هدفهم، لأن الأبوين رفضا النقود، وخاطبا الفرسان بهذه الكلمات: «اعلموا ياسادتي الحجاج الفرسان، لقد تعلمنا بطول التجربة أنه أفضل لكم الإقامة في الخارج، وليس معنا في الداخل، ولذلك سوف نساعدكم على اكتراء مكان للإقامة، ووقتها سوف يكون الدير تحت تصرفكم من أجل الأمور الروحية، وإذا ماوقع أحدكم مريضاً، سوف ندعه يرقد في قاعة المعالجة، وسوف نرعاه ونعتني به، علاوة على هذا، ولكي لا نبذو أننا رافضين كلياً لطلبكم، سوف نستقبل بيننا رفيقكم وزميلكم بالحج، الراهب فيلكس، مثلما استقبلناه لدى أول قدومكم إلى هنا، وهو سوف يقيم بالقلالية التي يشغلها الآن، وسوف يرتاح فيها، وسوف يأكل

ويشرب معنا في قاعة الطعام طوال الوقت الذي ستبقونه في المدينة المقدسة».

ولدى سماع الحجاج لهذا، أقبلوا عن الضغط من أجل مطلبهم الذي كانوا قد بدأوا به، في حين قدمت أنا الشكر للأبوين على لطفهما الذي أبدياه نحوي، وشغلت وأنا ممتن، مكان اقامتي هناك، طوال الوقت الذي بقيته في القدس، وكنت أدخل وأخرج مع الرهبان المبجلين، وكأنني من أفراد طائفتهم، وذلك دونها خوف أو ازعاج من قبل المسلمين، وهكذا أقمت في الدير، وقد جهزت بشكل رائع، وذلك من دون نفقات.

واكترى الآن بقية الحجاج مسكنا في بيت الفحل، أي كالينوس الأصغر، الذي كان مسلماً وكان هذا البيت قائماً في اطار أحواز جبل صهيون والقدس، على الراية التي تنزل إلى الضريح المقدس، وكان في هذا البيت ثلاث قاعات إلى جانب قاعة صغيرة منفردة، وكان هناك في الوسط قاعة أو ساحة ذات حجم لا بأس به، حيث توجد دوالي مع عناقيد عنب، وكان تحت البيت صهريج كبير، من أجل أعمال الاستحمام الاحتفالية للمسلمين، وقد أعطى كالينوس قاعتين من قاعات بيته إلى الحجاج، وقد احتفظ مع أخيه بالقاعة الثالثة مع أثاثها، وفي المدة التي أقام بها الحجاج في البيت، لم يأكل هذين الرجلين ولم يناما في البيت، بل تركا البيت تحت تصرف الحجاج، ولذلك دخلوا وخرجوا، وناموا وأكلوا في البيت، وكانوا يتابعون ماكانوا يحتاجونه، ويطبخونه حسبما يرضيهم، وقسم الحجاج أنفسهم إلى ثلاث مجموعات، حتى يكون بذلك وضعهم أفضل، وأعظم تزويداً بالضروريات أثناء السفر بالصحراء، كما أنه بذلك يكون حفظ السلام بينهم أحسن، لأنه يكون أمراً أسهل بين مثل ذلك العدد، وبقيت — على كل حال — الفئة الأولى والفئة الثانية، دوماً مع بعضهما، ومثل ذلك بقيت الفئة الثالثة

لحائها.

وكان في الفئة الأولى ستة حجاج هم: اللورد جون، كونت أوف سولمس Solms الذي كان الأصغر سناً بين الجميع، لكن الأكثر نبالة من حيث الميلاد.

— اللورد برنارد فون بريتنباخ Braitenbach، الذي هو الآن عميد الكنيسة (الكاتدرائية) في مينز.

— اللورد فيليب فون بينخن، الذي كان فارساً، ووصياً على الكونت المتقدم الذكر.

— إيرهارد، وكان تابعاً، ووظيفته حمل السلاح، كما كان خادماً للكونت

جون، ويدعى هنجي Hengi، وكان متعهداً للمؤن وطباخاً خبيراً.

جون كنوس Knuss، وكان مترجماً إلى اللغة الإيطالية.

وكان في الفئة الثانية، ثمانية حجاج، أسماؤهم كما يلي:

اللورد ماكس، وكان يكنى بسيناسينوس Sinasinus، وهو بارون فون روبلستاين Roppelstein.

اللورد فرديناند، بارون فون ميرنا Mernawe، وكان فارساً.

المعلم كاسبر فون بولاخ، Caspar von Bulach، وكان فارساً.

المعلم جورج ماكس، وكان فارساً.

المعلم نيقولا (عرف بالميجر انكروت Inkrut)، وكان فارساً.

كونراد، وكان حلاقاً، وعازفاً على المزمار، وطباخاً، ومتعهداً للمؤن

الأب بول جوجلنغر Guglinger وكان كاهناً من طائفة

الفرنسيسكان

الراهب توما، وكان راهباً علمانياً من الطائفة نفسها، وكان رجلاً بارعاً بكثير من اللغات.

وكان في الفئة الثالثة، ستة حجاج، هاكم أسماءهم مرتبة:

اللورد هنريخ فون سخونبورغ Schauenburg (كذا)، وكان فارساً.

اللورد كاسبر فون سيكولي Siculi، وكان فارساً.

اللورد بيتر فون مورسباخ Morspach، وكان فارساً.

المعلم بيتر فلسخ Velsch وكان فارساً.

المعلم جون لازينوس Lazineus ، رئيس شمامسة، وقانوني كنيسة ترانسيلفانيا في هنغاريا.

والراهب فيلكس، وكان من طائفة الرهبان المبشرين في أولم، وهو كاتب هذه الرحلات والجولات، وهو أيضاً الذي جلب رئيس الشمامسة المتقدم الذكر إلى فنتنا، وفي الحقيقة هو لم يكن يقوم بهذا الحج لولا ثقته بي، لأنه كان هنغارياً تماماً، ولم يفهم كلمة ألمانية واحدة، مع أنه كان بارعاً باللغات اللاتينية، والسكلافونية، والإيطالية، والهنغارية، وكان رجلاً من أصل نبيل، وفاضلاً، ومثقفاً، وخطيباً عظيماً، وعالماً بالرياضيات، وقد بقي، كما ذكرت من قبل، إلى جانبي، الأمر الذي سنراه فيما بعد أيضاً.

ويتوجب علي في هذا المكان، أن أصف الفحل، الذي هو كالينوس الأصغر، الذي في بيته أقام الحجاج، والذي تقدمت الإشارة إليه من قبل، وسوف تأتي فيما بعد، فقد كان للمشفى وللحجاج في القدس معلمين، هما الأعلى والأدنى، وكان اسم الأعلى Sabathytanco،

وكالينوس الأعلى، أي معلم المشفى والحجاج، وكان كل من هذين الكالينوسين يعرف باسم الترجمان، أي حامي الحجاج المسيحيين، ودليلهم، والوصي عليهم، وفي الحقيقة، كان في كل مدينة أناساً منحهم السلطان امتياز، قيادة المسيحيين خلال البلاد، وحمايتهم من الأذى، وكان هؤلاء الناس موظفين في الدولة لديهم سلطات منحت لهم من قبل السيد السلطان، وهم يعرفون باسم الترجمة.

ومثل هذا، وبالطريقة ذاتها، كان لليهود تراجمتهم، أو كالينوس، وفي الأماكن حيث يتوفر عدد كبير من الحجاج، يكون هناك بالعادة كالينوسين: أعلى وأدنى، وذلك على سبيل المثال في كل من القدس وفي القاهرة، وهذين خاضعين أحدهما للآخر، ويتلقى الأدنى راتبه من الأعلى، في حين يستخرج الأعلى راتبه من الحجاج، وعندما يكون هؤلاء الترجمة جيدين ومستقيمين، كل شيء يسير بشكل جيد مع الحجاج، كما سوف نرى فيما بعد، وكان الترجمان الأعلى في القدس Sa-bathytanco رجلاً عجوزاً وطويلاً، وثرياً، وصاحب معنويات عالية، غير أنه كان قاسياً على الحجاج، يتعجل بهم دوماً من مكان إلى آخر، ويستخرج المال منهم بشكل مخزن، علاوة على ذلك، هو لم يحافظ على عقودهم بشكل جيد، وخرق كثيراً من وعوده، ومع هذا حمانا باخلاص كبير، وبذل قصارى جهده للدفاع عنا، عندما طلبنا منه المساعدة.

وكان كالينوس الأدنى في القدس، أي الفحل، رجلاً متقدماً بالسن، وأعتقد أنه قد تجاوز الثمانين، وكان رجلاً حكيماً، ومسلماً مستقيماً، مليئاً بالمحاسن والفضائل، لكنه قليل المعرفة بالإيمان الحقيقي، أي أن جميع الناس من الممكن انقاذهم بالإيمان حيث ولدوا، شرط البقاء ظاهرين، في حين أعلن هو أن الذين يتخلون عن إيمانهم، سوف يكونون مدانين، ولذلك أدان الممالك الذين كانوا من أهل إيمانه، وكانوا قد ارتدوا عن

الإيمان المسيحي، وكذلك جميع المسيحيين الشرقيين، فقد قال بأنهم يستحقون الادانة واللعنة، لأنهم جعلوا أنفسهم مثل المسلمين، وأقسموا يمين الولاء والتبعية للوكلهم، وقد حمل الرأي نفسه حول اليهود الذين سكنوا معهم، وقد قدر تقديراً عالياً لإيماننا وخلصنا، لكنه اعتقد أنه لو تخلى عن إيمانه، لا يمكنه نيل الخلاص بإيماننا، كما أنه اعتقد أن مامن مسيحي مرتد، يمكنه نيل الخلاص بإيمانه هو، وغالباً ما تحدثت معه حول هذا الموضوع، لأنه عرف اللغة الإيطالية، وبعضاً من اللغة الألمانية المكسرة، التي تعلمها من الحجاج، الذين عبر معهم صحراء جبل سيناء ثمان وأربعين مرة.

وقد أبدى حباً عظيماً نحو المسيحيين من بلاد ماوراء البحار، إلى حد أنه كان يخاطر بحياته معهم، لابل أكثر من ذلك، كان على استعداد لوضع نفسه في خطر الموت من أجلهم، ولهذا نجده وإن كان رجلاً متقدماً بالسن، ومشهوراً بلطفه، قد قام على الرغم من ذلك، بعبور الصحراء مع الحجاج، وليس في ذهنه الحصول على أية مكافأة، بل كان هدفه فقط رفقتهم، وكان ينزعج كثيراً، لدى تفكيره بالكيفية التي يمكن قيادة الحجاج بها، بعد موته، خلال الصحراء، وخلال هذه المناطق، وفي الحقيقة أنا شخصياً انزعجت حول هذا، وفزعت من موته، مثلما فزعت من موت الراهب جون الذي تحدثت عنه من قبل.

وزار هذا الكالينوس البندقية، وكذلك بلاط الامبراطور فردريك الثالث، كما زار روما في أيام بابوية البابا نيقولا الخامس، وحدث هذا وفق الطريقة التالية: فقد قاد في إحدى السنوات، بعض الفرسان عبر الصحراء، كان بينهم فارس ألماني قوي، أحبه حباً عظيماً، وغالباً ما اعتاد على حثه، ورجائه، أن يذهب معه إلى ألمانيا عبر البحر، وأنه سوف يحسن إليه ويعامله معاملة جيدة، ويبقيه سالماً، لكن المسلم لم يوافق على هذا، وكان عندما ذهباً إلى القاهرة حيث اعتاد كالينوس على ترك

حجابه والعودة ثانية إلى القدس، سأل هذا النبيل كالينوس أن ينزل معه حتى الاسكندرية ويبقى برفقته حتى هناك، وهناك سوف يدعه يذهب.

وعندما كانا في الاسكندرية، طلب النبيل من قبطان الغليون، الذي عزم على العودة على ظهره، أن يعلمه لوحده باليوم وبالساعة التي سوف يقلع الغليون بها، وبناء عليه، بما أن الغليون كان سيسافر في وقت متأخر من إحدى الليالي، جلب ذلك النبيل في تلك الأمسية كالينوس إلى ظهر الغليون معه، ولم يعرف كالينوس بأن السفينة سوف تقلع في تلك الليلة، وظن أنه سوف يعود في الصباح إلى المدينة، لكن في ظلام الليل أقلعت السفينة بصمت، ولاقت ربحاً طيبة، فقطعت مسافة كبيرة في البحر، وهكذا أرغم المسلم على البقاء معهم، وعبور البحر.

وأخذه الفارس إلى كل من الامبراطور والبابا، وحدثهما عن محاسن الرجل وعن تقواه، إنما كان من غير الممكن تحويله عن دينه، وهكذا أعيد إلى البندقية، وسافر من هناك من جديد إلى وطنه، ومنذ ذلك الحين أظهر نفسه حارساً أعظم اخلاصاً لجميع المسيحيين، وأكثر مما كانه من قبل، لأنه أحضر معه هدايا ثمينة من الامبراطور، ومن البابا، ومن النبلاء، واعتاد أن يتحدث لأبناء وطنه عن الكرم العظيم للمسيحيين، وعن أمجادهم.

وكما قلت من قبل، سكن السادة النبلاء من الحجاج في بيت هذا الرجل الأمين، الذي إليه نزلت كل يوم، وكنت أدخل إليه وأخرج منه، كما أشاء، ويكفي ما قيل حول هذا الموضوع.

وفي اليوم الرابع والعشرين، عقدنا نحن الحجاج اجتماعاً على جبل صهيون، لنبحث معاً بشؤون الحج الذي عزمنا على القيام به في الأرض المقدسة، وعقدنا هذا الاجتماع، لأننا لم نرغب بأي حال من الأحوال

أن نستسلم للكسل في تلك الأيام التي كنا سنمضيها في الأرض المقدسة، بل أن نقوم بالحج إلى هذا المكان وإلى ذاك، ووافقنا جميعاً على هذه الرغبة، لكن الشيطان، ماكان ليسمح لنا أن نفعل ذلك، فقد بذر الخلاف وبدأ الحجاج مختلفون واحد مع الآخر، ويتجادل أحدهم مع الآخر حول الأماكن المقدسة التي يودون قصدها، واختلفوا نتيجة لهذا حول مسائل أخرى أيضاً، وفي الحقيقة إنهم امتلكوا مطبخين في اطار البيت المتقدم الذكر: مطبخان، وطباخان، وشراء منفصل للميرة، مع أن ذلك كله كان من الممكن صنعه بشكل أسهل وأحسن تحت إدارة واحدة، واتحد— على كل حال— سيدا الفئة الأولى والفئة الثانية مع بعضهما، وكان لهما نار واحدة، وإدارة مطبخ واحدة، لكن سادة الفئة الثالثة— التي أنا انتميت إليها— عاشوا منفصلين بأنفسهم، وكان الفارس الذي اسمه بيتر فلسخ هو نفسه الطباخ والمسؤول عن تأمين الميرة للفئة، وقد اكرى اثنين من اليهود الألمان الفقراء لمساعدته، حيث كانا يذهبان معه إلى السوق لشراء الذي كنا نطلبه.

وكان بعض الحجاج متشوقين كثيراً لزيارة الأماكن المقدسة في الجليل، أي لزيارة قرية الناصرة، وجبل الطور، ومرج ابن عامر الكبير، وبحر الجليل، وكفرنا حوم، وكوروزين، وهو الجبل الذي فيه بشر المسيح، وفيه أطعم الناس، ودمشق، وغير ذلك، ولكن عندما تشاورنا حول هذه القضية مع الأب المسؤول، وكالينوس الأكبر، الذي كان ترجماننا، أخبرانا بوجود كثير من العوائق تقف في وجه هذا الحج، وأنه يتوجب علينا دفع مبالغ كبيرة لشراء سوء معاملة المسلمين، الذين قيل عنهم بأنهم في تلك المناطق معادين كثيراً للمسيحيين، إلى حد أن الحجاج نادراً مايتجرأون على الذهاب إلى الجليل، وأعلن لنا الأب المسؤول، أنه يوجد في الحقيقة في هذا الحج مخاطر أعظم من عبور الصحراء إلى جبل سيناء، وعندما سمع بعض الحجاج هذا سحبوا

اقترحهم، وتخلوا عن الحج إلى الجليل، بيد أن آخرين كانوا راغبين بالذهاب، على الرغم من المخاطر التي أخبرنا عنها، إنما على الرغم من انفصالنا الشديد إلى فئتين، تمّ التخلي عن هذا الحج، لأنه لا يمكن لفئة واحدة دون الأخرى تحمل النفقات العظيمة، فضلاً عن هذا قام الذين لم يرغبوا بالذهاب بالشكوى ضد الذين قالوا إنه سيتوفر وقت لنا قبل العودة من الجليل للشروع بحجنا إلى جبل سيناء، وأنا في هذه الحالة علينا أن نتظرهم، الأمر الذي ماكانوا ليقوموا به، وفي هذه النقطة كانوا مخطئين، لأنه كان بإمكانهم الذهاب إلى هناك ثلاث مرات قبل أن ننطلق من القدس، وذلك كما سيظهر فيما بعد، وهكذا حدث أنه بسبب الانقسام بين صفوف الحجاج، تُركت أشياء كثيرة دونها إنجاز، كان بإمكاننا إنجازها بسهولة، لو أننا كنا على رأي واحد، لأننا لو اتفقنا، ودفع كل واحد منا خمس دوقيات، لكان من الممكن أخذنا خلال الجليل كله، لابل ليس خلال الجليل فقط، لابل حتى أنطاكية، التي كانت تعرف في الماضي باسم ربله، كما ورد في سفر الملوك الثاني: ٢٥/٢٠-٢١.

ولقد رغبتنا فوق كل شيء برؤية الناصرة، التي قيل بأنها في هذه الأيام قرية صغيرة، لا يعبر فيها عن الاحترام للمسيح أو لعبيده، لكنها كانت في الماضي، في أيام القديس جيروم كرسي رئاسة أساقفة محترمة، ترأس عليها القديس سيلفانوس Sylvanus، حسبما جاءنا الخبر عند سيريل، في رسالته إلى أوغسطين، «حول معجزات القديس جيروم».

وفي اليوم الخامس والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس جيمس الرسول استيقظ رهبان جبل صهيون قبل شروق الشمس، وأخذوا كل شيء كانوا بحاجة إليه من غرفة المقدسات وخرجوا من الدير، وكنت أنا معهم، وقصدوا كنيسة القديس جيمس، لأقامة قداس هناك، وكنا

قد قدمنا من قبل وصفاً لهذه الكنيسة، وعندما وصلنا إلى الكنيسة، تركت الرهبان يدخلون إليها، وركضت أنا مسرعاً، ونزلت إلى مكان سكنى الحجاج، وقرعت على الباب بحجر، وأيقظتهم من أجل سماع القداس، وصعدت ثانية معهم إلى الكنيسة المتقدمة الذكر، ورتلنا في بيعة إعدام القديس جيمس قداساً مهيباً، لابل أقمنا قداساً تلو آخر فوق ذلك المذبح ذاته، ورجعنا إلى أماكننا التي فيها أقمنا من أجل الاستراحة في ذلك اليوم، الذي كان يوم سبت، وهو اليوم الذي حافظ المسلمون عليه، وعدوه مقدساً مثلنا نحافظ نحن على يوم الرب، ولم يسمحوا لنا بالتجول في أنحاء المدينة، في مثل هذا اليوم، لأنهم يقيمون صلوات مقدسة وقتها. (١)

وفي اليوم السادس والعشرين، الذي كان يوم عيد القديسة حنة، أم العذراء الأعظم مباركة، استيقظنا باكراً، وذهبنا إلى الكنيسة القائمة فوق مكان بيت القديسة حنة، الذي فيه حملت بأم الرب، ورجونا الذين سكنوا هناك بالسماح لنا بالدخول، لكنهم لم يستجيبوا بأي شكل من الأشكال، وبناء عليه صلينا للقديسة حنة، وتعبدنا ابنتها من خارج الأبواب، وقد سلف لي الحديث عن هذه الكنيسة، ولسوف أتحدث عن المكان بعد وقت قريب، وغادرنا الآن تلك الكنيسة، وعبرنا من خلال باب اسطفان، ونزلنا إلى وادي شعفاط، من أجل أن نقيم قداساً في كنيسة صعود العذراء المباركة، لكن عندما وصلنا إلى الكنيسة وجدناها مغلقة، ولم يكن بإمكاننا الدخول إليها، ولذلك تركناها وصعدنا إلى قبو صلاة المسيح وآلامه، حيث زينّا مذبحاً، وأقمنا قداساً، علماً بأن هذا لم يحدث مثله من قبل، أي أن تقيم الطقوس اللاتينية قداساً هناك، هذا ولقد سلف لي أن قمت بوصف هذا المكان.

ولدى الفراغ من قداساتنا، قمنا بزيارة الأماكن المقدسة الأخرى على

١- وهم فابري، وكان عليه أن يقول بأن اليوم هو يوم الجمعة.

جبل الزيتون، إنما عندما وصلنا إلى كنيسة صعود ربنا، أوقفنا واحد من المسلمين، ولم يسمح لنا بدخول الكنيسة ما لم ندفع له مالاً، وهددناه بأننا سوف نشتكى ضده إلى السيد جانم حاكم القدس، غير أنه لم يعبأ بذلك، وهكذا عدنا إلى مسكننا لتناول طعام الغداء على جبل صهيون.

وفي اليوم السابع والعشرين، الذي كان الأحد التاسع بعد الثلاث، قدم جميع الحجاج باكرأ إلى القديس على جبل صهيون، وهو القديس الذي توليت أنا ترتيله لصالح الراهب سيرافينوس Seraphinus، القانوني الذي كان مسؤولاً عن السدة في ذلك الأسبوع، ذلك أنه رجاني بتلاوة القديس عوضاً عنه، وتوليت إدارة القديس إلى جميع الرهبان الذين ليسوا في طوائف الرهبان، ولقد وافقت على هذا بسرور، وعددته فضلاً خاصاً خصصت به حين نظر إليّ على أنني جدير بتلاوة قديس للدير في المكان الذي نعتقد أن هذا القديس الذي هو قديس القربان، قد تأصل بالأساس في هذا المكان، وأني حين أشارك بذلك القديس مع إخواني أفعل ذلك في المكان نفسه الذي شارك فيه المسيح مع تلاميذه بقديس أكل جسده على هذه البقعة، كما تحدثت من قبل في ص ٤٢٠، وبعد الغداء استرحنا.

ونزلت في اليوم الثامن والعشرين باكرأ مع المسؤول عن التموين إلى المدينة، وقصدنا السوق، وشارع الطباخين، حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع، وحشداً عظيماً من الناس، وكثيراً من المطابخ، للناس الذين لا يطبخون في بيوتهم، كما يفعلون في ديارنا، بل يتعاون طعامهم من المطابخ العامة، الذين يعدون اللحوم بنظافة متناهية في مطابخ مفتوحة، ولا يمكن رؤية أية امرأة هناك قريباً من النار، لابل ما من امرأة تملك الجرة حتى على دخول هذه المطابخ لأن المسلمين يكرهون الأطعمة المطبوخة من قبل النساء، كراهيتهم للسم، ولذلك لا يوجد في الشرق كله امرأة تعرف كيف تطبخ كعكة، بل الرجال وحدهم هم الطباخون،

وتحتاج المطابخ في هذه المناطق جدراناً عامة، وذلك بسبب جفاف البلاد، والخشب نادر، ولذلك من غير الممكن أن يكون هناك مطبخاً في كل بيت، مثل الحال في بلادنا، وذلك بسبب الحاجة إلى الخشب، وبعد رؤيتنا لهذا كله، عدنا إلى أماكن الإقامة، وتناولنا الغداء بعد القداس.

وفي اليوم التاسع والعشرين، اشترى كل حاج لنفسه فراشاً محشواً بالقطن، وذلك لصالحنا، من أجل استخدامهم في القدس، وفي خيمنا في الصحراء، وقد تدبرت صنع واحداً لي أيضاً عندما كنت في القدس، وقد حملته معي عبر الصحراء، وعبر البحر إلى البندقية، ومن البندقية إلى أولم، إلى قلّاتي الخاصة، حيث أنني مددتها بمثابة أثر مقدس من آثار حجي المقدس.

وبعد الغداء ركب الأمير جانم حاكم القدس، والسيد فكاردينوس Vaccardinus، والسيد Sabathytanco، والأعيان المسلمون، وصعدوا على ظهور الخيول إلى جبل صهيون للترويح عن أنفسهم، لأن الهواء على جبل صهيون دوماً منعش أكثر منه في القدس، ولهذا اعتاد أعيان الناس على الصعود إلى هناك بين آونة وأخرى، لإنعاش أنفسهم، وللتمدد في كنيسة الرهبان، التي هي دائماً باردة، وعندما قدموا، مدّ الرهبان زرابي فوق البلاط، مع فرش ومساند، وجلس السادة هناك، واستندوا بمرافقهم فوق الفرش، لأنه لم تجر العادة في هذا البلاد بالجلوس فوق المقاعد، أو فوق الكراسي بظهر أو بدون ظهر، بل يضطجعون على الأرض، وإذا كانوا أغنياء ومن أعيان الناس، يجري مدّ زرابي من أجلهم.

وعندما استقربهم الحال جلب لهم الرهبان أطعمة في صحون من المعدن، ومعجنات صنعت مع التوابل، وبعض الأرجفة من خبزهم، وأقراص معمولة بالعسل، وفواكه وأعشاب، ولوز وبطيخ، مع ماء بارد للشرب، لأنهم لا يشربون الخمر، وأكل هؤلاء السادة بكل سرور، وفي

الوقت نفسه وقف الرهبان الفرنسي سكان ونحن الحجاج من حولهم وتولينا خدمتهم، في حين وقف خدمهم من المسلمين من حولنا، وقد سألونا أسئلة كثيرة من خلال مترجم، وسمعوا أجوبتنا بإعجاب، وناقشوا بجدية، أحدهم مع الآخر ماسمعه، لأنهم كانوا قوماً متقدمين بالسن، وعليهم سمات الوقار، مع لحي طويلة، وذوي خبرة واسعة، ذلك أنهم كانوا أعيان حكام المدينة المقدسة، ولهم حضور أصيل.

وحدث في اليوم المتقدم، أن بعث الأب المسؤول باثنين من الرهبان من جبل صهيون، إلى بيت لحم، لكن مسلماً انقض عليهما على الطريق، وضربهما ضربات كثيرة، حتى وصل الأمر إلى سفك الدماء، واشتكى الأب المسؤول من هذا المسلم، إلى هؤلاء السادة، الذين وعدوه بمعاقبته، وأنهم سيتعاملون معه بشكل يمنع من إلحاق الأذى بأي مسيحي مرة أخرى، وبعد الفراغ من سماع شكوى الأب المسؤول، تقدمنا نحن الحجاج، وعرضنا شكوانا ضد المسلم الذي لم يسمح لنا بالدخول إلى كنيسة صعود الرب، حسبنا عرضنا ذلك تحت عنوان اليوم السابع والعشرين، ورجوناهم السماح لنا بزيارة الأماكن المقدسة من دون دفع، وقد أجابوا بأنه ينبغي علينا أن لاندفع أي شيء إلى الذي يتولى حفظ باب كنيسة الصعود، وأنه من الآن فصاعداً لن يطلب منا أي شيء، وفيما يتعلق بزيارة الأماكن المقدسة لقد قالوا: «يمكنكم الذهاب إلى أي مكان تريدون، وحسبنا ترغبون، ونحن ننصحكم أنكم كلما سرتم في الخارج، ليكن معكم بعض المسلمين، لكي لا يتمكن الأولاد الأشقياء، الذين لا يمكننا ضبطهم، من ازعاجكم»، وهكذا مضى ذلك اليوم، وفيه أكلت أثناء كل من الغداء والعشاء بشراة فائقة من البطيخ، الأمر الذي اقترفته لا يذاء نفسي.

وكننت في اليوم الثلاثين مريضاً طوال اليوم، حيث عانيت من حمى حادة جداً، وكننت ملتهباً بحرارة فائقة، وأعتقد أن سبب ذلك، هو

البطيخ، الذي هو في القدس كبير جداً، وعظيم الحلاوة، وقام — على كل حال — الراهب بابتستا Baptista ، المسؤول عن قاعة المعالجة، بالاعتناء بي بشفقة، وجعلني على الفور أشفى، بجعلي أتعرق، وهكذا لم أغادر في ذلك اليوم قلّاتي.

وسمعت في اليوم الحادي والثلاثين بأن اثنين من إخواني الحجاج كانا مرضى، وأنها يسيران وهما متكئين على عصا، ونزلت من جبل صهيون، وأنا عظيم الاضطراب والانعراج بسبب ضعفي، وسرت حتى مسكن الحجاج، مع أن الطريق صعوداً ونزولاً طويل نسبياً، وبما أنني كنت مريضاً، فقد زرت قوماً مرضى، وبقيت معهم طوال اليوم، وفي المساء تولى اثنان من الفرسان مرافقتي صعوداً، وسط رعاية كبيرة، حتى أنني عدت سليماً من جديد، إلى مكاني في جبل صهيون، حيث وجدنا أهل الدير كله مشغولين بطوافهم اليومي حول الأماكن المقدسة، وبناء عليه ذهبت معهم، مثلما اعتدت أن أفعل في أوقات أخرى، وعدت مع إخواني للهجوع في قلّاتي.

وكان لرهبان جبل صهيون عادة مقدسة وجديرة بالثناء، وهي قيامهم كل ليلة، بعد غناء القداس، والفراغ منه، القيام بزيارة الأماكن المقدسة، للحصول على الغفرانات وفق الطريقة التالية: يذهبون أولاً إلى المذبح العالي، في المكان الذي تأسس فيه القربان، وهناك يسجدون بأنفسهم ويقبلون المكان، ويحصلون على غفرانات، ومن هناك يذهبون إلى مكان غسل الأقدام، وبعد هذا يذهبون فيطوفون حول الرواق، إلى المكان الذي أنزل إليه الروح القدس، ومن هناك ينزلون إلى بيعة القديس توما الرسول، ويعبرون حول الرواق، ويدخلون إلى بيعة القديس فرانسيس Francis الملاصقة لباب الرب وعموده، وقبلوا هنا الباب، وخرجوا من الرواق إلى المكان الذي قام فيه موضع اعتكاف مريم العذراء المباركة، وتابعوا من هناك إلى المكان الذي وعظ فيه

المسيح، وهناك استداروا بأنفسهم إلى ضريح داوود والملوك الآخرين، وتابعوا من هناك إلى مطبخ الرب، ومنه إلى ضريح القديس اسطفان، ومن هناك أخذوا يستديرون حول المنطقة، وينزلون إلى كهف توبة داوود.

وشرعوا يتابعون من هذا الكهف سيرهم، إلى زاوية جبل صهيون، ثم ليستديرون بأنفسهم نحو الشرق على ركبهم الجاثية، أي باتجاه جبل الزيتون، فيتعبدون أماكنه المقدسة بصلاة واحدة قصيرة، ثم يلقون نظرة على وادي شعفاط، ويصلون، وهم ينظرون نحو كنيسة صعود العذراء المباركة، من أجل أنه بفضائلها وشفاعتها يمكن أن نحظى هنا بلقاء قاضينا بسرور فوق تلك البقعة.

وكانوا يبقون بعد هذا فوق البقعة نفسها، ويستديرون بأنفسهم نحو الشمال، ومدينة القدس المقدسة، وينظرون نحو هيكل سليمان المقدس، ثم يلقون نظرة واحدة على كل الأماكن المقدسة في المدينة المقدسة، وبعد الفراغ من هذا كانوا يستديرون بأنفسهم من الشمال نحو الغرب، أي نحو كنيسة الضريح المقدس للرب، التي هي كنيسة القيامة، والتي لا يمكن رؤية شيء منها باستثناء الأجزاء العالية من برجها، وذلك بسبب وقوف جبل صهيون في الطريق، ولدى تطلعهم إلى هناك كانوا يصلون بتقوى عظيمة، وينهضون بعد هذا، ويصلون عندما يصبحون أمام بيت عناس، الكاهن الأعلى، ويمضون من هناك نحو بيت كيفاس، ويقدمون صلواتهم هناك، ويديرون وجوههم نحو الدير، ويصلون إلى موضع افتراق الرسل.

ثم كانوا يتابعون سيرهم من هناك إلى بيعة القديس يوحنا، حيث اعتاد أن يقيم قداساً، وأن يقوم يومياً بإقامة قداس قربان إلى مريم العذراء المباركة، وعبروا من تلك البيعة إلى بيت العذراء المباركة، وذلك حيث أنهت أيامها، وكانوا يذهبون من هناك إلى المكان الذي جرى فيه

اختيار القديس ميثياس رسولاً، وحيث أيضاً جرى اختيار القديس
جيمس أسقفاً، وحيث أيضاً جرى اختيار سبعة رجال جيدين شامسة،
وعبروا من هناك إلى مقبرة إخوانهم الذين دفنوا هناك، فخاطبواهم
وصلوا من أجلهم، وبعد فراغهم من عملهم هذا، كانوا يعودون ثانية
من خلال باب الدير، ومن ثم يأخذ كل واحد نفسه إلى قلايته
للاستراحة، ووفق هذه الطريقة طفت كل يوم معهم، عندما كنت مقيماً
معهم.

الفصل الخامس

ويحتوي: على أعمال الحجاج خلال شهر آب، مع وصف لمختلف الأماكن في الأرض المقدسة التي إليها ذهبوا، كما ويحتوي على مسائل أخرى كثيرة مفيدة

جلب لنا شهر آب، في يومه الأول عطلتين مزدوجتين: كانت أولاهما، اطلاق سراح القديس بطرس الرسول وفك أغلاله، والثانية كانت عطلة عيد محمد (صلى الله عليه وسلم).... والعيد الأول معروف لدينا، أما الثاني فغير معروف لدينا، إنما له مهابة عظيمة لدى المسلمين، الذين يحافظون على عيد اعطاء شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم)، لأنه في ذلك اليوم أعطيت شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم).... ونشرت بين الناس، وأيضاً في ذلك اليوم تدفق القرآن بحر (الفضائل) فغمر العالم كله تقريباً، ونشر بين الناس....

وكان هذا اليوم الأول من آب، يوم جمعة أيضاً، وقد عدّ هذا اليوم مقدساً لدى المسلمين خلال السنة، ليس فقط لأنه اليوم السادس من الاسبوع، بل بسبب....(١) ولهذا لم نتجرأ في هذا اليوم على اظهار أنفسنا خارج الأبواب، بل بقينا بعيداً عن الأنظار في أماكننا، وذلك مثلما يفعل اليهود يوم الجمعة الحزينة، فيغلقون أبوابهم على أنفسهم، ولا يتجرأون على التجول في الطرقات، وبسبب عيد محمد (صلى الله عليه وسلم) هذا، لم نكن قادرين على الاحتفال بعيد القديس بطرس في الأغلال بشكل لائق، لأن رفاقي الحجاج، لم يتجرأوا على الصعود من مسكنهم إلى جبل صهيون، لسماع القداس، وأرغمنا نحن على تمضية ذلك اليوم بهدوء بدون سماع أي قداس، لأن المسلمين قد قرروا أنهم كلما احتفلوا بيوم عيد أو بيوم صيام، أو امتنعوا عن الطعام، أو حافظوا على أي يوم على أنه مقدس، سواء أكان لفرح أو ترح، كانوا يرغبون

١- قمت باسقاط العبارات النائية.

جميع الغرباء والحجاج على فعل مثل ذلك، ومثل هذا يفعلون أيضاً فيما يتعلق بمسألة الخمرة: فيما أنهم لا يستخدمونها هم أنفسهم، فانهم لا يسمحون للحجاج بشربها في بلادهم، إلا بالسر، عندما لا يراهم أحداً.

وفي اليوم الثاني الذي كان يوم القديس اسطفان، البابا والشهيد، وبعد سماعنا للقداس، أخذنا بعض الطعام، والتقينا عند جبل صهيون، مع نية الذهاب حول مدينة القدس كلها من الخارج، لنرى دفاعاتها، أو بالحري خرائب دفاعاتها، دون أن نأبه بالحرارة العالية جداً، وبأشعة الشمس المحرقة، لأنه لم يكن بإمكاننا فعل ذلك إلا وقت حرارة الشمس، ففي ذلك الوقت يبقى المسلمون في الظل، ففي الصباح الباكر، وفي المساء، عندما تكون الشمس أقل حرارة، كانوا يذهبون إلى حدائقهم، ويمشون من حول خارج الأبواب، ووقتها كانوا لا يسمحون لنا بالطواف حول المدينة، ولهذا اخترنا ساعة راحتهم، لنعمل ذلك أثناءها.

وبدأنا طوافنا كما يلي: عبرنا أولاً وشرنا حتى برج داوود على الجانب الغربي، وذهبنا من هناك إلى باب السمك، أو باب التجار، القائم عند الزاوية الغربية، وذلك حيث يتصل السور الغربي بالسور الجنوبي، ومضيينا من هذه الزاوية إلى حقل القصار، الذي يقوم فيه في الوقت الحالي بستان أشجار، ومسجد، ومقبرة للمسلمين، وهو قائم حيث هو كما كان في أيام القديس جيروم، وذلك حسباً قرأنا في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، واستدرنا في حقل القصار نحو الشمال، حيث أبقينا خندق المدينة المقدسة على يميننا، ومشينا نحو الشمال على طول الحافة هناك، وكان هذا الخندق فيما مضى عميقاً وواسعاً، وقد بني سور المدينة نفسه على صخرة، وقد بنيت البيوت فوق السور نفسه، وهي تطل على الخندق، ورأينا تحت الصخرة نفسها كهوفاً عظيمة، من

خلالها هناك طريق يقود تحت الأرض إلى وسط المدينة تقريباً، ولو كان معنا مصباح مشعل لكان من الممكن لنا الذهاب والسير في هذا الكهف، وكنا أسفين لعدم جلبنا واحداً معنا، وأطلق يوسفوس، في الفصل الثامن من كتابه السادس عن «حرب اليهود» على هذه الكهوف اسم «كهوف الملك»، لكن لماذا أسماهم هكذا، أنا لم أقرأ قط حول ذلك، غير أنني أفترض أنه قد توفرت فيهم بعض الطرقات في داخل المدينة، وكانت هذه الطرق معروفة من قبل الملك وحده، حتى يتمكن من الدخول إلى المدينة، والخروج منها، من دون معرفة أية انسان، أو ربما كان هناك طريقاً فيهم من قصر الملك.

وتابعنا تقدمنا من هناك، وسرنا مسافة طويلة على حافة الخندق، حتى وصلنا إلى الزاوية الشمالية، وذلك حيث يتصل السور الغربي بالسور الشمالي، ويوجد في مواجهة هذه الزاوية هناك تضخم أو ارتفاع بالأرض، حيث عليه خرائب الأسوار، وقام هنا فيما مضى برج عظيم الارتفاع، كان اسمه Phaselus أو Phaselus Hippius، هناك مشهد منه لكل من البحرين، أي البحر القائم في جهة الشرق، الذي هو البحر الميت، والبحر القائم في جهة الغرب، الذي هو البحر الكبير، أو البحر المتوسط، وقد قرأنا عن هذا في الفصل الثامن، من كتاب يوسفوس السادس، أي كتاب «حرب اليهود»، ومع ذلك غالباً ماتساءلت كيف يمكن هذا، مشاهداً من جهة الغرب الجبال وهي مطلة فوق المدينة المقدسة.

واستدردنا من هذه الزاوية نحو الشرق، وسرنا على محاذاة حافة الخندق، ورأينا هناك جزءاً كبيراً من أسوار قديمة، لأن السور كان مزدوجاً، بشكل أنه كانت هناك ممرات داخل السور، وفي الوسط هناك، في كل من الأعلى والأسفل، وجعلت الصخور التي قام عليها السور، مربعة بشكل صناعي في كثير من الأماكن، وقد وقفت فوق هذه

الأماكن الأبراج، وفي الحقيقة، كانت المدينة جيدة الدفاعات من هذا الجانب، لأنه من الممكن مهاجمتها من هنا بسهولة أكبر من الأماكن الأخرى، وبناء عليه من هنا تمكن صلاح الدين ملك مصر من الاستيلاء على المدينة وانتزاعها من أيدي الصليبيين في سنة ١١٨٧ التي كانت السنة الأخيرة لحكمهم لها.

وتابعنا السير من هناك حتى وصلنا إلى باب إفرام، أو باب القديس اسطفان، وهو الموجود عند الزاوية الشرقية، أي حيث يتصل السور الشمالي بالسور الشرقي، وهذا السور الشرقي ليس له خندق أمامه، بل يمتلك بدلاً عن ذلك وادي شعفاط، الذي على طرفه ينهض السور مرتفعاً، وهناك على كل حال، ممر صغير يسير على طول طرف السور، فوق الوادي، وذلك من الزاوية الشرقية للسور، حتى الزاوية الجنوبية منه، ومع ذلك لم نتجراً في متابعة طوافنا، بسبب وجود مقبرة اسلامية، قائمة في مواجهة الباب الذهبي، ولم يكن بإمكاننا عبور هذه المقبرة من دون تعريض أنفسنا إلى خطر عظيم، وذلك كما ذكرنا من قبل.

وهكذا تخلينا عن هذا الممر، ونزلنا من الزاوية، من فوق منحدر منزلق إلى وادي شعفاط حتى جدول قدرون، ذلك أننا سايرناه، فكان جبلي الهيكل والمدينة من الجانب الأول، وجبل الزيتون من الجانب الآخر، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى سفح جبل صهيون في وادي سلوان، واستدركنا هنا نحو الغرب، وذهبنا صاعدين خلال الوادي الذي يفصل جبل صهيون عن جبلي حقل الدم وجيحون، امتداداً حتى حقل القصار، حيث كنا قد بدأنا طوافنا، وقد دخلنا إلى المدينة من خلال باب السمك، وذهبنا مع موالي الحجاج إلى مكان سكنهم، وهناك أنعشنا أنفسنا، حيث كنا نشعر بالحرارة والتعب، لابل كنا في غاية الانهاك، وهكذا مرّ ذلك اليوم، وعلى كل من يرغب بالاطلاع على حجم القدس ودفاعاتها في الأيام الخوالي، أن يقرأ مصنف يوسفوس»

حرب اليهود»، الكتاب السادس، الفصل الثامن، ومع ذلك خشية أن يظن بأنني أتجنب قول أي شيء واضح حول حجم المدينة الأعظم قداسة، ليكن معلوماً أنها ليست بأي حال من الأحوال كبيرة مثلما يعتقد عوام الناس، فهؤلاء يظنون أن حجمها لا بد أن يكون عظيماً بقدر شهرة اسمها وفضائلها.

قد قيل أشياء رائعة جداً عنك أنت يامدينة الرب، ويقال الآن عنك، ولسوف يقال عنك مادامت الدنيا قائمة، وهذه المدينة الآن، ودوما كانت، أدنى من المدن الكبيرة، لكنها أكبر من المدن المتوسطة الحجم، ومثل هذا قيل عنها من قبل الأمم، فقد قال هيكاتيوس Hecataeus الفيلسوف أوف أبديرا Abdera: «القدس مدينة حصينة جداً، يبلغ محيطها حوالي الخمسين غلوة، ويسكن فيها أكثر من مائة وعشرين ألفاً من الناس»، ومضى في حديثه فقال عنها أشياء أخرى حسبما قرأنا في مصنف يوسيبوس «Praeparatio Evangelica» الكتاب الثامن — الفصلان الثاني والثالث.

وأخبرنا فيلسوف آخر هو تيموخارس Timochares، الذي كتب تاريخ انطاكية أن «مقياس محيط القدس هو حوالي الأربعين غلوة، وهي محمية من جميع جوانبها بوديان عميقة جداً، وهي تشرب من كثير من الينابيع التي تنبع في داخلها، علماً بأنه لا يوجد ماء صالح للشرب حولها في إطار يبلغ أربعين غلوة»، وقد زاد على هذا كثيراً، حسبما قرأنا في مصنف يوسيبوس المتقدم الذكر — الكتاب العاشر، الفصل الرابع.

هذا وحدثنا يوسفوس، الذي كان يهودياً، وكاتباً متميزاً للتاريخ، في الفصل الخامس من كتاب تاريخه المتقدم الذكر بأن «مدينة القدس بكامل سعتها، موجودة ضمن إطار مقداره ثلاث وثلاثين غلوة»، وقد حدثنا في هذا الفصل نفسه، بأشياء كثيرة رائعة عنها، وأنا ميال أكثر

لتصديق كلماته، لأنه كان من أهل القدس، وقائداً ليهود المدينة أثناء تدميرها من قبل تيتوس.

وواضح من هذه المصادر المعتمدة، بأن القدس قد كانت قبل التوسعة التي عملها الامبراطور اليوس هدرينوس، أكبر من أولم (التي هي من المدن المتوسطة الحجم) في الوقت الحالي، وفي الحقيقة غالباً ما قمت أنا شخصياً بقياس محيط أولم، فوجدت أن هذا المحيط هو خمساً وعشرين غلوة، وخمساً وسبعين خطوة واسعة، مما يساوي نصف ستاديوم، وبناء عليه كانت القدس أكبر من أولم بثمان غلوات.

وقد حدث أنه بعد مضي سنين كثيرة من أيام يوسفوس، قام الامبراطور إليوس، بإعادة بناء القدس، التي كانت مهتمة، وأدخل فيها موضع الجمجمة وضريح الرب، وجعلها داخل الأسوار، وبذلك وسعها توسعة كبيرة جداً، وبذلك صارت حسب خطة التوسعة هذه، بالمقياس والحدود، حسب الذي أورده الفيلسوفان، اللذان تقدم ذكرهما، وإذا كانا قد كتبا قبل التوسعة، فإنها أدخلت في قياسها جبل صهيون، الذي لم يدخله يوسفوس في قياسه، لأننا إذا أخذنا جبل صهيون مع جبل الجمجمة والجلجلة، فإنه يتكون لدينا اطار كبير، مقياسه ليس أقل من اطار مدينة أوغسبورغ Augsburg ، التي هي مدينة في سوابيا، وتعدّ بين المدن الكبيرة في ألمانيا، ومع ذلك عندما ينظر الانسان نحو مدينة القدس من جبل الزيتون، لا تبدو له مدينة كبيرة جداً، لأنها تقوم فوق بقعة غير مستوية، أي ليس فوق أرض منبسطة، وفيها فراغات وأماكن كثيرة لا يمكن رؤيتها، لأن جبل صهيون منفرداً بذاته، يمكنه أن يحتوي على مدينة ليست ذات حجم صغير، ولو أنه بني كله، فإن الخرائب تبرهن أنها كانت فيما مضى كذلك، هذا ولسوف نقدم في المستقبل المزيد حول وصف هذه المدينة.

الدخول الرابع للحجاج إلى ضريح الرب

في اليوم الثالث، الذي كان يوم عيد ميلاد القديس اسطفان، والذي وافق الأحد العاشر بعد التثليث، رجونا في مساء السبت المتقدم، أصحاب السيادة الحكام المسلمين للمدينة المقدسة أن يحسنوا إلينا، فيدعونا ندخل إلى كنيسة الضريح القدس، وقد وافقوا على هذا، شريطة أن ندفع الرسم المعتاد، وهو خمس دوقيات عن كل شخص، وهنا رجوناهم أن يرأفوا بنا، وبينما أن هذا المطلب حاد جداً، وأن عددنا صغير الآن، وبسبب أننا ننوي أن ندخلها مراراً قبل مغادرتنا، وأنهم إذا لم يقوموا بتخفيض الرسم المعتاد، لن نتمكن لا الآن ولا في المستقبل من الدخول إليها، وهكذا بعد التماسات طويلة ومناقشات تمكنا من اقناعهم بسبب الحاحنا، واتفقنا أننا كلما اردنا الدخول إلى كنيسة الضريح المقدس أن ندفع رسم انسان واحد، أي أن ندفع خمس دوقيات، وقد أرضانا هذا.

وبناء عليه عندما اجتمعنا جميعاً في ساحة كنيسة الضريح المقدس، جاء السادة المغاربة مع المفاتيح، وفتحوا الأبواب، ودخلنا نحن وأمضيئنا تلك الليلة سهرانين حول الضريح المقدس وفق الطريقة التي ذكرتها في ص ٥٠٤، ولدى حلول الفجر، غنينا قداساً في بيعة العذراء المباركة التي تقدم وصفها في الصفحة نفسها المتقدمة الذكر، وتلونا قداسات خاصة، حسبما أردنا دونما ازعاج، وعند الفراغ من هذا كله، قدم المسلمون، وفتحوا الأبواب، ورمونا بالخارج، وذهبنا الآن جميعاً إلى جبل صهيون المقدس، وتدبرنا تلاوة قداس في المكان الذي وجد فيه جسد القديس اسطفان مدفوناً، وانظر حول هذا المكان ماتقدم في ص ٤٢٢، ولدى الفراغ من القداسات، اتفقنا أن نقوم بعد الغداء بزيارة بعض الأماكن المقدسة في داخل المدينة، مما لم نزره من قبل.

والتقينا بعد الغداء فوق جبل صهيون، وأخذنا معنا الفحل، أي

كالينوس الأدنى، ودخلنا إلى القدس من باب القاذورات، أو من تلة القاذورات، التي غالباً ماجاء ذكرها في الكتابات المقدسة، وبشكل خاص في سفر نحميا — الاصحاح الثاني، ففيه أطلق على الباب باب الدمن القديم، وهو ما يزال يعرف بالاسم نفسه حتى الآن، بسبب أن الأوساخ والقاذورات تحمل من خلاله، ويرمى بها نحو الوادي، وهكذا تشكل من الأوساخ المرمية هناك كومة تنامت حتى صارت مثل تلة، وغدت عالية حتى باتت تطل على السور في ذلك المكان، وعندما عبرنا من خلال هذا الباب، وصلنا إلى سوق الضأن، وذهبنا من هناك إلى طريق ضيق، سكن فيه كثير من المسيحيين النوبيين، وقد قرعنا باب كنيستهم.

وعندما فتح الباب، دخلنا وتلونا صلواتنا هناك، وكانت هذه الكنيسة واسعة نسبياً لكنها مظلمة، وفي الحقيقة إن جميع الكنائس الشرقية معتمة ومظلمة، وهذه الكنيسة قائمة فوق المكان الذي قام عليه فيما مضى بيت مريم، أم يوحنا، الذي لقبه مرقس، وهو الذي قرع بطرس بابه، عندما أخرج من السجن بوساطة الملاك، والحكاية الحلوة حول ذلك من الممكن قراءتها في الاصحاح الثاني عشر من أعمال الرسل، وتابعنا سيرنا قليلاً من هذا المكان، فوصلنا إلى بيت آخر لمسيحيين شرقيين، وعندما سمحوا لنا بالدخول إليه، أرونا في ساحة ذلك البيت صهريجاً تابعاً للبيت، وقالوا بأنه هناك ظهر المسيح للقديس توما الرسول، فعندما كان ينضح بعض الماء، وواقفاً على أحد أطراف الصهريج، وقف الرب يسوع على الطرف الآخر، وأخبره أن عليه الذهاب إلى الهند، فهذا ما قاله المسيحيون الشرقيون وأنه حدث هنا، لكن الاسطورة اللومباردية قد ذكرت بأن هذا قد وقع في قيسارية، ومثل هذا ذكرت كتب أخرى لكنيستنا.

ومضينا من هناك إلى بيت آخر، حيث كان فيه كنيسة أيضاً، يقول

المسيحيون الشرقيون بأن فيها قد ولد الرسولان المقدسان جيمس وجون، لأنهم قالوا بأن أباهما زبدي قد سكن هناك مع زوجته، إنما بعد اصابتهم بالفقر سافروا من هناك إلى الجليل، وحصلوا على نفقات عيشهم باصطياد السمك إلى جانب بحر الجليل، ولهذا جاء الخبر في انجيل يوحنا — الاصحاح؛ ١٩، بأن « ذلك الرسول كان معروفاً لدى الكاهن الأعلى ».

وقام على مقربة من هذا البيت مسجد اسلامي، وكان بابه مفتوحاً، وبما أننا لم نر مسلماً فيه، دخلنا إليه، ولم نجد فيه شيئاً جميلاً، ولا شيء يبعث على التدنيس، ولا شيئاً مرغوباً به، بل مجرد بناء فارغ، مقبب، ومستدير، وجدران مطلية بالبياض، ومصاييح معلقة من السقف المطلي، وكانت الأرضية مغطاة بالحصر، عليها يركعون ويسجدون أثناء صلواتهم، وبعد مشاهدتنا لهذا خرجنا ثانية، وهذه الأماكن المتقدمة الذكر، قريبة من هيكل الرب، الذي يسمونه هيكل سليمان.

وذهبنا بعد هذا باتجاه الهيكل، ورأينا في الساحة هناك كثيراً من المسلمين واقفين ومعهم قوارير وأوعية، وجرار لنضح المياه، التي كانت تتدفق هناك بقوة من انبوب ماء، عجبت منه كثيراً، لأنني قرأت دوماً وسمعت بأن المدينة المقدسة كانت بلامياه شفه، ولكن عرفت فيما بعد بالخبرة بأن هذه المياه تنبع من مكان بعيد عن المدينة المقدسة، وهي تحمل إلى القدس بوساطة أقنية من تحت الأرض ومجاري مياه، عنها سوف أتحدث بتوسع في ص ٩٨٩.

وصعدنا من هذا المكان نحو الهيكل، ثم إلى شارع مغطى بسقف مقنطر، من خلاله ذهبنا إلى باب كبير، يقود إلى ساحة الهيكل، وكان في هذا الشارع كثيراً من الحوانيت والأبواب للتجار على كلا الجانبين، وعندما رأونا نسعى مسرعين نحو باب الهيكل، ركض كثير من الناس لمنعنا من الدخول إلى هناك، وأخبرناهم بالاشارات بأننا لن ندخل إلى

هناك بل سنصلي للرب فقط خارج الباب، وبذلك سمحوا لنا بالذهاب إلى الباب، حيث صلينا على ركبنا المنحنية، ناظرين نحو هيكل الرب، إنما حتى هذا أغضب المسلمين ولذلك صرخوا علينا، وكان باب الساحة نفسها واسعاً وكبيراً، مصنوعاً من عوارض حديدية ثقيلة، وهم يقولون بأن هذا الباب الحديدي هو الذي ورد ذكره في أعمال الرسل — الاصحاح الثاني عشر: ١٠، والذي من خلاله قاد الملاك القديس بطرس إلى الشارع لأن سجن بطرس كان فيه.

ومن هناك عدنا ثانية، على طول الشارع نفسه، واستدردنا قليلاً، فوصلنا إلى شارع آخر مقنطر، فيه أيضاً، مثل المتقدم تجار جلوس في حوانيت، ودخلنا إلى هذا السوق وسرنا صاعدين فيه حتى باب الهيكل، دون أن نعبأ بصرخات المسلمين وبنازعاتهم، كما أننا لم نعر اهتماماً لأوامر كاليينوس دليلنا، الذي بذل طاقة جهده لمنعنا من النظر إلى الهيكل، لأن المسلمين كانوا يحشونه ليمنعنا من الاقتراب من الهيكل، وقالوا بأن هذا الباب هو «الباب الجميل» العائد للهيكل، الذي تحته شفى بطرس الرجل الأعرج، عندما صعد هو ويوحنا إلى الهيكل للصلاة في الساعة التاسعة، وقال: «ليس لي فضة ولاذهب»، كما جاء الخبر في أعمال الرسل: ٣.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، تابعتنا سيرنا خلال شوارع البيوت، القائمة حول الهيكل، ووصلنا إلى جزء آخر من الساحة، حيث هناك إلى جانب سور الساحة، مسجد جديد، قيد البناء، بنفقات عالية ليكون مكان اعتكاف لصاحب السيادة السلطان، فيه يمكنه أن يصلي كلما كان في القدس، وهكذا صعدنا إلى ذلك المكان، ورغبنا في أن نصعد أكثر، إلى حيث كان العمال، لننظر إليه، ولكن أخبرونا أن مامن انسان يتجرأ على الصعود إلى حيث كان العمال، من دون إذن من القاضي، الذي كان أسقف هيكل المسلمين، وهكذا دخلنا إلى بيت القاضي، الذي كان صعباً

حتى نسأله من أجل الاذن، وبيت هذا القاضي واسع ومرتفع، وله سقف مقنطر، مزين برخام مصقول، ومجمل برزاي، وهو مثل كنيسة، لكن من دون مذابح، وأعتقد الآن أنه كان مسجداً اسلامياً، فيه استقبال لجميع الناس من جميع الملل، بسبب القاضي، الذي كان ساكناً بجواره، وذلك مع أهل بيته وحاشيته، لأنني رأيت نساء وأطفالاً ينظرون إلينا من خلال فتحة في السقف.

وجاء القاضي لمقابلتنا، وكان مهيباً ومتقدماً بالسن، ومحترماً وله لحية، وعندما فهم الذي نريده، وافق على الفور، وتدبر أمر أخذنا إلى المسجد، وذلك بأن أمر واحداً من أصحابه بمرافقتنا، وصعدنا نحو المسجد، فوجدنا كثيراً من الحرفيين والعمال هناك، وكانوا يصنعون زينة رقيقة من مختلف أنواع الرخام المصقول، ومن مختلف الألوان، وكانوا يزينون كل من الأرض، والجدران بالصور، زيادة على هذا كان الجزء العلوي يلمع بالذهب وبالألوان الثمينة، وكانت النوافذ مزججة، وتضيء المبنى بشكل رائع جداً.

وفي الجدار الذي يرتفع من ساحة الهيكل، كانت هناك نوافذ طويلة وعظيمة، لم تكن قد زججت بعد، ولكنها مفتوحة، رأينا من خلالها ساحة الهيكل، والهيكل نفسه، وقد رأينا هناك الأعمال الرائعة العالية النفقات لذلك المكان، والتي سوف نصفها في حديثنا عن الهيكل على الصفحة ٢٦٠، وقبلها.

وعندما فرغنا من رؤيه هذه الأشياء، أعطينا الحرفيين ثمن شراب، وخرجنا ثانية، وأنا لأعتقد أن أي مسيحي سوف يتمكن قط من الدخول إلى ذلك المسجد، لأنهم سوف يقومون بعد قليل بإيقافه على عقيدتهم المرتبطة بمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وعند القيام بذلك سوف لن يدعو مسيحياً يدخل إليه، وهكذا ذهبنا عائدين إلى أماكننا.

وفي اليوم الرابع، نزلنا جميعاً، بعد الغداء من جبل صهيون، واقتادنا بشكل شبه سري يهودي، قال بأنه سوف يرينا بعض الأشياء التي كانت مخفية، وعندما كنا نازلين وصلنا إلى الجانب الجنوبي من الكنيسة، القائمة قرب هيكل الرب، حيث كان في أيام الصليبيين هناك طريق يقود صعوداً ببعض الدرجات الحجرية، إلى باب عالي، من خلاله يدخل الانسان إلى تلك الكنيسة، وتسلقنا صاعدين إلى هذا الباب، فوق خرائب جدران، وقبلنا الجدار الذي فيه الباب، وذلك من أجل الغفرانات المطلقة، التي يمكن الحصول عليها هناك(++)).

وقد قيل يوجد هناك خمس عشرة درجة، تقود صعوداً إلى ذلك الجدار، وعليه صعدت العذراء مريم مع ابنها— الذي كان في الثالثة من عمره— بشكل اعجازي، إلى الهيكل من دون دليل، وحدث أنه على هذه الدرجات، كتب داوود خمسة عشر مزموراً، واسم هذه المزامير «مزامير الدرجات»، وقد زرنا هذا المكان بخوف وصمت، لأنه لو رأنا المسلمون، لأصبحنا بخطر، ولهذا اخترنا الوقت الذي يرتاحون فيه، ونزلنا من ذلك المكان نحو الأسفل أكثر، فوصلنا إلى سور قديم جداً، وكان فائق القوة، وقد بني من صخور كبيرة مربعة، وهذا السور مرتفع، مع أنه كان من قبل أعلى بكثير، وهذا يمكن مشاهدته من الخرائب، لأن المكان كان مليئاً بصخور مربعة موزعة هناك.

وقد قيل بأنه قام فوق هذا السور بيت غابة لبنان، الذي كان بيت الملك، وهو قد بني من قبل سليمان، فهذا ماقرأنا عنه في سفر الملوك الأول: ٧، حيث قال: «المجد» الخ، وقد أطلق على هذا البيت اسم بيت غابة لبنان، لأن الجزء الأعلى منه قد بني من الخشب الذي قطع من غابة لبنان، وقال مصنف كتاب Speculum Historiale، بأن هذا البيت قد بني من مادة مزدوجة، وكان الجزء الأول من الحجارة، وكان اسمه Nethota، أي موضع العطور، حيث خزنت فيه التوابل والعطور، من

أجل استخدامات الهيكل وبيت الملك، وذلك أنه بسبب (برودة) الأرض (وسياكة) الجدار، كان من الممكن حفظ هذه المواد، والحفاظ على سلامتها، وكان الجزء العلوي من الخشب، أي الخشب الذي جلب من لبنان، ولهذا أطلق على هذا القسم اسم بيت الغابة، أو بيت لبنان، أو بالحري بيت غابة لبنان، ويعتقد بعضهم بأنه عرف بهذا الاسم، لأنه زرع من حوله، من كل جانب أشجار، وحدائق للنزهة، وأنها نمت فصارت كثيفة مثل غابة لبنان، وجرى في القسم العلوي خزن الأسلحة، وذلك بسبب الخشب، الذي يحول دون لحاق الصدا بها، والذي خزن بها ليس أسلحة القتال، بل أيضاً أسلحة النظر والعرض للأبهة الملكية.

وهناك على كل حال في سفر الملوك الأول: ١/٧-٢، تمييز بين «بيت غابة لبنان» وبين «بيت الملك»، علماً بأن بعض الشراح يقول بأنهما كانا بيتاً واحداً، هو البيت نفسه، وهذا ما اعتقده أنا نفسي، هذا وإن بيت الملك هذا، في هذا المكان، كما يبدو يتوافق بشكل جيد مع الكتابات المقدسة، التي غالباً ما قالت بأن ملوك القدس صعدوا إلى الهيكل من بيت الملك، وواضح من إرميا... وهذا لا يمكن أن يحمل على محمل بأن بيت الملك والقصر على جبل صهيون، حيث سكن داود وسليمان قبل بناء الهيكل، لأن جبل صهيون أعلى من الهيكل، والإنسان ينزل منه إلى موضع الهيكل، وعلى كل حال يصعد الإنسان دوماً من الساحة عبر درجات إلى الهيكل نفسه، لكن من البيت الذي نحن الآن فيه، هناك صعود كبير إلى الهيكل، وبناء عليه وقفنا هناك بدون حركة لبعض الوقت، وتعجبنا من الجدار الضخم، وتحدث أحدها إلى الآخر حول هذه القضايا.

ويوجد على قمة هذا الجدار المدمر حجرة مربعة كبيرة، أزيحت من مكانها الاعتيادي ولذلك هي قائمة بشكل شاذ فوق قرنة الجدار، ولأن

هذه الحجرة الآن هي أعلى شيء في الجدار، وناتئة بشكل غريب منه، اخترع حولها حكاية أنها الحجرة التي ورد ذكرها في المزمور: ١١٨/٢٢، وفي متى: ٢١/٤٢ حيث قال: «الحجر الذي رفضه البنائون هو قد صار رأس الزاوية»، وقال نيقولا دي ليرا، إنه عندما كان الهيكل قيد البناء، كانت هناك حجرة قدمت مراراً إلى أيدي المعماريين، لكنهم لم يجدوا مكاناً مناسباً لها لوضعها فيه، ولذلك رفضت، ولكن عندما كان أحد الجدران يتوجب وصله بجدار آخر بوساطة حجر زاوية عند رأسيهما معاً، لم يمكن العثور على حجر أكثر مواءمة لذلك الغرض من الحجرة المرفوضة تلك، والحكاية نفسها، حكيت حول جذع شجرة الصليب المقدس، التي رفضت أيضاً، أثناء القيام ببناء واحد من البيوت.

والذي بدا لي، أن هذه الحجرة لم تكن — على كل حال — حجر زاوية، ولأرأس الزاوية، لأنه من الواضح، أن هذا الجدار كان فيما مضى أعلى بكثير.

ولدى تفحصنا لهذا الجدار من الخارج، بقيادة اليهودي، تسلقنا فوق الخرائب إلى الجدار نفسه، فوجدنا أن بعض الحجرات المربعة الكبيرة، قد انتزعت بقوة شديدة من الجدار، وعلى هذا هناك ثغرة في الجدار إلى Nethotam ، وبناء عليه حيننا أنفسنا، وذهبنا واحداً بعد الآخر، وفي البداية لم يكن بإمكاننا رؤية أي شيء مطلقاً، وذلك بسبب طبيعة العين، فالذي يدخل إلى الظل من المكان الذي تعمه أشعة الشمس، لا يمكنه أن يرى شيئاً، لكن بعدما وقفنا دونها حركة لبعض الوقت أمكننا استرداد نظرنا ببعض الدرجات، ورأينا أبنية مقنطرة عظيمة، وكان يوجد هناك سبعة صفوف من الأعمدة، تدعم القناطر، والأبنية العلوية التي بنيت فوقهم في الأيام الخوالي، مع أنه يقوم في هذه الأيام فوقهم بستان زيتون، عند جهة الهيكل، ويقول كل من المسلمين

واليهود، بأن هذه القاعات كانت اسطبل خيول سليمان، لكن من الأفضل القول بأنه قد كان هنا الـ *Nethota*، أي بيت التوابل ومخزن العطور، كما تقدم لنا قول ذلك أعلاه، ذلك أنه أودع هنا التوابل الثمينة جداً، التي جلبتها ملكة سبأ، والتي عنها قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٠/١٠، كما علينا أن لانعتقد بأن سليمان قد حفظ الدواب في هذا البيت الجليل جداً، الذي عجبت منه نبية سبأ، خاصة عندما رآته قريباً من الهيكل، ذلك أن وضع الخيول هناك كان فيه عدم احترام، ولذلك أمر ببناء مدن في أماكن أخرى، وذلك من أجل عرباته، وخيوله، وخيالته، كما قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٩/٩.

ويوجد الآن تحت هذه القناطر كثيراً من أكوام الحجارة قد جمعت هناك، وقد قال لنا عنها اليهودي الذي جلبنا إلى ذلك المكان، بأن اليهود قاموا بتكويم هذه الحجارة لشغل هذا المكان، ذلك أنهم يأملون أنهم سرعان ماسوف يتمكنون من سكنى الأرض المقدسة، وبذلك فإن حجاجهم الذين يأتون من بلدان بعيدة، سوف يستولون على بعض الأماكن، ففي هذه الأماكن يأملون أنهم سوف يسكنون بعد عودتهم.

ويوجد في الأعلى في القنطرة، مكان خرقت فيه فتحة كبيرة، منها يرمي المسلمون كناسة الهيكل والساحة، وكنا في حالة خوف عظيم هناك، لأنه لو عثر المسلمون علينا هناك، لعاملونا بالفعل بشكل سيء، ولولا أننا كنا خائفين، لتسلقنا فوق الفضلات إلى ساحة الهيكل، وهكذا بعدما رأينا جميع المشاهد المتقدم ذكرها، خرجنا من الفتحة التي دخلنا منها، وقمنا بجولة حول جبل موريا، الذي هو جبل الهيكل، وهو يمتد من أعلى الرابية حتى سور المدينة المقدسة، وذلك امتداداً حتى الزاوية التي يتحد فيها السور الشرقي مع السور الجنوبي.

ورأيت في هذا السور حجارة هي أطول وأكبر مما رأيته قط في سور أي مدينة، لكن هذه الحجارة لم تكن جلييلة، كما تحدث

يوسفوس (الكتاب السادس — الفصل الثامن) وأخبرنا بوجودها في سور القدس، ويطل هذا السور باتجاه وادي شعفاط وجدول قدرون وذلك في مقابل جبل الزيتون، ومبني هناك في السور، على ارتفاع ستة أذرعاً من الأرض، حجرة، بدت وكأنها قد كانت جزءاً من عمود رخامي، فبعضها داخل في السور، وبعضها الآخر بارز منه، بشكل أن انساناً واقفاً على ذلك الارتفاع، يمكنه أن يقف على الحجرة، وظهره مواجه للسور، أو يمكنه الجلوس عليها، كما يجلس انسان على ظهر حصان، وساقيه متدليتان نحو الأسفل.

ولدى المسلمين حكاية حول هذه الحجرة، تقول بأنه في يوم الحساب، عندما يجتمع الناس كلهم في وادي شعفاط، سوف يأتي محمد (ﷺ) ويجلس فوق هذه الحجرة ليحكم بين الناس، ولذلك يحترمون هذه الحجرة، على أساس أنها كرسي الحكم لمحمد (ﷺ)، وقبل سنوات قليلة مضت، قدم نبي مزيف من المسلمين إلى القدس، قدّره الناس جميعاً واحترموه على أنه واحد من أولياء الله الصالحين، ودعا هذا الرجل في أحد الأيام جميع سكان المدينة إلى هذا المكان، قائلاً بأنه سوف يظهر لهم بعض الآيات، وسيتحدث إليهم، ويريهم طريقة الحكم في الدنيا، وذلك وفقاً للطريقة التي سيتعامل بها محمد (ﷺ) مع المسلمين في يوم الحساب الأخير.

وعندما كانوا جميعاً وقوفاً على جانب الرابية، لرؤية وسماع شكل الحساب، صعد ابن الشيطان هذا إلى الحجرة بوساطة سلم، وجلس عليها، جاعلاً ظهره نحو السور، ووجهه نحو الناس الذين وقفوا في الأسفل، وبدأ يتنبأ لهم، وحدث أنه وهو يتحدث إليهم بدأ يتحرك إلى هنا وهناك أكثر فأكثر، وبما أنه لم يلاحظ انحدار الحجرة، فجأة، مال على واحد من جنبيه، وسقط نحو الأسفل، فاندقت عنقه، وتمزق جسده إلى مزق، حيث شعر الناس التافهين بالخزي، وعادوا إلى المدينة، وذهب

كل إنسان إلى بيته، وهكذا أراهم النبي المزيف على الرغم مما نواه، الحقيقة، لكن ليس بكلماته بل بأفعاله، وهنا يتفق المسلمون معنا، بأنه سوف يكون هناك حساب في يوم القيامة، لكن بالنسبة لمكان الحساب، هم على خلاف، ذلك أن المسلمين الذين يسكنون في القدس، وفي اليهودية، وفلسطين، يقولون مثلما نحن نقول، بأن جميع الأمم سوف يجري جمعها في وادي شعفاط، وهم يضعون هناك ثلاثة قضاة هم: الله، والمسيح،، ومحمد (ﷺ)، فالله سوف يجلس فوق أعلى هيكل الرب، ويجلس المسيح على قمة جبل الزيتون، أما محمد (ﷺ) الذي سوف يكون مستشاراً لهما معاً، فسوف يجلس على الحجرة المتقدمة الذكر.

غير أن المسلمين الذين يسكنون في سورية، وفي بلاد الرافدين، وكبدوكية فيقولون بأن الحساب سوف يكون في دمشق، فوق قمم أبراج هناك، ويقول المسلمون العرب بأن ذلك سوف يكون في مكة حيث يوجد ضريح محمد (ﷺ)، أما المسلمون في مصر وليبيا فيقولون بأن ذلك سوف يكون في القاهرة، ويقول آخرون، لابل إن ذلك سوف يكون في القسطنطينية، وهكذا يخترع كل إنسان الذي يرضيه شخصياً، وبذلك يقدمون على حماقات لانهاية لها.

ووقفنا تحت الحجرة المتقدمة الذكر، وضحكنا نحو حماقة.... النبي المزيف، ثم نزلنا من الجدار ووصلنا إلى (مقبرة) اليهود الموجودة على منحدر راوية فوق وادي شعفاط، وسخرنا هنا من اليهودي الذي كان دليلنا، وأخبرناه بأن اليهود كانوا عقلاء بوضعهم مقبرتهم في موضع الحساب، حتى يمكنهم الانبعاث من دون أن يتعبوا من الارتحال إلى هنا، حتى تتم ادانتهم بشكل أبدي.

ونزلنا من هذه المقبرة إلى الطريق العام، الذي عليه صعدنا إلى جبل صهيون حيث أماكنا، وعندما دخلنا إلى موضع إقامة السادة الحجاج، دعاني السادة الحجاج مع اثنين من الآباء الفرنسيين، واثنين من

اليهود، وواحد مسلم، ومملوك واحد، لتناول العشاء معهم، وتناولنا العشاء بسرور مع بعضنا مع أننا كنا ذوي عقائد مختلفة وعادات متنوعة، وإنه بسبب التحادث والاجتماع مع غير المسيحيين، الانسان مرغم على الحصول على إذن من السيد البابا عندما يرغب بالقيام بالحج إلى القدس.

وفي اليوم الخامس، الذي كان يوم العيد المجيد لأبينا القديس دومينيك، بطريك الرهبان المبشرين، وبعد القداس، وكذلك بعد الفراغ من الغداء، جاء Sabathytanco أي كالينوس الرئيس، وأخذ من كل حاج خمس دوقيات، كدفعة على الحساب بالنسبة للعقد المبرم، قائلاً إنه ليس لديه ما يكفي من مال بين يديه ليبدأ بعمل التحضيرات لأخذنا عبر الصحراء، وبناء عليه، ولكي لا يقول فيما بعد أننا كنا سبب التأخير الطويل، أعطيناها المال، وأخذ من كل واحد منا خمس دوقيات، وبعدما حصل على الذهب، بات أكثر بهجة، ووعدنا بأنه سوف يستجيب لكل طلب يمكن أن نطلبه منه، إذا كان يمكنه القيام به، ولذلك طلبنا منه أن يتدبر أخذنا إلى مكان ميلاد مريم العذراء المباركة، الذي لم نذهب إليه من قبل، فأجابنا: «ياسادتي الحجاج، هذه مسألة صعبة، التي سألتمونيها، لأنكم لا يمكنكم الدخول إلى غرفة ميلاد العذراء مريم، إلا من خلال مسجد موقف لاستخدامات المسلمين، إليه ليس مسموحاً لكم بالدخول، ومادام المسلمون يتولون الحفاظ عليه، لا يمكنني التجرؤ على أخذكم إلى هناك بأي شرط من الشروط، ولذلك عليكم الانتظار حتى المساء، فوقتها سوف أرسل ابني Abre إليكم، وهو سوف يقودكم من خلال ممرات سرية إلى المكان، وأنا سوف أتدبر دخولكم إليه، وفي الوقت نفسه سوف أبقى أنا شخصياً مع أصحاب السيادة الحكام، أنتظر فرصة لتأخيرهم حتى لا يمكنهم رؤيتكم تزورون الذي تنوون زيارته».

وما أن قال هذا حتى تركنا، وعندما جاء المساء، انتظرنا حتى غياب الشمس تقريباً، ظانين بأن الرجل قد خدعنا، لكن فجأة جاء ابنه Abre الذي كان في التاسعة عشرة من عمره، جاء إلينا على جبل صهيون مع واحد من الخدم، واقتادنا خلال أزقة سرية في القدس، إلى باب إفرايم، الذي هو باب اسطفان، ووصلنا إلى الكنيسة التي هي الآن Mamaria، وبعدما جرى فتحها، دخلنا إلى المسجد، وذهبنا من الكنيسة إلى الرواق، ويوجد إلى جانب الكنيسة نافذة فوق الأرض، مثل النوافذ العائدة إلى الغرف التي فيها عمل منسوج، أو مثل نوافذ السقوف التي خلالها يدخل النور والهواء، والطريق من خلال هذه النافذة إلى موضع ميلاد العذراء المباركة، لأن المسلمين قد أغلقوا باب الكهف الذي استخدم ليكون كنيسة، لأنهم لا يعبأون مطلقاً حول هذا المكان، وبناء عليه قام واحد من الحجاج بوضع قدميه خلال هذه النافذة، وترك نفسه يسقط إلى القبو، ووقف بعد ذلك تحت النافذة، وعمل بمثابة سلم لكل واحد من الآخرين، لأنه وضع يديه أمام الجدار، وكان على كل من رغب بالنزول، أن يضع أولاً قدميه فوق يدي الرجل، ثم يضع إحدى قدميه فوق رأسه أو كتفيه، ومن فوق كتفيه كان يقفز إلى الأرض، وهكذا نزلنا جميعاً إلى ذلك المكان، فوق الحاج، الذي كان فارساً من أسرة نبيلة، وأشعلنا شموعاً، لأن المكان كان مظلماً، وشرعنا نطوف فيه، ووصلنا إلى كهف، قيل فيه جرى أولاً دفن واكيم وحنة أبوي العذراء المباركة، وذهبنا من هناك إلى بيعة أخرى تحت الأرض كانت أكبر، وكانت فيما مضى مطلية بشكل جميل، ففيها من المعتقد بأن العذراء المباركة قد ولدت، وهنا بدأنا بأصوات مشرقة نغني الترانيم من أجل ولادة العذراء المباركة، وهي الترانيم المحددة في كتب مسيرة الأرض المقدسة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وقبلنا الأرض وفق طرائق الحجاج.

وهذا المكان قائم تحت سدة الكنيسة، وكان فيه الفراش الذي حملت عليه حنة بمريم العذراء المباركة، وذلك مثلما موضع ميلاد المسيح موجود تحت سدة الكنيسة في بيت لحم، وفي هذا دحض لما ورد في القرآن، الذي قال بأن العذراء مريم قد ولدت في مصر، وأنها كانت ابنة مريم، أخت هرون [كذا]، وهو ما كنت قد تحدثت عنه من قبل، وهكذا بعدما فرغنا من رؤية المكان، تمكن واحد من الحجاج بمساعدة الآخرين من الصعود من خلال النافذة إلى الرواق، ومد ذراعيه نحو الأسفل، وشد كل واحد ورفعته إليه، واحداً بعد الآخر، وسرنا حول الرواق، ورأينا القلايات في كل من الأعلى والأسفل، التي عملت بشكل ممتاز، لأن هذا المكان كان في أيام الصليبيين ديراً للراهبات، من طائفة القديس بينت.

ودخلنا إلى الكنيسة، التي هي مسجد الآن، وتفحصناها عن قرب، وقد لاحظنا بأن هذه الكنيسة قد كانت فيما مضى جميلة، ومزينة، لأن الجدران كانت مرسومة، غير أن المسلمين أفسدوا الصور بتغطيتهم بطلاء أبيض، وحدث أن الطلاء الأبيض قد وقع في كثير من الأماكن، وبذلك من الممكن رؤية الرسوم المسيحية ثانية، والذي كان مرسوماً حكاية الحمل بمريم العذراء المباركة، وولادتها، وكيف أن واكيم قد طرد من الهيكل بسبب أن زوجته كانت عاقراً، وكيف أنه أقام بالصحراء مع رعاته، وكيف ظهر الملاك له هناك، وكيف أنه اندفع تحت الباب الذهبي إلى ما بين ذراعي زوجته، وكيف حملت حنة بمريم.

وكنت قد قرأت في واحد من كتب الحج، كيف أن المسلمين شرحوا ماجاء بهذه الرسوم، على أنها تشير لمحمدهم (ﷺ)، وأنه جرت العادة أن كانت هناك امرأة عجوز سكنت قرب هذا المسجد الاسلامي، وكانت تحب الناس، وهي تسكب دموعها بغزارة (٢٣٠-ظ) بأن هذه الصور تحكي حكاية محمد (ﷺ) في الجنة، مضية معاني جسدية عليهم جميعاً،

وعندما رأينا هذه المشاهد كلها خرجنا من المسجد، وكنا منزعجين جداً، أن نرى كنيسة بهذا الجمال، وديراً بهذه الشهرة، فوق بقعة في غاية القداسة، قد صار ملكاً للمسلمين.

وقائم في مواجهة الكنيسة شجرة كبيرة، وقديمة جداً، قد قيل بأنها زرعت من قبل العذراء مريم المباركة، عندما كانت ماتزال طفلة، تحت رعاية والديها، اللذان من المعتقد أنهما سكنا فوق هذه البقعة، لأنه مع أن واكيم وحنة قد عاشا لسنوات طويلة في الناصرة، إنما عندما اقترب وقت الحمل بالعذراء وولادتها، جرى تحريضهما من قبل الروح القدس إلى الانتقال من الجليل إلى اليهودية ومن ثم إلى القدس، حتى يتمكننا من إنهاء أيامهما هناك في عبادة الرب، على مقربة من هيكل الرب، غير عارفين بالسر الرباني العظيم الذي أبقاها من دون أولاد، وعندما قدما من الناصرة إلى القدس، اشترى بيتاً على مقربة من الهيكل، فوق بركة الضأن، وفيه جرى الحمل بمريم العذراء المباركة، وفيه ولدت، فهذا ما ذكره يوحنا الدمشقي وشهد به بقوله: «ولدت العذراء مريم في بيت واكيم، الذي اسمه بيت الضأن، لأنه كان على مقربة من بركة الضأن»، ومع مرور الأيام، بنى المسيحيون كنيسة فوق موقع ذلك البيت المقدس، وبهذه الكنيسة جرى الحاق دير للراهبات من طائفة القديس بينت، اللاتي كن سيدات ثريات جداً، وبقي الحال هكذا حتى نهاية سنة ١١٨٧ لتجسيد الرب، عندما جرى الاستيلاء على المدينة من قبل المسلمين، وبعدما جرى الاستيلاء على المدينة عملوا هناك بالدير أعمالاً جديدة بعد التذكير مطلقاً، هذا وذكر بعضهم بأن ذلك قد حدث في مكان آخر، أي في دير كليزز Clares



وفي اليوم السادس، الذي كان يوم تغيير الرب لشكله، التقينا على جبل صهيون في الصباح، وذهب معنا نصف رهبان جبل صهيون إلى

جبل الزيتون، وكنيسة صعود الرب مع كؤوس القربان وأشياء أخرى محتاج إليها، وغنينا هناك بشكل مهيب قداس تغيير شكل الرب، وكأننا كنا على جبل الطور، وكان هناك عدد كبير من المسيحيين الشرقيين [٢٣١] حضوراً في قداساتنا، لأنهم يعدون يوم تغيير شكل الرب بين أعيادهم الأكثر مهابة، ولهذا السبب يكرسون جميع كنائسهم تقريباً على شرف القديسة صوفيا، أي على تغيير شكل الرب، ومثلما نقوم نحن فنرسم في كنائسنا الصليب ويوم الحساب الأخير، نجد أن الرسوم الرئيسية في الكنائس الشرقية تتعلق بتغيير شكل الرب مع موسى والياس، وثلاثة رسل متمددين على الأرض.

وبعدما فرغنا من قداساتنا، مشينا حول الكنيسة، وتسلقنا نحو قممتها بقدر ما استطعنا لمشاهدة المنطقة من حولها، لأنه منها يستطيع الانسان أن يرى بعيداً حتى البحر الميت وبالطول والعرض الأرض المقدسة، ويقوم في الكنيسة نفسها أعمدة رخامية مصقولة، بينها واحد يحتضنه المسيحيون الشرقيون بأذرعهم، وهم يضحكون لبعض الوقت، ويحاول كل واحد منهم أن يلمس باصبع يده الأولى اصبع اليد الثانية، ومالم يمتلك الانسان اصبعين طويلين، لا يمكنه أن يلامس بين يديه أثناء احتضانه للعمود، ويعتقد الشرقيون بشكل خرافي أن من يستطيع فعل ذلك سوف يكون أكثر حظاً من الآخرين، وأن ذلك علامة على شيء جيد جداً، ولقد وقفت في ذلك المكان لوقت لطويل أراقب فيه حماقاتهم، ولعبنا بعدهم نحن الغربيون اللعبة نفسها على سبيل المزاح، حيث قسنا إطار العمود، وقد كنت قادراً على وصل رأسي اصبعي الطويلين مع عملية ضم قوية وضغط، هذا وسلف لي أن قدمت وصفاً لهذه الكنيسة في ص ٦١٣.

وقمنا بعد هذا بجولة حول الجبل المقدس، وزرنا الأماكن المقدسة، ثم دخلنا إلى المدينة المقدسة من باب القديس اسطفان، وصعدنا لنقبل

بيت بيلاطوس، ولما علمنا بأن صاحب البيت ليس في المدينة، قرعنا على الباب، وسمح لنا بالدخول من قبل ابنتيه، وزرنا مواضع استشهاد المسيح، ولو كان صاحب البيت موجوداً ماكان يسمح لنا بأي حال من الأحوال بالدخول، وماكان ليقتنع بالسماح لنا لابلالتماسات أو بالمال، وعلى كل حال، ظهرت ابتناه الجيدتان لنا، واقتاداتنا إلى المكان الذي يعتقد بأن الرب قد جلد فيه، وكان هذا المكان بيعة مستديرة مقنطرة، إلى جانبها هناك طريق نحو الجزء الأعلى من البيت، غير أنهم تركوا هذا المكان المقدس غير نظيف، وبدون احترام، لأن من المعتقد أنه المكان الذي تلقى فيه جميع أوساخ البيت، وعلى الرغم من هذه الأحوال نزلنا إلى مابين الأوساخ، وقدمنا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات مطلقة، لكنني لأعرف فيما إذا كان الرب قد توج في المكان نفسه الذي صلب فيه، ويبدو من انجيلي متى ومرقس أنه جلد في مكان عام في الخارج، غير أنه توج في القاعة في الداخل، لكن في انجيل يوحنا: ٩، كان الجلد والتتويج معاً، ومن الصعب معرفة الحقيقة حول هذا بسبب هدم البيوت وإعادة عمارتها، ولذلك من المستحيل التعرف على الأماكن، وحول هذا البيت انظر ماتقدم في ص ٥٩٩.

ولقد دخلت إلى هناك مرتين، ومن المعتقد أنه شيء عظيم بالنسبة للحاج أن يكون في المكان المتقدم ذكره، ليس مرة واحدة بل ألف مرة إن استطاع، وعندما كنا خارجين أعطينا الفتاتين بعض القطع الفضية، وقد تسلمتا ذلك مع شكر عظيم، وأخبرتانا —من خلال المترجم— أنه مادام والدهما بعيداً [٢٣٢] سوف تكونان على استعداد للسماح لنا بالدخول إلى البيت، فقد كان أباً قاسياً نحو ابنتيه، وكذلك نحو جميع الشعب المسيحي، الذين كان لايتحمل النظر إليهم طويلاً، ولهذا السبب كان المسيحيون متعاطفين مع ابنتيه، ولأن الرجل كان قاسياً نحو ابنتيه، كانتا متعاطفتين معنا، وسمحتا للمسيحيين بالدخول إلى البيت على

الرغم من عدم موافقة أبيهما، وكانتا ابنتين لهما مظهر حسن، وكانتا طويلتين، وعندما دخلنا، وضعتا جانبا حجابيهما وتحدثتا إلينا بملامح مبتسمة، الأمر الذي لا تتجرآن على فعله مع المسلمين.

الحج الممتاز للراهب فيلكس فابري في الأماكن التالية (جبل صهيون)

في اليوم السابع، تلوت قبل إشراق الشمس صلواتي الصباحية، وكنت واقفاً فوق الممشى العلوي لدير رهبان جبل صهيون عندما أشرقت الشمس، ولدى تحديقي بوادي جهنم تملكني شوق في أن أذهب في ذلك الصباح وأنزل إلى ذلك الوادي، وأن أتابع السير فيه إلى حد أكون فيه غير قادر على رؤية جبل صهيون، وأن استهدف جب عين روجل، وحجر الزاحفة، وهما قد ورد ذكرهما في سفر الملوك الأول: ٩/١، وأن أرى مكاني: توف، وتوفل، اللذان ذكرا في سفر إرميا: ٣١/٧-٣٢، وخلال جميع الاصحاح: ١٩ من سفر إرميا نفسه، وهذا المكان هو وادي بني هنوم، وهو أيضاً يعرف باسم وادي هنون، أو وادي يهنون أو جهنم (يشوع: ١٨ و٤، واسداس: ١)، وذلك ليكون بامكاني متابعة السير نزولاً من هناك في الوادي، حتى أتمكن من رؤية هل جدول قدرون فيه مياه جارية، في الأرض المنخفضة، كما يعتقد كثيرون أن فيه، والحقيقة حول ذلك سوف أعرضها فيما يلي، وكنت آمل بعد هذا بتسلك جبل العدوان، الذي تصل حوافه حتى جيها، وقد قرأنا عن هذا الجبل في سفر الملوك الأول: ١١/٧، ولقد استهدفت رؤية هذه الأشياء وتفحصها واستخلاص النتائج لنفسي.

ولذلك غادرت المكان الذي كنت واقفاً فيه، لكي أذهب إلى الأب المسؤول، لألتمس منه اعطائي واحداً من الرهبان ليكون مرافقاً لي، حتى أتمكن بصحبته من رؤية الأماكن المتقدمة الذكر، لكنني لم أتجرأ

على إيقاظ ذلك الرجل المحترم، الذي كان مايزال نائماً، ولذلك شجعت نفسي، وبدأت هذه الرحلة الطويلة وحيداً، لأن الوقت كان مايزال باكراً، وكنت أعرف أن المسلمين لا ينهضون من فرشهم قبل إشراق الشمس، ونزلت من جبل صهيون، ودخلت إلى حديقة الملك، الملحقة ببلاط الملك، التي منها هرب الملك صدقياً وجميع رجاله المقاتلين، من وجه الآشوريين، كما قرأنا سفر الملوك الثاني: ٢٥ / ٤، ولقد وجدت في هذه الحديقة أروع أنواع التين الناضج، حيث تناولت طعام افطاري، وتابعت الأكل حتى لم يعد بإمكانني الأكل أكثر.

وبعد أمد نزلت من حديقة الملك إلى بركة استحمام سلوان، ثم إلى الصدع في الصخر الذي تنبع منه مياه سلوان، ودخلت هنا إلى الداخل وشربت من نبع المياه المقدسة، وغسلت عيني ووجهي، وأنا لم أر من قبل مياه هذا النبع تتدفق بمثل تلك الغزارة التي شهدتها تلك الساعة، لأن ذلك النبع لا يتدفق دوماً بالمياه، وليس بالحجم نفسه أيضاً، حسبما ذكرت من قبل في ص ٦٥٤، وبعدما أنعشت نفسي، وحصلت على غفرانات مطلقة(++) عند هذا الماء المقدس، تابعت سيري من مياه هذا النبع، ووصلت بنزولي إلى قعر الوادي، ثم إلى جدول قدرون، وهناك لم أر انساناً، وكانت الشمس قد أخذت تشرق، وأشعتها صارت بادية على قمم الجبال، إنما حيث كنت كانت ماتزال الدنيا شبه مظلمة، وندى الصباح مايزال يتساقط، ونزلت إلى وادي جهنم، وسرت مسرعاً على طول قعر الجدول الشديد الوعورة، وذلك إلى المكان الذي يستدير فيه الوادي، حيث لم يعد بإمكانني رؤية جبل صهيون، أو جبل الهيكل، وعندما غدت هذه الأماكن بعيدة عن ناظري، وقفت دونها حراك، وتفحصت أرض مجرى الجدول، فوجدتها جافة مثل الأماكن الأخرى العالية في القدس، كما أنني لم أستطع أن أشهد بأي شكل من الأشكال، كيف يمكن أن يوجد هناك مجرى ماء تحت الأرض، وذلك في واد

عميق جداً، ومليء بالصخور.

والذي حركني للقيام بعملية الفحص هذه، هو قراءتي لوصف للأرض المقدسة، فيه قرأت بأن جدول قدرون كان نهراً متدفقاً بالمياه، إنما بسبب الكثير مما تعرضت له المدينة المقدسة من تهديم، حيث رميت خرائبها وأسوارها في الوادي، فإن مجرى هذا النهر قد أغلق، لكن نظراً لصحة المثل الذي يقول: مامن انسان يمكنه ايقاف جدول صغير، فقد قالوا بأن النهر نفسه، الذين يسمونه جدولاً، ما يزال متملكاً لطبيعته ومجراه غير المتوقف عن التدفق تحت الخرائب، حسبما تقدم القول في ص ٥٨٧، وفي صفحات أخرى كثيرة تلت بعد ذلك حتى ص ٦٤٧، غير أنني لا أستطيع الآن أن أرى كيف يمكن أن يكون هذا صحيحاً، لأنني كنت بعيداً جداً تحت خرائب القدس، ولم أستطع رؤية نقطة واحدة من الماء الجاري، علاوة على ذلك، سرت في مناسبة أخرى نزولاً في هذا الوادي نفسه، وصولاً حتى البحر الميت، كما سئرى ذلك في صفحة ٩٤٢ المقبلة كلها، ومع ذلك لم أشاهد أية مياه تجري هناك.

ومن الممكن، على كل حال، أنه كان هناك فيما مضى نهر، وهذا النهر لم يعد موجوداً الآن، كما وقع لنوميشوس Numicius، وهو نهر في منطقة اللورين وهو الذي صار مشهوراً من خلال أغنيات مارو Maro وشعراء لاتين آخرين، فقد قالوا في أشعارهم بأن انياس Aeneas التروجاني Trojan قد وقع فيه، وأنه من مياهه فقط اعتاد القدماء على صب التقدّمات أثناء عبادة الربة فيستا Vesta، وفي الواقع هذا النهر غير موجود في هذه الأيام، فقد تراجع وأخذ بالجفاف على مراحل، فقد تحول أولاً إلى نبع، وأخيراً النبع نفسه تعرض للجفاف وذلك كما جاء في رسالة بوكاشيوس «حول الأنهار»، هذا ولا يمكن للانسان أن يستخلص من أقدم الكتابات المقدسة، بأن هذا النهر قد تدفق وجرى فوق مجراه الجاف، بل الذي توفر هو أنه في أيام الشتاء قد

جرت بعض المياه فيه، ونتجت هذه المياه عن الأمطار وعن ذوبان الثلوج، ويكفي ماقلناه عن هذا الموضوع.

ثم استدرت بعد هذا عائداً إلى القدس..... ومضيت أسير مسرعاً فوق المجرى الجاف حتى وصلت مكاناً بات بامكاني منه رؤية المدينة المقدسة، التي يبعث منظرها الجميل روحاً جديدة من البهجة، ويطرد الخوف من نفسي، لأنني قبل قليل عندما كنت في الوادي المنخفض كنت خائفاً، لأن وادي جهنم مكان مرعب، لاسيما في الجزء المنخفض منه، لأنه يفتقر إلى ضياء المدينة المقدسة المشرقة عليه من الأعلى، وعندما كنت على طريقي في وادي جهنم، وصلت إلى المكان الذي يلتقي فيه وادي سلوان مع وادي صهيون، فهنا قد قيل انوجد جب روجل، ويقوم الآن هناك صهريج كبير وعميق، لكن من دون بئر، وكان فيما مضى إلى جانب هذا البئر كهوف، وكان هناك مكان للرعي، حيث اعتاد فيه الشباب على تجريب قوتهم وعرضها، وكان هنا صخرة زوحت، أي الصخرة الزاحفة، لأن الذي كان بإمكانه جرّ تلك الصخرة، كان رجلاً قوياً، وهكذا أنا لم أر هناك لا البئر ولا الصخرة، والذي رأيته فقط الصهريج مع كثير من الصخور.

وهنا انشغل أدوناي بإقامة حفلة وتآمر لجعل نفسه ملكاً، وهنا كانت أيضاً الكهوف وعبادة الصنم، وأعمال شريرة كثيرة، كانت تقترب في هذا الوادي، وادي عنون أو جهنم، ويطلق على هذا الوادي والمكان اسم «جهنم»، وذلك اشتقاقاً من عنون، الذي كان فيما مضى مالكهما، وجرت ترجمة كلمة «عنون» بأن معناها هو «طريق الموت» أو «بئر الأسى»، ومعنى هذا أن المجرمين سوف يساقون في يوم الحساب الأخير خلال ذلك الوادي إلى مكان الموت، حسبما تقدم في ص ٦٤٧، وفي الحقيقة، تبعث جميع أسماء ذلك الوادي الرعب في العقل، لأن اسمه (١) عنون أي طريق الموت، و(٢) جهنم، أي وادي الأسى، و(٣) هنون،

أي وادي القتل، و(٤) يهنم، أي أعماق الموت، و(٥) توف، أي عقوبة الحمقى، و(٦) توفت، أي عقوبة الحزن البعيدة المدى، و(٧) قدرون، أي الألم بدون فائدة، و(٨) شعله Chela، أي نار الرب، و(٩) كريناروس Chrinarus أي نار الحساب الملتهمة، وبالإضافة إلى هذه الأسماء، أطلق على هذا الوادي اسم وادي القتل (إرميا: ١٩)، ووادي الذبح (إرميا: ٧).

ومن الممكن من الإصحاحين المتقدم ذكرهما رؤية كم كان هذا الوادي مكروهاً وملعوناً، وكذلك في الإصحاح ٣٢ من سفر إرميا أيضاً، وكذلك ماتقدمت كتابته في ص ٦٤٧، ووردت في الكتابات المقدسة اشارات متكررة لأماكن توف المقدسة، في وادي عنون، التي لا بد من فهمها أنها عنت أنه في هذا الوادي العميق قامت مذبح عالية للأوثان، وهذا الوادي والجبل قد وصفا من قبل يشوع ذلك الملك الأعظم غير، الذي ألقى عليه الحرمان، وينال هذا الحرمان الذين يدخلون إليه، وقام بقتل جميع الكهنة في الوادي، كما جاء الخبر في سفر الملوك الثاني: ٢٣، لأنه مثلما كان وادي شعفاط مقدساً ومباركاً مع جبله، الذي هو جبل الزيتون، كذلك فإن وادي عنون مدنس وملعون مع جبله، الذي هو جبل العدوان، ولذلك فإنه من هذا الوادي نال اسمه، الذي هو جهنم، ليشير إلى وادي العذاب المستمر في الجحيم.

جبل العدوان للرب والصنم مولوك

بعدما فرغت من مشاهدة الوادي المتقدم الذكر، استدرت بنفسي نحو جانبه الشرقي، عند سفح جبل العدوان، وسرت نحو منحدراته ومن ثم نحو الجبل نفسه، الذي هو أكثر انخفاضاً من جبل الزيتون، الذي يقوم على كتفه، عند منحدراته الجنوبية، ووجدت على القمة هناك بيتاً كبيراً، لكنه كان فارغاً، الأمر الذي كنت نحوه راضياً تماماً، لأنه كان لن يرحب بي كضيف، من قبل مسلمين يسكنون هناك فيه، وكان سليمان

قد أقام على هذا الجبل مبنيين مدنسين هما: هيكل مولوك والبيت الخاص بمحظياته، وبذلك أغضب الرب كثيراً، ولذلك عرف الجبل باسم جبل العدوان، حسبما هو موجود في سفر الملوك الأول: ١١/٧.

وجرت عبادة الوثن مولوك بطقوس قبيحة جداً، ولذلك حرمت تحريماً تاماً (اللاويون: ٢/٢) تقديم القرابين إليه والتضحية له، ولم يقتنع سليمان بهذا ولم يرض به، فقام تحت وطأة تأثير امرأته، فأقام هيكلًا لمولوك على ذلك الجبل، وجلب الناس لعبادته، ودفع الأموال إلى كهنة هذا الوثن، وتضمنت طقوس عبادة هذا الوثن قتل الأطفال، وكان مولوك تمثالاً كبيراً لإنسان، معمولاً من النحاس، ومفرغاً من الداخل، وشمل الفراغ جميع أعضائه، ووقف هذا الوثن فوق عمود في وسط الهيكل ماداً يديه وذراعيه، مثل أم حنون، التي تمدّ ذراعيها لأخذ طفلها، لأن ذراعي الوثن كانا معمولين وفق طريقة يمكن لطفل أن يرقد عليهما وكأنه بين ذراعي أمه، وفي أيام التضحية، وعندما كان واحد من الأطفال يقدم هناك قرباناً، وقتها اعتاد الكهنة على وضع فحم يحترق في داخل جسم الوثن، ويجعلونه يتوهج كالنار، ثم كانوا يأخذون طفلاً ذا صحة جيدة وبرئاً من أيدي والديه، اللذان كانا قد جلباه للتضحية به، ويضعونه على ذراعي الوثن، ولكي لا ينزعج أبوي الطفل مع الأصدقاء الذين وقفوا هناك، إلى أبعد الحدود بسبب صراخ الطفل، كان الكهنة يقفون متماسكين قرب الوثن، حيث كانوا يصدرون أصواتاً عالية وضجة بالطبول، والكوسات والأبواق، وبذلك لا يستطيع أبوي الطفل، الذي كان يحتضر، سماع صوته، ويتابعون العمل بهذه الأدوات، حتى يكون الطفل المحتضن بين ذراعي الوثن قد هلك احتراقاً.

وبعد احتراق الطفل، يقوم الكهنة، وجميع الحضور أثناء عملية التضحية بتقديم التهنئة للوالدين بملامح علاها السرور والبهجة، لأنها كانا جديرين بأخذ ولديهما ليكون بصحبة الأرباب، ومنذ ذلك اليوم

كان الوثنيون ينظرون نظرة احترام إلى جميع تلك الأسرة، لأنها ارتقت إلى مكانة النبالة، وكانوا يعتقدون بأن جميع أقرباء الطفل الذين ضحي به، سوف يكونون سعداء في جميع الأيام المقبلة، وقد مورست طقوس مشابهة بين الأمم التي عبدت ساتورن Saturn، ومن المحتمل أن الرب الذي اسمه عند الاغريق ساتورن هو نفسه الذي كان اسمه عند العبريين مولوك، لأنه كان هناك تماثيل نحاسية لساتورن بأحجام مدهشة حيث كانت أيديها ممتدة حتى الأرض حولها بشكل أن انساناً إذا ما أرغم على الصعود إلى هذه الأوثان فإنه يسقط في حفرة كبيرة مليئة بالنار، وقد قرأنا عن هذا في مصنف كاسا Casa De Ev.spir — الكتاب الرابع: الفصلين السابع والثامن.

وكثير من الأوثان، أو بالحري شياطين على شكل أوثان، لا يمكن أن تهدأ إلا بموت الأبرياء، وكانت عادة ممارسة التضحية بالأطفال تجري لكثير من الأسباب، وذلك حسبما رأينا في مصنف كاسا — الكتاب الرابع: الفصلين السابع والثامن، وتوقفت ممارسة التضحية البشرية في أيام الامبراطور هديران، وكانوا قد اعتادوا على ممارسة هذه الطقوس الوحشية جداً على هذا الجبل، وفي هذا الوادي، ولا شك أنهم بذلك أغضبوا الرب كثيراً، وورد ذكر وثن مولوك في إرميا: ٢٢/٢، وفي عاموس: ٥/٢٥ — ٢٦، وفي الأعمال: ٤٣/٧.

علاوة على ذلك، قد قيل بأن سليمان قد بنى على هذا الجبل بيتاً لمحظياته اللائي كان عددهن كبيراً جداً، وحول ذلك نقرأ في نشيد الانشاد: «هن ستون ملكة، وثمانون سريّة، وعذارى بلا عدد» (الاصحاح السادس)، وبناء عليه إذا ما جرى تطبيق هذا النص على سليمان بشكل حرفي، من دون أي تأويل باطني، لا بد أنه قد احتاج إلى كثير من البيوت لمثل هذا العدد الكبير من النساء، ولذلك بنى قلاعاً وقصوراً للملكات، وبنى هذا البيت للمحظيات، في حين أمن

اقامة العذراوات في بيوت والديه، لكن ابنة فرعون، التي — من المعتقد — أنه لها أنشد نشيد الانشاد، والتي عنها قد قال: «حامتي، غير الأليفة، جميلة» قد سكنت معه فوق جبل صهيون، هذا وإن البيت الذي كان هناك كان عظيم القداسة، لأن تابوت عهد الرب قد أقام هناك لبعض الوقت، وقد بنى هنا بيت ميلو، حسبما ورد الخبر في سفر الملوك الأول: ٢٤ / ٩، وذلك بقصد أن يكون بإمكانه أن يكون دوماً على مقربة منه.

وبعدما فرغت من مشاهدة هذا المكان، وهذا الجبل، نزلت إلى الوادي بخطوات سريعة، قاصداً نحو جبل الزيتون، ووصلت إلى قعر الوادي إلى جانب اهرام شعفاط، وتفحصت هذا الهرم بعناية كبرى، ودخلت إليه، وتسقلت إلى داخله من خلال النافذة، وقد قال بعضهم بأن هذا الهرم، هو العمود الذي بناه أبشالوم لنفسه، وذلك حسبما قرأنا في سفر صموئيل الثاني: ١٨ / ١٨ قوله: «وكان أبشالوم قد أخذ وأقام لنفسه وهو حي النصب الذي في وادي الملك» لأنه قال ليس لي ابن لأجل تذكير اسمي] ودعا النصب باسمه، وهو يدعى يد أبشالوم إلى هذا اليوم»، لكن يبدو أن هذا غير صحيح، لأننا لم نقرأ في أي مكان بأن وادي شعفاط وجدول قدرون قد عرفا باسم وادي الملك، هذا وقد قال مصنف كتاب Speculum Historiule، بأن هذا الوادي قائم على بعد غلوتين عن القدس، ثم إن هذا ليس عموداً، قد بني وعمّر، بل هو كما هو مرئي بناء قد نحت من الصخر الأصم، في حين كان عمود أبشالوم الحجري من رخام مصقول قد أقيم ونصب نحو الأعلى، وعندما فرغت من رؤية هذه الأشياء، عبرت جدول قدرون، ومضيت صاعداً إلى جبل صهيون، ووصلت وقت الغداء، وأنا مليء بالعرق، واحترق من شدة الحرارة، وعندما سمع الأب المسؤول والرهبان بأنني قد زرت جميع هذه الأماكن، دون التعرض للأذى اعترتهم الدهشة.

وفي اليوم الثامن، وقبل انتشار الضوء، نزلت مع بعض الرهبان إلى كهف آلام المسيح، الذي سلف أن تحدثت عنه في ص ٦٠١، وهناك عندما رأيت أنه كان اليوم السادس من الأسبوع، أقمنا هناك قداساً عن آلام الرب، وذهبنا بعد ذلك صاعدين إلى الجليل، هذا ويوجد على الجانب الشمالي من جبل الجليل، جبل مرتفع، كان بعيداً جداً، مسافة أربعة غلوات عن القدس، وكان سليمان قد بنى على هذا الجبل هيكلًا لكموش (الملوك الأول: ١١/٧)، الذي كان وثن المآبيين، وفي هذا المكان نفسه، جرى في أيام المكابيين، بناء قلعة حصينة، منها تضررت مدينة القدس كثيراً في أيام حكم الاغريق والرومان.

وتابعنا سيرنا من هناك، ونزلنا من ذلك المكان (الجليل) — إنما بالحقيقة، ليس بشكل مباشر — نحو المدينة، بل نحو الشمال، حيث وصلنا إلى واد جميل وخصب، مزروع بالأشجار، من خلاله يمر الطريق الذي يسير الانسان عليه من القدس إلى الناصرة، ووصلنا ونحن سائرون إلى القرية التي بحثت فيها العذراء المباركة ويوسف عن الطفل يسوع بين أقربائهما ومعارفهما، وعندما وجداه، لم يعودا ثانية إلى القدس، وذلك حسبما جاء عند لوقا: ١١/٤٥، ووصلنا في هذا الوادي إلى مكان ملء بالخرائب القديمة، حيث قامت فيما مضى قرية عناتا، التي منها جاء النبي أرميا، الذي تقدس، عندما كان في رحم أمه، وقد ولد من سلالة الكهنة، وبدأ بالتنبؤ وهو ما يزال طفلاً، وتنبأ، وشاهد بعينه دمار القدس، وذلك كما حدثنا جيروم في توطئته لإرميا، هذا وأطلق جيروم هذا نفسه في كتابه «حول المسافات بين الأماكن» على هذه القرية اسم عربات Arabath وقال بأنها كانت قرية كهنة، لأن الكهنة امتلكوا قرى ومزارع في محيط القدس، حيث بناء على ذلك كانت جيسماني، وبيت فاجي، ونوب، وعناتا، كانت قرى كهنة، وهناك تولوا علف المواشي المقدمة لأول الانتاج، أو من أجل العشور، وهناك نبوءة خاصة

لكهنة عناتا، يمكن رؤيتها في إرميا: ١١/٢١، ٢٣، وبناء عليه رأينا عناتا على شكل خرائب، لذلك صعب علينا تمييزها، وبعد هذا عدنا راجعين إلى القدس، ودخلنا إليها من خلال باب اسطفان، وسرنا صاعدين إلى جبل صهيون، وقمنا ونحن على طريقنا بتقبيل الأماكن المقدسة في أرجاء المدينة.

وفي اليوم التاسع، الذي كان يوم سبت، وأمسيته أمسية عيد القديس لورانس، ذهبنا في الصباح الباكر، قبل اشراق الشمس، وكان برفقتي بعض الرهبان، ودخلنا إلى وادي شعفاط نؤم كنيسة ضريح مريم العذراء الأعظم مباركة، حيث أقمنا قداساتنا، وفي الحقيقة كان الأب المسؤول يرسل كل سبت بعض الرهبان لإقامة قداس هناك، وغالباً ما اعتاد على الذهاب معهم، وبعد الفراغ من القداسات، صعدنا إلى جبل الزيتون، ونزلنا من طرفه الآخر إلى بيت عنيا، حيث شاهدنا الأماكن المقدسة وقبلناها، ومن ثم عدنا إلى جبل صهيون.

وعندما وصلنا إلى هناك، وجدنا جميع اللوردات والحجاج قد اجتمعوا معا في الدير ينتظرونني، من أجل إعطاء جواب لواحد من المماليك، الذي أمر بمشول جميع الحجاج بحضرته، وذلك من أجل مناقشة بعض المسائل معهم، لأنه قد سُمع في بلاط السيد السلطان في القاهرة، بأن بعض المسيحيين الحجاج من الغرب من الأعيان واللوردات النبلاء، هم في القدس، ولهذا أرسل من مصر هذا المملوك، الذي كان ترجمان المسيحيين في القاهرة، ليعرف من نحن، ومن أين قدمنا، وعلاوة على ذلك، إذا ما كنا من فرنسا، كان بين أوامره، حملنا معتقلين إلى القدس، لأي سبب أنا لأعرفه، لكنه بعدما عرف من Sa-bathytanco ترجماننا، بأننا لم نقدم من فرنسا، قدم معه إلى جبل صهيون، وأمرنا جميعاً بالمشول بحضرته، وحيانا بطريقة صديقة بكل من اللاتينية والايطالية، وقال لنا: «إذا ما تفضلتم، يمكننا أن نساfer غداً،

وتنزلون معي غداً إلى مصر، عبر الطريق السلطاني العام، وفي عشرة أيام سوف تكونون في القاهرة، حيث منها سوف أرسلكم مع حراسة إلى العربية، أي إلى جبل سيناء، وعندما تعودون من هناك، يمكنكم الإقامة في بيتي، بقدر ما ترغبون»، وبهذه الكلمات والوعود الجيدة، التي عملها لنا، بات علينا بشكل مؤكد المغادرة معه، مهما كانت أوضاع خططنا وأحوال حقائبنا، وكنا حتى الآن لم نقوم بإعداد أي من الأشياء المحتاجة في هذه الرحلة، وقمنا على كل حال بشكره، لعرضه اللطيف، ورجوانه، أننا عندما نصل، بفضل الرب ونعمته إلى المطرية وحديقة البلسم، على طريقنا من جبل سيناء، أن يتلطف ويقودنا بسرعة من هناك إلى القاهرة، وأن يبعث بنا مباشرة عبر النيل من القاهرة إلى الاسكندرية حتى لانضيع السفن الموجودة في الاسكندرية، والذهاب إلى البندقية.

ووعدنا باخلاص بأنه سوف يفعل هذا كله، الأمر الذي أفرحنا كثيراً، علاوة على ذلك بقي علينا الحديث عن هذا الرجل، وعن مكانته، فلقد كان اسمه Tanquardinus، وقد جاء إلينا بثوب الحمل، لكنه كان في الواقع ذئباً مفترساً، كما سوف نرى فيما بعد، وبناء عليه بعدما عمل هذا الاتفاق معنا، غادر، وذهب عائداً إلى مصر، وبعد الغداء ذهبنا نحن الحجاج مع بعضنا إلى الحمام أو البيت الساخن، حيث استحمينَا وغسلنا أنفسنا مع المسلمين، وهذا الحمام الساخن مثل الحمام الموجود في الرملة، الذي سلف الحديث عنه في ص ٣٧٦، ودخلنا بعد استحمامنا إلى كنيسة الضريح المقدس.

الدخول الخامس للحجاج إلى كنيسة قيامة ربنا يسوع المسيح وإلى ضريح الرب

في أمسية اليوم العاشر، التي كانت موعد عيد القديس لورانس الشهيد، والأحد الحادي عشر بعد الثلاثين، سمح لنا مجدداً بالدخول إلى كنيسة ضريح الرب الأعظم قداسة، وفق الطريقة التي تقدم ذكرها،

وسهرنا تلك الليلة إلى جانب الضريح المقدس، وقد طفنا حول الأماكن المقدسة، كما فعلنا من قبل، وأقمنا قداسات مابعد منتصف الليل، وغنينا قداساً في ضريح الرب بعد اشراق الشمس، وبعد ذلك أخرجنا المغاربة من الكنيسة، وكان معنا من الرهبان الفرنسيين من دير جبل صهيون، بعض الشباب في كنيسة قيامة الرب، وقد رجوت هؤلاء الشباب بالنزول معي إلى وادي شعفاط، لأن الوقت كان مايزال باكراً في الصباح، وكانوا راغبين تماماً بالقيام بذلك، شريطة تقديم الاعتذار عنهم إلى الأب المسؤول لعدم حصولهم على إذن منه، الأمر الذي وعدتهم بفعله، وقد فعلته.

وهكذا سرنا خلال المدينة، ونزلنا إلى شارع الطباخين، حيث اشترت من الطباخين للرهبان ولنفسي فطائر معمولة بالبيض، وبعض الكعك، وفطائر باللحم، ولحم مشوي، وعناقيد من العنب، وبعض التين، ومضينا مع هذه المؤن ونزلنا إلى الوادي، وعبرنا الجدول إلى مزرعة في جيساني، وهناك جلسنا في الظل تحت بعض أشجار الزيتون، وتناولنا معاً طعام الافطار بسرور، ولم يكن معنا شراب، لذلك مصصنا حبات العنب عوضاً عن الشراب، وكانت حبات العنب على درجة عالية من الحلاوة، وكانت ألوانها سوداء وبيضاء.

وبعدما فرغنا من طعام الافطار، وقبلنا أقرب الأماكن المقدسة، مضينا صاعدين جبل صهيون، وجلسنا لتناول طعام الغداء مع الرهبان، وبعد الغداء جاء السادة النبلاء من الحجاج إلى جبل صهيون، وسألوا الترجمان ورجوه أن يأخذنا إلى بيت لحم، وكانوا قد جمعوا واستأجروا حميراً وسائقين، وقدموا معهم إلينا، وهكذا امتطينا حميرنا، وانطلقنا من القدس مع Sabathytanco المسلم، وعندما وصلنا إلى الراية، على الطريق إلى جبل جيون Gion ، مقابل جبل صهيون، قابلنا حشد من البداية العرب، كانوا قد سمعوا برحلتنا، ومع أنني لم أعرف من الذي

وشى بنا إليهم، فلقد قاموا بقطع الطريق أمامنا، مالم نقم بدفع خفارة ومالاً لهم، وكانوا قد طلبوا مبلغاً كبيراً من المال، ورفضنا أن ندفع لهم، وبعدما تجادلنا مع بعضنا لبعض الوقت، أرغمونا بالقوة على العودة إلى القدس.

رسالة حول الحج إلى البحر الميت

وبعدما عدنا إلى المدينة المقدسة سألنا الترجمان وكالينوس تزويدنا بحمير وبجواز مرور، حتى نتمكن من النزول إلى البحر الميت لرؤيته، وعندما سمع المسلمان بهذا، ألقوا بكثير من المصاعب الكبيرة في طريق الحجاج، وقدموا كثيراً من الأسباب، من أجل اقناعنا للتخلي عن هذا الحج الذي اقترحناه، وكان السبب لاهوتياً بعض الشيء، ذلك أنها احتجا بأننا قدمنا إلى هنا من بلاد من وراء البحر، حتى نتمكن من رؤية الأماكن المقدسة، التي باركها الرب، والتي قدسها مسيحناء، وليس من أجل رؤية الأماكن غير المقدسة، التي لعنها الرب مثل البحر الميت، الذي، المسلمون أنفسهم، يسمونه الملعون، والذين قالوا عنه بأنه يتوجب كراهيته ومقتته من قبل كل مؤمن بالكتابات المقدسة، وأخبرانا بأنه ينبغي أن نكون قانعين برؤيتنا للأردن المبارك.

وكان السبب الثاني لعدم رغبتهم بأخذنا إلى البحر الميت مرتبطاً بالبداة العرب والمدينين الذين سكنوا في تلك الصحارى، وكانوا يتجولون حول الطريق السلطاني العام من أجل النهب، ومن غير الممكن الدفاع بشكل جيد ضد هجماتهم، مالم يرغموا على الفرار، ويتعرضوا للجراحات بالسيوف والنشاب، لأنهم كانوا غير مسلحين وعراة، هذا ولم يرغب أدلاؤنا بتعريض هؤلاء القوم للأذى من أجل خاطرناء، وقالوا بأنهم يؤثرون أن نتعرض للنهب على أن يتعرضوا للأذى والجراحة، وفي الحقيقة كان هؤلاء البداة جياعاً إلى أبعد الحدود، وكانوا تعساء، إلى حد أنهم كانوا على استعداد لمهاجمة رجال مسلحين،

مع أنهم كانوا غير مسلحين، ولتعريض حياتهم للخطر من أجل الخبز، وكان السبب الثالث الذي قالوه، هو أنه كان هناك حول شاطئ ذلك البحر كثيراً من الحيوانات المؤذية والسامة، من الأنواع الكبيرة والصغيرة، من أمثال: الأسود، والديبة، والخنزير البرية، والأفاعي، والزواحف، وماشابه ذلك.

وكان السبب الرابع، هو أنهم قالوا، بأن الملك السلطان قد حرّم أخذ أية غرباء إلى هذا البحر، وكان ذلك بسبب وجود الأفعى الأعظم سمية، وفي الوقت نفسه الأعظم قدراً ونبالة، وأعني بذلك التر Tyr، وذلك خشية أن يحدث وتمسك من قبل الغرباء، ويجري حملها إلى خارج البلاد، لأن هذه الأفعى غير موجودة في أي بلد من بلدان العالم، إلا فقط على شواطئ البحر الميت، ولذلك حظر السلطان سكان تلك المنطقة ومنعهم من امساك هذه الأفاعي، ويبيعهم لأي انسان، وجلبهم فقط إليه في مصر، ومن فعل غير ذلك نال عقوبة الاعدام، وحدث على كل حال، أن خرق فقراء الناس هذا الحظر أحياناً وباعوا هذه الأفاعي إلى تجار مسيحيين، في دمشق وبيروت، وكذلك في الاسكندرية والقاهرة، ومن هذه الأفاعي يجري صنع أقوى العقاقير وأغلاها، وهو الترياق، وليس هناك أي ترياق صحيح إلا المستخرج من هذه الأفاعي، ومنها نال هذا العقار اسمه، وقد قيل بأن شكل هذه الأفاعي هو كما يلي: طولها حوالي الشبر ونصف الشبر، وغلظها يقارب غلظ اصبع ابهام الانسان، ولونها هو أصفر مع شيء من التمازج بالأحمر، وتولد بالطبيعة عمياء وتبقى كذلك، وهي دوماً عدوانية بشكل مخيف، تنقض بسرعة رهيبية مع فحيح غاضب، ولا يعرف دواء ضد عضتها، إلا قطع العضو الذي تعرض للعض وتسمم مباشرة، وإلا فإن الجسد كله سيصبح بلاشك ملتهباً، ومتورماً، ومتفجراً وتهاجم هذه الأفعى جميع المخلوقات، ولذلك يكون هناك حيوانات كبيرة ميتة عند شاطئ البحر

الميت بسبب تسممها من قبل التمر.

وعندما تكون هذه الأفعى غاضبة، تمدّ نحو الأمام لسانها الملتهب، وتستدير بسرعة هائلة، ويغدو جسدها وهي مغضبة كله ملتهباً مثل حديدة محماة، ورأسها الصغير الذي هو بالعادة صغير، يتورم حتى يصبح أكبر من جسدها، ولها على وجهها هلب مثل هلب الخنزير البري، وهي إذا عضت فرساً، يصل السم إلى راجبها أيضاً ويموت، ولولا أن خالق الطبيعة قد حرم هذه المخلوقة من عينيها، مامن انسان كان يمكنه الاقتراب منها، كما كان من غير الممكن امساكها بأية طريقة من الطرق، لأن الأفعى مأكرة جداً.

ويتعامل الأطباء والصيادلة مع هذه الأفعى كما يلي في صناعة الترياق: يأخذون أفعى أمسكت وهي حية، ويضعونها في وعاء واسع وعميق، يمكنها أن تركض فيه نحو الأمام ونحو الخلف بحثاً عن طريق للخروج، لكن لا يمكنها فعل ذلك، وفي تلك الأثناء، وهي تدور حول الوعاء، محاولة الخروج، يأخذون عصياً وإبراً، بها يلتقطونها، وبذلك يثيرون غضبها إلى أبعد الحدود، وعندما تشتعل غضباً وتتورم حنقاً، يتجمع السم، الذي كان منتشراً في الأحوال العادية في كل جسدها، في رأسها وذنبها، وعندها يقومون بضربة واحدة بسكين أو شفرة بقطع هذين الجزئين معاً، وإذا ما اقتصر القطع إما على الرأس أو الذنب، فإن الجزء المتوسط يكون بلا فائدة، وتعلمت هذه المخلوقة بوساطة الطبيعة الاحتفاظ بسمها، وفقط يمكن بفن عظيم استخراج ذلك منها والتغلب عليها، وتباع هذه السموم بأسعار عظيمة، أكبر من أسعار الذهب والحجارة الكريمة.

وقد أودع السيد السلطان، ملك مصر، في خزائنه، السلعتين الخاصتين التاليتين، اللتان تنتجان في ممالكه، وأعني بذلك: البلسم، وأفعى التمر، ولذلك لا يسمح للحجاج بالدخول إلى بستان البلسم إلا

يحذر كبير، كما ستتحدث فيما بعد، كذلك لا يسمح لهم بالتجول حول شواطئ البحر الميت بسبب التلوث، وبسبب —همر اليهود، الذي هو كذلك لا يمكن العثور عليه في أي مكان إلا هناك على شواطئ البحر الميت.

وكان السبب الخامس لمنعنا هو الرائحة البشعة والشريرة الصادرة من ذلك البحر، حيث أن الإنسان غير المعتاد عليها، يصاب بالعدوى، ومن ثم يمرض ويموت.

وكان السبب السادس الذي قالوه، هو أنه لم يكن هناك شيئاً جميلاً ليروه، وأنا لن نشاهد شيئاً مريحاً، بل سوف نبذل جهداً كبيراً، وننفق أموالاً بدون فائدة، وسنواجه مشاكل مزعجة كثيرة.

ولدى سماع بعض الحجاج بهذه المثبطات ومثبطات أخرى، انسحبوا وتراجعوا قائلين بأنهم لن ينزلوا إلى هناك، حتى ولو دفع لهم، لكن آخرين، على الرغم منهم، كانوا متشوقين للذهاب، وهكذا كنا منقسمين للمرة الثانية إلى فئتين، مثلما حدث لنا من قبل بشأن قضية الحج إلى الجليل والناصرة، الأمر الذي كنا قد أوضحناه من قبل، هذا وقد طالب الشطر الأكبر من الحجاج باقتيادهم ونزولهم إلى هناك، ورفضوا التخلي عن الفكرة، حتى ولو اقتضى الأمر التماس ذلك من السيد جانم الحاكم، والطلب منه الحصول على إذن وجواز مرور، ولدى سماع Sa-bathytanco بهذا، أرسل في اليوم نفسه إلى حامد Ameth ، والي بيت لحم، وكان مغريباً وشجاعاً ومخلصاً، وكان حليفاً للبداءة، ولم يكن يخاف منهم، وطلب منه القدوم في تلك الليلة من بيت لحم إلى جبل صهيون في القدس مع أربعة عشر بغلاً أو حميراً، وأن يأخذ الحجاج إلى البحر الميت وأن يعود بهم، مقابل مبلغ من المال يجري الاتفاق حوله معه، وقمنا نحن من جهتنا بإعداد طعام وشراب لمدة يومين وليلة واحدة لنحمله معنا أثناء تلك الرحلة.

الحج إلى البحر الميت

وفي اليوم الحادي عشر، وقبل انتشار الضوء، جاء حامد إلى جبل صهيون مع بغال وحمير، وعبيد، وقرعوا على باب الدير، وسألوا عن الحجاج، لكن مامن أحد منهم كان في الدير إلا أنا وحدي، وهكذا ركضت نازلاً في الظلام من صهيون إلى ميلو، إلى بيت الفحل، الذي أقام فيه السادة الحجاج، وهناك قرعت على الباب بحجرة، وأيقظتهم. والذين رغبوا بالذهاب والمشاركة في الحج، قدموا صاعدين معي، وامتطينا دوابنا، ومضينا نازلين من جبل صهيون إلى وادي سلوان، وعندما وصلنا إلى بركة الاستحمام، نزلنا إلى أعماق توف، وجهنم، وسرنا خلال وادي جهنم المرعب، وكان الوقت مايزال مظلماً، علماً بأن الليالي لم تبد لي مظلمة في هذه المناطق من بلاد ماوراء البحر، مثلما في بلادنا، لأنه في هذه البلاد لا توجد غيوم، ولا ضباب، لحجب أنوار النجوم وأشعتها.

وأشرقت الشمس وفي الوقت نفسه تابعنا تقدمنا نحو الأمام دون توقف، خلال واد ضيق، مع صخور منحدرية مطلة من على الطرفين، ولم نتوقف حتى كانت الشمس في كبد السماء، وكان هذا الوادي وعراً جداً، لأنه كان مليئاً بالصخور وبالحجارة، من عليها انجرفت التربة بسبب اندفاع المياه، في أيام الفيضان، ففي تلك الأوقات تندفع المياه، نازلة هناك بقوة تبلغ حداً أنها تقتلع الصخور الكبيرة من أماكنها، ومن ثم تقذف بها خلال جريانها، والنهية العلوية لهذا الوادي هي وادي شعفاط، وجدول قدرون، هذا ولم أستطع رؤية أي أثر هناك لاستمرار جريان المياه، من جدول قدرون، كما قلت من قبل وبينت.

وعندما كنا نسير منحدرين، ونحن على ظهور دوابنا، وبعدما قطعنا حوالي الميدين ألمانين، بدأ الوادي يصبح أكثر انحداراً ووعورة، وعندما ضاق هناك، وصلنا إلى دير القديس سابا، الذي كان راعياً للدير، ولقد

جرى استقبالنا باحترام من قبل الرهبان الاغريق، أو الـ Caloyers، ووجدنا في الدير كثيراً من البداة العرب من أهل الصحراء، ومن الفلاحين، ومن قطاع الطرق، ولدى رؤيتنا لهم استولى علينا رعب شديد، وتوجسنا أن نكون قد تعرضنا للخيانة، وشككنا بدليلنا نفسه، المعلم حامد، في أنه قد تأمر ضدنا، وعندما لاحظ هذا جاء مع مقدم هؤلاء للصووص من البداة العرب، إلى القاعة التي جلبنا إليها، وتعهدا معنا إلينا ووعدانا بأن نكون آمنين في أجسادنا وعلى سلعنا وحاجياتنا، إنما إذا قمنا، وتفضلنا بتقديم ضريبة أو هدية صغيرة لهما، فوقتها سوف يكونا في خدمتنا، وأنها سوف ينزلان معنا إلى البحر، ومن ثم يتوليان الدفاع عنا.

وبناء عليه أعطيناهما بعض الدراهم، ويتسلم ذلك كانا راضيين، وكنا نحن مطمئنين، وزالت المخاوف من نفوسنا، وأحضرنا نحن الآن جعبنا مع الأشياء التي تزودنا بها في القدس، وقوارير الخمرة، وأكلنا وشربنا، فضلاً عن هذا أعطينا بعض الحلوى إلى دليلنا وإلى البداة العرب، وأحضر الرهبان ماء بارداً لنغسل أقدامنا جميعاً، وللشرب، وبعد تناولنا للطعام وانعاشنا لأنفسنا ذهبنا إلى الكنيسة، حيث صلينا للرب، وحصلنا على غفرانات(+) لمدة سبع سنوات، وعلاوة على ذلك ذهبنا إلى ضريح القديس سابا، وصلينا هناك، والذي اعتقده أن هذا الضريح فارغ، لأن جسد هذا القديس، راقد في البندقية، كما ذكرنا من قبل، وبعدما رأينا هذه المشاهد، تمدد السادة الحجاج على الأرض، وناموا، لكنني شخصياً لم أستطع النوم أو الجلوس بلا حراك بأي شكل من الأشكال، بل قمت بالتجول هناك وفي جميع أجزاء الدير، وفي الأسفل في الوادي وفي الأعلى، وتفحصت بكل دقة الكهوف والأكواخ التي كانت عائدة للرهبان القدماء مع اعجاب عظيم، ومع رعب وخوف من السقوط، عندما تسلقت صعوداً ونزولاً فوق الصخور والجروف،

وخرائب الأبنية القديمة.

علاوة على ذلك تعرضت إلى الخطر التالي أثناء تجولي الافرادي: فقد وصلت إلى ممر ضيق ملاصق لقلاية القديس سابا، حيث يقوم فوق الصخرة جدار على الطرف الأول، لكن لا يوجد على الطرف الآخر أي شيء سوى منحدر مفتوح مربع، أو جرف معلق، وكان هناك خلال هذا الممر مايسمح لانسان واحد بالمرور فقط في وقت واحد، ولا أعني بهذا مرور انسان من هذا الاتجاه وآخر من اتجاه مقابل، بل انسان واحد فقط، عليه أن يكون حذراً خشية السقوط نحو الأسفل، وعندما كنت ماراً خلال هذا المكان، التقيت بمسيحي شرقي، لعله كان خادماً لذلك الدير، ولدى رؤية هذا الرجل لي تقدم نحوي، وبعدما خطا بعض الخطوات نحو الخلف، وعندما رأي خائفاً كثيراً، بدأ بالمزاح معي، وتظاهر بأنه مقبل على اسقاطي بالهوة.

وعندما رجوته بالاشارات بقدر ما استطعت، بأن يتركني أمر بسلام، رفض ذلك، وأشار لي بأنه سوف يلقي بي، ما لم أعطه بعض المال، ولدى سماعي ذلك، فتحت حافظة نقودي وأعطيته مندوساً واحداً، ولدى تسلمه له تركني أمر، ومن تلك الساعة فصاعداً صرت أمقت مرافقة مسيحيين من هذا النوع، أكثر من كراهيتي مرافقة المسلمين أو البداة العرب، وصرت أثق بهم أقل من سواهم، ومع أنه كان ربما لن يرميني من فوق الجرف، حتى لو لم أعطه شيئاً، لقد كان على الرغم من ذلك شريراً ليلعب مع انسان هو لم يره من قبل، في مكان يمثل هذه الخطورة، وأن يأخذ مالي ليتركني بسلام، ولو أن بدوياً قابلني وفعل بي مثل ذلك، لكنت مسروراً تجاه لعبه، ولعدده غير مسيحي جيد، لكنني أعتقد أن هذا التصرف غير لائق بالصدور عن مسيحي نحوي، ولقد حدثت بالقضية حامد، الذي كان المسؤول عنا، فوجه إليه اللوم بمرارة، وكان غاضباً منه كثيراً، وقد أخبرنا بأن هؤلاء المسيحيين الشرقيين، هم

أدنى الناس الذين يمكن الوثوق بهم من قبل أي إنسان، وقد مكثنا في ذلك الدير حوالي الخمس ساعات، حتى خفت حدة حرارة الشمس.

ملاحظة حول دير الراعي القديس سابا

كان دير الراعي القديس سابا واحداً من أعجب الأشياء التي رأيته في جميع رحلاتي، لكنني غير متأكد فيما إذا كان هذا هو دير القديس سابا، الذي قرأنا عنه في «حياة الآباء»، حيث قرأنا بأن القديس سابا كان لديه دير في سورية، وأنه كان أباً ورئيساً فوق ثلاثة عشر ألف راهباً، في حين هذا الدير موجود في اليهودية، علماً بأن اليهودية نفسها هي جزء من سورية، ويقول الرهبان الذين يسكنون في هذا الدير هذه الأيام بأن القديس سابا كان راعي هذا الدير، ومؤسسه، والأب المشرف عليه، وكان لديه دوماً في ديره أربعة عشر ألفاً من الرهبان، وهذا عندما يسمعه الإنسان يصعب عليه تصديقه، ولكنه عندما يشاهد المكان، فإنه يوافق على أنه وإن كان العدد مبالغاً فيه، فإن حشداً هائلاً من الرهبان لابد أنه كان يسكن هناك.

وكان هؤلاء الرهبان، وما زالوا الآن يتبعون أحكام القديس باسيل، أي هم أغريق، وهم بذلك مثلهم مثل الرهبان في دير القديس كاترين، تحت جبل سيناء، ونعجب نحن الرهبان الغربيون كثيراً من أين يمكن لمثل هذا الحشد من الرهبان الحصول على الطعام واللباس، لكن الذي يشهد عادات، وطعام، وثياب الرهبان المشاركة، لا يتعجب نحو ذلك، ذلك أن طعامنا أكثر وفرة وتنوعاً، وملابسنا طبقات كثيرة، وأعلى نفقة، وبيوتنا وديرتنا متعددة الأنواع، ومعمولة بأناقة أكبر، وبسخاء أعظم، لكن ليس هناك شيئاً من هذا القليل في هذه الأيام بين الرهبان الشرقيين، وصدقاً أعتقد أن نفقات دير واحد فيه عشرين راهباً من الرهبان الغربيين من الطوائف الكبيرة، هو أعظم من نفقات واحد من هذه الديرة فيه أكثر من مائة من الرهبان الشرقيين، فهم ينفقون قليلاً

على الأبنية، لأن الذي لديهم مجرد أكواخ معمولة من النباتات العامة، فيها لا يمكن لانسان أن يقف دون أن يحني ظهره، وكنائسهم ليست أكثر سمواً من أكواخ الرهبان، فمثل هذه الأكواخ جذرانهم من هذه النباتات مغطاة بالطين، وهي فقط أعلى من أكواخ الرهبان، وفيما يتعلق بملايسهم لا يرى الانسان اي شيء عالي النفقات، حتى في هذه الأيام، علماً بأن الرهبان الشرقيين الحديثين قد ابتعدوا كثيراً عن كمال سلفهم، الذين تجولوا وهم يرتدون جلود الأغنام وجلود الماعز، وعليهم أردية منسوجة من سعف النخيل، في حين تحمل كثير منهم حرارة النهار وبرد الليل، وهم عراة لسنوات كثيرة، وليس لهم من مسكن سوى الكهوف في الصخور، كما أنهم لم يقيموا قط في مكان واحد، بل تجولوا في جوف القفار، ووضعوا أنفسهم بعيداً عن جميع البشر، غير عابئين لابطعامهم ولالباسهم، وفي الحقيقة إن طعام وشراب جميع الشرقيين، وبشكل خاص الرهبان قليل جداً، ويجري احتساء الخمرة كقاعدة، قليلاً جداً من قبل العلمانيين ولاتشرب قط من قبل الرهبان، وهكذا فإنهم يعيشون بنفقات صغيرة، في حين على العكس منهم، يعيش الرهبان الغربيون وسط ترف كبير وانفاق عظيم، ولذلك حمل عليهم القديس جيروم وندد بهم بعنف في رسائله، قائلاً بأنهم يحشون أنفسهم بالأطعمة حتى يصبحوا مرضى، وبالنسبة لهذا القول، نحن الرهبان الغربيون نستحقه، وعندما سمع واحد من المقدسين من بين الرهبان الغربيين بقول القديس جيروم هذا، رد بأن القديس جيروم ندّد بقوله هذا ببعض الرهبان الشرقيين النهمين، وقصد بأن قابلية الطعام التي امتلكها الغربيون بشكل طبيعي، أصبحت نهماً بين الشرقيين، وذلك حسبما يمكننا قراءة ذلك في *Speculum Historiale* — الكتاب الثامن عشر، الفصلان العاشر والثاني عشر، وقد علمنا أيضاً بأن بعضاً من الرهبان الغربيين ذهبوا مرة إلى قفار مصر، من أجل أن يتمكنوا من رؤية الرهبان الشرقيين، وذهب بعضهم إلى قلالية رجل مسن، وبعد

التوسل والتحريرض دعيوا إلى الغداء من قبل الرجل المسن، وعندما جلسوا إلى المائدة، وضع أمام خمسة من الرهبان نصف رغيف، وحزمة من الحشائش كانت تشبه النعنع، وهي مليئة بالأوراق وطعمها مثل العسل، وأكل واحد من الرهبان جميع هذه الوجبة، التي أعدت للخمسة جميعاً، ولم يشعر بالشبع أبداً.

وفي الحقيقة إن تكوين أجساد الشرقيين والغربيين مختلف، مشاهدين أنهم يتأثرون بمؤثرات مختلفة من قبل الأجرام السماوية، ولهذا من المؤكد أن أشياء كثيرة هي بالطبيعة ضرورية للغربيين، غير أنها بالنسبة للشرقيين ترف زائد فيه اقتراف للذنب، وينطبق هذا على الذين يمتلكون بيوتاً جيدة، وقصوراً للإقامة، وكذلك ثياباً، وطعاماً، وشراباً، علاوة على هذا اعتاد الرهبان في الأيام الخالية على فلاحه الأرض، وكانت الثمار الناتجة عن ذلك يُعطى شطر منها لكل انسان ليعمل بها حسبما يريد، وكان يتوفر لديهم نتاج كبير في الشرق، فلا يجدون فقراء لإطعامهم به، ولذلك أرغموا على إرسال القمح إلى بلدان فيما وراء البحار، من أجل اطعام الفقراء في الغرب، ومن هذا واضح أن عدداً كبيراً من الرهبان كان يمكنهم الإقامة مع بعضهم بالمئات وبالألاف في بعض الأوقات، مثلما هو الحال الآن في دير القديس سابا.

وفي عودة إلى موضوعي، إن ترتيب الدير المتقدم الذكر هو كما يلي: هو قد احتل شطراً طويلاً من وادي جهنم، والوادي هناك عميق وضيق، ومحاط على الطرفين بصخور منحدره، وعلى هذا فإن الوادي يطوقه بجدار يمتد لمسافة طويلة، وكان هذا الفراغ كله فيما مضى ديراً، والصخور على الطرفين هي كهوف، لكن غير منحوتة، بل معمولة ومفرغة بشكل طبيعي لتكون مساكن مناسبة للرهبان الذين يودون تكريس أنفسهم وايقافها على الصلاة وعلى التأمل وهذه الكهوف مسقوفة من الأعلى بواسطة صخور معلقة وبجروف متقدمة، هذا

وتلطف الخالق، فوجه عمل الطبيعة، بأن جعل هذه الكهوف تمتد بشكل طولاني ومنتظم واحدها بعد الآخر، لتكون على شكل قلايات، ويوجد في الأسفل عند سفح الصخور صف من الكهوف، وفي الأعلى هناك صف آخر فوقهم، كما هناك صف ثالث أعلى أيضاً فوق هؤلاء، في حين هناك على الحواف مساكن بنيت بالفن الانساني، على شكل أن الطرف الأول من الوادي يعرض أربعة طوابق من القلايات، ويتم الدخول إلى الصف الأول من القلايات أو الكهوف من قعر الوادي لأنه على المستوى نفسه، وهناك طريق يأخذ نحو الطوابق الأعلى، ويوجد في مواجهة القلايات هناك صخرة مطلة وممتدة في واجهة مداخل الكهوف، على شكل أنه هناك قبل مداخل الأبواب، ممر مفتوح، ومثل هذا موجود في الطابق الذي يعلو ذلك، هذا والكهوف في كل طابق مفصولة، مثل القلايات على أحد جوانب دير من الدير، وهي ليست مصنعة بعمل الانسان وبراعته، بل بنيت هكذا من قبل الطبيعة.

وفي الأماكن التي لم تسمح الطبيعة بها بعمل غرف كاملة، تمت مساعدتها بالعمل الانساني، ولدى توفر كهفين توفرت فتحة جدارية جزئية بينهما، أوقفت هذه الفتحة وأغلقت بجدار، أو إذا توفر كهف كبير، يقوم اثنان أو ثلاثة من السكان بعمل جدران فاصلة فيما بينهم، وفي الوقت نفسه إذا وجد أحيانا كهف ضيق جرى توسيعه بالنجر في الصخر، وكل واحد من الرهبان لم يتمكن من الحصول على كهف خاص به في الوادي نفسه، قام بنجر كهف لنفسه بالجدار هناك، أو في الصخور فوقه في القمة، ولهذا يوجد حتى هذا اليوم في كل من الوادي في الأسفل، وفوقه، كثيراً من الخرائب من الجدران، وكأنها كانت مدينة هناك، وماتزال بعض القلايات المبنية قائمة، وكذلك العديد من الأكواخ التي بنيت بحجارة جافة، فضلاً عن هذا يبدو أنه كان هناك

فيما مضى أبراجاً عالية، وغرفاً بهية، وبيوتاً عظيمة، فوق ظهر الصخرة، وفي الصخرة نفسها، وفوق الأرض بالأسفل، وما برحت كنيسة المكان قائمة دونها أذى، وهي واسعة إلى حد ما، ومؤسسة فوق صخرة، وهي صخرة منجورة من الجزء الأعلى من جانب الوادي، وهي ليس لها أساسات، بل مفتوحة من جميع الجوانب، باستثناء المكان التي تخرج فيه من جانب الوادي.

ويوجد تحت الصخرة، حيث تقوم الكنيسة، فراغ كبير ومظلم، يقود عميقاً إلى داخل الجبل، حيث يتدفق جدول، غير أنه جدول صغير جداً، ومياهه للشرب، وبه يدعم الرهبان حياتهم، واسمه نبع القديس سابا، ويعجب الانسان لدى رؤيته الكنيسة والأبنية الأخرى قائمة فوق صخرة هي معلقة في الهواء من دون أية أساسات، وعلى مقربة من الكنيسة هناك قلابة القديس سابا المنحوتة من الصخر، إليها يذهب الانسان بوساطة الممر الملتوي، الذي تقدم لي ذكره.

وعلى الجانب الآخر من الكنيسة، يوجد أيضاً، فوق هذه الصخرة، قلايات الرهبان، الذين ما يزالون يسكنون هناك، ويصل عددهم إلى الستة، وهم لا يستطيعون الإقامة هناك، لولا أنهم متحالفين مع البداة العرب، الذين يضمّنونهم، ويحمونهم ضد المسلمين، ولذلك فإن المكان كما هو، هو قلعة مفتوحة للبداءة العرب، ومأوى وملاذ لهم، ولذلك هو ليس خلواً، دوماً، من قطاع الطرق من البداة.

وهناك فوق الوادي حقولاً واسعة مزروعة، اعتاد الرهبان في الأيام الخوالي على فلاحتها ليس لأنفسهم فقط، بل كانوا يجمعون من هذه الحقول الزيت والقمح، بوساطة عمل أيديهم، من أجل الفقراء في سورية وفلسطين، وطوال الوقت الذي كان فيه هذا الدير وبقية الأرض المقدسة في أيدي الصليبيين، فقد اتبع الرهبان النظام نفسه بالنسبة للخدمات الدينية، الذي كان مطبقاً في كنيسة الضريح المقدس، في كل

من الليل والنهار، فعندما كانت الأجراس تقرر في كنيسة الضريح المقدس وقيامه الرب، كان السادة من الكهنة النظاميين فوق جبل صهيون، يقومون أيضاً بقرر نواقيسهم، وبعدهم كان رهبان جبل الزيتون يتولون القرع في كنائسهم كلها، وعندما كان هذا يسمع في بيت عنيا، كان القرع يجري أيضاً في جميع كنائس ذلك المكان، وكانت أصوات النواقيس تصل بعيداً حتى دير القديس سابا، فقد كان الرهبان هناك يسمعون أصوات القرع من الأماكن من حولهم، ولهذا حافظوا على قاعدة أن صوت القرعة الأولى كان يصدر من كنيسة الضريح المقدس، فيسمع في الساعة نفسها في جميع أرجاء الأرض المقدسة كلها.

غير أن هذه الأشياء اختفت منذ أن أصبح الضريح المقدس في أيدي المسلمين، حيث أن جميع أدوات حمد الرب هي الآن صامتة، وآل أمر دير القديس سابا إلى لا شيء تقريباً، وقد أخبرنا الرهبان الذين يسكنون الآن هناك، وحدثونا كيف أنه كان ديراً عظيماً، وأصبح الآن منعزلاً.

وبعد فقدان الأرض المقدسة للمرة الأخيرة، دافع هؤلاء الرهبان عن أنفسهم ضد حملات المسلمين، وخاضوا حروباً قاسية مع غير المسيحيين، وأرغموهم مراراً على الفرار، وزحف بعد أمد السلطان الملك ضدهم، قادماً من القدس مع جيشه، وطلب منهم أن يصبحوا مسلمين، فبعثوا له برسالة، أنه إذا ماصار مسيحياً، فهم على استعداد لخدمته، إنما إذا لم يفعل ذلك فسوف يدافعون عن أنفسهم حتى الموت، ولدى سماع السلطان بهذا حرك قواته ضدهم، وبعد حرب طويلة، تغلب على الرهبان، واقتحم ديرهم وبعث بهم إلى الجنة بوسائل تعذيب متنوعة، لكنه لم يلمس الكنيسة، مع أنه دمر جميع القلايات والطرق التي تقود إلى الكهوف، وحولها إلى الوضع الانعزالي المحزن التي هي عليه الآن، ومع ذلك أبقى هناك بعض الرهبان الذي أقسموا يمين الولاء له، وبذلك بقي الدير قائماً حتى هذا اليوم.

السفر من دير القديس سابا

وبناء عليه، عندما بدأ حرّ الشمس بالضعف، أخذنا جعبنا، وحميرنا، وسرنا نازلين عبر الممر الخطر تحت الجروف في الوادي، ونحن نقود حميرنا، ومضيّنا نازلين ونحن على ظهور دوابنا إلى الأجزاء المنخفضة من وادي جهنم، وارتحلنا في وسط قعر الوادي الوعر، ونحن محاصرون من كل جانب بجدران شديدة الانحدار من الصخور، وكان تحت أقدامنا طريق في غاية الوعورة، كله حجارة، وهو غير مطروق من قبل، وتابعنا على هذا المنوال ببطء وتعب، لعدة ساعات، وقد أردت المضي في وادي جهنم حتى البحر الميت، حتى أتمكن من رؤية جدول قدرون وهو يصب في البحر الميت، لكن دليلنا كان لديه رأي آخر، لأننا بعدما قطعنا مسافة طويلة نزولاً، عبرنا إلى واد آخر، كان أكثر سعة، ووادياً جميلاً، وخصباً، لو توفر له من يتولى فلاحته، وهو ممتد من الشمال إلى الجنوب، وذلك مثلما يمتد وادي جهنم من الشرق إلى الغرب، وهذان الواديان متضادان، ويعاكس أحدهما الآخر، في الوضع، وفي الأحوال، وفي الاسم، ففي الوضع، قد وضح بأن هذا الوادي غير متصل أبداً بالبحر الميت، بل هو يفصل الجبال المقدسة، وفي جميع الأحوال، فإننا بقدر ما أن نجد الأول أجرداً، كثير الأحجار، ومظلماً بعض الشيء، وهكذا دواليك، نجد هذا الثاني، غنياً، معشوشباً، وواسعاً، ومشرقاً، علاوة على ذلك، هما مختلفان بالاسم، لأن الأول اسمه وادي جهنم، ووادي اللعنة، في حين اسم هذا الوادي، وادي البركة، وذلك حسبما قرأنا في سفر أخبار الأيام الثاني: ٢٠/٢٦، وأنه نال اسمه هذا من حمد الرب، الذي قدمه يهوشافاط — ملك القدس — وشعب اليهودية، هناك، بعد إلحاق الهزيمة بأعدائهم.

ورأينا في هذا الوادي خرائب أبنية قديمة، ولدى متابعتنا سيرنا نحو الأمام، وصلنا إلى أحد الأماكن، الذي فيه مالا يحصى عدده من الحفر

والجحور للأفاعي والثعابين، من كل من الصغير والكبير، لكننا لم نر فيها ولا حيوان، لأنهم يخرجون فقط في الليل، وأخبرنا دليلنا حامد أنه يوجد في هذا المكان ثعابين غليظة بقدر ذراع الانسان، وطول كل منها بقدر طول الرمح.

وبعدما سرنا باتجاه الشمال خلال وادي البركة لمدة طويلة، تركنا ذلك الوادي، وتوجهنا نؤم جهة الشرق، وانحدرنا عبر جبال بلا ممرات، وإلى جانب هضاب منحدره، وجروف، وبذلك صار البحر أمام أعيننا، ورأيناه بشكل كامل، مع أنه كان ما يزال بعيداً عنا مسافة طويلة، ولهذا أسرعنا بخطانا، ونزلنا بسرعة أعظم، لأن الشمس كانت قد أشرفت على الغياب، وهكذا وصلنا أخيراً إلى أرض سدوم، وإلى شاطئ البحر الميت، وذلك عند الرأس، الذي يأخذ فيه نهر الأردن بين فكيه.

وبقي الآن دليلنا حامد، والمغاربة، وخدمه، بعيداً جداً عن البحر، لأنهم يمجونه، ويمقتون النزول إلى مياهه الملعونة، لكننا سرنا حتى الماء، حيث أوقفنا حميرنا، وترجلنا، ورأينا من الخرائب، أنه لا بد قد كان هناك بيت مربع كبير، بني بعضه فوق اليابسة وبعضه الآخر في البحر، وكانت هناك أحجار كبيرة من تلك الخرائب مرمية على الساحل، غير مغطاة بالماء، مع أنها ممددة في الماء، وسرنا على هذه الأحجار حوالي الاثنتي عشرة خطوة في البحر، ورأينا المياه، ولمسناها، وتذوقناها، وهي المياه التي سمعنا عنها أعاجيب كثيرة، وهذه المياه نقية، لكنها مالحة جداً، وكثيفة، ولهذا أطلق عليه أحياناً في الكتابات المقدسة البحر الأكثر ملوحة، ولذلك عندما يأخذ أي انسان بعضاً من هذا الماء ويضعه في فمه، يصبح بسبب ملوحته العالية جداً، داخل فمه محترقاً، وكأنه صب فيه ماء يغلي، وقد جربت أنا هذا شخصياً، علاوة على ذلك، بما أن هذه المياه كثيفة ومالحة جداً، فإن الذي يضعها في يده، يشعر بوخز في يديه، وكأنها امتلئت بالذباب والقمل، ويرغم بذلك على حكهم وكأن هناك

عزّ بهما، ويستمر معانيا من هذا لساعات كثيرة، ثم إنه لا يمكن بسهولة مسح هذه المياه من اليد، بل الحال كأن انسانا غمس يديه في الزيت، كذلك هناك رائحة نتنة تصدر من الماء، تثير النفس وتسبب الغثيان، ولذلك لا يمكن للحجاج الإقامة هناك طويلاً، والأحجار الراقدة في المياه مع جزء منها فوق الماء، قد بدت وكأنها كلها مغطاة بالجليد، ولون الشاطئ كله قرب الماء أبيض، وكأنه مغطى بثلج جديد، مع أنه لا يوجد جليد ولا ثلج، بل الموجود عبارة عن ملح مر، مذاقه حاد جداً، وأعتقد أن ملعقة واحدة من هذا الملح هي أكثر ملوحة من عشر ملاعق من ملحنا.

وبدت بقية الأرض غير المغطاة أو المبللة بالملح، وهي قريبة من الماء، سوداء، وكأنها قد احترقت بوساطة نار ملتهمة، وهي دليل على شروخ شعب سدوم، كما سوف نبين بوضوح أكثر فيما بعد.

ويقول العامة من الناس، بأن الجدران المدمرة، التي سرنا عليها إلى داخل البحر، هي بقايا بيت لوط، ابن أخي ابراهيم، الذي سكن في سدوم، حسبما قرأنا في سفر التكوين: ١٣، ولدى وقوفنا لبعض الوقت إلى جانب هذا البحر، قام أدلائنا، وحامد ورجاله، الذين وقفوا على أرض مرتفعة فوقنا، بالصراخ لنا بأصوات مرتفعة حتى نبتعد، وفي الحقيقة كنا على عجلة من أمرنا لكي نغادر المكان، لأننا لم نكن مسرورين بالبقاء هناك، بل كنا نشعر بالغثيان والخوف، وكأننا كنا واقفين في بؤرة أجساد ميتة، بسبب الرائحة الكريهة، أو في مكان، فيه محاكمة قاسية لحشد واسع من الناس، قد حكم عليهم بالموت مع أشد العذاب وأكثره فظاعة، وقد خشينا من غضب الرب القدير، وخفنا أن يشملنا مع المذنبين، بالعقاب الذي نزل على شعب سدوم، فضلاً عن هذا، كان النهار قد شارف على الانتهاء، واقترب غياب الشمس، ولذلك صعدنا مبتعدين عن البحر، نحو أدلائنا، ودوابنا، وبتنا

مستعدين للمغادرة، لكن قبل أن نغادر هناك شيء مايتوجب قوله حول هذا البحر.

وادي سدوم المشهور حيث البحر الميت الآن

يحدثنا الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين عن أصل البحر الميت، ذلك أنه لم يكن هنا بحر من بداية الخليقة، كما لم تكن هنا بحيرة أو ماء متجمع بدون حركة، بل جرى نهر الأردن في مجراه، وكان يسقي الوادي وجميع المنطقة حول هذا الوادي كانت مزدهرة وخصبة، مثل حديقة الرب، ومثل أرض مصر، كما قيل في سفر التكوين: ١٣، ولهذا أطلق عليه اسم الوادي الشهير (التكوين: ١٢)، لأنه كان مليئاً بالأشياء الجيدة، ومثل هذا أطلق عليه اسم وادي الغابة، لأنه امتلأ بالأشجار وبأوراقها بكثافة، لأنه توفرت هناك أشجار فواكه، وبساتين مثل غابة، وتخزن كبير من الفواكه والأخشاب، وعن هذا حُذِّثنا في سفر التكوين: ١٤.

وأطلق عليه أيضاً اسم وادي السهل، لأنه امتلك على الطرف الأول من الأردن أشجاراً، وكان هناك على الطرف الآخر سهولاً مزروعة، ولذلك دعي بالاسمين معاً: وادي الغابة ووادي السهل، وأطلق عليه أيضاً اسم وادي الاسفلت، أو وادي الزفت، وهذين الاسمين هما الشيء نفسه، لأنه يوجد فيه كثيراً من آبار القار، عنها نقرأ في سفر التكوين: ١٠، وهم يستخدمون القار عوضاً عن الملاط، ومنه بنيت جدران قوية جداً، وعثر في رمال ذلك الوادي على أحجار كريمة، مثل الزفير ومايشابهه، وكذلك عثر على الذهب في الأراضي هناك، وذلك حسبما جاء في سفر أيوب: ٣٣، فهناك بدا وكأنه يتحدث عن هذا الوادي، وكان في هذا الوادي الشهير والجليل خمس مدن كبيرة هي: سدوم، وعاموره، ودومه، وصبوييم، وبالع التي هي ساعور، وقد وردت هذه الأسماء في سفر التكوين: ١٤/٢، ولهذا دعيت هذه المنطقة

من قبل الاغريق، باسم البنتابولس، لأن معنى «بتتا» هو «خمس»، ومعنى «بولس» «مدينة»، وجاءت هذه التسمية بسبب وجود المدن الجلييلة الخمس، التي كانت سدوم هي الرئيسية بينهن.

وكان سكان هذه المدن أشراً جداً، وقد أذنبوا بشكل مريع أمام الرب (التكوين: ١٨)، ومارسوا حياة مهينة، خارج حدود العقل، مثل عميان، وحيوانات بلا عقل، ولذلك جرت ترجمة اسم سدوم إلى «عمى»، هذا وكان في هذه المدن حشداً كبيراً من الناس، وكانوا جميعاً مذنبين، إلى درجة أنه لم يوجد في أي منهن رجلين صالحين، لأنه لو وجد مثل هذين، لما دمر الرب تلك البلاد، كما جاء في سفر التكوين: ١٨، وكانت الذنوب الرئيسية لهؤلاء القوم عددها ستة، حسبما وردت في حزقيال: ١٦، وكان الذنب الأول هو الكبرياء، الذي هو أصل جميع الشرور، حيث كانوا يتكبرون في أنفسهم ويحتقرون الآخرين، وكان الذنب الثاني، هو الشبع من الخبز، لأنهم عاشوا باضطراب، وكانوا دوماً سكارى، وملئين من الخبز، وكان الذنب الثالث هو الوفرة، لأنهم أثروا بثروات حصلوا عليها بشكل سيء، وكان الذنب الرابع هو الكسل، لأن أولادهم وبناتهم، وشيوخهم وشبابهم كانوا جميعاً كسالى، وصاروا أغنياء بلا عمل، وبسبب جودة الأرض، وكان الذنب الخامس هو أنهم لم يمدوا أيديهم قط للفقراء والمحتاجين، لأن قلوبهم كانت قاسية، وكانوا لا يقدمون مأوى لأي غريب، كما قرأنا في سفر التكوين: ١٩، وأنه لم يكن هناك مكان للغرباء حتى يقيموا به، إلا في الشارع العام.

وفي الحقيقة قضوا في إحدى شرائعهم بعدم اعطاء أي غريب مأوى في بيت من بيوتهم، لأن البلاد كانت بلاد وفرة، وقد حمل كثير من الفقراء أنفسهم إلى هذا الوادي قادمين من مناطق غريبة، لأن الحياة كانت سهلة، غير أنهم اعتقدوا أن الفقراء حمل ثقل، ولذلك قضوا بوجوب طرد الناس الفقراء والغرباء، وعلى هذا الأساس قتلوا فتاة

بطريقة شنيعة، لأنها أبدت مواساتها وأعطت خبزاً لواحد من الفقراء استجداها.

وجاء بعد هذه الذنوب الخمسة الذنب السادس، الذي كان أعظم الشرور مقتاً لسدوم، وقد صرخت الذنوب الخمسة إلى السماء، فوصل واحد منها، ولذلك قال الرب في (التكوين: ١٨ و ١٩): «إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر»، وهكذا إلى آخره، ولم يوجد هناك رجل واحد صالح لم يكن قد تلوث بالاثم، غير لوط، وعندما اقتيد خارجاً من قبل الملاك، أمطر الرب ناراً وحجارة محترقة فوق تلك البلاد، وقد احترق كل شيء حتى جوف الأرض، وذلك بنزول تلك النار المرعبة من السماء، وتحولت المنطقة إلى مكان أجرد من الملح والرائحة المقيتة حتى هذا اليوم.

وعندما توقفت النار، قام الأردن والجداول الأخرى التي تجري في ذلك المكان المحترق فملأت بالطول وبالعرض تلك الحفرة الكبيرة التي خلفتها النار عندما احترقت الأرض، وهكذا عملت بحيرة الملح، هذا ومع أن الأردن والجداول الأخرى تجلب مياهها حلوة إلى ذلك المكان، فإنها تصبح على الفور في غاية الملوحة، وأكثر ملوحة من ملوحة ماء أي بحار أخرى، لأنها تمتلك سبباً رباعياً لملوحتها، وهو سبب طبيعي، وسبب منطقي، وسبب كاثوليكي، وسبب رباني.

والسبب الأول لملوحة هذا البحر، هو سبب طبيعي، وهو السبب نفسه الذي يجعل البحار الأخرى مالحة، كما سلف وبيننا من قبل، وقد عالج هذا الموضوع أرسطو في مصنفة «الفضائيات»، الكتاب الثاني، وقدم كثيراً من الحجج، وهناك قدم بشكل واضح إشارة إلى هذا البحر، وإلى ملوحته الفائقة.

والسبب الثاني الذي يظهر هذا البحر أعظم ملوحة من البحار

الأخرى، هو سبب منطقي قائم على الايمان، وهو ماقد يوافق عليه الانسان أو لا يوافق، فنحن قد رأينا بأن النار من السماء قد أحرقت تلك الأرض حتى الأعماق، وقد بقي قعر الهوة يحترق بشكل دائم، مثل حديدة محماة في النار، هذا وإن الماء الذي يصب هناك غير قادر على إطفاء تلك النار، بل تحول الحرارة المياه إلى حد الغليان، وتجعلها سميكة، وتغليها حتى تصير مالحة، ولهذا السبب نجد هذه المياه، أكثر دفئا، وملوحة من أية مياه أخرى، وتتصاعد الأبخرة منها بشكل دائم.

والسبب الثالث مستخرج من الإيوان الكاثوليكي، الذي نعتقد بموجبه أن الحساب الأخير سوف يكون في وادي شعفاط، وأن المدانين سوف يساقون عبر نهر النار نزولاً في وادي جهنم حتى هذا المكان، حيث سيغرقون في أعماق الجحيم، وذلك حسبنا بينا في ص ٥٨٧، لأن من الواضح أن فم الجحيم موجود هنا، وهذا بالنسبة لنا نحن المسيحيين لأننا نعتقد بأن الجحيم موجودة في وسط الأرض، والمدينة المقدسة قائمة على جبال فوقها في وسط الأرض، وذلك مثلما قالت الأمم وقال الشعراء بأن جزيرة كريت هي وسط العالم، وأن الجحيم موجود تحتها، وبناء عليه فإن الدموع النازلة من الوثن المقام فوق جبل إيدا Ida تجري نحو الجحيم، كما ستتحدث في ص ١٧ من القسم الثاني.

ويتعلق السبب الرابع بإظهار الرب عدم رضاه الخاص، وكرهيته، ومقته للآثم اللعين وهو ممارسة السدومية، ولذلك جعل المكان كله يعيش أبداً وسط المرارة والجذب، ولهذا السبب جاء ذكر هذا المكان في كثير من المواضع في الكتابات المقدسة، فقد أطلق عليه اسم البحر الميت (يشوع: ٣) لأن الرب ألقى بالمذنبين هناك ليموتوا موتاً أبدياً، وذلك بابتلاعهم بسرعة وبموت مخيف، أو لعله دعي بالميت، لأن ما من شيء يعيش هناك فيه، ولا يمكن للأسماك أن تكون هناك فيه، حسبنا قرأنا في «فضائيات» أرسطو — الكتاب الثاني —، وفي Speculum

Historiale ، وليس فقط لاتوجد حياة فيه، بل كل شيء حي يلقي فيه لا يغرق، بل يقذفه ثانية، وبذلك فإن الأشياء الحية لايجري ابتلاعها مباشرة.

وقد برهن على صحة هذا الامبراطور تيتوس، عندما عسكر أمام أريحا، وكان بعض جنود جيشه قد أودعوا السجن، وتقرر اعدامهم، فأمر بربطهم ومن ثم بإلقائهم وهم أحياء في هذا البحر، وقد سبحوا وأيديهم وأقدامهم مربوطة على وجه الماء وكان من غير الممكن غرقهم، وقد ذكر يوسفوس هذا في «حروب اليهود» — الكتاب الخامس، الفصل التاسع، علاوة على ذلك قال مصنف الـ Speculum Historiale بأن القوارب الفارغة أو المحملة بأشياء غير حية، تغرق هناك مباشرة، لكن القوارب التي فيها أناس أو حيوانات حية لا تغرق، ولكن إذا ألقيت وهي مشتعلة، فإنها تستمر بالسباحة طالما النار مستمرة بالاحتراق، وهناك قصص أخرى كثيرة مشابهة قد رويت فيما يتعلق بهذا البحر، وعن هذه الحكايات قال يوسفوس بأن الحكايات الزائفة متفوقة على الصحيحة فيما يتعلق بالبحر الميت.

علاوة على ذلك جرى الحديث عن هذا البحر في الكتابات المقدسة على أنه مالح جداً، في سفر العدد: ٣٤، وفي سفر يشوع: ١٢، ولهذا السبب جرى الحديث عنه في الكتابات المقدسة على أنه متفوق بملوحته، لأن مامن بحر في الدنيا أكثر ملوحة منه، ولا يمكن لماء عذب أن يتملح بملحنا ويبلغ درجة ملوحته ومرارته.

ومثل هذا أطلق عليه اسم بحر المالح في سفر التكوين: ١٤، لأن المالح موجود هناك بوفرة، والمياه التي تنضح من هذا البحر، ثم توضع في الشمس، تصبح ملحاً على الفور، وقد دعي في بعض الأحيان باسم بحر أحواض المالح، لأنه كان هناك فيما مضى كثيراً من أحواض المالح، ومن الممكن وجود بعضها الآن، فضلاً عن هذا هناك جبال من المالح

إلى جانب هذا البحر، وحجارتها ملحية إذا ما كسرت، ورأينا في بلاد مآب في مواجهتنا جبلاً صخوره بيضاء، وعناصره كلها من الملح، وحجارتها المكسرة هي من أفضل الملح، وكذلك الرمل الناجم عنها، وعلى هذا يؤخذ هذا الملح من الأرض، التي تصح تسميتها بملح الأرض، وبها شبه الرب تلاميذه (متى: ٥) بقوله: «أنتم ملح الأرض»، وهو في كل مكان يعدّ أفضل الملح، وأعلى ثمننا من الملح المصنوع من الماء، والذي يأتي نتيجة الغليان، مثل ملحنا، أو الملح الذي يصنع بوساطة حرارة الشمس في أحواض الملح، كما رأيته غالباً يعمل على شاطئ بحرنا، وفي الحقيقة هناك أنواع مختلفة من الملح، يمكن العثور عليها في العالم، ففي صقلية هناك ملح يصبح قاسياً عندما تضعه في الماء، ولكنه يذوب عندما يوضع على مقربة من النار.

ويستخرج من تحت الرمال في سيرينيا *Cyrcnia* — خاصة عندما يكون القمر بدرًا ثم عندما يضعف نوره — ملح عطري، هو ثمين جداً، ويوجد في بعض البلاد جبال من الملح القاسي جداً، منه يجري استخراج الملح بالحك بوساطة أدوات حديدية، وقد بنيت جدران عظيمة وبيوت من حجارة ملحية، كما هو الحال في بانونيا *Pannonia*، ونجد أيضاً ملحاً أسود، وملحاً فضياً، وأصفر، أو ملحاً أحمر، أو ملحاً مشعاً ببياضه.

وكذلك يعرف هذا البحر باسم بحر الاسفلت، فهو كان يعرف قبل خراب المدن المتقدمة الذكر باسم وادي الاسفلت، أو الحمر، لأنه حتى هذه الأيام هناك آباراً من الحمر على شاطئه، قد حفرت وبيع نتاجها، لأن الحمر ملاط قوي جداً من أجل بناء الجدران، وقد بني إلى جانب هذه الآبار هرم طويل، وهناك يوجد الحمر أيضاً، حيث تقذف به الرياح إلى شاطئ البحر، ويتماسك بقوة مع بعضه، ولا يمكن اذابته إلاّ بدماء الطمس، ويطلق عليه اسم حمر اليهود، وهو يستخدم كدواء،

وكعلاج ضد الرمل والحصا في المشانة، ومثل هذا يقذف هذا البحر بعض الكتل من الحمر المغطاة بتربة سوداء، وهي جميعها برهان على النار التي تحترق بداخلها، وهي بوضعها هكذا رغبة القدر الذي يغلي بالأسفل .

وإلى جانب هذه الأسماء، لقد دعي أحياناً في الكتابات المقدسة باسم بحر القفار، كما جاء في سفر يشوع: ٢، لأن جميع الأراضي من حوله هي صحراء، وهي تمدّ لسانها حتى برية فاران، التي تفصل الأرض المقدسة عن القفار الواسعة التي عبرها بنو إسرائيل، واسمه أيضاً البحر الشرقي، قياساً على البحر الكبير، الذي اسمه البحر الغربي، لأن الأرض المقدسة يحددها هذين البحرين، وهي بعمقها محاطة بهما.

ودعي في بعض الأحيان باسم البحر الجديد، لأنه لم يكن موجوداً في بداية الخليقة، ولكنه عمل في أيام ابراهيم، أخيراً وبعد جميع البحار، لأن البحار الأخرى قد خلقت قبل هذا البحر بـ ٢٧٢, ٣ سنة ولذلك هو أحدث البحار وجديدها، ودعي هذا البحر في كثير من الأحيان باسم بحر سدوم، اشتقاقاً من اسم الحاضرة سدوم، التي غمرت بهذا البحر، بعد اقتراف ذنب السدومية، الذي لاقى هنا عقوبته، كما أنه دعي في بعض الأحيان باسم بحر الشياطين بسبب فتن الشياطين وقوتهم في هذا المكان، ولهذا نجد أن المنطقة كلها حول هذا البحر قفار، لأنها مشغولة من قبل الشياطين، ومن مختلف أعمال الخداع السحرية، وفي الحقيقة، هناك — بإذن من الرب — أشياء كثيرة، قد عملت هناك بوسائط الشياطين، من مثل الريش، عندما يرمى في البحر، يغرق مباشرة نحو القعر، في حين يطفو الحديد على الوجه، فهذا ما قالوا بأنه قد وقع هناك.

ودعي أيضاً باسم البحر الملعون، وقد صار كذلك بسبب لعنة المذنبين، ولا يوجد مكان في الدنيا قد تفجر غضب الرب فيه بوضوح

ضد المذنبين مثل هذا المكان، وعرف أيضاً باسم بحر جهنم لأن الطريق من القدس إلى هاهنا، يمرّ عبر وادي جهنم، كما أن جدول جهنم يصب فيه، وذلك كما بينا مراراً من قبل، وأخيراً عرف باسم بحر الجحيم، وذلك بسبب أن المدانين، بعد اقتيادهم خلال الجدول الناري لوادي جهنم يلقون في أعماق هذه الهوة، لأن الجحيم سوف يفرغ فاه واسعاً، حتى يأخذ جميع الذين سوف يقول لهم: «ابتعدوا عني، أيها الملعونين» الخ، ودليلنا على ذلك أن الدخان يتصاعد دوماً من هذا البحر، وكأنه مدخنة الجحيم، وكل مكان يصله الدخان يتسمم، ويتحول إلى مكان قاحل على طرفي البحر، وكل ما ينمو هناك هو بدون فائدة.

وفي الحقيقة رأينا هناك التفاح الذي تحدث عنه يوسفوس، وكذلك مصنف *Speculum Historiale*، وينمو هذا التفاح على شجيرات قصيرة، وقد بدت هذه الشجيرات لي بأنها شجيرات عمرها سنة واحدة، لأنها تجف في الشتاء وتنمو ثانية في الصيف وتصير بطول نبات الجريس لدينا، فعن جذعها تتفرع عدة أغصان، تحمل كمية كبيرة من التفاح، ذات الحجم الكبير، مثل حجم مقبض اليد، وهذه التفاحات جميلة جداً أن ننظر إليها، وتثير شهية الذي يتطلع إليها حيث يرغب بأكلها، وبالنسبة للونها، هي خضراء بنفسها، لكن من الجانب الذي تضربه الشمس هي صفراء مشوبة بالحمرة، وهذه التفاحات ناعمة، وكأنها ناضجة للأكل، وعندما يقوم انسان بقطع تفاحة، فإنها تنقسم مفتوحة، وسيجد على الفور في داخلها مادة قدرة لها رائحة مقبحة، تلوث يديه، وتثير المعدة نحو الغثيان، وعندما تصبح هذه التفاحات قاسية، يصبح لونها رمادياً، وتتحول المادة التي في داخلها إلى رماد وغبار.

إلى جانب هذا، يقولون بأن هذا البحر يقذف بحصا على درجة عالية من الجمال، وإذا ما التقطهم انسان، فإن يديه تغدوان قذرتين ولهما رائحة

بشعة لمدة ثلاثة أيام، ويقال بأنه عميق جداً في الوسط إلى حد لا يمكن الوصول إلى القعر بإلقاء دليل بوساطة أطول الحبال، وعرضة ستة فراسخ، وهو ممتد من الغرب إلى الشرق، في حين يصل طوله من الشمال إلى الجنوب إلى مسافة تسعة أميال ألمانية، هذا وكنت قد تحدثت عن هذا الموضوع من قبل، ويتضخم حجم هذا البحر أحياناً، ويمتلئ بشكل غريب، ومع ذلك لا يفيض مطلقاً على أطرافه.

وفي الحقيقة تصب مياه كثيرة، وأنهار وجداول فيه، مثل نهر الأردن، الذي هو الرئيس بينهم، والذي تتجمع فيه أيام الأمطار والثلوج كميات كبيرة من المياه، تتدفق من جبل لبنان ومن جبلي جلبوع وجلعاد، وبذلك يغدو أكبر بهذه الزيادة، ويصب في البحر، ووفق الطريقة نفسها تصب الجداول فيه من كلا الجانبين، مثل جداول: قدرون، وبيوق، وعرنون، وكرت Careth وسيول أخرى كثيرة، وفيما يتعلق بالتصريف، فإن جميع فضلات الأرض المقدسة تقريباً تحملها هذه الجداول إلى البحر الميت، وهذا البحر حسبما كان دوماً هو المصب لمنطقتين تحدانه على الطرفين، وذلك مثلما سوف يتلقى الجحيم جميع فضلات العالم، وعلى هذا فإن هذا البحر هو بالوعة جميع البلاد.

ولهذا فكر بعضهم بأن هذا البحر لا بد أنه يمتلك فتحة في أحد الأطراف، منها تجري المياه نحو هوة، أو ربما تصب في الجحيم، لأنه—كما قلنا—مهما كانت كميات المياه التي تصب فيه، فإنها لا تذهب إلى أي مكان آخر، والبحر نفسه، وإن بدا متضخماً في بعض الأحيان، لم يفيض مطلقاً على تخومه، هذا ويعتقد بعضهم بأنه متصل بقناة خفية بمياه ماره، التي جرى الحديث عنها في سفر الخروج: ١٥، حسبما تقدم الكلام حول ذلك، وهانحن قد قدمنا عرضاً حول البحر الميت، استقيناه وجمعناه من الأسماء المعطاة له.

قفار القديس جيروم وديره فيها

وبعدما فرغنا من مشاهدة البحر الميت، المدة التي رغبنا فيها، مضينا مبتعدين بسرعة عنه، لأنه الشمس كانت الآن على وشك المغيب، وسرنا باتجاه الشمال إلى ماوراء بداية البحر الميت، غير بعيد عن المكان الذي يصب نهر الأردن فيه، ووصلنا بعد هذا إلى قفار جرداء تماماً من قفار الأردن، لم يكن فيها شيئاً أخضر، ولا حشائش ولا أعشاب بل الأرض رملية، قد شويت بحرارة الشمس، وهي مليئة بأكوام من الرمال تجمعت بوساطة الرياح، وسرنا خلال هذه الأكوام والروابي الصغيرة، مما جلب الانهاك إلينا وإلى دوابنا، وكنا كأننا نشق طريقنا خلال ثلج عميق وكثيف، ووجدنا في الرمال آثار كثير من الحمير، ولهذا استنفروا وأخذنا حيطتنا، خشية أن نقع بين بعض فئات البداءة العرب، أو أن هؤلاء البداءة في المكان الذي نوبنا أن نرقد فيه تلك الليلة، ولذلك وقفنا بلا حراك، غير عارفين ماذا نفعل، وكهرنا أن نحمل أنفسنا إلى المنطقة التالية الاسرائيلية، بل رغبنا — كما أظهرنا فيما بعد — بزيارة إحدى البقاع في هذه القفار، التي نحوها رأينا قطعاً من الحمير متجها إليها.

ولدى رؤية دليلنا حامد لهذا، قفز على الفور من على ظهر حصانه، ومثله فعل خادمه، وتناولوا سيفيهما وقوسيهما، ثم ركضا مثل وعلين فوق الرمال نحو القطيع، قاصدين الحصول على بعض الأسلاب إذا تمكنا، لأنه في هذه البلاد مامن انسان معصوم من المهاجمة، بل يطارد القوي الضعيف، ويتنزع سلاحه منه وثيابه، إذا ماتمكّن من الامساك به، ولذلك يستعدان ضد بعضهما، وهما على مسافة كبيرة تفصل بينهما، وإما أن يهرب فريق منهما، أو أن يصطف كلا الفريقين، ويجهزان أنفسهما ضد بعضهما، للقتال ليس في سبيل حياتهما، بل في سبيل أسلحتهما وأسلحتهما.

وبعدما قام حامد ورجاله بمطاردة هذا القطيع لمسافة طويلة، وجدوا أنه لم يكن قطعاً من الحمير الأليفة بل من الحمير الوحشية، لم يستطيعوا

أبداً الإمساك بها، لأنها كانت حيوانات سريعة جداً، نظراً لكونها حمير وحشية، ولهذا عادوا إلينا خاليي الوفاض.

وبناء عليه تابعنا سيرنا وتقدمنا على طريقنا، ووصلنا في القفار إلى المكان الذي استهدفناه وذلك حيث اعتكف القديس جيروم، المعترف المجيد، لمدة أربع سنوات، قبل أن يذهب إلى بيت لحم، وذلك حسبما قرأنا في اسطورته، ويوجد في هذه الأيام هنا كنيسة جميلة جداً، مع دير ملحق بها، ودخلنا إلى الكنيسة، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض أمام المذبح، وحصلنا على غفرانات(++) مطلقة، ثم نهضنا من صلواتنا، وقمنا بمشاهدة الكنيسة والدير، والكنيسة مشعثة من قبل البداة العرب والمسلمين، ومذابحها محطمة، وأعمالها الخشبية مهددة بالسقوط سريعاً، وكان الدير فارغاً ليس فيه رهبان، والجزء الأعظم منه مهدوم، وفي الغرف التي أقاموا فيها، هناك معالف للدواب، حيث تمتعوا هناك بالظل أثناء حرّ النهار، ولذلك هو نوع من أنواع الخانات الآن.

والذي استطعت استخلاصه من أوصاف الأرض المقدسة، ومن الخرائط التي عليها رسم شكل الأرض المقدسة، أن هذا المكان هو بيت حجلة، حيث بكى بنو إسرائيل على يعقوب أبيهم، الذي جلبوا جسده من مصر، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاح الأخير من سفر التكوين، وأطلق جيروم على المكان في كتابه « حول المسافات بين الأماكن»، اسم قريات Areaat ، وهي على بعد فرسخ واحد من الأردن، وأنا لا أعتقد أن قفار اعتكاف جيروم كانت هنا، لأنه سكن في إحدى القفار في سورية، ومع ذلك صدوراً عن الاحترام لهذا القديس، فإن المعاصرين يقدمون الاحترام لهذا المكان، على أنه مكان سكنه، وفي الوقت نفسه لم ترد إشارة إلى هذا المكان في كتب الحج القديمة، إلا تحت اسم بيت حجلة، وقد تسلقنا فوق الدير، وجلنا حوله مع خوف وخطر، لأن البناء كان يهتز تحت أقدامنا، وكأنه آيل للسقوط.

ورأينا هنا صوراً جميلة لآلام المسيح مرسومة على جدران الكنيسة، وأن بعض قلايات الرهبان مائتزال سليمة، ولاحظنا أنه قبل بضع سنوات كان هنا دير للرهبان، وقال بعضهم بأن هذا الدير قد بني في أيام القديس جيروم، وأنه ظل مسكوناً بشكل دائم حتى أيامنا غير السعيدة، أي أنه قبل أن يذهب إلى بيت لحم، كان لديه دير ديني هنا، وأن معجزة الأسد لم تصنع في بيت لحم بل هنا، وهذا هو المكان الذي تحدث فيه القديس جيروم عن نفسه في رسالته إلى يوستوخيوم، بأنه تعرض لإغواءات كثيرة، حيث قال: «كلما كنت في القفار، والمكان الأجرد المنعزل، محترق بحرارة الشمس، التي تقدم مسكناً لقروء شعناء، اعتدت أن أتصور نفسي في وسط رفاه روما مع حشد من الفتيات الراقصات»، وفي هذا المكان بكى ذلك الرجل المبارك من دون توقف، وأخضع جسده بالصوم وباللطم على صدره ليلاً ونهاراً، وفي غضبه من نفسه، والتزامه الدقيق بالنظام، دخل إلى القفار وتسامر مع الحيوانات المفترسة والعقارب.

وكنا عندما خرجنا من القدس في الصباح، اتفقنا على تمضية الليل في هذا المكان المقدس، إنما بعد تجولنا حول الأبنية والخرائب، لم نجد مكاناً يمكننا أن نستريح به، كما كان لا يمكننا الإقامة في الحقول خارج الجدران، بسبب عدم نظافة المكان، لأننا رأينا أعداداً لا تحصى من الخفافيش الكبيرة وهي تطير إلى هنا وهناك، لأن الشمس كانت قد غابت وكان الوقت وقت الشفق، وقد أخبرونا بأن هناك كثيراً من الخفافيش من نوع آخر، وهو من جميع الجوانب مثل الحمام، وهذا النوع لا يطير إلا في الظلام الدامس، ويكمن منتظراً الرجال بشكل خاص، فهذه الخفافيش تنقض بشكل حاد على وجه الإنسان، فتمسك أنفه بفمها المفتوح، وتقطع الأنف بطرفة عين من الزمن، وتطير مبتعدة مع صيدها، وكان الرجال من ذوي الأنوف الطويلة عرضة للخطر، أكثر

من سواهم.

وعندما سمعنا هذا، احترزنا من أجل أنفسنا، وغطينا أنوفنا بأيدينا، كما وسمعنا فحيح عدد كبير من الأفاعي، وهن يخرجن من جحورهن للأكل، فضلاً عن هذا كان المكان خارج الأسوار الذي توقفنا فيه لإنزال أثقالنا مليئاً بالحفر التي عملتها الأفاعي والعقارب، وإلى جانب هذا كله، كانت هناك الرائحة المقيئة المعتادة، الصادرة عن البحر الميت، وكانت قريبة منا، وقد بدت لنا أكبر مما نستطيع شمه طوال الليل، وكذلك خفنا من البداة العرب ومن المدينيين، وخشينا من أن يهاجمونا ليلاً ويزعجوننا.

وعاودنا لهذه الأسباب ركوب حميرنا، وأدركنا ظهورنا إلى البحر الميت، وسرنا خلال الظلام نحو المنطقة التالية لإسرائيل، وذلك فوق منبسطات واسعة وباهتة، لم نرغب في الإقامة بها، بل بادركنا مسرعين نحو التلال، وعندما وصلنا إلى سفح الجبال، دخلنا إلى واد ظليل، وصعدنا إلى القمة، ووصلنا إلى مكان آمن تماماً، هو عين الجدي، وكان ذلك قبل منتصف الليل بقليل، ووجدنا هنا مكاناً مناسباً، فأعطينا دوابنا إلى خدمنا، وجلسنا أرضاً، وجلبنا ما كان قد بقي في جعبنا، وتمددنا بأنفسنا، وذلك حيث جلس كل إنسان ليأكل، فهناك رقد لينام، ونمنا هناك حتى الصباح بملابسنا، سوى أننا خلعنا واقيات أرجلنا وأحذيتنا.

صعود الحجاج إلى جبال عين الجدي والحادث المضحك الذي وقع للراهب فيليكس فابري

وعند اشراق الشمس في اليوم الثاني عشر، نهضنا من فوق الأرض حيث كنا راقدين، وذلك بعدما نمنا نوماً حلواً وهادئاً، لأننا كنا مرهقين، وكنا جميعاً في مكان آمن ونظيف، وعندما شاهد دليلنا حامد، بأن النهار كان مشرقاً، صرخ لنا بصوت مرتفع، وحثنا بأن نتسلك إلى

الجبال بسرعة، قبل أن تصبح الشمس حارة، ولذلك أعددتنا أنفسنا بسرعة، وعندما كنا نستعد من أجل رحلتنا، وقع لي حادث عرضي تافه ولا أهمية له، ومع ذلك كان عبثاً مضحكاً، وقد اخترت أن أضعه في كتاب رحلاتي وجولاتي، لأنني كما وعدت في مطلع كتابي، أثناء الانطلاق برحلاتي، وقررت أن أخبركم ليس فقط عن المسائل الجادة الوقورة، بل أيضاً عن الأشياء العابثة والتافهة.

فقد جلست، وبذلت جهداً للبس حذائي، وقد كان حذائي ضيق تماماً، ولذلك كنت أجد صعوبة لدى خلعه وكان ذلك لا يتم من دون بذل كثير من الجهد والطاقة، وكان حذائي مصنوعاً من جلد غالي الثمن، وأصفر اللون، وناعماً، ووصل حتى ركبتني، مثل واقية، وانتعل الفرسان الآخرون أحذية من النوع نفسه، واستخدمنا هذا النوع من الأحذية عوضاً عن نعل وواقية، وهكذا وضعت فردة حذائي اليميني فوق قدمي، وأعطيتها شدة قاسية مفاجئة، لكن عندما صارت قدمي فيها شعرت بوجود شيء تحت النعل رطب ونصف قاسي، واندذهشت تجاه ذلك، وخشيت من أن يكون قد دخل إلى حذائي عقرب، أو علجوم أو أفعى ملتفة، وازداد هذا خاصة عندما بدا لي أنني أشعر بحركة الحيوان وهو يلتوي تحت قدمي، ومع أنني خشيت أن تكون قدمي قد تسممت، لم أسحبها من الحذاء، لأن البقية كانوا قد امتطوا حميرهم، وكانوا يصعدون فوق الممر، وقد خفت من البقاء خلفهم لوحدي، وقمت على كل حال بدفع قدمي بشدة فوق حجرة، حتى أتمكن من قتل المخلوق، وهكذا ركبت بغلي لكن ليس دون الخوف من التسمم، وعندما كنا صاعدين للجبال، وصلنا إلى ممر منحدر وضيق، توجب علينا أن نصعد عليه واحداً تلو الآخر بسبب خطر سقوط الحيوانات، ثم إنه لم يكن بإمكاننا السير والتقدم جميعاً واحداً تلو الآخر، بل توجب على الذين كانوا بالأسفل الانتظار حتى يكون الذي سار

أولاً قد صعد الطريق كله.

وترجلت في هذا المكان من على بغلي، وجلست أرضاً، وخلعت حذائي، الذي خيل إلي أنني سأجد فيه واحداً من الهوام قد سحق، وعندما وضعت يدي فيه، وجدت شيئاً مارطباً، ومن خلال الشم عرفت ماهو، وتبين لي مالم أعرفه لابلنظر ولا باللمس، وأنه لم يكن هناك لاقرب، ولا علجوم، ولا أفعى، بل غائط بشري، ولدى معرفتي بذلك، لبست حذائي ثانية وأنا شديد الانزعاج، وعاودت امتطاء بغلي، وأنا مرتبك ومتضايق، وسرت خلف الآخرين، وأنا آسف، أتساءل في نفسي، من الذي أبدى نحوي قلة الاحترام هذه ومزح معي هذه المزحة الشنيعة، ومن الذي من بين الفرسان كان قليل الاحترام إلى هذه الدرجة حتى وضع غائطاً في حذاء حاج وكاهن:

وبدأت أتشكك بواحد من أعظم النبلاء، الذي كان لطيفاً وودوداً جداً معي، وظننت أنه بسبب رفعه للكلفة معي أقدم على هذه الفعلة، وأزعجتني هذه المسألة كثيراً، لذلك قررت، وأقسمت في قرارة نفسي، وقطعت على نفسي عهداً بأنني لن أسافر مسافة أخرى مع هذه الجماعة سواء في البر أو في البحر، وتخلت نفسي عن الحج إلى جبل سينا، لكنني لم أخبر أحداً بما وقع لي، بل قضيت على طريقي صامتاً، وكأنني كنت أصلي، والذي حدث هو أنني أخطأت بحق اللورد الذي شككت فيه، وبجميع رفاقي، ووجدت فاعل هذه الفعلة، وذلك بدون أدنى شك، فعندما قمت بالقدس بخلع حذائي في قلايتي حتى أتمكن من تنظيفه وتنظيف يدي وقدمي، واخراج الغائط الذي كان به، وجدت في داخله خنفسة سوداء كبيرة، ولدى رؤيتها للوهلة الأولى كنت خائفاً، حيث ظننت أنها عقرب، كنت قد سحقته مع الغائط، ولكن عندما رأيته أنها كانت خنفسة، كنت مسروراً، لأنني عرفت الآن بشكل أكيد، أن مامن أحد وضع الغائط في حذائي غير هذه الخنفسة، وفي الحقيقة الخنافس في

هذه المناطق — بالألمانية Roskafer — [خنفسة حصان] كبار جداً، ويفقس من روث الخيول، وهن يطرن ويزحفن حول الطرق، وهن يجمعن مواداً مناسبة، وعندما يفرغن من جمعها يعملن منها كتلة، أو كرة بحجم بيضة، ويدفعن هذه البيضة بأقدامهن الخلفية، ويرحن أقدامهن الأمامية على الأرض، وبذلك يدفعن الكرة خلفهن، ويسرن مثل سرطان إلى أي مكان تقودهن غريزتهن إليه.

وعندما كن يصلن إلى المكان الذي سترقد الكرة فيه، كانت الخنفسة تضع نفسها في الكرة، جاعلة إياها بيتها وطعامها، وعملت هذه الكرات دوماً من مواد قدرة، أو من روث بعض الدواب، وغالباً ماوقفت شخصياً دونها حراك على الطريق، حتى أتمكن من مراقبة هذه الخنافس وهن يدفعن على طول الطريق كرات ضعفهن أنفسهن بالحجم، الشيء الذي لم أره قط في بلادنا، مع أن كثيراً منهن نشأن هناك من روث الخيول على الطرقات، وعلى هذا كان الذي حدث في قضيتي أن خنفسة وجدت بعض الروث، فعملته على شكل كرة مستديرة، ودفعتها إلى حذائي، وقصدت أن تكون ضيفي، وغالباً ماقت بعد ذلك بإخبار السادة اللوردات الحجاج حول ذلك، وكيف أنني انزعجت جداً، وشككت بهم.

وأطلق يوسبيوس في مصنفه Praeparatio Evangelica — الكتاب الثالث، الفصل الثاني، على هذه الخنفسة اسم الجعل، حيث اعتاد المصريون القدماء على القول بأنها مخلوق مقيت بالنسبة لغير المتفقهين باللاهوت، لكن هي بالنسبة للمتفقهين تستحق أعلى احترام على أساس أنها نموذج حي للشمس، وكل فرد منها هو ذكر من حيث الجنس، وهي تضع بيوضها داخل الروث، ثم تعمل هذا الروث على شكل كرة، ثم تحتضن الكرة بين قدميها مثلما تحتضن الشمس السموات، وتنتظر الشهر القمري، ولسوف يجري شرح هذا في القسم

الثاني ص ١٣٧ ظ.

المناطق التي شاهدها من جبال عين الجدي

وفي عودة إلى الموضوع الذي ابتعدت عنه، أقول: بعدما أمضينا الليل على سفح جبل عين الجدي — كما قلت من قبل — وعندما أشرقت الشمس، ارتحلنا صعوداً نحو الجزء الأعلى من الجبال، ووصلنا في أعلى القمم إلى مكان، حيث وجدنا أكواماً من الحجارة مكومة، وقد عملت من قبل المسلمين، تكريماً لموسى، لسبب سوف أتولى شرحه بعد قليل، وبناء عليه توقفنا علناً نستطيع أن نشاهد المنطقة، لأننا كلما كنا في منطقة أعلى، كان يمكننا أن نرى أبعد وأعرض فوق المناطق على كل من هذا الجانب، ومن الجانب الآخر للأردن، وجميع منطقة سدوم كلها تقريباً، وأرغب في هذا المكان بتقديم وصف مختصر لأجناس الناس، وللمناطق والأماكن التي رأيناها، وكنت قد قدمت لها وصفاً جزئياً، أثناء حديثي عن جبل القرنطل.

وألقينا قبل كل شيء بأبصارنا نحو الشرق، فرأينا جبال العربية، وكان الجبل الرئيسي بينها هو جبل تريمونيوس Trimonius، الذي يعرف في أجزائه المنخفضة باسم عبريم، وفي وسطه باسم نيبو Nebo، وعلى حوافه باسم فسغه، وكان ذلك هو الجبل الذي أمر الرب موسى بصعوده، حتى يمكنه من هناك رؤية الأرض المقدسة، التي إليها لا يمكنه الدخول، كما جاء الخبر في سفر التثنية: ٣٤.

ويوجد تحت هذا الجبل واد عميق وكبير، يطلق عليه اسم عربات مآب Galmoab، كما جاء في الاصحاح الأخير من سفر التثنية، ويقول بعضهم بأنه عندما كان موسى على قمة جبل فسغة أمكنه وهو ينظر نحو الأرض المقدسة أن يرى جميع أسرار قداسات المسيح، وتجسده، وولادته، وحياته، وآلامه، وموته، وعندما كان منشغلاً بهذه التأملات

الحلوة جداً مات على الجبل، ودفنه الرب، وأخفاه في الوادي، خشية من الناس، الذين كانوا يميلون إلى الوثنية، أن يقوموا بتقديس جسده إذا أمكنهم العثور عليه، ولذلك حاول الشيطان، الذي رغب في جلب الوثنية، أن يريهم موسى المقدس، لكن ميكائيل أوقفه ومنعه من فعل ذلك، كما قرأنا في رسالة يود Jude العامة: ٩.

غير أن جيروم في تعليقاته على عاموس، بدا وكأنه يرى بأن موسى قد رفع بشكل إعجازي إلى السماء مثلما وقع لإينوخ ولإيليا، لأنه قال: «لقد بنى مصعده، وصعد مع إيليا، ومع موسى، الذي لا يمكن العثور على قبره، لأنه صعد إلى السماء»، وفي هذا الوادي، الذي قيل فيه دفن الرب موسى، قام النبي بإخفاء النار المقدسة، وتابوه الرب، ومذبح تقديسات الحرق، وخيمة العهد، وذلك حسبما جاء في سفر المكابيين الثاني: ٥-٦.

ورأينا وادي عربات مآب المقدس هذا، واقع على مسافة بعيدة، وذلك على الجانب الأقصى للبحر الميت، ورأينا فسغة، والقمة العالية لجبال عبريم، ويوجد من قمة هذا الجبل مشهد يمتد حتى أرض مدين، ومن الممكن من هذه القمة أن يرى الانسان أيضاً سيناء وحوريب، ورأينا أيضاً منطقة مآب السهلية، وفوقها الجبل الذي من عليه حاول النبي بلعام أن يلعن بني اسرائيل، وكان بلعام قد اكتراه ملك مآب، وقد قال جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، بأن اسم ذلك المكان كان أغريسبيكيولا Agripecula ، وكان بلعام قد تولى مباركة الناس الذين في السهل تحت، عوضاً عن لعنهم، وذلك كما قرأنا في سفر العدد: ٢٣.

وقمنا الآن بتحويل أبصارنا عن الشرق إلى الجنوب، إلى ماوراء البحر الميت، حيث رأينا بلاد قفار البتراء، لكن البتراء في القفار نفسها لم نستطع رؤيتها، وكانت هذه البتراء في القفار، في الأيام الخالية، قلعة في

غاية الحصانة في بلاد مآب، التي فيها ولدت راعوث، المآبية الفاضلة، والتي عنها قيل في الاصحاح الثالث من سفر راعوث: «إن جميع أبواب شعبي تعلم أنك امرأة فاضلة»، وكانت راعوث هذه زوجة بوعز، ومنها قُدِّر في سلسلة النسب وجوب ولادة المسيح، ولهذا دعا النبي إشعيا في الاصحاح السادس عشر نفسه بأن يرسل المسيح من البتراء في القفار إلى القدس وقال: «أرسلوا الحمل، يارب، يا حاكم الأرض، من بتراء القفار إلى جبل ابنة صهيون، أي إلى القدس»، فهنا سأل النبي من أجل استمرار النسب من خلال السيدة التي ولدت في البتراء في الصحراء، ولهذا ورد في سفر نسب المسيح اسم راعوث بشكل واضح، وقال جيروم في رسالته إلى بولينوس: «حققت راعوث المآبية نبوءة إشعيا، في قوله: «أرسلوا الحمل» الخ، وقال نفسه في رسالته إلى باولا: «راعوث الغريبة، التي من نسلها ولد المسيح»، وتحدث أيضاً في رسالته إلى روفوس عن راعوث، بأنها «أخذت من الأمم لتكون حصتهم في المسيح»، هذا ويمكن من دون تقدير لهذا المعنى الخفي، يمكننا أن نقول بأن النبي قد رأى مدينة القدس في مضائق عظيمة، وأنها في قبضة الأمم، فسأل من أجل ارسال حاكم لها من بتراء القفار، لأن البتراء كانت قلعة حصينة جداً، لا يمكن الاستيلاء عليها، وكانت أمماً كثيرة خاضعة لسيدها، وعلى هذا سأل أن يرسل صاحب البتراء في الفيا في للدفاع عن ابنة صهيون، التي هي القدس، لأنه عندما سيرسل مامن انسان سوف يحاول إلحاق أي أذى بالقدس.

وقام بلدوين الثاني، الملك اللاتيني للقدس بتحسين هذه القلعة (الكرك) بقوة بلغت حداً أن العالم كله لم يكن قادراً على الاستيلاء عليها، فقد بنى ثلاثة أسوار من حولها، ففي إطار السور الأول، كانت هناك صخرة مرتفعة جداً، ذات شكل مستدير، قامت على حافتها أبنية طويلة تشرف بعيداً على البلاد، وكان في الأسفل، عند سفح هذه

الصخرة ثلاثة ينابيع تتدفق بمياه صحية عذبة، تزودت القلعة منها بوفرة، ومنها أيضاً كانت تتم سقاية جميع الأرض الواقعة دون القلعة، وكان يوجد في داخل السور الثاني كروم جميلة، من ثمارها كانت تصنع كميات كبيرة من الخمرة، وكان في إطار السور الثالث حقول وبساتين، استخدمت لانتاج كميات عظيمة من القمح، والزيت، والأشياء الأخرى المحتاجة.

ولم يستطع المسلمون الاستيلاء على هذه القلعة الجلييلة، لولا أنه تمت خيانتها وسلمت إليهم من قبل مسيحي مزيف، وعندما جرى الاستيلاء عليها، وضع فيها سلطان ذلك الوقت أسن أولاده، حتى يكون سيد تلك القلعة مع قفار البتراء، فضلاً عن هذا أودع فيها جميع ثرواته، عادداً إياها أكثر الأماكن أماناً لديه، وهي في هذه الأيام مستودع خزانة السلطان ملك مصر.

وتدعى هذه القلعة من قبل اللاتين باسم بتراء القفار، ومن قبل المسلمين باسم الكرك، ومن قبل الاغريق الشوبك Schabat، وعندما حددنا بها بشكل كامل ركعنا باتجاه ذلك المكان، وحمدنا الرب الذي بعث إلينا من البتراء في القفار المسيح من خلال راعوث، المسيح الذي هو سيد الدنيا، وصلينا للرب من أجل أن تعود هذه القلعة إلى أيدي المسيحيين، وأن لا تبقى القدس مدة أطول بالأسر.

وهناك في هذه المنطقة نفسها مدينة اسمها أريوبولس، وهي تعرف أيضاً باسم البتراء أو البتريا، وكانت هذه فيما مضى المدينة الرئيسية في جميع العربية.

وليس بعيداً عن هناك توجد أيضاً مدينة أخرى حصينة الدفاعات جداً، اسمها ربه، فأمام هذه المدينة سقط أوريا الحثي بتدبير داوود، وعندما كانت على وشك السقوط، جاء داوود واستولى عليها، وانتزع

التاج من على رأس ملكون، ملك ربه، وكان فيه جواهر ثمينة، ورطل من الذهب Talent وقد أذابه داوود، وعمل منه تاجاً لنفسه، ووضع في وسطه الحجارة الكريمة من الجزع الذي لامثيل له، ووضعته على رأسه، وقد وردت أخبار هذا كله في سفر صموئيل الثاني: ١٢/ ٣٠-٣١، وسفر أخبار الأيام الأول: ٢٠/ ٢.

وبعد المناطق المتقدمة الذكر على شاطئ البحر الميت، توجد أرض أدوم، التي فيها يوجد الطريق من أرض اسرائيل إلى أرض مآب وعمون، وتمضي من حول البحر الميت، وهي قفار جرداء لاماء فيها، وفيها كاد أن يهلك فيما مضى ثلاثة ملوك مع جيوشهم بسبب الحاجة إلى الماء، لكن الرب أعطاهم الماء بمعجزة، حسبما جاء الخبر في سفر الملوك الثاني: ٣، وعندما حصلوا على الماء، ووصلوا إلى بلاد مآب، دمروها بشكل في غاية الوحشية، وذلك حسبما ورد في الاصحاح نفسه.

وصرفنا أعيننا مجدداً، وحولناها عن هذه الأماكن، فرأينا على هذا الجانب من الأردن والبحر الميت المكان الذي اسمه بيت حجلة، حيث أقام بنو اسرائيل مناحة عظيمة على جسد البطريك يعقوب، أباهم المتوفى، الذي كانوا قد جلبوه من مصر ليدفنوه في حبرون، في الكهف المزدوج، وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحاح الأخير من سفر التكوين، وعرفت بيت حجلة باسم قريات لدى جيروم «حول المسافات بين الأماكن»، وهي تبعد مسافة فرسخ واحد عن الأردن، وكان هناك قبل وقتنا بقليل دير للرهبان الاغريق، علاوة على ذلك رأينا في تلك البلاد مدينة أغريبا Agrippa، التي أطلقوا عليها في Historia Ecclesiastica — الكتاب الثاني، الفصل الرابع اسم بيللا (فحل)، وكانت الكنيسة المقدسة قد انتقلت إلى هذه المدينة من القدس، حيث تلقت انذاراً من الروح القدس، لأن تهرب بذاتها قبل حصار القدس من قبل تيتوس وفاسبسيان، وذلك خشية أن تشارك في المأساة الكبيرة.

وعلى مقربة من هذا المكان، عبر الأردن ، هناك بيت عنيا أخرى، فيها قام يوحنا بالتعميد أولاً، وفيها أقام الرب يسوع بعض الوقت عندما هرب من اليهودية، وذلك حسبما ورد الخبر في انجيل يوحنا: ٤، وذكر بعضهم أن اسم المدينة التي إليها هرب الرب افرام، وإليها التجأ مع تلاميذه، فهذا ماورد في انجيل يوحنا: ١١، وكانت قرية من القفار، عبر الأردن، وبشكل عام، هرب الذين وقعوا في مشاكل من اليهودية، إلى عبر الأردن، مثلما حدث مع داوود، فعندما حدثت له مشاكل مع شأوول، أحضر والده وأمه إلى ملك مآب، حسبما ورد الخبر في سفر صموئيل الأول: ٢٢، هذا وقال القديس جيروم المبارك في كتابه « حول المسافات بين الأماكن » بأن المدينة التي اسمها إفرام، والتي إليها هرب الرب يسوع للالتجاء، كانت في ديار سبط يهوذا، ولم يكن لسبط يهوذا حصّة عبر الأردن، وقال خريسوستوم بأن إفرام هي إفراتا، وإفراتا هي بيت لحم، ووضح هنا أن البيروتوس موافق على هذا، في تعليقاته على يوحنا، لأنه قال بأن الرب قد جاء إلى افرام لأنه امتلك هناك اصدقاء ومعارف، لكن هذا أيضاً لايتوافق مع النص، الذي قال بأن افرام كانت على مقربة من القفار، في حين ليست بيت لحم قرية من القفار، ما لم يختر الانسان القول بأن المقصود هو الأماكن الصحراوية لسدوم، التي تمتد حتى جبل بيت لحم، وأنها هي التي قصدها الانجيلي (يوحنا: ١١)، ورأينا أماكن أخرى كثيرة عبر الأردن، في بلاد جلعاد، وعبر البحر الميت، في أرض عمون ومآب، وبعد رؤيتهم حولنا أنفسنا للتحديق بالأماكن التي كانت أقرب إلينا.

الأماكن حول البحر الميت من جهته الغربية

وأكثر من ذلك حوله نفسه

وبعدما فرغنا من رؤية الأماكن الواقعة على الجانب الآخر من البحر الميت، ومن الأردن، ثبتنا أنظارنا على البحر نفسه، وتعجبنا نحو الدخان

هناك، لأنه مثلما حدث مع ابراهيم بعدما صعد على الجبل في الصباح الباكر، ونظر نحو سدوم وعموره، ونحو جميع أرض السهل، وتطلع وإذا فجأة قد تصاعد دخان المنطقة مثل دخان أتون، حسبما جاء الخبر في سفر التكوين: ١٩، حدث مثل هذا معنا نحن، فلدى تطلعنا نحو تلك المنطقة، رأينا غيمة صاعدة، لكن ليس من النار، بل من الماء، مثل الدخان الصاعد من أتون، وجميع الأماكن التي بللها ذلك الضباب وتلك الغيمة قد تسممت، وتحولت إلى قاحلة وبلا فائدة، بالطول وبالعرض حول حدود ذلك البحر، وذلك كعلامة دائمة على الغضب الرباني الدائم، ضد أهل سدوم الذين كانوا أكثر الناس شروراً.



وبعدما نظرنا إلى البحر الميت، رأينا على الشاطئ هناك، على الطرف القريب، وذلك باتجاه النهاية الجنوبية، المكان الذي اعتاد أن يقف فيه تمثال الملح الذي تحولت إليه ميلاسيدا، زوجة لوط، لأنها نظرت نحو الخلف، على الرغم من أن الملاك حذر عليها فعل ذلك، وكان هذا وقت احتراق أرض أولئك القوم الأشرار، وكان هذا التمثال يقف فيما بين صوغر والبحر، وكان هذا التمثال حجرياً من الرخام الأبيض، وقد قيل بأنه ما يزال قائماً هناك، لكنه الآن مغطى بالبحر، وعندما كان قائماً على الشاطئ اعتادت الحيوانات على أن تحتشد حوله، وتقوم بلحس الملح من عليه.

وإلى جانب هذا التمثال، يوجد في تلك المنطقة كثيراً من الصخور الرملية والحجارة، وقد ورد الحديث عن تمثال ميلاسيدا في سفر التكوين: ١٩، وقال يوسفوس بأنه قد رآه، ونحن في الحقيقة رأينا المكان الذي كان فيه، في منتصف الطريق فيما بين البحر وبين جبل صوغر، لكن التمثال نفسه لم نستطع رؤيته، ثم إننا لم نكن واقفين على مسافة قريبة كافية، حتى نميز بين الصخور حجم إنسان، ومع ذلك رأيناه من

خلال عين الايمان الثابت، لأننا نؤمن بالكتابات المقدسة التي تحدثت عنه، ولقد نظرنا نحو المكان باهتمام كبير، وتعجبنا نحو معجزة هذا التمثال المدهش والمثير للاستغراب.

★★ ★★ ★★

ورأينا فوق مكان هذا التمثال المتقدم ذكره، صخرة كانت بوضعها كما هي مشرفة على البحر، فعلى هذه الصخرة قام فيما مضى مدينة صوغر، التي كانت احدى المدن الخمسة للسدوميين، وقد عرفت هذه المدينة باسم آخر هو بالع، وذلك حسبما ورد في سفر التكوين: ١٤، وإلى هذه المدينة كان لوط قد صعد، عندما كانت المنطقة تحت تحرق، ومن أجله استثنيت من الاحتراق، وكان عندما رأى المنطقة كلها تحترق ولحقها الدمار، صار خائفاً، وهرب مباشرة إلى قمم الجبال، وحدث على كل حال أنه عندما ابتعد عن صوغر، تهدمت بوساطة هزة أرضية، وسقطت مع جميع الذين سكنوا فيها، واحترقت مع سدوم.

وفوق صوغر هناك جبل مرتفع، إليه صعد لوط مع ابنتيه، خشية الاحتراق بالنار..... وهنا حملت ابنته الكبرى بولد، كان اسمه مآب، وحملت ابنته الصغرى بولد أطلق عليه اسم عمون، ومن ابنتي لوط هاتين انحدر شعبان عظيمان، عنهما نقرأ في سفر التكوين، وغالبا ماورد الحديث عنهما في أسفار الكتابات المقدسة، وكان هذا الجبل إلى جانبنا، وبسرور حدثت السادة الحجاج بحكاية لوط وابنتيه، وكان على جانبنا الآخر جبال القرنطل وقفار أدوميم، وقد تقدم لنا وصفهما من قبل.

وبعد مشاهدتنا للأماكن المتقدمة الذكر، ألقينا بأبصارنا على المكان الذي وقفنا فيه، حيث رأينا كوماً كثيرة من الحجارة، جمعت من قبل المسلمين، كما سلف لي الحديث من قبل، وقام المسلمون بتكويم هذه الحجارة تشریفاً لموسى، لأنه من هذا المكان يستطيع الانسان أن يرى

بوضوح جبال عبريم، وقمة جبل فسغة، التي منها رأى موسى ميراث الرب، كما سلف لنا وتحدثنا من قبل، ولهذا يقوم المسلمون، عندما يقدمون إلى هذا المكان بعمل كوم من الحجارة، ويصلون وهم يتطلعون نحو الجبل، على ركبهم المنحنية، ومثل هذا يفعل المسيحيون لأنهم عندما يرون من مكان بعيد أي مكان يمكن الحصول عليه على غفرانات، ينصبون أيضاً صلباناً، وكوماً من الحجارة، وليس بعيداً، عن هذه الأكوام رأينا هرمًا عاليًا قد بني حديثاً، تحته يقول المسلمون بشكل زائف بأن موسى قد دفن، وهذا معارض لشريعة الكتاب المقدس حسبما ورد في الاصحاح الأخير من سفر العدد.

وهكذا يفعلون بالنسبة إلى جميع القضايا الأخرى، فهم يتبعون التوراه عندما يرغبون، لكن عندما لا يرغبون بذلك، يعارضونها بكل عناد، على الرغم من صدقها.

وكان اسم الجبل الذي وقفنا عليه، جبل عين الجدي، وكذلك نجد أن اسم الجبال المتصلة به في سفر التكوين: ١٤، وفي سفر أخبار الأيام الثاني: ٢٠، هو «حصون تامار»، كما كانت فيما مضى بلاد العموريين، وقال القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، بأن عين الجدي موجودة في ديار سبط يهوذا، وذلك في القفار الموجودة في الوادي فوق البحر الميت، وقال بأنها كانت في أيامها هناك بلدة كبيرة جداً، وإلى موضع عين الجدي هذا كان داوود قد هرب من وجه شاول، لكي يكون هناك آمناً، في حصن منيع، وذلك حسبما قرأنا في سفر صموئيل الأول: ٢٤.

وفي الحقيقة هذه الجبال عالية ووعرة، يتخللها عدد كبير من الكهوف، وملئة بالجروف، وكان بين هذه الكهوف، كهفاً عميقاً، وكبيراً ومظلماً، وكان موجوداً في واد كثير الأشجار، وذلك على جانب صخرة عالية جداً، وكان له مدخل عريض، يشرف على صخور

منحدرة كثيراً، ومن المناسب تسمية هذا الكهف باسم مدرسة رحمت داوود، لأنه في هذا الكهف التجأ داوود ورجاله المسلحون، وأخفوا أنفسهم في أقصى أماكنه الداخلية، وذلك عندما سمعوا بأن الملك شاول كان يزحف مع ثلاثة آلاف رجل فوق هذه الصخور المنحدرة جداً، التي يمكن عبورها فقط من قبل الوعول أو تيوس الجبل، وقد دفعته الغيرة إلى هذه الأماكن التي لا يمكن الوصول إليها، بسبب أنه لم يكن بإمكانه تحمل غناء الناس، الأغاني التي اعتادوا على غنائها بشكل جماعي، وفيها أعطي المدح إلى داوود أثناء الغناء أكثر مما أعطي له في قولهم: «قتل شاول آلافه، لكن داوود قتل عشرات الآلاف»، وهكذا جاء شاول نازلاً مع رجاله إلى كهف داوود، والذي حدث هناك يمكن القراءة عنه في سفر صموئيل الأول: ٢٤.

★★ ★★ ★★

كرم عين الجدي

علاوة على ذلك، قام فوق هذه الجبال هناك فيما مضى كرم عين الجدي الواسع الشهرة، حيث نما هناك البلسم الذي لا يقدر بثمن، وقد زرع هذا الكرم في موضع عين الجدي من قبل الملك سليمان، وقال مصنف Speculum Historiale على لسان يوسفوس بأن ملكة سبأ، التي قدمت إلى القدس من أطراف الأرض من أجل الاستماع إلى حكمة سليمان، حسبما جاء الخبر في سفر الملوك الأول: ١٠، جلبت معها هدايا ثمينة كثيرة، كان من بينها جذور البلسم بمثابة هدية لا يقدر ثمنها، وقد زرع الملك هذه الجذور على جبل عين الجدي، وقد نمت على شكل كرم هناك [٢٤٧]، وقد ورد ذكر هذا الكرم في نشيد انشاد سليمان حيث قال «محبوبي مثل عنقود كافور في كروم عين الجدي»، وهذا الكرم موجود الآن في مصر، ولسوف أذكر في المستقبل من الذي اقتلعه ونقله، وفضائل البلسم والكافور، وكنت قد قرأت في كتاب حج قديم إلى

الأرض المقدسة، بأن بعض الحجاج قاموا بالتجول فوق هذه الجبال، وهم يبحثون بعناية، وأنهم وجدوا في أحد الأماكن غرسات من البلسم إنما دون أغصان، ونما فيما مضى على هذه الجبال كروم عنب ممتازة، من خمرتها، يعتقد أن ابنتي لوط قد أسكرتا ابيهما، حسبما قرأنا في سفر التكوين: ١٩، ولو أن هذه الجبال امتلكت في هذه الأيام أية مزارعين، لانتجت ثمار ثمينة بوفرة.

عودة إلى القدس

وعندما فرغنا من رؤية المناظر المتقدمة الذكر، تحولنا مبتعدين عن الشرق، وذهبنا صاعدين التلال نحو القدس، وفي واحد من الطرق المقعرة، بدأ البغل الذي امتطيته يعدو مسرعاً — لسبب لم أعرفه — محاولاً سبق الآخرين، وعندما حاولت كبحة بوساطة المقود، رماني أرضاً، وعانيت من وقعة ثقيلة، وعندما رأى دليلنا حامد هذا قفز من فوق ظهر حصانه، والتقطني ورفعني من حيث كنت متمددًا، وضرب على أطرافي، وحرك مفاصلي، ثم أمر واحداً من خدمه بجلب بغلي، الذي كان يعدو فاراً هناك، وفي الحقيقة أبدى هذا المغربي غير المسيحي نحوي كثيراً من اللطف أثناء اضطرابي، بقدر يعادل أعظم ما يستطيع أن يفعله مسيحي رقيق القلب، وبعدما انتعشت كثيراً، رفعوني إلى ظهر البغل، لأنني لم أستطع أن أعين نفسي بذراعي، هذا ولم ينكسر أي من أطرافي الأمر الذي أدهش حامد وأبهجه، لأنني سقطت — والبغل يعدو — بشدة كبيرة على الصخور، ودعوت إلى الرب أن يصفني رحمته على ذلك المسلم، مثلما أضفى رحمته عليّ، وبناء عليه أسرعنا أنا وحامد وراء رفاقي، الذين كانوا قد قطعوا مسافة طويلة أمامنا، ومثلهم سرنا صاعدين في وادي جهنم، وعندما كنا مانزال في قلب الوادي، ونظرنا نحو الأعلى، أمكننا أن نرى مدينة القدس المقدسة، وهي تلمع عالياً، وتأثرنا بهذا المشهد مثلما حدث لنا من قبل، وعندما وصلنا إلى

المدينة المقدسة، حدثنا إخواننا، الذين مكثوا خلفنا عن كل الذي شاهدناه، وعن كل الذي وقع لنا ونحن على الطريق.

قلق الحجاج من أجل الانطلاق إلى جبل سيناء

وفي اليوم الثالث عشر، الذي كان يوم عيد القديس هبولايت Hip-polyte وورفاقه، بعد سماعنا قداساً على جبل سيناء في الصباح الباكر، ذهب السادة الحجاج إلى مكانهم، وأخذنا نتشاور حول مغادرتنا التي كنا متشوقين إليها، وبدا لنا أن كاليوس الأكبر، الذي كان ترجماننا، كان يؤخر مغادرتنا وسفرنا من القدس، وأن أي تأخير أطول سوف يكون مؤذياً لنا، ولم يكن ذلك — في الحقيقة — لأننا كنا قد مللنا من الإقامة في المدينة المقدسة، التي أقمنا بها ونحن راغبين كثيراً، وكنا سعداء، بل الذي كنا نخشاه هو أن نضيع مواعيد سفن التجار في الاسكندرية، التي أعددتنا أنفسنا للابحار على متونها إلى إيطاليا، ولكي لا نرغم على امضاء الشتاء في الاسكندرية، الأمر الذي سيكون مؤذياً لنا إلى أبعد الحدود، ولذلك ذهبنا كلنا إلى بيت السيد جانم، حاكم القدس، حيث وجدنا معه السيد فكاردينوس Vacardinus وأدخلنا إلى حضرته، وبعدما سمعنا ما قلناه، أمرا باستدعاء ترجماننا Sabbathytanco ، وأمرنا بالانطلاق بنا بكل سرعة، وبعد نقاش فيما بينهم، أخبرونا أنه لا بد من إقامتنا في القدس مدة عشرة أيام أخرى، بعدها سوف نبدأ من دون أي تأخير سفرنا في القفار، وقالوا لنا: «أعدوا أنفسكم في هذه الأيام وجهزوها بجميع الأشياء المحتاجة للرحلة من بقسماط وتين يابس، وخمرة، وهكذا دواليك»، وبهذه الكلمات سمحوا لنا بالمغادرة إلى أماكننا.

وشرعنا في ذلك اليوم نفسه باعداد أنفسنا، ودفع كل واحد منا دوقيتين إلى غازيلوس حتى يعطينا إذنا لشراء خمرة من كل من المسيحيين واليهود، وكان غازيلوس مسيحياً من ذوي الزنار، وهو

يشغل وظيفة تابعة للسلطان، وكانت المسألة التي هي في إطار سلطته: أن لا يسمح لمسيحي بشراء خمرة، من دون أن يدفع ضريبة له، وإذا ماجرى خرق هذا القانون، وعرف هو ذلك، كان يقوم باقتحام الأماكن التي إليها جلبت الخمرة التي شريت، ويصادرها شخصياً، أو يقوم بكسر القوارير، ويترك الخمرة تجري فوق الأرض، ومن هذا اليوم حتى يوم مغادرتنا، عانينا من اضطرابات كثيرة وعملنا جاهدين لتجهيز أنفسنا بكل ما كنا بحاجة إليه للسفر خلال القفار، وحملنا معنا جميع الأشياء التي جهزناها إلى جبل صهيون، إلى دير الرهبان هناك، ووضعناها في بيعة القديس فرانسيس، تحت الكنيسة، وخلال بضعة أيام ملأنا البيعة كلياً بالبقساط، وبالحقائب، وبالقوارير الزجاجية، والقذور، وعملنا كومة كبيرة، بين فئتنا الثلاثة، وفي ذلك اليوم نفسه، ذهبت عند المساء أنا واثني من الفرسان إلى وادي شعفاط، للقيام ببعض الأعمال، وعندما أنهيناها، زرنا الأماكن المقدسة على جبل الزيتون، وعندما كنا على القمة هناك، في كنيسة صعود الرب، غابت الشمس، وبات من غير الممكن لنا دخول المدينة، إذا أمسكنا الظلام، ولذلك سرنا خلال شوارع المدينة بخوف عظيم، فضلاً عن هذا أضعتنا طريقنا، وذهبنا إلى هنا وهناك حتى وصلنا أخيراً إلى شارع كنا نعرفه، ووصلنا إلى أماكن سكننا بسلام.

كيف جرى الاحتفال بعيد صعود العذراء في القدس

وفي اليوم الرابع عشر، الذي كان عشية عيد الصعود، صعود مريم العذراء الأعظم مباركة، وبعد مضي نصف النهار، بدأنا بالاستعداد للاحتفال بعيد اليوم التالي كما يلي: فقد دخلنا غرفة ذخائر الرهبان، وأخرجنا منها قطعة عريضة من قماش الكتان، وحملناها إلى المكان الذي حملت منه العذراء المباركة، ورفعت، هذا وكنا قد وصفنا هذا المكان من قبل، ومددنا قطعة القماش هذه فوق المكان على شكل خيمة، مع أعمدة

وحبال، وعلقنا زرابي حولها عوضاً عن الجدران، وبذلك عملنا بيعة جميلة، وغطينا المذبح الموجود في ذلك المكان بقطع أقمشة ثمينة، وزيناه بصور وثمانيل، وأوعية قرايين مقدسة، وشمعدانات فيها شمع، علاوة على ذلك جلبنا إلى هناك غصنا من الزيتون فيه أوراق، وسعف نخيل، ونشرنا حول المكان أعشاباً وزهوراً، وبذلك صنعنا كهفاً مقدساً جميلاً.

وعند حلول المساء، ارتدى الأب المسؤول ثوباً ثميناً، ووشاحين، وحامل صليب، وحامل بخور، وكان القندلفتات جميعاً في أرديتهم المقدسة، وقد احتلوا أماكنهم في كنيسة الرهبان، وعندما بات الجميع جاهزين، سرنا بوقار عظيم، ومشينا بمسيرة منتظمة من كنيسة جبل صهيون، إلى موضع انتقال العذراء المقدسة، ونحن نغني ترنيمة «Et ibo mihi ad montem myrrhae» الخ، وبعد الفراغ من هذه الترنيمة، غنينا أغاني العشاء وترانيم العيد بأصوات مرتفعة، في البيعة التي عملناها، ولم نتعرض للازعاج بأي شكل من الأشكال من قبل المسلمين، بل الذي حدث أنهم عندما سمعوا غناءنا، جاءوا إلى المكان، ووقفوا فاغرين أفواههم.

وفي الوقت نفسه تجمع عدد كبير من المسيحيين الشرقيين مع بعضهم، وقاموا بعد الفراغ من قداسنا، فدخلوا إلى البيعة مع كهنتهم، وشرعوا بأعمالهم التعبدية، وأقاموا في تلك الليلة قداسات هناك وفقاً لطقوسهم، هذا وقد دخلنا إلى الدير وعملنا وجبة بسيطة، بشكل تناسب الذين كانوا صياماً، وبعدما تناولنا العشاء نزلنا جميعاً من جبل صهيون إلى وادي شعفاط، ومضينا إلى كنيسة ضريح العذراء المباركة، واقتدنا معنا حملاً محملاً، حمل زيتنا وأشياء أخرى محتاجة من أجل تزيين المكان، ومن أجل إقامة القداسات، وعندما وصلنا إلى الكنيسة وجدناها مليئة بالمسيحيين الشرقيين من كل من الرجال والنساء، ولذلك ابتعدنا عنهم إلى زاويتنا الخاصة، حيث كان المذبح اللاتيني،

وأبعدنا من هناك المسيحيين الشرقيين الآخرين، الذين قدموا إلى هناك قبلنا، وأشعلنا مصابيح، لأن ذلك المكان يفتقر إلى الاضاءة الطبيعية، ويمكن أن يضاء فقط بالمصابيح.

وعلقنا زربية حول موضعنا، وزينا المذبح، وأشعلنا عدداً كبيراً من الشموع، وغنينا قداساً خاصاً بشكل جماعي، ولدى وصولنا إلى «Salve Regina» مشينا من موضعنا في مسيرة عظيمة، ودرنا خلال ضريح مريم العذراء الأعظم مباركة، ومن ثم عدنا إلى موضعنا، وبعد «Salve» كرسنا أنفسنا للسهر خلال الليل عند ضريح العذراء المجيدة، والذين لم يكن بإمكانهم السهر جلسوا سائدين رؤوسهم إلى الجدار، لكننا نلنا راحة قليلة لأن المسيحيين الآخرين كانوا ينبحون في أماكنهم المتعددة أثناء تأديتهم لقداساتهم طوال الليل، ومامن مكان كان مزينا بشكل جميل أكثر من مكاننا، كما لم يكن أي غناء أكثر وقاراً من غنائنا، لأن المسيحيين الشرقيين يحتفلون قليلاً في قداساتهم، ويبدون وكأنهم يولولون ولا يغنون، ومن أجل وصف لهذه الكنيسة، وشكلها وترتيبات أماكنها المقدسة، إنظر ماتقدم في ص ٥٨٩، وهكذا مضت تلك الليلة.

عيد الصعود المجيد لمريم العذراء المباركة

عند منتصف الليل، في اليوم الخامس عشر، شرعنا بقداس ما بعد منتصف الليل، وبعدها غنينا بوقار هذا القداس، احتفلنا بإقامة عدة قداسات خاصة في ضريح العذراء المباركة، وكان ذلك بقدر المستطاع، عندما تمكنا من الحصول على مكان هناك، لكن الذين لم يجدوا مكاناً هناك، أقاموا القداس عند مذبح اللاتين، وعندما اقترب حلول الفجر، غنينا قداساً في مكاننا بأصوات مرتفعة، ولقد غنينا بأصوات مرتفعة إلى حد أن نباح المسيحيين الشرقيين الآخرين لم يعد مسموعاً، وعند الفراغ من هذه القداسات، رفعنا جميع الزينة وبعثنا بها قبلنا إلى جبل صهيون،

في حين قمنا نحن بزيارة الأماكن المقدسة على جبل الزيتون، حيث حصلنا على غفرانات، وذهبنا بعد هذا إلى جبل صهيون، وتناولنا طعام الغداء هناك، وبعد الغداء تمددنا للاستراحة بسبب السهر الذي قمنا به.

الحج الانفرادي للراهب فيليكس فابري إلى بيت لحم

وإلى بعض الأماكن الأخرى

وسألت في بعد ظهر يوم صعود العذراء الأب المسؤول لمنحي إذنا للذهاب إلى بيت لحم، وأن يبعث معي واحداً يرافقني على الطريق، لأنني امتلكت رغبة لأن أكون وحيداً في بيت لحم بعيداً عن حشد الحجاج، وأعطاني الأب المسؤول راهبين جيدين ليرافقاني، وتركني أذهب، وبناء عليه انطلقنا معاً من القدس بشكل سري، وبدون علم أحد، وذلك خشية أن يكون معنا المزيد من المرافقين، وارتحلنا رحلة طيبة على الطريق الذي كنت قد تحدثت عنه منذ ص ٦٦٨، وهكذا وصلنا إلى قبراتا حيث يوجد قبر راحيل، وإلى جانبه رأينا قرية بازق، التي نقرأ عنها في سفر القضاة: ١، حيث قتل بنو اسرائيل عشرة آلاف رجل، ووجدوا هناك أدوني بازق، ملك القدس، فقطعوا يديه وقدميه، مثلما كان هو قد فعل شخصياً بسبعين ملكاً زحفوا تحت مائدته، وكانوا يلتقطون طعامهم بأفواههم، وقد رغبت بدخول هذه القرية، وأن أرى المكان، لأنني وبقدر ما استطعت لم أمر بمكان معروف بالنسبة لي من خلال الكتابات المقدسة القانونية، من دون أن أزوره، وبناء عليه انعطفنا نحو اليمين خروجاً على الطريق العام، إلى قرية بازق، ومررنا من خلالها، وهي كبيرة، وغير مسكونة من قبل المسلمين، بل من قبل المسيحيين الشرقيين فقط، ولم يملكها المسلمون قط، وحدث على كل حال في هذه الأيام أن قام واحد من أهل هذه القرية بالاعلان عن تخلية عن الديانة المسيحية، وختانه واعتناقه للإسلام، وهو ساكن هناك في هذه الأيام ذنباً بين شياه، ويصنع في هذه القرية خمر رائعة ومتفوقة في

قوتها، وهي عندما تشربها صرفة، مع أنها لا تؤذي الرأس، تجدها تمتلك قوة تحرق الجوف والأمعاء، ولذلك يتوجب على الانسان مزجها بكثير من الماء، وأنا لا أتذكر أنني شربت خمرة أفضل منها.

وتابعنا سفرنا من بازق، فوصلنا إلى بيت لحم، حيث جرى الترحيب بنا بلطف من قبل الأب المسؤول والرهبان، وعملنا عشاءً جيداً، وبعد العشاء أخذت إلى قلاية للاستراحة لكن وأنا أقوم بالاستراحة هناك، هرب النوم من عيني، وتمددت فوق فراشي لبعض الوقت وأنا مستيقظ تماماً، ثم للملي من الرقاد، نهضت، وودت أنني لو كنت في الكهف المقدس لميلاد المسيح، لكنني لم امتلك أملاً بالتمكن من الدخول قبل منتصف الليل، لعلمي بأن جميع الأبواب كانت مغلقة، ومع ذلك خرجت بهدوء من قلايتي، ودخلت إلى بيعة القديس نيقولا، التي كان الرهبان فيها يتلون صلواتهم الساعية، وفي هذه البيعة كان هناك باب سري خاص من خلال ممر ضيق إلى الكهف المقدس، وهو باب يسعى الرهبان غاية جهدهم لإبقائه سرياً، خوفاً منهم من المسلمين والمسيحيين الشرقيين الذين ماكانوا يسمحون بذلك، كما تقدم لي وتحدثت عن ذلك، ومضيت من خلال هذا الباب دونما أي أمل، لكنني وجدته مفتوحاً، ودخلت بسرور عظيم، وأخذت طريقي خلال ممر منجور في الصخر، ووجدت الباب في النهاية الأخرى أيضاً مفتوحاً، من خلاله عبرت إلى الكهف الأعظم قداسة، الذي وجدته مضاء بعدد كبير من المصابيح، ووجدت البابين اللذين يمر الانسان من خلالهما ويذهب إلى الكنيسة مغلقين بشدة، ولدى ايجادي نفسي وحيداً في الكهف المقدس، قلت وأنا مسرور: «مبارك هو الرب، ومباركة هي جميع المعينات لنومي واستراحتي، حيث بذلك أمكنتي البقاء في هذه العزلة التعبدية الأعظم سروراً إلى جانب مهد المسيح الجميل»، ولذلك أخذت نفسي للقيام بسهر مقدس، وأمضيت الساعات وفق أحسن ما استطعت وما عرفت،

لأن هذا المكان في الحقيقة في غاية العذوبة، ويدفع نحو التقوى، كما قلت من قبل، ومن السهل والممتع البقاء بدون نوم إلى جانبه.

زيارات إلى الأماكن التالية التي كقاعدة لا يؤخذ الحجاج إليها

وفي الصباح الباكر من اليوم السادس عشر، احتفلنا بقداس في الكهف الأعظم قداسة، وبعد القداس صعدنا إلى موضع الرعاة، الذي تقدم لنا وصفه من قبل، وغنينا هناك Gloria In excelsis مع الملائكة، وبعد هذا صعدنا ثانية إلى بلدة بيت لحم، فتفحصناها عن قرب، ثم ذهبنا إلى الدير لتناول الغداء مع الرهبان، وقبل أن نتناول طعامنا ذهبنا إلى مدفن الدير، حيث كانت هناك قبور الرجال الثلاثة الذين قاموا مع يوسبيوس وعادوا من الموت، حسبما جاء في رسالة سيرل أسقف القدس إلى أوغسطين، وبعد الغداء قلنا وداعاً إلى الأب المسؤول، وذهبنا إلى بيت في بلدة بيت لحم، عائد لواحد مسيحي إغريقي، كان معروفاً إلى واحد من الراهبين اللذين كانا برفقتي، وعندما سمع هذا الرجل عن المكان الذي نود زيارته، أعطانا أربعة حمير، ثلاثة لنا أنفسنا، وواحد لابنه، الذي أرسله معنا ليكون خادماً، وليعتني بالدواب، وركبنا الآن ومضينا نازلين من جبل بيت لحم، باتجاه الجنوب، على طول مجرى الماء الذي يحمل الماء إلى القدس، ووصلنا إلى قرية اسمها بيت عير Bethyr، التي على مقربة منها ريف جميل، أنا لم أر شبيهاً له في جميع الأرض المقدسة، لأن الوادي كله القائم تحت القرية كان مليئاً بكثافة بأشجار الفواكه، مع أشجار من مختلف الأنواع مثل غابة، وهم يعتقدون بأن هذه الحقائق قد غرست من قبل سليمان، وأنه هنا كانت حديقة البهجة، التي عنها قال في سفر الجامعة: ٢/ ٥-٦: «عملت لنفسي جنات وفراديس، وغرست فيها أشجاراً من كل نوع ثمر»، وإلى هذه الحديقة اعتاد سليمان أن يسوق عربته الذهبية، مرافقاً بشباب مسلحين، وذلك كلما أراد أن يخلد إلى

السُرور، وذلك حسبها حدثنا يوسف يوس في مصنفه « التواريخ القديمة لليهود » - الكتاب الثامن - الفصل الثالث، وغالباً ما قام بدعوة طائره مع أغاني حب قائلًا: « قد دخلت جنتي يا أختي وياعروسي »، (نشيد الانشاد: ١/٥)، فضلاً عن ذلك لقد رغب بريح مناسبة (نشيد الانشاد: ١٦/٤) بقوله: « استيقظي يارريح الشمال، وتعال يارريح الجنوب، هبي على جنتي فتقطر أطيابها »، وقد اعتاد سليمان على امضاء كثير من وقته في هذه الحديقة، إلى حد أنهم عندما كانوا لا يعرفون أين كان، اعتادوا على أن يبحثوا عنه فيجدونه في الحديقة، وبناء عليه عندما سألت بنات القدس العروس « إلى أين توجه حبيبك » أجابتهن « حبيبي نزل إلى جنته إلى خمائل الطيب ليرعى في الجنات ويجمع السوسن » (نشيد الانشاد: ٦)، لأنه زرع في تلك الحديقة حشائش حملت توابل وثماراً جيدة، مثل الكافور، والزعفران، والناردين، والوج، والبلسم، والقرفة، مع جميع أخشاب لبنان، والمر، والألوة، وجميع أنواع التوابل الرئيسية حسبها قرأنا في نشيد الانشاد: ٤، وكانت هناك الأعناب، وأشجار الجوز، وفي هذه الأيام لم يعد هناك توابل، والذي بقي أشجار تحمل البرتقال، والرمان، والتين، والزيتون، والتوت، والجوز، والتفاح، مثل حديقة البهجة، التي يبدو أنها تتوافق مع بيت الشعر في نشيد الانشاد: ٣/٤: « أغراسك فردوس رمان مع أثمار نفيسة فاغية وناردين ».

برك الملك سليمان

وبعدما فرغنا من رؤية هذه الحقائق البهيجة، صعدنا منهن وسرنا على طول شاطئ جدول صغير، من مياهه تسقى هذه الحقائق، بطريقة أن مجرى الماء الذي به تجري المياه إلى القدس كان على يميننا، وكانت القناة التي تجري بها المياه التي تسقي الحديقة، على يسارنا، وهكذا سرنا فيما بينهما، ووصلنا إلى ثلاث برك كبيرة، قائمات احداهن تحت الأخرى، وهذه البرك، التي - كما قالوا - تحدث عنهن سليمان في الجامعة

بقوله: «عملت لنفسي برك مياه لتسقى بها المغارس المنبتة الشجر»، وهذه المغارس هي التي قد أعطت أشجار الحديقة المتقدمة الذكر، التي إليها تساق المياه خلال قناة من البرك الثلاثة.

وهذه البرك كبيرة جداً، وقد عملت نتيجة جهود عمل عظيمة بوساطة أدوات حديدية حادة، التي بها حفرت أقصى الصخور والحجارة ونجرت بالطريقة الطولانية والعرضانية في وسط الوادي، الذي تطل عليه من على الجانبين جبال عالية ووعدة، وهذه البرك معمولة وفق طريقة أن المياه الجارية العذبة تصب في البركة الأولى التي هي الأعلى، وتملأها، والماء بعد هذا يجري إلى الثانية، القائمة تحتها، وبعد هذا تجري المياه من هذه البركة الثانية إلى البركة الثالثة، ومن هذه البركة تجري المياه خلال مجرى ماء إلى حديقة البهجة، ويوجد من هذه البركة مجرى ماء آخر ينقل الماء حتى القدس، حتى جانب الهيكل، حيث تتدفق كما سلف وتحدثت من قبل، هذا وتجري المياه، التي تسيل وراء الحدائق في الوادي، حيث تقوم المدينة، إلى سدوم، وخلال قفار تقوع، التي يحدها من الجانب الجنوبي قفار مَّان Maon.

وهنا يوجد جبل الكرمل، الذي كان ملكاً لنابال Nabal، الذي إليه أرسل داوود— عندما كان فاراً من وجه شاول— يطلب منه خبزاً وماء، غير أنه رفض مع اهانة، ولذلك غضب داوود، وزحف ضده وضد جميع أهل بيته، ولولا أن تدخلت أبيجايل، زوجة نابال، وتوسطت من أجله، لقام بتقطيعهم جميعاً، كما قرأنا في سفر صموئيل الأول: ٢٥، ورأينا فوق هذه البرك من الجهة المقابلة أكثر من ستائة مسلم يحفرون ويعملون، لجلب مياه جديدة إلى البرك القديمة ومن ثم إلى القدس، لأنه تمّ العثور على الماء بين الجبال العائدة للقفار، وذلك ليس بعيداً عن حبرون، على مسافة بعيدة عن هذه البرك، ويبدل السلطان جهده لنقل هذه المياه إلى القدس، مقابل نفقات كبيرة وتعب

عظيم، وهذا كله ضمن عمل حكيم واختراعات كثيرة ذكية وبارعة، حيث تجري قيادة مجرى الماء خلال ممرات محفورة في الجبال، بواسطة القطع في الصخر وتنظيف الحجارة، لمسافة ثمانية أميال ألمانية، عبر منحدرات عملت بقياسات وفق تقسيمات صحيحة، فضلاً عن هذا إنه يقوم الآن بتنظيف مجاري المياه القديمة، ويعمل كثيراً من الصهاريج من أجل خزن مياه الأمطار، ولم يترك وسيلة لم يجربها لتأمين الماء لمدينة القدس المقدسة، وهو بذلك لم يوفر نفقة، ولم يدخر جهداً.

وهنا يستحق السلطان الملك مديحاً كثيراً، لأن سليمان عندما كان في الالهيات: ١٧/٤٨ يمتدح الأعمال الجبارة للرجال المشهورين، امتدح الملك حزقيال، لأنه جلب الماء إلى وسط مدينة القدس، لأنه حفر الصخر الأصم بالحديد، وعمل آباراً للمياه، ولعمله هذا تلقى الملك حزقيال هذا نفسه المديح في سفر الملوك الثاني: ٢٠/٢٠، وفي سفر أخبار الأيام الثاني: ٣٢/٣٠.

ومع ذلك لم يكن عمل حزقيال مثل عمل السلطان قايتباي، الذي لم يكتف بالحفر بالصخر حتى يتمكن من جلب المياه من نبع جيحون الأعلى إلى المدينة، بل هو يقوم الآن بشق الجبال من مسافة بعيدة، حتى يتمكن من جرّ المياه إلى هناك، هذا وسلف لنا الحديث عن هذا السلطان من قبل، ويتساءل المسلمون والمسيحيون واليهود، ما الذي يريد السلطان أن يعمل من القدس، حتى أقدم على صرف الكثير، وعمل الكثير ليزودها بالماء، ويعتقد المسلمون أنه ينوي أن ينقل مقر الحكومة من بابلين مصر إلى القدس، ويأمل اليهود أنه عندما يعاد بناء القدس سوف يعطيها لهم، أما موقف المسيحيين، فهو أنه ربما هو مقبل على استئناف الايمان بالمسيحية، الذي كان قد تخلّى عنه، وأنه سوف يعيد إليهم مدينة القدس، وكنيسة الضريح المقدس، لعل الرب القدير يضع ذلك في قلبه، وأن يجعله يفعل ذلك، الأمر الذي ينبغي عدم التوقف

عن الدعاء إلى الرب من أجله .

إنما إذا ما اختار البقاء على غدره وردته، يتوجب مع ذلك على المسيحيين الصلاة للرب من أجله ولطول حياته، مادام صاحب الضريح المقدس، وملك الأرض المقدسة، ويتعامل بلطف ورحمة مع الحجاج المسيحيين، فمثل هذا عمل بطارقة العصور القديمة عندما كانوا في السبي البابلي، فقد صلوا وقدموا الأضاحي من أجل حياة الملك نبوخذنصر، وذلك على الرغم من أنه جلبهم إلى السبي، وأحرق الهيكل، وهدم القدس، وهذا واضح في سفر باروخ: ١.

ومثل هذا أمرنا الرسول (١ - ثيمو: ٢) بإقامة الصلوات والابتهاالات في الكنائس من أجل ملوك الأمم، ومن أجل جميع الذين في السلطة، حتى يتمكن المؤمنون من العيش بحياة هادئة وأمنة في ظلهم، ومثل هذا أمروا في اسدراس الأول: ٦/ ٣١ بالقيام بالصلوات وتقديم القرابين من أجل حياة الملك داريوس وأولاده.

وهذا العمل الذي يقوم به السلطان الآن، كان قد شرع به من قبل بيلاطوس، حاكم اليهودية، وكان قد أنفق جميع أموال القربان، أي أموال الخزانة المقدسة العائدة للهيكل، في سبيل جلب الماء من مسافة ألفي فرلنغ، وعندما ثار اليهود ضد هذا العمل بسبب تبديد أموال الخزانة غضب بيلاطوس، فقتل حشداً كبيراً من اليهود، واستمر في عمله، لكن مع ذلك لم يهدأ اليهود، فتخلّى خوفاً من الامبراطور، وحول هذا الموضوع يمكننا أن نعود إلى يوسفوس «التاريخ القديم» (٨/ ٨ وإلى «حرب اليهود» (٢/ ٣).

وعندما صعدنا حتى البركة الوسطى، رأينا إلى جانبها سرادقات وخيماً، فيها سكن البناءون والمحاسبون المسؤولون عن الأعمال، والمراقبون، والمعلمون الذين يرتبون كيف ينبغي حفر المجاري المائية

خلال الجبال، وكان حول هذه السراقات أعداد كبيرة من المغاربة والمسلمين كانوا يركضون نحو الأمام ونحو الخلف، يلعب أحدهم مع الآخر، وخفنا من هؤلاء خوفاً شديداً خشية الزحف ضدنا وإزعاجنا، وكان هناك خوف خاص عليّ، لأنني كنت الحاج الوحيد الحامل لعلامة الصليب، ولاأحمل جواز سفر، والذي حدث هو أنه مامن أحد قدم للاختلاط بنا، بل صعدنا بسلام على طول حدود البرك الثلاث، وبعد مضي بعض الوقت ودعنا البرك الثلاث، واستدرنا نحو اليمين، وتسلفنا سفح رابية، ووصلنا إلى منطقة منبسطة مليئة بالحقول، حيث كان قمح تلك السنة قد جرى حصاده.

وكان بين تخوم هذا السهل بدوياً يتجول، وهو مسلح بسيف ورمح، وقد واجهنا، ووقف في وجهنا في الممر، مانعاً إيانا من المرور ما لم ندفع له الخفارة التي يستحقها، لأن البداية يقولون بأن جميع المسافرين مدانين لهم، ويتوجب أن يدفعوا الخفارات إليهم، وقال له واحد من الراهبين اللذان كانا معي، وخاطبه باللسان العربي بأننا كنا رجالاً فقراء، وليس علينا أن ندفع أي شيء إلى أي انسان، لكن البدوي قال وهو يشير إليّ باصبعه: «أنتم يمكن أن تكونا رجلين فقيرين، لكن هذا الرجل مع الصليب هو حاج، وغريب في البلاد، ويتوجب عليه أن يدفع جزية إليّ»، وركض نحوي وهو يقول هذا، وانتزع مقود حماري، قاصداً ارغامي على الدفع، لكن ذلك الراهب تجادل معه بشدة، وهدده أنه إذا لم يدعني أمضي، سوف ينزل إلى الوادي إلى السادة الذين كانوا مسؤولين عن الأعمال، ويشتكي لهم، وعندما سمع البدوي هذا، تركني أذهب، وابتعد عنا هارباً.

ورأينا الآن كنيسة في وسط هذا السهل، نحوها أسرعنا، وكانت هذه كنيسة القديس جرجس الشهيد، ودخلنا إليها، وتلونا صلواتنا فيها، وحصلنا على غفرانات (+) لمدة سبع سنوات، وكان إلى جانب هذه

الكنيسة فيما مضى ديراً جميلاً وكبيراً للرهبان الاغريق، ولكنه الآن مهدم، والذي بقي هناك زريبة صغيرة، قائمة في مواجهة الكنيسة، يسكن فيها اثنان من الرهبان الاغريق، وفي هذا المكان جرى اعتقال القديس جرجس الشهيد، ووضع في الأغلال بسبب الايمان بالمسيح، ذلك أنه قدم من كبدوكيا إلى سورية، حيث قتل الثنين قرب بيروت، وارتحل من ذلك المكان إلى اليهودية هنا، حيث جرى اعتقاله، ومن ثم جرى نقله إلى اللد حيث استشهد، كما سلف لنا الحديث عن ذلك في ص ٣٦٨.

ويوجد على مقربة من الكنيسة مكان وعر، حيث هناك صخرة قاسية جداً وعريضة، أرانا فيها هذان الراهبان علامات حوافر فرس، وكأن الصخرة كانت قديماً ناعمة وقد تلقت علامات فرس عابر فوقها، وقد قالاً بأن هذه العلامات قد انطبعت بشكل اعجازي على الصخرة من قبل فرس القديس جرجس، وبعدما رأينا هذه العلامات عدنا ثانية إلى الكنيسة، وجلسنا في الظل، وجلب لنا هذان الراهبان سلسلة، أعلننا أنه بهذه السلسلة جرى غل القديس جرجس، وقبلنا هذه السلسلة، ووضعناها حول أعناقنا من أجل التقوى، ويحترم المسلمون أيضاً هذه السلسلة، مثلما يحترمون أيضاً علامات حوافر الفرس على الصخرة، ويسترد أحياناً بعض المسلمين المرضى صحتهم بلمس هذه السلسلة، وفي الحقيقة لدى جميع الشرقيين احترام خاص للقديس جرجس، وهم يحترمونه أكثر من القديسين الآخرين، ويمكن للانسان أن يقول بأن جميع كنائس المنشقين مكرسة له، وجلب لنا الراهبان بقسماً، وماء، وملحاً، وصنعنا وجبة معهم، وقد أعطينا بدون مقابل، كل ماكانا قادرين عليه، مع أنهما كانا منشقين، وبناء عليه أكلنا وشربنا في تلك الكنيسة، وانتعشنا بشكل جيد، وقد مكثنا هناك لمدة تقارب الساعتين وتفحصنا بدقة خرائب الدير.

الماء الذي جرى تعميد الخصي به

وغادرنا بعد هذا، هذا المكان، ووصلنا ونحن على طريقنا إلى طرف رابية، منها يتدفق الماء العذب من عدة أماكن، وهذا أمر غير اعتيادي في البلدان الشرقية، ورأينا فوقنا في الأعالي بقايا قلعة مهدامة، كانت تعرف في الأيام الخوالي باسم بيت سورا، وكانت قلعة حصينة جداً، عنها كنت قد تحدثت من قبل، وتابعتنا من هناك سيرنا نحو واد عظيم الخصوبة ليس بعيداً عن بيت زكريا، الذي كنا أيضاً قد تحدثنا عنه من قبل، ورأينا في هذا الوادي كثيراً من البيوت وبساتين مزروعة بأشجار التين، وبالكروم، والزيتون، وأخيراً وصلنا إلى ضفة جدول ماء عذب، ينبع من الرابية، ويجري بشدة نازلاً إلى الوادي على طول الطريق، وبناء عليه صعدنا على الطريق إلى المكان الذي ينبع منه، حيث وجدنا بقايا كثيرة لكنيسة مهدامة، كانت قائمة هناك في أيام المسيحيين، لأن هذا هو المكان الذي عمّد فيه فيليب الخصي الحبشي العائد للمملكة كنداكة، حسبما ورد الخبر في أعمال الرسل: ٨، وكانت كنداكة ملكة الحبشة، وهي ملكة حكمت دوماً من قبل نساء، وأطلق على جميع ملكاتها اسم كنداكة، وذلك مثلما أطلق على جميع ملوك مصر اسم فرعون، ومثلما أطلق على جميع أباطرة روما اسم قيصر، ويقول بعضهم بأنها كانت ملكة كل من مصر والعربية، لأنه عندما سقطت اسرة الفراعنة في مصر، خلفتها أسرة كنداكة، وذلك حسبما قرأنا في كتاب بوكاكوس Boccacus حول النساء الشهيرات»، الفصل: ٤١، وكانت هذه الملكة امرأة تقيّة، وقد أرسلت خصيها الحبشي، الذي كان مسؤولاً عن خزائنها، مع هدايا كثيرة، وتقديرات إلى الهيكل في القدس وذلك حتى يتمكن من الصلاة هناك وتقديم الهدايا.

وبعدما فعل هذا، عاد فركب عربته، حتى يتمكن من العودة إلى بلاده، وكان متشوقاً كثيراً حول الأشياء اللاهوتية، إلى حد أنه عندما

كان يجلس في العربة كان يقرأ حول الأنبياء وجاء فيليب إليه بناء على أمر من الروح القدس، وعلمه وعمّده في هذا المكان، وبناء عليه جثونا هنا على ركبنا وتفوهنا بصلواتنا، وحصلنا على غفرانات (+)، وجلسنا بعد ذلك إلى جانب النبع، وأحضرنا من مزادنا الطعام الذي كنا قد شربناه من القدس، وأكلنا خبزاً، وشربنا من الماء، الذي كان صافياً، وبارداً، ومنعشاً، وصحياً، وهذا النبع مشهور جداً حتى أن الأغنياء وأعيان الناس يأتون إلى هنا من القدس، من أجل المتعة والترويح عن النفس.

وعندما كنا جالسين على هذه الصورة إلى جانب النبع، مرّ بنا عدد كبير من المسلمين، بسبب الطريق العام الذي يقود إلى غزة، أي إلى أفريقيا، حسبما جاء في الشرح حول الممرات، وأيضاً من قبل كاتب الـ *Speculum Historiale*، وعلى كل حال لم يلحق بنا أي أذى من قبل أي إنسان، وأعطينا الذين وقفوا إلى جانب النبع وشربوا بعضاً من خبزنا، وقد جلس كل مسلم معنا، وجاء أخيراً واحد مع سلة مليئة بأحسن العنب وأكثره حلاوة، وله أرينا مزادنا وقد امتلأت بالخبز، وقد سره كثيراً التبادل معنا، وهكذا أكلنا وشربنا في ذلك المكان معهم حتى اقتراب موعد غياب الشمس.

وعن هذا المكان قال بيد في تعليقاته على أعمال الرسل: «بيت سارو، أو بيت سورا في ديار يهوذا، على الطريق من إيلياء إلى حبرون — أي من القدس إلى حبرون — وذلك على بعد عشرين ميلاً، حيث على مقربة منها هناك نبع عند سفح الجبل، وهو يتدفق منه نفسه، ثم تبتلعه الأرض نفسها التي ينبع منها، ففي هذه المياه عمّد فيليب الخصي».

وبعدما أنعشنا أنفسنا بشكل جيد في هذا المكان، امتطينا دوابنا، وجرينا مسرعين نحو القدس، ذلك أننا كنا نأمل أن يسمح لنا في تلك الليلة نفسها بالدخول إلى ضريح الرب، ولولا أنه توفر لدينا هذا

الأمل، لبقينا مع الرهبان في بيت لحم لعدة أيام، أو كنا أمضينا الليل في صحراء القديس يوحنا المعمدان، التي تقدم لنا ذكرها في ص ٧٧٠، وهو أمر كنا نحب كثيراً أن نفعله، لأنه بدا أمراً عظيماً السرور جداً، رؤية الكهوف التي سكن بها يوحنا وهو طفل صغير، والإقامة بها، لكن شوقنا للدخول إلى الضريح المقدس كان أقوى لدينا، وتخلينا أثناء سفرنا عن زيارتنا لقفار القديس يوحنا، وإلى بيت زكريا، وإلى كنيسة الصليب المقدس، وإلى بيت سمعان، وهي أماكن تقدم لنا الحديث عنها جميعاً، وأسرعنا باتجاه القدس.

ولدى اقترابنا من الكروم الموجودة على جبل جيحون، وعندما صارت المدينة المقدسة أمام أعيننا، فجأة، تجمعت بعض النساء اللائي عملن في الكروم، ووقفن مع بعضهن في الطريق مع حجارة، ليمنعنا من المرور، ما لم ندفع خفارة لهن، وقمنا بسؤالهن عما إذا كن بدويات أم مسلمات، وعندما أجبتنا بأنهن مسلمات، شققنا طريقنا بالقوة بينهن، وأخبرناهن باستخفاف بأن الخفارة حق للبداة وليس للمسلمين، وبغضب شديد رمين بالحجارة خلفنا، وتولين شتمنا.

وعندما صرنا ملاصقين للمدينة، التقانا هناك واحد من كبار سادة المسلمين، كان معه عدد كبير من الأتباع، وجماعة كبيرة من الرجال المسلحين على الخيول وعلى البغال، وأخبرنا الذين مشوا أمام هذا الحشد، بأن أميراً كان قادماً خلفهم، ولدى سماعنا بهذا قفزنا على الفور عن ظهور حميرنا ووقفنا على جانب الطريق حتى عبروا جميعاً، وفي الحقيقة، لو أننا لم نترجل من على ظهور دوابنا لألقونا أرضاً بغضب وإهانة، لأن عادة هذه البلاد تقضي بوجوب افساح الطريق من قبل الفقراء، والفلاحين، والحجاج، والناس البسطاء، إلى النبلاء، والرجال الأغنياء، عندما يقابلونهم، لذلك فور رؤية الانسان البسيط أو الغريب رجلاً نبيلاً مقبلاً نحوه، عليه الترجل من على دابته، حتى يمر ذلك

السيد، وحاشيته، وإذا لم يترجل، يقوم خدم ذلك السيد برميّه على وجهه.

وإذا ماتواجه رجالان غنيان، يقوم الأقل ثروة، وهو يريد أن يختلف عن الآخرين، ليس بالترجل، بل ينسحب إلى جانب الطريق مع دوابه، حتى يعبر الآخر، لكن إذا ماتواجه واحد من أعيان أهل المدينة مع نبيل مسلح، أي على سبيل المثال إذا ماتواجه مسلم مع مملوك، فوقتها يكون التشریف الذي يريه الرجل الغني للنبيل، أن ينسحب إلى جانب الطريق، ويرفع قدميه من الركابات، ويتركها متدليتان، وإذا لم يفعل ذلك، فإن الرجل المسلح يقوم برميّه من على ظهر حصانه.

وبناء عليه، قمنا بعد عبور ذلك السيد، فعاودنا امتطاء ظهور هيرنا، ودخلنا إلى المدينة المقدسة، إلى جبل صهيون، وعندما وصلنا إلى هناك علمنا بأن الحجاج لن يسمح لهم بالدخول إلى كنيسة الضريح المقدس، وأسفنا إننا لم نبق في بيت لحم ليومين أو ثلاثة أيام.

وفي اليوم السابع عشر، الذي كان الأحد الثاني عشر بعد الثلاث، في اليوم الثامن بعد عيد صعود العذراء، توفرت لدي رغبة بإقامة قداس في الموضع الذي توفيت فيه مريم العذراء الأعظم مباركة، وحملت إلى هناك جميع الأشياء المحتاجة، وزينت مذبحاً مع راهب يقوم بمساعدتي، وحدث وأنا واقف عند المذبح في الهواء الطلق، أن تساقطت كميات كبيرة من الندى، بللت الـ *Corporale*، وقطعة الكتان الممتازة المنشورة فوق المذبح، وبللت أيضاً الأعمدة، والكتاب، وعملت عجينة القربان مائعة مثل فطيرة غير مخبوزة، ولذلك لم يكن بإمكانني بأية وسيلة رفعها، ووقعت بإرباك عظيم في ذلك القداس، ونادراً ماتمطر في هذه البلاد، خاصة في أيام الصيف، حيث تبقى السماء صافية، ولكن دوماً عند اشراق الشمس تتساقط كميات كبيرة من الندى من السموات، بها تبقى خضروات الأرض حية، وبعد الغداء اجتمع الحجاج مع بعضهم

للتشاور حول رحلتنا خلال القفار.

وفي اليوم الثامن عشر، نزلت قبل شروق الشمس إلى نبع سلوان، لكن لدى سماعي بعض الأصوات العالية فيه، وقد صدرت عن القصارين أو الدباغين من المسلمين الذي كانوا هناك، ابتعدت عن النبع المقدس، ولم امتلك الجرأة للذهاب إلى هناك، ومع ذلك غسلت وجهي وعيني في الجدول الذي كان يجري منه، ومن هناك نزلت إلى وسط بركة قدرون، حيث سرت فوق أرضها الجافة والوعرة حتى كنيسة ضريح وصعود مريم العذراء المباركة، التي وجدتها مفتوحة، وقد سررت تجاه ذلك، ونزلت بوساطة الدرجات إلى الكنيسة، فوجدتها مليئة بمسيحيين روم أرثوذكس، كانوا يقيمون قداساً بمناسبة ذلك اليوم، وكانوا ينشدون مديح مريم المقدسة، ووقفت لبعض الوقت عند قداسهم، أرقب طقوسهم وعاداتهم.

ثم صعدت من هناك ثانية وغادرت الكنيسة، ودخلت إلى كهف آلام ربنا يسوع المسيح حيث وجدت فرقة من الأرمن، تقيم قداساً هناك، وتمدح الرب بغنائها الفوضوي، ومكثت مع الأرمن لبعض الوقت، وعجبت نحو طريقتهم في أداء القداسات الربانية، وبعدما خرجت من الكهف، صعدت إلى الجليل، وسرت من هناك على طول حافة جبل الزيتون، فوصلت إلى كنيسة صعود الرب، التي دخلت إليها، فوجدت فيها فرقة من اليعاقبة يقومون بمدح الرب مع موسيقى كانت غريبة بالنسبة إليّ، علاوة على ذلك قدم مثلهم إلى هناك سود أو هنود لإقامة قداساتهم هناك، وكان هناك نوبيون ينتظرون للغرض نفسه، وفي الحقيقة كان جبل الزيتون كله مكتظاً في ذلك اليوم بالمسيحيين الشرقيين، لكن ماهو السبب الذي جعل المسيحيين الشرقيين، يجتمعون في ذلك اليوم؟ أنا لا أعرفه، وتجولت هناك وكنت المسيحي اللاتيني الوحيد بين هؤلاء الشرقيين، فلم أتعرض للأذى من أي واحد منهم، كما لم يبعدني أحد.

عن قداساتهم بل إنهم عجبوا لوجودي، ونظروا إليّ باستغراب، وإلى ثيابي، وطرائقي، وهؤلاء المسيحيين الشرقيين المتقدم ذكرهم، بشكل عام سود، ويختلفون عنا باللون، واللباس، واللغة، والطقوس، والعادات.

ونزلت من موضع صعود الرب إلى جيسماني، وبحثت بعناية وفتشت عن الصخرة التي تحمل علامات جسد المسيح، وهي الصخرة التي تلقت هذه العلامات عندما اعتقل المسيح هناك، لكن لم أستطع العثور عليها بأية وسيلة من الوسائل، ومن أجل وصف هذه الصخرة انظر ماتقدم في ص ٦٠١، ومضيت بعد هذا عائداً إلى جبل صهيون، لتناول الغداء.

وفي اليوم التاسع عشر حصلت على إذن من الأب المسؤول لزيارة قلعة عمواس، ورجوته أن يرسل معي من يراه، حتى يكون رفيقي على الطريق، وكان الأب المسؤول كارها لأن يتركني أذهب، وأعلن بأن الطريق كان خطراً، لكن بسبب إلحاحي أعطاني الإذن، وأمر اثنين من الرهبان ومسلماً واحداً بمرافقتي، وخرجنا من القدس معاً، وسرنا على الطريق الذي سار عليه الرسولان كليوباس ولوقا في يوم قيامة الرب، وذلك عندما ظهر الرب يسوع لهما على شكل مسافر، واحترق قلباهما في داخلهما وهو يتحدث إليهما، حسبما قرأنا في إنجيل لوقا: ٢٤، ووصلنا على كل حال، بسلام إلى عمواس، وهناك قبلنا البقاع التي إليها اشتقنا، وكنت قد تحدثت عن ذلك في ص ٣٩٠، وشاهدنا خرائب هذه البلدة بخوف، لأنه بما أنها على الطريق الذي يقود من القدس إلى البحر، إنها نادراً ماخلت من قطاع الطرق، الذين يضربون العابرين، وقال القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، بأنها كانت فيما مضى بلدة جميلة، الأمر الذي تبرهن عليه خرائبها.

ومن هناك ذهبنا إلى جبل شيلوه، الذي كنت قد تحدثت عنه في ص ٣٨٩، حيث رغبنا في رؤية الأماكن المقدسة وزيارتها، ولكن قبل أن

نصل إلى هناك، قام المسلمون الذين يمتلكون بيوتا فوق القمة بمواجهتنا، وطرّدونا بالحجارة، وعندما نزلنا وأصبحنا في الوادي، ذهبنا إلى سفح جبل آخر، وتسلقنا إلى قمته، واسم هذا الجبل، جبل الشهداء، لأن أسداً قد دفن هناك جثث ثلاثين ألف شهيد، كان كسرى ملك الفرس قد قتلهم، من أجل إيمانهم بالمسيح، وذلك حسبما قرأنا في «التاريخ اللاهوتي»، وبعدما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، عدنا راجعين إلى القدس بسلام من خلال وادي البطم Terebinth ، وهكذا مضى ذلك النهار.

وفي اليوم العشرين، في الصباح الباكر، جاء أربعة من رهبان الدير إلى قلايتي، وسألوني الذهاب معهم إلى بيت عنيا، وهكذا انطلقنا، وعندما كنا في وادي شعفاط رأينا سادتي اللوردات والحجاج الآخرين نازلين من جبل صهيون، حاملين معهم كل ما هو محتاج لإقامة قداس، وعندما وصلوا إلينا، قالوا بأنهم أيضاً يرغبون بالذهاب إلى بيت عنيا، وهكذا مضينا مع بعضنا صاعدين جبل الزيتون، ونازلين من جانبه الآخر إلى بيت عنيا، وأقمنا هناك قداساً في كنيسة القديس لعازر، وذلك فوق قبر ذلك القديس، إنما مع خوف عظيم، لأن أطفال المسلمين وقفوا من حولنا، ولم نخف من هؤلاء، وأبعدناهم عن القداس، وقد بقيوا ينظرون نحو أيدي، وأوجه، وأعين الكهنة، الذين كانوا يتولون تكريس العناصر، وقد خفنا أن يحدث لواحد منهم، ما وقع لواحد من الرهبان الفرنسيين عندما كان يقوم بقداس في بيت لحم، لأنه عندما كان مشغولاً بأعمال القداس، وكان قد فرغ بوساطة صلواته المقدسة، من تحويل الخبز إلى جسد، والخمرة إلى دم، فجأة ركض واحد من الشباب المسلمين نحو المذبح، واختطف كأس القربان مع الخمرة المكرسة وشربها، وبعد هذا ركض راجعاً نحو جماعته، وهو يضحك بصوت مرتفع:

أيها الجاهل الملعون، أيها الأعمى المظلم، أيها الأحقق بلا عقل، أيها التافه الطائش، كم هو مؤلم ومزعجاً وعدوانياً الذي أقدمت عليه! والذي حدث أنه بحماية الرب، لم يحدث أي شيء من هذا القبيل لنا في هذا المكان، لأننا أنهينا قداساتنا كلها بسلام، وبعدما زرنا الأماكن المقدسة في بيت عنيا وفوق جبل الزيتون، عدنا إلى القدس.

وفي اليوم الحادي والعشرين، في الصباح الباكر، مضيت نازلاً إلى كنيسة قيامة الرب، وتفوهت بقداسي أمام الباب، علاوة على ذلك نظرت إلى أبدة الرب من خلال الفتحة بالباب، وجاء في تلك الساعة نفسها مسلحون مغاربة، بالقسي والرماح، وكانوا جالين معهم، مع كثير من الضجة رجلين، كانوا قد اعتقلوهم، وقد ألقوا بهما في السجن الذي قام أمام باب كنيسة الضريح المقدس، وكنت قد تحدثت عن هذا السجن من قبل في ص ٤٧٤.

ولذلك وقفت أمام الباب مع خوف عظيم، فقد كنت أخشى أن يصرفوا غضبهم ضدي أيضاً ووقفت منتظراً، وأنا ممسك بالباب، حتى انصرفوا من السجن، ذلك أنه لم يكن بإمكانني الخروج من الساحة، من دون المرور على مقربة منهم، ولقد مكثت هناك لمدة تزيد على الساعتين، ثم صعدت إلى جبل صهيون، من أجل الصلاة.

وبعد الغداء، اجتمعنا نحن الحجاج جميعاً على جبل صهيون، ووزعنا الأشياء التي اشتريناها إلى حزم ذوات وزن واحد، وبعدما فعلنا هذا، نزلت معهم، وعندما وصلنا إلى برج داوود، الذي كنت قد أشرت له من قبل في ص ٤٤٥، وقفنا دوننا حراك، ونظرنا إلى القلعة، وعندما رأنا ابن حاكم القلعة واقفين هناك، عمل شارة بيده، بأننا إذا مارغبنا يمكننا اللحاق به، ورؤية البرج من الداخل، وبناء عليه لحقنا بذلك الشاب، وعبرنا فوق الجسر المقام على الخندق، الذي يمكن رفعه وانزاله، واقتادنا من خلال بابين حديديين إلى ساحة القلعة، حيث كانت هناك نساء

يخيطن (٢٥٣) وحالما رأينا، غطين وجوهن، وأخفين أنفسهن، واقتادنا الشاب إلى أعلى الأسوار والأبراج، وإلى جميع الغرف المنتشرة هناك، ودهشنا تجاه سماكة الأسوار، وعدد الأبراج حول إطار دائرة الأسوار.

وبني هذا المكان وفق طريقة بناء القلاع الألمانية الحصينة، مع أسوار، وشرافات وطلاقات كثيرة من أجل إطلاق الآلات الحربية من خلالها، وهي قائمة فوق صخرة مشرفة على الجهة الغربية من جبل صهيون، ولها على جانبها الجنوبي واد عميق، هو الذي يفصل جبل صهيون عن جبل جيحون، وهو يمتد من جدول قدرون إلى حقل القصار، ولها على جانبها الغربي أيضاً واد، كان فيما مضى هوة عميقة، لكنه الآن قد امتلأ تقريباً، وكان لها فيما مضى خندق عميق كان معمولاً من حولها، لكن بما أن هذا الخندق لم ينظف أبداً، هو الآن ممتلئ، وقد زرع الحاكم الآن بستان مطبخ هناك في الجهة الشرقية، لكن على الرغم من هذا كله لا يوجد مكان قوي وجيد التحصين مثل هذه القلعة في القدس.

لكن هل هذه القلعة هلى التي ورد اسمها في الكتابات المقدسة باسم حصن صهيون، أو حصن مدينة داوود، الاختصاصيون غير متفقين على هذا، وكل الذي نعرفه هو أن داوود حصن جبل صهيون الذي ورد الحديث عنه أحياناً أيضاً باسم حصن داوود، كما ورد في سفر صموئيل الثاني: ٥، هذا وقد قمت بعد تدقيق خاص، فسجلت ثلاثة أماكن قامت فيها فيما مضى أبراج وأسوار قوية فوق جبل صهيون، والأول بينها موجود على الجانب الشرقي، حيث يقوم الآن دير الرهبان، ومما لاشك فيه أنه كان هنا هيكل داوود، حيث وضع فيه تابوه الرب، وهنا كان مسكنه، وذلك حسبما قرأنا في أخبار الأيام الأول: ١٧، وكان المكان الثاني على الجانب الغربي من جبل صهيون، حيث قامت هذه القلعة التي عنها نتكلم الآن، والمكان الثالث لم يكن على جبل صهيون، بل في مواجهة هذه القلعة وذلك باتجاه الغرب، فوق مدينة القدس، قرب باب

التجار في حقل القصار، ويوجد في هذا المكان خرائب كبيرة، يقولون بأنها بقايا برج داوود، ولو أن هناك حصناً في هذه الأيام، لكان من الممكن حماية المدينة بوساطته، والذي اعتقده أنه لم يكن هناك شيء من هذا القبيل، قبل أيام الامبراطور إليوس هدريانوس، الذي وسع المدينة، وأنه بعد توسيع المدينة جرى بناء حصن هناك، وقد جرى تدميره منذ وقت طويل مضى وهكذا بعدما رأينا هذه القلعة، عدنا راجعين إلى موضعنا.

وذهبت عند غروب الشمس مع بعض الرهبان، إلى سدة الكنيسة على جبل صهيون، وهو ما كنت قد تحدثت عنه في ص ٤١٠، وسجلت بأن ارتفاع جبل صهيون، كان أعلى من جميع الجبال من حوله، لأن جبال العربية عبر الأردن، والبحر الميت، والتي هي عالية جداً، قد بدت منخفضة بالنسبة لجبل صهيون، فالشمس تشرق على رأس جبل صهيون قبل البقية، وتسحب أشعتها من عليه بعد البقية، وهذا غالباً ما رأيته، وفي الحقيقة إن الانحدار من جبل صهيون نحو الشرق هو انحدار مستمر، وهو يساوي خمسة أميال ألمانية إلى البحر الميت، ومثل هذا باتجاه الغرب، الأرض منحدرية ونازلة لأميال كثيرة حتى منطقة فلسطين، وهكذا فإن جبل صهيون له التفوق على جميع الجبال، كما تحدثنا من قبل في ص ٤٥٧.

جمع الحضا والأشواك في الأماكن المقدسة صدوراً عن التقوى

واستيقظت في اليوم الثاني والعشرين قبل اشراق الشمس، وبعدما قلت صلواتي لما بعد منتصف الليل، تسلفت من الدير وحيداً، وتجولت حول الأماكن المقدسة على جبل صهيون، وفي وادي شعفاط، وعلى جبل الزيتون، والتقطت في كل واحد من هذه الأماكن بعض الحضا، وعلمتهم، ووضعتهم في حقيبة حملتها معي لأجل هذه الغاية، علاوة على ذلك جمعت بعض الأشواك التي تنمو على التخوم على جانب جبل الزيتون وجبل صهيون، وعملت حزمًا منهم، وعلى الطريق نسجت منهم تاجاً، وذلك من الأشواك التي أعتقد بأن الرب يسوع قد توج بها، (انظر ص ٤٧٥) وأمضيت ذلك اليوم كله في جمع الحضا، وقطع أغصان الأشواك، واشترت سلة مستطيلة، وضعت فيها أغصان الشوك هذه، والحضا التي التقطتها من الأماكن المقدسة، وجلبت الجميع معي إلى الوطن، أي إلى أولم.

ولا يظن أحد أنه عمل بلا فائدة، أو تصرف طفولي صدر عني، باحضار حضا إلى بلادنا معي من الأماكن المقدسة، لأنني قرأت بأن رجالاً مقدسين من العصور القديمة فعلوا مثل هذا، ففي سفر الملوك الثاني: ١٧/٥، قرأنا بأن نعمان السوري، سأل النبي اليسع أن يدعه ينقل من الأرض المقدسة، بقدر ما يستطيع بغلان حملة، وأن يجلب ذلك إلى أرضه، حتى يتمكن من أن يبني هناك مذبحاً من الحجارة، عليه يقوم بالتضحية لرب السماء، وإذا كان — بناء عليه — عدّ هذه البلاد ثمينة جداً بسبب الهيكل الذي بني هناك، وبسبب الأنبياء الذين سكنوا، وبسبب المعجزات التي عملت هناك، كم أكثر ينبغي أن تكون ثمينة بالنسبة لنا، وذلك بسبب هذه الأشياء التي قيلت من قبل، وأيضاً بسبب طبعات أقدام المسيح، الثمينة جداً، وكذلك طبعات أقدام مريم العذراء المباركة، وكذلك بسبب ما يتعلق بالرسل والشهداء، وبسبب دم المسيح

الذي لا يقدر بثمن، الذي هدر هناك فيها، وبسبب صليبه وضريحه،
ولأنه قدسها بروعة قيامته المجيدة، وبنار روح قدسه.

وبناء عليه لا يجوز مطلقاً، ولا بشكل من الأشكال تستحق قطع
وشظايا من الحجارة جلبت من تلك الأرض الرائعة، أن يستخف بها،
أو أن ترمى، بل تستحق أن تجمع بتقوى عظيمة، وأن توضع بين الآثار
المقدسة الرئيسية للكنائس، وليست فقط التربة نفسها، والحصا أو شظايا
الحجارة، بل أيضاً الحبوب، والمسابع، والخواتم، والتمثيل في المسابح،
التي لمست الأماكن المقدسة، هي مقدسة من النوع نفسه، وصارت
لذلك أكثر تبجيلاً ومكانة، وذلك حسبما بينت من قبل في ص ١٩٨،
ولا يقتصر فعل هذا علينا نحن المسيحيين الغربيين بل، يقوم المسيحيون
الشرقيون من أقصى بقاع الشرق، بجمع هذه الحصا في الأرض المقدسة
ويحملونها معهم وكأنهم ذاهبون إلى أبواب الجنة، على أنها من أعظم
الآثار المقدسة مكانة .

ولقد سمعت وقرأت ما هو أعجب من هذا، من ذلك أن مسيحيين
شرقيين يقومون بالحج إلى روما، لقطع شظايا من كنيسة القديس
بطرس والقديس بولص، ويحملونها معهم — ليكونوا آثاراً مقدسة —
حتى المحيط الشرقي، ويقوم بعضهم بعبور الألب، ويبحرون بالراين
حتى كولون لكي يتمكنوا من رؤية كنيسة وأضرحة الملوك الثلاثة، من
أهل بلادهم، ويتدبرون إعطائهم شظايا من هذه الكنيسة والأضرحة،
أو يحصلون عليهم بأنفسهم، إن استطاعوا، وهذه الشظايا، يضعونها في
ذهب أو فضة، بين الأحجار الثمينة، وذلك بعد عودتهم إلى بلادهم،
ويلبسونها خواتم أو معلقات، على أصابعهم، أو حول رقابهم، وأما
بالنسبة للخواتم أو المجوهرات التي لمست الأضرحة، فإنهم يحتفظون
بهم مع عناية كبيرة، بمثابة آثار مقدسة ثمينة، ويقدمون احتراماً عجبياً
إلى الحجاج الذين تجولوا وطافوا من الشرق إلى كولون، وذلك لدى

عودتهم، وينظرون إليهم على أنهم أعظم الفرسان شجاعة.

ولا يمكن أن يكون هناك شك في أن الشرقيين لو استطاعوا تحمل برد بلادنا، مثلما يمكننا تحمل حرّ الشرق، فإن كولوننا لن تكون قط خالية من حجاج شرقيين، لأننا نرى حجم الحشود التي يأتي بها الهنغاريون إلى كولون، عندما يجري عرض الآثار المقدسة في كولون وآخن، علاوة على ذلك لقد حدث في بعض الأحيان أن فيه حجاجاً من بلدان الملوك الثلاثة كانوا يقدمون حاشدين إلى القدس في الوقت الذي يزورها حجاجنا من الغرب، وعندها كانوا يسألون من خلال المترجم عما إذا كان يوجد أي رجل من بلاد كولون، وإذا ما وجدوا واحداً، كانوا يشترون منه جميع الأشياء التي يمكنهم الحصول عليها منه، وبشكل خاص الأشياء التي صنعت في مدينة كولون، وذلك مثل: حافظات النقود، والأشرطة والأربطة والقبعات، والأحذية، وأية ملابس حتى القمصان، وكانوا يدفعون لهذه الأشياء ثمناً مضاعفاً، ويحملونهم معهم إلى الشرق بمثابة آثار مقدسة.

وإذا ما اختار أي إنسان بيعهم أية جواهر أو خواتم لمست أجساد الملوك الثلاثة المقدسين، كان سيتلقى ضعف أسعارهم، وإذا كان لدى أي إنسان شظايا من الكنيسة أو من أضرحة الملوك الثلاثة، واختار بيعهم، فإنه كان سيتلقى مقايضة لهم ما يتلقاه مقابل أحجار كريمة، وذهب، وفضة، علاوة على ذلك، كانوا يسألون بالحاح حجاجنا من خلال المترجم، عن أوضاع بلاد كولون، وحجم المدينة، والكنيسة الكاتدرائية، وأضرحة الملوك الثلاثة، ويكتبون بتقوى ويدونون ما سمعوه جواباً، كلمة كلمة، في كتب مذكراتهم، وذلك مثلما نفعل نحن في كتابة أحوال الأرض المقدسة، وأوضاع القدس، وكنيسة الضريح المقدس.

وغالبا ما يشكل عدد كبير من الشرقيين جماعات وفرق للقيام بالحج

إلى الغرب، إنما ما أن يصلوا إلى بلادنا حتى يغمى عليهم ويموتون، لكن إذا مانجج بعضهم بالحج إلى الغرب وعادوا ثانية إلى بلادهم، فإنهم ينظرون إليهم نظرة احترام عالية، وإذا كان — على هذا — الشرقيون يقدمون مثل هذا الاحترام إلى بلاد الملوك الثلاثة، حيث أوأبدهم موجودة، فأى عجب إذا أظهرنا نحن الغربيون الاحترام إلى أرض ضريح الرب ملك جميع الملوك؟

وهكذا أمضيت هذا اليوم مع كثير من التعرق والتعب، ألتقط الحجارة الصغيرة من الأماكن المقدسة، واشترت في ذلك اليوم نفسه ثلاث قطع أقمشة ثمينة لغرفة المقدسات، من أجل تغطية كأس القربان، أثناء حملها من قبل الشماس الأدنى، وعندما يحمل القاعدة عالياً، وكانت القطعة الأولى من هذه الأقمشة بيضاء، والثانية زرقاء، والثالثة صفراء، وقد حملت هذه الأقمشة إلى جميع الأماكن المقدسة، وغالباً مانشرتهم فوق ضريح الرب، وفوق صخرة الصليب، وفوق ضريح العذراء المباركة، وفوق مزود الرب، وفي الأماكن الأخرى، من أجل أنهم بلمس هذه الأماكن المقدسة، يمكن أنفسهم أن يصبحوا مقدسين، وبالتالي أعلى ثمناً.

الحج العام والأخير حول الأماكن المقدسة

في الصباح الباكر من اليوم الثالث والعشرين، وقبل اشراق الشمس، التقى جميع الحجاج، بناء على اتفاق، في ساحة كنيسة الضريح المقدس للقيام بحج واحد وأخير حول جميع الأماكن المقدسة في القدس وأحوازها، وبناء عليه، زرنا بعد بذل جهد كبير، المدينة المقدسة، والأماكن المقدسة في وادي شعفاط، وعلى جبل الزيتون، وكان ذلك قبل الغداء، وقمنا بعد الغداء بالطواف حول الأماكن المقدسة في وادي سلوان، وجبل جيحون، وجبل صهيون، في الأعلى وفي الأسفل، وعندما كانت الدنيا مظلمة، أخذنا إلى كنيسة الضريح المقدس، حيث

عملنا المسيرة المعتادة إلى الأماكن المقدسة، وسهرنا تلك الليلة إلى جانب أبدة الرب.

الدخول السادس والأخير والسهر في الضريح المقدس

Anastasis أي كنيسة قيامه الرب

في مساء اليوم الرابع والعشرين، سمح لنا مجدداً بالدخول إلى كنيسة قيامة الرب، وجاء ذلك بناء على طلب من الحجاج، وزرنا خلال تلك الليلة الأماكن المقدسة، بخشوع أكبر، ومرات أكثر مما عملناه قط من قبل، لاقترب موعد مغادرتنا، وفراقنا لهم، وعند اقتراب حلول الفجر، كان اليوم هو الأحد الثالث عشر بعد التثليث، وعيد القديس بارثليميو الرسول، وقد غنينا قداساً في ضريح الرب، وقد عينت لغناء القداس، ولذلك وقفت مرتدياً ثيابي المقدسة في الكهف الداخلي للضريح المقدس، إلى جانب القبر الأعظم قداسة، الذي عمل وجهز ليكون بمثابة مذبح، وقد غنيت بصوت مرتفع وبهيج، في حين وقف أعضاء الدير والحجاج في الخارج ورددوا معي، وكان بهيجاً وممتعاً جداً أنني غنيت هذا القداس، وبدأ لي أن صوتي كان أوضح وأعلى مما كانه قط من قبل، وقد تجليت كثيراً، وأقول جاداً، إنه بالنسبة لهذا القداس، وبقدر ما أعتقد، إنه منذ سنوات طوال، وربما لم يحدث، أي أنه لم يتمكن قط واحد من الرهبان المبشرين من غناء قداس في ضريح الرب، باستثنائي أنا وحدي، ولقد ابتهجيت في هذا اليوم لخصولي على مثل هذه النعمة العظيمة التي حفظت بشكل خاص لي، وإني أصلي أن تجعلني مقبولاً لديه، وهو الذي قام من الموت في هذا المكان.

ولدى الفراغ من القداس، سعينا إلى هنا وإلى هناك وطفنا حول الأماكن المقدسة في هيكل الرب، وقلنا لهم وداعاً مع الدموع، لأنه كان من الصعب بالنسبة لنا مغادرة هذه الأماكن الحلوة والمحبوبة جداً لدينا،

بسبب المسرات الكثيرة التي تلقيناها في هذه الأماكن المقدسة، من خلال تقبيلها، ولدى فراغنا من تقبيل الأماكن المقدسة، أخذنا ننتظر قدوم السادة المغاربة، ومن ثم اخراجنا من الكنيسة، مثلما فعلوا دوماً من قبل، لكنهم تأخروا لبعض الوقت، وقد تعجبنا تجاه ذلك، وتساءلنا لماذا لم يتم اخراجنا، وخشنا أن يكونوا قد قصدوا الاحتفاظ بنا سجناء هناك، وأنهم قد تدبروا تهمة ملفقه ماضدنا، وقدم في الوقت نفسه عبيد الرئيس كالينوس ووصلوا إلى باب الكنيسة، وأخبرونا من خلال فتحة الباب هناك بأن المعلم كالينوس، أي ترجماننا كان جاهزاً، وأنه كان منتظراً مع الحمير والجمال لإخراجنا بسبب سجننا الطويل الأمد، وفي حوالي منتصف النهار، جاء السادة المغاربة الذين احتفظوا بمفاتيح ضريح الرب، وتركونا نخرج، وذهبنا مباشرة إلى أماكننا، وتغدينا بسرعة، واستعدنا للمغادرة، وفق الطريقة المشروحة بعد تاريخ الهيكلين وتاريخ مدينة القدس.

هنا نهاية الحج كله إلى القدس.

مع أنه مما تقدم وقيل، من الممكن جمع رواية متفرقة عن مدينة القدس، مع ذلك سوف أقوم في هذا المكان بشكل خاص بوصفها، ووصف أوضاعها الحالية، دون أن اتحدث عما كانت في الأيام الخالية، بل سأتحدث عن وضعها الحالي، وكثير من الأوصاف لهذه المدينة يمكن الوقوف عليها، وهي تتحدث عن أوضاعها القديمة، من ذلك مصنف يوسفوس «حرب اليهود» — الكتاب السادس، الفصل الثامن، يضاف إلى ذلك لدى مصنف Speculum Historiale — الكتاب: ٢٦، الفصل: ١٠٣، وأيضاً لدى المعلم أنطونيوس، في تواريخه — القسم الثاني — المجلد: ١٦، الفصلان: ١٣ و ٦، وكذلك في ذيل التواريخ — الكتاب الثامن، ص ١٥، ولدى الراهب بوركارد، الذي كان من طائفة القديس دومينيك، في كتابه الصغير الذي وصف فيه الأرض المقدسة،

وقدم به رواية صحيحة.

وقام بعض من كل من القدماء ومن المعاصرين برسمها على الورق، وهكذا صار من الممكن رؤية مظهر هذه المدينة المرغوبة كتابة ورسماً، وبناء عليه، سوف أبذل أنا شخصياً جهدي لتقديم رواية عنها، فإذا نسيتك يا قدس، لتنس يدي اليمنى براعتها، وليلتصق لساني في سقف حلقي، إذا لم أتذكرك، ومن أجل أن أكون قادراً على فعل هذا بوضوح أكثر أضفت إلى روايتي عن المدينة المقدسة، رواية عن هيكل الرب، الذي يدعونه باسم هيكل سليمان ، وكذلك عن هيكل كنيسة الضريح المقدس، الذي يسمونه القيامة، لأنه من دون وصف هذين الهيكلين، من غير الممكن عرض أوضاع المدينة المقدسة، مشاهداً أن جميع أبنيتها القائمة، وجميع أبنيتها المهدامة، وكل قداستها وكل شروها، تعتمد عليهما، علاوة على ذلك يحتل هذان الهيكلان مع ساحتيهما شطراً كبيراً من المدينة، ولذلك لا بد من أن يكون لهما نصيبهما في أعمال الوصف.

وصف مدينة القدس المقدسة في وضعها المعاصر، وهذا هو الفصل السادس والأخير من الشطر الأول

من كتاب الجولات والرحلات

[٢٥٥] بدأ وجود مدينة القدس الحاضرة الأعظم جلالاً وقدماً في سنة ٢٢٤٢، من خلق العالم، أي ٩٥٧، ٢ سنة قبل تجسيد الكلمة، وقد بنيت إثر طوفان نوح مباشرة، من قبل ابنه الكبير سام، وعاش سام هذا تبعاً لروايات الحكماء حتى أيام إبراهيم، وكان هو ملك صادق ملك سالم، وذلك حسبما جاء الخبر في رسالة جيروم إلى إيفاجيوس -Eva-grius، وكذلك حسب رواية مصنف الـ Speculum Historiale، ورواية يوسفوس في الكتاب الأول ص ١٧٨.

فبعد الطوفان، جاء بتوجيه من الرب إلى هذا المكان، وبنى الهيكل هناك، الذي أطلق عليه اسم «سالم» ومعنى هذه التسمية وترجمتها «عدل» أو «سلام» أو «استنفاد الكمال»، أو «ذاك الذي يبعد الموت»، لأن ملكيصادق كان أول كاهن، وكاهن أعلى للرب العلي الأعلى، وكان يقدم الخبز والخمرة في الهيكل الذي بناه على جبل أكر (الجمجمة)، ومنه رأى إبراهيم، البطريرك العظيم القداسة، أنه جدير أن يتلقى مباركة منه، حسبما قرأنا في سفر التكوين: ١٤، وكنت قد تحدثت عن هذا الكاهن من قبل في ص ٥١٥، ولتعرف كم كان عظيماً، اقرأ الرسالة إلى العبرانيين: ٧.

وقام هذا الرجل بتكريس وتقديس هذا للرب، ولذلك كانت هذه المدينة مقدسة منذ أيامه حتى هذا اليوم، ولم يسمح الرب قط للمذنبين بالإقامة فيها طويلاً بسلام، كما هو واضح للإنسان الذي يقرأ التاريخ التوراتي كله، والتواريخ، والأخبار.

غير أن العقل يحتاج أنه حتى في أيام أبونا الأول آدم، كان هناك

نوعاً من أنواع الخلوات فوق موضع الجمجمة على جبل المدينة المقدسة، بسبب أن آدم قد كشف له عن مخلص الجنس البشري، وطريقة الخلاص ووقته، وإليه كشف أيضاً عن مكان الخلاص، وبما أنه - وقتذاك - لم يكن بإمكانه رؤية المخلص في أيام حياته، كما لم يكن باستطاعته البقاء حياً حتى أيام المسيح، قام بتشريف مكان الخلاص بشكل رائع، وغالباً مازاره وصلى فيه، هو وأولاده، وأخيراً عندما رأى أن موعد موته بات وشيكاً، انتقل من الخليل، حيث كان يسكن، وصعد إلى موضع الجمجمة، وسدد دين الموت، لأنه عرف بأن المسيح، الذي هو آدم الثاني، سوف يذهب في هذا المكان بالموت الذي جلبه إلى العالم، وحمل أولاده جسده إلى حبرون، إلى الكهف المزدوج، وذلك باستثناء رأسه، الذي بقي في موضع الجمجمة، ولذلك عامل أولاده ذلك المكان باحترام.

ويمكننا أن نعتقد أيضاً أن سام بن نوح، امتلك هيكلاً هنا بعد الطوفان، ومع ذلك كان هنا خلوة أو مصلى قبل الطوفان، وهنا أيضاً قدم ابراهيم كبشاً ضحية عوضاً عن ابنه، وقد حدثتنا عن هذا، الأخبار العبرية، وكذلك أمبروز وخريسوستوم، وجيروم، والأخباريون ومع ان التعليقات على متى: ٢٧، قد قالت بأن الذين يؤكدون بأن آدم قد دفن في الجمجمة لم يقولوا الصدق، إن هذا لايتعارض مع ماقلناه، لأننا نقرّ بأن جسده قد دفن في الخليل، حسبما جاء الخبر في يشوع: ١٤، لكن رأسه بقي على جبل الجمجمة، فقد قرر الرب هذا، وعندما كان آدم يموت، رجا أولاده أن يفعلوا ذلك، وأستخلص من هذا كله أنه حتى الطوفان قد كان هناك على الأقل خلوة أو مصلى، وهيكل فوق موقع مدينة القدس، من دون وجود سكان بشريين، ولم ينظر إلى موضع الجمجمة على أنه مقدس بشكل خاص حتى أيام الرومان، الذين لكراهيتهم لليهود جعلوا منه موضعاً لتعذيب المجرمين ولإعدامهم، إنما

بصلب المسيح ردت جميع القداسة إلى المكان، ولسوف يبقى هكذا إلى الأبد، ومن أجل هذا المكان نفسه انظر ص ٤٨٨، ٥٤٠.

★★ ★★ ★★

وتبعاً لاختلاف الأشخاص والأزمان، تلقت هذه المدينة أسماء مختلفة، فقد دُعيت باسم «سالم» في سفر التكوين: ١٤/١٨، ودُعيت أحياناً من قبل الشعراء باسم «سوليا»، وجاء اسمها «يبوس» في يشوع: ٨/١٥، وأورشليم، في سفر القضاة: ١٩/١٠، وباسم «هيروسوليا» في متى: ٢، وفي لوقا، وباسم «بيدر أرنان» في سفر أخبار الأيام الأول: ١٨/٢١، وكذلك ورد اسمها لدى جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، وباسم «أريئيل» في سفر إشعيا: ٢٩، و«ابنة صهيون»، في سفر زكريا: ٩/١١، و«المدينة الدموية» في سفر حزقيال: ٢٢/٢، و«المطلوبة المدينة غير المهجورة» في إشعيا: ٦٢/١٢، و«مدينة قوية» في سفر إشعيا: ٢٦/١، و«مدينة الرب» في المزمور: ٧٦، و«كرسي الرب» في إرميا: ٣/١٧، و«السيدة في البلدان» في مراثي إرميا: ١/١، و«العظيمة بين الأمم» في مراثي إرميا: ١/١، و«وادي الرؤيا» في إشعيا: ٢٢/١، وحول هذا النص انظر شروح دي ليرا، و«سدوم» في رؤيا يوحنا: ٢، و«البرج» في متى: ٢١/٣٣، و«إيلياء» نسبة إلى الامبراطور إيليس هديرانوس، علاوة على ذلك غالباً مادعاها جيروم — ومن الممكن للانسان أن يقول دوماً — باسم هاليا Halia، وفي هذه الأيام يدعوها الاغريق باسم هاليا، وكابيتوليا، وذلك مثلما فعل بطليموس، ومثل هذا دُعيت من قبل يوسبيوس باسم «الجريزا» Algariza أي «الجبل العالي جداً» ويطلق عليها المسلمون اسم الأقصى، لكن اللاتين يسمونها إما أورشليم أو ييروسوليا Jer-usolyma أو المدينة المقدسة، أو يطلقون على المدينة كلها اسم جزء منها، وبذلك يسمونها «الضريح المقدس».

وكانت هذه المدينة دوماً أدنى من أكبر المدن، وأكبر من أصغرها، وهي في هذه الأيام بمثل هذا الحجم حيث لم تتوسع إلى الحجم الكبير، ولم تقلص فتصبح صغيرة، ذلك أنها ليست أصغر من مدينتنا أوغزبورغ Augsburg في سوابيا، وكنت قد تحدثت عن هذا الموضوع من قبل، وطول أسوارها التي تحيط بها الآن هي نفسها كما تركها الامبراطور ايلوس هدرينوس، وهذا مأسوف نبرهن عليه فيما بعد، علماً بأننا كنا قد تحدثنا عن حجمها من قبل.

وكان هناك في العصور القديمة أبواباً كثيرة تقود إلى هذه المدينة، والذي يمكننا استخلاصه من الكتابات المقدسة أنه قد كان هناك ثمانية أبواب رئيسية، وإذا قرأنا أنه هناك أكثر من ذلك، فمرد ذلك إما لأن الباب الواحد له أكثر من اسم، أو لوجود أبواب فرعية صغيرة إلى جانب الأبواب الرئيسية، التي إليها انتمت أسماء هذه الأبواب الفرعية، ولم أستطع في العصر الحديث الوقوف على أكثر من خمسة أبواب، فباتجاه الشرق هناك الباب الذهبي، وهو مغلق الآن، وكنا قد تحدثنا عنه من قبل، ويوجد بين الشرق والجنوب باب الدمن (القاذورات)، وهو أيضاً تقدم وصفه من قبل، ويوجد في الجهة الجنوبية باب النبع، الذي من خلاله يذهب الانسان إلى نبع سلوان، ويوجد في الجهة الغربية باب نتجار، أو باب السمك، وكنا أيضاً قد تحدثنا عنه من قبل، وهناك في الشمال باب إفرام، الذي يسمى أيضاً باب القديس اسطفان، وهناك مسافة كبيرة بين باب السمك، وباب القديس اسطفان، لأن باب السمك قائم قرب الزاوية حيث يتصل السور الجنوبي بالسور الغربي، وليس هناك على طول السور الغربي باب آخر حتى يصل الانسان إلى باب القديس اسطفان القائم في السور الشمالي، قرب الزاوية التي يتصل بها بالسور الشرقي، وكان القديس يوحنا قد رأى في سفر الرؤيا—الاصحاح: ٢١، اثني عشر باباً في القدس السماوية وهو رقم لم تملكه

هذه المدينة قط.

وكان فيما مضى على طول إطار الأسوار والشرافات، أبراج، من الممكن لنا تعقب خرائبها، وكان المسلمون قد رموا هذه الأبراج أرضاً، وبنوا أبراجاً أخرى داخل المدينة، على مقربة من المساجد، لاستخدامهم في شعائهم، ذلك أنهم لا يهتمون كثيراً، ولا يتعبون أنفسهم بشأن تحصين المدن، لكنهم يراقبون بدقة الدخول إلى البلاد، وكان فيما مضى قياس السور والشرافات ثلاثة وثلاثين غلوة، وذلك يشمل كامل الاستدارة، فهذا ماحدثنا به يوسفوس في الكتاب الخامس، الفصل الثامن، وكانت الأسوار في الماضي القديم قوية، ومزدوجة، كما سلف لنا وبيننا ذلك، وللمدينة خنادق من جانبي الغرب والشمال، وهناك من الجهة الشرقية وادي شعفاط، ومن جهة الجنوب وادي صهيون.

وفي الداخل، هذه المدينة تلية، وغير مستوية، لأنها بنيت فوق أماكن عالية، وجبل صهيون هو الأعلى من البقية، ويقوم على السفوح الشمالية لجبل صهيون جزء كبير من المدينة، ويقوم على كتف جبل صهيون جبل الجمجمة، وهو الذي يدعم كنيسة الضريح المقدس مع جزء كبير من المدينة، وهناك أيضاً جبل موريا، الذي فوقه يقف هيكل الرب، مع الجزء الأساسي من المدينة، وعلى هذا يصعد الانسان وينزل في كل مكان خلال المدينة، وهذه الجبال لا تمتد إلى قمم عالية، بل هي نفسها قمم عريضة وواسعة للرابية الرئيسية التي تقوم عليها المدينة، وهذا ما جعل المدينة غير مستوية، وهذه الرابية كلها قد ورد ذكرها في المزمور الثامن والعشرين قوله: « وأدخلهم في تخوم قدسه هذا الجبل الذي اقتنته يمينه»، ومثلها مدينة بازل تلية، كذلك هذه المدينة، ففي بازل تماثل هضبة القديس ليونارد، جبل صهيون في القدس، وهضبة القديس بطرس تماثل جبل الجمجمة، وهضبة القديس مارتن جبل موريا، وهناك على كل حال فوارق كبيرة بالشكل والتركيب بين هضبة وأخرى.

وكما قلنا من قبل، ان شطراً كبيراً من المدينة مشغول من قبل هذين المعبدتين المشهورين اللذان غالباً ما يرد ذكرهما، وهما هيكل الرب، الذي يسمونه هيكل سليمان، وهيكل الضريح المقدس، وذلك مع ساحتيهما الواسعتين، والأبنية المتصلة بهما، وبالإضافة إلى هذين، هناك موزع في المدينة كثير من البيع للهراقة، وعدد كبير من مساجد المسلمين، وكنس اليهود، ومعابد السامرة، والشوارع الرئيسية مغطاة بسقوف معقودة، ويقف تحت هذه السقوف المعقودة حوانيت التجار من على الجانبين، ومطابخ الطباخين، ويقطن في الشوارع الأخرى الأناس العاملين.

وكقاعدة بيوت المدينة مبنية بجدران حجرية، مع أن أكواخ الناس الفقراء معمولة من الطين، ولقد رأيت هناك في المدينة بعض البيوت الكبيرة الجيدة، لكن الجزء الأكبر من المدينة مشعث، والبيوت قائمة مخربة من دون أي سكان، ولهذا السبب لا تحمل جثث الجمل الميتة والخيول، والحمير، والكلاب وماشابه ذلك إلى خارج الأسوار، بل تلقى في الأماكن المهملة في داخل الأسوار، بين البيوت المهدامة، ومع ذلك يوجد في الأماكن والأجزاء المسكونة أعداد كبيرة من الناس اجتمعت من كل أمة تحت قبة السماء، كما جاء في أعمال الرسل: ٥ / ٢، وفي الحقيقة هناك أكثر من خمسمائة يهودي، وأكثر من ألف مسيحي من كل طائفة وبلد، إنما أقلهم جميعاً هم من أتباع الطقوس اللاتينية.

وليس فيها ماء، إلا ما يسقط من السماء، أو ما يجلبونه إليها بشكل فني، خلال مجاري مائية، كما سلف لي وتحدثت، ويوجد في المدينة أماكن كثيرة لحزن الماء، في برك، وخزانات وصهاريج، وأعداد كبيرة، من الصهاريج والأقنية، ولذلك هناك في المدينة ما يكفيها من مياه، وملك مصر، الذي هو السلطان، هو السيد هناك، وقد عين ولاية لحكم شعب البلاد، وتراجمة لحكم الغرباء والحجاج من كل من المسيحيين واليهود، وعين ممالك لحكم رجال الحرب، وهكذا نجده يحكم الناس بقوة مدنية

هي سلطة مطلقة.

والذي يقرأ الكتابات المقدسة، وكتب التاريخ يعرف أن هذه المدينة قد تعرضت منذ بدايتها حتى الآن لكثير من المصائب، وغالباً ما أحرقت، واستولت أمة عليها وطردت منها أمة أخرى، وكثيراً ما تعرضت للدمار، وشملها الدمار حتى أساساتها، فقد تعرضت للتشيعث من قبل نبوخذ نصر، ملك البابليين، وبعد ذلك من قبل أسوبيوس Asobeus ملك المصريين، ثم من قبل أنطيوخوس، وبعده من قبل بومبي، وبعد هؤلاء استولى على البلدة هيرود الكبير، وسوسيوس Sosius، إنما من دون أن يؤذيها.

وبعد ذلك، أي بعد آلام الرب، دمرها تيتوس دماراً تاماً، وسواها بالأرض، وحطم أساساتها، ومع ذلك ترك بعض الأبراج القوية قائمة وكذلك السور الغربي، حتى ترى الأجيال التالية، كم كانت المدينة حصينة، ومع ذلك استولى عليها الرومان الشجعان، وقد ترك هذه الأماكن الحصينة لتستخدم كقلعة للذين قرر تركهم هناك، كحامية للبلاد.

وبهذا التهديم كان شقاء المدينة مع أبنائها هائلاً إلى درجة أن مامن إنسان يقرأ الرواية التي قدمها يوسفوس، دون أن يبكي ويحزن، وكان سبب هذه الفاجعة العظيمة هو وحشية المراقب العام فلورس Florus، الذي أنزل باليهود في القدس مصائب وعذبهم بلا حدود، حتى وصل بهم الغضب إلى التجمع للعصيان ضد الرومان، وخرجوا بثورة وقتلوا كثيراً من الرومان، وطردوا كستتيوس Cestius، حاكم سورية، خارج البلاد، وكان اليهود أنفسهم في داخل المدينة عدة أحزاب، فقد كانوا منقسمين إلى ثلاث فئات، وقبل أن يقدم الرومان قتل أحدهم الآخر في المدينة بشكل وحشي، وافتعلوا الحرائق، وتصارع أحدهم مع الآخر نهاراً وليلاً، صراعاً لا يمكن إيقافه، وكان السبب الحاسم لهذه

المشاكل كلها هو اعدام يوحنا المعمدان، وصلب المسيح الناصري، ومقتل جيمس الرسول، وهذه أمور عرضها مطولاً وبشكل مؤلم في كتابه حول «حرب اليهود».

وبعد تهديم المدينة الذي وقع في السنة الثانية والأربعين بعد آلام الرب، أصبح المكان وكرّاً للصوص وللقتلة لسنين طويلة، وذلك حتى أيام الامبراطور اليوس هدريانوس، الذي سمع عن الفوضى في ذلك المكان، فقدم إليه في سنة ١٢٤م فهدم الجزء الذي أعيدت عمارته من المدينة، وطرد وقتل مقترفي الآثام، ثم كان أن استقر رأيه على وجوب قيام مدينة هناك، فعاد مجددا سنة ١٣٩م، وأعاد بناء المدينة ووسعها، وجعل في داخل الأسوار أماكن آلام الرب وقيامته، الأمر الذي سوف نتولى شرحه فيما بعد بوضوح أكبر، وعمل مدينة جديدة، سماها ايلياء، اشتقاقاً من اسمه.

وبعد اعادة البناء هذه، لم نقرأ بأنها دمرت دماراً كلياً، بل تعرضت لدمار جزئي، واقتيد سكانها إلى السبي، كما أنها لم تنقل قط من مكانها، فهذا واضح مما أعلنه غريغوري في عظته حول نص «بكى يسوع عندما رأى المدينة»، لكن المدينة توسعت، كما سنتحدث عن ذلك الآن، وكما سلف وتحدثنا عن ذلك من قبل.

والآن مع أن هذه المدينة قد تأثرت بكثير من الفواجع التي لا مثيل لها، لم يجر نسيان بدايتها ولا أوضاعها، مطلقاً بل هي باقية بشكل دائم، بمثابة شاهد أبدي بين أمم الأرض، وهي بذلك تختلف اختلافاً كلياً عن أحوال أعظم المدن شهرة في العالم، من أمثال: روما وطرودة، ذلك أنه مامن انسان يمكنه أن يعرف بشكل مؤكد من الذي كان المؤسس لروما، بسبب عدم الوفاق بين الذين عاجلوا موضوع أصلها، وكما حدثنا كاتب «عجائب الدنيا» فقد قال سالوست Sallust بأنها قد بنيت من قبل تروجان Trojans وقال يوسبيوس بأنها قد بنيت من قبل

رومولوس، وقال كتاب آخرون بأنها قد بنيت من قبل آخرين ، في حين يمكننا البرهنة على مؤسس القدس المقدسة وتاريخ تأسيسها من الكتابات المقدسة، كما تقدم القول، ومع الاقرار بأن رومولوس قاتل أبيه قد أسس روما بالسلب والنهب، كما تحدث أوسوس عنه، فقد جاء تأسيسها بعد زمن طويل من تأسيس القدس، في أيام حزقيا، ملك اليهودية، أي بعد ألفين ومائتين وثلاثين سنة من تأسيس مدينة القدس، وسبعمايةة واحد وخمسين سنة قبل ميلاد المسيح، وذلك في سنة ٤٤٨٤ من خلق الدنيا، وإنه لأمر مثير للدهشة أن يكون أصل مدينة بمثل هذه الشهرة غير واضح، وألح جيروم في رسالته إلى بولينوس إلى هذا بقوله: « جلب هذا العصر أمراً عجبياً، ولم يسمع انسان فيما مضى من أيام، أن يبحث أناس قد دخلوا إلى مثل هذه المدينة العظيمة عن شيء ماهو ليس موجود فيها»، وكانت طروادة، تبعا لهومر (الالياذة: ٤ / ٤٤) أعظم المدن تحت الشمس، وتحت قبة السماء المليئة بالنجوم، ومع ذلك دمرت بشكل جعلت أوفيد Ovid يقول: « حقول قمح تتهاوج الآن حيث قامت طروادة فيما مضى»، وأكثر من هذا هو أن مامن انسان يمكنه أن يقول أين قامت طروادة، فطروادة العظيمة التي كانت حاضرة آسيا كلها، قد تهدمت كلياً، وأصبحت نسياً منسياً حتى أنه من غير الممكن رؤية جسدها أو أثرها، فضلاً عن هذا، فإنهم يقولون بأن المكان الموجود إلى جانب البوسفور، حيث من المفترض لدى بعضهم أن طروادة قد قامت فيه، هو من جميع الجوانب ضيق جداً لاستيعاب مدينة مشهورة، لكن هذا ليس هو الحال بالنسبة لقدسنا، التي تأسست قبل طروادة بأربعمايةة وثلاث وثمانين سنة، وهي مدينة مشهورة حتى هذه الأيام، وكانت طروادة قد تأسست في أيام أجوث Ajoth (إهود Ehad؟) القاضي في بني اسرائيل (الملوك: ٣)، ويقول بعضهم بأنها قد بنيت إلى جانب البوسفور، ويقول بعضهم في الدردنيل من قبل واحد اسمه تروس Tros وقد دمرت في سنة مائتين وخمس عشرة سنة بعد

تأسيسها، وذلك في الأيام التي كان فيها عبدون قاضي اسرائيل، وبشأن هذا القاضي، انظر سفر القضاة: ١٢، وأيضاً من أجل الاطلاع على بيان عن طروادة انظر القسم الثاني ص ١٧٤.

ووضح لدينا الآن مما قيل بأن القدس هي واحدة من أعظم المدن قدماً في العالم، ذلك أنها أقدم من تريفس Treves بألف سنة وثمانين سنوات، ومن طروادة بألف سنة وأربعمئة وثلاث وثمانين سنة، وهي قائمة مستمرة حتى هذا اليوم، لأن الرب قد اختارها، ولهذا قيل في المزمور: «لأن الرب قد اختار صهيون اشتهاها مسكناً له، هذه هي راحتي إلى الأبد ههنا أسكن لأني اشتيتها» (المزامير: ١٣٢/١٣ - ١٤)، وكذلك في سفر أخبار الأيام الثاني: ٦/٥ قوله: «منذ يوم أخرجت شعبي من أرض مصر لم أختَر مدينة من جميع أسباط اسرائيل لبناء بيت ليكون اسمي هناك ولا اخترت رجلاً ليس رئيساً لشعبي اسرائيل. بل اخترت أورشليم ليكون اسمي فيها».

ولكن قد يقول انسان ما: «إنني أقر بأن القدس قد جرى اختيارها، وكانت مدينة مقدسة قبل موت الرب، لكن بعد اقرار مثل هذه الجريمة العظمى فيها، لم تعد تستحق تسميتها مقدسة، بل بالحري مدنسة، وغير نظيفة»، وقد أجاب على هذا جيروم في رسالته إلى هاديبوس Haedibius حول موضوع صراخ الرب على الصليب، حيث قال: «ينبغي أن لا يظن انسان أنه أمر غريب بعد موت المخلص، دعوة القدس باسم المدينة المقدسة، لأنه حتى وقت خرابها، اعتاد الرسل دوماً على دخول الهيكل وإقامة القداسات الشرعية من أجل اليهود المؤمنين، فقد أحب القدس كثيراً، وبكى عليها وناح، وعندما كان معلقاً على الصليب قال: اغفر لي يا أبي»، هذا وعلاوة على ذلك تناول جيروم هذه المسألة في رسالته إلى باولا، ويوستوخيوم في رسالته إلى مرسيليا، ولقد بحث جيروم في هذه المسألة مطولاً، وقال الشيء الكثير في إطاره

الأرض المقدسة ومدينة القدس.

★★ ★★ ★★

هيكل الرب الذي يدعى باسم هيكل سليمان، والأقصى وبيت إيل

صارت مدينة القدس مدينة مجيدة ومقدسة بهيكليها، حيث إليهما، تدين إلى حد بعيد، بحجمها، لأنه لو جرى نقل الهيكلين والبيع المتصلة بها والمساجد، لكان المتبقي منها قرية بائسة، ومن الممكن مشاهدة هذا الشيء في مدننا أيضاً، فلو أنه جرى نقل الكنائس، والديرة، والبيع، مع جميع الأبنية المتعلقة بها، من كولون، ل بقي منها بلدة صغيرة فقط، ومثل هذا يتعلق بالبندقية، فلو جرى نقل الديرة، والكنائس، لكان المتبقي ليس أكثر من بلدة.

وبما أنني سأحدثكم الآن عن هيكل القدس، لابد من أن أحدثكم أولاً عن الهيكل الأقدم، فنحن نعرف من الكتابات المقدسة، أنه عندما وعد الرب باعطاء أرض كنعان إلى آبائنا، ألمح إليهم أنه هناك في تلك البلاد مكان هو سوف يختاره ليكون هيكلًا، وليكون من أجل الأضاحي، وهو سوف يبنيه لهم في الوقت الذي سوف يختاره، وعلى هذا نقرأ في (سفر التثنية: ١٢) قوله: «عندما ستصلون إلى الأرض التي أعطاك الرب إله آبائك لتمتلكها كل الأيام التي تقيمون على الأرض. تحربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشاخنة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء، وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم، وتحرقون سواريتهم بالنار وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان، لاتفعلوا هكذا للرب إلهكم. بل المكان الذي يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون وإلى هناك تأتون، وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم

وعشوركم، ورفائع أيديكم ونذوركم ونوافلكم وأبكار بقسركم وغنمكم، وتأكلون هناك أمام الرب إلهكم» ولم يعلن الرب عن مكان هذا الموضع حتى أيام الملك داوود، الذي أراه الملاك أرض بيدر أرونا اليبوسي على جبل موريا وكان أرونا هذا من الأمم، وكان ييوسيا، كما أنه كان غنيا امتلك شطراً كبيراً من المدينة، وهكذا اشترى داوود منه أرض البيدر، التي أريت له، وهناك أقام مذبحاً، بناء على أمر من أحد الملائكة، وكلف ابنه سليمان ببناء هيكل في ذلك المكان نفسه، ومن أجل هذا الموضوع، انظر سفر صموئيل الثاني: ٢٤، وسفر أخبار الأيام الأول: ٢١، وبشكل خاص سفر أخبار الأيام الثاني: ٣.

★★ ★★ ★★

وبناء عليه بدأ سليمان في السنة الرابعة من ملكه ببناء ذلك الهيكل، الذي كان مشهوراً في جميع أنحاء الدنيا، وانتهى في السنة الثامنة، كما جاء في أخبار الأيام الثاني: ٢، فقد بني هذا الهيكل في سنة ٤١٦٩ بعد خلق الدنيا، و١٠٣٣ قبل ميلاد المسيح، و١٤٨٠ سنة بعد مجيء بني اسرائيل من مصر، وكان طول الهيكل ستين ذراعاً هندسياً، وعرضه عشرين، وارتفاعه ستمائة وعشرين، وأمر بتذهيب داخله كله بصفائح الذهب، وتبليطه برخام ثمين، فضلاً عن هذا، كان هناك مذبحاً نحاسياً طوله عشرين ذراعاً، وانظر حول وصف جميل لهذا الهيكل لدى كوسا، حول ★ ★ ★ (١) الكتاب التاسع — الاصحاح الرابع.

١ — كذا بالأصل، وقيمة المعلومات المقدمة أنها تعبر عن العقلية الأوربية الدينية التي آمنت آنذاك بالأسطورة، ذلك أن الحفريات الأثرية والدراسات الموثقة نفت بناء — أو وجود — هيكل أول أو غير ذلك من الهياكل، وأن تكون القدس قد عرفت ملكاً اسمه سليمان، وعلينا أن نميز بين النبي سليمان الذي لانعرف متى ولا أين عاش، وبين الملك الوهمي المخترع الذي اسمه سليمان ووردت أخباره في أسفار العهد القديم.

وصنعت الأواني التي احتيجت من أجل الطقوس في الهيكل، كلها من أفضل أنواع الذهب، علاوة على ذلك، جلب سليمان ووضع في الهيكل كثيراً من الذهب والفضة، كان داوود قد كرسها له، وبعد الانتهاء من كل شيء كما ينبغي كرس الهيكل إلى الرب بطقوس فخمة، وجلب إليه تابوه عهد الرب، الذي كان فيه لוחي العهد فقط، ووعاء المن، وعصا هرون، ولم يسمح منذ ذلك الحين بتقديم قرابين في أي مكان إلا في هذا الهيكل، ومع ذلك بقي الناس بعد ذلك لوقت طويل معتادين على تقديم قرابينهم فوق الأماكن العالية، وهو ذنب غالباً ما أقدم ملوك القدس على لومهم عليه، أي أنه طالما الهيكل موجود هم لم يقلعوا عن استخدام الأماكن العالية.

وحدث أنه بعد مرور أربعمئة واثنين وأربعين سنة على بناء الهيكل، رأى النبي إرميا أن النهاية قد اقتربت، وباتت وشيكة، فأخرج من الهيكل تابوه العهد، وحمله عبر الأردن إلى الوادي الموجود تحت جبل عبريم، الذي عرف باسم عربات مآب، كما سلف وذكرنا ذلك، وبدعائه هناك تسبب باخفائه في الصخر، حيث كتب باصبعه على الصخر، وطبع هناك اسم الرب بأربعة حروف، وعمل ختماً مثل الختم الذي يطبع بالحديد، واسم الرب هذا مخفي بشكل محكم بغيمة، بحيث لا يستطيع انسان من الخارج العثور على المكان، كما لن يتمكن أي انسان من قراءة ذلك الاسم حتى هذا اليوم، ولن يتمكن أحد من فعل ذلك حتى نهاية الحياة، ولن يستطيع أي انسان اخراج التابوه من هناك، باستثناء موسى فقط وهرون، وورد خبر هذا في سفر المكابيين الثاني: ٢، وفي الـ Speculum Historiale، قبل نهاية حكاية توبت، وبعد أخذ التابوه الذي كان مجد الهيكل، وإبعاده، جاء نبوخذ نصر واستولى على القدس، وأحرقها مع صدقيا الملك، وأحرق أيضاً هيكل ربنا، حسبما قرأنا في سفر الملوك الثاني: ٤، واقتاد السكان أسرى وأخذهم إلى بابل،

وبقي بعد ذلك موضع المدينة والهيكل مهجوراً لمدة سبعين سنة، أي حتى أيام داريوس، ملك الفرس، الذي سمح لليهود بإعادة بناء هيكلهم، وهو عمل انتهى في أيام حكم قورش، أي بعد ست وأربعين سنة، كما قرأنا في يوحنا: ٢/ ٢٠، لكن هذا الهيكل لم يكن مثل الهيكل الأول في العظمة والفخامة، ولذلك بكى اليهود الذين رأوا الهيكل الأول، حسبما قرأنا في عزرا: ٣/ ١٢، والآن، إن هذه القواعد قد أرسيت في أيام الأميرين: زربابل وشالثييل، خمسمائة سنة وخمس وعشرين سنة قبل ميلاد المسيح.

وتعرض الهيكل — على كل حال — مراراً للنهب وانتهاك الحرمه من قبل الأمم، وتعرض شطر من أخشابه للحريق، ومع ذلك بقي متماسكاً حتى هذا العصر الذهبي لربنا يسوع المسيح الذي وعظ فيه بشكل رائع، وعمل فيه معجزات، حسبما حدثنا التاريخ المقدس للإنجيل، وواضح من إنجيل مرقس: ١٣/ ١ — ٢، الخ، بأن هذا الهيكل كان بناء فخماً منتصباً فوق صخور ضخمة، وقد بقي قائماً لمدة اثنتين وأربعين سنة بعد آلام المسيح.

وحسبت السنوات، منذ السنة الثانية لحكم قورش — ملك فارس — حينما أرسيت أساسات الهيكل حتى تخريبه من قبل تيتوس بخمسمائة وتسعين سنة، وحسبت السنوات منذ تأسيس الهيكل أيام سليمان حتى تهديمه من قبل تيتوس بألف ومائة سنة وستين.

وبالنسبة لتفاصيل حساب هذه السنوات، كان هناك أولاً: من آدم إلى الطوفان ألفي سنة ومئتين واثنين وأربعين سنة، ومن الطوفان إلى ابراهيم كان تسعمائة سنة واثنين وأربعين سنة، وكان من ابراهيم إلى موسى، الذي أخرج بني اسرائيل من مصر، خمسمائة سنة، ومن موسى، والبناء الأول للهيكل خمسمائة سنة واثنين وعشرة سنة، ومن داريوس إلى أيام وعظ المسيح في الهيكل في السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر

تايبيروس، خمسمائة سنة وثمان وأربعين، ومجموع هذه السنوات حتى تاريخ وعظ المسيح خمسة آلاف سنة ومائتين وثمان عشرة سنة.

وقال اسدوروس Isidorus : عندما انتهت المملكة والكهانة اليهودية، ولد المسيح في بيت لحم، في السنة الثانية والأربعين من حكم القيصر أغسطس، الذي على هذا كان قد بقي من حكمه خمس عشرة سنة إذا كان قد حكم سبعة وخمسين سنة، وحكم من بعده تايبيروس لمدة اثنتين وعشرين سنة، وفي سنة حكمه الخامسة عشرة جرى تعميد المسيح حيث كان في الثلاثين من عمره، وجرى صلب المسيح في السنة التاسعة عشرة من حكم تايبيروس، وقال أمبروزيسوس Am-brosius : «كان من خلق العالم إلى تأسيس القدس أربعة آلاف سنة وأربعمائة وثمان وأربعين سنة، ومن تأسيس روما إلى ميلاد المسيح سبعمائة وخمس عشرة سنة».

وعندما حاصر تيتوس القدس، أحرق أولاً الهيكل، وبعد ذلك المدينة كلها، وهدم جدران الهيكل حتى أساساتهم، وأمر بقطع الجبل الذي وقف عليه، وأمر بالركام فرمي في وادي قدرون، وطم الخنادق التي كانت هناك، وسواها مع الأرض، وذلك حسبما قرأنا في «حرب اليهود» — الكتاب السابع، الفصل: ١٦، وفي أماكن أخرى كثيرة منه.

وقال يوسفوس بأنه بعملية الدمار الكلي هذه للمدينة هلك مائة ألف وعشرة آلاف يهودي بالجوع وبالسيف، وأن مائة ألف أخرى من الأسرى قد بيعت بشكل علني واسترقت لأن المدينة كانت مليئة باليهود الذين تجمعوا هناك للاحتفال بعيد الفصح، وما من مسيحي كان حاضراً أثناء هذه الفواجع، كما قرأنا في مصنف يوسيبوس القيساري «التاريخ اللاهوتي» — الكتاب الثالث، الفصل الرابع حتى نهايته، وكانت الكنيسة التي اجتمعت مع بعضها في القدس قد تخبأت بفعل صوت الرب الذي طلب منها مغادرة تلك المدينة، والانتقال إلى

بلدة اسمها فحل، التي تقدم ذكرها معنا، والواقعة خلف الأردن، وكانت الغاية من ذلك، أن يكون الرجال المستقيمين والمقدسين الذين انتقلوا من القدس إلى هناك، قادرين على مشاهدة الانتقام الرباني كاملاً، وهو الذي أنزل على كل من الذين دنسوا حرمة المدينة وعلى غير الأتقياء من الناس، وذلك بطردهم من بلادهم وبتدميرها.

وعندما غادر الرومان مدينة القدس، بعدما سووها مع الأرض، عاد اليهود الذين كانوا متخفين في المخابى إليها، وبنوا أكواخاً وأقاموا مصلى منخفض في المكان الذي قام عليه الهيكل فيما مضى، وعادت الكنيسة إلى هناك أيضاً من فحل، لتقوم بعبادة الرب هناك، لكن اليهود الذين روحهم لم تكن حتى ذلك الحين تحطمت بها فيه الكفاية، أثاروا الاضطرابات، واذوا بشكل يومي الأناس المؤمنين وأفراد الأمم، الذين كانوا يسكنون هناك، لأنهم كانوا متوحشين إلى أقصى الدرجات، وقتلة، سفكوا دماء جديدة فوق القدس، التي كانت الآن مسواة بالأرض، وملطخة بالدماء.

وبقي المكان بهذه الحالة البائسة لحوالي ست وسبعين سنة، أي إلى أن صار ايلوس هادريانوس امبراطوراً في سنة ١١٩، لتجسيد ربنا، حيث سمع بأن القدس التي كانت ميتة أخذت تتحرك ثانية، فعبّر البحار بسرعة، وقدم إلى هناك، فوجد هناك كثيراً من الناس من كل من المسيحيين واليهود، كانوا على خلاف بين أحدهم والآخر، بسبب الخلاف بين دياناتهم، وكان هناك بالوقت نفسه أناس من الأمم ووثنيين يكرهون الديانتين معاً وبناء عليه وضع في المكان الذي بنى فيه اليهود مصلاهم، وذلك حيث أقام تابوه الرب فيما مضى تمثالاً لشخصه، حتى يجعل المكان ممقوتاً من قبل اليهود، ونصب في الوقت نفسه في موضع صخرة الجمجمة، حيث وقعت حادثة الصليب، تمثالاً لفينوس، وفي كهف ضريح الرب تمثال جوبيتر، حتى يجعل هذين المكانين مكروهين

من قبل المسيحيين.

أما بالنسبة للقتلة واللصوص الذين وجدهم، فقد عرضهم جميعاً على السيف، وطردهم وباع كثيراً منهم رقيقاً، واقتحم الحصون والأسوار التي تركت واقفة منذ أيام تهديم المدينة، وهدم كل شيء، ثم غادر، مخلفاً وراءه هناك والياً للمقاطعة، وعندما أدار هؤلاء القوم ظهورهم يتجولون في المنطقة، حتى يتمكنوا من العودة إلى القدس مع جيشهم، وقتها جمع اليهود أنفسهم واحتشدوا في المكان الذي قامت فيه القدس، وتشاوروا فيما بينهم، فدمروا عمود القيصر الذي حمل تمثاله، وهدموا الهيكل، وعندما علم الامبراطور بهذا كان مغضباً، فوضع جانباً جميع أعماله الأخرى، وعاد إلى القدس مسرعاً، فقتل اليهود الذين وجدهم هناك، وباع كثيراً منهم عبيداً، وطردهم جميعاً إلى خارج حدود الأرض المقدسة، ومنع بموجب قرار حظر دخول أي يهودي إلى تلك البلاد، وعندما رأى أن المكان مناسباً لإقامة مدينة، صار أكثر لطفاً في عواطفه، وعطوفاً نحو المسيحيين، لكنه ظل أكثر قسوة وحدة ضد اليهود، وقام بتنظيف الموقع، وأمر بالأسوار المخربة في الجهة الغربية فرميت بالخذق، وسوى الأرض، وأدخل موضع الصليب وصخرة الضريح المقدس داخل الأسوار التي بناها حول المدينة، وأمر بإعادة بناء هيكل فينوس وجوبيتر هناك، وأقام فوق باب السمك، أو باب التجار خنزيراً منحوتاً من الرخام، من أجل ازعاج اليهود، حتى لا يحاول أحد منهم الدخول من هناك.

وبقيت المدينة على هذا الوضع لحوالي مائة وثمانين سنة، وبما أن موضع هيكل الرب تحول إلى موضع مكروه وغريب، بالنسبة للذين لا يعبدون الأوثان، بسبب وجود تمثال قيصر، وكذلك كان الوضع بالنسبة لمكان صلب الرب، وقيامته، وقد نسيت هذه الأماكن إلى أبعد الحدود، إنما في سنة ٣٨ (كذا) عندما عمل قسطنطين الكبير نفسه

امبراطوراً، وأصبح مسيحياً، وجدت أمه هيلانه الصليب، وهدمت الأصنام، وبنت هيكلًا فوق الأماكن المقدسة.

وتحسنت الآن أوضاع المسيحيين، في حين ازدادت أوضاع اليهود سوءاً كل يوم، وبناء عليه عبد المسيحيون الرب في القدس بسلام كبير لمدة ستين سنة، ففي سنة ٣٦٣، اضطربت أوضاع المؤمنين، حيث كان يوليان قد وصل إلى العرش، فقد كان مرتدًا عن الإيمان الصحيح، وعن الإيمان بالديانة، وعندما سمع أنه يوجد في القدس كنيسة فخمة وتجمع كبير للمسيحيين، ذهب إلى هناك، وانتهاز فرصة مناسبة لظهور كراهيته للمسيحيين، فقد ألقى القبض على القديس سيراك Cyriack، أسقف مدينة القدس المقدسة، وهو الذي كان قد عثر على الصليب المقدس، وقام بصلبه لأنه عمل موعظة حول مجد الصليب، وعندما سمع اليهود بهذا، قدموا محتشدين فرحين مسرورين، فحصلوا على حظوة القيصر، بوساطة كثير من الهدايا، وجعلوا المسيحيين موضع كراهية أكبر في بلاطه، وبعدما فكر كيف يمكنه إيذاء المسيحيين، قرر الرفع من شأن اليهود، فاستدعى إلى حضرته القيايين والأعيان بين اليهود، وسألهم لماذا لا يقدمون قرايين لربهم، لمعرفة أن شريعتهم تأمرهم أن يفعلوا ذلك، فخیل إليهم أنهم قد وجدوا الوقت المناسب فأجابوه قائلين: «نحن لانستطيع تقديم أضحية وفقاً لشريعتنا إلا في هيكل القدس، وليس هنا وهناك، ولذلك نرجو منكم ومن مراحمكم منحنا إذنًا ببناء هيكل في المكان الصحيح، وهناك سوف نقدم أضحية من أجل سلامتك وسلامة الامبراطورية».

وعندما حصل اليهود على الاذن ببناء الهيكل، هاجوا إلى حد الجنون، ونشروا في كل مكان بأن جوليان — ذلك المرتد الشرير — كان النبي الذي وعدوا به في شريعتهم، ولذلك تقاطر اليهود من جميع الأماكن والبلدان، وشرعوا بالعمل فوق المكان الذي أحرق عليه الهيكل،

ومنحهم الامبراطور موظفاً من بلاطه ليتولى مراقبة انجاز البناء، وقد منح مالاَ خاصاً وعاماً من أجل البناء، وجرت متابعة العمل بكل نشاط، وبدأ اليهود في الوقت نفسه بإهانة قومنا وكان أيام مملكتهم قد عادت مجدداً، وقد هددوا المسيحيين بقسوة، وتعاملوا بوحشية معهم، وكانوا جميعاً قد امتلأوا بالعجرفة والتكبر.

وكانت الكنيسة تدار في ذلك الوقت من قبل الأسقف سيرل، وكان رجلاً مقدساً، وحدث أنهم عندما كشفوا عن الأساسات، أن أحضروا إلى هناك، حجارة كبيرة، وكلساً، وملاطاً، وخشباً، وباتوا لايحتاجون شيئاً لكي يقوموا في اليوم التالي برمي الأساسات القديمة، وارساء أساسات جديدة، غير أن الأسقف سيرل، قد أعلن، بعد تقدير دقيق للأمور، من خلال ماقرأه في نبوءات دانيال، حول هذه الأيام، أو من خلال ماتنبأ الرب به في الانجيل، أعلن بكل تأكيد، أنه من غير الممكن أن يتمكن اليهود من إرساء حجر فوق أخرى في ذلك المكان، وبات الجميع قلقاً حول التوقعات، وكان الضعفاء من المسيحيين مرعوبين، وكان الأقوياء منهم ليس لديهم من شك بأن اليهود سوف ينفذون خططهم، وفجأة حدثت معجزة، ففي الليلة التي بقيت على الشروع بالعمل، وقعت زلزلة عظيمة، ولم يقتصر أثرها على عشرة حجارة الأساسات بالقرب والبعد، بل سويت جميع الأبنية التي كانت مقامة هناك، مع الأرض، ولحق الخراب بالبيوت التي سكنها اليهود مع العمال، وسحق الذين كانوا فيها وماتوا.

وعند حلول الفجر كان من المعتقد أنهم نجوا من هذه الكارثة لكن الذي حدث كان غير ذلك، لذلك جاء بقية الناس يركضون للبحث عن الذين سحقوا، وكانت البيوت قد غرقت في الأجزاء السفلى من الهيكل، كما كانت هناك أروقة معقدة، وكلها سقطت، وهناك كانوا قد احتفظوا بالأدوات الحديدية، والأشياء الأخرى المحتاجة للعمل، كما أنه

فجأة انبعثت من هذا المكان كرة من النار، وشرعت تسعى نزولاً في الشارع، وهي تحرق وتقتل اليهود الذين التقت بهم، وكانت تتحرك نحو الأمام ونحو الخلف، وكررت فعل هذا، مرة ثم مرة أخرى في جميع أرجاء المدينة، خلال ذلك اليوم كله، وأوقفت بلهيبها الانتقامي المحاولات الطائشة التي قام بها العنيدون من الناس، ثم إنه بسبب الخوف الهائل ولإرتجاف جميع الذين كانوا حضوراً، فقد أرغموا بوساطة رعبهم على الاعتراف بأن المسيح هو الرب الحقيقي الوحيد، ولكي لا يظهروا أنهم غير صادقين، ظهر في الليلة التالية على ملابس جميع اليهود، وبوضوح تام، علامة الصليب، حتى أن غير المؤمنين حاولوا غسل هذه العلامة وإزالتها، لكنهم لم ينجحوا بأية طريقة من الطرق، وبهذا صار اليهود وتغير اليهود خائفين، ولذلك غادروا المكان، وتخلوا عن العمل الذي شرعوا به، وذهبوا عائدين إلى أوطانهم وهم مربكين تماماً، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم يتجرأ اليهود على محاولة إقامة أي بناء فوق موقع الهيكل، ولهذا بقي الموقع من دون هيكل لوقت طويل.

أما بالنسبة لمسألة متى بني هذا الهيكل ومن قبل من فإن كثيراً من الناس يتساءلون، والمقصود هو الهيكل المقام الآن فوق أرض بيدر أرونا المقدسة، وقال كاتب *Speculum Historiale* لدى حديثه عن إعادة بناء الهيكل بعد احتراقه: «ما من إنسان يعرف من الذي بنى هيكل الرب، الذي سمي الآن بيت إيل»، ويقول بعضهم بأنه بني من قبل هيلانه، بعد العشور على الصليب، بنته مع كنيسة الضريح المقدس، ويقول بعضهم الآخر بأنه بني من قبل هرقل عندما أعاد الصليب وهو متضرر من بلاد فارس، ويقول آخرون بأنه بني من قبل جستنيان، ويقول بعضهم بأنه بني من قبل ملك مصر تشریفاً للأقصى *Halachibis*، أي الرب العلي الأعلى (كذا) وهذا هو الصحيح، ودليلي على ذلك أنني

وجدت في «تاريخ أنطونيوس» (الفلورنسي ١٣٨٩-١٤٥٩) القسم الثاني - العنوان: ١٣، الفصل ٤، الفقرة: ٤، أنه في سنة ٦١٩ لتجسيد الرب، وبعد مائتين وثلاث وأربعين سنة بعد يولييان، جلب الامبراطور هرقل حكمه إلى نهاية سيئة، وذلك بعدما حكم الامبراطورية وأدارها بشكل مزدهر لسنوات طوال، فقد انغمس بهرطقة الإرادة الواحدة، وبعد وفاة زوجته دنس نفسه بالزواج من ذوي القربى، ولذلك دخل عمر خليفة محمد ﷺ إلى سورية وفلسطين مع قوات لا تحصى من العرب، وانتزع كل شيء من أيدي المسيحيين، وفي سنين الفوضى هذه، استولى المسلمون على مدينة القدس المقدسة، وجعل السكان المسيحيين فيها رعية له، وفي أثناء إقامة عمر في القدس صار صفرونيوس على معرفة به، وتطورت العلاقات إلى حد أن عمر دخل إلى كنيسة الضريح المقدس معه لرؤية زيتتها، وعندما كان عمر يتحدث مع الأسقف، سأله عمر عن المكان الذي قام فيه فيما مضى الهيكل، الذي دمر مع المدينة من قبل تيتوس أمير الرومان، واقتاده الأسقف إلى أرض بيدر أرونا، الذي كان مغطى وقتها ببيوت عادية، وحدد له مكان هيكل الرب بوساطة بعض آثار البناء القديم التي كانت باقية.

وأعطى عمر أوامر بوجوب تنظيف موضع أرض البيدر، ورصد مبلغاً من المال لنفقات ذلك، ووضع عمالاً لإعادة بناء الهيكل، لكن عندما أرسيت الأساسات غطست على الفور واختفت عن النظر، ولم يكن بالإمكان رفع الجدران، وعندما كان عمر يتعجب من هذا ويفكر به، أخبره أحد المتنبئين، أنه مادام أحد الصليبان قد بقي مرفوعاً وعالياً فوق جبل الزيتون في مواجهة الهيكل، فإن البناء لن يتماسك، لكن إذا ما أزيح ذلك الصليب وأزيل، يمكن للهيكل أن يقوم، وكان المسيحيون قد نصبوا صليباً عالياً على جبل الزيتون فوق في مواجهة المدينة، وغالباً ما كانوا يصلون تحته، وكانت صلواتهم بقوة فضائل الصليب فعالة إلى

حد أن المسلمين لم يكونوا قادرين على بناء الهيكل بقوة غدرهم، إلا عندما أزيل الصليب وتوقفت الصلوات.

ولو كان المسيحيون شجعاناً بما فيه الكفاية لحفظ ذلك الصليب، لما استطاع المسلمون قط بناء الهيكل، لأنني أعتقد أن الصليب قد أقيم من قبل القديسين كعلامة على حماية مدينة القدس، وخشية إقامة هيكل لعبادة غريبة فيها، ويمكنني أن أعلن بجرأة، لو أن هذا الهيكل لم يعمر، لما فقد المسيحيون قط القدس وكنيستهم، والمسلمون مغرمون جداً بهذا الهيكل الذي هو ملكهم، ولذلك طالما هو قائم لن يمتلك المسيحيون أي سلام في القدس، ولذلك يبدو أن من الأفضل تدميره، وإزالته من أساساته. بدلاً من تكريس لاسم المسيح، كما حدث مراراً، وورد وصف الصليب المتقدم الذكر....والرواية عن الهيكل تتبع.

وهكذا أنهى عمر بناء هذا الهيكل في مدة ليست طويلة، وأضفى عليه ممتلكات كثيرة، وما زال واقفاً منذ أكثر من ثمانمائة سنة، ولم يخرب من قبل أحد، وكان أولاً مصلى للمسلمين، وفيما بعد عندما استولى الصليبيون على البلاد، كرسوا الهيكل للمسيح، وكان الأفضل هو أن يقوموا بطحنه إلى مسحوق ناعم وإزالته كلياً، مشاهدين أنه المعبد الذي سبب فقدان مدينة القدس وخسارتها، ومجدداً عندما استرد المسلمون المدينة، أعادوا الهيكل لاستخدامات عباداتهم، وعلى هذا تنقلت ملكية الهيكل من وقت لآخر من أيدي فئة إلى أيدي فئة أخرى، وهو في هذه الأيام يحتل لدى المسلمين مكانة عالية من الاحترام، كما سوف نرى، وعلى هذا بني هذا الهيكل من قبل المسلمين، ومع ذلك غالباً ما قرأت في كتب حجاج صغيرة بأنه قد بني من قبل هيلانة المباركة، إنما عندما أنظر عن قرب إلى الهيكل [٢٦٠] أرى أن هذا غير صحيح، لأنه قد بني كلياً وفق طرائق المسلمين، وليس له شكل كنيسة مسيحية، لأن بابه الرئيسي يفتح من الشرق، وهو شيء لم أره قط في كنائس المسيح.

فيما يلي الوصف المعاصر لهيكل الرب

إن هيكل الرب الذي بني من قبل عمر ملك مصر، على أرض بيدر أرونا اليبوسي، وذلك حيث كان سليمان قد بنى بيت الرب، هو بناء ليس مساوياً لأشهر منشآت سليمان القديمة، ويطلق المسلمون عليه اسم الأقصى، في حين يسميه المسيحيون المتعلمون بيت ايل، بينما اسمه لدى المسيحيين غير المتعلمين هيكل سليمان، وهو بناء فخيم، نفقات انشائه عالية، وكبير ومستدير، على شكل برج عظيم وواسع، ويوجد في داخل الجزء الدائري جدار آخر بني فوق الأرض، وهو جدار يحيط بالهيكل كله، ويوجد بينه وبين الهيكل ساحة واسعة، ويدعم هذا الجدار من الجانب الأول سقف مقنطر معقود، يغطي الدائرة كلها، ومن الجانب الآخر يستند السقف المقنطر على جدار الهيكل نفسه، أو بالحري على رواق من الأعمدة، الذي منه ينتصب الجزء الأعلى من الهيكل، لأن في داخله هناك دائرة من الأعمدة الرخامية، تمتد القناطر فوق رؤوسها حول الدائرة كلها، وقد بني فوق القناطر جدار مرتفع حول الدائرة كلها، ويوجد في داخل الجدار الخارجي الذي يحيط بالأعمدة، بمثل ارتفاع الأعمدة نفسها وانطلاقاً منها— كما قلت— قناطر معقودة فوق الأعمدة، ويوجد حول اطار الجدار الخارجي نوافذ مستطيلة كبيرة مزججة، مثل النوافذ التي في الكنائس، والمسافة ما بين نافذة وأخرى هي كبيرة بقدر النافذة نفسها.

والفراغ في الخارج مزين بأعمال الفسيفساء، بطريقة باهظة النفقات، ولهذا يشع حقل كل صورة من الصور بالذهب، في حين تتألف الصورة نفسها من رسوم أشجار النخيل، وأشجار الزيتون، أو صور الكروبيين، ذلك أنهم لا يسمحون بصور أخرى أو منحوتات في مساجدهم، والجزء الأعلى من الهيكل، الصاعد من الأعمدة، الواقفة في الداخل، قد بني عالياً حتى أنه مشرع في الهواء، وهو منبثق من الممشى المتقدم الذكر،

الذي هو عريض ومحيط، ويوجد في القسم الأعلى نوافذ متوالية كلها مستديرة، وكل واحدة منها تلامس الأخرى، لكن هذه النوافذ أقصر وأصغر من النوافذ الموجودة في الصف الأدنى، وله فوق أعلاه سقف (جملون) مقنطر معقود مغطى بالرصاص، وهو الذي كان مذهباً فيما مضى، وهو ما يمكن مشاهدته بوضوح في الوقت الحالي.

ويقوم منتصباً فوق أعلى السقف هلال كبير بقرنين عالين جداً، وذلك حسبما يضع المسلمون فوق جميع مساجدهم، ذلك أنهم يضعون على أعلى مكان في مساجدهم أهلة على ظهورها مثل قوارب، وأحد التفسيرات، هو أن المسلمين حاولوا أن يسيروا في طريق وسط، وأن لا يظهروا مثل المسيحيين أو اليهود، ومع ذلك أن يكون لهم بعض الارتباط بهما ما، ولا يضع اليهود شيئاً خاصاً فوق كنسهم، ولم نقرأ بأن هيكل سليمان قد كان له أي شيء في أعلاه، ولكن المسيحيين نصبوا من البداية صلباً مع دكة منتصبة فوق كنائسهم، وقام المسلمون حتى يتميزوا عن كل من المسيحيين واليهود برمي الصلبان جانباً واحتفظوا بالديكة في أعلى أبنيتهم من دون صلبان، غير أنهم مع ذلك، مع الاحتفاظ بالديكة ظهروا أنهم يقلدون المسيحيين، ولذلك استبدلوا الديك بهلال مستند على ظهره، وهو تغيير سهل، لأن الديك برأسه وذيله المنتصب له شكل هلال مستند على ظهره، ولذلك حيثما وجدت دكة فوق المساجد، يقولون بأنها أهلة.

وفعلوا مثل هذا في جميع شعائرهم، حيث عملوا بعض التغييرات ، حتى لا يكونوا مشابهيين لنا، وهناك سبب آخر متعلق بمحمد ﷺ..... على أساس أن القمر يؤثر بالناس أكثر من جميع النجوم الأخرى، وبما أن طبيعته رطبة، ولذلك فإن المد والجزر في البحر يتحركان وفقاً لتحركات القمر، هذا وهناك أسباب أخرى، من الممكن استخراجها من شرائع محمد ﷺ، من ذلك على سبيل المثال، لقد أعطاهم الله القمر على

ظهره كعلامة، لأن شريعتهم فارغة في أجزائها العلوية، مثلما القمر وهو على ظهره، فارغ في الأجزاء العلوية وبدون فائدة، وهكذا دواليك، فهو يتتعد عن الشمس، ودائماً فارغ، ومظلم، وخاوي، وهو يبعد أشعة الشمس عنا، لأنه يقف بيننا وبين الشمس، وهو الأكثر تجوالاً بين الكواكب، ففي وئام أوضاع السماء هو مشهور بأنه الأعمق، وهو يتجول ويتخذ طريقاً غير مؤكداً بين النجوم الجواله، وفلكه هو الأصغر بين الجميع، وهو يحب الحيوانات الليلية المفترسة، وجميع هذه النقاط تتوافق مع شريعة محمد ﷺ التي لا عقل في أجزائها العلوية، بل تبقى مظلمة لأنها أبعدت عن ضوء المسيح، ومع ذلك لها ضوء على الجانب الآخر، ففي كثير من الجوانب هناك في شريعة القرآن كثيراً من جوانب الصديق الرائعة، وخاصة فيما يتعلق بمريم العذراء المباركة، فهم يدعون المسيح باسم «روح الله»، الذي معناه «كلمة الله»، و«نفس الله» أو «روح الله»، وهي كلمات عندما تترجم بتقوى، نجدها مليئة بقداسة رهيبة.

★★

★★

★★

ويوجد فوق السقف المعقود (الجلّمون) الذي يمتد حول الهيكل كله، وتحت الصف الأعلى من النوافذ، هناك ممشى حول الدائرة كلها، عليه يقف خدمهم العاملون في المسجد، وهم الذين يتولون الدعوة إلى الصلاة طوال ساعات النهار والليل، ويعلقون مصابيح مضاءة في ساعات محددة، ولقد رأيت هذه الأشياء كلها بوضوح وتمييز من خارج الهيكل، عندما نظرت إليه من خلال مسجد السلطان الجديد.

وصحن الهيكل، وجميع المنطقة المفتوحة من حوله، مبلطة برخام أبيض مصقول، وهو نظيف إلى حد أنه عندما يقف إنسان فوق جبل الزيتون وينظر نحو الهيكل، يبدو له وكأنه قائم في بركة من الماء النقي جداً، وفي النهاية الجنوبية من الساحة، عند نهاية البلاط، هناك حديقة

بديعة من أشجار الزيتون، قد زرعت لتزويد مصابيح الهيكل بالزيت، حيث هناك أكثر من سبعمائة مصباح معلقة في الهيكل، ورأيت جميع هذه الأشياء بعيني من الخارج، لكنني لم أر شكله من الداخل، علماً بأنني كنت قادراً على أن أخمن مع شيء كبير من الصحة، من الشكل الخارجي للهيكل، ومن المساجد الأخرى التي دخلت إليها، فهو لا يوجد في داخله قدس أقداً لحفظ آثارهم المقدسة، أو من الممكن أن يوضع فيها القربان أو الآثار المقدسة، لأنه ليس لديهم لاقربان ولا آثار مقدسة، هذا وكنت قد قرأت في أحد التواريخ أن قدمي وذراعي محمد ﷺ محفوظين هناك ولا يوجد مذبح في هذا الهيكل المذنب، ولا تماثيل سواء مرسومة أو محفورة منحوتة، ولا كرسي خشب، ولا مقاعد، أو مساند، بل الأرض كلها مغطاة برخام مصقول منوع، فهذا الذي يمكن رؤيته في كل مكان، والجدران مزينة من الداخل بأعمال الفسيفساء مثلها من الخارج، وعلى هذا ليس هناك شيئاً قائماً في مواجهة جدران هذا الهيكل في محيطه كله، ولا يوجد شيء في داخله، سوى المصابيح المضاءة، المعلقة من القناطر في الأعلى، هذا ويقول بعضهم أنه يوجد في وسط الهيكل هناك صخرة منبعثة من الأرض، وهذه الصخرة مطوقة من جميع جوانبها بشباك حديدية، وأن مامن مسلم أو غير مسلم يتجرأ على الاقتراب منها، هذا ويقدم المسلمون من بلدان نائية للزيارة، وهم يرغبون بخشوع برؤية تلك الصخرة، وبسبب هذه الصخرة تراهم في كلامهم العام يطلقون على هذا الهيكل اسم «الصخرة المقدسة».

وهم يقولون بأن أشياء كثيرة عظيمة قد عملت فوق هذه الصخرة، ففي المقام الأول فوقها قدم ملكيصادق خبزاً وخمرة (التكوين: ١٤)، وهناك نام البطريك يعقوب، وهذه الصخرة تحت رأسه، ومن عليها رأى في منامه السلم الذي يصل رأسه إلى السماء، والملائكة يصعدون وينزلون عليه، وفي الصباح دهنها بالزيت (التكوين: ٢٨)، علاوة على

ذلك، على هذه الصخرة رأى داوود الملاك واقفاً مع سيفه المشهور، كما قرأنا في أخبار الأيام الأول: ٢١، هذا وعندما كان الكهنة قد اعتادوا على وضع تقديرات الحرق فوق تلك الصخرة، كانت النار المقدسة تنزل على الفور وتلتهم ما كان قد وضع هناك، ويقولون أيضاً أنه عندما رأى النبي إرميا بأن دمار المدينة والهيكل بات وشيكاً، أخفى تابوه الرب في هذه الصخرة، فهي قد انفتحت بشكل اعجازي، وأخذت التابوه، وبناء عليه هم يعتقدون بأن التابوه مخبأ داخل الصخرة، وعلى هذه الصخرة جرى تقديم المسيح في اليوم الأربعين، عندما أخذه سمعان بين ذراعيه (لوقا: ٢)، وعندما كان يسوع في الثانية عشرة من عمره جلس على هذه الصخرة في وسط اللاهوتيين (لوقا: ٢)، وعندما كان في الثلاثين من عمره غالباً ماتولى الوعظ وهو جالس فوق تلك الصخرة، فهذا مايقوله المسلمون حول تلك الصخرة، هذا وإن بعض الأشياء التي تقدم لي قولها من قبل لا تتوافق تماماً مع أقوالهم هذه، من ذلك على سبيل المثال مايتعلق بملكيسادق، وحول يعقوب، وبشأن حادثة إرميا.

وقداسة هذا المكان — ولأقول: هذا الهيكل — قد تبرهن عليها في كثير من نصوص الكتابات المقدسة، فهذا هو المكان الذي اختاره الرب وآثره على جميع الأماكن الأخرى، الأمر الذي كنا قد بيناه من قبل، وهنا ظهر مجد الرب في دخان كثيف، وملأت السحابة البيت إلى حد أن الكهنة لم يكونوا قادرين على الإقمامة في الهيكل (الملوك الأول: ٨/ ١٠ — ١١)، وعندما أراد عزيا أن يقدم بخوراً هناك، ولأنه لم يكن كاهناً أصيب بالجذام (أخبار الأيام الثاني: ٢٦/ ١٩)، وعندما بُعث هيلودوروس لسلب الهيكل جرى ضربه بشكل فظيع (المكابيون الثاني: ٣/ ٢٦)، وعندما مدّ نيكانور بطيش يده نحو الهيكل، فقد يديه ورأسه (المكابيون الأول: ٧، المكابيون الثاني: ١٤)، وعندما بادر الملك

أنطيوخوس مسرعاً لنهب هذا الهيكل مات ميتة شنيعة في الجبال (المكابيون الثاني: ٩)، والامبراطور بومبي الذي كان حتى ذلك الحين منتصراً، بعد أن دنس هذا المكان، ووضع خيوله فيه، لم يمتلك حظاً جيداً ثانية، وفي هذا المكان أطعمت العذراء المباركة، وهنا ظهر جبرائيل — ملاك الرب — إلى زكريا، وهنا أورقت عصا يوسف.

ومن الهيكل الذي بني فوق هذا المكان، قام الرب يسوع عدة مرات بطرد الذين باعوا والذين اشتروا، وهنا كتب على الأرض باصبعه (يوحنا: ٨)، ووعظ في هذا المكان كثيراً وعمل معجزات عظيمة، وبعد ماجرى تدمير الهيكل، لم يكن اليهود قادرين على بناء أي شيء هناك وهذا ما كنا قد تحدثنا عنه من قبل، كما أن المسلمين لم يكونوا قادرين على بناء مسجد على هذه البقعة حتى دمروا الصليب، كما قلنا من قبل، وعندما بني المسجد أخيراً وضح أن الرب كان غاضباً أن تجري العبادات المحمدية فوق هذا المكان العظيم القداسة، ولهذا جلب شعب الغرب إلى هذا المكان، وكان غاضباً على المسلمين.

وكرس المسيحيون مسجد محمد ﷺ وحولوه إلى كنيسة، وعن هذا الهيكل تحدث برنارد في قداسه إلى فرسان الداوية (الفصل الخامس) قائلاً: «يوجد هيكل في القدس، فيه يسكن الفرسان مع بعضهم، وهو ليس مساوياً للهيكل القديم ولا بفخامة هيكل سليمان، ولكنه ليس أدنى أهبة، لأن جميع فخامة الهيكل الأول كانت تعتمد على الأشياء الفانية مثل الذهب والفضة، والحجارة المنحوتة، ومختلف أنواع الأخشاب، لكن جميع جمال ومجد هذا الهيكل، وجميع زينتته موجودة في الحماسة التقوية والغيرة على الدين، والمحادثات الخاشعة بين الذين يسكنون فيه، فقد كان الأول متميزاً لألوانه المتنوعة، وأما الثاني فلأنه محترم لفضائل متنوعة ولأفعال مقدسة. وفي الحقيقة القداسة هي التي جعلت بيت الرب، الذي لا يسر كثيراً بالرخام المصقول كما يسر بثقافة الأخلاق

السامية، وبحب العقول النقية أكثر من الجدران المذهبة، ومظهر هذا الهيكل مشرق مسرور بالأسلحة، وليس بمجوهرات تيجان الذهب القديمة، والجدران مغطاة هناك بترسة معلقة عليها عوضاً عن حاملات الشموع، والمباخر، والأباريق، والبيت كله مطوق بالأعنة والرماح، ذلك أن فرسان المسيح يتحرقون بالحماسة نفسها، تجاه بيت الرب، التي تحرق بها الرب عندما طرد مع الضرب الذين باعوا فيه واشتروا، وقد رأى أنه أمر غير تقي ولا يمكن احتماله أن تتلوث الأماكن المقدسة من قبل الكفار، ومثله بالسوء تلويثه من قبل التجار.

وهم يسكنون في البيت المقدس مع خيولهم وأسلحتهم، من أجل أن يبعدوا عنه وعن الأماكن الأخرى المقدسة جميع الدنس وكل طغيان الكفار، ولكي يشغلوا أنفسهم في الليل والنهار في أعمال مفيدة، أثناء تنافس أحدهم مع الآخر، من أجل تشريف هيكل الرب مع أعمال تعبديّة قلبية دائمة، ودوماً يقدمون النذور والتعهدات هناك، وليس أجساد الحيات كما كان في القديم، بل قرايين صحيحة، وسلام، ومحبة أخوية، وخضوع تقوي، وفقر تطوعي.

هذا ما فعله الرجال في القدس في أيام القديس برنارد، وقد تحرك العالم أجمع نحو التقوى يحذون حذوهم، لكن عندما شاخ حماس فرسان هذا الهيكل، لم يمض وقت طويل قبل أن يتمكن الناس الحمقى، الذين كانوا قد طردوا، من العودة ثانية، فتمكنوا من طرد فاتري العزيمة والشهوانيين من أتباع الصليب، وهم مجللين بالعار، وللمرة الثانية خرقوا حرمة هيكل المسيح المقدس باتخاذهم مسجداً منه.

وهكذا، يالأسف آل الهيكل إلى المسلمين الذين يعرفون قداسة المكان، والأعمال العظيمة التي عملت هناك، فهم يعاملون الهيكل باحترام عظيم، وبسرور عظيم يقومون بحفظه نظيفاً، ومنظماً بكل وسائل العناية، حيث يغسلونه يومياً من الداخل ومن الخارج، وهو كله

مصقول بشكل فخم، ولذلك إنه لدهش أن تنظر إليه، ولا يدخل المسلمون إلى هذا الهيكل إلا بعد أن يكونوا قد طهروا أنفسهم، بالوضوء، ثم يقتربون منه بوقار ولياقة، ليس بشكل حاشد، بل يمشي كل انسان لوحده، وكأنه سيد عظيم، ولا يتكلم أحدهم مع الآخر، ولا يجلبون الأطفال أو الكلاب معهم، وبذلك لا ينزعج إنسان أثناء صلاته.

وللنساء باب خاص بهن، منه يدخلن إلى الهيكل وإلى الساحة هناك، ولهن جناحهن الخاص في الهيكل، فيه يصلين منعزلات عن الرجال، ومعهن النساء اللائي حسب عادة النساء يمكنهن في بيوتهن، ولا يسمح لهن مطلقاً بالاقتراب من الهيكل، ويخلع الرجال أحذيتهم قبل الدخول إلى الساحة، ويركعون مراراً ويبدون الاحترام والتقوى قبل الساحة أمام الهيكل، وبذلك يدخلون إليه بوقار.

وعندما يكون الملك السلطان في القدس، ويرغب بدخول الهيكل، يقومون بغسل البلاط والجدران العائدة للهيكل بماء الورد قبل وصوله، لاظهار التشريف لعظمة الهيكل والملك.

ومكانه هذا الهيكل عالية جداً بين المسلمين، وطالما هو بأيديهم لايهتمون كثيراً فيما إذا امتلك المسيحيون بقية المدينة، ولهذا عندما كان شعبنا محاصر دمياط في سنة ١٢١٩، لتجسيد ربنا، ودمياط مدينة في مصر، وعندما رأى السلطان أن الموقع سوف يجري الاستيلاء عليه، أرسل سفارة مهيبة إلى معسكرنا، يلتمس السلام، ويرجو رفع الحصار، وأخذ القدس وتملكها كلها بشكل دائم، باستثناء هيكل الرب، الذي قصد الاحتفاظ به لنفسه، وبالإضافة إلى هذا عرض بأن يتولى إعادة بناء أسوار القدس على نفقته الخاصة، وهي الأسوار التي كان المعظم عيسى ملك دمشق قد دمرها، وذلك باستثناء هيكل الرب في القدس، وكان الفرنسيون والألمان على استعداد ورضاً بالقبول بهذا العرض، لكن لم

يوافق عليه بيلاغوس، الذي كان الكاردينال والنائب البابوي، ولا الايطاليون، ولا المسيحيون الشرقيون، ولذلك لم يستقبلوا رسل السلطان، والذي حدث أنهم وإن استولوا على دمياط بعد عدة أيام، لقد فقدوها مجدداً، وفقدوا جميع الأماكن في الشرق وفي الأرض المقدسة، إلى حد أنهم لم يعودوا يمتلكون حجراً واحداً في القدس، ونزل هذا بهم، بالقضاء العادل للرب، كعقوبة على شرور الايطاليين، وشرهم، لأن دمياط كانت موائمة لأعمالهم التجارية، ويفضلونها على القدس وعلى الأرض المقدسة، وخيل إليهم أنهم سوف يستولون عليهم جميعاً، وفي الحقيقة كان المسلمون راضين بالتخلي عن اليهودية كلها، وعن فلسطين، وعن الجليل، للمسيحيين، لو أنهم سمحوا لهم بالاحتفاظ بالهيكل في القدس، لكن برفضهم الموافقة على ذلك، خسرنا كل شيء، وهم حتى هذا اليوم يمتلكون الأرض المقدسة، والمدينة المقدسة، والهيكل، وهم لا يسمحون لأي انسان، ليس من أتباع شريعة محمد ﷺ بالدخول إلى الهيكل، وكل يهودي أو مسيحي يدخل إلى هناك، ويكتشف، إما يرغمونه على التخلي عن إيمانه، أو يقتلونه مع التعذيب، ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا الخطر، غامر عدد من المسيحيين، وتمكنوا بمختلف السبل والطرق من الدخول إلى هناك، لأن أوفيد قال:

«لأننا نتشوق إلى المحذور علينا

نتوق إلى الذي ليس لدى الكثيرين»

ويتخيل المسيحيون، أن الهيكل لا بد أن يكون شيئاً رائعاً أن تنظر إليه من الداخل، مشاهدين أنه معمول بشكل رفيع، وجميل جداً من الخارج، وإنه لأمر مفاجيء أنه لا يمتلك زينة من الداخل، وليس فيه مذابح، ولا صور، ولا تماثيل، بل هو صالة كبيرة مشرقة مبلطة ومكسوة برخام من مختلف الألوان، ومضاءة في الليل بعدد كبير من المصابيح المعلقة من السقف المقنطر، لأنهم يقولون بأن هناك سبعمائة مصباح مشتعلة بشكل

دائم فيه، ولا يوجد في هذا الهيكل كله لاشيء سوى على الجانب الشمالي هناك ما يشبه ضريح محمد ﷺ، وهو ضريح مرتفع معمول من الرخام يمثل ضريح محمد ﷺ في مكة (المدينة) الذي يحترمون به إلى أعلى الدرجات، حتى أنهم يتعبدون به مثلما يتعبدون في جميع الكنائس، وحول ضريح محمد ﷺ هذا، انظر ص ٤٠ من القسم الثاني، ولسوف تجد كثيراً حول مكة في ص ٦٢.

وعلى هذا لا يوجد في هذا الهيكل زينة فخمة، للنظر إليها ومشاهدتها، كما لا يوجد فيه قداسات أو قرابين يقوم بتنظيمها الكهنة أو رجال الدين، وحول هذا الموضوع، انظر القسم الثاني ص ٩٤ وص ١٠٠، ولا يوجد لدى المسلمين خلاص ولا عفاء من الذنوب، ولا طهارة أو تحقق بالنسبة للذنوب، ومثل هذا ليس في الهيكل قداسات، ولا رسامة كهنة، ولا زينة، ولا كهانة، ولا قداسات أو قرابين، ومع ذلك فإنه على الرغم من فراغ الهيكل فإن الحجاج المسيحيين — كما تقدم وأخبرتكم — يتحرقون رغبة لرؤية داخل هذا الهيكل، وبعضهم يخاطر أحياناً بمواجهة الموت ليقوم بذلك.

وهنا بات كما يبدو المكان المناسب لمعالجة السؤال الذي أثير من قبل أنطونيوس في الجزء الثالث من تاريخه — العنوان: ٢٤، الفصل: ٩، الفقرة: ١٧: «هل يعدّ المسيحي مقترفاً للذنوب بالدخول إلى مساجد المسلمين؟» ويبدو أنه لا يعدّ مذنباً، لأن معابدهم قد أمر بأن تكون مغلقة (في وجه المسيحيين) ومنوعة، يعاقب فاعل ذلك بفقدان حياته وممتلكاته (انظر كوسا: «حول الكفار والمسلمين ومعابدهم» — الكتاب الأول والثاني)، ويسبب أنه بالنسبة لمنع الدخول، هم تماماً مثل اليهود....، وعلى هذا أجاب بأنه يمكن للمسيحي أن يدخل معبداً أو مسجداً للمسلمين لأربعة أسباب، هي: إما لحمد الرب أو للتبشير بإنجيل المسيح، ولرؤية الهيكل، ولتقديم بعض الإهانة للهيكل،

أو ليرى ويقدر كيف يمكن صيانة الهيكل، هذا ولا يجوز لمسيحي الدخول إلى كنيسة مدنسة، أو مسجد ليصلي للرب، أو ليحمده، خشية أن يظهر أنه يشارك في آثام هؤلاء الناس، مشاهدين أن المسلمين لم يقوموا قط بمدح الرب من دون تجديف خوؤون بحق المخلص، وثناء عظيم على النبي محمد ﷺ، وعن مثل هذه الأماديح ينبغي على المسيحي، بكل وسيلة من الوسائل أن يقف نائياً، وعلى هذا، وخشية أن يظهر أنه من تلاميذ محمد ﷺ عليه أن يتجنب الأماكن التي خصصت لمدحه، مع أن هذه الأماكن أماكن مقدسة، كما لا يمكنه هناك أن يمدح الرب بالطريقة المناسبة، لأن أعمال الناس تعتمد كثيراً على ظروف المكان التي فيها تنفذ، ومنع الرسول (كورنثا الأولى: ٨/ ١٠) المؤمنين من الجلوس إلى مائدة في مكان يقدم فيه لحم للأكل مما قدم للأوثان، خشية من أنه إذا ما رآه أخوه، أن يضل، معتقداً أنه يعمل ذلك صدوراً عن الاحترام للوثن، ومثل هذا من المحظور على المسيحيين الجثو للصلاة في مكان تجري فيه عبادة الأوثان، وإذا فعل ذلك، يكون قد اقترف إثماً عظيماً، مع أنه لم يقصد عبادة الوثن.

وبناء عليه، عندما أقام الامبراطور ايلوس هديانوس هيكل فينوس وتمثال جوبيتر، هجر المسيحيون ذلك المكان الأعظم قداسة، بسبب ذلك الهيكل المدنس، وعدوا أي انسان دخل إليه وثنياً، حتى لو كان ذلك من أجل عبادة المكان المقدس، ومثل هذا كنائس الهراقة والمنشقين، هي ممنوعة على المسيحيين، الذين لا يجوز لهم الصلاة بها، خشية اسهامهم في الانشقاق، وأكثر من هذا — بناء عليه — هياكل الأوثان، وكنس اليهود، ومساجد المسلمين، ينبغي عدم زيارتها بأي شكل من الأشكال، ولالسبب من الأسباب.

وعلى هذا سوف ياثم الناس إثماً عظيماً ضد العقيدة، إذا ما قاموا بعبادة الرب الحقيقي في هيكل الأوثان، وسيكون أي انسان مثل هذا آثماً

إثماً عظيماً— إن لم يكن أكثر— إذا مادخل إلى حرم للمسلمين أو مسجد، ليتفوه بصلواته، لأنه، وإن كان المسلمون المحمديون ليسوا وثنيين، إنهم أسوأ من الوثنيين الحقيقيين، كما برهننا على ذلك في الصفحة: ٩٨ من القسم الثاني، وإذا كان الرب (متى: ٦) قد منع شعبه من الصلاة عند زوايا الطرقات، حتى لا يشاهدوا من قبل الناس، ويعبدوا مقدسين، إنه أكثر من هذا محرم الوقوف في هيكل اسلامي والصلاة فيه، خشية أن يروا من قبل الناس، ويظن أنهم أناس أشرار، أو مشركين، وبناء على ذلك، إنه لمن الواضح أنه لا يجوز لمسيحي الدخول إلى مسجد لعبادة المسيح فيه، لأن ذلك لن يكون من دون ذنب.

ثانياً: هل يمكنه الدخول إلى المسجد للتبشير بالايان الحقيقي فيه؟ يبدو أن هذا لا يجوز، لأن الذي يدخل هكذا يعرض نفسه إلى خطر الموت، على أساس أنه تماشياً مع شريعة القرآن، ينبغي قتل مثل هذا الانسان مباشرة، وبذلك يقتل نفسه بدون ثمار، ومن الممكن، من جهة أخرى، لكثير من الناس، ممتلكين بالحماس للايمان، أن يدخلوا إلى معابد المسلمين ويبشروا فيها مع ثمار، دون أن يقتلوا، من ذلك على سبيل المثال فنسنتوس Vincentius المقدس، الذي كان من طائفة الدومينيكان، الذي تمكن من تحويل آلاف كثيرة من المسلمين إلى الايمان الحقيقي، وبناء عليه إنه لا يمكن اعتماد، أنك إذا ماقلت أو فعلت الذي يسبب لك القتل من قبل الآخرين، تكون بذلك مجرمًا بقتلك نفسك، لأن القديسين أنفسهم، اعتنقوا الايمان الكاثوليكي، حتى عندما كانوا عارفين بدون شك، أنهم بهذا الاعتناق، سوف يجري اعدامهم من قبل الطغاة، ونحن الآن نتعبد لهم كشهداء للرب.

ونقرأ فعل مثل هذا عن الراهب ليفينوس Levinus الذي كان من طائفة القديس دومينيك، ذلك أنه عندما رأى المسلمين قد اجتمعوا

مع بعضهم في واحد من مساجدهم، دخل إليه، وبما أنه كان ممتلئاً بالحماس من أجل إنقاذ أرواحهم، صرخ بجرأة واستمرار بأن صلواتهم كانت عابثة، وأنهم مالم يؤمنوا بالمسيح، لسوف يذهبون إلى عذاب أبدي، وأن شرائع محمد ﷺ كانت غير صحيحة، ومخادعة، وخيالية وزائفة، وعندما كان يعظ على هذه الصورة، وقع المسلمون عليه، وقتلوه.

وعدّ هذا الراهب بين القديسين، من قبل أنطونيوس في الصفحة المتقدمة نفسها، لأنه بدا بأنه قد ذهب إلى هناك، ليس بدوافع أوهامه الذاتية، بل توجه تحت قيادة الروح القدس، وإذا ما وجدوا أي إنسان أثّر بحماس طائش أو بغضب، للدخول والصراخ ضدهم، ومن ثم قتل، وقتها يحكم عليه بأنه فضولي، وليس شهيداً، وهذا ما عمل لبعض المسيحيين الإغريق، فقد دخل اثنان منهم — كانا في القدس قبل بضع سنوات إلى الهيكل وهما في حالة غضب شديد، وهناك اختطفوا كتبهم، ومزقوها إلى قطع، وداسا عليها بأقدامهما، وهما يقولان بأنها جميعا مخترعة وزائفة، وأمسك المسلمون على الفور هذين الرجلين، وأعدموهما بعد تعريضهما إلى عذاب شديد، بتمزيقهما إلى مزق.

ثالثاً: هل يمكن لمسيحي أن يدخل مسجداً، ويكون غير مذنب، بعد إقدامه فيه على توجيه الإهانات وقيامه بحركات ساخرة منه، أو بتدمير الكتب، أو النوافذ، أو المصابيح، أو بعد إدخاله إليه الطين أو القاذورات؟ يبدو لي — مع كل الاحترام للذين هم أقدر مني على الحكم — إنه لا يمكن أن يكون إلا مذنباً بسبب أن مثل هذه الإهانات وأعمال السخرية، لاتبدو بأنها ناتجة عن الاحسان، بل بالحري عن الغضب، والكراهية، أو الضغينة، أو عن الكبرياء، وبمثل هذه الأعمال لايجري تمجيد الرب، بل التجديف ضد المسيح، وإثارة الغضب بين المسلمين، من دون أي ضمان لحياتهم، وهكذا فإن الذين يفعلون مثل

هذه الأعمال يغامرون بحياتهم من دون ثمار.

وفي الحقيقة يعتقد الناس البسطاء أنهم يتعبدون الرب عند قيامهم ببعض أعمال السخرية في مساجد المسلمين، أو في كنس اليهود، لكن ليس في ذلك عبادة للرب، لأن أمنا الكنيسة تتساهل تجاه الكنس اليهودية، ولا تقوم بتدميرها مع أنها يمكنها ذلك، وبناء عليه ينبغي على أبناء الكنيسة عدم تدنيس الذي تتحمله أمهم، وتنطبق الحجج نفسها على المساجد، وبناء عليه، اقترف أحد الفرسان وكان رفيقاً لي أثناء حجي، خطأ، وكان ذلك عندما كنا في منطقة فلسطين نمضي ليلة في نزل، كان بجواره مسجد، وكان الوضع أنه بإمكاننا النزول من السقف المقبب للبيت الذي كنا مقيمين فيه، إلى السقف المقبب المجاور والعائد للمسجد، وكان في قمة سقف هذا المسجد فتحه، كان بإمكاننا من خلالها النظر إلى المسجد، الأمر الذي فعلناه، وقام الفارس المتقدم الذكر أثناء الليل، وتسلق إلى السقف المقبب للمسجد، ولوثة من خلال الفتحة، الأمر الذي جعلنا نضحك كثيراً، لأننا جميعاً دهشنا لدى رؤيتنا له، لكنني لم أر أية فضيلة بالذي فعله، كما أنه مامن فائدة كانت ستنتج عن ذلك، بل الكثير من الشرور، لأنه لو عرف المسلمون بذلك، لما كنا غادرنا البلاد أحياء.

ومع أن الرب لا يعبد بشكل صحيح بالمساجد، هي بالأصل بنيت تشریفاً للرب الحقيقي، من الممكن تكريسها، وتحويلها إلى كنائس مسيحية، كما حدث كثيراً لدى استيلاء المسيحيين على أية بلدة، وانتزاعها من أيدي المسلمين أو الأتراك، وهم مثل ذلك يعملون بالطريقة نفسها، مساجد من كنائسنا، وبناء عليه، إنه بسبب هذا التملك، وليس بسبب أي احترام لشؤونهم التعبدية، على الإنسان الاحتفاظ ببعض الاحترام لهياكل الأمم، عارفين بأن الرسل أنفسهم لم يدمروا الهياكل، بل أزاحوا الأوثان منهم، وحولوهم إلى كنائس

مسيحية، وغالباً ماقرأنا أنه حتى الذين لوثوا هياكل الأوثان، تعرضوا للعقوبة، كما هو واضح من حكاية ميدوسا Medusa ابنة فوركوس Phorcus ، التي كانت امرأة فائقة الجمال، وكان من بين محاسنها شعرها الذي لم يكن مجرد أصفر، بل ذهبياً.

وانجذب بلمعانه نبتون Neptune ، فاضطجع معها في هيكل مينيرفا، ومن ذلك ولد الحصان بيغاسوس Pegasus ، وباتت مينيرفا مغضبة تجاه هذا، وقررت أن لاتمر الإهانة التي تعرضت لها في هيكلها من دون انتقام، فحولت شعر ميدوسا إلى ثعبان، وهكذا بعدما كانت جميلة، غدت مخلوقاً مربعاً Monster.

وصار الذي نزل بيومبي، وماأصابه من سوء طالع بعد ماربط خيوله في الهيكل في القدس يعرفه كل انسان، إلا الذين لم يقرأوا قط شيئاً، وكنت قد مررت بذكر المآسي التي جلبها على نفسيهما نيكانور وأنطيوخوس، بسلبهما الهياكل وبجلدهما هيلودوروس Helio-dorus.

رابعاً: ويبقى إن علينا وجوب أن نرى هل يمكن لمسيحي الدخول إلى مسجد دونما ذنب، وذلك ليس للصلاة، وليس لتخريب أي جزء منه، وليس لتقديم أي إهانة إليه، ولاللعب أية خداعات به، بل فقط لرؤية المسجد، والشعائر به، وأعتقد أنه إذا أمكنه الدخول دونما خطر ودون أن يلاحظ، هو بذلك لا يكون مقترفاً لذنوب عظيم، ومع ذلك سوف يبدو محباً للبحث إن لم نقل فضولياً فقط، وليست التقوى هي التي أحضرته إلى هناك، وإذا كان المسجد قائماً في أي موضع مقدس، ويمكن لمسيحي أن يدخل إليه بشكل سري ودون أن يلاحظ، وبدون أي خطر، يمكنه وقت ذاك الدخول بجدارة، وتقبيل الأرض، وتلاوة صلواته، مثلما فعلنا في المسجد القائم فوق ضريح داوود، الذي من أجله انظر ص ٤١٣، وكنا راغبين بفعل الشيء نفسه في المسجد في

حبرون، الذي هو قائم فوق الكهف المزدوج، كما سوف نتحدث عن ذلك في القسم الثاني — الصفحة الثامنة.

لكن إذا كان الدخول لا يمكن الحصول عليه دون مخاطرة، أو مقابل أجر كبير، فإن الذي يدخل مثل هذا المكان يعمل بشكل غير حكيم، وإنني أعرف فارساً مازال حياً، كانت قد اقتادته رغبته لرؤية الهيكل، ولذلك تحدثت مع أحد المماليك، وعملت معه صفقة في أن يضع عليه ملابس مسلم وأن يأخذه إلى داخله، وهكذا أخذ هذا المملوك العجوز رفيقنا وهو لابس لثياب انسان شرقي، حتى ساحة الهيكل، لكن عندما باتا هناك، وأراد الدخول إلى الهيكل، استبدّ رعب شديد بالفارس، إلى حد أنه لم يعد بإمكانه الوقوف لأنه كان يرتجف، ولم يتجرأ على الدخول، بل أدار ظهره وعاد إلينا، وهو مسرور لأنه تخلى عن فكرته، وفي الحقيقة ليس عجباً أنه ارتعب وخاف على حياته، لأنه لم يكن متأكداً بأن دليله كان صادقاً.

ومع أنني شخصياً مغرم برؤية الأشياء الغريبة والمناظر غير الاعتيادية، لم أحاول قط الدخول إلى الهيكل، بل كنت قانعاً بالنظر إليه عن بعد، وهنا اعترف بأنني غالباً ماكنت منزعجاً وشغرت بالأسى عندما قارنت نظافة الهيكل، وجماله، وترتيبه الممتاز مع كنائسنا، التي هي — وياللعار — مثل اسطبلات دواب الرهبان، وكنائسنا هي دائماً قذرة مع الناس يمشون خلالها، وكأنهم يمشون في داخل خان، وهي ملوثة بالقاذورات الأمر الذي يربكنا كثيراً، ويزعجنا وهو يسبب كراهية القداسات ونقدها، وإنه لمزعج جداً ومهين أن ترى في القدس كنيسة قيامة المسيح، وهي قائمة بدون زينة تقريباً مثل خان طلي بالدخان، وأن ترى مسجد محمد ﷺ مرتباً ونظيفاً، مثل قصر الملك (تلا هذا مقارنة مقذعة بين النبي محمد ﷺ والسيد المسيح، وشملت بضعة أسطر، قمت بحذفها، وانتهت هذه المقارنة بقوله:) ومع ذلك فإن هيكل المسيح

ملعون، ومرزول، وممقوت، بينما هيكل محمد ﷺ مبجل، وجميل، وممجد. لكن ماهو وجه الغرابة أن يحدث هذا في القدس، بين المغاربة والمسلمين، وهو يحدث بين المسيحيين والكاثوليك؟ انظروا أرجوكم إلى أعظم الكنائس في العالم أجمع — أي كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران — التي هي رأس جميع الكنائس في داخل مدينة روما وفي جميع أرجاء العالم، كما تبرهن من قبل الفارز Alvarez في مصنفه « بكاء على الكنيسة » الكتاب الثاني، الفصل الثاني، الخ، والذي يظهر في أية حال هي فيما يتعلق بكل من الزينة والنظافة، وإنني أصلي إلى الرب أن تنجو من الخراب، وهناك تقوم كنيسة المخلص، وقدس أقداسنا مع كنزها الذي لا مثيل له، من الآثار المقدسة، ومع ذلك يبدو المكان وكأنه مهجور، ومنعزل، ومن الصعب أن يجد الإنسان فيه الأشياء المحتاجة من أجل قداس قربان، فساحتها قذرة، والبيع المتصلة بها مدنسة، ومذابحها ملوثة، وأماكنها مدمرة، والرهبان الذين عبدوا فيما مضى الرب هناك، قد جرى طردهم، ووضع آخرون في محلهم، وكل شيء في ظل حكم هؤلاء آيل إلى الدمار، وهناك أجزاء كثيرة قد لحقها الدمار، ليس بسبب وجود الترك والمسلمين، بل بسبب غياب المسيحيين.

ومثل هذا أيضاً كنيسة القديس بطرس، هي تحتاج كثيراً إلى كل شيء مناسب لمثلها ككنيسة كبيرة، وإذا كانت مثل هذه الأشياء قد حدثت في الكنيستين الرئيسيتين في العالم، وفي المدينة التي هي عاصمة الكاثوليكية، ومركز الإيمان، فكيف لا تحدث في كنائس أخرى في أرجاء ذلك الكون؟ حيث الكنائس قذرة، يساء استخدامها، وهي مهملة في المباني، والأواني، والكتب، وبالملايس، وبأغطية المذابح، وبالساحات، وبأراضي الدفن، وبالأبنية الخارجية، وإنه لأمر مخز أن تفكر حولها، ومهين أن تقول ذلك، وليست القضية قضية كنيسة واحدة بل جميع الكنائس، حيث

المذابح، وأغطية المذابح، وأغطية الآثار المقدسة، وأغطية القربان، وغطاء كأس القربان، والثياب الكهنوتية، والأكتافيات، كلها قدرة إلى درجة أن كاهن الكنيسة لقرفه، لا يسمح بوضعهم فوق منضدته، لابل أكثر من ذلك، أنه لا يمكنه أن يتحمل أن تكون سراويله بهذه الدرجة من القذارة والاهمال، فالثياب الكهنوتية ملوثة مثل السخام، والأكتافيات قذرات من التعرق، وكل شيء محتاج إليه من أجل القداس متعفن بالقذارة المتناهية، إلى حد أن مامن انسان يمكنه تحمل وجودهم في موضع سكنه.

أيها الأخ الانسان، حبذا لو رأيت في القدس مدى الاحترام المقدم لهيكل محمد ﷺ، وكم ممتع الاقتراب منه، وكنت قد حدثتك من قبل وشرحت لك كم هي نظيفة وهادئة ساحته، وكم هو مشرق ومنظم كل شيء فيه، وبينت لك مدى الخشوع الذي يظهره المتعبدون لدى الدخول إليه، وكذلك عن الوقار العظيم الذي يلزمون به أنفسهم أثناء الصلاة، وأيضاً عن تواضع النساء هناك، حيث وجوههن مغطاة بشكل دائم، وكيف أن الرجال يصلون بصمت بعزلة عنهن، ولو أنك رأيت ذلك لصدمت بشكل عميق، ولغضبت غضباً عظيماً من الاهمال ومن عدم الاحترام الذي يبدية المؤمنون في كنائسنا.

ومع ذلك، لربما يمكن تأويل عدم الاحترام هذا، بشغور طيب، على أساس أننا نمتلك القداسات الحقيقية، التي تكمن قوتها الحقيقية في نيل الرحمة للميت، وفي شفاء النفوس، ولذلك نولي قليلاً من الاهتمام للزينة الخارجية لمعابدنا بينما لا يسعى غيرنا وراء النقاء الداخلي للقلب، بل يسعون أكثر خلف النظافة الخارجية، لكن إذا سمح المسيحيون ببقاء هذه القذارة من خلال عدم الاحترام والاهمال، فهذه إهانة هائلة، حسبما برهن هوغو Hugo، الذي وضع ابداء عدم الاحترام نحو المذبح بين «ذنوب الدير» الاثني عشر.

هيكل مريم العذراء المباركة فوق أرض بيدر أومان

وعلى الجهة الجنوبية من بيت إيل، والهيكل الذي يسمونه هيكل سليمان، وفي أرض بيدر أرونا اليبوسي نفسها، هناك هيكل كبير، وكنيسة جميلة جداً، بنيت من جميع الجوانب وفق طريقة كنائسنا، وهي أكبر من هيكل سليمان بسبب طول صحنها، وهي مسقوفة بالرصاص، وهي تضاء بالنهار بعدد كبير من النوافذ المنتشرة حولها، لكن في الليل فإنها تضاء بثمانمائة مصباح مشتعل بها، بسبب أنها مسجد فائق القداسة عند المسلمين، وأنا غير قادر تماماً على العثور على أية رواية، كتبها أي انسان، حول من الذي بنى هذا الهيكل، ومتى بني، هذا وليس لدي شك في ذهني بأن المسيحيين قد بنوه بعد استرداد المدينة المقدسة، في أيام الملوك اللاتين، لأن نموذج البناء وسماته تظهر أنه بني من قبل مسيحيين، ومثلما يبرهن شكل ما يسمى هيكل سليمان أنه قد بني من المسلمين، ما من مسيحي عاقل يمكنه أن يصدق الذي اعتادوا على اخبار الحجاج به، من أن ذلك الهيكل نفسه قد بني من قبل هيلانه كما أوضحنا من قبل، كذلك هذا الهيكل الذي أنا أتحدث عنه، لم يعمر من قبل أي قوم غير المسيحيين، لأنهم عندما استولوا على الأرض المقدسة، رغبوا بوجود كنيسة باسم العذراء المباركة، قرب هيكل الرب، وهكذا بنوا هذه الكنيسة تشريفاً لها، وكرسوها لها، صدوراً عن احترام تطهيرها في الهيكل، ولذلك يدعو بعضهم هذه الكنيسة باسم كنيسة تطهير مريم، ويدعوها آخرون باسم هيكل سمعان، ويميز آخرون فيما بين هيكل سليمان وهيكل الرب، ويقولون بأن هذا هو هيكل الرب، والآخر هو هيكل سليمان، ويدعوه آخرون باسم رواق سليمان، في حين يدعوه آخرون باسم هيكل زكريا، وهذه التسمية أقرب إلى الصحة، لأن العذراء المباركة عندما كانت طفلة قدمت هناك إلى زكريا، والد يوحنا المعمدان.

واعتماد الداوية على اقامة قداساتهم في هذه الكنيسة، لكن جعل المسلمون منها مسجداً، وأبعدت عن استخدامات الديانة المسيحية، مثلما حدث لهيكل سليمان، ويوجد تحت هذه الكنيسة بناء تحت الأرض سقفه مقنطر وهو متميز وواسع، يمكن فيه ربط ستائة فرس بدون مصاعب، وكنت قد حدثتكم من قبل بأنني دخلت شخصياً إلى هذا البناء، وأن هناك مسجد آخر قيد البناء قرب هذين الهيكلين، وذلك بأمر من السلطان وهو مسجد كبير، وعالي النفقات، قائم خارج الساحة، وأرض بيدر أرونا، ويوجد فيه ثمانية وثمانين مصباحاً مشتعلاً، وكنت قد تحدثت عنه من قبل.

**أول كنيسة مسيحية في القدس، المعتقد أنها كانت على جبل
صهيون قبل بناء هيكل ضريح الرب،
وهي التي فيها بدأت معجزة نار الفصح**

الوصف الكلي لمدينة القدس المقدسة مرتبط جميعه تقريباً بهذين الهيكلين، أي هيكل بيت إيل، الذي يدعونه باسم هيكل سليمان، والقيامة، التي هي كنيسة قيامة الرب، وإلى هذين الهيكلين يعود الفضل بكل شيء جيد يعزى إلى المدينة، كما شهد على ذلك خريسوستوم عندما قال بأن كل شيء جيد، وكل شيء شرير انصب على الناس من هيكل الرب، وذلك حسبما جاء في مصنفه « بكاء على الكنيسة » — الكتاب الأول، المادة ٦١٦، لأن دمار مدينة القدس حدث كثيراً من المرات، وكذلك إعادة عمارتها حدثت مرات كثيرة، ومجدها وتمجيدها، وعارها وانحدارها، جاء من هياكلها في أيام كل من العهدين القديم والجديد.

ولن يعبأ المسيحيون إلا قليلاً في هذه الأيام، حول مباشرة المسلمين الحكم في القدس، شريطة أن نمنح حرية الدخول والخروج من هيكلنا، هيكل ضريح الرب، وذلك بدون خوف، وبدون ازعاج، ومغالاة بالمدفوعات، وكذلك لن يهتم المسلمون لو أننا كنا سادة المدينة المقدسة، إذا ما ابتعدنا عن هيكلهم وتخلينا لهم عنه، ولكن بما أن المسيحيين والمسلمين لا يمكنهم الاتفاق حول هذه المسألة، عانت القدس غير السعيدة، وهي تعاني الآن، ولسوف تعاني فيما بعد من الحصارات ومن التدمير، ومن الرعب أكثر من سواها من مدن العالم الأخرى، وعلى هذا يمكن القول: « الغيرة على بيتك قد أكلتني »، وفي الحقيقة الغيرة على هذين الهيكلين، قد أكلت القدس وقد التهمتها، وقد سحقتها.

ولنعد إلى الخلف بعيداً مع المسألة هذه، فالرومان ماكانوا ليحولوا المدينة إلى أشلاء بشكل وحشي هائل ودموي، لولا أن اليهود قد قاتلوا

بالدفاع عن هيكلمهم بغيرة وعناد منقطع النظير، ولذلك أغضبوا الجيش الروماني، وحرصوه وأوصلوه إلى كراهية مدمرة ضد المدينة المقدسة والهيكلم، وعندما جرى تدمير المدينة والهيكلم من قبل الرومان، من المعتقد أنه جرى الاحتفاظ بمدينة داوود على جبل صهيون لتكون قلعة وحصناً.

وفي مدينة داوود هذه نفسها، امتلك المؤمنون كنيسة، كانت قد بنيت في أيام الرسل في موضع عليّة عشاء الرب، حيث أقاموا قداساً هناك، وعملوا اجتماعاً وانتخاباً، ونشروا أحكاماً تتعلق بقضايا الايمان، وكان هذا قبل افتراقهم عن بعضهم، وهنا من المعتقد أن مريم العذراء الأعظم مباركة كان مسكنها، وفي هذه الكنيسة شغل القديس اسطفان منصب الشماس، وفيها دفن بعد استشهادها، وهذه الكنيسة فوق جبل صهيون لم تهدم تماماً في أيام تيتوس أو ايلوس هدريانوس، ولا في أيام المسلمين، بل بقيت من أيام الرسل حتى هذه الأيام، إنما باستثناء سنوات قليلة فقط، عندما كان غضب الرومان حامياً ضد اليهود، وذلك لدى استيلائهم على القدس، ففي ذلك الوقت جرى انذار المؤمنين مقدماً من قبل الروح القدس، فغادروا القدس، خشية المشاركة في فناء اليهود، إنما ما أن غادر الرومان حتى عادوا وصعدوا إلى الرابية وإلى كنيسة صهيون، هذا ومن المعتقد أن النار المعجزة المتميزة لعيد الفصح، التي كنت قد تحدثت عنها من قبل، قد بدأت في هذه الكنيسة، كنيسة جبل صهيون، لكن في أي وقت، هذا ما لم أقرأ عنه في أي مكان، سوى أنه في سنة ١٩٢ لتجسيد الرب، وقبل قسطنطين وهيلانه، وقبل اكتشاف الصليب المقدس، عندما كان نرسيس أسقف القدس، ذاهباً لإقامة قداس في أمسية الفصح، أخبر من قبل خدمه أنه لا يوجد زيت لافي الجرة، ولا في المصابيح، وعندما سمع الرجل المقدس والمؤمن بهذا، ولأنه كان ممتلئاً بالايمان أمر خدمه أن ينضحوا ماء

ويجلبوه إليه.

وعندما جلب الماء إليه، صلى وبارك الماء، وأمر تلاميذه بصبه بالمصاييح، ثم حدث أنه بقوة مدهشة لم يسمع بمثلها في أي جيل من الأجيال، تحول الماء إلى زيت، وصارت له دسامة الزيت، واشتعل من السماء، وجعلت شعلة السماء المصاييح أكثر اضاءة واشعاعاً مما هو معتاد، وعملت هذه المعجزة في أيام الكفار، في ظل حكم الامبراطور فكتور، والامبراطور سيفيروس، اللذان حكما قبل قسطنطين بهائتين واحدى عشرة سنة، ووجد في القدس بعد نرسييس عدد كبير من الاساقفة القديسين، ولم تكن حشود المسيحيين بلا كنيسة قط، هذا ولم تكن كنيسة الضريح المقدس قد بنيت بعد، وبناء عليه جرت جميع القداسات ونفذت بمهابة على جبل صهيون، حتى بناء كنيسة الضريح المقدس، التي عن بداياتها سوف أحدثكم الآن [٢٦٤ظ].

بداية هيكل ضريح الرب

كان مكان صلب يسوع ودفنه خارج باب مدينة القدس، كما برهن على ذلك انجيل يوحنا: ١٨، والرسالة إلى العبرانيين: ١٣، وعدّ هذا المكان مشهوراً منذ بداية خلق الجنس البشري، ولقد قالوا أيضاً بأن آدم، أبونا الأول، قد دفن فيه، وأن جسد هذا البطيريك قد نقل كله من هناك، وذلك باستثناء رأسه، وكان نقله إلى الكهف المزدوج، الموجود في حبرون، وهناك دفن، ولهذا السبب تطورت عادة بين الرسامين، برسم رأس آدم تحت قدمي المصلوب، ولهذا السبب أيضاً اعتاد أبناء آدم لمدة طويلة على معاملة هذا المكان باحترام، ومن المحتمل أن يكونوا قد بنوا مصلى هناك تشريفاً لأبويهم، وأن هذا المصلى قد عاش حتى طوفان نوح، فبعد الطوفان، سكن سام بن نوح، الذي هو ملكيصادق، فوق جبل أكر (الجمجمة) والتقى بابراهيم وهو يحمل خبزاً وخمرة، وباركه.

وفيا بعد، كان ابراهيم على وشك التضحية بابنه اسحق في هذا المكان نفسه، وذلك بناء على أمر من الله، وهنا نُصب أفعوان من البرونز، كان الناس يقدمون له الأضاحي، وفي الحقيقة كان الرئيس بين الأماكن المرتفعة التي أزالتها فيما بعد حزقيا (الملوك الثاني: ١٨ / ٤)، ولهذا يبدي اليهود احتراماً خاصاً لهذا المكان، علاوة على ذلك، اعتادت الأمم، وكذلك الفلاسفة على زيارة هذا المكان، بسبب وسط الدنيا، الذي برهنوا أنه هنا، كما تحدثت عن ذلك في ص ٤٩٧، وجرى وصف هذا المكان وشكله في ص ٤٩٧ نفسها وكذلك في ص ٤٨٨، واستمر هذا المكان يحظى بالتشريف حتى أيام أمم الاغريق، الذين قاموا بسبب كراهيتهم لليهود بتهديم ذلك المصلى وتشتيت بقاياها، وعينوا المكان ليكون الموضع الذي يجري فيه اعدام مقتري الشرور، وبذلك تحول المكان المقدس لدى اليهود، إلى موضع ممقوت لديهم، هذا ومن المعتقد أن الرب يسوع، غالباً ما قام، اثناء حياته بزيارة هذا الموضع على الجبل، مع مكان دفنه، موضحاً بذلك قداسة ذلك المكان، الذي تكرست قداسته بموته، وبدفنه، وبقيامته المجيدة جداً، فلقد كرس هذا المكان وجعله مقدساً لجميع الدنيا.

وبعد صعود الرب اعتادت مريم العذراء الأعظم قداسة، والرسل، وبقية المؤمنين على زيارة المكان يومياً، وتقبل طبعات اقدم الرب يسوع، كما سلف وذكرنا في ص ٦٤٣، ويذكر بعضهم أن القديس جيمس الأصغر، الذي رسمه الرسل، أول أسقف للقدس، قد اتخذ كرسية، ومقر اقامته في مكان قيامة ربه، وأقام هناك القداسات وأعمال التعبد الدينية، فضلاً عن هذا، كان هو مصنف بنود العقيدة، أي أنه أعلن بأن الرب «قد تألم أيام بنتوس بيلاطوس، وصلب، ومات، ودفن»

وبعد استشهاد القديس جيمس، وفي السنة الثانية والأربعين، أو— كما يقول بعضهم— في السنة الخامسة والأربعين بعد آلام الرب، سببت

ذنوب اليهود تعرض القدس إلى دمار كلي، وذلك باستثناء مدينة داوود، والصور الغربي المواجه لصخرة الجمجمة، وحديقة ضريح الرب، حيث سمحوا ببقاء هذه الأماكن من أجل امتلاك حراس تلك البلاد مكاناً حصيناً، وبعد ذهاب الرومان، رجع المسيحيون— كما قلنا من قبل— إلى القدس، واعتادوا على زيارة موضع الجلجلة مع جميع الخشوع الذي اعتادوا عليه، ومع ذلك لم يعمرُوا هناك أية كنيسة أو هيكل، بسبب خوفهم من الحرس الروماني، ولعدم رغبتهم في تغيير شكل المكان عما كان عليه في أيام صلب المسيح، وقيامته، وهو شكل كرهه القديس جيمس أيضاً تغييره، لأن تذكر ماكان قد حدث يمكن أن يكون أكثر تأثيراً، وأنا كان بودي عدم بناء أية كنيسة هناك، فوقتها كان بالامكان فهم معاني الأناجيل بشكل أوضح، وذلك لدى حديثهم عن آلام الرب وقيامته، وأعتقد بشكل مؤكد أن المسيحيين ماكانوا ليقدموا على تغيير شكل المكان، لولا أن الامبراطور هدریان فعل ذلك.

وقدم هذا القيصر إلى القدس في سنة ١١٩، وفي ذلك الوقت كانت قد أعيدت عمارتها بشكل ما من قبل المسيحيين واليهود، وقام للمرة الثانية بقتل اليهود، وباعهم رقيقاً، وأخرجهم مطرودين من البلاد، وبنى مدينة القدس الجديدة، حيث هدم المدينة القديمة ووسعها، وطمّ الخنادق بين المدينة وبين مكان آلام المسيح وحديقة الضريح، ورفع هذه الخنادق إلى مستوى بقية الأرض، وبنى سوراً حول المدينة، أدخل في إطاره هذا المكان، لأنه سمع بأن المكان كان مقدساً، وكان مبجلاً من قبل المسيحيين.

ونظراً لكونه كافراً ووثنياً، فقد رغب بتشريف آلهته هناك، وقد بنى هيكلًا عظيمًا ضم كل من صخرة الجمجمة، وكهف ضريح الرب، ونصب على صخرة الجمجمة— حيث أقيم فيما مضى الصليب المقدس— نصب فينوس العاهرة بلاحياء، ووضع في كهف ضريح

الرب تمثال جوييتر الشرير جداً، وهكذا صار المكان الذي كان المسيحيون يزورونه من قبل بشكل متواصل مكروها جداً من قبلهم، وبقي المكان في هذه الحالة الشريرة لمدة مائة وثمانين سنة، أي حتى أيام قسطنطين الكبير، والقديسة هيلانة، وقد عرفنا هذا من رسالة القديس جيروم إلى بولينوس، وهي التي افتتحها بكلمتي Bonus home، وهذه الرسالة موجودة في الكتاب الثالث، في صفحة: ٢١٠.

وفي سنة ٣١٣ لتجسيد الرب، تحول قسطنطين وهيلانة إلى عقيدتنا، وبعدما صارت هيلانة عابدة للصليب، جاءت إلى القدس، وهنا وجدت موضع موت الرب وقيامته في هيكل مدنس وغير نظيف إلى أبعد الحدود، وبما أنها كانت ممثلة بالحساس للرب، ألقت أرضاً بالأوثان، ودمرت الهيكل، ولحق الدمار حتى أساساته نفسها، ونظفت صخرة الجمجمة وحجرة ضريح الرب، وأمرت رجالاً بالحفر عميقاً بالأرض، وقد بذلوا كثيراً من الجهد في تعزيل الأرض ورمي التربة، وذلك في المكان الذي وجدت فيه الخشبة الثمينة للصليب المقدس، مع الرموز الأخرى لآلام المسيح، كما سلف وتحدثت في ص ٤٨٢ و ٤٨٨، وعندما أعلمت بذلك ابنها قسطنطين، أرسل لها على الفور مبلغاً من المال لتغطي به نفقاتها، وأصدر أوامر إلى مكسيموس Maximius، الذي كان آنذاك أسقف القدس، بأن يبني كنيسة فخمة في ذلك المكان المقدس، تبعاً لأوامر أمه هيلانة، وهكذا بدأ العمل في هذا المشروع العظيم، وبعد ذلك انتهى بسرعة، وبني هيكلًا عظيمًا مع تزيينات باهظة النفقات، إلى حد أن العالم أجمع لم يكن به مثله، واعتقد كثيرون بأن هذا الهيكل كان أعلى بنفقاته من الهيكل السالف الذي دمره تيتوس والذي قام فوق أرض بيدر أرونا.

وفي ذلك الوقت لم يكن فوق أرض البيدر هذه هيكلًا، ولا حتى مصلًى، بل بعض المساكن لعوام الناس، وكان الموضع كله من دون أي

تشریف، ونقل الآن مقر الأسقف من صهيون إلى الهيكل الجديد، وقطن رجال الدين والبلاط كله هناك، علاوة على ذلك، جرى هناك تجديد المعجزة التي تحدثت عنها في الورقة المتقدمة، والمتعلقة بالنار المقدسة للفصح، فعندما يجري اطفاء الأنوار جميعاً، في الأمسية المقدسة لعيد الفصح، في جميع أرجاء الكنيسة، أثناء انشغال رجال الدين والناس بالصلاة، يحدث فجأة، نزول شعلة من السماء تقوم باشتعال شموع الفصح، وجميع الشموع والمصابيح، وتحدث هذه المعجزة كل سنة في هذه الكنيسة عشية عيد الفصح، وطوال ظهور هذه المعجزة لا تتلقى الكنيسة أي أذى على أيدي غير المسيحيين.

وكانت العادة آنذاك، أنه عندما يحل السبت المقدس، يجري اطفاء كل نار في جميع أرجاء القدس، ولا يتجرأ انسان على اشتعال أية نار بأية واسطة من الوسائط، إلا من النار التي تقدمها الكنيسة، وبناء عليه يبقى الناس جميعاً، في كل من الكنيسة وفي بيوتهم بصلوات مستمرة من أجل النار السماوية، التي ينظرون إليها على أنها العلامة الأكثر تأكيداً على رضى الرب عليهم، وعندما تنزل النار من السماء، كانوا يقومون جميعاً باشتعال مصابيحهم، وبحمل النار إلى الكنائس الأخرى قريباً وبعيداً، وإلى هذه الأيام يجري حمل الزيت المكرس هناك، وجلبه أيضاً إلى البيوت الخاصة للناس، حيث اعتادوا على إبقائه مشتعلاً طوال السنة.

★★

★★

★★

وحدث في سنة ٣٢٣ لتجسيد ربنا، بعد وفاة مكسيموس، أسقف القدس، أن بدأ الآريوسيون بالحملة على كنيسة الضريح المقدس تحت سلطتهم، وقد عزلوا كونراد أسقف القدس الكاثوليكي والمعين بشكل شرعي، وعينوا رئيس شمامسة فيها، وبدلوا النظام المحدد من قبل كنيسة روما، وتحكموا لسنوات كثيرة بالكنيسة المقدسة في الجلجلة، التي دنسوها بهرطقتهم، وفي تلك الآونة، أثناء استيلاء الهراطقة الآريوسيين

على كنيسة الضريح المقدس، جرى عقد مجمع نيقيا، وقدم بعد هذا قسطنطين إلى القدس، واستمع إلى الآريوسيين إلى حد أنه اقتنع من قبلهم بالنزول إلى الأردن، وتلقي تعميد ثاني على أيدي الآريوسيين، وكأن تعميد القديس سلفستر له كان بلا تأثير، وقد وجدت هذا مدوناً في كتاب تاريخ حول قسطنطين، والذي اعتقده ان الحكاية كلها قد اخترعت من قبل الآريوسيين، من أجل أن يمتنوا حزبهم باهانة مثل هذا الامبراطور العظيم.

هذا ومن الممكن، انه نزل مع رجال الدين والشعب إلى الاردن، واغتسل فيه صدوراً عن التقوى، مثلما يفعل الحجاج دوماً، وبذلك أعطى إلى الآريوسيين فرصة للقول بأن الامبراطور قد تعمد للمرة الثانية، وطوال المدة التي سيطر فيها الآريوسيين على الكنيسة، توقفت النار من السماء عن النزول في عشية عيد الفصح، مثلما اعتادت على النزول في ظل سيطرة الكاثوليك، وفي الحقيقة لقد تبرهن بتجارب صحيحة، أنه في كل مرة يكون هناك انشقاق وانقسام في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، في ذلك الوقت بالذات يجري دوماً انتزاع الضريح المقدس من الكاثوليك، ويعطى إلى الهراطقة، والمنشقين، أو المسلمين، وأنا اعتقد بشكل أكيد، أن الكنيسة الغربية لو كانت متحدة مع نفسها، لأمكننا من دون سيف ومن دون حرب تملك ضريح الرب.

وفي الوقت الذي كان فيه الآريوسيون يتحكمون بالكنيسة، طردوا الكاثوليك منها، ومن كل جهة، ولم يسمحوا للحجاج بالدخول إلى ضريح الرب، ولذلك وقعت أعمال القتل يومياً، وكانت هناك مشاجرات مرعبة بين الآريوسيين والكاثوليك، وأقول إنه في ذلك الحين اتحد المسلمون، وانقضوا على نوعي المسيحيين وطردهم من الكنيسة، وشتتوا جميع هؤلاء المتخاصمين، سواء أكانوا هراطقة أم كاثوليك، وأبعدوهم عن القدس، و..... دمروا كنيسة الضريح القدس،

غير أنها لم تبقى معزولة لمدة طويلة، لأن جميع أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الشرقية، مع جميع المؤمنين الآخرين، تجمعوا في سنة ٣٧١ لتجسيد الرب، وذهبوا إلى القدس، وطرّدوا المسلمين والآريوسيين، وأعادوا عمارة مبنى كنيسة الضريح المقدس، وأرجعوها إلى الإيمان الحقيقي للكنيسة الكاثوليكية، وتصاحب هذا مع كثير من التعب، لأن الآريوسيين كانوا قد أصبحوا قوة هائلة في جميع أرجاء العالم، وكانوا يتمتعون بالخطوة لدى الأساقفة، ورجال الدين، والملوك والأمراء، وقامت هذه الهرطقة اللعينة وصدرت عن آريوس، الذي كان قس الاسكندرية، وكان بالاسكندرية، احمقاً إلى حد محاولة زرع الخلاف في الإيمان القويم، كما حاول أيضاً أن يفصل الابن عن الجوهر الدائم والذي لا يتغير للأب، وذلك حسباً حدثنا غراشيان Gratian في لاهوتيته الرابعة والعشرين — الفصل الأول.

وبعد تنظيف الكنيسة في القدس من تلك الهرطقة، سيطرت القداسة بشكل رائع بين كل من رجال الدين والعلمانيين، في جميع أنحاء العالم، حتى أيام الامبراطور هرقل.

وفي الحقيقة ازدهر بين أيام الامبراطور قسطنطين، الذي حكم في سنة ٣١٣، وهرقل الذي حكم في سنة ٦١١، رجال نالوا شهرة عظيمة وكانوا متنورين، ومعهم تراجعت الهرطقة الآريوسية كثيراً، وهي الهرطقة الخطيرة التي كان آريوس رئيسها، وكان هذا العصر مقدساً وخطيراً، فلقد كان مقدساً، بسبب القديسين الذين عاشوا في تلك الآونة، ودون الحديث عن الجميع، لقد كان هناك بين هذين الامبراطورين، قد ازدهر، أربعة حكماء مشهورين في الكنيسة، هم: أمبرويز، وأوغسطين، وجيروم، وغريغوري، وفي الوقت نفسه كان من بين القديسين، نيقولا، وأنطوني الكبير، وزينو أسقف فيرونا، وبولص، أول النساك، وبولنيوس أوف تريفس Treves ، ويوسيبوس،

وهيلاري، وأثناسيوس، ومكاريوس، ومريم المصرية، وكان هناك وقتذاك كثيراً من النساك في قفار مصر، والعربية، وفلسطين وليبيا، وفي كل سنة تدفقت حشود من الأتقياء المسيحيين مع بعضهم من جميع أجزاء العالم إلى فلسطين، لإقامة عيد الفصح الكبير، وجاء كثيرون ليس فقط من أجل يسوع، بل لكي يتمكنوا من رؤية معجزة النار السماوية في أمسية الفصح، والمعجزة على جبل الزيتون في يوم عيد الصعود، التي كنت قد تحدثت عنها من قبل في ص ٤٩٠، و ٥٩٥.

ولم تتوقف القدرة الالهية، في ذلك الوقت أيضاً عن تمجيد هذا المكان، بوساطة كثير من العلامات، وهكذا رأى في سنة ٦٢٠ لتجسيد الرب، راهب اسمه برنارد، هو ليس برنارد أوف كليرفو، بل رجل مقدس آخر، رأى النار المتقدمة الذكر نازلة من السماء إلى هيكل ضريح الرب، وقد كتب كثيراً حولها في كتاب حجه، وفي ذلك الوقت قدر المسيحيين كثيراً بسبب نار الفصح، وفي ذلك الوقت أيضاً، جرى عرض الصليب المقدس والآثار المقدسة الأخرى، التي وضعتها هناك القديسة هيلانة، وهكذا نقراً، بأن القديسة مريم المصرية، عندما كانت ماتزال مذنبة، قدمت إلى القدس مع آخرين كثر لرؤية الصليب المقدس، غير أنه لم يسمح لها بالدخول لرؤيته قبل أن تعهدت بتقويم حياتها، حسبما ورد في اسطورتها.

وبين الامبراطورين المتقدمي الذكر، أي قسطنطين وهرقل، تسلم يوليان المرتد زمام السلطة في سنة ٣٦٣، وكان هذا الرجل يغار من مجد المسيح والمسيحيين، ولذلك حشد جميع اليهود مع بعضهم، وبعث بهم إلى القدس على نفقته، من أجل أن يتمكنوا من بناء هيكل فوق أرض بيدر أرونا، لخفض وايداء مجد هيكل ضريح الرب، الذي كان آنذاك ممجداً في جميع أنحاء العالم، وكنا قد تحدثنا من قبل عن الاضطراب الذي أرغمهم على التخلي عن العمل.

وبعدما طردت الهرطقة الأريوسية من كنيسة القدس، وعندما كانت كتلة الناس المؤمنين تتقاطر كلها على شكل حشود إلى ضريح الرب، وعندما كان السلام مع القداسة مزدهران، وفي الوقت الذي كان فيه جيروم المبارك ساكناً في بيت لحم، انبعث شر آخر في الكنيسة في القدس، وهو الانشقاق حول السلطان القضائي، لأنه عندما جاء ايبيفانوس Epiphanius أسقف سالاميس Salamis في قبرص، إلى القدس، وكان يناظر في هيكل الضريح المقدس ضد هرطقة أورجين Origen، منعه يوحنا أسقف القدس ومعه اكليروسه كلهم، فلقد منع بغضب الرجل المقدس، وأمره أن يلزم الصمت حول هذا الموضوع، وفيما بعد عندما رجع إلى مكانه، أمر يوحنا بعدم عدّ الذين رسمهم ايبيفانوس كهنة، وحرّم كنسياً جميع الرجال المقدسين للفئة الأخرى، وعلى هذا كان الذي حدث الآن هو أن الهرطقة سمح لهم بالدخول إلى ضريح الرب وبتقبيل الصليب المقدس، ونقرأ عن هذه المسألة في كتاب جيروم الذي وجه إلى بياخوس Pammachus ضد يوحنا، أسقف القدس المنشق، وبعد مضي سنوات طوال، عندما جلس القديس غريغوري على عرش بطرس، في سنة ٥٨٤ لتجسيد ربنا، تم العثور على رداء ربنا الذي لا مثيل له، في صندوق رخامي في مصفت Masphat قرب القدس، وقد جلب مع البكاء والصوم إلى القدس من قبل القديس غريغوري، أسقف أنطاكية، وهونوريوس أسقف القدس، ويوحنا أسقف القسطنطينية ووضع في كنيسة الجلجلة، من أجل بهجة الناس وتقواهم.

وفي سنة ٦٠٩، قام في الشرق، كسرى ذلك المتوحش المتميز، والذي كان ملك فارس، فقد حشد جيشاً من الكفار، وشعث واستباح مصر، وسورية، وفلسطين، وناهض الحكم الروماني في كل مكان وبكل السبل، وبعدما استولى على كثير من المدن، دخل إلى اليهودية وحاصر

مدينة القدس المقدسة، التي كانت مليئة بمسيحيين أتقياء، واستولى عليها، وقتل فيها ثلاثين ألفاً من الناس، الذين أمر بأجسادهم فرميت خارج المدينة، في جدول قدرون، لكن الرب بعث أسداً كبيراً، جاء وحمل أجساد المسيحيين، ودفنهم فوق جبل الشهداء، قرب القدس، كما قرأنا في «التاريخ اللاهوتي» وكما كنا قد تحدثنا عن ذلك من قبل.

وقد اعتقل بعضاً من الأعيان، وجعلهم أسرى لديه، وكان بينهم زكريا، أسقف القدس، الذي أودعه السجن، وبعد تهديمه سور المدينة المقدسة، دخل إلى هيكل الضريح المقدس، عازماً على نهبه، ثم تدميره، لكنه بعدما استولى على الصليب المقدس، الذي وضعته هيلانه هناك، وكان مغلفاً بأغلفة من ذهب، وأراد أن يمدّ يده من أجل تدمير الهيكل، أشعت القدرة الربانية من ضريح الرب، بشكل أنه ورجاله ارتجفوا رعباً، وتوقفوا عن أعمال التدمير التي كانوا قد شرعوا فيها، وعاد مع أسلابه، ومع الصليب المقدس، ومع الأسرى إلى بلاد فارس، ونهب بعد هذا كنائس الشرق، وأرسل ابنه إلى الأجزاء الشمالية من سورية، بقصد قهر الشعوب في تلك المناطق، ونهب كنائسهم، وقد عبر كثيراً من البلدان، ووقف أخيراً عند الدانوب، حيث كان الامبراطور هرقل قد زحف ضده وهزمه، حسبما أخبرنا في عظة يوم تمجيد الصليب المقدس (١٤ - أيلول).

وعندما هزم، قُتل أبوه، وجرى استرداد الممالك الضائعة، وأرجع هرقل إلى القدس الصليب المقدس، والأسقف زكريا، وجميع الأسرى والأسلاب، وقام بترميم الأجزاء المهدمة من الهيكل والمدينة، وأعاد إلى المسيحيين رسوم كنائسهم وفقاً للاستخدامات اللاهوتية، وفي الحقيقة كانت المدينة المقدسة قد بقيت مقفرة وتعيسة لمدة عشر سنوات، لكن هرقل استردها، وعاد إلى القسطنطينية، حيث أخذ يمارس حياة شريرة.

وفي هذا الوقت انضم إلى محمد ﷺ.... (١) عدد كبير من المناطق والممالك المسيحية ولدى رؤية هرقل لهذا الوضع، خاف من دخوله ﷺ إلى القدس، وتدميره لهيكل ضريح الرب، وظهره عدم الاحترام نحو الصليب المقدس، ولذلك حال بين محمد ﷺ وبين ذلك فأخذ الصليب المقدس وكل شيء آخر غالي وثمانين، وأخرجته من الهيكل ونقله إلى القسطنطينية، لأنه يئس من قدرته على مواجهة محمد ﷺ، وحدث نقل الصليب المقدس في سنة ٦٢٣ لتجسيد الرب.

وبعد وفاة محمد ﷺ استولى عمر بن الخطاب، الخليفة الثالث (اقرأ: الثاني) على مدينة القدس في سنة ٦٣٤، وبنى هناك مسجداً كبيراً للمسلمين ولأتباع محمد ﷺ فوق المكان الذي قام عليه فيما مضى هيكل سليمان، وهو أمر كنت قد تحدثت عنه من قبل، وكان عندما استولى على المدينة، قد نوى أن يعمل مسجداً من هيكل الضريح المقدس وأن يعده من أجل الشعائر الاسلامية، لكنه عندما دخل إلى الهيكل ارتعب بالقدرة الإلهية إلى حد أنه تراجع عن نيته، وتعامل بشكل لطيف مع المسيحيين، بسبب تقوى صفرونيوس الأسقف المسيحي، الذي اعتمد بكياسة على رأيه بشأن بنا الهيكل الجديد.

وواضح مما قيل بأن هيكل ضريح الرب، كان قائماً قبل ثلاثمائة وأربع سنوات قبل الهيكل الذي يسمونه هيكل سليمان، وأذن عمر للمسيحيين بعبادة الرب في هيكلهم، وأجبر المسلمين على مدح محمد ﷺ في هيكل آخر، لأن غير المسيحيين لم يكونوا قد اعتادوا بعد على شعائر محمد ﷺ، ولذلك كانوا يساقون بالقوة، ومع مرور الأيام تفجر خصام في القدس بين المسلمين والمسيحيين، وفرض المسلمون على المسيحيين كثيراً من المكوس، وغالباً ما جرى تحريرهم منها والتفريج عنهم من قبل

١ - جرى حذف عدد من الأسطر لما تضمنته من شتائم مقذعة بحق النبي ﷺ، يضاف إلى

ذلك أن التواريخ التي قدمها فابري غير دقيقة.

الاباطرة، من ذلك على سبيل المثال أنه في سنة ٦٧٠، قام قسطنطين الثالث — على الرغم من أنه كان رجلاً سيئاً — بتحرير المدينة المقدسة والضريح المقدس، سبع مرات من ظلم المسلمين، وبعده عمل قسطنطين الرابع شروراً كثيرة للمسلمين في كل من القدس وأماكن أخرى، وحيثما كانوا يقاتلون ضد المسيحيين، ومع ذلك استمر المسلمون يحكمون القدس، ولم يتمكن أباطرتنا من تحرير المدينة وتخليصها من تحت نير الاغريق (الروم الأرثوذكس). وفي سنة ٨٠٣ لتجسيد ربنا، في أيام حكم شارلمان، الامبراطور العظيم، كان المسيحيون في القدس وفي جميع الشرق في وضع مرهق تحت سلطة المسلمين، وقاموا وهم في أوضاعهم التعيسة بالتوسل من أجل المساعدة من قسطنطين — السادس بهذا الاسم — امبراطور القسطنطينية، ومن أمه إيرين، لكن بما أن قدرة الإغريق وقوتهم كانت قد تراجعت كثيراً، لم يكن باستطاعته هذا الامبراطور تقديم المساعدة لهؤلاء اليائسين، بوساطة قواته الخاصة.

وقام في ذلك الحين ليو، الذي كان البابا الثالث بهذا الاسم، صدوراً على الفضائل العظيمة لشارل الكبير، ملك الفرنجة، فمجده بترقيته إلى مرتبة امبراطور الرومان، وهو لقب كان قبل حوالي خمسمائة سنة مضت قد زال من قبل قسطنطين الكبير، وفي أيام شارلمان كان تقريباً قد أصبح منسياً من الأيام، وقد أعاد الآن امبراطورية الغرب إليه.

وتبنى شارل، الذي لقبه أغسطس، الاسم الامبراطوري، وفخاره، وحكم لمدة أربع عشرة سنة، وقد عمل أعمالاً مجيدة في جميع أنحاء العالم، وجلب المجد والفخار لشعبه الألماني، ولهذا كان شارل تيوتونيا، حسبما مبرهن بشكل واضح بالاعلان في.....المراسيم، حيث جاء سياق النص كما يلي: «نقل الكرسي الرسولي الامبراطورية الرومانية من الاغريق إلى الألمان، في شخص شارل المجيد»، وجاء في أبّا Appa: ٢: الشيء نفسه، فضلاً عن هذا نقرأ في كتب التاريخ أنه عندما تعرضت

الكنيسة الرومانية للتسلط الهنغاري، طلب البابا المساعدة من امبراطوري القسطنطينية: قسطنطين، وابنه ليو، ولأنهما لم يتوليا الدفاع عن الكنيسة الرومانية، نقل حكم الامبراطورية الرومانية إلى شارل الكبير، ابن بيبين، الذي هو نفسه وضعه في مكان لويس ملك فرنسا، الذي خلعه.

وحدث نقل الامبراطورية من الاغريق إلى الالمان في سنة ٧٧٦، وفي أيام حكم شارل سمعت شهرته في القدس، ولذلك بعث إليه بطريرك القدس بمفاتيح الضريح المقدس وموضع الجمجمة، ومفاتيح أبواب المدينة، وجبل صهيون، وأعلاماً للمباركة، وكعلامة على الخضوع كما يمكن الاطلاع على ذلك في تاريخ أنطونيوس - القسم الثاني، العنوان: ١٤، الفصل: ٤، الفقرة: ٢.

وليس بعد مدة طويلة من هذا قام غير المسيحيون بثورة ضد يوحنا بطريرك القدس، وطرده مع جميع اكليروسه إلى خارج المدينة، وذهب إلى القسطنطينية، وطلب المساعدة من الامبراطور قسطنطين، وعندما كان الامبراطور مشغولاً حول هذه المسألة، رأى في منامه رؤيا، تعلم خلالها، بأنه ليس هو، بل شارل الكبير، هو الذي سوف يحرر القدس، ويعيد ضريح الرب إلى المسيحيين.

وبناء عليه ارسل امبراطور القسطنطينية، على أيدي رجال دين الضريح المقدس، إلى شارل الكبير المفاتيح، ورسالة أوضح فيها الشدائد والمصاعب التي آل إليها وضع الضريح المقدس والمسيحيين، وعندما قرأ شارل هذه الرسالة، بكى وعلى الفور حشد حشداً كبيراً من الألمان والفرنجة، وجلبهم عبر البحر، وأنقذ المدينة المقدسة من أيدي المسلمين، وأعاد الضريح المقدس، إلى المسيحيين، وبذلك أقام سلاماً كاملاً بين المسيحيين والمسلمين، وهو أمر لم نسمع به من قبل.

وهو لم يقيم بقتل المسلمين، ولا بطردهم من القدس، بل جعلهم يتفقون مع المسيحيين على شروط محددة، ولقد قيل بأنه توفر هناك وئام عظيم فيما بينهم لسنوات طوال، إلى حد لو أن دابة أي مسافر هلكت على الطريق، كانوا يضعون الحمل على جانب الطريق، ويذهبون إلى القرية الأقرب للحصول على دابة أخرى، وذلك من دون البضائع التي خلفوها ورائهم، دون المعاناة من أية خسائر، أو سرقة، أو سلب، وهكذا بعدما أعيد السلام، واسترد النظام إلى الكنيسة، عاد شارل المشهور جداً إلى بلاده، وعلى طريقه زار القسطنطينية، حيث استقبل استقبالاً فخماً.

وتعويضاً على جهوده منحوه أعطيات ثمينة جداً، وذهباً، وفضة، وأحجاراً كريمة، وأشياء أخرى غالية، وقد رفض أخذها قائلاً إنه سيكون أمراً مؤذياً بالنسبة له أن يأخذ إيجاراً على عمله الذي عمله لمحبة الرب فقط، وعندما ترجوه بأن يأخذ هدية ما، طلب أن يعطى آثاراً مقدسة، ولهذا فتحوا كنوزهم، وأعطوه بعض الشوك من تاج الرب، وواحداً من مسامير الصليب المقدس، وقطعة كبيرة من الصليب نفسه، ومنديل الرب، وقميص العذراء المباركة وأقمشة القماط التي لف بها الطفل يسوع، وقطعة من مزود الرب، وسنان الرمح الذي طعن به جنب الرب، وذراع القديس سمعان، وأشياء أخرى كثيرة، تسلمها ذلك الرجل اللامع مع خشوع عظيم، وقد وقعت معجزات كثيرة في هذه المناسبة، كما جاء الخبر في *Speculum Historiale* — الكتاب: ٢٥، الفصل: ٥، وقد جلبهم معه إلى بلاده ألمانيا، وإلى مدينة إكس لاشايل، حيث وضعهم في كنيسة العذراء التي بناها، وهذه الأشياء محفوظة باجلال حتى هذا اليوم، ويجري عرضها كل سبع سنوات، حيث تجتمع في تلك الآونة حشود لا تحصى من المؤمنين، ولا سيما الهنغار الذين يأتون من بلادهم في جماعات كبيرة ويجتمعون في

إكس، وأنا شخصياً رأيت هذه الآثار في سنة ١٤٦٨.

واحتفظ شارلمان ببعض الآثار في بلاطه، وجعلهم ملكاً لبلاط
الامبراطور، ولذلك وضعهم مع الذخائر الثمينة جداً العائدة
للامبراطورية في محل خاص في البلاط، وهم محفوظون في هذه الأيام في
سيغودنوم Segodunum، أي نوريمبيرغ nuremberg، حيث يجري
عرضهم في يوم الجمعة بعد Quasimodo، ووقتها يجتمع حشد
كبير من الناس لرؤيتهم.

وإذا مازار أي أمير نوريمبيرغ في وقت غير الوقت المحدد، فإنهم
يجلبونهم ويعرضونهم عليه، وبناء عليه، في سنة ١٤٦٨، في يوم الأحد
الذي اسمه Cantate، عندما اجتمع رهبان منطقتنا هناك في مؤتمر
ديني، عرضوا هذه الآثار علينا، وسمحوا لنا بحملهم وبتقبيلهم، وكان
بينهم سنان رمح الرب، الأعظم قداسة، وقد سمح أهل نوريمبيرغ
لكل واحد من الرهبان بلمسه بيديه، وكان ذلك صدوراً عن احترام
خاص شعروا به نحو الطائفة، ورأينا هناك، ووضعنا على رؤوسنا التاج
الذهبي لشارل الكبير، الثمين جداً، وكان كله مرصعاً بالجواهر، ورأينا
الصولجان الذهبي، والتفاحة الذهبية، والركابين الذهبيين، وبقية
الشعارات الامبراطورية، وكلها كانت قد جلبت إلى نوريمبيرغ من
فرانكفورت في ذلك الأسبوع نفسه، وذلك حيث جرى انتخاب
مكسميليان، المجيد والمنتصر، دوق النمسا، وابن فردريك الثالث
الكبير، فقد انتخب ملكاً للرومان، وقد لبس هذه العلامات المقدسة.

وعلى هذا كانت جولاتي ورحلاتي واسعة، جعلتني أتجول في جميع
أرجاء الدنيا، ولسوف أعود الآن إلى القدس، التي بقيت بعد مغادرة
شارل الكبير لها بسلام لبعض السنين، وكان الغرييون مسموح لهم
بزيارة الأماكن المقدسة من دون أي معيقات، ولم يزعج المسلمون الذي
امتلكوا مملكة القدس، الحجاج الذين ارتحلوا إلى هناك، لأن شارل لم

يعد المملكة إلى المسيحيين، ولم يجعلها خاضعة له، بل قام فقط بإعادة السلام بين المسيحيين والمسلمين، وهو سلام — على كل حال — لم يعيش طويلاً، إنما طوال المدة التي عاشها السلام، زار الغربيون الأماكن المقدسة يومياً، في حشود كبيرة، وناموا في الليل في كنيسة الضريح المقدس، لأنه لم يكن هناك مكان لسكنى اللاتين في المدينة، ولم يكن هناك بعد دور ضيافة، ولم تكن هناك أية كنيسة لاتينية، بل تولى الروم الأرثوذكس ممارسة القداسات في كنيسة الضريح المقدس، وفي الكنائس الأخرى.

وحدث في هذه الأيام أن جلب التجار من أبوليا سلعاً جديدة غريبة، لم تكن حتى ذلك الوقت معروفة في الشرق، وقد جلبوا هذه السلع إلى الاسكندرية، للحصول على الربح ببيعها هناك، ومن المعتقد أن هذه السلع، كانت البندق، كما سوف نوضح ذلك في ص ١٢٧ من القسم الثاني، وجلبت هذه السلع بمثابة أشياء ثمينة جداً إلى ملك مصر، الذي امتلك السلطة أيضاً على العربية، وفلسطين، واليهودية، وانجذب الملك بهذه السلع الجديدة، ووعد التجار مقابلهم بأنه سوف يمنحهم أي طلب يسألونه إياه، وهكذا سألوه وحصلوا على إذن ببناء مكان لإقامة الحجاج اللاتين، في أي مكان من القدس، يمكنهم اختياره.

وبناء عليه بنو ديراً تشریفاً للعدراء مريم أمام باب كنيسة الضريح المقدس، وأقاموا هناك راعي الدير، ورهبان لاتين، وبما أن اللاتين هم الذين فعلوا هذا، أطلقوا على المكان نفسه اسم القديسه مريم لللاتين، وبقيت هذه الكنيسة مقدسة، على بعد رمية حجر من ضريح الرب، وكان راعي الدير والرهبان رجالاً ذوي تقوى عظيمة، وقد استقبلوا الحجاج من وراء البحر بكل اللطف الممكن، وعاملوهم بكثير من التواضع، ومع استمرار تدفق حشود الحجاج إلى هناك من الرجال والنساء، جرى استقبال الرجال في بيت الضيافة في الدير، لكن النساء

أقمن خارج أسواره، بأفضل ما استطاعوه، وقد تعرضن في بعض الأحيان للمضايقات من قبل المسلمين، وعانين من خسائر بسبب ذلك، ولذلك قام الرهبان بعد الدعاء لمريم معينة الحجاج أن تساعدنهم، فبنوا إلى جانب ديرهم، في مواجهة جدار كنيسة الضريح المقدس، ديراً آخر للنساء، على جهة اليسار للانسان الداخل إلى الكنيسة، وأطلقوا عليه اسم دير مريم المجدلية، حيث جرى استقبال النساء الحاجات وجرت معاملتهن بشكل جيد، وهكذا تحسنت أوضاع الحجاج الغربيين في القدس، في أيام المسلمين، الذين بالاضافة لإثقالهم بكثير من الأعباء، ماكانوا يسمحوا لهم بزيارة الأماكن المقدسة من دون أن يدفعوا لهم، ومن ثم الدخول بسلام، مثلما يفعلون هذه الأيام.

وهكذا فعل المسيحيون، وتدبروا أمورهم، لمدة تزيد على مائة سنة، أي من أيام شارل حتى أيام هنري الأول، الذي في أيامه، في سنة ١٠١٥، قام رجل مذبذب، وأداة للشيطان، ومعذب لشعب المسيح، ومدمر للضريح المقدس اسمه الخليفة (الحاكم) ملك مصر الذي قام في نوبة جنون، فأزال من على وجه الأرض السلام والوئام الذي عمله شارل الكبير بين المسيحيين والمسلمين، وكان هذا الرجل قد ولد من أم مسيحية، وعندما صار ملك المسلمين، وخشية أن يعتقد أنه مقاد من قبل أمه، بدأ بممارسة أعمال وحشية ضد المسيحيين، فقد أرغم المسيحيين على التخلي عن عقيدتهم، وفرض ضرائب ثقيلة جداً عليهم، وضايقهم بكثير من الطرق الأخرى، وما من شيء أثاره ليكون متوحشاً ضد المسيحيين، وبحدة متناهية، مثل نقده بأنه شخصياً كان من دم مسيحي، الأمر الذي كان يشعر بالخجل الكبير منه، ولذلك ثار ضدهم بوحشية منفردة، من أجل أنه بفعله ذلك، يمكن أن يبرهن أنه ليس فيه نقطة دم مسيحي، ولا يمكن أن يتأثر بالحب نحو المسيحيين والميل إليهم.

وكان بين أعماله الشريرة الأخرى التي اقترفها مايلي: دخل المدينة المقدسة مع حشد كبير، ورمى أيضاً تاج المسيحيين إلى الأرض، حيث أمر بهدم كنيسة الضريح المقدس، التي بنيت بشكل فخم من قبل قسطنطين الأول والكبير، وتدميرها دماراً كلياً، وفي الوقت نفسه شعث الكنائس واستباحها على جبل صهيون وبيت لحم، وحولهن إلى عبادات ديانة محمد ﷺ وعندما عملت هذه الأفاعيل، أصبحت أوضاع المؤمنين في القدس أكثر سوءاً، من الحزن العظيم الذي شعروه بسبب تدمير الكنيسة، علاوة على ذلك منع المسيحيين من إقامة قداساتهم، أو الاجتماع مع بعضهم من أجل العبادات الربانية، وبذلك عاشوا في أوضاع ضيق شديد جداً، بسبب ازعاجاتهم اليومية، وكانوا غارقين في أعماق الأسى بسبب دمار الضريح المقدس والكنيسة هناك.

وواضح من هذا أن كنيسة الضريح المقدس التي بنيت من قبل هيلانة، بقيت قائمة لمدة سبعمائة سنة، حيث في نهايتها دمرت دماراً كاملاً، وحدث أنه في سنة ١٠٤٩، لتجسيد الرب أن جاءت الرحمة الربانية، فجلبت قليلاً من الطمأنينة للمسيحيين المدمرين، ففي ذلك الوقت أزيل الطاغية المتقدم ذكره من هذا العالم، مخلفاً وريثاً كان أحسن منه شخصياً، وانتهت هذه الاضطرابات كلها، فما أن أصبح الظاهر، الذي كان أكبر أولاده، ملكاً، حتى عمل معاهدة واتفاق مع الامبراطور قسطنطين، وقد تصرف بلطف نحو المسيحيين، وكانت عواطفه طيبة نحوهم.

وفي هذه الآونة رأى البابا المقدس ليو التاسع — وكان ألماني المولد — رؤيا أثناء نومه، قام بعدها بتحريض الامبراطور قسطنطين على إعادة بناء ضريح الرب في القدس، الذي جرى تدميره قبل سبع وثلاثين سنة من قبل البرابرة، وبناء عليه، أعطى الظاهر المسلم، بناء على طلب الامبراطور قسطنطين، الإذن للمسيحيين بإعادة بناء هيكل ضريح الرب

المقدس.

وبناء عليه ذهب المسيحيون إلى هناك بسرور عظيم، وشرعوا ببناء كنيسة جديدة فوق ضريح الرب، وفق نموذج الكنيسة القديمة، وبالنسبة لنفقات إعادة البناء، تحمل الامبراطور قسطنطين معظمها، وهكذا فإن كنيسة الضريح المقدس القائمة الآن، قد بنيت في السنة المتقدمة الذكر، أي قبل خمس وعشرين سنة، من استرداد الأرض المقدسة، وهو الاسترداد الذي تولى تنفيذه غودفري، كما سوف نبين فيما بعد.

وبالنسبة لليهود ولبنى اسرائيل، لقد كان لديهم هيكلين، واحد جاء بعد الآخر، هما هيكل سليمان، وهيكل عذرا أو زيرو بابل، ومثلهم امتلك المسيحيون هيكلين هما: هيكل هيلانة، والهيكل القائم في هذه الأيام، فقد عاش الأول سبعمائة سنة، وعاش الثاني أربعمائة وخمسين سنة، على أساس أننا الآن في سنة ١٤٨٨، وبعدما أعيد بناء الكنيسة، صار المسيحيون عندما يريدون زيارتها حسب طريقة ديانتهم، لا يسمح المسلمون لهم بالسير حول الأماكن المقدسة بسلام، بل كانوا يفرضون عليهم ضرائب مالية، أو يزعمونهم بالكلمات، وقد توفرت كراهية كبيرة وحقد شديد فيما بين الفئتين، لأن المسلمين الذي امتلكوا وقتها السلطة على تلك البلاد حملوا حقداً كبيراً ضد المسيحيين الغرباء، ولذلك استثير العالم المسيحي كله بسبب شكاوى الحجاج، وأصبح حانقاً ضد المسلمين، وبإخلاص رغب في إزالة تسلطهم، لأنهم عانوا طويلاً من آلام ظلمهم.

فمنذ أيام عمر الأمير المسلم الذي اعتلى العرش في مصر (كذا) في أيام الامبراطور هرقل حتى أيام غودفري، الملك اللاتيني الأول للقدس، والذي عاش في أيام (الامبراطور) هنري الثالث، ظلت المدينة المقدسة خاضعة إلى سلطة المسلمين، أي لمدة تقارب الأربعمائة والتسعين سنة،

وصحيح أن الأباطرة هرقل، وقسطنطين الثالث، وشارل الكبير قد حرروا المدينة المقدسة، بعض الشيء ومعها الضريح المقدس، لكنهم لم يحرروها كلها، وظل المسلمون يمتلكون السلطة على المسيحيين، وهي سلطة حولها الأباطرة المتقدمي الذكر أقل إرهاباً، لكنهم لم يتمكنوا من ازالتها مطلقاً، لأنهم تدبروا إقامة سلام بين الشعبين بمواثيق، ولذلك كان تحريرهم للأرض المقدسة ناقصاً، ومثل هذا الوضع كان من غير الممكن ديمومته، وخاصة بين أناس لا يمكن حملهم على الاتفاق في الدين، كما هو الحال بين المسيحيين والمسلمين، الذين توجد بينهما عداوة طبيعية، مع الكراهية التي نمت بين عرقين مختلفين من حيث الجنس، ومن حيث طريقة الحياة، والعادات، والديانة.

فصل يعالج التحرير الكامل للقدس وللضريح المقدس من قبل الأمم الغربية

حدث الانقاذ والتحرير الكامل لضريح الرب، ولمدينة القدس، ولكل الأرض المقدسة، في الوقت الذي كان فيه الامبراطور هنري، الثالث الذي حمل هذا الاسم، والذي كان بافاريًا والبابا أوربان، الذي كان الثاني بهذا الاسم، وفي الحقيقة غالباً ما قام سلف هؤلاء الأمراء بالتشاور حول هذه القضية، في اجتماعاتهم المهيبة، وفي مجالسهم التشريعية، واجتماعات الأمراء الأخرى والأساقفة، وقد بدأوا حتى بالعمل، غير أنهم لم يتوصلوا إلى أية نتائج طيبة.

وبناء عليه، حدث في أيام الامبراطور هنري الثاني، والبابا فكتور الثاني، وجرى عقد مؤتمر ألماني في تور، التي هي مدينة مشهورة في فرنسا، وكان ذلك في سنة ١٠٥٥ لتجسيد ربنا.

وتقرر وقتها وجوب تحرير الأرض المقدسة، وفي ذلك الوقت كان أوتو Othus، كونت أنجليريا Angleria، وأمير ميلان، متميزاً بحكمته الكبيرة، ومعلوماته الواسعة في إدارة القضايا العامة، إلى درجة أنه كان رجلاً له قيمة عظيمة من أجل السلم والحرب، وهذا الرجل الذي كانت شجاعته معروفة لدى جميع الذين التقوا في هذا المجمع في تور، جرى اختياره ليكون قائد الحشد، الذي كان سيقا تل ضد الأتراك والمسلمين، من أجل تحرير الضريح المقدس للرب في القدس، وقد وافق على طلب البابا والملوك الآخرين، بدون تردد، وسار منطلقاً يريد القدس مع البقية.

وقد أمضى الشتاء مع المسيحيين الآخرين في حصار المدينة، وأنزل بالمسلمين كثيراً من الجراحات والأذى، وضيق الخناق على المدينة المقدسة كثيراً، ومع ذلك لم يستطع الاستيلاء عليها، وعندما كان محاصراً

لها، كان هناك أمير عربي مسلم من وراء الأردن اسمه Volucer، وكان يتصور نفسه رجلاً جريئاً، وقد تحدى أوتو — من خلال الترجمان — لمبارزته شخصياً، وقد تقبل أوتو هذا الاقتراح بكل سرور، وبناء عليه جاء الرجلان بعد ستة أيام، وهما مسلحان على ظهري فرسيهما، من أجل القتال، وحمل أوتو على ترسه سبعة أكايليل، لأنه كان قد هزم سبعة مقاتلين شجعان جداً، وذلك بضربة واحدة بسيفه.

وحمل Volux (كذا) سلاحاً مختلفاً، فقد كان في خوذته أفعى برونزية ملتفة بشكل رائع حولها، وفي فم الأفعى طفل من قماش، مبتلع حتى أضلاعه، لكن رأسه وكتفيه كانا في الخارج، وقد بدا فمه المفتوح كأنه يدعو إلى المساعدة، وأخذ الرجلان مكانهما، وهما يحملان هذه الشارات، في حقل القصار، أمام مدينة القدس المقدسة، وفي أول حملة ألقى أوتو Volux من على ظهر حصانه، وعلى الفور تناول عموده ورفعته، وبضربة حطم جمجمته، ونثر دماغه فوق الأرض، وبعدما مات أخذ أوتو خوذته، وحملها معه مع أسلابه الأخرى، وهكذا رفع الحصار، ومن ثم عاد إلى أوربا لأن جيشه كان صغيراً.

وعندما وصل إلى ميلان، منح شعار سلاحه إلى المسيح والكنيسة، وأخذ الأفعى كدليل أبدي على نجاحه، وكرمز شخصي، ولهذا نجد في هذه الأيام أن دوقات ميلان وبقية أسرة الفيزكونت وهم يحملون هذا الرمز، يختمون نقودهم بصورة الأفعى، وهذه النقود قيد التداول الآن، ولها قيمتها وسمعتها في جميع ألمانيا، وتجلب أرباحاً كثيرة لدولة ميلان، واسم قطع نقودها الكبيرة Blaffardi، والأدنى Spagurlines، والنقود الوسط Trigeras.

وبناء عليه عاد القائد أوتو المتقدم الذكر إلى الوطن ثانية، وأخبر البابا وجميع أمراء الغرب، أن القدس والأرض المقدسة لا يمكن الاستيلاء عليها، إلا بوساطة جيش كبير جداً، وفي غاية القوة، وأن يجري إرساله

عبر البحر.

وأعقب هذا، أنه في سنة ١٠٦٣، اجتمع حشد كبير من الألمان، للحج إلى ضريح الرب في الأرض المقدسة، وانطلق عبر البر نحو القدس: سيفرد Siphred (سيغفرد Siegfred ؟) رئيس أساقفة مينز، ووليم أسقف تريفيس، وغونثر Gunther أسقف بامبيرغ وأوتو أسقف راتسبون Ratisbon مع كثير من النبلاء والأتباع، وكان بنيتهم عبور بحر يوكسين Euxine، وعندما وصلوا إلى بلغاريا تعرضوا لأذى كبيراً من قبل الشعوب الشمالية، ومع ذلك وصلوا وسط بلايا كبيرة إلى آسيا، ثم وصلوا إلى تخوم سورية، وعندما سمع حاكم تلك المنطقة بوصول المسيحيين، جمع جيشاً من الأتراك، وزحف ضد أساقفتنا وشعبنا، ونظراً للتغلب عليهم بالتفوق العددي، فقد التجأوا إلى قلعة قديمة، حيث سدوا الثغرات في السور القديم، وجعلوا منها حصناً أقاموا به.

وحاول الأتراك الاستيلاء على ذلك الحصن بالقوة، فلم يتمكنوا من فعل ذلك، ومع ذلك تابعوا مهاجمة المكان لمدة يومين ليلاً ونهاراً بشكل متواصل، وفي اليوم الثالث، عندما جرى الاعلان عن هدنة لمدة ساعة حتى يستردوا قواهم، سأل رجالنا الأتراك أن يبعثوا ولاتهم وقادتهم للتناقش حول شروط سلام، وهكذا قدم ستة من كبار أعيان الأتراك إلى شعبنا، وفتح شعبنا لهم الباب، وتناقشوا معهم لمدة طويلة، فوجدوا الأتراك ذوي آراء معاكسة تماماً، لأن أساقفتنا عرضوا عليهم إعطائهم كل ماكان لديهم، ووعدوهم كثيراً من الزيادات، إذا ماكان بإمكانهم العودة إلى بلادهم بحياتهم فقط، ومع ذلك لم يبد الأتراك نحوهم أية رحمة، وماكان يرضيهم إلا الموت أو استرقاق السادة الأساقفة.

وعندما رأى قومننا حالة الضيق والشدة التي هم فيها، أرسلوا بشكل سري بعض الخدم الذين عرفوا المنطقة، ليركضوا بكل سرعة إلى عند

أمير الرملة وحاكمها، ولوعده بمبلغ كبير من المال، يدفع على الفور ليعطى له لقلع الأتراك، وبعدما أرسل جماعتنا هؤلاء الرسل، التمسوا من البرابرة منحهم شروط استسلام، ومنحوهم مالاً، لكن هؤلاء اهتموا فقط بالقبض على أشخاصهم، ومن ثم اعدامهم أو جعلهم أدنى الرقيق، ولم يحصلوا منهم على جواب غير هذا، وعندما صار رجالنا في حالة من اليأس، انقضوا على المسلمين الذين دخلوا إلى قلعته، ووضعوهم في الحديد.

وعندما علم جيشهم بهذا، حاول خرق الأسوار، وهاجمها بالمقذوفات، وبالنشاب وبالآلات الحربية، لكن رجالنا وضعوا أعيان رجالهم وقادتهم وهم بالأغلال فوق الأجزاء الأعظم خطورة من السور، وبذلك أخذوا هجومهم وكبحوه، ودعوا إلى الرب بصلوات متوالية، وفجأة جاءهم العون ووصل إليهم، حيث كان أمير الرملة المسلم، قد حشد جيشاً من المسلمين ووصل إلى المكان، وطرد الأتراك، وأرغمهم على رفع الحصار، وحمل رجالنا من حصنهم، وطاردوا العدو المنهزم، وسلبوا رجاله، وأسروا كثيرين، قاموا بتعليقهم على المشاقق، وبعد ذلك أعدموا القادة المأسورين مع عذاب مخيف.

وجاءت عملية الانقاذ للأساقفة في عشية يوم الفصح، أي في ليلة أحد الفصح، وكانوا عندما انطلقوا من ألمانيا، قد قرروا إمضاء أيام آلام الرب، والصعود، إلى الأماكن المقدسة في القدس، لكن هذا الحصار أعاقهم، هذا وقد حمل ذلك المسلم هؤلاء الحجاج سالمين إلى القدس، وبعدما أجازوه عاد ثانية إلى موطنه، وعندما عاد الأساقفة الحجاج الألمان إلى ألمانيا، عادوا عبر البحر، وتخلوا عن الارتحال عبر البر، خشية أن يقعوا ثانية فريسة للأتراك، لأن الأتراك كانوا قد استولوا على آسيا الصغرى وجميع تلك المنطقة، وصولاً حتى سورية، وغالباً ماكان الأتراك والعرب المسلمين على خلاف، وأتصور أنهم كذلك في هذه

الأيام أيضاً.

وفي سنة ١٠٧٠ قرر ثيودورك، رئيس أساقفة تريفس القيام برحلة إلى القدس عبر البحر، غير أن سفينته غرقت في البحر في العاصفة، وهلك هو وجميع أتباعه.

ولم يعد العرب المسلمون والأتراك بعد هذا يكتفون بمهاجمة القدس والأرض المقدسة بحدّة أكثر من ذي قبل، بل شرعوا يندفعون في كل مكان في العالم المسيحي، وغدت امبراطورية القسطنطينية ضعيفة جداً بسبب الأتراك، وبصعوبة بالغة كان بإمكانها الاحتفاظ بتراقيا، وغلاطيا، وبنطش، ويسيالي Thessaly ، ومقدونية وآخيا، ومن هذه المناطق اعتاد الأتراك والعرب على اقتطاع بعض الأجزاء، ونغصصوا حياة المسيحيين الذين سكنوا فيهم، وأسبثت بشكل خاص معاملة المسيحيين في القدس والأرض المقدسة، لأنه في سنة ١٠٨٢، انقض الـ Bo-reades أو الأتراك على فلسطين بجيش مسلح، ودمروا البلاد بالسيف والنار، ونهبوا في الوقت نفسه مدينة القدس، وقتلوا بشكل تعيس المسيحيين الذين وجدوهم هناك، ودنسوا الضريح المقدس بكثير من التجاوزات والانتهاكات.

وأرسل في الوقت نفسه امبراطور القسطنطينية، رسلاً إلى الامبراطور الروماني هنري الثالث، وإلى أمراء الغرب، شارحاً لهم ما حدث، وملتمساً منهم القدوم لانقاذ الأرض المقدسة، وفي أيام ولاية البابا أوربان الثاني والامبراطور هنري الثالث، كان هناك ناسك في فرنسا اسمه بطرس، وكان رجلاً عظيم الحكمة، ولا مثيل له بالقداسة، ومما لاشك فيه تحرك هذا الرجل بوساطة الروح القدس، حيث تخلى عن خلوته الهادئة، وحل نفسه إلى القيام بجولات مقدسة، وقد انطلق مع كثير من الحجاج الآخرين، وعبر البحر، ووصل إلى ضريح الرب، في الأرض المقدسة، حيث قبل الأماكن المقدسة، ف شعر بقوة، وبتقوى

متوهجة، وعندما رأى هذه الأماكن الأعظم قداسة تعامل بقدر عظيم من السوء من قبل المسلمين، وسمعان المبجل، بطريرك المكان واكليروسه يرفض ويقاوم، والمسيحيين الآخرين مظلومين، وأسيئت معاملة الحجاج كثيراً، وقد أحزنه وآلمه، وشعر قلبه بالمرارة تجاه مثل هذا الظلم، وكان قد حدث له أنه في مساء عيد الفصح، عندما دخل إلى كنيسة الضريح المقدس، ليبقى ساهراً في تلك الليلة الأعظم قداسة، وقد سحب نفسه إلى زاوية داخلية في الكنيسة، حتى يتمكن من صرف نفسه بهدوء أكثر وانتباه أعظم نحو حمد الرب وشكره، وهناك صلى بعقل واعٍ، وروح مضطربة، ومع دموع كثيرة قائلاً: «إلى متى يارب ستبقى أماكنك المقدسة مداسة تحت الأقدام، وحجاجك مضحكة ويستخف بهم وتساء معاملتهم؟ استمع يارب، وافعل هذا الشيء وهو تحرير الأرض التي أعطيتها إلى آبائي، وهذه المدينة التي مجدها بعقيدتك ومعجزات، والتي قدستها بدمك الثمين وصليبك، والتي جعلتها بقيامتك المجيدة وحولتها الأعظم شهرة في جميع أرجاء العالم»، وكان هذا الرجل المقدس يقول هذا وأمثاله من الصلوات، وقصد أن يريح أطرافه المتعبة لبعض الوقت، فجلس على البلاط، وأمال رأسه على الجدار، وبذلك بدأ ينام بجسده، مع أن عقله بقي مستيقظاً بصلاة مؤلمة إلى الرب، وفجأة رأى الرب يسوع خارجاً بشكل رائع من ضريحه، وقال له، وهو ينظر إليه: «انهض يا بطرس، وأسرع إلى روما، وقل لأوربان، بباروما، يقول لك الرب ماييلي: مثلما جلبت في الماضي نوراً إلى الغرب من الشرق، مثل هذا، من الغرب سوف أجلب نوراً إلى الشرق، وإلى مدينة القدس، وذلك بسبب اسمي العظيم، ولسوف أعطي ضريحي المقدس إلى القادمين من الغرب، حتى يقوموا بعبادتي، واطهاري إلى غير المؤمنين، ولكي يقوموا باحترام الأماكن المقدسة، وهي أماكن انقاذ بني البشر»، وبعدما قال هذه الكلمات، انتهت الرؤيا، وقام بطرس الذي لم يكن لديه شك حول صدق الذي سمعه، بالعودة

إلى روما، وبجراحة ذهب إلى البابا أوربان الثاني (١)، وأخبره ببساطة بالرسالة التي كلف بحملها.

وفتح الرب عقل البابا، فأدرك بأن هذا الشيء كان من عند الرب، فقام على الفور بتوجيه الدعوة إلى عقد مجمع عام في كليرمونت في أوفرين **Auvergne** ، وكان ذلك في سنة ١٠٩٤ لتجسيد الرب، وقد أُنْعِمَ المجمع بارسال جيش لمحاربة المسلمين، من أجل استرداد القدس، وعين ثلاثمائة ألف رجل مع الصليب، وتولى تكريس حشد حملة الصليب إلى مريم العذراء الأعظم مباركة، وأمر بوجوب تلاوة صلوات مريم العذراء المباركة، الساعية، يومياً، من قبل الكهنة، من أجل أن تصبح حامية لجيشها، وإلى بطرك الناسك أعطى مراسيم بابوية، وبعث به إلى ملوك وأمراء الغرب، حتى يسرعوا إلى انقاذ الأرض المقدسة، وفقاً لأوامر الرب، التي كشفها إلى بطرس.

وبناء عليه انطلق بطرس إلى الملوك والأمراء، والأعيان، وحكام المناطق، وقد استقبل من قبلهم جميعاً مثل ملاك الرب، وأصغوا إليه بعناية كبيرة جداً وعلى الفور أخذ جميع الناس بالاستعداد، طاعة منهم لأوامر الرب وأوامر البابا، وفي الحقيقة، كانت تلك مهمة عظيمة ألقاها على عواتقهم، بوجوب اصغائهم إلى رجل فقير، من أصل وضيع، وكان أيضاً رجلاً ليس معروفاً ومجهولاً، وذلك من دون رؤية، أو اظهار، أية معجزة، أو سماع أي خطاب وعظ فصيح، وكان أن صدقوا كلماته الواضحة، وقد لبى البابا، والكرادلة المثقفين، والاكليروس، ورجال الطوائف الدينية، مادعاهم إليه وأطاعوه، وصدقوه ووثق به، الامبراطور سيد الدنيا، مع الملوك، والحكام، والكونتات، وجاء ذلك دون تقديم

١ - الحكايات حول بطرس الناسك مخترعة، وهنا يقدم لنا فابري إحدى هذه المخترعات

ولتذكر هنا أن أوربان الثاني لم يكن وقتها مقيماً في روما بل في فرنسا، وكان يشغل عرش البابوية في روما، بابا آخر عينه الامبراطور.

أي برهان، أو شاهد يشهد على صحة ما أتى به.

وفي الحقيقة كان الناس ذوي عقول أفضل، واستيعاباً أحسن، من بني إسرائيل، الذين بعد رؤيتهم لمعجزات رائعة ولم يُسمع بمثلها، لم يكن إلا بصعوبة بالغه جعلهم يصدقون موسى، ولدى انتشار هذه الحكاية في أرجاء أوربا، تدفق جميع الناس مع بعضهم، مدفوعين برغبة جامحة، وجاءوا من اسبانيا، ومن بروفنس، وأكوتين، وبريتاني، وسكوتلندا، وألمانيا، ومن ألمانيا، أو بلاد التيوتون من الشمال والغرب، ومن شواطئ البحر الشمالي، والبحر المتوسط، ومن أكثر الممالك قوة، ومن لومباردي، وإيطاليا، وأبوليا، ودالماشيا، وهنغاريا، وإيليريا، ومن جميع جزر المحيط، والبحر المتوسط، وبحر بنطش، ومن بلاد اليونان الأوربية، القائمة على جانبنا من البوسفور، والمتضمنة: تراقيا، ومقدونية، وإبيروس، وأخيا، والبلونيز، وهي بلاد كانت في ذلك الوقت كلها مسيحية، لأنها الآن خاضعة للأتراك، وذلك حتى حدود إيليريا، وهنغاريا، وبانونيا، ودالماشيا، فلقد تدفق الناس من جميع هذه البلدان، وتجمعوا مع بعضهم مثل أسود منقضة على فريستها، ولم يكن هناك في جميع المناطق التي يضمها الغرب، بيت واحد وقف دونها نشاط، بل جاء من ذلك البيت الأول أب، ومن البيت الثاني ابن، ومن البيت الثالث الأسرة كلها، وكان الجميع شارعين بالاستعداد من أجل رحلتهم، وكانوا يقومون بالوداع مع الآهات والتنهدات، حيث كانوا يقولون «وداعاً» للمرة الأخيرة.

وفي الحقيقة صار الدواء أعظم من الداء، لأن بعضهم قد اقتنع برغبة الذهاب إلى القدس حتى ينسوا واجبهم في الوطن، وقطع كثير من النساك، ورهبان الديرة، والفتيات، والأزواج المرتبطين بروابط الزواج، وكثير من الراهبات، قطعوا عهود طاعتهم من دون إذن أو إجازة، وانطلقوا من ديرتهم، واختلطوا بصفوف الناس المسلحين، وعندما

طلبوا وضع علامة الصليب عليهم، وأخبروا من قبل الأساقفة الذين منحوا هذه العلامة، أنها بلا فائدة لهم، وأشير عليهم بالعودة إلى الوطن ثانية، أظهر بعضهم علامات مسامير الصليب وقد انطبعت بشكل اعجازي على أجسادهم، وقام آخرون، حتى من الفتيات والنساء العجائز، بالتفاخر بأنهن يحملن هذه العلامات، وقام آخرون بكّي أنفسهم بشكل متوحش بحديد محمى، حتى يرسموا على أنفسهم علامة الصليب، وكانت حمى الحماس بين جميع طبقات المسيحيين مدهشة.

وجرى تعيين قادة ومقدمين على الجميع، وعلى الفئات المسلحة المنفردة، من قبل أمرائهم وأساقفتهم، كما جرى بوساطة السلطة الرسولية تعيين ذلك النبيل والمقاتل الذي لانظير له، الذي اسمه غودفري، كونت غالاشيا Gallacia (كذا) ودوق اللورين، وتسميته مقدماً، وقائداً عاماً للجيش كله، وحاكماً لجميع الفئات فيه، وتولى هو — مثل يهوذا مكابي ثانياً — مع اخوانه، والرفاق النبلاء إثارة الحرب وشنها في سبيل الرب، وكان في جيشه عدداً كبيراً من المقاتلين الفائقين الشجاعة، والبارونات، والكونتات، والفرسان، وكان قد تولى المسؤولية الروحية همر (أدهمر) الذي كان مثلاً أعلى، وكان أسقفاً لبادوا Padua، وركض بطرس المتقدم الذكر إلى الأمام وإلى الخلف في جميع البلدان، وجمع جيشاً عظيماً وقوياً، حوى حوالي الأربعين ألفاً من الرجال المسلحين، تولى هو قيادتهم، ومثله فعل الرجال العظماء الآخرون، الذين نظر إليهم الناس نظرة احترام، فحشدوا رجالاً حولهم، وجرى اعداد هذه الحملة خلال سنوات ثلاث، وذلك قبل أن تقلع الحشود وتأخذ طريقها.

وفي الحقيقة اجتمع واحتشد: ملوك، وودوقات، وكونتات، وبارونات، وفرسان، وعساكر، ورجال أقوياء، وحكام، وولاة مناطق، ونبلاء، وعوام، وأغنياء وفقراء، وأهل مدن وسكان أرياف، ومواطنين

وأقنان، وأحرار وعبيد، وعلمانيون ولاهوتيون، وكهنة ورهبان، وأساقفة ورعاة ديرة، وكرادلة، ورجال ونساء من الطوائف الدينية، وشباب وشيوخ، ونساء وفتيات، وأرامل وزوجات، وعظم حجم حشد الرب إلى حد عظيم العدد حتى أن وليم (الصوري) قال: «لم يُر قط مثل هذه الأمم مجتمعة ومتفقة على هدف واحد، وكان عدد الناس فوق ما هو متصور، ذلك أن بعض الذين قاموا باحصاء الأعداد، قالوا بوجود ستة ملايين من الرجال قد حملوا شارة الصليب، فهؤلاء أعدوا أنفسهم من أجل الرب».

وكان بين هؤلاء — كما قلت — القائد الذي لانظير له، الذي هو غودفري، فهو كان الأعظم مكانة، حيث كان قائد جميع الحشود، وتحت قيادته جرى تعيين عدة قادة لكل فئة من الفئات، وعندما بات كل شيء معداً على هذه الصورة، في سنة ١٠٩٧، لتجسيد الرب، بدأ الحشد بالزحف من أماكن تجمعاته، وبما أنه لا الأرض ولا البحر كان من الممكن لهما استيعاب هذه الأعداد دفعة واحدة، فقد انقسم الجميع إلى حشود، والحشود إلى فيالق، والفياق إلى جيوش، والجيوش إلى ألوية اقتيد كل منها من قبل قائد، وتحت هؤلاء القادة كان هناك قادة مئات وقادة عشرات، وهكذا توجهوا نحو البحر في مجموعات منفصلة إلى موانئ متعددة، وفي الوقت نفسه ذهب آخرون كثر على الخيول وعلى الأقدام من خلال هنغاريا إلى دالماشيا، ومن ثم دخلوا إلى بلاد الاغريق، ومضى بعضهم حول بحر بوكسين وبحر أزوف (Maeotic Marsh)، ووصلوا من خلال بلاد خلقيدونيا إلى كبدوكية، وعلى هذا أرغم هذا الحشد الكبير على البحث عن أطول الطرق هناك.

أما بالنسبة للمخاطر التي ألت بشعب الرب خلال الحاجة إلى الضروريات، ومن الشتات وعدم الاستقرار، ومن الصراعات بينهم أنفسهم، ومن الطاعون، ومن هجمات الأعداء، فهذا كله يحتاج إلى

وقت طويل للحديث عنه، والذي يريد أن يقرأ حول ذلك، عليه أن يعود إلى فنستوس أوف بوفيا Vincentius of beauvais في مصنفه Speculum Historiale — الكتاب: ٣١، الفصل: ٤٢، ولدى عدد كبير آخر من الكتاب.

والذي عانى منه المسيحيون على أيدي الأعداء والكفار من الممكن تحمله، لكن الشرور التي أنزلوها بأنفسهم، والمعوقات التي واجهوها من الهنغار والاغريق، والمذابح التي اقترفها هؤلاء بين رجالهم المسلحين، أعظم أذى من أن تحتمل، ولسوف أكتفي بذكر قضية واحدة بين عدد كبير من القضايا، فقد كان هناك كاهن ألماني اسمه غونديكالكوس Gondelcalcus، وكان شجاعاً ورجلاً جريئاً، وكانت ميوله الطبيعية نحو القتال، أعظم منها نحو تلاوة القداش، وحشد هذا الرجل جيشاً مؤلفاً من خمسين ألفاً من الرجال المسلحين وذلك من عامة الناس في ألمانيا، وعندما وصلوا إلى هنغاريا، ونهبوا بعض القرى هناك، لتزويد أنفسهم بالذي كانوا محتاجين إليه، انقض ملك هنغاريا عليهم، وأوقع فيهم مذبحه غير انسانية تماماً، حيث لم يميز بين البريء والمجرم، وبذلك مزق ذلك الجيش حتى مامن أحد فيه شارك في الصليبية كما كان ناوياً، بل الذين نجوا من سيف الهنغار عادوا أسفين إلى وطنهم في ألمانيا.

أما بالنسبة للأذى والمضار التي أنزلها بشعب الرب امبراطور القسطنطينية، فكتاب كبير من الصعب أن يكفي للحديث عنها جميعاً، والشيء نفسه الذي نزل بالمسيحيين في هذه الحملة، يشابهه ما نزل بالرومان عندما انطلقوا للقتال ضد قرطاج، فبعدما حشدوا جيشاً كبيراً جداً، وصلوا إلى أفريقيا، وبنيتهم القتال ضد قرطاج، ولدى وصولهم إلى أحد الأنهار انقض على فرقهم حيوان هائل، وكان ثعباناً متوحشاً جداً، حيث تمكن من قتل أعداد كبيرة من الرجال، وبعنف أعيقوا من

قبل هذا الحيوان الوحيد، إلى حد أرغموا فيه على جلب جميع آلات الحرب لديهم للحملة عليه، وبعد مقتل عدد كبير، أمكن أخيراً غلبة ذلك الحيوان، وسحق بالحجارة، ولقد كان مقياس جلده سبعين قدماً، وعندما حمل إلى روما، صعق كل من رآه عجباً ورعباً.

ومثل هذا الآن عندما وصل غودفري، ذلك الرجل المجيد مع قواته إلى القسطنطينية، قرر الانتظار هناك حتى تلحق به بقية قواته، لأنه كان عليه الاستعداد على حدود المسلمين الأتراك، حيث كان ما أن يعبر البوسفور، لا يمكنه المرور خلال الأراضي التركية من دون قتال، وإثر اجتماع جميع الفرق مع بعضها، تشكل هناك جيش واحد للرب الحي، ولدى استعراض جميع الفرق وجدوا هناك سبعمائة ألف من المقاتلين الرجال، ومائة ألف من الفرسان الدارعين، فضلاً عن استمرار تدفق الرجال والتحاقهم بالفرق، وغادر هؤلاء جميعاً القسطنطينية، وعبروا بالسفن البوسفور، أي ذراع القديس جورج، وبذلك عبروا من تراقيا إلى بيسينيا، والبوسفور هذا هو ذراع ضيق من القناة التي يصب فيها البحر المتوسط في بحر يوكسين، وهو ضيق إلى حد أن الذي تتطلب أعماله، يمكنه أن يعبر ثلاث مرات أو أربع مرات من تراقيا إلى بيسينيا، ومن القسطنطينية إلى خلقيونية، والعودة ثانية.

وعندما وصلوا إلى بيسينيا، وهي منطقة في آسية الصغرى، مروا بجميع القرى الأخرى والبلدات وقصدوا مباشرة مدينة نيقية، وهي مدينة مكتظة جداً بالسكان، شرعوا بمحاصرتها في ٢٠ حزيران ١٠٩٧، وهرب مقدم الأعداء (قلج أرسلان بن) سليمان التركي، الذي كان صاحب نيقية، مع كثيرين سواه، ونجائهم، وطاف الأتراك في المنطقة، حيث تمكنوا من حشد جيش لقتالنا، وبعد ترتيب الأمور في نيقية انطلق الجيش، وزحف نازلاً من بيسينيا إلى بامفيليا Pamphylia مع عناء كبير، وهنا التقوا مع (قلج أرسلان بن) سليمان الذي كان معه جيشاً

كبيراً من المسلمين، واشتبكوا في القتال، وبفضل الرب هزم شعبنا الأعداء، وأرغموهم على الفرار، وقتلوا ثلاثة آلاف من نخبة مقاتليهم، في حين سقط من جانبنا من الناس غير المسلحين حوالي الستة آلاف.

ونزلوا من مقاطعة بامفيليا إلى أراضي كليشيا، وهناك هزموا العدو، واستولوا على مدينة طرسوس القديمة جداً، والجليلة، مع المدن الأخرى لتلك المنطقة، ومن أجل وصف لتلك الأراضي انظر ص ١٣٨ من القسم الثاني، وتابعوا زحفهم من هناك، فوصل جيشهم عبر محطات كثيرة إلى سورية المجوفة، ومن ثم إلى مدينة أنطاكية الجليلة، التي احتلت فيما مضى المقام الثالث بعد روما نفسها، وكانت المقدمة والسيدة لجميع المناطق في الشرق، وكان اسم هذه المدينة في العصور القديمة ربلة (١) (الملوك الثاني: ٢٥ / ٢٠ - ٢١. ارميا: ٣٩ / ٥ - ٦) وهنا جرى اعدام أولاد صدقيا، ملك القدس أمام عينيه، كما جرى اقتلاع عيني صدقيا نفسه، وبعد موت الاسكندر المقدوني الكبير، قام انطوخيوس بتحسين هذا المكان بالأسوار والأبراج، واتخذ من المدينة عاصمة لامبراطوريته، سماها انطاكية، صدورا عن اسمه، وهنا جلس بطرس المقدم بين الرسل، أسقفاً لمدة سبع سنوات، مشهوراً بسبب أعماله اللاهوتية والمعجزات التي عملها، وهنا جرى عقد أول مجمع للمؤمنين، خلاله منحوا اسم مسيحيين، لأنه حتى ذلك الحين، كان الذين اتبعوا تعاليم المسيح، قد عرفوا باسم النصاري، أو الرسل، لكن فيما بعد حملوا اسم مسيحيين، حسبما ورد الخبر في أعمال الرسل (١١ / ٢٦)، ويقال بأن بطريك هذه المدينة، يوجد تحت سلطته عشرين منطقة.

وهذه المدينة قائمة في منطقة سورية المجوفة، وتشغل مكاناً موائماً جداً، وموقعاً جميلاً، وهي كلها مروية تقريباً بينابيع وجداول، ويوجد في داخل اطار الأسوار هناك رايتان عاليتان كثيرأ، وقد بدت الأولى بينها

١ - هذا وهم، وربلة بلدة واقعة على العاصي إلى الغرب من حمص.

هي الأعلى، وهي تحمل على حافتها قلعة جيدة التحصين، وهاتان الرايبتان منفصلتان عن بعضهما بواد عميق جداً، وضيق، خلاله يجري جدول إلى وسط المدينة، ويقول بعضهم بأن طول المدينة ميلين إيطاليين، ويقول آخرون ثلاثة أميال، وهي تبعد عن البحر عشرة، أو اثني عشر ميلاً، ويتولى السلطة بشكل آثم فيها، منذ زمن طويل الأتراك، مع أن محمد ﷺ لم يتجرأ عندما كان حياً على الاقتراب منها، وقد ذكر في قرآنه أربع مدن، اثنتان مباركتان، هما: القدس ومكة، واثنتان ملعونتان هما: أنطاكية وروما.

وفي أثناء حصارها كان يحكمها رجل كبير بين الأتراك اسمه يغني سيان الفارسي، وعندما وصل رجال شعبنا إلى هذه المدينة الحصينة جداً، حاصروها لمدة ثمانية أشهر، وفي أثناء ذلك الحصار عانى جيشنا كثيراً، وتعرض بشكل دائم إلى حملات مفاجئة من قبل أهل المدينة، ومن كوارث كثيرة نزلت بهم أمام أسوارها، ولهذا صرخ الناس جميعاً بصوت مرتفع بأن الحصار ينبغي رفعه، ولولا أن أحد القادة عارض رفع الحصار، لرفعوا الحصار خاسرين ملومين، وكان هذا القائد يتأمر بشكل سري من أجل تسليم المدينة إليه بشكل خياني، الأمر الذي تمّ فعله.

وجرى الاستيلاء على هذه المدينة في سنة ١٠٩٨ لتجسيد الرب، وقتل المحاصرون عندما خرقوا المدينة ودخلوها، كل من صدفوه، واقترفوا كثيراً من الفظائع هناك فيها، ولم يكن في المدينة أطعمة، لأن أهل المدينة كانوا قد أكلوا ما كان فيها أثناء الحصار، لكنهم وجدوا مخزوناً كبيراً من الذهب والفضة والأشياء الثمينة، وفي اليوم الثالث بعد الاستيلاء على المدينة، وصل كربوغا، الذي كان أميراً فارسياً قوياً جداً، إلى مساعدة أهل أنطاكية، مع قوات كبيرة جداً، وجاء وصوله بناء على التماسات أهل أنطاكية بتقديم العون لهم، وقد أقام حواجز دفاعية من حول المدينة، وهكذا حدث أن المسيحيين الذين كانوا قبل أيام

يحاصرون المدينة، ثم جعلوها مدينتهم، انقلب حالهم تماماً، مثلما يحدث غالباً في الشؤون البشرية، وأصبحوا الآن تحت الحصار، وعانوا إلى أقصى الحدود من الحاجة إلى الطعام.

وتشدد الحصار عليهم إلى حد أن مامن انسان كان بإمكانه الخروج من المدينة أو الدخول إليها، وتغير وضع شعبنا إلى الأسوأ بشكل كبير، وكانت هناك ندرة عظيمة في الأطعمة داخل المدينة، إلى حد أن شعبنا كان مسروراً بإرضاء نفوسه بالأطعمة الملوثة وغير الطبيعية، ولم يمتلك ذوي النشأة الناعمة والطعام اللين، شيئاً ليأكلوه أفضل من البقية، ولم يكن هناك تمييز بين لحم نظيف ولحم نجس، ولماذا عليّ أن أقول أكثر؟

ونظر إلى الجمال، والحمير، والخيول، والبغال، وجميع أنواع الحيوانات النجسة، على أن لحومها طيبة جداً، من قبل الذين امتلكوا الحظ للأكل منها، وللحصول على مثل هذه الأنواع من الأطعمة، التي من المؤلم مجرد النظر إليها، تجول بعض الناس هنا وهناك بنفوس مكسورة وهم يتسولون في الشوارع والأزقة في المدينة، وامتزج الرجال الأقوياء مع النبلاء بالرعاع، ومامن تاريخ يمكنه أن يخبرنا عن مثل أولئك الأمراء العظام، وعن جيش يمثل تلك العظمة، استطاع بصبر تحمل مثل تلك الندرة بالأطعمة وتلك التعاسة وذلك الشقاء.

وفي الوقت الذي كان فيه شعب المسيح يعيش في ظل تلك المعاناة، نظر الرب إلى آلامهم، وبعث مواساة طيبة لهم، فقد كان في الجيش رجل ساذج، منصرف كثيراً إلى تقديس الرسول القديس أندرو، وقد تجلى القديس أندرو إليه، عندما كان نائماً، وأخبره بأن العدو لا يمكن هزيمته إلا بسنان الرمح الذي طعن به جنب الرب يسوع، عندما كان على الصليب، علاوة على ذلك أظهر الرسول بوضوح إلى متعبه المكان الموجود فيه سنان الرمح المقدس تحت الأرض في كنيسة القديس بطرس.

وفي الصباح استيقظ هذا الرجل، وأخبر بما رآه الأساقفة والأمراء، فذهبوا بمسيرة إلى المكان الذي حدد له، وبعدما حفروا عميقاً في الأرض، وجدوا سنان الرمح وحملوه مع سرور عظيم، مع أن كثيرين استخفوا به وتشككوا، لكن جندياً عمل ناراً طولها ثلاثة عشر قدماً في وسط الشارع، وأخذ سنان الرمح بيده، ومشى خلال النار دون أن يصاب بأذى، وبذلك تشجع رجال جيش الرب كثيراً، لأنه بسبب معاناتهم نشبت الخلافات في المدينة، وشرع عدد كبير من الأمراء يفكرون بشكل سري، ويتآمرون لإيجاد السبل، ليتمكنوا من النجاة بأنفسهم، لكن بعد العثور على سنان الرمح المقدس، ربطوا أنفسهم بقسم جديد، وأقسموا بالرب بأنهم سوف لن يترك أحدهم الآخر ويتخلى عنه قبل إعادة المدينة المقدسة إلى حريتها الماضية.

وفي اجتماع عقد فيما بين الشيوخ والمقدمين، جرى تحديد يوم يقومون فيه بمواجهة العدو، ومقاتلته، وبناء عليه في الليلة التي تقدمت على اليوم الخامس والعشرين لحصارهم، لم يكن هناك راحة، بل أعدّ الرجال جميعاً أنفسهم من أجل القتال في الصباح، وتحزموا بأسلحتهم، واستمعوا إلى قداسات في الكنائس في المساء، واعترفوا بذنوبهم، وتناولوا القربان، وبوساطة هذا القربان، نال الناس كثيراً من النعمة، وبذلك غدا الناس الذين كانوا في البارحة بلا طاقة، وبلا فائدة، وغير قادرين على السير متجاوزين عتبات بيوتهم، الآن قادرين على التقدم، وقد تعهد كل واحد منهم وأقسم بأنه سوف يتفوق على البقية في المعركة، ولدى الفراغ من تنظيم الصفوف، فتحت الأبواب وقام الأساقفة مع رجال الدين الآخرين، وهم في ملابسهم المقدسة بمباركة الناس لدى توجيههم إلى القتال، وعندما كان الحشد يزحف خارجاً من المدينة، تساقط عليه ندى في غاية الحلاوة، وقد بلل جميع الحشد، مما أنعش كل من الناس والدواب سواء.

وزحف شعبنا ببطىء نحو الأعداء، وقد حملوا معهم رمح الرب، وبمعونة الرب، وبعد قتال مرير، جرى تحطيم جناحي العدو، وتمزقت صفوفه، وبدأت عساكره بالفرار، ورجالنا يتولون مطاردتهم، وقد استمروا يضربون ويقتلون في صفوفهم حتى غياب الشمس، وعندما انتهت المعركة رجع شعبنا إلى معسكر العدو، حيث وجدوا كميات كبيرة وافرة من جميع الأشياء الضرورية، مع مخزون هائل من ثروات الشرق، والذهب، والفضة، والمجوهرات، والسلع الثمينة، مما لا يمكن حصره ولا عدّه، علاوة على ذلك تمّ العثور هناك على قطعان كثيرة، وعلى أطعمة وافرة، إلى حد أن الذين كانوا من قبل بحاجة ماسة لكل شيء، قد باتوا الآن لا يعرفون ماذا يختارون من الأشياء الجيدة الموجودة أمامهم، ولقد نالوا هذا النصر في سنة ١٠٩٨ م.

واستعدوا بعد هذا للزحف نحو القدس، وانطلقوا في اليوم الأول من ايلول، وبعد مرورهم بكثير من المناطق، والاستيلاء على كثير من المدن بالقوة، وذلك على طول ساحل البحر، دخلوا إلى سورية، وعسكروا أمام طرابلس، التي كانت مدينة بحرية فائقة القوة وعظيمة، عازمين على الاستيلاء عليها، وتقدم أهل طرابلس لقتال شعبنا، غير أنهم أصيبوا بالرعب مباشرة بوساطة معجزة، فأداروا ظهورهم، وركضوا راجعين إلى المدينة، وبعدما حاصر شعبنا المدينة المقدسة لبعض الوقت، بدأوا يتذمرون بسبب تعبهم ولأن صبرهم تلاشى لرغبتهم بالوصول إلى القدس، وقد كانت هناك خلافات فيما بينهم، لأن النبلاء، والأمراء والأعيان بينهم أرادوا الاستيلاء على كل مكان حتى القدس، في حين أراد الرعايا والعامة من الناس، واعتقدوا وجوب الاستيلاء على القدس أولاً، وأنه بعد ذلك، يمكن منها الاستيلاء على المناطق التي من حولها ومهاجمتها، ولذلك قام الأمراء ارضاء للشعب برفع الحصار عن طرابلس، وزحفوا على طول الساحل، ووصلوا في اليوم الثالث إلى

بيروت، وكانت بيروت مدينة عظيمة على شاطئ البحر، كما وكانت من قبل مستعمرة رومانية، وذلك حسبما حدثنا جيروم في روايته عن حياة وموت باولا، لكنها الآن ملك السلطان، ويوجد فيها ميناء لاستخدامات كل من التجار المسلمين والتجار المسيحيين.

ومن هناك وصلوا إلى صيدا، ومروا بصور، وقد وجدوا أن هاتين المدينتين، مدينتين عظيمتين على شاطئ البحر، محصنتان بشكل جيد، وعلى استعداد لصد الغزاة، وتابعوا السير على طريقهم فوصلوا إلى سهل عكا، وهي مدينة حصينة جداً على ساحل البحر، وأصيب ساحل فلسطين كله بالرعب لدى وصول جيشنا، وعاش في حالة خوف عظيم، وتابعوا مسيرهم فوصلوا إلى جبل الكرمل، وتركوا الجليل على يسارهم، ومروا بقيسارية فلسطين، التي على شاطئ البحر، ونصبوا معسكراً في الحقل ليس بعيداً عن قيسارية، وعندما كانوا معسكرين هناك جرح صقر طائراً من الحمام كان يطير فوق المعسكر، جرحاً بليغاً، لذلك سقط فوق الجيش، فوجدوه يحمل رسالة جاء نصها كما يلي: «يتمنى ملك عكا الصحة إلى والي قيسارية، هناك جيل من الكلاب، من شعب مشاغب زاحف ضدكم، دافعوا عن شريعتكم ضدهم بأنفسكم وبالأخرين، واطلب من المدن الأخرى فعل الشيء نفسه»، ووقعت هذه الرسالة بأيدي أمراءنا، وفي الحقيقة استخدم الحمام في المراسلات الملكية في البلدان الشرقية، وهذا سوف نشرحه في ص ٨٥ من القسم الثاني.

وقد قوضوا معسكرهم، وزحفوا من هناك، ووصلوا في اليوم الثالث إلى قرب يافا، فنصبوا معسكرهم في الحقل أمامها، وقد علموا آنذاك، أنه ليس بعيداً عنهم توجد مدينة الرملة الغنية، فبعثوا بكونت فلاندرز أمامهم مع خمسمائة من الخيالة، حيث وجد المدينة فارغة، وقد دخلوها جميعاً من دون مقاومة، لأن سكان المدينة عندما سمعوا بوصول جيشنا أصيبوا بالرعب وهربوا إلى جبال اليهودية، لانقاذ حيواتهم، تاركين كل

ما امتلكوه وراءهم في المدينة، وعندما سمع شعبنا بذلك جلبوا قواتهم إلى المدينة وأقاموا فيها لمدة ثلاثة أيام، وقد وجدوا ما يكفيهم من أطعمة لهذه الأيام.

كيف جرى الاستيلاء على القدس من قبل شعبنا

جرى الاستيلاء على مدينة القدس المقدسة من قبل شعبنا وفق الطريقة التالية: عندما سمع الذين سكنوا بالقدس عن قدوم الصليبيين، وبعدما عرفوا صدقاً بأن تلك الحشود القادمة لها اهتمام خاص محدد هو الاستيلاء على تلك المدينة، لذلك حصنوها بكل عناية ممكنة، وجمعوا الطعام والسلاح من جميع الأنواع، وأعادوا بناء الأسوار والأبراج، وجددوا الأجزاء التي تهدمت بحكم الزمان، ووضعوا حامية من نخبة مقاتليهم في القدس، وتوفر لديهم أربعين ألفاً من الرجال لرد الصليبيين وطردهم، وحفروا أيضاً خندقاً، وأقاموا سواتر دفاعية، من حول المدينة، وأفرغوا جميع الصهاريج التي في الوادي من الماء، وبنوا حصناً حول نبع سلوان، حتى لا يجد الفرنجة ماء، علاوة على ذلك اتفقوا بالاجماع على قتل جميع المسيحيين الذين سكنوا معهم في القدس، وعلى تهديم كنيسة قيامة الرب، وعلى إزالة ضريح الرب إزالة كلية، وعلى مسح صخرة الجمجمة وإزالتها من على وجه الأرض، حتى لا يأتي الصليبيون إلى هناك لعبادة هذه الأماكن إذا ما أزيلت من الوجود، إنما فيما بعد، رأوا بعد مناقشات عقلانية، أنهم بفعلهم ذلك سوف يثيرون حقداً عظيماً بيننا ضدهم أنفسهم، ولذلك سمحوا لهم جميعاً بالبقاء من دون أذى.

أما بالنسبة للمسيحيين من الجنسين، من الشباب والشيوخ، من الذين سكنوا معهم في القدس، فقد جردوهم من جميع ممتلكاتهم، ومن ملابسهم، وعاملوهم بدون رحمة، وطردوهم من المدينة مع بطريركهم، وعندما جرى طرد هؤلاء الناس، جاءوا إلى معسكرنا، وجلبوا معهم

معلومات عن جميع دفاعات المدينة المقدسة وأوضاعها، ولدى سماع رجالنا بذلك سارعوا إلى تقويض معسكرهم، وزحفوا من الرملة إلى جبال اليهودية، وعندما رأوا أخيراً المدينة المقدسة، التي من أجلها تحملوا كثيراً من المشاق والمخاطر، بكوا من البهجة، ومجدوا الرب، واقتربوا من المدينة مع الأغاني ومظاهر السرور.

وعندما وصلوا إلى حقل القصار، الذي هو حقل كبير، على الجانب الغربي من المدينة، قسموا حشدتهم وطوقوا المدينة من جميع الجهات، ونصبوا خيامهم فوق جبل الزيتون، وجبل العدوان، وجبل جيحون، وأقاموا ساتراً دفاعياً حول المدينة المقدسة والمحبوقة، مع أنها كانت عدوة لهم، وبنى المسلمون منشآت كثيرة للدفاع عن المدينة خارج الأسوار، وقد جرى تهديمها جميعاً في ساعة واحدة من قبل شعبنا، وبدأ الحصار في سنة ١٠٩٩ لتجسيد الرب، وذلك في اليوم السابع من شهر حزيران، وقد قاومت خمسة وثلاثين يوماً، أي حتى يوم الحادي عشر من تموز.

هذا ولا أعرف ما الذي فعله المسلمون مع اليهود الذي سكنوا في المدينة، حيث أنني لم أقف على أي ذكر لذلك، والذي اعتقده أنهم عدّوا بين المسلمين، وبقوا حتى النهاية، لأنه مع أن هذين الشعبين لا يجبان بعضهما، هما يتفقان دوماً ضد المسيحيين، وهذا واضح من التاريخ، ذلك أنه في أيام الامبراطور جستنيان اتفق اليهود والمسلمين (كذا) في الأرض المقدسة، وتكتلوا مع بعضهم ضد المسيحيين، واقترفوا مذبة قاسية بينهم، وحاولوا إزالتهم من الوجود، لكن الامبراطور المتقدم ذكره جاء إلى انقاذهم، وهزم المسلمين واليهود، ودمرهم تدميراً مريعاً.

وفي اليوم الخامس، بعد وصول جيشنا إلى المدينة، حمل جميع الرجال بلا استثناء أسلحتهم، وعانى رجالنا من كثير من الجراحات من أسوار المدينة، لأن المدينة — كما قلت — كانت حسنة الدفاعات، ومجهزة بكل

شيء كان محتاجاً إليه للدفاع، ولذلك جرى صد حملات رجالنا، وتم حمل عدد كبير من الجرحى إلى المعسكر، وبالطريقة نفسها بذل رجالنا غاية جهدهم لخرق الأسوار، غير أنهم رجعوا من الأسوار فقط على شكل أجساد موتى، وأجساد جرحى بين اخوانهم في السلاح، علاوة على ذلك بدأت الحاجة إلى الضروريات، وللماء والخبز، وبشكل خاص الماء، لا يمكن تحملها، فقد رأى رجالنا أن الشطر الأكبر من العوام كانوا مرضى بسبب الجفاف والعطش، وكان رجالنا كلما حاولوا الهجوم على المدينة، تمت مواجهتهم بمقاومة عنيفة، حتى أنه لم يعد لدى شعبنا أي أمل بالربح، والانتصار بقوتهم، وأدركوا بشكل واضح أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة من دون مساعدة سماوية، أو معجزة من نوع من الأنواع، ولهذا أقيمت القداسات وأعمال الوعظ لكل فئة من فئات الجيش في المعسكر كله، ولذلك حثوا كل انسان بأن ينصرف نحو الرب بقلبه كله، وساروا حفاة حول المدينة يصلون يومياً، وهذا ما فعلوه جميعاً، أي ليس من قبل الكهنة والعامّة فقط، بل من قبل الأمراء والقادة أيضاً، الذين كان الأول بينهم دوماً، غودفري المجيد، والقائد للحشد كله.

وفي اليوم الثامن لهذا الإذلال، أي في اليوم الحادي عشر من تموز، هاجموا المدينة بإرادة واحدة، وقاتلوا من الصباح الباكر حتى الظهر، وجرى قتل عدد كبير من رجالنا، وأنهكوا جميعاً من دون محصلات، وبعد ما بذلوا هذا الجهد الجبار، بدأوا يتراخون، وأنهك الناس إلى أبعد الدرجات نتيجة للتعب والجوع، وبدأوا يتوقفون عن القتال، ولدى رؤية الأعداء هذا، شرعوا من فوق الأسوار والأبراج يصرخون بصوت مرتفع، ويهينون شعبنا ويستخفون به، ولعنوا شعب الرب الحي، ورقصوا وغنوا بسرور فوق الأسوار، ولم يتوقفوا عن الاستخفاف برجالنا، وطلبوا منهم العودة، لكن هذا السرور العابث لم يطل كثيراً،

بل كان علامة على دمارهم المقبل، على أساس أن التفاخر يسير قبل الدمار كما قيل بالأمثال: ١٦ / ١٨.

وبعملهم هذا أظهروا أنفسهم حمقى، ولذلك أغضبوا الحشد ضدهم، وأثاروا حقدهم ضدهم لأنه كتب في الالهيات: ١٢ / ٧: «على الانسان أن لا يضحك ليشير حقد الآخرين في أنفسهم، لأن هناك من قد يتواضع ثم يمجّد» وفي الأمثال: ٢٧ «الغضب قساوة، والسخط جراف، ومن يقف قدام الحسد؟ كما أنهم لم يقرأوا ماقاله ذلك الفيلسوف الكبير، الذي عدّ الحكيم الأول بين حكماء العالم السبعة هو الذي قال ينبغي أن لانستخف بأي شكل من الأشكال و لانهزأ بالرجل السيء الحظ.

ولدى سماع رجالنا السخرية منهم بأذانهم، وتلقيهم الشتائم واللعنات والتجديف، وقفوا بين شرين أو لتقل خيارين صعبين، ففي الوقت الذي لم يكن بإمكانهم فيه تحمل الإهانات التي انصبت فوقهم من دون الانتقام من فاعليها، كانوا في الوقت نفسه لا يدركون تماماً كيف يمكنهم الاستيلاء على مدينة الذين أهانوهم، وفيما هم في هذه الحيرة، فجأة ظهرت القدرة الالهية بينهم، وجلبت العون إلى المؤمنين وهم في وضعهم اليائس، فقد نزل من جبل الزيتون نحو حشدنا فارس كان مرتدياً لسابغة مشعة، وهو على ظهر مهر شجاع، وكان بيده رمح يتوهج ضياء، وأشار إلى عساكرنا بالعودة وتجديد الحملة، وبعدما أعطى هذه الإشارة لم يعد بالامكان رؤيته في أي مكان، كما أنه لم يكن هناك شك أنه ميكائيل، الذي كان مقدم الحشود المسيحية، أو كما تقول الأسطورة، اللومباردية بأن ذلك الفارس كان القديس جرجس، حيث قام من بين الأموات لمساعدة المسيحيين، وذلك مثلما قام ميركوري Mercury القديم للقتال ضد يولييان المرتد وجيشه، وهو الذي ورد خبره في التاريخ اللاهوتي.

ولدى رؤية جيشنا لهذه الإشارة، بات مسروراً، وعاد إلى الحملة على

المدينة بشجاعة أعظم من ذي قبل، وقد توهج بالحماسة هؤلاء الرجال، الذين كانوا قبل هذا مرهقين ومنهكين لما عانوه من متاعب وشقاء، وكانوا ضعفاء بسبب الجراحات، ومعاقين، غير أنهم الآن جددوا نفوسهم، وبها ضغطوا وتقدموا بشجاعة أعظم من ذي قبل، وحملوا على العدو حملة رجل واحد، وعم سرور عظيم في معسكرنا، وبدوا وكأنهم واثقين من النصر، ففي إطار ساعة واحدة طموا الخندق، وخرقوا السواتر الدفاعية، والموانع والحواجز، وأوصلوا الآلات الحربية إلى سور المدينة، وقد ستروا أنفسهم تحت هذه الآلات، وبذلك لم يعودوا يصابون بالحجارة التي رميت من الأسوار، وكانوا وهم تحت الآلات بإمكانهم شق طريقهم إلى السور واعتلائه، لأنه في ذلك الوقت لم يكن قد جرى اختراع المدافع، تلك الأسلحة المخيفة — حيث يقال بأنها اكتشفت من قبل ألماني في حوالي سنة ١٣٦٠ — والذي توفر لديهم فقط آلات لرمي الحجارة الثقيلة.

وكان مقاتلونا قد عملوا برجاً عظيماً وعالياً، على شكل سلة، ومثل قلعة، وملأوه بالتراب والحجارة، بصورة أن الذين يقفون خلفه، يكونون آمنين من الرمايات من الأسوار، ووقف هذا البرج، أو الحصن على عجلات، وكان قابلاً للتحريك، وكان العدو قد علق أشجاراً ضخمة وطويلة أمام الأسوار، لتحطيم قوة كبش التدمير، وقام رجالنا الذين كانوا في الحصن المتقدم ذكره بقطع الحبال التي ربط بها اثنتان من هذه الأشجار ورموها إلى الأرض، وعندما علم بهذا الدوق غودفري الذي كان يهاجم المدينة من ذلك الجانب، أمر بحمل الشجرتين المتقدمتي الذكر إلى الحصن، وباسناد نهاية أولاهما على الآلة، ونهاية الأخرى على سور المدينة، وبذلك جعلهما تعملان بمثابة جسر، وفوق الجسر المعمول على هذه الشاكلة، كان غودفري ذلك الرجل المتميز، مع أخيه يوستاس، أول رجلين دخلا المدينة، وبعدهما جاء عدد كبير آخر،

واتخذوا لأنفسهم مكاناً فوق الأسوار وأعلامهم التي حملت شارة الصليب تخفق، وزعقوا بأبواقهم إلى الحشد ليقدم لمساعدتهم، ولدى رؤية العدو لهذا تولى عن الأسوار والأبراج، وهرب جميع مقاتلوهم من أجل الالتجاء في ساحة الهيكل، الذي اسمه هيكل سليمان.

وهنا نزل رجالنا الذين وقفوا على السور، وذهبوا إلى أقرب الطرقات، ثم ركضوا نحو الباب الشمالي، فكسروا أقفالته وحواجزه، وتركوا رجال حشودنا التي كانت تنتظر في الخارج تدخل، ومن ثم تركض إلى هنا وهناك في الطرقات وسيوفهم مجردة، حيث قتلوا كل من صدقوه، ولم يوفروا أحداً لالسنه أو لجنسه، وتجمعت في الوقت نفسه القوات المقاتلة لدى العدو في الهيكل وفي ساحته، وقد استعدوا لمقاومة شعبنا، الذي اقتيدوا بصفوف قتالية للهجوم على الهيكل بقوة عظيمة، وجرى صد رجالنا خمس مرات من قبل المسلمين، لكن في الاشتباك الخامس (؟) كانوا قادرين على تخطيط ميمنة العدو، وعندما منح هذا طريقاً لشعبنا، انخرط في مذبحه، إلى درجة أنه في بعض أجزاء الساحة وصلت دماء المقتولين إلى ركب الذين كانوا على ظهور خيولهم، ولم يرقط مثل هذه الكثرة من الدماء البشرية في مكان واحد ووقت واحد، لأنه بالإضافة إلى الذين ذبحهم شعبنا في البيوت، والأزقة، والشوارع في المدينة، قتلوا في الهيكل ومعه مع ساحته عشرة آلاف من المسلمين، حيث ألقي بهم أرضاً وذبحوا، وكان بين الذين طعنوا بألف سيف الخليفة (الوالي)، أي ملك البرابرة في القدس، الذي عثر عليه شعبنا متوارياً تحت جدار مهدم، وبذلك جرى الاستيلاء على المدينة في سنة ١٠٩٩، وكان ذلك في الخامس عشر من تموز، وكان اليوم يوم جمعة، والساعة هي الساعة التاسعة، والسنة هي السنة الثالثة بعدما امتلك شعبنا الشجاعة للقيام بمثل هذا الحج الهائل.

وبعدما جرى الاستيلاء على المدينة، ألقى المؤمنون أسلحتهم، ومع

الدموع، وبروح متواضعة، وبدون اهتمام بالدماء التي لطخت الهيكل، بادروا مسرعين في مسيرة إلى الهيكل الذي امتلأ بدم المسيح، وإلى كنيسة ضريح الرب، وكان يتقدمهم أساقفتهم وكهنتهم بملابسهم المقدسة، وعندما دخلوا إلى هيكل قيامة الرب، غنوا بسرور لاحدود له، ترانيم الفصح غنوها كل جماعة منهم بلغتها، وبموسيقاها، وساروا بخشوع عظيم وطافوا حول الأماكن المقدسة كلها في الكنيسة.

ولكم هو رائع أن تتحدث، ومقدس وممتع أن تسمع بأن جميع هذه الأماكن المقدسة، جرت بها مشاهدة فرسان مسلحين، وحجاج بشكل واضح ومكشوف، وهم رجال كانوا قبل وقت طويل يقابلون بالموت من قبل سيوف المسلمين، هذا وذكر الشطر الأكبر من الجيش، وأكدوا بالايان ماكانوا ذكروه، بأنهم عندما كانوا يتسلقون سور المدينة شاهدوا، الفرسان أنفسهم، الذين ماتوا في انطاكية وأماكن أخرى، وهم يرتدون دروعهم، ويمدون بسرور أذرعتهم إلى الذين كانوا يتسلقون على السلالم، ويشجعونهم على القتال، ولم يكن هناك من شك لدى الذين شاهدوهم، أنه كان من غير الممكن نيل النصر من دون الحصول على مساعدة ورضا الذين سقطوا في المعارك السالفة، وذلك مثلما حدث أنه لدى صلاة القديس باسيل، أقامت العذراء المباركة من الموت ميركوريوس Mercurius، الذي كان عسكرياً في غاية الشجاعة، كان قد استشهد على يدي يولييان المرتد، وقد أقامته لكي يقتل يولييان هذا نفسه، وقد فعل ذلك حقيقة، ومثل هذا فإن أشجع المقاتلين الذين ماتوا على أيدي المسلمين، قد رجعوا إلى الحياة ثانية حتى ينتقموا منهم، ولذلك شوهدوا بشكل واضح يقاتلون بين الرجال الذين كانوا رفاقهم في الحياة، ولقد تبرهن بهذا بوضوح أن أولئك القوم، وإن كانوا قد فارقوا الحياة الأرضية، وأخذوا إلى السعادة الأبدية، مع ذلك لم تحب آمالهم في تحقيق رغباتهم، لابل في الحقيقة حصلوا على تحقيق كامل

للذي تشوقوا إليه بخشوع كبير، وغسلوا دمهم الشرير، وأقاموا مطابخ في كل مكان من أرجاء المدينة، وعينوا أناسا للقيام بتقديم الأطعمة، وأمضوا على هذه الصورة ثمانية أيام.

وهناك كثير من المؤرخين الذين أرحوا لهذا النصر المجيد جداً، وقد كتبوا بأسلوب ملحمي، وجاءت الكتابات من قبل كتاب متعلمين كثيراً، ومن قبل خطباء بلغاء، بكل من الإيطالية، واللاطينية، والفرنسية، وقد نسب كل واحد منهم الفضل إلى أمته، ولأنهم لم يذكروا الألمان، مع أن غودفري كان قد فعل كل شيء وتفوق على الجميع قام الشاعر العظيم أنياس سيلفيوس Aeneas sylvus بالقاء خطاب في فرانكفورت، وجهة إلى أمراء ألمانيا ونبلاء سوابيا، بمناسبة الغزو التركي، وقد تحدث إليهم قائلاً: «وإنني أعرف بأن غودفري، الذي كان دوق اللورين، قد سار خلال كثير من الممالك، براً وبحراً، وحرر ضريح الرب من أيدي المسلمين، وكان معه الألمان فقط، الذين قطنوا فيما وراء الراين، والسوابيين، وبعض الفرنسيين، وقلعة من الإيطاليين».

قائمة بملوك القدس اللاتين وبأمراء المملكة الصليبية في القدس

وهكذا حدث أنه في الخامس عشر من حزيران (أقرأ: تموز) من سنة ١٠٩٩ لتجسيد ربنا، استولى المسيحيون الغربيون على القدس، المدينة المقدسة، واستخلصوها من أيدي، ومن سلطان الأمم، وعينوها إلى ورثتها الحقيقيين، الذين هم أبناء المملكة، الذين ولدوا مجدداً أمام جرن المعمودية والذين هم أتباع المسيح، وأعادوها بعدما بقيت غريبة في أيدي الأمم لحوالي أربعمئة وستين سنة، أو أربعمئة وتسعين سنة.

وفي اليوم الثامن بعد تحرير القدس، اجتمع الأمراء المنتصرون في مؤتمر من أجل اختيار واحد من أفرادهم ليتسلم السلطة على البلاد،

ويتولى كملك العناية بالمنطقة المستولى عليها حديثاً، وبعدما صلوا من أجل أن تكون نعمة الروح القدس معهم في أعمال الاختيار، قاموا بصوت واحد، وبروح واحدة، باختيار غودفري، دوق اللورين، الذي تقدم ذكره مراراً، اختاروه ملكاً، وقد حمله الفرسان على أكتافهم إلى القصر وأعلنوه ملكاً للقدس. وقد حكم لمدة سنة واحدة

وكان غودفري هذا من مملكة فرنسا، من مدينة بولليون في مقاطعة الراين، وكان كونت غالاريا Gallaria (كذا)، وكان أبوه اللورد يوستاس، وأمه اسمها ايدا Ida، وكانت أختاً لدوق اللورين، وبما أن هذا الدوق كان بلا أولاد، فقد تبنى ابن اخته غودفري هذا، واتخذه بمثابة ابن له، وعندما مات خلفه غودفري في دوقية اللورين، وكان هذا الدوق رجلاً رائعاً جداً، وكان متديناً، ورحيماً، ومقدساً، ومستقيماً، ومتحدثاً وقوراً، وصاحب أطلاق صلبة، يكره العبث الديني، وهذا كان أمراً نادراً بالنسبة للجندى، لاسيما في ذلك الوقت، وكان علاوة على ذلك كله متدققاً في حبه، لا يميل ولا يتعب في الأعمال الدينية، ومع أنه كان نبيلاً، لم يكن منساعاً، بهي الطلعة، وجميلاً أن تنظر إليه، ومن حيث الجسم، كان طويلاً، ورقيقاً، وفي غاية القوة، مع وجه جميل، وشعر أصفر، ولحية، وبالنسبة لاستخدام السلاح، والممارسة للأعمال العسكرية، قرر كل واحد بأنّه كان متفوقاً، وكانت أعماله دوماً رائعة، وجديرة بالاعجاب، فقام في إحدى المرات، مثل شمشوم آخر، أوداود، بمهاجمة أسد هائج وقتله، كما جاء في Frasciculus tem-porum) وهو تاريخ صنفه الراهب ويرنر رولونك وطبع سنة (١٤٧٧).

وعندما رفع إلى عرش مملكة القدس، لم يرفض اللقب، لكنه رفض أن يلبس تاجاً ذهبياً، قائلاً بأنه لا يجوز لرجل مسيحي ارتداء تاج ملكي من الذهب، في المكان، الذي لبس فيه المسيح، ملك الملوك، تاجاً من

شوك من أجل انقاز الجنس البشري، ولهذا فإن بعض الذين لم يكن تواضعهم كما ينبغي، لم يضعوه في قائمة الملوك اللاتين للقدس، وبالنسبة لما أفكر به، هو لم يكن ملكاً فقط، بل الأفضل بين الملوك، وكان ضوياً ومرآة للبقية، وعلياً عدم الافتراض بأنه رفض عرض تكريسه ملكاً، لكنه تواضعاً منه رفض الأبهة الدنيوية، والتاج الفاني، من أجل أن ينال تاجاً لا يفنى في العالم الآخر.

وعندما حصل هذا الأمير التقي على العرش، شرع مباشرة كرجل دين بتقديم أول الثمار في مملكته إلى الرب، كما أنه أسس أنظمة قانونية لكنيسة ضريح الرب، ولهيكل الرب، وعين لهما موارد وافرة، وفي الحقيقة قام هذا الرجل، الذي أحبه الرب، فجلب معه رهباناً نظاميين من ديرتهم، وقد أقام هؤلاء له، طوال الرحلة، القداسات في الليل وفي النهار، ومثل هذا بعث إلى كل من إيطاليا وفرنسا، فجلب اكليروس ديني، وزع فيما بينهم الأبرشيات، ولهم بنى الكنائس والديرة.

وفي هذه الأيام، تمّ العثور على قطعة من صليب الرب، في كنيسة القيامة، وهي قطعة كانت قد أخفيت من قبل المؤمنين خوفاً من الأمم، ومنح هذا راحة عظيمة إلى جميع المؤمنين، و جلب مجداً عظيماً إلى الكنيسة، وكانت الكنيسة قد بقيت حتى ذلك الحين، فارغة، لكن الآن، وضعوا في الكرسي البطريركي بموافقة جميع الناس، السيد ديبيرتوس Daybertus، الذي كان رئيس الأساقفة المبجل لبيزا، وكان قد جاء إلى الأرض المقدسة من إيطاليا مع آخرين كثر بالبحر، بعد الاستيلاء عليها.

وبعدما حل مشاكل الكنيسة وأرسى قواعدها، سار الملك غودفري التقي جداً من أجل توسيع حدود المملكة المقدسة للقدس، واصطحب معه اخوانه، وجميع حشد مقاتليه، وكلهم مجهز للقتال، وزحف خارجاً من المدينة المقدسة، ونزل إلى فلسطين لمحاربة كليمنت Clem-ent (الأفضل) ملك القاهرة، الذي كان معسكراً في عسقلان مع حشد

كبير من المحاربين المسلمين، وكانوا قد هاجموا الصليبيين من هناك بشكل غادر، وهاجم غودفري بلدة عسقلان، واستولى عليها، وقتل كليمنت [كذا] مع ثلاثين ألفاً من عساكره ووجدوا هناك المخزون الأعظم من الذهب والفضة، مما كان قد تمّ العثور عليه في أي ناحية من أنحاء العالم، وزحف من هناك هو وإخوانه، مستثمرين نصرهم وحظهم السعيد، فحاصروا واستولوا على مدينتي يافا والرملة، وبعض المناطق الأخرى الهامة مثلها.

وأخيراً عندما عاد الملك إلى القدس، سقط مريضاً، وأصيب بحمي حادة جداً، وتمدد على الفراش بحالة مرضية شديدة جداً، ولدى شعوره باقتراب منيته، قام مثله مثل معترف حقيقي بالمسيح، فتناول القربان الأخير، وغادرت روحه الجسد، وبذلك انتهت حياته سريعاً، ومع ذلك حقق أعمال أجيال كثيرة في وقت قصير، ودفنه إخوانه في كنيسة الضريح المقدس، عند سفح صخرة الجمجمة، وكان ذلك وسط بكاء وأسف جميع الشعب الصليبي، وجرى فهم بعض النصوص المقدسة (رؤيا يوحنا: ١٧-١٨) حرفياً، وشرحت على أنها تشير إلى غودفري، وذلك وفقاً إلى نيقولا دي ليرا، وإلى تاريخ أنطونيوس، القسم الأول، العنوان ٦، الفصل: ١، الفقرتين: ١٤-١٥، وقد عُزي إليه كثيراً من المعجزات، قمت باسقاطها.

الملك الثاني

بعد وفاة غودفري، الملك الأول للقدس، في سنة ١١٠٠ لتجسيد الرب، خلفه أخوه اللورد بلدوين على العرش، وقد كان كونت الرها، ورجلاً قوياً، ولديه كفاية من المعرفة الأدبية العامة، وكان له أنف معكوف، وسلوك مهيب، وأحاديث جدية، وكان دوماً يرتدي عباءة على كتفيه، ولذلك بدا للغرباء أنه أكثر شبهاً بأسقف، منه بأمير علماني، وقدم إلى القدس، عدد كبير من الأمراء لحضور تنصيبه، واقتادهم هو إلى

بيت لحم، حيث تسلم التاج مع فرح عظيم في موضع ولادة الرب.

وأحتاج إلى وقت طويل للحديث عن عظمة هذا الملك، وعن شجاعته، وعن قوته، وعن معاركه الكثيرة وانتصاراته على الكفار، فقد هزم الأتراك مرات عديدة، وسحق المسلمين، وأذل المصريين ثلاث مرات، وقتل ملكهم الخليفة (كذا) على ظهر أحد الغلايين، وكان في أيامه زلزال عظيم هدد المدينة المقدسة كلها بالدمار، ومع ذلك تبرهن أنها لم تكن شارة سوء طالع، لأنه استولى بعد الزلزلة على كثير من مدن المسلمين، وقتل آلافاً كثيرة، وزاد كثيراً من حجم مملكة القدس، وقد استولى على مدينة عكا الحصينة جداً، ومثل ذلك بنى حصناً عظيماً في البتراء في القفار فيما وراء الأردن، وهي القلعة التي أطلق عليها اسم جبل الملك (مونتريال=الشوبك)، وكنا قد تحدثنا عن هذا المكان من قبل.

ونزل في أيامه طاعون بسورية، وقد هلك به جميع الشعب اللاتيني تقريباً، وعندما رأى الملك أن مدينة القدس المقدسة قد غدت شاغرة، ليس فيها أحد يسكنها، وأنه لم يعد في المدينة ما يكفي من سكان للدفاع عنها ضد الأعداء، احتار كيف يمكنه إسكانها من قبل مسيحيين، وعلم أخيراً أنه يوجد عبر نهر الأردن وفي العربية عدد من القرى مسكونة من قبل المؤمنين، وهم يخدمون المسلمين، أعداء إيمانهم، في ظل شروط قاسية، ويدفعون الجزية إليهم، وجمع الملك هؤلاء جميعاً مع زوجاتهم وأطفالهم وجميع آلهم، وأسكنهم في القدس، ورفع النير الثقيل من على أكتافهم، علاوة على ذلك اشترى أطفالاً من المسلمين، وأمر بتعميدهم، وعينهم للسكنى في القدس.

وفي سنة ١١١٨ لتجسيد ربنا، قام هذا الملك الفاضل بالنزول إلى مصر مع قوة كبيرة، وكان قصده الانتقام من المصريين للأعمال التي غالباً ما اقترفوها في مملكته، وقد هاجم بحدة متناهية مدينة قديمة جداً اسمها الفرما، وقد استولى عليها، وأباحها للنهب من قبل جنوده،

وكانت هذه المدينة قائمة على شاطئ البحر، ليس بعيداً عن مصب النيل، وكان اسمها في القديم تنيس، وعندما كان الملك مقيماً في هذه المدينة يستعد ليندفع نحو المناطق الداخلية من مصر، سقط مريضاً مرضاً عظيماً، ولذلك أمر جيشه بالتراجع، وقد حمل على محفه حتى غلبه مرضه، ومن ثم انتقل إلى الرب، وجرى حمل جسده عائدين به إلى القدس، وفي يوم أحد السعف جرى دفنه بأبهة ملكية، تحت موقع الجمجمة بقرب أخيه غودفري، وقد حكم في القدس لمدة ثمان عشرة سنة، ولم يخلف وريثاً من بعده.

الملك الثالث للقدس

وبعد وفاة بلدوين الذي كان الأول في حمل هذا الاسم، والثاني بين ملوك القدس، خلفه هناك على العرش بلدوين الثاني، الذي كان ثالث ملوكنا اللاتين في القدس، وكان ذلك سنة ١١١٨م، وقد حكم لمدة ثمان عشرة سنة، وكان ابن عم الملكين المتقدمين، وكان اسمه بلدوين دي بورغ، وكان فرنسياً من حيث الأصل، من مقاطعة الرايم، وكان ابن هوغو، كونت ريثيل Rethel، وله حية رقيقة، وصلت حتى صدره، وكان خبيراً في استخدام السلاح، وصاحب تجربة كبيرة في الحرب، علاوة على ذلك، كان رحيماً، متديناً، ويخاف الرب، مخلصاً في صلواته، حتى أنه امتلك جلدأ قاسياً فوق يديه وركبتيه من مداومة الركوع والسجود.

ومع ذلك، إنه على الرغم من هذا كله، ومن صفات أخرى جيدة، كان انتخابه للملك قد أغضب عدداً كبيراً من الأمراء، ولذلك بعثوا بسفارة مهيبة لدعوة يوستاس كونت أوف بولليون، الذي كان أخصاً للملك بلدوين الأول، للقُدوم إلى المملكة، التي هي حقه الموروث، وعلى الرغم من عدم رغبته، وكراهيته، جلبوا يوستاس هذا حتى أبوليا، حيث سمعوا وقتذاك بأن بلدوين دي بورغ قد تمّ تعيينه ملكاً في

القدس، وهنا استعد للعودة إلى الوطن، وعندما أعلموه بأن هذا قد عمل ضد القانون، ولا يمكنه بأي حال من الأحوال الثبات، يقال بأنه أجابهم: «ليكن بعيداً عني القيام بأي عمل تأمري في مملكة الرب، الذي من خلال دمه حصل العالم على السلام، ومن أجل الهدوء فيها بعث أولئك الرجال العظام، أي أخوي صاحبي الذكرى الخالدة، بروحيهما المجيدتين إلى السماء»، وبناء عليه حزم حقائبه، وعاد إلى موطنه ثانية، وفي الوقت نفسه ترسخ وضع بلدوين في مملكته، وقد هزم في السنة الثانية من حكمه ايلغازي، قائد الأتراك في آسية الصغرى، وكان قد زحف على رأس قوات كبيرة لمهاجمة القدس، وألقاه في السجن، وأنزل في السنة التالية الهزيمة بملك دمشق، الذي كان قد زحف بشكل مفاجئ على رأس جيشه ضد القدس مع نوايا عدوانية، وقد قتل ألفين من الأعداء، وأخذ ألفاً أسرى، وقد فقد ثلاثين فقط من رجاله.

وفي السنة الخامسة من حكمه، زحف هذا الملك، ضد ملك الفرثين، الذي كان يهدد كونتيه الرها، وعندما كان في أحد الأيام، خارجاً من مدينة تك باشر، وكان يسير بلا انتباه مع آل بيته، في صف متخلف وراء الجيش، لحقه بلك المتقدم ذكره، ونصب كميناً له، فأسر ملك القدس مع نبلائه، وحملهم إلى قلعة وراء الفرات، حيث وضعهم بالأغلال واحتفظ بهم لمدة سنتين، وفي الوقت نفسه عندما سمع ملك مصر بوقوع ملك القدس بالأسر، جاء عبر الطريق الساحلي مع جيش لا يحصى عدده من شعبه، ووصل إلى عسقلان، قاصداً الزحف إلى القدس، وعندما سمع يوستاس غريمير، الذي إليه عهد بإدارة شؤون المملكة، أثناء غياب الملك بهذا، قام هو وأعيان المملكة بحشد جميع القوات المتوفرة، واستعدوا للحملة وكانوا قلة ضد كثرة، وليس لديهم أمل بالبقاء إلاً بالرب، وقام أهل القدس، مثل أهل نينوى، فأعلنوا الصيام بالنسبة إلى الرجال والنساء سواء، لابل أكثر من هذا، منعوا

الطعام حتى عن الأطفال الرضع، وعن الدواب والسائمة، وعندما زحف جيش الرب خارجاً من المدينة المقدسة، زحف بطيرك القدس على رأس الرتل، وهو يحمل صليب الرب عوضاً عن الراية، وحمل الذي كان فيما مضى راعي دير كلوني، سنان رمح الرب، الذي جرى اكتشافه مؤخراً، كما تحدثنا من قبل، وحمل أسقف بيت لحم حليب العذراء المباركة في حُق.

وهكذا ساروا وهم متسلحين بالايان، وقصدوا قتال أعدائهم، وقد وجدوهم في مكان اسمه بينا (ابلين)، ودون الاهتمام بأعدادهم الكبيرة، حملوا عليهم بجرأة، وضربوهم بسيوفهم، وتمكنوا بعون الرب من إلحاق الهزيمة بهم، وطاردوهم شعبنا، ولدى قيامهم بذلك عملوا مذبحة مرعبة بينهم، ومع الأعداد التي لا تحصى من الأسرى، يقال بأن سبعة آلاف منهم قد قتلوا في ذلك اليوم، علاوة على ذلك عمل شعبنا مذبحة أخرى كبيرة بين صفوف المسلمين في البحر، لأنهم طاردوا اسطول المسلمين الذي هرب لدى سماعه بالهزيمة، فوجدوه، وقتلوا أعداد كبيرة في المعركة التي وقعت إثر ذلك، وكانت مذبحة خارج اطار التصديق، حيث قيل بأن البحر قد تحول إلى أحمر لمسافة ميلين حول المكان، بسبب أعداد الجثث الكبيرة التي ألقيت فيه.

وبعد هذا، والمملك مايزال بالأسر، استولى شعبنا على مدينة صور التي كانت لاترام، حيث ترافق ذلك مع مذبحة هائلة جداً بين صفوف المسلمين هناك، وصور مدينة قديمة جداً، ولها منحها الامبراطور سيفيروس، جائزة بسبب اخلاصها للدولة الرومانية، وكانت هذه الجائزة هي: Jus Italicum، وكان هذا امتيازاً اعتاد الأمراء الرومان على اصفائه فقط على عدد قليل جداً من المدن ذات الأهلية العالية.

ولم يشهد فقط الكتاب من الأمم على عظمة مجد هذه المدينة في العصور القديمة، بل أيضاً شهد وحي الأنبياء المقدسين، حسبما جاء في

إشعيا: ٢٣، وفي حزقيال: ٢٦ و ٢٧.

وإلى هذه المدينة ينتمي سيخايوس وزوجته ديدو، التي بنت مدينة قرطاج العجيبة، وحكم هنا حيرام الذي كان العامل المتعاون والتابع لسليمان في بناء الهيكل، وعندما جرى الاستيلاء على صور، أطلق سراح ملك القدس وعاد إلى القدس، وقد تمكن من إعادة المملكة المتداعية للمسيحيين وأضاف أنطاكية إلى مملكة القدس، وهزم ملك عسقلان الذي كان يزعج شعب القدس، وكان ذلك في معركة واحدة، وهزم طغتكين، أمير دمشق، الذي كان مثل ذلك يحاول مضايقة أهل القدس، وقد هزمه في ثلاث معارك، حيث جرى ذبح أعداد كبيرة من الأعداء مثل الأغنام.

ومنح الرب بعد ذلك، هذا الملك، حكماً هادئاً، وما من انسان تجرأ على الوقوف في وجهه، ولذلك قام وهو يعيش بسلام، فوجه نفسه نحو تحسين الخدمات الدينية، فجلب عدداً كبيراً من الرهبان، ومن رجال الدين، من العالم المسيحي، وشيد كثيراً من الديرة لكل من الرجال والنساء، وأسس في صور جامعة أو مدرسة عامة، إليها قدم كثير من العلماء من بلاد ماوراء البحر، وفي أيامه تأسست ثلاث طوائف دينية في القدس، وكانت الطائفة الأولى بينها الاستبارية، ومع أنه كان يوجد قبل استرداد الأرض المقدسة، في القدس استبارية، لكن لم تكن هناك طائفة منظمة، فلقد قرأت، كما ذكرت من قبل، أن المسيحيين اللاتين شيدوا بموافقة من السلطان، قبل أيام غودفري، ديراً للرجال، قرب كنيسة ضريح الرب، من أجل استخدامات الحجاج، فيه أقام الذكور من الحجاج كضيوف، وبعد ذلك، وبسبب تزايد أعداد النساء من الحجاج اللاتي قدمن إلى هناك، جرى بناء دير آخر، أقامت فيه النساء من الحجاج، وبعد ذلك، وبسبب تدفق حشود الحجاج إلى هناك، لم يعد هذين الديرين قادرين على استيعاب مثل هذه الأعداد الكبيرة، ولذلك

قام راعي الدير والرهبان ببناء مشفى على مقربة من البيعة المكرسة إلى القديس يوحنا المعطاء، الذي كان بطريك الاسكندرية وصار الحجاج يقيمون في هذا المشفى، ويتلقون جميع المؤن المحتاجة من هذين الديرين على أيدي الرهبان والراهبات هناك، الذين كما أتصور كانوا من طائفة القديس بندكت، لأنهم كانوا لاتين في الديرين معاً، ولم تكن طائفة الاسبتارية قد تأسست نظامياً بعد، ومع مرور الأيام، وبعد استرداد الأرض المقدسة، وبعدما نال الملك بلدوين السلام في البلاد، تدفق الحجاج على القدس، بأعداد كبيرة، ولذلك عين راعي الدير واحداً من النبلاء اسمه جيراد، كان قد تطوع بارادته للقيام بخدمة الذكور من الحجاج ورعايتهم، وقامت راعية الدير بالوقت نفسه بتعيين سيدة رومانية نبيلة لخدمة النساء من الحجاج، وقام هذان الشخصان بالتعهد بتقديم الولاء إلى راعي الدير المتقدم ذكره، تبعاً للنظام الذي عاشا في ظله، وكان نظاماً موائماً للناس المقيمين في المشفى، وهو نظام عمل لهم من قبل راعي الدير مع موافقة بطريك القدس.

وكان الثوب الذي ارتدوه أثناء الخدمات الدينية عباءة سوداء مع صليب أبيض عليها، وقد تزايدت أعدادهم بشكل كبير، مما دفع إلى تأسيس أديرة كبيرة لهم في جميع أرجاء العالم، وذلك بسبب أنهم كانوا رجالاً متدينين كثيراً، ولا يسمحون باقتراف أي عمل شرير، وباتوا الآن يعرفون باسم مزدوج: فبعضهم يدعوهم باسم اسبتارية، لأنهم كانوا يمتلكون السيطرة على المشفى، في حين دعاهم آخرون باسم فرسان القديس يوحنا، اشتقاقاً من اسم القديس يوحنا المعطاء، الذي إليه كرسست المستشفى في القدس، وقد احتفظوا بهذا الاسم حتى هذا اليوم، ولكي يمنحوا أنفسهم شرفاً أعظم، اتخذوا القديس يوحنا المعمدان ولياً راعياً لهم، وكان ذلك بعد استيلائهم على جزيرة رودس، كما أنهم كانوا قد أخذوا بنظام القديس أوستين، وذلك بعد طردهم من القدس، لأنهم

أثناء إقامتهم في القدس لم يتخذوا يوحنا المعمدان ولياً راعياً لهم، كما أنهم لم يعرفوا وجوب تطبيق نظام القديس أوستين، بل عاشوا في ظل أوامر الراعي والبطريرك، وعلى هذا بدأت طائفة فرسان القديس يوحنا في سنة ١١١٨ في القدس، في أيام حكم البابا غيلاسيوس Gelasius، لكن الطائفة ترسخت فوق نظام قانوني في سنة ١٣٠٨م في أيام حكم البابا كليمنت الخامس، في جزيرة رودس.

وهناك أيضاً رجالاً آخرون، بعد هؤلاء بوقت، عرفوا أيضاً باسم الاستارية، لكن هؤلاء القوم لم ينالوا هذا الاسم من المشفى في القدس، لكن حصلوا على اسمهم ونظامهم من مشافي أخرى كبيرة، خدموا فيها، تحت أنظمة متنوعة.

وكانت الطائفة الثانية، التي جاءت بدايتها في القدس، في أيام حكم الملك بلدوين، قد تطورت من الطائفة الأولى، لأنه بعد تأسيس المشفى، والمنح العظيمة التي نالته، استمر تدفق الحجاج بأعداد كبيرة جداً من جميع أرجاء العالم، ووصلوا يومياً إلى هناك، وهنا بدأ بعض اللصوص ينصبون لهم الكمائن على طول الطريق الساحلي، وشرعوا يسلبون الحجاج، ويقتلونهم أحياناً، وأحدثوا فوضى عظيمة بينهم، ولدى رؤية ذلك، قام بعض الفرسان الغيورين، فتعهدوا إلى البطريرك، بأنهم سوف يتولون حماية الطرق العامة، علاوة على هذا تعهدوا بأن يعيشوا حياة طهارة، وطاعة وفقرة.

ولدى انطلاقهم، كان هناك عشرة فقط منهم، وقد أسكنهم الملك في قصره، على مقربة من الهيكل، وبعد مضي تسع سنوات على تأسيس طائفتهم ثابروا على ارتداء ملابس علمانية، وظل هذا مستمراً حتى أخيراً، عندما عقد المجمع التاسع في تروي Troyes في فرنسا في ١١٢٨م، جرى تعيين نظام لهم، وعين لهم البابا هونوريوس رداءً أبيض مع صليب أحمر، ولأنهم سكنوا على مقربة من الهيكل، فقد عرفوا باسم

فرسان الهيكل، أو الداوية، ولهم عمل القديس بندكت نظاماً، وغالباً ماكتب رسائل لهم، هذا وكانت بدايتهم مقدسة، ومليئة بالفضائل، غير أنهم انحطوا وابتعدوا عن سلفهم، وكان ذلك بعدما صاروا أغنياء، وبعدها انتشروا في الخارج في جميع أرجاء الأرض.

ولهذا حدث في أيام البابا كليمنت الخامس، وبعدهما صار واضحاً لدى شعبنا بأنهم تحولوا وصاروا مثل المسلمين، واقترفوا أثاماً كثيرة بسبب ثروتهم العظيمة، فإن كل واحد منهم أمكن إلقاء القبض عليه من قبل المسيحيين جرى قتله، ولم يقتصر هذا على آسيا بل حدث أيضاً في فرنسا، حيث جرى تدميرهم من قبل فيليب ملك فرنسا، وذلك بموافقة البابا الحاكم في روما، لأنهم كانوا يمارسون حياة شائنة، وجرى منح جزء من ثرواتهم الهائلة إلى فرسان القديس يوحنا، وجزء آخر إلى طوائف دينية تأسست حديثاً، في حين استولى الأمراء العلمانيون على جزء من هذه الثروات، ومعروف بشكل جيد، أنه في تلك الأيام، استولى الرهبان الدومينيكان على كثير من الديرة المشهورة للداوية، من ذلك على سبيل المثال الديرة في: فينا، وستراسبورغ، وايسلنغ، ووورمز، وأماكن أخرى، هذا ودافع بعضهم عن موقف الداوية، ووأعلنوا بأن الملك كان متشوقاً لتدميرهم، حتى يتمكن من الحصول على ثرواتهم، حسبما قرأنا في تاريخ أنطونيوس - الجزء الثالث، العنوان: ٢١، الفصل: ١، الفقرة ٣.

وكانت الطائفة الثالثة التي تأسست في القدس، لكن ليس بعد مدة طويلة من تأسيس الطائفتين الأخرتين، هي الطائفة التي عرفت باسم فرسان التوتون للقديسة مريم، وقد قيل بأنها قامت كما يلي: بما أن الألمان قد تفوقوا على جميع الأمم المسيحية بتعلقهم التقوي بالأمكن المقدسة، ولأنهم اعتادوا على القدوم بأعداد كبيرة كل يوم، صار الاستتارية، الذين كانوا فرنسيين متعبين منهم، وصاروا يتعاملون بسوء

مع الألمان، وانتقل الآن واحد من الألمان وزوجته من موطنه إلى القدس، وسكن هناك، ولدى رؤيته للأوضاع التعيسة للمحاربين من أبناء وطنه، حصل على إذن وموافقة السيد بطريرك القدس، فحول بيته الكبير مع بيعة العذراء المباركة إلى مشفى صغير.

وتعهد في هذا المكان بعض الرجال بأنهم سوف يتولون خدمة الفقراء وتدير شؤون الحجاج، ومع الأيام ازداد عددهم كثيراً جداً، وصاروا أغنياء إلى أبعد الحدود، ولذلك عين لهم البابا سيلستين Ce-lestine الثالث نظاماً، ولباساً أبيض مع صليب أسود، وقد وقفوا بالفعل في وضع وسط بين الطائفتين السالفتين، ذلك أنهم اعتادوا على خدمة الحجاج والفقراء مع الاستتارية، أو فرسان القديس يوحنا، وقاتلوا في الوقت نفسه ضد المسلمين وغير المسيحيين مع الداوية، وبعد فقدان الأرض المقدسة، وبناء على أمر من البابا، قدموا إلى سيزيا Scythia الأوربية حيث حولوا الشعب في الـ Ruthenians إلى المسيحية، وكان هذا الشعب حتى ذلك الوقت وثنياً، وبعد بذل جهود كبيرة حولوا: بروسيا، وليفونيا، والمناطق الحدودية الأخرى لألمانيا على المحيط.

وبعد ما تأسست هذه الطوائف، وتم إنجاز أعمال أخرى كثيرة، وقع بلدوين الملك التقي للقدس، مريضاً مرضاً شديداً، ولدى رؤيته بأن موته بات قريباً، خرج من قصره على شكل متسول، وبتواضع وضع جانباً ثيابه الملكية على مشهد من الرب، وأمر بحمله إلى قصر البطريرك، لأن ذلك المكان كان قريباً جداً من موضع قيامة الرب، وهنا استدعى ابنته وزوجها ختنه، وابنتها بلدوين، الذي كان آنذاك في الثانية من عمره، وبحضور مجمع أمراء المملكة عهد بالعناية بالمملكة لهم، في حين قام هو كمعترف حقيقي، فارثدي لباساً دينياً، وتعهد بالعيش كراهب نظامي إذا ما بقي حياً، وأسلم روحه إلى الذي هو أبو الأرواح كلها،

وكان ذلك في السنة الثالثة عشرة من حكمه، وقد دفن عند سفح جبل الجمعة.

الملك الرابع للقدس

وكان الملك الرابع للقدس، اسمه فولك، وكان ختن بلدوين المتقدم ذكره، وكان كونت أنجو، ومين، وتورين، وكان قد حصل على العرش في سنة ١١٣١م، في الستين من عمره، وقد حكم إحدى عشرة سنة في القدس، وخاض هو وولديه كثيراً من الحروب، ليس فقط ضد المسلمين، بل ضد امبراطور القسطنطينية، وأمراء مسيحيين آخرين، تأمروا ضد مملكته، وفي أيامه أزعج المصريون -تحت قادة متعددين- الصليبيين الذين كانت القدس بأيديهم، وخرقوا بلادهم في عدة أماكن وتوغلوا في مدنها، ولذلك تجددت الحروب، واستولى أثناء ذلك شعبنا على بعض المدن، وجعلوا مدناً أخرى تدفع لهم الجزية، وهكذا دواليك، وكان من بين أعمال هذا الملك المجيدة، إلحاقه الهزيمة مراراً بالترك الذين سكنوا في بلاد فارس، ولم يكتف بإلحاق الهزيمة بهم، بل تمكن في إحدى الحملات من قتل عدد كبير منهم بلغ ثلاثة آلاف، وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى، ووسع مملكته كثيراً.

وغزا الأتراك في أيامه مدينة الرها، التي كان الصليبيون قد استولوا عليها بوساطة جهود حربية كبيرة، واحتشدوا لطرده الصليبيين من هناك، وأمر كونت الرها، الذي كان ضعيفاً ومتقدماً بالسنين، ابنه بأن يأخذ قوة من الجند معه، وأن يهاجم الأعداء برجولة، لكن هذا الابن شرع بجبن يفتعل الأعذار، معلناً أنه سوف يكون خطيراً مهاجمة مثل ذلك الحشد الكبير بعدد صغير من الرجال، وقد غضب أبوه منه، وأمر بإعداد محفة فرس -من النوع الذي يدعوها الألمان Rossbar- وامتطى فرسه، وانطلق مع القوات التي تمكن من جمعها، لطرده الأتراك من منطقته، وعندما علم الأتراك بأنه قادم، خافوا من دنوه، وهربوا إلى

بلادهم.

وفي الساعة نفسها، وفي المكان عينه حيث هزم الأعداء، أمرهم الكونت بوضع محفته على الأرض، ورفع عينيه نحو السماء، وقدم الشكر مع الآهات والتنهدات، لأن الرب منحه في أيامه الأخيرة مثل هذه النعمة، أثناء وقوفه على أبواب الموت ذاتها، فأبقاه رعباً لأعداء الايمان المسيحي، وعندما فرغ من كلامه هذا، في الميدان المفتوح، وفي وسط رجاله، أسلم الروح.

وفي سنة ١١٤٢، نزلت بالصلبيين فاجعة كبيرة، فعندما كان اللورد فولك، ملك القدس، يتجول قرب عكا، وكان قد خرج من المدينة لتمضية الوقت، صدف أن أثارت كلابه أرنباً برياً، فركضت وبذلك ركضت الجماعة كلها خلفها وهي تصرخ، والملك الذي كان على ظهر فرسه لحق بها بسرعة مفرطة، وكبا حصانه، وانقلب على الأرض، وألقى بالملك بطريقة أن رأسه انسحق كله بالسرج، وخرج دماغه من أنفه وأذنيه، ووسط أسف عام حمل إلى المدينة، حيث تمدد لمدة ثلاثة أيام وهو فاقد للوعي، لكنه كان حياً ويتنفس، ثم إنه أسلم الروح في اليوم الرابع، وقد حملوا جسده إلى القدس، ودفنوه في موضع الجمجمة، حيث جرى دفن الملوك اللاتين المتقدمين، والذين ماتزال قبورهم مرئية حتى هذا اليوم، وهي تلمع برخام مصقول.

الملك الخامس للقدس

إثر وفاة فولك، الملك الرابع للقدس، خلفه في المملكة ابنه بلدوين الثالث، فكان الملك الخامس في سلسلة الملوك، وكان شاباً، صاحب أخلاق نبيلة، متحرراً من شرور الشباب، وقد حكم الدولة المقدسة بشكل في غاية الجودة، وعندما كبر، صار شاباً طويلاً، ووسياً جداً، حتى أن الغرباء اندهشوا لسمو أخلاقه، مما أعطى برهانا واضحاً عن

سماته وجلالته الملكية، وقد كان دمشاً، وصاحب قلب حنون، ولم يكن شرها تجاه أملاك الآخرين، كما انه لم يقم كانسان مبذر، بالتجول لسلب رعاياه من ثرواتهم، وكان متعلماً بشكل جيد، وقد أحب قراءة تواريخ الملوك ومعارك التاريخ القديم، وتعامل بقدرة حربية فائقة مع مخاطر الحرب غير المؤكدة، وكان قد بدأ بممارسة سلطاته في ١١٤٢م، وحكم في القدس لمدة أربع وعشرين سنة.

وفي أيام حكم هذا الملك نهض الأتراك، والمصريون، والمسلمون، والبداءة العرب ضد المؤمنين، وكان من بينهم زنكي، وكان رجل آثام، كما كان أكثر الأتراك قدرة، وقد حاصر الرها واستولى عليها، وهي التي كانت تعرف من قبل باسم *Rages Medorum* ، وكانت مليئة بالسكان اللاتين، الذين قتلهم جميعاً بضربة قاسية واحدة، وحشد الملك بلدوين جيشاً، وبادر مسرعاً لإنقاذ الرها، لكنه صد، واتخذ طريقه عائداً إلى القدس، بعدما خسر كثيراً من رجاله.

وجرى إعلام يوجينيوس الثالث، بابا روما، بالذي حدث، فأرسل رجال دين إلى مختلف أصقاع الغرب، لإيضاح صورة الأوضاع القاسية التي يعيشها الصليبيون في الشرق، وكان بينهم ذلك الرجل صاحب الذكرى الخالدة، الراعي القديس برنارد، الذي اختير لمتابعة تنفيذ هذه المقاصد والخطط، وقد بشر بحماس ملتهب، حتى أن كل من النبلاء والناس عامة وافقوا عن طواعية على فصاحته غير الأنانية، ووعدوا بأنهم سوف يرتحلون إلى القدس، فضلاً عن هذا أخذ الرجلان اللامعان: كونراد الثالث السوابي امبراطور الرومان (كذا)، والسيد لويس ملك فرنسا، طريقيهما نحو الشرق مع كثير من الأمراء من الأمتين، وقد كان جيشيهما كبيراً جداً، حيث كان في جيش الامبراطور وحده سبعين ألفاً من الفرسان الدارعين، وذلك بصرف النظر عن الجنود الرجالة، ولم يكن أتباع ملك فرنسا أقل من حيث العدد، ولو

أنهما حظيا بنعمة الرب لأمكنهما بسهولة ليس فقط قهر سلطان قونية وآسيا الصغرى القوي، لابل لإستوليا على جميع بلدان المشرق لصالح المسيحية، والذي حدث أنه بقدر من الرب، ليس بمقدور الانسان فهمه، رفض الرب قبول خدمتهما، مثلما لايقبل أعطية، قد قدمت بأيدي غير جديرة، ولذلك تخلى الرب عنهما وسلمهما إلى أيدي الأتراك والمسلمين، الذين ضايقوهما، وهزموهما، وأنقصوا أعدادهما، وهما على طريقيهما، وقد وصلا إلى القدس بعد متاعب جمة، وتوفر الآن في القدس، ثلاثة ملوك عظام هم: كونراد امبراطور الرومان، ولويس ملك الفرنسيين، وبلدوين الثالث، ملك القدس، وقد اجتمعوا في مكان واحد مع جميع أمرائهم، وكونتاتهم، وباروناتهم، وبدأوا يتناقشون حول ما هو الأفضل والأكثر نفعاً أن يعملوه لمجد اسم المسيحية، ولتطور مملكة القدس وتقدمها.

كما أن هذا المؤتمر لم يحظ كذلك بالغناية الربانية، ولهذا تراجعوا مجلدين بالعار من مدينة دمشق، التي كانوا قد حاصروها للإستيلاء عليها، وتباحثوا بعد عودتهم إلى القدس حول حصار عسقلان، وبعد كثير من الأحاديث والخطابات، وصلت هذه الخطة أيضاً إلى لاشيء، وبناء عليه، عندما رأى الامبراطور، وملك فرنسا، بوضوح بأن الرب ليس معهما، ركبا السفن، وذهبا إلى بلديهما، ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، تزايدت أوضاع اللاتين في الشرق سوءاً كل يوم، لأن المسلمين تصدوا الآن بلاخسائر لهذين الأميرين العظيمين، اللذين كان مجرد ذكر اسميهما من قبل يبعث الرعب في قلوبهم، ولهذا باتوا مسرورين جداً وواثقين من أنفسهم، ولم يعودوا من الآن فصاعداً يشكون مطلقاً بقوتهم، أو يخشون أن يضغط عليهم بشدة من قبل شعبنا.

وبعد تراجع جيوش المسيحيين الغربيين، أعان الرب بلدوين ملك القدس، حيث استولى عنوة على مدينة عسقلان، التي كانت مطوقة منذ

زمن طويل من قبل الصليبيين، وأعاد بناء غزة، وكانت مدينة قديمة جداً، ومهجورة تماماً، وأعطاهما إلى رهبان الداوية للسكن فيها، وكان ملكاً عظيماً جداً وشجاعاً إلى حد أنه هزم وطارده جيشاً من المتقدمين الترك، مع إيقاع مذبحه كبيرة بينهم، بلغت خمسة آلاف رجل كلهم ماتوا، وهزم بعد هذا نور الدين قائد عساكر دمشق، في معركة دموية، وطارده حتى أحواز دمشق، كما أنه خاض عدداً آخر من المعارك المربعة، وبصعوبة بالغة نجا أحياناً من الوقوع بالأسر.

وثار في أيامه نزاع، وخلاف خطير بين السيد البطريرك، وريموند مقدم استبارية القديس يوحنا، الذي شرع مع رهبانه بتسبب اضطراب عظيم للسيد البطريرك، وللأساقفة الآخرين في مختلف الكنائس، بشأن ما يتعلق بمدى سلطات البطريرك، ذلك أنهم اعتادوا على أن يخضعوا عن طواعية لطقوس رجال قداسات كانوا لذنوبهم محرومين كنسياً، ومبعدين عن الكنيسة من قبل السيد البطريرك، أو من أساقفة مختلف الكنائس، وتولوا القيام بقيادة القداسات والمسح الأقصى بالزيت للمرضى، ودفن المحرومين كنسياً، وفعلوا أشياء كثيرة خرقوا بها امتيازات الكنيسة، وعندما عمل السيد البطريرك شكاوى كثيرة ضد هذه الأعمال المخالفة، ودعا إليه رعاياه كما اعتاد أن يفعل وعليه أن يفعل، غضبوا لذلك غضباً عظيماً، وحملوا أسلحتهم واندفعوا إلى داخل كنيسة الضريح المقدس لمقاتلة البطريرك.

وكان هذا بداية جميع الشرور، والخسارة التالية للمدينة المقدسة والبلاد، وتسببت كنيسة روما بنشوب هذه الشرور، بابقائها الاستبائية معفيين دوماً من سلطان البطريرك، وذلك مثلما أعفت الداوية من حق السلطان القضائي للبطريرك، وأضفت امتيازات على فرسان التيوتون، وعندما جرى إعفاء هذه الطوائف، صارت امتيازات الإشراف القضائي للبطريرك والأساقفة قليلة جداً، لابل انعدمت تقريباً، وبذلك تقسمت

المملكة، وبالتالي تدمرت، وذلك وفقاً لما جاء في انجيل لوقا: ١٧/١١ قوله: «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب».

وذهب الملك بلدوين من القدس إلى أنطاكية، لأن بعض المشاكل الصعبة استدعت منه فعل ذلك، وأثناء وجوده في أنطاكية وقع مريضاً، وكان مرضه شديداً، ولشعوره أنه على حافة الموت، وأنه في خطر عظيم، أمر بأن ينقل إلى بيروت، وهناك أمر باجتماع جميع الأساقفة وأمراء مملكته، والمثول بحضرته، حيث قام بتقوى وتدين بالاعلان عن إيمانه، واعترف بذنوبه مع كثير من الندم إلى الكهنة الأعلين، وقد تحرر من معاناته، ومن سجن الجسد، وحمل روحه إلى السماء في سنة ١١٦٣ لتجسيد الرب، وكان ذلك في الحادي والعشرين من شهر شباط، وجرى حمل جسده إلى القدس، ودفن بين سلفه في كنيسة الضريح المقدس.

وقد قيل بأن سماً قد أعطي له في دواء، وأن بقية ما أعطي إلى الملك ليشر به صب فوق بعض الخبز، وأعطي إلى كلب ليأكله، فمات ذلك الكلب على الفور، ولم يذكر التاريخ في أي مكان حزناً شهدته أية دولة مثل الحزن الذي شهدته مملكة القدس على هذا الملك، حتى قيل بأن أعداء الايمان قد حزنوا لموته، إلى حد أنه عندما اقترح بعضهم على نور الدين ملك دمشق -عندما رأى قيادة الصليبيين في اضطراب كامل -وجوب مهاجمة مملكتنا، قيل بأنه أجابه قائلاً: «علينا أن نظهر نحوهم مواساتنا، وأن نتعامل معهم بلطف، ماداموا سيكون بشكل صحيح أميراً، لم يبق الآن نظيراً له في العالم».

الملك السادس للقدس

إثر وفاة الملك بلدوين، ملك القدس، خلفه في المدينة المقدسة عموري الملك السادس للاتين، وهو أخو الملك المتوفى، وكان ذلك في

سنة ١١٦٣م، وقد حكم في القدس لاثنتي عشرة سنة، وكان عموري هذا رجلاً مليئاً بالحكمة الدنيوية، وكان حكيماً جداً، ومتيقظاً في الأعمال، ولم يكن كبير التعليم، لكنه تمتع بعبقريّة حية وبذاكرة قوية، ولا يمكن أن ننكر أنه كان شرها نحو المال، خارج حدود كرامته الملكية، ومع ذلك كان بالنسبة للقضايا الأساسية المتعلقة بصالح مملكته، هو لم يوفر لامالاً ولا جهداً من جهته الشخصية، وكان مقتدرًا في الحرب، لأنه بالفعل، هزم في السنة التي كانت قبل استلامه الحكم، بعون الرب شاوور قائد المصريين، بمعركة، مع مذبحه كبيرة، وبعد قتله له، ألقى الحصار على الاسكندرية، وهي مكان كان شيركوه القائد التركي قد اغتصبه بشكل غير قانوني من السلطان.

ولم يكن أهل الاسكندرية، راغبين بأي حال من الأحوال بأن يصبحوا خاضعين للصليبيين، ومع ذلك استسلموا لعموري، على شرط أن يقوم بطرد طاغيتهم، ومن ثم يعادوا إلى مملكة السلطان على يديه، وبناء عليه استلم عموري من السلطان المتقدم ذكره أربعين ألف قطعة من الذهب وأعاد الاسكندرية إلى السلطان، بعدما طرد شيركوه من مصر، وجرى الآن عقد معاهدة سلام بين ملك مصر، وملك القدس، ولو أنه تمت المحافظة على هذه المعاهدة، لما تمكن أحد من ازعاج مملكة القدس، لكن الشعبان القديم الذي يزرع الخلاف بين الإخوة، جعل عموري والسلطان على خلاف، وتصور الملك عموري بأن السلطان أبرم اتفاقاً سرياً بينه وبين شيركوه، الطاغية التركي، الذي طرد مؤخراً من مصر، ولذلك حشد جيشاً، وذهب إلى مصر من خلال الصحراء، واستولى على بلدات مصرية عدة، وألقى الحصار على القاهرة، التي كانت المدينة الملكية، وكانت قوية جداً، والذي حدث هو أنه، بما أن الملك كان دوماً متشوقاً إلى المال، أزاحه السلطان عن أهدافه بإعطائه مبلغاً لا يحصى من المال، ذلك أن بعضهم قال بأنه قد وعده بمبلغ

مليونى قطعة ذهبية، وهو مبلغ كان من الصعب على مملكة مصر كلها أن تدفعه، وسلمه بيده مائة ألف قطعة من الذهب شريطة أن يسحب قواته، وعندما تسلم هذا المبلغ رفع الحصار عن القاهرة، ونصب معسكره على مقربة من حديقة البلسم، وبعد استعراضه لقواته، زحف عائداً إلى موطنه من جديد، وقد جعل كل من ملك مصر وملك دمشق أعداء له.

وبعد هذا عزم الامبراطور الاغريقي في القسطنطينية على ضم مصر إلى امبراطوريته، فأرسل أسطولاً كبيراً إلى سورية، حيث كان فيه مائة وخمسين سفينة منقارية، واثنين وستين سفينة نقل، ودعوا اللورد عموري، ملك القدس، لمساعدته، وهكذا ذهباً معاً إلى مصر، في البحر وفي البر، وحاصروا دمياط، لكن دون أن يحدثا تأثيراً، ومن ثم توجب عليهما العودة إلى الوطن مجدداً مع خسائر لم تكن صغيرة.

علاوة على ذلك، قام في مصر ملك جديد، وكان رجلاً سعيداً جداً، اسمه صلاح الدين، سوف يأتي ذكر اسمه من الآن فصاعداً كثيراً، وهو الذي جعل جميع أسرة الخلافة والملوك طعمة للسيف، وصار سيداً للملك مصر وسورية، ولم يعرف الراحة قط حتى نشر دولته على جميع الشرق تقريباً، وفي الحقيقة، كان رجلاً سريع الحركة، شجاعاً في الحرب، عميق التفكير، كريماً جداً، لاسيما نحو العسكريين، الذين كان على استعداد لمنحهم كل ما كان لديه، وبالإضافة إلى هذا، كان رحيماً تجاه المغلوبين، ملتزماً بصدق بوعوده وكان من جميع الجوانب رجلاً له شهرة عظيمة، وصيت كبير، ولم يكن يعوزه شيء ملدحه إلا الاسم المسيحي، وبما أنه لم يتميز بهذا، فقد أقام نفسه ضد المسيح والشعب المسيحي، وصار سوط عذاب للصليبيين في الشرق، علاوة على ذلك، لقد هزم الصليبيين هزيمة ساحقة، وطردهم اللاتين، وفتح الأرض المقدسة، واستولى على القدس، وجعل ضريح الرب خاضعاً له، وأزال فخار

الكنيسة الشرقية، وحول تاج ومجد المؤمنين بالمسيح إلى عار لهم، كما سنوضح فيما يلي.

وقد قرأت عن صلاح الدين الحكاية المتميزة التالية، في واحد من التواريخ، فهو عندما كان يموت أوصى أن يحمل أمام موكب دفن جسده، قطعة قماش سوداء معلقة على رمح، أمامها ينبغي أن يسير مناديا ينادي: «عندما مات صلاح الدين فاتح آسيا لم يحمل معه من بين جميع مملكته وثروته سوى قطعة القماش السوداء هذه».

وعندما رأى عموري، ملك القدس، بأن صلاح الدين ملك سورية ومصر كان حكيماً وحذراً، وينوي أيضاً نيل الممالك الأخرى، أرسل سفراء إلى أمراء الغرب لإخبارهم عن جميع الشدائد التي لا يمكن تحملها، والتي وقعت فيها مملكة القدس، وعن مشاكل جميع الصليبيين هناك، وعن الدمار الوشيك المهددين بوقوعه، وقام هؤلاء السفراء برحلات موفقة في بلدان الغرب، وشرحوا هناك المخاطر التي تتهدد مملكة القدس، لكنهم حصلوا على لا شيء، ولم يصنع إليهم، لا من قبل الأمراء، ولا من قبل أساقفة الكنيسة.

وفي الوقت نفسه قام صلاح الدين بغارات يومية على مملكة القدس، واضطربت المملكة بشكل متواصل بتهديدات العدو، وعاشت في اضطراب خطير خائناً، ولذلك قام الملك عموري في سنة ١١٧١م، وقد شعر بخوف مؤلم، فأرسل سفراء وقورين جدد إلى الغرب، وأبحر هو شخصياً مع أسطول مؤلف من عشرة غلايين إلى القسطنطينية، حيث خدم الامبراطور، وشرح له وبين حاجات مملكة القدس، وبعدما فرغ من عمله عاد إلى القدس، وأخيراً بعدما تمدد الملك عموري مريضاً بالحمى لعدة أشهر، مات في سنة ١١٧٥ لتجسيد ربنا، وكان ذلك في السنة الثانية عشرة من حكمه، والثالثة والثلاثين من عمره، وقد دفن مع أسلافه، وكان التالي لأخيه، في الخط نفسه أمام الجمجمة.

الملك السابع للقدس

وإثر وفاة عموري، الملك السادس للقدس، خلفه ابنه بلدوين الرابع، وقد كان في الثالثة عشرة من عمره، أثناء وفاة والده، وقد حكم في القدس لمدة ست سنوات، وفي أيام حياة أبيه، عندما كان في التاسعة من عمره، تبين أنه مصاب بمرض دار الفيل، وقال بعض الكتاب بأنه أصيب منذ طفولته بالجذام، لكن على الرغم من ضعفه الذي عانى منه، حكم مملكته بشجاعة عظيمة، وبحكمة بالغة، ذلك أنه تمكن من إلحاق الهزيمة مرتين في معركتين، بصلاح الدين ذلك الرجل البالغ الشجاعة والنشاط، وكانت المعركة الأولى عند عسقلان والثانية عند طبريا، وعن هاتين المعركتين تحدثت كتب التاريخ كثيراً.

وحدث في سنة ١١٨٧م، أن قام صلاح الدين ومعه جيشه بغزو مملكة القدس مرة ثانية، وعندما سمع الملك بهذا وعلم، دعا رجاله وحشدهم، وانطلق لقتال أعداء الايمان، وسقط في المعركة كثير من رجالنا طعمة للسيف، ووقع بالأسر اللورد أوتو، المقدم الأعلى للدواية، وقد مات بالأسر، كما جرى أسر آخرين كثير أيضاً، ونجا الملك نفسه بصعوبة، (حقيقة وقع بالأسر) وتشجع صلاح الدين بنصره هذا، فأحدث أضراراً بلا حدود في مملكة القدس، لكن أمكن أخيراً، بناء على وساطة بعض الأشخاص، الوصول إلى إقامة هدنة سنتين بين صلاح الدين والصليبيين.

ونظراً لتزايد مرض الملك بلدوين، الذي لم يتزوج، ولم يكن له لا أبناء ولا بنات، لكن كان لديه أختين، الكبرى بينهما كان اسمها سيبيل، وقد عزم بشكل سري على توريثها المملكة، فكان أن زوجها إلى وليم، الملقب بصاحب السيف الطويل، وكان ابن مركيز أوف مونتفرات،

وقاتل وليم هذا كثيراً وبشجاعة ضد المسلمين، وكان رجلاً عالي النسب كثيراً، إلى درجة أنه لم يكن له نظير في النبالة، لأن أخته كانت أم فيليب ملك فرنسا، وكانت أمه أخت صاحب السيادة الامبراطور كونراد، وحدث أنه بعد مضي ثلاثة أشهر على زواج وليم المتقدم ذكره، قد توفي مخلفاً زوجته وهي حامل.

وولدت في وقتها المناسب، ولداً ذكراً، أسمته بلدوين، ثم كان بعد ذلك أن زوج الملك أخته سييلا إلى شاب نبيل، اسمه غي لوزغان، ولأنه كان راغباً في رعاية مصلحة ابن أخته عهد بذلك إلى غي نفسه، وإلى ريموند كونت طرابلس، وكلفهما أن يكونا حارسين له، شريطة، أنه طوال بقاء الطفل بلدوين تحت وصايتهم، عليهما معاً حكم المملكة، كما عليهما تسليمها إلى ابن أخته عندما يصل إلى السن القانوني، ومن أجل أن لا يقف شيئاً في وجه تنفيذ هذا، أمر برسم الطفل ملكاً على مملكة القدس، بحضور جميع فرسان المملكة، وكان هذا هو الملك التاسع (كذا) لمملكة القدس، جرى رسمه وتعميده قبل وفاة الملك الثامن (كذا)، الذي كان خاله.

وقبل مضي أيام كثيرة، توفي هذا الطفل بلدوين، الذي كان الملك التاسع (كذا) للقدس، وأخفت أمه خبر موته عن قصد لأيام كثيرة، لأنه بدا لها أن الملك بلدوين القديم المصاب بالجذام، قد اقتربت منيته، وأنه عندما يكون هو قد مات مع الطفل، سوف يتمكن زوجها غي من خلافتها على العرش، وهذا ما حدث بالفعل، ذلك أنه ليس بعد ذلك بكثير، مات بلدوين الثامن (السابع)، ملك القدس، ودفن في المدفن الملكي في موضع الجمجمة، وكان ابن أخته، الملك الطفل بلدوين التاسع (كذا) قد دفن في كنيسة ضريح الرب، إنما خارج البيعة في الجمجمة، حيث اعتيد على دفن الملوك الآخرين، لأنه عدّ ليس ملكاً، بل مجرد طفل.

الملك الثامن للقدس

بعد ما مات بلدوين الرابع، الملك السابع للقدس، ومات أيضاً ابن أخته بلدوين الخامس، ملك المدينة المقدسة، خلفهما غي لوزغان، الذي كان زوج سيبلا، أخت بلدوين المجذوم، كما كان أخاً بالزواج لبلدوين الرابع، وقد حكم لمدة عامين في القدس، وقد وصل هذا الملك إلى العرش وسط مصاعب، وحكم دوماً في شدائد كبيرة، وأنهى حكمه مع مأساة مرعبة، وأوصل مملكة القدس إلى نهاية محزنة.

وعندما مات الملك بلدوين الرابع وبلدوين الخامس، تطلع ريموند، كونت طرابلس، والوصي على بلدوين الطفل المتوفى إلى العرش، وقد وقف إلى جانبه كثير من الأمراء والكونتات، وتآمروا ضد غي زوج سيبلا، التي كانت وريثة المملكة، وتمكنت السيدة سيبلا بوساطة رشاوى كبيرة وأعمال استعطاف من السيطرة على بطريك القدس، وعلى المقدم الأعلى للدواوية، وعلى النبلاء واقناعهم برسم زوجها وتوجيه ملكاً للقدس، وغضب ريموند، صاحب طرابلس، تجاه هذا غضباً عظيماً، ونشبت خصومة مريرة جداً بينهما، ولما كان ريموند صديقاً سرياً لصلاح الدين التركي، وكان متحالفاً معه، فقد تسبب بالحاق أذى عظيماً بغي وبالصليبيين الآخرين، وفي الحقيقة دفعت الغيرة بريموند إلى حد من الشر أنه تخلى عن الايمان المسيحي، واعتنق الدين الاسلامي، لكن ذلك لم يكن بشكل مكشوف، بل بشكل سري.

وفي سنة ١١٨٧م، قام صلاح الدين، الذي صار قويا، من خلال التمزق بين شعبنا فحشد عساكر لا تحصى، وهاجم المملكة المقدسة، وكسب أراضى كثيرة من الصليبيين، وعندما شعر الملك غي أنه محاصر الآن من كل جانب من قبل المسلمين، قام بناء على نصيحة أمراءه فأرسل السيد بطريك القدس، والمقدم الأعلى للدواوية، ورئيس الاستبائية، إلى أمراء الغرب، ليشرحوا لهم الوضع المأساوي للشعب

الصلبيي في الشرق، ووصلوا أول كل شيء إلى فيليب ملك فرنسا، فمنحوه مفاتيح ضريح الرب، والهيكل والمدينة المقدسة، وتوسلوا إليه أن يتلطف بالقيام بانقاذ الأرض المقدسة، المشرفة الآن على الضياع، وبناء عليه دعا إليه هذا الملك التقي جداً جميع الأساقفة، وعقد مجمعاً في باريس، وأرسل بعض الجنود الشجعان جداً إلى الأرض المقدسة على حسابه.

وفي الوقت نفسه كان صلاح الدين قد حشد عدداً كبيراً من الأتراك ومن المسلمين من جميع أرجاء الشرق، وغزا أرض الصليبيين، واستولى على منطقة الجليل، وحاصر طبريا، وحشد غي ملك القدس جيشاً كبيراً، وزحف للقتال ضده، لكن، وبالأسف، هزم شعبنا، من خلال خيانة ذلك الرجل الشرير، أي كونت طرابلس، لأنه عندما كان الجيشان مصطفىان وعلى وشك الاشتباك، قام الكونت، وعلمه مرفوع، بالفرار من صف القتال، مما جعل جيشنا يتخبط باضطراب، وقد لحق به بعض أعداء ملك القدس، والمتآمرين ضده، وحدث هذا قبل فرار جيشنا، وأثناء فراره، وقعت مذبحة مروعة بين شعبنا، وخلال هذه الشدة، أصيب أسقف عكا، الذي كان يحمل صليب الرب أمام الجيش، بجراحة بليغة، ولشعوره بنفسه أنه على خافة الموت، وعندما لم يعد بإمكانه الركوب على حصانه، أعطى الصليب إلى رجل آخر، حمله إلى الملك غي.

وأخيراً بعدما قاتل الملك بشجاعة حتى نهاية المعركة ومعه صليبه، هاجمه العدو من جميع الجهات، وكان معظم رجاله قد قتلوا، وحوصر هو من قبل الأعداء، حتى أنه لم يعد بإمكانه الفرار، وهنا أخذ أسيراً مع خشبة الصليب المانح للحياة، ولم تكن هناك معركة في جميع زمان وجود المملكة اللاتينية في الشرق، قد سفكت فيها دماء صليبية مثلها سفك في ذلك اليوم، فقد تهاوت في ذلك اليوم قوى الصليبيين كلها في الشرق

وانهارت، وكان أكثر الذين تميزوا بالشجاعة هم الاسبتارية والداوية، وهلك في هذه المعركة المحزنة جداً جميع النبلاء ورجال الحرب، باستثناء قلة أخذوا أسرى، كان من بينهم الملك، ومقدم الداوية.

وقال فنستوس في مصنفه *Speculcem historiale* - الكتاب الثلاثين، الفصل: ٤٣، بأن الأولاد الذين ولدوا بعد ذلك اليوم، الذي وقع فيه الصليب المقدس، بالأسر، ولدوا بعشرين سناً، أو بواحد وعشرين سناً فقط، في حين اعتادوا من قبل على الولادة بثلاثين، أو بثلاثة وثلاثين.

وبعد هذا النصر استغل صلاح الدين حسن طالعته، فقاد جيشه للاستيلاء على مدن وقلاع الصليبيين عنوة، واحتل الأماكن القائمة على ساحل البحر، وكان أول كل شيء احتله عكا، ثم بيروت والمدن الأخرى المسورة، كلها استسلمت له دون ابداء مقاومة تذكر ضده، ذلك أنه لم يعنف ضد أي مدينة من هذه المدن، شريطة أن تبقى المدينة تحت سلطانه، وتدفع الجزية له، ولم تكن هناك مدينة واحدة من عكا حتى عسقلان تجرأت على مقاومته، لأن هذه المدن جميعاً قد فقدت الذين توجب عليهم الدفاع عنهن، وقام أهالي عسقلان، الذين اعتقدوا أن مدينتهم لا ترام، فأعاقوا مهمة صلاح الدين لبعض الوقت، ورفضوا تسليم مدينتهم، وأعلنوا أنهم لن يستسلموا بأي حال من الأحوال، قبل أن يتأكدوا يقيناً، بأن سكان مدينة القدس قد سلموا مدينتهم، وعندما سمع صلاح الدين بهذا، أقام ساتراً من الركام أمام المدينة، وثابر على مهاجمتها لمدة عشرة أيام، غير أن جهوده لم تثمر شيئاً، لأن عسقلان كانت مدينة حصينة جداً، وهي التي استولى عليها غودفري، أول ملوك القدس، كما تحدثنا من قبل، وقد ورد الحديث عنها في أقدم أسفار الكتابات المقدسة، وهذا يمكن لأي إنسان أن يراه.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
تنويه	٧٨٣
المكان الذي يقال نمت فيه شجرة الصليب	٧٨٥
نزول الحجاج إلى نهر الأردن	٧٨٧
مغادرة الحجاج القدس الى الأردن	٧٩٠
المكان الذي لعن الرب فيه شجرة التين	٧٩١
قداس النهر المقدس	٧٩٥
استحمام الحجاج في الأردن	٧٩٦
وصف الأردن	٨٠٨
صفات نهر الأردن	٨١٠
فخار واطراء نهر الأردن	٨١٢
مغادرة الحجاج للأردن	٨١٤
كيف دخل الحجاج إلى كنيسة القديس يوحنا	٨١٨
كنيسة القديس يوحنا	٨٢٠
موضع الجلجال المقدس	٨٢٢
وادي اللص عكان	٨٢٦
بيت العاهرة راحاب	٨٢٧

الصفحة	الموضوع
٨٢٩	مدينة أريحا
٨٣٠	حدائق أريحا
٨٣١	جرزيم وعيبال
٨٣٣	المكان الذي فيه سخر الأطفال من الإشع
٨٣٣	رحلة الحجاج إلى نبع النبي الإشع
٨٣٦	وصف نبع النبي الإشع
٨٣٨	الصعود إلى الكهف الذي صام فيه المسيح
٨٤٢	صعود جبل آخر
٨٤٧	الأماكن المشاهدة من الجبل
٨٤٩	عودة الحجاج إلى القدس
٨٥٦	رحلة الحجاج إلى القدس
٨٥٧	مكان اعلان ولادة العذراء
٨٥٨	بحوريم
٨٦٠	السهل القائم أمام قلعة بيت عنيا
٨٦١	بيت مريم المجدلية
٨٦١	بيت القديسة مرثا

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصليبية

جولات الراهب
الدومينيكان فيلكس فابري ورحلاته

حوالي
(١٤٨٠ - ١٤٨٣ م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م

الجزء الثامن والثلاثون

(٤)

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي

(١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الرابع

كيف جرى الاستيلاء على القدس من قبل المسلمين وكيف أنها استحققت الاستيلاء

عندما رأى صلاح الدين أنه لن يتمكن من الاستيلاء على عسقلان، من دون الاستيلاء على مدينة القدس المقدسة، رفع الحصار عن عسقلان، وزحف خلال المنطقة التلية لليهودية مع جميع آلات حربه وحشد كبير جداً من الرجال، عازماً على حصار القدس القائمة هناك، والاستيلاء عليها، وفي الوقت نفسه عندما سمع سكان القدس والذين تدفقوا عليها وهربوا إليها من المنطقة المجاورة ومن كل جهة من خلال الخوف من العدو، سمعوا بمقتل جيشهم، وفقدان الصليب المانع للحياة، وأسر الملك، واقترب صلاح الدين، تواضعوا بأنفسهم بكل نوع من أنواع الصلاة والتضرعات، وعقد جميع المسيحيون الذين سكنوا فيها مجلس ابتهالات مهيبة، واعترافات، وصيام، حتى الأطفال شاركوا في هذه الممارسات الروحية.

لكن غضب الرب أحرق كل شيء بشكل مكشوف وحاد، ولاعجب في ذلك لأن رجال الدين والشعب كانوا قد انغمسوا كثيراً في حياة الترف من كل نوع، وكانت البلاد كلها ملوثة بالشور والآثام، وفي الوقت نفسه كان الذين ارتدوا الملابس الدينية، قد تجاوزوا بشكل خياني حدود الأنظمة المفروضة عليهم من قبل قوانينهم، وكان هناك قلة فقط ممن لم يتلوثوا بوباء الشره أو الترف، وكان بين الذين تولوا الأعمال عند المذبح كثيراً من الصراعات والخلافات حول الأشياء المقدسة، ونشبت الخصومات من المطامح، لأن فرسان الداوية والاستتارية عارضوا البطريك والأساقفة، وكانوا يسعون دائماً للحصول على الامتيازات لأنفسهم، ووضعوا منجلهم في حصاد الناس الآخرين، مع أنهم عندما

تأسست طائفتيهما أولاً وانطلقتا، تمجدتا بطاعتيهما، وعدّوا اقتراف السيمونية أمراً عادياً، ولهذا ملأوا يومياً موضع قيامة الرب وضريحه بأناس غير جدّيرين، ولهذا السبب فإن الهبة التي كان يرحب بها كثيراً، والتي تمثلت بالنار السماوية، والتي كانت تضيء عليهم من قبل الرحمة الربانية في عشية عيد الفصح، في أيام غودفري، وبلدوين الأول، وبلدوين الثاني، تباطأت الآن بالقدوم ومن ثم تأخر اشعال المصابيح في أيام هؤلاء الملوك المتأخرين، وحول هذه النار، انظر ماتقدم أعلاه، وإذا كان الاكليروس قد تلوثوا بهذه الآثام، كيف يمكن أن تكون الروح مقدسة؟

وأصبحت القدس حتى مثل مصر وسدوم، وتلوّث مثلها بالموبقات، لأن المدينة كانت مليئة بمواخير خاصة، أديرت وملكّت من قبل أشخاص من كل أمة تحت قبة السماء، وكان هؤلاء الأشخاص إما مطرودين من بلادهم بسبب الجرائم التي اقترفوها، أو ممن لا يمكنهم إبداء وجوههم واظهارها في بلدانهم بسبب النساء اللائي أخرجوهن، أو بسبب الديون التي لم يكن بإمكانهم دفعها، وقد عاشوا كمنفيين في القدس وتولوا إدارة وتشغيل مواخير، دون الاهتمام بأي شيء سوى الربح، وكان بعضهم ليس بإمكانهم الإقامة في بلدانهم الأساسية، لأنهم كانوا محرومين كنسياً، ولذلك عاشوا في القدس، ونقل بعضهم بيوتهم وما يملكون من الغرب إلى الشرق سعياً وراء الربح، وكانت هناك أعداد كبيرة من فرسان الضريح المقدس والهيكل، ومن هذا العدد العظيم كان هناك قلة لم يكونوا رجالاً أشراراً، غير أتقياء، لصوصاً، وآثمين وقتلة لأبائهم، وكذابين، وزناة، حسبما أخبرنا برنارد في قداسه إلى فرسان الهيكل — الفصل الخامس — وعلى هذا صارت المدينة المقدسة وكراً لمقتري الآثام، وكانت مليئة بمواخير سيئة السمعة، إليها أخذ الحجاج أنفسهم للشهوة الجسدية، والشرب، والقمار، وذلك بعدما يكونوا قد

زاروا الأماكن المقدسة.

وتنامى هذا الشر، وتعالى إلى حد أنه لم يبق أحد في مشفى القديس يوحنا، لأن الحجاج لم يعودوا يتلقون أية عناية على أيدي الاسبتارية، مع أن المشفى كان غنياً جداً، كما أنه لم يتوفر أي حب للقديسة مريم في مشفى الفرسان التيوتون، وعلى ذلك أرغم الحجاج الجيدين والمحترمين على الذهاب إلى المواخير، التي كان أصحابها: لصوصاً، وقطاع طرق، ومحتالين مخادعين، وقوماً منفيين، وأكثر الناس اقترافاً للآثام.

فضلاً عن هذا، تعرض أمن وسلام المدينة المقدسة إلى الاضطراب بسبب شرور المسيحيين وشرهم، لأنها كانت مليئة بالتجار من كل لسان، ومعروف أنه حيث هناك تجارة كثيرة هناك كثير من الظلم، وما كان الرب يمكن أن يستجيب حرفياً للذين كانوا يصلون من أجل سلامة المدينة المقدسة، بكلمات إرميا: ١/٥ قوله: «طوفوا في شوارع القدس وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون انساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفيح عنها»، وبسبب هذه الأشياء أثير غضب الرب، فسمح للبلاد التي انتزعها من أيدي غير المسيحيين، لتقع ثانية تحت سلطانهم، فقد جاء صلاح الدين إلى القدس مع جيش كبير، وعسكر أمامها، وأقام ساتراً من الركام أمام جانبها الغربي، وضيق على المحاصرين بحملات متوالية، وقام سكان المدينة بابتداء المقاومة التي استطاعوها، وتولى هو قذف المدينة من على الجانب الشمالي ليلاً ونهاراً، وعندما أحدث ثغرة في السور بوساطة آلاته، أصاب الرعب سكان المدينة الذين لم يتوقعوا وصول أية مساعدة إليهم من أية جهة من الجهات، وقد خافوا أن يدخل العدو، ويشق طريقه عنوة، إلى داخل المدينة، وأن يستولي عليها بالقوة، وقتذاك خضعوا إلى الرعب العظيم الذي استولى عليهم، وسلموا أنفسهم إلى صلاح الدين على شروط محددة هي: بعد تسلمه الفدية عن أنفسهم، عليه أن يسمح لهم بالمغادرة .

بسلام.

وبما أن صلاح الدين كان بشكل طبيعي صاحب قلب شفيق، وكان رحيماً على الشعب، لذلك منح هذه الشروط إليهم، وقد أعطاهم جميعاً ضمان البقاء جميعاً أحياء بدون استثناء، وشرط أن الذي يود المكوث هناك، ويوافق على دفع الجزية له، يمكنه أن يبقى ساكناً بسلام، وكل من يود أن يغادر، وكان ذكراً، وتجاوز أكثر من عشر سنوات من عمره، فعليه أن يدفع عشر دوقيات من الذهب الخالص، وإذا كان عمره دون العشر سنوات، فعليه أن يدفع دوقيتين، وعلى النساء أن يدفعن دوقيتين، وتمت الموافقة على هذه الشروط من الجهتين، وبما أنه كانت هناك آلاف كثيرة من فقراء الناس في المدينة، ممن لا يملكون عشر قطع، فقد أعفاهم صلاح الدين جميعاً من ديونهم.

وحدث استسلام المدينة المقدسة في اليوم الثاني من تشرين الأول، وهو كان اليوم الرابع عشر للحصار، في سنة ١١٨٧ لتجسيد الرب، وكان النهار، نهار جمعة، في السنة التاسعة والثمانين، منذ أن صارت ملكاً للصليبيين.

وجرى الآن الاعلان في جميع أرجاء المدينة، بأن على الصليبيين جميعاً الموجودين فيها، وجوب مغادرتها خلال ثلاثة أيام، وإلا فإنهم سوف يصبحون خاضعين لصلاح الدين المسلم، ورعية له، وهو أمر كان محرماً من قبل البابا، مع أقسى العقوبات، فقد كان قد أمر أنه في مثل هذه الحالة، يتوجب عدم بقاء أي مسيحي هناك، وكان من يبقى ينبغي حرمانه كنسياً، ولعنه وطرده كلياً من الكنيسة ومع صوت المنادي، الذي أعلن هذا الأمر الكئيب، انفجر نحيب كبير جداً في القدس، وصار بكاء الصليبيين يمكن سماعه من مسافة أميال، ويحكى بأن صلاح الدين نفسه مع امرائه القساة قد تأثروا في قرارة نفوسهم بهذا البكاء، لابل بلغ بهم التأثير إلى حد البكاء من تعاطفهم الانساني مع حزن الصليبيين وأساهم،

ولشدة تأثرهم أعفوا من دينه كل واحد رجاهم فعل ذلك.

علاوة على ذلك، أعطى صلاح الدين أوامره إلى عساكره، بعدم دخول أي منهم المدينة قبل اليوم المحدد لمغادرة الصليبيين، وخرج الصليبيون في اليوم المحدد مع أثاث بيوتهم، وقد ملأوا السموات وهزوا الأرض بصراخهم المرعب ونحيبهم، وخرج أمامهم جميعاً هيروديوس Herodius، بطريك القدس، مع الصليب، ورجال الدين، والرهبان، والأشخاص الدينيين من كلا الجنسين، والراهبات اللائي كن محبوسات في الدير، فقد تبع هؤلاء جميعاً البطريك في رتل طويل، وهم يحملون التماثيل والصلبان، والآثار المقدسة، وأوعية القرايين، التي كانت من الممكن أن تداس بأقدام المسلمين، وجاء بعد هؤلاء النبلاء، والعساكر، ورؤوسهم منكسة، ممتلئين بالخشخاش والأسى، وقدم بعدهم العامة من الجنيسن مكرهين وهم يحملون صغارهم، الذين كانوا يصرخون ويبيكون، مع سائمتهم.

وتوزع الصليبيون أمام المدينة، فقد ذهب شطر أول منهم إلى الاسكندرية، وشرط آخر إلى صور، وشرط ثالث إلى أنطاكية، في حين ذهب بعضهم إلى هذا الميناء البحري، وآخرون إلى ذلك الميناء، ولأن بعضهم كانوا صقليين، فقد ذهب هؤلاء إلى الاسكندرية، وأما الآخرون الذين كانوا ايطاليين أو ألمان، فقد ذهب هؤلاء إلى صور وطرابلس، وكان الشطر الأكبر منهم هو الذي توجه إلى ميناء طرابلس، والذي حدث معهم وهم على الطريق إلى هناك، من الصعب الحديث عنه وروايته من دون بكاء، ومن المؤكد لا يمكن حكايته ليس من دون ألم، لأنه عندما اقترب هؤلاء المنفيين الحزينين من القدس، من مدينة طرابلس، وعندما رأوها شعروا بشيء من الانتعاش بأرواحهم لأن الذين كانوا فيها أناس مؤمنين بالمسيح، وقد أملوا أن يتلقوا منهم الاستقبال، والأمان والشفقة التي استحقوها، وقد اعتقدوا أنهم نجوا

الآن من أيدي المسلمين، لكنهم تقابلوا مع قوم آثمين، أكثر سوءاً من المسلمين أنفسهم، ذلك أن ريموند كونت طرابلس، الذي كان مرتداً عن المسيحية بشكل سري كما ذكرت من قبل، قد قام أتباعه، أبناء الظلم، فتلقى هؤلاء الضائعين مثل عدو متوحش وهاجم هؤلاء الذين توجب عليه الاشفاق عليهم كإخوة.

وقد انتزع منهم بالقوة الذي سمح لهم المسلمون به، وتركوه لهم شفقة منهم عليهم، وأهانهم كذلك، وفي هذا الوضع المأساوي، وحيث أنه لم يعد بإمكانهم الآن أخذ سفينة، أو العودة إلى بلادهم، بقي كثير منهم حيث كانوا بين المسلمين، متحدين بذلك، ورافضين إطاعة الأمر البابوي المتقدم ذكره، وتخلى كثيرون عن إيمانهم، كما وهلك كثيرون بالجوع، وكذلك قتل بعض أنفسهم صدوراً عن أساهم، ولقد قرأنا بأن سيدة كانت غنية ونبيلة في القدس، وقد حملت الآن ولدها الصغير على كتفها طوال الطريق إلى شاطئ البحر قرب طرابلس، على أمل أن تعبر البحر، لكنها عندما وصلت إلى هناك سلبت كلياً من مقتنياتها، ولم يبق معها شيئاً لإطعام طفلها، لذلك قامت بحالة غضب نسائي، فأطاحت بابنها في البحر.

وعندما غادر الصليبيون جميعاً القدس، دخل المسلمون إلى المدينة المقدسة، حيث أهانوا الاسم المسيحي بربطهم دوابهم في الكنائس نفسها، وبقيامهم بأعمال تدنيس، فقد لوثوا هذه الهياكل المقدسة، وألقوا بالخارج ودمروا جميع تماثيل الرب والقديسين، وقد وجدوا تمثالاً لربنا على الصليب، فحملوه بالشارع العام، وسخروا منه، وبصقوا عليه، ورموا الحجارة عليه، ولوثوه بجميع أشكال القذارات، علاوة على ذلك جلبوا العقيلات والعذارى اللائي كن يتوقعن مجيء معجزة من السماء لاسعافهم، فبقين في المدينة، وجلبوهم لاهانتهم، ويقال بأنه وقتها حدث ذلك العمل المشهور (قطع أنوف الراهبات) الذي تقدمت

الاشارة إليه من قبل، علماً بأن بعضهم قد ذكر بأن هذا قد حدث عندما سقطت عكا للمرة الأخيرة (سنة ١٢٩١).

وأثناء غضبهم اندفعوا، فازاحوا الحواجز وفتحوا أبواب كنيسة قيامة الرب، وشقوا طريقهم إلى الداخل، ولوثوا المذابح، وحطموا زجاج النوافذ، واقتلعوا التماثيل المحفورة من الجدران، وصعدوا أخيراً إلى برج الناقوس، وحطموا النواقيس بالمطارق، وأبقوهم هناك مكسرين لمدة طويلة كعمل فيه ملامة للصليبيين، وقد شوهدوا من قبل السيد أنطونيوس كما حدثنا في تاريخه — القسم الثاني، العنوان: ١٧، الفصل: ٩، الفقرة: ١٨، وأنا شخصياً لم أشاهد قطع النواقيس، بل شاهدت فقط العوارض الخشبية، التي تعلقوا عليها فيما مضى، ولم يرغب صلاح الدين بتدمير ضريح الرب تدميراً كاملاً، بسبب أعمدة الرخام الثمين والكسوة من الرخام المصقول، فقد رغب بالاستيلاء عليها وانتزاعها بعمل منظم ودون أن يلحق بها أذى، وكان بذلك يدمر الكنيسة بشكل تدريجي

ثم انهم بعدما خرقوا حرمة الكنائس المسيحية، ذهبوا إلى ما يعرف باسم هيكل سليمان، حيث أزالوا جميع المذابح المسيحية، وحطموا التماثيل إلى قطع، وهكذا بعدما طهروه، أو بالحري بعدما لوثوه، غسلوا البلاط والجدران بماء الورد، وصبوا فوقهما كثيراً من العطور، وقد أظهروا احتراماً مدهشاً نحو ذلك المكان، ونحو الهيكل، وبعد أعمال الغسل هذه، التي هي شكل التقديس لديهم، دخل صلاح الدين مع امرائه إليه، وقدم أضحية وفقاً للشعائر الإسلامية.

وذهب الآن السريان والطوائف الأخرى من الموارنة، واليعاقبة، والكرج، والأرمن، والنساطرة، والأحباش أو الهنود، مع المسيحيين الشرقيين الآخرين، والمنشقين والمراطقة، إلى صلاح الدين، ومثلوا في حضرته، وأقسموا يمين الولاء له، وقدموا الجزية إليه، ورجوه بأن

يوضعوا محل المسيحيين اللاتين، وبسرور منحهم صلاح الدين ذلك، لرغبته بتوفر بعض الناس لسكنى المدينة، علاوة على ذلك لقد أنقذوا كنيسة الضريح المقدس، التي سمعوا بأنها سوف تهدم، فقد دفعوا مبلغاً كبيراً جداً من الذهب والفضة إلى صلاح الدين، لإبقائها وحفظها من التهديم، وقد أخذ الذهب، وأعطى الكنيسة إلى المسيحيين الشرقيين، بعدما شرط عليهم الشرطين التاليين: أولاً أن لا يسمح لأي مسيحي غربي بالدخول من دون أن يدفع الرسم المقرر، وثانياً أن لا يعلقوا بعد الآن أية نواقيس في برج النواقيس، بل يعلنون عن مواعيد القداسات بالقرع فوق ألواح خشبية، ولذلك لم يسمع منذ ذلك اليوم حتى الآن صوت أي ناقوس في القدس، أي منذ ثلاثمائة سنة.

وبعدما فرغ صلاح الدين على هذه الصورة من الاستيلاء على القدس، وضع حامية فيها، وزحف من هناك مع جيشه كله ليحدد الحصار على عسقلان، وبعدما هاجمها لعدة أيام عرض السكان تسليمها، شرط تسليم كل من غي ملك القدس، والمقدم الأعلى للداوية، اللذان وقعا بالأسر في المعركة، إلى المسيحيين، وبسرور قبل صلاح الدين هذه الشروط، فاستولى على المدينة، ووفى بوعده، وترك ملك القدس ومقدم الداوية يذهبان مع جميع آلهما وحاشيتهما، ومنحهما الحرية.

وبعدما نال صلاح الدين تلك المدينة حمل نفسه إلى مدن أخرى، وقلاع من قلاع الصليبيين، واستولى عليهم جميعاً خلال مدة قصيرة، باستثناء بعض البلدات على ساحل البحر، وبشكل خاص صور وطرابلس، لأن ذلك الخائن الشرير جداً، أي ريموند كونت طرابلس، قد وجد ميثاً على فراشه، في الليلة التي تقدمت على اليوم الذي كان مقرراً تسليم المدينة فيه إلى صلاح الدين، وقد عرضت البراهين على رده وكشفت أخبار خيانتته بشكل عام على الناس جميعاً، وهي ختانه،

ورسائل منه، ولذلك السبب، حمل غي ملك القدس، الفاقد لمملكته ولعاصمة ملكه، نفسه وذهب إلى طرابلس، وأقام هناك مع أمرائه، وطرابلس مدينة ساحلية، في منطقة فينيقية، وهي مدينة قوية وقديمة جداً وموائمة كثيراً من أجل التجارة.

**أوضاع المدينة المقدسة بعد الاستيلاء عليها، وملوكها الاسمين،
ومختلف أوضاع تناقل ألقاب ملك القدس وهكذا دواليك،
وأيضاً إثارة جميع الغرب ومساعدة الأرض المقدسة**

عندما سمع للمرة الأولى، البابا أوربان الثالث، بأن المدينة المقدسة، قد صارت بإذن من الرب، بأيدي المسلمين، وأن جميع مملكة القدس، قد ضاعت كلها تقريباً، وأن الشعب الصليبي، قد تضرر بطرائق عدة، وأنه قد طرد باضطراب وفوضى من المدينة، وقتها أصيب بأسى عظيم، وبحزن كبير، وحمل على الفور إلى الفراش، ومات في فيرارا Ferrara، حيث صدف وجوده هناك.

وبناء عليه هزت هذه الأنباء السيئة، والمأساة المؤلمة، جميع ممالك الغرب، فشدد جميع الملوك والأمراء أحزمتهم للانتقام للدماء المسيحية التي سفكت، وفي سنة ١١٨٨ لتجسيد الرب، عقد مجمع عام، جرت الدعوة إليه في باريس، فيه حمل جمهور رائع ولا يمكن تعدادهم من الفرسان والجنود الرجالة، الصليب، وتعهدوا بأسعاف الأرض المقدسة ونجدها.

وحمل في تلك السنة نفسها، امبراطور الرومان اللامع جداً، فريديريك الأول، الصليب مع أمرائه ونبلاء ألمانيا، وفعل الشيء نفسه كذلك فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وجميع الملوك الآخرين، ورؤساء الأساقفة والأساقفة، ورجال دين كنيسة الرب، فهؤلاء جميعاً حملوا علامة الصليب، وكانت هذه النهضة عالمية، إلى حد بدا العالم فيه

كله قد اتفق في مقاصده، وجرى حشد جمع هائل من الخيول مع بعضها، واندفعوا جميعاً براً وبحراً بحماس ملتهب من أجل الحرب ضد المسلمين.

وكان في ذلك الوقت في كالبريا Calabria، راعي دير اسمه يواكيم، وكان رجلاً صاحب تعليم عميق جداً، ومتفوقاً بعبقريته، فبعث خلفه الملوك والأمراء الذين كانوا على طريقهم إلى الأرض المقدسة، وسألوه عن محصلة حملتهم وكيف ستكون خاتمتها، فأجابهم بأنهم بالفعل سوف يعبرون البحر، غير أنهم سوف يعملون قليلاً نحو الأرض المقدسة، لأن الوقت لم يأت بعد حتى يتمكن المسيحيون من احتلال القدس، وكان الذي حدث هو كما قال هذا الرجل، لأنهم عندما وصلوا إلى سورية لم يتمكنوا من الاستيلاء على شيء غير عكا، وذلك خلال عامين من الزمن.

وجرى الاستيلاء على عكا سنة ١١٩٤ لتجسيد الرب، ليس بوساطة خرق أسوارها، لكنها استسلمت وفق الشروط التالية: أن يخرج المسلمون منها دونما أذى، وقد وعدوا بإعادة خشبة الصليب المقدس إلى الصليبيين، وهي الخشبة التي استولى عليها صلاح الدين بالحرب، كما كنا قد تحدثنا من قبل، وأن يدفعوا ٠٠٠, ٢٠٠ دوقية، لكن صلاح الدين لم يحافظ على وعوده التي قطعها على نفسه للملوك حول خشبة الصليب، وحول إعادة الاسرى الصليبيين فما كان من الملك رتشارد إلا أن أمر في أحد الأيام بجعل خمسة آلاف (من الاسرى المسلمين) طعمة للسيف.

ومات في تلك الأثناء ابنتا الملك غي، من زوجته سيبلا، البنت الكبرى للملك عموري، وغادرت بعدهما بوقت قصير أمهما السيدة سيبلا، هذه الحياة، ولم يبق أحد من أسرة ملوك القدس الحقيقية حياً إلا السيدة اليزابث (إيسابل) الذي كانت زوجة همفري أوف

تيرون، [تبنين] لأن عموري، الملك السادس للقدس، كان له ولد ذكر واحد، هو بلدوين، الذي كان مجذوماً منذ طفولته، وابتتين هما سيبيل، واليزابث، وإثر وفاة عموري، وصل المجذوم إلى العرش، لكنه بسبب مرضه لم يتمكن من الزواج، ولم يكن له وريث، فجعل من أخته الكبرى سيبيل وريثة لمملكته، وقد حكم زوجها غي عوضاً عنها، في حين تزوجت اختها اليزابث من اللورد همفري، وبعد خسارة الأرض المقدسة والقدس، ماتت سيبيل الملكة الوارثة لمملكة القدس، ولم يكن لها وريث سوى زوجها غي، وعندما سمعت اليزابث أخت سيبيل، بوفاها، أعلنت عن نفسها ملكة ووريثة لمملكة القدس، وأعلنت في كل مكان بأن زوجها هو الملك عوضاً عنها، مثلما كان غي ملكاً عوضاً عن أختها.

ورأى اللورد هنري، كونت شامبين مع آخرين كثير، بأن المملكة قد انتقلت إلى اليزابث بعد وفاة اختها، ولذلك عملوا لصالح الكونت المتقدم الذكر، وأن جميع الضرائب المجبية في الموانئ، والغرامات المفروضة على المقصرين، ومدفوعات أخرى هي من حق ملك القدس، ينبغي أن يتسلمها همفري، وعلى هذا بقي غي ملكاً بالاسم فقط، حيث جرد من جميع صلاحياته، ولذلك اشتكى وهو محق، أنه كان خرقاً للعدالة تجريده من جميع حقوقه في مملكته، وهكذا دعا إليه المخلصين من أتباعه، وشكل جيشاً، وقرر أن يعهد بنفسه إلى الخط، وسوف يحارب معهم المسلمين.

ولدى سماع كبار الأمراء بهذا أصبحوا خائفين، من أنه إذا ذهب إلى قتال المسلمين بمثل هذه القوة الصغيرة، وهزم، فلسوف تتفرق جميع الحشود التي جمعوها لخدمة الرب، ولذلك عملوا في سبيل إعادة جميع الحقوق إلى الملك غي كما كانت من قبل، لكن كونراد مركيز أوف مونتفرات وقد رأى بأن المملكة قد آلت لصالح السيدة اليزابث،

بوساطة حق الوراثة، تطلعت نفسه شراً إلى المملكة، فقام بعمل مهين، وذلك بموافقة أمها كالوماريا Calomeria ، أرملة عموري المتقدم ذكره، وكانت ماتزال حية، فانتزع اليزابث المتقدمة الذكر من زوجها همفري، وبالقوة اتخذها زوجة له، وأغضب هذا العمل المهين والممجوج جميع الحجاج، لكنهم أخفوا غضبهم، لأنه مالم يكن كونراد راضياً، لم يكن بإمكانهم الحصول على الأقوات من صور.

علاوة على ذلك، كان هو رجلاً بارعاً، وقد ربح إلى جانبه عدداً من كبار الأمراء عن طريق الهدايا والخدمات، ولذلك ساعدوه في أعماله، واستولى هذا المركز فيما بعد على صور، وصار رجلاً قوياً ومشهوراً، لأنه صد صلاح الدين مع جيشه عندما جاء لحصار صور، ولذلك مامن أحد تجراً على معارضته وتجاوزه.

وعندما صار جيش اللوردات جاهزاً لمحاصرة القدس، قام الملكان الأعظم قدرة، وهما فيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا بتوحيد قواتهما ودمجها (٢٨٣)، ولدى سماع صلاح الدين باقتراب هذا الجيش العظيم، فكر بتسليم القدس إلى الصليبيين، وأرسل رسلاً إلى الملكين للتفاوض حول ذلك، وعندما سمع الملكان بهذا - ولنقل هنا الصديق - دخل الشيطان فيما بينهما، وبذل كل واحد منهما غاية جهده ليسلب الآخر، ولينال أكثر منه، وأن يصبح هو ملك القدس، ولذلك ثار خلاف بين الجيشين، وتخاصم الأمراء فيما بينهم حول الامارة المقدسة للقدس.

وأثناء تخاصمهم على هذه الصورة، تخلى فيليب وهو مغضب عن مشروع العمل كله، وذهب عائداً إلى أوروبا مع جيشه كله، ولأن ملك فرنسا ساند دوما ملوك القدس ووقف إلى جانبهم، ودافع عنهم، وحافظ عليهم في مملكتهم، رأى أنه من الجانب القانوني، أنه عندما ماتت الأسرة الملكية، فإن لقب المملكة ينبغي أن يناله شخصياً، لكنه

عندما رأى الآن أن هذا لا يمكن حدوثه من دون إزالة السلام بين الصليبيين، لذلك انسحب وهو مغضب، وعندما سمع صلاح الدين بأن جيش الصليبيين قد تناقص بسبب مغادرة ملك فرنسا، تخلى عن نيته بتسليم القدس إلى الصليبيين، وحصن المدينة المقدسة، ووضع حامية من الجند فيها، وفي الوقت نفسه بقي الملك رتشارد في سورية، وأثار الحرب بنشاط وفاعلية ضد المسلمين.

وفي سنة ١١٩٧، عندما كان رتشارد ما يزال في سورية، قام غي لوزغان ملك القدس، التي تعرض في السنوات الماضية إلى الهزيمة على يدي صلاح الدين، قام وقد شاهد شجاعة رتشارد في سورية، وعظمة نفسه، فتخلى له عن لقب وعن حقوق مملكة القدس، على شرط أن يعطيه رتشارد جزيرة قبرص، والتي كان رتشارد قد انتزعها لنفسه من الاغريق، ووافق رتشارد ونفذ ذلك برغبة كبيرة، وجعل غي ملكاً على القدس، في حين أصبح هو نفسه ملكاً على القدس وعلى انكلترا، وقد وضع تاجين على رأسه، ولهذا السبب مابرح ملوك انكلترا يستخدمون هذا اللقب، لكن بعد مغادرة الملك رتشارد، استأنف غي حمل هذا اللقب، قائلاً بأن عاصمة مملكته قد انتقلت من القدس إلى قبرص.

والذي حدث على كل حال أن الأمراء الذين احتلوا أماكن حصينة في سورية رفضوا الاعتراف به ملكاً، لأنهم عرفوا بأنه في الحقيقة قد خسر مملكته، وخسر لقبه المتعلق بها أيضاً.

وبعدما تشجع الملك رتشارد وتحمس بوساطة اللقب الملكي الذي تطلع إليه طويلاً، بدأ يستعد للزحف نحو القدس، وإلقاء الحصار عليها، لكن الشتاء حل، وتفرق أسطوله بكل اتجاه، فغير خطته، وعمل هدنة مع صلاح الدين، وشرع يستعد للعودة إلى الوطن، وسلم قيادة الجيش الصليبي، وجميع حقوق المملكة إلى ابن أخته هنري كونت شامبين، وهكذا غادر تاركاً العمل وقد اكتمل نصفه، ومضى في طريقه

مضيفاً أسى إلى أسى شعب البلاد المعزول، لأنه عدّ ملك فرنسا خصماً له، وخشي من قيامه بغزو بلاده أثناء غيابه، وكان رتشارد ذاهباً إلى وطنه بالبحر كملك، وقد عانى بقدر من الرب من جنوح سفينته أثناء عاصفة شديدة، غير أنه تمكن من الوصول إلى الساحل سالماً مع عدد قليل من الأتباع، وعندما كان يشق طريقه بشكل سري للغاية خلال النمسا، اعتقل من قبل ليوبولد، دوق تلك البلاد، وسلب من جميع مقتنياته، ثم جرى تسليمه إلى الامبراطور هنري، ابن فردريك الذي كان قد هلك في الحملة السالفة إلى القدس، وقد أبقاه في السجن لمدة سنة ونصف السنة، ثم أطلق سراحه بعد دفعه مائتي ألف مارك فضي، وعاد إلى انكلترا، وأعتقد أن هذا جزاء جلبه على نفسه، لأنه ذهب ليحصل على مملكة القدس لنفسه، وعندما حصل عليها، تركها في أسى وحزن، وهرب بعيداً .

هذا وكان كونت شامبين المتقدم الذكر، الذي إليه عهد الملك الانكليزي بشؤون العناية بالجيش الصليبي، رجلاً تقياً، وقد رأى بأن البلاد قد تركت في وضع بائس، بعد مغادرة كل من ملكي فرنسا وانكلترا، ولذلك قرر هو شخصياً البقاء في الأرض المقدسة، وامضاء حياته في خدمة الرب، ولدى رؤية تقواه وأوضاعه، قام مقدم الداوية مع الحجاج الآخرين باختياره ملكاً، وأعطوه السيدة اليزابث، ابنة الملك عموري، لتكون زوجة له، لأن زوجها، مركيز صور كان قد توفي، وكذلك همفري، زوجها الأول.

وبعدما حكم لمدة عامين، وعندما كان مستنداً على نافذة في الطابق العلوي من قصره، سقط نحو الأسفل، ومات بشكل بائس، وهكذا باتت مملكة القدس من جديد من دون ملك، وقد حدث هذا في سنة ١١٩٧، ووصلت في السنة التالية حشود لاتحصى من المؤمنين إلى عكا، بواسطة البحر، وكانوا جاهزين من أجل استرداد القدس، لكن بما أنه

لم يكن هناك من يقودهم، ولا يوجد ملك للأرض المقدسة، تبذرت هذه الحشود من دون عمل، وعاد الناس إلى بلادهم، بعدما أنفقوا كثيراً من المال، من دون محصلة.

وبعد هذا، كان في سنة ١٢٠٢م زلزال كبير في سورية، وقد لحق الدمار مدينة عكا مع جميع قصورها وأبنيتها الأخرى، وحل المصير نفسه بكثير من المدن الأخرى.

وفي سنة ١٢١٥، دعا البابا انوسنت الثالث، إلى عقد مجمع ديني كبير جداً، في اللاتيران في روما، وقد قيل بأنه حضر هذا المجمع ألف وثلاثمائة من الأساقفة، وكان بين هؤلاء اللورد فولك، أسقف طولوز، وكان رجلاً متميزاً، وجاء إلى حضرة البابا انوسنت ومعه القديس دومينيك، والتمس من البابا تثبيت الطائفة، التي عرفت باسم طائفة القديس دومينيك، وكان في البداية من الصعب اقناع البابا بفعل هذا، غير أنه رأى فيما بعد مناماً في كنيسة اللاتيران، بأن جميع أطرافه قد تفككت، وكانت على وشك السقوط، لكن دومينيك، رجل الرب، ركض وأمسك الجسد المتداعي، وحال دون سقوطه، ولذلك قام في اليوم التالي، فبعث وراء القديس دومينيك، ووافق على الاقتراح، وعمل بسرور الذي طلب منه، وتسلم القديس دومينيك في السنة التالية تثبيتاً لطائفة من هونوريوس الثالث.

وكان في المجمع الذي تقدم ذكره، بالاضافة إلى الأساقفة بطريرك القدس وكذلك بطريرك القسطنطينية، مع عدد كبير من الأساقفة الاغريق ومن الامبراطورية الرومانية وكذلك مبعوثين من قبل ملوك: القدس، وفرنسا، واسبانيا، وانكلترا، وقبرص، ومع أن كثيراً من التنظيمات الرائعة قد عملت من قبل هذا المجمع، غير أن النقاش الرئيسي كان فيه حول استرداد الأرض المقدسة، واسترداد القدس، وحول كيفية جمع المال لهذا العمل، وكيف ستكون الدعوة إلى الصليبية،

وكيف ينبغي أن يلبس الناس شارة الصليب، ومن هم الذين ينبغي توليهم قيادة المجموعات وقيادة الجيوش.

وبناء عليه ترك القديس دومينيك منذ أيام ذلك المجمع لحيته تنمو، عازماً على الذهاب مع الجنود للقتال ضد المسلمين، وذلك مثلما كان قد قاتل لوقت طويل ضد الالبيين الهراطقة، وتوفر بعد هذا المجمع حشد رائع من الناس من أهل الغرب للانطلاق من أجل تحرير القدس، والأرض المقدسة.

وحمل في الوقت نفسه الأطفال من مملكتي فرنسا وألمانيا شارة الصليب، وقد بلغ تعدادهم عشرين ألفاً، وأعلنوا أنهم عازمون على الذهاب لمساعدة الأرض المقدسة، وقد توجهوا على شكل حشود إلى مختلف موانئ البحر، ثم عادوا من هناك إلى أوطانهم جاثقين ومفلسين، وراجت حكاية بأن شيخ الجبل، الذي اعتاد على تربية الحشيشية منذ طفولتهم، كان لديه في السجن اثنين من الكهنة المشققين، وكان هذين الكاهنين متعلمين بشكل عميق، وأنها كانا بارعين بالسحر وتحضير الأرواح، فأعلن أنه لن يطلق سراحهما ما لم يعدوه بجلب أطفال من فرنسا وألمانيا إليه، وبناء عليه، قالوا بأن الأطفال المتقدم ذكرهم قد اقتيدوا من قبل هذين الرجلين، بوساطة قوة جذب شيطانية، ورؤى زائفة، حتى يحملوا الصليب، على أساس بأن الرب قد رسم بأن الأرض المقدسة، والقدس، يمكن تحريرهما فقط بوساطة أطفال أبرياء.

وعندما وصل هؤلاء إلى موانئ البحر، جرى اغراق الكثير منهم من قبل القرصان، كما جرى بيع أعداد كبيرة منهم رقيقاً إلى المسلمين وإلى أجانب آخرين، ومات كثير منهم من الجوع، وعاد بعضهم إلى أوطانهم إلى آبائهم، وقد ساد ضلال بين الأطفال في أيامنا، فقد أرادوا في سنة ١٤٥٤، القيام بالحج إلى جبل القديس ميكائيل، وقد تبرهن أن هذا الحج كان مفيداً أم لا من خلال المحصلة المخففة له.

وفي سنة ١٢١٧، قامت أعداد لا تحصى من الناس، بعد مجمع اللاتيران بحمل شارة الصليب حتى يتمكنوا من القتال ضد الأليبيين الهراطقة، وكان من هؤلاء على سبيل المثال سيمون كونت مونتفورت، وقد كان بين أتباعه دومينيك أبونا المقدس، وغي ابن الكونت المتقدم ذكوره، ولويس ابن ملك فرنسا، ومع ذلك كان بعضهم، وهم الذين شكلوا الجزء الأكبر، قد حملوا شارة الصليب حتى يتمكنوا من اسعاف الأرض المقدسة، واسترداد القدس، لأنه في تلك السنة انتهى وقت الهدنة بين الصليبيين والمسلمين، ولذلك عبر الجيش الصليبي، الذي حمل شارة الصليب بعد مجمع اللاتيران، البحر، ووصل إلى عكا، وكان جيشاً لا يعد ولا يحصى، معه ثلاثة ملوك هم: ملك القدس، وملك هنغاريا، وملك قبرص، وكان أيضاً حاضراً بينهم، دوق النمسا وبيانونيا، وعدد كبير من الجنود من ألمانيا.

وكان ملك القدس في ذلك الحين، اسمه جون، وكان من قبل دوق برين في فرنسا، وكان قد انتخب قبل بضع سنوات ملكاً للقدس، وقد كان تقياً ومهاجراً شجاعاً باستخدام السلاح، وقد انحدر بنسبه من غودفري ذلك الانسان الرائع جداً، الذي كان الملك الأول للقدس، وقد تزوج من ابنة كونراد، الذي كان مركز صور، وقد توجا في صور، وبعدما حمل الصليبيون أسلحتهم قاموا باستعدادات جبارة من أجل القتال ضد أعداء الصليب، وعندما كانوا جاهزين للانطلاق، جاء بطريرك القدس وسط أناس محترمين جداً من رجال الدين والشعب، وحمل بشكل جليل في يديه خشبة الصليب المانح للحياة، وسار في معسكر الرب، وكانت هذه القطعة النصف الأول من الصليب المقدس، وهي التي تم العثور عليها في الكنيسة في أيام غودفري المشهور، الذي كان الملك الأول للقدس، فقد كان هذا النصف يحتفظ به دوماً في الكنيسة، في حين كان القسم الآخر يحمل دوماً إلى الحروب وإلى

المعسكرات، وهذا النصف الأخير هو الذي استولى عليه صلاح الدين وانتزعه من غي، آخر ملوك القدس، كما ذكرت من قبل، وبعد فقدان ذلك القسم، حمل الصليبيون النصف المتبقي من الصليب المقدس وقاتلوا تحته.

ورتبوا الآن صفوفهم ، وزحفوا مع هذه العلامة نحو المكان الذي قيل بأن المسلمين موجودين فيه، عازمين على انشاب القتال معهم، ولكن ما أن سمعوا باقتراب جيشنا عن طريق عناصر الاستطلاع لديهم، حتى هربوا وهم مرعوبين، وزحفت قواتنا من دون معيقات في منطقة الجليل، ملحقة كثيراً من الأذى بالأعداء، ومقررة الاستيلاء على جبل الطور، لكن بعد كثير من المتاعب، وبناء على نصيحة بعض أفراد جيشنا، رفع شعبنا الحصار، وعاد جيشنا إلى عكا، لأن الوقت صار شتاء وكان موسم الحملات قد انقضى.

ولدى انتهاء الشتاء، أراد الجيش الصليبي حمل السلاح ثانية والزحف ضد المسلمين، إنما نتيجة لذنوبنا، انقسم جيشنا إلى أربعة أقسام، فقد قام ملك هنغاريا بالحاق أذى عظيماً بالصليبيين، حيث جهز سفناً لسفره، وعاد إلى الوطن، آخذاً معه الشطر الأكبر، من الجيش الصليبي، مع غلايينه، وعتاده الحربي، ولم يصغ إلى البطريك، الذي طلب منه البقاء، ولذلك أصدر البطريك ضده قراراً بالحرمان الكنسي، وضد كل من يعمل مثله، وأصبح بعض الحجاج إما من خلال الترف أو الخوف جنباء جداً إلى حد عدم الرغبة بالخروج خارج أبواب عكا.

ومع ذلك تمكن ملك القدس، ودوق النمسا مع باروناته، وشرط كبير من الجيش الألماني، وفرسان القديس يوحنا، من بناء قلعة قوية في قيسارية فلسطين، وكان من غير الممكن طردهم من هناك، مع أنهم غالباً ما أعلموا بأن الأعداء كانوا قريبين منهم، وكذلك أعاد الداوية مع بيت الاسبتارية وفرسان التيوتون، بناء قلعة الحجاج (عثليت) التي كانت

مدمرة منذ وقت طويل، وعندما كانوا يرسون الأساسات هناك، كشفوا عن جدار سميك وعاري، فيه حفروا بالأدوات الحديدية، فوجدوا كميات وافرة جداً من النقود الذهبية، كانت الكتابة عليها والصور غير معروفة بالنسبة للمعاصرين، وقد أذابوا هذه النقود ودفعوا بها أجور عساكرهم، وكان شكل موقع هذه القلعة كما يلي: كان هناك ذراع صخري مرتفع وضخم وواسع تمتد في البحر، وكان هذا الذراع أو النتوء محصن بشكل طبيعي بجروف من جوانب: الشمال، والغرب، والجنوب، في حين قام على الجانب الشرقي برج قوي، بني بالأصل من قبل الداوية لحماية الحجاج، وكان بناء هذه القلعة مفيداً، لأن دير الداوية قد جرى نقله إلى هناك من عكا، التي كانت مليئة بجميع ألوان الذنوب والشرور، وقد تأسس هناك كحامية لهذه القلعة حتى يحين الوقت الذي يعاد فيه بناء أسوار القدس.

واستمر في سنة ١٢١٨م التبشير بصليبية ضد الشرقيين، في جميع أرجاء الغرب، وشوهدت صلبان رائعة في سماء منطقة كولون، وتريفس Treves، وذلك مع معجزات أخرى أثارت ألمانيا كلها لعبور البحار، وتجمع الألمان بأعداد كبيرة، وأبحروا إلى عكا في شهر آذار، وبعد عيد صعود الرب غادروا غلايينهم الحربية المنقارية وأماكن نزولهم، واجتمع جون ملك القدس، مع البطريك، والحجاج، ودوق النمسا، والطوائف الثلاث، وحشد واسع من الصليبيين، وتشاوروا حول كيف يمكنهم تنفيذ قرار مجمع اللاتيران، الذي توصل إلى محصلة قضت بوجوب إرسال الجيش الصليبي إلى مصر، لأنه تبرهن في ذلك المجمع من قبل الخبراء أنه لن يكون من الممكن للصليبيين الحكم بسلام في سورية والأرض المقدسة، ما لم تكن مصر قد ألحقت بمملكتهم.

وقد تبرهن على هذا من حقائق، أنه ما أن تحالفت الأجزاء السورية التي حول دمشق مع مصر في أيام عموري، ملك القدس، حتى

أصبحت مملكة القدس على الفور في خطر عظيم، في حين أنه قبل ذلك التحالف مامن انسان كان بإمكانه إيذاء المملكة المقدسة، ولذلك قرر الآباء المقدسون الذين جلسوا في المجمع المتقدم الذكر، وجوب الاستيلاء على مصر أولاً، وبعد ذلك ينبغي أن يزحف الجيش للاستيلاء على الأرض المقدسة، والمناطق الأخرى في الشرق.

وبناء عليه صار الاسطول في شهر أيار جاهزاً، وأبحر جون، ملك القدس المتقدم ذكره مع دوق النمسا وحشد كبير من الصليبيين نحو دمياط تحملهم إليها ريح طيبة، ومدينة دمياط قائمة على شاطئ البحر، وتعرف أيضاً باسم آخر هو Pachneumurus (كذا)، وكانت مدينة دمياط هي الأكثر تحصيناً بمصر، كما كانت غنية ومكتظة السكان، ومليئة بالتجارات.

ووصل رجال شعبنا إلى ميناء دمياط، وانتظروا في البحر لمدة ثلاثة أيام، وصول بعض القادة، لكن قبل وصول هؤلاء نزلوا إلى اليابسة، وشرعوا بحصار المدينة من الجانب المواجه للبحر، وذلك على الرغم من المسلمين، ويوماً تلو آخر صار جيشنا أكبر، ولذلك فإن السلطان الذي كان معسكراً في الجانب الآخر من المدينة، هرب مبتعداً مع جيشه، وعبر رجال شعبنا النهر، وحاصروا المدينة كلها، وضغطوا عليها بشدة متناهية، ونصبوا في الوقت نفسه معسكرهم بين شاطئ البحر، ونهر النيل، وصنع الرب المعجزة التالية، وهي أنهم ما أن وصلوا إلى هناك حتى أصبحت مياه النهر عذبة، وذلك حيث يتصل النهر بالبحر، ولم تتدفق المياه وتفيض أكثر من المعتاد، وكأنها فعلت ذلك حتى تبقي مكاناً من أجل شعب الرب، لكن بعد أمد وصلت المياه الفائضة إلى المعسكر ودخلته، ومعها انتشر الطاعون بين صفوف جيشنا.

وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون دمياط بعناد، قام المعظم عيسى ابن السلطان الكبير، فحشد جيشاً من أهل منطقته،

وزحف في داخل سورية إلى القدس، ودمّر المدينة المقدسة دماراً كلياً من الداخل والخارج، باستثناء هيكل الرب، وبرج داوود، وقد فعل هذا بغرض، أن الصليبيين، بعد استيلائهم على دمياط، لن يجدوا أي مكان حصين على الأرض، يمكنهم أن يتأسسوا فيه في مملكة القدس، ولأنه لو سقطت دمياط، لن يكون لديهم أمل بالقدرّة على الدفاع عن القدس، وأثناء قيام المسلمين، بتدمير القدس تناقشوا هل عليهم تدمير كنيسة صريح الرب، لكن مامن انسان تجرأ على أن يمدّ يديه عليها، ومع ذلك انزعج شعبنا من الرسائل التي بعثها المسلمون الى معسكرنا أمام دمياط، حيث أعلنوا فيها، أننا ما لم نرفع الحصار مباشرة، فإنهم سوف يدمرون دماراً كلياً، كنيسة القيامة، وبعد فراغ المعظم عيسى من تهديم القدس، حاصر ثم استولى على بعض القلاع الصليبية، التي بنيت حديثاً.

وفي الوقت نفسه بما أن مدينة دمياط كانت تعاني من السيف، والجوع، والطاعون، أثناء الحصار الطويل، هنا بدأ عامة الشعب يتدمرون ضد السلطان، وضد الأعيان الذين حكموا المدينة، وأعلنوا أنهم لا يستطيعون الاستمرار بتحمل مآسي الحصار، وعندما علم السلطان بهذا، منعهم من تسليم المدينة، وأعطى أوامر إلى رجاله في الداخل بإغلاق أبواب المدينة عمارة من الداخل، خشية أن يقوم سكان المدينة، الذين كانوا يعانون من الجوع والمجاعة، بهجرها إلى المعسكر الصليبي، وإخبارهم بحالة التعاسة التي كانت تعيشها المدينة، ولم تقتصر معاناة الناس من المجاعة في داخل المدينة، بل عانوا من ذلك في معسكر المسلمين، الذي قام ليس بعيداً عن معسكرنا، فقد كانت هناك مجاعة حادة، لأن نهر النيل الذي اعتاد على الفيضان على ضفتيه بعد عيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ - حزيران)، ويستمر بالفيضان حتى عيد تمجيد الصليب (١٤ تشرين أول)، ومن ثم سقاية سهل مصر، لم ترتفع مياهه في تلك السنة إلى العلامات التي وضعها المصريون، بل ترك شطراً

كبيراً من الأرضيين دون غمر، وجافة، ولذلك كان ليس مجدياً
للا فلاحة ولا البذار في تلك السنة، وخشية من السلطان حدوث مجاعة
في المستقبل، قام مع أخيه المعظم عيسى بعرض السلام على الصليبيين،
وفقاً للشروط التالية: هو سوف يسلمهم الصليب الذي استولى عليه
صلاح الدين في نصره، مع مدينة القدس المقدسة، وجميع الأسرى الذين
يمكن العثور عليهم أحياء في أرجاء مصر وفي مملكة دمشق، كما عرض
مالاً لإعادة بناء أسوار القدس، وأنه سوف يعيد إليهم مملكة القدس
كلها، حسبما كانت بأيدي الصليبيين، وذلك مع قلعتي الكرك
والشوبك. وهما قلعتان قريبتان من القدس، من بينهما اعتاد تجار
المسلمون والحجاج على المرور وهم على طريقهم إلى مكة، وهذا كله
كان السلطان على استعداد لتقديمه وفعله، شريطة أن يقوم الصليبيون،
بالتوقف عن حصار دمياط، ورفع الحصار، وسحب قواتهم إلى سورية.

ورأى جون ملك القدس مع جميع نبلائه، ودوق النمسا وجميع القادة
الألمان، بأن هذه الشروط ينبغي قبولها بكل وسيلة من الوسائل، وأنها
نافعة جداً للصليبيين، لكن بيلاغوس، النائب البابوي، والبطيرك،
والأساقفة، ورؤساء الأساقفة، والداوية، والاسبتارية، والبنادقة
والجنوئين مع الإيطاليين الآخرين رفضوا هذا العرض، وكان هناك
انقساماً كبيراً في جيشنا، لأن الأمراء العلمانيين والعامة كانوا على
استعداد لقبول السلام مع المدينة المقدسة وجميع مملكة القدس، ورفع
الحصار الذي هو أمر جيد ومفيد عمله، لكن من جانب آخر نادى
بصوت مرتفع النائب البابوي، وأساقفة الكنيسة، والتجار الطليان، من
أجل الاستيلاء على دمياط، لأنهم أدركوا أنهم في اللحظة التي ينالون بها
دمياط، فإن القدس والبقية سوف تسقط في أيديهم، لكن الذي يحك
بشدة متناهية يفجر الدم، وهذا ماحدث معهم، لأن عملهم هذا انقلب
في النهاية سيئاً ضدهم، وفي الحقيقة ماكان بإمكان شره رجال الكنيسة،

والنهم الذي لا حدود له للتجار، الذين تولوا تدبير الحملة، جلب الأمور إلى نهاية سعيدة.

وفي الحقيقة منذ أن حدث الاستيلاء على دمياط، تلك السيدة المتكبرة للبحر، ومعذبة الصليبيين، حدث كل مايلي بإرادة الرب، فعندما بات صلاح الدين (كذا) يائساً من الحصول على السلام، قام بارسال عدد كبير من الجنود الرجالة إلى البلدة في الليل، لكن جرى اعتقال كثير منهم وقتلهم، من قبل شعبنا، ثم انه بناء على أوامر من النائب البابوي، جرى ارسال بعض الفرسان، أثناء الليل إلى باب المدينة، لرؤية كيفية حراسته، وقد تمكنوا وهم مغطون بترستهم من الصعود إلى أعلى الباب، فلم يجدوا أحداً فوق الباب أو قربه، فنصبوا سلالم على الأسوار، ودعوا رفاقهم وتسلقوا إلى أعلى الأسوار، ثم نزلوا إلى المدينة، وفتحوا الباب، وتركوا رفاقهم يدخلون، وقد قتلوا المسلمين الذين صدفوهم، وبالضجة التي انبعثت من هذا القتال، نهض باقي الجيش، وحمل رجاله السلاح، وبذلك استولوا على المدينة، أمام عيني السلطان، ومن دون معركة أو ضرر للصليبيين، وجاء الاستيلاء على المدينة في اليوم الخامس من تشرين الثاني لعام ١٢١٩م.

وعندما رأى السلطان المدينة بأيدي الصليبيين، استبد به الرعب، فأحرق معسكره وتراجع، ولدى دخول الصليبيين إلى دمياط واجهوا رائحة نتن لا تحتمل صدرت عن جثث الناس الأموات، التي كانت من الكثرة بمكان أن الأحياء كانوا غير قادرين على دفنهم، وكان منظرًا مؤلماً مشاهدة رجال ونساء وأطفال قد جاعوا حتى الموت، وقد قتل الأموات الأحياء بروائح نتن جيفهم.

ففي خلال العشرين شهراً، الذين حوصرت المدينة أثناءهم، هلك سبعة آلاف من المسلمين من الجوع والطاعون، ووجدنا في المدينة حوالي ثلاثة آلاف من المقاتلين، كان منهم أربعمئة من أعلى النبلاء، وذلك مع

أغنى سكان المدينة من الجنسين، وجرى الاحتفاظ بهم جميعاً رهائن من أجل تخليص أسراننا من عند المسلمين، وجرى بيع البقية رقيقاً إلى الصليبيين، كما تمّ تعميّد الأطفال، ولم يكن في المدينة أية أطعمة، لكن الذهب والفضة، والأحجار الثمينة، والأقمشة الذهبية والحريريّة والأشياء الغالية الأخرى، كانت بلا حدود، وقد حملت كلها — تحت تهديد عقوبة اللعنة الرهيبة — إلى المستودع العام، وجرى توزيعها بين الجيش، من قبل أناس أمناء، بشكل عادل، إلى حد أن النساء الفقيرات والأطفال تسلموا حصّة من ذلك.

وبعد الاستيلاء على دمياط، وإعادة تنظيم الأمور فيها، استولوا على مدينة أخرى حصينة جداً اسمها تنيس، لأنهم وجدوها كلها مهجورة.

وفي سنة ١٢٢١ لتجسيد ربنا، ثار — بتحريض من الشيطان — نزاع بين بيلاغيوس، النائب البابوي، وبين جون ملك القدس، لأن النائب البابوي انتفخ عجرفة، ونسي أحكام أنظّمته الكهنوتية، فأراد أن يجعل من نفسه الحاكم الأعلى لجميع الجيش، فقام بتعبئة صفوف القواك للقتال، ورغب في أن ينال وحده فخار الاستيلاء على مدينة دمياط، وأن يعزى كل فضل إليه وحده، ورأى الملك أنه من المعيب أن يقوم رجال الدين في مملكته بإدارة الأمور العسكرية، ونظراً لأنه كان رجلاً حكيماً أثر الانسحاب على الخلاف، ولذلك تعلل ببعض المعاذير من أجل المغادرة، وحمل نفسه مع عدد قليل من خدمه، وترك الجيش، وذهب إلى سورية.

وفي الوقت نفسه ازداد حجم الجيش يومياً أكثر فأكثر، ووصل عدد كبير من السفن من الغرب إلى دمياط، واستدعى بيلاغيوس الآن القادة جميعاً، وعرض رأيه بأن عليهم الزحف ضد السلطان، المقيم معسكره على ضفة نهر النيل، على مسافة سفر يوم واحد من دمياط، وعارض قائد القوات ذلك، وبين أنه لا يحق للنائب البابوي تحريك الجيش في

غياب الملك، وبناء عليه عندما رأى النائب البابوي أنه مالم يكن حاضراً، من غير الممكن تنفيذ الحملة الصليبية، بعث بسفارة رسمية إليه، ورجاه بالظهور، والبرهنة إلى الجيش بأنه ابناً حقيقياً لكنيسة روما، وأنه سوف يعود إلى الجيش الذي ينتظره بشوق.

وقام الملك العاقل فحشد جيشاً، وزحف من سورية، وعندما سمع باقتراح النائب البابوي بالهجوم، نصح بقوة ضد القتال، وقال إذا ماتحرك الجيش الصليبي من دمياط وغادرها في ذلك الوقت، فلن تصله النجديات من دمياط لائبراً ولا بوساطة الماء، ولا سيما وأن موسم فيضان النيل بات وشيكاً، وقد انزعج النائب البابوي كثيراً من نصيحة الملك العاقل، ومن رأيه الصائب، وأعلن عن حرمان كنسي عام ضد كل من يعيق تنفيذ خطته، وعندما رأى الملك أنه من المستحيل صرف النائب البابوي عن مقاصده، استجاب وهو مكره جداً، واذعاناً منه إلى الكنيسة، وعرض أن يزحف ضد السلطان والقتال بصحبة النائب ضده، لكن الذي حدث كان ماتوقعه الملك، فقد وقع الصليبيون في ضيق شديد بسبب الجوع، وبسبب ارتفاع النيل، وبسبب هجمات السلطان، ولذلك أرغموا على صنع سلام مع السلطان، وتخلوا عن دمياط، وتراجعوا في فوضى من مصر إلى سورية.

وبعد هذا عقدت هدنة لمدة ثمانية أعوام بين الصليبيين والمسلمين، وسلم قومنا دمياط وغادروا وهم مجللون بالعار، وتوجه كل واحد إلى مكانه، ولكم كان مفيداً لو أنهم قبلوا الشروط التي عرضت عليهم، وهي التي كان ملك القدس مع الفرنسيين والألمان على استعداد للقبول بها، لكن عجرفة ذلك النائب البابوي الملعون، سببت فقدان مملكة القدس، وإعادة دمياط إلى المسلمين، وتمزيق وتدمير قومنا، وإنه لأمر عجيب أن بيلاغيوس أو بالحري «بحر بيلاغوس للدناءات»، لم يمزق إلى ألف قطعة، لأننا لو كنا تسلمنا القدس في ذلك الوقت، وفق الشروط

التي كان السلطان على استعداد لمنحنا إياها، لكانت الآن في أيدينا، وكان الضريح المقدس حراً.

وفي سنة ١٢٢٣م، حزن جون ملك القدس كثيراً لخسارة دمياط، وأكثر من هذا لخسارة مملكة القدس كلها، وهي المملكة التي صارت في أيدي الصليبيين، لكنهم رفضوا استلامها وبعدما قام بتقرير أمور دولته في سورية بقدر ما استطاع، أخذ سفينته وتوجه إلى الغرب، حتى يستجدي العون من كنيسة روما ومن أمراء المسيحيين، وعندما وصل إلى عند البابا غريغوري التاسع وجده غاضباً جداً ومتزعجاً من الامبراطور فريدريك الثاني، وبناء عليه قام ملك القدس بمصالحة الاثنين، أي البابا والامبراطور، ولكي يمتن هذه المصالحة أعطى غريغوري إلى فريدريك الابنة الوحيدة لجون المتقدم الذكر، أي ملك القدس، لتكون زوجة له، ووعد الامبراطور شخصياً بأنه سوف يعبر البحر إلى سورية بشخصه حتى يسترد الأرض المقدسة، وبعد احتفالات العرس، بشكل مهيب جداً في روما، سأل ملك القدس الامبراطور القيام بإعداد جيشه، أثناء وجوده شخصياً في الغرب وبقائه هناك، وارتحل الملك الآن إلى اسبانيا، حيث زار مزار القديس جيمس الرسول، وهناك تزوج ابنة ملك غاليشيا، وأبحر من هناك إلى انكلترا، حيث نال كثيراً من الأعطيات من الملك ومن باروناته للمساعدة على نيل الأرض المقدسة، وفي هذا الوقت نفسه أنهى الملك فيليب، ملك فرنسا حياته، تاركاً في وصيته بين منحه، مائة ألف دولار باريسى لإعطائها إلى ملك القدس، لمساعدته على استرداد الأرض المقدسة، والمبلغ نفسه لفرسان الداوية، ونفسه أيضاً إلى فرسان الاسبتارية.

وخلف فيليب على العرش ابنه لويس، الذي جرى تنويجه في ريمس Rheims وكان جون ملك القدس حاضراً أثناء تنويجه، وبعد مضي بضع سنوات، أمكن بوسائل البابا غريغوري جمع أسطول جرى شحنه

برجال من مختلف الشعوب، من أجل ارساله إلى سورية، ضد أعداء الصليب، ووقتها دعا الامبراطور للوفاء بوعده، بعبور البحر لانجاد الأرض المقدسة، والتحق الامبراطور مع حشد كبير بجيش البابا، وأقلع الامبراطور مع نائب البابا من برنديزي في أبوليا.

لكن بعدما أبحروا لمسافة صغيرة، أمر الامبراطور اسطوله بالابحار عائداً إلى أبوليا، وعاد الامبراطور نفسه معه، مما سبب إحباطاً عظيماً لرحلة الصليبيين، ولذلك قام البابا وهو مغضب منه، فحرمه كنسياً للمرة الثانية، عاداً إياه خائناً حائثاً بيمينه، وقالوا بأن فردريك قد عاد لأنه سمع بأن البابا عزم في غيابه على إعطاء صقلية وأبوليا إلى جون ملك القدس، لكي تكون تحت حكمه، وقال آخرون بأن فردريك قد تخلى عن الحملة الصليبية، لأن السلطان بعث برسلك له، وقد جلبوا له رسائل ورشوات كبيرة، ووعدوه بأنه سوف يحصل على مملكة القدس من دون حرب أو سفك للدماء، شريطة قيامه بإعاقه رحلة الصليبيين.

وبعد هذا حشد فردريك المتقدم ذكره جيشاً كبيراً، ومضى نحو الأرض المقدسة، من دون أوامر من البابا، وأكثر من هذا، من المعتقد، أنه ذهب لاستلام مملكة القدس، التي منحت له، وليس صدوراً عن غيرة على العقيدة، أو رغبة في خدمة المسيحية، ولذلك بعث الامبراطور إلى السلطان، وطلب منه القدس، وقد أعطاها له، وبناء عليه ذهب إلى القدس مع فرسانه الألمان، وباروناته وبقية أتباعه، وتدبر تنويع نفسه ملكاً على القدس في وسط أيام الصوم الكبير. في سنة ١٢٢٥ لتجسيد ربنا.

وهكذا أصبح من دون أدنى معارضة متمكناً للمملكة كلها وللمدينة المقدسة، علماً بأنه سمح للمسلمين بالبقاء بمساكنهم، وأعطى إليهم هيكل الرب، الذي يعرف باسم هيكل سليمان، لينشدوا مدائح محمد ﷺ فيه، ولم يوافق الكاردينال، نائب البابا على ترتيبات السلام هذه،

ورفضها أيضاً بطريك القدس، وكذلك فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية وبقية بارونات الامبراطورية، باستثناء الألمان والصقليين، كما عارضها قادة الصليبيين، لأنهم نظروا إلى هذا السلام على أنه سلام قائم على الغش، وقد جرى اعداده من أجل ايزاء الصليبيين وإحداث البلبلة بين صفوفهم، ولكي يعيق الاستيلاء على الأرض المقدسة، وتحرك الداوية بشكل خاص، وأثاروا المؤمنين ضد الامبراطور، وحذروهم من تصديقه، ومن الاعتقاد بأن اعماله صحيحة أو صادقة، وفي الحقيقة كان الامبراطور معادياً بشكل كبير إلى الداوية، وصدوراً عن كراهيته لهم، أعطى هيكل الرب إلى المسلمين، خشية أن يقع في أيديهم.

وبعدما جرى الاستيلاء على القدس على هذه الصورة، أرسل الامبراطور رسلاً إلى البابا غريغوري يرجو تحليله من الحرمان الكنسي، لأنه قام، بعون من الرب، بالوفاء بتعهداته في سورية، لكن البابا رفض تحليله، لأنه كان يعرف بأنه كان متحالفاً مع السلطان، وأن تملكه لمملكة القدس كان صورياً فقط، وأرسل الامبراطور أيضاً رسلاً إلى ملكي فرنسا وانكلترا، وإلى أمراء الغرب الآخرين ليخبرهم عن استرداد ضريح الرب، وعن تنويجه، وأخيراً أمر البابا، بالاضافة إلى قرار الحرمان الكنسي الأعظم، الذي كان قد أصدره ضده، بوجوب دخول جون، ملك القدس، الذي كان موجوداً في ذلك الحين في لومباردي، إلى أبوليا، على رأس قوات مسلحة من قبل الكنيسة، لدعوة الناس للالتحاق به في ثورة ضد الامبراطور، وبناء على ذلك استولى على عدة مدن ومناطق في أبوليا، وعندما سمع الامبراطور بهذا ترك وكيله حاكماً في القدس وفي المملكة وعاد إلى أبوليا، واسترد منطقة المفقودة.

وأثناء وجود وكيله حاكماً في الأرض المقدسة، جلب كثيراً من الشرور للصليبيين، واستولى على قلاعهم عنوة، وبما أنه لم يكن قادراً على تدبر أمور هذه القلاع فقد أعطاها إلى المسلمين، ثم نشب خلاف،

وحدث تمزق، وجرى طرد الوكيل وقد هلك بعد هزيمته، وبذلك سقطت مملكة القدس كلها ثانية في أيدي المسلمين.

وعندما رأى البابا بأن أوضاع الأرض المقدسة، وقد أخذت تتردى من سيء إلى أسوأ بسبب التحالفات الصديقة الزائفة للامبراطور، استدعى الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان إليه وأمرهم بالتبشير بصليبية في أرجاء بلدان الغرب، من أجل اسعاف الأرض المقدسة.

وجرى في سنة ١٢٣٠م حشد جيش عظيم، وقد ركب رجاله البحر، ووصلوا إلى عكا، وكان في هذا الجيش عدد كبير من النبلاء والرجال المشهورين ذوي المكانة، وبعدما استراحوا لعدة أيام في عكا، قرروا مهاجمة بعض الأماكن الحصينة العائدة للمسلمين، وقام كونت أوف نوربريكانيا Norbricania بطيش بالحملة مع أتباعه، فاستولى عنوة على عدد من البلدات، وأحضر معه وهو غائد كميات كبيرة من الغنائم، والأسرى والحيوانات.

وعندما رأى الآخرون هذا، حرضتهم الغيرة والمنافسة لمحاولة القيام بمثل هذا الانجاز، فنظموا قواتهم وعباؤها، وغادروا المدينة في الصباح الباكر، وزحفوا فوق الرمال خلال فلسطين النهار كله، والليلة التالية جميعها، ووجدوا أنفسهم في اليوم التالي أنهم باتوا على مقربة من مدينة غزة، التي كان فيها قد احتشد آنذاك جمع كبير من المسلمين، وعلم هؤلاء المسلمين سلفاً باقتراب رجالنا، فنصبوا كمائن، ومع اقتراب رجالنا من دون حذر، انقضوا عليهم، وأحدثوا مذبحة هائلة بينهم، إلى حد أنهم جميعاً تقريباً أسروا أو ذبحوا، وعدد ضئيل جداً منهم هم الذين عادوا إلى عكا، ووصل في الوقت نفسه رتشارد، أخو ملك انكلترا إلى عكا، مع قوة هائلة من الأتباع، لكنه وجد الجيش مصاباً بالرعب، وعندها رأى أنه لا يستطيع فعل شيء ضد المسلمين، عمل هدنة معهم لمدة ثمانية أعوام.

مجمع

في سنة ١٢٤٢ صار إنوسنت الرابع بابا، فعقد مجمعا عاما في ليون، حيث جرت مناقشة استرداد الأرض المقدسة، وأعلن عن تمرد الامبراطور، وطلب منه الحضور بشخصه، وبعث الامبراطور بمعاذيره وطلب المسامحة، ووعد أنه في خلال سنة سوف ينتصر على السلطان، لاسترداد الأرض المقدسة إلى الصليبيين، ولكن بما أنه لم يحافظ على هذا الوعد بأي شكل من الأشكال ولا وعوده الأخرى، جرى حرمانه كنسياً، وادانته وتجريمه وخلعه من منصبه، بأمر من البابا، وقد مات محروماً كنسياً، لأنه خنق من قبل ابنه.

وحدث فيما بعد في سنة ١٢٤٤، في أيام بابوية البابا انوسنت الرابع، أن نشب خلاف شيطاني بين صفوف الصليبيين في مدينة عكا في سورية، وكان ذلك فيما بين الجنويين والبنادقة، لأن كل واحدة من هاتين الدولتين رغبت في أن تكون أعظم من الأخرى، وبلغت الخصومة بين هاتين الفئتين إلى حد أن اسطوليهما حارب أحدهما الآخر، على مرأى من المسلمين أنفسهم، وصار البحر خطيراً جداً، إلى درجة أن مامن حاج تجراً على زيارة الأماكن المقدسة، لأن الفئتين كانتا قويتين في البحر والبر، وكانتا أداتا رعب لكل من الصليبيين والمسلمين سواء.

وعندما رأى السلطان بأن بلاده باتت عرضة للخطر بهذه الحروب القائمة بين الصليبيين فئة ضد أخرى استدعى الخراسانيين التتار (الخوارزمية) وبداة حرب، وقدم هؤلاء إلى مملكة القدس، وتغلبوا على الصليبيين هناك، وقتلوا عدداً كبيراً منهم أمام مدينة غزة، وأخيراً شقوا طريقهم إلى القدس، حيث تحاربوا مع الداوية والاستبارية الذين كانوا قد سكنوا هناك بإذن السلطان، وقتلوا كثيراً من بقاياهم، فضلاً عن هذا دمروا الضريح المجيد للرب، ودينسوا كنيسة المسيح بكل نوع من أنواع الدناسات.

وفي سنة ١٢٤٨ م، كان القديس لويس، ملك فرنسا مريضاً بشكل خطير، فصلى إلى الرب حتى يسترد صحته، وتعهد إذا حدث ذلك، فإنه سوف يقوم بالحج عبر البحر، وعندما استرد صحته، حمل الصليب مع كثير من بارونات مملكته، وأبحر إلى سورية مع جيش كبير جداً، وقد نصحه كثير من الملوك بأن يرتحل براً خلال آسيا الصغرى، والاستيلاء على تركيا نفسها، لأن التتار كانوا قد دمروا بلاد تركيا وأضعفوها في السنة الماضية، ولو أن الملك مضى خلالها، لاستسلمت البلاد بدون شك إليه، لكن نصائح أخرى هي التي انتصرت، وأقنع الملك بحراً، ووصل إلى قبرص، وعندما سمع السلطان بهذا بات خائفاً ولذلك بعث إلى الملك عدداً كبيراً من الأطفال المسيحيين كان قد حصل عليهم، بعثهم بعد أن رشاهم حتى يقوموا بدس السم إلى الملك، وإلى امرائه، لكن بارادة من الرب، جرى اعتقالهم شخصياً جميعاً وأعدموا، ثم قام لويس بعد هذا بإقامة صلح بين البنادقة، والجنوئين، والبيازنة، وانطلق إلى القتال ضد المسلمين.

وفي سنة ١٢٤٩ لتجسيد رغبة وعندها كان اسطول الملك يستعد للابحار، وصل إلى هناك لمساعدته دوق بيرغندي، وأمير آخيا مع حشد من السفن، وجرى جمع أفراد الجيوش وأعلن لهم، بأنه بعون من الرب، سوف يتوجهون إلى مصر لحصار دمياط، ثم انهم أبحروا، ونظراً لامتلاكهم ريحاً طيبة في الأيام التالية، تمكنوا من رؤية أراضي مصر، ومن ثم بعد ذلك مباشرة رؤية مدينة دمياط، وعندما ألقوا مراسيهم رأوا الساحل مليئاً بالمسلمين على الخيول وعلى الأقدام، وكان مصب النيل في الوقت نفسه مغطى بالسفن، العازمة على اعاقه هجوم شعبنا.

ونزل شعبنا في اليوم التالي إلى اليابسة بوساطة القوارب، واستولى على مناطق حراسة النيل، حيث قتل أعداداً كبيرة من المسلمين، وعندما رأى المسلمون الذين كانوا في المدينة هذا ارتعبوا، وتخلوا عن كل أمل

بقدرتهم على الدفاع عن المدينة، ولذلك تسللوا من المدينة خلسة أثناء الليل، بعد القاء النار في عدة أماكن، لكي لا تكون لها فائدة للصليبيين، وهكذا جرى الاستيلاء على دمياط للمرة الثانية، وأقام الملك وجيشه فيها طوال الصيف كله، ذلك أنهم كانوا غير قادرين على القتال ضد المسلمين، بسبب فيضان النيل.

وإثر انتهاء الصيف، عبأ الملك جيشه، وزحف خارجاً للقتال، وهزم جميع القوات المعادية التي التقى بها، واستولى على معسكرها، ونظراً لشعور قومنا واعتقادهم أنهم قد نالوا نصراً كاملاً، اندفعوا محدثين خلافاً في صفوف قواتنا وتعبثتها ونشروا أنفسهم فوق المنطقة كلها، وعندما رأى العدو هذا استرد شجاعته، وهاجم رجالنا بشدة متناهية أرغمهم فيها على الفرار، ولأن المسلمين حملوا عليهم من جميع الجوانب، فقد وقعت مذبحه بينهم، وبشكل خاص بين النبلاء الذين تبعوا العلم الملكي، واستمرت الحرب مؤلمة ضد قومنا، إلى درجة أنه من عددهم الكبير نجا عدد صغير، ذلك أنهم كانوا إما طعمة للسيف، أو وقعوا أسرى بأيدي المسلمين، علاوة على ذلك فإن لويس، ملك الفرنسيين، التقى والمشهور وقع أسيراً في أيدي الأعداء مع اثنين من اخوانه هما ألفونسو، وشارل، وعندما أخذ السلطان الصليبيين وملكهم أسرى، تم الاتفاق على أن يسلم الملك دمياط إلى السلطان، مع كل ما وجدوه هناك، وثمانية آلاف قطعة نقد اسلامية ذهبية، وجميع الأسرى، وبالمقابل كان على السلطان أن يسلم الملك جميع الأسرى الصليبيين، الذين أسروا آنذاك، أو أسروا من قبل في مصر وسورية مع جميع مقتنياتهم، وبعد إبرام شروط السلام هذه، عاد الملك إلى سورية، حيث بقي هناك لمدة خمس سنوات لحماية المؤمنين، لكنه عندما سمع بوفاة السيدة بلانشي، أي أمه السيدة الأعظم تقوى، قرر الأمور في سورية ورتبها، وعاد إلى مملكته.

وبعد مضي بعض سنوات، استبد الأسى بالملك تجاه الوضع المؤلم للقدس المدينة المقدسة، وامتلاً بحماسة جديدة نحو الأماكن المقدسة، ونسي جميع مآسيه وتعاساته التي عانى منها في تلك المناطق، وانطلق للمرة الثانية لاسترداد الأرض المقدسة، مصحوباً بابنيه وبملك نافار، والنائب البابوي وعدد كبير من الأساقفة، والكهنة، وأشخاص روحيين، وبناء على نصيحة من رفاقه ومستشاريه أبحر نحو إفريقية، عازماً على الاستيلاء على تونس، ذلك أنه بعد الاستيلاء عليها، سوف يكون من السهل عليه التمكن من الاستيلاء على مصر والأرض المقدسة، ولكن حل طاعون كبير بالجيش الصليبي، ومات الملك لويس مع اثنين من أولاده، كما مات القائد العام للجيش، وعندما كان الطاعون مستعراً بينهم، التحق بالجيش شارل أخو الملك مع أسطول كبير، وألقى الحصار على تونس، لكن بسبب الطاعون الذي أصاب الجيش أقام سلباً مع ملك تونس، وعاد إلى الوطن.

وبعد وفاة الملك لويس، جرى التفرير بجميع رعاة القطعان بكتابات مزيفة، وقد اجتمعوا مع بعضهم في كل من فرنسا وألمانيا تحت اسم واحد منهم دعوه رئيسهم، وقالوا بأنه أوحى اليهم من قبل ملاك بأن الرب كان غير قابل بتحرير الأرض المقدسة بوسائط الملوك والأمراء، أو الأغنياء، والناس النبلاء، ولا بوساطة العسكريين، بل عن طريق الرعاية المستخف بهم، فهؤلاء هم الذين سيحررون الأرض المقدسة بعصيتهم، وبها سوف ينتقمون للاهانات التي تعرض لها الملك القديس لويس ولموته.

وكان قائد هذا العمل الفوضوي، راهب اسمه جيمس، وكان راهباً مرتداً من طائفة رهبان السسترشيان، فهو قد ادعى بأن نجماً نزل من السماء، وقال له بأنه بهذه الطريقة لابد من تحرير الأرض المقدسة، ولذلك احتشد عدد كبير منهم، بحيث توفر منهم أكثر من عشرين ألفاً

من الرجال البسطاء، ورفضوا السماح لأي واحد من الطوائف المقدسة،
أولاً أي رجل دين، أو كاهن، أو رجل متعلم، بالدخول إلى صفوفهم،
وصاروا جريئين إلى حد، عمل فيه مقدموهم كأساقفة، حيث باركوا
الماء المقدس، وعقدوا القرانات وزوجوا الناس، ووعظوهم، لكن عندما
بات عليهم الذهاب إلى موانئ البحر، انتهت مغامرتهم إلى لا شيء.
وعادوا إلى موطنهم فارغي الوفاض، وصار عدد كبير منهم، ممن كانوا
من قبل رعاة بسطاء، قطاع طرق، ولصوص، وحرامية، وقتل كثير منهم
وأعدموا في مناطق متعددة بسبب السرقات التي عملوها، وعلى هذه
الصورة وصلت هذه الطائفة إلى نهايتها.

صراعات أمراء الصليبيين حول لقب ملك القدس

منذ ذلك الوقت فصاعداً لم تعد هناك رحلات عبر البحر، لأنه بات
من الصعب جداً جمع شعب الغرب للحرب ضد المشاركة بشكل عام
كما كان الحال من قبل، ومع ذلك بقي هناك صراع بين الأمراء حول
لقب ملك القدس، ولذلك فإن هذا اللقب محمول من قبل عدة ملوك،
من ذلك على سبيل المثال، من قبل ملوك انكلترا، كما قلنا من قبل، كما
أن ملوك فرنسا يتفاخرون أحياناً بأنهم ملوك القدس، ويفعل هذا ملك
قبرص، وملك صقلية، ومثلها ملك اسبانيا، وعلاوة على ذلك اعتاد
دوقات سوايبا، محقين كثيراً، على إدعاء هذا اللقب لأنفسهم، حتى
ماتوا، لأنه، كما قلنا من قبل، تزوج فردريك، الامبراطور الثاني بهذا
الاسم، ودوق سوايبا، من يولاند، ابنة جون، ملك القدس، ومعها عبر
البحر، وفي القدس أعلن عنه ملكاً، وجرى تتويجه ملكاً على القدس،
ولهذا السبب، قام ابنه مانفرد، فنصب نفسه ملكاً على صقلية،
وعلى القدس، ومثله فعل بقية دوقات سوايبا من تلك
الاسرة.

وفي سنة ١٢٦٤، عندما قام مانفرد المتقدم الذكر، وكونرادين، لأنها

كانا سوابيين، بمضايقة دول الكنيسة وتهديدها، استدعى البابا كليمنت الرابع شارل، أخو القديس لويس، وطلب منه المساعدة ضد مانفرد، وكونرادين، والغبليين، وبعدهما هزمهما شارل، وقتلها معا في بعض المعارك، دخل إلى روما متصراً، ونودي به ملكاً على صقلية والقدس من قبل البابا كليمنت، في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، وإلى هذا اليوم يحتفظ ملوك صقلية، بلقب ملوك القدس.

وفي سنة ١٢٧٣م، عقد البابا غريغوري العاشر مجمعاً في ليون، فيه تحاور آباء الكنيسة مطولاً حول استرداد الأرض المقدسة، وحثوا الامبراطور رودولف، وفيليب ملك فرنسا على حمل السلاح ضد المغاربة لاسترداد القدس، ولتأمين نفقات هذه الحملة، فرض البابا ضريبة عشر على جميع المسيحيين لمدة ست سنوات، وأمر بالتبشير بحملة صليبية، وأعطى غفرانات واسعة للذين حملوا الصليب، وذهبوا إلى ماوراء البحار، من أجل الحرب، أو إلى الذين استأجروا جندياً أو أكثر، من أجل الحرب.

ووجه البابا في المجمع اللوم أيضاً إلى جميع طوائف الرهبان المتسولين، وحظرها باستثناء طائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان فقط، لأنهم آخر الطوائف تأسيساً من قبل الكنيسة، ولديهم القدرة على الاستمرار، وفيما يتعلق بالرهبان النساك في الأرض المقدسة، والكرمليين، فقد مدد لهما، حتى تصدر قرارات جديدة حولهما، وقد فعل هذا حتى لا يتمكن الرهبان المتسولون من التدخل في جمع الأموال من أجل الذين كانوا ذاهبين للقتال فيما وراء البحر، لكنني لم أعرف فيما إذا كانت أية حملة قد عملت إلى الأرض المقدسة، وكذلك لست عارفاً كيف أخفقت هذه الحملة، والذي أعرفه هو أن إيطاليا كانت في حالة اضطراب بسبب الغولف والغبليين، وكذلك اضطربت أوضاع المانيا، وفرنسا، وانكلترا بحروب داخلية، ولذلك كانوا غير مؤهلين لإسعاف

الأرض المقدسة.

هذا وامتلک شارل، ملك صقلية والقدس، وأخو ملك فرنسا، الحق مضاعفاً ثلاث مرات في أن يدعى بملك القدس، فذلك أولاً بسبب أن البابا توجّه، وثانياً بسبب أنه كان صاحب صقلية، التي كانت من قبل ملكاً إلى ملك القدس السالف، وثالثاً بسبب أن هذا اللقب قد أضفي عليه من قبل مريم، ابنة أمير انطاكية، التي كانت الوريثة الشرعية لمملكة القدس، والتي اغتصب ذلك منها ابن أخيها (أختها) هيو.

ورفض شارل هذا بإباء أن يعين ملكاً على القدس من دون امتلاك المملكة هناك نفسها، فقد كره أن يكون ملكاً بالاسم وليس بالفعل، ولذلك فكر كيف يمكنه وبأية وسائل نيل القدس، وكان له ختن اسمه بلدوين، وقد عمل سنة ١٢٤٠م امبراطوراً للقسطنطينية، ولكن بما أن الاغريق معادين دوماً لللاتين، فقد طردوه مهاناً، ووضعوا ميخائيل باليولوغوس، وهو اغريقي، مكانه، وقد اشار بلدوين الآن على شارل ملك القدس بمهاجمة امبراطورية القسطنطينية، لأنه إذا ما نال بلدوين القسطنطينية، يمكنه بسهولة أن يجعل من نفسه سيداً للقدس، وكان شارل ملكاً قوياً، ولم يبد له أنه عملاً عظيماً مهاجمة القسطنطينية، ولذلك جهز عدداً كبيراً من سفن الحرب واسطولاً عظيماً، وبمساعدة من الكنيسة، ومن ملك فرنسا، ومن البنادقة، أعدّ لطرده باليولوغوس من القسطنطينية، لكنه أعيق بشكل غريب في مغامرته بسبب بعض اللاتين الذي كرهوه، ولذلك لم يحصل على مملكة القسطنطينية ولا على مملكة القدس.

وحدث بعد هذا أن عقد في سنة ١٢٨٢ ملك الأرمن، الذي كان مسيحياً، معاهدة مع ملك التتار ضد السلطان، وقد غزوا سورية وانتزعا كثيراً من المقاطعات من سلطان مصر، وكانت القدس بين ماتم

الاستيلاء عليه، وقد أعطيت للمرة الثانية إلى المسيحيين الشرقيين، لكن بخيانتها أعيدت مباشرة إلى المسلمين.

[وكان لملك التتار هذا أخ اسمه تنجر Tandager (أحمد؟)، وكان مسيحياً، وولداً معمداً اسمه أرغون، لكن تودغار Todagar (كذا) تخلى عن العقيدة المسيحية، وأصبح مسلماً وعذب المسيحيين بقسوة بالغة، فقام ابن أخوه أرغون فقتله، ووسع انتشار الديانة المسيحية، وفي كل مكان حارب المسلمين، وسعى جاهداً لتحرير القدس.

وفي سنة ١٢٨٨ م صار واحد اسمه كاسانوس Casanus (غازان) امبراطوراً على التتار، وقد كان صغيراً في جسده عظيماً في نفسه، وكان صاحب ملامح قبيحة، لكنه امتلك عقلاً رائعاً، لأنه كان محلي بالفضائل، وعاقلاً، وحكيماً في الحرب، وصديقاً جداً نحو المسيحيين، ومليئاً بتبجيل المدينة المقدسة، وضريح الرب، كما برهنت الأحداث.

وكان هذا الرجل عندما عُمل امبراطوراً، وثنياً، لكنه صار مسيحياً بطريقة مرضية، لأنه عندما صار امبراطوراً، عمل مثل آحازوروس AHASUERUS آخر، فأمر بالبحث له في جميع أرجاء مناطق الشرق عن أجمل فتاة يمكن العثور عليها، وذلك دون الاهتمام بأصالة النسب أو الثروة، بل التركيز على الجمال فقط، وقصد من ذلك أنها إذا ما أعجبتة اتخذها زوجة له، ووجد ابنة ملك أرمينيا، وعندما طلبها للزواج وافقت الفتاة مع أبيها على شرط أن يسمح لها بعبادة ربها، والرب يسوع المسيح، وأن لا ترغم على اعتناق الديانة التتارية، وتمت الموافقة على هذا الشرط، وعندما حملت إلى الامبراطور أرضته إلى أقصى الحدود، فتزوج منها على الفور، وحملت، وولدت ولداً ذكراً، ولكنه كان ولداً مشوهاً، حتى أنه بدا بصعوبة أنه بشراً، وانزعج كاسانوس (غازان) من ذلك كثيراً، وتشاور مع أعيان بلاطه حول ما ينبغي فعله بهذا الطفل المقيت

جداً، وقد أجابوه إنه من غير الممكن أن يكون هذا الطفل قد جرى الحمل به من انسان، ولذلك ينبغي احراق كل من الطفل والام.

وعندما وضعت النار، وياتت جاهزة لهذا الغرض، وجرى إبلاغ المرأة الشابة بقرار الاعدام، طلبت وقتها منهم منحها فرصة تلقي القربان وفق الطريقة المسيحية، وأن يجري تعميد ابنها، وعندما عمل هذا، وجرى تعميد ابنها، ولدى اخراجه من الماء، فجأة تغير شكل الطفل، وبدا طفلاً جميلاً ونبيلاً حسب أفضل ما يكون موجوداً في العالم، وكان غازان مسروراً إلى أقصى الدرجات لظهور هذه المعجزة، ولم يكتف بانقاذ زوجته وابنها من الموت، بل رسم بأن تكون امبراطورة، وأن يجري تعميده مع شعبه بشكل مهيب.

وعندما جرى تعليمه الايمان، وعرف بأن المسلمين يمتلكون الأماكن التي فيها صنع خلاصنا، قضى بأن ذلك تدنيس شنيع، وعجب كثيراً من تحمل المسيحيين لذلك، وأعلن الحرب مباشرة ضد سلطان مصر، واستعد للقيام بالاستيلاء على الأرض المقدسة، والقدس، وجاء إلى سورية ودخلها للقتال ضد سلطان مصر، وجلب معه مائتي ألف من التتر، وكان معهم جيشي ملكي أرمنيا وجورجيا، اللذين كانا عدوين للسلطان، والتقى السلطان به مع حشد كبير، وجرى قتال معركة رهيبة، وكان النصر من نصيب غازان، وأرغم السلطان على الفرار، وترك سورية، وذهب إلى مصر، واستولى غازان الآن على مدن سورية، التي كانت بينهن مدينة القدس المقدسة، فقد استولى عليها المسيحيون في سنة ١٢٩٩ لتجسيد ربنا، أي بعد ثمانية أعوام من طرد اللاتين من عكا، ودخل غازان إلى المدينة المقدسة، وبتقوى فائقة زار المدينة المقدسة، وأقام هناك لبعض الوقت.

لكنه عندما سمع بأن الاضطراب ثار في مملكته، بعث بسفراء إلى

الغرب الأوروبي: إلى البابا بونيفيس الثامن، وإلى رودولف ملك الرومان، وإلى ملوك الغرب الآخرين، ملتمسا منهم ارسال قوات صليبية إلى سورية تسترد وتحتفظ بالبلدان التي طرد منها قبل وقت قصير، وللإستيلاء على مدينة القدس المقدسة، وبعدما أوصل السفراء المتقدم ذكرهم رسائلهم، ونالوا الموافقة من جميع الناس، بعثوا عائدتين، على أساس تفاهم قوامه أن الأمراء الغربيين سوف يلحقون بهم مباشرة مع قوات كبيرة، لكن مامن أوامر صدرت لفعل ذلك، بسبب الحروب الداخلية بين الأمراء الغربيين، وكانت مصالحهم أقرب إلى قلوبهم من حرب الرب، وذلك كما سنوضح في القسم الثاني، وعلى هذا إنه في الوقت الذي كانت نفقة متواضعة وقوة صغيرة، يمكن بها الحفاظ على سورية والقدس، التي استولى عليها غازان، لصالح المسيحية، مامن محاولة جرت، ولعار المؤمنين، ولعدم اهتمامهم الاجرامي لاتتوفر الآن أية امكانات لاستردادها.

وعندما انسحب غازان من سورية مع قواته، استرد المسلمون سورية بسهولة لأنه مامن أحد اعترض سبيلهم، وقد قتلوا وطردها المسيحيين الشرقيين الذين وضعهم غازان في المدن التي احتلها، وذلك مثلما فعلوا من قبل مع المسيحيين اللاتين من الغرب، وبناء عليه، حدث سنة ١٢٩١ لتجسيد الرب، وذلك بعدما كان السلطان قد استولى على أنطاكية، وصور وطرابلس، ومدن اللاتين الأخرى، أنه صرف نواياه إلى طرد الصليبيين طرداً كاملاً من الأرض المقدسة، وكان الذي يمتلكه اللاتين في سورية كلها، مدينة واحدة، هي مدينة عكا، وكانت هذه المدينة ثرية جداً، ومكتظة بالسكان، لأنه سكن فيها ملك القدس مع بلاطه، ومقدم الداوية، ورئيس الاستبارية، والسيد البطريك واكليروسه، وكان جميع الذين يسكنون في المدن التي استولى عليها السلطان، ونجوا منها، قد هربوا إلى هاهنا مع مقتنياتهم، وكان في المدينة

عساكر يدفع لهم ملك انكلترا، وملك فرنسا، والملوك الآخرين والأمراء، وحوالي ثمانية عشر ألف حاج يحملون شارة الصليب، من مختلف الشعوب والبلدان.

ولهذا السبب كان في عكا سبع عشرة هيئة قضائية منفصلة للنظر بالجرائم وبسفك الدماء، وغالبا ماقامت فوضى بالنسبة لقرارات الحكم على مقتري الآثام، وامتلك الدومينيكان مع الفرنسيين هناك ديرة جيدة، لكل من الرهبان والراهبات، وعندما أُلغى المعلم المبجل جوردان، خليفة القديس دومينيك، بوساطة البحر لزيارة الدير في عكا، غرقت سفينته ومات مئة مباركة أضاءت بصليب إعجازي.

وهذه المدينة قائمة على واجهة بحرنا، وذلك في وسط ساحل سورية، وهي لا تبعد أكثر من أربعين ميلاً إيطاليا عن القدس، وقد بنيت بشكل رائع ومكان موثم جداً، ولذلك كانت مليئة بالتجار من الشرق ومن الغرب، لأنها كانت نبعا لجميع التجارات المحمولة بالبحر، وقد غدت مدينة فخمة جداً، إلى حد أنه لم يكن في العالم كله مدينة قيل هي أغنى منها.

كما أنه لم يكن هناك مدينة توازيها بالشور والآثام، وعندما كانت في ذروة ازدهارها، حدث أن بعضا من عساكرنا اعتقلوا بعض التجار المسلمين، وذلك في أيام الهدنة، وعندما سمع السلطان بهذا، حشد قوة هائلة، وحاصر المدينة، وفي تلك الأثناء فوق واحد من المسلمين قوسه وأقدم على رمي قائد المدينة، فقتله، وهو القائد الذي بأوامره كانت الأشياء كلها تعمل هناك، وعندما مات، انعدم النظام هناك، وبدأ الناس يفرون بالسفن عبر البحر، وعندما ما لم يعد هناك من يعترض سبيل المسلمين، دخلوا إلى المدينة، وقتلوا جميع الصليبيين، ونهبوا كل ما وجدوه هناك، وفي أثناء عملية السلب هذه، قيل بأن ستين ألفاً من الصليبيين قُذبتوا طعمة لسيوف المسلمين في عام ١٢٩١م، وهكذا هلك جميع

اللاتين وطرّدوا من الأرض المقدسة، باستثناء الذين صاروا رعية للمسلمين، وهم الذين جرى حرمانهم من قبل الكنيسة.

وعندما وصلت أخبار ما حدث إلى الغرب، كان هناك حزن عميق في بلاط روما، ومنح البابا نيقولا الرابع غفرانات كبيرة، لأي إنسان سوف يحمل شارة الصليب، أو يرسل آخرين لمساعدة الأرض المقدسة، وقام بمسيرات مهيبة، وأصدر قرارات حرمان كنسي ضد جميع التجار المسيحيين، أو آخرين يجلبون إلى الاسكندرية وأي بلد آخر خاضع إلى السلطان، ليس فقط الأسلحة والخشب، وهو ما كان محرماً منذ زمن بعيد، بل يجلبون أية تجارات مهما كان نوعها، وبعد هذا صدر حرمان ضد الأماكن المقدسة نفسها، وصار ممنوعاً، مع عقوبة الحرمان الكنسي، على أي إنسان، عبور البحر لزيارة الأماكن المقدسة، حتى لو كان ذلك صادراً عن التقوى، وذلك دون الحصول على إذن من البابا، وقد وجدت هذا في واحد من كتب الحج].

وبعد ثمانية أعوام من خروج الصليبيين من الأرض المقدسة، جاء امبراطور التتار، المسيحي الجيد الذي تقدم ذكره، واستولى على مدينة القدس، التي قدمها منحة إلى أساقفتنا وأمرائنا، لكن لم يكن هناك واحداً منهم، قد رفع يده للعبور إلى هناك، كما قلت، وهكذا من خلال هذا العقوق تمت خسارة الأرض المقدسة خسارة كاملة بالنسبة لنا، حتى لم يعد هناك من يفكر باستردادها، ولم يعد هناك من سبيل إلى استردادها، ما لم يتفضل الرب فيعمل معجزة ما في سبيل ذلك، وفي هذا الخروج الأخير للصليبيين من الأرض المقدسة، لم يبق أي لاتيني في سورية، إلا الرهبان الدومينيكان، علاوة على ذلك تسلم الرهبان الفرنسيون والكرمليون بعض الأماكن في سورية، وبقيوا فيها، بناء على أوامر من البابا، وقد مكثوا فيها حتى جرى قهرهم، وقتلهم وإبادتهم من قبل المسلمين. [٢٩٠].

كيف كانت حال المدينة المقدسة بعد طرد الصليبيين اللاتين،
وكيف أمكن للرهبان الفرنسيسكان الاستقرار هناك،
وأيضاً ما هي المبالغ التي قدمها الصليبيون من أجل استرداد
الأرض المقدسة.

بعد طرد اللاتين بقيت مدينة القدس المقدسة لسنين كثيرة من دون
أي لاتيني أو مسيحي روماني، لأنه كما قيل من قبل، عندما غادر
اللاتين القدس، دخل المسيحيون الشرقيون، الذين كانوا هراتقة رهبين،
ومنشقين، دخلوا إلى هناك، وحلوا محل اللاتين، وصاروا ممتلكين
للكنائس التي بناها اللاتين، ولم يسمح لللاتين بامتلاك أية أماكن في
المدينة المقدسة، لابل لم يسمح لهم حتى بدخول الأرض المقدسة ومدينة
القدس من دون حراستهم من قبل المسلمين مع احتياطات عظيمة،
ومع جواز سفر (أمان)، وأيضاً مع دفع ضرائب ثقيلة جداً، وعندما
وصلوا إلى القدس، لم يجدوا خدمات أو طقوس ربانية، إلا طقوس
المنشقين والهراطقة، كما لم يجدوا أية مواساة مهما كان نوعها.

ولم يكن هذا محمولاً من قبل الكنيسة اللاتينية وشعب الغرب، الذي
كان يشعر بحماسة ملتهبة جداً نحو الأماكن المقدسة، وعندما جرى طرد
الصليبيين من الأرض المقدسة، وصلت هذه المسألة إلى مسامع البابا
نيقولا الرابع، الذي كان من طائفة الفرنسيسكان، وهو الذي اختير بابا
في سنة ١٢٨٧ لتجسيد الرب، قبل سقوط عكا، وبعد خسارة عكا،
وطرد الصليبيين، أرسل سفراء إلى السلطان مع هدايا، ورجاء السماح
لبعض رجال الدين اللاتين للسكنى في القدس من أجل حماية ضريح
المسيح، وقال له بأنه ربما لن يهتم بمنحه ذلك من أجل حب المسيح، أو
بسبب صلوات البابا الصادقة والأمانة، إنه عليه أن يفعل ذلك من أجل
انتشار مجد اسمه في الخارج، على أساس أنه إذا ماترك بعض اللاتين
يدخلون إلى المدينة، فإن عظمتهم ستصبح معروفة في جميع أرجاء الغرب،

وكذلك في الشرق.

ومنح السلطان موافقته على مطلب البابا هذا، وطلب منه إرسال بعض رجال الدين والرهبان ورجال سلام إلى القدس، علاوة على هذا عين صدقات يومية تعطى للمشفى المسيحي في القدس، ولذلك اختار البابا بعض الرهبان من طائفته، ممن كانوا مستقيمين، ومتعلمين، وأمناء، وكانت طائفته هي طائفة الفرنسيسكان، وبعث بالذين انتقاهم إلى القدس، ليقوموا قداست ربانية في كنيسة قيامة الرب، لصالح جميع أعضاء كنيسة روما، وذلك خشية منه بقاء تلك الكنيسة المقدسة جداً مهجورة من قبل اللاتين، وعندما قدم أولئك الآباء المقدسون إلى القدس، لم يكونوا يمتلكون أية بيت فيها، ولذلك ذهبوا إلى المشفى العام العائد للحجاج، وأقاموا فيه، في حالة عوز عظيم، وتعاसे، لبضع سنوات، وظلوا بدون بيت خاص بهم، يعيشون على بعض الصدقات التي كانوا يتلقونها من الحجاج.

وفي سنة ١٣٠٠م، صار القديس لويس، الذي كان من طائفة الفرنسيسكان أسقفاً لطولوز بأمر من البابا بونيفيس الثامن، وكان القديس لويس هذا حفيداً للقديس لويس ملك فرنسا، وكان ابناً لشارل، وأخاً لروبرت، ملك أبوليا، وكاليريا، وصقلية، والقدس، وعندما سمع هذا الأسقف بسوء أوضاع الرهبان الفرنسيسكان، والشقاء الذي كانوا فيه يعيشون في القدس، ذهب إلى صقلية إلى أخيه روبرت، ملك القدس، لكي يساعد إخوانه الرهبان، وجذب قلب الملك نحو محبة الطائفة، بإخباره كيف أنهم كانوا يعيشون في عوز وفاقة في مدينة القدس، حيث يرعون مصالح الكنيسة اللاتينية كلها، وليس لديهم حتى بيت هناك، بل يسكنون في المشفى.

وعندما سمع الملك بهذا، رتب شؤون مملكته، ثم أخذ عدداً من الرهبان الفرنسيسكان، معه، وأقلع بحراً نحو سورية كحاج عادي

بسيط، وذهب إلى القدس بموجب جواز أمان من السلطان، وشاهد الأماكن المقدسة وقبلها، ثم إنه ذهب إلى مصر إلى السلطان ورجاه أن يعطيه كنيسة جبل صهيون مع الأبنية المجاورة، وبيعة مريم العذراء المباركة في كنيسة ضريح الرب، مع القاعات المجاورة، وقاعة ضريح الرب، وكنيسة مريم العذراء المباركة في وادي شعفاط، وكهف ميلاد الرب في كنيسة مريم العذراء المباركة في بيت لحم مع الأبنية المجاورة، وذلك لإعطاء ذلك كله إلى الرهبان الفرنسيين، الذين وافق من قبل على سكنهم حيثما أرادوا في القدس، وذلك من أجل إقامتهم فيهم.

وعقد الملك روبرت اتفاقاً مهيئاً مع السلطان حول هذه الأماكن، وتسلمهم منه ودفع إلى السلطان مقابلهم اثنتين وثلاثين ألف دوقية من العين المدفوع، وبعدما دفع الملك هذا المبلغ، ذهب إلى القدس، ومنح الأماكن المتقدم ذكرها إلى الرهبان الفرنسيين ليتملكوها تملكاً أبدياً هم ومن يخلفهم بشكل أبدي عوضاً عنه، وعندما تسلم الرهبان الفرنسيون تلك الأماكن، بنوا عليها ثلاثة أديرة، كان الأول منها على جبل صهيون، وذلك حيث كان هناك من قبلهم دير للرهبان القانونيين النظاميين، وكان الثاني في كنيسة قيامة الرب، إلى جانب بيعة العذراء المباركة، من أجل أن يستخدم من قبل الأوصياء على ضريح الرب المقدس، والثالث في بيت لحم، وجميع هذه الأديرة كأنها دير واحد.

وعندما رأى رهبان الدومينيكان بأن السلطان قد أخذ مالاً، وباع أماكن مقدسة، جمعوا مبلغاً صغيراً من المال من خلال الصدقات واشتروا حق الدم، الذي يطل من الأعلى على وادي صهيون، على طرف جبل جيحون، واشتروا كذلك كهف القديس جيمس عند سفح جبل الزيتون، فوق بركة قدرون في وادي شعفاط، وأقام الرهبان هناك لبعض الوقت، لكن بما أن تلك الأماكن كانت مكشوفة تماماً، وليست مغلقة بأية جدار، كان عليهم التحمل باستمرار الاهانات من المسلمين

ومن البداية العرب، ولذلك كان من غير الممكن بالنسبة لهم البقاء هناك، ولهذا هجر الدومينيكان هذه الأماكن وارتحلوا عائدين إلى العالم المسيحي.

هذا وتوفر لدى الفرنسيين سكان أديرة محمية بأسوار قوية، أعطاهم السلطان إياها عن نفسه وعن خلفائه على أساس مبلغ المال المتقدم ذكره، ومع ذلك عانوا من كثير من الأذى، وغالباً ماتعرضوا لاضطرابات قاسية من قبل المسلمين، وكانوا - كما يمكن القول - عرضة للازعاج يومياً، وجاء المسلمون في سنة ١٣٦٨ إلى دير جبل صهيون، وقتلوا اثني عشر راهباً، ودخلوا بعد هذا للمرة الثانية، وهدموا البناء المقبب لمجمع النوم، وخربوا قلايات الرهبان، وفي وقت آخر فيما بعد، أخذ السلطان منهم، بتدبير من اليهود، وانتزع موضع ضريح داوود وملوك اليهودية الآخرين، وهدموا الـ Coenaculum في المكان الذي أنزلت إليه الروح القدس على الرسل في يوم عيد الحصاد، وهو مكان بني بنفقات كبيرة من قبل ملك فرنسا، وذلك بناء على موافقة من السلطان، ولم يسمحوا بإعادة بنائه، ودمروا أيضاً أماكن أخرى حول كنيستهم، دون مبالاة بأن هذه الأماكن قد شريت من قبلهم، علاوة على ذلك، جرى قتل عدد كبير منهم على أيدي غير المسيحيين، وجرى تعذيبهم، ولم يشعروا بالأمان لآحول الأماكن المقدسة التي بأيديهم، ولآحول حياتهم.

وفي سنة ١٣٠٠ لتجسيد الرب، وقبل إعادة تنظيمهم، ازداد هؤلاء الرهبان وتناموا حتى أصبحوا لا يمكن تحملهم، وصاروا عدوانيين تجاه المسلمين والمسيحيين سواء، لكن الطائفة قدمت إلى عون الدير، فوضعت رجالاً مستقيمين وحكماء فيه، ولذلك يحافظون حتى هذا اليوم على ممارسات قلبية للخدمات الربانية، ويخدمون الحجاج باخلاص، أي الزوار الذين يقدمون إلى هناك، ويزودونهم بكل ما

يحتاجون إليه، ويأخذون المرضى من دار الضيافة إلى المعالجة لديهم، ويحيطونهم بالعناية والرعاية المثلى، وهذا أمر جربته أنا شخصياً عندما كنت مقيماً بينهم، ولهذا السبب نالوا لأنفسهم محبة جميع الأمراء المسيحيين، والبارونات، والنبلاء، ولذلك يصفون الصدقات عليهم، ويدعمون هؤلاء الرهبان بمساعدات كبيرة، ويرسل جميع الملوك صدقاتهم إليهم سنة فسنة، حيث يرسل بعضهم إليهم خمسمائة دوقية، وبعضهم أربعمائة، وبعضهم أكثر أو أقل تبعاً لعاداتهم، أو وفقاً للمدى عمق مشاعرهم واخلاصهم تجاه الأرض المقدسة، ومثل هذا هناك كثير من الصدقات تمنح إليهم يومياً من قبل الحجاج، ومن قبل الذين يتلقون شارات الفروسية في ضريح الرب، وهم يحتاجون إلى هذا كله، لأنهم لا يجمعون أية صدقات من المسلمين ولا من الشرقيين، ولا من المسيحيين، بل يحصلون على جميع وسائل عيشهم من الغربيين، ولذلك على الناس النظر إلى هذا الموضوع بعناية وأن يتدبروا عدم وقوع هؤلاء الرهبان في حالة فاقة قاسية، وذلك من أجل أن تبقى أبنية الكنائس مصانة ومرممة على حساب صدقات المؤمنين ولكي يمكن إعادة المشفى للغرباء وللحجاج، ومن أجل شراء الإذن بزيارة الأماكن المقدسة من المسلمين بالدفع من قبل الكنيسة.

وفي الحقيقة حدث منذ انطلاق الايمان وبدايته، وفي أيام العهد القديم، أن اعتاد الملوك من الأمم والأمراء على إرسال المال والأعطيات إلى القدس من أجل استخدامات الذين كانوا يمارسون القيام بالطقوس الدينية هناك، وهذا واضح مرئي من اسدراس: ١/١/٦-٧. ومن نحميا: ٣ و ٢، ومن اسدراس: ٤، ومن المكابيين: ٣/٢، وفي العهد الجديد اهتم الرسل المباركون اهتماماً خاصاً بجميع الصدقات من الأمم الأخرى، من أجل استخدامات الذين كانوا في القدس، ونقرأ في رسالة الكورنثيين: ١/١٦، بأن القديسين بولص وبرنابا انشغلا بشكل خاص

بهذا العمل، وانظر أيضاً شروح القديس توما الأكويني، وبطرس أوف ثارنتاسيا Tharentasia ، ونيقولا دي ليرا، وكذلك غلاطية: ٢/٨، وروما: ١٥، حيث قال الرسول: «ولكن الآن أنا ذاهب إلى اورشليم لأخدم القديسين، لأن أهل مكدونية وأخائية استحسنوا أن يصنعوا توزيعاً لفقراء القديسين الذين في اورشليم»، لأنه وجد في جميع الأوقات في القدس، رجال ونساء يعيشون في فقر انجيلي، ومن أجلهم سعى الرسول للحصول على صدقات.

هذا وعندما قدم الأعمدة الأولى للكنيسة: بطرس، وجيمس، ويوحنا أيماهم بالتبعية لبولص وبرنابا، ورسموهما رسولين إلى الأمم، وبعثوا بهما للتبشير، على شرط أن يتذكروا الفقراء الذين كانوا في القدس، ويجمعون المال من أجلهم، ويرسلونه إليهم كما قرأنا في غلاطية: ٢، ففي هذه الرسالة كلها تقريباً، نصح بولص بجمع المال وأن يكون ذلك في أيام السبت، من أجل جميع الذين كانوا في القدس، والحرص تماماً على ارسال المال إلى هناك بأمان، ولهذا ذهب هو حتى بنفسه إلى القدس، لإعطاء المال الذي جمعه وتوزيعه على الناس، كما رأينا في روما: ١٥، وفي أعمال الرسل: ٢٤، حيث أشار إلى هذا إلى الحاكم فيلكس.

وبقيت هذه العادة في جمع المال وارساله إلى القدس، لمدة طويلة في الكنيسة، وقام في إحدى المرات ناسك اسمه فيجيلانتوس Vig-ilantius، كان من بين أخطائه إعلان أنه هذا الجمع للمال وارساله إلى القدس عمل عابث، وبلا فائدة، لكن جيروم بطل الكنيسة تصدى له، وهزمه بشكل كامل، وسحقه فيما يتعلق بمسألة هذه الخطيئة، فهذا مانقراً عنه في الرسالة ضد فيجيلانتوس، ومثل هذا أطرى واحداً اسمه ليسينوس Licinius ، وكان رومانياً غنياً جداً، قد بعث كثيراً من الصدقات إلى القدس، وأعطاه كثيراً من الذهب، حتى كان قادراً على

تدبر حاجيات أناس كثيرين، وذلك حسبها نقرأ في الرسالة إلى الأرملة ثيودورا.

فضلاً عن هذا نقرأ بأنه توفر لدى القديس غريغوري عناية خاصة برجال الدين في القدس، الذين إليهم بنى ديراً، وبعث إليهم بالمال، وعلاوة على ذلك، إنه من أجل هذه الغاية جرى تأسيس الطوائف الثلاث، أي: فرسان الداوية، وفرسان الاستتارية وفرسان التوتون للقديسة مريم، وقد تمكنت هذه الطوائف من بناء بيوت لها في جميع البلدان، ومن تكويم الممتلكات وجمع الثروات الأخرى، من أجل إرسالها إلى القدس، وقد أثرت الطائفة الأولى (الداوية) وازدهرت كثيراً في الأمور الدنيوية، إلى درجة أن الكنيسة الغربية لم يعد بإمكانها استيعابها، وقد زالت هذه الطائفة وتلاشت، مع أن شطراً من ممتلكات الداوية قد أعطيت إلى الاستتارية، الذين اسمهم الآن فرسان القديس يوحنا، الذين جميع ممتلكاتهم عائدة إلى القدس، لكن عندما انتهى سبب إرسال المال إلى هناك، فمن المتوجب كذلك انتهاء جميع الثروات التي جمعت لهذه الغاية، لكن الاهتمام بهذا الأمر كان ضئيلاً، ولهذا تتحمل الكنيسة طوائف بلا فائدة، وفي الوقت نفسه مامن انسان هو مهمت بارسال المساعدات إلى الأوصياء على الضريح في القدس، من أجل امتلاك ما يكفي من مال للدفع من أجل نفقاتهم، ومن أجل إبقاء الأماكن المقدسة وكنائس المسيح في حالة منتظمة، وهذه مسألة ينبغي على المؤمنين منحها اهتمام خاص، لأن إيماننا قد تأصل هناك، وقداساتنا هناك اكتملت.

الشعوب التالية هي التي تسكن القدس في هذه الأيام

مدينة القدس المقدسة في هذه الأيام موضع الاستقرار والسكنى لمختلف شعوب الدنيا، وهي لهذا، كما كانت، مجمعة لجميع أنواع الآثام:

١ - المسلمون

السكان الرئيسيون هناك هم المسلمون، الذين هم محمديون، وهم ملوثون بحثالة جميع الهراطقة، وهم أسوأ من الوثنيين، وممقوتين أكثر من اليهود، وهم ينكرون التثليث، ويؤمنون بعقيدة الطبيعة المزدوجة، وهي عقيدة لاهوتية شائنة، غير أنهم يعترفون بطبيعة الجوهر الرباني، ويعلنون أن الله لا يمكن أن يكون له ولد، لأنه ليس له زوجة، علاوة على ذلك هم يرون بأن الله ليس مركباً، لأنه لم يكن عرضة للتغيرات والحوادث، وهو لا يعيش مثل الناس لأنه لا يأكل، ويقولون أيضاً بأن الله وملائكته يصلون على محمد ﷺ وعلى بقية المسلمين، وهم ينكرون تجسيد الكلمة، ويعلنون بأن المسيح ليس رباً، كما أنه ليس من طبيعة وتركيب الأب، بل يقولون بأنه كان مجرد روح الله، وهم يعلنون أيضاً بأنه كان مقدساً جداً، ورجلاً فضيلاً، وهو دون سواء من الناس ولد من العذراء من دون أي أب، ويقولون بأنه لم يتألم مطلقاً، ولم يصلب أو يمت، بل نقل من قبل الله، وأنه في نهاية الدنيا سوف يموت، بعد قتله المسيح الدجال.

وهم يعلنون بأنه ليست هناك قداًسات، ولا عجب في هذا، فهم ينكرون الصليب نفسه، وهم يقولون بأن المسيح سوف يحكم العالم، لكن مع الله ومع محمد ﷺ وفيما يتعلق بما كتب حوله، هم يعترفون بجميع أمجاده، ويعظمونه، ولا يقرون بما قيل حول اذلاله وعاره.

وفيما يتعلق بمريم العذراء، هم يعتقدون باخلاص بأنها كانت أخت هرون، وهم يقولون بأن للملائكة أجسام، وأنه من هؤلاء الملائكة تم صنع أولئك الشياطين الذين رفضوا السجود لآدم، وهم يقولون بأن البطارقة (الآباء) المقدسين والأنبياء كانوا مسلمين، وأن الناس هلكوا بالطوفان لأنهم رفضوا أن يكونوا مسلمين، وأن الحواريين أيضاً آمنوا بالاسلام وسموا أنفسهم مسلمين، وهم يلومون المسيحيين لأن لديهم

أساقفة وكهنة وقد جعلوا منهم أرباباً، علاوة على ذلك هم يضحكون منا، ويستخفون بنا لأننا عملنا مريم العذراء رباً، ويقولون بأن المسيح اعتذر في حضرة الله، وأنكر أن تكون أمه ربة، وفيما يتعلق بقرآنهم هم يقولون أنه لا الإنسان ولا الشيطان يمكنه أن يصنف مثل هذا الكتاب الفصيح والعذب، والعجيب المدهش، وهم يقولون بأن أعلى درجات السعادة موجودة بالمسارّ الجسدية، والشرب، وماشابه ذلك مثل الثياب، الخ، وقالوا بأن السموات قد صنعت من بخار، وهذا البخار قد تصاعد من البحار، وهم يسمون البحر Mote capff وأنه هو الذي يحيط بالعالم، ويمسك السموات، وقالوا بأن الشمس والقمر كانا في البداية متساويين بالإضاءة، ولم يكن وقتها هناك تمييز بين الليل والنهار، لكن عندما كان الملاك جبرائيل يطير عبر السماء، أصاب بجناحه فلك القمر، وبذلك جعله مظلماً، وفيما يتعلق بالموت، يقولون هناك ملاك اسمه عزرائيل، هو الذي سوف يتولى في نهاية الحياة إمارة جميع المخلوقات، حتى الملائكة، وفي الأخير سوف يميت نفسه أيضاً، وعندما يحدث هذا كله الله سوف يقيم جميع المخلوقات وبيعتهم من الموت، وذلك باستثناء الموت نفسه علاوة على هذا هم يقولون بعض الأشياء حول فضائل النفس، ونهاية جميع الأشياء، وهم يتزوجون بأكثر من زوجة، ولا يقبلون الاعتراف بممارسة السدومية، وهم يخطئون بلا حدود في كثير من المجالات، قد كتب حولها في «حصن الايمان» وفي ترجمة القرآن.

٢ — الروم الأرثوذكس

هناك كثير من الروم الأرثوذكس يسكنون في القدس، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية تمتلك في الأيام الخالية رجالاً متعلمين عظماء جداً، لكنها الآن مظلمة بذنوب لا تحصى، وبشكل خاص بأربع نقاط رئيسية هي: (١) هم لا يعتقدون بأن الروح القدس قد صدرت من الابن، أو أن ذلك له أي وجود، (٢) هم يعلنون بأن أرواح الموتى هي ليست في الجنة

ولافي النار، وذلك قبل أن يصدر عليها الحكم في يوم الحساب، وبذلك هم ينكرون عقيدة التطهير، (٣) هم يقولون بأن جسد المسيح لا يمكن تدميره أو ايدائه، (٤) هم لا يعترفون بأن كنيسة روما هي رأس جميع الكنائس، كما أنه لا تنبغي اطاعتها، وهم يفسخون الزواج على أسس تثليثية، ولا يقيمون وزناً للسيمونية، وهم يحتفظون بجسد المسيح المصنوع في يوم خميس العهد طوال السنة، ويرون أن له تأثيراً عظيماً وغالباً ما يقومون بحرمان البابا كنسياً من أساقفتنا، وجميع رجال الدين الرومان، وهم يولون قليلاً من الاهتمام لقداس المسح الأقصى، ويقولون بأن حلق اللحية ذنب من الذنوب، وهم يرون بأن أساقفتهم أعلى من السادة الدنيويين، وهم يمتلكون كراهية حادة تجاه كنيسة روما، ولذلك سلموا جميع بلاد الاغريق إلى الأتراك، وبذلك ضيعوا أنفسهم وبلادهم بسبب كراهيتهم للكنيسة اللاتينية.

٣- السريان

ويوجد في القدس سريان، هم في الحقيقة ليسوا مسيحيين، بل أبناء الشيطان، لأنهم كذابين، وغير جديرين بالثقة، ويرون أن سرقة اللاتين ليست أمراً محرماً ولا خيانتهم، وهم مثل الروم الأرثوذكس يتبعون عقيدتهم، وبعدهم أخطائهم قد أصيبوا، علاوة على هذا إنهم فيما يتعلق بيوم السبت، هم يتبعون اليهود باتخاذهم عيداً، ويستخدمون بأحاديثهم العامة اللسان العربي، وفي القداسات الدينية السريانية، ولهم لحي طويلة ويكرهون الذين بلا لحي، وهم ضعفاء، ولا فائدة منهم البتة في الحروب.

٤- اليعاقبة

ويوجد في القدس مسيحيون اسمهم اليعاقبة، كان قد جرى طردهم منذ زمن طويل من الكنيسة الإغريقية بقرارات من بطريرك

القسطنطينية، ويقوم هؤلاء القوم بختان أولادهم وفق طريقة المسلمين، وهم يخفون اعترافاتهم الشخصية، ويعترفون بطبيعة واحدة للمسيح وفي قداساتهم يستخدمون اللغة السريانية.

٥- الأحباش

ويوجد في المدينة المقدسة أحباش أو هنود، وهؤلاء لهم ملك مسيحي منه حتى المسلمين يخافون خوفاً عظيماً، ولذلك فإن الذي يحمل جواز سفره يمكنه أن يسافر خلال الشرق من دون عاقبة، وهؤلاء القوم أيضاً يختنون أطفالهم ويكونون على وجوههم بقطعة حديد محماة، ويعمدونهم باسم المسيح، ويكرسون القربان بخبز مخمر، ويعملون القربان بكلا النوعين لأطفالهم، وهم يهلكون أجسادهم بصيام شديد يصل إلى حد الهلاك من الجوع.

٦- النساطرة

ويوجد في القدس مسيحيون اسمهم النساطرة، اقتيدوا إلى الضلال بأخطاء من أسوأ الأنواع، ويتمسكون بآراء كثيرة خاطئة تتعلق بأم الرب، وبابنها، وهم يعتقدون أنه كان في المسيح طبيعتان وشخصان، ويقولون بأن مريم العذراء المباركة كانت أم المسيح الانسان، لكن ليس ابن الرب، وهم يستخدمون اللغة الكلدانية في صلواتهم، ويستخدمون الخبز المخمر في قداس العناصر.

٧- الأرمن

ويوجد في القدس مسيحيون اسمهم الأرمن، قد غرقوا في آثام متنوعة، وبين هؤلاء وبين الاغريق دوماً اعظم الخلافات، وذلك بسبب الخلافات الدينية، وهم يمتلكون لغة وأبجدية خاصة بهم، ويعدون يوم الميلاد يوم صيام، ولا يحتفلون بقداس فيه، لكنهم يمنحون تشریفاً عظيماً ليوم عيد الغطاس، بسبب تعميد المسيح، وهم يحافظون على الصوم

الكبير بصرامة عظيمة جداً، إلى درجة يمتنعون فيها عن أكل السمك، والزيت وشرب النبيذ، ومع ذلك إنهم يأكلون الخضار والفواكه كما يريدون وبشكل دائم، لأنهم لا يرون بأن هذه الأشياء تفسد صيامهم، وهم لا يمزجون الماء مع خمرة القربان، ويأكلون اللحوم في أيام الجمعة، وهم لا يسهرون كصوم، ولا في أيام Ember (الجمرة)، ولا أثناء الصوم الكبير، الذي يصومون أيامه بصرامة متناهية، ويشمل ذلك حتى يوم الرب، وهم لا يأخذون بعقيدة التطهير، ويشاركون العاقبة في أخطائهم فيما يختص بالمسيح.

٨ - الجورجيون

ويوجد في القدس جورجيون (كرج)، يُدعون بمسيحيين، وهؤلاء رجال حرب منذ ولادتهم، إلى حد أنهم يُحشون في جميع أرجاء الشرق، ويعبرون إلى حيثما أرادوا دونما إعاقة، ودون دفع أية جزية، والنساء لديهم يستخدمون السلاح مثلهن في ذلك مثل الرجال، وبينهم وبين الأرمن هناك حروب إلى درجة الفناء، وهم ملوثون تقريبا بجميع آثام الاغريق، ويطلقون لحاهم ويجعلونها طويلة مثل بقية الشرقيين.

٩ - الموارنة

ويسكن في القدس مسيحيون اسمهم الموارنة، وهم هراطقة، ويعتقدون أن للمسيح ارادة واحدة، وطاقة واحدة، وهم يقرعون النواقيس كما نفعل، في حين يدعوا المسيحيون الآخرون الناس إلى الكنيسة بالقرع على لوح من الخشب، ويستخدمون بأحاديثهم العامة اللسان العربي، لكن في طقوسهم الكلدانية، وعادوا مرة فيما مضى إلى الكنيسة الواحدة، لكنهم انفصلوا عنها منذ زمن طويل.

١٠ - التركمان

ويوجد في المدينة المقدسة أناس يعرفون باسم التركمان، وهم

متوحشون متنقلون، وقد استولوا على جميع آسيا الصغرى، وعلى شطر كبير من آسيا الكبرى، وهم أتراك.

١١ - البدو

وهناك بداءة من الشعب العربي، منهم جاء.... محمد ﷺ، ويعتقد هؤلاء أن يوم موت كل انسان، والطريقة التي سوف يموت بها، أمور مقضي بها من الله، ولا يمكن لذلك أن يتقدم أو يتجنب، ولذلك يزجون أنفسهم في أعظم المخاطر من دون خوف، ويمضون إلى الحروب دون حماية بالدروع، وهم مكروهون من قبل المسلمين والمسيحيين سواء، ويعبد بعضهم الشمس.

١٢ - الحشيشية

وهناك يوجد الحشيشية، الذين هم مسلمون، ويطيعون مقدمهم طاعة عمياء، لأنهم يؤمنون أنهم بطاعتهم له وحده سوف ينالون السعادة في الآخرة، ويتدبر مقدمهم تعليم فتيانهم مختلف اللغات، ويرسله إلى الممالك الأخرى، ليعخدمون الملوك هناك، من أجل أنه عندما يتطلب الوقت، يقوم خادم كل ملك بقتله بالسم أو بطريقة أخرى، وإذا ما تمكن الخادم القاتل للملك من النجاة والعودة إلى بلاده، فإنه يكافأ بتشريفات، وثروات، ومراتب عليا، وإذا ما اعتقل وأعدم، عدّوه في بلاده شهيداً.

١٣ - المحمديون

وفي القدس نوع من المحمديين يعبأون قليلاً بشرائع المسلمين، ويقولون بأن لديهم شريعة سرية خاصة بهم، مامن أحد ييوسح بها، باستثناء الأب، وهو على فراش موته، إلى ابنه، وإذا ما أفشى الابن ذلك إلى أمه، وتبرهن بأنه عمل ذلك، يجري اعدام الأم على الفور.

١٤ - المماليك

ويوجد في القدس ممالك، هم مسيحيون مرتدون، وهم هناك بأعداد كبيرة، وهم مكروهون من المسلمين ومن المسيحيين سواء، وهم يمتلكون الشرق كله بقوة سلاحهم، وملك مصر، الذي هو السلطان، من بينهم، ومثل ذلك جميع رجال بلاطه، ولا يعبأ هؤلاء الناس لا بشريعة محمد (ﷺ) ولا بانجيل المسيح، بل سلموا أنفسهم إلى المتعة فقط.

١٥ - اليهود

يعد اليهود بين هؤلاء جميعاً ملعونون إلى حد أن الشقاء والرفض الذي عانوا منه قد أظلم عقولهم وعطل فهمهم، لأنهم ممقوتون في جميع أنحاء الدنيا، ويعدون لشيء يستحق الاهتمام، وفيهم عدة طوائف، مثل السامرة والاسينيين، وتنشأ بينهم باستمرار هرطقات جديدة، حولهم لا أستطيع القول أكثر.

١٦ - المسيحيون اللاتين

يسكن في القدس مسيحيون لاتين، ورهبان فرنسيسكان في الكنيسة والدير على جبل صهيون، وهم يعيشون حياة انجيلية في ظل نظام دقيق، وقد تحدثت عن هؤلاء مطولاً، ويتطلع هؤلاء وحدهم من قلوبهم كلها إلى الأمراء المسيحيين للقدوم واخضاع البلاد كلها، إلى سلطة كنيسة روما، التي يمكن أن تمنح السلطة إلى أبد الآبدين.

وفيا يتعلق بالطوائف والشعوب المتقدمة الذكر، انظر ص ٢٣٩ - ٢٤٨ من رحلة بورتشارد (ج ٣٧ من موسوعتنا هذه)، وذلك في نهاية وصفه للأرض المقدسة، وفي رحلة حج صاحب النياقة، عميد مينز، وفي Speculum Historiale، وفي تاريخ أنطونيوس، وكثير ممن كتبوا حول هؤلاء المسيحيين الشرقيين، قالوا بأنهم بريئين من الهرطقات، ومدحوا بساطة حياتهم، وهذا بالفعل كان حقيقياً في الأيام الخالية، أي

منذ مائتي سنة خلت، لكن منذ ذلك الحين صاروا جميعاً - باستثناء اللاتين - ملوثين بأسوأ الآثام، وصاروا كل يوم ملوثين أكثر، لأنهم ليس لديهم لاهوتيين أو مبشرين بالايان الكاثوليكي، كما أنهم ليسوا على استعداد لاستقبال مثل هؤلاء، ذلك أنهم راضين بأن يموتوا بآثامهم.

القسم الثاني

من

كتاب رحلات وجولات فيلكس فابري من أولم ومن طائفة
الرهبان المبشرين

الحج من مدينة القدس المقدسة إلى حوريب، وإلى جبل الرب،
وإلى جبل سيناء إلى الضريح الملائكي لكاترين العذارى المباركة

مرة أخرى سوف أتجول وأرتحل خلف خطوات شعب موسى في
الجزء الداخلي من القفار، باتجاه حوريب، وجبل الرب (الخروج: ١/٣)،
لأنني الآن أنهيت وختمت وصفي لجولاتي ورحلاتي في حجي إلى
القدس، والذي بقي هو أن أقوم بوصف جولاتي ورحلاتي في حجي إلى
سيناء، وهو الموضوع الذي سوف أركز عليه فيما يلي:

ويحتوي القسم الثاني من كتاب جولاتي ورحلاتي، وصف حجي إلى
الصحراء الكبرى في العربية، وإلى مدين، وإلى جبل سيناء، وإلى قمته
التي هي أقصى نقطة عملت في سبيلها في حجي كله.

ثم يحتوي بعد ذلك حجي في أرض بلاد مصر، ورحلتي عبر النيل
مع وصف ما هناك، والعودة من حجي بالبحر وبالبئر حتى أولم، التي
هي مدينة نقطة الانطلاق، وهي التي سوف أصفها بعد الجميع.

ويحتوي هذا القسم على ستة فصول، وذلك مثلما حوى القسم
الأول.

ويبدأ هنا الفصل الأول، الذي هو الفصل السابع في ترتيب كل
كتاب الرحلات والجولات، وهو يحتوي على وصف للحج خلال القفار
مع وصف لجبلي: حوريب وسيناء.

ويحتوي الفصل الثاني، الذي هو الفصل الثامن، على وصف الحج في
مصر في شهر تشرين الأول.

ويحتوي الفصل الثالث، الذي هو الفصل التاسع، وصف الحج فوق
البحر، ووصف الجزر فيه في شهر تشرين الثاني.

ويحتوي الفصل الرابع، الذي هو الفصل العاشر، وصف الرحلة البحرية في شهر كانون الأول. ويحتوي الفصل الخامس، الذي هو الفصل الحادي عشر، وصف الحج في البندقية، ووصف البندقية وعودة الحجاج إلى أوطانهم في شهر كانون الثاني.

ويحتوي الفصل السادس، الذي هو الفصل الثاني عشر، وصف فائض جداً لألمانيا ولمدينة أولم، لكن بما أن هذا الفصل فصل طويل، وقد ملأ كتاباً قائماً بذاته، لم ألحقه بكتاب جولاتي ورحلاتي، بل عملت منه مجلداً منفصلاً.

هنا يبدأ

الفصل السابع من كتاب الرحلات والجولات ، وبه نبدأ رحلتنا الثانية من القدس إلى جبل سيناء

هناك ثلاثة أشياء ينبغي الفراغ منها، قبل الانطلاق برحلة الحج إلى جبل سيناء، وهي: الأول: هو أن الحج يحتاج إلى ترتيب مع الحكام المسلمين للقدس، لعقد اتفاق مع الترجمان، عليه بموجبه أن يؤمن لنا مرافقة، وجواز سفر (أمان) خلال القفار حتى مصر، وكنا قد عقدنا هذا الاتفاق كما أوضحنا من قبل، والثاني: يحتاج الحجاج إلى اعداد المؤن وتزويد أنفسهم وشراء الطعام اللازم للبقاء أحياء أثناء رحلتهم عبر القفار، (وهذا أمر قد تحدثنا عنه من قبل)، والثالث: هو أن على الترجمان الرئيس -وفقاً لشروط الاتفاق -تقديم الجمال وسائقي الجمال، وخمير وسائقيهم، وتعيين يوماً محدداً وساعة لمغادرة الحجاج، وهذه الأشياء كلها عملت، وعين لنا اليوم الرابع والعشرين من آب -وهو يوم عيد القديس بارثلميو الرسول -من أجل مغادرتنا، والسفر من القدس، عند ساعة العشاء.

وبناء عليه خرجنا في الصباح الباكر من كنيسة ضريح الرب، في ذلك اليوم نفسه، وبعد تناولنا لطعام الافطار، ذهبنا جميعاً إلى جبل صهيون، حيث وجدنا الكالينيين هناك بانتظارنا مع الجمال وسائقي الجمال والخمير وسائقي الخمير، ولذلك بادرنا مسرعين، وأخرجنا جميع حقائبنا من دير الرهبان، وكومناها في مكان واحد، بناء على طلب سائقي الجمال، حتى يروا حجمها ولكي يوزعوها بين الجمال بالتساوي، ذلك أن الجمال ينبغي تحميلها بدقة، ومتوازن بشكل جيد، أي أن تكون الأوزان متساوية، وعندما حملنا كل شيء ووضعناه في مكان واحد وفي

كومة واحدة، كونوا حملاً ثقيلاً، لأنه كانت هناك أكياس كثيرة من البقساط، وجرار كثيرة مليئة بالخمير، كانت موضوعة داخل أكياس من الشعر، حتى لا يراهم المسلمون مكشوفين، ويزعجوننا من أجلهم، وكانت هناك أوعية كثيرة مليئة بالماء، وسلال مليئة بالبيض، وأقفاص فيها ديك ودجاج أحياء، وكانت هناك فرشنا وملابسنا ومزاودنا، وصناديق وسلال فيها أواني المطبخ والأباريق، والصحون والأطباق، وقد تكون من هؤلاء والأنواع الشبيهة كومة كبيرة، ولذلك اندهش سائقونا تجاهها، لأن من الصعب على الانسان أن يصدق أن عشرين رجلاً سوف يحتاجون إلى مثل هذه الكمية من الحقائق لدى عبور الصحراء، هذا ويتوجب على الانسان أن يحمل كميات وافرة من الزاد، حتى لا يعاني من العوز أثناء اثنين وستين يوماً، وليكون بإمكانه إعطاء خبز وبقساط، ولحم مدخن وجبن إلى البداة العرب، والمدينين الذين يقابلهم، لأن هذا يطفى غضبهم، وبذلك يستطيع شراء السلام منهم.

وعندما جلبت جميع الأشياء إلى الخارج، اقتاد سائقوا الجمال جماهم نحو كومة الأشياء، وأناخوها واحداً تلو الآخر، وحملوها، وأثناء القيام بهذا العمل، وقفنا إلى جانبهم، وراقبنا بعناية أيديهم، خشية أن يسرقوا أي شيء منا، وأيضاً لكي نتعلم كيف يحملون الجمال، وكيف يتدبرونهم، وبعدما جرى تحميل اثنين وعشرين حملاً مع كثير من التعب استدعينا من قبل سائقي الحمير إلى قطع الحمير، حتى يقوم كل واحد باختيار حمار لنفسه، على ظهره سوف يركب خلال الصحراء كلها ووصولاً حتى مصر، وكان السائقون قد اتفقوا فيما بينهم، من أجل الحفاظ على السلام، أن لا يشير أحد على أحد من الحجاج بأخذ هذا أو ذاك، أو أن يقول شيئاً حول الدابة، شيئاً كان أم جيداً، بل تركوا الأمر إلى اختيارنا، وهكذا فإن كل من قام باختيار سيء، لن تكون لديه حجة للتخاصم مع أي واحد أو توجيه اللوم إليه، كما أنه لن يكون بإمكانه - لسبب من

الأسباب- دفع أقل ممن جرى تزويده بدابة جيدة، وعندما قمنا بالاختيار، توجب على الذي اختار أفضل دابة أن يدفع الأجور ومال الشرب لجميع رفاقه.

وكان سائقوا الحمير أنفسهم يعرفون أي الدواب كان جيداً، وأياً كان سيئاً، ذلك أن السرج على ظهورها كانت متشابهة، وبناء عليه ركض موالي الفرسان إلى هنا وهناك بين الحمير، وجربوا أحدها بعد الآخر، وسعى أحياناً اثنان من الحجاج أو ثلاثة وراء همار واحد، وعندما رأيت هذا، وكنت راغباً في عدم ازعاج أي انسان بالقيام باختياري، تركت القطيع، وتسلفت الدرج الحجري حتى باب كنيسة صهيون، وجلست فوق عتبة الباب، وتطلعت نحو قطع الحمير، حيث راقبت الآخرين وهم يختارون دوابهم، وكذلك قدرت في نفسي أية دابة سوف أختارها، ورأيت وقتها بين الحمير واحداً كبيراً أبيض، أذناه متدليتان نحو الأسفل، وقد بدا لي أنه يمتلك رأساً ثقيلاً، وبدا وكأنه دابة باهته، وأن ما من واحد من الحجاج سوف يلمسها، وقد ركزت على تلك الدابة، ليس لأنني رأيت أية جودة فيها، بل لمجرد أنني رغبت بعمل مباراة ما مع موالي في اختيار دابة نظر الجميع إليها بامتهان.

وهكذا بعدما اختار النبلاء جميعاً دوابهم بعناية كبيرة وتفكير عظيم، وتوقفت الضجة، نزلت وقمت بدون أي فحص باختيار الحمار المستخف به، واقتدته إلى الجانب، وأعدته لامتطاء ظهره، فما كان من سائقي الحمير إلا أن ركضوا نحوي، وهم يضحكون ويصرخون، وطلبوا مني إعطائهم مالاً، وفي البداية أنا لم أفهم ما الذي كانوا يقولونه لي، وقد انزعجت لطلبهم المال مني، في حين لم يطلبوا فلساً واحداً من أي انسان آخر، لكن المترجم أخبرني بأنني قد اخترت أفضل الحمير جميعاً، ولهذا السبب كانوا يطلبون أجورهم، وعندما سمعت هذا اخرجت أربعة مندوسات وأعطيتهم لهم، وعلى هذا تزودت خلال

الرحلة كلها بأكثر الدواب أماناً بينها جمعاً، وهذه الدابة لم تعرف التعب، وكانت بلامساوىء، ولم تقع قط معي، ولم تجعلني أتخلف وراء الركب، وهي لم تحف قط، ولم أحثها، ولم تعضني، لكنها كانت تمضي أمام الجميع من دون أي ضرب، وعندما سألت سائقها عن المبلغ الذي يمكن أن يبيعها به، قال بأنه لن يبيعها بأقل من عشر دوقيات، هذا ولقد كنت دوماً محظوظاً في حجي في اختيار الدواب، وهذا ماكنت قد ذكرته وأوضحته من قبل، ولا يمكن للإنسان أن يكتب عن المتاعب وعن المصاعب، والمخاطر التي يتعرض لها الحجاج الذين يختارون دواب غير آمنة، وبطيئة وسيئة.

وعندما جرى تحميل الجمال، وجرى اختيار الحمير، ووضعت السرج على ظهورها، ذهبنا إلى كنيسة صهيون، وتلقينا مباركة الحجاج من الأب المبجل المسؤول في جبل صهيون، وعانق كل واحد منا، وباركه، وودعه بقبلة، هذا وقد توجب عليّ لدى المغادرة، أن أقدم أكثر من غيري الشكر للأب الجيد، وللدير كله، حيث أنني تلقيت منهم لطفاً زائداً، وكانوا جميعاً جيدين جداً نحوي، وذلك كما أوضحت من قبل.

ولدى مغادرتنا لكنيسة صهيون، نزلنا إلى حيث كانت حميرنا، وعندما امتطينا ظهورهم، تولت الجمال القيادة على الطريق ونحن تبعناهم خارجين من المدينة، لكن ليس من دون حزن في قلوبنا، وليس من دون دموع، غادرنا من مدينة القدس المرغوبة، فلقد غادرناها بآهات وبكاء، ومن جانبي لم أكن قط أكثر سعادة في أي مكان في العالم مما كنته في القدس، فلقد أمضيت فيها ساعات ممتعة جداً وأيام هناك، وعندما كنا نازلين من جبل صهيون حاول بعض الشبان المسلمين والفتيان والأطفال اعتراض سبيلنا وازعاجنا، وسعوا إلى سحب بعض الحمولات من على ظهور الجمال والاستيلاء عليها، وبصعوبة بالغة تمكن أدلاؤنا من إبعادهم عنا.

وفي تلك الأثناء، وقبل أن نصل إلى قعر هضبة صهيون، انكسرت إحدى جرار الخمرة، وسالت من خلال كيس الشعر الذي كانت ملفوفة به إلى الأرض، وقد انزعجنا كثيراً لهذا الحادث، لأنها كانت خمرة جيدة، شريت بسعر مرتفع، وأخفيت بعناية كبيرة، خوفاً من المسلمين، ومع ذلك لم يكن الذي أزعجنا خسارة الخمرة، بل كنا نخشى كثيراً من غضب المسلمين، حيث أنهم ما أن يشموا رائحة الخمرة كانوا سيهاجمونا ويكسرون الجرار الأخرى، ولو أننا حرمتنا من خمرتنا ما كنا لنحاول الحج إلى جبل سيناء، كما أنه ما كان بإمكاننا العيش في الصحراء من دون خمرة نشربها.

وهكذا تركنا الخمرة تسيل على الأرض، لأنه لم يكن لدينا وعاء آخر، والذي قمنا به أننا اتخذنا حيلة خاصة لنحول بين سائقي الجمال وسائقي الحمير القدوم إلى ذلك المكان وشرب الخمرة وهي تنصب نحو الأسفل، بسبب أنهم لو تذوقوها، لصاروا سكارى على الفور ولسبوا بذلك كثيراً من المتاعب لأنفسهم ولنا، ولأهملوا حقائبنا، وقد أعطيت حماري إلى واحد من الفرسان وركضت إلى جانب الجمل، حيث كانت الخمرة تنصب نحو الأسفل، ولم أدع أحداً من المسلمين يقترب، وملأت قارورتين كبيرتين كانتا معي، بالخمرة التي كانت تنصب وهكذا تابعنا سيرنا ببطء، هذا ومن الصعب عليّ أن أكتب عن جميع المتاعب التي عانينا منها فوق تلك المسافة القصيرة، بسبب هجمات المسلمين، وبسبب متاعبنا.

ولقد أعقنا كثيراً أثناء سفرنا وتعرضنا لمضايقات كبيرة، إلى درجة أننا احتجنا إلى سبع ساعات لنعبر فوق ذلك الطريق، مع أنه من الممكن عبوره خلال أربع ساعات، ولذلك كان الليل ظلاماً عندما وصلنا إلى بيت لحم، وبمشقة كبيرة أنزلنا الأحمال من على ظهور الجمال والحمير، في رواق كنيسة بيت لحم، وسحبنا كل أشياءنا إلى قاعة مجاورة للكنيسة،

وجلسنا نتولى حراسة القاعة.

ودخلنا الآن إلى الكنيسة ونحن نحمل مصابيحاً، ونزلنا إلى مكان ميلاد ربنا، وهو المكان الأعظم عذوبة، وعندما كنا نصلي هناك جاء الأب المسؤول مع رهبانه، واستقبلونا بترحاب، وأخذونا إلى المكان الذي يمكننا أن نأكل فيه، وأن ننام، لأنهم كانوا على معرفة بقدمنا، ولذلك كانوا قد أعدوا كل شيء، وجهزوه من أجل عشاءنا ونومنا، ويمتعة تناولنا عشاءً جيداً، جرى إعداده على حسابنا، وبعد ذلك تمددنا بأنفسنا للاستراحة، والمجد للرب في الأعالى.

ونفضنا في الخامس والعشرين من آب بعد منتصف الليل، أي أن تقول، قبل انبلاج الفجر، وذهبنا إلى كهف ميلاد الرب، وقرأنا صلواتنا هناك في كل من الساعات القانونية وعلى شكل قداسات، وعندما أشرقت الشمس نزلنا إلى وادي الرعاة إلى «المجد في الأعالى»، وغنينا هناك مع الملائكة تلك الترنيمة السماوية، وتفحصنا المكان بدقة، هذا وكنا قد تحدثنا عن هذا الوادي ووصفناه من قبل، وبعدما فرغنا من صلوات الشكر في الوادي، ذهبنا صاعدين إلى بيت لحم من أجل تناول طعام الافطار، وبعد أكلنا لافطارنا، تجولنا في أرجاء دير القديس جيروم، وتعجبنا من خرائبه، كما وسرنا حول بلدة بيت لحم، وذهبنا إلى بركة داوود، وأثناء قيامنا بهذا أعدنا إلى الذاكرة جميع نصوص الكتابات المقدسة التي أشارت إلى هذه الأماكن، وهكذا أمضينا ذلك اليوم بسرور في ذلك المكان الممتع والأعظم قداسة.

وكانت إقامة ممتعة قرب مزود الرب، بسبب قداسة المكان والغفرانات، وكذلك بسبب جمال الكنيسة، وضخامة خرائب ذلك الدير الفخم جداً، الذي لم يكن ديراً للرهبان فقط بل قصراً وقلعة للأباطرة، ويعتقد بسطاء الناس بأنه كان دير القديس جيروم، مع أن جيروم كان قد أقام في كوخ، في دير بسيط، تأسس في أيامه، وعلى هذا الأساس قال

في رسالته إلى فابيولا Fabiola : «أنا محب لنزل بيت لحم، وللمزود الذي وضعت فيه الأم العذراء الطفل»، وقال كذلك في «نظامه القانوني»: الفصل ٣٦: « ما من مهابة يمكن أن تكون أعظم هيبة من بيت لحم هذه، ففي هذا الصدع ولد باني السموات»، لأنه قبل أيام القديس جيروم كان مكان ميلاد المسيح، مجرد كهف، ولم يكن هناك دير، ولهذا نقرأ في «نظامه القانوني» الفصل: ٢٠ «نحن حريصون على بناء دير ونزل إلى جانبه، خشية أن تقدم مريم ويوسف إلى بيت لحم، ولا يجدان غرفة في النزل»، وجاء الخبر في «حكاية القديس جيروم»، بأن سيرل، رئيس أساقفة القدس، قد أعطاه أبرشية بيت لحم، التي فيها بنى بمساعدة الجيران ديراً، لكنه احتاج إلى المال، فبعث بأخيه بولينيانوس Paulinianus إلى بلاده لبيع ممتلكاته القليلة هناك، قاصداً انفاق مال البيع في بناء الدير في بيت لحم، وهذا ما قرأنا عنه في «نظامه القانوني»، الفصل: ٢٠.

وبقدر ما أستطيع تخمينه، لا أعتقد أن الكنيسة الجميلة القائمة هناك في هذه الأيام يمكن، أن تكون قد بنيت في أيام القديس جيروم، ويتحدث الناس الجهلاء على أنها بنيت من قبل القديسة هيلانه، غير أن ترتيب البناء الحديث تجعل هذا ليس ممكناً، لأنه روي لنا بأن القديس جيروم قد نحت لنفسه ضريحاً عند فم كهف الميلاد، وأن فم الكهف كان ضيقاً، لكن في هذه الأيام ضريح القديس جيروم موجود خارج الكنيسة، والمدخل إلى الكهف ليس في الكنيسة نفسها، والكهف فخم جداً، وله مداخل واسعة، منها يتم الدخول إليه، والذي أعتقد أنه هذه الكنيسة قد بنيت في أيام آخر الملوك اللاتين في القدس، ومثل ذلك هذا الدير الكبير، وهذا يفيد بأن كوخ جيروم الصغير، قد أزيل، وأعيد ترتيب المكان من جديد، وتبان مصداقية ذلك، بالنقوش، والرسوم، والتماثيل في ذلك المكان.

جبل رامما وبلدته الحصينة جداً

وفي اليوم السادس والعشرين، وبعد قداس عند مزود الرب، طلب الفرسان من كاليانوس الرئيس، أن يقتادهم إلى برك سليمان، وإلى بساتينه وحدائقه، وإلى كنيسة القديس جرجس، وعلى هذا اعتلوا ظهور حميرهم، واقتيدوا إلى هناك، لكن بما أنني قد كنت في هذه الأماكن من قبل، كما سلف لي وتحدثت، قمت بحج آخر في ذلك اليوم، وخرجنا خمسة من بيت لحم، حيث كان هناك أربعة رهبان فرنسيسكان قد قدموا معنا من القدس، وأنا شخصياً، ومضيئنا باتجاه الجنوب إلى سفح جبل مرتفع، واقف هناك في السهل بشكل مستدير ورأسه مرتفع مشرع في الهواء بسطح مستو وواسع منه يستطيع الانسان أن يشاهد الأرض المقدسة بالطول وبالعرض، وتسلفنا ذلك الجبل بصعوبة وتعَب، ووصلنا إلى قمته، حيث شاهدنا المنطقة من حولنا، وحدقنا هنا وهناك عبر الأرض المقدسة، وقام فيما مضى فوق هذا الجبل هناك قلعة حصينة، وكانت مليئة بالناس، وكان اسمها رامما، وإليها أشار القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، هذا وبشكل عام أطلق على جميع القرى التي قامت فوق مكان مرتفع اسم رامما، وهذا أمر كنت قد تحدثت عنه من قبل، وكان هذا الجبل مرتفعاً إلى درجة أن الانسان يمكن من عليه أن يشاهد البحر الميت، وجبال العربية، وجبلي سعيير وجلعاد، ويمكن للانسان أن يشاهد جبال عين الجدي، والأماكن التي أخفى داوود فيها نفسه، وقفار تقوع، وشيلوه، وجبل الزيتون، مع جزء من جبل صهيون خلفه، وهكذا دواليك حتى البحر المتوسط.

وهذا مايمكن للانسان أن يراه من قمة الجبل العارية، إنما في العصور الخالية، حيث كانت هناك أبنية عالية مشادة في ذلك المكان، كان بإمكان الانسان أن ينظر بشكل أوسع، وذلك حتى الجليل، وفلسطين، وحدود مصر، وقد كان هنا قلعة كبيرة مع أبراج عالية، اسمها رامما، وحول هذا

المكان ورد النص الموجود في إرميا -الاصحاح: ٣١، وفي متى -الاصحاح: ٢، قوله: «صوت سمع في الرامه نوح وبكاء»، وحول هذا المكان كتب هذا النص، لأنه عندما قتل هيرود الأطفال في بيت لحم، وفي المنطقة من حولها، سمع بكاء الأطفال، ونواح أمهاتهم في رامه هذه، ولذلك قال القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»: «رامه مكان قرب بيت لحم، وعنهما كتب: صوت سمع في الرامه».

وكان يوجد في اطارها مسافة كافية خارج أسوارها، لزراعة وإنتاج ما يكفي من قمح، ليقدم خبزاً لسكان القلعة طوال السنة، وقد بنيت هذه القلعة من قبل واحد من الملوك اللاتين في القدس، وعندما استولى صلاح الدين، ملك مصر، على القدس والأرض المقدسة بقوة السلاح، وطرد الصليبيين اللاتين من هناك، استولى على جميع القلاع الأخرى والبلدات والقرى، لكنه لم يستطع -بأية وسيلة من الوسائل- نيل قلعة الرامة هذه، التي جرى الدفاع عنها برجولة من قبل الصليبيين، ولذلك رفع الحصار، واستمر المسيحيون اللاتين يسكنون في القلعة لمدة ثلاثين سنة بعد الاستيلاء على القدس، وبيت لحم، ولم يستطع المسلمون طردهم، ولكانوا مايزالون هناك حتى هذا اليوم لولا أن الرب قاتل ضدهم، لأنه مع نهاية الثلاثين سنة، أرسل الرب وباء إلى داخل القلعة، وفي وقت قصير ماتت النساء جميعاً من الطفلة الصغيرة إلى المرأة العجوز، كما مات الجزء الأكبر من الرجال، ولدى رؤية البقية ماحدث، هجروا القلعة، وهربوا، وعندما عرف المسلمون بذلك، تسلقوا الجبل، وهدموا القلعة، وسووها بالأرض، ولذلك لا يوجد في هذه الأيام، أو بالحري لا يمكن العثور على أية أثر للجدران، ونظراً لحصانة هذه القلعة، ولأنها كانت لاترام، سماها الصليبيون بيت أوليا، على اسم قلعة يهودت، بيت أوليا، الموجودة في الجليل.

وأثناء النظر من هذا الجبل إلى جبل آخر يواجهه، رأينا هناك بناء

قديماً، إلى جانبه ضريح الأنبياء الاثني عشر الصغار.

وقام فيما مضى عند سفح هذا الجبل دير راعي الدير القديس أغاثون Agathon ، الذي كان رجلاً صاحب سلطة واسعة، وأبا لكثير من الرهبان، ولحبه للصمت حمل حجرة في فمه لمدة ثلاث سنوات، فهذا ماورد خبره في «حياة الآباء».

علاوة على ذلك، في هذه المنطقة كان دير القديس خاريتون Khari-ton، الذي كان أباً لكثير من الرهبان، حيث أنه عندما فارق الحياة، فارق جميع رهبانه معه الحياة، ودفنوا جميعاً في قبر واحد، وهو قبر مشاهد هناك حتى هذا اليوم.

وليس بعيداً عن هذا المكان، رأينا الجزء العلوي من بناء دير القديس سابا، الذي كان راعي دير، والذي تحدثت عنه مطولاً من قبل.

وبعدما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، نزلنا من الجبل، وعدنا إلى بيت لحم من أجل تناول طعام العشاء، ووجدنا هناك السيد فكرديوس Vaccardinus (فخر الدين) وكان مسلماً صاحب سلطة كبيرة، من القدس، وكانت معه حاشيته، وقد بعث وراء الترجمان، ولامه لوماً شديداً لسماحه لنا بإمضاء ذلك اليوم هناك، وأمره باقتيادنا نحو الأمام على طريقنا في الصباح التالي بالتحديد.

مغادرة بيت لحم

في السابع والعشرين، جاء كالينوس الرئيس، بعد منتصف الليل، إلى مكان إقامة الحجاج وأيقظهم من أجل رحلتنا، وبناء عليه استيقظنا مسرعين، وذهبنا إلى كهف ميلاد المسيح، حيث قرأنا صلوات مع قداسات في ذلك المكان المقدس للغاية، الذي كنا نكره مغادرته، وأثناء انشغالنا بالاحتفال بالقداس جاء كالينوس المسلم إلينا وحثنا على الاسراع، وصرخ لنا للخروج، وأخرجنا الآن جميع أثقالنا التي كانت

الجمال ستحملها، وشرعنا بتحميلهم، ولم نكن حتى ذلك الحين نعرف طرائق التحميل، كما أننا لم نكن نعرف عادات، وإشارات، وكلمات سائقي الجمال، كما أنهم لم يفهموا عاداتنا، وإشاراتنا وكلماتنا، ولذلك قمنا لعدة أيام بتحميل دوابنا مع كثير من الخصام والاضطراب، وصدرت المشاكل من سائقي الجمال، حيث أخذوا أولاً غرضاً واحداً من كومة الأثقال، ثم غرضاً آخر، من أجل جعل الحملات على الجمال متوازنة، وكان هذا غير موافق لنا، لأننا انقسمنا إلى ثلاث مجموعات، وكان لكل مجموعة أغراضها، ولم نمتلك أثقالاً واحدة لنا جميعاً، مع أن الجمال كانت لنا جميعاً بشكل عام، وهذا أمر لم يفهمه المسلمون، بل اعتقدوا أن جميع الأشياء لنا جميعاً بشكل عام، وقاموا بالتحميل دونها اهتمام بمن عاد الشيء إليه، وعلى هذا كان جل واحد يحمل أحياناً أشياء عائدة إلى الجماعات الثلاث كلها، أو إلى ست أو ثمانية من الحجاج، ولهذا كان يحدث أثناء إنزال الأثقال فوضى واضطراب، وركض إلى الأمام وإلى الخلف، حيث توجب على كل إنسان جمع أثقاله من ثلاثة أو أربعة أماكن، وكنا على هذا سعداء جداً بتعيين بعض الجمال لحمل أثقال الفئة الأولى، وبعضهم لحمل أثقال الفئة الثانية، وبعضهم الآخر لحمل أثقال الفئة الثالثة، لكن هذا ما لم يفهمه سائقوا الجمال، وما كانوا ليفلعه، ومن هنا - كما قلت - ثارت خلافات كثيرة حول تحميل الجمال، لاسيما وقت الانطلاق.

وبعدما حملنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، امتطينا ظهورهم، وانطلقنا من الدير باسم الرب، وقد عبرنا من وسط البلدة، وتابعنا سفرنا على حافتيها القصوى باتجاه الجنوب، نحو جانب جبل بيت أولياء، أو راما، الذي ودعناه على جانبنا الأيسر، ووصلنا أثناء سيرنا إلى قمة وادي رفايم Raphaim، وسرنا مجتازين لتخومه خلال ساعة تقريباً، وكان من الممكن لهذا الوادي أن يكون خصباً، لو توفر من يقوم بفلاحته،

ومن ثم كان سيمتلىء بالقمح كما جاء في (سفر اشعيا: ٥ / ١٧) قوله: «ويكون كجمع الحصادين الزرع وزراعه تحصد السنابل، ويكون كمن يلقط سنابل في وادي رفايم».

وفي هذا الوادي هزم داوود الفلسطينيين، الذين كانوا قد نشروا أنفسهم هناك مثل الجراد، كما جاء في سفر صموئيل الثاني: ٥، ويفصل هذا الوادي منطقة اليهودية التلية عن سهل الفلسطينيين، أو عن فلسطين، وذلك حتى نهايته هناك، ولذلك كانوا قادرين على الصعود من خلاله إلى أرض اليهودية.

وأثناء متابعتنا لسفرنا، خلفنا بيت لحم بعيدة جداً عنا، إنما كان بإمكاننا رؤيتها خلفنا حتى الظهر، وعند الظهر وصلنا إلى منطقة خصبة، حيث كانت هنالك حقول مليئة بأشجار الفواكه، مع كثير من أشجار الزيتون والتين، وهنا انسحبنا جانباً، وخرجنا عن الطريق ودخلنا إلى غابة كثيفة من أشجار الزيتون، حيث جلسنا في الظل، وأكلنا الذي جلبناه في جعبنا من بيت لحم، لكن لم يكن بإمكاننا الشرب، لأن الجمال التي كانت تحمل روايا الماء سارت أمامنا، وبناء عليه بعدما تناولنا وجبة سريعة، امتطينا ظهور حميرنا من جديد، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى مفرق للطرق، حيث يمضي الطريق القائم على يمين الانسان إلى غزة عبر السهل في فلسطين، وهو يمر خلال البلدة التي اسمها ثيرين *thyrin* ، والقلعة التي اسمها قلعة القديس صموئيل (الجيب الأعلى).

وهناك طريق آخر، قائم على يسار الانسان، يقود من خلال المنطقة التلية نحو حبرون، ومن حبرون يستدير، ويمضي إلى المنطقة السهلية لفلسطين ومن ثم إلى غزة، والطريق إلى غزة بوساطة الطريق القائم على جهة اليسار، هو أقصر بميلين ألمانيين، من الطريق القائم على جهة اليمين، وبناء عليه أمرهم كالينوس الرئيس أن يقتادوا الجمال على طول

الطريق المنخفض والأقصر، وهو طريق لانمر عبره بحبرون، لكن عندما سمعنا بهذا صرخنا بأصوات عالية جداً وكثيرة، وأصررنا على اقتياد الجمال على طول الطريق الآخر، الذي يذهب إلى حبرون، وتخاصمنا بعنف مع أدلائنا حول هذه المسألة، لأنهم أرادوا أخذ الطريق الأقصر، ذلك أننا أردنا رؤية مدينة حبرون، والأماكن المقدسة حيث مدفن البطارقة، والحقل الذي من ترابه جرى صنع أبونا الأولين، ولولا أننا ذكرنا بشكل واضح في عقدنا معهم وجوب أخذنا إلى حبرون، لما كان بإمكاننا تحقيق هذه الرغبة.

وفي الحقيقة إنني أنا وحدي كنت السبب في ادخال هذا الشرط في العقد، لأن الأب المبجل لودويغ فوشي، رئيس دير أولم، قد رجاني عندما كنت على وشك السفر أن لا أغادر الأرض المقدسة من دون رؤية مدينة حبرون، التي كان يشعر نحوها بعاطفة تقوية خاصة، وأنا شخصياً كنت متشوقاً كثيراً لرؤيتها، وتصديت إلى جميع الأعداء التي قدمت لاعتراض ذهابنا إلى هناك، لأن كاليئوس الرئيس تحدث عن كثير المخاوف التي يمكن أن نصدها ونقع بها، بالاضافة إلى إطالة الطريق.

وتقع حبرون على بعد ستة فراسخ فقط عن بيت لحم، وهكذا بعد نقاش طويل ربحنا نحن وأقنعنا أدلاءنا، وأعادوا الجمال إلى الطريق الأعلى خلال المنطقة التلية، وعندما مضينا على الطريق، رأينا ماكان بالحقيقة أرضاً جيدة، لكن قليل منها كان مفلوحاً، كما لم تكن هناك أية قرية ورأينا فوق الجبل وفي الوادي جدران قديمة من الحجارة الجافة، بهم كانت الجبال محاطة من أجزائها الدنيا حتى قممها، وفي داخل هذه الجدران من الحجارة الجافة كان فيما مضى بساتين كروم عنب، وزيتون، وبرتقال، ورمان، وأشجار فواكه أخرى جيدة، قد نبت في مكانها الآن أشواك، وقُراض، وشوك سناني، وعوسج، وعليق، وأعشاب أخرى بلافائدة، تنمو ذاتياً.

دخول الحجاج إلى مدينة حبرون

وأثناء متابعتنا سيرنا وصلنا إلى واد فائق الجمال، اسمه وادي حبرون، وعلى طرفيه، كانت الأطراف مغطاة بأسيجة معمولة من جدران أحجار جافة، من أجل كروم العنب والبساتين، غير أن كل شيء كان نامياً هناك كان برياً، وبينهم كان هناك كثيراً من أشجار البطم، تعطي كميات كبيرة من زيت البطم، ولو أنه كان في هذا الوادي أي أناس يتولون زراعته، لكان مليئاً بجميع أنواع الأشياء الجيدة، وتابعتنا سيرنا، فوصلنا إلى مكان مليء بأشجار الزيتون، إلى حد بدا المكان وكأنه غابة منهم، وفي المكان الكثيف من هذه الأشجار، أمرنا قائدنا كاليينوس بالترجل من على ظهور دوابنا، وانزال الأثقال عن ظهور الجمال، وقد فعلنا ذلك، وأفادتنا الأشجار وكانت بالنسبة لنا بمثابة خيم وسُتر ضد الحرارة الهائلة للشمس، التي بدت لي أنها أكثر حرارة في هذه المنطقة منها في القدس، وجلسنا في الظل وأكلنا بقسماتنا من دون أي شراب منعش، لأن الخمرة في الجرار، والماء في الروايا، كانت ساخنة، وبلا فائدة في إطفاء العطش.

ولم نكن بعيدين عن مدينة حبرون المقدسة، لكن لم يكن بإمكاننا رؤيتها، لأنه كانت هناك رابية بيننا وبين المدينة، على الذي يود الدخول إلى المدينة الالتفاف قليلاً حولها، هذا ويقال بأن مدينة حبرون القديمة جداً، التي عنها تتحدث الكتابات المقدسة، كانت قائمة فوق البقعة ذاتها حيث كنا، ذلك أن شطراً من المدينة كان قائماً على منحدرات الرابية، والشطرن الآخر فوق أرض منبسطة تحت، وحدث بعد ذلك أنه بسبب الكهف المزدوج، وضريح إبراهيم، الذي هو موجود على الجهة الأخرى من الرابية، انتقلت المدينة إلى حيث كان الكهف، وهذا ماسوف أتولى شرحه.

وعندما كنا جالسين هناك، ركب Sabathytanco أي

كالينوس الرئيس حصانه مع واحد من المرافقين، وذهب إلى مدينة
حبرون، لإخبار حاكم المدينة، وسكانها بأن هناك حجاجاً مسيحيين
لاتين، من بلدان ما وراء البحر، قد جاءوا، ويرغبون— بعد الحصول
على إذنه— برؤية المدينة، والمكان الذي جرى دفن البطارقة فيه، وعندما
سمع الحاكم هذا، وبنح كالينوس بحدّة لأنه تركنا، وقت ارتفاع حرارة
الشمس، في السهل المفتوح، حيث لا يوجد ماء ولا خبز يمكننا الحصول
عليه، وأمره بالعودة سريعاً، وجلبنا مع جميع أثقالنا إلى النزل العام التابع
للمدينة، وأخبره كالينوسينا، بأن الجمال قد أنزلت أثقالها للتو، وقد
تركت ترعى، ولا يمكن إعادة تحميلها من دون كثير من المتاعب
والاضطراب، ولذلك اقترحنا إرسال خدمه إلى المسلمين ولجلب الحجاج
لزياره الأماكن المقدسة، وبعد القيام بذلك، أن يعيدهم ثانية إلى حيث
أثقالهم موضوعة، وامضاء الليل هناك، والانطلاق في الصباح، وعندما
سمع الحاكم هذا، انفجر غاضباً من كالينوس، وقال بأنه كان خائن
الحجاج وليس دليلهم، لأن المنطقة كانت مليئة بلصوص من البداة
العرب، وقال: «لا يمكن للحجاج امضاء الليل في الحقل في ظل خطر
النهب، لذلك أحضرهم إلى هنا، وإذا لم تحضرهم، أنا سأفعل
ذلك».

ولذلك عاد كالينوس وهو مغضب جداً، وأمر بتحميل الدواب،
وعندما أنجز هذا، امتطينا نحن ظهور حميرنا، وعندما دخلنا إلى المدينة،
كان هناك تدافع كبير للناس لرؤيتنا، لأنه لم يكن هناك حجاج لاتين منذ
كثير من السنين، وكان أمراً عجباً رؤية مسيحيين غربيين لاتين هناك،
وقد أخذونا إلى النزل العام للمدينة مع جميع دوابنا، وقد وجدنا مكاناً
رحباً لإيواء دوابنا، وغرفاً للرجال في الأعلى وفي الأسفل، وكذلك
ساحة كبيرة كانت مغلقة بإحكام بباب، وكان هذا المبنى عظيماً وواسعاً
مثل دير من الدير، والنزل الشرقية، لا يسكن فيها أحد، وهي مخصصة

فقط لاستخدام الغرباء، ومن أجل وصف وترتيب النزول ودور الضيافة في الشرق، انظر ماسلف وقدمناه في القسم الأول.

وعندما وصلنا إلى النزول، أنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا، ووضعناهم في القسم الأسفل من المبنى، في حين اخترنا لأنفسنا غرفاً وقاعات في القسم العلوي، ووضعنا في هذه الغرف فرشنا وأعدنا مكاناً لطبخ أطعمتنا، وحصلنا على حطب للنار، ووضعنا جميع أغراضنا، وكأنا على نية الإقامة هناك لأيام عدة، وفيما نحن منشغلون هكذا، جاء كالينوس الرئيس مع بعض مسلمي المدينة، وقالوا بما أنه لا يزال هناك شطر كبير من ضوء النهار، سوف يكون مفيداً القيام بزيارة الأماكن المقدسة، في ذلك المساء، حتى تتمكن في الغد من الانطلاق باكراً في الصباح، قبل أن تصبح حرارة الشمس كبيرة، وقد وافقنا على هذا بسرور، لأننا كنا نخاف من الإقامة الطويلة في ذلك المكان.

الحقل الذي صنع آدم منه والذي اسمه حقل دمشق

وهكذا خرجنا من النزول، وعبرنا من خلال الشارع الطويل للمدينة، الذي فيه يسكن عمال حرفيون من مختلف الصناعات، وبشكل خاص الحرفيون الذين يعملون بالزجاج، والزجاج الذي يصنع في هذا المكان، ليس زجاجاً نقياً، بل أسود، مع ألوان أخرى بين الأسود والأبيض الشفاف، وقد سار خلفنا حشد كبير من الناس، وقد ركضوا وراءنا، لأنه كان منظرًا عجيباً رؤية غربيين هناك، وهكذا وصلنا إلى باب المدينة، الذي عبرنا من خلاله، وسرنا على طول الطريق العام، فوصلنا إلى حقل مطوق بسور من الحجارة الجافة، وهناك توقفنا، وشرعنا ننظر من خلال السور إلى داخل الحقل، الذي هو جميل ومتميز، لأن هذا، كان يعرف باسم حقل دمشق، فيه جرت صناعة آدم، أبونا الأول، وعندما سمعنا بأن هذا كان بالفعل الحقل المقدس، تسلقنا السور

ودخلنا إليه، حتى يمكننا تقبيل الأرض، وتلاوة الصلوات المناسبة،
واخبار أحدنا الآخر عن المعجزات التي عملت هناك.

لكن فجأة حدث بيننا كنا نقفز من فوق السور المصنوع من الحجارة
الجافة إلى داخل الحقل، واجهنا مسلم حاد، صرخ بصوت مرتفع علينا،
والتقط كثيراً من الحجارة ورماها نحونا، وطردها بالقوة من الحقل
وبصعوبة، أمكننا تسلق الجدار دون أن نصاب بأذى، وعند وقوع ذلك
رغب كالينوس مع أدلائنا في إطلاق العنان لغضبهم، وشرعوا بالعودة
إلى البلدة، لكننا لم نكن بأي حال من الأحوال راضين بمغادرة مثل هذا
المكان الهام بمثل هذه السرعة، بل رغبتنا بإطفاء غضب ذلك الرجل،
حتى نتتمكن من امضاء بعض الوقت بالصلاة في ذلك المكان، ولذلك
دعونا كالينوس إلى الرجعة، وأخبرناه بعمل اتفاقية مع الرجل، بأن
ندفع ما يستحقه قانونياً مقابل دخولنا إلى حقله، لأنه كان مالك ذلك
الحقل، وقد طالب بأربعة مندوسات، وعندما جرى تنفيذ هذا الطلب،
هدأ الرجل، وتسلق على السور، ومدّ يده إلى الحجاج الذين وقفوا في
الخارج، وسحبهم واحداً تلو الآخر، وسمح لهم بالدخول إلى الحقل،
واقترادنا إلى المكان الذي من المعتقد أن الطين أخذ منه لصنع آدم، وفقاً
للحقيقة الكاثوليكية، فهناك جرى صنع الانسان الأول، ونحن لانولي
أدنى اعتبار، إلى ترهات شعراء الأمم، الذين يغنون وينشدون بأن
واحداً اسمه فورونيوس Phoroneus كان الأب الأول لجميع
الأحياء، وذلك كما حدثنا يوسيبوس في De Evangel prae-
parat — الكتاب العاشر، ويقول الأثيوبيون بأن البشر الأوائل قد
نشأوا من طهارة التربة، ولدى الشكوكيين المصريين أثر بأن الانسان
الأول قد خلق في بلادهم، أولاً بسبب جودة التربة، وثانياً بسبب النيل،
الذي يولد كثيراً من المخلوقات التي ليست موجودة في أي مكان آخر،
لكننا نرى أن هذا كله لا قيمة له، ونتجه للأخذ بالإيمان الأصح والأكثر

ثباتاً، ولقد انكببنا بأنفسنا، وبوجودنا على الأرض في هذا المكان المقدس، بخشوع كبير وبدموع، وقبلنا الأرض، وتفوهنا بصلواتنا المحددة في هذا المكان المقدس، بخشوع كبير وبدموع، وقبلنا الأرض، وتفوهنا بصلواتنا المحددة في مسيرات الأرض المقدسة، وحصلنا على غفرانات (+)، وبعد هذا انتقلنا نحو التأمل حول هذا المكان.

★★ ★★ ★★

وعند الفراغ من تأملنا، تفحصنا المكان والأرض بكل دقة، فالتشرة العليا للأرض خشنة ولونها بني، إنما عندما تحفرها تعطيك طيناً أحمر، وقاسيا، من الممكن صناعة فخار رائع منه، وقد أخذنا بعض الصلصال وبعض الحصى من هذه الأرض لتكون آثاراً مقدسة، ويقال بأن كل من يضع حوله بعضاً من هذه الأرض لن يشعر بالتعب أثناء سيره على طريقه، أو إذا كان راكباً على دابة فإنها لن تكبو أبداً، إنما إذا وقع انسان أو دابة فلن يصابا بأذى، بل سينهضان من دون ضرر، وفيما إذا كان هذا صحيحاً، يمكن لكل انسان أن يبرهن على الذي يرضيه، فأنا لم أشعر بأية آلام، كما أنني لم أتعرض للتعب ولا لسقوط.

موضع الشوك أو الأعشاب الكثيفة حيث قُتل هابيل

من قبل أخيه قابيل

وسرنا من هناك بعض الشيء في الحقل نفسه، وذلك وراء الأرض المفلوحة فوصلنا إلى منطقة كثيفة الأعشاب، وفيها نباتات شوكية، بينها شاهدنا المكان الذي انبعث فيه قابيل ضد أخيه هابيل وقتله، وذلك حسباً قرأنا في سفر التكوين: ٤، وانحنينا هنا بأنفسنا نحو الأرض المقدسة وقبلناها وهي الأرض التي فتحت فمها وتلقت ذلك الدم المقدس من يدي قاتل أخيه [٨].

★★ ★★ ★★

الكهف الذي سكن فيه آدم مع حواء لسنوات طوال وحيث عرف آدم للمرة الأولى زوجته

في الجزء الجنوبي من هذا الحقل هناك رابية، ليست كبيرة الارتفاع، على قممها يوجد في هذه الأيام مسجد، قائم في المكان الذي يعتقد أن آدم وحواء وأولادهما قدموا فيه أضاحي وصلوات إلى الله، لأن آدم علم أولاده تقديم الأضاحي لله، وعلمهم عبادته، وفي هذا المكان نفسه، حدث أنه عندما كان قابيل وهايل يتعبدان، ويقدمان قربانيهما معاً، نزلت نار من السماء وأكلت قربان هايل، لكنها لم تلمس قربان قابيل، لأن تقدمته لم تكن مقبولة لدى الرب مثل تقدمه أخيه، ولذلك أصبح حسوداً لأخيه، وقتله فيما بعد، وفي هذا المكان عمل ابراهيم مدفنه (كذا) وهنا بنى مذبحاً، فهذا ماورد الحديث عنه في سفر التكوين: ١٣، وذلك في نهاية الاصحاح.

وهنا أيضاً رأى ثلاثة وعبد واحداً، وذلك كما جاء الخبر في سفر التكوين: ١٨، وفي جزء آخر من الرابية هناك وادي ممرا، المتصل بوادي حبرون، وقامت عملية الاتصال هذه قرب مدينة حبرون، ففي هذا الوادي كان ابراهيم ساكناً، عندما رأى ثلاثة رجال عند باب خيمته وتلقى الوعود من الرب، التي جرى الحديث عنها في سفر التكوين: ١٥ و ١٧، غير أنه عندما كان يقدم قرباناً كان يصعد الجبل، وكذلك عاش البطريك كان يعقوب واسحق هناك، وعدنا أخيراً إلى موضع موت هايل في حقل دمشق، وخرجنا من هناك من الجانب الغربي، عبر سور من الحجارة الجافة، ووصلنا من هناك إلى جزء آخر من وادي حبرون، على طرف جبل، حيث وجدنا كهفاً صغيراً ومظلماً، ودخلنا إلى هذا الكهف واحداً تلو الآخر، ونظرنا إلى المكان بمتعة عجيبة، فهذا كان هو الكهف الذي عرف فيه آدم حواء بعد طردهما من الجنة.

★★

★★

★★

وبعدما رأينا الكهف المتقدم ذكره، خرجنا من هناك، وسرنا مسافة أخرى على طرف الجبل، وسرنا بالوقت نفسه صاعدين، فوصلنا إلى كهف آخر، لم يكن كهفاً صغيراً، بل كان كهفاً واسعاً، ففي هذا الكهف بكى آدم وحواء وناحا على ابنتهما هابيل لمدة مائة سنة، وهابيل هو الذي قُتل من قبل قابيل، ومن الممكن في هذه الأيام رؤية آثار، حيث جلس كل واحد منهما، ويوجد في هذا الكهف نفسه نبع كانا منه يشربان، ولهذا يعرف هذا الكهف باسم كهف البكاء، وبعدما فرغنا من رؤية هذا الكهف، نزلنا من الجبل إلى واد ضيق، وهو الذي يسمونه وادي الدموع، وهم يقولون بأن آدم وحواء قد سكنا معا في هذا الوادي لمدة تسعمائة وثلاثين سنة، وكان كل واحد منهما يقوم يومياً بممارسة أعمال توبة قاسية، بسبب عدم الطاعة التي أدينا بها، ولطردهما من الجنة، ولفقدانها طهارتهما الأصيلة، وللعنة ذريتهما، وبعد ذلك لم يحصل فقط على رحمة الرب، بل اعتقد أنها جديران بتلقي هبة النبوة، ولذلك أخبرا أولادهما بكثير من الأمور المقبلة، مما يتعلق بموضوع اتحاد المسيح مع كنيسته، وبخصوص الطوفان الذي سوف يأتي، ونيران يوم الحساب، وقد ماتا هنا، ومن هنا حملا إلى الكهف المزدوج، كما سنوضح فيما بعد، وفي هذا الوادي يقوم قبر لوط [ابن] أخي إبراهيم.

الكهف المزدوج الذي اشتراه إبراهيم ليكون قبراً له ولأسرته

ومن وادي الدموع هذا وصلنا ثانية إلى مدينة حبرون، ووقفنا أمام بيت حاكم المدينة، الذي على مقربة منه جلس عدد كبير من المستشارين من الشيوخ المسلمين، فلقد رغبتنا بزيارة ورؤية الكهف المزدوج المجيد، وهو الذي فيه مدفون آدم وحواء، وإبراهيم، وساره، واسحق، ورفقه، ويعقوب وليه، أي البطارقة الأربعة الأعظم قداسة مع زوجاتهم المباركات، وذلك حسبما قرأنا في سفر التكوين: ٢٣، وكنا نعرف بشكل

جيد أننا لن نستطيع الوصول إلى الكهف المقدس، إلا إذا وافق المسلمون على ذلك، وهم لا يعطون موافقتهم بسهولة لهذه الزيارة، إلا إذا أمكن نيل رضاهم بالتوسلات والوساطات، أو بالهدايا، لأن هذا الكهف موجود داخل مسجد، لا يسمحون لنا بالدخول إليه، وقد بعثنا ترجماننا، الرئيس كالينوس، مع بعض الحجاج من النبلاء، إلى الحاكم وإلى السادة المسلمين الذين كانوا بحضرته، وسألوهم السماح لنا بالدخول إلى الكهف المقدس، وأعلنوا أننا بالمقابل على استعداد عن طواعية القيام بأي عمل يرضيهم ويأمروننا بعمله، وعندما تقدم كالينوسنا بهذا الالتماس، سألوه هل سمحوا لنا في القدس بالدخول إلى هيكل الرب، الذي يسمونه هيكل سليمان، وعندما أجابهم «لا» قالوا: «ونحن أيضاً لن نغامر بالسماح لهم بالدخول إلى مسجدنا، الذي هو برأي المسلمين، ليس أدنى قداسة من مسجد القدس، لا بل أعلى منه، وعلى كل حال إذا مارغبوا بإبداء احترامهم نحو البطارقة في الكهف المزدوج، نحن نسمح لهم بالوصول حتى درجات سلم المسجد، والتعبّد من هناك، إنما لا يجوز لهم بأي حال من الأحوال الصعود عليهم» وبناء عليه عاد كالينوس إلينا، وجلب لنا هذا الجواب السلبي، واقتادنا إلى درجات سلم المسجد الذي فيه الكهف المزدوج، وتعبّدنا باتجاه الكهف، وقبلنا آثار البطارقة المقدسين، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) .

وعندما فرغنا من عملنا هذا، حملنا أنفسنا حتى نتأمل المكان، الذي كان معروفاً في أيام إبراهيم بأن مدينة حبرون كانت فيه، لأن المدينة وقتذاك لم تكن في مكانها الحالي، بل على مقربة منه، فقد كان المكان الحالي حديقة، منها جرى اقتطاع صخرة حمراء حوت الكهف المزدوج، وكان إبراهيم قد اشترى هذا المكان مع الصخرة، ليكون ضريحاً له شخصياً ولأولاده، وإذا رغبت في معرفة المعنى بكهف منفرد، وبكهف مزدوج وبكهف ثلاثي، يمكنك رؤية ذلك فيما تقدم في القسم الأول،

ولاسيما لدى وصف ضريح الرب في القدس.

وحدث أنه بعدما جرى دفن البطارقة الأربعة مع زوجاتهم في هذا الكهف، بدأ الناس يترددون على المكان، وشرعوا يبنون لأنفسهم بيوتاً من حوله، بدافع التبجيل للمكان نفسه، ولاحترامهم للبطارقة المقدسين، وهكذا تشكلت مع الأيام مدينة هناك، وهجرت حبرون القديمة، وكان ذلك قبل أيام الملك داوود، وقد حكم داوود لمدة سبع سنوات في حبرون الحديثة، علاوة على ذلك بنى اليهود مصلى فوق صخرة الكهف، وقد دمر المسيحيون فيما بعد مصلى اليهود هذا، وبنوا كنيسة كبيرة فوقه، وقد عينوا فيها أسقفاً وكهنة، وبعد ضياع الأرض المقدسة، عمل المسلمون من الكنيسة مسجداً، وأحاطوه بأسوار عالية وبأبراج، وهو قائم في هذه الأيام في وسط المدينة، مثل قلعة حصينة، وهو بالحقيقة لا يبدو شكله شكل كنيسة، بل شكل قلعة أو قصر عظيم، وأخبرنا المسلمون بأن ذلك المسجد مليء بالمصاييح المضاعة، وكذلك هناك مصاييح في الكهف المزدوج، موضوعة داخل آنية ذهبية، وهي معلقة بحبال من حرير، أو بسلاسل من فضة، ويوجد كثير من رجال الدين في هذا المسجد من كل من الـ Saquis (الصوفية؟) والـ Al-hages (الفقهاء؟) وبذلك مامن ساعة تمر في النهار أو في الليل من دون قراءة وإنشاد بجانب الكهف المزدوج، ذلك أنهم يتناوبون أحدهم مع الآخر، وعندما كنا واقفين على هذه الصورة على درجات سلم المسجد، تجمع كثير من الناس من شباب وشيوخ للنظر إلينا.

مشفى حبرون، وبركة حبرون، والأماكن الأخرى

وبعدما فرغنا من مشاهدة المسجد، والكهف المزدوج، سرنا نازلين مسافة قصيرة، فوصلنا إلى باب المشفى المخصص للناس الفقراء، وهو موجود تحت المسجد، ودخلنا إليه، فشاهدنا مكاتبه الجميلة، وفي مطبخه وفرنه كانت هناك استعدادات عظيمة معمولة لصالح الحجاج المسلمين،

الذين يزورون بأعداد كبيرة كل يوم الكهف المزدوج، وقبور البطارقة، ولهذا المشفى ميزانيات سنوية تصل إلى مايزيد على أربعة وعشرين ألفاً من الدوقيات، ففي كل يوم يخبز فيه ألف ومائتي رغيف من الخبز، ويعطى هذا الخبز إلى كل طالب، ولا ترفض الرعاية والضيافة إلى أي حاج، من أي دولة كان، أو شعب، أو عقيدة، أو طائفة، وكل من يسأل طعاماً يتسلم رغيفاً من الخبز، وبعض الزيت، وبعض الـ Me-nestrum، الذي نسميه معجنات.

وتدفع قلعة النبي صموئيل [الجيب الأعلى] لوحدها ألفي دوقية في السنة إلى هذا المشفى، ويرسل أغنياء المسلمون والأتراك يومياً الصدقات إليه لدعم الحجاج، ولابداء الاحترام نحو البطارقة، كذلك عندما يكون أغنياء الناس على وشك الموت، يوصون بأشياء تذكارية دائمة عن أنفسهم لهذا المكان، ويتركون أعطيات إلى المشفى، وعند حلول ساعة صرف الصدقات، يصعدون صوتاً مخيفاً بالطليل، حيث خفنا منه لدى سماع صوته، وخشينا أن ذلك الصراخ معناه شيء ما ضد أنفسنا، وأثناء توزيعهم لأرغفة الخبز، أرسلوا لنا سلة مليئة إلى نزلنا، مع أننا لم نطلب منهم شيئاً مطلقاً.

وبعدما فرغنا من رؤية المشفى، نزلنا وسرنا على طول الشارع الطويل، إلى أول أبواب المدينة، وتحت هذا الباب يوجد المكان، الذي قتل فيه يوباب - قائد جيش داوود - أبير قائد جيش شاول، ولهذا السبب تولى داوود لعن يوباب (صموئيل الثاني: ٢٩/٣) وسرنا متجاوزين الباب، ووصلنا إلى البركة، المحاطة بسور جميل، وهي التي تتلقى الماء الذي يجري في وادي ممرا، وسرنا حول هذه البركة، وشاهدناها بعناية، لأن ذكرها قد ورد في الكتابات المقدسة القانونية (صموئيل الثاني: ١٢/٤)، فعندما قام القاتلان: بعنه وركاب ابنا رمون البثيروت، بقتل إيشبوشث، ملك إسرائيل، وجلبا رأسه إلى داوود

في حبرون، وفي ظنهما، أنها كانا يحملان إليه بشائر طيبة، أمر داوود بأعدامهما، وبتعليق أيديهما وأقدامهما فوق البركة، أي فوق بركة حبرون، ويوجد بين البركة وسور المدينة ضريح أبير، الذي احتفل داوود بجنازته بشكل مهيب، حسبما قرأنا في سفر صموئيل الثاني: ٣، وفي هذا الضريح جرى دفن رأس إيشبوشث بن شأؤول، ملك إسرائيل، كما وصلنا الخبر في سفر صموئيل الثاني: ٣.

وبعد ماشاهدنا هذه الأماكن، عاودنا الدخول إلى المدينة، وتوجهنا إلى نزلنا، وقد شربنا بعض الحطب للنار، وأوقدنا ناراً، وطبخنا بعض المعجنات والبيض وأكلناهم، وبعد العشاء جاء المشرف العام على النزل، وأطفأ نارنا، وطلب منا بالإشارة أن نكون هادئين وصامتين خلال الليل، وذلك خشية أن يسمع بنا اللصوص من البداية العرب، لأن النزل قائم إلى جانب سور المدينة، وفي بعض الأحيان، عندما يعرفون بوجود ضيوف هناك فيه، يتسلق اللصوص فوق السور إليهم، وأضاء مصباحاً معلقاً إلى جانبه، وجلس أرضاً ليتولى السهر والحراسة إلى جانب الباب، وكنا نحو هذا كله ممتنين كثيراً، واندهشنا من لطف المسلمين نحونا، ومع ذلك خشينا أننا قبل أن نغادر المدينة سوف يجعلوننا ندفع مبلغاً كبيراً، مقابل اللطف الذي أبدوه نحونا، وهكذا بما أن الدنيا كانت قد أظلمت تمددنا للنوم، كل واحد في قلايته مثل الرهبان.

وصف مدينة حبرون وكيف أنها كانت مسكونة

منذ أقدم العصور

حبرون أو Erius مدينة قديمة جداً، وقد تأسست مباشرة بعد الفيضان، وسبع سنوات قبل مدينة تينس (صوعن) (العدد: ١٣ / ٢٢)، وكانت مدينة تينس هذه قد تأسست من قبل تيتانس Titans—وهم

عمالقة — نزلوا من حبرون إلى مصر، وكانوا أبناء تيتان، وكان تيتان هذا هو ابن كولوم Coelum وفستا Vestal، أخو ساتورن، وقد قاتل أولاده ضد جوبيتر، وحاولوا طرد الآلهة من السماء، لكنهم ضربوا بصاعقة، وذلك حسباً قرأنا في سفر التكوين (٩)، وسببوا الاضطراب في جميع أنحاء العالم تقريباً، وذلك حسباً ورد في أغاني الشعراء، وعلى هذا كانت تنيس مدينة قديمة للعمالقة في مصر، وقد بنيت من قبل عمالقة قدموا من حبرون، ولحبرون أربعة أسماء: أولها جميعاً؛ أنها دُعيت أربعة (التكوين: ١٣) اشتقاقاً من اسم الأربعة المؤسسين الأوائل لها، وثانياً عرفت باسم « قرية أربعة » [يشوع: ١٤ / ١٥]، وهو الاسم نفسه « مدينة أربعة » أو « مدينة الأربعة »، لأن معنى كلمة « قرية » هو « مدينة » و Arba هو « أربعة »، وكان اسم حبرون معروفاً في العصور القديمة من قبل جميع الناس سواء من المؤمنين أو غير المؤمنين، وعرفت باسم « قرية أربعة » أي « مدينة الأربعة » لأسباب مختلفة، فقد كان الكفار سموها هكذا، بسبب العمالق الأربعة الذين دفنوا هناك وهم: عناق، وأخيمان، وشيشاي، وتلهاي (العدد: ١٣)، لكن المؤمنون دعوها بهذا الاسم بسبب البطارقة الأربعة: آدم، وإبراهيم، واسحق، ويعقوب، الذين دفنوا هناك مع زوجاتهم الأربع، وثالثاً عرفت باسم حبرون، نسبة إلى ابن كالب، ورابعاً؛ إنها تعرف باسم أربعة [اقرأ الخليل] في هذه الأيام من قبل المسلمين، بسبب إبراهيم الذي دفن هناك، وسماها أيضاً مصنف Speculum Historiale «الابراهيمية» وكذلك «سرّه»، كما أنها غالباً ما عرفت باسم Ericus.

وذكر هذه المدينة جيروم في كتابه « حول المسافات بين الأماكن »، حيث قال بأنها كانت فيما مضى المدينة الرئيسية لدى الفلسطينيين، ومكان إقامة للعمالقة، وملوك سبط يهوذا، ومدينة كهنة، ومدينة إلتجاء، وهي تبعد عن القدس حوالي أربعة وعشرين ميلاً، باتجاه الجنوب، هذا

بالنسبة للقديس جيروم، وكانت هذه المدينة — أي المدينة التحتا — قد استولى عليها يشوع، الذي شق ملكها هو هام (يشوع: ١٠)، لكن الجزء الأعلى من المدينة جرى الاستيلاء عليه فيما بعد من قبل كالب، الذي قتل أشجع عماليقها، كما قرأنا في يشوع: ١٢، وفي القضاة: ١٠/١.

وكان بسبب كالب أن استمر تدمير الناس، في القفار، ضد الرب، ولأنه اتبع الرب، وقدم برهانا على جودة الأرض المقدسة، أنه بسبب ذلك قدم الآخرون تقريراً شريراً، بأن الرب قد وعده بجبل حبرون كحصنة رئيسية في جميع البلاد (العدد: ١٣—١٤، يشوع: ١٤)، فضلاً عن هذا، قال نيقولا دي ليرا بأنه عندما جرى إرسال الجواسيس من قبل موسى، ووصلوا إلى البلاد، كالب وحده صعد إلى حبرون، إلى الكهف المزدوج، وأدى بعض الصلوات أمام البطارقة المقدسين، وبذلك بات جديراً، لأن يكون متمكناً لهذا المكان المقدس.

وموقع هذه المدينة قائم جزئياً على سفح رابية، وجزئياً في وادي، وهي ليست كبيرة جداً، لكنها مكتظة بالسكان وحصينة، وقد عملت مدينة بعد الطوفان مباشرة، مع أنه قبل الفيضان كان هناك سكان من البشر، إنما من دون مدينة، فقد سكن هناك أبناء آدم، ومن هناك توزعوا وتفرقوا في جميع أرجاء الدنيا، وعلى ذلك ارتحل قابيل، بعد قتله لأخيه، إلى الهند، مع زوجاته وأولاده، فراراً من وجه الرب.

علاوة على ذلك، ينبغي أن نعرف بأن هذه المدينة قد ورد الحديث عنها، والاشارة إليها بأسماء أخرى اضافية للأسماء التي تقدم ذكرها، فهي في بعض الأحيان عرفت باسم Arba أي أربعة، بسبب العماليق الأربعة الذين دفنوا فيها، وجاء اسمها مصحفاً Arbeth ، كما قال جيروم في رسالته إلى بياخوس De optimo genere Inter- pertandi ، وورد ذكرها أحيانا باسم « قرية أربعة » أي « مدينة أربعة »، وذلك بسبب البطارقة الأربعة الذين دفنوا هناك، كما عرفت

أحيانا باسم «ممر» بسبب «وادي ممر» المتصل بالمدينة، وبسبب بلوطة ابراهيم في ممر، التي كانت موجودة ومرئية حتى أيام طفولة المبارك جيروم، وذلك كما أخبرنا جيروم نفسه في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، وإلى أيام الامبراطور قسطنطين كان يشاهد هناك شجرة بطم معمرة جداً، حيث أن حجمها يبرهن على سنينها الطويلة، وهي التي سكن ابراهيم تحتها، وتحتها احتفى بكرم بالملائكة، وأبدتها من الممكن رؤيتها في هذه الأيام، وقال القديس جيروم: «ان المكان الذي تقوم الشجرة فيه متعبد بشكل مدهش وهائل من قبل جميع الأسباط من حوله، وينظر إليه — كما هو بالفعل — بأنه قد تقدس باسم مجيد.

وبالمناسبة ، ان اسم ممر، كان الاسم الاصيل للمكان، وقد اطلقه عليه آدم، لأن معنى كلمة ممر بالعبرية «وضوح»، فلقد ذكرنا من قبل، أنه في هذا المكان تلقى آدم المعرفة بكل الأشياء ورأى الأشياء كلها بوضوح، وعرف هذا المكان أحيانا باسم Chebron الذي يعني «عبر»، بسبب أنه من هذا المكان عبر آدم إلى الجنة، وفي بعض الأحيان عرف أحيانا باسم «عبرون» الذي معناه «معبر» أو «تراجع» لأنها تراجعا إلى هنا وعادا بعد الذنب الأول، كما أنه عرف أحيانا باسم حبرون، أي «الوادي الفقير»، بسبب المآسي التي تحملها آدم في هذا المكان، وخسارته للحياة الأبدية.

وفي اليوم الثامن والعشرين، الذي كان يوم عيد أبانا المبارك أوغسطين، نهضت مستيقظاً بعد منتصف الليل، وذلك حسب عادتي، أي قبل البقية لأداء صلواتي، ونزلت نحو الباب لاشعال شمعتي من المصباح المعلق هناك، غير أن المسلم الحارس عند الباب، أوقفني، وطرمني من قرب المصباح مع صرخات عالية، ومن جهتي أنا، لقد اقتربت من المصباح لأشعل الشمعة، كما كنت غالباً أفعل، لكنه أطفأها، وصدر عنا معاً كثيراً من الصراخ، جعل الترجمان يستيقظ ويأتي

إلينا، وقد تولى لومي بالايطالية لأنني لم أحافظ على الهدوء والسكينة، وسألني مالذي أريده بالشمعة في مثل هذا الوقت المبكر، فقلت له: «انني أرغب في حمد الرب، وأنوي قراءة شكره من كتاب»، وعندما سمع المسلم بهذا، طلب من الحارس اشعال شمعتي، وقد فعل ذلك، هذا وأنا متأكد من أنني لو سألته اشعالها لمقصد آخر، مهما كان نوعه، لما كنت قادراً على الحصول على ذلك بأي شكل من الأشكال.

وهكذا بعدما حصلت على الاضاءة لشمعتي، صعدت إلى مكاني، وقرأت صلواتي، وماكدت أفرغ من صلواتي لما بعد منتصف الليل، حتى جاء الترجمان كالينوس، وصعد وتولى ايقاظ الحجاج الآخرين، حتى يقوموا بالاستعداد للمغادرة وبناء عليه حزمنا حقائبنا، وحملنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، ومضينا خارجين من المدينة مع ضوء الفجر، ونزلنا إلى حقل هو الذي كان اسحق يسير فيه وهو مستغرق بالتفكير، فوصل وقتها دمشق، خادماً ابراهيم، وجلب له زوجته رفقه الشابة (التكوين: ٢٤).

وأثناء متابعة سيرنا، وصلنا إلى قرب دبير، وهي «مدينة أحرف كتابة»، وهي على كل حال لم نستطع رؤيتها، لوجود جبل بيننا وبينها، وحول هذا الجبل انظر يشوع: ١٥، والقضاة: ١.

وعرفت باسم «مدينة أحرف كتابة»، لأن فيها جرى اختراع الكنعانية للمرة الأولى، أو لأن العماليق القدماء كان لديهم نوعاً من أنواع مدارس الكتابة هناك، أو لأن سكانها كانوا كتّاباً كما قال صاحب Speculum Historiale، أو كما يقول العبرانيون — عندما استولى عثريل عليها، اثناء البكاء على موسى، قام هناك بإعادة كتابة بعض الاصحاحات من كتاب الشريعة، التي كانت قد غدت باهتة وممسوحة، وعن هذه المدينة قال جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»: دبير موجودة في ديار سبط يهوذا، وتعرف باسم «مدينة أحرف كتابة»، وكان قد استولى

عليها عثليل، أخو كالب، وهو الذي قتل العماليق الذين سكنوا هناك، وتلقى عكسة ابنة كالب، لتكون زوجة له وذلك بمثابة جائزة له، ومن الممكن حتى الآن أن نرى هناك أرض الينابيع العليا والينابيع السفلى، التي أعطاها كالب إلى ابنته عكسة، عندما اشتكت إليه بأنه أعطاها أرضاً جافة وعطشى، كما قرأنا في سفر القضاة: ١.

وتابعنا سيرنا، فتجاوزنا «قرية سفر» أودير، ومضينا على طريقنا في وادي حبرون، الذي من الممكن أن يكون وادياً خصباً لو أنه جرت زراعته، والذي هو محتفظ حتى الآن على جانبيه بجدران الأحجار الجافة للبساتين القديمة، وقد رأينا بين الأعشاب بعض المخلوقات البرية القابلة للأكل، والحجل والدراج، وعندما قطعنا مسافة طويلة، وصلنا إلى مكان فيه وادي آخر يقود من الشمال إلى الغرب، وهذا كان وادي اشكول نيل، أي وادي عنقود العنب، وكان وادياً خصباً جداً، منه أرسل موسى جواسيساً لاستطلاع البلاد، وقد حملوا في عودتهم عنقوداً كبيراً من العنب، قام بحمله رجلان على عصا، ومن الوادي جمعوا بعض الرمان وفواكه أخرى، وأخذوهم إلى بني اسرائيل في قفار ماوراء الأردن، وذلك كما قرأنا في سفر العدد ١٣.

وغادرنا هذا الوادي، وتابعنا سيرنا في وادي حبرون، عبر الطريق الذي عبر عليه يوسف عندما أرسل من قبل أبيه، يعقوب من وادي حبرون، ليطلب أخوته في شكيم (التكوين: ٣٧) وعلى هذا الطريق نفسه نزل أخوه يوسف إلى مصر لشراء قمح (التكوين: ٤٢)، ومن المفترض أن عيسو اصطاد في الشعراء في هذا الوادي، لكثرة الحيوانات البرية هناك، وكان ذلك عندما بعث به أبوه اسحق حتى يجلب إلى البيت بعض لحم الطرائد، ويصنع منهم لحوماً محفوظة، وبذلك ينال مباركة أبيه (التكوين: ٢٧). وسرنا لساعات كثيرة على طول الجانب الأيمن من الوادي، الذي كان عميقاً وضيقاً، ووعراً في قعره، وكثير الحجارة،

ومليثا بالأشجار البرية، وكان رطباً وفيه مياه، وهو أمر غير طبيعي في تلك البلاد.

وفي منتصف النهار خرجنا من المنطقة التلية، إلى السهول، واستدركنا هنا بأنفسنا باتجاه الجنوب، عند سفوح بعض الهضاب، ووصلنا إلى حقول خصبة جداً، وهي مليئة بأشجار الزيتون وأشجار التين، وقد رجونا الترجان منحنا بعض الوقت حتى نجلس ونتناول وجبة تحت ظل هذه الأشجار، لكنه رفض، قائلاً بأن الجمال المحملة لا يجوز إفراغ حمولتها لأجل هذا الغرض، كما لا يمكنها الوقوف وأحبالها على ظهورها، كما لا يمكنها الذهاب من دوننا، ولقد كان هذا صحيحاً، ولذلك مضينا متابعين السير على طريقنا، وأثناء ركوبنا لظهور حميرنا أكلنا وشربنا، مما وضعنا أيدينا عليه، وكل الذين يسافرون مع جمال محملة لا بد أن يفعلوا هذا، لأن الجمال لا يمكنها الوقوف تحت أحبالها، الأمر الذي سوف نشرحه بشكل أفضل، لدى حديثنا عن عبورنا للصحراء.

ومع وقت العشاء شرعنا نغادر بشكل تدريجي المنطقة التلية، ووصلنا إلى سهول فلسطينية واسعة جداً مقابل أشدود، وتمتد هذه السهول بشكل اعتراضي من المنطقة التلية حتى البحر المتوسط، وهي مسافة ثلاثة أميال ألمانية، كما أنها بعيدة عن يافا وجبل عفريم نزولاً حتى منطقة جيرار Gerar في بئر السبع، ويوجد في هذا السهل كثيراً من المدن، إنما بشكل خاص خمسة منها، التي هي مدن ملكية ورئيسية لدى الفلسطينيين وهي: جت، وعقرون، وأشدود، وعسقلان، وغزة، وكان قد سكن في هذه المدن خمسة من أقطاب الفلسطينيين (صموئيل الأول: ١٨/٦)، وهذه المدن كلها قائمة على شاطئ البحر، وليست بعيدة عن البحر.

وكانت جت مدينة قديمة وحصينة من مدن العماليق، لم يستطع

يشوع ذلك المقاتل العظيم الاستيلاء عليها كما هو وارد في سفر يشوع: ١١، وكان جالوت الذي قتله داوود من جت (صموئيل الأول: ١٧) وفي صموئيل الثاني: ٢١ هناك خبر عن رجل من جت، كان قوي البنية، كان له أربع وعشرون اصبعاً وأظافر، وهناك أشياء أخرى كثيرة عن جت وردت أخبارها في الكتابات المقدسة.

وذكرت أساطير القديس كريستوفر بأنه كان من جت، وفي هذه الأيام يقال بأن الرجال الذين يلدون هناك أقوى ومقاتلين أفضل من الآخرين، وهي مدمرة منذ زمن طويل، وباقية الآن بمثابة قرية صغيرة، واسمها في هذه الأيام جبرين، وهي قائمة ليس بعيداً عن يافا، وعن الطريق إلى ذلك الميناء، وإذا ماسار الانسان نازلاً على طول ساحل البحر الكبير، من جت، مسافة ميلين ألمانيين، يصل إلى مدينة أخرى من مدن الفلسطينيين، اسمها عقرون وقد كانت فيما مضى مدينة عظيمة من مدن الفلسطينيين، وقد كان فيها هيكل كبير لبعل أو بعل زبوب، وقد عرف باسم رب عقرون، ولهذا فإن احزيا ملك اسرائيل، عندما سقط من كوة عليته، أرسل يسأل بعل زبوب وقد عرف باسم رب عقرون [الملك الثاني: ١]، ولام أيضاً اليهود الرب يسوع بأنه عمل اتفاقاً مع هذا الشيطان نفسه، وقالوا: «ببعلز بوب رئيس الشياطين يُخرج الشياطين» [لوقا: ١١ / ١٥]، وقد أعطيت هذه المدينة إلى سبط يهوذا، لكن أفراد السبط لم يتمكنوا قط من السيطرة عليها، لأنهم لم يستطيعوا غلبة العماليق الذين سكنوا فيها.

وإذا ماتابع الانسان نازلاً على طول ساحل البحر، فانه يصل إلى أشدود، التي كانت المدينة الثالثة للفلسطينيين، وكان يشوع قد عينها لسبط يهوذا، لكن رجال هذا السبط لم يتمكنوا قط من الاستيلاء عليها، لأنهم لم يستطيعوا طرد سكانها الأصليين منها، وكان في هذه المدينة هيكلًا كبيراً لداجون، إليه جلب الفلسطينيون تابوه رب اسرائيل عندما

استولوا عليه، ولذلك سقط صنم داجون، وأصيب الناس بطاعون عظيم (صموئيل الأول: ٥).

ويتابع الانسان سيره فيصل إلى المدينة الرابعة للفلسطينيين، التي هي عسقلان، والتي عنها قال جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»: «عسقلان مدينة جليلة للفلسطينيين، وهي كانت في القديم واحدة من المدن الرئيسية لدى الفلسطينيين، وعينت حصنة لسبط يهوذا، لكن رجال هذا السبط لم يستطيعوا السيطرة عليها، لأنهم عجزوا عن غلبة سكانها»، وكانت هذه المدينة حصينة جداً في العصور الحديثة، لأن صلاح الدين، سوط العذاب المسلط على الصليبيين، والمحارب العظيم جداً، قدم إلى عسقلان لحصارها مع جيش عظيم، لكنه لم يستطع فعل شيء ضدها، مع أنه كان قد هزم الصليبيين في كل مكان، وطردهم من الأماكن التي كانت بأيديهم، وأسرغي ملك القدس، مع مقدم الداوية، وجميع النبلاء، ولذلك رفع الحصار عنها، وذهب إلى مدينة القدس المقدسة، واستولى عليها، كما كنا قد تحدثنا من قبل، وبعدما استولى على القدس، عاد ثانية، وحاصر عسقلان ومع ذلك لم يستطع الاستيلاء عليها، إلا على شرط إخلاء سبيل ملك القدس، ومقدم الداوية وجميع النبلاء، وكانوا على هذه الشروط مستعدين لتسليم المدينة، ووعد صلاح الدين بالقبول بهذه الشروط، ونفذ وعده، وحصل على عسقلان.

ولدى متابعة الانسان سيره نازلاً على طول شاطئ البحر، يصل إلى المدينة الخامسة للفلسطينيين، التي اسمها غزة أو غزرة، ولقد كنا نحو هذه المدينة مسرعين عبر هذا الطريق، مخلفين المدن الأربع المتقدم ذكرها على يميننا، وغزة هي المدينة التي سوف أتولى وصفها فيما يلي، ويوجد تحت سلطة هذه الحواضر الخمسة في بلاد الفلسطينيين هذه، مدن كثيرة، وهكذا تابعنا سفرنا عبر المنطقة السهلية لفلسطين، ونحن متجهون نحو الجنوب، وجبال اليهودية على يسارنا، والبحر المتوسط على طرفنا

اليمين، وتابعنا السفر طوال اليوم في حرارة الشمس حتى غيابها، وعند الغياب وصلنا إلى قرية اسمها زخاريا، وقد دخلنا إلى نزل قام خارج القرية، وقمنا هنا بانزال الأثقال عن ظهور دوابنا وعملنا مايلزم من اعدادات لإمضاء الليل هناك فيه، وكان نزلاً واسعاً، يشبه قلعة، فيه اسطبلات كثيرة، وقاعات، وهو مسور من جميع الجهات، ولم نجد أي انسان فيه، وبعدما وضعنا دوابنا في الاسطبلات، ورتبنا اغراضنا، شرعنا بالإعداد لعشائنا، ولكي نجمع حطباً للنار سعينا نبحث في الحقول واقتلنا عصياً من أسبجة الحقول والبساتين، ولذلك قام أهل المنطقة من المسلمين بالركض نحونا ورمونا بالحجارة، وطاردونا حتى النزل، هذا وقدم إلى هناك بعض من أهل المنطقة، وجلبوا معهم دجاجاً وطيوراً، وخبزاً وماء، وقد اشترينا ذلك، وذبحنا الطيور، وتوفر لدينا عشاء جيداً وبهيجاً، وبعد العشاء أغلقنا أبواب النزل بدحرجة حجارة كبيرة إلى هناك، ووضعنا حارساً على السور، خشية من حدوث طارئ في الليل، ذلك أننا خفنا من وصول فئة أخرى إلى هناك، تكون أقوى منا، وتقوم بإخراجنا من الخان، لأن العادة في تلك البلاد: تقوم الفئة الأقوى بطرد الفئة الأضعف من الخان، ولذلك أعدنا أنفسنا للدفاع، وحملنا كثيراً من الحجارة إلى السور لنقاوم كل من يحاول التدخل بشؤوننا.

وكان هناك مسجد جميل ملاصق لخاننا، وكان بإمكاننا رؤية ما فيه من خلال الفتحات في السقف، وفي الحقيقة قام واحد من الحجاج أثناء الليل بتلويثه من خلال إحدى هذه الفتحات، فعرضنا بذلك إلى خطر عظيم، غير أننا غادرنا قبل أن يأتي أي انسان إلى المسجد، وإلى جواره كان هناك بركة عميقة جداً، نضحنا منها بعد صعوبات جمة ماءً جيداً، والبرك ثمينة جداً في هذه المناطق، والماء قليل جداً، وعلى هذا قرأنا بأن البطارقة: ابراهيم، واسحق، ويعقوب، حفروا كثيراً من الآبار، وقد

نشبت نزاعات بين الملوك حول الآبار (التكوين: ٢٦)، وعند حلول الظلام مددنا أنفسنا، وأخذنا بالنوم فوق ذروة السور المحيط، تحت قبة السماء، لأن الغرف كانت قدرة.

صقلغ بلدة داوود وأماكن أخرى

واستيقظنا عند الفجر في اليوم التاسع والعشرين، وحملنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، وانطلقنا عبر منطقة مستوية وجرداء، حيث رأينا كثيراً من القرى مع خرائب مدن قديمة، وعند الظهر وصلنا إلى منطقة متلات بالجبال وبالروابي الصغيرة، بينها انتصب جبل كان عالياً، مرتفعاً أكثر من البقية، وهو جبل مناسب جداً لإقامة قلعة وحصن به، وعلى هذا قال تبالوئا: لو أن هناك رجال حرب في هذه المنطقة، انوا لتركوا هذا الجبل من دون إقامة قلعة، وعندما وصلنا إلى سفح الجبل، ونظرنا إليه نحو الأعلى، بدا لنا وجود أحجار على السفح أحجار أسوار مخربة، وبناء عليه قمنا أنا وبعض من الآخرين هميرنا بالأسفل، وبادرنا مسرعين فتسلقنا حتى قمة هذا الجبل، جدنا بقايا وخرائب أسوار قوية، ليست أسوار قلعة، بل مدينة ذلك أنه بالحقيقة قامت مدينة صقلغ فيما مضى هناك، وهي لسطينيين أعطاهما أخيش ملك جت إلى داوود، عندما كان فاراً ساؤول (صموئيل الأول: ٢٧)، هذا وهناك المزيد من الأخبار في (صموئيل الأول: ٣٠) ولدى جيروم في كتابه «حول بين الأماكن» حيث قال عن هذا المكان بأن صقلغ في إلى الجنوب من حصنة يهوذا وشمعون، التي هي موجودة

فوق ذلك الجبل، ونظرنا بالطول وبالعرض، عبر لبحر الكبير، وباتجاه جبال حبرون، وأيضاً باتجاه جبل ك باتجاه الصحراء المصرية، والجهات الأربع من

السموات، ولدى فراغنا من رؤية هذه المشاهد، غادرنا صقلغ، وتوجهنا نازلين نؤم غزة، وقد رأينا عن بعد كبير، جماعة من الجمال والحمير قادمة نحونا، وقد ارتعبنا كثيراً ظانين بأنهم بداءة عرب أو مدينيين، ولذلك أحضر أدلاؤنا قسيهم، وأعدّ الحجاج النبلاء سيوفهم، لكن عندما واجهونا تجاوزونا مسرعين وبسلام كامل، ولم يحركوا اصبعاً ضدنا، فلقد كانوا مصريين راغبين بالذهاب إلى القدس للصلاة بالأقصى حسب عادة المسلمين.

وحوالي المساء اقتربنا من غزة أو غزرة، لكن لم نفكر بدخول المدينة بشكل مكشوف، خشية أن نتعرض للمضايقات وقيام أطفال المسلمين برمي الحجارة علينا، وتكسير جرار خمرتنا، ولذلك سرنا بشكل جانبي بعيداً عن الشارع العام، في حقل مليء بأشجار التين، وتحت الأشجار هذه أنزلنا أثقالنا من على ظهور دوابنا عازمين على البقاء هناك حتى انتهاء النهار، وجلسنا في هذا الحقل وأكلنا وشربنا الأشياء الحاضرة لدينا، ذلك أننا لم نتجرأ على إشعال نار لطبخ أي شيء ساخن، فلقد أكلنا خبزاً وجبناً، وقطفنا تينا من الأشجار، حيث كانت هناك كميات وافرة، ولقد أكلت من ذلك التين كثيراً جداً، ولم أهتم مطلقاً بالذي كنت أفعله، لأنني بعدما أكلت التين، تورمت شفتاي بشكل مفاجيء، وصار حول فمي حبوب مقيبة مثل المصاب بالجدام، ولذلك لم يعد بإمكانني فتح فمي لتناول ما احتاجه من الطعام والشراب وبقيت هكذا لأيام عديدة أعاني من ذلك كثيراً، وأخبرني بعض الناس المتعلمين، أنني من خلال أكلي كثيراً من التين، أدخلت إلى جوفي مواد وعصارة الحمى، وهذه ظهرت على شفتي، ولولا أنها فعلت ذلك، لعانيت من هجوم حمى حادة، والذي أعتقد أنه أكلت تينة مسممة من قبل إحدى الهوام أو الزواحف.

وعندما غابت الشمس أعدنا تحميل جمالنا وحميرنا، وانطلقنا نريد

غزة، ودخلنا المدينة والظلام قد انتشر، وسرنا عبر طريق طويل إلى خان الحجاج، وعندما وصلنا إليه، لم نستطع أن نتحرك بسبب ضيق المكان، وكان من غير الممكن لهذا المكان استيعابنا شخصياً من دون ائصالنا، ولذلك خرجنا منه مغضبين، وأخبرنا الترجمان أننا لا يمكننا الإقامة في هذا المكان ولا نريد ذلك بأي حال من الأحوال، وأنه إذا لم يوفر لنا مكاناً أوسع للإقامة فيه، سوف نرفع شكوى ضده في بلاط حاكم غزة، لخرقه العهد ولعدم وفائه بما التزم به في البند الخامس من الاتفاق المعقود بيننا وبينه، والذين كنا قد ذكرناه من قبل.

وعندما سمع هذا، تناقش معنا لبعض الوقت، ثم طلب منا انتظاره، وركب يبحث في المدينة هنا وهناك عن مكان لنا، وهكذا وقفنا لوقت طويل على هذه الحالة في الظلام، ونحن محشورين في طريق ضيق بين الحمير والجمال، وقد فقدنا صبرنا وكنا متخوفين من حدوث هجوم مفاجيء ضدنا، وجاء الترجمان أخيراً، واقتادنا عبر طريق طويل من ذلك البيت إلى مكان آخر، حيث لم يكن هناك في الحقيقة بيت، بل ساحة محاطة بجدار، ومن الممكن اغلاق الساحة بباب، لكنها كانت بلاسقف لنام تحته، وكان هناك على الطرف الأول غرفتان قدرتان جداً، ومليئتان بالغائط البشري، أما الساحة فكانت مبلطة ببلاط طيني، كان معداً من أجل شوي القرميد، وأشعلنا شموعنا هنا، وأنعنا جمالنا في الطريق، وأنزلنا الأثقال عن ظهورهم وعن ظهور الحمير، وأعطينا الدواب إلى أصحابها، وجلبنا في الوقت نفسه جميع أغراضنا إلى الساحة، وأخرجنا منها جميع سائقي الجمال مع سائقي الحمير، وأبقينا معنا الفحل فقط، أي كاليوس الأصغر، وأغلقتنا الآن الباب بالمزاليح والأحجار، خشية التعرض لهجوم من قبل المسلمين، وبعدما قمنا بهذا، أوقدنا النار، وطبخنا بعض الفطائر حتى نتمكن من أكل أي شيء، أو بالحري أن نتملك طعاماً ساخنًا مطهياً لأجوافنا، لأننا لم نتذوق شيئاً ساخنًا طوال

ذلك اليوم، وفرغنا من تناول طعامنا بسرعة، ومددنا أنفسنا كي نرتاح داخل معلف طويل، بني من الحجارة والملاط على طول جدار الساحة، لكن الذين لم يجدوا متسعاً في المعلف، تمددوا في مكان آخر من الساحة، وهكذا نمنا تلك الليلة في الهواء الطلق، متعرضين لندى السماء.

كيف حصلنا على إذن من الحاكم للإقامة بغزة

واستيقظنا في اليوم الثلاثين عند شروق الشمس، وقبل أن نفتح باب الساحة، نقلنا أغراضنا كلها إلى قاعة صغيرة بائية، وقسمنا الساحة إلى ثلاثة أقسام، كل قسم إلى إحدى جماعتنا الثلاث، وهي الجماعات التي تحدثت عن توزيعها من قبل، وعلى هذا امتلكت كل فئة مكانها الخاص، وعملنا ستائر من ملابسنا وأقمشتنا لندفع عنا حرارة الشمس والندى في الليل، وذلك إلى أن أعطانا الترجمان الخيم التي كنا سوف نستخدمها أثناء عبور الصحراء، وقد نصبناها في الساحة وعشنا فيها، علاوة على ذلك اشترينا من المدينة الأشياء الأخرى التي كنا بحاجة إليها من أجل الأيام التي كنا سنقيمها هناك، لأننا عرفنا أنه متوجب علينا الإقامة هناك عدة أيام.

وبعدما أكلنا ذهبنا مع الترجمان إلى حاكم المدينة ورجوانه السماح لنا بالإقامة في غزة لبضعة أيام، ولأن نسير حول المدينة وفي داخلها لشراء ماستحتاجه من أجل رحلتنا في القفار، ولكي نشاهد المدينة، ولندخل حماماتها الساخنة، وقد سمح لنا بالقيام بهذه الأشياء وبعملها، وتعامل بلطف زائد معنا، مع أنه لم يكن مسيحياً، وبعدما أنجزنا هذه الأعمال عدنا إلى ساحتنا مع الترجمان، ورجوانه أن لا يدعنا نقيم طويلاً في تلك المدينة، وقد وعد أنه لن يدعنا نقيم وقتاً طويلاً.

خساسة الروم الأرثوذكس

وفي اليوم الحادي والثلاثين، الذي كان اليوم الأخير من شهر آب،

والذي كان أيضاً الأحد الرابع عشر بعد التثليث، استيقظنا عند شروق الشمس، وأدينا صلواتنا المتأخرة، وفكرنا في أي مكان يمكننا أن نسمع فيه قداس يوم الأحد، لأنه لم يكن هناك كنيسة لاتينية في تلك المدينة بل الذي توفر فقط كنيسة للروم الأرثوذكس، قامت على مقربة منا، وبناء عليه أخذنا كأس قرباننا، وكتبنا، وملابسا الكهنوتية، وأغطية المذبح، وهذه الأشياء كنا قد جلبناها معنا من القدس، وحملنا هذه الأغراض جميعاً معنا، وذهبنا إلى كنيسة الروم الأرثوذكس، عازمين على إقامة قداس هناك، وبعثنا خلف كهنة الكنيسة، ورجوناهم بتواضع بالسماح لنا بالدخول، وتعيين مذبح لنا، عليه يمكن أن نقيم قداساً دينياً، لكن الروم الأرثوذكس الذين أثرت الآن كراهيته المتجذرة، التي حملوها دوماً نحو أبناء الكنيسة اللاتينية، رفضوا السماح لنا بالدخول إلى كنيستهم، ولم يهتموا بطلبنا أكثر مما لو أنه مقدم من يهود، وأعلنوا أنهم لا يرغبون بتدنيس كنيستهم، وتلويثها بقداساتنا.

وتحمل الحجاج جميعاً هذه الإهانات القذرة بصبر رجل واحد وبدهشة، ولذلك عدنا ثانية إلى ساحتنا مع شيء من الإرباك، وبعدما قلبنا القضية وتفحصناها، عزونا هذا الصد الذي تلقيناه من الاغريق إلى فضل رباني، لم يأذن لنا بإقامة قداس في كنيسة منشقة وهرطقية، حتى لانبدو أمامهم وكأننا نشارك في القداس بشكل مضاد لشرائع الكنيسة الكاثوليكية، حسبما هي موجودة في الفتاوى البابوية: ٢٩/٩/٢، تحت عنوان «انشقاق» Siquidem، الخ، ذلك أن الروم الأرثوذكس هراطقة، لأنهم مصرين على انشقاقهم، ومن الممكن رؤية عقائدهم في القسم الثاني — الفصل: ٣.

وبعدما عوملنا هكذا باستخفاف من قبل الروم الأرثوذكس، اخترعنا طريقة أخرى من أجل إقامة قداس ديني، حتى لانخسر أحدنا، حيث حملنا كومة من الأحجار العادية، ووضعناها في زاوية ساحتنا، وعمرنا

مذبحاً من دون ملاط، ووضعنا فوقه مذبحاً متحركاً، وغطيناه بمتدليات، وربطنا حبلًا من حوله، علقنا عليه زرابي وأقمشة، وبذلك عملنا نوعاً من أنواع البيع، وهنا بعد ذلك أشعلنا شموعاً، وأغلقتنا باب الساحة، وأقمنا قداس أحدنا، بسلام، وهدوء، وخشوع، وخشية من أن يقوم أحد الناس بقرع الباب أثناء الوقت المهيّب للقداس، مركزنا الفحل المسلم، أمام الباب، ليمنع الناس من القرع على الباب حتى انتهاء القداس، وهكذا أقمنا قداساً بدون معيقات في كل يوم، وكان المعيق الوحيد هو الزنابير، لأنه كانت هناك حفرة على شكل فتحة في الجدار قرب المذبح منها دخلت وخرجت أعداد كبيرة جداً من الزنابير من الحجم الكبير، وكانت تظن حول الكاهن المقيم للقداس، ولدى محاولتنا اغلاق الفتحة، هاجوا، وعملوا فتحات لأن الجدار كان معمولاً من الطين، وكانوا يندفعون بقوة مرعبة أكثر، وبأعداد أعظم من ذي قبل، وجربنا طرائق عديدة لتدمير هذه المخلوقات، لكن تعذر علينا ذلك من دون هدم الجدار كله، هذا، ومع أنهم كانوا يطيطون حولنا باستمرار، مامن انسان قرص من قبلهم.

ولقد كان هناك ثلاثة كهنة هم: الأب باولوس من طائفة الفرنسيسكان، والمعلم جون، وكان رئيس شامسه من ترانسيلفانيا، والراهب فيلكس، من طائفة الدومينيكان، وهكذا نظمنا الأمور فيما بيننا، بشكل أقمنا فيه قداساً في كل يوم، وبعد سماعنا للقداس، تناولنا طعام الافطار، وبعد طعام الافطار، زارنا حشد كبير من الشبان ومن الأطفال، وألصق واحد من الشباب المسلمين نفسه بواحد من الفرسان، أي من رفاقنا، ورجاه اعطاه قارورته الفارغة، ووعد أنه سوف يعيدها إليه مليئة بالخمر، وأعطاه الفارس قارورته، وذهب الشاب وغادر وهي معه، وانتظرنا عودة الشاب بفارغ الصبر، لأننا نعرف أن المسلمين ليس لديهم خمرة، وذهب الشاب، وطلب الحصول على خمرة

من بعض الأماكن باسمنا، وحصل عليها، لكنه قام على الفور، بعد تسلمه للخمرة بتذوقها، فأغري بحلاوتها، فشرب القارورة كلها، وكانت تحتوي على سعة قدرين من قدور أولم، ولذلك بات مخموراً، وفقد عقله وصار مجنوناً، يركض في الطرقات وهو يصرخ ويرمي بالحجارة، وجرى إرسال عبيد الحاكم خلفه، ولحقوه وهو في حالة هياجه وثورته، ولدى رؤيته ذلك تصرف بعقل وهرب إلى ساحتنا، للحصول على مكان للالتجاء والحرية، لأنه كان هناك مرسوم من السلطان، أنه حيثما كان هناك حجاج من بلاد ما وراء البحر، مقيمين، هناك حيث أقاموا ملجأ أمين، أي أن تقول موضع للالتجاء، وكل من التجأ هناك لا يمكن لأحد أخذه من هناك، وهكذا بقي ذلك الشاب معنا حتى تعافى من سكره، لكن حاكم المدينة أرسل إلينا وحظر علينا إعطاء أية خمرة لأي مسلم آخر، وأعلن، أنه إذا ماحدث مثل هذا الأمر ثانية، فلسوف يلقي بنا في السجن، ويتنزع منا خمرتنا، لأن هذا الحاكم اعتقد بأننا عن عمد جعلنا ذلك الشاب يصبح مخموراً، مع أن ذلك لم يكن صحيحاً، ولقد عدت جريمة عظمى بينهم إذا ماظهر أي انسان بينهم علنا بين الناس وهو سكران من شرب الخمر، مثلما هي جريمة عظمى بيننا لدى اعتقال أي انسان والتشهير به، لأنه اعتقل وهو يزني، ولقد كانوا لدى تناول أحدهم لجرعة من الخمرة يصير سكراناً وهائجاً، فيصبون جام غضبهم أولاً على الذي أعطاه الشراب.

هنا نهاية الفصل الخامس.

هنا بداية الفصل السادس

وهو يغطي شهر أيلول، ويحتوي على أعمال الحجاج في ذلك الشهر، ووصف للأماكن المقدسة التي زارها الحجاج في أيام ذلك الشهر.

وعندما حلّ اليوم الأول من إيلول، سمعنا قداساً في مكاننا، وتناولنا طعامنا بعد ذلك مباشرة، وبعد تناولنا لطعامنا، استدعينا واحداً من المسلمين إلينا، ورجوناه أن يأخذنا إلى المكان الذي عمل فيه شمشوم الأعمال التي برهن فيها على قوته، وهي التي حدثنا عنها سفر القضاة، وأنه عملها في هذه المدينة، وهكذا سرنا عبر طريق طويل، ووصلنا في داخل المدينة إلى ميدان واسع، رأينا على جانبه خرائب بيت كبير أو قصر، وأكوام هائلة من جدران مهدمة، وهذه الخرائب من المعتقد أنها بقايا هيكل قديم جداً، هو هيكل داجون، وهو الذي هدمه شمشوم، بتحطيمه الأعمدة المتوسطة التي عليها اعتمد، وبذلك قتل نفسه مع سادة الفلسطينيين وكثير من الناس، وهذا مايمكن أن نقرأ عنه بشكل مسهب في سفر القضاة: ١٦، ورأينا بين خرائب الجدران عمودين من الرخام، عظيمين جداً، ولونهما رمادي، وهما من المفترض كأننا يحملان البناء كله، وبتحطيم هذين العمودين تمكن شمشوم من تدمير البناء كله، وبذلك قتل أعداءه.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، سرنا مسافة طويلة حتى وصلنا إلى بوابة المدينة، التي حمل مصراعي بابها شمشوم مع المزاليج والعوارض والأقفال، في منتصف الليل، ونقلها إلى الراية القائمة أمام المدينة، وبذلك نجا من أيدي أعدائه، الذين سجنوه في المدينة، وخرجنا من المدينة من خلال تلك البوابة، وتسلقنا الراية المتقدمة الذكر، وذلك إلى المكان الذي حمل إليه شمشوم مصراعي باب غزة، وشاهدنا المكان، وجميع المنطقة من حوله، ورأينا هناك ثمة، التي كانت بلدة للفلسطينيين

منها اتخذ شمشوم زوجة فلسطينية، وهناك فعل أشياء كثيرة (القضاة: ١٤)، وشاهدنا أيضاً وادي سورك، الذي فيه زرعت تلك الكرمة المختارة، التي عنها نقرأ في إشعيا: ١١، وفي هذا المكان سكنت دليلة الخائنة، وهي التي غلبته، مع أن مامن إنسان كان يمكنه غلبته (القضاة: ١٦)، ورأينا أيضاً سهولاً واسعة، وحقولاً وسفوحاً جميلة جداً، فيها ينمو القمح، والكرمة، وفي حقول القمح هذه أرسل شمشوم ثلاثمائة ثعلب، مربوط إلى أذنانهم حزمياً مشتعلة، وأحرق القمح، وكروم العنب، وأشجار التين، ورأينا أيضاً خلفنا جبال بني اسرائيل، وأمامنا البحر المتوسط، وبعدما فرغنا من مشاهدة هذه الأشياء كلها، نزلنا ثانية، وعائدنا الدخول إلى المدينة من خلال البوابة المتقدمة الذكر.

وليس بعيداً عن تلك البوابة هناك مسجد اسلامي، فوق البقعة، التي كان عليها في أيام شمشوم خاناً للغرباء، كانت صاحبه عاهرة، وقد ذهب شمشوم إليها ونام هناك، وقام الفلسطينيون في تلك الليلة نفسها بإغلاق أبواب المدينة، قاصدين اعتقال شمشوم في اليوم التالي وقتله، لكنه استيقظ في منتصف الليل، وحمل مصاريع الأبواب، كما قلنا من قبل، وبعدما زرنا هذه الأماكن ورأينا هذه الأشياء، عدنا إلى موضعنا، حيث جلسنا مع بعضنا، وبحزن تحدثنا حول المأساة المحزنة لشمشوم بعد نجاحاته المدهشة.

★★ ★★ ★★

حمام ساخن جيد فيه استحم الحجاج بسرور مع المسلمين

وفي اليوم الثاني، أرسلنا بعد القداس، خلف ترجماننا، ورجوانه أن يقتادنا إلى القفار، إلى نقطة حددناها له، ووعدنا بأنه سوف ننطلق في اليوم التالي، وقد سررنا تجاه هذا الوعد سروراً عظيماً، وبعد تناولنا للطعام ذهبنا جميعاً إلى الحمام الإسلامي الساخن، مثل الذي كنا قد

تحدثنا عنه من قبل، وهذا الحمام الموجود في غزة هو أجمل الحمامات التي شاهدتها قط، ويوجد أمام الغرفة الساخنة بناء مقبب محيط بها مثل رواق للسير والانتقال، وفي هذا البناء عدد من الغرف الصغيرة، من دون فرش، لكن الأرض كانت مفروشة بالحصر، وبسعف نخيل مضفورة، وكانت كل غرفة مغلقة بستارة فقط، وفي هذه الغرف يمكن للإنسان لمن يرغب أن يستحم وهو بدون ملابس، أو وهو لابس، وفي الغرفة نفسها قد جرى تعليق ثياب نظيفة، يغطي بها الذين يودون التجول في الحمام، والتغطية هي من السرة حتى الركب، عوضاً عن السراويل والأحزمة، وبذلك يغطي الإنسان من الأمام ومن الخلف، ويوجد في وسط هذا الرواق هناك فوارة ماء، يسيل خلال عدة أنابيب صدوراً عن أعمدة رخامية، وجميع الأرضيات والجدران مكسوة من الداخل ومن الخارج في قلب الغرف الحارة، بمختلف أنواع الرخام الأبيض المصقول، لذلك يتوجب على الذي يسير فوقهم أن يكون حذراً، وأن يسير بانتباه، خشية الانزلاق، وذلك مثل الإنسان الذي يسير فوق جليد.

والغرفة الساخنة نفسها تشبه برج مربع، والقبة، أو القنطرة التي تغطيها ليس لها سقف فوقها، بل لها فتحات كثيرة، كل واحدة بحجم رأس الإنسان، وهي مغلقة بزجاج النوافذ من مختلف الألوان، يدخل من خلالها ضوء باهت، ولكن فيه كفاية، ولا يوجد في الغرفة الساخنة أتون نار، ولا يشعر الإنسان بحرارة النار أو الدخان، بل يوجد في واحد من الأماكن موقد نار تحت البلاط، وبه يسخن رخام البلاط الأرضي، ويملأ الماء الذي يجري خلال أقنية محفورة في الصخر، الغرفة كلها بالسخونة، ومن جانب آخر تجري مياه باردة، وكما قلت الغرفة مربعة، وليس فيها اضاءة، إلا التي تأتي من الفتحات في القبة، ويوجد على الطرف الأول سخونة فائقة وماء ساخن، ويوجد على الطرف الآخر

برودة وماء بارد، أما الطرف الثالث ففارغ وهادئ، وفي الطرف الرابع الباب، وفي الوسط حرارة مقبولة.

وصاحب الحمام نفسه لطيف جداً، ويقوم بتواضع وكرم بخدمة المستحمين، وغالباً مايتولى ذلكهم، وتغسيلهم ودهنهم بـ Se-megma، أو بدهون أخرى مناسبة، لأنهم يعالجون الضعفاء بأطرافهم في الحمام، وإذا كان أي انسان يشعر بألم من أي سبب، يقوم الحمامي بتدليكه، ودهنه، وبالضغط وبشد المكان الذي يشعر فيه بالوجع، وذلك حتى يتعافى من وجعه أو يسكن بعض الشيء، وبطريقة مماثلة، إذا كان هناك أي انسان يعاني من آلام في أي من أطرافه من ذلك على سبيل المثال في ذراعه، أو ساقه، أو يده، أو قدمه، أو رقبته، فإنهم يتولون معالجة مثل هذه الأشياء، بطرائق رائعة مدهشة، وبذلك تزيل التقلص عن الأعضاء المتشنجة، وكذلك تزيل النقرش في الأقدام وفي الأيدي، والحصا من المثانة والرمل، فهذا كله يعالج في الحمام بفن عظيم.

ومثل هذا اذا كان أي انسان يشكو أو يعاني من ضيق في صدره، وقصر في تنفسه، تراههم يعملون بجهد ونشاط لعلاجهم وبراءته، ولا يفعلون هذا فقط بمجرد الجلوس إلى جانبه، بل إنهم يأخذون المريض ويجلسونه ثم يمددونه على البلاط في وسط الحمام، إما على ظهره، أو على وجهه، أو على جانبه، وذلك حسبما يتطلب الألم، ثم يجلس الحمامي فوقه، ويتولى معالجة موضع الألم، وبلطف يحرك الذراع المصاب نحو الأمام ونحو الخلف، ويضغطون على الرقبة اما بهذا الاتجاه أو ذاك.

ورأيت مرة حبشياً طلب معالجته في الحمام، قائلاً بأن لديه ضغط بالصدر، فمدده الحمامي على ظهره فوق البلاط، وجلس فوق معدته، وضغط على رقبته بيديه معاً، بقسوة بلغت حداً أن وجهه بدأ يتورم، لأن نفسه كله توقف، وقد أبقاه هكذا لوقت طويل، حتى أنني خشيت

من أن يلفظ أنفاسه، كما أنه أغلق أذنيه بحرير، وأخيراً أطلقه وتركه يذهب، وقد استرد الرجل أنفاسه، وأظهر سروره وفرحه الكبير، وقال بأنه من الآن فصاعداً سوف يكون بحالة جيدة.

وإنه لأمر يبعث على السرور، أن تجد أمراضاً كثيرة تجري معالجتها في الحمام، وهي أمراض كنا نقدر أنها غير قابلة للمعالجة، أو التي من أجلها كنا نزور الينابيع الحارة، وهناك نبذل جهوداً لكثير من الأيام، وندفع نفقات عظيمة، في حين أن هؤلاء الرجال يتولون معالجة الأمور كلها في نصف ساعة، ومع ذلك يبدو لي أنهم يستخدمون تعاويذ أيضاً، أثناء عملهم في معالجة أي إنسان وفق الطريقة المتقدمة الذكر، وهم يقومون باستمرار بالتمتمة في أنفسهم، ويتفوهون بكلمات لا أعرفها في أذان المرضى، ويتصرفون في جميع المجالات مثل الذين يمارسون أعمال التعاويذ.

ولا يلتقي الرجال والنساء في الحمام مطلقاً، فللنساء حماماتهم الخاصة، وكذلك للرجال حماماتهم، كما أن الرجال ليس لديهم نساء لتدليكهم، ومثل ذلك ليس لدى النساء رجال لتدليكن، بل يخدم الرجال الرجال، والنساء النساء، وهم لا يسمحون بأي شكل من الأشكال لليهود بدخول حماماتهم، والتحمم معهم، لكنهم يقبلون بأن نستحم معهم، وغالباً ماتساءلت عن السبب الذي سمحوا به لنا بالاستحمام معهم من دون اعتراض، في حين إنهم لا يقابلوننا في أماكن أخرى بطريقة صديقة، ويخيل لي أن هناك ثلاثة أسباب لذلك: أولها، إنهم وإن قابلونا بالعادة بطريقة غير صديقة، هم عندما يعرفون بأن هناك مكاسب ومال منا، لا يقومون فقط بمقابلتنا فقط بطريقة صديقة، بل يذلون أنفسهم حتى العبودية أمامنا، وعلى هذا الأساس عندما يعرفون بأننا سوف ندفع للحمامية بشكل جيد، تراهم على استعداد لتحمل رفقتنا، والسبب الثاني هو أنه قد قيل بأن المسلمين يصدرون رائحة كريهة، وبسببها يستخدمون

باستمرار محاليل من مختلف الأنواع، وبما أننا ليس لدينا روائح كريهة، لايبالون إذا قمنا بالاستحمام معهم، لكنهم لايشملون بهذا السماح اليهود، الذين تصدر عنهم روائح أكثر نثانة، وهم بالعادة يكونون مسرورين جداً برؤيتنا في حماماتهم، وذلك مثلما يفرح رجل مجذوم باستحمام رجل معافى معه، لأنه غير مزدري، ولأنه يأمل أنه بوجود الرجل الصحيح معه ، سوف هو نفسه يغدو أحسن صحة، وهكذا فإن المسلمين ذوي الرائحة الكريهة يفرحون أن يكونوا برفقة انسان ليست له رائحة كريهة، والسبب الثالث لسماحهم لنا أن نكون بينهم هو أن محمداً (ﷺ) لم يحرم عليهم اللقاء بنا في الحمام، بل فقط في المساجد، لأنه قال في قرآنه بأن المسيحيين أصدقاء أفضل بالنسبة له من اليهود، كما قرأنا عند نيقولا دي كوسا الكتاب الثالث، الفصل الثامن، ولهذا السبب هم يسمحون لنا بالدخول إلى حماماتهم، ولا يسمحون لليهود، غير أن هذا لم يُعمل من أجل مدح المسيحيين، بل لإرباكهم كثيراً، ولذلك إنهم لا يسمحون لنا بأي شكل من الأشكال بالدخول إلى مساجدهم.

وهناك سبب آخر، هو سبب لاهوتي، ذلك أنه غير لائق بالمسيحيين الاستحمام مع غير المسيحيين، فهم بإثارة من الشيطان على استعداد للقبول بأمور غير معقولة من هذا النوع، وفي الحقيقة إنه عمل غير لائق بالنسبة للمسيحي، الاستحمام مع غير مسيحي، بمجرد، اللقاء نظرة على مايلي: ان اليهودي لايجوز له الحديث مع السامري، ومثل هذا لايجوز للمسيحي الحديث مع اليهود ومع غير المسيحيين، وهذا أيضاً واضح مما يلي: حرم الرب في متى: ١٨ على المسيحي أن تكون له أي اتصالات مع انسان فاسد لاسبيل إلى تقويمه بقوله: « فليكن عندك كالوثني»، أو وثنيا كما تقول: « فرّ من المسيحي المحروم كنسيا، كما تفر من الوثني»، وهذا أيضاً مأخوذ من مثل القديس يوحنا الانجيلي، الذي عنه قرأنا في « التاريخ اللاهوتي»، أنه عندما ذهب مرة إلى الحمام في إفسوس ليغسل

نفسه، رأى في الحمام سيرينثيوس Cerinthus ، الهرطقي، فقام على الفور بالفرار والخروج قائلاً: «دعونا نفر من هذا المكان، خشية أن يقع الحمام علينا، لوجود عدو الحقيقة هذا به»

ومحرم على المسيحيين التعايش مع اليهود في كثير من القضايا، من جملتها ورد ذكر مشاركة الحمام مع اليهود، وأي واحد يخرق هذا الأمر، إذا كان رجل دين مجرد من ثوبه الكهنوتي، وإذا كان رجلاً علمانياً، فانه يحرم كنسياً، ويجعل من نفسه مساوياً للذين هم أدنى منه شخصياً بالتعايش معهم، هذا وإن رجلاً محروماً كنسياً مثله مثل أي انسان مطرود أو مسلم.

وينطبق القرار نفسه على غير اليهود مثلما ينطبق على اليهود، وعلى هذا يبدو أنه قد تبرهن بهذه الأمثلة أنه غير لائق بمسيحي دخول حمامات يهود أو مسلمين، وانظر حول هذه القضية ماورد في Sum. Anca. Sarracenus

وأملّي بأننا نحن الحجاج سوف لن ننال عقوبات القانون هذه، بسبب حاجتنا الماسة، التي فيها غير محرم علينا أكل خبز اليهود غير المخمر، واللحم المقدم إلى أوثان الكفار، وأيضاً بسبب سماح البابا، لأنه منحنا إذناً بالارتحال داخل بلاد المسلمين، ويسماحه لنا نحن الحجاج بالسفر إلى بلاد غير المسيحيين، سمح لنا بالجلوس مع غير المسيحيين إلى مائدة واحدة، وأن نستحم معهم، وكذلك بتناول الدواء منهم، وعلاوة على ذلك، أنه لن ينجم أي خطر عن مثل هذا الاستحمام، كما أنه ليس هناك أي اقتراف لأي ذنب من أي نوع، على أساس أن التعايش معهم ليس مستمراً، وليس عادياً، بل إنه يمر بسرعة، ثم إننا لا يمكننا الحديث معهم على أساس أننا لانفهم لغتهم، ذلك أن اللغة هي أكبر روابط الوحدة، وهكذا انقضى ذلك اليوم.

قدوم المماليك وحديثنا معهم

وعملنا استعداداتنا في اليوم الثالث من أجل المغادرة، لكن عائقاً كبيراً اعترض سبيلنا، لأن جيشاً من الاف كثيرة من المماليك قدم من مصر إلى تلك البلاد، ولذلك غدت المدينة كلها والمنطقة التي من حولها، مليئة برجال مسلحين، ونصبت خيامهم من حول غزة، وكان عددهم ثمانية الاف، وقد جرى ارسال هؤلاء الرجال من قبل السلطان للقتال ضد التركمان في سورية، ولكسر شوكتهم، وقد أقاموا حول المدينة، وعدد كبير منهم دخلوا إلى المدينة لمشاهدتنا، وجاء بينهم هنغار، سألوا عما إذا كان هناك أي حاج من هنغاريا بيتنا، وعندما وجدوا المعلم جون، فرحوا كثيراً وجلسوا في خيمنا معنا، وأكلوا وشربوا معنا، لابل حتى شربوا خمرة، لكن بشكل سري، وكان بعضهم مماليك من صقلية، وبعضهم من كاتالونيا، أي أنهم مرتدون عن المسيحية، وقد قدموا إلينا وطلبوا أن يُسمح لهم بالحديث معنا، وطلبنا منهم جميعاً الدخول، وتحديثنا معهم بشكل اعتيادي، الأمر الذي أزعج ترجماننا كثيراً، وكالينوس المسلم، لأنه يكره المماليك بشكل سري كثيراً، لأن المماليك يمتلكون السلطة عليه وعلى الترجمان، ولذلك نادراً ماملكا الجرأة على رفع رأسيهما بحضورهم، ولهذا صار المسلمان: ال Sa-bathytanco والفحل، أي دليلينا، غاضبين منا، لأنها خافا من أن نسب لهما مزيداً من الكراهية من قبل المماليك، لأننا كنا في ذلك الوقت على خلاف معهما، لأنها أخرانا في ذلك المكان، وحاول هذان الرجلان، بحكم براعتهما وخبرتهما أن يبعدانا عن معاشرتنا المماليك ووجها اللوم إلينا، فقد خاطبنا Sabathytanco متسائلاً: «هل أنتم حقاً مسيحيين؟» فكيف يمكن أن تكونوا مسيحيين، ولاتستحون من الأكل والشرب مع أناس تخلوا عن الايمان المسيحي بأيمان رهيبة؟ وقال الفحل وهو المسلم الآخر: «أنتم بلا شك من المسيحيين، الذين سوف

ينقذهم إيمانهم، وهؤلاء المماليك، بدون شك، سوف يدانون، لأنهم تخلوا عن إيمانهم بعقيدتكم، وبناء عليه، أي شأن لكم بالتعامل معهم؟ وكان هذا الرجل يعتقد— كما تحدثت من قبل— أن كل انسان من الممكن انقاذه بالايان الذي ولد عليه، وليس بايمان آخر، وقدمنا في هذه المناقشات ما أمكننا من أجوبة، إنما بعد تناولنا للطعام جاء المماليك ثانية، وتحدثوا معنا، وعندما أخبرناهم بأننا نود أن نرى جيشهم، وحيولهم، وخيمهم، وعتادهم الحربي، أخذونا إلى المدينة إلى اسطبلاتهم التي وقفت فيها أجمل الخيول، وأخذونا إلى خارج المدينة، حيث كانت خيمهم منصوبة وشاهدنا هذا كله باعجاب، وما من أحد تساءل حولنا عندما كانوا يقودوننا، لأنهم بدوا بالنسبة لنا رجالاً لهم مكانتهم وسلطتهم في الجيش، وبعدما فرغنا من مشاهدة جميع هذه المناظر، عدنا إلى مقر اقامتنا في مكاننا حيث وجدنا أدلاءنا غير مسرورين كثيراً منا، الأمر الذي لم نهتم به إلا قليلاً.

واجتمعنا في الصباح الباكر لليوم الرابع، واتفقنا على تمضية النهار في العمل من أجل تحضير أنفسنا في سبيل رحلتنا عبر القفار، وفي شراء الأشياء التي كنا مانزال بحاجة إليها، وذلك بالاضافة إلى ما كنا قد اشتريناه في القدس، وعليّ وقعت مسؤولية أعمال الشراء للجماعتنا كلها، وبناء عليه أخذت مالاً من رفاقي، وانطلقت مع رئيسي الجماعتين التاليتين، إلى السوق لشراء المؤن، لكن للمفاجأة لم نجد شيئاً في السوق، ووجدنا جميع أكشاك وبيوت التجار، وحوانيت الطباخين، ومحلات اللحامين، كلها مغلقة، وعندما سألنا عن سبب ذلك، أخبرونا أنه لن يكون هناك سوق طوال الوقت الذي يبقى فيه المماليك في المدينة، لأنه بسبب جشعهم مامن أحد يتجرأ على عرض بضائعه للبيع، لأن المماليك يقدمون ويتناولون كل ما يعجبهم. ويأخذونه دونما دفع، ومامن انسان يتجرأ أن يقول لهم لا، وأبقى شعب غزة دوابهم أيضاً في بيوتهم،

وكذلك حميرهم وأبقارهم، وأغنامهم، وماعزهم، تحت اشرافهم، ولم يتركوهم للذهاب إلى المرعى، لأنه كان سيتم الاستيلاء عليهم من قبل العساكر، وبناء عليه [١٧] لم نستطع في ذلك اليوم الحصول على شيء.

وقدم في ذلك اليوم بالذات إلى ساحتنا بعض العقيلات المسلمات، مع خادماتهن، وجوههن مغطاة كما هي عادت، وقد رغبنا في رؤيتنا، وهكذا خرجنا من خيمنا وأكواخنا ووقفنا في حضرتهم، وقد ضحكنا وتكلمنا بلسان المسلمين، وبما أننا لم نستطع رؤية وجوههن بسبب حجبهن، رجوناهن - من خلال المترجم - إزاحة حجبهن، حتى نرى وجوههن، وعندما سمعنا هذا ضحكنا كثيراً، وأمرنا خادماتهن برفع حجبهن، وعندما أعلن ذلك، ظهرت وجوههن سوداء كالقحم، لأنهن كن حبشيات، وعندما رأيناهن، تظاهرن بالخوف من سوادهن، وابتعدنا عنهن مع القرف، وسألنا سيداتهن رفع حجبهن، وقد أعلن ذلك، فإذا بهن شقراوات وسيدات جميلات، ولطيفات ومحترمات، وغالباً ما رأينا هذه الأشياء في غزة، وفي الحقيقة غالباً، ما قدمت بعض الفتيات الحبشيات إلى ساحتنا، وتصرفن بشكل غير لائق، وحوهن لن أقول أكثر مما يكفي الآن، ذلك أن عدداً كبيراً من الأحباش يسكنون في الأرض المقدسة، من الجنسين، أرقاء وأحرار.

شراء الأشياء المحتاجة

وفي اليوم الخامس، وقبل بزوغ الشمس، زحف المماليك وغادروا غزة، ومع ذلك لم تفتح الخوانيت أبوابها قبل الظهر، كما أنه لم يكن هناك أي سوق للبضائع، لأن اليوم كان يوم الجمعة، وهو يوم نظر المسلمون إليه بقداسة وقد حافظوا عليه كذلك، وتسلمت بعد تناول طعام الافطار ثمان عشرة دوقية من رفاقي، وذهبت أنا والفارس بطرس، وهو ولزي، وقد ارتديت رداء طائفتي الأبيض، الذي عليه علامة الصليب،

وذهبنا معا خلال الشوارع والأزقة، والسوق، والخوانيت، واشترينا أشياء كثيرة، كنا بحاجة إليها، وفي الحقيقة تحتاج الرحلة خلال القفار إلى عناية عظيمة، وإلى استعدادات أعظم من الاستعدادات للسفر في البحر، لأن الأشياء التي لا يجدها الانسان في البندقية، يمكنه أن يجهز نفسه بها في أي ميناء وجزيرة، يقف بها، لكن لا يوجد في القفار موانئ ولا خانات، بل فقط مناطق شاسعة معزولة، فيها لا يمكن حتى لحيوانات الحمل العثور على طعام، حسبنا سنرى فيما بعد.

كما أننا لن نتسلم أي من، من السماء، مثل بطارقة الأيام الخالية، كما أنه لن تكون هناك مياه من الصخرة، كما أننا لن نتلقى زيتاً من الصخر الأصم، ولا الحجل من مصر، وأحذيتنا وثيابنا لن يكون بالامكان الحفاظ عليها من أن تكون بالية، كما أننا لن نمتلك عموداً من نار، ليضيء لنا في الليل، لذلك توجب علينا تجهيز أنفسنا لمواجهة هذه الحاجيات جميعاً لأيام كثيرة، لاتقل عن خمسة وأربعين يوماً، وذلك حتى نصل إلى الاسكندرية، حاسبين هنا الأيام التي سوف نمضيها في مصر، بسبب أننا لن نبقى في القفار أكثر من خمسة وعشرين يوماً، وبناء عليه شرينا كثيراً من أرغفة الخبز، والسلال، وقد شرينا لكل حاج كمية من الخبز تكفي ثلاثة، وذلك من أجل أن نعطي البداية العرب، الذين سوف نلتقي بهم في الصحراء، ونشتري بذلك مضايقاتهم، وشرينا أيضاً المزيد من جرار الخمرة، والروايا لحمل الماء، وسلالاً كبيرة لنضع فيها قدور الطبخ، وأدوات القلي، وكل شيء يحتاجه المطبخ، واشترينا أيضاً مناصب، وأدوات شوي، وسفود، وثلاثة أقفاص كبيرة مليئة بالطيور والدجاج، مع ديك كبير أبيض وقف فوق القن، ووظيفته إخبارنا بساعات الليل في القفار، وشرينا أيضاً سلالاً مستطيلة، لنضع فيها الزجاج والصحون والأطباق، من أجل الاستخدام على المائدة، وشرينا أيضاً جنبا، وأشياء أخرى، كما شرينا سلالاً صغيرة مع كلاب، فيها

يمكننا أن نحمل خبزاً، وأشياء قاسية أخرى، قابلة للأكل، ونعلقها على سرج حميرنا، وجرار ماء، ودوارق مع كلاليبها، واشترينا أيضاً جوالق مليئة باللحم الجاف، وجبنة، وزبدة، وزيت، وخل، وقمح مجروش من أجل الحلوى، وبصل، ولوز، ولحم مملح، وأطعمة محفوظة متنوعة، من كل من الحلو والمالح، وأدوية للقوم المرضى، وشموع وأحذية، وسلتين مليئتين بالبيض، وأشياء أخرى من أنواع مشابهة، مما يحتاجه الانسان بشكل عام، واشترى سائقو الجمال جوالق من الشعر لإطعام الجمال، وكذلك لإطعام الحمير، وهكذا زودنا أنفسنا في ذلك اليوم من غزاة بجميع الأشياء التي نسينا أن نحصل عليها من القدس، ووقع في هذا اليوم بعضاً من الحجاج مرضى بشكل خطير، إلى حد أنه لم يعد هناك أمل كبير بحياتهم.

مرض جميع الحجاج

وفي أمسية اليوم السادس، عندما حان وقت مغادرتنا، وكان أدلاؤنا جاهزين للانطلاق، وضع الرب يده على الحجاج، ولمسهم، وقهرهم جميعاً تقريباً، لأننا فجأة بتنا جميعاً مرضى بشكل كبير، ووقفت خيامنا مليئة بالمرضى، وكان عدد الذين كانوا مرضى أكبر من الذين كانوا أصحاء، وكان بين هؤلاء المعلم بطرس الولزي، فقد بلغ به المرض إلى حد الهذيان، واللورد فرديناند بارون فون وورنو، الذي كان حتى الآن يشجع كل انسان انبطح مريضاً وبلا حراك، وفي الوقت نفسه عانيت أنا من صداع خفيف، ومن عدم قدرة على التوازن، ومن حرارة عالية في جسدي كله، ومع ذلك لم ألتجأ إلى الفراش، بل توليت - بقدر ما أستطيع - خدمة المرضى، وكذلك صار اللورد برنارد فون بريتنباخ - الذي هو الآن عميد ميتر - مريضاً جداً إلى حد فقد فيه مظهره الخارجي وعقله، ولم يكن لدينا أمل بشفائه قط، وهكذا أمضينا ذلك اليوم في كثير من الاضطراب والتعاسة.

خصومات الحجاج وتمزقهم

وفي اليوم السابع، الذي كان الأحد الخامس عشر، بعد التثليث، سمعنا قداساً قرأه المعلم جون، رئيس الشمامسة، الذي كان أقوى مما كناه، لأنني كنت أنا والأب بولوس الفرنسيكاني، ضعفاء ومرهقين، إلى حد تعذر علينا فيه قراءة صلواتنا الساعية الرسمية، وتوجس الحجاج أشياء كثيرة أن تكون سبب هذه الأمراض، وبعضهم وضع المسؤولية على الماء، وبعضهم على الطعام، وبعضهم على القمر الجديد، لكن الشطر الأكبر شك في أن يكون Sabathytanco ترجماننا قد وضع بعض السم في طعامنا، حتى إذا مامتنا يمكنه الاستيلاء على جميع مقتنياتنا وبضائعنا، لكنني رأيت وقتها، ومازلت أرى حتى هذا اليوم بأن المرض أرسل من السماء، لمعاقبة فضولنا.

وعندما كان الحجاج في هذه التعاسات، بدأ كل واحد منهم يعمل خططاً متنوعة، وتراجعوا جميعاً عن نيتهم بالحج، فقد رغب بعضهم بالعودة إلى القدس ثانية، وهناك إما أن يشفوا أو يموتوا، وأراد بعضهم الذهاب من خلال فلسطين إلى فينيقية السورية، ومن ثم إلى بيروت، الميناء البحري، والعودة من هناك إلى بلدانهم في أوروبا بالغلايين التجارية التالية، في حين تخلى بعضهم عن جميع هذه المشاريع وأرادوا الذهاب على طول الساحل إلى الاسكندرية والانتظار هناك للبحار، وطلب بعضهم الذهاب إلى القاهرة، والسفر من القاهرة على طول ساحل البحر الأحمر إلى سيناء من خلال أرض مدين، وبعد زيارة سيناء العودة إلى مصر، ومن ثم إلى البحر، وأراد بعضهم البقاء في غزة حتى تتحسن أحوالهم، ومن بعد ذلك يتابعون السير على طريقهم، وحافظ البقية على النية الأولى، وهي الانطلاق مباشرة في الغد، على الرغم من كونهم مرضى.

وبحدوث هذا كله حدث انقسام كبير بين الحجاج، وتمزقت فئاتهم،

لأن أحدهم رغب في تأييد آخر، كان قد اخترع خطة أرضته، وبذلك انعزلا عن البقية، وفي الوقت الذي كان فيه هذين يفكران بهذا، كان آخران يخططان لشيء آخر، والبقية لأمر آخر أيضاً، وكل الوائم الذي كان متوفراً بين رفاقنا تبدد تماماً، وعلى هذه الصورة مضى ذلك اليوم التعيس في تلك المخاصمات المؤلمة، وطوال ذلك اليوم لم نشاهد ترجماننا مما زاد في شكوكنا التي توجسناها حوله.

الميثاق الجديد الذي عمل بين الحجاج

بعد تخصمهم ثم تصالحهم

أطل فجر اليوم الثامن بسرور، وجلب لنا يوماً سعيداً، ولذلك قرأنا في سفر المكابيين الثاني: ٢٢/١: «وأشرق الشمس التي كانت من قبل مخفية بالنجوم»، فقد قامت مريم العذراء الأعظم مباركة، في يوم عيد ميلادها، بطرد جميع الظلام، والاضطراب، والمرض، منا جميعاً، ولأقول بأن هذا على سبيل الإثارة والحكايات، لكن هذا ما حدث بالحقيقة، فعند الفجر استيقظنا نحن الكهنة وأدينا صلواتنا الليلية، والأولى، وجهزنا مذبحنا لإقامة قداس، وقمنا نحن الثلاثة واحداً تلو الآخر بقراءة صلوات القداس من أجل يوم العيد، وصلينا من أجل شفاء قومنا المرضى، ومن أجل توفيق رحلتنا.

وبعد هذه القداسات كان جميع الحجاج حاضرين، حتى كان بينهم الذين كانوا في اليوم الماضي وفي اليوم الذي تقدمه وكأنهم على أبواب الموت، فقد غادروا فرشهم بخشوع كبير، مع الشكر والحمد، وبقوا حاضرين خلال الصلاة كلها، ورقابهم منحنية، حتى النهاية، ولدى فراغنا من القداسات، قمنا بالاستعدادات من أجل طعام الافطار، الذي طبخناه وأكلنا كالعادة، ولم يكن هناك أدنى ذكر لخلافاتنا الماضية، بل أقسم كل واحد منا للآخر من جديد بأننا سوف نقوم جميعاً بالسفر مع

بعضنا خلال القفار إلى جبل سيناء في العريية، وأن نعيش معاً، وأن نموت معاً، وأنا لن نترك رجلاً مريضاً خلفنا، بل سوف نحمل في سلال فوق الجمال الذين لا يمكنهم الجلوس على ظهور الحمير، وأبرمنا في ذلك اليوم ميثاق سلام أحدنا مع الآخر، وبتنا أصدقاء لا يمكن تفريقهم، وإخواناً، بقلب واحد، وروح واحدة في الرب

وبعد منتصف النهار جاء ترجماننا، الذي لم نره عندما كنا مضطربين، ولدى رؤيته لنا أننا كنا مسرورين، وشفينا تقريباً، جلب سائقي الجمال مع الجمال، وكذلك سائقي الحمير مع الحمير، راغباً في اقتيادنا على طريقنا، غير أننا لم نوافق على هذا بأي شكل من الأشكال، وبوقاحة وقسوة رددنا عليه، بأننا في ذلك اليوم كنا نحافظ فيه على عيد مهيب وهو عطلة بالنسبة لنا، ولا يجوز لنا مغادرة المكان، حيث كنا يومذاك في يوم مقدس، وعلاوة على ذلك أخبرناه بأننا مكثنا في ذلك المكان لأيام عديدة ضد إرادتنا، وأنا لن نغادر في ذلك اليوم، ولا لسبب من الأسباب، صدوراً عن الاحترام للعدراء المباركة، وتجاه هذا كان الرجل مزعوجاً، وغادر سائقو الجمال والحمير وهم يتمتمون ويزمجرون، وأعلنوا أنهم سوف لن ينتظرونا بعد الغد مهما كانت الأوضاع.

وبشأن ما حدث في اليوم التالي، وهو اليوم التاسع، انظر الرواية حوله في ص ٢٦ ظ.

وصف منطقة فلسطين وفي كم من الطرق جرى استخدام كلمة «فلسطين»

وقبل أن نغادر الأرض المقدسة، ونذهب إلى القفار، سوف أتولى وصف غزة مع منطقة فلسطين، فقد ورد لفلسطين ثلاثة معاني في الكتابات المقدسة، فهي في بعض الأحيان تعني جميع الأرض المقدسة، وبناء عليه فإن القدس وجبالها اسمها فلسطين، وهذا غالباً مانجده

مستخدماً في « حياة الآباء»، وكذلك نجد أن الأرض المقدسة كلها تدعى باسم سورية، لأن كل من اليهودية وفلسطين هما جزئين كبيرين من أجزاء سورية.

وثانياً: يطلق على جزء محدد من منطقة الجليل، قرب جبال جلعاد، اسم فلسطين.

وثالثاً: يقال بالعادة للمنطقة القائمة على شاطئ البحر فلسطين، أكثر من سواها، وهي المنطقة القائمة ما بين سفوح جبال بني اسرائيل، التي تحدها من جهة الشرق، كما يحدها البحر الكبير من جهة الغرب، ومن الشمال بجبال افرايم وبغزة من الجنوب، وأطلق على هذه المنطقة بشكل صحيح اسم فلسطين، وقد قال ايزودورس حول فلسطين: «هي منطقة واسعة، فيها يجري البحر الأحمر من الشرق، وهي المحدودة من جهة الجنوب باليهودية، ويحدها من الشمال بلاد صور، ومن جهة غروب الشمس بالبحر وبمصر»، وفي العصور القديمة عرفت بفلسطين صدوراً عن اسم مدينة عسقلان، التي عرفت باسم فلسطين، واشتقاقاً من ذلك أطلق على سكان تلك المنطقة اسم الفلسطينيين.

وكانت عسقلان في الأيام الخوالي حاضرة فلسطين كلها، وبعد ذلك، صارت قيسارية القائمة على ساحل البحر الحاضرة، والآن غزة هي المدينة الرئيسية.

وفي العصور القديمة، كانت هذه البلاد كلها مليئة بالعمالق، وكان شعبها قوياً في كل من البحر والبر، لأنه امتلك موانئ بحرية، ففي القديم امتلكت البلاد خمس مدن رئيسية وحوضر، وهذا ماكنت قد ذكرته من قبل، وبسبب قوة العمالق وشجاعتهم لم يكن بنو اسرائيل قادرين على تدمير الفلسطينيين، ومن ثم تملك هذه المدن الخمس، وكانت فلسطين فيما مضى تملك كثيراً من الديرة والرهبان، وقد قرأنا

عن معجزات عملت من قبل الرهبان الذين سكنوا في فلسطين غزة أو غزرة مدينة الفلسطينيين أو شعب فلسطين

لمدينة غزة اسمين، فباسم غزة معروفة بشكل عام في الكتابات المقدسة، وجاء الحديث عنها باسم غزرة في سفر المكابيين الأول: ٧، وبالغالب بعد ذلك، وهي بهذا الاسم تدعى الآن من قبل جميع الناس، وغزرة، هي الحصن، والقلعة التي اقتحمها يهوذا المكابي (سفر المكابيين الثاني: ١٠ / ٣٢....)، ومعنى كلمة غزرة هو الكنز، لأن الملك قمييز، عندما كان ذاهباً للإستيلاء على مصر، أبقى جميع كنوزه في غزة، ومن هنا نالت المدينة اسم غزة أو غزرة، لكن مالذي كانه اسمها قبل قمييز، هذا ما لم أكتشفه، ولربما كانت تعرف بهذا الاسم حتى قبل قمييز، لأن أقدم الكتابات المقدسة تدعوها باسم غزة، من ذلك على سبيل المثال ماورد في يشوع: ١، والقضاة: ١.

وكانت المدينة في القديم ملكاً للعناقيين، فهذا ما ذكره جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، وقد سكن فيها الكفتوريون (الثنية: ٢ / ٢٣) بعدما قتلوا سكانها الأصليين، وقد كانت غزة من حصّة سبط يهوذا، لكن ذلك السبط لم يستطع السيطرة عليها، بسبب أن العمالقة قد قاوموا بشجاعة عظيمة، وقد قال الأنبياء كثيراً حول هذه المدينة، كما قرأنا في: إرميا: ٤٧ / ١ وفي زكريا: ٩ / ٥، وفي صفنيا: ٢ / ٤، وقد وردت أخباراً كثيرة حول تدميرها، وتدمير المدن الفلسطينية الأخرى، وهكذا نجد إرميا في السفر المذكور أعلاه، قد تساءل في إحدى النبوءات، وقال بأن غزة سوف تكون كومة إلى الأبد، لكن هذا القول تعلق بغزة القديمة، الذي تعرضت في القديم إلى دمار كامل، وصار اسمها «صحراء»، كما جاء في أعمال الرسل: ٨ / ٢٦.

وغزة في هذه الأيام مدينة متميزة في فلسطين، وهي كبيرة بقدر حجم القدس مرتين، ومكتظة بالسكان، ومزدهرة، وإذا ما أردنا وصفها بالعامية هي خندق مليء بالزبدة، وكل الأشياء التي يحتاجها الانسان من أجل الحياة البشرية وافرة، ورخيصة هناك، وهناك كثيراً من أشجار النخيل، إلى حد بدت فيه المدينة وهي قائمة في غابة، وبيوتها بائسة ومبنية من الطين، لكن مساجدها وحماماتها فخمة جداً، وهي محاطة بسور، وفي السور كثيراً من الأبراج العالية، وهي مدينة ساحلية وإن كانت ليست قائمة على شاطئ البحر، بل تبعد عنه مسافة ميل واحد، وفي الليل عندما يكون كل شيء ساكناً، اعتدنا ان نسمع في ساحتنا أصوات هدير البحر الهائج.

ويسكن في غزة أعداد كبيرة من التجار، وهناك كثيراً جداً من الطباخين، كما أن هناك مزيجاً مدهشاً من الشعوب، ويوجد فيها أعداد كبيرة من الأحباش، مع كثير من البداة العرب والمصريين، والسوريين، والهنود، والمسيحيين الشرقيين، لكن لا يوجد فيها لاتين، وفي أواخر أيام الصليبيين، كان هناك كرسيّاً جيداً ومحترماً لأسقف، ولقد لاحظت وجود أمرين في مدح هذه المدينة: أنا لا أعتقد أنني رأيت أي مكان أو مدينة يرغب الانسان بها— لأنها رخيصة— مثل غزة، والأمر الثاني هو أن الناس هناك مسالين جداً، فما من أحد سبب لنا أي ازعاج أو عذبنا مثلما فعلوا بنا في الرملة ويافا، ذلك أننا تجولنا يومياً في شوارعهم ونحن نرتدي صلباننا، وقمنا بأعمال معهم دون التعرض لأدنى درجة من المضايقة، وسرت في بعض الأحيان مسافة طويلة من ساحتنا، وحيداً، مرتدياً ردائي الأبيض، ومع ذلك لم أسمع أية كلمة عدوانية، لكن هذا لم يحدث لجميع الحجاج الذين أقاموا هناك قبلنا، ذلك أنني قرأت في كتب حجاج بأن بعضهم قد تعرضوا لمضايقات كبيرة هناك. ويكفي ماقلناه عن هذه المدينة.

مقال حول ثلاثة موضوعات هي: الحمير، والجمال، والقفار نفسها، وضعت هنا قبل الدخول إلى القفار

قبل أن أدخل إلى القفار، ولكي يكون حجاجنا في القفار فاهمين بوضوح أكثر، يتوجب وصف ثلاثة أشياء، وهي أشياء ترد الإشارة إليها الآن وفيما بعد: وأول ما ينبغي وصفه هو الحمير وسائقي الحمير، وثاني ما يتوجب وصفه هو الجمال وسائقي الجمال، والأمر الثالث، هو وصف القفار، أي الصحراء وسكانها.

الحمير حيوانات لها طبيعة خاصة موائمة من أجل عبور الصحراء أكثر من الخيول، فالحمار دابة يمكنها حمل الأثقال، وتحمل التعب، والاكتفاء بالطعام العام وبالقليل منه، وهو يلتقط طعامه من بين الأشواك، والقتاد، والعوسج، ويشق طريقه بين النباتات الشائكة والكثيفة، ولهذا السبب تكره الطيور الصغيرة الحمار، ويمقتونه مثل مقتهم للبوم، لأنه يعبث بأعشاشهم، وبيوضهم وبصغارهم في النباتات الشائكة، لأنه يلتقط كل شيء ويأكل ويبحث بين النباتات الكثيفة، ويرمي بالأعشاش، وعندما ينهق يخيف صغار الطير، وشرابه هو الماء، وهو يفضل الماء العكر، والكثيف، والمليء بالعلق، والذي يشربه هو قليل، وإذا لم يكن قد شرب من ماء خاص من قبل، فإنه يرفض الشرب، مع أنه قد يكون في غاية العطش، ويمكنه أن يعيش وأن يعمل لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال من دون شرب، ولا يمكنه تحمل البرد الشديد، ولذلك هو لا ينجب في البلدان الباردة مثل بلاد بنطش - Pon-tus، لكنه يتكاثر كثيراً في البلدان الحارة، ويخاف من عبور المياه وتلويث حوافره بالماء، ولا يقوم بعبور الجسور التي منها يستطيع رؤية المياه دون أن يرتجف، وإذا مارأى المياه من خلال العوارض يحزن ويقف دونها حراك، ولا يمكنه السير بشكل جيد في الأراضي الموحلة، لكنه يسير على الأراضي الجافة بشكل جيد وأمين، حتى وإن كانت الأرض وعرة جداً،

ويمكن أن تكون خطرة جداً للخيول، وهو في المناخ الماطر باهت وبلا اندفاع، ولذلك يوجد في الشرق وفي مصر كثيراً من الحمير الجيدة، لأنه لا يوجد هناك لبرد، ولا مطر، ولا وحل، ولا يمكن أن يتوفر في بلادنا حمير جيدة، لأن جميع هذه الشروط معاكسة، ويعرف الحمار صاحبه، وراكبه، وطريقه، وأماكن توقفه، وصوت صاحبه، ومعيار وحدود رحلته اليومية، وعمله، والساعة من أجل العمل، والساعة من أجل الراحة، وذلك بشكل أفضل من أي حيوان آخر، ويحافظ على ذلك كله بشكل دقيق جداً، وهو حيوان لطيف جداً، وهو موثم لمرافقة الانسان أكثر من الحصان والبغل، والمظهر الخارجي للحمار يغش كثيراً من الناس أثناء اختيارهم لحميرهم، لأنه في الغالب الحمير القبيحة أكثر في مظهرها هي الأفضل، وقد يكون العكس صحيح، ومن أجل مثال على هذا، انظر ماتقدم حول اختياري للحماري.

أي نوع من الناس هم سائقي الحمير

ويطلق على الذين يمتلكون حميراً للإيجار اسم سائقي الحمير، وكان سائقوا الحمير الذين ذهبوا معنا خلال القفار من المسيحيين ذوي الزنار، ويعرفون باسم آخر هو الكرج (جورجيون)، وهم هراطقة مثل الاغريق، ومنهم هناك حشوداً كبيرة في البلدان الشرقية، ذلك أن جميع الناس يخشونهم، وأثناء تجولهم من منطقة إلى أخرى، يفعلون ذلك بلا خوف، ولا يدفعون خفارة أو مكوس، وبلادهم الأصلية وأراضيهم واقعة قرب جبال القوقاز، على مسافة بعيدة من الأرض المقدسة، وهم أناس ذوي لياقة، ومظهرهم حضاري، وهم باردون بطباعهم ليسوا سريعبي الغضب وفقدان الصبر، ويتم إكتراء هؤلاء لتوجيه الحجاج وقيادتهم من القدس إلى مصر، على حميرهم، لأنهم مسيحيين، ويعرفون لغات وعادات الشعوب، وهم يرحلون بحرية في بلادهم، وهكذا فإن كل من الحمير وسائقي الحمير، كل في مجاله، موثم بشكل خاص من

أجل عبور القفار، فهذا ما يعلمك الحج إياه أثناء قيامك بالسفر.

طبيعة الجمال وخصائصهم

الجمال حيوانات حسنة المواءمة بشكل جيد ومناسبة بشكل خاص لعبور الصحراء، وهذه الدواب غريب وجودها وشاذ في بلادنا، ولكنها عامة كثيراً في بلدان ماوراء البحر، وترعى بقطعان كبيرة جداً مع بعضها، ويطلق على الجمل هذه التسمية اشتقاقاً من كلمة Camyn التي معناها «قصير» أو «منخفض»، لأنه ينوخ أثناء تحميله، وبذلك يجعل نفسه منخفضاً، أو أن الاسم مشتق من Camyn، الذي معناه «محدود» لأنه يتحدث عندما يكون محملاً، أو لأن له ظهر محدود، وهناك نوعان من الجمال، هما البختري والجمل العربي، وللجمل العربي سنامين (كذا) على ظهره وهو أصغر وأبطأ من النوع الآخر، وللجمل البختري سنام واحد على ظهره، عليه يحملون الأثقال، وسنام آخر على صدره، وعليه يرتاح، وهذا الجمل أصغر من الجمل العربي، وهو سريع جداً، وأعتقد أن الجمال البختري عرفت أيضاً باسم الجمال الوحيدة السنام، بسبب سرعة خطواتها، لأن Dromedus تعني «طريق» أو «منحى»، ويمكن لهذا النوع من الجمال أن يسير مائة ميل في اليوم، وورد ذكر الجمل الوحيد السنام في إشعيا: ٦٠، ولكل جمل وحيد السنام سائق واحد، ونقرأ عن معجزة حول جمل بختري كان له حجم هائل، في «حياة القديس هيلاريون»، الفصل: ١٩، وقال فنستوس في مصنفه Speculum Naturale — الكتاب ١٩، الفصل: ٢٧، بأن من الممكن أن الذي له سنام واحد على ظهره يسمى جمل، لكن النوع الآخر يدعى باسم الجمل ذي السنام الواحد، ويجري بسرعة مذهشة، وله سنامين على ظهره (كذا)، وعلى هذا من الواضح أن الجمال بسنام واحد تسمى أحياناً الجمال ذات السنام الواحد، وذلك مثلما يسمى النوع الآخر بذئ السنامين، وهناك أنواع كثيرة من الجمال، تختلف كثيراً بالحجم وبالخطوة.

والجمل حيوان مشوه، له سنام، وله رقبة طويلة، بسبب طول أرجله، ومع ذلك يمكنه الوصول إلى الأرض، والتقاط طعامه، وهو يسير ببطء، لكنه يتحرك بسرعة، وهو لا يركض مثل الحصان، لكنه يعمل خطوات طويلة بأرجله الطويلة، مادام الإنسان قادراً على أن يفرق بين قدميه، وأثناء ترحاله بشكل متواصل، لا تتورم أخفافه قط، وأرجله مغطاة دوماً بلباد جسدي، لذلك لا يمكنه تحمل السير فوق الحجارة، وإذا توجب عليه السير لمسافة طويلة فوق أرض صخرية لابد أن يحتاج إلى صنع نعل له، لأنه إذا جرح نعله يفقد الحيوان قدرته كلها وتوازنه، وعلى هذا يسير الجمل بشكل جيد فوق الرمال، وبشكل سيء فوق الحجارة، ذلك أنه يمشي فوقها ببطء شديد في خطواته مع كثير من الخوف، ومثل هذا تراه يسير بسرعة فوق أرض جافة عطشى، لكنه يسير بشكل سيء فوق أرض مبللة أو منزلقة، وهو يسافر بشكل جيد في المناخ الجاف الدافئ، لكنه يرتحل بشكل سيء في البرد، ولذلك لا يمكنه العيش طويلاً في البلدان الباردة والرطبة.

وللجمل رأس صغير، لابل صغير جداً، بالنسبة لجسده، وهو بدون قرنين، غير أنه يمتلك أنياباً في الفك الأعلى مثل الحيوانات القرنية، وللجمل عينان كبيرتان ومخيفتان، ويبدو دوماً حيواناً حزيناً ومنزعجاً، وعينه مثل منارة ملتهبة، واشعاعات كثيرة تنعكس منهما، وكل شيء ينظر إليه الجمل يبدو له عظيماً وضخماً، ولذلك يظهر أنه ينظر إلى كل شيء بدهشة وحذر، على هذا عندما يتوجه انسان نحوه، يبدأ الحيوان بالارتجاف، ولهذا يتصور الانسان بأن الحيوان يرتجف، لأن الانسان المقبل عليه يبدو بالنسبة إليه أكبر بأربعة أضعاف مما هو حقيقة، ولولا أن الرب قد أمر هذا الحيوان لما أمكن تدجينه وجعله منضبطاً كما هو الآن، وله فم قذر وغير نظيف، وواسع جداً، مع أسنان منخفضة طويلة، وعندما يصرخ، لأنه واقع في اضطراب، يفتح فمه، ويهز رأسه،

ويرفع رقبته الطويلة، ويحركها نحو الأمام ونحو الخلف، ولذلك فإن الانسان غير المعتاد على هذا يضطرب ويخاف.

ووفقاً لشريعة الرب، الجمل حيوان غير نظيف، لأنه له حافر غير مشطور، مثل الحصان، وهو مجتر مثل الأغنام، وهو يأكل طعاماً قليلاً، ويعلف على القش، وعلى لحاء الأشجار وأوراقها، ويأكل الشعير أثناء العمل، وابتلع طعامه بسرعة، ويضعه جانبا حتى يتمكن من مضغه ثانية طوال الليل كله، وللجمل أكثر من معدة، ففي المعدة الأولى يتلقى الطعام غير المهضوم، ويشرع في الثانية بهضم الطعام نفسه، ويقوم في الثالثة بهضم الطعام بكمال أكثر، وينتهي الهضم في المعدة الرابعة، وهذه المعد الأربع ضرورية بسبب خشونة طعامه، ولأنه يمضغ الطعام، إنها قليلاً بأسنانه، وتحب الجمال المياه القذرة، وتتجنب المياه الصافية، وعندما تكون المياه ليست موحلة بإفقيه الكفاية، يقوم بإثارة الطين بالضرب بقدميه وبتحريكهما حتى تصبح المياه كثيفة، ويمكن للجمل تحمل العطش لأيام كثيرة، وإنه لأمر مدهش أن أقول إنه يمكنه السير اثني عشر يوماً من دون ماء، لكن عندما يعطى الفرصة للشرب، يملأ نفسه بما فيه الكفاية، لاطفاء العطش الماضي، وليعد نفسه لبعض الوقت المقبل.

ويعيش الجمل عمراً طويلاً، ويمتد هذا أحياناً إلى مائة سنة، وذلك مالم يؤخذ إلى مناطق أجنبية، وأن يصاب بمرض من خلال تغير المناخ، والعيش بمناخ غير معتاد عليه، ويقولون بأن السبب في عيش الجمل لمدة طويلة هكذا لأنه ليس له مرارة، فالمرارة — تبعاً لـ أناكساغوراس Anaxagoras — هي سبب جميع الأمراض الصعبة، وللجمل ذاكرة ثابتة تجاه الأعمال السيئة التي تعمل له، وإذا ضرب سوف يحتفظ طويلاً بحقه حتى يجد الفرصة المناسبة فينتقم للأذى الذي كان قد تلقاه.... ويقال بأن الجمل له طبيعة عاطفية وحنونة إلى حد أنه لو وجد في القطيع

أو بين مجموعة جمل مريض ولا يمكنه الأكل، يمتنع الآخرون عن الأكل تعاطفاً معه.

والجمل دابة للحمولة، ومعين لحمل الأثقال، وهو يفرح بفعل ذلك، ولهذا لديه كراهية طبيعية وعدم محبة للخيول، وللبغال، وللحمير، لأنهم يأخذون الأثقال ويحملونها وهي الأثقال التي يعتقد أنها عائدة له وحده، ولذلك إذا ماسار حمار محمل أو فرس أمام جمل، لن يتقدم ذلك الجمل بأي حال من الأحوال، بل يقف دونها حراك، وهو يبدو منزعجاً، ثم انه لن يتحرك حتى تؤخذ الدابة الأخرى وتزاح من أمامه وتوضع خلفه، وبما أن الحمير تسير أسرع من الجمال، وإذا كانت هناك رحلة تحتاج إلى اسراع بالخطى، يمدون مقود كل جمل بحبل إلى رقبة حمار، وبذلك يمكن للجمل أن يُجر من قبل الحمار الذي يسير قبله، وذلك حسبما قرأنا في اسطورة القديس جيروم.

وعندما يراد تحميل الجمل، يربت بلطف على ركبتيه، فيقوم على الفور بحني مفصليه، وينوخ ويتلقى حملة، أو إذا ما وضع انسان يده على رقبة الجمل، وصففر، ينوخ نحو الأرض ليجري تحميله، ويجلس بهدوء لمدة طويلة، ويسمح لأحمال ثقيلة أن توضع عليه، وأثناء ذلك لا يحرك جسده، بل يهز رأسه، ويرفع صوته عالياً عندما يشعر بأنه جرى تحميله أكثر مما ينبغي، وهذا ما تفعله الجمال الصغيرة، لكن لا تفعله الجمال الكبيرة.

وعندما يجري تحميل عدد كبير من الجمال في وقت واحد، يصدر عنها هدير خفيف، يمكن سماعه من مسافة بعيدة في الصحراء أثناء الليل، والأثقال التي تحملها الجمال لا يجري حزمها على ظهورها بأحزمة من تحت بطونها، كما أن قتبها لا تثبت مثل سرج الخيول والحمير، بل يوضع القتب بكل بساطة فوق السنام، من دون أي رباط، وفوق القتب توضع الأثقال التي تتدلى نحو الأسفل من على الجانبين بوزن متساوي،

وإذا ما شعر الجمل بأن الوزن أثقل على أحد الجانبين، لا يتقدم سائراً، بل يمدّ عنقه، ويشير بصراخه إلى الجانب الذي يحمل وزناً أثقل، وإذا لم يتوفر شيء لمعادلة الوزن، يتناولون حجارة، يعيدون التوازن بها.

وإذا ما شعر الجمل بأنه محمّل بوزن أعظم مما اعتاد أن يحمله، وقتها لن يتحرك نحو الأمام ما لم يجري تخفيف الحمل، لأنه لا يتقبل حملاً فوق طاقته، وعندما توضع الأثقال على ظهور الجمال يقوم سائقوا الجمال بالحذاء بأصوات عالية لتهدئة الدواب، ولدى الفراغ من التحميل، ينبعث الجمل قائماً بسرعة، ليأخذ طريقه مسرعاً، وكأنه مسرور، ويسير من دون توقف حتى مكان الاستراحة المعتاد، فهو عندما يصل إلى هذا المكان، يرفض التقدم، ويطلب بانزال الأثقال من على ظهره، ولا تساق الجمال على الطريق لبالعصي ولا بالأسواط، بل يسير سائقوا الجمال خلفها وهم يحدون هكذا: Han na yo yo on ho ho oyoo وعندما يشرد جمل ويتعد عن الطريق، يعود إلى طريقه بإشارة ho خفيفة، باليد، لأنه لا يتحمل الضرب ولا سوء المعاملة، وعندما يضطرب الجمل يصدر صوتاً غريباً، وفي بعض الأحيان — مع أن ذلك نادراً جداً — يصبح هائجاً فيرمي بأحماه، ومن ثم يركض هارباً بسرعة كبيرة، ونادراً ما يسمح لنفسه بالامساك. وواضح أن الجمل يعتني بعناية كبيرة بحمله، خشية أن يقع، ذلك أنه يسير بحذر شديد، خوفاً منه أن يجرح قدمه، أو أن يسقط حمله، لأنه يوجد تحت قدم الجمل خف لبادي من الجلد واسع، وهناك عبر قسم الظلف قطعة من الجلد، مثل التي هي موجودة على قدم الأوز، ولذلك تراه يسير باحتراس، وهو دوماً يعرف الطريق الذي سار عليه من قبل، من دون أي دليل، حتى وإن كان الطريق مغطى بالغبار أو بالرمل المنقول من قبل الريح، وهذا أمر محتاج في القفار، حين لا يكون هناك طريق قد بقي مرثياً، بسبب تحرك الرمال، وهذه الحيوانات ليست فقط مدربة لحمل الأثقال، بل هي معتادة على

الحروب، ولهذا القصد وجدوا أن الناقة أقوى من الفحل، ويكفي ماقلناه عن الجمال.

سائقو الجمال

سائقوا الجمال هم أصحابها، وكان سائقوا الجمال الذين قدموا معنا عبر الصحراء، قد جرى اكترائهم من قبل ترجماننا من قرى فلسطين، الموجودة على حدود العربية، ولقد كانوا قومًا من الريف، وسود مثل البداة العرب، وكانوا عبيدًا للمسلمين وللبداءة العرب، وقد تحالفوا معهم فيما بعد، وكانوا يدينون بديانة محمد ﷺ، وفي الحقيقة لا يقبل البداة العرب الذين يسكنون في القفار أن يكون سائقوا الجمال، أو الذين يتولون تربيتها والعناية بها من دم عربي خالص، بل انهم يدعون هؤلاء الناس يعبرون بسلام لأنهم كانوا متحالفين معهم، ومتفقين معهم بالدين، والملبس، والعادات، ولهذا السبب وجدنا أن سائقي حميرنا، الذين كانوا مسيحيين شرقيين، قد ربطوا أنفسهم — أثناء عبور الصحراء — بالملبس وبالمظهر، بسائقي الجمال، حتى يكونوا أقل عرضة للازعاج من قبل البداة العرب، وكان سائقوا الجمال هؤلاء مع سائقي الحمير، دائمي التخاصم أثناء رحلتنا، ومع ذلك لم يضرب أحدهم الآخر، وقد حافظوا على سلام عميق معنا، وذلك بسبب المال الذي يأملون بالحصول عليه منا، وبشأن سائقي الجمال هؤلاء مع سائقي الحمير، سوف أقول المزيد فيما بعد، وسوف أتولى الآن وصف القفار.

وصف للقفار، المكان المنعزل أو الصحراء، وطولها وعرضها،
وقحلها وفي سياق وصفها سنتولى شرح الاستخدامات الأربعة
للکلمة

من المتوجب وصف القفار الشائعة، التي على الانسان العبور خلالها أثناء سفره من الأرض المقدسة إلى جبل حوريب، وينبغي أن نعلم أن

هذه القفار هي جزء من العربية الكبرى، لأن هناك ثلاث مناطق، متصلة إحداها بالأخرى، يطلق عليها اسم العربية، وأولها جبل لبنان ولبنان الشرقي، مع جميع المنطقة من حولهما، والتي تدعى العربية العالية، لأن تلك البلاد تنتج البخور، والأشجار التي تعطي البخور، ثم إن العطور الأخرى وافرة هناك، ويحد هذه المنطقة من الشمال الإيطورية والطرخونية، اللتان تشكلان شطرين من الجليل، كما يحدها من الجنوب دمشق، ولهذا السبب يقال أحياناً لسورية الدمشقية، العربية، وعلى هذا الأساس قبل للحارث (كورنشا الثانية: ٣٢) ملك العربية، مع أنه كان ملك دمشق.

ثانياً: يطلق على بلاد أبناء مآب، وعمون، وحبشون، ومملكة سيحون، ومملكة عوج، وملك باشان، وجميع جبل جلعاد، وكل المنطقة فيما وراء الأردن، اسم العربية الثانية، وهي تتصل بالأولى إلى الجنوب منها.

ثالثاً: تبدأ من هذه النقطة العربية الثالثة، التي يقال لها العربية الكبرى، وهي تمتد خلال قفار واسعة جداً من نهر الفرات العظيم حتى البحر الأحمر، ونهر النيل في مصر، وفي هذه العربية باتجاه الشرق، توجد مكة مدينة محمد ﷺ، وهناك باتجاه الجنوب جبلي سيناء وحوريب، وهذه العربية واسعة جداً، وتحوي على أضخم القفار التي تشكل مناطق متنوعة.

وفي الحديث بشكل عام عن العربية، فإنه يمكن للإنسان أن يقول، حسب الخرائط التي وضعها بطليموس، بأن المنطقة جميعها، التي تعرف باسم سورية الدمشقية، وذلك فيما وراء لبنان، هي العربية الأولى، واسمها عربية سورية، أو عربية دمشق، ويحد هذه العربية من الجنوب، العربية الحجرية، أو العربية الثانية، وتتصل هذه العربية بذلك الامتداد الواسع جداً، أي العربية الصحراوية، الذي هو العربية الثالثة، ومجدداً يحد هذه العربية، العربية المباركة، وهي منطقة واسعة وجيلية، فيها تقوم

مدينة محمد ﷺ المتقدم ذكرها، وتضم هذه العرييات الأربع مناطق واسعة جداً، وتحوي بين حدودها: البحر الكبير، والخليج العربي أو البحر الأحمر، والخليج العربي، ويمر بها أنهار الجنة الأربعة: النيل، والفرات، والدجلة، وPison، هذا وكما أن العربية الصحراوية هي أرض بلا ثمرات، وهي بلاد سيئة جداً، ومع ذلك فإن العربية الأخرى التي اسمها العربية المباركة هي ثمرة جداً، وأرض فائقة الجودة، وقد كان اسمها فيما مضى جيدروسيا Gedrosia، وهي ليست بعيدة عن مصر، فيها الذهب بكميات وافرة، وهو يستخرج بعد الحفر من أخاديد، مصنعة من دون أي فن، وعلى هذا لا يجري تذويبه بالنار، بل يوجد في الأرض بوضع نقي طبيعي، على شكل قطع على حجم الجوزة، واسم هذه العربية أيضاً سبأ، ومن بلادها يتم إنتاج جميع الأشياء التي تعد في بلادنا ثمينة جداً، وهي غنية جداً بجميع أنواع القطعان والأسراب.

فضلاً عن هذا هي متفوقة على جميع الدول بالعمور والروائح الطيبة، التي تنتجها تربتها في كل مكان، وينمو في الأجزاء القريبة من البحر البلسم والسناء، ويوجد في الغابات أشجار كثيرة من المر، والبخور، ومثل ذلك هناك أشجار النخيل، والقصب، والقرفة، وماشابه ذلك، وفي الحقيقة ما من أحد يمكنه القول كم من مختلف أنواع الأشجار هي التي جمعتها الطبيعة بكرم هناك، وحول هذا الموضوع يمكن للقارئ أن يعود إلى ديودور، الكتاب الثالث، الفصل: ١٢، والكتاب الرابع، وهذه البلاد المباركة والخصبة تختلف عن العربية المجاورة لها، أي العربية الحجرية والقفار، وكأنها تبعد عنها ألف ميل.

وتتطلع عربية الصحراء هذه نحو الغرب، وهي مليئة بالرمال، إلى حد أن الذين يعبرونها يقودون أنفسهم بنجم القطب، وذلك مثلما يفعل البحارة في البحر، وفي هذا المكان سوف أتحدث فقط عن قفار سين،

التي تبدأ عند الأرض المقدسة، وسفوح جبل سيناء، وتنتهي عند شاطئ البحر الأحمر في أرض مدين، وكون جبل سيناء موجود في العربية واضح من كلمات الرسول في غلاطية: ٤، حيث قال بأن جبل سيناء في العربية، وهو يقابل القدس الحاضرة وبالمطريقة نفسها قال هيمو Haymo (ت ٨٥٣) في شروحه (على نشيد سليمان وسفر الرؤيا): « سيناء جبل في العربية، وهو بسبب ضخامته يتاخم مناطق متعددة، وتتصل حدوده بجبال أرض الميعاد، التي فيها القدس»، وهذه القفار كلها اسمها سين، ومع ذلك هناك كثير من القفار المتميزة مثل قفار: إيشام، ومارة، وإيليم، ودفقة، وقفار فيديم، وحضيروت، ورثمه، وقادش، وهكذا دواليك، حسبما ورد في سفر العدد: ٣٣.

ولهذه القفار الآن أسماء عربية أخرى، كما سوف يظهر في سياق الرحلة لدى الحديث عن الأماكن التي استراح فيها الحجاج، ونصبوا بها خيامهم، وتحدثنا الكتابات المقدسة في أماكن كثيرة عن هذه القفار، وعن أنواعها وأوضاعها، وعن الأشياء التي تنقصها، ولنلاحظ الآن أن المكان يقال له قفار، بطرائق أربعة — أولاً: يقال للمكان قفر أو صحراء، عندما تستطيع القطعان أن تسكن هناك، إنما ليس كما قال اشعيا: ٣٥ « تفرح البرية والأرض اليابسة، ويبتهج القفر ويزهر كالنرجس»، فهذا قد يحدث عندما يأتي الذين سوف يفلحونها، وكذلك بنى ملوك الأرض ومشيريهما فيها أماكن منعزلة لأنفسهم (أيوب: ٣/ ١٤) ذلك أنهم حرثوا الأماكن المهملة، وشقوا الأراضي المراحة، وذلك حسبما قال الرب في (إرميا: ٤/ ٣): « افلحوا أرضكم المراحة».

وهكذا أمر يوشع أبناء يوسف بتسليق الجبال غير المزروعة والمهجورة، وقطع الأشجار، وتنظيف المكان، واعداد مكان للسكنى فيه (يسوع: ١٧/ ١٥، ١٧—١٨)، علاوة على ذلك إن الأماكن والمناطق التي كانت من قبل مسكونة، لكنها الآن غير مسكونة، يطلق عليها اسم

القفار، كما ورد في نحميا: ٢، فقد قيل عن المدينة المقدسة، حين لم تكن آنذاك مدينة: «القدس خراب»، وجاء كذلك في اشعيا: ١: «بلادكم خربة، مدنكم محرقة بالنار»، وقد حدث هذا بسبب الناس الآثمين، ولذلك جاء في المزمور قوله: «والأرض المثمرة سبخة من شر الساكنين فيها» (المزمور: ١٠٧/ ٣٤)، وبناء عليه نقرأ في متى: ٢٣: «هوذا بيتكم يترك لكم خراباً»، وفي المزمور: ٦٩/ ٢٥: «لتصر دارهم خراباً».

والطريقة الثانية التي يمكن للمكان أن يسمى بها قفراً، هي فقط لأن الناس لا يسكنون هناك، مع أنه قد تكون هناك بساتين، وحقول، ومروج، ومراعي، وحدائق، وماشابه ذلك، كما جاء في لوقا: ١٥، قوله: «يترك التسعة والتسعين شاة في البرية»، أي في مكان المرعى، وقد اقتاد موسى شعبه إلى الجانب الخلفي من الصحراء (الخروج: ٣/ ١) أو إلى المراعي الخصبة، وعن مثل هذا النوع من القفار قال إشعيا: «سوف أعمل من القفار هناك (أي قفار الأرض المقدسة) مثل أماكن البهجة، ومن أماكنها المقفرة مثل جنات الرب» (اشعيا: ٤١؟).

وثالثاً: ان المقصود بالقفار، أماكن الغابات أو الحقول، المغطاة إما بالحشائش أو الجرداء، التي لا يسكنها الناس، بل التي تسعى فيها الأسود، والدببة، والغزلان، والذئاب، والحيوانات الأخرى، من وحوش البرية، وذلك حسبما قرأنا في انجيل مرقس: ٣: «ودفعت الروح يسوع إلى القفر.... فكان مع وحوش البرية»، وبمثل هذه القفار لا يمكن للناس العيش، لكن يمكنهم ذلك، إذا نمت هناك أشجار، وتوفرت هناك مياه تمكن الحيوانات من العيش هناك، مثلما كان عليه الحال في قفار يوحنا المعمدان، وفي قفار القديس جيروم، لأن من المؤكد أنه حيث وجد في أي مكان، أسد، ودب، وذئب، ووعل، وأمكنهم العيش فيه، يمكن للانسان أن يعيش هناك، وفي أي مكان يستطيع الانسان أن يطعم نفسه، يمكن لحيوانات البرية أن تفعل مثل ذلك،

والفارق موجود فيما يلي: ليس من الضروري للحيوانات استخدام النيران في أطعمتها، في حين لا يستطيع الناس العيش من دون نار، هذا وقال بليني في الكتاب السادس، بأن النار لم يُعرف استخدامها في الشرق من قبل عدة شعوب حتى أيام بطليموس، ملك مصر، فوقتها حصلوا على النار، لكن المعلم أنطونيوس لا يعتقد بأن أولئك كانوا بشراً حقيقيين، لأنه لم يؤمن بأن الانسنان يمكنه العيش من دون نار(التاريخ — الجزء الأول، العنوان الأول، الفصل الخامس، الفقرة الأولى).

ورابعاً — وهو الأكثر احتمالاً — أن شطراً من العالم يدعى باسم قفار، لأنه لا ينمو هناك شيء من أجل الانسان أو الحيوان ليأكله، كما لا تنمو هناك لأشجار ولا أعشاب، وبذلك لا يمكن لللبشر، وللحيوانات، وللطيور أن تعيش، وذلك بسبب الحاجة إلى الماء، وبسبب حرارة الشمس التي لا تتحمل، من ثم بسبب جفاف الأرض، وبكلمة موجزة بسبب انعدام جميع الأشياء المرتبطة بدعم الحياة، ومثل هذه القفار، هي التي تمتد من غزة إلى جبل سيناء، ولا يوجد مثل هذه القفار في ألمانيا، أو فرنسا، أو إيطاليا، مع أنه من الممكن أن يوجد هناك أماكن صحراوية، وفقاً للمعنى الأول للكلمة، أو الثاني، أو الثالث.

وهناك انعدام لكل شيء في هذه القفار الكبرى، وورد ذكر التعاسات التي من الممكن تحملها هناك في أجزاء كثيرة من الكتابات المقدسة، من ذلك جاء في سفر التثنية: ٨/ ١٥، قوله: «الرب سار بك في القفر العظيم المخوف مكان حيات محرقة وعقارب وعطش حيث ليس ماء»، وقال أيضاً في سفر التثنية: ٣٢/ ١٠: «وجدته في أرض قفر». وقال في اشعيا: ٢١/ ١ عن القفر بأنها «أرض مخوفة»، وعندما تدمر بنو اسرائيل، نقرأ في سفر العدد: ٢٠، بأنهم قالوا: «ولماذا أصعد تمانا من مصر لتأتيابنا إلى هذا المكان الرديء. ليس هو مكان زرع وتين، وكرم، ورمان، ولا فيه

ماء للشرب».

ووردت أخبار شكايهم في سفر الخروج: ١٦، وفي سفر العدد: ١١، حيث تبرهن في هذه النصوص عن الحاجة لجميع الأشياء في القفار، وأجل ارميا (٦/٢) وصف العوز في القفار أثناء توجيه الملامة إلى اليهود لنكرانهم للاحسان بقوله: « صار اليهود باطلاً (أي ناكرين للاحسان) ولم يقولوا أين هو الرب الذي أصعدنا من أرض مصر، الذي سار بنا في البرية في أرض قفر وحُفر في أرض ييوسة وظل الموت في أرض لم يعبرها رجل، ولم يسكنها انسان؟»، ودعيت هذه القفار في يشوع: ٥(؟) باسم القفار الطويلة جداً، والعريضة للغاية، وعلاوة على هذا نقرأ في سفر التثنية: ١٩/١ «وسلكنا كل ذلك القفر العظيم المخوف»، وفي الإلهيات: ٣/٦: «أنت سوف.... تترك نفسك جافاً مثل شجرة في الصحراء»، وفي ١٩/١٣: «الحمار الوحش هو صيد الأسد في القفار»، وأطلقت المزامير أيضاً على الصحراء اسم القفار بقولها: « حطم الرب الصخرة في القفار»، وقال الرب لموسى في الخروج: ٣: «الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة»، وغالباً ما دُعي جبل حوريب باسم جبل الرب.

ودعيت القفار أيضاً من قبل الشعراء، باسم أرض الملح، وأرض المن، وأرض فونس Fauns، وأرض ساطير Satyrs، ومن هذا كله يمكن للانسان أن يستخلص بعض الأفكار عن مزايا وأوضاع هذه الأرض الجيدة والسيئة والقفار.

أوضاع الصحراء أو القفار

أولاً: تدعى هذه المنطقة أولاً باسم صحراء مهجورة، لأنها — كما يمكن القول — مهجورة من قبل الرب، ومن قبل السموات ومن قبل الدنيا، فهي مهجورة من قبل الرب، لأنها فارغة وخاوية، وكأن الرب

قد استخدمها لتحسين بقية الكون أو تزيينه، وتبدو هذه المنطقة أيضاً وكأنها مهجورة من قبل السموات، لأنها تفتقر إلى التأثير اللطيف للنجوم، وتبدو وكأنها مغاضبة لهم، وكأنها تحولت إلى حديد، في حين السماء من فوق قاسية، وبلا عاطفة، ولا شفقة، ونتيجة لهذا فإن المنطقة مهجورة أيضاً من قبل بني البشر، الذين يتخلون عنها كأنها يتخلون عن شيء بلا فائدة.

وثانياً: تدعى هذه المنطقة باسم المكان المنعزل، من كلمه «يشتاق» الذي يطبق على البلدان، بسبب أنه لا يوجد أي انسان يشتاق إلى تلك الأرض، وبسبب أنها أيضاً تفتقر إلى كل ماهو لطيف وجيد، ولأنه ليس فيها ما يبعث على السرور، فما من انسان يشتاق إليها، أو ربها جاءت تسميها من «شدة التحمل»، وذلك بسبب قسوة تربتها، المتلاحمة مع بعضها بشدة متناهية، حتى أنه لا يمكن تكسيرها لا بالمسحاة ولا بالفأس، ولا بأي أداة حديدية.

وثالثاً: يطلق على هذه المنطقة اسم مكان منعزل، لأنها منعزلة، ولا يطررها الناس، وهي أيضاً منعزلة لأنه مامن واحدة من البلدان القائمة من حولها ترغب في أن تكون لها علاقة بها، أو ان تكون مشابهة لتلك المنطقة، وغالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة باسم «القفار الواسعة»، التي هي غير موائمة لأي نوع من أنواع الفلاحة، وعلى هذا الأساس قال بنو اسرائيل عندما كانوا يتذمرون: «لينا متنا في أرض مصر وليس في هذا القفر العظيم» (العدد: ١٤)، وورد الحديث عنها أيضاً في الكتابات المقدسة باسم «القفار الكبيرة»، أو هي غاية الوساعة في الطول وفي العرض، لأنها بالفعل، في كثير من الأجزاء عظيمة جداً، وطويلة جداً، وعريضة بلا حدود، إلى حد أنه لا يمكن عبورها، ولا يمكن العثور على انسان، قد وصل إلى حدودها نحو الشرق، لأنه طالما لا يوجد فيها ماء، مامن انسان يمكنه أن يحمل روايا كبيرة من الماء

تكفيه لعدة أشهر.

هذا ويبدأ خلف هذه الصحراء بالقيام جبال مرتفعة جداً، التي إذا ماتمکن انسان من تسلقها، فإنه يصل إلى أرض الجنة، غير أن الرب أقام على الطريق سيفاً ملتهباً بحرارة لا يمكن قياسها، لأن حرارة الشمس هناك عالية جداً، وكذلك الجفاف في ذلك المكان، إلى حد أنه من غير الممكن بالنسبة لأي انسان المرور خلاله، حتى لو كان معه جميع ضروريات الحياة، التي هي منعدمة كلياً هناك، ومع ذلك بذل بعض الآباء المقدسين من آباء الكنيسة— من ذلك على سبيل المثال القديس مكاروريوس مع بعض الآخرين — جهوداً— كما يقال— فوق طاقة البشر، ووصلوا إلى مناطق جيدة خلف هذه القفار، إنما لم يستطيعوا شق طريقهم إلى الجنة.

وعرفت أيضاً باسم القفار اللاحدودة، لأنها لم تكن، ولن تكون مفيدة للحاجات البشرية، وهي أيضاً تعرف باسم القفار المخيفة والمرعبة، وهي مخيفة بسبب ارتفاع جبالها وشكلهم الغريب، ومرعبة بسبب عمق وديانها الذي لا يمكن قياسه، وكذلك جروفها السحيقة.

ورابعا: عرفت هذه المنطقة باسم صورة الموت، لأن كل مايراه الانسان في تلك القفار يهدده بالموت، لأن هذه المنطقة ليس فيها شيء يمكن للحياة البشرية أن تعتمد عليه، بل إن جميع الجبال، والتلال، والوديان، والطرقات بلاقع، تعرض علامات الموت، ولون الأرض هنا ليس مثل لون الأرض المسكونة، بل إن ظل الموت منتشر فوقها كلها، لأنها سوداء، محروقة، ثم انه لا يوجد شيء في تلك البلاد إلا ما هو خطر على الحياة البشرية، علاوة على ذلك ينمو في تلك الوديان القرع البري السام، فهو ينمو بغزارة، ولذلك قيل عنه في سفر الملوك الثاني: ٣٩/٤: «في القدر موت»، لأنه كان فيه يقطينا من أكل منه مات، ولهذا السبب، ولأسباب أخرى أطلق على هذه المنطقة اسم صورة الموت.

وخامساً: وللسبب نفسه، دعيت تلك المنطقة باسم الأرض القاحلة، لأن مامن شيء ينبت هناك (العدد: ٢٠).

وسادساً: انها دعيت باسم الأرض التي بلاماء، بسبب أن الماء منعدم فيها، وإذا تمّ العثور على أي ماء في مناطقها العميقة، تجده مليئاً بالعلق وآسن، ولذلك عرفت باسم أرض العطش، وإذا ماتوفر على السهل أية مياه جارية من أي نبع، فإن هذه المياه تكون مليئة بالزواحف، إذا كانت عذبة أو أنها تكون مالحة وغير قابلة للشرب، هذا وهناك في بعض الأماكن وديان تجلب مياهها من نفسها وتحتفظ بهذه المياه لنفسها، عاملة سبخة عميقة، خطيرة على العابرين لها، وغالباً ماتشكى بنو اسرائيل بسبب الحاجة إلى ماء، وعانينا نحن أنفسنا من العطش، كما ستحدث فيما يلي.

وسابعاً: عرفت هذه الأرض لدى إرميا باسم أرض الملح (ارميا: ١٧/٦) في قوله «ويكون مثل العرعر في البادية ولا يرى إذا جاء الخير بل يسكن الحرة في البرية أرضاً سبخة وغير مسكونة»، وفي الحقيقة نجد أن الندى الذي يتساقط على تلك الأرض، يرش عليها الملح ويغطيها به، ويلوث الأعشاب والحشائش، وذلك لدى توفر أي شيء من هذا النوع.

علاوة على ذلك، إن أي ماء يتم العثور عليه بالحفر في الأرض، يكون شديداً الملوحة، وتم العثور هناك على واد، ينتج الملح الرطب منه نفسه، وما أن تتعرض هذه الرطوبة إلى حرارة الشمس حتى تتحول مباشرة إلى ملح، ويحدث أيضاً أن الرطوبة تتحول في الشتاء إلى صقيع أشيب اللون، فتقوم الشمس بصنع خوازيق حادة من الملح الصرف، وبذلك يصبح المكان كله وعراً يجرح أقدام الذين يرحلون فوقه، حتى وإن كانوا مرتدين لأحذية.

وثامناً: عرفت تلك المنطقة بأنها بلامرات، حيث جاء في المزمور (٦٣ / ٢) قوله: «في أرض بلامرات (ناشفة) ويابسة بلاماء»، وقد قيل لها أرض لا يمكن عبورها، لأنه لا يوجد ممر فيها وخلالها، وهكذا قال جيروم في رسالته «حول الاحتفال بالفصح» بأن الذين يسرون من دون ممر مطروق في الأجزاء الداخلية من القفار الجنوبية، يوجهون مسيرهم بالنجوم، لأنه لا يمكن توفر ممرات ثابتة في القفار، حتى وإن طرقت يومياً من قبل الناس والحيوانات، وسبب ذلك أن في القفار رياحاً شديدة، وزوابع عنيفة، يجري بها حمل الرمال ونقلها بقوة شديدة تجعلها تغطي وجه الأرض كلها، وهكذا تتحرك الرمال مع الريح وتتنقل مثل المياه الجارية، ولهذا السبب أطلق بعضهم على القفار اسم «بحر الرمال»، وعلاوة على ذلك نجد هناك جبلاً عالية من الرمال تتولى الزوابع نقلها من مكان إلى آخر في ليلة واحدة، وبناء عليه فإن الذي هو اليوم سهل منبسط تجده في اليوم التالي جبلاً عالياً قد تكوم هناك، ويحدث تنقل الجبال على هذه الشاكلة يومياً في الأنواء العاصفة، ومع ذلك لا يحدث نقل الكتلة المتجمعة كلها دفعة واحدة، بل الذي يحدث هو نسف القمة أولاً بالريح ثم البقية حتى الأساسات على الأرض، ومن ثم تتجمع في مكان آخر، وبذلك يتشكل جبل جديد، على بعد أربعة أميال أو خمسة من المكان الذي وقف فيه الجبل السالف.

ويحدث أحياناً امتلاء وديان عظيمة بالرمال، وإذا ما استمرت العاصفة في مكان من الوادي، يقوم هناك جبل، وهكذا نجد في المكان الذي قام فيه قبل ثلاثة أيام مضت واد عميق، قد انبعث هناك جبل مرتفع، ومثل هذا فإن الجبال الصخرية غير القابلة للتحرك تغطي بالرمال المتدفقة، وبذلك يصير الجبل الذي رآه الإنسان بالأمس جبلاً من الصخور، اليوم لا يراه ولا يجده بل يرى جبلاً من الرمال، ولذلك لا يمكن أن يتوفر في القفار ممر ثابت، لأن هناك عواصف رملية كل يوم

تقريباً، وذلك مثلما هناك عواصف مائية في البحر، والعواصف الرملية خطيرة جداً، لأنه وقتها يكون وجه الأرض كله جيشان، والإنسان لا يستطيع رؤية شيء إلا رمال مندفعة بسرعة عالية، وذلك مثل المياه، ومع هذا كله الهواء كله مليء بالغبار، وكأن هناك سحباً منه، ولذلك لا يتجرأ الإنسان على ابقاء عينيه مفتوحتين، بسبب دخول الرمال إليهما، غير أنه من جانب آخر مرغم على فتحهما ليرى أين هو ذاهب، وتطير الرمال بقوة إلى حد أنها لا تؤذي العيون فقط، بل تجرح جسد كل من يعرض جلده لها.

وإذا كانت الريح قذرة، وكان الرحالة يسرون في مواجهة الريح، فإنهم يصابون بالعمى، ويختنقون أحياناً، وفي الحقيقة تكون العاصفة أحياناً قوية إلى درجة أنهم لا يستطيعون السير في مواجهتها، بل يرغمون على مسايرة الريح، وطوال استمرار العاصفة، تجدهم مكرهون على إدارة ظهورهم لأميال كثيرة إلى المكان الذي إليه كانوا ذاهبين، ولولا أن الطبيعة علمت الجمال، استطاعة السير بدون توقف فوق أرض لامرات واضحة عليها، وذلك دونها خطأ، لما تمكن الناس من العبور خلال القفار، هذا وهناك خطر آخر إضافي، هو أنه عندما يكون هناك أي وادي، أو هوة، أو منحدر، قد امتلأ حديثاً بالرمل، يمكن للدواب والناس عندما يعبرون فوقهم مع حمولاتهم أن يغطسوا في الرمال، ويحدث في بعض الأحيان غرقهم تماماً، لأن رمال الصحراء ناعمة جداً، وبناء عليه هي أفضل أنواع الرمل، لوضعه في الساعات الرملية.

وتولى ديودور، العميق المعرفة، الذي تجول حول آسيا لمدة ثلاثين سنة، الحديث عن خطر آخر للصحراء، في الفصل الخامس من الكتاب الأول من «تاريخه القديم» حيث قال يوجد بين سورية ومصر سبخة عميقة جداً، اسمها سبخة السربونيانية Serbonian، التي هي ضيقة جداً، وتمتد أكثر من مائتي غلوة طولاً، وهي في بعض البقاع غير المعلمة

تستدرج الناس إلى الخطر، وهم الذين لا ينظرون نحو الأمام، لأن السبخة ضيقة، وهي محاطة من جميع الجهات بتلال رملية، وعندما تحرك الرياح هذه التلال تنقل إلى المياه كميات كثيفة من الرمال، وعندما تمتزج هذه الرمال بالماء، تبدو وكأنها أرض قاسية، ويعود من غير الممكن إخبار أية بقعة هي ماء وأياها أرض يابسة، ولذلك فإن كثيرين ممن لم يعرفوا طبيعة المكان، ولم يتعلموا كيف يرتحلون على هذا الطريق، قد وقعوا في السبخة وغرقوا هم ومن كان معهم، لأنهم مجرد ما أن يدخلوا الرمال — الرمال التي تبدو عن بعد كأنها أرض صلبة وثابتة — يغوصون فيها أعمق فأعمق، ولا يستطيعون بعد ذلك التراجع بخطواتهم، أو الثبات فوق ما هم عليه، بل يغوصون في رمالها السريعة، وعندما يغوص انسان في الرمال الناعمة يفقد الأمل بالسلامة، لأنه لا يستطيع الصراع أو استخدام قواه، بل إنه يغرق في الرمال الممزوجة بالماء، التي تشبه الصلصال، والتي لا يمكن السفر عليها بالأقدام ولا بالقوارب، ولذلك تعرف باسم المتاهة. فهذا ما ذكره ديودور.

ويسبب هذه السبخة، فإن الذين يعبرون الصحراء، لابد لهم من أن يجلبوا معهم بوصلة عريضة، خشية الوقوع في المخاطر، وسوف نتوسع بهذه القضية فيما بعد، ذلك أن ما قيل فيه كفاية لتبيان لماذا قيل للقفار «بلامرات».

وتاسعاً: لقد قيل بأن هذه هي الأرض التي لا يمكن لانسان عبورها (ارميا: ٦/٢، يهوديت: ٩٥) ومن الممكن فهم هذا بطريقتين: إما أنه في البدء، أي قبل بني اسرائيل، مامن انسان عبر فوق هذه القفار، على الطريق الذي اقتيدوا عليه، وهذا أمر صحيح، أو علينا أن نفهمه بأن مامن انسان سار على قدميه فوق هذه القفار، وهذا مثل ذلك صحيح، لأن الانسان لا يستطيع العبور على هذه القفار ما لم تكن لديه دابة يمكنه أن يركب عليها، وحمل زاده، وذلك بسبب حرارة الأرض، وأيضاً

بسبب انعدام الطرق، والأشياء التي يحتاجها لبقائه حياً، وهي أشياء لا يمكنه أن يحملها هو نفسه.

وهكذا عندما يتس النبي إيلياء من انجاز رحلته، ألقى بنفسه تحت ظل شجرة رتمه، وتوسل أن يموت هناك، ولولا أن ملاكاً جلب له طعاماً وشراباً منعشاً، لم يكن ليحاول القيام بهذه الرحلة بنفسه (الملوك الأول: ١٩/ ٤-٧)، هذا ومن الممكن أن يقوم كثير من الناس بالارتحال خلال الصحراء، وليس شخصاً بمفرده، ومع ذلك من الممكن لكثير من الناس أن يضيعوا طريقهم، لأنه غالباً ما يحدث أن تثير الرياح العنيفة الغبار، بشكل كثيف يبلغ حداً، أن لا يستطيع الانسان رؤية رفيقه، كما لا يتمكن من سماعه، وإذا حدث وأخذت الدابة التي يركبها طريقاً آخر، فإن ذلك الانسان يهلك، وإذا—على هذا—كان هذا يحدث، عندما يكون كثير من الناس مرتحلين مع بعضهم، فكيف يمكن لانسان، مهما كان، أن يرتحل لوحده؟.

وعاشراً: لقد قيل بأن مامن انسان يستطيع السكنى في الصحراء، ولهذا عرفت بالأرض غير المسكونة، وهذا صحيح كقاعدة، ومع ذلك لقد عاش بعض الآباء المقدسين للكنيسة هناك، عاشوا حياة الملائكة، وليس حياة البشر، وفي هذه الأيام يقطن البداءة العرب هناك، لكنهم يعيشون حياة البهائم وليس حياة البشر، هذا وعندما قيل بأنه حتى البهائم لا يمكنها العيش هناك، ومع ذلك يعيش البداءة العرب هناك، فإن هذا لا يعني أنهم يعيشون بوساطة معجزة، مثل بني اسرائيل، ولا مثل الملائكة مثلما فعل النساك المقدسون، كما أنهم لا يعيشون مثل البهائم من دون عمل بشري، بل مثل الشيطان، لأن الشيطان يتجول هنا وهناك وهو يبحث عمن يمكنه إتهامه، وهكذا تجدهم يتجولون حول تخوم القفار، ويقومون بنهب وسلب الذين يعبرون هذه القفار، وعلى هذا هم شياطين مجسدين، لا يعيشون حياة بشرية، كما سترى فيما

بعد، وفي الحقيقة هذا المكان غير موافق لأن يعيش به الذين يرغبون بممارسة حياة حضارية، ولهذا قيل: «لا يمكن أيضاً لأي ابن إنسان أن يسكن هناك فيها»، لأنه كما هو مشاهد الأرض كلها تقريباً رملية، وصخرية، أو مثل كلس محترق، وبذلك هي غير موافقة للحدائق، أو الحقول، أو الكروم، أو للسكنى.

وأحد عشر، عرفت هذه المنطقة باسم بلاد الأفاعي، والعقارب، والـ Dipsades [من أنواع الأفاعي التي يسبب لدغها عطشاً لا يمكن احتمالها]، والهوام، والتينيات، وبما أن هذه البلاد واسعة جداً، فيها أنواع متنوعة من المخلوقات السامة في مناطق مختلفة، ولقد جرى إرسال أفاعي نارية على بني إسرائيل بسبب تدميرهم (العدد: ٢١/٦، أخبار الأيام الأول: ٩/١٠)، وكثير من الأماكن في القفار مليئة بحفر جحور الأفاعي، وبعضها الآخر مليء بالعقارب وفي المناطق التي فيها الماء، هناك بعض التينيات والتماسيح، وأنواع أخرى كثيرة من الحيوانات، وذلك حسبما قرأنا في «حياة الآباء»، وعانينا نحن — على كل حال — من نوع واحد فقط، وكان ذلك ديداناً مدورة، كل منها بحجم حبة البندق، وكان لونها أسود، ولها أقدام كثيرة، ولذلك يطلق عليها اسم قملة فرعون، والأرض في بعض الأماكن مليئة بهذه الديدان، وعندما يكون الإنسان نائماً يأتون إليه سراً، ويمتصون دمه مثل القمل، وبعد قرصتهم تبقى هناك ندبة، وتبقى هناك علامة زرقاء مشوبة باللون الأحمر، وحجمها مثل حجم البنس، الذي عليه علامة الصليب، ومالم تعالج الندبة على الفور بالدهن، وبحكها بعصير الليمون، فإنها تتحول إلى جرح قذر لا يمكن علاجه.

وإلى جانب هذه الديدان تنتج الأرض أنواعاً متعددة من الحيوانات الصغيرة جداً، التي تعيق استراحة الناس، علاوة على ذلك تتجمع في كل لحظة أعداد لا تحصى من القمل من مختلف الأحجام، على ملابس

الانسان.

واثني عشر: عرف هذا المكان باسم «المكان الرديء»، أو «المكان الشرير» (العدد: ٥/٢٠)، وقد عرف هكذا بسبب الشرور المتقدمة الذكر، وبسبب سوء الهواء وكونه ملوثاً، ذلك أن الهواء في القفار سيء جداً، وقاسياً للغاية، مع أنه قد يكون في بعض الأحيان ناعماً إلى أبعد الدرجات، كما أن الحرارة لا تحتل، والبرد لا يمكن قياسه، ويجد المسافرون أنفسهم في ساعة من الساعات في أحد الأماكن وقد كادوا يحترقون من الحر، أو بالحري كأنهم في أتون، وتجدهم بعد أمد قصير من ذلك وهم يعانون من برد شديد جداً.

وثالث عشر: هذه المنطقة هي موطن فونس وساطير، اللذان هما إلهما القفار والبساتين، وذلك وفقاً للديانة الزائفة لعامة الناس في القديم، وقد اعتادا في الأيام الخالية أن يعلنوا للناس عن أشياء سوف تحدث في المستقبل، لكن ليس بوساطة العلامات، بل بصوتيهما، كما كانا يبينان الطريق للذين تاهوا في القفار، وعلى هذا نقرأ في «حياة الآباء»، بأن القديس أنطوني، عندما كان يبحث عن بولص في القفار رأى أمامه رجلاً ملتصقاً إلى فرس، من نوع المخلوقات التي أطلق عليها الشعراء اسم سنطور Centaur، وعند رؤية ذلك، شجع نفسه بعلامة الصليب وقال: «من أنت، أيها السيد الشاب، وفي أي مكان من هذه القفار يسكن عبد الرب؟» وبعد مالاك الوحش بعض الكلمات غير المفهومة بين أسنانه ونهشها بدلاً من أن يتفوه بها، نطق أخيراً بصوت ناعم جداً، وبمده ليده اليمنى، أشار إلى الطريق المطلوب، وبعد ذلك عدا مبتعداً، كأنه يطير فوق السهل المفتوح، واعترت انطوني الدهشة تجاه مارآه، ومضى سائراً على طريقه، وبعد قليل رأى في واد صخري رويجل له أنف معكوف وقرنين خشنين على جبهته، والقسم الأسفل من جسده انتهى بظلفي تيس، ولدى رؤية انطوني لهذا أمسك بترس الإيمان،

وأعطاه المخلوق المتقدم الذكر ثمار التمر، ليكون له زاداً من أجل رحلته، وكأن ذلك عهد سلام، وعندما فهم أنطوني هذا، أسرع في سيره، ولدى سؤاله له من هو، تلقى منه الجواب التالي: «أنا مخلوق فاني، وواحد من السكان في القفار، اقتاده الكفار، وأضلوه بذنوب كثيرة، فدعوت فونس وساطير وبت مسكوناً، وأنا أحمل إليك رسالة عهد إليّ بحملها من قطيعي، حيث أننا نرجوك أن تصلي إلى ربنا العام وذلك لصالحنا، لأننا نعرف بأنه نزل منذ وقت طويل مضى، من أجل خلاص العالم».

وعندما فرغ الوحش من كلامه هذا، بكى انطوني بدموع الفرح، وضرب بعصاه على الأرض وقال: «الويل لك يا اسكندرية، لأنك عبدت هذه الوحوش كآلهة، مالمذي يمكنك قوله لوحش تحدث هكذا عن المسيح»، وماكاد يفرغ من كلامه حتى هرب ذلك المخلوق المسلوب، واختفى بسرعة كأن له جناحين، وفي إحدى المرات تم جلب واحد من هذه المخلوقات إلى الاسكندرية، وشكل بذلك منظراً هائلاً للناس الذين كانوا هناك، وعندما مات جرى تمليح جسده، خشية التلاشي والزوال في حرارة الشمس، وأرسل إلى انطاكية حتى يراه الامبراطور، وأنا لا أعتقد بأن هذه المخلوقات هي أبناء فونس وساطير، على أساس أن هؤلاء من البشر، في حين أن هذين كانا من الحيوانات المتوحشة، هذا ومن الممكن أن الخطيئة قد قامت حولهم في أيام فونس أوساطير، وأنه في تلك الأيام شرعت النساء تنقول حولهم.

رابع عشر: ان القفار أو الصحراء، هي مكان الشيطان، وهكذا نقرأ في توبت: ٨، بأن رئيس الملائكة رفائيل قد بعث أسموديوس -Asmodeus إلى القفار في أعالي مصر، وكذلك جلب الرب إلى القفار، حتى يتمكن الشيطان من أن يجده هناك.

وفي الأيام الخوالي، عندما كان الناس يرغبون في ممارسة حياة مقدسة

كانوا يذهبون إلى القفار، بسبب توفر الصفات الستة التالية هناك، وبناء عليه قام القديس جيروم في «أحكامه»: الفصل التاسع بمدح القفار قائلاً: «أيتها الصحراء المزدهرة بعشر وردات، مأجمل مكانك المنعزل حيث نمت الصخور والحجارة التي منها بنيت المدينة المقدسة، فأروع فضائك العادي المبتهج بالرب» وهكذا إلى أن قال: «بالنسبة لي المدينة سجن، والقفار جنة، ولأن القفار غير مكتظة، فإن الحقيقة غير مشوهة»، فهذا ماقرأناه هناك ولذلك أفنع جيروم كثيراً من الناس بالدخول إلى القفار، وبشكل خاص الشاس بريسيديوس *Presidius*، الذي إليه كتب في رسالته حول هذا الموضوع: «لقد رأيت مؤخراً الأماكن المهملة في مصر، ورأيت أسرة الملائكة، وشاهدت كم هنا كثيراً من الورود وهناك، وكم من المروج المزينة بالآلياء الروحية، وأكاليل تتوج بها الرب، والنار تلتهب في صدرك، ولذلك فكر يوماً حول هذه الأشياء، وتأمل حولهم، واشتق اليهم».

وتشوق جيروم نفسه شوقاً عظيماً إلى الصحراء، وبناء عليه قال في رسالته إلى ثيودوسيوس وإلى النساك الآخرين: «هل ياترى سوف يمكنني رؤية القفار، التي هي أكثر بهجة من أية مدينة، وهل سأتمكن من رؤية تلك الأماكن الخالية من السكان» الخ، ومثل هذا قال أوغسطين في *Epistola ad pastores*: «هناك قفار مليئة بآلاف من عبيد الرب».

وخامس عشر: الصحراء مكان للاغواء، حيث تحدث ربنا أنه لم يتعرض للإغواء في أي مكان إلا في القفار (مرقص: ١، ومتى: ٤)، ومثل هذا أغوى الرب البطارقة القدماء، وبني إسرائيل، بطرق متنوعة، حسبما جاء في سفر الخروج: ١٦، وفي سفر التثنية: ٨، حيث قال: «سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة في القفر لكي يذكرك وليجربك»، كما قال أيضاً في التثنية: ٨: «وقد جربك الرب ليعرف ما في قلبك أتحفظ وصايا»

أم لا»، علاوة على ذلك أغوى بطارقة الأيام الخوالي الرب هناك، ولذلك قال المزمور: «في القفار أغواني آباؤكم» (المزمور: ٩٥/٩) وقال ثانية: «وجربوا الرب في قلوبهم بسؤالهم طعاماً لشهواتهم» (المزمور: ٨٧/١٨)، وجاء من جهة ثانية مكتوباً في (سفر التثنية: ١٦/٦): «لا تجربوا الرب إلهكم»، وقام جيروم في رسالته حول الإغواءات، بتعداد عشر إغواءات تعرض لها بني إسرائيل في الصحراء.

وسادس عشر: القفار مكان يمكن الحصول فيه على سرور عظيم، وبناء عليه حصل البطارقة المقدسون بعد توبتهم في القفار، على الأرض المقدسة، واعتاد قديسوا العهد الجديد على الذهاب إلى القفار، من أجل الحصول على السرور الأعظم.

وسابع عشر: إن القفار هي المكان الذي أعطيت فيه الشريعة، وكذلك الوصايا، وذلك حسبما جاء في سفر الخروج: ٢٠/١٩.

وثامن عشر: القفار هي مكان المن، والمواساة السماوية، حيث أننا نقرأ في المزمور: ٧٨/٢٤ قوله: «وأمطر عليهم مناً للأكل، وبر السماء أعطاهم»، وقال أيضاً في سفر الخروج: ١٦: «وفي هذا اليوم إن الندى الذي يتساقط حول جبل سيناء هو منّ حلوا، وبناء عليه رأيته أنا شخصياً، وأكلت كثيراً منه»

وتاسع عشر: القفار مكان للتأمل، وللابتعاد عن الدنيا، ولذلك كان الآباء المقدسون للكنيسة عندما يرغبون بالاستغفار، يذهبون إلى القفار، ويفرون من الدنيا.

وعشرون: هذه القفار مكان للخشوع وللتفكير، وعلى هذا نقرأ في المزمور قوله: «يشتاقي إليك جسدي في أرض ناشفة ويابسة بلاماء. لكي أبصر قوتك ومجدك كما قد رأيت في قدسك» [المزمور: ٦٣/١-٢]، وقال مرة أخرى: «فقلت ليت لي جناحاً كالحمامة فأطير وأستريح.

هاأنذا كنت أبعد هارباً وأبيت في البرية» [المزمور: ٥٥/٦]، وليكن فيما قلناه كفاية عن وصف القفار، والخبرة من الآن فصاعداً سوف تُحدّث القارئ أكثر حولها، وانظر رواية أخرى عن القفار في ص ١٣٦—ظ، وماتلاها.

البداة العرب الذين يسكنون في القفار، عاداتهم، ووقاحتهم وتعاستهم

إن سكان القفار أو الصحراء هو بداة عرب، وهم أناس تعساء، ويشبهون البهائم، وعن هؤلاء يقول بعضهم بأنهم أبناء اسماعيل وهاجر، وهم يسمون أنفسهم مسلمين، ويمنحهم بعضهم أسماء مشتقة من المنطقة الأقرب إليهم، فيطلقون عليهم اسم المدينيين، ويسميهم آخرون البدو، في حين يدعوهم آخرون باسم الجزيري؟ Zigeri اشتقاقاً من اسم الكلدانية Chaldaea ، وهي بلاد متصلة بالصحراء العربية الكبرى من الجهة الشمالية، ويقول آخرون بأنهم قد طردوا من مصر، وبين هؤلاء ديودور، في الكتاب الثاني من «تاريخه القديم» حيث يقول بأنه عندما حكم أكتيسانس Actisanes، الذي كان ملكاً لمصر، بعدل عظيم، أنهى أعمال السرقة، وفق طريقة جديدة، فهو لم يعاقب المجرمين بالموت، ولم يتركهم من دون عقوبة، بل إنه جمع المجرمين كلهم مع بعضهم، وأنزل بهم عقوبة خفيفة، فقد قطع أنافهم، وأرغمهم على الذهاب إلى القفار، وبذلك باتوا غير قادرين على إيذاء الشعوب المجاورة بشروورهم، كما لايمكنهم إخفاء الأخطاء التي اقترفوها بحق بقية الناس، ثم إنه بإرسالهم، أو لنقل بنفيهم إلى القفار، حيث هناك الحاجة إلى كل شيء، وقتها كانوا سيرغمون بالضرورة على السعي من أجل عيشهم، ويعرف هؤلاء بشكل عام باسم «العرب» من قبل جميع شعوب البلاد.

وليس هؤلاء الناس مكان ثابت للسكنى، بل يتنقلون نحو الأمام

ونحو الخلف في أرجاء هذه القفار، متسلحين بترستهم ورماحهم، ليس في الحقيقة من أجل القتال لأنهم نصف عراة، بل من أجل السرقة، والخوف منهم جعل المسافرين خلال تلك المنطقة يتجمعون على شكل حشود كبيرة، لأنهم بمساعدة أحدهم للآخر يمكنهم تجنب المخاطر المهددة، لأن هؤلاء الناس يسكنون فقط في القفار النائية وليس في القفار الداخلية، أو يسكنون في الأماكن التي لا يمكن للإنسان، ولا للحيوان ولا للطير أن يحصل فيها على عيشه، وهم ينصبون خيمهم في الأماكن التي يعتقدون بأن التجار أو المسافرين الآخرين سيمرون بها، وأيضاً حيث هناك سبخ لتأمين الشراب لهم ولقطيعهم، وهناك يسكنون في الكهوف في الصخور، أو في أكواخ معمولة من أغصان الأشجار.

وعندما يرون أي إنسان قادم، يمتطون خيولهم، وحيرهم وجمالهم، ويصفون أنفسهم فوق الطريق، مع ترستهم ورماحهم، وتخرج نساؤهم من كهوفهم، وهن نصف عاريات مثل الرجال، وهن في غاية البؤس والقذارة، ويركضن والحجارة في أيديهن، ويتبعهن أولادهن، وهن جاهزات للحصول على حصتهن في السلب والنهب، وهم جميعاً يزحفون لمقابلة الغرباء بشكل هم متعطشون فيه للدماء، وهم أيضاً يصرخون، ويهزون رماحهم، وفي تلك الأثناء تقوم النساء ويقوم الأطفال، وهم يسرون على أقدامهم برمي الحجارة، إنما عندما يلتقي الجمعان، يُجَيّد البداية العرب حديثهم، ويطالبون بسلام بالخفارة، قائلين بأنهم سادة القفار وأصحاب جميع الأماكن التي ليست موجودة داخل أسوار، أو مغطاة بسقوف، أو محاطة بخنادق، وهكذا دواليك، وإذا رفضت الفئة الأخرى دفع الخفارة، لا يسمحون لها بالمتابعة والسير مالم تكن أقوى منهم أنفسهم، وإذا ماشاهدوا ذلك، يتوقفون عن طلب الخفارة، ويتوسلون بتواضع من أجل الحصول على الصدقات، وهم

يقنعون بدريهمات، وإذا ما منحوا بعض البقساط يتلقون ذلك بسرور بالغ، ويسمحون للمسافرين بمتابعتهم ترحالهم.

إنما ما من انسان يمكنه مواجهتهم من دون اضطراب، أو يستطيع التخلص منهم من دون أن يدفع لهم، لأنهم يتجولون حول الصحراء على شكل مجموعات كبيرة وكثيرة، وإذا ما انتشر خبر بينهم، بأن رفاقهم قد قتلوا، أو عوملوا بقسوة، تراهم يحتشدون، ويتجمعون مع بعضهم ويضغطون بشدة على الذين تصدوا لهم، حتى يتمكنوا من قهرهم وسلبهم كل شيء كان معهم، ولهذا السبب قال عنهم جيروم في رسالته إلى دار دانوس Dar danus وسأهم برابرة حيث قال: «يوجد فيما وراء الأرض المقدسة صحراء واسعة، مسكونة ببرابرة أشداء»، وهم يقولون بأن هذا المكان، وكل مكان في الهواء الطلق هو ملك لهم، ولذلك يطالبون على كل طريق بالخفارة، من العابرين، وليس فقط في القفار.

هذا وإنهم يمكن أن يقولوا بأن القفار هي بلادهم، وملك لهم، ذلك أنهم يسكنون فيها من دون وجود أي مدينة، أو قرية، أو قلعة، أو بيت، يسكنون في كهوف بالصخور، وفي خيام، وليس لديهم أية وسائل للعيش غير النهب والسلب، ذلك أنهم يعانون من عوز ومن فقر، حتى الكلب بيننا لا يستطيع تحمل ذلك، وإذا لم يمكنهم الحصول على أية منهوبات، يلجأون في سبيل دعم حياتهم إلى اعتماد السرقة، ولهذا الغاية يتركون القفار، ويتجولون ليس فقط في البلدان الشرقية، بل إنهم يصلون حتى إلى المناطق الداخلية للغرب، وبناء عليه أنا لا أعرف لأي سبب عرفوا باسم «العرب» أو «الكلدانيين»، بل اسم «جزري»، أو كما يقول عامة الناس جزريين Zigeuner (نور)، لأنهم قوم قدموا من الكلدانية، وذلك حسبها وردت الأخبار في Primo phys. supp. IV chron. lib ، ومن الكلدانية نزلوا إلى المناطق المجاورة للعربية

الصحراوية، ومن هناك انتشروا في جميع البلدان، انظر الصفحة ٨٠ من القسم الثاني.

ويعيش عرب القفار هؤلاء أعماراً طويلة جداً، وذلك على الرغم من تعاستهم، ويركض رجال ونساء لهم من العمر مائة سنة فوق الصحراء بخفة ورشاقة مثل الكلاب، وتجدهم دوماً جائعين، وعطشانيين، ونادراً ما يطفئون جوعهم بالخبز، لكن عندما يقومون بصومهم المهيّب، يجنزون الأرغفة في الرماد، ويأكلون لحومهم والدم يتقاطر منها، وإذا لم يكن بإمكانهم الحصول على نار من الحطب، يأتون بلحومهم النيئة فيضعونها فوق صخرة عريضة (ويضعون صخرة أخرى عليها)، وبذلك تجف اللحوم، وتصبح ساخنة بين الصخرتين، وإثر هذا يزيلون الصخرة العليا، ويحتفظون بالتحتا، لتكون بمثابة مائدة، وهكذا يأكلون لحومهم من دون أي طبخ.

وعلاوة على ذلك يقتاتون ويتعيشون على بعض الحشائش والجذور، ويشربون حليب الجمال والحمير، ويلوكون بأفواههم بعض البقسماط القاسي جداً، وعن هذه القضية تحدث جيروم في رسالته ضد جوفينوس Jovinus: «البداة هم عرب يأكلون الأسماك، وهم اسماعيليون، ويعيش جميع المتوحشون في القفار على حليب الجمال ولحومها، لأن هذا الحيوان من السهل تربيته، وهو يعيش بينهم في أنواء تلك المنطقة القاحلة، ويعدّون أكل لحم الأوز ذنباً من الذنوب»، وفي الحقيقة إن الأوزة التي تعيش على القمح، والجوز، والجذور، والخنشار، والشعير، ليست موجودة بينهم لأنهم لا يمتلكون أي طعام من هذا النوع، فهم يصطادون الأسماك من البحر الأحمر، ويطبخونها على الصخور الملتهبة من حرارة الشمس، وهم يعيشون على هذا الطعام فقط.

زد على هذا، بما أنهم لا يمتلكون مكان سكنى ثابت، يتجولون هنا وهناك خلال الصحراء، ويترحلون وقد نظموا أنفسهم على شكل

فئات، من أجل أن يساعد أحدهم الآخر في سبيل تجنب المخاطر التي تهددهم، ومن هذه الاقتباسات، من الواضح أنه في الأيام الخالية، كان غير مأمون المرور خلال القفار، مثلما هو الحال في هذه الأيام، وذلك بسبب هجمات البداءة العرب، التي منها عانى مالوخس Malchus، كما ورد لدى جيروم في «رسالة الراهب الأسير»، حسبما جاء في «حياة الآباء».

ويبدو أن هؤلاء التعساء قد أومئ إليهم في سفر أيوب: ٣٠، حيث قال: «الذين كنت استنكف من أن أجعل آباءهم مع كلاب غنمي»، وفي الحقيقة لقد اعتقد شخصياً أنهم غير جديرين بالحياة نفسها فقال: «في العوز والمحل مهزولون عارقون اليابسة التي هي منذ أمس خراب وخربة. الذين يقطفون الملاح عند الشيخ وأصول الرتم خبزهم. من الوسط يطردون، يصيحون عليهم كما على لص، للسكن في أودية مرعبة وثقب التراب والصخور، بين الشيخ ينهقون، تحت العوسج ينكبون»، ويبدو أن هذا النص قد قصد به أن يفهم حرفياً على أنه يعني هؤلاء البداءة العرب.

وعندما لا تتوفر لديهم أسلاب، ولا يمكنهم الاستمرار بالعيش في القفار، ويرغمهم العوز، يتجمعون على شكل جيوش، ويتركون نساءهم وأولادهم في القفار، ويقومون بالإغارة على بعض المناطق المجاورة، حيث يتمكنون أثناء الليل من اقتحام إحدى المدن أو القرى، فيفتحون أبواب البيوت، ويستولون على كل شيء يجدونه، ويعودون بعد ذلك إلى زوجاتهم وإلى صغارهم، وهم لا يقتلون الناس، إلا إذا حدث ذلك صدفة، وهم يقتربون هذه الغارات في سورية وفلسطين ومصر، ويدخلون أحياناً إلى المدن الكبيرة، وينهبون عدة بيوت ثم يعودون مع أسلابهم، وأثناء اقامتي بالقدس قاموا بذلك في الظلام، وشقوا طريقهم مرتين إلى داخل المدينة للنهب، وقاموا باحداث شغب

وفوضى هائلة، وما من أحد رد عاديتهم، ذلك أن جميع الناس قد خافوا منهم، وهذا ليس غريباً بالنسبة لإنسان عرف الكتابات المقدسة، لأنه في أيام الملوك الأقوياء جداً، وعندما كانت البلاد تعيش في ظل نظام قوي جداً، قام البداءة العرب بالافساد في الأرض، حيث قرأنا في سفر أخبار الأيام الثاني: ٢١، كيف أن البداءة العرب قد دخلوا إلى القدس، ونهبوا كل شيء، حتى أنهم حملوا زوجات الملك والأولاد من بيته، وأزعج هؤلاء البداءة العرب نحماً كثيراً أثناء إعادة بناء القدس مع الهيكل، حيث نقرأ في سفر نحماً (الاصحاح الثاني) بأن جشم العربي كان بين الذين منعه من إعادة بناء القدس، كما نقرأ عند نحماً نفسه في الاصحاح الرابع بأن البداءة العرب حشدوا أنفسهم وتجمعوا ضد العاملين على إعادة بناء المدينة المقدسة.

وأعتقد انه إذا ما حاول أي انسان في هذه الأيام إحاطة القدس إحاطة كاملة بالأسوار، والأبواب، والمغاليق، سوف يبذل البداءة العرب كل ما يستطيعون لإعاقته، وعن هؤلاء البداءة العرب نقرأ في سفر المكابيين الثاني: ١٢، بأنهم حشدوا جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف رجل، وخمسة فارس، وزحفوا ضد يهوذا المكابي، لكنهم «هزموا من قبل يهوذا، وطلبوا منه السلام، ووعدوه بإعطائه ماشية، وبجعله مسروراً بطرق أخرى، ثم إن يهوذا وجد أنهم سوف يكونون بالفعل نافعين له في أشياء كثيرة، لذلك أعطاهم السلام، وبناء عليه تصافحوا وغادروا ذاهبين إلى خيامهم»، ونجد من هذا النص أنهم اعتادوا على إزعاج البلاد في القديم مثلما يفعلون الآن، هذا وقد ورد ذكرهم في سفر المكابيين الأول: ٢.

وما من ملك أو حاكم كان قط قادراً على قهر هؤلاء البداءة العرب، وكما قال ديوبور في الكتاب الثالث من «تاريخه القديم» الفصل: ١٣: «بين سورية ومصر صحراء العربية، التي هي بلاماء، وفيها ثمار في بعض

المناطق القليلة فقط، ولذلك يقوم شعبها بسلب الشعوب المجاورة، وهم لا يمكن غلبتهم بالحرب، وهم يسكنون في منطقة بلاماء، ويحفرون آباراً معروفة من قبلهم فقط، هي التي تنقذهم من جميع المخاطر من أعدائهم، لأن الذين يطاردونهم إما أن يموتوا عطشاً، لأنهم لا يعرفون مواضع الآبار، أو أن يعودوا وهم أحياء بعدما هدم التعب، ولهذا السبب إن البداة العرب الذين يسكنون هذه المنطقة لا يمكن إلحاق الهزيمة بهم في الحرب، وهم يعيشون أحراراً، ولم يكونوا قط خاضعين لأي ملك أجنبي، من الآشوريين، أو المدينيين، أو الفرس، ومثل ذلك لم يكن الملوك المقدونيون قادرين على إخضاعهم، مع أنهم امتلكوا جيوشاً جرارة، كما وذكر بأنهم كانوا يهاجمون القوافل الملكية، أثناء عبورها لبلادهم، مثل مهاجمتهم لقوافل الناس العاديين، ذلك أنهم لا يوفرون أحداً.

وضد هؤلاء البداة العرب وضع الرب ثقله كله (اشعيا: ٢١)، وفي الحقيقة أنهم غالباً ما أرغموا على مغادرة القفار بسبب الحاجة إلى المياه، ووقتها كانوا يأتون مع أزواجهم وأولادهم إلى إحدى البلدان، حيث كانوا ينصبون خيمهم إلى جانب المياه في مراعي خضراء، وبينون لأنفسهم أكواخاً، ويسكنون هناك، محققين بحق شعب البلاد، حيث كانوا يستولون على القطعان التي يصدفونها في طريقهم، ومامن انسان يتجرأ أن يلمسهم، وهم لن يعودوا إلى القفار إلا إذا كانوا محملين بالأسلاب، وذلك بعد استيلائهم على منهوبات كثيرة.

وهم يذهبون إلى مصر، مثلما يذهبون داخلين إلى البلدان الأخرى، وذلك على الرغم من السلطان ملك مصر والماليك، الذين ينظرون إليهم نظرة كراهية عظيمة، ولقد رأيتهم متشرين متفرقين في كل مكان، في كل من سورية ومصر، وهم أيضاً يتجولون حول منطقتنا كما سنرى، وهم لا يحاولون الاستيلاء على أية مدينة، أو على أية قرية، مع أنهم

بإمكانهم فعل ذلك، لأنهم يقولون بأنهم وحدهم نبلاء حقيقيون، يعيشون على النهب، وليس على العمل، ويمضون أوقاتهم خارج الأبواب في الحقول وفي الغابات، وهذا ما يميز النبلاء عن الناس الآخرين، وهكذا دواليك، وهذا أيضاً هو موقف نبلاء سوايبا، الذين يرفضون قبول أي إنسان يسكن في مدينة في مبارزاتهم، وبناء عليه، صحيح أن البداة العرب، تعساء كما هم، لكنهم أصحاب شموخ ونظرة عالية إلى أنفسهم، ويتفاخرون جداً بأنفسهم، وترى أزواجهم مزينات بالذهب والفضة والأحجار الثمينة، مع أن ثيابهن مهلهلة، ووجوههن قدرة للغاية، لأنه ليس لديهم ماء للاغتسال به، ويسكنون في خيام وأكواخ مليئة بالدخان، فقد جاء في سفر أيوب: ٦/٣٩ قوله: «الذي جعلت البرية بيته، والسباخ مسكنه».

وإلى هؤلاء الناس الأشقياء.... توجه محمد ﷺ بدعوته، وجذبهم إلى جانبه، وبذلك تمكن فيما بعد من إخضاع الشعوب الأخرى بالقوة إلى نفسه ﷺ بالسيف والرمح، والقوس، وبذلك تمكن من قيادة العالم كله.... بمساعدة هؤلاء الأشقياء، مثلما فعل روملوس وروموس حين جمعا إليهما اللصوص، وقطاع الطرق، ورعيان القطعان، ومزيج مختلط من الناس من الأنواع المتدنية، وبوساطة هؤلاء أوقع روملوس المملكة اللاتينية بالفوضى، ولوث مملكته بالدم البريء.

هنا بداية الحج خلال القفار حيث جرى وصف الطرق الثلاثة عبر القفار، ورحلة العذراء المباركة مع الطفل يسوع إلى مصر

رحلاتنا الآن خلال صحراء ضخمة جداً، سوف يكون من السهل وصفها، على أساس أن القاريء بات عارفاً بكل شيء حول الحمير، وسائقي الحمير، والجمال وسائقي الجمال، والقفار والبداة العرب الذين يسكنون فيها، هذا ومن أجل فهم أفضل، تتوجب الملاحظة أننا نجد في الكتابات المقدسة ثلاثة طرق وجرى الحديث عنها، على أنها موجودة، في القفار، فالطريق الأول، هو الطريق الذي وصل عليه بنو اسرائيل إلى الأرض المقدسة، والطريق الآخر هو الذي سافر عليه ابراهيم، عبر القفار إلى مصر، والذي عبره ذهب يعقوب وأولاده عليه وسافروا بناء على دعوة يوسف، ومن المعتقد أنه بوساطة هذا الطريق ذهب يوسف وزوجته، مريم العذراء الأعظم مباركة مع الطفل يسوع، وذلك لدى الهرب من هيرود(متى:٢)، والطريق الثالث، هو الذي سافر عليه النبيان الياس واليشع في القفار إلى جبل سيناء، انما ليس في وقت واحد بل واحداً بعد الآخر، حسبما ورد الخبر في سفر الملوك الأول:١٩.

ولم يجر اقتياد بني اسرائيل [٢٦—ظ] لدى خروجهم من مصر، مباشرة على طول الطريق الذي يقود إلى الأرض المقدسة، بل ذهبوا إلى جبل سيناء، عبر طريق البحر الأحمر، وذلك بناء على أوامر الرب إليهم، كما أنهم لم يجلبوا إلى جبل سيناء بوساطة أقرب الطرق، بل اقتيدوا عبر طريق طويل في القفار الشاسعة، ثم اقتيدوا ثانية عائدتين، وملتين حتى انتهاء الأربعين سنة، وسبب عدم اقتيادهم عبر الطريق الأقصر إلى فلسطين وهي البلاد التي تتاخم مصر، قد قُدم في سفر الخروج:١٣، هو أن فلسطين كانت تمتلك مدناً عظيمة، مليئة بالعماليق، ولو أن بني اسرائيل رأوا هؤلاء لدى أول وصولهم، لرجعوا ثانية إلى مصر، من

خلال الخوف، كما أن آثام الفلسطينيين لم تكن قد اكتملت وانتهت بعد، كما هو الحال مع العموريين، لذلك لم يكن بالامكان طردهم منها.

وعلى هذا كان ممر بني اسرائيل طويلاً جداً، ووعراً، وقد مضوا خلال القفار، وعبروا شواطئ البحر الميت القصوى، من خلال مملكة عوج، ملك باشان، ومملكة سيحون ملك العموريين، وتابعوا سيرهم حتى المكان الذي يصب فيه الأردن في البحر الميت، وهناك جف نهر الأردن في مواجهة أريحا، وهكذا وصلوا إلى الأرض المقدسة، لكن ابراهيم، ويعقوب ابنه، ويوسف ومريم، والبقية نزلوا إلى مصر، عبر طريق التجار العام، إلى جانب شواطئ البحر الكبير، حيث كان البحر على يمينهم، والقفار على يسارهم، وفي هذه الأيام هذا هو الطريق العام، والطريق السلطاني، للذين ينزلون من غزة إلى مصر، مع أن الطريق رملي وطريق متعب، وعليه من الممكن رؤية بعض آثار رحلة العذراء المباركة، ويوسف مع الطفل يسوع، من ذلك على سبيل المثال، المكان الذي هوجموا فيه، وأسروا من قبل اللصوص، فقد حدثنا أنسلم Anselm أنه عندما كان يوسف مع العذراء مريم والطفل يسوع، سائرين على ذلك الطريق، وعندما كانوا يرتاحون في أحد الأماكن لانعاش أنفسهم، حدث فجأة أن البداة العرب انقضوا عليهم من الأجزاء الداخلية للقفار، وحاصروهم، قاصدين اعتقالهم وسلبهم، لكن أحد الشباب وكان ابن زعيم اللصوص، عندما رأى الطفل في حضن أمه، استولى عليه بشكل اعجازي حب نحوه، ولم يشك بوجود بعض القداسة الربانية فيه، وسأل الأم أن تعطيه الطفل، وتسلم الطفل وحمله بين ذراعيه مع أعرق الاحترام والتقدير، وقبله قائلاً: «أيها الطفل المجيد، ارحمني في وقت الحاجة»، وبفراغه من قوله هذا أعطى الطفل إلى أمه وأعاده مع الدموع، وانتزعهم من أيدي أصحابه، وبعدما بين الطريق الأمن لهم، سمح لهم بالمغادرة، ويقال بأن هذا الشاب كان هو

الصلب، الذي عندما كان معلقاً على الصليب مع المسيح، قال له: «ياسيد تذكرني عندما تأتي إلى ملكوتك».

ويقود الطريق الثالث من غزة إلى القفار، مباشرة إلى جبل سيناء، وعبره سار الياس والرجال المقدسون الآخرون، عندما ذهبوا إلى جبل سيناء، وهذا كان طريقنا، وقد انطلقنا وفق الطريقة التالية.

سفر الحجاج من غزة نحو الصحراء الكبرى على طريقهم إلى جبل سيناء

في الصباح الباكر من يوم التاسع من أيلول، جاء سائقوا الجمال مع الترجمان، وأخرجوا جميع أثقالنا إلى وسط الساحة، وجعلوها على شكل طرود ذات أحجام متساوية، ووزنوها حتى يعرفوا كم من الجمال سوف نحتاج، وقد وجدوا أثقالاً تفوق حمولة اثنين وعشرين جملاً، وأنه من غير الممكن حمل هذه الأثقال من دون استئجار ثلاثة جمال زيادة، وهنا نشب خلاف شديد بيننا وبين الترجمان، حيث كانت رغبتنا هي أن يقوم بتأمين الجمال الإضافية على حسابه، وفقاً لما جاء في البند الخامس من عقدنا، الذي تقدم لنا ذكره، لكنه رفض ذلك، قائلاً بأن لدينا كثيراً جداً من الأثقال التي هي بلافائدة، وإذا ما قمنا بالتخلص من هذه الأشياء ورميها، هو وقتها مرغم على تقديم الجمال المحتاجة، لكن ليس غير ذلك، وفي الحقيقة نظر هو إلى أشياء كثيرة على أنها فائضة لاحتاج إلى استخدامها، لكنها كانت في الحقيقة ضرورية جداً، وبدلاً—على هذا—من رمي هذه الأشياء والتخلص منها، اكرتينا ثلاثة جمال زيادة على حسابنا، وبناء عليه بات الآن لدينا خمسة وعشرين جملاً، وثلاثين حملاً، وسبعة سائقي جمال، وستة سائقي حمير، واثنين من القادة من البداية العرب، وأدلائنا، واثنين من المسلمين هما الفحل، كاليينوس الأدنى، وشاب حبشي، وبذلك بلغ تعداد جماعتنا إلى أربعين شخصاً، وعندما فرغنا من هذه الأمور، كان قد حان وقت تناول طعام الغداء، وبناء

عليه أكلنا بسرور، لأن وقت مغادرتنا قد حلّ، وفي الختام شربنا رماناً من كل من النوعين الحلو والحامض، كل واحد بقدر ما رغب وأراد، وذلك من أجل امتصاصهم في القفار ونحن على طريقنا، وكانت هذه الفاكهة رخيصة جداً، إلى حدّ كان يمكن فيه للإنسان شراء أربعين أو خمسين رمانة كبيرة، حديثة القطف مقابل مندوس واحد.

وبعد الظهر جاء الترجمان على ظهر فرس، وقدم معه سائقوا الحمير مع حميرهم، ومع أن سائقي الحمير كانوا مسيحيين، فقد ربطوا رؤوسهم وفق الطريقة العربية، حتى يكونوا أقلّ عرضة للأذى من قبل البداة العرب العابرين للقفار، وجلب سائقوا الجمال أيضاً جمالهم وحملوهم بأثقالنا، لكنهم تركوا سلّتين كبيرتين فارغتين، وضعنا فيهما اثنين من الفرسان الحجاج المرضى، بناء على طلب الترجمان تمنطقاً بسيفيهما، فضلاً عن هذا جلب بعضهم قسيّاً، وأسلحة إسلامية، في حين حصل بعضهم على بنادق، وبذلك تسلّحنا بأسلحة دفاعية، ومن ثمّ امتطينا ظهور حميرنا، وزحفت جماعتنا كلها خارجة من غزة، تحت السلاح، وبما أننا كنا ذاهبين إلى العربية، سمح لنا المسلمون بتسليح الحجاج الفرسان، وسائقي الجمال، وسائقي الحمير، فكل واحد منهم كان لديه قوسه، وكذلك سيفه، وخنجره، وكانوا اثناء سفرنا من سورية إلى فلسطين لم يسمحوا لنا بأي شكل من الأشكال، بترك المدينة حاملين للسلاح.

وبعد مغادرتنا للمدينة نزلنا من الرابية، التي عليها تقوم المدينة، إلى أرض منبسطة، وسافرنا باتجاه الجنوب، جاعلين على يميننا مدينة بئر السبع، التي تشكل الحد الجنوبي الأقصى للأرض المقدسة، وبعدما سرنا قليلاً على الطريق العام بين بساتين مسيجة، اقتاد سائقونا جمالنا إلى خارج الطريق، إلى قلب حقل من الحقول، حيث أناخوا الجمال، وأنزلوا الأثقال من على ظهورها، وقرروا إمضاء الليل هناك، وتجاه هذا كنا

منزعجين كثيراً، لأنه كان ما يزال هناك كثيراً من ضوء النهار، لكن كالينوس الرئيس أخبرنا بأن الأحوال لم تكن مقسمة بالتساوي بين الجمال، وأن سائقي الجمال كانوا يتخاصمون حول ذلك، ولذلك يتوجب في ذلك المساء تنظيم كل شيء، لأننا كنا نحتاج إلى سلام أثناء رحلتنا، وكان اسم الحقل الذي تحولنا إليه «قسمه»، وبناء عليه ترجلنا من على ظهور حميرنا، ونصبنا خياماً حتى نتمكن من الاستراحة تحتهم، وعمل بعضهم لأنفسهم وحدهم أماكن منعزلة، بتعليق أرديتهم وجعلها ستائر، ناموا تحتها، وبعدما نصبنا خيمنا، انتزعنا عصياً من الأسبجة، وطبخنا طعاماً لعشائنا تلك الليلة، ولغدائنا في الغد، فهذا ما يحتاج الإنسان القيام به وعمله، لأنه عندما تكون الجمال محملة تسير بشكل متواصل من الصباح حتى المساء، ولا يمكنها تحمل التمهّل أو الوقوف على طريقها، وبناء عليه فإن الذين يصاحبون هذه الجمال عليهم الارتحال دون توقف، ومن ثم تناول غذائهم وهم على ظهور حميرهم.

ولا يستطيع الإنسان مطلقاً خلال وجوده في القفار تناول طعام ساخن، أو الجلوس لتناول طعام الغداء، بل يتوجب عليه أكل ما طبخه في الليلة المتقدمة، وأخذنا أيضاً من جرارنا مايكفي من خمر لعشائنا تلك الليلة، ولغدائنا في الغد، وأخذنا أيضاً مايكفي من بقسماط، وقسمنا هذه الأشياء ووزعناها بيننا بالتساوي، فكل إنسان كان لديه قارورة فيها تسلم حصته من الخمرة، وعندما بات طعام العشاء، الذي طبخناه على نار واحدة، جاهزاً، جلسنا تحت خيمنا وأكلناه.

وحذّرنا بعدم وجوب نومنا جميعاً في آن واحد، بل ينبغي بقاء واحد من الحجاج ساهراً بشكل دائم، وأن يقوم بالحراسة وأعمال الدورية أثناء نوم البقية، وذلك خشية أن يقوم اللصوص مع قاطعي الطرق بالدخول إلى مخيمنا ونحن نائمين، وسرقة حاجياتنا، وفي الحقيقة كانت هذه الحراسات مطلوبة من قبلنا، ضد خدمنا، وسائقي الجمال، وسائقي

الحمير، أكثر منها ضد الغرباء، لأن هؤلاء القوم سرقوا بقسمائنا، وبيضنا، وسرقوا كل شيء استطاعوه، ولم نكن قط قادرين على مداومة الحراسة بشكل جيد، لأننا وجدنا في الصباح بأن سلالنا سرقت وتركنا مفتوحة، وانتزع البقسماط منهم، ومثل ذلك سرق بيضنا من سلالنا، وغالباً ما أمسكناهم وهو يقومون بأعمال السرقة، وتجاه ذلك لم ينجلوا، بل بالحري سخرنا منا، ولهذا السبب اجتمعنا معاً بعد العشاء، ورتبنا نظاماً لحراستنا، وكان نصيبي البقاء ساهراً بعد منتصف الليل، في الليلة الأولى، وعندما غابت الشمس، تمددنا تحت خيمنا، واستعدنا للنوم، وجرى تنظيم جماعتنا أثناء الليل وفق مايلي: نصبنا أولاً خيمنا، وأكواخنا، ووضعنا أثقالنا في الوسط، ومن حولنا جلس سائقوا الجمال والحمير مع أثقالهم ودوابهم، وترجماننا، الذي كان لايسمح لأي إنسان بالتمدد بنفسه خارج المعسكر، أو السير بعيداً عنه، إلا لمسافة قصيرة، لمقاصد ضرورية، ووفق الطريقة هذه نظمنا الأمور كل ليلة، فقمنا بحراسة الأطعمة والأشربة، وأيضاً استرحنا.

وعند منتصف الليل، قام الفارس الذي كان يتولى الحراسة قبلي بإيقاظي، لأنني تنفذ حراستي، وهكذا سرت حول حشد الرب، وأنا أغني المزامير، وممسكاً عصا في يدي، وفجأة انفجر على مقربة منا صراخ وأصوات مرتفعة، وولاول صادرة عن عدد كبير من الناس يصرخون ويولولون مع بعضهم، ولم أعتقد أن الأمر كان سوى أصوات أناس قد ارتفعت بالبكاء، ولذلك وقفت حيث أنا وأصغيت، وأنا ممتلىء بالخوف والدهشة، وظننت أن المسألة هي أن المسلمين كانوا يقيمون احتفالاً مامع ألعاب مأساوية أو ساخرة، أو أن مصيبة مرعبة أووباء قد نزل بهم فجأة، أو أن ساطير أو بعض المخلوقات المخيفة، الموجودة في القفار، تولول بقصد منعنا من دخول الصحراء، وإلى هذا اليوم لست أدري ماالذي كانه الأمر، غير أن بعضهم قال لي، بأن ذلك قد صدر عن

مجموعة من الذئاب كانت تعوي، وهذا كان من الصعب عليّ تصديقه، لأن الصراخ بدأ فجأة، وبعد وهلة توقف فجأة، ثم بعد مرور وقت من السكون انفجر ثانية، وبدأت الأصوات وكأنها صراخ ناس يتألمون، ولدى انتهاء الصراخ، سرت متابعاً حراستي، فوجدت ترجماننا المسلم، كالينوس الأكبر، يقوم بالصلاة وبالركوع والسجود، وفقاً لطريقة المسلمين، وعندما سمعني توقف عن الصلاة، وسألني لماذا أنا لست في خيمتي، وعندما أخبرته أنني مستيقظ للقيام بالحراسة رضي بذلك، ثم استدار نحو الجهة الجنوبية من القفار، وأراني نجماً كان لامعاً جداً، كان قد أشرق للتو، وقال لي: ان هذا نجم القديسة كاترين، وهكذا يعرف بهذا الاسم من قبل جميع الناس، ثم استطرد فجأة يقول: «تحت هذا النجم يوجد جبل سيناء، الذي نحوه نحن مرتحلون، وعندما نسير أثناء الليل، لن نأخذ طريقاً سوى الطريق المباشر نحو هذا النجم حتى نصل ونحن تحته إلى ظهر جبل سيناء»، وبعد مغادرتنا لجبل سيناء غالباً ماكنت أقوم بالنظر نحو الخلف، نحو هذا النجم، ولقد رأيته عندما كنت في مصر، وفي الاسكندرية، وعبر مسافة طويلة، عندما كنا مبحرين على ظهر البحر، لكن بعد جوازنا لقبرص، ووصولنا إلى ماين جزر السيكلاد، لم يعد بإمكانني رؤيته، بسبب بعده الكبير، وبسبب تغير الأنواء، وهكذا انقضت تلك الليلة.

الاستمرار بالسفر في القفار

في اليوم العاشر، استيقظنا مجدداً عند بزوغ الفجر، فقوضنا خيامنا، وأزلنا أكواخنا، وجمعنا جميع أثقالنا مع بعضها، وهياًنا أنفسنا للمغادرة، وكان سائقو جمالنا بطيئين، وحملوا الجمل وكأنهم متعبون من العمل، ويعملون ضد رغبتهم، وعلاوة على ذلك تركوا أشياء كثيرة على الأرض، حولها كان هناك صراخ كثير، ونشبت خصومات فيما بيننا، ولعنناهم بالألمانية، ولعنونا بالعربية، من دون أن يفهم أي الطرف الآخر، وفي الحقيقة أنا متعب من الكتابة عن الاحراجات التي ألمونا بها كل صباح، أثناء تحميل الدواب، لأنهم اعتادوا عن قصد ترك فراش، أو سلة، أو حقيبة على الأرض، عارفين بأننا سوف نتفقد مثل هذه الأشياء ونراقبها، وقد فعلوا هذا مع غاية أن يقوم الحاج الذي هو صاحب الحاجة المتروكة والذي هو صاحبها، برجائهم لحملها، لأنه مرغم على ذلك، وعند ذلك يقومون من جهتهم، فيطلبون منه مالاً أو خبزاً، أو أن يتظاهروا أنهم عن عمد سوف يتركونها مالم يدفع لهم، وبناء عليه، قمنا في البداية، قبل أن نخبرهم، وقبل أن يعرف أحدنا الآخر، فأعطيناهم كثيراً من المال ومن البقساط، لكن بعدما عرفناهم، وعلمنا أي نوع كانوا، كنا نأمرهم حول هذه الأمور، ونرغمهم على تنفيذ رغباتنا.

وبناء عليه استيقظنا قبل طلوع الشمس، وتخاصم أحدنا مع الآخر حتى اشراق الشمس، ذلك أنهم تظاهروا بأنهم ينوون العودة إلى غزة مع جمالهم، وكان هذا أمراً مزعجاً جداً بالنسبة لنا، وقد ضايقونا كثيراً بهذا الادعاء، لكن أخيراً تحدث ترجماننا مغضباً إليهم، وأرغمهم على أخذ جميع أثقالنا، وهكذا غادرنا ذلك المكان، وحقل قسمه، وسرنا فوق أرض منبسطة، كانت في الغالب رملية وجرداء، وبعدما سرنا حوالي الميل ألماني، قام ترجماننا، المعلم Sabathytanco الذي هو كاليينوس

الرئيس، والذي هو رئيس مشفى القديس يوحنا في القدس، وهو أيضاً المسلم الذي قادنا وحكمنا خلال جميع رحلاتنا من يافا حتى هذا المكان، قام بتوديعنا مع ابنه، وسلم قيادتنا إلى كاليينوس الأدنى، أي الفحل المسلم، وإليه أوكل أمور سائقي الجمال مع سائقي الحمير، وعاد إلى القدس، لأنه لم يكن ملزماً بالسفر عبر القفار، حسبما ورد في البند السادس من عقدنا الذي ذكرناه من قبل، يضاف إلى هذا، كنا تحدثنا من قبل عن هذا الرجل، الذي هو كاليينوس الرئيس، وعن كاليينوس الأدنى، الذي بقي بصحبتنا، وقد سمعت فيما بعد، بأن كاليينوس الرئيس قد مات، وأن ابنه، الذي اسمه إبراهيم قد خلفه في منصبه، ويبدو لي بأنه شاب جيد ولطيف، مع أنه متكبر بعض الشيء، وصاحب أخلاق متشائخة.

وبعد مغادرة كاليينوس، الذي كان حتى الآن حامينا، واسى أحدنا الآخر، وشجع كل منا صاحبه من أجل تحمل اضطراباتنا بصبر، وهكذا مضينا سائرين على طريقنا، وقد رأينا على جهة يميننا البحر الكبير، الذي لم نكن قد رأيناه منذ اليوم الذي غادرنا فيه يافا، ورأينا في هذا اليوم مدينة بئر السبع، التي هي نهاية الأرض المقدسة، وعلاوة على ذلك رأينا القفار وجبالاً ضخمة جداً، نحوها كنا نسير مع شيء من الخوف، لأنه بدا لنا بأن الأرض كانت مظلمة، والجبال مغطاة بالغيوم، وليس بالندى أو بالأبخرة كما هو معتاد، وأن سبب ذلك ومرده إلى عزلة البلاد، وأثناء متابعتنا لسيرنا وصلنا إلى حقل مليء بمختلف أنواع الأشجار الضخمة، وفي هذا الحقل من المعتقد أن الياس قد جلس تحت شجرة عرعر، وأنعش من قبل ملاك، وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٩/ ٥-٦، وانتصب هنا كثير من أشجار الصنوبر، إحداهن كانت ذات أوراق سميكة، وقد وقفت إلى جانب الطريق، وكانت مزهرة، وصدر عن أزهارها رائحة طيبة جداً، لكن لن تكون هناك ثمار

بعد هذه الزهور الرائعة، بل الذي سيكون بعض الأشواك الحادة، التي هي بيضاء حتى الرأس، الذي لونه أحمر، وكأنه مغمس بالدم، وهذه الشوكة حادة جداً إلى حد أن أخف وألطف لمسة بها تجرح اليد، ويعتقد بعضهم أن رأس الشوكة بطبيعتها مسممة، وهذا هو سبب أن الإصابة بالجراحة بها سهل جداً وأعلن بعضهم أن تاج الرب يسوع المصنوع من الشوك، كان قد حيك من هذه الأشواك، لأنها تنمو حول القدس أيضاً.

ورأينا كثيراً من أشجار الأشواك هذه في أرجاء القفار، غير أنني أرغب في أن أقوم بذكر خاص لهذه الشجرة بسبب الممارسات الخرافية الغريبة للمسلمين وللبداة العرب المتعلقة بها، ذلك أنه مامن أحد منهم يمر بها من دون أن يمزق قطعة من ثيابه ويعلقها على الشجرة، ولذلك الشجرة مليئة بقطع الأقمشة، إلى حد لو أن انساناً رآها عن بعد لظن أن لها أوراقاً بيضاء، وحول هذه الممارسات انظر ص ١٣١٦، وجرى تبيان أسباب هذه العادة في ص ٦٣، وإلى جانب هذه الأشجار قامت أشجار تين كثيرة، مثل البلوط، محملة بأنواع مختلفة من التين وذلك بالإضافة إلى التين العادي، ولذلك جمعنا بعضاً من هذا التين وأكلناه، ويطلق على هذه الأشجار اسم أشجار تين فرعون، وهن يحملن الثمار سبع مرات في السنة، وثمارهن ليست ثماراً بائسة، بل ثماراً في غاية الجودة.

ومع حلول المساء وصلنا إلى قرية اسمها لبهم Lebhem، حيث أنزلنا الأحمال عن ظهور دوابنا، ونصبنا خيامنا، وأمضينا الليلة، وكنا نحن الحجاج لدينا الرغبة في السير مسافة أطول، لكن أدلاؤنا لم يرغبوا بذلك، وطلب منا كاليينوس أن نكون هادئين، على أساس أننا سوف نصل على الفور إلى أماكن وأيام، سوف — نحن ودوابنا — سنعاني خلالها من التعب والشقاء، لذلك يتوجب علينا عدم التسرع في البداية بل أن ندخل إلى المتاعب والشقاء بالتدريج، ونصبنا خيامنا إلى جانب بركة، وبئر عتيق، كان عظيماً وعميقاً، وكان يحتوي فقط على قليل من

الماء القذر، واسم هذا البئر لدى المسلمين، بئر القديسة مريم، ويقولون أنه عندما كان يوسف آخذاً العذراء إلى مصر مع الطفل يسوع، أرغم بسبب الحاجة إلى الماء على التحول عن الطريق السلطاني العام، وحصل هنا على الماء لأجل ابنه المسيح، ومن أجل أمه، ومن أجله شخصياً، وحيث أننا لم نجد ماء فيه، أرسلنا سائقي حميرنا مع الحمير وروايا الماء إلى بركة أخرى على مسافة بعيدة، وقد جلبوا لنا ماء، وعلى مقربة منا قام مسجد، كان هو المسجد الجامع للقرية، وإليه دخلنا، ونظرنا إليه، وضحكنا وسخرنا من خرافات وحماقة دين المسلمين.

وتخلف واحد من الفرسان الحجاج وراءنا في المسجد، فبعدهما هرب بقيتنا منه لخوفهم من المسلمين، بقي هو، ذلك أن النوم قد غلبه، فقد تمدد هناك وراح نائماً، ولدى حلول وقت العشاء لم يظهر بيننا، وشرعنا بالتفتيش عنه بالسهل، لكننا لم نستطع العثور عليه بأية طريقة من الطرق، ولم نكن نتصور أنه كان نائماً في المسجد، بسبب خطورة فعله ذلك، لأنه لو رآه أي مسلم في المسجد، لأقدم إما على قتله، أو أخذه أسيراً، ولقد انزعجنا كثيراً بسبب ضياع رفيقنا، لكن أخيراً بعدما اكتمل نومه، خرج من المسجد، وقدم إلينا، وقد سررنا بشكل مضاعف من أجله، أي أن تقول، بسبب عدم ضياعه، ثم بسبب أن مامن مسلم عثر عليه، وانتشرنا جميعاً فوق السهل لجمع حطب للنار، لنطبخ عشاءنا، وغداءنا من أجل الغد، كما تقدم بنا القول، وبعد تناول العشاء حملنا أنفسنا إلى الاستراحة، إنها عيتنا من يتولى الحراسة، كما فعلنا من قبل.

السفر إلى قفار قادش برنيع

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كان عيد الشهيدين: بروثوس Pro- thus وهيسيتثوس Hyacinthus، والشهيدين فيلكس وريغولا Reg- ula المدفون في ثورغو Thurgau، استيقظنا قبل ضوء النهار، واستعدينا للانطلاق، وقد حملنا دوابنا مع قسط كبير من الخصام

والصراخ، وكنا غاضبين جداً من سائقي جمالنا، وهم أيضاً كانوا غاضبين منا، لأنهم تعاملوا معنا من دون اخلاص وصدق، مثلما حدث في البارحة، ولدى مغادرتنا لذلك المكان وصلنا إلى سهل واسع جداً، وأجرباً، كان من غير الممكن بالنسبة لنا تحديد نهايته إلا من الجهة الغربية، حيث كان يحده البحر الكبير، والذي كان على مسافة بعيدة عنه.

ولم نر في هذه السهول لابشر ولاحيوانات، ولاقري، ولابيوت، ولاأشجار، ولاأعشاب، ولاشعراء، بل شاهدنا فقط الأرض الرملية، قد شويت بحرارة الشمس، وسرنا فوق هذه المساحات الشاسعة متعين لساعات طوال، ونحن نعاني من حرارة الشمس، ووصلنا بعد الظهر إلى بقعة فيها عدد من التلال، وكانت غير مستوية، وقاحلة، ونصبنا هنا خيمنا بين رايتين، وكان ذلك في المساء، وكان اسم هذا المكان بالعربية: الحواطة Chawatha، ووجدنا هنا أدلة كثيرة، على وجود سكنى بشرية قديمة، لأننا وجدنا فوقنا اثنتي عشرة بركة مسورة، كان من حولها كثيراً من القرميد المكسر، وأنية محطمة، ورماد مع مواقد حدادين، وقد بدا لنا بأن هذه البرك لم تعمل من أجل احتواء ماء للشرب، بل لتحضير صلصال من أجل صنع قرميد وفخار، ورأينا في هذه البرك أجساد أفاعي ميتة كبيرة ومخيفة، وحيوانات غير معروفة بالنسبة لنا، ومثل هذا وجدنا مقبرة لغير المسيحيين، ووجدنا في أماكن تجاويف وخنادق محفورة من قبل قوم بحثاً عن رخام أبيض، الذي من الممكن استخراجهم من جوف تلك الأرض، ومن المشهد العام لذلك المكان أعتقد أن تلك المنطقة لا بد أنها قادش برنيع، ونصبنا هنا خيمنا بسرعة حتى نتمكن من أن نطبخ لأنفسنا بعض الطعام، لأننا لم نكن قد تغدينا في ذلك اليوم، وكنا في اليوم المتقدم قد أعدنا لحماً لغداء هذا اليوم، لكن عندما أخرجناه من جعبنا، وجدناه قد فسد، ولذلك رميناه، وتغدينا جبناً

وبقسماطاً، ذلك أن الحر الشديد الذي شعرنا به عندما كنا نعب ذلك السهل الشاسع قد حول لحمنا وأفسده، وأرسلنا سائقي حميرنا مع جرار وروايا ليحضرو لنا ماء من صهريج موجود على مسافة بعيدة، وفي الوقت نفسه نشرنا أنفسنا فوق المنطقة بحثاً عن عصي وحطب للنار، والذي وجدناه فقط بعض الحشائش الجافة، التي نمت مع مطر الشتاء، وجفت الآن تماماً، واقتلعنا هذه الحشائش من جذورها، وعملنا كومة كبيرة من أجل النار، ولم يكن هناك واحد بيننا كان معفياً من القيام بهذا العمل، بل سعى رجال الدين، والكهنة، والكونتات، والبارونات والفرسان جميعاً بكل اتجاه لجمع الحطب أو العصي للاحتراق، وعندما جمعنا جميع مااحتطبناه، انتظرنا طويلاً، ونحن نتطلع إلى الماء، لكن سائقي الحمير تأخروا كثيراً حتى رجعوا، لأن رعاية ذلك الموضع أبعدوهم عن البئر، فضلاً عن هذا، كان البئر بعيداً جداً عنا، وحصلوا أخيراً على الماء بعد صعوبات، وعادوا إلينا مع غياب الشمس مع الروايا وهي مليئة.

وفي البداية كان الماء الذي في الروايا الجلدية مقرف بالنسبة لنا، لأن الماء داخل الأوعية الجلدية يأخذ لوناً مثل لون الدم، ويكتسب طعم الملوحة من الجلد، ويفقد كل خواص عذوبته، ولذلك كان الطعام الذي يطبخ بذلك الماء يحصل على لون وطعم جلد مدبوغ حديثاً، علاوة على ذلك، غدت جرارنا، ودوارقنا، وقواريرنا، التي وضعنا فيها ماء من الروايا الجلدية ملوثة بالرائحة نفسها، ومع ذلك إنه على الرغم من ذلك، غالباً ماأصبحنا عطاشى إلى أبعد الحدود، ذلك أن الماء الذي كان في قواريرنا قد ذهب كله، لذلك كنا نضع أفواهنا على الروايا الجلدية، ونعدّ من الرفاهية امتصاص الماء القذر من القرب الملوثة، وكنا في غاية الامتنان لسائقي الجمال ولسائقي الحمير لمنحنا تلك الشربة لابل غالباً مادفعناهم نقوداً فضية مقابل السماح لنا بامتصاص الماء من الجلود غير

المذبوغة ذات الروائح المقيئة.

وبعد العشاء استلقينا في خيمنا ونمنا، إنها ليس من دون خوف، لأن الأرض كانت مليئة بحفر جحور الأفاعي، وكنا نخشى من لدغهم، لكن بحماية الرب، لم نتعرض لأي أذى في ذلك المكان.

الاستمرار بالسفر نحو الجزء الداخلي من القفار

وفي اليوم الثاني عشر حملنا جمالنا باكراً قبل ضوء النهار، وأسرجنا على حيرنا، وغادرنا الحواطة في الظلام، لكننا أرغمنا على السير ببطء شديد مع الجمال والحمير، لأن الأرض كانت مثل خلية نحل، مع حفر جحور الأفاعي والثعابين، ففي كل مكان كان الموضع مليئاً بالحفر الصغيرة، لذلك كان من الصعب على الدابة أن تقوم بخطوة، أو تضع حافرها دون أن تغطس عميقاً في الأرض، وفي ذلك الصباح لم يكن بين الحجاج واحداً لم يسقط ثلاث مرات أو أربع مع دابته، ورأى واحد من سائقي جمالنا ثعباناً كبيراً وطويلاً، فرماه بنشابه جرحه بها، ونصب الثعبان المجروح نفسه وأعد نفسه للانتقام من عدوه، لكن السائق امتشق سيفه، وقطع الثعبان إلى قسمين، ثم إنه رمى هاتين القطعتين بعيداً عن بعضهما، وطلب منا أن نسير فيما بينهما، خشية أن تتحدان ثانية، لأنه اعتقد أن القسمين سوف يتحدان ثانية ما لم يعبر الناس فيما بينهما، ولست أدري فيما إذا كان هذا وهم فقط، غير أنني رأيت الشيء نفسه يفعل في بلادنا عندما جرى قطع ثعبان إلى شطرين، وسرنا لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات فوق هذه الأرض المملوغة، التي لا يمكن عبورها في أيام الربيع لأن الأفاعي والثعابين تكون خارجة من جحورها.

ووصلنا من هناك إلى منطقة مهجورة وصحراوية، لأن البقعة غدت قاحلة أكثر فأكثر وغير مسكونة، ووصلنا إلى موضع، بدا وكأن ينابيع كثيرة قد تدفقت فيه، أو أنه كانت هناك بحيرة، فقد كانت هناك كثيراً

من الأقنية العميقة، عملت من قبل المياه أثناء جريانها، ومع أن الأرض كانت منبسطة، لكنها كانت غير مستوية أبداً، ولذلك أرغمنا بشكل مستمر على الصعود إلى تله والنزول منها مع كثير من التعب، وعند الظهر وصلنا إلى القفار الحقيقية، وإلى مكان مهجور، حيث لا يمكن لإنسان أن يعيش، وحيث أيضاً ليس هناك من سكان، ذلك أننا خرجنا من السهل إلى منطقة تلية كانت مشوية بحرارة الشمس، وكلها كانت قاحلة، مليئة بجبال صخرية، وروابي رملية، وأودية صخرية ومرعبة.

وعندما صرنا في القفار، واجهنا قافلة، أي جماعة من الناس، مع جمال وحير، وكنا خائفين جداً، من أن يكونوا من لصوص الصحراء، لكن عندما تقابلت الفئتان مرت كل واحدة بالأخرى بصمت، وكنا دوما نرتعب كثيراً لدى مقابلة أية أناس مهما كانوا، لأننا أخبرنا من قبل بأننا لا بد من أن نعاني من كثير من الشرور على أيدي البداءة العرب في القفار.

ووصلنا بعد هذا إلى منطقة، رأينا فيها عن بعد خياماً وأكواخاً واقفة على طريقنا، ولدى رؤيتنا لها شعرنا بإحباط كبير، وقررنا بأنفسنا تحمل الاضطرابات، لأن القفار ليست مكاناً يستطيع الإنسان الدفاع فيه عن نفسه، أو أن يقوم بصدد عدو واحد، بل هي مكان على الإنسان أن يتحمل فيه بصبر ما ينزلوه به، وأن يتنازل لهم، وعندما وصلنا إلى هذه الخيم، رأينا أنه قد وقف أمامها رجال شريون سود، يحملون رماحاً، وجاهزين للدفاع عن أنفسهم، لكن ليس للهجوم علينا، ولقد نظروا إلينا، غير أنهم لم يتفوهوا بكلمة واحدة لنا، فتجاوزناهم بصمت ويسرعة، وكنا مسرورين نحو تصرفهم الهادئ، ولعلمهم كانوا كذلك مثلنا، على افتراض أنهم كانوا أيضاً خائفين منا.

وبمتابعتنا السير وصلنا إلى سهول عريضة، قد أحرقتها الشمس، عبرها لا قينا تقدماً جيداً عبر القفار، ورأينا في أماكن كثيرة، قريبة منا

وبعيدة، دخاناً صاعداً من نيران، وقد ارتعبنا تجاه ذلك رعباً شديداً، لأننا ظنناهم نيران معسكر حشود من البداة العرب، لكن كاليانوس أخبرنا، وكذلك التجربة والخبرة علمتنا، أنه لم يكن هناك لانسان ولانار في تلك الأماكن، لكن الرياح أثناء هبوبها تشكل زوابع، يرتفع بها الغبار والرمال الناعمة، وبذلك تبدو وكأنها دخان صادر عن نار.

وعند المساء وصلنا إلى منطقة، حيث الجبال، والتلال، والأرض المنخفضة، وجميع الأماكن التي أمكن رؤيتها بيضاء، ووصلنا أخيراً إلى قعر وهدة وعرة، أسموها غين Gayan حيث نصبنا خيمنا فوق أرض شديدة البياض، وهنا تمكنا بعد صعوبة بالغة وسعي إلى هنا وهناك من جمع مايكفي من حطب لاشعال النار، ولم يتجاوز ذلك حجم عصاتين، لأنه لم يكن هناك سوى بعض النباتات الجافة القليلة، التي خرجت من الأرض في أيام الرطوبة، وعندما كان الحر ليس شديداً، ثم إنها جفت عندما تعرضت لحرارة الشمس، وكان ماجمعناه أشبه بالأعشاب، وكان جميع ماوجدناه شوكياً، وله رائحة طيبة، لذلك صدر عن النار دخان له رائحة عطرة، وطبخنا وتناولنا عشاءنا، وفي الوقت نفسه كان سائقو جمالنا وسائقو حميرنا قد جمعوا كومة من الحطب، لعمل معجنات على الموقد، وكانوا يتصرفون كمايلي: كانوا يوقدون ناراً عظيمة، إلى جانبها يمدون جلداً فوق الأرض، ويضعون فوق الجلد طحيناً كانوا قد حملوه معهم، ويصبون الماء فوق الطحين، ويعملون من ذلك عجينة، وعندما تصبح العجينة جاهزة، وبعدما يعملونها على شكل خبزة واسعة ورقيقة، وتكون الأرض قد احترقت بالنار، يكشطون الرماد المحترق عن المكان الذي كانت فيه النار، ويمدون العجينة فوق ذلك المكان الحامي ثم يغطونها ثانية بالرماد والفحم، وبذلك يتم خبزها، وتصبح خبزة طيبة مطبوخة في الموقد بشكل جيد، وبعد حصولهم على الرغبة الساخن، كانوا يفتتونه إلى قطع، يضعونها في قدر، ويصبون عليه زيت الزيتون

حتى تندهن كل قطعة، وهكذا يأكلونها، كما نأكل معجناتنا.

وعندما يأكلون هذا الطعام، يشعرون بالسرور العظيم، ويرون أنفسهم أنهم تمتعوا بطعام لائق بالملك، لكن عندما لا يتمكنون من الحصول على نار، يضعون طعامهم على الأرض حتى تنطبخ في الشمس، التي حرارتها في وسط النهار تشابه حرارة أتون، وفي الحقيقة حرارة الشمس عالية جداً، إلى حد يجد كل طبّاخ أنها كافية لطبخ بعض المعجنات، وقد رأى في القفار القديس بوستيوموس Postumius قدراً مليئاً بالحشائش، وهو يغلي من دون نار، وذلك حسب ما جاء في Speculum Historiale — الكتاب التاسع عشر، الفصل: ١٤، فهم يشوون اللحوم بين حجرتين، ساختين بحرارة الشمس، كما تحدثنا من قبل، وشرعنا في تلك الأمسية نأخذ طعاماً من مخزوناتنا، لأننا استخدمنا جميع الأطعمة الطازجة التي جلبناها معنا من غزوة، وعند غروب الشمس أمرنا كالينوس بإطفاء النيران تماماً، حتى لا يمكن رؤية شرارة أو جرة منها خلال الظلام، وأمرنا بالاحتفاظ بحراسة يقظة أكثر من ذي قبل، موضحاً بأن هذا المكان لم يكن أميناً بل كان خطيراً، بسبب الغارات المتوالية للبداءة العرب، وهكذا أقمنا حراسة يقظة، وذهبنا إلى النوم، ولم نتعرض لأي ازعاج، مع أننا كنا في بقعة مرعبة جداً.

خطر العواصف في الرمال

واستيقظنا في الثالث عشر بعد مضي منتصف الليل، فقوضنا خيامنا وطويناهما، وحملنا دوابنا أثقالنا، وغادرنا قفار غين، ووصلنا مباشرة إلى جبل رملي، تسلقناه بصعوبة، لأنه جلب إلى هنا مؤخراً، بوساطة ريح رملية، ولم يكن الرمل بعد راسخاً، ولذلك غطست الدواب في الرمال، وكأنها كانت تسير خلال ثلج عميق، علاوة على ذلك بدأت الريح تهب تحت أقدامنا، وتحمل الرمال وتنقلها، وبدأت للمرة الثانية بنقل الجبل

من مكانه إلى مكان آخر، وشرعت هذه الهضبة التي كنا نسافر بجوارها بالتلاشي ساعة تلو أخرى، مثلما يحدث للماء عندما تهب الرياح عليه، ولم يكن بإمكاننا النزول إلى الجانب الآخر هناك، إلى الوادي، بسبب الرمال المتحركة وخشية الوقوع في العاصفة، لأن الذين يقعون في عاصفة رملية في هذه المناطق، يصبحون عرضة للهلاك أكثر من الذين تغرق سفيتهم في البحر، وأرغمنا أخيراً على فعل ذلك، ونزلنا إلى الوادي، لكن ليس من دون اضطراب من الرمال التي انصبت فوقنا، وكان انصباب الرمال هذا أكثر إزعاجاً بمائة مرة من نزول أية كمية مهما كانت من الأمطار، وعندما دخلنا إلى الوادي سرنا فيه فوق رمال قد انتشرت حديثاً، وكان هذا وادياً ضيقاً، محاطاً من كل جانب بتلال رملية، ولولا أن الرياح كانت معاكسة— وهذا بفضل حماية الرب قد وقانا— لانصبت الرمال من كلا الجانبين في الوادي، ولكانت عاصفة هوجاء قد وضعتنا في خطر الاختناق، كما حدث بالغالب للذين يرتحلون خلال الصحراء في هذه الأماكن، وفجأة انحرفنا إلى الجانب، وخرجنا من الوادي، ووصلنا إلى قعر مجرى سيل كبير، أسماه البداءة العرب وادي Wadalar ، وهناك فوق قعر هذا المجرى آثار واضحة، تبرهن أنه كان مليئاً بالماء في أيامه، وكانت هذه المياه تحمل بوساطة قناة لتصب في البحر الكبير، لأنها جرت مباشرة نحو البحر.

ولم تكن الجبال حول قعر هذا المجرى رملية، بل كانت حجرية، لذلك توفر في القعر بعض النباتات، والأعشاب والحشائش، وكان بين أنواع النباتات، نبتة لها أغصان صغيرة كثيرة، نابغة من جذورها، وهذه الأغصان لا تنمو عالية في الهواء، بل تمتد طويلاً فوق الأرض وتبتعد كثيراً عن الجذر، وعلى هذه الأغصان قد تعلق كثير من التفاح الجميل، ذي اللون الأخضر المشوب بالرمادي، وهي ذات شكل مستدير، وبحجم قبضة الانسان، وعندما رأينا هذه التفاحات، أغرانا جمالهن حتى

ترجلنا من على ظهور حميرنا وقطفناهن، وفي تلك الأثناء تابع أدلاؤنا سيرهم وهم يضحكون، لأنهم عرفوا طعم هذه التفاحات، وهو ما لم نعرفه نحن، لأننا لم نكن قد سمعنا بهن، ولم نشاهدن من قبل، وقام الذين قطفوا هذه التفاحات بوضعهن مباشرة في أفواههم، ناوين أكلهن، غير أنهن كن من المرارة بمكان، أنهن قبل أن تصل أسنانهم إليهن، تقلصت شفاههم، لأنه مهما كانت مرارة أي حيوان مائة مرة ليست بدرجة هذه التفاحات، فلقد كانوا يقطينا برياً، كان يطلق عليهن اسم القثاء البري، وعنهن قيل في (سفر الملوك الثاني: ٤ / ٤٠): « في القدر موت » وأخذنا معنا بعضاً من هذه التفاحات، وكنا نرغب في حملهن معنا إلى موطننا في بلادنا، لكن بسبب مرارتهم الهائلة، لوثوا كل شيء لمسوه، وتلوثت أيدينا بالمرارة لأيام عديدة، وكان من غير الممكن إزالة ذلك لا بالغسيل ولا بالحك، وحدث مثل ذلك لسكاكيننا التي قطعناهن بها، وفي البداية وضعت تفاحتين في سلتنا، التي حفظت فيها اللحم، والبقسماط، والجبن، وقد تلوثوا جميعاً بالمرارة، ولذلك لم يعد بالامكان أكلهن بأي حال من الأحوال، ولذلك أرغمت على رمي اللحم، والخبز والجبن، واليقطين كله مع بعضه، وفي الوقت نفسه تلوثت السلة نفسها بطعم المرارة، وهكذا كان كل ما وضعته فيها فيما بعد، قد التقط طعم المرارة.

وارتحلنا على طول قعر مجرى السيل هذا، بين هذه المزروعات الخضراء، باتجاه الغرب، حيث سائرنا طريق القناة، وبعدما سرنا بمحاذاتها لمسافة طويلة، انتهت الجبال الصخرية، ووصلنا ثانية إلى منطقة رمالها ناعمة جداً وعميقة، وقد كانت الرمال تنصب في ذلك الوادي من الجبال، ولم يكن في ذلك الجزء لأعشاب ولا أوراق، ولا أي شيء أخضر، كان من الممكن رؤيته، لأنه مامن نبات يزرع هناك كان يمكنه النمو، على أساس أن البذر كان في أرض متعرجة متهاوجة

متبدلة، رملها الجاف يتحرك مع كل هبة للريح، والمحصول الوحيد الذي كان ينمو هناك هو تلك المزروعات التي كانت تنمو بسرعة فائقة، وبفضل التربة والمناخ، يمكنهم منع هجمات الرياح، وفي الحقيقة قد قيل أنه في هذه الأماكن تصل البذور إلى أقصى نموها في أقصى الأيام حرارة وعطشاً بعد زراعتها.

وعندما وصلنا إلى حيث بدأت حافة الوادي تصبح منخفضة، انحرفنا جانباً عن قعر مجرى ذلك السيل، وتسلقنا فوق الطرف الرمي للوادي، على الجانب الجنوبي، ونزلنا على الجانب الآخر إلى قعر مجرى سيل آخر، يجري من الجنوب نحو الشرق، ومن خلاله تصب المياه في البحر الميت، وذلك عندما يكون فيه أية مياه، ولو أن أي إنسان سافر هذا المجرى، لمسافة عشرة أميال، لأمكنه أن يصل إلى البحر الميت، الذي يمتد على شكل لسان طويل من سدوم حتى هذه القفار، وكان قعر هذا المجرى وعراً، وكانت الحجارة والصخور في الجبال على الجانبين هناك بيضاء جداً، وكأنها مغطاة بالثلج.

وسرنا مباشرة عبر مجرى السيل هذا، ولم نسر إلى أعلاه أو نحو أسفله، بل نزلنا من الضفة الأولى، ثم تسلقنا الضفة الأخرى، وعندما صرنا في الأعلى، مضينا مسافرين لجرف لبعض الوقت، لأن الأرض كانت منحدره كثيراً، ومن غير الممكن الصعود مباشرة، لأن الصخور في الأسفل كانت واقفة حادة مثل الأسنان، وعندما امتلكتنا الفرصة للنزول، نزلنا عبر منحدر منزلق، ووصلنا إلى قعر مجرى سيل عميق آخر، كان اسمه مجدبا Magdabee ، وكان حجرياً وفي غاية الوعورة، وكان كله قاحلاً من دون أي شيء أخضر فيه مهما كان نوعه، وجعلنا جمالنا تنوخ في مكان وعراً إلى أبعد الحدود، في قعر مجرى السيل هذا، ونصبنا خيمتنا، واستعدينا للإقامة هناك تلك الليلة، وبعثنا بسائقي هيرنا ليحضروا لنا ماء من سبخة، قد قيل بأنها ليست بعيدة، لأننا لم

نتجراً على نصب خيمنا مع جميع جماعتنا إلى جانب برك أو صهاريج في القفار، لأن البداءة العرب ينصبون، بشكل عام، خيامهم هناك، ومن الصعب العيش معهم.

ووزعنا أنفسنا حول مجرى السيل، بحثاً عن عصي لنعمل ناراً لأنفسنا، وذلك حتى تحين عودة سائقي الحمير، وتطلعنا بشوق إلى عودتهم، لأننا كنا متشوقين إلى ماء طازج، لأننا أمضينا نهراً مضيقاً، وكنا ظمانين بسبب الحر، ونتوق إلى الماء كثيراً، إنما عندما عاد سائقوا الحمير مع الماء، وصببنا ذلك الماء من الروايا في قدور الطبخ، بدا لنا أشبه بالحليب منه بالماء، لأنه كان أبيضاً وكثيفاً، ومقرّف أكثر من الماء الذي مضى عليه وقت طويل في الجلود، وقد صار لونه أحمر ومالحاً بسبب الجلد، وبناء عليه أخذنا ذلك الماء الأبيض، وطبخنا طعامنا به، إنما استخدمنا الماء الأحمر للشرب، وأخذت كأساً من الماء الأبيض، وكأساً من الماء الأحمر إلى كالينوس، وسألته أيهما كان صحياً لشربه من الاثنين، فأجابني بأن الماء الأبيض كان سيئاً، وليس صحياً، وأن الماء الذي صار لونه أحمر، وصار حاد المذاق بسبب الجلد، ليس فقط هو غير سيء، بل هو طيب، وجيد جداً للصحة، وعند هذا تشجعنا وأقدمنا على الشرب من الروايا الجلدية من دون خوف.

وعندما عملنا ناراً من أجل عشائنا، فجأة هبت ريح شديدة، وقد جاءت من جهة البحر نحو مجرى سيلنا، ففرقت العصي المحترقة، وأخذت النار، ولذلك لم نستطع طبخ شيء في تلك الليلة، فضلاً عن ذلك أثارت الغبار من الأرض، وملأت خيمنا وفرشنا، وبذلك انتشر الغبار والرمل فوق كل شيء كان لدينا، ووقفنا نحن بصعوبة في الغبار، وكأنا في سحابة كثيفة تتحرك بوساطة الريح التي لم تعرف الهدوء، وصار مجرى السيل كله مظلماً، وبدا الهواء غائماً، والسماء سوداء بسبب كثافة الغبار، وكنا جميعاً مثل أناس عميان، ننظر بأعين شبه مغلقة،

ومامن انسان أمكنه الاستقرار للنوم في ثياب فراشه بشكل جيد، من دون أن تكون الريح والغبار قد اتخذنا سبيلهما بينهم.

وهبت هذه الريح من جهة البحر الكبير، حيث لا بد أنه كانت هناك عاصفة عظيمة في البحر، لأننا رأينا لمعان وضوء البرق باتجاه البحر، الذي كان دوماً يسبب اضطراباً كبيراً، وعندما تمددنا أخيراً لإراحة أنفسنا، جاء الحاج الذي كان دوره بالحراسة تلك الليلة، إلى خيمتنا، وأخبرنا بأن اثنين من المتشردين البداءة العرب قد وصلا إلى نخيمنا، وجلسا إلى جانب خيمتنا وسط الحقائق والسلال، فنهضت، لأنني كنت في ذلك الوقت رئيس جماعتنا، فوجدت هذين المتشردين، ففتحت كيساً، وأعطيتهم خبزاً لعشائهم، وملأت جرتهم من ماء الروايا الجلدية، وعملت لهما شارات للابتعاد عن خيمتنا وحقائبنا، الأمر الذي عملاه وهما شاكرين جداً للأعطية، ولو أنني لم أعطهما شيئاً لما كانا تركانا، ولسرقا منا ضعف ما أعطيتهم إياه، وبقي هذان الرجلان بصحبتنا لعدة أيام، لأنهما كانا يعرفان بعض سائقي الجمال، ولولا ذلك لما سمحنا لهما بالبقاء معنا.

ويتظر لصوص بداءة العرب في البادية هبوب عاصفة، وعندما يظلم الهواء، والناس قد صاروا شبه عميان، يشقون طريقهم إلى إحدى القوافل، ويستولون على كل ماتصل أيديهم إليه، ويرتحلون أحياناً معنا لمدة ثلاثة أيام، وهم أناس مامن أحد يعرفهم، كما ما من انسان يفهم كيف عثروا علينا، وطلبنا من كالينوس طرد هؤلاء الناس غير المعروفين وابعادهم عنا، غير أنه أجابنا بأنه لا يستطيع ابعاد أي انسان أثناء النهار، لكنه سوف يطلب منهم أثناء الليل الابتعاد عن أثقالنا، وقد نصحنـا—لابل رجانا— أن لانمنع الخبز والماء عن مثل هؤلاء الناس الذين قد نقابلهم، وقال بأننا سوف نكون أكثر أماناً، إذا مافعلنا ذلك، ولذلك كنا عند المساء ندعو جميع الغرباء ونعطيهم بعض الخبز وبعض

الماء بالمعيار، ونأمرهم بعدم إمضاء الليل قرب خيمنا، بل عليهم الابتعاد، وإذا لم يفعلوا ذلك، سوف نبعدهم عنا بوساطة العصي والهراوات، لأننا لم نسمح حتى لخدمنا بالنوم قربنا.

مغامرة الراهب فيلكس فابري المربعة الغربية

وفي اليوم الرابع عشر، الذي هو يوم تمجيد الرب، والذي كان أيضاً الأحد الخامس عشر بعد الثلاثين، استيقظنا باكراً، قبل ضوء النهار، وعملنا الاستعدادات للمغادرة، ومن جديد ثار خصام كبير بين الحجاج وبين سائقي الحمير، حسبما كانت القضية كل يوم، وعانينا خلال هذا الجزء من حجنا من سوء سلوك وحماقة خادميننا، الذين دفعنا لهما مالا كثيراً، واكثريناهما مقابل أجر كبير للقيام بخدمتنا، فكانا غير مخلصين لنا، وسرقا منا كل شيء استطاعاه، حيث كانا أثناء الليل يأخذان طريقهما إلى أكياس بقساطنا، ويمزقان فتحات فيهم، ويحصلون على كل مايسطيعان، وكانا يعملان الفتحات بأسنانهما مثل الفئران، ولم نستطع قط القيام بحراسة جيدة، ولذلك سلبنا في كل ليلة، لأنها كانا لصين بارعين جداً، وبإمكانهما سرقة حاجيات الانسان أمام عينيه، وبالإضافة إلى هذا كانا كسالى في أعمال جمع أثقالنا، ذلك أننا استأجرناهما مع جمليهما لهذه الغاية، وكانا طوال وقت تحميل الجمال يتابعان رمي حاجياتنا والتخاصم معنا، ولم يكونا يتوليان رفع مارمياه مالم ندفع لهما المزيد من المال، الذي لم يكن متوجباً علينا، وقاما هذان الشقيان بازعاجنا إلى أبعد الحدود، ولولا خوفنا من التعرض لخطر عظيم، لقمنا بضررهما مراراً ضرباً مؤلماً، لأنه كان بإمكاننا أكلهما، حسب تعابير العامة.

وقمنا بالوقت ذاته بترك كثير مما اقترب بحقنا لانتقام الرب، وتحملنا آثاماً فظيعة، وهكذا حملنا دوابنا، وغادرنا قفر مجدبا، ودخلنا إلى بقعة أكثر إرعاباً وأشد قحطاً من الصحراء التي سرنا خلالها بالأمس، أو في

اليوم الذي تقدمه، حيث لم يعد بإمكاننا تمييز أي اثر لانسان أو لحيوان، ولذلك وجهنا خطانا نحو نجم القديسة كاترين، وسرنا نحو الجنوب، دون أي طريق آخر، وذلك فوق مجاري مياه، ووديان، وجبال، وروابي، ودخلنا الآن إلى المنطقة والقفر اللذان اسمهما بالعربية جبل هلال Helell ، ويوجد في هذا القفر جبال عالية جداً، مكونة من صخور منزقة، وقد سافرنا النهار كله بين هذه الجبال، ومع غروب الشمس وصلنا إلى مكان رملي، اسمه في القفار مغارث Magareth، وكان ذلك عند سفح الجبل، وهناك نصبنا خيمنا، وجمعنا حطباً لنطبخ به.

وكان على مقربة منا، كما هو واضح، جبل واحد مستدير، وقد كان عالياً، إنما من السهل تسلقه، وعلى قمته كان هناك نوعاً من أنواع البناء، ولقد أردت الصعود إلى هذا الجبل من أجل أن أشاهد ماكان على قمته، ولأحصل على فرصة مشاهدة القفار من جميع الجهات، ولم أرغب بالذهاب لوحدي، ومع ذلك لم يكن لدي أمل في إيجاد رفيق بين الحجاج، وهكذا شجعت نفسي، وتركت الجماعة وكأني قصدت القيام بصلواتي، وذهبت وحيداً في داخل السهل، ووصلت إلى أكوام من الرمال، سرت بينها مسرعاً نحو الجبل، دون أن يعرف أحد ماالذي كنت أفعله، وبعد مسير ساعة وصلت إلى سفح الجبل، لكن مظهره خدعني كثيراً، لأنه انتصب بعيداً عن خيمنا أكثر مما قدرته، وكان أكبر وأعلى مما بدا عن بعد، وعلى الرغم من هذا كله، عازمت على إنهاء المهمة التي كنت قد بدأتها، وتسقلت فوق الجانب المنحدر من الجبل بين جروف وصخور صماء، ومع كثير من التعب والتعرق وصلت إلى القمة، التي لم أجد شيئاً عليها سوى كومة من الحجارة، وضعت أحداها فوق الأخرى.

ووقفت حيث أنا هناك، ونظرت من حولي، غير أنني لم أستطع رؤية أي شيء في أي مكان، إلاً قفاراً بلاحدود، تقطعتها، جبال، وروابي،

ومجاري سيول، حيث هي غير مسكونة لابشر، أو طيور، أو حيوانات، ولم أستطع رؤية خيمنا، لأنهم كانوا على مسافة بعيدة، لكنني رأيت جبلاً بيضاء وسوداء، ووجه الأرض كله قد شوي بحرارة الشمس، ولم أشاهد أي شيء أخضر، لا كبيراً ولا صغيراً، بل القحط الملعون ممتد فوق الأرض، وكانت كومة الحجارة على قمة الجبل علامة لتيان الطريق، لأنه في كل مكان في أرجاء القفار، هناك أكواماً من الحجارة قد وضعت على قمم الجبال، لتري المسافرين أين ينبغي أن يسيروا في الوديان، وحيث لا توجد هذه العلامات، مامن انسان يمكنه الارتحال خلال القفار، لأن القاعدة: هناك بعض الوديان التي لا يمكن عبورها، بل هي مغلقة في النهاية القصوى، لذلك بعدما ينقضي الانسان ثلاثة أيام أو أربعة في مسامرة طريق ذلك الوادي، عليه في النهاية العودة ثانية، والشئ نفسه يحدث في البحار الصخرية، حيث كانت هناك أكوام من الحجارة، مقامة فوق التلال كعلامات لتيان الطريق عبر البحر، وإذا لم تكن هذه العلامات موجودة، تتورط كثير من السفن في ممرات بين الجبال، وتصل إلى صخور خطيرة، وإلى مآزق مهلكة، ومثل هذا هنا يمكن لكثير من الناس أن يهلكوا، إذا لم تتوفر مثل هذه العلامات فوق الجبال، هذا يستخدم العرب هذه العلامات استخدامات غريبة وأهمها، ذلك أنهم يصعدون في بعض الأوقات إلى الجبال، ويدعون إلى محمد ﷺ، لأن هذه الكومة كانت مليئة بأسفال بالية، وبقطع من الأقمشة، ويقمصان، وهم اعتادوا على هذا لإظهار التشريف لأي مكان يعتقدون أنه مقدس، مثلما سلف وتحدثت عن الشجرة، ذلك أنه عندما ينهي أحدهم صلاته، يمزق قطعة من ثيابه، ويلقها هناك، ثم يمضي مغادراً، وأسباب هذه الممارسات الحمقاء، معطاة في ص ١٣٩٥ من القسم الثاني، ولذلك انتزعت جمع هذه الأسفال وقطع الأقمشة من على الحجارة، ورميتهم فوق الأرض، ووضعت صلباناً في مكانهم، ونصبت على القمة صليباً مصنوعاً من القصب، ورسمت صلباناً على أكبر الحجارة، وعلى حجارة

أخرى حادة، لأنني كنت متذكراً تمجيد الصليب، الذي كان يوم عيده ذلك اليوم، وفعلت ذلك من أجل أن المسلمين عندما يأتون إلى هنا، يمكنهم أن يجدوا رمز المسيح، ويمكنهم أن يعرفوا أن مسيحياً قد كان هنا.

ورغبت بعد هذا بالنزول، وحدثت بعناية عبر السهل، حتى يمكنني تحديد مكان خيمنا، لتوجيه خطواتي نحوهم، لكن لم يكن بإمكانني رؤية أي شيء، ولا أي دخان من نارنا، لذلك بدأت أرتعد في خوف رهيب، خشية أن لا أتمكن من العثور على طريقي للعودة إلى رفاقي، عبر تلك المنطقة التي هي بلاممرات ولاطرقات، ولو أنني أخذت ذات اليمين وذات اليسار، لحل بي الظلام وأنا أبحث، ولو أن شيئاً من هذا القبيل وقع لي، لكنت بالتأكيد رجلاً ميتاً، والشيء الوحيد الذي منحني الشجاعة، هو أنني عندما عبرت فوق الرمال تركت علامات قدمي هناك، وأملت بأنني سوف أتمكن من اتباع طبقات قدمي هذه، وهكذا نزلت نحو الأسفل وعند سفح الجبل، وجدت بالفعل علامات خطواتي، غير أنها كانت تقريباً مغطاة، لأن الريح ألقى الرمال فوقها، ولو أنني تأخرت قليلاً فوق ذلك الجبل، لكانت علامات خطواتي قد سترت تماماً، وكان من المؤكد وقتها فقدان حياتي، لأنني بت في وضع لم أعد أدري فيه أي اتجاه عليّ أن أذهب، لأنه كان هناك سهل كبير عند سفح الجبل، فيه أكوام كثيرة من الرمال، لأن تلك المنطقة صارت كلها تلالاً منخفضة، ولقد تبعت علامات خطواتي مسافة جيدة، لكن عندما وصلت إلى أعلى جزء من الأرض كانوا قد اختفوا تماماً، ولم أستطع إيجاد أثرهم بأية وسيلة، وقمت هنا بالاستدارة وسرت عائداً فوق العلامات الجديدة التي عملتها، إلى المكان الذي رأيت فيه علامات خطواتي القديمة، حتى أستطيع تفحصهم بدقة أكبر، لكنني لم أستطع العثور عليهم، فبت مغضباً من نفسي، ولت نفسي بحدة متناهية من

أجل فضولي وافتراضاتي، وكدت أن أمزق لحيتي، ولطمت وجهي، وضربت على صدري أسفاً وقلت مخاطباً نفسي: «بالأسف، كم أنا رجل تعيس، لماذا تركت رفاقي؟ وأية حماقة مني حتى ابتعدت عن إخواني في هذه الأرض التي لا طريق فيها والمرعبة، أين تعتقد أنك سوف تجدهم؟ هاهي الشمس قد مالت نحو المغرب، وحل الليل، ولم أعد فيلكس أنا بين الناس سوى الأكثر تعاسة، فإلى أين سأذهب، وإلى أين سأسعى؟ يارب ساعدني»، وما أن فرغت من هذا حتى انفجرت أقرأ مزامير الغفران السبعة الأخيرة، و Domine exaudi التي وجدتتها صلاة جميلة ومؤثرة.

ومضيت متابعاً أغني هذا المزمور، وأنا غير متأكد حول اتجاهي، وتوليت تكراره أكثر من مرة حتى وصلت إلى كومة عالية من الرمال، فرأيت علامات طبعات قدمي الماضية على طرفها، وكان بإمكانني تقبيلهم لشدة فرحي، ولم أشعر قط بالسروور مثل شعوري برؤية طبعات الأقدام تلك، وعندما كنت بسرور أراقبهم وأتبعهم، وقع إلي أنهم ربما طبعات قدمي واحد من البداءة العرب، وبدأت أشك فيما إذا كنت على طريقي إلى المكان الذي منه قدمت وأثناء هذا الشك، نظرت عن قرب أكثر نحو طبعات القدمين، فوجدتهم طبعات قدمي رجل متنعل في حين يسير البداءة العرب فوق القفار عراة الأقدام، ومضيت ثانية متابعاً السير على طريقي وأنا مطمئن، وبعد قليل رأيت شيئاً أبيض، وخمنت أنهم ثلاثة من المسلمين، أو البداءة العرب، الذين يرتدون ثياباً بيضاء، لكن عندما اقتربت أكثر، كانوا خيمنا، ونظرت نحوهم فشكرت الرب وأنا راكع على ركبتني، وقررت أن لأفارق أصحابي ثانية، وقد وجدت اثنين من الحجاج وهما يتعشيان في الخيم، وعندما ذهبت إليهما وبخاني لقدومي للعشاء متأخراً هذا القدر، وقالاً بأنهما انتظراني لوقت طويل، فقلت لهما بأنني كنت مشغولاً بشؤوني الشخصية، وبعد العشاء أخذتهما

إلى خارج الخيمة، وأشارت إلى الجبل، وأخبرتني بالذي وقع إليّ، وقد اندهشا لعودتي بمثل هذه السرعة، وكانت الشمس قد غابت الآن، ووضعنا أنفسنا للاستراحة، وأوى كل إنسان إلى فراشه.

متاعب في بحر الرمال

وفي اليوم الخامس عشر، بدأ سائقو الحمير، قبل منتصف الليل بالصراخ، وهم يشكون بأن اثنين من حميرهم، قد فكا من رباطهما وسرقا من قبل اللصوص، وبصراخهم استيقظنا من نومنا، وجلسنا على فرشنا نتحدث حول المسألة، وفي الوقت ذاته بحث سائقو الحمير في المنطقة فوجدوا الحمارين معاً، ذلك أنهما فكا نفسيهما وشردا، وعند إعادة الحمارين أمرنا كالينوس بتحميل جمالنا، وأن ننتقل قبل الوقت المعتاد، لأن الوقت كان ما يزال مبكراً جداً، أي حوالي منتصف الليل، وهكذا نهضنا، وعندما بتنا مستعدين، تركنا قفر مغارث ووصلنا إلى صحراء قاحلة جداً، وقد دخلنا إلى قسم منها كان بارداً برداً شديداً، وكان هذا على عكس القاعدة العامة في الشرق، وقد عانينا كثيراً من البرد الشديد، حتى أن أيدينا، وأقدامنا، وأنوفنا تيبست بسبب البرد، وأسناننا اصططكت، وعانينا كثيراً من هذا البرد، لأننا حتى الآن كنا نعيش في حر عظيم جداً، والآن دخلنا إلى برد شديد من دون أن نلبس مانحمي به أنفسنا ضده، وبين جميع الأشياء التي تجدد نشاط الحاج خلال القفار، والذي يحدث بشكل رئيسي كل يوم، لابل كل ساعة تقريباً، هو أنه يدخل إلى مناطق جديدة، وإلى تربة حديثة، وأنواء، ويدخل أيضاً إلى مابين جبال ذات أشكال جديدة وألوان، مما يجعل الإنسان يعجب مما هو حاضر، وأن يتطلع بتشوق لرؤية ماهو مقبل، وهناك دوماً شيء ما يحدث، ويملاً الإنسان بالدهشة والاعجاب، إما نحو المنظر الغريب للجبال، وألوان الأرض والصخور، والأنواع التي لا تحصى من الحصى، أو من الأراضي الشديدة الوعورة، والقحط، والطبيعة القاحلة للبلاد،

وهذه أشياء تبهج العقل السؤول، وأعترف أنا من جهتي بأنني شعرت ببهجة في القفار القاحلة أكثر مما شعرته في الأرض الغنية والخصبة في مصر، مع جميع جمالها الجذاب.

ومع حوالي اشراق الشمس، خرجنا من المنطقة الباردة، ودخلنا إلى منطقة من نوع مختلف، ذلك أننا وصلنا إلى مجرى سيل رملي، وتسلقنا مع كثير من التعب فوق جبال قد تكومت حديثاً بوساطة العاصفة، وكان من غير الممكن عبور ذلك الطريق في الوقت الذي كانت فيه تلك الأكوام الرملية تجلب إلى هنا، لأن الرمل يتطاير هناك فوق الأرض مثل تطاير الرذاذ أثناء العاصفة في البحر، ويملاً الهواء كله، بحيث لا يمكن لإنسان أن يقاتل ضده، وكما قلت من قبل يهلك الناس والحيونات يومياً في القفار، بعد قهرهم من قبل العواصف الرملية، مثلما يحدث في البحر، حين يُقهرُونَ من قبل الأمواج العاصفة، وهكذا هلك جيش قمبيز في الرمال التي أثّرت بوساطة ريح جنونية، كما قرأنا في Speculum Historiale — الفصل: ٥٨.

وكنا الآن في خطر عظيم، لأن الرمال تطايرت نزولاً نحونا، ومامن إنسان كان بإمكانه أن يرى أو يسمع إنساناً آخر، وكان بإمكانه بصعوبة بالغة أن يرى بعينه شبه المغمضتين رأس الدابة التي كان يمتطئها، لأن الهواء كان مليئاً بالرمال، التي تطايرت فوق الأرض مثل نهر سريع جداً، وكان كل واحد خائف خوفاً شديداً، من أن تفقد دابته طريقها، وتشرّد في أرض أخرى، عن الجماعة الأساسية، لأنني غالباً ماقلت أنه مامن إنسان كان يمكنه أن ينظر من حوله، لأن أفواهنا وأعينا كانت مليئة بالغبار، وكان ردائي الأسود مليئاً بالغبار، إلى درجة يصعب عليك فيها أن تقول بأنه كان أسود، وأخيراً في حوالي الظهيرة توقفت العاصفة، وتسلقنا فوق رواي رملية، وانتقلنا من مجرى السيل ذاك إلى مجرى آخر، كان كبيراً وواسعاً، وتمتعتا بسفرنا على طول هذا المجرى،

ووقتها دعانا كالينوس جميعاً، وقال لنا: «انتبهوا ياسادتي الحجاج، لديكم الآن حق الاختيار: إذا أردتم اختصار رحلتكم، وأن تسافروا ثلاثة أيام بسلام ودونما انزعاج من العواصف، علينا أن نسير عبر قعر مجرى السيل هذا، لكننا لن نجد لابرك ماء ولا آبار، طوال الطريق يمكننا نحن أو دوابنا أن نشرب منها، واعلموا ان الماء في روايانا بدأ يتناقص، إنها إذا أردتم الحصول على الماء، علينا أن نعبر هذا المجرى، لننزل في مجرى آخر، ربما سنجد عليه آباراً مليئة بالماء، وأنا أعلم بوجود بئر هناك، لكن هل فيه أية مياه أنا لا أعرف، وإذا كان فيه ماء، أخشى أن يكون مطوقاً بالبداة العرب، الذين سوف يرفضون تمكيننا من الحصول على الماء، مما سوف يسبب لنا اضطراباً، وإذا لم تكن فيه مياه، نكون قد قمنا برحلة طويلة خارج الطريق المباشر من دون فائدة، تشاوروا، وقرروا أي طريق تفضلون، ولسوف أخاطر بالمضي على أيهما معكم».

وأجبناه على هذا باختصار بأننا بالحري نؤثر الأذى والنهب من قبل البدااة العرب على أن نعاني من الجفاف ونموت عطشاً، وقلنا: «دعنا نأمل بأن البدااة العرب سوف يتلقون منا خبزاً ومالاً، ونحصل منهم على ماء»، ولذلك خرجنا من قعر ذلك المجرى، وصرنا فوق سهل كبير، كان كله نقياً من الرمل، لأن الرياح قد أطارَت جميع الرمال وأبعدتها، مع أنه كان بإمكاننا أن نرى بوضوح بأنه كان هناك جبال رملية، ولدى متابعتنا سيرنا وصلنا إلى نهاية هذا السهل، ونظرنا إلى منطقة رملية أخرى، وكان دوننا سهل واسع، وهو القفر الذي اسمه الحسا Hachseve، ورأينا كثيراً من الخيم والأكواخ قائمة مع بعضها فوق هذا السهل الواسع مثل بلدة، مع نيران مشتعلة وأناس وحيوانات جيئة وذهاباً، وقد اعترتنا الدهشة تجاه هذا المنظر، فقد كانوا من البدااة العرب، يسكنون في القفار، وقد نصبوا خيامهم حول البئر، وقد مضينا نحوهم ونحن نرتجف، ولدى مشاهدتهم لنا وقفوا على أبواب خيامهم

ينتظروننا والرماح في أيديهم، وعندما وصلنا إلى السهل، وصرنا على مسافة رمية حجر عن خيامهم، نصبنا خيامنا وأنزلنا أثقالنا إلى جانبهم، وهنا ركض أولادهم نحونا بسرور وكانوا عراة وسوداً، قد شوتهم حرارة الشمس، وأعطيناهم على الفور خبزاً، وقد تلقوا ذلك بسرور عظيم، وعادوا إلى خيامهم، وبعدهم جاء أطفال آخرون، لهم أعطينا الهدية نفسها، وزيادة على هذا جاءت بعض النسوة، وكان بعضهن كباراً مع طفل، وأخريات مع أطفال على أذرعتهن، ولهن مثل ذلك أعطينا خبزاً، وبفعلنا ذلك كسبنا قلوب هؤلاء البداءة العرب نحونا، الذين طلبوا منا الإقبال والحصول على الماء لأنفسنا ولدوابنا، ولقد ملأنا روايانا الجلدية وجرارنا من دون أدنى معيق، وهو أمر لم نكن نأمل بحدوثه مطلقاً، وكان الماء موحلاً، ومالحاً قليلاً، لكنه كان قابلاً للشرب، وكنا ممتنين للحصول عليه، وليس لدي شك أننا لو طردنا الصغار الذين ركضوا نحونا، ولم نعطيهم خبزاً، لما حصلنا مطلقاً على مائتا سلام، لابل كنا أرغمنا على إعطاء الخبز والمال بستان الرمح، وقد أقمنا هناك لمدة ثلاث ساعات، وعملنا صداقات مع هؤلاء البداءة العرب بقدر ما نستطيع، ذلك أن فرساننا الشباب رقصوا مع شباههم فوق السهل، وتراكضوا متسابقين معهم، وبعد هذا، وبعدما حملنا جمالنا بسرعة، وكنا على وشك المغادرة، استدعينا مقدم هؤلاء البداءة العرب إلينا، وصدوراً عن كرمنا أعطيناهم دوقية، لأنه تعامل معنا بسلام، وتسلم البدوي قطعة الذهب باحترام كبير، وأخبرنا أننا إذا رغبنا، سوف يصاحبنا ويدافع عنا ضد كل هجوم، غير أننا استأذنا منه وودعناه، وتركنا البئر، وارتحلنا مسرعين.

وعند غياب الشمس دخلنا إلى قفر نحيف اسمه منشين Mins- chene حيث كان هناك مجرى سيل كبير محاطاً بالصخور، وبجبال حجرية، كلها كانت شديدة البياض، وكانت الأرض مثل كلس محروق،

ونصبنا خيامنا في قعر هذا المجرى لإمضاء الليل، ومع كثير من السعي إلى هنا وهناك تمكنا بصعوبة من جمع مايكفي من أجل النار، ولا بد أنه كان قبلنا قافلة من الجمال مرتاحة هناك، لأنه كان هناك كثيراً من الروث في ذلك المكان، وكان الروث آنذاك جافاً، وقد جمعناه واستخدمناه من أجل النار، لأنه لم يكن في ذلك المكان أية نباتات نامية.

وفي اليوم السادس عشر، أيقظنا كالينوس بعد منتصف الليل، حتى نشرق بسفرنا، ونهضنا ونحن نتذمر بضيق، لأن تعب رحلتنا بدأ ينهكنا ويعيينا، ولا سيما بالنسبة للمرضى منا، فهؤلاء اشتكوا فيما بعد بصوت مرتفع بسبب قسوة السفر، لأن الارتحال طوال النهار في الحرارة المحرقة للشمس، مع شطر من الليل في البرد والندى، ومن دون أي طعام مطبوخ، مع مثل هذا العطش الكبير، كان مؤلماً حتى بالنسبة للإنسان السليم، فكيف للإنسان المريض، وغالباً ماتساءلت وأنا في القفار، لماذا تولت الكتابات المقدسة نقد ولوم بني إسرائيل بمثل هذه القسوة، لتذمرهم، وأنه ينبغي عقوبتهم بشدة متناهية لتذمرهم، كما قرأنا في أخبار الأيام الأول: ١٠، حيث جاء بأن الذين تذمروا قد جرى تدميرهم بالأفاعي، مع أنهم تذمروا بسبب متاعبهم (العدد: ١١)، أو بسبب جوعهم وعطشهم (الخروج: ١٦)، أو بسبب مطالبهم البشرية، وقد تعرضوا دوماً لعقوبات شديدة ومؤلمة كثيراً.

وأصبحت مضطرباً في تفكيري، وغالباً ماخشيت من الغضب الرباني، بسبب تذمرنا، وتساءلت عما إذا كان تعبنا قد عدّ بالنسبة لنا صالحاً ومفيداً، عندما نتذمر هكذا كثيراً، ولذلك حملنا الجمال، وأسرجنا الحمير، وغادرنا قفر منشين، وعند شروق الشمس كنا نسير في قفر وعر، ومنطقة هي الأكثر قحطاً، وهي التي أسماها بنو إسرائيل — إذا جاز لنا القول — المكان الشرير (العدد: ٢٠)، واسم هذه المنطقة قفر La-rich، وكان هناك على يميننا، ومثل ذلك خلفنا، جبلاً عظيمة البياض،

كما كان باتجاه الشرق سهولاً واسعة جداً، فيها كانت الحجارة والرمال سوداء، ومشوية وكأنه كانت هناك نيران قد أحرقت كل شيء كان هناك قابلاً للاحتراق، علاوة على ذلك صدرت رائحة النار من الأرض، ولم يكن باستطاعتنا رؤية نهاية هذا السهل الشاسع، الذي لم يكن محاطاً بجبال أو تلال، ودهشنا نحو هذا القفر المرعب، وسألنا كاليينوس المسلم عن نهاية هذا السهل، فأجاب بأنه لا يوجد انسان حي قد وصل قط إلى نهاية هذا السهل بواسطة هذا الطريق، وقال: «لو أن انساناً قُدِّر له أن يسافر بشكل خاص، وأن يقطع عشرة أميال ألمانية كل يوم، فانه لن يتمكن بعد مضي شهرين من الوصول إلى ماء أو إلى انسان حي، علاوة على ذلك إن الحرارة هناك عظيمة إلى حد أنها شوت هذه السهول، ولهذا فإن أي انسان وان امتلك ماء لا يمكنه الوصول إلى نهايتهم وهو حي».

ولقد قيل بأن حدود هذه السهول قريبة من جبال الفردوس الأرضي، ولذلك فإن بريق السيف الناري، الذي وضعه الرب أمام مدخل هذا الفردوس، قد أحرق هذه السهول ليمنع الجميع من الاقتراب، وفي الحقيقة يمكن للانسان أن يفترض بأن هذه الحقول هي «حقول البهجة» التي هي سهول كبيرة جداً وواسعة، وهي خالية من السكان البشر، حيث لا يمكن للإنسان حي السكن فيها، وإلى هذه الحقول — وفقاً للشعراء — أحضر ميركوري الأرواح وأعادها من المناطق السرمدية، لأنهم اعتقدوا بأن أرواح الناس قد خلقت مع بعضها في البداية، وبعد ذلك وضعت هذه الأرواح في البشر أثناء الحمل بهم، وأننا عندما نموت تذهب الأرواح إلى المناطق التي في الأسفل، وهناك تتعذب، حتى تكون الذنوب التي اقترفتها في الحياة قد تطهرت منها وزالت، وبعد هذا يخرجهم ميركوري من «حقول البهجة»، ثم انه بعض مضي ألف سنة يأخذهم ميركوري إلى نهر النسيان حتى يمكنهم أن

يشربوا منه، وينسون متاعب هذه الحياة، وبذلك يمكن أن ترغب هذه الأرواح بالعودة ثانية إلى الأجساد، التي إليها أرسلها ميركوري.

ويقول الذين قاموا بأعمال استكشاف أوسع في هذه السهول بأنهم وجدوا ضريحاً أو قبراً بني من الحجارة في ذكرى واحد من العمالق الهائلين، ويعتقد بعضهم أن عوج ملك باشان، المذكور في سفر التثنية: ٣، قد دفن هناك، لأن سريره أو مهده، الذي تمدد فيه وهو طفل، والذي كان مصنوعاً من الحديد، جرت العادة على عرضه في ربّات، وكان طوله تسعة أذرع، وعرضه أربعة أذرع، ونما هذا العملاق إلى انسان ضخّم، إلى حد أن حقلاً شاسعاً، احتيج إليه لضريحه، وهكذا كانت سعة هذا الحقل، إذا توجب علينا قبول الشرح العبري، للنص المتقدم الذكر، الذي حدثنا بمثل هذه الحكايات العجيبة حول ضخامة هذا الانسان، وأقصد هنا سفر التثنية: ٣، وواضح مع ذلك أن المؤمنين المسيحيين يحكون حكاية أولى حول هذا الحقل، وأن اليهود يحكون حكاية ثانية، والشعراء حكاية ثالثة، والسكان المحليون هناك يحكون حكاية رابعة، فنحن المسيحيين نقول بأن هذا الحقل قد شوي بأشعة السيف الناري، وإذا كان هذا صحيحاً، فإنها تصل حتى أرض الفردوس، ويقول اليهود بأن هذا الحقل هو من بعض الجوانب يشكل حدود «حقول البهجة»، غير أن السكان المحليين يعتقدون بأن هذا السهل يمتد من هنا حتى المنطقة الحارة، وأن بإمكان الانسان العبور خلاله حتى المنطقة الحارة، والبقاء حياً.

وسافرنا طوال ذلك النهار كله خلال أرض العجائب هذه، وكان على يميننا جبال احترقت فصارت جرداء وبيضاء بسبب الحرارة، وعلى يسارنا «حقول البهجة»، وهي مشوية سوداء، حيث لاعشب أخضر، أوورقة نبات يمكن العثور عليها، وعندما كانت الشمس على وشك الغياب، وصلنا إلى مجرى سيل وعر، وهذا السيل يجري في موسمه على

شكل سيل عنيف، ونصبنا في مجرى السيل هذا خيامنا، وعملنا الاستعدادات لإمضاء الليل فيه، وبعد نصب خيامنا، ذهبنا — كما اعتدت — إلى كاليئوس، لأسأله عن اسم المكان، وفي هذا المساء، عندما ذهبنا إليه كما أنا معتاد، وسألته عن اسم هذا القفر والمجرى، ففكر لبعض الوقت، ثم قال، وهو يضحك، إن اسم هذا المكان هو «البراق»، وكان هناك بعض البداية العرب والمسلمين واقفين هناك، وقد ضحكوا مثله عندما سمعوه، وعملوا شارات لي لأن أكتب كلمة «براق»، لأنه كان وقتها بيدي قلم وحرير، وورقة للكتابة، وهكذا عندما أخبروني كتبت «البراق»، أمام أعينهم، وعندما كتبت الاسم وقرأت الذي كتبه، ضحكوا كثيراً، ولم أعرف في ذلك الوقت سبب ضحكهم، لكنني عرفت ذلك فيما بعد؛ فقد مزح كاليئوس والمسلمون الآخرون معي، وقد أخبروني باسم دابة محمد ﷺ عوضاً عن اسم هذا المكان، وكان هذا سبب ضحكهم، فقد قرأنا في القرآن، أن محمد ﷺ كان واقفاً في أحد الأيام عند باب بيته في مكة، فجاء الملاك جبرائيل إليه، وإليه اقتاد بعنانها أعظم الدواب جمالاً وسرعة، وكان اسمها «البراق»، وكان شكل هذه الدابة هو كما يلي: كانت أكبر من الحمار، وأصغر من البغل، وكان لها وجه جميل كأنه وجه انسان، وكان شعرها من اللآلئ، وصدرها من الزمرد، وذنبها من الياقوت، وكانت عيناها مشعتان أكثر من الشمس، وكانت قدميها وحوافرهما مثل قدمي وخفي الجمل، وكان سرجها أثمن مما يستطيع عقل انسان أن يتصوره، ولم تكن هذه الدابة تسمح لأي انسان بركوبها ما لم يشهد جبرائيل على صلاحه، وأقسم جبرائيل بالله الحي أنها لم تقابل انساناً قط خيراً من محمد ﷺ، ولذلك يتوجب عليها حمله على ظهرها، وعندما سمعت الدابة بهذا، قالت بأنها لم تحمل قط أي انسان بمثل الرغبة التي ستحمل بها محمد ﷺ، وهكذا ركب محمد ﷺ وجبرائيل ممسك بالركاب، وعندما صار على السرج، قدمت مجموعة كبيرة من الملائكة، ووقفت حول الدابة، ثم شرعت الدابة

بالذهاب سائرة بشكل لطيف وهادىء لا يمكن لأي لسان أي يصفه، وكانت سرعتها مثل سرعة الريح، ووصلت حتى القدس إلى المسجد حيث وجد جميع البطارقة والأنبياء، الذين أرسلوا إلى هناك من قبل الله، حتى يقوموا باستقباله وتشريفه، وقد شاهد كثيراً من الأشياء العجيبة هناك (١).

وبهذه الحكاية خدع محمد ﷺ كثيراً من الناس البسطاء، لكنه في أحد الأيام عندما كان يروي ما حدث لحشد كبير من الناس، فارقه ستون ألفاً (كذا) من الناس لأنهم تصوروا أن الواقعة كانت غير صحيحة، ومن الممكن الوقوف على هذه الحكاية في « حصن الايمان »، وهو كتاب يعالج حروب المسلمين، في الفصل الموقف على الشرائع التي أعطاها محمد ﷺ، ومن الممكن أن يكون كاليونسنا، قد اعتقد بأن اسم البراق يمتلك في نفسه بعض القدرة الربانية، يمكن أن تؤثر على عقلي، ضد إرادتي، أو بدون معرفتي، لكن هذه الحكاية القرآنية هي حمقاء أكثر من أي حماقة بشرية (كذا).

منطقة مدهشة حقاً

وفي اليوم السابع استيقظنا في المجرى المتقدم الذكر، باكراً قبل ضوء النهار، وبعدما حملنا دوابنا، تسلقنا مباشرة الطرف المنحدر لهذا المجرى، القائم على جهة اليمين، ونزلنا عبر طرف آخر إلى مجرى سيل آخر، وكان هذا المجرى وعراً جداً وملئاً بالحجارة، وكانت حجارتها، وصخوره، والحصى فيه سوداء، وكأنها أحرقت بالنار، لكن قمم التلال على الطرفين كانت شديدة البياض، وكأن ثلجاً جديداً قد انتشر فوقهم، مع أنه لم يكن هناك ثلج، ومن المرجح أن الثلج لم يسقط هناك قط أو سوف، يسقط قط، مثلما أنه ليس هناك في الأسفل نار تقوم بتسويد

١- واضح أن فيابري اعتمد هنا على ترجمة لواحد من نصوص كتب الاسراء والمعراج، وليس على ترجمة للقرآن الكريم كما ذكر أعلاه.

الحجارة، لكنها الشمس بقوتها العجيبة قد سودت الجهة الأولى، وبيضت الجهة الأخرى، ومثل هذا تحوّل هي بقوتها بعض الأشياء فتجعلها ناعمة، وأشياء أخرى قاسية، وهي تعمل بعض الأشياء حلوة وأشياء أخرى مرة، وتصنع السمات المتعاكسة بعملية القدرة نفسها، وذلك وفقاً لطبيعة المادة التي تعمل عليها وتؤثر.

ولدى متابعتنا رحلتنا وصلنا إلى حيث صار مجرى السيل عريضاً، وواجهنا هناك ريحاً باردة كثيراً، حيث أخذنا نرتجف منها بشدة، وتمنينا لو أننا كنا نرتدي ثياباً شتوية، وتسلقنا بعد هذا حافة مجرى السيل، ووصلنا من الجهة الأخرى إلى وادٍ عظيم، لم يكن لاحجراً ولا رملياً، ولكن موحلاً، مكوناً من صلصال أبيض دبق، مناسب للاستخدام من قبل الفاخوري، ووجدنا أنه من الصعب جداً السير خلال هذا الوادي، لأن الماء عمل الأرض وعرة، كما أنه كان مليئاً بأقنية كبيرة ومنزلة، ولذلك توجب علينا دوماً إما الصعود إلى رابية أو النزول من رابية، وهو أمر لم يكن مناسباً لطريقة الجمال بالسير، وكان متعباً جداً لحميرنا، ومزعجاً لنا أنفسنا، ولو كانت هذه الأقنية مليئة بالماء — كما كانت من قبل — لما كان بإمكاننا شق طريقنا خلال ذلك الوادي، وجاهدنا لساعات كثيرة على طول هذا الطريق السيء، وكان علينا أن نؤثر عليه طريقاً كله صعوداً إلى التلال أو هبوطاً منها، وأن تكون المنطقة حجرية أو رملية، وأن لانستخدم هذا الطريق الذي عنه أتحدث.

ووصلنا أخيراً عند نهاية هذا الوادي إلى أرض مستوية، كان الطريق فوقها جيداً، وعلى بعد كانت هناك بعض التلال المنبعشة من هذه الأرض المستوية، وكانت كلها طويلة، ولم تكن عريضة أو واسعة، وسرنا نحوهم لعدة ساعات، وذلك قبل أن نصل إليهم، وعندما وصلنا إلى قرب هذه التلال دهشنا نحوهم دهشة لم تكن قليلة، لأنهم انتصبوا — كما قلت — من الأرض المستوية، وكان لونهم أبيض، وكانوا

مستديرين، وكأنهم عملوا على دولا ب، ولم يكن من السهل القول فيما إذا كانوا قد عملوا بالصنعة أم من قبل الطبيعة، ويعتقد بعضهم أنهم أضرحا للملك مصر القدماء، الذين كانوا قد اعتادوا على الاهتمام بإقامة مثل هذه المنشآت فوق أضرحتهم، كما رأينا بأعيننا في مصر فيما وراء النيل، قرب طيبة، كما سوف نتحدث عن ذلك فيما بعد في الصفحة: ٧٩ ظ.

ولدى اقترابنا منهم، رأينا أنهم من عمل الخالق النافع، ولم يعملوا بصنعة انسان فاني، وذلك ما لم يقع اختيارنا على الرواية التي نتحدث بشكل اسطوري عنهم، ويتناقلها العامة الجاهلاء، الذين يقولون بأن هذه التلال قد وضعها هرقل على ظهر تيتان، الذي حملهم إلى هذا السهل، من أجل أن يضع احدهم فوق الأخرى، حتى يتسلق إلى السماء، وهذه حكاية من السهل أن يتمكن انسان من أن يقنع بها رجل أحق وأن يصدقها في هذا المكان، أو أنهم بنات أطلس، اللاتي حوّلن فيرسوس Perseus إلى تلال، وبين هذه التلال واحدة أعلى من البقية، وهي بالفعل مذهشة جداً، ذلك أنها جادة، وكأنها صيغت ببراعة بيد عامل ماهر، ولهذا السبب نالت لنفسها اسماً دون سواها، واسمها لدى البداية العرب Calpis ، والذي اعتقده أن هذا الاسم لم يمنح لها بالصدفة، أو حسب عادات العوام، بل إنه أخذ من واحد من عمودي هرقل، الذي اسمه الاسم نفسه أي Calpis، لأنه هناك جبلين هما: أبيلا Abi-la، و Calpis، وهما مرتفعان كثيراً حيث يصلان إلى السماء، وهما يقفان أحدهما مقابل الآخر، ويقف الأول من هذين الجبلين في موريتانيا، (للغرب) والثاني في اسبانيا، ومن بينهما يتدفق البحر المتوسط إلى وسط الأرض.

ويؤكد بعض الناس أن هذين الجبلين هما أعمدة هرقل، ويخبرنا بعض القدماء بأن هذين الجبلين كانا فيما مضى متصلين في جبل واحد،

وأن البحر المتوسط لم يكن بعد قد أرسل من قبل المحيط، لكنه كان مغلقاً بكتلة جبلية لا يمكن تحطيمها، لكن قوة هرقل خرقت فيما بينهما، وتدفق البحر إلى البلاد صدوراً عن المحيط، وذلك إلى أماكن لم يكن فيها بحر من قبل، وصار هذا البحر يعرف باسم البحر المتوسط، كما هو الحال في هذه الأيام، وبذلك فصل هرقل أوربا عن أفريقيا بمضيق ضيق، والآن إنه بسبب أن هذا الجبل في العربية يشبه ذلك الذي هو في اسبانيا، أطلق عليهما مع الاسم نفسه، هذا وهناك جبل آخر في صقلية، يدعى بهذا الاسم نفسه، للسبب نفسه.

وغادرنا جبل Calpis، وتركناه خلفنا، وبعدما عملنا رحلة طويلة في ذلك اليوم، وصلنا إلى القفار التي يدعوها البداءة العرب باسم مسمار Meschmar، ودخلنا هنا إلى مجرى سيل جاف جداً حيث أنزلنا حموله دوابنا، ونصبنا خيمنا، وبعد صعوبة بالغة تمكنا من جمع ما يكفي من حطب لعمل نار نستطيع أن نطبخ عليها أي شيء، وكان على يسارنا جبل مرتفع ممتد لمسافة طويلة، لكن لم يكن بعيداً عنا، وذهبت إلى هذا الجبل وحيداً راغباً في رؤية ما يمكن أن يوجد عند سفحه، وقد رأيت هناك كهوفاً كثيرة وممرات تحت سطح الأرض، تؤدي إلى قاعدة الجبل، وتصورت بأن هذه الأماكن كانت حيث حفرت المناجم في العصور القديمة، وعندما نظرت إليهم، تذكرت على الفور، كيف قرأنا بأن كثيراً من الآباء المقدسين للكنيسة قد اختاروا السكنى في بيوت مثل هذه مهجورة، كانت لعمال التعدين، ومن هؤلاء الآباء على سبيل المثال القديس هيلاريون Hilarion، والقديس بولص، الذي كان الناسك الأول، الذي أثناء قيام جيروم في رسالته بامتداد القفار قال عنه، بأنه سار مسافة طويلة في القفار إلى جبل مفرغ حيث وجد كهفاً كبيراً مغلقاً بحجارة، وعندما أزال الحجارة، رأى في داخله قاعة كبيرة ومبينة بقوة، وهي مضاعة بوساطة فتحة في الصخر، ولقد كانت هذه مكان ضرب

العملة غير القانونية التي ضربت في الأيام التي كان فيها أنطونيوس مُفتناً من قبل كليوباترا، وعلى مقربة من هذه القاعة كان هناك عدداً كبيراً من القاعات، كان فيها مقاعد(?) لابل حتى سندانات ومطارق، وذلك حيث كانوا يضربون النقود، ومثل هذا وجدت كهوف العمال القدماء في المعادن، ونظرت في هذه الكهوف بقدر ما استطعت، لكنني لم أتجرأ على الدخول إليهم، خشية أن يكون هناك مأوى لحيوانات شريرة، ولم تكن الكهوف معمولة من قبل الطبيعة في الجبل، بل محفورة بصناعة انسانية، وعندما نظرت من حولي وأنا مندهش وجدت كومة قديمة جداً من الفضلات، التي كانت عبارة عن الخبث الذي استخرج من المعادن لدى تصفيتها في النار، ولم يكن هذا الخبث فضلات حديد أو أي معدن عادي آخر، بل أفضل أنواع ذهب العربية، الذي استخرج بالحفر من هنا، ولهذا أطلق القديس جيروم في مصنفه «حول المسافات بين الأماكن» على هذه الجبال اسم *Catachrysia*، وقال بأن بني اسرائيل قد أقاموا قربهم لبعض الوقت، عندما كانوا يسكنون في القفار، وأن موسى كتب سفر التثنية هناك، ومامن شك لدي بأن الرهبان المقدسين القدماء قد بنوا لأنفسهم قلايات في هذه الكهوف، لأننا غالباً مانقرأ في «حياة الآباء» بأن القديسين سكنوا في الصحراء في كهوف رجال التعدين، وقد أخذت بعض القطع من الخبث، وجلبتهم إلى موالى الفرسان، الذين طلبوا مني منحهم هذه القطع بمثابة هدايا، لأنه كانت لهم أشكال غريبة.

يوم سفر شديد

وفي اليوم الثامن عشر، وبعد منتصف الليل ارتحلنا من قفار مسمار ومن جبال *Catachrysia* ، ووصلنا إلى منطقة كان فيها على يميننا جبال بيضاء كأنها غطيت بالثلج، وعلى يسارنا جبال حمراء كأنها صبغت بالدم، وكان وجه الأرض مغطى بألواح ناعمة من الحجارة، وكأنها

رصفت بشكل طبيعي بألواح مصقولة من الصخر الأصم، ولذلك سارت دوابنا عليهم بخوف، وذلك خشية الانزلاق، وبعد هذا صعدنا إلى رابية منحدره ثم وصلنا إلى مجرى سيل آخر، حيث توفر سير ناعم وجيد، ويبدو أن هذا المجرى كان في بعض الأوقات مليئاً حتى حافته بمياه وافرة، ومن هناك نزلنا إلى سهل، وجدنا عليه نباتات وأعشاب، وعليق أخضر، ولدى رؤيتنا لذلك سررنا كثيراً حتى أملنا أن نجد ماء هناك، على أساس أن هذه النباتات لايمكنها النمو إلا في أماكن رطبة، وسرنا بين هذه النباتات، ووجدنا أنه بالفعل قد كانت هناك مياه، لكن لا يوجد شيء منها الآن، وعلى كل حال وجدنا هذا الموضع المنعش هناك، حيث كانت أغصان وأوراق النباتات مبللة بندى الصباح، وبالنقاط التي تجمعت هناك أثناء الليل، وقام واحد من الحجاج، وكان عطشاناً، فقطع غصنا ووضع في فمه، على أمل انعاش نفسه بلعق الندى، لكن وهو يعتقد أنه يلعب ندى منعشاً، وجد فمه مليئاً بملح مذاقه حاد جداً، فأصيب بالرعب، ظاناً أن مصيبة أو كارثة قد نزلت به من عند الرب، ولذلك طلب من رفاقه الحذر من الندى، لكنه لم يقل شيئاً حول مرارته، وفي الحقيقة وجدنا نحن جميعاً بأن الندى لم يكن سوى ملح ذائب، له طعم حاد جداً، وبذلك علمنا بالخبرة بأن هذه كانت «الأرض الملحة» التي تحدث عنها إرميا (٦/١٧) حيث قال الرب للمذنب بأنه سوف يكون مثل العرعر في الصحراء، الذي له أوراق مرة مغطاة بندى ملحي.

وهكذا تابعنا سيرنا خلال هذه النباتات العرعرية، ولم نجد ماء، وفي الحقيقة كنا في ضائقة كبيرة بسبب الحاجة إلى الماء، ولهذا قمنا في هذا اليوم بفتح الجرار التي جلبناها وهي مليئة بالماء من غزة، لأنهم أخبرونا في غزة بأن الماء لن يأسن إذا ما بقي في جرار محكمة الاغلاق، وأنها يمكننا استخدام ذلك الماء وقت الحاجة، ولكن عندما فتحنا الجرار

صدرت رائحة مقببة من الماء الأسن، إلى درجة أن مامن انسان كان يمكنه أن يلمس ذلك الماء، فكيف بشربه، لابل أكثر من هذا، لم تستطع حيرنا على الرغم من عطشها الشديد، الشرب من ذلك الماء، وهكذا أرغمنا على رمي المياه التي جلبناها معنا لمسافات طويلة، عبر القفار، والتي حول حملها تخاصمنا كثيراً مع سائقي جمالنا البداءة العرب، والتي من أجلها دفعنا مبلغاً كبيراً، لأننا أملنا أننا في وقت الضيق الشديد سوف نستفيد منها، والآن وقد خاب أملنا، ولم يعد بإمكاننا تحمل العطش وقتاً أطول، دعونا كالينوس لإعطائنا ماء، ورجونا ورجونا أدلاءنا، بأن لا يجعلوا رحلتنا أطول، بل أن يقودونا خلال أي طريق جانبي في القفار، إلى أي ماء أو سباح حيث يمكننا الحصول على ماء، ووافقوا على هذا، وانحرفوا جانباً نحو اليمين، بعيداً كثيراً عن الطريق الحقيقي، فوصلنا إلى سهل قاحل تماماً، وقابلنا فوق هذا السهل قافلة، أي مجموعة من التجار المدنيين، كانوا يحملون سلعاً من البحر الأحمر، وكان هؤلاء الناس لأيام كثيرة من دون ماء ورجونا بالحاح أن نعطي كل واحد منهم شربة ماء، لأنهم كانوا على حافة الاغماء، ولذلك أعطيناهم ماكان قد بقي معنا من مائنا، لأننا كنا سنصل إلى بعض السبخ قبل المساء، وبعد ساعة من الزمن قابلنا قافلة أخرى قادمة من أطراف الشرق، ومرّ هؤلاء الناس بنا بصمت وحدقوا بنا بملامح مقطبة مكفهرة، حسبما يفعل الشرقيون والغربيون، عندما يقابل أحدهم الآخر، ولولا أن العقل يضبطهم لأنقض أحدهم على الآخر مباشرة، مثلما تفعل الكلاب المسعورة عندما تلتقي، أو الخيول الشريرة التي يجيئ أحدها الآخر بالعض.

ووصلنا ونحن نتابع سيرنا فوق هذا السهل، أخيراً إلى موضع سفوحه منحدره نحو الأسفل، ونزلنا هنا عبر هضبة طويلة متعبة، ونحن نعاني من حرارة الشمس، التي لا تحتمل ومن العطش ووصلنا

بعد لأي إلى حافة مجرى سيل عميق جداً وخيف يسمونه Hallicub، وكان مغلقاً من على جانبيه بجدارين عاليين من الصخر، وكان عميقاً وهاوية ضيقة، أن تنظر إليه تصاب بالرعب، ولم نكن نستطيع لأن نشاهد أو نسمع صوت أي ماء فيه، مع أن الوادي كله كان موائماً لأن يجري فيه نهر عظيم، وتذمرنا ضد كالينوس لأنه اقتادنا عبر مجرى سيل جاف، بعدما كان قد وعدنا بالماء، حيث لا يوجد شيء من هذا هناك، وكان كالينوس رجلاً يتكلم بشكل ناعم، فقد طمأننا، قائلاً صحيح بأن مجرى السيل ليس فيه مياه متدفقة، لكن هناك مياه راكدة في بعض الكهوف، والحفر في الصخور، والبؤر في الأرض،

وطلب منا الترحل من على ظهور حميرنا، وإعطائهم إلى سائقي الحمير، في حين نزلنا نحن في تلك الهاوية إلى مكان مامن انسان يستطيع أن يتسلق نزولاً جانبيها الصخريين، وهكذا اقتاد سائقو الحمير مع سائقي الجمال الدواب بعيداً عنا إلى بقعة مستوية على ضفتي الهاوية، وهناك أنزلوا الأثقال عنهم، وسعينا نحن نحو الحافة، نبحت عن طريق فوق الصخور، وعندما عثرنا على طريق نزلنا إلى القعر، فوجدنا ماء في كهوف وجروف الصخور، كان قد بقي هناك منذ أن كان مجرى السيل مليئاً بالماء قبل بضعة أشهر، وكان هذا الماء دافئاً، وله رائحة كثيفة جداً، وكثيفاً، مثل القار، وكان لونه أخضر، وكان موجلاً، وكان مليئاً بالعلق الذي يتكاثر في الماء الأسن، لكن طعمه لم يكن مكروهاً، ولم نعبأ بهذه السمات المنفرة للماء، وانبطحنا فوراً على صدورنا، ونضحنا الماء بأيدينا، وشربنا منه بشره كبير، دونما أدنى اهتمام أو تأبي للماء، لأن الانسان العطشان لا يهتم ولا يرى ما يشربه، بل يبادر مسرعاً إلى الشرب، وأعتقد بشكل أكيد لو ان انساناً شرب من هذا الماء لإطفاء مجرد عطش عادي، ما كان لينجو مطلقاً من التعرض لأذى شديد، لكن العطش المحرق، والعمل الشاق قبل الشرب وبعده كان يدمر كثيراً ذلك الأذى.

وبعدما ملأنا أجوافنا بالماء، وأطفأنا عطشنا، تفتحت أعيننا، فرأينا أن الماء كان قدراً مليئاً بالعلق المتحرك، لكننا كنا قد ابتلعنا كل شيء، وأوساخ وعلق، وأقدر أنني شربت مع الماء ما يزيد على مائة علقه حية، ومثلي فعل الآخرون، وهكذا صفيينا الماء من خلال قطع أقمشة وملأنا جرارنا الفارغة والروايا الجلدية، ورمينا بالعلق والفضلات الآسنة، التي من قبل شربناها بسبب اهمالنا، ولذلك صرنا خائفين على حياتنا، وانتظرنا فعل وتأثير الشراب المضر بخوف وأسف إنما بحماية الرب لم نعان من أي أذى كان، ولم نشعر بأدنى ضيق، ولو أننا وصلنا بعطشنا اللامحدود إلى ماء طازج بارد، وصافي، لسبب ذلك موتنا بدون أدنى شك، من خلال قابليتنا للشرب غير المحدودة، وأخيراً عثر أدلاؤنا هناك على طريق نحو الأسفل، فأنزلوا الجمال والحميز وسقوهم، ولم تشرب هذه الحيوانات من دون انتباه كما فعلنا، بل امتصت الماء من الأعلى، حتى لا تبتلع العلق مع الماء، وصعد بعض الحجاج نحو الأعلى وأنزلوا الأناس المرضى إلى الوادي لانعاشهم، لأن الوادي كان عميقاً وظليلاً، وبسبب الصخور الخطيرة والحجارة المفصولة المعلقة فوقه، وكان في الوادي شعراء وصفصاف، وكهوف فيها جلسنا وغسلنا رؤوسنا وأجسادنا وثيابنا ومناديلنا، ونظفنا أنفسنا من حشرة اسمها القمل، التي لم يكن واحد منا، مهما كان أصله نبيلاً، متحرراً منها وهذا القمل يشكل واحداً من المزعجات الرئيسية للمسافر في البحر أو في الصحراء، لأن القمل يتكاثر في كل لحظة بأعداد هائلة.

وغالباً مانعجب من تكاثر القمل السريع، لأنه ما أن يقوم انسان بتنظيف نفسه في إحدى الأمسيات، حتى يجد على نفسه مباشرة في المساء التالي المزيد الكثير من القمل، ومن ذوات الحجم الكبير، وكأنه لم يتفقد قميصه منذ شهر، والويل للذين شعورهم طويلة، لأنهم يحملون معهم مأوى ومكاناً لحفظ القمل، والويل أكثر للذين هم كسالى جداً حيث

لا يقومون بتنظيف أنفسهم كل ليلة، وكان هناك فارس شجاع في جماعتنا لم يلمس قملة قط باصابعه لإمساكها أو لقتلها، بل كان يأخذ دوماً حجرين، وعندما كان يرى قملة على قميصه، اعتاد أن يضع القميص على الحجرة الأولى، ويضرب القملة بالحجرة الأخرى حتى يقتلها، وكنا نضحك من هذا الفارس، ومن طريقته في قتلهم.

وبعدما فرغنا من تنظيف أنفسنا، أشعلنا ناراً في الوادي، وطبخنا طعاماً لعشائنا مع سرور عظيم، ولم نمتّع أنفسنا خلال الرحلة كلها أفضل مما عملناه هناك، وكتبت في هذا الوادي عرضاً عن الرحلة كلها من غزة إلى هذا المكان، لأنني عندما كنت أجلس على ظهر حماري كنت أكتب حول طبيعة المنطقة واتجاهات الطرق على لوح شمعي، حملته معي في جعبتي، وكتبت هنا كل ما كنت قد كتبت في كتاب، ومسحت الشمع حتى أتمكن من كتابة المزيد عليه فيما بعد، وغالباً ما كنت أترجل من على ظهر حماري، وأكتب وصف الطرقات، والجبال، والوديان، لأن مامن انسان يمكنه أن يحتفظ بهذه الأشياء جميعاً في عقله، ما لم يطم بتدوينهم كل ساعة تقريباً، وبعد العشاء نوينا امضاء الليل في الوادي، وبدأنا في اعداد الأماكن لننام تحت الصخور، لكن عندما سمع كالينوس بهذا نزل إلينا، ومنعنا من النوم هناك، مهما كان الأمر، بل جعلنا نصعد إلى أثقالنا، وبناء عليه صعدنا إلى المكان الذي كانت فيه الأثقال والدواب، ونصبنا خيمنا، وأعدنا أنفسنا للنوم، وكان اسم هذا القفر، أي السهل والوادي بالعربية الفوجيا Elphogaya.

متابعة سفرنا الأكثر انهماكاً

في اليوم التاسع عشر استيقظنا عند منتصف الليل، وارتحلنا من قفر الفوجيا، ووصلنا الآن إلى واد في غاية الوعورة، وسرنا بتعثر متابعين سفرنا في الظلام فوق الصخور والحجارة، ومع أن القمر كان مشرقاً، لم تستطع أشعته الوصول إلينا، لأن بعض الجبال كانت بينه وبيننا، وأخيراً

خرجنا من هذا الوادي، وشرعنا بصعود جبل مرتفع، وتسلقنا سائرين فوق سفح شديد الانحدار، ووعراً للغاية، وتابعنا السير على هذا الطريق المتعب حتى اشراق الشمس، وعندما أشرقت الشمس كنا قد أنهينا تسلقنا، ووصلنا إلى قطاع قاحل كان فيه سهول قاسية وواسعة، وكان اسم هذه المنطقة Rachhaym، وكانت أرض، وحجارة، وصخور هذه المنطقة حمراء، وظهروا وكأنهم فوق نار، وتابعنا السير باتجاه الجنوب، وتواجهنا مع ريح باردة، وقوية، وقارسة، ومعاكسة، لأننا كنا في منطقة مرتفعة، وليس لدينا جبال تحمينا من قوة الريح، ولذلك عانينا بألم من البرد في ذلك الصباح.

وبعدما تابعنا سفرنا لمدة ساعة أو أكثر فوق هذه الأرض المرتفعة، وصلنا إلى نهاية تلك السهول، وتلك المنطقة، التي منها يقود الطريق نزولاً عبر منحدر في غاية الوعورة والانزلاق إلى القفار في الأسفل، وعندما كنا واقفين على حافة هذه الراية، ونرتجف ونحن ننظر نحو الأرض المنخفضة البعيدة تحتنا، شرع سائقو الجبال يلقون نظرات فرحة نحونا، وأشاروا بأصابعهم إلى شيء ما في الجنوب، غير أننا لم نفهم لا كلماتهم ولا إشاراتهم، وعلى كل حال جاء كالينوس وأرانا منطقة بعيدة، جبلية مكتظة، وكانت هذه الجبال عالية جداً، وبدت بالنسبة لنا ضبابية ومظلمة بعض الشيء، لأنهم كانوا بعيدين جداً، وأشار بين هذه الجبال إلى واحد كبير جداً، ومرتفع كثيراً، كانت له قمتان، كأنهما رأسان، كان الأول بينهما أعلى بكثير من الآخر، وعندما كنا جميعاً ننظر نحو هذا الجبل قال: «انتبهوا ياسادتي الحجاج، هذا هو جبل حوريب المقدس؛ وجبل سيناء، الذي عنده سوف ينتهي حجكم المتعب».

وعندما سمعنا هذا، ترجلنا على الفور عن ظهور حميرنا، ومددنا أيدينا نحو الجبل المقدس، وصلينا إلى الرب على ركبنا، ولدى فراغنا من صلاتنا، نهضنا فرأينا شطراً كبيراً من البحر الأحمر على جهة يميننا، وبدا

لنا أن البحر الأحمر كان قريباً تماماً منا، وكأن الانسان يستطيع الوصول إليه على ظهر فرس في ست ساعات، غير أن كاليينوس أخبرنا أنه يبعد مسافة سفر ثلاثة أيام طوال، وعند لحف الجبل الذي وقفنا عليه، كان هناك سهل شاسع، كان خلفه جبال ارتفعت باستمرار حتى وصلت إلى المنطقة الجبلية الأكثر ارتفاعاً في قفار سيناء، ولدى رؤيتنا هذا كله، أحضرنا أطعمتنا من جعبنا، وتناولنا طعام الإفطار، ونحن جلوس مع بعضنا، وبعد هذا أنزلنا مرضانا من السلال من على ظهور الجمال، حتى يمشون معنا على الأقدام، وينزلون المنحدر الكبير، ولم يكونوا راضين بالقيام بذلك، ومع ذلك كان من الضروري أن يسيروا بأنفسهم، نزولاً عبر ذلك المنحدر الخطير جداً.

ونزلت الجمال أولاً مع خوف وارتجاف، وكان أحدهم يقوم بالخطوة الأولى بعد الثانية بحذر عظيم جداً، وكانوا يخشون على أنفسهم، وعلى أحماهم، وقد ساروا ببطء شديد، فبعدما كان أحدهم يقوم بالخطوة الأولى، كان ينتظر طويلاً قبل القيام بالخطوة الثانية، لأن المنحدر كان منزلقاً وخطيراً، وعندما وصلنا إلى منتصف الطريق نزولاً من هذا الممر، حدث لجمل كان يحمل على جانبه واحداً من الحجاج المرضى، وكان واحداً من خيرة جماعتنا وأكثرهم نبلاً، وكان هذا الجمل قد حمله طوال الطريق عبر الصحراء، والذي حدث هو أن هذا الجمل حاول النزول من فوق إحدى الصخور، لكنه عندما مدّ قدميه الأماميتين، بقي واقفاً على الصخرة أعلاه، وفجأة انزلق القتب من على ظهره مع جميع حمله، وصار فوق رقبة الدابة ورأسها، ثم سقط يتدحرج طوال الطريق نحو الأسفل، وقد تحطم كل شيء كان في السلتين قابلاً للتكسير، وتعرض للتلف، وكان في السلة الأولى من هاتين السلتين قوارير الأدوية، والمنعشات، والماء المقطر، فهذا كله تلف، لأن هذا الجمل قد حمل صندوق أدوية الحجاج، ولو أن اللورد المريض بقي في سلتة — وهذا

ماكان يفضل فعله— لكان قد صار مائة قطعة، ولو كان له ألف رقبة، لكانوا قد تحطموا جميعاً.

وإنه لمفيد للرجل المريض أن لايسمح له بفعل مايرغب بفعله، ذلك أن هذا الرجل قد رجانا كثيراً حتى نتركه ينزل وهو في سلته، غير أننا لم نصنع لتوسلاته بأي شكل من الأشكال، لأننا كنا نستطيع رؤية الخطر الذي منعه مرضه من رؤيته، ويعد بذل جهد كثير تمكنا من جمع الذي استطعنا العثور عليه من الأشياء التي وقعت، وأعدنا تحميل الجمل، ومن ثم تابعنا سيرنا مع حذر أكبر من ذي قبل، ومكثنا مدة خمس ساعات ونحن نبذل جهودنا نازلين وذلك قبل أن نصل إلى أرض مستوية، وعندما وصلنا أخيراً السهل الموجود عند لحف الجبل، استدرنا ونظرنا إلى الخلف إلى طرف الراية الذي نزلنا منه، لكننا لم نستطع رؤية الطريق الذي نزلنا عليه، بسبب الصخور المتقطعة، والجروف المنحدرة، والممرات المنزقة والمتعرجة، لذلك عجبنا كيف استطعنا النزول نحو الأسفل، لأنه بدا لنا تعذر النزول واستخدام مثل ذلك اللحف المنحدر بحيوانات محملة، فضلاً عن هذا تعجنا كيف استطعنا النزول سالمين من قمة الجبل، لأن القمة بدت لنا معلقة فوق الجزء الأدنى من طرف الجبل، ولذلك لا بد أننا قفزنا من قمة الجبل نحو الأسفل، أو تدلينا فنزلنا بوساطة حبال، ولقد اعترف موالي الفرسان الذين رأوا كثيراً من أجزاء العالم، أنهم لم يشاهدوا قط طريقاً بمثل هذه الخطورة.

وعندما كنا على السهل في الأسفل، بدا لنا الأمر حقيقة، أننا كنا في عالم آخر، لأن القفار هنا بدأت تظهر أنها أكثر حضارة، حيث توفرت بعض الشجيرات والنباتات، كما أنه في أماكن هناك كان يمكن للرعيان وقطعانهم، أن يعيشوا، وهنا لم يعد الندى مالحاً كما كان من قبل، بل مذاقه مذاق العسل والمن، كما سوف أتحدث من بعد، فهنا بداية أرض مدين التي تحتوي بعض القبائل، بعضها مستقر وبعضها الآخر رحل،

وسافرنا عبر السهل وكان بإمكاننا السفر في ذلك اليوم حتى الجبال، لكن إخواننا المرضى صرخوا وتذمروا بسبب التعب، ولذلك من أجلهم نصبنا خيمنا في ذلك السهل، في مكان يدعوه العرب باسم رمتاييم Ramathaim وكان يوجد في هذا المكان كهوف في الصخر، ليست كثيراً تحت الأرض، وأجلسنا أنفسنا في هذه الكهوف للاستراحة أثناء حرارة الشمس، التي خرقت خلال أقمشة الخيام وجعلت داخلها مثل أفران، ولهذا السبب امتلك المدينيون والأحباش خياماً معمولة من الجلد لرد حرارة الشمس (حقوق: ٧/٣).

وهكذا استرحنا في كهوف الصخر هناك حتى المساء، وعندما جاء المساء، جمعنا عصياً، وطبخنا طعامنا، وبعد تناول طعام العشاء، وعند غياب الشمس رغبتنا بالنوم في الكهوف، لكن كاليونس أرغمتنا على النزول إلى الأرض المنبسطة إلى خيامنا، وكان هذا السهل مليئاً بأجل الحصا، الذين كانوا براقين، وشفافين ولهم ألوان متنوعة: أسود، وأبيض، وأحمر، ورمادي، وأزرق، وأخضر بحري، وقد أعجبنا بهم، وجمعنا بعضاً منهم، ووجدنا أيضاً هناك طبقات أقدام نعامات، وهو طائر كبير يركض بين القفار، ولسوف نتحدث عن هذه الطيور وعن مظهرهم في ص ٨٣، وقد وجدنا آثارهم في أماكن أخرى من القفار.

متابعة الترحال

واستيقظنا قبل ساعتين من ضوء نهار صباح اليوم الثاني والعشرين، وغادرنا المكان المتقدم الذكر، وعندما وصلنا إلى نهاية السهل الصحراوي، دخلنا بين جبال وعرة جداً، عن طريق واد جميل وواسع، وكانت الأرض في هذا الوادي مغطاة بالأزهار والأعشاب، وانتصبت هناك أشجار شوكية عالية، كانت مزهرة آنذاك، وقد ملأت الوادي كله بأجمل الروائح وأطيبها، ولا أعتقد أنني شممت قط مثل هذه الروائح الطيبة التي صدرت عن هذه الأشجار الشوكية، لأن هذه الأشجار

لا تحمل ثماراً غير الأشواك، وكنت قد توليت في ص ١٣٠٢ وصف هذه الأشجار من قبل، عندما حدثتكم عن الممارسات الخرافية التي يقوم بها المسلمون بالنسبة لهذه الأشجار، ذلك أنهم يقلدون في كثير من القضايا أخطاء الكفار القدماء، الذين اعتادوا على تكريس أشجاراً مزهرة ونباتات أخرى من الأنواع ذوات الروائح الطيبة إلى Ham-adryads مع Dryads ربي الحدائق، والورد، والأشجار، ووفقاً لهذا أعتقد أن هذا الوادي مع أشجاره ووروده، كان مكرساً بشكل خاص إلى هذين الربين، لأن اسم هذا الوادي الذي هو Hinischenam يقترح ذلك.

والجبال التي تحيط بالجبل من الجانبين هي عالية جداً، وصخرية ولونها أحمر، وفي الأماكن التي تسقط فيها أشعة الشمس عليهم يلمعون مثل لمعان الصخور التي دهنت بالزيت، وقد عجبت من ذلك كثيراً إلى درجة أنني سرت نحو الجدار الأول من الصخر، ونظرت إليه عن بعد فرأيت أنه وكأنه مرطب مبلل بالزيت، ومع ذلك برهنت باللمس بيدي أنه لم يكن رطباً، وأن لمعان تلك الصخور كان مرده إلى نعومتها العظيمة مثلما يكون الحال مع الأحجار المصقولة.

وعند الظهيرة رأينا على قمة الجبل حيواناً ينظر نحونا، وعندما رأيناه خيل إلينا أنه كان جملاً، غير أننا تساءلنا كيف يمكن لجمال أن يعيش وحده هناك، وتحول السؤال بيننا إلى هل هناك جمال وحشية، لكن كالينوس جاء وقال بأن ذلك الحيوان هو وحيد القرن، فضلاً عن هذا أشار إلى قرن واحد نابت على جبينه، وحدقنا برغبة صادقة نحو هذا الحيوان الفخم جداً، وغضبنا لأنه لم يكن قريباً منا حتى نراه عن قرب، وهذا الحيوان متفرد في كثير من الجوانب، فهو في المقام الأول — كما يقولون — حيوان حاد جداً، وله قرن قائم في وسط جبينه، وأربعة أرجل طويلة، وهو حاد وقوي إلى حد أن كل شيء ينطحه إما أن يطوح

به في الهواء، أو يتولى خرقه من وسطه (كذا) ويلقي به على الصخور، وقرنه يلمع بشكل عجيب، ويعدّ عظم ذلك القرن باهظ الثمن وثميناً مثل الحجارة الكريمة، ويوضع في الذهب والفضة [٤٠] وهو قوي إلى حد أنه لا يمكن انتزاعه بأية وسيلة من وسائل القوة، وذلك من قبل الذين يصطادونه، وقد قيل من قبل كتّاب حول التاريخ الطبيعي أنهم يضعون عذراء شابة على طريقه، وهي تقوم بالكشف عن صدرها وهو يركض نحوها، وأن ذلك يفقده كل حدته، ويضع رأسه (في حضنها) وبذلك يمسك، وبعد تجريده من قواه وقوائمه، يؤخذ للذبح بسكاكين الصيادين، وإذا ما أمسك حياً، لا يمكن الاحتفاظ به ضد إرادته، وإذا ماربط بشدة يموت فوراً لشدة غضبه، لأنه حيوان لا يمكن ترويضه، وهو قوي إلى حد أن قوة الرب في الكتابات المقدسة (العدد: ٢٣/ ٢٢) شبهت بقواه، وكذلك ورد الأمر نفسه في أيوب: ٩/ ٣٩ على صيغة سؤال نصه: «أيرضى الوحيد القرن أن تربطه برباطه في التلم؟» الخ، وذكر داوود أيضاً في مزاميره الوحيد القرن اطراء وهجاء، وهو حيوان ضخّم، له جسد حصان، وأقدام فيل، وذنب خنزير، ولونه لون خشب البقس، وخواره مرعب، وهو يشن الحرب ضد الفيل، ويتغلب عليه بنطحه بقرنه في الأجزاء الناعمة من جسده، وكما قيل هو يظهر احتراماً غريباً للعذاري.

وقد أحضر بومبي الكبير وحيد قرن إلى روما للعرض، فهذا ما أورده أليروتوس في كتابه عن الحيوانات، ولذلك توقفنا طويلاً عند سفح الجبل الذي وقف الحيوان عليه، وبدا لنا أن النظر إليه أمر مفرح بالنسبة لنا، وكذلك مشاهدنا بالنسبة له، لأن الحيوان وقف دونما حراك، ولم يهرب حتى بعد مغادرتنا له.

وبعدما مضينا على طريقنا رأينا راعياً يقود قطيعه عند لحف الجبل، وكان هذا أمراً رائعاً بأعيننا، لأننا منذ مدة طويلة لم نر انساناً ولا حيواناً

مدجناً، ووصلنا بعد هذا إلى مكان أدركنا أن البداءة العرب لا بد قد أقاموا فيه مؤخراً، لأن بعض الأكواخ من الأغصان كانت ماتزال قائمة، وكان بعضها مايزال يحترق، وكانت النيران مشتعلة تماماً هناك، لذلك خفنا من أنهم سوف يلقوننا في مكان ما، وهذا ماوقع لنا بالفعل، كما سوف نتحدث عن ذلك في مكانه، ومع حلول المساء دخلنا إلى القفر الذي اسمه Schoyle، ونصبنا خيامنا في واد كبير، وبقينا نحرس طوال الليل بعناية أكبر مما هو معتاد، خشية أن ينقض البداءة العرب علينا بشكل مفاجئ.

ترحال يوم شاق خلال القفار

وفي اليوم الحادي والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس متى الرسول والانجيلي، والذي كان الأحد السادس عشر بعد الثلاثين، غادرنا Schoyle في الصباح الباكر، وسرنا عبر واد جيد، كان على جانبينا صخور وجبال عالية، وكانت هذه الجبال غريبة ورائعة بأشكالها، وكأنها كانت مكلفة بشجر البرقوق، بينما الأرض في الأسفل كانت طينية ومعشوشبة ومن الممكن بسهولة فهم أشكال هذه الجبال من الحكاية الشعرية التالية، التي تفترض بأن الجبال الداخلية قد وجدت قبل صنع الجبال الخارجية، وتمضي الحكاية لتقول بأن ديانا ربة الجبال، وصائدة وحيد القرن، وحامية الطرق، قدمت من شواطئ البحر الأحمر في أرض مدين، وكانت راكبة لعربة ثمينة جداً، يجرها وعول بيضاء، ومضت نحو أعلى الجبال، التي كان القدماء يسمونها الحدائق، والتي بعد منح الشريعة إلى موسى صار اسمها حوريب وسيناء، وقد أرادت أن تصطاد هناك، وعندما وصلت إلى موضع هذا الوادي الذي لم يكن آنذاك وادياً، توقفت الوعول التي كانت تجر عربتها عن سيرها، لأنهم غطسوا بالأرض، لأن الأرض كانت موحلة، مشكلة من صلصال سميك دبق، فيه توقفت الوعول والعربة عن التحرك،

ولدى رؤية ديانا لذلك دعت هرقل للقدوم إلى مساعدتها، فجمع على الفور تيتانه Titans ، وأمرهم بالطاعة أوامر ديانا، وبما أنها كانت حامي الطرق والجبال أمرت الطين الذي غطى وجه الأرض، بأن يتجمع على شكل أكوام، وأن تقف كل كومة من هذه الأكوام على قمة واحدة أخرى على الجانبين من الطريق، وذلك قبل الوقت الذي شوتهم فيه حرارة الشمس وحولتهم إلى صخور، وعلى هذا اعتاد هؤلاء التيتان على حمل جبال تجمعت على شكل أكوام، ثم كدست الأكوام كلها على الطرفين قبل أن يقسو هؤلاء ويتحجروا بوساطة الشمس، والذي حدث هو أن الأكوام السفلى ضُغَطَ عليها بالأكوام التي هي فوقها، فتسطحت بسبب وزنها، وبناء عليه فإن الطبقة الدنيا منهم هي الأكثر انتشاراً بينهم، والطبقة الثانية هي الأقل تسطحاً، ثم ان الثالثة أقل منها، وهكذا حتى نصل إلى القمة، حيث واضح أن الكتل والقطع باقية كما هي لم تتغير، وعلى هذه الشاكلة بدا الطريق وكتل الجبال إلى جانب الطريق قد تشكلوا، لأن هذه الجبال ليست معمولة من تجمع لكتل من الصخور، مثل الجبال الصخرية الأخرى، بل من كتل من الصلصال الأرضي الترابي، التي لم تكن في البداية جافة أو مشوية، لكن من بعد ذلك صارت قاسية، وهكذا نستطيع من خلال هذه الحكاية تتبع أصول شكل هذه الجبال.

وفيا نحن سائرون على طول هذا الوادي، رأينا حشداً كبيراً من الناس من رجال ونساء وأطفال، مع جمال، وحمير، وخيول، كانوا جميعاً وقوفاً عند سفح الجبل على استعداد لاستقبالنا، وعندما اقتربنا منهم، ركض رجالهم نحو الأمام لملاقاتنا مع صرخات غاضبة وحركات، وانقضوا أولاً على الجمال، وأنزلوا من عليهم الأثقال، وخلال ثورتهم وعنفهم مزقوا واحداً من أكياس البقساط، ونثروا البقساط على الأرض، في حين بدأت نساؤهم وأطفالهم بالتقاطهم، علاوة على ذلك،

عاملنا سائقو جمالنا بسوء وغش، فقد ساعد بعضهم البداية العرب على سلب أشياء من الجمال، وبما أن أدلاءنا لم يهتموا بصراخنا، وكانت حاجياتنا تتناثر فوق الأرض، ركضنا نحو الأمام وانتزعنا بقوة أكياس البقسماط من أيديهم، واتخذنا موقفاً صارماً منهم وأظهرنا غضبنا نحوهم، وعندما شاهدوا ذلك أوقفوا عنفهم، واستداروا نحو كاليينوس الذي أزعجوه بقسوة متناهية، وأفترض أنهم انقضوا عليه لأنه سمح لنا بمقاومتهم، وجمعنا الأشياء التي انتزعت من الجمال، ووقفنا حولها مع أسلحتنا بأيدينا لحراستها، ومع ذلك لم نتوقف عن منح البقسماط إلى النساء والأطفال الذين قدموا إلينا وحذرنا كاليينوس من أن نكون متعنتين، بل ينبغي جمع مبلغ مامن بيننا، بحيث يسهم فيه كل حاج بدفع مبلغ مندوس أو مندوسين، وعندما نجمع هذا المبلغ نعطيهم إياه كخفارة، وقد تصرفنا هكذا وعلنا اتفاقاً مع مقدمهم مقابل عدد من المندوسات، وبعدما دفعنا هذا المبلغ، سمحوا لنا بمتابعة سيرنا على طريقنا، لكن بعض الشباب بقيوا معنا حتى جبل سيناء.

وبعد رحلة طويلة خلال ذلك الوادي، وصلنا إلى نهاية الوادي، وعبرنا ثانية إلى سهل فسيح، يوجد على جانبه الآخر جذور الجبال، التي كان بينها جبل سيناء المقدس، وسرنا عبر هذا السهل نحو الجبال التي كانت قائمة في مواجهتنا، ودخلنا إلى واد، عملنا فيه استدارات إلى هنا وإلى هناك، فقد كنا ساعة على هذا الجانب وساعة أخرى على الجانب الآخر، وذلك تبعاً لتعرجات الوادي ومنحنياته، وجرى اقتيادنا جانباً بعيداً عن الممر المستقيم نحو الجبل المقدس، وعبرنا ودياناً بدت وكأنها تقود إليه مباشرة، لأن جبل سيناء وقف مباشرة إلى الجنوب منا، ولكن بما أن الوادي اعترض طريقنا، ارتحلنا مسيرين الوديان المتعرجة، الآن نحو الشرق، وبعد قليل نحو الشمال، وأحياناً نحو الغرب، مما أزعجنا كثيراً، بسبب أننا رأينا أحياناً جبل سيناء يقف تماماً خلفنا.

ووصلنا حوالى الظهيرة إلى مكان حيث انحرف الوادي وعمل استدارة أخرى نحو الجنوب، وخلفنا هنا الجبال المرتفعة خلفنا، ورأينا قمة جبل سيناء أكثر وضوحاً، فوق قمم الجبال الأخرى، وفي الحقيقة يوجد في قفار سيناء مناطق مدهشة، هي في غاية الارتفاع وجبال حادة القمم، وبعدما سرنا مسافة قصيرة، ونحن مسرورين، باتجاه الجبل المقدس، تركنا الوادي الذي يقود نحو الجنوب، والذي بدا بأنه يقود نحو سفحه مباشرة، وقمنا ونحن نتبع أدلاءنا، فانعطفنا إلى جانب وادي يقود نحو الشمال، وبذلك أدركنا ظهورنا لجبل سيناء للمرة الثانية، وقد تابعتنا سيرنا على طريقنا ونحن نتذمر، وكنا غير راضين تماماً، ولقد تردد بين الحجاج بأن البداءة العرب الذين كانوا يتولون سوق جمالنا، اقتادونا عن عمد عبر هذه الممرات الملتوية في القفار، في محاولة منهم لإنهاكنا، حتى ندفع لهم مالاً، من أجل الذهاب عبر الطريق الأقصر.

وفي الحقيقة ابتعدوا عن الوادي الذي بدا بأنه يقود نحو البقعة المرغوب بها، ونزلوا إلى وديان قادت نحو الاتجاه المعاكس، ولذلك فإن الحجاج الذين شعروا بأنهم خدعوا وتوجسوا بأنهم اقتيدوا عن عمد بعيداً عن طريقهم ثاروا، ولعنوا كالينوس، ولعنوا الأدلاء، هذا من جهة ومن جهة أخرى قال بعض الحجاج، بأن هذا لم يكن تصرفاً صحيحاً، وأنه ليس هناك خدعة حول القضية، ووجه هؤلاء اللوم إلى الذين ثاروا من أجل الشتائم، وبناء عليه تخاصم اثنان من الفرسان أحدهما مع الآخر، وشرعا يتبادلان الشتائم ولغة قذرة، وقد لعن أحدهما الآخر، وأصبح هذان الفارسان غاضبين إلى حد أنها ترجلا عن حمليهما، وامتشقا سيفيهما وخطا أحدهما نحو الآخر خطوات مع تسديد رأسي السيفين كل واحد نحو الآخر، وكان كل واحد من الفارسين بارع في المدافعة، ومنع بذلك كل واحد منهما الآخر من طعنه بسيفه، وعندما رأى بقية الحجاج هذا ركضوا وسعوا للفصل بينهما، لكن مامن واحد

تجراً على الاقتراب منهما خوفاً على جلده، لأن كل واحد منهما كان غاضباً جداً، ولوحا بسيفيهما من دون حذر، وركض البداية العرب الذين كانوا معنا نحوهما، ومع أنهم كانوا عراة، وضعوا — دونها خوف — أنفسهم بينهما، ووقفوا تحت سيفيهما، وبهذه الوسيلة انتهت المشاجرة، لأن مامن واحد منهما كان بإمكانه طعن الآخر، من دون أن يجرح الأبرياء العرب، ولولا أنه تمّ الفصل بينهما بهذه الطريقة، لكان أحدهما، أو كلاهما، قد هلكا، ومركز البداية العرب على هذه الصورة أنفسهم ووضعوها في هذا الخطر العظيم، ليس بسبب شجاعتهم، بل بسبب مبادئ إيمانهم..... لأنهم يعتقدون أن ساعة موت كل انسان وشكل ذلك محددة من قبل الله، وأن هذه الساعة لا يمكن تقديمها أو تأخيرها، حتى وان ضرب انسان نفسه بالسيف ليموت، أو رمى نفسه من شاهق إلى مكان منحدر لتدمير ذاته، وهم يعتقدون أنهم لا يمكن أن يموتوا، ولا يمكن أن يقتلوا إذا لم تكن ساعتهم المقررة، ولذلك يمضون إلى القتال من دون دروع واقية للجسد.

وبعد الفصل بين هذين، استطعنا بعد صعوبة أن نقنعهما بأن يقسما بالمحافظة على السلام في الوقت الحالي، وقد أقسما بالحفاظ على السلام حتى الوصول إلى القاهرة، لأن الملك السلطان موجود هناك مع قضاته، وأنهما يرغبان بالمثول أمامهم، والخضوع لحكمهم، وعانينا أثناء ذلك القتال من خوف رهيب، لأنه لوجرح أحدهما الآخر لهبّ رفاقه إلى مساعدته، ولانقضوا على الآخرين، وكان رفاق الآخر سيقفون إلى جانبه مساندين له، لأننا كنا مقسمين إلى ثلاث مجموعات، كما تحدث عن ذلك من قبل، علاوة على ذلك، كان سيلقى بنا في السجن، ومن ثم المثول أمام السلطان بسبب خرقنا جواز الأمان المعطى إلينا، وهكذا مضى كاليانوس إلى المتنازعين، وأمرهما بالحفاظ على السلام باسم السلطان، لكنهما لم يباليا، لأن القضية كانت معلومة أمام الناس جميعاً.

وعندما انتهى هذا الشجار، سرنا مسافة طويلة، ونحن مديرين لظهورنا إلى الجبل المقدس، لأن كاليئوسس مع البداية العرب أخبرونا بأننا لن نتمكن من الوصول إلى سفح جبل سيناء، من خلال أي وادي، باستثناء واحد، علينا أن نشق طريقنا نحوه، وهو الوادي، الذي ذهب من خلاله آباؤنا من بني إسرائيل، إلى الجبل المقدس، وبعدما سرنا مسافة طويلة، انعطف الوادي نحو الجنوب، أي إلى الجبل المقدس، وسرنا على طريقنا ونحن مسرورين، لأن جبل سيناء بات أمام أعيننا، وعند غياب الشمس وصلنا إلى سهل شاسع، محاط من كل جانب بجبال عالية، وكان شكل هذا السهل مستديراً في وسط الجبال، وكانت التربة معشوشبة وجميلة جداً، وكان في وسط السهل كثيراً من الصخور والحجارة المنبعثة من الأرض في مكان واحد، مشكلة بذلك جبلاً صغيراً، ونصبنا عند سفح هذه الجروف والشعاب خيمنا، وقررنا إمضاء الليل هناك، وكان اسم هذه المنطقة والسهل بالعربية Machasea، وكان السهل محاطاً بالجبال إلى حد أننا لم نستطع أن نرى أي طريق للخروج منه، كما أننا لم نتمكن من رؤية الطريق الذي جئنا عبره، وفي هذا الطريق أطعم موسى قطعان يثرو (شعيب) الذي كان ختته، والذي عنه قرأنا في سفر الخروج: ٤، ومن هناك قاد قطيعه إلى الجانب الخلفي من الصحراء، وإلى سفح جبل سيناء، الأمر الذي لم يتجرأ أي راع قبله على فعله، بل كانوا يقيمون جميعاً في الخارج، في هذا المكان، أو في مكان آخر بين الوديان، كما سوف أحدثكم.

وعلى الجبل المجاور لنا، أشار أدلاؤنا ودلونا على مكان بين الصخور، موائم للإنسان ليقف عليه، حيث من هناك مشهد عبر السهل كله، ويقال بأنه هنا قد اعتاد موسى على الجلوس عندما كان يطعم قطعان يثرو، كاهن مدين، ولكي نفهم هذا بشكل أوضح، علينا أن نعرف بأن مدين كانت مدينة على شاطئ البحر حتى الأحمر، ومن اسمها عرفت

المنطقة كلها الممتدة من شاطئ البحر القفار باسم مدين، وفي هذه المدينة عاش رئيس المنطقة، وكان يعرف باسم كاهن مدين، وكان الكاهن في أيام موسى هو يثرو، وكان أيضاً يعرف باسم رعوثيل، وسيفوس Civeus و أوباب Obab ، وإلى هذا الرئيس إلتجأ موسى عندما هرب من مصر (الخروج: ٢)، وبما أن موسى خدمه بشكل جيد، أعطاه احدي بناته زوجة له، وجعله راعياً لقطعانه من الأغنام، التي كانت شيئاً عظيماً، لأن ثروة الناس كلها في القديم تمثلت بقطعانهم وأسراهم.

وأقام موسى مع قطعان الأغنام في الأماكن المعشوشبة من القفار، مثل التي توفرت في وديان قفار سيناء، وكان هو وبقية الرعيان يترددون على هذا الوادي أكثر من سواه، لأنه كان واسعاً، وجيداً لإطعام الأغنام، وقد رعى أغنامه هناك لسنوات كثيرة، وكان من وقت لآخر يذهب إلى المدينة، التي كانت بعيدة، وذلك لرؤية زوجته، لكن في القسط الأكبر من السنة كان في القفار مع الأغنام، مثلما يفعل رعاة البقر (في بلادنا) الذين يسكنون في الألب، فيبقون معهم قسطاً كبيراً من السنة، وكان هذا السهل يشكل التخم بالنسبة للمراعي، ومامن راعي تجرأ على أن يقود قطيعه خلفه نحو جبل سيناء، لأن الذي كان رائجاً بشكل عام بأن هذا كان جبل الرب، وأن الرب قد سكن فيه، ولذلك مامن انسان كان يتجرأ على الاقتراب منه، خاصة وأن بعض الذين دخلوا إلى هناك، لم يشاهدوا بعد ذلك وماتوا فيه.

ومن هذا واضح أنه من قبل أيام موسى كان هذا الموضع مع الجبل محل تقدير، إنما مع كثير من أوهام الكفار واعتاد بعضهم بأن يقول بأن أرباب الجبال قد اتخذوا هناك حدائق جعلوها مكاناً للالتقاء فيه، ولم يكونوا يسمحون لأي انسان حي بالحضور معهم، ولهذا أطلق الأرباب على هذه الجبال اسم الحدائق، وقال آخرون بأن هذا الجبل كان مقدساً

لدى أبولو الذي كان راعي قطيع أدमितوس Admetus ملك ثيسالي Thessaly، وعمل رباً للحكمة، واعتاد آخرون على عبادة موبسوس Mopsus هناك، الذي كانت له السلطة في سهول Grynean، والذي اعتاد بعد موته على إعطاء الهواتف في الهيكل الذي بني هناك.

إنما موسى، لكونه مؤمناً حقاً، كانت لديه آراء أخرى حول هذا الجبل، وفي الحقيقة كان رجلاً عظيم الحكمة، وكان الأول الذي أعطى اليهود أبجدية، التي منها اشتق الفينيقيون أبجديتهم، ومن الفينيقيين تلقى الاغريق أبجديتهم، كما تعلمنا من الفيلسوف يوبوليوس upolius الذي أعلن أنه هو الذي اخترع أسلحة الحرب، وأعطى الأبجدية إلى الكهنة المصريين، وكان رجلاً عظيم القدر بين المصريين، حتى أنهم اتخذوه مثل الاله ميركوري، علاوة على ذلك لقد وصف مظهره قائلاً بأنه كان رجلاً طويلاً، له بشرة شقراء، وشعر شائب، وكان شعره طويلاً وكذلك لحيته، وعبر في وجهه وشكله عن جلالته لا يمكن وصفها.

وكان هذا الرجل العظيم، بعدما طرد من مصر — كما سلف وقلنا —، يقوم برعي القطعان في هذا المكان، وهنا غالباً ماجرى تحريضه — بدون شك من قبل الروح القدس — ودفعه للدخول إلى الجزء الأقصى الداخلي من القفار، وهكذا قام في وقت كان محدوداً من قبل الرب بقيادة قطيعه إلى قلب المكان هناك، حتى سفح الجبل المقدس، كما سنوضح ذلك في مكانه، وهكذا نمنا في الخارج تلك الليلة، ناوين أن ندخل في الغد مثلما دخل موسى.

مقال لاهوتي حول المن الذي وجدناه

وفي اليوم الثاني والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس موريس ورفاقه، استيقظنا مبكراً جداً، وحملنا دوابنا، وتبعنا نجمة القديسة

كاترين، العذراء المباركة، التي بدت قائمة على مقربة منا، وسرنا نحو جدار الجبل، الذي كنا مطوقين من قبله، وعندما وصلنا إلى هذا الجدار الصخري، وجدنا فجاً ضيقاً في الصخر، أعطانا مدخلاً، ومن خلال هذا الفج عبر موسى مع قطيعه إلى الأجزاء الداخلية القصوى من القفار، وكان من الصعب على جمل محمل المرور من خلال هذا الممر الضيق، وعندما أصبحنا في الداخل، دخلنا إلى سهل آخر، جميل جداً، يوجد فيه عشب، ونباتات وشجيرات، وهنا أنعشنا أنفسنا بالندى المتساقط، الذي كان أحلى من العسل، ويختلف اختلافاً كلياً عن الندى الذي تذوقناه في اليوم الثامن عشر، كما ذكرنا من قبل، ذلك أن الندى الذي يتساقط هناك حول تلك الأماكن المقدسة يرينا كم كان حلواً مذاق المن الذي أعطي هناك إلى البطارقة، وفي هذه الأيام يتساقط المن، أو ندى المن، حول جبل سيناء لمدة شهرين هما: آب، وأيلول، ويقوم البداءة العرب بجمع هذا المن، ويبيعونه للحجاج، ورأيت أنا شخصياً هذا المن وأكلت منه، وقال فنستوس في مصنفه *Speculum Naturale* — الكتاب الخامس، الفصل: ٨٥، بأن المن هو ندى يتساقط فوق الأوراق أو الحجارة، وهو كثيف مثل العسل، ويغدو جافاً مثل الصمغ، ثم يصبح قاسياً وبعد ذلك يجري جمعه، وفي الشرق يتساقط في الليل، لكن بما أنه يعثر عليه بكميات قليلة، يغش كثيراً، وعندما يكون نقياً، وليس ممزوجاً مع أشياء أخرى، تكون رائحته طيبة جداً، ويكون ثميناً، ولونه أقرب إلى البياض، وأحلى من أي شيء آخر في العالم، وهو حلوى طيبة جداً، ويقال بأنه من النوع نفسه الذي عاش عليه العبرانيين في القفار لمدة أربعين سنة، وتشكل ذلك المن بمعجزة ربانية، ولذلك فإن شكله وطعمه قد تغير وصار مالحاً، أما بالنسبة لهذا المن الطبيعي فإنه يتساقط أدنى من المن الاعجازي، على أساس أن المن الطبيعي لايتوفر كل ليلة، أو كل موسم من مواسم السنة، بينما كان يتم العثور على الآخر كل صباح، حيثما كان شعب الرب مقيماً، ومثل هذا هو موجود

في بعض مناطق بلاد الاغريق.

وفينا يتعلق بالمن الذي أعطي إلى بني اسرائيل، نقرأ في سفر الخروج: ١٦-١٤: « وفي الصباح كان سقيط الندى حول المحلة. ولما ارتفع سقيط الندى إذ على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور، دقيق كالجليد على الأرض»، ومعنى هذا النص أن الجليد سقط فوق الأرض، ثم تبع ذلك سقوط المن عليه، وبعد ذلك تجمد بعض الندى عليه، وعلى هذا الأساس كان المن بالفعل موجوداً بين طبقتين، مخزوناً بذلك بشكل نقي بين غلافين، الغلاف الأول هو الجليد، والغلاف الثاني هو الندى، لكن الندى الذي يتم العثور عليه في هذه الأيام لا يغطي وجه الأرض، إنما يتعلق فوق أوراق النباتات، وعلى رؤوس الأحجار، مثل الندى المعتاد وليس له طعم حلاوة الحلوى نفسها، بل إنه يحصل على الحلاوة من طبيعة النباتات، أو الأعشاب، أو الحجارة التي عليها يتساقط.

واعتماد القدماء على أن يقولوا بأن الندى هو ابن القمر والهواء، ويتساقط الندى بشكل غير مرئي، فينعش الأرض، ويجعلها خصبة، وهو حلو وشفاف، وقليل من الحرّ يجفّفه، ويسبب الندى المتساقط الخصوبة، وعندما تحمله النحلات إلى خلاياها يتحول إلى عسل حلو، وعندما يتساقط في الأصداغ البحرية يتحول إلى لآلئ ثمينة، وهكذا مصصنا في ذلك الصباح، الندى الحلو للقفار مع الشعور بالسرور، وعندما صرنا في دير القديسة كاترين اشترينا منّا، لكن وجدناه قد تعرض لكثير من الغش والتزييف، وذلك حسب تصوري مما قد قيل، وفي الحقيقة لا قينا النصيب نفسه الذي لا قيناه مع المن هنا مع البلسم فيما بعد.

وبعدما عبرنا خلال الفج الضيق المتقدم ذكره، وصلنا إلى واد فسيح، مليء بنباتات طيبة الرائحة، وكان هذا الوادي مطوقاً بصخور عالية جداً، ذات لون أحمر، ففي هذا الوادي وفي أحوازه المحيطة بجبل سيناء،

سكن بنو اسرائيل، في خيم وأكواخ وفقاً لأسباطهم ولأسرهم، وذلك في الوقت الذي كان فيه موسى مع الرب في الجبل، وهذه مسألة سوف أتوسع حولها كثيراً في ص ٨٣ ظ.

وسرنا لبضع ساعات نحو الشرق، وتخلينا أخيراً عن السير في ذلك الاتجاه، وانعطفنا نحو الجنوب، ودخلنا إلى واد آخر كبير وجميل، وبعيداً عنا وأمامنا، رأينا جداراً جبلياً عالياً جداً ومرعباً مكوناً من الصخر، ويتجاهه تسلقنا، وتساءلنا في أي مكان سوف نخرج من ذلك الوادي، لأنه لم يوجد أمامنا، كما أننا لم نشاهد على أي من الجانبين من حولنا أي ممر يقودنا إلى خارجه، والذي رأيناه أنفسنا فقط محصورين من قبل جدران جبلية صخرية وعالية جداً، وعندما وصلنا تقريباً إلى الجدار الجبلي الكبير الذي وقف أمامنا، فجأة ظهر أمامنا فج في الجبل على يميننا، ممتد من القمة إلى القعر، من خلاله، وليس من خلال طريق آخر، هناك طريق يقود إلى سفح الجبل المقدس، ولذلك سرنا عبر هذا الطريق الضيق، ووجدناه وعراً جداً للسير عليه، ومرعباً للحمير وللجمال، وبعدما سرنا قليلاً خلال هذا الممر وعندما أخذ الوادي يتسع قليلاً، رأينا أبنية، ومساكن بشرية، وكنيسة لها شكل مستطيل، وقد كانت دير القديسة كاترين، العذراء المباركة جداً، وما عرف باسم كنيسة ومصلى العذراء مريم المباركة، عند العليقة، وذلك عند سفح جبل سيناء العظيم القداسة، وعندما رأينا هذا كله ترجلنا من على ظهور حميرنا، وجثونا بسرور عظيم على ركبنا، وتعبداً نحو المكان، ففي المكان نفسه الذي يقوم عليه الدير، رأى موسى المعجزة المشهورة، وهي الأجمة (العليقة) التي كانت تحترق من دون أن تتأذى أوراقها الخضراء وثمارها، ولم تتعرض أغصانها التي كانت تحمل ثماراً مطلقاً للخدش بالنار، مع أن لهيب النار كان حاداً وسريعاً.

ووقفت العليقة المدهشة في المكان الذي يقوم فيه الآن مزار القديسة

مريم عند العليقة، عند رأس الكنيسة، وكان موسى عندما شاهد هذا عجب وقال: «أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العليقة، فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه»، وهكذا إلى آخر ما نقرأه في سفر الخروج: ٣/٣-٤.

وسرنا مسرعين من هذا المكان خلف الجبال والحمير، وذلك باتجاه الدير، وعندما وصلنا إلى الدكة الواسعة أمام باب الدير، وجدنا كثيراً من البداة العرب يجلسون هناك مسلحين وفق طرائقهم، وخرج هؤلاء الناس مرغمين من القفار بسبب الجوع، وأجبروا على الذهاب إلى الدير من أجل لقيات من الخبز، وعندما رأيناهم بتنا خائفين جداً، وخشينا من أن نبتلى بهم أمام باب الدير، كما أن كثيراً من البداة العرب قد ذهبوا معنا، وكانوا قد لحقوا بجماعتنا في القفار.

وبناء عليه أنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا، وجمعنا أثقالنا في مكان واحد، ووقفنا من حول حقائبنا، خشية من اللصوص الذين كنا بحضرتهم، فقد خفنا من أن يستولوا على أي شيء منا، وعندما سمع الرهبان بحضورنا، وبوجودنا هناك، قدم بعضهم ورحبوا بنا بلطف، كما أنهم ساعدونا في حمل جميع حقائبنا إلى الداخل، أي إلى بيت الضيوف، وكان في بيت الضيوف كثيراً من القلايات الفارغة، عليها وزعنا أنفسنا، وذلك تبعاً لتوزيع جماعاتنا، فضلاً عن ذلك كانت هناك بيعة للطقوس اللاتينية وفيها مذبح، وهنا، بما أن الظهيرة لم تكن قد مضت قام واحد من الحجاج بقراءة قداس لنا، أصغينا إليه بخشوع، واشترينا بعد القداس حطباً للنار من الرهبان، لنطبخ به، وطبخنا وأكلنا بعض الطعام الذي جلبناه معنا من الأرض المقدسة، وتمددنا بعد هذا للاستراحة، وعندما انتهت استراحتنا، ذهبنا إلى كنيسة القديسة كاترين، وإلى مصلى القديسة مريم عند العليقة، وزرنا أماكن مقدسة أخرى، سوف أتولى وصفها في أماكنها، وبعدما قمنا بهذا كله، أقمنا في داخل الدير وعلى

أرضه ولم نذهب إلى خارج الأسوار في ذلك اليوم.

الاضطراب الذي ألم بالحجاج

وكنا في اليوم الثالث والعشرين مستعدين للصعود إلى جبال: سيناء، وحوريب، والقديسة كاترين، ولكن إخواننا المرضى سألونا انتظارهم حتى الغد، حتى يكونوا قد استردوا قواهم، وأن يكونوا قادرين على الصعود معنا، وأصغينا إلى توسلهم، ويصبر بقينا مرتاحين، وحدث أنه بعد تناول طعام الغداء، أن زرنا ثمانية الأماكن المقدسة في الدير، حتى تتمكن الحصول على غفرانات(+) وتجولنا في جميع جهات الدير، ورأينا كل طرف من أطرافه.

ومع حلول المساء، وصل واحد من المقدمين العرب، وكان رئيساً للصوم الصحراء، وقد قدم ومعه كثير من الأتباع المسلحين، ودخل إلى الدير، وعسكر مع رجاله قرب أماكن إقامتنا، حيث راقبوا دخولنا وخروجنا، ذلك أنهم قدموا بسبينا، علّهم يستخرجون مكوسهم غير العادلة منا، وقد أزعجنا هذا كثيراً، وأغضبنا، وألقى ظلالاً على سرورنا، لأنه لم يعد بإمكاننا العبور من أماكن إقامتنا إلى كنيسة القديسة كاترين، لأن البداية العرب جلسوا في الساحة ليلاً ونهاراً، وراقبونا عن قرب لدى صعودنا ونزولنا من على السلام، كما أننا لم نستطع الذهاب إلى البئر للحصول على الماء إلا بالمرور من وسطهم، ولم يفعلوا شيئاً لنا، إن كان خيراً أو شراً، كما أنهم لم يصرخوا علينا، ومع ذلك كان جلوسهم هناك مزعجاً لنا.

وعندما اقترب ميقات العشاء، طبخنا طعاماً من أجل عشائنا، وكذلك من أجل غدائنا في اليوم المقبل، حسبما اعتدنا أن نفعل في القفار، لأنه في الغد لن يتوفر لدينا وقت نقوم به بطبخ طعام الغداء، كما سوف نرى.

كيف صعد الحجاج إلى جبل حوريب وسيناء المقدس، وكيف
وقعت لهم حوادث متفرقة وهم على طريقهم أثناء صعودهم،
مع وصف للجبل وللطريق

استيقظنا في اليوم الرابع والعشرين قبل شروق الشمس، وأقمنا
قداسات في البيعة اللاتينية، وبعد انتهاء هذه القداسات، جاء راهب،
هو الحافظ لمقدسات الدير، واسمه نيقوديموس، جاء ليقودنا لدى
الصعود إلى الجبال المقدسة، وقام باستعراض جميع الحجاج، ونظر إلى
كل واحد منهم عن قرب، ولم يسمح مطلقاً للذين نظر إليهم على أنهم
مرضى بالانطلاق معنا، لأنه قال بأن الممر شديد الانحدار وشديد
الانهك، ولذلك بقي بعض الحجاج المرضى خلفنا، لكن بعضهم—
وإن كانوا مرضى— رفضوا جميعاً البقاء والتخلف، وحملنا مزاول طعامنا
مع طعامنا، وقوارير مليئة بالخمرة، وجراراً من الماء، تكفيها لمدة يومين،
وأعطيناهم إلى سائقي حميرنا لحملهم، لأنهم كانوا على استعداد للذهاب
معنا، والقيام بخدمتنا.

ولدى فراغنا من هذه الاستعدادات، اقتادنا الراهب نيقوديموس إلى
خارج الدير من خلال الباب الذي دخلنا منه، وسرنا باتجاه الجنوب
عند لحف الجبل المقدس لسيناء وحوريب، والذي على جانبه هناك
جرى بناء الدير، وفي الحقيقة لهذا الجبل المقدس اسمين هما: لقد عرف
من الدير حتى بيعة القديس إلياس باسم سيناء، ومن هناك حتى القمة
عرف باسم حوريب، وجرى منح هذين الاسمين له، وفقاً لما تمّ عمله
هناك، فلأن الوصايا والشريعة قد أعطيت هناك، أطلق عليه اسم «
سيناء»، أي «العقيدة»، وكذلك لأن الرب ظهر هناك في نار ودخان،
وكان الجبل كله فوق نار ودخان مثل أتون، كما قرأنا في سفر
الخروج: ١٩، فقد أطلق عليه اسم حوريب، أو خوريب، أي «حرارة».

ولدى شروعا بتسلق الجبل المقدس، وعندما كنا سائرين بصمت،

ووقار وخشوع، تفجر نزاع وصراخ، وخصام، بين سائقي حميرنا الذين حملوا أثقالنا، والبداة العرب الذي رافقونا، حيث لم يسمح البداة العرب لسائقي حميرنا بخدمتنا بل قالوا بأن هذا اختصاصهم، وعليهم تقديم هذه الخدمات، وذلك مثلما قالوا بأن جواز الأمان والخفارات من أجل عبور الصحراء، واقعة في منطقتهم، وهكذا بذل البداة العرب جهودهم من أجل الحصول على حقائبنا، ورفض الآخرون اعطاءهم إياها والتخلي عنها، ونظرا لقيام هذا الاضطراب ووصوله إلى هذا الحد، أخذنا بأنفسنا حقائبنا، ورفضنا اعطاءها لأي فريق منهما، بل وضعناها على أكتافنا، واستدرنا، وعدنا على خطانا نحو الدير، لإنهاء ذلك الخلاف بمساعدة كالينوس، وراعي الدير، ومقدم البداة العرب، وذلك حتى نتمكن من صعود الجبل بسلام، وعندما شاهد البداة العرب مع سائقي الحمير ذلك، صاروا أصدقاء مع بعضهم بعضاً، ووعدوا أن سيكونوا هادئين، وسيحافظوا على السلام، ورجونا بعدم العودة إلى الدير فقط، وأخذوا الأثقال ثانية منا، ومضوا من دون أي ازعاج.

وعندما صعدنا إلى الأماكن المنحدرة، ووصلنا إلى الجزء الأعلى من الجبل، فإن الحجاج المرضى أغمي عليهم، ولم يعد بإمكانهم متابعة الصعود، لذلك أعيدها مباشرة إلى الدير، وتابعنا التسلق، وصعدنا على الدرجات الحجرية، التي عملها الرهبان هناك، ومن دونها لا يمكن لانسان الصعود إلى الأعلى، بسبب شدة انحدار طرف الجبل، والجدران الصخرية العالية، وكان هناك في هذا المكان فج مظلم وخيف في الجبل، في وسطه هناك درجات للصعود عليها مع وجود جروف على كلا الجانبين، لذلك مامن انسان كان يستطيع السير على تلك الدرجات على قدميه، بل توجب عليه التسلق بوساطة قدميه ويديه، وذلك مثلما تسلق يوناثان على يديه وقدميه كما جاء في سفر صموئيل الأول: ١٣/١٤، وأثناء صعودنا نحو الأعلى، وصلنا هناك إلى نبع ماء عذب، تفجر في

البداية هناك بوساطة معجزة، سببها سوف أحدثكم عنه بعد قليل، ومع أننا كنا مانزال صائمين، شربنا من النبع، لأننا كنا لتعبنا نتصبب عرقاً، وكنا عطاشى.

وفي أثناء متابعتنا للسير في الفج صعوذاً في الجبل، وذلك عبر طريق وعر للغاية وكثير الحجارة، وصلنا إلى بيعة شرفت بحمل اسم مريم المباركة، والتي بنيت عقب ماسوف نتحدث عنه فيما يلي، وكان هناك واحد من رهبان الدير يسكن إلى جانبها في كوخ مائل في مواجهة البيعة، وقد فتح الباب لنا، وعندما كنا داخلين إلى البيعة، حدثنا دليلنا الراهب نيقوديموس بالحكاية التالية، حول أصل النبع والبيعة، وكان يتحدث باللغة الإيطالية: حدث فيما مضى من زمان أن الأفاعي والثعابين، والعلاجيم، ومخلوقات سامة أخرى، ازدادت وتضاعفت في داخل الدير، ومن حوله إلى درجة أن الرهبان لم يعد بإمكانهم العيش هناك، بل قرروا هجر المكان، وترك الدير، ونقل أنفسهم إلى بقعة آمنة ونظيفة، وبناء عليه، دعا راعي الدير في اليوم المحدد جميع الرهبان إلى الاجتماع، وأمرهم بالقيام بمسيرة وقورة وخاشعة إلى جبل سيناء المقدس، وبعد انتهاء المسيرة إلى الجبل المقدس، أومى بأنه سوف يرتحل من ذلك المكان، ولذلك حملوا صلبانهم، وآثارهم المقدسة، وصعدوا وهم يغنون الترانيم إلى الجبل المقدس، حتى القمة، حيث تسلم موسى الشريعة والألواح من يد الرب.

وبعدما قبلوا الأماكن المقدسة وهم ييكون، نزلوا بوضع حزين، لأنهم كانوا كارهين ترك المكان ومغادرة الجبل المقدس، وهو ماكانوا عازمين على فعله والمضي من هناك في اليوم التالي، وهم يحملون معهم جميع أثاث الدير، لأنهم طردوا من هناك بسبب الضرورات التي تقدم ذكرها، وعندما كانوا على طريقهم نازلين، وصلوا إلى المكان الذي تقوم فيه البيعة الآن، وفجأة تفجر ضوء عظيم، وظهرت لهم العذراء المجيدة،

الأم العذبة للرب، بجلال، وأمرتهم بعدم مغادرة المكان الذي هو عظيم القداسة، ووعدتهم بأنهم سوف يكونوا بأمان، واختفت، واطمأن الرهبان بهذه الرؤيا، وتابعوا النزول، لكنهم تعرضوا إلى اغواء مؤلم، وأن مارأوه كان مجرد وهم، ولذلك عندما وصلوا إلى هذا المكان، حيث مكان النبع، حيث لم تكن هناك مياه، توقفوا، وصلوا للرب بخشوع عظيم، وسألوه إذا كانت الرؤيا صحيحة ليتلطف ويمنحهم علامة على ذلك، وحدثت معجزة، ففي أثناء صلاتهم، تفجر نبع ماء عذب من الصخر الأصم إلى جانبهم، حيث لم يكن هناك أثر يمكن أن يرى لماء هناك، وقد سبب ذلك لهم سروراً عظيماً أثناء صلاتهم، وهذا النبع لم يتوقف من ذلك الحين حتى هذا اليوم عن الجريان، وأثناء تدفق المياه من بين الصخور نراها تمنح الراحة للذين يصعدون الجبل أو ينزلون منه، وبعدما تلقى الرهبان هذه العلامة، نزلوا فرحين، فوجدوا الدير كله والمنطقة كلها من حوله قد تنظفت من الهوام، التي لم تكتف فقط بالفرار بعيداً في ذلك الحين، بل إنها لم تقارب المكان حتى هذا الوقت، وفي الحقيقة إذا ماظهر ثعبان في الخارج، فإنه يموت بمجرد اقترابه من الأسوار.

وبعدما حدثنا الراهب نيقوديموس بهذه الحكاية، حمدنا الرب، ودخلنا إلى البيعة، حيث سلمنا على مريم العذراء الطاهرة، وحصلنا على غفرانات(+) لمدة سبع سنوات، حيث تلونا الأغنيات التجاوبية، والترانيم الجماعية، وجمعنا ما هو معيناً في كتب مسيرات الأرض المقدسة.

وغادرنا هذا المكان أخيراً، وتسلقنا نحو الأعلى مع كثير من التعب، حتى وصلنا إلى قنطرة حجرية، ممتدة من طرف الهوة الأول إلى الطرف الآخر، وهي منحنية تشبه بوابة، ومعمولة من حجارة مربعة قديمة جداً من حيث البناء والعمل، ولا يوجد أي طريق نحو الأعلى، إلا من خلال هذه البوابة، التي ينقصها أبواب، وعلمنا هنا بشكل مؤكد وصحيح أن

مامن يهودي يمكنه المرور من خلال هذه البوابة، وهو أمر، قالوا بأنه غالباً مات بهنت صحته، لأن الذي يحدث إما بسبب رعب أو بسبب معجزة، عندما يصلون إلى هنا يصدون ويطردون حتى وإن حاولوا التموهية يجري كشفهم، وهم يتشوقون برغبة عارمة لرؤية المكان الذي جرى فيه منح شريعتهم، وذلك مثلما نتشوق نحن لرؤية مكان صلب معطي شريعتنا، لكنهم يقفون تحت هذه البوابة مقصرين، ومتيسين، ثم يغمى عليهم، ويرتجفون، ويجري طردهم بوساطة معجزة سماوية.

وقد حدث قبل بضع سنوات مضت أن يهودياً غير من شكل ملابسه، وأخفى يهوديته، والتحق بجماعة من الحجاج المسيحيين، وقد ارتحل معهم عبر القفار حتى هذا المكان، وعندما عبر الحجاج الذين مضوا قبله خلال البوابة، لحق بهم حتى المكان نفسه، لكنه لم يستطع المتابعة ووقف دوناً حراك، وعندما سأله عن الذي حدث معه، ولماذا لم يدخل، أجابهم بدموع وتنهيدات عميقة: «أيها الحجاج، وبالإخوتي، إنني أراه مصلوباً فوق القوس، ولا يسمح لي بالدخول، وهو محق بهذا، فأنا لأسفي، أعترف بأنني يهودي، وأنا حتى هذا الوقت كنت دوماً عدواً للمسيح المصلوب، وقد موهت نفسي على أنني حاج مسيحي، من أجل أن أقوم هنا بتقديس موسى، معطي شريعتنا، غير أنني أرى بوضوح أنني لا أستطيع الوصول إلى موسى إلا من خلال الذي صلب، وبناء عليه إنني من الآن فصاعداً، أؤمن بالمسيح المصلوب، وأعد بأنني سوف أتعمد، ذلك أنني أرغب في أن أموت مسيحياً» وما أن فرغ من التفوه بهذه الكلمات حتى اختفى الصليب، ودخل مع الآخرين دوناً معيق، وهو يمجد الرب، وتلقى بعد هذا العمد وقص على كل من قابله ما حدث معه، وكان ذلك بمثابة شهادة ضد عمى اليهود، ومنذ ذلك الحين مامن يهودي قد غامر بالصعود، وفي الحقيقة لو أنهم كانوا قادرين على الجواز بدون عوائق، لتوفر دوماً حجاج يهود هناك.

وسرنا من هذه البوابة مسافة لا بأس بها، فوصلنا إلى بوابة أخرى، إلى جانب البوابة المتقدم ذكرها، وعبرنا خلال هذه البوابة، فوصلنا إلى سهل رائع، الذي يشكل نهاية امتداد جبل سيناء، ومن هذا السهل، ينبعث منتصباً هناك جبلاً مستديراً وعالياً، صخرياً كله، هو الذي اسمه جبل حوريب، ويطلق في بعض الأحيان اسم حوريب، على الجبل كله، أي الجزء الأسفل وكذلك الجزء الأعلى، ويقال في بعض الأحيان للجزء الأعلى، صخرة حوريب، بسبب وعورة هذا الجزء وكثرة صخوره.

وهكذا بعدما عبرنا من خلال البوابة، مضينا عبر السهل المعشوشب، القائم هناك بيننا وبين حوريب، لأن السهل ينحدر انحداراً كبيراً، ويصل إلى كنيسة كبيرة وجميلة، فهناك ثلاث بيع كلها متصلة ببعضها، وهي محاطة بسور واحد، والبيعة الأولى هي بيعة القديسة ماريينا، والبيعة الثانية هي بيعة النبي المقدس الإشع، والثالثة هي بيعة النبي المقدس إيليا، والمدخل هو من خلال باب صغير ومنخفض، ومن خلال البوابة المنخفضة، دخلنا إلى بيعة العذراء القديسة ماريينا، حيث انكببنا بأنفسنا نحو الأرض، وقرأنا الصلوات المحددة، من كتاب المسيرات، وحصلنا على غفرانات(+).

وهناك حكاية بديعة حول هذه العذراء المقدسة في «حياة الآباء». تحدثت كيف أنها عاشت لسنوات طويلة في دير الرهبان، دون أن تكتشف بأنها كانت امرأة، وكيف أنها بصبر تحملت الملامة لأنها أغويت وهي فتاة، وكيف أنها تابت توبة قاسية جداً بسبب هذه الخطيئة، وكأنها كانت مذنبة، وهناك أنها أيامها، وقد أصبحت فيما بعد مشهورة، وعملت معجزات رائعة، ولقد اعتقد أنها جديرة ببيعة هنا في هذا المكان الأعظم قداسة.

ثم إننا دخلنا إلى بيعة النبي المقدس الإشع، وغنينا الصلوات المحددة، وحصلنا على غفرانات(+)، وعندما كان الإشع هذا حياً عمل معجزات

عظيمة جداً، وعندما كان ميتاً أقام رجلاً ميتاً وبعثه إلى الحياة، كما قرأنا في سفر الملوك الثاني: ١٣/٢١، ومن المعتقد أنه غالباً ما زار هذا الجبل المقدس، تقليداً لإيليا معلمه، ذلك أنه كان تلميذه، وأخبرنا أيضاً بأن إيليا قد حمل ورفع في عربة نارية، وكما قرأنا أيضاً في سفر الملوك الثاني: ١١/٢، بأن الشيع ذهب إلى هذا المكان، وبحث عنه، ظاناً بأنه قد حمل إلى هنا، أو أنه طلب من أناس البحث عنه هنا، كما قرأنا في سفر الملوك الثاني: ١٧/٢.

ودخلنا بعد هذا إلى البيعة الثالثة، وهي بيعة إيليا، حيث قرأنا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات مزدوجة(++)، ففي البيعة، وأعنى في كهفه، الموجود خلف المذبح، وهو الكهف الذي سكن فيه إيليا، أكثر أنبياء الرب حماسة وغيره، وقد جاء سكناه بعدما أنجز ذلك العمل المتميز جداً في اقناع أنبياء بعل، وقتل أربعمائة وسبعين رجلاً، الذين ذبحهم إلى جانب جدول قيشون، كما قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٨، وكان عندما علمت ايزابل، تلك المرأة الشريرة جداً بهذا، أقسمت بأنها سوف تقطع رأس إيليا، ولذلك خاف وهرب عبر القفار، واختبأ في هذا الكهف، ووردت حكاية النبي إيليا هذه بالتفاصيل في سفر الملوك الأول: ١٩، وكهف إيليا عبارة عن مغارة ضيقة في الصخر، فيها لا يمكن لانسان أن يقف قائماً منتصباً، بل يمكنه الوقوف مستنداً أو الجثو، أو الجلوس.

وبعد فراغنا من رؤية هذه الأشياء، خرجنا من الكنيسة، ونظرنا فوقها، فوجدنا معلق فوقها صخرة عظيمة مستديرة، حيث تحدثت الحكاية بأن الغراب الذي جلب الطعام إلى إيليا اعتاد على الوقوف فوق هذه الحجر، واعتاد إيليا على الخروج من الكهف، والتسلق إلى هاهنا وأخذ الطعام، لأن الرب اعتاد أن يتدبر تأمين حاجيات نبيه المقدس بوساطة الغربان، حسبما قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٧/٦ قوله:»

وكانت الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباحاً، وبخبز ولحم مساءً.

وغادرنا هذا المكان، وتابعنا سيرنا، فتسلقنا إلى حوريب، الذي هو جبل الرب، ويوجد على مقربة من المر صخرة كبيرة، مكسرة إلى قطع، وهي مقطوعة من صخرة كبيرة موجودة في الأعلى، كانت قد سقطت نحو الأسفل، وهي تشكل عقبة على الطريق الذي يقود نحو الأعلى، حيث بات على الانسان بسبب هذه الكتلة الصخرية أن يستدير من حولها، وهم يقولون بأن هذه الصخرة قد تحطمت وانفصمت في أيام النبي ايليا، عندما أمره الرب بالخروج من الكهف، وعندما كان واقفاً بحضرة الرب: «رأى الرب عابراً، وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور» [الملوك الأول: ١٩ / ١١]، وفي الحقيقة يوجد إلى جانب هذا الشطر من الجبل تصدع كبير في الصخور، وصخور مقلوبة عاليها سافلها، ومن الواضح أن هذا قد حدث، على مشهد من ايليا، ليس فقط أمام عقله، بل أمام ناظره الجسديين أيضاً، ولذلك قال مصنف *Speculum Naturale* بأن هذه العلامات الثلاث التالية هي التي لم يكن الرب فيها حاضراً، ومع ذلك كانوا جميعاً حقيقة مادية، أولاهن: الريح القوية جداً، التي شقت الصخور، وثانيهما: الزلزلة التي قلبت الجبال، وثالثهما: النار العظيمة التي أحرقت الصخور والتهمتها، والآثار المربعة لهذه العاصفة، من الممكن مشاهدتها حتى هذا اليوم.

وتسلقنا خلال هذه الحجارة المكسورة، وأزحنا بعض الصخور مع كثير من التعب والتعرق، ووصلنا تقريباً إلى قمة الجبل، عندما وجدنا تحت القمة، على رقبة الجبل، صخرة فيها نقرة وهذه النقرة هي التي ورد الحديث عنها في سفر الخروج: ٣٣، فعندما كان موسى يتحدث مع الرب، رغب في أن يرى وجه الرب، ومجد الرب، لكن الرب قال له: «لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الانسان لا يراني ويعيش»، وقال الرب له: «هوذا عندي مكان، فتقف على الصخرة، ويكون متى اجتاز مجدي

أنى أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز»، ولذلك صدوراً عن التقوى وضعنا جميعاً أنفسنا في النقرة، حيث مدد الرب موسى على معدته، وفي تقليد منا للنبي لوينا أنفسنا بصعوبة في هذه النقرة، والنقرة عالية قليلاً فوق الأرض، ومنخفضة وليست مرتفعة، ولذلك يمكن لانسان واقف فوق الأرض أن يمد ذراعيه ورأسه نحو داخلها، وإذا ما أراد أن يدخل صدره إلى النقرة، عليه أن يرفع نفسه قليلاً فوق الأرض، وبذلك يمكنه أن يضع ذراعيه، وصدره ورأسه في الحقيقة فيها، لكن ساقيه مع الأجزاء الخلفية من جسده، تبقى معلقة في الخارج حتى سرتة، وهكذا يجلس الانسان وكأنه بين حجري طاحون، لأنه يجلس وهو مستند حتى معدته على الصخرة في الأسفل، وتلمس الصخرة الموجودة في الأعلى ظهره، وإذا ما اختار انسان يمكنه أن يضع نفسه جميعاً في النقرة، لأنها عميقة، لكنني لا أستطيع أن أرى كيف يمكنه أن يخرج ثانية من دون مساعدة، ووجود انسان آخر يشده ويخرجه، لأنه لا يمكنه أن يحرك نفسه نحو الخلف مثل السرطان، لأنه يكون معاقاً عن التحرك بوجود الصخرة التي فوق والأخرى التي هي تحت، يضاف إلى ذلك لا يوجد متسع لأمامه ولاخلفه، لأنه لا يوجد مكاناً يستطيع أن يتحرك فيه ومن ثم اخراج رأسه أولاً، وتبعاً للأخبار الدينية، هذه هي النقرة في الصخرة التي وضع الرب فيها موسى ليرى الأجزاء الخلفية من الرب، وإذا ما أراد أي واحد أن يعرف ماهو وجه الرب وما هي الأجزاء الخلفية للرب، يمكنه العودة إلى ماكتبه نيقولا دي ليرا حول هذا النص.

وعندما أردنا فحص هذه النقرة، صعدنا حتى القمة العليا لهذا الجبل الأعظم قداسة، وذلك فوق الصخرة حيث توجد الصخرة المتقدم ذكرها، فهذه هي الصخرة التي أمر الرب موسى أن يقف عليها (الخروج: ٣٣) قائلاً: «هوذا عندي مكان، فتقف على الصخرة»،

فعلى هذه الصخرة قد بنيت بيعة في هذه الأيام، واسمها كنيسة القديس المخلص، وهي مغلقة بثبات بوساطة باب معدني، وهي قائمة فوق المكان الذي تسلم فيه النبي المقدس موسى الوصايا وقد كتبت باصبع الرب فوق لوحين حجريين، وعندما وقف موسى وحده مع الرب فوق قمة الجبل، حسبما جاء في سفر الخروج: ٣٤، أعطيت الشريعة له، وكان ذلك في السنة ١٤١٥ قبل ميلاد الرب.

وعندما قام الراهب نيقوديموس، الذي رافقنا من الدير بفتح باب البيعة، خلعنا أحذيتنا، ودخلنا حفاة احتراماً منا لقداسة المكان، وكما هو متوجب انكبنا بأنفسنا نحو الأرض بخشوع خاص، وقبلنا المكان الذي عليه تلقى موسى الشريعة وتسلمها من يد الرب، وهذا المكان معلم بحجرتين، وبعدما قرأنا الصلوات المحددة في مسيرات الأرض المقدسة، حصلنا على غفرانات مطلقة، وبعدما تفوهنا بصلاتنا ذهبنا إلى السدة، وسرنا من حول المذبح، ونظرنا متفحصين إلى المكان بخشوع عظيم وبسرور كبير، وغالباً ما قبلنا أماكن خطوات الملائكة الذي ظهروا هناك إلى موسى، ورآهم بأشكال جسدية مشاهدة، ومثل ذلك قبلنا أماكن خطوات النبي المقدس موسى، وكما قلت هناك حجرتين عند مدخل السدة، وهما تغطيان موضعي الخطوات المقدسة، ففي المكان الأول وقف الملاك، وفي المكان الثاني جثا موسى وطوى ركبتيه، فهناك حجرتين من الرخام الأبيض موضوعتين في البلاط، وقد قيل بأنه تحت هاتين الحجرتين من الممكن حتى الآن رؤية علامات ركبتي موسى على الصخرة.

وبعد رؤيتنا لهذه الأشياء، خرجنا من الكنيسة، ولبسنا أحذيتنا مجدداً، وسرنا نازلين قليلاً، مايقارب خمس عشرة خطوة، إلى جانب البيعة، ودخلنا إلى كهف تشكل بوساطة الصخرة المعلقة من فوق، وهنا انكبنا بأنفسنا نحسو الأرض، وتفوهنا بالصلوات المحددة، وحصلنا على

غفرانات(+)، ففي هذا الكهف أقام موسى عندما لم يرغب الرب في عقد مؤتمر معه، وصام هنا لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، حتى يكون جديراً باستلام شريعة الرب، وهذا الكهف واسع وكبير، وليس فيه ضوء إلا ما يأتي من المدخل، وهو موائم للسكنى لراهب متأمل، ومقابل الكهف موضع مرتفع بني عليه مسجد، وإلى جانبه جلس كثير من المسلمين، كانوا مثلنا أنفسنا قد تسلقوا الجبل في سبيل زيارة المكان المقدس، وفي الحقيقة يقوم بداءة عرب، ومصريون، ومسلمون، وأتراك بالحج إلى هنا من أماكن نائية في العالم، صدوراً عن الاحترام لموسى، فباستثناء اليهود يتدفق الناس من جميع الديانات والطوائف، مع بعضهم إلى هذا المكان، ولا يستطيع اليهود الصعود، حتى وإن استطاعوا، فإن الشعوب لن يسمحوا لهم، بأي حال من الأحوال، بالدخول، هذا ولا يتحمل المسيحيون وجودهم معهم، والصلاة هناك بجوارهم.

علاوة على ذلك، يوجد على هذا الجبل بئر كبير، يحتوي على ماء جيد، وبارد، وصحي، لكن لم يتمكن من الحصول على أي من هذا الماء، لأن البئر كان عميقاً جداً، ولم يكن معنا شيئاً ننضح به الماء، وهم يطلقون على هذا البئر اسم جب موسى، لأنه منه شرب، لكن هذا لا يتوافق مع الكتابات المقدسة، التي تقول بأنه صام هناك.

وتجولنا حول قمة الجبل، وتفحصنا كل شيء هناك، وقد شاهدنا خرائب كبيرة لأسوار قديمة كانت من حولها، ومن المعتقد أنه كان هناك دير، كله قد خرب باستثناء كنيسة، إلى جانبها يقيم دوما اثنان من رهبان دير القديسة كاترين بشكل مستمر.

وهذا الجبل متميز في أن الجزء الأعلى منه مستدير، وليس متصلاً بالجبال الأخرى، وهو ليس أعلى من الجبال الأخرى، لكنه قائم بذاته، وأكبر صعوبة في التسلق، ويوجد من الدير إلى قمة الجبل حوالي سبعة آلاف خطوة، ليس فيها الأماكن التي يصعد الإنسان إليها، ليس

بالخطوات بل بوساطة درجات سلام، ويوجد من هذا الجبل مشهد للمناطق النائية، لكن هذه المناطق من الممكن رؤيتها بوضوح أكبر، من جبل القديسة كاترين، ولسوف أتحدث عن هذه المناطق أثناء وصفي لهذا المكان، ووصف الجبل المقدس واضح مما قد قيل، أما ما يتعلق بإطرائه وقداسته فمن الممكن جمعها من كثير من المواضع من الكتابات المقدسة القانونية، من ذلك على سبيل المثال من سفر الخروج: ٣، ١٩، و٢٠، ومن سفر التثنية: ٥، حيث ورد الخبر بأن الجبل احترق بنار وصلت حتى السموات، وكذلك من خلال التوراه، والمزامير والأنبياء، فمن هذه الأماكن كلها علمنا بأن جبل حوريب من سيناء هو جبل رائع جداً ومرتفع، وأنه جبل مسكون من قبل الرب، وتتردد الملائكة عليه، وهو جبل الضياء، والنار، والاحتراق، وهو جبل غيوم مخيفة وظلام، وكذلك جبل حكمة وتعلم، وأيضاً جبل رحمة ووعد، وصلاح ولعنة، وجبل أبواق وصراخ وضجة، وجبل لطف وتحالف، وجبل شفقة وعدالة ومساواة، وقبل قربان وصلاة، وجبل خصب، وجبل رؤيا وتأمل.

وعندما فرغنا من رؤية جميع الأماكن المقدسة على هذا الجبل، جلسنا وتناولنا الطعام، حيث أكلنا وشربنا ما كنا قد جلبناه معنا، وبقينا لمدة تزيد على الساعة فوق الجبل المقدس، لأننا احتجنا إلى ثلاث ساعات للوصول من الدير إلى قمة الجبل، وبعدما عملنا هناك كل ماتوجب علينا عمله على الجبل المقدس، أعددنا أنفسنا للأعمال المتبقية، وانطلقنا على طريقنا كما يلي.

متابعة الحج

نزول الحجاج من جبل حوريب، وصعود بعض الحجاج إلى جبل القديسة كاترين

وبعدما تناولنا طعامنا، وأرحنا أنفسنا لوقت قصير، نزلنا من الجانب الغربي من الجبل، عبر طريق منحدر وخطير، وخيف وكثير الشعاب، إلى حد أننا أرغمنا في بعض الأحيان بأن ندع أنفسنا ننزلق نحو الأسفل عبر صخور منحدر، وذلك بالانبطاح على أمعائنا، وغالباً ما اصطدمنا أثناء نزولنا برؤوس صخور، كانت معلقة فوق عمر ضيق، حيث إذا ما انزلت، كان معنى ذلك الموت، لأنه كان في الأسفل جدراناً عالية من الصخر، أية خطوة خاطئة عندها كانت ستسبب سقوط الانسان في وديان مرعبة، وأخيراً وصلنا إلى دير عرف باسم دير «الأربعين قديساً»، حيث دخلنا إلى الكنيسة وصلينا، وحصلنا على غفرانات (+)، وفي ذلك الوقت جلب لنا اثنان من رهبان دير القديسة كاترين، كانا مقيمان هناك، تيناً، وتمرّاً جافاً، وماء، بهم أنعشنا أنفسنا.

وبعد هذا، لم يكن الوقت قد وصل إلى الظهيرة، لذلك جلسنا وتناقشنا: هل سنصعد جبل القديسة كاترين أيضاً في ذلك اليوم نفسه، أونستريح حتى الغد، وقد توصلنا إلى قرار هو أن الشباب والرجال الأقوياء منا، وكل من يرغب، يقومون بالصعود إليها وقتها، وأن يعودوا بعد زيارة المكان، قبل غياب الشمس، في حين يستفيد الحجاج الأسن والأضعف من برد الصباح من أجل القيام بصعودهم، وقام عشرة من الحجاج الأقوياء، واستعدوا للقيام بالصعود في الحر الشديد، وأسماءهم كما يلي: اللورد جون، كونت سولس، وهو فارس، واللورد هري أوف سكومبيرغ وهو فارس، واللورد سغسموند أوف مارسباخ، وهو فارس، واللورد كاسبر أوف سيكولي، وهو فارس، والمعلم

لازينوس، وهو رئيس شمامسة وقانوني كنيسة ترانسلفانيا في هنغاريا، والراهب فيلكس من أولم، من طائفة القديس دومينيك، والأب باولوس غوغلنغر من طائفة الفرنسيسكان، والراهب توماس، وهو راهب علماني من الطائفة نفسها، وخادمين للكونت، اسميهما: جون، وكونراد، وقد رافق هؤلاء بعض البداة العرب، وقد شرعوا بتسلق الممر الشديد الانحدار، صعوداً إلى جبل القديسة كاترين.

وصعدنا إلى الجبل عبر ممر طويل، ووعر، وخلال وديان بلاعمرات، وفوق جروف منحدر، وفوق حجارة معلقة، وصخور خفيفة، وطرق منحدر مرعبة وشعاب صخرية، تحت شمس محرقة جداً، ووجدنا على كل حال ماواسانا، وتمثل ذلك بنبعين لمياه باردة، على طريقنا صعوداً، وعندهما أنعشنا أنفسنا، وغلب واحد من الفرسان بالعمل الشاق، ووقع كلياً، وجلس في واحد من الأماكن الشديدة الانحدار، عاجزاً عن متابعة صعوده، وكنا قد تجاوزنا أكثر من منتصف الطريق، وكان بإمكاننا رؤية قمة الجبل، ومع ذلك قد بقي طريق طويل أمامنا، وبناء عليه عندما رأى الفارس الضعيف أنه لن يكون بإمكانه الوصول إلى القمة، رجانا بمتابعة الصعود، وأن ندعه ينتظرنا لوحده، وكانت إجابتنا لذلك تشجيعه وإرغامه أن يمشي قليلاً بعد نحو الأعلى، ولكن عندما رأيناه قد سقط مراراً من أيدينا على الأرض وكأنه بدون وعي، ربطنا منشفة طويلة حول حقويه، بها جرّه بعضنا، في حين أمسك آخرون بيديه، وشدوه بذراعيه، ووقف آخرون خلفه ودفعوه صعوداً، وبناء عليه عملنا عملاً رائعاً، وبذلنا جهوداً كبيرة مع ذلك الحاج، وأخيراً وصلنا بعون الرب إلى قمة جبل سيناء، إلى الضريح الملائكي للقديسة كاترين، العذراء الأعظم مباركة، وانكبينا هنا أرضاً، وبخشوع قبلنا المكان الذي إليه جلبت الملائكة جسدها المقدس، وحصلنا على غفرانات (+)، وغنينا أولاً القداست المعينة في مسيرات الأرض

المقدسة، وجلسنا بعد الصلاة، وبدأنا نتحرق رغبة إلى خبز وماء، وقد رغب كل رجل منا لو أن معه سلته وقارورته.

ولست أدري لأي سبب، أنني وحدي كان معي سلة مليئة بالقسماط، وبيض مسلوق، ولحم مدخن، وجبنة، وكنت قد جلبت ذلك لي وحدي، في حين ترك الآخرون جميع زادهم مع الحجاج الذين بقيوا في الأسفل، وبدأ واحد منهم يرجوني منحه قطعة من اللحم، وآخر قطعة من الخبز، وثالث لقمة من الخبز والجبن، وطلب مني آخرون جرعة من الخمرة، وعندما رأيت هذا دهشت، ولم أعط شيئاً لأي واحد منهم، بل أخذت سلتي وصبيت ماكان فيها على صخرة مقعرة كانت ملاصقة لنا، وذلك في المكان الذي وضع فيه رأس القديسة كاترين فيما مضى، وهكذا قمت بأريحية بدعوة النبلاء والحجاج قائلًا: «اعلموا ياسادتي إنه قضي بالحكمة الإلهية، بأن تكونوا هنا جميعاً ضيوفاً، وأن أكون وحدي مسؤولاً عن تكميلكم، الأمر الذي أنا على استعداد للقيام به، حيثما أنا قادر على تقديم ضيافة جيدة لكم، لأنه في هذا البيت، وفي هذه القاعة، وفي هذا الفراش، أقامت ونامت لمدة تزيد على الثلاثين سنة، بعد آلامها، القديسة كاترين، أحب الطاهرات إليّ، التي خطبت إليّ، من بين جميع الفتيات الثمينات جداً لمملكة السماء، وقد كان هذا في يوم عيد هذه العذراء من عام ١٤٥٢، فصدوراً عن حبها تخلّيت عن الدنيا، ولبست رداء الرهبان المبشرين، وبعد مضي سنوات، قمت في اليوم نفسه بالاعتراف بشكل علني مهيب بالطاعة (إلى هذه الطائفة)، وبذلك ربطت نفسي بشكل أبدي بخدمة الرب وبخدمة هذه العذراء وبناء عليه، أقبلوا أنتم جميعاً الذين هنا، وكلوا بسرور»، وعند هذه الدعوة أقبلوا جميعاً، وأكلوا بسرور كل ماكان لدينا، وفي وليمتي هذه، كان هنالك كوئنتات، وفرسان، وكهنة، ورهبان، فضلاً عن ذلك كان هناك رجال علمانيون: مسيحي هرطقي، وبداءة عرب، ومسلمون،

أكلوا جميعاً مما كان في السلة، وكانت هناك كميات وافرة من الخمرة، بسبب أن الحجاج الآخرين قد جلبوا قواريرهم، إنما كانت هناك حاجة إلى الماء.

وعندما رأى ذلك واحداً من البداة العرب من ضيوفنا، أخذ جره، ولم يركض، بل انزلق نحو الأسفل من طرف الجبل، وبعد وقت قصير عاد، وهو يحمل جرة مليئة بالماء الطازج، جلبه من واحد من الينابيع لم يكن معروفاً بالنسبة لنا، وبناء عليه مزجنا خمرتنا بالماء، وعندما أكملنا تماماً أكل جميع طعامنا حتى أصغر لقمة، وفرغنا من شرابنا، أنهينا وجبتنا، ولم يحدث قط خلال حجبنا كله أن فرغت حقيتي تماماً، وصارت نظيفة مثلما حدث في هذا المكان، وفي الوقت نفسه بدأت الشمس تميل نحو الغروب، وأنذرنا البداة العرب للقيام بالنزول قبل غيابها، ولذلك نهضنا وركضنا مسرعين نحو الأسفل، والتحقنا برفاقنا بعد الغياب مباشرة عند دير الأربعين قديساً، وفيما يتعلق بوصف الجبل، وبطبيعة الأرض، فسوف تظهر فيما يلي:

صعود جبل القديسة كاترين

وفي الخامس والعشرين، استيقظنا قبل ضوء النهار، ونهضنا من فوق الأرض التي تمددنا عليها في الهواء الطلق، في ساحة الدير، عازمين على تسلق الجبل للمرة الثانية، مع جميع اخواننا الذين بقيوا خلفنا في اليوم المتقدم، وعلى كل حال بقي الجزء الأكبر من الذين صعدوا في اليوم المتقدم دونها حراك، وأخذنا معنا خدماً من البداة العرب، وسائقي حمير، أعطيناهم حقائب أطعمة وجرار ماء لحملها، وتبعنا دليلنا الراهب نيقوديموس، بخطوات لطيفة تقديراً منا لمرضانا والضعفاء منا، ويقود الطريق من الدير ويسير لمسافة كبيرة خلال حدائق وآجام امتداداً حتى سفح الجبل، وامتلك طريقنا هذا ضوء القمر، ولكن عندما وصلنا إلى حيث نبدأ بصعود الجبل، دخلنا إلى واد كان مغلقاً بجدران عالية من

الصخور، ومضيئنا صاعدين من هذه الأعماق، فوق طريق وعر للغاية، ومن دون أي ضوء، لأننا كنا مطوقين بجروف من الصخر، ولذلك لم يكن بإمكان نور الشمس الوصول إلينا، وشعرنا في هذا الوادي بالبرد، إلى حد أن أسناننا أخذت تصطك، وتمنينا أنه لو كانت لدينا نار، لكن لم يكن معنا مانعمل به ناراً، وعلى كل حال قام البداة العرب شفقة منهم علينا لما كنا نعانيه، فجمعوا بعض الخشب الجاف، وحكوهم ببعضهم بالأيدي، حتى صاروا جاهزين لالتقاط النار، ثم أخذوا حجرتين من قعر المجرى، وضربوهما ببعضهما بشدة حتى أعطيا شرارة أشعلت الأعشاب، وجمعنا عصياً وعملنا ناراً كبيرة، وقفنا من حولها وأدقنا أنفسنا.

واعتقد أن البداة العرب لا بد أنهم تعلموا استخراج النار من الحجر الصوان من بروميثيوس بن يابيتوس - Prometheus son of Iapetus الأسوي، ومن حورية، كان في أيامها — كما أخبرنا الشعراء — هناك رجل صاحب حكمة عظيمة، فهو بعدما عمل شكل إنسان من الصلصال، وضع فيه حياة بسرقة نار من السماء، وكان الإنسان الأول الذي علم بني البشر، أن النار من الممكن استخراجها من حجارة الصوان، ويقال بأن النار قد اكتشفت أولاً من قبل فولكان Vulcan، لأنه عندما احترقت شجرة بسبب البرق، لقطت بقية الأشجار النار منها، واحترقت الغابة كلها، وفرح فولكان بسبب الحرارة، ووضع وقوداً جديداً عندما بدأت النار تحمد، وبذلك أبقى النار مشتعلة، وأظهر للناس أنه هو الذي اخترعها، وبذلك حصل على جائزته بتعيينه ملكاً على مصر كلها.

وبعدما شعرنا بالدفء وبالراحة، أخذنا بعض الجمرات المحترقة، وتابعتنا سيرنا عبر الوادي ونحن نحملهم معنا، ووصلنا في الوادي إلى أماكن حيث هناك جروف، وجدران من الصخر، عليهم تسلق البداة

العرب، ثم قاموا بسحب الحجاج واحداً تلو الآخر، وغالباً ماتفكرت في ذلك الصباح كم هي مدهشة طرق الرب، ففي الأمس كنا بصعوبة بالغة نستطيع التنفس بسبب الحر، واليوم بصعوبة بالغة يمكننا العيش بسبب البرد، لأننا كنا كلما صعدنا أكثر، شعرنا بشدة البرد أكثر، ووصلنا في الوقت نفسه إلى نبع، إلى جانبه مجدداً أشعلنا ناراً، وعلى الفور بدأنا نتمتع بحرارة النار، مثلما متعنا أنفسنا في اليوم المتقدم ببرودة الماء في تلك البقعة، وبعدما أدفئنا أنفسنا للمرة الثانية، مضينا نسير على طريقنا، فتسلقنا منحدرًا طويلًا منزلقًا، وعند رأس هذا المنحدر وصلنا إلى جدار كبير من الصخر، من حافته كانت تتساقط مياه نقية جيدة، مع أننا لم نهتم بالشرب منها، لأن الوقت كان مايزال الصباح الباكر، وكنا نعاني من البرد كثيراً، وتساقطت هذه المياه في مكان مقعر من الصخرة، وعملت هناك نوعاً من أنواع الصهاريج، وأشعلنا مجدداً ناراً إلى جانب هذا الصهريج وأنعشنا أنفسنا بحرارتها، ذلك أن البرد كان عظيماً إلى درجة أننا لو لم يكن لدينا نار، لأغمي علينا ونحن نرتجف.

ولدى متابعتنا سيرنا، تسلقنا الأماكن الصخرية، ووصلنا إلى منحدر كان منزلقاً جداً، وكان ناعماً— أي بدون صخور أو نباتات— وكان هذا المنحدر مليئاً بالأعشاب مثل مرج من المروج، وعندما كنا ندفع أنفسنا صعوداً، فجأة أشرقت الشمس، وازدادت الظلال، ورأينا بعيداً فوق هذه الشقة الضيقة رأس الجبل، وهو مشهد وقفنا نحوه مندهشين، مندهشين تجاه الارتفاع المتبقي، وذلك بعد صعودنا لمثل هذه المسافة الطويلة، ورأس هذا الجبل أو قمته، من غير الممكن رؤيته من الأسفل من قرب سفحه، لأن شكله هو كما يلي: أولاً، له قاعدة واسعة جداً، حيث ينبت فيها كثيراً من العليق والنباتات والشجيرات، ووصلنا بعد هذا إلى صخور طويلة يتخذ الإنسان طريقة فيها صعوداً خلال فجاج تقوده إلى جوف الجبل، الذي يتنامى ويتسع كثيراً من كتلة الجبل، وكأن

الأرض نسفت نسفاً، وبسبب هذا الاتساع لم يكن بإمكان الإنسان أن يرى من الأسفل لأرأس الجبل ولارقبته، وعلى هذا المكان المتسع طريق واسع، يحتوي على كثير من الأماكن المعشوشبة، هي ممتازة لحمل عشب جيد، وجوف الجبل هذا يحتوي أيضاً على ممر طويل يقود إلى قمم الجبال المجاورة، بطريقة أن الإنسان يمكنه العبور على طول الجرف إلى قمم الجبال الأخرى، وعند نهاية هذا الجوف تقف تلة جبل سيناء، لأن كثيراً من الصخور الملتوية والوعرة تنبعث مرتفعة في ذلك المكان، مندفعة من الأرض المنتفخة، وذلك مثلما تنمو رقبة الإنسان من جسده.

وهذه الرقبة عالية إلى حد أن الإنسان يرتجف لدى التحديق بها، وفوق الرقبة هناك رأس الجبل، وتنصب الصخرة المشكلة للرقبة مباشرة نحو السماء، وهي مشكلة بوساطة جروف عالية وحادة، حتى أن الإنسان الذي يقف في الأسفل، لا يمكنه أن يتصور أنه ممكن لأي إنسان الصعود إلى القمة، وفي الحقيقة إنه قبل ظهور القديسة كاترين هناك، مامن إنسان غامر بتسلقه، ولذلك نقرأ في *Speculum Historiale* — الكتاب: ١٩، الفصل: ١٧، عن بعض الرجال المسنين الذين عندما كانوا يزورون آباء الكنيسة يقولون لهم: «انظروا إلى قمم جبل سيناء، التي رأسها يمتد حتى السماء، ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاقتراب منه».

ولم نعبأ بجميع هذه المعينات، بل أعددنا أنفسنا برجولة للمهمة التي بدأناها، وقد وصلنا حتى الرقبة، على طول حافة الجبال الأخرى، وبدأنا الآن بالصعود إلى الرقبة نفسها، التي كانت منحدره جداً، وتسلقنا فوق الصخور والجروف مثل إنسان يتسلق شجرة، حيث كنا نشد أنفسنا من صخرة إلى أخرى، ومضى الأقوى منا في الأمام، ومدوا أيديهم إلى الذين تبعوهم، وبذلك سحبوهم نحو الأعلى، ولم يكن هناك مكان لرجل ضعيف القلب، أو لأناس يفقدون توازنهم لدى نظرهم

من الأسفل إلى الأعلى، ولم نتسلق بشكل نظامي واحداً تلو الآخر، بل كل واحد صعد إلى المكان القريب منه شخصياً، وإلى حيث فكر أنه الأفضل، لأنه كانت هناك كثيراً من الأشياء ليمسكها الانسان بيده، وليرتاح عليها بقدمه، وهكذا صعدنا نحو الأعلى، ونحن نزحف حول كتلة الصخور الممتدة من وجه الجروف، وكنا مثل نمالات تتسلق شجرة، وأخيراً بما أن «التعب الذكي يتغلب على كل شيء»، وصلنا إلى رأس أو قمة الجبل المقدس، وعندما كنا هناك، كانت هناك ريح قاسية جداً، وباردة، وقوية، ثائرة، لذلك لم يكن بإمكاننا تلاوة صلواتنا أو فعل أي شيء جيد من دون نار.

وجمع البداة العرب على الفور حزماً من الأخشاب، وعملوا كومة منهم، وأشعلوا ناراً كبيرة، وقفنا إلى جانبها، حتى علت الشمس — التي كانت قد أشرقت منذ بعض الوقت — أكثر، وصارت حدة الريح أقل قسوة، وعندما شعرنا بالدفع، وانتعشنا بعض الشيء، مضينا إلى الضريح الذي إليه حمل الملائكة القديسة كاترين، العذراء المجيدة، وبسرور رتلنا القداسات المحددة في كتب مسيرات الأرض المقدسة، وصلينا بخشوع عظيم، وتأملنا لوقت طويل بصمت، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) .

وشعرنا بسرور خاص فوق هذه البقعة المتميزة، لأنه حتى الآن حملتنا أسفارنا بشكل دائم بعيداً عن وطننا وديارنا، والآن شرعنا من هذا المكان المرغوب فيه بالاستدارة بأنفسنا نحو العودة، وصرفنا وجوهنا بثبات نحو اتجاه مواطننا، وبلداننا، وكم هو ممتع وسار شيء لا يمكن أن يفهمه انسان، إلا الذي أقام مدة طويلة في أجواء بعيدة، والذي عاش منفياً في أرض غريبة بين قوم لا يعرفهم، ولا يعرف طباعهم، ولا يفهم لغاتهم، والذي سكن لبعض الوقت مع شعب له طائفة غريبة، ودين غريب، ويعبد ما يبدو رباً غريباً، وإنني أقول هو وحده قادر على أن

يفهم قول الشاعر: « هذا لي، وهذه أرضي الخاصة»، وهذا ما يشهد عليه هوغو رغيولير Hugo Regularis عندما قال:

« عزيز على كل فاني وطنه

فنحن لانستطيع نسيانه أينما تجولنا»

وبناء عليه شعرنا في هذا المكان المقدس بسرور مزدوج، وكان السرور الأول صادر عن تذكركنا، الحديث لبلادنا الخاصة، التي نحوها كنا الآن ندير وجوهنا، وسرور آخر من وجود قبر العذراء الذي رأيناه بأعيننا، وتعاملنا معه كما نحب، ويقوم هذا القبر كما يلي: يتشكل رأس أو قمة جبل سيناء كله من قطعة واحدة من الصخر، هي في القمة مسطحة، مشكلة ما يشبه موضعاً مستديراً ليس واسعاً جداً، قياسه حوالي ست خطوات عبره كله، وأرض هذا الموضع هي قشرة الصخرة ويدور من حوله عند الطرف جدار من الحجارة الجافة، يشبه سياجاً، وقد بني خشية أن يسير أي انسان بلا انتباه فيسقط متكسباً نحو الأسفل، وأيضاً خشية أن يصاب الذين ينظرون نحو الأسفل بالدوار، من أي جزء نظروا، بسبب الارتفاع العظيم، وكذلك من أجل أن يسير الانسان هناك ويتجول مع حرية أعظم وخوف أقل، وفي وسط هذه الأرضية الحجرية هناك مكان مجوف لتلقي جسم انسان مسطح ومتمدد على طوله تماماً، وهذا التجويف ليس عميقاً جداً في الصخر، بل إنه عميق بما فيه الكفاية لاستيعاب جسم انسان متمدد حيث أنه يملأ التجويف، وبذلك يصير مستوياً مع بقية الأرضية، وهذا التجويف ليس مصنوعاً بأية أدوات معدنية، أي بعمل انساني، بل إنه مضغوط في الصخر بوساطة معجزة، لأنه عندما حمل الملائكة جسد العذراء إلى هنا من الاسكندرية ووضعوه فوق هذه الصخرة القاسية جداً، والناعمة، قامت الصخرة على الفور فانفجرت بقوة عمل ملائكي لاستيعاب جسد القديسة، وصارت الصخرة لينة مثل الشمع تنفرج وتنضغط تحت

أي شيء قاس وثقيل يمدد فوقها، وهكذا ضغط جسد القديسة موضع لحد له يتوافق مع شكله، فهناك تمددت مرتاحة لمدة ثلاثين سنة، غير معروفة من قبل البشر، ومحروسة من قبل الملائكة.

والبرهان المقدم على هذه الحراسة هي الأماكن المجوفة على الجانبين بشكل موائم للجلوس فيها، وكأن انسان ما قد جلس هناك، وفي الحقيقة يقال بأن الملائكة الذين تولوا حراسة جسدها قد سكنوا هناك، ربما بأجساد مادية، مثلما ورد في الكتابات المقدسة وقيل بأنهم جلسوا، وساروا، وطاروا، فالملائكة الذين أعلنوا عن قيام الرب، قيل بأنهم جلسوا على حجرة الضريح (متى: ٣٨، مرقس: ١٦/٥)، وعلى كل حال، إذا ما أراد ملاك استعارة جسد مادي، عندما يرغب بالجلوس، هو لا يحتاج إلى مقعد أو كرسي، وكذلك هو ليس بحاجة لإراحة نفسه بالجلوس، ومع ذلك صنع الملائكة أماكن مناسبة للجلوس إلى جانب الجسد المقدس للعدراء، حتى يظهروا أنهم يحرسون الجسد المقدس، وباقين دوماً إلى جانبه، أما كيف تم العثور على جسد العدراء هنا، وكيف جرى نقله من هنا إلى الدير فقد تقدم تبياناه من قبل.

وانكبنا بأنفسنا نحو الأرض أمام المكان الذي تمددت فيه العدراء، ووضعنا أنفسنا فيه، ليس من باب الرياء، أو الفضول، بل من باب التقوى، ولقد استخلصنا أنها لا بد قد كانت طويلة القامة، وأخيراً بعدما قدمنا جميع التشريف المستحق، أو في جميع الأحوال جميع التشريف الذي كنا قادرين على تقديمه إلى هذا المكان المقدس، غادرنا لمشاهدة الأشياء الأخرى.

بلدان العالم التي رأيناها في أطراف الدنيا الأربعة من قمة هذا الجبل المقدس، ووصف للأراضي، والمياه وهكذا دواليك.

ووقفنا على حافة جبل القديسة كاترين، وألقينا نظرة على الأراضي،

والمناطق، والمقاطعات القائمة في تلك الأحواز، واستطعنا أن نرى بعض المناطق البعيدة من العالم، لأننا كنا واقفين في أماكن عالية جداً، ولم تكن مشاهدنا محجوبة بأية غيوم أو بأية معيقات، وألقينا أولاً بأبصارنا باتجاه الشرق، نحو مساحة كبيرة من الماء، أي نحو الخليج العربي، الذي يعرف أيضاً بالبحر الأحمر، الناشئ عن المحيط الهندي، وباتجاه الشرق لم يكن باستطاعة أعيننا رؤية شيء سوى المياه، التي امتدت حتى جبال مدين، وكذلك رأينا البحر الأحمر وهو يحيط بجبل سيناء.

والملاحه في البحر الأحمر صعبة جداً وخطيرة، ولذلك فإن القديس جيروم في رسالته عن الحياة الديرية التي وجهها إلى الراهب روستيكوس Rusticus قد قال عن هذا المكان كما يلي: « يصل الذين يبحرون فوق البحر الأحمر إلى مدينة كبيرة، وبعد كثير من المصاعب والمخاطر، لأن الشواطئ مسكونة من قبل قبائل أناس متنقلون، أو بالحري من قبل أكثر الناس وحشية، وعلى الملاحين أن يكونوا دوماً محترزين، والأسلحة دوماً في أيديهم، وأن يحملوا معهم أطعمة لمدة سنة كاملة، فالبحر ملء بصخور غاطسة، وضحله قاسية جداً، لذلك يتوجب على القبطان أن يجلس على رأس السارية، ويصرخ معطياً أوامره من هناك لعمل السفينة، وسوف تكون رحلة سعيدة، إذا ما وصلت السفينة إلى ميناء البلدة المتقدم ذكرها خلال ستة أشهر، وهي التي يبدأ بعدها المحيط بالانفتاح بنفسه، وبصعوبة يمكن أن تصل عبر هذا المحيط إلى الهند خلال سنة ابحار متواصل، حيث تصل إلى نهر الغانج، وهو الذي تدعوه الكتابات المقدسة باسم فيشون Phison، حيث ينمو هناك كل شيء مرتفع الثمن كثيراً جداً، وحيث هناك جبال من الذهب، مامن انسان يستطيع الاقتراب منها بسبب الغريفونات (الأسود الخرافية المجنحة) والتنينات، والمخلوقات الرهيبة الأخرى ذوات الأحجام الهائلة، هذا ما ذكره القديس جيروم.

ويمتد من بحر الهند هذا نفسه خليج كبير آخر، باتجاه الشرق، هو الخليج العربي، فهو يمتد داخل البلدان العربية، ومنها قد نال اسمه، وعلى مقربة منه البلاد التي اسمها في الكتابات المقدسة فارس، وهكذا اسمها الإغريق اشتقاقاً من اسم فرسوس Perseus، ملك الأرغيفيين Argives، الذي استولى عليها بعد كثير من المعارك، وأجبر الناس الذين كانوا حتى ذلك الحين بدائيين، على الاستقرار والعيش وفق طريقة حضارية، كما أنه منح تلك البلاد اسمه، وحول فرسوس هذا يروي الشعراء كثيراً من الأساطير، هذا وتقدم لنا الحديث عن حصانه المجنح من قبل، وكان في هذه البلاد فيما مضى مدينة قوية جداً، اسمها فيرسيبولس Persepolis وهي التي قد تأسست من قبل فرسوس، وحدثنا بليني في كتابه الخامس، بأن التفاح الفارسي الذي نسميه نحن في ألمانيا الدراق، كان يحمل من تلك البلاد إلى بلادنا، ولذلك أطلق عليه اسم التفاح الفارسي، وهذا التفاح سام في بلاد فارس، لكنه هنا حلو، وطيب المذاق، وذلك وفقاً لما ورد في «الكاثوليكون Catholicon» [رسالة حول فلسفة الزهد]، وهذه البلاد متصلة بميديا، وفقط مفصولة عنها ببعض الجبال العالية، القائمة بينهما، وذلك مثلما إيطاليا هي منفصلة عن ألمانيا، وكانت في القديم مملكتان عظيمتان، وهدما قورش في مملكة واحدة.

وبلاد ميديا واقعة إلى الشرق من جبال القوقاز، وإلى الجنوب من فارس، وإلى الشرق من بلاد الفرس بلاد الهند، وإلى الجنوب البحر الأحمر (الخليج العربي)، وكان في بلاد ميديا فيما مضى Egbathanis، وكانت مدينة قوية جداً بناها أرفخشذ، حسبما جاء في سفر يهوديت: ١، ومدينة سوسة التي قرأنا عنها في سفر أستير.

وألقينا بعد ذلك بأبصارنا نحو الجنوب، في خليج البحر الأحمر، وقد رأينا خلف مجراه جبالاً عالية جداً، وفي هذا المكان أكثر القفار عزلة،

وهي قفار طيبة Thebaid ، التي عاش فيها مضى أكثر الرهبان قبولاً، ويتأخم هذه القفار من الجنوب المحيط، ومن الغرب النيل، نهر مصر، ففي هذه القفار، اعتاد أن يعيش القديس أنطوني الكبير، وهو صاحب اسم مشهور في العالم كله، ومثله فعل القديس أرسينيوس Ar-senius ، وكذلك القديسون الثلاثة، الذين كان اسم كل واحد منهم مكاريوس، مع قديسين آخرين ذوي قداسة عظيمة جداً.

والأشياء الأولى التي رأيناها في البحر الأحمر كانت جزراً مهجورة، كانت صخورها تلمع بملح أبيض، هذا ويوجد في هذا البحر كثيراً من الجزر الثمينة جداً، التي لم يكن بإمكاننا رؤيتها، ورأينا على شاطئ البحر الأحمر، الذي كان على طرفنا ميناءً بحرياً متميزاً جداً، الذي كان اسمه فيما مضى Berenice أو Arolech واسمه الآن الطور، وتلقي السفن التي تأتي من الهند حاملة العطور والتوابل مراسيها في هذا الميناء، ومن هناك يجري حمل التوابل إلى مصر، ومن مصر عبر البحر المتوسط حتى بلادنا، وهذا أقصى ميناء في الشرق معروف بالنسبة لنا، وهناك يوجد دوماً سفناً هندية كبيرة كثيرة، وهي معمولة ومبنية مع بعضها بحيث ليس فيها حديد، كما أنهم لا يتجرأون على امتلاك مراسي حديدية، أو سلاسل، أو صحنون، أو مسامير، ولا أية أسلحة معدنية، ولا فؤوس، ولا حراش، ولا أية أدوات حديدية مهما كان نوعها، وسبب هذا هو أنه هناك على شواطئ البحر الهندي فجاج وجبال معمولة من حجر المغنطيس، ومن قرب هذه الأماكن السفن المتوجهة نحو العربية تحتاج إلى المرور، وبناء عليه إذا وجدت أية سفينة تحتوي على أي حديد، وعليها المرور بتلك الأماكن التي فيها حجارة مغنطيس، فإن المغنطيس سوف يجذب السفينة فوراً بسبب الحديد، وبذلك سوف تصطدم بالصخور وتغرق، لأن المغنطيس يجذب الحديد إلى نفسه بشكل عجيب جداً، والذي يهمله أن يقرأ أكثر حول هذا، عليه أن ينظر في Spec-

ulum Historiale — الكتاب: ٢٠، الفصل: ٢٠.

علاوة على هذا، في عدة مناطق من الشرق هناك صخور، لها مثل هذه الطبيعة، أي أنهم يجذبون إليهم أناس يرغبون بعبورهم، وذلك مثلما يجذب المغنطيس الحديد، وعندما يُجذب مثل هؤلاء المسافرين، يضحكون، ويصبحون مسرورين، ثم يصطدمون بالصخور، ويهلكون، وقد تحدث كونسيلياتور Conciliator عن هذه الصخور في كتابه Doctrina — الفصل: ٦٧، حيث قال بأنه بسبب العواصف مامن انسان يمكنه أن يبحر إلى أجزائنا من الأرض، حتى وإن لم يمنعهم الاتساع الهائل للمحيط.

وأخبرنا الراهب نيقوديموس، أن رهبان القديسة كاترين يتقاسمون مع سلطان مصر المكوس التي تدفعها السفن المحملة المستخدمة لهذا الميناء، وأنهم يمتلكون إلى جانب شاطئ البحر بستان أشجار نخيل كبيرة، منها يجنون تموراً كثيرة كافية لهم طوال السنة، ومع ذلك فإنهم يبيعون الجزء الأكبر من هذه الثمار.

ورأينا عندما نظرنا نحو الغرب، خلف هذا الخليج البحري باتجاه الجنوب، جبلاً عالياً اسمه أولبوس السودان، لتمييزه عن أولبوس مقدونية، ويتدفق هذا الجبل عند شروق الشمس بلهب على شكل مخيف لمدة خمس ساعات، ومن هذا الجبل تبدأ بلاد السودان، وهي بلاد كان اسمها في القديم أطلنطا، ويحدها نهر النيل، وهي بلاد واسعة جداً، وتنتج رجالاً غريبين مع حيوانات رائعة في قفارها، وينظر بعض هؤلاء الرجال نحو الشمس عندما تشرق، وعندما تغيب مع لعنات مرعبة، وهم دوماً يشتمون الشمس بغضب، بسبب معاناتهم من الحرارة، وهناك يسعى ساطير ويتجول، وهو الذي يشبه الانسان إلى حد أنه يعد انساناً حقيقياً، ويحد هذه البلاد ليبيا، وهي منطقة واسعة من مناطق أفريقيا، وكذلك تحدها مصر.

وسحبنا أعيننا من هناك، وعن التطلع إلى تلك المناطق النائية، وثبتناها على السهل الصحراوي الواقع بين جبل سيناء، والبحر الأحمر، ودهشنا تجاه حجمه وعزلته، وأخبرنا الراهب نيقوديموس أنه كان يوجد في تلك القفار دير لرجال مقدسين، وهذا الدير لم يستطع انسان في العصر الحديث أن يعثر عليه، مع أن أصوات النواقيس تسمع كل يوم، وهو تقرر في الساعات القانونية، ولقد حاول بعض رهبان دير القديسة كاترين العثور عليه، وقد أعلنوا أنهم سمعوا صوت النواقيس، لكنهم لم يتمكنوا بأية وسيلة من الوسائل العثور على الدير نفسه، وهم يعتقدون بأن هذا المدير مخفي بنعمة الرب، بسبب ذنوب البداة العرب، ولكي لا ينزعج الذين يسكنون فيه، بسبب وقاحتهم، مثلما يحدث للدير الأخرى في الصحراء، وفي هذا الطريق نفسه اختبأ لوط من شعب سدوم (التكوين: ١٩)، وأخفيت مدينة دوثنان عن السوريين، حتى لا يتمكنوا من اعتقال النبي الإشع (الملوك الثاني: ٦)، وكان على كل حال هناك بعض البداة العرب مع الراهب، وقد أعلنوا — وربطوا اعلانهم بالقسم — أنهم قد كانوا في ذلك الدير، ولكن بعدما خرجوا منه أضاعوا مباشرة الدير والطريق إليه.

ويختفي في بعض الأحيان بعض رهبان القديسة كاترين، ولا يعرف انسان إلى أين ذهبوا، ومن المعتقد أنهم نقلوا إلى ذلك الدير ليشغلوا أماكن الذين يموتون من وقت إلى آخر، وينبغي أن لا يستخف أي انسان بهذا وينظر إليه على أنه صياني أو خيالي، فقد قرأنا مثل هذه الحكاية في « حياة الآباء»، وكان ذلك حول الصحراء نفسها، وتقول الحكاية بأنه سكن هناك رجل مقدس، لم يستطع أي انسان العثور عليه، وكان راعي الدير بوستوميوس Postumius في زيارة للآباء والقديسين الذين كانوا يسكنون في القفار، وقد بحث عنه لوقت طويل، لكنه لم يستطع العثور عليه، لأنه كان كلما حاول رجل أن يقابله، كان يهرب

بعيداً في داخل القفار إلى بقعة غير معروفة، ويتجنب الحديث مع أي واحد من بني البشر، ومع ذلك لقد قيل بأنه التقى براعي الدير، الذي كما افترض، حصل على هذه الفضيلة بسبب قوة إيمانه، وعندما تحدثا، سأله راعي الدير، لماذا يتشدد في تجنب بني البشر، أجابه «إذا كان الرجال سوف يتحدثون معي، فإن الملائكة الذين أتحدث الآن معهم، سوف يهربون مني»، وقرأنا الشيء نفسه عن القديس هيلاريون، الذي عرفه اللصوص الذين يتصيدون في القفار، وغالباً ما بحثوا عنه، لكنهم لم يستطيعوا بأي سبيل من السبل العثور على قلاية الرجل العجوز، انظر Speculum Historiale — الكتاب: ١٧، الفصل: ١٩، والكتاب: ١٩، الفصل: ١٧، وجيروم في كتابه «حياة القديس هيلاريون»، الفصل: ٩، الذي هو النص الأصيل.

وتحولنا من هناك واتجهنا نحو الشمال، حيث يتصل بالشرق، وألقينا بأبصارنا باتجاه بلاد العربية التي تحتوي على صحارى شاسعة جداً، وهي مليئة في كثير من أجزائها بعطور ثمينة متنوعة، ولهذا السبب عرفت باسم «العربية المباركة»، وهي تمتد فيما بين الخليج العربي والبحر الأحمر، وتدعى باسم «المباركة» بسبب الجودة الخاصة للتربة، لأنه عندما يجري حفر الأرض في بعض الأماكن تخرج بعض الكتل الترابية ذات الرائحة الطيبة، ويتم العثور عليها، ويستخرج الذهب من تلك البلاد بعد الحفر عليه، ولا يتم تدويبه بالنار كما يجري عادة العمل في المناطق الأخرى، بل يستخرج من الأرض على شكل قطع بحجم اللوز، والكستناء، ولونه لامع إلى حد أنه يغري بجلب الأحجار الكريمة ووضعتها في ذلك الذهب، وفي العربية هذه بلدة مكة، وهي مدينة النبي محمد ﷺ، وفيها معبد ضريحه (كذا)، الذي يقال بأنه معلق ببراعة متناهية، بوساطة أعمال آلية، يعتقد الذين لم يعرفوا كيف عملت، أن الضريح معلق بالهواء بوساطة بعض القوى الربانية، والحقيقة هي أنه

هناك أحجار مغناطيس تحمل أجزاء متساوية بين قسم وآخر، فقد جرى وضع قسم من الأحجار في الأرض من تحت، ثم قسم آخر في سقف مقبب من الأعلى، وتابوت محمد ﷺ، الذي هو من حديد، معلق في الهواء بين هذين القسمين من الأحجار، وكأنه مثبت هناك بوساطة إرادة ربانية، وهناك شيء مشابه قد صنع من الحجارة وفق الطريقة نفسها في مشكاة فينوس، التي يندهش الكفار نحوها، علاوة على ذلك كان هناك في واحد من الهياكل صنم حديدي معلق في الهواء وفق الطريقة نفسها، كما ورد إلينا الخبر في Speculum Historiale — الكتاب: ٩، الفصل: ٢٠، وفيما هو مقل في ص ٧٢ ظ.

واستدركنا الآن أكثر نحو الشمال، ونظرنا باتجاه بلاد الكلدان، التي تحدها العربية، ففي هذه البلاد بنيت مدينة بابل العظيمة من قبل نبوخذ نصر، حسبما قرأنا في سفر دانيال.

وكان في بابل هذه مسلة عظيمة، كانت إحدى عجائب الدنيا السبع، فقد أمرت الملكة سميراميس بقطع حجرة من جبال أرمينيا، طولها مئة وخمسين قدماً، وسماكتها أربعة وعشرين قدماً، وبجلبها إلى بابل، حيث نصبته، مما أدهش جميع الناظرين إليها، ويوجد على مقربة من هذه المدينة حقل دورا Dura ، حيث التقى العفاريت مع بعضهم بعد الطوفان، من أجل بناء برج بابل، وهناك أيضاً حدثت بليلة الألسن، وأقام في هذا الحقل نبوخذ نصر تمثالاً ذهبياً للرب، وهو الصنم الذي رفض أنانياس Ananias، وآزارياس Azarias وميسائل Misael، رفضوا عبادته، لذلك ألقى بهم في أتون نار مضطرم، وهنا كان صنم بعل، وعرين الأسود، وكانت هذه المدينة قد تزينت بنعمه سوزانا، زوجة يواكيم، وغالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وجاء من هذه البلاد، كما قلت من قبل، الغجر، الذين ندعوهم الـ Zigeuner (النور) وانتشر هؤلاء الناس مع أزواجهم وأولادهم، في أيامنا، فوق أوروبا

كلها، ولم يسمح لهم بالدخول إلى المدن، لأنهم الأبرع بين اللصوص. وطردهم البنادقة كلياً من مملكتهم، بسبب لصوصيتهم ولأنهم اتهموهم بكونهم، جواسيس، ووفق الطريقة نفسها لم يسمح لهم اللورد ابرهارد Eberhard، دوق وورتمبرغ Wurtemberg بالدخول إلى دوقيته، لأنه عانى منهم شخصياً ومن خيانتهم عندما كان في أزمة في الأرض المقدسة، فقد خانوه لصالح المسلمين، ولكي تجري معاملتهم بشكل أفضل من قبل الأناس المسيحيين، أعلنوا بشكل زائف، بأنهم قدموا من مصر العليا، وقد نفىوا من هناك، حتى يتمكنوا من التوبة، لأنهم لم يظهروا حسن استقبال للعدراء المباركة، وللطفل يسوع، وليوسف، عندما هربوا إلى مصر، وهذه حكاية زائفة، ومثل هذا يتظاهرون بأنهم مسيحيين، وأنهم تعمّدوا وقتاً بعد آخر، ويهزأون من المسلمين، وسألت مرة واحداً منهم، من أي بلاد هو قد جاء، فأجابني بأنه هو والبقية قد جاءوا من بلاد الكلدان، وأنه اعتاد دوماً على استخدام اللغة الكلدانية.

وجاء بعد بلاد الكلدان بلاد الآشوريين، التي هي بلاد واسعة، فيها بنى نينوس NINUS مدينة نينوى العظيمة جداً، وهاتان المدينتان: نينوى، وبابل، قائمتان على ضفة نهر الفرات (كذا)، وقد بنيت الأولى منهما من قبل نينوس، وبنيت الأخرى من قبل الملكة سميراميس، وهما تبعدان عن بعضهما مسافة طويلة، وخلفهما بلاد الجزيرة، فيما بين الفرات والدجلة، نهر الجنة، وبعدها تأتي بلاد أرمينيا وبلدان أخرى كثيرة.

ثم استدرنا بعد ذلك نحو الغرب، ورأينا على يميننا جبال العربية، الذين يسمونهم «سلسلة العالم»، وتقوم هذه الجبال في مقابل الأرض المقدسة، على الجانب الأقصى من الأردن والبحر الميت، وبين هذه الجبال، الجبال الرئيسية هي جبال: نبو، وجبل فسغة، وجبل عبريم،

التي إليها صعد موسى بناء على أمر من الرب لرؤية الأرض المقدسة، وذلك حسبما قرأنا في سفر التثنية: ١/٣٤، وكان بإمكاننا من جبل سيناء أن نرى هذا الجبل بوضوح، هذا وتقديم الحديث عن هذه الجبال.

ورأينا أيضاً في القفار هور، حيث مات هرون (العدد: ٢٠/٢٦)، لكن بسبب جبال القفار وجبال العربية المتقدم ذكرها، كنا غير قادرين على رؤية اليهودية، ولا فلسطين، ولا البحر الكبير، وكذلك بسبب أنهم كانوا بعيدين كثيراً، ومع ذلك فإننا نعرف بشكل ممتاز، أوضاعهم والمكان الموجودين فيه في الأرض المقدسة، ولذلك انحنينا بأنفسنا وبرؤوسنا نحو الأرض المقدسة، ومدينة القدس المجيدة، وتعبداً ضريح الرب، والأماكن المقدسة، ونعتقد واثقين بأن صلواتنا هذه كانت مؤثرة، لأنه قد كتب: «إذا ماضى شعبك إليك باتجاه الأرض المقدسة والمدينة التي أنت قد اخترتها، ونحو البيت الذي بني لاسمك، أنت يارب سوف تصغي إليه»، (الملوك الأول: ٨).

ورأينا أيضاً القفار والأماكن الصحراوية التي تجول فيها بنو إسرائيل لمدة أربعين سنة، والجبال التي مررنا بها، من ذلك على سبيل المثال جبل كالب، الذي تحدثنا عنه من قبل، وكذلك منحدر رحوئيم الذي أيضاً تحدثنا عنه، ورأينا أيضاً جبل حوريب المقدس في سيناء بعيداً عنا ودوننا على مسافة بعيدة، مع الجبال الأخرى المنبعثة منه والمنتشرة هناك، هذا ومع أنه لم يكن هناك أي جبل بيننا وبينه، كان بعيداً جداً، إلى حد أننا صحيح رأينا الجبل ورأينا قمته، مع ذلك لم نستطع بأية وسيلة من الوسائل رؤية البيعة التي كانت قائمة على القمة هناك، وبدت جميع الجبال هناك بـرد تلال، مقارنة مع جبل القديسة كاترين وبعدما شاهدنا جميع البلدان القائمة من حولنا، قريباً وبعيداً، جلسنا أرضاً، وأحضرننا طعامنا من مزادنا، وتناولنا وجبة رائعة إلى جانب الضريح الذي إليه حملت الملائكة القديسة كاترين.

نزول الحجاج من جبل العذراء القديسة كاترين في سيناء

وعندما فرغنا من عمل كل ماينبغي هناك على الجبل المقدس، قبلنا المكان المقدس، ومضيينا عائدين مع كثير من البهجة، ولم نكن نسير سيراً، بل نركض ونقفز نزولاً، لأننا كنا الآن بادئين لعودتنا إلى الوطن، ومع أنه كانت هناك مسافة شاسعة بيننا وبين بلادنا، لكن لم يكن ثابتاً بلاحراك أن الذين يريدون العبور من هنا إلى هناك لايمكنهم فعل ذلك، وعند جوف الجبل، وصلنا إلى النبع الذي يسمونه نبع القديسة كاترين، وشربنا هناك واسترحنا لبعض الوقت، ومن هناك سرنا أو انزلقنا مسافة طويلة، ووصلنا إلى نبع آخر، حيث قطعنا أغصاناً، قيل بأنها من النوع نفسه من العليقة التي ظهر فيها الرب لموسى، والتي قالوا أيضاً بأنها تمتلك قوة عظيمة، في مساعدة الذين لديهم أمراض مقعدة إذا حملوها معهم، وفيما إذا كان هذا صحيحاً، على القارىء الحكيم أن يقرر ذلك، وتابعنا النزول من هذا النبع، فوصلنا إلى حقل قصب، وقطعنا من هناك عصياً طويلة، قالوا إنها من النوع نفسه الذي كانته عصا موسى، التي عمل بها كثيراً جداً من المعجزات والتي وضعها فوق، في تابوه العهد، وهي التي قرأنا عنها في سفر الخروج: ٤، ١١، ١٤، وفي أماكن كثيرة من الكتابات المقدسة، ويقول بعضهم إذا كانت هنالك امرأة تعاني من آلام المخاض، وأمسكت واحدة من هذه العصي بيدها، سوف تضع دونها مخاطر، هذا وهذه القصص رائجة بين العلمانيين وأنا لأهتم بها كثيراً.

وبعد كثير من الجهد والتعب وصلنا نازلين إلى دير الأربعين قديساً، حفاة تقريباً، لأن الصعود إلى هذين الجبلين والنزول منهما دمر لنا أحذيتنا، ولذلك توجب على بعض الفرسان البقاء حفاة من هنا حتى القاهرة، وامتلك آخرون أحذية مقطعة من دون نعال، ومن الصعب أن يكون زوجاً من الأحذية جديداً كافياً للصعود إلى هذين الجبلين

والنزول منهما، وفيما يتعلق بقضية الأحذية لم نجهز أنفسنا منها بما فيه الكفاية، وعندما كنا على وشك مغادرة دير القديسة كاترين للصعود إلى هذين الجبلين، حدثت لي الحادثة السعيدة التالية، فقد جلب لي واحد من الفرسان المرضى الذين تخلفوا عنا، زوجاً جديداً من الأحذية، كان قد ابتاعه من القدس، وهو مصنوع من جلد جيد، رمادي أو بالحري أصفر اللون، وقال: «إليك يا أخ فيلكس، لقد اشتريت هذا الزوج من الأحذية وبنيتي تسلق هذين الجبلين المقدسين بهما، لكن وأنت ترى الآن أنني لا أستطيع التسلق إلى هناك، لذلك أرجوك أخذهما، ودعني أشارك في الخطوات التي سوف تعملها بهما، لذلك قمت على الفور بتجربة الحذاء الجديد لأرى فيما إذا كان يناسب قدمي، وتركت القديم المهترء في غرفتي، لأنه كان من المؤكد عدم صموده أثناء صعودي حتى للجبل الأول، وبعدها وصلنا إلى دير الأربعين قديساً، طبخنا معجنات لغدائنا، وبعثنا بسائقي حميرنا إلى دير القديسة كاترين لإحضار الخمر لنا، لأنه لم يعد بإمكاننا السير أكثر، بسبب تعبنا وحاجتنا إلى الأحذية، وبسبب حرارة الشمس.

زيارة إلى الأماكن في داخل الدير وفي الحدائق خارجه

وبعدما تناولنا طعام الغداء، قمنا بمسيرة إلى الأماكن المقدسة في الدير، ودخلنا أولاً إلى الكنيسة حيث انكبنا بأنفسنا نحو الأرض، وحصلنا على غفرانات (+)، وفي هذه الكنيسة جرى دفن الأربعين راهبا، الذين قتلوا في سبيل الايمان بالمسيح، في الدير، من قبل البداءة العرب، بطرائق تعذيب متنوعة، ولهذا السبب أطلق على هذا المكان اسم «دير الأربعين قديساً»، ويسكن هناك اثنان من رهبان دير القديسة كاترين لوحدهما، بمثابة حارسين للمكان، ويعاني هذين الراهبين من كثير من الالهانات من البداءة العرب، الذين يتجولون في تلك القفار، وتجولنا بعد ذلك بين قلايات الدير، التي هي تيسة وفقيرة، وهي معمولة من

القصب المنسوج الذي جرى التطيين فوقه، لكن هناك من حول الدير يوجد سور جيد وقوى، مثل سور يحمي قلعة، وليس له دائرة كبيرة.

وبعدما فرغنا من مشاهدة الدير، خرجنا من بابه إلى حديقة الدير، التي هي بشكل رائع لاتشبه القفر المجاور لها، فهي مليئة بأوراق خضراء، وفاكهة، لأنه ينمو فيها هناك أشجار طويلة، وحشائش «للصلطة»، وأعشاب، وقمح، وشاهدنا فيها أكثر من ثلاثة آلاف شجرة زيتون، وكثيراً من أشجار التين، والرمان، وكميات من اللوز وهكذا دواليك، ويحصل دير القديسة كاترين على مايكفيه من الزيت من هذه الحديقة لتغذية المصابيح في الكنيسة، ولإستخدامات الطعام في المطبخ، ويرسل الرهبان في كل سنة جراراً مليئة بفواكه هذه الحديقة إلى القاهرة، إلى ملك مصر، السلطان، كهدية له، وكتعويض لرعايته وحمايته، كما سوف أتحدث عن ذلك لكم فيما يأتي، ولديهم «صلطة» ومنكهات لخبزهم، طوال السنة من الحشائش التي تنمو هناك، وقش من الأعشاب لإطعام دوابهم، وإنه لأمر مدهش وجود مثل هذه الجنة في القفار، حيث أن كل شيء جاف ومحترق من قبل حرارة الشمس، وفي الرمال القاحلة مامن بذور أو جذور يمكن أن تنمو، ومع ذلك ماالذي لايمكن للعمل الانساني أن لاينجزه؟ وفوق هذه الحديقة، عند سفح الجبلين حفر الرهبان ثلاثة آبار عظيمة، بعيدة عن بعضها مسافة قصيرة، وفيهم يمكن تلقي جميع المياه التي تجري نزولاً من الجبلين في أيام الشتاء، وتتدفق المياه بوساطة أنابيب من بئر إلى آخر، وأخيراً تجري في الحديقة مثل مياه حياة، وهي تجر خلال الحديقة بوساطة سواقي، وقد جعلت هذه السقاية المتواصلة، الرمل خصباً وجعلت الصحراء تحمل ثماراً مثل الثمار التي تنتجها الأرض الزراعية، وقد اعتاد الآباء القدماء، الذين عبدوا الرب في القفار، على عمل هذا، وذلك كما قرأنا في Speculum Historiale — الكتاب ١٩، الفصل ١٤.

ويوجد في هذه الحديقة كثيراً من الصخور والحجارة، المندفعة من الأرض، ويوجد تحتهم كهوف، هي التي كانت فيها مضى قلايات الرجال المقدسين القدماء، وتمتد هذه الحدائق البديعة مسافة طويلة في قلب الوادي، وطولها ميل إيطالي، وعرضها رميتي حجر، واشتكى الرهبان لنا بأنهم تأذوا من شح المطر في هذه السنة، وبذلك أرغموا على التقتير كثيراً في سقاية حديقتهم مع أنها إذا لم تسق يومياً، فإنها سوف تجف على الفور، ومثل هذا اشتكوا أنهم في بعض السنوات تسقط أعداد لا تحصى من الجراد على حديقتهم، وعلى الأشجار المثمرة، عندما تكون مزهرة، وتغطي وجه الأرض كله، وتأكل كل شيء أخضر، من عقد الأزهار، إلى الأوراق والأغصان ولحاء الأشجار وتحدث دماراً وأذى، وبعدما فرغنا من رؤية الحديقة، عدنا إلى الدير وانتظرنا حميرنا هناك.

إطراء ومديح جبل حوريب المقدس

في سيناء وجبل القديسة كاترين المقدس في سيناء

من الممكن فهم الجبلين نوعاً ما من خلال الوصف المتقدم، والصورة المرسومة هنا، ومن الممكن النظر إلى هذين الجبلين على أنهما جبل واحد، ذلك أنه مع أن قمتهما منفصلتان، فإن سفحهما واحد، لأن كل واحد منهما يرتفع من سفح واحد هو نفسه، ويرتكز على الأساس نفسه، وذلك مثلما نتحدث عن يد واحدة، مع أن في اليد خمس أصابع مفصولة احداهن عن الأخرى، لكنهم متحدين معاً في قاعدة واحدة، وعلى هذا الأساس ينبغي أن نفهم وضع جبل القديسة كاترين، الذي يقال بأن جسد كاترين المباركة قد مدد فيه من قبل الملائكة، وذلك في المكان نفسه الذي أعطى فيه الرب الشريعة لموسى، أي أن تقول في الجبل نفسه فيما يتعلق بالقاعدة، ولكن ليس الجبل نفسه فيما يتعلق بالقمة لكل منهما، وبناء عليه سوف يظهران هنا تحت وصف واحد، وذلك مثلما يدعيان بالاسم نفسه، وهوسيناء.

وسيناء هو جبل في منطقة مدين فوق أرض العربية، وهو متفوق على الجبال الأخرى بالارتفاع، ويبدو رأسه وكأنه واصل إلى السماء، وهو جدير بالاحترام الأعظم بسبب الظهور المتتابع للرب الحقيقي في العصور الخالية، على أولى قممه، والدفن الرائع للقديسة كاترين الأعظم مباركة على القمة الأخرى، وهاتان القمتان للجبل المقدس لم تطأهما قدم إنسان قبل أيام موسى وكاترين، لأنه مامن إنسان تجرأ على التسلق إلى قمة حوريب، لأن المعتقد الرائج بين الناس قبل موسى كان أن الرب المخيف يسكن فوق قمة الجبل، وأن مامن إنسان يستطيع النظر إليه أو الاقتراب منه والبقاء حياً، كما أنه لم يغامر أي إنسان بالتسلق حتى قمة جبل سيناء، لأنها بدت وكأنها ملاصقة للسماء، ثم إن الجروف المنحدرة والعالية بدت وكأنه ليس فيها مكان لإنسان يمكنه أن يتسلق منه، علاوة على ذلك، غالباً ماشوهدت النار مشتعلة على قمة الجبل الأول قبل أن يذهب موسى إلى هناك، بينما كانت القمة الثانية دوماً مغطاة بثلج متحول إلى جليد قاسي قبل أن يجري دفن القديسة كاترين هناك.

وهناك كثير من الجبال في العالم تندفع منها النيران، من ذلك على سبيل المثال بركان أيتنا Aetna وبركان بوبيوس Bobius(?)، لكن لهما لم يتسبب بالطريقة نفسها، لأن هذا الجبل تدفق باللهب الناري، لأن النار قد اشتعلت بشكل اعجازي من قبل الرب ذاته شخصياً، وذلك حسبما قرأنا في سفر التثنية: ٥، وسفر الخروج: ١٩، فهنا ورد الخبر بأن الجبل قد اشتعل بالنار مع نزول الرب وقد زعق صوت البوق، وكان عدد الحشد كله آنذاك ليس أقل من مائة ألف، ولمدة خمسة أيام كانت النار المشتعلة في كل مكان، وقد شوهدت من قبل الجميع، ومع ذلك لم يحترق شيء هناك، لابل بقي العشب أخضر، انظر يوسبيوس De Evang praepar — الكتاب الثامن، الفصل الثالث.

وهناك جبال كثيرة مغطاة بالثلج، الذي تجلد فصار قاسياً، لكن هذا

الجبل مغطى كشهادة على عذرية القديسة كاترين، علاوة على ذلك هناك جبال كثيرة، فيها كهوف، اعتاد الكفار على أن يارسوا فيها أو هامهم وعبادة الأصنام، لكن هذا الجبل يحتوي على كهوف فيها انتظر الأنبياء وحي الرب، وعاش فيها الرهبان للتأمل حول الأشياء الربانية وكثيرة هي الجبال المكرسة للأرباب، مثل جبل أرسيتشوس Aracanthus لمينيرفا، وماليا Malea لأبولو، وأولبوس لـ Jove وميسينوس (كذا) Misenus لاينياس Aeneas وأطلس لساثير Satyrs... وجبل العدوان لمولوك، وجبل بافوس في قبرص لفينوس، وهكذا دواليك، لكن جبل سيناء هذا مكرس للرب الحقيقي الواحد، وهو الجبل الذي يسره أن يسكن فيه، ذلك أن الرب سوف يسكن هنا حتى النهاية، وهم يقولون بأن جبل أطلس هو بعلوه أعلى من الغيوم، وهو يحتوي على مخلوقات غير معروفة هي في حرب ضد حياة الإنسان، وفي وضوح النهار جعله صمته الرهيب المتواصل من غير الممكن لأحد الاقتراب منه من دون أن يرتجف، مع الشعور بوجود شيء ما رباني مختفي فيه، ويبدو في النهار غائماً وقذراً، لكنه في الليل يلمع بكثير من الأضواء مثل النجوم في السماء، وتتردد في أرجائه أصوات الغناء وضرب الكوسات، وأصوات المزامير للرجال الخلعاء وساطير، لكن جبلنا له ارتفاع موائم لبني البشر، وليس فيه أية حيوانات مرعبة، وفيه ظلام وضوء مثل أي جزء من الطبيعة، وليس فيه رؤى مرعبة، بل كل ما فيه مقدس ورباني.

ولقد قيل بأنه على مقربة من البحر الأحمر هناك جبل اسمه كليماكس Climax، حيث يقال هناك نساء متميزات بلحاهم الطويلة، وهؤلاء النساء يمضين أوقاتهن في صيد متوحش جداً، ويستخدمن النمر عوضاً عن الكلاب، ويرين الفهود والأسود، لذلك مامن إنسان يتجرأ على الاقتراب من ذلك الجبل، خوفاً من أولئك النساء المتوحشات،

اللائي يحملن وهن عاريات على الرجال المسلحين، ويتغلبن عليهم بمساعدة الحيوانات اللائي دجنهن، ولايسكن مثل هذه الكائنات فوق الجبل المقدس، بل فقط قلة من الجائعين التعساء، وكل هؤلاء يمكن اطفاء غضبهم بمنحه من فتات الخبز، ويمكنني أن أروي كثيراً من الحكايات عن رعب الجبال (الأخرى)، التي تسبب للناس الخوف والرعب منهم، في حين نجد فيه، جبل سيناء براء كله من مثل هذه الأنواع، وعلى العكس هذا الجبل مرغوب به من جميع الجوانب، وذلك لبهائه لجميع بني البشر، إلى حد أن رجالاً من أعلى المراتب يتدفقون إليه من أقصى أجزاء الدنيا، وليكن في هذا كفاية عن جبل سيناء.

عودة الحجاج إلى دير القديسة كاترين والأماكن المقدسة الكثيرة على الطريق

وجلبت الآن حميرنا إلينا من دير القديسة كاترين، إلى دير الأربعين شهيداً، وامتطيناهم وسرنا إلى طرف الحديقة في الوادي القائم بين الجبلين، وعندما وصلنا تقريباً إلى نهاية الحديقة دخلنا إلى الحديقة من خلال سور الحجارة الجافة، وتركنا حميرنا في الخارج بعهدة أدلائنا، ووصلنا هنا إلى صخرة عظيمة، حيث هناك كنيسة مكرسة، وقد دخلناها وتلوننا فيها صلواتنا علناً نحصل على غفرانات (+)، ويقال قد سكن في هذا الكهف القديس أونوفريوس Onofrius ، الذي كان واحداً من كبار النساك، وهناك حكاية جميلة قد حكيت عنه في كتاب «حياة الآباء»، وكيف أنه وهو ساكن هنا في كوخ عند فم الكهف في ذلك المكان قد وقع أرضاً، ف وقعت الأشجار القائمة حول الصخرة، ويبست، وذهبنا من هذا المكان نازلين في الوادي، ووصلنا إلى صخرة منعزلة قائمة إلى جانب الطريق، وليست متصلة بالجبل، بل واقفة بذاتها منبعثة من الأرض، إلى مقدار ارتفاع قامة الانسان مرتين، وهي عريضة في القاعدة، لكنها حادة في الأعلى، وتبدو وكأنها ليست متجذرة في

الأرض، بل قائمة مثل اهرام مصنوع، وليس كقطعة طبيعية من الصخر، ومن المعتقد أن هذه هي صخرة حوريب، التي أخرج منها موسى الماء بضربها بعصاه (الخروج: ١٧-٦)، علاوة على ذلك يرى بعض الناس أن خروج الماء الثاني المذكور في سفر العدد: ٢٠، كان من هذه الصخرة نفسها، وهي المياه التي عرفت باسم مياه الضرب، ولم تعط الصخرة ماء أكثر مما طلب لسقاية الناس مع مواشيهم، وبذلك تظهر بوضوح أكبر على أنها معجزة، ولهذا السبب، كانت الصخرة أيضاً صخرة منعزلة، ليست متصلة بالجبل، ولا مثبتة على الأرض، حتى يتمكن بنو اسرائيل من مشاهدة أن الرب عمل ماء طازجاً جديداً في الصخرة ليشربوا، ولم يجلب لهم جدولاً من الأسفل، ولو أن الماء استمر بالتدفق منذ ذلك الحين، فإن المعجزة وقتها لن تكون معجزة كبيرة، بل معجزة عادية، لأننا رأينا أن القديس كليمنت مع كثير من القديسين الآخرين حصلوا على الماء بوساطة صلواتهم، وقد تدفق من الأسفل على شكل ينابيع في أماكن لم يكن ماء فيها من قبل، ولم يكن ذلك ماء جديداً قد خلق، بل كانت مياه موجودة في عروق الأرض تحت التراب، وقد جرى توجيهها إلى هناك واستمرت من ذلك الحين تنبع وتتدفق، وذلك مثل ما يمكنك أن تقرأ حول قضية النبع الذي أعطي إلى الرهبان كعلامة وهو أمر أتينا على ذكره من قبل، لكن نبع هذه الصخرة، لم يتدفق من المياه الموجودة تحت الأرض، بل من كنوز الرب، ولذلك قال موسى في (سفر العدد: ٢٠): «افتح لهم يارب كنوزك، وامنحهم نبع ماء».

★★ ★★ ★★

وعن نبعنا قال المزمور: «شق صخوراً في البرية وسقاهم كأنه من لجج عظيمة» (المزامير ٧٨ / ١٥)، وتحمل هذه الصخرة في اليوم الحالي علامات الفتحات في أماكن متعددة، لأن الماء لم يصدر من أسفل

الصخرة، بل من جميع أطراف الصخرة نفسها، حسبما يمكن مشاهدة ذلك في هذا اليوم، وهذه الصخرة جديرة بالاحترام العظيم، بسبب تدفق الماء منها، وبسبب معناها النموذجي، لأنه تبعاً للرسول (كورنثا الأولى: ١٠/٤) هي تشير إلى المسيح نفسه بقوله: «والصخرة كانت المسيح»، ولذلك سرنا حول هذه الصخرة، التي كانت بذاتها المسيح، وقبلناها.

وتابعنا سيرنا من هناك، ووصلنا إلى واد اسمه تولاس Tholas حيث رأينا خرائب دير قديم، فيه سكن في القديم رجال مقدسون كثرة، وإلى جانب الدير هناك كهف عظيم وعميق يقود إلى جوف الجبل، الذي إليه انكفأ الآباء القدماء، وأخفوا أنفسهم عن ضوء النهار المخلوق، حتى يمكنهم في الظلام رؤية الضوء غير المخلوق، فقد قرأنا في انجيل يوحنا: ١ «والنور يضيء في الظلمة»، وقال داوود في المزمور: ١٣٩/١٢: «الظلمة أيضاً لا تُظلم لديك والليل مثل النهار يضيء»، كالظلمة هكذا النور»، وكان هذا الكهف بالفعل مدرسة للتأملات الربانية، حيث اقتيد الناس خلال الظلام المادي إلى رؤيا النور السماوي، وليس مثل كهف آخرون Acheron قرب مدينة هرقلية، والذي يقود إلى المناطق الداخلية، أو مثل كهف الهبرنيان Hibernian الذي اسمه خلوة القديس باتريك Patrick، ففيه يرى الذين يدخلون إليه مشاهد مرعبة، ويخافون رؤى خفيفة، وكأنهم غطسوا في الجحيم، ولا يحدث هذا بوساطة قوى ربانية، أو بوساطة معجزات، بل بوساطة قوى طبيعية، واضطراب في العقل، لأن المعلم هنري دي هاسيا-Has-sia.... (استاذ في جامعة فينا، مات سنة ١٣٩٧) نقل عن نيقولا أور Ore، وكان حكيماً على درجة عالية من المعرفة في العلوم الطبيعية، بأن ذلك الكهف كان موجوداً في أيرلندا، فيه في أماكن متفرقة هواء زفيرى كثيف، نتيجه أن الذين يدخلون إلى هناك يقعون نياماً، ويحلمون

بأحلام رائعة، ويرون أشياء مخيفة بوضوح وكأنهم في اليقظة مع أنهم نيام، وبالطبيعة الشريرة والهواء السيء في المكان يبتهجون ويسلبون من عقولهم، ولذلك (عندما يستيقظون) يكتبون ما شاهدوه، وكأنه كان معجزات، ويصفون مشاهداتهم، وكأنها حوادث وقعت بالفعل، مع أنها حدثت لهم في حالة غير صحية في حالات تخيلهم، مثل أوضاع المنام، التي غالباً ماتبرهن أنها تحدث مع بعض الناس عندما يكونون في حالة اليقظة.

وبعد مغادرة تولاس ، نزلنا إلى الوادي، ووصلنا إلى دير آخر، الذي هو الآن دير صغير، لكنه كان فيما مضى واسعاً، ويدعى باسم دير القديسين كوزما ودامين، وكانا كما قيل لنا في حكايتيهما من العربية، وهي بلاد جاء منها أطباء ماهرين جداً، وأعتقد أن هذا هو سبب تكريس دير إليهما في العربية هنا، تفضيلاً لهما على غيرهما من القديسين الآخرين، وقد بني هذا الدير فوق المكان الذي طعن فيه أكثر من ثلاثة عشر ألفاً وسبعمئة رجل من قبل الرب، فهؤلاء هم الذين هلكوا في تمرد قورح، وداثان، وأبيرام (العدد: ١٦)، ففي هذا المكان انشقت الأرض تحت أقدام هؤلاء القوم الأشرار، وفجرت فاهها وابتلعتهم ويوتهم، ومضوا سريعاً إلى جهنم، وبعدما حدثت هذه الأشياء، عادت الأرض ثانية ناعمة مجدداً، وكان شيئاً من هذا القبيل لم يحدث، وذلك حسبما حدثنا مؤلف Speculum Historiale، ولذلك لم نستطع رؤية أية أثر مهما كان لإنشقاق الأرض هذا.

ووقفنا في هذا المكان ونحن نرتجف، ولخوفنا من قسوة حكم الرب وسرعة تنفيذه، لأن أولئك المتدمرين وقفوا مستعدين لإثارة تمرد وشقاق، ولم يخافوا عندما انشقت الأرض تحت أقدامهم، مع أنه من الذي لا يخاف عندما يسمع بهذا؟، ولقد قرأنا بأن الشيء نفسه قد حدث في أيام القديس أمبروز في قرية في توسكانيا، عندما انشقت الأرض

وابتلعت بيت رجل غني مع كل مايتعلق به، لكن بقيت هوة كبيرة فوق البقعة، لتكون شهادة ودليلاً، وقرأنا أيضاً في حكاية القديس بندكت، كيف أن شرفة قد سقطت فجأة على رجل عارض ذلك الرجل المقدس، وقتلته، وكذلك قرأنا أيضاً في «حياة» القديس جيروم، كيف أنه أصلح بعض الراهبات لعلاقاتهن الجنسية مع بعض المترهبين، لكن بما أنهم لم يقومون سبلهن، انشقت الأرض، وابتلعت الدير، والراهبات وكل شيء.

★★ ★★ ★★

وانصرفنا من ذلك المكان المتقدم ذكره، ونزلنا في ذلك الوادي العريض والشاسع، الذي سافرنا خلاله قبل ثلاثة أيام، ونحن ماضون إلى دير القديسة كاترين، وذلك حسبما تحدثنا من قبل، وهذا وادي جميل وواسع، يمتد بين الجبال على شكل صليب، هذا والجبال التي من حوله عالية، ومع ذلك فإن الوادي مضيء ومشرق، بسبب مسافة الجبال بين واحد وآخر، ولو أنه كانت هناك مياه فقط في تلك المنطقة، لكانت قطعة ممتازة من الأرض للبشر للعيش فيها، ولإقامة مدن وقرى، فهناك في هذه الوديان نصب بنو اسرائيل معسكراتهم بعدما عبروا البحر الأحمر (الخروج: ٢١)، ويطلق على هذه المنطقة اسم قفار سيناء، لأنها تقع في مقابل جبل سيناء، حيث فيها أقام بنو اسرائيل الجزء الأعظم من الأربعين سنة التي أبقامهم الرب خلالها في القفار.

ووصلنا الآن ونحن نازلين إلى مكان تتصل فيه الوديان مع بعضها، وتشكل سهلاً عظيماً، ورأينا هناك حجرة طويلة كانت تشبه منبر واعظ، وعلى هذه الحجرة، يقال بأن موسى وقف وأخبر الناس بكلمات الرب، وأنه من هناك أعطاهم الشريعة وبينها لهم، وهي الشريعة التي أعطيت له، وتلقى أجوبة الناس هناك، وحملها عائداً إلى الرب على الجبل، وهنا أيضاً كان غالباً ما يخبر الشعب بأوامر الرب.

وفي الحقيقة كان المكان موائماً كثيراً لأعمال الوعظ، وهناك مساحة كبيرة جداً تحت من أجل الناس، وهذه المساحة الشاسعة كانت محتاج إليها، لأن تعداد الناس كان كبيراً، فقد بلغ عددهم ستائة ألف رجل حاملين السلاح، وذلك إلى جانب النساء، والأطفال، وعلاوة على ذلك حشداً لا يحصى عدده من أخلاط الناس الذين قدموا معهم، وأغنام وسائمة من كل نوع بأعداد عظيمة جداً. (الخروج: ١٢).

وفي هذا المكان كان بنو إسرائيل يضحون للعجل الذهبي، وذلك بسبب أنه كان شاسعاً واسعاً، والوديان من حوله لها مناظر عليه، والعجل الذهبي هو الذي صنعه هرون لهم أثناء غياب موسى، عندما كان مع الرب في الجبل، وقد رقصوا عراة حول العجل، وجمعوا الناس وحشدوهم كلهم من جميع أماكن سكناتهم وخيمهم، حيث أعلنوا بشكل عام عن عيد العجل قائلين: «هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر»، وحدث أنه حتى بعض الشيوخ والحكام ذهبوا إلى المكان الذي اعتاد موسى على الوقوف عليه والتحدث إلى الناس، وعرضوا على الناس العجل، ونصبوه لهم لعبادته.

وجرى اقتراف هذا العمل المرعب والمخيف على هذه البقعة، ليكون عاراً أبدياً لليهود، لأنه في هذه الأيام إذا ما تحدث انسان عن هذا العجل إلى يهودي، يحمر وجهه خجلاً، ولقد برهنت أنا شخصياً على صحة هذا الأمر مراراً عندما كنت أتحدث إلى يهود، فعلى هذه البقعة نسي اليهود الرب، كما قال صاحب الزامير، نسيوا الرب مخلصهم الذي عمل أعمالاً مدهشة في أرض حام، وأشياء مخيفة في البحر الأحمر، فكان أن صنعوا العجل في حوريب، وعبدوا وثناً مصنوعاً، وبذلك استبدلوا مجدهم بصورة عجل يأكل قش الأرض.

★★ ★★ ★★

ولدى متابعتنا لسيرنا وصلنا إلى مكان، حيث كانت هناك أكوام عظيمة من الرمل وتضخم في الأرض، ويقال بأنه في هذا المكان قد جرى دفن الذين قتلوا من أجل وثنيهم بناء على أوامر من موسى، وكان عددهم ثلاثة وعشرين ألف رجل (الخروج: ٣٢) وأخبار الأيام (الأول: ٢٠)، وتابعتنا من هناك سيرنا في ذلك الوادي العريض، ووصلنا إلى واد ضيق يقود إلى دير القديسة كاترين، وقد دخلناه، وسرنا خلال حديقة الدير، وتمتد هذه الحديقة مسافة طويلة، كما تحدثنا عن ذلك الدير، وتجري سقايتها وفق الطريقة نفسها مثل حديقة الأربعين شهيداً، كما تحدثنا عن ذلك في مكانه، وهذه الحديقة مزروعة بشجر الزيتون، وبأشجار من أنواع أخرى، وهي واسعة وجميلة، وبها أماكن كثيرة ورد ذكرها في الكتابات المقدسة.

وعندما كنّا سائرين من خلال هذه الحديقة، طلب منا أدلاؤنا أن ننظر إلى الأعلى نحو قمم الجبال، وقد رأينا فوق رأس صخور عالية جداً، واقفة أمام جبل حوريب، عجباً واقفاً هناك وهو يتطلع نحونا، وكأنه على وشك القفز نحو الأسفل، ولقد رأيناه بوضوح تام، مع جميع أطرافه، وهو موزع بشكل متوازن، وكأنه حقيقة حيوان حي، أو أنه شبيه بعجل مصنوع بشكل فني، مع أنه بالحقيقة لم يكن هناك عجباً لا طبعياً أو اصطناعياً، بل كان هناك قشرة صخرة، رأسها مكسور، ومن دون أن يصنعه انسان، يبدو من الأسفل حين ننظر إليه وكأنه يشبه عجباً، ولذلك غالباً ما قام رهبان الدير، يحركهم الفضول، فتسلقوا الجبل، ولكنهم لم يعثروا على أي تمثال لعجل على قمته، بل وجدوا صخوراً مكسورة، وجروفاً حادة، عندما ينظر الانسان إليها من الأسفل تبدو له وكأنها عجل، وذلك مثلما هناك صخرة في بحر ايجيه، لها شكل ماعزة، عندما ينظر الانسان إليها من مسافة، ولهذا السبب عرف البحر باسم بحر ايجيه، لأن « ايجيه » بالاغريقية تعني ماعزه.

وفي مكان آخر من البحر نرى صخرة عندما ننظر إليها عن بعد، نجد أن لها شكل صل، لكن عندما نقرب منها، نجدها حجرة كبيرة، ومثل هذا، عندما يذهب انسان من بلدة ويزازتيغ Wisastaig (كذا) قرب أولم، يرى فوق التلال حجرة طويلة محفورة وكأن لها شكل انسان، ولكن عندما يقترب الانسان منها، لا يمكنه أن يرى سوى صخرة وعرة، وعلى الرغم من ذلك فإنه مع العجل المتقدم ذكره، نجد أن خداع المنظر قد قاد إلى خطأ بين كل من الطوائف الشرقية، والمسيحيين والمسلمين، إلى حد أنهم يعتقدون أن الشيطان قد أخذ العجل الذهبي، الذي صنعه اليهود، كما تقدم ذكره، وحمله إلى ذلك المكان، ليكون ملامة دائمة وعاراً ثابتاً لليهود، وخشية من أن يجري نقله من قبل أي انسان، جعل الرب من غير الممكن العثور على العجل نفسه، لكن هذه الحكاية كلها مخترعة وتتعارض مع نص التوراه (الخروج: ٣٢) الذي يقول بأن موسى قد أخذ العجل الذهبي وطحنه ناعماً، كما سوف يظهر معنا بعد قليل.

وابتعدنا أخيراً عن ذلك الشبه المتخيل للعجل، ووصلنا ونحن سائرين إلى هوة كبيرة وعميقة، تشبه صهريجاً، كان فيها كثيراً من الماء، من الممكن جره لسقاية الحديقة، وقد قالوا بأن هذه الهوة كانت دوماً هنا، ولم تعمل من قبل عمل بشري اصطناعي، أو بأي جهد، بل من قبل الطبيعة، ففي أيام الشتاء تجري المياه إليها، وكان موسى عندما طحن العجل الذهبي، رش المطحون على هذا الماء، وأحضر الناس، وجعلهم يشربون منه، وحدث أن الذين كانوا مجرمين قد احتفظوا بلون الذهب في وجوههم، ولذلك بدت لحاهم ذهبية، وتورمت أجوافهم بشكل سيء بوساطة الماء الذي شربوه، إنما الذين لم يشاركوا في هذا الإثم، فقد شربوا الماء من دون أذى، ولم يظهر أي لون ذهبي على وجوههم. انظر الخروج: ٣٢، و Postilla لدي ليرا، وقرأنا عن نبغ

مماثل في تايانا Tyana، مكرس لجوبتير، وهو في الحقيقة نبع رائع جداً، وقد قيل بأن مياهه تأتي إلى هذا النبع باردة جداً من خلال ممرات تحت الأرض، حيث تغلي على الفور، وهذه المياه عذبة وصحية بالنسبة للذين يسكنون على مقربة منها إذا ما كانوا شهوداً صادقين على أي مسألة، ولكن إذا لوثوا أنفسهم بشهادة زور، فإن الماء يطير خارجاً من النبع ضدهم، ويضرب أعينهم، وأقدامهم، وأيديهم، ويسبب لهم أمراض الاستسقاء، وفقدان الشعر، ولا يمكنهم المغادرة من دون أذى مالم يعترفوا بشهادة الزور إلى الأشخاص الذين حلفوا لهم حائثين مزورين.

ومثل هذا أيضاً حدث لميداس، ملك الفريجيين الجشع، الذي عبد الذهب على أنه ربه، فقد تلقى من باخوس منحة، أي أن شيء يلმسه يتحول إلى ذهب، ولذلك مات من الجوع، وبعد موته ألقي به في نهر باكتولوس Pactolus، الذي امتلك رمالاً ذهبية، من أجل أن الذي لا يمكنه العيش من دون ذهب، يمكن أن يفسد في الذهب، لأنه مهما أذنب الإنسان، فإنه به سوف يعذب، ولذلك فقد اليهود كأس الحياة الذهبي، لأنه قدموا القرابين إلى عجل ذهبي.

وغادرنا ذلك الصهريج، ومضينا على طريقنا صعوداً، فوصلنا إلى مكان شاسع مفتوح في الحديقة الذي لأعرف سبب قحطه، حيث مامن عشب ينبت فيه، مثلما يحدث في بقية أجزاء الحديقة، ومن المعتقد أن هذا الفراغ هو المكان الذي أذيب فيه العجل الذي عمل من قبل هرون، وذلك حسبما قرأنا في سفر الخروج: ٣٢، ذلك أنه أخذ من النساء ومن الناس أقرانهم الذهبية والخواتم والكؤوس الذهبية، وألقى الجميع في النار، ومن هناك جاء من خلال عملية للشيطان عجل ذهبي، الذي اعتقدوا أنه صل، وذلك مثلما يفعل المصريون، لأن المصريين يأخذون الصل من الماء على شكل ثور، ومثل ذلك فعل بنو إسرائيل فأخذوه نفسه من النار على شكل عجل.

وفي الحقيقة اعتاد الكفار على عبادة رجال عملوا أرباباً، ليس في أشكالهم البشرية الحقيقية ولكن بأشكال هذه الحيوانات، التي تتحدث الحكايات أنهم تحولوا إلى أشكالها، من ذلك أن جوبتير قد تحول إلى غزال وعبد تحت شكل غزال، والصل تحت شكل عجل، وفينوس كسمكة وساتورن كحصان، ونيوب Niobe كحجرة، وهيرمون Her- mione، كثعبان، ويونو Juno كبقرة، وأكتيون Acteon كوعل، وأنتيغون كقلق، وألدونا Aldona كطائر مغرد، ودفني كغار، وعُبد أطلس الذي غيَّره فيرسوس إلى جبل، على شكل جبل، والرعاة الأركاديون Arcaodian على أشكال ذئاب، ويمكنني أن أقدم المزيد من الأمثال، وهكذا اختار الشيطان تشكيل عجل في النار وآثره على عمل شكل انسان.

ومضينا في طريقنا، فوصلنا إلى صخرة منعزلة قائمة عند سفح جبل حوريب، مثل قدر كبير، وهذه هي الصخرة التي رمى عليها موسى لوح الوصايا العشر، وكان ذلك عندما شاهد العجل والناس يقدمون القرابين إليه، هذا ومعروف أن هذين اللوحين قد نحتهما الرب، وكتب عليهما باصبعه، وكانا من أثمن الحجارة وأكثرها صقلًا، وعندما جرى تحطيمهما اختفيا كلياً، وقال اليهود بأن الكتابه كان من الممكن قراءتها من على أي جانب من الحجرة، وهو أمر اعجازي، لأن رؤية الحروف ممكنة من على الطرفين من ورق رق رقيق وشفاف، ولكن القراءة ممثلة من على جانب واحد فقط، لأن الصفحة عندما تُقلب، تنقلب الحروف وتصبح معكوسة.

ولهذا السبب، من المعتقد أن الحجرة لا بد وأنها كانت نقية، ولا معة، وشفافة، حيث اقتضى الحال أن تكون هكذا، لأنها حتى في الظلام، وفي أوقات الليل أشعت، ودائماً جعلت الكتابة ممكنة القراءة، مثلما توجب الحفاظ على الوصايا التي كتبت عليها في جميع الأوقات، لكن موسى

حطم هذين اللوحين، ولم يعد من الممكن بعد ذلك القراءة، ولم يكن هناك حظر على الناس ومنع لهم من الابتهاج بسبب تحطيمهما، ومن الممكن المحاجبة بأنه عندما ألقى موسى باللوحين على الصخرة تحولاً مباشراً إلى غبار لا فائدة منه، وكان اللوحان الآخران، اللذان نقرأ عنهما في سفر الخروج: ٣٤، قد نحتا من قبل موسى نفسه، وتمت الكتابة عليهما باصبع الرب، ويقول اليهود بأن الرب جعل موسى يرى كتلة من الزفير، نحت منها لوحين، وأن موسى صار غنياً كثيراً من خلال البقايا والقطع التي تشظت من تلك الكتلة، وأدع الأمر إلى أي رجل عاقل ليحكم كم من الصدق يمكن توفره في هذه الحكايات، لكنهم لا يستطيعون اقتياد أي إنسان إلى ضلالهم وإلى أي من أخطائهم، مثلما لا يمكن لحكايات الشعراء، التي نقلتها والتي أتعرض لها، عندما تصدقني على طريقي.

ومضينا من هناك نتابع سيرنا نحو الدير، وهنا أشار الراهب نيقوديموس وبين لنا جبلاً متصلاً بجبل حوريب، قال بأنه كان جبل موسى، فإلى هذا الجبل: «صعد موسى وهرون.... وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة» [الخروج: ٢٤/ ١، ١٠]، ومن هذا الجبل أمر موسى بالصعود إلى جبل حوريب، لأن هذا الجبل واقع فوق كتف جبل حوريب، باتجاه الشمال، وكان موسى قد أمر بالصعود إلى هذا الجبل من أجل صلوات خاصة، ولتلقى الأجوبة من الرب حول قضايا خاصة، ومن المعتقد أن الرب ظهر مراراً هناك إليه.

وقد صلينا ونحن ننظر نحو هذا الجبل، وتابعتنا سيرنا إلى أن وصلنا إلى مكان مغلق ملاصق لأسوار الدير، فهنا أرض مقبرة الرهبان، وبناء عليه قرأنا هنا الصلوات من أجل الأموات، وقمنا بتقديم الاحترام إلى الرجال المقدسين الذين دفنوا هناك، لأن هناك ما يزيد على تسعة آلاف

راهب قد دفنوا هناك، أسماؤهم مدونة واحد تلو الآخر في كتاب الدير، ومما لاشك فيه أنه كان بينهم عدداً كبيراً من القديسين، وبعدما خرجنا من المقبرة دخلنا إلى الدير، فوجدنا أن عدد البداة العرب، قرب مكان إقامتنا قد ازداد، ومع ذلك طبخنا طعام عشائنا، ودعونا الراهب نيقوديموس ليتناول العشاء معنا، ورجونا أن يقوم بعمل الترتيبات مع السيد راعي الدير، حتى يرينا آثار القديسة كاترين والأماكن المقدسة الأخرى في الدير في الغد، الأمر الذي فعله، كما سوف نبين ذلك في مكانه، وأمضينا الوقت ونحن حزينين، لأننا رأينا أعداد البداة العرب المقيمين في مواجھتنا بازدياد مستمر.

ضريح القديسة كاترين العذراء الأعظم مباركة وآثارها المقدسة،
والتراتب التي أبدوها هناك نحو السادة الحجاج المسيحيين،
والوضع الحالي للزيت الاعجازي الذي يقال بأنه يتدفق من
قبرها، وعليقة موسى، والأماكن الأخرى التي يجري فيها منح
الغفرانات، وسيشغل وصف هذا كله هذا الفصل بأكمله

في اليوم السادس والعشرين، مباشرة بعد منتصف الليل، قمنا بعد
قراءتنا لصلواتنا، بإعداد أنفسنا لإقامة قداسات، وأعدّ الفرسان
العلمانيون أنفسهم لتلقي القربان المقدس، وكان هذا اليوم هو يوم جمعة،
وكنا نأمل بأن يكون اليوم المقبل يوم مغادرتنا، وبناء عليه بعد تلاوة
صلوات ما بعد منتصف الليل، والصلاة الأولى، سمعنا اعترافات
فرساننا، وأقام كل واحد منا بدوره قداساً في بيعتنا، وتلقى جميع
الحجاج العلمانيين القربان، وخلال ذلك الوقت صار النهار مشرقاً،
فزلنا إلى كنيسة القديسة كاترين لرؤية آثارها، وعندما كنا في الكنيسة،
قدم راعي الدير مع جميع رهبانه، وكل واحد منهم يحمل بيده شمعة
مضاءة، ووفق الطريقة نفسها، أشعل كل واحد منا نحن الحجاج
حوامل الشموع التي كانت بأيدينا، ومن ثم تحلقنا واقفين حول ضريح
العذراء المقدس، من كلا الجانبين هناك، وجاء الآن حافظ مقدسات
الدير مع مفاتيحه، وحاول أن يفتح أقفال الضريح، لكنه لم يستطع أن
يفعل ذلك، لأن كل من الأقفال والمفاتيح كانوا جميعاً قد غطاهم
الصدأ، وتعطلوا، وأمكن أخيراً بمساعدة الرهبان الآخرين، وبعد بذل
كثير من القوة والجهد، فتح الأقفال، وعرض قبر الجسد المقدس،
وعندما جرى إزاحة الغطاء الرخامي الذي يغطي القبر، شرع الرهبان
بغناء ترنيمة تجاوبية، كانت الكلمات والموسيقى اغريقية، التي منها لم
يكن بإمكاننا فهم ولا كلمة واحدة، باستثناء كلمتي «رسل» و«شهداء»،
لأنهم غنوا بهاتين الكلمتين، ورددوهما بين الكلمات الأخرى، ذلك أن

هاتين الكلمتين هما نفسيهما في كل من الاغريقية واللاتينية، وقد أخذتا بالأصل من اللغة الاغريقية إلى اللغة اللاتينية.

وأثناء قيامهم بالغناء، وصل راعي الدير إلى مكان الضريح، وبعد قيامه بانحناء كبيرة، صعد نحو التابوت، الذي كان قائماً في مكان مرتفع، وهنا غطس برأسه في داخل التابوت، وقبل مستودع ذخيرة الحكمة السماوية، وأعني بذلك رأس العذراء المقدس، ثم رفع نفسه وانتصب قائماً ثانية، وبقي واقفاً إلى جانب رأس التابوت، وبعد ذلك اقترب الرهبان منه، مبتدئين بالأسن منهم، وقبلوا الآثار المقدسة، وفق الطريقة نفسها التي عملها راعي الدير، وجئنا نحن الحجاج بعد الرهبان وتعبداً الآثار بالطريقة المعتادة، وبعدما فعل قائدو حميرنا الشيء نفسه، وبعدما فعلنا ذلك، أعطاني جميع النبلاء منا جميع مجوهراتهم من الذهب ومن جواهر الفضة، حتى ألمس الآثار المقدسة بهم، وهكذا أخذت كل من المجوهرات التي عهد بها إليّ في أولم، من قبل الناس الأعزاء علي، ومجوهرات رفاقي من موالي الفرسان، ووضعت كل قطعة منهم في التابوت، حيث لمست بهم الرأس المقدس للعذراء النيلة.

ومن أجل توضيح للمس الآثار بالجواهر، إنظر إذا رغبت ماتقدم في ص ١٩٨، وعندما كنت أفعل هذا لم يرفع راعي الدير الذي وقف إلى جانبي ناظره عني، وراقب يدي بعناية كبيرة، وذلك خشية سرقة أي من الآثار المقدسة، لأنه بالفعل جرت سرقة كثيراً من الآثار المقدسة في ماضي الأيام من قبل الحجاج، أو أخذت بناء على التماسات الأباطرة، والأساقفة والملوك، وجرى إعطاء الكثير وفق هذه الطريقة، حتى أن المتبقي الآن من الجسد المقدس أقل من النصف، ولأنهم يعرفون هذا، فإنهم يتولون حراسته بكل عناية من اللصوص، ولا يمكن الآن لأعمال التوسل أو الرشوة أن تقنعهم بالتخلي عن أية قطعة، وما يزال الجزء الأكبر موجود هناك، أي مازال موجوداً: رأس العذراء المقدسة، مغطى

بتاج ذهبي مرصع بكثير من الجواهر، مع رمز القداسة، والذراع الأيسر الذي أصابعه مغطاة بخواتم ثمينة جداً فيها أحجار كريمة، وكانت اليد الأخرى — كما أخبرنا الرهبان في جورجيا، لكن الذين في رودوس يتبعجون بأنهم يمتلكونها، وهم يعرضونها على الحجاج، وقد رأينا بعض الأضلاع، وقطع من العظام، وكثيراً من أطراف العذراء المقدسة موضوعين في التابوت.

ويبدو أن العظام المقدسة قد وضعت في زيت، لأن لونهم ليس أبيض، لكن لونهم لون عظام أو قطع من الخشب قد وضعت في الزيت، ومن المعتقد في الكنيسة المقدسة أن أطراف العذراء تعرقت فيما مضى زيتاً، لكن هذه المعجزة قد توقفت منذ زمن طويل مضى، والأطراف المقدسة ملفوفة الآن بالحرير، وقد جرى إعطاء قطع منه إلى الحجاج عوضاً عن الزيت، وهم ينقعون هذه القطع من الحرير في المصابيح المعلقة في بيعة القديسة مريم في العليقة، ويحملونها معهم إلى مواطنهم بمثابة زيت القديسة كاترين.

وكان معي قارورة صغيرة ملأتها بالزيت نفسه، وغطست فيها كثيراً من الصوف، هذا وإنني أعلم أن الزيت الذي من المكان المتقدم ذكره، مؤثر جداً على الحرير، وعندما أخيراً أراد راعي الدير إغلاق تابوت العذراء، أشرنا له بإبقائه مفتوحاً قليلاً من الوقت بعد، وذهبنا ثانية واحداً تلو الآخر، بالنظام والترتيب نفسه كما كان من قبل، وقبلنا الآثار المقدسة ووضعنا تقديمتنا من الذهب والفضة في التابوت، فقد وضع بعضنا أربع دوقيات، وبعض آخر ثلاثة، وبعض دوقيتين، ووضع الشطر الأكبر ما لا يقل عن دوقية واحدة، وعندما كنا نفعل ذلك غنيا ترنيمات تجاوبية جماعية إلى جانب التابوت، وتلونا المجموعات المحددة في كتب المسيرات، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ثم قام حافظ المقدسات بجمع تقديمتنا، وأغلق التابوت.

وهذا التابوت قائم فوق مكان مرتفع على الجانب الأيمن من السدة، وهو مصنوع من رخام أبيض مصقول، ومحفور على وجهه كله صور، ونباتات، وأوراق، والتابوت ليس مصنوعاً بطول جسم انساني، بل أقصر من ذلك بكثير، لأنه صنع لحفظ العظام فقط، ومعلق إلى جانبه كثيراً من المصابيح المضاءة، كانت تغذى فيما مضى من الزيت الذي رشح من أطراف العذراء، ولكن عندما توقفت هذه المعجزة، ظلت أطرافها مليئة بالزيت، لكنها توقفت عن الرشح، إلا إذا حكّت بشدة وبناء عليه قرأت في كتب حج قديمة، أن الرهبان اعتادوا، بناء على طلب من الحجاج على حك واحدة من عظام العذراء، وكان الحجاج يأخذون الزيت الذي يرشح من العظم، لكن هذه المعجزة، قد توقفت، إنما قد تبعها معجزة أخرى، ففي كل سنة، في يوم عيد العذراء يطير إلى هنا بعض الطيور الجميلة جداً، من أنواع غير معروفة، يحمل كل منها في منقاره أغصاناً خضراء من شجر الزيتون، مغطاة بالثمار، وتقف هذه الطيور على سقف الكنيسة، وترمي بالأغصان نحو الأسفل، حيث كان الرهبان يلتقطونهم، ويستخرجون منهم زيتاً طيب الطعم، بكميات وافرة تكفيهم طوال السنة لمائدتهم ولمصابيحهم.

وأخيراً توقفت هذه المعجزة، إما بسبب أن عصر المعجزات قد انقضى، أو لأن المعجزات أسيء استخدامها، أو بسبب عدم جدارة الانسان، وأن الذنوب أعاققت المعجزات عن الحدوث، ولأن الرب جهم وسائل أخرى، لأن القاعدة لدى اللاهوتيين، أن الرب لا يعمل معجزات مالم تكن هناك حاجة خاصة إليهما، ففي الأيام الخوالي، عندما عاش الرهبان الذين سكنوا هنا بفقر وشقاء، أمدهم الرب بشكل إعجازي، لأنهم وضعوا جميع آمالهم فيه واعتمدوا عليه، كما قال المزمور: «ألقوا أثقالهم على الرب، وهو سوف يطعمهم» وقال أيضاً: «المسكين صرخ والرب استمعه» (المزمور: ٣٤/٦)، غير أنهم مع مرور

الوقت أخذوا يخافون من الفقر، فصاروا يعملون زاداً لأنفسهم، ويطلبون الصدقات، ويشترون الموارد، ويحصلون على خفارات، ويزرعون بساتين من حول الدير مع بذل جهود كبيرة، ويرعون زراعة أشجار الزيتون في الأماكن الصحراوية، وعندما غدت هذه الأشجار قائمة، لم تعد هناك حاجة مطلقة لأية معجزات.

ومثل هذا كان قد حدث مع بني إسرائيل، فهم عندما كانوا يعيشون في الصحراء عاشوا على المن اللذيذ، إنما عندما حصلوا على ثمار الأرض المقدسة للأكل، توقفت معجزة المن (يشوع: ١٢/٥) كما أنه لم تعد هناك حاجة لعصر المعجزات، حيث لم تعد هناك حاجة للزيت ليتدفق من أجل معالجة المرضى، أو للبرهنة على قداسة العذراء، ولذلك فإن المعجزات قد توقفت هنا وعند أضرحة القديسين الآخرين، ولم تعد تصنع، هذا وإن عظام العذراء المقدسة كما يبدو مليئة بالزيت، وعندما يُضغَط عليها ترشح زيتاً، كما هو واضح، ولذلك ينبغي أن لا يظن انسان بأن معجزات القديسة كاترين قد توقفت كلياً، مع أنهم لم يعودوا يُصنعون إلى جانب ضريح العذراء المباركة، لأننا غالباً ما نشاهد معجزات كبيرة تُعمل من قبل القديسين في أماكن ليست فيها أجسادهم ولا قبورهم، فمعجزات عظيمة صنعت في هذه الأيام من قبل القديسة كاترين في أماكن كثيرة، من ذلك على سبيل المثال، في دير للراهبات القانونيات النظاميات في روانورث Reuenorth ، في أبرشيته كولون، وهو مكان تحدث فيه معجزات لم يسمع بمثلها، فقد قيل بأن الزيت، والحليب، والبلسم، والمن، يتدفق من قطعة صغيرة من عظام القديسة كاترين، وأشياء أخرى مذهشة قد قيل بأنها حدثت هناك، وذلك استناداً لشهادات شهود موثوقين، وجاء في حكاية « حياة القديس هيلاريون » بأنه مامن معجزة قد صنعت في ذلك المكان الذي يرقد فيه جسده في سورية، بل صنعت معجزات جبارة في إحدى الحدائق

الصغيرة في قبرص، حيث سكن في أيام حياته، وكذلك الأمر مع القديسة كاترين.

والذي بقي علينا الآن أن نرى كيف تم العثور على جسد القديسة كاترين وكيف أنه أحضر إلى هنا، فعندما صدر الحكم الجائر للامبراطور مكسينتوس Maxentius في الاسكندرية، جرى قطع رأس العذراء الفضيلة بعد كثير من العذاب، ووقتها اختفى جسدها بشكل مفاجئ، وعندما اجتمع المؤمنون مع بعضهم، حتى يقوموا بنقل الجسد ودفنه، لم يتمكنوا من العثور على شيء، ولم يعرفوا إلى أين ذهب، ذلك أن الكائنات غير المرئية التي ترعى القديسين، وهم الملائكة المباركون، قد حملوها في اللحظة التي قد فارقت فيها الحياة، ونقلوها خلال الهواء إلى قمة جبل سيناء، إلى المكان الذي تقدم وتحدثنا عنه، وافترض أهل الاسكندرية بأن جسدها وروحها قد حملا معاً إلى السماء، وبقي جسدها المقدس ممدداً هناك لمدة ثلاثمائة سنة، وفي أثناء تلك المدة تلقت العربية كلها ومصر عقيدة المسيح، وعندما حدث وامتلأت القفار كلها برهبان مقدسين، جرى بناء دير في سفح جبل سيناء تشریفاً للعذراء مريم المجيدة جداً، وذلك في عليقة موسى (المشتعلة)، وقد كان هناك نوعان من الرهبان الذين سكنوا في القفار، فقد كان هناك رهبان مقيمين، سكنوا مع بعضهم في ديرة، وعبدوا الرب في ظل نظام، وكان النظام الذي أعطي لحياتهم قد قدمه إلى القديس باخوميوس Pachomius ملاك، وهو مكتوب على ألواح من النحاس، وذلك كما ورد في Spec-ulum Historiale — الكتاب الثامن عشر، الفصل السابع .

وكان النوع الآخر منهم من النساك، الذين عاشوا حياة عزلة، ورفضوا الحديث مع بني البشر، وتجولوا حول قلب القفار وسكنوا في كهوف في الأرض، وكان هناك بشكل خاص في قفار سيناء كثيراً من الرهبان الأتقياء من النوعين، وكان في الدير القائم تحت جبل حوريب،

راعياً للدير رجلاً جيداً، كان غالباً مافكر بالذهاب مع رهبانه للبحث عن القديسين في القفار، لكن دوماً منع من القيام بذلك، لكنه تلقى في إحدى الليالي أمراً في المنام للانطلاق في الغد مع رهبانه، حيث سيكتشف كنزاً سوف يشتهيهِ الشرقيون والغرييون سواء، وفي الغد استدعى جميع رهبانه، وأخبرهم بما تعهد به، وجعل قلوبهم تتحرق برغبة عارمة للعثور على ذلك الكنز، وانطلقوا جميعاً من الدير بحثاً عن الكنز وتحولوا في القفار، غير عارفين إلى أين يذهبون، لكنهم كانوا متشوقين وكلهم رغبة، وفتشوا بفضول وبحثوا بين شعاب الصخور، وكهوف التلال، وتجولوا فوق الصخور الوعرة، وفتشوا بكل دقة الجبال، والوديان، ومجاري السيول، وفيما هم يفعلون ذلك اقتادهم الرب إلى كهف تحت صخرة عالية، حيث وجدوا راهباً قديماً، لم يكونوا قد رأوا وجهه من قبل، وقد سأل الرهبان عما يريدون، وعن الذي عنه يبحثون، وقد أجابوه: «لقد قدمنا بناء على أوامر من الرب بحثاً عن كنز يشتهيهِ الشرقيون والغرييون»، ورد عليهم الرجل العجوز قائلاً: «وأنا أيضاً غالباً ما أمرت بفعل الشيء نفسه، لكنني كنت أخشى من غواية العدو، وقد أجلت فعل ذلك حتى الآن، إنما الآن سوف أذهب معكم من دون خوف للبحث عنه»، وسأله الرهبان: «وأين تعتقد علينا أن نبحث؟ فأجابهم» فوق، على قمة هذا الجبل المرتفع، حيث غالباً مارأيت ضوءاً مشعاً واضحاً، وأنا لأشك أن شيئاً مقدساً ماخفياً هناك، لكن كما ترون ذلك المكان مرتفع، ومن الصعب الوصول إليه بسبب علوه، ثم إنني لم أمتلك الشجاعة قط للتسلق إلى هناك، كما أنني لم أتجرأ في البحث وحدي في مجد الرب الذي أشع من هذا الجبل، لكن دعونا الآن، نصعد معاً ونبحث هناك»، وكان ذلك جبل القديسة كاترين، الذي لم يصعد إليه انسان قبل هذا الوقت، وهكذا ذهبوا مع بعضهم وبعد بذل كثير من الجهد، والتعرض لكثير من المخاطر وصلوا إلى القمة، وعندما وصلوا إلى هناك، وجدوا الجسد الكامل للعذراء،

موضوع بشكل اعجازي في لحد من الصخر، وكان هذا اللحد مليئاً بالزيت، ولم يشكوا بأن هذا كان هو الكنز، الذي وعدوا به، غير أنهم جميعاً لم يعرفوا إلى من عاد الجسد، ولا إلى أية قداسة، ولذلك انكبوا بأنفسهم نحو الأرض حول الجسد، والتمسوا من الرب أن يمن عليهم بفضله فيبين لهم اسم تلك القديسة وفضائلها، وأثناء صلاتهم، فجأة ظهر أمامهم ناسك مسن آخر، ووقف فوق الصخور، وقال: «اعلموا أيها الإخوة، بأن الرب قد أرسلني إليكم لأبين لكم: اسم، وحياة، وفضائل، ومجد هذه العذراء العظيمة القداسة»، وشرع بعد هذا يخبرهم عن أصلها، واسمها، وأسرتها، وعن تحولها إلى المسيحية، وعن آلامها، ومكان آلامها، وعن اسم قاضيتها، وعن الزمان الذي وقعت فيه هذه الأحداث، وعن موتها، وعن النقل الاعجازي لجسدها إلى هذا المكان، وعن الحراسة المتواصلة والحفظ لها من قبل الملائكة حتى ذلك اليوم، ثم أمرهم ذلك الراهب بأخذ جسدها من هناك، وبحمله إلى دير القديسة مريم عند العليقة، لأنه ينبغي أن يقدم الناس من أقصى أطراف الأرض لزيارة هذه الآثار المقدسة، وعندما فرغ الراهب من كلامه هذا، قبل العظام المقدسة، ثم انزل فجأة مغادراً فوق الصخور، وركض نازلاً من الجبل، وعاد إلى كهفه، وهو مكان مامن انسان عرفه، ولم يشاهد ثانية من قبل أي مخلوق.

وتولى الرهبان نقل جسد القديسة كاترين مع احترام عظيم، وحملوه إلى كنيسة القديسة مريم عند العليقة، حيث وضعوه في تابوت رخامي، كما هو مشاهد حتى هذا اليوم، وصار مطلوباً من جميع المسيحيين المؤمنين الموزعين في طول الأرض وعرضها، مقابل المخاطرة بحياتهم، ومع أعظم الجهود المبذولة والمتاعب والنفقات، ولذلك أمر واحد من البابوات بشكل خاص بتحريم القيام بهذا الحج، مع فرض عقوبة الطرد من الكنيسة، وذلك بسبب مصاعب الرحلة، والمخاطر المحيطة بها،

وجرى تحريم الحج إلى القدس بسبب المسلمين، وفي الحقيقة إن هذا الحج هو عطلة، ورحلة ممتعة مقارنة بهذه الرحلة.

وعندما فرغنا من أعمالنا عند ضريح القديسة كاترين، سرنا في مسيرة خارجين من السدة إلى بيعة القديس يوحنا المعمدان، حيث هناك كثيراً من الآثار، وغفرانات عظيمة، وهنا صلينا إلى القديس يوحنا، وحصلنا على غفرانات(+)، وعندما انتهت صلواتنا في تلك البيعة، جلسنا جميعاً بناء على أمر حافظ الذخائر، ودخلنا حفاة إلى بيعة أخرى ملاصقة لتلك البيعة، ولقد مررنا من خلال باب صغير، قائم عند رأس الكنيسة الكبيرة، وكانت أرض هذه البيعة مغطاة بسجاد ثمين جداً، أما الجدران فكانت مغطاة بالواح من الرخام المصقول الثمين، وكانت البيعة منارة بكثير من المصابيح، وكان كل شيء في هذه البيعة جميل، مزين، وتقي، فهنا هو المكان الذي قامت فيه معجزة عليقة موسى، التي رآها تحترق، واللهب يتصاعد عالياً منها، ومع ذلك لم تتضرر بأي نار، ذلك كما قرأنا في سفر الخروج: ٣، وأكثر إعجازية من هذا كان تحقق هذه الرؤيا، أي عندما اشتعلت مريم، التي هي العليقة الدائمة الاخضرار، والدائمة الازدهار، والرائحة الطيبة، وحملت بوساطة النار الربانية، في حين لم تتعرض عذريتها لأي أذى، وحول هذه العليقة المقدسة تغني الكنيسة Rubum quem viderat moyses incombustum، النخ، وقد غنينا هذه الترنيمة هناك، وانكبنا بأنفسنا نحو الأرض حيث وقفت العليقة، وقبلناها بخشوع فائق، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وتحت المذبح الموضع الذي من المعتقد أن العليقة وقفت عليه، ويوجد في الأرض لوح نحاسي، حفرت عليه صورة العليقة المشتعلة، وموسى جالس، وهو يخلع نعليه.

وكثير من المصابيح هي معلقة فوق الموضع، لأنه موضع احترام عظيم من قبل جميع الناس، ويتوسل مسلمون، وبداة عرب، وأتراك،

باخلاص حتى يسمح لهم بالدخول إلى هذا المكان، وعندما يُسمح لهم لا يدخلون إليه إلا وهم حفاة، ويكون اليهود في غاية السرور للدخول إليه، لكن لا يُسمح لهم بذلك، ويعتد هذا المكان مقدساً بشكل خاص من قبل جميع المسيحيين، من كل من الشرقيين والغربيين، لكن الشرقيين قد قاموا بحرماننا نحن الغربيين من ممارسة الصلوات وعمل القداسات فيه، وهم لا يسمحون لنا بالدخول إلى ذلك المكان لتلاوة قداس، على أساس أن المذبح في البيعة هو ملك للاغريق، الذين لا يسمحون لنا، بأي حال من الأحوال، بإقامة قداسات على مذبحهم، وذكرت هذه العليقة من قبل الرب (مرقس: ١٢)، وقد ظهر الرب إلى موسى في العليقة، خشية أن يعمل اليهود لأنفسهم وثناً، حسبما ورد إلينا الخبر في التعليقات على الخروج: ٣، وكانت هذه العليقة من أكثف أنواع العليق، أو شجرة شوكية مع ثمار توت حمراء اسمها Hagdorn.

وعندما فرغنا من بيعة العليقة، عبرنا إلى بيعة أخرى، مكرسة إلى القديس جيمس، فيها تلونا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات (+)، وذهبنا من تلك البيعة إلى بيعة القديس أنتفيتوس Antiphitus، حيث تعبدنا الرب، وحصلنا على غفرانات (+)، ودخلنا بعد هذا بيعة القديسة هيرينا Hyrina العذراء، حيث صلينا، وحصلنا على غفرانات (+)، وغادرنا تلك البيعة، ودخلنا إلى بيعة العذراء مريم المجيدة، التي دعونا إليها بخشوع، وحصلنا على غفرانات (+)، وعبرنا من هذه البيعة إلى صحن الكنيسة، وفي هذه الكنيسة اثني عشر عموداً عليهم رست المنشأة كلها، حيث هناك ستة من الجانب الأول، وستة من الجانب الآخر، وطولانيا قد بنيت وفق نموذج كنائسنا، ويوجد في هذه الأعمدة كثيراً من الآثار المقدسة محفوظة، ومعلق على كل عامود صورة رسم عليها القديس الذي تعود إليه الآثار التي يحتوي عليها العامود، ويجري الاحتفال بأيام أعياد هؤلاء القديسين في مواسمهم، لأن الاغريق لديهم ترتيب

للتقويم، فيه في كل شهر من أشهر السنة يوم واحد للاحتفال بعيد القديسين الذين آثارهم موجودة في الأعمدة في وقت واحد، أي على سبيل المثال، يأخذون في شهر كانون الثاني العمود الأول، مع كثير من القديسين، يجري الاحتفال بأعيادهم جميعاً في يوم واحد من ذلك الشهر، ولا يقتصر الاحتفال على القديسين الذين صورهم مرسومة ومعلقة على ذلك العمود، أو الذين آثارهم محفوظة فيه، بل يشمل الاحتفال جميع القديسين الذين وقعت أيام وفياتهم أو ولادتهم في ذلك اليوم، وعلى هذا المنوال فإن العمود الثاني مخصص لشهر شباط، والعمود الثالث لشهر آذار، وهكذا دواليك، هذا ولكل عمود غفرانات خاصة متعلقة به، أسرعنا للحصول عليها.

وذهبنا إلى عمود كانون الثاني، وجثونا من حوله، وتوجهنا بالدعاء إلى القديسين الموجودة آثارهم فيه، وقدمنا أيضاً التشريف إلى قديسينا الذين دونت أسماؤهم في التقويم الثاني (لشهر كانون الثاني)، وحصلنا على غفرانات لمدة سبع سنوات (+)، ثم إننا نهضنا، وذهبنا إلى عمود شهر شباط حيث تلونا صلواتنا، حسبما تقدم، وحصلنا على غفرانات (+)، وذهبنا بعد ذلك إلى عمود شهر آذار، حيث صلينا بخشوع، وحصلنا على غفرانات (+)، وجثونا بعد هذا حول عمود شهر نيسان، ودعونا إلى أسماء القديسين، وحصلنا على غفرانات (+)، ومضينا من ذلك العمود إلى عمود شهر أيار، حيث جثونا للصلاة، وحصلنا على غفرانات (+) ونهضنا من هناك، وذهبنا إلى عمود شهر حزيران، حيث صلينا، وحصلنا على غفرانات (+)، وكان هذا العمود هو الأخير على الجانب الأيمن، وبعد هذا سرنا عبر وسط الكنيسة إلى آخر الأعمدة، وهو عمود شهر تموز، الذي صلينا إلى جانبه لبعض الوقت، وحصلنا على غفرانات (+)، ومن هناك ذهبنا إلى عمود شهر آب، الذي من حوله توسلنا إلى القديسين للحصول على غفرانات (+)، وكنا نأمل

بأننا قد أصغى إلينا، ومن هناك ذهبنا إلى عمود شهر تشرين الأول، حيث جثونا ودعونا جميع القديسين حتى يصلوا من أجلنا، وحصلنا على غفرانات (+)، ثم نهضنا، ومن هناك توجهنا إلى عمود شهر تشرين الثاني، حيث تولينا الصلاة للحصول على غفرانات (+)، ومن هناك ذهبنا إلى رأس الأعمدة وآخرها، الذي هو عمود شهر كانون الأول، وتعبدنا قديسي شهر كانون الأول، وتابعنا سيرنا من هناك، فخرجنا من (صحن) الكنيسة، إلى سدة الرهبان، حيث تمددنا بأنفسنا أمام المذبح العالي، وتوسلنا للحصول على الرحمة الربانية، ولتلقى الغفرانات (+)، ومذبح السدة مكرس للامبراطور قسطنطين الكبير، ولأمه الامبراطورة هيلانة التي يتعبدها الاغريق مع الاحترام الأعظم.

وقد منحت الغفرانات المتقدمة الذكر إلى هذه الكنيسة، والبيع من قبل البابا، بناء على طلب من الاغريق أو من قبل بطريق الاسكندرية، الذي يسكن بالعادة في روما.

وأخيراً عدنا إلى ضريح القديسة كاترين، العذراء المجيدة، حيث قبلنا التابوت المقدس، وقمنا بإنهاء مسيرتنا، وينبغي أن يُلاحظ، أننا زرنا الأماكن المتقدمة الذكر للغفرانات، ليس فقط في ذلك اليوم، بل في كل يوم، والذي كان في ذلك اليوم هو مسيرتنا المهيبة.

وبعدما أنهينا مسيرتنا، مضينا إلى أماكن إقامتنا، وطبخنا طعامنا من أجل الغداء، وجلسنا باكراً للغداء، لأننا جميعاً كنا قد تناولنا قربان عشاء الرب، وفي أثناء جلوسنا إلى المائدة، جاء اثنان من رهبان الدير، جرى إرسالهما من قبل راعي الدير، مع هدية لنا، فقد حملاً طبقاً مغطى فيه أرغفة من الخبز المبروم المصنع بالتوابل، مثل الحلويات بالعسل، أو الخبز بالزنجبيل، وذلك مع تمر وتين، وعنب، وزبيب، ولست أدري من أين حصلوا عليهم، إنما قدموهم لنا بلطف، وتسلمناهم باحترام، وأعطينا بعض المندوسات إلى الحاملين، وأرسلنا بعد الغداء خلف كاليينوس

ورجونه عدم التأخر أكثر، وأن يتولى قيادتنا على طريقنا إلى مصر، وذلك تطبيقاً لشروط عقدنا، وعلى هذا أجاب كاليانوس، أنه على استعداد للانطلاق في أية لحظة نريد، غير أنه قال بشكل خاص: «إنني أخشى أننا لن نكون قادرين على مغادرة هذا المكان بسلام، لأن الدير مليء بالبداة العرب، الذين جاءوا من أجلنا».

وصف دير القديسة كاترين، وتأسيسه، والكنائس الثلاث

القائمة هناك، وأشياء كثيرة أخرى

يفضل الآباء المقدسون الذين سكنوا في القفار قفر جبل سيناء هذا على جميع الأماكن الأخرى. وموضع العليقة حيث ظهر الرب إلى موسى، وقد ترددوا على زيارة هذا المكان، وتعبدوه على أنه بقعة ذات قداسة عظيمة جداً، وموقع موائم لأعلى التأملات، وامتلك بعض الرجال القدماء أيضاً قلايات هناك، وفي أيام حكم الامبراطور جستنيان في سنة ٥٢٨ لتجسيد ربنا، تحرك هذا الامبراطور نفسه بتوسلات رجال مقدسين من أجل تأسيس كنيسة ودير، فوق مكان العليقة، تشريفاً للعدراء مريم المباركة، وقد أطلق على هذه الكنيسة اسم كنيسة القديسة مريم في العليقة، وهي تعرف بالشرق حتى هذا اليوم بهذا الاسم، لكننا، سميناهم منذ نقل القديسة كاترين إلى هناك باسم كنيسة ودير القديسة كاترين.

والسور المحيط بالدير ضخيم، لأنه سميك ومرتفع، مع شرافات، وأبراج ناتئة، وله ممر حوله كله بالأعلى، وقد بني من حجارة منحوتة مربعة، وهو محصن بشكل ممتاز في الجزء القريب من المدخل ومن البوابة، حيث يمكنه أن يصمد لوقت طويل ضد أي واحد يحاول اقتحامه، وإحداث عيث، كما ربما قد يفعل بعضهم، لأنني لاحظت أن السور قد تحطم في بعض الأماكن بشكل واسع وأعيدت عمارته.

ويوجد في داخل اطار السور ثلاث كنائس، الكنيسة الأولى منهن اغريقية، والثانية لاتينية، والثالثة (مسجد) اسلامي، والكنيسة الأولى والرئيسية بين هذه الكنائس هي كنيسة القديسة مريم في العليقة، حيث يستريح جسد القديسة كاترين، وهي في حفظ رهبان يتبعون الطقوس الاغريقية، وهذه كنيسة مستطيلة واسعة مسقوفة بالرصاص، من دون قبة أو برج، وأيضاً من دون نواقيس أو ألواح قرع خشبية، وعوضاً عن ذلك لديهم أداة أخرى بوساطتها يدعون المؤمنين للاجتماع من أجل الصلوات الدينية، فهناك عصا من الحديد معلقة من مكان مرتفع، وقد تعلق عليها أجراس برونزية لها أصوات عميقة، ويقرّع حافظ الذخائر على هذه الأجراس بمطارق، بترتيب خاص ومعيار، فيصدر عن ذلك موسيقى جميلة جداً، إلى حد أنه يمكن للانسان أن يرقص على الصوت الصادر عن الأجراس، لأن التلحين جيد جداً، وهو لحن بهيج، هذا ولقد أطلق عليهم بشكل موائم جداً اسم الأجراس الصغيرة، لأنه في القديم قبل استخدام الأجراس الكبيرة، كان يجري دعوة الناس إلى الصلوات بوساطة الأجراس الصغيرة، وداخل الكنيسة جيد التزيين، وهي مقسمة إلى كثير من البيع، وفيها معلق الكثير من المصابيح، وذلك إلى جانب مصابيح القديسة كاترين، والمذابح، والأعمدة الاثني عشر، وكان أمام مقعد كل راهب مصباح مضاء، وتتصل هذه الكنيسة عند رأسها بكنيسة العليقة، التي تقدم ذكرها.

والكنيسة الثانية هي الكنيسة اللاتينية، إلى جانب قلايات الحجاج، وهي ضيقة، عبارة عن قاعة مستطيلة، مع مذبح جيد التزيين، مكرس للقديسة كاترين، وجدران هذه الكنيسة من الطين، غير أنهم مستورين بحصر من ألوان متنوعة، وقد جرى تصنيعهم وتزيينهم بسعف النخيل، وجرى تعليق كثيراً من الأوراق على هذه الحصر، كتب عليها صلوات جميلة موجهة إلى القديسة كاترين، وجرى كتابتها من قبل حجاج، لأنه

قد جرت العادة أن تقوم كل جماعة من الحجاج بكتابة أشعار حول القديسة كاترين، وتعليقها على الجدار، وفي هذه الأشعار لابد من مدح كاترين المباركة، وذكر اسم كل واحد من جماعة الحجاج، ويكون هذا إذا توفر واحد بين الجماعة يمكنه أن ينظم الشعر، وكان في الفئة الثالثة من جماعتنا من الحجاج المعلم المبجل جون لاسينوس Lacinus (كذا) وكان رئيس شمامسة سييين كريشين Sieben kirchen (في ترانسلفانيا)، كما أنه كان خطيباً متعلماً، وقد كتب مباشرة من دون تحضير، الأبيات الشعرية التالية من أجل رفاقه:

تسلمي تاجك، الذي هو جائزة حياتك العذرية،

أتوسل إليك يا كاترين الشهيدة المجيدة،

تقبلي التعب الذي من أجلك تحملناه،

باركينا، مع أننا قد نكون اليوم، غير جديرين.

من مدينة جوليا القائمة قرب الدانوب،

كان جون اللاوي أول من انحنى أمام عرشك،

ثم تلاه فيلكس، المجيد من أرض أولم،

المتعلم بشكل مزدوج، وللب أعطى كل تراثه،

وهنري أوف سكومبيرغ، وكاسبر أيضاً، اثنان،

مثل نيسوس ويوريالوس في التقوى.

ولورد أوف مارسباخ من فرانكونيا العادل،

وبطرس فلسخ أوف أرجنتاين القوي،

جميع هؤلاء إلى معبدك قد جاءوا،

وهم جميعاً عائدون إلى وطنهم،
وهم يرجونك أنهم فوق الأرض والبحر الذي بلا حدود،
علمهم جميعاً يرتحلون عائددين بسلام.
وقد بدأ يكتب أشعاراً للفتتين المتبقيتين، لكنه لم يجد الوقت لانتهاء
ذلك بسبب مغادرتنا المباشرة.

وبإخلاص رجوت الرجل المتعلم المتقدم ذكره لابدال كلمة «مفيد»
من أبيات شعره، لأنها بدت لي أنها لاتوائمني، وأن يقول ماهو صحيح،
غير أنني لم أستطع اقناعه لأن يفعل ذلك، وقال: «إذا كانت غير
صحيحة من جانب أول، إنها سوف تكون صحيحة من جانب آخر،
والذي قد كتبه قد كتبه».

والكنيسة الثالثة، التي لاستحق أن تدعى كنيسة، هي مسجد
للمسلمين، وهي بناء واسع مربع، مع منارة طويلة ملتصقة به، من
عليها ينادون بمديح محمد ﷺ وفق طريقتهم، وهذا المسجد قائم بين
الكنيستين الاغريقية واللاتينية، وذلك في الوسط وكأنه المكان الرئيس
بين الثلاثة، ودخلنا إلى هذا البيت أيضاً، عندما لم يكن البداة العرب
هناك، فلم نجد هناك لامتعة ولاتدين، ولاغفرانات، بل بيت فارغ مع
جدران مطلية بالبياض، ولم نجد هناك مذبحاً، لأنهم يدخلون إليه فقط
للقيام بشعائر لامعنى لها، ومكاتب الدير الأخرى صغيرة وتعيسة،
والقلايات صغيرة جداً، وهي مصنوعة من قصب منسوج بالطين،
وتستند واحدة على أخرى من دون نظام متبع، وهي مجرد غرف
صغيرة، مثل أكواخ الرعيان، أو بيوت الأدوات في الحدائق.

والدير مبني جزئياً على سفح جبل حوريب، وتستند القلايات العليا
على القلايات الدنيا، وهي ملتصقة احداها على الأخرى مثل عش
الدبابير، وعندما شاهدتهم تذكرت تاكسوس Taxeus ابن كولوس

Colus، الذي عنه حدثنا بليني في كتابه حول «التاريخ الطبيعي»، بأنه كان أول من اخترع البيوت الطينية، حيث أخذ أعشاش الدبابير نموذجاً له، لأن المهندسين في تلك الأيام لم يكونوا قد بنوا القصور بعد، وقد مارس هذه الطريقة المتواضعة في البناء الآباء المسيحيون المشهورون والعظيمون للأيام الخوالي، لأنه بالفعل سكن روملوس، مؤسس مدينة روما، في بيت ريفي صغير، وسكن ابراهيم، الذي كان رجلاً غنياً جداً، في خيمة في أرض الميعاد، كما ورد الخبر في حبقوق: ٩/١١، وهناك زاره الملائكة (التكوين: ١٨/١).

ودوما تمدد الفيلسوف ديوجينيس Diogenes في إنبوب، واعتاد التنقل هناك حسبما كان يرضيه، وفقاً لاتجاه هبوب الريح، وحكى أوفيد أن الشخصين القديمين فايلمون Philemon وبوسيس Baucis كان لديهما بيت ريفي مصنوع من الخوص، وقد زاره الربانان جوبتير وميركوري عندما كانا يتجولان فوق الأرض معاً، وبعد ذلك كان الربان ممتنان لحسن الضيافة التي لقيها، وأمرأ ببناء هيكل كبير على تلك البقعة، وجعلاً منهما كاهناً وكاهنة للطقوس المقدسة هناك، وبعد موتها جعلاً معاً ريين، علاوة على ذلك قضى ربنا يسوع بأن يولد في اسطبل نزل، ولم يمتلك قط بيتاً خاصاً به، وكان أيضاً القديس بولص، وهو أول النساك، قد سأل القديس أنطوني، عما إذا كان المسيحيون قد شرعوا ببناء بيوت عالية مثل الكفار، وعندما سمع بأنهم فعلوا ذلك، وقع يبكي بمرارة بسبب حماقتهم، ومثل هذا فعل القديس برنارد عندما شاهد أكواخ الرعيان المصنوعة من القصب، فبكى لدى تذكره أن الرهبان السسترشيان قد سكنوا فيما مضى بمثل هذه الأكواخ، وهم الذين كانوا قد شرعوا آنذاك في الإقامة في أبنية عظيمة.

وعندما عاد القديس دومنيك من بولونا Bologna، بعدما كان غائباً لوقت طويل، وجد مهجعاً وقلايات قد ارتفعت فوق الأرض، التي

ارتاحوا عليها من قبل، وعندما شاهد هذا حزن حزنًا عظيمًا وقال: «يا إخوتي إذا كنتم قد بنيتُمْ أماكن وأنا ما زال حيًّا، مالذي سوف تعملونه بعدما أكون ميتًا؟ وأمرهم بهدم كل مارفعوه، وبإعادة الأبنية إلى أماكن عليهما من قبل، وكان لدى الأسقف العظيم القديس مارتن قلاية خشبية قرب كنيسته، وقد قرأنا عن واحد من النساء الذي امتلك قلاية عملت على شكل قبر، ولذلك عندما سأله الامبراطور عن المساحة التي استخدمها في بناء قلايته، أجابه: «جسدي شخصيًّا، ذلك أن هذا المكان كافياً لي كييت مادمت حيًّا، وكقبر عندما أكون ميتًا»، وأضاف بأنه من الأفضل القفز إلى السماء من كوخ من أن نقفز إلى جهنم من قصر، ومثل هذا قال القديس برنارد: «إخواني، في حجتنا خلال هذا العالم، وفي منافعنا هنا، دعونا لانبني بيوتاً على الأرض للسكنى فيها، بل خيًّا لنزحف منها، مثل أناس سوف يستدعون حالاً لمغادرتهم للشروع برحلتنا إلى الوطن»، ولقد حكى بأن فولكان حداد جوبتير كان أول من أبدع الأبنية الفخمة.

رهبان دير القديسة كاترين وعاداتهم الشريرة وآثامهم الشديدة

إنها مسألة جادة بالنسبة للإنسان الحريص على تحرير نفسه من كل ذنب أن يقوم بلوم شرور الآخرين، وطالما أنني الآن مقبل على الحديث عن رهبان دير القديسة كاترين، أنا مجبر بالصدق على توجيه اللوم لهم بدلاً من مدحهم، لكن ليس بتوجيه النقد إلى حياتهم الخاصة، واحتوى هذا الدير فيما مضى كثيراً من الرهبان مع الذين كانوا مقدسين جداً، والذين فيه الآن مجرد قلة، وهؤلاء عريان نحو الحقيقة، وقبل مضي سنوات قليلة كان هناك حوالي المائة، والذين وجدوا مؤخراً كانوا ثمانين، لكن الآن ليس هناك فيه ثلاثين راهباً، وهؤلاء الرهبان عادات تستحق الثناء، ولكن بعضها ممقوت، وأنا أثني عليهم لأنهم يأخذون بنظام محدد هو نظام القديس باسيل، ففي ظل قيادته يمارسون حياة قاسية بما فيه

الكفاية تجاه الاقلال من الأطعمة والملابس الخشنة، وطعامهم مثل طعام جميع الشرقيين، هو قليل وشرابهم اليومي هو الماء، باستثناء في بعض أيام أعيادهم العالية جداً، فوقتها يعطى لكل راهب شربة من خمرة، وثيابهم خشنة ووضيعة، وهذه الثياب هي قمصان لها ألوان متنوعة، فراهب يرتدي قميصاً من نوع، وراهب آخر قميصه من نوع مختلف، ومع ذلك مامن واحد من القمصان لونه براق أو من قماش جيد، وهذه القمصان طويلة، تشبه غفارة كاهن، وهم يتمنطقون بحزام عريض، وهم ليس لديهم أوشحة كتفية، بل طواقي رأسية هي ليست مغلقة حول أعناقهم ورقابهم، بل تتدلى نازلة من رؤوسهم حتى ظهورهم، ويوجد أمام الصدغين قطعتين تتلديان من القبعة، وهما تغطيان الجزء الأمامي من الكتفين، وتنزل حتى الحقوين، وهم جميعاً يدعون شعورهم ولحاهم تطول كثيراً، ويلتزمون بطرائق النصارى، حيث لا يأكلون اللحوم مطلقاً، ولا يستخدمون الخمرة كما تقدم القول.

وكثير منهم شيوخ تقدمت بهم السنون، وقورين، ورجال جدّ، وهم يستقبلون أي واحد يأتي إليهم، مهما كانت طائفته، وذلك باستثناء اليعاقبة والأرمن، شريطة أن يخضع نفسه عن طوعية لأحكامهم، سواء أكان لاتينياً، أو اغريقياً، أو ألمانياً، أو مصرياً، وكان من المعتاد قبل أيامنا عمل معجزات فيما بينهم، بسبب قداستهم، ومامن واحد كان يجري اختياره راعياً، بعد موت الذي كان قبله، مالم يأتي تعيينه بوساطة معجزة ماء، مثل اضاءة مصباحه الذي في قلايته بشعلة من السماء، أو بوساطة رؤيا ماء، أو هاتف صوتي.

وأبنيتهم، كما أخبرتكم ليست محط اعجاب، ولاعالية النفقات، وقد تمددت في قلاية واحد من الآباء المتقدمين بالسن، فلم أجد فيها شيئاً سوى علائم الفقر الشديد، ومامن امرأة تدخل إليهم، ولاحتى النساء الحاجات من مناطق ماوراء البحر، لأنهن إذا ماقدمن إلى هناك، يعرف

الرهبان الملاحظة الساخرة المرة:

« إلى المكان الذي تقطن فيه النساء،

يقول السلام والهدوء وداعاً،

لا يمكنها معاً قط استنباط،

طريقة للازدهار تحت سقف واحد،

والذي يعيش حياة منفردة،

هو وحده الذي يعيش من دون صراع»

هذا من دون الحديث عن المخاوف الأخرى التي لا تحصى والتي يواجهها الرهبان بالسكنى مع النساء، وهذه المصاعب عليهم جميعاً إعطاؤها ما تستحقه من ثقل، وأن لا يسمحوا لأية امرأة بالاقتراب منهم.

واعتاد هؤلاء الرهبان في الأيام الخوالي، عندما كانوا ما يزالون مطيعين للكرسي الرسولي، على الترحيب بالحجاج بلطف عظيم جداً، وببشاشة، ويؤمنون لهم ما يحتاجون إليه ويعطونهم أحذية، ولهذا السبب أرسل القديس البابا غريغوري — كما قرأنا في حكايته — مبلغاً كبيراً من المساعدات من روما إلى جبل سيناء إلى هؤلاء الرهبان، لأنه في تلك الأيام عملت أعمال كثيرة جيدة في الشرق لصالح كنيسة روما، لكن في هذه الأيام، مالم الذي يمكنني قوله؟، لو أنني رأيت هؤلاء الإخوة والرهبان، قد أقاموا الموتى، وقرأوا القداسات، واعترفوا بالذنوب، وشغلوا أنفسهم بالأشياء السماوية، وتعاملوا بسلام أحدهم مع الآخر، والتزموا بأحكام نظامهم، وبددوا أجسادهم بالصيام والسهر، وبالغيرة على الفضيلة، ومارسوا الأعمال التقوية الأخرى، مع هذا كله سأقول بجرأة بأنهم ليس لديهم قداسة، وعلينا أن لانشك أنه لا يوجد بينهم استقامة حقيقية، ولأعمال مقبولة من الرب، ولاتدين يرضي الرب،

لأنهم ليسوا في الكنيسة الكاثوليكية، بل خارجها، فهم كما هو واضح منشقين بالدرجة الأولى، ولاصرارهم على انشقاقهم أصبحوا هراطقة، ولذلك ليسوا في موضع الرعاية، لأن أعطية الروح القدس، التي بها تنصب الرعاية في قلوب الناس، لا تمنح للذين خارج حظيرة الكنيسة، وذلك كما تعلمنا من الشريعة القانونية، والذين هم خارج حظيرة الكنيسة لا يمكنهم الحصول على المعرفة الحقيقية أو الفهم الصحيح للرب، كما تبرهن في الشريعة القانونية، ويتبع هذا أنهم لا يستطيعون الاستفادة من قداس القربان، كما أنهم لا يمكنهم التحرر من الذنب بالاعتراف، لأن لعازر لم يقم من الموت إلا في بيت عنيا، الذي هو بيت الطاعة للكنيسة الرومانية، كما أنه لم يكن بإمكان مرثا العيش حياة فعالة، ولا مريم حياة تأمل إلا في ذلك البيت نفسه، كما أنه لا يمكن أن يكون هناك أي سلام أو فضيلة خارج الكنيسة.

ومن الواضح الآن أن هؤلاء الرهبان محرومون كنسياً، ومنشقون، وهراطقة، لأنهم اغريق، والكنيسة الاغريقية بدون رأس، وبالتالي هي ليست شيئاً، علاوة على ذلك أنهم شرقيون، بالنسبة لهم الشمس الحقيقية قد غابت، ويمكنني أن أبرهن على هذا الشيء نفسه بالتجربة، فنحن عندما نكون مقيمين في مكانهم نظرننا إليهم على أنهم محرومين كنسياً، ولم نشارك في أي من صلواتهم أو طقوسهم التعبدية عندما كنا هناك، لأنهم نظروا إلينا نحن أتباع الكنيسة الرومانية، على أننا محرومين.

وتبرهن هذا الأمر بحقيقة أخرى، هي أنهم لم يمنحونا مذبحاً في كنائسهم لإقامة قداس، وقالوا بأن القانون في كنيستهم هو أنه إذا ما أقام أي لاتيني قداساً على مذبح عبائد للاغريق، فإن ذلك المذبح يكون محروماً كنسياً، مدنساً، ويتوجب تكريسه مجدداً من قبل أساقفتهم، وكنا قد أشرنا إلى هذا الموضوع فيما تقدم، ومن هذا كله تظهر بينهم بعض المعايير لعدم حبهم لنا، ولذلك عندما نسير في بلدهم ونسافر في عبادة

الرب يتعاملون بقسوة معنا، ولا يفعلون شيئاً لنا من باب الاحسان، بل كل ما يفعلونه لنا يفعلونه من أجل المال، وذلك مثلما يفعل المسلمون، وفي الحقيقة يتعامل المسلمون معنا في كثير من الجوانب بإخلاص أكبر مما يفعل هؤلاء المتقدم ذكرهم، وأنا أعرف من الخبرة أنهم لا يرضون بفتح باب كنيستهم لأي حاج مالم يروا ماله في يده ليعطى لهم مقابل فتح الباب، وهم لا يعطون انسانا شربة ماء من دون أخذ للمال مقابلها، كما أننا لم نستطع بأية وسيلة من الوسائل اقناعهم بتزويدنا بأحذية لفرساننا الخفاة، بل إنهم رفضوا كل شيء، وأما الأشياء التي لم يكن بإمكانهم رفض اعطائنا إياها، فقد أعطونا إياها بنظرات كلها شذر وتأفف، لكن بقضاء الرب الصحيح تبرهن صحيحاً في هذه القضية المثل الذي يقول: «الذي ضمن به على الشريف منح إلى المنحطين»، لأنهم بالفعل يضمنون على الحجاج باستقبال مشرق، حيث أنهم لا يلتزمون بوصية القديس بطرس في قوله: «كونوا مضيفين بعضكم بعضاً بلا دمدمة» (بطرس الأولى ٤/٩)، ولم يتصرفوا حسبما قال جيروم: «نحن نرحب بجميع الضيوف بملامح مشرقة ونغسل أقدامهم، مالم يكونوا هراطقة»، ولذلك تراهم بموجب الحكمة الربانية يقومون بدون تدمير بخدمة المسلمين ورعايتهم مع البداة العرب، وقطاع الطرق واللصوص، ويعملون أقل الخدمات إلى الذين هم من آل بيت الإيوان، مع أن الرسول يقول: «فلنعمل الخير للجميع ولا سيما لأهل الإيوان» [غلاطيه ٦/١٠]، كما أنهم لا يقيمون وزناً في عقولهم ولا يتذكرون الوصية التاسعة لكاتو Cato في قوله: «انظر جيداً نحو أخلاق الرجل الذين أنت معطيه»، فلطالما هم لا يعطون لمن ينبغي الإعطاء، إلى الذي يكون شاكراً للأشياء الصغيرة، هم مرغمون على الاعطاء بكميات وافرة إلى الذين لا يستحقون، أي إلى هؤلاء الناكرين من البداة العرب، الذي لا يبالون بالرب ولا بالانسان، فهم يعطون في كل يوم خبزاً وشيئاً ما ليؤكل مع الخبز لما لا يقل عن ثمانين من عرب الصحراء، أي إلى أولئك

للصوص، الذين غالباً ما يأتي مائة منهم، وأحياناً أكثر، وإذا لم يعطهم الرهبان مباشرة ما طلبوه، ينقضون عليهم وينشرون الفوضى في الدير، علاوة على ذلك هم أغنياء، ولديهم ممتلكات كثيرة، ذلك أن واحداً من رؤساء أساقفة كريت — وكان من محبي القديسة كاترين العذراء — قد منح الدير العشر الأعظم لكل جزيرة كريت، وشطراً من المكوس في تور Tor، إلى جانب منافع أخرى أنا لا أعرفها، وبالإضافة إلى هذا، يجري إرسال صدقات كثيرة إليهم من جميع بلدان العالم المسيحي، وذلك من قبل كثيرين من الذين يعتقدون أنهم ينفقون أموالهم على أعمال جيدة، في حين أنها في الواقع تصرف على شؤون سيئة جداً، لأن الرهبان أنفسهم ينبغي عدم رعايتهم من قبل المؤمنين، على أساس أنهم هراطقة، إليهم لا يجوز بموجب أحكام القانون إعطاء مساعدات أو صدقات، ثم إنهم مما يعطى إليهم يتولون بالفعل رعاية للصوص من البداية العرب، الذين يتوجب اعدامهم، كما أنهم لا يبنون شيئاً تشریفاً للرب، حتى وإن بنوا كنائس، يتوجب على المؤمنين عدم الاسهام في بناء كنيسة للمنشقين، وهنا من المناسب أن أحدثكم بما وقع لي في السنة الأخيرة:

عندما كنت على المنبر في أولم أعظ الناس في يوم عيد القديس ميكايل، جاء بعد القديس رجل، وقدم إليّ مرسوماً، ورجاني بقراءته للناس بصوت مرتفع في الكنيسة الأبرشية بعد القديس، وكان رسالة طويلة، عليها ختم كبير هو ختم السيد بطريرك الاسكندرية، المقيم في روما، وكان فحواها هو أن كنيسة القديسة كاترين في جبل سيناء بحاجة إلى الترميم، وزادت أن ذلك العمل ينبغي أن يقدم له الناس أيدي المساعدة، وجرى منح الذين يفعلون ذلك غفرانات طيبة، وكان الرجل الذي جلب الرسالة، راهباً اغريقياً مسناً، وقد وقف إلى جانب مذبح الصليب المقدس، وذلك على مقربة من المنبر، أمام وجهي، وقد وضع آثاره المقدسة مع تزيينات، وشموع مضاءة، ووقف إلى جانب

المنبر مستعدا لاستلام المال، وفي ذلك الوقت كان الناس ينظرون إليّ وإليه، وعندما قرأت الرسالة قلت للناس بصريح العبارة: «اعلموا أن الذي يقف هنا هو واحد من رهبان جبل سيناء، وقد جاء من أعظم الأماكن قداسة، حيث كنت أنا هناك، وهو يطلب مالاً من أجل إعادة ترميم كنيسة القديسة كاترين، وهناك وعد بالغفرانات مقدم من قبل بطريرك الاسكندرية، إلى الذين سوف يتبرعون، وإنني أستحلفكم بالرب أن لاتعطوا شيئاً إلى هذا الراهب، لأنه كما ترون منشق، وهرطقي، وغير مؤمن، وهو لايجوز السماح له بالدخول إلى كنيستنا، وأن لا يكون حاضراً أثناء صلواتنا، لأنه مرتد.

وثانياً: لاتعطوا مالاً من أجل ترميم كنيسة القديسة كاترين، حتى وإن كانت مهددة بالسقوط، مع أنها غير مهددة بالسقوط، بل هي سليمة تماماً، وسبب هذا ويالأسف تلك الكنيسة ليست كاثوليكية، بل هرطقية، وليس فيها مكان للاتين التابعين للكنيسة اللاتينية الرومانية، الموجودين في ذلك المكان، كما لا يوجد فيها مكان لإقامة قداس، أو لإقامة الصلوات، لابل حتى عندما نرجوهم، لايسمحون لبقراءة ولا بغناء الصلوات في تلك الكنيسة، لأنهم يعدون الكنيسة الرومانية محرومة. ولذلك دعونا نسمح لها بالانهيار.

وثالثاً: إن السيد البطريرك، عندما يقدم الغفرانات من أجل ترميم هذه الكنيسة، هو إما قد أسيء تزويده بالمعلومات، أو أمراً آخر أنا أميل للأخذ به، وهو أن الرسالة مزيفة لأن رهبان ذلك الدير لديهم راعي أو بطريرك في الشرق، هم له مطيعون، وهم لايعبأون بالمقيم في روما، الذي لقبه فقط «بطريرك الاسكندرية»، علماً بأنه لم ير الاسكندرية قط، كما أنه ربما ليست لديه أية نية، برويتها، وليس لديه هناك من يطيع أوامره، ويعرف هؤلاء الرهبان بأن الكنيسة الرومانية تقدم أساقفة حتى إلى الأماكن التي ليس فيها أتباع، ولذلك يفرون من أماكنهم، ويأتون

إلى روما، ويعترفون برجل كأسقف لهم، ويطلبون عونه من أجل منفعتهم، مع أنهم لا يظهرون له أي تشريف، أو يطيعونه من أجل خاطر المسيح، ويعطونه رسائل مزيفة، أو كتبت من دون عناية، من أجل أخذ أموالنا لاستخدامها من قبل الهرطقة.

ورابعا: إن هذا الراهب الواقف هنا، يطلب منكم ذهباً وفضة لالشيء، لأنني أعرف بالتجربة بأنه هو نفسه في مكانه لن يفتح واحداً من أبواب كنيسة لنا مقابل لاشيء، ولن يعطينا شربة ماء بارد، ولن يعيرنا Celindrium (؟)، ولن يمنحنا قطعة من الجلد لتصليح أحذيتنا، وأيضاً ولاقطعة من قماش قديم، لابل أكثر من ذلك توجب علينا شراء عصينا منهم، أو أن ندفع لاستئجار عصا، يأخذها كل انسان عندما يتسلق الجبل المقدس، وأنا لم أذكر هذا فيما دونته من قبل، لكن هذا ماوقع بالفعل، فعندما كان الحجاج على وشك الصعود إلى الجبل المقدس، جاء الرهبان مع عصي، إما باعوهم لنا، أو أعارونا إياهم تأجيراً، إنما لم يقدموهم لنا مقابل لاشيء ولا بشكل من الأشكال، وهكذا وقفوا بالاتجاه المعاكس، ودمروا روح كلمات: « بكرم أنت تلقيت، وبكرم أنت أعطيت ».

وعندما فرغت من حديثي على هذه الصورة، وانتهى القداس، تفرق الناس، ولم يعطوا ذلك الراهب شيئاً، لابل أكثر من هذا، لقد أندر بأن من الأفضل له مغادرة المدينة بأسرع وقت يستطيعه، وذلك قبل أن يجري تفتيشه واستجوابه، وفي الحقيقة إنني أعتقد أنه إذا لم يجمع شيئاً من المال، لن يستطيع قط الوصول إلى جبل سيناء، ولقد سمعت فيما بعد أن ماكسيميليان امبراطور وملك الرومان التقى جداً، وكذلك ملك هنغاريا، اللذان تولى الرسول المتقدم الذكر خدمتهما قد أعطياه مبلغاً كبيراً من المال، لكن ذلك كله كان عبثاً، لأنها لم يلتزما بالحكمة القائلة: « انظر جيداً واعرف ماهي أخلاق الرجل الذي أنت معطيه »،

وفي الحقيقة هذا المكان مقدس، وثمانين لدى المسيحيين، وهذا ما يعتقدونه حوله، ولذلك لا يطرحون أسئلة حول أخلاق الناس الذين يسكنون هناك، والذين لا يعدون شيئاً بين الناس، هذا (٦٢) وإنه بالنسبة للغفرانات الممنوحة من قبل الآباء الرسولين باسم الرب إلى تلك الكنيسة هي ذات تاريخ قديم، وقد منحت عندما كانت الكنيسة مازال تحت سلطة البابا، وهم ما يزالون يتمتعون بسلطانهم حتى هذا اليوم لصالح الحجاج الذين يحصلون عليهم، حتى وإن زاروا المكان من دون إعطاء أي منح وتقديرات هناك، ثم إن الحجاج لا يفعلون فعلاً صالحاً عندما يودون الحصول على الغفرانات فيقدمون أعطيات إلى استخدامات الهراطقة.

مغادرة الحجاج وسفرهم من جبل سيناء، والاضطرابات والابتزازات والأزعاجات التي عانوا منها قبل أن يتمكنوا من مغادرة الدير إلى الصحراء ثانية.

وفي اليوم السابع والعشرين استيقظنا قبل ضوء النهار، وأقمنا قداسات في بيعتنا، بعدها نزلنا إلى كنيسة القديسة كاترين، وحصلنا على غفرانات(++) في بيعة العذراء المباركة في العليقة، وعند ضريح القديسة كاترين، وبعدما قبلنا الأماكن المقدسة حصلنا على إذن من القديسة كاترين للعودة إلى أوطاننا، وصعدنا إلى موضعنا وقمنا بالإعدادات لمغادرتنا، وبصعوبة استطعنا اقناع الرهبان بالسماح لنا بتعبئة روايانا من بئر الدير، لأنه كان في الساحة بئر كبير وعميق جداً، مع مياه تجري فيه من القعر، ولم تكن مياه مطر، وهو شيء لم أره في أي جزء من الشرق، إلا هناك، وهم يقولون بأن موسى قد حفر هذا البئر، وأنه بفضل صلواته تدفق الماء فيه لانعاش بني اسرائيل، وكان موسى قد تعلم فن حفر الآبار هذا في مصر، لأن بليني حدثنا في كتابه الأول من «تاريخه الطبيعي» بأن دانوس Danaus ابن بلوس Belus كان أول من قام

بحفر آبار بمصر، وأنه عندما أبحر إلى بلاد الاغريق، عمل هناك الشيء نفسه، ومن هناك انتشرت معرفة هذا الشيء في المناطق الأخرى.

وعندما رأى البداة بأننا نقوم بالاستعداد للمغادرة، أرسل مقدمهم خادماً إلينا، حذرنا بوجوب عدم التفكير بمغادرة المكان الذي كنا فيه، من دون أن ندفع له حقوقه أولاً، وهكذا حدث بعد كثير من المناقشات أن أعطيناه بعض الدوقيات، وأملنا لذلك أننا أصبحنا أحراراً، وانتظرنا الآن قدوم سائقي جمالنا، الذي تأخروا كثيراً عن القدوم إلينا، وأخيراً جاء واحد وقال بأن الجمال كانت في أيدي رجال مسلحين، لن يتركوهم من دون دفع خفارة لهم، وبناء عليه عقدنا اتفاقاً معهم، وحررنا جمالنا منهم مقابل مال، وجاء سائقو الحمير أيضاً وأخبرونا بأن حميرهم محبوسة من قبل المسلمين، وأن علينا أن ندفع إليهم مالاً من أجل تخليصهم، ولذلك ظلت حوافظ نقودنا مفتوحة باستمرار، لأننا كنا مرغمين على الدفع حتى ننجو من هذه الاضطرابات، وفي الوقت نفسه بعث إلينا راعي الدير رسالة يشتكي فيها بأن واحداً منا قطع شظية من تابوت القديسة كاترين، بأداة معدنية، وإذا لم نقم على الفور بإرجاعها عن طواعية، سوف نرغم بالحال على فعل ذلك من قبل البداة العرب، الذي سوف يضع القضية بين أيديهم.

وعندما سمعنا هذا بتنا خائفين خوفاً شديداً، علاوة على ذلك وجدنا التابوت مشوهاً بالحقيقة، لكن مامن واحد منا اعترف بأنه فعل هذا الشيء، ونظر كل واحد منا إلى جاره، ولعن الذي فعل ذلك، ومع أن كل واحد منا رجا الآخر وقال بأن المجرم ينبغي أن لا يخرج من الاعتراف، وينبغي أن يعيد القطعة المكسورة ثانية، وأعلننا جميعاً بأننا سوف نقف إلى جانبه، وسوف ندفع كل ماتوجب عليه دفعه، ومع ذلك مامن أحد اعترف بذلك، وقال كاليئوس أخيراً، إن على المجرم أن يعطيه القطعة المكسورة من الحجارة بشكل سري، وهو سوف ينهي

القضية بهدوء ودونها إعلان، وهذا ماكان، وأنا حتى هذا اليوم لم أعرف من الذي كان المجرم من بيننا.

ولقد تحملنا كثيراً الاضطرابات والخزي خلال حجنا هذا كله، بسبب الرغبة الحمقاء لبعض من جماعتنا بالحصول على قطع مقطوعة من الأماكن المقدسة، وهذا ماكنت قد تحدثت عنه من قبل، وعندما جرت تسوية هذه المشكلة، جاء رهبان الدير والموظفين وسألوا من دون حياء مالا كوداع، أو هدية مغادرة، وهو أيضاً ماأعطيناهم إياه، مع أنهم لم يستحقوا ذلك، ثم جاء راعي الدير بشخصه ذاتياً، وكان رجلاً قد تقدم قليلاً بالسن، وقوياً وعاقلاً، وقد طلب منا اصطحاب أربعة جمال محملة بالفواكه، لترتحل معنا إلى مصر، لأنه في كل سنة، وفي مثل هذا الموسم، يرسل راعي الدير فواكه إلى السلطان، ملك مصر، وتوضع هذه الفواكه في صناديق خشبية، وهي تجمع من قفار سيناء وحوريب، ويقدر السلطان هذه الهدية تقديراً عظيماً، لأن الفواكه قد نمت في تلك البقعة المقدسة، ويقوم بتوزيعها بين أعظم أعيان مصر، الذين يتسلمون تلك الفاكهة على أنها شيء مقدس أرسل إليهم من السماء، ولذلك أخذنا تلك الجمال الأربعة بصحبتنا، ومن أجل وصف للحدائق في القفار، حيث تنمو هذه الفواكه انظر ماذكرناه من قبل ص ١٤١.

وأخيراً عندما جرى اعداد كل شيء بسلام، وجرى الدفع إلى جميع الرجال، خشينا من أن يقوم البداية العرب بعد مغادرتنا للدير باللاحق بنا وإنزال الأذى بنا في القفار، لذلك توجهنا مع كاليينوس إلى المسجد، حيث كان مقدم البداية العرب، واستدعيناه إلينا، ورجونا أن لا نتعرض للاضطراب من قبل رجاله عندما نصير خارج الدير، وقد وعدنا بأننا لن نعاني من أي أذى على أيدي قومه، وقال بأننا إذا مارغبنا بأن نكون سالمين تماماً، فلسوف يرسل بعضاً من عبيده معنا لسفر ثلاثة أيام أو أربعة خلال القفار لحمايتنا، ولقد كنا راضين بهذا الجواب، وتركناه

ونحن متحررين من الخوف، وقد أعاقَت كل المشاكل المتقدمة الذكر مغادرتنا حتى منتصف النهار، وقمنا الآن تحت الحر الكامل للشمس بتحميل جمالنا مع كثير من التعب، ووسط مخاصمات كبيرة، لأن سائقي الجمال ألقوا روايا الماء التي ملأناها ماء، وقمنا نحن من جانبنا بوضعهم مجدداً، لكنهم رموهم، ووصل بنا الحال إلى الضراب، وأزعجنا بعضنا بعضاً بحركات غاضبة، وجاء أخيراً بعض البداءة العرب وصالحونا على شرط أن ندفع كراءً جديداً إلى سائقي الجمال مقابل حمل روايا الماء وفعلنا ذلك، ولوفعلناه من البداية لما كان ثار أدنى خلاف.

وتّم أخيراً تحميل جمالنا، وغادرنا الدير، لكن مالبث البداءة العرب أن جاءوا يسعون خلفنا، وهم يحملون حصيراً وحقيية، كان سائقو جمالنا قد تركوها عن قصد، ولذلك أرغم الحاج الذي عادت الحصار إليه على شرائها من البداءة العرب، وعندما حصل على الحصار رفض سائق الجمل وضعها على جملة ما لم يتم دفع بعض الفلوس له، وبهذا تعرضنا للمضايقة والأذى تماماً، وغادرنا الدير الآن، وسافرنا خلال الوادي نفسه الذي جئنا عبره، وذلك حيث عبد بنو اسرائيل العجل الذهبي، وسرنا بخطوات بطيئة لمدة أربع ساعات، ونصبنا في المساء خيمنا في مكان دعاه البداءة العرب باسم Wachya ، ووجدنا هنا مصاعب في الحصول على مايكفي من العصي للنار من أجل طهي طعامنا، ونصب البداءة العرب الذين كانوا مع الجمال التي حملت الفواكه خيمهم في وسطنا، وهكذا أمضينا تلك الليلة.

الرحلة

وفي اليوم الثامن والعشرين، الذي كان الأحد الثامن عشر بعد الثلاث، استيقظنا ثلاث ساعات قبل ضوء النهار، وحملنا جمالنا، وغادرنا مكان Wachya، وعبرنا خلال ذلك الممر الضيق، الذي كنت قد تحدثت عنه من قبل، وأدرنا ظهورنا إلى أعلى جبال سيناء، وعدنا

ثانية إلى Machera ، حيث اعتاد موسى على رعي قطعان يثرو، وعلى هذا السهل المنبسط ابتعدنا عن الطريق الذي كنا قد جئنا عليه [٦٣] أثناء قدومنا، ولقد غادرناه وتركناه على الجهة اليمنى، عندما استدرنا نحو اليسار، ونزلنا مجرى سيل بلا ممرات، وهو مع ذلك كان مكانا جميلاً، لأنه كان مليئاً بأشجار التمر الهندي وشجيرات أخرى، وعندما كانت الجمال والحمير عابرة قطفوا الأوراق مع الندى عليهم، من الأغصان الصغيرة، وفي الوقت نفسه مصصنا الندى من على الأوراق، ذلك أنه كان حلواً مثل السكر أو العسل، ومنه جرى إعداد المن اللذيذ والحلو الطعمة، وفي حوالي الظهر وصلنا من نهاية مجرى السيل ذاك إلى الوادي حيث كنا قد اصطدنا مع البداية العرب، قبل ثمانية أيام مضت، وأثناء عبورنا لمجرى السيل هذا، فجأة قدم حمار وحشي مسرعاً من الأعلى، وكان يجري نحونا بسرعة كبيرة، وكأنه سوف يندفع في وسط جماعتنا، ونحن الذين لم نر قط من قبل حماراً من هذا النوع، لم نظن أنه أي شيء سوى حمار أهلي، وكنا مشدوهين تجاه سرعته وجماله، وقد ركض وهو ينظر نحو حميرنا، وأتصور أنه كان يريدهم، متصوراً أنهم سوف يتجنبون مرافقة الانسان، ولحقه واحد من البداية العرب بحذر، وسار على محاذاته، مع قوس وسهام ناوياً الاطلاق عليه، وهربت الدابة قبل أن تكون في مدى الرماية، ومع ذلك سارت ببطء مبتعدة عن مطاردها، وكأنها كانت تريد استدراج الرجل ليدخل في سباق معها، وأخيراً عندما صار العربي قريباً من الحمار، فوق قوسه ورمى سهماً جرح به الدابة، فرمت على الفور السهم، وذهبت ماضية عبر المكان المنحدر، وجلب لنا الشاب السهم وكان هناك دم على رأسه، وبعد مضي وقت قصير رأينا خمسة حمير وحشية مع بعضهم يركضون بين الصخور.

ولدى الذين كتبوا عن التاريخ الطبيعي الكثير ليقولونه حول الحمار

الوحشي، والأخضر أو حمار الوحش، هو دابة جميلة رشيقة، لها رأس أصغر من الحمير العامة، وهو حر، وغير مدجن، وحيوان مفعم بالحياة يسكن في المناطق الجبلية، والأماكن القاحلة، وهو سريع جداً، حيث يمكنه أن يسبق الدب، والذئب، والأسد، ولهذا السبب عدّ من قبل القدماء بين الأرباب الرئيسية، وليس بين الـ Diomedes كما أخبرنا يوسيبوس في مصنفه De Evangelica Praeparatione — الكتاب الخامس، الفصل الثالث عشر، ويمكنه أن يتحمل العطش لوقت طويل، أطول من المخلوقات الأخرى، وعندما يكون غير قادر على الوصول إلى الماء، يعيش على الريح، حيث يقف فوق الصخور ويستنشق الهواء، وهذا ماورد في سفر إرميا في قوله: «ووقف حمار الوحش على الهضاب يستنشق الريح مثل التين» [إرميا: ١٤/٦] وجاء في المزامير قوله: «ويطفئ الحمار الوحش عطشه» (الزمور: ١٠٤/١١)..... وينهق الحمار الوحش اثنتي عشرة مرة في النهار واثنتي عشرة مرة في الليل، وبناء عليه يستطيع الذين يسكنون في القفار تمييز ساعات الليل.... والبغال السريعة هي التي تلد من حمار وحش وفرس، ولكن الأسرع من البغال هذه هو الحمار الذي يلد من حمار وحش وأتان مدجّة، والبغال المولودة لها أثمان مرتفعة جداً، لأنها تركب من قبل الأمراء والرجال العظماء، ووصلنا عند غروب الشمس إلى مجرى سيل منعزل وجاف، يطلق عليه البداءة العرب اسم Elphat، وهنا أنزلنا الأثقال من على دوابنا، ونصبنا خيامنا، وتمددنا هناك أثناء الليل، وكان المكان جافاً وقاحلاً إلى حد أننا لم يكن لدينا أمل في العثور على مايكفي من خشب لاشعال نار، لكن وجدنا مايكفي لتسخين ماء لصنع فطيرة.

وفي اليوم التاسع والعشرين، الذي هو يوم عيد القديس ميكايل، استيقظنا قبل ضوء النهار، وارتحلنا خلال مجرى السيل نفسه المهجور،

وهو الذي جئنا عبره من قبل، وعانينا من يوم صعب ومرهق، لأننا عملنا رحلة طويلة فوق أرض سيئة، وليس فوق رمال، كان من الممكن لنا تحملها بصبر، فلقد سرنا فوق غبار، لابل فوق رماد، وعجبنا كثيراً واستغربنا من أين جاءت الكميات الهائلة من الغبار والرماد، التي انتشرت فوق تلك المنطقة، لأنه لم يكن هناك سكان من البشر، ولا نار، ولا شيء سوف يحترق، ولقد أجبننا على هذا السؤال كما يلي، وذلك وفقاً للإيمان الكاثوليكي: «مادام الرب قد أرسل اللعنات الموجهة إلى جميع البلدان، إلى هذه الصحراء الحجرية، قد أرسل أيضاً هذه الواحدة أيضاً، أي مامن مطر، أو ثلج، أو ندى ينبغي أن يسقط هنا، بل أمطار من الغبار والرماد، وهو قد هدد بوجوب سقوط مثل ذلك على الأرض المقدسة، بالشكل نفسه، إذا لم يحافظ الذين يسكنون هناك على وصاياهم»، «فالرب سوف يجعل مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك» [التثنية: ٢٨/ ٢٤]، فهذا ما عمله الرب لأرض مصر، عندما أخذ موسى وهارون — بناء على أوامره — حفناً من الرماد من الموقد وذراه نحو السماء، فأصبح يغلي وانتشر على شكل بثور على الناس وعلى الحيوانات، وذلك حسبما قرأنا في سفر الخروج: ٩/ ١٠، وهكذا تصورنا بأن ذلك الجزء من القفار قد أصيب أيضاً بالوباء نفسه مثل مصر، وخشينا أن يتحول إلى بثور مثلما حدث للمصريين، وعلى كل حال حفظنا الرب أصحابنا لدى عبورنا خلال تلك الأرض من الرماد.

ووصلنا إلى واد، حيث وجدنا صنماً على شكل طفل سوداني، واقفاً في كهف في الصخر، ويقدم البداة العرب من وقت إلى آخر تقديرات إلى هذا الصنم، وكانوا سيبدون امتنانهم لوأننا قدمنا بعض الفضة، لكننا لم نفعل ذلك، وقطع بعضهم قطعاً من قمصانهم وعلقوها أمام الصنم، وذلك حسبما اعتادوا أن يفعلوا في أماكن اعتقدوا بوجود أية قداسة فيها، وكنا قد رأينا شيئاً من هذا القبيل من قبل، وبالنسبة لهذه العادة

السخيفة بالتعبد بوساطة أئمال من القماش، يمكن للانسان أن يقول بما أن بعض الناس يعتقد أن مامن شيء في الدنيا هو أكثر قيمة ومكانة وقبولاً لدى الرب من جلد المخلوقات الميتة، التي عليها كتب الرب أسرارها الأكثر عمقاً، مع نظام العالم كله، إنه مثل هذا، بالمساواة المنطقية الأئمال التي لا قيمة لها من الكتان وقطع القمصان، جديرة بالاحترام، على أساس أن مامن أشياء أدنى قد كتبت عليهم مما كتب على جلود المخلوقات الميتة، لأن جميع الأشياء مقدسة، وانسانية، وسماوية، وارضية، وخالدة، ومتحولة، وحاضرة، ومستقبلية، ومرئية وغير مرئية، وطبيعية، واعجازية، وأشياء ينبغي أن تعتقد، وأشياء يمكن البرهنة عليها، وأشياء منطقية، وأشياء وهمية، وجميع الأشياء الأخرى، من كل من الجيد والسيء، وأشياء مرغوب بها، وأشياء مرفوضة، كلها قد كتبت إما على رق أو ورق، ولعله لهذا السبب يعتقد الكفار بأن هذه الأئمال مقبولة بالنسبة لأربابهم، ولهذا يقدموها لهم.

وسرنا من هذا المكان على طريقنا حتى المساء، وقد نصبنا خيمنا في مكان موحش، يدعو به البداة العرب باسم Effkayl، وعندما استقر بنا الحال بدأنا مجدداً نشعر بالحاجة إلى الماء ونعاني من نقصها، وكان هذا مزعجاً لنا بلا حدود، وقاسياً لا يمكن تحمله، ففي ذلك المساء بالكاد امتلكننا من الماء ما يكفي لطهي حساء أو المرق لنأكله مع بقسمائنا أو خبزنا، وتفكرنا حول الكميات الوافرة من لحوم الأوز والبط، التي نجدها تقريباً في كل بيت في بلادنا عشية عيد القديس ميكائيل، وبدأنا نتحرق رغبة إلى قدور اللحم، وإلى السفود المليئة باللحم المشوي، وإلى سلال السمك، والمعجنات الساخنة، والذي حدث معنا، كان مثل الذي حدث مع بني اسرائيل في القفار، وذلك عندما تذكروا وفرة الأشياء في مصر، وتشوقوا إلى اللحم، وإلى السمك، وإلى البصل، والثوم والبطيخ (الخروج: ١٦/٣) وبتفاصيل أكثر في سفر العدد: ١١/٥، لكن

رغباتنا كانت بلا فائدة، لأن موسى لم يكن معنا ليجلب لنا السلوى من بلدان ما وراء البحر، كما جلب لهم، وعلى كل حال نزل غضب الرب عليهم لأن المزمور يقول: «وطعامهم بعد في أفواههم صعد عليهم غضب الرب وقتلهم» [المزمور: ٧٨ / ٣١]، وعلى هذا أمضينا عيداً ميكائيلياً تعيساً، وليلة غير هادئة بسبب الرماد، والرياح التي نشرته في الجو.

كيف عانينا بسبب نقص المياه

وفي الثلاثين، أي اليوم الأخير من ايلول، وكان يوم عيد القديس جيروم، غادرنا المكان المتقدم ذكره، بعد منتصف الليل مباشرة، أي أربع ساعات قبل ضوء النهار، وتابعنا سيرنا خلال القفار التي بلا ممرات، مخلفين وراءنا أعلى السلاسل الجبلية والداخلية منها، وعندما أضاء النهار وصلنا إلى قفر راماثيم، أي إلى المكان الذي خيمنا به في اليوم التاسع عشر، عند سفح منطقة Rachkaym ، حيث نزلنا إلى جانب الهضبة المنحدرة، كما سلف وتحدثنا من قبل، ولم نسر فوق ذلك المكان المنحدر ثانية إلى الجبال، بل تركنا المنطقة التلية على يميننا، ومضينا نازلين نحو البحر الأحمر، فهنا ابتعدنا عن الطريق الذي قدمنا عبره، وانعطفنا مبتعدين عنه نحو مصر، وكنا في ذلك الحين نعاني من الحاجة إلى الماء، وتذمرنا من أجل الماء وقلنا لكاليينوس، الذي كان موسانا: «أعطنا ماء حتى نشرب» وذلك مثلما قال اليهسود لموسى (الخروج: ١٧/٢)، وأجابنا كاليينوس بأننا إذا أردنا الماء، يتوجب علينا الانحراف قليلاً عن الطريق الصحيح، بعيدين عن الجبال الذين لا يمكن اقتيادهم فوق تلك المنطقة التي بلا ممرات، فقلنا: ينبغي أن نمتلك ماء، لأننا خلال الطريق كله من سيناء إلى هذا المكان لم نر الماء، وقد أفرغنا تقريباً روايانا، وبناء عليه أخبر واحد من البداة العرب، الذين التحقوا بنا في القفار، كاليينوس بأنه يعرف مكاناً فيه كثيراً من الآبار، وأنه سيقودنا إلى هناك، وبناء عليه تركنا الجبال وكاليينوس يذهبون مباشرة نحو البحر الأحمر، وتبعنا العربي في المنطقة الأخرى، ووصلنا معه إلى منطقة قفر أي إلى مجرى سيل صخري، مغلق من على الجانبين بجدران عالية من الصخور، والذي خلاله تجري المياه في موسمها بشدة عالية إلى درجة أنها تنقل الصخور الكبيرة، وسرنا مسافة طويلة خلال مجرى السيل، هذا، وبدأنا نصبح خائفين، لأن المكان كان

صحراء موحشة، وتحدث أحدنا مع الآخر، وعجبنا من أنفسنا، كيف أننا حتى نحصل على الماء تركنا كل أغراضنا على الجمال، وتركنا أدلاءنا، وسائقي حميرنا، وسائقي جمالنا، والتحقنا برجل فرد — هو الأغرب بين الغرباء — وكنا نلحق به فوق ذلك القفر الذي بلا ممرات، ومع ذلك اعتقدنا جميعاً بأن ذلك العربي كان انساناً جيداً، لأنه بذل جهده في كل سبيل حتى يشجعنا، وركض بنشاط أمامنا، مشيراً إلى الصخور العالية وإلى مجرى السيل الجاف الذي أمامنا، وكأنه هو شخصياً يبحث هناك.

وبعدما سرنا مسافة طويلة، تسلقنا على الصخور وخرجنا من مجرى السيل، ووصلنا إلى مكان كان مليئاً بالنباتات والحشائش الخضراء، وبعدما اجتزنا هذا المكان وصلنا إلى سهل رملي، حيث رأينا كثيراً من علامات سير الناس والجمال والحمير مرسومة على الرمال، وكان هذا السهل، مملئاً بالشجيرات وبأشجار الفاكهة، وكان فيه كثيراً من الآبار والحفر المليئة بالماء، وعندما رأيناهم قفزنا من على ظهور حميرنا، وسررنا لدى عثورنا على الماء، وركضنا نحو الحفرة الأقرب، وأنزلنا فيها الدلاء المصنوع من الجلد، الذي حمله عربينا معه، ونضحنا منها بعض الماء الكثيف الموحل، وعندما أردنا أن نشرب منه، تذوقناه فوجدناه مالحاً جداً، وكأنه قد نضح من البحر، ولذلك حتى حميرنا لم تستطع الشرب منه، إنما عندما نظرنا ناقدين نحو دليلنا العربي وكأننا نقول بأنه مزح معنا، وجلبنا إلى هنا لالشيء، أشار إلينا بوجوب تذوق ماء الآبار الأخرى أيضاً، والبحث عن ماء عذب، وهكذا ذهبنا إلى حفرة أخرى ونضحنا بعض الماء، وقد وجدناه بلا طعم، ومع ذلك كان أقل ملوحة من الأول، وهكذا طفنا حول جميع الحفر، وقد وجدنا ماء لدوابنا، لكننا لم نجد ماء لأنفسنا في تلك الآبار، وبناء عليه بدأ يحضر ويرمي التراب بيديه، وكان ذلك في حفرة جافة كان قد وجدها، وهي لم تكن عميقة جداً، وبعدما حفرنا لبعض الوقت، بدأ الماء يتدفق، ومع أنه كان

موحلاً، لكنه كان عذباً.

وملأنا بهذا الماء روايانا وأجوافنا، دون أن نعبأ بوحولته، فكل انسان يعرف هذا السهل يفعل هذا، ويحفر بئراً لنفسه، لأن الماء في الأسفل عذباً، لكن عندما تشرق الشمس في الآبار، تجعل الماء مالحاً، ولذلك وجدنا ماء مالحاً في الآبار المحفورة فقط، ولو أن هذه الآبار حفرت عميقاً، وطويت، وغطيت من حرارة الشمس، أعتقد سيكون هناك ماء جيداً للشرب في ذلك المكان، وفي الحقيقة إنه لأمر عجيب كيف توفر الماء في تلك التربة الرملية، وعجبنا من نبتون، رب البحر، الذي بعدما أطلق سراح ابنة دانوس Danaus من ساطير في القفار، واغتصبها هناك غرس رمحه الثلاثي الشعب فوق الأرض في المكان الذي تعاشر فيه مع الفتاة، فتفجر نبع، لكننا هنا لم يكن معنا لارمح ثلاثي الشعب أو مسحاة، بل عملنا نبعاً بأيدينا، ووجد في هذا المكان ينابيع مالحة جداً، مثل مياه نبع اسمه Exampeus الذي هو موجود في بلاد Ca-liopades (؟)، ويرسل هذا النبع مياهاً مالحة إلى حد أنها حولت النهر التي تجري فيه إلى نهر مالح تماماً، ومن جهة أخرى هناك أيضاً نبع اسمه أليس Alis ، حلو جداً لتشرب منه حتى أن الشارب منه لا يعاب بمشروب آخر، ومثل هذا، وجدنا على هذه البقعة مياهاً حلوه ومالحة معاً، هذا ورأيت في بعض الأماكن من بلادنا صفاتاً أكثر عجباً في ماء واحد هو نفسه، ففوق كوبلنز Coblenz قرب بلدة ناسو Nassau هناك يتدفق من بين الصخر ماء حار مالح، ومن الجروف وشعاب الصخرة نفسها تجري مياه أشد حرارة وأكثر ملوحة، ومع ذلك أمكن العثور على مياه عذبه في المكان نفسه، وكذلك على مياه مالحة بارده، وهذه المياه كلها تنبع من صخرة واحدة، واسم هذا المكان «مياه إمس Ems» وهناك أماكن إقامة للذين يرغبون بالاستحمام هناك، لأن المياه طيبة.

وبعدما سقينا أنفسنا، وسقينا دوابنا، غادرنا مسرعين، ووصلنا إلى مجرى سيل آخر شاسع، وبعدما سرنا على طوله مسافة طويلة، تسلقنا واحداً من طرفيه، فرأينا جمالنا تسير بعيداً عنا، ولذلك أسرعنا بخططنا ولحقنا بهم، وفي الوقت الذي وصلنا فيه إليهم سخن الماء الذي كان في جرارنا، وبات غير قابل للاستخدام، لأن ذلك الماء ما أن يشعر بحرارة الشمس حتى يميل لأن يصبح مالحاً، وسافرنا في ذلك اليوم في ظل شمس حارة جداً، فوق مجاري سيول مدهشة بقحطها وبصحراويتها، ووصلنا عند المساء إلى مجرى سيل اسمه لديهم Laurara ونصبنا خيامنا على جانب، وعلى مقربة من هضبة حجرية، يشرف عليها نتوءات صخرية، وهنا حملت جماعتنا فرشنا ووضعوهم في كهف كبير، حيث أقررنا فيه أنفسنا، لأننا كرهنا خيامنا، وبتنا غير راغبين بالجلوس فيها ما لم نكن مرغمين على ذلك، لأننا كنا عندما نرقد فيها نبدو وكأننا مسجونين واحدنا إلى جانب الآخر، وأصبح كل منا مغطى بقمل الآخر، وكانت جميع الصخور، والحجارة، والأرض في هذا المكان مشكلة من تربة في غاية البياض، ولذلك انتشر علينا الغبار الأبيض، وبتنا وكأننا في طاحون قمح حيث يتطاير الطحين هناك، وعندما كنا نجمع عصياً ونطبخ، قدم أدلاؤنا والبداء العرب، وتحلقوا حول خيامنا يلتمسون الحصول على البقساط، والببيض، وأشياء مماثلة للأكل، ومع ذلك أكلوا قليلاً في تلك الأمسية، وسبب ذلك سوف أوضحه فيما يلي.

الفصل الثامن

ويحتوي على أعمال الحجاج خلال شهر أيلول
وأشياء أخرى كثيرة

قبل ساعتين من انبلاج فجر اليوم الأول من شهر تشرين أول، استيقظ المسلمون والبداءة العرب — وكانوا جميعاً من أتباع ديانة محمد ﷺ — الذين كانوا معنا وأشعلوا ناراً وشموعاً، وبدأوا يأكلون، وكانوا مسرورين، يضحكون ويغنون، وصاروا مرحين أكثر مما اعتادوه، وأيقظونا بصراخهم، ودعونا لنشاركهم في مرحهم، وعندما سألناهم عن سبب هذا الاحتفال الكبير، أخبرونا أنه من الصباح المقبل يبدأ صومهم، ولذلك أكلوا وكانوا مسرورين قبل الفجر، ذلك أنهم هكذا يلتزمون بالصوم الذي فرضه عليهم محمد ﷺ في قرآنه، ذلك أنهم لا يصومون خلال السنة كلها، إلا في شهر تشرين أول (كذا) ففيه يصومون كل يوم من قبيل الفجر، وذلك عندما يكون هناك مايكفي من ضوء لتيان الخيط الأسود من الخيط الأبيض، وهم يصومون حتى غياب الشمس، وخلال النهار هم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتحدثون مع زوجاتهم، بل يرتاحون، وينامون، ويمضون النهار من دون عمل، لكن ما أن تغيب الشمس، حتى ينهضون، ويمدّون الموائد، ويأكلون ويشربون، لكن ليس دفعة واحدة، بل في الأوقات التي يرغبون بها، ويصرخون طوال الليل ويغنون، ويسعون إلى هنا وهناك، وفي كل ليلة من ليالي الصيام يصبحون مجانين هكذا، ويسلون أنفسهم مع زوجاتهم، والذين لا يستطيعون السهر طوال الليل، يتمددون للنوم، لكنهم يستيقظون قبل الفجر بساعتين للأكل، ويتوقفون عن الأكل عندما يرون الفجر.

وفي المدن، يسعى — بناء عليه — رجال دينهم في الشوارع قبل

ساعتين من الفجر ويضربون بقطع من الخشب بعضها ببعض، ويوقظون الناس حتى يأكلون ويمتعون أنفسهم، ولكم هو صيام غريب وغير طبيعي، مناسب فقط للناس الجسديين والشهوانيين، وهو بعيد، بعيد عنا الذي يدعو إلى صيام من هذا النوع، فبعد انتهاء الصوم أثناء النهار، يمضون الليل في أعمال الغريزة، والأكل والشرب، والتسلية، وكأن هذا الصيام — كما يبدو — قد عمل لغرض واحد، هو أن الناس بعد انتهائه ينغمسون بتلبية رغباتهم المنحطة مع كثير من السرور والأكل، ولقد انزعجنا كثيراً أثناء الليل بصراخهم طوال الشهر، حسبما سنصف فيما يلي.

وعندما اقترب النهار، وأشبعوا أنفسهم، وكانوا سيقومون بتحميل الجمال، وجدوا أن واحداً من جملهم قد سرق، لأن اللصوص يتجولون خلال القفار، ويقفون في النهار فوق رؤوس صخور عالية، ويراقبون جماعات الناس العابرة، ليروا أين سيقفون لإمضاء الليل، وعندما يكون الجميع نياماً، يندس اللصوص بينهم بكل هدوء، ويفكون جمالاً أو حميراً من مقاودهم، ويأخذون حقائب ومزاود إذا استطاعوا.

وغضب سائقو الجمال تجاه هذا، وحمل اثنان منهم رماحاً، وخرجوا يركضان في المنطقة للبحث عن الجمل، وفي تلك الأثناء قمنا بوضع حمولة الجمل المفقود على ظهر جمل آخر، وانطلقنا من Laurara وسرنا فوق طريق رملي، وبعد مضي ثلاث ساعات رجع سائقا جمالنا مع الجمل المفقود، وكانت ثيابهما ملطخة بالدماء، وكانت الدماء تتقاطر من رجليهما، فقد وجدا اللصين مع الجمل في كهف، وقد قادهما إليه تعقب آثار سير الجمل واللصين، وقد قتلوا واحداً منهما بالرمح، وقد هرب الآخر ونجا من الموت، وهذا هو الشيء نفسه الذي حدثنا به فرجيل بأنه حدث إلى هرقل، فبينما كان هرقل يحتفل مع ايفاندر Evander، وضع ثيرانه بين قطيع ايفاندر، وكان يسكن ليس بعيداً عن ذلك المكان،

في كهف عفريت له حجم كبير، اسمه كاكوس Cacus ابن فولكان، كان ينفث النار من فمه، وكان قد أزعج المنطقة كلها بسرقاته ولصوصيته، وخرج هذا العفريت من كهفه أثناء الليل، وجر ثيران هرقل إلى كهفه من ذبولهم، وعندما رأى هرقل بأن بعض ثيرانه قد سرت، ولم يستطع أن يخمن إلى أين ذهبوا، رأى وقتها آثار طبغات أقدام اللص من موضع القطيع إلى الكهف، وبناء عليه ركض هرقل، وأخرجه من الكهف، وقتله بعكازه، وساق ثيرانه عائداً بهم.

وفي الوقت نفسه — أثناء متابعتنا سيرنا على طريقنا تجاوزنا الجبال ووصلنا إلى أرض مدين، على شاطئ البحر الأحمر، ومع ذلك كنا مانزال بعيدين عن مياهها، وعرفت هذه المنطقة باسم مدين صدوراً عن اسم مدينة مدين، التي بنيت من قبل واحد من أبناء ابراهيم من قطورة، وكان اسمه مدين، (التكوين: ٢٥/٢)، وقد سماها باسمه، والتجار الأوائل الذين قرأنا عنهم، أي الذين اشتروا يوسف (التكوين: ٣٧/٢٨) كانوا من هذه المدينة، ومن هذه المدينة كان يثرو، الكاهن الرئيس لمدين وملكها، الذي كنت قد أشرت إليه من قبل، وهو الذي إليه هرب موسى من مصر والتجأ، وقد تزوج من ابنته (الخروج: ٢).

ولدى متابعتنا سيرنا، وصلنا إلى نهاية القفار التي بلامرات، ومنها إلى الطريق السلطاني العام الذي يقود من مصر إلى فلسطين وغزة، وهو الذي كنا قد غادرناه على مقربة من غزة، كما تحدثنا عن ذلك من قبل، وذلك عندما دخلنا إلى القفار، فمن ذلك المكان إلى هنا لم يكن لدينا طريقاً نتبعه بل سرنا في النهار وفي الليل نوجه مسارنا بوساطة الشمس، والقمر، والنجوم، وذلك مثلما يفعل الناس في البحر، وكنا مسرورين إلى أبعد الحدود لدى عثورنا على الطريق، وبدا الأمر لنا وكأننا عدنا إلى الدنيا، وفي هذا المكان ينشطر الطريق الذي يقود من مصر إلى طريقين:

الأول منها يساير شاطئ البحر الكبير إلى فلسطين، ومن هناك إلى

اليهودية والقدس، وعبر هذا الطريق الناس باستمرار يأتون ويذهبون من الأرض المقدسة إلى مصر وبالعكس، ويقود الطريق الآخر من مصر إلى شاطئ البحر الأحمر، فمدين، فالطور، وهو ميناء على البحر الأحمر، تقدم ذكره من قبل، وهكذا سرنا عبر هذا الطريق العام نحو مصر ونحن مسرورين، وكنا فرحين لأننا بذلك عثرنا ثانية على علامات خطوات الرب يسوع، لأنه عبر هذا الطريق جلب يوسف العذراء مريم، والطفل يسوع إلى مصر، بناء على طلب من الملاك، (متى: ٢).

ومع حلول المساء وصلنا إلى قفار إيليم، حيث عسكر بنو إسرائيل بعد عبور البحر الأحمر، وحيث كان هناك اثني عشر بئراً من الماء وسبعين شجرة نخيل (الخروج: ١٥/ ٢٧) لكن سرنا بعيداً عن المكان الذي كانت فيه الآبار، وانعطفنا جانباً بعيداً عن الطريق العام لمسافة ميل إيطالي واحد، ونصبنا خيمنا في مكان قذر يدعونه Derondon، وكانت الأرض هنا مليئة بالهوام والحشرات وبقملة فرعون، بأعداد لا تحصى، وكنت قد تحدثت عن هذا من قبل، وكنا غاضبين من كاليانوس لأنه لم يأمر بنصب الخيام في المكان الذي فيه الآبار، لكنه قدم تسويغاً منطقياً لهذا، قائلاً بأننا كنا ساخنين وعطاشى إلى درجة أننا لو توقفنا إلى جانب الماء، فلن نتوقف عن الشرب حتى نقتل أنفسنا، والسبب الآخر، أنه كان هناك إلى جانب هذه المياه مستنقعات، وفي هذه المستنقعات أعداد لا تحصى من الأقاعي من مختلف الأنواع، وديدان، وبعوض، ولذلك لم يكن موائماً السير إلى جانب المياه، وسبب آخر هو أن البداية العرب من لصوص الصحراء قد اعتادوا على نصب خيامهم إلى جانب المياه، وفي بعض الأحيان يأتون ليلاً إلى الأماكن التي فيها المياه، وإذا ما وجدونا هناك، فلسوف يلحقون بنا البلاء ويسرقوننا، وهناك سبب آخر، هو أنه إلى جانب هذه المياه هناك قرية مليئة بأكثر المدينين سوءاً، وكان هؤلاء سيزعجوننا بطرق كثيرة، حتى أثناء الليل، وذلك

إذا ما علموا بأننا نصبنا خيامنا هناك، كما أن هناك سبباً آخر، هو أن الطريق العام الذي يمر قرب الآبار، هو الطريق الذي يسلكه كل من التجار والصوص من البداة العرب، والمدنيين، وهم يعبرونه أثناء الليل، ويتوجب علينا عدم الانزعاج من قبلهم.

وهكذا قمنا بعدما نصبنا خيامنا، فنزلنا جميعاً مع سائقي حميرنا إلى موضع الآبار، وأشجار النخيل، وملأنا روايانا وجرارنا، وقد عاد بهم سائقو حميرنا إلى الخيام، ذلك أننا مكثنا في تلك البقعة الرائعة، وخلعنا ثيابنا، وتحممنا، لأننا وجدنا كميات هائلة من الماء النقي، والدافئ لنغسل أنفسنا به، وقد كان إلى جانب تلك المياه شجيرات ونباتات، وليس بعيداً عن ذلك القرية، التي كان فيها حشد كبير من أشجار النخيل، وفي الأيام التي عسكر بها بنو إسرائيل في هذا المكان، كان هناك اثني عشر بئراً، وسبعين شجرة نخيل، لكن في هذه الأيام ليس هناك تماماً اثني عشر بئراً، لكن هناك كثيراً من ينابيع الماء على جانب الرابية، تتدفق بالمياه بكل اتجاه، كما أنه ليس هناك سبعون شجرة نخيل، بل أكثر بكثير، ومع ذلك فالمكان هو نفسه.

وبسبب تدفق هذه الينابيع بالمياه، إن الذي أعتقد أنه لا بد أن إحدى الحوريات قد صنعت هذا المكان مشهوراً في تصورات الشعراء، وتؤكد هذه الفكرة بالاسم العربي للمكان الذي هو دورندون Dorindon، ذلك أن دروس Doris كانت ابنة كيولوس Coelus وفستا Vesta التي كانت زوجة أوقيانوس، وأم جميع الحوريات، هذا وأنا لا أعرف نسبة إلى أي من الحوريات تقدس هذا المكان، كما أنني لست متأكداً فيما إذا كان قد تقدس لأنه كان المحطة السادسة لبني إسرائيل أثناء فرارهم من مصر، حسبما جاء في سفر الخروج: ٢٧/١٥، وسفر العدد: ٩/٣٣،

وقد مكثنا عند هذه المياه لمدة تزيد على الساعتين، وأنعشنا أنفسنا هناك بشكل كبير، وشربنا واستحمينا، ونظفنا أنفسنا من الهوام، وفي

الوقت نفسه قدمت بعض الفتيات الجميلات مع قطعانهم إلى المياه، وقد وقفن عند واحد من جوانب المياه، وعجبن من وجودنا، ونظرن بتمعن نحونا وضحكن، ويدين كأنهن يصلين، وأنا لم أنس في هذا المكان شهوانية تلك المرأة المدينية غير المحدودة التي رافقت واحداً من بني اسرائيل، على مشهد من موسى ومن جميع الناس، ولاغيره فيناس الذي ضربها معا بسكين، ولذلك السبب مات أربعة وعشرون ألفاً من الناس في قفار شطيم (العدد: ٢٥)، ولذلك بدا ضحك الفتيات وحركاتهن أمراً مريباً بالنسبة لنا، وتظاهرن وكأننا لم نر ابتساماتهن، ومع ذلك لم نستطع منع بعض الشبان من الفرسان، من ابداء بعض اشارات الاعجاب نحوهن، وبما أننا مكثنا وقتاً طويلاً في هذا المكان، بعث كاليئوس بدويّاً عربياً، إلينا مع رسالة بوجوب عودتنا إلى خيمنا بكل سرعه، وذهب إلى حد ابداء انزعاجه منا، وبناء عليه عدنا إلى هناك، ووجدنا طعام عشائنا جاهزاً، الذي أكلناه بمتعة غير كبيرة، لأن شربنا للماء قد أثر علينا، وكأننا قد شربنا من النبع الأحمر الموجود في السودان، والذي يقولون بأن من يشرب منه يغدو مجنوناً، وبينما كنا فرحين، جلس مسلمونا ويداتنا، آسفين، وشاحيين، وصامتين، بسبب صومهم اللعين، لكن ماأن غابت الشمس، عندما طلبنا الراحة، حتى شرعوا بدورهم، يمرحون ويغنون ويصرخون، ويقصفون، ويأكلون، ويشربون، ولم يمنحونا راحة طوال الليل تقريباً، وبهذه الضجة كانوا ينفذون أحكام صومهم، ونهضنا في بعض الأحيان، وخرجنا من خيامنا، وركضنا نحوهم، وأجبرناهم بالتهديد على أن يكونوا صامتين، وفي بعض الأحيان، عندما كانوا يجيزون معجناتهم في الرماد، بقينا معهم، ونظرنا إلى حماقاتهم.

رحلة خلال القفار ورعب الحجاج

استيقظنا مبكرين في اليوم الثاني من شهر تشرين الأول، لكننا غادرنا متأخرين، بسبب فقدان ثلاثة جمال، خيل إلينا أنهم سرقوا، لكن باتباع

آثارهم، تمّ العثور عليهم وهم يرعون في البرية، وقد أعيدوا بعد شروق الشمس، وهكذا حملنا دوابنا، وغادرنا ايليم، وسرنا عبر الطريق العام، فوق حقول واسعة نزولاً باتجاه البحر الأحمر، وخلفنا جاء بعض الرجال الآخرين مع جمال، وكانوا يسرون على الطريق القادم من الطور، وخشينا من أن يكونوا لصوصاً، لأنهم كانوا مسرعين كثيراً، وسبقونا، وعندما صاروا بقربنا، رأينا بأن جملهم كانت محملة ببضائع من التوابل، وتوجسنا أن يكون أولئك الناس عائدتين إلى البلاط (السلطاني)، وكان قائد القافلة رجلاً مليئاً ووسياً، وقد ساق جماله في وسطنا، ونظر نحو كل واحد منا بملامح غاضبة، وقال وهو غاضب لكاليينوس: «كيف تتجرأ، وأنت مسلم، على قيادة فرنجة خلال بلاد مولانا السلطان، وبذلك هم يزحفون مثل رجال عسكريين على طول الطريق السلطاني العام؟» وقد أجابه كاليينوس باحترام عميق: «هؤلاء الرجال هم حجاج، وجاءوا إلى هنا لزيارة الأماكن المقدسة في بلادنا، وهم لا يرغبون بايذاء، أو مهاجمة، أو الاعتداء على أي إنسان، لكن بما أنهم سمعوا في غزة— أو بالحري في القدس— بأن بعض الأفراد الأشرار يتجولون في القفار، وهم في كل مكان يغامرون دونما إقامة تقدير لأمان مولانا السلطان، وهم يسيئون معاملة الذين يسافرون خلال الصحراء، حتى وإن كانوا من أعيان القاهرة، وبما أن حجاجنا لديهم روح الرجولة، فقد التمسوا إذننا من ترجاننا بحمل السلاح، من أجل أن يتمكنوا هم أنفسهم من صد وطرد أي واحد يهاجمهم، ويحرق الأمان الذي منحهم إياه لطف مولانا السلطان، وهذا هو السبب في سيرهم وهم يتمنطقون بالسيوف، ويحملون القسي»، وعندما سمع هذا الجواب التفت إلى خدمه، وقال بسرور: «انظروا إن هؤلاء الفرنجة أشجع من المصريين، ولو أن مغاربتنا ومسلمينا، أو المهاليك، كانوا هكذا شجعاناً، لكانت القفار قد تنظفت منذ وقت طويل من اللصوص ومن قطاع الطرق»، وهكذا كان هذا الرجل راضياً تماماً، وقدم لنا تحيات من

خلال كالينوس، وسأله عن رحلتنا، وعن مواطننا، وعن مسائل أخرى، وفي الوقت نفسه سألناه من خلال كالينوس، عما إذا كانت سفن التجار من الهند قد جاءت مع بضائعها من التوابل والبخور، وعما إذا كانت هذه التوابل سوف يجري حملها إلى الاسكندرية، وكان سبب سؤالنا هذا السؤال، هو أننا أملنا بعبور البحر إلى ايطاليا مع هذه التوابل في السفن من الاسكندرية، وفهم الرجل مباشرة ما كنا نفكر حوله، وأعطانا جواباً كاملاً وكافياً، وقال بأن السفن الايطالية قد وصلت إلى الطور منذ أيام كثيرة مضت، وفي هذه المرة، إن التوابل والبخور المحمولين على ظهور الجمال إلى مصر وجهتهم القاهرة، ولسوف يجري حملهم من القاهرة عبر النيل إلى الاسكندرية، ومن ثم إلى البحر الكبير، لأنه يوجد الآن في الاسكندرية اسطول تجاري من البندقية، وهو الآن جاهز، ولسوف يبحر حالما يجري تحميل السفن، وعندما سمعنا هذا أصبحنا قلقين، وخفنا خوفاً شديداً من أن تغادر هذه السفن الاسكندرية قبل وصولنا إلى هناك، لأنه إذا ما حدث هذا فلسوف نرغم على قضاء الشتاء في الاسكندرية، الأمر الذي سوف يكون محموتاً كثيراً إلينا، وبعد انتهاء هذا الحديث، ساق الرجل وسبقنا بسرعة، في حين تبعناه نحن وجمالنا على مسافة مناسبة، وبدأنا من تلك الساعة نصبح قلقين، وأقلقنا كالينوس أيضاً وكذلك سائقي جمالنا، وحثناهم في الوقت المناسب وغير المناسب للسير بشكل أسرع، وللتسرع برحلتهم.

الضياع المرعب جداً، والانحراف جانباً في القفار بالابتعاد عن الطريق الصحيح، الذي قام به حجاج الفئة الثالثة.

وتابعنا سفرنا فوق سهول رملية واسعة، عبرها جاء موسى المقدس من البحر الأحمر وذلك عندما جاء من أرض مصر مع بني اسرائيل كلهم، وفي ساعة مبكرة، وكان ما يزال هناك وقتاً كبيراً متبقياً من النهار، أنزلوا الأثقال عن الجمال في مكان اسمه وردكي Wardachii ، وقد

أزعجنا هذا لأننا كنا متعجلين للوصول إلى الاسكندرية، لكن أدلاؤنا لم يعبأوا بهذا، لأنهم أرادوا أن يناموا وأن يرتاحوا قبل غروب الشمس، حتى يمكنهم البقاء يقظين وهم يصخبون طوال الليل، وذلك وفقاً لصيامهم غير المفيد، وعندما أردنا أن ننصب خيامنا في هذا المكان، لم يكن بالامكان تثبيت الأوتاد الخشبية التي تربط بها الحبال، بسبب نعومة الرمال، ولم يكن قد بقي معنا كثيراً من العصي لأن البقية كانوا قد ضاعوا في القفار، ولذلك جلسنا ونحن منزعجين جداً فوق الرمال الجافة أثناء الحرارة الكاملة للشمس، وأخذنا نتذمر ضد أدلاءنا، ومن ذلك المكان كان هناك مشهد ضم أكواماً من الرمال بيننا وبين البحر الأحمر، وكان بإمكاننا رؤية البحر الأحمر بكل وضوح من بينهم، وقد بدا لنا أنه بالكاد يبعد عنا ميلاً إيطالياً واحداً، وقال واحد من الفرسان من الفئة الثالثة التي كنت أنا منها: «لماذا نجلس هنا من دون عمل، ونحن نهلك مع حرارة الشمس؟ انظروا هناك البحر الأحمر، ومازلنا نمتلك كثيراً من النهار قد بقي لدينا، أرجوكم، دعونا نزل إلى هناك، لإنعاش أنفسنا، ولتمضية الوقت»، وعندما قال هذا مامن أحد أجابه، ولذلك استطرد يقول: «ألا يوجد بينكم أتباع موثقيين يتجرأون على الذهاب عبر هذا الطريق القصير، معي، لسرورهم ولسروري؟ وأنا على استعداد للقتال من أجلكم، فهلا هناك من يأتي معي ويستحم معي؟ هل أنتم خائفون؟»، وعندما قلنا له بأن كاليينوس لن يدعنا نذهب، مالم تذهب الفتتان الأخريتان أيضاً، ضحك منا واستخف بنا، وتفوه بكثير من الكلمات رمى بها بالحاجة إلى صداقتنا الطيبة، ورمانا بالجبن، وبناء عليه، نهضنا نحن جميعاً، الذين كنا في الفئة الثالثة، ونحن الذين كنا وحدنا مسؤولين عن هذه القضية، لقد نهضنا مغضبين، وعادنا ركوب حميرنا، وانطلقنا جميعاً نحو البحر الأحمر، وعندما شاهد كاليينوس هذا، دعانا للعودة بصوت مرتفع، وبالطريقة نفسها فعل البداة المحرب، وكذلك فعل سائقو الجمال، وسائقو الحمير، وكذلك استدعانا بقية

الحجاج، ورجونا حتى ننتظرهم، لكننا تظاهرنّا بأننا لم نسمعهم، وغادرنا مبتعدين عنهم، وكنا سبعة، هم: المعلم بطرس فيلسخ، وهو فارس وهو أيضاً كان قائد الفئة الدوري، واللورد هنري أوف سكومبيرغ، وكان فارساً، واللورد كاسبر أوف سيكولي، وهو رئيس مطارنة، والراهب فيلكس، الخادم للبقية، وجون طبّاخ السادة في المجموعة الأولى، وخادم كونت سولس، وكان قد أشعل ناراً لعمل فطيرة، وعندما رأنا نازلين نحو البحر، أخبر سادته أن يتوقعوا عودته حالاً، فالذي قصده هو انعاش نفسه، والعودة لطبخ لسادته طعام العشاء، لأنه مثل الآخرين، اعتقد بأن البحر يبعد عنا غلوتين أو ثلاثة.

وعندما رأى كالينوس أننا كنا مصريين، ولأنه كان يعرف المخاطرة التي كنا مقبلين عليها، دعا جميع الحجاج، وسائقي الجمال، وسائقي الحمير، وقال لهم: «اعلموا أن هؤلاء الحجاج نازلون نحو البحر، وهم سوف يعرضون أنفسهم إلى خطر عظيم، لأن من المحتمل فقدانهم لطريقهم، والانفصال عنا، وإذا ما حدث هذا، فإنهم سوف يكونون أبناء الموت، وبناء عليه إنني أعلن لكم وأشتكي إليكم بأنني لم أرسلهم، كما أنني لم أمرهم بالذهاب، بل دعوتهم للعودة، وحرمت عليهم النزول إلى هناك، لكنهم استخفوا بي ولم يصغوا إليّ، وإذا لم يعودوا إلينا قبل الغد، يتوجب عليكم إعطائي تقريراً مكتوباً عن الذي عملته أنا في هذه القضية، حتى يعرف الناس جميعاً بأنني بريء بالنسبة لموت هؤلاء الحجاج، وعليّ أن أجيب حولهم عدداً من الناس، وإذا حدث وانتشر خبر القضية في القاهرة، فلسوف أمثل أمام السلطان لأجيب حول أمرهم، ولسوف يبحث الترجمان عنهم ثم إن جانم، حاكم القدس، وكالينوس الرئيس، سوف يتهماني بالاهمال، وبناء عليه إنهم مالم يعودوا هذه الليلة، فلسوف أطلب شهادة مكتوبة منكم، لأنه حدث أيضاً في رحلة أخرى أنني فقدت اثنين من الحجاج، بالطريقة نفسها، مما تسبب

لي من أجلهما مصيبة كبيرة، كما عانيت من اضطراب كبير جداً، دون أن تكون الغلطة غلطتي»، ولدى سماع هذا، وعده الجميع بأنهم سوف يكتبون له ماطلبه منهم.

وفي الوقت نفسه، تابعنا سيرنا على طريقنا ونحن مسرورين، ووصلنا إلى ما بين أكوام من الرمل، ولذلك لم يعد بإمكاننا رؤيتهم بعد ذلك، وبعدها سرنا لمسافة طويلة، كان بإمكاننا رؤية البحر، لكن بقي أمامنا مسافة لا بأس بها حتى نصل إليه، وبعدها سرنا بخطوات سريعة لمدة ثلاث ساعات، رأينا أنه بقي لدينا الكثير من ضوء النهار، وفقط عندما قررنا أننا بتنا على شاطئ البحر، ظهر أمامنا قطاع عريض بيننا وبينه، وعندما عبرناه توفر قطاع آخر توجب علينا اجتيازه، ولهذا قال واحد من الفرسان لي: «من الواضح يا أخانا، أننا قد جرى تضليلنا من قبل الشيطان، لأن البحر لا يمكن أن يهرب منا، لكن هذا رأينا يهرب منا، ولهذا لا يمكن أن يكون هو البحر، بل لابد أن يكون هو الشيطان، تحول إلى شكل البحر»، وعندما غابت الشمس، اقتربنا من البحر، وعندما شرعنا بالنزول من الشاطئ إلى المياه، وصلنا إلى مكان موحل غرقت فيه الحمير حتى بطونها، ولذلك ترجلنا مع ضيق شديد، لأننا أيضاً غطسنا في الوحل، واقتدنا الحمير إلى خارج الوحل، ثم ربطناهم إلى بعض النباتات الشوكية.

وسرنا بعد ذلك في الوحل، وبصعوبة وصلنا إلى الماء، حيث نلنا راحة قليلة وفقيرة، لأننا لم نخلع ثيابنا، بل غسلنا أيدينا باختصار، وشعرنا بالغضب من أنفسنا لقيامنا بمثل هذه المخاطرة الكبيرة من دون فائدة، وبعدها فرغنا من غسل أيدينا التقطنا بعض أصداق سرطان المحار الغريبة، من على الشاطئ، كبرهان على أننا وصلنا إلى البحر الأحمر، ثم شققنا طريقنا ثانية خلال الوحل، ليس مغسولين بل قذرين، وليس منتعشين بل منزعجين، وليس مسرورين، بل آسفين، وبهذه الحالة

تركنا البحر، وفي ذلك الوقت من الليل، كانت الدنيا مظلمة، إلى حد أننا كنا غير قادرين على رؤية آثار حوافر حميرنا ولا بطريقة من الطرق، ولذلك بما أنه مامن واحد منا قد عرف أين هو الطريق، أونحو أي جانب ينبغي أن نسير، نشب خلاف بيننا حول هذا، وترجل بعض الحجاج، وأخذ يتلمس طبقات حوافر الحمير في الرمال، لكنهم لم يعثروا على أي شيء مؤكد، وذلك بسبب الظلام، ولذلك وقفنا بلا حراك، والشك يساورنا حول أي اتجاه يتوجب علينا التوجه بوجهنا.

وقد توقفنا، وشرعنا بالتشاور بشكل جدي فيما بيننا، لأننا شعرنا أننا نواجه عدة أنواع من الموت، وأن ذلك قريب منا، وأشار بعضنا بعدم السير، وأن نبقي ثابتين حيث كنا، لأننا إذا سرنا في الظلام ربما نقع في مخاطر غير معروفة، وسيكون من غير الممكن بالنسبة لنا الالتحاق برفاقنا فوق هذا السهل الشاسع والمخيف، في حين أننا في الصباح يمكن لنا اللحاق بهم، فور توفر ضوء النهار ليقودنا، وعلى العكس من هذا قال آخرون بأن هذا السهل سوف يكون موضع موتنا، لأنه من المؤكد أنه ما أن يمر منتصف الليل، حتى يكون كالينوس وحشده قد غادروا المكان، وإذا ما انتظرنا حتى الصباح، لن نكون قادرين على اللحاق بهم خلال ذلك النهار كله، ولا بد وقتها من أن تهلك دوابنا، لأننا لا نمتلك طعاماً كافياً حتى لمدة يومين وليلتين، لأننا لم نحمل معنا أيًا من الضروريات للحياة، أي لاخبز ولاماء، ثم إننا في اليوم الذي تقدم لم نأكل سوى القليل جداً، وكذلك لم نشرب، وبناء عليه أعطى الشطر الأكبر منا صوتهم للرحيل، لكن في أي اتجاه، كانوا جميعاً غير قادرين تماماً على القول، لأن الظلام كان شديداً إلى حد جعل من غير الممكن رؤية الجبال التي كانت أمامنا، كما أنه لم يكن بإمكاننا رؤية أي طريق، وبصعوبة بالغة كان بإمكاننا رؤية البحر من خلفنا، مع أن البحر

يشع بشكل طبيعي بعض الشيء في الظلام، ولذلك تجولنا فوق طريق غير مؤكد، الآن إلى اليمين، ثم الآن إلى اليسار، وفي بعض الأحيان بشكل مستقيم، وكنا في وقت نستمع إلى نصيحة انسان، ثم بعد قليل إلى نصيحة انسان آخر، ووقفنا في بعض الأحيان دونما حراك، وأصغينا، أملين بسماع صوت أناس يتكلمون أو يصرخون، لكن بما أننا لم نستمع شيئاً، صرخنا نحن أنفسنا بصوت مرتفع، وبفعلنا هذا، لم نخف من أي لص، لأننا رغبتنا بقدوم انسان إلينا، حتى نتمكن من معرفة شيء مامنه، وإثر هذا، رأينا على الفور ناراً تلتهب أمامنا، وترسل أشعتها المضيئة، وتجاه ذلك كنا مسرورين، لأننا اعتقدنا أن رفاقنا قد أشعلوا ناراً من أجلنا، لكن عندما شرعنا بسرور بتتبع هذا الضوء، عرفنا على الفور، أننا قد خدعنا، لأن الذي كان عبارة عن نجم ساطع، عندما أشرق، نشر اشعاعاته من فوق رؤوس الجبال.

وقام الآن اللورد هنري أوف سكومبيرغ— وكان رجلاً عاقلاً ومفكراً— فوجه خطاه باتجاه أحد النجوم، وطلب منا اللحاق به واتباعه، قائلاً بأنه وجد في السماء، طريقاً محدداً يقود إلى جماعتنا، لكن كيف وجد ذلك، أنا لست عارفاً، والذي أعرفه، أننا لوتبعناه، لوصلنا مباشرة إلى معسكرنا، والذي حدث أننا بعدما تبعناه لمسافة جيدة، قال أحدهم بأننا كنا نميل كثيراً نحو اليمين، ولذلك تركنا الطريق الذي نصحبنا به اللورد هنري أوف سكومبيرغ، وسرنا على طريق آخر على يساره، وأثناء قيامنا بهذا، تخاصمنا في بعض الأحيان، لأن واحداً أراد الذهاب في هذا الطريق، وآخر في ذلك الطريق، وفي أثناء هذه الشدة، كان هناك أمران خفت منهما كثيراً بقدر ماخفت من الشدة نفسها: وكان الأمر الأول، هو أن يشرع الفارسان الرئيسان بيننا بالقتال، ويجردا سيفيهما أحدهما ضد الآخر، لأنني عرفت أن أحدهما كان يكره الآخر بمرارة، ولذلك عندما كان يتجادلان حول الطريق، حرصت على وضع

نفسى وحماري بينهما، حتى لا يحركهما الغضب بسرعة باقتراب أحدهما من الآخر، والأمر الآخر، هو أننا اختلفنا حول الطريق الصحيح، وهنا خفت أن يتبع أحدهم رغباته، وينفصل عنا، ويهلك، ولذلك بذلت جهداً كبيراً في تهدئة الذين كانوا يتجادلون، ولإرجاع الذين كانوا سيبتعدون، وقلت من وقت إلى آخر لرفاقي المحيطين بي: «لا تكونوا خائفين كثيراً، ولأن يغضب أحدكم من الآخر، ولا يفصلن أحدكم عن الآخر، لأننا إذا راعينا هذين الأمرين فلن نهلك»، وبناء عليه تابعنا سيرنا في شك، وأخذنا نخشى أننا ربما قد تجاوزناهم، لأنه بدلنا أننا الآن في العودة قطعنا مسافة أطول من المسافة التي قطعناها أثناء توجهننا نحو البحر.

وكان الوقت الآن منتصف الليل، وقد اتفقنا جميعاً على وجوب أخذ راحة قصيرة، فوق منطقة مرتفعة، وكنا على مقربة من رابيتين رمليتين وعرتين، لم نتذكر أننا رأيناها ونحن على طريقنا نازلين نحو البحر، مع أنهما لم تكونا عاليتين بما فيه الكفاية، وبناء عليه صعدنا إلى إحدى هاتين الرابيتين، ونظرنا إلى ماحولنا، وأصغينا، وصرخنا، وولولنا، لكن لم يكن هناك من صوت، ولا فهم، ولذلك ربطنا الحمير مع بعضها، ومددنا أنفسنا فوق الأرض، للاستراحة ولاسترداد أنفاسنا وليس للنوم، لأنه لم يكن هناك نوم لدى أناس كانوا في مثل هذا القلق، ذلك أننا كنا أبناء الموت، وكان لدينا فقط قليلاً من الأمل الموجه في أن نقع، قبل أن نهلك في أيدي البداة العرب، أو المدينين، أو المصريين، فلهؤلاء كنا على استعداد أن نستسلم بإرادتنا، ونقدم أنفسنا أسرى، بسبب «أن قتلى السيف كانت خيراً من قتلى الجوع» [مراثي ارميا: ٩/٤]، ومع هذا وضعنا ثقتنا أخيراً بالرب، وفي العذراء مريم المجيدة، وفي القديسة كاترين، في أن لا يسمحوها بهلاكنا بهذا الشكل التعيس في القفار، ودعونا بعضنا بعضاً في أن لا نستسلم للنوم، بل أن نرتاح بشكل نبقي فيه آذاننا

مفتوحة، لأننا إذا ما كنا على مقربة من جماعتنا، يمكننا سماع الصراخ المعمول من قبل الناس والحيوانات، أثناء تحميل الجمال، لأن الجمال اعتادت أثناء تحميلها على الصراخ، واعتاد الناس على الصراخ أو الغناء، وقد أملنا أن نسمع مثل هذه الأصوات.

وعندما كان الجميع قد تمددوا على الأرض صامتين، لم أستطع البقاء متمدداً فوق ذلك الفراش الذي كان في غاية الخشونة، بل قمت بالتجول من حولهم، أقرأ الصلوات الساعية للعدراء المباركة، وفعلت ذلك بصمت بتحريك شفتي فقط، وكنت أنشد مزاميرها الصحيحة، وأثناء سيرى وتجوالي رأيت ظلاً في الوادي، عند أسفل جبل أجرد، فاعتقدت أن ذلك لابد أنه أيكة نوع من الحشائش الخضراء، لذلك نزلت إلى هناك للحصول على بعضها لتقديمها إلى حماري الذي كان صائماً مثلي، إنما عندما وصلت إلى المكان، لم تكن أيكة خضراء، بل أشواك جافة كثيفة، ولذلك ذهبت من ذلك المكان إلى قمة الرابية الواقعة مقابل رابيتنا، لربما يحدث فأرى أو أسمع أي شيء من هناك، وعلى تلك الرابية تجولت هناك في هذا الاتجاه وفي ذاك، لأن الناس القلقين والغارقين بالتفكير، يسرون من مكان إلى مكان من دون اختيار من قبل أنفسهم، ودون معرفة إلى أين يسرون، وبعد وقت قليل رغبت بالعودة إلى رفاقي، فتسلقت الرابية المقابلة معتقداً أن جماعتي كانت معسكرة هناك، ولكنني لم أجدهم هناك، ولذلك ركضت نحو رابية أخرى، لكنني لم أتمكن من العثور عليهم، ولذلك وقفت في حالة قلق شديد، ولعنت الليلة قائلاً: «أيتها الليلة المقلقة، التي أنت جديرة بهذا الاسم، أنت بالحقيقة ابنة الأرض، من أب غير معروف، جئت إلى الوجود من خلال صراع الأرض مع نفسها، ومن زواجها من اربوس Erebus المخيف، وعدو الراعي المفيد جداً، فانتيس Pha-netes (الكوكب Planetes ؟)، وتبعاً لذلك، وكما يقول المثل

الشائع، صديقة لأحد، إلا مقتري الشرور، لأن فاعلي الشرور يمتلكون الضوء، ويفرون للالتجاء إليك، لأنك عدوة الشمس، ولذلك:

يغادر اللصوص وكرهم عند منتصف الليل

ليقطعوا أعناق الناس الأبرياء

وفي الحقيقة إنه بسبب الشكوى التي أبدأها الليل وقدمها إلى جوبيتر، عندما أراد أن يتحدث إلى محبوبته ألكمينا Alcmena ، أجزى بعربة وأربعة، وفي هذه العربة يدور باستمرار حول الأرض، وتلقى أيضاً القدرة على القمع، قمع حتى الآلهة، وهكذا نراه مع عربته يلوم، ويضغط، ويخفف شجاعة حتى الرجال الأشداء، المليئين بالأفكار العالية، وذلك حتى قدوم الفجر.

وعندما فرغت من ملامتي الليل، اشتد غضبي من نفسي، لأنني عهدت بنفسي إلى تلك الليلة الأعظم خيانة، والمليئة بالفخاخ إلى جميع الذين يسافرون بالبر أو بالماء، ولذلك لجأت بنفسي إلى المصدر الطبيعي للنفس في الآلام، وللروح المضطربة، الذي هو الصراخ بصوت مرتفع (باروخ: ٣)، ورفعت صوتي بالنداء إلى الفارس الأقوى والأنبل، والأكثر إخلاصاً، والأعظم معرفة بالنسبة لي، ودعوته بقلبه فقط، وصرخت «سكومبيرغ»، وفي الحال سمعني، فانتصب قائماً، ومع الآخرين جاء الرد من على بعد: «فيلكس، فيلكس»، وصرخت للمرة الثانية قائلاً «هو، هو» و«أين يمكن أن أجداكم؟ تحدثوا إليّ، إنني أتوسل إليكم، حتى أصل إليكم، لأن الظلام والصمت قد أضلاني»، وهكذا صرخ أحداً إلى الآخر، حتى وصلت إليهم، وعندها لاموني بحدة لقيامي بجولتي الخطيرة والمنعدمة التقدير، لأنني كنت بعيداً عنهم أكثر مما قدرت وفكرت، وعندما عدت إلى هؤلاء الذين كانوا ما يزالون واقفين، تمددوا على الأرض ثانية.

وكان منتصف الليل قد انقضى الآن، وصار الوقت هو الوقت الذي اعتاد فيه سائقو الجمال على الشروع بتحميل دوابهم، وهكذا جلسنا بسكون، وصمت، أملين بسماع أصوات الجمال، وبعدما مكثنا هكذا بعض الوقت، فجأة، بدأ صوت الجمال الذي تشوقنا إليه يصل إلى مسامعنا، وبدأ هدير أصواتهم مسموعاً بالنسبة إلينا، ويستطيع الحديث عن المتعة التي شعرنا بها عندما سمعنا هذا، فقط الذي كان واقفاً في رعب على حياته، وفجأة سمع مخلصه وهو قادم، وبالنسبة لنا كان ذلك الصراخ المرعب للجمال، أحلى من أية موسيقى عذبة، ومساوياً تماماً للأغنية القوية التي غناها أورفيوس Orpheus على قيثارته، وقد حدثنا الشعراء أنه بقيثارته جعل الجبال تقفز مرحاً مثل كباش، وجعل أشجار الغابة ترقص، وأوقف مجاري الأنهار، ودجن الحيوانات المتوحشة، فضلاً على هذا ربح بغنائه على قيثارته السيدة النبيلة يوريدايس Eurydice ، التي كانت الأكثر جمالاً، وكانت غنية وحكيمة، وعندما بعد الموت أخذت إلى الظلال تحت، لحق بها إلى قعر جهنم، حيث غنى ولعب على قيثارته، حتى تمكن بحبه من تحويل قلوب الذي كانوا يتحكمون في ذلك المكان، وجعل المدانين ينسون عذابهم، وأضاء ظلمات تارتاروس Tartarus، وحظي بمحبته يوريدايس ثانية، ومثل هذا في تلك الساعة كان هدير أصوات الجمال مثل قيثارة أورفيوس، لأن سرورنا جعلنا نرى التلال تقفز مرحاً، والغابات ترقص، والماء الذي يجري حزيناً قد توقف عن الجريان، وسررنا كثيراً لأننا جرى اقتيادنا بهدير أصوات الجمال، واخراجنا من بين فكي الموت.

ونهبنا على الفور، وامتطينا ظهور حميرنا، ونزلنا من جانب الهضبة، أو بالحري قفزنا، وعندما وصلنا إلى الصخور في الأسفل، طرنا فوقها إلى السهل، وسرنا باتجاه الضجيج الصادر عن الدواب، ونزل بنا الآن رعب جديد، فقد خشينا أن يصدف، فتكون هذه قافلة غريبة للبداة

العرب، أو المدينين، وأنه من الممكن أن نقع في أيدي أعداء، لكن عندما اقتربنا، سمعنا أصواتاً معروفة بشكل جيد بالنسبة لنا، ومع حمد الاسم الرباني دخلنا إلى المعسكر ثانية، ووجدنا هناك جملين محملين بالخبز والماء، مع بدويين عرييين من السائقين كان رفاقنا قد عزموا على إرسالهم للبحث عنا، لكنهم لم يشعلوا ناراً في المعسكر في تلك الليلة، من أجل معاقبتنا، لأننا رفضنا الطاعة عندما دعانا كل واحد إلى العودة.

واستقبلنا كالينوس استقبلاً سيئاً، وأظهر عدم رضاه عنا بكل من الكلمات والتصرفات، وأخبرنا بحكاية حول كيف حدث فيما مضى، على مقربة من هذه البقعة تماماً، أن اثنين من الحجاج نزلاً بشكل سري نحو شاطئ البحر، وأضاعا طريقهما، كما حدث معنا، وركضاً في هذا الاتجاه وفي ذاك حول القفار، لمدة ثلاثة أيام، وأخيراً تم العثور عليهما من قبل بعض المدينين، يتجولان بشكل جنوني، وقد أحضر وهما في تلك الحالة إلى رفاقهما من الحجاج الآخرين، الذين كانوا آنذاك في مصر، حيث ماتا خلال بضعة أيام، ولولا أننا وجدنا — بفضل رحمة الرب — طريق عودتنا إلى رفاقنا، لاشك لدي أننا كنا سنقع في أقسى الشدائد، وكان الفارس الذي حرضنا على الذهاب قد جرى تمزيقه إلى قطع من قبل الآخرين من الحجاج، ومهما عشت في هذه الدنيا، أنا لم أشهد ليلة أشد كآبة من تلك الليلة، وفي الحقيقة كان الذي حدث معنا مثل الذي حدث مع رفاق يوليسيس Ulysses الذين جميعاً جلبوا إلى المخاطر من قبل رفيقهم الملاح يوريالوس Euryalus، مع أنهم حذروا بعدم الابحار.

رحلة إلى البحر الأحمر وسرور الحجاج العارم

في اليوم الثالث من الشهر، وقبل اكتمال الفجر، غادرنا حسب عادتنا وردك(كذا) وسرنا فوق سهول رملية شاسعة، وقبل اشراق شمس النهار، قابلنا مجموعتين من (الرجال الممتطين) للجمال، كان لابد

لمجموعتنا من الوقوع في وسطهم، لولا أننا وصلنا إلى رفاقنا، وعندما صار النهار مضيئاً، وصلنا إلى برية سين، وكنا قرييين تماماً من البحر، وكانت هذه أول برية وصل إليها بنو إسرائيل بعد عبورهم البحر الأحمر (الخروج: ١٦/١).

علاوة على ذلك عندما كانت هاجر مولاة سارة هاربة من أمام وجه سيدتها، وكانت تريد العودة إلى مصر، حيث كانت قد ولدت، وجدت ملاك الرب يتجول وحده في هذه القفار، وقد أمرت من قبله بالعودة إلى سيدتها ساره، وأن تتواضع أمامها، وقام بالوقت نفسه بالتنبؤ لها كثيراً حول ولدها الذي حملته برحمها، أي ابنها اسماعيل، الذي كان ولدًا لجميع الاسماعيليين، والهجاريين، والمسلمين، وسكان جبل سدير.

والآن بما أن عدداً كبيراً من موالئ الحجاج لم يكونوا قد رأوا البحر الأحمر، سألوا كاليينوس عما إذا كان بإمكانهم النزول إلى هناك، لاسيما وأن المكان كان قريباً من المكان الذي قيل بأن بني إسرائيل قد خرجوا فيه من البحر الأحمر إلى برية سين (الخروج: ١٧/١)، وبناء عليه أعطى كاليينوس إلى الحجاج خدمه من البداية العرب، ليكونوا أدلاء لهم، ونزلنا جميعاً معهم نحو البحر الأحمر، لأنه وإن كان حجاج الفئة الثالثة قد نزلوا إلى البحر، مع ذلك هم لم يتعلموا شيئاً يتعلق به، وقد تشوشوا كثيراً ورغبوا في رؤيته بوضوح كامل، ولذلك نزلوا مع الآخرين، غير أن الجمال تابعت سيرها على الطريق العام، وبعد مسير ساعة، وصلنا إلى مياه البحر، ومع أن الوقت كان ما يزال باكراً، خلعنا ثيابنا، واستحمينا في البحر الأحمر، وهناك عمّدنا أنفسنا، وإنني أقول، إنه في ذلك البحر ذاته — حسبما حدثنا الرسول (كورنثا: ٩/١) — قد تعمد آباؤنا الأولون حتى موسى، لأنه هنا سار بنو إسرائيل فوق أرض جافة من الشاطئ الأول للبحر حتى الشاطئ الآخر، فبوساطة معجزة انحسرت مياه البحر ووقف على شكل كومة على كلا الجانبين، وفي الحقيقة إن البحر

ليس عريضاً في هذا المكان، ولربما هناك ميل واحد إلى فم الخيروت على الجانب الآخر، ومع ذلك البحر عميق وهائج، وكان عند فم الخيروت على الشاطئ المقابل لنا، قد ضرب موسى البحر بعصاه، ففتح طريقاً، ومضى بنو اسرائيل في البحر، ولحقهم فرعون بعرباته وفرسانه.

وحدثنا أورويسيوس Orosius ، أنه في هذا المكان، من الممكن مشاهدة براهين مؤكدة عن الذي حدث هناك، لأن آثار العربات والدواليب من الممكن رؤيتها، ليس على الشاطئ فقط، بل أيضاً في المياه العميقة، وبذلك بقدر ماتستطيع العين أن تنفذ وأن ترى، ومن الممكن أن يرى على قعر البحر كذلك حفر عميقة جداً، فيها مضى المصريون نحو الأسفل مثل الرصاص، وبعد وقوع هذه الأشياء، لم يكتف المصريون الأحياء أنهم لم يعرفوا الرب، بل جعلوا ذلك مناسبة للوثنية، لأنه في « حياة الآباء »، أخبرنا أبولونيوس Apollonius، بأن المصريين الذين لم يذهبوا مع فرعون، اعتقد كل واحد منهم بأن الشيء الذي كان مشغولاً به، أثناء غرق البقية، هو ربه، وقد عبده، قائلاً: « هذه الحشائش، أو هذا الخشب، أو هذا الخبز، أو هذه الدابة، وهكذا دواليك، هو اليوم ربي، الذي أنقذني من الغرق في البحر مع فرعون »، وهكذا تضاعفت أعداد الأوثان في أرض مصر، وفاقت بتعدادها جميع البلدان الأخرى في العالم.

وهنا على هذا الجانب من البحر، حيث كنا نستحم، قذف البحر بأجساد المصريين، وهنا قام بنو اسرائيل بنهبها وسلبها، ووجدنا على شاطئ البحر أصداً غريبة، وأصداف المحار من مختلف الأشكال والألوان، وكميات هائلة من المرجان الأبيض، ولم نر هناك أي مرجان أحمر، مع أنه ينمو ويتكاثر هناك، هذا ويقول بعضهم بأن المرجان أثناء نموه في البحر، هو دائماً أبيض وناعم، وأنه فقط عندما يؤخذ من البحر ويحفظ يغدو أحمر اللون، كما هو الحال بالنسبة للمرجان المستخرج من

بحر صقلية.

وأطلق على هذا البحر اسم البحر الأحمر، بسبب اللون الزهري لأمواجه، لكن لون مياهه بالطبيعة ليس أحمر، كما قد يوحي الاسم، وتنصبغ هذه المياه وتندبغ بوساطة شواطئه التي تحيط به، لأن جميع الأراضي المحيطة بهذا البحر حمراء، أو ذات لون دموي، وبناء على طبيعة التربة، فإن مياه البحر تضرب بالتدرج الشواطئ، ومن ثم تذوب التربة في المياه وتلونها، وعلاوة على ذلك يعثر الناس على هذه الشواطئ على جواهر حمراء، وأصداف محار حمراء، وينمو على الجزر هناك شجر البرازيل الأحمر، وتذوقنا مياهه، وقارنا ملوحته مع ملوحة بحرنا المتوسط، فوجدناها أكثر ملوحة ومرارة من بحرنا، مع أن البحر الأول، والبحر الآخر يصدران عن مصدر المحيط نفسه، الذي هو نفسه مالح جداً، وعلل فلاسفة الطبيعة هذه الملوحة بعدة أسباب، ومثلهم فعل اللاهوتيون والشعراء القدماء، وكنت قد عرضت من قبل الأسباب الطبيعية واللاهوتية في ص ٢٢٣-٢٢٦، واحتفظت بالسبب الشعري حتى الآن.

فلقد ذكر بعض أقدم الشعراء بأن واحداً اسمه ديموغورغون De-mogorgon وكان عفريتاً مرعباً جداً، وأعظم أبناء الأرض، وقد عاش أولاً بين الأرباب على شكل بشر، ومن المفترض أنه قد قيل من قبل الرجال المذنبين القدماء، بأنه كان المسبب الأول وخالق جميع الأشياء، وذلك حسبما يمكن قراءته في كثير من الشعر القديم، وقد حكوا حول ديموغورغون أساطير كثيرة، عن كيف أنه لم يكن هناك ضياء في قبة السماء، وذلك عندما لم تكن هناك أرض، بل كانت محجوبة في الظلام، ولذلك ضجر ديموغورغون من الظلام اللامحدود، فتسلق إلى قمة جبال أكروسيرونيان Acroceraunian، واقتطع منهم قطعة كبيرة كانت كتلة ضخمة جداً كانت ملتهبة، وقد جعل أولاً هذه الكتلة

كروية بألسته، ثم طرقها حتى صارت قاسية فوق جبل كوكاسوس Caucasus، ثم حملها إلى ماوراء تابروين Taprobane، وغطسها في مدار مضيء ست مرات في الأمواج، وطوّح بها من حوله في الهواء مرات كثيرة، وقد فعل هذا من أجل أن لا يتلاشى مطلقاً، أو يتيسر ويصدأ، ويتساقط إلى قطع خلال العصور، ولكي يستطيع التحرك بنشاط إلى جميع أجزاء العالم، ثم إنه رفع نفسه مباشرة، ودخل إلى كيان السموات، وملاً جميع مملكة أبيه بالضوء.

وحدث أنه بسبب التغطيس بالماء، الذي كان من قبل عذباً، فإن هذا الماء صار مرّاً مع ملح، وصار الهواء مغلقاً بشكل محكم وذلك بسبب الزوابع، أي حتى تتلقى أشعة من الضياء، ويكفي الآن ما قيل عن هذا.

ومع أن هذه والقصص المشابهة قد تظهر أنها خيالية من الظاهر، لكن زبدتها ملئية بالحقائق الطبيعية واللاهوتية، وذلك كما تعلمنا من كتاب يوبيت Jobait (٩) حول «أنساب أرباب الكفار»، حيث استخراج خلاصات جميلة جداً من كتابات الشعراء.

ويقول الملاحون بأن ملوحة البحر تؤثر فقط على ماء السطح، وأنه على بعد عشر خطوات تحت السطح يمكن العثور على المياه العذبة، ولا أمتلك أنا خبرة تبين هل هذا صحيحاً أم لا، وكان هذا البحر الأحمر يدعى في العصور القديمة جداً باسم بحر الأيريتريين Erythraean اشتقاقاً من اسم الملك إيرترايوس Erythraeus ، الذي كان ابن فرسوس وأندروميديا، وحكم هذا في البلاد القريبة من هذا البحر، وفي الجزر الموجودة فيه، وقد كان ملكاً جباراً، ولذلك عندما مات على أعظم الجزر شهرة، بنوا له ضريحاً واسعاً وتعبدوه كرب، وأطلقوا على البحر الأحمر اسم بحر الأيريتريين، وكان ذلك اشتقاقاً من اسمه، ويدعو الاغريق البحر باسمه هذا حتى هذه الأيام، لكن العبرانيين يسمونه جام سوف Jam suph، وذلك حسبما حدثنا جيروم في

رسالته إلى فاييولا، حول الأبعاد الاثني عشر.

ومكثنا نتمشى على ساحل هذا البحر لمدة تزيد على الساعة، وبعد ذلك امتطينا ظهور حميرنا، وسرنا مسرعين عائدين نحو الطريق العام، وبادرنا مسرعين خلف جمالنا، الذين قطعوا مسافة طويلة أمامنا، ذلك أننا كنا قلقين من التخلف وراءهم، وعندما شاهد البداية العرب رغبتنا بالسير بسرعة، ساعدونا في دفع حميرنا للاسراع بوخزهم من الخلف برماحهم، وعندما شعر الحمير بهذا طاروا مسرعين مثل الخيول، بخطوات سريعة للنجاة من وخزات البداية العرب، لكن البداية العرب تابعوا وخزهم لهم، وأنالم أشهد قوماً مسرعين، مثلما ركضوا هم، فقد امتلكوا أرجلاً طويلة ملتوية، ولم يرتدوا أحذية، أو صنادل، أو أحزمة، وكانوا يأكلون القليل من الخبز، ويشربون القليل من الماء، ولذلك كانوا عندما يركضون لا يشعرون بأي ألم في أجوافهم، أو ضغط على صدورهم، أو قصور في التنفس، وهو مانعاني منه كله جميعاً، وأفترض أن ذلك بسبب اطعامنا أنفسنا أكثر مما يلزم في كل يوم، ويركض البداية العرب «خفاف الأقدام كظبي البر»، مثلما فعل عسائيل [صموئيل الثاني: ١٨/٢]، ولا يستطيع رجل ممتطياً لفرس سريع أن ينجو منهم، لأنهم يمكنهم متابعة الركض لمسافة طويلة، ويفعلون ذلك مع السرور والمرح، ولم أضحك من قلبي خلال حجي كله مثلما فعلت عندما صعدنا من شاطئ البحر إلى الطريق السلطاني العام، لأن البداية العرب مزحوا معنا، وسبقونا، ورقصوا وتقاتلوا مع بعضهم برماحهم، وكان بينهم بدوي عربي غريب، أنا لم أره من قبل، وقد لعب ألاعيب غريبة مدهشة وتهريجية، وقد جعلني أضحك مراراً إلى حد أنني خفت أن أسقط من على ظهر حماري لإفراطي بالمرح.

وسرنا بهذه السرعة، مع البداية العرب وهم يلعبون من حولنا، لمسافة تقارب ميلين ألمانيين، وعندما وصلنا إلى الطريق السلطاني العام، نزلنا

إلى داخل سهل آخر شاسع حيث رأينا جمالنا وقد أناخوا إلى جانب بعض الآبار، ومعهم سائقي الجمال، ولذلك نزلنا نحو ذلك المكان، ووقفنا عند تلك الينابيع، حيث سقينا جمالنا وحميرنا، غير أننا أنفسنا مجبنا الماء الذي كان مالحاً بعض الشيء، وكان علاوة على ذلك ساخناً من قبل الشمس، وله لون أحمر، ويعرف هذا السهل وهذا القفر باسم ماره [الخروج: ٢٣/١٥، العدد: ٨/٣٣]، فبعدما عبر بنو إسرائيل البحر، وسلبوا المصريين الذين قذفوا على الشاطئ، بحثوا عن الماء، لكنهم لم يجدوا شيئاً، إنما حدث ربما بتوجيه واحد ما أن نزلوا إلى هاهنا، ووصلوا في اليوم الثالث إلى هذا المكان، وطلبوا الماء وبحثوا عنه، ولأنه لم يقع على طريقهم، انحرفوا جانباً عن طريقهم للحصول على الماء للشرب، كما غالباً يفعل الناس في القفار، وعندما وصلوا إلى هنا لم يستطيعوا شرب مياه ماره، لأنها كانت مياه مرّة [الخروج: ٢٣/١٥] فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب، فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء، فصار الماء عذبة، وورد ذكر هذا أيضاً في سفر يهوديت: ٥، وقال اللاهوتيون بأنها كانت شجرة من خشب مالح جداً، ولكي تكون المعجزة مدهشة أكثر، تتحول المياه المرة إلى مياه عذبة وقابلة للشرب برمي خشب مرّ فيها، وهذا التعاكس كما يبدو هو الذي عني بالإلهيات: ٥/٣٨ قوله: «ألم يجعل الماء عذبةً بخشب؟» لأن النص المقدس قد تحدث هناك عن السمات الطبيعية للذي ينمو في الأرض، والذي أعتقده أن هذه العذوبة، التي عملت في هذه المياه بوساطة الخشب لم تستمر، إلا فقط حتى مغادرة بني إسرائيل، وبعد ذلك عادت إلى مرارتها الطبيعية.

وملوحة هذه المياه طبيعية، ولذلك من الممكن شربها من قبل الدواب، ومن قبل بعض الناس، لكن ليس من قبلهم جميعاً، والسهل كله مستنقعي ومليء بالماء، التي تنبع وتتدفق من البحر الأحمر، ويعتقد

كثير من الناس بأن الأردن يجري من البحر الميت، بعيداً حتى هذا المكان من خلال قناة تحت الأرض، وينبع هنا، وذلك كما تقدم لي وذكرت، ويحكي البداة العرب حكايات خيالية كثيرة حول هذه الينابيع، من ذلك أن نعجات كن يشربن هناك قد حملن بخرفان حمر، وذلك مثلما قرأنا عن النبع الذي اسمه ميلا Mella ، من أن نعجات شربن من هناك فحملن بخرفان سود، علاوة على ذلك إنهم يفترون على هذه الينابيع، ويقولون إن كل من يشرب منهم يصاب بمرض، من نوع أنه لا يبقى رجلاً بعد ذلك، وبعدما شربنا حملنا الجمال ثانية وغادرنا ماره إلى شاطئ البحر الأحمر، وسرنا فوق سهول رملية شاسعة جداً، ووصلنا عند غياب الشمس إلى مكان يدعو العرب باسم Hanada حيث نصبنا خيامنا، لكن المنطقة كانت جرداء، لذلك واجهنا كثيراً من المصاعب في العثور على مايكفي من عصي جافة لنطبخ لأنفسنا بعض الطعام الساخن.

مسائل يتوجب ذكرها من أجل فهم صحيح للكتابات المقدسة

وفي اليوم الرابع، الذي كان يوم القديس فرانسيس المعترف، غادرنا Hanada في الصباح الباكر، قبل اشراق الشمس، وسرنا فوق سهول شاسعة جداً، ومقفرة على جانب البحر الأحمر، حتى وصلنا إلى بعض الجبال، عند سفحها يرسل البحر لساناً نحو الأمام ويصل هنا إلى النهاية، وفي المكان الذي ينتهي فيه البحر الأحمر هناك، هناك ميناء تصل إليه السفن، وفي هذا الوقت تحررت من شك كبير، ساورني وبقي معي طوال الرحلة كلها، لأنني وان كنت أعرف بشكل أكيد أننا ينبغي أن نخرج من القفار إلى أرض مصر لم يكن بإمكاننا التخمين كيف سنقوم بعبور البحر الأحمر، لأنني كنت أعتقد أن البحر الأحمر متصل بالبحر المتوسط، لأن بني اسرائيل قدموا إلى القفار بعد عبور البحر الأحمر، وكنت لأفترض أن مسيحياً يمتلك أي طريق من الأرض المقدسة

وجبل سيناء، إلا عبر ذراع البحر الأحمر، الذي عبره خرج بنو اسرائيل من مصر، وأنا نحن لا يمكننا فعل غير ذلك، وذلك إذا ما كان البحر الأحمر متصلاً بالبحر المتوسط كما افترضت، ومع ذلك اعتدت على التساؤل، إنه إذا لم يكن هناك طريق إلى مصر إلا عبر البحر الأحمر، كيف لم تعمل الكتابات المقدسة أية إشارة إلى ذلك، حيث أننا قرأنا عن كثير من الناس كانوا ينزلون إلى مصر من الأرض المقدسة، ويعودون ثانية، ومع ذلك لم ترد الإشارة إلى البحر الأحمر، إلا عندما خرج بنو اسرائيل من مصر، وإذا كان بإمكان الانسان أن يخرج من مصر إلى جبل سيناء بطريق آخر، لماذا جرى اقتياد بني اسرائيل عبر طريق غير عادي عبر البحر، وليس عبر الطريق العام فوق اليابسة؟ ووضعت الخبرة اليوم نهاية لشكوكي، لأن البحر الأحمر ليس متصلاً بالبحر المتوسط، بل هناك مكاناً شاسعاً وكثيراً من التلال تفصل أحدهما عن الآخر، ويجري بين الاثنين طريق عام من الأرض المقدسة إلى مصر، من دون عبور لذراع البحر، والذين يرغبون بالذهاب من مصر إلى جبل سيناء يعبرون فوق هذا، ويسرون صاعدين إلى هناك، على طول شاطئ البحر الأحمر، وذلك من دون عبور للبحر في السفن، ثم يمكنهم الصعود من أرض مصر مباشرة إلى جبل سيناء، كما يمكنهم أخذ طريق أقصر بكثير من ذلك الذي يقود الآن، حول رأس ذلك البحر.

ولذلك اقتاد الرب بني اسرائيل، وأخرجهم عبر الطريق الأقصر عبر ذراع البحر، لأنه يقع في مواجهة جبل سيناء، ووفر على الناس القيام بالاستدارة، وبذلك كان بإمكانهم الوصول بشكل أسرع إلى جبل الرب، وأعماله الرائعة، وذلك حتى يمكنه إظهار قدرته، وأغرق أعداء شعب الرب، ولو أن الرب قد رغب باقتياد بني اسرائيل مباشرة إلى الأرض المقدسة، وقتها كان الطريق الآخر عبر الفراغ فيما بين البحرين، طريقاً أقصر بالنسبة للوصول إلى فلسطين، لكن الرب لم يختَر هذا، وقد

جرى تبيان سبب هذا في سفر الخروج: ١٤، وكذلك من قبل، وانظر أيضاً تعليقات دي ليرا على النص، وكذلك كتابات مصنف Spec-ulum Historiale.

وشاهدنا في هذا المكان، وفي المنطقة التالية عند نهاية البحر الأحمر الأعمال الهائلة لقدماء ملوك المصريين الذين سعوا إلى جلب البحر الأحمر إلى النيل، ولذلك شرعوا بالحفر خلال جبال البرزخ عند رأس البحر، لتقسيم التلال، وللحفر خلال وسط الحجارة والصخور، وعملوا قناة ومجرى للمياه إلى مدينة Arsinoe التي تعرف أيضاً باسم الكليوبتريّة، وبدأ العمل في حفر هذا المجرى أولاً من قبل سيسوستريس Sesostris ، ملك مصر، قبل حرب طروادة، وذلك مقابل نفقات كبيرة، وبعد ذلك من قبل داريوس ملك فارس، الذي حاول عمل ذلك، لكنه تركه دون انتهاء، وأكمل فيما بعد بفن من الطراز الأول من قبل بطليموس الثاني، وجاء ذلك وفق طريقة أن المجرى كان ينغلق وينفتح من قبل نفسه فقط، وقصد الناس القدماء من هذا العمل وصل الشرق والغرب مع بعضهما، لأن نهر النيل يجري ليصب في البحر المتوسط، وإنه إذا مادخل إلى البحر الأحمر، يمكن للناس وقتها الإبحار خلال ذلك النهر من البحر المتوسط والمحيط الغربي إلى داخل البحر الأحمر، وإلى الخليج العربي، وإلى البحر الفارسي والبربري، لابل حتى البحر الهندي في الشرق، وبذلك يمكن للسفن القدوم حرة من الهند، وفارس، وجزيرة العرب، وميديا، وجميع ممالك الشرق، إلى اليونان، وإيطاليا، وفرنسا، وإيرلندا، وإنكلترا، وألمانيا، في حين على العكس من ذلك لايمكن للسفن من بلدان المشرق القدوم إلى ماوراء نهاية البحر الأحمر، حيث تتصل صحراء العربية بمصر، كما لايمكن للسفن القادمة من البلدان الغربية الذهاب أبعد من الاسكندرية التي تشكل حداً لآسيا وأفريقيا.

وفي أيامنا حاول واحد من ملوك اسبانيا أن يعثر على طريق من المحيط الغربي — أي أن تقول من البحر الخارجي، الواقع خارج أعمدة هرقل — إلى المحيط الشرقي وإلى بحر الهند، لكن هذه المحاولة كانت بلافائدة، مع أنهم قالوا بأنهم اكتشفوا بعض الجزر الثمينة، التي لم تكن معروفة من قبل.

وكان للبطالة ملوك مصر، من محاولتهم لوصل الشرق بالغرب، وفق هذه الطريقة هدفين اثنين تطلعا إليهما، كان أولهما التمكن من امتلاك السلطة على كلاهما، لأنهم حسبوا كانوا، كانوا قائمين فيما بينهما، والهدف الثاني أن يتوفر طريق إلى جميع أجزاء الدنيا، للتجار وللتجارات، ولذلك يمكن للمصريين جباية الخفارات وضرائب العشور من تجارات العالم كله مشاهدين أن الطريق لا بد من أن يمر خلال بلادهم، وصدقاً، لو أنهم أكملوا ذلك العمل، لكان عملاً رائعاً، فوقتها كان يمكن للناس الابحار إلى مصر من البندقية، لابل من فلاندرز ومن إيرلندا، ويمكنهم الذهاب عبر النيل إلى الخليج العربي، والوصول إلى أرض القرفة، ومن ثم الوصول إلى بلاد الهند الثرية جداً، التي حُذثنا أنه يوجد بين عجائبها أنها تمتلك شتاتين وصيفين في سنة واحدة، وجبالاً من الذهب، جبالاً حقيقية، وليس مجرد كلام، وأن فيها أربعاً وأربعين منطقة مختلفة، ووقتها سيتوفر من خلال البحر الهندي طريق لنا نحن الغربيين إلى بلاد فارس، وفرثيا، وميديا، والعربية المباركة، وسبأ، وكلدانيا، ولسوف تمتلك شعوب الشرق طريقاً تستطيع أن تقدم عبره إلينا، وبناء عليه إنه بهذا العمل يمكن جمع الأجزاء الأساسية من العالم مع بعضها، وأعني بذلك: آسيا، وأفريقيا، وأوروبا.

وحاول البطالة المصريون، وقد جذبتهم هذه الآفاق، مع فن وبراعة عظيمة تقسيم قمم الجبال الصخرية وشققها، وجلب المياه وتركها تجري، وكأنهم تقمصوا بقدرة هرقل وجبروته، الذي ووفقاً لما جاء في حكاية

قديمة جداً، قام بشق الجبل الذي أوقف جرفه الأصم المحيط، وعمل جبلي أبيلا Abila وكالب Calpe، من الجبل الواحد، حيث من بينهما أطلق البحر المتوسط، الذي لم يكن موجوداً في الأرض بعد، كما كنا قد تحدثنا عن ذلك من قبل.

ولو أنه كان مع المصريين في هذه المحاولة هرقل ليساعدهم، وتيتان وأولاده، الذي ذهب إلى الحرب، مع يوف Jove والأرباب الآخرين، وللصراع لانتزاع السماء منهم، ولذلك قيل بأنهم كدسوا الجبال أحدها فوق الآخر، حتى يتخذوا لأنفسهم طريقاً إلى السماء، أقول لو أنهم امتلكوا مثل هؤلاء، لأمكنهم إزاحة الجبال فوراً، ولا استطاعوا بسهولة جلب البحر إلى مصر.

وعندما كان المصريون يبذلون غاية جهدهم في سبيل العمل المتقدم ذكره، اجتمع حكماء مصر مع عقلائها، وتناقشوا حول العمل الذي شرع به، وتناظروا عما إذا سيكون مفيداً وعملياً أم لا، ولدى توصيلهم إلى الحقيقة، أشاروا على الملك بطليموس التوقف عن العمل بكل وسيلة من الوسائل، لابل إنهم استخدموا كل الوسائل التي توفرت لديهم وكانت بمقدورهم لجعل مصر كلها تتحد معهم في مقاومة ومنع الذي سيطلق البحر عليهم، لأنهم اعتقدوا أن ذلك سوف يكون أشد الأعداء خطراً على بلاد مصر وأراضيها، لأنه بالتقاء هذين البحرين سوف يجري ابتلاع مصر كلها، ولسوف تغمرها أمواج المحيط، وقد قالوا: « نحن نعرف أن مياه البحر الهائجة لا تستقر في مكان واحد، بل أينما وجدت طريقاً للجريان تندفع بشدة متناهية، وتقهر كل شيء، لابل أكثر من هذا، فنحن إذا ما افترضنا أن مياه البحر سوف تستقر في قناة النيل، فإنها سوف تلوث مياه النيل الصحية والعذبة، وهي المياه التي تسقي مصر كلها، ومنها تشرب جميع مصر، لانعدام الآبار في البلاد، ولسوف تجعل مياه النيل مرة، وغير قابلة للشرب، وبلا فائدة، فكيف على هذا يمكن

لمصر أن تبقى إذا فقدت خدمات النيل ؟ فبالضرورة سوف تكون غير مسكونة، لأنها لا تتلقى نعمة مطر السماء، الذي يتساقط على بقية أجزاء العالم، علاوة على ذلك، وإلى جانب هذا كله، نحن نعرف بشكل صحيح، أن مانخشاه على مصر بهذا العمل هو أنها سوف تتعرض للدمار مع الأراضي البعيدة، وذلك عندما نقدر الحجم الكبير للمحيط، والهائل الذي لا مثيل له، مع جبال أمواجه العاتية التي تصل حتى السماء، والفتحات المظلمة فيما بينها، ويبدو لنا أننا ما أن نسمح للمياه الهائجة غير المدججة بالعبور فوق حدودها، سوف يعقب ذلك على الفور تدفق كتل هائلة من المياه، وأول ماسيحدث هو أن جميع جزر البحرين سوف تغطي عليها المياه، ولسوف تجرف المياه: الفرس، والميديين، والعرب أيضاً جميعاً مع المصريين، ولسوف تغرق جميع الأراضي على شاطئ البحر، ثم إن إيطاليا لن تنجو من تلقي نصيبها من القوى غير الملجومة، ولسوف يطوف الأرخبيل البندقي وينغمر، ولن يتوقف البحر حيث هو، كما أن أمواجه لن تتوقف مطلقاً حتى تملأ الوديان الدنيا للألب، وتصل حتى سفوح أعالي الألب، وذلك كعلامة تبرهن على أن هذه الجبال قد عملت قبل عصرنا، هذا وتقدم لي أن تحدثت بعض الشيء عن هذا الموضوع في ص ٢١٧ وماتلاها.

وعندما سمع الملك بطليموس هذا، وتصور أن ذلك صحيحاً، تخلى عن العمل، ومع ذلك ترك برهانا أبدياً حول تصاميمه العظيمة حول هذه الجبال والتلال، وفي الحقيقة لولا أن مستشاريه وضعوا نهاية لهذه الأفكار، بتقديمهم الذي اعتقدوه حول هذه المسألة، لكان من المؤكد أنه أنهى هذا العمل ونفذه، لكن ليس التنفيذ والنهية التي أرادوها، ثم إن ذلك لم يكن مسألة صعبة جداً، مشاهدين أن المسافة بين النيل والبحر الأحمر لا تتجاوز ستة أميال ألمانية.

وانظر أيها القارئ إلى أي مدى استطردت وتجولت بعيداً عن

حجي، وارتحلت تقريباً حول العالم كله، وذلك بسبب قلة الجبال والصخور القائمة هنا أمام أعيننا، وهكذا وقفنا عند نهاية هذا البحر لوقت طويل، ونحن نحدق ونتعجب منها، وأخيراً سرنا على طريقنا، وأدركنا ظهورنا للبحر الأحمر، وارتحلنا فوق سهل رملي شاسع.

حج المسلمين إلى مدينة مكة وشعائرهم السخيفة

في معبد محمد ﷺ

وقابلنا على هذا السهل في هذا اليوم وفي كل مكان حشوداً من الناس مع جمال محملة، ومع حمير وخيول، وجهاز ثمين، وفي الحقيقة كان هناك في قافلة واحدة ما يزيد على خمسمائة جمل، يحملون الضروريات لاستخدام الناس الكثيرين من كلا الجنسين الذين رافقوهم، وكان هناك أناس فاخرين من أغنياء المسلمين، كانوا ذاهبين للحج إلى مكة، ولزيارة قبر نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم. وفي الحقيقة صدر الأمر إلى أتباع محمد ﷺ بالذهاب كل سنة إلى مكة، إلى بيت الله، الموجود هناك، وأمرُوا أن يقوموا هناك بالعبادة، وبالسير حول بيت الله، وهم يرتدون ثياباً غير مخيطة، وأن يرموا حجارة من بين أطرافهم نحو الخلف لقمع الشيطان.

ويقول المسلمون، بأن آدم بعدما نفى من الجنة، تولى بناء هذا البيت تشريفاً لله، وكان هذا البيت، بيت صلاة لجميع أولاده، حتى أيام إبراهيم، فقد أعاد إبراهيم عمارته وترميمه وقدم أضحية هناك فيه، وبعد موته تركه إلى ابنه اسماعيل وله ولأولاده، وبقي مكاناً للصلاة لسنين طويلة متوالية حتى ولادة محمد ﷺ، فعندما ولد أعطاه الله إياه بمشابة ميراث له وجميع الأجيال التي جاءت من بعده، والآن كم هي هذه حكاية غير أصيلة وقطعة من الزيف، لأن كل ما قيل فيما يتعلق بهذا

البيت ليس له مايؤيده أو يزكيه في أي جزء من الكتابات المقدسة (١)، بل هو مدسوس فيها على شكل تعليقات، لأن هذا البيت كان قبل أن يبشر محمد ﷺ بشريعته مليء بالأوثان، وقف هنا قليلاً أخي الانساني، فأنا أرجوك فعل ذلك لأنني سوف أبرهن لك بوضوح وأبين أي نوع من البيوت كان في البداية، ومالذي كان مقدساً فيه، ولماذا أمر محمد ﷺ شعبه بالذهاب إلى هناك، والقيام بالأعمال التي بينها من قبل، فلقد اعتاد ولدا لوط: عمون، ومآب، على تشريف هذا البيت، وعبادة صنمين كانا هناك فيه، كان أحدهما معمولاً من رخام أبيض، واسمه ميركوري، وكان الآخر من رخام أسود، وقد دعوه باسم خيموش CHEMOSH ، وقد عبدوا ذاك المصنوع من الرخام الأسود حتى يقدموا التشريف إلى ساتورن (زحل) وعبدوا المعمول من الرخام الأبيض تشريفاً لمارس (المريخ)، وعبدوا هذين الصنمين مرتين في السنة، وقدموا لهما الطاعة، أولاً لمارس، عندما تدخل الشمس أولاً إلى برج «الكبش»، لأن الكبش مقدس عند مارس، وعندما يغادره يجري بالعادة رمي حجارته، وثانياً لساتورن، عندما تدخل الشمس إلى برج «الميزان»، لأن الميزان مقدس عند ساتورن، ووقتها يحرقون البخور وهم عراة ورؤوسهم مخلوقة.

واعتاد العرب أيضاً على عبادة هذين الوثنيين مع العمونيين والمآبيين، وبعد مضي سنين طويلة كثيرة جداً جاء محمد ﷺ الذي رغب في إزالة العادات القديمة السالفة الذكر، للناس، وغير طرائق العبادة بعض الشيء، وسمح بالسير حول البيت، وهم يرتدون ثياباً غير خيطة، ثم إنه خشية منه ﷺ أن يبدو وكأنه يعلمهم التضحية للأصنام، بنى لهم تمثالاً

١— أن يقول راهب هذا هو أمر منطقي بالنسبة له، لكن علمياً تحتاج الكتابات المقدسة إلى من يزكيها، لأنها ركام متبدل متنوع من المعلومات المخترعة الزائفة، وكان هذا مدركاً لدى

الأوائل، انظر كتاب «الدين والدولة» لعلي بن ربن الطبري—ط. بيروت ١٩٧٩

لساتورن، وذلك في جدار زاوية البيت، ثم إنه خشية من رؤية وجه هذا التمثال ترك ظهره ظاهراً من الجدار الخارجي، أما بالنسبة للوثن مارس، فقد دفنه تحت الأرض، لأنه كان محفوراً من كل جانب، وبعدما دفنه وضع حجرة فوقه، لكنه علّم قومه الذين قدموا إلى هناك للصلاة، بأن يقوموا بتقبيل هذه الحجارة، بشكل خاشع ورؤوس حليقة، وأن يرموا الحجارة نحو الخلف من بين أرجلهم، علاوة على ذلك عروا ظهورهم، وذلك كعلامة على الشريعة القديمة، وقالوا بأنهم رموا الحجارة وفق هذه الطريقة لإرغام الشيطان على الفرار، وهم الشياطين الذين بالحري يتعبدونهم بشكل سري في صلواتهم، وهذا هو العمل المشهور — أو بالحري العمل السيء — لمحمد ﷺ فهو مع أنه حظر عبادة الأصنام الأخرى على قومه، سمح في مدينة مكة بإقامة واحد تشريفاً لفينوس، [٧٢—ظ] لابل إنه لم يسمح لهم بالمغادرة جميعاً من دون تشريف هذه السيدة فينوس، التي بفنونها تفاخر بأنه الرجل الأقوى، وعندما مات أخيراً ﷺ قام أبو بكر خليفته بعمل له ضريحاً فخماً وضعه في المعبد المتقدم ذكره، ووضعه داخل تابوت حديدي فيما بين مغناطيسين، حسبما تقدم القول من قبل (١).

وبناء عليه، يسافر المسلمون إلى مكة، ليس فقط تنفيذاً لأوامر محمد ﷺ بل يذهب العديد منهم حتى يتمكنوا من رؤية تابوت محمد ﷺ معلقاً بالهواء من دون جبل أو سلسلة، وكأن ذلك لأسباب طبيعية، وينخدع الناس بهذه الحيلة، ويعتقدون بأن جسده ﷺ مرفوع هكذا بسبب قداسته، وبذلك فإن الناس غير الواعين يتصلبون في خطيئتهم ويتمسكون.

علاوة على ذلك اعتقد بعض المسيحيين بأن هذا التعليق إعجازي،

١ — القيمة الوحيدة لهذه المعلومات أنها تمثل درجة جهل فابري بالاسلام، ومدى حقه عليه.

فتخلوا عن الإيمان بالمسيحية، واقتاد بعضهم الفضول للقيام بالحج مع المسلمين، وذلك بالتظاهر بالرغبة بمشاهدة ضريح محمد ﷺ، وبسرور أخذ المسلمون مثل هؤلاء الناس معهم، حتى من دون تخليهم عن إيمانهم، وسمحوا لهم بالدخول إلى نزلهم القائمة على طول الطريق، من أجل رعاية الذين يذهبون في هذا الحج، وأعترف أنني غالباً ما أغريت بزيارة ذلك الضريح (المبارك) وفق هذه الطريقة، وأن يكون معي مرافق واحد، وبصعوبة منعت نفسي وأوقفتها عن القيام بمثل هذا العمل، وهنا يقوم السؤال التالي: هل الذي يقبل قبر محمد ﷺ أو يركع أمامه، أو يفعل أي شيء من هذا القبيل بالتعبد هناك، هو كافر؟ وأجاب الاسكندر أوف هول Hall (كذا) على هذا بقوله: «إنه إذا ما فعل ذلك كمجرد كلام، وليس من قلبه كله، فهو على ذلك مقترف لذنوب عظيم، ومع ذلك هو ليس مهرطق أو محروم كنسياً، كما أنه ليس بحاجة للذهاب إلى البابا أو إلى الأسقف للحصول على التحليل»، فهذا ما قاله الاسكندر، لكن الذي يدخل وهو متظاهر بالتعبد، ويقدم التشریف للقبر بحركاته الظاهرية، لكن هو في عقله مستخف به، وفي قلبه ينظر نحو أخطائهم وحقاقتهم مع نية تبيان ذلك للناس المسيحيين، إن مثل هذا الإنسان، وإن عدّ مقترفاً لذنوب صغير بسبب فضوله وطفيليته، هو ينبغي — كما اعتقد — أن يعاقب عقوبة خفيفة، أو حتى يعفى عنه، وقد حكيت عجائب كثيرة حول ضريح محمد ﷺ هذا، وفي الحقيقة، حدث في القديم أن جميع العالم، اندهش نحو التمثال الحديدي العائد لبيليروفون Bellerophon في مدينة سميرنا Smyrna، وإنه مثل هذا جميع الناس مندهشون تجاه هذا الضريح، ولقد كان الضريح المتقدم ذكره واحداً من عجائب الدنيا السبعة، بسبب بقاء مثل هذه الكتلة العظيمة من الحديد معلقة في الهواء، وذلك من دون أن تكون مربوطة بسلسلة من الأعلى، أو مدعومة بأية دعامة من الأسفل، لأن حجر المغنطيس وضع من الأعلى على ظهر قوس طويل جداً، كما أنه وضع

أيضاً في البلاط من تحت بالشكل نفسه، وبذلك جرى جذب التمثال نحو الأعلى ونحو الأسفل، وهكذا بقي معلقاً بين الاثنين، وهذه الطريقة نفسها القبر الحديدي لمحمد ﷺ معلق في الهواء بقوة مغناطيس، وذلك باستثناء أن قبر محمد ﷺ هذا ليس عظيم الوزن مثلما كان تمثال بيليروفون، الذي احتوى على خمسة آلاف رطل (Pounds) من الحديد، لأنه كان مكوناً من فرس عظيم مع رجل على ظهره.

هذا ولقد سمعنا رواية صادقة ومؤكدة، أنه في سنة ١٤٨٠ لتجسيد ربنا هبت فجأة عاصفة مرعبة، أرسلتها الحكمة الربانية، مع برق مضيء، ورعد مخيف تردد سماعه، ووقتها نزلت نار من السماء، ترافقت مع تساقط برد عظيم فوق مكة، وقد جرف ذلك المعبد والقبر لذلك النبي ﷺ إلى أعماق الأرض، كما أن شطراً كبيراً من المعبد قد تهدم، وأتلفته النيران، وهكذا جرى حرمان المسلمين من آثار جسد نبيهم ﷺ واضطربوا بذلك اضطراباً تاماً، لو أنهم تفكروا بذلك وفهموه، لكن قلبهم الأحق قد ازداد قسوة، وهم الآن يذهبون حاجين إلى ذلك المكان كما فعلوا من قبل، وسيستمرون ربما بفعل ذلك من بعد، كما سلف لي وأشارت إلى ذلك من قبل، وهكذا قمت الآن من أجل حج وحجاج محمد ﷺ بترك حجي الخاص، وعملت حجاً معهم بالخيال، وذلك من أجل أن أرى الفارق فيما بين حجنا وحجهم، لأن حجنا هو إلى ضريح يسوع المسيح ابن الرب، وكذلك سعيّاً وراء آثار العذراء القديسة كاترين الأكثر فضيلة، في حين إنهم يرتحلون إلى ضريح محمد ﷺ، ويتبعون خدمة فينوس تلك العاهرة الأكثر شهوانية (كذا).

ولأستأنف الحديث عن حجنا: لقد مضينا على طريقنا، وقابلنا آخرين كثر من الحجاج المسلمين، الذين كانوا يسرون على شاطئ البحر الأحمر إلى العربية المباركة، حيث توجد مدينة مكة على شاطئ البحر الأحمر (كذا)، ذلك أنها مدينة جميلة، وميناء بحري هام، إليه يجري جلب

كميات كبيرة، من البخور، والفلفل، وأكباش القرنفل، والقرفة، وماشابه ذلك، وذلك بوساطة البحر، وتحمل هذه السلع من هناك على الجمال من قبل الحجاج، ويجري إرسالها حتى دمشق وأماكن أخرى، وكان سبب مصادفتنا لمثل هذا العدد الكبير من الحجاج، هو أن صيامهم كان قد بدأ، وهم يفضلون في هذا الوقت الذهاب للقيام بالحج، وذلك مثلما يفعل المسيحيون، علاوة على ذلك، إنه في ذلك الفصل من السنة تتراجع حرارة الشمس الهائلة بعض الشيء.

ووصلنا عند الظهيرة إلى ساحة كبيرة مع كثير من القاعات، وقد كانت هذه عبارة عن نزل، وبعد دخولنا إلى ساحة النزل وجدنا بئراً كبيراً وفخماً، مع دواليب وأحواض حجرية ومصببات ماء، وهم يطلقون عليه اسم جب السلطان، وتقوم الثيران بنضح المياه منه باستمرار، وبعدما دخلت جمانا إلى هذا المكان، ترجلنا من على ظهور حميرنا، وتذوقنا الماء، لكننا لم نستطع الشرب منه لأنه كان ساخناً، وبلاطعمة، لا بل كان مالحاً بعض الشيء، لكننا سقيننا دوابنا، وأعتقد أنه لا بد قد وجد فوق هذه البقعة خان منذ القديم، لأنه هنا تلتقي الطرقات مع بعضها، وهي الطرقات التي تقود من مصر إلى جميع أجزاء الدنيا، ولربما أقام موسى في هذا النزل، وعندما أراد الرب أن يقتله، لأنه لم يختن ابنه Eliezer، وهناك قامت صفوره بختانة (الخروج: ٤/ ٢٤-٢٥)، وبعدما شاهدنا هذا المكان، تابعنا سفرنا فوق ذلك السهل الجاف حتى غياب الشمس، وأنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا للاستراحة في مكان فوق السهل اسمه Choas، وهبت هناك ريح قوية وعنيفة جداً، ولذلك لم نستطع بأي سبيل نصب خيامنا، فما أن ثبتناهم بالأوتاد، حتى اقتلعت الريح الأوتاد من الأرض، وألقت الخيام فوقنا، وبعدما ألقتهم الريح عدة مرات، مللنا من هذه المهمة وتعبنا وتركناهم ممدودين فوق الأرض، كما أننا تجولنا حول المنطقة حسب عادتنا لإلتقاط بعض

العصى من على السهل، غير أننا لم نجد شيئاً يمكن أن يحترق، ولذلك أخذنا بعض الأوعية الخشبية مما فرغ مما كان فيه خمرة وماء، وكذلك سلال بيضنا، وصناديق دجاجنا وكسرناهم جميعاً، وعملنا ناراً منهم، لكن الريح التي كانت قوية بعثرت النار التي عملناها، ولذلك أرغمنا على الوقوف من حول النار حاملين أقمشتنا وثيابنا، لصد عنف الريح عن النار، وبناء عليه أكلنا في تلك الليلة، وشربنا ونمنا في الهواء الطلق، وانزعجنا كثيراً بهبات الريح وبتحركات الرمال، وقدم في تلك الليلة إلينا بعض الفقراء من البداية العرب، ورجونا منهم بعض الخبز، الذي برغبة منا ورضا منحناهم بعضاً منه لأنهم بدو أنهم متواضعين جداً، ويتصرفون بشكل لائق.

واستيقظنا في اليوم الخامس عند منتصف الليل، وكان ذلك اليوم هو الأحد التاسع عشر بعد الثلاث، وعندما جرى تحميل الدواب، غادرنا Chao، وسرنا فوق ذلك السهل القاحل والشاسع، حيث لم يكن هناك شيء أخضر مهما كان نوعه، وقبل شروق الشمس وقع لنا حادث، لن أتجاوز ذكره، فقد كان في مجموعتنا الأولى النبيل العظيم والسيد الكبير برنارد فون بريتنباخ Braithenbach، الذي كان وقتها حاجب الكنيسة المطرانية في مينز، والذي هو الآن عميدها الأعظم جدارة، فبسبب ضعفه وسوء صحته عمل الرحلة كلها خلال الصحراء في سلة على ظهر جمل، وقبل فجر اليوم أمر الجمل الذي كان على ظهره أن ينوخ حتى يتمكن من انعاش نفسه بالمشي بضع خطوات فوق الرمال، وبعدما أنعش نفسه، تسلق ثانية إلى سلته، وسار جملة خلفنا، لكن بعدما سرنا بعض الشيء، أدرك السيد المذكور أن ماله كله قد وقع منه، من داخل صدره، حيث كان قد وضعه، وخاط عليه داخل حزام اعتاد أن يحزم به نفسه أثناء الليل، وذلك بغية إبقاء ماله مصاناً، وكان معه هناك كمية كبيرة من الدوقيات، وقد وقعت منه على الرمل في

المكان الذي توقف فيه.

وقد استدعى كاليينوس إليه، واشتكى إليه فقدانه للمال، وهنا أمر كاليينوس بوقوف القافلة، وأمر جملة بأن ينوخ، حتى يتمكن من التراجع، ويركض مسرعاً عائداً إلى المكان الذي اعتقد المعلم برنارد بأن ماله قد وقع فيه، وذهبنا نحن الحجاج إلى هناك معه، وبحثنا من أجله، لكننا لم نجده، وقد بحثنا فوق جميع المنطقة التي حوت آثار طبقات قدميه، لكننا لم نجد المال، وكان تعبنا بلافائدة، وكان يعرف بشكل أكيد أن ماله قد وقع في ذلك المكان وليس في غيره، ولذلك تجولنا في ذلك الموقع، وبحثنا فوق الرمال بأيدينا، وأخذنا حيطتنا بأن لا يقترب منا أحد البداية العرب، ولا من سائقي الجمال أو سائقي الحمير، الذين أمسكناهم مراراً متلبسين بأعمال السرقة، إنما بعدما بحثنا لوقت طويل وتقصينا لم نجد شيئاً، فحكمنا بأن ذلك المال قد تمّ العثور عليه وسرقته من قبل واحد من البداية العرب، أو من سائقي الجمال، وبعد التشاور فيما بيننا حول ما ينبغي القيام به وفعله لاسترجاع المال، تمنينا لو أنه كان قانونياً لقاء القرعة أو البحث بوساطة التكهّن بالقداح، مثلما تبرهن بأن عمّان كان لصاً (يشوع: ٧)، وكذلك عندما أخذ يوناثان طعاماً [صموئيل الأول: ١٤/٢٧]، لكن في قضية مثل هذه ليس قانونياً لقاء القرعة، على أساس أنها محرمة بالقانون ضد التكهّن بالقداح، ولذلك فكرنا ثم اتخذنا قرارنا باحضار جميع البداية العرب مع سائقي الجمال وسائقي الحمير الذين كانوا معنا، وجمعهم في مكان واحد، وأن نطلب منهم إعادة المال إلينا، ووقتها إذا لم يعيدوه إلينا، سوف ننقض عليهم ونربطهم ونجردهم من ثيابهم، ونضربهم، ونسيء معاملتهم، ونعذبهم حتى يعيدوه إلينا، لأننا كنا بالعدد أكثر منهم، ورجالاً أفضل منهم إذا وصل الأمر إلى الضراب، وبعدما أبرمنا هذه الخطة ركبنا حميرنا، ونحن كلنا أسف، وغضب، وحنق، وسرنا خلف الجمال الذين كانوا يسرون

أمامنا.

وعندما وصلنا إلى أولئك الناس، نظرنا شذراً إليهم، وأخبرنا كاليوس بالذي عزمنا على القيام به، وعندما سمع هذا انزعج كثيراً، واستدعى إليه جميع الرجال الذين شك بهم، وطلب باخلاص وجدية منهم إعادة الذهب الذي وجدوه، لكن مامن واحد أجابه صادقاً، وقمنا نحن أنفسنا فرجوناهم بإعادة المال، وعرضنا منح جائزة للرجل الذي وجدته، لكننا لم نحصل على شيء بعملنا هذا، وهنا غضبنا وازداد حنقنا، فشرعنا نتهددهم، وسعينا إلى إلقاء الأحمال من على الجبال، في حين وقف الفرسان من حولنا، وسيوفهم مجردة، ولم يسمحوا لأحد، بالابتعاد، وعندما رأى سائقو جمالنا وسائقو حميرنا بأننا كنا جادين، وأننا سوف نتعامل معهم على الفور بخشونة أعظم، اعترتهم الدهشة، والتمسوا من كاليوس تخفيف غضبنا، خشية أن تساء معاملة أناس أبرياء، وشرح لهم كاليوس مانوينا عمله، قائلاً بأننا سوف ننزل الأثقال كلها، ونفتش في جميع الحقائب التي كانت على ظهور الجمال والحمير، وأننا إذا لم نجد المال هناك، سوف ننقض عليهم ونجردهم من ثيابهم حتى يكونوا عراة، ونستخرج مالنا منهم بالتعذيب.

وكنا في ذلك الوقت قد ألقينا بالأثقال من على ظهور الجمال، وشرعنا بتفكيكهم، ثم أخذنا بإلقاء سلع أولئك التعساء من حولنا، في حين وقفوا هناك يراقبوننا وهم يرتجفون ويبيكون، وفي أثناء القيام بهذا، جاء واحد من أولئك البداية العرب، وكان قد التحق بنا في ذلك المساء، جاء سراً إلى كاليوس، وأخبره بالعثور على المال، وهنا صرخ كاليوس على الفور إلينا وطلب منا التعامل معهم بسلام، لأن المال قد عثر عليه، وبناء عليه أعدنا تحميل الجمال، وتابعنا السير على طريقنا، وتسلم ذلك السيد ماله من كاليوس، وقد منح دوقية إلى ذلك العربي الذي وجدته، وكان عربياً صاحب مظهر بسيط ووجه بريء، وقال البداية العرب

الآخرون عنه بأنه وجد في وقت آخر كنزاً كبيراً، كان قد وقع في القفار، وأنه أخذه إلى صاحبه وأرجعه إليه.

وسرنا بعد ذلك فوق ذلك السهل الأجرد، ومشينا طوال النهار في شمس محرقة بحرارتها حتى غياب الشمس، وقد قررنا أن نستريح في مكان اسمه المفرق Mafrach وذلك إلى جانب الطريق العام، ولكن عندما عسكرنا لم نستطع نصب خيامنا، لأننا لم نتمكن من تثبيت الأوتاد في تلك الرمال الناعمة جداً، وكنا جميعاً منهكين فاقدِين لوعينا، ولذلك لم نطبخ أي شيء في تلك الليلة، لأننا لم نستطع العثور على أي من الوقود، وقدم إلينا كالينوس تحذيراً بوجوب التيقظ والحراسة في تلك الليلة أكثر مما هو معتاد، لأن المكان خطير بسبب المنبوذين الذين يطرّدون من وقت إلى آخر من مصر إلى القفار بسبب جرائمهم، فهؤلاء الناس يكمنون في مثل هذه الأماكن، وغالباً ما يؤذون الذين يعبرون ذلك الطريق، ولذلك نمنا في تلك الليلة بصعوبة، لخوفنا من كل من المهاجمة، وبسبب الرياح القوية، والبرد الذي عانينا منه، وتمددنا هناك تحت قبة السماء، وكنا منهكين من شدة التعب، ومن مشاق القفار، وكل ما حصلنا عليه من راحة هو بأن نهاية متاعبنا باتت وشيكة، وأن حدود القفار لم تعد بعيدة، وما كنا لنبقى في القفار، ونمكث أربعة عشر يوماً أخريات مقابل جميع كنوز الدنيا كلها، لأنه بدا الأمر بالنسبة لنا أننا لن نستطيع تحمل المزيد من مثل هذا العمل.



توقفت عند هذه النقطة حكاية فابري عن أن تكون لها أية علاقة بكل من فلسطين وسيناء، وكان بالود الحديث كيف أنه شاهد «حديقة البلسم»، والقاهرة التي كانت أعظم مدينة في العالم، مع جميع المخلوقات الغريبة فيها من فهود، ونعامات، وبيغاوات، وهكذا دواليك، مما رآه هناك، لكن المكان لا يسمح بذلك، وفيه تكرر لما جاء بالرحلات

الأخرى، والمهم هو أن الحجاج نزلوا بقارب عبر النيل إلى الاسكندرية، وقد تعذبوا كثيراً وأسيئت معاملتهم، ومن هناك أبحروا إلى وطنهم على ظهر الاسطول البندقي، وقد عملوا رحلة طويلة وواجهوا مصاعب جمة، وأخيراً وصل فابري ورفاقه إلى البندقية في الثامن من كانون الثاني سنة ١٤٨٤، وقابل هنا بعضاً من أهل مدينته أولم، الذين لم يتمكنوا في البداية من التعرف عليه، لأنه كان شاحباً قد أنهكه السفر، وكانت السيدة مرغريت صاحبة نزل القديس جورج، الذي كان البيت الألماني في البندقية، قد تزوجت ثانية، وكان زوجها هو نيقولا فريج الذي كان واحداً من خدم البيت، وقد حدثنا فابري بأنه كان مسروراً بمعرفته بصاحب النزل الجديد، لأنه كان رجلاً جيداً وبشوشاً، ويبدو أنه لاقى استقبلاً جيداً، وأنه تلقى دعوة من المعلم برنارد بريتنباخ لزيارته في مينز، ليصوغا رحلتها معاً، لكن فابري لم يستطع القيام بذلك، لأن واجبه كان الذهاب أولاً إلى ديره في أولم، وعندما وصل إلى هناك بعد كثير من المغامرات كان الرهبان يتعشون، لكن كلب الدير عرف خطواته، فأصدر عواءً عالياً جداً، وأخذ يخدش الباب الذي جرى فتحه فوراً، وقد رحب به جميع الرهبان وكأنه انسان عاد من الموت، وفي الوقت نفسه جاء خلال الاسبوع التالي جميع أعيان المنطقة إليه للترحيب به، ولتهنئته بالعودة، وهنا لابد لنا من أن نقول له: وداعاً.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
كيف جرى الاستيلاء على القدس من قبل المسلمين	١١٤١
أوضاع المدينة المقدسة بعد الاستيلاء عليها	١١٤٩
مجمع ليون	١١٧٠
صراعات أمراء الصليبيين حول لقب ملك القدس	١١٧٤
أحوال القدس بعد طرد الصليبيين منها	١١٨٢
الشعوب التي تسكن القدس	١١٨٨
المسلمون	١١٨٩
الروم الأرثوذكس	١١٩٠
السريان — اليعاقبة	١١٩١
الأحباش — النساطرة — الأرمن	١١٩٢
الجورجيون — الموارنة — التركمان	١١٩٣
البدو — الحشيشية — المحمديون	١١٩٤
المماليك — اليهود — اللاتين	١١٩٥
القسم الثاني من كتاب الرحلات	١١٩٧
الحج من القدس إلى جبل سيناء	١١٩٩
الفصل السابع من كتاب الرحلات	١٢٠١
جبل راما	١٢٠٨
مغادرة بيت لحم	١٢١٠
دخول الحجاج إلى مدينة حبرون	١٢١٤

الموضوع	الصفحة
حقل دمشق	١٢١٦
موضع قتل هابيل	١٢١٨
الكهف الذي سكن فيه آدم مع حواء	١٢١٩
الكهف المزدوج الذي اشتراه ابراهيم	١٢٢٠
مشفى حبرون	١٢٢٢
وصف حبرون وتاريخها	١٢٢٤
بلدة صقلغ	١٢٣٤
خساسة الروم الأرثوذكس والاقامة في غزة	١٢٣٧
بداية الفصل السادس	١٢٤١
حمام ساخن في غزة	١٢٤٢
الممالك في غزة	١٢٤٨
شراء الأشياء المحتاجة	١٢٥٠
مرض جميع الحجاج	١٢٥٢
خصومات الحجاج	١٢٥٣
ميثاق جديد بين الحجاج	١٢٥٤
وصف منطقة فلسطين	١٢٥٥
غزة	١٢٥٧
مقال حول الحمير، والجمال والقفار	١٢٥٩
سائقو الجمال	١٢٦٠

الموضوع	الصفحة
طبيعة الجمال	١٢٦١
سائقو الجمال	١٢٦٦
وصف القفار	١٢٦٦
أوضاع الصحراء	١٢٧٢
البداة سكان القفار	١٢٨٥
بداية الحج خلال القفار	١٢٩٣
السفر من غزة نحو جبل سيناء	١٢٩٥
الاستمرار بالسفر	١٣٠٠
السفر إلى قفار قادش برنيع	١٣٠٣
السفر إلى داخل القفار	١٣٠٦
خطر العواصف في الرمال	١٣٠٩
مغامرة فيلكس فابري المربعة	١٣١٥
متاعب في بحر الرمال	١٣٢٠
منطقة مدهشة	١٣٢٨
يوم سفر شديد	١٣٣٢
متابعة السفر المنهك	١٣٣٧
متابعة الترحال	١٣٤١
ترحال يوم شاق	١٣٤٤
مقال لاهوتي حول المن	١٣٥١

الموضوع	الصفحة
اضطراب ألم بالحجاج	١٣٥٦
صعود الحجاج إلى جبل حوريب	١٣٥٧
الصعود إلى جبل كاترين	١٣٦٩
صعود جبل كاترين	١٣٧٢
البلدان المشاهدة من فوق جبل سيناء	١٣٧٨
النزول من جبل سيناء	١٣٨٨
زيارة داخل الدير	١٣٨٩
إطراء جبل حوريب	١٣٩١
عودة الحجاج إلى دير كاترين	١٣٩٤
ضريح كاترين	١٤٠٦
وصف دير كاترين	١٤١٨
رهبان دير كاترين	١٤٢٣
مغادرة الحجاج لجبل سيناء	١٤٣١
الرحلة	١٤٣٤
معاناة من نقص الماء	١٤٤٠
الفصل الثامن — أعمال الحجاج خلال شهر ايلول	١٤٤٤
رحلة خلال القفار	١٤٤٩
ضياع بعض الحجاج	١٤٥١
رحلة إلى البحر الأحمر	١٤٦١

الموضوع	الصفحة
مسائل تتعلق بالكتابات المقدسة	١٤٦٨
حج المسلمين إلى مكة	١٤٧٤
نهاية حج فابري في فلسطين	١٤٨٣